مجموعة روايات اجتماعية

غريبي وابنتي

الشفق السوداء

استاذ الفرنساوية



صديق أمي

عُرس
جمال شاهين

الحفل بالقط الاسود

امرأة نزيه

رهاب الطلاق

ايتام الحداد

حياتي قبل الحياة

شَمسُ عَمري
تأليف
جمال شاهين

الحي
أبو خروف

العائلة
١٩٧٠

أمونة الخياطة
١٩٧١

طبيب
أبو خروف
١٩٧٢

شحاذ أبو خروف

عاقبة لص

١٩٧٥
زواج في الصحراء

الحفيد السارق

هجر المخيم

ضلال شاب

طفل الحديقة

غربتي وابنتي

جمال شاهين



المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

غربتي وابنتي

النشر الاول ٢٠١٢

النشر الثاني ٢٠١٨

النشر الثالث ٢٠٢١



" الحمد لله ، ولدتني أمي بعد جهد جهيد ، ثم ترملت فقد مات أبي فنكحت زوجا آخر ، ولم تلد مرة أخرى ، فكادت تسقط في هاوية الدنيا والفاحشة .

ورحلت وحيدتها إلى كندا كارهة وطنها وبلدها وأهلها ، وبعد عشرين حولا من الاغتراب عدت لأتزوج من ابن عمي الأمي البسيط ، وكنت أرفل معه بسعادة الدنيا .

هل نحن نكتب قدرنا أم كتب لنا ؟!

فهذه قصة غربتي وابنتي .

زهيرة مجدي "

جمال شاہین

غزل دانش

حفلة زواج

كان الطبيب البشري مجدي حسن يستقبل ضيوفه على مدخل صالة الفندق المخصصة لحفل زواجه ، وكان الأقارب والمدعون يتوافدون إلى القاعة لمشاركة الطبيب فرحه.

وكان يقف معه في الاستقبال والترحيب بعض إخوته وخاصة منهم شقيقه الأكبر عادل حسن وبعض أبنائهم ، وكانوا يشيرون للضيوف إلى الأماكن الخالية والموائد المناسبة.

فسلم عليه زميل له أيام الدراسة في كلية الطب الدكتور ماهر طه وعانقه وبارك له ، وهتف قائلا والفرح يغمره : أخيرا ! أخيرا استسلمت يا دكتور مجدي !

ضحك العريس وقال : نعم ، لقد استسلمت أخيرا للزواج .. يا مرحبا بك.. أهلا وسهلا بالعزيز ماهر

وحيا ورحب بزوجة الدكتور بهز رأسه ، فهو يعرفها حق المعرفة وقال مداعبا : كم طفلا عندكم اليوم ؟!

ضحكت الزوجة فاطمة وقالت : بفضل من الله وحده خمسة يا دكتور مجدي .. دكتور وعنده خمسة مواليد عقبال عندك .

تابع الطبيب العريس ضحكه وقال معقبا : واحد يكفي اليوم.

وقال ماهر وهو يشير لرجل قريبا منهم : أخي مروان .. أيضا طبيب.

حيا مروان مجديا وبارك له اقترانه ، وتابعوا الدخول للقاعة ، وتابع مجدي الترحيب بالضيوف ، واستمر الاستقبال والمداعبات البريئة والنكات الظريفة حتى انهمك المدعوون بتناول ما قدم إليهم من طعام وحلوى أعدها لهم الفندق .. وبعد ساعتين من الفرح والمرح المتواصل أخذ المشاركون بالحفل بالانصراف والمغادرة وهم من جديد يباركون للعروسين ، ويدعون لهم بالحياة السعيدة والذرية الصالحة.

وبقي بعض الأهل والأقارب للطرفين العريس مجدي ذو الأربعين عاما ، والعروس ذات الخمس والعشرين سنة السيدة هناء محمد ينتظرون مغادرة العروسين للمطار حيث سيغادران البلاد إلى تركيا وبعض بلدان أوروبا لقضاء ما يسمى شهر العسل ، عادة انتشرت في العالم ، ومنه العالم العربي والإسلامي .

جاءت سيارة خاصة لتقلهما للمطار الدولي للسفر لتركيا لقضاء عدة أيام فيها ، ومنها للنمسا وسويسرا حيث يستمتعون بالحياة في ربوع تلك البلدان ، وبالأيام الأولى من الزواج.

ولقد طلق الطبيب مجدي العزوبية من عهد قريب عندما التقى بالآنسة هناء محمد عن طريق أخته بسمة حسن التي كلفها بالبحث عن زوجة له بعد حسم أمره وقرر الزواج ودخول قفص الزوجية كما يقال ، وخاصة أنه شارف على الأربعين، ولم يخض تجربة الزواج والأطفال السيد مجدي عندما تخرج من كلية الطب كطبيب بشري عمل بعضا من السنين كطبيب في مشافي الحكومة ، ثم تعاقد للعمل في إحدى دول الخليج في أول فترة الطفرة النفطية والاستقلال ، وكان قد أخذ شهادة الاختصاص في طب وجراحة العظام فهو جراح عظام ، وأخذ كذلك يلمع اسمه على مستوى أقطار الخليج الستة حيث الثروة والمال وانتشار السيارات ، وما أدراك ما حوادث السيارات ؟!

وكان صاحبنا مجدي قد التقى بفتاة أثناء الدراسة الأولى وجرى بينهما استلطاف كاد أن يؤدي لزواج بعد التخرج ، ثم اكتشف الشاب أن الفتاة التي وثق بها تحب زميلا آخر فكرهها وكره جنس النساء من أجلها ، كما كان يزعم لرفاقه ، ثم هجر فكرة الزواج نهائيا حتى أشرف على الأربعين فغير رأيه فجأة ، وطلب من شقيقته بسمة السعي في اختيار زوجة مناسبة له ، رغم عمله في المستشفيات بضع سنوات والتقائه بالكثير من الموظفات والممرضات والطبيبات العزباوات لم يقترن بواحدة منهنّ ، وكان يصد كل فتاة تقترب منه صدا جميلا ، حتى كبر سنه وبلغ الأربعين ، وعلى أثر وفاة أمه بعد أبيه أخذ يفكر بالنكاح بشكل جدي ، وقد أخذت أخته الكبيرة بسمة حسن تكثر من الكتابة في رسائلها إليه حول سنه وحاجته للزواج ،

وكذلك في مكالماتها الهاتفية معه فلان وكلفها بالسعي في تحقيق هذه الغاية الكبيرة من حاجات الإنسان البالغ العاقل ، فكانت ترسل إليه بصور الفتيات التي تراهن مناسبات للزواج من شقيقها فبعد عدة محاولات أعجب بصورة واحده منهنّ ، وأخذ إجازة وعاد للبلد وقابل الفتاة هناء محمد ، واستحسنها وقبلها زوجة ، وهي فتاة عاملة في إحدى شركات القطاع العام تحمل شهادة علوم إدارية من إحدى الجامعات ؛ ولكنها بعد الاتفاق على الزواج ودعت الوظيفة ، واستسلمت لطلب زوجها بهجر العمل والاستعداد للزواج والسفر لخارج القطر ، وكتب عقد الزواج ، وها هو قدم في إجازة ؛ ليكون الزواج الذي تحدثنا عن في أول الكلام ، وسافر العروسان إلى تركيا ومنها لأوروبا لقضاء بضعة أسابيع قبل العودة للعمل .



الحياة منحة وهبة ربانية ، وحياتنا أسرارها عجيبة ، وسعادتها كما تعلمون قصيرة .. لا تخلو الحياة من منغصات وآلام تتفاوت بين الناس ، والسعيد من اتعظ بغيره ، قضى الطبيب المهاجر ثلاث سنوات من الزواج ولم يتمكن من الإنجاب ، كان الزوجان سعيدين ببعضهما ؛ ولما مضت السنة الثانية من حياتهما الزوجية دون تمكن من الإنجاب تسرب الخوف والانزعاج إلى قلبيهما ، فالخلفة أمر مهم في حياة الأسرة الشرقية كما هو معلوم وشائع ، أجرى الرجل فحصا طبيا خاصا بالقدرة على الإنجاب[١]، فتبين له رغم ضعفه الجنسي بسبب السن يمكنه الإنجاب ببعض المتابعة الطبية وفعلت الزوجة الفحوصات اللازمة للإخصاب والحمل ،

١- تبدأ هذه الفحوصات بتحليل السائل المنوى للزوج ثم بعد ذلك إجراء الفحوصات الخاصة بالزوجة مثل السونار للكشف عن المبايض والرحم والأشعة بالصبغة للتأكد من سلامة الأنابيب وعدم وجود انسداد .

فوجدت أنها سليمة مائة في المائة وتستطيع الحمل من غير عوائق مادية ، ولما مضت السنة الثالثة دون نجاح أي حمل وافق الطبيب مجدي وللهفة هناء على مولود وافق على أخذ أدوية منشطة للجهاز التناسلي ومقوية للحيوان المنوي ، وسيكون ذلك تحت إشراف مستشفى خاص بالعقم والولادة ، واستمر ذلك سنة ودون فائدة ، وقبل انقضاء السنة الخامسة لزواجهما جاء الفرج والحمل بدون أدوية وشاء المولى أن يكون حملا طبيعيا ، فعمت السعادة والبسمة البيت من جديد خاصة بعد أن ثبت الحمل ونجا من الإجهاض المتكرر ، وغمر الود والحب الأسرة من جديد بعد أن كادت تنتهي بسبب الحمل والذرية ، وحملت أسلاك الهاتف الخبر للبلد ، وغمرت الفرحة أم هناء ووالدها ، وكذلك أهل مجدي من أخوة وأشقاء فقد وصلتهم المعاناة التي يعاني منها الزوجان ، ففرحت خالاته وعماته بذلك ، وكان الكل يخشى الطلاق للزوجين ؛ لأن مجديا لو فشل زواجه فلن يكرر الزواج ثانية خاصة أنه اقترن بعدما وصل سنه الأربعين سنة .. سبحان الباري في علاه ! .. فالناس تفرح وتسعد للمواليد الجدد والأجيال الجديدة.

ولدت هناء بنتا جميلة كاملة وتامة أشهر الحمل ، فسميت زهيرة لأنها أزهرت عليهم حياتهم بعدما نغصت حياتهم قضية الحمل .. فحمد القوم الله المنعم الوهاب ، وتذكر مجدي ليلة زفافه عندما تمنت له الدكتورة فاطمة زوجه صديقه ماهر الذرية وأنها قد ولدت خمسة أبناء، فرد عليها يومها " واحد يكفي اليوم " تذكر ذلك الحوار القصير .. لقد كانت المعاناة شديدة من أجل هذا الواحد فقال لنفسه التي تستذكر تلك الثواني " هل واحد يكفي يا ترى ؟! البنت ألا تريد أخا كما يقال عندنا ؟ ألا تريد أنت ؟ مضت خمس سنوات في انتظار زهيرة " التفت وهو يفكر في ذلك للبنت الرضيعة وحملها وعانقها وهو ينظر لعيني أمها التي انزعجت من طريقة حملها فقالت : مجدي إنها نائمة.

فأعادها للسرير الخاص بها وتنهد وقال : خمس سنوات انتظار يا هناء عشرات الساعات قضيناها من أجل أن نراها.. حياتنا الزوجية كانت على كف عفريت كما يقال قبل أن تطل

علينا بطلعتها البهية .. نظرة الحياة والأمل.. لم أكن أدرك حب الأطفال أنه بهذه القوة لو عرفت ذلك لتزوجت قديما ؛ ولكنه القدر .. أنت أم هذه الطفلة ليست علا .. أتعرفين علا ؟ قالت : حدثتني عنها عندما سألتك لماذا لم تتزوج لليوم ؟ إنها زميلتك في الجامعة الزميلة التي غدرت بك وتعلقت بأعز أصحابك ، سمعت هذه القصة

ـ القدر !! ما هو القدر يا هناء ؟ أتفهمين في الدين؟

ـ بعض الشيء ربما ثقافة عامة

عانق الطبيب فتاته من جديد وأعادها ثانية للسرير وقال :إنها جميلة مثلك يا هناء رغم سمارها الجميل إني أحبها أحبها

ـ شد حيلك لتنجب لها أخا أو أختا

نظر إليها شزرا وقال : أمستعجلة على الحمل ؟!

قالت بجفاء : لم نعد صغارا يا دكتور مجدي.



كانت هناء محمد لديها أشد الرغبة بالحمل والولادة من جديد ، فكانت ترى أن السنين تتقدم بها سريعا ، فعليها أن تدرك نفسها بعدد من الولادات قبل فوات الوقت ، مع أنها تبلغ من العمر يومئذ الثلاثين عاما ، وما زال لديها الوقت للإباضة والحمل ، وكانت تلح بشدة على زوجها لمحاولة العلاج من ضعف وجودة حيواناته المنوية ، ويضطر الرجل لتذكيرها بفشل ذلك قبل إنجاب زهيرة ، وليترك الأمر لمشيئة الله ، فتحتج أن العلاج من مشيئة الله تعالى، فيثور ويقول " كله من مشيئة الله بالتأكيد ؛ وإنما قصدي يا محترمة أن يكون طبيعيا دون هذه الوسائل .

ثم تبرر فتقول " العمر يمضي يا مجدي .. اليوم عندي صحة لمزيد من الحمل "

ـ دعِ الأمر لصاحب الأمر ، إذا وفقنا لتربية زهيرة وتنشئتها فهذا أكبر خير وأكبر فضل.

ـ أنت تكبر يا مجدي ، وتضعف قدرتك على الإنجاب، الأمومة لا تكون بمولود واحد فحسب .. لو كل سنة أرزق بمولود سأكون أسعد الناس ، لا تحرمني من هذه النعمة .. ليتني ألد التوائم .

تنهد ضيقا وحزنا وقال : عجيب أمرك يا زهيرة ! ولماذا تأخر زواجك ما دمت بكل هذا العشق للذرية ؟!

ـ تأخر ابن الحلال .. كنت في القدر من نصيبك

فقال بسخط : أنا لا أحب الأبوة كثيرا ؛ لذلك كرهت الزواج وجنس النساء .. فتكفي زهيرة وسلمي أمر الإنجاب لله .. هل طلبت منك استخدام أي مانع للحمل رغم أنك وضعت من شهور ؟

ردت بنوع من الغضب : ربما أنت تستعمل الموانع يا حضرة الدكتور .. أليس هناك موانع ذكرية ؟ ! لنا ست سنوات زواج حتى أكرمنا المولى بزهيرة .. وها هي بدأت تحاول المشي يا مجدي .

ـ لتأخذ حقها في الرضاعة الطبيعية واللبن يا بنت الكرام .. الرضاعة سنتان .. أربعة وعشرون شهرا.

اعترفت قائلة : توقفت عن الرضاعة الطبيعية

قال دهشا : ماذا ؟! لِمَ لم تخبريني يا هناء ؟ ألسنا شركاء ؟ فمن حق زهيرة أن ترضع حولين كاملين.

ـ أكمل" لمن أراد أن يتم الرضاعة".. وقبل أن تثور فاعلم أنها هي التي تركت صدري .. لم تعد تحب الرضاعة ، وسألت طبيبة المركز الطبي قالت" بعض المواليد يكرهون حليب الأمهات .. ويستلذون على اللبن الصناعي "

ـ لابد أنك مقصرة في الرضاعة ، وأكثرت من رضاعتها بالقنينة والحليب الصناعي فأحبته .. الرضاعة دواء لك ولها يا جاهلة.. فالرضاعة الطبيعية تضعف أمراض السرطان عند النساء عندما يكبرن ويتركن الحمل والرضاعة ، وتقوي جهاز المناعة للمولود .. أنت الخاسرة قبل زهيرة

ـ صدق أنها تخلت عن صدري بدون ضغط مني ، لم أفعل شيئا لأحرمها من لبني ، لا حليب لديّ.. أمي أخبرتني أنها هكذا .. سنة واحدة رضاعة فقط ، ثم يجف اللبن .

قال ساخطا : وراثة إذن هل هذا معقول أم أنّ هناك مرضا ؟!

فصاحت في وجهه غضبا : إنها ابنتي.. وأنا أحبها أكثر منك.. أنا لم احرمها من الحليب.. ضعف ثم انقطع .

فعاد يقول بصوت هادئ : اهدئي يا حبيبتي ولماذا انفعلت ؟

ـ إنك تثير الأعصاب يا مجدي! إنك تشعرني بكلامك ونظراتك كأنني ارتكبت جريمة بحقها ..أليس من حقي أن أنجب الأطفال ؟ فعندما أكلمك حول ذلك تكبر القضايا وتجعلها قضية مصيرية .. تردد على الأطباء خذ أدوية ومنشطات .. تنفعل وتقول دعي الأمر للخالق وحده .. وهل ينفع علاج بدون رضا الخالق وتيسيره؟ .. فالعلاج من الخالق

ـ الأمر لله يا بنت الناس! وأنت تعلمين أنني لست بحاجة لعلاج جنسي .. والهبة من الله وحده

فقالت بحدة خفيفة : ولماذا يتداوى الناس؟! ويذهبون لعيادة الطب يا حضرة الطبيب

ـ سألت كذا طبيب .. وكلهم يقول إنني سليم من ناحية الجهاز التناسلي.

ـ لديك بعض المشاكل في القلب والدم ربما يكون لها تأثير على نطفك ، وإنني يمكنني أن أنجب مرة وثانية وثالثة .. عمر زهيرة قريب من السنة ولم يحصل حمل!

ـ الرضاعة من موانع تأخير الحمل عند بعض النساء

فقالت بضجر : لا أدري لماذا أنت تكره الخلفة؟! كأنك أنت الذي سيحمل الجنين .

قهقهة الدكتور ، وتابعت هناء قائلة : وأنت الذي أخبرتني أن زوجة الدكتور ماهر الطبيبة أنجبت سبعة منذ زواجها قبل عشرين سنة

قال : نعم عندهم سبعة بنين يريدون بنتا ولم تأت البنت

ـ أريد أخا أو أختا لها يا مجدي لا سبعة

تبسم وقال : أنت ما زلت صغيرة تجاوزت الثلاثين بقليل .. فالأمل موجود .. وسأذهب إلى أفهم أخصائي عقم في المدينة ـ الطبيب بارود صاي ـ لتعلمي أنني لست المشكلة .. أتمنى أن تصبح هذه القضية قضية ثانوية يا عزيزتي وأن نسلم الأمر لله .

فقالت : وأنا مسلمة أمري لله.. والأخذ بالأسباب ليس ضد الدين كما أعرف وأسمع كثيرا.

نشأت زهيرة وأصبح عمرها خمس سنوات ، ولم يتحقق الحمل ثانية لهناء ، كانت في ضيق ونكد بسبب ذلك ، كان الألم يعصر قلبها لهفة لحمل آخر ، وكم تضيق نفسها عندما تسمع عن أخت لها أو لزوجها قد ولدت ! وتكاد أن تنفجر عندما تزور أهل زميل أو صديق لزوجها ولدت امرأته ، كانت تذهب مكرهة ؛ وكأنها ذاهبة لعزاء ليس لفرح ، كان ذا مما يثير شجونها ويهيج عواطفها ورغبتها بأن تكون هي التي وضعت المولود ، لديها لهفة وشوق لذلك ، وكلما سمعت المرأة عن طبيب نسائي وأخصائي علاج عقم تذهب إليه مسرعة ، وتضغط على مجدي ليعرض نفسه من جديد عليه ؛ ولكن دون جدوى ، فالكل يؤكد أنه يستطيع الإنجاب لا مشاكل تمنعه من الإخصاب ، لذلك كانت تكثر المنازعات بينهم قبل الذهاب لعيادة هؤلاء الأطباء وبعد العودة من عندهم ، فأخذ الدكتور بسبب هذه المنازعات المتكررة يكثر من المناوبات الليلية في المستشفى العامل في صرحه تخلصا من المضايقات التي تحصل له بسبب هذه القضية ، ثم في الأيام والليالي التي لم يكن لديه عمل يقضيها في الزيارات والسهر مع المعارف والأصدقاء ، ويعود للبيت بعد أنصاف الليل ، كان يرى الهرب من الجلوس والتناقش في أمر معها أمر عقيم

جاء ليلة متأخرا ، وكان قد نسي أخذ مفتاح الشقة عندما خرج ليسهر ، وبعد أن تأكدت من

شخصه فتحت له الباب وكلها سخط وغضب ، فلما دخل البيت وأغلق الباب وراءه سمعها تصيح في وجهه " لماذا عدت ؟ الفجر سيطلع "

لم يتكلم بل دفعها بقوة فوقعت على الأرض ، وكانت قد صرخت من الألم فقال صارخا: "أصبحت الحياة معك لا تطاق .. جحيم "

وزاد صراخها فقال صائحا : أفكر بإرجاعك لأهلك.. منذ تزوجنا وحياتنا نكد وعذاب بسبب الخلفة .. خلف خلف كأن الأمر بيدي .. ورغم عرض نفسي على عدد من أهل الاختصاص ، وعلى سمعك كلهم أكدوا سلامتي من هذه الناحية وعلى قدرتي على الإنجاب وأنت غير مصدقة .

فصاحت وقد جلست على إحدى الكنبات : كلهم كذابون إنهم متواطئون معك ..كلهم يعرفون عجزك عن الإنجاب .. أنت متفق معهم ليزعموا أمامي أنك سليم .

ضحك قليلا وقال بسخط : رائع ! أنا تعبت منك .. كما دخلنا بالمعروف فلنخرج بالمعروف أو تكفين الحديث عن الولادة ، وفلانة صار عندها ثلاثة والثانية عشرة .. علينا أن نرضى بقدر الله . . اختاري المناسب البقاء مع الصمت أو الفراق بالتي هي أحسن

هاجت وقالت بغضب : من الآن اختار لماذا ننتظر الصباح ؟ !أبعد هذه الدفعة تريد مني البقاء والاختيار ؟! أنت وحش

ـ وحش وحش

وتركهامتضايقا ومتألما إلى حجرة ينام فيها أثناء غضبه ، ونام على أريكة فيها، ولما تبعته بعد حين يسير حيث ينام لتبلغه باختيارها الحاسم وجدته قد غفي سريعا فقالت بصوت مرتفع : الله اكبر ! نام إن شاء الله أن تكون آخر نومة لك يا مجدي

ولما خرجت من الحجرة وجدت زهيرة تقف عند باب غرفتها فقالت لها وهي تبكي : لماذا تدعين عليه يا أمي ؟! سمعتك .

ـ أنت صاحية يا زهيرة

ـ صحوت على صياحكم وعلى بكائك يا أمي.

ـ نامي تصبحين على خير يا زهيرة

ومشت إلى حجرة نومها لتنام ، ولم تعرف للنوم طعما ، فرجعت إلى حيث ينام مجدي وهزته وقد سيطر عليها الشيطان والهوى ، وهزته ثانية مع النداء فلم يستيقظ ، وأعادت التحريك مرة ثالثة "مجدي مجدي"

لم يستيقظ مجدي ، ذعرت ، ثم أسرعت للهاتف المنزلي واتصلت بالمستشفى الذي يشتغل فيه ، فجاءت سيارة الإسعاف، ولما دخل طبيب الإسعاف لبيت المريض وفحصه التفت إليها وقال "إنه ميت يا هناء!"

كانت زهيرة تسمع فقالت للطبيب صديق والدها: "ميت لن يعود للحياة معنا يا أمي! "

توقفت هناء عن الصراخ وقالت "أجل يا زهيرة رحل أبوك إلى رحمة الله تعالى"

مات الزوج مجدي حسن بعد عشر سنوات زواج .. تركها وترك لها زهيرة .



الوصي

عادت هناء وابنتها إلى البلد على أثر دفن زوجها حيث كان مهاجرا ، وكانت في غاية الحزن والألم ، عندما تتذكر الليلة الأخيرة لزوجها ، وكلما تخطر في مخيلتها تلك الدقائق تنفجر باكية ، ويلازمها الحزن القاتل من جديد ، قد رجعت بصحبة شقيق لها وشقيقين لزوجها عادل حسن ونبيل حسن ، وكلاهما أكبر سنا من زوجها مجدي ، هؤلاء من شارك في جنازة مجدي من أهله وأهلها.

ولما استقر عادل في البلاد فتح بيت عزاء عن شقيقه الميت لمدة أيام ثلاثة بلياليها كما هي عادة القوم في بلادنا ، وكان ذلك في منزله الكائن في حي الجبر القريب من وسط العاصمة والمطل عليها لأن عاصمتنا تتكون من عدد من الجبال ، والرجل قد عمل معلما في مدارس الدولة ، ثم كان مديرا عند أحداث هذه القصة ، وهو يكبر عن مجدي ببضع سنوات.

السيد الطبيب مجدي لم يكن يمتلك بيتا خاصا في وطنه ومسقط رأسه ، كان قبل وفاة والديه كلما يجيء في إجازة للبلد يسكن في منزل الوالد ، ويقضي الإجازة بينهم ، وبعد وفاتهما بيع البيت بحكم الميراث ؛ وذلك بعد نقل ملكيته للأم بعد تنازلهم عنه للأم أثر وفاة الأب.

فكان الطبيب يقضي إجازته بعد موتهما نزيلا في أحد فنادق المدينة إن كانت الإجازة قصيرة الأيام ، وأما إن كانت شهرا فأكثر فكان يستأجر شقة مفروشة.

ومع إمكانياته المادية ظل بغير عقار ، فسكنت هناء وابنتها في بيت والدها الكائن في حي مصعب ؛ وذلك بعد انتهاء أيام العزاء التي أقامها الشقيق الأكبر عادل في منزله الواسع في حي الجبر.

وكان على السيدة حسب الشرع الإسلامي أن تقضي عدة الوفاة البالغة أربعة أشهر وعشرة كما أمر الشرع ونظم في بيت الوالد محمد بكرم ، وكانت كما قلنا في غاية الحزن والندم عندما تستحضر الليلة الأخيرة من حياتها الزوجية ؛ فتشرق بالدموع والبكاء ، ويتألم المشاهد لها ، ويعتقد أنها كانت متعلقة بزوجها تعلقا كبيرا مع معرفتهم بالمنازعات التي شاعت بينهما ،

فيستغربون هذا الحزن الشديد فيسعون للتخفيف من وقع المصيبة عليها.



ثم انشغلت الأسرتان أسرتها وأسرة أشقاء مجدي بترتيب أمر ميراث الطبيب مجدي وترتيب أمر الولاية والوصاية ، وكانوا قد علموا أن السيد مجديا كان قد رغب بتكليف صديقه السيد ماهر طه زميله في الطب بالوصاية على ابنته ، فقد مرض قديما بعد ولادة الفتاة بشهر أو شهرين ، وطلب من ماهر أن يكون وصيا على ابنته إذا مات؛ ولكنه تعافى يومذاك ، وكان ماهر حينئذ قد طلب من محام زميل لهما بعمل عقد الوصية على الطفلة ، فلما تحققت الوفاة جدد المحامي عقد الوصية في المحكمة الشرعية وقبل القاضي الوصية ، وعين رسميا وشرعيا الدكتور ماهر وصيا على زهيرة مجدي حتى تبلغ السن القانوني لإنهاء الوصية عليها وتملك ثروتها الموروثة ، وعين عمها عادل وليا عليها بحسب القانون الشرعي أو ما يسمى بقانون الأحوال الشخصية التابع للمحاكم الشرعية ، وكانت الحاضنة لها طبعا الأم هناء حتى تتزوج فتنقل الحضانة لأمها إذا كانت على قيد الحياة.

وبعد حين يسير قام المحامي القانوني والشرعي للسيد ماهر طه بما يسمى بحصر الإرث الخاص للطبيب مجدي ، وبالتعاون مع أشقاء الميت تم حصر ثروة الرجل وتقسيمها حسب قانون الميراث الإسلامي ، فدفع للسيدة هناء ثمن التركة وكانت حصة زهيرة نصفها حولت إلى دائرة رعاية أموال الأيتام ، وتحت وصاية السيد ماهر حتى تبلغ الفتاة السن القانوني المالي ، وورث أشقاء مجدي وشقيقاته ما تبقى من التركة للذكر مثل حظ الأنثيين لأنهم عصبة الميت.

قضت هناء عدة الوفاة الشرعية في بيت والديها ، وكانت تفكر باستئجار شقة للحياة فيها مع ابنتها الوحيدة ، ولكن أهلها أقنعوها بالحياة في بيت الوالد محمد وأن البيت يسعهما في الوقت

الحالي ، وما زالت عقدة الليلة الأخيرة من حياتها الزوجية تؤرقها وتزعجها وتحسسها أنها كانت وراء موت زوجها بالسكتة القلبية ، ثم أخذ المشهد يتلاشى رويدا رويدا ، وتبقى الحياة أقوى من كل الأحداث ، ولو كانت محرقة ومحزنة ، فصار المشهد تتذكره بين الحين والآخر ، ثم اختفى تماما وهي تقول "هل ستنساه زهيرة عندما تكبر كما أنا قد نسيته ؟ ! هل أدركت ما سببته لأبيها من موت ؟! هل رأت حقيقة تلك الليلة عندما دفعني الرجل غضبا ؟ هل سمعته وهو يلوح بطلاقي ؟ لكني كنت أريد المزيد من الذرية أريد أشقاء لها ؟ ولماذا تتزوج النساء ؟ أمن أجل قضاء الشهوة فقط ؟ من أجل اللذة فقط ؟ لا ، الأطفال أهم من تلك الغاية في هذه الدنيا ، البنون من زينة الحياة الدنيا ، الأطفال هم الحياة ، هم دوافع الحياة الزوجية من حقي الأولاد ؛ وكان يقول إن ذلك من حق الزوج فقط .. هل هذا صحيح ؟! .. الزوج هو صاحب الحق في الخلفة والمواليد .. وكم يجب أن يولد له !.. أمعقول هذا الفكر ؟! وبعد تفكير همست : هو لم يكن ضد الولادات لكنه غير مكترث بالعلاجات والأدوية والمقويات .. ها هو قد رحل يا هناء وترك لك زهيرة وحيدة لا أخ لها ولا أخت .. هل أعود للعمل والدوام ؟ وزهيرة طفلة وأمي عجوز .. أصبحت أرملة يا هناء .. إنما الأعمار بيد الله تعالى.



لقد أصبح الدكتور ماهر وصيا على زهيرة على حسب رغبة والدها الذي سعى لذلك قديما ، وأصبح عمها عادل وليا عليها بحكم الشرع ، فلما قضت هناء أشهر الحداد الشرعية تفاجأت بعد حين قليل أن والدها الشيخ يحدثها عن رغبة شقيق زوجها الراحل الأستاذ عادل بالزواج منها ، وقد طلب يدها من أبيها ، ودافعه لهذه الرغبة هو أن تحيا ابنة شقيقه مع أبنائه حتى لا تشعر باليتم ، وتتربى مع أسرته ، دهشت جدا هناء لهذا الطلب ، وبعد نظر قصير اعتذرت لأبيها عن هذا الزواج ، وبدوره قدم السيد محمد اعتذاره للرجل، وأن ابنته اليوم لا تفكر

بالزواج ، ويترك الأمر للزمن ، والسيد عادل وغيره كانوا يعلمون علما واضحا بالمشاكل الزوجية التي كانت ناشبة بينهم بسبب الحمل والولادات وتأخر الحمل بزهيرة ، ولولا الضغط المتتابع من أبيها وأمها لما صبرت خمس سنين حتى تحمل ، وليس عادل بجاهل أن شقيقه كان يتحدث عنها بعض الأيام ببغض وقهر ، والسيد عادل له عدد من المواليد ستة أولاد بعضهم دخل الجامعة ، وبعضهم ترك المدارس والتحق بسوق العمل والمهن ، وقد تجاوز الخمسين سنة من العمر ، فهناء لديها رغبة بتجديد حياتها الزوجية أملا بمزيد من الولادات ، فهي لم تكن زاهدة بالزواج ، ولكنها لم تره الرجل المناسب ، وكانت ترى أن تصبر سنة على الأقل قبل أن توافق على زواج جديد.

والغريب أن الرجل لم ييأس من رفضها ، فقال لوالدها " لنصبر قليلا يا أبا فوزي لعلها توافق " .. فلذلك بعد حين حاول عن طريق شقيقته بسمة التي طلبتها لأخيها من قبل زاعما أن ابنة أخيه يجب أن تعيش في أسرتها وبين أعمامها وعماتها ، وجاء الاعتذار هذه المرة مصحوبا بكلام شديد ورجاء حاد بالابتعاد عن طريقها وحياتها ؛ لذلك كان رد فعل الرجل على البهدلة الأدبية أن خطب امرأة أخرى ، وقد تزوج من امرأة قريبة لهناء ، والذي سعى له في ذلك والد هناء مما أسخطها على أبيها وعم ابنتها ، فلما سألت أباها عن سبب فعله ذلك قال " من أجلك فعلت ذلك ، ليكف عن التطلع إليك .. والرجل راغب بالزواج ، فامرأته كما يقول مريضة ولا تصلح للمعاشرة الزوجية.. "

فذهبت هناء تتخيل أيام زواجها الأولى وسعادتها بالزواج من مجدي الطبيب المغترب الذي أغدق عليها المال والهدايا والأحلام التي تناجيا حولها ، وكيف قبلت الزواج من رجل يكبرها بخمس عشرة سنة ؟ .. آه ! لقد أغرتها الشهادة والغربة والمال .. وكان العمر يمضي والخطاب يقلون خاصة المتعلمين منهم ، والرجل عندما رغب بها لم يكن متزوجا من قبل .. وكان أهلها يحبون لها الزواج قبل دخولها في حال العنوسة وضعف الفرص .. رغم أن العنوسة في زمان زواجها لم تكن تشكل مشكلة اجتماعية .. كان الأهل يرون أن الفتاة إذا

تجاوزت العشرين من سني العمر قد لا تتزوج البتة.. لماذا ؟! لا تسمع جوابا وتعليلا لذلك.. لأن الكثير من الفتيات لا يكملن التعليم الجامعي بل يسرعن إلى الزواج والأمومة ، وهما خير وأفضل من متابعة المعاهد والجامعات .. تذكرت كل ذلك عندما علمت أن الرجل تزوج إحدى قريباتها العوانس .. ثم ذهب الفكر بها إلى المشاكل الحادة والخفيفة بينها وبين زوجها الميت حول الخلفة والولادة.. وأخذت تقارن بينه وبين شقيقه عادل الذي أنجب ستة مواليد وها هو يتزوج للمزيد من الأولاد ، ثم ختمت قائلة " لماذا لم أتزوجه؟! " إنه شقيق مجدي ـ وهذه عادة كما سمعت ـ يقولون أن يعرض أحد الإخوة الزواج على أرملة أخيه إذا كان عندها أطفال .. عادة ! ..أي عادة هذه ! أليس في هذه عيب ؟! .. الزواج حلال وهذا شائع بين الناس والأصهار .. لماذا رفضت ؟ هل تزعمين أنك تحبين مجديا لتبق بدون زواج ؟ ألم يكن الرجل في لحظاته الأخيرة قد قرر الانفصال والطلاق ؟ وأنا لم أرفض وأعترض كنت أميل لذلك .. ربما هذا دفعني لرفضه .. كان شقيقه يريد الابتعاد عني .. أكنت سببا في موت زوجي ؟! هل يستدعي الحمل كل تلك الصراخات والاحتجاجات ؟ عندما حصل الزواج كان ابن أربعين.. ويقولون الرجل يستطيع الإنجاب ولو كان ابن مائة .. النساء عندهن سن معين ثم ينقطع الحمل والحبل لديهن.. بنات اليوم يقللن من المواليد ليس كأمهاتنا هل لدراستهن في الجامعة تأثير ؟ ها هي أختي جميلة اكتفت بولدين كالأجانب لماذا لم أكن مثلها ؟ وأرضى بنصيبي ولكنني أحب الحمل .. ها هي أمي ولدت عشرة .. ألسنا عشرة أخوة وأخوات ؟! وعلمت أنها فقدت اثنين صغارا.. مسكينة زهيرة ستعيش بدون أخوة وأخوات ..وحيدة .. لماذا لم تقبلي شقيق مجدي ؟ فهو لديه ذرية كثيرة .. خجلت من الزواج منه قد يكون هذا هو السبب الحقيقي ..ولماذا هو لم يخجل من الاقتران بي ؟!

الغضب

كانت زهيرة تكبر وكانت هموم أمها تكبر ، فهي ترملت عن خمس وثلاثين سنة وما زال أمامها فرصة للزواج والإنجاب ، ولقد كانت والدتها تكثر عليها بهذا الحديث منذ قضت عدة الوفاة حسب الشريعة الإسلامية ، فقد طلبها بعض أقاربها بعدما شاع بينهم رفضها لشقيق زوجها ، وكل من تحدث عنها كان يريدها زوجة ثانية أو ثالثة ، فكل الذين يكبرونها متزوجين ، فالشباب الصغير يتزوج فتيات صغيرات ، فمن النادر أن يتزوج شاب صغير فتاة أكبر منه سنا ، كانت تأمل أن تتزوج رجلا مطلقا أو أرملا وأن تكون امرأة وحيده بدون ضرة ، فكانت ترى أن الحياة ستكون شاقة مع زوجة ثانية ولها أولاد.

دخلت زهيرة المدرسة والأم تقبع في بيت والدها ، وبين الفينة والأخرى تسمع وترى سعي عادل حسن ورغبته بأخذ ابنة أخيه للحياة مع أولاده ، ورغبته الشديدة بضم الفتاة لأسرته ؛ بل رحب بحياة الأم معهم في بيته الواسع في حي الجبر ، والأم ترفض بشدة وبكل قوة هذا العرض ، وتصر على بقاء البنت معها، وتشيع بأنها لو تزوجت ستصحبها معها ، وأن حق الحضانة لها قانونا وشرعا ، وحتى لو رفض زوجها ـ إذا تزوجت ـ ستبقى البنت عند جدتها أم هناء فهي ما زالت على قيد الحياة وكذلك بعض خالتها.

والدكتور ماهر الوصي ما زال مهتما برعايتها ماديا ومعنويا، وقد تابعها دراسيا منذ فترة ما قبل المدرسة ، ويهتم بشأن الأم ماليا وطبيا وفاء لصديقه ، وكانت زوجته الدكتورة فاطمة حمدي تقوم بزيارتهم والاطمئنان عليهم مباشرة بدون الهاتف.

ذات ليلة كانت مناسبة اجتماعية تجري في بيت السيد محمد فوزي ، وكان يسكن العمارة مع الوالد بعض من أبنائه ، وبعضهم الآخر يسكن في أماكن أخرى ، ومن عادة الأسر أن تلتقي وتتجمع في المناسبات والأزمات ، فأقبل الآباء بأبنائهم وبناتهم ونساءهم، وتجمعوا في بيت الوالدين حيث الطابق الأرضي للعمارة ، فانشغل الكبار بشرب القهوة والشاي والمرطبات بعد أن تناول الجميع ما قدم لهم من طعام ، وأخذوا بالسمر كعادة البشر في مثل هذه اللقاءات ،

وانشغل الأطفال باللعب والتنقل بين الأدوار ، ويرتفع صياحهم حينا ويخفت حينا آخر ، فهم أبناء عم وعمات وخالات ، فكان الصغار يركضون صعودا وهبوطا إلى الطوابق العليا ، فالعمارة تتكون من ثلاثة أدوار ، ولها درج طويل يصل بين الأدوار كما هو معلوم ـ وهو درج داخلي بالطبع ـ فكان الدرج وسيلة الصعود والنزول ومسرح اللعب ، وبينما هؤلاء الاطافيل يلهون ويتدافعون ويمرحون دفع أحدهم زهيرة بقوة فتدحرجت عن الدرج ، فوقعت ولم تتمالك نفسها ، فسقطت في الفاصل بين الدرجات حيث الالتفاف لطابق آخر، وأخذت بالصياح من الألم والوقعة ، وشاركها الأطفال ذلك ، ففزع الكبار وأدركوا أن حدثا قد حدث ، فوجدوا زهيرة أسفل السلم تصيح وتصرخ ، وهذا يقول وقعت وحدها ، وذاك يقول دفعها فلان أو فلانة ، فهرعت الأم فوجدت ابنتها ملقاة على الأرض ويدها تحت ظهرها ، فقال أحدهم : إن رجلها مكسورة فدعيها حتى تصل سيارة الإسعاف .

وذهب إلى حيث الهاتف وطلب سيارة الإسعاف الطبي ، وكانت هناء من غضبها تصيح في ابنتها وتدعوها لكف صراخها وتدعوها للصمت ، وأخذ بعضهم يحقق في الحادث ويبحث عن الجاني الصغير ، وكانت بعض الفتيات يبكين ويشاركن زهيرة البكاء ، ثم وصلت سيارة الإسعاف وتم نقل زهيرة إليها وذكر لهم المسعف اسم المستشفى الذي سيذهبون إليه ، فطلبت هناء منهم نقلها لمستشفى خاص ذكرت اسمه لهم ، وأنها ستتصل بالطبيب ماهر وقام أحد أشقاء هناء بالاتصال بالسيد عادل.

فقال ماهر لهناء : سأكون عند المستشفى ـ إن شاء الله ـ شكرا.

وبينما هم ينتظرون الانتهاء من تجبير يدها المكسورة وقدمها أقبل عمها عادل ومعه ابنه الكبير وأحد إخوته أيضا، وكان غاضبا من أمها وصاح في وجهها قائلا " هذا إهمال يا هناء .. أين أنت عن مراقبتها ؟ هذه ابنة أخي الوحيدة .. لا يجب أن تبقى عندك .. نحن أولى بالمحافظة عليها ورعايتها .

وقبل أن يرد عليه أحد ممن سمع لهجته الحادة والساخطة صاحت في وجهه " إنها ابنتي يا سيد

عادل قبل أن تكون ابنة أخيك.. فأنا أقرب إليها منك يا حضرة المدير وأنا لست مهملة في رعايتها .. أولاد ويحبون اللعب والركض .. وأنا حياتها وأمرها يهمني أكثر منك.. والزم حدودك

ـ لم لم تتصلي بي لتخبرينا بالحادث ؟.. الناس تتحدث معنا .. الحق ابنة أخيك وقعت عن الدرج.

ضحكت بضيق وسخرية وقالت : يا سيدي نحن الذين اتصلنا بكم.. أخي هو الذي اتصل ببيتك ولم يرد عليه أحد ثم اتصل بشقيقك منذر

فقال وقد خفت صوته : حتى الدكتور لم يتحدث معنا وها هو على رأس القوم !

فقالت : وليس من الضروري الاتصال بك يا حضرة العم .. هل سأنتظر حتى تأتي يا سيد عادل.. وننقلها للمستشفى ؟.. ونحن اخبرنا الدكتور ماهرا لأننا طلبنا من سيارة الإسعاف نقلها لمستشفى خاص.. فهو الذي سيدفع وليس العم الذي سيدفع .

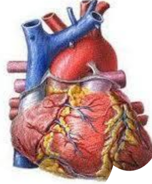
ـ ولماذا لا أدفع ألست عمها ؟!.. المال معنا والحمد لله .. وهل سيدفع حضرة الطبيب من جيبه الخاص ؟ إنما هي أموال أخي يا حضرة الأم

واحتد النقاش بينهم والمعايرة ، وحاول البعض التدخل ؛ ولكن هناء أشارت إليهم بالصمت حتى اضطرت هناء في النهاية إلى طرده وشتمه ، فاستشاط غضبا ونارا وحقدا وقال : يا بنت الأنذال يا حقيرة . وكان يرفع يده بين الحين والآخر لصفعها ثم ينزل يده متمتما بكلمات غير واضحة .

فقال أحد السامعين : يا رجل أعقل.. أنت مدير مدرسة مربي أطفال وشباب.. ولن تكون محروقا عليها مثل أمها .

ولكن الحمق والغضب وشيئا في النفس زاد من اشتعاله وهيجانه فزاد شتمه وتجريحه حتى تدخل رجل أمن ، وأخذه إلى مكان أخر، وأخذ بتهدئته ويعتذر له عن أم الفتاة ، ولما حاول الطبيب ماهر الوعظ والنصح صاح فيه متهما إياه بالطمع في أموال ابنة أخيه والطمع بالزواج

من أمها ، مما فاجأ السامعون بهذا الاتهام الصارخ ، وكانت هناء تبكي ، وأخذ بعض الأخوة والأخوات المرافقين يهدئن من روحها ويتعجبن من وقاحة هذا الرجل .. ولعلهم أدركوا أن سبب كل هذه الكلام هو رفض هناء الاقتران به بعد ترملها.



عند غروب الليل التالي زار ماهر وزوجته بيت السيد محمد حيث تعيش هناء وابنتها فبعدما اطمأنوا على الطفلة المكسورة انتقلوا لصالة البيت حيث كرر الوالد وأهله الترحيب مجددا بالضيوف ، وبينت أم هناء أن البنت صغيرة وسيجبر عظمها سريعا، قال ماهر لهناء بعد طمأنة الأم لهم على كسر ابنتها : لماذا فعل الرجل كل تلك المهاترات والملاسنات في المستشفى لماذا ؟!

انتبه الجميع لسؤال الطبيب ، وكلهم سمع عن مشاجرة هناء وعادل في المستشفى أثناء معالجة زهيرة ، فردت هناء وقد عاد إليها الذهول ، وكانت تحدق في وجه أبيها : أتريد أن تعرف يا حضرة الدكتور ؟ لماذا افتعل تلك المشاجرة أو الملاسنة ؟ لماذا كل هذا الحقد من رجل يعمل مدرسا ؟

همس ماهر : نعم أود معرفة ذلك !

قالت بحدة : لأنني رفضت الزواج منه بعد موت أخيه ، أرأيت يا سيدي وقاحته ؟ يزعم أنه مشفق على يتم ابنة أخيه من اليتم ، وأنه أحق الناس بالزواج مني من أين جاء بهذا القانون ؟ لست أدري يا حضرة الدكتور.. فإذا رغبت بالزواج ثانية فهو الأولى بي من أين جاء بهذه الأولية؟!

ضحك ماهر وقرينته وتابعت هناء كلامها الغاضب : تصوروا لما رفضته سعى للزواج من قريبة لنا ظن أنه بذلك يغيظني أو ينتقم مني.. فاعتقدت أنه مجنون .. وزعم للناس أنه فعل

ذلك ليبقى قريبا منا ومن عائلتنا.. وقبل الحادث لزهيرة عاود الكرة .

وعاد الدكتور للضحك والابتسام فقال والد هناء : يا دكتور ماهر هذه عادات قديمة .. كان إذا مات رجل عن أيتام يقوم أحد الأخوة بضمها لحريمه.. أظن أن هذه العادات سارية في الأرياف والقرى بزعم بقاء أموال الميت وميراثه في عائلته .. ويبدو أن الأستاذ عادل حسن مازال متشربا هذه العادات القروية .. فهناء مستهجنة من ذلك..

فقالت هناء وهي تترك كوب الشاي : هل لم يبق رجال في الدنيا إلا هو حتى أقبل به وأرمي نفسي عليه ؟!

قال ماهر بروية :كلام والدك صحيح يا أم زهيرة .. بعض عادات القرية ترحل إلى المدينة وتحتاج لزمن حتى تختفي .. فكنا نسمع أنه إذا تقدم شاب لفتاة ليس من أقاربها يذهب الأب ويعرض ابنته على أبناء إخوته وأقاربه .. فإذا سكتوا زوجت للغريب .. وكما يقال ابنة العم لابن العم .. وهناك أمثال شائعة بين الناس في ذلك (ابن العم بنزل بنت العم عن الفرس) ولكن المدينة مع الوقت تصهر هذه العادات والتقاليد

وقال محمد فوزي : وذا مثل يقول (البنت مثل مدقة الباب مين ما كان بدقها) وابتسم وقال ضاحكا وشارحا : يضرب هذا المثل في ضعف البنت أمام الأهل والأخوة والأعمام .

فقالت هناء عندما صمت الدكتور والأب : هذه الحكاية يا سيدي .. ونحن تحدثنا معه مخبرين عن الحادث منذ البداية ؛ ولكنه لم يكن في البيت ، ولما أخبر وصل متأخرا كما رأيت ، فأراد أن يزعم أمام الناس أنه حريص ومهتم بابنة أخيه أكثر منا ، ومبررا تأخره بالهجوم علينا

وقالت أم هناء : ويزعم أنه خائف على أموال زهيرة من أمها .. هذه هي القصة

فقالت الطبيبة : هذا هو مربط الفرس !

فقال ماهر : ستبقى الأموال تحت الوصاية حتى تبلغ زهيرة سن الرشد المالي ثماني عشرة سنة ، وهي كاملة الأهلية فحينئذ تنقل إليها الأموال ؛ كأنني سمعت المحامي يحدثني بذلك .. لا إلى عادل ولا لي ولا لأمها .. هو رجل مثقف .. واليوم في محاكم وأنظمة وصناديق حفظ

أموال الأيتام والقُصر .. وهناك أختام ووثائق وقد تحسنت الأحوال اليوم.. فكل شيء منظم ومدون .. حتى ولو صار بين عادل وهناء زواج سيبقى المال باسم البنت حتى تكبر وتملكه ملكا كاملا .

قالت أم هناء : هو يعلم ذلك يا دكتور .. ولكن بزواجه منها يظن أنها ستسحب أموال زهيرة من تحت الوصاية ليعمل مشروعا أو إنشاء مصنع هكذا نقلت لنا قريبتنا التي تزوجته .. هذا هو الكلام الفارغ .. يريد أن يعمل مشاريع بأموال اليتيمة .

فعلق ماهر باسما أو ساخرا : آ .. يريد أن يعمل مشاريع في أموال زهيرة .. حسب علمي فقد ورث حصة من تركة أخيه .. وهو مبلغ جيد لمشروع صغير .. فلماذا لم يتشارك مع إخوته وأخواته ؟!

رد والد هناء على سؤال الدكتور فقال : رفضوا يا سيدي ، فرغب في أموال هناء وابنتها .

قال الطبيب : مال القاصر لا يستثمر بشكل فوضوي ، فهو يخضع تحت حكم محكمة شرعية حتى يكبر القاصر ويستلمه وإلا لو استثمر ربما كبر اليتيم ولم يجد منه شيئا ، فهو يستثمر في حدود معينة حسب علمي .

فعاد محمد يقول : هذا لب المشكلة بيننا وبين السيد عادل .. يظن أننا نستثمر مال زهيرة ونصرفه على بيوتنا .. وسوسة .

قالت زوجته : طمع .. وأراد استغلال الحادث ليتهمنا بالتقصير وعدم الحنان والرعاية لابنة شقيقه .. يظن أنه أحن عليها من أمها ، فجعلنا أمام الناس مقصرين في حق اليتيمة .. يريد أن نحرمها من اللعب والركض مع أقاربها

قالت الطبيبة : تفكير غبي .. وهل إذا كانت في بيته لا تلعب مع أبنائه وأحفاده ؟!

قال والد هناء : أخته بسمة أحسن منه .. لامته وصفت معنا ضده .. حتى أن بعض أخوته سمعت أنهم لاموه على فعلته السوداء في المستشفى .. وأخته أم محمد دائما تتصل بنا قبل الحادث وتسأل عن البنت وأمها ، بل زارتنا عدة مرات وتجلب الهدايا لابنة أخيها من ألعاب

وحلوى وفاكهة .

استأذن الدكتور بالانصراف لما طلبت الدكتورة فاطمة الحديث مع هناء على انفراد ، فودعه الرجل أبو فوزي حتى الباب المطل على الرصيف والشارع ، وانتقلت زوجة ماهر وهناء إلى حجرة خاصة ، فلما أغلقت هناء الباب قالت هناء باسمة ومرتبكة : ما الأمر يا أم جواد ؟

رسمت فاطمة ابتسامة صغيرة وخاطفة على وجهها وقالت : خير إن شاء الله يا سيدتي .. الموضوع باختصار ومباشرة .. زواج .

أدركت هناء ذلك منذ طلبت الخلوة بها، فليس بينهن مواضيع خاصة ، وإن ظنت للوهلة الأولى أن الدكتور يريد أن يدفع لهم مالا كهبة بسبب الحادث ؛ ولكنها أدركت سريعا أن ذلك لا يحتاج لخلوة خاصة .. فلو أراد تقديم مال لزهيرة فهو يعلم أن الكل سيعرف بذلك ، لذلك قالت محاولة الدهشة : زواج ممن ؟!

" من شقيق ماهر الدكتور مروان طه .. لقد رأيته.. فقد كان يرافق ماهرا كلما نزلتم البلاد للسلام على مجدي رحمه الله .. فهم رفاق الجامعة

وهم ماهر ومجدي كانوا يسبقونه بعامين .. وأنت تعرفين زوجته مرام "

" أجل .. ولماذا يسعى للزواج ؟!"

" الأخت مرام حسين ـ شفاها الله ـ مريضة منذ سنوات .. فبعد ولادتها لابنها الثالث وهي تعاني، ووضعها الصحي صعب .. ومروان لديه رغبة بالزواج ثانية وهي سمحت له بذلك ؛ لأنها عاجزة عن القيام بحق الزوج الشرعي .. فتحدث ماهر عنك لمروان فقال مروان لشقيقه "إذا قبلتني فأنا موافق .. وهي في سن مناسبة لي .. وبيننا بعض المعرفة .. وابنتها ستكون معززة مكرمة .. وهي ابنة صديقنا مجدي ـ رحمه الله تعالى ـ وستكون في عيوننا .." فطلب مني ماهر الحديث معك في ذلك .. وهذا الأمر بيننا قبل حادثة المستشفى .. فكري جيدا في الموضوع وشاوري العم محمد وأم فوزي .. ليتكلم ماهر وشقيقه الأكبر محمود مع حضرة الوالد والأسرة الكريمة .. وأنت ما زلت شابة تصلحين للزواج لم تبلغي الأربعين بعد .

"تبسمت هناء وقالت : قريب منها .. أنا التقيت بالدكتور مروان فعلا وهو شخص محترم .. كلكم ناس طيبون .. وكان مجدي دائم الثناء عليكم.. وأنا لست ضد الزواج ثانية ؛ لأن هذه طبيعية الحياة .. وأنا أعرف أن فرصة الزواج من رجل متزوج فرصة جيدة .. والناس لا تستغني عن الزواج إلا إذا كان للشخص مهمة وغاية كبرى .. وزهيرة تكبر ولن تمانع في زواجي ثانية .. سأفكر جيدا "

" لا تخافي على البنت .. فالبنت في قلوبنا وعقولنا.. والأخ مروان شخص هادئ بطبعه .. والزواج فطرة "

" أشكرك ، ولا أنسى وقوفكم معي في هذه المحنة .. ونحن أهل وأصدقاء منذ اقترنت بوالد زهيرة "

نهضت فاطمة حمدي مصافحة شاكرة قائلة " تشاوري مع الأهل .. وأنا قريبا سأتصل بك من أجل ذلك.. وإذا صار نصيب سنقترب منكم أكثر ، ونصبح عائلة واحدة بفضل الله وحده .. فالمصاهرات تقرب الناس لبعض "

تعانقت المرأتان وغادرت فاطمة .. وهمست هناء قائلة : سأتزوج طبيبا مرة أخرى! .. لم تقل لي ما هو مرض مرام حسين ؟!



الحمل من جديد

لما تعافت الفتاة الصغيرة من سقمها، وتمت إزالة الجبس الطبي عن ذراعها المكسورة وقدمها أعلن عن خطبة أمها على السيد مروان طه ، ولما وصل الخبر للسيد عادل حسن استشاط غضبا وحقدا من أرملة أخيه ، وكان يرى أنه أولى الناس بالعقد عليها ، فطار صوابه ، وسعى لنقل الوصاية عن ابنة أخيه لنفسه ؛ ولكنه لم يجد محاميا يقبل دعواه والسعي فيها ؛ لأن الوصي كامل الأهلية والعقل ؛ وأم الفتاة في صفه.

فأخذ يثير الإشاعات حول زواج أم زهيرة ، ورغم ذلك حدث الزواج وانتقلت هناء محمد إلى بيت الدكتور مروان ، واستقلت في جناح خاص بها في نفس البيت ، وكانت هناء قد التقت بمرام زوجة مروان ، وعلمت منها أنها موافقة على زواج الرجل عليها، ولا تمانع في اقترانها ، وأنها رضيت بنصيبها وقدرها.

وبعد حين يسير عادت دوامة الحمل والوقت والكبر بين هناء ومروان ، والأخير له ثلاثة أبناء من قرينته الأولى ، ولما مضت السنة الأولى على زواجها جن جنونها في تأخر الحمل رغم مراجعتها عدة أخصائيين ، كانت متلهفة للحمل والولادة فأصابها الغم والنكد ، وبين لها مروان أن الحمل ليس عنده مشكلة ، ولترضى بنصيبها ، وأعلمها أنه قام ببعض الفحوص ، وليس لديه عائق ، ولتتوكل على الله وحده ، وعرضها مروان على أحد كبار أخصائيي النساء والعقم في المدينة ، وأكد لها أطباء العيادة أن صحتها الإنجابية جيدة ، وكذلك زوجها ، وأن هناك أملا كبيرا بالحمل ، وعليها أن تتخلص من التوتر والتعب النفسي ، والانتظار حتى يقدر الرحمن لها الحمل ، وإذا لم يحصل الحمل خلال فترة معينة قد تحتاج لحمل بمساعدة بعض الادوية التي تنشط عملية الاخصاب .

كانت زهيرة تقترب من العاشرة ، وكانت تشعر بأن في البيت مشكلة بل مشكلة كبيرة ؛ ولكنها لم تعرف تحديدها ، ولما حاولت فهم سبب مراجعة الأطباء نصحتها أمها بعدم التدخل في مثل هكذا مواضيع ، وبعد فشل الحمل بأدوية معالجة العقم بعد ثلاث سنوات زواج

كبرت المشاكل ، وأخذت صور المشاكل التي كانت بينها وبين مجدي تتكرر ، وأخذ الدكتور مروان يهجرها بالأيام تخلصا من شكواها ورغبتها القاهرة بالحمل والبحث عن أطباء لهم دعاية وشهرة ، حتى تفاجأ أنها لاذت بالمشعوذين والحجابين ، فعاتبها عتابا حادا وساخطا على الجهل واللجوء إلى أمثال هؤلاء المعتوهين ، ورغم دفاعها عنهم ، وقد ذكرت قصصا نجحوا فيها كما سمعت طبعا.. قال " هذا كلام فارغ ، الحمل والولادة بأمر الله ، ليس بأمر هؤلاء الكهان والدجالين .. إنهم مرضى يحتاجون لعيادات يتعالجون فيها ، لو ظل الطب على أيدي هؤلاء لظللنا في القرن المائة قبل الميلاد .. الطب علم وهو علم تجريبي أيضا ، قد يصلح دواء اليوم للناس لا يصلح غدا .. وليست مراجعة الأطباء كمراجعة أولئك .. عليك أن تفهمي ذلك .. وحتى الأطباء الذين ذهبنا إليهم ليسوا هم الذين يصنعون الأولاد.. هو أمر وخلق الله .. أرجو أن تفهمي ذلك .. وأنا إذا اكتشفت أي لعب أو تحايل أو سحر في البيت فالفراق بيننا أفضل وأحسن "

فقالت بضيق : وبماذا تختلف يا دكتور زيارة الشيخ عن زيارة الطبيب والمختبر ؟!

ضحك ضحكة مغتصبة وقال : هناك فرق بل فروق يا بنت الناس .. هناك أدوية واختبارات وتحاليل وصور أشعة وفهم أسباب وموانع الحمل .. فالحجاب كيف يعرف عوائق الحمل وهو لا يعرف يقرأ اسمه أو يكتب كلمة صحيحة؟! الطب علم ومعرفة وتاريخ أجيال.. والحجابة جهل واستهبال واستغفال .

قالت كأنها هازئة: والطب يقول لا شيء يعيق حملنا ومع ذلك لم يحصل حمل !

"وهل الحجّاب سيمكننا من الحمل والإنجاب .. أنا لدي أبناء، وأنت خلفت زهيرة .. فلنترك شأننا لله.. فالذي يختاره ويقدره هو الخير لنا .. علينا أن نقبل بقدرنا .

"دعنا نجرب"

فصاح متذمرا " ألم تجربي قبل أن اكتشف هذا الجنون ؟ لك شهور تجربين.. عليك أن تتوبي من التردد على هؤلاء السحرة .. وعليك أن تراعي سمعتي .. دعي الأمر لله ؛ فإذا كان لنا

نصيب بالإنجاب سوف يحدث.. وهذه زهيرة عندك مثل الغزال والقمر .. والأولاد يحترمونك ويقدرون أنك زوجة لأبيهم ويحبونك "

هزت رأسها وقالت : يحبونني ! أنا طمعت بالزواج من أجل الأولاد والذرية ليس فقط من أجل الأكل والشرب والنوم والجماع .

" هذا الحمل بإرادة الله يا سيدتي .. وأنا فعلت ما عليّ من تأكيد صحتي الإنجابية وبانت لك رغبتي بمزيد من الأطفال .. ولم أتزوجك من أجل الجنس فقط .. وقبلت محاولة الحمل بالأدوية من أجلك ، ومن أجل دوام حياتنا الزوجية ، وتحقيق رغبتك بالأمومة من جديد ، ولازدياد الترابط بيننا .. فالأولاد كبروا ودخلوا الجامعات ومع ذلك رضخت لطلباتك وقلت تستحقين المساعدة والقبول برغبتك للمواليد.. وإذا ترين أن الطلاق حل لحياتنا الزوجية أنا لا مانع لدي"

" الطلاق !"

"نعم ، أنا تزوجت لارتاح في البيت ، وأرتاح نفسيا.. فنحن في عملنا نتعرض لإغراءات كثيرة .. نتعامل مع نساء شتى .. فالعفة شعار وحياة.. يا سيدتي أرجو أن تفكري جيدا بحياتنا الخاصة .

فصاحت فجأة" أريد أن اخلف ولدا منك يا مروان " ثم خفت صوتها قائلة" حتى يمتد بيتنا، ويمتد بيننا الوصل والحياة الهادئة"

"لا اله إلا الله.. توكلي على الله، وأكثري من الاستغفار والدعاء لعل وعسى"



لقد رفض الدكتور مروان لجوء زوجته هناء للمشعوذين والحجابين لمساعدتها في الحمل ، ولما جاءها بعد أيام استقبلته بالصياح والصراخ والصوت المرتفع والندم على زواجها منه ، فلما

حاول معرفة سبب هذه الهياج والثورة والغضب والحسرة قالت" امرأتك تتهمنني بتسميمك وإطعامك أشياء مضرة "

قبض يدها وحدق في عينيها " أو لم تفعلي ذلك؟! إنها تريد أن تنبهك أن أفعالك مكشوفة يا هناء "

"فقالت باستسلام للحقيقة : ومن أخبرك بأني فعلت ذلك ؟!"

" المرأة التي تتعاملين معها ، هي التي كشفت وصفاتها لي ظانّة أنني لا أعرفك .. أنا حذرتك من أيام يا بنت الكرام ، جعلت البيت جحيما بالنسبة لي .. لابد أن صديقنا مجديا عانى مما أنا فيه اليوم "

فزاد هيجانها وصراخها واحتجاجها، وأخذت تدافع عن نفسها، وأنها لم تفعل شيئا لمجدي ليموت ، بل هو الذي كان يضربها ويسقطها أرضا...

فقاطعها وقال" لا يهمني ذلك .. إنك متعبة يا هناء .. وأنا تزوجتك لعلة تعرفينها في زوجتي أم جهاد ، ولم يقدر لك الحمل مني لحتى الآن.. ولقد لجأنا بعد الله للطب وأهل الاختصاص دون فائدة.. وأما اللجوء لهؤلاء الدجالين فهذا في نظري جريمة .. وقد حذرتك من العودة لهؤلاء الناس؛ ولكنك رميت بتحذيري عرض الحائط .. واليوم جئت محاولا تهدئة الوضع والسلام ؛ ولكني أرى كل الشر هنا ..فالأفضل أن نفترق بالمعروف كما دخلنا بالمعروف .. وسأترك لماهر ترتيب أمر الانفصال ؛ لعلك تجدين الزوج الذي تحملين منه ما دامت هذه رغبتك الجامحة .

غيرت هناء من لهجتها وقالت بحزن "مناي أن أحمل منك يا مروان ..لا أدري لماذا حظي هكذا ؟!"

" الولادة والذرية قسمة ونصيب .. ربما ليس النصيب عندي.. ظننتك الأنثى الصالحة .. ولكن مضت هذه السنوات بصعوبة وتعب وشقاء "

"لا أستطيع التخلي عن فكرة الحمل .. حسنا افعل ما تراه مناسبا .. فإذا كان الطلاق هو الحل

فلن أترجاك ، ولن أتوسل إليك للبقاء على ذمتك ، وكما قلت لعل فرصة ثالثة تحقق لي رغبتي وحاجتي .. وهذا في علم الغيب .. وأنا لم أحاول تسميمك يا مروان .. إنما هي وصفات وأعشاب يبيعها هؤلاء العشابون ، يزعمون أنها تيسر الحمل .. كالأدوية التي يصرفها الأطباء ..وأنا تمزق قلبي لما مرضت بسبب تعاطيها وأكلها ، واعتقدت أنها سامة فعلا .. ولكن الحمد لله على سلامتك .. وأنا لن أنسى أن زهيرة أحبتك، وتعلقت بك ، فهي حسبتك والدها الحقيقي من حسن تعاملك معها ، فهي ـ كما تعلم ـ لم تدرك والدها جيدا .. وأم أولادك أساءت لي صباح اليوم ، وظنتني طفلة صغيرة وليس لي كرامة وكيان حر.. واتهمتني بالسعي لقتلك وتدمير بيت العائلة .. افعل المناسب يا سيد مروان لم يعد لي مكان في هذا البيت .. الصبر جميل "

فقال بصوت حزين وعطف فيه مشهود : أنا مستعد لفتح صفحة جديدة معك حتى لا تظني أن أم جهاد أمرتني بتطليقك قبل القضاء عليّ .. وذلك إذا عاهدتيني على الصبر والرضا بالمقسوم .. فأنا مستعد لأنسى الطلاق .. أنا بحاجة لامرأة لطيفة فاضلة .. وإذا كنت تشعرين بالفراغ فمجال العمل مفتوح أمامك .. فربما الشغل والوظيفة يعوضانك عن المزيد من الأطفال.

وبعد أخذ ورد تعهدت هناء بالرضا بنصيبها وحظها ، ووعدت بالتفكير بالعودة للعمل من جديد .



هناء منذ تزوجت أول مرة لم تعد تفكر بالعمل والشغل ، ولم يطلب منها مجدي ذلك ، ومضت سنوات زواجها بمراجعة أطباء النساء حتى قضى الموت على مجدي ، ولما رجعت من بلاد الغربة في إحدى دول الخليج العربي لم تفكر بالعمل كذلك ، ولم تجد نفسها بحاجة للوظيفة ،

فقد ورثت ثروة كبيرة عن زوجها ، فقد كان الرجل غنيا فمنذ تخرج طبيبا وهو يعمل ويجمع المال ، فقد قضى شبابه أعزبا لا عائلة له ، ومضت سنوات الزواج الأولى بدون عائلة ، فتراكمت الثروة بين يديه ، لذلك قبلت هناء فكرة العودة للعمل لعلها تشغلها وتلهيها عن فكرة الحمل والأمومة .. الفكرة الطاغية على تفكيرها بشكل وسواس قهري.

فقبلت العمل في شركة تهتم بتوزيع الأدوية في البلاد وبعض الدول المجاورة بعد استيرادها أو شرائها من السوق المحلي ؛ ولكن أغلبها مستورد من خارج البلد ، وكان عملها قد تم بمساعدة من قبل زوجها مروان وشقيقه ماهر، ولعلاقتها الطيبة بمدير الشركة الذي هو طبيب مثلها ـ لما نجح عمله كتاجر ترك ممارسة مهنة الطب ـ ووظفت في قسم السكرتارية والمراسلات التجارية ، ووجدت صعوبة في أول أيام العمل ؛ لأنها تركت العمل منذ أكثر من عشر سنوات منذ زواجها الأول ، ثم ذهب الإرهاق والتعب مع الوقت ، وتأقلمت مع العمل بعد حين ، وأخذت تفكر بشراء سيارة خاصة ، وكان زوجها يشجعها على ذلك وأخذ يبحث لها عن مدرب خاص ، ونكاد نقول أن المشاكل البيتية خفت ، وعاد الهدوء والسكون لبيت العائلة ؛ وكأن المرأة استسلمت للمقدر من عدم الخلفة ، والرضا بأمر الله.

وكانت زهيرة تحت رعاية الخادمة الأجنبية ، فتذهب صباحا بحافلة المدرسة الأهلية ثم تستقبلها الخادمة مساء ، وترعاها وتقدم لها الطعام حتى تعود أمها في الخامسة أو السادسة مساء.

وكان مروان الطبيب يقسم وقته في البيت بين مرام وهناء ، ليلة هنا وليلة هناك حسب قانون الدين في التعدد ، وأحيانا تجلس هناء وابنتها في صالون مرام يسهرون ثم يفترقون ، ومضت سنتها الأولى في العمل وقد خيم الجو الهادي على البيتين ، ولم تكن أخطاء هناء في العمل خطيرة ، فكانت مشاكل العمل تحل بين هناء والإدارة ، والعمل لابد أن تقع فيه أخطاء من العاملين لظروفهم وأحوالهم النفسية ، فكانت أخطاء المراسلات تستدرك وتتم معالجتها ، وكان المدير يتغاضى عن كل أخطاء هناء لقوة الصداقة التي تجمعه بمروان وأشقائه خاصة

السيد ماهر ، والمرأة تحمل شهادة جامعية بالسكرتارية والإدارة.

وفي آواخر السنة بدأت الأمور تتغير فقد أخذت هناء تطور من صداقاتها بالموظفين ذكورا وإناثا ، وحتى مع موظفين صغار ، وليس هذا المهم في الأمر ، المهم في الأمر أنها بدأت تقبل دعواتهم الخاصة للعشاء والسهر والسينما والمسرح مما صدم المدير ونائبه ، فهي امرأة صديقهم مروان ، وامرأة صاحبة بيت ، وأم فتاة مراهقة ، وكانت تقبل المشاركة في مناسباتهم الاجتماعية دون تردد ؛ لذلك كان الدكتور حازم حمدوز يتحدث مع ماهر بمثل هذا التغير وقال : أخشى أن تنزلق زوجة أخيك إلى أمور لا يحمد عقباها.

فاضطر ماهر لنقل هذه الأخبار لشقيقه لعله يجد عنده حلا لها، فمصاحبة امرأة من بيئتهم ووسطهم الاجتماعي المحافظ إلى حد ما لشبان عزاب ومتخرجين جدد من المعاهد والجامعات مربك لهم ، وذا مما دفع مروان لفتح الموضوع مع هناء قائلا : يا سيدتي الفاضلة لا يجب أن تتوسع علاقاتك بهؤلاء إلى هذا الحد .. فأنت زوجة محترمة ولك أسرة .

فأبدت ضيقها وتذمرها من تدخله بحياتها الخاصة ، ودافعت عن خياراتها ، وزعمت أنها تفعل ذلك طردا لمللها وفراغ البيت من الأصدقاء والزيارات فقال : ومن يمنعك من زيارة الأهل والأقارب والصديقات اللواتي من جيلك .. فأنت لديك اليوم سيارة وتستطيعين التنقل عند أخواتك وإخوتك .

ـ كلهن مشغولات ولا وقت لديهن مثلي .. وهل مشاهدة الأفلام حرام؟

ـ ليس المهم مشاهدة الأفلام ؛ لكن مع من تشاهدينها .. مع شبان وشابات عزاب .

ـ وماذا في تناول عشاء مع زملاء العمل ؟!

ـ وقد يدعى إليه زملاء ليسوا من زملاء العمل .

رفضت هناء التخفيف من السهر خارج البيت بعد انقضاء العمل ، ورفضت قطع علاقاتها معهم بدعوى الحرية الشخصية.

وكرر مروان النصح والإرشاد لها ؛ ولكن دون فائدة حتى أنها أخذت تأتي متأخرة للبيت بعد

نصف الليل نتيجة السهر مع زميلاتها وأصحابها الجدد ، شكى مروان الأمر لأخيها فوزي ويسري ، وبين لهم أن مثل هذه التصرفات لا تليق بزوجة طبيب مثله وكعائلة محافظة ، فغضبت هناء بشدة من تدخلهم في تصرفاتها الخاصة. وحاول ماهر معها ، فهددته بسحب الوصاية عن زهيرة زاعمة أن من حقها الوصاية على ابنتها.

واستمر الإرشاد ، واستمرت المناكفات دون نتيجة حتى تفاجأ مروان بعودتها من إحدى سهراتها عند الفجر عندما كان ذاهبا للمسجد للصلاة ، فكانت تركن سيارتها في موقفها أمام البيت ، فصعق ، وكان قد ظنها نائمة في شقتها مع ابنتها لأنه كان تلك الليلة مع زوجته الأولى وكان حازم يشكوها إليه مباشرة ، ويعلمه بأنه يفكر بفصلها من شركته لولا صداقتهم التاريخية ؛ لأن سمعتها بدأت تلوكها الألسن ، ولما اقترب منها مروان تلك اللحظة رأى أنها ثملة من المسكر فازداد نارا وغيظا فقال وهو يضغط على أعصابه : ألم تكتفي بسكرك في سهراتك فصرت تعودين مخمورة إلى البيت .. "إنما اشرب جرعات قليلة" .. ماذا افعل بك يا بنت الناس ؟! هذه هي نهاية إرخاء الحبل للنساء .

لم ترد عليه واصلت دخلوها البيت ، وصعدت إلى غرفة نومها ، ورمت نفسها على سريرها، وتبعها الرجل وسمعها تقول : إنني منهكة القوى يا دكتور في الصباح نتحدث

ـ يبدو أنك شربت الليلة كثيرا ، هذه أول مرة تعودين سكرانة للبيت .. ونحن في الصباح يا بنت الناس .. فالحال لم يعد يطاق غدا أو اليوم.. بعد ساعات سنذهب للمحكمة لإعلان الطلاق

ـ الطلاق ! أنا فعلا أريد الطلاق يا دكتور .. مللت منك .. وجدت زوجا خيرا منك .

في الصباح وبعد فتح المحاكم الشرعية أبوابها للناس ، كان الطلاق بعد هذه الحادثة أمام القاضي الشرعي لتلك المحكمة ، وأخذت هناء ابنتها والخادمة وعادت لبيت الأسرة بعد غياب بضع سنين عنه ، وسمعت من والدها كلاما جارحا ومهينا : أصبحت سكيرة آخر الزمن .. وتتعاطين المخدرات .. عليك الخروج من هذا البيت استأجري لك بيتا.

أخذ أحد الأشقاء أخته لبيته مستضيفا لها بعد طرد أبيها لها غضبا وألما ، وقضت باقي اليوم باكية في بيت شقيقها سمير ، وفي الصباح التالي مشت للشركة التي عملت فيها فوجدت أن المدير قد فصلها ، ودفع لها أجر ثلاثة أشهر بدون عمل ، فأخذت الفلوس ، وبحثت عن صديق لها في الشركة ، فأخبرت من إحدى الزميلات بفصله هو الأخر من العمل في الشركة ، وانصرف من يوم أمس.

وهذا الصديق شاب فوق الثلاثين من العمر ، متزوج وقد تخلت عنه زوجته بعد سنة من الزواج لسوء أخلاقه ، ثم حصل بينهم الطلاق بعدما تنازلت عن متأخر صداقها الشرعي ، بعدما زعمت أمام القاضي أنها أخذته ، والرجل لم يوافق على الطلاق إلا بعد أن تخلت له عنه ، ولما لحقت هناء بالعمل كان من الشباب الذين اجتمعوا حولها ، ثم أصبح على رأس الأصدقاء الخاصين بها ، فعلمها الشراب والدخان وتعاطي الحبوب والاستهزاء بالحياة الجادة ، وأن الدنيا خلقت للهو والمتع والانبساط ، ثم وعدها بالزواج إن طلقت يوما ما ، يقول لها ذلك عندما تهمس له بخشيتها من أن يتخلص منها مروان.

لذلك فبعد مغادرتها الشركة وقفت أمام مطعم ، وتناولت رغيفا من الطعام ، وشربت كوب عصير ، ثم اتصلت به ، والتقيا وحدثته بطلاقها وطردها من الوظيفة وأنها مستعدة للاقتران به فضحك كثيرا وقال : بهذه السرعة !

فطلب منها أن تصبر حتى تنقضي عدة الطلاق ليتحدثوا بالموضوع ، فأخبرته أنها تملك ثروة ستسهل لهما الحياة معا ، فقد ورثت عن زوجها الأول وأخذت مؤخر طلاقها من زوجها الثاني كاملا ، فطلب منها رامي عدة طلبات ، التريث حتى تنتهي العدة ، ويخففان من اللقاءات حتى حين ، وحتى يرتب هو أمور حياته ، وأكد أنه راغب بالزواج منها ، ودعاها إلى كأس شراب ، فاعتذرت عن ذلك لأن والدها غاضب عليها، وهي تعيش في بيت شقيقها بعد أن طردها من بيته ، فودعها قائلا : لنبق على اتصال وقبلها قبلة الوداع ، وركبت سيارتها قافلة لبيت شقيقها سمير، فوجدت اجتماعا في البيت يناقش قصة طلاقها وحياتها فلما سألها أحد

أشقائها المجتمعين : أين كانت ؟

ردت بحدة : فصلوني من شركة حازم

فقال سمير : الشركات كثيرة .. فهذه الشركة كما تعلمين قبلت فيها لعلاقة صاحبها بماهر ومروان .. والبنت زهيرة ماذا ستفعلين بها ؟

ـ لتبق عند أمي أعطيت المدرسة عنواننا القديم قبل الزواج من مروان.. فهم يعرفون عنوان دار أبي.

لم تقض هناء في بيت شقيقها سمير سوى ليال ثلاث ، فقد تم الصلح بينها وبين والدها ، فاستقرت في غرفتها التي عاشت فيها بعد ترملها ، وأخذت تفكر وتخطط باستئجار شقة أو شراء بيت خاص بها ، وجدت نفسها من جديد تعيش في عدة الطلاق الشرعي .. اتصلت برامي في بيته، وتحدثت معه أكثر من مرة ، وكانت تسعى للقاء به ، فرفض ذلك زاعما أن أهله يرفضون زواجه من امرأة تكبره بعشر سنوات ، فخلال هذه الشهور الثلاثة ضعفت علاقتها برامي ، وفشل مشروع الزواج الذي أملت به حقيقة ، وأدركت أنه كلام ليل يمحوه النهار، وأنه سخر منها لينال شهوته وفساده منها ، وحمدت الله أنها لم تستسلم له جسديا رغم كثرة ضغطه عليها ، فكانت حرمة زوجها تمنعها من الوقوع في ذلك.

وحتى شلة الشركة لم يعودوا يستجيبون للقاء بها ، ويتهربون من الرد عليها ، ولا يتصلون بها ، فأدركت إدراكا تاما أنها أضاعت حياتها وسعادتها أمام سراب ووهم بحياة حرة ، فأخذت تحاول العودة إلى مروان عن طريق الدكتور ماهر ، وأعلنت ندمها وتهورها ، فأعلمها الرجل بكل صدق أن شقيقه على وشك زواج ، فقد التقى بطبيبة مثله تعمل معه في المشفى الخاص ، وهم على وشك إشهار الزواج ، فلزمت الصمت ، وأما تعلقها بالشراب والدخان فلم يختف بعد ، وإنما تركت المخدرات ، ربما لم تعد تحصل عليها، ولا تعرف كيف تتحصل عليها.. ؟ .. وحاولت عن طريق رامي مجددا ، فشتمها وتظاهر على التلفون أنه لا علاقة له بالمخدرات والحشيش ، وطلب منها أن تنساه للأبد ، فهو سيتزوج خلال أشهر ، فقد خطب فتاة ،

وكانت النهاية بالنسبة لها ، واستوعبت أنه كان يلهو بها هو والشلة والاستفادة من مالها وتبذيرها. حتى أنها لاحظت استياء ابنتها زهيرة منها ، ومن شربها للدخان والخمر ، ولاحظت أنها تخرج من البيت لتناول الكحول في الخمارات والملاهي ، وكانت تتضايق من أخذها للدخان ، وتظهر ضيقها، فتنهرها أمها بشدة ، وتطلب منها عدم التدخل في حياتها ، وعليها أن تنشغل بدروسها ومدرستها ، وبعد شهور مضت على الطلاق همس أحدهم في أذنها برغبة السيد عادل بضمها لزوجتيه ، فتعجبت من إلحاح هذا الرجل ورغبته بالاقتران منها منذ ترملت ، وبعد تفكير وتردد أخبرت الوسيط برفضها الزواج منه شخصيا ، ولو لم يبق في الدنيا من الرجال إلا هو ما تزوجته ، فأرسل إليها زوجته الأولى ؛ لتأكد لها هذه الرغبة فأكدت لها كرهها وحقدها عليه.

ذهبت السنة الأولى بعد الطلاق ، ولم يتقدم إليها أحد سوى عادل حسن ، حتى أن الأب محمد حدث ابن أخ له بالزواج منها ، فاعتذر ابن أخيه ، وأخبره أنه ابنته لا تصلح له ، فهو رجل على قد الحال كما يقال ، وأن ابنته انحرفت عن الاستقامة والمحافظة على عادات العائلة ، ولا تصلي، ولا تصوم ، وتدخن ، وتشرب المنكر، فلما أنكر عمه ذلك ، وأنها عاهدته على ترك الشراب منذ عادت للبيت من بيت شقيقها سمير ، فأكد له ابن أخيه أنها ما زالت تتردد على الحانات والخمارات .



موت الشيخ

رجع محمد للبيت والغضب يملأ كيانه وقلبه، ولم يجد فتاته في البيت ، فقد خرجت زاعمة زيارة لصديقة ، فلما جرأت أم فوزي تسأله عن سبب كل هذا الحنق والغضب ، فأخبرها بما سمع من ابن أخيه، بأن ابنتهم ما زالت ترتاد الحانات والملاهي الليلية ، فأنكرت الأم التهمة ، ودافعت عن ابنتها وأخلاقها ، وكان يسري ابنهم يعيش معهم في نفس العمارة، وكان يسمع الحوار الدائر بين أمه وأبيه ، وسمع آخر الكلام ، وصاح وقال بضيق : يا أمي لا تدافعي عن انحراف هناء .. ادع لها بالهداية ، فقد وصلنا كلام كثير عن سوء سيرتها.. وخففوا من حدة صوتكم فإن زهيرة في غرفتها ، وتسمع صراخكم رغم إغلاقها باب الحجرة

فقال محمد وهو يتنهد بعمق وأسف : ماذا أفعل لهذه البنت ؟! فضحتني بعد أن بلغت هذا السن يا أولاد .. أخشى أن أسمح لها بالسكن خارج البيت أن تزيد وتكثر فضائحها.. ويتحول بيتها إلى بيت دعارة .

فقال يسري محاولا تهدئة الشيخ : لا سمح الله .. لم تصل الأمور إلى هذا الحد يا أبي .. خمر ومخدرات .. لم نسمع بشيء أسوأ من ذلك .. هي لم تطلق إلا من شهور

فقال الأب ساخطا حانقا على ابنته : لم نسمع ! هل ننتظر حتى نسمع ؟!

فقال : هل نقتلها حتى لا نسمع ؟ وهل هذا حل؟!

قال: تحدثت مع ابن عمك أبي صادر للاقتران بها على نسائه ؛ وليستر عليها ، فاخبرني أنها لا تصلح للزواج .. فهي منحرفة والأولاد شباب .. فإني حائر حائر

فقال يسري : علينا أن نعقد اجتماعا عائليا، ونتحدث جميعا في هذه المشاكل ، وإذا لم تستجب لتقاليد العائلة فعليها الابتعاد عنا ، ولتذهب لمدينة أخرى حتى لا نسمع قصصها ومغامراتها ، وإلا عليها احترام البيت وتقاليده .

واقترب من الهاتف ليتصل بإخوانه يدعوهم للاجتماع ، ومناقشة قضية هناء ، وتمردها على تقاليد الأسرة.

اجتمعت الأسرة بعد صلاة العشاء للنظر في المشكلة الكبيرة التي ألمت بالعائلة ، من خرق هناء لعادات وتقاليد الأسرة بدون مبرر ، فكانت مشكلتهم رهيبة ومرعبة في نظرهم ، فتحدثوا واقترحوا أشياء ، وبينما هم يتحدثون ويدبرون حضرت صاحبة الشأن من حيث كانت تسمر ، فظنت كما قالت ساخرة" إن مصيبة قد أصابت البيت في غيابها لبضع ساعات!

فقال يسري : نعم ، نحن في كارثة .. بل زلزال نحن نتشاجر بشأنك يا أم زهيرة.

فنظرت إليه بضيق وقالت : شأني ! ما الأمر ؟!

لخص أحدهم لها الأمر والموقف ، فردت بغضب وصوت حاد : حياتي الخاصة ليس لكم دخل فيها .. أنا امرأة بالغة عاقلة وصلت الأربعين من العمر .

فقال أحد الأخوة : سمعتنا يا بنت الناس !

ردت باستهتار : أغلبكم يدخن .

فصاح يسري : لو وقفت على السجائر لهان الخطب ! لقد سمعنا أنك كنت على علاقة ـ اسمحي لي أن أقول ـ حميمة مع موظف بسيط في تلك الشركة ، وأنها السبب الأهم في طردك أو فصلك من الشركة ، ثم طلاقك.. فإذا الرجل راغب بك فليأت من الباب كعادة الناس ..أما السهر وشرب الخمر في النوادي الليلة والخمارات ليس من عاداتنا ، ولا يعني ذلك أننا ملائكة .

فصاحت هائجة : هذا كذب.. إشاعات أطلقها مروان لتبرير الخلاص مني .

فرد يسري بقوة وتحد : اسمعي يا بنت الناس ليست إشاعات .. تحدثت أنا شخصيا مع المدير حازم .. فقال لي على استحياء الأمور زادت عن حدها يا يسري .. ونحن كما نحب أن نحافظ على سمعتنا نحافظ على سمعة إخوتنا وأصدقائنا من آل طه .. الأمور ترتب هنا في الشركة والاجتماعات واللقاءات خارج الشركة .. والدكتور مروان قد خطب امرأة تعمل طبيبة مثله وهي أرملة حديثة .. فلماذا يطلع وينشر الإشاعات عليك ؟!

صاحت مرة أخرى : إشاعات ليتزوج من زميلته الأرملة .. فتآمر مع حازم لطردي وتشويه

سمعتي .

فقال أحدهم : ولكنك تسكرين، فهل تنكرين ذلك ؟

فقال يسري : الدخان والخمر والسهر والمسرح والسينما والمخدرات والحب .. لا شيء يخفى على الناس يا هناء هل هذا تعلمتيه من مروان ؟

فقالت بسخط : أوه !! هذه حياتي وأنا حرة فيها .. هذا بدني أنا حرة فيه

فنظر إليها أبوها بذل وانكسار : ونحن يا هناء

فنظرت إليه بسخط : ماذا نحن ؟ أنا سأرحل يا أبي ، لن أبقى في بيتك .. أنا عرفت الحرية عرفت الحياة.

هجم عليها يسري صافعا لها وصارخا : أي حياة مع الفساق ؟! أي حياة يا مجنونة في الحانات ونوادي القمار والزنا ؟!

كانت هناء منذ دخلت على الاجتماع وهي قائمة ، فوضعت يدها على خدها، وقد سالت دموعها غضبا وحقدا : تضربني يا مجرم .. تمد يدك عليّ !

فانهال عليها ضربا ورفسا وصياحا حتى خرت مغمى عليها ، وارتفع الصياح والبكاء في البيت ، فلما أفاقت من غشيتها قالت " ستدفع الثمن غاليا يا يسري سأدمر حياتك .. لن أرحمك يا مجرم .. تضربني يا حقير "

فصاح هائجا : سأقتلك .. فحياتك في القبر أفضل من حياتك فوق الأرض .. أنا أعلم أنك سبب موت الدكتور مجدي .. لقد كتب إليّ أكثر من رسالة للتشفع بينك وبينه من أجل الكف وعدم الإلحاح في مسألة الحمل والحبل .. أنت سبب قصف عمره .

فصاحت وهي ما زالت تجلس على الأرض : أنا سبب قصف عمره ، ولسوف اقصف عمرك لن أبقى الليلة هنا .

ونهضت متجهة نحو الباب الخارجي للبيت ، وخرجت لم يعترضها أحد ، وارتفع اللغط والنقد على تصرف يسري وانفعاله الحاد ، وبينما هم يتعاتبون ويصيحون على بعض وقع السيد

محمد على الأرض فنقل للمستشفى بسيارة أحدهم .. وهناك ودع الحياة بعد أيام .

السيد محمد فوزي أبو فوزي لم يحتمل فؤاده النزاع القائم في بيته فوقع مريضا ، ثم مات ، فلما علمت هناء بما حدث لوالدها من الذبحة الصدرية والموت عادت للبيت ، وكانت ليلة الحادث قد خرجت غاضبة إلى إحدى بيوت شقيقاتها ؛ لأن البنات لم يحضرن الاجتماع؛ إنما كان اجتماعا ذكوريا كما يقال ؛ لذلك لما نقل الوالد للمستشفى ، وذهب في غيبوبة ، تذكرت ليلة موت مجدي عندما دفعها أرضا آخر ليلة كانت له في الدنيا ، فعادت إليها الذكريات ، وأخذت مشاهد الحياة المؤلمة تعود سريعا .. غضب منها بشدة ، ذهب لينام فما استيقظ .. وها هو أبوها يسقط مغمى عليه ولم يستيقظ .. مشاهد حياتها أخذت تتجسم أمامها .. وكانت تذرف الدمع الغزير .. لم تذهب للمستشفى ؛ لأن شقيقتها التي استضافتها أخبرتها أن الوالد في غيبوبة .. فاقد للوعي .. ثم مات .. وكانت تذرف الدمع الغزير وتقول " هل أنا شؤم! ؟ "هل تعلقي بحب الولادة شؤم ؟! لماذا لم أسلم أمري إلى الله راضية مطمئنة ككثير من النساء العواقر ؟ ! إني حفرت قبري بنفسي .. ها أنا عدت مطلقة بعد أرملة .. لا أمل في الحمل .. هل أنا قتلت أبي ؟ أو السبب في وفاته ؟ وهل أنا التي تسببت بموت مجدي ؟ يا إلهي لماذا تركني مروان ؟! أأنا متعبة ونكدية ؟! ولماذا أوقع بي رامي ودمر حياتي الزوجية ؟!.. وشجعني على الابتعاد عن حياة الدكتور .. لقد صدقت كلامه المعسول .. لقد نسيت الكيد والغدر .. لقد كان صديق عدد من الفتيات نسيت كل هذا .. يا لي من مغفلة.. !! كان يعبث بعدد من فتيات الشركة يعيش على كدهن ومالهن .. مسارح سينمات ثم تحشيش .. بل كانت بعضهنّ أحذر مني وأفطن لخداعه .. أنا الجريئة بينهن .. لماذا وقعت في حباله ؟ كنت الضعيفة بينهن .. نسيت ابنتي المراهقة في لهفتي للزواج من رامي الغادر ..

وعادت تفكر بعادل حسن" لماذا المدعو عادل يسعى للزواج مني على نسائه ؟ أمن أجل أموال ابنة أخيه ؟ .. لم أنظر إليه منذ عرفت تلك الأسرة نظرة رضا واستلطاف ، بل كنت أخشى عينيه الخبيثتين "

عادت للتفكير بيسري ففكرت "يسري يعلم بمشاكلي مع مجدي ، كان مجدي يراسله ليضغط عليّ ليته فعل يومذاك ، تبسمت للحظات ثم تابعت .. ها هو يجعلني السبب في وفاته وإزهاق روحه .. هل تكلمت زهيرة المسكينة بشيء أمامه ؟ .. لقد رأت أحداث تلك الليلة .. هل ما زالت تفتكرها وتتذكرها ؟ .. لكنه كان مريضا متعبا مرهقا من عمله .. كان يفحص قلبه باستمرار .. لكنه لم يأخذ علاجا خاصا بالقلب يا هناء .. ماذا أفعل ؟ مات أبي .. كان السند الحقيقي لي بعد ترملي .. غادر الدنيا ناقما مني .. يا الهي ! كثير من الخلق يدخنون.. الملاهي ملأ بالناس .. المستشفيات كذلك مليئة بالمرضى والمجانين .. ماذا أفعل ؟ ماذا تفعلين ؟ سأعود امرأة تحترم كيانها بعد هذا السقوط السريع والمؤلم .. هذا هو الحل السليم.. ليتني لم أعد للعمل مع الرجال.. لست بحاجة للمال .. ليتني قنعت بالحياة في ظل مروان .. ظننت نفسي فتاة صغيرة صبية مراهقة تتطلع إليها العيون العاشقة ..إنها هي عيون الشهوة .. عيون الزنا والفواحش.. كانوا يسعون لإيقاعي في الزنا والفحش .. في الحقيقة لولا تدخل السيد حازم ومراقبته لي ؛ لربما كنت صيدا سهلا لهم ولاستدراجهم .. لم أسمح لهم بالنظر لجسدي رغم سيعهم لذلك ، وقد حاولوا إثارتي وإغرائي لممارسة الفاحشة.. كنت على شفير السقوط في الهاوية .. كانوا يركضون للنيل من جسدي .. لقد مات أبي قبل أن يعرف شيئا من جنوني ولهوي .. كيف لو وصلت للفاحشة والتعري لهؤلاء الفتيان ؟! كيف سيكون موقفي أمام ابنتي لو فعلت ذلك ؟! هل مات أبي لاستيقظ من غفلتي ؟!

ها هم أبناء وبنات إخوتي يتخرجون من الجامعات والمعاهد المتوسطة.. وها هي زهيرة على وشك إنهاء المرحلة التعليمية الأولى.. يجب أن اتخذ من حادثة موت أبي نهاية لاستهتاري وسخفي .. عليّ أن أتوب توبة حقيقية .. نعم سأتوب يا الله ساعدني وصرخت بها !

فالتفت إليها أمها وقالت : مالك يا هناء تصرخين ؟!

نظرت إلى أمها طويلا ثم قالت : ارتفع صوتي يا أمي ..إنني استغيث بربي .. الله أغثني وأدركني .. أمي أريد أن أتوب .. أريد أن أعود للصلاة والعبادة .. أبي مات وهو غاضب عليّ

تابت هناء بعد تلك المناجاة ، دخلت الحمام واغتسلت ، وظلت تصلي طوال الليل حتى صلاة الفجر .



أنهت زهيرة مجدي فصلها الأخير في الدراسة ، وبذلك انتهت المرحلة الأساسية للدراسة الابتدائية والإعدادية ، وكانت من الفتيات المتفوقات جدا في المدرسة الأهلية ، وأخذت تستعد للانتقال للمرحلة الثانوية ، وكان ذلك في صيف ١٩٨١ م ، وقد بلغت خمسة عشر ربيعا ، وقبل ابتداء الفصل الدراسي الجديد زارتها امرأة عمها عادل السيدة جليلة أم حسن ، ولم تكن الزيارة الأولى لها ؛ لذلك كانت تظن أنها زيارة كالمعتاد ، ولم يصحبها في هذه الزيارة زوج أو ابن أو بنت ، ولما اطمأنت على صحتها وحياتها ، طلبت منها أن تسمح لها بالجلوس مع أمها ، فاستغربت هناء هذا الطلب النادر ، فتركت الفتاة حجرة الضيوف ـ وهي وأمها ما زالتا تعيشان في بيت والد هناء وأمها ـ ولما خلت الغرفة من زهيرة كاشفتها جليلة عن رغبتها بتزويج ابنها ميلاد من ابنة عمه زهيرة ، ولما أنهت المرأة غايتها وصمتت ، حدقت هناء بجليلة ، وقالت ببرود وجفاء "البنت صغيرة يا جليلة على الزواج .. أنا تزوجت السيد مجديا ، وأنا بنت خمس وعشرين سنة ، وبعد تخرجي من الجامعة والعمل بضع سنوات "

ردت جليلة " ضروري تكميل التعليم .. نصف بنات البلد يتزوجن صغيرات .. أنا نفسي تزوجت دون العشرين ، ولو تقدم لي أحد في سن أبكر لزوجني أبي يا سيدة هناء .. فميلاد شاب صغير عمره عشرون عاما ، وراغب بالزواج وتأسيس أسرة ، وهو محب لابنة عمه "

عادت هناء تنظر في عينيها بضيق " ماذا يعمل هذا الميلاد ؟!"

" أنت لا تعرفينه ؟ .. لقد رافقني بضع مرات إلى هنا .. هو يعمل في تصليح السيارات ، فني سيارات بعد الإعدادية تحول للعمل في سوق تصليح السيارات .. يسمونه "ميكانيكي

سيارات" . وهو شاب معجب بابنة عمه المرحوم مجدي ، وهو راغب فيها يا هناء"

" تذكرته بل اعرفه جيدا .. وهل هذا يستطيع فتح بيت وتكوين عائلة؟!"

" هو يشتغل من خمس سنين ، ولما يتزوج يفتح ورشة لحسابه الخاص "

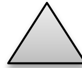
"أيستطيع هذا تحمل مسؤولية يا أم حسن ؟ وهو كثير الدخان "

" الشباب كلها تدخن اليوم يا هناء .. الدخان سوسة وبلاء"

بعد فترة صمت طالت قليلا قالت هناء "لم يحن وقت زواج البنت يا جليلة .. زهيرة ترغب بالدراسة ودخول كلية الطب على رغبة والدها العزيز قبل أن يموت .. تريد أن تعالج وتداوي الناس المرضى "

"رحلة طويلة وشاقة يا هناء ..الزواج خير لها "

" هذا ما تحدثت به أمامي ، وأمام الوصي الدكتور ماهر طه ، ووعدها الرجل بمتابعة المسيرة ، وهي شاطرة وذكية ومتحمسة لتحقيق هدفها وهدف أبيها ، فابحثي له عن فتاة أمية أفضل له ولكم .. فابنتي غير مستعجلة على الزواج يا أم حسن "



اتصل الدكتور ماهر بالسيدة هناء ، وأنبأها أن السيد عادلا اتصل به متشفعا بتزويج ابنتها من أحد أبنائه.

فتبسمت المرأة وقالت " لقد زارتني زوجته جليلة أم الولد وطلبت ذلك ، واعتذرت لها يا دكتور بأن البنت راغبة بالدراسة ، والدخول في كلية الطب كأبيها ـ رحمه الله تعالى ـ وأيضا اعتذرت بأنها صغيرة على الزواج ، ولا تريده اليوم لا أدري لماذا لا يكفون عن ذلك؟! فقد تحدثوا مع شقيقي يسري الذي يعيش معنا في بيت الوالد"

فقال ماهر: الرجل يقول إن ابنه صاحب صنعة جيدة ، ولما يتزوج تعمل له البنت ورشة خاصة به ، ولسوف يرد إليها كل قرش ساعدته به، وأنفقته على ورشته.

ضحكت المرأة رغم أنفها وقالت : أما عجيب أمر هذا العم ! فما دام ابنه فالحا ومعلم تصليح

لماذا لا يفتح له هو محلا من ماله ؟! لقد ورث عن أخيه هو الآخر .

"قلت له هذا يا أم زهيرة فقال : لو فتحت محلا لميلاد ـ اسم الولد ميلاد ـ سأضطر لفتح الجرة للآخرين .. الكل سيطالب بمال يا ماهر ، وثروته وتقاعده لا يغطي ذلك لهم.. أما إذا فتحت له زهيرة المصلحة فلن يطالبه أحد بشيء زوجة ساعدت زوجها وابن عمها .. وسيصمت الآخرون "

صاحت هناء دون وعي مع من تتحدث : تفكير أحمق ! .. أنا آسفة لرفع صوتي يا دكتور .. هو منذ مات أخوه وهو طامع فيما ورثناه أنا والبنت .. المصيبة أنه رجل متعلم ، وصاحب ثروة.. لماذا كل هذا الطمع في أموالنا ؟ ! كما تعلم حاول الزواج بي أكثر من مرة ، وحتى عندما طلقني أخوك أعاد الكرة .. واليوم بدأت مطاردة زهيرة .. معتقدا أن زواجي منه يلغي وصايتك على زهيرة ، وتصبح أموال البنت لعبة في أيدينا.. هذا رجل يعيش في القرون الوسطى إذا كان هناك قرون وسطى

ابتسم الدكتور ماهر وعقب قائلا : القرون فقط في أوروبا .. على كل حال أنا آسف يا أم زهيرة .. فقط أحببت أن أبلغ الرسالة .. وسأنقل له الاعتذار ، وأبين له رغبة البنت بتكميل تعليمها ، وأن هواها في دراسة الجامعة ، ولا تفكر أبدا بترك المدرسة والزواج..

ـ شكرا لك يا أبا جواد .

ـ لا شكر على واجب يا سيدتي .. أنا من أحب الناس رغبة بمتابعتها دراستها وتعلمها

ترك الهاتف واستلقى على أريكة ، وقد شرب كوب ماء أثناء سماعه كلمات ورد هناء وقال :فعلا السيد عادل عجيب أمره مع أسرة شقيقه مجدي !.. أرسل زوجه خاطبة ، ثم شفع شقيقها ، وثم دار عليّ .. المال .. يلهث وراء مال اليتيمة .. والبنت ذكية ومجدة في مدرستها، ومعلماتها يثنين عليها خيرا وإعجابا بأدبها وتفوقها ، والبنت جادة في طلب العلم ، ولديها الرغبة في الوصول للجامعة .. التعليم سلاح مهم للبنات قبل الذكور .. ولكن الذي يحيرني أن عادلا مدرس ومتعلم ، وعمل مديرا قبل تقاعده .. فالأولى أن يفرح ويتحمس لرغبتها في

الدراسة ، والعمل كطبيبة في المستقبل ويشجعها.

دخلت زوجه فاطمة وألقت السلام .. وقالت : ستأتي القهوة .. هل أنهيت الحديث مع أم زهيرة ؟

ـ نعم ، وهي ترفض بشدة فكرة اقتران ابنتها بعادل وأسرته .. وأكدت لي رغبة البنت بالاستمرار في الدراسة ، ثم الجامعة في كلية الطب كأبيها .. وأنا أستغرب من أفعال وتصرفات عمها نحوهم .. ورغم مشاكله القديمة مع هناء ما زال يضايقها ؛ بل أخبرتني أنه حاول الزواج منها بعد طلاقها من مروان .. تخيلي هذا وأنا لم أنس الفضيحة التي عملها في المستشفى يوم كسرت يد وقدم زهيرة .. وها هو اليوم يخطط لزواج ابنه من ابنتها .. وكما تعلمين مديرة مدرستها أكدت لي ذكاءها وحسن خلقها وحبها للعلم والدراسة ، وشهاداتها المدرسية تؤكد تفوقها وتقدمها على أقرانها .. وأكدت لي استعدادها للاستمرار في التعلم ، وعدم التفكر بالزواج قبل إنهاء المرحلة الثانوية بسلام ونجاح.. وفرص الزواج أمامها كثيرة.

فلما سكت قالت زوجه : التعليم مهم اليوم للبنات كما قلت .. اليوم المهن والأعمال تحتاج لشهادات وكفاءات .. ماذا ستقول للسيد عادل؟

ـ سأتحدث معه في موضوع تعليمها وأهمية ذلك لها ولحياتها ، وأن تركها للمدرسة غير مناسب ، فهي مجدة وراغبة بالاستمرار، وتحلم أحلاما كبيرة ، وأن أموالها ستساعدها بتحقيق الدراسة ، ولن تحتاج لمساعدة مالية من أحد.. وهي غير مؤهلة للزواج وهمومه.

لما وضعت فنجان القهوة الفارغ قالت أم جواد "أتصور لو لم يبق إلا عادل وهناء في الدنيا ما قبلت بالزواج منه .. ولا ابنتها من ابنه .. فهي تبغض الرجل بغضا لا حد له يا ماهر .

ـ أعرف هذا، وهو يعرف هذا .. ولكن رفضها له جعل عنده عقدة نحوها .. وربما فعلت له شيئا أثناء زواجها من أخيه، فظل حاقدا عليها، ويظن بزواجه منها أنه ينتقم منها .

ـ زهيرة فتاة طيبة وهادئة ، وتستحق كل خير وحماية .. فأيام خلاف أمها مع مروان كانت مستاءة من أمها كثيرا .. وكانت تتعجب من شربها للخمر وتعاطيها للدخان والتبغ .

ـ الله وحده الذي لطف بتلك المرأة .. الحمد لله على أفضاله حدثني حازم أنها عادت تتصرف كمراهقة .. خاصة وهي تتحدث مع الموظفين الشباب .. ربك لطيف بعباده فله الحمد والمنة.

ورغم فشل شفاعة الوصي ماهر تقدم بعض أعمام زهيرة ، وتحدثوا مع الأم في موضوع زواج البنت من ابن عمها ميلاد ، ورفضت الفتاة حتى التفكير بالزواج ، وأكدت لهم همتها لنيل شهادة الثانوية والالتحاق بالجامعة .

عندما دخلت زهيرة في السنة الأخيرة من الثانوية العامة تقدم رجل أرمل متقاعد من الجيش للزواج من أمها ، وكان أخ لها يضغط عليها للقبول به ، فهو قريب لزوجته وراغب بالزواج من امرأة لا تنجب ، وكبيرة في السن إلى حد ما ـ وقد ترمل منذ شهر واحد وكل أبنائه كبار وجلهم متزوج ـ وبعد تأمل وتشجيع من أمها وأخواتها وافقت على الزواج من جديد ، والرجل الأرمل يكبرها ببضع سنوات فقط ، لم يدخل على الستين بعد ، وانتقلت للحياة في داره وسكنه ، وتركت زهيرة في بيت أهلها حيث هي تعيش مع أمها العجوز ، وكانت زهيرة قد اعترضت في أول الأمر على زواج أمها الجديد ؛ ولكنها أمام حجج أخوالها وضغطهم رضخت للأمر الواقع كما يقال ، وقبلت بزواج أمها على مضض ، وتمنت من أعماق فؤادها أن ينجح زواج أمها من هذا الرجل المتقاعد من القوات العسكرية السيد رستم علي .

اجتهدت الفتاة اجتهادا كبيرا في المدرسة، ومع أنها التحقت بمدارس أهلية منذ بداية تعليمها ، وفر لها الوصي ماهر مدرسين خصوصيين لبعض المواد التعليمية المهمة ، وفي النهاية استطاعت النجاح في الثانوية العامة بنجاح كبير ومعدل درجات يسمح لها بدخول كلية الطب في داخل البلاد أو الصيدلة

فرحت أمها بنجاحها غاية الفرح والسعادة ، ورأت ذلك من توفيق الله سبحانه لقرة عينها الوحيدة ، وقد غمر الفرح كذلك الوصي ماهر وأسرته ، فهم كانوا يشعرون بعطف وحب كبير للآنسة زهيرة ، وممن سعدوا بنجاحها أخوالها وخالاتها.

وسارع ماهر بتقديم أوراقها إلى كلية الطب في جامعة البلاد ليحقق رغبتها ورغبة أبيها المرحوم مجدي ، وقبلت أوراقها ، ووفقت لها الدراسة في الجامعة ، وبدأت تتهيأ لدراسة الطب أما عمها عادل فلم يسعد بنجاحها ، ولا بدخولها الجامعة ، وقاموا بتهنئتها على استحياء ، وبدأت عامها الأول في جامعة الطب عام ١٩٨٤ ، وعادة تبدأ الدراسة في البلاد في فصل الخريف (أيلول) وتستمر إلى مطلع الصيف (حزيران) فتنتهي الدراسة السنوية .

وقد سعى ذاك العم إلى تزويجها من ابنه ميلاد مرة أخرى مبينا لها أهمية الحياة الزوجية بالنسبة للأنثى ، وأن زواجها خير من تعلمها، وقضاء العمر في دراسة الطب ، وأن فرص الزواج تقل أمامها ، فتأسفت له ، وأكدت له إصرارها على نيل شهادة في الطب ، وأن الدراسة لديها أهم من الزواج ، وأنها تتعلم ليس من أجل المال ، فقد ترك لها والدها ثروة تغنيها عن العوز للآخرين، وإنها تتعلم مهنة إنسانية تساعد الضعفاء والفقراء من خلالها ، فلما عاد الرجل متأففا من لقائه بابنة أخيه قال لنسائه حيث كن في انتظاره : ترفض الزواج ، ومصرة على الجامعة والطب ، وتطلب منا بنت هناء البحث له عن زوجة غيرها أرأيتم تربية هناء محمد ؟!

وبعد لحظة صمت قال : نعم ، ليبحث الفتى عن زوجة أخرى يا جليلة ، وليدع هذه المتكبرة فهي بنت من ؟! بنت هناء التي تبغضنا وتحقد علينا .. لا أدري كيف اقترن بها مجدي ؟ لابد أنها هي التي قصفت عمره بكرهها لعائلتنا .

فقال ميلاد الذي كان معتكفا في البيت منتظرا لعودة أبيه : لا تريد الزواج مني نهائيا

ضحك عادل عاليا وقال : إنها ترفضك وهي في المدرسة ، فهل ترضاك بعد شهادة الجامعة وفي كلية الطب ؟ .. هذه الدكتور ماهر راسم عليها لأحد أبنائه .. ألم يقنع أخاه بالزواج من أمها قبل سنوات ؟ لم تعد ابنة العم لابن العم .. هذه الشهادات تباعد بين الناس اليوم.. أصبحت تجعل فروقا بين الأخوة والعائلات .. دكتورة ستتزوج دكتور سيارات .. ابحث لك عن امرأة أفضل وخيرا منها يا ولدي .. لم تعد بنات العم الزوجات الملائمات

فعقبت أمه قائلة ساعية لإبعاده عنها : لا أدري لماذا أنت متعلق بها يا ميلاد ؟! منذ رفضتنا قبل

سنوات قلنا لك دور عن أخرى .. بنات عماتك كثر .. بنات خالتك أكثر .. لم يخلق في الدنيا إلا زهيرة .. البنات تملأ الحي والدنيا

فصاح فيها محتدا : لن أتزوج إلا زهيرة بنت عمي مجدي .. لم أر في النساء إلا هي .. وسأتزوجها رغم أنفها .. ولو تزوجت غيري سأقتلها هي وزوجها

قال أبوه : لقد جن الولد يا جليلة! .. نحن أحببنا لك الزواج منها ، وشجعناك على ذلك ؛ لكن ليس بالغصب والقهر والقتل .. هذا كلام فارغ .. من باعك بعه .. ما الذي يعجبك فيها ؟.. فهي اليوم مثل السعدان تتكلم من رأس مناخيرها .

عاد الشاب الغاضب يتوعد : زهيرة لي يا أبي .. هل نسيتم تشجيعكم لي للزواج منها ؟ الآن تريدون أن تتنصلوا من الكلام .. لا .. لا .. سأتزوج منها رغم أنفها

ـ راحت أيام رغم أنفها .. اليوم القانون فوق العادات والتقاليد والأعراف

ـ سأصبر حتى تصير طبيبة.. وأتزوج الطبيبة .. إنها ابنة عمي .. وأنا أولى الناس بها .

قالت أمه : بنات أعمامك كثيرات .. نحن أحببنا أن تكون من نصيبك .. ولكن إرادة الله هي الغالبة.. كان الأمل كبيرا، وهي أصغر سنا .. أما بعد الشهادة والنجاح في التوجيهية فالأمل مات .

فقال الأب : يا ابني سعينا ووسطنا ـ كما تعلم ـ أخوة هناء ، ووسطنا الوصي على مال أبيها ورفضت .. ومصرة على الرفض .. وتدعوك للبحث عن غيرها .. وهي لليوم لم يتقدم لها أحد سواك .. كل الناس تعلم أن السيد ميلاد عادل يرغب بالاقتران بابنة عمه .. فدعها .. عليك بالبحث عن زوجة غيرها .. فهذه تربت في بيت أخوالها لا تصلح لك يا ولدي .. فقد تطبعت بطباعهم .. ورأيت فعل أمها وكيف لوثت سمعتها ؟ لولا لطف الله بها وبأهلها .. فقد مات أبوها قهرا من أفعالها الدنيئة.

تهديد

أخذت الأم ولدها إلى غرفة أخرى، وطلبت من إحدى بناتها عمل الشاي لأبيها وامرأة أبيها التي حضرت تلك الجلسة ولشقيقها ، ولما جلسا قالت الأم متظاهرة بالحزم والأمر : اسمع يا ميلاد أنا ووالدك كانت لنا رغبة شديدة أن تتزوج من زهيرة .. وكما قلت شجعناك على ذلك ، كان والدك حابّا لهذا.. ومشينا في هذا المسعى منذ سنوات ، وأنت تابعت تحركاتنا ؛ ولكن كما علمت رفضت البنت وأمها بشدة .. وقلنا لما تكبر الفتاة سنوات أخرى وتنضج قد تغير قولها ، ورغم همساتنا ، وإظهار رغبتنا بهذه المصاهرة استمر الرفض ، وظل اعتقاد أرملة عمك أننا طامعون في مال زهيرة حتى أن بعض أعمامك وعماتك يرددون هذا الكلام .. وما دامت زهيرة التحقت بالجامعة فعليك أن تتزوج من بنت أخرى.

ـ لن أتزوج يا أمي إلا منها .. ولو قضيت عمري كله بدون زوجة وأبناء .. زهيرة لي ، وأنا لها .. وأنا لولا حبي لها لما وافقتكم على طلب يدها .. هي المرأة الوحيدة في الدنيا التي يجب أن أكون زوجها .

دخلت أخته بالشاي الثقيل الذي يحبه ميلاد عادة ، وأشعل سيجارته ورشف شايا ، ولما أغلقت البنت الباب قال : تعلقت بها منذ سنوات وسنوات ، والأمر لأبي ، وليس لأمها ولا لها.

ـ يا ابني واحدة لا تريدك ، ولا تريد الزواج كيف ستعيش معها ؟

ـ أنا أريدها .. عليّ اللقاء بها بنفسي

ـ لقد حاولت أكثر من مرة ، ورفضت اللقاء بك حتى صارحتني مرة أنها تبغضك .. قالتها صراحة يا ميلاد .

ضحك ساخرا : تبغضني ! أكيد لها فارس أحلام كما نرى في مسلسلات التلفزيون .. زهيرة لي يا أمي ويجب أن تكون لي .

قالت بضجر وملل : كيف ستكون لك ؟ ! وكيف ستقبلك إذا صارت طبيبة ؟!

ـ ولماذا لا تقبل بي إذا أمست طبيبة ؟! .. هي تداوي البشر وأنا أداوي سيارات البشر

ـ دعنا نفرح بك اليوم .. الطب دراسته تحتاج لسنوات.. فأنت تكون أبا خلال هذه السنوات ..كف عنها

تنهد بعمق وقال : لن أكف عنها ، لم أحب وأرغب من هذه الدنيا إلا بها ، لو كنت أريد أي فتاة لتزوجت من سنوات .

نادت الأم على زوجها الذي أقبل غاضبا حانقا، وقد أدرك أن زوجته فشلت بإقناعه بنسيان زهيرة مجدي ، فأعلمته زوجه بإصرار الولد على الزواج منها مهما طال الزمن ، ولن يسمح لأحد بالزواج منها.

فقال عادل حسن : نحن رغبناك بها، وشجعناك حسب عاداتنا قبل أن نسكن ونعمل في هذه المدن

رد ميلاد بغضب : قبل أن تشجعني للزواج من ابنة أخيك كانت لدي الرغبة بالاقتران بها.. أنا أحببتها دون نساء العالمين .

ـ الزواج لا يكون بالقهر والعنف .. وهي رفضتك وهي طالبة صغيرة ، فكيف بعدما تصبح طبيبة؟! فهي تعتبرك أميا جاهلا لا يفك الخط

ـ هذا ليس بعيب يمنعني من زواجها .. لا أريد إلا زهيرة مجدي أو دعوني من الزواج قطعيا .. تعلقت بها صغيرا وأريدها كبيرا مهما طال الوقت بنا

ـ يا رجل تدخل أعمامك والوصي ماهر، وهي تأبى الموافقة.. فكيف سنجبرها على القبول بك؟! .. قد كان هذا قديما قبل دخول المدنية بلاد الناس .. اليوم المرأة لها كلمتها واختيارها.. كان هذا يستساغ قديما

قال ميلاد : سأسعى للقائها .. يجب أن تقابلني شخصيا وأتحدث معها .. أليست ابنة عمي؟.. لماذا لا أتحدث معها مباشرة ؟!

قالت الأم : شجعتها للقاء بك ، وإقناعك برفضها من فمها لفمك .. لا تريد هذا .. قل لي

كيف أدفعها لمقابلتك ؟ .. يا ولدي كبرت سنك إنك تقترب من الخمس والعشرين والطب يحتاج لسبع سنين .

قال بعناد : أصبر وأنتظر إذا وافقت .

نادى عادل ابنه الكبير حسنا ليقنع أخاه الصغير ميلاد بترك ابنة عمه في شأنها وجامعتها.



اتصل ميلاد ببيت أم فوزي جدة زهيرة ، فردت عليه الخادمة الأجنبية التي تقوم على خدمة زهيرة وجدتها بعد رحيل أمها ، فأخبرته بعربيتها الركيكة أنها لم ترجع من الجامعة ، فلما عادت الفتاة مساء من كلية الطب أخبرتها الخادمة (روجا) باتصال السيد ميلاد بها ، فانزعجت للاتصال وقال لنفسها "ماذا يريد اللعين ؟"

وما كادت تنهض عن طعامها حتى رن الهاتف ، وكان المتصل ميلاد عادل يطلب الحديث معها ، فقامت مثقلة وتناولت السماعة من الخادمة ، وبعد التحية والسلام أبدى الشاب رغبته باللقاء بها ، وزيارتها للحديث معها خمس دقائق فقط ، وبعد رفض وافقت على الحديث معه مباشرة.

وبعد صلاة العشاء ليلا كان الشاب يطرق الباب وبصحبته أمه ، وبعد المجاملات التقليدية والترحيب وأخبار الصحة والأسرة ، طلب ميلاد أن يسمحوا له بالحديث مع زهيرة على انفراد ، فتركت الأم والجدة الشابين في صالون البيت ، وترك الباب مواربا غير مغلق إغلاقا تاما .. فقال بانفعال بين : لماذا ترفضين الزواج مني يا آنسة ؟

فنظرت إليه بحدة وضيق واضحين وأجابت : لك سنوات تتحدث عني يا ميلاد .. ومنذ البداية علمت عدم رغبتي بالزواج منك وحتى من كل عائلة أبي .. أنت لا تناسبني لماذا لا

تفهم ؟! لماذا أنت مصمم على الزواج مني ؟! لماذا؟! ألا يوجد بنات في الدنيا غيري ؟!

ـ هل لو كان والدك حيا ترفضين بهذا الإصرار ؟.. ألسنا أقارب وأبناء عم ؟

ـ الزواج لا أفكر فيه قبل شهادة الطب يا سيد ميلاد

ـ أصبر كما صبرت هذه السنوات

ـ لم يقل لك أحد اصبر.. أمي اعتذرت لكم قديما .. وأنت صحيح ابن عمي الكبير السيد عادل ؛ ولكن لا حق لك بالزواج مني رغم أنفي لهذه الصفة .. فأبناء العم كثر لماذا أنت دونهم ؟ وأيضا بنات أعمامك كثيرات

ـ لكني أريدك أنت وحدك ، وتقدمت لطلب يدك على حسب الأصول

ـ وأنا رفضتك حسب الأصول .. الزواج بالتراضي يا ميلاد .. فلنبق أبناء عم فحسب .. لا أصلح زوجة لك

ـ لأنني لم أدرس ، لم أبلغ الثانوية العامة ؟

ـ قد يكون هذا أحد الموانع ، ولكني رفضتك قبل دخول الجامعة ، وقبل الثانوية العامة .

ـ ولكني راغب بك زوجة

فصعقته بنظرات نارية وقالت بصوت ارتفع قليلا : عجيب أمرك ! .. هل الزواج بالغصب يا سيد ميلاد ؟ لا أريدك ، لا أريد الزواج نهائيا من أجلك .. ارحمني يا رجل.. سأبقى عذراء .

ضحك وقال : جميل !! تبقين عذراء .. هل يعقل هذا يا بنت الناس ؟ إذا كان فيّ عيب ومانع اذكريه

تبسمت غاضبة : بس لا أريدك .. هل الزواج بالعافية ؟

ـ هل هناك رجل آخر ؟

صاحت بغضب : وضيق حقير أنت ! .. هل هناك .. هل هناك رجل آخر ؟ أتراني فاجرة بائعة هوى ؟!

قال : اسمعي لن أتزوج إلا من زهيرة مجدي .. مهما طال الزمن.. أنت المرأة الوحيدة في الدنيا

التي سأتزوجها شئت أم أبيت .. أعجبك هذا أو لم يعجبك .. لن تكوني لغيري يا زهيرة .. أنا قلت لما تكبري تعقلي وتعرفي أن لا غنى عن الزواج .. لما تنضجي تقبلين بي

ـ أنت وقح وحقير.. وما أنت برجل !

قال : حقير نذل .. صنفيني بما شئت .. لن أسمح لأحد بالزواج منك وأنا حي يا زهيرة بنت مجدي

ـ لا أريد الزواج أيها الحيوان ! لما أتزوج تتكلم .. انصرف اغرب عني .. أرجوك لا تريني هذا الوجه ثانية

ـ سأنصرف يا زهيرة سأتزوجك غصبا عنك ، وعن كل العائلة .. لن أسمح لرجل أن يأخذك

ـ لولا الحياء لشكوتك للشرطة مع السلامة

وأخذت بالبكاء ، فدخلت جدتها وأمه ، وطلبت منه الجدة المغادرة وهي تقول : يا ابني الزواج بالتفاهم والقبول .. وليس بالتهديد والوعيد .. ابحث لك عن بنت غيرها البنات تملء البلد.

فقال وهو يغادر الغرفة : لن يتزوجها غيري .. أنا ابن عمها وأحق الناس بها .. لن أسمح أبدا لأحد الناس بالزواج منها إلا إذا قتلت أو مت

غادر الشاب وأمه منزل الحاج محمد فوزي وأمه تقول له: يا ابني دعك من وجع الرأس .. بنات أعمامك كثيرات، صاح في أمه وهو يركب في سيارة المحل الذي يعمل فيه : أنا قلت لن أتزوج إلا منها رضيت أم أبت .

ـ إنك تبحث عن الشقاء والتعاسة ، لم تحلَ في عينيك إلا زهيرة .. سخطها الله.

ـ نعم ، لم يحلُ في عيني إلا هي.

قضت هناء ساعات مع زهيرة وهي تهدئ من روعها ، وتخفف عنها جرح الكلمات والتهديدات التي أطلقها ميلاد ، وفي الصباح الباكر لما صلت الفجر قدمت إليها متابعة لصحة

ابنتها ، بعد ساعات الليل التي قضتها مع زهيرة مخففة من آثار اللقاء الساخن بينها وبين ابن عمها المجنون ، وأكدت لها من جديد أنها كلمات جوفاء ، وكلام فارغ ، ولن يستطيع فعل شيء من تهديده ووعيده ، فهو شاب أرعن لا يجد أحدا يربيه ، ويدعس على رأسه ، وأنها لما تنهي جامعتها ستجد أحسن عريس في الدنيا، وستكون طبيبة عظيمة ، وتختار العريس المناسب واللائق بها.

وكذلك بين لها خالها يسري أن الزواج لا يكون بالقوة والعضلات والتهديدات ، وما هو إلا شاب فارغ خائب ، وكلامه في الهواء.

وكلمة من هنا وأخرى من هناك خفتت دموع زهيرة ، ومضت إلى جامعتها ، ومع المحاضرات نسيت ميلادا وأهل ميلاد ، واختفى ذلك اللقاء العاصف واشتغلت بدروسها ومع الوقت زال كل أثر لذلك الكلام القاسي.

وكانت هناء قد تحدثت مع ماهر الوصي عن ذلك اللقاء ، فاستغرب الوصي مثل هذه الأفعال في مثل هذا الزمن ، ووعد بالحديث مع السيد عادل ، وفعلا لما انتهت المكالمة اتصل على الفور بالسيد عادل حسن ، فلم يجده في البيت وطلب منهم إخباره باتصاله ؛ ليتصل به عند عودته للبيت

ولما اتصل السيد بالدكتور سأله عن سبب تصرف ابنه مع زهيرة ابنة عمه بتلك الطريقة الصبيانية والتهديد والوعيد ، فقال السيد عادل : هذا الولد يا سيدي الدكتور متعلق بابنة عمه ، ويزعم أنه يحبها ، ولا يحب في الدنيا من النساء إلا هي ، وقد صدم برفضها الشديد ، وكان يظن أنها لما تكبر تتغير ، فهو منذ وعى وبلغ وهو يرى أنه أولى الناس بها .. وأنا في البداية شجعته على ذلك ، قلنا نحن أولى باليتيمة من غيرنا ، وسعيت له في ذلك.. وأنت تذكر ذلك ، ثم لما رأينا عدم رغبتها فينا كأمها العاقة طالبته بالكف عن الحلم بالزواج منها ، وليبحث عن حليلة خيرا منها ؛ ولكنه راكب رأسه ، ولا يريد إلا هي .. هو صبر على أمل .. وهذا الدراسة

طويلة كما تعلم يا دكتور ، فهو يريد أن يتزوج وهي تدرس ولا مانع عنده ؛ ولكنها تأبى الزواج اليوم.

ـ يا أستاذ عادل.. البنت من البداية بينت لكم أنها تطمح لإكمال الجامعة والعمل كطبيبة .. ونصحت لك سابقا أن تزوج ابنك؛ لأنها تبغضه ولا تريده .. لكنك على ما يبدو لم تكترث بنصحي .. يا أستاذ الزواج إن لم يكن إيجاب وقبول عن طواعية سيفشل .. أنتم تحيون في عاصمة مدينة أفكار الريف والقرى لا تتناسب مع المدن .. فالتهديد والوعيد لا يجدي نفعا .. فأرجوك أن تكف ابنك عن إزعاج البنت .. طلبت مني أمها أن أتقدم بشكوى للشرطة عن طريق المحامي .. فاعتذرت لها وقلت أنتم أهل .. والإشكال يحل بالتفاهم.. أنت رجل عاقل ومربي أجيال يا أستاذ عادل.. فاضغط على الولد أن لا يتعرض لها مستقبلا بشيء مهما صغر إنها فتاة يتيمة ووحيدة أمها..

ـ صدق يا دكتور أني وأمه وأخوه الكبير حاولنا جادين صرفه عن هذا اللقاء ، وعن هذا التفكير الأعوج .. ولكن ماذا ستفعل لشاب بلغ الثلاث والعشرين سنة؟! .. لم يعد صغيرا

ـ والحل يا سيد عادل.

ـ أنا لا حل عندي.. الحل عندكم.

ـ عندنا ! .. يا رجل أنت عمها والولد ابنك

ـ قل لي ماذا أفعل ؟ هل أستطيع أن أخطب له فتاة بدون موافقته ؟ مَن مِن الناس سيقبل ؟! أنا في الأول قلت ابن عم يرغب بابنة عمه .. ولما رأيت رفضها قلت له ابحث عن غيرها أو اصبر حتى تنضج أكثر .. فلو لم يكن محبا لها لما صبر ، ولتزوج أخرى دون انتظار.. وأنا أضع السبب واللوم على أمها فهي تبغضنا ؛ كأننا لسنا أسرة واحدة ، وأنها زوجة المرحوم أخي .. وأن البنت بنتنا .. نشرت بين الناس أننا طامعون في ثروتها ومالها الذي ورثته عن أخي، وصدق الناس الكلام .. ولما تحدثنا عن البنت أخذت تنشر أننا طامعون بمال زهيرة .. كل الأولاد تزوجوا يا دكتور وأغلب البنات ، لم يبق إلا ميلاد وبنتان ما زالتا تتعلمان.. وأولادي من

الزوجة الثانية وهم صغار بعد

ـ وهل الزواج بالقوة والعنف يا حضرة الأستاذ ؟

ـ القضية أن الشاب متعلق بها ومحب لها

ـ حب من طرف واحد لا يفلح .. وأمامها سنوات في الجامعة .. فأتمنى عليك أن تبعده عن طريقها .. لا أريد أن تصل الأمور لشرطة ومحاكم وأنتم أهل .

ـ ذكرت له عن فشل الحب إذا كان من طرف واحد ؛ ولكنه قال يأتي الحب بعد الزواج .. أكثر الناس يتزوجون بدون حب ، ويأتي الحب بعد الزواج

ـ صحيح هكذا نتزوج ؛ ولكن بقبول الطرفين لبعضهما .. لا برفض ولا بقوة تهديد .. لا يوجد إجبار وإكراه .. تقبل به المرأة ثم يأتي الانسجام والقبول .. هي ترفضه بقوة وشدة .. عليك بردع ابنك يا عادل.. هذه ابنة أخيك وأنت وليها الأول ، وهي أمانة في عنقك .. تتزوج بإرادتها ورغبتها ومن تقبله وتوافق عليه .. عليك بتزويجه قبل أن يتمادى معها .. فأنا دهشت من فعلته معها.. الزواج بالتفاهم والتراضي

عاد عادل يردد : ماذا أفعل ؟ هل أحمل له سيفا ؟! ذكرت له أنا وإخوته أن ينسى هذه الفتاة ، وأنها لا تصلح له ، وستجعل حياته جحيما وشقاء ، لو حصل زواج بالغصب والإجبار.



رقيب

شغلت قضية تهديد ميلاد لزهيرة عددا من الأسر ، فقد تضايق أفراد عائلة هناء محمد من هذا التصرف الأرعن ، وحتى زوجها رستم تضايق من فعل الشاب ، ورغب في التدخل في القضية ، لولا رجاء هناء ألا يتدخل خشية أن يكبر الأمر ، ورأينا أن أسرة الوصي ممن استاءوا من تصرف الشاب الغبي ، وحتى بعض أعمامها تحدث مع شقيقه الأكبر ، واحتج على هذا الفعل ، والكل يرى أن الحل أن يتزوج فتاة أخرى ، ويدع ابنة عمه تختار من تشاء لما ترغب بالزواج ؛ لذلك لما كلمه ماهر طه عبر الهاتف قال ميلاد بغضب مكتوم "صرفت نظري عن الزواج .. سأظل أعزبا .. أنا حر"

سعى ماهر للالتقاء به ، فاعتذر الشاب ، وطلب منه عدم الاتصال به ثانية ، تحدث ماهر مع زميل له في الطب النفسي ، فقال بعدما سمع تفاصيل القصة" هو كلام لا يجب أن يؤخذ عن جد .. إنما هو علق بها صغيرا ـ في فترة المراهقة من تشجيع والديه له في التفكير فيها كزوجة ـ فأصبح مقتنعا أنه الذي يجب أن يتزوجها .. ولما كبر سنه ظل الوالدان يرغبانه في هذا الاتجاه، فاستقر في وجدانه كأنه حقيقة وواجب الاقتران بها ، ولم يستوعب رفضها القديم، وظن أن ذلك دلع بنات ، ولما تكبر البنت ، وتنضج جنسيا أكثر سيكون هو الرجل الأول في حياتها .. هو مقتنع أن الدراسة لا تصلح للبنات ، وأقصى أماني الفتاة أن تأخذ الثانوية ، وتتزوج قبل فوات الأوان .. وأعتقد أنه بتصرفه هذا أن تضعف وتستسلم للقبول به ، فهو يحاول إخافتها بأنه الزوج الأول والأخير لها ، وعليها أن تقنع نفسها به .. ونصيحتي لها يا دكتور ماهر غض الطرف عن تهديده ، وأن لا تهتم بكلامه .. وفي حالة الغضب والثورة النفسية يتكلم الناس بغير وعي وإدراك لما يقولونه "

"هل ننتظر حتى يفعل شيئا مؤسفا؟"

" ماذا سيفعل ؟! هل سيعتدي عليها بدنيا ؟ هل يقتلها ؟! لن يفعل شيئا .. سيظل متعلقا بها حتى تتزوج هي .. فهو سيظل مقنعا لنفسه أنها له ما دامت بغير زوج"

" أهو مريض نفسيا؟"

" هو تصرف تصرفا عدوانيا على غير عادة الناس في الزواج ، ويحتاج لعلاج نفسي إذا قبل أن يجلس في عيادة الطب النفسي ، ولكنه من الصعب أن يقبل هذا الاقتراح ويعترف بأنه مريض، وبحاجة لعلاج لأن أغلب الناس في بلادنا لا يعترفون بهذا الطب "

" المشكلة يا دكتور أن والده طمعت نفسه قديما بالزواج من أم البنت بعدما ترملت بوفاة شقيقه .. وفسرنا ذلك طمعا بثروتها وميراثها من شقيقه .. وقد رفضته الأم ، ومع ذلك عاند وكرر الطلب حتى بعدما نكحت شقيقي مروان .. عاشت معه بضع سنوات ، ثم طلقها ، وطلبها الرجل من جديد .. وها هو ابنه يسعى بكل شدة للزواج من ابنتها .. أمر غريب فعلا يا دكتور عاطف !"

" لا تخشى عليها .. سوف يختفي من حياتها ، وهي ستختفي من تفكيره .. وسوف يستسلم للواقع .. لا أتصور أن يؤذيها ماديا ما دام في تلك المقابلة لم يفعل ذلك .. قد تخرج منه ألفاظ بذيئة ، وشتم نحوها للتنفيس عن الكبت منها .. ومع الوقت وتقدمها في الجامعة سيدرك البون الذي يتكون بينهما ، وأنها لا تصلح أما لأولاده "

" أتعتقد أنه سوف سيتزوج بعد حين ؟"

" سيفعل ، ربما يتأخر ذلك بعض الزمن حتى يتخلص من رواسب السنين التي قضاها بالتفكير بأنها حليلة له "

" أرجو ذلك ، فأنا تهمني سلامتها حتى تبلغ بر الأمان، وتتزوج وأخلص من رعايتها ، وأسلمها أموالها "

" الحقيقة أن اللوم يقع على والديه أساسا ، فمنذ رفضته كان عليهما السعي لتزويجه بأسرع وقت ؛ لكن يبدو أنهما كانا يطمعان بتغيير رأيها .. وأخشى أن يبقى لديهما أمل بأن يتزوجها حتى بعد جامعتها .. فعليك أن تحثهما يا ماهر على السعي في زواجه في كل حين "

" فعلت ، وسأبقى أفعل .. هذا الشاب ترك المدرسة صغيرا ، لم يصل للثانوية يا عاطف ..

تعلم مهنة تصليح السيارات الصغيرة .. والفتاة سوف تلتقي بطلاب أطباء وطلاب جامعيين .. لا أعتقد أنها ستغير رأيها أيها الصديق في يوم من الأيام .. فهو جاهل علميا بالنسبة لها .. فالفجوة ستكبر أكثر وأكثر "

" أرجو لها السلامة أيها الصديق العزيز .. ولتهتم بدراستها ، وتنسى قدر الإمكان كل تصرفات ميلاد ومعاكساته .. هي تنفيس عن الفشل أيها الفاضل وصبره منتظرا تلك السنوات لعلها تغير رأيها نحوه .. لقد خاب أمله وانتظاره ".

كان الشاب ميلاد يجلس أمام المحل الذي يملكه مع ابن عم له اسمه حميد نبيل حسن ، وكانا شريكين في المحل منذ سنتين مضتا ، فكلاهما تعلم مهنة تصليح السيارات الصغيرة والحافلات الصغيرة ، وكان حميد من جيل ميلاد سنا ، ولكنه متزوج منذ سنوات خلت ، ووهبه الوهاب حتى هذه الأحداث بنتين ، والمولود الثالث على الطريق كما حدث ميلادا ، وكان حميد يجلس في سيارة قابعة أمام المحل تنتظر التصليح والصيانة ، ومحلهما هو واحد من عدد كبير من المحلات التي تعمل على صيانة وتصليح السيارات في ذلك الحي والشارع .. هو سوق لتصليح السيارات الصغيرة والكبيرة ، وبيع القطع لها ، وبيع الإطارات والإكسسوارات الخاصة بالسيارات ، وتنجيد الكراسي ، ونفخ الإطارات وتبديلها ، ولا يخلو المكان من محلات تجارية وبقالات ومطاعم ومقاهي لتخدم رواد ذلك السوق الكبير ، وكان حميد يدخن ومثله ميلاد ، فكان حميد يعمل ويقول لميلاد : أنت عنيد .. لو تزوجت منذ رفضتك ؛ لكان عندك أولاد وبنات اليوم .. فلي زوجة وبنتان والأم حامل.. أنا متعجب من تعلقك الغريب بزهيرة .. فهي ليست بالفتاة البيضاء الحسناء .. هي فتاة عادية لديها مسحة جمال .. وهي ممتلئة الجسم مثل أمها ، وليست طويلة القائمة ونحيفة .

التفت إليه ميلاد وقال : ألا يقولون الحب أعمى ؟! .. أنا ألوم أمي وأبي اليوم .. ألومهما في تعلقي الكبير بها .. كانت البداية ابنة عمك يجب أن تستر عليها .. هذه اليتيمة نحن أولى الناس بالستر عليها .. معها قرشان أنت أولى بهما من غيرك .. فأحببتها ورغبت بها ، وظننت

الأمر سهلا .. مالها يساعدك في فتح دكان تعمل فيها وحدك .. فصدقت كل هذا الكلام يا حميد .. ولما رفضتني في آخر المرحلة الإعدادية قالوا صغيرة وغدا ستكبر .. وهكذا ضاع صبرنا وانتظارنا هباء منثورا . نادى على صبي يعمل لديهم ، وأعطاه كأس شاي فارغ قائلا له: املأ هذا الكوب ، ثم أشعل لفافة تبغ أخرى وقال : هل سيأتي شقيق صاحبك محمود ؟

ـ أمرك عجيب يا ابن عمي ! بنت تعقد حياتك .. يا رجل القصاص حدثونا بقصة عنتر بن شداد .. وفي النهاية لم نعرف أن البطل تزوج عبلة أم لا ! .. وماذا سيفعل لك السيد أحمد شقيق محمود ؟ .. هو مجرد طالب في الجامعة .. هل سيدع محاضراته ليراقب لك زهيرة ؟

ـ يلتقط أخبارها وأفعالها في الجامعة ..

ـ هل يترك دروسه ليهتم بفتاتك وابنة عمنا المرحوم مجدي ؟ العم الذي ظل هاجرا للزواج حتى صار عمره أربعين سنة ثم تزوج .. ربما في ابنته شيء من الوراثة .. أو أنت ستصير وريثه في العزوف عن الزواج .. ولما تكبر تتزوج .. تزوج بضع سنوات ، ثم سلم الروح لبارئها ..

ـ حياتي معقدة هذه الأيام

ـ عنادك عقّد حياتك .. كانوا يقولون لك عندما تتزوجها ستفتح لك محلا .. ها هو المحل لنا بدون أن تتزوجها .. استيقظ من عنادك يا ابن عمي .. زهيرة من درب ونحن من درب .

ـ ألها عاشق يا حميد يبعدها عني ؟!

ـ أمي تقول إنها فتاة جادة وحابة الدراسة وأن تصير دكتورة كأبيها .. تتداوى عندها الناس .. مهنة أبيها ..

قال : ولكنها في الجامعة !

ـ هو كل فتاة في الجامعة لها عشاق

قال : أصدقاء من الذكور ..

ـ وماذا يعني هذا لك ؟ اليوم هناك مدارس فيها من الجنسين .. وبحكم الدراسة لابد من التقاء وتصاحب الجنسين .. أنا لا أدري كيف تخرج كلمة عاشق من فمك نحو ابنة عمنا ؟

الدنيا تتغير بسرعة يا إنسان

ـ لا أقصد المعنى الحرفي للكلمة .. هناك كما نسمع تتخذ الفتيات زملاء وأصدقاء وشلة يلهون مع بعض .. يدخنون يسخرون يمزحون

ـ صحيح ؛ ولكن ليس بالصورة البشعة التي نسمع عنها في جامعات أوروبا من حب الحرية الجنسية حتى أننا نسمع أن حرية زواج المثلين في تلك البلاد .. شيء مقرف !

ـ مقرف .. لأننا مجتمعات مسلمة .

ـ ابنة عمنا الدكتورة الصاعدة لابد أن تلتقي ببعض الشباب كغيرها من طلبة الجامعة

قال ميلاد وهو يرمي كوب الشاي الثاني على الأرض : تتعرف لكن أن تحب وتسهر ..

ـ لا يرضى أخوالها بذلك خاصة يسري الذي تشاطره البيت مع جدتها أم فوزي .. فهم مثلنا متمسكون بالإسلام والشرف

فضحك ميلاد وقال : لعلك نسيت .. ماذا فعلوا أيام أمها عندما تعلقت بشاب يصغرها بسنوات كثيرة ؟!

قال حميد : احترم امرأة عمك يا رجل .. ثم هي كانت عند الدكتور مروان .. والأخ يسري شقيقها لقد قام بضربها وتربيتها

ـ ولا اهتمت به .. الذي صحح اعوجاجها موت الحاج محمد والدها الذي هلك بسببها .. مات مصدوما

ـ أنا أعرف بغضك لها .. الله يستر على النساء .. عليك أن لا تنسى أنها كانت امرأة عمنا مجدي وأنها والدة زهيرة

ـ صح ؛ ولكنها تزوجت شقيق الوصي ، وفضحته .. قد طمعوا بثروتها

ضحك حميد وقال : سخف هذا .. هذه أقوال عمي عادل .. قضت ثلاث أو أربع سنوات عنده ، ما سمعنا أنهم أخذوا منها قرشا واحدا ، بل سيارتها كانت من زوجها وابنه الكبير كهدية .. العدل مطلوب يا أخ ميلاد .. هي زهيرة كم ورثت عن أبيها ؟

قال ميلاد : أنت تدافع عنها كثيرا يا حميد ..

ـ القضية ليست قضية دفاع .. إنما قضية احترام لأجل أنها كانت زوجة للعم مجدي .. وهي في حالها ولا تتدخل فينا ..

ـ كلام أبيك الذي يردده على مسامع أبي .. سمعت أن البنت ورثت ما يزيد عن المائة ألف دينار .. ثروة كبيرة .. شغل سنوات طويلة لعمي رحمه الله ..

ـ أوه ! مبلغ كبير .. مائة ألف يا منحوس .. عيناك على مائة ألف .. عمي عادل ملأ كيانك من زهيرة لتفوز بمائة ألف

ـ وأمها حصلت مبلغا جيدا .. عمك كان دكتور في إحدى دول البترول والنفط

ـ أعرف .. ووالدي ورث بعض المال عن شقيقه .. وهذا المشغل فيه حصة لأبي .. نعود لزهيرة التي أنت مصر على الزواج منها ولو طال الزمن

أشعل لفافة تبغ من جديد وقال : هي كما قلت ليست بالجميلة الفاتنة ، وهي مقبولة وابنة عم وثرية .. أريد أن أفهم السبب الحقيقي لرفضها لي .. لابد أن شخصا ما في حياتها .. فربما شقيق صاحبك السيد محمود يعرف لي أخبارها في الجامعة .. خاصة أنه في كلية التمريض .. قد يستطيع معرفة من هو هذا الفارس أو الصديق ؟

ضحك حميد وقال : مع سخف ما تطلب سأفعل .. فقد سألني السيد محمود عن سبب ضيقك ونكدك.. فقلت له الهوى تلاعب به ، ثم حكيت له بعض قصتك وغرامك الوهمي ، فذكر أن له أخا يدرس في الجامعة في كلية التمريض سنة ثانية فيمكنه معرفة أخبارها في الكلية ، وقد يتعرف عليها بحكم العمل في المستشفى التعليمي في المحاضرات العملية .. ولما تحدث مع أخيه عنها ، ذكر أنه لا يعرفها شخصيا ، ولم يلتق بها ، وربما يستطيع التعرف عليها وعلى أخبارها .. فهم يعيشون في مجتمع مختلط ، وسهل التعرف على أي شخص كمعرفة عابرة .. وإن لم يستطع بشخصه يستطيع عن طريق صاحباته الإناث ، فطلبت ـ حسب رغبتك الملحة ـ أن يأتينا بأخبار زهيرة في الجامعة ، وسوف يمر مساء هذا اليوم السيد أحمد ليتعرف عليك

أكثر ، فهو يعرفنا كما يقول محمود ؛ ولكنها معرفة خفيفة بحكم مجيئه أحيانا مع محمود لتصليح السيارة .. فقد رافقه مرة ، ولم يتحدث معنا سوى بالإشارة محييا لنا

قال ميلاد: أنا لا اذكره .. أما محمود فأعرفه جيدا .. وهو زبون يتردد علينا باستمرار ، وأصبح صديقا لنا ، وهو من نفس جلينا

ـ نعم ، وهو متزوج مثلي ، وعنده طفلان مثلي أيضا ، وأكثر من مرة شاركنا الغداء هنا ؛ لذلك هو راغب بجد خدمنا

ـ ولماذا سيقابلنا أخوه إذن ؟!

قال حميد : سيقابلنا يا سيدي ليتعرف علينا أولا ، ويعرف ما الذي تريده بالضبط وأنك تزعم أن رفضها لك بسبب تعلقها بشاب قد لعب بعقلها ورفضتك من أجله.. ألم تقل لابد أن صيادا من طلبة الكلية صادها ؟

ـ أنا هكذا خمنت .. أليس لكل شيء سبب ؟ ..أرغب من هذا الشاب المدعو أحمد أن يعرف ذلك لي

ـ والله يا ابن عمي لو تصرف نظر عن زهيرة وتتزوج أحسن لك

ـ أبعد كل هذه السنين من الانتظار ؟!

آخر النهار أقبل السيد محمود قائدا لسيارته القديمة ، ومعه شقيقه أحمد طالب كلية التمريض إلى محل تصليح السيارات الذي يملكه ميلاد وابن عمه حميد ، وبعد الترحيب وشرب الشاي خرج ميلاد وأحمد حيث تقف سيارة محمود ، وجلسا في مقعدها الخلفي وقد تركوا أبوابها الخلفية مشرعة يتحدثان ، فكان ميلاد يقول : لما بدأت أكبر سنا كان أبي يقول "إننا سنزوجك ابنة أخي المرحوم مجدي " ، فصرت كلما نذهب لزيارتها في بيت جديها والد أمها أرافقهما .. وهي وحيدة عمي مجدي الميت .. المهم تعلقت نفسي فيها ، واعتقدت أن المسألة مسالة وقت ، عندما نكبر ونصبح مؤهلين للزواج نتزوج ، وأن الأمر مسلم به ، ولما بلغت البنت خمسة عشر عاما تقدمنا للزواج منها ، فرفضت أمها في البداية ، وبينت لنا أن البنت لا ترغب بالزواج في

مثل هذه السن ، وتريد أن تكمل المدرسة .. فتحرك أبي ، ووسط بعض الناس حتى رضينا بالصبر وتأجيل موضوع الزواج ، وأنا طبعا تركت المدرسة في الإعدادية ، وتعلمت هذه الصنعة عند أهل الخبرة ، وكنت حقيقة ضعيفا في الحفظ والتحصيل ، ورأيت المهنة أفضل من المتابعة .. تحججوا بالصغر والمدرسة ، تزوج حميد ، وظللت منتظرا حتى تصل التوجيهي ، صبرت وأجلنا الزواج .. ووالديّ كان عندهم أمل أن تقبل زهيرة ابنة عمي بي عندما تنضج ، وترى أن مصلحتها هي الزواج المبكر .. كان عندهم أمل كبير أن تكون من نصيبي .. وأنا ظللت يا أخ أحمد متعلقا بالخيط الضعيف ، ولست مستعجلا على الزواج كحميد .. نجحت في الثانوية العامة ، وحصلت المعدل الكبير الذي يؤهلها للقبول في الجامعة والطب خاصة ، حصلت معدلا فوق التسعين في الفرع العلمي .. صدمت بعض الشيء .. كنت أتوقع أن لا تحصل المعدل الكبير الذي يؤهلها لكلية الطب .. فترى الزواج خيرا من دراسة الجامعة .. وكنا نسمع أن هذه رغبة عمي الميت أن تدرس زهيرة مجدي في كلية الطب ، وكان موته وهي ابنة ست سنوات أو سبع ..أنا أدركت سعة المسافة بيننا ولكن هواي معها .. تحرك أبي من جديد لكن دون جدوى .. كلمها أخوالها وبعض أعمامي ، رفضت بشدة فكرة الزواج مني ، واستمرت في الجامعة فاضطررت للالتقاء بها ، ومناقشة القضية فرفضتني بغضب وكره ، فاضطررت أن أحدثها بحدة وتهديد وسخط ونقمة ، وأنها لن تتزوج غيري ، ثم خرجت غاضبا مقهورا .. فهل رفضها لشخصي أم لأني ابن الرجل الذي سعى للزواج من أمها بعد وفاة والدها أم أن هناك رجلا أو شابا آخر في حياتها ؟ .. وهذه مهمتك أيها الأخ أن تعرف لي أخبارها في الجامعة ، مع من تمشي تجلس تأكل ؟ هل هناك صديق يرسم للزواج منها أم أنها فعلا لا ترغب بالزواج ؟.. فوالدها تزوج وهو ابن أربعين سنة .. فأمها تزعم أنها لا تفكر بجنس الرجال .. كرهت ذلك من حياة أمها.. قد تزوجت والدتها ثلاث مرات .. هل يوجد امرأة لا ترغب بالزواج والأمومة ؟! ولماذا خلقها الله ؟! وأنا لا أصدق ذلك ! .. حتى راهبات المعابد أشك بعدم رغبتهن بالزواج .

تبسم أحمد لميلاد وقال : يعني أنت ترى أن رجلا في حياتها يحجزها عن القبول بك رغم أن رفضها كان قبل وصولها للجامعة ..أنت تريد مني أن أعرف ألها صديق في الجامعة ؟ .. وهو عائق أمام زواجك .. هي في السنة الأولى بعد فلا أعتقد أنها كونت صداقات مشبوهة يا سيد ميلاد .. ولكنني سأسعى للتعرف عليها وعلى من يجلسن أو يجلسون معها من أجلك أيها الأخ ومن أجل صداقة محمود معكم .

ولما ظل ميلاد صامتا تابع أحمد فقال : وأنا بحكم تقدمي سنة عليها أعرف شبابا وشابات في كلية التمريض والطب والصيدلة والأسنان ، وحتى من موظفي المستشفى الجامعي حيث التدريب والتطبيق ؛ ولكني أحب أن أنصحك ...

فقطع ميلاد الاسترسال ضائقا وقائلا: إذا كنت ناصحا بصرف نظري عن الزواج منها فلا تنصحني ، لن أتزوج غيرها ، ولو ظللت عمري كله بلا زواج

تبسم أحمد وقال : حسنا ! لكن يا أخي حبك من طرف واحد .. لم يكن بينكم علاقة عاطفية لتبني عليها أملا وحياة زوجية .. فمن كلامك وكلام السيد حميد فليس للبنت قصص مع فتيان الحي والمدرسة .. فليس لها سوابق بها يسمى حب المدارس والمراهقة

ـ نحن طبعا بحكم القرابة لم نسمع بمثل ذلك عن زهيرة .. ونحن بعيدون عن حيها وخصوصيتها رغم قرابتنا .. هل تصدق أنها منذ سنوات لم تدخل بيتنا بيت عمها عادل والدي ؟ .. حتى في ولائم شهر رمضان كانت تعتذر هي وأمها وأخوالها ، ربما لأنها عاشت فترة مع زوج أمها الغريب

ـ صفها لي أو هل تملك صورة لها ؟ دعني انظر إليها

ـ لا أحمل صورة لها .. كان لنا معها صور ونحن صغار وهي طفلة ، أما بعدما شبت فلا صورة لها عندي ؛ ولكنني سأصفها لك بشكل تستطيع معرفتها بمجرد رؤيتها.. أرجو أن تهتم بأخبارها ونشاطها .. وركز على علاقاتها العاطفية وأرجو أن لا يكون لها مثل ذلك وتنهد وقال " تعلقت بها تعلقا شديدا يا أحمد لا أدري هل هو خطئي أو خطأ والديّ ؟"

ـ سمعت أنها غنية؟

ـ صدق أنني تعلقت بها ليس من أجل المال .. كنت صغيرا عندما اهتممت بها كشريكة حياة .. قد يكون هذا دافع أبي لتحريضي للزواج منها ؛ لقد كانت الأنثى الوحيدة التي رغبت بالاقتران بها .. وكنت أرى أن الأمر سهل وميسور فبمجرد أن نتقدم لطلب يدها ، ستقبل ، وترحب بذلك ، وتسر ، وتعود لحضن عائلة أبيها ، وتعلن الأفراح .



لم يجد أحمد صعوبة في إلقاء نظرة على الآنسة زهيرة بعد أن كلفه ميلاد بمعرفة خطاها في الجامعة ، فهو لم ير في فعله هذا خساسة ، أو تدخل في شؤون الآخرين ، رآها خدمة لشقيقه محمود صديقهم الذي يتردد عليهم كثيرا لتصليح سيارته الأثرية ، لقد رآها أول مرة في مطعم (كافتيريا) كلية الطب ، كانت تجلس مع فتاتين وشاب ، وكانت الفتاتان تلبسان الملابس الشرعية الشائعة أو ما يسمى بالجلباب الإسلامي هذه الأيام .. وحتى زهيرة لم تكن متبرجة سافرة فقد كانت ترتدي ثيابا محتشمة ، وتضع على رأسها خمارا ، ولاحظ أن الشاب يتحدث معهم بحماس ، بدا له أنهم زملاء في نفس الفصل ، وكان يجلس مع أحمد في المطعم رفيق له فقال له بعد أن لاحظ كثرة نظره إلى تلك الطاولة فقال مداعبا : أراك تنظر كثيرا إلى تلك المائدة . وأشار إليها.

تبسم أحمد وقال : أعتقد أنهم من طلبة كلية الطب .

فرد صديقه : هذا ـ مشيرا للشاب ـ اسمه نزار من كلية الهندسة .

ـ أتعرفه ؟!

ـ ألا تعرفه أنت ؟ إنها هي معرفة جامعة يا محترم ، هو ناشط سياسي أو طلابي في الجامعة ألا تراه يتحدث معهن بحماس كأنه يخطب ، وأعتقد أنه سيرشح نفسه لانتخابات مجالس الطلبة

عن كلية الهندسة عن شعبته التي لا أدري ما هي ..

ـ رائع يا سيد جميل! .. إنك تعرفه جيدا ، ظننته طالب طب جديد ..

قال جميل : أنا ظننتك تعرفه عندما لاحظت كثرة التفاتك ناحية تلك المائدة

ـ إنما كنت أنظر إلى تلك الفتاة السمراء الممتلئة .. فهي ابنة عم صديق لي ولأخي سنة أولى طب .. كما أعلم مستجدة في الكلية .. وطالب الهندسة لماذا يجلس معهن ؟ أمن أجل الانتخابات ؟ وهل بدأت الدعاية ؟

ـ أعتقد من أجل الانتخابات الطلابية .. الحملة تبدأ قبل الإعلان عن الحملة يا أحمد .. وهو صديق لهن حسب معلوماتي ، فكثيرا ما رأيتهم سوية هنا أو في الحدائق ، هل هذا يزعجك ؟

هز رأسه وقال باسما : ابدا يا جميل ! ولكني لما رأيتها تذكرت ابن عمها ، وتقدم لها خاطبا وطالبا للزواج .

ـ الزواج .. هو ليس بطالب

ـ لا ، ميكانيكي سيارات .. واعلم أنها غنية كما أخبرت ، ربما تملك ثروة تبلغ مائة ألف دينار .

ـ هي ؟!

ـ نعم ، هي ورثت ذلك عن أبيها ، وهو دكتور توفي في خارج البلاد ، وليس له إلا هي .

فابتسم جميل وقال : إذن صاحبك طماع ، هو يريد الزواج من مالها كما يبدو

سايره ضحكا وقال : تقريبا ؛ لكنه لا يصرح بذلك ، هو يزعم أنه أولى بها لأنها ابنة عمه ، وربيت عند أخوالها ، فبزواجها منه تعود لأعمامها للعائلة

ضحك جميل وقال : أفكار غريبة ! ألا يوجد لها ابن عم متعلم ؟ أتحب أن تتعرف على المهندس نزار ؟

ـ من نزار ؟

ـ الذي يجلس معها ، ومع الفتاتين الأخريين

تبسم ورد : لا أريد أن أتعرف عليه ، ولا عليها .. هيا ننصرف ولنتح لغيرنا الجلوس على هذه

المائدة .

وعندما نهضا يبدو أن المهندس نزارا لمحهم، فحيا جميلا وأشار له بيده للانتظار فدهش أحمد ، وتقدم الشاب إليهما تاركا الفتيات بابتسامة صغيرة ، وسلم عليهما وصافحهما وقال : مرحبا أخ جميل أتريد الانصراف ؟

ضحك جميل وقال : الانتخابات ؟!

ـ نعم ، كنت أتحدث مع الأخوات الزميلات عنها ، وحضهن على انتخاب كتلة (التيار الإسلامي)

وعادوا للجلوس بعد أن تعرف نزار على أحمد طالب كلية التمريض ، وذكر له اسم ممثل كلية التمريض في الكتلة ، ودار بينهم حديثا شيقا عن انتخابات مجلس الطلاب على مستوى الجامعة ، وأهميته للطلاب من مختلف الكليات ، وذكر لهم برنامج الكتلة التي يعمل معها ، ووعدوه خيرا وقال أحمد : أراكم تعملون مبكرا هذه السنة ؟

ابتسم المدعو نزار وقال : لم يبق إلا القليل لإعلان الموعد ، وأحبت كتلة حقوق الطالب أن تعمل مبكرا ، والإدارة في الجامعة سمحت لنا بالنشاط والحركة مبكرا

فقال أحمد : وماذا سيستفيد الطالب مثلي من مجلس الطلبة ؟! ولا أدري ماذا يقدم هذا المجلس للطلاب ؟ لا أدري إلا أنكم تسجلون مواقف سياسية فقط ؟!

فقال نزار ضاحكا لجهل الطالب لمهام مجلس الطلاب : من المهم أن يتحدث الطلبة في السياسة فهم رجال الدولة في المستقبل القريب .. واعلم أن المجلس لا ينشأ من أجل السياسة ، هو قائم لتحقيق مصالح الطلاب وحقوقهم في تحصيل العلم ، وحل مشاكلهم مع الإدارة ، وعندما يسمح بالدعاية علنا سيوزع برنامج عمل كتلة حقوق الطلبة ، وهناك المساعدة في الخدمة الطبية ومساعدة الفقراء أو الذين يطرأ عليهم الفقر خلال سنوات الدراسة ، ونشاطات كثيرة يقوم بها مجلس الطلبة وهي تدريب للعمل الاجتماعي والسياسي بعد التخرج من خلال النقابات المهنية .. فللمهندسين نقابة وللممرضين نقابة .. فهي فترة تدريب

للعمل الجماعي .. تنمية روح الحوار وتبادل الأفكار وتعزيز الانتماء للأمة .

فقال جميل : المجلس مهم ، وقد لا يلمس كل طالب شخصيا أهميته ، لو حدثت مشكلة مع معيد أو عميد مدير أستاذ مع زميل .. فالمجلس يساعد على حل المشكلة والتخفيف من أضرارها ؛ ولكن المواقف السياسية من قضايا الوطن تبرز أكثر لتسليط الإعلام الأضواء عليها أكثر من الأمور الأخرى.

فقال أحمد : على كل حال سوف نشارككم يا سيد نزار الانتخابات .. ونحن سعيدون بالتعرف على شاب محترم مثلك ، وعلى مهندس واعد

ـ شكرا يا سادة . وتفرقوا .

عاد أحمد وجميل في اليوم التالي لمطعم كلية الطب ، فوجدا الطالب نزارا يجلس مرة أخرى مع زهيرة وصاحبتيها ، فلما أخذا بالأكل قال أحمد : صاحبنا اليوم هنا .. هندسة طب !

قال جميل غامزا: ربما كان بينهم زيادة على ما سمعنا أمس

أحمد متشككا : أخشى أن تكون هنا مغامرة نسائية .. لا أرى ما يدل على أنهن فتيات لعوبات .. فملابسهن تدل على أنهن محافظات .

ولمحهما نزار فأرسل إليهما تحية بيده ، فردا التحية بمثلها ، ثم غادرا القاعة فور قضاء طعامهما حيث الحدائق التي تنتشر فيها الأرائك الخشبية ، فجلسا على واحدة خالية يتحدثان فقال جميل : أراك تتردد إلى هنا منذ فترة ؟ هل من جو جديد ؟

ـ جو ! ليس لدي جو جديد ولا قديم .. إسراء تركتني يا صديقي .. قد أصبحت صديقة لخالد

ـ خالد الذي أعرفه ؟!

ـ آ .. أصبح الصديق المفضل عندها

ـ أحسن .. بس لماذا ابتعدت عنك ؟!

ـ قالت إني ممل ، ومجالسي مملة ، تحب السهر والخروج إلى الأسواق والساحات والمسارح ..

وأنا شبت منها قبل دخول الجامعة .. وأسواق الملابس تثير النفس وتغويها .. مرة خلتني اشتري لها قميصا

ـ بدون مقابل

ـ بدون مقابل ، ربما مسكت يدها مقابل ذاك القميص .. هي تحب الشباب والأصدقاء .. وتحب أخذ الهدايا منهم .. تسميها ذكريات الجامعة .. وهي فرصة لن تتكرر في العمر أي الدراسة مع الشباب في الجامعة ومرافقتهم .. وهي لا تفرط بشيء من جسدها لهم لحد الآن وأنا لم أحاول لأني أكره الزنا .. ولي أقارب في الجامعة أخجل أن يسمعوا شيئا عني .

فقال جميل جذلا : الحمد لله .. لم اتخذ أي صديقة بمعنى الصديقة .. نعود لماذا تحب التردد على هذا المكان منذ عهد حديث لماذا ؟!

تبسم أحمد في وجه صديقه في الكلية وقال : لا لشيء ؛ ولكني ارتاح في مطعم كلية الطب ، ربما رأيته أنظفها .. وأكثر المعارف معارف عابرون يا سيدي .. وهل إذا جاء الشخص هنا لابد أن يكون له جو .. يرغب بالزواج من طبيبة واعدة ؟

ضحك جميل وقال : عادة الطالب يحب أن يتسكع مع طلاب كليته ؛ ليكون صداقات عرضية ودائمة .. ولما يتردد طالب مثلك لمطعم هذه الكلية لابد أن يكون هناك جو.. وإلا الفتيات أكثر من الذكور يخيل لي في الجامعة ..

ـ ها هو صاحبنا يخرج مع الفتيات

التفت جميل ناحية نزار وقال : إنك تبدي اهتماما في تلك المجموعة .. وخاصة تلك الفتاة التي أخبرتني أن صاحبك الميكانيكي طلبها للزواج

ـ نعم ، طلبها ابن عمها ورفضته ، بل مصرة على رفضه .. ثم أعاد على مسمعه قصة رفضها وتهديده لها بأنها لن تتزوج غيره .. وفي النهاية قال : الشاب مصمم على الاقتران بها ، ولو صار عمره مائة عام .. يا ترى لو رآها تأكل مع طالب كلية هندسة ، ربما ثار وانقض عليهما انقضاض البازي على فريسته ..

فقال جميل معقبا : صاحبك مجنون .. يا رجل ! طبيبة ستقبل به .. هو هدفه الفلوس وبس .

فقال أحمد : ألا تنكح المرأة لمالها ؟

ـ تنكح ، لكنها متعلمة ، وهو أمي .. يبدو لي من كلامك أن عقليته قروية .. أين محله ؟ كأنك ذكرت أن له محلا أو كراجا لتصليح سيارات أين ؟

ـ نعم ، في شارع البوصلة حيث أظن أنها أكبر منطقة لورشات تصليح السيارات الصغيرة والحافلات .. لقد اهتممنا بهم أكثر من اللازم

ضحك جميل وقال : اهتمامك بها واضح يا أحمد بالنسبة لي .. وصديقنا نزار مهتم بالحديث معها ، فلن تجرؤ على إفساد صداقتهما .

ـ هل تعتقد أنني أميل إليها ؟ .. وأحضر إلى هنا آملا في ذلك .. جعلتني نذلا يا جميل .. قلت لك ابن عمها طامع بها ، بل هددها أن تتزوج رجلا غيره ، ولسوف يفتك به

ـ هددها

ـ نعم ، قابلها وهددها بأنه لن يسمح لأحد أن يتزوجها ، وأنه انتظر ثلاث سنوات ، ويستطيع الانتظار عشر سنوات أخرى

ـ أمعقول هذا ؟! هذا مجنون وسخيف ويعيش في زمن عمرو بن كلثوم التغلبي .. وهذا يؤكد لك أنه يريد المال .. لو تعطيه بضعة آلاف لنصرف عنها لاختفى من حياتها

ضحك أحمد وقال : يا رجل ! أخي محمود الذي تعرفه قال رفض تدخل والديه وإخوانه وأعمامه وأخواله وحتى الوصي على ثروتها ، وأقسم لهم أن لا يتزوج إلا زهيرة .. وهذا هو اسمها .. هل يصرف عنها فكره ؟ لا أعتقد أنه مجنون بها كما قلت .. وهو حب من طرف واحد .. أعتقد أنه قد بقيت علينا محاضرة اليوم .. هيا يا جميل .



زار محمود بيت والده وجلس معهم بعض الوقت ، ثم مشى إلى غرفة أحمد غرفة نومه ، ومكتب دراسته ، وبعد التحية والعناق والسلام المعتاد قال : قال حميد ميلاد يسأل عن أحوال العروس ؟

غمر أحمد الضحك ملء فمه وقال : البنت محتشمة ، تلبس ثياب تكاد تكون كثياب بنات كلية الشريعة .

ـ ليست سافرة رغم كثرة المال الموروث !

ـ لأ ، ولا متبرجة ، تلبس ثيابا طويلة ساترة لكل البدن ، وتغطي شعر رأسها وهادئة .. وحرك رأسه يمينا ويسارا وتابع : إنها طبيبة يا حميد .. لا أدري كيف سترضى بصاحبك الوهان ؟!

ـ قلنا له ذلك أنا وحميد وغيرنا، ولفتنا نظره إلى ذلك أكثر من مرة ، وإلى الفارق الاجتماعي بينهم ؛ ولكنه يزعم أنه ابن عم لها

ضحك أحمد : كأنه ابن العم الوحيد

ـ أليس لها حركات مريبة ؟

ـ مريبة ! .. الجلوس مع الذكور في الكليات المختلطة لا يدل على الريبة .. وهو أمر شائع خاصة الطب .. لأنهم يكونون مجموعة من الطلاب مع مدرسهم أو مدرستهم في قاعة أو غرف المرضى يتجولون ويتعلمون .. ولكني شاهدتها أكثر من مرة في الكافتيريا مطعم كلية الطب تجلس مع شاب واحد باستمرار ، ومعهم فتاتان أخريتان .. والشاب من كلية الهندسة سنة ثانية .. وهو شاب ناشط شبابي طلابي ، يهيئ نفسه للترشيح الطلابي في المجلس ؛ فلذلك ينشط في التنقل بين الكليات المختلفة للدعاية .. وجلوسه معهن متكرر خاصة عند وقت وجبة الطعام الصباحية حوالي الساعة العاشرة والنصف .. وحتى ضحكاتهم مقتضبة ، بل ساروا يعرفوننا من ترددنا على مطعمهم ، أنا والسيد جميل زميل لي .. لا تظهر منهم تصرفات غير عادية في مجالس الناس ..لا تحس أن هناك علاقات عاطفية

ـ يعني البنت محترمة

ـ البنت بعدها سنة أولى

قال محمود : البنت اللعوب من أول يوم في الجامعة تصاحب

ضحك أحمد وقال : ممكن ، وقد التقيت بمثل هذه النماذج

ـ على كل حال تابع مهمتك البغيضة لبعض الوقت .. وأنا أدرك أن هذا تصرف سيء لك ولي بل وجدت نفسي أعرف أحد أبناء أخوال البنت

ـ جميل ! كيف؟!

ـ من حميد ابن عمها ، كنت أتحدث معه منذ أيام ، وعند محل تصليح بجواره توقفت سيارة نظرنا إليها كعادة البشر، فنزل منها كهل ، فلما رآه حميد قال " أرأيت هذا الرجل الذي نزل من تلك السيارة ؟" " قلت : نعم ، بل أعرفه ، والتقيت به عدة مرات ، وهو لم ينتبه لي ، وإلا سلم عليّ إنه المهندس خليل فوزي .. كان أستاذا في المدرسة الصناعية الكبرى " "فقال حميد : هو ابن خال ابنة عمي زهيرة " فدهشت ، فتابع قائلا :" عمل مدرسا كما قلت ، ثم سافر لا أدري السعودية أم الإمارات .. تعاقد مع شركة تعمل في الخليج ، وعاد منذ عهد قريب ، وهو يصلح سيارته بالعادة عند جارنا خضر ، قد يكون قريبه أو من طلابه قديما "

قال أحمد : لا أحد مقتنع بزواج صاحبك ميلاد من الآنسة زهيرة .. فصاحبك سخيف ، ويمثل دورا ليس له فيه أمل

ـ يزعم أنه محب

ـ لما سمع صديقي وزميلي في الجامعة جميل الحكاية، ولمرافقته لي إلى كلية الطب أو مطعمها .. قال هذا ليس محبا ، بل هو طماع ، ولو أعطته بعض المال لاختفى من حياتها إلى الأبد .

ضحك محمود وقال : الحق يا أحمد على أبيه .. أبوه كان طامعا بالزواج من أمها بعدما ترملت وبثروتها وثروة زهيرة ؛ كأنه حز بنفسه أن تذهب أموال شقيقه إلى عائلة زهيرة .. مع أن حميدا ذكر لي أنه لم يسمع من أمه التي تزور امرأة عمه بعد ترملها ، وحتى بعد زواجها من شقيق

الوصي ، ولليوم ، لم يسمع أن أحدا من أهلها استلف منها مالا ، بل سيارة الأم كانت من زوجها الثاني وابنه كهدية وعطية .. حاول أبوه أكثر من مرة الزواج منها ، وحتى بعد أن طلقها زوجها الثاني سعى لذلك ، وترفضه كل مرة .. فكأنه لم ييأس منها ، فاقنع ميلاد بالزواج من زهيرة ، فطمعت نفسه إليها ، القصة التي تعرفها .. فالسبب أسرته أمه وأبوه .. وأنا مثل صاحبك لا أعتقد أنها ستتزوج منه في يوم من الأيام .. وهو في دخيلة نفسه مقتنع بأنها لن تتزوجه ، فهي لم تقبل به وهي تلميذة مدرسة فهل تقبله وهي طبيبة ؟ .. رفضته في فترة لا حكم لها ، فكيف عندما تكبر ويصبح القرار كله إليها ؟ .. أنا طلبت منك ذلك حتى يطمئن أن البنت لا تعرف شخصا معينا لترفضه .. فبعض أصحابه يوهمونه بأن سبب رفضها أنها متعلقة بآخر .. غباء غباء أليس كذلك ؟

ـ هو المال والطمع ، لما فشل الوالد بالصيد الثمين شجع الابن على البنت ، وصدق ميلاد أن زهيرة له

ـ هل تعلم أن والد ميلاد كان مدير مدرسة قبل تقاعده ، وهو اليوم يعمل في تجارة العقارات مع أحد أبنائه ، وهو ليس بحاجة لمال زهيرة وأمها .. فكل أولاده من زوجته الأولى كبروا وتزوجوا ، ولم يبق إلا ميلاد وبنت أو اثنتان وسوى أطفاله من الثانية

ـ على كل حال سأنهي مهمتي قريبا يا محمود .. وقل للرجل أن ابنة عمه محترمة .. والآن بعد سماع كلامك فأعتقد أن الشباب الذي يجلس معهن قريبا لها ، وللبنات الأخريات ، ربما ابن خال أو خالة ، وربما استطاع حميد معرفة ذلك من ذكرك لاسم المهندس نزار أمامه ، والله تعالى اعلم .

الشاب الذي كان يجالس الفتيات الثلاث في قاعة طعام كلية الطب ، هو الطالب نزار سعد الدين طالب كلية الهندسة في الجامعة ، وهو سنة ثانية هندسة مدنية ، فهو ابن خالة زهيرة مجدي ، وإحدى الفتاتين أخته اسمها لمياء سعد الدين ، وهي سنة أولى كلية الصيدلة في نفس الجامعة ، والأخوان من سكان مدينة ومحافظة أخرى ، والفتاة الثالثة هي بنت ابن شقيق هناء

محمد المهندس خليل فوزي محمد ، وهي من سكان العاصمة في أحد أحياها العامر بأهله ، وهي سنة أولى صيدلة مثل ابنة عمة أبيها لمياء ، واسمها سمر خليل .

والمهندس نزار وأخته يعرفان زهيرة معرفة جيدة ، وقد التقيا بها كثيرا قبل دخولها الجامعة ، فكانا كلما زاروا جدتهم أم فوزي يصادفان زهيرة ، فيجلسون سوية ؛ لذلك كانت جلساتهم الجامعية امتدادا لتلك الجلسات ، ولم يكن بينهم اتصالات خاصة ، إنما هم أقارب فحسب ، وربما كانت لمياء تتحدث مع زهيرة بالهاتف في بعض الأوقات .

أما سمر فقد كانت أيضا ترافق والدها في زيارة جدته ، فالتقت بزهيرة وعمة أبيها هناء أثناء تلك الزيارات ، وكانت تتحدث معها بالتلفون ، ولم تكن بينهن زيارات خاصة قبل الالتحاق بالجامعة ، فوالدها يشارك العائلة مناسبتها الاجتماعية فحسب ، وغالبا ما يصحب زوجته معه في تلك المناسبات .

وكان الرجل مستاء من عمته عندما زاغت عن خط التقاليد عندما كانت زوجة للدكتور مروان طه ، وآلمه انحرافها ، وكان يقف بجانب عمه يسري في تشدده نحوها ، وسر جدا بتوبتها وأوبتها بعد موت والدها .

ولما التحقت زهيرة بالجامعة أصبح التقاؤها بأبناء خالتها ممكنا ومتكررا ، قد اتفقوا على اللقاء في كافتيريا كلية الطب لموقعها الوسط بين كلية الصيدلة وكلية الهندسة الأبعد شيئا ما ، وكان جلوسهم عائليا ووديا ، يتناولون إفطارا خفيفا أو يشربون القهوة وحدها ، ويسمعون أخبار بعض ونشاطهم في الكليات ، وأصبح الالتقاء عادة لهم ، قد يتخلف نزار عنه أحيانا أو أحدهم لعذر ما ، اجتمعوا ذات نهار كالعادة المشار إليها فقالت لمياء شقيقة نزار له ضاحكة أو متهكمة : أصحابك شباب كلية التمريض لهم عدة أيام لا يأتون هنا !

تبسم الجميع على كلمة " أصحابك" ثم هتفت سمر : وأنا مثلك لاحظت ذلك .. فما نكاد نجلس حتى يدخلون المطعم حتى وقع في نفسي أنهم مهتمون بنا .

قال نزار : خطر هذا في بالي مثلك يا سمر ؛ ولكن يبدو أننا كنا مخطئين .. فالشاب المدعو أحمد

لم أعرفه إلا هنا في هذه القاعة ، أما زميله جميل فقد التقيت به أكثر من مرة ، وتعرفت عليه في انتخابات المجلس العام الماضي ، وهم سنة ثانية تمريض .. وتأكدت معرفتي به عند ترددي على أحد أقسام المستشفى ، كنت أرافق زميلا في العلاج ، فازداد تعارفنا وساعدنا في سرعة العلاج ، وهو جيد ويعمل بشكل جيد ونشيط .. وكانت كثرة نظراتهم إلى مائدتنا تثير الريب في نفسي ، ولم أفهم فعلهم هذا .. يبدو أنه قد كان لهم جو هنا واختفى .. فالشباب يحسن الصيد في مثل هذه الأماكن .. بالمزح والعيون وتقديم الشراب والشكولاتة ، فهنا يظهرون كرمهم وأموالهم .

فلما سكت نزار قالت زهيرة : أحسن ، لقد أزعجونا بعيونهم .

قالت سمر : هو السيد أحمد الأكثر نظرا ومراقبة لنا .. أما جميل فكان أحيانا يدير لنا ظهره ويغرق في شايه وطعامه .. فكان يخال لي أن أحمد سيهجم علينا .

فضحك نزار وقال : لا أعتقد أنه وقح لهذه الدرجة .. البداية تكون من البنات أنفسهم .. إذا تصرفت البنت تصرفا خاصا فيتجرأ الشباب على التقرب منها والحديث معها .. وأما إذا وجد صدا ورفضا وعدم مبالاة فسيختصر ويبتعد ويبحث عن أخرى ، ويعتقد أن الكثيرات يرغبن بمصاحبته والمشي معه بدون أن يضطر للوقاحة وقلة الأدب .

قالت زهيرة باسمة : رائع هذا التحليل منك يا نزار! .. هذا لمسناه ونحن في المدرسة الثانوية .. تفكير جيد يا نزار فعلا لو أرسلت الفتاة إشارة إيجابية للرجل أو الشاب لتقدم كما قلت ، أما إذا أهملته فلم تكترث بحركاته وعيونه فسيبحث عن غيرها .. ولا أعتقد أنهم جاءوا من كلية التمريض ليتأملوا وجوهنا .. فكلية التمريض أغلب طلابها من الفتيات .. ولا تنس الثياب التي ترتديها الفتيات ، فربما هي نوع من الرسائل للشباب ، وتشجعهم على المغامرات العاطفية .. فالفتاة المجلببة يفكر الشباب مليون مرة قبل أن يغازلها ويلاطفها .

هتفت لمياء : رائع جدا كلامك يا زهيرة !! لو نحن جيران لجعلتك تملين من زياراتي .. رغم قربك من سمر ، وقربها منك فزيارتكن لبعض ضعيفة تكتفين بلقاءات

الجامعة .

ضحكت الفتاتان وقالت زهيرة : نحن بنات ، ومتى سنزور بعض ؟!

وقالت سمر : ورغم أن أبي مهندس ومثقف ، فهو لا يسمح لنا بالتأخر لليل خارج البيت، فمتى سنزور بعض يا لمياء ؟ .. ولولا تعلم أخواتي الأكبر في الجامعات لخشيت أن يحرمني أبي من الجامعة .. تعليم البنات متقبل لدى الكثير من العائلات .

قالت زهيرة : تخيلن أنني عندما أنهيت الإعدادية رغب ابن عمي ميلاد ابن عمي عادل الزواج بي ، وخشيت أن يوافق أهلي وأمي على ذلك تبعا للعادات والتقاليد بتزوج البنت صغيرة ، ولا داعي للمدارس ولا الجامعات

فقالت سمر : ولليوم ما زال متعلقا بك المذكور، ويرفض الزواج من أي بنت

فقال نزار متأملا : سمعنا القصة .. فأمر هذا الشاب غريب فعلا يا زهيرة ! وكيف جرؤ على تهديدك ؟!

فقالت بتمهل : مجنون ! أنا ظننت بمقابلتي له مباشرة أن يعقل ، ويصرف فكره .. ظننت بالرضا على الانفراد به أن أقنعه بصرف نظره عني ، وأن يبحث عن امرأة تناسبه ، وأن يدعني وشأني في هذه الدنيا ، ولكن قبل عرض أفكاري عليه حدثني عن تعلقه بي ، وأنه لن يتزوج إلا مني ، بل لن يسمح لأحد أن يقترن بي ، فصعقت لجنونه ووقاحته ، فبكيت ورعبت من حمقه وخرج غاضبا ناقما كالمجنون .

قالت سمر : تضايقنا جدا لما سمعنا ذلك الجنون وغضبنا .. وقال أبي معلقا على ذلك الخبر " الحق على أبيه المربي عادل "

فقالت زهيرة ورجفة خوف في صوتها : نعم ، الحق على عمي وامرأة عمي .. اللوم عليهم هم السبب .

بعد إلحاح شديد من ميلاد اتصل حميد بزبونهم الدائم وصاحبهم محمود شقيق طالب كلية التمريض السيد أحمد ، فرد محمود على الهاتف وبعد السلام والتحية والاطمئنان عن الصحة

والحياة سأله عن أخبار العروس ، فضحك محمود ملء شدقيه لهذا الوصف وقال : ابنة عمكم فتاة محترمة يا صاحبي .

قال حميد : لا تجاملني لأنني ابن عم الاثنين .

ضحك محمود مجددا وقال : صدق ما أقول ، ويقول العم أحمد إنها تلبس ملابس محتشمة ، وإن لم تكن نحو ملابس طالبات كلية الشريعة ، وتضع على رأسها خمارا

ـ نعم ، منذ وعينا على الزينة واللباس ، لم نر زهيرة سافرة.. وذلك في مناسبات العيد والمناسبات الاجتماعية الأخرى ، كانت تخرج علينا بثياب محتشمة محافظة .. المهم هل هناك علاقات وإشاعات كالتي نسمع عنها بين طالبات الكليات والمعاهد اليوم ؟

ـ لا ، إنما هي تجلس مع فتاتين مثلها في اللباس ، ويجلس معهن الثلاث شاب باستمرار ، يعرفه أحمد ، وصديق له يقول له " كأنه قريب لهن " وجلساتهم في المطعم هادئة ومحترمة ولا تكاد تسمع لهم صوتا .

ـ شاب يجلس معهن جميعهن

ـ نعم ، معهن جميعهن .. لا خلوة

ـ الحمد لله، وشكرا لجهودكم ، وأنا مثل شقيقك أعتقد أنه أحد أقارب أمها، والله اعلم

ـ نعم ، هو طالب كلية هندسة

ـ آعرفته !.. هذا ابن خالتها ، سمعت أن ابن خالتها يدرس في كلية الهندسة ويتقدمها بسنة ، حدثت أمها أمي بذلك .

ـ نعم ، واسمه نزار

ـ عرفته جيدا ، وقد رأيته في بعض المناسبات

ـ دائما يجلسون سوية ، وهو شاب محترم ، وهو ناشط طلابي كما يخبر أحمد ، فهو يسعى لترشيح نفسه لمجلس طلبة الجامعة أو نادي الجامعة .. تحياتي القلبية للسيد ميلاد ، وانصحه بالبحث عن قرينة أخرى .. فهي ستكون طبيبة

ـ دائما انصحه بتركها وشأنها ، وأن يلتفت لدنياه ، وأن يدع أوهام الشيطان .. والدكتورة سوف تنكح دكتورا مثلها تلتقي به في مستشفى في مركز طبي .. لكن الفتى يوهم نفسه بالهوى والغرام.. مجنون حب كما تبث التلفزيونات والسينما .

ـ ذا حكي فاضي وفارغ يا حميد .. حتى لو تزوجها سيفشل زواجهما .. التكافؤ الفكري والثقافي مطلوب في الزواج خاصة هذه الأيام .. سلم ، أراكم قريبا بإذنه تعالى .

قال : شكرا لك سيدي ، وسلم لي على شقيقك أحمد ، واعلمه أن السيد ميلادا سيدعوكم إلى عشاء في أحد المطاعم الفاخرة .. السلام عليكم

ـ وعليكم ألف سلام ، والى اللقاء في ذاك المطعم

وضحكا وربما قهقها فرحا .



هجرة

كانت جالسة في حجرتها الخاصة في بيت جدتها أم فوزي ، وكانت تدرس وتستعد لاختبارات نهاية الفصل ، طرق الباب فقالت : من ؟

قالت أمها : أنا يا زهيرة .

ـ تفضلي يا أمي

فتحت هناء الباب وزلفت للغرفة ، وكانت زهيرة قد نهضت لتستقبل أمها وتعانقها كما تعودتا على فعل ذلك بعد زواج أمها الثالث ، وكانت حجرة زهيرة واسعة ، ففيها سريرها وخزانة ثيابها وخزانة كتبها ومكتب طالب وتلفزيون خاص بها وجهاز تسجيل أنيق وجميل كبير الحجم وبعض المقاعد وطاولات صغيرة ، وجلست الأم وسألتها عن حالها وصحتها وجامعتها ، ودخلت الخادمة بالقهوة التي طلبت الأم شربها مع ابنتها ، فقد دخلت هناء على أمها ، وجلست معها بعض الوقت قبل أن تنتقل لحجرة زهيرة ، شكرت زهيرة الخادمة على القهوة ، ولما خرجت وردت الباب وراءها عاد الحديث بين الأم وابنتها : كيف حالك يا زهيرة اليوم ؟ وكيف الجامعة ؟ علمت أنك مشغولة بالامتحانات

ـ فعلا أنا مشغولة بالامتحانات أهلا أمي الغالية .. أنا بخير وأنت

ـ بخير إن شاء الله

ـ الحمد لله الأمور جيدة وطيبة بفضل الله تعالى .. وأنا غارقة في حفظ مصطلحات الطب ، فهم كما تعلمين يعلموننا الطب باللغة الإنجليزية

ـ وحسب علمي (إنجليزيتك) ممتازة كما يقول صديقنا ماهر الدكتور

ـ نعم ، الجهود التي بذلتها في المدرسة أفادتني أثناء الجامعة ؛ ولكن دراسة المصطلحات الطبية غير دراسة الثانوية والمدرسة ، فهي أسماء كثيرة ومركبة وأشياء داخل الجسم ، وعلاجات ولكن الحمد لله الأمور ميسرة بفضل الله .. وأنت كيف مع السيد رستم ؟

قالت : مستورة ، تعودت عليه ورضيت بنصيبي .. كنت أحلم بأن يكون لك أخوة وأخوات؛

ولكن قدر الله وما شاء فعل يا بنتي

ابتسمت لأمها وقالت : أحلى عبارة يا أمي ! كله بأمره ، وهذه هي الحياة لا راحة فيها

ـ نعم ، يا بنيتي الحياة تعب وشقاء .. المهم أنك تسيرين كما تحبين وترغبين وتخططين .. وأنا مسرورة بسعادتك .. كيف نزار معك ؟

ـ نزار ابن أختك !

ـ آ ، قد وصيته عليك .

ضحكت زهيرة وقالت : جميل! .. شكرا أمي ، هو شاب محترم وكذلك شقيقته لمياء وابنة ابن خالي وكثيرا ما نلتقي في المطعم الجامعي .

ـ قال لي ذلك خليل فوزي

ـ وابنته محترمة ، وتفهم في الدين والإسلام والدفاع عنه أمام الفتيات المتغربات

ـ الأخ خليل منذ التزم وهو متمسك بالسنة والدين أكثر من أبيه فوزي ، يقرأ ويقرأ ، وأطلق لحيته قديما ، ويتردد على المساجد باستمرار ، فيه شدة ولكنه غير متعصب .

وبعد صمت قصير قالت : ألا نخرج نجلس مع جدتك ؟ فهي تقول " إنك قليلة الجلوس معها "

تبسمت زهيرة لعتاب أمها وقالت : ومتى أجلس معها يا أمي ؟ عندي محاضرات طول أيام الدراسة ، وعندما أعود أعود مرهقة من السماع والمشي، وهي تأكل وتشرب في حجرتها ، وكذلك امرأة خالي يسري وأولادهم وبناتهم دائما في حجرتها .

ـ تعذرت عنك ، وهي تحبك ، وتحب سماع صوتك والجلوس معها، فلو أطلت معها الجلوس والحديث في أيام العطل .. فالكبير يا زهيرة يحب الإنس والاهتمام به ؛ ليشعر أنه ما زال حيا يسعى ، وأنه مهم للعائلة .. فيقال إن الكبير الهرم يجب أن يعامل مثل الأطفال الصغار .. قومي نشرب الشاي معها

ـ حسنا، سأفعل ، لقد حاولت فعل ذلك ، وما أكاد أجلس حتى يقبل أولاد خالي وخالي

يسهرون عندها ، فاضطر للخروج بعد حين يسير .. فالبيت لا يكاد يخلو منهم .

أخبرت الخادمة روجا سيدتها زهيرة أن عمها عادلا يتصل بها هاتفيا ، فغادرت الحجرة حيث الهاتف القابع في بهو الطابق وقالت بضجر : السلام عليكم .. نعم يا عمي .. الحمد لله أنا بخير ، عساك بخير ..كلكم بخير الحمد لله رب العالمين .. نعم، أنهيت الامتحانات بتوفيق من الله .. عندكم وليمة .. لو عذرتني يا عمي لست مغرمة بالولائم ..حاضر ، سأحضر ـ إن شاء الله ـ لست حاقدا على أحد .. ولكنه أساء لشخصي وتصرف بغير لباقة ونسي نفسه



قام ابن خالها موسى يسري بتوصيلها ظهر يوم الجمعة إلى بيت عمها عادل حسن للمشاركة في الوليمة والغداء القائم في بيته ، ورحب بها أعمامها الذين شاركوا في ذلك الغداء ، ودعوا لها بالنجاح والحياة الطيبة ، ثم انتقلت إلى قاعة النساء ، فسلمت على النساء والفتيات من أقاربها وأنسبائهم ، وهذه كانت أول دعوة تقبلها بعد حادثة ميلاد في بيت جدتها ، وبعد صلاة الجمعة تناول القوم الطعام والغذاء المعد لهذه الدعوة ، ثم شربوا القهوة المرة ، وأثناء جلسة شرب القهوة قالت امرأة عادل أم حسن لزهيرة : أخبرني ميلاد بأنه راغب بالحديث معك .

تطلعت في عيني أم حسن بحدة وقالت بنبرة غضب : ليس بيني وبينه أي حديث .. فليعقل يا امرأة عمي .

فأخذت المرأة تكيل المدح لابنها ، وتذكر مناقبه ومحاسنه ، وبأنه شاب عاقل وشجاع ، وصاحب مصلحة وأنه راغب بها قرة عين ، فاستاءت زهيرة ونهضت قائمة مستأذنة بالانصراف ، فأخذت نساء أعمامها بمعاتبة أم حسن على فتح موضوع ميلاد والزواج من جديد ، ولما رأت إصرار زهيرة على المغادرة قالت : انتظري سيوصلك ميلاد لبيت الحاجة أم فوزي

فصاحت هائجة : ميلاد ! .. هل جننت يا امرأة عمي ؟!

قالت : هو أخبرني أنه طلب من موسى ابن خالك ألا يعود .. سيعيدك للبيت بنفسه .

ـ يا سلام! ومن طلب منه فعل هذا ؟ .. سأعود بسيارة أجرة .. أنا جئت من أجل صلة الرحم حتى لا تقولوا زهيرة متكبرة ومتعجرفة كما أسمع وينقل .

وغادرت الحجرة مسرعة ، وامرأة عمها تدعوها للتريث ، ولكنها خرجت للشارع ناقمة ، فتبعها أحد أعمامها : أين يا زهيرة ؟

التفت إليه وقالت بضيق ظاهر : إلى البيت

قال : علمنا أن ميلادا سيوصلك

ـ ميلاد! ومن قال ذلك ؟

ـ أبوه

ـ لم يحصل شيء من هذا.. سأعود وحدي

ـ ما الخطب ؟

ـ لا شيء ؛ ولكنهم يتصرفون بحمق

وأشارت لتكسي أجرة قادم نحوها ، فتوقف وصعدت فيه ، ولم تسمع ماذا كان يقول عمها ، كان يطلب منها التمهل ليوصلها بنفسه ، ولكن السيارة قد انطلقت بعيدا عنه ، وكان عادل قد لحق بهم ، فلما وصل كانت الفتاة قد ابتعدت فقال : ما الأمر ؟

ـ زهيرة خرجت غاضبة من أم حسن ، حدثتني ابنتي بذلك ، فحاولت تخفيف الأمر .

فقال عادل : هذه البنت لم تحسن تربيتها

ـ لو لم تحسن تربيتها لم تلب دعوتك .. أنتم سيئون

فصاح عادل متفاجأ : نحن سيئون !

رد شقيقه بغضب وضيق : أجل ، ما صدقنا ونحن نخلص من مطاردتك لأمها حتى دخل ميلاد على الخط .. كأن جنس حواء انقطع لديكم إلا من زهيرة وأمها .. هل تظن لو بقي

مجدي حيا سيزوجها من ابنك ؟

سمع ميلاد هذا الكلام ، وكان هو بدوره يخرج للشارع ساخطا على انصراف زهيرة فقال مخاطبا عمه : لو كان مجدي حيا سيرفض زواجي منها !

فصاح عمه في وجهه : اغرب عن وجهي .. أنت فارس زمانك! .. بنت لا تريدك حتى صرت تكلف أولاد الناس يراقبونها في الجامعة

قبل أن يرد ميلاد قال عادل : ماذا قلت يا أدهم ؟

ـ قلت ما سمعت .. اسأل ابنك .. هكذا سمعت حميدا يتحدث مع زبون لهم ..

حملق عادل في ابنه وقال : ما الذي تفوه به عمك ؟!

ـ لم أراقبها، ولن تتزوج غيري

صاح في ولده وقال : اغرب عن وجهي

وقال شقيقه: يجب أن نضع حلا لهذه المهازل يا عادل .. يرسل الناس تتجسس على ابنة عمه .. بنت ستصير دكتورة تتزوج هذا الضائع

هاج ميلاد وصاح في عمه : عماه إنك تتمادى في كلامك عليّ

ـ ومن أنت حتى أتمادى عليك .. تعال اضربني

صاح عادل في ولده : ابتعد من هنا

وتحول الاجتماع العائلي إلى شجار وصراخ وصياح ، وأقسم السيد أدهم أمام إخوانه أن لا يدخل بيت عادل ، فرد ميلاد متحديا: لعمرك دخلت مع ألف سلامة

فقال أدهم : هذه تربية ابنك يا عادل أرأيت ؟!

فصاح عادل في وجهه شقيقه : فعلا تماديت علينا يا أدهم

واشتد الشجار والعتاب ، ولملم أدهم أسرته، وغادر المكان ، وما كادت زهيرة تصل البيت حتى تلقت اتصالا يتهمها بأنها سببت معركة بين أعمامها ؛ لانصرافها بطريقة غير لائقة ، فأغلقت السماعة قبل أن يكتمل الكلام ، وأجهشت بالبكاء .

في الليل اتصلت زهيرة بالدكتور ماهر طه الوصي المالي عليها ، وأخبرته بما حدث معها في بيت عمها ، ولما اطمأن عليها وعلى اختباراتها ، وأسف لها عما حدث من هذا الفعل غير اللائق قال : لقد تحدثت مع عميد الكلية فأثنى عليك خيرا ، واعتبرك من النوادر في الكلية ، وسيسعى للقاء بك ، ليتعرف عليك شخصيا

ـ الشكر لك يا سيدي الدكتور .. بارك الله فيك

ـ هل تريدين شيئا لتتصلي بي ؟

ـ نعم ، أريد أن اشتري سيارة بسبب الموقف الذي صار لي عند بيت عمي .. لقد صرفوا ابن خالي ، ومنعوه من أن يعود لأخذي .

ـ لا حرج يا بنيتي .. إن شاء الله سأمر عليك وآخذك لمدرسة تدريب السواقين ولما تنتهي من الدورة ، وتأخذي رخصة القيادة سنشتري لك سيارة

ـ الشكر مرة أخرى

ـ متى تحبين أن أراك ؟

ـ في أقرب فرصة إذا لم يكن لديك شغل

ـ حسنا ، الشغل لا ينتهي.. غدا أو بعد غد سأمر عليك ومعي أم جواد .. نحن في خدمتك يا آنسة زهيرة أو حتى يا دكتورة زهيرة

ـ بارك الله فيكم .

لبى الدكتور ماهر وقرينته النداء ، ومرا على الآنسة ، وبعد الجلوس بعض الدقائق انتقلا بها إلى إحدى مدارس تعليم السواقة في المدينة ، وتعاقد مع مدير المركز التعليمي ، ودفع لهم مبلغا من المال ، ورتبوا أوقات التمرين والتدريب وانصرفوا مسرورين .

وفعلا باشرت الفتاة التدرب على سيارة التاكسي الصغيرة ، وكانت ترافقها أثناء الحصة التدريبية ابنة خالها يسري القائمين معها في العمارة ، وقبل أن تفتح الجامعة أبوابها للعام الدراسي الجديد كانت زهيرة قد أنهت حصص التدريب وبدأت تستعد لتقديم الاختبار لدى

الجهات المعنية بإصدار رخص القيادة للسيارات ، وهي عادة دائرة تابعة لوزارة الداخلية والشرطة ، وعادة يتقدم المتقدم للرخصة بفحصين أحدهما يسمى الفحص النظري والكتابي أو الشفوي حسب ثقافة وقدرات الطالب ، ويكون حول قواعد المرور في البلد والإشارات والأولويات، والفحص الثاني والمهم الفحص العملي بقيادة السيارة أمام فريق شرطي خاص بفحص السواقين ، فالنظري تقدمت فيه زهيرة سريعا ، فحفظها وقدرتها على الحفظ كبيرة ، فحققت النجاح من المرة الأولى ، والفحص العملي يحدد وقته بناء على نتيجة الفحص الأول .

واستطعت في المحاولة الثانية النجاح في الفحص العملي ، وأصبح لديها رخصة قيادة سيارة صغيرة صالون ، فالرخص فئات ودرجات ، ولما اتصل الدكتور ماهر سائلا عن النتيجة أخبرته بتحقيق النجاح، فهنأها وبارك لها وقال : جيد يا آنسة .. عندما تعودين من الجامعة عصر الغد إلى البيت سأقوم أنا وأم جواد بزيارتك لنذهب جميعا لمعرض سيارات لتختاري السيارة المناسبة واللون المناسب .

وما مضت بضعة أيام على أخذها لرخصة السيارة حتى كانت تملك سيارة من أحدث موديل في البلد ، وتذهب بها إلى الجامعة ، فقالت لمياء : تقدمت سريعا يا زهيرة .. جميلة سيارتك ولونها رائع .. ألف مبارك عليك .

ـ شكرا لمياء كان حادث دار عمي قد عجل لي بذلك ودافعا قويا لأخذ الرخصة وشراء السيارة .. خاصة أن المال كما تعلمين موجود لديّ بفضل الله وميراثي المعلوم .

واحتفلوا في مطعم الجامعة لهذه المناسبة ، والكل دعا لها بالتوفيق ، وأن يحفظها الله سبحانه من حوادث السيارات الشائعة في البلاد والعالم ، فتمنت لهم التوفيق لامتلاك سيارات خاصة بهم وكأن سمرا لم تعرف بالقصة التي كانت وراء شراء هذه السيارة وفعلا تذكروا أنها لم تسمع منها القصة لغيابها بضعة أيام في ابتداء الموسم الجديد لسفرها مع والدها إلى السعودية لأداء العمرة فقالت : ما القصة التي جرت لك عند دار عمك لتعجلي باقتناء هذه السيارة الجميلة ؟

اختصرت القصة زهيرة وقالت : ولما خرجت متنكدة من امرأة عمي لم أدر ما حصل حقيقة

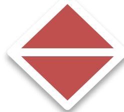
بعدي ؛ ولكني سمعت أن عمي أدهم غضب وتشاجر مع عمي عادل وابنه ميلاد بسبب خروجي ، وغادر هو الآخر غاضبا ومقسما أن لا يدخل بيت عمي عادل الأخ الأكبر ، وجعلوني أنا سبب تلك المعركة التي انتشر خبرها بين العائلات

نزار : ولم ذهبت ؟

ـ يا ابن خالتي ذهبت حتى لا يقال عني متكبرة .. حتى لا يقال عني سوء .. أو تذهب لناس وناس .. أردت فتح صفحة جديدة معهم .. وبعض أعمامي وعماتي يحبونني ، وليس بيدهم شيء أمام الأخ الأكبر .. من أجل التقليد

ثم انصرفوا بعد احتفالهم السريع بتملك زميلتهم وقريبتهم سيارتها الخاصة ، وبينما هم يغادرون المطعم التقوا بصاحبيهم في العام الدراسي الماضي جميل وأحمد داخلين ، فابتسم لهم نزار محييا ومرحبا ومفسحا لهم

الطريق لدخول المطعم ، ومشى كل واحد منهم حيث كليته .



ذهبت زهيرة إلى عميد كلية الطب، والتقت به شخصيا في مكتبه ، وهي فرصة لم تكن تتاح لأي طالب إلا بصعوبة ، فتعرف عليها الدكتور العميد ، وأثنى على همتها ونشاطها العلمي ـ وكان الرجل قد اطلع على نتائج مواد السنة الأولى لها في حاضرة الكلية ـ وحثها على الاستمرار على تلك الهمة والقدرة وعلى الاستمرار في تقدمها ، لربما تتحصل على بعثة خارجية بعد البكالوريوس العام في الطب ، فتسافر إلى أوروبا أو أمريكا أو كندا على نفقة الجامعة .

وقدمت الفتاة شكرها للعميد وعلى اهتمامه بها ، وقبوله على الالتقاء بها شخصيا ، وبين لها في نهاية اللقاء أن الدكتور ماهرا قريب له فوق الصداقة التي تجمعهما ، فخرجت الفتاة مسرورة من لقائها بسيادة العميد لقاء خاصا ؛ فلذلك عندما ذهبت لمطعم الكلية حيث تلتقي برفاقها

كان الفرح والبشر واضحين على محياها ، فذكرت لهم قصة اللقاء والحوار مع سيادة العميد ، فعلق نزار : أمريكا مرة واحدة يا زهيرة ! .. يا سلام لو تسافرين هناك قد تأخذين جنسية تلك البلاد وتصبحين أمريكية ، وربما قضيت العمر كله هناك كما يفعل الكثير من أصحاب العقول العربية .. نحن نسمع أن الأمريكان متقدمون جدا في العلم والطب والصناعة العلمية والبحث العلمي .

فقالت لمياء شقيقته : كل أوروبا مثل أمريكا في ذلك .. طبعا اقصد أوروبا الغربية ولكن أمريكا الشمالية تمتاز بالقوميات المتعددة والكثيرة ، الشرقية والغربية والصينية واليابانية .. بلاد عجيبة وحقوق الناس والإنسان يتغنى بها الذاهبون إليها .. وكذلك حرية النساء

فقالت سمر : نعم ، حرية الإباحية

فقال نزار : الجنس عندهم ليس كبلاد المسلمين .. هم يتقبلون الأبناء غير الشرعيين بغير حرج .. وهذا غير مقبول لدينا .. فالزنا حرام معناه حرام .. ورغم الحرية الشخصية الواسعة لديهم ، فجرائم الجنس والاغتصاب لا تنتهي وكثيرة عندهم ومخيفة كما نسمع ونقرأ .. فأنا قد سمعت أنه من النادر أن تبلغ البنت عندهم العشرين وتظل عذراء بكرا عفيفة .

فقالت لمياء : ولكنها بلاد كبيرة

فقالت سمر : ومليئة بالمافيا والعصابات والمخدرات .. قد سمعت أنها قضية تؤرق أمريكا كلها ، ورغم قوتهم العسكرية الهائلة ، فهم عاجزون عن منع عصابات المخدرات والتهريب

فعاد نزار يقول : الإجرام لا تخلو منه بلد ؛ ولكن العلم والطب هائل عندهم ومتطوران ، لا ينكر هذا ، وتذهب الناس إليهم للدراسة والعلاج من كل أنحاء العالم ، فكل البلاد أو أغلبها يسعون لإرسال بعثات علمية إليهم .

فقالت لمياء : أمريكا بلاد شاسعة ، وبكر يقولون .. هي عبارة عن خمسين دولة هم يقولون خمسون ولاية .. الولايات المتحدة .. أو إحدى وخمسون لا أدري بالضبط .. بل خمسون ولاية

فقالت زهيرة بعد صمت طويل وسماع كل هذه التعليقات عن أمريكا : محبو العلم يبحثون

عن الأجود والأفضل .. ولا تنسوا اليابان فهي متقدمة طبا واقتصادا ، وإنما الناس يذهبون أمريكا لأن اللغة الإنجليزية هي الشائعة فيها، وهي أسهل لانتشارها اليوم في كل شيء وفي كل البلدان فهي لغة التجارة والثقافة العالمية

فقالت سمر : على قول مكره أخاك لا بطل

تبسم الجميع لمثل سمر وقال نزار : هذا المثل يتوقف أمامه علماء النحو لأن القياس أن يقال أخوك على الرفع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة .. اللغة الإنجليزية الحاجة العالمية لها .. للضرورة أحكام .. أصبحت لغة التواصل عالميا .. لذلك أتصور أن ذهابك لأمريكا أفضل لو تيسر لك الابتعاث .. فهذا رائع يا زهيرة!.. ماذا تودين التخصص ؟ فتخصصات الطب تكثر وتتسع اليوم .. والنساء عادة تتجه للطب العام فحسب أو التخصصات النسائية أو الأسنان

قالت سمر : المناسب لزهيرة طب الأسرة

ردت لمياء : تذهب لهناك خمس أو ست سنوات لطب الأسرة، أعتقد أنه متوفر هنا .. قد يكون له مستقبل واعد في بلادنا

ـ تدرسه للعمل كطبيبة مدرسة ومحاضرة .. شهادة من أمريكا يا لمياء

قالت لمياء : صحيح اسم البلد مهم في الأكاديميات العلمية .. وصحيح أن الأعصاب والقلب وغيرها من التخصصات يحب الناس الذهاب للعلاج لدى الذكور .. أما العمل في المستشفيات فهو مرهق ولا يهتمون بالتخصص أو البلد المانحة للشهادة فكلهم سواء

قالت زهيرة : الحق أنني لم أفكر بنوع العمل الذي أحب أن أمارسه غير الطب العام .. الجراحة والاختصاص قلت عندما تنتهي الدراسة الأولى أفكر في التالي فيها بعد .. أمامي سنوات وسنوات ، مع العمل والتدريب يفتح على المرء بالاختيار الذي تحتاجه البلد والمناسب لقدراتي أيضا .. فكرت بالعمل الأكاديمي ولكن لابد من ممارسة الطب على أرض الواقع في المستشفيات والمرضى قبل العمل محاضرا .. احتاج للخبرة العملية مع النظرية أليس هذا

الصحيح ؟

قال نزار : رائع ! هذا التفكير الصائب كل شيء في وقته أفضل ، لابد من التخصص يا زهيرة في فرع من فروع الطب.. فالطبيب الأخصائي أفضل من الطبيب العام .. فعليكِ الاهتمام بما ستختارين .. وما دام العميد عميدكم قريبا للدكتور ماهر صديق والدك المرحوم مجدي حسن فلابد أن يهتم بالسعي لبعثتك قبل مغادرته عمادة الكلية

فقالت سمر : ألا تريد الزواج ؟

فقالت لمياء : الزواج ! وهل أحد يستغني عن الزواج ؟ ستتزوج طبعا وبإذن الله .. فخلال مدة السنوات ستلتقي بالزوج المناسب

فقالت زهيرة ضاحكة : قد أتزوج ميلادا ابن عمي ، وآخذه لأمريكا معي

وغرقوا بالضحك على نكتة زهيرة وقال نزار : لا بأس ، وتفتحين له محل تصليح سيارات في أمريكا .. فهي صنعة رائجة في كل بلدان العالم ، لا تستغني سيارة عن الميكانيكي .. وصناعة السيارات من أهم الصناعات في دول العالم الكبرى والصناعية خاصة أمريكا أم السيارات .. الفورد والكاديلاك والبويك والبونتياك .. أليس كذلك يا لمياء ؟

استمر الضحك وردت لمياء : أكيد .. بس سيارة زهيرة كما رأينا يابانية

فضحكت زهيرة وعلقت قائلة : نعم ، يابانية كما رأيتها أنا كذلك

فقالت سمر : كيف قيادة السيارة يا زهيرة ؟

- ممتعة حقيقة ..وتحتاج لأعصاب هادئة .. وأحيانا مزعجة من أزمة الشوارع أو ضيقها .. لحتى الآن لم يخرب معي عجل أو ينفس .. الأمور سالكة بحمد الله

فقالت لمياء: ألا تزورينا ما دام قد أصبح لديك سيارة وتقودينها خارج العاصمة ؟



كانت الآنسة زهيرة بعد حادثة ميلاد الأولى معها قد تعقدت من فكرة الزواج ، ويظهر أن

تهديده القاسي لها دفعها لصرف النظر عن التفكير الفطري بشريك الحياة ، والزواج سنة الله في خلقه ، وهل يمكن لتهديد من شاب متهور وغاضب أن يخفي من نفسها غريزة الأمومة والولادة ؟ وهل يترك الناس فتاة بدون أن يتقدم لها أحد للزواج كعادة الناس ؟ الحق أن زهيرة منذ رفضت ميلاد كزوج لها ، وهي لا تضع قضية الزواج كأولية لها في الحياة ، فهي تاركة الأمر لله ، ومن ثم للظروف والأحوال .. ويمكن لنا نقول أيضا أن كثرة زيجات أمها قد تكون تركت أثرا في نفسها .. فزهيرة لم تشعر باليتم كمأساة ؛ لأنها عند وفاة أبيها كانت صغيرة دون الخمس ، ولا أعتقد أن الرضيع وابن السنة أو السنتين يحس بفقد الأب ، ربما يحس بفقد الأم في هذه الفترة ، وقد لا يشعر بذلك لتوفر المراضع واللبن ، ففي القديم كانت المراضع تقوم بدور الأم ، وقد يرضع الطفل بوجود الأم كما رأينا ذلك في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عندما ارضع في بني سعد وباديتهم .. واليوم زجاجة الحليب الجاف أو المجفف تقوم بمقام الأم في مهمة الإرضاع ، ومع وجود الخادمة أو القريبة يستغنى عن الأم .. لكن مع تقدم الوقت بالطفل ويكبر ويعقل يفقه اليتم والحرمان من الأب والأم يعرف معنى الفقد لوالديه أحدهما أو كليهما .. فيدرك أنه يتيم ، فيدرك أن الحنان ناقص أو مفقود .. واليتم سنة الله في خلقه لبعض الخلق .. ومشاكل هناء شغلت زهيرة عن همومها ويتمها .

فلما ألمح لها العميد بأن بإمكانها السعي للدراسة في الغرب ، العالم الغربي إذا ظلت متقدمة في نتائجها ودروسها ، فازداد حماسها للعلم ، وهوسها في مغادرة الوطن بل رأت أن ذلك فيه خلاصها من عمها وابن عمها وملاحقتهم لها .. وبينما هي تحلم أحلاما سعيدة دخلت عليها أمها ، فنهضت تعانق أمها بفرح وسعادة ، ثم تحدثتا عن أخبار بعضهم بعضا، ودخلت "روجا" بالقهوة المغرمة بها هناء وزهيرة ، فقالت هناء وهي ترشف القهوة : كيف أنت والسيارة ؟

" الحمد لله تأقلمت وتكيفت معها ، وتحسنت قيادتي ، وربنا يسلم ، فبعض الشوارع تكون فيها الزحمة شديدة ومزعجة "

" أنا تأخرت في تعلم القيادة لظروف حياتي ، فأبوك ـ رحمه الله ـ كانت لديه سيارة ، وزوج أمك الثاني كان لديه سيارة .. ولما اشتغلت في شركة الدواء اشتروا لي سيارة ، وها هي ما زالت معي، وزوجي هذا يملك سيارة "

" ما رأيك يا أمي بالسفر للخارج ؟"

" السفر ..!! والجامعة ؟!"

" الدراسة في أمريكا "

"لم أفهم ؟!"

" أفكر بالسفر إلى أمريكا الشمالية "

" أمريكا مرة واحدة يا زهيرة ؟!

" الطب هناك يقولون في غاية التقدم والحداثة "

"وكيف ستسافرين ؟! هل ستتركين جامعتك هنا؟"

"لا"

روت لها مقابلتها للعميد وتشجيعه لها للاستمرار على تقدمها لتتمكن من الرحيل كبعثة للغرب على نفقة الجامعة ، فلما صمتت الفتاة قالت الأم : ألا تفكرين بالزواج ؟! ألا تحبين أن يكون لك أبناء ؟!"

" أحب ، وهل يباع العرسان في المحلات والدكاكين ؟!"

"الأزواج لا يباعون في الدكاكين ، ولدى السيد رستم قريب يبحث عن عروس ، فقد سألني منذ زمن عن عروس من أقاربي من بنات أخواتي وإخوتي فلم أرد عليه بشيء .. أنا مستعد للحديث عنك لرستم "

"ألا تخافين عليه من ابن عمنا ميلاد؟!"

فأخذت الأم تقذف الشاب بالسباب ، ثم فطنت إلى حرمة الشتم والسب فتوقفت فقالت زهيرة : أنسيت تهديده اللعين ؟ وهذا ولد مجنون .

"وهل يأمل بالزواج منك ؟ إنه أحمق ، دكتورة مثلك تتزوج من رجل مجنون .. أتعلمين أن سفرك إلى أمريكا يخلصك منه ومن جنونه؟ .. ما زال يرفض الاقتران بفتاة .. التقيت بامرأة عمك نبيل أم سالم فأخبرتني أن إحدى عماته عرضت عليه احدى بناتها عروسا ، فرفض وأخذ يستهزأ منها وبها فقال : يا عمتي لن أتزوج إلا بنتا واحدة في هذه الدنيا اسمها زهيرة مجدي حسن .. أرأيت هبله وحمقه ؟! .. ومع ذلك فأنت بحاجة لزوج وأولاد .. أنا في شوق لأرى ذريتك فأنت الوحيدة التي خرجت بها من هذه الدنيا .. على كل حال سلمي الأمر لله .. هل أتحدث مع رستم عن قريبه الباحث عن عروس ؟

" ماذا يعمل هذا العريس ؟"

" لا أعرف بالضبط ، هو سألني مرة ، ولم يتكرر الحديث بيننا حول هذا العريس وإذا فتح الموضوع سأعرف بعض التفاصيل ومواصفات العريس "

" لست مستعجلة يا أمي على الزواج ، فالدراسة طويلة كما تعلمين "



مكالمة

ذات مساء دخلت الخادمة على زهيرة مخبرة لها بأن أحدهم على الهاتف يرغب بالحديث معها ، فلما سمعت اسمه جفلت لذكر الاسم ، وانزعجت وأصابها توتر عصبي ، وقالت لنفسها " ماذا يريد هذا المجنون ؟! ولماذا يريد أن يتحدث معي المحروس ؟! أليس عنده ذرة من الحياء والخجل ؟!"

وخرجت لصالة البيت متضايقة وأمسكت بالسماعة بحدة وقالت : نعم ، .. وعليكم السلام تريد اللقاء بي ولماذا تريد الالتقاء بي ؟!.. يا رجل ألا تريد أن تحل عني ؟ ما الذي بيني وبينك لتتصل بي ؟ .. أنت لك درب ، وأنا لي درب .. لا أحب أن أرى وجهك أو أسمع صوتك ، هو الزواج بالعافية .. فلنبق أولاد عم فقط .. لي عشرات أولاد العم لماذا تخصك نفسك دونهم؟ .. كلهم خير منك وأشرف .. أرجوك ألف رجاء لا تتصل بي ثانية لو سمحت .. لا يمكن الالتقاء بك مع السلامة .

ووضعت السماعة بحدة وغضب ، وعادت لحجرتها، وكلها نار وضيق ودموع ، ولما جلست على أحد المقاعد قالت : ماذا أفعل به ؟! ولمن ألجأ للخلاص من هذا الوقح ..

كانت قبل هذا الاتصال قد تلقت رسالة منه يتوسل إليها أن تقبل به زوجا ، ومزقتها شر ممزق وطلبت من الخادمة عدم استلام أي رسالة تخصها من أي أحد إلا من ساعي البريد الرسمي .

ولما هدأت روحها بعد حين قالت : ألا يمكن تكميل ودراسة الطب في أمريكا مباشرة ؟.. بكالوريوس طب من أمريكا .. سأتحدث مع الطبيب ماهر ليكلم لي العميد لعله يستطيع توفير بعثة لي أكمل دراستي هناك حتى ولو عدت من الصفر .. المهم أن يوفر لي قبول عندهم لأخلص من هذا المجنون .. الذي سيزداد جنونه يوما بعد يوم .

نفذت الفكرة سريعا ، تحدثت مع الدكتور ماهر عن رغبتها بالدراسة في الخارج خارج البلد ، فبين لها الرجل خطورة السفر وحدها إلى تلك البلاد الكبيرة ، وأن الخطر عليها هناك أكثر من الخطر من ميلاد وأبيه ، فعجبت من ذلك، فقال لها " صحيح أن الطب متقدم عندهم كثيرا ،

ولديهم مراكز بحث ضخمة وعالمية ؛ ولكن العصابات منتشرة في بقاع البلاد ، وكذلك المشاكل الاجتماعية الكثيرة والمتعددة التي لا تنتهي عندهم " ، ولما أدرك حجم معاناتها وضيقها ، وعدها بأن يبحث لها عن أسرة مهاجرة ترعاها وتعتني بها ، أو أن تقترن برجل راغبا بالدراسة مثلها هناك فقالت باسمة : ومن أين يأتي هذا الزوج الطالب ؟

فوعدها أن يهتم بالأمر ، وأعلمها برغبته بنقل أموالها إليها ؛ لينهي عهد الوصاية ، وتصبح مالكة لثروتها بعدما بلغت سن الرشد المالي حسب القوانين المحلية ، وبين لها أنها تستطيع المحافظة على ثروتها وميراثها

فقالت : افعل ما تراه مناسبا ، وأنا لست مستعجلة على إنهاء الوصاية

فشكرها على حسن أدبها وعاد يقول : أنا أعلم شدة انزعاجك من ابن عمك .. صدقي أني تحدثت مع عدد من أطباء النفس من أجله ، فهم لا يرون أنه يشكل خطرا عليك ، وإنما هي أفكار غرست فيه فتحتاج لوقت لتذهب عنه ومنه

ـ ولكنه ما زال عازبا يرفض الزواج ؛ كأن الأمل ما زال في قلبه ونفسه

ـ على كل حال سأفكر بمشروع الرحلة إلى أمريكا والغرب عامة ؛ لعل هذا يكون أحد الحلول المناسبة

ـ أشكرك يا دكتور

ـ لا شكر على واجب

وانتهى الاتصال بينهما ، وعادت لحجرتها وهي تردد : الزواج .. لابد من الزواج يا إلهي ! صرت أخشى هذا الكلمة ، فهي تلقي ظلالا مخيفة على نفسي .. أمي كانت تقرب من الخمسين واضطرت للزواج .. لماذا الناس يتزوجون ؟!.. أمن أجل الغريزة فقط ؟ .. تعلمنا أن الزواج يكون للاستمتاع الجنسي ، وحاجة للبالغين كالأكل والشرب .. وإذا استغنى الإنسان عن هذه النعمة .. هل يتزوج ؟! للولادة والمحافظة على النوع .. ملايين النساء تلد يوميا .. إنني أكره الزواج .. لست بحاجة لرجل أم أني معقدة من تهديد هذا الرجل المجنون !..

الزواج لماذا ؟ ليجد الإنسان الأنثى متعة في تحقيق غريزة الأمومة .. فهناك نساء متزوجات لا يمارسن الأمومة لكونهن عواقر فلأكن واحدة منهن ! دعيكي من هذه الأفكار السوداء .. ولنسلم أمرنا لله .. إن ثقافتي الدينية بسيطة ثقافة مدارس .



كان حميد نبيل شريك ميلاد في ورشة التصليح في مجمع تصليح السيارات في المدينة يشرب الشاي ويقضم الساندويتشات المكونة من الحمص المطحون والفلافل (الحمص المقلي) ، ويتحدث مع ميلاد الذي يشاركه شرب الشاي ، ويدخن السجائر بعضها تلو بعض ؛ كأنه ينتقم من بدنه فقال حميد: يا رجل! لا أدري آنت رجل ؟ ـ واتبع سؤاله ابتسامة بصوت ـ ألا تريد إنهاء ما أنت عليه وفيه ؟ لقد كبرت .. والفتاة بعد استقرارها في الجامعة لن تقبل بك زوجا .. وإنك تثير المشاكل بين أفراد العائلة .. عند صاحبنا خضر بنت جميلة ومناسبة لك ، وهو من طبقتنا البسيطة .

ضحك ميلاد وهو يدعس على السيجارة حيث انتهت وقال : تزوجها على أم محمد .. أليس الدين يحث على التعدد ؟

ـ أنا مرتاح مع أم محمد .. لست أعزبا مثلك .. أنت تركض وراء سراب

ـ صدق لن يتزوجها غيري

ـ كيف أصدق ؟ .. وأنا أسمع أنها تسعى للسفر والرحيل إلى أمريكا للخلاص منك .

تفاجأ ميلاد بهذا الخبر ، فجحر ابن عمه وشريكه طالبا المزيد من المعلومات : أمريكا! ومن قال لك ذلك ؟!

ـ سمعت أمي من أمها ؛ لأنهن ما زلن يتبادلن الحديث مباشرة أو على الهاتف

ـ أعرف أن أمك صديقة لهناء من أيام المرحوم مجدي ، وكذلك العمة بسمة .. وماذا ستفعل في أمريكا ؟

ـ تدرس تتعلم .. وإذا جنست قد يطيب لها البقاء هناك

ـ وحدها ؟! وحدها ستسافر ؟

ـ من سيسافر معها ؟ فهي عزباء مثلك .

ـ وهل يسمح لها أعمامها بالسفر وحدها ؟!

فقال حميد مستغربا لهذا الاستفهام : ولماذا لا يسمحون لها ؟! بل ربما يفرحون بسفرها للخلاص من صراعكم الخفي والمعلن .. حتى أنني سمعت أنك كتبت لها رسالة تتوسل إليها بقبولك زوجا لها

نظر ميلاد إلى الأرض وقال : لقد ذلتني .. عقدتني .. كرهتني جنس النساء والحريم.

فضحك حميد ضحكا مسموعا ، وهو يرمي كوب الشاي الكبير إلى الأرض : الحمد لله شبعنا وهل أصدق هذا يا عم ميلاد ؟ لا شيء يخفى .. الناس ما أن تصدق بسماع خبر أو قصة لتسعى لنشرها .. ولماذا يزورنا عند الغروب كل يوم سالم ؟! .. هل تظن أنني مغفل ؟!

ارتبك ميلاد للحظات وقال : ماذا قال لك سالم اللعين ؟

قال حميد بألم وحزن : أشياء لا أحب أن أصدقها .. قال إنك تشرب الخمر في حانة بوم .. وفي خمارة سان

ـ أريد أن أنسى

قهقهه حميد وقال : وهل الخمر تنسي ؟ .. انتبه لنفسك .. غدا تذهب صحتك .

ـ وهل قال اللعين غير ذلك ؟

كرر حميد الضحك المصحوب بألم وغصة وقال : أعط سالما سيجارة أو كأس شاي يتحدث بكل شيء وهو يدخن أو يشرب الشاي .. سالم لا يكتم شيئا قال إنكم تزنون تذهبون لأماكن الزنا والفجور لتمارسوا الزنا والخنا والعياذ بالله من الخذلان .. اصح يا ابن عمي .. ودعك

من سالم وشلته .. ألا تخاف أمراض الزنا ؟!.. تزوج وعف نفسك وأعقل.. لا تجعل عقدة زهيرة تفسد نفسك وحياتك .. سوف تسافر غدا ، وربما تتزوج هناك وتستقر هناك .

ـ لن تتزوج إلا ميلادا .. شاءت أم أبت

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أنا خائف عليك يا أخ ميلاد من الضياع ، وستصبح منبوذا من العائلة وحتى من إخوتك الأكبر منك كلهم

ـ سأسافر وراءها إلى أمريكا

ضحك حميد على جهل ميلاد : تسافر! وكيف ستسافر ؟ وهل أمريكا بلد صغير.. أمريكا كبيرة يا رجل وعدد سكانها يزيد عن مائتي مليون من البشر .. كيف ستعثر عليها ؟ولا أظن أنهم سيذكرون مكان سكنها لأحد ، وربما تسافر لأوروبا

ـ أحمد شقيق محمود سيعرف عن طريق الجامعة

ـ ممكن ؛ ولكن اللقاء بها هناك مستحيل

ـ لا مستحيل .. سأبقى بدون زواج حتى أتزوج زهيرة

ـ غفر الله لعمي عادل وأمك الذين ورطاك في هذه القصة .. كيف صحة أبيك ؟ سمعت أنه متوعك ؟

ـ بل ذهبوا به للمستشفى ، وأعطي موعدا لإجراء عملية صغيرة

ـ لم اسمع أبي يتحدث بشيء

ـ قبل يوم ذهب للمستشفى فقط ، لم ينشر الخبر ، فربما العم نبيل لم يعرف بعد

ـ ألا تفكرون بالصلح مع العم أدهم ؟

ـ سوف نتصالح

زواج زهيرة

كانتا تأكلان في أحد المطاعم الكبيرة والمشهورة في المدينة ، فقد دعت زهيرة أمها وزوجها رستم للعشاء في ذلك المطعم الفاره ، واعتذر رستم لهما ، ولما فرغتا من الأكل ، وأخذتا تشربان ما بقي من العصير قالت البنت لأمها : هل نذهب لحديقة عامة نجلس فيها بعض الوقت؟ .. إني أحب الجلوس في الحدائق والاستمتاع برؤية الناس ، فأنا راغبة بقضاء بعض الوقت خارج البيت ، ونأكل البوظة والمثلجات

بعدما وافقت الأم دفعت زهيرة الحساب وخرجتا حيث تقف سيارة زهيرة ومشيا بها إلى إحدى حدائق العاصمة العربية الشابة ، وإلى حديقة تتردد عليها العائلات والأسر ، وعلى أحد المقاعد الخالية جلستا بعد أن اشترت زهيرة أوعية البوظة الشهية للعين ، وربما للمعدة ، وفجأة قالت هناء : لقد سألت رستما عن العريس الذي حدثني عنه ويبحث عن عروس .

انتبهت زهيرة إلى أمها وهزت رأسها فقالت هناء : هو ابن أخته ، ويعمل في صيدلية حكومية ، وعمره خمس وعشرون سنة ، كان خاطبا لفتاة قريبة له ثم فسخت الخطبة من قبل الفتاة ، فوافق الشاب وتركها ، وهو يبحث عن فتاة أخرى متعلمة أو حتى تتعلم بعد ، وسيساعد في أقساط تعليمها .. وإذا قبلت به فرستم مستعد للمشي في القضية .. المهم أن ترحبي أنت بالزواج.

فقالت زهيرة : لا داعي يا أمي فالدكتور ماهر حدثني عن عريس

رددت متفاجئة : ماهر الوصي ؟!

ابتسمت زهيرة وقالت : وهل هناك ماهر غيره ؟!

انقبضت الأم وقالت : ألم نتخلص منه ؟!

ـ قبل زمن حدثني عن رغبته في إنهاء الوصاية عليّ ، ونقل الأموال لحساب خاص بي أو لنفس الحساب في نفس البنك الذي يضع لي به مصروفاتي وأقساطي .. ولما حدثته عن لقائي بالعميد ورغبتي بالسفر للدراسة في الخارج وإكمال التعليم في أمريكا

ـ إكمال التعليم .. ألم تخبريني أن ذلك بعد بكالوريوس الطب العام ؟!

ـ عدلت الخطة أرغب بالسفر والخروج من البلد .. فأولئك دار عمي يزعجونني ويضايقونني ، فصار السيد يكتب لي رسائل ، ويتصل على البيت .. وتحدثت مع الطبيب بهمومي ورغبتي ، فوعدني بالمساعدة في ذلك ، وسيكلم العميد بهذه الرغبة ، وبين لي مخاطر السفر إلى هناك ، وأن الحياة الاجتماعية هناك تختلف كثيرا عن الحياة الاجتماعية عندنا ، وذكر المخدرات والعصابات والإباحية .. ولكنها كما قال تتفاوت من بلد إلى بلد ، ومن مدينة إلى مدينة أخرى .. وربما يوفر لي الفرصة للحياة مع أسرة عربية لإتقان اللغة الأمريكية والرعاية لشخصي أو قال تتزوجين طالبا للعلم هناك مثلي .. فربما كما قال يجد لي القرين المناسب لنسافر معا .. أنا ضقت ذرعا يا أمي .. فهذا الرجل صعّب عليّ الحياة والحرية وأخشى أن يتهور بفعل شيء مؤلم .. وأعمامي يتشاجرون، ويجعلونني السبب ، ورغم ذلك لم يستطيعوا وقفه عند حده .. لا أريد أن تصل مشاكلنا للشرطة والمحاكم .. لعلي ارتاح هناك في الغربة المرة .

ظلت الأم تسمع هذه التفاصيل دون مقاطعة أو تعليق ، ولما طال صمت زهيرة قالت : الحياة صعبة عندهم ، لقد سمعنا عن أناس سافروا وفشلوا ، وبعضهم قتلوا في مخازنهم ومتاجرهم .

ـ الشر موجود في كل العالم ، والخطر لا يخلو منه مكان .. ها هو ابن عمنا يطاردنا ، ويشوه سمعتنا ، ويكتب لي الرسائل ، ويسأل عن الشاب الذي يجلس معي في مطعم الجامعة .. يشير إلى نزار ابن خالتي ابن أختك

ـ يا للوقاحة !

ـ أرأيت؟! يتجسس عليّ .

قالت الأم : حفظك الله يا ابنتي .. أنت أدرى وأعلم بمصلحتك وحياتك، وإن كان يعز عليّ فراقك ومغادرتك البلد .. لكن أحس وأشعر بالضيق الذي يصيبك من عمك وابنه .. والأفضل أن تتزوجي يا زهيرة قبل السفر .. حتى لا تشعري بالوحدة أثناء الغربة .. لو كان هناك أب أو أخ لكانت الحياة أحسن .. وأفهم من كلامك أن أنسى قريب رستم .

ـ أجل يا أمي .. هل ننصرف قبل أن يتضايق السيد رستم ؟



ولما بدأت بطلة قصتنا تستعد للعودة للجامعة في السنة الثانية الفصل الثاني مطلع عام ١٩٨٦ كانت تنتظر أخبارا طيبة من الدكتور ماهر حول الدراسة في أمريكا الشمالية أو كندا ، فقيل لها أن الفرصة في كندا أقوى لعلاقات خاصة للعميد مع جامعات كندا لدراسته هو فيها ، فمن خلال اتصال بينها وبين الدكتور ماهر أعلمها أن الرجل يبذل قصارى جهده لتنال بعثة هناك ، ويتصل العميد بمعارفه الأجانب لتسهيل مهمة سفرها وإكمال دراستها ، لذلك فما كاد ينقضي الشهر الأول في الجامعة حتى اتصل ماهر مخبرا أن الأمور تسير بشكل جيد ، وأنه قد وجد الشاب المناسب ؛ ليكون زوجا لها ، والمستعد لمرافقتها إلى كندا بعد زواجهما العاجل والضروري لكليهما ، وطلب اللقاء بها ليحدثها عن الشاب ؛ ليجري التعارف بينهم ، وقد أعطاها فكرة سريعة عنه ، وجلسا عندما التقيا في صالون البيت صالون جدتها بعض الدقائق ثم انتقلا إلى حجرتها الخاصة ، ولما استراح قال : هل أتحدث عن الدكتور سامر ؟

ابتسمت وقالت : اسمه سامر ودكتور .

ابتسم بدوره وقال : هو طبيب تخرج حديثا ، وهو يعمل في مستشفى حكومي ، ووالده دكتور جراح كبير في البلد .. وهو معرفة شخصية أقصد الوالد طبعا .. أما سامر عرفته حديثا فعادة الطبيب يعرف الأطباء من جيله الذين درس معهم أو عمل معهم في المشافي والعيادات فأنا أحببت خدمتك لمعرفتي بالضيق والإزعاج الذي يحيق بك من أقاربك ، ورأيتك تلحين ومصممة ، فسعيت مع قريبي العميد ولم يقصر الرجل لك ولسامر .. فالزواج هو الأفضل

لك .. فلو كان لك أقارب هناك ، ربما فضلنا ذلك على الزواج ، وليأت الزواج على حينه .. ولو كنت ذكرا فلربما كان السفر أسهل معذرة .. أنت تعرفين نحن الشرقيون بالنسبة للنساء والعرض وعاداتنا .. أتفهمين عليّ ؟

ـ نعم ، أنا معك يا دكتور

ـ جميل .. جيد ! .. راقت لنا فكرة السفر أنا وزوجتي .. وأنت عزيزة علينا .. ففضلنا لك الزواج قبل السفر .. ولا أنسى صداقة المرحوم والدك وثقته الكبيرة بي عندما جعلني وصيا

ـ كنت نعم الأب الروحي لي يا سيدي .. شكرا لك .. لقد اطلعت على صورك مع الوالد ـ رحمه الله ـ أيام الجامعة

ـ نعم ، أيام الشباب .. المهم المناسب لك الزواج .. أنت تعرفين أهمية السمعة والشرف للرجل الشرقي .. وكذلك للفتاة الشرقية خاصة العربية .. حتى لا تسمعي قيل وقال

ـ أفهم مغزى كلامك يا عمي العزيز

ـ بواسطة الأصدقاء وصل الكلام للدكتور ماجد وولده سامر .. فالتقينا وتصارحنا بشأنك ، فرحب الشاب بفكرة الزواج والبعثة الكندية ، ووعدنا السيد ماجد بالسعي لتسهيل سفركم بأسرع وقت .. فعادة هؤلاء الجراحون لهم معارف وعلاقات على مستوى العالم ؛ لأنهم ينضمون لجمعيات علمية أو جراحية أو مؤسسات عالمية ليتبادلوا الخبرات والمعارف ، والمشاركة في الحملات الدولية في الكوارث والزلازل والأمراض المتفشية .. وتستمر بينهم المراسلات والندوات خاصة مؤسسات الصحة العالمية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة .. أو منظمة الصليب الأحمر ، فتتكون بينهم زمالات وصداقات .. جميل هذا ؟

ـ أجل يا سيدي

بعدما رشف الدكتور ما تبقى في فنجان القهوة الذي برد بعد هذا الحوار قال : المهم صاحبنا الدكتور ماجد شجع ابنه على هذا الزواج ، ولسوف يسعى له للعمل هناك ، والتخصص كذلك في جراحة العظام والكسور.. وفي نظري أنه شاب ممتاز وطموح كوالده كما بدا لي ..

فهل نكمل المشروع ؟ وتلتقيان للتعارف ؟

أحمر طبعا وجه الفتاة حياء ، وبعد صمت قالت ردا على الأسئلة : أنا مثل ابنتك يا دكتور ماهر فأنا الابنة الوحيدة لك ؛ لأنك لا بنات لك كما أعلم ..

ولما لم يعقب الدكتور تابعت : أنا أثق بك لأنك ثقة والدي ـ رحمه الله ـ الذي اختارك وصيا دون أعمامي ، وكان ذلك بعد نظر منه .. فهو بدا لي أعرف الناس بشقيقه الكبير .. وأنا مستعدة لمقابلة هذا الشاب ، والتعرف عليه ولكن أين ؟

" فكرت بذلك ، وكنت واثقا من قبولك للعلاقة الخاصة بيننا ، والأبوة الروحية التي جمعت بيننا ، وجزاك الله خير الجزاء .. سأرتب لغداء في بيتنا في نهار جمعة .. وأنا في مقام والدك يا زهيرة ..

مسحت زهيرة دمعات مؤثرة عن خديها ، وتابع الدكتور الكلام متظاهرا أنه لم ير تلك الدموع الحارة من ابنة صديقه مجدي : وعندما أتفق على جمعة معينة سأتصل بك .. وليبق الموضوع مكتوما إلى حد ما بيننا "

ـ أحسن يا سيدي ..

ـ أنت تعرفين البيت بالسيارة ؟

ـ أعرف ، وقد مررت عليك مرة بها .. وزرتكم بسيارة أجره قبل ذلك .

ـ أهلا وسهلا بك أيتها الدكتورة الصاعدة إن شاء الله .. واعلمي أن إجراءات إنهاء الوصاية قائمة على قدم وساق وسوف نذهب معا للمحكمة الشرعية، وسوف يكون المحامي أمامنا .. فهو يقوم مع مكتب محاسبة بحساب ما انفق عليك ليخصم من الأصل وستأخذين ما تبقى

أمسكت الفتاة بيد الطبيب ولثمتها امتنانا وشكرا ، وقبل الرجل جبينها وغادر البيت مسرورا

التقت الآنسة زهيرة مع أقاربها في مطعم الجامعة يتناولون الساندويتشات والمشروبات اللذيذة وبعدما انتهوا من ذلك وأخذوا يتهيأون لمغادرة صالة الطعام قال نزار : ما أخبار أمريكا ؟

سمعت أمي تقول لأبي ليلة أمس أن الأمور تسير على ما يرام ، عندما سألها عن أخبار سفرك

فالكل يتابع أخبار الدكتورة الراغبة في الهجرة .

تبسم الجميع وقالت لمياء لتظهر الاهتمام بسفرها : كل يوم تتصل أمي بأمك ، ولا حديث بينهم إلا الخوف على زهيرة من هذه السفرة المجهولة

قالت زهيرة : لست أول من يذهب لتلك البلاد ، وبالتأكيد لن أكون آخرهم .. فالبعثات العلمية وغيرها من أول وسائل تبادل العلم والطب والتاريخ بين الناس .. والقلق من المجهول والرحيل يبدو أنه فطرة وغريزة .. والتوفيق والسلامة من الله سبحانه .. وأمر الرحيل على وشك الانتهاء منه .. فحضرة العميد يبذل الجهد الكبير لسفري إلى هناك .. ويسعى أن أدرس على حساب الحكومة الكندية .. لما لمس رغبتي بالبقاء هناك إلى حين طويل .. وقد دخل على الخط جراح أعصاب كبير اسمه ماجد عن طريق الدكتور ماهر طه جزاه الله خيرا

قالت لمياء : أسمعت به يا سمر ؟ أسمعت به يا نزار ؟

ردت سمر بابتسامة وهز رأس بالنفي وقال نزار : لم أسمع به ، ولا يعني أنني لم أسمع به أنه غير موجود .. الله يحفظنا من الأمراض الخطيرة .. آمين .. والإنسان كما تعلمين لا يستطيع معرفة كل الناس وكل الأسماء .. لو سألت هذا السؤال لمريض أعصاب قد يخبرك عنه الخبر اليقين

وضحك المهندس وتابع قائلا : ولو سألت طبيب عيون ، فهو يعرف عددا من أطباء العيون ويعرف أماكن عملهم وعياداتهم ، وربما مساكنهم وشوارع عياداتهم

لما صمت الشاب منتظرا تعقيبا على مرحه قالت سمر : المهم يا زهيرة أن القوم مهتمون بك ، والزواج تسربت إلينا معلومة صغيرة أن الدكتور ماهرا يسعى في أمر زواجك قبل السفر هل وجد لك القرين الصالح ؟

ابتسمت زهيرة وقالت ضاحكة : على ذمة الدكتور أن الزوج المناسب وجد

صاحت لمياء فرحا : ماذا ؟! هل تقولين ذلك حقا ؟!

ـ نعم ، وهو طبيب ابن الطبيب ماجد الذي تحدثت عنه قبل لحظات

ـ أرأيتم بعضكم ؟

ـ لا بعد ، لم أره لحتى الآن ، ونحن على موعد أيها الأعزاء .. يعني لا تنشروا الخبر قبل أن يتأكد الموضوع مائة في المائة .. وضحكت وقد أحمر وجهها وتابعت بعد التقاط نفس: هو طبيب متخرج حديثا ، ويعمل في أحد المشافي الحكومية، وعندما يكمل الحديث سأقول لكم أول الناس.. فأنتم من أعز الرفاق خلال هذه الشهور التي أمضيناها معا .

فقالت لمياء معبرة عن سعادتها لزهيرة : نحن سعيدون بسماع هذه الأخبار السارة.. أنت تستحقين كل خير وسعادة .. الحياة الأسرية جميلة يا زهيرة

فقالت سمر : إذن سنسمع قريبا خبر إشهار الخطبة بل الزواج

قالت زهيرة بابتسامة خجلاء : الزواج سيكون عند السفر .. إذا لم يحصل السفر سيؤجل الزواج إلى ما بعد الجامعة .. فالزواج مربوط بالسفر للدراسة .. هكذا تفاهمت مع الدكتور ماهر .. أنا قبلت الزواج كحل للسفر .. فزواج وجامعة هنا سيكون شاقا عليّ أتصور .. لأن الزواج سيتبعه حمل وولادة ورضاعة

قالت لمياء : نظرتك تشاؤمية للزواج يا زهيرة .. يبدو أن ابن عمك عقد حياتك

ـ قد يكون هو السبب .. ولكن لا تنسوا زيجات أمي أيضا

ضحكوا وقالت سمر : أوه ! صدقت عمتي تزوجت ثلاث مرات .. صدقي أن أمك طيبة ، ولا تتدخل في شأن أحد .. ولا حياة أحد .. لكن حظها مع الرجال لم يكن حظها طيبا .. كله قدر ونصيب

قال نزار : لا تنسوا أن والد زهيرة تزوج عندما أكمل الأربعين .. ولم تطل حياته رحمه الله

قالت زهيرة : عشر سنوات

فقال نزار : كأنهم عاشوا تلك السنوات فحسب .. كنت يا زهيرة صغيرة عند موته رحمه الله أقل من سنة ذكرت لنا ذلك ذات يوم ..

قالت : كنت بنت أربع سنوات ونصف يا نزار كنت في فترة ما قبل المدرسة ؛ ولكني لم أرضع حولين للهفة أمي على المزيد من الحمل .. أنا أعرفه إلى حد ما ، وربما أتخيله من مشاهدة صوره ردد الزملاء ترحمهم على زوج خالتهم مجدي حسن ، وبينما هم مستغرقون بالحديث .. وقد نسوا المغادرة مع سماع أخبار زهيرة ، وقد طلب لهم نزار المزيد من القهوة والمشروبات ، دخل القاعة طالب كلية التمريض أحمد ، وكانت تصحبه فتاة ، فقالت سمر بدون شعور مخاطبة لنزار : صاحبك معه صبية جديدة !

شاهد نزار ما شاهدته الفتيات فابتسم لسمر وقال : هو ليس صاحبي ،

وقد عرفته عن طريق جميل ، وقد أخبرني مرة أن رفيقه بطل حب ومغامرات نسائية في الجامعة

وقالت زهيرة بحدة : وجاسوس لميلاد

التفتوا إليها بدهشة ورددت سمر : جاسوس !

ـ نعم ، له أخ زبون عند ميلاد ، فطلبوا منه أن يتجسس عليّ

قال نزار : قد يكون هذا صحيحا ، فهو قد استلمنا فترة ، من قال لك ذلك ؟

ـ ميلاد .. كتب لي رسالة يتوسل فيها في أمر الزواج ، ثم اتبعها باتصال وزعم فيه أني أجلس مع الشباب في مطعم الجامعة ، وأضحك بصوت عال وقهقهة ، وذكرك ، وأنني أجلس مع شاب اسمه نزار .. وإنك قريب لي .. يتباهى أنه على معرفة واطلاع عليّ حتى ولو أنا في الجامعة

ضحك نزار وهتف : يا للسخف ! هزلت

ـ تكلمت مع ابن عمي حميد شريك ميلاد في المحل ، فأقر لي بجنون ميلاد ، وأنه ورط الشاب أحمد بتتبع أخباري .

فصاحت لمياء : هذا ابن عمك مجنون فعلا .. فعلا السفر أفضل لك من هذه الأشكال المريضة .. فعمك عادل ضعيف وعاجز عن وقفه عند حده .. وهذا الشاب سيء .. إذن يتردد على كافتيريا الطب من أجل هذه الغاية الدنيئة .

قالت سمر بامتعاض : هذا مؤلم !

قالت زهيرة: هذا كلام ابن عمي حميد نبيل ، ثم قال " نصحته كثيرا أن يبتعد عن طريقك ، وأن يتزوج ويعقل ؛ ولكنه يزعم أنه محب ، ولا يستطيع الحياة بدون ابنة عمه زهيرة "

قال نزار : صار يكتب رسائل ليزعم أنه يعرف عنك كل شيء .. إنه مريض نفسي وسخيف وفاشل .



وكانت زوجة الدكتور في استقبال زهيرة وعانقتها وهي ترحب بها في بيتها ، وهذه لم تكن أول مرة تدعى للغداء في منزل السيد ماهر ، التقت الآنسة زهيرة بالدكتور سامر ماجد في منزل الوصي ماهر ، فعرفهم على بعض ، وتناولوا الغداء على مائدته ، وشاركتهم زوجه اللقاء ، فأولاد الدكتور كثر ، فقبل زواج مجدي من هناء كانت ولدت له خمسة مواليد ، وأغلبهم متزوج ويسكن خارج البيت الخاص بالدكتور ، أو يعمل خارج البلاد ، وتحدث الدكتور الشاب عن دراسته الطب في جامعة القاهرة في مصر ، فهو خريج طب القاهرة ، وأنه كان يفكر بالاختصاص في بريطانيا ، وللحصول على الزمالة الإنجليزية قبل دخول الدكتور ماهر على الخط ، وأخر سعيه بالسفر لبريطانيا للعمل في مستشفيات الدولة ليأخذ الخبرة العملية قبل الرحيل ، وتحدثت زهيرة عن نفسها ببضع كلمات وعبارات ، وفي نهاية اللقاء أبدى الدكتور سامر للدكتور ماهر وزوجته عن قبوله الزواج بالفتاة إذا قبلت به هي ، وقبله أهلها ، وأمهلها الدكتور ماهر بضعة أيام لتشاور من تحب أن تشاوره من أهلها وأقاربها ، وسمعوها تقول : أنا لديّ طموح فعلا للدراسة في أمريكا أو كندا كما قيل لي إن الفرصة فيها أكبر .. فالزواج يا دكتور سامر أمر ثانوي وطارئ ؛ ولعل الدكتور شرح لك شيئا من الأمر .. لا تتضايق من صراحتي .

ضحك سامر وماهر ورد سامر : أبدا يا آنسة زهيرة لست منزعجا من صراحتك ، وقد حدثني الدكتور عنك بالتفاصيل ، وعن بعض ظرفك مع أقاربك خاصة أعمامك .. وأعلم أن الظروف هي التي تدفعك للزواج ، وأنت تدرسين دراسة طويلة الشهادة الأولى .. وهذا الفعل من الحكمة والصواب إن شاء الله .. فالغرب خطر جدا على النساء بسبب الحرية الكبيرة في مجال الجنس والعلاقات العاطفية وعدم الاهتمام مثلنا بقضية العفة والبكارة .. ولا أقول هذا الكلام مجاملة ومسايرة بل أسمع وأقرأ .. ولي قريبة أصابها سوء هناك بسبب الجهل في عادات تلك الشعوب .. حدثني الدكتور ماهر جزاه الله كل الخير هو وأم جواد .. حدثني أن دافعك للدراسة هناك الهروب من مشاكسات ابن عمك ، ورغبة في تحصيل الشهادة العلمية الغربية ، وحداثة الطب وسرعة تطوره ، فهذا سبب تعجيلك للزواج ، وذلك بناء على نصيحة صادقة من والدنا الدكتور ماهر وأهله .

قالت زهيرة والحياء يغمرها : شكرا لك ، والشكر للدكتور وزوجته .. وأنا شرفت بالتعرف عليك ، ومن حيث المبدأ .. الأمر لي شرعا وقانونا ، ومن حيث المبدأ أنا أقبل بالزواج من شخصك الكريم ، ولا أعتقد أن أحدا يهمه أمري من أهلي سيعترض .. ولكن لا بأس من التفكير كما اقترح الدكتور بضعة أيام لحسم الأمر والرد النهائي ؛ لأنه لن يكون بصراحة زواج إلا إذا كان هناك سفر .. وإذا لم يتحقق السفر فلن يتحقق الزواج بسبب الدراسة والحياة الزوجية .

فقال ماهر : نحن بالطبع نتفهم ذلك ، فالأصل السفر، والدكتور سامر العزيز واضحة له الصورة يا زهيرة .. ستكون خطبة بدون عقد العقد الشرعي .. هذا فهمته للدكتور وأبيه وهو تقبل الأمر .. أليس كذلك يا بني ؟

ـ لقد استوعبت الظروف المحيطة بالآنسة ، وستكون خطبة ؛ فإذا تقرر سفرنا نهائيا ، سيكون الزواج، ثم السفر فورا بإذن الله تعالى ، ورحلنا إلى طلب العلم

قالت الفتاة بصوت هامس : شكرا يا دكتور سامر .. أرجو ألا تتضايق من هذا التصرف ..

عليك أن تعذرني لأن الزواج طرح عليّ من أجل السفر إلى تلك البلاد

ـ لا حرج عليك .. وأنا أطمئنك أن الوالد يسعى جادا لتحقيق أهدافنا وسفرنا .. لكن قد تضطرين للدراسة من جديد بسبب اختلاف المناهج والترتيب عندهم .. رغم وجود مواد مشتركة في جميع كليات الطب عالميا .. لكن لكل بلد ترتيب خاص ، قد يتفق مع بعض البلدان، وقد يختلف كثيرا .. وربما يعتمدون بعض المواد لك وقد لا يعتمدونها

قالت : لا بأس ، لو عدت للبداية ودرست من جديد .. أنا كما يعلم العم ماهر راغبة بالخروج من هنا للدراسة وهربا من مضايقات ابن عمي الذي يعرف الدكتور عنه الكثير .. حتى وصل به الأمر أن يدفع أناسا ليتجسسوا عليّ في الجامعة .

فقال ماهر : ماذا ؟!

وبدت الدهشة على زوجته أيضا ، فذكرت لهم قصة رسالة ميلاد التي يعترف فيها بمعرفته مع من تجلس وتتحدث في الجامعة ليظهر لها اهتمامه بها زاعما ذلك فعلق ماهر : لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذا ازداد جنونا

وأخذ يقص على الدكتور تهديده لزهيرة بقتل من يتزوجها أو إيذائه حتى لا تتزوج غيره ، فلما انتهى من تلخيص القصة قال سامر باستغراب : أمعقول هذا ؟! هو يريد أن يحقق المثل البائد " ما ينزل العروس عن الفرس إلا ابن عمها".. أنا ظننت أن هذه الأقوال بادت في المدن وحتى الأرياف

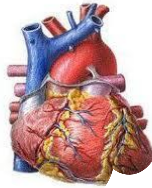
ضحك ماهر وقال : ما دام أن هناك من يفكر بمثل هذه العقلية لم تنته .. إن شاء الله ستتزوجون ؟ وتقهرون هذه العادات والأقوال ، وتهاجرون بأمن الله ورعايته

وتشعب الحديث والنقد بينهم حول العادات والتقاليد ، ما ينفع للمجتمعات الحديثة ، وما لا ينفع ، ثم طلبت الإذن بالانصراف ، فودعتها الأسرة والدكتور سامر ، ولما ابتعدت سيارتها عادوا للجلوس ثانية ، وانصرفت المرأة الأخرى قال سامر : أمجنون ابن العم هذا ؟

ـ لا تقلق يا سامر .. هذه القصة لها مقدمات .. فزهيرة كما ذكرت لك سابقا قد مات والدها

وهي صغيرة ، وجعلني وصيا عليها دون أعمامها ، وخاصة والد ميلاد هذا .. وهي قد ورثت مبلغا كبيرا من المال .. وكذلك أمها .. وطمع العم بثروتها ، فحاول الزواج من أمها ؛ ولكنه لم يوفق لرفض الأم .. ثم تزوجت الأم من شقيقي مروان ، ولم يوفقا بالزواج وانفصلا بعد سنوات ، ثم تزوجت من ضابط متقاعد ، وما زال الزواج صامدا .. ولما رأى الأب فشله أغرى ولده بالبنت التي شبت بزعم أنه ابن عمها وأولى بها من الآخرين .. فطلبها بعد المرحلة الإعدادية ، فاعتذروا بحجة الدراسة والتوجيهي ، ثم كرر الأمر بعد نجاحها بالثانوية .. ولما رأى قبولها بكلية الطب ، وأن هذه الدراسة قد تستغرق سبع سنوات ، وستصير طبيبة فجن جنونه وهددها بما تحدثنا لك عنه .. وهو شاب لا يحمل أي شهادة علمية ، يعمل مصلحا وفنيا للسيارات .. فهو يضايقها ويسيء إليها ، ولا أحد يردعه ويمنعه .. بل صار شجار في العائلة بسبب هذا الفعل .. وهي أهملته واشتغلت بجامعتها .. وأنا أتمنى لكما السعادة

وتصافحا للوداع وقال لسامر : سلم على الوالد والوالدة .. وإن شاء الله سنحتفل بكما قريبا



قامت السيدة هناء بالاتصال ببعض أعمام زهيرة مخبرة لهم بمشروع زواجها من الطبيب سامر ماجد ، وطلبت منهم إخبار شقيقهم الكبير عادل بذلك ، وكان أخوال زهيرة قد أخبرتهم هناء بالأمر ، وباركوا الزواج لها ولابنتها .

كانت العادة المتبعة في دكان حميد وميلاد لتصليح السيارات أن يصل ميلاد للمحل أول الفاتحين له ، فعندما يصل يفتح الباب الرئيسي للمحل بمساعدة الشغيل الوحيد معهم أو هو وحده ، فيفتح الباب الكبير ويبدأ بإخراج بعض أدوات العمل أمام المحل كبعض العدة ، والإطارات يعلق بعضها في أماكن مخصصة لها على جدران المحل الخارجية ، ويخرج أيضا بعض قطع التصليح ، ويأخذ بعمل إبريق الشاي الضخم ، ويبقى في عمل ترتيب العدة

وأدوات العمل حتى يصل بائع الكعك المحمص لقرب المحل ، فيتناول منه كعكات له ولحميد وللشغيل الثالث العامل معهم ، ويضع فيها البيض المسلوق أو المشوي أو الجبنة الصفراء أو الزعتر المدقوق أو الفلافل المعروف ، ويلتهي بالأكل وشرب الشاي حتى يصل شريكه أبو محمد حميد نبيل للمحل ويبدأن الشغل .

وصل حميد كعادته المحل ووجده مغلقا ـ وهذا من النادر ـ ولما يريد ميلاد التأخر لسبب ما يخبر حميدا بالهاتف أو في آخر نهار العمل ليأخذ باله ، فتعجب حميد من عدم فتح الدكان ذلك الصباح ، فهو لم يعتد على فتح المحل بنفسه من سنوات ، فعاد لسيارته القديمة يبحث عن مفاتيح الأقفال ، فحمد الله تعالى أن وجدها فيها ، ففتح المحل والسؤال " لماذا لم يفتح ميلاد اليوم ؟!"

ونشط في ترتيب المحل وإخراج ما يلزم إخراجه من المواد والأدوات الخاصة بالعمل واللحام ، ثم نادى على بائع الكعك القائم على رصيف الشارع ، واشترى ما يلزمه ، ونادى على بائع الشاي المتجول ، واشترى كوبا منه ، ولم يعمل الشاي في المحل ، وهو يردد " لماذا لم يأت المعلم ميلاد ؟!"

المكان تتوفر فيه المطاعم ومعامل الشاي والقهوة وحتى أن فيه مقهى للهو والمشروبات الباردة والساخنة ولجلوس الزبائن حتى تنقضي حاجاتهم من تصليح وصيانة ، وهناك محلات البقالة أيضا للمواد التموينية ، وإن كان غالب المحلات تتعلق بالسيارات صيانة وتجارة وبيعا .

وبينما هو منهمك بالأكل والشاي والحديث مع أصحاب المحلات المجاورة ، وهم يصبحون على بعضهم بصراخهم وهمومهم ، وأكثرهم يسأل عن ميلاد الذي يتصبّحون به أولا ، جاء الشاب الصغير الذي يعمل معهم فأرسله لبائع الكعك والشاي ، ولكن الفتى رغب بشراء ساندويتش فقال : اشترِ ما تريد .

وهؤلاء الشباب الصغار أغلبهم يترك المدرسة لعدم قدرته على التعليم، فيلتحق بمثل هذه المحلات ليتعلم حرفة يعيش من ورائها عندما يكبر ، فبعد أن اشترى الفتى طعام الفطور ،

وعاد للدكان انتبه لعدم وجود السيد ميلاد وذلك عندما أخذ يلبس ملابس الشغل ، ظن في البداية أنه ذهب هنا أو هناك ، ولما رأى ثياب العمل معلقة على مشجب أدرك أنه لم يحضر فصاح دهشا : أيه يا معلم حميد .. أين المعلم ميلاد ؟ إني أرى ثيابه معلقة على المشجب !

ـ لم يحضر يا سماحة .. من سنوات لم أفتح المحل بنفسي إلا مرات معدودات .. أنظر إلى التلفون هل فيه حرارة ؟ لأتصل بدار العم عادل .. قد يكون مريضا .

ثم ضرب بيده على رأسه وهتف بصوت مسموع : آه ، لقد نسيت لقد كانت خطبة زهيرة ليلة أمس .. المجنون متعلق بحبل الهواء !

عاد الصبي يقول : الحرارة موجودة يا معلم حميد .. هل أرن عليه ؟

ـ لا ، بعد ساعة نتصل يا فهمان .. ربما راحت عليه نومة عميقة .. ما هو المعلم هذه الأيام صاحب سهر وشلل .

فعقب الشاب أسفا : حال لا تسر يا معلم .. يدخن كثيرا ، ويمشي مع شلة شباب سمعتهم أسوأ سمعة .. أهمل ناس يأتون في المساء ويذهب معهم .. كلهم أهل سوابق وأصحاب سكاكين وخناجر .

ـ ما شاء الله يا سماحة ! .. إنك تفهم يا منحوس بالشلل والهمل .. لأي صف درست يا ولد ؟

ـ السابع مرتان ونصف الثامن وهربت نهائيا .

ـ كيف ترى الشغل معنا يا معلم يا صغير ؟

ـ لماذا الإحراج يا معلم حميد ؟ أنا عملت حدادا أول ما تركت المدرسة مع قريب لأبي ، وبعد حين نصحني بأن أبحث عن مهنة أخرى .. فعملت بنصيحته ، وعملت في محطة تنظيف وغسيل سيارات ، ولما قابلت ميلادا بالمحطة عرض عليّ العمل معكم فوافقت .. وأنا مرتاح معكم فعلا يا معلم حميد .

ـ مرحبا بك يا معلم سماحة .. المهنة تحتاج لصبر وعين مفتحة .. وأنا لن أبخل عليك بخبرتي .

ـ أشكرك يا معلم حميد يا بطل أنت أصيل .

ـ كم سيارة عندنا اليوم ؟

أشار لسيارة تقف أمام المحل وقال : هذه السيارة فقط .. هناك زبون أخذ سيارته وقال سأعود غدا يعني اليوم والله أعلم .. وواحد سيعود لنكمل له تصليح سيارته .. لم يرغب بمبيتها هنا مع أن الخراب في ماتورها ..

ـ هو خراب بسيط يمكنها السير .. سوف يأتي هو زبون دائم .

مضت ساعة وأكثر ولم يظهر ميلاد ، فاتجه حميد نحو الهاتف القابع في آخر المشغل ، وضرب رقم بيت عمه حيث يقطن ميلاد ، فردت امرأة أحد أبناء عمه الأولى أم ميلاد .. فالسيد عادل يملك عمارة من عدة طوابق يسكن في الطابق الأول منها هو وزوجاته خاصة أم العيال ، وبجواره عمارة أخرى يعيش فيها أولاده المتزوجون ، فاستغرب ردها على الهاتف فقال : بيت أم حسن

عرفته المرأة وأدركت دهشته فقالت : نعم يا حميد

ـ نعم ، حميد .. ظننت أني أخطأت النمرة .. ميلاد موجود .. هل ما زال راقدا ؟

ـ ميلاد لم ينم الليلة في البيت

ـ لم ينم في البيت ما الأمر ؟!

ضحكت كما سمع حميد وقالت مجيبة: يا سيدي عاد سكرانا للبيت ، وأخذ بالصياح والهدير أنه سيقتل زهيرة قبل أن يتزوجها غيره

ـ نعم ، نعم ، كانت ليلة أمس خطبة زهيرة .. نسيت حضورها المرأة مريضة كما تعلمين ذهبنا للمستشفى

ـ المهم رجع في غاية السكر والصراخ والتهديد .. فتشاجر مع أبيه وإخوانه ، وطرده عمي من البيت .. وها أنت تقول لم يحضر إليك .. الله أعلم أين ذهب ؟!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لقد جن الفتى .. نعم ، لم يحضر فظننت أن النوم غلبه .. على كل حال سلمي لي على عمي وزوجك والجميع

ـ مع السلامة يا حميد إذا التقيت به طمأن أمه عليه

ـ إن شاء الله

ووضع السماعة وقال : لا اله إلا الله محمد رسول الله .. بدأ يجاهر بسكره وعربدته .. الله يهديك يا ابن عمي .



وافق جميع أعمام زهيرة بما فيهم عادل على زواجها من الدكتور سامر ابن الدكتور ماجد جراح الأعصاب والدماغ المشهور على مستوى العاصمة ، والمدن الكبيرة الأخرى ، فهو رجل الطب ورجل الجمعيات الخيرية ، واتفقوا على أن يكون الزواج وعقد عقده الرسمي عند رحيل الشابين إلى كندا للدراسة والعمل للسيد سامر مع التخصص في جراحة العظام والكسور .

وأما ميلاد ففي ليلة الخطبة قضى ساعات وساعات في إحدى الحانات يعاقر المسكر ، وعند الفجر قفل راجعا للبيت في سيارة أجرة ، وهو في غاية السكر ، ودخل هائجا صاخبا وإعياء السكر عليه واضحا للعيان ، فلما استيقظ والده على صياحه طار عقله ، وغضب غضبا قاتلا ، وأخذ يرد على الصياح بصياح حتى أيقظ العائلة ، وربما الجيران ، وكان يقول لأمه التي استيقظت بدورها مرعوبة : ألم أقل لك أن ابنك صار سكيرا ، ويدخل يترنح كالسكارى ، وأنت تقولين أنه يترنح من التعب وكثرة النوم تحت السيارات لإصلاحها .

ثم انهال عليه ضربا ولطما ، فزاد الصياح والصراخ ، وشاركه أبناؤه ذلك الصفع والرفس ، وهو يصرخ ويسب عليهم ، ثم طرده عادل من البيت ، وطلب منه أن لا يعود للبيت حتى يترك السكر والفساد .

فمشى في الشارع وأخذ يبحث عن بيت يقضي فيه باقي ليلته ، وظل يترنح ويسب ويحبو في الشوارع والأحياء حتى وصل لأحد المنازل المعروفة له ، فلما شاهده الشاب بعد أن أدخله

البيت ، قال مفزوعا : ويلك من فعل بك الأفاعيل ؟ هل تشاجرت مع عصابة ؟!

ـ مع أهلي ، مع الملاعين أهلي .

قال : يبدو أنك ثقلت العيار الليلة .. شربت أكثر من اللازم

ـ شربت حتى انفجرت .. لقد أفرغت الكثير .. اليوم أتعس يوم في حياتي ، حبيبتي الوحيدة في الكون الليلة خطبوها لرجل .. أرأيت الغدر ؟

قال الشاب متهكما : حبيبتك الدكتورة زهيرة ابنة عمك الميت خطبت الليلة .. يا مسكين راحت عليك !

ـ لم ترح عليّ .. أنا أقسمت مليون يمين ، فلن تتزوج غيري .. فلن تتزوج إلا أنا.. أنا ميلاد .. لن أسمح لها بالسفر إلى أمريكا وأنا حي .. سأتزوجها أنا فقط

ـ وهل ستسافر هي إلى أمريكا ؟ ما رأيك بكأس قهوة ؟

ـ لا قهوة ولا حليب .. أرأيت غدر النساء ؟ بعد صبر طويل رمتني في الشارع وأخذت غيري ..أنا لي عشر سنوات انتظر ليلة الزفاف ، ولما وصلت اللقمة الفم تركتني .. أنا عنتر بن شداد فارس الميدان .

ـ اسمع خفض صوتك بعد قليل سيؤذن للفجر ، ويستيقظ أهلي للصلاة

.. لا أحب أن يعرفوا أنك هنا .. خفض صوتك .

ـ أنت جبان .. أنا قبل قليل ضربت أبي وإخوتي كلهم

ـ الحمد لله أنني جبان يا بطل .. يا عنتر بن شداد .. يا زير سالم

ـ نعم ، أنت جبان .. أريد أن أنام .. ألديك سرير آخر ؟

ـ هذا ليس فندق يا عنتر .

بعد إعلان خطبة زهيرة بأسابيع قليلة أخبر والد ماجد ابنه سامرا بحصول الموافقة النهائية على قبولهم في إحدى جامعات كندا ، وعلى تعاقده للعمل في أحد مستشفياتها للاختصاص الطبي ، والعمل فيه كطبيب ودراسة الاختصاص في قسم العظام .

وعلى الفور نقل سامر الخبر لزهيرة وأن أوراق الدخول والقبول في الطريق ، وأن عليهم مراجعة السفارة الكندية الكائنة في المدينة الكبيرة ، وقد فرحت الفتاة لهذا الخبر فرحا قاتلا كما يقال ؛ وكأن باب الجنة فتح لها ، وقد ظهر الفرح على محياها لجميع أفراد العائلة في بيت جدها، والكل دعا لها بالتوفيق والنجاح ، ولما اتصلت بالدكتور ماهر الذي فرح لفرحها ، وأعلمها أن الدكتور سامرا تحدث معه في ذلك ، وأنهم بعد وصول الأوراق اللازمة سيسعون لتنظيم حفل عقد الزواج والزواج نفسه ، فشكرته الفتاة لاهتمامه الدائم ، وأخبرت أمها بعدئذ بموافقة السلطات الكندية نهائيا على التحاقها بإحدى جامعتها هي وسامر ، وإنها ستسعى للحصول على أوراق جامعتها اللازمة لها من كشوف علامات وشهادات تزكية وحسن سلوك ، ووثائق لازمة ، وكذلك مراجعة السفارة ووزارة الخارجية لتوثيق الأوراق .

وأخبرت رفاقها في الجامعة سواء من زميلات الدراسة أو أقاربها الذين تجالسهم ، وقد فرحوا لها فرحا كبيرا ، وتمنوا كلهم لها التوفيق وتحقيق الأماني التي تصبو إليها من هذه الهجرة لعالم الغرب ، ودعوا لها بحياة طيبة في كندا ، وأخبرتهم بقرب اقترانها بسامر ، وهي تدعوهم للحفل ، فوعدوها خيرا .

وخلال أيام يسيرة حصلت على كل الأوراق الجامعية اللازمة للدراسة هناك ، ودفع لها العميد عميد كلية الطب برسالة خاصة لأحد زملائه في تلك الجامعة ولجامعتها تلك ، وطلب منها أن يتصل به ماهر عندما تستقر في تلك البلاد ؛ ليتحدث شخصيا مع ذلك الدكتور ، وأثنى عليها خير الثناء ، وتمنى لها التوفيق والعودة إلى للبلد والعمل فيها .

أعلن عن حفل الزفاف الذي سيكون في قاعة خاصة للحفلات ، وهي قاعة ممتازة ومهيئة للأعراس الفخمة والمناسبات الكبيرة ، وزعت بطاقات الدعوة ، وتقرر بقاؤهم شهرا واحدا في ربوع الوطن قبل الرحيل النهائي ، فاستأجر سامر شقة مفروشة في حي كبير من أحياء المدينة ، وهذا الحي حي فخم يسكنه الشخصيات الغنية والمهمة في البلاد من رجال أعمال وضيوف زائرين لزمن محدد .

وكانت الشقة المستأجرة تقع في الطابق الثالث من تلك العمارة التي تؤجر شققا مفروشة ، وتجهزت الشقة لتكون مخدع وعش زوجين لمدة شهر واحد .

وشارك أعمام وأخوال زهيرة في حفل زواجهم في قاعة اللؤلؤ الأزرق ، وقضى الناس سهرة طيبة لمدة ثلاث ساعات ، ثم ركبت العروس والعريس في سيارة خاصة في المقعد الخلفي ، وجلست أم زهيرة بجوار السائق الذي هو ابن عم للعريس ، وانطلقت السيارات المرافقة لسيارة العروسين إلى حيث تقع شقة سامر وزهيرة في الحي الموصوف آنفا ، وقد زينت الشقة بالورود والأعلام الملونة ، وانتقلت زهيرة للحياة في شقة خاصة بها لمدة يسيرة ، ثم السفر وشهر العسل في ربوع كندا في شمال القارة الأمريكية الشمالية ، وكندا بلاد كبيرة فيها جزء كبير من القطب الشمالي للأرض ، ومع كبر أرضها فهي قليلة البشر .

وعندما نهض العروسان لصلاة الفجر ، وبعد الصلاة بقليل رن جرس الهاتف عليهما ، فقال سامر وهو يترك سجادة الصلاة متجها للهاتف ومستغربا: من ؟ أمي أم أمك ؟!

هزت رأسها كأنها تقول " لا أدري !"

وكانت هي أقرب للسماعة منه فرفعتها قائلة " نعم"

ثم وضعتها بغضب وسرعة ؛ كأن أفعى أو عقرب لسعها ، فقال سامر منزعجا قلقا : من ؟!

ردت بانفعال : الشيطان

فهمس وقد فطن لشيء : ميلاد ؟! أليس كذلك ؟

- بلى .. ويبارك لي ويسخر مني

رن الجرس ثانية ، فرفع سامر الهاتف وقال بتوتر : نعم ، ماذا تريد ؟

- بارك الله فيك عقبال عندك .. لن تتزوج إلا زهيرة .. زهيرة تزوجتني أنا .. وسنغادر البلاد قريبا .. ما تبحث لك عن بنت حلال .. ستقتلنا أنت عاقل يا رجل

ووضع السماعة واستدار بجسمه كله نحو الفتاة وقال : أحمق فعلا هذا الشاب .. يهددنا بالقتل!

فقالت بخوف ظاهر : إن شاء الله أن يمشي هذا الشهر على خير .. هو أحمق ومجنون كما قلت .. وأخشى أن يتصرف بحمق وجنون

فقال سامر مشجعا لها ومحاولا رفع القلق : توكلي على الله ما هي إلا أيام .. وربما اتصل لينفس عن نفسه .. هل صليت ؟

ـ نعم ، قد صليت .. لكنني خائفة حقيقة يا سامر

ـ هل نخبر الشرطة ؟

ـ الشرطة ! وما سيفعلون ؟ هل يحبسونه ؟

ـ يوقفونه بعضا من الأيام ، أو يحذرونه من فعل شيء ضدنا

ـ وهل هذا يحقق لنا الأمان ؟ أنا لا أدري ماذا أفعل له ؟ كيف يفكر أن يتزوجني بعدما تزوجت ؟ هو أمي جاهل وأنا متعلمة

ـ عادات قديمة .. والتعليم ليس له قيمة عندهم .

أدرك سامر الخوف الذي أحاط بزوجته على أثر الاتصال المزعج في أول ليلة للزفاف ، وقضى النهار يشجعها ويدعوها ألا تكترث بما سمعت فقالت : المشكلة أن عمي والده لا يستطيع للأسف فعل أي شيء معه .. فقد ساءت سمعة ميلاد ، فأخذ بالسكر والعربدة والانحراف وإهمال العمل .. فليلة خطبتنا عاد للبيت في غاية السكر والشرب والصياح ، فتشاجر مع والده وإخوانه زاعما أنني السبب في انحرافه وفجوره ، أرأيت جنونه ؟! .. فأنا فعلا خائفة من فعله لشيء لنا .

ضحك سامر وقال مشجعا : ينفذ تهديده ويقتلنا .. لا تخشيه .. فبعد سفرنا القريب ـ إن شاء الله ـ سيعود له الهدوء ، ويبحث عن فتاة تناسبه .. فشرب الخمر لا يحل المشاكل كما يتوهم هو وغيره .. فأصدقاء السوء هم الذين يشجعونه على شربها زاعمين أنها تنسي الهموم والغموم .. وماذا بعد عودة العقل حال انتهاء السكر ؟!.. سخافة وجهالة .. فالشرب لا يحل مشكلة ، بل يضاعفها ويزيدها .. فمن العادات السيئة عند بعض الناس شرب الخمر ليلة الزفاف بزعم

القوة الجنسية في تلك الليلة .. فهذا غير صحيح ؛ إنما هو من تسويل وتزيين إبليس اللعين .. ربما الصحيح أنها تضعف القوة والطاقة الجنسية ؛ لأنها تؤثر على العقل وعملية الجماع رغم ما فيها من عاطفة وإثارة هي عملية أعصاب وعقل ودماغ .. وأعتقد أن الشاب شريب قديم .. وأعتقد أن انحرافه قديم .. فهذه الأماكن التي يعمل فيها يتردد عليها الفساق والحشاشون ، فمثل هؤلاء الفنيين يتلقون المهنة والحرفة بالعمل داخل هذه المحلات ، فالقليل من يدرسها ويتعلمها من معاهد متخصصة بالتدريب المهني ، فيتعلمون الحرفة عمليا فقط ، ومع الوقت يتحسن أداؤهم .. فتتكون الشلل والمجموعات خلال تلك السنوات ، وواحد منحرف يفسد بلدا .. ولا أعني أنه لا يوجد أناس محترمون جيدون بينهم .. بالتأكيد يوجد .. فعندما نذهب لتصليح سيارة نسمع هناك من الألفاظ القبيحة والنابية ما تقشعر له الأبدان .. لذلك يكثر تعاطي التدخين بينهم والمسكرات ، وبعضهم يتعاطى المخدرات والحشيشة .. فهي بيئة صالحة لهذا الانحراف .. عملت في قسم الطوارئ مدة ، فرأيت من هذه الحالات الفاسدة والتسممات ، وضرب الأمواس والأدوات الحادة .. فلست أنت سبب تعلقه بالشراب ، وربما لا تخلو حياته من النساء وبنات الهوى .. فخلال عملي سمعت قصصا لهم تذهل الأسماع .. نسأل الله العافية .. هوني على نفسك .. فسلبيات كثيرة تطرقهم في مثل هذه الأماكن .

فقالت بانقباض : وأنا مثلك مقتنعة بانحرافه قديما ؛ ولكنه اتخذني سلما أو شماعة يعلق عليها فساده وزيغانه وأعماله القذرة .. لأبدو أمام العائلة والناس أنني أنا الذي أوردته المهالك والمفاسد ، وقد سمعت بعض هذه الكلام من قريباتنا .. وكما قلت لك للأسف فعمي عادل كبير في السن اليوم وعليل ، فلن يستطيع منعه وخاصة أنه منذ أسابيع يعيش خارج البيت .. فأخشى أن تأتيه ساعة جنون ويرتكب فعلا مؤلما ليمنعنا من السفر ..

قال سامر : أين ستتعشى الليلة ؟ أتحبين مكانا معينا ؟ مكانا لك فيه ذكريات ؟

تبسمت زهيرة : قد تستغرب إذا قلت لك إنني لم أكن مغرما بالسهر خارج البيت أو النزهات الكثيرة .. كنت أحب أحيانا أن أجلس في حديقة عامة لتناول العصير أو البوظة .. ربما

مشاركاتي لرحلات المدرسة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .. حبب إليّ القراءة بالعربية والإنجليزية ، وكنت أحب أن أكون متقدمة في المدرسة في جميع المواد .. فوقتي كله في البيت ، لم أكن اجتماعية بشكل كبير ؛ لكن لما تملكت السيارة تغير الوضع شيئا ما ، فبدأت أتردد على بعض الزميلات وأحيانا آخذ أمي في جولة في شوارع المدينة ، وندخل مطعما مشهورا أو نجلس في حديقة لأكل المكسرات .. فأي مطعم تختاره أقبله .. الخادمة روجا ستتردد علينا خلال هذا الشهر في فترات الصباح لتنظيف البيت وخدمتنا .

ـ لا نحتاج لطهو هنا ، سيكون طعامنا كله من الخارج من الطعام الجاهز.. ما هو إلا شهر .. وسيمضي كما مضت غيره من الشهور .. ربما نحتاج فقط لقهوة وشاي وحليب فواكه طازجة .. وأمامنا جولات ودعوات هنا وهناك ، فأمامنا برنامج طعام حافل من الأخوة والأخوات يا قرة العين .. أنت رائعة يا زهيرة وإنسانة مسالمة وطيبة وقليلة الكلام على غير عادة النساء .. يحببن الثرثرة والرغي !

ـ شكرا .. الحمد لله الذي أكرمني بك زوجا وسيدا .. وعسى أن أكون الزوجة الصالحة اللائقة بالدكتور سامر ماجد .

استقبل العروسان أصيل ذلك النهار السيدة هناء وشقيقها يسري وزوجته ، وكانت روجا بصحبتهم ، وقد جاءت هناء تبارك للعروسين في أول أيام زواجها ، وكانت تحمل لهم الحلوى والفواكه الطازجة ، واحتضنت الأم ابنتها مهنئة وداعية لها بالخير والذرية الصالحة ، ثم صافحت زوج ابنتها الذي كان يقف مرحبا بهم ، وقد تلقى التهاني من خال زهيرة ، وعانقه كعادة أهل المدينة هنا ، ولما انتهت هناء من معانقة ابنتها وتحولت لصهرها ، صافح يسري زهيرة وقبلها من خديها ، وبارك لها ، ودعا لها ، وكذلك فعلت زوجته ـ فهم كانوا لها الأهل ، كانوا يقدمون لها الطعام والفواكه كلما أرسلوا منهما شيئا لأمه ، فكانت من ضمن العائلة رغم استقلاليتها، وكانت زهيرة أيضا تحب خالها يسري وشدته وصرامته ، ولا تنسى موقفه الحاد من انفلات أمها في يوم من الأيام ـ وجلسوا في صالة الشقة بعدما باركت روجا

لسيدتها ، وأدخلت الأغراض للمطبخ ، وأخذت تهيئ لهم الشراب والحلوى التي احضروها معهم ، وغمر الابتسام والضحك زهيرة وقرينها ، وقالت زهيرة لأمها : ها أنت تريني عروسا يا أمي .

قالت هناء : أنا أسعد الناس بزواجك يا عزيزتي الغالية.. فأنت حياتي وقرة عيني .. ومن أعماق القلب أتمنى لك الخير والسعادة .. فمبارك عليك سامر وأنت مباركة عليه .

تمتم سامر : شكرا لك يا حماتي الطيبة .. زهيرة في عيناي وقلبي . وأشار بسبابته لعينيه وصدره وبينما هم مسرورون بالحديث رن الجرس من جديد ، فنهض سامر لفتح باب الشقة ثانية وهو يقول للضيوف: لابد أنها أمي .

ومشى إلى الباب تتبعه زهيرة ، وفعلا كان القادمان الدكتور ماجد وقرينته قادمين للتهنئة والتبريك ، وتعانق ماجد وابنه وهنأه بالزواج ، ثم تحول معانقا لزهيرة ، وتحول سامر مقبلا لأمه، ورادا على تهنئتها ، واحتضنت الأم كنتها الجديدة ، ومشوا إلى الصالون حيث رحب الضيوف بعضهم ببعض ، والكل يهنئ الآخر ويشكرون الله تعالى الذي جمعهم ، وألف بين قلوبهم ، وأصبحوا أسرة واحدة بهذه المصاهرة .

ولما تناولوا شيئا من المطعومات والمشروبات استأذنت هناء وشقيقها من الدكتور ماجد وقرينته ، ومن الدكتور سامر وقرينته، وأوصلوهم لباب الشقة مودعين وشاكرين .. وبعد حين يسير استأذن ماجد وزوجته رغم إلحاح العروسين لهم بالبقاء والعشاء معهم ؛ ولكنهم أصروا على الانصراف ، وأنهم سيدعونهم للعشاء معهم خلال أيام ، فقدم سامر الشكر الجزيل لوالديه ، وفعلت زهيرة مثله ، وتعانقتا ، وغادر الضيوف البيت ، وأغلق سامر الباب بالمفتاح وقال لزهيرة : انتهت زيارة اليوم ، فهذه زيارات تقليدية واجتماعية اعتاد عليها الناس والآن متى سنخرج للعشاء والسمر ؟

ـ نهار الشتاء قصير في بلادنا فلننتظر حتى نصلي العشاء ، ثم نخرج لأي مطعم تراه مناسبا لعروسين جديدين مثلنا .

قبل الرجل امرأته وقال : أنا سعيد بحبك وقلبك يا زهيرة .

ـ وأنا مثلك ، فأنت الرجل الأول في حياتي .. لم أعرف عبث الفتيات أيام المدارس ، بل كنت أتضايق من قصصهن ومغامرتهن .. ستر الله عليهن .

ـ أنت فاضلة يا زهيرة .. لقد عشت في بيئة جيدة وسليمة ..

ـ صدقت .. فمنذ عدنا من الخليج عشت مع دار جدي .. وخالي يسري

الذي غادرنا قبل قليل .. فهم قوم يخافون الله .. فجدي فلم يكن يقطع فرضا من الصلاة دون الجامع وكذلك خالي يسري وأولاده .. فالصلاة عمود الدين وعمود البيت فعلا .. كان لا يتهاون مع الأولاد في الصلاة .. وكذلك البنات .. وأمهم كذلك إنها معلمة متقاعدة ومربية محترمة .

صلى الزوجان المغرب جماعة بعد مغادرة ضيوفهم ، وأخذوا يستعدون لصلاة العشاء الذي أزف ، ونهضت زهيرة للوضوء ، ولما انتهى المؤذن من آذانه آخذا بالصلاة معا مرة أخرى ، ثم غيرت الفتاة ملابسها ولبست ملابس الخروج ، ولبس سامر بذلته أو جاكيت البذلة حيث كان لابسا بنطال البذلة أثناء استقبال الزوار وقبل أن يفتح سامر الباب للخروج ، وقد تفقد مفاتيح سيارته قال وهو ينظر لثياب زهيرة : لماذا لا تلبسين الجلباب الشائع لدى الفتيات المتدينات اليوم ؟

ضحكت وقالت : لبسته مرة ، ولم ارتح للمشي والخروج فيه .. وهذه ملابس شرعية ، فالثياب الطويلة والساترة للجسم هي ثياب شرعية كما سألت عنها بعض الفاضلات ، فهي واسعة ولونها سادة يا سيدي ، وتعجبني العباءة الخليجية ولكنها غير شائعة في بلادنا كما ترى .. القليلات من يفعلن ذلك ، ربما تعودن عليها هناك أثناء حياتهن في السعودية أو الكويت .. هيا .. واعلم أن هذه الثياب افصلها تفصيلا حتى تكون واسعة وغير ضاغطة على البدن .. فأنا ممتلئة البدن كما ترى ، وأراعي شروط اللباس الإسلامي قدر الإمكان .

ابتسم لها وقال : جميل ! إذن أنت مثقفة دينيا.

ضحكت وقالت وهما يغلقان باب الشقة ليهبطا الدرج : الحقيقة لا .. لكن أقرأ واتصل بالهاتف مع بعض المثقفات والناشطات دينيا .. قراءة سريعة وعسى أن يتيسر لي التوسع في الثقافة الإسلامية .. وقد لمست أنا ثقافتك الدينية والعلمية صباح اليوم خاصة عندما تحدثت عن مساوئ الخمر ، وأسباب الانحراف، وذكرك المزاعم التي تلصق بالخمر تدل على اطلاع جيد .

ـ لا أعتبر نفسي متدينا كالشباب الملتزم .. كان معي في الجامعة في مصر فريق من الشباب المتحمس دينيا والملتزم بمعنى الكلمة .. التيارات الإسلامية في الجامعات العربية تيارات قوية ونشاطهم دائم ومستمر .. فأتيح لي الجلوس معهم ومجاورتهم وسماع مناظراتهم .. وطلبة الطب يملكون الكثير من الثقافة الفكرية الإسلامية .. ثقافة ممتازة فاستفدت منهم ، واضطررت للقراءة لمعرفة أفكار الجهاديين وغيرهم .. فنشاطهم قوي رغم كثرة رجال المباحث والمخابرات في الجامعة .

وصلا الشارع الذي يمر من أمام العمارة وهو شارع فرعي ، وكانت تقف في موقف العمارة سيارة كل من سامر وزهيرة من قبل يوم العرس ، وقفت زهيرة على رصيف العمارة ريثما يخرج سامر سيارته من موقفها الخاص بجوار العمارة حيث يوجد لكل شقة موقفا للسيارات ولما ركبت زهيرة بجانبه انطلقت بهما السيارة للعشاء في أحد المطاعم المعروفة لسامر ، ولما تجولا في الحي والمنطقة عدة جولات خرجا للشارع العام حيث الأماكن السياحية من المقاهي والنوادي والمطاعم ، فدخلا أحدها وفي قسم العائلات وجدا مائدة فارغة ، فجلسا إليها ، وقدم لهما الطعام الذي طلباه ، وبعد تناولهما ما قدم لهما من أكل وشراب غادرا المطعم مسرورين ، ويغمرها الفرح والشبع، فلما جلسا في السيارة قال سامر : الآن إلى المنتزه نجلس فيه ساعة ما دمت تحبين الجلوس في الحدائق العامة

ـ شكرا لك ، وهذا لطف منك يا سامر

وانطلق إلى الحديقة الوطنية وهي من الحدائق الواسعة في المدينة ، وركن السيارة قرب الحديقة

وزلفا للحديقة ، وبعد مشي استغرق عدة دقائق وجدا مقعدا خاليا ، فجلسا يستريحان عليه، وذهب سامر بعد قليل واشترى لبا ومرطبات وبعض الترمس اللؤلؤ الأصفر وأخذا يقزقزان ويشربان ويتسامران ويعلقان ، ولما انتهيا قال سامر مداعبا لزهيرة وهو يقف : أرجو أن تكوني قد نسيت بعد هذه الجولة تلفون الصباح .

ـ أحاول أن أنسى .. إنه هاتف مزعج ومخيف ، احتاج لأيام حتى أنسى .. عندما تشاجرنا مرة وأعلنت رفضي الصريح له هددني ، فظللت أشهرا حتى نسيت تلك الدقائق المرعبة في حياتي .. يومها أحسست باليتم والضعف ؛ لأن أخوالي رغم حبهم لي لا يستطيعون التدخل بشكل جاد ، فأولئك أعمامي .. خاصة أن المشكلة مع عمي وابنه .. عمي الولي شرعا عليّ كما قيل .. وحمدت ربي كثيرا أن أبي لم يجعله وصيا عليّ وعلى ميراثي .. كنت أتخيل لو كان هو الوصي عليّ ما تعلمت لأخرجني من المدرسة صغيرة بحجة لماذا تتعلم المرأة وهي مصيرها الزواج والخلفة يعني الإنجاب .. وقلت ولربما لو طلبت مالا لعمل لي قصة وحكاية

فعلق سامر متأملا وهما يغادران المكان : رحم الله أباك كان يعرف أخاه الكبير معرفة جيدة ، يعرفه حق المعرفة .. والغريب أنه اختار الدكتور ماهر طه

ـ هم أصدقاء من أيام الجامعة ، وظلت العلاقات متصلة رغم هجرة والدي للعمل في الخارج



لقد كان حفل زواج زهيرة حفلا بهيجا لحاضريه ، ولم يكن حفلا إسلاميا إذا صح التعبير بذلك ، لقد تخلله موسيقى حديثة ، واختلاط نساء ورجال أو كل عائلة على مائدة خاصة بهم ، ولقد كان الحفل يوم الجمعة ليلة السبت ، وذكرنا أن ميلاد عادل اتصل مع صلاة الفجر مهددا ومتوعدا للزوجين ، هو لم يذهب للحفل كباقي أفراد الأسرة مشاركا مباركا ، بل نهاه والده عن الذهاب إلى الحفلة خشية أن يرتكب حماقة كبيرة أمام الحاضرين والمدعوين من العائلات والأسر الأخرى .

وكان الشاب بعد الخطبة بزمن يسير قد تصالح مع العائلة بشفاعة حميد نبيل شريكه في المحل ،

ولكنه لم يهجر السكر والخنا ، وكان يتحاشى أن يعود للبيت والسكر غالب عليه ، فكان يقضي فترة سكره عند رفاق السوء والعصبة التي ترافق معها أو في المقاهي والشوارع ، ويتسلل للبيت تسللا آخر الليل أو عند نصفه .. فقد خصصت له حجرة في البيت الكبير منذ عهد ، فالعمارة تتكون من عدة طوابق أنشاها الوالد وبعض الأخوة الكبار لميلاد .. فكان الطابق الأول أو الأرضي لعادل وزوجتيه أم ميلاد وضرتها ، وهو يتبادل المبيت بينهنّ حسب أوامر الدين والقسمة بين الزوجات، وكل أبنائه من زوجته الأولى تزوجوا ، ولم يبق إلا السيد ميلاد في البيت بغير زواج وأبناء السيد من المرأة الأخرى .

كان يتسلل للبيت بعد منتصف الليل كاللصوص، أحيانا يلتقي بأمه ، وأكثر الليالي لا يلتقي بأحد ؛ لأنه يأكل الغداء والعشاء في العمل والشغل .

لم يذهب السيد للحفل مع الأسرة ، فذهب للخمارة وقضى شهوته من الشراب المحرم ، وقد رافقه أحد أفراد شلته الفاسدة ، وجلسا بعد تعاطيهم الخمر في أحد المقاهي التي يرتادها الناس للعب أوراق اللعب التي تسمى " الشدة " ، ثم تعشى في مطعم قريب بجوار المقهى ، وهو لم يأكل سوى لقيمات ، وغادر ورفيقه بسيارة أجرة يعرف صاحبها ، أخذه إلى صالة العرس عرس زهيرة ، ووقفا في مكان يريان منه الصالة ، وربما سمعا صوت الموسيقى والحفل الذي أقامه العريس ووالده ماجد ، وكان يرى الداخلين والخارجين من الحفل الذي كان يحلم أن يكون حفله ، وشاهد الناس وهي تخرج جماعات وأفرادا في نهاية الحفل ، وشاهد سيارة العروس المزينة بالورود والأزهار والزينة ، ورأى كيف خرج العرسان على أصوات الموسيقى والطبول الصغيرة والدفوف ؟ وفرقة غناء تزف العروسين ، فكان يقول لصاحب السيارة : كان يجب أن يكون هذا الحفل لي ، لولا غدر النساء .. آه ما أغدرهن! .. عمرك أن تُؤمن لامرأة .. تنتظر سنينا ثم تأخذ غيرك .. هذا ما فعلته ابنة عمي .. اصبر .. اصبر حتى أنتهي من التوجيهي اصبر حتى أنتهي من الجامعة .. وقبل أن تنهي الجامعة وجدت فارسا جديدا سترى وتسمع ماذا سأفعل بها ؟

وظل يراقب المكان حتى تحركت سيارة العروس ، وأخذ الناس بالتلاشي رويدا رويدا فقال للسائق : اتبعهم ، وتبعهم حتى وصلوا العمارة التي يسكنها الزوجان ، ونزل من السيارة وتمشى أمام العمارة عدة أشواط على قدميه حتى تحدث معه البواب وسأله عن سبب تمشيه في هذا الوقت من الليل ، فابتعد من غير أن يرد بكلمة ، ثم عاد للحانة برفقة سائقه وصاحبه ، وجلس يعاقر الخمر بعد انصراف صاحبه والسائق الذي أخذ منه عددا من الدنانير ، وأخذت الخيالات السوداء تتأرجح في رأسه ويقول لنفسه تحسرا وألما " أصبح لك زوج يا زهيرة .. يا خائنة !.. غدرت بحبي الكبير لك !.. لم أستطع فعل شيء .. أنا جبان .. جبان وصرخ بها فسمعه الخمار ومن يجلس في المكان فالتفتوا إليه فقال له الخمار : إيه يا معلم من تخاطب ؟!

فصاح : أخاطب نفسي يا معلم ...

وعاد يردد لنفسه " ضيعت عمري وراء السراب .. لقد حلمت بك كثيرا يا زهيرة بين ذراعي حلمت بك زوجة وحبيبة .. لماذا غدرت بي ؟! .. ها هو قد اختطفك مني ..الحبيب الجديد

وغادر الحانة مع الفجر ، ولكنه قبل المغادرة اتصل بشقة زهيرة متوعدا ، وكان قد حصل على الرقم بواسطة رفيق له زعم للبواب أنه يرغب باستئجار شقة ، فأخذ رقم البواب ، فاتصل بالبواب طالبا رقم تلفون الشقة التي نزل بها الدكتور سامر زاعما أنه يتعالج عنده ، ويريد أن يسأله سؤالا طبيا ، فذكر البواب الرقم الخاص بالشقة ، وذكر له عند الاتصال أن الطبيب في حفل زواجه.

رجع ميلاد للبيت وهو سكران ، وتسلل لحجرته وطرح نفسه على سريره ، وهو في غاية التعب والألم والحسرة ، ولم يذهب للعمل يومها كما حصل له ليلة الخطبة منذ أسابيع مضت ، ولما انتصف النهار تحدث حميد مع بيت عمه سائلا عن شريكه ، وقد أدرك أن الرجل قضى ليلة سوداء في الحانات والمقاهي ، فدخلت أمه حجرته موقظة له ، وهي تتمتم " الله يسامحك يا زهيرة .. فرطت في ابن عمك .. كان يجب أن تكون ليلتك يا ولدي "

ولما أخذت بإيقاظه ثرثرت قائلة : يا الهي عفوك ورضاك ! اللهم اهده وتب عليه .. رائحة

الخمر تملأ الحجرة .. حتى سكر مثل السكارى لا يعرف يسكر

وكان يسمعها بتثاقل فتابعت بضيق " ألا تفكر بترك الشيطان والمنكر يا ولد ؟"

جلس على حافة السرير وأشعل سيجارة وقال : ألا لعنة الله على النساء !

قالت أمه : حرام عليك .. فالنساء أمك وأختك وعمتك وخالتك

فقطع عليها قائلا : رأيت زهيرة تزف لرجل غيري .. اليوم أصبحت امرأة لغيري .. ذهبت بكارتها .

ـ من زمان قلنا لك انسَ وقلنا انتهينا من ابنة هناء .. انتبه لحالك .. ها هو حميد لديه ثلاثة أطفال وامرأته حامل في الرابع .. وها هو يسأل عنك لولا هاتفه لظننّا أنك في الورشة

فصاح ناقما : أنتم السبب في تعلقي بها .. زهيرة لك .. أول ما تكبر سنطلبها لك .. زهيرة لك حتى صدقت ذلك

ـ كلام فارغ .. كل شيء قسمة ونصيب .. ناس تخطب وتكتب العقد ثم يحكم النصيب والقدر فيفترقان .. نحن كان لنا رغبة بأن تتزوجها ؛ ولكنها رفضت الزواج .. وكان عليك أن تبحث عن غيرها .. وبعد سنين كررت الرفض وأنت المصر على الزواج منها

خرج للحمام واغتسل بالماء البارد كعادته رغم فصل الشتاء ، ثم اتصل بحميد واعتذر عن الشغل والدوام ، ودخل المطبخ وأكل ما وجد من طعام في البراد (الثلاجة تسمى في بلادنا) ، وشرب قهوة صنعتها له أمه ، وعاد لحجرته لينام ويخطط ويدبر كيف ينتقم ؟



عبث

رن هاتف الشقة عند فجر يوم الأحد ، فتطلع الشابان بعيون بعضهم ، وابتسم سامر لها وهمس : إزعاج ثاني ؟!

فقالت وهي متأكدة من الإجابة : أتظن أنه هو ؟ عبث صبيان .

رفع السماعة وقال " نعم " فسمع صوت لعن وسب فأغلق السماعة وقال : لابد أنه هو .

ـ ماذا قال ؟

ـ لعن وشتم وكأنه بصق على التلفون

فصاحت بتوتر : يا له من حقير !

ـ لا تهتمي ولا تكترثي عندما نرحل سينتهي من حياتنا .. هل صليت الفجر ؟

ـ نعم ، ولي رغبة بالنوم ، فسيأتي بعض الأقارب كخالاتي أو بعضهن للمباركة والتهنئة .

ـ يا أهلا بالجميع .. وقد تمر أيضا بعض أخواتي كما أشارت أمي أمس .. سأتصل بالمطعم ليرسل لنا الطعام حسب الاتفاق بيني وبينهم .. وسأوصي على الحلوى " الكنافة " .. وقد أنزل لشراء علب العصير والمثلجات .

ـ روجا ستأتي هذا النهار لتقوم على خدمة الضيوف ..

وغمر الصمت المكان حتى قالت : أليس هناك فكرة للخلاص من إزعاج هذا الشرير ؟.. أخشى أن يستلمنا طول المدة

ضحك سامر : تصرفات صبيانية .. ونحن بحاجة لبقاء التلفون .. الطفل عندما يفقد لعبة يبدأ بالمشاكسة لاسترداد اللعبة .. فالشاب الذي أقنع نفسه كل هذه السنوات بأن يتزوج منك يتصرف في رأيي مثل ذاك الطفل الغرير .. هو مجرد تشويش .. هداه الله صدقا من قلبي .. أراك ناعسة فعودي للنوم .. سأقرأ بعض الصفحات من كتاب الله العظيم ، لي أيام لم أقرأ منه ما تعودت على قراءته

قالت وهي تنهض : أتحب أن أعمل لك القهوة ؟ أو نسكافيه ؟

ـ شكرا ، لما تستيقظي نشربها سوية

دخلت غرفة النوم لعلها تنام ، وأخذ سامر يقرأ القرآن الكريم بصوت مسموع وإن لم يكن عاليا .. فرن الهاتف من جديد فلم يرد عليه وتجاهله .. وخرجت زهيرة تقول : إنه يرن .

فنظر إليها باسما وقال : دعيه يرن .. فالإهمال أحيانا يكون دواء ناجعا

ـ قد لا يكون الشرير !

ـ ليس مهما .. فليس من المعتاد الاتصال بي باكرا إلا لأمر ضروري ومهم

ـ حسنا ، سأذهب للمطبخ ، لقد طار النوم .. قهوة أم نسكافيه ؟

ـ قهوة لننشط أعصابنا بعد هذا التوتر

بعد دقائق عادت بالقهوة والفناجين ، ولما جلست أخذت تملأها بالقهوة وتقول : ما زلت خائفة من جنونه يا سامر !

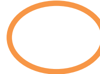
ـ إنه لن يفعل شيئا .. فنحن نعرف بعضنا أكثر من شهرين.. هو من سني

ـ تقريبا عمره حوالي ست وعشرون سنة

ـ ولم يتزوج بعد ؟

ضحكت وقالت : يتزوج كيف؟! وهو كان يأمل بالاقتران بي

ـ أضاع الكثير من سنوات العمر في الوهم ؟



وصل ميلاد مكان العمل متأخرا ، وكان غاضبا ومتوترا لفشله بإسماع صوته لزهيرة ، فلما سلم على حميد وسماحة العامل الصغير معهم ، وكان هناك زبون يصلحون سيارته يقف مع حميد ، وكان حميد ساخطا على تأخره ؛ لذلك ما أن سمع ميلاد يقول " معذرة يا حميد على تأخري .. تعرف ما أنا فيه من هم وغم " حتى ثار حميد وقال بحدة ظاهرة للسامعين : أنت ضيعت نفسك يا ابن عمي .. أنت أوهمت نفسك بما تسمونه الحب .. حب من طرف واحد ، هل هذا حب؟! ها هي قد تزوجت المحبوبة ، وستسافر خلال أيام أو أسابيع ، وننتهي من

زهيرة وحكايات زهيرة .. فعليك أن تهتم بصحتك ونفسك ، وتهتم بعملك يا عم ميلاد

فصاح ميلاد بعد صفون : محاضرة على الصبح يا حميد

ـ يا رجل أي صبح ؟! قربت الشمس تغرب ..وثانيا لم تعد المحاضرات تجدي، ولم تعد تنفع مع حضرتك .. إنك تهمل كثيرا العمل وتنصرف مبكرا

فصاح ميلاد : أتريد أن تفك الشركة ؟

ـ إذا استمر هذا الحال فستنفك الشركة .. ذلك أفضل .. المحل يعيش على السمعة الحسنة يا معلم .. سمعتك تسوء في (الكراجات).. وهذا يؤثر على العمل هنا

فصرخ ميلاد غضبا : خلاص سنفرط الشراكة التي تؤثر على العمل .. أنت منذ زمن تسعى للانسحاب .

ضحك حميد سخرية وقال : لماذا أنسحب ؟! .. أنا أعطيك حصتك ، وابحث لك عن مكان آخر .. أنت لم تعد ميلاد الذي شاركته الرزقة والعيشة .. قل لي منذ شهر .. منذ خطبت زهيرة .. ماذا فعلت؟ ماذا اشتغلت ؟ بل من قبل ذلك .. تفك برغي أو برغيين.. تعال يا معلم سماحة كمل الشغل ـ ورمى بعصبية (زردية) على الأرض ـ وأخطاء كثيرة حصلت وأنت تصلح يا معلم ميلاد .. كم شخص شكى منك ؟

ـ ألا تريد أن تتركني في حالي حتى تهدأ نفسك ؟

ـ يا رجل .. البنت ربك ستر عليها ، وتزوجت طبيبا وهي ستصير طبيبة مثله .. ووالده وأسرته أغلبها أطباء .. أنا سأمهلك أسبوعا واحدا لتعود إلى ميلاد الذي عرفته وشاركته الورشة .. دعك من الخمر والزنا .. أنا صابر عليك .. فالإشاعات الدنيئة تحوم حولي من وراءك .. وكل أعمامك وأقاربك يعرفون سيرتك السيئة ، وإنك تقضي آخر يومك في الخمارات والملاهي

صاح ميلاد في الولد الذي كان يسمع العراك الكلامي بين صاحبي المصلحة : اذهب يا ولد واعمل قهوة.

وكان خلال هذه المشاجرة الكلامية يدخن سيجارة تلو سيجارة ، فحجته للدفاع عن نفسه أمام حميد ضعيفة ، فقال في النهاية مستسلما : أمهلني بضعة أيام يا معلم حميد لعلي أعود لنفسي ، لم أكن أرى ابنة عمي إلا زوجة لي .. كنت مجنونا .. كنت غبيا

ـ سأتحملك أسبوعا واحدا ؛ فإذا لم يتحسن وضعك في العمل والدوام فليس لنا إلا الفراق ، وأنا تحدثت مع والدك بهذا الأمر فقال "افعل ما تراه مناسبا ، فلم يعد ميلاد الابن الذي نفتخر به .. أوقف حياته على وهم ، على امرأة رفضته وهي طفلة .. يزعم أنه محب لها ولهان بها "

ـ أبي قال كل هذا ؟

ـ أبوك .. وكل الناس .. أنت لا تصحا إلا ساعة من الزمن عندما تأتي إلى هنا لتدور وتلف بين السيارات والمحلات ، ثم يأتيك الفرسان .. يا حميد سامحني إني تعبان سأذهب مع الرفاق

ـ قلبك حامل عليّ

ـ قلبي ليس حاملا عليك .. هذا عمل وشغل يا ميلاد لا أنا أعتمد عليك ، ولا أنت تعتمد عليّ .. العمل يحتاج لجهد ونصب ووعي

ـ حسنا ، أسبوع واحد ، وإما أن نستمر سوية ، وإما نتفاهم على قسم المصلحة

جاءت القهوة وسكبت في الأكواب وقدمت للجميع وقال حميد : عليّ أن أصبر أسبوعا يا ابن عمي الذي كان الأخ والصديق .. إننا أناس نعيش على سمعتنا يا رجل .. البنت تزوجت فعليك أن تعود لعقلك ، وتتزوج وتترك الفواحش والخمور وحتى الدخان

قضت زهيرة وزوجها سامر أياما في المشاركة في تلبية دعوات غداء أو عشاء عند أشقاء وشقيقات سامر ، ودعتها أمها للغداء في بيت جدتها أم فوزي ، ووالد سمر زميلتها في الجامعة ابن شقيق أمها دعاها كذلك لوليمة صغيرة ، وأخوالها فعلوا ذلك ، واعتذرت عن جميع دعوات أعمامها لضيق الوقت ، وهذا من التقاليد الاجتماعية دعوة العرسان لتناول الطعام عند المقربين من الأخوة والأخوات .

وذات ليلة وهم راجعون من تلك السهرات ، وقد دخلوا الشارع المؤدي لعمارتهم اندفعت

نحوهم سيارة مسرعة صدمت الجهة التي تجلس فيها زهيرة ، وظلت مستمرة في سيرها ومبتعدة عنهم ، وكان سامر لمح في اللحظة الأخيرة اندفاع السيارة نحوهم فأبعدها ناحية الرصيف ، فخفف من صدمها للباب الأمامي حيث زهيرة تجلس ،ومتقدما للأمام فجاءت الضربة في الباب الخلفي أكثر من الأمامي ، وأوقف السيارة ، ولكن السيارة المتهورة قد اختفت لم تتوقف ، والشارع عادة قليل السيارات لأنه شارع جانبي أمام العمارات ، وليس بشارع عام ورئيسي ، وسامر كان على يسار الشارع ليتوقف أمام رصيف مدخل العمارة ، فتوقفت سيارة كانت خلف سامر ، ونزل سائقها يقول لسامر الذي خرج من سيارته بدوره : الحمد لله على السلامة .. هل حدث ضرر ؟ يبدو أنه متعاطي أو سكران .. فكانت سرعته في هذا الشارع سريعة مثل الصاروخ .

قبل أن يرد سامر على الرجل فتح الباب من جهة زهيرة ، ورغم تعرضه للصدم فقد فتح وقال لها : الحمد لله على السلامة .

بالطبع كان الرعب والخوف يغمرانها وظاهران على وجهها ، والصفار واضح على نور الأعمدة الكهربائية المتوفرة في الشارع ، ثم استدار سامر للرجل وقال : الحمد لله ، لم تصب المرأة بشيء ، إنها جاءت الضربة في الحديد .

ـ هل تحتاج لمساعدة ؟

ـ شكرا .. البيت هنا . وأشار للعمارة التي يسكنان فيها ، وعاد للسيارة بعد أن أغلق باب زهيرة الصامتة وقال : سائق طائش سكير على رأي الرجل .. الحمد لله على السلامة يا عزيزتي !

وشغل المحرك وتقدم نحو عمارتهم ، وكان البواب يقف على الرصيف أمام العمارة ؛ وكأنه خرج من شقته على صوت الضربة ، ولما رأى سامرا قال : هو أنت .. هو الحادث معك .. الحمد لله على السلامة يا دكتور سامر

ـ شكرا يا عم مخلد .. شباب طائش

ـ له أكثر من مرة يدور في هذا الشارع .. يذهب ويأتي .. مشعوط .. الحمد لله على السلامة يا مدام .

وكانت تنزل من السيارة وهي مصدومة مذهولة ، فهزت رأسها للبواب ، وكانت ترتجف رعبا ، وأدرك سامر ذلك فقال وهو يمسك بيدها : هل أذهب بك للمستشفى ؟

هزت رأسها بلا فتابع : نطمئن يا زهيرة

وقال البواب : ألا تريد إدخال السيارة للموقف ؟

التفت إليه وقال : فلتبق في الشارع للغد .. شكرا يا عم مخلد

ودخلا العمارة حيث المصعد وما زالت ترتعب وممتقعة الوجه ، ولما غادرا المصعد قالت : أهو شاب طائش أم ... ؟

ـ أم ميلاد ؟!

ـ حسب معلوماتي أنه لا يملك سيارة .. من أين سيجمع ثمن سيارة ؟ من سيسمح له بسيارته ليرتكب بها جريمة ؟ أو يصدمها ؟

ـ قد يأخذ سيارة من مكان التصليح يستخدمها ، ويزعم لصاحبها أنه خرج بمشوار خاص لشراء قطعة .. وشباب الكراجات والمحطات يفعلون ذلك .

وبعد صمت عاد يقول : أعتقد أنه شاب طائش سكران ، كما قال ذلك الرجل الذي شاهد الحادث .

فقالت : وقول البواب إن له فترة يدور في الشارع .

ـ ومن أعلمه عن ساعة عودتنا للتربص بنا أو أننا في الخارج

ـ الشيطان !

ضحك سامر رغم الألم والحزن المرتسمين على وجه زوجته ، وكانا قد انتهيا من تغيير ثيابهما : الشيطان .. على كل حال الحمد لله على سلامتك .. وإذا لك رغبة بالذهاب للمستشفى فهيا بنا .. واعلمي أن مجمعا طبيا قريب من هنا بعد أربع شوارع

ـ سأبلع حبة أسبرين أو اثنتين وينتهي الأمر .. الضربة أصابت السيارة .. إنما أصابني الرعب والخوف .. أرجو أن لا يكون هذا العمل من فعل المجنون .

ـ لم أتمكن من أخذ رقم السيارة للمفاجأة .. اندفع جهتنا بسرعة ، وضرب الباب وتابع اندفاعه اللعين .. وإذا فعلها ميلاد فلسوف يتبجح بفعلته أمام الآخرين وسينتشر الخبر .

&&&

لقد كان من عادة الزوجين منذ سكنا هذه الشقة أن لا يخرجا من البيت إلا بعد الظهر ، فيذهبان للمشاركة في غداء دعو إليه ، وإن لم يخرجا تأتي سيارة المطعم إليهم ، والعشاء إذا لم تكن لديهم دعوة إليه يخرجان للعشاء في أحد المطاعم ، ويتجولان في شوارع المدينة ساعة أو أكثر ، ثم يعودون للسهر في الشقة ، وقد جلبوا معهم المكسرات والعصير والفواكه الطيبة ، لم يبق الكثير لانتهاء الشهر ، وقد ابتاعوا التذاكر للسفر ، وأعدت الحقائب ، وقد أثار الحادث الأخير الرعب والقلق في نفسيهما ، وإن حاول الطبيب نسيان العمد في الحادث ، لذلك لما بزغ الفجر وصليا الصبح قالت بقلق بين: لا زلت أعتقد أن هذا الحادث من فعل ذاك الأحمق ، وأنه قد فقد صوابه !

فقال بعد صمت : ألست أخبرتيني أو تحدثت أمامي أن له شريكا في المحل ؟ وهو الآخر ابن عم لك .. فتحدثي معه عن تصليح السيارة ، وأنها تعرضت لحادث .. ومن خلال الحديث اسأليه عن أخبار ميلاد .. هل تزوج ؟ وهل ترك السكر والخمر ؟

ـ سأتحدث مع أمه أم سالم أولا ، فهي صديقة لأمي منذ تزوج أبي أمي ..

ـ نعم ، لابد أن تطمئني من ناحيته ؛ لأنك تعيشين في خوف واضح من نبرات صوتك ووجهك المصفر منذ الليل .. وفي النهاية ما هي إلا أيام ، ونغادر هذه المدينة .. أقل من أسبوع فالتذاكر قد جهزت كما أعلمتني أختي مريم .. ولسوف نسافر أوروبا ، ومنها إلى نيويورك الأمريكية ، ومنها لكندا .. هي جولة قصيرة في الغرب ، فالرحلة لن تكون مباشرة إلى أوتاوا ومريم كما تعلمين طبيبة تعمل في المطار الدولي للبلد .

ـ أعلم ، وهي أخت كريمة .. وفقها الله

اتصلت زهيرة عند الظهر بامرأة عمها أم حميد ، وسألتها عن موقع مشغل تصليح حميد ابنها لتصليح سيارة زوجها التي تعرضت لحادث صدم ليلة أمس ، فذكرت لها المرأة المكان ، وسألتها عن حميد وميلاد خلال الكلام ، فأخبرتها امرأة عمها أن ميلادا انفصل عن حميد ، وفتح محلا خاصا به ، وعقبت المرأة : أنت تعرفين ابن عمك ميلاد ، فقد انحرف عن الخط المستقيم ، وصار سكيرا وفاسقا ، فمنذ أسبوع أو أكثر ترك العمل مع ميلاد ، دفع له أبو محمد مبلغا من المال ، ورحل الرجل لمكان آخر ؛ ولكن في نفس المنطقة والشارع .. سأعطيك رقم محل حميد وتتصلين به .

ثم تبادلا الحديث حول الصحة والحياة الزوجية والسفر ، وأغلقت زهيرة السماعة ، وأخذت تمسح العرق عن وجهها فقد طال الحوار .. وكان سامر الذي يتابع الحديث ينتظر أن تتكلم ، ورأى الجهد الذي بذلته مع امرأة عمها ، فلما رآها متعبة ضحك وقال : إنك متعبة يا زهيرة .. سأتحدث مع طبيب نفسي لنذهب لمقابلته الليلة أو عصرا .

ضحكت هي الأخرى وقالت : طبيب نفسي ؟!

ـ طبيبة !!

ـ أيام ونسافر .. فميلاد هذا قد انفصل عن حميد منذ عهد قريب

فقال : إذن لن نستفيد من حميد حول الحادث الغادر .. ولو شكونا للشرطة قد يكون بريئا ، ولا يد له في هذا العنف القاتل .. هذه محاولة شروع في القتل يا زهيرة

ـ ما العمل ؟

فقال بعد تفكير يسير : ننسى الأمر .. وسنستخدم سيارتك هذه الأيام الباقية .. ولما نسافر سأطلب من شقيقي أن يصلحها ويبيعها، ويحول لي ثمنها إلى حساب سنفتحه في أحد بنوك كندا .. سيكون لك حساب خاص بك وآخر لي .. وسيارتك ما مصيرها ؟

ـ طلبت من أمي أن تتخلص من سيارتها، وسأعطيها لأمي إن شاء الله ..

طلبت مني بيعها والاستفادة من مالها .. فقلت لتبق ذكرى بيننا يا أمي فقبلت .

واعتبر القوم الحادث عرضيا ، وانتهوا من التفكير بالجاني والفاعل ، ومضت الأيام الباقية دون حوادث تذكر ، وتم تسليم الشقة عصرا ، وجاءت سيارة لأحد أشقاء سامر ، ونقلتهم للمطار الدولي .. وفي منتصف الليل غادرت الطائرة الأمريكية إلى لندن .



هالي فاكس

نزلت الطائرة في مطار أوتاوا الكندي حيث العاصمة الفدرالية للدولة الكندية بعد رحلتها من مطار جون اف كنيدي بمدينة نيويورك على الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية ، وطلبا من السائق الذي ركبا معه بعد إنهاء إجراءات الخروج أن يذهب بهم إلى فندق في وسط المدينة وفي مركزها الرئيسي ، فعليهم البقاء في العاصمة لإجراء بعض المعاملات والحصول على بعض الأوراق قبل الانتقال لمقاطعة "نوفا سكوشا " حيث مدينة " هاليفاكس " عاصمة تلك المقاطعة ؛ لتلتحق بجامعتها "داهاوسي" .

ويحيط بكندا ثلاثة محيطات الأطلسي من الشرق ، والهادي من الغرب، والقطب الشمالي من الشمال . وهي ملكية دستورية اتحادية وفدرالية وديمقراطية تمثيلية ، تابعة للتاج البريطاني اسميا ، كندا تتألف من عشر مقاطعات وثلاثة أقاليم ، تقع في القسم الشمالي من القارة الأمريكية ، وهي البلد الثاني عالمياً من حيث المساحة الكلية بعد روسيا ، كما أن حدود كندا المشتركة مع الولايات المتحدة من الجنوب والشمال الغربي هي الأطول في العالم.

أراضي كندا مأهولة منذ آلاف السنين من قبل مجموعات مختلفة من السكان الأصليين الأسكيمو ، وبمن سموا بالهنود الحمر ، مع حلول آواخر القرن الخامس عشر بدأت الحملات البريطانية والفرنسية استكشاف المنطقة ، ومن ثم استوطنتها على طول ساحل المحيط الأطلسي .

تنازلت فرنسا عن جميع مستعمراتها في أمريكا الشمالية في عام ١٧٦٣ بعد حرب ما يسمى السنوات السبع ، وكونت المستعمرات البريطانية اتحادا ، وفي عام ١٨٦٧، اتحدت معها ثلاثة مستعمرات فرنسية ، وعبر كونفدرالية تشكلت كندا باعتبارها كيانًا فدراليًا ذا سيادة يضم أربع مقاطعات ، بعد ذلك اتسعت مساحة كندا ، وتوسع حكمها الذاتي عن المملكة المتحدة ، تجلت هذه الاستقلالية من خلال تشريع وستمنستر عام ١٩٣١ ، وبلغت ذروتها في صورة قانون كندا عام ١٩٨٢ والذي قطع الاعتماد القانوني لكندا على البرلمان البريطاني .

ذكرنا أن كندا دولة فيدرالية يحكمها نظام ديمقراطي تمثيلي وملكية دستورية حيث الملكة إليزابيث الثانية قائدة للدولة ، واعلم أن الأمة الكندية أمة ثنائية اللغة حيث الإنكليزية والفرنسية لغتان رسميتان على المستوى الاتحادي.

تعد كندا واحدة من أكثر دول العالم تطوراً وحداثة ، حيث تمتلك اقتصاداً متنوعاً ، وتعتمد على مواردها الطبيعية الوفيرة، وعلى التجارة وبخاصة مع الولايات المتحدة اللتان تربطهما علاقة طويلة ومعقدة

وحدود طويلة .

كندا على مستوى العالم عضو في مجموعة الدول الصناعية السبع ، ومجموعة الثماني ، ومجموعة العشرين ، وحلف شمال الأطلسي، ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ، ومنظمة التجارة العالمية ، ودول الكومنولث ، والفرنكوفونية ، ومنظمة الدول الأمريكية، والايبك ، والأمم المتحدة . تمتلك كندا واحداً من أعلى مستويات المعيشة في العالم حيث مؤشر التنمية البشرية يضعها في المرتبة الثامنة عالمياً .

تعود كلمة كندا في الأصل إلى كنتا ، وهي كلمة ترجع إلى لغة الإيروكواس في سانت لورانس ، وتعني قرية أو مستوطنة ، في عام ١٥٣٥ استخدم السكان الأصليون لمنطقة مدينة كيبك الحالية هذه الكلمة لإرشاد المستكشف الفرنسي جاك كارتييه إلى قرية ستادا كونا ، ثم استخدم كارتييه فيما بعد كلمة كندا ليس للإشارة لتلك القرية بعينها فقط ، بل ولكامل

المنطقة التي تقع تحت حكم الزعيم دونا كونا (زعيم قرية ستادا كونا).

في القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر، أطلق الاسم كندا على شطر من فرنسا الجديدة والذي يقع بمحاذاة نهر سانت لورانس وعلى السواحل الشمالية للبحيرات العظمى . ومع تشكيل الاتحاد الكونفدرالي عام ١٨٦٧، تم إطلاق الاسم كندا اسماً رسمياً للدولة الجديدة ، وكما ذكرنا آنفا أن كندا عبارة عن اتحاد يتألف من عشر مقاطعات وثلاثة أقاليم ، يمكنك توزيع تلك إلى مناطق: كندا الغربية وكندا الوسطى وكندا الأطلسي وكندا الشمالية .

تمتلك المقاطعات الكندية حكماً ذاتياً أوسع من الأقاليم ، تعتبر المقاطعات المسؤولة عن معظم برامج كندا الاجتماعية (مثل الرعاية الصحية والتعليم والرعاية الاجتماعية) ، وتجمع سوية إيرادات أكثر من الحكومة الاتحادية ، وهي بنية فريدة من نوعها تقريباً بين الاتحادات في العالم ، تستطيع الحكومة الاتحادية عبر سلطة إنفاقها البدء بسياسات وطنية في مجالات المقاطعات مثل قانون الصحة الكندي ، يمكن للمقاطعات الخروج من تلك الالتزامات ؛ ولكنها نادراً ما تفعل ذلك في الواقع العملي ، تدفع الحكومة الاتحادية مدفوعات موازنة لضمان الاحتفاظ بمعايير موحدة معقولة من الخدمات والضرائب بين المقاطعات الغنية والفقيرة.

يختلف متوسط درجات الحرارة في فصلي الشتاء والصيف حسب الموقع ، فكندا مساحة واسعة ، يمكن أن يكون الشتاء قاسياً في كثير من مناطق البلاد ، ولا سيما في المقاطعات الداخلية والسهلية ، والتي تواجه المناخ القاري ، حيث متوسط درجات الحرارة اليومية بالقرب من {- ١٥ } درجة مئوية ؛ ولكنها قد تنخفض إلى أقل من {-٤٠} درجة مئوية بوجود الرياح المتجمدة الشديدة ، في المناطق غير الساحلية قد يغطي الثلج الأرض لما يقرب من ستة أشهر في السنة (أكثرها في الشمال) ، يتمتع ساحل كولومبيا البريطانية بمناخ معتدل مع شتاء معتدل وممطر ، على الساحلين الشرقي والغربي، يبلغ متوسط درجات الحرارة الصيفية بشكل عام في أوائل العشرينات درجة مئوية ، بينما تكون بين الساحلين عند ٢٥-٣٠

درجة مئوية ، بينما قد تبلغ درجات مرتفعة في بعض الأحيان في بعض المناطق الداخلية عند ٤٠ درجة مئوية . وعدد سكان البلاد في هذا الوقت ١٩٨٦ما يقارب ٢٨ مليون نسمة ، ولها مجلس عموم وشيوخ وأما العاصمة الأولى فهي أوتاوا .

أوتاوا هي العاصمة الاتحادية أو الفيدرالية لكندا ، ورابع أكبر مدنها. تقع في وادي أوتاوا شرق مقاطعة أونتاريو ممتدة على الضفة الجنوبية لنهر أوتاوا الذي يشكل حداً طبيعياً مع مقاطعة كيبك الفرنسية ، ويفصل أوتاوا عن مدينة غاتينو الفرنسية أو هول حسب التسمية القديمة التي تقع ضمن مقاطعة كيبك ، ومن الممكن اعتبار المدينتين (أوتاوا وغاتينو) منطقة واحدة رغم انفصالها في مقاطعتين ، ورغم اختلاف اللغة بينهما، إذ يتحدث أغلب أهل غاتينو الفرنسية والتي هي لغة الإقليم إلى جانب الإنكليزية كلغة رسمية ثانية ، بينما يتحدث أغلب أهل أوتاوا الإنكليزية ، وبعضهم يتحدث الفرنسية أحياناً كلغة رسمية ثانية ، أصبحت اللغة العربية ثالثة اللغات المتحدثة بعد الإنكليزية والفرنسية، حيث بلغ عدد العرب في أوتوا وغاتينو ٢٠ ألف نسمة .

واعلم أن أوتاوا مدينة هادئة (تكاد تتوقف الحركة فيها بعد منتصف الليل) ، وربما انفردت بين مدن العالم الغربي بانخفاض معدل الجريمة فيها، والتعايش السلمي بين مكوناتها الإثنية المتعددة ، وانعدام التحيّز العنصري ضد المهاجرين غير الغربيين ، وقد يداخلك شعور وأنت في شوارعها بأنك في مهرجان أممي، إذ تختلط الجاليات ببعضها ثقافياً وتجاريا واجتماعياً بانسجام تام ، فلا تستغرب أن ترى في مصنع أو متجر واحد أناساً من دول القارات المختلفة ، وربما من بلدان لم تكن قد سمعت بها!!

ومن أهم معالمها الرئيسية ، المبنى التاريخي للبرلمان والذي يتوسطه برج السلام ، وقنال الريدو الذي يخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها وصولاً إلى نهر أوتاوا ، تتجمد فيه المياه شتاءً فيصبح مكانا سياحياً للتزلج بعد أن كان منظره الربيعي يسرّ الناظرين ، والريدو بالفرنسية تعني الستارة أو الحاجز، وقد جاءت التسمية لأن هذه القناة تم حفرها أساساً لأسباب عسكرية

لصد هجوم الأعداء على المدينة، وقد أمر بإنشاء هذا القنال العقيد الكولونيل جون باي مؤسس أوتاوا ، وتم تسمية الشارع المحاذي للقناة باسمه شارع كولونيل باي .



وكندا تملك أعلى معدل هجرة في العالم ، ومستقر المهاجرين في الغالب في المناطق الحضرية نحو تورنتو ، وأغلب سكان كندا أتباع المذهب النصراني ، فيشكل الكاثوليك أتباع بابا الفاتيكان ٤٣٪ من إجمالي السكان ، وهناك أتباع الكنيسة المتحدة حوالي ٩٪ ، ومع الإنجيلية واللوثرية والمعمدانية ليشكلوا جميعهم حوالي ٧٧٪ ، دخلت المسيحية كندا خلال الفترة الاستعمارية ، ظهرت الكاثوليكية مع المستوطنين الفرنسيين الذين استقروا على طول ضفاف نهر سانت لورانس ، وتحديدًا هم أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، بما في ذلك عدد من اليسوعيين الذين بشروا بالمسيحية بين السكان الأصليين . كان للكنيسة الكاثوليكية نفوذ سياسي واجتماعي وثقافي قوي في كيبك كندا حتى عام ١٩٦٠ مع بداية الثورة الهادئة ، وقد اعتبرت كيبك احدى أهم المعاقل الكاثوليكية في كندا.



تم تشكيل أول المجتمعات البروتستانتية الكبيرة في مريتيمس بعد الفتح البريطاني في فرنسا الجديدة ، تلتها موجات المستوطنين البروتستانت الأمريكيين الذين نزحوا بسبب الثورة الأمريكية .

شهد القرن التاسع عشر بداية لتحول كبير في أنماط الهجرة الكندية ، أعداد كبيرة من المهاجرين الايرلنديين ، ومن جنوب أوروبا ، خلق جاليات جديدة كاثوليكية كبيرة في كندا الإنكليزية .

شهدت السنوات الأخيرة هجرة نصارى الشرق الأوسط ، فنشأت كنائس مثل الكنيسة المارونية ، والكنيسة القبطية ، بالإضافة إلى تواجد جاليات أرثوذكسية شرقية من أوروبا الشرقية ، ومهاجرون من الولايات المتحدة من المورمون والخمسينين ، أما المسلمون فيشكلون نسبة ضئيلة ٢٪ ، واليهود ١٪ ، وغير المتدينين ٦٪ ، وصل عدد المسلمين إلى ٥٠٠.٠٠٠ مسلم في كندا، أي قرابة ٢ ٪ من عدد السكان ، معظم الكنديين المسلمين ولدوا لمسلمين ، بالإضافة لأعداد صغيرة من معتنقي الإسلام من ديانات أخرى ، ومثل ما هو الحال مع المهاجرين بشكل عام ، جاء المهاجرون المسلمون إلى كندا لأسباب متنوعة ، منها التعليم العالي ، كأبطال روايتنا ، والعمالة ، والأمن ، وجمع شمل الأسرة ، وجاء آخرون من أجل الحرية الدينية والسياسية ، والسلامة والأمن ، مخلفين وراءهم الحروب الأهلية ، والاضطهاد ، وغير ذلك من أشكال النزاعات الأهلية والإثنية.

أصبحت كندا في ثمانينيات القرن العشرين مقصدا هاما للجوء الفارين من الحرب الأهلية اللبنانية ، وحروب الشرق الأوسط ، وبشكل عام تقريبا جاء مسلمون مهاجرون من كل الدول المسلمة في العالم إلى كندا من ألبانيا إلى اليمن إلى بنجلاديش .

وأغلب الكنديين المسلمين يعيشون في مقاطعة أونتاريو ، استقر أكبر المجموعات في نواحي منطقة تورونتو الكبرى.



وصل العروسان مدينة أوتاوا عاصمة الاتحاد عبر طيران كندا ، ومضى بهما السائق إلى أحد فنادق المدينة ، والفنادق كثيرة وضخمة لنشاط الحركة السياحية إلى كندا من أمريكا ودول أوروبا الغربية واليابان ، وفي اليوم التالي قاما بمراجعة دائرة الهجرة الرئيسية ، وبعد أيام ثلاثة قضياها في العاصمة سافرا إلى مقاطعة نوفا سكوشيا جوا بخطوط طيران داخلية ، واستقرا في أحد الفنادق السياحية في مدينة هاليفاكس عاصمة المقاطعة الحديثة ، راجعا جامعة دالهاوسي التي رحبت بهما كطالبين مهاجرين ، واتصلا بأحد الأطباء الكبار والقدامى الذي قام بمساعدتهما حسب توصية والد سامر وعميد كلية الطب في البلد ، واهتم بهما وذكر لهما أنه زار بلدهما العربي ، وشارك في ندوات علمية طبية وبحثية دارت في المدينة العاصمة ، وسعى بواسطة مساعده وسكرتير مكتبه بتقديم أوراقهما لإدارة الجامعة ، ووعد بمساعدة الدكتور سامر للالتحاق في العمل بأحد مستشفيات العظام في المدينة ، وخلال أيام رتبت أمورهم ، والتحقت زهيرة بمعهد لغات لدورة واختبارات ، ولما تبين لهم قوتها باللغة الإنجليزية حيث لغة الدراسة في الجامعة سمح لها بمتابعة الساعات المقررة لها على حساب الحكومة الكندية ، وطلب منها أن تستمر في تعلم اللغة الفرنسية حيث أنها لغة رسمية أخرى للبلاد حيث ستتعامل مع كادر يستخدم اللغتين سواء من محاضرين وطلاب ومرضى وإدارة وممرضين خاصة المواد العملية .

وتعال نتعرف على مقاطعة نوفا سكوشا .. تقع شرقي اليابس الأمريكية، احتلها الفرنسيون في القرن السابع عشر الميلادي ، ثم أخذتها بريطانيا في معاهدة أوترخت منذ عام ١٧١٣ ، تبلغ مساحة الولاية حوالي ٥٥،٠٠٠ كيلو متر مربع ، وسكانها حوالي مليون نسمة ، وعاصمتها مدينة هاليفاكس، وأهم مدنها دارتموت ، وسيدني ، ومينز ، تكثر بالولاية السهول المتموجة ، والأراضي الصالحة للزراعة.

مناخها أحسن حالاً من داخل كندا بسبب المؤثرات البحرية ، فالصيف دافئ ، تطول مدته ، وهذا أعطى مجالا للإنتاج الزراعي وقدر إنتاجها من الأسماك بحوالي ٢٦٣

مليون دولار سنويا .

نتحدث الآن عن المدينة التي عاشت فيها بطلة القصة سنوات الدراسة كلها هاليفاكس ، يقال إنها من أقرب المدن للشرق الأوسط ، وتعتبر واحدة من أجمل مدن كندا وأكثرها روعة وتطورا ، وهي عبارة عن لوحة ساحرة من الجمال والحسن حيث جمعت بين إبداع الله في أراضيها الخضراء وشواطئها الساحرة الجمال ، وبحيراتها الشفافة مما جعلها وجهة الكنديين وسكان القارتين الأمريكية الشمالية والجنوبية ، وهي محطة للسفن السياحية الكبرى التي تستوعب الآلاف من السياح الأوروبيين الذين يقضون في هاليفاكس أجمل أيامهم متنقلين بين شقي المدينة المفصولين بمضيق من مياه المحيط الأطلسي ، إن مدينة "هليفاكس" معروفة بطيبة أهلها ، فهم من أكثر شعوب العالم طيبة مع الغرباء ، وسيشعر أي زائر ومنذ وصوله لأرض المطار بأنه شخص مرحب به للغاية ، أسعار المدينة مناسبة للغاية فيما لو تم مقارناتها مع أي الدول العربية ، فأسعار مطاعم الوجبات السريعة والمطاعم اللبنانية والتركية في هاليفاكس تماثل أسعار المطاعم بالدول العربية ، فيكلف شراء وجبة طعام مبلغ ٤ دولارات كندي فقط ٣.٢ دولار أمريكي ، كما يكلف شراء وجبة سمك مع البطاطس المقلية ٦ دولارات كندية فقط ٤.٨ دولار أمريكي ، كما أن هناك بقالات تبيع جميع المتطلبات العربية للطبخ العربي ، أما بطاقات حضور مباريات الهوكي الشعبية تتراوح من ٦ إلى ١٠ دولارات كندي فقط . ويبلغ عدد المطاعم والحانات في هاليفاكس ما يقارب الـ ١٦٠٠ مطعم وحانة ، أما الأسواق التجارية فهي حوالي ٣٢ سوق تجاري .

أما الطقس فالصيـف رائـع ممطر غالبـاً معتدل يميل للبرودة ، الشتـاء برد وثلج ، إن درجة الحرارة قد تصل إلى ٣٠ تحت الصفر ، وإن الجامعات والمعاهد هناك تعطي إجازات كثيرة في الشتاء لسوء الأحوال الجويـة .



هذه هي المدينة التي استقر فيها الزوجان العربيان المهاجرين لكندا ، وخلال الأسبوع الذي قضياه في مراجعة الجامعة في ساعات الصباح كانا في ساعات المساء يبحثان عن شقة يعيشان فيها حياتهما الدراسية والزوجية ، فوفقا إلى شقة من دورين نظام فيلا ، الدور الأول مطبخ وصالة كبيرة ومخزن ودورة مياه ، والطابق الثاني غرفتا نوم وحمام ، وغرفة غسيل ملابس ، وللشقة موقف سيارة ، ومتوفر فيها الماء الحار ، وقريب منها مسجد ، وأجرتها الشهرية ٦٠٠ دولار شهريا ، فكندا دولة غنية ، ودخل الفرد فيها عاليا ، قد يزيد عن خمس وعشرين ألف دولار كندي سنويا ، لذلك الأجور السكنية مرتفعة.

وأما بالنسبة لجامعة زهيرة ، فهذه الجامعة الكندية قديمة ، وهي جامعة حكومية مشهورة في تلك المقاطعة وفي تلك المدينة ، فإنها تأسست عام ١٨١٨ م ، فقد أسسها نائب حاكم المقاطعة الإنجليزية "جورج رامزي دلهاوزي" ، وكان ذلك في حقبة الاستعمار البريطاني للمقاطعة نوفا سكوشا .

تضم الجامعة إحدى عشر كلية ، منها كلية القانون والهندسة والطب، تتكون الجامعة من خمسة أحرُم جامعية رئيسية : هي سكستون وكارلتون وبارتون بمدينة هاليفاكس ، وكلية الزراعة بمدينة ترورو ، حرم سكستون يوجد به كلية الهندسة والعمارة ، وحرم كارلتون يوجد به كلية الطب العام والأسنان حيث ستدرس الطب بطلة قصتنا هذه ، وباتون يقع به مركز الملكة اليزابيث الثانية للعلوم الطبية ، أما حرم ستدلي فيوجد به بقية الكليات .

واعلم أن دلهاوزي جامعة مدعومة حكوميا ، وعضو في اتحاد الجامعات والكليات الكندية ، يوجد ٣٧٠٠ مادة علمية ضمن ١٨٠ تخصص متاح.

واعلم أيضا أن الجامعة دلهاوزي دأبت في الحصول على المراتب العليا بين أفضل الجامعات الكندية ، فهي جامعة من بين ٥٠ جامعة في كندا ، وهي جامعة بحثية مهمة في كندا .



وللجامعة شعار " أدعو ربك واعمل " ، كندا من الدول المتقدمة والدائرة في فلك العالم الغربي حداثة وتطورا ، وعادات وتقاليد ونظام حكم ، وربما من مشاكلها الحساسة وجود تنافس شديد بين لغاتها الفرنسية الإنجليزية حيث اللغة الكندية تتكون منها ، ووجود تعصب بين القوميتين لأصولهما الاستعمارية ، والدولار الكندي مائة سنت ، وهناك فئات خمسة دولارات ، عشرة دولارات ، عشرون دولارا ، وخمسون دولارا ، ومائة دولار ، وألف دولار .



استطاع الزوجان الحصول على مكان مناسب للحياة في مدينة هاليفاكس نوفا سكوشا ، وساعدهم البروفسور "جاك موريس" في الالتحاق في الجامعة كطلاب ووعد سامر بالعمل كطبيب عام في إحدى مستشفيات المقاطعة ، ودراسة الاختصاص في جراحة العظام .

وهذه الدراسة تحتاج على الأقل لأربع سنوات بين ممارسة الطب عمليا ونظريا ، ولا بأس من ذكر نبذة عن جراحة العظام ، اليوم لكل مرض اختصاص واختصاصات ، ويمكن أن أقول لكل عضو اختصاص .

ومن جراحات العظام : جراحة الكتف والمرفق، وجراحة اليد ، وجراحة استبدال المفاصل ، جراحة القدم والكاحل ، جراحة العمود الفقري ، جراحة عظام الأطفال ، جراحة أورام الجهاز العضلي الهيكلي ، الطب الرياضي الجراحي.

واليوم حوادث السيارات والمهن تسبب الكثير من علل العظام ، والجراحة العظمية تهتم وتعالج مجموعة كثيرة من الأمراض مثل : التهاب المفاصل ، تشوه المفاصل تنخر العظام ، تمزق الأربطة ، الانزلاق الغضروفي ، كسور العظام ، خلع في المفاصل ، سرطان العظم ، متلازمة النفق الرسغي ، إعاقة وظيفية في حركة المفاصل ، خلع الورك الوراثي ، آلام الظهر ، انحراف إصبع الرجل الأكبر ، تشوه الركبة وغير ذلك من

الأسماء ، الهشاشة .

ذكرت ذلك لتعلم أهمية الاختصاص الطبي ولو في الصين ، ووجد الزوجان عددا كبيرا من الطلاب مثلهم من دول الخليج وآخرين من تركيا ودول الباكستان وبنغلاديش وماليزيا ، بعضهم للبكالوريوس ، وآخرون للماجستير والدكتوراه ، ووجدوا جالية عربية كبيرة تسكن في المدينة ، ويسمون (العرب الكنديون).

ومطلوب من المهاجر لتلك الديار عندما يحط رحله في تلك المدينة أن يسعى للحصول على سكن ، وبطاقة علاج من صحة نوفا سكوشيا ، وتقديم طلب أيضا للحصول على بطاقة الضمان الاجتماعي (**sin**) ، ويقوم بزيارة منظمة خدمات توطين وإدماج المهاجرين (IsIS) ، ويطلب من المهاجر معرفة هل يستحق مساعدة ودعم من الحكومة من الدائرة المختصة ؟ ، ويطلب منه فتح حساب مصرفي خاص به ، وقد فعل الزوجان ذلك منذ استقرا في المدينة ، ثم عليهم تبديل الرخص برخص كندية للسيارات ، والحصول رخصة من المقاطعة ، ويحدد لهم طبيب يسمى طبيب العائلة .

وعلى المهاجر الجديد لكندا أن يراجع إدارة الهجرة والجنسية الكندية (**CIC**) ، وهي وكالة حكومية فدرالية تقدم خدمات حول الجنسية والتوطين واللجوء والهجرة ، وقد راجعاها عندما نزلا في مدينة أوتاوا عدة أيام .

ويوجد في مقاطعة نوفا سكوشا مكتب للهجرة يعمل مع الحكومة الفدرالية ، يعمل على تشجيع المهاجرين الوافدين من كل أنحاء العالم على الاستقرار في المقاطعة واتخاذها وطنا ، فهؤلاء يحتاجون لعدد كثير من البشر ؛ فلذلك يرحبون ويشجعون الهجرة لبلادهم لحاجتهم للناس .

ويوجد جمعيات رسمية وتطوعية لتدريب وتوعية المهاجرين، ويوجد كلية توفر للمهاجرين دورات تعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية للوافدين استعدادا للالتحاق بالجامعات ، وتقدم طلبات الانتساب لتلك الكلية في الخريف والشتاء .

للتوصيات التي يملكها سامر وقرينته تيسرت أمورهما منذ حلا في هاليفاكس عاصمة المقاطعة ، وقد تيسر لهم امتلاك شقة كفيلا ، مر بنا وصفها ، والنظام يلزم المستأجر والمالك للعقار أن يخضعه للتأمين ضد الحريق وغيره ؛ لذلك يعتبر التأمين على الممتلكات مهماً ، ويمكنك شراء بوليصة تأمين على الممتلكات لحماية منزلك وأغراضك في حال اندلاع حريق أو حدوث فيضان أو سطو أو أيّ مشاكل خطيرة أخرى ، ويغطي التأمين أحياناً جميع تكاليف إصلاح أو استبدال منزلك ومحتوياته ، والكهرباء والماء ووقود التدفئة توفرها شركات خاصة تنشط في المقاطعة، وكذلك الخدمات الأخرى كالهاتف ، وهناك نظام لجمع القمامة وفرزها ، ولكل حي أو منطقة يوم محدد لجمع القمامة .

وتوفر البلدية للمدينة نظام العيادات للمارة ، وتوفر كذلك عيادات صحية نسائية ، تنتشر بكثرة في المدينة والمقاطعة للفحص والكشف وإرشاد وتنظيم الأسرة .

فقد أبدت زهيرة ارتياحها للمدينة خاصة والمقاطعة ككل ، فالأسواق قريبة من السكن ، والمواصلات متيسرة بالمترو باص ، والبنوك متيسرة ، والشرطة توفر الحماية والأمن للجميع ، وقد اشترت كتابا يتحدث عن المقاطعة والعاصمة ولمزيد من المعرفة عن كندا والمقاطعة ، ووجدت أكاديمية إسلامية نشطة في المدينة ، وجمعيات لبنانية قديمة ؛ ولكن الذي فاجأها بعد استقرارهما في المدينة أنها وجدت نفسها حاملا رغم استخدامها لحبوب منع الحمل منذ أشهرت خطبتها للدكتور سامر ، فقد أخذت تتعاطى حبوب منع الحمل لأنها اتفقت مع الدكتور أن لا تحمل إلا بعد إنهاء بكالوريوس الطب ، وقبل سامر ذلك ورحب به ، وقد تفاجأ مثلها بحدوث الحمل، وبعد ذهول قبلوا بالأمر الواقع ، وكانت في حالة وجوم وصدمة ، وهي تخبر سامرا بذلك ، فكانت تقول "استعملت الحبوب منذ أعلنّا الخطبة .. قبل أن يحدث بيننا أي اتصال! ولما تأخرت الدورة بعد الزواج ظننت أن ذلك بسبب التوتر النفسي والاستعداد للسفر .. وها هو الشهر الثاني للزواج يمضي من غير طمث ، ففحصت في عيادة المستشفى حيث الكلية ، فبشروني بذلك ، وصدمت يا سيدي، لم أفرح كما تفرح النساء عندنا

فبدا سامر واجما ومصدوما فقال : ما العمل ؟!

ـ لا أدري!

ـ هل تستطيعين الدراسة مع الحمل والولادة ؟

ـ الولادة ستكون في آخر الصيف وسط الخريف .. ولابد من الدراسة .. لم يعتمدوا الكثير من المواد التي درستها .. صدق أن الحمل حدث دون رغبتي

ـ طبعا أصدقك يا عزيزتي ..لا يزعجني حملك أبدا.. ربما صدمت للوهلة الأولى؛ لأنك أنت التي خططت لعدم الحمل .. لست أنا الذي سيتعب .. إنما قلقلي عليك .. محاضرات ومداومة في المستشفى والعيادات للتدريب

ـ الإجهاض غير ممكن .. أليس كذلك ؟

ـ أنا ضد الإجهاض يا زهيرة .. هذا كائن حي مخلوق مثلنا .. بصفتي درست الطب كان يدور بيننا نحن الطلاب والدكاترة مناقشات حول مشروعية الإجهاض ، قرأت عن هذه المسألة بشكل جيد، فبعضهم تساهل وأجازه بشكل عام ، بسبب ومن غير سبب ؛ وصوتهم أمام المحرمين ضعيف ، وآخرون حرموه مطلقا ، وبعضهم أجازه عند الضرورة والخطر على حياة الأم الحامل ، فقدموا حياتها على حياته .[٢]

عادت تردد كأنها مرتكبة شيئا حراما: لا أدري كيف حصل ذلك ؟!

---

[٢] - وأما الإجهاض قبل الأربعة أشهر من مدة الحمل ، فالصحيح من أقوال العلماء أنه حرامٌ فلا يجوز لامرأة مسلمة أن تجهض مولودها بمجرد ثبوت الحمل إلا في حالةٍ واحدة فقط ، وهي إذا أخبر الأطباء الثقات أن الحمل يشكل خطراً مؤكداً على حياة الأم فيجوز حينئذٍ الإجهاض حفاظاً على حياة الأم.

عاد مشجعا ومخففا من الصدمة التي أصابتهم : الله أراد ذلك .. رغم انتشار ظاهرة الحمل مع أخذ الموانع كان عليّ أنا أيضا فعل الاحتياطات المساعدة .. الرجل الشرقي يصيبه الخوف والقلق من أخذ الموانع خاصة عندما يكون لديه الرغبة في الحمل في يوم ما .. الأمر لله يا زهيرة

قالت باستلام للحدث : سأحاول أن أوفق بين الدراسة والحمل.. تحملني يا سيدي .

تظاهر بالابتسام وقال : أنا معك قلبا وقالبا .. ألست أباه أو أباها ؟! .. كان الله في عونك

ـ الجميل في هذه المدينة كثرة عيادات طب الأسرة والنساء ، وهي منتشرة للكشف ومتابعة الحوامل وصحة النساء بشكل عام .. إني جدٌ آسفة .

ـ لا تأسفي على قدرة الله وإرادته .. صدقي أن ضيقي كان من أجلك .. بل أنا الآن في غاية السرور .. أخذنا بالأسباب ، ومشيئة الله غلبت .. والخير فيما يريده الله تعالى .. والله يفعل ما يشاء .. أنا رفضت الحمل من أجلك أنت حتى تستطيعي الدراسة بكل راحة وحرية .. وتستطيعي العمل في المستشفى بدون ألم وتعب وكلها بضعة أشهر ، وتنهضين بالسلامة والعافية .

قالت بعزيمة : سأتحمل عليّ دوامان ، محاضرات وتدريب في المستشفى ..

ـ عليك رعاية نفسك يا حبيبتي .. سيدبرها الله ويهونها .. والأمور هنا منظمة ، والناس مثقفون سيحسنون التعامل معك .. وخاصة أنه سيكون مولودا كنديا ويحمل الجنسية منذ ولادته .. فنحن نحتاج لسنوات ثلاث على الأقل لنمنح جنسية هذه البلاد .



كانت الحياة هادئة بالنسبة للزوجين ، وكانا كغريبين في المدينة بحق ، لا أصدقاء لا جيران ، لا ضيوف ؛ ولكنهما كانا سعيدين ، لم يكونا أصدقاء بعد ، وقد تجولا في المدينة ، وزارا مناطق

التسوق المهمة في وسط المدينة ، وأخذا يتعرفان على عملة البلد ويحسنان التصرف فيها ، فعملتهم الورقية اشرنا إليها ، إلى الفئات التي تتكون منها العملة الكندية ، وهناك فئات صغيرة ، فالدولار الكندي مائة سنت ، ولديهم سنت معدني واحد يسمونه بيني ، والخمسة سنتات تسمى نيكل ، والعشرة دايم ، والخمس والعشرون سنتا كوارتر ، والدولار لوني ، والدولاران توني .



هذه القطع المعدنية سارية الاستخدام في تلك البلاد ، ومن الضروري للوافد إلى نوفا سكوشا الحصول على بطاقة الإقامة الدائمة (**PR**) ، فهذه البطاقة تثبت أنك مقيم دائم في الخروج والدخول لكندا ، وهذه يطلبها الوافد منذ استلامه سجل الهبوط على الأراضي الكندية .

ومن المهم أيضا أن نتعرف على وسائل الحركة والانتقال في المقاطعة والعاصمة ، كسائر المدن الكبيرة في العالم تتوفر وسائل النقل بين نواحي المدينة ، فهناك وسائل نقل للأصحاء ، وأخرى للمعاقين ، تسمّى مؤسسة النقل العام في هاليفاكس "مترو ترانزيت "**Metro Transit** وهي تشمل الباصات والعبّارات المحلية والإقليمية والمجهزة لاستقبال ذوي الإعاقة .

تتوفّر باصات وعبّارات محلية ، كما تتوفّر باصات في الضواحي ، وسائر المناطق الواقعة خارج بلدية منطقة هاليفاكس ، لاحظ أن تكلفة الكبار ١٦ سنة وما فوق دولاران ، البطاقة الشهرية ٥٠ دولاراً ، كبار السن ٦٥ سنة وما فوق(١.٢٥) دولاراً ، وللأطفال دون السادسة عشر أسعار خاصة بهم ، وهناك باصات مترولنك على مدار أيام الدوام من الاثنين إلى الجمعة ، وكذلك سيارات الأجرة الصغيرة التاكسي ، يوجد في بلدية منطقة هاليفاكس

العديد من شركات التاكسي ، وتجد أسماء وعنوانين شركات سيارات الأجرة في دليل الهاتف الصفحات الصفراء

كان يذهب الزوجان للجامعة سوية ، فتصل الفتاة إلى كلية الطب في جامعة دالهاسي ، ويسير سامر إلى المستشفى الكبير مستشفى اليزابيت الثانية حيث تقرر عمله واختصاصه لجراحة العظام ، ويعد هذا المستشفى أكبر مستشفى في كندا الأطلسية ، ويضم كما قيل عشرة مباني في موقعين

ولتمكن الشابان من اللغة الإنجليزية ساعد ذلك بسرعة التواصل مع الكادر التعليمي والوظيفي ، والدوام يبدأ رسميا في الجامعة منذ الثامنة والنصف صباحا من صباح الاثنين إلى مساء الجمعة حيث تبدأ العطلة الأسبوعية السبت والأحد ، ودوام المستشفى على مدار الساعة كما هو معروف ، أما طلاب الاختصاص فيتابعون في أيام الدوام الرسمي ، وسعى سامر وزوجته كما عرفنا سابقا إلى فهم اللغة الفرنسية حيث أنها لغة رسمية في كندا ، ولم يكن فهم مفرداتها صعبا عليهما لفهمها اللغة الإنجليزية الطبية والعلمية والمحاكاة والخطاب .

وكانت زهيرة قد تكيفت مع الحمل ، رغم صدمتها الأولى ؛ لأنها كانت تخطط لتأجيل الحمل والولادة إلى ما بعد الجامعة الأولى ، وأخذت تراجع عيادة متخصصة للحوامل والولادات قريبة من سكنها في شارع جادة يونيفرستي .

وكندا دولة من الدول الصناعية الكبرى على مستوى العالم ، وهي بلد ترحب بالوافدين والمهاجرين لحاجتها إليهم باستمرار لكبر مساحتها وكثرة مالها ، فهي تشجع الهجرة ، وتمنح الجنسية بعد سنوات قليلة ، والطلبة المهاجرون تشجع الحكومة استقرارهم وبقائهم في البلاد ، لذلك من الطبيعي أن يستقر الكثير بعد تخرجهم فيها ، وحتى الزواج من الكنديات متيسر ، ولا صعوبة في ذلك لاحتوائها على أصول شتى ، والزواج منهم يسهل جدا الحصول على جنسية البلد ، ويصبح الرجل كنديا فورا .

وجدت زهيرة أن بعض الدكاترة يستخدمون الفرنسية والإنجليزية أثناء التوضيح والشرح ،

فكان هذا يزيد حماسها لإتقان اللغة الفرنسية خلال دورة الشهور الثلاثة التي توفرها الجامعة للطلاب الوافدين .

وتعرف سامر على عدد من الأطباء العرب يعملون في تلك البلاد ، والبعض سمح له بالتعرف على زوجاتهم وأبنائهم ، لذلك لما وضعت زهيرة مولودها الأول ، احتفل بهم الأصدقاء ذكورا ونساء، مما أدخل السرور على قلبيهما ، وكان المولود الأول لهما أنثى سموها شمسا ، ومنحت شمس الجنسية الكندية فور ولادتها ، فهي ولدت على الأرض الكندية فتعتبر ابنة كندا بالولادة .

كانت زهيرة تتحدث للأصدقاء بعد حين : مدينة حقيقة جميلة ؛ ولكنها باردة جدا في فصل الشتاء حيث وصلنا لأول وهلة .. وبحيراتها كثيرة .. معي طالبة من أونتاريو تقول إن مدينتها بها ٢٥٠ ألف بحيرة ، وهي أكبر مناطق كندا مساحة ، وفيها العاصمة الاتحادية السياسية أوتاوا ، وتحدها أمريكا الولايات المتحدة

وقالت إحدى السيدات : هي أكثر المقاطعات سكانا ، ربما ثلث سكان كندا يعيشون فيها ، وفيها الاقتصاد والعلم ، وتحيط بها البحيرات العظمى ، وتطل على مدينة نيويورك الأمريكية خاصة بحيرتها أونتاريو ، وفيها يا أم شمس شلالات نياجرا ومتنزهات كثيرة ؛ كأنها ١٣٢ متنزها عاما .



قالت سيدة أخرى من أصل لبناني : نحن عشنا فترة في تلك المقاطعة .. فبحيرة أونتاريو إحدى البحيرات الخمسة ، فعلمنا أنها أصغر تلك البحيرات ، وطولها يزيد عن ٣١٠ كم ، وعرضها حوالي ٨٥ كم ، يخرج منها نهر سان لوران .. وبالجملة .. سمعت أن كندا بلد

المليون بحيرة .. وقد زرنا عددا من متاحفها وزرنا متحفها الملكي ، وقد شاهدنا البرلمان القديم الذي أنشئ في القرن الماضي

قالت زهيرة : قرأت عنه في عام ١٨٠٩ في تورنتو حيث عاصمة المقاطعة

وعادت السيدة اللبنانية تقول : وهناك البرج الذي يرتفع ٥٥٣ م

وكانت كل امرأة تذكر خبرتها ومعرفتها في تلك البلاد ، وشاركتهن زهيرة بإضافة الكثير من المعلومات التي قرأتها عن كندا وهاليفاكس ، مما أثار إعجاب ودهشة السامعات حتى أن إحداهن قالت : إنك تتعلمين بسرعة يا أخت زهيرة

فردت زهيرة بابتسامة : قرأت قبل مجييء بعض المعلومات عن كندا ، وعن نظام الحكم وجغرافيتها .. ولما وصلت هنا أخذت بالقراءة عن هذه المقاطعة بشكل خاص ..

فكانت الأسر العربية في بلاد الغربة تثير الشجن والحنين لبلاد العرب .. خاصة عندما تكن العائلات من أقطار عربية متنوعة .. بل أضافت زهيرة وسامر أصدقاء آخرين من المسلمين الشرقيين من تركيا والباكستان وإندونيسيا .

وأخذ سامر مع الوقت يكّون صداقات طبية في المستشفيات التي أخذ يتنقل بينها ، ومع رجال العلم في تلك الجزيرة والديار .



ارحم اباك

ذهب ميلاد عادل في زيارة لمحله القديم حيث باع حصته لشريكه حميد نبيل ، وبعد التعانق والترحيب والسؤال عن الحال والصحة قال حميد ناصحا لابن عمه شريكه السابق : ويلك يا عم ميلاد ألا تريد أن ترحم أباك ؟

قال هازئا : أرحم أبي !! وهل رحمني هو ؟ ألم أترك له الدار واستأجر عشة دواب ؟ .. بماذا ارحمه يا فصيح ؟!

ـ بالزواج والتعقل .

ـ الزواج ! أنا أقسمت قديما قسما لا رجعة فيه أن لا أتزوج إلا زهيرة مجدي .. فلن أتزوج أبدا أبدا .

قال حميد بعد صمت قصير : وهل هذا كلام يا ابن الناس ؟! هل تعلم أيها الإنسان الضائع أن زهيرة قد صارت أما ؟ .. لقد أخبرت أمها أمي أن زهيرة ولدت طفلة هناك ، وأعطيت الجنسية الكندية .

تنهد ميلاد بعمق وبصق وهمس : ولدت الملعونة ! .. ولدت من غيري .. لن أرحمها سأظل أحقد عليها وعلى ذريتها .. فهي قد دمرت حياتي مع أمي وأبي.. كلهم ملاعين .

رفع حميد صوته قليلا قائلا : اسمع يا ولد.. لا تسيء لعمي

ـ ولا تنس أنه أبي

ـ أنا يا ميلاد لا أحب العقوق .. فسب الوالدين من الكبائر ومن العقوق .. أرجوك أمامي لا تفعل ذلك .

ـ آ يا عم ! أنت صرت شيخا .. كما سمعت .. يا رجل فلماذا لا تترك الصنعة وتعمل في جامع وتخطب في الناس يوم الجمعة ؟!

ـ وهل هذا بالساهل يا ولد ؟! وأنا طول عمري أمشي مع الشيوخ ، وأحضر مجالس الشيوخ والعلم ، وأنتقي الخطيب الذي أسمع له .. يا ابني أتمنى أن أراك عريسا كباقي الخلق .. الأيام

تمضي .. الفواحش تفتك بك ، لو أصابك مرض قاتل لن تجد من يقف معك .

ـ أنا مرتاح

ـ لا يمكن أن أصدق ذلك .. لو أنك مرتاح ما شربت الخمر .. أنت قلت أكثر من مرة أنك تشربها لتنسى .. يا رجل تب إلى الله حتى نعود شركاء وأحبابا مثل أيام زمان .. نسيت أن أسألك لماذا جئت اليوم ؟

ـ جئت استلف مائة دينار

ـ مائة دينار ! لماذا ؟ لتشرب بها .

ـ لا ، أريد أن اشتري آلة للمحل

ضحك حميد وقال : آلة ! هو أنت تشتغل يا ميلاد .. أنت منذ أن انحرفت أصبحت قليل الشغل .. تشتغل بنشرا واحدا في اليوم فتظن نفسك طول اليوم تشتغل .. لماذا تريد المائة ؟

ـ كما قلت لك

ـ لا أصدقك .

ـ مكسور ! وعليّ تسديد حساب المحل

ـ الإيجار ، كم شهرا لم تدفع ؟ ـ ورأى إشارة بالأصابع ، تبين الشهور غير المدفوعة ـ يمكن أن يكون هذا صحيحا .. كيف ستسددها ؟ وأنت لا تعمل بشكل جيد .. الصبي الذي يعمل عندك جاء يسعى للعمل عندنا من قلة الشغل

ـ أتريد أن تعطيني ؟

ـ مضطر للاعتذار ، فلي في ذمتك مائتان .. منذ أشهر لم تسد منها شيئا .. وأكثر الفلوس التي قبضتها عند الانفصال صرفتها على الفحش والفواحش

ـ دمرتني زهيرة ، وحرقت مستقبلي .. وأهلكت شبابي .. لقد تعلق القلب بها

صاح فيه حميد : كلام فارغ .. هل هي التي دلتك على الخمارات وعلى دور البغاء ؟ .. أنت سعيت لذلك .. اسمع أنا مستعد لمشاركتك ثانية ، ومستعد أن أساعدك في الزواج ، وأبحث

لك عن بنت حلال .. مقابل تركك الفجور .. أدرك نفسك قبل فوات الأوان.. فأنت عاجز عن سداد أجر دكان وأجر عشة كما تقول .. فإذا صلح حالك بترك المنكرات ستتخلص من إيجار العشة ، ريثما نجد لك المرأة الصالحة .. نبحث لك عن زوجة متدينة محترمة ..

وبعد صمت قصير عاد يتابع : افرض أن زهيرة ميتة أو ماتت ، هل ستبقى أعزبا أو حتى أرملا ؟ قصتك قصة لا تدخل عقل إنسان سليم العقل ..الديون تتراكم عليك .. اصح يا رجل

ـ يعني أنك تمتنع عن مساعدتي

ـ أنا آسف يا بطل .. هل صحيح ما سمعته ؟

ـ ماذا سمعت أيضا ؟

ضحك حميد وقال : الناس هوايتها نقل الأخبار .. لهذا سعد الناس باختراع الراديو ثم التلفزيون ..لا أدري ممن سمعت ؟ أعتقد من أحد أفراد شلتك يزعم أنك سعيت للسفارة الكندية لتحصل على تأشيرة هجرة .

ترك ميلاد الكرسي واقفا وقال : أفكر بالهجرة مللت من هذه البلاد

ضحك حميد وقال : مللت من هذه البلاد ، وتريد السفر لكندا .. سافر الفلبين .. البرازيل أما كندا .. مجنون أنت.. مجنون يا ابن عمي.. أبوك مريض ورغبته أن يراك رجلا كسائر إخوتك .. يا رجل أعقل وتب إلى الله .. ألم تمل من الفجور كما مللت من البلاد ؟!.. أعقل وخلال أسبوع تعود للعمل معنا .. وذلك عندما اطمئن لصلاحك .. وإذا تزوجت أو شرعت بالزواج ستعود الشراكة بيننا

صاح في وجه حميد وهو يطرح باقي السيجارة على الأرض : لن أتزوج إلا زهيرة

ـ زهيرة ماتت.. ما دامت قد هاجرت للغرب فهي بحكم الميتة .. الله أعلم متى تعود ؟!

الجنسية الكندية

لقد استطاعت زهيرة اجتياز سنة الحمل والولادة والرضاعة ، فكان جل اعتمادها على الرضاعة الصناعية ، كانت تحصل شمس على جزء من الرضاعة الطبيعية خلال الشهور الأولى من الولادة ، ثم ضعف لبن الأم رويدا رويدا حتى جف ، وكانت قد استعانت الأسرة بخادمة من فتيات أمريكا اللاتينية يستوردن للعمل كشغالات وخادمات في البيوت والشركات ، وكان الحصول عليها من شركة استخدام كندية لها مكتب في نوفا سكوشا .

وكان قانون الهجرة الكندي يسمح للوافدين إلى كندا بالحصول على الجنسية الكندية بعد مرور ثلاث سنوات من الإقامة في كندا ، فيراجع دوائر ومؤسسات الهجرة الكندية في العاصمة والمقاطعات ، ثم يقسم اليمين أمام المحاكم الكندية الخاصة بموضوع الهجرة وطلب المواطنة الكندية ، ويتعرض طالب الجنسية للفحص الطبي الشامل ، ويتعرض طالب الجنسية لفحص أمني تقوم به الشرطة والجهات المختصة بذلك ، ومن ثم يتعرض لفحص ثقافي عن كندا جغرافيا وتاريخيا ولغة وحقوق المواطنة ، ثم يمنح الجنسية الكندية بعد زمن يسير .

لذلك لما اقترب موعد حصول سامر وقرينته على تلك الجنسية ، كان سامر يقرأ ويزيد معلوماته عن تلك البلاد ...

تتألف حكومة كندا من ثلاثة مستويات ، ويوفّر كلّ مستوى عدداً من الخدمات المختلفة .

الحكومة الفدرالية تحكم البلاد ككلّ ، وتتكوّن من ممثلين منتخبين من كلّ مقاطعة في كندا ، يترأس الحكومة الفدرالية رئيس الوزراء ، ويضمّ البرلمان في كندا ٣٠٣ أعضاء بمن فيهم رئيس الوزراء ، تتحمّل الحكومة الفدرالية مسؤولية الدفاع الوطني ، وشؤون الهجرة والجنسية ، والقانون الجنائي، والنظام المصرفي ، بالإضافة إلى أمور أخرى .

الحكومة المحلية تتولى إدارة شؤون الحكم في مقاطعة نوفا سكوشا ، وهي تتكون من ٥٢ ممثلاً منتخباً من مختلف أنحاء المقاطعة ، يترأس الحكومة المحلية رئيس وزراء المقاطعة ، فالحكومة المحلية للمقاطعات هي المسؤولة عن الحقوق المدنية، والموارد الطبيعية، والضمان الاجتماعي،

والرعاية الصحية ، والتعليم ، والطرق السريعة ، والسيارات، وغيرها .

السلطات البلدية تتكوّن من ممثلين منتخبين من الحي السكني المحلي أو البلدة أو المدينة ، رئيس البلدية هو رئيس السلطات البلدية ، تتولى السلطات البلدية مسؤولية توفير الخدمات للسكان مثل الشرطة، والإطفاء، والطرق، وجمع النفايات، وإزالة الثلوج ، والحدائق العامة، والترفيه ، كما تنظّم البلديات المشاريع التنموية ، وقوانين عمل الشركات والمؤسسات التجارية ، كما أنّها توفر أنشطة مدنية وثقافية .

بلدية هاليفاكس إنّ اختصار إتش آر أم **HRM** يعني اسم بلدية منطقة هاليفاكس التي يسميها بعض الناس هاليفاكس أو هاليفاكس الكبرى ، وتطلق هذه التسمية أيضاً على البلدية أو الحكومة المحلية.

موقع بلدية منطقة هاليفاكس، عاصمة نوفا سكوشا ، على الساحل الشرقي لكندا، وهي أقرب مدن أمريكا الشمالية إلى أوروبا عند السفر جواً ، والأقرب إلى نيويورك وبوسطن من المدن الكندية الكبرى الأخرى.

يطلق على الساحل الشرقي لكندا كندا الأطلسية ، وهو يتضمن المقاطعات الأربع التالية : نوفا سكوشا ، نيو برونزويك ، برينس ادوارد آيلند ، نيوفاوند لاند ولابردور وتسمى المقاطعات البحرية دون الأخيرة

بدأ الاستيطان الأوروبي في هاليفاكس في عام ١٧٤٩ ، وقبل ذلك كانت المنطقة مأهولة بمجموعات الميكماك ، وهم سكان المنطقة الأصليين، ووجودهم في هاليفاكس مستمرّ حتى يومنا هذا ، للهجرة تاريخ طويل في هذه المنطقة ، فمن عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٧١ ، جاء أكثر من مليون مهاجر إلى كندا من خلال بيير ٢١ ، ميناء في هاليفاكس ، فاستقرّ العديد من المهاجرين هناك مما ساهم في تقوية ثقافة منطقة هاليفاكس ، هناك متحف يحمل اسم بيير ٢١ لسماع قصص المهاجرين ومشاهدة صورهم . ويطلّ وسط مدينة هاليفاكس على مرفأ هاليفاكس .

ويتميز شتاء هاليفاكس برياح قوية ، وأمطار غزيرة ومتجمدة ، وحرارة منخفضة ؛ لذلك يحتاج كل فصل لملابس خاصة فيه .



وكان الطبيب سامر ماجد يتقدم تقدما ممتازا في جراحة العظام والمفاصل ، وكانوا ينقلونه بين عدة مشافي في المقاطعة سواء في مستشفى الملكة اليزابيت الثانية أو مستشفى نوفا سكوشا ، وكان أحيانا يعمل في المستشفى ليلا سواء في قسم الجراحة للعظام أو قسم الطوارئ الذي يستقبل حوادث السيارات والدراجات ، ولقد كان يتحصل على دخل جيد جدا ، وكان يقضي ساعات خارج الدوام العملي في مراكز البحث العلمي الشائعة بكثرة هناك ، للقراءة ومتابعة تجارب الباحثين ، وعليه في نهاية الاختصاص أن يتقدم ببحث ودراسة للجامعة ليحصل على شهادة الاختصاص في الجراحة ، وعادة الاختصاص يكون بممارسة عملية أو أكثر للعمليات الجراحية تحت إشراف دكاترة كبار وجراحين ، وقبل أن تدخل شمس مرحلة ما قبل المدرسة (٣- ٥) كان الدكتور قد أتقن الفرنسية كاللغة الإنجليزية التي تقدم فيها أيضا بسبب الدراسة ، وبسبب التعامل مع أطباء وموظفين المستشفيات التي تنقل بينها ، وقد التقى خلال السنوات تلك بأطباء وعلماء في الجامعة ومراكز البحث ، وتيسر له النجاح في جراحة العظام ومنح الشهادة التي تؤهله لمعالجة العظام كسرا وأمراضا أخرى سبق الحديث عنها .

ولقد سرت وسعدت زهيرة بتقدم زوجها ونجاحه وتقدمه الذي شاع في الجامعة وبعض مشافي المدينة .

واستمر في عمله في مستشفى نوفا سكوشا حتى أنهت زهيرة بكالوريوس الطب العام ، وكانت الفتاة الصغيرة شمس قد انتقلت من مرحلة ما قبل المدرسة إلى مرحلة المدرسة .

إن التعليم العام مجاني ، ومتاح لجميع الأطفال في كندا ، ويتعلّم معظم الأطفال في المدارس العامة ، تضمّ بلدية هاليفاكس ١٠٠مدرسة ، و٣٠٠٠ معلم ومعلمة لمساعدة الأطفال على التعلّم.

يلتحق الأطفال الكنديون عادة بالمدارس عند بلوغ سن ٤ أو ٥ سنوات ، ويجب على الطفل أن يكون بعمر خمس سنوات في ٣١ ديسمبر أو قبل هذا التاريخ ليكون مؤهلاً لدخول المدرسة العامة خلال السنة الدراسية ، ويجب عليه البقاء في المدرسة حتى سن ١٥ أو ١٦ ، حسب المكان الذي يعيش فيه ، تمّ تقسيم نظام التعليم على النحو التالي : التعليم ما قبل الابتدائي (من عمر ٣ إلى ٥ سنوات) ، وهو متوفر في بعض المدارس ومراكز رعاية الأطفال النهارية، والمنظمات غير الربحية ، وكما يوجد بعض الأفراد الذين يوفرون هذه الخدمة.

التعليم الابتدائي من الصف الأول إلى السادس ، التعليم المتوسط من الصف السابع إلى التاسع ، التعليم الثانوي من الصف العاشر إلى الثاني عشر ، كلية المجتمع أو الجامعة ، وتتوفر في المنطقة المدارس الخاصة أيضا .

وكان الدكتور سامر قد تيسرت له فرصة عمل في مقاطعة كيبك الجزء الأكثر فرنسية في كندا قبل تخرج زهيرة ، فلذلك عندما تخرجت زهيرة انتقلوا كليا لتلك المقاطعة ، وكان سامر قد استأجر شقة منذ رحل إليها ، وكان يقضي عطلة الأسبوع في نوفا سكوشا حتى تخرجت زهيرة ، فاستقروا جميعهم في كيبيك في مقاطعة مونتريال ، وعملت زهيرة في نفس مستشفى زوجها المستشفى العام في المقاطعة ، وأخذت هي الأخرى تستعد لنيل الاختصاص في طب الأسرة والنساء .

فبعد استقرارهما في أحد المباني الكبيرة ذات الطوابق الكثيرة على جبل مونتريال ، واستقرت الفتاة في مدرسة ابتدائية حكومية أخذت زهيرة تستعد لحمل جديد ، وحدث ذلك الحمل بصعوبة بعد عدد متكرر من الإجهاضات ، ورغم تطور الطب وحداثته لديهم كسائر الدول الصناعية الكبرى في العالم تأخر الحمل وجاء المولود بعد حين ذكرا سمياه مجدا .

وبعد ولادته بشهور أصيب والده سامر بوعكة صحية ، قضى بسببها عشرة أيام في المستشفى العام الذي يعمل به تحت العلاج والمراقبة الذي بدأ كالتهاب في القصبات الهوائية ، وتطور لضيق نفس قاتل ومشاكل في الرئة ، ولما تعافى وتماثل للشفاء ، طلب منه طبيبه المعالج والمشرف على صحته أن يأخذ إجازة لمدة شهر يقضيها في مناطق دافئة ، ورشح له هالفياكس كما رغب سامر لأن صيفها جميلا معتدلا ، وفعلا بعد أيام من خروجه من المشفى رتب أمور الفتاة شمس مع الخادمة التي رحلت معهم من نوفا سكوشا الولاية الأطلسية ، وهم ارتاحوا معها ، والقانون في كندا يمنع بقاء الأطفال دون الثانية عشرة من البقاء في البيت وحدهم ، فهناك مراكز لرعايتهم ومتابعتهم ، وقد أخذت زهيرة إجازة من عملها لمرافقة زوجها في رحلة الاستشفاء والنقاهة ، وبواسطة أصدقائهم في تلك المنطقة حصلا على شقة مفروشة لمدة شهر واحد ، وفي هذه الإجازة القاهرة فقد الولد مجد ، فقد فارق الحياة بعد مرض لم يمهله كثيرا ، وهو أصلا قد ولد عليلا ، وقد أخبرهم طبيب الولادة أنه قد يعيش إذا تقدم به العمر ، وتتلاشى العلة مع تقدم العمر .

فأصيب الزوجان بالغم والكدر مع هذه المصيبة ؛ ولكنهما كمسلمين استسلما لقدر الله عز وجل ، وعادا لكويبك يغمرهم الحزن ، وبكت الطفلة ذات العشر سنوات شقيقها الصغير عندما رجعا بدونه ، وأخذ سامر يرغب زهيرة بالعودة للوطن بعد أن نالا حظهما من العلم والشهادات في هذه البلاد الشاسعة ، فهي ثاني أكبر بلد مساحة في العالم يسبقها الاتحاد السوفيتي ، وتحسن له زهيرة البقاء في هذه الأرض الجميلة ، وقد تعودا وتكيفا على مناخها وطقسها وجمالها وبحارها وأنهارها ، وهو بالمقابل يزيد الضغط عليها للعودة للوطن والشمس الساطعة والمناخ المعتدل ، وهي تأخذ بالتوسل إليه للبقاء في كندا ، وتخلل ذلك المحاولة للحمل من جديد بالدعاء إلى الله تعالى ، والاستعانة بخبرتها بالطب وزملاء المهنة حتى مضت سنة على وفاة مجد دون فائدة ، فقال سامر متنهدا بعمق : اشتقت لأمي يا زهيرة .. فلنذهب لزيارة أهلنا.. ألم تشتاقي لأمك بعد عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة ؟

ـ اشتقت ، وفي الأسبوع أتحدث معها مرة أو مرتين .. وقد زارتنا أمك قبل خمس سنوات ، وأنت تتحدث معها في الأسبوع مرتين أو ثلاث .

ـ أنا جئت للدراسة فحسب ، لم نأت لقضاء كل العمر عند هؤلاء .. أتريدين أن ترين شمسا تمشي بالشوارع بالشورت والثياب القصيرة ؟ .. إنها تكبر وتدخل سن المراهقة ، وقانون حماية الأسرة يمنعنا من فرض شيء عليها .. فنحن نرى أبناء العرب والمسلمين يقلدون أهل البلاد في كل الأشياء ..هذه دولة ليبرالية .. لا يمكنك منع شمس من ذلك .. فهي في سن التمرد .



الدكتور سامر طغت على قلبه فكرة العودة للبلاد سواء كان ذلك شوقا لأمه وأهله كما تحدث يوما لزهيرة أم خوفا على ابنته الوحيدة من عادات وتقاليد البلاد أم غير ذلك من الحجج والأعذار ، وبعكسه كانت زهيرة ، فهي سعيدة بحياتها في كندا ، سعيدة بعملها في قسم النساء وطب الأسرة في المستشفى العام في المدينة وغيرها من مراكز الطب والعلم ، وسعيدة بأصدقائها العرب وغير العرب من العاملين معها وغير العاملين ممن تعرفت عليهم خلال العلاج والمراجعة .

وعلينا أن نعرفك أيها القارئ الكريم على تلك المدينة ، كما تعرفت على مدينة نوفا سكوشا .

يقولون إن كيبك هي أكبر مقاطعة كندية من ناحية المساحة ، والثانية من ناحية التقسيم الإداري بعد إقليم نونافوت ، تقع في شرقي كندا ، تحدها الولايات البحرية من الشمال والشرق ، وتحدها من الغرب مقاطعة أونتاريو، خليج جيمس وخليج هدسون إلى الشمال عن طريق مضيق هدسون وخليج **Ungava** ، ومن الشرق خليج سانت لورانس ومقاطعات نيوفاوندلاند ولابرادور ونيو برونزويك ، ومن الجنوب تحدها الولايات المتحدة ماين ونيوهامبشير وفيرمونت، وولاية نيويوركما تشارك الحدود البحرية مع نونافوت

وجزيرة الأمير إدوارد، ونوفا سكوشيا .

وبالنسبة للمناخ ينقسم في ولاية كويبك إلى قسمين، في الشمال يسود الشتاء الطويل البارد حيث يسيطر التجمد ، وتتدنى درجة الحرارة فتصل إلى ما دون الصفر، والصيف قصير دافئ ، وتنتشر بالإقليم الغابات الصنوبرية.

وأما سكان كويبك فهو الأكثر عددا بعد أونتاريو ، يعيش معظم السكان في المناطق الحضرية بالقرب من نهر سانت لورانس بين مونتريال ، وهي أكبر مدنها، ومدينة كويبك ، أما المناطق الوسطى الشمالية من المقاطعة فهي قليلة عدد السكان ، ويقطنها في المقام الأول شعوب أميركا الأصليين ، تلعب القومية دورا كبيرا في السياسة في المقاطعة ، كما تحاول الأحزاب الثلاثة السياسية الرئيسية الحصول على قدر أكبر من الحكم الذاتي والاعتراف للشعب الكويبيكي كأمة.

قد عرفت أول اكتشافها بفرنسا الجديدة ، أو كندا ، وذلك في سنة ١٥٣٤ م حتى ١٧٦٣ م ، ثم عرفت باسم مقاطعة كويبك حتى سنة ١٧٩٠ م ، ثم عرفت بعد ذلك باسم كندا الدنيا ، ثم كندا الشرقية ، وبعد انضمامها للاتحاد الكندي أطلق عليها مقاطعة كيبيك ، وجرت محاولة لفصلها عن كندا في سنة ١٩٨٠ م في استفتاء عام .

عاصمتها مدينة كيبك تحمل نفس الاسم ، وأهم مدنها مونتريال واللغة الرسمية في مقاطعة كيبك هي الفرنسية، من جانب لغتها وثقافتها ومؤسساتها ، فإنها تشكل دولة داخل كندا.

وكيبيك من ناحية التاريخ مستعمرة فرنسية حملت اسم فرنسا الجديدة بحكم تابعيتها لفرنسا الأم ، ثم مستعمرة تابعة الإمبراطورية البريطانية ، كيبك سيتي هي أهم تجمع حضري بشرق كندا ، ويأتي موقعها بالمنطقة المأهولة بولاية الكيبك على ضفاف نهر سان لوران ، تعتبر المدينة الأكثر استقرارا في البلد من بعد أدمونتون وكالجاري ، ومعدل البطالة بها هو ثالث أقل نسبة في كندا ، القطاعات التي في نمو هي السياحة والمعامل وعلوم الحياة والصحة والتغذية ، وقطاعات التأمينات والتكنولوجيا التطبيقية ، لدى كيبك الميناء الثالث الأكبر بكندا ، كيبك

مشهورة بتاريخها ومتاحفها ومعاهدها الثقافية ، وتلقب بمدينة المسرح ، لها ثمان بلديات .

والذي اكتشف موقع كيبك هو الفرنسي جاك كارتييه ١٥٣٥، هو ورجاله اكتشفوا قرية تسمى ستادا كوني، وكان في استقباله دونا كونا، قائد هذه القرية (الذي التقاه كارتييه في أول رحلة في ١٥٣٤) ، على الرغم من الترحيب الحار وتحذير دونا كونا قرر كارتييه بعد يومين على مواصلة الطريق إلى النهر، حيث مات مرافقوه بسبب الإسقربوط ، فقرر العودة إلى ستادا كوني ، لدى عودته وجد أن الرجال يقومون ببناء قلعة سانت كروا ، وموقعها الحالي يقع بالقرب من جسور كيبيك وبيار لابورت .

مدينة كيبيك تأسست رسميا من قبل صمويل دو شامبلان بتاريخ ١٦٠٨ م على الموقع الذي يقع بالقرب من قرية ستادا كوني ، الموقع الذي يعرف الآن بالمكان الملكي فأصبح مهد الفرنكوفونية في أمريكا الشمالية .

في نهاية الحكم الفرنسي، كانت المدينة محاطة بغابات وحقول شاسعة ويقطنها حوالي ٨٠٠٠ شخص ، وامتازت بطابعها المعماري الفريد ، وأسوارها العالية ؛ لكن رغم حضريتها ومكانتها كعاصمة ، ظلت كيبك مدينة صغيرة مرتبطة بفرنسا كثيرا . في عام ١٧٥٩ احتلتها القوات البريطانية ، وباتت حدثا مهما في حرب السنوات السبع لكنها أصبحت خرابا.

وبعد ثلاث سنوات معظم الممتلكات الفرنسية في أمريكا الشمالية تصبح بحوزة بريطانيا. في أعقاب المؤتمر القاري الثاني في ١٧٧٥ ، قبل الثورة الأمريكية ، تتعرض الحامية البريطانية لمدينة كيبيك للهجوم من قبل القوات الأمريكية دون جدوى بقيادة بنديكت ارنولد في معركة كيبيك (١٧٧٥).

بعد خمس سنوات من الكونفدرالية الكندية في ١٨٧٢ ، قرر الحاكم العام لكندا ، اللورد دوفرين ، إنشاء المقر الرسمي للقلعة في كيبيك ، لدى وصوله إلى كيبيك، أراد اللورد دوفرين أن تكون مدينة كيبيك مدينة سياحية ، فأمر بإعادة بناء الجدران ، حيث كان سكان كيبيك قد أخذوا من الأسوار أجزاء لبناء المباني، وأمر بإقامة الشرفة التي لا تزال تحمل اسمه.

طوال القرنين التاسع عشر والعشرين ظلت مدينة كيبيك الوجهة الرئيسية لعدد متزايد من المهاجرين إلى كندا ، الذين غادروا سنويا الجزر البريطانية قادمين إلى أمريكا الشمالية ، وذلك بسبب موقعها على نهر سانت لورانت ، الذي كان الممر المائي الرئيسي في أمريكا الشمالية ، وهكذا ، وإلى سنة ١٨٣٠ ،استضافت مدينة كيبيك متوسطا سنويا بـ ٣٠٠٠٠ من المهاجرين الجدد ، وكان ثلثاهم من إيرلندا.

كيبيك كانت عاصمة كندا من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٥ ، وآخر عاصمة قبل أن يتم نقلها إلى أوتاوا .



قصر فرونتناك

تم في ١٩١٧ بناء جسر كيبيك الذي يربط كيبيك الواقعة في الضفة الشمالية لنهر سانت لورون بليفيس الواقعة في الضفة الجنوبية ، وهو ليومنا هدا أطول جسر في العالم ، إلى يومنا هذا كيبيك هي عاصمة ولاية كيبيك ، والتجمع الأضخم بكيبيك من أفضل المواقع المعمارية يقع شرق أسوار المدينة في كيبيك القديمة والساحة الملكية ، تتميز تلك المواقع بطابعها الأوروبي القديم حيث المباني الحجرية تمتد على طول الشوارع لتصل إلى المطاعم الفخمة والمتاجر ، أهم البوابات هي بوابة سانت لويس وسانت جون ، تصل منهما إلى وسط المدينة الحديثة ، إلى الغرب من الجدار يوجد مبنى البرلمان ومقاطعة سهول إبراهيم.

المدينة العليا ترتبط بالمدينة السفلى عبر "سلالم كسر الرقبة " وكيبيك القديمة،وتشمل هذه المواقع على كنيسة نوتردام دام دي فيكتوار والمنطقة التاريخية بيتي شمبلن ومنطقة الميناء ومتحف الحضارة ، المدينة السفلى تمتلأ بالشوارع الأصلية والهندسة المعمارية والتصاميم،

والتي يعود تاريخها إلى بدايات المدينة ، الجدران والتماثيل تبرز أيضا ، للمدينة السفلى أيضا تشكيلة واسعة من المحلات، وتتضمن العديد من السلع اليدوية الحرفية.

أفق مدينة كيبيك يهيمن عليه فندق قصر فرونتناك الضخم ، والمعلق فوق جبل الألماس ، ويقع الفندق بجانب شرفة دوفورين ، وجسر للمشاة على طول الحافة .



كنيسة نوتردام دام دي فيكتوار بالمدينة السفلى

قرب قصر فرونتوناس توجد كاتدرائية نوتردام دي كيبيك ، وهي الكنيسة الأم لأبرشية الروم الكاثوليك بكيبيك ، وهي أول كنيسة في العالم الجديد التي تصبح كاتدرائية .



لنتعرف على مونتريال بما أننا مع السيدة زهيرة في ربوع كندا ، والتي عاشت بها الدكتورة سنوات بعد هاليفاكس .

مونتريال مدينة كندية مهمة ، وهي أكبر مدن مقاطعة كيبيك ، وأكبر مدينة كندية حتى سنوات ١٩٧٠، مونتريال تنافس تورونتو كأكبر مدينة في كندا ، تقع في مقاطعة كيبيك ، وهي كبرى مُدن العالم المتحدثة بالفرنسية بعد باريس ، ثلثا السكان في مونتريال من ذوي الأصول الفرنسية ، ويتحدثون الفرنسية ، تعتبر مونتريال واحدة من أكبر موانئ العالم البحرية الداخلية ، والمركز الرئيسي للنقل في كندا ، وهي

أيضًا مركز رئيسي للأعمال الصناعية والثقافة والتعليم الكندي. تم تشييدها على جزيرة بين نهري ريفيير دي بريري شمالا ، وسانت لورانس جنوبا ، أما ميناء مونتريال فيقع في نهاية ممر سانت لورانس سيواي البحري.



ويُعدُّ موقع مونتريال فريداً من نوعه ؛ فهي تقع على جزيرة داخل نهر سان لوران ، بنيت حول جبل مون رويال بالفرنسية **Mont Royal** وهي المدينة الكندية الكبرى الوحيدة التي بنيت حول جبل ، تغطِّي مونتريال حوالي خمسي مساحة جزيرة مونتريال في مكان يلتقي فيه نهرا سان لوران ، وأوتاوا في كيبيك الجنوبية . يبلغ ارتفاع جبل مون رويال ٢٣٣م وتغطيه الأشجار، ويوجد اليوم في قلب المدينة.

يُحاذي مونتريال القديمة نهر سان لوران بين شوارع بيري ومكغيل، وتقف كثير من مبانيها القديمة جنبًا إلى جنب مع المباني العالية الحديثة ، وتغطي المطاعم الساحرة والمنازل التاريخية والمتاجر الصغيرة شوارع المنطقة الضيقة ، وكثير من هذه الشوارع مرصوفة بالحجارة الكبيرة.

بني برج مونتريال تايلور عام ١٩٧٦، وهو أعلى برج مائل في العالم ، يرتفع إلى ١٧٥م ، وينحدر إلى ٤٥ درجة وهو موقع سياحي .

تبلغ مساحة مدينة مونتريال نحو ١٧٠كم٢، أما كمجمع حضري فتزيد مساحتها على ٣٠٠٠كم مربع ، وينتمي مناخ مونتريال إلى نموذج المناخ البارد والرطب ذي الصيف القصير والشتاء الطويل الذي تتساقط فيه الثلوج بغزارة ما بين شهري تشرين الثاني ونيسان ، والصيف القصير لطيف الحرارة ، متوسطها في شهر تموز (أحر شهور السنة) ٢١ْم ، أما

متوسط حرارة أبرد شهور السنة كانون الثاني فهي ١٢°م تحت الصفر.

وتعد منطقة مونتريال الكبرى ثانية أكبر منطقة حضرية في كندا بعد تورونتو ، ويعيش حوالي ١١٪ من سكان كندا في مونتريال الكبرى ، تتكون منطقة مونتريال الكبرى من حوالي ٧٥ مدينة وبلدة ، يعيش حوالي ٦٥٪ من سكان هذه المنطقة خارج المدينة .



سوق جون تال

ويعتبر الكنديون ذوو الأصل الفرنسي أكبر مجموعة في المدينة ؛ حيث تظهر أكثر اللافتات في جميع أنحاء المدينة باللغة الفرنسية ، وقد وُلِدَ حوالي ٢٠٪ من سكان مونتريال خارج كندا ، ويشكل سكان كندا من السلالة البريطانية ثاني أكبر مجموعة ، وقد استقر في المدينة مئات الألوف من المهاجرين من أوروبا والشرق الأقصى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ ، تعيش جالية عربية كبيرة في مونتريال تقدر نسبتها بـ ٥٪ من إجمالي السكان .

أُسِّس نظامُ الدراسة في مونتريال على أساس اللغة والدين ، تتم الدراسة بالفرنسية أو الإنجليزية ، وتوجد مدارس الرومان الكاثوليك والبروتستانت ضمن كلِّ مجموعة لغوية ، ويوجد في مونتريال أيضًا أربع جامعات أشهرها جامعة مونتريال وجامعة مكغيل

واستولت القوات الإنجليزية على مونتريال عام ١٧٦٠م ، وأصبحت كندا ـ بالتالي ـ مستعمرة بريطانية وفقاً لاتفاقية باريس الموقعة عام ١٧٦٣م ، وسرعان ما تطورت مونتريال إلى مركز تجاري بريطاني ، وتركزت المصالح الفرنسية على الزراعة ، أُنشئ معرض عالمي في مونتريال في عام ١٩٦٧م (إكسبو ٦٧) ، وقد استضافت المدينة أيضاً دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في عام ١٩٧٦م .

الطلاق

لم يهدأ سامر بأمر إنهاء خدماته في كندا ، بل بدا مصرا ومصمما على العودة للبلاد ، فكان يتكرر الحوار بينهم كلما اجتمعا وأتيح لهما النقاش ، أحيانا هادئا وأحيانا أخرى حادا عاصفا ، فقال لها بعد أن خلا البيت من زوارهم ، وذهبت شمس إلى حجرتها وغرفة نومها ، وانصرفت الخادمة المستأجرة أيضا للنوم وخفت الأضواء في الحجرات : ماذا فعلت بالنسبة للعودة للديار ؟.. أنا لم تعد لي طاقة للبقاء .. جئنا للدراسة ، وقد وفقنا الله ، ودرسنا وعملنا .. نحن أتينا في طلب الطب ، ونلنا ذلك .. ألا يكفي كل هذه السنوات من الغربة ؟!

كانت زهيرة تسمع ذلك ، وقد سمعته من قبل ، ولا يكاد يخلو مجلس بينهم من الحديث حول العودة للبلاد حتى الأصدقاء سمعوا بذلك ، فردت بعد صمت : أليس هناك شغل كهذا ؟.. سنقضي عمرنا ومصيرنا بين المستشفيات والعيادات .. فما الفرق يا سامر ؟

تطلع في عينيها للحظات وقال : عجبا من حديثك ! .. وجزء من كلامك صحيح .. ولكن هناك بين أهلنا وإخواننا ، نفرح معهم ، ونحزن معهم .. الأصدقاء هنا لا يغنون عن الجلوس مع الأشقاء مع الأم .. أبي مات ولم أره إلا ميتا .. الدكتور ماهر صديقنا مات ، ولم نشارك في جنازته .. لا أستطيع أن أصبر حتى أرى شمسا تعانق كنديا ؛ كأنها تعانق أخا لها أو عما .

ـ لست أدري ما الذي يعجبك في بلاد العرب ؟ حروب .. واحتلال .. وفقر .. هذه بلاد قد استقلت من مائتين سنة فقارنها بأي بلد عربي من المحيط للخليج ، ستجد أنها بلاد شامخة .. شعوب تريد الحياة .. التطور الكبير والجمال واستغلال الموارد .. كل شيء مثير للحياة هنا .. لماذا لا نظل فيها ؟!

ـ أليس لديك رغبة برؤية أمك بعد كل هذه السنين ؟!

ـ أمي عند زوجها .. طول عمرها مع أزواجها .. وكنا نلتقي على الهاتف .. وأحيانا تزورني أو أنا أزورها .. واليوم نلتقي على الهاتف ، ونسمع صوت بعضنا ، ونعبر عن مشاعرنا نحو بعضنا .. وإذا عدنا سيستمر أكثر ما بيننا على الهاتف .. لا فرق كبير بين هنا وهناك .

ـ هذه أفكارك وحياتك ، أنا صممت على العودة ، فكري جيدا بعلاقتنا وحياتنا .. يظهر أن صديقك هنري مؤثر عليك بأفكاره وشخصيته

ـ جميل منك قولك صديقك هنري! .. هنري مجرد صديق مستشفى ، أحبنا يا سامر ، وهو صديقنا جميعا

ـ إنه هو الذي يشد على يدك للبقاء في جنة كندا ، ولقضاء عمرك هنا .. وأنت تعرفين سمعة زوجته السيئة في المستشفى وفي الجامعة .. وغيرتهم على نسائهم وبناتهم تختلف عن غيرتنا .

ـ أنا لا أعتقد أنها تمارس الزنا أو الحب كما يسمونه .. إنما هي إشاعات هي قالت لي ذلك ، وقالت أيضا " إنهم يثيرون هذه الأقوال ليحدث الطلاق بيننا ، هناك ممرضة ذات علاقة خاصة به ، وتطمع بالزواج منه لا تريد أن تبقى العلاقة بينهما علاقة صداقة فقط "

فقال : على كل ليس لنا دخل في حياتهم الخاصة ؛ ولكني سمعته كثيرا يهمس لك حاثا على البقاء في بلاده ، وعدم الإصغاء لي في هذا الأمر .. لم يبق لي صبر .. ألسنا جئنا للتعلم ؟ وتعلمنا ، وسنمارس عملنا في بلدنا ونخدمه كما خدمنا هذه البلاد .. فعليك أن تحسمي أمرك وقرارك .

ـ لكن الناس هنا أرقى والتعامل معهم أحسن .. وأنت لم تترك لي أي خيار .

قال بضجر وتأفف: الناس ناس في كل مكان وزمان ، لكل قوم ثقافتهم وتاريخهم .. نحن هاجرنا إلى هنا ليس من أجل المال .. كثير من المهاجرين يتركون بلدانهم من أجل الثروة والمال ، وبعضهم هربا من الاضطهاد والظلم..فالحياة الاقتصادية الفضلى مقصد للأفراد والشعوب والدول .. الحمد لله أنه جاء كلانا من أجل العلم الحديث في بلادهم كغيرنا من الطلاب والمبتعثين من بلادهم .. فلسنا فقراء ، وقد كسبنا ثروة كبيرة خلال هذه السنوات الماضيات .. ولسنا مضطهدين سياسيا وثوريا لنبق هنا .. أرجو أن تفكري جيدا بالسفر معي لا أريد أن نخسر بعضنا البعض بعد هذه السنوات الجميلة الطيبة بيننا

ولما رآها لم تعقب بل تنظر إليه مشدوهة تابع قائلا : أنت تعرفين ظروف زواجنا .. تعرفنا عن

طريق المرحوم الدكتور ماهر طه لتحقيق مصلحة لك ومصلحة لي .. والشكر لله أنني حققت ما أصبو إليه من التخصص في جراحة العظام والكسور .. وأنت حققت التخصص بالأمراض النسائية والتوليد وطب الأسرة .. وتلقين محاضرات علمية في كليات الطب ، ومراكز الطب ، ومحاضرات ثقافية في مراكز وجمعيات عربية وإسلامية .. فيمكننا أن ننشئ مستشفى صغيرا في بلادنا ، ونخدم البلد الذي ولدنا وترعرعنا فيه، أليس له حق علينا ؟

قالت : لهم حق يا سامر .. أنت تحكم العاطفة في أمور مهمة .. ولا تنس أن هذا المال الذي نجنيه من هنا يستفيد منه الأهل .. والمشاريع التي تتحدث عنها يمكننا أن نقدمها للبلد ونحن هنا.. ولك ولي مساهمات مالية في شركات هناك مع بعض إخوتك .. والبلد لا تخلو من الكوادر الطبية والعلمية .. فلسنا نحن أول من يتعلم ليخدم بلده من الهجرة .

ـ العيش مع الأهل والأقارب له محاسنه .. ولا تجعلي عقدة ابن عمك تكرهك أهلك الآخرين واحد سيء من بين عشرات من الطيبين .. لا أريد أن تموت أمي وأنا هنا .. أصل وأجدها ميتة كما حصل عندما سافرت عند مرض والدي فلما وصلت كان ميتا .. ألا يحق أن أعيش معها وبقربها باقي العمر ؟ أرجوك وافقي على العودة لنبق أحبابا وأزواجا

ـ سأفعل وأفكر وأحسم الأمر .. أعلم عظم شوقك لإخوتك وأخواتك وأمك قبلهم .. أنا لا أهل لي يا سامر اشتاق إليهم .. مات عادل عمي دمعة لم تخرج من عيني عليه .. ليس ذلك بيدي ، لم يهزني موته لم أحبه يوما ما.. هم أعمام بحكم الولادة .. ومات غيره لم أحزن .. سأفكر بمصيري يا حضرة الدكتور العزيز على قلبي .

ترك سامر زوجته تفكر بمصيرها معه ، وأما هو فباشر بفك التزامه مع المستشفى العام في مونتريال مقدما استقالته للإدارة ، وأخذ بإجراءات الانفكاك وإبراء الذمة من دوائر المشفى ، والدوائر الطبية ذات الاختصاص ومن صحة المقاطعة ، وسعى إلى أخذ الشهادات والخبرات اللازمة للحياة .. وذات ليلة قالت زهيرة : يقول السيد هنري إنك قدمت استقالتك من المستشفى

ـ أنا لم أقل لك .. أنا آسف يا عزيزتي .. أنا حسمت أمري ، كما تعلمين مللت وكرهت كل الغربة .. عليّ أن أعود لأمي .. كلما نتكلم تقول متى ستعود ؟ ..

ـ وأنا ؟!

قال بحزم : أنت إما أن ترحلي معي لنكمل المشوار معا في ربوع الوطن أو ننفصل عن بعض بالمعروف والحسنى .. وكل له طريقه وحياته ، وسنبقى أصدقاء ، فبيننا شمس .

ـ وشمس ؟

ـ قانون هؤلاء يسمح لها بالبقاء معك إلا إذا تنازلت لي عنها .. لن افرق بينك وبينها .

فقالت ساخرة : أتتركها هنا للضياع كما تزعم ؟

ـ إذا بقيت هنا ستبقى معك .. لا أستطيع أخذها ، فهي ابنة هذه البلاد كما يقولون حتى تبلغ سن الرشد فتستطيع الاختيار .. وأنا مناي أن تذهبي معي لتذهب الفتاة معنا ..

قالت بعد هنيهة : سامر إذا كنت بحاجة لزواج تزوج هنا ، طلقني وتزوج فأنت بحاجة لمزيد من البنين والبنات .. أنا أدرك حقا أنك راغب بالذرية أعرف شعورك وحاجتك لذلك بعد كل هذا الصبر والانتظار .. أنا امرأة مريضة لا تستطيع الإنجاب .. ابق وطلقني وتزوج ولنبق أصدقاء .

ـ صحيح لدي رغبة بالأولاد ، وهذا حق لي أليس كذلك ؟ وهنا التعدد ممنوع وكان بإمكاني طلاقك ، وإنهاء العلاقة الشرعية التي بيننا .. لكن صدقي أنني أرغب بالعودة اليوم قبل غد .. أنا بحاجة فعلا للعودة لبلادنا والحياة فيها

ـ أنا أعرف من سقطات لسانك رغبتك بالزواج ، وإنك لن تحقق ذلك هنا ..وإذا كنت تراني عائقا لزواجك للبقاء هنا فطلقني ولا تهتم

ـ لن أتزوج هنا يا زهيرة .. نحن لن نعدم العلاج في بلادنا وأرضنا ، وستنجبين بإذن الله

ابتسمت وقالت : أنا طبيبة نسائية يا دكتور وأخصائية نساء فأعرف أنني عاجزة عن الإنجاب لديّ عدة مشاكل في الجهاز التناسلي وقد يطول العلاج .. فإذا كان هذا سبب رغبتك بالعودة

فأنا مستعدة لطلب الطلاق والانفصال بكل صدر رحب أو غير رحب .. وأما إذا عدت معك وطلقتني فستكون كارثة بالنسبة لي ولمشاعري وشماتة الأقارب .. هنا حياتي !

قال مشجعا : عودي معي ، ولن يحصل الطلاق وسنبقى متزوجين ويكفينا شمس

ـ عندما ترى أبناء إخوتك وأخواتك وأنت بدون ولد يحمل اسمك ...

فقال مقاطعا : عادات قديمة

ـ أنت كما قلت كان زواجنا زواج مصالح ؛ لأنني لا أستطيع الهجرة للغرب بدون زوج أو محرم حسب تقاليد بلادنا المحافظة

ـ هذا صحيح ؛ ولكنك تعلمين علم اليقين أنني أحببتك ، ولم يجبرني أحد على الزواج منك، وإن كان فيه لفتة إنسانية ، وزواج المصالح ليس محرما في شرعنا .. وأنا لست طامعا بثروتك ومالك ، وها هي سنوات طوال مرت علينا دون أن اضغط عليك لأخذ مال منك ، إنما مساهماتك ـ وأشكرك عليها ـ كانت برغبة منك وحسب عادات هؤلاء الناس .. والزواج كان بترتيب من صديق الوالد الدكتور ماهر الوصي عليك ، وكان حريصا عليك ، ويسعى لسعادتك وعلى طهارتك .. والكثير من الفتيات يسافرن اليوم وقبل اليوم بدون محرم شرعي أو زوج ، ولا يفكرن بهذا الأمر .. لكن الدكتور لما رأى رغبتك بالهجرة ، ولديك إصرار خاف عليك من أخطار وأضرار الغربة خاصة في بلاد تقاليدها وعادتها تختلف كثيرا عنا .. ففضل زواجك .. وأنا متأكد أنك يمكنك الحياة والعيش هنا بمفردك خاصة بعد هذه السنوات من معاشرة القوم ..

بعدما صمت همست زهيرة : أسبوع واحد ، وسأضع بين يديك القرار النهائي .

ـ أسبوع .. تحتاجين أسبوعا من التفكير .. عجيب هذا ! .. الأمر لا يحتاج إلا إلى دقائق .. نعم أم لا .

زهيرة كما رأينا من خلال صفحات حياتها في وطنها ، لم يكن لها ارتباط وجداني بأحد سوى أمها هناء ، وربما أدركنا أنها لم تكن تلك العلاقة الحميمة بينهما ، فكانت زهيرة ترى أن أمها لم

تضح من أجلها بشيء .. فهي ما زالت تتخيل ليلة وفاة أبيها غاضبا على أمها ، لم تنس تلك الدقائق الخطيرة ، ما زالت ذاكرتها تذكرها بها .. وعايشتها أرملة ، وعايشتها عندما تزوجت ثانية في بيت الدكتور مروان شقيق الوصي .. وربما لمست لها العذر لتقاليد المجتمع بتزويج الأرملة أو المطلقة ؛ لأنهم يرون من الأفضل للمرأة الحياة مع زوج بدلا من أخ أو أخت .. وسنوات أمها مع مروان كانت سنوات سيئة بالنسبة لزهيرة ؛ لكثرة مشاكل أمها مع الرجل من أجل الولادة والحمل .. ثم انحراف أمها حتى طلقت ، ثم تزوجت ثالثة بعد وفاة أبيها .. فقد تسببت بموت أبيها ، ومن قبل أبيها مجدي .. فلم تغدق عليها من الحب والحنان الكثير ، كانت تريد البنين والبنات .. وحتى في أيام تقدمها للتوجيهي كانت تعيش زهيرة مع جدتها .. فالحرارة بينهن لم تكن بتلك القوة المعروفة بين الأم والبنت .

كانت الدكتورة تفكر بتلك السنوات التي قضتها بين الأهل والأقارب ، وهي تفكر بالقرار الذي وعدت سامر باتخاذه .. تذكرت حياة أمها في بيت الطبيب مروان الذي شجعه الوصي على الستر عليها .. كانت مشاكل حادة تدور في البيت دون مراعاة لمشاعرها ووجودها ، حتى يئس الرجل وتركها تتصرف بحياتها كما تشاء ، وسمح لها بالعمل حتى أثيرت حولها الشكوك والأقوال المبهمة بشباب يعملون معها .. وكانت زهيرة مستاءة من أمها تلك الأيام .. ثم حدث الانفصال وقد زاغت أمها عن الخط المحافظ ، وأخذت تسكر وتسهر وتتعاطى الحشيش وغيره .. وتعلقت بشاب أصغر منها بعشر سنوات ، وكانت تطارده للزواج منه .. يا لها من أيام ! هكذا همست لنفسها وهي تستعيد تلك الأيام من ذاكرتها .. " لقد صعقت يومها من مراهقة أمي ، وقلت كل هذا من أجل أن تلد ولدا ! ".. وعلى أثر موت والدها محمد استيقظت من غفلتها وانحرافها ، وتابت وآبت ، ثم قبلت بالزواج من رستم الضابط المتقاعد .. وبقيت هذه المرة في بيت جدتها، رفض رستم أن تعيش معها في بيته لأنها صبية .. عاشت مع الخادمة الآسيوية التي كانت تنفق عليها من مالها الخاص ، لم يتطوع عم أو خال أو أم ليدفع راتبها ونفقاتها من هدايا وكسوة .. مالها الذي دفع كل هذا .. " ولولا وصاية

الوصي ـ رحمه الله ـ لشجعتها أمها على الزواج للخلاص من أي مسؤولية اتجاهها " "وربما زوجتها من ميلاد " .. فعلاقتها الوجدانية مع الأعمام والأخوال ضعيفة مراسم ومناسبات .. فلا يجذبها لبلدها ووطنها إلا الجاذب الحنيني لمسقط رأسها كما يفعل سمك السلمون الذي يعشق الموت في موطنه الأول .. ثم تذكرت أنها ولدت في الخليج العربي من ناحية الولادة .. الحنين الجذري لموطن الآباء والأمهات .. قضية معقدة .. لماذا تعود ؟ الحياة هنا كما هي هناك .. والموت هنا كما هو هناك .. لا أعرف الفروق التي يكتب عنها العلماء والأدباء والشعراء .. فليس هناك ما يجذبها للعودة حتى بعد أن نالت حظها من العلم .. ولها أصدقاء وصديقات ومرضى وعمل ونشاطات ثقافية واجتماعية .. وهي تدرك إدراكا تاما أن سامرا يسعى للعودة ليس من أجل الشغل ، فالمال هنا أكثر بكثير من بلد نام كما تسمى بلاد العرب والمسلمين هذه الأيام .. فهو يسعى للعودة للروابط القوية بينه وبين أهله .. فترده الاتصالات الكثيرة والرسائل الكثيرة .. من الأخوة والأخوات وأبنائهم .. وهو جاء كما قال للاختصاص ونيل شهادة الطب من الغرب لأهمية ذلك في بلاد العرب هذه الأيام .. وإلا فأن هناك مجالا لنيل الاختصاص .. فشهادات هذه البلاد تؤهله للعمل في كل الدول المتحضرة والمتطورة .. فهي تعرف الأثر النفسي الكبير الذي تتركه هذه الشهادات من أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية عندما يقال جراح من جامعة كذا وكذا .. وألم تتحمس وتسعى هي نفسها لطلب الشهادة من بلاد الغرب ؟ عندما فتح لها العميد ذلك الباب من التشجيع لم تصبر لتأخذ البكالوريوس من بلدها .. ألا تتلقى استشارات من شتى المدن في الغرب ومراكز البحث في مسائل الطب والعلم ؟! وهي تعلم أن الرجل يريد الذرية .. وما محاولات علاجها المستمرة والمتكررة إلا من أجل هذا المقصد .. وكم كان حزينا عند موت ابنه مجد !.. فرغم صغرها لم تحمل حملا كاملا إلا مرتين، وولد مجد عليلا ضعيف البنية ، ثم مات .. ورغم تقدم الطب هنا لم يفعلوا لها شيئا يذكر .. تركوا ذلك للزمن ، وتعالجت ، ولم تنجح في الحمل لمشاكل طبية تعرفها جيدا .

تركت العمل لعدة أيام ، وبعد عقد عدة جلسات تفكير مع نفسها ، حسمت أمرها ووصلت

للحل المناسب لها ، فعقدت مع شريكها اجتماعا بعيدا عن شمس فقالت : من حقك أن يكون لك ذرية يا سامر .. لقد كنت أرى أمي وهي تقاتل من أجل الذرية .. من أجل أن يكون لها أبناء مثل أمها وأخواتها وسائر إخوتها .. ولم يقدر لها ذلك من أبي ، ومن مروان شقيق ماهر رحمه الله .. وقد ينعكس الأمر عليّ .. أنا لا أستطيع أن أحمل لأمراض تعرفها في الجهاز التناسلي .. وأنا لا أستطيع أن أعيش زوجة ثانية ، فأنكد عليك وعلى زوجتك .. فسنرتب أمر الطلاق والانفصال .. وسوف نوضح لشمس القضية بأيسر السبل ، وهي التي تختار بيننا بملء إرادتها وحريتها ، لن أوثر عليها عاطفيا أو عقليا .. وأرجو أن يبقى لي في قلبك شيء من الحب والود

وأخذت تمسح دموعا سالت على وجنتيها فقال : هذه هي الحياة يا أم شمس .. صدقي أنها أجمل سنوات العمر .. نعم الزوجة والصديقة ، ولا أنسى الاحترام الكبير الذي وجدته منك لشخصي وأهلي ، ولدي سبب وحاجة وقد حققتهما .

بعد ذلك اللقاء المهم اختارت السيدة زهيرة الطلاق والبقاء في مقاطعة كيبيك الكندية حيث أحبت الإقامة فيها منذ سنوات قليلة ، وبواسطة محامي قانون الأسرة تم الطلاق بينهم ، رغم أن القانون لا يجري الطلاق إلا بعد سنة من انفصال الزوجين عن بعضهما ، لأن الزواج في كندا كأغلب الدولة الغربية إن لم تكن كلها يكون زواجا مدنيا ، ثم يذهب كل فريق إلى طائفته ، وينشئ عقد زواج ديني إذا شاء .. فالمسلم عند الموثق الشرعي ، والنصراني كذلك ، والبوذي نحوه ، والذي لا يريد له ذلك .. ولكن المحامي كما في الحالات الاستثنائية استطاع إجراء الطلاق المدني ، وخاصة أن الدكتور سامرا سيقدم طلب التنازل عن جنسيته الكندية التي حصل عليها خلال فترة الدراسة .. والبنت الوحيدة بينهما رتبت أمورها .. فأسقط سامر جنسيته الكندية في المحكمة ودائرة الهجرة ـ مع جواز الاحتفاظ بجنسيته في القانون الكندي للجنسية ، وكذلك القانون لبلده يجيز الجنسية المزدوجة للمواطن ، ولكنه لحاجة في نفسه تخلى عنها ـ وراجع الدائرة التي تهتم بشؤون المسلمين ووثق عقد الطلاق .. وخلال شهر واحد

انتهى ما بين زهيرة وسامر .. وكانت البنت لما شرح لها أمر الانفصال ، اختارت البقاء حيث ولدت مع أمها ، فأوصى الرجل الأم على ابنتها ، ووعد بالمساهمة ماليا في تربيتها وتعليمها وحاجتها ، فعفته الأم من ذلك وقالت " إذا احتجنا استعنّا بك " ثم قالت " المهم أن نبقى أصدقاء ، فشمس ما زالت تربط بيننا ، وأتمنى لك السعادة والتوفيق في بلدك .. ليس هناك شيء يشدني إليها، ولعلي أغير ذلك في يوم من الأيام .. ولست جاحدة لوطني أرجو أن تفهم هذا يا سيد سامر "

ـ أتمنى أنا لك أيضا كل خير وتقدم ، وعسى أن نبقى أصدقاء .. وسأتصل بكم ـ إن شاء الله تعالى ـ دائما

ـ سامحني يا أخ سامر .. سنوات جميلة جمعت بيننا

ـ بل أنت سامحيني ، ولا تعتبريني تخليت عنكما ، وأنت في أي لحظة فكرت بالعودة للبلد ، سنذهب في اليوم التالي للمحكمة لعقد الزواج من جديد .. إنني لا أنسى السعادة التي وفرتيها لي خلال السنوات الماضيات من عمرنا .. وسنبقى أصدقاء من أجل تلك الذكريات الجميلة والثمينة من سر حياتنا ، ومن أجل شمس ، وأرجو أن تبقى عفيفة وطاهرة مثل أمها في مثل هذه البلاد التي تغمرها الإباحية والهوس الجنسي والشذوذ .. قانون يسمح بزواج المثلين .. وعلى كل حال كل أمه وشعب له تقاليد وعادات يحافظ عليها .

ـ سلم لي على أمك العزيزة سلاما خاصا ، ولتسامحني يا أخ سامر .. وسلم على أخواتك وإخوتك وعماتك وخالتك .. وعلى الجميع ، لهم مني كل التحيات .. ما زلت اذكرهم منذ خطبنا وتزوجنا ، ولا أنسى ودهم وعطفهم عليّ .. ولسوف أتحدث معها عندما تصل وأعتذر لها عن اختياري الطلاق .. وكن لها صديقا يا سامر

ـ أشكرك ، وستبقى في عيوني، وستظل محبة لك

وكان سامر بعد إعلان الطلاق الرسمي يقضي ليله في أحد الفنادق ، وبعد هذا الحوار غادرهم جوا من مطار سان لوج إلى مطار المدينة العاصمة أوتاوا ، وقام ببعض المعاملات الخاصة به ،

وتحويلات ماليه ، ولما اتصلت به شركة الطيران تعلمه عن موعد سفره إلى مصر ؛ لأن حركة الطيران إلى مصر سريعة ومتكررة بسبب السياحة النشطة لمصر ، وحب الغربيين لزيارة الأهرامات والأقصر وأسوان ، وكذلك وجود جالية مصرية كبيرة إلى حد ما في كندا ، فأنهى حجزه في الفندق واتجه إلى المطار في الموعد المناسب .

وكان لسامر رغبة بقضاء أيام في ربوع مصر وميادينها لذكرياته فيها ، فهو قد نال شهادة الطب الأولى من جامعتها العريقة القاهرة أول جامعة حديثة بمصر ؛ كأنها شيدت في عهد الملكية والخديوية .

كان سامر يصل مصر في أقل من يوم ، ويستقر في أحد الفنادق المصرية الحديثة ، مصر مليئة بالفنادق السياحية لنشاط هذا القطاع عالميا ، فمصر مليئة بالآثار الفرعونية والمصرية والإسلامية ، خاصة القاهرة القديمة والجامع الأزهر ، فهي مهوى السياح من شتى أقطار الدنيا .. فالسياحة والآثار لها وزارات وشركات وطيران ومكاتب .

وبعد أيام قضاها فيها حجز تذكرة طيران على الخطوط المصرية المسافرة للبلد ، وفي مطارها الحديث كان في استقباله أحد أشقائه بسيارته ، ولما أخذ جوازه بعد تدقيقه وختمه ، وحصوله على حقيبته ، التقى بأخيه ، وتعانقا بعد طول غياب ، واطمئنا على بعضهم وعلى أمه ، انطلقت بهما السيارة إلى بيت أمه حيث ظلت تعيش وحدها بعد وفاة زوجها ، ورفضت ترك بيت الزوج الميت ، ورفضت الحياة في بيوت أولادها ، وبقيت تعيش مع الخادمة العاملة معهم من سنوات طوال وكان شقيقه يقول : كانت أمك تحلم بلقاء وحيدتك .. قد تألمت عندما علمت برفضها المجيء لرؤية أقاربها .

ـ لا استطيع إجبارها للمجيء معي ، خاصة أن أمها بقيت هناك ، فهي كندية أكثر مني .. فبالحسنى حاولت ؛ ولكنها رفضت

ـ نعم، أسمع عن قوانين هؤلاء الناس .. فهم يأخذون الأبناء من والديهم إذا أسأوا لهم بالضرب والتعذيب ، ويدفعونهم لأسرة نصرانية تعنى بهم .. إذا لها نصيب قد تراها في

المستقبل .. الله يحميها

فقال سامر باكيا: لها الله يا غازي !

وأخذ بالبكاء والنشيج فجأة ، وأخذ غازي يهون عليه الفراق ، ويدعوه للتعوذ من الشيطان ، وقل قدر الله وما شاء فعل ، والحافظ هو الله .. وقال : أرجو أن توفق السيدة الفاضلة زهيرة من تربيتها وتوجيهها للطريق المستقيم ، وتحسن رعايتها .. لا أدري ما يحبب الناس في العيش في تلك البلاد !

جفف سامر دموعه وعاد له الهدوء فقال : الحياة الطيبة .. الرفاهية والتساوي أمام القانون والحقوق والواجبات ، لا محاباة باسم المنصب والقرابة والقبيلة .. وكذلك العناية الكاملة من الدولة للإفراد .. لكن حريتهم أحيانا تزيد عن حدها فالسلطة الأبوية ضعيفة ، وسلطة الرجال على النساء هالكة .. إنهم سواء بل لا سلطة لأحد على الآخر ..



سامر

لم يجد صديقنا الطبيب سامر الأخصائي العائد من أمريكا الشمالية صعوبة في الحصول على وظيفة في مستشفيات القطاع العام والخاص، وإنما فضل العمل في مستشفى خاص ، ومن ثَم سيسعى للعمل محاضرا في أكاديميات الطب على مستوى الجامعات التي بدأت تنتشر مع قرب بداية الألفية الثالثة .

فعمل في مستشفى خاص تابع لإحدى كليات الطب ليجمع بين التدريس والعمليات الجراحية ، فكان في أقل من شهرين يمارس وظيفته الدنيوية .

وقد اعتاد الاتصال يوميا أو يوما بعد يوم بطليقته وابنته شمس ، وكان الاتصال قصيرا عن الحال والصحة .

أما زهيرة فبعد رحيله أحست بالفراغ الذي تركه سامر في حياتها الخاصة ، ففقدت جمال الحياة الأسرية رغم ظروف عملهما كأطباء وسهر ومناوبات ودورات ورحلات .. كانت اللحظات اللواتي يلتقيان بها حميمية ومثيرة وممتعة لعواطفهم ومشاعرهم ودنياهم .. شعرت بالوحدة وذهاب الأنس مع وجود شمس ومع وجود الخادمة القديمة التي رافقتهم الحياة منذ أيام هاليفاكس .. حلت عليها الكآبة حتى اضطرت بعد شهرين وأكثر أن تزور العيادة النفسية ، فشجعتها طبيبة العيادة النفسية على الاختلاط بالناس والأصدقاء والإكثار من السهر خارج البيت حتى لا تشعر بالوحدة الجسدية ، وأن فقدان الزوج سيزول بعد عدة أشهر .. لكن أين ستسهر زهيرة ؟ هي كانت تستقبل الزوار وعائلاتهم لوجود سامر معها ، ويذهبان معا غالبا لزيارة تلك العائلات ، وهي التي اعتذرت لزميلها هنري ، وطلبت منه عدم زيارتها بعد انفصالها عن سامر "وقالت له : أنا وحيدة يا دكتور" ، فعرض عليها أن يتردد عليها بصحبة جنفيفاف زوجته ، والعاملة أيضا معهم في المستشفى ، فهي طبيبة في قسم الأطفال ، فرحبت بها وحدها بدونه ، فلذلك خفت زيارة العائلات لها ، وأكثر أصدقائهم عائلات .

وأدرك هنري المحنة التي تمر بها زهيرة ، وأدركت زهيرة كم فقدت بطلاقها ! وأن سامرا ترك

فراغا كبيرا في البيت وكيانها ، وتمنت لو أنها فكرت جيدا بمثل هذه الوحدة ؛ لربما سافرت ، ثم تقول لنفسها "كان يريد الزواج عليها .. فات الأوان يا زهيرة .. هل يا ترى تزوج الآن؟"

لم يتزوج سامر بعد رغم إلحاح أمه الشديد فيقول : فلنصبر يا أمي لعل زهيرة تراجع نفسها وتعود بالبنت .. هي لا تطيق الضرة هذا ما لمسته من أحاديثنا "

كان أخوته كلهم يلحون عليه بالزواج والتعجل فيه من أجل الذرية ، فهو يقترب من الأربعين ، وليس له إلا بنت واحدة ، وربما لا تعود فيرد باسما : لما ألتق بابنة الحلال قد أتزوج

ـ قلة فتيات في الجامعة والمستشفى

ـ أحب الزواج من فتاة هذه المرة من خارج القطاع الطبي والصحي

فترد عليه أخته أسماء : هذه أسهل .. لدي فتاة لم تتزوج بعد ..عمرها ثلاثة وثلاثون عاما، تعمل في قطاع المال مؤسسة مالية كبيرة .

ـ عانس هي ؟

ـ عانس بعد ، كادت تتزوج أكثر من مرة ، وتحدث ظروف فيفشل الزواج ، وقد حكت لي بعضها

ـ أصديقة لك ؟

ـ لا ، تعرفت عليها عن طريق أخت لها طبيبة مثلي ، تعمل معنا في العيادة

ـ على كل حال اصبروا عليّ بعض الوقت ، ولست بعجلة يا جماعة الخير

فقال غازي : أنت تكبر يا رجل .. والأيام مكسب والصحة لا تدوم

ـ أنا فعلا قد مرضت هناك مرضا حادا ، حتى طلب مني الطبيب المختص العيش في منطقة أكثر دفئا من مونتريال لبعض الوقت .. فترة نقاهة كما نقول ، وبعيدا عن ملوثات المدن الكبرى فقضيتها في نوفا سكوشا ، وهي أصلح من كويبك قليلا

لما استوعبت زهيرة نصيحة الطبيبة النفسية أخذت إجازة طويلة إلى حد ما ، وقررت المشاركة في رحلة سياحية داخلية في التنقل بين مقاطعات كندا الغربية حيث المحيط الهادي ، وتركت

شمسا بصحبة الخادمة كما هو المعتاد بالنسبة للأمهات العاملات ، وطلبت من الخادمة الرد على تلفونات سامر ، وتعتذر له برحلتها وجولتها الداخلية ، وعلمت أن رحلتها تستغرق ستة أسابيع بين الطبيعة والحدائق والمتنزهات والمتاحف والماء والأسواق ..

بدأت رحلة الدكتورة من مطار مونتريال الدولي - واسمه الرسمي مطار بيير إيليوت ترودو مونتريال ، يخدم مدينة مونتريال أكبر مدن مقاطعة كيبيك ، ويقع في جزيرة مونتريال على بعد ٢٠ كم من وسط مدينة مونتريال في مدينة دورفال وسانت لورين - باتجاه المحيط الهادي حيث مقاطعة كولومبيا البريطانية إلى مدينة فانكوفر وهي أكبر مدن بريتش كولومبيا ، يستطيع المرء مشاهدة أكبر محيطات العالم ، ومشاهدة الجبال والغابات والمتاحف وقاعات الفنون عدا الأسواق ومجمعاتها الكبيرة ، وكانت شركة السياحة قد حجزت لهم في فندق مستوى ثلاث نجمات لقضاء عشرة أيام في تلك المدينة والمقاطعة ، فسيقومون بجولة على متاحف ومنتجعات وحدائق ، منها متحف فانكوفر ، ومتحف فانكوفر البحري، ومتحف شرطة فانكوفر، ومزرعة الأطفال ، ومنتزه سايبريس ، ومشاهدة جسر كابيلانو المعلق ، ونقطة مراقبة فانكوفر، وممشى كول هاربور البحري ، وسوق جرانفيل آيلاند، وعالم العلوم، ومفرخة كابيلانو للسلمون(سمك مشهور) ، وملاذ جورج ريفل للطيور المهاجرة ، ورحلة لجبل جروس ، وبحيرة لوس تلاجون، وبروسبيكت بوينت ، والحدائق الصينية ومنتزه لابت هاوس بارك ، ومنتزه لين كانيون بارك ، وحديقة **UBC** النباتية.

كان البرنامج حافلا بالزيارات والجولات والنشاطات في تلك المدينة البحرية ، وهذه أول مرة تزور الدكتورة هذه المقاطعة التاريخية ، لذلك استمتعت في هذه الرحلة واستفادت معنويا وثقافيا .

بعد مضي عشرة أيام في منطقة كولومبيا رحلوا إلى مقاطعة البيرتا لقضاء أسبوعين ، وذهبوا في البداية إلى منتزه بانف وجاسبير في بلدة بانف ، فهو يقع على جبال روكي ماونتز ، وقد تأسس عام ١٨٨٥ ، ويضم الحقول الجليدية ، والجبال الثلجية ، والغابات الكثيفة، والمركز الثقافي في

بلدة بانف ، ويأوي المنتزه ما يزيد عن خمسين نوع من الثدييات الدببة والوشق والذئاب وابن عرس ، ويوفر للرواد لعبة الجولف والتزلج وركوب الخيل ، ورحلات التسلق ، والسير والتخييم ، ويمكن للزائر ركوب عربة بانف جوندلا المعلقة ، وفي البلدة عدد من المتاحف والبحيرات ، بحيرة باتريشا ليك ، وبحيرة بيراميد ليك ، شلالات مالين كانيون فولز ، وادي جونستون كانيون ، بحيرة لين مالين ، وليك مورين.



بعد قضاء بضع ليالي في بانف انتقلوا إلى مدينة كالجاري التي تتمتع بأجواء مشمسة أكثر من غيرها من مدن كندا ، وتقع في منطقة جراس لاندز البيرتا وتنتشر حولها المنتجعات الجبلية ، بالإضافة لنهر بو ريفر المثالي لصيد السمك ، وتأوي جبالها وسفوحها الدب الأسود والموظ والغزلان ، وتحتوي عددا كبيرا من المنتزهات، كندا الأوليمبي ، وفيش كريك بارك ، نوز هيل بارك ، ناهيك عن حصن كالجاري التاريخي ، وبرج كالجاري ، ومتحف تسوتينا للثقافة ، والمتاحف الحربية ، ومركز كالجاري للثقافة الصينية ، وحديقة حيوان كالجاري ، وعالم تيلوس العلمي ، وعددا من المجمعات التجارية الكبيرة ، وسوق اوكلير ، ومجمع ماركت مول التجاري . انتقلوا إلى بلدة ادمون تون على نهر نورث ساسكا تشوان ريفر ، وتحيطها أخصب الأراضي الزراعية ، وتعد المدينة مركزا حكوميا وتربويا وثقافيا ، وتستضيف المدينة ما يزيد عن ثلاثين مهرجانا دوليا على مدار العام ، وفيها أكبر متحف تاريخي كندي ، وتحتوي قاعات الفنون الكثيرة ، وتضج بالفعاليات المسرحية ، فسميت مدينة المهرجانات ، وسمي ديناصور ادمون توسورس تيمنا بها ، تكثر فيها المنتزهات والحدائق ، ومركز يوهان جانزين للطبيعة ، ومحمية موتارت للنباتات ، ومتحف البيرتا للسكك الحديدية ، ومتحف البيرتا الملكي ، وتجد

فيها مجمعات تسوق عالمية ، ومركز وايت مود التعليمي للخيل ، وعالم تيليوس للعلوم ، وحديقة حيوان فالي زو .

تركوا البيرتا إلى أونتاريو لقضاء عشرين يوما أخرى ، فهذه الرحلة الترفيهية تستغرق ستة أسابيع ، سيقضون في مدينة نياجرا أياما لمشاهدة الشلالات المشهورة ، وقد رأتها الدكتورة من قبل ، لكن هذا من ضمن برنامج الرحلة للشركة ، ويشاهد هنا شلالان على نهر نياجرا ريفر الذي يمثل الحدود بين كندا والولايات المتحدة ، والذي يستقطب ملايين الزوار سنويا لهذه المدينة ، شلال أمريكان فولز ارتفاعه ٢٥ م ، والآخر هورس شو فولز الذي ارتفاعه ٥٣م ، ومن مشاهد السياحة في نياجرا عربة ويرلبول ايروكا الهوائية ، ورحلة جورني بيهايند ذا فولز ، وزيارة محمية نياجرا جلين الطبيعية ، وحدائق نياجرا باركس النباتية ، وحقول كونيكا مينولتا وبرج سكايلون تاور، والمحطة الأخيرة كانت في تورونتو التي تقع في الجهة المقابلة لمدينة نيويورك الأمريكية على بحيرة ليك أونتاريو ، وتجمع خليط من السكان من أمريكا الجنوبية وآسية وأوروبا ، فهي مدينة متعددة الثقافات واللغات ، وينعكس ذلك على الأحياء والضواحي والمتاحف والأطعمة والأسواق ، وفيها أحراش سبادينا كي ، ومتحف ريد باث للسكر ، ومتحف باتا للأحذية المشهورة عالميا ، ومتحف جورج جاردينر لفنون السيراميك ، ومتحف الشرطة ، وسوق سانت لورانس ، ومنتزه سنتر فيل الترفيهي، وقرية الرواد الأوائل ، ومرصد ديفيد دانلوب ، ومتحف أونتاريو الملكي ، ومتحف النسيج ، والبلدة الصينية ، ومتحف تورونتو للفضاء ، ومنطقة يوركفيل للتسوق ، وحدائق تورونتو النباتية .

كل شيء في كندا جعل للسياحة ، الأرض الجبال الأنهار السكان ، وقضت رحلتها بسلام ، وعادت بعدئذ لمونتريال حيث العمل والمرضى .

فلندعها تستمع بسياحتها وجمال الطبيعة ، ونعود حيث التقى ميلاد بحميد ابن عمه ، وكان والد كليهما قد مات ، وورث كل منهما ثروة لا بأس بها عن أبيه .. ورجع ميلاد بعد موت الوالد للحياة في البيت بعد أن وعد من جديد بالتخفيف من السكر ، وشغله ما زال ضعيفا

ومتقطعا ، لا يصلح عنده إلا السكارى وزعران الحارات ، وأغلبهم يتملص من دفع الأجرة ، ويعد بحفل شراب وحشيش .

قال ميلاد لحميد وهما يجلسان على مقدمة سيارة تخضع للتصليح أمام محطة حميد للتصليح : هل صحيح أن ابنة عمنا طلقت ؟

فترك حميد الجلوس ووقف على الأرض وتبسم ، وقال : كل الناس تقول ذلك يا ميلاد .. لقد انفصلت عن زوجها الدكتور سامر ، وبقيت في تلك البلاد البعيدة في آخر العالم .. والبقاء هناك سبب طلاقها ، رفضت العودة للبلاد ، وابنتها رفضت مرافقة أبيها .

ـ سأسعى للسفر إليها من جديد

قهقهة حميد وصاح : بعدك مجنون ! ومتعلق بأحبال الهواء والوهم يا مسكين.. يا رجل ابنة عمك أصبحت دكتورة كبيرة ومهمة .. هل تراها تقبل بك وأنت حفتري ؟!

ـ حفتري ! ما معنى حفتري يا فصيح ؟ وهي مطلقة وأنا عانس بعدي .

استمر حميد بالضحك بصوت عال ، ونادى على ابنه عماد وقال : هات شايا لعمك ميلاد يا عماد .. كيف امرأة عمي اليوم ؟

ـ بخير ، كلما تصحا من غيبوبة سكر تقول" تزوجت يا ميلاد ؟ أشقاؤك من امرأة أبيك يتزوجون " فأرد عليها لن أتزوج إلا زهيرة .. ولما قلت لها سمعت أنها طلقت .. صدمت لم تصدق حتى قال أخي حسن يسخر مني " فرصتك يا سبع الغاب "

استمر حميد بالضحك مرة أخرى وقال : صرت مسخرة يا ميلاد لكل

الأجيال الصاعدة .. فهذا عماد ابني ـ وكان يقدم لهما الشاي ـ يقول " لماذا لم يتزوج العم ميلاد لليوم ؟!" .. فأقول له عمك ميلاد عشق فتاة قبل عشرين سنة ، ولليوم يحبها ، فيقول" ولماذا لم يتزوجها ؟!" فأقول له طارت

فتبسم ميلاد وقال لعماد وهو يأخذ منه الشاي : شكرا على الشاي يا عماد .. كيف حالك ؟ أأنت في المدرسة أم تركت ؟

فرد الفتى : ما زلت في المدرسة ، وبعد الدوام آتي لمساعدة الحاج .. فهو لم يجد مساعدا لليوم .

فعلق ميلاد : الشباب اليوم لما يتعلم فك البرغي وينفخ العجل يفكر أنه صار معلما ويسعى لفتح محل .

ضحك حميد وقال : هذه حلوة منك .. كيف ستسافر لكندا يا معلم ؟ لقد قدمت جواز سفرك قبل سنوات للسفارة والهجرة فرفضوك .. لطفرك .. فهل تغيرت قوانين الهجرة اليوم؟

ـ يقدمون أصحاب المواهب وأصحاب الثروات ؛ لكني سأحاول من جديد ، ربما لو رأتني زهيرة بعد هذه السنوات حزنت عليّ وأشفقت على شبابي الذابل وقبلت بي زوجا .. ما زلنا صغارا يا حميد .

ـ الشيوخ الكبار يتزوجون يا ميلاد .. المهم أن ترضى بك هي بديلا عن والد ابنتها.. لقد حاول الدكتور سامر العودة بها وابنتها ، فاختارت البقاء، فيبدو أنها ما زالت مرعوبة منك .

ـ مرعوبة! ولماذا مرعوبة ؟!

ـ إنك أبغض إنسان على قلبها .. مع أني أكاد أن أصدق أنك تحبها ، فهي تبغضك ، ولا تطيق الأرض التي تمشي عليها

ـ سأصبر سأصبر حتى يطلقني الصبر .



اتصل سامر بشقة مطلقته كالعادة التي يمارسها منذ استقر في العاصمة وفي شقة أمه ، فردت عليه الخادمة " فليز دو" ، فبعدما حياها طلب الحديث مع الأم ، فأخبرته بسفرها في رحلة طويلة بناء على نصيحة طبيبتها النفسية ، فاستغرب للوهلة الأولى ، ثم فكر لحظات وسأل عن

البنت ، فأعلمته عن غيابها عن البيت لحضور حفلة ميلاد لإحدى زميلتها في المدرسة ، وأكدت له أنها لم تسافر مع أمها لطول وقت الرحلة ، وفضلت البقاء في البيت من أجل المدرسة ، فانزعج سامر لتصرف الأم أو لطول الرحلة ، وأدرك ما لازم الأم من ألم نفسي بسبب الطلاق والوحدة ، فشكر فليز دو ، وأمرها بالسلام على البنت عندما تعود من حفلة عيد الميلاد.. وشمس عندما حصل الطلاق كانت في الصف السابع الأساسي في المرحلة الأولى للتعليم الابتدائي ، فقد قبلت في الصف الأول قبل إكمال الست سنوات .

وكان الدكتور هنري وجنفياف زوجته يهتمان بشمس خلال فترة الغياب ، كما وعدها بذلك ، وكان هنري قد رافقها للمحطة التي ستحملها في برنامجها السياحي ، وهو أيضا الذي نقل شمسا لمكان الحفل ، ووعدها بالمجيء عند انتهاء الحفل عند منتصف الليل لإعادتها للبيت.

وكان سامر يعرف طبيعة المجتمع الكندي،فالمناسبات كثيرة ، والسهرات أكثر ، والمهرجانات متعددة ، فحفلات عيد الميلاد للصغار والشباب لا تنتهي على مدار السنة ، وقد شارك في عدد منها بحكم المجاورة .. وكوبيك منطقة تغلب عليها الكثلكة لفرنستها ، وقبعت تحت الحكم الفرنسي قرنا ونصف ، ثم انضمت للاتحاد الكندي ، وما زالت مهوى الفرنسيين المهاجرين، وكما أن فرنسا مهوى الكنديين من جذور فرنسية ، وسميت فترة بفرنسا الجديدة .

وعندهم مناسبات وطنية يحتفلون بها ، ويعطلون لها ، منها احتفالات أول السنة الميلادية في الأول من يناير (كانون الثاني) ، ويوم الجمعة العظيمة ، ويوم الفصح ، وهذه أعياد نصرانية مشهورة عند الأمم النصرانية في أنحاء العالم ، ويحتفلون بيوم فيكتوريا، ويكون يوم اثنين قبل ٢٥ مايو (أيار) ، وأهم عيد وطني يوم كندا ، ويكون في الأول من يوليو (تموز) ، وله ترتيب معين عندهم ، ويحتفلون بعيد العمال في أول اثنين من سبتمبر (أيلول) ، ونحن العرب نحتفل به في الأول من أيار ، ويوم الشكر ثاني اثنين من أكتوبر(تشرين أول) ، لأن أيام الآحاد عطلة رسمية باستمرار ، وفي ١١ نوفمبر عيد الذكرى .

يُحتفل ببعض أيام العطل الرسمية في كل كندا ، والبعض الآخر فقط على مستوى المقاطعات

أو إقليم محدد . من مظاهر العيد لديهم إغلاق المدارس الرسمية ، والمكاتب الحكومية ، والبنوك ومكاتب البريد ، ومحلات بيع الخمور ، ومعظم الشركات الأخرى تغلق أبوابها أيام العطل ، أما المعالم السياحية والمطاعم والمتاجر الصغيرة فالعديد منها يبقى مفتوحاً.

أذكر هذه الأعياد والمناسبات لتعلم عظمة الإسلام في تقليل الأعياد والمناسبات ، وأيضا للثقافة والتعرف على شعوب العالم الجديد ، وأيضا لأن صاحبة القصة وزوجها عاشوا في تلك البلاد ، وشاركوا واحتفلوا مع هؤلاء الأجانب ، وأخيرا لتقارن بين أعياد تلك الأمم وتقليد العالم الإسلامي والعربي لهم في بعض أعيادهم ومناسباتهم ؛ لترى ضعف الأمة المغلوبة والمقلدة . يحتفل بعض الناس في كندا في الأول من يناير بيوم رأس السنة الجديدة بمناسبات تدعى "ليفي" ، والليفي هو نوع من الاستقبال الفريد لكندا والذي يعقد من قبل الحاكم العام ، وحاكم المقاطعات ، والعسكر وغيرها ، وذلك بمناسبة بدء عام آخر ، ولإتاحة الفرصة للناس للتحية .. تفتح العديد من المراكز الاجتماعية والحانات في الأول من يناير ، لتقديم حليب الموظ (شراب البيض والروم) من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل .

يحتفلون بيوم عيد ميلاد كندا وبتشكيل دولة كندا بالحفلات الموسيقية والألعاب النارية والأطعمة ، تجتمع العائلات والأصدقاء معا للشواء ، ويتم تنظيم احتفالات في جميع أنحاء البلاد .

يوم الولادة يوم العطلة هذا هو للاحتفال بـ 'أعياد ميلاد' نوفا سكوشا وجزيرة الأمير إدوارد كمحافظات ، ويقع نهار الاثنين الأول في أغسطس ، يطلق الناس عليه في بعض الأحيان اسم ' عطلة الحكومة الفيدرالية' ويتم إغلاق مكاتب الحكومة الفيدرالية والخدمات مثل مكاتب البريد وخدمات كندا.

يحتفل بعيد الشكر في كندا ثاني يوم اثنين من شهر أكتوبر ، في نهاية موسم الحصاد ، هذا هو اليوم الذي يقدم فيه الكنديون الشكر للأشياء والناس في حياتهم ، يحتفل أهل البلاد بتناول وجبة خاصة مع العائلة والأصدقاء ، وعادة ما تتضمن الوجبة ديك الحبش ، البطاطا المهروسة

الخضار وفطيرة اليقطين .

يوم الذكرى يتذكر ويكرم الكنديون المحاربين القدامى ، وأفراد القوات المسلحة ، ويحتفل بهذا العيد في الحادي عشر من نوفمبر وهي الذكرى الرسمية لانتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨ . عيد ميلاد يسوع هو احتفال مسيحي ، ويزعمون أن رسالته الرئيسية هي 'السلام على الأرض ومع ذلك فقد أصبح أيضا احتفال تبادل الهدايا بين أفراد العائلة والأصدقاء ، وهو العطلة الأكثر إثارة خلال السنة للكثير من الكنديين. تنظم العديد من الشركات والمنظمات حفلات لتبادل المواد الغذائية والتمتع في فترة عيد الميلاد. تضع العائلات شجرة الميلاد في المنازل ، ويتم تزيينها بالأضواء والزخارف احتفالا بالعيد ، كما توضع الزخارف أيضاً في الخارج ، بالإضافة إلى الأضواء الملونة والشخصيات الموسمية في المنازل والساحات.

المسلمون المتأثرون بهم المقلدون لهم الذائبون في هواهم يظهرون مثل هذه الأضواء والهلال والفانوس في رمضان والأعياد ، بل البلديات تهتم بمثل هذه الزينة علامة للاحتفال والاهتمام

يعتقد الأطفال النصارى أن بابا نويل سيجلب لهم الهدايا عشية عيد الميلاد إذا أحسنوا التصرف خلال العام ، فيكتبون رسائل إلى سانتا كلوز الرجل الثلجي ، الذي يعتقدون أنه يعيش في القطب الشمالي ، ويطلبون منه تقديم الهدايا. وفي صباح يوم عيد الميلاد تتجمع الأسرة حول شجرة عيد الميلاد وتفتح الهدايا.

بوكسينغ داي هو يوم ما بعد عيد الميلاد ، كان هذا اليوم في الأصل ، يوم استراحة بعد احتفالات عيد الميلاد وزيارة العائلة والأصدقاء ، ولكنه اليوم أصبح يعرف باسم عطلة التسوق حيث يتم تنزيل الأسعار بشكل كبير لزيادة المبيعات ، وعادة ما تكون المحلات مغلقة في السادس والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) ، تبدأ المبيعات الكبيرة في اليوم التالي ، وتستمر حتى رأس السنة الجديدة.

يحتفل بعيد الحب في ١٤ من فبراير ، يحتفل هذا اليوم بالحب والمودة ، حيث يعبر الأزواج عن الحب لبعضهم البعض ، ويتبادلون البطاقات والهدايا كالزهور والحلوى على شكل قلب أو

مربعات الشوكولاتة والتذكارات ، ويذهبون في مواعيد ، يتبادل الأطفال في الكثير من الأحيان بطاقات عيد الحب في المدرسة. وفي بلاد المسلمين ينتشر إهداء الورد الأحمر والقلوب الحمراء بين المراهقين في مناسبة هذا العيد إنه التقليد الأعمى !



عيد القديس باتريك في ١٧ مارس ، كان هذا اليوم في الأصل تكريما لقديس إيرلندا سانت باتريك ، أما اليوم فأصبح حدثا اجتماعيا للاحتفال بالثقافة الايرلندية ، يرتدي الكثير من الناس في هذا العيد الملابس الخضراء ، ويحملون نباتات النفل ويعتمرون القبعات الايرلندية ، ويفرطون في الشرب (تقاليد سيئة من الفولكلور الايرلندي في هذا اليوم) ، وبعض المسلمين يحتفلون بميلاد الأولياء كما يزعمون .

عيد الأم الأحد الثاني من مايو ، يكرم الناس الأمهات في أسرهم بالبطاقات والهدايا ، وقد أصبح تقليدا لتقديم وجبة الإفطار للأم في السرير ، أو "البرنش" (الفطور أو الغداء في وقت متأخر) في أحد المطاعم ، ووفي بلادنا يهتمون بعيد الأم في آذار .. أرأيت التقليد ؟!

عيد الأب يكون يوم الأحد الثالث من يونيو ، هذا اليوم هو احتفال لتكريم الآباء، وهو يكمل عيد الأم.

الهالويين في ٣١ أكتوبر ، يستند هذا اليوم على تقليد وثني كوقت الأشباح ، العفاريت ، والسحرة ، فقد أصبح يوما لتمتع الأطفال بارتداء الملابس والسير على الأقدام من باب إلى باب في أحيائهم ، قائلين 'ترك أور تريت' للحصول على الحلوى ، تزين المنازل بأوراق الشجر الملونة ، واليقطين المنحوت ، وفي بعض الأحيان بالمخلوقات المرعبة المضحكة الشكل.

يتمتع الشباب والكبار أيضا بالهالوين من خلال تنظيم وحضور الحفلات والتنكر بالملابس في الأيام التي تؤدي إلى ٣١ أكتوبر.

هذه أعياد ومناسبات كندا الرئيسة ، وإلا المهرجانات والمسارح والرياضة الصيفية والشتوية لا تنقضي لكبر مساحة كندا وتعدد مناخاتها .

قضت زهيرة رحلتها غربا وجنوبا حسب خطتها وتعاقداتها مع شركات سياحية شائعة في تلك البلاد ، فكندا أكبر دولة مساحة في العالم بعد الاتحاد السوفيتي الذي اختفى وتمزق دولا ، وما زالت روسيا تحتل المرتبة الأولى مساحة في العالم ، وقد عادت مسرورة من تلك الرحلة الشاقة ، وأخذت تستعيد حويتها ونشاطها ، وقد تلاشى شريك حياتها بعد هذه الرحلة رويدا رويدا .. حتى أن جراح الولادة في المستشفى هنري رئيسها ، لاحظ تلك السعادة والحيوية التي عادت إليها ، ولاحظ همتها في العمل والمعالجة ، فسألها عن آثار تلك الرحلة ، فقالت سعيدة : الآن أدركت أنني أخذت القرار الصائب .

ـ وهو ؟

ـ البقاء هنا .

ـ أنسيت سامرا ؟

ـ لم أنساه ، فهو والد شمس ، إنما نسيت السنوات التي عشناها سوية .. لقد أصبحت ذكريات

فقال ضاحكا : إذن تزوجيني ما دمت قد نسيته .

تبسمت في وجهه وقالت : أتزوجك ؟! كيف ؟ أولا أنت متزوج ، وثانيا أنا مسلمة .

ـ ولماذا أنتم تتزوجون منا ؟!

ـ هكذا يقول الدين يا هنري .. المسلمة لا تتزوج إلا مسلما.. والدين يجيز للرجل المسلم الزواج من نصرانية أو يهودية ، وتسمى في القرآن عندنا كتابية .. أنت ثقافتك عن الإسلام جيدة كما أخبرتني ذات مرة .

ـ بل مرات ، وأنا أعرف عن الإسلام ودين الإسلام أكثر من كثير من المسلمين هنا .

ـ هؤلاء مسلمون بالوراثة يا هنري .

قال : رغم أن المجتمعات في كل العالم لا تخلو من الزنا والفواحش؛ لكن المجتمعات الإسلامية

أفضلها وأقلها زنا .. بل علمنا أن في بعض المدن العربية والإسلامية تقتل النساء باسم الشرف إذا فجرت .. نحن إذا بلغت الأنثى العشرين سنة ، ولم تعرف المعاشرة والجنس تصبح أضحوكة وسخرية للجنسين ، لابد لها من المصاحبة والمواعدة وممارسة الحب في سن المراهقة ، وتعتبر غير ناضجة إن لم تفعل ذلك

ـ لاحظت ذلك .. وما أكثر عمليات الإجهاض في بلاد الغرب حسب زعم الصحف والمجلات .. وإذا كانت ممنوعة بالقانون ، فنحن نعالجهم بعد عملية الإجهاض .. هل قمت بعمليات إجهاض ؟

ـ الكثير يا زهيرة وهذه مهنتي ومهمتي .. مع استخدامهن الوقاية من الحمل يقع الحمل .

ـ في مستشفيات خاصة

ـ خاصة وغير خاصة .. ألا تريدين الزواج مني يا زهيرة ؟

ـ مجنون أنت !

ـ أعلن إسلامي إذا قبلت بي .

ـ وجنفياف !

ـ عشاقها كثر ، وستقبل بالطلاق .



الدكتور هنري

هنري تيدي جوليانز جراح مهم في قسم الولادة في المستشفى العام ، وهو من أصول فرنسية ، فهو كندي أصيل كما نقول ، لما عملت زهيرة كطبيبة نساء وتوليد وفي عيادات طب الأسرة ، التقت به بحكم الوظيفة ، وكان بينه وبين سامر معرفة سطحية بحكم عملهم في مستشفى واحد ، ومع عمل زهيرة في نفس المستشفى ازدادت المعرفة ، وتعرفوا على زوجته العاملة في المستشفى الطبيبة جنفياف بوكر ، كندية ومن جذور فرنسية مثل هنري ، فتعمقت المعرفة والصحبة ، وصار بينهم تبادل الزيارات والتهنئة بالأعياد الإسلامية والنصرانية والوطنية الكندية ، ولهنري بنت واحدة مادلين ، عند طلاق زهيرة كانت تدخل سنتها الأولى في الجامعة وكلا الزوجين من أتباع المذهب الكاثوليكي ، المذهب الذي يتبع كنيسة روما .

وهذا الرجل كغيره من الغربيين مغرم بزيارة الشرق كمصر والعراق وسوريا وإيران وفلسطين ، فلهم جولات سياحية في الإجازات إلى تلك البلاد ، كان في بعضها يرافق زوجته وأحيانا كثيرة وحده .

وللرجل اهتمامات بالصحافة وثقافة الشعوب ، فهو يكتب في الصحف الكندية والأمريكية خاصة صحف نيويورك وواشنطن ، والمجلات العلمية والطبية .

كاشفت زهيرة الطبيبة جنفياف بوكر موريسن بكلام زوجها ورغبته بالزواج منها فقالت لها : ليتك تفعلين ذلك ! هنري أصبح مملا وعجوزا لا يصلح للنساء ، ولكنه كاثوليكي من الصعب أن يغير دينه .. وهو منذ أيام سامر يرغب فيك كزوجة ، ويحلم بالاقتران بك ، حدثني عن ذلك صراحة .. فالرجل يشتهيك منذ عهد بعيد ، لا تتألمي من صراحتي .. فقد تمناك أمامي أكثر مرة .. زاعما أنه يحلم بالزواج من امرأة عربية ، فأقول له أكثر العربيات مسلمات ، ولا يتزوجن المسيحيين، فيقول " أكفر بديني وأعتنق دينها .. وقد فرح بطلاقك من سامر ، وربما كان أفرح الناس بذلك .. هو طبعا يجعل اعترافه مزحا ومغيظا لي ونوعا من الفكاهة .

كانت زهيرة تسمع هذا الكلام المفاجئ ، وتتعجب منه ومن صحته ، فلم يحاول هنري رغم سنوات عملهما معا مغازلتها وإثارتها ، مع أنه كان أحيانا يتلفظ بألفاظ فاحشة ، لكن ليس أمامها وحدها ، بل أمام عدد من العاملين ذكورا وإناثا .

لذلك تساءلت زهيرة في نفسها " هل هذه المرأة صادقة لصراحتي معها أم مقهورة غاضبة ؟!" ..أنا كنت أظنه مازحا معي مشفقا .. يشتهيني اللعين .. هذه هي نتيجة الاختلاط بالرجال " واستمرت جنفياف تكشف عورات زوجها حتى ملت زهيرة ، وغادرتها لمكان عملها في المستشفى ، فلما جلست ترك هنري السماعة وقال وهو يتركها : فضحتني جنفياف أمامك لم تبق عليّ سترا .

ـ أكانت تتكلم معك ؟

ـ نعم ، هل هذه امرأة ؟!

ـ كيف تزوجتها يا هنري ؟!

ـ هي بالطبع ليست أول امرأة في حياتي ، أنا صاحبت الإناث منذ سن المراهقة ، وهذا عندنا أمر طبيعي ، ليس كالشرق عندكم .. هنا في هذا المستشفى التقيت بها ، ولما تزوجتها طبعا لم تكن عذراء ، فهذا غير مهم عندنا ، فالعذرية عيب .

ـ أسمع عن ذلك

ـ تعارفنا يا مدام زهيرة ، وعشنا مدة سنة كأزواج ، ولما حملت بمادلين عقدنا الزواج ، لم نحب أن تلد طفلتنا غير شرعية ولو شكلا ، ولما ولدتها وعملنا فحص **DNA** استمر الزواج ، فالبنت مني أنا ، وأنا أعرف أصدقاءها ، لا تظني أني مغفل ، وأنا نفسي لي عشيقات وصديقات ، فالخيانة الزوجية أمر مباح بيننا .. ربما لو تزوجت شرقية قد يحدث الاستقرار لديّ .. فكري بعرضي عليك إلا إذا ما زلت تحنين لزوجك الأول ، فالشرقيات عندهن مثل هذا الهاجس ، تترمل المرأة صغيرة وتظل طول عمرها أرملة بحجة الأولاد ، وإذا وافقتي على زواجنا سأطلق امرأتي ، وهي لا تمانع ، ستفرح بذلك وقد ترقص سعادة وتحتفل، فهي

تعتبرني عجوزا ، ثم أشهر إسلامي في المركز الإسلامي في عاصمة كندا أوتاوا ، ونتزوج على طريق الشرقيين ، وسنقضي شهر العسل في أي مكان تختارينه من العالم .

ـ عندي مشاكل في الجهاز التناسلي ، فأنا غير صالحة للحمل والولادة .

ـ ليس مهما ، بل أحسن ، أنا أبحث عن الاستقرار النفسي ، والاطمئنان عندما أنام أن لا يدخل رجل بيتي ، وينام في حضن امرأتي على مسمع ومرأى مني ، يعاشر زوجتي وأنا مطروح كالدابة .. بالله عليك أن تفكري جيدا .

ـ ألا تزعل جنفياف مني ؟

ـ ستشكرك أنك خلصتيها مني ، ومن بعض الغيرة التي تبدو مني .

ـ معقول !



فصار هنري كلما يلتقي بزهيرة في العمل والمكاتب أن يكون حديثه حول الزواج والطلاق ، ويسألها ملحا " هل فكرت بأمرنا ؟ إني أبحث حقيقة عن الدفء العائلي والاستقرار العاطفي والأمان على شرفي "

فتبتسم له زهيرة : صدق أنني أفكر جديا بها تردد ، وإنها عاداتكم تختلف كثيرا عن عاداتنا وطباعنا يا دكتور هنري ، وأنت نفسك اعترفت لي بتكرار خيانتك الزوجية .. فأنا لا أطيق هذا الوضع كما تقبله جنفياف ؛ لأنني لا أسمح لنفسي بالخيانة لأغيظ زوجي والمعاملة بالمثل .. وليس المهم يا دكتور الذهاب للمركز الإسلامي وإشهار إسلامك ، فالإسلام التزام حق ، وليس كما ترى الكثير من المسلمين هنا أو حتى في بلاد الإسلام .. سكر وخمر وزنا وفجور .. فهؤلاء مسلمون بالاسم والله أعلم ..

وبعد صمت عميق من هنري تابعت زهيرة قائلة : هل تستطيع يا هنري أن تبتعد عن الخمرة

والنساء ؟ ستقول " ها هم المسلمون يسكرون ويزنون " .. هل كل النصارى يمارسون الدين والطقوس النصرانية ؟ قد يكون من أتباع لينين وماركس والناس تعده من النصارى .. عندما نقرأ في ملف بلاد أو مدينة سكانها كاثوليك إنجيليون أقلية مسلمة نظامها الحكم الشيوعي .. كم عدد هؤلاء الشيوعيين ؟ هذه كوبيك فيها أحزاب ، وأحدها يطالب بالانفصال والعودة لدولة مستقلة تابعة لفرنسا الأم .. فأرى أن نبقى أصدقاء .. فالإسلام يا دكتور ليس ورقة واعتراف من الجامع بأنك مسلم .

ـ قد أصير مسلما حقيقيا على يديك .

عاودها الابتسام قائلة : عندما تصير مسلما حقيقيا ؛ لعلي أقبل بك زوجا بلا تردد .. اقرأ عن الإسلام ، وتعرف عليه بصورة حقيقة ، ولا تتعرف على الإسلام من الناس ، كان معي في الجامعة مبعوثون من بلاد إسلامية ، لا يعرفون شيئا عن الإسلام .. تعلموا في مدارس علمانية لا تعلم شيئا عن الدين ، ولا أظن أنهم مسلمون إلا بالاسم .

فقال هنري بضيق : عقدت الأمور يا زهيرة !

فردت زهيرة : اسمع إذا كانت عقدتك الزواج من عربية فحسب ، فيمكنني أن أسعى لك بذلك ، فهنا أسر عربية مهاجرة من سوريا ولبنان والعراق ومصر ولا يعترضون على مثل هذا الزواج .

ـ أنا رغبت فيك أنت .. ولي صديقات من مثل هذه الأسر ، وقضينا ساعات وشهوات ، وهم مثل بنات الأمة الكندية .. فيك شيء يجذبني إليك .. رغم أنك لست بالحسناء التي يتغزل بها الشعراء .. لا تغضبي .

ـ أنت تدفعني لأرحل من هنا ، وأغير مكان عملي .

ـ أرجوك ألا تفعلي ، سأفكر بالإسلام الذي تتحدثين عنه .. لنبق أصدقاء كما كنا .. ستسمعين قريبا خبر طلاقي ، قد تحدثنا في الأمر ولم تعترض وقالت " الأمر سيان عندي يا هنري! " .. أرأيت أنها غير متمسكة بي درجة واحدة ؟!.. فلها عشاقها !

ـ أكثر العاملات هنا متخذات أصدقاء .. زواجهم (بوي فرند) كما تسمونه شركاء المنزل .. كل هذا حتى لا يتحمل الرجل النفقة على المرأة وعلى أولاده.

ـ ولماذا ينفق عليها وهي تعمل معه ومثله ؟! هل تقضي وقتها في البيت وترعى أولاده ؟.. ويلجأ الناس لهذا الزواج أو العلاقة حتى لا يتقاسما الثروة عند الانفصال والطلاق القانوني ، ولا يرثا بعضهما .. فعند الخصام والشقاق يذهب كل في طريقه ، ويبحث له عن أنثى جديدة، وهي تفعل مثله .. وإذا كانت لديها شقة فستجد الذكر سريعا .

ـ وهل هذا زواج ؟!

ـ يسمى زواجا ، وما هو بزواج .. هو وقت لقضاء الشهوة مثل الكثير من الحيوانات .. هو شبيه بالزواج .. ظاهره أن المرأة لرجل واحد ، وكذلك الرجل له امرأة واحدة .. وهناك من يبغضونه وأمامهم دور البغاء ، وحانات الدعارة والمومسات .

بعد حين لم يكن طويلا سمعت زهيرة انتشار نبأ طلاق هنري مدير قسم جراحة النساء في المستشفى العام بالمدينة من زوجته جنفياف موريسون ، ومغادرته إلى الولايات المتحدة في إجازة .. فلما التقت زهيرة بجنفياف سألتها عن صحة الخبر ، فأكدت الدكتورة جنفياف صحته ، وقالت: أنا منذ زمن بعيد طلبت الانفصال ، بعد ولادة مادلين بخمس أو ست سنوات ؛ لأننا تزوجنا قانونا بسبب حملي بمادلين ، فلم يحب هنري أن تلد ابنته ابنة غير شرعية ، مع أن هذا ليس مهما في بلادنا .. لا تظني أنك سبب طلاقنا ، فنحن زوجان بالاسم ، فهو له صديقاته ، ولي أصدقائي .. الحمد لله انتهيت من هذه القضية .. وأنتما متى ستتزوجان ؟

ـ نتزوج ؟! لن نتزوج يا جنفياف ، الحياة معه لن تكون سهلة حتى لو أشهر إسلامه كما زعم فطباعنا نحن الشرقيين غير طباعكم أنتم الغربيون .. زواج لو حصل لا أعتقد دوامه .. أنا لا أحتمل أن أراه مع عشيقته أو خليلته.. فسأبقى بغير زواج .. خير لي ذلك .. وعملي كما ترين يستغرق وقتي .

تفاجأت المرأة بذلك الجواب فعقبت تقول : أنا ظننت أنه أسرع بالطلاق ليتزوجك بعد

إشهار إسلامه .

ـ تحدثنا عن ذلك الزواج والرغبة بالإسلام ، ولكنني قلت له الإسلام ليس مجرد كلمة وانتهى الأمر والموضوع .. الإسلام تحقيق والتزام بمقتضى ومراد تلك الكلمة .. وهؤلاء المسلمون الذين يعيشون هنا لا يمثلون الإسلام الحقيقي .. رأيت مساجد في بعض المناطق الكندية لا أظن أنها تستخدم إلا أيام الجمع والأعياد الدينية .. لا أدري كيف بنيت وهي مهجورة ؟

ـ قد تكون بنيت في ظروف معينة ، وانتقل المهاجرون والوافدون لضاحية أو مقاطعة أخرى والغريب يا زهيرة أن هنري بعدما كمل الطلاق سافر إلى الولايات المتحدة .

ـ لماذا ؟!

ـ لم يقل لي شيئا .. قال اهتمي بمادلين ومصروفها وعندما أعود سأدفع لك .

فقالت زهيرة : في الأيام الأخيرة قبل سفره المفاجئ ، كان الرجل يكثر من الصمت والتفكير والبحلقة فيّ ؛ كأنه يسعى لغور وسبر أعماقي .. فقلت لنفسي " ماذا أصاب الدكتور هنري؟!" وأخذ يتملص من مرضاه ، ويحولهم لي أو لزميلنا إدوارد .

ـ المهم بالنسبة لي يا دكتورة زهيرة أنني أخذت حريتي ، وارتحت من غمزه ، فكلما يعلم أنني سهرت مع صديق أو زميل أو قضيت ليلة خارج شقتنا ، فلما يراني فيقول " من صاحب الحظ السعيد الذي قضيت ليلتك بين ذراعيه ؟" ؛ كأنه نظيف شريف .. وبعد لحظة صمت تابعت : هو له صديق مهم في نيويورك ، زارنا عدة مرات ، وأعتقد أنه طبيب مثلنا ، التقيا في رحلة سياحية وتصاحبا بعد تلك الرحلة ، ويتزاوران ، فعندما يذهب أمريكا يلتقي به ، والآخر عندما يأتي هنا يجتمعان ، وصاحبه هذه يحب الرياضة ومشاهدة مباريات كرة السلة سواء في مونتريال أو نيويورك وحتى لوس أنجلوس .. وقد عمل هنري فترة من حياته معالجا لإحدى فرق السلة في الولايات المتحدة .. ، فقد تكون هناك بطولة عالمية أو محلية فذهب لمتابعتها بعد تحرره من قيد الزواج .. وهنري محب لعمله كما تعلمين ، ويمارسه بإخلاص مع أنه قد يبدو للعاملين معه كأنه يلعب .. فإجازته كما فهمت شهرا وقابلة للتمديد ؛ لعله ذهب لمشاهدة

تلك البطولة .. وهنري كما تعلمين شركة في نيويورك مع عم له .. وقد سمعته قبل شهر ـ أتذكر ذلك الآن ـ يقول " إن عمه مريض ويفكر بزيارته " وعمه من سكان تلك المدينة .

تبسمت زهيرة لها ـ فهي فعلا قد سمعته يتحدث عن تلك الشركة أكثر من مرة ـ ثم قالت : عندما يعود سالما نعرف سبب هذه الرحلة السريعة بعد الطلاق الذي لوح به من شهور .

ضحكت جنفياف وقالت : شهور ، لا ، بل من سنين ، منذ تزوجنا .. فهنري حقيقة أنه طبيب جيد ، وللأسف لا يصلح للحياة الزوجية المستقرة .. وغير ناضج للمعاشرة الزوجية .. مبارك عليك يا زهيرة .

ـ عليّ ! هو نصراني

ـ سيسلم إذا قبلت به .. الزواج حاجة بشرية

ـ لما يسلم فسوف نفكر .



كان السيد حميد أبو محمد قد تعلق بجماعة التبليغ الإسلامية الهندية المنشأ ، وكما هو معروف تاريخيا بعد سقوط آخر دولة خلافة إسلامية ١٩٢٤ ، بدأت تنشط وتكبر الجماعات الإسلامية في دول العالم الإسلامي ، وأخذت الجمعيات الدينية تزداد وتنتشر .

فنحن وجدنا صدى كبيرا لتلك الجماعات والجمعيات وارتداداتها في العالم الإسلامي .. كانت بلدان المشرق العربي داخل كيان واحد ، فأمست دولا شتى ، سواء في الشام والعراق والجزيرة العربية .

والتاريخ يذكر أن الشام أصبح بعد سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ أربع دول ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، الأردن لأنها شرق نهر الأردن .

ومن الجماعات التي نشطت في بلادنا العربية أو بعضها بعد حرب حزيران ١٩٦٧ جماعة التبليغ ذات الجذور الهندية ، ثم الباكستانية بعد انقسام الهند كالشام لعدة دويلات بعد الحرب الكونية الثانية ١٩٤٥ .

ووجدت هذه الجماعة قبولا بين المسلمين في بلاد الشام ، وربما أنشطها حركة ودعوة فرعهم الأردني ، فتكّون لهم مركز مهم في الأردن .

وهذا الجماعة مرحب بها على المستوى الرسمي والشعبي في بعض الدول العربية ، فسمح لها بالنشاط في المساجد شمالا وجنوبا ، لأنهم يبتعدون عن السياسة والاقتصاد والحكم والاحتجاجات والصحافة ، ولا هدف لهم إلا دعوة الناس للتوبة والصلاة في المساجد جماعة ، والخروج معهم في جولات بين الأحياء والمناطق والمدن بما يطلقون عليه " الخروج في سبيل الله " .

ومعظم نشاطهم الدعوي بعد صلاة العصر ، ثم يجلسون في المساجد بعد أداء صلاة المغرب لبيان الصفات الستة التي يدعون إليها الناس المصلين ولهم جولات محلية لأعضاء منهم يسكنون في حي واحد أو أحياء متقاربة أو شارع كبير أو مدينة صغيرة ، وهذا الاجتماع يسمونه جولة مقامية ؛ لأنهم يتجولون حيث سكناهم وبيوتهم ، يدربون أنفسهم، ويُقوون إيمانهم كما يدعون ، وتكون الجولة المقامية مرة واحدة في الأسبوع ، وبعد صلاة المغرب يلقي أحدهم موعظة على رواد المسجد الذي تجولوا حوله ، وهناك جولة انتقالية ؛ لانتقالهم إلى حي آخر لدعوة الناس لصلاة المغرب جماعة وسماع الدرس الديني حول الدعوة والصفات الستة المشهورة بينهم ، وعندهم ترتيبات للخروج لمناطق بعيدة عن مساكنهم تكون بترتيب من المركز الرئيسي للجماعة ، فيخرجون في الشهر ثلاثة أيام ، وفي السنة أربعون يوما ، وفي العمر أربعة أشهر ، لكن خارج البلد إلى دولة يوجهون لها ، واليوم لهم مراكز كثيرة منتشرة حول

العالم حتى العالم الغربي وأمريكا اللاتينية .

التقى حميد بهم ابتداء في مسجد الحي المقيم فيه ، وجلس يستمع لدروسهم ومواعظهم ، ثم أصبح يشاركهم جولاتهم في الحي خاصة يوم الجمعة ؛ لأنه هو اليوم الذي يتوقف فيه عن العمل ، ورغم أن السبت عطلة رسمية في بعض البلاد العربية وبعضها الأحد ، فكان هذا يعتبر فقط للموظفين الحكوميين والمؤسسات الكبيرة ، أما أصحاب المهن والحرف لهم عطلة الجمعة فقط ، وقد تعمقت علاقة حميد مع رجال الدعوة كما يسمون أحيانا .. ويسمون بالأحباب ، أسماء تتردد ولكنها لجماعة واحدة ، ثم التحق مع الوقت بالجماعة ، فصار يشاركهم في الخروج ثلاثة أيام في الشهر ، ويذهب لمركزهم الرئيس في أطراف العاصمة .

ولما تأت جماعة منهم للحي فكان يشاركهم الاعتكاف ليلا بعد تركه شغله مساء ، ويكرمهم بالطعام وما يسمى بالإكرام ، وقد أطلق حميد لحيته بعد حين من الالتزام معهم وبمبادئهم ، ويلبس القميص الطويل (الدشداشة) ، وتوقف نشاطه معهم داخل البلاد فحسب ، وكان صديقا ومحبا لهم رغم وجود جماعات وتيارات إسلامية أخرى في ذلك الوقت ، لكن الأمر الذي لم يتيسر له برفقتهم هو الخروج لمدة أربعين يوما ، والخروج الخارجي الأربعة أشهر .

ولكل جماعة أو حزب عادة محبون ومبغضون ، فالمبغضون يتربصون العيوب والآفات ، ويضخمونها للتشويش على الحزب والجماعة ، والتشكيك بمبادئها وغاياتها ، وهذا الوصف موجود أيضا في الفرق والأحزاب التي تعمل للإسلام .

يعود تأسيس جماعة التبليغ والدعوة كما هو مشهور إلى الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، ولد في كاندهلة ، قرية من قرى سهارنفور بالهند ، ومركزها في دلهي ، ويذكر أن الجماعة تأسست ١٩٢٦ م وقيل ١٩١٩ م حيث كان مؤسسها محمد إلياس أول أمير لها حتى وفاته ، ثم خلفه ابنه محمد يوسف حتى وفاته عام ١٩٦٥ م ، ثم الشيخ محمد إنعام الحسن ١٩٩٥ ، وهذه الجماعة معدودة ومحسوبة على أهل السنة والجماعة.

انتشرت الجماعة سريعا في الهند ، ثم في باكستان وبنغلاديش، وانتقلت إلى العالم الإسلامي والعالم

العربي ، وبعد ذلك انتشرت دعوتها في معظم بلدان العالم، ولها جهود في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في أوروبا وأمريكا .

وهم يعتقدون بأنهم إذا أصلحوا الأفراد ، فرداً فرداً، فإن المنكر سيزول من المجتمع تلقائياً ، وأن الخروج والتبليغ ودعوة الناس هي أمور لتربية الداعية ولصقله عملياً ؛ إذ يحس بأنه قدوة وأن عليه أن يلتزم بما يدعو الناس إليه ، فالخروج عندهم ليس هدفا ؛ ولكنه وسيلة لتعلم اليقين وزيادة الإيمان ؛ ولتعلم أصول الدعوة وآدابها.

وهم يبتعدون بقوة ظاهرة كل البعد عن الخوض في الخلافات المذهبية والسياسية اتقاء الجدال والانقسام والعداوة والبغضاء، ولا يتكلمون في السياسة ، وينهون أفراد جماعتهم عن الخوض فيها، وينتقدون كل من يتدخل فيها، ويقولون بأن السياسة هي ترك السياسة .

لهذه الجماعة الدينية أصول للعمل تعارفوا عليها وتوافقوا على تطبيقها في مجال الدعوة في الحضر والسفر ، ولم يكتبوها في كتب خاصة ؛ ولكنهم تواصوا بها وتوارثوها جيلا بعد جيل ؛ وكأنها مكتوبة ومدونة والعمل عليها ؛ وتقوم على ما يلي : إذا خرجوا للدعوة أمّروا عليهم أحدهم داخل الحي أو خارجه ، فليس لديهم مناصب محددة ؛ ولا وظائف دائمة ، تنتدب مجموعة منهم نفسها لدعوة أهل بلد ما ، حيث يأخذ كل واحد منهم فراشاً بسيطاً ، وما يكفيه من الزاد ، والقليل من المال على أن يكون التقشف هو السمة الغالبة عليه.. وعندما يصلون إلى البلد أو القرية التي يريدون الدعوة فيها وخرجوا إليها ينظمون أنفسهم ؛ أولاً بحيث يقوم بعضهم بالخدمة ، وبتنظيف المكان الذي سيمكثون فيه ، وآخرون يخرجون متجولين في أنحاء البلدة والأسواق والحوانيت ، ذاكرين الله داعين الناس لسماع الخطبة أو البيان كما يسمونه ، وإذا حان موعد البيان وعادة يكون بعد صلاة المغرب التقوا جميعاً لسماعه ، وبعد انتهاء البيان يطالبون الحضور بالخروج في سبيل الله ، وبعد صلاة الفجر وبعد موعظة الفجر يقسّمون الناس الحاضرين إلى مجموعات يتولى كل داعية منهم مجموعة يعلمهم الفاتحة وبعضا من قصار السور ، حلقات حلقات ، ويكررون ذلك عدداً من الأيام ، وقبل أن تنتهي إقامتهم في

هذا المكان يحثون الناس على الخروج معهم للتبليغ والدعوة ، حيث يتطوع الأشخاص لمرافقتهم يوماً أو ثلاثة أيام أو أسبوعاً أو شهراً ، كل بحسب طاقته وإمكاناته ومدى تفرغه ، والجماعة تحدّد طريقة لترتيب الخروج أن يكون ثلاثة أيام في الشهر ، وأربعين يوماً في السنة ، وأربعة أشهر في العمر على الأقل ، وهذا لتسهيل عملية السفر والتنقل ، وهي ليست بشرط لازم ، بل يمكن أن تكون المدد أقل أو أكثر ، لا ينزلون ضيوفا على أحد ، ويقيمون في المساجد لا يعتمد بعضهم على بعض في النفقات ، بل كل واحد منهم ينفق على نفسه من ماله الخاص في السفر والحضر ، فلا تكاد تجد واحدا منهم يعيش عالة على أخيه ، وهم يتعاونون ويكرمون بعضهم البعض ، يعتمدون بصفة كبيرة على قيام الليل في طريقتهم في الدعوة ، والتضرع والبكاء بين يدي الله حتى يهدي الله من دعوهم في النهار ، فهم يُعرفون بقيامهم الليل ، وأنه ركيزة في الدين.

هذه مرتكزات هذه الجماعة ، وبيانهم ومواعظهم تدور حول ما يسمونه الصفات الستة التي سيأتي ذكرها في ثنايا القصة ، واعلم أن جماعة الدعوة نشأت بالهند في عهد الاستعمار الإنجليزي لتلك البلاد العظيمة ، قد يكون هذا السبب الذي دفعهم لتحوير معنى الجهاد الإسلامي للخروج في سبيل الله ، فهي حركة سلمية مسالمة تبتعد كثيرا عن السياسة ، ومشاكل الأمم والشعوب ، وتختلف بذلك عن جماعة الإخوان المسلمون التي ظهرت بمصر بعدها بسنوات قليلة والتي خاضت غمار السياسة لما اشتد عودها ، وانتشر فكرها ومبادؤها ، وشاركت بالمجالس النيابية والحكومات في أقطار شتى .

وللتاريخ والثقافة قاد الجماعة بعد الشيخ محمد الياس الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ١٩١٧ ـ ١٩٦٥ م ، وهو ابن الشيخ محمد إلياس وخليفته من بعده ، ولد في دهلي ، تنقل كثيراً في طلب العلم أولاً ، وفي نشر الدعوة ثانياً ، زار السعودية عدة مرات حاجاً ، والباكستان بشطريها ، كانت وفاته في لاهور ، نقل جثمانه بعدها ليدفن بجانب والده في نظام الدين بدهلي ، حيث مركز الجماعة الأول وحيث قبور الآباء والأجداد .

بويع بعده الشيخ إنعام الحسن وهو قريب للشيخ محمد الياس المؤسس ، وعديل الشيخ محمد يوسف ، وهو الأمير الثالث للجماعة إذ تولاها بعد وفاة الشيخ محمد يوسف ، كان صديقاً للشيخ محمد يوسف في دراسته ورحلاته فهما متقاربان في السن متماثلان في الحركة والدعوة .

قرر المؤسس لهذه الجماعة ستة مبادئ جعلها أساس دعوته ، وتسمى الصفات الستة بين أنصار الحركة ، ويحصرون الحديث فيها في مؤتمراتهم وبياناتهم العامة ، ويدندنون حولها وهي الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، إقامة الصلوات ذات الخشوع والخضوع ، العلم والذكر ، إكرام المسلمين ، النية والإخلاص واليقين ، الخروج في سبيل الله أي الدعوة .

ويرون بأن التقليد في المذاهب واجب ، ويمنعون الاجتهاد معللين ذلك بأن شروط المجتهد الذي يحق له الاجتهاد مفقودة في علماء هذا الزمان. متأثرون بالطرق الصوفية المنتشرة في بلاد الهند ، وعليه فإنه تنطبق عليهم جملة من الأمور التي يتصف بها المتصوفة من مثل : لابد لكل مريد من شيخ يبايعه ، ومن مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية ، وكثيراً ما تتم البيعة للشيخ في مكان عام ، تُنشر على الناس أردية واسعة مربوط بعضها ببعض مرددين البيعة بشكل جماعي ، ويُفعل ذلك في جمع غفير من النساء كذلك.

ولديهم المبالغة في حب الشيخ ، والمغالاة كذلك في حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما يخرجهم في بعض الأحيان عن الأدب الذي يجب التزامه حيال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . إقامة المنامات مقام الحقائق حتى تكون هذه المنامات قاعدة تبنى عليها أمور تترك أثرها على مسيرة الدعوة ، يعتقدون أن التصوف هو أقرب الطرق لاستشعار حلاوة الإيمان في القلوب ، وهذا شائع في العجم منهم

تقوم طريقتهم على الترغيب والترهيب والتأثير العاطفي ، وقد استطاعوا أن يجذبوا إلى رحاب الإيمان كثيراً من الذين انغمسوا في الملذات والآثام وحوّلوهم إلى العبادة والذكر والتلاوة .

ومن المعروف والمشهور أنهم لا يتكلمون في السياسة ، وينهون أفراد جماعتهم عن الخوض في مشاكلها وهمومها ، وينتقدون كل من يتدخل فيها، ويقولون بأن السياسة هي أن تترك

السياسة ، ولعلّ هذه النقطة هي جوهر الخلاف بينهم وبين الجماعة الإسلامية الباكستانية التي ترى ضرورة التصدي لأعداء الإسلام في القارة الهندية.

الكمال لله وحده كما نقول ، وذكر السلبيات يدفع لإزالتها أو التخفيف من آثارها ، ومما أخذه عليهم الآخرون أنهم لا يهتمون ببيان ونشر عقيدة السلف والتوحيد الخالص بين أتباعهم ؛ بل يكتفون بالعموميات التي لا تغني في دين الله شيئًا ، كذلك لا يُنكرون الشركيات والبدع التي تعج بها بلاد المسلمين ؛ لاسيما الهند والباكستان حيث منشأ الجماعة .

وإنهم يتوسعون توسعاً أفقياً عدديا لا نوعيًّا ؛ إذ أن تحقيق التفوق النوعي يحتاج إلى رعاية ومتابعة ، وهذا ما تفتقده هذه الدعوة ، ذلك لأن الشخص الذي يدعونه اليوم قد لا يلتقون به مرة أخرى، وقد يعود إلى ما كان عليه تحت تأثير مغريات الحياة وفتنتها ؛ ولذلك فإن تأثيرهم لا يدوم طويلاً أمام التيار المادي الجارف ؛ إذ لا بد لمن غرس غرسة أن يتعاهدها.

ويأخذ عليهم خصومهم أنهم لا يضمهم تنظيم واحد متسلسل ، بل هناك صلات بين الأفراد وبين الدعاة تقوم على التفاهم والمودة ، ويؤولون أحاديث الجهاد على "الخروج" مما يكاد ينسي فريضة الجهاد في سبيل الله الحقيقية ، ويتساهلون كثيراً في رواية الأحاديث الضعيفة مع الإكثار من ذكر الكرامات التي تحصل لأتباعهم ولغيرهم من الصالحين.

يلجأون إلى النوم والأكل في المساجد تقليلاً للنفقة ، وينتقدهم البعض لهذا المسلك، وبخاصة في البلاد الأجنبية ، ولكن هذا المسلك لا يعيبهم طالما أنهم لا يغادرون المساجد إلا بعد أن تكون أكثر نظافة وأحسن ترتيباً.

ولذا لا يكفي عملهم لإقامة أحكام الإسلام في حياة الناس ، ولا يكفي لمواجهة التيارات الفكرية المعادية للإسلام التي تجند كافة طاقاتها لحرب الإسلام والمسلمين ، ولا ينكر أن أسلوبهم البسيط يترك أثره بشكل واضح على رواد المساجد من المسلمين ، أما أولئك الذين يحملون أفكاراً وإيديولوجيات معينة فإن تأثيرهم عليهم يكاد يكون معدوماً.

ومع ذلك أخي القارئ ينبغي أن لا يُغفل ما لهم من جهود وحماس وحركة مثيرة للإعجاب لهذا الدين ، فقد دخل على أيديهم خلق كثير إلى الإسلام في جميع قارات العالم ، وترك آخرون من المسلمين على أيديهم سبل الغواية والرذيلة ، بل استطاعوا أن يخترقوا قبل غيرهم الستار الحديدي الذي فرضته الشيوعية على بعض البلاد كالقوقاز .

قبل العودة لإبطال الرواية نذكر الجذور الفكرية والعقائدية لهذه الجماعة لتكمل الصورة المرجوة عنهم للقارئ الطيب .

فاعلم أنها جماعة إسلامية ، عقيدة مؤسسيها وكبار علمائها ودعاتها في شبه القارة الهندية هي نفس عقيدة الماتريدية ، على أن مذهبهم الفقهي هو المذهب الحنفي.. وهو مذهب القارة الهندية وتلك الأمصار ، تأثروا بالمتصوفة من مثل الطريقة الجشتية في الهند ، ويقيمون اعتباراً خاصاً لأعلام المتصوفة في التربية والتوجيه ، هناك من يعتقد بأنهم قد أخذوا أفكارهم عن جماعة النور في تركيا (أتباع النورسي بديع الزمان) ، ولا أظن أن هذا صحيحا ، إنما جاءت طريقتهم بالتدرج من جولاتهم الشائعة في نظام الملك دلهي ومناطقها .

يعتمدون في اجتماعاتهم ومحاضراتهم في البلاد العربية على القراءة من كتاب رياض الصالحين وكتاب حياة الصحابة للكاندهلوي ، وفي البلاد الأعجمية على القراءة من كتاب تبليغي نصاب ، وهو كتاب مليء بالخرافات والأحاديث الضعيفة.

ويطالبهم العلماء بالإقلاع عن اللجوء إلى كتابة التمائم المملوءة بالطلاسم ، وترك الأوراد والأذكار البدعية ، والاعتماد على الرؤى والأحلام كمصدر من مصادر الاستدلال والاهتمام بالعلم الشرعي وبخاصة علم التوحيد .

بدأت دعوتهم في الهند، وانتشرت في الباكستان وبنغلاديش، وانتقلت إلى العالم الإسلامي والعالم العربي حيث صار لهم أتباع في سوريا والأردن وفلسطين ولبنان ومصر والسودان والعراق والحجاز ، وانتشرت دعوتهم في معظم بلدان العالم في أوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا، ولهم جهود مشهود لها في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في أوروبا وأمريكا.

مركزهم الرئيسي في نظام الدين بدهلي ، ومنه يديرون شئون الدعوة في العالم ، التمويل المالي يعتمدون فيه على الدعاة أنفسهم، وهناك تبرعات متفرقة غير منظمة تأتي من بعض الأثرياء مباشرة أو بابتعاث الدعاة على حسابهم الخاص.

إن جماعة التبليغ هي إحدى الجماعات الإسلامية السنية ، وتعتبر سندًا عاطفيًّا واجتماعيًّا لمسلمي شبه القارة الهندية، وهي رمز من رموز الدعوة إلى الله في أوروبا والأمريكيتين ، وتقوم الدعوة عند هذه الجماعة، على أساس الكلمة الطيبة والخشوع في الصلاة والعلم والذكر وإكرام المسلمين والإخلاص والخروج في سبيل الدعوة ، ويمتاز دعاتها بالزهد، ولكنهم يعتقدون أن التصوف (بمفهومه القائم) هو أقرب الطرق لاستشعار حلاوة الإيمان ، مع ملاحظة ما عليها من مؤاخذات سبق التنبيه على بعضها ، نتمنى من عقلاء الجماعة تداركها ؛ ليحسن عملهم ويتوافق مع الكتاب والسنة .

انتقل الثقل ثقل الجماعة بعد انفصال الباكستان عن الهند إلى كراتشي بباكستان ، وقد تمددت الحركة إلى جميع قارات العالم وبلدانهم ، وللجماعة أمير كبير ، وفي كل دولة للجماعة رئيس معنوي ، وفي كل مدينة مندوب للتعاون والتنسيق في توزيع الجماعات على المساجد في الأحياء ، والدول تسمح لهم بالنشاط الدعوي لم عرف وشاع عن سلميتهم وبعدهم عن السياسة ، ولهم شبه بحركة التنصير العالمية في نشر المذاهب النصرانية ، ولهم أكثر من اجتماع سنوي ، يحضره مناصرون من أنحاء العالم ، ولهم اجتماعات أسبوعية ليلة الجمعة خاصة في المراكز الكبيرة .



تعرف حميد نبيل على الجماعة عن طريق مسجد الحي "جامع الراشدون" ، وأخذ أفراد الجماعة يترددون على محله لتصليح سيارتهم ؛ لأنه صديقهم ، وهو متسامح معهم بحكم الصداقة والجيرة لبعضهم ، وهم من باب الأخوة يرون التصليح عنده أولى ، فذات نهار كان حميد يصلح سيارة لأحد شيوخ الجماعة والزملاء ، فمر عليه ميلاد كما يفعل في بعض الأيام ، ورأى عنده جماعة منهم فقال متهكما : هل عندك اجتماع للمشايخ يا أبا محمد ؟ وضحك ، وضحك حميد والشيوخ ، فقال حميد : أهلا بابن العم ميلاد ، هؤلاء أصدقاء الدنيا والآخرة بمشيئة الله ، والتفت حميد لأحدهم وقال : يا شيخ حسن محمد هذا ابن عمي ومن سني ، لليوم يرفض الزواج لأنه أحب امرأة قبل عشرين سنة .. ما رأيكم أن تجتهدوا عليه ؛ لعل الله يهديه على أيدكم الطاهرة .

فقال ميلاد متضايقا ومتأففا : أرجوكم لا تجتهدوا عليّ .. لي ديني ولكم دينكم .

فقال حسن : ألست مسلما ؟ فرد: بلى، أنا مسلم .. هل تراني يهوديا ؟

ضحك الجميع وتابع ميلاد : ولكني لن أمشي معكم للجامع ولن أصلي

ـ لماذا ؟ من أجل امرأة تخسر آخرتك.. ومن أجل امرأة تخسر الزواج وتهجره .. ألم تفكر بالنار يوما ؟ وماذا جنيت من حبك المزعوم؟

فقال ميلاد : ما هذه الورطة يا عم حميد مع هؤلاء الشيوخ !

فقال حميد : المشايخ بركة الدنيا .. يريدون مساعدتك للخروج من ذكريات الماضي الأليم .. للخروج معهم يوما واحدا في سبيل الله لعلك تتغير

وأخذوا يتحدثون عن النار والعذاب ، وأن الخاسر الحقيقي هو الذي يخسر الجنة ، ويخسر الحور العين ، ولم يكفوا عنه حتى وعدهم بمرافقتهم إلى مسجد تنزل فيه إحدى الجماعات، وبين لهم أنه جنب ، ولا يعرف الطهارة ، فأكدوا له أن سيتعلم الغسل من الجنابة ، ووعدهم بالتوبة .

ودلهم حميد على بيته ومحله في السوق ، فصاروا يترددون عليه بين الفينة والفينة حتى استطاعوا

أن يجروه للمساجد ، ويستمع لمحاضراتهم ومواعظهم .. فارتاح الشاب لمصاحبتهم ، وبعد حين أخبر ابن عمه حميد بأنه يفكر بالخروج معهم أربعين يوما ، فسر حميد للخبر وشجعه على فعل ذلك ، ورتب له خروجا مع الشيخ حسن محمد ، وخلال الخروج ترك الرجل لحيته ، وقد تمكن خلالها من ترك الخمر ، وقلص من عدد السجائر التي يدخنها ، وبالطبع ترك الدعارة بسبب توبته وتنقله بين القرى والأرياف ، وأخذ يفكر بالإسلام بشكل آخر ، وبشكل جديد ، مما أسعد كل من حوله وعرفه ، وتمنوا له الخير من أم وأخ وقريب ، وعندئذ أدرك الوهم الذي كان يعيش فيه ، فأخذ يتأثر بالقوم تأثرا كبيرا ، وبدا يتخيل نفسه داعيا كبيرا من دعاة الدعوة عندما يشاهد الشيوخ والرجال القادمين من كل بلاد الدنيا ليتعلموا الدعوة والصبر وقيام الليل ، ثم ينطلقون لكل بقاع الدنيا ، وقد سمع قصص شباب الدعوة وما كانوا فيه من زيغ وانحراف ، وكيف حفظوا القران أو سورا كثيرة منه ؟ وكلما سمع ذلك يرتفع الحماس في قلبه.. فقد وصلت الدعوة والجماعة إلى أوروبا وأمريكا وروسيا .. وكان يسمع عن اجتماع يحضره الملايين من أنصار الدعوة في باكستان وبنغلاديش.. فيتحمس للخروج أربعة أشهر لتلك البلاد ، وحضور مثل هذه الاجتماعات الحاشدة والتي بدورها تدفع وتشكل آلاف المجموعات والجماعات للخروج والانتشار في بقاع الأرض .

فلما يسمع ذلك يلتهب قلبه شوقا للخروج الخارجي ، فأخذ يستيقظ من سباته ووهمه وجهله فأخذ يتعلم قراءة القرآن وتلاوته ، ولم تكد تمضي عليه سنتان معهم حتى أصبح شيخا مثلهم ، يقف أمامهم يحدثهم عن الصفات الستة ، ويدعوهم للخروج في سبيل الله ومناصرة الدعوة .. وتفاجأ الأقارب بمشيخته ، ومن الانقلاب الذي حدث له ، وعجبوا أكثر عندما علموا بسفرته لباكستان وبنغلاديش لحضور مؤتمرات الجماعة السنوية ، وقضى أربعة أشهر يدعو في تلك البلاد ، يدعو العصاة للتوبة والعودة للإسلام .

ولما رأى حميد صلاح ابن عمه وتوبته أعاد الشراكة التي كانت بينهم ، وظل يشجعه على الخروج الطويل ما دامت نفسه ارتاحت إليه .

لاهور ودكا

قد يكون الشيخ حميد أكثر الناس سرورا بتوبة ميلاد ، وعودته إلى حظيرة الإسلام الصالح ، حتى أنه سمع بعضهم يطلبون منه أن يخفف من تشدده نحو العصاة ، وأن ينكر المنكر بلطف ورفق ؛ فلذلك كان حميد كلما جاءه ميلاد من رحلة دعوة أو خروج في سبيل الله ـ كما يسميه هؤلاء القوم ـ يرغبه بالنكاح والاقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال " من رغب عن سنتي فليس مني " فيرد ميلاد : سوف أتزوج ، أريد أن أشبع من الدين ومن الندم .. قاتل الله الجهل !.. أنا أرغب بالزواج تأسيا بالحبيب ﷺ ؛ ولكنني في عطش وجوع للتوبة والدين ، لا أريد امرأة تشغلني عن السفر والدعوة إلى الله ، والسياحة في أرض الله .

ويأخذ ميلاد الذي ولد من جديد يسرد على مسامع حميد قصص الناس الذين رآهم والتقاهم في الهند والباكستان وشرق أفريقيا .. فقد خرج للصومال رغم وطيس الحرب ـ فقد ألم بها حرب أهلية وصراع قبائل ـ فيستمتع حميد بقصص التائبين والناس ، وقد اعتاد على صنع وليمة خاصة لميلاد وبعض المشايخ كلما رجع ميلاد من رحلة خارج البلد أو خرج أربعين يوما داخل البلد ، وكان ميلاد يلبي الدعوة ، وكذلك الشيخ حسن محمد وغيرهم من شيوخ الحي حي الشيخ حميد.

وكان المشايخ مسرورين من انتقال ميلاد من حياة الفجور إلى حياة أهل السعادة والخير ، ويرجون أن يختم لهم بحسن الخاتمة ، والموت على التوبة والإسلام ، وقد ماتت أم ميلاد وهي سعيدة بتوبة ابنها ، وكانت تودع الدنيا وهي تقول "كان مناي أن أرى أولادك يا قرة العين " وماتت وهي راضية عنه ، وهي تدعو له بالثبات بعد أن صار مرتادا للمساجد بدلا من الخمارات .

وأصبح الرجل مثلا للناس في الحي ، وتروى سيرته الفاسدة والحسنة ، فلم يكن أحد يظن أن ميلادا الذي مات ووالده عليه غاضبا ناقما مطرودا أن يتحول إلى المساجد ، فقد كان الشيطان الرجيم في الحي ، فهو من ملهى لآخر ، ومن فسق إلى فسق ؛ ولكن القلوب بين يدي الرحمن

الرحيم يقلبها كيف شاء ، فصار اليوم بين الجولات والمساجد ، فحتى حميد شريكه من جديد لم يعد يطالبه بالعمل والدوام ، ويقول له "يكفينا دعاؤك يا شيخ ميلاد " ، ولتعلق ميلاد بالخروج رتب لحميد راتبا شهريا يتقاضاه نهاية كل شهر ، ويتقاسمان الأرباح بالسوية ، فرضي حميد لقسم ميلاد على هذا الاتفاق ، ولتهديده بفسخ الشراكة إن يوافق حميد فوافق .

وفجأة اهتز العالم لحادث رهيب ، فقد تعرضت أقوى دولة عسكرية في العالم الحديث لاعتداء عجيب وغريب وغامض ، فقد أصاب الولايات المتحدة الأمريكية ضربة قاسية موجعة ، فقد ضرب البنتاغون مقر وزارة الدفاع بطائرة مدنية مخطوفة ، وتعرض برجي نيويورك للتدمير بطائرتين أمريكيتين مدنيتين ، فانهارا انهيارا كاملا ، وزعموا أن ذلك من منظمة إسلامية متشددة ، سموها القاعدة ورأسها المدبر في أفغانستان .

وقع ذلك الحادث الغريب في الحادي عشر من سبتمبر أيلول عام ٢٠٠١ ، وقد بث الحادث مباشرة على فضائيات العالم التي غمرت سموات المدن منذ عقد من الزمان ، وعلى أثر هذا الحادث الرهيب الذي حمل للإسلاميين ، ثم أضيف للمتشددين الإرهابيين غزت الولايات المتحدة وحلفاؤها بلاد الأفغان في أواخر العام نفسه ، وأصبح الحديث عن الإرهاب العالمي ذا شجون ، وشددت الإجراءات الأمنية مجددا على المطارات ، ورحلات الطائرات ، وعلى الموانئ ، والحدود البرية والبحرية والجوية .. واستمرت جماعة التبليغ الهندية في نشاطها وتحركها في أقطار العالم رغم ما وجه لها من إشاعات وشبهات ، والجماعة لم تتأثر بشيء ؛ وكأن الأمر لا يعنيها ، واستمر الخروج والتنقل ، وكأن لم يحدث في العالم زلزال أمريكا .. بل زاد نشاطهم في عقر أمريكا نفسها ، وسمعنا تهافت الناس على الإسلام ومعرفة الإسلام ، وسمعنا أن المكتبات نفق ما فيها من تراجم لمعاني القرآن الكريم .

ورغم الإعاقات التي وضعتها بعض الدول لمنعهم من الدخول إليها ، تدفق دخولهم ونشاطهم ، وزادت مراكزهم الدعوية في أمريكا اللاتينية والإفريقية ، ومع إغلاق مؤسسات مالية إسلامية وإغاثية استمر الغيث ينهمر .

تعقد جماعة التبليغ والدعوة مؤتمرات سنوية لأعضائها ومناصريها، فهناك اجتماع سنوي في مدينة رايوند قرب لاهور ، وآخر يعقد في دكا في مطلع السنة الهجرية من كل عام ، يجتمع الدعاة في اجتماع عام لسماع المحاضرات والدروس ، ثم يبدأ توزيع التشكيلات أي المجموعات الدعوية داخليا وخارجيا ، ولهم اجتماع سنوي مهم في جيبوتي شرق أفريقيا ، وآخر في اليمن ونحوه في الأردن ، فكان السيد ميلاد محبا لحضور هذه الاجتماعات في باكستان وبنغلاديش لكثرة ما يسمع عنها من مشايخ التبليغ .. وقبل أن نروي ما جرى للسيد ميلاد في تلك الديار نقرأ باختصار وصف أحد العلماء لتلك الاجتماعات .



ويعرف هذا التجمع الذي تنظمه جماعة التبليغ والدعوة منذ ستينيات القرن الماضي بـ"بيسوا ليتيما" حيث يتجمع الملايين من المسلمين في بنغلاديش في ضاحية تونغي قرب ضفاف نهر توراج على بعد نحو عشرين كيلومترا جنوبي العاصمة دكا، يتدارسون القرآن الكريم ويستمعون لعلماء الدين . ولا يسمح فيه بأي مناقشات سياسية .. وينتهي التجمع بالدعاء وصلاة جماعية عادة ما يحضرها كبار رجال الدولة في بنغلاديش.

وصف أحد الشيوخ الرحلة قائلا :" فواصلنا سفرنا إلى كراتشي (مقاطعة باكستانية)، فأخذنا نغط في نومنا .. ولم نشعر إلا حين أعلن أننا على مقربة من مطار كراتشي فاستيقظنا ، فحمدنا الله تعالى على الوصول بالسلامة ، فدخلنا مدينة كراتشي قبيل صلاة الفجر ، فصلينا الفجر في منزلنا في الفندق . وبعد أن استرحنا زمنًا كافياً للراحة بعد صلاة الفجر ، تبادلنا الرأي بالنسبة للسفر إلى (لاهور) قبل السفر إلى (دكا) كما هو المقرر .. فقضينا يوم الأربعاء في محل الحجز إلى دكا ليوم الخميس، ولكننا علمنا أن السفر إلى دكا عاصمة (بنغلاديش) لا

يتم إلا يوم الجمعة بالنسبة لمن لم يسافر يوم الثلاثاء والذي وصلنا فيه إلى كراتشي ، هما رحلتان فقط ، رحلة لطائرة باكستانية يوم الثلاثاء ، ورحلة لطائرة بنغلاديش يوم الجمعة لا ثالثة لهما .

فحجزنا في طائرة يوم الجمعة فسافرنا فيها بعد صلاة العشاء بإذن الله، وصلنا مطار (دكا) في وقت متأخر من الليل ، والمسافة بين مطار (كراتشي) ومطار (دكا) تستغرق ثلاث ساعات ونصف ساعة ، وكان في استقبالنا نحن وجميع الذين وصلوا معنا لحضور اللقاء لجنة مرابطة بالمطار لاستقبال الوافدين ، ومعهم عدد من الأشخاص الذين بيننا وبينهم معرفة سابقة من السودانيين وبعض الباكستانيين، فقاموا بجميع إجراءات المطار ، وللوافدين لحضور الاجتماع إجراء خاص ، حيث أنهم لا يفتشون بل لا تفتح شنطهم ؛ وإنما تكتفي بالإشارة عليها بالتباشير الملون فقط ، بينما يفتّش غيرهم تفتيشاً دقيقاً ، ثم نقلونا إلى مسجد لهم بجوار المطار ليوزعوا الضيوف من هناك على منازلهم في المخيم المهّيأ لهم بجوار مقرّ الاجتماع ، فتم توزيعنا قبل صلاة الفجر ؛ بل هجعنا قليلاً قبل الأذان ثم أذن فصلينا في ذلك المسجد القريب وهو عبارة عن صالون كبير أقيم على مساحة من الأرض تقدّر بـ (كيلو ونصف في كيلو) ليّسع لآلاف من الناس ، ويصلي العدد الكبير الذي قدروه بما يقارب المليون خلف إمام واحد دون استخدام مكبّر الصوت ، بل يُكتفى بعدد كبير من المبّلغين موزّعين في المسجد على أماكن مرتفعة حيث يسمع كل مصلٍ مهما بعد مكانه عن الإمام صوت المبلغ فيّتبع الإمام ولست أدري ما السبب في عدم استخدام مكبر الصوت في الصلاة ؟! علماً أنهم كانوا يستخدمونه في المحاضرات والتوجيه والتعليمات اللازمة !

وأما كيف تم ذلك التنظيم الدقيق والإعداد العجيب ؟ فأمر يعجب الإنسان عن وصفه وصفاً دقيقاً فقد بني المسجد ومنازل الضيوف من مواد بناء خفيفة تستخدم ، ثم ترد لأصحابها في حوانيتهم ، وهي لا تزال صالحة للبيع والاستعمال وهذه المواد عبارة عن زينكو وعيدان الخيزران والخيش والحبال دون استخدام المسامير لئلا يتلف شيء من مواد البناء إذ قد تبرع بها التجار وأصحاب المصانع ، وقاموا بأنفسهم بالبناء والتركيب فإذا

ما انقضى الاجتماع فسوف يقومون بحلّ الحبال ونقض البناء بسهولة كما كان التركيب والبناء بسهولة من قبل . في هذا المسجد الغريب من نوعه في ذلك الجو الإسلامي الهادئ يبعث على الخشوع والطمأنينة وبعد الصلاة أخذ المصلون يعقدون جلسات موزعة في المسجد ذلك الذي يشبه مساجد المسلمين في أيامهم الأول عندما كانت المساجد إنما تقصد للصلاة والعبادة فقط لا للتباهي بها وزخرفتها... والله المستعان.

فأخذت الجماعات الموزعة في المسجد تتدارس القرآن حفظاً ، وكانت التلاوة قاصرة على السور القصار التي يحفظها غالباً جميع المصلين أو أكثرهم حتى تطلع الشمس ويحين وقت تناول طعام (الفطور) فبعد الفطور تُعدّ المحاضرات ، وفي ضحى ذلك اليوم .. حضرنا محاضرة ألقاها في طائفة ذلك المسجد فضيلة الشيخ ... باللغة العربية ، وهي محاضرة تخصّ العرب فقط ، ولقد كانت قيّمة ومفيدة أجاب فيها على كثير من الشبهات التي تدور حول نشاط الجماعة ووضعية دعوة الناس إلى الخروج ، والغرض من الخروج وخلاصته تغيير البيئة للدعاة والمدعوين، لأن الذين يخرجون ليسوا كلهم دعاة بل أكثرهم ممن يُراد إصلاحهم وترغيبهم في الإسلام وحُبّه ، وتعليمهم ما يجهلون من أمور دينهم ، وقد أثبتتْ التجربة أن ذلك لا يتم للإنسان إلا إذا خرج تاركاً مشاغل الحياة المتنوعة وانتقل إلى بيئة صالحة للإصلاح ...الخ وبعد محاضرته أعلن لجماعة العرب أنهم يحضرون محاضرة .. بعد صلاة الظهر وطلب من أحدنا أن يقوم بهذه المحاضرة العامة ، فلبيّنا الطلب طبعاً فألقيتُ المحاضرة بعد صلاة الظهر، فتُرجمت فوراً إلى عدة لغات .. ، فكنّا نحضُرُ بعد كل صلاة محاضرة مترجمة من الأردية إلى العربية .

هذا ! وقد كان محل الاجتماع بعيداً عن العاصمة ، وهذا مما ساعدهم على إيجاد الهدوء ومواظبة الناس على صلاة الجماعة ، بل ملازمتهم للمسجد مدة الاجتماع.

أما نحن فغادرنا بالسفر يوم الثلاثاء بعد انتهاء الاجتماع مباشرة للقيام بزيارة بعض الجهات في باكستان .

وأما غيرنا فبادروا بالخروج في سبيل الدعوة إلى الله، فكانوا يُشكّلون جماعات متعددة بعد كل محاضرة ، ويوم الثلاثاء كان يوم توجيه للدعاة وتبصيرهم ووداعهم، وهو يوم امتزج فيه الفرح بالبكاء الذي يدل على ما يكنّه القوم من التّحابُب في الله والتفاني في حب الله والتجرد للدعوة إلى الله وتعليق قلوب العباد بالله وحده دون الالتفات إلى ما سواه.

هذا ملخص ما يُستفاد من محاضرات القوم وحديثهم وتصرفاتهم وزهدهم المتعدد ، خلافَ ما يَذكُرُ من لم يعرفهم حق المعرفة أو يتجاهل حقيقة القوم لغرض .

ومما ينبغي التنويه به أن الجماعة تتمتع بما لا تتمتع به الجماعات التي تدعو إلى الله ، وهو الصبر مع من يريدون إصلاحهم وهدايتهم وحسن السياسة معهم ، صبرٌ يشبه صبر الأم الرؤوف على طفلها الحبيب. وقد هدى الله بهم خلقاً كثيراً من مختلف الجنسيات ، وفي مقدمتهم شبابنا الذين نبعثهم للدراسة إلى أوروبا وأمريكا ثم نهملهم ونتركهم وشأنهم دون رعاية أو تربية ، وقد قيّض الله لكثير منهم هذه الجماعة فهداهم الله بها ، بعد أن كادوا يمرقون من الإسلام متأثرين بحياة الجهة التي يدرسون فيها، ولديّ مشاهدات وقصص يطول سردها .

أذكر على سبيل المثال قصة قصيرة عن شاب عربي حضر اجتماع دكا ضمن مجموعة من شباب في أمريكا بعد أن أنقذه الله من الجاهلية التي تورّط فيها ، بسبب هذه الجماعة ، وهذا أبدى لي رغبة في أن يعتمر ولعل العمرة تُكفّر عنه سيئاته وتذهب بأمر الجاهلية. فشجّعته على ذلك طبعاً ، بعد أن ذكرتُ له فضل التوبة، وأنها تجبُّ ما قبلها، فقال: وهو يحسُّ بالخجل والاستحياء باد على وجهه - يا أخ أريد أن أعتمر ، ولكن ما أدري كيف العمرة ؟ وماذا أفعل إذا وصلت مكة ؟ لأني نسيتُ كل ما درسته في المرحلة الثانوية قبل أن أذهب إلى أمريكا ! وضيّعتُ كل شيء...... قال هذه الجملة وهو متأثر، وأنا بدوري تأثّرت فقلت له : فتعال بنا إلى بعيد عن الناس لكي أشرح لك أعمال العمرة إلى أن قال : هل تسمح تُسجّل لي ؟ قلت : لا مانع إذا لديك مسجل وشريط، فأحضر المسجل فسجلتُ له بالاختصار ، فشجّعته على زيارة المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، وزيارة الجامعة الإسلامية

لكي تُزوّده الجامعة بالكتب والرسائل النافعة .

والأمر الذي أريد أن أخلص إليه في هذه القصة وما قبلها أن لجماعة التبليغ مكاسب يطول سردها ليست لغيرها من الجماعات التي تدعو إلى الله في العالم الإسلامي وغير الإسلامي ، وهي مكاسب ملموسة لمس اليد ، لا يقدر أحد إنكارها عدواً كان أو صديقا .

وسرُّ المسألة أن الجماعة جعلت الدعوة إلى الله ومحاولة إصلاح الناس هدفها في هذه الحياة ، ولم تمسك الدعوة باليد اليسرى والتعيش باسمها باليد اليمنى، بل مسكتها بكلتا اليدين، ثم أنها ابتعدت عن التطلع إلى حب المدح والثناء عليها ؛ بل استوى عندها المدح والذم ، حتى أصبحت الحياة رخيصة عندها .

وأكتفي بهذه الإشارة ؛ لأن الأمر واضح ، ولأن أثر دعوة القوم واضح كما قلت والعاملون يستدل عليهم بآثار أعمالهم وبمكاسبهم ، والله ولي التوفيق، وفي ذلك الجو الذي ذَكَّرنا حياة الدعاة الأولين الفطريين... قضينا ثلاثة أيام "

ويتابع الشيخ المعجب بهذه الفرقة :" ومما يلاحظ أن جماعة التبليغ ليس لها اسم رسمي ، وإنما يُسمّيها الناس بهذا الاسم الذي تدل عليه دعوتهم وعملهم وهو التبليغ والتذكير وأن المِرَانَ على الدعوة والتنظيم والاجتماعات المتكررة كل ذلك أكسبهم دقة التنظيم في أمورهم دون أدنى تكلّف أو ملل ، وفي إمكان الجماعة أن تعقد وتُنظّم لأكبر اجتماع الذي لو قامت للإعداد له جهة غيرهم لتكلّفت نفقات باهظة ، واحتاجت لزمن طويل جداً ، أما جماعة التبليغ فلا تتكلف في مؤتمراتها ولقاءاتها شيئاً يُذكر، إلا ما كان من قِرَى الضيف بالنسبة للوافدين من جهات بعيدة ، بل أفراد الجماعة يعتبر كل واحد نفسه مسؤولاً عن المؤتمر، فكل واحد منهم يقوم بعمل يخصّه، ويحضر ما في استطاعته أن يحضر ثم يباشر العمل بنفسه فكل واحد منهم يحاول أن يخدم وينفع غيره مما جعل مستوى التحابُبِ عندهم مرتفعاً جداً "[٣]

[٣] – محمد أمان بن علي الجامي عميد/ كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية

دعوة عالمية وجهود جبارة تقوم بها جماعة إسلامية مثل جماعة التبليغ تعجز الدول الإسلامية الكبرى في إقامة هذا الجمع الكبير لخدمة الدعوة الإسلامية في عموم دول العالم .

وقال آخر : على مدار ستة أيام استضاف مركز الجماعة في مدينة (رايوند) قرب لاهور باكستان أكثر من مليون داعية دون ضجيج إعلامي وصحفي وبكل هدوء ، حجزت له كل القطارات من جميع أنحاء باكستان ، ونفدت كل التذاكر قبل أيام من بدء الاجتماع كما ذكرته الصحف الباكستانية ، اجتمعوا من كل مكان في حب الله والتعاون على البر والتقوى .

أكثر من مليون رجل صلوا الصلوات الخمس خلف أمام واحد على فترتين ، وذلك في ميدان فسيح ، وحضروا حلقات العلم ، وتلوا ما تيسر من القرآن ، وسمعوا بيانات مشايخ كلها تنصب في تعظيم الخالق ، وأهمية إتباع النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ، والمحافظة على الصلاة ، والعلم وذكر الله، وأهمية أداء حقوق المسلمين وإكرامهم ،وإخلاص العمل لله ، وإن الحاضرين قد أكرمهم الله وشرفهم بحمل أمانه الدعوة للعالم أجمع ، فلا نبي بعد نبينا محمد ﷺ ، ولا أمه تحملت أعباء الدعوة بعد نبيها إلى يوم القيامة غير أمة الإسلام.

وهم يرون أن الدعوة إلى الله وظيفة كل مسلم موحد قائم بالفرائض والسنن، سواء كان عربيا أو أعجميا ، أسود أو أبيض ، عالما أو متعلما ، ضريرا أو بصيرا ، ذكرا أو أنثى ، شيخا كبيرا أو شابا صغيرا ، حافظا للقرآن والعلوم ، أو حافظا ما تيسر منه ، طالب علوم عصرية أو علوم إسلامية ، فالميدان الدعوي يسعهم جميعا ، ولكل منهم نصيب في الدعوة ، والكل محتاج لعلم التقوى والخوف من الله ، والعمل بما يرضي الله عز وجل ، ومتى جاء في المرء علم التقوى احتاج للبحث من العلماء عن علوم الفتوى ؟ ومتى نُزِع من المرء علم التقوى وعدم الخوف من الله ، ضرب بعلم الفتوى عرض الحائط ، ولو كان على علم تام بالحكم الشرعي في المسألة جموع بشرية هائلة أتوا من كل حدب وصوب ، لمرضاة الله وخُتم الاجتماع بدعاء لله عز وجل بأن يحفظ الإسلام والمسلمين ، ويريهم الحق حقا ويرزقهم إتباعه ، والباطل باطلا ويرزقهم اجتنابه .

ثم أهم ما في الأمر من هذا الجمع السنوي المبارك عند مشايخ التبليغ ، هي ثمار هذا الجمع ، والخروج من الميدان للدعوة إلى الله ، وكم جماعة خرجت للدعوة ونشر الدين من ذلك الميدان ! فهم جزاهم الله خيرا لا يهتمون بالأعداد التي حضرت بقدر ما يهتمون كم جماعة خرجت للدعوة من قدماء وجدد ؟

وبعد شهر تقريبا من اجتماع رايوند ودكا تراهم على موعد في جيبوتي العربية لاجتماع حافل للتبليغ والدعوة في شرق القارة الإفريقية ، وبعده بأيام وفي جنوب جزيرة العرب وفي مدينة الحديدة باليمن لهم اجتماع العرب ، في اليمن السعيد ، في بلد أهل الإيمان والحكمة كما أخبر بذلك نبي الرحمة عليه السلام ، وهم يتجهزون لاستضافة مائة ألف داعية في ميدانهم ، ويستقبلون آلفا من إخوانهم العرب والقادمين من دول الخليج والدول المجاورة والبعيدة ، يريدون تجسيد حديث النبي حقيقة فيهم وفي هذا الزمان .

واعلم أن بين اجتماع اليمن وجيبوتي أسابيع قليلة ، ويفصل بين المجمعين الدعويين بحر القلزم (البحر الأحمر) ؛ ولكن القلوب موحدة والمنهج الرباني والنبوي هو الرابط بين كل هذه الاجتماعات التي تتم في دكا ورايوند والحديدة وجيبوتي وبهوبال بالهند وماليزيا وإندونيسيا وفنلندا وفي عموم عواصم العالم.

يقولون إنها اجتماعات (لا تسمع فيها لاغية) لا شتم ولا سب ولا لعن ولا تحقير لأهل الإسلام ، ولا تنقيص لجهد المسلمين ، بعيدون عن الغيبة والنميمة ، تسمع سلاما سلاما ، فهي أمة واحدة موحدة بعثت كما نبيها رحمة للعالمين .. يجتمعون لحبه ويتفرقون على دينه ، ودعوة الخلق للخالق ، وتوجيه القلوب من الفاني للباقي ومن الدنيا للآخرة .

وجدت هذه الاجتماعات التي تعقد في كراتشي ودكا قبولا وحماسا لدي ميلاد عادل فيجتهد سنويا للذهاب إليها في موعدها وموسمها ، وذات موسم وهو يحضر اجتماع لاهور في رايوند التقى بداعية مسلم من كندا اسمه أو تسمى بالشيخ عبد الصمد ـ واجتماعات هؤلاء القوم يحضرها العرب والعجم والإنجليز وجنسيات مختلفة انضوت تحت لواء الجماعة أو متأثرة بها

، قد وصل الدعاة منهم للبيرو واليابان ـ فتذكر ميلاد ابنة عمه زهيرة مجدي ، وذكر الماضي وكان الرجل الكندي يحسن العربية ، ولاحظ تغير الرجل ، فظن أنه خرج إليها ؛ لأن جماعة التبليغ لها نشاط قوي وجدير بالاهتمام في كندا ، فربما هي أكثر الجماعات أتباعا ومساجد في كندا فقال مشجعا "أذهبت إليها ؟!"

فعاد ميلاد لنفسه وأجاب : لم أخرج جهة أمريكا وتلك البلاد ، وربما الخروج اليوم بعد أحداث نيويورك صارت أموره معقدة ..

ـ ما زال التبليغيون ينشطون هناك رغم كل المعوقات .. فالجنسيات البنغلادشية والباكستانية كثيرة هناك ، ولديهم قبول للقاء الجماعة .

ـ المهم عندما ذكرت أنك عبد الصمد الكندي ذكرتني بأقارب لي هناك هاجروا من سنوات وسنوات ، ولم أرهم منذ ذلك الحين

ـ كندا بلد واسع يا شيخ ميلاد العربي ، وسكانها قريب من الثلاثين مليونا ، وتستقبل سنويا أعدادا كثيرة من المهاجرين من شتى بلاد الأرض، وأكثر الوافدين من أصحاب المال والشهادات والطلاب للعلم والجامعات .. ونشاط الدعوة جيد في تلك البلاد ، ولكنهم موجودون بين الجاليات الآسيوية كالهنود والإندونيسيين .. وأنا مستعد لتنظيم زيارة لك إلى هناك لترى أقاربك .

ـ أيمكن هذا ؟!

ـ يمكن ؛ ولكنه يحتاج لوقت بسبب الأمن والإرهاب .

ـ وهل يسمحون لي بدخولها ؟

ـ هناك تسهيلات لجماعة التبليغ والدعوة ، فيمكن ترتيب رحلة خروج إلى هناك ترافق مجموعة خارجة من باكستان او بنغلاديش لأمريكا وكندا وغيرهما .. وعندما تدخل البلاد يسمح لك بزيارتهم .. فكندا بلد يشجع السياحة سواء كانت دينية أو دنيوية .

ـ سأفكر بذلك شيخ عبد الصمد .. كلام جميل اسمعه .. مرحبا بك .. أنت تأتي هذا الاجتماع

كل سنة ؟

ـ منذ ثلاث سنوات فقط ، ذهبت في أكثر من رحلة سياحية لمصر والأردن ولبنان والعراق .

فكر ميلاد وهو يتعرف على الشيخ عبد الصمد الكندي بالذهاب لكندا ليقول لابنة عمه زهيرة مجدي " أنا تبت إلى الله يا زهيرة ! وأنا نادم للإساءة التي ألحقتها بك ، نادم لأني حاولت قتلك عند زواجك ، أنا الذي صدمت سيارة زوجك في لحظة جنون واستسلام للشيطان .. أريد أن تغفري لي ، وتسامحيني يا ابنة العم .. أتوسل إليك أن تعودي للبلاد ، ولن تري مني شرا.. كنت أضحوكة للشيطان .. يا لجهلي ! .. كنت موهما نفسي بقيس ليلى وقيس لبنى "

كل هذا راود فكر وذهن ميلاد ، وهو يحاور الشيخ عبد الصمد الكندي، ولما أخذ عنوانه ورقم موبايله الدولي قال : هل تعلم يا سيد عبد الصمد لو أوصلتني لكندا ستكون عملت عملا عظيما معي .. لا يذهب بك الظن أني سأذهب للشغل والهجرة إلى هناك .. إنما لرؤية قريب لي ، وقد هاجر إليها من زمن بعيد ، وأرغب بمقابلته لنتصالح ونتسامح .. أيامها كنت ضالا وعاقا .. فأحب لقياه ليغفر لي ذنبي وإجرامي معه ، وأسأله العفو والصفح ؛ ولكنني هذه المرة غير جاهز للسفر لتلك الديار في أقصى غرب الأرض .. لنبق على اتصال بحكم التقائنا هنا على غير ميعاد .. عليك مساعدتي يا شيخ عبد الصمد .. ألك زمان في الإسلام ؟

ـ حوالي خمس سنوات شيخ ميلاد

ـ الله يتقبلكم ..أنتم بإسلامكم تذكروننا بأيام الصحابة ، وقصص إسلامهم كبلال وخباب وسلمان .. هل وجدت صعوبة ورفضا لإسلامك ؟

ـ من ناحية الأهل .. فلا ؛ لأننا نعيش بعيدين عن بعض .. وكل يعتمد على نفسه .. وأهلي ليس لديهم تعصب ؛ لأنهم بعيدون عن الدين .. نحن لما نكبر سنا يعيش كل واحد مع نفسه الأسر علاقاتها علاقة مناسبات وزيارات .. أنا ذهبت لمصر وتعلمت العربية في معهد لغة يتبع جامعة الأزهر العريقة في بلاد المسلمين ، ثم أشهرت إسلامي في الجامع الأزهر أمام لجنة من

المشايخ ، وأعطوني صكا بأنني أصبحت مسلما ، وتسميت بعبد الصمد وهو اسم مشهور لأحد القراء للقرآن الكريم ، ثم التقيت بمشايخ من جماعة التبليغ المصريين ، ولهم مركز في الجيزة وأكثر في بلدان مصر ، ولهم نشاط دعوي كبير .. مصر بلد كبير وسكان كثير .

ـ أكثر الدول العربية سكانا وبشر.

ـ وأصبحت مترجما لهم في بعض مناطق دول أمريكا خاصة الناطقة بالفرنسية والإنجليزية .. وأنا على استعداد لخدمتك للوصول لخصمك حتى تتصافى أنت وإياه وتعود المحبة بينكم .. لكن عليك معرفة عنوان قريبك هذا .. وأين يوجد في كندا ليسهل الاتصال به واللقاء ؟

ـ إن شاء الله السنة القادمة إذا قدرت لنا الحياة نلتقي هنا على هامش الاجتماعات ودراسة الأمر ، ونرتب لرحلة دعوية إلى كندا ندعو ونسعى للقاء الشخص الذي ظلمته .

وهمس لنفسه "هل تسامحني زهيرة بعد كل هذه السنوات ؟.. لقد كنت سببا لفرارها وهجرتها "



فلما رجع الشيخ ميلاد من بلاد الهنود بعد شهوده مؤتمر رايوند ودكا كان في جعبته لقائه الغريب لعبد الصمد الكندي ، واعلم أن مؤتمر دكا السنوي فهو يعقد منذ عام ١٩٦٦ قبل انقسام باكستان لشرقية وغربية ، فهو يعقد في المحرم من كل سنة غالبا ، لقد تقسمت الهند لعدة دول بعد جلاء الاستعمار الإنجليزي بعد الحرب الكونية الثانية .

فأول دعوة يتلقاها عندما يعود من سفره الدعوي تكون من شريكه وصديق عمره حميد نبيل ويحرص حميد على أن يكون من أول مستقبليه في الوطن ، ليسمع منه أخبار رحلته ونشاطه خلال تلك الشهور ، ويستمتع بقصصه التي أتى بها من تلك البلاد العجيبة المليئة بالبشر ،

الهند وباكستان وبنغلاديش ربما فيها خمس أو سدس العالم ، فمدينة نظام الدين في دلهي ما زالت تستقطب تاريخ الدعوة .

وعندما يسمع حميد أخبار الجماعات التي تخرج يصاب بالدهشة والإعجاب ، ويزداد الأمل في قلبه بعودة الإسلام للعصور الأولى .. وكان أغرب شيء سمعه منه عام ٢٠٠٣ لقاءه بالشيخ الكندي عبد الصمد ، فقال ميلاد " والتقيت هذا الموسم جماعة قادمة من كندا يا أبا محمد .. فلم عرفت أنهم كنديون راحت روحي لتلك البلاد وإلى ابنة عمي زهيرة .

خفق قلب حميد وهمس " ويحك !!"

" أرجوك لا تسيء الظن بي ، أنا تبت إلى الله سبحانه في علاه يا رجل "

" جميل ! أنت يلزمك الزواج ؛ لتذهب زهيرة من روحك ونفسك إلى الأبد .. والله منذ طلاقها لم نعد نسمع شيئا معروفا من أخبارها .. كيف رضيت أن تعيش هناك بدون أهل وأقارب ؟! .. سامحها الله في علاه "

"بل سامحني الله أنا يا أبا محمد .. أنا أجرمت في حقها ، لقد كنت سببا في حبها لتلك الهجرة ، واتخذت الدراسة حجة .. أنا الوحش الذي كانت تخشاه !.. كم أبكي ندما وأسفا؟! آه يا حميد .. سأفشي لك سرا لم أبح به لنفسي إلا اليوم "

"سر ! أثرت فضولي "

"أخذه البكاء والنشيج والحزن وقال باكيا معتصرا لقلبه: سعيت لقتل زهيرة يا حميد "

"ماذا؟!"

"نعم ، أرجو أن يغفر الله لي تلك المحاولة .. قبل أن تسافر بأيام صدمت سيارة زوجها سامر وهربت .. "

عادت ذاكرة حميد لحادث سيارة سامر قبل سفرهم ببضعة أيام ، تبادل الرجلان النظرات وعاد ميلاد يقول "نعم ، قد جننت ، كان يجب أن يموت أحدنا يا حميد .. لم أعتقد أنها ستكون زوجة لغيري ، ولم يخالجني شك بأني سأكون زوجها في النهاية .. كنت مهووسا بحبها والحياة

معها كما تذكر .. الحمد لله أنها نجت ، ولم تصب بأذى ، وإلا مت كمدا "

وبعد صمت عميق وعدم تعليق حميد بشيء عاد ميلاد للكلام فقال "المهم عندما التقيت بهؤلاء الكنديين وخاصة الشيخ عبد الصمد الذي تعلم العربية بمصر وأسلم فيها قبل مشيه مع الأحباب رغبت بالذهاب إلى هناك لأطلب منها أن تسامحني يا حميد بعد أن أقر لها بجريمتي ، وأطلب منها المسامحة وإبراء الذمة ؛ لعل الله يقبل توبتي ، وأرجوها أن تعود للبلاد ، ولن أمسها بسوء.. الندم يقتلني ويؤرقني يا حميد "

"صدق أن هذا جميل منك ! الحمد لله الذي نجاها من الموت ومن الحادث وإلا قضيت عمرك قابيل "

"يا الهي! رأيت الزنا والسكر يهون أمام شروعي بالقتل .. المهم تحمست للخروج إلى كندا وأمريكا .. ويقول الرجل إن كندا شاسعة جدا ، وسكانها قريب من الثلاثين مليون "

" من الضروري معرفة المحافظة أو المدينة أو حتى القرية التي تعيش فيها أم شمس.. إذا كان عندهم قرى .. كيف ستعرف ذلك ؟"

" فكرت في هذا أثناء وجودي في تلك البلاد .. إما من زوجها سامر ولا أعتقد أنه سيصدق شيئا مني ، وأن قصدي المسامحة .. وإذا صدق الحال ربما يعطيني رقم تلفون لها .. وقد يؤدي التلفون الغرض .. ولكن التلفون لن يقنعها بتوبتي وندمي وتثق بالكلام وترجع .. وقد تغلق التلفون في وجهي كما كانت تفعل هنا "

"والحل الثاني "

"أن تتعاون معي امرأة عمي هناء ، وتعطيني اسم المكان أو تشجعها للقبول بالحديث معي ؛ لأطلب منها العفو "

" للآسف امرأة عمي ما زالت تكرهك ، ولا تصدق أنك تغيرت وتبت .. وهي تعتبرك السبب الرئيسي في هروب زهيرة .. أنت وأبوك العم عادل ـ رحمه الله ـ ترفض مسامحتكم لليوم .. رغم زواجها تجعلك سبب التفريق بينها وبين بقاء ابنتها هنا .. وإذا طلبت عنوانها

فلا أعتقد أن تبخل به عليّ للمودة بيننا .. فأمي ما زالت صديقة لها منذ أيام حياة عمنا رحمه الله وزوجتي تزورها وهي تزورنا .. وزهيرة طيبة قد تسامحك على الهاتف .. ولكن لابد من اللقاء بها لترى أنك ميلاد غير الذي عرفته ، وتطمئن وتعود للبلاد وتتشجع لذلك .. فهي وحيدة هناك مع ابنتها ، ولليوم لم تتزوج مرة أخرى "

" عزباء بعد طلاقها .. نسأل الله لها السلامة .. وسامر هل تزوج ؟ "

"تزوج بعد عودته بسنة ، وعنده أولاد كما علمت من أم زهيرة في إحدى الزيارات .. والرجل لا يصبر على ترك الزواج كالنساء .. عنده بنت وولد .. وهو يتصل بأم زهيرة سائلا عنها وعن صحتها .. عليك أن تجد

حلا لتسامحك الأخت زهيرة ؛ لأنك قسوت عليها تلك الأيام السوداء "

" لن يرتاح لي بال حتى تسامحني وتغفر لي الإساءات والظلم .. الظلم ظلمات يوم القيامة .. الجهل في الدين قاتل .. غفر الله لأبي الذي أوقع هواها في قلبي "

" كله جهل .. جهل "



ذهب حميد وزوجته في زيارة لامرأة عمه هناء محمد ، ولم تكن أول مرة يزورها ، فهو الوحيد من أقارب زوجها مجدي الذي يتفقدها ، ويتفقد أحوالها ، وكان يعتبر ذلك من الواجب عليه حيالها ، وطاعة لأمه التي ما زالت تحافظ على الصداقة القائمة بينهن ، فأحيانا يأخذ أمه ، وأحيانا أخرى امرأته ، يمرون على هناء ، ويجلسون معها ، ويطمئنون على صحتها ، وترافقها أم حميد لمراجعة مستشفى أو طبيب أو عيادة ، ورحبت المرأة بابن سلفها ، وكانت السيدة قد ترملت منذ سنة ونصف تقريبا ، وظلت تعيش في بيت رستم الذي ورثت جزءا منه ،

واستقرت فيه ، ورغبت بالتنازل عن حصتها فيه للأولاد ، فرفضوا ذلك وطلبوا منها البقاء فيه وفاء لأبيهم ، وبعد حياة طويلة تمنوها لها سيدفعون بحصتها فيه لابنتها وورثتها .

فلما شُرب الشاي ، وتناولوا بعض الفواكه المبردة ـ وكانت خادمة زهيرة روجا التي انتقلت بعد وفاة أم هناء للعمل عند هناء ما زالت حية وتعمل مع العائلة ـ وتبادلوا الحديث وأخبار العائلة المريض والميت والحي ، قال حميد " جئت إليك هذه المرة يا أم زهيرة في حاجة أرجو أن تساعديني فيها"

ظهر الفرح والسعادة على وجه هناء أم زهيرة وقالت "هذا يوم سعد أن أخدمك بشيء يا سيد أبي محمد "

"لي صديق يريد السفر لكندا حيث تعيش الدكتورة أم شمس .. فتذكرت زهيرة وحياتها هناك قلت قد يستفيد من وجودها هناك بمساعدة .. والذاهب لأول مرة لتلك البلاد سيكون كالغريق يحتاج لقشة ينجو بها .. فلو أعطيته عنوان الدكتورة وتلفونها نكون قد خدمناه وساعدناه في أول وصوله لهناك "

رحبت هناء بالمساعدة والمعروف وقالت " لا بأس يا بني .. فقبل أيام تحدثت معي زهيرة وهي تسلم عليكم جميعكم .. وستسر بهذه الخدمة لأني دائما أذكركم بكل خير أنت وزوجتك وأمك .. وكلما نتكلم أحثها على زيارتنا فتقول " أنت تعالي وانظري الدنيا .. أنا نسيت البلد " وعنوانها عندي لأني أرسل لها بطاقات التهنئة بالأعياد .. الفطر والأضحى "

" هي لم تتزوج بعد ؟"

" لا ، لم تتزوج ، وابنتها على وشك الدخول في الجامعة ، وعلمت منها أن حياة ابنتها المنفتحة على عادات تلك البلاد صعبة وتعاني معها .. فهي متمردة على عادات الشرقيين ، فتخرج سافرة وبالبنطال القصير " الشورت " إنها كالأجانب .. فلم تستطع تربيتها على الثياب المحتشمة .. حال لا يسر ؛ ولكنها لا تستطيع إجبارها على شيء أو منعها من شيء .. فهي فتاة بالغة وفي آخر سنوات المدرسة الثانوية "

" لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذه مآسي الحياة في الغرب .. الحرية المطلقة والأخلاق الفاسدة هذا ثمن تلك الحرية المزعومة .. لا الأب يسيطر على الابن والبنت ، ولا الأم تستطيع ذلك .. هداها الله "

وبعد صمت قال " لو أعطيتني عنوانها وهاتفها "

مشت هناء ، وأحضرت رسالة أو مغلف رسالة عليه عنوان زهيرة ، فنقله حميد على ورقة احضرها خصيصا لذلك ، وكتب رقم هاتفها وكانت هناء تقول " هي تعيش في مقاطعة كبيرة من تلك البلاد تعيش في مدينة مونتريال كوبيك .. وهي تعمل في مستشفى كبير في تلك المدينة العالمية "

شكر حميد امرأة عمه ، ودعا لها بالصحة والعافية ، واستأذنا بالانصراف والمغادرة ، وبادلتهم المرأة التحية والشكر ، ورافقتهم حتى انطلقت بهم السيارة لبيتهم .

نحن نعلم مقدار صداقة حميد لميلاد ، فهي بدأت منذ الطفولة وخفت قليلا بسبب انحراف ميلاد عادل ، ثم عادت قوية بعد توبة ميلاد واستقامة أمره في الحياة الدنيا ، وهو محب بأن تصفى الأمور بينه وبين الفتاة التي دفعها للهجرة ، والبعد عن كل العائلة ، وتختار الهجرة للغرب ، وها هي ابنتها الوحيدة تضيع في متاهة الغرب وتقاليده وتهاونه في مسألة الجنس والعلاقات خارج الحياة الزوجية ، ولما اتصل حميد به بعد عودته من عند امرأة عمه غمرت السعادة الشيخ ميلاد وعقب " عليّ أن أخرج من هذه الدنيا وقد غفرت لي زهيرة ظلمي لها " ولما أخذ عنوان الدكتورة ورقم هاتف بيتها ، فكر بالاتصال بها فورا ؛ ولكنه تراجع قائلا " سترفض الحديث معي ، ولا أستطيع مصارحتها بمحاولة القتل على الهاتف "

وأخذ يفكر بالحديث مع الشيخ عبد الصمد ؛ ولكنه كما علم منه " أن مكان عمله في نيويورك وليس في كندا" وإنما يتردد على كندا زائرا لأسرته أبيه وأمه وابنته الوحيدة ، فهو غير مرتبط بزوجة منذ غير دينه .

وكان ميلاد قد تبادل أرقام الخلوي مع عبد الصمد والكثير من الشيوخ حتى إذا زاروا بلده أو

زار بلدهم يسعون للقاء بعضهم البعض .

وفكر ميلاد جديا بالاتصال بعبد الصمد الذي طابت الصحبة بينهم أثناء وجودهم في مؤتمرات الأحباب في رايوند قرب لاهور ، وفي دكا عاصمة البنغال ثم أمهل نفسه أسبوعا ، وكان يقول لنفسه " هل من فائدة ترتجى من الذهاب لكندا ؟ .. فعبد الصمد رجل قدير ، وهو طبيب بشري كما حدث .. ألا أستطيع تكليفه بالحديث مع زهيرة ؛ ليشفع لي عندها ، وقبولها الحديث معي لتسامحني .. هل تقبل هي بالحديث معه في مثل هذا الموضوع الحساس والخاص ؟ .. بعد أيام اتصل به من عند حميد من بيت حميد .

اتصل من بيت حميد برقم عبد الصمد ، ولم يرد عليه أحد .. وعبد الصمد يحسن العربية ، قد تعلمها بمصر ، وأعلن إسلامه فيها ، وأعطى الرقم لحميد وقال : حاول كل ليلة حتى يرد عليك ، وعرفه بنفسك حين يرد ، وحدد موعدا لأتصل به .. فهو يحسن العربية ويتقنها أحسن منا ، ولكن لكنته تميزه بأنه غير عربي .

استطاع حميد بعد عدة أيام سماع صوت شخص على الخط الآخر ، وعرفه بنفسه وسمع الصوت "نعم ، أنا عبد الصمد ..أنت قريب للشيخ ميلاد .. اذكره .. ليس لنا إلا أسابيع مفترقون .. كيف حاله؟"

" بخير ، وهو راغب بالحديث معك مباشرة من أجل أقاربه في كندا "

" جيد ، ميلاد شيخ طيب مسكين "

اتفقا على موعد للاتصال ، فقال ميلاد لحميد وهو يتلقى منه موعد الاتصال " هل من فائدة يا حميد من مقابلة زهيرة مباشرة ؟ خاصة بعد كل هذه السنين "

" إنها ابنة عمنا ، ورحم لنا ، وأنا أشجعك على اللقاء بها ، وفتح صفحة جديدة بينكم ؛ لعلها تتشجع وتعود للبلاد ، وتعيش بجوار أمها ما بقي لهم من الحياة ، فالأعمار بيد الله عز وجل .. وأيضا لتطهير نفسك .. فاليوم درهم ودينار وغدا ـ كما تعلم ـ لا درهم ولا دينار حسنات وسيئات .. ومن كان عنده لأخيه مظلمة فليتحلله منها اليوم كما أخبر الرسول ﷺ هذا ثانيا ..

نحن قصرنا معها أيام الشباب .. وإذا أنت لا تفكر بالسفر إلى هناك للمشقة والمال .. فشفع ذلك الكندي بالاتصال بها واللقاء بها والتعرف عليها ؛ لتقبل بالحديث معك إذا أحسن الرجل نقل الصورة عنك إليها .. لا أعتقد بعد كل هذه السنين بقاء حقدها عليك وكرهها لك

ـ أحسنت يا حميد بكل ما تفوهت به ! وقد راودني فعلا طلب شفاعة الشيخ عبد الصمد .. أنت رجل عاقل يا حميد .. هل صحيح أنك ستزوج ابنتك ؟

ـ أنا ألم أقل لك بعد ؟!

في اليوم الموعود والوقت المحدود جرى الاتصال بعبد الصمد ، كان الاتصال ، وكان الكلام بينهم بحرارة وذكريات تجمع التبليغين في لاهور ودكا ، وقد توعدا يومها على اللقاء في الاجتماع القادم ، وطال الحديث بينهم في الذكريات وحميد يؤشر له بالدخول في الموضوع ، ولما سأله الرجل لمَ يحتاجه ؟ عاد ميلاد لسبب هذا الاتصال فقال " أتذكر عندما عرفت أنك كندي وتعارفنا أنني ذكرت لك عن أقارب لي في بلادكم ؟ .. وذكرت لي سعة البلاد وكثرة سكانها ، وطلبت مني معرفة مكان سكن أقاربي ليسهل اللقاء بهم .. وذكرت أن دائرة الهجرة الكندية قد تساعد في معرفة مسكنهم بشكل عام .. أو معرفة عنوانهم من المراسلات

بعد صمت قال عبد الصمد : أجل يا شيخ تحدثنا عن طريقة الوصول إليهم .. وقد ترافقنا في عدة جولات داخل باكستان بسبب هذه المعرفة .. هل عرفت أماكن تواجدهم؟

ـ نعم ، في الحقيقة هي ابنة عم لي ، تزوجت ، وهاجرت مع زوجها لكندا قبل خمس عشرة سنة ذهبت بصحبة زوجها لدراسة الطب ، وهو عاد وهي ظلت هناك بعد انفصالهم عن بعض .. ولها بنت واحدة حسب معلوماتي ..

ـ مليئة كندا بالأطباء والطبيبات من شتى الدول .. ماذا شكلها ؟ مكان عملها ؟ مكان سكناها ؟

ـ تعلمت عندكم وأصبحت طبيبة وتعمل في مستشفى في مدينة كويبك

ضحك الرجل على الهاتف وقال : هذه مدينتي أنا ، ولدت فيها في كيبيك العاصمة ، ثم عملت في مونتريال وهو إقليم تابع لكويبك وشبه مستقل .. وأنا كما تعلم طبيب وجراح يا شيخ ميلاد عرفني عليها أكثر قد أصل إليها بسرعة ما هي صفاتها البدنية واسمها ؟

ـ هي متوسطة الطول ، بدينة إلى حد ما كما اذكرها .. عليها لمسة سمار ، ليست بيضاء ، اسمها عندما كانت هنا زهيرة مجدي حسن

صاح عبد الصمد دهشة : ماذا قلت اسمها ؟!

ـ ما بك ؟

ـ كرر الاسم ؟

أعاد ميلاد تكرار الاسم فقال عبد الصمد : قلت إنها ابنة عمك .. يا شيخ هذه أعرفها حق المعرفة ، وكانت تعمل معي في مستشفى مونتريال العام في قسم جراحة النساء وعمليات التوليد .. وكانت زوجة للدكتور سامر ماجد جراح في قسم العظام .. وكانوا من أعز الأصدقاء والزملاء

ـ عبد الصمد أراك تعرفها أكثر مني .. هذه المرأة هي ابنة عمي يا شيخ عبد الصمد .. أبي شقيق أبيها .. ومات عنها طفلة سنة أو سنتان .

ضحك عبد الصمد وقال : يا لله ! أتعلم أنها سبب هدايتي يا شيخ ميلاد .. هي التي دفعتني لفهم الإسلام وحقيقة الإسلام .. أهي قريبة لك ؟!

ـ أجل ، يا سبحان الله !

ـ ماذا تريد مني يا شيخ ميلاد ؟

ـ أرغب بلقائها يا شيخ عبد الصمد

ـ لابد أن نلتقي ..سأسعى لك عند السفارة والخارجية ؛ لتسافر لكندا ، ونلتقي في أوتاوا عاصمة الاتحاد الكندي .. قريبتك امرأة محترمة

ـ شكرا ، سأتصل بك مرة أخرى .. على نفس الرقم الذي أعطيته لحميد

ـ نعم اتصل عليه دائما .. ورقم حميد ابن عمك هو رقمك الأرضي

ـ أجل ، بعد يومين اتصل بك ثانية ، وداعا يا شيخ عبد الصمد .

ربما زاد الاتصال عن ساعة ، فقال ميلاد وهو يضع السماعة لحميد : الفاتورة عليّ

ضحك حميد وقال : توكل على الله .. حصل مفاجأة مهمة من الكلام بينكم

قال ميلاد متعجبا : يا إلهي ما أصغر الدنيا رغم سعتها يا حميد! .. يقول إنها السبب الذي دفعه للإسلام ، ولم أعرف التفاصيل طبعا ؛ ولكنه يحترمها ويعرفها جيدا ، وعمل معها في أحد مستشفيات كوبيك أو كيبيك لا أعرف كيف تلفظ ؟

ـ سبحان الله !! سبحان الله فعلا !! كانا يشتغلان في مستشفى واحد .. وماذا سيفعل لك ؟

ـ سيسعى لي على تأشيرة لزيارة لكندا .. ولكني كما قلنا صرفت نظرا عن السفر .. هل أسافر يا حميد ؟

ـ سأساعدك ماديا إذا قررت السفر .. سافر يا ميلاد قدم اعتذارك شخصيا .. أنا راغب جدا أن تعود ابنة عمنا لبلادنا وديارنا .. فهي تعيش مع ابنتها فقط ، لا زوج ، ولا خلفة ، وإنها تعاني من مشاكل مع ابنتها كما فهمت من الزيارة لأمها لأخذ عنوانها .. تلبس ملابس الغرب العري ، وتختلط بالشباب ، فربما إذا تقابلتم غيرت رأيها ، وعادت للبلاد

بعد صفون وتفكير: أخشى يا ابن العم أن يلعب الفأر في عبي كما يقال عند رؤيتها ، ويعود الحنين لها ، وأخسر آخرتي .. النساء من إحدى الفتن التي حذر منها الرسول الأكرم ﷺ .

ـ أمعقول هذا يا شيخ ميلاد ؟! أبعد هذا التقدم في الإيمان أن تنتكس ؟

ـ لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون والخاسرون .. النساء فتنة الأمة .. وأنت تعلم كبر علاقتي بزهيرة

ـ إنها ابنة عمنا ، وليس لها اليوم إلا نحن .. وهي كما علمت من أم محمد غير قادرة على الإنجاب .. عندها مرض يعيق ثبات الحمل في رحمها .

ـ يبدو أن لهذا الدكتور حكاية معها

ـ هل هو متزوج ؟

ـ أذكر أن له ابنة ، وقد ترك زوجته قبل رحيله لمصر .. فهو كما علمت منه في الباكستان بدون امرأة .



عندما رجع ميلاد تلك الليلة لبيته من عند ابن عمه ، وقد تعشيا معا استغرق في تفكير عميق ، وكان متحمسا للسفر عندما تعرف على عبد الصمد للقاء قريبته التي يؤنبه ضميره نحوها ، وهو موقن أنه أحد أسباب رحليها للهرب منه ومن أسرته ؛ وهو اليوم في غاية التردد والقلق والخوف .. فهل تقبل زهيرة العودة للبلاد بعدما قبلت الطلاق لتبق هناك؟! ألم يقل له حميد مثل هذا الكلام قديما عندما طلقت ورجع زوجها وحيدا منها ومن ابنتها ؟! وإنها اختارت الهجرة هربا وخوفا منه ومن أفعاله معها ؟ حادث السيارة ربما أدركت أنه من فعلي وجنوني .. ولو طال البقاء ألم أكن أفكر بتكراره ؟ وهل يمكنني مقابلتها والاعتراف لها وطلب مسامحتها ؟!.. الأمر يحتاج لشجاعة .. فهل تراها تسامحني وقد جنيت على ابنتها كما أخبر حميد الليلة من انحلالها ؟! .. ما أجهل الإنسان ! لقد أردت قتلها تلك الأيام .. عجيب أمرك يا مولاي العظيم ! .. من بين أولئك الملايين ألتقي بعبد الصمد لأتذكر ابنة عمي التي أحببتها وتمنيتها زوجة لي .. اليوم أخشى اللقاء بها خشية تجدد الماضي .. فعلا إني أخشى الضعف الحيواني في نفسي .. الرغبة في نكاحها .. الدكتور الكندي يقول إنها سبب تعرفه على الإسلام ثم الدخول فيه .. فحج لمصر وتعلم الإسلام والعربية وأسلم ، وسافر مكة وحج البيت العتيق .. سأسجد لله مستخيرا عدة أيام .. وعندي خروج كما وعدت آخر الشهر الهجري لجنوب البلد .. سأدعو دعاء الاستخارة هل أسافر إلى هناك أم لا ؟ لعل الله يحدث أمرا .

عاود ميلاد الاتصال بعبد الصمد عند الموعد المضروب ، واختار ميلاد السفر لرؤية ابنة عمه

زهيرة ، فقال عبد الصمد لما أكد له الرجل الرغبة بالسفر : حسنا يا شيخ ميلاد سأقدم لك طلب زيارة .. فلي صديق يعمل في وزارة الخارجية الكندية تعرض لحادث سير ، وكنت طبيبا له من ضمن فريق العلاج .. معذرة يا شيخ لسؤالي التالي .

ـ تفضل يا صاحبي .

ـ هل لك علاقات قديمة قبل المشي مع جماعة الأحباب بجماعات إسلامية أخرى جهادية أم غير جهادية ؟ الأمر مهم خاصة بعد أحداث سبتمبر في أمريكا .

ـ كانت بدايتي وتوبتي كما قلت لك ونحن في الهند على يد رجال الدعوة وعلى يد الشيخ حسن محمد الذي عرفتك عليه ونحن في رايوند .. فحسن مرشدي الأول ومنقذي بعد الله طبعا من الضلال والغي .. ولا أهتم في السياسة ولا الاقتصاد .. بدأت مع التبليغين وما زلت معهم بفضل الله

ـ جيد ، سأتحدث مع هذا الموظف في الخارجية فأرسل لي صورة جواز سفرك صفحة الصورة والمعلومات المهمة فقط عن طريق الفاكس وسأعطيك عنوان فاكس لترسل الصورة إليه .. ثم أتصل بك لتراجع السفارة الكندية في بلدكم .. فعندما تأتي الموافقة ، وتستعد للسفر إلى أوتاوا عاصمة كندا ، سيكون بيننا ترتيب لنلتقي في المدينة أو في المطار أو فندق حسب الظروف ، ونذهب معا لمقابلة الطبيبة زهيرة سامر .. آ هي تخلصت من سامر .. فقد اتصلت بزوجتي المطلقة أم ابنتي ، وعلمت منها أن زهيرة ما زالت تعمل في نفس المستشفى ، ومطلقتي تعمل أيضا في نفس المكان ، وتعيش قريبتك في نفس الشقة مع ابنتها .. فأنا يا شيخ ميلاد منذ تركت العمل عندهم لم أتصل بزهيرة ولا مع معارف المستشفى ، وهي أيضا لم تفعل

ـ أنا خارج مع الجماعة لمدة ثلاثة أيام ، وبعدما أعود بإذن سأتحدث معك على نفس الرقم ، وسأكون قد أرسلت صورة الجواز لك

ـ خذ هذا الرقم ، هو رقم في المستشفى المتعاقد معه .. وإذا اعتذرت الوزارة عن دخولك البلاد الكندية سنلتقي باجتماع دكا .. وسنحاول ترتيب خروج مع المجموعات المتجهة إلى

أمريكا الشمالية وكندا .. سلم على ابن عمك حميد .

أرسل ميلاد صورة الجواز الخاص به إلى العنوان الذي أخذه من عبد الصمد ، وطلب من حميد الاتصال بالرجل ليتأكد من وصول صورة الجواز ، وانطلق ميلاد مع الجماعة ، فهؤلاء القوم أهم شيء لديهم هو الخروج المتكرر كل شهر لمدة ثلاثة أيام .

ويسمون هذا العمل بالتشكيل والتشكيلات فهم يشكلون الجماعات من عشرة أفراد تزيد أو تقل واحدا ، وتشكل الجماعات على مستوى العالم وعلى مستوى البلد ، وأكثر دول العالم تسمح لهم بالنشاط في بلادهم ، وبعضهم يشجع شباب البلد المسلم بالالتحاق بهم لبعدهم الشديد عن السياسة ، وشعارهم " من السياسة ترك السياسة "، فمركز الجماعة في كل بلد هو الذي يتابع التشكيلات الداخلية ، وأما التشكيلات الخارجية فيتم التنسيق بين المركز الرئيسي للجماعة وبين المركز الخاص لكل بلد ؛ ليسهل تنقلهم بين المدن والقرى والمساجد المنتشرة في البلاد .

وحتى بعض المدن النشطة في الدعوة قد تعمل تشكيلا خاصا من أهل المدينة ، ويذهبون في خروج إلى مدينة أخرى أو قرية ، وذلك بتنسيق عام مع المركز الرئيسي .

لهم نشاط مستمر ودؤوب ، داخل البلد وخارج البلد ، جولات تنقلية مقامية وانتقالية ، ينشطون في الصيف والشتاء ، وللشباب هوس بالذهاب لمراكزهم في بلاد الهند .

الخروج الشهري أصبح تقليدا للمنضوي تحت ظل الجماعة ، فهم يتشاركون الطعام ويضعون شخصا أو آخر معه للخدمة اليومية ، ويقضون ليلتين أو ثلاث في المسجد الواحد ، ويكون على رأس كل تشكيل أمير مقتدين بالرسول ﷺ ، وبعد الفطور الصباحي يعملون حلقة للخارجين حول الصفات الستة ، وآخر عشر سور من القرآن يحفظونها عن ظهر قلب ، ويحفظون مع كل صفة آية أو حديث .. يقرأون على المصلين بعد صلاة الظهر بعض الأحاديث من كتاب رياض الصالحين ، ويدعونهم لمؤازرتهم بعد صلاة العصر في الجولة على دكاكين ومحلات وبيوت الحي ، وهم يجعلون أنفسهم متشبهين بالمهاجرين وأهل الحي أو

الشارع بالأنصار ، فيرافقونهم في جولتهم المسائية ، ودعوتهم الناس لصلاة المغرب جماعة ، واستماع البيان أو الموعظة حول الصفات الستة التي يحفظونها عن ظهر قلب .. والعصر ربما يقومون بموعظة صغيرة والتأكيد على أهل الحي لمؤازرتهم في الجولة التي تكون قبل المغرب بساعة ، ويتركون أحدهم في المسجد للذكر والدعاء لهم بالتوفيق وهداية الضالين والعصاة حتى يعودوا من دعوتهم للناس في البيوت والمحلات والشارع .. ثم يجتمعون بعد الصلاة مغربا لسماع الدرس والبيان ، وينهض أحدهم بعد سلام الإمام مباشرة طالبا من الناس الانتظار والمكث والصبر وقتا قليلا لسماع كلام الدين والإيمان بعد السنة أي صلاة سنة المغرب .. ويوضع للمختار مقعدا قبالة الناس لبيان الموعظة ، ويجلس على الكرسي ، ولما يبدأ الناس بالخروج والانتهاء من السنة .. يبدأ المختار بحمد الله والصلاة على النبي ﷺ وشرح الصفات الستة بالأسلوب اللائق به .. وآخر الصفات الدعوة والخروج ، فيشجع السامعين على الالتحاق بالجماعة ؛ ليتعلم معهم الإيمان والصلاة وغيرها .. ويشجعونهم على الخروج يوما أو أكثر .. وأحيانا يسجلون أسماء المتحمسين للخروج .

وميلاد منذ ارتاح للمشي معهم وفي ركابهم ، وهو يواظب على مشاركتهم داخل البلد وخارجه .. لأنه أعزب ، والشيخ حميد كفاه مشقة الشغل ، ويقاسمه الأرباح آخر كل سنة .. وأصبح مثل حسن معروفا للمشايخ ، ويناقش أحيانا في مسائل فقهية عويصة ؛ ولكنه كان شجاعا ، ولا يتحدث إلا بما يعرف ويفهم وحول الدعوة .. ووضع على رأسه عمامة الجماعة .. واتخذ عصا يتوكأ عليها ويعظ بها .

اتصل حميد بعد خروج ميلاد لجنوب البلاد بعبد الصمد الذي طمأنه على وصول الفاكس ، وأنه يسعى له بدخول كندا ، وأنه سيمر على سفارة بلاده في أمريكا ويقدم طلبا لسفر الشيخ ميلاد ، وإذا لم يتيسر الأمر في الولايات المتحدة سيزور بلده بنفسه لتقديم طلب زيارة .

ودعاه حميد لزيارتهم فقال : أنا أعرف بلدكم ، وربما أسعد بالخروج إليها . وتبادلا التحية والسلام .

لاحظ رفاق ميلاد في جولته الدعوية الأخيرة انشغال باله ، وكثرة سرحانه مما دفع الشيخ حسن محمد الذي يجتهد ميلاد في مرافقته في الداخل والخارج أن يسأله عما يشغل فكره فأجابه بعد تردد : أفكر بالسفر إلى كندا !

ـ ماذا ؟! كندا .. دولة كندا ؟!

ـ نعم ، يا أبا صلاح كندا التي عند القطب الشمالي .. أفكر بالسفر إلى كندا لأريح ضميري من قضية تشغله وتؤرقه .

ولخص للشيخ قصته مع ابنة عمه أيام الجاهلية والضياع ، فعلق حسن بعد سماع القصة : ما شاء الله ! ضمير حي يا شيخ ميلاد ! هل تعلم كم ستكلفك هذه الرحلة ماديا ؟

قال : قال الشيخ حميد " تحتاج إلى ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف دينار .. بين تذاكر وفنادق وذهاب وإياب ".. ليس مهما المال يا حسن فإن ابن عمي حميد جزاه الله كل خير سيوفر لي المال والدعم .

قال حسن : حميد أبو محمد رجل كريم ، وهو محب لك كثيرا ، ودائما يدعو لك بالخير .

ـ نعم ، كرهني إخوتي أيام جاهليتي وابتعدوا عني ، وكان حميد يعاتبني ويحثني على الصحيان وترك الشراب والفجور .. بلطف ، وقسم الشركة بيننا للضغط عليّ أيضا لترك الفجور .. كنت جنديا للشيطان استحوذ اللعين عليّ

تبسم حسن وقال : الحمد لله الذي أنقذك من الشيطان والجاهلية .. وهل اتخذت خطوات عملية للذهاب لتلك البلاد ؟

ضحك ميلاد وقال : حاولت قديما السفر للانتقام وفشلت ، واليوم أحاول السفر لطلب العفو والصفح .. ولعلك لاحظت في رحلتنا الفائتة لدكا ، وخاصة عندما تعرفت على الشيخ عبد الصمد الكندي .. الطبيب الكندي

ـ إني اذكره جيدا ، وقد حدثنا عن إسلامه ، وكيف التحق بالجماعة في مصر ؟ " المركز العالمي للدعوة الإسلامية " في قرية طموه القريبة من الجيزة

ـ أجل ، وعدني الرجل بالمساعدة ودخول كندا للقاء قريبتي .. والمفاجأة أنهم قد عملا معا مع ابنة عمي المهاجرة عندما كان يشتغل طبيبا في كندا ، لأنه منذ أسلم يعيش في نيويورك ، وأخبرني أنها هي التي شجعته لفهم الإسلام .

ـ هي ، كيف ذلك ؟!

ـ الدنيا فيها الغرائب والعجائب .. كما أخبرتك هاجرت ابنة عمي للدراسة في كندا مع زوجها الذي طلقها فيما بعد وعاد للبلاد وحده .. ولما اشتغلت في المستشفى تعرفت عليه هي وزوجها ..والفتاة أحبت الطب يا حسن لأن والدها الذي توفي عنها كان طبيبا فأحبت الطب مثله ، وأنا طبعا لم أفهم هذا وصممت على الزواج منها ، فاضطرت للهرب نحو الغرب ، فزوجها الوصي لطبيب مثله قبل سفرها ، وهي ظلت هناك بعد نيل الشهادات الطبية ، وعاد زوجها إلينا وتزوج بعد سنة من عودته .. وهي ظلت هناك مع ابنتها التي ولدتها هناك .. لماذا بقيت ؟ لست أدري ، لا أقارب ، لا أهل ، وحتى لم تتزوج مرة ثانية .. المهم رفضت العودة وبقيت .. ربما من ذكرياتها السيئة عنا ، وقد تخلينا عنها وعاشت عند أخوالها .. يا الهي! لقد حاولت قتلها واغتيالها ذات يوم .. كنت مجرما لا أحسن التفكير .. وحميد يشجعني لمقابلتها إذا أمكن لتسامحني ؛ ولعلها تعود للبلاد .. وسيساهم ماديا في رحلتي إلى هناك .. وقد تكون بحكم صحبتها للدكتور عبد الصمد شجعته على الإسلام ، فتحمس وسافر لمصر وتعلم العربية والإسلام وأسلم .

ـ أهي تصلي ؟

ـ عندما كانت هنا كانت تصلي ، وزوجها السابق كان مصليا أيضا ، وتلبس ثيابا حشمة ، لم أرها سافرة أو متبرجة عندما كانت هنا .. المشكلة اليوم ابنتها فهي ابنة الغرب ابنة عاداته وتقاليده .

السفر

عندما عاد ميلاد للعاصمة توجه لمكان العمل ، فوجد حميدا وابنه عمادا في انتظاره ، وبعدما تعانقا وقدم الشاي الساخن لميلاد أعلمه حميد أن الرجل يسعى له في السفارة ووزارة الخارجية وقال : إن الأمر يستغرق وقتا ... شهر شهران .. فتصريح السفر ليس سهلا لأنه ليس هناك اضطرار .. ولا يأخذ صفة الاستعجال لعدم وجود ضرورة كميت أو مريض أو دراسة

فقال ميلاد : الأمر لله ، لولا تلك المحاولة الجنونية لما فكرت بالسفر.. أنا وقفت ضد زواجها لأتزوجها.. أنا طمعت بذلك .. ولما تزوجت رغم أنفي فقدت صوابي .. ولا أظن أنها ستعود يا حميد.. فهي تخلت عن زوجها من أجل البقاء في تلك الدنيا

ـ أترى أن لا حاجة للسفر لمقابلتها ، وأن لا أمل في عودتها ؟!

ـ قضيت أيام خروجي الأخيرة أفكر بذلك .. أفكر بهذه الرحلة حتى أن الشيخ حسنا والمرافقين لنا انتبهوا لانشغال ذهني فصارحت حسنا بكل التفاصيل

ـ وما رأيه في سفرك ؟

ـ لم يعترض عليّ .. بل دعا لي بالتوفيق وحسن الضمير ، وسألني عن التكاليف لهذه الرحلة وسكت .. ولما فكرت بتخليها عن زوجها ، قلت لنفسي "أيمكن أن تعود معي أو تعدني بالعودة ؟!".. فهي منذ غادرت لم تأت بزيارة واحدة حتى لأمها التي ليس لها إلا هي .. ترملت أمها يا حميد وما جاءت

ـ صحيح أنها لم تحضر ؛ ولكنها تتحدث معها دائما يا ميلاد .. ولا تنس أن لها ابنة هناك .. وأما تخليها عن الزوج .. فكما علمت من أمها أنها تركته ؛ لأنه كان يفكر بالعودة للزواج والإنجاب .. لم تقبل أن تعيش ضرة وزوجة ثانية .. وثانيا ابنتها رفضت المجيء إلى هنا ، فهي كما تعلم ولدت هناك ، وحملت الجنسية الكندية منذ ولدت ، فكان على زهيرة أن تبقى مع فلذة كبدها الوحيدة ..وأنا شجعتك للسفر ليس لتعود بها ، إنما لتطهر نفسك أنت ، وتحمسها للعودة .. ولتعلم صدقك بالتوبة نحوها ، خاصة عندما تراك وأنك تعتذر عما سبق من

مضايقتك لها .. ونشعرها أننا مقصرون نحوها ؛ ولعلها بعد هذا الاعتذار والأسف تغير أفكارها .. وتعلم أننا نكن لها الود والحب والتقدير .. فيا أخي الفاضل إذا كنت غير متشجع لهذه الرحلة فاصرف النظر عن السفر .. وحاول بالتلفون أو كاشف الدكتور عبد الصمد بسبب سعيك لزيارتها ؛ وليقوم هو بهذه المهمة عندما يعود لوطنه ، وأن يقنعها الرجل بأن تسامحك ما دام صديقا لها واشتغلا معا .. وقد تقبل بالحديث معك على الهاتف ..

بعدما رجع ميلاد من خروجه الدعوي الأخير ولقائه في الصباح التالي مع ابن عمه حميد حسم الأمر ، وقرر ألا يذهب لكندا ، فكتب رسالة يعتذر فيها لزهيرة من سوء سيرته معها ، ويطلب منها أن تسامحه وتغفر له وتقبل اعتذاره ، وأن تتصل به على بيت حميد نبيل ..وإذا شاءت أخذت رقم هاتف المنزل من والدتها .

ولما راجع الرسالة بشكل جيد اتصل ذات ليلة بعبد الصمد في شقته بنيويورك ، ولم يجده في البيت ، وبعد عدة محاولات اتصل بهم عبد الصمد بناء على موعد تركوه له ، فقال ميلاد بعد التحية والسلام : يا أخ عبد الصمد .. آسف جدا لإزعاجك معي .. وأنا قد صرفت نظري عن السفر لكندا .

ولما سأله الرجل عن السبب تعذر بالتكاليف المالية ، وأنه يفكر بالزواج بالمبلغ الذي سينفقه على هذه الرحلة ثم قال : بما أنك زميل سابق للدكتورة زهيرة ، وبينكم معرفة كما أخبرتني في مكالمات سابقة ، سأكتب رسالة خاصة سأرسلها إليك ، وعندما يقدر لك العودة لموطنك ، أرجو أن تسلمها لها ، وتتشفع لي لديها وتحثها على الاتصال بي على الرقم المذكور في الرسالة .. وأريد منك أن تطلب منها أن تعفو عن الأخطاء والإساءات التي ارتكبتها بحقها أيام الجهل والعصيان .. وعندما نلتقي باجتماع الدعوة آخر السنة أرجو أن تكون وفقت في شفاعتك بيننا .. وإذا حدث الاتصال سأعتذر لها بنفسي .. وأطلب صفحها ، ولكن أعتقد أنها سترفض الحديث مباشرة معي .. كانت علاقتنا معها سيئة للغاية يا دكتور عبد الصمد أنا وأسرتي.

تنهد عبد الصمد ، ولما استوعب رسالة ميلاد قال : أنا قدمت طلب موافقة لك على دخول

كندا كضيف وزائر .. وأنا خلال شهر أو شهرين سآخذ إجازة لأزور أهلي والبلاد لمدة أسبوعين فعجل بإرسال الرسالة .. اكتب صندوق البريد الخاص بي هنا .

ولما وضع ميلاد السماعة قال لحميد بانكسار : أرى أن هذا الحل الأمثل في هذه المرحلة يا عم حميد ..فلا أعتقد أني إذا قدمت اعتذاري ، وقبلته ستعود فورا .. فقد كانت تبغضني أشد البغض وأنا كنت راغبا بالزواج منها أشد الرغبة .. فأنا لما سمعتك تقول إنها تخلت عن زوجها للبقاء وحيدة بين تلك الملايين ، فهذا يؤشر أنها ما زالت تكره ميلاد بن عادل .. وأذكر أنها لم ترسل برقية تعزية في وفاة عمها عادل ، ولا امرأة عمها

ـ ولا عمها نبيل .. أمها عزت عنها ، وزارت امرأة أبيك قريبتها معزية

تنهد ميلاد بعمق وقال : المهم أنها نسيتنا .. فهل إذا قلت لها سامحيني يا ابنة العم ؟ .. أنا آسف .. أنا نادم ستحمل حقيبتها وتعود .. وكذلك لا تنسى أن ابنتها تتعلم هناك .. فهل تترك المدرسة لتعود بها ؟ .. فأمر مجيئها أراه صعبا ، وربما مستحيلا .. والذي يهمني من الاتصال بها فقط العفو وأن تغفر لي ظلمي لها .. وإذا قدر لي الخروج في سبيل الله في يوم

من الأيام لتلك البلاد سأسعى للقاء بها والسلام عليها

فقال حميد : وهل حقا ستتزوج كما سمعتك تقول لعبد الصمد ؟!

ـ الشيخ حسن مصمم على زواجي .. عندما التقينا في مركز الدعوة ليلة الجمعة أعلمني أنه تحدث مع أحد مشايخ الدعوة في هذه الموضوع ، والرجل شاور ابنته فقبلت بي دون أن تراني .

فقال حميد فرحا : والله هذا تطور جميل ! ولا أظنها طبعا ترفض شيخا مثلك .. يا ما تمنيت أن أراك زوجا وأبا .. لقد تأخر زواجك كثيرا ..

فضحك ميلاد وقال : ألم يتزوج عمي مجدي على الأربعين؟ فأنا أحاكيه

ـ أوه !! نحن وصلنا فوق الأربعين يا شيخ ميلاد ..

ـ لما تأكد لشيخنا حسن صرف فكري عن السفر لكندا قال معقبا " خلاص فلوس كندا تحول لزواج الشيخ ميلاد .. ودع أمر ابنة عمك للقدر .. وهي لم يصبها شيء من الحادث كما قلت ،

والتائب من الذنب كمن لا ذنب له "

ـ جميل هذا من الشيخ أبي صلاح ! ولكنه حق عباد !

ـ وهذا الذي يؤرقني يا حميد .. حق زهيرة

ـ رحمته واسعة وقريبة من المحسنين .



تلقى السيد عبد الصمد الكندي رسالة الشيخ ميلاد الذي عرفناه قديما بهنري جوليانز الطبيب بالمستشفى العام في مدينة مونتريال ، وتركناه وقد طلق زوجته الكندية ذات الأصول الفرنسية متجها إلى الولايات المتحدة في إجازة ، ثم ظهر بعبد الصمد في رايوند الباكستان مصاحبا للشيخ الجديد ميلاد عادل ، أخذه الحماس لإيصال الرسالة لزهيرة التي لم يرها منذ ذلك الفراق ، فرتب أموره لقضاء أيام في كندا ، واستقل الطائرة من مطار لاغوارديا في مدينة نيويورك إلى مطار مونتريال .. إلى المدينة التي ولد ونشأ فيها ، وتعلم في إحدى جامعاتها الطب والجراحة ، وكما تفاجأ ميلاد وحميد بمعرفته بقريبتهم ، هو أيضا عجب لتصاريف القدر ، فأوجد ذلك حماسا وهمة لرؤية زهيرة سامر ، هكذا عرفها في المستشفى .

والغربيون يحبون إذا اعتنقوا الإسلام أن يغيروا أسمائهم إلى أسماء عربية إسلامية عميقة على أسماء الصحابة ، والعلماء ، فتسمى هنري بعبد الصمد المقرئ المصري المشهور " عبد الباسط عبد الصمد ".. لا تستغرق الرحلة من نيويورك إلى كندا سوى ساعات يسيرة ، فكندا والولايات مشتركون في حدود طويلة ، فوصل ليلا ونزل في فندق فخم يحب النزول فيه كلما عاد للمدينة ، فهو كان شريكا لزوجته جنفياف في شقة ، يدفعان أجرتها بالمناصفة ، قضى ليله في غرفته في الفندق .. ولم يتصل بأحد إلا بأمه مخبرا له أنه سيمر مسلما عليها ، ويتناول معها الغداء ، ثم يتعشى مع والده المنفصل عن أمه منذ سنوات طويلة ، وكان يتواصل مع أخته

وأخيه بالهاتف فقط ، وله أخت من أبيه من أم أخرى أو عشيقة بالأحرى ، ثم اعترف أبوه بها بعد خلاصه من أمها .. ووالداه من أتباع المذهب الكاثوليكي ، ومتعصبان له بشدة رغم عدم معرفتهما بالتدين كما يقول هنري عنهما ، وبعد مشاركة أمه الغداء اتصل بمادلين ابنته معلما لها بوجوده في المدينة إذا أحبت رؤيته والحديث معه ، فأخبرته أنها ليس لديها وقت هذا اليوم فترك لها رقم الفندق والغرفة .. وفي الليل ضاف والده وجلس معه وقتا يسيرا ، ثم مر على بعض معارفه من الأطباء الذين ما زال يتواصل معهم ، وعاد لفندقه عند منتصف الليل ، وجلس في الصالة يشرب القهوة واتصل عدة اتصالات .. وقضى ليلته الثانية في الفندق الذي اعتاد أن ينزل فيه كلما قدم المدينة .. وقبل الظهر خرج في جولة في المدينة



ينتشر في مونتريال وأحيائها عدد من المساجد ، في سان لوران مسجد الإسلام والروضة ، والمدينة ، والرابطة ، ومسجد كلية فانير، ويوجد في منطقة لافال مسجد خالد بن الوليد والأنصار ، ومركز الثقافة ، ومسجد عقبة بن نافع ، وفي منطقة الدو بارك مسجد الإحسان ، والسنة النبوية ومسجد الأمين ، ومسجد عثمان بن عفان ، وفي منطقة كوت دينيج مسجد بلال الإسلامي ، ومعاذ بن جبل ، والفلاح ، وطيبة ، ومسجد جامعة مونتريال ، وأبو بكر الصديق ومنطقة شمال مونتريال وسان ليونارد مسجد نور الإسلام والشورى ، مركز بدر الإسلامي السالم ، الفاروق ، وللطائفة الشيعية مساجد خاصة بهم وخاصة مهاجري العراق

أدى صلاة الظهر في مسجد السنة النبوية ، وبعد أن غادر المسجد دخل مقهى في نفس الشارع واتصل بمستشفى مونتريال العام حيث تعمل الدكتورة فأخبر أنها غادرت العمل قبل وقت يسير ، فاتصل ببيتها على الرقم المعروف له ، وقد علم من بعض رفاقه أنها لم تغير سكنها ،

فردت عليه الخادمة وهي كما يذكر فتاة من أمريكا الجنوبية من غواتيمالا ، هكذا كان يهمس لنفسه وقال " ما زالت لديها نفس الخادمة .. لا أعتقد أنها نسيتني بعد خمس سنوات .. فذكرها بنفسه فعرفته ، ورحبت به ، ثم أخبرته أن المدام زهيرة لم ترجع للبيت بعد ، واتصلت بها عند مغادرة المستشفى ، وأخبرتها أنها في السوق ، وأنها سوف تجتمع بابنتها للغداء في المدينة .. فأخبر بأنه سيتصل بها ليلا ، ولتعلمها بهذا ، وغادر المقهى وهو يقول : " لماذا لم أخذ رقم الموبايل الخاص بزهيرة ؟!" تمشى نحو المسجد من جديد فوجده مغلقا ، فتعجب ثم تذكر أن أحداث نيويورك وواشنطن جعلت الإدارة الكندية تغير من نظام فتح وإغلاق المسجد ، وكندا فيها جالية إسلامية لا بأس بها ، وإن كان عددهم بالنسبة للسكان الأصليين ضئيلا ، فجلس على مقعد أمام المسجد لدقائق ، ثم دخل كوخا صغيرا يبيع الكتب الإسلامية والأشرطة وأقراص الكمبيوتر واشترى كتابا دينيا .. ومر على عيادة طبية لزميل له يعمل فيها ، وهي خاضعة لإحدى الجمعيات ، فتصافحا وقال زميله : أنت شيخ مسلم بحق يا هنري ! .. قلت لي إنك تحمل اسم صمد حمد .. عبد الصمد .

ـ نعم ، يا جون .. هذا اسمي العربي .. يا الله يا جون ! عندما ترى نفسك واحدا بين ملايين المسلمين في مجمع واحد من أقطار العالم تصاب بالذهول

وطفق يحدثه عن اجتماع دكا السنوي في بلاد الهنود في وسط آسيا بإعجاب وإسهاب ، ولما سكت قال جون : أو ليس هؤلاء هم الذين فجروا أبراج نيويورك ؟ أو ليسوا هم مسلمين ؟! تبسم هنري لخبث جون وغمزه وقال : ليس كل المسلمين واحد ، كما ليس كل النصارى واحد .. الذي فجر أوكلاهوما لم يكن مسلما يا جون .. إرهاب في المسلمين إرهاب في الشيوعيين إرهاب في المسيحيين .. ولا تنسى أن عددا من المسلمين قتل في أحداث نيويورك في أحداث مبنى التجارة العالمي .. وأنا عند الأحداث تلك كنت في المدينة أعمل في أحد المستشفيات الكبيرة

ـ فعلا هنري ، لماذا تركت مدينتك هذه للعمل في نيويورك؟! .. أيدفعون لك أكثر من هنا ؟

ـ لا ، أنا ذهبت للإسلام .. نيويورك مدينة مليئة بالمسلمين والعرب والهنود .. وأجور الأطباء هنا كما هي في أمريكا بشكل عام .. وهناك تفاوت بسيط بين ولاية وأخرى .. تنتشر في نيويورك آلاف المطاعم التي تبيع الطعام الحلال والرخيص أتصدق هذا ؟!..

تفاجأت زهيرة مفاجأة حقيقية لما أعلمتها خادمتها باتصال هنري تيدي والد مادلين ، فهي منذ طلاقه لزوجته وتركه العمل في المستشفى لم تره ، ولم تسمع صوته ، علمت بخبر سفره ، وانتشار خبر إسلامه في الوسط الطبي ، "ماذا يريد مني بعد كل هذه الغياب ؟! فأخذت ذكرياتها مع هنري وأسرته تتوارد على ذهنها وخيالها .. عادت بها الذكرى لقسم المواليد في المستشفى العام بمونتريال حيث التقيا أول مرة .. فهو الجراح النسائي الماهر والذي كان يقوم بعمليات قيصرية وولادة متعسرة ..

فعندما كان رئيسها كانوا يتبادلون الزيارات العائلية ، وذلك قبل طلاقها وطلاقه .. وتذكرت أنها لما انفصلت عن زوجها لم يعد بينهما سوى لقاءات وحوارات المستشفى أثناء العمل ودقائق الاستراحة .. لم يعودوا يذهبون للحدائق والمتنزهات المنتشرة في منطقة مونتريال .

ولم تقض زهيرة هذه السنوات في راحة وسعادة مع أنها كانت تسافر هنا وهناك لتغيير الجو والخروج من رتابة العمل وجدران البيت .. فكانت تأخذ إجازات العمل وتتجول في البلاد ، وشاركت بعدد من الرحلات السياحية الداخلية .. وكانت تصحب ابنتها في بعضها ، وبعضها ترافق شمس زميلاتها في المدرسة والنوادي التي تتردد عليها .



وكانت زهيرة في لهفة واضحة لسماع صوت الدكتور هنري خاصة بعد إشهار إسلامه ، وفي

شوق لمعرفة لماذا قطع علاقته معها كل هذه السنوات ، لذلك كان الترحيب بينهم حميما وحارا وبعدما اطمئن كل منهما على صحة الآخر قال : كيف سنلتقي ؟ ما رأيك بعشاء في مطعم عام وعال الجودة في وسط المدينة قرب الحي الصيني .. فهناك أكلات عربية وإسلامية .

ـ أنا عندي إجازة غدا ؛ فليكن غداء يا دكتور هنري في نفس المطعم .

وسط مونتريال يوجد فيه الأبنية المرتفعة والفنادق والمسارح ومراكز التسوق على جانبي المنطقة ، وهناك محلات الألبسة والمطاعم ، ومجمعات المكاتب والشقق الخاصة ، ومراكز المؤتمرات ، والحانات المخصصة للدعارة وحيث تنتشر فتيات الليل والمومسات حتى ماين وقرية الشاذين ، ويمتد شارع ماين من الحي الصيني وموازيا بولفار سان لوران .. وشارع ماين يعتبر مركزا للمحلات والمطاعم الصغيرة والمقاهي الرخيصة .. بينما يعتبر شارع سان شريانه التجاري ، ويعتبر شارع ماين وسط المدينة خليطا ثقافيا ، ففيه معظم اللغات والجاليات العرقية ، تتجاور فيه المحلات الإيطالية والبرتغالية واليونانية والبولندية والصينية ، وتمتد معه صعودا من الميناء حتى الجبل ، وكان شارع ماين محطة استقبال المهاجرين الرئيسية للشقق الرخيصة فيه ، فيأتي الغرباء لماين لصفقات شراء بالجملة ، ووجبات طعام رخيصة ، وعقاقير غير قانونية .

التقيا في المطعم المعروف لهما منذ زمن ، فلما رأته زهيرة ذهلت وهتفت ببشر : هذا أنت شيخ بحق ! لحية ودشداش عربية وعمامة..! أراك مثل شيوخ بلادنا أتمشي بشوارع كندا بمثل هذه الثياب ؟!

ابتسم ورحب بها ، واعتذر عن مصافحتها كما تعودا ذلك قديما ، ولما جلست شكرته وقالت : والله أنت شيخ جميل يا هنري !

ـ غيرت اسمي صرت عبد الصمد .. مرحبا بالدكتورة العزيزة والصديقة القديمة ومحررتي من الكفر والضلال .

كانت تسمع ذلك ، وهي في دهشة مما يردد ، فتابع : أنا لبست هذه لمقابلتك بها ، ولكني

ألبسها في بلاد المسلمين .. وعند الصلاة .. كيف ابنتك يا زهيرة ؟

ـ الحمد لله .. حدثني عن نفسك أيها الإنسان ؟

ـ الحمد لله رب العالمين يا دكتورة .. ما أخبارك ؟

ـ كما هي على افترقنا عليه عمل .. عمل .. نوم .. قليل من الرحلات .

ـ أما زلت بدون زواج ؟

ـ أتزوج ؟! ومن يتزوجني يا هنري عفوا عبد الصمد ؟ .. لست بالحسناء والمثيرة للرجال .. ومؤسسة الزواج عندكم شكلية .. لا الرجل يخلص لزوجته ولا الزوجة الشابة تخلص لزوجها .. إننا نسمع حكايات غريبة لكبار السن .. زواجكم معقد .. زواج بدون زواج .. وهذا لا يوافق تقاليدنا كما تعلم .. لم يحدثني أحد عن الزواج بعد انفصالي عن سامر إلا أنت ، وذلك قبل سنوات لعلك تذكر ذلك .

ابتسم لها وقال : وهل أنساه ؟!

قدم لهم النادل الطعام الذي طلبه هنري ، ولما بدآ يأكلان قال هنري : صدقي يا دكتورة أنني كنت تلك الأيام راغب بالاقتران بك على دين محمد ﷺ ، كنت سيدة فاضلة في نظري وما زلت ، وأنا معجب بالوفاء عند النساء العربيات والإسلاميات في مجتمعهن وحتى في المجتمعات الغربية ، رغم ما يشوب ذلك اليوم من الانفلات والضياع .. ولا يخلو مجتمع من فسق وفجور .. أما أن يصبح الفجور أمرا طبيعيا فهذا مأساة .. كنت أرى حياتكم أنت وسامرا ، فأعجب من اكتفاء كل واحد منكم من الآخر .. نحن أزواج بلا زواج .. عندما يدخل الرجل شقته ويجد ويرى بين أحضان امرأته رجلا من الشارع .. سيسكت .. وسيعالج المشكلة بإحضار عشيقته للبيت أو بنت هوى .. فهذا يحارب هذه وتلك تحارب هذا شيء مؤلم ! .. ما زلت في نفس المستشفى ؟

همست وهي تمسح يديها وفمها بمناديل المائدة قائلة : أجل ، الحمد لله على النعم .. شكرا على هذا ـ وأشارت للطعام ـ وبارك الله فيك .

ـ شكرا على تلبية الدعوة .. لم تأكلي كثيرا .. لكني أعرف عادتك هذه ..

ـ وأنت لم تتزوج بعد ؟

رد وهو يبلع لقمة وضعها في فمه : تعرفت على ممرضة في مستشفى نيويورك .. تريد علاقة بدون زواج ، ولما علمت أنني مسلم حقيقي رفضت الزواج البتة .. وتركت الأمر لليوم .. فأني أقضي وقتا طويلا من السنة في الترحال .. وقد مللت الجنس والحياة الزوجية ..

ولما نظف يديه وفمه بمناديل المائدة الرطبة قال : فكرت أن أعود إليك خاطبا بعد إعلان إسلامي بمصر وأخاطبك قائلا " ها أنا عدت إليك مسلما حقيقيا .. ليس مسلما من أجل الزواج " .. فقد تعرفت على بعض المسلمين من جماعة يسميها الناس جماعة التبليغ والدعوة ولهم مركز نشط في قرية طموه قرب الجيزة في القاهرة .. فرغبت بزيادة إيماني ونشر الإسلام بين الناس الضالين خاصة أن الدعوة تحتاج لناس يتقنون اللغة الفرنسية والإنجليزية والعربية فتشجعت وتحمست والتحقت بهم .. فسافرت الهند والباكستان وبنغلاديش وإندونيسيا وماليزيا والنمسا وبلغاريا وروسيا .. بعضها نمكث فيها أسابيع وبعضها أياما .. وبعضها أشهر كالباكستان ودكا .. ولما عدت لأمريكا تيسر لي عمل في أحد مشافي نيويورك .. وهي مدينة عظيمة وتاريخية فعلا .. كل أجناس العالم تقطنها .. ومن كل ولايات أمريكا يفدون إليها للسياحة للعمل .. وخرجت إلى تشيلي كمترجم مع جماعة من الباكستان .. لمدة عشرة أيام .. وغادروا للبيرو وعدت لعملي .. وهكذا تمضي أيامي بفضل الله .. فلم تشغلني قضية الزواج بعد دخولي الإسلام .. لولا أنها سنة النبي محمد ﷺ ..

فتممت زهيرة بالصلاة والسلام على نبي الإيمان والإسلام ، وهي مستغرقة في التفكير في هذه المخلوق الذي عرفته ماهرا في الطب ، وماجنا مع الموظفات ومع المريضات ، وعاد يقول : حياة ممتعة لإنقاذ الناس من الجاهلية والكفر .. هيا نخرج ونجلس في إحدى الحدائق .. ألا تحبين هذه العادة ؟

ضحكت وهما ينهضان ويغادران المطعم وقالت : جميل منك هذا يا عبد الصمد ! .. ما زلت

تذكر أشياء أحبها .. فقد قدمت لي الطعام الذي أحبه .. وها أنت تدعونني للمكان الذي أحب الجلوس فيه ..

ـ فهنا حديقة قريبة .. فلتبق سيارتك مكانها .. أم ترغبين بالانصراف

ـ لا ، بل أنا مسرورة بلقائك .. وكنت بشوق لمعرفة أخبارك يا هنري .. فنحن قضينا عمرا نعمل فيه معا .. فأنت زميل له ذكريات حسنة في قلبي ونفسي .. كيف أسلمت بالتفصيل ؟

مشيا إلى تلك الحديقة التي يعرفها هنري وزهيرة منذ زمن بعيد .. فحدائق مونتريال كثيرة ومنتشرة في كل أحياء وشوارع المدينة ، وجلسا على مقعدين منفصلين مقابل بعضهم البعض وطلبا شايا من أحد باعة الشاي: أنت جميل يا هنري بهذه اللحية الشقراء وبهذا الدشداش العربي !

ـ هذا بفضلك يا زهيرة .

قالت متعجبة : بفضلي .. لا .. هذا بفضل الله أولا .. وأنت كنت بحاجة للإسلام لتنقذ روحك بعدما شبعت من الشهوات شهوات الجسد .. كنت تبحث عن شيء يملأ روحك .. فرأيتني فظننت أن راحتك الروحية بالزواج مني ..وأنك بمجرد التلفظ بالشهادتين سيسهل الزواج من زهيرة

ـ نعم .. أعرف أن كلامك حق .. أنا لم أفكر بالإسلام يومذاك كدين حقيقي .. مسلم كما رأيت كثيرا من المسلمين في بلادنا ..لا يصلون لا يصومون .. يسكرون يرتادون الحانات ودور البغاء .. لكنك كنت تختلفين عن الآخرين أنت وسامر .. أرى صلاتكم ومعاناتكم في رمضان .. بعدكم عن الخمر والزنا .. لم أرك تكشفين ساقيك وشعرك ككثير من بنات العرب والمسلمين هنا .. تجتهدين حتى لا يرى ذراعيك أثناء العمل .. فهذا جميل وجميل ! ولا تهتمين بمعاكسات الأطباء وغيرهم .. فأعجبت بك حقا ، ولما طلقت رغبت بك زوجة حقيقة يا دكتورة .. ولكنك أدركت أن إسلامي من أجل شهوة .. وليس من أجل الدين .. ولما عرفت الإسلام ورأيت المسلمين في الباكستان وبنغلاديش .. أدركت الفرق بين إسلامك وإسلامهم

أدركت أنك لم تكوني متدينة بمعنى التدين الملتزم .. معذرة يا دكتورة

ـ اعرف يا هنري .. الملتزمات في بلدي حق الالتزام يلبسن الملابس السميكة ، يسمونه الجلباب ، ولكن لباسي هذا يعتبر محتشما ، ولا يعتبر سافرا كما ترى في فتيات التعري ، وكشف الشعر والشورت .. حدثني عن رحلتك الإيمانية .

ـ كلامك عن الإسلام الحقيقي دفعني للرحيل والبحث عن الإسلام الحقيقي .. راجعت بعض المراكز الإسلامية في نيويورك .. فنصحني أحد الأئمة بالذهاب لمصر ، وتعلم العربية وفهم مبادئ الإسلام ثم إشهار إسلامي .. وأخذت بنصيحته وأنهيت خدمتي في مونتريال .. وسافرت لأعرف الإسلام الحقيقي الذي تتحدث عنه زهيرة العربية .. أنا كما تعلمين تعاملت مع المسلمين هنا سواء عربا أم غير عرب .. من خلال العمل .. من خلال الصحف الكندية والمجلات .. من خلال الشارع .. ورفاقي المسلمون من العرب والهنود كلهم أيد كلام ذلك الإمام .. فرحلت إلى مصر أم الدنيا كما يقول أهل مصر .. ذهبت للأزهر .. ووجدت تشجيعا من كل من التقيت بهم ، ورغبوا إليّ الإسلام ، وكذلك بعض علماء الأزهر .. والتحقت بمعهد تعليم العربية لغير الناطقين بالعربية .. ومن سمع حكاية وسبب هذه الرحلة يثنون عليك خيرا ، وقالوا إن تلك المرأة ناصحة .. الإسلام ليس فقط لفظ الشهادتين وانتهى الموضوع .. وأخذت أقرأ عن الإسلام باللغة الإنجليزية والفرنسية .. وبعضها جميل ، ويكتب عن الإسلام بإنصاف ، وآخر يكتب بتشنج وتعصب نصراني .. فبعضها بنفس علمي وتاريخي ، وبعضها بنفس استعماري مشكك .. وبعد أشهر تعلمت الكثير من العربية ، واستطعت قراءة بعض كتب تعرف بالدين الإسلامي بشكل موجز موجه لغير المسلمين .. ثم أشهرت إسلامي في مكتب خاص بجامعة الأزهر .. ومنحوني وثيقة رسمية بأني أصبحت مسلما وعليّ أن اتبع تعليمات وأحكام الإسلام ، وأعطوني كتبا أو كتيبات عن الصلاة بالعربي وبالإنجليزي .. وتسميت بعبد الصمد على اسم مقرئ مصري مشهور سمعت بعض قراءته اسمه الشيخ عبد الصمد .. وبدأت أقرأ الكتب العربية .. والتقيت كما قلت لك بجماعة نشطة

في القاهرة والريف يتأسون لباسا وزهدا ودعوة بالرسول ﷺ والتحقت بهم وبنشاطهم .. وهي جماعة نشأت بالهند قبل عقود واشتد عودها بالباكستان ونشاطها على مستوى العالم ، وخرجت معهم في مصر ، وبعد أكثر من سنة عدت لأمريكا ، وعملت في مستشفى في مدينة نيويورك في كوينز لوجود أصدقاء درسوا معي في كلية طب كوبيك .

استمعت زهيرة بقلب منفتح لرحلة إسلام هنري وبكل تأن وصبر وإعجاب ، وعجبت لكلمة خرجت من فيهها قلبت كيان هذا الجراح ، ولما صمت الرجل ، ونظر في عينيها منتظرا كلاما منها قالت :إنسان عظيم يا هنري ! عفوا يا عبد الصمد !

ـ لا بأس بأي الأسماء ناديتني فهو مقبول .. ومنذ ماشيت جماعة التبليغ وأنا أحرص على الذهاب للاهور ودكا للمشاركة في أهم اجتماعات الجماعة .. هناك أعلم هيبة هذا الدين يا دكتورة .. ملايين تحضر هذين الاجتماعين .. مثل الحج لمكة .. دعاة من قارات العالم يتوافدون لسماع المحاضرات الدعوية ، ثم تخرج الجماعات الصغيرة إلى أركان الأرض المعمورة للدعوة لدين الإسلام .. هذه هي حياتي الجديدة يا دكتورة زهيرة ..

ـ إذن حججت يا هنري .

ـ نعم ، ذهبت وأنا في مصر لأداء عمرة بعد دخولي الإسلام .. ثم حججت في موسم الحج .. المشهد مهيب ومثير .. أدعية بشتى اللغات واللهجات .. الحج ركن عظيم من أركان الإسلام .. وقد قرأت بعض رحلات الرحالة في زياراتهم للديار المقدسة .. ولدي رغبة بالعودة إليها في يوم من الأيام .. ونحن الغربيون لنا معاملات مميزة في دول الخليج أو باكستان وبنغلاديش .. فالناس يعجبون من دخولنا الإسلام .. والدنيا مفتوحة لنا ، فكيف نترك الدنيا إلى الإسلام؟! .. فالمسلمون لديهم كنز عظيم العالم بحاجة إليه .. رغم ما رأيته من فقر وحاجة للناس في الباكستان ودكا، فهم سعداء يعيشون كأنهم يملكون الدنيا .. فأنتم يا دكتورة لأنكم ولدتم مسلمين لا تشعرون بما نشعر به عند إسلامنا .. فتتقمص فينا أحاسيس مرهفة .. نشعر كأننا ولدنا من جديد .. نشعر بلذة أثناء أداء الصلاة والعبادات .. وأعجب من جهل

المسلمين بإسلامهم .. وابتعاد الناس عنه والبحث عن مذاهب وديانات أخرى .. هم يرون محاسن الغرب فقط ، لا يرون أو يغضون النظر عن مساوئ وسيئات حضارتنا .. الحياة المادية والشهوانية حياة الجسد .. فمنذ وعيت وتركت زيارة الكنيسة أيام المراهقة ، كانت حياتي حياة شهوات وجنس ، والبحث عن الملذات من الأكل والشراب واللعب واللهو والمخدرات .. حياة مادية .. ورغم لذتها لكن زوالها سريع .. وكم من معارفنا هلك بالإيدز ؟.. بالموت بجرعة زائدة من المخدرات .. التعرض لحادث سير أثناء حالة سكر .. الزنا مباح بصور وأشكال مختلفة .. وأنت لك سنوات تعيشين بيننا ، ورأيت من المشاكل .. وكم عالجنا نساء حوامل يتعاطين الكحول والمخدرات وهن غير مباليات بحياة الأجنة؟ .. ولماذا يقبلن بالحمل وهنّ راغبات بقتله؟! .. زنيت باسم الحب ، وامرأتي كانت تزني باسم الحب والحرية الشخصية .. أليس هذا حمقا وسفاهة؟ ..

ـ عندكم العلم !

ـ هو هذا الذي يخفي عن أعين الناس حياتنا الماجنة .. عندنا التكنولوجيا والصواريخ .. فجرت أمريكا بطياراتنا .. فاخترعوا الإرهاب العالمي ليمنعوا الناس من الإسلام .. ولكن الناس أخذت تسأل عن الإسلام .. ولماذا جرى هذا الحادث بهدم الأبراج ؟

ـ إننا نحمل جنسية كندية .. ومع ذلك فنحن نعاني من هذا الحادث .. فأصولنا الإسلامية تطاردنا .. ويسخرون منا ويعتبروننا قنابل مؤقتة ..

ـ زوبعة في فنجان ..إنهم يريدون مسلمين بلا إسلام ، لهم الأسماء فقط ؛ ليقولوا بلادنا تجتمع فيها جميع ملل العالم ، وهي تعيش بسلام ووئام .. لا يريدون المزيد من المساجد ..والمراكز الإسلامية .. أما التبشير فمسموح به في بلاد المسلمين بالتطبيب بالتعليم بالأفلام .. طال مقامنا في هذه

الحديقة ، سأذهب للصلاة في المسجد القريب .. هل تذهبين للصلاة ؟

قاما وقالت : أكرر أنني سعدت وسعيدة بلقائي هذا يا حاج عبد الصمد .. وفرحة بإسلامك

وأتمنى لك الثبات .. هل يطول بقاؤك هنا ؟

ـ لا ، أيام معدودة .. أسبوعان فقط .. وصدقي أنني جئت لأقابلك شخصيا .

خفق قلبها وقالت برعشة : لعلك ما زلت تأمل بالزواج مني ، من مسلمة عربية ؟!

تبسم لاضطرابها وقال : لا ، الحق لا ، مع رغبتي لذلك

عجبت زهيرة وقالت : لم أفهم ؟!

كان يتابعان الحديث ، وهما يمشيان للمسجد القريب من تلك الحديقة العامة ، فرد هنري قائلا : لما طلقت من الدكتور سامر أحببت الزواج منك ؛ لمعرفتي الكبيرة لك .. لأنني كنت أبحث عن الاستقرار العائلي .. وأحسست بشفقة وعطف نحوك .. لأنك عدت وحيدة في هذا البلاد .. فتحمست للزواج منك ، والخلاص من جنفياف ، وكنت مستعدا لإشهار إسلامي ليتم الزواج .. ولكن صمودك القوي أمام اندفاعي ، ورغبتك في أن يكون إسلامي جديا وحقيقيا دفعني للتعرف على الإسلام بحق .. وتعمق فكري بنصيحتك .. وقبل أن يدخلا المسجد قال : آسف لم أسالك عن شمس كيف هي اليوم ؟

ابتسمت له وقالت وهي تكاد تدمع : سيئة يا هنري فشلت في تربيتها .. المجتمع البيئة جرفتها تعرفت على شباب مستهتر ، وتسافر معهم وترافقهم ، وتزعم لي أنها ما زالت عذراء .. طبعا أنا لم أصدق ذلك ، وجدت معها حبوب منع الحمل ، ولا أستطيع أن أطلب منها الكشف عن عذريتها.. بكت زهيرة فجأة ، مما حرق قلب هنري ، فهو يعرف أهمية العذرية عند العرب والمسلمين خاصة المحافظين ، وأخذ يخفف عنها وقال : لا أدري ما الذي دفعني للسؤال عنها ؟! .. للأسف كنت أتوقع لها ذلك .. هي ابنة تقاليد هذه البلاد .. رغم سنها الصغير كانت متمردة حتى مع وجود أبيها هنا وأذكر أني قلت لكم يوما إنها ابنة هذه البلاد فانتبهوا لها مسحت دموعها وهمست : لم أنس ذلك يا هنري .. إنما كنا عاجزين عن فعل شيء ، كنا بين دراسة وعمل .. والخادمة ماذا ستفعل لها ؟! ليس باليد حيلة في مجتمع منفتح كهذا .. الحكومة مع الانحلال باسم الحرية .. والإقناع لم نوفق فيه معها .. فما كان أمامي إلا الصمت والدعاء

بالهداية وأن تحس بالمسؤولية .. البيئة قاتلة خاصة عندنا نحن المسلمين الذين نزعم أننا محافظون .. وهذا أحد أسباب تحمس سامر للعودة للوطن قال " البنت تكبر يا زهيرة ، ولا طاقة على تربيتها كما تربينا " .. وعندما ترى صاحباتها وزميلاتها سواء في الثانوية أم النوادي يتحدثن عن الحب وممارسة الحب والجنس وتسمع عن تجاربهن مع الشباب والطلاب .. فستقلدهن وتحاكيهن .. والمجتمع معها ويهون عليها أي اتصال خارج قانون الزواج ..

ـ على كل أنت فعلت ما عليك.. لكل بيئة محاسنها ومساوئها .. يبدو أن الأذان اقترب ، فها هو المؤذن يدخل المسجد .. وأما عدم رغبتي بالزواج فهي باختصار أن الظروف تغيرت .. وأنت أخبرتيني بمشاكلك الصحية من ناحية الإنجاب .. ولي اليوم رغبة بالإنجاب ذرية مسلمة

ـ نعم ، أذكر ذلك يا هنري

ـ هذا سبب صرف نظري عن الزواج منك .. رغبة بالذرية الصالحة ، والإسلام يرغب بالولد الصالح والذرية .. فآمل بامرأة تلد لي إن شاء الله .. معذرة يا زهيرة .. لم يعد الزواج لديّ قضاء الشهوة فحسب ، كما هو حال الناس في هذه البلاد .. ولد واحد أو اثنان فقط .. ثم تصبح الحياة للجنس والملذات .

بعدما خرجا من المسجد التقيا ثانية ، واتجها إلى سيارة زهيرة ، فقالت بعد صمت : كأنك ذكرت لي قبل الصلاة أنك جئت المدينة لتراني شخصيا .

ـ نعم ، أخذت هذه الإجازة لأرى السيدة الفاضلة زهيرة .. لم تنسي الدكتور هنري رغم السنوات الخمس التي مضت على فراقنا .

ضحكت وهي تستدير ناظرة في عينيه وقالت : أنساك ! لقد كنت من أفضل زملاء المستشفى وأصدقاء العائلة .. ماذا جئت تطلب مني ؟

ابتسم ، وتابعا المشي وقال : كلفني أحدهم بتوصيل رسالة إليك باليد .

توقفت زهيرة وعادت تنظر في وجهه ووجدته جادا فقالت : رسالة ! .. جئت من أمريكا

لتوصيل الرسالة .. لم أفهم يا دكتور ؟!

ـ رسالة مكتوبة بالحبر .. قريب لك شيخ التقيته برايوند باكستان ، وصحبته لدكا ومناطق أخرى في البلدين .. فالشيخ لما عرف أنني كندي تذكرك وتحمس لي وظللنا على اتصال .. ولما عدنا ظل الاتصال بيننا ، وكان يفكر بالسفر إلى كندا بواسطتي للقائك ، ويعتذر إليك عن إساءات ألحقها بك قديما ، عندما كان ضالا في غياهب الجاهلية .

لم يمشيا طبعا ، تقابلا وجها لوجه وهو يذكر لها سبب مجيئه إليها خاصة فهمست : ضال .. ضال!! ما اسم هذا القريب الذي أساء إليّ والتقيته بباكستان ؟!

ـ هو يزعم أنه ابن عمك .

هتفت دهشة : ميلاد .. اسمه ميلاد عادل !

ـ نعم ، اسمه شيخ ميلاد عادل .. وهو من مشايخ الدعوة في بلادكم .. هو شاب طيب ومتحمس للدعوة .. هل عرفتيه ؟

كانت مذهولة زهيرة وهي تردد في نفسها " ميلاد شيخ .. ميلاد شيخ "

فلما سمعت سؤاله ضحكت ملء فيهها وقالت : أعرفه ؟! كيف لا أعرفه؟! .. كان أحد أسباب خروجي والتفكير بالخروج من بلدي ..

ـ التقينا في بلاد الهنود وتصاحبنا .. وهو تحدث معي في هذا المعنى ، وهو يشعر بتأنيب الضمير بعدما هداه الله للتوبة والإسلام .. وصارحني بما تفوهت به الآن .. وحدثني بأنه كان طامع بالزواج منك قبل أن تصبحين دكتورة .

هزّت رأسها تعجبا وكررت : ميلاد أرسلك لي برسالة ؟!

وفصل لها حكايته مع ميلاد وابن عمه حميد ، وحدثته بدورها عن حكايتها مع ميلاد ، وقال هنري وهو يدفع لها برسالة مغلقة : هذه هي رسالته إليك ، وهي التي جئت من أجل توصيلها لك .. وذكرتني بزميلتي زهيرة والسعي لمقابلتها هذا اللقاء الطويل .. وميلاد الذي حدثتيني عنه غير ميلاد الذي حدثتك عنه .. فاليوم ميلاد شيخ يهاجر في نشر الدين والإسلام

شرقا وغربا .. وربما يصل هذه البلاد داعيا ومرشدا .. ولا يوجد إنسان كامل يا زهيرة .. هو كان يسعى للسفر لمقابلتك وطلب العفو منك لتغفري له وتسامحيه حتى يلقى ربه بريئا من حقوق العباد .

عادت للبكاء والدموع ، وهي تعود بذاكراتها للبلد والوطن ، ومشت وقالت : أنا آسفة من جديد يا هنري! بكيت أمامك اليوم أكثر من مرة .. لنجلس في السيارة أعصابي تعبت .. ولما جلسا في السيارة قالت : هل تحب أن أقرأ الرسالة على مسامعك .

ـ لا ، لا ، أنا أفهم ما فيها ، فالرجل أخطأ في حقك ، فلما هداه مولانا العظيم أدرك كبر جرمه فندم ، وراغب بإصلاح ذات البين .. وقد ألغى السفر الذي كان سيكلفه خمسة آلاف دولار ؛ ليتزوج بها ، فهو لليوم لم يتزوج .. وإذا أحببت الاتصال به مباشرة فستجدين في الرسالة رقم تلفونه الخلوي .. وإذا أحببت أن أنقل له أنك سامحتيه أفعل .. والآن اسمحي لي بالانصراف ، وقبل مغادرة المدينة سأتصل به .. مودعا

فقالت : كنت أرغب بدعوتك للبيت لأشكرك ، وترى شمسا ؛ لعلك تقدم لها نصيحة ، ولعلها لما تراك ترى عظمة الإسلام وكيف غيرك ؟ ولكن عند طلاقي لم أسمح لرجل أجنبي كما يسمى عندنا بدخول بيتي .. وأنا لن أنساك يا هنري .. هل تحب أن أنقلك لمكان ما ؟

غادر المقعد وقال : أبدا، سأتمشى بالمدينة وأعود لفندقي .. ودفع لها رقم الغرفة وتلفون الفندق ، وأغلق الباب ، وأشار بيده مودعا ومشى ، وقد بلغ الرسالة وطلب منها قبول شفاعته .



عادت زهيرة لشقتها مع غروب الشمس ، فوجدت ابنتها في الشقة على غير عادتها ، فهي تعود متأخرة في أغلب الليالي ، فبعد الجامعة تنطلق مع صاحباتها وأصحابها للسمر في الملاهي والمقاهي والنوادي والشوارع ، فقالت لأمها : تأخرت يا أمي .. هل رأيت العم هنري ؟

كانت على علم بأن أمها ذهبت للقاء الدكتور هنري ، وهي ما زالت تذكره ، وتذكر امرأته وابنته مادلين ، وليلة أمس عندما اتصل هنري بالبيت ردت عليه هي أولا ، ثم دفعت السماعة لأمها التي كانت تنتظر المكالمة بشغف ؛ لأن الخادمة أخبرتها بذلك ، وكانت الأم بلهفة للحديث مع هنري ، فهو منذ غادر كندا لم يلتقيا ، فكانت بشوق لمعرفة أسباب اختفائه ، لذلك لما عادت للبيت تفاجأت بوجود شمس في البيت بمثل هذه الساعة المبكرة من الليل ، ولما جلستا في غرفة المعيشة قالت شمس : كيف عمي هنري ؟

ـ بخير، ويسلم عليك ، وهو بشوق لمشاهدتك بعدما كبرت ؛ ليرى كيف صرت بعد هذه السنوات ؟

وفاجأت شمس أمها قائلة : هل اتفقتم على الزواج ؟

دهشت زهيرة لسؤال ابنتها ، فحدقت بها استغرابا ، وارتبكت وهي تردد : الزواج !! وبعد صمت بينهما قالت : وهل كنت ذاهبة للزواج ؟

ـ ألم تحدثيني قديما أن الدكتور هنري يطلب منك الزواج ؟ ولماذا بعد هذه السنوات من القطيعة تذكرك ؟

قالت زهيرة بحدة : أنت حمقاء !

فوقفت شمس وترد قائلة :أأنا حمقاء يا أمي ؟! لأني صريحة .

ـ أي صراحة ؟! .. أنت لماذا عدت مبكرة الليلة على غير ما عودتيني ؟ سمعتك أمس تتحدثين مع أحدهم أنكم ستدخلون المسرح الذهبي .

ضحكت شمس وقالت : أريد التخلص منه .. جاك مزعج وثقيل الدم .. وهو يغار من روني صديق في النادي .. أتبكين يا أمي ؟ ما الأمر ؟! أساء لك العم هنري ؟

فصاحت زهيرة في وجهها : ابكي عليك يا شمس ! .. كيف غيرت جلدك ؟

صاحت شمس : قلت لك ألف مرة نحن أبناء كندا لسن أبناء العرب .. عليك أن لا تنسي ذلك .. ماذا يربطني ببلادك وأهلك؟! .. نحن أهلنا هنا .

ومشت غاضبة إلى حجرتها ، ولما شبعت زهيرة بكاء نهضت وغسلت وجهها ، وطلبت كأس ماء وفنجان قهوة من العاملة لديهم ، ودخلت حجرتها غرفة نومها ، وما زالت تضع صورا فيها لسامر ، وما زالت تحتفظ بالسرير المزدوج ، لم تغيره .. ربما لأن شمس بعد طلاق أمها كانت تنام معها ؛ لأنها كانت صغيرة بعد ابنة إحدى عشرة سنة ، فقالت وهي تجلس على حافة التخت "هل كان بإمكاني العودة مع سامر ؟!" وعادت بها الذكريات لميلاد وسامر وماهر الوصي وإلى بيت جدتها وزيجات أمها ثم همست " أمي لي فترة لم أسمع صوتك "

ولما دخلت الخادمة ووضعت القهوة والماء وخرجت اتصلت بأمها وهي تشرب الماء .. وردت عليها خادمة أمها فأخبرتها أن أمها في المستشفى ، فأخذت رقم المستشفى ، فردت عليها ممرضة وأخبرتها أن أمها مستغرقة في النوم بسبب المنوم بعد عملية متوسطة في الصدر ، فشربت القهوة وقامت للصلاة .. وبينما هي تصلي فتحت شمس الباب ، وأطلت برأسها ، ولبثت دقائق ثم انصرفت ، فلما قضت صلاتها نادت الخادمة وسألتها : ماذا تريد شمس ؟

جاءت شمس عندما أخبرتها الخادمة أن أمها أنهت صلاتها ، وكانت زهيرة تقول لنفسها " لابد أن هناك رحلة أو مشوارا وتريد المال "

قالت شمس : مرحبا أمي! .. تقبل الله منك الصلاة

ـ شكرا .. ألا تعلمين يا شمس أن لك أخوة في الوطن ؟

صاحت بضيق : أعلم وأرسل لي أبي صورا لهم .. وحثني على زيارة بلده .. أريد أن أغيب عن البيت يومين أو ثلاثة

ـ أين هذه المرة ؟

ـ ليس مهما أين هذه ؟ المهم أني أخبرتك حتى لا تبلغي البوليس .

ـ مع السلامة أرجو أن لا تعودي

ـ أنت تكرهينني يا أمي

ـ اخرجي اخرجي

فصرخت شمس في وجهها: يبدو أن الدكتور هنري لغى موضوع الزواج

ـ ليس بيننا موضوع زواج .. مع السلامة .. أنا قد أغادر إلى بلادنا يا شمس .. عليك تدبير حالك .. هل سمعت ؟

ضحكت شمس وقالت : أنت التي كرهتيني في تلك البلاد .. كنت تقولين هذه بلادنا وتقولين إنها أبغض البلاد .. ومن أجل ذلك قبلت الطلاق والانفصال عن أبي .. ماذا لك في البلد ؟

ـ أمي .. أمي مريضة في المستشفى

ـ وهل هذه أول مرة تمرض أمك ؟

ازداد بكاء زهيرة مجدي وقالت : يا إلهي !!



الأم وابنتها

لقد كانت علاقة زهيرة بابنتها سيئة وزادت سوءا عندما التحقت البنت بالمدرسة الثانوية ، ففقدت السيطرة عليها تماما ، لذلك لما خفت البكاء كما تفعل عادة بعد كل حوار حاد ألقت بنفسها على السرير وقالت : ما الفائدة من المال وقد خسرت ابنتي؟! .. لمن سأجمع المال ؟ لم لا أعود لأمي ؟.. لي قريب من عشرين سنة لم أرها منذ غادرت البلاد ، منذ أن تزوجت ، وها هي شمس في سنتها الأولى في الجامعة .

وبينما هي تفكر بزيارة لأمها واتخاذ القرار المناسب ، تذكرت رسالة ميلاد وقصته مع هنري ، وإرساله شفيعا له ، فقالت " ميلاد عادل يطلب الصفح والعفو .. ميلاد أصبح شيخا يدعو الناس للتوبة والإسلام .. يا الهي! هل تمسي شمس شيخة ؟!

فنهضت عن سريرها إلى حقيبة اليد وأخرجت رسالة ميلاد فقرأتها مرة وثانية ، فالرجل يطلب العفو والغفران ، ويقر بأنه أساء إليها بحمقه وجهله وضيق تفكيره ، ويعترف بندمه ، ويود ويتمنى أن تتحدث معه ليسمع منها صوت العفو والصفح .. فأخذت تتذكر ابن عمها عندما كان يزورها مع أمه وأبيه ، وكيف كان يختلس إليها النظرات ؟ وهمست " مسكين كان ضحية والديه! .. أقنعوه بالزواج مني من أجل المال الموروث ؛ لكن زهيرة أحبت العلم على الزواج .. أحبت أن تكون طبيبة لتكمل رسالة والدها في علاج المرضى .. فقد ترك لها والدها مالا لتتعلم وتعيش عيشة طيبة .. حاول الشاب مرة أخرى بعد الثانوية العامة .. ولما قبلت في كلية الطب أصيب بالصدمة والخيبة ورأى أن المسافة بعدت بينهم .. فازداد عنفا وحمقا .. هو ترك المدرسة في الإعدادية واتجه لتعلم حرفة يقتات بها .. وزهيرة ستصير طبيبة .. لجأ للتخويف .. نعم ، لقد خفت منه حقيقة .. وكنت واثقة أنه عاجز عن فعل شيء لأنه يعيش في بيت ، وأنا أعيش في بيت وللبيوت حرمتها عند الناس .. لقد كتب لي رسالة معلنا رغبته بالزواج مني ، وأنه يتابع حركتي في الجامعة .. وها هو اليوم يكتب رسالة أخرى يطلب العفو والصفح ويعلن ندمه .. تذكرت أيام الطب في البلد ، عندما كانت تجلس مع ولديّ خالتها

نزار ولمياء .. وقريبتها سمر .. أصبح نزار مهندسا ، ودخل عالم السياسة عن طريق النقابة .. نزار الهادئ الوديع تزوج من ابنة عم له وعنده خمس أطفال .. صاروا اليوم فتيانا .. كما أخبرتني لمياء باتصال قديم .. أما سمر فقد تزوجت شابا من خارج العائلة كأنه أستاذ مدرسة وعندها خمسة أبناء .. آه ! اشتقت لرؤيتهم والجلوس معهم .. كان الاحترام بيننا كبيرا .. لمياء تزوجت ابن جار لهم ، وولدت ثلاثة أطفال ظلوا أحياء ، ومات لها اثنان .. وهي حامل كما قالت في آخر اتصال .. هؤلاء هم أصدقائي وأهلي في الوطن .. حميد ابن عمي نبيل .. كان يحاول كبح جماحه نحوي .. هكذا كانت تتحدث أمه صديقة أمي .. وهم ما زالوا يترددون على أمي كما تخبر أمي .. ترك شركته مع ميلاد ليصرفه عني .. هل هو الذي حاول قتلي قبل سفري ؟

لم يذكر في رسالته هذه الحادثة .. كان لديّ شعور أنا وسامر أنه هو الفاعل .. ربما لو طال بقاؤنا هناك لعرفنا الحقيقة .. لكنه لم يذكر شيئا في الرسالة .. هل أساء إليّ الرجل فعلا كما يعترف ؟ إنها تصرفات حمقاء تصدر من عقل ضعيف .. هل أتحدث معه وأسمع كلامه ؟ دنيا عجيبة فعلا ! هنري عبد الصمد صديق للسيد ميلاد .. سبحان الله ! أمر لا يخطر على بال !

طرق الباب ففتحت زهيرة فرأت ابنتها بالباب تدخن فقالت : ألم أقل لك دعيك من هذا الدخان ؟

ـ هذه ليست دخانا إنها سيجارة ماريجوانا .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ لعلك هدأت

ـ أهدأ وأنت تضعين مني

ـ كل واحد حر في نفسه يا دكتورة لست طفلة .. لما أتخرج من الجامعة سأترك لك البيت للأبد

ـ ولماذا تنتظرين كل هذه السنوات ؟!

ـ أنا قلت سأغيب عن البيت ، وأنا بحاجة لبعض المال

ـ بعض المال وما هو بعض المال عندك ؟

ـ خمسمائة دولار

ـ بس

ـ بس يا أمي

ـ هلا حدثتي أباك عنها

ـ رفض تحويلها .. فقال ما دام ندفع فلوس الجامعة لماذا خمسمائة دولار ؟

ـ هلا أجبته لماذا ؟

ـ على التلفون اخبره .. عيب يا أمي .. هل أقول له سأذهب مع أصدقائي لمكان كذا ؟ .. عيب

ـ أنا آسفة يا شمس .. عليك أن تعملي وتنفقي على نفسك وعلى الماريجوانا .. نحن علينا مصروف الجامعة وثمن المحاضرات .. الرفاهية والسهرات والرحلات والمخدرات لا دخل لنا بها

ـ كيف لا دخل لكم بها ؟

ـ أنا مللت من دلعك .. لم أعد أطيق رؤيتك

ـ هل أقتل نفسي حتى لا تريني ؟

ـ لم تعد تهمني حياتك بعد أن فقدت كل شيء

ـ فقدت كل شيء .. ماذا تقصدين ؟

ـ أنت تعرفين ماذا أقصد ؟

ـ صدقي أنني لم أفهم قصدك .. لا أحد ينام معي

ـ حبوب منع الحمل لماذا تستعملينها ؟

ـ وهل إذا وجدت معي حبوب منع الحمل يعني أنني استعملها حتى لا أحمل ؟ لو فعلت ذلك لست قلقا من ناحيتك يا أمي .. وأنت تعرفين ذلك .. ألست حرة بما أفعل ؟ وأنت حرة بما تفعلين ؟

ـ هناك أخلاق !

ـ وهل زميلاتي اللواتي يمارسن الجنس مع شباب الكلية بدون أخلاق ؟ .. هذه عقدة الشرقيين .. ينظرون للجنس نظرة تعصبية وجريمة ..

ـ هنا ينظرون للاغتصاب جريمة .. والخيانة الزوجية لا تعتبر جريمة .. وإذن لماذا تحملين حبوب منع الحمل؟ .. أليست لممارسة الجنس الأمن كما يزعمون ؟

ـ اليوم الشباب يستخدمون الواقي الذكري لممارسة الجنس .. وهو أكثر أمنا لهم من ناحية عدم حمل الفتاة ووقاية صحية .. فهم لا ينتظرون أن تستخدم الفتاة الحبوب .. حتى لو حملت فعيادات الإجهاض موجودة .. أريد خمسمائة دولار .

ـ أين ستذهبين بها ؟ أين ستنفقينها ؟

ـ سنذهب في رحلة إلى جزيرة تشرشل

ـ تشرشل مرة واحدة عند الدببة

ـ نعم

تروج مدينة تشرشل الكندية لنفسها على خريطة السياحة العالمية بأنها معقل الدببة القطبية في العالم ؛ حيث يتمكن السائح خلال جولته في منطقة التندرا من الاقتراب من هذه الحيوانات الضخمة ذات الفرو الأبيض بشكل لا مثيل له ، ولا يخرج السياح في هذه المغامرة التي تحتبس لها الأنفاس إلا برفقة حراس مسلحين لحمايتهم من الأخطار التي ربما تحدق بهم عند مواجهة وحوش الجليد وجهاً لوجه.

وتذكرت زهيرة رحلتها وسامرا مع عدد من الأطباء وعائلاتهم إلى تلك المدينة وأثناء الانطلاق في هذه المغامرة ، قال المرشد السياحي بصوت خفيض عند رؤيتهم لإحدى الدببة :"هذه هي الدبة الأم ، يكفي الاقتراب منها بهذا القدر" ، ورأوا في تلك اللحظات هذه الحيوانات المفترسة ذات المخالب السميكة تقف في مواجهة بعضها البعض ،وظلت على هذه الحالة لفترة طويلة .

ولم تمثل المسافة الفاصلة بين الدببة القطبية والسياح ، التي كانت تبلغ حوالي ٣٠ متراً أي مشكلة على الإطلاق ، لكن المشكلة ظهرت عندما اقترب دب صغير من السياح ، فبدأت الدبة الأم في التثاؤب ، وهنا همس المرشد السياحي لهم قائلاً : "التثاؤب يعبر عن قلق وتوتر الدبة الأم وحرصها على سلامة صغيرها".

وقد نصح المرشد السياح من قبل بضرورة التواجد في مجموعات حتى يكونوا في مأمن من هجمات الحيوانات القطبية المفترسة ، ويؤكد على أن الفرار من أمام الدببة القطبية لا يمثل وسيلة للنجاة منها ؛ لأنها تجري على الجليد أسرع من الخيول .

وفتش المرشد السياحي في جيب سترته عن بعض الأحجار الصغيرة التي يرميها من وقت إلى آخر في وجه الدببة لإبعادهم عن مناطق تواجد السياح ، هنا انطلق الدب الصغير مسرعاً صوب الدبة الأم مرة أخرى، وهدأت حدة الموقف وزال الخطر.

وتمثل الإقامة في الأكواخ الخشبية وسط منطقة تندرا بمقاطعة مانيتوبا الكندية ، تجربة فريدة من نوعها بكل ما تحمل الكلمة من معان ، على الرغم من بساطة تجهيزات الإقامة.

وتذكرت أن من الأمور المثيرة في هذه الرحلة السياحية وجود حراس مدججين بأسلحة الصيد ، كذلك ظهور صغار الدببة القطبية، التي لم يتجاوز عمرها عامين، أمام الأكواخ الخشبية التي يقيم بها السياح ، ويوضح هذا الموقف مدى التناقض في هذه الرحلة ، التي تُمثل وضعاً معكوساً لحديقة الحيوان، حيث تتجول الحيوانات في الخارج بحرية كاملة ، بينما يظل السياح محتجزين داخل الأكواخ.

وتتيح المنطقة المحيطة بمدينة تشرشل بمقاطعة مانيتوبا الكندية للسياح فرصة مشاهدة الدببة القطبية عن كثب، بشكل يندر وجوده في أي مكان آخر في العالم ، ويتدفق في هذه المنطقة نهران يصبان في البحر الواقع على حافة خليج هدسون، لكنهما يتجمدان مبكراً بسبب المياه العذبة، لذلك فإن العديد من الدببة القطبية تنطلق خلال فصل الشتاء لصيد حيوان الفقمة في هذا الخليج المتجمد.

وأضاف المرشد السياحي : "تركيز وانتشار الدببة القطبية في هذه المنطقة يعتبر من أعلى المعدلات عالمياً"، ولا يمكن مقارنتها إلا مع منطقة الملك كارل النرويجية بالقرب من أرخبيل سبيتسبيرغين وجزيرة وانغيل الروسية التي تقع شمال سيبيريا ، لكن لا يتمكن السياح من الوصول إلى الدببة القطبية في هذه المناطق إلا بصعوبة بالغة ، وسمعته يخبر " ويصل عدد الدببة في خليج هدسون الغربي ما بين ٩٠٠ و ٩٥٠ حيوان، في حين أن عددهم كان ١٢٠٠ حيوانا قبل عشر سنوات ، وأضاف المرشد السياحي : "في أحد أيام الصيف بلغت درجة الحرارة في هذه المنطقة ٣٧ مئوية، لتصبح أكثر المناطق سخونة في كندا".

وتشتهر مدينة تشرشل، التي يوجد بها ٩٠٠ نسمة، بأنها المعقل العالمي للدببة القطبية ، ويُعد هذا الاسم تكريماً لهذه الحيوانات التي بدونها ستتحول مدينة تشرشل إلى مدينة أشباح ، وقد شهدت حقبة الثمانينيات من القرن الماضي إغلاق القاعدة العسكرية في هذه المنطقة ، والتي تم إنشاؤها خلال الحرب العالمية الثانية، وهو الأمر الذي دفع كثيراً من السكان إلى ترك مدينة تشرشل؛ لأن تجارة الفراء لم تعد تجني كثيراً من الأموال ، وبالتالي حدث تدهور اقتصادي.

ويتعامل المرشد مع الدببة القطبية باعتبارها وسيلة من عوامل الجذب السياحي، في حين يضطر الحارس في مدينة تشرشل إلى التعامل مع الدببة المشاكسة ، ويحكي أحد الحراس للموارد الطبيعية بمدينة تشرشل قائلاً : "لقد اضطررنا مؤخراً إلى إطلاق النار على دب يبلغ وزنه ٢٧٠ كيلوغراما". ويضيف هذا الحارس الذي يحمل مسدس ٩ مللم : "لقد حاولنا إبعاد هذا الدب عن المدينة بواسطة سيارة بيك آب ، لكنه ركض باتجاه السيارة وخشيت أن يصل هذا الحيوان المفترس إلينا من النوافذ الجانبية".

ويؤكد الحارس الذي يبلغ من العمر ٤٩ عاماً، أن إطلاق النار على الدب يعتبر هو الحل الوحيد في مثل هذه المواقف الخطرة ، وعادة ما يتم تخدير الدببة القطبية ، التي تفضل التجول في الشوارع ليلاً، ثم يتم نقلها بعد ذلك إلى مكان احتجاز الدببة القطبية ، وفي هذا المبني الفريد من نوعه في العالم والذي يقع على أطراف المدينة، تم احتجاز ١٠ دببة، وفي مرة أخرى بلغ

عددهم ٣٠ دباً.

وتظل الدببة القطبية في مكان الاحتجاز حوالي ٣٠ يوماً، ولا يتم تقديم أي طعام لها خلال هذه الفترة سوى الماء، ثم يتم نقلهم جواً بعد ذلك ، ويقوم الحراس باحتجاز الحيوانات والامتناع عن تقديم الطعام لها، ليتم ردعها ولكي تبقى بعيداً عن المدينة.

وكان لانتشار الدببة القطبية في المنطقة المحيطة بمدينة تشرشل تأثير إيجابي على الحياة الاجتماعية للسكان ؛ لأن الدببة القطبية تجبر السكان على الانتباه والحذر إلى أقصى درجة ممكنة وهو ما يستدعي وجوب التواصل بين الأشخاص بعضهم البعض.

وأوضح المرشد السياحي : "نحن نثق في بعضنا البعض، لذلك فإننا لا نغلق أبواب بيوتنا أو سياراتنا، حتى يجد المرء مأوى بسرعة إذا شعر بالخطر عند مقابلة الدب القطبي في الطريق".

وقد لاحظ المرشد السياحي بعض السلوكيات الغريبة على الدببة القطبية ، ويقول : "تظهر الآن بعض التصرفات غير المعتادة على الدببة؛ حيث إنها تتناول مثلاً التوت البري من شدة الجوع ، وهو النبات الذي لا يأكله سوى الدببة الحوامل".

وبينما كان المرشد يتحدث عن الأخطار المحدقة بالدببة القطبية جذب انتباه السياح شيء آخر، حيث ظهر الدب الصغير وهو يتقلب على ظهره ويرفع مخالبه في الهواء، ويدس أنفه في الجليد، بينما تقف الدبة الأم إلى جواره وتنظر إليه في سعادة غامرة، ولا يظهر عليها علامات التثاؤب ، لأن هناك مسافة كبيرة تفصل بين السياح وهذه الحيوانات المفترسة.



رحلة للوطن

تحدث هنري مع زهيرة وهو يغادر المدينة ، وكانت أثناء المكالمة تعمل في المستشفى فقال : هل اتصلت بالرجل ؟

ـ لم أفعل يا هنري .. أين أنت الآن ؟ .. هل يمكن أن نلتقي ؟

ـ لماذا ؟! أنا أجلس في صالة المطار أنتظر إعلان الركوب .. هل من شيء يضطرني لتأجيل الرحلة ؟

ـ لا ، كانت لديّ رغبة بالجلوس معك ثانية .. فلنبق على اتصال يا هنري .. ربما أسافر إلى للبلد وأقابل الرجل .. فأنا ليس بينه وبيني شيء هو مجرد كلام وزعل ، ونسيته لما وضعت قدماي في هذه البلاد .

ـ جيد ، إذا فكرت بالسفر ربما أفكر بمرافقتك لزيارة الشيخ ميلاد .. وأزور مركز الدعوة عندكم .. لنكن على تواصل يا دكتورة .. ما أخبار شمس ؟

ـ ليتني لم أنجبها .

ـ ستعود لأصلها إنها أيام طيش .. أنت عملت ما استطعت ، وما قدرت عليه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .. أليس هكذا يقول القرآن ؟ .. إقرائي القرآن يا دكتورة ستهبط عليك السكينة .

ـ أنت شيخ صحيح يا هنري! شكرا لك مع السلامة يا دكتور

لما رجعت لبيتها عاد إليها التفكير بالسفر لرؤية أمها ولقاء ابن عمها

وفتح صفحة جديدة مع الأهل والأقارب .. فالرجل قد تغير وهداه الله ، ولكن كيف ستترك ابنتها مع الخادمة كما اعتادت فعل ذلك في إجازاتها ؟ ثم قالت : وهل بقائي يفيدها ؟ فهي تنتقل من رحلة لأخرى .. ألم تذهب مع شباب كليتها لترى أبراج أمريكا المدمرة ؟ أصبح المكان ساحة سياحية .. وتنهدت وهي تقول " ومن لي هناك إلا أمي ؟ هناك من بقي حيا من أخوالي وخالتي وأبنائهم .. كانوا يتعاطفون معي ويودونني .. حتى بعض أعمامي خاصموا عمي عادل من أجلي .. إنني أذكر يوم الوليمة .. التي خرجت منها غاضبة .. لو قابلت سامرا

وأعتقد أن هذا سيحدث ـ فبيننا شمس ـ فعندما يسألني عن ابنته التي كان يقول لي البنت كبرت .. البنت تنضج بسرعة .. عاداتنا غير عادات هؤلاء الناس .. ولكنها هي التي اختارت البقاء هنا وذلك أمام القاضي والمحامي .. اختارت لأنك باقية هنا .. لو عدت لعادت معك .. لو عادت وهي ابنة إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشر سنة لما صبرت يوما واحدا .. والجامعة والمدرسة تعودت على المدرسة هنا .. كيف ستدرس في البلد ؟ .. لم تكن محبة للعلم مثلي .. لو أحبت العلم مثلي لاستقرت من الفوضى التي تعيش فيها .. لابتعدت عن الكثير من الشباب والشابات الذين لا هم لهم إلا الشهوات والموبقات باسم الحرية .. آه ماذا أفعل يا ربي ؟ أنا ضعيف .. هل لو بقي سامر لما فسدت ؟ .. المجتمع قاهر .. ماذا سيفعل لها ؟ لقد حاولت الاندماج كليا معهم .. الكثير من العواجيز يترددون على الكنائس صباح الأحد لسماع ما يسمونه القداس حتى شمس رافقت بعض الفتيات لمثل هذا القداس ، ولم استطع منعها حتى لا تقول عني معقدة ومتشددة .. يا لها من تجربة ! يا لها من حياة قاسية !! أعصابي تعبت لم تعد تتحمل .. تشرب كأس الخمر كأنه كأس ماء .. تدخن المخدرات .. وتستغرب مني لعدم شربي الخمر وتعاطي المخدرات رغم طول مكثي هنا .. عليّ أن أذوب ذوبانا كاملا مثلها .. إنما هي جرعة صغيرة !

طرحت زهيرة الحيرة جانبا، واتخذت قرارا بالسفر والزيارة لبلدها ؛ لعلها تدرك أمها حية .. فهي تذكر كلمات أمها عندما تحدثت معها وهي في المشفى " هل أموت قبل أن أراك يا زهيرة ؟ وأمتع عيناي بك" ، ذرفت دموع الحزن والشوق وقالت " قريبا سأكون عندك يا أمي ! أرجو من الله أن يمد في حياتك حتى أقبلك .. كلي شوق وحب لمعانقتك ولمس وجهك ويديك .. أقسم على ذلك يا أمي إني بحاجة لحضنك والتزامك "

تذكرت هذه الكلمات بينها وبين أمها في آخر اتصال ، فقالت لنفسها "كم مرة تركت شمسا وحدها مع الخادمة ؟! .. مرات ومرات .. لماذا أنا خائفة عليها؟! إنها بالغة سن الرشد وطالبة في الجامعة .. وهي حرة ومستقلة مستغنية عني ، ولا تسمع لي.. بعدما حسمت أمر السفر..

اتصلت بهنري .. على تلفونه الخلوي فرحب الدكتور بها ، وقال بعدما سمع رغبتها بالسفر لزيارة أمها المريضة .. قال : هذه الأيام لا يمكنني أخذ إجازة يا دكتورة .. وبما أن أمك مريضة فتوكلي على الله وحده .. وإذا تيسر لي اللحوق بك نلتقي هناك .. أنا لديّ رغبة فعلا بزيارة بلدكم .. فقد زرتها مرة كسائح .

ولما قفلت شمس من رحلتها إلى جزيرة تشرشل الكندية حيث الدببة القطبية ، وتركت رفاقها ودخلت البيت أعلمتها أمها بقرار السفر لقضاء شهرين في بلاد الآباء والأجداد لرؤية أمها المريضة ، وعرضت عليها اللحاق بها عندما تنهي فصلها الدراسي لترى والدها وإخوتها من أبيها وجداتها ، ثم ختمت كلامها " اتصلي بي إذا وجدت هوى في السفر "

ورغبتها بالسفر "وهناك تتعرفين على العاصمة التي ترعرعت فيها والصحراء العربية "

ـ قرأت عنها .. نعم ، لي رغبة في مشاهدتها .. أمك مريضة شفاها الله .. لم تسأليني عن الرحلة ؟!

ـ ولماذا أسألك يا شمس وأنت لا تقولين الصدق ؟!.. أنا أعرفك جيدا

ـ صدقي يا دكتورة أنني كنت في تشرشل ورأيت الدببة الكبيرة والصغيرة .. ومعي صور كثيرة معها .. أنت لا تثقين بي

قالت الأم : منذ دخلت الجامعة أصبحت عدوة لك .. ألم تقولي لي هذا ؟ ولما صرت في الثانوية قلت مثل هذا .. على كل حال أتمنى لك السعادة يا شمس وخلال يومين سأسافر .. لقد حجزت تذكرة على الهاتف ، وغدا سأمر على الشركة شركة الطيران لتأكيد الحجز ودفع ثمن الرحلة .

ـ أتمنى لك رحلة سعيدة يا أمي .. وسلمي لي على أبي إذا التقيت به ..

ـ إن شاء الله .. أرجو يا شمس كما اتفقنا قديما أن لا تسمحي لأحد من أصدقائك الذكور دخول البيت ..

ـ حاضر يا أمي .. أوامر أخرى

ـ سلامتك .



علم هنري بسفر زهيرة فور ركوبها الطائرة إلى الشرق الأوسط ، فاتصل بالشيخ ميلاد مخبرا له بسفر ابنة عمه زهيرة ، وأنها في الطريق إليهم ، ففرح ميلاد فرحا عظيما ، وكاد يطير من شدة الفرح لهذا الخبر ، فكلف حميد بالاتصال بامرأة عمه يسألها عن وصول زهيرة .. فدهشت من الخبر وقالت : من قال لك ذلك ؟! هي قالت ستأتي .. وهي لم تصل .

فاستغرب حميد وسألها عن صحتها ، ووعدها أن يزورها هو وامرأته قريبا للسلام والترحيب بالدكتورة أم شمس .

وكان حميد قد وضع نفسه تحت أمرها ، وأدخلها المستشفى هو وامرأته وبعض بنيه ، واعتبر ذلك من الوفاء لعمه الميت مجدي ، ولوصية أبيه أيضا الذي حثهم على برها ومساعدتها ، وحثه على رعايتها لنهاية العمر، وكان أبناء أشقائها وشقيقتها يترددون عليها ، ولكن حميدا أخذ نصيب الأسد .. ولقوة الصداقة بين أمه وهناء ، فرحبت بتعاونه واعتبرته كابن لها ؛ لذلك كانت تناديه في بعض الأحيان يا أمي يا ابني ، وهي تعاني من أمراض السكر والضغط ومشاكل في القلب .

وبعد أن ترك حميد الهاتف بساعات دخلت زهيرة على أمها التي احتضنتها باكية وتعانقتا بشدة وشوق وهي تهمس " زهيرة حبيبتي آه ! لقد عشت ورأيتك .. آه! يا حبيبتي أنت دنياي .. لم تخبريني لأرسل لك حميدا أبا محمد يستقبلك في المطار .

ـ لقد تعودت يا حبيبتي على السفر والرحلات العلمية والترفيهية .. أنا مشتاقة إليك جدا يا أمي .. كم أحبك ! .. كيف صحتك كيف حالك ؟

تعانقتا من جديد وموجة أخرى من القبل المعبرة عن الود والحب بينهم ، ولما انفصلتا تقدمت الخادمة الآسيوية إليها مسلمة ومعانقة ، ولما سألتها عن صحتها وحالها عادت زهيرة وأمها للجلوس تحدقان في بعضهما وقالت هناء : قبل ساعات اتصل بي حميد ابن عمك يقول " هل وصلت الدكتورة زهيرة ؟" فاستغربت من سؤاله فقال " لابد أن الطائرة ما زالت في الطريق " هل تتحدثين معه ؟

ابتسمت : أبدا يا أمي .. منذ سافرت لم أتحدث إلا معك وبضع مرات مع المهندس نزار وأخته لمياء ..

ـ وكيف عرف إذن ؟!

ضحكت زهيرة وقالت : أعرف كيف عرف؟ .. لي صديق طبيب يعرف بسفري لابد أنه هو الذي اتصل به أو بميلاد فهو صديقه .

قالت هناء : ميلاد الذي عرفتيه وعرفناه قبل سفرك غير ميلاد اليوم

ـ أعرف يا أمي، كتب لي رسالة يطلب الصفح والعفو عن الماضي .. وربما كانت رسالته هي التي عجلت باتخاذي قرار الزيارة لك يا أمي ؛ ولذلك حكاية كتبها القدر .. فالدكتور صديقي صار صديقا لميلاد وهما في الباكستان ..

وسردت عليها قصة ميلاد والطبيب الكندي كما فهمتها من هنري ، فعقبت الأم قائلة : أنا أسمع من حميد عن رحلات ميلاد في داخل البلاد وخارجها

ـ هل زارك ميلاد يا أمي ؟

ـ منذ تاب إلى الله تحسنت أخلاقه ، وقد ترك الشراب والدخان .. في البداية رفضت استقباله ، ولكن مع إلحاح حميد رحبت به وسامحته .. وهو يزورني بصحبة أبي محمد .. وهو كما أعلم يبحث عن عروس أو أن الزواج سيكون قريبا فهناك شيخ سيزوجه من كريمته .. أو شقيقته .. فتاة ترملت وعندها ثلاثة أطفال .. وابن عمك حميد رجل فاضل وأمه ما زالت صديقتي رغم ما تعاني من أمراض السن، وزوجته ترافقني إلى مراجعات العيادة والمستشفيات

طلبت هناء من الخادمة أن تطلب لهم عشاء من المطعم فقالت زهيرة : أتشترين الطعام ؟

ـ أحيانا .. والخادم تصنعه بعض الأيام .

رن جرس الهاتف فردت الخادمة وقالت : الشيخ حميد يا سيدتي .

أخذت هناء الهاتف وقالت وهي تبتسم : آ يا أبا محمد .. نعم دخلت قبل زمن قليل .. سلمك الله شكرا لك .. بارك الله فيك .

ومدت الهاتف لزهيرة التي رحبت بابن عمها .. وشكرته على الاهتمام بها وبأمها وقالت : شكرا يا أبا محمد بما تقدمه لأمي .. يسرني اللقاء بك وبزوجتك .. على الرحب والسعة البيت بيتك .. قبل قليل طلبنا من المطعم العشاء.. شكرا يا سيدي .. أرجوك لا تحلف .. سنقبل دعوتك .. فنحن أهل .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



ساقت زهيرة أمها إلى مستشفى خاص ، وطلبت من مدير المستشفى إجراء فحوص واختبارات كاملة لأمها ، وتابعت علاجها لمدة أسبوع حتى اطمأنت عليها ، وقد رافقهم السيد حميد كسائق لهم خلال هذه الأسبوع ، وذات يوم وهم سائرون لإجراء فحص قالت : ابن عمك تغير تغيرا كبيرا يا أبا محمد .. لقد عرفته شيطانا واليوم يتشبه بالملائكة .

أجاب حميد فقال : ميلاد مسكين! .. أنا يا دكتورة كنت لا أضع اللوم عليه .. كنت أضع العتب على عمي عادل رحمه الله .. رغم ثقافة عمي كانت تقاليد وعادات مسيطرة عليه ، يرى حياة المدينة كحياة القرية التي جاءوا منها للعاصمة .. يرون أن بنات العائلة أولى من بنات العائلات الأخرى .. فعلى ابن العائلة أن يتزوج من قريباته .. وميلاد ظل يحمل مثل هذه التقاليد السائدة .. والأخ ميلاد نادم فعلا ، وأدرك حجم الإساءة التي ارتكبها نحوك .. بزعم تلك التقاليد الهالكة ، فهي كانت تصدر عن غباء وحمق وسذاجة .. وصدقي أنني نصحت له

من هذا الهبل .. حتى اضطررت لفصل الشراكة القائمة بيننا لأضغط عليه ليستيقظ من جنونه وانحرافه بزعم الحب

ـ لقد سامحته يا أبا محمد .. ونسيت كل شيء فعله ضدي

ـ وأنا سامحيني يا دكتورة ربما شاركته في بعض المواقف من باب العاطفة والقرابة والشفقة .. نحن بشر .. ونحن عشنا أصدقاء ، وتركنا المدارس شبابا صغارا ، فحظنا من التعليم والثقافة ضئيل .. ثقافتنا تقاليد وثقافة شعبية .. ثم تعلمنا مهنة تصليح السيارات وتشاركنا في محل واحد .. ولما تزوجت شجعته على الزواج ونسيان كلام أبيه وأمه من الزواج من زهيرة .. فأخذته كما يقال العزة بالإثم .. وعاند وركب رأسه .. وظل الجهل مسيطرا عليه .. حتى العم عادل لما التحقت بالجامعة قبل الهجرة .. اعترف له بخطئه وطلب منه أن يبحث عن فتاة يتزوجها .. فعاند ، وأخذ يشرب الخمر زاعما أنه يفعل ذلك لنسيانك .. طبعا هذا كلام فارغ

ـ أخبرني مرة أنه دفع ناسا للتجسس عليّ في الجامعة

ضحك حميد وقال : كان لي دور في هذه القضية .. لأنه زعم أيامها أنك ترفضينه لعلاقة لك مع شاب من الجامعة .. كما نسمع عن بنات الجامعات تلك الأيام .. فأحببت أن أبين له كذب هذه الادعاء ..

ـ كيف أنت ؟

شرح لها حميد دوره في تلك القصة ، وختم قائلا : وأكدت له أنا وذلك الشاب وشقيقه كذب هذا الادعاء ، وأنك بريئة مما يشيعه حولك من كثرة قوله " أرغب أعرف من هذا الذي سرقها مني " " فأقول له يا رجل زهيرة رفضتك قبل أن تصل الجامعة " .. فكان عليّ أن أقنعه بالكف عن هذا الاعتقاد .. وفعلا جاء الشاب بعد أن تأكد من طهارتك من هذا العبث وذكر له ذلك وأنك فتاة محترمة ، وأنك تلتزمين حدود الأدب والأخلاق ، وأنك ترافقين بعض أقاربك .. وأنا لما وصفهم الشاب عرفتهم على الفور خاصة الشاب لأنني التقيت به في مناسبات .. وأنا قمت أيضا بتأكيد ذلك .. كل هذا فعلته ليكف عن إطلاق الإشاعات

ونسيان الأخت زهيرة .. ولكنه للأسف عنيد ومخه جامد تلك الأيام .. ثم قدر الله لي أن أسلط عليه بعض المشايخ من أصحابنا فردوه للدين ، وتعلق بهم ورافقهم ، وصار شيخا أكثر مني .

ـ عرفت ذلك الشاب اسمه أحمد .. وكان طالب كلية التمريض

ـ أحسنت ! نعم هذا اسمه .. ورغم أنه أقنع ميلادا بأن لا أحد في حياتك الخاصة .. وحثه على الزواج ورغبه فيه .. وبين له الفارق العلمي الذي بينكم .. فقال له " أنت أعمى أو تتغاضى عن ابنة عمي "

عندئذ وصلا المستشفى فصف السيارة في كراج المستشفى ، وقاد هو والدكتورة السيدة هناء إلى العيادة المنشودة ، ولما دخلا قالت زهيرة : نحن نعتذر لك يا أبا محمد للإزعاج وتعطيلك عن العمل .. أمي تحبك وتقدر عطفك الكبير نحوها وبرها

فرد بحياء : هذا واجبنا يا دكتورة .. الناس لبعض .. فهي زوجة عمنا المرحوم مجدي .. فوالدك ترك بعض المال .. فقد ورثه إخوته كما ورثتيه .. ونحن ورثناه عن أبينا .. فجميلكم سابق .. ونحن أهل ، فأنت ابنة عمنا وهي أمك .



أقام الدكتور سامر مائدة عشاء في أحد الفنادق الراقية إكراما لزوجته الأولى زهيرة ، ودعا إليها الدكتورة وأمها ، ورافقهم في هذه الدعوة السيد حميد ، وهو يعرف الدكتور منذ عهد بعيد عندما تزوج زهيرة ، ولم يكن بينهم مجاملات وزيارات لقصر حياتهم في المدينة عندما تناكحا ، وحضر بصحبة الدكتور زوجته الثانية وأولاده منها وجرى التعارف بينهم ، وكان الدكتور قد تلقى هاتفا من زهيرة تخبره بوصولها لزيارة أمها ، فرحب بها ، ورتب لهذه الدعوة ، وقد قبلتها زهيرة ، وأثناء الطعام سألها عن شمس ولماذا لم تأت معها ؟ فأخبرته بأن وقت

الدراسة لم ينته ، وأنها رفضت المجيء ، واعترفت له صراحة أن شمسا ابنة الغرب ، وأنها متمردة ، ولا تسمع النصيحة والكلام .. وكان سامر لما علم بوجود زوجته في البلد قد اتصل بشمس ، وطمأنته على نفسها ، وذكرت له سفر أمها لزيارة أمها .. وفي نهاية اللقاء دعته لزيارة كندا لرؤية ابنته وتعريف أبنائه على شقيقتهم .. ولتشجيعها بزيارة مسقط رأسه بعد إنهاء جامعتها .. فوعد الدكتور بالتفكير في ذلك وقال : من يقبل الحياة هناك عليه أن يتحمل نارها فنحن هنا اليوم لم نعد نسيطر على أبنائنا .. الانفتاح كبير والشرخ كبير

فأجابته زهيرة بنوع من الضيق : كنت أعمل ، وأنت كنت تعمل ، وأنت تعلم أن العمل هناك لابد منه للحياة والإنتاج .. إذا عملت أكلت ونمت .. والقوانين الدارجة لا تستطيع محاربتها خاصة إذا كنت أجنبيا .. إذا أسأت للصغير وعلمت الحكومة فيأخذونه منك .. ليس أمامي إلا اللين والكلام .. فاستخدام العنف والضرب لا يجوز .. فهم لا يسمحون لك بترك الطفل دون الثانية عشرة وحده في البيت يا سامر .. وأنا لم أعرف العنف يوما .. وما ضربت شيئا .. غضبي في لساني والهجر .

ـ أسأت فهمي ، آسف يا عزيزتي .. أنا لا ألومك بشيء .. أنا أعرف شدة وجدة ذلك المجتمع في العمل وتساهله في الأخلاق .. بارك الله فيك .. المسؤولية لا تقع عليك وحدك .. للأسف العلم الذي عندهم هو الذي يشدنا إليهم .. وهذه ضريبة العلم .. أنا أتشاجر معها على الهاتف .. في الغالب ننهي مكالمتنا بزعل .. وأنا لم أتهرب من أي مسؤولية نحوها .. لكن ماذا أفعل لها ؟! .. وأنا تركتها لك لأنها هي أرادت البقاء .. سأفكر جيدا في رحلة قصيرة لتلك البلاد .. لا تغضبي يا دكتورة .. هل تفكرين بالبقاء هنا ؟

قال حميد الذي كان يسمع الكلام كغيره : طلبت منها يا دكتور البقاء بيننا

فاستدارت إليه زهيرة باسمة وقالت : صعب يا أبا محمد .. عملي هناك وابنتي هناك .. فلو تجيء شمس وتستقر هنا فربما أفعل مثلها .. سأمكث شهرين إن شاء الله .

فقال سامر : سأبذل جهدي بإقناع شمس للمجيء والحياة معنا .. سأظل اضغط عليها خلال

السنوات الباقية لها في الجامعة .



كان حميد كلما زار بيت امرأة عمه ، ويلتقي بالطبيبة يضغط عليها للعودة إلى البلد والبقاء بين الأهل والأقارب ، فتعتذر بعملها وابنتها وتضيف : أنا أعلم أن أمي بحاجة إليّ في هذه السن ، ولكن مصيري تقرر هناك يا أبا محمد، وليس فقط ابنتي تربطني بتلك البلاد .. أنا قبلت الطلاق من زوجي حتى أبقى في كندا .. ارتاحت روحي لتلك البلاد لا أدري سر هذا !

ـ يا أختي الفاضلة .. الإنسان يتخذ قرارات مصيرية ثم يتراجع عنها .. لا سمح الله عندما يتوعك الإنسان يجد أهله وأصدقاءه حوله

ابتسمت قائلة : وأولئك يفعلون ذلك .. الإنسانية موجودة عند جميع الناس يا حميد .. ما فعل ابن عمنا بزواجه ؟

ضحك حميد لتغيير الموضوع وقال : " تلك الأرملة .. نعم .. الأمور تسير سيرا طيبا .. والمرأة قلقة من ناحية الأولاد .. هي متعلقة بهم فهي أم .. ولها رغبة بالزواج ، وتخشى أن يأخذ أهل زوجها الأولاد بسبب الزواج .. فأمها ميتة .. وجدة الأبناء من جهة الأب حية ؛ فكأن القانون يجيز لها طلب الحضانة إذا تزوجت الأرملة .. وهي متمسكة بهم .. هم ثلاثة أطفال دون العاشرة من العمر .. ووالد الفتاة شيخ من شيوخ الجماعة .. وشقيقها رفيق وصديق لميلاد أو الأدق صديق الشيخ حسن الذي اهتدى ميلاد على يده وهم جميعهم أصدقاء .

ـ أبكاني ميلاد وهو يعتذر لي .. كان يطلب السماح وهو يذرف الدمع .. كانت لحظات مؤثرة في وجداني

ـ ميلاد القديم مات يا دكتورة .. حتى أن أمك ظلت فترة لا تصدق أن ميلادا تغير .. حتى عاد مرة من بلاد العجم ، فقبلت اللقاء به ومسامحته .. سبحان الله مغير الأحوال .. كل يوم هو في شأن !

ـ ألا يشتغل معك ؟

ـ منذ هدايته أصبح شريكا في الربح .. وأصبح لي راتب شهري مثل العمال معنا وأصبح المشغل كبيرا .. وحتى أصبحنا نبيع السيارات المستعملة .. فأمك لما ضعف بصرها وضربت مرة طفلا ، ولم يصب إصابة كبيرة ، وتعافى سريعا ، بعت لها السيارة التي هي سيارتك .. فعملنا جيد بفضل الله ، ومعي ولدان لي يعملان في المحل .. أحدهما في معرض السيارات ، والآخر ميكانيكي مثلي .. فعملي باليد قليل هذه الأيام ..والأخ ميلاد متعلق بالخروج في الداخل والخارج .. وهو كما تعلمين لا أب ولا أم ولا زوجة ولا أولاد .. حر عصفور طليق بعد .. وقد ورث عن أبيه ثروة كبيرة .. وعقارات عمي عادل كما تعلمين كثيرة .. كان غنيا على عكس ما كان يظهر أمام الناس .. وميلاد يقطن بيت العم ولا يدفع إيجارا .. وحتى فواتير الكهرباء والماء والهاتف الأرضي يدفعها أشقاؤه الذين يسكنون البيت .. فهو يتكلف مصاريف الأكل والشرب الخاص به .. وكثيرا عندما يصدف وجوده في البيت يقدم له أخوته الطعام خاصة الغداء .. وهو متحمس من الزواج من تلك الأرملة لتربية الأولاد والإنفاق عليهم رغبة بما عند الله من أجر كفالة اليتيم في الإسلام .. فستعيش المرأة في بحبوبة من العيش معه .. ونساء أخوة ميلاد أغلبهن من أقاربنا .. فأم ميلاد كما تعلمين ابنة عم لعمي عادل .. تزوجها قبل الرحيل للمدينة للعمل كمعلم هنا .. ووالدك درس الطب .. وكل أعمامك متعلمون ويحملون شهادات .. كان جدي حسن محبا لتعليم أبنائه ووفق إلى ذلك .. نحن الأحفاد قصرنا في متابعة الدراسة .. والأخ ميلاد ربما يتكلف سوى الطعام والشراب بعض الثياب عند السفر ، ونفقات الخروج وهي مبالغ بسيطة داخل البلاد .. وفي الخارج ثمن التذكرة .. بل ينفق ماله على رفاق الخروج ويتصدق على الفقراء

ـ وهلا فعلت مثله ؟

ـ ذهبت مكة عدة عمرات ورافقت أمي في فريضة الحج .. ورافقت ميلادا في رحلات دعوة داخل المملكة .. لليوم لم يتيسر لي الخروج خارج البلاد .. وعندي ولد تعلم وأنشأ سوقا تجاريا مع ابن خال له ، وساهم فيه ميلاد .. وابني محمد أنهى الثانوية العامة ؛ ولكنه لم يكمل الجامعة أو حتى المعهد فهو يعمل مع خال في شركة بحرية في اليونان وهو متزوج وعنده طفلان ..

ـ كأنك عرفتني به

فقالت هناء التي كانت تأكل الفواكه وتشرب العصير طول هذه الحديث : هو شاب محترم ويعرف الأصول .. فأبو محمد من أحسن أقارب والدك المرحوم مجدي حسن .

ـ لست هذا يا أمي.. وأنا ممنونة لك يا شيخ أبا محمد .. وأنا فعلا عاجزة عن شكرك .. وبارك الله فيك وفي ذريتك

ـ بل نحن آسفون قصرنا معكم يا أم شمس .. ربما كانت ظروفنا وسننا هما السبب تلك الأيام ، وكان العم عادل كبير العائلة ـ رحمه الله ـ ما زال في عقلية القرية فوتر الأمور .. وكان رجلا متعلما ، فكنا نظن أنه كان يقوم بالواجب الاجتماعي نحو زهيرة ..



استمتعت زهيرة بإجازتها بأرض الوطن ، واستقبلت الكثير من أقاربها من جهة أبيها ومن جهة أمها ، ومن جملتهم المهندس نزار رفيقها أيام الجامعة ، وأخته لمياء وأمها وهي خالتها .. ورأت سمرا التي سعت لرؤيتها لما علمت بزيارتها للبلد .. فكانت لقاءات الأقارب هذه المرة تختلف عن الصورة التي تركت البلاد عليها .. وتعمقت صداقتها بابن عمها حميد وأولاده وزوجته خلال هذه الزيارة ، الذي لم تكن تراه إلا في الأعياد عندما يصحب والده وأعمامه للمعايدة عليها ، وزارت أمه عندما دعاها حميد وأمها للغداء في بيته .. ومضت الأيام سريعا ،

وودعت من ودعت ، وأوصت حميدا مجددا على أمها ، لما أدركت ارتياح أمها له ولأسرته ، وغادرت البلاد إلى مهجرها مباشرة ، ولما دخلت الشقة صباحا مع شروق الشمس لم تجد شمسا في البيت ، ولما سألت الخادمة اللاتينية قالت لها " لها أسبوع خارج البيت .. لم أرها منذ أسبوع "

ـ تحدثت معها من يومين ، وكانت في غاية الشوق والسعادة لقرب عودتي .. أين هي ؟!

ـ لم تخبرني يا سيدتي .. وإنما سمعتها قبل غيابها تتحدث على الخلوي مع أحدهم لا أدري ذكرا أم أنثى .. يتحدثون عن السفر لنيويورك لمشاهدة شيء لم أعرفه ، ربما فيلم جديد أو عرض أزياء .

ـ نيويورك .. ماذا يوجد هناك ؟ ذكرى سبتمبر.. هل تهتم شمس بمثل هذه الاحتفالات ؟!

بدأت أقرف من هذه البلاد .. وهناك ماذا سأفعل ؟ أمي .. غربتي ابنتي .. غربتي وابنتي.

دخلت الحمام واغتسلت وصلت الفجر ، فقد أذن والطائرة تقترب من أجواء مونتريال .

قدمت لها الخادمة القهوة بالحليب كما اعتادت على ذلك وسمعت الخادمة تقول : الدكتور "جيرارد كنت" اتصل فأخبرته بسفرك لبلدك الاصلي .

ـ شكرا ، سأتصل به اليوم ، وأخبره بعودتي وأنني غدا سأباشر عملي .

ولما قضت شرب القهوة دخلت مخدع النوم ، وفي المساء اتصلت بالدكتور جيرارد المحاضر في كلية الطب ، وتحدثت معه عن مشروع الكتاب الذي يكتبه لطلبة كلية الطب ، وشاركت معه في الكتاب عن أمراض الولادة والحمل ، وأخبرته أن المادة جاهزة ومكتوبة على الكمبيوتر ، وتحتاج للمراجعة والتدقيق ، وأنها سترسلها له قريبا ، وأنها ستباشر عملها غدا في المستشفى ، ووعدها بالمرور عليها للاحتفال بعودتها ، والغداء معها ، وسماع أخبارها، وأخبار رحلتها فرحبت بدورها به .

وفي الصباح ركبت سيارتها ـ في كندا مقود السيارات على اليمين ـ متجهة للمستشفى العام بمدينة مونتريال الكندية ، وباشرت العمل المعتاد ، وأخذت تستقبل المريضات من النساء .

وبينما هي تباشر عملها بأيام سمعت هنري يتحدث معها ويطمئن عليها قال ضاحكا : أرسل لي الشيخ ميلاد الشكر لنجاح شفاعتي لديك .

ولما شكرته وصمتت قال : عندي خبر سيء لك .

جفلت ـ ولأنه حدثها عن ميلاد ـ قالت : ماذا ؟ هل مرضت أمي ؟

ـ أمك! .. لا .. لا .. الخبر عن ابنتك .

ـ ابنتي! .. عدت يا هنري ولم أجدها في البيت .. لها أكثر من أسبوع خارج البيت ، ولا ترد على الخلوي

ـ هي هنا في نيويورك .. لقد جاءت مع عدد من طلاب كليتها وجامعتها لزيارة المدينة .. ومشاهدة بعض العروض السينمائية الجديدة .. هنا فيلم يعرض لأول مرة .

ـ لم تقل لي الخبر السيئ يا هنري !

ـ الخبر السيئ أن ابنتك في المستشفى

ـ عندك ؟

ـ لا .. في مستشفى آخر

ـ أفصح ما الأمر قلبي يدق بعنف؟!

ـ الأمر يا سيدتي أن ابنتك تعرضت للاغتصاب من عصابة مكونة من ثلاثة رجال كما قالت .. تعرضت للجريمة هي وصديقة لها في أحد شوارع المدينة .. وبعد اغتصابهنّ طعنوهنّ بالسكاكين .. فصديقتها ماتت ، وشمس أغمي عليها ، فظنوها ميتة .. وألقت شرطة نيويورك القبض على الجناة .. ولما استيقظت شمس وأصبحت قادرة على الكلام اتصلت بي ، وعلمت قصتها منها ومن شرطة المدينة .. فإذا أحببت المجيء

ـ طبعا سأجيئ الآن

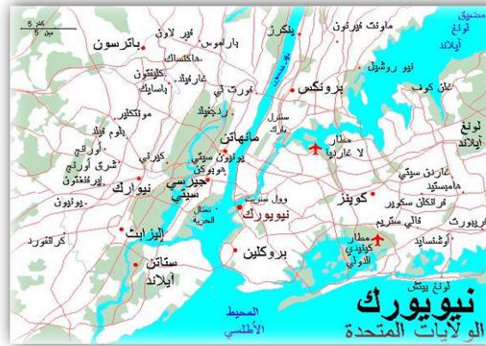
فذكر لها عنوان المستشفى الراقدة فيه في منطقة بروكلين وقال : اتصلي بي عندما تصلين ، فأنا أعمل في كوينز حيث مطار كنيدي .. وأنا تحدثت مع مدير المستشفى ليسهل سفرك .. أنا

بانتظارك .

ـ أنت صديق عزيز يا هنري

ـ هذا واجب عليّ .. أليس ديننا يحث على مساعدة الضعفاء والمحتاجين ؟

ـ إلى اللقاء يا سيدي الدكتور .



جريمة

فتحت شمس عينيها فرأت أمها تنظر إليها وهي تبكي فبكت هي الأخرى وقالت : إنهم وحوش يا أمي ! .. كنا نقف جميعا أمام السينما سخروا منا وقادونا إلى شارع شبه معتم قرب الكوبري وحديقة صغيرة ، وأوثقونا واغتصبونا ، ثم طعنونا بالسكاكين .. كنا معهم في السينما ، ووثقنا بهم وظننا أنهم يقودنا لمطعم قريب من الكوبري .. خدعة .. هل سأموت يا أمي ؟

جرائم الاغتصاب كثيرة جدا على مستوى أمريكا وكندا ، وقد تقع ربع مليون جريمة اغتصاب سنويا في أمريكا ، وكندا يقرب من عشرين ألف جريمة اغتصاب سنويا ، ولديهم مراكز كثيرة لمعالجة المغتصبات ، استمرت زهيرة في البكاء ، فكم من الفتيات عالجت بسبب الاغتصاب في كوبيك ، ويدهشها هذا .. فالجنس ودور الدعارة والحانات مفتوحة لمثل هذا ولماذا يغتصبون النساء ؟! وتذكرت أنها كانت تفحص وتعالج نساء كبيرات في السن عواجيز تعرضن للاغتصاب .. لماذا يغتصبون النساء والدعارة متيسرة ؟ هل بسبب تعاطي المخدرات ؟ أم أمراض نفسية ؟ وقرأت العديد من الأبحاث والدراسات حول جريمة الاغتصاب .. وهذه الجريمة تعني إجبار الأنثى على ممارسة الجنس دون رضا وقبول من طرفها .. الإكراه والتهديد هما أحد أسباب انعدام الرضا في جريمة الاغتصاب ويكون الإكراه ماديا باستخدام العنف ، وقد يكون الإكراه معنويا بالتهديد بالقتل أو الفضح بإفشاء سر خاص بالأنثى ، وينعدم الرضا إذا كانت الأنثى فاقدة للوعي بسبب المسكرات المخدرات المنومات ضعف عقلي جنون .. رغم إباحة الزنا في الكثير من دول الغرب والشذوذ ، ولو بشكل غير رسمي ، تكثر فيها هذه الجريمة المقززة لذوي الأذواق السليمة ، وعلى الفطرة الطبيعية .. وأرقام الإحصاء في تلك البلدان مخيفة ..فتساءلت زهيرة " لماذا كل هذه الإباحية الجنسية ؟!"

وعادت شمس تقول لأمها : أمي حبيبتي أرجوك لا تبكي .. هل سأعيش يا أمي ؟

هزت زهيرة رأسها ثم همست : ستعشين إن شاء الله .. الله معك يا ابنتي .. الحمد لله على

السلامة .. هنري صديق طيب .. كيف عرفت الاتصال به ؟

ـ آسف يا أمي .. لقد سببت لك الحزن والألم

ـ هذه الحياة يا شمس

ـ أخذت رقمه من مادلين التقينا قبل السفر ، ولما علمت أنني سأزور نيويورك .. أعطتني رقم والدها حتى إذا احتجت لمال أو مساعدة منه فسيقدمها لي .. سبحان الله! .. جولي ماتت يا أمي !

ـ نعم ، ماتت جاءت طعنة مباشرة إلى قلبها.. كانوا متعاطين للهيروين.. كيف تمشون مع هؤلاء الشباب ؟

ـ التقينا في السينما قبل بداية الفيلم .. كانوا شبابا أمريكيين طيبين .. مزحنا مع بعض .. هكذا بدوا لنا .. ولما خرجنا من الصالة .. عرضوا علينا توصيلنا لمحطة المترو من طريق مختصر .. وصدقناهم .. ولما اقتربنا من أحد الجسور هجموا علينا هجوما خاطفا وصاعقا .. وفعلوا بنا ما فعلوا ثم شرعوا في قتلنا

ـ كنتم متعاطين يا شمس مثلهم .. هكذا قالت فحوص الدم

أغمضت عيناها للحظات ثم فتحتها وقالت : نعم ، أعطونا جرعات .. ظننا أنهم طيبون وليسوا غادرين .. وكنا فرحين بصحبتهم داخل السينما فهم أمريكان .. وصاروا وحوشا عند الجسر والحديقة .. ونحن مغفلات

ـ حدثني ضابط التحقيق بكل أقوالك .. وهم الآن بأيدي رجال الشرطة ، وكانت نجاتك سببا للوصول إليهم بسرعة ، فهم معروفون لرجال الشرطة ولهم سوابق .. وقد يحكم عليهم بالسجن المؤبد .. عندما تتحسن صحتك سيعرضون عليك للتعرف عليهم .. أنت عرفتيهم عن طريق الصور

عادت تقول : سأعيش يا أمي

ـ أرجو ذلك .. فالدكتور هنري في انتظاري .. فهو صديق كريم

ـ هو شيخ حقيقي يا أمي ..

ـ نعم ، قد أسلم ، واعتنق ديننا الإسلامي ، فهو يصلي ويصوم ..

ـ لما أخرجوني من غرفة العمليات .. وصحوت تماما من البنج .. أخذوا أقوالي عن الحادث .. وذكرت لهم رقم العم هنري الموجود على الموبايل .. فهم بعد الاعتداء علينا لم يفتشونا .. وتقول الشرطة إنهم تركونا عندما سمعوا أصواتا تقترب من المكان .. كأنهم هربوا .. واتصلت بالعم هنري ولبى النداء .



شفيت شمس من الجرح البدني ، وبقي الجرح النفسي ، وبعد قضاء أسبوعين في المستشفى تعافت وخرجت إلى أحد فنادق مدينة نيويورك .

مدينة نيويورك هي المدينة الأعلى في الكثافة السكانية في الولايات المتحدة الأمريكية،وتعد المدينة أكبر المدن في ولاية نيويورك ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، والأكثر تأثيراً في مختلف المجالات كالتجارة والمال والإعلام والفن والأزياء والعلوم والتكنولوجيا والتعليم والترفيه ا كما تعتبر مدينة نيويورك أحد أهم مراكز التجارة والمال في العالم ، فهي عاصمة اقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية ؛ لكثرة الشركات والبنوك العالمية فيها، ويوجد فيها مقر الأمم المتحدةوسوق الأوراق المالية ومؤشر الداو جونز الصناعي .

من أشهر أحيائها: مانهاتن وبرونكس وبروكلين وكوينز وستاتن آيلاند ، فيها شارع مشهور يدعى شارع برودواي ، تقام فيه العديد من العروض المسرحية ، وسنترال بارك إحدى أكبر الحدائق العامة في العالم .

يوجد فيها ١٧٠٠٠ مصنعا تعمل في مجال الملابس ، وتنتج نيويورك سدس إنتاج الولايات المتحدة من الطباعة والنشر، كما تنتج الأغذية والمواد الكيميائية ، والأثاث والورق والمنسوجات ، ويعد ميناء نيويورك من أكبر الموانئ التي تعمل في مجال الاستيراد والتصدير، حيث يعمل به ٢٠٠٠٠٠ عامل ، لكن مكانته تدهورت قليلا بعد فتح الموانئ الأخرى على البحيرات العظمى ونهر سانت لورنس ، أما شركات المال والتأمين والأسهم والعقارات ، فيعمل بها نحو ٤٩٥٠٠٠ عامل ، وأشهرها بورصة نيويورك.

تخدم النشاط الاقتصادي في المدينة شبكة ضخمة من وسائل النقل ، حيث يستخدمها يوميا ثلاثة ملايين ونصف مليون فرد ، وتعد نيويورك أيضا أكبر مركز للاتصال في الولايات المتحدة ، حيث يوجد بها العديد من شركات الاتصال والطباعة والنشر ، وبها نحو ستين محطة للإرسال الإذاعي والتلفاز.

كما تعد نيويورك من أكبر المراكز الثقافية في العالم ، حيث يوجد بها العديد من قاعات الفنون والمسارح والموسيقى والمتاحف والجمعيات الثقافية الشهيرة على شارع برودواي ، كما ينتسب إليها بعض الشعراء والكتاب والممثلين والفنانين المشهورين ، أدى أغنياء المدينة دورا مهماً في دعم النشاط الثقافي .

تضم نيويورك مبانٍ من مختلف التصاميم حيث توجد فيها مبانٍ خشبية مصممة على هيئة صناديق بطابق أو طابقين وسقف مائل ويُرى هذا النمط من المنازل في منطقة بروكلين التي تعود إلى العام ١٦٥٦ كما توجد في المدينة مبانٍ ذات تصميم أكثر حداثة كناطحات السحاب التي تتميز بها مدينة نيويورك وخاصةً مانهاتن حيث الأبراج التي دمرت عام ٢٠٠١ ويعد مبنى امباير ستايت أطول مباني نيويورك وأكثرها أهمية. يوجد في نيويورك ما يقارب (١١٠) كم٢ من الحدائق و ١٤ ميل من الشواطئ العامة ،ومن حدائق نيويورك : سنترال بارك .. وبلهام باي بارك التي تعد أكبر حدائق نيويورك .

تواجه المدينة عدة مشاكل اجتماعية مثل : الفقر والجريمة والمخدرات والتفرقة العنصرية ؛

ففي نيويورك وحدها نصف مدمني المخدرات في الولايات المتحدة ، كما أن بها أربعة ملايين مواطن يعيشون على إعانات الضمان الاجتماعي .

تعتبر السياحة واحدة من أهم الصناعات في مدينة نيويورك ، وتشمل الوجهات السياحية للمدينة مبنى امباير ستيت ، وتمثال الحرية ؛ وجزيرة إيليس ؛ وعروض مسرح برودواي ؛ وأيضا المتاحف مثل متحف المتروبوليتان للفنون ؛ وكذلك المساحات الخضراء مثل سنترال بارك وحديقة واشنطن سكوير ، ومركز روكفلر ، وتايمز سكوير بالإضافة إلى مراكز التسوق الفخمة على طول شارعي الخامس وماديسون ، ومن العوامل التي تجذب السياح أيضا المناسبات مثل عيد القديسين في قرية غرينتش ، عروض عيد الشكر لدى مركز مايسيز، ومعرض اليوم في سانت باتريك ، ناهيك عن ذكر الأنشطة الموسمية مثل التزلج على الجليد في حديقة سنترال بارك في فصل الشتاء ، ومهرجان ترايبيكا السينمائي ، والعروض المجانية في سنترال بارك في سمرستيج وكذلك حديقة حيوان برونكس ، كوني آيلاند، وحديقة نباتية جديدة في نيويورك وغيرها . هذه مدينة نيويورك المدينة ، أما نيويورك الكبرى فهي مقاطعات كثيرة ربما تزيد عن خمسين مدينة .

سمحت السلطات بسفر شمس لكويبك موطنها الكندي ، وسيتابع العم هنري تحقيقات الشرطة والمحكمة عن طريق مكتب محاماة كلف بمتابعة القضية وتوابعها ، ولما استقرت زهيرة في بيتها لم تتحدث مع ابنتها عن الحادث وأسبابه وآثاره ، وكانت تقول لنفسها : حياة صعبة في هذه المجتمعات ذات الحرية الجميلة ؛ ولكنها تحطم النفس .. وعلى الذي يعيش فيها أن يدفع الضريبة اللازمة للغربة ويتحملها .

وشمس نفسها لزمت الصمت حيال الموضوع ، وبعد ذهابها للعمل أخذت البنت للعيادة النفسية الكائنة في المستشفى العام بالمدينة ، وشرحت للطبيب الجريمة التي تعرضت لها ابنتها باختصار ، وأعطته تقرير الطبيب النفسي الذي اطلع على حالتها وعلاجها النفسي بمستشفى نيويورك ، والذي أكد لهما أنه عليها متابعة العلاج النفسي لشمس حتى يذهب أثر جريمة

الاغتصاب عنها ، ولا تفكر بالانتحار أو المزيد من تعاطي الكحول والمخدرات .. ويذهب أثر مقتل صديقتها جولي ، وأثر محاولة اغتيالها هي نفسها ، ولما غادرت شمس العيادة وجدت أمها تنتظرها في صالة الاستقبال ، فخرجتا معا فسألتها زهيرة وهما تركبان السيارة : هل ستذهبين للجامعة أم لا ؟

قالت وهي تشعل سيجارة : طلب مني الطبيب أن أمارس نشاطي كالمعتاد .. أن أذهب للجامعة .. ولا أفكر بمقتل جولي ، ولا فيما حصل معي ، وقال بعد حين ستنسين الألم ، وستسير الحياة ، فالأيام أحسن دواء للمصائب .. ونصحني بدواء .. وأعطت أمها وصفة طبيبة ، وتابعت: وعليّ أن أمر عليه في الأسبوع القادم لجلسة أخرى

قالت أمها وهي تأخذ الوصفة : عليك يا شمس متابعة العلاج النفسي مع الدكتور .. وسأشتري لك هذه الحبوب المكتوبة هنا .. وعندك في الجامعة عيادة الطب النفسي لو جلست مع أطبائها لن تخسري شيئا .. فأنت بحاجة لعلاج النفسي حتى تخف عنك الأحلام والكوابيس التي تزعجك في الليل .. وعليك بعد هذه التجربة الاهتمام بجامعتك وطلب العلم .. لتصيري دكتورة في الاقتصاد .. اليوم أنت أصبحت ناضجة وواعية للمجتمع والحياة ومستقبلك يا شمس في العلم والدراسة ، وإذا فعلت ذلك ستنسين هذه الجريمة الكبرى في حقك .. أنا لست باق لك .. كلنا سيذهب يا فتاتي .. اهتمي بنفسك وصحتك .. وعليك أن تخففي من الرحلات والرقص والسهرات كما نصحك أطباء نيويورك .. حتى يشفى الكبد والرئة مائة بالمائة

ـ دعوت الله أن أشفى يا أمي .. دعوت الله أن يرحمني يا أمي .. كانت أيام إصابتي الأولى مرعبة وكنت عصبية .. كنت أصرخ رعبا وخوفا من الموت .. فاستجاب الله لي وشفاني .. عليّ شكره فكيف اشكره يا أمي ؟

ـ جميل جدا ما اسمعه منك ! هل كنت صادقة فيما دعوت الله به؟

ـ رأيت الموت يا أمي .. قلت يا الهي لا أريد أن أموت ما زلت صغيرة .. إني أحبك يا ربي ..

وها هو يهبني الحياة من جديد لكني ضعيفة ، وأجد نفسي بعد الشفاء ضعيفة أمام الشهوات ساعديني يا أمي

ـ آه يا حبيبتي !.. سأساعدك بكل ما أملك .. ماذا تريدين أن أفعل لك ؟ نجاتك يا شمس حياة لي .. ونجاحك كذلك حياة لي .. نجاحك سيعيد لي كياني وحياتي يا حبيبتي

ـ سأنجح يا أمي سأهتم بدراستي ..

ـ عليك أن تفهمي المجتمع أكثر ..وتعرفي الناس أكثر .. ونجاحك وحياتك هم أهلك وأقاربك هنا .. نحن كما تعلمين لا أعمام لنا هنا ولا أخوال ولا أصدقاء بمعنى الصداقة العميق .. المعارف والزملاء ليسوا أصدقاء .. فأنا منذ طلقني أبوك قد خفت علاقتي بهم .. صلات عمل ومناسبات دينية واجتماعية .. حياتي العمل كما ترين .. والصديق الوحيد لنا بحق هنري ، وهو صديق بعيد عنا .. فإذا تقدمت في العلم وأنهيت الجامعة ، وصرت دكتورة اقتصاد ستكبرين .. فالعلم أهلك وعمك وخالك .. وستنسين جرحك الدامي وموت جولي وينسى الناس ذلك .. إني احبك يا شمس وأريد أن تصيري عظيمة بجد وحق .. وهذا الذي يرفعك في مثل هذا المجتمع ، هم يحترمون العلماء في جميع الاختصاصات .. وهذا سيكون فخرا لأمتك العربية ، وأننا باستطاعتنا أن نصير مثلهم .. عليك بتحديد الهدف والغاية بكل وضوح ووعي .. والسير نحوهما .



حياتي في الغرب

قبل أن ينصرم العام تحدث هنري مع الدكتورة مستفسرا عن حال شمس بعد الحادث الذي أصابها في مدينة نيويورك فردت عليه قائلة : إنها تتعافى رويدا رويدا من آثار الحادث الرهيب ، فقد جعلها الحادث تهتم بجامعتها أكثر .. وأخذت تبتعد عن الأصدقاء الجامعيين الشباب خاصة .. تراهم وحوشا وشهوانيين .. وهؤلاء بادلوها البعد والجفاء .. يبدو كما قال الطبيب النفسي في المستشفى إنها تعقدت من جنس الرجال ، وترى أن علاقتهم بها فقط من أجل قضاء الشهوة .. فهي تتحدث عنهم برهبة وقسوة

فعلق هنري فقال : لقد كانت صدمة كبيرة عليها .. كانت جريمة بشعة .. اغتصاب وقتل من شباب كانت تظنهم أصدقاء ومرحين فانقلبوا لصيادين ووحوش .. وكذلك موت جولي رفيقتها الخاصة .. صدمة كبيرة يا دكتورة .. شفاها الله منها .. أنا حزين من أجلها .. الموقف ليس سهلا

ولما رأى أن زهيرة لزمت الصمت أو أنها تبكي بصمت تابع قائلا : أتصل بك هذه المرة لأخبرك بشيء جد على حياتي يا دكتورة .. قد أتزوج قريبا .. هل أدعوك لحفل الزفاف أم لا وقت لديك ؟

ـ شكرا هنري العزيز.. نجح مشروع زواجك الذي حدثتني عنه ونحن في كوينز

ـ تيسر الأمر ، وقد وصلت الفتاة إلى المدينة تقابلنا ، وعمرها اثنتان وثلاثون سنة ، طبيبة أطفال .

ـ مبارك يا هنري ! وإني سعيدة بما أسمع .. وعندما تحتفلون أرجو أن أتمكن من الوجود بينكم .. وفقكَ الله يا أخي هنري أنت صديق عزيز لنا في هذه البلاد .. وأنا نفسي بدأت تراودني العودة لبلادي .. وإنما شمس تقلقني مع أن لا سيطرة لي عليها ، وهي ترى أنها قادرة على الحياة وحدها وتحمل مسؤولية نفسها .. مع أنني لا أرى ذلك صحيحا .. وعد والدها بزيارة لها ، ولعله يستطيع إقناعها بالعودة معه وذلك بعد إنهاء الجامعة ..

سأل هنري من باب الفضول البشري : وهل علم بالحادث ؟

ـ لم أقدر أن أحدثه بذلك ، تركت الأمر لها .. ولا أعلم هل أعلمته شمس بذلك ؟ وأنا كلامي معه قليل سوى التحية والسلام .. ولكنه يطيل الحديث مع ابنته

ـ عندما يتعين وقت الزفاف سأخبرك .. وأنا أنصحك إذا حللت مشكلة شمس أن تعودي لأهلك خاصة أنك بلا زوج يا دكتورة .. معذرة للتفوه بذلك .

تركت زهيرة الجهاز ، ورددت بانزعاج واضح " بدون زوج! .. ومن أين يأتي الزوج ؟ ومؤسسة الزواج هنا شكلية .. والجنس متيسر في كل زاوية من زوايا المدينة ، ولديهم قرى للشواذ .. ويقرون ويعترفون بزواج المثليين .. وهل هذا زواج ؟!.. ولماذا يتزوج الرجل ويتحمل مسؤولية امرأة وأولاد ؟ .. عشيق صديق .. شهر ، شهران ، سنة .. وكل يأخذ طريقه .. لا حقوق ولا واجبات .. غابة .. زواج حيوانات ..

أخذت شمس تعود مباشرة للبيت بعد سماع محاضرات الجامعة ، ولما حيت أمها قالت : هل علمت أن العم هنري سيتزوج ؟

تطلعت زهيرة بعيني ابنتها وقالت بدهشة : من قال لك ذلك ؟!

ـ مادلين ابنته .. رأيتها اليوم أمام الجامعة فقالت لي " كنت أظن أن أبي طلق أمي ليتزوج من أمك " .. اتصل بي ليخبرني أنه سيتزوج امرأة باكستانية

فقلت لها : امرأة باكستانية .. ولماذا باكستانية ؟

تذكرت زهيرة أنها لم تسترسل مع هنري بالحديث عن المرأة التي ينوي الزواج منها ؛ لأنها تملك بعض المعلومات عنها ، عندما تواجدت معه في نيويورك .

فقالت شمس : سألت مادلين عن ذلك .. فقالت : لا أدري .. لماذا باكستانية ؟ .. ربما لأنها مسلمة ، وأمريكا مليئة اليوم بالمسلمات .. إنما اتصل ليعلم هل أرغب بحضور حفلة الزفاف التي ستقام بنيويورك .. هل علمت بذلك ؟

ـ نعم ، اليوم اتصل بي أيضا يعرض علينا الحضور لحفل الزفاف عندما يتحدد وقت العرس ..

وحدثني عن هذا الزواج عندما كنت معك في نيويورك ، أخبر ذات يوم ونحن حول سرير الشفاء "إنه قد يتزوج ، فقد التقى بطبيبة باكستانية تعمل في المستشفى ، وحدثها عن رغبته بنكاح امرأة مسلمة ، فأعلمته أنها متزوجة ولها شقيقة في البلاد غير متزوجة ، وهي طبيبة مثلها وسعت له في ذلك ووافق أهلها عليه وقبلوه ، وجرت المراسلات ، وها هي وصلت للنهاية ، ويجري الإعداد لحفل الزواج ، وسوف يدعونا لهذا الحفل أنا وأنت.

ـ أنا مثل مادلين ظننت أن هنري عاد ليتزوج منك يا أمي .. هل أنت حزينة يا أمي لأنه لم يتزوج منك ؟

لم ترد فورا بل وجمت قليلا ، ثم تبسمت وقالت : لست حزينة يا شمس .. وإن وقع في قلبي قديما أننا قد نتزوج يوما ما ، والرجل خطبني عندما تركني أبوك .. وبينت له أن المسلمة لا يجوز أن تتزوج من نصراني، فوافق على الإسلام واستعد للإسلام ، لكنني دعوته ليعرف لب الإسلام وحقيقة الإسلام .. فذهب لمصر وتعلم العربية والإسلام ، وأشهر إسلامه في الجامع الأزهر ، وتسمى بعبد الصمد .. واتجه إلى جماعة إسلامية نشأت في الهند ، وما زالت تحمل هم الإسلام والدعوة .. ولما عاد لم نتحدث عن الزواج مني ..

قالت شمس وهي تنهض نحو المطبخ للغداء حيث دعتهم الخادمة لذلك : لقد كان صديقا طيبا أثناء الحادث الرهيب

ـ هنري مسلم طيب ، ويحب الضعفاء ومساعدة المحتاجين

ولما جلستا تأكلان قالت زهيرة : يا شمس أفكر بالعودة إلى بلدي الأول

فقالت شمس بدهشة : تعودين لبلدك .. تعودين لأبي ؟!

ـ أعود لبلادي وليس لأبيك .. أبوك تزوج ، وله أولاد منها .. لقد مللت هذه البلاد .. وما زلت أحس بأني غريبة فيها .. لقد صدمت جدا لم حدث لك .. ولا آمن أن يحدث لي مثل هذا

ـ حدث لي ذلك في أمريكا .

ـ الصحف تنشر مثل هذه الأحداث هنا .. وأنا عالجت الكثير من جرائم الاغتصاب .. ولا

يربطنا شيء مهم في هذه البلاد .. نحن جئنا للعلم .. وليس للبقاء .. ولدى الإنسان حنين لبلاده وأهله .. رغم الجفاء والعداء

ـ الانحلال يا أمي موجود في كل بلاد العالم ، والإجرام لا تخلو منه مدينة

ـ أعرف ، وهو قليل في بلادنا.. فما زالت محطات التلفزة تنقل لنا أخبار الجرائم البشعة والعصابات المنظمة الكبيرة .. وأنا لليوم لم استطع أن أذوب في هذا المجتمع .. ما زلت أجد نفرة من أهل البلاد الأصليين لنا أثناء العمل .. ويضيقون منا خاصة بعد أحداث أمريكا قبل أكثر سنة .. ويعتبرون كل المسلمين قنابل إرهابية.. والعرب خاصة.. لأن الذين دمروا أبراج أمريكا شبانا ذوي أصول عربية .. والتحرش الجنسي في العمل شائع ولا حرج .. والانحرافات الجنسية كثيرة .. أخذت أقتنع أن بلادنا خير لنا من الحياة هنا .. ونحن لا أهل لنا .. نحن نعيش وحدنا يا شمس .



وأجلت أم شمس العودة للوطن حتى تتخرج شمس لتقرر مصيرها بنفسها ، للبقاء في كندا أو ترحل مع أمها إلى بلاد العرب ، لقد أوشكت أن تنهي خدماتها في المستشفى وستطلب التقاعد المبكر من العمل .

كانت زهيرة تتحدث مع أمها على الهاتف كما اعتادتا فعل ذلك ، فنقلت إليها خبر وفاة ابن عمها ميلاد ، فتفاجأت زهيرة للوهلة الأولى وانزعجت ، فقالت : ماذا قلت يا أمي ؟

ـ نعم ، كما سمعت يا زهيرة .. مات في بلاد بعيدة

فكررت زهيرة : ميلاد عادل مات ! .. هل خلفت زوجته ؟

ـ نعم ، ولدت ولدا ذكرا .. منذ يومين جاءنا الخبر .. فقد كان مع جماعة من أصحابه جهة

روسيا الباردة والجليد .. فمرض ثم فارق الحياة قبل أن ينقل لأي مستشفى .

استرجعت زهيرة وترحمت عليه ، وتذكرته وهو يصدم سيارة زوجها سامر، ثم رددت : رحمه الله رحمه الله يا أمي .. أكيد الشيخ حميد حزين عليه ..

ترحمت هناء عليه وتابعت : أهله والشيخ حميد راغبون بنقل جثته للبلد ودفنه هنا بمقابر البلد ورفاقه الشيوخ يلحون بدفنه في تلك البلاد ليبق شاهدا وذكرى لهم ، ولمن يأت تلك البلاد

ـ رحمه الله يا أمي وغفر له .. وأنت كيف حالك ؟

ـ بخير ؛ ولكني حزينة لزوجته التي ها هي تترمل من جديد مرة ثانية ، وحزينة لابنه رفاعة .. سمى ابنه رفاعة .

هزّ الخبر كيان زهيرة كما أثر بأمها ، فقد كان هذا الرجل عدوها وخصمها العنيد أيام شبابها .. ولم تلبث أن سمعت صوت هنري معزيا لها بابن عمها .. فقالت : وقد عرفت !

فقال: نعم ، واتصلت بقريبه الشيخ حميد وعزيته بقريبه ، وأنا أقدم لك التعازي يا دكتورة .. كنت أظن أنك ستعودين للبلاد .

ـ قريبا ، شهور قليلة .. اقترب تخرج شمس من جامعتها ، وعليها أن تحسم أمرها ، إما البقاء وإما السفر مع أمها.

ـ نعم ما تفعلين يا دكتورة ..أريد أن أقدم مساعدة لأسرة شيخ ميلاد .. فأنا أعلم أنه ترك ولدا وزوجة لديها ثلاث أطفال من رجل سابق

ـ أتريد إرسال مال لهم ؟

ـ سأقدم لهم مالا .. ولكن أريد أن أدرج اسم ابنه عن طريق جمعية أو مؤسسة تعتني بالأيتام حتى يكبروا .. فهناك جمعيات عالمية تهتم بهؤلاء الأطفال

ـ جمعية هنا في كوبيك ومونتريال

ـ نعم ، جمعية تقدم مساعدات في أنحاء مختلفة من العالم .. تحدثت مع حميد ؛ ولكنه اعتذر وقال" سنهتم بالأمر .. بالولد وأم الولد .. والرجل ترك ثروة لا بأس بها .. لكن هذه الجمعية

ستهتم به ماديا ومعنويا ، وسيدرس إذا كبر في الجامعة على نفقتها ، فهم يهتمون بتدريس الفقراء على مستوى العالم .. فلهم علاقات على مستوى العالم بجمعيات خيرية ومؤسسات خيرية دولية

ـ سأهتم بالأمر .. وإن أرى أن الطفل له أقارب كثر سيهتمون به .. فأشقاء ميلاد يزيدون عن عشرة ذكورا وإناثا .. والشيخ حميد شريك ميلاد في العمل .. والآن كيف أنت وعروسك الهندية ؟

ـ رائعة ! هي على وشك الوضع .. أكرمني الله بفضله وكرمه بذرية منها .. كيف شمس اليوم ؟

ـ أحسن حالا بكثير من أيام نيويورك .. لقد كان الحادث صدمة كبيرة لها يا هنري .. ما زالت تعاني من آثاره .. وتستيقظ فجأة أثناء النوم وتصرخ .. وتأت للنوم بجواري باقي الليلة

ـ خفف الله عنها ، لم يكن الحادث سهلا عليها .. تحياتي القلبية لها .. وإذا جئت البلاد عند ولادة نورا سألتقي بكم إن شاء الله سبحانه

ـ شكرا لك يا دكتور هنري.. كنت نعم الأخ والصديق لنا في هذه الغربة

ـ إلى اللقاء

وضعت زهيرة سماعة الهاتف وتنهدت وقالت : جميل ! سيصبح هنري أبا من جديد يا الهي ! هنري يحقق حلمه بالمولود المسلم والزوجة المسلمة .. لكنها هندية لم تكن عربية !



عودة زهيرة

تخرجت شمس أخيرا من الجامعة بنجاح وتقدير جيد ، فهي ذكية من ناحية الدراسة ، وإنما كانت تحب العبث واللهو والسهر والرحلات حتى تعرضت للحادث المرعب في أحد شوارع مدينة نيويورك ، فانكمشت على نفسها رغم تعرضها لجلسات طبية وعلاج نفسي ، وذلك بعد تعرضها للموت بالطعن بالسكاكين التي شوهت صدرها .

وزهيرة أنهت خدماتها في المستشفى ، وحصلت على تقاعد الضمان الاجتماعي من المؤسسة التي اشتركت فيها منذ دخولها كندا أيام دراستها في هاليفاكس .

جلستا تتناقشان في مصيرهما ، فكانت زهيرة قد اكتفت وشبعت من الغربة كما قالت لابنتها وهي عازمة على العودة لبلدها بعد كل هذا الغياب فهمست لها : أنا اعلم أنك منذ وجدت على هذا الكون قبل ما يزيد عن عشرين سنة وأنت هنا ، ولا أستطيع إجبارك على الحياة معي .. ولا أحب بقاءك وحيدة هنا يا شمس .. وأنت لك الحرية في حياتك .. فسافري معي لتتعرفي على إخوانك وأقارب أمك وأبيك .. ثم احسمي أمرك إما البقاء معي أم العودة إلى هنا .. بضعة شهور .. تغيير جو .. رحلة للشرق .. وها هي الشقة موجودة ، وستبقى الخادمة فيها إذا أحببت البقاء ، وسندفع إيجار الشقة وراتب الخادمة حتى تصلي للقرار المناسب.. إذا لم يطب لك البقاء تعودين .

احتضنت شمس أمها وقبلتها ، وذرفت الدمع أثناء ذلك ، وقالت وهي تضع رأسها على كتف أمها : فكرت فكرت يا أمي .. عليك أن تذهبي وحدك .. فإذا طاب لك المقام بين قومك وعشيرتك فابق بينهم .. وإذا لم يطب المقام فأنا هنا بانتظارك .. قريبا سأعمل بشركة قدمت لها أوراقي ، والجامعة ستساعدني في الالتحاق بالعمل .. عذرا يا أمي أنا تعودت على الحياة في المجتمع الغربي بسلبياته وإيجابياته .. وربما جئت إليك سائحا في يوم من الأيام .. نحن لن نبقى معا طويلا .

ـ إذن فكرت جيدا في مستقبلك وحياتك .

ـ لي شهور أفكر وأفكر وقد حسمت الأمر.. أنا مكاني هنا .. تعودت على حرية هذه البلاد وطبيعتها .

ـ ولكنك رأيت بنفسك ما جنت حرية أولئك الناس .. ومن ناحية اللباس لا يتدخل بشأنك أحد .. وليس كل الناس يلبسون الثياب التقليدية في بلاد العرب والمسلمين .. فلبس الجلباب أو العباءة حرية شخصية اليوم في بلاد المسلمين .. فأنت هنا اليوم ترين فتيات ونساء يلبسن الثياب الشرعية ويغطين شعرهنّ .. وأنا منذ وعيت لأهمية اللباس في حياتنا وأنا ألبس الثياب المحتشمة وأغطي شعري كاملا واكشف وجهي .. ودرست سنة في الجامعة في بلدي وكنت أرى الكثير من السافرات والمتبرجات ولابسات البنطالات

ـ هل يسمحون لي بلبس الشورت البنطال القصير في شوارع المدن العربية ؟

ـ الأجانب يمشون بشوارع المدن العربية منذ عهد بعيد باللباس القصير ، ومن النادر أن يعترض أحد عليهم .. لكن الذوق العام لأهل البلاد لا يتقبل ذلك .. فها هي قرى الهنود الحمر هنا تتزين النساء والرجال بزي تقليدي لأجدادهم .. كما هو الحال في بلاد المسلمين ..

ـ أعدك يا أمي بزيارة عندما أباشر العمل واستقر فيه .. توكلي على الله ، وعودي لأهلك وأمك وسيكون الاتصال دائما بيننا .. هل علمت أن مادلين ستنتقل للعمل في نيويورك في نفس المستشفى الذي يعمل فيه والدها .

ـ قال لي هنري ذلك

ـ كنت أتمنى أن يقترن بك هنري لتبقين هنا

ـ هنري ليس هنا أنه في أمريكا

ـ كلها بلاد واحدة ، وإن فصلت بينها حدود

كانت الدكتورة زهيرة مجدي قد رتبت مع ابن عمها حميد نبيل بأن يبتاع لها شقة أو فيلا في أرقى أحياء العاصمة ، فوعدها بحجز عدة فلل وشقق ريثما تستقر في البلد وتختار المناسب واللائق بمقامها .

فلما هبطت الطائرة الكندية بمطار العاصمة مع صباح ذلك اليوم من كانون الثاني ٢٠٠٨ .. وكانت على اتصال بحميد الذي رتب على استقبالها ، فلما ختمت جواز سفرها واستلمت حقيبتها من الجمارك التقت بحميد وزوجته في صالة الاستقبال ، وبعد الترحيب والدعاء انطلق بها حيث بيت والدتها التي كانت مستيقظة في انتظارهم ، احتضنتها أمها وتعانقتا على عادة الشرقيين ، فلما انفصلتا عن بعضهما صافحت أم زهيرة زوجة حميد ، وحيت حميد وشكرته فرد لها الشكر وقال : يا دكتورة الحمد لله على السلامة .. وأهلا بك ببلدك العزيز .. والبيوت جاهزة للمشاهدة شقق وفلل .. عندما تجهزين لذلك سنقوم بجولات خاصة إليها .. ثم يتم نقل ملكية البيت الذي تختارينه من صاحبه إليك .

أثنت عليه الثناء الجميل فقال : أرجو أن نخلص من ذلك .. فهذا واجب علينا يا دكتورة .. نحن أهل .

وقبل أن يغادر البيت ويغلق الباب هتفت وراءه : أبا محمد

فتوقف واستدار إليها مستفهما وكذلك زوجه ، فقالت : أريد أن أرى ابن ميلاد ابن ابن عمنا

ـ سنفعل هو الآن مع أمه ، وشكرا لك على المال الذي أرسلتيه له ولأمه .

ـ هو ليس كله مني ، فبعضه من هنري الشيخ عبد الصمد

ـ بارك الله فيكم .. والرجل ترك لابنه ثروة كبيرة .. وأنا قد عملت قسمة للشركة ليأخذ الابن والزوجة حصتهما يتقاسمونها حسب الشرع .. لكن الزوجة ووالدها طلبا أن يبقى المال في السوق .. كما كان أيام ميلاد .. ولما انتهى توزيع الميراث حسب الشرع فأخذت حصة الأم وأشركتها في شغلنا .. أما مال رفاعة فحول لمؤسسة الأيتام لرعايته وتنميته لأنه قاصر .. فهي زوجة طيبة ومسكينة .. السلام عليكم للحديث تتمة ما دمت قد أمسيت جارة لنا .

ـ وعليكم السلام .. سلم على أولادك .. أعود وأشكرك يا أبا محمد .. شكرا أم محمد .

ردت أم محمد بصوت بدا متعبا فقالت زهيرة : آسف .. ما بك يا أم محمد ؟! كأنك مريضة !لم انتبه إلا الآن .

فرد حميد : نعم ، إنها متعبة ، وسنقوم بفحوصات جديدة خلال هذه الأيام .. لما يدخل علينا البرد تبدأ أم محمد بالتعب والمعاناة .. ولما تستريحي ستتكلم عن مرضها ونسمع نصائحك فأنت أخصائية في أمراض النساء .

ـ أنا في خدمتكم ، وفعلا إني في شوق لتقديم شكر عملي لكم .. معروفكم مقدر عندي .. ألف سلامة يا أم محمد .. لم انتبه لمعانتك إلا الآن .

خلال أسابيع تمكنت الدكتورة من ابتياع فيلا في إحدى ضواحي المدينة ، وتم تأثيثها بأحدث طرازات الأثاث والفرش والستائر وأدوات المطبخ وفرن الغاز والبراد (الثلاجة) وغسالة الملابس ، وغرفة نوم خاصة بها ، وغرفة خاصة بأمها وغرفة خاصة بالخادمة .. ولم كمل التأثيث رحلت وأمها وخادمة البيت للفيلا الجديدة .. اشترت سيارة من آخر موديل .. ولما استقرت بالبيت استعانت بخادمة أخرى .. فالبيت الكبير يحتاج لأكثر من خادمة .. وكانت الخادمة الجديدة تحسن الطهي لتقوم بهذه المهمة في البيت .

وأكثر الخادمات في بلدنا من جنسيات آسيوية الفلبين سيريلانكا .. إندونيسيا .. بنغلاديش ..

عرفت زهيرة من حميد أن امرأته تعاني من مرض السرطان سرطان الثدي ، وقد استؤصل أحد أثدائها .. ولكنها ما زالت تعاني من المرض .. فقدمت ما تستطيع من نصائح ، وأهمها استمرار المتابعة والمراجعة في المراكز المعالجة الخاصة .

وفكرت زهيرة بإنشاء عيادة خاصة تمارس بها العمل الذي هو حياتها كما تردد وكما تعودت .. وفي النهاية قررت العمل في مستشفى خاص لتتعرف على البلد وطبيعة العمل في البلد بعد غياب طويل عنه .. والدكتورة لديها خبرة كبيرة وشاركت في تأليف كتب طبية أثناء إقامتها في مونتريال باللغة الإنجليزية والفرنسية .. وما زالت على اتصال بمراكز البحث العلمي والطبي التي نشطت بالعمل معها ، ولديها خبرة عملية كبيرة في المستشفيات وكانت تساعد زوجة حميد في مراجعة المستشفيات المختصة .

حميد منذ وضع نفسه تحت خدمة امرأة عمه هناء محمد ، وهو يتصل بها كل يومين أو ثلاثة أيام

سائلا عن حالها وصحتها وحاجتها ، وحلف عليها إذا احتاجته في أي وقت أن تتصل به أو بزوجته ، وكذلك عود نفسه ليزورها في الشهر مرة أو مرتين مساء الجمعة.. برفقة زوجته أو أمه .. ويرافقها إلى مراجعة طبيب أو طبيبة أو مختبر طبي .. أو مركز صحي الحكومة لاستلام دواء الضغط والسكر الذي تحتاجه شهريا.. وعندما يرافق المشايخ بخروج دعوي .. يكلف أحد أبنائه خاصة عماد الذي يعمل معه بالاهتمام بامرأة عمه .

وكان حميد دون إخوته أكثرهم رعاية لامرأة عمه عن وصية أمه خاصة بعد أن طلق مروان السيدة هناء ، وتزوجت الضابط رستم .. وسفر ابنتها بعد ذلك .. ولاحظت الأم أم سالم ضعف علاقة أبناء رستم بزوجة أبيهم .. وتقبل حميد هذه المهمة بروح طيبة ، وكذلك وصاه والده عند موته بالاستمرار على بره وصلته لها ، وتعمقت علاقة زوجته أم محمد بهناء.. وقدرت هناء هذه الصلة للرحم .. وهذا الود بينهم ، وكانت تألفهم أكثر من أبناء إخوتها وأخواتها .. وكانت تتألم لما أصاب أم محمد من مرض السرطان .. وتدعو لها في كل صلاة بالشفاء والعافية.. ولما ترقد في المشفى تذهب لزيارتها والاطمئنان عليها برفقة أولاد حميد .. لأنها باعت السيارة عندما ضعف بصرها بسبب السكري.. ودعست طفلا ، وكانت إصابته ـ بفضل الله ـ خفيفة .. ولم يصاب بكسر إنما خدوش ورضوض .

واستمر هذا النمط من المساعدة والصلة حتى بعد عودة زهيرة ، رغب أبو محمد بالاتصال الدائم بأم زهيرة ، لم يسع لتغيير ما عود امرأة عمه عليه بحجة عودة زهيرة .. فكان يزورهم بين الحين والآخر .. اجتهد ألا يضعف ما عود امرأة عمه عليه من عادات .. وغالب الحديث الهاتفي يكون بينه وبين هناء الأم .

وفي الآونة الأخيرة كان يصحب ابنته معه الطالبة في الجامعة.. فالزوجة ازداد وضعها الصحي تدهورا .. وأمه أخذت تكتفي بالحديث الهاتفي بينها وبين هناء فالسن أخذ مجراه عليها ، فهي من سن هناء تقريبا ؛ ولكنها تزوجت نبيلا في سن مبكرة ، كان عمرها دون العشرين .. ومرات يأخذ زوجة ابنه محمد التي تعيش معهم .. فبناته الكبيرات متزوجات من أقاربهن ..

ومحمد تزوج قبل مجيء زهيرة من كندا بزمن يسير .. والذي يصغره بسنة تزوج قبل محمد لظروف معينة ، ويسكن مستقلا عن والده ، وعماد الذي يعمل معه في محل التصليح يسعى لتزويجه ، فقد خطب له ابنة خاله ، وهو صديق للشيخ حميد ، ورفيقه في الجماعة ، ويسكن قريبا من بيته ، ويعيش معه في نفس البيت الذي بناه .. وبقي عنده حليمة التي تدرس في الجامعة .. وولد واحد أعزب في المرحلة الثانوية .. فصار يصحب ابنته أو كنته نصف أو ساعة في الزيارة ، ثم يعود للبيت ، وغالب زيارته تكون ليلا بعد صلاة العشاء في فصل الشتاء والخريف ، وفي الصيف بعد العصر أو بين صلاتي المغرب والعشاء

وبعد مجيء زهيرة قليلا ما يلتقيان ؛ لأنها تواظب على عملها في المستشفى الخاص ، وتكون في مراقبة ومتابعة حالة خطيرة أو عملية ولادة ، فأحيانا تعود للبيت بعد منتصف الليل .

فهي تشرف على عمليات الولادة أو تساعد جراحا في عملية قيصرية .. فالولادة الطبيعية تقوم به القابلات العاملات في المستشفى أو ممرضات ذوات خبرات خاصة .



ذات ليلة كان حميد تصحبه كنته زوجة محمد في بيت هناء وزهيرة ، وقد جاء ليطمئن على صحة الأم ، فقد كانت في الصباح عند الطبيب لارتفاع الضغط الدموي ، وحدث لها تشويش في الأذنين ، وعزت الطبيبة ارتفاع الضغط أنها تعشت عشاء فيه نسبة زائدة من الأملاح .. فذكرت لها أنها أكلت أقراصا محشوة بخضار السبانخ ، وبعضها باللحم المفروم .. وشربت كوبا من الشاي به القليل من السكر .

ولما شربوا الشاي وأمامهم الفاكهة ، قالت هناء : سمعنا يا أبا محمد أنك تسعى للزواج على أم محمد .

تضاحك وهو يتطلع في وجه كنته وقال : أم محمد أخبرتك .

تبسمت النساء الثلاث وقالت هناء: نعم ، تحدثت معي لما رجعت من العيادة لتسأل عن صحتي ، وجاء حديث الزواج .

قالت زهيرة : التعدد عند الشيوخ سنة النبي ﷺ ويرونه أمرا طبيعيا

ضحك حميد وقال: التعدد في الإسلام شيء طبيعي ، وقرأ آية النساء (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) .. وأنا حقيقة يا امرأة عمي عندي سبب للزواج ثانية .. فأم محمد كما تعلمون اشتد عليها المرض منذ أشهر ، وهي مريضة منذ سنوات .. فلم تعد تصلح كزوجة لأنها تتعب .. والرجل لا يستغني عن المرأة .. والحلال حلال ولا يصير حرام .. فهذه القصة

فقالت زهيرة : ورأي أم محمد في الموضوع ؟

ـ أم محمد منذ مرضت ، وهي تحثني على الزواج .. فلان له زوجتان .. وفلان تزوج الثالثة .. فزوج أختها عنده ثلاث نسوة .. وتحملت من أجل خاطرها يا أم شمس .. وأملت بشفائها التام ، ولكن أمر الله فوق كل أمر (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

ـ يعني أم محمد راضية بزواجك عليها

ـ هي تريد هذا ، وتدفعني إليه ، وها هي كنتها تعيش معنا .

وتحدثت كنة الشيخ ، وأيدت كلام أبي محمد ، وبينت أن حماها وافق هذه الأيام على البحث عن زوجة تقبل به ، وهو في الخمسين من العمر .. وقالت: ونحن نبحث له عن امرأة صالحة تقبل به .

فقال مؤكدا ما تفوهت به كنته : امرأة صالحة تقبل بي في هذا العمر .

فقالت زهيرة مستفهمة : لم تبلغ الخمسين بعد يا أبا محمد .. أتريد خلفة من جديد ؟

ـ ليس شرط هذا .. هذه تعود للعروس .. لي أكثر من عشر سنوات بدون خلفة.. والولادة والحمل كله بأمر الله تعالى .. أنا الله أعطاني سبعة بين ذكر وبنت .. والتي سأقترن بها ستكون

دون الأربعين في فكري .

وفجأة قالت هناء وبدون مقدمات : لماذا لا تتزوج ابنة عمك ما دام الخلفة غير مهمة عندك ؟

التقت عينا حميد بعيني زهيرة التي أحمر وجهها لمفاجأة أمها ، وبعد لحظة

صمت قالت زهيرة : ومن قال لك يا أمي إنني أريد أن أتزوج ؟!

قالت هناء : أنا أعلم أنك منذ تركت سامرا ، لم تتزوجي ، ولم تفعلي ما فعلت أمك قديما ، قبلت بالزواج من المرحوم مروان ـ رحمه الله ـ الذي مات بحادث سيارة مخيف .. ثم رستم .. واليوم أنت تعيشين معنا ، ورضيت بالحياة هنا ، فالشيخ حميد رجل ومفضال كما تعلمين .. وأولاده يحبونك وحتى أم محمد تحبك وتقدرك .. والأعمار بيد الله .. فكري بما سمعت يا زهيرة .

قالت زهيرة : وهل يرضى بي أبو محمد زوجة ؟

ضحك حميد ، ونظر لكنته وقال : هذا أمر يرجع إليك يا دكتورة .. أنا لم تطمع نفسي بالزواج منك ، ولا أقدم خدماتي لكم من أجل ذلك أو طمعا بذلك .. أنت لك شهور بيننا ، لم تعرفينا بشكل جيد يا أم شمس .. وموضوع الزواج قديم وجديد ولست مستعجلا عليه .. إنما مغريات الدنيا كثيرة كما تعلمون .

قالت زهيرة بشكل مفاجئ : ما دام الأمر لي .. فإذا قبلتني يا أبا محمد زوجة فإني أقبلك .. أنا عرفت طيبتك من الزيارة الماضية كما تذكر .. وأنا لما طلقت صرفت نظري عن زواج جديد .. وربما كما تقول أمي الوضع هنا غير هناك ..فإذا تراني أصلح لك زوجة فعلى الرحب والسعة

ـ أنا غير مصدق لمَ أسمع يا ابنة العم !

تفاجأ حميد والأقارب بقبول زهيرة الزواج من حميد ، ورد بعضهم ذلك ليأسها من وجود زوج من مستواها الاجتماعي والطبي ، وأيضا لكبر سنها .. وليأسها من الإنجاب ؛ لأنهم يعلمون من أسباب انفصالها عن زوجها الأول ضعف قدرتها على الحمل .

جرى حفل زواج متواضع لزفاف حميد وزهيرة حيث انتقل للحياة والعيش في بيت زهيرة ،

وقدم لها مهرا متواضعا ورمزيا ، وقد غيرت زهيرة أثاث غرفتها لتصبح غرفة نوم بسرير مزدوج ، وخزانة ثياب كبيرة .

وقد كان الاتفاق بينهم أن يكون مصروف البيت مناصفة لأن حميدا رفض أن تتكفل زهيرة بمصروف البيت ، وطابت الحياة لزهيرة بزواجها ، وعادت إليها أنوثتها وروحها الغائبة ، وعادت النضارة لوجه زهيرة وحب الحياة ، ورأت أن الحياة الزوجية سعادة ومهمة ومودة وسكينة ، والشيخ حميد سلوكه وكلامه دائما عن الدين والإسلام والجنة والنار، وهذه أشياء افتقدتها زهيرة في حياتها الزوجية الماضية ، وفي الغرب ، وهي اليوم امرأة ناضجة ، ولها تجربة شرقية وغربية ، وشاء مولانا العظيم أن يتم سعادته عليها بأن حملت من زوجها حميد ، فكادت لا تصادق ذلك ، لولا أنه حق وواقع ، وقد أثبتت الفحوصات الطبية والمخبرية الحمل ، وهو حمل طبيعي ، فكانت تقول لزوجها : رغم حملي بشمس ومجد وولادتهما بسلام لم أسعد كما أنا اليوم .

ـ الله عظيم ورحمته كبيرة !.. ونياتنا خالصة لله .. فنحن نذكر الله عند كل جماع كما علمنا الرسول ﷺ لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا – فإن قضى الله بينهما ولدا لم يضره الشيطان

ـ كلام عظيم من نبي عظيم !

ولدت زهيرة ولدا كاملا سليما ، ولما تشاورت على تسميته ، اقترح حميد أن يسمى مجديا على اسم والدها مجدي حسن ، وبعد تردد يسير قبلت وسمته مجديا ، وعلى أثر الحمل والولادة تركت زهيرة العمل في المستشفى ؛ لتتفرغ للمولود الغالي تفرغا كاملا .

وكان حميد منذ سنوات يشرف على العمل إشرافا بسيطا ، سواء مشغل تصليح السيارات أو معرض بيع السيارات المستعملة .. فكان قليلا ما يعمل بيده ، وكانت السيدة هناء سعيدة برؤية أول حفيد لها بعينيها ، فهي لليوم لم تر شمسا ، فكان حميد يقول : غمرتنا السعادة بولادة مجدي الصغير .. وكانت زهيرة طيبة معي لأقصى درجة ، فلا أحس أنها دكتورة ، ولا أنا فني

تصليح سيارات ، لم يكن لهذا ذكر بيننا ، إننا نحيا كزوجين سعيدين .. وهي حقيقة طيبة وواقعية وصبورة ، لم يحدث بيننا منذ زواجنا أي شجار ، فعندما نتناقش حول شيء وأقول لا ، تنسى الموضوع ، فكانت نعم الزوجة .. وكانت تحثني على الذهاب إلى أم أولادي والمبيت بينهم ، وهي تقول " اقسم بننا كما يأمر الشرع والدين " فابتسم لها وأقول " صحيح هذا يا أم مجدي ، وأم محمد عفتني من القسمة لمرضها وسقمها" وكنت أذهب بصحبتها لزيارة أم محمد والبيت القديم ، ويرحب بها الأولاد وزوجتي الأولى ؛ كأنها أخت لهم وأم ، ونتعشى مع أم محمد والأولاد كأنهنّ أخوات ، بل تعاتبها لعدم سماحها بمبيتي عندها فتقول أم محمد " أنا ما صدقت وهو يتزوج .. المرض هدني ، وأنت أعرف الناس بالأمراض "



شمس

كانت زهيرة وشمس تتحدثان مع بعضهما في الأسبوع مرتين على الأقل ، وكان قد جرى بينهن بعد زواج زهيرة بفترة هذا الحوار ، قالت لها شمس : سمعت أنك تزوجت ، لم تخبريني بذلك ! ولم تدعوني لحفل الزواج ؟

ـ وهل إذا دعوتك ستلبين الدعوة ؟! فهذا شأن خاص بي ، ولم أرغب بإزعاجك به .

ـ يبدو أنك حذفتني من حياتك !

ـ أنت حذفت نفسك ، واخترت الحياة وحدك رغم علمك بأنني قررت العودة لبلدي والمكث فيه حتى الموت .. أبوك الذي أخبرك ؟

صاحت بغضب : طبعا أبي ، وقد دهش لجهلي ذلك .. وهو قليل الاتصال بي منذ تخرجت ورفضت العودة معك .. مرة واحدة في الشهر .. هو يطمع أن اتصل به أنا .. لا أدري ما هذا الأب ؟ ـ وأخذت تقلد والدها ـ كيف أنت يا شمس ؟ .. تمام .. موفقة .. مع السلامة .. ينغص عليّ حياتي باتصاله القاتل .. ومرات أقطع الاتصال قبل أن يكمل أسطوانته ..

ـ لم تباركي لي بالزواج !

ـ آسف يا أمي .. حياة طيبة وزواج سعيد .

ولما ولدت زهيرة ، وعلمت شمس بذلك استغربت ؛ لأنها كانت تعلم عجز أمها عن الحمل ، وأنها كانت تجهض كثيرا ، فهنأت أمها على سلامة الوضع ، وفي إحدى المكالمات قالت مداعبة لأمها: أرى أن إخواني يكثرون ! كم لي من جهة أبي ؟! ثلاثة أو أربعة .. ولي من جهة أمي واحد .. جميل أن يكون للمرء أخوة كثر !

فقالت زهيرة بسعادة : والثاني على الطريق .. ألم تجدي زوجا في بلادك ؟

ـ عجيب أمرك يا أمي! .. ولماذا لم تلدي من أبي إلا أنا ؟! .. آ .. وهناك طفل قد مات .

ـ الله يريد أن أنجب من هذا الرجل ..

فعادت شمس تجيب عن سؤال أمها الأخير : لم أجد الزوج المناسب .. من أعرفهم يريدون

زواجا غربيا بدون وثائق .. علاقة جنسية وصداقة .. كرهت كل الرجال .. رأيت صديقك هنري .. ذهبت بمهمة للشركة في نيويورك ، وقبل زيارتي إليه .. ودعاني للعشاء معه ومع زوجته الهندية وابنته مادلين وصديقها الأمريكي .. وبارك لي الشقيق الجديد .. فهو على معرفة بأحوالك أكثر مني ..

ـ ما زال يتصل بي بين الفترة والأخرى .. وهو يفكر بزيارتنا كسائح .. لماذا لا تسأليني عن جدتك وعن زوج أمك؟!

ـ شيء لا يهمني يا أمي

ـ إذن لماذا أحدثك عن حياتي الخاصة ؟! لم تسأليني كيف تعيشين ؟ هل تعملين ؟ كيف حياتك؟

قطعت شمس الاتصال ، فلم تكترث زهيرة لذلك التصرف ، فهي بدأت تتعافى من عقدة الهجرة .. ورأت الحياة بمنظار الدين والتقوى.. وهي قد اعتادت على الجفاء من شمس منذ زمن بعيد .. فهي لم تكن تتعامل معها كأم حنون .. إنها هي مجرد امرأة ولدتها .. ولا يربط بينهم رابط عاطفي ..



فعلا وجدت زهيرة نفسها تحمل من جديد ، فما كاد مجدي يقترب من النصف سنة حتى شعرت بالحمل الثاني ، فحمدت الله وشكرته .. فهي خاضت علاجات كثيرة في كندا ، وكانت نتائجها أن لا أمل لها بالحمل السليم .. فهي قد حملت أكثر من مرة بعد وفاة ابنها من سامر ، وكانت خلال شهر أو شهر ونصف تسقط الحمل .. حتى أيقنت بأنها أمست عاقرا .

وزاد ارتباطها بالله والتسليم له استسلاما كاملا ، وأن دعاء زوجها لها خير كبير .. ورأت أثر الاستغفار بتحقيق الشهوة للولد والأمومة .. وأحبت حميدا حبا كبيرا ، وليس أنه مجرد زوج

لها ، فهو إنسان طيب وسهل .. وكله حنان وعطف عليها وعلى أمها التي تكاد أن تطير من الفرح لميلاد مجدي الصغير ، وتعتقد أنها هي التي ولدته .. وزهيرة تعلم رغبة أمها الشديدة بالولادة ، وتذكر الحرب التي خاضتها من أجل الولادة .. وتكرر زواجها .. فكانت أمها لا تفارق مجديا إلا عند النوم في الليل ، وعند الرضاعة من صدر أمه..

وكانت هناء تظن أن زهيرة ضعيفة الحمل مثلها ، وظنت أن الوراثة سبب ذلك .. فبان لها هذا الوهم.. ومشت الأيام ، وجاء المولود الثاني حسب المقدر له بميعاده ، وولدت زهيرة في مستشفى خاص كالمرة الأولى.. وسمته محمدا على اسم الرسول ﷺ ولقب بمحمد الأصغر ..

فكانت تقول لحميد بوله ومنة : جزاك الله خير الجزاء.. فقد أعدتني للحياة من جديد .. ظننت أن دور الأمومة انتهى في حياتي ..

ـ هذا فضل من الله وحده ..

ـ للأطفال حلاوة يا أبا محمد وشعور بالحياة من جديد

ـ الشكر لله أولا وأخرا .. والأولاد هبة ربانية .. وبتقدير من الله كما جاء في آية سورة الشورى (للهِّ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠))

ـ الشكر لله، نعم ، الشكر لله .. أنا كان أحد أسباب انفصالي عدم قدرتي على الحمل .. كان عندي مشاكل في الدم .. فزعموا أنها تؤثر على عدم ثبوت الحمل وتؤدي للإجهاض المتكرر .. وأنا راجعت تحاليلي بنفسي ، واقتنعت بما كتب في تلك التقارير .. فلما أخذ زوجي الأول يحن للأولاد والعودة والغرب .. وافقت على الطلاق بسهولة ، وتمنيت له السعادة

ـ قصص الحمل والولادة من أعاجيب القدر .. فمنها يا أم مجدي كان رجل متزوجا من امرأة ، وقضيا سوية عشرين عاما بدون إنجاب .. وتعالج في القدس عند اليهود .. وعند العرب .. وبعد عشرين سنة من الزواج أقنعها بالفراق .. بعد أن رفضت كل هذه السنوات .. وتزوج هو وتزوجت هي .. وولد له وولد لها .. هذا مصداق الآية .. يهب لمن يشاء .. وقتما يشاء ..

ولا يعني هذا أن لا يطلب الناس العلاج والطب والأنابيب

ـ فحتى الصديق هنري عبد الصمد الذي تعرفه أخصائي نساء وجراحة نسائية .. أكد لي أن الحمل صعب بسبب مشاكل الدم .. وقد طلبني للزواج قبل إسلامه ، ولكنه لما أسلم طمع بالذرية والولد الصالح ، وذكر حديث أني مباه بكم الأمم

ـ حديث كثرة المواليد " تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم ".. وشرع التعدد في الإسلام لغايات وحكم كثيرة .. ومنها حتى لا تبقى المرأة العاقر بغير زوج وحياة أسرية والعرجاء تتزوج والعمياء كذلك.. ونساء المسلمين المتعلمات المثقفات يجاهرن بالعداء للتعدد فزادت الفاحشة .. زادت العوانس .. صرنا نسمع بزواج عرفي وسري وسياحي .. وندوات ومؤتمرات تعقد لتحريم التعدد .. وإباحة الإجهاض والزنا .. وانتشرت دور الدعارة في بلاد المسلمين سرا وعلنا .. فيقال لنا الإباحية في الغرب منتشرة بصورة فظيعة ، والانحرافات الجنسية لا حد لها .. وبعضهم يبيح زواج المثلين والسماح بالشذوذ قانونيا .. ونسمع أن رجلا وامرأة يلتقيان كأنهم زوجان وليس بينهم رابط قانوني ..

فعقبت زهيرة : من ناحية الجنس، فهو مباح عندهم بأكثر من طريقة .. فالمرأة تعاشر الرجل عشر سنوات قبل كتابة العقد بينهم .. وربما أكثر ، وممكن أن تنجب ، ولا يعترف به ابنا شرعيا .. التحرش الجنسي حدث عنه ولا حرج .. زواج الرجل لرجل مباح في بعض المناطق محرم في غيرها .. ويناقش هذا في برلماناتهم وأثناء حملاتهم الانتخابية .. في مونتريال حيث كنت كانت هناك قرية للشاذين .. يجتمعون فيها لممارسة الشذوذ في شقق وأبنية خاصة بهم .. عندهم فساد ؛ ولكن عندهم احترام خصوصية الناس .. والحكومات والأنظمة قوية .. فالدولة هي الأسرة والأم والأب .

ـ ونحن عندنا حرية .. حريتهم مزيفة .. ماذا صنعت حريتهم بالعراق وأفغانستان وفلسطين حرية مزعومة ؟

دخلت أم محمد المستشفى من جديد ، ولم تلبث أن فاضت روحها لبارئيها ، وفاضت الدموع على روحها من أحبابها ، وتقبل الرجل العزاء فيها من أهله وأهلها .. وترحم الجميع عليها ، وتصدق حميد عنها بالمال والطعام ، وفعلت زهيرة نحوه ، وكانت أم محمد توصي زهيرة على أولادها ، وخاصة الشاب وأخته اللذان ما زالا يعيشان معها ، فوعدتها خيرا .

لذلك بعد انتهاء العزاء نقلت زهيرة البنت والشاب للحياة في بيتها معها ، وكان ذلك بعد تردد ورفض ، ثم رضخا لضغط أبيهم وزوجة أبيهم .. وإنها تفعل ذلك عن وصية لأمهم .. وكانت تقول " فأنتم في عيوني وقلبي ، ووالدكم أغلى إنسان عندي "

وظل محمد وحده في البيت مع أسرته ، وقال محمد : نحن نعتز بك يا أم مجدي ، وفضلك على رؤوسنا ، وأولادك في قلوبنا ، وهم أخوتنا .. وصدقي أن أمنا كانت سعيدة بزواج أبي .. بل كلنا أصابتنا الدهشة لهذا الزواج منك .. فكانت تراك أما لنا "

ـ إني أفخر بكم ، وأنتم كفلذات كبدي حقيقة ، وعاطفتي تسعكم جميعا .. وأحببتكم قبل زواجي من أبيكم ، وكنتم أقول لنفسي وربما لأبيكم أنك ربيتهم تربية عظيمة يا حميد ، ولم تدرس في جامعة ولا تربية وعلم نفس .. وأرجو أن تسعد حليمة ومالك بالحياة معي ، وتدرك أنني أم لها مثل أمها .

وكانت زهيرة قد جهزت غرفة للبنت بما يلزمها من سرير وخزانة ومكتب ومكتبة صغيرة ، وفعلت مثل ذلك للشاب ، وكانت قد أخذت هي وحميد بالاستعداد لتشييد طابق ثاني للفيلا رغم سعتها ، وأبت أن يساهم حميد بشراء أي أثاث للأولاد ، وقبل حميد تلك الهدايا ممنونا وشاكرا لله ثم لها .. نحن نعلم أن زهيرة جمعت ثروة كبيرة من خلال وجودها في كندا ، وهي تحصل على راتب جيد من مؤسسة الضمان الكندية ، فمنذ أن يهبط الإنسان الوافد كندا يحصل على اشتراك في مؤسسة الضمان الاجتماعي .. وقضت زهيرة أكثر من عشرين عاما كما يعرف قارئنا العزيز في كندا ؛ لذلك قالت لحميد عندما رأى سخاء زهيرة : نحن أهل يا حميد .. وأعلم أن الله أعطاك ووسع عليك .. إنما أريد أن أشعر أنني قدمت شيئا ماديا لإخوة أولادي

يا أبا محمد .

ـ أنت بركة حلت علينا .. ما كنت أحلم في يوم من الأيام أن ألمس يدك !.. لذلك صعقت لما تكلمت امرأة عمي عن زواجنا من بعض .. فاعتقدت كما يقال إن ليلة القدر فتحت عليّ .. وتعجبت من قدر الله تعالى

ـ النصيب يا ابن العم .. وأنا مثلك عجبت لاقتراح أمي .. فأمي بعد موت أبي كرهت كل عائلتكم .. إلا أمك وزوجتك .. ورغم الأيام ظلت العلاقات بينهم طيبة لم تتأثر بأحداث العم عادل والمرحوم ميلاد .. وأنا كما تعلم لم يكن لدي اعتراض على الزواج ثانية أصلا ؛ لكن لم يحصل ذلك إلا من الصديق هنري .. عندما خطبني ، واعترضت باختلاف الدين ، وقال سوف أعلن إسلامي في العاصمة وأطلق زوجتي .. فطلبت منه أن يتعرف على الإسلام بحق وليس فقط مجرد تلفظ بالشهادتين والحصول على وثيقة إسلام .. ولما عرف الإسلام لم يراجعني بالزواج أبدا .. قضى حياته في مدينة نيويورك .. وقد تزوج فتاة هندية ، وأخبرني أنها أنجبت له ثلاثة مواليد ، وهو يعيش حياة سعيدة معها ومع أطفاله .. وهؤلاء الأجانب ذوي الأصول الأوروبية يكتفون بولد واحد أو طفلين ..

ـ جزاك الله خيرا .. والأولاد كما تعلمين يعتبرونك أما وأختا لهم .



انتهوا من العشاء في غرفة الطعام ، وانتقلوا لصالون الفيلا حيث الدفء والأرائك الوثيرة يتسامرون ، وبعد قليل انصرفت البنت حليمة وأخوها مالك فهما طالبان في الجامعة ، وحليمة في السنة الأخيرة من الجامعة ، ومالك في كلية الهندسة الإلكترونية ، فهو الوحيد الذي تابع دراسته من أبناء حميد الذكور الأربعة .. وكانت هناء تحتضن محمدا ، ومجدي يجلس بجوار أمه

فهو قد أصبح يمشي بشكل جيد ، فقد تجاوز السنة من العمر .. وبينما هم يتسامرون ويشربون القهوة قال حميد لزوجته : ألا تريدين تزويج شمس ؟

تطلعت فيه وقالت بدهشة : كيف لا أريد ؟! وهل تكتمل سعادة الأم يا أبا محمد إلا بزواج ابنتها وابنها ؟.. هناك الزواج مدني .. يسجل في السجل المدني .. ثم يوثقه المرء حسب دينه وطائفته .. والطلاق مدني ، ويوثقه الإنسان حسب دينه ومذهبه .. ويحتاج الطلاق لمحامي الأسرة .. والزواج المدني سهل الانفكاك منه .. وقد لا يترتب على الزوج التزامات مالية .. الفتاة تتخذ صديقا لها يعاشرها معاشرة الأزواج دون الالتزام بنفقة لها ودون الالتزام بالأبناء وعندما يجد فتاة جديدة يترك تلك ، فالكثير يبعد عن الزواج الرسمي خاصة في فترة الشباب فالزواج الرسمي يترتب عليه عند الانفصال أخذ الزوجة نصف ثروة الرجل ليتم الطلاق .. أو أي مبلغ يتراضيان عليه .. لذلك اخترع الزواج المدني للتخلص من التبعات المالية وعدم الطلاق .. زواج شكلي صوري صورته زواج

ـ ربما لو أتت هنا تيسر زواجها التقليدي

ـ شمس كما تخبر يا أبا محمد ولدت في كندا ، بعد وصولنا إليها اكتشفت أنني حامل .. فهي ابنة كندا ، واندمجت في الحياة الكندية اندماجا كاملا ، فليس عندها اعتبارات لعاداتنا وتقاليدنا ..

رن جرس الهاتف فقامت زهيرة إليه ، فلما تكلمت وسمعت قالت : سبحان الله إنها شمس .. الخلوي في غرفتي ، كنا نتناول العشاء وكنا في سيرتك الآن

ضحك حميد وقال لامرأة عمه وزوجته معا : سأدخل أتوضأ وأمشي للمسجد هل يلزمنا شيء ؟

فتممت هناء بلا أدري ، وهزت زهيرة رأسها " بنعم" ، فدخل المرحاض ، وكانت شمس تقول بعد التحية : هناك مشروع زواج جديد ، والعم هنري طلب مني الحديث معك ، وأتشاور معك وها أنا أفعل .

ـ حياتك هذه وليست حياتي .. بارك الله في العم هنري .. قبل لحظات كان عمك حميد يتحدث عن زواجك

ـ هذا أنا مهمة .. هل لديكم عريس ؟

ـ عندما تأتين يتوفر العريس

ـ وهل يقبل عريسكم بفتاة تعرضت لاغتصاب من ثلاثة شبان وشوهوا صدرها ؟!

ـ المطلقات يتزوجن وكذلك الأرامل

ـ نعم ، ليست كل النساء أبكارا .. كيف صحة إخواني مجدي ومحمد ؟

ـ الحمد لله ، مشتاقون لأختهم الكبيرة

ـ معقول هذا ! هل يعرفون أني أختهم الكبيرة يا أمي ؟ هل يتكلمون؟

ـ مجدي يقول بعض الكلمات

ـ مجدي .. هذا اسم جدي أبوك

ـ رحمه الله

وكان حميد قد توضأ فقالت له : سأتصل بك عندما تغادر المسجد

فحياها وغادر فتابعت زهيرة الحديث مع شمس فقالت : آ يا شمس ما حكاية العريس ؟ عريس العم هنري .

ـ العم هنري صديقنا الوفي ما زال يهتم بي أكثر منكم .. على كل حال كما تعلمين أن مادلين تعمل معه في نفس المشفى .. فهناك طلب صديق له ابنته لابنه ، ومادلين لا تريد الزواج من مسلم تريد زوجا ملحدا كما قال لي ، فذكر له بنت صديقة له في كندا مسلمة وصارحه بمأساتي والجريمة التي تعرضت لها ، والرجل يسعى للزواج من فتاة تحمل جنسية أمريكية أو كندية ليحصل على جنسيتها والمواطنة الأمريكية أو الكندية.. فالرجل إندونيسي مهاجر .. أخبرني بذلك وطلب مني الحديث معك في هذا الموضوع .. فالعم هنري ما زال صديقا للعائلة

ـ هل رأيت الرجل ؟

ـ أنا ما زلت في كندا لم أر أحدا .

ـ حسنا ، رأيي أن تتوكلي على الله .. ليس للزواج الإسلامي مثيل في العالم .. فالبيت هو السكن الحقيقي للإنسان

ـ شكرا أمي



اتصلت زهيرة بهنري على رقمه الدولي فبعد الاطمئنان على الصحة والحياة والأولاد والشيخ حميد وابن ميلاد رفاعة قالت : ما حكاية الزواج يا دكتور عبد الصمد ؟

ـ جميل ! إذن تحدثت معك شمس، كنت أظنها لا تفعل فهي غاضبة عليك بشدة ، وتزعم أنك تركتيها للذئاب .. كيف أطفالك ؟

ـ الحياة عجيبة يا دكتور! كنا على وشك الزواج كما تعلم ، ولولا كلمات تفوهت بها أخذتها بحمل الجد والصدق ، فهاجرت لمعرفة الإسلام في بلاد الإسلام خاصة مصر .. وأنت تزوجت وخلفت ، وأنا تزوجت وخلفت .. وأكرمني الله بزوج رغم كهولته كأنه شاب .. صحة وعافية بفضل الله الحاج أبي محمد صديق صاحبك ميلاد ..

ـ هل حج زوجك حقيقة يا دكتورة ؟

ـ نعم ، حج مع والدته وزوجته قديما .. ذهب محرما لأمه ، فأبوه كان ميتا .. وأنا أفكر بالحج مع أمي إن شاء الله .. عندنا ترتيب معين للحج في بلادنا .. رحلة بالطائرة

ـ تستطيعين الحج عن طريق كندا .. فأعداد الحجاج ضئيلة فيتاح لكل من يتقدم بالحج

ـ حدثني الآن عن الإندونيسيين الذين خطبت لهم شمس

ـ هذا إندونيسي جاء للعلاج هو وزوجته ، ورافقهما ابن لهما ، فلما عرفا أنني كندي مسلم

سرهما ذلك ، ورأيا مادلين معي ذات نهار ، ووقعت عين الشاب عليها فاستحسنها رغم أني بينت لهم أنها مسيحية .. فقال العجوز " ديننا يا دكتور يبيح الزواج من الملل الأخرى، ويحدث ذلك عندنا في إندونيسيا ، ولكنه قليل " .. فهم يريدون تزويج ابنهم فتاة أمريكية أو كندية ليستقر في أمريكا أو كندا للحصول على الجنسية الأمريكية والاستقرار في هذه البلاد .. رفضت مادلين الزواج من مسلم وقالت سأتزوج في يوم ما ملحدا .. لا أحب الأديان كلها .. فتذكرت شمسا ، وشرحت لها القصة ، وطلبت منها الحديث معك .. فالشاب يريد الزواج للبقاء هنا وهو أستاذ في بلده .. وهو رافق والده سعيا للبقاء هنا .. ما رأيك بهذا الزواج ؟

ـ أنا لا مانع لدي من زواجها .. إنما الرأي المهم لشمس .. ماذا ردت عليك ؟

ـ لم ترد عليّ بعد .. عندما أنهي مكالمتي معك سأتكلم معها .. إنها فرصة لا تفوت بالنسبة لفتاة مسلمة ولو شكليا يا دكتورة .. شمس كما تعلمين وأعلم ليس لها من الإسلام .. إلا أن أباها وأمها مسلمان .. لا صلاة .. حتى العربية ثقيلة عليها ..

ـ استفادت من عربيتنا عندما كانت صغيرة ، وعندما كنا أنا وأباها زوجين ، ففي داخل البيت كنا نتكلم العربية .. وفي الخارج الفرنسية والإنجليزية وحتى الخلط بينهما .. وأرجو أن توافق يا دكتور ؛ لعلها تتخلص من عقدة الاغتصاب .. فهي من ذلك اليوم ، وهي تتحدث عن الرجال ببغض وقرف

ـ أحسست بذلك من حديثي معها عدة مرات .. أرجو أن تسلمي على الشيخ حميد .. واهتموا بابن الشيخ ميلاد

ـ أبو محمد ما زال يتواصل مع أمه ويتفقدها ، ويعطيها ما فيه النصيب باستمرار مع أن الطفل خاضع لمؤسسة رعاية الأيتام ، وهي مؤسسة جيدة وترعى الأيتام وأموالهم خاصة .. حتى أن أحدهم عرض عليها الزواج ، فرفضت حتى يكبر أولادها من الزوجين ، ثم قد تفكر بالزواج من جديد .

قد لا تعلم شمس أن أمها ستكون أسعد امرأة بزواجها من ذلك المسلم الإندونيسي .. لقد

راودها كثيرا من الأفكار الرديئة أن شمسا قد تتزوج نصرانيا أو يهوديا أو ملحدا ، فشمس لا تعرف الإسلام كعمل وعبادة .. وهذا شأن عدد كثير من المسلمين أو ذوي الأصول الإسلامية .. هؤلاء يحملون أسماء ذات صبغة إسلامية .. وكأي أم لديها معرفة بالإسلام أو تربت على شيء منه ، ترى ذاك مزعجا ومرعبا مع أنها تدرك تماما أنها في بلد غربي ، ولا تستطيع منع هذا الزواج أو تلك العلاقة .. لأن القانون الوضعي يمنعها من التدخل في حياة ابنها أو ابنتها .. وزهيرة نشأت في بيئة محافظة إلى حد ما .. وكانت تمارس الصلاة والصوم .. منذ نعومة أظفارها .. وتهتم بالمظاهر والشعائر الإسلامية حتى وهي أثناء الغربة كانت تهتم باللباس المتوافق مع الإسلام بدون تشدد أو تساهل .. اللباس المحتشم .. وتحتفي بمناسبة العيد الأول والثاني كسائر المسلمين .. فهي كما مر في ثنايا الكتاب كانت تشك في عذرية ابنتها .. فهي كانت منفلتة ولا تطيع توجيهات ونصائح أمها .. فترافق الشباب والشابات وتدخن الماريجوانا الحشيش والدخان ، وتشرب الكحول .. ولا تعرف الصوم الإسلامي ، ولا الصلاة خاصة بعد دخولها ما يسمى بسن المراهقة .. وأغلب رفيقاتها من النصارى واليهود .. لذلك فكرة زواجها من مسلم بس مسلم وجد لديها ارتياحا نفسيا وقبولا طيبا .. فابنتها لا يهمها الدين والعبادة .. الحياة للحياة .. وهذا مقبول عند أولئك .. فهم لا يرون الدين شيئا مهما في حياة الفرد ، إنما هو أمر شخصي .. ذهبت للمعبد لم تذهب فهو سيان .. فالبيت في بلادهم شركة .. فالزوجة تنفق على البيت كما ينفق الزوج .. لا يحق لها أن تمنعه من الزنا خارج البيت ، وهو لا يمنعها من ذلك خارج البيت .. لذلك فشى بينهم زواج المثلين .. فدعاة الشذوذ ينشطون في بلاد الغرب وأستراليا .. لقد انحرفوا عن الفطرة السليمة .

دخل حميد البيت عصر يوم للمشاركة في تناول الغداء ، وزهيرة منذ اقتربت ولادة مجدي تركت العمل في المستشفى ، وقد طلب مدير المستشفى منها الاستمرار في العمل ولو لساعات محدودة أو حالات طارئة ، فكانت ترى السعادة بالحياة مع ولديها وأن لهما حقا عليها .. خاصة أنها ليست بحاجة للمال ، إنما العمل لطرد الملل ولخدمة الناس .. فلما قاموا عن المائدة ،

وانتقلوا لغرفة الجلوس حيث جهاز التلفزيون وجهاز نقل الفضائيات التي ملئت الكون في هذا الزمن ، قال حميد : أتكلمت معك حليمة حول زواجها ؟

ـ نعم ، قالت إن صديقا لك يطلبها لابنه

ـ نعم ، ابن الشيخ إدريس نوح ، صداقة قديمة قائمة بيننا ، خدم موظفا سائقا في الحكومة ، ولما تقاعد عمل كسائق في إحدى الشركات الخاصة لقريب له .. وحدثني عن ابنه كزوج لحليمة ، وأجلته حتى تنتهي من الجامعة ، ولما علم بتخرجها حدثني سريعا بذلك فقلت له " على بركة الله " وتحدثت مع حليمة بشأنه وطلبت منها أن تتشاور معك ليعد الصالون لاستقبال الضيوف بعد صلاة العشاء .. لنجتمع هنا لنتفق ما دام حليمة وافقت على الزواج

ـ هل رأى حليمة ورأته ؟

ـ فهي قد رأته ، وتعرفه فهم جيران لنا في حيينا القديم .. وهو يعرفها حق المعرفة بحكم الجيرة وبحكم الدراسة في جامعة واحدة أيضا .. فصبر حتى تنتهي من الجامعة .. قد حضر عرسنا على ما أذكر .. وكان يأتي مع أبيه للمباركة بمجدي ومحمد .

ـ لم أصدفه .. وكلمتني حليمة باختصار بالموضوع .. فقلت عندما نجتمع على مائدة الغداء نتحدث ..

ـ سيأتي والده يا عمتي ـ مشيرا لأم زهيرة التي تجلس معهم ، ولا تتكلم كثيرا عادة ، تسمع وتتطلع إلى التلفزيون وتقلب الجهاز بين المحطات الكثيرة ، ويكون محمد على حضنها أو مجدي يجلس في حجرها ـ وعمه وأمه وامرأة عمه وبعض عماته وخالته .. خالد شاب محترم يا دكتورة زهيرة خبرته منذ صغره وهو متخرج من نفس الجامعة التي درست فيها حليمة يعني متعلما ، ويعمل في شركة كبيرة شركة صناعية في المعادن وأنابيب المياه

قالت زهيرة : أنا قلت لحليمة وها هي تسمع .. يا سيدي ما دامت تراه أهلا لها فعلى بركة الله وهذه سنة الحياة .. وها هي شمس أيضا على وشك الزواج . واختصرت له قصة هنري وزواج شمس .

ـ الله يستر عليها وعلى بنات المسلمين .. ألف مبارك يا حضرة الدكتورة

وهنأتها أمها هناء وحليمة .. وأما مالك فقد كان في معرض السيارات يعمل مكان أخيه الذي ذهب في معاملة قانونية .

ـ شكرا لكم جميعا .. مبارك يا حليمة ونهضت تعانقها مهنئة ، وتقدمت حليمة من أم زهيرة ، وعانقتها وتقبلت مباركتها بابتسامة صافية .

وقالت زهيرة : ربما أسافر وإياك لحضور زواج شمس .

ـ جميل أن أرى كندا ! .. على الرحب والسعة .. وربما قابلت الشيخ عبد الصمد .. صديقكم هنري .. فمن كلامك عنه أعجبت به .. وكذلك المرحوم ميلاد كان كثير الكلام عنه .. ويكثر من مدحه والثناء عليه .. والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدا .

ـ رجل شهم منذ عرفناه حتى وهو على دين آبائه ، وعملت مساعدة له في المستشفى كان يحترمني ويحترم أني مسلمة .. رغم ما عرف عنه من شهوات وقصص قبل إسلامه .. لم يحاول أن يتحرش بي جنسيا .. وكان يطيب له مناقشتنا والدكتور سامر حول الإسلام والإرهاب عندما يزورنا في البيت أو نترافق في رحلة .. لكن سامرا كان يغار منه ، وربما شك بأن بيني وبينه شيئا سيئا ؛ لكثرة قصصه مع الموظفات والمراجعات .. ولم يمزح معي مزحة سيئة حول الجنس والعري .. مع أنه كان يفعل ذلك مع غيري .. وكان يحدث عن مشاكله مع زوجته الكندية جنفياف ومغامراتها مع الأطباء وخيانتها الزوجة

ـ واحدة بواحدة .

ـ هكذا هم ! من أراد الانتقام يفعل ما يفعله الطرف الآخر .. معاندة .. والحمد لله لما أسلم تغير كليا واستقر في البيت ، وأصبح داعية كما تعرف ، وأصبح مترجما لهم في دعوتهم في أمريكا الشمالية والجنوبية .

ـ أتمنى له الثبات على هذا الدين ، وأن يموت عليه إن شاء الله ..

ـ هل يلزم شيء لهذه الليلة من طعام فواكه قهوة مرة ؟

ـ تحدثت مع محمد ليحضر الفاكهة معه من البرتقال والموز والتفاح .. وبعض صناديق العصير .. وسيحضر خالد العصير أيضا ، والكنافة العربية للاحتفال بهذه المناسبة يا حليمة.. فنحن أهل وجيران .. فسيحضر أشقاء حليمة مع نسائهم وبعض أعمامي وإخواني ، وأعتقد أن صالة الاستقبال ستسع كل هؤلاء الأحباب والأعزاء .

حضر أبناء حميد جميعهم في هذا اللقاء الاجتماعي الخاص ، وشارك شقيقه الأكبر سالم وباقي إخوته وأحد أعمامه من الذين ما زالوا أحياء ، واستقبلهم حميد وزوجته خير ترحيب ، وأعربوا عن سرورهم بوجودهم معهم ، وبعد صلاة العشاء أقبل الضيوف والعريس ، ومعهم بعض أقاربهم ، واجتمعت العائلتان ، جلس الرجال في صالة الفيلا ، وجلست النساء في غرفة الجلوس التي يجلسون فيها بعد تناول الطعام عادة .. وكان حميد يستقبلهم أمام مدخل الفيلا ، وبعضهم استقبلهم على مدخل بوابة الفيلا الخارجي قرب الرصيف .. وكان حميد يحيي النساء مشيرا بيده ، فهو لا يصافح النساء ، وزهيرة بعد زواجها كفت عن مصافحة الرجال .. وكانت زهيرة تفعل كزوجها تستقبل النساء وترد على تحية الرجال الذين يشكرونها ، ويأسفون لإزعاجها ، فتنظر لهم نظرة تعبر على أنها تتضايق من هذه المداعبة ، وأن البيت لها ولحميد .. وقد تفاجأت زهيرة وهي تستقبل الناس مع أبي محمد برؤية الرجل الذي عرفته شابا أيام دراستها في الجامعة السيد أحمد فذكرت مطعم كلية الطب ، فتذكرته ، وحدقت به طويلا مما لفت نظر حميد ، فابتسم وهو يعانق أحمد ، وأدرك أحمد أن زهيرة عرفته وتذكرته ؛ فلذلك قال باسما : كيف حالك يا دكتورة زهيرة ؟

ابتسمت له وقالت : أهلا وسهلا .. أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟!

فاقترب منها أكثر وقال : وكيف لا تعرفينني وقد قضيت فصلا جامعيا وأنا أتردد على مطعم كلية الطب .. كيف أنت يا دكتورة عساك بخير ؟

ـ أهلا وسهلا .. أنت عم العريس ؟!

ـ نعم ، دنيا يا دكتورة .. لكنني لم أسيء إليك يوما والأخ حميد يعلم ذلك

ضحكت وقالت : أهلا وسهلا ، وقد تصالحت مع الشيخ ميلاد قبل وفاته ونسينا الماضي .

ـ بارك الله فيك ، وبارك الله في أبي محمد .. صدقي أننا نصحناه بترك عناده

ـ عندما جئت زائرة قبل سنوات التقينا وتسامحنا

ـ أخبرنا أبو محمد أنك جئت لتسامحيه

فقال حميد : أبو عيسى مدير قسم التمريض في مستشفى ...

تبسمت زهيرة وقالت : نعم ، كنت طالب كلية التمريض حياك الله

فقال حميد : تفضل فأغلقنا الطريق على الآخرين

نظر خلفه وقال باسما : كلهم يستمعون . . كم تعجبنا لهذه الدنيا أنا وحميد عندما سمعنا بهذا الزواج الرائع ! .. سامحيني يا أخت أم مجدي .

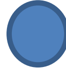
ـ هذا من لطفك .. مرحبا بكم في بيت أبي محمد ..

ـ عقبال ما تفرحين بمجدي ومحمد .. فأولادك معجزة كما يحدثنا أبو محمد

ضحكت وقالت : فعلا إنها معجزة بالنسبة لي أنا !

ـ زواجكم معجزة وأولادك معجزة .

قال حميد : مشيئة الله وقدرته



لا تخلو حياة الإنسان من المنغصات ، من مشاكل اجتماعية، من فساد ، من أمراض عارضة أو دائمة .. الزكام والأنفلونزا بأنواعها تستمر أياما ثم تذهب ، والشيخوخة لها أمراضها ، من مرض السكري والضغط والكولسترول وضعف البصر وهشاشة العظام والروماتزم والمفاصل ، وهناك أدوية تعالج وتخفف من آلام تلك الأمراض ، وتشيع أمراض مؤلمة كأمراض القلب والأورام والكبد .. ومع تلك الأسقام الكثيرة ، فالحياة بيد الله والصحة من الله تعالى .. وكما مر بنا فأم زهيرة كانت تعاني من أمراض مختلفة كالسكري والضغط ارتفاعا وتصاب بغيبوبة السكري ، وتنقل للمستشفى للعلاج والمراقبة ، وربما تقضي ليلة أو أكثر ، ثم

تنكشف الغمة وترجع للبيت .

وكانت زهيرة تفكر حقا بأخذ أمها وزوجها في رحلة حج بواسطة الطائرة والذي أجل ذلك في أحد المواسم ولادة محمد .. وها هو مشروع زواج شمس من الشاب الإندونيسي الذي رافق والديه في رحلة علاجهما يتطور إلى الأمام .. فقد ذهبت شمس لنيويورك لمقابلة الشاب ، والتقت به على مائدة هنري ورافقتهم مادلين على ذلك العشاء ، وأبدى الشاب قبوله واستحسانه للعروس الكندية ، وأنها راقت له ولأهله ، وقبلته شمس وقنعت بالزواج منه ، وترتب على هذا اللقاء أن تسافر أسرة بايك إلى مونتريال لإبرام الزواج وعقد القران ، ليتحدد وقت الزفاف بأسرع وقت ممكن ، ليبدأ عبد رحيم بتقديم أوراق الهجرة لكندا ، ويطلب الجنسية الكندية لزواجه من فتاة تحمل جنسية كندية.

أخبرت شمس أمها بكل ما جرى لها من ذهاب للعم هنري ، ومقابلة سيد عبد رحيم وأسرته وقالت : شاب جميل آسيوي ، وقبل بي زوجة له .. شكله مقبول .. عمره خمس وثلاثون سنة يا أمي .. والزواج لابد منه .. ولكنني لا أدري هل أكون معه سعيدة أم شقية ؟!

ـ هذا من الغيب يا شمس سلمي أمرك لله .. ويسرني أن أبارك لك هذا الزواج

ـ قبلت تهنئتك ، هل ستأتين أنا وحيدة يا أمي في هذه الدنيا . وغصت باكية وفعلت أمها مثلها وقالت : طبعا سآتي ومعي عمك حميد

وصاحت : ولماذا حميد ؟!

ـ ألا تحبين أن يشارك في زواجك ؟ متى سيكون الزواج ؟

ـ خلال أيام .. سنذهب لتسجيل الزواج ، ثم نحدد يوم الزفاف

ـ هل يعلم والدك بهذا الزواج ؟

ـ أخبرته ، ووعد مثلك بالحضور يوم الاحتفال به

ـ ألا يريد شهود العقد ؟

ـ لا ، ويقول إن هذا التسجيل لا يهم المهم ما يكتب عند القاضي .. ووعد بالسفر .. هل

ستأتين ؟

ـ نعم ، متى تحبين أن أكون عندك ؟

ـ لو سافرتم اليوم لا بأس

ـ حسنا

راجعت زهيرة السفارة الكندية ، وقابلت السفير لأنها تعتبر أحد الرعايا الكنديين في البلد .. فالبلد يسمح بازدواجية الجنسية .. فسهل السفير سفرها بصحبة زوجها وابنته حليمة وابنها الصغير محمد ، لما علم الغاية من هذه السفرة ، واشترت التذاكر لها ولزوجها ولحليمة ومحمد الصغير ، وكانت شمس والعم هنري وقرينته الهندية في استقبالهم بمطار مدينة مونتريال الدولي ، وعانقت شمس أمها بحرارة وبكاء وفرح وصافحت زوج أمها ، وقبلها بدوره من خديها ، وأحبته من أول نظرة ، وخاصة لما رأت عناق هنري له وترحيبه الحار به .. وسلمت على حليمة وقبلتها ، وأخذت أخاها الصغير وقبلته من وجهه قبلا لا عدد له ، وهي تقول : من الرائع عم هنري أن يكون للإنسان أخ .. وسلموا على زوجة هنري ، وتعرفوا عليها ..

ورحب بعضهم ببعض ، وعاد حميد يرحب بشمس ويقول : أهلا بك يا ابنتي الغالية ، فأرادت أن تقبل يده على عادة الشرقيين ، فسحبها وقال باسما : هذه عادة حسنة يا شمس ونوع من البر للآباء .. وأنا سعيد برؤيتك .

والتفت لهنري وصافحه من جديد : تحياتي لك يا شيخ عبد الصمد وجزاك الله خير الجزاء بما قمت به نحو الشيخ ميلاد والعزيزة زهيرة

وقبل أن يرد هنري ، قالت شمس وقد عادت لحمل محمد الرضيع : هذا أخي يا عم هنري .. أرأيت صار لي أخوة .. رائع هذا الطفل يا أمي ! .. ما رأيك أن تهبيه لي .. إنني أحبه .. ما أروع ابتسامته !

وعادت لتحضنه وتأخذ بعناقه ثم التفت لأمها وقالت : كم أحبك يا أمي !

بارك هنري لحميد وزهيرة بحياتهم ، وركب هنري وزوجه بسيارته ، وحميد بسيارة أجرة مع

أسرته ومعهم شمس إلى الفندق الذي ينزل فيه هنري وقرينته .

وتناولوا العشاء في الفندق .. وانطلقت شمس بأمها وأخيها وحليمة إلى سكنها لترتيب أموره والذهاب لشراء ثياب خاصة بالزواج وحفلة العرس .. لأنها ستبقى تعيش مع زوجها بنفس الشقة حتى يتيسر له العمل ، وبعدها يفكران بتغيير الشقة .

وسألتها زهيرة عن والدها وموعد حضوره ، فقالت بغضب : لا يريد أن يحضر فهو مريض ، وهو في المستشفى .

فقالت : كأننا سمعنا بذلك .. قال ذلك أحمد عم خطيبك يا حليمة

فقالت شمس لحليمة : كيف أنت وأمي ؟

ـ عل خير ما يرام

ـ أنت وأمي على خير ما يرام ؟!

ـ ما الغريب في نظرك ؟! .. أمك إنسانة طيبة وعظيمة، ولم نر منها إلا كل خير .. صدقي هذا وهي كأمي معنا .

ـ أنت التي خطبت قبل مجيئك ؟

ـ نعم ، وقريبا سنتزوج

حليمة تحسن الكلام بالإنجليزية ، فقالت شمس لحليمة: ما رأيك بالهجرة لهذا الدنيا ؟ فالشيخ هنري يستطيع تدبير أمر هجرتكم إلى هنا فله أصدقاء في وزارة الخارجية .

ـ ليس كل الناس يحبون الهجرة يا أخت شمس .. الحياة في الغربة صعبة ومرة كما يقال عندنا " الغربة مرة " .. والناس يحتاجونها مضطرين بسب السياسة أو الحاجة الاقتصادية .. فها هي أمي زهيرة تغربت عشرين سنة وأكثر ، ولم ترتاح في الغربة .. أليس كذلك يا أمي ؟

قالت زهيرة : من ناحية الراحة النفسية الإنسان مع أهله وأحبائه أفضل خاصة عند الملمات والشدائد .. وأما من الناحية المادية فالمال والثروة هنا أفضل .. البلاد جميلة ، والقانون على الجميع ، والجميع يحسب حسابه .

وساق هنري حميدا إلى وسط مونتريال ليتفرج على المدينة ، ويسمعان أخبار بعضهم ، وكان جل حديثهم عن ميلاد ولقائه في ربوع رايوند ودكا ومدن أخرى من تلك البلاد .. وقال : الإنسان يصنع حياته .. ونحن نرى الجهل الكبير في مدن العالم ، كلهم يركضون حول الشهوات .. المال والفاحشة .. والناس بسطاء لكن الجهل كما قلت يركبهم ، لا يفكرون بجنة ونار ويوم قيامة وحساب .. وفريق في الجنة وفريق في السعير .

قاما بجولة بسيارة هنري المستأجرة في شوارع المدينة وساقه إلى أحياء شرقية وأماكن عربية ولبنانية .. ومصرية وصينية .. وأراه بعض مساجد كندية ، ولكنها كانت مغلقة لانتهاء صلاة العشاء من وقت طويل .. ورأى الحدائق الكثيرة والجميلة .



قالت زهيرة لما دخلوا شقة شمس الشقة التي ستتزوج فيها : هذا يا أبا محمد بيتي قبل عودتي للوطن .. أنا لم أدرس الجامعة الأولى في مونتريال .. درست في مقاطعة أخرى اسمها نوفا سكوشا .. سكنت هنا عند العمل ، ثم تركتها لشمس عروسنا الجميلة .

فقالت شمس : آه يا أمي ! أتمنى أن أعيش السعادة وأحس بها

احتضنت الأم ابنتها وقالت البنت : ليتني سافرت معك .

ـ يا حبيبتي يا شمس وأنا رغبتي أن تعودي معي ؛ ولكن الحال قد تغير اليوم .. كيف عبد رحيم ؟

ـ طيب ، وقليل الكلام وهو غامض

فقال هنري وهم يستريحون على المقاعد في غرفة الاستقبال : لي سنوات لم أجلس هنا يا أم محمد منذ انفصالك عن الرجل .. كانت لا تسمح لأحد من الرجال بزيارتها لما حدث الانفصال يا أبا محمد .

رد أبو محمد باسما : الدكتورة تعرف الأصول وحرمة البيوت ..

وقال هنري لشمس : وأما غموض عبد الرحيم يا شمس فهكذا الناس

الذين يأتون بلادنا يحيطهم الغموض حتى يحتكوا في المجتمع ، فتذهب عنهم الريبة والخوف من المجهول .. والزواج في النهاية تجربة .. قد تنجح وقد تفشل .. فلا تقلقي إذا لم ترتاحي معه .. فالطلاق بالنسبة لكم أنتم المسلمون أسهل من كاثوليكيتنا التي كنت عليها .. توكلي على الله يا شمس .. أنا سأنصرف أيها الأصدقاء .. وغدا سيكون الغداء بدعوة مني ، فقد حجزت للجميع في مطعم .. نحن أخوة في الدين " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " .. الدكتورة زهيرة تعرف المطعم في وسط المدينة .. وسيكون الاحتفال بالزواج مساء الخميس ، وهو احتفال صغير دعونا له الأحباب والأصدقاء ، وفيه بعض رفيقات شمس .. لم ندعو ذكرا واحدا من معارفها سواء في العمل أو في الجامعة ..

شكر الجميع جهود هنري معهم ، وهنري كان يخدم العائلتين ، واعتبر نفسه مسؤولا عن العروس والعريس ، وغادرهم هنري باسما .

قال حميد بعد مغادرة هنري الشقة : سنصلي أيها الناس الطيبون ، ثم نجلس مع عروسنا بعض الوقت ، ثم تذهبون للسوق أو الأسواق لشراء ما يلزم العروس الجميلة شمس

قالت زهيرة : ليلة أمس اشترينا بعض الأشياء

قالت شمس : أنا لم ابتاع شيئا قلت حتى تحضري .. وأنا أقدر حضورك يا أمي لمشاركتي هذا الزواج ..

ـ هذا واجب عليّ يا شمس .. فأنا أكون سعيدة بسعادتك .. وسترافقنا طبيبة صديقتنا .. تعرفينها " نوسي " فهي ماهرة بالمشتريات، والتنقل بين المتاجر

هتفت شمس بفرح : رائع !! .. لقد ابتاعت لي الكثير من الأشياء .. لي عهد لم أرها يا أمي ؟

ـ ذهبت المكسيك منذ سنوات للعمل في مستشفى هناك .. وعلمت أني هنا وأنا أتحدث مع زميلة لي في العمل .. وأخذت رقمها وتحدثت معها فرحبت ..

ـ صديقتي ليزا ستنتظرنا في شارع ... ومعها سيارتها

ـ لا بأس يا شمس.. سترافقينها وأما سيارتي التي استأجرتها فستقل حليمة ونوسي .. وأبو

محمد سيعود للفندق .

بعد العصر خرج الجميع من الشقة بعد تناولهم الغداء ، وترك حميد أمام الفندق فجلس في صالة الاستقبال وطلب فنجان قهوة .. ثم صعد لغرفته وغرق في النوم ولم يستيقظ إلى على رنين جرس الموبايل ، وكانت المتصلة زهيرة لتخبره أنها ما زالت تتسوق ، وربما تتأخر في السوق لنصف الليل .. فعجب من حب النساء للسوق والشراء، فدعا لها بالتوفيق والعودة سالمة ، وأعلنته أنها ربما تقضي ليلتها هي وحليمة في شقة شمس .

نهض عن السرير ، وصلى المغرب ، وتلقى اتصالا من هنري الذي ينزل في نفس الفندق مع زوجته وأطفاله ، واتفقا على اللقاء في فناء الفندق ليصليا العشاء في أحد مساجد المدينة ، فرحب حميد بذلك وأخذ يستعد للنزول لمدخل الفندق .

وقضيا ساعات طيبة في شوارع المدينة ، وصليا العشاء في مسجد وتعشيا في مطعم وجبات سريعة ، ثم قفلا عائدين للفندق ، وقدم حميد الشكر الجزيل للدكتور ، وتخلل مشوارهما الحديث عن الدعوة وميلاد وحماسه وحبه للخروج ، والإسلام في كندا ونشاط جماعة التبليغ .

فاعلم أن الوجود الإسلامي في كندا مثله مثل الوجود الإسلامي في كل بقعة من بقاع الأرض، فالمسلمون هنا منتشرون في أنحاء كندا ، وإن كانوا يتركزون في تورونتو ومونتريال على الأخص ، فهم يحاولون أن يحتفظوا بهويتهم ، ويتمسكوا بإسلامهم ، في ظل ظروف صعبة للغاية.

فالمسلمون هنا إما ممن لا ينتمون إلى تجمعات و جماعات (مستقلون) ، وإما من لهم انتماء جماعي سواء لمسجد أو لجماعة إسلامية من الجماعات العاملة في الحقل الإسلامي العالمي ، كـ "الإخوان المسلمين"، وجماعة "التبليغ والدعوة"، و "حزب التحرير"، و "السلفيين"، والصوفية. أما "الإخوان" فلهم وجودهم ولهم نشاط حركي أكثر منه فكري، ليس لهم رأس معروف أو قيادة متميزة ، أما جماعة "التبليغ والدعوة" فهم منتشرون بشكل كبير ويسيطرون على عدد من المساجد ، ونشاطهم كما هو معروف يتلخص في الخروج في سبيل الله وتبليغ

الأمر لأكبر عدد ممكن ، أما عن "السلفيين" فهؤلاء يعملون فرادى بشكل عام ومن خلال مساجد معينة معروفة ، وينشطون أكثر ما ينشطون بين الشباب وبين الملونين من الكنديين والأمريكيين. وهناك عدد من التجمعات الضخمة لجمعيات إسلامية مثل جمعيتي (**ISNA**) و (**ICNA**) وهي جمعيات إسلامية ضخمة لها مراكز ومدارس إسلامية ومكتبات ومؤتمرات ، مما لا وجود لمثله في شرقكم العربي .

وهناك تجمع إسلامي ضخم في الجامعات يعرف بـ (**MSA**) ، وهو تجمع شبابيّ في أمريكا الشمالية ، والإخوان لهم نشاط فيه، وكذلك بقية الاتجاهات ، كذلك تجد في كندا "الصوفية" وتجمعهم من أكثر الجماعات انتشارا هنا، ولهم مراكز عديدة ومؤتمرات مشهورة.

موقف الدولة منهم يتوقف على الجماعة ذاتها ، وإن كان هناك الآن قاسم مشترك من العداء مع الدولة لهم جميعاً إلا "الصوفية"، فالدولة تشجعهم وتعاونهم ، خاصة في أمريكا، أبرز هذه الأنشطة هو العمل من خلال المدارس الإسلامية ، التي تتبع عادة مقررات كندا ، ثم تضيف اللغة العربية والقرآن ، ثم المؤتمرات التي تكون بمثابة نشاط اجتماعي أكثر منه إسلامي.

هناك مساجد تخضع بشكل كامل لجماعة "التبليغ والدعوة"، وهناك مساجد تخضع لأهل السنة وغيرهم ، وهناك مساجد معروفة لجمعيات – (**ISNA**) أكبر جمعية إسلامية في أمريكا الشمالية– و(**ICNA**) ، وهي جمعيات مسئولوها عادة من المسلمين الباكستانيين.

لما التقى بزوجته وابنته وشمس ، وسألته زهيرة كيف قضى ليلة أمس ؟ حدثها عن تجواله برفقة هنري في الشوارع القريبة من الفندق ، حيث صليا في أحد مساجد المدينة ، وقال معقبا : شيخ طيب هذا الطبيب.. الحمد لله الذي هداه لدين الإسلام ـ ما شاء الله ـ لحيته الحمراء جميلة !

فقالت شمس: أنتم لماذا لا تحلقون لحاكم ؟

فرد حميد باسما : تشبها بالنبي محمد ﷺ ، فقد كان ذا لحية كثة يا شمس ، ومن أحب شخصا حاكاه وشابهه في زيه وأخلاقه وسيرته ، وأمك عندما تلبس العباءة تلبسها تأسيا بنساء

المؤمنين في زمن الصحابة رضي الله عنهم .. فالإسلام بين تفاصيل اللباس الشرعي والأكل والشرب .

ـ عبد رحيم بغير لحية ؟!

زادت ابتسامته وقال: كثير من المسلمين بغير لحية.. هناك بعض المشايخ والعلماء في هذا الزمان يشوشون على الناس بفتاوى تجيز حلق اللحية .. ورغم كلامهم فالذي يلتزم بهدي النبي ﷺ يطلق لحيته .. فكما يحب أن ينام على سنة النبي ﷺ ، ويأكل على سنة النبي ﷺ ، ويلبس على هدي النبي ﷺ ، فليعف لحيته على هديه ﷺ " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ "

فتمتمت شمس : قوى الله إيمانك يا عم حميد

ـ وإيمانك يا ابنتي ، وإن شاء الله بعد زواجك نراك في بلادنا ضيفة علينا ؛ لتري أخاك مجديا وأهل أمك .

فهزت رأسها وقالت : سأفعل إن شاء الله .. أليس هكذا تقولون ؟

ضحكوا ورد حميد : بلى ، دائما على المرء أن يقول إن شاء الله

فأكدت وكررت من جديد : سأفعل إن شاء الله .. وسيأتي عبد رحيم الليلة للشقة للتعرف عليكم يا أمي

فقالت زهيرة : أهلا وسهلا به ..

جرى حفل زواج شمس على خير ما يرام ، حضره أمها وزوجها وحليمة ، والدكتور هنري وقرينته وأطفاله ، ونوسي وليزا ، وبعض صديقات شمس في العمل والجامعة أيام الدراسة .. وبعض زملاء هنري وزهيرة في مستشفى مونتريال العام ، ومادلين وأمها جنفياف ، كان حفلا بهيجا متواضعا بغير رقص وخمر، قدمت فيه الحلوى العربية والإندونيسية الشائعة هناك ، وعلب العصير ، واستمر الحفل ساعة ونصف ، فقد قدمت فرقة أناشيد ذات أصول آسيوية أناشيد بإحدى لهجات جنوب شرق آسيا ، ورتب هذا هنري مع شاب شرقي متخصص في تنسيق مثل هذه الحفلات ذات الطابع الإسلامي والشرقي .. ويوجد في كندا نوادي عربية

تستطيع تقديم حفلات عربية وموسيقى عربية ورقص عربي .

عند انتهاء الحفل اصطحب عبد رحيم زوجته شمس بسيارة زينت حسب التقاليد الإندونيسية إلى المطار حيث سيذهبون إلى منطقة سياحية في كندا لقضاء ثلاث ليال فقط ، ثم سيعودون لشقة شمس التي هيئت لتكون مخدع زواج العروسين وعشا لهما .

وودع هنري العروسين قبل سفرهما ، وبارك لهما ، وتمنى لهما السعادة ، وودع حميدا وزهيرة ووعدهما بزيارة خاصة لهما ، وفي الصباح غادر المدينة بصحبة زوجته وأطفاله ومادلين ابنته .

والد ووالدة عبد رحيم سينتظران عودة ابنهما وعروسه من الليالي الثلاثة ، ثم ينصرفان لنيويورك ومتابعة العلاج .

وحميد وزهيرة وحليمة سينتظران أيضا عودة العروس ، وسيذهبون في رحلة لمدة يومين إلى مدينة الدببة في تشرشل .. وهذه فرصة ربما لا تتاح لحميد ثانية في بلاد المحيطات الثلاثة..

وبعد عودة العروس سيقضون يومين أو ثلاثة معهم ، ثم يعودون لبلادهم العربية .

أخذتهم زهيرة برحلة بحرية بعد عودتهم من مشاهدة الدببة القطبية في موطنها الأصلي رحلة لمشاهدة الحيتان من مونتريال إلى نهر (ريفيير ردي لوب) رحلة تستغرق ثلاث ساعات على الأقل لرؤية الحوت والفقمة ، وزاروا الحديقة النباتية وبيت الحشرات ، وبعض المتاحف المتخصصة كقبة مونتريال الفضائية والمركز الكندي للمعمار ، ومتحف التاريخ والآثار ، وسوق جون تالون للتسوق وشراء الهدايا ، وغيرها من معالم المدينة ، وختمت برحلة نهرية إلى (لوي جوبيه) حيث مشاهدة شلالات مونتمورنسي .

وبعد زفاف شمس بأسبوع غادروا بلاد كندا لبلاد العرب والشرق الأوسط بها يحملون من ذكريات وهدايا لأحبابهم ، وقد اشترت زهيرة الكثير من الملابس للعروس حليمة ، فكانت في الواقع تكسي شمسا وحليمة ، ورفضت اعتراض حميد وحليمة ، فسكت حميد وسكتت حليمة .

وكان الوداع حارا بينهم ، وقد بكت شمس وهم يفارقونها ، واحتضنت أمها طويلا وقالت

لها زهيرة : هذه هي الحياة يا شمس لقاء وافتراق ، وأتمنى لك الخير والتوفيق في حياتك الزوجية .. وزوجك شاب طيب ومحترم فحافظي عليه .

فقالت شمس : كنت أتمنى أن تبقي بعض الوقت هنا ؛ لكن مجدي الصغير بحاجة لك أكثر مني .. لعلي أراه .

ـ سترينه إن شاء الله

فقالت شمس : أحس أنها آخر مرة ستأتين لهذه البلاد .

ـ العلم عند الله ..(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)

ـ لو أحس أن الحياة عندكم ممتعة ٥٠٪ لسافرت معك قديما يا أمي .

ـ الإنسان يصنع حياته ، ويبرمج نفسه للأفضل ، فلنتواصل على الأنترنت والاميل ، ولنبق أصدقاء يا شمس .. ولن أنساك أنت قطعة من كبدي وروحي .

ورغبها حميد بالتعرف على الإسلام والصلاة ؛ لتكون قدوة للمسلمات في بلاد الغرب .

ووعدته خيرا ، ووعدته بتعلم الصلاة والإسلام ، فزوجها يعرف هذه الأشياء ، ولغته الإنجليزية جيدة .

الرحلة الجوية بين كندا والوطن تستغرق وقتا طويلا ، وتهبط الطائرة الكندية في لندن للتزود بالوقود الخاص بالطائرات ، وقد ينزل منها ركاب ، ويصعد آخرون متجهين إلى بلدهم . ومدينتهم شرق غرينتش الخط الدولي للمواقيت الدولية ، زاعمون أنه وسط الكرة الأرضية طوليا ، وتبعد عنه البلد ساعتين شرقا ، وكندا غربه بخمس ساعات .

بعد رحلة طويلة حطت الطائرة في مطار المدينة العامرة بأهلها ، ووصلوا مع الفجر ، وكان محمد حميد في استقبالهم بسيارة أبيه ، وكانت زهيرة قد لاحظت أن محمدا كاد أن يهم بكلام معها ، فأشار له والده بالصمت وقال : عندما نصل .

نظرت زهيرة لحميد باستغراب وأحست بشيء في قلبها ، وتظاهرت بأنها لم تلتفت لهذه الحركة، ومشت السيارة في شوارع المدينة الخالية من السيارات ومن البشر في هذه الساعة من

الفجر ، وعندما نادى المؤذن لصلاة الفجر كانوا قد اقتربوا من فيلا زهيرة ، ولما رأت زهيرة عددا غير معتاد من السيارات يقف أمام الفيلا ازداد خفقان قلبها ، وأحست بحدوث شيء أخفي عنها ، فالتفت لحميد وقالت باضطراب : أولادك هنا ، والوقت مبكر يا حميد !

ـ كل شيء بأجل مسمى يا أم مجدي .. عظم الله أجرك في أمك .

كانت السيارة تقف ، فهتفت بلوعة ودهشة : أمي ماتت ؟!

ـ لله ما أخذ ولله ما أعطى .. رحم الله السيدة هناء أم زهيرة .

بكت وكما تبكي النساء والناس عند الموت .. الموت له هيبة في النفوس .. فتح حميد باب السيارة الخلفي ومسك بيدها وهو يردد كلمات العزاء والمغفرة .. وتقدموا نحو المدخل الداخلي بصمت ودموع تتساقط ، ولما استقرت في جوف البيت كانت نسوة في انتظارها وعانقنها وعزينها بأمها ، وتقدم أولاد زوجها معزين لها وداعين للميتة بالمغفرة .. فمشت إلى غرفة أمها ، وهي تستنشق الهواء والحزن ، وجلست على السرير باكية ، ورافقتها بعض النسوة وحميد ، ثم تركها جالسة على سرير أمها تبكي ، وعاد يسلم على أولاده ويعانقهم كعادة العائد من السفر ، وكانت زهيرة تخاطب من معها في الغرفة : متى ؟ وكيف ؟

ـ بعد سفركم تعبت ، ونقلت للمستشفى ، وبعد يومين فارقت روحها بدنها ، ماتت وهي تدعو لك بطول العمر والفرح بمجدي ومحمد كما فرحت هي بك .. رحمها الله .

عاد حميد للغرفة ثانية وكرر العزاء فقالت : هل عرفت يا حميد بموتها ؟

ـ بعد وصولنا بأيام قليلة أخبرني الأولاد ، ولم يكن أمامي إلا الصمت ، فنحن ذاهبون لفرح شمس ، فما وجدت إلا كتمان الخبر حتى نعود .. لتفرحين بشمس وتبتهجين بزواجها .. والأجل قد انتهى .

ـ شكرا أبا محمد .. كلما أتصل يقولون نائمة شربت الدواء ونامت .

ـ علينا أن نستعد للعزاء يا أم مجدي .. هذه عادة الناس .. رغم العزاء الذي أقامه الشباب لأمك عند دفنها .. سيتجدد العزاء من أجل خاطرك .. رحم الله أمنا وتغمدها في رحمته وجنته

وغادر لصالة البيت ليشرف على الترتيبات التقليدية ، فخصصت حجرة وأكثر لاستقبال النساء المعزيات ، وهيئت صالة الفيلا لاستقبال الرجال .. وكان هناك مكان وسط بينهما لمقابلة زهيرة المعزين من الرجال كأخوالها وأبنائهم وسائر الأقارب من الذكور .

وكان حميد عندما أخبر بموت حماته هناء ، طلب من الأولاد أن يكون العزاء في بيته القديم حيث يسكن ابنيه محمد عماد .

وكانت القهوة السادة المرة قد جهزت قبل وصولهم ، وكذلك ما يقدم في العزاء من مشروبات وتمر ، ووصلت الكراسي البلاستكية ، ووزعت على الغرف المناسبة ، وقالت حليمة لزوجة أبيها : أراك متعبة يا أمي .. هل نطلب لك الطبيب ؟

ـ لا ، يا حليمة أنا بخير .. لكن صدمة الموت هزتني رغم أنني فقدت ابنا لي في كندا ؛ ولكنه كان صغيرا .. كنت أدعو أن أبقى معها لآخر لحظة عندما هممت بترك كندا ؛ ولكن الله يريد أمرا آخر .. قدر الله الزواج وولادة مجدي ومحمد .. وكم غمرت أمي السعادة بحياتهما ؟! أعلم شغف أمي بالمواليد .. رحمك الله يا أمي .. والشكر لكم يا أولاد وبنات حميد .. نعم الأهل أنتم .

قالت إحدى النسوة : الأمر لله يا أم مجدي .

ـ سأكون جاهزة بعد دقائق ، وأصلي الفجر الذي ذهلت عنه .

بعد شروق الشمس بساعات يسيرة توافد المعزون لبيت زهيرة ، فهي فتاة من العائلة يفتخر بها فقد تعلمت ودرست وكافحت وتغربت ، وهي زوج الشيخ حميد رجل العائلة بعد وفاة أبيه وعمه عادل ، وكان يقوم بكل الواجبات الاجتماعية المهمة للعائلة في الأفراح والأتراح .. تجدد العزاء في بيت زهيرة ، ورحبت بالمعزين بأمها والمهنئين بزواج ابنتها شمس .. وعلمت أن حميدا أمر محمدا بالتصدق بألف دينار عن روح أمها .. وترجاها الرجاء الحار أن تتقبلها بقلب مفتوح فسكتت ، وقدم حميد الطعام لزائريهم على نفقته الخاصة وبإصرار ، وقال لها : هذا واجب يا أعز النساء .. لولا كلمة خرجت من فمها ما تزوجنا يا أم مجدي ..

قالت : صدقت .. لقد أدخل أولادك السرور على قلبي كثيرا بهمتهم

ـ إنهم أولادك يا أم مجدي ..

وكانت ممتنة غاية الامتنان لتصرف حميد بإخفاء موت أمها عنها ، وهي تشارك ابنتها فرحها ، وربما لو علمت لفكرت بالعودة لتر جثة أمها كما يفعل الناس .

لذلك قالت له بعد انتهاء العزاء الثاني : غمرتني بإحسانك يا أبا محمد .. أريد أن أقدم لك شيئا .

ـ على ماذا ؟

ـ على ما تقوم به من أجلي !

ـ أولا أنت زوجتي وأم مجدي ومحمد الصغير .. وهذا أحلى شيء تقدمه المرأة لرجلها .. وثانيا أمك صديقة لأمي وزوجتي الأولى وزوجة عمي مجدي .. الذي كان يودنا ويأتينا بالهداية ونحن أطفال .. وثالثا نحن أهل وأولادي أولادك .. ويكفي أنك دكتورة كبيرة وقبلت بالزواج من كهل مثلي لا يحمل ثانوية عامة .. وأزعم أنني أحسنت تربية أولادي وحرصت على إطعامهم الحلال من المال .. ولما اقصر معهم في تعليم وزواج وبناء .. بروا أبنائكم قبل أن يبروكم ورابعا يا أم مجدي إني أساعد كل العائلة قدر الإمكان بالنصح والمال اليسير .. وها أنت بدأتي تشاركيننا تلك المساعدات التي نسأل الله أن يتقبلها منا .. ونحن نكفل ابن ميلاد وغيره من أيتام العائلة .

ـ أنت رجل شهم ! وصاحب مروءة يا أبا محمد .. مع أنك لست كبير العائلة سنا .. فالكل يحب مشاورتك في شأن العائلة وقضاياها ..

ـ هذا من فضل الله .. ربما عملي في تصليح السيارات أتاح لي اللقاء بعدد كبير من الأقارب والحديث معهم وسماع همومهم ..

ـ النساء يحسدنني عليك

ـ من باب المجاملة .. العائلة فيها المهندسون والمدرسون والأطباء اليوم

ـ يا أبا محمد أرجوك رجاء حارا ألا تجعل وفاة أمي عائقا لزواج حليمة .. أرجوك .. أرجوك .. لا تقل الأربعون .. السنة .. فهذا أمر الله من قبل ومن بعد هكذا تعلمت منك

ـ هذا من لطفك وكرمك علينا يا أم مجدي .. وأنا من أجل هذا الرجاء سأكلمهم برغبتك بأن يكون الزفاف كما عين له .. فوالد خالد حدثني عن تأجيل يوم الزفاف وترتيبات الحفل ، فقلت اصبر بعض الوقت حتى أستطيع أن أتحدث مع الدكتورة

ـ نفذوا ما اتفقتم عليه .. وهذا سيكون من دواعي سروري .

ـ أصيلة يا ابنة العم .



كل إنسان له قصة تبدأ من قبل ميلاده ، من حين زواج امرأة ورجل ، ثم يولد ليلا أو نهارا صيفا أو شتاء وتولد قصته .. له حكايات ومشاهد يتذكرها أو ينسى أكثرها .. يرى حلو الحياة ومرها .. يرى الصحة والسقم .. ويعيش سعيدا أو شقيا أو بين بين .

وهذه قصتنا أفلت على الغروب ، ككل شيء له شروق وغروب ليل ونهار .. كانت السعادة الدنيوية ترفل على بطلة قصتنا الدكتورة الوديعة.. رغم ما رأت من ألم .. وهي صغيرة ذاقت بؤس اليتم .. ورأت صراع أمها مع الحياة من زوج لآخر حتى ترملت ثانية ، فسكنت في حجرة تنتظر الساعة ، ولما جاءت الابنة لتعيش معها ساعاتها الأخيرة أو ترحل هي قبلها للأمر المقدر .. كانت زهيرة تفرح بابنتها في تلك البلاد التي هجرتها بعد طول سنين في قارة أمريكا الشمالية كانت أمها تموت في الشرق الأوسط للعالم .. هذه حكاية القدر ، خلق الموت والحياة للابتلاء والاختبار .. حياتنا لا تخلو من كدر سواء على الفرد أم المجتمع أم الأمة .

عاشت فتاتنا يتيمة ، وجدت نفسها بدون أب يساعدها ويحبها في هذه الحياة ، لقد رحل في سن مبكر من حياتها .. ومرت عليها لحظات صعبة أثناء مراهقتها عندما غرقت أمها في اللهو

واللعب ، ثم تداركتها الرحمة الإلهية على أثر وفاة الجد محمد ، فاستيقظت الأم ، وفطنت أنها في مجتمع يستقبح الاختلاط والمخدرات.. ثم أتى الخطيب يطلب يد ابنتها ، فالتمست الأم العذر بصغر سنها ، وكانت قد حسمت أمرها لا زواج من أقارب زوجها لها ولابنتها .. ثم اعتذرت بدراسة الفتاة في كلية الطب .. وجاء الأجيال الجدد ، وهربت الفتاة لجنة الغرب بزوج يعرف الإسلام دون تعمق ، ودون مذهب يتعصب له ، ودون منهج يلتزم به .. ولما حقق الأماني كلا الفريقين ، فكان الفراق من أجل الذرية .. وقد ولد لهما مولود واحد ، وبعد حين تغيرت الجنة في نظر بطلة قصتنا ، ونضجت الفتاة فعادت إلى الحضن الوحيد لها في هذه الدنيا حضن الأم ، لا زوج ولا أولاد ولا أب ولا أم .. وجاء الرجل البسيط المحدود الثقافة في مقياس الشهادات العليا ؛ ليكون هو الزوج اللائق بها ، الزوج الذي وجدت سكينة الزواج عنده والرحمة والعطف والمودة ، ثم الأمومة بعد يأس وانقطاع أمل .. كان الشيخ حميد نعم الفارس ونعم القرين .. الحياة إن كان لها منتصف .. أو نهاية .. لا ندري بالضبط .. كانت حائرة للغاية كيف ترد الجميل لحميد الذي قام برعاية وخدمة أمها سنوات وسنوات ؟ .. ثم تزوجته بدون تردد رغم أن له زوجة ، وخشيت العودة مع سامر ؛ لأنها تعلم وتدرك أنه يريد الزواج والأولاد .. وتزوجته وله أولاد .. لم يكرهها أولاده ، ولا نظروا أنها ضرة لأمهم وخصم وسارقة لأبيهم .. كانت أما لهم ، وقبل بعضهم العيش في بيتها كأبناء لها.. اعتبروا الأمر طبيعيا ، بل بعضهم اعتبرها منقذة لأمهم وأبيهم ، فأمهم كانت مريضة عاجزة عن تحقيق رغبة أبيهم الشرعية والإنسانية .. إنها الحياة الأبيض والأسود.. الليل والنهار.. الفرح والحزن



الفصل الماضي من هذه الحكاية مع أنه مؤلم كان فيه الخير والسعد للدكتورة زهيرة مجدي أخصائية الولادة والأمراض النسائية .. بل زاد إيمانها وفهمها لمسألة القضاء والقدر .. ولتدبير الله لهذا الكون العظيم .. عندما سافرت زهيرة لكندا لحضور زواج شمس حدثت زوجها أثناء الرحلة عن الجريمة الكبيرة التي تعرضت لها شمس أثناء رحلة لها لمدينة نيويورك .. ومقتل صاحبتها وكيف تعقدت نظرتها للرجال والمعاشرة الزوجية؟ فتألم حميد لما سمع .. وسالت دمعات على خده حزنا وأسفا .. وساءت حالة الفتاة النفسية نحو الرجال والزواج .. لذلك هي مسرورة جدا لزواجها وزوال تلك العقدة النفسية .. لأنها تأمل أن تكون أسرة فتاتها طيبة وهادئة .. وعطف حميد بطبعه الذي عرفناه على الأم والفتاة .. وكانت شمس بعد الحادث تعتبر الرجال وحوشا ومجرمين ليس لهم هم إلا قضاء شهواتهم الحيوانية من الفتيات وصدمت بإباحية حضارة الغرب .. وقد علمت من العم هنري أن الشباب تعرضوا لحكم قاس من القضاة .. لكن ما الذي استفادته هي من هذا الحكم القاسي .

وسر السيد حميد لما علم ذلك التفصيل من هذا الزواج ، وعبر لزهيرة عن هذا الشعور والعطف.. وحمد الله أنها ستتزوج رجلا من المسلمين ولو كان أعجميا ، وسعد لسعادة زوجته التي كانت تخشى أن تتخذ ابنتها صديقا بدون زواج وبدون رباط ، كما هو شائع في تلك البلاد .. حياة حيوانية فقط .. وكانت تقول لحميد " لو فعلت ذلك لا أحد يمنعها لا أم ولا أب .. ستعيش هي وإياه في أي مكان ، ولا تتحدث مع أبيها ولا أمها "

والأسر المسلمة المتحررة تفرط كثيرا في مثل هذا الاجتماع ، وتقف عاجزة حياله وصامتة .. لذلك تجد بعض العائلات وهم قلة لما تشب بناتهم يرسلونهم لبلدانهم الأصلية للحياة مع الجدات العمات الخالات خشية الحياة مثل هؤلاء ، حياة بهيمية .

قدم عبد رحيم أوراقه لدائرة الهجرة الكندية للحصول على الجنسية الكندية حسب ترتيبات الهجرة الكندية .. والقانون يسمح بالحصول على الجنسية قبل مرور السنوات الثلاث لمن يتزوج امرأة تحمل الجنسية الكندية .. فكندا بلد يستقبل عددا كبيرا من الوافدين والمهاجرين

فهي بلد كبير وأرض شاسعة تحتاج لبشر كثير ، وتقدم كسائر الوافدين للفحص الطبي الخاص بدائرة الهجرة .. وكذلك لدائرة الأمن .. ووجدت صحته جيدة وخالية من الأمراض السارية والمعدية .. وليس له انتماءات حزبية وسياسية في بلده إندونيسيا جزيرة سومطرة ، وإنما تكشف لهم أنه متزوج في بلده ، وله زوجة وأطفال ، وما زالت امرأته وهي ابنة عمه على ذمته أي لم يطلقها ، ولا يستطيع الحصول على الجنسية حتى يطلقها قانونيا .. لأنهم يرفضون التعدد في الزواج ، ولما تصل الأوراق رسميا من وطنه الأول .. فاضطر لما صدم بهذا العائق أن يكشف الأمر لشمس التي صدمت بداية وقالت بحدة معروفة فيها : أنت أخبرت الدكتور هنري أنك تزوجت وطلقت ولا أولاد عندك .. ورد سفارة بلادك اليوم يخالف ما صارحتنا به وقد تتعرض للسجن بسبب الجمع بين الزوجات ، فالقانون هنا يمنع ذلك .. لماذا لم تكن صادقا منذ البداية ؟!

قال بصوت خفيض معتاد منه : آسف يا شمس .. لم أكن أدرك أن التعدد ممنوع هنا .. ولم أستطع قول ذلك .. لي خمسة أطفال منها .

ـ آسف آسف .. ماذا تفيد آسف اليوم .. لابد من الطلاق ، إما أنا وإما هي ؟

ـ ألا يسمح ديننا بالزواج من أكثر من واحدة في آن واحد؟

ـ هذا في بلادك وبلاد أمي .. وهل أنت متدين ؟ أحيانا أراك تصلي .. وأحيانا لا تصلي .. وثانيا قانون هذا البلاد يعتبر الجمع بين امرأتين بعقدين زواج باطل وجريمة .. عليك أن تختار بيننا إذا اخترتني ستقطع صلتك في بلدك للأبد .. هل سمعت ما قلت ؟

ـ ألا يوجد حل آخر ؟.. أن أتظاهر بطلاقها وتمشي حياتنا حتى أحصل على الجنسية وأطلقك كما تحبين وتشائين.

ضحكت شمس وقالت : أنت سخيف .. كما تشائين .. لا أدري ما أقول .. فهمت كل حيلتك من هذا الزواج .. اسمع مع أن زواجنا كان واضحا الغاية منه وهو حصولك على الجنسية الكندية .. فأنا كنت آمل أن يستمر على الأقل بضع سنين .. سأعمل فحوصا طبية

لبراءة الرحم من الحمل ويكون الانفصال .. لن أبقى على ذمتك ، ولن تحصل على الجنسية التي تسعى إليها إلا بطلاق امرأتك الإندونيسية أو قضاء ثلاث سنوات هنا ، وبما أنك وصلت فستحصل عليها بدون شمس.

وقضيا أكثر من شهر يتجادلان حول بقاء الزواج ، وكان ينام خارج الشقة ، وأمام إصرار السلطات على وضوح موقفه طلق شمسا ، وغادر البلاد بعد أن حجز بضعة أيام لدى الشرطة

علمت زهيرة بهذه الحكاية من الدكتور هنري الذي تحدث معها ، وهو اطلع على حكاية عبد رحيم ؛ لأن والده اتصل بهنري طالبا المساعدة ..

وقال لها هنري : لا تحزني ما قدر الله يحصل .

صدمت زهيرة وتألمت وبكت لما علمت بطلاق شمس بعد زواج لم يكمل السنة .. ووافق القاضي على الانفصال سريعا ؛ لأن الرجل ثبت لدى دائرة الهجرة أنه متزوج امرأة في بلده وعلى ذمته ولم تكن مطلقة .. اتصلت زهيرة بشمس وواستها ، ودعتها لقضاء شهر زمان عندها في المدينة .. لتزول آثار صدمتها بزوجها الإندونيسي ، والتعرف كذلك على بلاد الآباء والأجداد .. فبعد تفكير عميق رتبت أمورها في زيارة للشرق الأوسط .



أرسل حميد ابنه محمدا وزوجته أم مجدي لاستقبال شمس ، وكانت شمس قد أخبرتهم أنها ستقضي أياما في مصر .. لزيارة الأماكن التي كانت تسمع عنها من الذاهبين للسياحة في مصر العربية كالأقصر والجيزة ، وكانت قد رافقت حملة سياحية كندية إلى القاهرة مباشرة .. فقضت عشرة أيام مع الرحلة .. التي ستتوجه لفلسطين بعد مصر ، وهي ستتوجه لموطن والديها ، وكانت هي قد اتفقت مع الشركة السياحية أن تكون رحلتها لمصر فقط .

استقبلت زهيرة ابنتها في المطار بالدموع زاعمة أنها دموع الفرح واللقاء .. ورحبت بمحمد وتعرفا على بعض .. وكانت شمس متعبة ويظهر عليها إرهاق ونسبته لرحلتها في جنوب مصر وتعب السفر .

فقالت وهما في السيارة : أبعيد البيت ؟

ـ أقل من ساعة .. أنذهب بك للمستشفى ؟

ـ إرهاق يا أمي .

استقبل حميد شمسا بالحنان والعطف والمواساة ، وانصرف محمد وهو يقول : سنمر عليكم ليلا أنا وأم حسن .. الحمد لله على سلامة شمس يا أم مجدي .

ـ الشكر لك يا محمد .. مرحبا بكم في أي وقت .

أحنت له شمس رأسها محيية ، ودخلوا الفيلا ، ولما جلسوا يرحبون بها ، حدثتهم بخداع عبد رحيم لها ، وأخذت تبكي حزنا وخيبة ، وشاركتها أمها بالدموع والأسف ، وجهزت لها الخادمة الحمام كما طلبت أمها .. وقال حميد : الحمد لله على السلامة .. وقبل أن تذهب بها أمها لحجرة جهزت لها ، قدمت لها الخادمة القهوة العربية فقالت وهي تنظر في الفنجان في قاعه قليل من القهوة : ماذا هذا يا أمي ؟

ابتسمت الأم وقالت : قهوة تقدم في استقبال الضيوف .. فهم يرحبون بالضيوف بالقهوة العربية والتمر .. عادة عربية .

تناولت الفنجان وشربته وهي تبتسم وقالت زهيرة : تعالي لتشاهدي غرفة نومك وحمامك .. وسيأتي الغداء من المطعم اليوم احتفالا بك .. مع أن لدينا طاهية رائعة يا شمس

ولما خرجت من الحمام عادت للجلوس معهم وقالت : رفض أن يطلق زوجته لبقاء زواجنا ، واعتقل بضعة أيام ، ثم غادر البلاد رغم أنه يجوز له البقاء بعد طلاقنا .

وتحدثوا عن القدر ، وعن الغدر والخداع ، ومواقف من حياتهم حتى استطاعوا التخفيف من الهم والحزن المخزن في قلب شمس ، ثم طلبت النوم بعض الوقت ، فرافقتها زهيرة للغرفة

التي أعدت لها ، وهما يسيران إليها اقبل محمد الصغير الذي استيقظ من سباته ، فأخذته شمس من الخادمة وقالت وهي تعانقه : هذا أخي محمد .. أين مجدي يا أمي نسيته ؟

- نائم ، عندما خرجت للمجيء بك كأنه نام ..

- دعيني اقبله

أخذتها أمها، تتبعهم الخادمة إلى حجرة الأطفال .. وتقدمت شمس إلى سرير مجدي الذي أخذ يستيقظ على صوتهم ، ففتح عيناه ، وكان ينظر إليها في شمس باستغراب .. فأخذت أمها محمدا من يديها وهمست : صباح الخير يا مجدي .. هذه شمس أختك التي حدثتك عنها .

انتشلته شمس من سريره وراحت تقبله بقوة وحنان وهي تهتف : هل ستحبني يا مجدي أنا أختك الكبيرة ؟.. محمد يحبني أكثر .. ماله مكشر

- صاحي من النوم .



توافد أبناء وبنات حميد ليلا للسلام على شمس والترحيب بها ، وشمس كما نعلم تتكلم العربية وإن كان في لسانها ثقل ، فكانت زهيرة تكلمها بالعربية أثناء وجودهم في البيت معا .. فلديها مفردات تحسن فهمها.. ورحبت بحرارة بأولاد حميد وزوجاتهم وأطفالهم وتعرفت عليهم ، ورددت أسماءهم رويدا رويدا .. حتى حفظتها ، وقضوا سهرة ممتعة ، سرت منهم شمس ، كما صرحت بذلك في نهاية السهرة .

وكانت شمس تلعب مع الطفلين فقد أحبتها ، وأحست بالعطف نحوهما ، والطفلان تعلقا بها فورا خاصة مجدي ، فقد اقترب عمره حينئذ لثلاث سنوات ، وكان قادرا على المشي بسهولة ونطق الكلمات .

وفي اليوم التالي اتصلت بأبيها بعد ضغط من أمها وزوجها حميد مخبرة له بوصولها لبلده ، وأنها في بيت أمها وزوجها أبي محمد ، فرحب بها ، وأعلمها أنه سيرسل لها ابن أخيه ليحضرها ليراها ؛ لأنه طريح الفراش .. فالدكتور تعرض لحادث سير قبل زواج شمس بأيام ، وأصبح عاجزا عن المشي ، فقد أصاب حوضه كسر ، وبعض عظمات العنق كسرت ؛ ولكنها التئمت فكان يعاني من ذلك الحادث .. وكانت أمها قد شرحت لها وضعه الصحي ، فدعت له بالشفاء وقالت له : سأطلب من ابن زوج أمي بتوصيلي إليك .. شفاك الله يا أبي ..

ـ أنا قصرت معك يا شمس

ـ لا وقت للعتاب يا أبي عندما نلتقي نتكلم .. أنا بشوق لرؤيتك والاطمئنان عليك .. رغم الجفاء أنت أبي.. لي سنوات لم أرك .

عند العصر قام حميد بنفسه بتوصيلها لمنزل أبيها ، فهو عندما تزوج سكن في بيت خاص به ، ثم عاد للحياة مع والدته لمرض أقعدها الدار ، فأحب أن يبقى بقربها ليقدم لها الإسعاف الفوري .. فقبلت الأم بهذه الحجة .. وبعد أن دخل وسلم على الطبيب سامر قال لها وهو يغادر : عندما تريدين العودة اتصلي بي أو بأمك ..

وتلقى الشكر من الجميع وغادر ، وكانت شمس تقبل وجنتي أبيها وتعانق زوجة أبيها وتعرفت على إخوتها الثلاث البنت والولدان .. وبعدما انتهى الترحيب والمجاملات ، ذهب بها أحد أخواتها وزوجة أبيها للسلام على أم أبيها التي ترقد في حجرة خاصة بها ، قال سامر المطروح على سرير طبي بعد عودتهم إليه : قصة زواج فاشلة .. وحدثته عن أسباب الطلاق ، وإنها جاءت لإلحاح أمها ، وطلبها منها تغيير الجو ، والخروج من العالم البارد الثلجي ، فلبت الدعوة ، وقضت عشرة أيام في ظلال مصر والقاهرة والصعيد مع شركة سياحية

وشاركت العائلة العشاء الجاهز ، ولما فكرت بالعودة لبيت حميد وزهيرة أقسم سامر على مبيتها الليلة عندهم ، ووافقت على مضض ، وتحدثت مع أمها حول ذلك ، فتمنت لها ليلة سعيدة ، وخلال السهرة رغبها أبوها وزوجته بالبقاء في ربوع الوطن والشمس الساطعة

فقالت : لابد من العودة يا أبي .. طاب لي العيش هناك .. هل يستطيع السمك أن يعيش خارج الماء وأنا كذلك ؟ .. فلي عمل ووظيفة هناك

ـ الناس هنا يعملون .. وأهلك هنا أمك وأبوك .. وإخوانك .. وحتى لا تخدعي بزوج آخر .

ـ الحياة تجارب .. وأنا قبلت الزواج منه ، وقد صارحني أنه يسعى لأخذ جنسية بسرعة .. ودائرة الهجرة هي التي فضحته ، ورفضت منحه الجنسية قبل طلاقه لامرأته الآسيوية .. فاختار امرأته أم أولاده .. هو دخل الأراضي الأمريكية مرافقا لوالديه في رحلة علاج بمستشفى أمريكي .



الوطن

رافق محمد حميد وزوجته أم حسن شمسا في جولة في سيارة أمها في شوارع العاصمة تنفيذا لرغبة والده وزوجة أبيه .. وذهبوا بها في جولات سياحية .

ولما اقترب سفرها بانتهاء إجازتها قالت لها أمها : كيف رأيت بلاد أمك وأبيك ؟

ـ جبال وزحمة سيارات ووجوه بائسة .

ضحكت زهيرة وقالت : أتصور أن جبال كندا أكبر من جبالنا .. وزحمة السيارات عند الغروب سيئة في وسط مونتريال .. والبرد والثلج على مدار السنة .. ولعلك أنت البائسة ، فظننت أن كل الناس بائسون .. تفاءلي بالخير تجدينه .. لماذا لا تبقين عند أمك ؟

ـ وعند أبي .

ـ هل طلب منك البقاء يا شمس ؟

ـ مجاملة لا أكثر

ـ أنا لا أقولها مجاملة ورفع عتب .. فعلا ومن عمق قلبي أريدك أن تبقي

ـ وماذا سأفعل هنا ؟ هل أترك عملي لأكون عالة عليك وعلى أبي ؟

ـ حقك أن ننفق عليك حتى تقترني برجل ينفق عليك .. المرأة هنا لا تنفق على البيت إلا تطوعا وتعاونا .. وسنبحث لك عن زوج صالح ؛ لعل الله أن يهبك طفلا .. فأنت تحبين الأطفال كما بدأ لي .

فقالت بتمن : والله إني أحلم بأن يكون لديّ أطفال ألعب معهم .. ليتني أصير أما مثلك يا أمي .. وأنا قبلت بعبد رحيم طمعا بالولد لا طمعا به .. ولكني حمدت الله أنني لم أحمل منه .

ـ إذن ابقي هنا ، وسأدبر لك زوجا طيبا مثل عمك حميد .. فعمك يساعد بتزويج الشباب من بنات العائلة أو من بنات جيرانه قبل أن ينتقل لهذا الحي .

ـ والعمل ؟

ـ المال كثير يا ابنتي .. وهذه الفيلا أبني لك فوقها دورا كاملا .. مرة كنا نريد فعل ذلك

وأجلناه لعدم لحاجتنا لذلك رغم حماسي يومئذ .. وستجدين عملا أنت تحملين شهادة كندية والدول الغربية شهادتها شبه عالمية .. والشركات الأجنبية لها فروع يا شمس في بلادنا .

ـ حسنا ، كم اصبر يا أمي ؟

ـ الليلة سأتحدث مع زوجي الغالي ، وهو الذي يقدر الوقت اللازم .. وأنت عدة طلاقك حسب شرع الله لم تنته بعد .

ـ سوف تنتهي يا أمي .

ـ الليلة سأفاتح أبا محمد .. إن شاء الله سنفرح بك هنا هذه المرة وتستقرين بيننا ونسعد بك معنا

فاتحت زهيرة حميدا بما دار بينها وبين شمس عصر هذا اليوم ورغبة شمس بالزواج طمعا بالذرية ، فقال حميد مسرورا ومشجعا : لا بأس ، ونعم الزواج سترة للبنت .

وللمقدر كان حميد مشغولا بما صارحه به ابنه محمد من رغبته بالزواج مرة أخرى ، فأخذ يفكر بما طلبته منه زهيرة ، وهناك مالك سيقبل بشمس ؛ لكنه يصغرها بسنوات ، وكان حميد يصبر محمدا بالصبر ، وإن قيادة الزوجتين ليس هينا رغم اقتناع المجتمع بصحة هذا الزواج .. وهذا الكلام تحدث به حميد ومحمد منذ سنة .. وعند صلاة الفجر كاشف حميد زوجته برغبة محمد بالزواج على امرأته ، وكشف لها أن زوجته تسعى له بذلك ، فقالت دهشة : أنتم عائلة عجيبة يا أبا محمد .. ولكن امرأتك رحمها الله كانت مريضة لتسمح لك بالزواج ..

قال حميد : امرأة محمد في غاية الصحة .. أمام شمس الآن محمد الأكبر منها سنا ، ومالك الأصغر منها سنا .. ولسوف يقبل بها إذا وافقت .. ولو طاعة لأبيه اذا لم ترغب بالتعدد .. تشاوري معها .. وإذا لم تحب الزواج من أحدهم .. فاستعين بمعارفنا الكرام لكن ذلك سيأخذ وقتا .

ـ أنت ما رأيك ؟

ـ محمد جيد وطيب مثل أبيه .. وعمله في شركة خاله جيد وراتبه معقول .. وما دام أن شمسا

ستسكن معنا فلن يتكلف إيجار بيت .. وربما إذا رأينا من المناسب نتشارك في الوجبات .. ومالك سيتخرج من كلية الهندسة قريبا .. وسنه قريب من سن شمس .. لكن المشكلة أنه قد لا يقبل ، ربما لرغبته بالزواج من فتاة بكر .. ومع ذلك يمكن إقناعه بقليل من الضغط .. فشمس غالية عليّ ، وأنا أتعاطف معها ، ومن حقها أن تصبح أما.

ـ عندما تستيقظ سأتناقش وإياها.. وأنت جس نبض أبنائك .. ويسعدني أن تنكح أحد أولادك .. فسنبقى عائلة واحدة وأسرة واحدة .

ـ سنجد إن شاء الله الزوج الصالح لها .. ضعي حملك عليّ

ـ أنت تاج على رأسي يا أبا محمد .. يبدو أن في أحشائي طفلا آخر

صاح دهشة : يا الهي ..!!

لما رجع من المسجد بعد الصلاة اتصل بمحمد الذي كان مثله قد عاد من الصلاة في الجامع القريب من بيته ، وطلب منه التبكير إليه ؛ ليتحدثا في موضوع هام وخطير ، فدهش محمد ، فهو قد كان معه ليلة أمس في ضيافة عم لحميد .

فلما حضر خلا به هو وزهيرة في غرفة المكتبة ، وشرح له والده سبب هذا الاجتماع ، وأنهما يسعيان لتزويجها للبقاء بينهم ومعهم ، ولما رأى محمد أن الكلام أمام زهيرة فهذا يعني أنها مؤيدة لهذا الزواج .. وختم قائلا : اذهب الآن وشاور أم حسن ، واتصل بي بعد ذلك .. كنت اليوم سأذهب لمساعدة عماد، وقد أجلت ذلك .. فقد طلب مني أمس المرور عليه .

عماد درس في التدريب المهني ، وتعلم التصليح في كراج أبيه ، واستلم الشغل عن والده ، فرد محمد فقال : أم حسن لا ترفض ، وأنت تعرف ذلك يا أبي منذ أن تزوجت أنت ، وهي ترغب لي ذلك حتى اقتنعت وتحمست للفكرة ، ولولا تأجيلك لي فلربما تزوجت منذ أكثر من عام وقد سعت لخطب قريبة لها لي ..

ابتسم حميد وقال : ذكرت ذلك لأم مجدي عند صلاة الفجر .. اذهب وتحدث معها بشكل جدي حتى نفاتح شمسا بالموضوع .. وشمس مازالت في عدة الطلاق .. أنت موافق طبعا .

ضحك محمد وقال : المهم أن تقبل شمس .. أنا لا أرفض

قالت زهيرة : بارك الله فيك يا محمد .. ابن أبيك .. ستسكن هنا

ـ هنا ؟!

ـ سنشيد دورا لشمس

ـ السلام عليكم .



وعندما خرج محمد من المكتبة فوجئ بشمس تجلس في صالة البيت بثوب النوم وفوجئت به فهتفت : محمد نمت هنا ؟!

ابتسم وقال : معذرة .. لم أنم إنما جئت مبكرا .. إلى اللقاء ، وتابع خروجه .

وكانت زهيرة وحميد يخرجان من المكتبة بدورهما ، فرأيا شمسا مستيقظة مبكرا فقالت لهما : ماذا هناك يا أمي ؟! محمد خرج من المكتبة منذ ثوان !

ـ لا شيء ، محمد جاء مبكرا .. وكلفه والده بمهمة صغيرة .. هيا نشرب القهوة .

فانتقلوا لغرفة الجلوس ، وقدمت لهم الخادمة قهوة الصباح وقال حميد وهم يرتشفونها : هل تعلمت الصلاة يا شمس ؟ أذكر أننا قبل شهر تحدثنا عن أهمية الصلاة في حياة المسلم الحقيقي

ضحكت شمس وقالت : أذكر تلك الليلة الحامية في بيان أهمية الصلاة في حياة المسلم .. ووعدتك بتعلم الصلاة وأن أمي ستفصلها لي

فقالت زهيرة : ونفذت ما عليّ يا شمس .. أنا حدثت عمك أبا محمد في الموضوع

ـ أي موضوع ؟ .. المواضيع كثيرة يا أم مجدي

ـ موضوع زواجك

ـ نعم ، تحدثنا حول هذا الأمر ..

ـ وهذا الصباح سنعرف النتيجة

ـ بهذه السرعة ..

ـ يقولون خير البر عاجله .. كم بقي لعدة الطلاق ؟

ـ أنا لم أحسب .. لأنني لم أفكر بالزواج سريعا .. ولا أفهم في هذه العدة يا أمي

ـ أعرف أنك لا تفهمين في مثل هذه القضية لأن ثقافتك الدينية ضحلة صفر .. في الإسلام هناك شيء اسمه العدة .. من العدد الإحصاء ، وتعني مكث المرأة زمنا بدون زواج ومعاشرة حتى ينقضي هذا الزمن .. يبدأ العد منذ إعلان الطلاق عند القاضي أو نائبه

قالت شمس ضاحكة : أذكر تاريخ جلسة إعلان الطلاق .، وأذكر أنني سمعت هذا الكلام عند طلاقك من أبي .. من سيكون العريس؟ .. أنا راغب بالاستقرار معكم ؛ لعل الزواج يهيئ لي الفرصة يا عم حميد .

قال حميد : إن شاء الله .. ساعات ويحضر العريس ؛ لأن الكلام الفصل لك .. القبول والرفض منك أنت .

ـ هل أعرفه ؟

ضحكت زهيرة وقالت : ظننتك عرفتيه .. وأبو محمد لن يخبئ عليك .. عرض الأمر على محمد

قالت باستغراب : محمد حميد يتزوجني وله زوجة .. هل يجوز ذلك ؟

ـ يجوز ، لست محرمة عليه يا شمس .. وزوجته لا تمانع ؛ لأنها سعت قبل ذلك في زواجه لولا اعتراض عمك حميد .. فالأمر لك .. ومحمد دخله المادي ممتاز جدا .. اشتغل فترة مع خاله في البحر ، ثم فتح سوقا تجاريا خاصا به ومعه ابن عم له شريك .. وبالإمكان تكبير المتجر بمزيد من المال .. وأنا سأبني لك دورا فوق هذه الفيلا كما حدثتك سابقا .. وإذا وافقت سيكون هناك شقتان لك واحدة ولأم حسن واحدة ..

نظرت شمس لعم حميد وقالت : ماذا رأيت يا عم حميد ؟

ـ كما قالت أمك .. وقد ذهب أبو حسن محمد ليتشاور مع حليلته ، ولا أظنها ترفض .. القول

الفصل لك أنت .. فكري انظري .. شاوري أباك .. فنحن نحب بقاءك بيننا بدل تلك البلاد البعيدة والبقاء مع أمك الحبيبة الغالية .. وستجدين عملا تتسلين به .. وبالنسبة للتعدد قوانين بلادنا لا تمنعه .. المهم أنت تقبلين .. وسنسعى لحصولك على جنسية بلدنا لأن هذا حق لك ولأن والديك يحملان هذه الجنسية .. وقوانيننا تسمح بازدواجية الجنسية خاصة الغربية .. والإنسان يخضع لقوانين البلد التي يعيش فيها .. وإذا لم يطب لك الزواج والحياة بيننا فالأمر سهل .. الطلاق والسفر بالمعروف ، كما الزواج يكون بالمعروف .

رن جرس الخلوي رفعه حميد وقال : محمد .. وقال : آ ، يا محمد هل وفقت بمهمتك ؟رحبت بذلك جميل .. أكيد دون ضغط عليها .. على بركة الله .. ها نحن نتحدث مع شمس بالقضية

بعد انتهاء العدة الشرعية لشمس حضر كاتب عقد الزواج ، وذلك بعد مراجعة المحكمة الشرعية ، وأحضر معه الأوراق اللازمة لكتب العقد ، وكانت زهيرة قد شرعت بالبناء عندما وافقت شمس على الاقتران بمحمد ، وأن تكون زوجة ثانية ، ولما كمل البناء رحلت أم حسن للسكن الجديد ، وكان الزواج بحفل بهيج حضره الأهل والأصدقاء ، وفي العام التالي كانت شمس تحمل بين يديها مولودها الأول ، وكانت تضمه لصدرها بحب وقوة ، وتعانقه بين الفينة والأخرى ، وتقول لأمها التي تقف معها في الغرفة وهي في غاية الحبور : هل هو جميل يا أمي ؟!

ـ أجمل شيء للمرأة فلذة كبدها حتى لو كان دميما .. مبارك يا محمد ابنك الجديد .

ـ مبارك على الجميع .. ماذا تريدين أن نسميه يا أم مجدي ؟

ـ هل تسمحون لي بتسميته ؟

قالت شمس بسعادة ذهبت معها آلام الوضع والولادة : نعم ، يا أمي .. أخيرا عرفت السعادة الصادقة .. عرفت الحب الصادق ..!!

{ تمت بحمد الله }

جمال شاهين

شمس عَمري

رواية

جمال شاهين

دار المأمون للنشر والتوزيع

الزمردة

نحيف وعريف

جمال شاهين

غربتي وابنتي

كانت حياتي حياة شهوات وجنس ، والبحث عن الملذات من الأكل والشراب واللعب واللهو والمخدرات .. حياة مادية .. ورغم لذتها لكن زوالها سريع .. وكم من معارفنا هلك بالإيدز ؟.. بالموت بجرعة زائدة من المخدرات .. التعرض لحادث سير أثناء حالة سكر .. وأنت لك سنوات تعيشين بيننا ، ورأيت من المشاكل .. وكم عالجنا نساء حوامل يتعاطين الكحول والمخدرات وهن غير مباليات بحياة الأجنة ؟ ولماذا يقبلن بالحمل وهنّ راغبات بقتله؟! فجرت باسم الحب ، وامرأتي كانت تفجر باسم الحب والحرية الشخصية .. أليس هذا حمقا وسفاهة؟ ..

- عندكم العلم !

- هو هذا الذي يخفي عن أعين الناس حياتنا الماجنة .. عندنا التكنولوجيا والصواريخ .. فجرت أمريكا بطياراتنا .. فاخترعوا الإرهاب العالمي ليمنعوا الناس من الإسلام .. ولكن الناس أخذت تسأل عن الإسلام .. ولماذا جرى هذا الحادث بهدم الأبراج ؟

- إننا نحمل جنسية غربية .. ومع ذلك فنحن نعاني من هذا الحادث .. فأصولنا الإسلامية تطاردنا .. ويسخرون منا ويعتبروننا قنابل مؤقتة ..

- زوبعة في فنجان ..إنهم يريدون مسلمين بلا إسلام ، لهم الأسماء فقط ؛ ليقولوا بلادنا تجتمع فيها جميع ملل العالم ، وهي تعيش بسلام ووئام .. لا يريدون المزيد من المساجد ..والمراكز الإسلامية .. أما التبشير فمسموح به في بلاد المسلمين بالتطبيب بالتعليم بالأفلام ..

الشقة السوداء



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة



جمال شاهين

المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

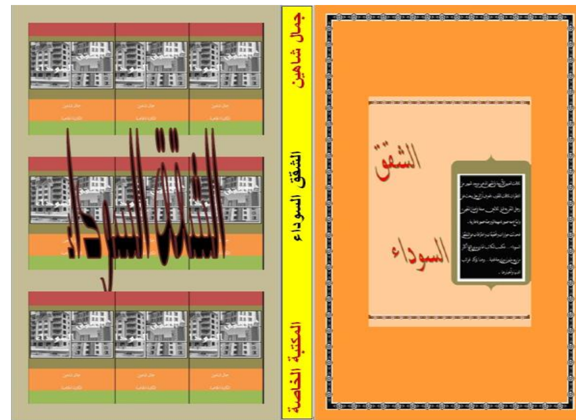
الشفق السوداء

جمال شاهين

النشر الاول ٢٠١٥

النشر الثاني ٢٠١٨

الاخير الثالث ٢٠٢١



تلاقت العيون الأربعة في المقهى الذهبي ،

وبعد شهور من النظرات تلاقت القلوب ،

فعرف أن الرجل يبحث عن رجل التقى به قبل

ثلاثين سنة في هذا المقهى ، وابتاع منه صورة مهينة

لزوجته صورة عارية .

فحدثت حوارات وتحقيقات واعترافات عن الشفق

السوداء ..

فكسب الكاتب الهاوي من ورائها أكثر من ربع مليون ،

وزوجة غنية ..

وهذا يؤكد غرائب الدنيا وأخبارها

هذا ستقرأه في قصة الشفق السوداء

الشفق السوداء

كتبها لكم

جمال شاهين

الكوكب الذهبي

المطاعم والمقاهي والنوادي من علامات الحياة في المدن ، والمساجد منارات سامقة في الأحياء والشوارع والمدن والقرى العربية والإسلامية ، تجتمع كل طائفة أو أهل كل بلد في مقهى معين ويصبح مركزا يلتقون فيه للعب واللهو وتبادل الأخبار خاصة المغتربون ، وأيضا للشغل والعمل وللباحث عن شغل وعمل ، وكذلك نقل الرسائل للبلد الأصلي والأهل ، فترى مغتربين من كل قطر لهم مقهى أو أكثر يترددون عليه .

وكذلك قد تجد شباب وفتيان الأحياء الذين لا يحبون مقاهي الأحياء والحارات يجتمعون في مقاهي خاصة بهم في مركز المدينة ، والمقهى مكان بيع القهوة المادة المعروفة لكل شعوب الأرض اليوم .. وهكذا بدأ المكان كان يبيع القهوة للمارة والناس ، ثم تحول لمكان لهو ولعب الميسر والورق ، وأصبح يبيع الشاي والمثلجات والمشروبات المشروعة قانونا ، والمقاهي العربية عادة ممنوعة من بيع الخمور والكحول بأسمائها الكثيرة ؛ ولكن يسمح للسكارى بالجلوس واللعب فيها.

ومع دخول الراديو المذياع الحياة المدنية أصبح المكان يشد الناس للجلوس فيه ؛ لسماع الراديو من أغاني وموسيقى ، ثم دخل التلفزيون محل الراديو ، ثم جاءت شاشات العرض ومحطات الفضاء.

هذه المقدمة عن المقاهي ؛ لأن الحكاية بدأت في مقهى الكوكب الذهبي في مركز المدينة ، ما هو الكوكب الذهبي ؟! الجواب أنا لا أدري .. نحن نسمع عن الكوكب الأحمر ويقصدون به كوكب المريخ ، الكوكب الرابع من المجموعة الشمسية درب التبانة هكذا علمونا.

والأسماء اخترعت للتمييز بين الأعلام والأشياء.. صاحبنا إدريس اللبن كان من رواد المقهى الذهبي ، كان المقهى يأخذ جزءا كبيرا من مساحة الطابق الثالث ، والأول كله محلات تجارية والثاني مطعم كبير ، المقهى عبارة عن صالة كبيرة ، الغرف مفتوحة على بعضها البعض ؛ لذلك في بعض الأجزاء لا يرى الزبائن بعضهم بعضا ، وموضع التلفزيون في زاوية في وسط

المكان تمكن العدد الكبير من رؤية التلفزيون .. إذن هناك حواجز تمنع رؤية بعض الزبائن لبعض ، وفي المقهى شرفات من يجلس فيها يرى وسط المدينة والمشاة والسيارات ، ويغلب على المقهى رواد الجنسيات الإفريقية السودان ليبيا مصر ، ومباريات الرياضة تدفع الزبائن للجلوس قرب الشاشة أكثر من غيرها ، ولا تنسى لعب الشدة والورق .. البلد فيها أيدي عاملة من جنسيات كثيرة لما تتمتع فيه من استقرار اقتصادي وسياسي عن غيرها من منظومة الدول العربية ، وهذا المقهى لا يمتاز بكثرة الرواد من أهل المدينة الأصليين .. والمقاهي كثيرة في مركز المدينة .

القمار ممنوع في المقاهي ؛ ولكن لاعبو الورق يمارسونه بالحدود الدنيا ؛ كأن يدفع الطرف المهزوم ثمن المشروبات التي طلبت أثناء اللعب .. وهذا يكون بين اللاعبين دون تدخل من إدارة المقهى ، ودون إشهار هذا ، وهناك ألعاب أخرى تمارس في المقاهي مثل لعب النرد ، ويسمونها لعب الطاولة ، وهناك الشطرنج والدومينو ، وبعضهم لا يلعب يتفرج على كل شيء يعرض على التلفاز ، بعضهم يتفرج على الناس أو يثرثر مع مجموعة خاصة أو مع أي شخص يصدفه ، وبعضهم ينشغل بالتدخين والشاي ، فهنا يباع الشاي والقهوة واليانسون والقرفة والسحلب والمرطبات وعلب التبغ ، ومن جاع فيهبط للطابق الأسفل يتناول المطعومات السريعة والبطيئة والدسمة والخفيفة الدسم .

كان الكهل إدريس اللبن من رواد هذا المكان من سنوات طويلة ، فهو معروف لسيد المقهى والعاملين ، فمالكه عوني أبو نوفل رجل عجوز ورث المقهى عن أبيه ، وتجمع بينه وبين إدريس قرابة ، وأصبح إدريس من زبائن المقهى الدائمين ، وأصبح مقر استراحته ، فعندما يغادر مقر عمله الرسمي قبل التقاعد يتجول في شوارع المدينة ، يتناول الغداء في أحد المطاعم ويصلي العصر في أحد المساجد ، ثم يجلس في المقهى حتى المغرب ؛ وربما يجلس بعض الوقت مع مدير المقهى قريبه ، ثم يذهب للجلوس في إحدى الشرف يراقب الخلق أو يأخذ زاوية يكتب فيها مقالا أو أفكارا أو يتحدث مع أحد الناس يصدفه يتناقشان يتجادلان يعلقان على

خبر سياسي اقتصادي سياسي اجتماعي رياضي، ثم يغادر عند المغرب للصلاة في مسجد قريب من المقهى حيث ترى مئذنته من شرفة المقهى ، ويسمى المسجد الكبير سيدي سعيد ، ويصلي المغرب جماعة ، وبعد الصلاة إما أن يذهب لإدارة الجريدة التي يكتب لها بعض المقالات والتحقيقات كهواية فحسب ، وهي جريدة أسبوعية تصدر كل أسبوع مرة ؛ وربما تحتجب في بعض الأسابيع لأسباب متنوعة على رأسها الضعف المالي ، فيصدر العدد في الأسبوع التالي ؛ ولكنها مستمرة في عملها ، فمالكها يعمل محاميا في الأصل ، ولها سكرتير تحرير وطابع ، ومراسل مكتب يعمل من الصباح حتى العصر ، ومن مهامه التنظيف والشاي والقهوة وإحضار البريد من صندوق البريد الخاص بالصحيفة ، فيذهب إدريس لتسليم ما كتب باليد ويجلس مع المدير وهو قريب له ، وهو الذي رغبه بالكتابة من سنوات وسنوات ، فيشرب معهم الشاي يثرثرون يقترحون ، ثم يغادره بسيارة أجرة صفراء إلى حي الشاعر حيث يعيش في شقة يملكها.

ولم تحدد البلدية اسما للشاعر تركته على غموضه ، فقد يكون اسم عائلة ، يقول إدريس الذي يعشق الفضول ويحب معرفة كل شيء يقول : لم أعرف نهائيا سبب اطلاق الاسم على الحي حتى قيم المكتبة العامة المهتم بتاريخ المدينة وأحيائها تراثيا وتاريخيا لا يفهم سبب اطلاق حي الشاعر على هذا الحي.

وقال إدريس: رغم عملي بالتحقيقات الأدبية والفكرية ما زلت لا أعرف لماذا سموه بهذا الاسم ؟ ولا أعرف أحدا يحمل اسم هذه الأسرة في هذا الحي بالذات .

يقول إدريس : في السنة الأخيرة التي أعيش فيها كان رجل يرتاد المقهى قد أثار فضولي بالحديث معه ، وأثار انعزاله استغرابي وحيرتي ، حاولت فتح خطوط اتصال معه بسرعة ؛ ولكنه رفض بالصمت وعدم التفاعل معي ، عادة أنا أحتك بالزبائن ، ثم أتخلى عنهم .. ويصبح الجلوس معهم لحديث قصير والتحية ، أما هذا الرجل فأبى أي انفتاح وحوار .. يتعرف الإنسان على الأشخاص ثم يختار الاستمرار أم الانسحاب .. هذا الرجل ولا حتى

عرفني على اسمه .. يتردد يوميا على المقهى كل مساء ، يحدق بالناس ولا يتعرف عليهم ، ولا يفتح حديثا مع أحد ، لا يجالسه أحد ، لم يستقبل أحدا .. كله غموض حتى سميته الزائر الغامض .. أنت تتعرف على الناس من المجاورة والمشاهدة أكثر مرة في نفس الزاوية التي تستوطنها وذلك إذا تكرر المجيء لنفس المكان .. جاورني في المكان ، ولا يسعى للتعارف كما هي عادة البشر من حب التعارف والثرثرة ، ولو حتى ببطولات كاذبة أو مضخمة .

أنا اتخذت المقهى مكانا للاستراحة ولقاء المعارف عند الحاجة ، ومكانا للتنفيس من الغضب والضيق من التعامل مع البشر أثناء ممارسة الوظيفة ، قضيت عمري في مراقبة المطاعم والمقاهي والتفتيش الصحي على المحلات ومحلات بيع المواد الغذائية .. تخرجت من الجامعة في مطلع الستينيات ، أحمل بكالوريوس صحة عامة ، فعملت في وزارة الصحة فترة لم تكن طويلة ، وانتقلت للعمل في صحة البلدية كمراقب ومفتش صحة على المحلات ، وأنها تراعي الصحة العامة ، ومتابعة المواصفات الصحية اللازمة في تلك المحلات كالمطاعم والبقالات والمقاهي والفنادق .. فهل يراعون المواصفات الصحية للمحافظة على الصحة العامة عند إنشاء مثل هذه المصانع والمحلات ؟ وكذلك عدم نشر الأمراض المعدية .. ونهتم بمتابعة محلات بيع اللحوم والأسماك وبيع الدجاج وبيض المائدة

وأنا اليوم متقاعد من هذه الوظيفة المهمة في حياة المدينة ، كنت متزوجا قبل ثلاثين سنة ، ثم ترملت بعد عشر سنوات زواج ، ولم تلد لي الزوجة رغم المعاناة الشاقة بسبب هذه القضية أطباء فحوصات مشعوذون بوصفات لا تنتهي ، وقد علمت من الأطباء أني غير قادر على الإنجاب ، وأن لا فائدة من المتابعة ؛ لذلك بعد موت الزوجة ارتحت ، ولم أعد أفكر بالزواج ثانية خشية العودة لتلك السنوات المرة من تحاليل مراجعات أدوية .. تعقدت من إعادة التجربة إذا جاز هذا التعبير ، فلي اليوم أكثر من عشرين سنة بدون امرأة تشاركني الفراش والبيت ، أنا ألعب وحدي ؛ فلذلك أحب أن أسلي نفسي بالناس وقصص الناس ؛ ولكني أسر جدا عندما يزورني أبناء أخي حسن وأختي فاطمة ، فكل جمعة يزورونني فهم من سكان

الحي الذي أسكن فيه ، وستعرف المزيد عني خلال سطور القصة سواء رُقت لك أو لم أرق .
انتبهت لهذا الزائر الغامض وشدني الفضول إليه ، رجل يزيد عن الخمسين مثلي ، نحن بدا لي أبناء نفس الجيل ، كانت عيناي تلتقي بعينيه للحظات ، أظن أنه سيكون بعدها لقاء وتعارف ولكن لا يحدث الحديث ولا التعارف ، وأصبح الرجل شغلي الشاغل كلما جلس في مقهى الكوكب الذهبي ، هو يلاحقني بعينيه خفية ، وأتظاهر بالنظر إلى شيء فأجد أنه يلاحقني بعينه .. أحيه بالتحية الإسلامية فيرد التحية ويلزم الصمت .. أثار الفضول الرهيب في نفسي يجب أن أعلم من هو هذا الزائر ؟! .. مضى شهر والعيون تتلاقى دون فائدة دون حوار .. وهو من أكثر الناس الذين رأيتهم يدخنون ؛ ربما يحرق علبة كاملة منذ دخوله المقهى وحتى يخرج يطلب شايا أولا ، ثم قهوة ، ومرة أخرى يعكس الطلبات .
هذا الزائر الغامض رغم مرور شهر على تلاقينا في تلك الزاوية من المقهى الذهبي لم يسع إلى ذكر اسمه لأحد أنا أو غيري أو مهنته أو كنيته أو لقبه ، كانت العيون تتناجى ثم يغرق في عزلته وسرحانه .. عجبت لحالنا نريد أن نتكلم ثم يضعف كلانا ، وأثار دهشتي فيه أيضا أنه يحضر للمقهى مع وقت العصر كما أفعل ويغادر قبل المغرب أو بعده .. وكنت ألحظ ابتسامة غامضة على وجهه وهو يغادر المقهى قبلي .. لقد أصابني بعلة قاتلة علة الفضول الزائد الشديد المتعطشة لكشف شخصية هذا الإنسان.. زاد الفضول البشري من صمته من كلام عينيه .. سألت بعض من يجلس بقربنا هل عرف أحدهم اسمه كنيته مهنته وظيفته ؟ لا أحد استطاع إجابة أو معرفة شيء.. فهو غامض غموضا غير عادي ، فكان يستحق لقب الزائر الغامض .
كان عليّ بعد مرور شهر أن اكشف حقيقته ، فقد سألت نفسي لعله مجنون مريض عقلي سألت الجرسونات فقالوا : لا يتكلم معنا إلا بالطلبات والماء وشراء الدخان
مع مضي سنوات وسنوات على جلوس إدريس في المقهى الذهبي وتعرفه على رواد كثر لم يثر فضوله ورغبته للتعرف عليه كهذا الكهل الأنيق الذي يأتي المقهى ببذلة أنيقة كأنه موظف

كبير .. مضى نصف الشهر الثاني منذ ظهر الرجل في المقهى .. وإدريس قد حسب ذلك ولليوم لم يعرف أحد اسمه أو أبو ماذا ؟! وحدث تغير مثير أيضا أن الرجل بعض أيام الأسبوع يأتي في الصباح يقضي ساعة وأكثر ثم ينصرف ، ويعود عصرا كما بدا لإدريس .. يظهر بعد العاشرة صباحا ويشرب اليانسون أو الشاي بالحليب ويختفي ويعود مساء مما خربط دماغ إدريس المهتم به أكثر من اللازم .. وهذا علمه إدريس من عمال المقهى الذين انتبهوا إلى اهتمام إدريس بالرجل الغامض ، وقد حاول هؤلاء المساعدة بمعرفة اسم الرجل ، وعجزوا عن ذلك مما زاد الفضول لدى إدريس أكثر .. إنما ينادونه يا حاج يا أبا الشباب كما يقال لكل مجهول الاسم .

كان الرجل يرفض أي سيجارة تقدم له من إدريس أو غيره ، وهو من عشاق الصمت وقلة الكلام ، لا يتكلم إلا عند رد التحية والسلام وبصوت ضعيف ويكون ذلك تحت الإجبار .. وربما يضطر للكلام مع الجرسونات لطلب المشروبات أو الدخان ودفع الحساب .. فكنت أقول لنفسي للرجل حكاية ، أنا أقرأ الوجوه والعيون كيف سأصير ثقة عنده ؟ ليفتح قلبه وأسمع مأساته ، نعم إن له مأساة .. وهو دائما أنيق الثياب يأتي المقهى ببذلة أنيقة ، وخلال الأربعين يوما قد أكون رأيت عليه أكثر من ستة بذلات .. لماذا جاء لهذا المقهى ما دام ليس له أصحاب يرافقهم ويسامرهم ؟! مرة واحدة فقط أقبل شاب إلى المقهى وجلس يسّاره بحديث بضع دقائق وانصرف ، لم استطع التقاط شيئا من الحديث بينهما .. الزائر الغامض علب سجائره تتغير لا يثبت على ماركة معينة .. لماذا أنا مهتم به لماذا ؟! أخبرني الجرسون أبو جلال أن الرجل يرتاد المكان يوم الجمعة في الموعد المسائي .. أنا من النادر أن أجلس في المقهى نهار الجمعة ، الجمعة اجعله للتواصل الأسري لاستقبال وزيارة الأقارب وأبناء الأخوة والأخوات خاصة سكان حي الشاعر الذي يكون في غرب مركز المدينة .. فأخي طبيب عمل في الحكومة ثم ترك وفتح عيادة خاصة في حي الشاعر ، وهو محبوب من سكان الحي ، وهو طبيب شعبي وأختي التي تجاورني في الحي ربة بيت مع أنها تخرجت مثلنا من الجامعة ؛ ولكنها منذ تزوجت

تركت العمل ولم تمارسه ، وهي أكبر إخواني ، وهي مشفقة عليّ ، وسعت أكثر من مرة في تزويجي بعد ترملي ، وكنت أرفض وأفشلها .. وزوجها محترم ، وأنا لا أحب مزاحه ؛ لأنه كثير ما يثيرني ويستفزني ويغمز بي من ناحية النساء ..كان يريد أن أتزوج لإرضاء زوجته أختي ، لابد أنها قضية تشغلهم كثيرا في البيت ..لا يمر شهر دون تناول الغداء معهم وذلك يوم الجمعة .. مرة استعنت بخادم آسيوي في البيت قضى معي بضعة شهور، ثم تخلصت منه لا شيء عندي يلزمه خادم .. الطعام المطبوخ توفره المطاعم المنتشرة في الشوارع والأحياء وفي قلب المدينة .. عددها كثير لا تحصى .. ما بين الكبير وبين للصغير .. والغسيل والكوي لا يخلو حي منه .. وما ينفق على الخادم من مال وطعام ينفق على المطعم والكواء ..ولا يخلو بيت من غسالة كهربائية ؛ لتقوم بغسل الملابس الداخلية ..ومكنسة كهربائية لتنظيف السجاد والبيت .

وكما ذكرت لي قرابة يدير جريدة أسبوعية ، ومنذ فتح تلك المصلحة وأنا أكتب له بناء على رغبته .. لا يقل شهر من مقالين اكتبهما لجريدته.. وهناك مقالات وتحقيقات أنشط فيها ، وبعضها أكتبها بدون روح ملء الفراغ فقط ، وبعضها كما يقول يحولها لسلة القمامة .. وأهم ما أكتب فيه وعنه قراءة كتاب إما التعليق عليه أو تلخيصه وتشجيع القارئ على قراءته .. ولي أعمل معه أكثر من عشرين عاما بهذه الطريقة .. وأنا بعد تسليمها له لا أعود لقراءتها ، ولا هو يطلب من ذلك .. لا وقت لدي للإعادة رغم أني بدون أسرة .. لا وقت للمراجعة والعودة لما نشر .. العمل معه هواية ليس احترافا .. ولا أدعي أني صحفي كبير ولا صغير .. وأنا متقاعد من العمل الوظيفي ..وكنت أتردد على المكتبة العامة في وسط المدينة ، وتعرفت على كل الموظفين في قسم المطالعة ..فأتحدث مع قيم المكتبة عن كتاب جديد معلومة مثيرة مقال انتشر عنوان شاع كذلك .. فالكتب الجديدة تصل المكتبة ، وكذلك الصحف اليومية وقد يدفع لي قريبي الصحفي كتابا نزل السوق لأقرأه وأعلق عليه حسب المساحة المطلوب تغطيتها .. ومرات أرفض ومرات أضطر أن أقبل لتبقى حبال الوصل متصلة .. وليستمر

ترددي على مكاتب الجريدة .. واعلموا أن توقيعي على المقالات باسم غير حقيقي .
كان الزائر الغريب لمقهى الكوكب آثار الفضول لديّ بشدة عجيبة ، وشدني لأسعى إلى معرفة سبب هذا الانعزال والانغلاق ، ومعرفة تفاصيل حياته ، ولماذا هو متقوقع على نفسه ؟! استعملت عددا من الوسائل معه دون نتائج ودون فائدة ، فكرت بهجر المقهى حتى لا أفكر فيه ، وقلت لماذا أهجر المقهى أنا ؟ فليهجره هو .. إني أجلس فيه من عشرات السنين أصبح جزءا من يومياتي ، ومن حياتي .. العمال يتغيرون يتبدلون حتى لو مات صاحب المقهى سأبقى الزبون الدائم هنا .. أستيقظ في الصباح للصلاة في الجامع الفجر .. وأنام .. أستيقظ وأطلع على الصحف التي يؤمنها لي صاحب المكتبة في الحي .. أتناول الفطور في البيت مما هو متوفر في البيت أو أمشي إلى مطعم قريب من البيت في أحد الشوارع الرئيسية ، ثم أعود للبيت لشرب الشاي .. وأغتسل وأصلي الظهر في أحد مساجد الحي ـ يوجد في الحي ما يزيد عن خمسة جوامع ـ لا أخص أحدها عن غيره .. لا أعتبر نفسي شخصا متدينا كما يصنف الناس .. تعلمت الصلاة منذ الطفولة المبكرة من حياة الوالدين ..كان من أهم الأشياء عندهم الصلاة وقد نفعنا الله بذلك .. وما زلت أخص قبريهما بزيارة مرة أو مرتين في السنة ، ولا أؤمن بزيارات الأعياد ، فبعضهم يرى أنها ليست من هدي النبي صلى عليه وسلم فلم أعد أهتم بها لما وصلتني هذه المعلومة .. وإذا حضرت دفن جنازة حيث قبرا تراني أمر على قبريهما مسلما وداعيا ـ رحمهما الله ـ كانت أمي تتمنى أن تراني أبا .. وماتت وهي حزينة عليّ.. والطب لم يستطع مساعدتي .. والأمر كله لله ..وأنا الآن أقترب من الستين عاما ..فلست بحاجة لزوجة وقاومت مشاريع الزواج السنوات الماضية .. بضع سنوات ونغادر الدنيا .. أعمار الأمة بين الستين والسبيعين .. وبعد صلاة الظهر أنطلق إلى مركز المدينة العامرة حيث الحياة الكبيرة أزور المكتبة العامة قراءة دردشة مع الزوار الموظفين .. هنا الغذاء العلمي الكتب الفكر الشعر ثم أمشي في الشوارع إلى المسجد الكبير ، وربما دخلت الأسواق في جولة بطيئة أو سريعة حسب الوقت والفصل .. ثم صلاة العصر في مسجد سيدي سعيد .. يقولون إنه شيد في عهد

الصحابة .. ولا دليل .. وبعده إلى المقهى العتيد .. وقد أتناول طعاما قبل دخول المقهى إما في المطعم الكائن في الطابق الثاني أسفل المقهى أو ءأخره لبعد صلاة المغرب .. أذهب للصحيفة ثلاث مرات في الأسبوع ومرات مرتان فقط .. أعود للبيت أصلي العشاء غالبا في مساجد الحي أو البيت .. أشاهد التلفزيون أو أقرأ رواية .. أحب قراءة الروايات التاريخية رغم أنها مليئة بالكذب والخيالات .. وأقرأ الروايات البوليسية الشائعة والمنتشرة بكثرة هذا اليوم .. أقرأ أحيانا مذكرات شخصية لمشاهير ومغمورين .. إنني أسهر لنصف الليل ..قد يطل عليّ بعض الأصدقاء والجيران وبعض الأقارب .. وأحب صلاة الفجر في الجامع وأنا حريص عليها .. وقد أجلس مع بعض الجيران والأقارب في المسجد حتى تشرق شمس النهار ونعتمر ونحج .. وأعود للبيت للنوم وقد أشرب لبنا دافئا أو قهوة قبل الغرق في النوم .. لم يكن عهد الفضائيات انتشر بكثرة .. أنا اليوم مشغول بزائر مقهى الكوكب الذهبي .. نحن في آواخر عام ١٩٩٣.

انتهى موسم شتاء ذلك العام ، وجاء شهر مارس ١٩٩٤ ولم يتمكن إدريس من معرفة أسرار الزائر الغامض مع ما بذل من جهد وحيل فغير الخطة .. وقرر أن يرقبه خارج المقهى ..كان الرجل يرفض تقربه بكل قوة .. وأحيانا يبتعد عنه إلى مكان آخر ؛ لكنه في نفس القسم والجزء من المقهى .. خطر لإدريس متابعة الرجل خارج المكان .. التعرف على سكنه على جيرانه ؛ وكأن الكهل أدرك أفكار إدريس الجديدة فكان يعمل على إفشال هذه الخطة .. مما زاد من غيظ إدريس ويتسأل كل مرة يفشل فيها .. لماذا يفعل ذلك ويرفض أي تعارف أو احتكاك ومع ذلك لم يطلب مني ترك عبثي أو أفعالي ؟!

كان إدريس يغادر المقهى كما ذكرنا بعد دخول المغرب ، ويدرك صلاة الجماعة في الجامع سيدي سعيد ..كان بعضهم يرى أنه سمي على اسم الصحابي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بجنة الفردوس ، وبعضهم يرى أنه على اسم التابعي سعيد بن جبير أو سعيد بن المسيب .. فالبناء الأول قديم ؛ ولكنه حدث وجدد مرات على مر الأيام .. وإدريس يرجح أنه

على اسم الصحابي سعيد إذا ثبت أنه أقيم في عهد الصحابة وزمن الفتح الإسلامي الخالد .
لتنفيذ الخطة الجديدة صلى المغرب في المقهى حيث يصلي مالك المقهى ، ولما غادر الزائر تبعه خفية ..مشى الرجل إلى مطعم كبير ..وظل إدريس يتمشى أمام المطعم .. ويرقب مخارج المطعم منتظرا خروج الرجل .. وكان يراقب بحيث يرى مدخليّ المطعم .. وكان السيد يلبس كعادته بذلة أنيقة تميزه سريعا عن الآخرين .
خرج السيد بعد نصف ساعة ، وتلاقت العيون لحظة الخروج ، وأدرك إدريس أن الرجل لمحه فارتبك ، وتظاهر أن وجوده قرب المطعم عفويا .. وأخذ يمسح فمه موهما للرجل أنه كان يتعشى مثله .. ولاحظ أن الرجل يتلف للخلف كلما مشى بضع خطوات إلى الجهة التي يقصدها .. وقد لمحه الرجل عدة مرات .. وأدرك أنه فشل في هذه المحاولة .. ومع ذلك أحب أن يثير غضب السيد ..واستمر بالملاحقة عن بعد ..وأخذ الرجل يحاول الاختفاء والاختباء والتقيا عند تقاطع .. فابتسم له السيد مثيرا لغضب إدريس ؛ وكأن اللعبة أعجبته .. عاد إدريس للبيت ، وقد أدرك أن الأمر يحتاج لجهد وخطة ذكية ..وعرف فيما بعد أن الرجل قضى أكثر من ساعتين يتجول في الشوارع والأسواق متوهما أن إدريس ما زال يتعقبه .. واضطر أن يركب تكسي أجرة خاص .. وينزل في حي قريب من مسكنه .
دخل إدريس المقهى ، وحيا معارفه ، واقترب من الزائر الغامض وقال : عساك عدت البيت باكرا !
لم يرد الزائر بسوى ابتسامة ، وأتبعها بنفخة دخان من سيجارته .. ظن إدريس أن الرجل سيسأله لماذا يتبعه ؟ماذا يريد منه ؟ لقد لزم الصمت لم ير سوى تلك الابتسامة الساخرة والنفخة الدخانية .. غادر إدريس المقهى ممغوصا معلولا قبل انصراف الرجل .. لم يذهب للمسجد ؛ إنما ذهب لمتجر قريب ، وصلى عنده المغرب ، وانتظر مغادرة صاحبه للمقهى ، شاهده يغادر عمارة المقهى ، ورآه يتلفت في جهات مختلفة ؛ كأنه يبحث عنه ..فعلق إدريس : اللعين ما زال مهووسا بأني أراقبه . شاهده يمشي ناحية المطعم مطعم أمس فقال : أتراه

مطعمه المفضل كما مقهى الكوكب ؟! تبعه حتى دخل المطعم ، تمركز إدريس بعيدا عن المطعم ، وركز انتباهه على مدخل واحد هذه المرة حتى لا يُرى والرجل يخرج كما حصل أمس استطاع رؤيته وهو يخرج ، وتبعه بحرص أكثر من السابق ..واتبع الرجل نفس خطوات أمس في محاولة لتضليل من يتبعه . فقال إدريس: كان عليّ أن أغير لباسي وأغطي رأسي بكوفية.

مشى الزائر في الشارع العام ثم اختفى في أحد الشوارع الجانبية .. والعمارات والمباني كثيرة تدخل من مدخل عمارة تخرج من أخرى .. كان يتحرك كأنه يدرك أنه متبوع .. والتقيا دون سابق إنذار .. فابتسم إدريس له بحنق .. فقد كان يخرج من محل لبيع العصافير والطيور اضطر إدريس للابتعاد وإن تظاهر أنه يراقبه .. ثم غادر المكان إلى البيت .. وتابعه الفشل في كل متابعة .. ورغم الخطط والتعديلات وتغيير الملابس بعد مغادرة المقهى لم يعرف المنطقة التي يركب إليها الرجل حتى فكر بالاستعانة بصديق ؛ ولكن ماذا يقول له عندما يسأل عن سبب هذه المطاردة ؟ وماذا يريد منه ؟ واحد لا يحب التعرف عليه ويرفضه ، ولا يحب أن يطلع أحد على أسراره الخاصة ومكان سكنه ، ولما يحشر نفسه في حياته .. لا مبرر لهذه المطاردة إلا الفضول الجنوني .. الموقف محرج ومزعج ومخز بين الناس .. وكان يصاب بالصداع بعد كل فشل .. ويعجب كيف تراقب الشرطة المطلوبين والمجرمين ؟! وكانت نظرات السخرية ظاهرة من إدريس عندما يلتقيان في المقهى .. ويبادله التحدي وعدم اليأس .. وذاك يبادله بسحب الدخان في الفضاء وابتسامة ساخرة .. فيقول لنفسه: أخشى أن تصيبني جلطة من هذا الساخر .. أكيد أنه يقول أنت رجل لا يحسن المراقبة .. لماذا جاء هذا الرجل لهذا المقهى؟! لماذا ؟! ويحس أنها تكاد تخرج عاليا .. سأعطي نفسي إجازة عن مقهى الكوكب .. عليّ أن أريح أعصابي قبل أن أفقدها وأصاب بالجنون .. فرغم كل التكتيكات التي اتبعها خلال هذا الشهر فلم يستطع إدريس معرفة السيارة والخط الذي يخدم مكان سكنه ؛ بل عجب من لبسه للبذلات الأنيقة باستمرار ولا يملك سيارة خاصة .. قرر إدريس بعد فشله هجر المقهى إلى حين يسير .. فغاب أسبوعا واحدا عن المقهى .

غياب الزائر

صبّر إدريس نفسه أسبوعا عن الدوام المعتاد له في مقهى الكوكب الذهبي ؛ ليريح أعصابه بعد فشله الذريع في معرفة مكان سكن الزائر ؛ وكذلك ليزيد فضول الرجل بهذا الغياب .. عاد لمقهاه المفضل منذ عقود انقضت من العمر .. وتفاجأ أن الرجل غير موجود ، تفقد جميع المقهى دون أن يراه .. مضى اليوم الأول والثاني والثالث فاضطر للسؤال عنه ..فأخبره الجرسون أنه متغيب من أيام ، لم يعد يظهر في المقهى ؛ لعله سقيم .. وأخبر آخر أنه جاء مرة ولم يمكث إلا مدة شرب شاي وغادر .. قضى إدريس عشرة أيام يرقب عودته .. فقال : هل غير مقهاه ؟! هل تضايق من إزعاجي غير المبرر فغير المقهى؟! عمل إدريس جولات على المقاهي القريبة من الكوكب الذهبي .. راقب المطعم المفضل له عندما يدخله للعشاء .. لم يظهر أيضا .. هل مات الرجل أم هو مريض ؟! لقد شغل فكري اللعين ..قاتل الله الفضول والشيطان .. جاء صيف ١٩٩٤بحره وغباره دون أن يصدف الرجل الغامض.. وبينما هو يصعد درج المقهى التقى بأحد عمال المقهى فقال : يا أستاذ إدريس الرجل الذي كنت تكثر من السؤال عنه قد عاد ، وأخبرته أنك كنت تسأل عنه .. فهو لا يعرفك .

فرد إدريس : هل هو في الداخل ؟

قال الخادم : هو من عشاق الصمت .. يبدو لي أنه مريض ..هل يتكلم معك ؟!

ـ لا يتحدث معي.. يرفض الحديث معي .

ـ ولماذا تسأل عنه ؟

ـ لفت غيابه فضولي ..فكرت أنه مات أو أصيب بحادث .. شكرا لك .

وتابع صعوده درج المقهى ، ولم يتجه للجهة التي يتخذها الرجل مجلسا ، جلس في مكان يستطيع رؤية الرجل منه ..وتظاهر بأنه لم ينتبه لعودته المفاجئة.. أدرك إدريس أن الرجل يترصده بطرف عينيه .. فأحب أن يستفزه ..وحاول أن يظهر له أنه غير مهتم به وبعودته وفعلا استطاع الانتصار على نفسه.. ولم يقرب تلك الزاوية .. وغادر المقهى كالمعتاد وتنفس

الصعداء وهو يغادر ، ومشى للجامع لصلاة المغرب ، وهو يحادث نفسه : أتراه رآني كما شعرت؟ أتأثر بعدم اهتمامي به وبوجوده ؟ لقد ورطت نفسي معه .. هذه أول مرة أقابل شخصا يحب الاعتزال عن التعارف والثرثرة .. ولما قضى الصلاة دخل المطعم الذي اعتاد عليه الزائر الغامض .. وبينما هو يجلس على مائدة طعام تفاجأ به جالسا على مائدة أخرى ، فاستمر في تجاهله .. وطلب عشاءه ، وتعشى ، ثم غادر .. وظل الرجل بعد مغادرته في المطعم مع أنه أكل قبله.. ثم رآه يتعقبه ، فقال إدريس لسخافة الموقف : ماذا يريد هذا اللعين ؟ إنه يراقبني هل ظن أن دخولي المطعم لمراقبته ومتابعته ؟!

وتظاهر بعدم المبالاة ومشى إلى موقف سيارات الأجرة ـ الخطوط العامة ـ وركب سيارة حي الشاعر ..ولاحظ أن الرجل ما زال يتعقبه . فقال إدريس : هل يفكر بالحديث معي ويستجمع قواه ؟ فهذا لا يحب التعرف على الناس.. لنا شهور نتبادل النظرات والإشارات دون تجاوب من قبله وصل الحي مع ارتفاع نداء الصلاة للعشاء نزل عند المسجد المناسب ، وذهب إلى حجرة الوضوء ، وقضى حاجته ،وتوضأ استعدادا لصلاة العشاء ، ودخل معهم في صلاة الجماعة ، وبينما هو يغادر باب المسجد حياه رجل من معارفه الأعزاء ، وصديق العمر ، وخدم كلاهما في المراقبة الصحية في بلدية المدينة ، ودعاه إلى البيت مسرورا .. وهذا دائم بينهم من أيام طويلة ، وأجلسه في غرفة الاستقبال التي يعرفها الضيف كما يعرف بيته .. ودخل إدريس غرفة نومه ، وخلع الملابس الرسمية ، ولبس الثياب المنزلية .. وعاد يحمل الشاي وقطع البسكويت ووضعها أمام صديقه إياد .. ولما تحدثا عن الذكريات وآخر الأخبار .

قال إدريس: هذه الرقابة على المحلات والمطاعم والدواجن أهون وأسهل من الرقابة على البشر .. الله يعين الذين يعملون في الأجهزة الأمنية .

ـ لم أفهم سبب هذا الكلام يا إدريس ؟

قص عليه فشله في تعقب رجل المقهى الغامض ولما انتهى الكلام .

قال إياد مستفهما : وماذا تريد منه لتشغل نفسك فيه ما دام الرجل يرفض التعارف والكلام

عن نفسه ؟!

ـ الفضول يا رجل ؛ كأن الفضول أصبح مهنتي بعد التقاعد .. الناس تحب الحديث عن النفس عن البطولات .. يجب أن أعرف حيه وبيته لأسال عنه بقالة مجاورة لبيته بعض جيرانه أسأل عن صمته القاتل .. سبب لبسه الثياب الأنيقة .. الفضول السبب

ـ أتحب أن أساعدك في هذه المهمة ؟

ـ كيف ؟

ـ هو يعرف أنك مهتم به .. فأما أنا فهو لا يعرفني .. فإما أن تعرفني عليه في المقهى وإما الشارع ..ودع الباقي عليّ .

تنهد إدريس بعمق وسعادة وقال : إنك تقدم خدمة لا تقدر بثمن يا إياد!

وضع إدريس وإياد الخطة المناسبة لمعرفة حي رجل المقهى الغامض ، ظل تحدي العيون متبادلا بينه وبين الرجل في مقهى الكوكب كلما تقابلا بالأبدان ، وكان إدريس قد غير مكان جلوسه داخل المقهى ليربك الرجل ، وجاء إياد المقهى المعروف له من عهد قديم ـ وهو ليس من عشاق المقاهي ـ واستطاع التعرف على شكل الرجل دون الجلوس مع إدريس ، وتكررت الزيارة حتى عرفه بصورة جيدة تمكنه من تعقبه ، ثم أخذ يترقبه عند مطعمه المعروف ، ويتبعه خطوة خطوة ، فلما خرج كان خلفه في الشارع ، وأدرك أياد أن الرجل يتصرف تصرف الذي يحس أنه مراقب متبوع ، فيعمل على تضليل مراقبه ؛ وكأنه يشعر أنه إدريس يراقبه خفية. فقال : رجل موسوس .. لماذا هو خائف من إدريس؟! فعلا أنه مريض .. وكان يقول لإدريس بواسطة الهاتف بعد صلاة العشاء: الرجل يتجول في شوارع وأسواق المدينة ؛ كأنه ما زال متبوعا حتى ظننت أنه يعرفني، ويعرف أنني أتعقبه .. لعبة جميلة المطاردة لهذا العجوز لا أدري هل هو يتسلى أم هو شديد السقم ؟!

استطاع إياد بعد أيام يسيرة من معرفة حي الرجل، وبيت الرجل ، وكان يزور إدريس ليقدم له النتيجة ..وبعدما تناولا عشاءهما في أحد مطاعم حي الشاعر زلفا لبيت إدريس ويقول

لإدريس : إنه من سكان حي بهية .. واسمه سيف الدين حاكم وردة .. ووالده كان قبل موته من كبار تجار المدينة وحتى البلد كلها .. تاجر مرموق ..وقد مات قبل عشرات سنوات والرجل عمل مهندسا في أحد المصانع الكبرى .. وهو اليوم متقاعد منه ..ولا يمارس عملا .

ـ هو من أهل ذلك الحي !

ـ نعم ، من أهالي حي بهية .. وهو ـ كما تعلم ـ كان من الأحياء الراقية قبل ثلاثين سنة ..كان حي علية القوم من رجال البلد حي التجار الكبار والوزراء .

ـ إني أعرفه حق المعرفة يا أبا أحمد .. وما الذي حذفه على هذا المقهى؟! فمقاهي بهية مقاهي فخمة .

ـ هذه المقاهي صارت فيه من عهد قريب .. ظهرت بعد ظهور أحياء حديثة للأغنياء الجدد ؛ ولكنها ما زالت تحافظ على طابعها القديم ، وقد دخلت عليه الطبقة المتوسطة .. لم تعد مهوى الأثرياء الكبار كما كانت في الستينات ومنتصف السبعينات .. اليوم هناك حي البدر والزهرة

قال إدريس :حي بهية ما زال مسكن الطبقة الغنية القديمة .. تتوارث العائلات تلك القصور الفلل .. ففيه يقطن أكثر من وزير ورئيس وزراء قديم .

ـ صحيح هذا يا إدريس ! المهم أنا حققت ما أرهقت نفسك فيه من عدة شهور ما الخطوة التالية ؟

تبسم للغمز وقال : الخطوة التالية ..وقبل الخطوة التالية اشرب الشاي ..

وحدثني كيف عرفت اسمه وبيته ومهنته ؟!

ـ الأمر سهل .. استطعت الركوب معه في سيارة التاكسي الأجرة كراكب .. لم يستأجر سيارة خاصة ؛ بل هو يملك سيارة خاصة رأيتها في موقف السيارة ببيته

ـ هو معقد .. تابع .

ـ ركبنا السيارة سوية ـ وكان قبل تحرك للسيارة يتلفت يمنة ويسرة ـ

ولما نزل الحي لم أنزل مباشرة ، وبعد مائة متر نزلت .. ووقفت أتابع الرجل ، لمحته ينزل

ويدخل متجرا بقالة في الشارع العام للحي .. ثم رأيته يترك المتجر ..ومشى نحو شوارع الحي الشبه خالية من المشاة لأن الوقت ليلا يا إدريس.. ولم يكن بيته يبعد كثيرا عن الشارع العام للحي .. دخل شارع فرعي وأنا أراقبه .. ثم دخل بيتا أو قل قصرا من طابقين .. بعد حين دخلت الشارع واقتربت من البيت ، ووجدت لوحة على جدار البيت" المهندس سيف الدين حاكم وردة" وعدت للشارع العام .. وتحدثت مع صاحب البقالة وسألته عن بيت المهندس سيف وردة فقال : قبل دقائق كان هنا .. وبقليل من الحديث والاستدراج علمت أنه عمل في مصنع دواء .. وأنه ابن رجل غني معروف ..وأرجو أن لا يحدث الرجل أن أحدهم سأل عنه وغدا سأدلك على البيت أم هل عرفته ؟

ـ أنا أعرف حي بهية بصورة جيدة .. صف لي معلما مهما .. وما دام قد كتب اسمه على لوحة سأجده بسهولة .

ـ نعم ، بيته قريب من الشارع العام الممتد بين المدينة والحي .. فهو في وسط الحي تقريبا هناك نادي اسمه نادي الكلب ؛ كأنه نادي كلاب أو اسم عيلة .. هو عند النزول من سيارة الأجرة طلب الوقوف عند النادي الذي مدخله على الشارع ؛ وكأنه مشى خطوات ودخل بقالة على الجهة المقابلة للنادي .. وأدركته وهو يترك البقالة ..ومشى نحو شارع فرعي وفي منتصفه داخل شارع فرعي آخر وفي منتصفه بيته .. الشارع الفرعي الأول لا والثاني لا وهو في الفرعي الثالث .. المنزل الأول لا .. أعتقد الخامس هو منزله وكما قلت لك للبيت لوحة مكتوب عليها اسم الرجل .. وكل البيوت السابقة تحمل اسم العائلة .. وأنا مستعد للذهاب معك .

بعد تفكير قليل أجاب : لا ، ربما أحتاجك لمتابعة أخرى يا إياد .

ـ هل ترى أن له قصة مسلية ؟! هناك المصنع يا صديقي .. قد تجد الكثير من المعلومات عنه

ـ أنا أحب أن أسمع منه شخصيا قبل سماعي من الآخرين.

ـ لا أدري سبب كل الاهتمام به !

ـ الفضول القاتل .. أثار شهيتي هذا اللعين ..كيف رفض التعرف على شخصه وذاته ؟! أريد

أن أبين له أنني أستطيع أن أعرفه وأعرف كل شيء عنه دون إرادته .

لم يتغلب إدريس كثيرا في الوصول لباب المنزل ، ضغط على الجرس ، فخرجت له امرأة خادمة كما ظهر من شكلها المعروف في البلد بالعمل في هذه المهنة .. فسألها عن المهندس سيف .. وبعد زمن يسير كان المهندس يفتح الباب ؛ ليقف مصدوما أو مذهولا ..ولما رَآه فتح فمه ، ولم يتكلم ، وأغلق الباب في وجهه . ابتسم إدريس ، وأدار رأسه ، وغادر الشارع .



لم يرحب سيف بإدريس ، وأغلق الباب في وجهه دون أن ينطق بكلمة ، لم يستطع إدريس من جمع معلومات عن الرجل تزيد عما زوده به إياد ، لم يتمكن من معرفة اسم المصنع الذي عمل فيه سيف ردحا من السنين .. ما الذي كان يمارسه في المصنع ؟ لم يزوده أحد بذلك ؛ لأن الرجل لا يختلط بالناس وحتى بأهله الذين حوله ؛ ولكنه علم أن الرجل لا يغادر البيت أول النهار إلا قليلا .. يفارقه بعد الثانية ظهرا ..حتى المحلات التجارية في الشارع الرئيسي لا تعرف عنه الكثير مجرد زبون يطلب الغرض وينصرف .. وإذا سئل أحد أقاربه عنه رد باختصار معقد مريض نفسيا .. يوصف بالانعزالي والانطوائي .. لا يتواصل مع الناس .. حياته البيت ..لا يعرف النادي القريب من مسكنه نادي الكلب .. رغم أن النادي رياضي ثقافي اجتماعي فهم لا يعرفونه .. ولا يذكرون أنه دخل النادي يوما .. وحتى النادي الآخر في آخر الحي لا يعرفه فيه أحد .. وكل محلات البقالة على الشارع الرئيس علاقته بها علاقة ضعيفة .. يعلمون أنه من سكان الحي وحسب.. وأنه شقيق الدكتور أمير وبعض النسوة .. يعيش بدون زوجة ، وهذا يعني أنه دون أولاد .. فوجد بينهما بعض التشابه التقاعد عن العمل.. الحياة بدون زوجة وأولاد .. لكن عنده خادمة آسيوية .. ولديه سيارة حديثة .. ويبدو أنه لا يحب استعمالها ويركب سيارات الأجرة .. لماذا ؟ الله أعلم!

قضى إدريس أسبوعا يلملم المعلومات عنه دون فائدة مهمة ..فالرجل غامض حتى في بيته وحيه .. فهو إذن مريض نفسيا لا يقرب منه أحد من الجيران ؛ كأنه نكرة ..ولكنه كان يشتغل سنوات وسنوات .. عليّ أن أتوقف.. لقد شغلت نفسي فيه كثيرا .. لماذا فعلت ذلك أيها المجنون ؟!

لاحظ أن الرجل لم يكترث لمعرفة منزله ، وأنه كان يلهو ويسخر منه رغم أنه سعى لمنعه من الوصول لبيته وحيه .. المقهى لماذا جاء لهذا المقهى؟! البلد مليئة بمثل هذا المقهى وأرقى وأفضل .. هناك سر .. هناك سر يا سيد إدريس ، أنت فضولك كبير .. إنه يتخابث ويتلاعب بي .. فهو يسخر مني .. حسنا يا مهندس سيف ! هل هؤلاء الذين حوله أقاربه ؟ إني كنت أسمع باسم السيد حاكم ..كان من كبار التجار في سوق الطعام والأغذية خاصة الأرز والدقيق والسكر الأبيض .. لما لا أسأل عن ذلك التاجر الكبير أصدقاء السوق ومنافسيه .. فهو من كبارهم وسادتهم .. من أعرف من سادة السوق الكبير للمواد الغذائية ؟ واليوم أغلب تجار السوق أبناء وأحفاد هؤلاء .. عليّ عمل جولة في ذاك المكان لعلي أتذكر كبيرا منهم .. أنا لي عشر سنوات متقاعد عن العمل والرقابة الصحية .. دخل السوق الكبير المعروف بسوق الأرز والسكر ..وكان ذلك بعد صلاة الظهر في جامع سيدي سعيد .. تمشى في طول السوق ذهابا وإيابا ..وأعاد بعض الذكريات في هذا السوق الكبير .. وفي طرف السوق تذكر متجر الحاج إسماعيل أبو علي .. دخل المتجر وبعد السلام سأل عن الحاج إسماعيل .. فأخبره أحد العمال أنه لم يعد يباشر العمل في المحل .. فهو قعيد البيت .. وأشاروا لابنه شامل الذي يدير العمل .. سلم على السيد شامل وقال بعد التعريف بنفسه: كنت أرغب بلقاء الوالد الحاج إسماعيل فأنا أعرفه قبل سنوات .

ـ ونحن نعرفك يا معلم إدريس.. الوالد عاجز عن العمل ..كما تقاعدت أنت هو تقاعد من سنوات قليلة .. كنت مراقبا صحيا تعمل في البلدية في هذه الشوارع .

غمر إدريس الفرح لتذكر شامل له .. وإن لم يذكره هو بشكل جيد .. لكن يذكر أنه رآه ، فتلك الأيام كان يعمل مع الحاج عدد كثير من الأولاد والعمال .. وبعد حديث ذكريات وشرب كوب من الشاي . قال إدريس : كنت أريد الحديث مع الوالد عن التاجر الكبير حاكم وردة .. ألم يكن له متجرا في هذا السوق؟

ضحك شامل وقال : آ .. ومن لا يعرف سيد السوق حاكم وردة يا أستاذ إدريس .. ماذا تريد منه ؟

ـ هو كما تعلم قد مات .

ـ زمان مات ربما له عشر سنوات ؛ وربما أكثر ..كان صديقا عزيزا على الوالد وكان عضو الغرفة التجارية وترأس جمعية المواد الغذائية ومستوردي الرز على المستوى العالمي ..وكما تعلم هو نقيب تجار الأرز فترة من الفترات .. هل تريد مصاهرة أبنائه ؟

تضاحك إدريس وقال : تقريبا .. ليس أنا طبعا ..كان له محل هنا ؟

ـ كان له محلات هنا ليس واحدا فقط.. لكن لما مات استلم مكانه ابن ابنته إحدى بناته .. وفشل في متابعة الخط ، واختفى اسم حاكم من السوق رويدا رويدا .. والحي أبقى من الميت وأصبح كما نقول في خبر كان .. ولا أعتقد أن أبي يعرف ذريته بشكل جيد .. السيد حاكم يا أخ إدريس لم ينجب الكثير من الذكور ، ذريته بنات ؛ بل مات أحد أبنائه في حياته .. له ابن طبيب حي والآخر مهندس .. والأول كان طبيبا ومات قبله .. وللسيد أربع أو خمس بنات .

ـ نعم ، نعم ، وهو من سكان حي بهية وما زالت ذريته تقطن ذلك الحي خاصة ابنه الطبيب والمهندس .. وكان لهذا الحي كما تعلم أيام عز وشهرة

ـ هذا صحيح ..كان حي بهية مهوى علية القوم في الستينيات ومطلع السبعينيات .. كان حي العز والفخامة يا معلم إدريس .. كان لي أخ يعيش فيه ثم هجره إلى حي أفخم وأحدث منه .. إذا كان الموضوع موضوع زواج فلن تجد عندنا المعلومات الكافية .

قال إدريس : كنت تريد الحديث عن ابن السيد حاكم المهندس سيف الدين !

ـ المهندس سيف الدين .. فعلا هذا اسم أحد أبناء السيد الثلاثة .. إنه شاب معقد .. هل هو متزوج؟! نحن لم نعرفهم جيدا .. حسب معلوماتي لم يتزوج هذا الإنسان كانت واحدة تصادقه أيام الجامعة.. له قصة كبيرة في موضوع الزواج ؛ كأنه تزوج ابنة أحد الأكابر .. بنت وزير ؛ ولكنها طلقت بعد أسابيع ، لم تكمل الشهر على ذمته ..لا أذكر القصة بالضبط ..هل يريد الزواج من إحدى قريباتك؟

بعد تردد للحظات أجاب : تقريبا ؛ ولكنه معقد كما قلت.. ويحب لبس البذلات الرائعة والأنيقة .

ـ أنا أعرف شكله .. الأفضل أن لا تتزوج قريبتك منه .. إنه مريض .. وهل سيتزوج بعد كل هذه السنين من العزوبية ؟!

ـ هو لا يتكلم كثيرا .. حياته الصمت .. وتعرف على السيدة القريبة في المصنع لا أدري أي مصنع ؟!

ـ نعم ، أذكر أنه كان مديرا لأحد مصانع خاله .. خاله شخصية كبيرة في البلد يا إدريس .

اعتبر إدريس زيارته لسوق التجار في مركز المدينة نجاحا ، واستفاد من شامل معلومات إضافية عن زائر المقهى الغريب والمثير والغامض .. وكان مستغربا من غموض المهندس والمتعلم والمتخرج من كلية الهندسة وكان يسأل نفسه وهو يرتب المعلومات في ذهنه وينقلها لإياد : هل حقا تزوج هذا الرجل من ابنة وزير ؟! أي وزير زوج ابنته له ؟! هذا كان منذ ثلاثين سنة على الأكثر .. تزوج لشهر واحد ابنة وزير .. تتزوج لشهر واحد أمر غريب ومثير ! أي وزير هذا ؟! وخاله شخصية كبيرة .. من هو خاله ؟ ! من هو حضرة الوزير ؟ ومن هو حضرة الخال؟ لم تزد هذه المعلومات كثيرا عما قدمه زميله القديم في دائرة المراقبة الصحية التابعة لدار البلدية للمدينة..

ـ القضية كبرت يا إدريس .. فعلا أذكر هذا السيد حاكم وردة .. الأحداث ذكرتني به .. والمهندس كان يدير مصنعا كبيرا من مصانع الخال .. ما اسم الخال واسم المصنع ؟

ـ لم أعرف يا سيدي من السيد شامل .. لا يعرف الرجل معرفة عميقة .. وهو اعتقد أنني أسأله عنه لأنه يرغب بالزواج من قريبتي ..لا أدري كيف ذهب الحديث إلى ذلك؟! وحسب معلومات شامل كانت فترة زواجه من ابنة الوزير قصيرة ..في أقل من شهر حصل الانفصال بل ظن أنه لم يتزوج في بادئ الأمر ، ثم حسم الأمر بأن الزواج حصل ثم طلق .. قصة قديمة ولم يسمع أنه تزوج ثانية يا إياد .. الحي لا أحد يعرفه حق المعرفة .. فأصحاب هذه المحلات من الجيل الجديد ..ولا أعتقد أن أحدا يفيدنا عنه .. فهو ضئيل الاختلاط مع الناس .. القضية أن الفضول ورطني معه ..قاتل الله الفضول! .. سوف أسعى للقاء به ؛ لعله يلين ويفتح قلبه لقد أغلق الباب بوجهي؛ كأنني شيطان يطرق بابه .. أغلقه فورا دون أي كلمة ولو تحية سوى ابتسامة غاضبة ساخطة.

ـ هل لي دور آخر في هذه المعركة الفضولية المسلية؟ فعلا إنها مغامرة مسلية لمثلنا يا سيد إدريس؛ لكن النتيجة ستكون مخيبة للآمال حتى لو كان صهرا لرئيس الجمهورية أو سلطان المسلمين.

ـ معك حق !كانت غلطة ؛ ربما الفراغ كما ترى هو الذي جعلني أهتم بالرجل أكثر من اللازم كان عليّ أن أنسى الموضوع ..وأبقى على عاداتي ويومياتي .

ـ أيجلس في المقهى ؟

ـ نعم ؛ ولكني غيرت موقع جلوسي .. وأحس أن نظراته تطاردني .. ومع ذلك لم يلن ويسمح بالحديث معه ..لا يوجد في بيته إلا الخادمة الآسيوية ..حتى أبناء الجيران وهم أقاربه .. لم أصدف أحدا يدخل قصره أو يخرج منه .. إنه يعيش في عزلة غريبة ..أتعرف قصة إنشاء هذا الحي ؟

ـ لم افهم ؟!

ـ أي كيف نشأ هذا الحي الراقي من حي العرب الكبير ؟

ـ هل له قصة؟

قال : كل حي يا إياد له قصة ، قد تطول أو تقصر ..حي بهية سمي بهذا الاسم على اسم سيدة غنية كانت أول من سكن فيه .. فهو قطعة من حي العرب المحيط به من عدة جهات .. وهذا الحي كما تعلم شمال المدينة الكبيرة .. وهو عبارة عن مجموعة من التلال .. وهو حي قديم تاريخي منظم قديما وحديثا ..كان يقطن الحي ثري من أصول غير عربية .. فلما تزوجت ابنته الوحيدة بهية أنشأ لها قصرا فخما على إحدى التلال الخالية من حي العرب .. وكانت امرأة ثرية ، وزوجها لا يقل عنها ثروة وجاه ؛ ولكن غلب اسم السيدة على القصر فيقال قصر السيدة بهية ..وجارى الأثرياء السيدة بهية وبنوا حوله قصورهم والفلل .. ومع وقت قصير انفصل هذا الجزء عن الحي الكبير وصار يقال له حي بهية ..حي الطبقة الثرية والغنية في المدينة وامتد إلى مساحات أخرى وكبر .. وأصبح حي الأغنياء والسادة في مطلع الستينيات والسبعينيات حتى ظهرت أحياء أخرى تنافسه للأغنياء فضعف صيته وشهرته .

ـ كيف وصلت إليك هذه المعلومات ؟ وتابع ضاحكا .. لعل سيفا حدثك بها !

ضحك إدريس على تهكمه ورد قائلا : أتسخر مني يا إياد ؟! أنت تعلم أنني أقضي ساعات وساعات خلال الأسبوع في المكتبة العامة في مركز المدينة .. وأعرف مدير المكتبة شخصيا ونتناقش في أوقات فراغه .. ونتبادل الأخبار والحكايات والتعليق على الكتب والصحف والمجلات .. وهو رجل عاصر تطور المدينة .. وهو يحمل ليسانس تاريخ وجغرافيا .. وله مؤلف حول نشأة الأحياء والمدن الحديثة وتوسع الأحياء أو تقلصها واختفاء بعضها أو تغير أسمائها القديمة ..إنه الإستاد عبس الحوا

ـ أعرفه ، لقد عرفتني عليه .. أكان صاحبنا سيف في المقهى هذا المساء ؟

ـ ذكرتني يا إياد .. لم أره اليوم ..ودخل المغرب وهو لم يظهر .. أفكر أن أزور القصر نهار الغد ومحاولة فرض نفسي عليه .. الآن لا أجد لك مهمة إلا إذا كان عندك أفكار معينة .

قال وهو يقف : لا أفكار عندي وأستودعكم الله .. الشكر على اللقاء والعشاء والشاي والمرطبات .

ـ لا شكر على واجب كما يقال .. إذا حدث شيء قد أتحدث معك .

ركب السيارة إلى حي بهية .. وكان الوقت قبل الظهر بقليل .. طرق الباب ، فتحت الخادمة فقال : السيد المهندس هنا .

ـ لا ، من أنت؟!

ـ صديقه .. أين أجده ؟

ـ أذكر أنك طرقت الباب منذ أيام.

ـ نعم ، كان بيننا موعد فاعتذر عنه .

ـ السيد نقل ليلة أمس إلى المستشفى .



شقيق سيف

بعدما استوعب إدريس الأمر نزل المدينة لصلاة الظهر جماعة ، وبعد تناوله الغداء ركب سيارة إلى المستشفى الذي يرقد فيه المهندس سيف ، وعلم من مكتب الاستعلامات الجناح الذي يرقد فيه المهندس ورقم الحجرة ، وركب المصعد إلى ذلك الطابق ، وتمشى لدقائق في دهاليز الطابق ثم طرق باب الحجرة ودخل .. فلما رآه المهندس حملق في وجهه للحظات ، ثم نظر إلى شقيقه الذي كان معه في الغرفة .. وارتفع صوت إدريس قائلا : الحمد لله على السلامة يا مهندس سيف .

لم يرد المهندس على الزائر ؛ بل أخذ يتبادل النظر بينه وبين شقيقه الطبيب أمير .. ولاحظ أمير امتعاض شقيقه من هذا الزائر .. وهو قد تفاجأ بوجود هذا الصديق لأخيه ، وظنه من معارفه أيام إدارته للمصنع ، فقد قدره من جيله .. فقام بالترحيب بالزائر والتعريف بنفسه ، وفعل إدريس مثله وقال: أظن أنني التقيت بك أكثر من مرة !

هتف أمير استغرابا : أنا كيف ؟! قال: أنت الطبيب أمير وردة كما عرفت بنفسك .. لقد التقيت بك في عيادة الأسنان في مستشفى الراحة .

ـ أجل ، فعلا عملت في عيادة ذلك المشفى عشر سنوات ؛ وذلك عندما تخرجت من الكلية الطبية .. أكنت مريضا أم موظفا ؟! أنا لا أذكرك .

تبسم وقال : كنت رفيق أحد المرضى .. ومشكلتي أن الوجه الذي أراه ولو مرة واحدة لا أنساه ما زلت أملك ذاكرة قوية والتفت لسيف وقال : كيف صحتك اليوم يا مهندس سيف ؟

قال سيف بغضب ظاهر : أرفض زيارتك يا سيد إدريس .

عجب أمير من رد شقيقه الحاد ، وقبل أن يتكلم بشيء سمع أخاه يقول: أنا لا أعرفه.

توقف أمير عن الكلام الذي كان يريده .

فقال إدريس: لي شهور أراك في المقهى الذهبي يا مهندس سيف .. أليست هذه معرفة ؟ ولست أدري لماذا يا طبيب أمير رغم جلوسنا الطويل في المقهى لا يتكلم شقيقك كثيرا ؟ أنا

افتقدته .. فعلمت أنه في المستشفى ..فقررت أن أزوره ..فهل نذر الصوم عن الكلام ؟

فصاح سيف سخطا : أرجوك أخرج.

أخذه أمير خارج الغرفة ، ووقفا في الممر وقال : ما القصة فشقيقي غاضب ؟

عرف إدريس بنفسه أكثر وبمهنته قبل التقاعد ، وجلسته في المقهى وقال : تعارفنا في المقهى ؛ لكنه لا يتكلم .. يعشق السكوت ..فظننت أنه بحاجة لصديق بعد مرور الأيام .. وهو كثير السرحان .. وهو يرفض الصداقة فاعتقدت أن هذه الزيارة قد تفتح الباب المغلق .. هذه هي القضية.. لنا عدة شهور نرى بعضنا في المقهى .

تنهد أمير وقال : أهلا بك يا أخ إدريس .. أخي بصراحة معقد وحياته صعبة ..لا يحب تكوين الصداقات .. وعجيب أمر هذا المقهى الذي تتحدث عنه ..هذه أول مرة أسمع أن أخي يرتاد المقاهي ..حياته البيت والكتب حتى الزواج يرفضه .

ـ أعرف أنه تزوج قديما وطلق ، وانقطع عن النساء . قال: صحيح .. من قال لك ذلك؟!

ـ أحد الناس الذين عملوا معه في مصنع الدواء.

ـ كان مديرا لمصنع الدواء مع ابن خالي .

ـ لما تعرفت عليه من خلال المقهى ، حاولت التقرب منه أكثر من اللازم يا أخ أمير ؛ لكنه صدني رغم إصراره على الجلوس قريبا مني .. فلما أخبرت بمرضه وجدتها فرصة للتعرف عليه والتقرب منه والصداقة معه .. يبدو كما قلت إن حياته الخاصة معقدة .. أنا آسف يا دكتور أمير ؛ ولكني لن ايأس منه .. قد يقبلني صديقا في آخر الأمر ما دام مستمرا في التردد على مقهانا .

ـ هو ما زال يتردد على المقهى .

ـ قبل مرضه هذا ما زال ..كان معنا في المقهى ؛ لكنه الرجل الصامت .. ولا يتفاعل معنا إلا بعيونه .. لماذا هو هكذا ؟!

ـ لا أدري من عقود وهو كذلك ، ولقد رغب أبي بتزويجه أكثر من مرة ، وهو يصر على

الرفض .. شكرا لك يا سيد إدريس .. وأتمنى أن تنجح أن تكون صديقا لأخي .. وحتى وهو يدير المصنع لم تكن له صداقات مع أفراد وكادر المصنع .. علاقة عمل فحسب .. قضى عشرين عاما فيه .. هو صديق البيت فقط ..لا يزور أحدا إلا في النادر جدا .. وتقل إليه الزيارة بسبب ذلك .. أنا تفاجأت حقيقة بحكاية ارتياده المقهى من عدة شهور ومعرفتك له .. لم أعهد أخي يرتاد المقاهي والنوادي .

ـ له أشهر يفعل ذلك .. ومقهانا هو مقهى الكوكب الذهبي في مركز المدينة .. نتحدث بالعيون وحركات الوجه .. أترى أن كل هذا بسبب طلاقه لتلك المرأة ؟!

ـ لا أدري فهو رفض العلاج النفسي .. فزيارة المقهى تثير الاستغراب عندي .. لا يتكلم بشيء أمامك في المقهى .

ـ رد التحية ، وفي الغالب بالإشارة .. يجلس قريبا من مقعدي ، يطلب الشاي أو القهوة ويشتغل بالتدخين والنظر إلى الناس دون كلام .. وهو عادة يدخل المقهى عصرا ويغادره مغربا ؛ وذلك من أكثر من ثلاثة أشهر .. وحاولت بحكم المجاورة فتح خط اتصال معه ؛ لكن دون فائدة ..كل هذا بسبب أنثى!

ـ هكذا نحن نفسر ذلك .. أما السبب الحقيقي لا يعلمه إلا هو .. وكان ناجحا في عمله في المصنع .. وقبل سنوات طلب الإعفاء دون سبب واضح .. واعتكف في البيت.

ـ رفض جلسات العلاج نفسي .

ـ رفض بشدة .. وحكاية المقهى عجيبة .. واختيار هذا المقهى ربما تكون أعجب .. أنا لا أفهم مغزاها وسببها !

ـ هو هبط علينا فجأة .. وحده دون صديق .. وتعارفنا عندما اتخذ زاويتي مكانا لجلوسه .. وكلانا لا يلعب الورق .. وكلانا يتفرج على الناس .. وأنا أثرثر مع الرواد .. حاولت التقرب إليه كما أتقرب للآخرين .. فالمقاهي مكان للحديث والأخبار والعمل والتقاء المعارف والأصدقاء .

مقهى جديد

تابع إدريس من خلال استعلامات المشفى خروج المهندس سيف الدين ، وقد فشل في لقائه في غرف المستشفى ، ولم يحصل على معلومات مهمة عنه من أخيه أمير ؛ بل وجده لا يعلم الكثير عن أخيه سوى أنه معقد ، ودمر حياته الخاصة بسبب امرأة عاش معها زمنا يسيرا.

أقام سيف في المستشفى ثلاثة أيام ولم تجر له أي عمليه طبية ؛ ولم يظهر في مقهى الكوكب منذ دخوله المشفى ، ومضت ثلاثة أسابيع على خروجه دون العودة للمقهى .. فسأل إدريس نفسه أكثر من مرة: أتراه هجر المقهى ؟! .. ولكن التخلص من العادات من الأشياء الصعبة على النفوس .

كان إدريس غاضبا من نفسه في فشله في معرفة أسرار وعقدة سيف ، سعى إلى مصنع الدواء قابل عددا من رفاق العمل ، ولم يخرج بفائدة تذكر.. كان يأتي للدوام ويدخل مكتبه ويقوم بالأعمال الروتينية .. ليس له نشاطات مميزة أو اجتماعية .. كان يتابع الآلات والماكينات بنفسه ومع المهندسين والفنيين .. وشعاره الصمت أو الكلام بحدود العمل والشغل

فقال إدريس حازما الأمر : لن أعرف أسرار هذا المخلوق إلا من فيهه .. متى سيتكلم ؟ هو يعرف لماذا أطارده وأتعقبه؟ أمعقول أن امرأة واحدة تفعل به كل هذا الفعل ؟! من هي تلك المرأة ؟ هل تقبل بمقابلتي ؟ بأي صفة سأقابلها ؟ هل تزوجت بعد أن طلقت أم تعقدت مثله ؟ لابد أنها تزوجت .. وهي ابنة وزير .. ما اسم هذا الوزير ؟ هل اتصل بالدكتور أمير ؟ لقد أعطاني رقم هاتفه وأخذ رقم هاتفي .

ولما مضى الأسبوع الثالث ، ولم يظهر سيف في المقهى الذهبي خطر لإدريس أن يرقبه في مطعمه المفضل .. وفعلا رآه هناك يتناول العشاء وتبادلا الابتسام .. وتظاهر إدريس أنه دخل صدفة ولتناول العشاء .

وكرر إدريس العشاء في المطعم ثلاث ليال ، وأدرك أن الرجل غير مقهاه ، وأنه قريب من مركز المدينة حيث يتناولان الطعام .. وخلال أيام رصد المقهى الجديد لسيف .. وتلاقت

العيون وابتسامات السخرية من كليهما .. وأخذ إدريس بإغاظة الرجل فصار يرتاد المقهى الجديد قبل الغروب ، ويجلس قبالة الرجل حتى يشرب الطلب ، ثم ينصرف ، وظل هذا الوضع لعدة أيام ، ولم يتنازل الرجل للحديث مع إدريس الذي ازداد غلا وغيظا .

وذات مساء في مقهى الكوكب انقلب الوضع لما انتهى من الشرب نهض للانصراف وقال للرجل : أنا أكتب للصحافة إذا كان عندك قصة فأنا مستعد لسماعها . وترك ورقة عليها رقم هاتف البيت .

تفاجأ إدريس بقول الرجل ورده : أنت صحفي !

ـ أكتب للصحافة لي مقالات .

ـ آ ..جميل ! دعني أفكر .. شكرا .. هذا رقم هاتفك .

ـ أنا مثلك أعزب ترملت منذ عشرين سنة .

ـ أوه !! دعني أفكر .

وقف الرجل قائما للمغادرة وتابع إدريس مغادرته فلما أصبحا في الشارع قال: لن أتبعك اطمئن إنه الفضول يا مهندس سيف .

ـ دعني أفكر

ـ سؤال واحد فقط

لم يرد سيف ، فقال إدريس: لماذا جئت مقهى الكوكب فجأة ؟!

ابتسم سيف وقال: سؤال عجيب .. ستعرف سأفتح لك هذا ـ وأشار إلى قلبه ـ دعني أفكر

ـ متى نلتقي ؟

ـ دعني أفكر

ـ دعني أفكر .. سأدعك تفكر .. اعتبرني الصديق الوحيد لك .

ـ الصديق الوحيد .. كم عمرك ؟

ـ مثل عمرك تقريبا .. نسيت أن أقول لك الحمد لله على السلامة .

ـ كانت زيارة غريبة وصادمة .

ـ الفضول سقمي .

ـ الفضول صديقك .. في أي جريدة تكتب ؟

ـ جريدة أسبوعية باسم مستعار من عشرات السنين إنها جريدة الصحفي خلدون محمد .. جريدة الشرق المضيء.

ـ الشرق المضيء أعرفها ، قرأت بعض أعدادها .. الاسم المستعار .

ـ الفتى نصار .

ـ كأني أذكر هذا الاسم .

قال إدريس بخبث وتملق : هذا اليوم من أيام السعادة عندي يا مهندس سيف .. لقد توهمت عندما رأيتك أول مرة أنك قادم للقاء بي ، ثم رأيت التردد والحيرة على وجهك !

ـ لا ، إنما هي صدفة .. أنا فعلا جئت لهذا المقهى بالذات لأمر ما .. قابلت فيه شخصا قبل ثلاثين سنة ، جئت طامعا بلقياه ورؤيته .. وستعرف هذه التفاصيل فيما بعد بعد التفكير

ـ قابلت شخصا فيه قبل ثلاثين سنة ، وجئت حالما بمقابلته !

ـ كان ذلك في عام ٦٥.

ـ يا إلهي قبل ثلاثين سنة قابلته ! ولم تره بعدها.

ـ لم أفكر فيه لم أفكر باللقاء به ثانية .. فهذا سبب مجيئي لهذا المقهى .

ـ هل كان هذا المقهى نفسه قبل ثلاثين سنة ؟!

ـ نعم ، وفي نفس الطابق الثالث .. لقد جدد البناء كما بدا لي .

ـ اعتقد أنه جدد يا مهندس سيف .

ـ هل عرفت عني الكثير ؟

ـ لا شيء عنك لا أعرفه .. عرفت أنك مهندس ، وكنت مساعدا لمدير مصنع دواء يملكه خالك ، وكنت لفترة شريكا ، وعرفت شقيقك أميرا في المستشفى .. وقد قابلته قديما بعدما

رأيته ؛ وذلك أيام عملي الوظيفي .

ـ المهم دعني أفكر إلى اللقاء .

ـ متى؟

ـ لا اعرف ؛ ولكني سأضع قصتي بين يديك .. وهي قصة قصيرة ؛ ولكنها مأساة .. أنا لا أدري لماذا أستسلم لك؟! .. فلك شهور تزعجني وتصر على التعرف عليّ .. إلى اللقاء يا سيد إدريس .

قضى إدريس أسبوعا بعد هذا اللقاء المفاجئ ينتظر مكالمة من سيف .. تنقل خلاله بين المقاهي والمطعم ، ولم يظهر الفارس ذلك الأسبوع ، ثم جاء الهاتف المنتظر ليلا .. وقد توسوس إدريس كثيرا ، وخطر في قلبه الكثير من الأفكار الرديئة .. ولما كان المتصل سيف تبدد الكثير من الظن والخطرات .. وبعد التحية والسلام قال : مساء الغد نلتقي كما اعتدنا في مقهى الكوكب الذهبي .

ـ لك أسبوع لم تظهر في المقهى .

ـ لي أسبوع أفكر يا أستاذ إدريس .. تحدثت مع الصحفي محرر جريدة الشرق المضيء .. وتأكدت أنك تقدم لهم بعض التحقيقات باسم الفتى نصار.

ـ حتى ولو لم أكن أكتب لهم فأنا بشوق وهوس لسماع قصتك في هذه الحياة الدنيا .. لي حوالي العام أنتظر أن أعرفك جيدا .

ـ حياتي مأساة .. حطمتني امرأة .

ـ أعرف وهي ابنة وزير كما قيل ؛ ولكني لم أعرف أي وزير صاهرته !

ـ كانت ابنة وزير صحة تزوجتها قبل الوزارة بأشهر معدودة ..كان والدها من كبار الجراحين في البلاد في الخمسينيات والستينيات .. لم تطل وزارته .. مات أثناءها

ـ مات!

ـ نعم ، مات بعد طلاقي لابنته بشهور .. سنتحدث عنه .. وستعرف لماذا طلقت ابنته؟ إنه

الوزير خالد حمدي أسعد .

فتح ادريس فاه وقال بدهشة : أوه ! إني أعرفه ..كنت موظف صحة في قديم الزمان !

ـ ستكون بيننا جلسات وجلسات .

ـ أنا سعيد بهذا الكلام ! قصص الحياة كثيرة ..وقصص الناس لا تنتهي يا مهندس سيف .

ـ قل سيف بدون مهندس ، لقد رميت الهندسة وراء ظهري .. أنا مثلك متقاعد ، لكن بدون راتب تقاعدي من التأمين الاجتماعي ..أنا كان والدي من كبار تجار البلد ، وترك لنا أموالا تغنينا الدهر كما يقال .. ولي تقاعد من نقابة الهندسة .. أرجو أن تكون أهلا للأسرار التي ستعلمها عني يا إدريس .

قال : اطمئن اطمئن للغاية يا صديقي ..رغم ما رأيته من لهفتي وفضولي الشديد نحوك ، فأنا خير من كتم الأسرار .. كل إنسان له أسرار وأخبار

عندما أنهى إدريس المكالمة رن جرس الباب ، فوضع السماعة في مكانها ، ومشى ليفتح الباب لطارق الليل ؛ فإذا هو زميله إياد ، فتعانقا ، وأدخله الدار مرحبا ومسرورا ، وأعد القهوة ، ولما جلسا في صالة الشقة قال إياد : لم تعد ترد على اتصالاتي .

ـ أكون خارج البيت .. لقد تطورت الأمور بشكل جيد .. واستسلم المهندس لصداقتي التي فرضتها عليه .. وقبل قليل تركت السماعة معه .. فمشوار المستشفى أثمر ولو بعد حين .

وقص عليه قصة المستشفى ، ومطاردة المقهى الجديد ، وحوار المقهى ، وقال إياد : أخيرا استسلم البطل .. أقدم لك التهاني الحارة يا إدريس أثمر صبرك .. غدا سيبدأ الكلام المهم .. متى ستعرفني على صاحبك الجديد؟!

ـ متى ؟ متى ؟ بالتأكيد سأعرفه عليك .. ألست أنت الذي عرفت بيته وحيه ؟.. هو لم يسألني عن كيفية معرفة البيت والحي .. ربما اعتقد أنني أنا الذي توصلت إليه.. إنه رجل مسكين كما قلت لك .. تعرف على فتاة كان والدها وزير صحة الدكتور (خالد حمدي أسعد) ومات أثناء مؤتمر خارج البلاد في حادث ..لا أدري الآن هل حضرت جنازته أم لا ؟! مات في

الستينيات ـ كنا في أول عهدنا في وزارة الصحة ..لم نلحق التعرف عليه.

ـ المهم تزوجها وقبل إنهاء شهر العسل طلقها وكره النساء بعدها لليوم!

ـ هل وجدها امرأة ؟!

ـ لم يتحدث عن خيانة زوجية أو عيوب فيها .. هو تشجع للحوار لما علم أنني أعمل في الصحافة .. وقرأ لي بعض المقالات التي أكتبها في جريدة الشرق المضيء كما تعلم بتوقيع الفتى نصار .

ـ هو بحاجة للحديث ..وهل علمت سبب تردده طول هذه المدة في التعارف وسبب وجوده في مقهى الكوكب الذهبي؟!

ـ هذا لم أعرف جوابه بعد ؛ لكنه سيتكلم .. فشقيقه الذي تعرفت عليه في المستشفى تفاجأ من تردد أخيه على المقهى .

ـ لم يفصح عن سبب وجوده في المقهى .

ـ يقول إن سبب وجوده .. أنه قابل رجلا في المقهى قبل ثلاثين سنة ويطمع باللقاء به .

تعجب إياد جدا وقال : غريب! رجل التقى به في المقهى قبل ثلاثين سنة ، ويأمل أن يراه مرة أخرى .

ـ وطلب مهلة للتفكير قبل فتح قلبه لكشف أسراره .

ـ لم تعرف سبب رفضه التعرف عليك كل هذه الشهور .

ـ لا ، غدا سيكون أول الغيث يا صديقي .

ـ وهل ستخبرني بكل ما تسمع ؟

ـ هو طلب كتم الأسرار .. ولكني سأجد الطريقة المناسبة .. فأنت صديق عزيز ومتعاون معي في هذا الملف ..سأقدر الأسرار .. ويكون الكلام .. سأقدر أهمية ما أسمع ..وبعد حين سأشركك معنا.. وإذا لم أنجح بربطك معنا سأتدبر أمر نقل المعلومات .. فأنت أخ عزيز وصديق العمر وشريك في هذه القضية العجيبة .. فهو بعد عدة اعترافات سيتوقف ويحس

بالندم وسيجد عذرا للتوقف إلا إذا كان راغبا فعلا بالتنفيس عن مخزون كل هذه السنين ..

ـ فهو له أسبوع يفكر حتى حسم أمره الليلة واتصل .

التقى إدريس بسيف في المقهى الذهبي مساء اليوم التالي ، وبعد التحية والمصافحة بكل حرارة كأنهما أصدقاء منذ تعارفا قبل شهور ، ولما شربا الشاي قال سيف ـ وهو يقدم دفترا متوسط الحجم للسيد إدريس ـ : عندما تتصفح هذا الدفتر الصغير سيكون بيننا الحديث والتفصيل في جلسة أخرى .. وأنا سأنقطع عن المقهى بشكل دائم انتهت مهمتي هنا بالفشل .. ربما نجلس جلسات عارضة فيه .. وإذا تتطورت أمورنا فسيكون الحديث إما في بيتي الذي عرفت بابه أو في بيتك الذي سأعرف بابه .. سنرتب لكل لقاء بالهاتف .

ونهض قائما وتابع : سأتصل بك بعد أيام .. فتكون قد قرأت ما كتبت في هذا الدفتر .

نهض الآخر : شكرا ..أنا في انتظار هاتفك .

ـ شكرا سيد إدريس .

وتصافح الرجلان ، وغادر سيف المكان على الفور .

لم يصبر إدريس عن قراءة الدفتر ، فلما اختفى جسد سيف انتقل إلى شرفة المقهى المطلة على شوارع المدينة ، وضوء النهار ما زال يغمر المكان ، وأخرج دفتر المذكرات .. هو لم يكن دفتر مذكرات بالمعنى الصحيح ؛ إنما كان دفتر ملاحظات مما يستخدمه طلبة المدارس .. وأدرك أن الرجل كتبه حديثا ؛ ربما خلال الأسبوع الماضي .. ولم يفهم الغرض من هذا الدفتر الصغير .. وجد فيه معلومات عامة عن الرجل اسمه وميلاده ومكان الولادة ودراسته الابتدائية والثانوية ودخوله كليه الهندسة وبعض الحديث عن والده ووالدته والعائلة .. ثم تعرف من خلال الكلية على فتاته "نبيلة خالد" طالبة كلية الهندسة .. وهي الفتاة التي تزوجها قبل التخرج من الكلية .. ووعد بالحديث عن تلك الصداقة بالتفصيل شفويا .. وبين في دفتر الملاحظات سبب مجيئه للمقهى وهو البحث عن الشخص الذي ساعد على تعجيل الطلاق .. وكان ذلك في منتصف الستينيات .. وعلى أثر تلك المقابلة وقع طلاقه من نبيلة خالد .. واعترف رغبت

هي ببقاء الحياة الزوجية واستمرارها .. وكان الغضب أعماه وأصر على الانفصال .. وكان له ذلك رغم امتعاض الكثير من الأهل .. وأن سبب العودة للمقهى في هذا الوقت أن هذه الفتاة قبل أن تفارق الدنيا كتبت له رسالة تبرأ مما سببته له من ألم وحقد على جنس حواء .. وأنه تعرض لمكيدة وتآمر من شخص حاقد مخادع ماكر .. وقد حقق مبتغاه ..وأنها لا تعرفه ولم تذكر أنها قابلته في حياتها .. وتذكر شخصا زميلا لهما في الكلية ؛ ربما يكون له يد في اللعبة الخبيثة .. وأن عليه أن يبحث عن الرجل الذى باعه الصورة الماكرة التي لا تعرف نهائيا كيف صورت لها .. وتطلب منه المرأة معاودة الاتصال بذلك البائع .. وعلى أثر تلقيه رسالة نبيلة بعد وفاتها ذهب للمقهى حالما برؤية ذاك الشيطان الذي لم يفكر فيه كثيرا تلك الأيام .. كان مصدوما مذهولا .. ولكنه وجد إدريس في وجهه الفتى نصار .. وكتب عددا من الرجاءات يطلبها من إدريس وهي أن لا يكتب شيئا عن حياته للجريدة .. واعترف له بأنه يعاني من بعض أمراض القلب والأوعية الدموية وصحته ليست على ما يرام .. ووعده بالدفتر أن يسلمه الرسالة التي أتته من زوجته المطلقة ؛ ليطلع عليها قبل الحديث عن أهم تفاصيل حياته وقصة الطلاق الصعب في أول شهر من الحياة الزوجية .. وغضب والده عليه من أجل ذلك واستمر غضبه لمدة سنة .. وتهاجرا بسبب ذلك .. ثم تصالحا وأشركه مع ابن خاله في إدارة مصنع الدواء .. وظل بدون زواج ، ولم يستطع التخلص من عقدة الشر في النساء لحتى الآن واعترف أنه ما زال يجهل سبب اهتمام إدريس به ومطاردته وتعقبه ..ويتمنى أن يكون السبب الفضول فحسب .

فضحك إدريس ملء شدقيه عندما قرأ هذه الفقرة وعلق فقال : ماذا أريد منك يا حضرة المجنون ؟! لقد رأيت في وجهك كلاما فأحببت معرفته .. ولعبنا لعبة القط والفأر .. لماذا ؟! صدق لا أدري .. وعجبت من خوفك مني ؛ كأني ذلك الغول الخرافي الذي تتحدث عنه العجائز لتخويف أحفادهن .. اليوم أفهم خوفك مني .. ضعف شخصيتك .. ترددك .. شكك في زوجتك التي أفرطت في حبها في الجامعة .. صدمتك خيانتها ..وكيف خانتك قبل

الزواج ؟ وأن الرجل الخائن كشف نفسه لك في هذا المقهى .. وزوجتك حبيبتك تنكر أي علاقة بغيرك .. سنعرف التفاصيل شفويا .. وهل حكاية كهذه تجعل الرجل معقدا نحو الجنس الآخر ؟! وهي حكاية مكرورة على مدار التاريخ .. ألا يسمع الرجل ولو كان ضحية مثل هذه الخيانات ؟ أتجعل هذه الخيانات الرجل معقدا يكره الزواج ؟ الحاج حاكم وردة كان رجلا معروفا مشهورا على مستوى القطر كله والأقطار المجاورة .. فهو من أكابر تجار المواد الغذائية سيد الدقيق والأرز والسكر في فترة الستينيات والسبعينيات .. لقد رأيته شخصيا عددا من المرات .. وإن كان وقته لا يسمح له بالجلوس معنا .. هل كان هذا الرجل سببا لعقدة سيف بإيذاء أمه ؟ فأثر نفسيا على سيف تجاه النساء ..ولكن كان الدكتور أمير طبيعيا ومعروفا ، ولم يكن معقدا .. هل سببت تلك الفتاة عقدة لسيف كما يزعم أم جعلها سببا لينفس عن ضعفه نحوهن ؟ هل يترك الرجل الزواج من طلاق امرأة ؟ أنا تركت الزواج لضعفي الجنسي وعدم قدرتي على الإيلاد .. والمرأة تريد أن تلد .. تريد الأمومة .. وليس الجنس فحسب .. هو الإنسان عندما يتعود على حال يصعب عليه التغيير .. مللت العلاجات والمراجعات .. ثم إن المرأة بعد زواجها من جديد حلفت له أنها بريئة مما اتهمت به .. وأن الرجل الذي قابله في المقهى غادر حاقد .. وهل هذا الرجل حيا يا إدريس ؟ ليسعى سيف إلى اللقاء به .. وهل يعرفه حق المعرفة أم وسوسة شيطان ؟ ولماذا تأخر الرجل في التعرف عليّ مع إدراكه شدة فضولي ومطاردتي له ؟ ولماذا تأخر في قبول صداقتي ؟ .. وقد وافق عليها في النهاية حتى أنه رفض استقبالي في المستشفى ؛ كأنه رأى وحشا يدخل عليه .. نظرات لا تنسى هذا الرجل فعلا قصة .. أخبر أخوه أنه رفض العلاج النفسي .. ماذا يقرأ الرجل في البيت ؟ أخوه يقول إن حياته القراءة الكتب والمجلات .. سوف أزوره في البيت.. عنده عقدة النساء والنساء تخدمه في البيت .. ألم أر الخادمة ؟ يرفض المرأة كزوجة ويقبلها كخادمة أم أنه نوع من الإذلال والانتقام من الجنس الثاني .. فكثير من الرجال تعمل كخدم وتطبخ وتغسل كما يشاهد في الفنادق .. صبرت أشهرا حتى تمكنت من صنع بداية علاقة معه .. والحصول على

هذا الدفتر.. سأصبر حتى تتضح تفاصيل الحكاية الغريبة .. ثلاثون سنة دون امرأة دون زوجة يا إلهي .. اشتغل منها عشرين سنة ، ثم ترك العمل ، هو ورث الكثير من المال عن الوالد والوالدة .

لما رجع للبيت أعاد إدريس قراءة دفتر الذكريات مع التوقف عند كل فقرة .. فكان الدفتر تمهيدا أو مقدمة لما سيعترف به لإدريس اللبن .. هل يكتب الرجل مذكراته ؟.. مذكرات يعترف فيها بخطئه .. هل وجد نفسه ظالما للفتاة ؟ وشرع يبحث عن تفاصيل المؤامرة التي تعرضا لها .. والرسالة التي يشير إليها تقول: إنها بريئة مما الصق بها ، ومما اتهمت به من خيانة زوجية قبل الزواج .. وكيف صدق الاتهام ؟ وهو الحبيب .. لو لم تكن بريئة ما كتبت له الرسالة ؛ ليبحث عن الحقيقة ..وإنها لم تكن السبب في تدمير حياته .. فهي تدافع عن شرفها ونفسها ولو بعد موتها .. وجاء المقهى لأنه مصدق لها .. ولديه رغبة بالوصول للحقيقة من ذلك الرجل .. هل ذلك الرجل حي أم ميت ؟!



الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس سيف الدين وردة

سلام الله عليك

أنا أكتب هذه الرسالة وأنا أستعد لرحلة الموت، الرحلة التي بين الحياة الدنيا والآخرة ، أنا أعاني من مرض السرطان ..وحانت النهاية مع أنني من عائلة كلها أطباء .. لكن علاج ناجع لا يوجد ..وأنا أكتب هذه الرسالة لأنك زوجي الأول والذي أحببته حق الحب .. وستصلك هذه الرسالة بعد موتي كما طلبت من ابنتي هند الطبيبة هند غريب .. ربما سمعت بها أو رأيتها لأننا ما زلنا من أهل بهية .. وستصلك الرسالة بالبريد مع معرفتنا لمكان بيتك كما تعلم .. ونحن نعرف بعضنا عندما التقينا في كلية الهندسة لأول مرة ، واكتشفنا أننا من أهل حي بهية أنا أحببتك بإخلاص يا سيف .. وأحببتك حبا شديدا وجادا .. وأنت فعلت مثلي .. لقد قرأت الكثير من قصص الغرام لأدباء مصريين وغربيين .. قرأت لإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وغيرهم .. فكنت أعتقد أن ما فيها له واقع وحقيقة .. وكان ذلك في المرحلة الثانوية ، وكان الشبان من حينا وحي العرب يقومون بمعاكساتنا .. فبعضنا تقع وبعضنا تتردد وتخاف .. فالمغامرة محفوفة بالمخاطرة .. وهؤلاء الشبان يبحثون عن المغامرات العابرة والسريعة واللهو وتعدد الحبيبات .. كنت متفرجة لم تستهوني تلك اللعبة رغم شوقي لعلاقة رومانسية لقصة غرام .. لم تحدث إلا عندما تقابلنا في الجامعة رأيت الفارس والبطل الذي أبحث عنه وحلمت به .. كان والدي لا يحب لنا هذا العبث كما كان يسميه رغم أنه كما تعلم كان أكاديميا ومحاضر جامعة ..وتخرج في بريطانيا ، وعاش فيها عقدا من الزمان .. وهو مع حرية المرأة ؛ لكنه كان يراعي العادات ، وما زالت مؤثرة عليه .. وكان يتساهل لو وقعنا في تلك العلاقات .. هو نفسه تزوج أمي عن قصة حب لا أعرف تفاصيلها .. كنت الفارس الذي خفق له قلبي هوى وغراما بطل القصص

الرومانسية والعاطفية .. وأنت حبيبي بكل شغف وقوة .. حتى أن زملينا مرادا تضايق من سرعة حبي لك .. وبذل الجهد للتفريق بيننا .. وكان قد تقرب إليّ قبل أن أعرفك .. لكني لم أكن أراه فارس أحلامي كنت الحبيب الأول والأخير .. وزواجي من والد أبنائي كان ضرورة بعد فشل زواجنا بسرعة الصاروخ .. أمي وافقت على حبي لك ما دمت من نفس الطبقة التي نعيش فيها .. وكانت تعرف والديك حق المعرفة .. ونحن كما تعلم أبناء حي بهية .. فالاختلاط فيه من الأمور المباحة دون تردد ولا حرج علينا .. فقد شاركت الشبان والشابات المسارح والمسابح ولبس ملابس السباحة دون حياء وخجل.. لكني لم أتعر عريا كاملا أمام أي إنسان، لم يحدث ذلك يا سيف أبدا يا سيف .. أنت كذا مرة رأيتني بملابس البحر .. ولم تطلب مني شيئا وعدم الظهور بها .. كنت ترى الأمر طبيعيا حسب ما تعودنا .. كنت الزوج الذي أحلم به لأعيش قصة حب كما أقرأ في الروايات والقصص .. كانت تعجبني معاكسة مراد نحونا .. لكن لم أخرج معه في مشوار في رحلة في طعام .. وفي السنوات الأخيرة في الجامعة كان هناك رجل قريب لأبي يرغب بالزواج مني ..وكان والدي الجراح يراه مناسبا ؛ ولكنه لا يستطيع إجباري ، كان يريد أن أقبله طوعا يا سيف .. وأنت تعلم ذلك ، وتحدثنا عن ذلك .. طلبت منك الزواج قبل إنهاء الجامعة لأني أريدك وحدك .. وطلبت مني أن أتحدث مع والدك السيد الكبير حاكم وردة ، وبارك الرجل الزواج ، ووعد بالحديث مع الوالد عندما أعلمته أمي بموافقتها على مثل هذا الاقتران ، وأنها تفضلك على الاقتران بي من قريبنا الدكتور غريب .. ثم حدث تطور عجل بالزواج الفعلي .. فقد أخبر الوالد بأنه سيكون أحد أفراد الوزارة الجديدة وخشية رفضك كما تعلم قلت لك عجل بالزواج ليعجل أبوك بالحديث مع أبي قبل أن يعين وزيرا فيكبر الفرق الاجتماعي بيننا .. وأنت تشجعت وذكرت ذلك للوالد فتحدث معي .. وحدث الزواج يا سيف ، ونحن على مقاعد الدراسة ، وسكنّا في بيت من بيوت والدك .. وبعد الزواج بأسبوعين أريتني صورة لي وأنا فيها بدون ملابس داخلية ، فتاة عارية تماما ، لم أنكر أن الصورة لي .. وقلت لك بصدق ما خلعت ثيابي الداخلية من أجل

صورة خليعة أو زنا .. ولا أدري لليوم كيف صورت لي تلك الصورة ؟! ذكرت لي أن زملينا مرادا هو الذي حدثك عن تلك الصورة العارية .. وأنه شاهدها مع رجل في أحد مقاهي المدينة وحثك على مقابلته .. وذهبت لمقابلة الرجل وأعطاك نسخة من الصورة التي عرضتها عليّ .. أقسمت لك أنني لا أعرف كيف صورت هذه الصورة ؟ ولم تصدقني ، وقررت الطلاق وأمام الضغط والحالة التي أصابتك قبلت الطلاق .. وتنازلت عن حقي الشرعي .. وغضب والدي منك بشدة وصدم ؛ ولكنك عرضت عليه تلك الصورة .. فصدم أبي من تلك الصورة .. وتم الطلاق بذهول الجميع .. ولليوم أيها الحبيب لم أعرف كيف صورت؟ وأين ؟ أنا لم أنكر أن الصورة لي .. وليست تركيبا وخدع مصور.. وصار والدي وزيرا في الوزارة الجديدة ونسي الموضوع .. ولما تم الانفصال والعدة تزوجني السيد غريب بدون تردد .. وهو زوجي الحالي والد أبنائي الثلاثة.

وأنا لم أتكلم معك بأي صورة من يوم الانفصال .. ولم يحصل حمل من طرفك .. فكان الفراق أبديا ؛ ولكني أتعذب من أجلك يا سيف .. لقد علمت أنك لم تتزوج بسبب تلك الصورة .. لم تسع لأن تكون أبا بسبب تلك الصورة .. وجعلتني السبب الكبير لذلك .. أنا بريئة يا سيف وأقسمت لك ولأبي ولأمي وإخوتي أنني لم اخلع ثيابي لأتصور عارية .. لاقف أمام كاميرا مجردة من الثياب .. ولم أمارس الجنس مع أي إنسان قبل زواجي منك .. فكيف صورت ؟ لست أدري .. أنا بريئة .. وأقول ذلك وأنا أستعد للرحيل من هذه الدنيا .. ولا ذنب لي في تدمير حياتك .. أنا أحب أن تسامحني .. وأن تذهب لذلك الرجل الذي أعطاك الصورة القبيحة ، وتعرف منه كيف صورت ؟ لتعرف أنني بريئة .. وأننا تعرضنا لمكر شيطاني .. وأنت تعلم أن المرأة تستطيع الخيانة الزوجية دون الحاجة إلى صورة.. راجعت حياتي منذ رأيت تلك الصورة في يدك .. فلم أعرف كيف خدعت ؟ كيف عريت؟ ومن وراء هذا العمل الشيطاني .. من هم ؟ أين خدرت ؟ إذا كان هناك تخدير لا أعرف .. إلى اللقاء.. هناك رحمة الله السلام عليكم.

حي العرب

كانت المدينة صغيرة أو أقل سكانا في حياة جدي وبداية أبي كما أخبر أبي ، كانت له دكان في سوق الأطعمة الكبير ، لم يتعلم في المدرسة إلا المرحلة الأولى ، ولما تزوج فتح له والده دكانا خاصة به ، وتعاطى نفس المهنة ، وكان والده غنيا ، وكذلك والدته ، فكلاهما من أبناء التجار ولكن الجد لم يكن طموحا كوالدي .. استقل الوالد عن الجد بعد الزواج .. زواجه من أمي ـ رحمها الله ـ استأجر دكانا أخرى وتوسع في بيع الأرز والسكر .. وخلال سنوات سيطر على السوق .. وأصبح المستورد الأول لها .. فسافر لمصر والهند وغيرهما من البلاد المصدرة للسكر والأرز لم أكن المولود الأول لأبي ، كانت هناك أختي الكبرى مريم ، ثم أخي المرحوم حازم ، وكنت الثالث الثاني من الذكور ..كانت ولادتي في الحرب الثانية .. وسميت سيف الدين .. أيام الأزمات والكوارث الكبرى يلجأ الناس للدين ولو بالأسماء .. فأحب والدي هذا الاسم فصرت سيف الدين حاكم من آل وردة .. كان حظنا من التعليم أحسن من حظ والدي .. تعلمت في مدرسة أهلية رغم انتشار مدارس الحكومة .. كان الآباء يحبون صنع أبنائهم ويوجهونهم لدراسة ما يحبون .. فدرس أخي الكبير الطب .. وأراد والدي ذلك لي فاخترت الهندسة .. فقبل ذلك ودرس أخي الأصغر الذي تعرفت عليه في المستشفى الطب كأخي الأكبر .. وأخي حازم توفي في حياة أبي وأمي .. كان باص المدرسة يأخذني طول أيام الأسبوع ما عدا الجمعة ؛ لأنها عطلة رسمية .. كانت تجارة أبي تكبر ونحن صغار .. لذلك لما بلغنا الثانوية العامة كان الوالد أكبر تاجر أرز في البلاد كلها .. وأخذ يهتم بالعمل النقابي والجمعيات التجارية والغرف التجارية ..كان من طبعي الخجل وخاصة من الفتيات منذ عرفت أن البنات تختلف عن الذكور .. أتهرب من الحديث معهن حتى من بنات أقاربي كبنات أعمامي وعماتي وأخوالي وخالتي وبنات الجيران.. لم ترق لي تلك العلاقات ، ولو سميت بريئة ولعب عيال.

كنا من سكان حي العرب وهو حي قديم وكبير مساحة وبشرا .. لم يكن هناك تميز كما علمنا

فيه بين غني وفقير .. وكانت العائلات والأقارب تحب مجاورة بعضها البعض في القديم .. ثم نشأ حي بهية كجزء من حي العرب ؛ ولكنه امتاز بالأسر ذات الثراء الكبير .. ثم استقل عن حي العرب لما امتلأ بالقصور والفلل على الطرز الغربية والحديثة .. فشيد الوالد قصره الكبير وفعل بعض أشقائه مثله .. وانتقلنا للحياة فيه ؛ ربما كنت في مطلع المرحلة الأولى من التعليم النظامي .. وهو شيده بعد استقلاله عن جدي وزواجه .. وكان من مال أمي وأبي ووالد أمي جدي أدهم ..لا تفهم من كلامي أن حي بهية من عمري لا هو موجود من زمن ربما قبل أن نسكن حي العرب ؛ إنما برز كحي خاص للأثرياء بعد زمن وحياتنا في بهية امتداد لحي العرب .. لم يتغير على عاداتنا وتقاليدنا الجديد ؛ لكنك تجد بنات ونساء حي بهية أقل تحفظا وحشمة وأكثر سفورا وتبرجا واختلاطا بالرجال سواء في النادي والجمعيات.. والزيارات والحفلات لا تكاد تفرق بين الجنسين .. والقضايا الأخلاقية تمر فيه عبورا سريعا ، لا يتوقف الناس عندها إلا كخبر وحادث .. ومع حياتنا فيه ظلت علاقتي مع فتيات الحي ضعيفة .. التحية والابتسامة .. لم تتطور إلى علاقة مراهقين وغرام بعكس أخواي حازم وأمير .. وعادة كل هذا ينتهي بانتهاء الدراسة الثانوية .. كان حازم يكبرني بعامين، ويصغرني أمير بسنتين أيضا ، وباقي ذرية أمي بنات .. خمس بنات .

أختي الكبرى وبكر أبواي تزوجت فور إنهاء الثانوية ؛ لأنها كانت مخطوبة أثناء تلك المرحلة كانت البنات تتزوج مبكرا يا أستاذ إدريس .. وكان أخي حازم جادا في دراسة الطب ومحبا له ومبغضا للتجارة وأنا مثله .

نجحت في الثانوية العامة ، وقبلت في الجامعة كطالب في كلية الهندسة ، وكنت أسمع أخي الأكبر يتحدث لأمي عن جو الجامعة والبنات .. وتلك الأيام كانت طالبات الطب غالبهن من بنات الأثرياء لارتفاع تكاليف الدراسة .. فالتعليم الجامعي ليس مجانيا .. وهذا تجده في كلية الهندسة .. فقليل من أبناء الأسر الفقيرة من يتعلم في تلك الكليات الباهظة التكاليف فأكثر أبناء الفقراء يتجهون للمعاهد المتوسطة أو الكليات الأقل تكاليفا أو التعلم في أوروبا

الشرقية ؛ ولكن قد تجد طلبة من تلك الطبقة المسكينة في الكليات العلمية نتيجة منحة أو بعثة أو أصحاب المعدلات العالية الذين يتعلمون على نفقة الدولة .. لقد كان عندي أفكار عن حياة الجامعة والمجتمع المختلط والحكايات السيئة مما كنت أسمعه من حازم رحمه الله.

فالجلوس مع البنات يبدأ من أول الفصل سواء من طالبات نفس الكلية أو الكليات الأخرى ويكون في الساحات المشتركة ..وعليك أن تتقبل ذلك بحكم الدراسة وبحكم القرابة .. وترى الجميلات الفاتنات والدميات ترى الجادات وترى العابثات .. رأيت نبيلة خالد من الأيام الأولى في الفصل ..كنا من نفس السنة .. كانت فتاة فاتنة بحق يا إدريس ، وكانت بنت أكاديمي له اسمه في الجامعة .. تعرفنا على بعض مثل سائر الطلاب .. أحسست بشيء نحوها لكني لا أحسن العبث والتسلية مع الجنس الآخر .. رأيت عددا من الشبان يحومون حولها ، لم أستطع الفعل مثلهم .. ليست لديّ خبرة في معاكسة البنات والجلوس معهن .. كانت نبيلة محبوبة القلب منذ الرؤية الأولى ، لم أستطع الاعتراف لها بذلك ؛ بل كانت تعمل حركات وإشارات تشجيعية لمصارحتها بهواي ..كانت تحس بي ؛ ولكنها خجلة من البدء بذلك الحب مع أن عيوننا تصرخ بذلك ، لم يكن لديّ الجراءة على عمل علاقة غرامية وعاطفية مع أي فتاة ومعها بالذات .. أعترف اليوم لك بهذا الضعف والخور .. تلك الأيام لم تكن مسلسلات الحب شائعة مثل اليوم .. كانت التلفزيونات غير ملونة ، وبثها ضعيف .. والسينما موجودة وروادها قلة ..وأفلامها موديل الثلاثينات وما بعد الحرب الثانية ، وأكثرها أجنبي .

كانت نبيلة تدرك أني من النوع الخجول جدا ، ولم تكن لي علاقات قبل الجامعة ، وأنني لم أرافق أنثى بقصة غرام ، وأن صفة الخجل تسيطر عليّ بقوة ، ومنعتني من مطاردة الفتيات ومصاحبتهم خاصة في الجامعة .. فهي فرصة للتمرد على العادات والتقاليد .. كنت أحترق من مطاردة الشبان لها وخاصة مرادا الذي يصاحب الفتيات ليثيرها للتعلق به .. كانت تهواني وتنتظر كلمة إشارة ؛ ولكني عجزت عنها فترة طويلة يا إدريس .. وكنت أخشى استسلامها لمطاردات الآخرين .. وأتحسر على ضعفي وجبني .. وتفاجأت عندما علمت أنها من سكان

حي بهية ـ نحن من أهل نفس الحي والشوارع ـ وعلمت أن والدها طبيب كبير في المستشفى التعليمي فزاد رعبي من الاتصال بها ، ولم أستطع أن أعترف بإعجابي بها .. ومضت السنة الأولى دون أي علاقة خاصة بها .. وكنت أدعو أن تكون من نصيبي عند الزواج .. وكان زميلنا في الفصل مراد مطاردا جادا لها رغم شيوع غرامياته في الكلية والجامعة ، بل علمت أنه يغار مني نحوها ؛ فكأنه علم أو أدرك تعلقها بي .. ومن أجل ذلك كانت ترفض أي علاقة معه .. هذا عرفته فيما بعد ، لم تكن لديّ جراءته ، وإن تمنيت بعضها ، عدنا للجامعة في السنة التالية ..كان التعليم في ذلك العهد بنظام السنوات والفصول ، ليس كاليوم بنظام الساعات والاختيار .. انتهى الصيف وعدنا للدراسة .. لم نر بعضنا خلال عطلة الصيف .. علمت أنهم يقضون بعض الزمن في بريطانيا حيث تعلم والدها .. رحبنا ببعض في مطلع الفصل كعادة الطلاب بعد العودة القسرية .. كانت عيناها تخترق جسمي وقلبي .. وكلما وقفنا نتحدث مع بعض كنت أخشى أن تعترف لي بحبها ؛ ولكنني أدركت أنها تنتظر أن أنطق بها .. كانت تفتعل المحادثة والمحادثة معي وأنا أضعف عن الاعتراف بحبها .. تقول لي كيف حالك ؟ ما أخبارك ؟ أرد بحياء بدون فضفضة حتى أن مرادا صرخ فيّ مرة ساخطا يا رجل البنت تموت فيك ترفضني من أجلك ، قل لها تلك الكلمة الساحرة ، أنت في الجامعة .. لا أستطيع أن أقولها ، وهي لا تستطع قولها والبدء بها مع أن عيوننا قالتها مئات المرات ..كنت أرى مشاكسات ومعاكسات الطلاب لها وهي صامدة ؛ كأنها اختارتني وحدي فقط رغم جبني وإهمالي لها .. وأدركت هي ضعفي وخجلي .. أخذت رقم تلفون البيت ، وكانت تتصل للحديث حول المحاضرات والنشاطات ، وتسأل عني وعن صحتي وأنا أتكلم بحدود الرسميات والزمالة .. وقلبي يكاد يقفز من صدري يا إدريس هوى ولوعة ..وفي مطلع السنة الثالثة استطعت أن أعترف لها بحبي وولهي بها .. فقالت لي سنتان يا سيف أنتظر هذه الكلمة الساحرة أخيرا اعترفت بما تكلمت به العيون من أول سنة .. أحببتك من الأيام الأولى .. رفضت كل الشبان من أجلك من أجل هذه الكلمة ..أنت عيوني يا سيف .

اعترفت لها بحبي لها من تلك الأيام ؛ لكني لم أستطع نطق تلك الكلمة .. وأنا لم أقلها لأحد من قبلك يا نبيلة !

ـ أنا متأكدة من ذلك .

وعرفت السعادة تلك اللحظات ، وغرقنا بالحب والهوى .. الحب العذري ..لم أكن أستطيع مجاراة فتاتي في الهوى والغرام ، لقد كنت أستمتع بسماع كلامها وغزلها وغرامها .. وأتعجب من مصدر الكلام .. كانت تعيش في قصة حب كبيرة ، ولا أصدق أني ذاك الفارس يا إدريس.. وكانت تقبل القليل مني ؛ لأنها عرفتني لا أحسن الكلام الكثير .. أحببتها بكل عمق من أعماق قلبي ..كنت مشغوفا بها .. كانت ملكة فؤادي بحق تلك الأيام .. وبعد شهور من الحب حتى تمكنت من نيل قبلة منها ..كانت القبلة الأولى ، فعلت كما يفعل المحبون في الأفلام التي نراها في السينما يا إدريس .. فكل الزملاء علموا بحبنا وهذا أمر طبيعي في شوارع الجامعة وحدائقها .. قلما لا تجد شابا يرافق فتاة باسم الحب باسم الحرية باسم المدنية والحضارة .. لم يكن هذا مستهجنا خاصة بما يسمى الكليات العلمية حتى أننا نسمع عن مغامرات عاطفية في كليات محافظة كالشريعة .. ولا أدري صحة ذلك رغم أن المجتمع محافظ كما تعلم .. فهذا لم يكن في الكليات .. أحببت حبيبتي بإخلاص ؛ وربما أكثر مما تقرأ في رواياتها العاطفية الغربية كقصص الحب الفرنسية من زولا وزيفاكو وديماس وهوجو كان الزميل مراد من أكثر الناس إغاظة مني .. يتهمني بخطف حبيبته منه .. لقد فزت عليّ أيها الصديق .. لقد عشقتها قبلك ؛ ولكنها صبرت ونالت ..وأنا أعتبرك خطفتها مني .. ربما أتذكر هذا الكلام ؛ لأن الرجل لعب في مأساتي دورا لئيما شيطانيا.

هذا الكلام أسمعه منه رغم أني قضيت سنتين يا إدريس قبل أن يصبح حبنا حقيقيا كما سردت لك ..وهو يزعم فشله في اصطيادها كما يقول ؛ لأنها تعلقت بي ..وما أدراني بذلك قبل الاعتراف ؟! ..كانت تحدثني عن الحب وعن حب الروايات التي تقرأها وأنها تعيش رواية من تلك الروايات ؛ ولكنها لم تعين إحدى الروايات .. فأنا أقرأ روايات أما روايات الحب

الرومانسي فقليل أفعل .. كنت أقرأ قصص المغامرات والصراعات.. فهي تعيش كما كانت تحلم وكما كانت تقرأ هكذا تقول .. جعلتني بطل تلك الروايات .. كان حبنا عذريا كالذي تعلمناه في المرحلة الثانوية ، كان عذريا إذا صح ذلك في مثل هذا الزمن .. لم أنل إلا قبلا معدودة في ظروف ومناسبات خاصة .. كنت أجرؤ على مسك يدها كما كنا نرى ذلك في الأفلام العربية والأجنبية .. هل هذا ينقل المشاعر والأحاسيس ؟ لست أدري .. لكننا نغرق في الهوى والغرام ، أحببتها بجد ولم أجرؤ على أكثر من ذلك .. وكنت مغرما بتبرجها وسفورها .. هي ابنة حينا حيث لا أهمية للسفور والتبرج .. كانت فاتنة .. وهي ابنة طبيب كبير في المستشفى التعليمي ، ومحاضر في كلية الطب وجراح .. كنت أراها مخلصة لي وشريفة بمعنى الكلمة ؛ لأنها اختارتني دون الزملاء حبيبا وصديقا ؛ ولذلك مضت السنة الثالثة ونصف الرابعة ونحن في غاية السعادة ، ونحلم بالزواج فور التخرج والانتهاء من الدراسة والاستقلال عن أسرتينا .

كانت والدتي تعرف بهذا الحب وباركته ، وكذلك أمها السيدة الفاضلة .. وأعتقد أن كل الأسرة تعرف ذلك .. لكن لم يتحدث أحد معي عنه .. كل واحد مشغول بحياته العاطفية والدراسية .. وهي أخبرت أن والدتها تبارك لنا ، وتدعو لنا بالزواج في نهاية المطاف .

كتبت لها عشقا بضع رسائل عاطفية .. وقلت فيها ما لم أستطع التفوه به أمامها .. كانت تطرب وتلذ على رسائلي ، وتعجب بها غاية الإعجاب ، وتستمتع بها وتقول : إنها تقرأها بشغف ووله .. تقرأها عشرات المرات .. وكنت أكتبها في مناسبات خاصة كمناسبة العيد أو إنهاء الفصل إنهاء السنة الدراسية .. في أي مناسبة جميلة أكتب لها معبرا عن مشاعري نحوها عن هيامي بها إعجابي بها ورغبتي الجامحة بالزواج منها .. رغم تساوينا بالسن ، وأتمنى أن تكون ذريتي منها .. هي لم تكتب لي سوى رسالة واحدة .. لم تكن تحب الكتابة مثلي.. كانت تقول ما تشتهي مشافهة .. وكانت قادرة عن التعبير عن أحاسيسها وغرامها بالكلام

كنت أرى أن زواجنا بعد هذا الحب العاصف سيكون أفضل وأنجح زواج .. رغم أن شعارا

يتردد في ثنايا الكليات أن التخرج نهاية لكل عذابات الحب والغرام .. أي سيذهب هذا الحب أدراج الرياح .. القليل من يتزوج فتاة أحبها خلال الجامعة واتخذها زوجة .. فأيام الحب ليست كأيام الزواج والمسؤولية .. فكنا في شوق إلى إنهاء الدراسة ؛ لنكون أسرة جديدة والحياة الحميمية.

صدقا مع حبي الجارف لفتاتي لم أحاول لمس أي شيء في بدنها سوى شعرها الفاتن ويديها .. ولا تنسى أننا أبناء حي يعتبر مثل هذه الحركات أمرا طبيعيا غير مستهجن .. وتنتشر مثل هذه القصص والغراميات فيه بكثرة رغم أنها فضائح .. لكنها لا تترك أثرا في الحي إنها مجرد خبر فلان وفلانة .. سمعنا عن قصص خيانات زوجية ..قصص سكر مخزية .. لم أفعل مع فتاتي ما يعيب مع أنني وكلي ثقة أستطيع معاشرتها كزوج من شدة الحب بيننا ..لا أرها ترفض ، ولم أحاول ذاك ..كان الزواج محتوما بيننا .. لم تكن العذرية تشكل شيئا في حينا .. وبيننا كان الطلاق هو حل لقضايا الشرف والعرض .. بيننا أي في أسر حي بهية .. التدين شكلي وضعيف تلك السنوات .. فلان طلق زوجته بسبب أنه وجد في غرفة نومه سيدا.. الزنا بالتراضي ..لا حرج في المكان .. كنت أريدها عذراء بكرا ليلة الزفاف .. كانت وحدها لي وأنا كذلك .. لم أعمل أي علاقة غرامية إلا معها .. وهي حسب علمي فعلت مثلي رغم طول انتظارنا للاعتراف بهذا الحب .. لقد اختارتني دون عشرات الصيادين .. فهي مقتنعة بي كحبيب وزوج الغد وشريك العمر وذلك بعد الدراسة.

قد سمعت قصة سيئة لشقيقتي الأصغر مني ؛ لكن الحي الذي نعيش فيه يعتبر ذلك من السخافات ، حتى والدي يعتبرها سخافة ..كما يعقد الشاب علاقات مع البنات .. لو فعلت ذلك البنت فلا حرج ..لا يحاول التثبت من القصة والخبر .. شعاره علينا أن نقبل للبنات ما نقبله لأنفسنا .. أختي غابت أياما عن البيت .. ولما عادت سألها أبي عن سبب الغياب مع ذلك الشاب .. فحلفت لأبي أنه لم يمسها مجرد رحلة .. فصدق أبي ولم يكبر الموضوع .. مع أن الشاب تحدث مع بعض الشبان أنه عاش معها كزوج أي عاشرها .. عاش معها أحلى أيام

حياته .. لم يعرضها على الطبيب الشرعي ، لا يريد المزيد من الفضائح والتوتر .. حقيقة لم تكن أخواتي الأصغر منا نحن الذكور على شيء من العفة والأخلاق يا أخ إدريس .. ولا أعتقد أن إحداهن تزوجت عذراء.. كان أبي وأمي يغضان الطرف عن أي سلوك شائن ، ونحن علينا الصمت وعدم الاحتجاج على أي تصرف لا يروق لنا ، ولا نتدخل في شؤون الآخرين ، كما لا نحب أن تتدخل البنات في أمورنا ..وهذا غالب على عائلات الحي في ذلك الزمن .

أقول ذلك حتى تعلم يا سيدي لو أني أقمت علاقة جنسية كاملة مع حبيبتي لا أحد سوف يلومني أو يتهمني بالسادية والإباحية .. لدينا في الحي تقاليد لا تعتبر إساءة للآخرين كنا كالأجانب بحق .

رغم التغيرات التي شابت الحي في هذه الأيام بدخول عائلات أقل غنى عن عائلات الستينيات .. هذه الأشياء والافعال مستهجنة في بيئات أخرى والأحياء الشعبية .. وإن لم تخلو كما تعلم من سوء وفحش ؛ لكنهم يتسترون عليه أو يشهرون به ويصبح قضية غسل عار .

لم أفعل أي سوء مع حبيبتي ..وقلت لك كنت أعشق تبرجها وعطرها الفواح ..كنت أرافقها للمسبح .. وذلك أكثر من مرة .. أنا أحب السباحة ..كنت أجلس أتفرج عليها ..وفي المسبح تكون الأنثى عارية أو قل شبه عارية .. أنت تعرف ثياب البحر اليوم ..فأصبحت شائعة وخاصة مع شيوع سباحة النساء في المسابقات .. وكنت أرى بعض الفتيات تحاول الإساءة إليها في المسبح العام .. فكانت تبتعد ثم تخرج .. وذلك باسم المزح والمدنية .. وكانت وغيرها بعد السباحة يستلقين على الرمال أو مقاعد خاصة للتشمس .. وهذا في حي مثل حينا ؛ بل علمت أن في قصر والدها مسبحا جميلا .. وللمسابح قصص وحكايات ..كيف يغار رجل على زوجته أو أمه أو أخته عند تلك المسابح ؟!.. وأملك لها صورا بلباس البحر ؛ وربما مع غيري مثل هذه الصور .. لكني لم أكن أنظر إلى ذلك بمنظار الغيرة والشرف .. الأمر عادي عندنا .. واعلم أن العذرية لم تكن تشكل عندي عقدة ؛ لذاك لم أسالها عنها في يوم ما .. لكن

من يوم اعترفنا بالحب كنت لا أحب أن أسمع عن علاقة لها مع غيري .. وهي تعرف هذا .. كنت أراها عذراء ومن كلامها أيضا .. وهذا الأمر لم يكن مهما في الحي البنت نفس الشاب .. معنى ذلك أن ممارسة الجنس مباحة في الحي ، ولا تثير لغطا وصراعات .. ولا يعني هذا أننا لا نسمع بمشاكل بسبب ذلك وبسبب الغيرة ؛ إنما هي أقل من غيرها من الأماكن ، والحل باب المحكمة أو الصمت .

اللبس أيضا كان كلبس بنات أوروبا ؛ بل ملابس أوروبا تباع في الحي وموضات باريس ولندن متوفرة ومستوردة .. حافظت أنا وفتاتي على عفتنا ليس تدينا أيها الصديق ربما فطرة حياء خجل .

والحق أنها لم تسع لإغرائي يوما .. كانت مقتنعة مثلي أن غرفة النوم هي المكان الصحيح للعلاقات الجنسية الحميمية والصحيحة .. وقد يكون لشخصي الضعيف دور في الابتعاد عن تلك العلاقات الآثمة .. كانت الإباحية كما تعلم في تلك العقود تجتاح العالم الغربي الأمريكي والأوروبي .. والأمهات تعاني كما تحدث الصحف والمجلات ..وكانت بداية الأفلام الإباحية، وانتشار الإجهاض وموانع الحمل ، وكنا متأثرين بالغرب للغاية حفلات سهرات نوادي مسابح .

زارتني فتاتي عدة مرات في بيت والديّ ، وذلك بعد تقدم العلاقة الغرامية بيننا ، قابلت أمي وأبي وأخواتي وإخوتي .. وكان والدي مسرورا من علاقتي بها .. فوالدها أشهر جراح في الحي والمدينة .. وكذا مرة غمز وسأل عن مدى علاقتي بها .. وقال مازحا : هل نلت منها شيئا ؟ يقصد المعاشرة فأقول حبنا عذري حب قيس وليلى وروميو وجولييت فيضحك عاليا ويقول : يا رجل لو أمك ضحك في وجهها شاب لرمتني في الشارع فأرد قائلا : أمي لا تفعل ذلك ، أمي كبيرة .

عندما كبرنا كانت الأم تعاني من عدد من الأسقام ، ورغم تبرجها كنساء الحي لم تكن تكثر الجلوس مع الرجال في لقاءات خاصة ، فلا أعتقد أنها تسلم نفسها لشاب أو عشيق .. أما أبي

يا صديقي إدريس أعتقد جازما أن له مغامرات نسائية ، ونام مع بعضهن .. أبي تزوج صغيرا دون العشرين.. أنا لم أر شيئا عليه ؛ لكننا نسمع من بعض أصدقاء أو أبناء أصدقاء الوالد نسمع بعض الغمز .. وأنه لديهم جمعيات سرية لممارسة البغاء والزنا ، لم أحاول أن أعرف .. لكن الأمراض الجنسية تفضح الناس وتكشف المستور .. لم يكن الأمر مهما ومخزيا لنا كأسرة كما قال لي أخي حازم ..حياته هو حر فيها ..كلٌ حر في حياته وصحته .. لم يكن الدين مؤثرا في بيتنا ؛ ربما كنا نستغرب وجود مسجد في الحي .. كان المهم لنا المال والدراسة .. مصدر المال غير مهم .. وهو ينفق علينا بسخاء.. وكلنا دخل الجامعة وتعلم على نفقة الأب إلا أختي مريم الكبرى ؛ لأنها تزوجت مبكرا .. وأخواتي بكل صراحة لم تكن سيرتهن سواء في الجامعة أم الحي تسر ما عدا طبعا المتزوجة .. والحق لم نكن نهتم بقصص البنات ومغامراتهن الاهتمام الكافي والمهم .

مضى الفصل الأول من العام الدراسي الرابع وهو الأخطر في علاقتي بنبيلة خالد ، لم تحاول فتاتي إغوائي رغم ما بيننا من قوة الحب .. والإغواء أو الإغراء شائع في الجامعة ، وكثيرا ما تشيع قصص حب عنيف أو قل علاقات جنسية كاملة في ذلك المجتمع .. لا تدري السبب البنات أم الذكور .. في مطلع الفصل الثاني أو قل في آخر الفصل الأول من العام الرابع في كلية الهندسة حدث تطور في حياتنا الغرامية أخبرت نبيلة أن قريبا لها ولوالدها طبيب متخرج من بريطانيا يكثر تردده إلى قصرهم تصحبه أمه .. في البداية كان كل شهر يزور البيت مرة أو مرتين ، ثم أصبحت زيارته تتكرر كل أسبوع .. وهمست أمها في أذنها أن الرجل يفكر بالزواج منها كما تتحدث أمه .. وهو ينتظر الظرف المناسب ليحدث الدكتور خالد بهذه الرغبة .. والشاب طبيب أعصاب ودماغ متخرج من بريطانيا وسافر إليها بمساعدة الدكتور خالد .. فربما يرى بالزواج منها شكر للدكتور خالد ..وطلبت أمها أن تتحدث معي عن الخطبة لقطع أي تفكير بذلك .. وتعلن خطبتنا بشكل رسمي .. واقترحت أن يتم العقد الشرعي والزواج بعد التخرج أو قبله بقليل .. وبعد تردد معتاد مني قلت لها: أنا ما زلت

طالبا آخذ مصروفي من أبي .

قالت : أنا أعرف ذلك ؛ ولكني أريدك ولا أريد أن أخسرك .. فأبي يعرف نتيجة حب طلبة الجامعة .. فهو يعرف الكثير عن علاقات الطلاب والطالبات والنتيجة لا زواج بعد التخرج فالرجل يعمل كطبيب وقريب أبي .. وانا لولا حبي الكبير وحب ارتباطي بك ما تقدمت بذلك .

بعد محاورات ومجادلات قبلت أن تقابل أمي ثم أبي ، وتفهم أبي وأمي وجهة نظرها ـ وهما يعلمون بعلاقتي الخاصة بها ـ وتشجع والدي لزواجي أكثر مني ، ولم يتوقع زواجا قبل الحياة العملية يا سيد إدريس؛ إنما بعد التخرج والعمل كما هو معتاد عادة .. تحدث أبي مع والدها في نادي الحي نادي السادة ، ووافق الدكتور على زواجنا أو خطبتنا بكل بساطة في النهاية ، وعلمت من أبي أنه تردد في قبول هذه المغامرة ، وتحدث لأبي أن ما يحدث للشباب في فترة الجامعة وأثناء الدراسة أساسه هش ، لا يعتمد عليه في تكوين حياة أسرية صلبة وناجحة ، وسيضعف الانجذاب بعد انتهاء الجامعة ، ودخول معترك الحياة العملية، وابتعاد المتحابين عن بعضهما .. فالشاب يحتاج لوقت ليكوّن نفسه في العمل والسوق .. والفتاة تسرع بالزواج للهروب من شبح العنوسة ، وخشية فوت القطار ؛ لكنه من حيث المبدأ قبل رغبة أبي بزواجنا قبل التخرج ، وبعد فترة خطوبة تعزز أواصر المحبة بيننا ، وتعهد له أبي بتوفير السكن اللائق لابنته والنفقة علينا حتى نتخرج ونعمل ونستهل حياتنا العملية .. فرحت وسعدت بهذه النتيجة والتصرف الشجاع من والدّينا .. وأعلنت الخطوبة في حفل عائلي صغير في منزل الدكتور خالد ، ولبسنا الذبل كما يقال ، وقيل إن الزواج سيكون بعد انتهاء السنة الرابعة وقبل السنة الخامسة والأخيرة لنا في كلية الهندسة .. وأهداني والدي بهذه المناسبة سيارة صغيرة وجميلة .. كانت حياتنا تمشي هادئة ورائعة .. وأخذنا نحلم بليلة الدخلة كالمراهقين والحياة الزوجية والذرية .. وكم سنخلف وماذا سنسمي الأبناء؟!

شخص تضايق جدا من هذه الخطبة الزميل مراد ، كان مقهورا من ذلك لماذا لا أدري بالضبط ؟!

وذلك عرفته بقوله لنبيلة ذلك ، وقالت : ما زال مراد يكن لي الغرام والهوى ، ويقول لها إنه أحق بها من سيف ألا تنهره وتكلمه أن يدعني وشأني ، ويبتعد عني ؟ لم أعد أحتمل سماع تعليقاته والحديث معه ؟ وتحدثت معه بذلك ، وأعلمته أن الفتاة اليوم أصبحت بحكم الزوجة لي ، فبارك لي وقال: إني أمزح معها يا سيف .. مباركة عليك فتاتك.. فلي من الصديقات ما يغني عن فتاتك.

ولما علمت أن قريبها خفت رجله عن بيت والدها بعد إشهار الخطبة خفت الحديث عن الزواج ، ولم نتزوج في صيف السنة الرابعة .. وكنت أصحبها في سيارتي إلى الجامعة.. لقد استفدت من الخطبة امتلاك سيارة خاصة بي .. وبينما نحن في الأيام الأولى من السنة الأخيرة والخامسة في كلية الهندسة ..همست الفتاة بأن علينا أن نتزوج بأسرع وقت ممكن ، ولا نكتفي بالخطبة ، وبررت أن والدها تعرض عليه وزارة الصحة العامة في الوزارة الجديدة ، وتخشى أن ينهي العلاقة بيننا إذا تسلم هذا المنصب المهم ، وأن تصبح ابنة وزير الصحة ، ويتعقد الزواج ووالدها ممن يحبون الفخر والخيلاء .. فاتحت أمي ثم أبي فقال : فعلا عليك بالزواج قبل أن يصبح الدكتور وزيرا فالرجل عنده نفخة ، فقد يضطر لتزويج ابنته من وزير أو ابن وزير .. فأسرع أبي إلى لقاء الدكتور ، وبين له رغبته بإتمام مشروع زواجنا ، وأن الوقت حان للاقتران ، وسيتحمل المسؤولية خلال هذا العام .. واستأجر لي شقة في حي بهية ، وأخذنا بالإعداد ليوم الفرح والزفاف وكان زواجنا في أكتوبر عام ١٩٦٣.

كانت حفلة كبيرة مشهودة في قاعة نادي الكبار في الحي ، غرق الضيوف بالشراب والطعام والرقص حتى الثانية فجرا ، وبعد انتهاء الحفل الكبير حملتنا سيارة إلى شقتنا يا إدريس ونحن في حالة يرثى لها من الشراب ، ولما انصرف المرافقون وأغلقنا الباب على أنفسنا كنا في غاية الإنهاك والنعس ، وذهبنا في عناق طويل لم نستيقظ منه إلا عند العاشرة صباحا ، وبدأت حياتي الزوجية ، ولم أتمكن من الدخول الشرعي إلا بعد ثلاث ليال من الزواج ، كنت مرعوبا من الحياة الجنسية ، ومضى الأسبوع الأول ونحن في غاية الحب والسعادة ،كانت فتاتي رائعة ،

اعتقدت تلك الأيام أنني أسعد الخلق بهذه المرأة .. والزواج رائع يا سيد إدريس خاصة إذا كان عن حب صادق ! كان حبي لنبيلة صادقا وكبيرا ـ رحمها الله ـ قدم لنا الأهل والأصدقاء التهاني وتمنيات الحياة السعيدة ، وقدم بعض الزملاء والزميلات التهاني لنا عن أنفسهم وعن طلبة الكلية أو معارفنا من الكليات الأخرى .. توقفنا عن الدراسة مدة أسبوع واحد فقط ، ثم عدنا للدراسة ونحن نرفل بالحيوية والشباب ، واحتفلنا مع الأصدقاء في مطاعم الجامعة .

قلت لك تأخر دخولي على فتاتي بضعة أيام ورغم ذلك لم تحاول الضغط عليّ كان الأمر طبيعيا كانت سعيدة بي وقلقة عليّ من الناحية النفسية عندما فشلت في أول الزواج حتى أني خشيت أن أذهب للطبيب النفسي .. وأدركت فتاتي أنها الفتاة الأولى في حياتي ، وليس لدي تجارب جنسية كما يفعل بعض المترفين ، حتى أن بعضهم يسافر أوروبا لمثل هذه التجارب .. وكانت مسرورة من ذلك .. فكنت أرى حبها العميق في عينيها وابتسامتها ..وأنا كنت مغرما بها إلى حد لا يوصف ..فكل من زارنا أو رآنا علم كم من السعادة تغمرنا وتحيط بنا خلال الأسبوعين الأولين من حياتنا الزوجية .. لم نكن نعلم ما يخبئ لنا القدر ، وما يدبر لنا أهل الشر والحسد ، لم أفكر بعداوة أحد لنا لأننا لم نعاد أحدا .

أمضينا الأسبوع الثاني من زواجنا في زيارات اجتماعية بين أهلي وأهلها ، فكنا ندعى لتناول العشاء بمناسبة الزواج .

كنت أمتلك الكثير من الصور الفوتوغرافية لفتاتي وحبيبتي نبيلة ..صور في النزهات في الحدائق في الجامعة ، صورها مع أفراد أسرتها مع أسرتي مع طلبة الجامعة .. صور لها في ثياب البحر على أطراف المسبح داخل الماء.

بعد زواجنا بأكثر من أسبوعين ، قل عشرين يوما التقيت بالمهندس مراد زميلنا في الكلية في ساحة من ساحات الكلية بناء على طلبه ورغبته لأمر خاص ومهم ، فقبلت وبعد السلام ومقدمات لم أفهم منها شيئا عن النصيحة والشرف والحقيقة .. قال : لم يعد يسمح لي ضميري بالصمت يا سيف.

ـ لم أفهم سبب كل هذا الكلام !

ـ كان يجب أن أقول لك هذا الأمر قبل زواجك من السيدة نبيلة .

ـ ماذا كنت تريد أن تقول؟!

ـ أقول إنها سلمت نفسها لغيرك ..لم تأخذها عذراء يا سيف.

ـ نبيلة!

ـ نعم ، نبيلة .

ـ كيف ؟..كانت عذراء!

ـ خداع .. زواجك العاجل لم يتح لي الفرصة لأكشف لك ذلك .

لما رأى صمتي ودهشتي وحيرتي تابع فقال : امرأتك رأيت لها صورة عارية مجردة من الثياب كل الثياب .. وقال مالك الصورة وهو يكشفها لي إحدى زميلاتك

ـ صورة عارية لنبيلة مجردة من الثياب .. من هو الشاب ؟!

ـ نعم ، الصورة ليست معي .. إنها معه هو ليس أحد الطلاب .. كان اللقاء في مقهى أنا رأيت صورة واحدة فقط ؛ ولكنها لنبيلة خالد .. والرجل يرغب برؤياك ليبيعك الصورة .. نعم يريد أن يبيعها لك .. طلب مني عرض ذلك عليك

ـ لا تعرف من هو؟

ـ رتب لي أحد الأصدقاء لقاء معه .. ليصرف عني ما شاع عن تعلقي بها

كما تعلم

ـ كيف سأقابله ؟!

ـ في المقهى اليوم الساعة الخامسة عصرا أو مغربا .. فالأفضل أن تحصل على الصورة حتى لا تنتشر بين الزملاء .

ـ أين؟!

ـ في المقهى الكوكب الذهبي في مركز المدينة .

ـ كيف سأعرفه؟

ـ هو سيتعرف عليك ، ستجد الرجل ، وهو سيعرفك على نفسه، ويطلعك على الصورة .. ودبر أمرك معه .. أنا مجرد مرسال .. بريد بينكم .. هو فعل ذلك معتقدا أنني ما زلت أهوى السيدة ..وأنا أكدت لك صرف نظري عنها ما دامت زوجة لك .

افترقنا وأنا في غاية الذهول من صدق خبريته .. وأنا لا أصدق أن تتصور الفتاة مجردة من الثياب ..وأن تمارس الجنس مع أحدهم ؛ ولكن قصة زواجي والعجلة فيها جعلت القلق يدب في نفسي .. صممت على الذهاب للمقهى ، ومتابعة الموضوع قبل الحديث مع نبيلة .. هل زنت نبيلة قبل الزواج ؟! لا أصدق ذاك ؛ ولكنه غير مستعبد في بيئة فاسدة يا إدريس .. هي لم تتحدث يوما عن علاقة خاطئة مع أحدهم .. وليلة الزفاف كانت بكرا عذراء مع أن الأمر لا يهمني .. كل أخواتي تزوجن بدون عذرية كما أعلم .. وقعن في مشاكل قبل زواجهن ما عدا السيدة مريم ؛ إنما الذي أزعجني أكثر الصورة العارية .. لماذا تتصور فتاتي عارية بدون لباس ؟ ولمن تفعل ذلك؟ لم تكن مستهترة خالعة في الجامعة .. كانت من أكثر الفتيات تبرجا وسفورا ومرحا ، لم تكن خليعة .. لما تخلع ثيابها أمام مصور ؟ رأيت الأمر كبيرا مزعجا .. أنا أعرف عشقها للصور الفوتوغرافية .. أما التصور بدون لباس فهذا جنون وفحش .. نحن نعشق الصور والتصوير .. هل أنا غطاء لأمر أكبر وفاحش ؟ لم أرجع إلى البيت رغم أن فتاتي كانت مريضة وغادرت الكلية مبكرا .. تناولت الغداء في قلب المدينة ..وذهبت في المساء إلى المقهى بعد أن تعرفت عليه ودخلته قبل الذهاب للقاء صاحب مراد المشفق عليه ، ويعرف شهوته ورغبته في زوجتي قبل زواجنا .. أنا أدرك حقد مراد ؛ ولكن بعد الزواج ظننت أن الأمر خفت ، وانتهى بعد زواجنا ، وبعد ذلك اللقاء الحاد بيني وبينه .. والمساء أو الليل يهبط مبكرا في فصل الشتاء .. وجلست تقريبا في المكان الذي تعرفه ؛ المقهى جدد كما قلت لك ؛ ولكنها نفس المساحة .. وبعد طول انتظار جاء رجل بلحية قصيرة سوداء وشارب أسود ضخم ؛ كأنه ممثل في سينما أو على خشبة مسرح ، وكان يلبس قبعة كالتي يلبسها الأجانب

وبذلة سوداء .

وقال لي: أأنت المهندس سيف ؟

ـ نعم ، لعلك ذلك الرجل !

ـ نعم ، أنا الرجل المقصود ، أنا أملك صورة مثيرة لزوجتك .. لست المصور لها ، أنا وسيط بينك وبين المصور .. أعيش على فضائح الناس والعائلات.

لزمت الصمت ، وكنت أحدق فيه باحتقار وذهول ، وتابع كلامه الأحمق : كان عليّ أن أصل إليك وبيعك الصورة قبل زواجك ؛ لتكون المساومة أفضل يا سيد سيف حاكم وردة ؛ لكن كل تأخيرة فيها خيرة .. وليست زوجتك أول فتاة تصور مجردة من ملابسها الداخلية فكثير من طالبات الجامعة لهن لدينا صور مثيرة .. هذا مصدر دخل للمصور وللصياد وللبائع مثلي أنا لا يمكن أن أقول لك من صور الصورة ، ومن استدرج الفتاة ؟ وهل تصورتها بإرادتها ؟ لأني لا أعرف إلا أن أقابل من تهمه الصورة فقط ؛ لكن زملاء لكم يساعدون في ذلك ...

ـ مراد منهم؟

ـ ليس منهم يا سيد سيف .. نعرف أن مرادا كان مهتما بزوجتك قبل الزواج ، وتنكد من زواجك منها .. وهو صراحة يكرهك ويغار منك ؛ ولكنه لم يشارك في قضية الصورة .. لا أدري هل أقام علاقة خاصة مع زوجتك أم لا ؟!

أخرج الرجل صورة ملونة ، وقدمها لسيف وهمس قائلا : أليست هذه حرمك المصون ؟

أخذت الصورة ، كانت لها ، كانت كما ولدتها أمها يا إدريس .. صورة قبيحة فعلا يا سيد .. وتسألت بسخط وغضب : أهي لها حقا ؟!

ـ أنت لا تعرف البنات .. أنت رجل مسكين يا سيف ! مغفل بصراحة .. كلمات الحب تطربك ..كل البنات في الجامعة يفعلن ذلك .

ـ كل البنات!

ـ طبعا إلا القليل .. فلوس تدفع لهن مقابل هذه الصور.

ـ نبيلة تريد فلوسا !

ـ ربما تصور للابتزاز والنيل منها مقابل إعادة الصورة لها .. اغتصاب وتهديد .. المتاجرة بالأجساد شائعة اليوم.. انظر إلى الصورة جيدا .

نظرت إليها جيدا ،كانت صورة نبيلة خالد فتاة أحلامي وسألت نفسي : لماذا تتصور هذه الصورة ؟! وسمعته يقول : كم تدفع ثمنا لها؟

ـ ومن يضمن لي أنك لا تملك غيرها ؟!

ـ أنا أضمن لك ذلك ؛ لأني سأعطيك الصورة والفِلم أو قل مقطع الفِلم المسودة حيث المكان الذي عليه الصورة .

ـ أهذه نبيلة خالد زوجتي أم خدعة ؟!

ـ ولماذا أخدعك ؟ مراد لما عرف أنها صورتها حاول شراءها ؛ ليضغط عليها بالصورة ويتخذها عشيقة .. فأقنعته أن أبيعها لك وينسى أمرها

فقد أمست زوجة .

ـ وكيف تعرفها أنت ؟

ـ أنا لا أعرفها شخصيا .. أنا الوسيط بينك وبين خصومك.

اشتريت الصورة والنكتف (صورة سالبة) يا إدريس بعشرين دينارا ، وغادرت المقهى وأنا لا أرى النور وأردد زوجتي تتصور عارية .. لماذا فعلت ذلك ؟! لماذا لم تخبرني عن ذلك الطيش قبل الزواج ؟! كان طعم الخداع مرا في فمي .. كانت صورة لها حقا .. حسمت أمري معها وأنا أغادر المقهى .. وأدركت أنني ضحية لمكرها وخبثها .. ولم أكن الرجل الوحيد في حياتها لو كانت محبة صادقة ما تصورت هذه الصورة القبيحة .. ما تعرت أمام رجل ومصور .. لماذا تزوجتني؟! هل حقا كان هناك رجل يرغب بالزواج منها ؟! هل حقا سيصير والدها وزيرا ؟! ذهبت بي الظنون والهموم والأفكار السيئة إلى أقصاها .. ذهبت للخمارة وشربت وشربت حتى انتصف الليل .. الخمر مباحة عندنا ؛ لكنني لم أكن أكثر منها إلا في المناسبات والظروف

القاسية .. العائلة كلها تتعاطى الخمر كالماء في البيت .. ربما في الأسبوع أتناول كأسا صغيرا .. لم ننظر إليها أنها حرام ..هكذا تعلمنا ..كان الشاي مشروبي المفضل والمغرم به .

فتحت الباب وهي نصف نائمة ، وكانت تتثاءب : أين كنت ؟ تأخرت يا حياتي .

دخلت والتعب ظاهر عليّ والسكر بين ، فقالت وهي تجلس : سكران يا سيف أكنت في حفلة ؟ راحتك شديدة .

ـ مررت على الخمارة وشربت كأسا .

ـ أنت شربت زجاجة.. أتريد العشاء ؟ أنت مرهق .. وتأخرت كثيرا ألسنا في شهر العسل ؟!

ـ العسل ..كنت في مشكلة صغيرة كبيرة لا أدري !

جلسنا في الصالة وقالت : مشكلة .. ما هي؟ أنت لست طبيعيا يا سيف الحبيب ؟!

تنهدت بعمق وقلت : أتسمحين لي بسؤال ؟

قالت بانزعاج: تفضل

قلت بدون حياء : هل عمرك نمت مع رجل غيري ؟

نظرت إليّ مصعوقة وقالت : لعلك سكران أكثر من اللازم !.. شربت كثيرا الليلة .

قلت بعصبية : أجيبي على سؤالي .

ـ سؤال مزعج ! وهل قال لك أحد إني نمت معه ؟!

أخرجت الصورة ، وقلت : أهذه صورتك ؟

مسكت الصورة ، وحدقت بها وقالت : كأنها صورتي!

ـ كأنها صورتك أم صورتي !

ـ لا أذكر يوما أني تجردت من ثيابي لأتصور مثل هذه الصورة الفاضحة .. ولماذا أتصور؟ وأكشف عورتي لمصور .

قلت بقسوة وغل : الزانية لا يهمها .

صاحت وقد طار النوم عن وجهها : لا تقل ذلك يا سيف.. أنت أعرف الناس بي .. والله ما

تعريت إلا لك .. هذه الصورة لا أدري كيف أخذت لي ؟ لا أنكر أنها صورتي ؛ لكن كيف صورتها لا أدري ! .. الوجه في الصورة لي .. ما القصة يا سيد سيف ؟!

وقصصت عليها لقاء مراد والمقهى والمعلومات التي تجمعت لدي فقالت : شاب يصور بنات الجامعة عاريات .. الأمر غامض وكبير ..وهل الجامعة دار دعارة يا سيف ؟ لا أنكر أن هناك بعض الساقطات والساقطين يلهثون وراء الشهوات والفجور ؛ إنما هم قلة .. هناك مكر .. هناك خداع يا سيف .. هذه الصورة أول مرة أراها .. وما زلت حائرة بطريقة تصويرها .. أين الرجل الذي شاركني الفراش؟ ولماذا صورني ما دمت خليلته ؟! وأنا صدقا لا أعلم أين صورت هذه الصورة ؟ أنت الرجل الوحيد يا سيف الذي شاركني الفراش .. هذا مكر .. صحيح لي أصدقاء في النادي والمسبح والجامعة ؛ لكن لم أصبح عشيقة لأحد .. وأنت الحب الوحيد لي .. وصبرت سنتين حتى أسمع هذه الكلمة منك .. وكان أمامي الكثير من الشبان هل سمعت قبل أن أرتبط بك بمغامرة لي ؟

ـ الصورة!

ـ نعم ، الصورة لا أذكر أني تعرضت لتخدير واغتصاب .. لقد كنت عذراء ليلة الدخلة يا سيف !

ـ الصورة!

ـ لماذا أخونك يا سيف ؟! هل تراني غانية وبنت هوى ؟! لماذا أزني ؟! لماذا أتصور عارية ؟! هناك مكر .. لي سنوات أحبك .

ـ قبل الزواج

ـ لم يحصل ذلك.. أنا عذراء كما تعلم !

ـ كيف صورت؟!

ـ لست أدري ؟

ـ هي صورتك .

ـ لا أنكر أنها صورتي ..لا أدري كيف صورت ؟!

ـ ما العمل ؟!

لما رأيتها لم تكذب بأن الصورة لها ؛ ولكنها لا تعرف كيف صورت ؟ وأين ومتى ؟ وقع في قلبي أنها تخدعني ، وأنها اتخذتني تغطية لفحشها وشهواتها وفجورها .. كيف تكون بريئة ؟! فالصورة لها كيف صورت ولا تعلم ؟ هي تعلم ولا تريد الاعتراف ؛ لأنها لا تستطيع نفي الصورة عنها.. قضينا ليلة سيئة من حياتنا.. حاولت بكل قوة وحيلة معرفة كيف وصلت الصورة لهؤلاء الشياطين ؟ وكيف تعرت أمامهم للتصوير ؟! ولماذا قبلت أن تصور ؟ ولم أستطع أن أصدق أنها لم تفعل شيئا قبيحا .

وقالت : افرض أني مارست الجنس مع أحدهم قبل الزواج أهذا يهمك ؟

ـ طبعا يهمني .. أنا رجل أغار وأحب طهارة زوجتي.

قالت باستسلام : حقك ذلك ..وأقسم لك إنني لم أقدم جسدي لأحد غيرك حتى قبل أن أتعرف عليك .. أنا سلمت نفسي لك وحدك .. هل رأيتني حاولت إغرائك وممارسة الجنس معك ؟

ـ معي لم تفعلي ؛ ولكن هذه الصورة كيف وصلت لهؤلاء الرجال ؟ كيف عرف مراد اللعين بأمرها ليخبرني بها ؟.. ولماذا تعجلنا بالزواج قبل التخرج كما كنا مخططين ؟

ـ أنا لا أعرف كيف حصلت هذه الصورة ؟! ولا أذكر أني فقدت وعيي في حفلة في مناسبة .. لا أتهور في السكر والعربدة .. ولا أتأخر في العودة للبيت إذا شاركت في مناسبة .. وكنت أحدثك عن كل تلك السهرات والحفلات .. وأغلب الفتيات اللواتي يقبلن التصوير عاريات يكن ذلك بإرادتهن يا سيف .. والفتاة التي تقدم بدنها للزناة فلا يهمها صورة عارية .. وأنا لم أعرف الزنا رغم أنه غير محرم في تقاليد الحي .. ولا أنفي وجود خيانات زوجية من كلا الطرفين ، وقد يحدث الطلاق بسبب ذلك وينتهي الموضوع .. وأكثر الخائنات تعلم أن زوجها يخونها فتفعل مثله .

ـ لقد أحببتك من أعماق القلب يا نبيلة ..كنت أجمل شيء في حياتي الماضية وفي الجامعة ؛ ولكن بعد هذه الصورة القبيحة لا أعتقد أني أستطيع الحياة معك ، وتحت سقف واحد ، لو رأيتك تتحدثين مع أي رجل سيقع في قلبي أن خيانة ترتب ، حتى لو تبادلت معه النظرات سيقتلني الشك والريب ، لقد دمرت حياتي

ـ عليك أن تصدق يا سيدي أني طاهرة لك وحدك .. لم تحصل مني أي خيانة .. وأنا على استعداد إلى قطع كل معرفة مع أي رجل ؛ لتطمئن أنك الرجل الوحيد الذي يحق له أن يمتلكني .. هناك مكر كبير يا سيف!

صحت بجنون : مكر .. الصورة مكر .. كيف صوروك؟! أنا أرى أن مكرك ظهر ..وأنني مغفل ..

ـ لا تقل ذلك يا سيف .. أنت تظلمني بهذا الاعتقاد .. وحقق العدو مبتغاه من إظهار هذه الصورة .

ـ ولكنها صورتك صورتك يا سيدتي .. وتزعمين أنك تجهلين طريقة تصويرها .. أيصدق هذا ؟!

ـ لو لم أكن أحبك يا سيف وأريدك ما تعجلت بالزواج منك .. ولقبلت بقريبي الدكتور غريب .. والعجلة بالزواج لأن والدي سيصير وزيرا .. وسوف ترى ذلك .. وخشيت أمي وأنا أن يفرق بيننا هذا المنصب .

ـ الخيانة صعبة ومؤلمة على شخص مسكين مثلي يا نبيلة! إنها صعبة على نفسي وروحي .. عذاب سيسلط علينا ..علينا أن ننفصل بهدوء ، ونعلن أي حجة أمام الناس .. لا يجب أن يعرف بأمر الصورة أحد

ـ تريد الطلاق

ـ الأفضل لنا ..لا أستطيع أن أعيش سعيدا معك .. وبيننا هذه الصورة .. عندما أشرب شيئا سيقع في خلدي أن به مخدرا ما أو منوما ، إن تعبت وتوعكت سأظن الظنون فيك يا سيدتي ..

ألا تذكرين مكان هذه الصورة ؟!

ـ لا أذكر ، لا أعرف متى وأين صورت هذه الصورة القذرة التي جعلتني في نظرك مومسا ؟ هل تعرف أنت ؟

ـ أنا! كيف سأعرف وأنا اليوم عرفت بأمرها وقابلت من باعني إياها ؟ لم أستطع معرفة مكان التصوير .. عليك أن تعودي لبيت أهلك لنرتب أمر الطلاق .

ـ لا حل عندك غير هذا ..افرض أني غلطت وتصورت هذا الصورة بإرادتي وطلبت العفو .

ـ الشك الشك .. أنت تنكرين فعلتك يا نبيلة .. والصورة هذه تقول إنك تصورت .. الشك سيدفعني للجنون .. كنت سعيدا بك كل هذه السنوات .. وأنا لا أرى لي فيك شريكا شريكا في جسدك .. إذا صورة تزعمين أنك لا تعرفين كيف لقطت لك ؟ فكيف إذا فعلت أكبر من ذلك .. كيف سأصدق أنك لم تفعليه ؟!

بكت كثيرا وفعلت أنا مثلها ؛ لكن لم تعد الدموع تحل ما بي من غضب ويأس، وحسمت أمري لا نساء بعد اليوم في حياتي ،ولن أقبل أن أعيش دابة ولي زوجة ينزو عليها الذكور ، حاولت ثنيي عن الطلاق في الصباح .. ورفضت الحياة معها بعد رؤية الصورة الخلاعية .. وأنا خشيت ما وراء الصورة .. وبعد يومين قابلت والدها وقال: لماذا تريد الطلاق وقد قبلت أن تكون لها زوج وتعجلت الأمر قبل التخرج ؟

أخرجت الصورة وقلت وأنا ادفعها إليه: هذه السبب يا سيدي!

أمسك بها مطلعا وقال: ابنتي هذه!!

ـ نعم، ابنتك .. واعترفت بأنها لها ؛ لكنها تزعم أنها لا تعرفت كيف ومتى وأين صورت ؟

ـ الصورة صورتها ولماذا تتصور عارية ؟!لماذا ؟!

ـ لا أدري يا سيدي الدكتور !

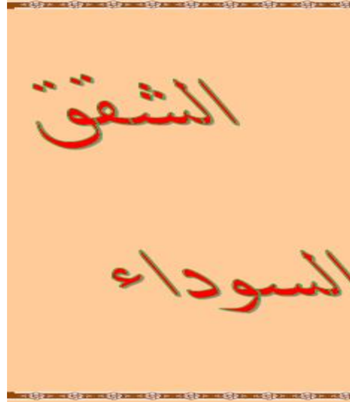
ـ كيف حصلت عليها ؟

ـ عصابة تغرر بالبنات وبيع صورهن لمن يهمه الأمر !

وأقسمت البنت أمام والدها وأمها إنها لا تذكر كيف حصل الأمر معها ؟ ولا تذكر أنها تعرضت لتخدير في بيت في سهرة ..ودافعت عن نفسها وأنها تعرضت لخدعة وشيطنة ، ثم وافق الأب على طلاقنا بدون شوشرة .. وخلال أيام كان كل واحد منا يملك شهادة طلاق شرعية .. فصدم والدي للأمر وغضب عليّ ، فذكرت له مضطرا أمر الصورة فسكت .. وظل غاضبا عليّ حتى تخرجت من الكلية ، وأنا في حالة نفسية صعبة ، ثم عادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل الزواج .. وانتهى أمر نبيلة في حياة الأسرة .. والكل كان مصدوما من قصة الصورة .

وبعد التخرج تزوجت نبيلة من قريب والدها الدكتور غريب ، وكان والدها قد أخبره بقصة الصورة ، وأنها سبب انفصالها عني ، وأن البنت تعرضت لحيلة ماكرة .. وللسخرية دعوني لحضور حفل زفافها.

وعملت في شركة ، ثم انتقلت للعمل في مصنع دواء لخالي كنائب مدير ومهندس صيانة .. كنت مهندس ماكينات وآلات .. ومضت الأيام رتيبة وبدون زواج .. كل النساء نبيلة خالد ورفضت تجربة الزواج بكل قوة وإصرار .. وما زالت الصورة الغادرة أمام عيناي .



الحياة بعد الطلاق

تزوجت فتاتي من قريبها غريب ، وأصبح والدها وزيرا ، ورفضت كل زواج عرض عليّ سواء عن طريق والدي أو أمي أو أخواتي .. أصبحت كل النساء خائنات في نظري ، إذا الفتاة التي أخلصت لها تخونني وتتصور عارية .. ولما طلقت نبيلة هجرت الشقة المستأجرة ، وعدت لغرفتي في قصر والدي .. ولما استلمت العمل في مصنع الخال محمود وابنه ياسر أعطاني والدي قطعة أرض مجاورة لقصر الوالد ، وأخذت ببناء قصري الذي تعرفه ، وأغلقت بابي بوجهك ..وفي أقل من سنة كمل البناء ، وأخذت بتأثيثه .. كانت أمي تدعمني ، وكذلك أبي على أمل أن أتزوج مرة أخرى .. وانتقلت للحياة فيه بعد التأثيث ، وأغلقت أمامهم الرغبة باقتناء امرأة فيه .. ورفضت كل استعطافات أمي ، ولم أقتنع أن النساء ليس كلهن نبيلة .. أصبحت لديّ عقدة سوداء نحو النساء عامة ..كل ابتسامة أراها بين فتاة أو امرأة ورجل يخطر في بالي الفحش والزنا بين الطرفين ، وأن تلك الابتسامة أو الحوار ترتيب لأمر سيء .. كره شديد نحوهن .. وكنت في فترة أغضب وأصرخ وأثور إذا تحدث أحدهم عن زواجي .. أصبحت النساء فاجرات في عقلي غير صالحات لحياة صالحة .. وما زال الشعور الذميم لليوم في قلبي .. عرض عليّ أبي العلاج النفسي ، ولم أقبل أحببت حياتي التي أنا عليها وأنا حر فيها .

وقبل أن أضيف ما تبقى من معلومات أقول إن السيدة نبيلة انتهت من حياتي كجسم ، وما زال جرحها في قلبي ينزف لم يمت .. ولم يحدث بيننا أي اتصال .. تزوجت كما قلت لك وعلمت أنها ولدت أكثر من مرة .. وأصبح والدها وزيرا للصحة العامة فعلا كما أخبرت ؛ ولكنه هلك قبل أن يكمل عامه الأول في الحكومة ..كان يحضر مؤتمرا طبيا إقليميا على ما أذكر وتعرض لحادث سير مروع أدى إلى وفاته في المستشفى ، وعاد للبيت في تابوت الموت رحمه الله .

كنت أغضب وأتضايق جدا عندما يقال أمامي خبرا عن نبيلة من قبل أمي أو أخواتي ؛ وربما أثور وأصرخ فيهنّ ؛ ولكننا ما زلنا سكان حي واحد .. رغم زواجها استقرت زوجة فيه ،

شيد لها والدها وزوجها قصرا أو فيلا كبيرة أيضا .. وهي عملت في شركة هندسية منذ تخرجت .

بعدما استقر عملي الوظيفي في المصنع أخذت حياتي بالرتابة والروتين .. دوام من الصباح حتى العصر ، وأحيانا في الليل لتصليح آلة متعطلة أو تركيب آلة جديدة أو متطورة أو صيانة خط إنتاج أو إضافة خط إنتاج ، لم أكن اجتماعيا مع عمال ورجال المصنع .. عمل فقط علاقات عامة مع الإدارة والشركات ..لم أكوّن أي صداقة خاصة مع شخص أو أشخاص في الداخل والخارج .. وعلاقاتي مع معارفي القدامى ضعفت وتلاشت مع مرور الوقت .. العزلة هوايتي .. أحببت الكتب ؛ ربما بقيت هذه الهواية القراءة ، وأحيانا التلفزيون في البرامج الثقافية والحوارية .. كان لديّ خادم فليبني يقوم على خدمتي وتنظيف ورعاية البيت .. سعت بعض فتيات المصنع صيدي وتكوين صداقات معي طمعا ؛ ربما بالزواج من حضرتي .. وكلهن اعتبرهن نسخة عن نبيلة الفتاة التي أحببتها بصدق وشرف .. ولم تكن في نظري بعد تلك الصورة الماجنة شريفة ولا عفيفة .. وحاولت بعضهن إقناعي أن النساء لسن نسخة واحدة ..سعى ابن خالي مدير المصنع الدكتور الصيدلي ياسر تزويجي من شقيقة له .. فذكرت له ضعفي النفسي والجنسي وعدم صلاحيتي للنساء ، ولم تعد لديّ طاقة لمعاشرتهن .. مع مرور الوقت قلّ اهتمام الأهل والأقارب بزواجي من جديد .. ويعجبون من صبري عن النساء .. وشاع أن طبيعتي ماتت .. وأني معقد ومريض ، وبعضهم يقسو ويصفني بالغبي والمجنون.

ثم تعلقت فترة بالسفر إلى مدن العالم السياحية ، زرت إيطاليا وأمضيت فيها شهرا ، ولم أقع في الزنا ، وهو شائع دون عقبات حقيقية أوروبا إباحية ، وتجد فيها أحياء وقرى للبغاء والجنس وللشواذ كما في فرنسا وكندا ، زرت إسبانيا وغرناطة فاس ومراكش لندن وبرلين تونس اليابان ايران .. بعض مدن الهند ، ثم مللت السفر والسياحة ، وعدت للسكون .. في آواخر عام ١٩٧٥ ماتت والدتي وهي حزينة كما قالت عند الموت لأنني لم أتزوج لأنجب من يحمل اسمي .. حاول أخي أمير تزويجي بعد هذا الأسف من طبيبة تعمل معه في المستشفى ..

واستغل مأساتها وترملها لأقبل بها .. وكدت ألين ، ثم نفرت فجأة من الزواج والنساء والخضوع لامرأة ، وذكرت نبيلة التي حسبتها أشرف أنثى تتصور مجردة من الثياب ؛ كأنها بائعة هوى أو مومس تعمل في حانة أمريكية.

وقدر الله بعد موت الأم بشهور وفاة أخي الكبير حازم الطبيب ، فقد كان يعاني من مرض عضال ، وترك زوجة وولدا ذكرا وبنتين .. وبعدهم بسنوات لحق بهم أبي وترك أرملة شابة لعوب ، كادت تهلك العائلة والأسرة بكثرة مطالبها ، وتستولي على أموال العائلة ؛ لكن طلقها أبي فجأة متهما إياها بالتزوير .. وحصلنا على ميراث كبير .

وبعد وفاة أبي بسنتين عام ١٩٨٥ تركت العمل في المصنع ، وقبعت في بيتي لم أعد بحاجة للعمل والراتب .. وغرقت أكثر في الكتب والفكر والتاريخ والروايات الغامضة .. وتابعت فترة المسلسلات التلفزيونية ، ثم هجرتها أصبحت مملة ومسخرة ومكررة .. ومات خادمي الآسيوي وتكفلت بنقل جثمانه للفلبين .. واستعنت بخادمة قريبة عرفني بها أثناء حياته .. فلما مات رغبت بالعمل في بيتي .. ورغم كرهي للنساء كما تعلم وعزوفي كل هذه السنين عن الزواج والحياة مع امرأة قبلت هذه الخادمة .. وهي التي فتحت لك الباب .. وهي رغم صغر حجمها تقترب من الستين سنة .

ألفت بعض الكتب في الهندسة والصيانة بحكم عملي في المصنع وللفنيين معنا ، ثم قبلت نشرها كذكرى وليست تجارة ، وهي خمسة مؤلفات حول كهرباء المصانع وخطوط الإنتاج ، وبعد تقاعدي واستقالتي تعرفت على فتاة شابة ؛ كأنها في الخامسة والعشرين زاعمة أنها تحب أن تستفيد من تجربتي في العمل بمصنع الدواء ؛ لأنها تحمل نفس تخصصي في هندسة المصانع والميكانيك ،وأن ابن خالي ياسر أرسلها لتتعلم مني ، وتكسب خبرتي ولو بشكل نظري وحوارات ، وتحولت الدروس والخبرات عن الزواج والحياة الزوجية ، وأنها تتمنى أن تكون زوجة لرجل مثلي ، ولو كان كبيرا ، فتنبهت لمكرها وطلبت منها عدم العودة للبيت ؛ ولتفكر برجل من سنها، وعاد الهدوء للبيت ولنفسي بعد طردها .. اليوم البنات تطارد الشباب في كل

الأماكن لم يعد الأمر مقصورا على الجامعات.

لما تركت المصنع رفضت العمل في أي مكان آخر.. أعطيت نفسي التقاعد دون مقابل .. حصلت على ضماني دفعة واحد ؛ لأنني لم أكمل سنوات الاشتراك معهم .. ولي تقاعد من نقابة المهندسين ؛ ولكني حولته لجمعية خيرية .. وكنت أحيانا أضطر للذهاب لمصنع الدكتور ياسر للمساعدة في صيانة ماكينة أو مشكلة فنية .. أمارس السهر لساعات طويلة ؛ ربما أسمع آذان الفجر من جوامع الحي قبل النوم .. أحب السهر ، وأنام في مطلع النهار .. ألفت بعض الكتب الثقافية ؛ لكني لم أطبعها سأعرضها عليك ، وأكلفك بطباعتها بعد موتي .. وأدع لك مالا لتنفيذ ذلك .. واعلم أنني أعاني من مشكل في القلب والأوعية الدموية وعانيت أعراض الجلطة القلبية ؛ ولكن الله سلم ، وما زلت أعاني ، ولست آسفا على هذه الحياة .

والآن أتحدث عن الرسالة التي سمحت لك بقراءتها قبل زوال عام ١٩٩٤. سمعت بموت السيدة نبيلة بمرض السرطان المعروف اليوم للناس ، علمت بموتها في نفس اليوم الذي دفنت فيه من إحدى أخواتي القاطنات في هذا الحي حي بهية والتي كانت على علاقة معها بسبب المجاورة في الحي .. حتى فكرت بحضور جنازتها ؛ ولكني ضعفت وجبنت على فعل ذلك مع أني شاركت بجنازة والدها عندما أتوا بجثته من حيث مات .. وحتى العزاء لم أذهب إليه مع أخي أمير أو مع أخواتي ، لم تطاوعني نفسي على فعله ، رفضت مرافقتهم ، ثم انتهى أمرها عندي ، وللحق كثر طيفها تلك الأيام ، وعادت بي الذكريات إلى الجامعة إلى أول يوم تقابلنا فيه .. وسعادتها باعترافي بحبها حتى وصلت للصورة اللعينة الصورة التي دمرت حياتي وكياني يا إدريس .. بكيتها بحرارة بحرقة .. نعم بكيت .. وصرت أتخيل حياتها قبل الجامعة التي حدثتني عنها وحبها لقراءة الروايات العاطفية والغرامية .. وحبها لحياة مثل تلك الحكايات .. وأنني أحد أبطال قصصها .. ثم تذكرت حياتها مع غريب وصبرها على فجوره الذي شاع في الحي .. عشت أياما مع تلك الذكريات والمشاهد والمواقف .. قد تعجب إذا قلت لك تلك الأيام لم أستطع فتح التلفزيون ، لم استطع قراءة كتاب.. وفكرت بالموت

القريب منا .. وأهمس وأنا أتمشى في حجرات القصر .. لقد ماتت الحبيبة الأولى والأخيرة في حياتي .. ماتت سألحق بها قريبا .. وعدت أتسأل كما تسألت خلال هذه السنين هل ظلمتها بطلاقي ؟ كيف صورت تلك الصورة اللعينة ؟! أيعقل أن تخضع فتاة لمثل ذلك المشهد دون علمها ؟! وهي كانت تنفي بقوة تعرضها للتخدير والاحتيال .. كانت سيرتها طيبة يا إدريس في الحي.. لم أسمع قصة سوء عنها ، لم أسمع إشاعة أنها تخون زوجها رغم ما عرف عنه من فساد وفجور .. أتخيل ذاك الرجل البائع للصورة ، وأتذكر المهندس مرادا وإظهار شفقته عليّ واضطراره كشف الأمر لي زاعما حزنه على الخداع الذي تعرضت له من الزواج من نبيلة .. صدقت أنها خدعتني ليلة الدخلة في مسالة غشاء البكارة لما نسمع من مكر بعض الأطباء وتزوير مثل ذلك .. لم أعرف اسم رجل المقهى .. كانت لهفتي فقط إلى رؤية الصورة التي تحدث عنها مراد .. لم أسأله من أنت ؟ الغضب والقهر يغمران قلبي تلك اللحظات.. ظهرت بالمغفل وتسرع بالزواج ليستر على فضيحة ؛ ولكن لو أراه سأعرفه يا أستاذ إدريس .

أعترف أمامك أن موتها هزّني جدا ، أنا صحيح منذ تركتها لم يحدث بيننا لقاء ، لكن صدف أن تلاقت عيونا في مناسبة اضطر أن أكون فيها كعزاء كعرس أبناء أخواتي ، لم يحدث بيننا كلام ولم أنس طيفها فهي المرأة الوحيدة في دنياي ، ونحن أبناء سن واحدة كما تعلم ، ودرسنا في كلية واحدة .. أرعبني موتها مع أني عرفت الموت بموت أمي وأخي ، ثم أبي وبعض الأقارب وأبناء الأخوات ؛ لكن موتها جعلني أفكر بالموت ونهاية الحياة .. موت نبيلة دفعني أن أقرأ في القرآن الكريم ، نحن مسلمون بالاسم .. كان أبي متمردا على الإسلام أو قل لا يعرفه سوى معرفة سطحية تقليدية .. لم يكن يعرف الصلاة .. رمضان كغيره من الأيام ، لم نمارس الصوم كل الأسرة .. أمي في آخر أيامها علمت أنها صارت تصلي ؛ وربما تصوم .. قرأت بعض أجزاء المصحف تلك الأيام .. لقد فكرت بالصلاة والذهاب للمسجد ، ثم نكست .. كنت أتخيل جسد حبيبتي المسجى وهم يصلون عليه ، وأقول هل عرفت نبيلة الصلاة يوما ؟ هي مريضة من سنوات .. حي بهية فيه مسجدان مسجد قديم بقدم الحي ، ومسجد بني من عهد

قريب ربما من خمس أو ست سنوات .. لقد خيم الموت على نفسي أكثر من اللازم .. صدق تأثرت بموتها أكثر من وفاة أمي وأخي وأبي وخالي والد ياسر .. لا أدري السبب الحقيقي لهذا التأثر .. أخذت أفكر بالحياة التي بعد الموت.. وهل حقا هناك عذاب في الحفرة التي يدفن فيها الإنسان أم هي خزعبلات وتهويمات يتسلى بها الشيوخ ؟! تمنيت أن أصلي ولكني لا أعرف شيئا .. ومع الوقت وفي أقل من شهر ذهب الحزن والخوف والذكريات ، عاد الهدوء النفسي لنفسي ، وذهبت أيام نبيلة الحلوة من حياتي رويدا رويدا.

عدت أتفرج على التلفزيون ، أقرأ الصحف والمجلات التي تعودت على قراءتها، ومع ذلك لم أنس ليلة قررت طلاقها يا إدريس كانت مصدومة ومذهولة من الصورة .. وكيف وصلت لي ؟ وكيف صورت ؟ لم تعترف لم أعرف كم تركت من الذرية إلا عند موتها ؟ عرفت أن لها ولدا واحدا فقط ، وابنتين ؛ ربما مات لها أطفال صغار .. وبينما أنا على هذا الحال وصلتني الرسالة التي تطلب مني مسامحتها على الآلام التي سببتها لي وحرماني من الزواج والذرية .. وكررت التأكيد أنها لم تخنّي يوما ، وأن الصورة أخذت لها بطريقة ماكرة وغامضة ، وتطلب مني مقابلة بائع الصورة ؛ لعل ضميره استيقظ بعد كل هذه السنين .. وأنها سامحتني وأن لا دخل لها في عقدتي نحو النساء .. قرأت الرسالة مرات ومرات ووقع في قلبي أنها صادقة وبريئة .. وقلت لولا أنها بريئة ما عادت تقسم هذا القسم .. أنا ابتعت الصورة لأنها الحقيقة الثابتة .. ولم أسع للتفاصيل ، لقد أعمى الغضب والصدمة هذه النفس .. وماذا يهم من معرفة المصور ومكان التصوير في تلك اللحظة ؟ المهم أنها قبلت التصوير بهذه الطريقة الوقحة .. وأعطيت الصورة ومقطع الفلم لوالدها ليلة تحدثنا عن الطلاق وسببه ؛ وربما افترضت ليلة ابتعت الصورة أن نبيلة تعرف كل هذه التفاصيل .. فلماذا أسمعها من الرجل والذي اعتقدت أنه مجرد بائع ؟ .. لم تعترف بمكان التقاط الصورة ، ولا بوقت وقوع الجريمة .. وبعد تردد طويل وتفكير بضعة أيام قررت أن أعود للماضي إلى الوراء إلى تلك الأيام التعيسة السوداء في حياتي .. أعود لمقهى الكوكب الذهبي كوكب الصورة عسى اللقاء بذلك البائع .. ذاك الرجل

البريد ، ومعرفة المزيد من المعلومات عن الجريمة والخيانة.

كنت في المقهى كما تعلم في مطلع هذا العام طامعا بلقاء ذلك السيد الذي قابلته قبل ثلاثين سنة ، الذي اشتريت منه صورة من كانت زوجتي بعشرين دينار ، باحثا عن الرجل الذي شارك بتدمير حياتي .. صورة دمرت حب سنوات الجامعة ..إنها تطلب مني وهي تموت أن أعرف الحقيقة ، وأعرف أنها بريئة ؛ لكن الصورة حقيقة ، ولم تنكر أنها صورتها ، فهي كانت تمني النفس أن تعرف كيف خدعت ؟ لتصور بعريها .. ومن الذي أجرم بحقها ؟ كيف حصل الخداع والمكر ؟ أنكرنا أن تكون الصورة مركبة من قبل مصور محترف .. فخبير تصوير يدرك التركيب .. إنها صورة حقيقية لها بدون ملابسها .. لم تكن الصورة داخل غرفة استحمام لأنها كانت مستلقية على أرض ما .. فكرنا أن تكون صورة أخذت عند مسبح وجرى التركيب .. لكنها صورة لها أخذت مرة واحدة .. كما كان ذلك واضحا في التصوير .. وأمر الخدع في التصوير وارد ..إنه عمل أفلام وسينمات .. واليوم التلفزيونات بالممثل البديل .

لم يكن المهم عندي الصورة نفسها .. المهم ما وراء الصورة من زنا وإباحية.. ذهبت إلى ذلك وما أنا إلا غطاء وستار .

الفتاة تريد أن أصدق أنها لا علم بطريقة الحصول على الصورة كيف صورت مجردة من الثياب؟! .. بكت وبكيت يا إدريس تلك الليلة ؛ لكني اتخذت القرار .. وكان في نظري السليم والأفضل لنا .. الشك والوسواس مرض مرعب ومزعج ، فوجدت أن أبحث لعلي أجد هذا البائع وأضغط على ضميره بعد كل هذه السنين ؛ لعله يكشف الخدعة التي تعتقدها نبيلة .. هذا سبب وجودي في مقهى الكوكب البحث عن سيد رأيته قبل ثلاثين عاما في جلسة دقيقة وصعبة من حياتي .. فكرت أن لمراد صديقنا في الجامعة يدا ؛ ولكن بعد طول نظر قلت إن السيد كان دوره إرشادي للمقهى فقط .. ولا أراه رأى الصورة ؛ إنما قابله البائع وذكره بهواه لنبيلة ، وأن هناك فرصة للتفريق بيننا ، وطلب منه أن تكون المقابلة في المقهى ..لأني التقيت به بعد سنين ، وأنكر رؤيته للصورة شخصيا ؛ إنما حدث عنها وانتهى الكلام ..

خلاف المرة الاولى زعم أنه رأى الصورة .. وهو قد طاردها سنتين دون أن يظفر منها بشيء.. ولو عبثيا وحقدا هو شارك بتدمير حياتي .

ذهبت للمقهى وتقابلنا أنا وأنت ، أنا وجودي على أمل مشاهدة الرجل بين رواد المقهى ، والتعرف عليه بعد كل هذه السنين ، مجرد أمل .. أنا لم أذهب للبحث عن صحفي .. تعجبت من اهتمامك الزائد بي ، فلم أطمع بالتعرف عليك ولا على غيرك .. مجرد جلوس بضع ساعات في المقهى على أمل رؤية الخصم .. أنا رأيته مرة واحدة مكثنا ربما ربع ساعة .. فعلا غمرني العجب من متابعتك لي .. فأنت لا تعرف لماذا أنا هنا ؟! لا شك أنك لا معرفة لك بذاك الشيطان .. وعجبت حقيقة من فضولك ، ولكن لما عرفت متأخرا أنك صحفي بررت هذا الفضول لم هو مشهور عن فضول أهل الصحافة ودس أنوفهم في كل شيء .. قلت هذا الرجل لا أتصور أن له علاقة بذاك الرجل .. ودهشت كثيرا من مطاردتك لي ، ومعرفة المزيد عني .. فأخذتها تسلية ، ورفضت طبيعتي أي تقرب مني .. أنا لا أحب الأصدقاء .. هذا أمر مات عندي يا إدريس !

رتبت ـ كما تعلم ـ جلوسي في أول الأمر ما بين العصر والمغرب ، ثم فترة صباحية فيما بعد ، لم أرتب نفسي لتكوين صدقات مع رواد المقهى .. أربكتني حقا يا إدريس أتسأل ماذا يريد هذا الرجل مني ومن تعقبي هنا وعند المطعم؟! وهذا المطعم كان مطعمي المفضل أيام العمل في المصنع .. وعندما أكون في قلب المدينة واحتاج للطعام .. وأفضله على مطاعم حي بهية والعرب .. وقد كنت أدعو بعض الناس إليه ، عند الاضطرار لدعوة أحد المهندسين أو الضيوف خلال سنوات المصنع .. فظل مطعمي المفضل.. كنت أرغب أن تبتعد عني .. وعجبت لإصرارك على الاحتكاك بي .. نعم ، رغبت أن تبتعد وتدعني وشأني ..كنت ترغب في الثرثرة معي غصبا عني .. وكانت مطاردتك لي محل استغراب ودهشة .. حقيقة كنت لا أحب تكوين أي علاقة معك .. ودهشت جدا لما رأيتك أمام بوابة بيتي ..ولماذا تسعى للوصول للبيت ؟! وأعتقد أنك استعنت بشخص لما رأيت إصراري على عدم تعريفك على

مكان سكني .. هذا مجرد عناد وردة فعل وتسلية أيضا ، قالت لي الخادمة : رجل أول مرة أراه يطلب الحديث معك .. ولم أكن على موعد مع أحد ..لا يأتيني أحد بدون ترتيب يا إدريس .. صعقت عندما رأيتك ، فكانت ردة الفعل إغلاق الباب بوجهك محتجا على تدخلك بالقوة في حياتي وترددك على الحي حتى أن صاحب إحدى البقالات أخبرني أنك تسأل عني عن أسرتي وتفاجأت بزيارتك لي في المستشفى ..كنت لا تطاق ، ولا أعرف الغاية من كل هذه المطاردة والتعقب .. وكنت أفكر أن أسألك عن كل هذه المطاردة ، ثم أضعف خشية تطور الحوار والاتصال .. ولكنك في النهاية انتصرت يا إدريس واستسلمت لصداقتك .. وعسى أن تكون نعم الصديق وأنا في آخر العمر .. ها أنا فتحت لك خزائني وأسراري !



بعد مضي أكثر من نصف سنة على أول نظرة كانت بين سيف الدين وإدريس أصبح إدريس ملما بتفاصيل كثيرة عن حياة سيف .. وقرأ المذكرات والصفحات التي كتبها عن حياته .. وكان لقاؤهما الليلة في بيت إدريس لمناقشة المذكرات والقصة ..كانت لقاءاتها في الفترة الماضية في المقاهي العامة أو في مطعم سيف المفضل .. وبعد تردد سلم سيف بزيارة بيت إدريس ، وإن الكلام من الأفضل أن يكون في داخل البيوت .. وبعد تقديم المشروب المفضل لكليهما الشاي الساخن ، ووضع أمامهما أطباق الفاكهة جلس الرجل يتحاوران .

قال إدريس : قرأت قصة حياتك أكثر من مرة .. أنت جئت المقهى لهدف وحيد ، وهو مقابلة بائع الصورة آملا بصحوة ضميره بعد هذه السنين بإضافة معلومات تساعد أو تبين وتؤكد براءة السيدة نبيلة من الزنا ومعرفة قصة تصويرها عارية .

ـ نعم ، هذا ما تطلبه الرسالة لأتأكد أنها مظلومة ، وتعرضت لكيد كبير

ـ أنت لم تفكر قبل رسالة الوداع والمسامحة التي جاءتك من السيدة بمقابلة الخصوم .

ـ نعم ، لم أفكر ؛ لأن الأمر انتهى تلك الليلة ، أصبح تاريخا يا صديقي ..

وما الفائدة ؟! لكنها رغبة امرأة تموت أو ماتت.. أنا بعد حدوث المأساة الكبرى في حياتي لم أعد أفكر بمراد أو برجل المقهى ؛ لأن الصورة لها ، ولا أعتقد أن الشيطان إذا كان هناك شيطان قام بتصويرها.

ـ شيطان الإنس فعل ذلك لوجود الصورة كحقيقة بينة .. هي تجهل كيف حصل ذلك ، وتنكر بشدة .. وأقسمت لك ولأهلها أنها ما فعلت ذلك!

ـ أنا لم أفكر كثيرا بسبب مصارحة مراد لي بتلك البلية ؛ لأني كنت أكرهه بشدة .. ولماذا تحدث عن ذلك بعد زواجنا ؟! لكن باختصار هو رجل حاقد .. اعتقد أني انتصرت عليه بزواجنا مع أنه قضى سنتين بمطاردتها ومحاولة صيدها .. وله قصص مخزية مع البنات .. وأنا متأكد لو صاحبها ونال حاجته منها لهجرها كما فعل مع الأخريات .. كان سيئا مع بنات الجامعة ؛ ولكنه كان صادقا بأمر الصورة .. ولا أدري هل شاهدها بأم عينه كما زعم في الأول أم حدث عنها؟!

قال إدريس : الرجل قصده واضح ، كان مغرما بها ومشتهيا لها ، وطاردها حتى يأس .. وقد يكون ناقما عليها حانقا ؛ لأنها فضلتك عليه ، وارتبطت بك دونه .. وهو جون دوان الكلية كما فهمت منك .. فالغرور مشكلة كبيرة عندما يتلبس الشخص .. وظلت تصده ولا تعيره اهتماما فجن جنونه .. ورأى أنها بعد إشهار الخطبة أنها ستكون زوجة شرعية .. خطط لتلك الصورة والحادثة ليدمر زواجك .. وهو الخبير بشخصيتك وطباعك خلال سنوات الدراسة خطط للانتقام وتدمير حياتها وحياتك ؛ لأنها اختارتك دونه .. الحقد مدمر ترتكب بسببه حروب دموية .. وإن غلفت بأمور أخرى لخداع الناس والأتباع .. الحقد أسود يا مهندس سيف .. لكن الأمر الغامض كيف تمكن هو أو غيره من تصويرها دون علمها ؟ وهي تنكر بشدة تعرضها للتخدير .. لو اعترفت بأنها خدعت وخدرت انكشف الأمر ؟ وما علينا إلا أن نعرف من قام بتخديرها .. هل غرر بها واستطاع تخديرها وصورها ليبتزها كما يحصل من

مجرمين العصر ؟ .. أما رجل المقهى فهو مجرد بائع أو مثل دور بائع مقابل مبلغ من المال .. هذا العمل يحتاج إلى ماكر أو أكثر .. فرجل لا دور له في عملية التصوير .. هل يعرفه مراد أم دل عليه ورتب له الأمر ؟ أي أن مرادا نفذ تعليمات معينة .

ـ تحليلك جيد ، وقريب من المنطق كما يقال .. وأنا السيد لم أره إلا مرة بعد إنهاء الجامعة .. ولم ندخل في تفاصيل الطلاق والصورة .. لم يكن هناك دافع لذلك .. هو مجرد بريد مراسل في ظني .. ولا أعتقد أنه قام بالتصوير وإلا أدركت نبيلة ذلك .. ولم ترافقه بجلسة خاصة .. لقاءات الكلية للسلام وتبادل التحية .. هما كانا في نفس القسم الهندسي الهندسة الكيمائية .. أما أنا فكنت في الهندسة الميكانيكية ؛ لكن تجمعنا كلية واحدة وجامعة واحدة .. وعلمت أنه عمل في الخليج العربي في شركات نفط .

ـ ونستطيع الحصول على مكان عمله من نقابة المهندسين وجمعية المهندسين يا مهندس سيف لكن صفة اللقاء به ما هي ؟ وهل سيتكلم بكيف عرف بقصة الصورة بعد ثلاثين سنة ؟!

ـ لم أفكر بمعرفة دوره في التصوير واللعبة ؛ لأن الصورة يومئذ حسمت الموقف ..كان عليّ أن أعرف من الرجل البائع .. أنا شعرت أن مرادا يمثل دورا معي .. استغل لنقل رسالة الصورة وأنا يومئذ كان يهمني مشاهدة الصورة .. من طلب منه بيعي الصورة ؟ !ربما حلم مراد بالزواج منها بعد طلاقي لها نتيجة الفضيحة ..وهذا كان صعبا يا إدريس حتى لو كان مهندسا فوالدها أرستقراطي رغم فتح مجال الحرية لبناته ، فلا أعتقد أن يزوجها لشاب أدنى اجتماعيا منه إلا اذا هربت وتزوجت سرا .. فهذا كان يراعى في الحي .. وسمعت منها مثل هذا الكلام قبل انفصالنا .. هو أي مراد لم يذكر أنه رأى الصورة صراحة زعم أنه سمع عنها فهمت أنه رأها ، وأنه ينصح لي موهما إياي أن وراء الصورة أفعالا قبيحة لنبيلة ، وأنه مشفق عليّ ، وأن ضميره لا يسمح له بالصمت ، وأن بائع الصورة طلب منه أن يجتمع بي في ذلك المقهى ، رغم جو الجامعة المعروف لك من ناحية الانفتاح الكامل بين الجنسين ، وكثرة العلاقات الجنسية الخاطئة .. الصورة كانت مملوكة لرجل المقهى فلو التقيت به وذكرته بها ؛

ربما يتذكرني ؛ وربما لا .. هذه سنون طويلة .. وبعدها نستطيع أن نتكلم مع مراد في القصة وحجم دوره ؛ لأنني لما رأيت الصورة توقعت أن تعترف نبيلة بالطريقة والوقت الذي حدث فيه هذا القبح .. أنا صدمت من رفضها الاعتراف .. ووقع في قلبي أنها تكذب وأن القسم كذب ،كما يفعل الكثير من الناس اليوم لم تعد للأيمان أهمية للأسف .. ولكن اليوم أجزم أنها صادقة ، وإلا ما اهتمت بالأمر وكتابة تلك الرسالة لنبش الماضي وهي تموت .

قال إدريس : نعم ، هي حزينة من أجلك ، وإنك تركت النساء بسبب تلك الزيجة ، وإنك تعيش بدون ذرية ، وإنها لا تتحمل سبب ذلك .. وفي الرسالة إيحاء معين ، لم أفهمه بعد حقيقة يا مهندس ! يعني ما الفائدة من نبش الماضي بعد هذه السنوات الطوال ؟ وهذا لن يعيدك للوراء ، لماذا لم تكتب لك قبل الموت بسنوات ؟! هذا سؤال .. وهي لا تستطيع أن تنكر أن الصورة لها ما دامت لها .. وهي كانت مذهولة من تصويرها ، وكيف فعل بها ذلك ؟ كيف خلعت ثيابها ـ رحمها الله ـ لتتصور تلك الصورة القبيحة ؟! فعلة تفعلها بنت هوى من أجل حفنة فلوس .. ليس من أجل قضاء شهوة جامحة .. والواقع يدل أنها تعرضت لتخدير أو تنويم ، وجردت من ملابسها بدون أن تحس بذلك .. وأنه فعل بها ذلك من أجل الصورة ، ثم أعادوا إلباسها ثيابها ، وأن ذلك تم في وقت وجيز .. لذلك لم تشعر أنها خدرت أو نومت .

قال سيف : لكنها لا تذكر هذا الوقت وهذا الموقف .. أين تعرضت للتصوير ؟! لا تعرف مكان أخذ الصورة .

ـ لا أعتقد أنها تنام عارية ليؤخذ لها هذا المشهد دون وعيها .

ـ لم تكن الصورة على سرير أو حتى فراش .. كانت على أرض مفروشة بشيء يشبه الموكيت الأرضي أو فراش صالة رياضة .. نبيلة كانت مرحة في الجامعة ، وتشارك في النشاطات المختلفة ، والرحلات العلمية ، والترفيهية .. فلها معارف على مدى الجامعة .. ولم تكن بائعة هوى ؛ ولم تكن متحفظة في اللباس والاختلاط .. وهذا أعتبره امتداد لحياتها في الحي .. فكانت تجلس مع الشباب بثياب قصيرة للغاية.. الموضة .. تلبس ملابس السباحة أمام

الشباب دون خجل .. وتتصور بذلك معهم .. ولما تصادقنا لم يتغير ذلك كثيرا ، ولم أعترض على لباسها وتبرجها ومكياجها .. وكانت ترفض أي صداقة غرامية.. فبعضهم انصرف سريعا ، وبعضهم كمراد ظل لديه أمل حتى مع شيوع قصة تعلقنا ببعض .. فهو ربما اعتبره كعلاقته مع الفتيات والطالبات .. كنت أغار ليس بغيرة أهل البادية والقرى أو الشيوخ .. لم يكن للدين أي دور في حياتنا .

ـ نعم ، أعرف هذا الواقع في مثل حياة هذه الطبقة الغنية ، والتقيت بشخصيات خلال سنوات العمل لها مثل هذه الصفات ، نحن أبناء مثل هذه الأحياء ـ حي الشاعر ـ كنا في تلك الحقبة نستهجن ذلك التقليد الكامل للحضارة الغربية ، والطبيعة الممجدة للحرية الشخصية ، ولو على حساب الأخلاف والتقاليد الإسلامية .

قال سيف : أنا يا سيد إدريس لو اعتقدت فقط أنها مجرد صورة لما طلقتها .. أنا اعتقدت أن وراء الصورة دعارة .. وزواجي العاجل تغطية لهذا الانحراف ، وأنه يجري من ورائي أشياء قذرة .. عندما ترى صورة لفتاة تظنها أشرف فتاة ، فسيذهب ذهنك إلى أكبر من ذلك .. تلك الأيام لم تكن أشرطة الفيديو معروفة أو موجودة .. تصوير فلم سينمائي يحتاج لمصور بارع ومكان للتصوير عدا الديكورات .. فكانت الصورة الفوتوغرافية الأسهل لابتزاز الفتيات وإجبارهن على ممارسة البغاء والزنا ..كانت الصورة الماجنة وسيلة ابتزاز وصيد منتشرة .. عرض الأفخاذ والظهر والبطن لم يكن ممنوعا في حي كحي بهيه وأشباهه .. فالمسابح المختلطة متوفرة في النوادي والمدن الرياضية والمسابقات .. فذلك تراه بدون جهد .. أما العري تماما فكان خفيا ..كان الأهل في مثل حينا يسمحون للبنات بمصاحبة الفتيان واللعب معهم ، وإقامة علاقة عاطفية بينهم ؛ لكن يحذرونهم من علاقات جنسية كاملة لما يترتب عليها من مشاكل كبرى من ذهاب البكارة والإجهاض والحمل خارج عقد الزواج ..والبعض يتهور وتحدث قضايا أخلاقية تحتاج لترقيع ، ولم يكن الزواج الحل فهم مراهقون لا يتحملون مسؤولية وطلبة مدارس .. فيسافرون لأوروبا للإجهاض ؛ لأن قوانينا تمنع ذلك .. وإذا غامر

طبيب يجري ذلك في عيادة خاصة ليس في مشفى .. وقد يتقبل الحي الخيانة الزوجية ؛ لأن الرجل هو خائن كزوجته .. كان الرجال يتقبلونها أو يحصل الطلاق بدون شوشرة .. والموضوع سريع النسيان في الحي لكثرة تكرار ذلك يا سيد إدريس .. أنا كما كتبت كنت أتقبل سفور وتبرج نبيلة .. ولم أكن مستعدا ؛ لأن أكون خنزيرا وغاضا الطرف عن دعارة .. كان البعض يغض الطرف عن الزوجة باسم المدنية والتقليد الأعمى للغرب .. والنساء في حينا بنات ذوات ، ويملكن المال وشريكات لأزواجهن في المصانع والشركات والتجارة .. وإن لم تكن شريكة يكون أبوها أخوها قريبها شريك الزوج أو والد الزوج .. فالزوج يسكت ويخضع للواقع ..

وبعد صمت للحظات تابع : هل من طريقة لديك للوصول لذاك الرجل رجل المقهى ؟ فهذا سبب ترددي على مقهى الكوكب الذهبي كل هذه الشهور ؛ ولكني لم اصدفه .. صدفتك أنت يا صديقي الجديد !

ـ رجل يقوم بعمل مريب لا أعتقد أن يكون من زبائن هذا المقهى ؛ لكنه يعرفه .. إنما هو مسرح لتسليم الصورة ؛ لأنه إذا كان فيه ذرة عقل سيبتعد خشية أن تعود إليه لأي سبب .. واختاره ـ والله اعلم ـ لأنه لا يتردد عليه واللقاء كان بينكم قبل ثلاثين سنة هل ما زال حيا أم مات ؟! أكان من جيلنا ؟

ـ أظن ذلك ، كان في العشرينات مثلنا ، حتى وقع في قلبي عندما رأيته بأنه أحد طلبة الكلية متنكرا ..كانت له لحية سوداء قصيرة ، وشارب سميك ؛ كأنها أدوات تنكر .. وقلت لنفسي : من حقه أن يفعل ذلك ؛ لأنه يرتكب جريمة .. أنا يومها كنت مهتما بالحصول على الصورة .

ـ أيكون مراد متنكرا ؟!

قال بحزم : لا أعتقد ذلك ، مراد أعرفه جيدا ، نتقابل في قاعات ومطاعم الجامعة ، وكان المهندس مراد سمينا أكثر من الرجل الذي قابلته .. ربما من طلبة الكلية أو مستجدا ..كنت في السنة الخامسة ، وعادة طلبة التخرج لا يبدون اهتماما بالطلبة الجدد ؛ لأن الوقت قد حان

للابتعاد .. فنختصر مصاحبة المستجدين.

ـ أنت تنفي أن يكون لمراد دور أكبر من توصيل خبر الصورة لك .

ـ من كلامه أنه مجرد رسول .. رجل المقهى لم أره مرة أخرى ، حتى لو خلع اللحية المزيفة لعرفته يا إدريس .

ـ اختيار هذا المقهى بالذات له سبب .. فالمدينة مليئة بالمقاهي ، هل لمراد علاقة بالمقهى ؟

تريث قليلا ثم قال : لا أعتقد .. فمراد كانت ضمن الطلبة الشيوعيين ، كان ملحدا ؛ وربما هوى وشهوة .. فكنت أراه كثيرا مع طلبة اليسار ، وأقطاب الحركة الشيوعية في الجامعة .. ولم أعرف عنه أنه رجل مقاهي إلا إذا كان للشيوعيين مقاهي خاصة .

ـ المقهى لم يكن محسوبا على الشيوعين ؛ لكن في نفس الشارع كان مقهى لهم اسمه مقهى العمال .

ـ لم أعرف عنه كما قلت رجل مقاهي .. عرفت أنه طاردها كثيرا وخاب في صيدها .. ولا أعتقد أنه استسلم لخطبتنا ؛ ولكن صعب الأمر عليه .. وهو من المتأثرين كما قلت بالحركة الماركسية التي كانت تملأ الدنيا في عقد الستينيات ..كان كما تذكر المد الشيوعي قويا ومنتشرا في كل بلدان العام بدعم الاتحاد السوفيتي الذي نراه اليوم ذاويا مفككا .. وأولئك الشبان لحقوا بالأحزاب تلك لأهداف شتى ، ومنها الإباحية الجنسية للأفكار التي تروج عن شيوعية النساء .. وتجد بعض النساء متأثرات بهذا الجنون ، فسقطن في الرذيلة باسم الشيوعية والعقدة الجنسية والكبت الجنسي.

ـ أعرف ذلك عمليا ونظريا ، ما هو أنا ابن تلك العقود السوداء .. والتقيت بالكثير من الرفاق كما يحبون أن يسموا أنفسهم.

نهض إدريس ، وأعد القهوة من جديد ، ولما سكبها في الأكواب سمع المهندس يسأله: كيف ستساعدني في لقاء رجل المقهى؟

ـ بالتأكيد سوف أساعدك ، قضيت شهورا لأعرف حكايتك ، وأسمع القصة التي لم تخطر

على البال !

ـ أنت لم تعمل وحدك وبمفردك .

ابتسم وقال معترفا : ساعدني أحدهم ، كنت أنا مكشوفا لك ، ولم أفلح بمعرفة بيتك لأسأل عنك ، فاستعنت بشخص صديق بذلك ونجح .. وهو زميل قديم ، وظلت صداقتنا قائمة بعد تقاعدنا الوظيفي.

ـ هل ستعرفني عليه؟

ـ هو يحب ذلك ، وإذا أحببت أن نشركه معنا في معرفة الحقيقة والمؤامرة فذلك خير .. فالقضية ليست سهلة بعد كل هذه السنوات .. فالبحث عن س أو ص محتاج لجهد وفكر .

ـ الرياضيات سين مجهول ، وصاد مجهول فالبائع مجهول والمصور مجهول

ـ المجاهيل كثيرة في قضيتنا .. فصاحبي هو الذي جمع المعلومات الأولية عنك ، وعرف زواجك من ابنة الوزير ؛ ولكنها عند الزواج لم تكن ابنة وزير بعد ، ولما طلقت كذلك .. لم يكن والدها وزر بعد ، لم نعرف في البداية من الوزير ؟ لأنه لم يطل مقامه في الوزارة قد مات ـ رحمه الله ـ أنا وصاحبي عملنا في وزارة الصحة بعد دراسة الجامعة بكالوريوس صحة عامة وغذاء ـ ثم انتقلنا للعمل في صحة بلدية المدينة كمفتشين صحة ورقابة على المواد الغذائية والمحلات والمطاعم .. وظللنا في تلك الدائرة حتى بلغنا سن التقاعد الوظيفي .

ـ على كل حال إن كنت ترى حاجتنا إليه ، فأشركه في أمرنا .. القصة كلها بين يديك .. ليست بالحكاية السرية التي تتطلب الإخفاء .. والمرأة صاحبة الصورة ماتت ـ رحمها الله ـ وأنا كما قلت لك لم أكن أنظر إلى أهمية معرفة كيف صورت وأين ؟ ما دامت الصورة لها .. وأنا رغبت بتنفيذ رغبتها .. وأنا أسامحها أمامك ؛ ولكني حقيقة تعقدت من النساء بسببها.. فإذا هذه التي وثقت بها وأحببتها من كل قلبي تتعرى لغيري .. فكنت مصدوما غير مصدق للخيانة ..إنها الصورة تقول صدّق يا سيف فصدقت .

أفكار

عند انتصاف الليل غادر سيف الدين منزل صديقه الجديد ؛ وربما الوحيد هذه الأيام ، وكانت المرة الأولى التي يدخل فيها بيت السيد إدريس ، وركب سيارته عائدا لحي بهية حيث يسكن في قصره الذي بناه في منتصف الستينيات .. وبدا أنه ارتاح نفسيا لما أشرك إدريس في قضيته القديمة الجديدة .. وقد يكون كما أخبر أنه منذ ترك العمل في المصنع لم يسهر خارج البيت وهو في البلد أي إذا لم يكن مسافرا ..وكان يهمس لنفسه : هل السيد مراد يعرف أكثر مما قال لي عن تلك الصورة ؟! هل الحل عند مراد كما يقول إدريس ؟ هو الشخص المعروف في القصة أما رجل المقهى س فيبدو أن الوصول إليه من المستحيلات .. هل يتكلم مراد بعد هذا العمر وبعد موت نبيلة ؟ هل أسعى للقاء به ؟ مَن مِن زملاء الكلية كان الأقرب إليه ؟ كان مراد صديق الجميع .. هو كان مقرب لطلاب الحركة الماركسية .. لم يكن مبرزا في الحركة ؛ ولكنه كان يشارك في نشاطاتهم واحتفالاتهم ، وعرف بذلك .. وإن لم يكن رأسا بينهم ؛ لأنه كان مهووسا في مطاردة البنات .. وكما سمعت اتخذ الشيوعية وسيلة للغراميات ، وعدم وخز الضمير في العلاقات الإباحية الكاملة .. لم يكن نشاطه الحركي كبيرا ومؤثرا .. لم يكن يجاهر بأفكار ستالين ولينين وانجلز .. كانت فتاة تجاريه في هذا الموضوع ؛ لكنها لم تكن تحبه ، ولم تكن له الاحترام ..كانت تراه انتهازيا وشهوانيا صياد فتيات .. كانت سوزان ماركسية حتى النخاع كما يقال .. وكانت تحب العلاقات العاطفية ..وأعتقد أنها أقامت معه علاقات خاصة لا أدري ما اسم عائلتها .. حاولوا إقناعي بحركتهم .. ولما رأوا أني ابن أثرياء انصرفوا عني ولا يطيلون الحديث معي .. سأترك مهمة اللقاء بهم لإدريس .. وسيجد طريقة لسبر أغوارهم.

قبل الواحدة ليلا دخل القصر ، وأدخل السيارة موقفها الخاص ، ودخل الفيلا بمفتاحه ، ثم الحمام ، وذهب إلى المطبخ ، وأخرج بعض الفاكهة ، وعندئذ ظهرت الخادمة تعرض خدمتها ، فشكرها وطلب منها إبريق قهوة ، وغادر المطبخ إلى مكتبه وتمدد على أريكة ، وقال : هل

تستحق نبيلة البحث في حقيقة الصورة ؟ إنها صورة دمرت حياتي وحبي .. وهل بعد عقود ثلاثة أستطيع الوصول للخائن ؟ لم لا تكون الصورة حقيقية فعلا كما هو ظاهر لنا ؟ كيف صورت وهي لا تذكر فعل ذلك ؟! لعلها تعرف ، ولم يكن لديها الشجاعة لتقول وتعترف .. هي تريد أن تقول إني مخطئ في تصديق أمر الصورة ، وأنها خائنة لفراش الزوجية .. رجل المقهى لماذا طلبت مني اللقاء به بعد كل هذه الأعوام ؟! كيف يصور الإنسان بدون علمه ؟ هذه صورة فوتوغرافية خاصة ، ليست صورة في شارع أو مكان كعرس أو حفل .. يقول إدريس : لابد أنها تعرضت للتخدير أو التنويم ، ثم صورت كما تفعل إسرائيل في تجنيد العملاء العرب للعمل ضمن شبكات تتجسس على المناضلين العرب .. يستدرجون الهدف إلى مكان خاص ، ويخدر ويصور بأوضاع مزرية مخزية ..ويهدد بها للخضوع لهم .. ويدرك الشخص أنه تعرض للتخدير .. أما نبيلة فإنها لا تعترف بتعرضها للتخدير .. ولماذا صورت لها هذه الصورة ، ولم تظهر إلا بعد زواجنا ؟ هل سلمت نفسها لرجل قبلي وكنت أنا الغطاء لستر ذلك ؟ وتزوجت من غريب قريب والدها ، ولم يهتم بحادث طلاقنا أو أمر الصورة .. وصدقت فعلا وصار والدها المرحوم خالد وزيرا بعد زواجنا بشهور كما أخبرت .. كانت صادقة لم يكن زواجنا دجلا وكذبا .. لا مجال للندم أيها الإنسان .. آه يا نبيلة ! حتى بعد أن مت عدت لتعذبيني .. اضطررت لكتابة قصة زواجنا ليطلع عليها إدريس معترفا بأسرارنا لماذا لم أسع لمعرفة كيف كان التصوير والخداع ؟ كيف احتالوا للنيل منك ؟ أنا أرى أن الصورة صورت قبل زواجنا .. ربما فعلوها لابتزازك والنيل منك .. لقد كانت من فاتنات الكلية ، وإليك الكثير من العيون ترنو وتهفو .. كان عليّ أن أهتم بأمر الصورة أكثر من ردة الفعل والغضب .. لقد كنت أسمع عن خدع توريط البنات وجرهن لحفلات المجون .. ولم أهتم أو أقتنع بما يشاع .. حيرة حيرة .. هل أخذت الصورة رغم أنفها ودون علمها ؟ كيف كيف كان ذلك ؟ الغيرة هي التي دفعتني للفراق وعدم التهاون .. أنا اعتبرت ليلتها الصورة علامة دعارة وإباحية ، كانت تحبني حقيقة ، ورفضت الكل لتصل إليّ .. وكم كانت سعيدة

لما اعترفت لها بالحب ؟ كانت تستمتع برسائل الحب التي أكتبها لها وتحتفظ بها ، وتكثر من قراءتها .. هل ظلمتك يا نبيلة بالطلاق ؟ ولكنها صورتك أنت .. وأنت اعترفت أن الصورة لك لم أحتمل فكرة أنها امرأة وغير عذراء ؛ لأنني اعتقدت ذلك ، وهي أوحت لي بذلك .. ودخولي الشرعي تأخر لليلة الثالثة ، وكانت عذراء بكرا كما يقولون .. لماذا أثّرت بي تلك الصورة القذرة ، وجعلتني أعتقد أنني ضحية خداع ؟ لقد مكر بي مراد بإيهامي أني مخدوع بفتاتي .. كنت أحمق ، وصدقت كل تلك الإيحاءات ؛ لأنها كانت ملاكا عندي .. فصدمت .. ولم أحسن التفكير ؛ وربما مهارتها في العلاقة الجنسية ، وخاصة بعد فشلي لليلتين بالدخول أوهمني أن لها تجربة .. وهي بررت ذلك بأنها قرأت عن ليلة الزفاف ، والحالة النفسية للزوجين تلك الليلة .. لم تهتم بكلام الفتيات والزوجات .. وهل أحد يقرأ عن ليلة الدخلة ؟ أليست الطبيعة البشرية الفطرة البشرية تمكن الإنسان من عمل ذلك ؟ لماذا تريد نبيلة مني العودة للقاء رجل المقهى بعد كل هذه السنين الطوال ؟!هل تركت شيئا آخر عند أبنائها لي ؟ قام عن الأريكة يتمشى في غرفة المكتب المنزلي ، ودخل غرفة المكتبة المنزلية التي ينفذ إليها من مدخل المكتب .. فهما حجرتان جعل إحداهما مكتبة ، والأخرى مكتبا .. تناول البوم صور خاص بأيام الجامعة .. زملاء الكلية والجامعة ، صور داخل الجامعة .. مناسبات .. رحلات طلابية .. مهرجانات جامعية .. حفلات تخرج .. ندوات .. ذكريات كثيرة .. أخذ أول الأمر ينظر صور نبيلة حيث تعرف عليها في مطلع السنة الأولى وكيف فرح بأنها من سكان الحي ؟ ورأى صور بعض الفتيات اللواتي أعجب بهنّ كزملاء ، كالآنسة سوزان .. ثم خفتت الصداقة بسبب تعلقها بالحركة الشيوعية .. ورغم أنه لم يكن متدينا ، ويبتعد عن الزملاء المتدينين ، وينفر منهم ومن مناقشاتهم ، كان غير محب للإلحاد وإنكار الله .. حاول تذكر أسماء الزملاء في الكلية والجامعة عامة .. لم يكن يكتب على ظهر الصور الأسماء والتواريخ كما يفعل البعض .. بعضهم تذكر اسمه وأكثرهم نسيه .. وبعض الصور يتذكر مواقف معينه بينه وبينهم .. هو لم يكن من عشاق التصوير ؛ ولكنه كان يحرص على امتلاك الصور بشرائها ممن

صورها أو طلب طباعتها من الهواة .

قال وهو يجلس على أريكة المكتب : عليّ الاتصال ببعض الأسماء ، سأجد عناوينهم أو أرقام هواتفهم لدى النقابة .. بيت كل المهندسين حسب الأنظمة .. فكل مهندس عليه أن يحصل على موافقة النقابة قبل مزاولة عمله .. وكل من يسدد اشتراكه يحق له التصويت في انتخابات النقابة والمنافسة .. وأعتقد لو دفعت لإدريس بعض الأسماء سيستطيع الحصول منهم على معلومات تفيد في معرفة تفاصيل المؤامرة .. فالرجل يكتب للمجلات والجرائد ، وله وسائل في التحري والاستقصاء ، لقد استطاع التحري عني ، ومعرفة نصف حياتي .. والرجل مجتهد كما ظهر لحتى الآن ، وهو صديق آخر العمر .. رجل فاضل ، وله ظروف كظروفي .. لم يتزوج بعد ترمله ، ولم يقدر له الإنجاب ، ويعيش وحده كما أعيش أنا .. وسأتعود عليه ، فهو رجل مثقف واجتماعي .. سأتخذه صديقا ، وقد قبل مساعدتي في الوصول لرجل المقهى .. وهل الشيطان مراد ما زال على قيد الحياة ؟ وهل سيعترف بدوره السيء في تدمير حياتي وحياة نبيلة بعد هذا السن ، وبعد موت نبيلة ؟.. أكيد علم بموتها إن لم يكن من زملائنا زملاء تلك الفترة فمن النقابة .. أيعقل أن يصل به الحقد علينا لتدمير زواجنا الصالح ؟ آه الحقد عدو مرعب ! أليس إبليس يدمر الناس منذ بدء الخليقة منذ تم طرده من الرحمة الإلهية ؟ الحقد مرض أسود كان اللعين يشتهيها ، ويمني النفس من النيل منها ألم يتفوه بذلك دون حياء وأي احترام لي ؟ أهؤلاء كانوا يحلمون بحكم العالم والعالم العربي ؟ الحمد لله أن الشيوعية ماتت في بلادها قبل سنوات .. انهارت كلعبة (ليكو) مات الاتحاد السوفيتي الذي أكثر فتكا وخبثا في العالم ، ولقد لعب دورا كبيرا في نشر الفساد والدمار والإلحاد العالمي .. ماذا ستفعل ولو أضفت شيئا جديدا لحياتك ؟ لماذا أردت فتح صفحات الماضي ؟ ماذا سأجني ؟ المسامحة سامحتك يا نبيلة .. سمعت إدريس يقول : إن الرسالة فيها رسالة غامضة وشيئا غير مقابلة رجل المقهى .. ماذا فيها أيها الناس ؟ إنها تقول إنها ليست سبب تحريم الزواج على نفسي ، وترك التفكير بالذرية.. أنا يا نبيلة قمت بمساحتك .. ويومذاك شككت بسوء سيرتك بمجرد رؤية تلك الصورة

القذرة ، ولم يشفع لك حبنا الكبير .. نعم ، كنت مصدومة مثلي .. كنت تغادرين البيت وأنت تأملين أن أنادي عليك في اللحظة الأخيرة كما يحدث في القصص والأفلام .. لكني قد اتخذت القرار وأنا عائد من المقهى ..كنت تتجرعين السم وأنا مثلك .. عروس تطلق في شهر العسل شهر الحياة الجميل .. شهر الأحلام .. كم أنا قاس ؟.. لماذا لم أصبر حتى أتيقن من الفساد ؟!

لما اتصل إدريس بمقر نقابة المهندسين استطاع أخذ عنوان المهندس مراد جميل بيسر وسهولة فعنوانه لم يكن سرا يجب إخفاءه .. وكان قبل ذلك قد راجع دليل الهاتف العام .. وحدد بعض الأرقام التي تحمل اسم مراد جميل ؛ لأن المهندس سيف لا يعرف الاسم الكامل لمراد ؛ فكان لابد من الاستعانة باستعلامات النقابة العامة للمهندسين في المدينة ، ووجد أن حضرة المهندس من الأشخاص المعروفين بالنقابة ، ومثل مجلس النقابة في القوائم اليسارية ، ومثله المهندسة سوزان خرزة.

تحدث متصلا ببيت المهندس مراد ، وردت عليه امرأة أخبرته أنه خارج البيت ، فوعدها بالحديث معه مرة أخرى .

كان الأمر سهلا وميسرا في الوصول للسيد مراد جميل ، وذلك أدهش سيف وقال: عجيب .. الحقيقة أنني لا أشارك في أي نشاط نقابي يا إدريس ! كنت في البداية أسدد اشتراكي الشهري بنفسي ؛ ثم بزملاء المصنع نيابة عني .. ومرات عن طريق حسابهم في البنك .. فالقانون كما تعلم يا صديقي يلزم المهندس الانتماء للنقابة لمزاولة المهنة داخل البلد ، ولا يلزمه الانتخاب والتصويت .. هذا أمر تطوعي .. وأما جمعيات المهندسين المختلفة فيكون الاشتراك فيها اختياريا غير إلزامي ..كل نوع من فروع الهندسة له جمعية خاصة .. ولها فروع شائعة في المدن الكبيرة .. فلا اهتمام لديّ بنشاطات النقابة ، ولا الجمعيات ..كل خريج عليه الحصول على بطاقة نقابية وإلا لا يعتبر مهندسا رسميا .. كما هناك مجلس طبي ونقابة تصرح لهم بالعمل داخل البلد .. أمور تنظيمية .

قال إدريس : هناك نقابات مهنية الاشتراك فيها اختياريا ، ليس إجباريا .. والسيد مراد له

نشاط نقابي وسياسي كما فهمت من ذلك الموظف .. ومثله زميلتك سوزان .

ـ نعم ، هما كانا ضمن الحركة الشيوعية النشطة في تلك الفترة من التاريخ .. وسوزان كانت أنشط منه في تنظيم الندوات والاحتجاجات وإبداء الرأي والنقد .. وبعد التخرج لم أعد أراه وعلمت أنه رحل بكفره للعمل في دول الخليج في شركات النفط .. أنا لم يكن لي أيام الجامعة أي نشاط سياسي أو اجتماعي ، كنت أميل للثقافة والفن أكثر .

ـ سمعتك تقول "عمل في الخليج" ربما كان هذا في زمن معين .

ـ صحيح ، فنحن لنا ثلاثون عاما متخرجون .. هل ستسعى لمقابلته؟

ـ لابد من مقابلته ؛ إنما المهم كيفية جعله يتحدث عن دوره في مقابلة ذلك الرجل .. فهو لن يعترف بسهولة عن أي شيء إذا كان له دور إجرامي في تصوير تلك الصورة .

قال سيف : نعم ، نعم، السيد مراد ماكر ، ومن أخبث الناس .. أنا لولا اهتمامه المبكر بنبيلة لم أهتم به هو مجرد اسم ورفيق جامعة ؛ لكن شغفه بها ، وشغفي بها جعلنا نهتم بأخبار بعض .. وفزت بها برضاها ورغبتها ، ولم أكن أهتم بنشاطه السياسي إلا بشكل عارض .. ولما حصل الطلاق لقيني وتظاهر أنه حزين لأجلي ؛ وزعم أنني تسرعت في الطلاق .. ولم أعر حزنه وشفقته اهتماما والحلول الأخرى ؛ بل لعلمي بهواه ناحيتها قلت مباركة عليك .

فرد بكل شهوانية ووقاحة : ليتها تقبل ، هي الوحيدة التي أعجبت بها ، ولم أظفر منها ولو بقبلة واحدة .. بعدها قلّ الحوار بيننا .. مجرد تحية باليد ، وتخرجنا ، ولم أفكر يوما أن أتصل به أو أهتم بسماع أخباره أو زيارته .. هو مجرد زميل كلية كالكثير غيره .. لم أكن منافسا له على قلب نبيلة .. أنا ملت إليها كما أخبرتك كما فعل هو أو غيرنا ؛ لأن الفتاة كانت ذات جمال أخاذ وفتنة للناظرين .. وهي جاءت للجامعة من بيئة منفتحة على الآخر .. فجلوسها معنا ومع الشباب أمر طبيعي بالنسبة لها .. وليس كل من تعرفت أصبح فارس الأحلام ، وظل الصمت والنظرات بيننا حتى استطعت أن أصارحها بغرامي لها .. فوجدت أن لديها من الهوى مثل ما لديّ .. وكانت تنتظر هذه اللحظة الخطيرة من حياتنا .

ـ أفهم عليك ؛ وربما هو لم يحتك بك إلا بسبب غرامه بالبنت ، وظن أن بينكم أمر ؛ لترفض صداقته ومعاكسته .. هل حدثك عن الشيوعية ؟

ـ أول عهدي بالجامعة كان لي صداقة مع شاب اسمه أحمد ؛ ولكن صداقتنا توقفت بعد حين .. ربما من جانبي ، كان صديقا من نفس الشعبة .. كنا أصدقاء .. وكانت تجري بينه وبين مراد والشيوعيين والملحدين مناقشات حول الفكر الماركسي وانتصار الشيوعية في الحرب الثانية على النازية .. وهم يتناسون أن الرأسمالية شاركت في الحرب الثانية .. واكتسحت فرنسا وأفريقيا واليابان .. تعلم أنه كان هناك تضخيم للدور الروسي في القضاء على هتلر ، وتقسيم ألمانيا وأوروبا .. وكانت سوزان وغيرهم يدخلون في المناقشات ؛ ولكننا لم نقتنع بأفكارهم وأحلامهم سواء مراد أم سوزان أو حتى فواز شاب أكبر منا .. وكان رأس في الحركة اليسارية ويعدونه أحد الرموز في الإلحاد .. وبعد تخرجه اختفى من الجامعة خاصة في السنوات الأخيرة .. ولم أعد أسمع عنه كما كان أيام الجامعة في السنة الأولى والثانية .. آخر ما سمعت أنه غادر للاتحاد السوفيتي .. كان يشارك في تجنيدنا .. كان الشيوعيون في مطلع الخمسينيات والستينيات ذوي همة ونشاط في ساحات الجامعات والبلاد .. وغرر بكثير من الشباب للانضمام للحركة الشيوعية والأحزاب الشيوعية .

قال إدريس : سأسعى لزيارة لحي المهندس مراد ؛ ربما استطعت من جمع معلومات عنه .. وأنا أعرف عددا من الشيوعيين القدامى .. فعليّ أن أسمع أقوالهم في مراد جميل .. يظهر لي أن الرجل لم يكن مشهورا مبرزا خارج الجامعة وحتى داخل الحزب الشيوعي ، رغم نجاحه في بعض دورات النقابة كعضو كما فهمت من موظف النقابة .

ـ أنا أول مرة أسمع عن عضويته في المجلس النقابي ، وإذا حصل سيكون ذلك باسم الكتلة اليسارية .. والحزب الشيوعي أفشل حزب .. واليوم في التسعينيات ظهروا بكل وضوح أنهم أحزاب كرتونية صناعة روسية ، كانوا أدوات للمعسكر الشرقي.

ـ جمعتهم الشهوة للسلطة والشهوات للانحلال.. اليوم نحكم عليهم بدون تردد .. فقد

كانوا سببا في تدمير الأمة .. كانوا دمارا كما رأينا في اليمن العربي حتى الاشتراكية التي زعموا أنها ستحقق العدالة الاجتماعية والرفاهية للشعب العربي فشلت في تحقيق أحلام الفقراء حتى أوروبا كما وضح لنا لم تكن في سعادة ورفاهية وتقدم .. وجدت دول نامية مثلنا .. اعلم يا سيف ما أحببت الشيوعية يوما .. لست متعصبا للدين .. لا ، لا، لم استطع هضمها والتصديق بأحلامها وجنتها الأرضية .. كنت أستغرب من اعتناق بعض الشباب المثقف لأفكارهم وجنونهم .

وقال سيف : وأنا مثلك لم تستهويني فكرة الأحزاب والصراع الطبقي ، وكان يعتبرني البعض أرستقراطيا ابن أثرياء ابن الطبقة الرأسمالية ناهبة أموال الفقراء والعمال .. ثم حدث تعلقي بنبيلة فازددت ابتعادا عن مهاترات السياسة وشهوة الحكم .. وغالب الناس مثلي .

ـ هذا صحيح ، إن الفقراء ماذا سيجنون من الأحزاب ؟ وهمهم تأمين عيش العيال.. والأغنياء معهم المال .. فالاهتمام بالسياسة هو لتحقيق شهوة الوصول لكراسي الحكم والوزارات والجاه عامة .

ـ نعم ، فالغني يرفض الشيوعية ؛ لأنها ستأخذ ثروته وماله وممتلكاته باسم المساواة .. وكان سقوط الشيوعية في أوروبا مدويا .. وظهر أن عمليات الترميم والإصلاح عمليات واهية .. وكانت كثيرة وخفية ، ولم تصمد أمام تقدم التكنولوجيا .. ولم تقدم الشيوعية للعالم إلا القتل والفتك والظلم .. والتقدم لا يحتاج لأحزاب شيوعية سوفيتية ولا صينية .. الصين دولة كبرى يحكمها حزب شيوعي وصولي واقتصادها رأسمالي .. الأحزاب خلقت للحكم والإدارة .

قال إدريس : أنا كتبت عدة مقالات في جريدتنا الأسبوعية الشرق المضيء عن انهيار الشيوعية والسقوط الاشتراكي العالمي ، وزوال جدار برلين ، واختفاء الاتحاد السوفيتي ، وظهور الاتحاد الروسي .. النظام الرأسمالي نظام مرن ومتلون يستطيع أن يتمدد كالمطاط .. يعود للتاريخ والمرحلة الصناعية والشركات الكبرى والمناجم .. وهو غير مرتبط بعقيدة دينية .. والنظام الشيوعي الصارم جرب وفشل .. وهو فاشل من بدايته ؛ ولكن انتصاره على المعسكر

النازي والفاشي رفعا من أسهمه أمام العالم وشعوبه .. ثم انهار كليا، لم يعد يجدي الترقيع .. والصين بلد زراعي في الأصل لم يكن بلد عمال ومصانع ، واستطاع المزواجة بين الزراعة والصناعة ، وترك ماركس ولينين .

ـ الإسلاميون يدندنون حول نظام اقتصادي خاص بهم .

ـ الإسلام لا يمكن أن يكون بديلا عن الرأسمالية في الوقت الحاضر بسبب الضعف العسكري والتشتت .. ويعتمد على مقياس الحلال والحرام في المعاملات التجارية والصناعية .. فالنظام الرأسمالي محمي بنظام عسكري قوي .. والنظام الإسلامي مرن يتأقلم مع أي نظام .. لقد استطاع النظام المالي الإسلامي أن يجد له مقعدا دون الاحتياج للربا ، كما نرى في البنوك الإسلامية ، وتقبلت الشعوب الإسلامية ذلك .. الإسلام يراعي حقوق الفرد ، وحقوق الجماعة والمجتمع .. والتصنيع الإسلامي في بداية الدرب ، وصناعة النفط كبيرة وهامة في بلدان العالم الإسلامي .. وهو معدن مهم لكل الشعوب .. وهذا لا يحتاج لشيوعية ولا رأسمالية .

ـ اليوم يا صديقي النفط عصب الحياة والاقتصاد العالمي.



المقابلة

استطاع إدريس من دفاتره القديمة - دفاتر حفظ أرقام الهواتف - استخراج أرقام بعض الرجال ، وكتب أربعة أسماء ، وأرقامهم الهاتفية .. فهؤلاء الأربعة كانوا في الحركة الشيوعية العربية ، ومنهم اثنان كانوا يعملون ضمن كادر البلدية للمدينة ، وظلت علاقته بهم حتى بعد تقاعده ، ويصدفهم في شوارع المدينة وأحيائها.

اتصل بالسيد صبحي أحدهم ، فرحب وأبدى ترحابه باللقاء الخاص ، وحدد له صبحي المقهى المناسب ، واليوم المناسب ، ثم اتخذ موعدا مع الزميل الثاني ، ورحب الآخر باستقباله في بيته .. والرجلان الآخران لم يتيسر ردهما ، الأول منهما لم يرد هاتفه ، والثاني وجد فيه أسرة أخرى ؛ كأنه تنازل عن الرقم للساكنين الجدد ، وانتقل لحي آخر .

في البلاد عادة تسمى عادة السؤال عن أهل العريس والعروس ، وقد أشرت إليها سابقا ، وهي عندما يتقدم شاب لطلب يد فتاة مجهول من أهلها ، يأخذون عنوان سكنه أو مكان عمله ليسألوا عنه عن أخلاقه خدمة للفتاة ، وإبراء للذمة ، وأنهم فعلوا ما عليهم من واجب .. فيذهب والد الفتاة أو شقيقها أو قريبها للقيام بهذه المهمة الحساسة ، فيقابل بعض الجيران لبيت الطالب والخاطب ؛ لذلك عندما يسأل شخص عن شخص يقع في قلبه للوهلة الأولى أن الموضوع موضوع زواج .. وقد يكون السؤال أيضا عن أهل وعائلة الخطيبة ؛ لذلك لما جلس إدريس مع صبحي ، وانتهى العناق والترحيب والعتاب .. فهم لم يلتقوا من زمن .. ظن الرجل أن أحد أقارب مراد جميل أو أبنائه يريد خطبة فتاة قريبة لإدريس .. فهو يعلم أن إدريس بدون زوجة أرمل ، وبدون ذرية منذ عقود .. وإدريس يستعمل هذا الأسلوب الإيحائي للحصول على معلومات شخصية .. فبعد أن قدم للموضوع قال : أنا أحب أن أسالك عن المهندس مراد وذريته ؛ لأني علمت أنه من رجال الحركة الشيوعية في الستينيات ، وهو من جيلي كما تعلم ؛ ولكني لم أصطدم به رغم اهتمامي بالحركات السياسية العربية .. قلت لابد أن أجد لدى حضرتك بعض المعرفة عنه .. فأنت الخبير باليساريين صغارهم

وكبارهم .

قال صبحي : شكرا ! وكيف لا أعرفه يا رجل! أنت تهينني .. أنا أعرف كل شيوعي في المدينة وربما في المدن الأخرى حق المعرفة .. وأعرف مع أي جناح هو محسوب .. فالشيوعية أجنحة كما تعلم حسب مصدر الدعم والإمداد .. أنا في الحركة الشيوعية من أيام زمان ؛ لكن معرفتي بالزميل شخصيا محدودة .. هو مهندس كما قلت ، كانت بدايته في الستينيات فعلا ؛ وربما تعرف على الشيوعيين في الثانوية العامة .. كان طلاب أيام زمان يتحمسون للعمل الحزبي والحركي .. واشتد عوده أثناء الجامعة حيث كانت الحركات اليسارية واليمينية ذات قوة وحماس وصراع حاد .. وعرفته في اجتماعات الحزب الشيوعي ، لم يكن بالمميز ، كان يعمل ويوزع البيانات والنشرات من أيام الثانوية ؛ لكنه لم يكن ينافس على الصفوف الأولى .. كان مهتما بالنساء أكثر من الفكر والثورة الأممية العالمية .. ثم سافر في السبعينيات إلى الخليج العربي للعمل في قطاع النفط .. وهناك المال والرأسمالية ، وتخيل انتقال شاب من بيئة شيوعية إلى أكثر البيئات العربية محافظة تلك الزمان .. رحل من بيئة الكفر كما يقول عنا المشايخ الجهال إلى أرض الإيمان والثروات .. ولكنها لا تخلو من العلمانيين والشيوعيين .

ـ آ .. أعرف .. أهو ما زال في الحزب الشيوعي ؟

تريث لحظات وقال : بعدما عاد بعد عشرين سنة أصبح مجرد اسم .. وربما أصبح برجوازيا رأسماليا يا إدريس .

ـ هو ما زال يناضل عن الشيوعية .

ـ لم يعد يناضل ؛ إنما يتفاخر بذلك ؛ لأنه ترعرع ونفش على يد الأفكار الشيوعية ، وتلك المبادئ .. كيف سيدافع عن حق الفقراء والعمال وهو يعيش في الفلل والقصور والسيارات ؟! ما العلاقة بينكم ؟!

كان إدريس يتوقع مثل هذا السؤال في أي لحظة ، فرد دون تردد : ليست بيننا علاقة ؛ لكن أحد الأصدقاء لي سيكون بينهم شيء فأحب أن يتعرف عليه أكثر على أسرته .

ـ آ .. فهمت ؛ ربما تحدث مصاهرة .

ـ تقريبا .. فكلفني بمهمة التعرف عليه من قرب فلجأت إليك لمعرفة المزيد من المعلومات .

قال صبحي : قلت لك في أول الشباب حيث كان طالبا في الجامعة كان نشيطا إلى حد ما ، ثم في النقابة التي تجمع مهندسين البلاد .. وفي منتصف السبعينات سافر للخليج فقل نشاطه الحركي .. ومع موت الشيوعية في أوروبا الشرقية وروسيا ضعفت علاقته بها .. أصبحت مجرد ذكريات .. وقلّ حماسنا جميعا .. نعيش على ذلك التاريخ ؛ بل أخذ البعض يصلي مع حمله تلك الأفكار .. وإذا تحب شيئا خاصا فأنا مستعد للمعاونة .

ـ هل قابلته من زمن حديث ؟

ـ لا ؛ ربما لي عشر سنوات لم أره .. إنما نسمع أخبار بعض عبر لقاءات عابرة ومناسبات اجتماعية أو شيوع خبر مثير أو لقاء في جنازة .. هو ترمل مثلك ، ثم تزوج ثانية .. وسمعت أنها كانت شيوعية مثله ، ولم تتزوج من قبل .. وهو اليوم يسكن في الحي البني.

ـ أنا معي هاتف منزله ، واتصلت بالبيت قبل أن أفطن لك ولم يكن موجودا .. فأنا كما تعلم أخاف من الأحزاب سواء كانت يمينية أم يسارية ، وجع راس واجتماعات وندوات وحلقات العب وحدك تيجي راضي .

قهقهة صبحي وقال : أنا أعرف شعاراتك الجبانة ..وأنا مستعد يا عم إدريس لترتيب لقاء لك معه .. أنا حقا مستعد لذلك .

ـ إذا احتجت لذلك سأسعد برفقتك .. أفهم أنك لا تعلم شيئا مهما في حياة الرجل إلا أنه كان مفتونا بالنساء أكثر من الحزب والأفكار .

ـ نحن مع الوقت نستطيع فهم نفسية الشخص .. هل هو مقتنع بالأفكار أم مجرد ببغاء وله مأرب أخرى ؟ الأيام تكشف المستور .. فكثير ليست لديهم همة للعمل الحزبي .. إنما مجرد عضو وخامل أو لغايات خاصة كالتحرر من قيود العبادة والصوم والمساجد والتقاليد الدينية المعقدة .. وممارسة الزنا دون حرج وضغط ديني وضمير .. قل تمرد على الدين ، وذلك تلك

الأيام العصيبة في تاريخ الأمة أو ردة فعل لسقوط فلسطين والإفلاس العربي .. انتشر زعم أن الدين سبب الهزائم والانتكاسات والنكبات .. وكذلك انتشار الإلحاد في العالم .. حلال حرام غض البصر زنا شذوذ لواط اختلاط كلمات كثيرة يتخلص منها الشيوعي .

ـ أنتم دعاة للإباحية .

ـ الحرية الكاملة للنساء ليست دعوة للإباحية .. لماذا يرتبط الشخص بواحد إلى الأبد التغيير مطلوب ؟

ـ أنت بعدك شيوعي ؟

ـ وسأموت على ذلك .

ـ الاتحاد السوفيتي مات

ـ سوف ينهض من جديد .. وبقوة أكثر من الأول .

ـ لا أعتقد ذلك يا صبحي .. نحن تعلمنا أن من يموت لا يرجع ولو كان حضارة !



بعد جولة للسيد إدريس على بعض عناصر شيوعية عرفها أثناء حياته ، رتب أحدهم لقاء خاصا للسيد إدريس مع المهندس مراد جميل ، ووجد أن الرجل يعمل شريكا في شركة تجارية كبرى ، وكان اللقاء في منزل المهندس مراد ، واستقبله على أنه صحفي في جريدة أسبوعية ، وقدم له بطاقة عمله في تلك الصحيفة ، وتبين لإدريس أن الرجل قد اطلع على بعضها أعدادها في غابر الأيام ، وزاد إدريس فقال: أنا صحفي حر .. أكتب لعدد من الصحف .. أكتب مقالات .. أقرأ كتبا وأعلق عليها .. أريد أن أكتب عن الماركسية في الستينيات .. عهد ازدهارها في العالم العربي .. وعن سبب سقوطها في أقل من مائة عام .. والناس كانت تنتظر وصولها للمرحلة الأخيرة من المراحل الشيوعية .. قدمت روسيا الشيوعية أعمالا كبيرة القنبلة الذرية بعد سنوات قليلة من قنبلة أمريكا .. الصواريخ البالستية العابرة للقارات .. الهبوط على القمر وغزو الفضاء .. كانت منافسة قوية للغرب وأمريكا بالذات .. وفجأة سقط جدار

برلين ، وانهارت روسيا نفسها .. وقد علمت أنك رجل مثقف ، وإن لم تتبوأ مركزا كبيرا مميزا في الحزب الشيوعي العربي .. وفي فترة الستينات تبوأت مقعدا في نقابة المهندسين على قائمة اليساريين .. وأنا مهتم بشيوعية تلك الحقبة من الزمن .. عصر الستينيات ؛ لأنها كانت قوية بقوة الاتحاد السوفيتي .. فكانت قوية في العالم العربي والإفريقي والأمريكي الجنوبي والآسيوي .

انتقل الكلام لمراد فقال : هذه الفترة كان المد الشيوعي على وشك اكتساح العالم ، وكانت الأفكار اليسارية لها صدى في جميع بقاع الأرض .. حركات ثورية منتشرة في أمريكا اللاتينية ، عدا عن انتصار الثورة الكوبية كاسترو جيفارا الثائر الأرجنتيني العالمي .. ماو في الصين خروتشوف في روسيا .. ونحن شبان صغار كنا مبهورين بتلك الأسماء والثورات العالمية .. والأمة العربية تعيش في تخلف ورجعية وانقلابات غامضة حتى وقع في نفوسنا أن الدول كلها على وشك أن تتحول إلى اشتراكية وشيوعية .. فكنت ترى بعض أو الكثير من الأحزاب القومية تضيف كلمة اشتراكية لاسم الحزب مغازلة للاتحاد السوفيتي .. كانت الحرب الباردة على أشدها .. والصراع محتدم في الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا الجنوبية

ـ نعم ، يا سيدي أنا أحب أن نتحدث عن تلك الفترة في بلادنا عن ذكرياتك تلك الأزمان .

ـ هل لديك أسئلة معينة أم أتكلم عن الشيوعية بشكل عام ؟

ـ تكلم عن نفسك ، كيف تأثرت بالفكر الشيوعي ؟ كيف كانت البدايات الأولى ؟ وأنا أسمع وأختزل ، ولما أعد المقال للنشر سأعرضه عليك لتعديل لتصحيح .. ولنرغب القارئ بالقراءة .. عليك أن تذكر قصصا وحكايات شخصية ، وأشياء خاصة ليجد القارئ بها شيئا جديدا ومثيرا .. على أن لا يكون عليك ضرر منها لشخصك وغيرك .. وقد علمنا مما سألناهم عن شخصك الكريم ورشحوك للحديث عن فترة الستينات ذكروا أنك صاحب مغامرات نسائية خاصة أيام الدراسة في الجامعة .. فكيف ترى بنات اليوم مثلا مع بنات ذلك العهد ؟ هذه ثلاثون سنة .. هل نجحت الحركات النسائية في تحرير امرأة من تقاليد المجتمعات العربية

أم أخفقت أم بقيت على ما هي عليه من عدة عهود ؟ وبعضهم يقول إنهن عدن للوراء .. كان لابد من جمع بعض المعلومات عن شخصكم الكريم ؛ ليكون البحث والمقال مقبولا لدى قراء جريدتنا الأسبوعية .. كيف كانت الشيوعية في الوسط الجامعي كلية الهندسة حيث درست ؟ من كان يتقبل الفكر الإلحادي أكثر الشباب الشابات حتى أن بعضهم ذكر أنك تعرفت على ابنة وزير وابنة ضابط كبير ؟

تطلع مراد في عيني إدريس لثوانٍ وهتف : ما مصدر معلوماتك يا كابتن ؟

ـ زملاء لك في الحزب والجامعة .. وذكر اسم صبحي زميله في البلدية

ـ آ ! أعرف هذا الشاب ؛ لكنه لئيم ، وهو لم يدرس معي .

ـ هو سمع من رفاق لك ، واستمعت من غيره حتى أن أحدهم ذكر فشلك من تكوين صداقة عاطفية مع ابنة الوزير السيدة نبيلة خالد ، كان والدها مدير المستشفى التعليمي .. يبدو أنها قصة كبيرة من الجميل التحدث عنها للقارئ .

ـ تلك الأيام لم تكن ابنة وزير .. هذه المرأة لا يمكن نسيانها .. ولقد علمت أنها ماتت من زمن قريب من شهور أو سنة .

ـ ماتت !!

ـ نعم ، ماتت ابنة الوزير .. أما ابنة الضابط فكانت معنا في الكلية وهي فتاة ساقطة

ـ ساقطة يعني فاسدة .

ـ نعم ، صاحبتها فترة ، ولا تنسى أنني كنت في أول الشاب ، وفي أول عهد الاختلاط ، ثم وجدتها تصاحب خمسة غيري فتركتها لهم .. أما المهندسة نبيلة خالد فرفضتني كحبيب وإن كنا زملاء كلية واحدة .. ووالدها كان وزيرا حقا ؛ لكن كنا في آخر سنة للدراسة والفصل الأخير

ـ نعم ، اختارت السيد سيف وردة زميلكم .

قال بامتعاض ؛ كأنه يعيش تلك اللحظات : نعم ، سيف ابن التاجر بياع السكر كنا نطلق

عليه ذلك فاز علينا .. لقد أعدتني لتلك الأيام الجميلة .. كان والد هذا المهندس من كبار تجار البلد والمدينة .. وقد تزوجا أثناء الدراسة .. ولم يدم زواجهم ولم يعمر .. وحاولت التودد إليها من جديد ؛ لكنها أسأت إليّ ، واتهمتني بإفساد زواجها .. عجيب أمر الناس كيف يعرفون هذه الأمور؟!

ـ الأخبار تمشي ، وبعضها ينتقل من جيل لآخر .

ـ ليس لديّ مجال للمقارنة أنتم الصحفيون أقدر على حل ذلك ؛ لأنكم تلتقون بالأجيال القديمة مثلنا والأجيال الحديثة .. الشيوعية في فترة الستينيات كانت مهوى الشباب .. الشيوعية كانت حلم بسبب الدعاية الخلابة .. أنا عرفت الشيوعية في المدرسة الثانوية كنشاط كان خال لي شيوعيا .. كان يعطيني بيانات ونشرات مطبوعة لدسها للطلاب سرا ، ثم ضمني لخلية .. وأصبحت عضوا مهما فيها ، ثم التحقت بالجامعة ، وسريعا اتصلت بخلايا الطلاب الشيوعيين سواء في الكلية أو على مستوى الجامعة كلها ، ثم على عناصر داخل المدينة ..كان الأمن السري يتابع نشاطنا .. أحيانا يضيق علينا ، وأحيانا أخرى ؛ كأنه لا يرانا .. لم نكن نشكل خطرا تلك الفترة على النظام السياسي بعد .

وتحدث عن حياته في الحزب الشيوعي والعمل النقابي بعد إنها الدراسة ، ثم عاد للحديث عن علاقاته النسائية بذكاء من إدريس ، ثم ساقه من جديد للحديث عن علاقته بالمهندسة نبيلة وهل سعى لتجنيدها للحزب أم قصة غرام فقط ؟ ولماذا رفضته بعد طلاقها ؟ فذكر أنها فتاة متحررة ؛ ولكنها كغيرها من أبناء الأرستقراطيين تكره الشيوعية ، وتراها عدوا للأغنياء .. وهي كانت من سكان أهم أحياء تلك الطبقة في ذلك الزمن .. كانت غارقة في حب الأدب والروايات الرومانسية والغرامية .. ووقعت في غرام زميل مثلها من تلك الطبقة من شعبة غير شعبتنا الهندسية.

ـ ولكنه تزوجها في النهاية ، وطلقها قبل نهاية شهر العسل كما علمت من المهندسة سوزان حتى أنها ذكرت أن لك علاقة بطلاقها .. والقصة كما فهمت ظاهرة في الجامعة وبين الطلبة .

ـ أعرف تلك القصة ، فعلا تزوجت زميلنا سيفا كما تحدثنا ، ولم يكن لي يد في طلاقها ..كانت بعض الفتيات تكثر من عمل صداقات مع الشباب أكثر من بنات جنسها .. والزواج قليل بين الطلبة في تلك الحقبة من الزمن .. لأننا نكون في سن متقاربة .. وكانت فتيات تعمل صداقات مع بعض الشباب ، وتحدث قضايا أخلاقية مثل بنت الضابط التي حدثتك عنها .. كانت نبيلة لها صداقات كثيرة مع الجنسين .. لكن لم يسجل عليها علاقة خاصة أو تورط في قضية أخلاقية .. واختارت سيفا كفارس أحلام ثم تفاجأنا بالخطبة والزواج ؛ لكنها كانت لعوبا ، وكان سيف متقوقعا على نفسه ؛ لعله عرف شيئا بعد الزواج ، فاضطر للانفصال .. وقد سمع مني بعض هذا الكلام ..لابد أنه وجد شيئا كبيرا ؛ ليطلق .. هو لم يفصح عن السبب ، وهي كذلك .. كانت النهاية مدهشة ومحيرة لجميع المعارف .. قد يكون عرف بعض عشاقها .. كانت فاتنة ، وتلبس ملابس مثيرة وعطور ثمينة.

ـ عشاق في شهر العسل !

ـ ممكن يا إدريس ! أنت تعرف جو الجامعات .. فهو جو الشهوات مع العلم .. وتأثر البنات بشعارات الحرية للمرأة والتجربة ، ورمي الأخلاق وراء الظهر .

ـ أنا درست تلك الفترة مثلكم .. التبرج موجود ؛ لكن كنت أرى الزي أكثر حشمة من اليوم.

ـ أكيد أكيد اليوم زادت الناس وزادت الأزياء .. والفاجرة لا يهمها الوقت .. نحن عجبنا لزواجهم .. وعجبنا لطلاقهم .. وهي اليوم في دار البعث كما يقول المشايخ .. نحن الشيوعيون كما تعلم لا نؤمن بالبعث ، والحياة بعد الموت .. هذا في الماضي .. اليوم بعد موت الشيوعية أخذنا نفكر بما يقوله هؤلاء الشيوخ .

قضى إدريس أكثر من ساعتين مع المهندس مراد بحديث عن الشيوعية وحياته في الحركة الشيوعية ، وأحيانا عن زملاء الجامعة ، ولما وصل البيت وجد المهندس سيف في انتظاره فمشيا لأحد مطاعم حي الشاعر، وتناولا العشاء ، وعادوا لمنزل سيف ، واشتغل إدريس بالصلاة ، واشتغل سيف بمشاهدة مكتبة إدريس المتواضعة .

ولما انتهى من صلاة العشاء صنع القهوة ، ووضع الفاكهة ، وقدم له ما كتبه عن اللقاء، فلما تصفحه قال : لم أفهم شيئا من هذه الورقة .. إنها عن الشيوعية!

ـ هذا هو غطاء الجلسة .. اعترف بمحاولة إقامة علاقة مع نبيلة وابنة ضابط ، ويصف نبيلة بصفات سيئة .. ولم يتكلم عن سبب الطلاق بينكم أي قصة الصورة ولا بكلمة .. إنما أنها خانت زوجها ..كيف دون تفصيل؟ لم يتوسع في الحديث عن غرامياته .. ولم يعترف بمحاولة الزواج منها بعد الطلاق .. وكان يتوسع بالحديث عن نشاطه الشيوعي .. فاضطر للصمت .. ذكرت اسمك أكثر من مرة ؛ ليتحدث عنك ، فلا يتوسع .. جعلت مصدريّ معلوماتي عنه من صبحي والسيدة سوزان التي لم أرها بعد .. ولما أكتب المقال المعد للنشر سأعرضه عليه .. فأنا أكتب عن الشيوعية في تلك الحقبة ، وليس عن زواج سيف ونبيلة .

ـ أفهم رأيك ووجهة نظرك ..وهذا جيد !

كان إدريس يحدث صاحبه إيادا عن تطورات القضية ، والسعي للوصول إلى مصور الصورة السيئة أو لمن صورت ؟ .. وكيف احتالوا على تصويرها لابتزازها بها ؟

فقال إياد : إذن تعرفت على السيد مراد العاشق المطارد لها لآخر يوم في الجامعة .

ـ اضطررت أن أفتعل تحقيقا عن شيوعية الستينيات لعلي أصل للحقيقة والطريقة إلى تلك الصورة .. قابلت عددا من عناصر تلك الحركة ، وخلطت معلوماتهم مع معلومات سيف وقابلته .. هو يحب الحديث عن الماضي كغيره من الناس ؛ ولكنه كان حذرا من الدخول في تفاصيل علاقته مع بنات ذلك الوقت بسبب إنهن إما أمهات وزوجات أو ميتات ، لذلك لم يتطرق نهائيا لتلك الصورة التي دمرت حياة أسرة .. وهو أول من تحدث عنها لسيف فلا يمكن نسيانها .. ربما لو دام الزواج لانتهى أمر الصورة .. اعترف بإقامة علاقة بفتاة ابنة ضابط لم أعرف صفة الضابط رتبته ، ووجدها تصاحب خمسة غيره .. اعترف بمحاولة إقامة علاقة مع نبيلة قبل تعرفها على سيف ؛ ولكنها اختارتاه دون الجميع .. فهناك غيره حاول الصداقة

معها كصداقة حب .. أما زمالة الجامعة فهم كثر .. معارفها كثيرون وأطلق عليها صفات تكاد تجعلها بغيا .. وأعتقد الحقد دافع الاتهام .. لم يتطرق بصراحة وجراءة لسبب فشل زواجها من سيف .. ولم أذكر أمرها له خشية أن يداخله الشك في هذه المقابلة في أهداف المقابلة

ـ هل عمل علاقة معها ؟

ـ نبيلة ! لا ، طاردها حتى التخرج ، حتى بعد طلاقها سعى إليها .. وأعتقد أنه هو الذي رتب أمر الصورة قبل وقت الزواج .. كان يدبر لتهديدها والنيل منها .. فهو الذي شجع سيف على الطلاق بصورة ذكية وحذرة ، بوصفها بالخائنة والغادرة له والمرأة اللعوب .. فتخيلها المسكين سيف بنت هوى وفتاة بارات وحانات أو مومسا، وأنه خدع من الزواج بها .

ـ وما العمل الآن ؟

ـ رغم أنها مهمة صعبة ، والفشل ظاهر ؛ لكنها مسلية يا إياد .. يوجد أمر أتسلى به .. ووافق رئيس تحرير الجريدة خلدون على عمل هذه المقابلات التاريخية للجريدة .. فهي فترة مهمة من تاريخ التحرر العربي والحركات العالمية .. وسأقابل بعض العناصر الأخرى ، وندندن حول قضية الصورة خدمة لسيف وخدمة للجريدة .. أستعد للقاء شيوعية مهمة في تلك الجامعة السيدة سوزان أشار إليها سيف والسيد صبحي .. فقد كانت نشيطة ومهمة ، وما زالت ؛ كأني فهمت ذلك من صبحي .. ولما ذكرت اسمها أمام مراد أثنى عليها .. ولم يتوسع بالكلام عنها .. فليس من السهل أن يكشف الرجل غرامياته ، رغم أنه كان مشهورا بينهم بحب النساء والزنا .. وهو اليوم زوج وله أولاد وبنات .

قال إياد : ألا تريد تعريفي بصاحبك ؟

قال : سأفعل عندما يسمح لي بزيارة بيته ستكون رفيقي زاعما أني بحاجة لسيارتك ليلا .. وذلك عندما نتقدم خطوة إيجابية .. هو بدأ ينفتح عليّ .. وستكون بيننا يا إياد .

ناقش الصديقان الأفكار والحيل والأساليب المناسبة لإتمام التحقيق .. وقال في نهاية المجلس

إياد وهو ينهض : تحتاج إلى بوليس سري لحل هذه المعضلة !

ضحك إدريس : حتى لو كان معنا بوليس سري ما استطاع الحل يا أخ إياد .. إلا أن نلتقي بالمصور نفسه .. ولكننا من خلال هذه اللقاءات البريئة قد نلتقي بالمصور أو المكلف له .. لم نحدد مكان التصوير .. أين صورت الفتاة ؟ لا يذكر سيف أي معرفة للمكان .. الخلفية صامتة والأرض مفروشة بنوع من السجاد الملصق بالأرض كالموكيت ..لا ديكورات في الصورة ولا كراسي .. والبنت لا تذكر موقع التصوير ؛ لأنها تنكر معرفتها بالموافقة على هذه الصورة .. فأعتقد أنها خدرت بطريقة شيطانية .. وحملت إلى حجرة مجردة ، وصورت عورتها وأعتقد أنها صورت أكثر من مشهد .. ولما أدت الصورة دورها اختفى أمر تلك الصور.

ـ أذكر أنهم أعطوه الفِلم!

ـ للخداع ؛ وليعتقد أنها صورة واحدة فقط .. وهم أعطوه قطعة من الفِلم الجزء الذي فيه الصورة .. لعبة ذكية مرسومة بفطنة وشجاعة .. هم صوروها للضغط عليها من أجل الدعارة ؛ ولكن زواجها أفسد الموضوع فافسدوا زواجها ببيع الصورة .. واستغلوا مرادا للقيام بجزء من الحيلة ، ونجحت الحيلة .. وتحقق مآربهم .. ونسوا أن هناك رجلا كان طامعا بها ، وقبل بها زوجة رغم وجود الصورة القبيحة الفاضحة .

ـ تقصد الدكتور غريب .

قال إدريس : نعم ، وليس من السهل أن يعترف مراد بشيء هذا الوقت ، وقد ماتت ، وصار أبا ؛ وربما جدا .. إن من المهم أن نعرف كيف خدعوا البنت ؟! ومن هم ؟! لغز كبير رغم وضوحه .. ولولا جهلها لهذه الصورة ما طلبت من زوجها بعد هجر ثلاثين سنة بعد طلاق أن يهتم برجل المقهى .. الشخص الذي باعه الصورة وقطعة من الفِلم ..وتتهمه بظلم نفسه قبل ظلمها .. وإنه تسرع في الطلاق ووصفها بالخيانة الزوجية .. أنا عندي تصور للجريمة وهو أنها سقيت مخدرا أو منوما وصورت ، وطريقة تخديرها أو تنويمها مجهولة لها .. لو ذكرت شيئا لقالته لسيف أو لوالدها .. فابنتها التي كلفت بنقل الرسالة لسيف لابد أنها

تعرف سبب الطلاق ، وكذلك الزوج غريب .. وصدق أن الفتاة لم تمارس الجنس مع أحد خارج اطار الزواج .. وهو خريج لندن ، وقد يكون متأثرا بعادات الإنجليز .. وسيف طلب مني عدم نشر القصة .. وقد أنشرها بتغيير الأسماء الحقيقية بأخرى .. ولكن إذا لم تحل قصة الصورة فلن تكون رواية ناجحة .. فكثير من النساء تطلق لأسباب تافهة للغاية .. إنك تذكر زميلنا منذر طلق زوجته ؛ لأنها طلبت منه أن لا يدخن أمامها وفي وجهها .. وعللت بأنها تتضايق من الدخان وكبر الشجار .

ـ نعم ، أذكر تلك المأساة ، ثم سجلت عليه طلقة ورجعت إليه.

ـ صحيح ، وآخر أعرفه طلق لرفض زوجته استقبال أمه ، ولم تكترث فطلقها ، والحكايات كثيرة

ـ قد يكون هناك أسباب خفية .. وتكون هذه القشة التي قصمت ظهر البعير .

ـ ربما تكون هناك تراكمات وترسبات .. لابد من معرفة المجرم .. للأسف حتى صديقنا الجديد سيف لم يهتم بالبائع كثيرا ولا يعرف اسمه.

قال إياد : يا صديقي لو سأله عن اسمه لأعطاه اسما مزيفا .

ـ أكيد .. ذاك راح عن بالي .. ما دامت لعبة ، لابد من التخفي قدر الإمكان .. الملاعين نجحوا لأنهم فهموا شخصية سيف ، وفهموا شخصية مراد .. وقد تكون لمراد علاقات معها بعد التخرج من الجامعة والانتماء للنقابة .. قد يكونون التقوا ؛ فلذلك ركزت على رجل المقهى .. فسيف لا يعرف عنها شيئا بعد الانفصال إلا أشياء عامة بحكم المجاورة في حي بهية ، وصداقاتها الهامشية لبعض أفراد أسرته .. الرسالة هي التي أعادت الأشجان.

ـ ولماذا ستقابل سوزان ؟

ـ كانت شيوعية مثل مراد ، ولها علاقة معه ومع نبيلة كطالبة وكعضو في النقابة والجمعيات .. وهي متقدمة في الحزب على مراد كما فهمت من صبحي .. أما سيف فهو زميل كلية فحسب ولا يعرف عنها الكثير كما أخبر سوى أنها كانت نشطة في الكلية والجامعة أنشط من مراد

حركيا.

ـ وهل ستعرف قصة الصورة مفصلة ؟!

ـ القصة شاعت فترة في الكلية بعد الطلاق ، ثم خفت الحديث عنها .. وستكون موضوعا لحلقة من الشيوعية في الستينيات ؛ ولعلنا نسمع منها شيئا عن تلك الصورة ولو عرضا .



بعد مضي ثلاثة أيام على لقائه بمراد اتصل به ليلا ؛ لأنه علم منه أنه لا يسهر في المقاهي بعد العودة من مكتبه في الشركة ، وأنه يتفرغ لأهل البيت ، والحديث معهم ، اتصل إدريس بعد العاشرة ليلا وذكر بنفسه ، فقال مراد : أهلا بك عرفت صوتك .. هل جهز المقال ؟

ـ تقريبا جهز .. وقد قابلت المهندس سيف الدين وردة شخصيا ، وهو من سكان حي بهية .. حي كان له عز ومجد في سالف الأيام .. وخاصة الستينيات .. وهو ابن نفس دفعتكم الجامعية ولكنه بعيد عن السياسة والانتخابات .. وهو كما تعلم زوج تلك الفتاة التي أخذت من وقت حديثنا .. وذكرت أنها طلقت بعد تزوجها بأيام .. حاولت معرفة سبب الطلاق السريع .. وعلمت أنها نكحت طبيبا من العائلة.

قال مراد : صحيح ! ولم تكن لسيف اهتمامات في السياسة والأحزاب .. كان والدها قد أصبح وزيرا للصحة .. ولكن الرجل لم تطل وزارته ، فقد تعرض لحادث مروري أودى بحياته في مؤتمر طبي في أوروبا ما زلت أذكر هذا .. قابلته أثناء عمله كمدير لمستشفى الجامعة التعليمي

ـ الدكتور خالد أسعد .

ـ نعم ، ماذا قال الرجل عن طلاقه لزميلتنا نبيلة خالد ؟!

ـ وجدته شخصا مترددا وانعزاليا ..وبعد محاولات قال : أنا أحببت الفتاة منذ رأيتها في الكلية ، وبعد سنتين دراسة اعترفت بحبي لها ، وقبلتني دون سائر المطاردين .. قال : كانت

محترمة ولها أصدقاء كثر من الجنسين ، ومن عدد من الكليات .. وكنا من العائلات الميسورة الغنية في نظر الطلاب .. وكلانا كان بعيدا عن السياسة والأحزاب ؛ ولكنني بعد زواجنا بأيام تفاجأت بصورة عارية لها عارية جدا ، ولم تستطع تبرير حدوث تلك الصورة .. وكان الانفصال بدون شوشرة .. وزعم أنك تعرف بموضوع الصورة ، وأنها سبب طلاقه ، وأنك أحد المغرمين بها منذ التقيتم في الجامعة ، وأنها رفضت صداقتك وصداقة غيرك.. وقال : إنه ابتاع الصورة من أحد معارفك .. هل هذه الحكاية صحيحة ؟

تنهد مراد بصوت بدا واضحا لإدريس .. وقال : أهذا خرج من فم سيف ؟!

ـ نعم ، يا سيدي قلت له عن اللقاء بك ، واستغربت من قصة الزواج والطلاق السريع ، فكان الفضول وراء هذا اللقاء حتى أنه قال: لو كانت معي الصورة لأريتك إياها ، ولم يتزوج بسبب هذه الحادث لليوم .

ـ فعلا يا أستاذ إدريس إن الرجل طلق زوجته التي أحبها سنوات الجامعة بسبب تلك الصورة السخيفة .. أنا لم أر الصورة ، وإنما حدثت عنها .. وأحببت نقل الأمر إليه ؛ ليتأكد .. ولم أرغب بأن يكون طرطورا ومغفلا عن قبح فتاته .. سأكشف لك سرا ما دمت تعمل في الصحافة والتحقيقات .. لقد تحدثت مع مديرك وتأكدت من تعاونك معه وعمل تحقيقات لصحيفته الأسبوعية وتوقع باسم مستعار الفتى نصار .. وإنك تقوم بتحريات متباعدة له .. وأخبرني أنك تكتب للصحف اليومية .

ـ شكرا ، أنا لم أخف عنك شيئا يا مهندس مراد .. واهتمامي بفترة الستينات لأنني ابن تلك الفترة مثلك .. وشاهدت الصراع الحاد والصارخ بين الحركات اليسارية واليمينية والقومية ، ولاحظت قوة الحركة الشيوعية في تلك الفترة .. وكتبت عن الرموز الكبيرة ودورها في أحداث ذلك العهد .. وسأكتب عن أربع شخصيات شيوعية عاشت ذلك الوقت.. وسأكتب عن أمور شخصية لأثير القارئ نحو هذه المقالات .. وسأقابل أربعة أسماء من التيار الإسلامي .. ونحقق في أمور خاصة حتى لا يكون التحقيق فكريا جامدا .. فهذا

معروف للمثقف .. أما القصص والمواقف فهي غير موجودة .. والمقابلات تكشف مثل هذه القصص العابرة

ـ نعم ، تلك الفترة كانت بمثابة العصر الذهبي للفكر الشيوعي .. وصراعه ضد الإمبريالية والاستعمار والاستعباد ..كانت الشيوعية نجم العالم ومثيرة للشباب وحماسهم .. وكانت تقام الدول على أفكار ماركس ولينين ، كما في كوبا كاسترو وماو في الصين وحرب فيتنام وكوريا الشمالية والمعارك الكبيرة في أمريكا اللاتينية .. وكان جيفارا

ـ لا أحد ينكر الزخم اليساري ، وهو يجتاح العالم تلك الفترة ..وانتشرت الأحزاب الشيوعية في العالم العربي والإسلامي بشكل واضح وقوي .. وكان الشباب الطلابي يندفع بقوة للانضمام لتلك الحركات الشيوعية .. فقراءة تلك الفترة أمر مثير في نظري وبالمقارنة مع اليوم فعلا كان ذلك العقد عقدا تاريخيا بالنسبة لكم .. نعود عن معلوماتك عن تلك الصورة التي تسببت بطلاق نبيلة في شهر عسلها.

ـ آ! الصورة صدق يا فتى نصار أنا لم أر الصورة بعيناي ، حدثت عنها ، وتضايقت من خداعهم لزميلنا البليد المسكين ، فلم يكن أمامي إلا أن أهتم بالموضوع ، وأتحدث للرجل عنها ، ودللته على مكان يلتقي به بمندوب أو وكيل المصور ، وذهب فعلا وقابل الرجل ، وابتاع منه تلك الصورة السخيفة .. أنا لا أدري لماذا تقبل فتاة أن تتصور وهي مجردة من الثياب ؟! حقيقة كنا نسمع عن مغامرات وحفلات نسائية في الجامعة لا تكاد تصدق يا رجل لكن الأنثى إذا فجرت ماذا يهمها بأن تتعرى للمصور وغيره ؟ كانت الإباحية تعصف في الشعوب تلك الفترة التي بدأت بعد الحرب الثانية ؛ لكثرة النساء والأرامل .. كانت بين الطلبة جمعيات سرية تشجع الزنا والفاحشة .. كان هناك من يسعى لنشر الدعارة بين المثقفين والطلبة.. والنساء جنود لذلك ؛ وربما تلك إحدى الجمعيات اصطادت نبيلة قبل زواجها وتصويرها للضغط عليها من أجل الدعارة ومن أجل أنها ابنة مدير المستشفى التعليمي .. هذه الصور هذه الغاية المهمة منها .. ولما وقع الزواج سعوا إلى إفشاله بعرض الصورة على

سيف .. وكان الطلاق غيرة ؛ ولكنها فور طلاقها أخذت تستعد لزواج جديد وتخرج .. وصار الوالد وزيرا فتركوها .. هكذا أتصور .. وكانوا يعلمون بحكم السنين محاولتي إقامة صداقة وعلاقة حب معها .. ولما سمع سيف خبر الصورة مني صدق ؛ لأنه رآني خصما له في حبها .. فوقع في قلبه أنني نلت منها قبل أن يصبحا صديقين .. و أنا أعترف أني نفذت رغبتهم غيرة وكرها للسيد ..لا أحد يحب الخيبة والفشل .. والجامعات العربية تتأثر بما يحدث في جامعات أوروبا المتحررة .. وعندنا من يدفع للإباحية والتحلل باسم الحرية وحق الإنسان أنا تلك الأيام حدثته عنها بقسوة ودون شفقة فقد اعتبرته فائزا عليّ أمام الطلاب والطالبات كنت آمل في النهاية أن أكون صديقها الوحيد .. لقد فتنت بها من أول ما رأيتها .. وتفاجأت بسرعة ردة فعل سيف وطلاقه لها مع الحب الكبير الذي شاع بينهم في مرافق الجامعة .. وأخبر الناس صحة قصة الصورة مبررا طلاقه .. ولم تقبلني الفتاة بعد طلاقها ، واعتبرتني سبب هذا الطلاق .. ثم خطبت قريبا لها ، وبعد التخرج تزوجته .. وهو سيد كبير في وزارة الصحة العامة .. ووالدها عين وزيرا قبل زواجها الثاني .. وهي قد رحلت عن الدنيا منذ عهد قريب .. فقد نقل بعض أصدقاء تلك الفترة هذا الخبر .

ـ نعم ، أخبر المهندس سيف بموتها بمرض السرطان .. تحدثت أنت عن عصابات أو جمعيات سرية تعمل على إفساد الشباب وابتزازهم بتصويرهم عراة ليعملوا في دور البغاء .

ـ هذا صحيح ؛ وربما هذه العصابات السيئة الذكر ما زالت موجودة وبثوب جديد .. اليوم الآت التصوير تتطورت .. واليوم صور متحركة أفلام .

ـ هذا موضوع شيق ؛ ربما أهتم به .. ربما أستعين بك لمزيد من المعلومات لمعرفة كيفية القيام بهذا العمل خاصة قديما ومن يقوم به ؟

ـ المال المال أيها الإنسان .. عندما يدفع لمصور مائة دينار مائتان أكثر في ذلك الوقت كيف يرفض ؟! كيف يرفض؟!



وضع إدريس السماعة ، وقد شكر المهندس مرادا على هذا اللقاء الهاتفي المطول ، وقد استطاع الاحتيال وجره للحديث عن موضوع الصورة ، وقال لنفسه : هل هو صادق ببراءته من تصوير الصورة السخيفة كما يصفها ؟ هل حقا هو مجرد رسول بين العصابة وسيف الدين حاكم ؟!

جهز المقال الذي سينشره في جريدة قريبه الشرق المضيء كما رتب معه ؛ ليكون الموضوع صحفيا وليس أمرا خاصا .. وتكوّن المقال من صفحتين(إي فور) ، وصوره وعرض النسخة على مراد ، ولما اطلع عليها مراد وافق على نشرها بدون أي إضافة وأي تعديل ، وقال وهو يودع إدريس : متى ستنشر هذا في الجريدة ؟

ـ هذا يعود لرئيس التحرير .. وقد يضيف ملاحظات .. يختصره ، يقدمه على حلقة واحدة أو أكثر .. وعندما ينشر سأقدم لك نسخة مجانية من الجريدة .

ـ أريد عددا من النسخ .

ـ لا بأس ، سيكون لديك خمس نسخ مجانا .. ربما أستعين بذاكرتك عندما أقابل بعض الأشخاص .

ـ أنا مستعد لذلك .. فالذكريات جميلة بحلوها ومرها ، فكيف إذا نشرت؟! أعلمت جديدا في قصة الصورة ؟

ـ أنا تعجبت يوم لقائنا من قصة الطلاق السريع ، ولم تشرح لي التفصيل ، فسعيت للقاء المهندس سيف عن طريق عنوانه في النقابة وموافقته على اللقاء .. فشل قصة حب كبيرة كما حدثتني مثير لشهوة الصحفي .. نحن نسمع عن طلاقات سريعة ؛ ولكنها قليلة بصورة عامة وقع في قلبي أن الصورة مزيفة خداع تصوير ؛ ولكن الرجل أكد نسبة الصورة إليها .. وخطر في باله التركيب والخداع الفني كما يستخدم في الأفلام .. وقال : إن الصورة التي رآها لم تكن مزيفة ، ولم يعد يملكها دفع بها إلى والد الفتاة عندما تناقش معه حول الطلاق .. والفتاة أنكرت وبقوة أنها تصورتها بعقلها وفكرها ، ولا تعرف الخدعة والحيلة التي تعرضت لها

لتصور تلك الصورة .. وتمسك السيد بالفراق وإنهاء العلاقة الزوجية .. وأنا تفاجأت من كلامك عن جمعيات سرية للدعارة والإغواء .. وهو لم يسمع بمثل تلك الجمعيات ، واعتبر الموضوع انتهى ، وتعقد للأبد من ناحية النساء .. وما زال بدون زواج .. وأكد لي أن زوجته أو مطلقته لم تر تلك الصورة إلا تلك الليلة .. وصدمت منها .. والرجل الذي قابله في مقهى الكوكب الذهبي في مركز مدينتنا لم يره من قبل ، واعتقد أنه متخفي بلحية وشارب مزيفين .. ويرى أنه أحد طلاب الجامعة.

ـ أعرف مقهى الكوكب ؛ وربما دخلته مرتين ..كان المقهى المفضل لنا تلك الأيام مقهى الثورة العربية في شارع الأمواج .

قال إدريس : نعم ، أعرفه هو في طرف المدينة .. هو مقهى الشيوعيين كما يحب أن يسميه الخصوم

ـ نعم ، بل والمحبون ..كان أحد مقاهي الحركة اليسارية والماركسية .. كان فيه أمجاد الحزب واعتقالات الشباب من الأمن السري والقلم السياسي .

حك دقنه وسأل : هل تعرف ذاك الرجل الذي باع الصورة لسيف؟

ـ أنا لم أعرفه ، ولم أره ، ولا أدري هل هو أحد الطلاب كما تقول على

لسان سيف ؟ كان الحديث عن الصورة عبر تلفون في نادي الكلية استدعيت لمكالمة .. والرجل يعرف قصة هواي ، ومطاردتي لنبيلة ، وطلب مني فعل ذلك ، وغامرت وفعلت أو قل نقلت الطلب .. وحصل ما أشتهي ؛ ولكنني لم أفز بقلبها؛ بل زاد حقدها عليّ .. وكانت كلما تتلاقى عيوننا تبصق إلى الأرض .. وتكرر ذلك .. وسيف انقطع كل شيء بيننا .. وقد يكون أحد الطلاب فعل ذلك .. واستغلوا فشلي نحوها .. من ستقابل بعد نشر هذا المقال؟

ـ رئيس التحرير له خطة ، تتلخص بأنه يريد النشر بعد اكتمال جميع المقابلات ، مع أربع أو خمس يساريين ، ومثلهم قوميون وإسلاميون ، وأنا اقترحت نشر هذا المقال؛ لتشجيع الآخرين على التعاون والتحدث عن ذكرياتهم ، وسبب التحاقهم بتلك الأحزاب .

قال مراد مستحسنا الاقتراح : هذا هو الأفضل ؛ بذلك تقضي على التردد .. من ستقابل بعدي؟

ـ هناك فتاة اسمها سوزان عرجنا على ذكرها أثناء الحديث معك .. وهي من الناشطات حركيا تلك الأيام .. وقيل إنها ما زالت تدافع بقوة عن الماركسية رغم موتها في روسيا .. وقد رتبت أموري الفنية معها .. وأنا أجمع معلومات عنها وعن نشاطها .

ـ صديقة قوية ونشيطة .. أعرفها جيدا ، وعملت تحت رعايتها في الجامعة ، وقد صعدت قوتها خارج القطر في فترة من الزمن ؛ وربما زارت موسكو للمشاركة في نشاطات عالمية.. وإذا احتجت أي شيء عنها فسوف أجيب .

ـ أقدر لك هذا التعاون ، وهذه الشجاعة .. فأنت فتحت قصة عصابة التصوير .. فأنا أبحث عن عضو عمل في تلك العصابة الرهيبة.. فهي قصة مشوقة كقصة طلاق سيف ؛ لعلك تتذكر أحدا من أسماء أولئك.

ـ وإذا تذكرت سوف أفيدك .. أنت كيف تختار شخصياتك ؟

ـ قلت لك إن رفاقا لك هم رشحوك للحديث عن تلك الفترة ، ومنهم الأخ صبحي وهو زميلي أيام الوظيفة.

ـ أنت تقاعدت من صحة البلدية .

ـ نعم ، وأنا أكتب للصحف والصحافة منذ زمن بعيد .. والتاريخ والمذكرات تستهويني كثيرا مع أنها تحتاج لجهد ومال .. وأجرة المقال ليست كبيرة ، وكذلك أشغل نفسي ، لا زوجة ولا أولاد .. قد يذكر لي محرر في صحيفة يومية أو أسبوعية أو شهرية اسم كتاب فأطلع عليه وأقدم عرضا عنه لتلك الجهة ، أو أنا أعجب بكتاب نزل الأسواق فأقرأه وأقدمه لأحد الصحف مقابل أجرة زهيدة يا حضرة المهندس ؛ ربما تغطي مصاريف التنقل والطباعة .. والكتاب قد يقدم من الجريدة أو من المكتبة العامة لعلاقات خاصة معهم تسلية.

ـ هواية جيدة ، تحرك العقل وتنشطه .. وهي أحسن بكثير من الجلوس للعب الورق والنوم

والتلفزيون .

ـ أحسنت! وإذا لقطت حكاية مثيرة أهتم بها كموضوع الصورة ، وكموضوع الجمعيات السرية التي أشرت لها .. ولما أجمع معلومات عنها سأتابع الموضوع إلى اللقاء أيها الصديق .

ـ حياك الله .. أنا في خدمتك ، وخدمة المذكرات والتاريخ .

قبلت السيدة سوزان مقابلة إدريس لبن ، وقدم لها المقالة التي كتبها عن مقابلته المهندس مراد زميلها في الحركة الشيوعية العربية ، وذلك خلال عقد الستينيات ، وذكر لها اسم صبحي زميله في العمل وترشيحها لهذا اللقاء ، وكان اللقاء يجري في صالة بيتها ، وبحضور زوجها عماد ، ثم استأذن عماد لما فهم الموضوع ، وخرج من الغرفة، فقال إدريس : أهو على نفس الفكر؟

ابتسمت وقالت : عماد شيوعي عريق ؛ ولكن الشيوعية ضعفت ، واهتزت على مستوى العالم وأصبحت ذكريات لدينا يا أستاذ إدريس .. وأنت لماذا مهتم في الأمر ؟

تحدث حديثا مطولا عن اهتمامه التاريخي في فكر الستينيات ، وإنه كتب عشرات المقالات عن الأحزاب والأفكار ، وعن رؤوس وقيادات تلك الأحزاب والمسميات .. وفي هذه الجولة سيكتب عن رجال كانوا قريبين من القيادة أو الصف الثاني كما يقال .. وقد بدأ الحوار مع المهندس مراد ، ثم عرج من خلال التوضيح إلى الحديث عن قصة الطالبة نبيلة خالد ابنة المدير الأعلى للمستشفى التعليمي ، وابنة الوزير .. وقصة طلاقها السريع .. واضطر لمقابلة المهندس سيف وردة لاستيضاح الأسباب .. وكانت قصة الصورة ، ودور السيد مراد في ذلك الطلاق ثم ذكر الجمعيات السرية لتشجيع الإباحية والدعارة بين الطلبة .. وذكر لها أن المهندس سيفا من سكان حي بهية ، وكذلك المرحومة نبيلة ، وكال المديح لذلك الحي في الزمن الماضي .

وقالت : ومن لا يعرفه يا سيد إدريس ؟! هو كان جزءا من حي العرب

ـ صدقت .. وأنشأته السيدة بهية أو شيدت فيه قصرا عظيما ما زال يتربع فيه .. وتتابع الأثرياء ببناء قصورهم فيه حتى أصبح حيا مستقلا عن حي العرب .

ـ أنا زميلة لنبيلة ، وأعرف حكاية صداقتها لسيف وطلاقها .. تحدث مراد عن تلك الصورة .

قال : نعم ، تحدث عن الطلاق .. وسيف وضح سبب الطلاق السريع .. واعترف مراد بأن دوره مخبر لسيف بوجود تلك الصورة فحسب .. وذكر أن هناك جمعيات تشجع الزنا والإباحية .. عصابة من الطلبة والمصورين تقوم على تصوير صورة فاضحة للبنات وابتزازهنّ في الفجور والغواية

قالت : نعم ، كان هذا بيننا للأسف .. الفتاة التي لم يستطيعوا استدراجها برغبتها للسهرات والحفلات والمجون خاصة إذا كانت جميلة ومثيرة، يسعون لتصويرها في حالات مريبة وماجنة لتهديدها بتلك الصور.

قال : لكنه لم يذكر أسماء ، ولو اسما واحدا .. فقد شدني أمر هذه الجمعيات ، وهو يعتقد أنها ما زالت تعمل ؛ لكن بثوب جديد.

ـ لا أعتقد هذا .. البنات اليوم أكثر انفلاتا وطلبا للموضة والسفور .. كانت البنت أيامنا صورة في الجامعة ، وصورة أخرى خارج الجامعة .. اليوم العري مباح فلا حاجة للصور .. فأي مومس تقدم جسدها للتصوير .. المهم أن تأخذ المال .. وهناك دور دعارة مرخصة أو شبه مرخصة باسم النوادي الليلة والملاهي .. فلماذا الجمعيات اليوم يا عزيزي .. أصبحنا نرى أفلاما ليس صورا فحسب .

ـ هو ربما يقصد ذلك.

قالت : في رأيي ومشاهداتي أننا لم نعد لمثل هذه الجمعيات لممارسة الجنس الأبيض أو الرقيق الأبيض .. أغلب الدول تسمح بالدعارة سواء علنا أو سرا خاصة في البلدان الإسلامية .. كان التصوير والعري مصدر دخل تلك الأيام ؛ فربما تباع مجموعة صور عارية بمبلغ مهم سواء للفتاة أو المصور المحترف .. اليوم تشتري مجلة جنسية بدولار واحد .

ـ أتعرفين الخطة التي صوروا بها تلك المهندسة وقد كانت صديقتك كما فهمت ؟

ـ أنا لم أكن صديقة شخصية لتلك الجميلة يا إدريس تلك الفترة فيما بعد تصاحبنا ؛ أنا أختلط

بالطلاب من جميع الكليات للتنظير الحزبي وأعرف الشباب المهووس بالنساء في ذلك الزمن وسمح ذلك لي أن أطلع على أسرارهم فبعضهم يعتبر حزبنا إباحيا ، ويدعو للإباحية الجنسية

قال : مراد المهندس أثار رغبتي في معرفة المزيد عن تلك الجمعيات ، وكذلك ثمن الصور الباهض .

قالت: الصورة كانت مهمة في تلك الفترة للإيقاع بالفتيات اللواتي يخشين الفضيحة والعار .. كان ذلك مرعبا في تلك الفترة من بلداننا .. فبعض أو ربما أكثر المصورين أصحاب محلات التصوير يرفضون فعل تلك الصور خوفا من الشرطة أو من أهل تلك الفتاة ؛ فلذلك من يغامر يطلب أكثر .. قل ثمن المخاطرة .

قال : كيف كانوا يخدعون الفتيات وهن بنات جامعات ؟!

ـ عندما ننتهي من موضوعنا الرئيسي سأحدثك بكيف هذا ؟

ـ جميل ! فالمهندس مراد لا يعرف وإلا صارحني .. اقرئي ما ذكره مراد .

نادت زوجها الذي أقبل يحمل الشاي وقالت لي : تحدث مع المهندس عماد .. فهو أيضا مهندس ، وهو قريب لي .. أنا تزوجت من عهد قريب .. كان متزوجا ، ثم تركته زوجته من سنوات .. وتزوجنا .. أنا سأدخل المكتب وأقرأ المقال .

غادرت الصالة وتحدث إدريس عن نشاطه الصحفي ، وهوايته الصحفية منذ ثلاثة عقود وأنه يكتب في جريدة الشرق المضيء .

ولما عادت سوزان قالت : قرأتها ، إنها تجمع بين الأدب والتاريخ .

ـ سنتحدث عن كيف اهتممت بالحركة الشيوعية رغم صغر سنك؟ طالبة انتقلت من المدرسة إلى الجامعة .. وكيف قابل الوالدان اهتمامك الفكري المعادي لطبيعة المجتمع العربي المجتمع المتدين الأمي الجاهل ؟

قالت : كان هذا الفكر معروفا في العائلة ، لم يكن والدي شيوعيا ولا أمي .. لكن أحد أعمامي حمل الفكر اليساري العالمي .. عندما درس في القاهرة مصر .. والديّ لم يكونا متدينين ، لم نكن

نعرف صلاة صوم في البيت .. أبي يحتسي الخمر ومثله أمي بعد زواجها منه كما تقول .. وفي مثل هكذا جو فلم يُهتم بما نحمل من أفكار .. فهي أفكار موجودة في محيط العائلة منذ كنت طفلة وطالبة .. التحقت في الجامعة مطلع الستينيات ، وأصبحت عضوة في الحزب الشيوعي المحلي .. خضعت لدروس في الإلحاد والبيان الشيوعي الأول .. وتعرفت سريعا على نشطاء الحزب في الكلية والكليات الأخرى والمدينة .. وكان لنا تلك الفترة نشاطات قوية ومقنعة .. وكنا متفائلين لآخر درجة .. وكنا نرى أن الدول ستتحول لشيوعية قبل نهاية العقد .. تعرفت على مراد وغيره .. وكان المهندس مجرد شيوعي ملحد ؛ لكن نشاطه ضعيف بين الطلبة .. كان همه الأول الجنس والنساء .. كنا نلتقي معه من أجل الفكر فقط .. وبحكم الحياة في ذلك الوسط كنت أسمع عن مغامراته ومغامرات غيره .. لا أنكر أن عناصر كانت تدخل الحزب ليست مشبعة بأفكار الحركة العالمية ، كانت تحقق لها رغبات شهوانية دون مساءلة وحساب ، ودون تعب ضمير .. وهذا من الجنسين يقع .. فالحرية الجنسية موجودة في الفكر الشيوعي ، لا شيء عندنا اسمه العفة أو البكارة كما في بلادنا العربية ؛ لأن الشيوعية في مرحلتها الأخيرة هي المشاعية في كل شيء ، وعلى رأسها الحياة الجنسية .

ـ سمعت أن هذا الأمر حدث في روسيا الستالينية ثم توقف .

ـ بسبب الأمراض الجنسية .. وهذا النشاط الجنسي والعلاقات أمر شخصي .. لا أستطيع أن أنكر وجود ذلك بين الأعضاء الصغار والكبار .. ولكن الهدف الكبير للشيوعية العالمية تحقيق العدالة الاجتماعية لكل شعوب الأرض ، وإنهاء الرأسمالية والطبقية .

تحدثت عن حياتها الشيوعية خلال سنوات الجامعة ، وعن نشاطها وحماسها للثورة العالمية للقضاء على الإمبريالية ، وانتقلت للحديث عن نشاطها القوي في نقابة المهندسين ، وإنها من القلائل اللواتي فازت بالعضوية النقابية في أكثر من دورة ، واعترفت بأن الإسلاميين كانوا يحاربون بشدة في العمل النقابي ، وأن لديهم فكرا عفنا .

ولما انتصف الليل قال إدريس : سألخص الكلام كما فعلت في مذكرة مراد ، وأعرضها على

حضرتك ، فالذي ترينه غير صالح للنشر تضعين عليها خطا أحمر ، وما يحتاج لتعديل نعدله ، سأنصرف تأخر بنا الوقت ؛ لكن ليتك تحدثينني عن عصابات التصوير ؛ لعلي أجد في البحث بعد انتهاء مهمتي في المقابلات ، فأهتم به واجعله موضوعي القادم.

ـ حسنا يا إدريس نحن بدون ذرية إذا أحببت المبيت عندنا فالبيت يسعك !

ـ أنا هذا موعدي في النوم منتصف الليل .. لكن حتى لا أعود مرة أخرى أسمع أم تحبين أن نجعله لجلسة أخرى .

ـ هذا يرجع لك.

ـ أنا أحب الآن ؛ لأني في المرة القادمة سأقدم لك ما سينشر .

قالت : الحكاية باختصار قد كان في الكلية أو بين طالبات الجامعة فتيات ذات جمال وفتنة ، ولا يسمحن بالتصور عراة ..ولابد أن محاولات جرت معهن ، ولسن شريفات بمعنى لا يصاحبن ؛ إنما هنّ يركضن وراء الغرام والهيام والرسائل والكاسيت .. وأولئك وراء الدعارة .

ـ أفهم عليك وما تقصدين ؟

ـ نعم ، فهؤلاء الفتيات يدعون لحفلة عيد ميلاد مناسبة مختلقة ، ويذهبن لشقة الحفلة للمرح واللهو .. وهناك يطعمن أو يسقين المخدر من خلال الخمر أو العصير .. ثم ينقلن لمكان التصوير داخل غرفة معدة في الشقة ؛ بحيث عندما تعرض الصورة عليهن فيما بعد يعتقدن أن التصوير كان في مكان آخر ، وليس في الشقة .. ثم تتعرض الأنثى للابتزاز والتهديد لبيع جسدها ؛ وربما تصور الفتاة عارية وفوقها رجل لا يظهر وجهه لمزيد من الضغط والتهديد .. ثم تعاد الفتاة بعد التقاط الصور إلى شقة الحفلة .. ولا تعرف أنها صورت عندما نامت .. تفسر أنها أكثرت من الأكل والشراب وأن الصداع بسبب الشرب والتعاطي والرقص والغناء وبعد حين وأشهر تعرض عليها الصور فلا تتذكر كيف صورت ؟ لأنها تكون حضرت أكثر من حفلة بعد تلك الحفلة الخاصة

ـ نعم ، ذلك ربما ما حصل مع السيدة نبيلة خالد .

ـ بالتأكيد ، وهم لم يستفيدوا من تصويرها لحدوث الزواج ، فاضطروا لعرضها على سيف لتطلق طمعا بإخضاعها.



قدم سيف زائرا لبيت صديقه الجديد الكاتب إدريس لبن ، وكان إدريس قد جلب الطعام الجاهز للبيت ، فهما كانا على موعد ، وانتقلوا للمطبخ حيث مائدة الطعام ، وتناولوا العشاء ، وقدم المهندس الشكر للسيد إدريس، وخلال المائدة روى له قصة الشقق والتصوير التي سمع عنهما من مراد وسوزان ، واشتراك بعض الطلبة فيها للإفساد مقابل الحصول على المال والمخدرات ، ولما انتهى الطعام وانتقلوا لصالة الشقة قال إدريس : أتظن أن هذا حدث لنبيلة خالد ؟!

قال سيف بشك : لا أدري ! لم أسمع عن ذلك شيئا .. هذه لابد أنها تمارس على نطاق ضيق وسري للغاية .. وأما الحفلات والسهرات فكانت شائعة بين الطلاب ، وفي الحي الذي نعيش فيه ما زالت الحفلات والمناسبات قائمة .. هل يمكن أن يتعرض أحدنا للتخدير ولا يشعر به بعد الاستيقاظ منه ؟!

ـ إذا خدر شخص بحيلة ومكر فإنه يدرك أنه كان مخدرا ؛ فإنه يستيقظ مشوشا مضطربا .. وقد تحدث له أعراض جانبية نحو القيء والغثيان جفاف الفم والحلق وذلك بحسب نوع المخدر المستخدم .. وربما يلجأ للمنومات فهي أقل خطرا.

وتابع قائلا: هي كانت تنكر تعرضها للتخدير ، ولو من عهد بعيد .. وسوزان لا تعرف هل تعرضت نبيلة لتخدير أو هل ذهبت لتلك الشقة ؟ وهي وصفت الطريقة المستخدمة في تدمير المخدوعات .. سهرة دعوة في شقة خاصة ، ثم يحدث التخدير ، وتصور الفتاة في مكان خاص

داخل الشقة أو مكان معد للتصوير .. وتصور صورا إباحية ، وتعاد إلى قاعة الحفلة .. ولما تستيقظ من التخدير فيغلب على ظنها أن الخمر أثرت فيها ، وأتعبتها ، وأنها نامت من السكر والعربدة ؛ لأنها وجدت نفسها في نفس الشقة والمكان .. ولا تظن أنها تعرضت للتخدير والتنويم .. ولا تظهر الصور إلا بعد المشاركة بعدة حفلات تالية .. وبعد حين ترى الفتاة صورها العارية .. فلا تدري كيف صورت ؟ وأين تعرضت للتصوير أو ينتابها الشك ؟

ـ ألا يستطيع الإنسان أن يميز بين النوم والتخدير ؟

ـ الصورة أنت رأيتها ، ودققت النظر فيها .

ـ نعم

قال : هل تتذكر الآن أنها كانت مغمضة العينين أم مفتوحتين ؟

ـ على ما أذكر أنها لم تكن مغلقة تماما ، ولم تكن مفتوحة تماما .. وتدرك أن المصور كان حريصا أن تظهر في الصورة العورة والوجه حتى لا ينكر صاحب الصورة أنها لم تكن صورته وأنها صورة مركبة من جزئين .. أنا تلك الأيام لم يخطر في بالي مثل هذا المكر والكيد وهذه العصابة .. فأنا اليوم أكاد أجزم أن ذلك حصل لفتاتي يا إدريس .

ـ هذا واضح يا صديقي ؛ لكن هل لهذه الدرجة لم تشعر نبيلة بالوضع واللعبة القذرة ؟

قال سيف : نبيلة كانت فتاة مرحة جميلة وتحب اللهو والسهر والأصدقاء ، ولم تشرب الكثير من الخمر حسب ما علمت منها وعنها .. وربما تثمل في بعض السهرات ، وتفرط في السكر لا تنسى أننا أبناء حي يرى الخمر كالماء ومن عاداتنا الشرب ؛ لكنها أنكرت بقوة أنها تعرت في سهرة أو تعرت لتصور خالعة ملابسها كاملة

ـ حتى لو أنكرت ، فهي قد صورت ، فالصورة تدل على حدوث ذلك .

ـ اعترفت بأن الصورة حقيقية لها ، وأنها صورت بخدعة ما .. وهي كانت راغبة بمعرفة كيف صورت ؟؟ولكن هيهات هيهات أن نعرف إذا لم تعرف .. لم أكن أعلم بمثل هذه العصابة .. وربما هي مثلي .. لم تشر إلى ذلك ، وهي تدافع عن نفسها .. هل تستطيع أن تصل

لشخص شارك في التصوير أو ساعد ؟

قال إدريس : لابد من مساهمين في الجريمة .. سوزان لم تذكر أسماء .. فالوقت بعيد ، هي ذكرت الطريقة المستخدمة .. وكما قلت إنه يمكن خداع الإنسان بالتخدير أو التنويم .. لكن عندما يصحُ من البنج والمنوم يتذكر أنه كان مخدرا أو منوما.

ـ لكن يا إدريس عندما تستيقظ الفتاة المخدرة أو المنومة ، وتجد نفسها في نفس الغرفة وحولها نفس الفتيات ونفس الأشياء من كراسي وسجاد وأشرطة هل سيقع في نفسها أنها تعرضت لتخدير ونقل وتصوير ؟!

ـ أحيانا يشعر المخدر بأنه محمول ، لكن يصعب عليه أن يتذكر أنه تعرض لتعري وتصوير في أوضاع مريبة كما تفعل إسرائيل في اصطياد بعض العرب للتجسس تحت التهديد والابتزاز ؛ لكنه عندما يرى الصورة يا سيف ألا يتذكر تلك السهرة ؟

ـ هذا سؤال يحتاج لطبيب تخدير .

ـ أحسنت ! نحتاج لطبيب مهتم في آثار البنج والذاكرة .. فأنا أسمع أن الإنسان تحت البنج قد يسمع أو يتحدث ، ويهذي بكلام ويعترف بأشياء لا يقولها وهو صاحي .. ويعللون ذلك باللاشعور واللاوعي .

قال سيف : وأنا مثلك أسمع ..علينا أن نستشير أخصائي تخدير أو علاج نفسي.

ـ ربما أيضا لكمية البنج ، ونوع البنج أثر في اللاوعي .. وبعد شهور من الحادث لا يتذكر الإنسان ذلك التخدير ؛ وربما لكثرة السهرات والحفلات لا يتذكر.

ـ ولكن نعود إلى القول إذا نام ألا يسأل بعد استيقاظه لماذا كان نائما أو مضطجعا ؟ لا يحل اللغز إلا مجرم شارك في الجريمة يا إدريس !

ـ أكيد لو وصلنا إلى المجرم لحللنا اللغز من زمان .. من يعترف أنه قام بالتصوير ؟! من قام بالتخدير ؟!

قال سيف: الحقيقة أنك تقدمت تقدما كثيرا ، هل ستتابع المقابلات ؟

ـ سأعمل على مقابلة ثالثة ، وأتوقف ، ثم أعمل على النشر .. إن هناك مشاكل .. ورئيس التحرير عنده رأي آخر .

ـ هل تعرف طبيب تخدير بما أنك موظف صحة ؟

ـ سأفكر بذلك ، لا يحضرني أحد اللحظة .. نعم ، يجب أن نعرف كيف خدعت تلك المرأة ؟ لو أثبتنا براءتها لكان هذا خير ونجاح .

قال سيف : أنت مقدام يا إدريس! لا أدري لماذا تقاعست عندما أردت التعرف عليّ ؟!

تبسم إدريس وقال : هكذا أنت أيها الصديق! طبع طبعت عليه .. ألم تقعد سنتين قبل الخضوع لحب نبيلة ؟! أحببتها من أول أيام الكلية ، وانتظرت سنتين لتعترف لها بحبك بشخصها ؛ لكن الغريب أنك طلقتها بسرعة .. ألم تندم ؟

فكر لحظات ثم همس : الصورة لم تجعلني أندم .. الصورة جعلتني أرى كل النساء خائنات ، بائعات هوى .. وكما رأيت أخواتي متحررات أثناء الجامعة .. قلت كل النساء سواسية ، وكلهن يخن الثقة .. ذكرت لك أن أختا لي اختفت مع رجل يومين دون علمنا ، وقابلنا العودة ببرود مع أن

صاحبها اعترف بأشياء سيئة.



اتصل المحامي خلدون مالك الجريدة الأسبوعية بإدريس ليلا وقال : لك زمن لم تزرنا يا إدريس.. هل أنت بخير ؟

ـ نعم ، يا أبا بسام أنا بخير ، وصحتي جيدة .. وأنا مشغول بمقابلات مع بعض شيوعيي عصر الستينيات .

ـ وأنا متصل بك من أجل ذلك .

قال : ومن أخبرك باهتمامي بذلك ؟

ـ سمعت في البداية من الطابع منصور .. وكنت أنتظر زيارتك لأفهم الموضوع بالتفصيل

وأهميته .. ولمن تكتبه؟

ـ نعم ، هذا في البداية والتالي!

ـ التالي يا سيدي تحدثت معي طبيبة اسمها هند تتكلم عن صورة لأمها وهي صورة سيئة .

ـ هند .. من هند ؟!

ـ هند غريب ..طبيبة من سكان حي بهية.

ـ هند غريب ..لا أعرفها ، وماذا يهمها من موضوع الصورة ؟ وكيف عرفت بموضوع اهتمامي بهذه الصورة ؟!

ـ جميل !! تركت هاتفها وترغب بلقياك والحديث معك .

ـ أين ؟

ـ اكتب الرقم ، واتصل بها .. وذكرت لها أنني لا علم لي بشأن الصورة .. وقلت لها إنك تكتب لنا بين الفينة والأخرى ، ولست موظفا لدينا .

وانتهت المكالمة ، وعلى الفور اتصل إدريس بسيف ، ولما رد عليه قال: أتعرف طبيبة اسمها هند غريب؟

ـ هند غريب ..ولماذا؟!

ـ أتعرفها ؟

ـ لا أعرفها ؛ ولكن أعرف من هي ؟

ـ من هي ؟

ـ إنها ابنة نبيلة خالد .

شهق وقال : المهندسة نبيلة خالد ! وهل تعلم عن قصة الصورة شيئا ؟ وروى له حديث رئيس التحرير معه وأنها تسعى لمقابلته .

ـ ولماذا تريد مقابلتك ؟!

ـ للحديث عن الصورة بالتأكيد .. هل سوزان لها معرفة بها ؟

ـ سوزان صاحبتنا !

ـ نعم ، إذا كانت بينهما اتصالات ، قد تكون حدثتها عن اهتمامنا بشأن الصورة .

ـ هي درست معنا يا أستاذ إدريس ؛ ربما ظلتا على صداقة بعد التخرج ..

وهي تعرف بقصة زواجنا وانفصالنا السريع .. فأعتقد أنها استمرت بصداقة مع نبيلة .. عليك الاتصال بسوزان وسؤالها مباشرة عن الموضوع .. وهل ستقابلها ؟

ـ سأقابلها بالتأكيد ، قد يكون لديها أسرار من أمها .. أليست هي التي أرسلت الرسالة لك ؟

ـ أعتقد أنها هي التي حملت الرسالة .. وهي من سكان الحي ، وطبيبة معروفة ؛ ولكن عملها في عيادة مع زوجها في منطقة أخرى.

ـ حسنا يا سيف إلى اللقاء ! سأتحدث مع سوزان أو أذهب وأُقدِّم لها صورة عن المذكرة التي ستنشر عن مقابلتنا كما وعدتها .

استقبلت السيدة وزوجها السيد الكاتب إدريس ، وقدم لها المذكرة أو التقرير الذي كتبه عن قصة تعلقها بالشيوعية والماركسية في الستينيات ، وعن نشاطها الحركي ، وعن مستقبل الشيوعية في عالم العرب .

أعجبت المرأة بالمقال ، وكذلك زوجها ، وعلقت : إنك مبدع يا أستاذ إدريس رغم أن الصحافة عندك هواية وليست احترافا!

ـ نعم ، لست محترفا يا سيدتي ؛ لكنني أحسن الكتابة في كل المواضيع .. لديّ سؤال

ـ تفضل .

ـ هل كنت على صداقة بالمهندسة الراحلة نبيلة خالد منذ سنة ؟

ـ طبعا ، كانت صديقتي وابنة كليتي أيام الشباب .. كنّا نلتقي ونتقابل ؛ وإن كانت على فترات متباعدة .. هي أرستقراطية ؛ ولكنها زميلة كلية .. وكانت نجمة هادئة في الجامعة .. وهي التي تعرضت لمكيدة الصورة التي دار بيننا الحديث عنها .. ولماذا السؤال ؟!

ـ هل تعرفين ابنتها هند ؟

ـ طبعا ، وهي طبيبتي المفضلة.. ما الأمر ؟!

ـ الأمر أنها تريد مقابلتي للحديث عن تلك الصورة القذرة لأمها .

ـ آه ! قد أكون أنا السبب .. لقد ذكرت لها اهتمامك بموضوع الصورة والشقق السرية لصيد الفتيات .

ـ انتهى الموضوع .. المقال الآن جاهز إذًا لا ترغبين بالتعديل والإضافة .

ـ وهل اتصلت بك ؟

قال : لا ، اتصلت بالجريدة .. لا تعرف هاتفي .. فاستغربت معرفتها اهتمامي لقصة الصورة التي سببت انفصال أمها عن المهندس سيف الزوج الأول .

قالت : بعد مقابلتنا كان لي موعد مع الدكتورة هند في العيادة .. وعادة عندما نلتقي يكون حديثنا حول أمها نبيلة التي تربطني بها صداقة قديمة .. ولا أدري كيف تطرق الحديث إلى المقابلة والماضي وذكرك واهتمامك بالصورة ؟! تحدثنا عنها وأبدت اهتماما بذلك ، وقالت بجرأة: أتعرفين يا مهندسة سوزان من صور أمي تلك الصورة القذرة ؟ فأنكرت .. فقالت : ما زالت تؤرقنا وتنغص علينا .. فأنت تعرفين المهندس سيف الدين زوج أمي الأول .. فهو تعقد من النساء .. وترك الزواج ، ويعيش وحيدا من أجل تلك الصورة .

قبل أن يغادر منزل سوزان وعماد طلب منها ترتيب لقاء مع طبيبتها هند غريب ، ورغب أن يكون في منزلها إذا سمحت الظروف أو مكان عام ، فاختارت السيدة أن يكون اللقاء في مطعم معروف ، فقبل إدريس الدعوة ، وقال لسوزان: كيف اهتمت هي بالموضوع؟

ـ لقد جاء بيننا ذكر أمها كما قلت لك، فذكرتني الذكرى بالحوار الذي دار بيني وبينك وبين مراد ، فشدها الموضوع خاصة موضوع الصورة العقدة والتي اهتممت أنت بها بدورك .. وذكرت لي أنك ستسعى لحل لغزها ، وقابلت المهندس سيفا من أجلها .. وأنا أعتقد أن لها علم بحكاية زواج أمها الأول ، وطلاقها السريع .. ولا تنسى أن حضرة المهندس من سكان نفس الحي من أجل ذلك أحبت اللقاء بك شخصيا .

قبل هذا التعليل وودع إدريس السيد والسيدة ، وقال وهو يغادر البيت : عندما يتم النشر سأضع بين يديك بعض الأعداد .

ـ يسرنا يا أستاذ التعرف عليك .. وهل ستنشر المقال كما قرأته وكتبته ؟

ـ في الغالب نعم .. هؤلاء ـ يقصد رئيس التحرير ـ كما تعلمين يقدرون

المسؤولية الأدبية ؛ ولكن خبرتهم تدفعهم أحيانا للتعديل أو الإضافة والحذف حتى لا يعترض على النشر .

ـ أما زالت الرقابة على الصحف ؟ ألم ترفع ؟!

ـ كلام يا سيدتي .. ولكنها أضعف من الماضي .. اليوم يمنعون النشر باسم القانون والإساءة وغير ذلك من المصطلحات الرنانة .

ـ موفق يا بطل .. من سيكون التالي؟

ـ بقي اثنان . وذكر اسما

قالت: ابدأ بالسيدة سمر ..كانت معنا في الجامعة في كلية التمريض ، وأغلب وقتها مع طلاب الهندسة ..كان لها حبيب أو صديق مهندس .

ـ أعرفه المهندس خالدا .. وتزوجا بعد الجامعة ، ثم وجدته مع امرأة أخرى في بيتها .

قالت : هو كان يعرف فتيات غيرها من خارج الجامعة ؛ ولكنها كانت الأولى والمقدمة .. والرجل تزوجها دونهن .. وهي كانت تتساهل معه في غرامياته وصدقاته مع أولئك النساء .. وبعد الزواج طلبت منه أن يعقل كما نقول .. ولم يعقل ، فعاشا أربع خمس سنوات ، ثم حدث الانفصال .. وولدت له ولدا ثم مات ، ولما طلقها سافر إلى أمريكا.

ـ بلد الرأسمالية !

ابتسمت وقالت : لم يكن الاتحاد السوفيتي يستهوي الشباب المهاجر ، ولم

يكن الشاب شيوعيا مثلها .. كان محبا للرأسمالية ربما جكرا بها وإغاظة لها .. وما زالت علاقتنا قوية معها .. وهي من الناشطات في ذلك الزمن.

فقال : ولما طلقت ؟

ـ تزوجت رجلا من الحركة ، وما زالا زوجين سعيدين .. وهي بعيدة عن أسرتها وإخوتها .

عاد إدريس لمصافحة السيدة على مدخل البيت ، ومكررا الشكر على الضيافة والمعلومات.

لَبس إدريس أحدث بذلة يملكها ، وانطلق إلى مطعم اللقاء في حي بهية .. وهو يعرف الحي معرفة تامة ، وتردد عليه كثيرا بسبب سيف الدين ومطاردته .. دخل المطعم ورأى الطبيبة تجلس على مائدة تحدق في الداخلين ، وبين يديها وردة بيضاء ، فابتسمت له ، وأشارت له ، فتقدم نحوها ؛ كأنه يعرفها من سنوات .. تقدم باسما ومصافحا وقائلا : الدكتورة هند!

ـ نعم ، السيد إدريس !

ـ نعم ، مرحبا كيف الحال ؟

ـ بخير .. تفضل بالجلوس .

جلس السيد قبالتها وقال : وحيدة!

قالت : نعم ، وحيدة أحببت أن أقابلك وحيدة ؛ولكنهم يعرفون خاصة زوجي بهذا اللقاء .. أنا والدي الدكتور غريب .. وجدي وزير صحة سابق وقديم .. وزوجي الطبيب محمود .

ـ أنا إدريس موظف سابق ..عملت في الوزارة عهدا ، ثم انتقلت للعمل في صحة البلدية .. أرمل يا سيدتي ، ومتقاعد في الوقت الحاضر .. أهلا بك .

حضر نادل المطعم بإشارة من السيدة المعروفة لهم ، ووضع أمامهم قوائم الطعام ، فقال إدريس : اطلبي أنت يا سيدتي أنا آكل كل شيء .. وأنا شاكر لك هذه الدعوة ،وإن كنت أحب أن نتعارف على فنجان قهوة .

ـ هل عرفت سبب اجتماعي بك ؟

ـ الصورة .. ذكرت لرئيس التحرير الصورة القاتلة ، وقابلت المهندسة سوزان التي تحدثت معك عن الصورة .

ـ أعرف ذلك ؛ لأنها تكلمت ، وأنت عندها.

ـ أجل ، هذا صحيح .

قالت : أنا أعرف تفاصيل قصة الصورة يا أستاذ إدريس .. الصورة التي كانت سببا لزواج أبي غريب من أمي نبيلة .

ـ نعم ، هذه حقيقة .

ـ أنت لا تعرف أمي !

ـ أبدا ، لم أرها في حياتي .

ـ وكيف عرفت بقصة الصورة ؟

تبسم قائلا : من نفس المهندس سيف الدين حاكم وردة .. فقد تعرفت عليه من بضعة شهور هذه حقيقة .

ـ أنت تعرفه حق المعرفة .

ـ أعرف قصة زواجه ، ثم طلاقه لأمك بعد أسبوعين أو ثلاثة من زواجها بعد قصة حب اشتهرت في ساحات وحدائق الجامعة .. وأمك ـ رحمها الله ـ كانت تجهل جهلا تاما كيف صورت تلك الصورة ؟ وقرأت الرسالة التي أرسلتها أمك ، وهي على فراش الموت تطلب من السيد المهندس أن يسامحها ، وتؤكد له من جديد براءتها .

ـ أوه ! أنت مطلع بشكل واسع على القصة .

ـ أجل يا سيدتي .. وأنا سوف أبحث عن الحيلة الماكرة التي صورت بها تلك الفتاة المسكينة تلك الأيام.

وضع الطعام المختار على المائدة ، ومسحت الدكتورة دمعات ، وقالت: أمي كانت مظلومة يا أستاذ إدريس .. كاشفتني بتفاصيل حياتها في الجامعة، ومع السيد سيف ؛ ربما لا تعرف السبب .

ـ نعم ، لا أعرف السبب .

قالت : السبب أيها السيد أن قريبا لي ابن عم تعرف على فتاة من آل وردة

من أقارب السيد سيف ، ورغب بها زوجة ، فصار لغط شديد ،

وغضبت أم أمي جدتي ، ورفضت هذا الزواج .. وذكرت الجرح الكبير الذي أصابها من سيف آل وردة .. ونشرت القصة من جديد ، وفشل الزواج .. فاضطرت أمي أن تحدثنا عن تفاصيل تلك الحكاية ، لي ولزينب شقيقتي الصغرى .

ـ نعم ، جريمة الصورة .

ـ وأنت ما معلوماتك عن الصورة ؟ وما هو دور سوزان في القضية ؟

ـ لا دور لها ، هي كانت زميلة لأمك في الجامعة ولسيف ولمراد وغيرهم .. وكانت مطلعة على قصة الحب التي كانت بين أمك والمهندس سيف ، وصدموا بالطلاق الذي حصل ..وأثار لغطا واستهجانا بين الزملاء .. وانتشر خبر الصورة التي سرعت بالطلاق .. فالمهندس سيف شخصية صعبة ومترددة أقولها بصراحة .. ربما القرار الوحيد الذي لم يتردد فيه هو طلب الانفصال .. فقد أخذ الموضوع بحساسية شديدة .. وتسرع .. فهو اعتقد أن وراء الصورة لعبة ماكرة ، وأن الزواج العاجل وراءه أمر خطير تغطية لدعارة وإباحية .. وأنه مكر به وجعل غطاء .. كان مصدوما منذ شاهد تلك الصورة .. أمك كانت جميلة وفاتنة كما قيل لي ، وحولها أصدقاء وشبان في الكلية في النادي وفي الحي .. واختارته فارسا دون غيره .. فاهتز وصدم جدا عندما عرف بأمر الصورة .. وأمك ـ رحمها الله ـ أنكرت معرفتها للكيفية التي تمت بها الحيلة .. فشعر الرجل أنه مخدوع ؛ ولكني علمت من السيدة سوزان أن عصابات تعمل في الجامعات على تصوير بعض الفتيات بصور مريبة للابتزاز والدعارة ؛ فكأن أمك تعرضت للخداع ، فصورت بوضعية مزرية ، لا أعني أنها مارست الحب بسبب تلك الصورة الصورة كشف أمرها بعد حصول الزواج .. وكان القصد منها أن يحصل الفراق بينهما وحصل .. الهدف واضح من كشف الصورة لسيف .. وليس لأمك أولا .. وعلمت من سوزان أن هؤلاء الخبثاء يصورون الضحية دون علمها ، وبعد شهور أربعة خمسة تعرض عليها تلك الصور الشيطانية .. فإما أن تستسلم لرغباتهم والانصياع لهم أو تثور ؛ والضحية

لا تدري كيف صورت ومكر بها ؟ لأنها ربما شاركت بعشرات السهرات والحفلات بعد حفلة التصوير السرية .. وسوزان تعرف ذلك من بعض الضحايا التي التقت بهن ؛ لأن بعض الفتيات كانت تلتحق بالحركة اليسارية هربا من عصابات الدعارة .. وأكيد أنت تعلمين أن السيدة شيوعية مخضرمة من جيل الستينيات ؛ ولكنها رفضت ذكر أسماء لي .. وإنما بينت طريقة الابتزاز والخداع .. تستدرج الفتاة المحبة للحفلات والسهرات إلى شقق الزميلات اللواتي يسكن بسكن خارجي .. هي سهرة ومرح وغناء جر رجل كما نقول .. تتعرض المقصودة لتخدير في القهوة في العصير في الخمر .. تنقل إلى حجرة لإجراء التصوير .. ثم تعاد إلى مكان السهرة .. فتظن أنها نامت من الشراب من الطعام .. لا يخطر في بالها أنها صورت صورا قبيحة إباحية .. وبعد شهور تعرض عليها الصور .. فلا تدري كيف ومتى حدث هذا المكر ؟ فأعتقد أن السيدة نبيلة تعرضت لمثل هذا الترتيب الشيطاني .. ولم تعرض عليها الصورة أو الصور ؛ لأنه لم يحن وقت الابتزاز .. فخطبتها وزواجها أفشل المخطط .. فورطوا أحد الزملاء بكشف أمر الصورة لسيف .. وهو فعل ذلك آملا الزواج منها ؛ لأنه طاردها منذ التقيا في الكلية .. ولكنها اختارت سيفا دونهم .. أرشده مراد أحد المغرمين بالسيدة إلى بائع الصورة ، وابتاع منه الصورة في أحد مقاهي المدينة .

ـ هكذا روت أمي القصة أيضا .. كانا في حالة ذهول وصدمة .

توقف عن الأكل ، وقال : الحمد لله ، أنا حياتي الأكل في المطاعم ؛ لأنني لم أتزوج بعد ترملي أنت يا دكتورة لماذا اهتممت بأمر الصورة ؟!

ـ كانت أمي حزينة لما آلت إليه حياة المهندس سيف .. فهو ابن حينا وجارنا .. فأخباره عندنا وهو كما تعلم حبها الحقيقي الأول .. والظروف أجبرتها على الزواج من والدي .. فلم تنساه أمي .. وإن كتمت ذلك عن الجميع ، كان زواجها الآخر سريعا ؛ لأن أبي كان متعلقا بأمي قبل زواجها من السيد سيف .. فنسيان الماضي لم يكن سهلا .. فقصة دامت خمس سنوات ـ سنوات الجامعة ـ لم يكن نسيانها سهلا عليها .. وسبب لها ذلك الكثير من النزاعات مع أبي ..

أدركنا ذلك لما علمنا القصة .. أمي كانت تتخيل نفسها إحدى بطلات القصص والروايات المصرية الرومانسية والعاطفية .. ومأساتها عمقت هذا التعلق بتلك القصص .. حياة المهندس سيف العزوبية كانت تؤرق أمي .. لو تزوج بعد تلك الأزمة يا أستاذ إدريس ربما ارتاحت أمي .. ارتاحت نفسيا ؛ لكنه ظهر لنا أنه تعقد من جنس النساء بسبب تلك الصورة الرهيبة .. والنَّاس لا ترحم .. فكنا نسمع أن أمنا السبب .. لماذا لم يتزوج المهندس ؟ السبب نبيلة وهو اسم أمي .

ـ ألم تحدث أمك بعد حين من الزمن عن كيفية خدعت وصورت ؟ فسيف يعترف أن أمك أنكرت بكل قوة وشدة معرفتها للخدعة التي تعرضت لها .

قالت بحزن بين : ماتت أمي وهي تتمنى لو تعرف الخدعة الرهيبة لالتقاط تلك الصورة ..لا تذكر أنها نومت أو خدرت.

ـ إنها كما يقول سيف عارية تماما .

ـ أنا فكرة الشقق السرية الشقق السوداء المظلمة راقت لي .. وأنا في الجامعة في كلية الطب سمعت بمثل هذه الأماكن قبل أن تسمع من سوزان ؛ ولكنني لم أكن أصدق ذلك .

قام الخدم بتنظيف المائدة ، وطلبت قهوة لها ولضيفها وقالت : حديثك

عن تلك الشقق كأننا في عالم الجاسوسية .

ابتسم وقال : نعم ، يا دكتورة .. كانت إسرائيل وما زالت تستدرج شبان وشابات فلسطين للعمل كجواسيس وعملاء على أهليهم ، فيستدرجون إلى شقق خاصة بعد اختيار الضحايا فيخدر ويصور في أوضاع جنسية قذرة ، ثم يهدد بعرض الصورة الفاضحة عليه ؛ فإما أن يتعاون معهم أو تنشر هذه الصور أمام أهله وأبناء بلده .. فأمام هول المناظر يضعف ؛ ليكون عميلا لهم حتى يفتضح أمره .

ـ سمعت بمثل هذه القصص .

قال إدريس : وهذا الاحتيال يستخدم مع بعض طالبات الجامعة ، وأعتقد أن السيدة تعرضت

لمثل ذلك الكيد .. والمدروس لا يعرف أنه مكر به إلا عند مشاهدة الصور .. فإذا طال الأمر لبعض الوقت سينسى متى خدع ومكر به ؟ وحين يكون الإنسان في سهرة ، وتناول مسكرات وأطعمة ثقيلة وقد رقص وتعب ، فلما يستيقظ سينسب ذلك للإفراط في الخمر والسهر .. لا ينسب الصداع والألم لتعاطي مخدر إذ أنه جاهل تعرضه للتخدير أو التنويم الإجباري .. هل يدرك الإنسان أنه خدر قسرا إذا لم يكن هناك علامات وإشارات يا حضرة الطبيبة ؟!

ـ التخدير الطبي يكون بعلم المريض أو مرافقه إن لم يكن واعيا نتيجة حادث أو ضرورة إن لم يكن معه أحد .. وهو جزئي وكلي حسب العملية المراد فعلها .. فطبيب الأسنان يبنج اللثة أو موضع العلاج .. والمخدر الطبي له مدة وكمية ، ويقوم به طبيب مختص في التخدير خاصة للعمليات الخطيرة .. ويراعى السن والصحة .. وتأثيره على الجهاز العصبي حتى لا يحس المريض بالألم أثناء الجراحة .. فبعد التعرض للمخدّر يفقد الإنسان الوعي وهذا الأصل .. فأما في الموضعي يتخدر موضع الجراحة ، ولا يفقد الشخص وعيه .. وأما تخدير السليم فيقصد به أن يفقد الشخص وعيه وتهمد أعصابه .. ولا يدري ما سيفعل به إذا خدر وهو واعيا ؟! .. أما غدرا فلا يدرك أنه خدر إلا إذا استيقظ ؛ وربما لا يدرك كما قلت ينسبه لعوارض من كحول ومخدرات نعس شديد أشياء أخرى .. إذا الشخص لا معرفة له بالتخدير لا يخطر على باله أنه خدر رغم أنفه .. قد يتعرض المخدّر إلى غثيان أو حاجة للقيء ؛ ولكنه لا ينسب ذلك للتخدير ؛ لأنه يجهل أنه خدر .. وقد لا تحدث له أعراض التخدير الكثيرة .. أما في حالة التنويم بالمنومات ، فقد لا يدرك أنه نوم بمادة منومة إذا كان متعودا على استعمال المنومات .

ـ ألا يشعر المخدر بما يفعل به ؟

ـ نوع المخدر وتأثيره وكميته له دور في ذلك .

قال : لو أمك فرضا أعطيت مخدرا في كأس شراب في طعام هل تحس أنها خدرت بعدما تستيقظ ؟

ـ حسب معلوماتي أنها تدرك أنها لم تكن في وضع طبيعي.. وإذا أخذ الشخص جرعة غير مناسبة قد يفقد الذاكرة ، وقد يموت .. آثار جانبية تظهر ؛ لكن قد لا يستطيع تفسيرها إن لم يتخدر من قبل .. وعندما يكتشف أنه تعرض لتخدير فسيتذكر ما حصل له من تخدير .. وأمي كانت تنكر بقوة تعرضها لتخدير في حفلة سهرة أو منوم .

ـ لكن يا دكتورة بعد شهور هل يفطن الإنسان أنه تعرض لذلك ؟ وإذا حضر المزيد من الحفلات هل يتذكر ؟

ـ الذاكرة لا تنسى .. تخزن الأحداث العقل الباطن .

قال : أنا سأجلس مع طبيب عمليات وغرف التخدير وأسمع منهم .. أنا فكرت بهذه القصة بعمق .. كيف يخدع الإنسان ولا يدرك أنه خدع ؟!

ـ كيف ؟!

ـ كيف ...! أحد يهمه أمرك .

ـ أحد . وتطلعت حولها وهمست: هذا ابني .

ـ نعم ، أراد أن يقترب منا ، ثم تراجع .

فابتسمت هند وقالت : أسامة تعال .. هذا الأستاذ إدريس .

قام إدريس مصافحا للشاب ، وقال الشاب: أبي قلق عليك .

قالت : اذهب إلى هناك واطلب ما تشاء .. لم يبق الكثير من الكلام .

ولما ابتعد الشاب قالت : وقفنا لكيف يا أستاذ إدريس .

قال : كيف ؟ أنا فكرت يا دكتورة ـ أنا حياتي القراءة والكتابة والفضول ـ لو فرضنا أنها تعرضت لمنوم .. فيشعر المنوم بالنعاس والنوم وينام حيث يكون أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد ؛ ولكنه قد ينتقل لغرفة النوم قبل أن يستسلم له .. الأصل أن ينام إلا إذا فسد مفعول المنوم أو لم تكن الكمية مناسبة أو أكل طعاما أضعف مفعوله .. المنوم يشعر بالاسترخاء ثم تنام العيون .

ـ هل لو نوم الشخص يفقد الوعي كالتخدير ،وأنه نوم رغم أنفه؟!

ـ سوف يدرك بعد الاستيقاظ أنه كان نائما .. إذا كان في حفلة وشراب وأكل وتعب قد ينسب ذلك إلى التعب والإرهاق .

ـ أعتقد أن أمك نومت رغم أنفها.

ـ لكن المنوم قد يستيقظ في أي وقت إذا حرك نقل أوذي بدنيا .. وإذا أعطي أكثر من اللازم ربما تكون حياته في خطر .. وقد يشعر أنه غير مكانه .. وهو سيظن أن أحدهم ينقله إلى غرفة نومه .. ويحس بثقل ويعلم أنه حدث معه شيء .

قال: جميل ! هذا المنوم لو ترك حيث نام في قاعة السهرة وعري وصور ، ثم أعيد كل شيء لموضعه ليعتقد عندما يستيقظ أنه كان في حلم في كابوس خاصة عندما يجد كل شيء كما تركه عندما نام من الأشخاص والأشياء .. هل يدرك ما جرى له سرا ؟ فهو سيعتقد أنه نام من التعب والشراب والرقص والطرب .

ـ ما دام لا يعرف المنومات قبل السهرة قد لا يظن أنه نام رغم أنفه .. لا يقع له أنه بلع المنوم وإذا حصل ذلك في آخر السهرة وبعد منتصف الليل

ـ صحيح ما دام أن الشخص لم يتعامل مع المنومات ، ولم يخبر بذلك في الأغلب لا يدرك أنه تعرض لغدر .. فينسب نومه للإفراط في الطعام والسهر والشراب وخاصة بعد تأخر الوقت .

ثم قال : جميل ! اتفقنا أن المنوم غدر ؛ ربما لا يدرك تعرضه لذلك لثقته بمن يسهر معهم .. وبعد نومه أعطي مخدرا حقنة أو شما هل يشعر بشيء من ذاك ؟

ـ أتعتقد أن ذلك حصل مع أمي.. تنويم ثم تخدير .

قال : أعتقد هذا يا سيدتي !

لقاء مع إياد

التقى الصديقان والزميلان القديمان إدريس وإياد ، ولما فرغا من الضيافة المعتادة لخص إدريس لصاحبه نشاطه في قضية الصورة التي دمرت أسرتين أو عائلات .

فقال إياد : التخدير بعد التنويم لا أعتقد حصوله .

ـ لماذا ؟!

قال : استخدام التخدير فيه خطر كبير على حياة المخدر .. فالجريمة أكبر من اللازم .

ـ قد يشرف على التخدير طبيب منحرف .

ـ والتخدير يفضّل أن يعطى على جوع كما يجري في العمليات الطبية.. ويعطى على طعام ؛ ولكن قد يخرج المخدر طعامه ويقيئه خاصة إذا كان التخدر كليا ليس موضعيا .

ـ قد يقيء المخدر كما تقول .. وإذا خدر سرا قد يعتقد أن ذلك بسبب الأكل الزائد الفاسد وعلل في جوفه .. وقد لا يقيء المخدر .. وكلامك يا إياد عن المخدر لعملية جراحية ليس لعملية اعتداء وتصوير حتى لا يشعر بالألم والجراح .. أما تخدير لغرض آخر قد لا يستغرق وقتا طويلا ساعة أو أقل كما تخدر الحيوانات في الغابات والبرية .

قال : أنا عندي فكرة حول الموضوع لهذه الحفلة .

ـ ما هي الفكرة الإيادية ؟

ابتسم إياد لرفيق الدرب وقال : الفكرة يا سيدي أنها أعطيت جرعة مضاعفة من المنوم حبتين وليس هناك ضرورة لنقل الضحية لمكان آخر من الشقة، تصور في مكانها بعد إجراء بعض التغييرات الديكورية .

ـ فكرت في ذلك ، وهم حريصون على أن لا تتذكر الضحية مكان التصوير .. ونبيلة خالد لم تعرف أين مكان الصورة ؟ تخلى الشقة من الأشياء ، ثم تعاد .. قد يكون حصل مثل ذلك حتى لا يشعر المخدر بنقله وتخدره .

قال إياد : وأنت تراهنّ لا يلبسن الكثير من الثياب لستر أجسامهم .. ملابس داخلية

وقميص وتنورة أربع خمس قطع ..

تنهد إدريس وقال : لا يحل اللغز إلا أحد شارك فيه أو شارك في مثل هذه الجرائم !

قال : أكيد ؛ ولكن لنا يا إدريس أعطينا قدرات على التخيل ؛ ولعل السيدة سوزان لديها المزيد من المعلومات عن هذه العصابات الداعرة .. وما العمل الآن ؟

ـ العمل يا سيدي أن نبحث ونبحث حتى نلتقي بأحد المجرمين إذا كان على ما زال على قيد الحياة .

ـ وهل تراه يعترف بعد مضي كل هذه السنين ؟

قال إدريس : لعله يعترف من باب المكابرة والغرور .. الطبيبة هند أذكر أنها لم تعترض على حدوث التخدير بعد التنويم كما اعترضت أنت .

ـ ولماذا اهتمت هند بالقصة ؟!

ـ الفضول .. وتركت لها أمها تلك الرسالة التي كتبتها لزوجها الأول ؛ لتهتم بالأمر إلى حد ما.. الحكاية كلها عجيبة .. فعادة هؤلاء الأثرياء المتأثرون بالغربيين الغيرة عندهم ضعيفة نحو النساء والبنات .. فهم عشاق الموسيقى والحفلات والسهرات والرقص والسكر .. ونساؤهم شبه عاريات .. وسيف عاش حياتهم ؛ ولكنه صدم بصورة زوجته ، ليس غيرة إنما خيانة ومؤامرة .

ـ الغيرة لا تموت ؛ بل السكارى يغارون على بناتهم وزوجاتهم ؛ لكنهم يتساهلون بالمقابل ؛ لأنهم يتطلعون لزوجات وبنات أصحابهم .. في هذه البيئة لا دور في حركة الغيرة بين الناس .

عاد إدريس يقول : يا صديقي نحن لا يهمنا عادات الأغنياء .. رجال أو نساء وتلك الطبقة من المجتمع .. فهذه الفئة موجودة في كل المجتمعات .. أنا تعرفت على الرجل ؛ وبعد مطاردة كما تعلم عرفت قصته وعقدته .. فأنا أسعى لمعرفة لغز تلك الصورة الماكرة يا إياد .. لعلي بذلك أدفعه لإعادة ترتيب حياته ويتزوج .. تقدمنا كثيرا .. وهو مقتنع الآن أنه خدع ، ومكر به .. وعرفنا أن السيد مرادا زميله في الكلية لعب دورا قذرا .. وما كان دوره إلا مجرد بريد

حالما بالفوز بنبيلة التي صدته كل السنوات.. وفاز بها سيف الأحمق الساذج بنظره .. والماكرون يعرفون حقده وحسده لسيف ، فاستغلوه بكل خسة .. المحبون من طرف واحد لا إيثار عندهم خاصة في جامعة .. وهو شاب مغرور وصياد نساء فقبل بنقل الرسالة لسيف عن الصورة ومكان إيجادها والتحقق من صحتها .. والمهندس المهزوز الشخصية الغر في تلك الأيام والفارس الفائز بقلب نبيلة ابنة مدير المستشفى والأكاديمي المعروف صدم من الطعنة وتخيل أشياء لا حقيقة لها ، وأنه غطاء لماجنة .. سنتان يتبادل معها النظر فقط ، ولولا رغبتها فيه ما صبرت وانتظرت ؛ ولكنها أدركت شخصية فارسها .. ويقال الحب أعمى .. ويخيل لي أنها ذات شخصية قوية ؛ ورأت أنها أحد أبطال الروايات التي قرأتها .. فلما طلبت منه الخطبة أسرع ، ولما طلبت منه الزواج لبى ، وتزوجا وهما على مقاعد الدراسة ..ولما شاهد الصورة صدم وظن أو اعتقد أنه ضحية .. ولا أعتقد من نفس الصورة .. فهو يملك صورا لها تكاد أن تكون عارية ، صورا بثياب المسبح وهي مبطوحة حول المسبح مع فتيان مع بنات .. والفتاة تصورت هذه الصور الفاضحة بملء إرادتها .. .. وسيف مثلها بصور السباحة .. أما التعري الكامل فهو صدمة .. ولا تنسى إيحاءات مراد مخيفة .. فظن أن التي تسمح لنفسها بمثل هذه الصورة تقدم جسدها على مذبح الدعارة والفجور وإلا كيف قبلت لقط هذه الصورة ؟ وتوهم أنها عشيقة لآخر أو أكثر .. فهو يجهل الكثير من حياتها الخاصة ؛ بل قال : وقع في قلبي أنها مومس ، وما أنا إلا تغطية والزوج الديكور ؛ ولذلك سرع في زواجنا ؛ لأنها هي التي طلبت مني الإسراع في الخطبة، ثم الزواج ، ومع ذلك أعترف أنها كانت بكرا ليلة الدخلة .. ولكنه سمع عن الأغشية الصناعية التي يخدع بها الذين يهتمون بالبكارة عند الزواج .

ـ وهذا صحيح سمعت عنه من بعض الأقارب وبعضهم يسميه الترقيع

قال : فهذا ما وقع في نفسه تلك الساعات عندما شاهد الصورة ظن أن الدماء مصطنعة .. وأنا لا أعرف تفاصيل مثل هذه الخدعة .. وكيف تنطلي على الزوج ؟ مع أننا نسمع أن بنات لا تزول بكارتهن إلا مع الولادة الأولى .. واعترف أن الكثير من رجال وشبان الحي لا يهتمون

بهذه القضية .. ولا يَرَوْن عيبا وعارا أن يدخل الشاب على فتاة ويجدها غير عذراء ..لا يهمهم ما قبل الزواج ، كما أن الشاب قد يكون زانيا قبل الزواج ..فلماذا يدقق بعد الزواج؟

ـ أولئك زواجهم مصالح ومال وثروة .

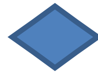
ـ صدقت ، فرأى الانفصال وبأسرع وقت قبل أن يجد لديه طفلا من ماء غيره .. ونبيلة دافعت عن شرفها وعفتها ؛ ولكنها لم تستطع تفسير وجود هذه الصور في حياتها ..وأقسمت أمام أبيها أنها لم تتعر أمام كاميرا أو مصور سواء كان ذكرا أم أنثى .. وقبل والدها الانفصال دون شوشرة وخصام ، وجرى الطلاق بكل روية وبساطة ؛ ولكن القصة لم تنته عند سيف ، فقد ظل رافضا الارتباط بأنثى نتيجة هذه الحادثة .. والمرأة أحست بالألم والمرارة والمعاناة بسبب عزفه عن الزواج .. وهي التي تزوجت وأنجبت .. فكانت الصورة كارثة لسيف وعقدة ، ومضت السنون دون أن يكشف أمرها .. من صورها ؟ وكيف صوروها ؟ حتى وصلت القصة للسيد إدريس .. ولما علمت هند أن أحدهم مهتم بقصة الصورة أحبت اللقاء به ؛ لأن أمها ماتت وهي قلقة نحو زوجها وحبيبها الأول.. وتريد تشجيعي للاستمرار بالبحث عن كيفية حدوث اللعبة .

وقال أياد : وعرف إدريس الحيلة والشقق المستأجرة لتنفيذ الجرائم الجنسية على مذابح الشهوات والإباحية .. وماذا يفعلون بالضحايا ؟

ـ يصبحن يا سيدي كما تقول المهندسة سوزان عشيقات لرجال البزنس مقابل المال ..قسم للقواد وقسم للضحية .. هناك بشر يمارسون الدعارة بعلم زوجاتهم ، وآخرون دون علمهن

تنهد إياد أسفا وألما : للأسف أيها الصديق الإباحية والدعارة من أكبر أسواق التجارة العالمية في أنحاء العالم كله ،حتى أن بلادا دخلها القومي من الدعارة والشذوذ والانحرافات الجنسية .. استغلال مرعب قاتل للثروة والأمراض الجنسية المدمرة كالإيدز .

ـ هذا صحيح وخطير وعقاب!



كانت السيدة سمر تستقبل إدريس بناء على توصية من صديقتها سوزان ، وكانت السيدة قد عملت ممرضة في مستشفيات الحكومة الرسمية، وتقاعدت واشتغلت في مستشفى خاص بضع سنين ، وهي اليوم متقاعدة من عدة سنين ، واستقرت في البيت .

فرحبت هي وزوجها وبعض أفراد أسرتها بالكاتب إدريس ، وجلسوا في صالة المعيشة ، وبعد الترحيب والتعارف وبيان الغاية من هذا اللقاء تركت الأسرة الغرفة لهما ، وقد بدأت تتحدث عن حياتها في الجامعة في مطلع الستينيات ، وكيف انضوت تحت الحركة اليسارية والشيوعية العالمية ، وتحدثت عن نشاطها في الإعلام وغيره ، وجرها إدريس بذكائه إلى ذكريات الشباب والسيدة نبيلة خالد والصورة .

فقالت : مدام نبيلة كانت فتاة فتنة للناظرين ، وأنت تعرف أن الفتاة الجميلة تلفت نظر الشبان إليها أكثر من الدميمة والسمراء ، خاصة في مجتمع شرقي .. وكيف في مجتمع جامعي متأثر بالحضارة الغربية ومبهور بها ؟! مجتمع حرية واختلاط .. وكانت الفتاة ابنة مدير وأكاديمي معروف في الجامعة وعلى مستوى المدينة كلها .. وكانت مع جمالها الفاتن تتبرج تبرجا مغريا ومثيرا للشباب الصغير الذي ما زال يعاني من فترة المراهقة والإباحية التي اجتاحت العالم بعد الحرب الثانية ، حتى أن المجتمعات الغربية ضجت وانزعجت منها .. فكيف ببلاد محافظة وتقاليد طال عليها الزمن ؟! كانت مهوى كل طالب معها .. وكانت ترافق في حرم الجامعة الجميع ذكورا وإناثا ؛ ولكن لم نسمع أن أحدهم كون معها صداقة خاصة ، وفاز بها كحبيبة وصديقة يا أستاذ إدريس.. هذا كان قبل تعرفها على سيف كحبيب .

وكان إدريس يهز رأسه ، وهو يسمع هذه المعلومات ، ومستغربا مما يسمع، وتابعت : كانت تصرح أمامنا بحبها لسيف الطالب الخجول سيف وردة .. وسمعنا أنه كان ولها بها ؛ ولكن لم يعترف لها بذلك الحب إلا بعد مضي أكثر من سنتين يا إدريس .. عرفنا بحبهما .. وهما كانا من أبناء الطبقة الغنية ،، ويسكنان نفس الحي حتى أن نبيلة احتفلت بمناسبة إعلان هذا الحب .. وذهبنا للغداء في أحد المطاعم الضخمة في قلب المدينة ؛ ربما كلفتها الدعوة مائة دينار

في ذلك الوقت .. قارن بنفسك.. كانت سعيدة بهذه العلاقة .. وكانت بعض الزميلات يستغربن هذا العشق لشاب يرونه معقدا وكثير الخجل ، وقليل الاختلاط بالصبايا .. وترفض أي كلام سيّء عنه .. كانت تحبه بصدق ، وليس مجرد فترة جامعة وانتهى ؛ ولكنها ظلت كما اعتادت تحادث هذا وذاك وكما عودتنا بقيت تشارك في الرحلات ، وتقول فترة الجامعة لن تعود .. وتشارك في النشاطات والحفلات والمناسبات ؛ ولكنها كانت تعادي الأحزاب .. ولم يجلبها أي تيار مثلي ومثل سوزان .

وبعد لقط نفس تابعت : تلك الفترة من الزمن كان أكثر طلبة الكليات العلمية كالطب والهندسة والصيدلة والتمريض من أبناء الطبقة الغنية في المدينة لارتفاع تكاليف الدراسة ماديا وهي مازالت مرتفعة اليوم كما ترى ؛ لذلك كنت لا تجد في تلك الفترة من أبناء الطبقة الفقيرة الكثير في تلك الكليات سوى المبتعثين على نفقة الوزارات الجمعيات وأصحاب المال .. وكان أهلوهم يتحملون مصاريفهم اليومية وأثمان الكتب والنقل واللباس ، فتجد بينهم معاناة بين شهر وآخر.. ولا ننسى أن بعض البعثات كانت تؤمن لهم الكتب وبعض المصروف .. ولكن النشاط الجامعي يحتاج لمزيد من الدخل والمصروفات ؛ لذلك كان يسقط البعض في قضايا أخلاقية كترويج الجنس والمخدرات لمزيد من المال .. ولا يعني هذا أن أناس الطبقة الغنية لا يحصل منهم هذا .. والطالب إذا لم يكن يحمل مبادئ تحميه من الفساد فسقوطه أسرع من غيره .. فكنا نسمع ونعرف بعض الفتيات تبيع جسدها من أجل المال ..وهناك من أجل الشهوات والمتعة .. وطلاب المساكن الجامعية يحصل منهم التفلت أو الذين يسكنون حول الجامعات لعدم حصولهم على سكن جامعي .. والفاسد يحب أن يرى كل الناس فسدة مثله .

ـ هذا قاعدة مهمة ومعروفة في علم الحياة والأخلاق .

وقالت : وكان رجال الطبقة الأرستقراطية ورجال المال يحبون إقامة حفلات وسهرات ماجنة .. ويحبون تواجد الفتيات الجميلات والجامعيات في تلك السهرات ، ويدفعون المال والذهب والجواهر مقابل سهرات حمراء يسمونها .. وموانع الحمل يوفرونها ، وأطباء الإجهاض

يغامرون إذا فشل المانع وحصل الحمل .

فقال إدريس : وكانت بعض الفتيات تقاوم هذا فيتعرضن للكيد والاحتيال في شقق الشيطان

ـ نعم ، هكذا الأمر تجر الفتاة الممانعة والفاتنة إلى تلك البيوت باسم حفلة باسم العام الجديد باسم الفصل الجديد حفل وداع حفل ترحيب ..سهرة باسم عيد ميلاد عيد العشاق أسماء كثيرة تتردد وتسمع .. وهناك يرتب للضحية بخبث وشيطنة .

ـ وبواسطة التخدير تجرد من ثيابها وتصور صورا إباحية بأوضاع خطيرة ، فلما تَر الفتاة تلك الصور تظن أنها بائعة هوى مومس .

ـ فإذا كانت الفتاة الضحية ضعيفة مهزوزة لا تستطيع المقاومة تصبح فريسة سهلة للصيادين فبعضهن يسقطن بسبب الخوف من القتل من قبل أهليهن أو الحرمان من الجامعة والدراسة فتستلم للجلاد .. وبعضهن يهرعن للحركة الشيوعية كحماية لهن من الدعارة أو التيارات اليمينية المتشددة .. ورغم أن الجنس ليس مهما لدى الحزب ؛ لكنهم لا يقبلونه بهذه الطريقة الدنيئة والاغتصاب والإكراه .. فهؤلاء رغم قبحهم يخشون سطوة الأحزاب ؛ لأنهم سيشهر بهم ويفضحونهم .. فهذه إحدى وسائل النجاة من براثن عصابات الإباحية .. وصورة نبيلة شاعت في الجامعة بسبب الزواج والطلاق السريع.. ولم ير أحد تلك الصورة بعينه.. وبنات الأغنياء صعب ابتزازهن بالصور ، لسن بحاجة لمال ؛ وإنما تستغل صورهن إن كان لهن عشاق يرسمون للزواج منهن .. وفي الغالب يفشل هذا الأسلوب .. فكانت المخدرات السلاح الموصل لهن أو هنّ يهوين تلك الحياة الماجنة ..وأن الاستمتاع بالحياة والجامعة مرة واحدة في العمر .. وكما نسمع أن أهليهن لا يهتمون لبكارتهن كما يهتم بها أبناء الفقراء والطبقة المتوسطة .. العفة مهمة عند هؤلاء .. فهي صورت من أجل تدمير حياتها الزوجية وطلاقها .. راج في البداية أن مرادا وراء الصورة لعشقه الكبير لها.. ثم تبين أن لا يد له في الصور ؛ وإنما هو مجرد بريد .. ضربة وصابت كما يقال .

ـ كلام جميل وتفسير جديد يا سيدتي ! نعم ، لم تصور لاصطيادها للدعارة .. الهدف إفشال

حياتها الزوجية .. لقد استمعت لقصة الصورة من المهندس مراد والمهندسة سوزان ومن زوجها شخصيا المهندس سيف ، وأصبحنا أصدقاء من وراء هذه الصورة .. نحن وصلنا بالمعلومات حولها إلى تلك الشقق ؛ ولكن لم نعرف مكان لقط الصورة ، ولا كيف صورت ؟ أسمعت شيئا بها أنك كنت طالبة تمريض ؟!

ـ أنا سمعت عنها ، وعن غيرها لأني أعرف بعض الطلبة من كلية التمريض مشاركين للأسف في عملية الاصطياد للفتيات .

ـ من أجل المال المال .

ـ المال الدافع الأهم ، كان يدفع بسخاء ، كانت الحفلات الخاصة قد تكلف خمسمائة دينار في ذلك الوقت طعام شراب خمر صور .. أما قصة صورة نبيلة فأرى أنها كانت مختلفة ؛لأنها لم تكن بحاجة لمال .. وكانت تلبس ثيابها مستوردة ، وكلها ثياب قصيرة ، تكاد تكون عارية ، وكانت تشاهد في مسبح كلية الرياضة بالمايوه ؛ لكن لماذا صورت وعرضت تلك الصورة على زوجها ؟لا أحد ممن عرفته عرف ، ولولا الزواج السريع لما كشف أمر الصورة .. كان الأمر حقا غريبا يا أستاذ .. علمت من سوزان أنك التقيت بابنة نبيلة الدكتورة هند .

حدثها بإيجاز قصة لقائه بهند ، وهي عرفت باهتمامه بأمر الصورة من حديثه مع السيدة سوزان وطلبته عن طريق الجريدة التي يكتب لها ، وذكر أنه اهتم بقصة الصورة عندما تحدث مع مراد وذكريات الستينيات .. وكانت الحكاية طريفة ، ثم تعرف على سيف ، وأنه سيتابع قصتها بعد إنهاء المقابلات الأربعة ، وبين لها أنها الثالثة في حديث الماضي والشيوعية العربية .

قالت : أنا أيضا أعرف الطبيبة هند ؛ ولكني لا أتعالج عندها .. لقد عملت في مستشفى حكومي قطاع عام ، ثم مستشفى خاص قطاع خاص كما يقال .. وما زلت أحمل وثيقة علاج مجاني أو ما يسمى بالتأمين الصحي .. هل حدثتك عن علاقة أمها بأبيها الدكتور غريب الذي أعرفه بحكم عملي في الحكومة ؟

ـ لا ، لم تحدثني بأمر خاص، هي رغبت بسماع ما عندي حول تلك الصورة .

قالت بحيرة : لا أدري هل يحق لي أن أقول أم لا ؟!

ـ أنا مستعد للاستماع .. وهذا يرجع إليك ، وإذا كان مهما ومثيرا ويساعد في قصة الصورة .

ـ لا دخل له في أمر الصورة ، لم يكن السيد غريب وراء الصورة ، ولا هو الذي طلب من مراد إخبار سيف بأمر تلك الصورة .

ـ أثرت شهيتي .

قالت : لن أثير شهيتك وفضولك .. أنت تعلم أن سيفا تزوج نبيلة قبل هذا الرجل .

قال : نعم ، أعرف أنه السبب في سرعة زواجها .. حدثني سيف عن قصة زواجه العاجلة إعلان الخطبة بسبب ظهور غريب كزوج منتظر الزوج القادم من أوروبا ، ثم الزواج بسبب الوزارة .

ـ نعم ، أنت تحدثت مع سيف بالتفاصيل .

ـ هو اعتزل النساء ؛ بل صدم منهن أو منها .. ولم يعد يعير النساء أهمية وما زال .

قالت : أنا بعد التخرج الجامعي لم أعرف عنه شيئا ، ولم ألتقِ به يا سيدي ؛ لكن ظلت علاقتي بنبيلة إلى أن ماتت ؛ ربما بسبب علاقتي الخاصة بسوزان .. والمهندسة نبيلة تزوجت بالدكتور غريب فور فشل زواجها من سيف وانتهاء العدة المعمول في المحاكم الدينية .. أنت مسلم يا إدريس !

ـ أنا مسلم يا سيدتي! .. وأصوم وأصلي الصلوات الخمس ، وأديت فريضة الحج ..وأعمل في الصحافة بشكل غير احترافي .. لست صحفيا رسميا .. أكتب لصحيفة أسبوعية أو أكثر .. أعلق على كتاب ، ألخص لهم كتابا اهتم به الرأي العام .. مقالا حول موضوع معين .. إجراء حوار مع شخص معين .. وأنا أكتب من أيام الجامعة .. ولي سنوات أرمل أعيش وحيدا .. هذا ملفي الشخصي .

ـ أنا حدثتني سوزان عنك .

ـ وأنا لي معارف وأصدقاء من جميع الفرق والأحزاب بحكم السن والعمل .. كنّا نتحدث

عن زوج نبيلة ، وهو ما زال على قيد الحياة .

ـ أعتقد أنه تزوج بعد ترمله بأسابيع .

ـ لم أسمع بذلك !

ـ ولا من سيف ؟!

قال : أعتقد أنه لا يعرف أو يعرف وغير مهتم .. فهو ربما لم يره في حياته .

قالت : نبيلة يا إدريس تزوجت طبعا بعد مصيبة الصورة المشهورة آنذاك .. ولم يكن والدها المعروف تلك الأيام ـ لعمله في الجامعة ، ثم لكونه مديرا لمستشفى الجامعة الطبي ـ بالمتشدد والمتعصب دينيا .. فعرض ابنته على الدكتور غريب ؛ لأننا سمعنا من نبيلة أنه رغب فيها فور عودته من بريطانيا حيث درس ، وقبل بها رغم أنها أصبحت مطلقة .. كان له هوى فيها .. وكان الدكتور خالد قد أصبح وزيرا .. فقربه وعينه في مستشفيات الدولة .. فهو صهر الوزير ولكن الوزير مات بعد الزواج بشهور ، وفي أول عام يعمل فيه كوزير .. وقد شيد لها والدها قصرا في الحي .. وبعد حين يسير بعد موت الوالد تمرد غريب على امرأته وأهلها .. وأصبح من زمرة رجال السهرات والفنادق والعلاقات الجنسية خارج بيت الزوجية .. قبلت نبيلة هذا الوضع المزري ؛ لأنها أصبحت أما .. والرجل فهو ابن الغرب بالنسبة للعلاقات والشراب .. ولم تقبل أمها وأسرتها الطلاق ثانية ، وعليها الصمت .. هذا سمعته منها ومن بعض أخواتها فقد سجلت عليه قضايا أخلاقية لم يكن الزوج المثالي .. فقد أوقف فترة عن العمل في قضية اعتداء على قاصر .

ـ أنا أدركت أن علاقته بالأسرة علاقة مصلحة وطمع وانتهازية .. والدكتور خالد لو كان مقتنعا به ما زوج ابنته البكر لسيف قبله .

ـ هذا صحيح ، واعترفت لنا نبيلة بذلك ، ربما لتبرر زواجها منه ، وخيبتها فيه .. لكن بعد طلاقها لم تجد هي ووالدها وأمها مجالا للرفض .. وكان طلاقها كما تعلم صدمة للجميع ، حتى نحن معارفها في الجامعة صدمنا ، لما عرفنا من قوة حبها لسيف .. وكانت له امرأة

وسيدة بيت، وولدت له بنتين وشابا .

قال : زينب وهند .

ـ زينب الصغرى صيدلانية ، وخالد طبيب مثلهم .. وهو أكبر أولاد وهم كلهم أطباء ما عدا نبيلة .. وزينب أرملة منذ سنوات .. وطلبت مني أمها قبل موتها أن أجد لها زوجا ، وأرسلت لهم اثنين ، فلم يقبلوهم

ـ ألها أولاد ؟

قالت : زينب لها بنت واحدة ، وتعيش وحيدة في فيلا في حي بهية .. تزوجها أنت يا إدريس ما دمت أرملا مثلها .

قال بدهشة من العرض : أنا.. أنا الفقير الغلبان يا سيدة سمر !

قالت بنوع من الحماس المفاجئ : صدق إذا كان لك رغبة في الزواج أنا أتكلم معها .. أنا أو سوزان .

قال بنفس الدهشة لتحول الموضوع إلى زواج : لن تقبل بي .. أنا ضعيف جنسيا .. وكنت أعاني من عدم القدرة على التلقيح والإخصاب .

قالت مشجعة الفكرة التي ولدت : اليوم لدينا التلقيح الصناعي، إذا كانت القضية قضية تلقيح .. أسمعت بطفل الأنبوب أو المختبر ؟

ـ أسمع ومن لم يسمع به ؟!

ـ نجاحه قليل ؛ ولكنه يثمر إذا حلمت بالزواج .. فالسيدة زينب جيدة ، وهي متدينة على غير عادة أهلها وحيها .

ـ ماذا تعنين بمتدينة ؟!

قالت :كان زوجها مسلما مصليا ويصوم .. علمها ذلك .. وترتدي الزِّي الديني .. وتفعل كما تفعل المتدينات .

قال بنوع من المزح : وهل تقبل بي ؟!

ـ أعتقد أنها تقبل إلا إذا نظرت إليك نظرة أرستقراطية .. فزوجها كان يعمل في الحقل الطبي فهو مثلنا مهندس طبي .. تعرف الطب اليوم آلات ماكنات أجهزة طبية كثيرة .

ـ أعرف هذه المهنة .

ـ فهو يعالج هذه الأشياء الوظيفية الكثيرة .. إذا قبلت بها مبدئيا سأسعى بنفسي بذلك

ضحك إدريس وقال : أتزوج بعد عشرين سنة عزوبيا ؟ ..أنا لا أصلح للنساء .

ـ أنا أدرك أن طبيعتك ضعفت أو ماتت إلا إذا ...

قال مقاطعا : بدون إلا إذا .. إنها تعيش في بيئة متحررة يا سيدتي .. أنا لا أشرب الخمر ، ولا حتى الدخان أقربه .. وأنا مدمن مقاهي ، وأجلس فيها يوميا ، ولا ألعب الورق وغيره ؛ إنما أتفرج على الناس .. أنت لماذا فتحت موضوع الزواج ؟!

ـ لما ذكرت أمر صلاتك وحجك تذكرت السيدة زينب .. فخطر في بالي الزواج وقلت أمها طلبت مني ذلك .

ـ أمها مهتمة بزواجها.

ـ نعم ، ومنذ هلك زوجها .. لا تريد زوجا منفتحا على الحضارة الغربية الخمر ولحم الخنزير والرقص .. تريد رجلا متدينا إلى حد ما .. وأنت مناسب .. وأعتقد أنها طلبت مني ذلك مع أنني لست متدينة ؛ ربما لأن لي أخا شيخا كبيرا .. شقيقي إمام مسجد كبير في المدينة .

ـ شقيقك إمام مسجد ..وأنت يسارية شيوعية !

ـ هكذا الدنيا ، فهي ظنت أن أخي الفاضل قد يستطيع تحقيق ذلك .

قال بتعجب : فهمت الآن!

شقيق سمر

تفاجأ إدريس بحق بأن يكون للشيوعية سمر شقيق دكتور في الشريعة الإسلامية ، وإمام لمسجد .. واليوم الشيوعية ماتت في بلادها الروسية ، وأصبح الحزب الشيوعي الروسي من أضعف الأحزاب ، ولم يعد يحقق نوابا في مجلس الدوما الروسي ، والشيوعية خفت على مستوى العالم بانهيار الاتحاد السوفيتي ، ورفضت سمر الحديث عن أخيها وعنوانه ومسجده ، واستعان بإمام مسجد الحي ، فتوقع عدة أسماء وقال : ما اسم السيدة كاملا ؟

ـ لا أعرف إلا اسمين سمر عمران .

ـ افتح دليل الهاتف ..أغلب الأئمة يملكون هواتف منزلية للتواصل مع الإدارة .. وغدا عند الدوام الرسمي سأتحدث مع الإدارة لمعرفة عنوان مسجده ومن هو ؟

ولكن دليل الهاتف الأرضي سهل المهمة ، واستجاب الرقم المنزلي ، وتفاجأ الإمام بالطلب ، واعترف بأن شقيقته كانت إحدى كوادر الحركة اليسارية الإلحادية في المدينة .. وذكر له السبب باختصار .. وطلب منه مقابلة شخصية قصيرة .. ووافق الدكتور سمير عمران ، وحدد أن تكون بعد صلاة العشاء في مسجده .

وفي الليلة التالية كان إدريس يصلي العشاء وراء الشيخ سمير في مسجد الأندلس العربي ، وبعد الصلاة صافح إدريس الإمام معرفا بنفسه . فقال الدكتور باسما : أهلا وسهلا ..أنا في انتظارك هيا إلى مكتبي في البيت .

كان الدكتور سمير يسكن في شقة ضمن نطاق المسجد ، وعرض الرجل العشاء على ضيفه ، فاعتذر إدريس وقال : الشاي يكفي . ثم بين له سبب المقابلة ، ثم عقب ختاما : حقيقة يا دكتور أصبت بالدهشة أن يكون هناك دكتور شريعة ، وشقيقته من الأسماء اللامعة في الحركة الشيوعية .

ـ لا تعجب من ذلك يا سيدي! كان نوح مؤمنا ، وكان ابنه وزوجته كافرين .. هذا يحدث في دنيا البشر .. أليس كذلك ؟!

ـ صحيح ؛ لكن كيف ؟

ـ أنت تكتب كما فهمت منك بعض المقالات عن الشيوعية ، وكيف اعتنقوا هذا الفكر المريض اليساري الإلحادي ؟ وكيف يَرَوْن أنفسهم بعد زوال قلعة الإلحاد العالمي الاتحاد السوفيتي ذلك السقوط المدوي؟ لكن الشيوعية كفكرة لن تموت ، هي فكرة قديمة تطورت وستبقى ؛ لكن لن تعتمدها دولة كمنهج حياة حتى الصين خرجت من عباءة الشيوعية اللينينية والستالينية من أيام ماو وخروتشوف

ـ نعم ، هذان هما السؤالان اللذان سعيت للإجابة عليهما من تلك المقابلات والذكريات ؛ ولكن خلال الحديث تحدث قصص فرعية ؛ فإما أن نتوسع فيها أو نختصرها ..فلما قابلت السيدة سمر أحد الأشخاص الأربعة الذين أجريت اللقاءات بهم ، كشفت لي أن لها شقيقا متدينا ، ويعمل في وزارة الدين فاستغربت فعلا .

قال سمير : ولماذا كشفت لك الأمر ؟وهذا ليس من عاداتها!

ـ هناك سبب لا أدري هل أتكلم عنه أم لا ؟

ـ هل هو سر ؟

فكر لحظات ثم قال : ما هو بسر.. سأقول لك .. هناك امرأة أرملة لديها بنت أرملة ترغب بتزويجها من شخص متدين ؛ لأن البنت متدينة إلى حد ما .. ورأت أختك أنني المناسب بصفتي أرمل من عشرين سنة .. ولما علمت أم البنت بأن لسمر شقيقا يعمل إماما طلبت منها ذلك .. وهي بالتأكيد لم تكن تعرف ابتعادكم عن بعض .. فهم يريدون متدينا بدون لحية وبدون ثوب قصير ؛ لأن الفتاة من طبقة ثرية وطبيبة صيدلة ومن سكان حي بهية التاريخي .. وسبب تدينها كما فهمت من السيدة سمر من زوجها المتدين .. فمنعها من السفور والتبرج ، وأثر فيها دينيا كما فهمت من سمر .. فهي بعيدة عن الخمر والدخان والمجون ؛ وكأنها ترفض زواج أحد من تلك المنطقة أو غير متدين .. فقد أرسلت لهم سمرا رجلين ، وتم رفضهما وكأن السيدة رأت فيّ زوجا مناسبا مع أني من طبقة متوسطة .. موظف متقاعد .. وأنا متأكد

أن سمرا لم تتحدث معك في مثل هذا الموضوع .

قال مبتسما : هذا صحيح يا أستاذ إدريس! هل ذكرت لك سمر كيف كفرت بالله وأنكرت وجوده وتركت الإسلام ؟

ـ نعم ، ذكرت كيف أصبحت شيوعية ؟ لأن هذا جواب السؤال الأول للمقابلة .

ـ دعني أسمع ؛ ربما أضفت لك شيئا لم تذكره لك .. أكتبت المقال ؟

ـ نعم ، سهرت عليه أمس ليلة امس ، ولما يجهز ـ طبعا ـ سأعرضه عليها ، ثم يقدم لرئيس التحرير ، وقد يضيف أو يعدل .

ـ ماذا قالت عن بدايتها الإلحادية ؟

قال: تعلم أن كل من يتكلم عن نفسه سيبدو للقارئ بطلا.. القليل من يعترف أنه إنسان بسيط ونكرة ..كلهم أبطال .. ويتوهم أنه قابل خروتشوف وبريجنيف .

هز سمير مؤكدا هذه الملاحظة : الكل أبطال .. صدقت !

ـ أنت أكيد تعرف الشيوعية والماركسية ، وكيف نشأت ونمت في أوروبا ثم روسيا ؟

ـ لولا الحرب العالمية الثانية لماتت الشيوعية أو حصرت في الاتحاد السوفيتي .. الشعوب الأوروبية لم تقبلها ؛ لكن تحالفها مع الرأسمالية ضد النازية والفاشية التي أرعبتا أوروبا رفع من شأنها .. فالانتصار أعطاها دفعة قوية على مستوى العالم .. وصارت حلما للشعوب المستعمرة من قبل الرأسمالية .. وظنت أنها الخلاص .. وخاصة لما تحررت الصين باسم الشيوعية .. وكما استطاع الروس الاستيلاء فور انتهاء الحرب على برنامج القنبلة الذرية فأصبحت ضخمة في عيون الضعفاء .

قال إدريس : تكلمت السيدة أنها تعرفت على الشيوعية من بعض فتيات مدرستها الثانوية ، وأولئك الفتيات عرفن الشيوعية من آبائهن وأقاربهن ، وكانت تقرأ بعص البيانات الثورية السرية داخل المدرسة ..وكان حلمهم الكبير أن تعم الشيوعية العالم كله كما غمرت روسيا والصين وكوبا وأوروبا الشرقية .. ولما أدركت إحدى الفتيات حماسها ورغبتها ألحقتها

بإحدى الخلايا السرية ، ثم اكتشفت أن قريبا لوالدها شيوعي ، فازدادت حماسا للانخراط في العمل الشيوعي، واهتم بها الرجل القريب ، ونشطت حركتها داخل الحركة الطلابية بنشر الأفكار الشيوعية ، وتوزيع البيانات والنشرات والتعليقات .. وتبناها الرجل وشجعها وبين لها محاسن وأحلام الشيوعية العربية بأن تلحق في ركب الدول اليسارية ، والتحرر من أذناب وبقايا الاستعباد الغربي .. وتعلمت منه ومن غيره رسائل ماركس وأعلام الفكر الشيوعي .. ولما دخلت الجامعة أصبحت منظرة نشطة في خلايا الشيوعيين في كليات الجامعة المختلفة .. واستمرت على ذلك حتى تخرجت ، ومن ثم نشطت داخل الحزب .. وظل نشاطها السياسي قويا ومعروفا حتى نام الاتحاد السوفيتي ، فخفت صوتهم ، ويعيشون على الذكريات .

قال سمير بعد تنهد وحزن : لقد اعترفت لك أنها الشيوعية الوحيدة في بيتنا .

ـ لا ، لم تتحدث عن أسرتها الكبيرة ؛ لكني علمت أنها تعلقت بشاب في الجامعة .. معذرة يا دكتور سمير .

ـ تكلم بكل راحة .. أنا أعرف أختي الملحدة .

ـ المهم علمت من بعض رفيقات السيدة أنها أحبت شابا له نفس الميول الإلحادية ، وكان الشاب كثير العلاقات الغرامية كغيره من شباب الجامعة تلك الفترة من حياتهم .. ومع ذلك استمر حبهما وتزوجا بعد التخرج ، ثم طلق الرجل الحزب الشيوعي ، وهاجر إلى أمريكا رأسماليا ، ثم تزوجت زوجها الحالي الشيوعي مثلها .. وأنجبت منه ثلاثة مواليد .. وهي اليوم حزينة لما آل إليه الفكر الشيوعي وسقوط الشيوعية كدولة في كثير من الدول الشيوعية ، وتحولها لأحزاب ضعيفة كما في البلاد العربية والإسلامية ..كانت تظن أن الشيوعية الجنة الأرضية .

ـ ما زالت ملحدة لا تعترف بوجود إله .. هل أتكلم ؟

ـ تفضل

قال بنغمة بدا فيها الحزن لإدريس : كانت سمر الأولى في الأسرة .. أقصد المولود الأول

للزوجة التي ولدت بعد ثلاث سنين من الزواج .. كان الأبوان ملهوفين عليها .. وبعد ثلاث سنوات أخرى جاءت أختي سحر .. وبعد تسع سنوات زواج ولدت أنا أستاذ إدريس .. الذكر الأول .. وجاء بعدي اثنان .. لقد كانت البنت المدللة في الأسرة .. ولم يكن والديّ بالمتدينين بالمعنى الشامل للتدين ، والمعنى المعروف اليوم .. كانا يصليان يصومان لنفسيهما.. ولم يربيا ابنتهما على التدين والإسلام وفهم الإسلام ككثير من الأسر والعائلات .. ولما وصلت الإعدادية لم تُمارس الصلاة واللبس الشرعي ، ولا الاغتسال من الحيض مع أنها دخلت مرحلة البلوغ الشرعي ،.. لم تهتم أمي بذلك ، معتقدة أن المدرسة تعلمها ذلك .. كانت تغتسل نظافة لا عبادة ككثير من بنات المسلمين اليوم ؛ لأن التي لا تصلي كيف ستعرف هذه العبادة الشرعية أو تفكر فيها أو تتعلمها ؟!" لما يكبر بصلي ، لما تكبر بتعرف " هذه الشعارات السلبية .. أين علموا أولادكم الصلاة على سبع، واضربوهم على عشر ؟ وكما قالت لك في الثانوية نضجت فكريا وجسميا ، وكانت تقرأ وتقرأ ، ولم يهتم أبي وأمي بما تقرأ وتطالع .. وأبي قارئ أما أمي فلا تقرأ ..كان أبي يخدم في الجيش الوطني عسكري ..كثير من وقته في المعسكرات .. وتقاعد برتبة عقيد يا إدريس ، وكما قال تفاجأ بأفكار سمر وإعجابها بخروتشوف والروس ؛ ولكنه لم يحاول ثنيها عن تلك الخزعبلات كما أخبرني فيما بعد .. فهو لم يقدر خطر الشيوعية يومذاك ..ويمكنك أن تقول أنه يجهلها جهلا تاما ؛ ربما اعتقد أنها حزب سياسي كالأحزاب الدارجة في البلاد ؛ إنما كانوا يَرَوْن صراعا دائرا بين أمريكا وروسيا .. والدولة تدور في الفلك الأمريكي الغربي تسليحا واقتصادا بسبب الحرب الباردة .. وقد تفاجأ بها شيوعية في الجامعة ؛ ولكنها قد خرجت عن السيطرة .. هذا طبعا نتيجة التساهل .. فانتبه لسحر ولي .. وأخذ ينفر من الشيوعية وفكرها .. ويحذرها من خطرها وقتلها للشعوب المسلمة في القوقاز والعالم .. ومنع سمرا أن تتحدث عن شيوعيتها في البيت وأمامنا ؛ لذلك لما أنهت سحر الثانوية العامة بدون نجاح ، لم يشجعها على الإعادة ؛ بل زوجها لقريب لنا لابن عمنا .. فكان زواجها كحماية لها من التورط في أحلام سمر وانزلاق سمر .. ونعم ما فعل ..

وكان القريب الذي تحدثت عنه سمر وشجعها على البقاء في الشيوعية ، لم يكن معروفا دوره لأبي إلا بعد دخولها الجامعة .. وهجره والدي هو وأسرته ولم يعد يُستقبل في البيت وغيره .. ولما نجحت أنا في الثانوية العامة كانت سمر قد أنهت جامعتها ، واشتغلت في أحد مستشفيات الدولة ومتزوجة من زميل جامعتها كما أخبرتك .. وأنا سافرت مصر للالتحاق في جامعة الأزهر الشرعية كطالب شريعة وحصلت الماجستير والدكتوراه منها أيضا .. واليوم أعمل محاضرا في كلية العلوم الدينية في المدينة هذه ، وفي نفس الوقت أقوم بإمامة الناس في المسجد .. طبعا سعيت مرات ومرات لانتشال سمر من أوحال وأوهام الحلم الشيوعي ؛ ولكنها تعتبرني رجعي وأحمق ..كل من يتعلم الشريعة عندهم جاهل وأحمق ومعقد .. ونتيجة فارق السن بيننا لم نكن أصدقاء مجرد أخوة .. ولما شببت كانت تعيش مع زوجها الأول .. وقد رحلت أمنا عن الدنيا وأنا أدرس في مصر القاهرة .. وتزوج أبي بعد وفاتها بأشهر .. فكان وضعنا الأسري مربكا إلى حد ما .. واستخدمت أسلوب الرسائل معها ومع زوجها دون فائدة .. وأثناء الإجازات حاولت ؛ لكنها تسخر وتهزأ مني ، وتدعوني للتحرر واعتناق الشيوعية .. ولما تزوج أبي لم يعد لها مكان في الأسرة ، ولم يهتم أحد بأفكارها حتى أخوي الأصغر مني تعلما ولم يتأثرا بها البتة بفضل الله .. وهي شبه مهجورة من الجميع .. ولما فشل زواجها لمسنا أملا بتوبتها .. ثم تزوجت ماركسيا أسوأ من الأول ، ومع الزمن أصبحت غير موجودة في حياتنا ، ربما حدثت بيننا بعض التلفونات بمناسبات مرضية .. وأنا كنت استغل مثل هذه الأمر معها للأسف دون فائدة .. الهداية التوفيقية بيد الله تعالى .. ومات أبي قبل عشر سنوات تقريبا .. ولم تلد امرأته الثانية له ، وما زالت تسكن في بيتنا القديم .. وما زلت أتفقدها .. فهي ليست بحاجة لمال ، فهي تعتاش على راتب والدي التقاعدي ، وما ورثته من مال أبي وتنازلنا لها عن البيت .. وسمر لم تهتم بميراثها ، وشرعا لا تستحقه لكفرها وضلالها ؛ ولكنها قانونا تعتبر مسلمة .. فهذه قصتي مع شقيقتي الكبرى .

ـ أنا أعرف الكثير من الحركيين ، وبعضهم تابوا وعادوا إلى حضرة الدين والإسلام .. وتاب

الكثير منهم وثاب قبل سقوط الشيوعيين في روسيا وما حولها وموتها.

ـ هذا أمر متوقع وهو موتها ؛ لأنها تصادم الفطرة والعقل .. والدين ولو كان فاسدا تحتاج إليه الناس .. فالقرامطة طائفة الحادية ظهرت في التاريخ ثم هلكوا .. ولم نعد نسمع عنهم .. وهذه بقايا أفكارهم بثوب عصري واقتصادي .

قال : لا يسعني إلا أن أشكرك يا دكتور على هذا الحديث الطويل .. أنا فعلا تفاجأت بأن يكون للسيدة شقيق كإمام ، وإلا نحن نعلم أن في البيوت شيخ وملحد .

قال سمير : عادة يأتي اعتناق الشيوعية للبيت المهلهل دينيا .. والدين في البيت مجرد عادات وطقوس .. وكذلك تساهل من الأسرة ، وجهل بالشيوعية جهلا تاما .. والانحلال الخلقي يساعد على ذلك .

ـ والأصدقاء .

ـ وهذا سبب رئيس .. الصاحب ساحب .. البيت أساس التربية والأخلاق الحميدة والقدوة .

قال إدريس قائما : وساحات الجامعات مرتع خصب لكل فكر ، ولكل صراع فكري .. شكرًا دكتور سمير .. لقد تعرفنا على حضرتكم .. فهذا شرف لي ولعلنا نلتقي مرة أخرى .



دفع المقال الخاص بسمر إليها ، وطلب منها أن تقرأه لتضيف أو تحذف منه ، وأخذ بالحديث مع زوجها وابنها المتزوج منذ عهد قريب ، وكان ضيفا عندهما ، ولما انتهت القراءة وضعته على منضده أمامهم ، وقالت : حقا رائع جدا يا أستاذ إدريس ! رغم أنني أكتب مقالات وبيانات ؛ لكن أعترف ببراعتك في كتابة الفقرات ، وترتيب الأفكار للقارئ .. لست أول صحفي قابلني .. لكنك أروعهم ؛ ربما لأني من عشر سنين لم أعد أتقابل معهم .. اليوم لا أحد يهتم بِنَا ؛ كأننا متنا بموت الاتحاد السوفيتي .. هكذا الناس أليس كذلك؟!

أجاب إدريس : هكذا الناس .. عندما يكون الإنسان قويا مهما التفوا حوله ، وإذا ترك المركز والوظيفة هجروه .

قال الزوج مبتسما : كلامك صحيح إلى حد ما .. الناس يريدون أشياء فلما يصرف عن مركزه فماذا يريدون منه ؟! لماذا يلجأون إليه ؟ وأيضا يكون قد ظهر جيل جديد لا يعرفون الرجل القديم .. لماذا جريدتك مهتمة بقدامى المحاربين على رأي العسكريين ؟

ابتسم إدريس : هذا اهتمام شخصي مني ..الجريدة التي أكتب لها لا تهتم بهكذا موضوع .. هم المهم أن يجدوا مادة ينشرونها ؛ لأنها جريدة أسبوعية .. ربما تهتم بقضية رأي عام حاضرة .. أنا أكتب لها منذ ثلاثين سنة .

وشرح لهم علاقته بالجريدة والصحف ، وأنه يكتب بمزاجه ودون التزام دائم وقال : وأنا لست متفرغا ومحترفا وموظفا ، هي هواية فحسب . وبين لهم أنه يقدم المقال ، ولرئيس التحرير أن يرفضه يختصره يعدله ، وذلك حسب حسه الأمني .

وقال : تخطر في بالي الفكرة وأهتم بمتابعتها والبحث عن أبطال لها .. الصحف تهمها الصفحة الرئيسية ، وما في داخلها مواضيع خاصة .. الرياضي يهتم بصفحة الرياضة .. بعضهم يهتم بأخبار الاقتصاد والتجارة .. بعضهم بالإعلانات ..وآخرون يهتمون بصفحة التسلية .. وبعضهم يقرأ لكاتب معين وتعليقاته السياسية والثقافية والاجتماعية .. بعضهم يهتم بالصفحة الدينية ، وما تطرحه من أفكار .. وبعضهم بصفحة النعي خاصة قراء الصحف اليومية .. وأحاديث الذكريات لها قراؤها ومحبوها ؛ لذلك ترى الصحف قد تشتري مذكرات سياسي زعيم .. وأنا كتبت خلال مسيرتي الكتابية كثيرا عن رجال ورموز وطنية ثورية قيادية عن نضالها وأفكارها .. وقد يهتم بها مراكز البحث المحلية والدولية والمؤرخون ومراكز التجسس والمخابرات .. فالشيوعية لم يعد لها ذاك البريق ببلاد العرب وغيرهم ؛ لكن ما زال لها أتباع .. ففي فترة الستينيات كانت قوية وثورية حتى ظن البعض أنها على وشك قيادة العديد من الدول العربية .. أما اليوم فشغل العالم الحركات الإسلامية والأصولية الإسلامية والإرهاب الإسلامي ؛ كأن المسلمين لم يكونوا في فترة ازدهار الاتحاد السوفيتي .. الكل متخوف من الإسلام السياسي القادم .. وسيظهر المقال في الصحيفة في الوقت المناسب ..

وستكون بعض الأعداد بين يديك.. ألديك ملاحظات عما كتب ؟

ـ لا ، تمام هو كلامي وأفكاري .. مجلات الحزب ما زالت تقبل كتابتي وتعمل على نشرها .. وتتابع أخبارنا الاجتماعية وبعض نشاطنا الضعيف .. لم تعد مؤتمرات الحزب مهمة للصحافة اليومية اليوم .. مجرد خبر صغير ينشر في الصفحات الداخلية .. أيام العز ذهبت .. والمؤتمرات لا جديد حقيقة فيها ؛ إنما ذهاب وجوه ومجيء وجوه للقيادة ..كنّا خلال المقابلة تحدثنا عن قصة الصورة والسيدة نبيلة واهتمامك بأمر الصورة .

قال : صور نبيلة قصة غامضة!

ـ هل هناك ما يشغلك عنها ؟

ضحك وقال : عرفنا أن هناك عصابة كانت تحتال على بنات الجامعة والتغرير بهن وتصويرهن صورا فاضحة للإيقاع بهن في عالم البغاء والدعارة .. لم نصل لشخص عمل في هذا الإجرام أصابه الندم ، وكشف لنا المزيد من الحيل والمكر .. فلم نعرف كيف صورت ؟وأين؟ ولماذا؟!

قالت بكل صراحة : على كل حال أنا أعرف بعض الفتيات تلك الأيام شاركن في تلك الشقق طبعا هن اليوم عاملات أو متباعدات مثلي.. وسأتحدث مع واحدة منهن ؛ لعلها تقبل أن تكشف شيئا من أسرار تلك الحقبة ؛ ولعل عندها شيئا من قصة تصوير نبيلة .. هي من اللواتي سقطن في براثن تلك القوى ، وعرفت ذلك منها فيما بعد ؛ وذلك خلال عملنا في أحد المشافي ؛ وذلك في ساعات الذكريات والندم وكشف الأسرار .. وأنا كنت أعرف نشاطها قبل العمل معها ..عندما يكون لدى الإنسان فضول ما نحو قضية ما يهتم بها ..قد تكون قد شاركت في عملية خداع نبيلة وجرها لوكر من أوكارهم .. قصة نبيلة بعد التخرج ضعفت في ساحات الكليات العلمية .. وجاءت أحداث أخرى .. هي لم تشر لقصتها يوما .. وأنا أعرف أنها متورطة مع عدد من فتيات الكلية

ـ إذا وافقت على المقابلة والإفادة ؛ فأنا مستعد لسماع ما عندها .. شكرًا لكم أيها السادة ، وأتمنى لكم السعادة .

قالت : عفوا يا إدريس لم تقل لي ردّك في الزواج من شقيقة هند غريب وابنة نبيلة خالد !

ابتسم ونظر لزوج سمر وقال : وهل أصلح للزواج ؟! لا أعتقد يا

سيدتي ويا سيدي ..صحيح أنا أصلي وأصوم وأعبد الحي الْقَيُّوم ، وابن طبقة متوسطة .. ولا أملك القصر والسيارة والمال .. ولا أعتقد أنها ترضى بي .

قالت مشجعة : أعتقد أنها ترضى ؛ لكن القدرة الجنسية لا أدري أهميتها بالنسبة لها .. أنا أرى أن تقبل مبدئيا ، ثم تعمل الفحوص اللازمة ؛ وربما هي لا تفكر بالجنس ؛ إنما تريد زوجا .

قال زوجها مستغربا من تقريرها : لا تريد الحياة الجنسية ! ولماذا تتزوج ؟! ولماذا يتزوج الناس ؟!

نظرت إليه وقالت : وهل الكبار يتزوجون للجنس يا إياد ؟!وهل تبقى طاقة وقوة بعد الخمسين ؟!

قال إدريس : أكيد الجنس أيام الشباب ليس كأيام الكبر والسكري والضغط ؛ ولكن الشهوة والبنوة مطلوبان لدوام الحياة الزوجية .. لو كنّا زوجين ومرض أحدنا فعلينا بالصبر والصبر وكان ذلك مقبولا .

هتفت بإصرار : قل نعم أرغب بالزواج.. ودع الباقي عليّ.

قال بشك :آسف فعلا يا سيدة سمر ! لي أكثر من عشرين سنة لم أنم مع أنثى .. وقضيت عشر سنوات مع زوجتي في عذاب ، ولم تحبل امرأتي .

ـ يقولون الرجل قد ينجب ولو عمره ثمانون سنة .

ـ والله أسمع بذلك ! بل رأيت زواج مشلول من أنثى .. شكرًا لكم .

ـ فكر فكر يا صديقنا .. وسأتحدث مع هند وأرى ردة فعلها .

ـ يا سيدتي اهتمي بموضوع المرأة التي عملت في خداع وتغرير الزميلات لتحدثنا عن تلك الحيل .

قالت بثقة : أعتقد بعد مضي ثلاثين سنة على تلك الحوادث يمكنها الاعتراف .. اليوم لم تعد

تحتاج الدعارة إلى شقق سرية .. اليوم التصوير بكاميرات الفيديو والصور المتحركة .

ـ اليوم يا سيدتي النوادي الليلة المرخصة والملاهي والحانات ! لم يعد العمل خفية.. فهذه المواخير مرخصة بالقانون ، ومحمية من قبل الشرطة للأسف .. نحن نتقدم عالميا بمثل هذه الأشياء من أجل خاطر السياح .. وضعفت مؤسسة الزواج ، وكثر الطلاق ، وزادت الدعوة للسفور والتبرج، ولم يعد ذلك عيبا !



تعشيا في مطعم في حي الشاعر ، وذلك عن اتصال بينهما ، وكان ذلك بعد صلاتهما العشاء في أحد مساجد حي الشاعر .. وهذه كانت أول صلاة لسيف بعد زمن طويل .. فهو لا يعرف الصلاة ولا الصيام ؛ إنما هو مسلم .

قال سيف لإدريس: أريد أن أصلي أول مرة في حياتي !

فطلب منه إدريس الاغتسال غسل الجنابة ، وشرح له كيفية ذلك الاغتسال .. فهو في حياته كلها لم يغتسل هذا الغسل التعبدي .. ووعده بتفصيل الأمر عندما يلتقيان .. ولا تستغرب أيها القارئ من جهل الكثير من المسلمين هذه العبادة الشرعية ؛لأنهم لا يفقهون الإسلام ، وربما يحسبون أن صلاتنا كصلاة اليهود والنصارى وغيرهم من العباد ، لا يعرفون الإغتسالات الشرعية ؛ إنما الصلاة حركات معينة وانتهى الموضوع .. هؤلاء لا يعرفون الوضوء والاستنجاء ، ولم يريا والديهم يفعلون ذلك .

كانت أول صلاة كما قال لإدريس في حياته التي تزيد عن الخمسين سنة .. كان إدريس يصلي ومثقفا وملما بمسائل شرعية ، وإن لم يكن شيخا ، ورجل دعوة إسلامية .. وعبر عن سروره تجاه صديقه الحديث ، وكان يرجو له الثبات والقبض على دينه وتوبته .. فالإسلام اليوم يتعرض لتشويه عالمي وإلصاق تهم الإرهاب والوحشية فيه .. كان حديثهم أثناء الطعام عن

الصلاة والوضوء ونواقضه ، واستمر الحديث في ذلك بعدما رجعا لبيت إدريس .. وكلاهما يحب السهر ، وحضر إياد السهرة ، وتعرف الرجلان على بعضهما ، وشجع إياد المهندس على الاستمرار في الصلاة والتوبة .. وبين إياد لسيف صفة الطهارة بناء على رغبة إدريس الذي رأى أنه أقدر منه في الدين والعبادات ..وعلمه الوضوء النبوي والصحيح كما ثبت عن رسول الله ﷺ من النية وغسل الكفين والمضمضة والاستنشاق وغسل الوجه واليدين إلى المرفقين ، ثم مسح الرأس مع التمثيل لما حصل ، وختم بغسل القدمين إلى الكعبين وذكر الوضوء الثابت عن النبي ﷺ ، ثم مثل له الاغتسال دون استعمال الماء وأعطاه رقم هاتفه الخاص للاتصال به عند الحاجة لأي مسألة شرعية .. واستعار كتابا صغيرا من إدريس حول هذه العبادة .. ولما انتهى الدرس الديني حدثهم إدريس عن مقابلاته لسمر . وختم قائلا: أتعرفها أيام الجامعة ؟ فأبدى سيف معرفته لها وإن لا يتذكرها جيدا اليوم . فقال إدريس : إنها عاصرت فترة دراستكم في الجامعة .. وهي على معرفة وصداقة جيدة مع سوزان ونبيلة ومراد مع إنها طالبة تمريض .

فقال سيف معقبا : كانت تتردد كثيرا على كلية الهندسة من أجل الشباب اليساريين ..وتعرف نبيلة بحكم تدريبها في المستشفى التعليمي حيث كان والد نبيلة مدير المستشفى .. وكنا نتردد نحن على المستشفى لعلاج طارئ ومستعجل أثناء الدوام والمحاضرات ومعالجة الرشح والزكام والإنفلونزا الموسمية والجروح فعرفناها .

فقال إياد :إذن قابلتها .

قال إدريس : نعم ، قابلتها وزوجها .. وتحدثت عن الكيفية التي دخلت بها الحركة اليسارية والماركسية ، وأكدت لي موضوع الشقق السرية للسهرات واصطياد الفتيات ..وأنها التقت ببعض الضحايا ، وساعدت على إنقاذهن من العمل في الدعارة .. وأنها تعرف بعض المتورطات في اصطياد الفتيات والشباب.. وأنها ستحاول إقناع إحداهن بالحديث معي

فقال إياد بتعجب ظاهر : معقول ذلك !

ـ هذا ما وعدت به .. وأنا لا أعتقد أن إحداهن أو أحدهم يقبل ذلك .

ـ لا تنسى زوج وأهل الفتاة أو المرأة.

قال إدريس : العجيب يا إخوان أن لسمر شقيقا من أمها وأبيها إمام مسجد دكتور في الشريعة الإسلامية ، واضطررت لمقابلته؛ لأعرف كيف تحولت للشيوعية من بيت مسلم .

وتحدث قليلا حول مقابلته لسمير.

قال سيف : يبدو أن موضوع الشيوعية راق لك .

ـ كان هو سلم الوصول للمعلومات .. فمراد شيوعي يا مهندس سيف .. ولن نخسر بنشر بعض المقالات عنهم للأجيال القادمة .

وقال إياد : شقيقها شيخ حقيقي ، ولم يستطع إعادتها الدين .

ـ لليوم لم يستطع .

قال سيف : دنيا عجيبة فعلا ! لم يستطع نقلها من الفكر الأعوج.

قال : الأمر ليس سهلا يا سيف ! كان هذا الفكر في مطلع الستينيات مهوى الكثير من الشباب الجامعي على مستوى العالم .. غرق العالم بالمادية والوجودية والإباحية .. والعالم الإسلامي كان يستفيق من سباته برحيل الاستعمار عن كثير من بلدانه .. فكان ينظر للفكر الماركسي هو المحرر لنا من ربقة الاستعباد ..كان الصراع محتدما بين الشرق والغرب .. أنا أقول أن ذلك العقد هو العصر الذهبي للشيوعية العالمية .. كوبا الصين فيتنام .. وكانت الدعاية قوية لبيان إنجازات الروس والقوة العسكرية الروسية .. والفتاة بينها وبين شقيقها ست سنوات كانت مغرقة في الإلحاد .. وهو على مقاعد الدرس الأساسي .. وهي اهتمت بالماركسية في المدرسة الثانوية ، وتغلغلت فيها بالجامعة .. ووالدها كان عسكريا جاهلا بخطر هذا الفكر ، وتقاعد على رتبة عقيد .. وبدا لي أنه كان متساهلا معها .. وقد ولدت بعد ثلاث سنوات زواج ، وهي البكر .

قال إياد : هو لم يكن شيوعيا ولا متعاطفا !

ـ في الجيش كما تعلم يمنع الالتحاق بالأحزاب السياسية .. أما التعاطف فلست أدري .. لم يقل سمير ذلك ؛ إنما هو تساهل وتهاون وجهل بماهية الفكر الماركسي .. والأمر الثاني أن السيدة سمرا ترشحني لأن أكون زوجا.

صاح إياد : زواج ! زواجك أنت .. هل منها ذلك أو لمحت به أنت ؟!

لم يعجب إدريس من دهشة إياد فمنذ ترمل وهو يحبب له تكرار الزواج . فقال : لم أطلب منها ذلك ، ولم ألمح بي ؛ لأني نسيت الزواج من قاموس الحياة .. ليس بغضا في النساء كما هو حال صديقنا سيف .. أنا لي عشرون سنة لم أقرب أنثى لما تخبره عني يا إياد .. وشطبت الموضوع من أفكاري ، مع أن الدين ـ يا مهندس سيف ـ يرغب بالزواج ؛ ولكنني كما أخبرتم غير صالح للنساء والخلافة .

فقال سيف : وكيف رشحتك المناضلة الحمراء ؟!

ـ جميل ! المناضلة الحمراء .. هناك سيدة أرملة وغنية ، وعندها بعض التدين تريد زوجا عنده بعض التدين .. تريد مسلما محترما يصلي ويصوم

قال إياد : المناضلة تتحدث عن زوج كهذا!

قال إدريس : نعم ، دعني أذكر الأسماء ؛ ربما سيف يعرفها بحكم المجاورة .. السيدة نبيلة خالد زوجة سيف الأولى والأخيرة تزوجت من قريب والدها بعد الطلاق .. وولدت له بنتين هند وزينب وولدا نسيت اسمه .

قال المهندس سيف : أعتقد أنه خالد على اسم أبيها بسبب ولادته بعد موته .. من ستتزوج ؟!

ـ زينب أرملة وهي متدينة بسبب زوجها المتدين .. وكانت تلبس اللباس الشرعي المحسن .. ابتعدت قل عن السفور والتبرج الصريح كما فهمت من سمر.. وسمر صديقة لنبيلة وسوزان من أيام الجامعة ، وظلت الصداقة بعد الجامعة ، وتعرفت سمر على بنات نبيلة الطبيبة هند والصيدلانية زينب ، وحتى أن شقيقهن طبيب .

قال سيف : أجل طبيب معروف في الحي .

ـ هند ترغب بتزويج أختها الأرملة ؛ وكأن المرأة تريده متدينا كزوجها يتمسك بمظاهر الدين كصلاة وصوم ولباس وبعد عن الخمر ، تعودت على ذلك .. ولأنهم يعلمون أن لسمر شقيقا يعمل إماما لمسجد ؛ فكأنهم لا يعرفون سوء العلاقة بين الأخوين .. أرادوا منها عريسا لزينب وكذلك طلبت أمها أم نبيلة أو نبيلة نفسها من سمر ذلك .. وأرسلت سمر لهما عريسين ، ولم تقبل بهما الفتاة .. ومن خلال حواري معها عرفت أن أصلي وملتزم بالإسلام التقليدي وغير متشدد كما يقال عن أمثالي ، فعرضت عليّ ذلك ..وسمر تزوجت طالبا تعرفت عليه أيام الكلية ، ثم طلقها وطلق الشيوعية معها وهاجر إلى أمريكا ، ثم تزوجت رفيقا آخر .. ووالداها ماتا ، وعلاقتها ضعيفة بأهلها منذ اعتناقها الشيوعية وتخرجها وزواجها .. فهي لا تستطيع أن تطلب من سمير فرشحتني للزواج .. وتعذرت لها بهجري للزواج من يوم ترملت ولكنها مصرة على زواجي والسعي فيه .. ويا ترى أتوافق سيدة كزينب على متسول مثلي أم لا ؟! وهي من سكان حيكم يا سيف ؛ لتعيش في مثل شقتي .. وفهمت من سمر أن لها صيدلية كبيرة في الحي .

ـ أعرفها ؛ وربما ابتعت منها بعض الأدوية خاصة في ساعات الليل المتأخرة .. والله إذا قبلت بك تزوجها .. أنا رأيتها كذا مرة ، وحدثتني كذا مرة .. وهي تعرف أنني كنت زوج أمها في أيام الشباب .. وأعرف هندا ، وتكلمنا في مناسبات عرضية ، وأحيانا تمزح وتمازحني هند كيف حال زوج أمي الأول ؟ فأتطلع فيها ربما ابتسم .

وتابع سيف مفسرا : في مناسبات اجتماعية كنت اضطر لحضور بعض الوقت ، مثل زواج أخت، بنت وابن أخت أو زواج ابن وبنت أخ .. عزاء قريب جدا ..فكنت أصدف أفراد من عائلة الدكتور خالد .. مهما حاولت الاختفاء لابد أن تظهر لمناسبة ما ..وحتى نبيلة رأيتها بضع مرات ونحي بعضنا بالإشارة وهمس وتمتمات .. والحقيقة أن زوجها الدكتور غريب لم يكن عفيفا معها يا إدريس ويا إياد .

فعقب إدريس: كانت مجرد زوجة ..هو كان يحلم بالاستفادة من والدها بالتقدم إداريا داخل

الوزارة .. وقد اتهم بالاعتداء على قاصر ، وأوقف عن العمل حينا من الزمن .

ـ صحيح ، سمعت بهذا.

ـ النساء يتكلمن ..وتزوج فور وفاة زوجته بأسابيع قليلة.

قال سيف : هو تزوجها بعد طلاقي رغبة من والدها خالد .. وكان يطمع بها زوجة قبل زواجي منها ، وكان ظهوره كزوج من أسباب زواجنا ونحن في الكلية .. خدمه القدر وعينه المرحوم خالد في الحكومة وبعد الزواج في الإدارة فور تسلمه منصب الوزير ، بعدما كان يخدم في مستشفى كطبيب ..هو درس الطب في بريطانيا كما سمعت من نبيلة ، مثل أبيها .. وهو ما زال يمارس العمل الإداري.

قال إياد : المهم أنت لا ترغب بالزواج منها لماذا يا عزيزنا ؟!

قال سيف : إذا استطاعت هذه السمر أن تقنعها بك تزوجها .. هي فعلا متدينة .. تلبس الجلباب الطويل .. وهذا كان يثير استغرابي .. كنت أظنها موضة .. اليوم عرفت السبب أن ذلك بسبب زوجها المتدين .. وهذا نادر في بنات الطبقة الثرية والبزنس .. وحي بهية اليوم ليس هو الحي القديم .. ففيه من الطبقة الوسطى والأقل ماديا حتى الفقراء .

قال إدريس : وهل أستطيع العيش معها يا سيف ؟!

تبسم سيف وأجاب : تستطيع ..وما ينقصك ؟! امرأة في الأربعينيات أو قريب منها .. فهل ستتزوج صبيا أو شابا صغيرا ؟

ـ كم ترى عمرها ؟

ـ أنا تزوجت أمها في منتصف الستينيات ، وطلقتها في نفس العام .. وهي تزوجت الدكتور غريب في حزيران من عام ١٩٦٥ يبدو أنها أصغر مما حسبت.

ـ هي أصغر من هند بعام ونصف.. وقد تزوجت أثناء الدراسة في الجامعة مثل ما حصل مع أمها ..وهي درست في تركيا .

قال إياد: من أين حصلت على هذه المعلومات ؟

ـ من سمر.. هي تتحدث تلفونيا من أجل المقال ، ويعرج بنا الحديث حول زينب وموضوعها ولديها طفلة تعيش مع أم زوجها الميت بناء على رغبة الجدة .. وهي دون العاشرة ، وتقضي أيام العطل عند أمها .. وهناك أيها السادة أمل في لقاء امرأة كانت تشارك في الشقق السرية وتحاول سمر إقناعها بالحديث معي .

فقال سيف : أرى أنها صغيرة عليك .. كيف تريدك سمر زوجا لها ؟! ألا تعرف عمرك ؟

وعقب إياد: صغيرة فعلا .. المرأة إذا اجتمع إليها رجل ستطلب حقها الشرعي في المعاشرة .. وأنت تحتاج لعلاج .. تحتاج لامرأة من سنك .

فقال إدريس : العلاج اليوم أفضل من الأمس .. اليوم تجد المنشطات الجنسية والأدوات المساعدة الطبية ؛ لكن هل هذا يقنع المرأة ؟وخاصة إذا كانت ترغب بالذرية والحمل .. لا أعتقد أنها تقبل بي وأنا ابن ست وخمسين سنة .. وإذا فكرت بالزواج جديا سأتزوج امرأة تصغرني ببضع سنين .. امرأة يائسة من الخلفة والولادة .. وسمر تحدثني عن طفل الأنبوب والله حلو أن يصبح الرجل أبا يا سيف ! ولو على كبر ، كما حصل لسيدنا إبراهيم، ومن بعده زكريا .

قال إياد : فعلا اليوم نسمع عن طفل الأنبوب والتلقيح الخارجي ؛ بل نسمع عن حمل خارج الرحم واستئجار رحم وتجميد النطف في بنوك المني .

قال سيف : هل فكرت بالزواج قبل حديث سمر ؟

ضحك إياد وإدريس وقال إياد : منذ ترمل يا حضرة المهندس ونحن أنا وإخوته وأخواته نعرض عليه النكاح والتوكل على رب السموات والأرض .. إنهن لا يعرفن الضعف الجنسي وضعف الباءة .. عندهن الطب حلال المشاكل الإنجابية .. فلانة وفلانة عشر سنين ثم ولدت .. فلان نكح فلانة عشرين سنة ، ثم انفصلا ، هو تزوج وولد له ، وهي تزوجت وولد لها .. الصحيح يا سيد سيف الأستاذ العزيز إدريس قصر في ذلك .. الطب فعلا كل يوم يتقدم .

قال إدريس: فكرت كذا مرة بالزواج منذ ترملت ؛ لكن المعاناة التي كانت بيني وبين المرحومة

بسبب ضعف الإخصاب تقف حاجزا لصرف النظر .. وكل مرة أهم بها أتذكر ذلك .. ثم أني مرتاح في حياتي يا سيف تأقلمت أو تبرمجت معها .. كانت مشكلة الخلفة مزعجة جدا لي .. صحيح النفس تتوق للنساء وللولد .. صحيح لما ير الإنسان الأطفال لإخوته وأخواته وجيرانه يتمنى أن يكون لديه مثلهم ؛ لكن قدر الله غالب .. الأمر له سبحانه .. أخذت بأسباب العلاج سنوات وسنوات دون فائدة .

قال إياد : كله بأمره .. ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء .

قال سيف: ما دامت سمر تريد ذلك ، وترى أنك مناسب ، فدعها تسعى لذلك .. فإذا قبلت البنت تزوجها .. وكما أشرتم الطب يتقدم ؛ وربما تتمكن من الإنجاب عن طريق الأنبوب .. من المهم أن تكون البنت على بينة من وضعك الجنسي وضعف الإنجاب .. فهي في عز الفترة لإنجاب الأطفال .. والله جميل أن يكون لك ولد يا إدريس بعد هذا السن ! أنا أعتقد أن لها أربع سنوات أرملة .. ووالدها هل يقبل ؟!

رد إياد فقال: أعتقد أن والدها مجرد ديكور يا مهندس سيف ما دامت علاقته بأمهم نبيلة ضعيفة ، ولم تكن طيبة ، وتزوج بعد موتها بزمن يسير

فقال سيف : هو تزوج لتغطية فضائحه ، لقد كانت كثيرة ومنتشرة بيننا كعائلات .. هو تعلم في بريطانيا الطب ، وتعلم معه العيش مع الخليلات .. أنا الذي لا يهتم بحياة الناس أسمع قصصه ومغامراته النسائية .. فزواجه شكلا ، ومثله كثير في الحي .

تلقى إدريس اتصالا من الطبيبة هند غريب ، ولما انتهت المجاملات التقليدية ، قالت : هل جد جديد في شأن الصورة ؟

أدرك أن ذلك تبريرا للاتصال فقال باسما ومجاملا : لا جديد يا دكتورة هند ! وصرح قائلا : أنا على موعد مع إحدى فتيات ذلك الزمن اللواتي عملن في مثل تلك الشقق السرية .. ولعل لها دورا إذا وافقت على اللقاء والحديث عن ذكريات الماضي .. فالأمر حساس ودقيق .. وهذا بجهد من السيدة سمر صديقة أمكم في ماضي الزمان .

ـ حدثتني سمر عن لقاءاتك بها .. فهي صديقة لي بمقام الأم .. ونحن نعمل في القطاع الطبي ثم حدثتني أمرا آخر .

تجاهل الإشارة وقال : أمر .. ما هو ؟

ـ زواج شقيقتي .

ـ آ .. تذكرت .. لقد تحدثت سمر معي بمثل ذلك ؛ لكنني بينت لها أن زمن الشباب ولى ..ولي عشرون سنة أرمل غير صالح للعمل يا دكتورة .. وإلا تزوجت من سنوات وسنوات .

ـ أنا أختي أصغر منك بكثير يا أستاذ إدريس ولديها ظروف .

ـ أنا دخلت في السادسة والخمسين .

قالت : هي تقترب من الثلاثين .. هي تزوجت صغيرة أثناء سنوات الدراسة الأولى لظروف معينة .. قد تعرفها في المستقبل ..قبلت في بعثة طبية في تركيا لعلاقات خاصة لأبي بالأتراك .. فزوجها أبي قبل سفرها .. وكان الأمر غريبا علينا .. ولكن الرجل قريب لأبي .. وقبل قبلها كطالب في تركيا في الطب البشري .. وعاشا هناك حوالي عشر سنوات .. كان والده يملك مال قارون .. عاشت بعيدة عنا .. وتدينا هناك .. فقد كان زوجها أحمد متدينا ..والتحق بإحدى الجماعات الدينية هو وهي .. وكانت جدته تركية الأصل .. ولما رجعا توظف ، ومرض ، ثم مات ـ رحمه الله ـ ولم تلد شقيقتي إلا ابنة واحدة ..وهي تعيش مع جدتها والدة الدكتور أحمد .. وأختي لما تحدثنا بموضوع زواجها بعد حين وافقت من حيث الفكرة على أن يكون متدينا غير متعصب كما ترى في بعض الشيوخ

ـ فهمت ذلك من السيدة سمر ؛ ولكنني عجوز بالنسبة إليها يا دكتورة .. وأنا لم أستوعب اختيار سمر لي .

قالت : رأت أنك متدين بدون تعصب لفئة أو حزب وبدون لحية ودشداش.. رأت فيك صفات قد تناسب في رأيها زينب أختي .. فهي كما قلت لك صديقة حميمة لأمي وللعائلة .. وأمي طلبت منها ذلك قبل موتها بأكثر من سنة ، وكانت جدتي والدة أمي ترغب أمي

بتشجيعها على الزواج ثانية ..وقد يكون فارق السن مهما لو كانت زينب لا تعاني من بعض المشاكل المهمة .

ـ أنا أراه مهما يا دكتورة .. فأختك نصف عمري تقريبا .. وأنا قضيت عشر سنوات مع زوجتي في معاناة وتعب بسبب عجزي عن الإنجاب.. طبيب من هنا ، وآخر من هناك.. المهم شيبتني .. ولي عشرون سنة دون زواج .. كلما أهم بذلك أتذكر حياتي السابقة فاضعف .

قالت : نحن لم نفاتح زينب بالأمر .. هو كلام بدأت به سمر واعلم أن أختي لا تلد ، فبعد ولادتها لابنتها الوحيدة اضطرت طبيا لإزالة الرحم .. فهي لا يمكن أن تفكر بالحمل ؛ ربما هذا ما شجع سمر أن تعرض الأمر عليك .. فأنتما متساويان في هذه القضية .

تنهد إدريس وقال : آ فهمت الآن ؛ إنما تريد زوجا فحسب .

ـ نعم ، زوجا يسترها وتستره .. زوج مناسب ، لا يهتم بالخلفة والولادة .. سمر فاجأتني باختيارها لك .. وطلبت مني الحديث معك لتأخذ الموضوع بشكل جدي .

بعد صمتها بلحظات قال إدريس : أتعلمين يا دكتورة أن المهندس سيفا تحدثت معه من أيام بهذا العرض فرغبني بالزواج من السيدة زينب .. وقال إذا قبلت بك ورغبت بالذرية فهناك طفل المختبر والأنبوب .. وذكر أنكم تلتقون في مناسبات اجتماعية وتسلمون على بعض .

ـ نعم ، نحن نعرف المهندس سيفا حق المعرفة .. هو الذي عزل نفسه عن الناس ، ويبغض الاختلاط بهم .. وكانت أمي تتألم له ومن أجله ، وتعلم أنه تعرض لكيد ومكر ، وتسرع في الطلاق .. على كل حال على رغم صغر أختي بالنسبة لك ؛ فإذا كان لك رغبة بالزواج من جديد فكر جيدا ومعمقا قبل أن أعرفك بزينب .. وهي تعرفك نظريا لاهتمامك بموضوع تلك الصورة المدمرة ، فقد حدثتها عن ذلك الاهتمام .. وهي بحاجة لبيت الزوجية .

قال : أشكر لك اهتمامك بنا وتوكلي على الله يا دكتورة .. وسأفكر بعمق بمسألة الزواج بعد سماع مشكلة الرحم .. أنا طبعا تعرضت خلال السنوات الماضيات لضغط من الإخوة والأخوات من أجل البناء من جديد .. ولكني صراحة تعقدت من زوجتي الأولى وإلحاحها

القاتل على العلاج ، لم تيأس حتى ماتت فجأة .. تعالجت دون فائدة .

ـ ما دمت يائسا من الذرية فهذا مما دفع سمر لاختيارك زوجا لشقيقتي .. ولم تحب سمر أن توضح لك ظرف زينب قبل موافقتك وعرض الأمر عليّ .

ـ الإسلام كما تعلمين يشجع على الزواج وترك العزوبية .. سأفكر بجد كما طلبت ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟!

ـ أنا لست غنيا مثلكم .. أنا أعيش على قد الحال على راتب التقاعد .

ـ إذا حصل النصيب فزينب لا تنظر للمال وإلا تزوجت من أرامل الحي وأغنيائه .. هي ترغب بمتدين لتبقى على ما شبت عليه .. وهي ما زالت تزور تركيا لحضور مناسبات دينية عند تلك الجماعة التي انتمت إليها .. وهم ما زالوا يزورونها ويتواصلون معها .

ـ لم أفهم هذه الجماعة !

قالت : كأنها فرقة صوفية أو شبيهة بها ..لا أعرف تفاصيل مثل هذه الجماعات ؛ لكنها منتشرة في تركيا وبلدان أخرى .. المال ليس عقبة ، بس ربما تضغط للحياة في الحي في منزلها .. وقالت سمر إنك تملك شقة خاصة

ـ نعم ، لي شقة في حي الشاعر بنيتها أيام الشباب ..ورأي الدكتور الوالد

قالت : لا يتدخل فينا .. هو متفرنج أكثر من الغربيين .. مجرد أب كما نقول .. فهو يرى أن الأنثى حرة في حياتها ما دامت قد بلغت سن الرشد وكذلك الشاب .. فكرة أوروبية .. وأخي خالد أصغرنا .. وهو طبيب مثلي ..لا أعتقد أن يرفض وينظر لفارق اجتماعي ومالي .. اليوم الآباء والأمهات والأقارب تدخلهم بسيط ، وحتى في المشاكل الزوجية دورهم عندنا محدود ..كل واحد يدبر أمره .. وأنت أصبحت صديقا لنا .. فوالدي لم يكن اهتمامه بالأسرة كبيرا .. وتعلمنا من أموال أمنا .. وإن لم يقصر معنا ؛ لكن أمي عملت كمهندسة كما تعلم، وورثت عن والديها المال الكثير .. فكانت علاقتنا بأمنا أكثر قوة .. شكرًا .

وضع إدريس السماعة بعد هذه المكالمة الطويلة ، والتفت إلى صديقه إياد الذي كان في زيارته

وقال : أمر محير ! هذه أخت العروس الدكتورة هند .. إنهم يرغبون بتزويجي من البنت ؛كأنني طلبت منهم ذلك .. عقلي يقول لي غامر .

وروى لإياد ما يتذكره من المكالمة ، فقال : شيء غريب فعلا يا إدريس ! هل خلت الدنيا من الرجال أم هو القدر ؟ تعرفك على سيف .. لقاءات مع رفاق سيف ، ثم حديث عن زواج .. وهذا العيب في الفتاة من حظك يا صديقي حتى لا تطالبك بعلاج ويتبعه علاج .. وهل تعلم سمر أنك لا تنجب ؟!

ـ أكيد علمت أو فهمت .. وأعتقد أنها تعلم من سوزان قبل اللقاء بها .

قال إياد مشجعا : عندما تقابل الفتاة ،وتتحدثان بكل صراحة ،وترى وجهة نظرها غامر ؛ لكن تسلح بالمؤخر ، لا تجعله كبيرا فوق الطاقة ، وهم ليسوا بحاجة لمال ؛ لكن الكبر .. أحدهم تزوج فتاة ، وطلب والدها خمسين ألف مؤخر زواج .. ومن أجل فلان وفلان تنازل عن خمسة .

ـ أنت ترغب أن تراني زوجا .

ـ هذا من زمان .. وما زلت أتمنى أن تتزوج .. البيت مهما كانت الظروف يحتاج لقرينة .. فكلنا يرغب أن يراك زوجا .. والبنت ما دامت قد فقدت الرحم فسوف تقل رغبتها بالمعاشرة الزوجية ..فلن تتعبك يقال إن الرحم المفقود يضعف هرمون الأستروجين .. هرمون الغريزة الجنسية .

ـ شكرًا إياد إنك دائما تشجعني على ذلك .. سأتحدث مع سمر وهند وسيف وزينب، ثم مع أخي الكبير أبي نصر وأختي أم حاتم .. أنت موافق .

قال مبتهجا : طبعا موافق .. إذا حدث الزواج فأنت ستصبح من سكان حي بهية ومن الأثرياء ومن الروعة أن يكون لك صديق ثري ومن أهالي بهية تزوره .. ولما الواحد يزورك يصحب زوجته معه مثل باقي البشر .. ولا تجعل الشيطان يشرق بها ويغرب بسبب تأخره عن البيت .

ضحك إدريس وقال : معك حق.

وبعد انتهاء ضحكهما انصرف إياد مودعا وداعيا ، وقبل المقابلة الرابعة التي يسعى إليها في سلسلة المقابلات التي اخترعها ؛ ليعرف أحداث تلك الصورة تكلم مع السيدة سمر ، وحدثها عن اتصال هند الطويل ، وطلبها منه التفكير بعمق وجدية بموضوع الزواج من شقيقتها ، وأنها تراه الرجل المناسب لها ، وأنه يرغب بلقاء خاص بزينب لفهم وجهة نظرها بالاقتران به ، ويرغب بالحديث معها في أمور خاصة ، والتعرف عليها وجها لوجه .

هتفت سمر فرحا وقالت : ممتاز يا أستاذ إدريس ! صدق لما عرفت أنك أرمل ، وتعاني من زواجك القديم ، تشجعت لعرض زينب عليك .. أنت تحدثت مع سوزان عن حياتك الشخصية .. فوقع في نفسي أن أعرض عليك زينب ، فهي مثلك تعاني بسبب يأسها من الإنجاب بعد ولادتها وحيدتها وترملها المبكر ..قلت أنت الرجل المناسب .. وقلت لسوزان سأتكلم معه فهو أصبح صديقا لنا .. فهي لا تريد أطفالا ، تريد زوجا كسائر الناس يعيشان الحياة الزوجية .. الوحدة بالنسبة لها مؤلمة يا إدريس.. تعيش وحدها في قصر .. وهي غير منسجمة مع بيئتها تتألم بصمت .. لا تحب السفور مثلنا ، لا تحب الشراب والسهرات .

قال: حدثتني هند عن إزالة رحمها ، وإن البنت الوحيدة تعيش مع جدتها.

ـ نعم ، أيها الصديق أنت المناسب لها بما أنك عاجز عن الإنجاب .. ستعيشان بسعادة .. وهي طيبة وتحب الخير والصدقة ، وتسافر إلى تركيا سنويا من أجل دفع المال لجماعة أو جمعية دينية تنتمي إليها.

ـ نعم ، أنا عاجز عن الإخصاب ، وعانيت منه في سنوات زواجي كلها .. علاجات كانت نتيجتها صفر .. وهذا كان يرهبني من تجديد الزواج ، حتى فكرت أن أتزوج أرملة ، وأربي أولادها .. ولم يتيسر ذلك يا سيدتي .. تحدثي مع هند الدكتورة وشقيقتها من أجل لقاء أولي لقاء تعارف .

قالت : لا بأس ، الآن سأتحدث مع صديقتنا هند .

لقاء زينب

كما أحب إدريس لقاء زينب أحبت المرأة اللقاء والتعارف ، واختير بيت سمر لهذا اللقاء ، هيأت سمر صالة المعيشة ؛ ليكون اللقاء فيها .. حضرت هند تصحبها زينب لبيت سمر ، وهو المعروف لهن ، وإن لم يدخلنه من عهد بعيد ، رحبت بهن أحسن ترحيب ، ومن العادات التقبيل على الخد مرة على اليمين ومرة على اليسار تعبيرا عن الود والمحبة بين المتعانقين .. وجلسن في صالة الشقة ، وكان الموعد بمجيء إدريس بعد صلاة المغرب .. وصل إدريس لحي سكن سمر ، وصلى في أقرب مسجد لبيتها ، ثم تمشى لبيت سمر ، وكان في استقباله على باب الشقة زوج سمر ، ورحب به .. وكانت سمر ترحب به بعد دخوله الشقة ، ثم ساقته حيث تجلس زينب وهند ، وجرى التعارف والترحيب ، وانسحب زوج سمر .. وبعد دقائق فعلت سمر وهند مثله ، وبعد فترة من الصمت قالت المرأة : يا أستاذ إدريس أنت صحفي!

نظر إليها بتمعن وقال: هل قالوا لك إني صحفي ؟

ـ لم يقل لي أحد ذلك ؛ ولكني فهمت أنك تعمل في الصحافة .

ـ لست صحفيا يا سيدتي الكريمة ! أكتب كهاو وكتسلية .. أنا كنت موظف رقابة صحية مفتش صحة على المحلات الغذائية والمطاعم والمقاهي .. وتقاعدت منذ عشر سنوات .

قالت : كنت متزوجا وترملت .

ـ نعم ، تزوجت كما يتزوج الخلق .. وعشت معها عشر سنوات ، ثم ترملت .. ولي عشرون سنة بغير زوجة.

حدث صمت للحظات ثم قالت : أنا سمعت من شقيقتي هند عن اهتمامك بالصورة التي أدت لطلاق أمي ـ رحمها الله ـ من المهندس سيف وردة ..ولماذا اهتممت أنت بأمر الصورة ؟

قال : سؤال كبير فعلا يا دكتورة زينب ! حاولت لما علمت بقصة الصورة أن أعرف كيف كانت الحيلة الماكرة ؟ لأخذ تلك الصورة قهرا وبصورة سرية .. فاكتشفت أشياء رهيبة كانت تحدث في المدينة ، ومع بعض طالبات الجامعة .. التفاصيل تحتاج لوقت .

رددت : تحتاج لوقت ! أنت تعرف المهندس سيف وردة ؟

ـ تعرفنا بسبب الصورة ، وصرنا أصدقاء ، وأطلعني على رسالة أمك التي كتبتها له قبل موتها التي تطلب المسامحة منه ، وتطلب معرفة كيف وصلت الصورة إلى رجل المقهى ؟ وكيف تم خداعها ؟

مسحت زينب دموعا تساقطت عند ذكر أمها وقالت : آسف .. هل أنت مستعد للحياة الزوجية بعد كل هذه السنين من العزوبية ؟

تنحنح وقال: أنا في البداية اعتذرت عن أي زواج ،كما اعتذرت طوال السنوات الماضية ؛ ولكن جاءت إشارات مشجعة بالزواج منك .

ـ مثل !

قال : مثل .. هل حدثوك عن ضعفي الجنسي؟

ـ ضعفك الجنسي .. هذا أنت صريح !

ـ ولماذا نضحك على بعض ؟ أنا تزوجت ، ولم أتمكن من الإنجاب لضعف الحيوان المنوي لديّ ورغم العلاجات الكثيرة لم يقدر الله لي الإنجاب ؛ وذلك سبب لي الكثير من المشاكل مع الزوجة .. وهذا مؤشر على ضعف الطاقة الجنسية ..وكذلك هجري للزواج كل هذه السنين ، وقلقي الكبير من الحياة الزوجية ، والعودة لمثل هذه الصراعات .. ولكنهم أخبروني أنك مرضت بعد ولادة طفلتك ، واضطررت لإزالة الرحم ، فلا تفكرين بالإنجاب.

تحدثت عن رحمها ، ومشاكلها الصحية ، واضطرارها لإزالته ، والتخلص من معاناته وهي تدرس في تركيا لإكمال الدراسة ، واستمع إدريس ، ولما انتهت قالت: لماذا تريد أن تتزوج؟!

تمتم حيرة من السؤال : لماذا أريد أن أتزوج ؟! وأنت لماذا تريدين الزواج؟

ـ لست أدري !.. أختي هند وقبلها أمي تريدان ذلك .. هند تقول : رغم أننا نعيش حياة منفتحة عن سائر فئات المجتمع ، ونعشق الغرب في لباسنا وطعامنا وعاداتنا.. فالزواج حماية من الشائعات والأقوال .. ولم يعد الحي الذي نسكنه يحوي أهل الثراء فقط .. إنها تُلّح عليّ

بالزواج حماية لسمعتي .. عليّ أن أكون زوجة أمام الناس ، ولراحتي النفسية أيضا .. أليس الناس يتزوجون من أجل الولادة ؟

قال : هذا سبب مهم .. التناسل والمحافظة على النوع ؛ ولكن كم تلد المرأة في عمرها ؟ عدد قليل .. الاستمتاع والمتعة الجنسية هدف آخر ؛ ولذلك هي من متع الدنيا والآخرة حيث لا أولاد .. الولادة للمحافظة كما تعلمين على النوع .. والزواج كما بين النبي الحصان للفرج والغض للبصر عن النساء .

قالت بتفكر: صلى الله عليه وسلم .. وإذا ضعف الجنس هل من حاجة للزواج ؟

ـ أكيد نحن بحاجة للزواج ولو ضعف الجنس ..كلما يتقدم الإنسان عمرا تضعف قدرته الجنسية ؛ لذلك يلجأ الناس للأدوية والمنشطات والأجهزة الطبية .. هل إذا مرضت الزوجة وضعفت عن أداء واجباتها في المعاشرة ترمى في الشارع ؟ قد يكون الحل شرعا الزواج من أخرى ، وما يسمى التعدد عندنا ، وعند غيرنا الخليلات .. وإذا مرض الرجل وضعف هل يرمى في الشارع ؟ الإسلام إذا رأت المرأة أنها بحاجة للنشاط الجنسي أن تطلب الطلاق ، وبعد حين يحقق لها القاضي رغبتها حتى لا تقع في الزنا وتتخذ الأخدان .. وحسب مُشاهداتي أرى أن النساء تصبر على الترمل أكثر من الرجال ، وخاصة أن الكبر يؤثر مبكرا عليهن أو ما يسمى بسن اليأس وانقطاع الطمث وهرمون الجنس .

قالت : صحيح أنا صيدلانية وأنا مثقفة يا أستاذ إدريس .. وقرأت عن الإسلام وقضاياه المعاصرة ، وما زلت أقرأ ..وقرأت فلسفة التعدد في الإسلام .. ووجهات نظر القدماء والمعاصرين ، وأشكال الزواج الجديدة في المجتمعات الإسلامية من العرفي والمسيار .. وقرأت عن الزواج في المجتمعات الغربية وصوره المثيرة للدهشة.

قال : سيدتي معذرة ربما طال اللقاء ! فها أنت رأيتني وتعرفت عليّ ، وأنا قد تشرفت برؤيتك وعرفتك .. وسمر أو هند أو حتى أنت تتحدث معي لاستيضاح أي شيء عني عن شخصي الضعيف ؛ فإذا رأيتني صالحا للحياة معك فلا مانع من العودة للحياة الزوجية .

ونهض قائما ، فوقفت متضايقة وقالت : أراك متعجلا ؟!

ـ آسف جدا ..اقتربت صلاة العشاء يا سيدتي ! وتنحنح بصوت عال ، فأقبلت هند وسمر حيث كانتا يرونهما حيث تجلسان . فقالت هند: هل تحدثتم جيدا ؟

قالت زينب : الوقت قصير.. والرجل مستعجل.

ضحكت سمر وقالت : هند لم أفهم !

قالت زينب: لم نتحدث كثيرا .. سيغادر للصلاة .. على كل حال يا أستاذ إدريس هذا اللقاء للرؤية والتعارف .. أنت لم تتكلم عن نفسك كثيرا .

ـ ليس لديّ الكثير لأقوله عن نفسي .. أنا أرمل ، ولم أتزوج بعد ترملي ، ولم أحاول لأني عانيت من زواجي الأول .. وجبنت عن تكرار الزواج ؛ ولكن اليوم الأمور في نظري تغيرت ؛ ربما ينجح الزواج .. وهذا لم يكن يخطر على بالي !

قادته سمر إلى مدخل الشقة مودعة ، وقالت : شكرًا يا أستاذ إدريس سمعت أنك ذاهب لمقابلة السيدة عبير .

ـ هي المرشحة الرابعة للحديث عن أيام الجامعة في الستينيات .. كان لديّ حوار مع رجل للتوازن رجلان وسيدتان .. السلام عليكم.

ـ مع السلامة.

وعادت سمر للصالون ، وقالت بدون مقدمات : يبدو أن عريسنا لم يعجب الدكتورة زينب .

قالت بتهكم : هذا عريس يا سمر !

ـ هو عروس!

ـ هذا لباس عريس جاء ليقابل امرأة!

ضحكت سمر وقالت : أعتقد أنه جاء بهذه الهيئة متعمدا ..ويبدو أنه نجح .

قالت زينب : هو لا يريدني !

قالت سمر : لم أقل ذلك يا زينب .. إنك من طبقة اجتماعية ، وهو من طبقة أخرى .. وإن لم

يكن بيننا فواصل .. هند قالت : رجل متدين ، ليس متشددا ، ودون لحية طويلة وثوبا قصيرا كما نرى شبابا اليوم .. وكبيرا في السن إلى حد ما .. لا رغبة له بالولادة .

فصاحت هند قائلة : شكرًا لك سمر والشكر لزوجك .. فمواصفات الرجل مناسبة واعتذري للرجل نيابة عنها ، وعن أي جفاء بدا له منها .

قالت زينب : أنا لم أرفضه يا هند ! .. ولم أقبل .. قلبي لم يرتاح له .

قالت هند كأنها محتجة : لم يرتح له قلبك وأنت ترينه أول مرة ! .. نحن الذين بذلنا جهدا ليغير رأيه بالزواج ، ويغامر من جديد .. رجل لن يفكر بالخلفة والإنجاب .. وقد عرفناه جيدا بخاصة الأختان سمر وسوزان.

قالت سمر: صح هذا يا زينب! نحن بعد تأمل رأيناه زوجا مناسبا لك .. وإذا تيسر رجل أصغر منه قد يفكر بعد حين بالذرية .. نحن لسنا في أوروبا أن يكون للواحدة شريك إلى حين والعكس صحيح .. لكل مجتمع تقاليده ، وإن كنت أراها سيئة .. والرجل ليس قريب لي ، ولا صديق العائلة .. الظروف التي جمعتنا به معروفة لهند .. فلعلها تحدثت عنها .. وبالنسبة للمعاشرة الزوجية ـ وأنت الطبيبة الصيدلانية ـ ببعض المنشطات والمقويات تتمتعون بالزواج الكل يضعف مع التقدم في العمر والرغبة تقل .

ـ أنا لم أهتم بهذه الناحية .. فلي سنوات لم أعاشر أحدا .. ولما مرض أحمد لم يحصل بيننا أي اتصال ..واستمر مرضه سنتين ؛ لكنني أهتم بشخصه ، وجعلني أن أراه عجوزا سيموت غدا

قالت سمر : هو ليس صغيرا ؛ كأنه خمس وخمسون سنة ؛ ولكنه نشيط يتحرك يكتب يقرأ يحقق .. لا يجلس في البيت نهارا .. أنا رأيته مناسبا لك مائة بالمائة حسب طلب هند .

قالت هند : صحيح .. وهو إنسان بسيط يا زينب ولين ومثقف .. سيفهم عليك طلباتك .. وأنا لست متعاطفة معه من أجل موضوع أمنا .. وهو ليس بالصحفي الكبير هو هاو .. هيا بنا

قالت زينب : على كل حال يا سمر سأفكر به بشكل جدي وعميق .. أرجوك لا تزعلي مني .

ـ أزعل منك ! أبدا يا زينب هذه حياتك أنت ليست حياتي ؛ ولكن المرأة لو تجد زوجا ولو

ديكورا خير من دون زوج .. لو زارك أحد ليلا سيسبب لك الإحراج .. أنت تعرفين أقوال الناس .. ولو دخل أحدهم بيتك صباحا ، سيقولون قصة غرام جديدة رغم فسادهم وشرورهم .. من أجل ذلك هند تحب لك الزواج .. ليس من أجل الجنس والأطفال .. من أجل أقوال المغرضين .

ـ شكرًا سمر .

كانت هند تسوق السيارة عائدة وشقيقتها زينب جهة حي بهية حيث تسكنان منذ ولدتا ، وبعد مضي وقت قالت زينب : مالك صامتة ؟ كأننا عائدون من مأتم!

ـ مالي صامتة يا أختي ! ماذا أقول ؟ هذا هو الرجل الذي جاءنا عن طريق سمر .

ـ أنا راغبة بالزواج ، وكذا مرة قلت سأتزوج .. لكن أريد الزوج المناسب ، وليس أي زوج .. أنا قلقة .. أخشى الفشل والطلاق بعد الحصول على لقب أرملة .

قالت : سنة الحياة الموت والحياة .. ها هي سمر تزوجت بعد أن طلقها زوجها ، وطلق الشيوعية مع طلاقه منها كما تقول ، وهاجر لأكبر بلدان الرأسمالية .. ومن حسن حظها أنها لم تلد منه .. وها هي سعيدة بزوجها الثاني ، وزوجت أطفالها منه .. ومن الصعب أن نجد زوجا متدينا في حيينا يا زينب .. والرجل قبل من ضغط سمر عليه ..وأقنعته بصلاحه للزواج .. هو لم يوافق نهائيا .. ينتظر موقفك .. لم يفاتح أحدا من أقاربه .. هو تحدث مع المهندس سيف وردة الذي تعرف عليه من بضعة أشهر ، ورفيق آخر كأخ له .

ـ سيف زوج أمنا الأول .

ـ نعم

ـ هذا الرجل بدا لي غريبا .. فهو بدا لي كارها للنساء بسبب زوجته التي ماتت ، ومعقدا منهن وسيف هذا رغم مجيئه للصيدلية وشراء أدوية له وللخادمة العاملة في بيته أسمع أنه معقد ويكره جنس النساء .. كذا مرة سمعت من أقاربه ذلك ؛ بل بعضهم يكرهه ويبغضه .

قالت هند : أمي درست معه وتزوجته .. وكتبت له الرسالة التي تخبرين .. فهو يعتقد أن أمنا

هي التي دمرت حياته وكرهته في جنس النساء والإناث .. فهن في نظره فاجرات مومسات ولكنني سمعت أنه صار يصلي .

ـ سيف يصلّي

ـ نعم ، يعلمه إدريس الدين .

ـ إدريس صاحبنا الذي قابلناه قبل وقت يسير !

توقف السيارة أمام بيت زينب فقالت : ادخلي لنتعشى سوية ..وأسمع منك قصة المقابلات مع هؤلاء الشيوعيين ..ولماذا فعل إدريس ذلك ؟!

ـ البيت !

ـ اتصلي وأخبريهم أنك في الحي وعندي .

قالت هند بتردد : ما رأيك أن نؤجل ذلك ليوم آخر ؟

ـ الأفضل الليلة ، فالوقت مبكّر ..قبل قليل أذن العشاء .

نزلتا من السيارة ، وفتحت زينب بوابة الفيلا ، وتبعتها هند ، وفتحت لهما الخادمة الخاصة بزينب باب الفيلا ، ورحبت بهما ، وقالت لها زينب: يا جوزفين اتصلي مع المطعم، واطلبي العشاء.

حنت الخادمة رأسها "بنعم"، ودخلتا غرفة الزوار ، واستأذنت زينب لتغيير ثيابها ، ودخلت هند الحمام ، وخلال ساعة كان العشاء قد حضر من المطعم ، وأخذتا بالأكل ، ولم تتحدثا عن سمر وإدريس وسيف والزواج ، ولما انتقلنا إلى غرفة الجلوس والسمر قالت زينب : يا هند لا تغضبي مني أنا أحبك ، وليس لي في الدنيا إلا أنت وأخي خالد وابنتي كريمة .. وأنا أعلم قوة حبك لي ، ورغبتك في سعادتي ، واهتمامك بحياتي وزواجي منذ فقدت أحمد ؛ لكن ألا ترين فارق السن بيني وبين الرجل ، إنه فرق كبير .

ـ الأعمار بيد الله أولا.. والرجل صحته جيدة كما علمت .. فهو لا يعاني من السكري أو أي مشاكل في القلب .. ولا أتصور أن يقبل رجل صغير السن الزواج منك إلا إذا كان طامعا

بشروتك خاصة ممن نعرفهم .. ولليوم لم يتقدم إليك أي شخص من المعارف والأقارب ؛ ربما بسبب علمهم بتدينك ..فهم لا يحبون هذه الصفة في الزوجات .. يحبون التبرج والسفور واللهو ..وأنت تعلمين ذلك .. والرجل مثقف ومرح ومتدين بدون تشدد وتعصب وغير متزمت ..وتقبل الأمر من سمر وهي في نظره كافرة .. وهو لا يعرفها قبل انخراطه في المقابلات الخاصة بجريدة صاحبه أو قريبه .. والأمر الأهم أنه لا يهمه أن تلد زوجته ؛ ولذلك تشجعت سمر لمساعدته ؛ لأنه عانى من زواجه القديم .

ـ لكنها حياة زوجية وبيت وطبيخ ونفيخ .

ـ يا سلام ! الخادمة ماذا تفعل عندك ؟! وحتى ونحن في بيت الوالد تعلمنا ذلك ؛ لأن ذلك من واجباتنا تجاه الزوج والأولاد ؛ ولكن طول عمرنا نأكل من تحت أيدي الخدم والمطاعم .. أنا استرحت للرجل ، ليس لأنه مهتم بقصة أمنا وسيف وبراءتها .. فأمي ليس بريئة تماما يا زينب .. فالصورة القذرة صورتها دون منازع ، لم تنكر أن الصورة لها ؛ لكنها ترفض فكرة أنها تعرت حرة أمام أحدهم ليصورها ..كيف خدعت ؟ كيف مكر بها ؟ هذا ما كان يغيظ أمنا يا زينب .. وماتت وهي لا تدرك كيف حصل معها ذلك؟ لذلك كتبت رسالة لسيف أن يذهب للمقهى ، ويبحث عن الرجل الذي باعه الصورة .. ويعرف منه كيف وصلت إليه الصورة ؟ ولكن الوقت تأخر للغاية .. لماذا طلبت منه ذلك؟ الله أعلم .. وتوصل إدريس إلى قصة الشقق السوداء التي تقاد إليها الطالبات الساذجات، ويخدرن ويصورن عاريات ؛ لابتزازهن للعمل في الدعارة أو الفضيحة .. وأمي لا تعرف بمثل هذه الشقق.. ولم تتحدث عنهن يوما وكانت تعرض الصور على الضحية بعد زمن حتى لا تتذكر وقت الخداع .. وأين ؟ وسقطت العديد منهن في براثن تجار الجنس والفجور .. وسيف كما فهمت كان يرى أمي ملاكا لا يمكن أن تقع في مثل هذه الهفوة أو الغفلة فصدم صدمة قوية .. وظن أنه خدع من قبل أمي وأهلها ؛ فكان الانفصال بسرعة ، وجنح به الخيال بما وراء الصورة من خبايا .. أنا لا أضغط عليك بالزواج منه .. هذه حياتك أنت ، لا حياتي ؛ لكنني أحب لك الخير والسعادة .. وأن

يكون لك الزوج الطيب المحب ..لا تصلح الحياة لشابة صغيرة مثلك بدون زوج يعيش معها يجلس معها ، ويؤنسها يفرح لفرحها ، ويتعاطف مع حزنها.. يرافقها في الحفلات والمناسبات لو أنك كبيرة ؛ لربما كان الأمر أهون يا عزيزتي .. فكري بترو وعمق .. أنت لك ظروفك الخاصة .. وأنت تعلمينها أكثر مني .. وسيف الذي تعقد من النساء وأبى الزواج بعد الطلاق حبب للرجل الزواج منك .. لا أدري ما السبب ؟! فنحن ليس بيننا صداقة خاصة ، ولا عامة إنه مجرد جار له ذكريات مع أمنا أيام الجامعة ، وظلت أمنا تحتفظ بصوره تلك الأيام .. هذه الذكريات دفعتنا للتعرف عليه ، وليس بيننا سوى أهلا مرحبا كيف الحال في بعض الأحوال كالالتقاء في مناسبة اجتماعية كعرس أو مأتم اضطر لحضورها من مناسبات أقاربه الذين نعرفهم .. فلا دخل لنا في زواجه ، ولا طلاقه .. قولي لي ما أخبار أبي ؟

ـ مريض .

قالت هند : أعرف هذا .. وتحدثت معه بالتلفون ، وطلب زيارتي وزوجي ؛ ولكن زوجي يرفض الزيارة ، وقال: اذهبي وحدك ..لا يريد اللقاء به .. وإذا فعلت ذلك سيغضب والدي وربما سيطلب مني أن أطلب الطلاق .. لم أكن محظوظة بالزواج منه ؛ ولكنه والد الأولاد.

ـ صار معك كما صار مع أمي ـ رحمها الله ـ تزوجت من لا تحب وترغب .. لا أدري كيف يحدث الزواج يا هند ؟! .. تحدثت مع طبيبه المعالج فقال بصراحة قاتلة : سيموت قد استفحل المرض في بدنه ، وأجهزة الدفاع تضعف يوما بعد يوم ..إنه السرطان .. ولم تعد تسمن المسكنات والمخدرات .. وقد يتعرض لجرعات من الكيماوي الطبي على أمل .. وهو ضعيف .. زوريه وحدك أو اقنعي زيادا بالذهاب معك .. وإنها قد تكون زيارة الوداع .

ـ سأفعل .. الآن اسمحي لي بالانصراف .

ـ الحديث لم ينته بيننا.

قبلتها مودعة وهي تقول : فكري بجد بزواجك ..أنا لن أغلق الملف حتى أراك زوجة ، ليس مهما من هو صاحب الحظ .. إلى اللقاء . وعانقتها مجددا مودعة وخرجت .

إدريس لم يفكر بلقاء هذه الفتاة عبير حامد ، وسمر عمران ، هو كان مخططا للقاء مراد وسوزان .. فالأول هو الذي كشف أمر الصورة لسيف ، ثم تبين أنه لم ير الصورة ؛ إنما استغل لنقل الرسالة .. وسوزان كانت صديقة لنبيلة ولمراد .. وكلنا يعلم أن سبب هذه اللقاءات هو معرفة كيف حدث التصوير الإجرامي ؟ ووجهت سوزان إدريس نحو سمر ، وتأكد من موضوع الشقق السوداء ، وسمر وجهته لعبير على أنها العضو الرابع للمقابلات .. وقد أدرك أن وراء الأكمة ما وراءها .. ظن أن لديها شيئا حول الشقق .. وهي في نفس الوقت عملت في الحركة الشيوعية كسائر الأسماء المختارة .

التقى بها في مقهى عام يجمع بين الجنسين، والسبب أن الآنسة عبير ما زالت عزباء عانس ـ كما يقال ـ منذ تخرجت من الجامعة ، وهي بدون زواج شرعي .. جرى التعارف والترحيب ، وقالت : لم أستطع استقبالك في بيتي؛ ولأنك رجل غريب عن الحي ، وأنا أسكن مع أمي .. ولي أخوة جيران في الحي .. فأنا لم أتزوج بعد ، ولن أتزوج .. وأنت خير من يعرف التقاليد رغم أن أهلي يعرفون أنني أجلس مع شباب الحزب ..فالتقاليد تحكمنا عندما يرونك مع رجل غريب عنهم يعتقدون فيّ السوء والزنا .. لا يرون أن هناك حوارا بين رجل وامرأة.

فقال : نعم ، ما زالت التقاليد تحكمنا خاصة الأحياء الشعبية .

قالت عبير : وحتى أحياء الأثرياء صداقة رجل وامرأة تعني الفاحشة والخنا .. هذا المقهى يرتاده الرجال والنساء .. لا للعب الشدة كمقاهي الرجال .. هنا الدخان والثرثرة فقط .. ها هنّ فتيات يدخن النرجيلة .. حديثنا عن الحركة الشيوعية في الستينيات .

ـ العقد الذهبي على ما أظن .

ـ يمكنك أن تقول ذلك ..كان الفكر يتكلم فيه.. في السبعينات أصبح الرصاص يتكلم .. وفي الثمانينات الإصلاح والتقويم ، ثم انفرط الحزب الشيوعي السوفيتي ، والأهم في الحركة الشيوعية العالمية .. أنا صرت شيوعية لظروف معينة ، لا تعرف عنها شيئا .

قال بفكر وتأن : أنا رشحت لي للحديث عن فترة دخولك الحركة الشيوعية من قبل زميلتك

السيدة سمر عمران .. وهي تعرفت عليها عن طريق المهندسة سوزان .. اليوم الشيوعية أصبحت هواية وتغني بالأمجاد

ـ تغني بالأمجاد !

ـ نعم ، عندي سؤالان سألتهما لرفاقك الأول كيف انخرطت بالشيوعية العربية ؟ وهي حركة الحادية صادمة للمجتمع المسلم ، والثاني هل ما زلت تؤمنين ومتمسكة بالفكر المادي وتلك الشعارات ؟

تنهدت وقالت : أنا عرفت الشيوعية ، وسمعت بها في الجامعة ، وعرفتها عن طريق سمر زميلة الكلية ، ولم أنخرط فيها إلا بعد أن تعرضت للاغتصاب ، وتصويري حيلة عارية وفي أوضاع جنسية لا تخطر في البال ؛ وذلك رغم أنفي .. فالتحقت بالشيوعية حماية لنفسي من الدعارة ؛ وذلك نصيحة من صديقتي سمر .. فالجنس مباح عندنا ولا أهمية للعفة .. والدعارة مرفوضة .

أدرك إدريس حسن اختيار عبير لهذا اللقاء .. فها هي تعترف بالأذى الذي حل بها .

فقال : هل يمكن الحديث عن ذلك المكر في هذا المكان العام؟

قالت : يمكن.. أتصور لا أحد يهتم بما نتكلم .. قبلت طالبة في الجامعة في كلية التمريض كسمر ..كنت في نظرهم جميلة ..كنت أحب الثياب والعطور والتبرج ، وصحبت الشباب والشابات من السنة الأولى ، وكنت في نفس الوقت ساذجة حسنة الظن بكل شخص .. تعرفت على شباب الحركة الشيوعية ؛ لأنني لم أكن متدينة أصلا ؛ ولكني لم أكن أعرف الإلحاد هل هناك إله أم لا ؟ ولم أهتم بالتحزب .. فكنت بعد انتهاء المحاضرات أعود لأقطن مع فتاة شريكة لي في السكن .. أنا عرفت الشباب من أيام المدرسة الثانوية أصاحب ذا فترة وأتركه إلى آخر .. ولما التحقت بالجامعة تجاهلتهم كلهم .. تعرفت على شاب في آخر السنة الأولى شابا أثار إعجابي .. كان جيدا وكان ينفق بسخاء عليّ من مرطبات كحول ساندويتشات هدايا من العطر .. تعلقت به .. ولم نفكر في الزواج طبعا صداقة كلية .. أمامنا سنوات للتخرج

واستمرت العلاقة بعد انتهاء السنة الأولى .. وأثناء عطلة الصيف كنت ألتقي به في وسط المدينة ، نتناول الطعام ، نذهب السينما المسرح كان سامر يغمرني بالغزل والأحلام والهدايا ، وكنت عاجزة عن تقديم شيء له أكثر من بضع قبلات خلال كل هذه الشهور ..كان يتظاهر أنه مغرم بي .. حقيقة كنت مفتونة ومبهورة به وبكرمه ومطاعمه ، لم يتحرش بي جنسيا ..كنت أتوقع أن يطلب مني المعاشرة مقابل ما يقدمه ؛ لكنه لم يفعلها ، هل أحد يعطي بدون مقابل ؟! انتظرت عدنا للسنة الثانية ، وهو المحب الكريم .. ودعاني إلى حفل أول السنة في بناية راقية .. ورأيت فيها الكثير من فتيات الجامعة ..وسررت بوجودي في هذه الحفلة العامرة ، ثم تكررت الدعوة بعد ذلك لمثل هذه الحفلات الخاصة به ، ويرافقها طعام رقص غزل خمر دخان.. وكانت البنايات تتغير بين حفلة وأخرى ، حتى أنني لم أكن أدري من الداعي لها ؟ هو يدعوني لمشاركته فألبي الدعوة إلى أن فاجأني يوما بصورة إباحية لي ، كنت بغير لباس عارية تماما .. صدمت لم أستوعب الأمر ، خلت الأمر خدعة أو لعبة ، واتهمني بالخيانة والغدر ، وأنني بعت جسدي لمحب آخر .. دافعت هن نفسي بشدة دون فائدة .. المهم اختفى من حياتي بعد عرض تلك الصورة ، ثم ظهرت لي بعد حين يسير فتاة تحمل لي عددا من الصورة العارية والإباحية ، وكلمتني بكل وقاحة وصراحة بأنني إذا لم أقبل العمل بالدعارة ستذهب تلك الصورة لأهلي وتنشر بين طلبة الجامعة .. وبعد رفض شديد وتمنع عرضت عليّ معاشرة رجل واحد مقابل أن يسلمني الصور .. المهم سقطت في براثنهم وشققهم حالمة بالحصول على الصور .. كانت أياما عصيبة وسقوطا مريعا في مستنقع الرذيلة .. فكانت سمر صديقتي ، وحدثتها بالورطة التي وقعت فيها ؛ وربما سمعت بما حل بي .. فكشفت لها الحقيقة التي أتكلم بها أمامك فضمتني للحزب الشيوعي حتى لا أشغل نفسي بالبكارة والعفة .. وتوقف هؤلاء عن تهديدي وفضحي لما لما أعلنت شيوعيتي ؛ لأن الحزب هدد بفضحهم .. ونشر قصتي في مجلات الحزب وبياناته .. وهكذا صرت عضوا في الحركة الشيوعية العربية ، ولأنجو من بيع جسدي لمن هب ودب ..كنت كلما أقابل أحدهم لأخذ الصور يطلب مني المضاجعة والزنا ..

ثم يرمي عليّ عشرة دنانير أو عشرين .. كنت رخيصة ؛ ولكنها ورطة لا تنسى .

فعقب إدريس : إذن نفذت بجلدك بدخولك الحزب .. ونجيت من الدعارة والإباحية .

قالت : الشيوعية لا يهمها الشرف والدعارة .. هي غير محرمة عندهم .. الجنس بالرضا والاقتناع بدون تهديد وابتزاز ..وأنا لليوم أرفض الزواج .. ولما كبرت سني ضعفت الرغبة بذلك ، وحرصت ألا يعرف أهلي أنني امرأة ، ولست عذراء

ـ لم يتقدم إليك أي شيوعي .

ـ سيرفضه أهلي ، وهم سكتوا على شيوعيتي على مضض للحرية التي نتمتع بها ، وللمال الذي أقدمه لهم .. فأنا تعلمت التمريض ، وعملت في قطاع الدولة ومشافي خاصة بعد التقاعد .. وما زلت أعمل .. وأنا اليوم غير شيوعية ، تركت الحزب في أواخر السبعينيات ؛لأنني غير مقتنعة بالإلحاد .. ولا يعني هذا أنني متدينة ، لم أعرف التدين يوما .. هذه قصتي يا أستاذ إدريس .. واعلم أنني ما زالت لي صداقات مع الرفاق وغيرهم ..هل بقي شيء؟

ـ والشاب الذي غرر بك ما مصيره ؟

ـ هو بعد أن مثل دور الصديق والسخي اختفى من حياتي .. ثم تبين لي أنه لم يكن طالبا معنا هو متخرج من زمن ..وكان يأتي الجامعة متظاهرا بأنه طالب ؛ ليصطاد المغفلات المراهقات مثلي .. فالعاشق الولهان الشريف مات .

ـ مات

ـ نعم ، مات ، والأصح لقد قتل .

ـ كيف ؟!

ـ لم أكن أول فريسة له ، كان يظهر في كليات مختلفة ، فهو مجرم ناعم .. الله أعلم كم يقبض أجر كل جريمة ؟! كرر العملية مع فتيات أخريات .. وهناك فتاة اعترفت لأهلها بما حصل معها من احتيال وخداع ، وجاءوا الجامعة والكلية التي كانت تدرس فيها الفتاة ، وأشبعوه ضربا ورفسا وطعنا بالموس ، ونقل إلى المستشفى ، ثم مات .

ـ والتحقيق !

ـ التحقيق حول الصور .. لا، كان التحقيق حول الجماع ، وعرضت على الطب الشرعي فبين أنها عذراء ، لم تفض بكارتها .. وقتل المخادع وراحت عليه .. وسجنوا الإخوة بضع سنين .. وسمعنا أنهم خرجوا ، وتزوجت البنت ، وأصبحت أما .

وبعد لحظات من الصمت ، وطلب المزيد من القهوة قال : يا أختي العزيزة كيف كُنتُم تصورون ؟! تخدرون تنومون .

ـ حسب الحفلة .. هناك حفلات تمتد للفجر .. أتوقع أن التصوير يحدث فيها .. نتعب من الرقص والشراب والغناء ، فينام كل واحد حيث يكون .. وهناك حفلات مختلطة ، وهناك حفلات قصيرة تنتهي قبل نصف الليل .. وأعتقد أن هذه الحفلات تغطية على حفلة التصوير من الصعب أن أعرف متى تم تصويري ؟ فأنا عندما أنام أحسب أن ذلك بسبب الكحول والتعب والأكل الكثير .. فتحديد حفلة التصوير إذا كنّا في حالة تخدير لا يعرف ؛ وربما تكشف لنا الصور بعد نصف سنة ..كيف سأتذكر ؟ لا يعرف المخدوع أي حفلة مكروا به .. إنهم شياطين وأرجح أنهم يستخدمون المنوم أو مخدرات غير خطرة كالتي تستخدم في تخدير الحيوانات الخطرة لعلاجها أو نقلها .. والصور تكون في غرف خالية من الأثاث .. سجادة على الأرض .. والمصور محترف في لقط الصورة .. وعندما نستيقظ سيذهب الظن إلى الشراب والرقص .. أنا عرفت فتاتين خلال الجامعة استدرجتا للفخ .. أنا ضعفت للحصول على الصور ؛ ولكنهم ماكرون .. فكان أمامي الحزب الماركسي للتوقف عن الدعارة والفضيحة .

ـ يعني أنك لا تذكرين ما حصل تلك الليلة .

ـ لا أذكر ليلة الجريمة ..فتكرار الحفلات بعدها لا يدعك تعلم .. ولا يكاد أسبوع أو عشر أيام تمر بدون دعوة وسهرة.

ـ ألا يحدث زنا ؟

ـ أنا لم أر ذلك .. كانت تحدث قبلات حركات .. أما تعري وزنا لم يحدث أمامي شيء ..الزنا

له شقق خاصة .

قال : حدثت عن هذه الشقق من قبل سمر وسوزان قبلها ..ولم تعرفا مكان التصوير ، هل هو نفس الشقة أم تنقل لمكان خاص بالتصوير ؟

ـ أعتقد في نفس الشقة ؛ وربما تكون هناك شقة يجري فيها التصوير .. فشقق الحفلات كثيرة .. لا أدري كيف توفر؟! أنا شاركت في أكثر من خمس شقق كحفلات وسهرات .



لما رجع إدريس من المقهى حيث قابل الآنسة عبير اتصل بالسيدة سمر ، وقال بعد التحية :

الآن عدت من مقابلة مع الآنسة عبير ، هل هي الفتاة التي عملت في تلك الشقق ؟

ضحكت وقالت : أنت فهمت ذلك ، لا ، تلك المرأة ما زالت ترفض أي مقابلة ، وأي حديث عن تلك الأيام .. الأخت عبير حامد هي ضحية مثل نبيلة خالد .

ـ أتعرفين غيرها من ضحايا الشقق ؟

ـ أعرف حوالي عشر فتيات أُكرهن على الفجور ؛ لكن الاتصال انقطع معهن بعد الخروج من الجامعة .. نبيلة المهندسة لم تعرف أنها صورت إلا بعد زواجها من المهندس سيف .. أما عبير فاعترفت لي بذلك .. واستطعت إنقاذها.

ـ والشاب الذي قتل .

قالت : عندما تعرف عليها كان متخرجا من إحدى الكليات ، ولأنه وسيم وجميل ابتاعوه ؛ ليجر الفتيات إلى تلك الشقق بعد قصة حب رومانسية لفتيات متعطشات للأسف للحب والغزل .. ولما ينته دوره مع إحداهن ينتقل لكلية أخرى ، ويصطاد فتاة حددت له .. الحقيقة المرة التي علمتها أن عصابة رهيبة كانت تدير هذه المواخير .. والشاب الذي ورّط عبير قتل ؛ لأنه المورط وصياد .. المصور مجهول حسب علمي ، فالشاب صياد فقط .. لكن الفرسان كثر

ربما لا يعرفون بعضهم بعضا .. هو يفعل ذلك مقابل أجرة .. فهم يدفعون ثمن غرامياته وحفلاته وثيابه وهداياه .. وظيفة يا إدريس .. لم يحزن عليه أحد لما قتل .. فقد كان مكشوفا في تورطه في تلك القضايا الأخلاقية السيئة .. أفهم أنك لم تستفد كثيرا من عبير!

قال : استفدت طبعا ، استفدت قصة حياتها ، وكيف عملت معكم ؟ ولكنها خرجت من الحزب .

ـ نعم ، خرجت قبل سنوات .. هي كان نشاطها ضعيفا مجرد عضو .. كانت محطمة نفسيا .. وحتى أثناء عملها خاضت عدة مغامرات عاطفية فاشلة .

ـ لم تتكلم عن ذلك .. ركزنا على قصة اصطيادها .. فعلا موضوع الصور والشقق مثير ؛ ولكنه قديم ، يبقى مجرد حكاية ومأساة لمن وقع فيه .. وهي ضحية كما قلت ، ولا تذكر كيف خدروهن أو نوموها ؟ لديهم مكر وخداع بارع .. وأين حدث التصوير ؟ لا تستطيع معرفة البناية .. وقلت تلك المرأة ترفض أي مقابلة أهي ذات بعل ؟

ـ لا بعل ، ولا بصل .. قوادة .. وهي نصف مشلولة ، لا زوج ، ولا أولاد .. كانت مشرفة على إحدى الشقق .. وأعتقد أنها تعرف كيف كان يتم التصوير والتنويم والتخدير ؟ صديقتي نبيلة كانت تتمنى لو تعرف كيف صوروها ؛ لتكتب لزوجها الأول الحيلة التي تعرضت لها كانت قلقة بشأنه ، وتشعر أنها سببت له عدم الذرية والنساء .

قال بشفقة : هو جعل كل النساء نبيلة ، وهو يعترف اليوم أنه تسرع ، وغلبه الانفعال والغضب ، وقد سيطرا عليه ذلك النهار عندما رأى الصورة القبيحة .

ـ أنت تعرفه سيد إدريس !

ـ نعم ، تعرفت عليه منذ عهد قريب ، وأصبحنا أصدقاء ؛ وذلك بسبب الصورة .. شكرًا عندما أنتهي وأعد القصص للنشر سأتحدث معكم ، سلمي على الآنسة عبير .

وقبل أن ينهي الاتصال سمعها تسأل : هل تحدثت هند معك بعد ذلك اللقاء ؟

ـ من أجل أختها أم من أجل أمها ؟

ـ من أجل الزواج !

ـ لم يحدث شيء بعد لقاء التعريف .

قالت مشجعة : سيحدث شيء يا أستاذ إدريس إنها خائفة فحسب ، إنها تعيش وحيدة ، وقد يكون مرض والدها مؤثرا عليها .

ـ وهل هو مريض ؟!

ـ نعم ، هو مريض منذ سنة.. سرطان في القلب ولا أمل في العلاج هنا ولا هناك .

ـ هو من جيلنا!

ـ أعتقد .. وهند مهتمة بزواج أختها لأسباب عدة .

ـ منها!

قالت : الوحدة التي تعيش فيها زينب .. أنت كيف تعيش وحيدا ؟!

ـ حياة لا تسر .. إذا مرض الرجل قد يتضاعف المرض قبل أن يدخل عليه أحد ؛ ولكني تعودت عليها .. وجيراني في الحي أخي وأختي وبعض الأقارب .. تعودت على الوحدة عشرين سنة .. أحدهم يقرع الباب ...

وضع السماعة ، وخرج يفتح الباب ، فوجد سيفا أمامه ، ويحمل طعاما جاهزا ، فساعده في إدخال الطعام ، وقال : اتصلت بإياد وهو قادم .

قال : حسنا ! شكرًا يا سيف .. يبدو أن طعام مطعمنا لا يعجبك .

ـ لا ، لا ، بل طعامكم جيد .. ولكني أحببت أن أكرمكم.

ـ أكرمك الله .. بارك الله فيك .. ها هو صوت سيارة إياد يقف أمام العمارة .

ـ أنا كلمته من المطعم .

خرج إدريس لفتح الباب لإياد الذي زلف مسلما مصافحا ، وانتقلوا إلى حجرة الطعام وتعشوا ، وخرجوا لصلاة العشاء في المسجد ، ثم عادوا للسهر والسمر ، وحدثهم إدريس عن لقائه بالآنسة عبير في مقهى النضال العربي .

فقال سيف معقبا :يا الهي ! لقد كنت مغفلا تلك الأيام .. لم أسمع بهذه الأفلام الرهيبة أو لم أكن أركز على سماعها .. الحوادث كثيرة في الكليات .. هذا لا يخطر في البال!

قال إياد : إنه تدبير محكم ؛ ولكنه لا يخلو من ثغرات .. وماذا استفاد الشاب القتيل من تغريره بهن ؟!

ضحك إدريس تهكما وقال : المال والبدلات والحب .

قال سيف : الأشرار لا يفكرون في النهايات ..لا يفكرون في مصالحهم الآتية والشرعية .. ولكنها لم تعرف كيف وقعت ؟

ـ لا تعرف ، واستسلمت للتهديد على أمل أخذ الصور .. ولما خابت بذلك أنقذتها سمر بإدخالها في الشيوعية ، فابتعدوا عنها .

قال إياد : المهم أنها تعرضت للتخدير بطريقة لم تعرفها ، الشخص إما أن يصور بإرادته وعلمه أو رغم أنفه ويدرك ذلك بعد الاستيقاظ ، أو رغم أنفه خدعة وحيلة ولا يدرك ذلك وهذا ما حصل مع امرأتك يا سيف لم تدرك كيف صورت ؟كن ضحايا لعبة أكبر منهن !

قال سيف : للأسف لم أكن أسمع بمثل هذه الأشياء والشيطنة ، وحتى نبيلة كانت تجهلها أو علمت بها ، ولم تلق لها بالا .. لم تحدثني يوما عن مثل هذه الشقق السوداء الحمراء .. على كل انتهت القصة ها هنا .. ولم أكن أعلم بمثل الأوكار .. وأنا أشهدكم أنني سامحتها .

قال إدريس : أنت كنت طيبا يا سيف .. انعزاليا إلى حد ما .. فغفر الله للجميع .. وأهل الشر لا ينتهون إلى قيام القيامة .

قال إياد ملطفا الجو : قدر الله وما شاء فعل يا إخوان .. الآن ماذا جرى لك مع السيدة زينب ؟

تنحنح إدريس ، ومسح فمه من بقايا ما يأكله : تقابلنا في بيت السيدة سمر ، تحدثنا عن مشاكلنا الجنسية بكل وضوح .. وطلبت الحديث عن صورة والدتها ، وقصتي مع الصورة .. فاعتذرت بالوقت ، وكان وقت العشاء يقترب وخرجت للصلاة ..وأنا أنتظر الرد ليصبح

الموضوع جديا ؛ لعلي أتزوج أنا وسيفا في ليلة واحدة .

ضحك سيف وقال: يا صديقي لا تربط نفسك بي .. أنا نسيت شيئا اسمه الزواج

ـ لا رهبانية في الإسلام .

ـ لن أذهب للدير يا صديقي! أنا طابت لي حياة العزوبية .. أنا أفكر بزيارة مكة .

قال إياد : الحج!

ـ نعم

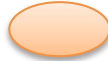
قال إدريس مشجعا: فكرة جيدة ! أنا مثلك أرغب بذلك.. أنا حججت قديما مع إياد في بعثة البلدية .

قال إياد مشجعا لهما : اليوم الخدمات والرعاية للحملات أفضل .

قال إدريس : أتمنى لك التيسير يا صديقنا.. فالحج ركن عظيم من أركان الدين .. هل تصلي في البيت ؟

قال : بالتأكيد .. وأقرأ جيدا .. أنا أفكر بإطلاق لحيتي .

قال إدريس : لا تتعجل يا صديقي حتى تتقوى الطاعات عندك ، وعندما تجتاز الصيام ورمضان خاصة تتأسى بالسلف الصالح بشأن اللحية .



عندما رجع سيف للبيت بعد منتصف الليل أخبرته الخادمة أن سيدة اسمها زينب اتصلت به وتركت رقمها ، وطلبت أن يتصل بها بأي وقت من الليل ، أخذ الرقم وتركه على مكتبه ، ودخل الحمام ، واغتسل وتوضأ ، وصلى بضع ركعات كقيام ليل ، ودخل مكتبته المنزلية ، وتناول كتابا كان يقرأ فيه ، وقرأ بضع صفحات ، وغفي على الكنبة ، واستيقظ على آذان الفجر ، وتوضأ وسار للجامع الذي يتوسط الحي .. وهذا أقدم مسجد في حي بهية ، ولم يكن المصلون بالعدد الكثير ، كانوا صفا واحدا ، وبعض أنفار في الصف الثاني ، ولما قضيت الصلاة غادر المسجد سيرًا على الأقدام إلى بيته .. وما كاد يستريح ، ويتناول القهوة من الخادمة

حتى رن جرس الهاتف ، فتناول السماعة قائلا : نعم .. زينب أهلا صباح الخير أو السلام عليكم أحسن .. أنا بخير .. ترغبين بالحديث معي .. آ أنا دائما في البيت .. ليلة أمس كنت في زيارة .. بعد العصر أمر على الصيدلية أذكر موقعها .. حسنا ، بعد الصلاة سأكون في الصيدلية إن شاء الله .

غادر المسجد بعد صلاة العصر ، وركب سيارته باتجاه صيدلية زينب التي تقع بين أول حي بهية وحي العرب الكبير ، دخل الصيدلية بعدما ركن السيارة أمامها ، رحبت به زينب ومساعدتها ، وقدمت له مقعدا ليجلس عليه، ولما أنهت الترحيب والجلوس قالت : كيف أنت؟

ـ بخير

ـ أنت تصلي يا سيد سيف!

ـ نعم ، من عهد قريب تعلمت الصلاة .

ـ هل أنت مرتاح في الصلاة ؟

قال بحماس: جدا يا سيدتي! كيف أنت ؟ وكيف الدكتورة هند؟

ـ كلنا بخير ..كنت أحب أن أسالك عن شخص تعرفت عليه حديثا .

ـ إدريس .

ـ نعم ، إدريس .

ـ نعم ، عرفته وأزوره في بعض الأمسيات ، وتحدثنا عن والدتك ، وما تعرضت له من مكر ، وتدبير شيطاني ؛ ولكنها لم تعرف من غدر بها .. ما زال الفاعل مجهولا

ـ هل تعلم أن هذا الرجل العجوز قد قدموه لي كزوج ؟

ـ أعلم ذلك .. وهو رجل جيد واجتماعي ومغامر وصحفي وفضولي ومتدين إلى حد جيد .

بعد صمت قالت : لو كنت ابنتك أتقبله لي ؟

ـ لم أفهم قصدك يا سيدتي ! أنت تزوجت وترملت ، وهو تزوج وماتت زوجته .. بينكم

أشياء مشتركة قد تساعد على نجاح الزواج .. فكلاكما لا يسعى للولد .. وأنت ـ معذرة ـ كما علمت قد أزلت الرحم ..وهذا يسبب الضعف الجنسي .. وهو يعاني من ذلك .. وأنت ترغبين بزوج عنده مسحة من التدين بمعنى أنه غير متشدد .

ـ مسحة من التدين ! هذا كله علمته من إدريس .

ـ نعم ، هكذا قالوا له يا سيدتي .. هو لا يعرفك ، ولم يقابلك إلا تلك الأمسية .. فمصدر معلوماته عنك المرضة سمر زميلة أمك أيام الجامعة .. وعلمت حديثا أنها ظلت على صداقة مع أمك رحمها الله تعالى .

بعد صمت قالت : أنت طلقتها من أجل الصورة !

ـ نعم ، من أجل الصورة ..كان الموقف رهيبا يا دكتورة زينب ..عريس منذ أيام قليلة يتفاجأ بصورة لزوجته دون لباس عارية تماما ..كانت صدمة لي .. لم أستوعب الصدمة .. وتصورت نفسي مجرد ستار لشيء رهيب

ـ والحب!

ـ ما هو الحب ؟ يا سيدتي لما يكتشف الإنسان خيانة ماذا يبقى للحب ؟ إنها لم تنكر أن الصورة لها .. ذكريات مريرة .. ماذا تريدين أن تعرفي عن إدريس ؟

ـ أهو الزوج المناسب لابنتك زينب ؟

ـ حسب مواصفتك هو الزوج المناسب .. أنت ترغبين بالستر .. وهو كذلك .. هو ليس بالغنيمة يا دكتورة يعيش على تقاعده بعد خدمة عشرين سنة .. فهو راتب ضئيل ؛ لكنه يملك شقة تصلح للحياة الزوجية الهادئة .

ـ أترى أن الزواج سينجح ؟ ولن ننتقل إلا المحكمة بعد أسبوع زواج .

ـ إذا لم ترغبي أنت بالطلاق ، فلن يحصل من طرفه .. هو بعد موت زوجته لم يقبل بالزواج خشية الزواج من امرأة ترغب بالذرية .. ويعود للتحاليل والعلاجات

ـ يعني أتوكل على الله .

ـ اسألي أو تحدثي معه مرة أخرى .. وأعرضي شروطك عليه ..وأما الطلاق إذا لم تطلبيه أنت فلا أعتقد أن يفعله إلا مضطرا .

هتفت : مضطرا .. ما تقصد بمضطر ؟!

فجأة دخلت هند وهتفت فور رؤيتها المهندس سيف المهندس : سيف هنا .. مرحبا زينب كيف حال المهندس المعتكف ؟

مدت يدها لتصافحه فقال: آسف لم أعد أصافح النساء .

صاحت دهشة: ماذا؟!

فقالت زينب : المهندس تمشيخ من عهد قريب !

ـ آ .. وأنت شيخة ..فأنا آسف بإزعاجي لكم .

قال : كيف حالك يا دكتورة هند ؟

ـ أنا الحمد لله .. ماتت أمي وهي حزينة لك ، ومن أجلك يا مهندس سيف .. ما أخبارك ؟ ولماذا أراك هنا ؟!

قالت زينب : أنا طلبت منه المجيء .. ماذا تريد الأخت الكبرى ؟

ـ اتصل بي خالد .. يريد أن نلتقي عند الوالد الآن .

ـ الآن يا هند !

ـ نعم .

قال سيف وهو يقوم عن الكرسي : كيف حال الوالد اليوم ؟

ـ حاله صعب يا مهندس سيف!

ـ شفاه الله .. سمعت بمرضه .. خفف الله عنه.

قالت زينب: شكرًا مهندس سيف على تلبية الدعوة ؛ لعلنا نلتقي مرة أخرى .. كان موضوعنا يا هند عن السيد العجوز إدريس .. فهو كما تعلمين من أصدقاء سيف .

قال سيف: صرنا أصدقاء بسبب المرحومة نبيلة والصورة الإجرامية .. وقد التقى بفتاة تعرضت لما تعرضت له أمكم ـ رحمها الله ـ الاستدراج إلى شقة وتصويرها بطريقة إجرامية ، ثم باعت نفسها للحصول على الصور وخشية الفضيحة ، ومع ذلك نالوا منها ، ولم تحصل على الصور ، فلجئت للحزب الضال الشيوعي ..وتوقف أولئك عن التعرض لها خوفا من صحف الحزب وبياناته الثورية ؛ لكنها لا تذكر كيف خدعت وصورت ؟

سألت هند : إدريس التقى بها ، وكيف وصل إليها ؟!

ـ عن طريق الممرضة سمر .. هي التي ضمتها للحزب لتحميها من الدعارة .. وظلت لليوم بدون زواج حتى لا يكشف أهلها أنها فقدت عذريتها من شلة مجرمين .

ـ لم تحدثني سمر عنها .

ـ وهل تحدثك عن كل شيء ؟ هي صديقة أمكم .

ـ أنا آسفة .. هي في الحقيقة صديقة أمنا .. فنحن صادقناها تبعا ؛ ولكنها قصة مهمة هناك ضحايا كثر .. سيف العزيز نحن بحاجة للجلوس معك

ـ معي ! هذا صعب يا دكتورة .

ـ أما زلت تكره جنسنا ؟!

ـ لحتى الآن لم أتخلص من كرههن أو عقدة الاتصال بهن ..وأنا قابلت الدكتورة زينب ؛ لأني أدركت أنها تريد أن تسأل عن السيد العجوز على رأيها .. فأنا شجعته حقا على الزواج إذا قبلته الدكتورة .. فهو ليس لديه عداوة نحو النساء عقدته الحمل .

رئيس التحرير

كان إدريس قد قدم القصص الأربعة لسكرتير تحرير الجريدة الأسبوعية ، وطلب تحديد موعد لمناقشتها مع رئيس التحرير المحامي خلدون ، وبعد أن اطلع الرئيس عليها ، وعلى ما كتبه إدريس المعروف لهم ، اجتمعا لترتيب النشر ، فوضع الرئيس ورقة أمام إدريس ؛ لتكون مقدمة أمام تحقيقات إدريس . وقال : أحسنت الكتابة يا صديقنا كعادتك! .. وهل تعرفهم شخصيا؟

ـ لا ، أول مرة ألتقي بهم يا سيدي .. فكرة خطرت في بالي .. كيف قبل هؤلاء الشبان الصغار ترك دينهم والتحقوا بالمنهج الماركسي ؟ هل كان ذلك عن قناعة أم صداقة أم انبهار بالفكر الشائع وثورة لينين وكاسترو؟ ولماذا ظلوا موالين ومقتنعين بالفكر الشيوعي رغم موته في أقوى دولة ماركسية الاتحاد السوفيتي ؟!

ـ جيد أن يتحدث الناس عن ماضيهم .. هو للتاريخ مهم .. بعض القرّاء يحبون قراءة مثل هذه الصفحات من الماضي القريب .. اقرأ مقدمتي .

قرأ إدريس ما كتبه رئيس التحرير :

الماركسية منهج مادي الحادي ظهر في أوروبا ، وامتد لأنحاء العالم ، وأصبح منهج حياة لعدد كبير من القادة في الصين وكوبا وروسيا ، وكان له صدى في العالم العربي والإسلامي ، وتأثر به شبابنا وشباتنا ، واتخذه بعضهم منهج حياة ؛ ورغم زخمه وقوته وسرعة انتشاره لم يصل للحكم الصريح إلا في اليمن الجنوبي ، وبعض أحزابه شاركت في الحكم في بعض دول العالم العربي والإسلامي ، وبعضها دخلوا البرلمانات على شكل أفراد وأعضاء برلمان، وحكم بعضهم كأفراد وعضو برلمان ، وفترة الستينيات من هذا القرن فترة حماسية بالنسبة للشيوعيين العرب.

هذه نماذج لشبان اعتنقوا الماركسية في أول حياتهم لدوافع مختلفة ، أحدهم اتبع المنهج الماركسي حبا في النساء ، ودون الشعور بالإثم والمعصية ، وفتاة دخلت الماركسية لتحمي

نفسها من شبكات الدعارة هربا من الجنس ، وآخر لحق بالشيوعية حماسة للفكر اليساري والتمرد على التقاليد المنتشرة في المجتمع ، فأرجو أن يستمتع القارئ بأفكار وذكريات هؤلاء الأربعة ، وقد يكون لنا حديث مع غيرهم .. وهذه الحلقة الأولى ... وضع إدريس الورقة ، وقال: أليست مقدمة طويلة يا أبا بسام ؟

ـ أستطيع اختصارها .. مقالك كبير كذلك .. وليأخذ المقال والمقدمة والإعلانات صفحة كاملة .. المهم هل تحب أن تضيف شيئا عليها ؟

ـ لا ، أنت تصرف كما يحلو لك ؛ لكن أعلمني عندما يبدأ النشر لأتمكن من شراء الأعداد اللازمة لإرسالها لهم ؛ لأنني وعدتهم بذلك .

ـ سيفعل زكي ذلك .. سأبدأ في نشر ذكريات سوزان ، ثم سمر ، ثم عبير ، ثم نختم بقصة المهندس مراد .

قال : ليس مهما الترتيب عندي .. كانت فكرة وعملت عليها كل هذه الفترة .

ـ الدكتورة التي طلبت الحديث معك هل قابلتها ؟

ـ نعم ، قابلتها بعد اتصالك. وذكر له قصة أمها باختصار فقال : أنا سمعت بمثل هذه الشبكات من الدعارة ..كنت أظن أن الفتيات يذهبن بحريتهن ، وليس تحت ضغط الابتزاز والتهديد !

ـ هذا صحيح يا أستاذ ! لكن هناك فتيات جميلات كن يرفضن الانصياع لتلك الشهوات ، ويرفضن تسليم أجسادهن بإرادتهن ، فيتعرضن للتخدير والتنويم ، ويصورن عاريات ، ويقوم أحد الشبان بعرض صورهن تلك عليهن ، فيخضعن للدعارة أو يلتحقون بالأحزاب النشطة كما حصل لعبير .. ولليوم ترفض الزواج أو فات الزواج خشية أن يعرف أهلها أنها فقدت عذريتها من أيام الجامعة بطريقة منحطة .. احتمت بالحركة الشيوعية .. فبعض الأسر كما تعلم صارمة في مسائل الشرف ؛ بل الشاب الذي استدرجها وغرر بها كرر عملته مع غيرها .. وعرف أهل فتاة اعترفت لأهلها بجرمه.. فقتلوه بالسكاكين وسط الجامعة يا أبا

بسام .

ـ أرجو أن يتقبل قراء جريدتنا مثل هذه المواضيع .. عندما نقوم بالنشر سأخبرك .. وإذا نجحت فكرتك ولقيت استحسانا ، سنطلب المزيد من المذكرات .. سلم لي على الدكتورة هند غريب .

ـ قد أتزوج من شقيقة لها .. مشروع زواج .

ـ زواج! أنت ستتزوج!!

لخص له حكاية الزواج الجديد ، فقال أبو بسام : هذا لو حصل كما يقال فتحت لك ليلة القدر ؛ ربما لا نعد نراك .

ـ هل يتغير الشخص بسرعة ؟!

ـ المال والجاه والزوجة يتغير الكثير .. لا تنسى من إخباري بكل تطور في هذا الزواج العجيب ولكنها صغيرة بالنسبة لسنك يا إدريس .

ـ صحيح .. ومنذ ترملت لم يتقدم لها أحد من مستواها الاجتماعي مع أنها طبيبة وغنية ..وقد ورثت عن زوجها ، وعن أمها .. ووالدها طبيب في الوزارة وهو على وشك الموت من السرطان .. وأمها مهندسة ، وأختها طبيبة ، وكذلك شقيقها الوحيد طبيب .. وتعيش في حي بهية .. وهو اليوم لم يعد كما كان .

ـ أتمنى لك التوفيق ، وإذا حصل الزواج وقبلتك .. فادعونا لحفل الزواج.

ـ حفل الزواج وهل سنحتفل ؟!

ـ أكيد سيكون هناك حفل في قاعة أو فندق ذي نجوم خمس .

نهض إدريس مسلما ، وشاكرا لرئيس التحرير .



بعد هذه المقابلة بعشرة أيام نشرت الحلقة الأولى على إحدى صفحات الجريدة الأسبوعية "الشرق المضيء" ونشرت المقالة الخاصة بالمهندسة سوزان ، نشرت المقالة مع بعض

التعديلات الطفيفة ، وإضافة بعض الهوامش ، ولما استلم إدريس الأعداد ذهب بنفسه لشقة السيدة سوزان ، ووضعها في صندوق الصحف الموضوع أمام المنزل ، ولما اطلعت السيدة على الصحيفة ، وقرأت المقدمة المضافة اتصلت بإدريس شاكرة النشر ، وعقبت فقالت : لماذا هذه المقدمة الطويلة ؟

ضحك إدريس؛ لأنه هو نفسه علق على طولها، وكان متوقعا لمثل كهذا اعتراض فقال : هذا شغل رئيس التحرير ليس شغلي .. المهم أن المقابلة نشرت كما عرضت عليك .. أما المقدمة والعنوان فهي للفت القارئ وإثارته لقراءة كل المقال ، ولا يكتفي بالعنوان والمقدمة والتلخيص؛ لأن بعض القرّاء يكتفي بالعنوان .. بعضهم بالمقدمة .. بعضهم بالتلخيص.

اقتنعت بالتعليل ، وهي تعلم أن رئيس التحرير يحب أن يظهر بصمته على المقال : بدأتم بي مع أنك قابلت مرادا قبلي !

ـ هذا أيضا شغل المحرر وسكرتيره .. أنا حريص أن ينشر ما اتفقنا عليه

يا حضرة المهندسة .. الأمور الأخرى من عمل التحرير .. فهم المسؤولون في النهاية عن النشر ونجاحه .. أنا فكري وعقلي في المقال نفسه ؛ وليكون سهلا ومقبولا من طبقات القرّاء المتنوعة لم أحاول مقارنة بين فكر وآخر .. جعلتها وثيقة تاريخية .

ـ الحق أنك بارع في الكتابة الصحفية !.. ولك خبرة كبيرة .. أنا عندما قرأتها رغم معرفتي بكل تفاصيلها ظننت أن هذه المعلومات عن شخصية غيري ، ولا أقرأ صفحات من حياتي أنا إنما أقرأ قصة صديقة ورفيقة لي .. ألم تنتم لحزب أخ إدريس ؟

ـ نعم ، لم أتحزب ؛ لكنني تعرفت خلال هذه السنين على اليميني القومي اليساري الديني .. وأحب الندوات الخاصة .. وكنت أكلف من قبل رئيس التحرير الأستاذ أبي بسام بحضورها وكتابة تقرير عنها .

ـ أحسنت يا أستاذ إدريس ! أتسمح بسؤال خاص ؟

ـ سؤالان يا مهندسة سوزان!

ـ أنت تعلم أني كنت صديقة المهندسة الراحلة نبيلة خالد ، وكذلك للممرضة الغالية الرفيقة سمر .

ـ أعرف ، وكانت السيدة نبيلة هي الرابط بين المقابلات الأربعة أو صارت هي الرابط .

ـ علمت أنك وافقت على الزواج من الدكتورة زينب .

ضحك إدريس للحظات قبل أن يقول: رفيقتك سمر ورطتني في هذه القصة ، وقابلت الفتاة الأرملة بعد أن راقت لي فكرة الزواج بعد عزوبية امتدت لربع قرن ، وتوقفت الحياة عند المقابلة .

قالت : الموضوع ما زال قائما ؛ لكن والدها في حالة مرضية صعبة يا أستاذ إدريس ، فالناس في ظروف كهذه تتوقف عندهم الحياة .. ويوقفون الزواج والأفراح .

ـ الأمر لله من قبل ومن بعد .

ـ ألا تقبل دعوة للعشاء أو الغداء بمناسبة نشر المقال ؟

ـ أقبل دعوة لشرب الشاي أو القهوة .

ـ سوف ارتب الأمر مع زوجي إياد .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام .

ترك السماعة والتفت لإياد قائلا : إنها السيدة سوزان تتصل بمناسبة نشر مقالها .. فقد أعجبها النشر .. الإنسان يحب أن يتحدث عنه الناس ، ويثرثرون أخباره وأقواله .. شهوة الشهرة .

ـ وكيف لا يعجبها ؟ ربما من سنوات وسنوات لم يهتم بها أحد .. أحد ليسمع حكايتها وتاريخها النضالي كما يزعمون .. تاريخ الكفر والضلال

ـ سألتها أثناء اللقاء هل تُحبين أن تعودي على ما كنت عليه قبل الشيوعية ؟

ـ ماذا ردت ؟ هذا لم ينشر طبعا .

ـ أكيد لم ينشر قالت : ماذا كنت قبل الماركسية ؟ لم أكن شيئا .. اسمنا مسلمون ، لا نعرف من

الإسلام شيئا .. يا إدريس لا نعرف صلاة ولا صوم ولا دين .. في البيت حياة دون مبدأ ؛ ربما عرفت عن الإسلام عند اعتناقي للشيوعية الكثير من المعلومات من المناقشات مع شباب التيار الديني .. كانت حياتي فراغا ، فجاء ماركس وملأها .. ولا تنسى وهجها تلك الأيام وعلى مراهقة مثلي .. حملت الماركسية في قلبي ونفسي .. كان الانبهار بها جميلا وممتعا .

ـ هي من أسرة ماركسية!

ـ تستطيع أن تقول ذلك.. الفكر الإلحادي معشعش داخل البيت .. الأدهى سمر كان والدها ضابطا عسكريا ، وملتزما بالصلاة وشعائر الدين الظاهرة .. وكذلك والدتها ، واقتنعت بالشيوعية قبل الجامعة .. أما السيد مراد فكان يسمع عن الشيوعية قبل الجامعة في المدرسة الثانوية ، لم يكن شيوعيا ، كان معجبا بها متعاطفا .. ومن أول أيام الجامعة مشى مع الشباب الشيوعي دون اندماج حقيقي ، ثم انضم إليهم للتغطية على مغامراته العاطفية والجنسية فيما بعد كما يخبر من يعرفه .. وفعل ذلك حتى لا يشعر بالندم والإثم من تلك العلاقات .. فالجنس حلال عند الشيوعيين إذا كان الرضا من الطرفين دون اغتصاب أو إكراه .. وتشجع الماركسية عليه للقضاء على مؤسسة الزواج والأسرة التقليدية .. ويعتبرون العفة مرض وتسلط .. ويرون أن النساء مشاع وحق لكل رجل .. وأن هذا كان في المرحلة الأولى من مراحل الشيوعية .. نظرة بهيمية كالحيوانات ؛ لتخليص الناس من عقدة الكبت والحرمان .. وهم في نفس الوقت يرفضون الدعارة والعمل فيها .. وهم يرفضون العفة والطهارة .. وسعى ستالين على ما أظن إلى نشر الشيوعية الجنسية في روسيا ، ثم ألغى البرنامج عندما تفشت الأمراض الجنسية بين الذين عاشوا تلك التجربة .. والإباحية بدون ماركسية شائعة في الغرب .. وأفلام الجنس صناعة تملأ العالم .. والمجلات الإباحية تباع على الأرصفة في أمريكا وأوروبا الغربية باسم الحرية الشخصية والشذوذ والانحرافات الجنسية .. واليوم الإجهاض في دول الكثلكة مباح ، وإن لم تبيحه الكنيسة .. فثورة الجنس والفجور تعصف بالشعوب حتى صرنا نسمع بالإيدز وصعوبة علاجه .. والإعلانات الجنسية التي تظهر فيها النساء

المتبرجات لإثارة الغرائز تملأ الصحف والمجلات .

قال إياد : لا حول ولا قوة إلا بالله



أخذت الجريدة تنشر مقالات إدريس تباعا ، كل أسبوع حلقة ، ولما نشرت الحلقة الثانية كان إدريس وسيف وإياد يتعشون في أحد مطاعم حي بهية ، وبينما هم يتعشون دخلت الدكتورة هند المطعم ، فالتقت العيون ، فذكرت لصاحب المطعم ما تريد ، وتقدمت نحو مائدتهم محيية فرحبوا بها ، داعين لها مشاركتهم الطعام ، فشكرتهم ، وذكرت لإدريس أنها اطلعت على المقالات المنشورة ، وبينت إعجابها بيراعه وعقله ، وقالت لسيف : أرغب بمقابلة خاصة إذا سمحت .

ـ مقابلة .. لماذا ؟! ها نحن نتقابل .

ـ متى تكون في البيت ؟

ـ ها نحن بعد العشاء سنسهر بالبيت .

ـ جيد.. سأذهب بالطعام لبيت والدي ..وسوف أمر عليك .

ـ أنا في انتظارك إذا كان ذلك لا يسبب لك حرجا .

ـ لا تهتم .. أنت بمقام الوالد .

بعد جلوسهم في بيت سيف بساعة أدخلت الخادمة الدكتورة إلى غرفة الاستقبال ، وقدمت الخادمة القهوة ، وتركتها وحدهما فقالت هند : أريد منك طلبا .

ـ طلبا بشأن زينب!

ـ لا ، موضوع زينب الآن في إجازة .

ـ لا تريد الزواج .

ـ تريد الزواج ، ويبدو أنها لا تريد السيد العجوز ..طلب آخر يا مهندس سيف .

ـ تفضلي بذكر الطلب .

ـ الطلب أن والدي الدكتور غريب يرغب بالحديث معك مباشرة وبلقاء قريب .

ـ طلب .. ولماذا يريد اللقاء بي ؟! أليس هذا غريبا ؟! نحن لا نعرف بعضنا .

ـ لا أدري ؛ لكنه سمع بلقاء زينب بك في الصيدلية فعلق عندئذ فقال : هذا الرجل ظلم لو أستطيع اللقاء به ربع ساعة من الزمان ؛ لو لم أتزوج نبيلة لردها إلى ذمته .. هل كنت ستردها يا مهندس سيف لو لم تتزوج ؟!

ـ لم أفكر بذلك يا هند ! كان الطلاق نهائيا، ومضت شهور العدة ، ولم تحصل الرجعة .. لم أفهم بعد قصد والدك باللقاء !

ـ هل أرتب لذلك ؟

انتفض وقال بانزعاج ظاهر : لا، لا ، أنا آسف يا هند .. أنا لولا قصة زواج إدريس وزينب أختك لما حدثت هذه اللقاءات أنا قبلت باللقاء كما تعلمين من أجل صداقتي مع إدريس .. أنا آسف يا هند .. أنا أعيش في الماضي .

ـ كما تشاء ، وإذا فكرت باللقاء بأبي وغيرت رأيك فاتصل بي أو بزينب .. شكرًا على الاستقبال وسلم لي ضيوفك .

جاءت الخادمة ورافقت السيدة إلى خارج الفيلا ، وعاد سيف للجلوس مع ضيفه ، وأشعل سيجارة من جديد، وظل صامتا وواجما لحين ، مما دفع إياد ليقطع الصمت قائلا : ماذا تريد ضيفتك ؟

نظر في عيني إدريس ، ثم قال : لم يكن الكلام حول زواج إدريس من زينب ..كانت تريد مني الموافقة على لقاء مباشر مع والدها .. له رغبة باللقاء الشخصي بي .. لقد اعترف أمامهم أنه ظلمني ، وأنه كان يتوقع لو لم يعجل بالزواج من نبيلة أن أردها زوجة .

قال إدريس : هو يقول ذلك! ولماذا صدر عنه هذا القول؟! أكان والد نبيلة يعتقد أن ذلك سيحدث ؟

ـ لا أدري يا إدريس ! كان الطلاق نهائيا ، ولم أفكر بالعودة ، كان الطلاق بسبب قضية خطيرة

ولم تكن ساعة غضب وزعل فقط .."هذا الرجل ظلم " هكذا قال أمام هند .. ولو لم أتعجل الزواج ، لربما ردها إلى ذمته ، لو أستطع اللقاء به ربع ساعة من الزمان .. أنا يومذاك لم أفكر بردها ، حتى أن والدي ذكر ذلك فاستهجنت الفكرة .

قال إياد : رفضت مقابلته .

قال بعصبية : فورا .. وذكرت لها أنني لولا موضوع زواج زينب من الأخ إدريس لما تحدثت مع زينب ولا معها .. أنا منذ تلك المصيبة انصرفت النساء من نفسي .. جرح له ثلاثون سنة هل سيندمج بلقاء وابتسامة ؟! النساء سخيفات .. شر لابد من التعايش معه .

قال إدريس : هذه مقولة منتشرة حول الزواج من النساء .. شر لابد منه .. إنهن الأمهات يا سيف والبنات والأخوات والعمات والخالات .

قال سيف : ستقول لنا إنهن نصف المجتمع .. وكيف نعطل نصف المجتمع ؟ وها هن طبيبات ومهندسات وممرضات .. ماذا قدمن للمجتمع ؟ لا شيء .. إنما رفعن نسبة الطلاق في المجتمعات بسبب تملكهن للمال .. عدم احترامهن الحياة الزوجية .. سببن عطل كثير من الرجال .. سمعت أن عددهن في وزارات التعليم والمعارف يفوق الرجال ، وكذلك الصحة العامة .

قال إياد : والأطفال نصف المجتمع كذلك .

قال سيف : وأين نحن ؟

قال إدريس ساخرا : سمعت أن الرجال في بعض الدول ينشئون جمعيات تطالب بحق الرجال كما فعلت النساء .. وللمطلقات جمعيات ، وللعوانس جمعيات .

قال سيف: الناس كما يبدو لي لا يدرون ما هي حقوقهم ولا واجباتهم ؟

قال إياد : أمم وشعوب هلكت وانتهت .. ونحن سنلحق بهم ، ونسير على دربهم .. كل يغني وصلا بليلى .

إدريس : من ليلى ؟

ـ ليلى امرأة .

قال سيف : ما قصتها ؟

قال إياد باسما : يقال إن شابا اسمه قيس أحبها ، وغرق في هواها حتى صار مجنونا .. فيقال مجنون ليلى .



عندما انشغل إدريس بقضية سيف والصورة والمقابلات خف ظهوره في المقهى الذهبي ،كان يمر للاستراحة ، وشرب كوب شاي أو فنجان قهوة ، وينطلق في مهامه ، لم يعد يطيل الجلوس ، ولما انتهت التحقيقات والمقابلات عاد لبرنامجه القديم من التردد على المكتبة العامة ، ويقضي فيها بعض الوقت ، ثم يصلي في مسجد المدينة الكبير مسجد سيدي سعيد ، ويتغدى ويجلس في المقهى حتى الغروب ، والعودة للحي والسهر مع إياد أو مع سيف أو مع كليهما .

كان يجلس في المقهى عندما دخل سيف ، فانتقلا إلى الشرفة المكان المفضل لإدريس خلال كل الفصول إلا الأيام المطيرة أو الباردة جدا ، قال سيف : لم أصدف إيادا في المقهى .

ـ إياد لا يحب المقاهي .. أحيانا نلتقي بالمكتبة العامة أو أرافقه إلى النادي .. فهو عضو في نادي رياضي .. كان رياضيا أيام الشباب .. والنادي في مدخل المدينة من جهة الغرب نادي الشمس .

ـ هل انتهت قصتنا يا أستاذ إدريس ؟!

ـ لم تنته بعد .. نحن عرفنا الكثير من الحقائق .. لا تنتهي الحكاية إلا بمعرفة من قام بالتصوير أو أمر به ومن خدر ؟ .. والآنسة عبير كما أخبرتكم لا تعرف كيف صورت ؟ هي رأت الصور .. الكثير من الصور القذرة .. الغريب أكرر أن في قصتك صورة واحدة ، لم يعرض عليك غيرها .

ـ نعم ، صورة واحدة ومقطع من الفيلم .. أكرر صورة واحدة .. تحدثت معي السيدة زينب .

ـ ورطناك معنا !

ـ لا، لا ، أبدا .. أنا الذي ورطتك في الحقيقة .. ترجاني أن أقابل والدها .. فهو يلح عليهم بهذا الطلب .. وليس بيني وبينه أي لقاء أو كلام .. وأنا رفضت بشدة ؛ وربما بحدة .. أنا رأيته كذا مرة بمناسبات أضطر لشهودها .. ولم يحدث بيننا أي كلام أو حتى تحية .. فماذا يريد ؟ وهو يعترف بأنه ظلمني .. ولا أدري .. هل زواجه من مطلقتي ظلم لي يا إدريس ؟ وماذا سيفعل بعد ثلاثين سنة إذا وقع منه ظلم لي ؟!

ـ قد تكون رغبة مودع .. أليس هو على وشك الموت بسبب المرض العضال كما سمعت ؟ نسأل الله العافية .

ـ أنت تعرف لولا حديث الزواج لم أفتح مجالا نحو تلك الأسرة للقاء بي .. ما رأيك بمرافقتي إلى الحج ؟

ـ أنا حججت مرة ، وأرغب فعلا بالحج ثانية ولكن ...

ـ إذا تقبل أن أتكفل بحجتك أنا مستعد .

ـ تدفع عني رحلة الحج ؛ ولكن الأجر يذهب لك .

ـ المال هبة مني .

ـ متى الحج السنة ؟

ـ نحن في شهر حزيران .. فالحج انتهى السنة .

ـ فعلا نحن في شهر حزيران ، غفلت على أننا احتفلنا بالعيد قبل شهرين .. السنة القادمة في شهر نيسان إن شاء الله .

قال سيف : نعم ، هكذا في الرزنامة ..وطبيب القلب يقول بإمكاني السفر دون عوائق وبالطائرات أيضا .. إذا قبلت يكون هذا غاية الإكرام منك لشخصي حتى إمام مسجد بهية قال لي : إذا ملك المسلم الاستطاعة وجب عليه الحج والأفضل أن يعجل به .

ـ نعم ، الفقهاء يرى بعضهم تعجيل الحج إذا تحققت شروط وجوب الحج .. وبعضهم يجيز التراخي في أداء فريضة الحج .. سأفكر جديا في الرحلة .. أمامنا عشرة أشهر.

ـ خذ الموضوع بجدية كاملة يا إدريس .. أريد أن أعرف تلك الديار .. أعرف مهد الإسلام والدنيا .

ـ لماذا لا تذهب عمرة ؟

ـ العمرة قال الشيخ ليست بفرض .

ـ صحيح ، ولكنك تتدرب وتتعرف .. أنا أعرف شركات تساعد على أداء العمرة وبالطيران

ـ والإعلانات تملأ الصحف .

ـ الإعلانات كثيرة ، والصادقون قلة والاختيار صعب ، سأتحدث مع بعض شركات السياحة أنت عليك أن تسافر مع شركة سياحية عريقة يا صديقي .. والعمرة رحلة قصيرة أسبوع أو أقل .

قال سيف : أترافقني فيها ؟

ـ أنا سوف أرافقك في رحلة الحج .. هيا نقابل إيادا في النادي .. أنا سمعته يتحدث عن عمرة من يومين لا أدري له هو أو لأخيه .

ـ وهل يسافر بالطائرة ؟

ـ تارة بها ، وتارة برا .

دفع إدريس ثمن المشروبات ، وغادرا المقهى إلى نادي إياد بسيارة أجرة ، ووجداه في حالة تدريب ، فتوقف ورحب بهما ، وقال باسما : هذه أول مرة يدخل المهندس نادينا !

ـ لم أكن أعرف أنك تهتم بالرياضة والنوادي .

ـ الحق على الإستاد إدريس الرجل العجوز !

فغمرهم الضحك ، فهذه الصفة التي ألصقتها زينب بمن تقدم لخطبتها ، وشرح إدريس سبب هذه الزيارة ، وقال إياد : أنا حجزت للعمرة وإنما عن طريق البر؛ لأني سأذهب بأمي وأختي كمحرم لهن ، ولكن يمكن أن أرتب أن نلتقي بمكة في نفس الفترة الزمنية .. وأنا أعرف شخصا يحب السفر بالطيران لجدة .

قال إدريس : هذا أفضل .. من هو ؟!

ـ لا أدري هل تعرفه أم لا ؟ إنه السيد خميس بدر معلم متقاعد ، وصحته معتلة ، فيعتمر بالطيران .. سأتصل به وأعرف منه وقت عمرته ؛لأنه عرض عليه مرافقته في عمرة هذه السنة .. فهو منذ تقاعد ويحرص على أداء العمرة سنويا .. وذلك من سنوات .

قال سيف : اتفقت مع إدريس أن أحج معه الموسم القادم في نيسان بمشيئة الله سبحانه .. تكلم مع الإستاد خميس ؛ فإذا وافق تعرفنا عليه ، ونترافق، ما دام صاحبكم .

قال إياد : الإستاد خميس منذ أيام المدرسة ، ونحن نصلي الفجر في المسجد المجاور .. وربما اعتمر خمسين مرة .



العمرة

عاودت هند الاتصال بسيف مترجية المقابلة مع أبيها ، فاستغرب هذا الإلحاح ، وفعلت زينب مثل هند حتى شقيقهم خالد اتصل هو الآخر بسيف وعرف نفسه، وقال : لا نعرف السبب الوالد متلهف للحديث مع حضرتكم!

تنهد سيف وقال : أنا لم أتحدث مع أبيك يوما ما ..ولو التقيت به صدفة ؛ فأنا لا أعرفه.. لماذا يريد أن يراني ؟!

ـ منذ علم بلقائك بزينب في الصيدلية وهو متشوق للقاء بك ؛ ولكنه لم يذكر أي سبب أمامنا

ـ سوف أفكر .

استقبل بعد هذا الاتصال صديقيه إيادا وإدريسا ، وكانوا قد رتبوا لهذا اللقاء ؛ لأن إيادا قد التقى بخميس بدر ، ولما قاموا عن العشاء انتقلوا إلى غرفة الجلوس والاستقبال ، وضعت الخادمة أمامهم الشاي والمثلجات والفواكه والمكسرات ، واشتغلت بتنظيف المائدة بغرفة الطعام.

قال إدريس : لم تكن طبيعيا يا سيف أثناء العشاء!

ـ انتبهت لذلك! لم يكن هناك شيء إنما هذا الدكتور خالد شقيق هند وزينب اتصل بي راجيا الذهاب لمقابلة والده .. عمري ما تحدثت معهم ؛ ربما التقينا ببعض المناسبات كعزاء أو فرح خاص بأبناء الإخوة والأخوات، ولكني لم أتكلم معهم أو حتى أحاول التعرف على أشخاصهم .

ـ منذ لقائك بزينب والرجل يرغب باللقاء بك .. اذهب إليه لتعرف أي ظلم ألحقه بك هذا الرجل .. وهل إذا تزوج الرجل مطلقة قد ظلم زوجها المطلق ؟! هذا يكون إذا أفسدها على زوجها وتسبب في الطلاق .. هل له دخل في طلاق لنبيلة ؟!

ـ هو الذي عجل بزواجي من نبيلة .. تزوجتها خشية أن يطلبها .. لم تكن أمها تطيقه واليوم ماذا سيفعل لي ليزيل أي ظلم لحقني منه ؟ فات الزمان أنا أتوجس شرا من هذه الدعوة .. لقد

علمت أن امرأته التي تزوجها بعد ترمله بأسابيع قد هجرته .

قال : هي هجرته منذ أسابيع ، وعلمت من سمر أثناء حديثنا عن زينب أنها تركته منذ اشتد عليه المرض .. هي امرأة صغيرة ، وابنة أسرة غنية ، تريد اللهو والمتعة ، لا تريد أن تكون ممرضة .

قال سيف : أنا علمت ذلك من أختي ؛ وربما حصل الطلاق .. يبدو أنها وجدت ذكرا جديدا وكما قلت ترفض أن تكون ممرضة له في ساعة العسر .

قال إياد بعد صمت : لابد أن هناك موضوعا بشأن الزوجة نبيلة خالد .. قد تكون أوصته بشيء قبل موتها .. وتناساه .. ولقاؤك بزينب ذكره بك .. ولا أعتقد أنه يفكر بتزويجك زينب فهذا شيء لا يحل ولا يجوز شرعا يا إدريس .

قال إدريس : نعم ، يقولون الدخول في الأمهات يحرم البنات ؛ كأنها قاعدة فقهية .. نعود الآن إلى رحلة العمرة بعد أن عرفنا سبب هم سيف .. لقد تكلم إياد مع الأستاذ خميس بدر .

قال إياد : نعم ، اتصلت به فور عودتي للبيت ، ثم زرته ، وشرحت له المطلوب ، فرحب بذلك ، وأبدى عجبه منك يا سيف !

قال سيف : لم أفهم سبب العجب!

ـ يا سيدي الفاضل لما ذكرت له من أنت ؟ ووصفتك له ، قال : إني أسمع به ، وتعجب من رغبتك بالعمرة أو من توبتك .

قال إدريس : اشرح أكثر يا إياد .. هذا لغز جديد!

ضحك إياد وقال : يا سيدي الكريم! الرجل يعرفك من أيام مصنع الدواء الذي كنت تعمل فيه .. له شقيق يعمل في المصنع فني صيدلة اسمه ربيع .. وقد التحق بالعمل معكم قبل تقاعدك بسنوات ثلاث .. ويظن أنك تعرفه.

ردد سيف الاسم مرات قبل أن يقول : لا أذكره ، لم أكن أهتم بالأسماء والأشخاص .. كان يهمني العمل .. لكن أحمد أعرف بالاسم مني ، لقد كان يمارس عملا إداريا .

ـ المهم أن السيد خميسا يرحب بمرافقتك وصحبتك ، ويسعده التعرف عليك .. وسيرتب أمر الرحلة بحكم الخبرة ، وسيقدم لك كل العون والمساعدة .

ـ إني أحاول تذكر ابن أخيه ربيع ..عندما أراه قد أذكر صورة ابن أخيه .

ـ هو لما سمع اسمك سيف حاكم وردة .. فورا تذكر أنه سمع هذا الاسم أمامه أكثر من مرة قال : سمعت هذا الاسم من قبل .. وذكر أن ابن أخيه ما زال على رأس عمله في المصنع .

قال إدريس : متى سنذهب لزيارة الأستاذ خميس ؟

ـ متى شئتم ؟ والأفضل أن نرتب لموعد حتى لا يخرج يميناً أو شمالا .

قال سيف : غدا ما رأيكم .

ـ غدا لا بأس بعد صلاتنا العصر في حينا ..أقول لكم ما دمتم ستزورون الحي فليكن الغداء عندنا في البيت عند أم أحمد .. طبخة فلاحية ، ونصلي العصر في الجامع .. وإذا صلى خميس معنا نرافقه ، وإن لم يصل معنا نسير لبيته .

قال إدريس : أنا موافق يا سيف! لي فترة ما أكلت من طعام أم أحمد .. وهي ماهرة في الطهي خاصة الطبخات الأثرية والشعبية .. وستقارن بين طبخها وطبخ المطاعم والفنادق .

قال سيف : عليّ أن أقبل فالأخ إياد أخ فاضل .. سأمر على إدريس

وأصلي الظهر عنده ، ثم نمشي لحيكم إلا إذا كان عند إدريس خروج مبكّر .

قال إياد : جميل ! وأهلا وسهلا بكم .. دعني أتصل بالسيد خميس .

انتقل لمكان الهاتف الأرضي ، وتحدث مع السيد خميس، ورتب معه الموعد ، ووعد الرجل بالانتظار .

وتناول الأصدقاء الغداء في اليوم التالي في منزل السيد إياد أبي أحمد ، وطاب لهم الطعام وخاصة سيف .. أما إدريس فقد اعتاد على ذلك بين الفينة والأخرى .. فهم أصدقاء منذ ثلاثين سنة .. وقدم الشكر لأبي أحمد وأم أحمد .. وكان سيف قد أحضر هدية لأم أحمد ، وتقبلها إياد شاكرا .

وصلوا العصر في جامع الحي ، ثم ركبوا سيارة سيف إلى بيت خميس الذي كان في استقبالهم مع ابن أخيه ربيع الذي أحب رؤية المهندس سيف بعد هذا الزمن ، وانقطاعه عن العمل في المصنع ، تعانق ربيع مع المهندس الذي عرفه فور رؤيته ، وتذكره وقال : أهلا بالأستاذ ربيع محمد .. تذكرتك .. كنت تعمل في قسم صناعة الأدوية.

وبعد التعارف بين خميس وسيف وإدريس رتب خميس لرحلة عمرة مع إحدى الشركات التي يتعامل معها ، وطلب من سيف تأمين جواز السفر ليقدم للسفارة السعودية ؛ ليحصلا على تأشيرة دخول الأراضي السعودية المسئولة عن تيسير الحج والعمرة للمسلمين بصفتها الحاكمة للديار المقدسة .. وبعد الضيافة والاحترام ، قال إدريس : أنا سأمر عليك يا سيف وآخذ جوازك .

قال سيف: بل أنا سأمر عليك .. ونذهب إلى أبي أسعد .

فقال خميس : ليكن قبل الظهر حتى أتحرك جهة الشركة .. ولو أحضرت معك بعض الصور الشخصية .

بعد صمت قال ربيع : اتصل بي عمي مخبرا بأمرك .. فسررت لتوبتك .. وعجبت من هذه الدنيا يا مهندس سيف!

قال سيف : كيف المصنع بعد تقاعدي ؟

ـ كما هو يا سيدي ! لكن هناك تحسينات في خطوط الإنتاج ، وإضافة نوعيات جديدة من الأدوية .. والحق أن المصنع يتقدم .. ولدينا كما هي العادة موظفون جدد.

ـ أكيد هكذا الدنيا .. أنا ما زلت صديقا للمدير الدكتور ابن خالي .. وهو حسب علمي اليوم يتردد قليلا على الإدارة .. ابنه استلم المهام الرئيسة .

ـ نعم ، هناك عدد من أقاربكم يعمل في المصنع .

ـ ما شاء الله !

ـ أنا أعرفك ، لم تكن اجتماعيا .. كنت دائما رسميا .. وأيامها لم تكن تصلي.. تغيرت !

ـ نعم ، أنا أصلي من عهد قريب بسبب تعرفي على هذا الرجل ـ وأشار لإدريس ـ فتغير الحال والحمد لله .. إذا احتجت لمساعدة يا سيد ربيع أنا في الخدمة .

ـ تزوجت ..كانت لك حكاية تجاه النساء .. يتهامس بها الموظفون !

ـ لا ما زلت لهن كارها .. توقف بي الزمن عند الزوجة الأولى .

ـ سمعنا أنها ماتت !

ـ أجل ، رحلت .



بعد اكتمال نشر الحلقات التي أعدها إدريس للجريدة تابع كتابة المقالات الثقافية والعلمية من جديد ، ولقراءة الكتب وتلخيصها.. وقبل منتصف الليل بقليل اتصلت السيدة سمر ، ورحب بها ، واعتذرت عن الإزعاج فقالت: أما زلت مهتما بقضية الشقق السوداء مسرح الدعارة .

ـ الموضوع أغلق بعد مقابلة السيدة عبير ؛ لأنه لا معلومات جديدة ، وجاء الحديث عن الشقق بطريقة لا يعرفها إلا من علم بها .. فهي السبب كما تعلمين وراء انتقال عبير للحركة الماركسية ..خشيت أن تصير مومسا ما دامت قد دفعت الغالي دون استرداد الصور.. هل جد جديد ؟ هل تلك المرأة العاملة بتلك الشقق لانت وتريد الكلام ؟

ـ المرأة تلك لم أتصل بها منذ رفضت الحديث ، ولا شيء عنها .. يبدو أن أحد الرفاق الذين قرأوا المقالات له معرفة بتلك الشقق تحدث معي راغبا بالاتصال بك.

ـ أتعرفينه ؟

ـ أعرفه كشخص حركي ، ولا أعرف مقدار معرفته بتلك البلايا ؛ كأنه قرأ ما كتبته عن الآنسة عبير والإشارات التي جاء ذكرها في المقال .

ـ الرجل يحب أن أقابله.

ـ يحب أن يتحدث معك على الهاتف ..هو من سكان مدينة أخرى وبعيدة عن مدينتنا.

ـ لا بأس يا سيدة سمر ..وإذا وجدت لديه معلومات مهمة حول الشقق سأجدد اهتمامي بها يبدو أن عملها ما زال لليوم ؛ ولكن بصورة أخرى.. فرئيس التحرير سمع عنها قديما وحديثا ..ويذهب إليها الشباب من الجنسين دون تخدير وتنويم .

قالت : يثور الأمر بين الحين والآخر دون متابعة .

ـ يثور عند حدوث فضيحة أو ضحية ..لا أدري ما دور الشرطة في مثل هكذا قضايا ؟

ـ الدعارة كانت قديما سرية .. اليوم مسموحة يا أستاذ إدريس أليس هناك بوليس آداب كما نسمع ؟!

ـ يغض الطرف عنها كما يغضون الطرف عن بيع الخمور.

ـ تقريبا متى تحب أن يتصل بك ؟

ـ الليلة بعد أن أضع الهاتف ..قبل الإغلاق أتسمحين بسؤال ؟

ـ آ .. تكلم.

ـ أنت تكلمت عن الشقق تلك ، وعرفت بها ، والسيدة سوزان كذلك، والآنسة عبير .. المهندس مراد لم يأتِ على ذكرها أله علاقة بها ؟!

ـ لماذا هذا الاستفهام بهذه الطريقة ؟!

ـ لماذا ؟ لأنه يا سيدتي هذا الرجل هو الذي أخبر المهندس سيف عن الصورة العارية لزوجته نبيلة .. وهو الذي أخبره عن المقهى ليلقى الرجل ويأخذ منه الصورة

ـ مراد قام بهذا الدور بناء على رسالة من مجهول ؛ لأنه لما طلقت نبيلة على أثر تلك الصورة تحدث مراد عن دوره معتذرا أو متبجحا .. هو برر أنه ظن أن أحد الطلاب في الكلية يعرف هواه لنبيلة ، وأراد أن يستغله بدون أن يواجهه مباشرة .. ونفذ ما في الرسالة ظانا أن سيفا قد

لا يفعل ، ولا يقابل الرجل .. شخص استغل حقده على نبيلة وسيف .. وهو راوده أمل بعودة نبيلة إليه كحبيبة وصديقة .. وهو بين لنا ذلك ..وأنه فعل ذلك بناء على رسالة .. وليس على اتصال أو مقابلة .. هو لم يعش قصة حب مع نبيلة كما فعل صاحب عبير .. هو طاردها وفشل .. والفاشل يحب الانتقام .. هو شاب في مطلع الشباب.. ونبيلة كانت مرحة وجميلة وفتنة للشباب ..حقيقة كانت تشعر كل من تعرفه بأنه صديق عزيز .. وتعلق بها مراد وكلنا كان يعرف أن هواها نحو سيف الذي لم يجرؤ أن يبادلها الغرام إلا بعد سنتين من الكلية وهي كانت تعيش الرومانسية والقصص التي تقرأها .. والحب أعمى .. وظل مراد متعلقا بهواها حتى انتهت سنوات الجامعة .. وكانت نبيلة على علم بتعلق مراد بها .. وكانت تشارك بالنشاطات والرحلات الجامعية والمناسبات والمهرجانات .. ولم يتمكن المهندس مراد من النيل منها ولو قبلة ؛ بل كان مجال سخرية لبعض الطلبة والطالبات بسبب ذلك .. كانت مخلصة لسيف الذي كان يتهرب كثيرا من المشاركات الطلابية والنشاطات المختلفة .. بصراحة كان مراد ضعيفا أمام إغراء الطالبات الماجنات .. ويمارس الحب دون إكراه وتردد .. ويستسلم لهن بسهولة .. وكان لا يرى حبيبة حقيقية له إلا نبيلة .. وفشل بفعل أي صداقة خاصة معها .. وكانت هي تتصرف مع بلطف وتصده بأدب.. ولما خطبت نبيلة واحتفلنا بذلك في مطعم الكلية يئس مراد من الفوز بها .. وكان واضحا للمقربين منه حقده عليهما ورغبته بالانتقام منهما ، ولم يكن أحد يعلم بالصورة قبل حدوث الطلاق .. ومراد نفسه لم يشاهد الصورة .. ولما تزوجت بعد أشهر قليلة تحطم مراد كليا .. وتلقى مراد تلك الرسالة على بريد الجامعة من شخص يعرف تعلق مراد وحقده وكرهه لسيف .. وأكد لسوزان أنه لا يعرف المرسل ؛ ولكنه رأى تنفيذ ما في الرسالة فرصة للانتقام لعل وعسى؛ ربما هو غير مصدق لوجود مثل هذه الصورة .. كانت الصورة مفاجئة للجميع حتى نبيلة أخبرتني أنها تفاجأت بها وصدمت .. قال مراد : أحدهم يعرف غرامي بها فاستغل الغيرة والحقد على سيف .. وكانت الرسالة تبين أن هناك فرصة لطلاق سيف ونبيلة ..كانوا يعرفون ردة فعل

سيف .. فهم يعرفونهم .. وفعل مراد ما في الرسالة مع سيف من ذكر الصورة والمقهى والوقت للقاء مالك الصورة .. لماذا أرادوا طلاقها ؟! لا أعتقد محبة بمراد .. وحصل ما تنبأت به الرسالة .. وقال مراد لنا : لم أكن أصدق أن يحدث ما حصل .. ومع الطلاق لم يفز مراد بنبيلة ..كان هناك رجل طبيب قريب للعائلة قادم من أوروبا وتزوجها ، وهو والد زينب وهند وشقيقهم خالد الدكتور غريب .. مراد لعب الدور على أمل أن يكسبها بعد الطلاق إذا حصل فيكون البطل المنقذ .

ـ لم يتكلم معي عن هذا التفصيل ،لم يهتم بقصة الصورة .. وكيف أفسدت حياة زوجية ؟! ولا عن الشقق السرية .

ـ لا أعتقد يا صديقنا أن الرجل له علاقة بتلك الشقق .. أي فتاة كانت تسقط في فخ الرذيلة كانت تصبح كمومس ، ويعرف الكثير من زملائها عنها هذا السقوط ؛ فإذا لم تجد من يدفع ستدفع .. أنا تدربت في كلية الجامعة للتمريض فنرى مثل أولئك الفاشلات ؛كأنها جاءت للجامعة للفجور والفسق ، وليس للدراسة .. ولا تنسى أن هناك فتيات يأتين من دول أخرى كبعثات أو على نفقة أهليهن ، والغربة تفعل فعلها .. لقد كنّا نرى بعض الطلبة من الجنسين يحملون مجلات الجنس والإباحية ؛ بل سمعنا عن أشرطة كاسيت لمثل ذلك .. كان دعاة الإباحية والفوضوية في ساحات الجامعة .. الإباحية كانت تجتاح العالم ؛ ربما كانت أشد من اليوم خاصة في المجتمعات العربية المبهورة بحضارة الغرب .. والبعض يعتبر سنوات الجامعة فرصة للخروج عن التقاليد والعادات والأخلاق الحسنة .. ومع استخدام موانع الحمل كالحبوب وغيره كان يحدث الحمل ، ويجري الإجهاض السري .. كانت تشيع بيننا ولو على استحياء شعارات الجنس الآمن ، كما يحدث في جامعات أمريكا وأوروبا .. كانت ثورة جنسية محمومة تغمر العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .. كان الشباب يتعرضون لحرب جنسية شعواء!

تنهد إدريس بعمق وقال : شكرًا لك يا سيدتي على هذا الكلام ! أنا عشت تلك المرحلة ؛ ربما

لأنك عملت في المستشفيات رأيت من القصص والحكايات المثير .. وأنا أرحب باتصال الرجل أو الرفيق قلت ما اسمه ؟

ـ اسمه عارف فوزي .. سأتحدث معه ليتصل بك إلى اتصال آخر .

وضع السماعة وقال : رسالة .. سيف لم يسمع بتلك الرسالة ؛ لأنه لم يتصل بعدها بمراد من أجل الموضوع .. ونبيلة لم تهتم بكيف وصلت الرسالة لمراد ؟ وكانت قد طلقت قبل العودة للجامعة .. لا أدري كيف كان يعيش سيف في الجامعة ؟! من بعث له تلك الرسالة ؟!لابد أن يكون من طلبة الجامعة ، وعلى اطلاع بعشقه للفتاة .. وعلى معرفة بطباع سيف وردة فعله.. لماذا كشف أمر الصورة ؟! لم يكن هناك عرض زنا وضغط للفاحشة .. وكما قالت سمر كانت المطاردات للفتيات المتوسطات الحال والفقيرات المبتعثات على نفقة الآخرين .. رجل استغل حقد مراد .. هل من محب آخر لنبيلة لم يظهر على الشاشة ؟! كانت الفتاة جميلة ومثيرة للغرائز بلباسها وتبرجها وسفورها .. فلابد أن يشتهيها الكثير ، ويطاردها الكثير ؛ لكن لم أر في الذكريات إلا مرادا .. قيل أن هندا تشبه أمها إلى حد كبير ؛ لكن يبدو أنها لم تكن بالجمال الصارخ لأمها .. معروف بين طلبة الجامعة من يريد اللهو والعبث والمغامرات ؟ سيجد ذلك وسيجد من يشجعه .. ومن يريد أن يكون جادا سيجد ذلك.. الرسالة هل ما زالت عند مراد ؟ لم يذكر لي عنها شيئا ..هو لم يولِ اهتماما لموضوع الصورة والسيف .. كان الموضوع الأهم عنده الحديث عن الشيوعية والعمل النقابي وضعف الحزب الشيوعي في روسيا والعالم العربي أم تراه اخترع قصة الرسالة للدفاع عن نفسه أمام زملائه ورفاقه الذين لاموه على تورطه في طلاق سيف ونبيلة .. سنعرف من كتب الرسالة ؟ سنصل إليه يوما .. شخص خبيث يعرف حب مراد لنبيلة ، ويعرف شخصية سيف ووسواسه القهري .

بينما إدريس يراجع المعلومات التي سمعها عن الرسالة التي تلقاها مراد من مجهول حول موضوع الصورة التي دمرت زواج جديد رن جرس التلفون ، فرفع السماعة مرحبا بالمدعو

عارف ومعرفا بنفسه .

ـ قرأت مقالتك الأربعة ، وأعجبت بها وأعادتني للماضي البعيد ، والذي يهمني بالحديث معك ذكريات السيدة عبير وسبب انتمائها للحركة الشيوعية ، وذكرها للشقق السرية ، وحفلات الطلاب والطلبة فيها ، وحفلات الإباحية التي تجري فيها .. الرقيق الأبيض .

ـ نعم ، يا سيد عارف أشارت السيدة الجريحة إلى تلك الشقق الغامضة في رأيي .. ولم تفصح عن الكثير من المعلومات عنها .. ألديك معلومات مهمة كما أشارت سمر ؟!

فجر قنبلة عندما قال : قبل تواجدي في الحركة الشيوعية يا أستاذ إدريس كنت ابن إحدى تلك الشقق .. كيف سنلتقي مباشرة لأمتعك بما أعرف عنها ؟ أنا أسكن في مدينة بعيدة عنكم أحتاج إلى لقاء نهاري ومبكر .

ـ جميل ! وأنا ، ربما ذكرت لك سمر سبب اهتمامي بهذه الشقق ؛ لأني سمعت عنها منها .. ومن عبير وسوزان فاستغربت من وجودها .. واليوم أوكار الدعارة متطورة .. يجب أن نلتقي يا سيد عارف .. ماذا تعرف من معالم مدينتنا لنلتقي بالقرب منه ؟

ـ مسجد المدينة الكبير سيدي سعيد .

ـ حسنا .. في أي يوم ؟ ما تقول في الغد ؟

ـ ممتاز ممتاز كيف سنعرف بعضنا بعضا؟

ـ سأضع على رأسي قبعة حمراء .

ـ جميل يا سيد إدريس إلى اللقاء!

لما صلى الظهر جماعة في المسجد "سيدي سعيد" وخرج إلى الساحة الأمامية للمسجد ، وضع القبعة الحمراء على رأسه ، وأخذ يضبطها يميناً ويسارا ، ويتمشى في تلك الساحة ، ولم يطل الانتظار ، فقد تقدم منه رجل من جيله أو أقل منه بسنوات قائلا : الأستاذ إدريس !

ـ نعم ، أهلا بالأستاذ عارف !

تصافحا ورحب كل منهم بالآخر ، ثم ساقه إدريس إلى مطعم السيد سيف القريب من ذلك

المسجد ، وتناولا الغداء وطول الوقت، وإدريس يرحب بالرجل ، ويشكره على شجاعته وحبه لإضافة جديد لموضوع الشقق ؛ لعل أن يكون تحقيق لإدريس حولها .. وبعد وجبة الطعام انتقل به إلى مقهى الكوكب الذهبي الكوكب الخالد بالنسبة لإدريس ، وجلسا حيث اختار إدريس ، وقدم لهما الشاي والماء ..وعادة المقاهي لم تكن مكتظة بالزبائن في أول النهار ووسطه ؛ إنها يكثر الرواد في ساعات المساء ، وأول الليل .. ولما أخذا بالشرب للشاي ، قال إدريس : كيف اهتممت بأمر هذه الشقق وتعرفت عليها ؟!

ـ عندما أخبرني بعض الرفاق عن النشر في جريدة الشرق المضيء أخذت أتابع ما كتب باهتمام وحنين للماضي .. وأنا أعرف الرفاق الأربعة شخصيا ، وإن لم نعد على تواصل من سنوات .. والمقالة التي تحدثت فيها عبير أثارت ألما وحزنا وتاريخا لديّ .. وذكرتني بتلك الأماكن وحياتي الماضية .. فتحمست للحديث مع سمر فرحبت بي وتذكرتني وشجعتني على الحديث معك ..وذكرت أنك اهتممت بموضوعها ، وليس لديك معلومات كافية للنشر عن الدعارة في المدينة، وهذه الأماكن ، وأعطتني رقم هاتفك الشخصي ، لأنك لا تعمل كموظف في الجريدة .. ومهدت لي الحوار معك .. وأنا عملت مع سمر في نفس المستشفى قبل أن استقر في قريتي .

ـ عملت في نفس المشفى!

ـ المستشفى الحكومي ، لم ندرس سوية ؛ لكن الحياة العملية عرفتني عليها .. أنا ممرض مثلها ، كانت في قسم وأنا في قسم آخر .. أنا تخرجت بعدها من الكلية ، وتدربت في مستشفى الجامعة مثلها .. ولم أكن شيوعيا تلك الأيام .. فأعرفها من خلال الكلية معرفة سطحية .. ومن خلال العمل بعد التخرج أكثر .. ومن خلال الحزب فيما بعد .. كانت ناشطة سياسية وما زالت ، وعرفت عبير من عملنا في المستشفى .. وعلمت قصتها .. لم أعرفها من خلال تلك الشقق .. فقراءتي للمقال أدركت أن لا معلومات تفصيلية لديكم .

ـ أنت أدركت ذلك من قراءة المقال!

أخرج الرجل جريدة وتابع إدريس : أنا كاتب المقال كما تعلم .. أكمل يا سيد عارف .

قال عارف : اتصلت بسمر كما قلت .. وقلت لها إن الصحفي أشار لموضوع الشقق السرية ؛ ولكن معلوماته مرتبكة ، وفيها ثغرات .. وشجعتني على الالتقاء بك شخصيا .. وأنك مهتم بالموضوع جديا .. وتريد أن تعرف هل ما زالت هذه الشقق موجودة أم زالت واختفت؟

ـ صحيح .. المعلومات حولها شحيحة .. السيدة عبير لا أدري هل تعرف مأساتها مع تلك الشقق ؟!

ـ الناس تتحدث .. والإنسان يجب أن يتحدث عن نفسه .. تعرضت لتصوير سري واغتصاب وهي لم تكن بكرا لما دخلت تلك الشقق .. وهي خشيت من الدعارة فلجأت للحزب اليساري حتى لا تتحول لمومس .

ـ نعم ، لديك معلومات لم نتحدث عنها في المقابلة .. أنت درست التمريض قبلهن ، ولم تنتم لحزب .

ـ نعم أنا ابن الريف ابن إحدى القرى النائية تلك الأيام .. اليوم كبرت القرية ، وأصبحت نصف مدينة ، وزاد سكانها أضعافا، وشوارعها معبدة .. وإن كان أكثر سكانها يعملون في الزراعة .. رحلت للمدينة للدراسة على نفقة الوزارة وزارة الصحة لأدرس وأعمل في الوزارة حسب نظام الابتعاث ..والجامعة تحتاج لمال ، تحتاج للمتعة والمصروف .. المهم وأنا في السنة الأولى عرض عليّ العمل بعد الدوام من الساعة الخامسة مساء حتى الخامسة صباحا داخل شقة من هذه الشقق .. لم يكن العمل واضحا لي .. ظننته في البداية كحارس ليلي .. كان العمل ظاهره شريف وبريء.

ـ لم أفهم عليك بعد !

ـ ستفهم .. أتسمح لي بالدخان ؟

ـ دخن .. المقهى جعل مكانا للتدخين .

قال : العمل تبين هو كخادم في الشقة ، مقابل عشرين دينارا شهريا .. ونوم وأكل وأشياء

أخرى .. وذلك بدل أن استأجر سكنا مع شركاء من الطلبة المتغربين عن قراهم ومدنهم .. سكن مجاني ، وطعام مجاني ، ومال ، وكل ذلك مقابل خدمة لرواد الشقة .. فهذا مغر لشاب ريفي يجهل المدينة جهلا تاما .

ـ ماذا يعمل حضرة الخادم في تلك الشقق ؟!

ـ أهم عمل هو خدمة نزلاء الشقة .. نزلاء الشقق أغلبهم من الطلبة ومن الجنسين .. يأتون للسهر والغناء والسكر والعربدة .. وأنا عليّ أنا أقدم لهم الشراب المسكر والقهوة وغيرها والطعام القادم من المطاعم .. وأنظف الشقة بعد رحليهم .

ـ يوجد شقق أخرى عملت بها .

ـ لا ، أنا عملت في شقة واحدة حتى أنهيت عملي معهم ؛ ولكنني أعرف

شققا أخرى .. وأعرف بعض من عمل فيها مثلي .. وعادة تكون هذه الشقة ضمن بناية يغلب على شققها الشركات والمكاتب .. وأغلبها تكون مغلقة في الليل .. وعندما تبدأ السهرة من النادر أن تجد شقة مشغولة .. وحتى شقة اللهو لم تؤجر كسكن ، هي مؤجرة كمكتب لشركة أو محامي .. وأنا الخادم للشقة ساعات الليل .. والبواب لابد أنه قد أطعم ليسكت ويتجاهل ما يحدث في الليل من صخب وضجيج وسكر .. والشقة خاصة الصالة عادة تكون معزولة ، فلا يخرج صوتها منها .. تأتي ليلة السهرة سيارة الطعام والشراب والحلوى ، وأدخلها مع عمال المطعم إلى المطبخ .. وتشرف على الحفلة أو السهرة امرأة شابة .. وأساعدها في تقديم الطعام للضيوف ، ثم أنصرف إلى المطبخ أو أي مكان ما عدا مكان السهر .. وعادة تبدأ السهرة بعد العاشرة ليلا .. وأكون قد قدمت الطعام ، ووضعت الشراب في مكانه ، وأختفي إلى حد ما ..وعليّ يا سيد إدريس إغلاق باب الشقة نهائيا بعد تناول طعام العشاء .. ولا أفتح لأحد أبدا .. ولكن هذا لم يكن صارما ، كان هناك من يتأخر .. وبناء على هاتف أفتح له .. وهناك من يخرج بناء على هاتف أو أصابه مرض مفاجئ بعد الأكل .. يبدأ السكر والرقص والأغاني من أجهزة التسجيل الحديثة في ذاك الزمن .. ويستمر السهر إلى الساعة الثانية بعد

منتصف الليل ..ويبدأ الضيوف بالانصراف خاصة الذين يملكون سيارة أو متفقين مع سائقين .. وهناك من يعجز عن الانصراف فيبقون حتى انصرافي صباحا وإغلاق الشقة .. والفتاة المشرفة على الشقة قد تسهر بعض الوقت ، ثم تغادر ، من النادر أن تمكث لآخر السهرة وهذا يحدث في الأسبوع مرة أو مرتان أو ثلاث فقط .

ـ هل يحدث دعارة ؟

ـ أعلم أن هناك شققا تحدث فيها دعارة وزنا .. أما مكان عملي فرقص غناء طعام سكر .. قد ينفعل أحد الشباب ، ويخلع ملابسه الخارجية ، ويبقى بملابسه الداخلية أو إحدى السكرانات تفعل ذلك .. قد يحدث لمس عناق مجون .. المسؤولة عن الشقة تحذرهم من الجنس والتعري الكامل .. وتقول لهم بصراحة من يريد ممارسة الجنس فليتحول إلى شقة أخرى .. أعتقد أن هذه الشقة كانت تمهيدا للشقق الأخرى .. فالذي يستسلم للإغراء خاصة الفتيات تنقل إلى مكان آخر .. وهذا كان معروف لنا شفويا.. وقد يثار أحدهم فعليّ منعه من ذلك، وطرده من الشقة أو أتصل برقم معين ، فيأتي اثنان ويقومان بطرده .. ممارسة الزنا ممنوعة سكر غناء رقص ، حتى أنه قد تقدم مدربة لتعليمهم الرقص .. إذا رغب البعض بذلك ، هي مثل الحانات شراب أكل متعة انصراف.. قد تسمع سبابا قبيحا ، وكلاما جنسيا وقذرا يقهقهون عليه ومنه .. هذا كله أسمعه من خلال مكان اختفائي عنهم .. أنا مجرد خادم لهم .. والأخطر عندي عندما تهيأ ضحية للتصوير .. ويجري في الشقة التي أعمل بها ؛ لأنها شقة بريئة أمام الزبائن .

قال إدريس : جميل ! من أجل ذلك لا تُمارس فيها الدعارة ولمزيد من الثقة لدى الرواد !

ـ هذا ما يفهم من منع الجنس فيها .. وهناك ترتيب خاص من المشرفة ليلة التصوير .. قبل أن يبدأ التصوير تعلن المشرفة رغبتها بالمغادرة ، وتعلن أنها ستقدم لهم كأس الوداع ، ويصحب ذلك التصفيق والهياج .. وتكون قبل ذلك وضعت في الأكواب التي سأقدمها مادة التخدير هي عبارة عن كبسولات خاصة .. وتخرج هي من المطبخ أمامي وهي وتصيح فيّ قدم كأس

الوداع للأصدقاء ، فأدور عليهم .. وبعد حين أفتح لها الباب ؛ كأنها مغادرة كعادتها ، وتتظاهر هي بالذهاب للمرحاض ، وغسل وجهها قبل الخروج .. وخلال وقت قصير يقع الساهرون نياما ظانين أن الخمر أثرت فيهم ، واللهو أرهقهم ، ثم يدخل أحد المصورين .. وتنقل الفتاة المقصودة إلى حجرة مجردة من الديكورات والأثاث وتفرش سجادة .. خاصة يجلبها الذين أحضروا المصور .. وتجرد الفتاة من ثيابها ، وتبدأ حفلة التصوير مدة دقائق ، قد لا تتجاوز العشر دقائق ، ثم تعاد الفتاة بعد إعادة ملابسها عليها إلى صالة الرقص .. ويجتهد أن توضع على الوضعية التي كانت عليها حتى لا يخطر في بالها أنها تعرضت للنقل والتصوير ويأخذ المصور ومن معه السجادة .. وينصرفون تصحبهم مديرة الشقة .. هكذا يحدث التصوير في الشقة التي أعمل فيها .. والمفروض أن أكون أنا خلال ذلك في المطبخ ، ولا أخرج حتى تطلب مني المشرفة الخروج لإغلاق الباب وراءها .. وعندما يبدأ انتهاء مفعول المخدر يبدأ الاستيقاظ والتثاؤب وينسبون نعسهم للشراب ، وعدم تحمل الكمية ، ثم يأخذون بالانتقال لمراحيض الشقة واحدا تلو الآخر .. والبعض ينصرف .. والبعض ينام حيث هو من جديد ..والصور المأخوذة كما أعلم لا تظهر للضحية إلا بعد عدة حفلات أخرى ، فلا تتذكر الضحية متى تعرضت للتصوير ؟.. فعادة كان يستيقظ المخدرون بعد ساعة من الزمن والذي تعاني منه الضحية يعاني منه الآخرون الصداع والقيء والغثيان ..وعليّ تنظيف الشقة قبل مغادرتها صباحا بمواد كيمائية تستخدم للتنظيف وإزالة الروائح السيئة .. فربما بال بعضهم على ثيابه ومكانه ، وقد يقيء بعضهم ويستفرغ في الصالة .. ولا تنسى الشراب المسكوب وأعقاب السجائر .

ـ حقيقة هذا شيء مذهل ومقرف يا عارف ! كيف كنت تتحمل ذاك ؟!

ـ مع الوقت والمال والتعود عليه تستسلم ولا تبالي بما يحدث .. هم طبعا يتظاهرون على أنني لا أراقب أعمالهم الخفية ؛ لكن الفضول وما فيه .. وربما لا يحدث التصوير إلا بعد زمن يطول شهران ثلاثة ويحدث مرة ؛

لأن هناك فتيات يسقطن في مهاوي الرذيلة سريعا بعد بضع حفلات يبعن أجسادهن مقابل المال أو الشهوات

تنهد إدريس قرفا وقال : طبعا هناك شقق أخرى !

ـ نعم ؛ لكنني لا أعرف عددها ولا أماكنها ، وحتى لا يمكن نقلي للعمل في غيرها .. هذه يا سيدي شقق صيد الضحايا غير المستسلمات للعمل كبغايا .. وأنا أعرف أين تقع هذه الشقة ؟ لكنها اليوم لم تعد شقة فساد أصبحت مكاتب شركة أخشاب .

ـ لماذا استسلمت للعمل معهم لما علمت كيف يجبرون الفتيات على البغاء ؟!

ـ الغربة السبب الأول ، والحاجة المادية ثانيا .. وهم يعرفون كيف يوظفون ويختارون الشباب الفقير مثلنا ؟ القروي البسيط .. وأعترف لك أنني تعلمت شرب الخمر والزنا .. وقد أقمت علاقات جنسية عابرة مع المشرفة نفسها .. وبعض الفتيات .. وذاك خلال الأيام التي لا يكون فيها حفلات .. ومن تورط معهم يصعب عليه الفكاك ؟ كانت المشرفة كلما أقضي لها شهوتها تدفع لي ، وتوصيني بكتمان السر التخلص من الفجور ليس عملا سهلا خاصة عندما يكون الشباب غير متدين وغير مكترث بالدِّين وأنا تركت العمل معهم في السنة الأخيرة للجامعة.

ـ ولماذا تركت العمل ؟

ـ عادة يمكث الخادم معهم كما علمت من المشرفة والمرتبة لتلك السهرات حتى يتخرج من الجامعة ويلتحق بعمل ؛ لأنه لم يعد بحاجة للعشرين دينارا إذا توظف .. ويصبح خطرا عليهم أنا تركتهم في السنة الأخيرة لكارثة حلت بي .. كانت ابنة عّم لي من ضحايا تلك الشقق .. صدمت لما رأيتها تدخل الشقة التي أعمل بها .. وهي صدمت لما رأتني .. كان المشهد قاسيا ولما عرفت المشرفة ذلك أمرت بإنهاء خدماتي خشية الفضيحة ، وهددت بالقتل إن تفوهت بشيء عن الشقة .. ونقلت ابنة عمي لشقة أخرى .

ـ هل عرفتك ابنة عمك ؟

ـ طبعا يا رجل ! وكيف لا تعرفني ؟ بل أخبرت أن الفتاة مومس ، فلا داعي للشرف

والفضائح .. وكان عليّ أن أصدق .. فنحن سواء .. كانت تريد المال مثلي لتشتري المزيد من الثياب والزينة .. المال مأساة ومصيدة .. لزمت الصمت ، ولذت به حتى أتممت الدراسة .. وتخرجت وانتقلت للعمل في إحدى مستشفيات الحكومة فور التخرج لم تكن في تلك الأيام بطالة أو شبح البطالة .. وفي ذلك المستشفى زادت معرفتي بالسيدة سمر ، ثم تأثرت بالحركة الشيوعية والإلحاد ، وصدقت أنه الجنة على الأرض .

ـ الكثير من الشباب الغلبان يعمل ما عملت .

ـ أنا لا أعرف كم عدد الشقق ؟ لكني علمت من المشرفة أن الكثير منها لديهم ، وأنها مسؤولة عن شقة ثانية .. قلت لك كانت تأتي إليّ في بعض الأيام التي تكون الشقة خالية من السهرات للزنا وتدفع .. القلب مات .. وأحيانا أسمح لبعض العشاق بالاستفادة من الشقة مقابل المال وكتم السر .. مع الوقت يصبح لدى الشخص جرأة وطمع بمزيد من المال .. وإذا كشف الأمر ليس هناك إلا الفصل أو الطرد .

ـ إذن كنت تساعد بوضع المخدر للجميع .

قال : نعم ، تحضره المشرفة على الشقة معها .. وفي الكأس الأخيرة يوضع ليلة التصوير .

ـ أتعرف الضحايا شخصيا؟

ـ القليل ؛ بل لم أصدف فتاة من كلية التمريض خلال عملي في الشقة.. فعبير لم يجري تصويرها عندي .. أغلب من كان يتردد على شقتنا طلاب الكليات الاقتصادية والاجتماع.

ـ أتعرف المهندسة نبيلة خالد ؟!

ـ نبيلة خالد لا أعرفها شخصيا ؛ لكنني سمعت بقصة طلاقها ، وأنها كانت ابنة مدير المستشفى الجامعي .

ـ هل سمعت أنها ترددت على تلك الشقق ؟

ـ لا ، لم أسمع .. أنا أحببت أن أعطيك فكرة صادقة عن تلك الشقق تلك الأيام ، وكيف يجري تدمير أولئك الفتيات؟!

تفكير إدريس

رجع إدريس للبيت بعد توديعه عارف ، وقد أخذ عنوانه قد يحتاجه في معرفة جواب سؤال أو احتاج لسماع المزيد من قصص وجرائم تلك الشقق ، بعدما صلى العشاء تعشى، وجلس مفكرا فقال لنفسه: هل السكران لا يفرق بين المسكر والمخدر ؟ كلاهما يذهب العقل .. هل نبيلة خالد أعطيت مخدرا ؟ لم تذكر ذلك عندما داهمها سيف بالصورة ، وظلت تنكر ذلك ، وماتت وهي تود لو تعلم كيف خدرت؟ إنها تجهل جهلا تاما كيف صورت ؟ وأين صورت ؟ وهذا الرجل أعطاني صورة لما يحدث من أجل التصوير .. وعبير تجهل كيف صورت ؟ ولكنها تعلم أنها صورت في إحدى الشقق السوداء ، وباعت جسدها في تلك الأوكار .. فقصة عارف توضح ما حدث مع عبير وغيرها ؛لأنها اعترفت أنها كانت تتردد على تلك الشقق والسهرات .. هناك فرق واسع بين قصتها وقصة نبيلة .. هل كانت نبيلة تذهب لمثل هكذا سهرات ؟ عبير كانت تذهب بصحبة الحبيب والحلم الواعد .. نبيلة لم تفعل ذلك الحبيب لم يفعل ذلك ، ولم يتحدث عن مثل ذلك .. لم تذهب لمثل هكذا شقق أو تنام في شقة غامضة .. وهي ليست بحاجة للمال لتمارس البغاء .. وأحبت سيفا ، وقضت سنتين وهي تطارد من مراد وغيره حتى اعترف سيف بحبها وقبلته .. وسيف ذكر لي أنها كانت عذراء عندما تزوجها .. القصة يكتنفها الغموض.. أتصنعت غشاء بكارة مزيف كما نسمع ؟ لا يحل الغموض إلا رجل كعارف رآها بأم عينه في إحدى الشقق .. من كان يدير كل هذه الشقق السوداء ؟! لابد أنها عصابة دعارة .. والغريب أنها صورت صورة واحدة .. فعبير عرضت عليها عدة صور .. وعارف يقول إن المصور يمكث عشر دقائق وهو يصور ..فهذا يدل على أكثر من صورة .. ولم تصور بأوضاع مختلفة كما حدث لعبير .. مراد لم ير الصورة ، نفذ تعليمات بناء على رسالة .. ولأنه يكره سيف ، ويحلم بنبيلة طيلة هذه السنوات غامر ونفذ ، ونجحت المهمة ، ولم يفز بالزواج منها ..لا هو ولا أحد الطلبة ..كانت من نصيب قريب والدها الدكتور القادم من أوروبا غريب .. أهذه الرسالة ما زالت حية يا مراد؟ لم يكن صريحا

بالحديث عن تلك الصورة ، كان غامضا ولا مباليا .. هل تعلم سمر بمصير هذه الرسالة ؟ وهل رأتها ؟ سيف لا معلومات عنده عن تلك الرسالة .. واقتربت العودة من العمرة وسنسأله بعون الله.. ألم يسمع الطلاب يتحدثون عنها ؟ سيف انعزالي .. لو سمع لذكره لي ، وبما كتبه في الأوراق .. حكاية نبيلة خارج السياق كما يقال .. واللغز لماذا صورة واحدة ؟ وعبير عدة صور بأوضاع مخزية ؛ لتستسلم بسرعة .. لأن من يرى تلك الصور سيعتقد أن الفتاة خبيرة في الدعارة والفجور.

رن الهاتف فخمن المتصل ، وكانت سمر ، فقال بعد التحية والسلام : أنت الشخص الذي كنت أرغب بالحديث معه !

ـ لقد قابلت عارفا .

ـ نعم ، وحدثني عن عمله كخادم في إحدى الشقق ، وتحدث بالتفصيل عما كان يمارس داخل تلك الغرف السوداء من تحلل وإباحية وتصوير وتخدير ، خاصة في الكأس الأخيرة ، ونقل الضحية إلى حجرة لإجراء التصوير من قبل مصور وأعوان له ، وهي مجردة من ثيابها ، وفي أوضاع مثيرة ؛ لتخضع الضحية بسرعة عندما ترى الصور الفظيعة ..كان يقبض ويأكل وينام على حسابهم ، وتقابل مع ابنة عّم له في تلك الشقة فاضطر لترك العمل أو الطرد بمعنى أدق .. وهدد ، ولم يتعرض للقتل أو الأذى ؛ ربما خشوا ابنة عمه أن تتكلم ، وتحدث فضيحة .. وهو جبن ، ولزم الصمت حتى أنهى تعليمه ، وتعين في مشفى ، ولم يتحدث عن حياة ابنة عمه ومصيرها أتعرفين ذلك ؟

ـ لا، لم يتكلم أمامي عن ذلك أبدا مع أني أدركته في بعض سنوات الجامعة .. وأنت قلت هددوه ؛ إنما المقال هو الذي ذكره بتلك الشقق السوداء .. وهو دخل الحركة بعد الجامعة بسنوات .. فعرفته من خلال الحزب أكثر من الجامعة ، ومن خلال العمل .. لم يعمل معنا كثيرا انتقل إلى عدد من المشافي والمراكز الطبية الصحية .. ولم أكن أستطيع هضمه مع شيوعيته هو يعرفني بحكم نشاطي البارز يا إدريس وحضوري للندوات والمحاضرات في عدة مواقع

داخل المدينة وخارجها .

ـ المهم أن القصة أعقد من ذلك ؛ولكنه شاهد جيد ..وهذا يدل على وجود تلك الشقق حقيقة وهو يعرف بعض الخدم ؛ لكنه هذه الأيام لا يعرف مصيرهم ونهايتهم .. وأعتقد أنهم مثله من أبناء القرى والريف تورطوا من أجل المزيد من المال وتوفير ثمن الطعام والسكن حول الجامعة .. واستغلوا بطريقة جيدة وخبيثة .. ولا يذكر أنه التقى بعبير أو نبيلة في تلك الشقة العامل فيها كخادم .

ولما سكت قالت : ولماذا كنت تحب الاتصال بي؟

ـ لماذا ؟ آه لماذا ؟! ذكرت أن المهندس مرادا كشف أمر الصورة لسيف بناء على رسالة من مجهول

ـ نعم ، قلت مثل هذا الكلام .

ـ هل يمكنك معرفة مصير هذه الرسالة إذا ما زالت عند المهندس يحتفظ بها ؟هل مزقها ؟

ـ وهل هذا يقدم في قضيتنا شيئا ؟

ـ لعل كاتبها له علاقة بتلك الشقق .. أنا سألت عن هذه الشقق .. المعلومات ضئيلة .. بعضهم يقر بوجودها ؛ ولكن ليست بالصورة السوداء التي أرسمها .. فالمهندس سيف لا يعرف عنها شيئا .. اليوم الحانات والملاهي الليلية والنوادي الليلة تغني عنها ؛ بل السلطات تسمح بوجودها .. لم تعد الدول بحاجة لمواخير سرية لإيجاد ضحايا جدد .

ـ ما زلنا يا إدريس نسمع عن فظائع الجنس .. اليوم تصور الأفلام.

ـ اليوم تطورت فنون الانحرافات الجنسية والسادية والشذوذ ونكاح المحارم ، ولا يحتاجون لتخدير وتنويم ..اهتمي بموضوع الرسالة ، هل ما زالت موجودة ؟ لأنني وعدت سيفا إن فتح لي قلبه من أجل قصته مع نبيلة أن أعرف من صورها .. سأتصل بك بعد أيام .

أغلق الهاتف وأحضر سلة الفاكهة ، وبدأ يأكل ويمضغ ، وهو سرحان في قصة عارف .. وظل مسيطرا عليه لماذا صورة واحدة لنبيلة وصور كثيرة لعبير ؟ أين باقي الصور ؟ ولماذا تنكر نبيلة تعرضها لتخدير وتنويم ؟ فعبير تعترف أنها تعرضت لمثل ذلك بدون أن تعرف

متى وكيف وأين ؟ وعارف لا يعرف أولئك المصورين ؛ ولكنه بين أن أكثر من مصور تردد على الشقة خلال سنوات عمله .. ولم تذكر المشرفة له أي اسم ممن يأتون للتصوير ونقل الضحية إلى حجرة التصوير .. وكان يسمح لبعض الشباب بالاختلاء بالشقة دون علم المشرفة مقابل بعض المال .. حل لغز الشقق وطريقة الدعارة لم تحل مشكلة سيف ونبيلة ..ولا أعتقد أنه يستطيع معرفة كل زبائنه ؛ ربما الأكثر ترددا يعرفه أو من كوّن معه علاقة خاصة .. هل حقا نفذ مراد الخطة مع سيف عن جهل وبناء على رسالة من مجهول ؟! لماذا لم يتحدث معي عن تلك الشقق بصراحة ؟ أكان يجهلها حقا أم تظاهر بالجهل ؟ وهل ينفذ تعليمات من مجهول فقط ؟ وهذا المجهول توقع الطلاق وتدمير حياة زوجية عن حب من سنوات .. رسالة من بريد الجامعة .. قضية معقدة ..ولماذا الإباحية ؟ أين الزواج ؟ نسمع عن زواج عرفي زواج الفرند .. أصبحت حياة الزواج عبء على الشباب .. زواج المسيار .. زواج المتعة ينتشر بقوة .. حياتنا السرية تعقدت .. العفو العفو يا رب السموات والأرض .

كان إدريس يدرك صعوبة المهمة التي يقوم بها والوصول إلى مصدر الصورة والمصور ، وليس بالأمر السهل بعد ثلاثين سنة .. وهل ما زال البائع على قيد الحياة ؟ ولد ملايين ومات مثلهم إن المعلومة يجب أن تصدر من صاحبها .. من قام بها ؟ فالسيد مراد لم يتحدث أمامه عن رسالة ، ولا ذكرها ؛ إنما ذكر دوره بطلاق سيف ونبيلة .. وسيف نفسه لم يتابع موضوع الصورة ، كان الذي يهمه رؤية الصورة هل هي حقيقية أم خدعة فنية كما يحدث في الأفلام والمجلات من تركيب للصور والشخصيات ؟ والفتاة اعترفت بأنها صورتها دون إنكار ؛ ولكنها حارت بالكيفية التي صورت بها والمكان والزمان ..كيف صورت بدون علمها صورة خلاعية أدت إلى تدمير حياتها الزوجية وزرع الشك في نفس الحبيب ؟ رأت أن أحدهم خطط لتدمير حياتهم .. صورها وأعلم زوجها بأمر الصورة عن طريق مطارد لها رفضته مرارا وتكرارا .. نجح مراد ؛ ولكنها موقنة أنه مجرد رسول ، لم يصورها .. هناك من صورها ، وحصل ما أراده الماكر .. وبعد ثلاثين سنة وهي تموت كتبت رسالة لزوجها الأول تطلب

المسامحة والتحقيق في حقيقة الصورة بالعودة للمقهى .. هل عرفت من صورها ؟ وباع الصورة لسيف وصمتت عنه .. من يريد من مطارديها الطلاب تدمير حياتها الزوجية ؟ لم يتقدم أحد للزواج منها بعد الطلاق ؛ إنما أعلمها والدها أنه سيزوجها لقريبهم غريب الذي رغب بها بعد عودته من بريطانيا .. مراد أكثر مزعجيها لم يتقدم لخطبتها ..كان يهم بذلك ؛ لكنه كان ينتظر هدوء العاصفة ونسيان دوره .. لقد استطاع الخصم استدراجه ليخبر سيفا بأمر الصورة الشيطانية .. لا أعتقد أن لتلك الشقق الشيطانية دورا في فساد زواج سيف .. هناك شخص كان حاقدا على سيف ونبيلة أو على أحدهما .. هل كانت تعرفه ؟ هل عرفت من صورها وعجزت عن ذكره لأسباب قاهرة ؟ ..وكيف قبلت أن يصورها ؟ هي أنكرت علمها بالتصوير .. هل هي صادقة ؟ هل كذبت ولم تستطع التراجع عن الكذب ؟ الناس تكذب للدفاع عن نفسها في الوهلة الأولى .. الرسالة تؤكد جهلها مكان التصوير .. أخبرت سيفا أنها تجهله .. كانت متعجبة ومذهولة كما أخبر سيف ليلة رأت الصورة .. كيف لقطوا لها تلك الصورة التي دمرت حياتها ؟كانت مذهولة للغاية حتى أن سيفا ظنها تمثل من شدة الصدمة .. فقال إدريس : الاعتراف الاعتراف هو الحل أن يعترف الفاعل .. وهل يعترف بعد ثلاثين سنه من الجريمة ؟ لعبة كبيرة لعبت على الزوجين بدهاء ومكر .. هل لغريب يد فيها ؟ لأنه هو الذي فاز بنبيلة أليس هو سبب العجلة بزواجها من حبيبها وفارس أحلامها وزميلها في الكلية ؟ أمه قالت ذلك لأم نبيلة .. وأم نبيلة تعرف حب نبيلة لسيف وردة .. كان الرجل قادما بشهادة من أوروبا من بريطانيا مثل والدها .. ومراد كان يرغب بها زوجه كيف عرف غريب مرادا ؟ كيف عرف غريب سيفا وعقليته ؟ لماذا نفذ مراد ما طلب منه ؟ الحقد والغيرة والانتقام .. كيف استطاع غريب تصويرها تلك الصورة دون علمها أم كانت تعلم ؟ هل كان بينهما شيء من وراء سيف ؟ مراد كيف صورها وهو بعيد عن تلك الشقق السوداء ؟ لا حل إلا أن يعترف الفاعل والمدبر لهذه اللعبة .. لو كان وراء التدبير غريب لماذا تزوج نبيلة بعد زواجها ؟ التقرب للوالد والرغبة في المناصب .. لما أصبح خالد وزيرا لم يقدم له الكثير

مجرد نقله للعمل الإداري في الوزارة .. وحياته لم تكن سعيدة معها .. كانا مجرد زوجين كما فهمت .. كان صاحب نساء وعشيقات كما تعلم في الغرب ، وقد اعتدى على قاصر وافتضح مراد له دور غير تلك الرسالة .. لم يسرع لطلب يدها ؛ بل كان يتجنب اللقاء بسيف وبها بعد الطلاق .. هل حاول ؟ لم يتحدث أحد بذلك .. من سيعترف يا إدريس ؟ ستبقى القصة غامضة .. غريب لماذا يرغب بمقابلة سيف ؟ أعنده شيء لحل غموض تلك الأيام ؟ بماذا ظلم سيفا ؟ أهو الذي سبب الطلاق ؟ ومن ظلم سيفا ؟ هل لوالدها دور في تدمير زواج ابنته ؟ لم يظهر منه أي رفض له .. سيف لا يعرف غريبا قبل الزواج.

أراد إدريس إغلاق الملف بعد هذه المراجعات والاستفهامات، وقال لنفسه : لقد فعلت ما أستطيعه وما بوسعي .. عرفنا كيف كانت تستدرج الفتيات لتلك الدور ؟ وعرفنا كيف يخدعون ويصورون ؟ والضحية عرفنا جهلها بيوم التعرض للتصوير ..وأن هناك حفلات تمويه قبل أن تعرض الصور على الضحية ؛ لتستسلم لهم .. ومن يصور مجهول .. وقصة نبيلة تختلف عن قصة عبير .. العاشق الولهان الصياد هو الذي قدم لها الصور واختفى .. مراد حاول الحياة كعاشق ولاعب مع نبيلة ، ولم يحصل شيء بينهم .. ولم تصحبه لشقة وسهرة .. نعم يجب إغلاق الملف يا سيف .. والرجل قد سامح مطلقته عن كل الألم والجرح الذي تسببت له فيه .. ورجع للمقهى ، ولم يلتق بالبائع يا سيدة نبيلة ؛ ولكنه التقى بإدريس الذي بذل الوقت والجهد للوصول للمصور دون فائدة .. سيف أخذ الصورة ، ولم يحاول معرفة المصور أو البائع ، كانت متلهفا لشراء الصورة ، وعاد للبيت ، وعرض الصورة على نبيلة .. كان مصدوما مذهولا ، واتخذ قرار الفراق قبل العودة للبيت ، وسارع بمقابلة والدها ومبررا سبب سرعة طلاقه .. استغرب الوالد الصورة ، ولزم الصمت ، ووافق على الطلاق كما يريد سيف.. وهل صدق ابنته عندما حلفت له أنها لم تتعرى لتتصور ؟ وقبل زواج غريب من ابنته بعدما أطلعه على أمر الصورة ..وقبل غريب بها .. ولم تكن المرأة الوحيدة في حياته .. وقبلت العيش معه على علاته وفساده .. انتهى التحقيق يا مهندس سيف!

الموت

في منتصف شهر أب اتصل سيف بصديقه إدريس مخبرا بموت الدكتور غريب ، فاسترجع الرجل ، وأخبر سيف أن إحدى أخواته أخبرته بذلك ظانة أنه سيشارك في الجنازة بعدما شاع عن عودة اتصالاته بزينب وهند .. وكان غريب قد اتصل به مهنئا بالعمرة ، وراغبا بلقاء يجمعهم ، فتأسف له وشكره على الاتصال .. وبعد نقل الخبر ، قال : سيصلون عليه في جامع الحي .

شجعه إدريس على المشاركة في الصلاة من أجل خاطر البنات ؛ ولكنه قال : لا تطاوعني نفسي فماذا بيني وبين البنات ؟ كانت أمهن يوما ما زوجة لي .. واسمع بالمناسبة علمت أن موضوع الزواج ما زال قائما .. إنما الذي أوقفه اشتداد المرض بأبيهن .. فتعال ونذهب معا.

ـ ذهابي غير مناسب يا سيف .. سيُفهم أنني أفعل ذاك ليس قربة لله ؛ إنما لأجل زينب.. أما أنت فجار لهم في الحي .

قال : ليست لديّ الشجاعة لفعل ذلك ؛ لربما لو قصدت الجامع دون العلم بجنازة لصليت كما يحصل عادة .

ـ أذهب معك للدفن نرقق هذه القلوب ساعة من الزمن .. هل سيدفن بعد الصلاة ؟

ـ نعم ، هذه العادة ، وسيدفن في مقبرة العرب حي العرب .. هذه مقبرة

أهالي بهية .. سيصلى عليه بعد الظهر كما قالت أختي غدا نلتقي ، سيأتون به من المستشفى إلى المسجد ثم المقبرة.

قال : المقابر تساوي بين الأغنياء والفقراء ، كما يفعل صف الصلاة في الجامع .. سأكون عندك بعد الصلاة ؛ لنذهب المقبرة .. يذهبون مشيا أم راكبين .

ـ بعيدة المقبرة عن المسجد .

ـ نحضر الدفن للعبرة وتذكر الآخرة.

صلى إدريس الظهر في أحد مساجد حي العرب ، ثم مشى إلى حي بهية حيث بيت سيف ،

وكان في انتظاره ، فركب بجواره وقال سيف : المقبرة تحتاج لسيارة بالنسبة لنا .

وصلت سيارة الموتى إلى مكان الدفن المخصص ؛ وكانت تشرف على الدفن شركة خاصة بالدفن والتغسيل ، ونقل أشخاص الجثة إلى القبر الذي التف حوله المشيعون .. وتمت طقوس الدفن حسب الشريعة الإسلامية ، حيث ينزل لجوف القبر شخصان أو أكثر لتناول الجثة ممن حملوها من سيارة الموتى .. ويتم وضعها على جنبها الأيمن جهة القبلة .. وتحل أربطة حول الساقين والرأس .. ويقول أحدهم : على ملة وسنة رسول صلى الله عليه وسلم .. ويغلق القبر بعدد من البلاطات الإسمنتية ، ثم يهال عليها التراب ، ثم يبنى عليه في الأيام التالية الإسمنت والحجارة حتى لا تنبش .. وقد يقف أحد الشيوخ ليذكر الناس بالموت والزهد بالحياة الدنيا ويدعو للميت.. ويأخذ المشيعون بالانصراف ، ويتأخر أقرباء الميت حتى ينصرف أغلب الحاضرين ، ويذهبون لتناول طعام الميت في مكان معد لذلك .. ثم يجلسون في بيت العزاء لمدة ثلاثة أيام متتابعة.. واليوم المطاعم تعد هذا الطعام عن روح الميت مقابل أجرة يدفعها أهل الميت أو أبناؤه .

أما إدريس وسيف فبعد المشاركة بالتشييع ذهبا إلى أحد مطاعم المدينة ، وتناولا طعامها .. وكان سيف يسأل : هل سنعزي البنات ؟

ـ سأتصل بهند وأُقدِّم لها العزاء هاتفيا فقط .. وأطلب منها تعزية أختها وأخيها.. وأنت !

ـ ليس بيني وبينهم رابط يا إدريس .. ولكني سأرسل لهم برقية عزاء ؛ لأنه إذا فرط موضوع زواجك من زينب سيغلق الملف كما أغلقنا ملف أمهم .

ـ نعم ، انتهى ما بيننا وبينهم .. كنت أود لو أنك قابلت الرجل ؛ لنعرف الظلم الذي ألحقه بك ، ويريد الاعتذار عنه .

ـ ظلم من قبله ! لم أجلس معه في يوم من الأيام ، ولم أتعامل معه في صغير ولا كبير ، لو طالت مدة زواجنا قد نتعرف عليه .. ربما يريد أن يقول: إني ظلمتك بزواجي من نبيلة كما قالها مراد

ـ أعتقد أن الأمر أكبر من الطلاق .. الرجل عنده شيء كبير .. كان يرغب بمسامحته على

شيء كبير !

قال سيف بحيرة : شيء كبير ! أعندك معلومات عن ذلك ؟ ماذا تقصد ؟!

ـ أقصد أنه له دور خطير في الصورة والطلاق .. أنت ذكرت في صفحات المذكرات أنه السبب وراء تعجيل الزواج .. وأن أمها لم ترغب بأن يتزوج من بنتها ، وفضلت زواجك عليه لابد من سبب لم تذكره لك نبيلة بوضوح .. وأن والدها كان يميل لزواجها منه.. ويبدو أن الأم فرضت رأيها .. وأنك خير منه مع أنك ما زلت طالبا .. وهو متخرج كدكتور ؛ فلعله رأى أن زواجك منها تحدي له .. فخطط لطلاقك ، وتدمير زواجك ، والانتقام منها بالزواج منها .. فهذا الظلم الذي أصابك منه .. فمراد لم يكن له دور كبير في الطلاق ..كان مجرد ناقل رسالة .. أخبرك عن الصورة والمقابلة في المقهى الذهبي بناء على تعليمات وصلت إليه .. وهو كان طامعا بالزواج منها بعد أن فشل في اصطيادها كحبيبة وعشيقة .. وكان يرى أن ذلك سيكون بعد التخرج والعمل .

ـ قل لي كيف صورها غريب ؟! وكيف أقنع مرادا بلعب ذلك الدور ؟!

ـ هل تظن أننا نحن الأذكياء في العالم ؟ هذا ما استوعبته من اعترافه أمام بناته بأنه ظلمك .. استطاع أن يتزوج نبيلة .. وقد تكون نبيلة عرفت هذه الحقيقة بمرور السنين .. وكانت تريد منك الوصول للحقيقة من مقابلتك البائع المجهول .. لابد أن لها مقصدا بالطلب منك بالعودة للمقهى ، والبحث عن ذلك البائع .

ـ ولو سلمنا بصحة خيالك ، وبهذا السيناريو وحصل .. كيف صورها بدون علمها ؟ التخدير خدرها ولم تدرك ذلك !

ـ حيلة ما ؛ كأن يضع كاميرا سرية في حمام .

ـ لم تكن الصورة يا إدريس في حمام ..كانت الصورة في فضاء أو قاعة .. وكانت راقدة على ظهرها فوق سجادة تشبه سجادات الصلاة .. وكانت منفرجة الساقين عارية تماما .. والصورة توحي فعلا بأنها في حالة تخدير مستسلمة .. المصور أراد أن تظهر العورة والصدر

والوجه ، حتى لا أنكر أن الصورة لها .. هي زعمت أنها لا تعرف مكان لقط الصورة ، ولا أنها تعرضت لتخدير .. والرجل اليوم قد مات .. وإذا هذا الذي تشك به من تلك الجملة أمام بناته فقد رحل .. وأخذ سره معه .. وهل البنات يعرفن في رأيك ؟

ـ هند قد تكون تعرف ؛ لذلك اهتمت بالموضوع لما سمعت عن اهتمامي بالصورة .. وتكلمت مع رئيس التحرير كما تذكر .. واتصلت بها ، والتقينا ، وكان اللقاء عن الصورة .. ربما هي تشك كما نشك اليوم بالسيد غريب .. وربما الأم تعرف أنه الفاعل .. فقد يكون اعترف لها بتدمير حياتها معك في ساعة سكر في ساعة غضب وغرور .. فالمغرور أحيانا كثيرا يحب أن يتباهى بجرمه ومعصيته وحقده.

لما رجع سيف للبيت انشغل فكره بما سمعه من إدريس ، وشكه بزوج امرأته نبيلة ، وأنه قد يكون وراء مأساته ..وفكر بالصورة الوحيدة لها ، وبالصور الكثيرة لضحايا الشقق السرية .. وجد نفسه لا يعرف شيئا عنه ؛ لأنه لم يهتم به يوما ، ولم يتقابل معه في حياته قبل الزواج أو بعد الزواج ؛ ربما اشتركا في حضور مناسبة فرح أو موت ؛ ولم يجر بينهما أي تعارف .. عادت به الذاكرة إلى أيام الزواج والخطبة .. ذكر أنها أخبرته أن قريبا لوالدها عاد من بريطانيا كطبيب ، وأنه يتقرب من العائلة بالزيارات المكررة ، ويكثر من الجلوس مع والدها الدكتور خالد ، ثم تطور الأمر عن حديث عن زواجه من نبيلة كما حدثتها أمها ، وأنه يفكر بطلب يدها وخطبتها وأن والدها لا يعترض ويراه كابنه وبناته .. وحدثتها أمها بأن تشجع سيفا ليطلب يدها ؛ لتمنع زواجها من غريب .. ووافق سيف ، وتشجع والده لهذا الزواج لما التقى بنبيلة ، وحدثت الخطبة، ثم بعد حين تحدثت أن والدها أستشير ليكون وزيرا في الحكومة القادمة ، وأنه مرشح للوزارة ، وأن من الأفضل أن يتزوجا شرعا قبل التوزير خشية أن يرفض الوالد الزواج عندما يكون وزيرا .. وفعلا بعد طلاقه منها صار الرجل وزيرا حقيقيا كما أخبرت نبيلة .. مشى الزواج سريعا ، لم تظهر نبيلة أي علاقة وعاطفة لغريب سوى أنه قريب للعائلة كغيره من أقاربها .. إنها تريده هو زوجا لها .. رجل شاب يفعل ما كان يفعل طلاب الكلية

من اللف والدوران حول نبيلة .. كل يرغب بإقامة صداقة وغرام معها أو حتى الجنس إذا قبلت كما كان يفعل مراد ، وشاع في الكلية ..كانت لها صداقات مع الجنسين ؛ لكنها لم تتهور إلى علاقات غرامية وحب .. صمدت سنتين حتى اعترفت لها بأني أريدها .. وظهر أنها كانت تحلم بي كما حلمت بها .. وأعلم أنها ظلت تطارد من قبل مراد وغيره ؛ ولكنها كانت تصدهم وتعلن هواها لي .. وقلنا نصبر على مضايقات ومعاكسات الناس حتى نفارق الجامعة.. لم تعمل علاقة خاصة مع أي طالب قبل أن أعلن لها حبي ، ولا بعده ..وجرت التطورات الكبيرة في السنة الرابعة وفي مطلع الخامسة .. وكان الزواج القصير .. كيف سأعرف بعد هذه السنين أن غريبا كان مطاردا وخصما لي فيها ؟.. هو كان يدخل القصر ويسرح ويمرح قبل إعلان الخطبة وبعدها ..إنه قريب الدكتور .. والدكتور خالد أكاديمي ومدير مستشفى وثري جدا وابن الحضارة الغربية .. تعلم في بريطانيا .. وكان يزاوج بين عادات العرب وعادت الغرب .. ومحلا للحرية للجنسين ، لم يكن متعصبا ومعقدا كما كانت تحدث نبيلة .. وأن البنت كالشاب عنده حرة هم سواء تفعل ما تشاء .. وبعد فترة صمت عاد يقول : لا أدري ما دخل غريب في إفشال زواجي ؟! هو ليس بحاجة لواسطة للعمل كطبيب في الحكومة .. كل طبيب يقبل للعمل في مستشفيات الحكومة .. تنفع الواسطة للعمل في هذه المدينة ، وغيرها من المدن الكبيرة ؛ بحيث لا يخدم في المدن البعيدة كما هو معتاد في أول التعيين أو للعمل في الإدارة بدون المرور في مراحل الخدمة وقليل ذلك ..لابد للطبيب أن يعمل في مهنته لعدة سنوات قبل أن يحول لعمل إداري بحت .. لماذا فعلا أهملت موضوع الصورة والبائع ؟! لماذا حدثت نبيلة هندا عن الصورة وقبلها سوزان ؟! وبعد ساعات قضاها مفكرا ومقلبا للأمور ومتذكرا المعلومات طلب قهوة مرة ..وأخذ يتذكر الإلحاح من هند وزينب وخالد وحتى من غريب نفسه لإجراء لقاء به "هذا الرجل ظلم" من ظلمني ؟! هل هو الظالم ؟ كيف ظلمني ؟ هل كان هو سبب طلاقنا كما يظن إدريس ؟ وهل وهو يدرك أنه يموت ندم وأحب هو الآخر أن أسامحه ؟ هل اكتشفت نبيلة دوره ؟ لذلك طلب المسامحة منها ، ثم مني .. من

أرسل الرسالة للسيد مراد ؛ ليخبرني بالصورة الحقيرة ومكان ووقت اللقاء؟ لماذا قبل مراد لعب هذا الدور ؟ أكان يأمل بالزواج منها ؟ هل الدكتور خالد هو الذي عرض ابنته على غريب بعد طلاقها العاجل أم أن غريب تظاهر بالشهامة والتضحية أمام الدكتور وبادر بطلب يدها ؟ هي كانت تقول إن والدها يريد تزويجها من قريبه .. لابد أن إشارات جرت بينهم .. أمه كلمت أمها ؛ لذلك طلبت السيدة من ابنتها مفاتحتي بأمر الخطبة ..كانت نبيلة تريدني أنا دون غيري زوجا .. ولكني خذلتها ؛ ولم أتحمل الصدمة والمكيدة !

انتهى شهر أب من عام ١٩٩٦دون أن يعرف سيف سبب ورغبة غريب باللقاء به دون معرفة سابقة .. وهند وزينب لم تتحدثا معه ؛ كأن كل شيء انتهى بوفاة غريب .. فراجع طبيبه الخاص ، وقضى ليلة في المشفى .. ولما اطمئن على قلبه طبيا أقنع إدريس بالسفر إلى إسطنبول التركية لقضاء أسبوع لتغيير الجو كما يقال .. واستمتعا بتلك الرحلة ، ومضت الأيام سريعا ، ولم يفكرا كثيرا بغريب ودوره في إفساد حياته الزوجية ، واعتبر ذلك من الخيال الجامح ؛ ولكنه شعر بالندم على عدم زيارته لغريب ، ومعرفة الظلم الذي وقع عليه ؛ لذلك لما رجعا اتصل إدريس بهند معزيا مرة أخرى ، وزعم لها أنه حاول أن يقنع سيفا لمقابلة الراحل ؛ ولكن ما زالت طباعه تغلب عليه .. وخاصة صفة التردد الشديد .. وحاول استدراجها عن سبب هذا الطلب الغريب ..فذكرت له أنها لم تعرف السبب لذلك الطلب .. وأنه لما علم بزيارة سيف لصيدلية زينب والحديث معها أحب هو الآخر اللقاء به ..وتكلم عن الظلم لهذا الرجل ولم يوضح لهم الظلم الذي يقصده ..وطلب مني أن أقنعه بلقائه .. ومات والدي وهو يرغب بذلك.

وقالت : كما قلت ما زال السيد يعيش في الماضي.. الناس تتغير وتتقلب .

فتجرأ إدريس وقال: ألتلك الرغبة علاقة بالصورة القديمة التي دمرت حياة أمك الزوجية ؟!

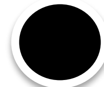
لزمت الصمت لم ترد للحظات ، ثم قالت : صدق لا أدري ! نحن لما شببنا وجدنا أن العلاقة بين والدينا سيئة .. وبصراحة تبين أن لأبي علاقات قبيحة مع النساء ..ولم يكن ذلك يعجب

أمي .. وكانت تمتنع عن فراش الزوجية بسبب علاقته الجنسية خارج الزواج ..كانت الأسباب في نظرنا تافهة يا إدريس لم نكن نعلم بقصة سيف وأمنا وسبب طلاقها ..كان ذلك متأخرا .. ولما أنهت زينب الثانوية سافرت للدراسة في تركيا كبعثة ، ولقرابة بين أم غريب والأتراك .. وتزوجت أحمد الذي درس هندسة الطب .. وأنا قبلها بسنتين دخلت كلية الطب لأن والد أمي كان وزير صحة ، فأحبوا أن يكرموه فقبلت بكلية الطب .. ربما لأبي دخل بذلك .. وابتعدت كلية عن نزاعات أمي وأبي وفضائحه .. وأنا أعترف بذلك ؛ لأنني اعتبرك صديقا عزيزا علينا يا إدريس .. وأنت اجتهدت في معرفة الذي خرب وفسد علاقة أمي بسيف المسكين .. إنني أشفق عليه كثيرا .. وخالد أخي أيضا دخل كلية الطب .. ونحن عرفنا بقصته مع أمي بوضوح عندما أراد شاب من العائلة الزواج من فتاة من آل وردة .. ورفضت جدتي هذا الزواج بشدة بسبب ذلك الماضي .

ـ نحن لما ذكرت الظلم الذي أصاب سيفا حاولنا معرفة أي ظلم يقصد الوالد ؛ لكن سيفا أبى ورفض الذهاب لمعرفة الظلم الواقع عليه من أبيك أو من شخص يعرفه أبوك .. وأنا خطر في قلبي أن الأمر له علاقة بالصورة والطلاق .

ـ لم يتكلم أبي عن أي تفصيل ؛ إنما رغب بلقاء الرجل مباشرة .. وترجيت صديقك وفعلت زينب وأخي، ثم أبي اتصل به بعد عودته من العمرة من أجل اللقاء ؛ لكنه أصر على الرفض لم يتحدث أبي عن صورة ، ولا ذكر لنا شيئا من قصة أمنا مع سيف .

ـ شكرًا يا دكتورة هند! أنا سعيد بالحديث معك ؛ لأن قضية الصورة شغلت فكري لما عرفت قصة طلاق سيف خلال تلك التحقيقات .. أنا وصلت لمعلومات مهمة وتفصيلية بها سميناه بالشقة السوداء .. وكيف يخدعون الفتيات ؟ إذا التقينا في يوما ما سأسرد على مسمعك أهم التفاصيل والمكر .



بعد منتصف شهر أكتوبر تلقى السيد سيف بريديا رسالة غريبة وغامضة ، جاءت عن طريق البريد الرسمي ، ووجد داخل المغلف رسالة أخرى ، فلما اطلع عليها ذهل ودهش واحتار واتصل بإدريس على الفور ، وذاك لبى النداء بسرعة البرق .. كانت الرسالة من الدكتور غريب زوج نبيلة خالد ، ووصلت من مكتب أحد المحامين واسمه خليل سعيد برقع ، كان في رسالة المحامي بعد التحية والسلام كتب "طلب مني الدكتور غريب غنصرو أن أرسل لك هذه الرسالة المغلقة على هذا العنوان "وذكر عنوان بيت سيف .. وأن تصلك بعد موته بشهرين ، وشكرا" وضع إدريس رسالة المحامي ، وأخذ رسالة غريب بلهفة واضحة عليه .

"هذه رسالة قلت للمحامي أن تصلك بعد موتي بشهرين ؛ ولتعلم أني تركت لك أهم وأخطر رسالة في حياتي ، وستصلك بعد موتي بثلاث أشهر ، كما رتبت مع السيد خليل المحامي .. تحياتي لحضرة المهندس سيف حاكم وردة ..ولما خشيت أن ينسى محاميّ الخاص إرسال الرسالة إليك حسب الاتفاق بيننا كتبت هذه الرسالة ، وأعطيتها لمكتب محاماة أتعامل معه في بعض القضايا لأضمن أن تصلك الرسالة الأهم .. هناك حقائق عليك أن تعرفها .. قد أكون أنا الذي دمر حياتك وأفسدها .. والسبب أني أحببت المرأة التي تزوجتك ، ورفضتني ، واختارتك ، فلم أتحمل ذلك الفشل.

علمت أن نبيلة خالد كتبت لك رسالة تطلب المسامحة والاهتمام بموضوع الرجل الذي باعك الصورة تلك الليلة ..لابد أنك تذكرها ، ولم تنساها ؛ لأنها ليلة فارقة في مصيرك .. ووجدت أنني أحق منها بطلب العفو والمسامحة ؛ لأنك لم تتزوج بسبب تلك الحادثة، وطلقت واعتكفت دون امرأة .. ستعرف القصة مفصلة في الرسالة القادمة إليك عندما يرسل إليك المحامي الآخر المظروف المغلق حسب الاتفاق .. اصبر "

قرأ إدريس الرسالة ثانية ، وتنهد قائلا: أنا أعرف ما سيكون في الرسالة القادمة بعد شهر .

ـ وأنا لما قرأتها عرفت الحقيقة التي كنت لا أريد أن أصدقها .. لم يخطر على بالي أن يفعل هذا الدكتور كل هذا الإجرام والكيد .. لم تكن صورته واضحة أمامي .. لم تذكر نبيلة الكثير عن

أخلاقه وصفاته وغروره .. إنه يكتب من باب الغرور والطيش .

ـ أنا لما التقيت بعارف فوزي كملت المعلومات عن تلك الشقق .. أما صورة واحدة فهي من شخص آخر .. باعها لك ، لم يبعها لصاحبة الصورة إذن المقصود إفساد الزواج .. ولا مصلحة لأحد في ذلك إلا لغريب ومراد .. ورجحت غريبا لقرائن أخرى .. هناك عاشق آخر لعب لعبته الذكية .. وهو قريب منها ، ومطلع على أسرارها وحياتها.

ـ أفكارك الأخيرة خشيت أن تصح .. نبيلة تعلم أن زوجها لعب لعبة كبيرة علينا ؛ لكنها كانت زوجة .. ولها أولاد منه .. كانت تعيش على الهامش .

قال إدريس : إنك مثلها ضحية لم تتزوج ! ومضى قطار العمر وأنت معقد من ناحية النساء .. لا زوجة ولا أولاد .. أخيراً سنعرف كيف

خدعها الرجل وصورها تلك الصورة ؟

قال بحزن باد على وجه : أتراه يعترف بالحيلة الخبيثة يا إدريس ؟!

ـ لو لم يريد أن يعترف لماذا يكتب ؟ أتصور أن الطريقة بسيطة وسهلة .. استخدم عقارا معينا عقارا يستخدمه رجال المخابرات في التحقيق .

ـ لم أفهم .

ـ أخذت بالقراءة عن وسائل وطرق يصور بها الشخص ولا يدرك ذلك .. هناك يا سيدي عقارات تستخدم للسيطرة على المستجوب أي يفقد ذاكرته لزمن محدد .. وهناك من يستخدم التنويم المغناطيسي ليعترف المستجوب بمعلومات أو أنه عمل لجهة معينة .. فالدكتور غريب طبيب أعصاب ودماغ .. هناك أطباء يعملون مع أجهزة المخابرات الكبيرة والعالمية ، وكما نسمع ونقرأ يقوم أطباء تلك الأجهزة على إعطاء الشخص المُستجوب عقارا معينا .. فيستسلم للطبيب ، ومهما طلب منه سيفعل .. وهذه الأدوية ممنوعة ومحرمة دوليا ؛ لكنها تستعمل كما تستخدم عقاقير الهلوسة .. وهي ممنوعة .. نعم ، السيدة تعرضت لتجربة ذلك وتعرت لا إراديا وصورت .. ولما انتهى مفعول العقار ، لم تشعر بما حصل معها ، وأنها فقدت

الذاكرة أو نومت مغناطيسيا .

خيم الصمت للحظات ، ثم همس سيف : ثقافتك واسعة جدا!

ـ نحن لم يخطر في بالنا أن الرجل زوجها هو الفاعل إلا لما أغلق ملف الشقق السرية ، وسماع عبارة " هذا الرجل ظلم ".. ذهبنا أن لمراد يدا ؛ لأنه الخصم لك ، وأكثرهم مطاردة لها .. لم يكن الرجل في الصورة ..لا في مذكراتك ، ولا رسالتها إليك .. ونحن ذهبنا أنه تزوجها ؛ لأنها قريبته ، ومطلقة في شهر الزواج الأول .. لم يخطر لنا أنه هو الذي سعى لذلك الزواج للانتقام منك ومنها .. والذي لفت النظر إليه مؤخرا رغبته بلقائك .. ووسط أولاده لتقبل اللقاء به .. وتكلم عن الظلم ، وليس بينك وبينك أي علاقة عمل صداقة .

ـ هل هذه الأدوية التي تتحدث عنها حقيقة أم شغل أفلام وسينما ؟!

ـ طبعا حقيقية يا سيدي! في الخمسينات كانت تجرى تجارب على أفراد وجماعات وسجناء وخصوم بهذه العقاقير .. المرضى النفسيون ألا يعطون أدوية وعقاقير للسيطرة عليهم ؟

ـ معروف هذا .

ـ فالمريض النفسي عندما يعطى مثل هذه العقاقير ماذا يحل به ؟ فعلم النفس وطب النفس للسيطرة على العقول والأدمغة والنفس .. لقد قاموا باختراع عقاقير تسبب فقدان الذاكرة ؛ ربما لم تنجح تلك العقاقير النجاح الكامل .. وهناك عقاقير تؤثر على العواطف والشعور بشكل جزئي أو كلي ..كبسولة مع الطعام فتؤدي إلى فقدان الذاكرة .. هناك يا سيد سيف عقاقير تظهر الشخص بأمراض صعبة للخداع .. وأعتقد أن غريبا لما فشل بالزواج من نبيلة بطريقة طبيعية ، وسارعت بالزواج منك قرر القتال .. وعمل معها شيئا فظيعا استطاع أخذ صورة لها بحيث لم تشعر بها .. لا تنسى أنه قادم من بريطانيا حيث كانت الحرب الباردة والصراع بين الشرق والغرب .. وكل الوسائل مباحة .. ستقرأ في رسالته فك غموض الصورة والبائع وتكليف مراد هل تعلم أني قرأت عن الغازات المضحكة والمبكية والمخدرة ؟ خلال الحرب الباردة استخدمت أشياء كثيرة ، ومواد أهلكت الملايين من البشر دون أن يدرك

أحد أنهم هلكوا تحت التجارب سواء في الغرب أو روسيا والصين .. كثير من التجارب تجري على السجناء ؛ لأنه لا يكترث بحياتهم أحد .. سجين ومات .. لأنهم هناك عندما ينتهون من تجارب العقار على الفئران وغيرها يجرونها على البشر .



عندما عاد إدريس للبيت رن جرس الهاتف الأرضي ، وتفاجأ أن المتصلة هند غريب .. وبعد التحيات والسلام والترحيب سمعها تقول له : رأيتك اليوم في الحي !

ـ رأيتني !!

ـ رأيتك تخرج من التاكسي ، وتدفع له الأجرة أمام بيت سيف وردة .. كنت في الشارع أعاين مريضا .

ـ آ .. فعلا كنت عند المهندس بعد الظهر بقليل .. ما أخبارك يا دكتورة ؟

ـ جيدة يا سيدي .. ما أخبار المهندس؟

ـ جيدة أيضا يا سيدتي!

ـ هل من جديد بشأن تلك الصورة اللعينة ؟

ـ هل من جديد ؟! أنا قلت لك إني قابلت إنسانا كان يعمل في إحدى تلك الشقق كخادم كحارس كمجرم .. وشرح لي ماذا يفعلون فيها ؟ وكيف يخدرون ويصورون الضحايا لابتزازهن وإفسادهن للعمل في الدعارة والفاحشة ؟ لكنه لم يصدف وأن رأى السيدة أمك في سهرة في حفلة .

ـ فعلا تلك الصورة لغز غامض! حتى أمي رغم زواجها من أبي كانت تشغل بالها تلك الصورة رغم مضي عشرات السنين كيف وأين ؟

ـ أسالك يا دكتورة بناء على الثقة الكبيرة بيننا والصداقة.. أمك ـ رحمها الله ـ لم تعرف سر

تلك الصورة .. أم أنها لا تريد أن تعترف .. فقد أخبرت سيفا بأنها لا تعرف كيف وأين ومتى؟

ـ لا أعتقد أن أمي تعرف الحيلة التي فعلت بها لأخذ تلك الصورة وإلا قالت لأمها ولي .. كانت أمي بعد زواجها من أبي تقضي كل وقتها بعد العمل مع أمها .. كانت تحبها كثيرا حتى كان أبي يفتعل المشاكل معها بسبب ذلك .. ولما مرضت جدتي تركت العمل ، وظلت معها .. أعتقد أن أمي ماتت وهي تجهل الحيلة ؛ لذلك أنا اهتممت بالموضوع كما تعلم لما علمت أنك اهتممت بموضوعها كما أخبرت صديقة أمي المهندسة سوزان .. وسعيت للتعرف عليك واللقاء بك .

ـ على كل حال إذا حدث شيء مهم عسى أن أتحدث معك .

ـ شكرًا يا أستاذ إدريس شكرًا ..ولَك تحية من أختي زينب .

ـ من زينب .. شكرًا لكم جميعا .

ـ أما زلت راغبا بالزواج يا إدريس ؟

ـ لست أدري وأتمنى لها التوفيق والسعادة .

ـ هي لم ترفضك يا أستاذ إنما مرض الوالد واشتداده تلك الفترة دفعنا للتريث والهدوء ، ثم الموت .. فعلينا أن نحترم التقاليد الدارجة .

ـ أنا معتاد على العزوبية ، وأنت تعلمين ذلك من قبل أن تذكر العزيزة زينب .. والرجال تتزوج في أي سن .. ولما يصير الأمر جديا أفكر جديا .. سلمي عليها وعلى الدكتور خالد .. أنا أعرف جدك خالد .. كنت في أول تعييني بوزارة الصحة قبل العمل في البلدية كمفتش صحة ؛ لكننا لم نلتق لقاء شخصيا.

ـ سلام عسى أن نلتقي يا أستاذ إدريس آسف على إطالة المكالمة .

ـ أبدا .. وعليكم السلام .

وضع السماعة ، ودخل مطبخه ، وأعد لنفسه وجبة عشاء من المعلبات ، وتفاجأ بعدم وجود

الخبز ، فاتصل ببيت أخيه طالبا الخبز ، وبينما هو يتعشى حضر إياد صديق العمر كما يقول ، فشاركه العشاء ، ثم انتقلا لصالة الجلوس والاستقبال، واطمأنا على صحة وأحوال بعضهما البعض ، وقال : قبل دخولك كانت تتحدث معي الدكتورة هند غريب .

ـ أخت زينب .

ـ نعم ، تقول عن أختها إنها ما زلت تفكر بالزواج ؛ إنها ظروف مرض الأب وموته هدّأت الأمر .

ـ إذا كان لك نصيب بها سيحصل بأمر الله .. كم رفضت أن أزوجك منذ ترملت يا إدريس ؟! كم بذلت من الجهد والحيل دون فائدة وأصررت على الرفض ؟!

ـ أنا نفسي لا أعرف ما الذي جعلني أغير رأيي يا صديقي ؟!

ـ هل لأنها دكتورة ؟!

ـ لا أعتقد يا صديقي ؛ ربما لأنها عاجزة عن الحمل .. والشفقة أيضا .

ـ أأشفقت عليها ؟

ـ يمكنك أن تقول ذلك .. هناك أشياء تحدث يصعب تفسيرها .. رق قلبي لمأساتها.. وهي فتاة محافظة .. وعندها بعض التدين ؛ لأنها عاشت في تركيا مع أسرة متدينة.. بينهم قرابة واضطرت للزواج من قريبها زميلها في الجامعة .. كانت ابنة عشرين عند الزواج ، تزوجت صغيرة .. وهي لا تريد العودة للتبرج والسفور في الشارع .

ـ أنت مسكين ، وهي مسكينة .. تحدثت مع سيف عصرا ، وأخبرني بتطورات جديدة وغريبة وأن ملاحظاتك في الأيام الأخيرة حول غريب لها موضع من الصواب .

لخص له إدريس قصة الرسائل التي وصلت لسيف من غريب بعد موته .. وأنه يريد كشف الحقيقة لسيف زاعما العفو والمغفرة .. وقال : وأنا أقول الغرور والتشفي .

ـ معقول هو شيطان لهذه الدرجة!

ـ معقول يا صديقي! لم يتقبل الهزيمة وأن تتزوج سيفا ، وهو الراغب فيها ، هو العاشق

المجهول بالنسبة لنا ..كان في الظل ، والمضحي بالزواج من مطلقة في ظروف فضائحية ..كان محبا للفتاة ..وأعتقد أن نبيلة حدثته عن حبها لسيف وعشقها له ، وحدثته عن مطاردات مراد لها .. فلعب على الجميع ، وتزوج منها ، وأصبح صهرا للدكتور خالد المرشح للعمل كوزير ، قد يكون هو أكثر شخص تأثر بموت خالد المفاجئ .. ومغامراته النسائية والشهوانية تذكر بإجرامه وعدم احترامه للمهنة .. ووظيفته والشهادة مهما تكن لا تدفع الشخص لاحترامها .. الشهادة مكانة اجتماعية .. فقط الناس البسطاء يحترمون فلانا طبيبا فلانا مهندسا .. والنَّاس تهمها المكانة الاجتماعية في المجتمع .. والمهن في الحقيقة تكمل بعضها بعضا .. فعامل النظافة مهم للمجتمع كالطبيب ؛ وربما أكثر لو تترك النفايات فترة طويلة في الأحياء ستسبب أمراضا كثيرة .. هل نستطيع العيش بدونهم اليوم ؟ نبيلة عرفت الحقيقة المرة ، اكتشفت أنه وراء الصورة والطلاق ؛ ولكنّ هندا تنكر أن أمها تعرف من وراء الصورة ؟.. لكن لما نقرأ رسالتها لسيف اليوم توضح أنها تعرف الأمر ؛ ولذلك طلبت المسامحة بعد كل هذه السنوات من الآلام والضيق .. كانت تريد من سيف أن يتزوج ؛ ليكون أبا كما هي أم ؛ ولعلها تعرف بائع الصورة ، فأردت منه أن يذهب للمقهى ؛ ليتذكر ذلك البائع الذي أرسله مراد أو غريب ليقابل سيفا.. ويتظاهر أنه مشفق ويريد أن يبيع تلك الصورة .

ـ مراد هل تحدث لك عن الرسالة والصورة ؟

ـ هو رسول كما قال لسيف .. واعترف أنه فعل ذلك حقدا من سيف ، وعلى الزواج منها ، وعلل نفسه بالزواج منها بعد التخرج إذا طلقت .. وهو لليوم يذكرها ومغرما بها لولا موتها ، قال بدون مواربة : تمنيت أن أكون زوجها ..كانت فتنة لي .. وظل يطاردها حتى بعد أن تزوجها سيف .



من المعروف أن الانتظار لشيء يمر على المرء بطيئا وصعبا نفسيا ؛ ولكنه يمر .. الزمن لا يتوقف .. لما حل شهر نوفمبر تشرين الثاني كان الفريق في انتظار الرسالة .. وكان سيف قد

طلب من إدريس أن يقرأ الرسالة قبله عندما تأتي .

اتصل المحامي المعين من قبل غريب بالسيد سيف ، وأخبره عن وصية غريب والرسالة ، فأعلمه أنه علم بوجودها من أحد المحامين ، وأعلمه المحامي بأنه تعهد للدكتور الغريب بإيصال الرسالة الخاصة بعد موته بثلاثة أشهر ، وأعلمه أن الرسالة بين يديه منذ ستة شهور فهو كتبها كما أخبره بعد اشتداد المرض عليه ، وأنه لا مفر من الموت ، والرحيل من عالم الأحياء إلى عالم الأموات ..وأخذ عنوان البيت ، واتفقا على اللقاء مكانا وزمانا ، وبدوره اتصل بإدريس ، وجلسا في بيت سيف في انتظار المحامي المكلف بنقل الأمانة ، وفي الخامسة مساء وليلا أدخلت الخادمة الزائر .. فالظلام يحل في فصل الشتاء مبكرا في تلك المنطقة .. استقبل سيف وإدريس المحامي وجرى التعارف .. وقدمت القهوة للضيف الذي أخرج المغلف من حقيبته ووضعه على منضدة بينهم قائلا : ها هو يا سيدي المغلف مغلقا كما أودعه الرجل عندي !

ـ لقد أرسل لي رسالة بانتظار هذا المغلف .

ـ لا أدري .. وعندما تقرأ الرسالة رسالة صديقي غريب .. فهناك رسالة أخرى لك .. سأتصل بك بعد أيام من أجلها حسب ما طلب مني.

ـ رسالة أخرى!

ـ ستعرفها عندما تقرأ هذه الرسالة كما قال لي .

وغادرهما المحامي شاكرا حسن الاستقبال ، ولما عادا للجلوس بدأ الارتباك على سيف فعبر قائلا : إني خائف منها يا إدريس !

ـ ولماذا تخاف ؟ هو سيعترف كيف مكر بنبيلة وصورها تلك الصورة التي عرضت عليك لتطلقها ؟ سيعترف بكيده ومكره وغرامه بها الذي اضطره لفعل ذلك .. أغلب ما فيها لدينا عنه معلومات .. فلا داعي للخوف والقلق والتوتر .. الرجل ميت، والمرأة ميتة يا صديقي!

فتح إدريس المغلف الأصفر بعد أن قرأ اسم الدكتور ، واسم سيف المرسل إليه .. ووجد أن

الرسالة في مغلف آخر ففتحه ، وأخرج الأوراق البيضاء المسطر عليها الاعتراف .

بِسْم الله الرحمن الرحيم

المهندس سيف الدين حاكم آل وردة

السلام عليكم ورحمة الله

صحيح نحن لم نلتق وجها لوجه ؛ لكنني أعرفك جيدا ..لم تقصر نبيلة بوصفك لي منذ عدت لأرض الوطن والتقيت بوالدها العزيز الدكتور خالد أسعد .. هي فعلت ذلك حتى لا أتهور في علاقتي معها .. أنا أحببتها من خلال زياراتها لندن .. كان والدها ينزل في بيتنا أثناء رحلاته إلى أوروبا ..لم أقتنع بحبها لك اعتبرته لهو وتسلية.

هذه قصتي معك أكتبها مضطرا ، ليس خوفا منك أو من ضميري .. من يعش هناك لا ضمير عنده ..أنت تعرف أن النساء هناك رغم الحرية مجرد سيدات للهو وممارسة الجنس باسم الحرية الشخصية ..هذه يوم وآخر مع غيرها .. المهم رضا الطرفين .. وكثير من الخيانة الزوجية يغض عنها الأزواج والزوجات .

أكتب لك مضطرا من غير ضغط من أحد ..أشعر قديما أني ظلمتك خاصة لما علمت أنك تركت النساء والزواج بسبب حبك لنبيلة خالد .. فعجبت من ذلك الحب .

أكتب إليك لأني أسأت إليكما .. وقد علمت أنها كتبت لك رسالة تطلب منك العفو والمسامحة وهي البريئة من ظلمك ، ومن عدم زواجك ، والاعتكاف في بيتك .. فقلت : وأنا أستعد للموت أنا أولى منها بالاعتذار ، وطلب العفو رغم الشر الكامن في نفسي .. فأحب أن تعفو عني يا مهندس سيف ! الزمان لن يعود للوراء أعرف هذا ؛ لكن ما زالت الناس تتصالح وتغفر لبعضها البعض .

كنت مفتونا بالنساء منذ طفولتي ومراهقتي ..كانت النساء نقطة ضعف كبيرة في حياتي .. عرفت الزنا وأنا دون الخامسة عشرة .. كنت أصحب بعض أقاربي إلى بؤر الزنا مقابل مبلغ بسيط من المال كانت تقبل به البغي .. وبنات الهوى في أوروبا كثيرات وعجيبات في فن

الدعارة ..ولا أدري هل سمعت عن سقطاتي هنا لما عدت ؟ الفجور مثل المرض يسري في جسم الإنسان .

عليّ أن أبدأ من البداية ، نجحت في الثانوية العامة ، وتيسر لي السفر إلى إنجلترا لدراسة الطب كغيري من الإخوة والأخوات والأقارب .. والدكتور خالد من الأوائل الذين تعلموا الطب في إنجلترا .. فأنا أعرفه قبل السفر .. أنا أكبر منك بخمس سنوات حسب حساباتي .. والرجل وأمي أبناء الخالات .. وتعلمت الطب كاملا في بريطانيا رغم ما أشرت إليه من ممارسة الزنا صبيا ..كنت ذكيا في المدرسة.. ونحن نتعلم بمدارس أهلية غير تابعة للدولة فنتعلم الإنجليزية بأحسن من أهلها .. درست سبع سنين طب ، وقبلها فصول في تعلم اللغة وتخصصت في طب الدماغ والجهاز العصبي ..وتفوقت وأبدعت كما يقال ؛ لأنني أحببت العلم والطب .. وأحبت أمي العودة للوطن لأتزوج من ابنة الدكتور خالد نبيلة التي عرفناها من زياراتها للندن مع أهلها، وهي شابة لم تنه الثانوية العاملة .. وهي طالبة في كلية الهندسة أعجبت بها ؛ ولكنها للحق لم تكن تستلطفني كزوج المستقبل .. نسبت ذلك إلى تقاليد الشرق وصغرها .. وحدث لي بعض المشاكل الأخلاقية أيضا أثناء العمل في المستشفيات البريطانية فقبلت بالعودة للوطن كإخوتي وأخواتي الدراسين في بريطانيا.. عدت في نهاية عام الستين وكانت العروس في أول سنوات الجامعة ، وإن والدها لا يريد تزويجها قبل إنهاء الدراسة .. فعملت في مستشفى أمراض عقلية .. وكان بيت الدكتور خالد كبيت أمي ؛ لأن أبي مات في بريطانيا أثناء فترة التعليم ، فاعتبرنا الدكتور خالدا بمنزلة الوالد .. وكان هو يقوم بمثل هذا الدور في المناسبات الاجتماعية السارة وغير السارة .

أمي تُلِّح عليّ بالزواج منها ، وأنا أخبرتها أن البنت تحتج بالدراسة ، ونبيلة هي الثانية في ترتيب أسرة الدكتور ، يكبرها نبيل ، ويصغرها باسم ، وهناك فتاة اسمها نوال ..أنا لا يهمني الزواج من نبيلة رغم حبي لها .. أريدها زوجة وتكوين أسرة .. أنا لديّ علاقاتي الجنسية الخاصة .. فلم تكن تزعجني قضية الزواج ..فصبرت على أمل الزواج منها في النهاية ، وتحقيق

رغبة أمي .. كانت تصارحني بمعاكسة الشبان لها منذ لحقت بالدراسة ، وخصت شابا اسمه مراد ..كان أكثر الناس لها تعقبا .. تجده أمامها في الساحة ، في القاعة ، في الكافتيريا المطعم هي تتحدث عنه ، وتصدت كثيرا له.. وهو لم ييأس من المحاولات .. وكنت أرى أن الدكتور يميل لتزويجي منها ؛ ولكنه يؤجل الحديث إلى ما بعد الجامعة .. كانت صريحة هي معي .. تقول: إياك أن تفكر بالزواج مني.. أنا أعرفك يا غريب لن أعيش معك رغم الحب الذي تزعمه لي .. وكانت أمها تبغضني جدا دون سبب أعرفه يا مهندس سيف ! ولا تحب أن تعد أمي بشيء .. في السنة الثالثة فاجأتني بأنها تعلقت بشاب معها اسمه سيف .. وكانت تتحدث عنك أمامي بوله وعشق لم أصدقه .. وإنها منذ رأتك في الجامعة وهي تحبك ، وأنت خجل من التصريح لها بذلك .. اعترفت لي بكل صراحة أنك اعترفت لها بحبها .. وكانت سعيدة بك حتى أنني كنت أغار وأضيق من ذكرك ، وأظل أسألها عن موقف مراد منك .. فتقول : يكاد أن يجن من الغيظ والقهر .. وأنا مثله ؛ لأنني أردتها من أعماق قلبي كحبيبة وسيدة بيتي ..وأمي تريدها لي ، وأنا أحب أمي ، ولا أدري ما ستفعل عند موتي القريب ؟ ولكن أرى أنها لن تعيش بعدي كثيرا ، فهي كبيرة في السن .. وتحدثت أمي مع ابن خالتها فوعد بزواجها بعد الجامعة .. فاستشاطت أمها غضبا وسخطا ، وطلبت منها أن تدفع سيفا لخطبتها كما علمنا ذلك عند الخطبة ..كانت أغلب سهراتنا في بيت الدكتور منذ عدنا من بريطانيا .. كانت تحدثني عن غرامها العنيف بك وأهمس بأنه حب جامعة ، لن يدوم مع التخرج سيذهب ونتزوج .. تفاجأت حقيقة أنها على وشك الخطبة منك .. وذلك في السنة الرابعة لها .. تحدثت مع والدها فقال: البنت هواها معه ، وأنت تعرف أننا لا نكره أحدا على الزواج ، وزعمت أنها تحبه ، ولا تريدك .كان صريحا ، وهذا أعرفه فيه .. وقال : إن والده رجل كبير في البلد ، وعالم التجارة والثروة ، ومن سكان الحي .

لم أستطع تقبل الهزيمة ، فزت عليّ ، صممت على الزواج منها غصبا عنها .. أنا أعرفك من كلامها ، وأعرف المهندس مرادا من كلامها .. وأنا طبيب أعصاب ، وأعمل في مستشفى

أمراض عقلية .. بين يديّ عقاقير خطيرة ، وأخذت استدرجها بالحديث عنك ، وعن مراد وكيف فزت بها ؟ وكيف سيكون موقفه منكم إذا تزوجتها ؟عرفت كل ما أريد عنكم وعن زميلاتها ؛ كأنني أعيش بينكم ومعكم ..كانت ترى أني ضعيف ، وانتهى أمري؛ لكن حقدي كبير ويملأ جوفي ..لقد استخفت بي ، وإنني قد هزمت .. فصممت أن ألعب معها لعبة كبيرة حتى تتزوج منك ، ثم تقبل بي صاغرة ذليلة .. أعلنت الخطبة رسميا ، فتيقنت أنك الفائز فكرهتك حقدت عليك ..وقبلت أمي بالزواج من أختها نوال فور دخلوها الجامعة .. فطلبت التريث .. وكيف أتزوج طفلة ؟! كان عليّ أن أجد حيلة يفرط ويفشل بسببها الزواج وقبل أن تزف إليك.. وكانت الحيلة أن تصور عارية ..وأبعث لك تلك الصورة بالبريد .. أنا عرفت شخصيتك المهزوزة والضعيفة من كثرة حديثها عنك .. أنا طبيب أعصاب ودماغ وأقرأ الأفكار ، وأرى ردة فعلك على الصورة هل تبتعد عنها أم يغلب عليك الحب وتغض الطرف عن عريها ؟ وذلك قبل أن أنتقل لحيلة أخرى ؛ ولكني تفاجأت قبل أخذ الصورة بزواجكم ..وكان المبرر أن والدها سيُصبِح في الفترة القادمة وزيرا .. وخشيت أمها أن يرفض والدها زواجك منها .. أمها لا تحب أمي وتضيق بها .. لولا قرابتنا للدكتور خالد لما سمحت لنا بدخول القصر .. كانت تعاملنا لاعتبارات اجتماعية .. والدكتور يحترم امرأته ولغناها الفاحش ..وربما أن لها جزءا كبيرا من القصر .. في القصر هذا قاعة رياضية يا مهندس سيف فيها بلياردو وطاولة تنس وألعاب أخرى ونصف ملعب كرة سلة .. كانت نبيلة تُمارس الرياضة في تلك القاعة ..وكنا أنا وبعض أخواتي وأقاربنا نلعب فيها أثناء الزيارات والسهرات العائلية .. كانت نبيلة تحب لبس ملابس الرياضة القصيرة أثناء وجودها في القاعة الرياضية ، وتحب التباهي بجسدها نصف العاري ؛ بل يعجبها الغزل فيه وبجمالها الفتان جدا .. وهي ماهرة بالسباحة حيث مسبح القصر، وتسبح كما تعلم أمام الرجال دون أي تردد بثياب البحر والسباحة .. الحقيقة أنها تربت على عدم الشعور بالفرق بينها وبين الرجل فتلبس السروال القصير .. وتنزل للعب كرة المضرب أو السلة دون أي تحرج منا فكان

نزولها بتلك الصفة عاديا ..وهذا الذي دفعني للتفكير بصورة عارية لها ..كان الأمر سهلا بالنسبة لي.. لكن أريد فرصة .. ذهبنا ذات نهار إلى قاعة الرياضة كما نفعل ذلك .. فأخذت تركض في القاعة لمدة ربع ساعة قبل أن نلعب الطاولة .. لم تكن تخاف مني أو تحسب لي أي حساب أو أني رجل قد يثور غريزيا ويغتصبها ..كانت تشعر بالأمان .. كانت تعتبرني ابن أوروبا كوالدها الذي تعلم عادات الإنجليز ويمارسها في البيت وفي العمل .. منذ الخطبة وأنا أعمل لإفساد الزواج ؛ لأنها رفضتني كزوج .. في أوروبا كنّا إذا تعلق شاب بأنثى يكونان علاقة دون زواج ، ويعيشان بدون عقد بينهما .. وذاك المجتمع يتقبله ، وقد يفعله شبان من أصول إسلامية ..كانت تعلم أني مغرم بها وأشتهيها كما يشتهي الرجل الزوجة .. ولكنها مخلصة لك في الحب ، لا تسمح لأحد بلمسها وتقبيلها ، كانت تريد سيفا وحده.

كانت تركض بالقاعة الخاصة بالقصر ، وأنا اتصلت بالخادمة طالبا للقهوة لي ولها .. رأيت أنها فرصة لتصويرها بالكاميرا الخاصة التي أحملها دائما .. والتي أحضرتها من لندن ..ولم ينقطع ترددي عليها خلال السنوات الماضية.. طلبت القهوة متظاهرا بالصداع، ولما جاءت القهوة وانصرفت الخادمة ، وضعت مسحوقا جهزته لمثل هذه اللحظة منذ بدأت أفكر بأخذ الصورة فيصبح الشخص بعد عشر دقائق خاضعا تحت السيطرة شربنا القهوة المرة حتى أن نبيلة اعتبرت القهوة مرة جدا فقلت لها: إن البن هذه الأيام تعيس مغشوش .

قالت: بل نأتي بها من أجود المحلات .

لما استقرت القهوة في بطنها ظلت جالسة على مقعدها، حيث كنّا نستمتع بشرب القهوة والاستراحة بعد جولة من الركض .. لما أدركت أنها تحت السيطرة ، طلبت منها أن تتبعني فقامت مستلسمة، وأمسكت بها، وخرجت بها من قاعة الطاولة إلى فضاء وأرض جرداء قرب القاعة ، وأحضرت بساطا صغيرا وقلبته ، وأمرتها بالنوم عليه ، وخلع كل ملابسها ففعلت ، ونفذت ما طلبته دون أي مقاومة .. ظهرت عورتها ، وهممت باغتصابها لفتنتها ؛ ولكن سيكشف الأمر بعد عودة عقلها إليها .. أخذت الصورة ، وأمرتها بلبس ثيابها ،

وأعدت البساط الصغير من حيث أخذته ، وعدت بها إلى قاعة المضرب حيث كنّا نشرب القهوة وانتظرت حتى عاد إليها وعيها بعد نصف ساعة من بدء العملية .. نجحت الحيلة .. قالت: إني أحس بصداع يا غريب .. هذه القهوة فعلا سيئة ! قلت : أطلب لك المزيد .. قهوة بسكر ..لعبنا بعض الوقت .. ثم عدنا للقصر .. وشاركنا العائلة الغداء ..وكان جل حديثنا عن يوم الزفاف القادم في نهاية الأسبوع .. وهذه الأيام تستخدم هذه العقاقير في متابعة الإعاقات العقلية في مراكز العلاج ، وخبرتها أثناء عملي وتدريبي في بريطانيا عند معالجة الأمراض العقلية ، وكيفية السيطرة عليهم عند الهياج والهيجان والثوران .. ومكثنا لنصف الليل ذلك اليوم .. ولما رجع الدكتور غادرت أنا وأمي .. هكذا تم تصوير الآنسة الفاتنة .. أنا قاومت بشدة حتى لا أقع عليها يا مهندس سيف ؛ لكنك استمعت بها عشرين يوما ..كانت الخطوة التالية أن أرسل لك أنت الصورة حتى لا يحصل الزواج ؛ ولكن تأخرت فرصة التصوير .. فعدلت الخطة قلت دعها تتزوج ، ثم نرسل الصورة الرائعة أنا أحسن التصوير الفوتوغرافي تعلمت ذلك في بريطانيا .. كنت آمل أن تطلقها قبل الدخلة ، ولكني قلت ربما بعد الدخلة أفضل .. فهي تصبح زوجة والغيرة أكثر ، والغضب سيكون أشد .. ورأيت أن زواجي منها بعد الطلاق سيكون أسهل ، وستقبله هي والدكتور خالد .. وهذا ما حصل ولما حصل الزواج حسب العادات وبعد أسبوعين كتبت رسالة لمراد زميلكم في الكلية أذكر فيها الصورة العارية التي أملكها ، وأنها قد تحقق الطلاق ويتزوجها بعد طلاقها .. وطلبت منه الاتصال على رقم هاتف ذكرته في الرسالة إذا أحب تحقيق ذلك .. وبالفعل اتصل على الرقم المذكور في الرسالة ، وبعد التفاهم والتبيان توهم أنني أحد الطلبة في الجامعة ، ولي قدرات غامضة .. ذكرت له مكان اللقاء والوقت ، وأن يتكلم معك في نهار ذلك اليوم ..وإذا لم تحضر للجامعة أن يتصل بي ؛ لترتيب يوم آخر .. وفعل كما خططت له، وتظاهر لك بأنه حريص غيور عليك ، ونقل لك الرسالة .. وهو يعتقد أن أحد الطلاب وراء العملية، ولا يريد كشف نفسه.. وتبين أن الرجل يحقد عليك أكثر من حقدي وغضبي .. وكان رقم الهاتف أحد

هواتف المستشفى الذي أعمل فيه .. وحذرته من الذهاب إلى المقهى تلك الأمسية حتى لا يفشل المخطط .. أنا لا أعرفه شخصيا ، ولم أره في حياتي ..عرفته عن طريق فتاتك نبيلة .
لقد استطاع مراد كما أوهمته أن يشحنك شحنا شديدا على زوجتك التي أصبحت خائنة في نظرك ..وأنت تريد الدليل فقط .. ذهبت للمقهى وأنت غاضب ناقم ، ومغتاظ على نبيلة المخادعة الماكرة التي جعلتك غطاء على فجورها .. هكذا أوحى إليك مراد .. وأنا أعرف شكلك من الصور الكثيرة لك عند نبيلة ..وعندما جلست في المقهى جاءك رجل يضع شاربا سميكا ولحية قصيرة ونظارة خضراء على عينيه وباعك الصورة وقطعة من الفلم.. وأنت ذهلت فورا من صورة نبيلة مجردة من لباسها ..نبيلة الحبيبة الشريفة .. وهذا البائع هو أنا متنكرا .. ورأيت غضبك وسخطك.. فتيقنت أنك ستطلقها كما رسمت ودبرت ..كيف صورت ؟ هي لا تعرف .. أين صورت ؟ لا تعرف أنها صورت في قصر والدها .. نجحت العلمية ..وعلمت أنك قابلت والدها ، ورأى الصورة ، ووافق على الطلاق كما أردت أنت .. وعادت نبيلة للقصر مصدومة مذهولة ، وأشعرت الدكتور لما تحدث عن طلاقها بأني مستعد للزواج منها رغم الكارثة ..ولما انتهت العدة الشرعية ، ظهرت أمامهم بمظهر الشهم المضحي الذي يريد أن يستر على قريبته ..ووافقت نبيلة مكرهة ، وهي ما زالت تحت ظل الصدمة من الزواج والطلاق والصورة .. فرحت أمي بزواجي .. وهي تتعجب من سرعة طلاق نبيلة .. عاشت نبيلة السنة الأولى في حالة دهشة وصدمة من حياتنا ..كيف صورت ؟ متى وأين؟ وهكذا أصبح جسدها ملكي بصورة ..كانت تبكيك عندما تحس أنني لا أراها .. ولا تهمني البكارة والعذرية المهمة لدى الشرقيين .. هذا في الغرب لا قيمة له ، وأنا منهم .. أدركت إدراكا تاما أن نبيلة لا تحبّني رغم مرور أشهر ؛ لم أظهر أمامهم بسرعة ، وانتظرت حتى تتخرج ثم تزوجتني .. وكانت الوزارة قد غيرت ، ودخل فيها حماي ، ونقلني إلى وظيفة إدارية في الوزارة حسب رغبتي ، وأنا صهره يومئذ .. لم تكن سعيدة نبيلة معي ، كانت تعيسة للغاية .. أنا مجرد زوج يداعب جسدها .. وأنا لم أكن مخلصا لها .. كان لي عشيقاتي وفتياتي ..

ولم تدم وزارة عمي ، لقد مات في حادث فخسرت عونا كبيرا لي في الوزارة ، لم أكن قد عملت علاقات قوية ؛ ولكني صهر الوزير الذي مات شهيد الواجب .. أثناء ندوة عمل في أوروبا كان موته صدمة للعائلة وأمي التي كانت تتغنى بوازرة ابن خالتها ونسيبها .. ولدت ابنتنا هند بعد وفاة عمي بشهرين ، ومع ذلك ظلت علاقتنا باردة وحزينة .. وخلال خمس سنوات كانت قد ولدت ثلاث أولاد .. كانت نبيلة رغم الأولاد ترغب بالطلاق ؛ ولكنها لا تنطق بذلك ..كان يمر علينا شهور ولا تسمح لي بمعاشرتها كزوج .. كنت أشعر أن نبيلة تحس أن لي دورا في طلاقها منك .. تقول أمامي بحقد : كيف صورني المجرم ؟!وأين صورني تلك الصورة ؟! إنها صورتي .

فأقول لنفسي : هل تتهمني بهذه الأسئلة ؟ وأرفع صوتي فأقول: صاحبك تخلى عنك ، لم يتحمل غلطة واحدة منك .. قارني بيني وبينه .. قبلتك زوجة مطلقة .. قبلتك رغم تلك الصورة التي حدثني عنها المرحوم والدك .

ـ كيف مكر بي ؟ كيف خدعت ؟!

أعترف أنها تشك بي كإحساس ؛ ولكنها لم تستطع تخيل ما حصل ..كانت جل وقتها مع أمها التي تكرهني وتكره أمي .. أختها سافرت بريطانيا لتتعلم ، وتزوجت هناك .. لم أعترف لها بأني وراء صورتها وطلاقها .. زادت مغامراتي النسائية ؛ بل كنت أسافر فرنسا ولندن لقضاء الشهوات .. كنّا مجرد زوجين وأسرة ..وكلما كبرنا كانت تقل المعاشرات الزوجية ؛ ربما مر عليّ سنتان دون أن تسمح لي بإقامة علاقة زوجية ، كنت بيننا دائما ، كنت أكرهك أكرهك ، وكنت أخشى طلاقها وأن تعود إليك ؛ لأنك لم تتزوج .. ومشت الحياة ودخلت زينب الجامعات التركية ببعثة خاصة ، وتزوجت عندما بلغت العشرين من قريب لي ، وأصبحت معروفا أمام العائلة بزير النساء كما يقال .. دخلت هند كلية الطب ، وخالد سافر بريطانيا ليدرس الطب .. كانت علاقتي بالأولاد ؛ كأنهم أبناء رجل غيري .. عرفت الأسرة قصة زواج أمهم بعد طلاقها منك .. وقعت على فتاة دون سن الزواج القانوني ويريد أهلها أن

أتزوجها سترا على شرفهم .. وهي التي قامت بإغوائي ، صدمت الأسرة بتلك الفضيحة .. وزاد النفور بيننا جميعا كعائلة.. النفس الشرقي ظل مسيطرا عليهم .

أنا الذي ظلمك يا مهندس سيف ..كنت شابا لم يحتمل أن ترفضه فتاة جميلة كنبيلة .. كرهتك بسببها .. ينشرون الإباحية في البلاد ، ولا يريدون لنا نقوم بها .. كانت نبيلة حزينة لك وعليك وتتمنى أن تسمع خبر زواجك .. فهي ترى أنها السبب في حرمانك من النساء راودتني نفسي أكثر من مرة بطلاقها لتعود إليك .. ولكني لم أستطع فعل ذلك .. لم أحتمل أن تكون بين ذراعيّ رجل غيري بعد تملكي لها باسم قانون الزواج .. أنا فكرت كذا مرة أن أعترف لها ولَك بما فعلته بكم .. ولكني أجلت ذلك لساعة الموت .. وهذا ما فعلته .. وتركت لك مالا لدى المحامي عسى أن تقبله تعويضا على ما ألحقته بك من دمار وحزن ، وإذا لم تقبله تصدق به أو أعطه لأي إنسان أو مشروع .. إذا كان الاعتراف يريح النفس فها أنا اعترفت لك وحدك ..لا يهمني غيرك .. أنا مسلم مثلك ؛ ولكني لا أعرف من الإسلام إلا كلمات تقال أمامي في العمل في العيادة في الإدارة .. لم أعرف الصلاة يوما ، ولا الصيام .. نحن نؤمن بالحضارة الغربية والعادات الغربية ؛ ربما أكثر من الغربيين شرب الخمر عندي كالماء .. لحم الخنزير من أفضل اللحوم .. أذهب للفنادق الكبيرة من أجل التلذذ بأكله .. وقد عرفت بريطانيين لا يأكلونه مثل المسلمين الملتزمين .. قد أكون أزعجتك بهذا الاعتراف .. نبيلة كانت تريد هذا الاعتراف ؛ لتبدأ حياتك من جديد .. علمت برسالتها ، وطلبها منك البحث عن بائع الصورة .. أخبرتني هند عن هذه الرسالة ..لا أدري هل كانت تعرف هي البائع ؟! فلا أحد يعلم ما فعلت بكما إلا الله .. علمت من هند أنك مشغول بالبحث عن مصور هذه الصورة .. فأحببت أن أريحك من البحث العقيم ..أنا بحاجة لمسامحتك .. ماتت نبيلة وهي تحبك أكثر مني .. نعم ، أجزم بذلك ، وأعترف به .. وقد كانت تحتفظ بصورك وتشاهدها ، ورسائلك وتقرأها .. ولم أحاول أخذها ، وكثيرا ما ترسم شخصك، وتكتب اسمك ؛ ربما لإغاظتي قالت : لن يموت حبي له ، ولن أحبك أبدا يا غريب !

إضافة

تعجبت من لقاء زينب بك ، وإنك تؤيد زواجها من ذلك الكاتب المغمور ، وعرفت أنه صديقك .. نعم ، هي بحاجة لرجل كما تقول هند .. وأنا قلت لها : الزواج لابد منه ..ورجل كهذا قد يكون مناسبا ؛ لأنك لا تلدين .. وهند تسعى لمصلحتك .. الزوج يحب الذرية ولا إمكانية للذرية عندك فهذا مناسب ..واعلم أن البنات يحببنك يا سيف ، رغم أنهن بناتي ، ومتعاطفات معك من أجل أمهن .. وهذه هي الأقدار ، وداعا.



الغضب

كان سيف أثناء القراءة يتألم ، ويتمزق ضيقا ،ويحدق في السقف تارة ، ويتمتم من القهر والغيظ ، فلما انتهت القراءة خيم الصمت القاتل على القاعة لعدة دقائق قبل أن يقول سيف بغضب وحقد : يا له من وغد كبير ! لم يخطر في بالي يوما بأنه المجرم اللعين !

وبعد صمت ونفس عميق تابع : هذه هي الأخلاق التي تعلمها من معاشرة الأجانب .. الغاية تبرر الوسيلة.. الميكافيلية .. أخلاق الإباحية الاختلاط السفور التعري ..

قال ادريس : حدثت أن رجلا شرقيا أخذ زوجته إلى مسبح مختلط ، وشاهد رجلا يحدق النظر في زوجته شبه العارية فاحتج عليه صارخا : لماذا تنظر إلى امرأتي ؟ أرأيت السخف ؟! فالدكتور خالد ـ رحمه الله ـ تعلم مع الشهادة التقاليد والعادات الغربية .. ولا أعتقد أنه كان مصليا عابدا ، هذا عندهم من الرجعية والتخلف .. تحملني يا سيف ! ومثله غريب .. والإسلام حذّر من الخلوة بالمرأة الأجنبية ، لو كان هذا معروفا في بيت الدكتور خالد ما خلت بغريب .. وما صورها ؟ولا تعرت أمامه بثياب الرياضة .. هو لو خشية الافتضاح من الاغتصاب لنال منها ..كان يشتهيها بعنف وقوة .. فلم يتحمل ويطيق اللعين أن يفشل زواجه منها .. هناك كما نعلم ونرى في الأفلام والمجلات يعيش الرجل والمرأة كزوجات بدون رباط مقدس ، بدون زواج .. وفي نفس الوقت قد يكون للرجل عشيقات خارج بيت الصداقة .. ولها هي الأخرى عشاق .. المهم عندهم الرضا .. وهذا لم يكن في بلادنا في تلك الأيام .. اليوم اخترعوا لنا الزواج العرفي والسياحي وأسماء كثيرة .. والجنس عندما يسيطر على إنسان يصبح الانفكاك منه صعبا .. يعيشان معا حتى يملوا حدثت أن أحدهم عقد عرفيا على أكثر من عشر فتيات .. أهذا زواج ؟ أهذا تعدد ؟

ـ إنه فجور وزنا. .سرقها مني بخسة ونذالة!

ـ صحيح سرقها منك بخسة ونذالة !.. أنت تسرعت بالطلاق ، ذهبت إلى أنها فعلت ذلك بإرادتها .. وأنت معذور بهذا الاحتيال! يصعب عليك أن تصدق أن امرأة تتعرى للكاميرا

بدون رغبتها .. الرجل كما يعترف كان يعرف نفسيتك .. وذلك من كثرة حديثها عنك ، ويعرف الكثير عن مراد منها أيضا .. واعتبرت أنت الصورة نهاية المطاف .. وكلام مراد الخبيث جعلك تعتقد أنها فاجرة بنت هوى .. والماضي لا يعود .. وهي ماتت، وهو مات.

تنهد سيف وقال بجنون : الذكريات يا صديقي لا تموت!

ـ ألست أنت الذي نزلت المقهى لتبحث عن الحقيقة ؟ فالرجل أراحك من البحث مع أننا بحثنا حتى حفيت أقدامنا .. البنات كيف سيستقبلن هذه الفظاعة والنذالة؟!

ـ أناني ! يا له من وغد حقير! يريدني أن أسامحه .. هذا لا يمكن ..حرمني من لذة الدنيا وشهوتها.

ـ الغضب بعد فوات الأوان لا ينفع .. يضر بصحتك وقلبك .. نحن ارتحنا حقيقة من هذه المعلومات .. عرفنا كيف صورت ؟ وأين ومتى ؟ السيطرة على دماغها ، وصورت في ساحة أو فناء في القصر .. وأنت سامحت نبيلة ، وهي ضحية مثلك .. أما غريب فدع مسامحته للأيام فهو لم ينظر إلى عظم الجرم المقدم عليه .. المهم شهوته وانتقامه من أناس لم يسيئوا إليه ، والذي ساعد على نجاح الجريمة دور الخبيث مراد الذي كان عاشقا لها.. اللعين جعل من نفسه شهما أمام الدكتور خالد وابن العائلة

عاد الهدوء للمكان بعد التنفيس ، ثم همس سيف : هناك رسالة أخرى كما يقول المحامي .

ـ أعتقد ما أشار إليه غريب التعويض المالي.

ـ يريد أن يعوضني عن تلك السنين بالمال .

ـ هذا هو الفكر الأوربي .. الضرر يعوض بالمال .. ولهذا اخترعوا شركات التأمين.

ـ لن أقبله لست بحاجة لماله .. والأذى النفسي والشخصي الذي لحق بي لا يعوّضه مليون دينار أو دولار !

ـ هو جعل لك الخيارات في الاستفادة منه أو التصدق به أو إهداءه لأي شخص .

ـ أتقبله يا إدريس ؟

ـ هذا إحراج كبير لي! أنا صحيح بالنسبة إليكم فقير ؛ لكنني أملك بيتا ـ والملك لله وحده ـ ولي راتب تقاعدي أصرفه كل شهر .. والعدل أن أي إنسان يتعرض لضرر أن يعوض .. وشرعا هذا حلال يا سيف .. فالتعويض عن الضرر قانون عالمي .. فالمال من حقك .. فالرجل يرى أن ذاك كفارة وتعويضا .. ليس أمامه إلا فعل ذلك ما دام قد أقر بجرمه وأذاه .

ـ سأعطيك إياه تتصرف به كيف تشاء؟! فهذا لا يمكن أن يعوض ثلاثين سنة راحت من العمر ومن العذاب .

ـ أنت أخطأت .. لا تتضايق من صراحتي ،كان عليك أن تتزوج ، ولا يقف بك الزمن عند نبيلة ، واليوم تستطيع أيضا أن تتزوج .. وأنا مستعد للمباشرة في تحقيق ذلك .. أنت ابن خمس وخمسين سنة .. وأنا أعرف أناسا أكبر منا ، وتزوجوا وولد لهم .

ـ أنا مثلك ..طبيعتي أعتقد أنها ماتت .

ـ أنا لن أزوجك فتاة صغيرة .. لو تزوجت أنثى فوق الثلاثين قد تلد لك .. أرجوك أن تفكر بالزواج جيدا وجديا .

ـ أنا فكرت بذلك طول السنين الماضيات ، وتبين لي عدم القدرة على الحياة الزوجية .

ـ ما أنا مثلك رميت الزواج وراء ظهري ، ثم غيرت رأيي ووافقت على الزواج من ابنة غريب أترضاها لي بعد هذه الرسالة ؟!

ـ لا دخل لها يا صديقي في جرائم أبيها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، أجرم والدها بحقي قبل أن ترى النور .. ولا أقول ذلك مجاملة لصداقتنا

قال إدريس مسرورا ومشجعا : أحسنت يا سيف ! الماضي لن يعود ، ولا يرجع بعد الموت .. أتمنى أن أراك متفائلا يا سيف ومتأهلا بزوجة صالحة مناسبة!

ـ الزواج بعد هذا العمر!

ـ افرض أنك ترملت مثلي .. ألا تتزوج ؟ أنا هجرت الزواج ؛ لأنني لا أنجب .. المرأة حياة الرجل ..علينا أن نعيد حياتنا الزوجية.. نبيلة ـ رحمها الله ـ كانت تريد لك الزواج .. عليك

أن تنساها كزوجة وخائنة.. لقد ثبتت براءتها قطعيا يا سيف ..وأنها ضحية مثلك.

ـ والمال!

ـ هو لك يا سيف .

ـ لا أستطيع قبوله البتة .. الأمر شديد على النفس ..سأعطيك إياه تتصرف فيه كيف تشاء ؟ فلو أعدته لزينب وهند وخالد لا يقبلونه ما دام الوالد تنازل عنه.

ـ وأنا أقول ذلك، لابد أنه حذف من الميراث، وأخرجه قبل موته ، وهم لا يعرفون به ، لم تذكره هند في أي حديث جرى بيننا .. وأنا أفضل ألا يعرفوا بقصة هذه الرسالة أو ما فيها يا سيف .. ليس لأنني ربما أتزوج زينب كما تشير هند ، فقد لا يحصل الزواج .. أنا أتصور ـ رغم إنكار غريب ـ أن نبيلة عرفت كيف صورت ودمرت ؟ ولكنها لم تخبر أحدا بذلك ؛ لذلك طلبت منك العودة للمقهى ، وتفكر بالبائع لتلك الصورة بعد ثلاثين عاما ؛ لكنك لا تعرف شخص غريب لتتذكر شكله ، ولو لم يكن متنكرا .. هو ذكي ، فغطى عينيه بنظارة ؛ لأن العيون كان من الصعب تغييرها .

ـ إذا قبلت المال يا إدريس سألتزم الصمت بقية العمر .

ـ وتتزوج!

ـ سأفكر من جديد

ـ صدق سأبحث لك عن عروس من أهل الدين والتدين ، تتابع معك المسيرة ، وتعوضك عن تلك السنين .

ـ آه ! لو كان لي صديقك مثلك تلك السنوات الماضيات.

ـ هذا تقدير العزيز الحكيم .. أرأيت كيف كانت البداية ؟!

ـ أضحك من نفسي لما أتذكر تلك المطاردات ..وأقول لماذا فعلنا ذلك ؟!

ـ طبيعتك النفسية القلق والخوف.. وها نحن أصدقاء وأخوة !

ـ أنت عملاق في نظري يا إدريس! أنت رائع جدا ! كان عليّ أن أكون أقوى مما أنا عليه ؛

لكني أعترف أنني ضعيف ومهزوز ، وأضعف أمام العقبات والصعوبات ، وأصاب بالحيرة والتردد .



لما استوعب الرجلان الرسالة ، وانتهى التعليق على مضمونها وعرف من أفسد زواج سيف ، وما ترتب على حياته من نتائج على هذه الحقائق، قاموا لصلاة العشاء جماعة في البيت ، وكان سيف قد طلب عشاء من أحد مطاعم الحي ، وبعد العشاء قال إدريس : اللحظة يمكننا أن نقول القضية انتهت !

ـ وأنت عليك أن تكتبها كرواية بأسماء مستعارة كما تحدثنا قديما في ذلك

ـ بهذا سأضطر لكشف دور غريب

ـ لا يعرف دور غريب إلا أنا وأنت وإياد الذي سيعرف مثلنا .

ـ وبنات غريب ونبيلة .

ـ تستطيع أن تكتبها بذكائك ؛ بحيث لا يعرفن أن المرتكب للتصوير والدهنّ .. أنا متأكد أنك ستفعل ذلك .

ـ عليّ أن أفعل ذلك .. سنخترع لها زوجا آخر .

وقضيا يتحدثان حتى منتصف الليل ، واستأذن إدريس بالانصراف ،

ورفض المبيت عند صديقه ، وقال سيف : سأوصلك .

فحاول إدريس منعه من ذلك ؛ ولكنه حلف، وقال سيف: يلزمك سيارة

ـ الآن لا تلزم ، وإذا تزوجت زينب سيكون معي سيارة مثلها .. لقد قال والدها عني الكاتب المغمور، ويبارك زواجي منها .

ـ صدق أنها مناسبة لك .. وأنا تشجعت للزواج من حسن كلامك .. وإنني لن أنسى الماضي والجرح إذا لم أتزوج .. فزواجك مناسب منها .. أنا لا أعرفها إلا معرفة سطحية .. ولولا أنها ابنة نبيلة المظلومة مثلي ؛ لقلت لك إنساها أخشى أن تكون بنت أبيها .

ـ إنها تصلي يا سيف!

ـ عجيب فعلا من يصلي في حيينا ! الصف في الجامع كثيرا لا يمتلئ.

لما ترك إدريس أمام منزله ، ورجع للبيت قرأ الرسالة مرة أخرى ، وعلق على نسيان القصة : هل أستطيع ذلك ؟ فلن يرجع شيء مات .. انتهت نبيلة اليوم من حياتي .. غفر الله لها .. وعسى أن أغفر لزوجها.. أنا أتحمل ذنب نفسي .

ووضع الرسالة حيث وضع رسالة نبيلة التي بدأت بها قصتنا هذه ، وحمد الله أنها كانت سبب تعرفه على إدريس وإياد الرجل الطيب .

وظل مستيقظا حتى صلاة الفجر ، وانطلق للجامع وصلاها جماعة مع المصلين ، ثم عاد ورقد في فراشه يفكر في حياته حتى غفي ونام ، واستيقظ في العاشرة نهارا فتناول الإفطار الذي أعدته الخادمة الآسيوية ، وشرب الشاي والقهوة ، وتجهز لصلاة الظهر ، وبينما هو ينتظر ارتفاع الآذان قال : ولماذا لا أتزوج ؟! الطبيب قديما قال: إنني أستطيع الزواج ، ومشاكل القلب لن تعيق الحياة الزوجية ؛ ولكنها لن تكون كحياة الأصحاء .. بقليل من العناية تنجح الحياة الزوجية .. إدريس الصديق العزيز وعد أن يجد لي الزوجة الصالحة والمناسبة.. نعم ، عليّ نسيان نبيلة والماضي .. نعم ، خدعت ومكر بي وظلمت ، ولم اصغ لتوسلاتها بنسيان تلك الصورة .. ولم أصدق أنها لا تعرف كيف صورت ؟.. رحمك الله يا نبيلة !كنت أشجع مني ..ليتني أصغيت لعقلك ورجائك .. أوهمني اللعين مراد أنك امرأة زانية فاجرة .. وأنك أحببتني لتغطي على دعارتك .. يا لي من غر ! صدقت نصحه .. وأنا أعلم مطاردته لك منذ التقينا في الكلية .. تزوج يا سيف؛ لعلك تصبح أبا ، ولديك طفل تقر به عينك.. يصبح ما أملك من مال وعقار له .. هذه الفيلا تكون له ولزوجتي .. كيف ستكون هذه الزوجة ؟ ظل يفكر بحياة جديدة حتى سمع النداء الشرعي ، فلبى النداء فسار إليه مشيا على الأقدام كما يفعل عند صلاة الفجر ، ولا يذهب بالسيارة إلا في أيام المطر ، وعندما لا يريد العودة للبيت بعد الصلاة .. وبينما هو يتقدم نحو المسجد توقفت سيارة قريبا منه ، وسمع صوتا نسائيا

يهتف باسمه ، فتوقف ونظر فإذا هي الدكتورة هند ، وحيته بالسلام.

ـ كيف حال الدكتورة ؟

ـ بخير .. وأنت .

ـ وأنا مثلك .. أهلا وسهلا.

ـ إلى أين ؟ اركب لتوصيلك .

فأشار للجامع ، وقال: إلى هذا .

ـ نسيت ! كيف الصلاة؟

ـ هي حياة يا دكتورة ! الصلاة حياة المسلم .. عليك بالصلاة يا دكتورة!

ـ صدق دائما أعد نفسي بذلك ؛ لعلي أصلي .. شكرًا على وقوفك معي.

ـ لا حرج يا سيدتي ! وسلمي على شقيقك وشقيقتك.

ـ سلمك الله .. صلاة مقبولة يا مهندس سيف!

ـ أراك بخير . وأشار مودعا.

ولما ابتعدت تابع مشيه إلى الجامع ، وصلى الظهر ، ورجع للبيت يخطط لنشاط اليوم ، وجلس يشرب النسكافيه ، رن الهاتف ، وكان المتحدث إدريس، وطلب اللقاء عصرا في المقهى الذهبي ، وطلب منه أن يأتي بسيارة أجرة ليعفيه من توصيله ليلا .. وقبل العصر غادر سيف الفيلا بسيارة أجرة لمركز المدينة ، وبعدما صلى العصر في مسجد سيدي سعيد سار إلى مقهى الكوكب الذهبي ، ووجد إدريس وإيادا في انتظاره ، وتعانق معهما .. ولما جلس وانتهى الترحيب والسلام ، قال إدريس : قضيت ساعتين في المكتبة العامة ،وأحضرت إيادا ، وحدثته عما جاء في رسالة السيد غريب ، وأعلنت انتهاء القضية ، وسأشرع بإذن الله بتحويلها لرواية اجتماعية ، وحدثته عن السعي لتزويجك بعد أن ثبت أن ليست للمرحومة يد في العقدة التي حلت بك من النساء ، ولازمتك طيلة هذه السنوات ، والنساء كالرجال في الطيبة وفي الخباثة.

قال إياد : نعم ، يا مهندس سيف الغالي! عليك أن تعيش التجربة والحياة الزوجية.

قال سيف بمسحة حزن : هذا ما يشغل فكري من مساء أمس من كلام إدريس المرشد الحقيقي لي .. وطبيبي قال منذ عهد :إنني يمكنني الزواج كسائر الخلق ، والتكيف مع مشاكل القلب ؛ لكن عليك المعاشرة بتعقل ، ليس كشاب صغير السن .

صاح إدريس جذلا : رائع رائع يا صديقنا الكريم!! أنا وإياد سنهتم بالموضوع والبحث .. إياد يا حبيبي العروس متدينة ، فوق الثلاثين ودون الأربعين ، على أمل أن تلد للمهندس إذا قدر الله ذلك .

قال إياد : البنات كثيرات هذه الأيام .. أيريدها طالبة جامعة ، عاملة أم غير عاملة أم ثانوية عامة ؟

قال إدريس : المهندس في رأيي يحتاج إلى امرأة بيت ، وعانس فاتها قطار الزواج ، وذات الدين يا إياد .. اظفر بذات الدين .. هو لا يستطيع نكاح ابنة عشرين .

قال سيف: هذا موضوع لا يناقش هنا في مقهى.

ضحك إدريس وقال: لا تهتم لنظرات الناس؛ ربما سمع أحدهم وعنده عروس .

قال إياد : لو كانت أرملة أو مطلقة !

قال سيف: هو الأفضل بالنسبة لي .. فتاة بسيطة تحب الستر والحياة الهادئة.

قال إدريس : أنت حدثتني يا اياد مرة عن قريبة لك ، قبل خمس ست سنوات.. نسيت اسمها

حك إياد رأسه ،وقال : فاطمة السيدا! ..فاطمة هذه سيدة ترملت يا سيف .. أعتقد أنها تزوجت يا إدريس تزوجها قريب لنا.. اليوم أولادها شباب ، قد يكون أحدهم في الجامعة.

قال سيف: ترملت على أولاد .. ستر الله عليها.

ـ طفلان .. أنت لا تريدها موظفة.

ـ لا ، لا .. أريدها ربة بيت.. الخير موجود ، ولست بحاجة لمالها وعملها

قال إياد بثقة : سنجدها ..أيام فقط.

قال إدريس : هل اتصل بك حضرة المحامي ؟

ـ لم يتصل .. هو قال بعد بضعة أيام ؛ كأن قراءة الرسالة ستستغرق شهرا

ـ ربما ينفذ تعليمات غريب ..وإنك ستتعرض لصدمة و و ..

ـ شيء لا يصدق يا إياد !.. يغدر بقريبته ؛ لأنها رفضت الاقتران به .. ويزعم أن والدها كأب للعائلة .. اليوم ظهرا قابلت هندا .

قال إياد : ابنة غريب!

ـ نعم ، كنت سائرا لصلاة الظهر في الجامع ، أوقفتني وتحدثنا ، وشجعتها على الصلاة ، وأرسلت معها سلام لخالد وزينب .. لا أدري لماذا يتلكؤون في أمر زواجها ؟! فليحسموا أمرهم ويقولون نعم أو لا .

قال إدريس : لكني غير مهتم يا صديقي.. الزواج عندي أمر ثانوي ، لم أتركه بسبب عقدة النساء مثلك .. تركته لعقدة الحمل والولادة .. عجزي عن التلقيح .. وأيامنا لم يكن التلقيح الصناعي للبشر منتشرا ومعروفا .. دعوا الأمور تسير على مهلها ، وإذا لنا نصيب بالزواج نتزوج .. ولا تنسوا أن والدها رحب بالزواج من الكاتب المغمور .

بعد صلاة المغرب تناولوا الطعام في مطعم الذكريات ـ المطعم المقابل لساحة مسجد سيدي سعيد ـ ثم تفرقوا إلى بيوتهم ، ولما دخل سيف المنزل أخبرته الخادمة أن شقيقته أم فراس في انتظاره ، فحياها ورحب بها ، ثم دخل غرفة النوم ، وتخفف من البذلة .. فسيف يحب عند الخروج من البيت ارتداء البذلة ، وقد اعتاد على ذلك .. وكان مستغربا لزيارتها ، ومتوقعا لمشكلة ما .. وكان قد صلى العشاء قبل العودة ، وعرض على أخته العشاء ، فذكرت له أنها تعشت مع أبي فراس زوجها .. رحب بها من جديد ، وقدمت لهما الخادمة الشاي بالنعناع وقال: أهلا بأم فراس ، لابد أن هناك أمرا مهما ؛ لتنتظرني أم فراس .

قالت : نعم ، الأمر مهم وخطير في رأيي

لم يتكلم سيف ، تابعت : ابنتي هيام تريد الطلاق .

ردد قائلا : هيام تريد الطلاق لماذا؟!

ـ وجدت في بيتها عاهرة ! وجدت مع زوجها عاهرة!

ـ وهي لا تعرف أن زوجها عاهر! شاب يعشق الزنا والفجور ومعروف بذلك .

ـ تعرف .

ـ ما دامت تعرف .. عليها التحمل والصبر .

ـ كانت في العمل كما تعلم ، أحست بتعب فعادت للبيت معتقدة أن البيت فارغ ، معتقدة أن فريدا في البنك ، فلم تضغط على الجرس، استخدمت المفتاح ؛ لعلمها بأن اليوم عطلة الشغالة ، وستعود في الليل، فتحت ودخلت ، فسمعت صوتا في حجرة النوم ، فاستغربت أو توقعت ، فدفعت الباب ودخلت ؛ لترى فتاة عارية تنام على سريرها ، وزوجها يتفرج عليها جالسا على كرسي في غرفة النوم فصاحت غضبا وثورة ، فاعتذر لها عن الموقف ..فقالت كما قلت : أنا أعلم كما يعلم الكثير أنك فاجر وزاني ، وغررت بي عند الزواج؛ لكن أن يصل الأمر إلى حجرة نومي وكرامتي فهذه الوقاحة بعينها.. ليس أمامنا إلا القاضي ..وطردت البنت .. وتقبل فريد الطلاق .. وتركت بيت الزوجية .. وها هي عندنا في البيت .. تحدثت معي أم فريد .. وتحدث والده مع أبي فراس لتسير المركب .. ولكن هيام تصر على الطلاق .. وجئت إليك ؛ لتتحدث معها.. فهيام تعز خالها سيفا.

ـ هيام طيبة ؛ ولكنها لم تحسن الاختيار .. الشاب كان معروفا بأنه نذل وحقير .. وهي حدثتني أن الرجل لا يمل من الخمر والزنا ؛ لذلك تتعجب كيف قبلته وتزوجته ؟!ومن أجل ذلك هي لا تريد الإنجاب منه.. وتأخذ موانع الحمل .. كانت تأمل بزواجه أن يصبح إنسانا متحملا للمسؤولية كما كان يعد .. وأنها المرأة الوحيدة في حياته والمخلص لها .. ماذا تريدين مني؟

ـ لا داعي للطلاق .. يتعهد أن لا يكررها في البيت .

ـ الفاسد من الصعب تحرره من فساده ..سمعت مرة من هيام أنه كاد يعتدي على أخته ، وهو في حالة سكر ذات ليلة .. لتبق عندكم بضعة أيام حتى نفكر بروية وتأن ..وسأتحدث معها ،

وأرى وجهة نظرها بالحياة معه .. لها خمس سنوات متزوجة .

ـ أربعة يا سيف! أنا قلت لها لو تلدين منه طفلا ؛ ربما تغير .. فالأبوة لها مذاق خاص عند الرجال .. فتقول : ألم يربط بيننا ميثاق الحب ؟وهو أقوى رابط ، إذا كان الحب سليما وصادقا فهل يربطه طفل يا أمي ؟ أرجوك يا سيف أن تقنعها بنسيان الطلاق .. الطلاق ليس الحل .. الصبر عليه هو الحل .

ـ الصبر هو الحل .. سأسمع منها ..أنا تكلمت معه مرة ، فقال: يا سيف أنت لا تعرف النسوان ، فعد لمحرابك .



بعد العاشرة صباحا اتصل المحامي بسيف وقال : كما ذكرت لك تلك الأمسية أن السيد غريبا ترك لك رسالة أخرى .. متى أمر عليك ؟

ـ المناسب لك يا سيدي!

ـ الآن أنت في البيت حسب الهاتف .

ـ نعم ، أنا في البيت ، وأتكلم معك منه .

ـ لا تخرج حتى أمر عليك .

ـ حسنا! أنا في انتظارك يا سيدي المحامي .

تناول فطوره ؛لأنه عندما يسهر للصبح ينام بعد الصلاة ، وانتهى من فطوره، وجلس في مكتبه يشرب القهوة ، ولما أدخلت الخادمة المحامي لصالة الجلوس خرج محييا ومستقبلا ، وطلب القهوة له وللمحامي ، وعرض عليه الإفطار فضحك المحامي ، وقال : بعد قليل يا سيدي سأتغدى .. كيف حال المهندس سيف ؟ أنت لم تكن من أصدقاء المرحوم

ـ ولا عمري رأيته ؛ ربما اجتمعنا في مناسبة في الحي ..ولا أعرفه شخصيا .. لست من

أصدقائه ؛ ولكن طليقتي كانت زوجته .

قال المحامي دهشة : آ ! الرجل الذي تزوجها ، وطلقها في شهر العسل !

ـ نعم ، طلقتها في شهر الزواج الأول .

قال الرجل بحيرة : عجيب! لقد ترك شيكا على أن أسلمه لك بعد قراءة الرسالة الخاصة !

ـ شيك.. هو أشار إليه في تلك الرسالة يا سيدي الكريم .

تناول سيف الرسالة من يد المحامي ، كانت رسالة مغلفة ، وأخرج المحامي من حقيبته الشيك وقدمه لسيف قائلا: أليس هناك قصة ؟!

ـ نعم ، هناك قصة كبيرة لا تنسى .. إننا نحن سكان حي واحد .

ـ الرجل كان غنيا وثريا كبيرا ، يملك الملايين يا مهندس سيف! ألا تريد أن تقرأ الشيك وتعرف قيمته ؟

تطلع سيف على المبلغ الموجود في الشيك ، وكان ثلاثمائة وعشرين ألف دولار أمريكي .. ثلث مليون ..فقال : كل هذا لي!

ـ نعم ، أليس اسمك المكتوب على الشيك سيف الدين حاكم آل وردة ؟!

ـ نعم، هذا اسمي .. حرم الورثة من هذا المبلغ من أجلي!

ـ قلت لك ماله كثير .. وليس له إلا ذكر وابنتان وأمه حية ؛ لكن هل يمكنني أن أعرف لماذا أعطاك كل هذه المبلغ قبل موته بزمن يسير ؟!

فكر سيف لحظات قبل أن يقول : لأنه تزوج امرأتي ، زعم حبها فطلقتها لأجله .. وهو يعوضني عن كل سنة بعشرة آلاف دولار .

ـ أحب زوجتك نبيلة خالد وطلقتها ليتزوجها!

ـ هذا ما حصل .. فأحس أنه ظلمني ، فأراد أن يدفع لي تعويضا عما ألحقه بي من أذى .

ـ هناك حكاية كبيرة!!

ـ نعم ، هناك حكاية كبيرة .. هل تريد أن أوقع لك على إيصال ؟

ـ ليس ضروريا ، فلن تطير.. المهم أنك استلمت الشيك ، وتستطيع صرفه في أي وقت تشاء ؛ لأننا أودعنا المال هذا باسمك قبل إظهار هذا الشيك .

ـ ما ذكرته صحيح يا أستاذ .

ـ أنا أصدقك ؛ لأني لا أعرف بينكم أي اتصال .. وأنا أتعامل معه من أكثر من عشر سنوات يا حضرة المهندس !

ـ على كل سيقوم كاتب بكتابة قصتي مع نبيلة وغريب ؛ فإذا صدرت سأدفع إليك بنسخة .. واعلم يا حضرة المحامي أنني ـ بفضل الله ـ أملك الكثير ..ولست بحاجة لماله .. ولا طلبت منه مالا .. ولم ألتقه شخصيا في يوم ما .. وإن كنت أسمع باسمه من زوجتي نبيلة قبل طلاقنا يبدو أنه ندم على ما جناه عليّ ، وتسببه في طلاقنا ، فأراد أن يعوض ذلك مالا .. وهو لا يغني عن الماضي الأليم شيئا .. وسأهبه لصديق عزيز عليّ .. فهو أحق به مني.

ـ عجيب أمرك يا مهندس سيف !ستهب كل المبلغ لصديق .

ـ نعم ، وهذا الذي دفعني لقبول الشيك .

خرج المحامي من بيت سيف مذهولا من إهداء هذا المبلغ إذا صدق لصديق ، وحتى تخلي غريب عن هذا المبلغ لعجيب ؛ لكنها الدنيا .. تصافح الرجلان أمام بوابة الفيلا ، وقال المحامي : لا تنسى إرسال نسخة من القصة التي ستكتبها .. ونحن على استعداد تام لتقديم أي خدمة لك يا مهندس سيف .. وتركت لك بطاقة عن هواتفنا ومكتبنا .. شكرًا على الاستقبال والقهوة .

ـ العفو يا سيدي .. وجزاك الله خيرا!

مشت السيارة بعد تحية باليد ، ودخل سيف الفيلا وهو يردد كل سنة بعشرة آلاف دولار .. نعم الفكر البراغماتي .. المال عن سنوات العزوبية .. العمر لا يعوض بالمال ؛ إنما هو مواساة ، كما ندفع الدية في الدهس والقتل لأهل الميت .. الميت لا يعود .. ستصبح يا صديقي يا إدريس من الأثرياء .. وإذا تزوجت زينب ستصبح مليونيرا .. سبحان ربي .. يعطي من يشاء بغير

حساب !

قرأ الرسالة ، وكلها أسف واعتذارات ، وبين مرة أخرى أنه يحب أن تتزوج ابنته زينب من صاحبه الصحفي المغمور.

ولما كان إدريس يدخل مدخل البناية بعد صلاة العشاء في جامع حي الشاعر ، وجد سيفا أمام الشقة منتظرا ، فتعانق الصديقان ، وخرجا للعشاء في أحد مطاعم الحي، ثم رجعا للبيت ، واستأذن سيف للصلاة ، وأخذ إدريس يعد أغراض الضيافة من الشاي والمكسرات والفواكه وقرأ إدريس رسالة غريب .. وعلق لنفسه: الرجل يحبني دون أن يعرفني ! .. إنه يشجع سيفا على تزويجي من ابنته .. وقال الصحفي المغمور .. أنا هاو لست صحفيا بمعنى الكلمة .. وقال لسيف : ما دام والدها مباركا لزواجها مني لماذا لم تحسم الأمر ؟! هناك عائق مجهول يا سيف !

ـ لا أدري ! هند لم تذكر لي شيئا لما التقينا قدام المسجد .. ولكنها أكدت أن الزواج قائم .. وزينب بعد لقاء الصيدلية لم التقِ بها .. تحدثت معي على الهاتف سعيا للقاء أبيها .. واعتذرت وخالد لا حس لها في القضية .. ولما قابلني بموضوع الوالد لم يذكر زينب وزواجها.. الظرف كان غير مناسب .

أخرج سيف الشيك وقال وهو يمد يده به لإدريس : هذا الشيك لك كما اتفقنا ! وإذا رفضته سأعيده للورثة .

اطلع إدريس على الشيك وهتف دهشة : ويحك ! كل هذا لي .. غير معقول يا سيف! هو أعطاك إياه !

ـ وأنا لولا دعوتك لي بقبوله ما قبلته ، ولمزقته في وجه المحامي .. واعلم أن الرجل دفع عن كل سنة عشرة آلاف دولار .. والمحامي قال : إن المبلغ بالنسبة لثروة الرجل ضئيل .. فهو يملك الملايين .. له استثمارات في بريطانيا ، شريك مع إخوانه وغيرهم .. والمبلغ موضوع في حساب خاص باسمي .. يعني لا دخل له بالميراث في أي وقت نسحبه .

ـ يا إلهي! أنا أملك هذا المبلغ ، ولا في الأحلام!!

ـ يا سيدي لو تزوجت زينب سيكون هذا المبلغ شيئا بسيطا .. ستملك الملايين كما فهمت من المحامي .

ـ ذاك لها يا سيف!

ـ هل ستبخل عليك ؟! صحيح أن المرأة لها شخصية مالية مستقلة ؛ لكنهما وجهان لعملة واحدة .

ـ أخشى أن يكون هذا الشيك حاجزا بين زواجنا.

ـ ليس بالضرورة أن تعرف كما اتفقنا .. اتفقنا أن لا نكشف سر الوالد للبنات وخالد .

ـ والبنك ألا يخبرهم بسحب المبلغ ؟

قال المحامي : إن الرجل وضعه في حساب باسمي أنا ، وليس له دخل بالميراث الذي لم يقسم كما أخبر المحامي ؛ لأنه سيتم حصر ثروة الرجل .. وهذا يستغرق وقتا .. سنذهب إلى البنك ونسحبه ونحوله إلى اسمك بالتنسيق مع حضرة المحامي ، حتى يسهل البنك تحويل الحساب لي شخصيا .. واعلم يا صديقي ؛ بل أعز إنسان عرفته في حياتي إنني كتبت لك وصية وستعرفها بعد موتي .. أنت أخ عزيز يا إدريس ! أخ تمنيت أني لو التقيت به قديما ؛ لكن كل شيء بقدر ..أنت حببت لي الحياة ، وجعلتني أعود إليها .. هما أحلى عامين في حياتي ..أنت كنز حقيقي يا إدريس !

ـ عجيب أمر الدنيا! أنا عملت أكثر من عشرين سنة موظفا ، ولم يجتمع لي مثل هذا المبلغ .. وفي ساعة من العمر أملك هذه الثروة ! سأصير ثريا مثلكم يا سيف؟!

ضحك سيف وقال : أنا ولدت ثريا ، لم أصعد السلم درجة درجة .. كان والدي من أكبر التجار في البلد .. وكانت أمي تملك ثروة كبيرة ورثتها عن والديها .. وها أنت في لحظة تصبح ثريا مثلنا .

ـ لو لم تقبل المبلغ ماذا كان سيفعل به المحامي ؟

ـ سألته هذا .. فأجاب سيذهب للجمعيات ، وبعض النوادي التي يدعمها ، لن يعود للورثة

ـ حسنا ! عندما أعمل الرواية يجب أن تكون طباعتها من هذا المبلغ أقسم على ذلك .

ضحك سيف وقال : حسنا ! لا بأس .. فقط طبعتها الأولى .. أنا كما تعلم ألفت بعض الكتب في الهندسة للمصانع وبعض المعاهد.

ضحك إدريس بدوره وقال : حسنا ! لا بأس الطبعة الأولى فقط .. عندما تتزوج سأبدأ بكتابتها ؛ ليفرح القارئ بختمها بزواج البطل ، كما هي العادة في الكثير من الروايات .

استشار سيف إدريس بقضية هيام ابنة شقيقته أم فراس.

ـ هل جلست مع الفتاة ؟

ـ لا ؛ إنما كلمتها بالهاتف، وروت الموقف ، وهي تبكي ، وذكرت أنها اضطرت للذهاب للعيادة مرتين ، ولم تعد لها رغبة للحياة الزوجية .. أنا كما تعلم لا أتدخل بمشاكل وقضايا العائلة .. فبعضهم يعتبرني مجنونا ، ولا أعرف الدنيا ، ولا مشاكلها ؛ بل يشيعون اليوم أنني على وشك الموت ؛ لذلك صرت أصلي وأعتمر .. ولذلك يتزوجون يطلقون دون أي تدخل مني ؛ لكن شقيقتي أم فراس ترى أن هيام تُكن لي بعض الاحترام .. وتزورني بين الفينة والأخرى ، فظنت أنني قد أستطيع منعها من الطلاق ..واعلم أن هيام تزوجت عن قصة حب للرجل .. إعجاب في حفلة أو سهرة ، ثم لقاء خاص ، وفترة حب ، ثم إعلان الزواج .. وهي كانت تعلم أن له علاقات جنسية مع أخريات قبل الزواج .. كانت ترى أنها ستذهب مع الزواج والبيت ؛ ولكن بعد الزواج أخبرتني أن فجوره زاد وسكره زاد ، ويأخذ منها المصروف .. وأصبحت الشقة مخدع غرام وسكر لأصحابه وصاحباته .

ـ إذا أصرت على الطلاق بعد حين من العاصفة فلتطلق .. هذا الزوج لا يتاجر به .. وهي كما قلت تخشى الحمل منه ؛ لفساده ، وأن الطلاق مصير حياتهم .. وأين ستعيش إذا طلقت ؟

ـ ستعيش في بيت والدها .. والدها مدير بنك ؛ ولكنها ستعاني .. فهم يحبون أن تبقى المرأة متزوجة ، ولو فعل زوجها كل الأفاعيل السيئة .

العروس

استطاع إياد إيجاد بضع عرائس مناسبات لسيف ، وواحدة عن طريق إدريس ، فقال إدريس : سنبدأ جولة أولية على عرائس إياد .. طبعا لن تذهب نساء كعادة العائلات هنا .. سنذهب نحن يا سيف .. ندخل على الأسرة ، ونجلس مع الأب أو الأخ ، وتحضر العروس بالقهوة .. فإياد شرح لهم من أنت ؟

قابل سيف ، ورفاقه الأسر الأربع ، ورأى المرشحات للزواج ، وكلهن أبدين الموافقة على الزواج منه رغم كبره ومرضه ، وشاهدوا عروس إدريس، ورشح إدريس واحدة منهن ، وطلب من سيف التركيز عليها ، فهي جامعية معلمة لغة عربية ،ومتدينة ، وعمرها ست وثلاثون عاما ، ومستعدة لترك العمل عند الزواج ، وهي لم تتزوج من قبل .

وقال : البكر أفضل من الثيب من الناحية النفسية يا سيف ! وصحتها جيدة .. وأنا أعرف والدها كما رأيت .. لقد عمل معنا في الصحة ..كان سائق سيارة.. أنا تعجبت لعنوسة ابنته هل من سبب يا إياد ؟!

ـ خطبت أكثر من مرة .. وفسد الزواج .. وهي من ناحية الجسم والسن مقبولة .. فكر فيها يا سيف .. وإذا في بالك غيرها تكلم !

قال إدريس : أنا سأتحدث مع والدها يا سيف ، وأعرف منه سبب تأخر

زواجها ؛ ليطمئن قلب سيف وقلبي يا إياد .. لو مطلقة أو أرملة هناك أسباب أدت للطلاق

تحدث مع والدها ، وبعد مقدمات وأمثلة علم أنها خطبت ثلاث مرات ، وكانت بعد حين ترفض الزواج ، لأنها تكتشف في خطيبها ما لا يعجبها .. وكلما كبرت الفتاة قلّ خطابها ، وأن صحتها جيدة ، وليس لديها أمراض منعتها من الزواج .

فوافق سيف على الاقتران بها ، وذهبوا لمقابلة والدها وإخوتها مرة ثانية ، وتحدث إدريس عن حياة سيف واعتزاله العمل ، وأنه متفرغ للبيت ، وأنه منذ طلق زوجته بعد زواج قصير لم يتزوج مرة ثانية ، ولم يحاول .. اعتزل النساء حتى أقنعه إدريس وإياد بذلك .. وأنه يعاني من

بعض المشاكل القلبية ؛ ولكن الطبيب بين أنه يستطيع الزواج ، والقيام بالمعاشرة الزوجية دون مشاكل تذكر .. فقط عليه المباعدة بين كل معاشرة وأخرى ، وقال لهم : نحن أحببنا أن نتكلم بالمفتوح حتى لا تقولوا غدا ضحكتم علينا وخدعناكم ..هل سمعتم ما قلت ؟ سمعتم الحقائق .. فالرجل ابن خمس وخمسين سنة .. ليس شابا صغيرا .. ولم يعش الحياة الزوجية إلا ثلاثة أسابيع .. ولم يطلق لأسباب صحية ؛ إنما هناك أسباب أخرى لا داعي لذكرها يا أبا محمد .. فكروا بالرجل جيدا .. وغدا بمثل هذا الوقت نسمع الرد .

وعده أبو محمد بالرد ، وغادر الضيوف البيت ، وهم يتبادلون المجاملات والسلامات.

أكمل القوم السهرة في منزل إدريس، وقال إياد : وإذا رفضت البنت عريسنا سننتقل إلى أسرة أبي جمال .

وفي مطلع النهار التالي اتصل أبو محمد بإدريس ، وطلب مقابلته وحده ، فركب إدريس سيارة لبيت أبي محمد ، وقدم له الرجل الشاي ، وقال: البنت يا إدريس قابلة للارتباط بصاحبك سيف ؛ ولكننا لم نفهم مشاكل القلب التي أشرت إليها مساء أمس .. لكن ...

تنهد إدريس وقال بضيق: هذه لكن المشكلة!

ـ ولا مشكلة ، ولا هم يا صديقنا ! البنت فهمت أن الرجل مريض بالقلب ، وقد لا يطول به العمر .. فتريد شقة باسمها .

ـ يا أبا محمد الأعمار بيد الله أولا .. والإنسان كلما كبر سنا ظهرت عليه أمراض معينة ، منها السكري الضغط ضعف البصر والسمع المفاصل هشاشة العظام .. الرجل تزوج زميلة درست معه في الجامعة ، ومن سكان حي بهية ، وقضت معه أقل من شهر ، وطلقت نتيجة مؤامرة خبيثة ، وحرم على نفسه الزواج والنساء .. ولما تعرفت عليه من عامين تقريبا استطعت أنا والأخ إياد أن نغير رأيه نحوهن .. وهو قد تدين من زمن يسير .. وإذا عشنا للعام القادم سنذهب للحج سوية .. والشقة لماذا ؟ لماذا هذا التفكير ؟! خشية الطلاق ..إذا ابنتك محترمة وتخاف الله كما ظهر لنا ستعيش أحسن عيشة .. وستترك الوظيفة .. والرجل يعيش وحيدا مع

خادمة آسيوية في الفيلا .. وهم من سكان حي بهية حي الأثرياء القديم في المدينة .. والأموال كثيرة .. وقد عمل صاحبي مهندسا في مصنع دواء عمل كنائب لمدير المصنع حوالي عشرين سنة .. وأسرته غنية من أجيال .. اسمع يا أبا محمد إذا عاشت ابنتك بعده سترث قصرا ومالا كثيرا يغنيها العمر .. المهم أن لا يحدث الطلاق من طرف ابنتك .. أنا يا عمي أشتري لها شقة

ـ أنت! وما دخلك يا رجل ؟!

ـ الرجل عند كلمته .. أنا هذا الرجل وهب لي مالا كثيرا ؛لأنني ساعدته في قضية.

ـ كلامك غريب يا إدريس ! وهب لك مالا ستعطيه لابنتي!

ـ لتطمئن.

ـ كم وهبك؟

ـ أكتم السر .. ربع مليون.

صاح الرجل دهشا وغير مصدق : ربع مليون دينار !

ـ نعم ، حذار أن تتكلم عن ذلك .. سأكتب عنه كتابا، وأتحدث فيه عن هذه الهبة العظيمة.

ـ هذا شيء لا يصدق!!

ـ بل أخبرني أنه شملني بوصيته .

ـ ماذا فعلت له ؟!

ـ سر كبير ؛ ولكنه سينشر على شكل رواية ؛ كأنها عن شخص آخر .. الشقة عندي يا أبا محمد .. وليبق أمرها سرا .. هي هدية خاصة لكم .. حذار أن يعلم بها أحد .

ـ هذا شيء مذهل!

ـ هذا الفضل من الله! الرجل يأخذ أيضا راتبا تقاعديا من جمعية ونقابة المهندسين .. وهو يتصدق به .. لن تخسر ابنتك بإسعاد هذا الرجل .. والسيارة هدية مني عند الزواج .. نحن رأينا بنات غير ابنتك .. فرأيت الأولى منهن فتاتك .. رأيت أنها سترتاح مع الرجل وتفهمه .. وهو طيب ، وقادر على الحياة الزوجية باعتدال .. ونحن عندنا أمل أن تلد له .. لترث هي

ومن تلده أمواله .. فأخوه وأخواته من أصحاب الأموال والغنى .. وهو انعزالي عنهم .. قليل الاختلاط بهم .. ومحب للبيت .

ـ حقيقة أنك كشفت لي أشياء مذهلة ؛ لولا معرفتي لك من أيام البلدية ما أصدقها ! اسمح لي باستدعاء البنت ؛ لتنقل لها أهم الكلام .

جاءت البنت ، وحيت السيد إدريس، وجلست ، وبعد مجاملات شخصية ، قال والدها: العم إدريس راغب لك الزواج من المهندس سيف .. وهو تعهد لي إذا طلقك الرجل ، وأنت لم تطلبي الطلاق سيقدم لك شقة .. وأقنعني بذلك .. ولا داعي لكشف الأسرار ؛ ولكنها ستصدر في كتاب عن حياة سيف على شكل رواية حماية للأحياء.

وأكد إدريس هذا التعهد ، وقال الأب : ولعل سيفا سيوضح لك الغموض في حياته .. والرجل من الأغنياء ، ومن سكان حي بهية .. وسيقدم لك العم إدريس بهذه المناسبة سيارة كهدية منه . هكذا قال أبوها ، وتابع فقال : هذه فرصة يا بثينة ! لتعشين حياة الأزواج .. والأخ إدريس رجل عند كلامه ..وفعلا يريد لك الخير!

فقالت : ومشاكل القلب التي تحدثتم عنها أمس !

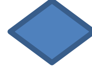
قال إدريس : هو مريض بالقلب ، ولا يعني هذا أنه سيموت غدا أو بعد شهر أو بعد عشر سنوات ..عادة مريض القلب سيكون ضعيفا في الحياة الجنسية إلى حد ما .. ليس مثل شاب صحيح البنية مفتول العضل .. سيف لم يعش الحياة الزوجية .. له أكثر من ثلاثين سنة لم ينام مع امرأة حتى ولو بالحرام .. القلب أثناء المعاشرة الزوجية يتعرض لضغط كبير ، يحتاج لضخ دم بقوة ؛ لذلك من يتعرض لجلطة قلبية ينصح بالبعد عن الجماع عدة شهور .. يعني صاحبنا ليس صغيرا .. والطبيب المتابع لحالته أخبر بأن بإمكانه الحياة الزوجية عدة مرات في الشهر .

قال أبو محمد : فهمت عليك يا إدريس فهمت يا بثينة !

هزت رأسها بالإيجاب ، وقال وهو ينهض : والرجل يطمع يا ابنتي بأن تلدي له .. ونحن قدمناك لسنك المناسبة .. وهناك إمكانية الحمل بإذن الله .. وأنت متدينة .. والرجل تدين من

عهد قريب بسبب صحبتي له وإياد .. وترك الخمر منذ صحبنا .. ولم يكن يشربها كثيرا ؛ لكنه تربى على أنها ماء.

ولما غادر الرجل ، قال الأب لابنته: لم تعودي صغيرة يا ابنتي !وأنا إدريس عشت معه زمانا طويلا أيام العمل ، ولا يمكن أن يخدعنا ؛ بل وضعنا في صورة سليمة للرجل .. فهو ابن خمس وخمسين سنة .. وفي النهاية أنت حرة ولَك الاختيار .



وافقت أسرة أبي محمد على زواج ابنتهم من السيد سيف ، وتخلى سيف عن السرير المفرد ، وجهز غرفة نوم بأثاث جديد ، وخلال أسابيع كان السيد سيف يتزوج من جديد أمام دهشة واستغراب أقاربه وجيرانه .. فأصبح حديث الحي ، وانتقلت بثينة المعلمة إلى الحياة الزوجية في حي بهية ، وقد جرى احتفال متواضع لسيف أشرف عليه إدريس وإياد ، وتقبل سيف هدية إدريس لزوجته السيارة ، وتعجب بعض الأقارب من زواج سيف من فتاة من حي شعبي ؛ ولكنهم تعودوا على غرائب سيف ؛ لذلك الكثير من أقاربه لم يحضروا حفل الزفاف ، ولم يكترث لهم سيف ، وحتى بعض أخواته لم تحضر ، ولم يقبلوا زواجه .

اتصلت هند بمنزل سيف ، وباركت له الزواج ، وتمنت له الخير ؛ ولكنها عجبت من صبره كل هذه السنين ..وكيف لان في النهاية؟! وذكرت أنها كانت تحب له ذلك ، وأن أمها تمنت له ذلك في حياتها ..وسألته عن العروس .

ـ ليست قريبة لي يا دكتورة .. إنها امرأة صالحة ـ إن شاء الله ـ وذكر اسمها ، وعائلتها والحي الذي كانت تعيش فيه .. وفي نهاية المكالمة ، وعدته بزيارة لتبارك له ، وتتعرف على أهله ، فرحب بذلك .

وقدم إياد وزوجه ، ويصاحبهم إدريس للتهنئة والتبريك ، ورتب لهم إدريس دعوة طعام في أحد الفنادق .. وحدث قبل تلبية دعوة إدريس أن تعرض سيف لوعكة صحية .. أدخل على أثرها المستشفى ، وقضى فيه ثلاث ليال ، ثم تعافى بفضل الله ورحمته .. وقضى إدريس الأيام

الثلاثة معه في المستشفى ..وكان يأخذ زوجته إلى المستشفى في سيارتها ويعيدها .. وتعرف على طبيبه الخاص ؛ لذلك لما خرج معافى أبدت امتنانها لإدريس على وقفته معهم.. فأكد لها أن سيفا أخ له .

وقال : هذا أقل الواجب . وخاطب سيفا فقال : أنا باشرت في كتابة المسودة لقصة حياتك ، وخلال شهر ستكون بإذن جاهزة ، ولما تقرأها أبدأ بتبيضيها.. طبعا لن يعرف أحد أنها قصتك إلا من يعرفك حق المعرفة ؛ لأني سأضيف إليها فصولا وأحداثا لا دخل لك فيها ، فقبل رحلة الحج ـ إن شاء الله ـ ستكون في الأسواق .. عرض عليّ صاحب الجريدة نشرها على عدة حلقات ، فاعتذرت بأنك ستنشرها مرة واحدة .. وهي قصة بعيدة عن السياسة لعدم اهتمامك بالسياسة .

بعد زواج سيف تغير نظام زيارته لسيف ، كان يصلي العصر في حي العرب ، ومع المغرب يغادر الحي عائدا لبيته .. جاء زائرا عصرا ، فوجد أن هندا وزينب في ضيافة سيف وزوجته ، فسلم وحيا ، وجلس وعلمت هند أن إدريس هو الذي سعى في زواج سيف ، واختيار العروس ، وتبين لهنّ أن العروس أكبر منهن ؛ ولكنها مناسبة لسيف ، وتمنوا لهم التوفيق .

بعد هذه الزيارة بأيام تلقى إدريس هاتفا من الممرضة سمر ، ولما سمعوا أخبار بعضهم بكل اختصار ، قالت: أنا صرت مغرمة بجريدة صاحبك التي لم أقرأها يوما قبل أن أعرفك يا أستاذ إدريس ! وأستمتع بما تكتبه أنت ، ومقالات الفتى نصار .

شكرها إدريس على متابعة مقالاته ، فقالت : هل عرفت من صور المهندسة ؟

ـ أصدقك القول أني عرفت في النهاية ، وصرت من ورائها غنيا .

ـ رشوك لتصمت !

ـ لا ، ليس رشوة هدية تبرع .. وستكون الحقيقة في كتاب عن السيد سيف في مطلع العام القادم .. لم تصور الصورة في تلك الشقق ..صورت مع الرجاء الكتمان في القصر .. قصر والدها .

ـ شوقتني لفهم القصة.

ـ حسنا ! بما أنك صديقة ، وساعدتينني في فهم حكاية الشقق سأرتب لزيارة لك .. الأمر يحتاج لكتمان ، وعدم نشر للضرر الذي قد يصيب بعض الناس .. وهل من جديد بينك وبين الدكتور سمير ؟

ـ سمير أخي !

ـ طبعا أخوك !

ـ هل قابلته ؟

ـ أنا ألم أقل لك إني التقيت به أثناء إجراء الحوار معك ؟! ذهبت وصليت خلفه ، وتعرفت عليه ؛ لأنني عجبت من شيوعيتك وتدينه ! ففهمت الحكاية وفارق السن بينكما أيام الطفولة والمراهقة .. وحدثني عن والدك العقيد ،وعن أختك سحر وعنك .

ـ هذا أنا الآن مكشوفة لك !

ـ هذا يا سيدتي عرفته عندما بدأنا الحوار ، وذكرت أن لك أخا متدينا وإمام مسجد .. فسارعت بالبحث عنه ، وقابلته ، وذلك قبل كتابة مقابلتنا ، ودعاني لزيارته ، ولكني انشغلت بصديقي سيف .. وها نحن زوجناه من بضعة أسابيع .

ـ قرأت الخبر والتهاني ببعض الصحف ، ولم يخطر ببالي أنه سيف زميلنا أيام الجامعة .. عرفتني عليه سوزان ، وحضرت زواجه من نبيلة .. شخص لا ينسى لطلاقه الغريب ، وفي نفس الوقت لا يذكر .. معادلة صعبة .. أخيرا تزوج .. عليّ الاتصال به وتذكيره بنفسي والتهنئة .. لقد كان صائما عن الزواج ..كلما يأتِ ذكره بلقاءتنا مع نبيلة كانت حزينة من أجله.

ـ لقد زارته بنات نبيلة هند وزينب من قريب للتبريك والتهنئة .

ـ لي فترة لم أتحدث معهن .. موضوع زينب لم يتحرك !

ـ مات والدها .

ـ أعرف ، وذهبت للعزاء.. وأنا لا أدري لماذا توقف الموضوع ؟! هي لم ترفض صراحة ، ولا

قالت لا أريده .

ـ هناك أمر غامض لا أحد يريد الإفصاح عنه ؛ ربما الدكتور خالد معترض على زواجي مع أن والدها بارك زواجنا قبل أن يموت .

ـ هل قابلته ؟

ـ لا، لكنه كتب رسالة في ذلك .

ـ على كل حال سأحرك الموضوع ..أنا لا أعتقد أن خالدا معترض .. أنا أعرفه هو محب لعمله وهادئ ؛ فهو ساعدني في أمرين داخل أروقة الوزارة ..وهو جراح قلب .. ويعمل العمليات في مراكز علاج القلب ، ولا يتدخل في شأن أخواته .. علينا أن نلتقي لنسمع حقيقة الصورة.

ـ سأفعل.. أريد أن أتدخل في الصلح بينك وبين الدكتور سمير .

ـ لسنا متحاربين ؛ إنما أفكارنا متحاربة .

ـ وتتحدثون بواسطة الهاتف في فترات متباعدة ؛ كأنكم في بلدين متباعدين!

ـ هو يريد أن أعود لدينه .. وأنا لا أريد .. ولا أومن بدين سماوي .

ـ اليوم تصالحنا مع اليهود .. وقضينا شبابنا ، وهم يصدعون رؤوسنا ببغضهم وتدميرهم يا سيدتي .. دينكم الأرضي مات في بلاده ، ولم يعد يبحث عن حكم العالم .. انتصرت الرأسمالية عليكم .. فلماذا المكابرة ؟! عشرات الشيوعيين الذي عرفتهم في مطلع شبابي ذهبوا للحج والعمرة .. الشيوعية أصبحت في نظري ونظر الكثير تاريخ .. ليس عيبا أن يتراجع الإنسان عما اعتقده صحيحا في يوم ما .. لا أريد أن أعمل نفسي عليك واعظا وشيخا .. واليوم كثير من المسلمين مجرد مسلمين يزنون يشربون يكفرون يتعرون .. شوارعنا لا تختلف عن شوارع باريس ولندن .. مسلم مسلمة لا تلتزم بالإسلام ، لا صلاة ، لا صوم ؛ ربما يعرفون أنهم يتزوجون على النظام الإسلامي، وحتى الشيوعيين يتزوجون على النظام الإسلامي ؛ لأنهم لا يحكمون ، ولما يموت الشيوعي تحمل جنازته للمسجد ، وهو الذي لا يؤمن بوجود الله .. والدين أفيون الشعب .. وزعم بعضهم أن الاله مات .. ومع ذاك عندما يهلك يذهب به أهله

للمسجد ؛ لتصلى عليه صلاة الجنازة .

ـ سنتكلم بذلك .. وتناقشنا أنا والرفاق بهذا الحال ، وما صرنا إليه .. ليس من السهل التخلص من ذلك يا إدريس .. أنتظرك غدا.

ـ لا بأس أصلي المغرب في حيكم .. ونشرب الشاي .. سلمي على زوجك وأولادك .. وليكن هو الآخر في الانتظار ؛ لأن الخلوة بالمرأة لا تحل.

ـ آ ! هذا صرت شيخا أخيرا !

ـ أنا طول عمري أصلي وشيخ ؛ ولكن أحيانا أضطر للخلوة والسرية.

ـ جيد ! أليس اسم إدريس على وزن إبليس ؟

ـ لا، إبليس لعين .. وإدريس اسم ورد في القرآن ، وهو اسم نبي .



تحدثت سمر مع هند بشأن زواج إدريس وزينب ، وعلى زينب أن تقول: نعم أو لا .. وأخبرتها أن الأستاذ إدريس سيزورها الليلة بعد صلاة المغرب ، فاستأذنت هند بحضور هذه الزيارة ، فرحبت سمر بذلك ، ولما جاء إدريس تفاجأ بوجود هند ، فسلم ، وجلس ، ولم يتحدث حول الصورة ، وأخبر أن الشقق السوداء لا علاقة لها بصورة نبيلة وطلاقها ، وأن المهندس مرادا لا يد له في التصوير ، وأدركت سمر أن إدريس لا يريد الكلام عن الصورة أمام هند بأكثر مما صرح به .. وانتقل الحديث للحديث عن زينب والزواج.

فقالت هند : أنا سأتكلم بصراحة يا سمر ويا ا إدريس .. زينب لم ترفض الزواج منك ؛ إنما الذي حدث أن زينب العزيزة كما تعلمون قد أزالت الرحم بعد ولادتها في تركيا .. وقبل سنة قبل ظهور إدريس في حياتنا اكتشفت أنها تعاني من سرطان الثدي الشائع بين النساء .. فالأدوية لم تعد تجدي نفعا في علاجه .. فستخضع لعملية إزالة الثدي السقيم ..ولما جاء

إدريس إلى هذه الغرفة على ما تذكرون ضعفت عن إخباره بالحقيقة .. هي تريد الزواج .. فحاولت تشجيعها على قول ذلك لما تقابلتم هنا ؛ لكنها لم تستطع فعل ذلك .. ولم تسمح لي بالحديث عنها .. كان الظن أن العلاجات ستنجح بالشفاء ، وتوقف هذا المرض .. فكان قرار الطب البتر ، ومع اشتداد مرض أبي تجاهلنا العلاج والزواج .. وهي صدقوا أنها راغبة بوجود شريك يتفهم ظروفها ومأساتها وتعيش الحياة الزوجية .. لا تريد توريط إدريس بمشاكلها الصحية ، فافتعلت أنها تفكر ومترددة .. والأمر لك يا إدريس .. هي قابلة بك زوجا بدون تردد .. وها أنا وضحت لكم سبب كل هذا التأخير .. قد يكون سرطان الثدي من أقل أمراض السرطان خطورة ؛ ولكن المريض يعاني .. وخشيت أن تترمل ثانية .. فأنا أمام السيدة سمر أطلب منك التفكير والنظر بها جد .. وأنا أتمنى أن توافق ؛ لتحقق لها السعادة بالزواج والحياة الأسرية التي هي إليها مشتاقة .. وإذا قبلت الزواج منها سنؤجل العملية إلى ما بعد الزواج والأعمار بيد الله .

قال إدريس ملتفا لسمر : كان عليك أن تقولي ذلك من قبل.

قالت سمر : أنا لا أعرف هذا إلا الآن .

قالت هند : أحيانا كثيرة لا يستطيع الإنسان ذكر كل شيء .

قال: أنا لم أقصدك يا سمر ! وأنا قبلت بها سابقا ؛ ليس لأنها أول امرأة تعرض .. ولو صارحتمونا بذلك لتزوجها منذ زمن من أيام الوالد .. أنا ما زلت مستعدا للزواج منها يا دكتورة هند .. أنا الذي شجعني على الزواج منها عندما تحدثت السيدة سمر بذلك عدم قدرتها على الإنجاب ؛ لأني أنا عاجز عن ذلك في سنوات زواجي الأولى .. أنا قبلت بعد تأمل ليس لهفة على الزواج ..وليس طمعا بمالها ..كله بقدر الله.

قالت سمر : الآن الكرة عندكم يا هند .. وأنا متأكدة لو رغب إدريس بالزواج للزواج لتزوج من زمن بعيد كما نرى في دنيا الناس !

قالت هند : أشكركم جميعا ! وما دمت أنت مستعدا للزواج من أختي رغم علتها فعلى

الرحب .. فالمال الذي تملكه ماذا يفعل لها بعد الموت يا إدريس ؟ سيصلك الجواب خلال أيام لكن إذا قدر الله وحصل النكاح الشرعي أفضل أن تقبل العيش بقصرها دون أي حرج .. وهي تحب العمل كما تعلم .. وصدق أيها العزيز أنها تقدم الكثير والمال والأدوية للجمعيات والأماكن الصحية المجانية .. وسترى ذلك بنفسك .. وأرجو أن لا تشعرها أنك تزوجتها شفقة ورأفة حتى لو وقع ذلك في نفسك سابقا أو الليلة .

ـ العاطفة جزء من حياتنا يا دكتورة .. أنا قبلت ـ كما قلت ـ أصلا لأني لا أنجب .. فهذه العقدة التي كانت تمنعني من الزواج .. وبالنسبة للحياة معها في قصرها هذا أمر عادي .. لا حساسية لديّ .. فسأؤجر الشقة أو أعيرها .

قالت هند وهي تقف : جميل ! وأنا سعيد بها تكلمنا .. اتفقنا وستسمع أخبارا سارة .. أتحب أن أوصلك بطريقي ؟

ـ شكرًا .. أنا أنتظر زوج السيدة لحديث خاص .. سأدعوهم للإسلام .

ـ معقول! هذه مهمة صعبة ! رأيت مجادلات عقيمة لسمر .. فشقيق سمر دكتور شريعة ، ومن المشايخ .

ـ الله يضع سره في أضعف خلقه كما يقال .

وبعد وداع هند عادا للجلوس وقالت : هو في البيت ؛ ولكنه استحى من هند . ونادت بصوت مرتفع ، فظهر زوجها بعد قليل وسلم على إدريس ، وبعد التحايا قالت : قبل أن تتحدث عن الإسلام والدين تحدث عن الصورة .

ـ باختصار ، ولأنكم أصدقاء ، وساعدتموني في التحريات حول الصورة .. فالذي صور نبيلة هو والد هند ؛ ليطلقها سيف ويتزوجها .

صاحت استغرابا : الدكتور غريب!!

وبعد دهشتهم قال : نعم ، هذا ما تبين لنا .. وصورها داخل القصر باستخدام مسحوق السيطرة على العقل الذي يستخدم في علاج المرضى العقليين ، حيث كان يعمل في مستشفى

أمراض عقلية ونجح .. وسيصدر كتاب عن حياة سيف بقلمي على شكل رواية اجتماعية .. ولا يعرف أحد أنها عنه إلا من يعرف المهندس سيف مثلكم .

ـ وأنتم كيف عرفتم ؟!

ـ هو اعترف لنا قبل موته برسالة خاصة.

قالت : هو فعل ذلك ليتزوجها !

ـ نعم ، طلبها قبل سيف ؛ ولكن أمها لم تقبل به .. والفتاة كانت تحب سيفا كما تعلمين .. ففعل الحيلة ، وورط مرادا عن طريق رسالة .. وسيف لما رأى الصورة ذهب عقله ، وتسرع بالطلاق .. وظهر الرجل أمام والدها بالبطل والشهم .. وتزوجها ، وماتت نبيلة وهي لا تعرف الحقيقة ؛ لكنها تشك بخبثه دون دليل أو اعتراف .. وهو لم يكن نظيفا.

ـ هذا معروف عنه .. وكانت بناته مخزيات من مغامراته رغم حياتهم في حي لا يهتم بمثل هذه القصص .

ـ وهذا سيظهر في القصة دون إظهار الأسماء الحقيقية .. وأرجو أن لا يبث هذا الخبر .

ـ وربع المليون !

تحدث إدريس عن التعويض الذي دفعه غريب لسيف ، ورفض سيف قبوله ، وحول على حسابي ، وقال : عوضه عن كل سنة عشرة آلاف دولار .

صاح زوج سمر : مذهل هذا السيف ! معقول!

قالت سمر : شيء رهيب الدافع والقابض والفائز !

قال إدريس : إذن هي ليست رشوة .. وهذا ما حصل .. فأنا في أقل من ساعة تحولت ثريا .. وإذا تزوجت زينب سأكون من أهل حي بهية ؛ ولكن ينقصني الورثة .. وسيف بسبب قصة الصورة صار صديقا لي .

قالت سمر : يا إلهي ! ما زال هناك أناس بهذا السخاء ! وقصة الدكتور سمير .

ـ سمير أخوك .. عندما تحدثت عن سبب طلب أم نبيلة منك أن تجدي لزينب زوجا متدينا

ذكرت أن سبب الطلب أن أخاك إمام مسجد .. فتحريت عنه ، وقابلته ، وعرفت المزيد من المعلومات الخاصة عنك .. وحدثني أنه حاول مرات ومرات إقناعك بالعودة إلى الإسلام .. ووجد منك عنادا وصلابة أكثر من الروس الذين تخلو عن الماركسية في أيام معدودات وعرفوا أنها نظام حياة فاشل ومتأخر ومتخلف .. ومن العجيب أن بعض العرب متعلق بها أكثر من أهلها!

قال زوجها : لم يعد أحد ينظر إليها كمنهج حياة يا صديقنا ! لكننا عشنا شبابنا وكهولتنا عليها ، فمن الصعب على بعض الناس التخلي عن ماضيهم وتاريخهم .

ـ رواسب الماضي ، والتضحيات التي قدمها لا تهون عليه ، والذي سجن وحرم من العمل في مؤسسات من أجلها .. يا سيدي العرب قبل الإسلام عبدت الحجارة والأشجار والكواكب وتركوا ذلك وعبدوا الله .. بعضهم بسرعة وبعضهم ببطء.

ـ وبعضهم تظاهر بالإسلام .

ـ قصدك المنافقون

تحدث سيف مع إدريس قائلا بفرح طاغ : تحدثت معي هند قبل دقائق .. وتقول لك: ألف مبارك يا إدريس لزينب سعيدة بقبولك لها بعد أن عرفت أنها مريضة بسرطان الثدي ، وتقدر شجاعتك ، وتضحيتك.. وهم بحاجة للقائك ، فاخترت بيتي للقاء عصرا ..صَل العصر عندنا .

صلى العصر في حي بهية ، ولما دخل بيت سيف ، كان الدكتور خالد وشقيقاته في انتظاره ، وسلم وحيا الجميع ، وجرى التعارف بينه وبين الدكتور خالد ، وأعجب إدريس بخالد ، ووجده مثل الطفل الصغير جسما وصوتا .

وقال خالد : أختي زينب لا تمانع من الاقتران بك يا أستاذ إدريس.. وقد ذكرت معلومات طيبة عنك.. وسنؤجل العملية الجراحية والاستئصال إلى ما بعد الزواج حتى تذهب بنفسية طيبة ، وزوج محب لها .. وأقول إن الأخت العزيزة ترغب أن تعيش معها هنا في حي بهية قرب

صديقك العزيز سيف ، وقرب صيدليتها .. وذكرت هند أنك لا تمانع في ذلك ، ولا حرج .

قال إدريس : وكما يعرف أخي سيف أنا قضيت عمري أعزب مثله؛ لذلك انجذبنا لبعض بسرعة للتشارك المعنوي بيننا، فيمكنني العيش هنا ، وفي حيكم وبدون أي حرج أيها الأصدقاء .. وأنا أشرف بالزواج من الدكتورة زينب أخت حضرتكم .. وأنا أعترف أن الذي جعلني أتشجع وأقدم على هذه المغامرة تشاركي مع الفاضلة بعدم قدرتنا على الإنجاب وهذا أمر الله علينا ، نسلم له .

وتحدث سيف فقال : إدريس أحب إليّ من إخوتي وأهلي .. لما تزوجت من عهد قريب كما سمعتم مرضت ، وقَعَدت في المشفى ثلاث ليال قضاهن معي .. رب أخ لك لم تلده أمك .. وهذا الرجل منهم .. وألف مبارك لك يا دكتورة زينب .. وألف مبارك لك يا أستاذ إدريس والأستاذ بكالوريوس صحة عامة .. يعني متعلم في الجامعة يا دكتور خالد .. وسيكون أفضل جار لنا.

واتفقوا أن يكون الزواج يوم الجمعة القادم ، وذهبوا لبيت زينب فقال سيف : أرى أن نغير غرفة النوم فقط يا إدريس كما فعلت أنا .. وهي هدية مني ، وأقسم على ذلك .

ومشوا إلى قصر خالد قصر الدكتور غريب ، وقدم لهم العشاء ، وتعرف إدريس على زوجة خالد وأولاده .. له طفلان فقط .. وجاء زوج هند ، وشاركهم العشاء ، وتعرف على إدريس وقال إدريس: غدا سأرتب أمور الزواج ، ونذهب للقاضي لعقد الزواج.. والجمعة نحتفل بالزواج.

قال خالد :حفل الزواج كما تريد زينب تريده أن يكون بسيطا ، وفي نادي الحي يا مهندس سيف .. ومقصور على عدد بسيط مائة إنسان وسيكون الحفل على نفقتي بإذن الله .

فقال إدريس: وأنا ماذا أدفع ؟!

قالت هند : المهر والصداق عليك.

ـ هذا مفروغ منه يا دكتورة هند .. نحن لم نتفق على المهر يا دكتور خالد .

قالت زينب : سيكون المهر دينارا واحدا يا أستاذ إدريس .. أنا لست بحاجة لمال، ولا متأخر ولا أثاث .

قال إدريس : قبلت يا سيدتي الكريمة .. وسأدفع عشرين ألف كذهب تتزينين به كذكرى لزواجنا الخالد .

ـ أحرجتني يا إدريس وسأقبله !

وفي مساء الجمعة احتفل الأصدقاء من جهة الطرفين بزواج إدريس وزينب في أحد الناديين في حي بهية ، وكان إياد وسمر وسوزان وعبير من ضمن المدعوين من جهة إدريس ، ولما انتهى الحفل تفرق الناس ، وأقيمت سهرة خاصة في منزل زينب شارك فيها الأعزاء العروسين العشاء .

وبعد شهر من الزواج خضعت السيدة زينب لجراحة لإزالة الثدي المريض ، وتعرضت لعلاجات صعبة ؛ ولكنها أحست بالسعادة بوقوف إدريس بجانبها خلال تلك المحنة ، وكذلك صديقه سيف .. وكانا لا يفارقان المستشفى إلا لماما للصلاة أو النوم بضع ساعات .. وخرجت السيدة بعد عشرة أيام ، وعادت للبيت وهي في غاية السرور من حب إدريس لها .. وكان عليها أن تتابع العلاج حتى تشفى تماما ، ولما استقروا في البيت قدم لهم زوج هند بهدية سيارة منه ، ومن زوجته بمناسبة الزواج ، وبمناسبة نجاح العملية ..وتسلم إدريس المفاتيح شاكرا .. وكانوا سعداء رغم مرض زينب .. ولما اقترب موسم الحج تجهز سيف وزوجته ، وإدريس وزوجته إلى رحلة عظيمة عند المسلمين ، وعندما تكون بالطائرة ستكون مريحة إلى حد كبير وأيسر من رحلة بالبحر والبر .. ورحلة الحج تكون بعد رمضان بشهرين .. وكان إدريس قد نشر القصة قبل السفر بأسبوع .. وكانت طبعة راقية وثمينة .

تمت

علي ابو خروف

هوايتي قراءة الكتب والقصص ، دخلت الحي المعروف بأبي خروف ، وخُبرت ان عدة مآسي جرت أهم أحداثها في هذا الحي ، فسمعت منها الكثير أثناء عيشي فيه ، وانتقيت لك عشر منها ، وراعيت سنواتها ، وتركت الكثير ؛ ربما نتحدث عنها إذا تيسر الأمر بمشيئة الله وحده.

ولا يعني هذا الكلام عن مآسي البشر أنه لم تكن هناك قصص نجاح وسعادة ؛ بل هي الكثرة الغالبة.

وكما عُلمنا السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ بنفسه، وقد قرأنا في الكتاب العظيم ما أصاب عاد وثمود ومدين وسدوم.

لعلك تستمتع ، وتحمد ربك وتشكره ببعد الشقاء عنك عندما ترى مآسي البشر ، وضعفهم عندما يبتعدون عن الصراط السوي، ويسيرون وينغمسون مع شهواتهم وملذاتهم دون عقل وضابط وخلق ودين .

المحب لكم جمال

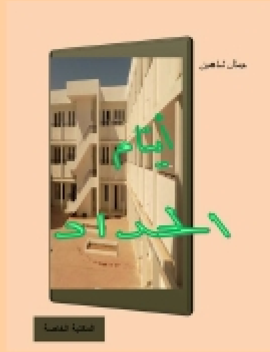
المكتبة الخاصة

لغز



القصر الصحرواي

بصمة وراثية



تفاجأ الأيتام باختيارها لزوجها فكان طلاق أمها من الرجل الذي ضحى وجاهد من أجلهم ومن أجل تعليمهم .

ثم تبين أن زوجها الاول هو قريب لزوج أمهم .. هذه سيرة حياة منى ربيع؛ لعلك تستمتع بقراءتها كما استمتعت أنا براوية أحداثها

جمال

المكتبة الخاصة

جمال شاهين



المكتبة الخاصة

رواية

شمس عَمري

جمال شاهين

دار المأمون للنشر والتوزيع

شمس عَمري

جمال شاهين

دار المأمون للنشر والتوزيع

شمس عَمري

جمال شاهين

دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس

تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧

ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail: daralmamoun@maktoob.com

ISBN 9957-462-14-8 (ردمك)

الشفق السوداء

تلاقت العيون الأربعة في المقهى الذهبي، وبعد شهور من النظرات تلاقت القلوب، فعرف أن الرجل يحث عن رجل التقى به قبل ثلاثين سنة في هذا المقهى، وابتاع منه صورة مهينة لزوجته صورة عارية.

فحدثت حوارات وتحقيقات واعترافات عن الشفق السوداء .. فكسب الكاتب الهاوي من ورائها أكثر من ربع مليون، وزوجة غنية .. وهذا يؤكد غرائب الدنيا وأخبارها.

غربتي وابتي

الشفق السوداء


جمال شاهين
استاذ الفرنساوية
استاذ الفرنساوية
المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

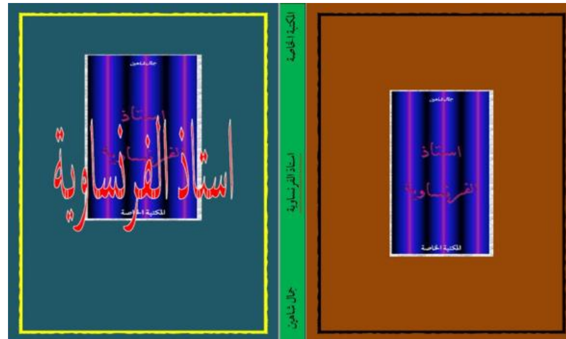
المكتبة الخاصة

استاذ الفرنساوية

النشر الاول ٢٠١١

النشر الثاني ٢٠١٨

النشر الثالث ٢٠٢١



رواية استاذ الفرنساوية

عشق اللغة الفرنسية وأتقنها قراءة وكتابة

فقلد الفرنسيين في كل شيء

لباس طعام شراب طقوس حياة

ثم اكتشف زيف كل ذلك

فأسلم من جديد

عاد للأسرة الكبيرة من جديد

ذاك هو استاذ اللغة والآداب الفرنساوية

ج. ش

استاذ الفرنساوية

أهم أشخاص الرواية

فارس محسن	دكتور يعمل في الجامعة
جابر محسن	مسؤول عن مصنع صغير
ثريا جُد	زوجة الدكتور فارس
سلوى وحسناء	ابنتا الدكتور فارس
حبيبة محمد	طبيبة
خالد موسى	طبيب
مازن محمد	مالك وكالة سيارات
سامر خالد	طالب طب

فارس محسن

نزل فارس محسن من السيارة الصالون ، وفتح باب الموقف الخاص بها داخل الفيلا ، ثم أدخل السيارة نفسها الموقف ، وأطفأ المحرك ، ونزل منها وأغلقها ، وتفقد سائر الأبواب، ثم ضغط زرا فاغلق باب الموقف أوتوماتيكيا ، وهكذا أغلق باب الكراج ، وهكذا يفعل عادة ، فنظر الرجل الساكن في هذه الفيلا نظرة على ساعة معصمه ، ثم مشى على درب يوصله لمدخل الفيلا ، فوجد طفلتيه تقفان على مدخل الفيلا في انتظاره ، فصعد درجة واحدة وعانقهما ، ثم رفع الصغيرة منهما إلى أعلى ، وهو يمازحهما كعادته عندما تكونان في استقباله ، ودخل بهما الباب ، وكانت زوجته ترقب دخوله مع الطفلتين ، ولما أصبح في الداخل حيا الزوجة تحية المساء ، وأغلقت المرأة الشابة الباب بالمفتاح ، ولما وضع الطفلة على الأرض ، قالت له الزوجة الحسناء : أين كنت ؟! لقد تأخرت عن الغداء !

خلع الجاكيت وناولها للزوجة وهو يرد قائلا : نعم ، تأخرت يا ثريا .. لقد اتصلت بالبيت ظهرا فلم يرد عليّ أحد ؟!

أمسكت بالجاكيت وأجابت : كنت عند أمي .. اتصلت بي صباحا فهي متعبة متوعكة .

مشت لتضع الجاكيت في موضعها المناسب ، وقد سمعته يتمتم داعيا لها بالشفاء وقال : هل أكلتم ؟

ـ أكل الأطفال بعض الطعام .

ـ هيا بنا للمطبخ إذن .. إني جائع رغم أنهم قدموا لنا بعض الطعام والشاي .. كنا في زيارة لأحد الزملاء المرضى يا أم سلوى .. ذهبنا لبيته .. وبيته خارج المدينة .. في طريق مدينة نصر .. الله يشفي جميع المرضى .. أليس هكذا يدعون في بلادنا ؟

لما رجعا لصالة البيت وجلس فارس على إحدى الكنبات ، قامت ثريا بوضع بطاقة دعوة بين يديه ، فتناولها بإحدى يديه وهو ينظر إليها مستفهما : ممن ؟!

فردت بغير اهتمام : كأنها من أختك خديجة .

فقال كأنه متفاجئ : أختي خديجة !!

وفتح غلاف بطاقة الدعوة وأخرج البطاقة التي تدعوه فيها شقيقته الكبرى خديجة محسن للمشاركة في عرس ابنها عصام مازن ، هذه البطاقات الدعوية اليوم سارت من عادات العرس ، ويتفنن أصحاب المطابع في صناعتها وأشكالها ، وهي تتضمن دعوة من والديّ العروسين للمدعو لحضور حفلة العرس في مكان ما وزمان ما .

قرأ فارس اسم العروس واسم والدها وعائلتها ، فلم يعرف أحدا منهم ، فتمتم في نفسه بكلمات ، ثم ترك الكرت على منضدة الصالة وقال متبرما : من أحضرها إلينا يا ثريا ؟

قالت : ربما عصام نفسه .. لما رن الجرس لم أكن في البيت كما قلت لك ، كنت عند أمي المريضة .. وحين عدت من عندها أرسلتها لي جارتنا نهى مع خادمتها .. فاتصلت بها ، فقالت " شاب اسمه عصام رن على جرس البيت ، وقال جارتكم أم سلوى امرأة الدكتور فارس غير موجودة ؛ فإذا سمحت لو أوصلت لها بطاقة العرس ." فأخذتها ، ولما عدت أرسلتها مع الخادمة ..

ـ جميل ! جميل ! ها هي السيدة خديجة تريد تزويج ابنها عصام ، لقد كبر الفتى .. ماذا درس هذا الشاب ؟! .. لم يدرس ، لقد ترك المدرسة ، واشتغل بورش تصليح السيارات .. هل تعلمين أن هذا أول حفيد ذكر لمحسن سيتزوج ؟!

ـ الله يتمم على خير .. من يعش سيتزوج .. هل ستذهب ؟

تبسم بضيق من السؤال : الآن لا أدري لست أعلم .. أنا لي سنوات لم أزر خديجة في بيتها .. الأمور بيننا ليست على ما يرام .

وغرق في ذكرياته مع أخته وزوجها ابن عمه مازن وشقيقته حبيبة .



فارس شاب متوسط الطول ، بشرته خفيفة السمرة ، تعلم في الجامعة دون سائر إخوته الذكور ، وتعلم في كلية الآداب ، وحصل على ليسانس آداب اللغة الفرنسية ، وأخذ الماجستير

والدكتوراه كذلك بهذه اللغة الأجنبية ، مما ساعده أن يعمل معيدا في نفس الجامعة التي تخرج منها ، ثم ترقى في السلم الوظيفي لعضو الجامعة، فهو محاضر معروف في وسط الجامعات والطلاب ، وهو مغرم بتلك اللغة ، ويتعامل معها بطلاقة وحب أكثر من اللغة الإنجليزية ، ومع ذلك فهو يحسن القراءة والكتابة بها أيضا ، وهو ضعيف في لغته العربية ، فلذلك عندما يحتاج لترجمة بحث للغة العربية يعرضه على مدرسين اللغة العربية لتصحيح الكثير من أخطائه النحوية والإملائية ، وهو يقول عن سبب تعلقه باللغة الفرنسية غرامه بالقصص والروايات الفرنسية أثناء فترة المراهقة ، وكذلك هرب الكثير من الشباب من تعلم تلك اللغة ، وأدرك كذلك أن مجال العمل بها ممكن وكبير .

كان الدكتور فارس يجلس في مكتبه في مبنى الجامعة الكبير ، وبينما هو يشعل سيجارة ـ فقد كان هذا الدكتور من يتعاطون التبغ ـ وقد أخذ عليها نفسا عميقا ، ارتفع جرس الهاتف في الغرفة ، فرد قائلا : نعم .. أهلا ثريا هل من شيء ؟!.. لا وقت لديّ لحضور الحفلات .. لن أذهب .. أرجوك .. صدقي لا وقت لديّ .. إنهم لا يعلمون انسِ لن احضرها .. هم أرسلوا البطاقة بحكم العادة .. جاء المدعو أو لم يجئ .. اذهبي إلى أمك ، وسلمي عليها وعلى الجميع . ترك الهاتف وقال لنفسه : ولماذا أذهب ؟! فخديجة تكرهني .. وزوجها يكرهني أكثر .. لا وقت عندي لحضور الأعراس .

ولم يعد للبيت ذلك اليوم إلا بعد منتصف الليل ، ولما فتحت له زوجه الباب قالت : لماذا تأخرت ؟! قبل قليل غادر بيتنا أخي ماهر وزوجته.. كان يريدك في أمر .. ثم يأس من عودتك .. هل ذهبت للعرس ؟

ـ أي عرس ؟!

ـ عرس ابن أختك .

ـ لا ، ألم أقل لك ظهرا لا وقت لديّ ؟

فقالت متمنية : أنا أرغب أن تعود المياه لمجاريها بينك وبين أهلك يا فارس .

فقال غير مكترث بتمنيها : لا تهتمي بهم .. أنا نسيتهم منذ تزوجت ثريا جُد.. كم لنا متزوجون ؟

تسع سنوات على ما أعتقد .. عشر سنوات .. وذلك عندما رفضت العروس التي أرادوا تزويجي منها .. فحقدوا عليّ .. وأعلنوا الحرب الشعواء حرب داحس والغبراء على فارس .. على الدكتور فارس ..واعتبر زوج الأخت خديجة رفضي لأخته جريمة وعارا .. وفضيحة كبرى في تاريخ العائلة ..

وكان خلال هذا الكلام قد خلع الجاكيت وناولها لثريا ، وجلس على مقعد وتابع الكلام :

هؤلاء الناس لا يعتبرون مشاعر الإنسان شيئا مهما .. هي صحيح متعلمة وتخرجت من الجامعة بعد زواجنا وأصبحت طبيبة ..ولكنها لم تكن تناسبني .. ولا يعلمون مقدار الحب الذي أحببتك إياه .. سخروا من حبي لك ، واعتبروه حب عيال ومسلسلات وتسالي وروايات .. وأنا خفت حقيقة أن تتخلي عني عندما علمت شدة رفضهم لزواجي منك .. آ..

ماذا يريد الأخ ماهر مني يا أم سلوى ؟

ـ ربما بعض المال .. فهو غارق هذه الأيام في الديون .. المصنع يمر بأزمة ومشاكل حادة كما يقول ، وكما فهمت منه .

ـ يريد مالا !!



كان والد فارس يقول لولديه محمود وجابر وهم يغادرون قاعة الاحتفال بعرس ابن خديجة : أخوكم فارس لم أره في الحفلة ؟!

فرد جابر بغيظ : ولا زوجته .. لقد كان عندنا أمل أن تتحسن العلاقات بيننا مع هذه الحفلة .. لقد كان أبو عصام يصر على عدم دعوته زاعما أن الرجل متكبر ولا يعتبر أحدا من العائلة له قيمة وأهمية .. وكان لا يقدر أحدا قبل أن يأخذ الدكتوراه ؛ فكيف بعد أن حمل هذا اللقب وأصبح ينادى يا دكتور ..؟

قال محمود : لا تقل ذلك يا جابر عن أخيك ..أنت تعلم سبب زعل مازن من أخيك .. أنتم فعلتم الواجب عليكم وكفى .. حضر المدعو أو لم يحضر .. فهذا لا يؤثر على العرس .

فرد جابر بزعل ظاهر : مهما يكن ، فخديجة الأخت الكبرى وزوجها ابن عمنا.. وابنة عمنا تزوجت زوجا أحسن من مليون فارس .. وهي طبيبة قد الدنيا .. هو كان طامعا بها .. فلما التقى بثريا اللعينة نسي ابنة العم .. لقد تقدم لها الكثير .. فرفض عمي ومازن من أجل خاطر الدكتور فارس ..لا تنس ذلك يا أخ محمود .. ابنة عمنا لم تكن بايرة ..كانت في أول سنوات الجامعة .

ـ تعلمت على حساب الدولة .

ـ ماذا في هذا ؟ ما صاحبك تعلم على حساب الجمعية .. على حساب الدولة على حساب عمك .. المهم تعلمت وصارت طبيبة .

فقال محسن السامع لهذا الحوار : وأم سلوى لم تحضر ؟

قال جابر : سألت زوجتي هناء ، فأكدت لي أنها لم ترها ، لا هي ولا أحد من أهلها..

فقال الأب محسن : فارس غلطان يا محمود .. المجاملات في مثل هذه المناسبات مهمة فإنها تزيل الكثير من الشحناء والحقد ، وتساعد على تحسين العلاقات .. المفروض بعد كم سنة من العداء أن عاد فارس لحضن العائلة ..أكيد أمكم فاطمة ساخطة عليه وعلى امرأته .. هو الواحد لما يتعلم لازم يكبر على أهله والناس .. عيب .. عيب يا فارس .. أنا متألم منه كثيرا ..

هو يعني لما يتحدث بالتلفون قام بواجبه نحونا .. وإذا أهل على دارنا يقضي خمس دقائق .. كيف حالكم ؟ ما أخباركم .. هيا يا ثريا وراءنا شغل و.. و ...

فقال جابر بغيظه الظاهر: كأنه لم يتعلم أحد في الجامعة في هذه الدنيا سواه .. صحيح نحن لم نساهم في تعليمه .. لأن وضعنا المادي يا رب الستر .. وكثيرون يتعلمون على حساب الجمعيات وأهل الخير والوزارات ..

قال محمود : على كل حال دعونا الآن من فارس .. ولنهتم بضيوف ابن عمنا مازن .

بينما الدكتور فارس يلقى محاضرة على طلابه ، دخل عليه أحد الزملاء الدكاترة مخبرا له أن البيت اتصل أكثر من مرة ، فاعتذر من الطلبة لبضع دقائق فقط ، ولما اتصل بالبيت سمع بكاء ثريا قبل سماعه صوتها ، فاضطرب قلبه وقال : ما الأمر ؟ هل سلوى بخير ؟

لقد غادر البيت وسلوى تعاني من التهاب اللوزتين ، فظن أن مرضها تضاعف وزادت درجة حرارتها .

ولما تمالكت الزوجة أعصابها ونفسها علم منها أن أمه بهدلتها وشتمتها وحقرتها ولعنتها ، وغاضبة عليها لعدم مشاركتها حفل زواج حفيدها عصام مازن ، وحذرتها من المجيء هي وزوجها لبيت العائلة ، وستطردهما شر طردة ، حتى تسمح خديجة لهما بزيارتهم ويعتذرون لها.

فلما سمع القصة فقال: أهذا الذي أزعجك ؟! نحن في غنى عن زيارتهم .. أنا ظننت أن سلوى زاد سقمها وتعبها .. هل أخذتيها إلى الطبيب ؟

قالت وهي تشرق بدموعها وتتنهد بالبكاء : جاءت أختي وأخذتها للعيادة ، وأنا في انتظارهم إن أمك جرحتني ، وأساءت إلى أهلي ، وإنهم لم يربوني ، وشتمتهما يا فارس .

فقال غضبا : سأنهي علاقتي بهم للأبد .. إنهم سيئون وحاقدون .. أنا آسف يا حبيبتي .. اهدئي ولما أرجع سنتحدث في الموضوع إلى اللقاء .

ووضع السماعة وقد أصابه انزعاج شديد وغضب قاتل ، وقال وهو يصر على أسنانه غلا وغيظا : إنهم يكرهونني لا أدري لماذا ؟! موضوع زواجي من ابنة عمي انتهى منذ عشر

سنوات .. حفل زواج عصام فتح الجروح من جديد .. أحسن حل الابتعاد عنهم نهائيا .. لماذا لا أغادر البلاد نهائيا حتى لا أسمع أخبارهم قطعيا ؟ .. كيف السفر؟ لا أستطيع .. نعم ، لا أستطيع من ابتلي بالنساء لا يستطيع .. وقبل أن يغادر لإكمال محاضرته رن على بيت أمه ، فردت أمه وقبل أن يتحدث بشيء، كالت له السباب والشتم والغضب عليه ووصفته بالجبان والمحكوم للنساء ـ تعني زوجته وحماته ـ وأغلقت السماعة في وجهه ولم تسمح له بإكمال جملة ، فازداد حنقا على أمه ، وعاد لمحاضرته ، فوجد الطلاب قد تركوا القاعة ، وأن وقت المحاضرة قد انتهى ، فعاد لغرفته يدخن ويشرب القهوة .

وبينما هو يخطط ويدبر للانتقام من أمه التي مسحت بكرامته الأرض كما زعم ، رن الهاتف من جديد فرد صائحا : أنا الدكتور فارس .. آ يا ثريا .. لعلك هدأت .. ماذا قلت ؟! .. أمي ماتت ماتت !! يا الهي قبل قليل كنت كنت ... لا شيء .



ترك فارس الجامعة عائدا للبيت ، فوجد زوجته ثريا في انتظاره ، وقد ارتدت ملابس الحداد السوداء ، فلم ينزل من السيارة ، ضغط على منبهها ، فجاءت وصعدت بجواره وهي تقول لأختها : لن أتأخر يا ريما بعد إخراج الجنازة سأعود ..

دخل فارس بسيارته "حي درهم جوهر" حيث يسكن الوالد والأشقاء ، فأوقف السيارة أمام البيت ، وقد كان المكان مزدحما بسيارات العائلة من الأقارب والأصهار، وكانت هناك جمهرات من الناس أمام البيت ، فنزل من السيارة تتبعه ثريا ، وقد أشار للناس محييا ، ثم مشى نحو بيت الوالد ، ودفع الباب ليدخل فسمع أحد الناس يقول : لم يأتوا من المستشفى بعد يا دكتور فارس .

فالتفت للقائل وقد توقف عن الدخول : في المستشفى .. لقد قيل لي إنها ماتت !.. من ؟ يوسف أهلا بابن عمي .. كيف حالك ؟

ومشى إليه مسلما فقال المدعو يوسف : آ ، أما زلت تعرف اسمي يا دكتور فارس .. عظم الله أجرك .. ورحم الله الحاجة فاطمة أم محمود

وتصافحا وتعانقا وقال يوسف : نعم ، هي ماتت .. ولكنهم لم يفرجوا عن جثتها .. ربما يجرون لها التشريح الطبي .

ـ تشريح ولماذا ؟! .. لقد كان عندها أمراض قلب وضغط .

ـ هذا ما نقل لنا يا دكتور ..

ـ الوالد في الداخل ؟

ـ نعم ، وعمك سالم والدي أيضا .

حياه برأسه وتابع دخوله تتبعه ثريا ، وسمع صوت بكاء نساء في إحدى الغرف فأشار لثريا إلى غرفة البكاء على الميت ، وتقدم هو من غرفة يقف أمامها شقيقه جابر وهو الشقيق الأصغر وفارس هو أحد أفراد عائلة تتكون من سبعة أبناء وبنات وأم وأب ، وهم حسب السن خديجة الشقيقة الكبرى لفارس ، وبلغت من العمر عند أحداث هذه الرواية إحدى وأربعين سنة ، وزوجها هو ابن عمها مازن ، والتي تليها دليلة فأمينة ثم محمود وهو أكبر الذكور ، وعمره يومئذ سبعة وثلاثون عاما ، متزوج ولم يوهب الذرية بعد ، ثم فارس وكان ابن خمس وثلاثين سنة ومتزوجا من ثريا زميلته في الجامعة أيام الدراسة ، ثم الشقيق جابر الذي لم يفلح في الدراسة ؛ ولكنه صاحب مصنع حلويات ، وهناك حميدة الأخت الصغرى لفارس ، وقد تخرجت من كلية التمريض وتعمل في مستشفى للدولة .

فلما مشت ثريا إلى حجرة النساء لتشاركهن الحزن والبكاء على المرأة التي قضت نحبها تقدم فارس نحو الغرفة التي يجلس فيها والده وأعمامه ، وقد كان السيد جابر يقف أمامها الذي صاح عندما دنا منه : أهلا بالدكتور .. أهلا بالقاتل !

هتف فارس دهشا : القاتل! .. ماذا تعني أيها المجنون ؟!

ثريا التي سمعت كلمة القاتل توقفت عن الدخول والتفتت لزوجها وشقيقه الغاضب ، وخرج بعض أفراد الأسرة لما سمعوا صياح جابر متهما أخاه بالقاتل ، فقال الأب محسن : اهدأ

يا جابر .. ليس الوقت وقت عتاب وشجار .. رحم الله فاطمة .

لكن جابرا ازداد هياجا وغضبا وقال : بل هو القاتل يا أبي ويا عمي .. يا ناس كانت تتكلم معه بالتلفون عندما سقطت ميتة .. كانت ..

فصاح محمود الشقيق الأكبر : اسكت يا جابر .. اسمع كلام أبيك .. ادخل يا فارس لا تهتم لكلام جابر .

لكن جابرا مسك قميص فارس ولطمه على خده بصفعة عنيفة ، وهو يقول صائحا : اخرج يا مجرم .. ماتت وهي تلعنك أنت وذريتك .

حدث الصفع بسرعة ، قبل أن يتداركهما الناس الذين وقفوا بينهم حينئذ فقال فارس بغضب : ثريا تعالي .. نحن لا أهل لنا.. أنت حيوان وبغل ستنام الليلة في المخفر.

فهجم عليه جابر ثانية وصفعه مرة أخرى ، وهو يقول : أنا بغل يا حقير ! .. يا قاتل .. افعل ما بدا لك .

وارتفع الصياح والهياج وعلا صوت النساء ، وخرجت ثريا من الدار

باكية ، وقاد الرجال فارسا لخارج الدار ، وأخذ البعض يلوم جابرا على سوء تصرفه ، وأن الوقت وقت حزن وعزاء ، وليس وقت تصفية حسابات ، وقد سمعوا وهم يخرجون فارسا من داخل البيت السيدة خديجة التي تركت البكاء وغرفة النساء لتقول : يستاهل .. أسد يا جابر أسد !

فقال محسن : يا عالم .. ما هذا !!



غضب الأب

فور انتهاء عزاء أم محمود فاطمة عبد الرحمن زوجة السيد محسن جابر ، طلب الرجل من ولده جابر الرحيل من بيت العائلة ، فقد كان الشاب يسكن في داره ضمن بيت العائلة الواحدة ، فرفض جابر الانصياع للأمر معتبرا أن هذا بسبب غضبه وزعله منه لصفعه فارس أمام الناس.

ولكن الأب صمم على خروجه من بيته ، فاضطر الرجل أمام غضب وتصميم أبيه أن يستأجر بيتا في نفس الحي آملا هدوء والده ونسيان القضية ، ومن ثم العودة لبيت العائلة بعد حين ، ولذلك وسط الكثير من الأقارب والأخوات ليعود ، ولكن الحاج محسن الخباز القديم رفض كل الشفاعات وقال لهم : إن تصالح مع أخيه وجاءا معا لعلي أغير قراري .

ولما رأى جابر أن والده مصر على رفض الصلح رحل إلى "حي ياقوت جوهر" .. ومع الوقت ضعف اتصاله ببيت الأسرة ، ونسي أمر التفكير بالعودة للبيت الكبير ، وزاد سخطه وحقده ونقمته على الدكتور فارس الذي جعله سببا للعداوة بينه وبين أبيه ، وكان الرجل صاحب مصنع صغير يصنع الحلوى الشعبية .

وهو متزوج كما ذكرنا سابقا ، وقد ولد له البنون والبنات ، وأكبرهم يسمى خضرا وهو دون الخامسة عشرة عندما بدأت فصول رواياتنا هذه ، فجابر هذا قد تزوج قبل فارس بسنوات ؛ لأنه ترك المدرسة قديما وهو في سن المراهقة ، وعمل في صناعة الحلوى في أحد المصانع ، ثم تزوج من إحدى بنات صاحب المصنع .

ولما أصبح صهرا للرجل أنشأ له مصنعا صغيرا ، فكانت حياته هادئة من ناحية العمل ، ولكنه من حبه لأخته الكبرى خديجة يقف معها سلبا وإيجابا ، وكانت قد ساعدته ماديا عند زواجه فحفظ لها هذا المعروف ، فلما رفض فارس قبل سنوات الزواج من ابنة عمه شقيقة زوج أخته مازن محمد ، بعد أن شاع في العائلة أن فارسا سيتزوج حبيبة ، صدم الرجل كغيره من أفراد العائلة الكبيرة ، وكيف يتزوج من فتاة التقطها كما يقولون من الجامعة وفضلها على ابنة عمه ؟! أصيب القوم بالذهول ، ولم يعجبهم اختيار الشاب ، واعتبروه مخادعا لهم ، ومكر بهم

وبابنة عمه .

فصف جابر منذ ذلك الوقت مع خديجة وزوجها بالإساءة والتقريع بفارس ، وكانت خديجة غاضبة جدا من شقيقها ، وأشهرت غضبها ونقمتها على فارس ، ولم تشارك في عرسه ورفضت الالتقاء بزوجه ، وعاداه أيضا زوجها مازن ، ووصموه بالغادر الخائن .

وحبيبة تزوجت بعد تخرجها من كلية الطب من أحد الأطباء الذين التقت بهم في أحد المشافي التي عملت فيها ، فقد تزوجت بعد فارس بعام ونصف تقريبا ، وكانت سعيدة بحياتها الزوجية ، ولم تنظر لفارس بعداء كما فعل هؤلاء .

وكان جابر الحلواني يعلم أخبار الوالد بالذات من شقيقه الأكبر محمود ، فهو يعمل في بقالة صغيرة في الحارة .. وكان قديما يعمل مع أبيه في المخبز .. فلما تخلص محسن من المخبز وباعه فتح لمحمود تلك الدكان الصغيرة ، ومحمود قد تزوج قريبة له ، ولم ينجب منها لحتى اليوم ، وتعالج الرجل عند الأطباء المختصين بأمراض العقم ، ولكن الأمر بيد الله .

عندما عادت ثريا من حفل خطبة ابن زوجة أخيها حمدي ، وقد خلعت الثياب التي ذهبت بها للحفلة ولبست ثياب البيت ، وذهبت للجلوس في صالة البيت حيث يجلس زوجها فارس ، فسألها عن الخطبة والحفلة فقالت : الحمد لله إنك لم تذهب معنا.. رغم أنني غضبت وتضايقت من عدم مرافقتنا يا فارس .. واستأت لاعتذارك.

فقال مبديا الاهتمام والاستغراب : لماذا ؟!

قالت بضيق : أخوك جابر كان في العرس تصحبه قرينته .

فازداد دهشة وقال : جابر .. وما شأنه بعرس ابن زوجة أخيك ؟! .. هل دعاه أحد من أهلك ؟ .. أدعاه حمدي ؟!

ضحكت وقالت متهكمة : حمدي يدعو جابرا !.. هزلت .. ربما لا يكره حمدي أحدا في الدنيا ككرهه لجابر شقيقك .. حتى قبل مشكلتنا الأخيرة مع السيد جابر محسن .. فحمدي يبغضه منذ أيام خطبتنا .. كان مستاء منه ولموقفه المعادي لي .. وحمدي صريح .. هو لم يقل ذلك ؛ لكنه كاشفني بهذا الكره .. وحمدي شجاع ولا يحب النفاق .

ـ ولماذا كان الملعون في العرس ؟!

ضحكت ضحكة قصيرة وساخرة وقالت : كان هناك يا سيدي لأن العروس ابنة عم هناء زوجة جابر .. دنيا عجيبة .. صحبة جامعة .. فالعرسان مثلنا تماما يا فارس .. أنت تعلم أن أخي حمديا قد تزوج أرملة صديقه العزيز حسون .. فحسون كان عند حمدي أفضل منا ، ولا يكادان يفترقان ، وذلك منذ أيام المدرسة والجامعة .. وتزوج حسون فتاة من حارتنا .. كانت تعد من أجمل فتيات الحي كما يقال في تلك الأيام .. فعشقها الشاب واقترن بها وهما في أول سنوات الجامعة .. ثم تعرض لحادث سير بعد زواجهما مات على أثره ، وكانت قد ولدت طفلا ، وكانت حاملا في مولود آخر .. وكان أخي حمدي عازبا وتخرج من الجامعة ، وأراد أن يخطب فتاة وقبل الاتفاق النهائي التقى بزوجة حسون .. فترك مشروع الخطبة وتحول للأرملة متظاهرا بشفقته على أولاد صديقه من اليتم .. ومن الوفاء لصديقه رعاية أطفاله ، ولإبعاد الشبهات عن الزوجة إذا ذهب لتفقد الأولاد.. تقدم للزواج منها ، ووافق أهلها وهي على ذلك .. فتزوج حمدي من الأرملة فاتن .. وذلك كان قبل أن أشب وأدخل الجامعة .. وها هي اليوم تخطب لابنها وقد تخرج منذ أيام من الجامعة .

فقال فارس معقبا: أخوك حمدي إنسان طيب وجواد .. وقام بتربية أبناء صديقه .. وحسب علمي لم يقصر بشيء معهم .. بل علمهم في مدارس خاصة .. وها هو يزوجهم أو يزوج مرادا ابن فاتن

ـ وفاتن لم تقصر معهم ، فهي قد ورثت عن زوجها بعض المال هي والأولاد .. فأخي كان كالوصي عليهم .

ـ وها هو جابر أفندي أصبح نسيبا لأخيك حمدي .

ـ ليس بالضبط .. فمراد لا يمت لنا بقرابة .. إنما هو أخ لأم لأولاد حمدي .. وأنا لما رأيت هناء في العرس اضطربت واستغربت، ولكن أختي هند وضحت لي الصورة والسبب .. وعلقت قائلة إن جابرا مع أهل العروس مثل الديك.. تقول كأنه صاحب العرس

ـ ملعون جابر ، دائما عامل نفسه رأس وسيد ـ ووضع يده على خده ـ اللعين صفعني

صفعتين كأنني ولد صغير .. لقد كانتا قويتين ظننت أنني سأموت .. اضطررت لفك رباط العنق .. واللعين ما زال يتحدث أمام الناس بأنني سبب موت أمي بتلك الجلطة .. مع أنها هي أخذت تتكلم بحدة ، ولم تدع لي المجال لقول جملة واحدة .

وكان نحو هذا الحديث يدور في منزل جابر ، بعد عودتها من حفل خطبة بنت عم هناء زوجته ، فقالت : سبحان الله ! أرأيت يا سيد جابر ؟!

ـ قصدك خطيب رندا ؟

ـ نعم .

ـ نعم ، قد رأيت بعض أقارب ثريا .

ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت : العريس يا سيدي ابن زوجة شقيق ثريا السيد حمدي .. وأنت تعرف السيد حمديا .. فحمدي هذا قد تزوج امرأة صديقه حسون والد مراد عندما مات قديما .

ـ الحمد لله تعالى أن فارسا لم يحضر الحفلة .. لو رأيته ربما ضربته أمام الناس ، ونسيت نفسي أنني في عرس وأجرمت فيه .. فلليوم أبي غاضب عليّ من أجله .. قاتل زوجته فاطمة .. قاتل أمي .. ما زال أبي غاضبا له .. فأكرر الحمد لله أنه لم يحضر وإلا فعلت به الأفاعيل ، ولن يفلت من يدي .. عندما التقيه سأمسح بكرامته الأرض.

ـ إنه أخوك يا جابر .. وأكبر منك سنا .. ولماذا تحمله مسؤولية موت أمك؟.. أمك ـ رحمها الله ـ كانت مريضة من قبل .. وخديجة ضايقتها جدا عندما عاتبتها عن عدم مجيء الدكتور والهانم لحفل زواج ابنها عصام .. مما دفعها للاتصال بثريا وشتمها ولعنها وقذفها بألفاظ قبيحة .. لا يحتملها بشر .. كان عليكم ويجب عليكم تخفيف وتهوين الأمر .. حتى تهدأ النفوس ثم يجري العتاب .

فضحك الرجل ساخرا وقال : أرى أن زواج ابنة عمك غير أخلاقك نحو ثريا وأهلها .

صاحت به محتجة : أخلاقي كما هي .. أنتم أخوة .. أهل.. وأنت أخطأت بصفعه يوم الوفاة ، ولو كان الرجل عنيفا لأساء إليك ..

فارتفع ضحك جابر وازداد سخرية وتهكما وقال : صار لي أعداء في داخل البيت .. وأنا متحمض عليه من زمان من أيام رفضه الزواج بابنة عمنا محمد .. وجاءت فرصة لأهانته وتهزئته أمام كل العائلة ذكورا وإناثا صغارا وكبارا ..هو لا أحد أخذ الدكتوراه في العالم إلا السيد فارس .. أنا لم أتعلم ؛ لأنني كرهت المدرسة ، ووجدت مستقبلي في السوق في المهن الحرة .. وكان لقائي بوالدك خيرا ، فعلمني هذه الصنعة والتركيبة ..

فقطعت حديثه قائلة : ولكن يا جابر الجامعة والشهادة شيء مهم .. كان عليك احترام أخيك الأكبر منك وعدم إغضاب أبيك واختصار المشاكل .. ألا تحب أن ترى خضرا في الجامعة ودكتورا مثل عمه ؟!

واشتد النقاش والجدل بين الزوجين ، وكان نهايته أن جابرا نقم عليها وطردها من البيت ، وطلب من خضر أن يوصلها لبيت أبيها .

وكان لجابر منها أربعة أطفال أكبرهم خضر ، وثلاثة فتيات ، فحملتهم الأم جميعهم وغادرت البيت في سيارة أجرة .

غضب والد هناء عندما دخلت عليهم ابنتهم في آخر الليل تحمل أولادها مطرودة من بيت زوجها ، غضب غضبا شديدا ، وحلف يمينا مغلظا أن لا يعيدها له حتى تحفى قدماه من الترجي والندم ، ولما سمع جابر محسن بذلك التحدي واليمين رمى عليها يمين الطلاق .

وحاول شقيقه محمود لململة القضية والسعي في الصلح بينهم ، وهناء لما علمت بيمين الطلاق رفضت الصلح رغم تدخل أهل الخير والإصلاح ، ولما مضت بضعة شهور ، ولم تحل القضية صلحا تفاجأ الجميع بزواج جابر من امرأة مطلقة له بها معرفة ، قد عملت معه في المصنع فترة من الزمن ، ثم فتحت دكانا صغيرا لنفسها .

فعرض نفسه عليها فقبلته فورا ، وقبله أهلها وسكن في بيت في حيها ، وترك بيت حي ياقوت جوهر .

ولما وصل الخبر لوالد هناء قال لابنته : ها هو زوجك اللعين العاق ركب رأسه وتزوج .. ماذا سنفعل بالأولاد ؟

ـ ألم ترفع عليه قضية نفقة شرعية من أجلهم ؟

ـ رفعت ، وهو يدفع ، وهو مستعد أيضا لأخذهم عنده كما قال شقيقه محمود إذا تنازلت عنهم

فأخذت بالبكاء ، ثم قالت : كنت أظن أنني أسعد امرأة معه ؛ ولكنه منذ وفاة أمه قد ركب رأسه ، وركبه جيش من الشياطين والأبالسة .. فازداد عصبية .. ودائما يسب فارسا وثريا .. ومرت الأيام وهو يزداد حقدا وكرها .. ولما خطبت ابنة عمي قريب لزوجة شقيق ثريا اشتعلت النار في قلبه أكثر .. جن الرجل يا أبتي !

ـ على كل حال إذا أنت راغبة ببقاء الأولاد معك فلن نقصر معهم .. وسأشتري لك شقة وتعيشون فيها .. وإذا كنت راغبة بالعودة كزوجة ثانية .. فاللعين كما قال محمود جاهز من أجل الأولاد أن يتزوجك ، ويعقد عليك ثانية ، بس بدون معاشرة زوجية زوجة بلا زوج .. وأنا عندي حل آخر

فقالت بلهفة : حل آخر ما هو ؟!

ـ أن تتخلي عن الأولاد ، وأزوجك رجلا آخر من معارفنا وأصدقائنا ؛ لأنه إذا تزوجت سيطلب حضانة هؤلاء .

فقالت بغضب وضيق : لا أريد العودة إليه .. ولن أتزوج آخر يا أبي .. اشتري لي شقة .. وأنا سأعمل فأنا أحمل شهادة متوسطة وأستطيع أن أصرف على نفسي والأولاد .

فقال الأب بحزن وعطف : الخير موجود يا بنيتي .. ونحن نعمل ونجمع

المال كل هذه السنين لماذا ؟ لن نأخذ معنا منه شيئا إلى القبر .. أنا تهمني سعادتك وراحتك .. فنحن أهلك .. أيام معدودة بإذن الله عزّ وجل وستكون الشقة هدية مني إليك

وقامت هناء معانقة لأبيها وهي تمسح دموعا تساقطت على وجنتيها أثناء هذا الحوار المفصلي في مستقبل حياتها .

ذات ليلة وبينما الدكتور فارس يهم بمغادرة الفيلا التي يسكن فيها وقفت سيارة صالون أمام البيت ، فلما رأى وعرف من فيها أصابه رعب واضطراب ، ووقف هو وزوجته على الباب ، فنزل من في السيارة أمامه ، وهما أخته خديجة وزوجها مازن ابن عمه فألقيا عليهم السلام ، فتمتم فارس بالرد وبصوت منخفض ليخفي اضطرابه وقلقه ، فقال مازن بصوت مرتفع : نحن على موعد يا حضرة الدكتور .. أتريد الهرب ؟ نحن اتصلنا بالسيدة ..أنتكلم في الشارع أم ندخل ؟

قالت خديجة : آ .. رد يا فارس ..

فقال بصوت ضعيف : نحن على موعد .. ولم نوافق نحن على الموعد على زيارتكم .. أنتم حددتم الوقت بدون موافقتنا .

رد مازن : ليس مهما موافقتكم .. وليس مهما أن ندخل بيت الدكتور .. لسنا مشتاقين لرؤية ابن عمنا وحرمه المصون .. بنت الباشوات .. نحن جئنا لنقول لفارس أفندي.. إن والدك يرغب برؤيتك .. ولقد دمرت حياة أخيك جابر بتكبرك ونفختك ؛ كأنه لا يوجد أحد تعلم في هذه الدنيا إلا فارس محسن جابر .. فيا رجل أختي حبيبة طبيبة وأفضل منك .. وأنت لا

تستحقها أصلا ..أبوك عادى جابرا من أجل خاطرك .. من أجلك أنت .. من أجل أن تعود إليه .. ومن يوم الصفعة وأنت لم تره ، ولم تزره يا حضرة الدكتور .. وجعلنا نحن السبب في هجرك له .. وكأننا نحن طلبنا من جابر أن يعتدي عليك أن يصفعك أمام كل العائلة .. أختك دليلة وأمينة وحميدة كلهنّ خاطبنك وترجينك بالحديث مع الوالد محسن والذهاب لزيارته .. والرجل منذ وفاة أمك .. منذ وفاتها بسببك وهو متعب .. وهذا الخباز الذي تستعر منه هو أبوك .. هو باع المخبز من أجلك .. وكل زملائك في الجامعة يعلمون أن أباك كان أجيرا في مخبز ، ثم تملك المخبز ، ثم باعه من كثرة تذمرك .

لم يتكلم فارس بكلمة ظل محدقا بمازن فقالت خديجة لثريا بغيظ وهي تشير إليها بأصبعها السبابة : أنت رأس الفتنة .. أنت إبليس نفسه .. أنت التي تفسدينه على أهله .. تخافين أن نأخذه منك .. حبيبة تزوجت رجلا أفضل منه عشرات المرات .. أنا أختي فارس أعرف أنانيته منذ كان على مقعد المدرسة .. أبوك راغب برؤيتك قبل موته يا نجس ..

وبصقت في اتجاهه وقالت : امش يا مازن .. هذا حيوان ونذل .

فقال مازن وهو يلوح بيديه مهددا : يا ويلك إن لم تذهب لوالدك ومات قبل أن يراك .. فأبوك يحملني أنا عقوقك له وهجرك له .. عمي مسكين

وبصق هو الآخر اتجاه الأرض بشدة وانصرفا .

نظر فارس إلى زوجه وبناته وقال : لا داعي للخروج الليلة .. هذه بلدة لم يعد لنا فيها مقام مع هؤلاء الأنذال .



أخذ فارس محسن يخلع ثيابه بعد أن تعرض لتلك البهدلة والتحقير أمام بيته من قبل زوج شقيقته وأخته الكبرى ، فلما جلس في صالة البيت كانت ثريا قد أدخلت البنات لغرفة النوم وعادت فقالت قبل أن تجلس : هل تشرب قهوة يا فارس ؟

هتف شارد الذهن أو مصدوما: فكرة ! أنا في انتظارها .

وأشعل سيجارة ، وكان يفكر بالتهديد الذي تلقاه من مازن وخديجة فهمس لنفسه : أأذهب وأتصالح مع أبي ؟! أبي وقف معي ضد جابر .. وموقفه الحاد من جابر يدل على أن جابرا تصرف من تلقاء نفسه ضدي .. ولكني تعرضت للإهانة في بيته وأمام أغلب أفراد العائلة الكبرى والجيران .. كانت صفعة شديدة صدمت وشللت منها ..أبي أعتقد أن لا دخل له في ضربي وصفعي .. مازن رجل عنيف .. شرس .. وحش ! هو ابن عمي محمد .. أكبر أشقاء والدي .. كان لا يحترم أباه وهو حي ..

جاءت ثريا بالقهوة ووضعتها أمامه قائلة : تفضل ..إنك سارح الفكر يا فارس

التفت لكوب القهوة وقال : نعم .. كنت أفكر بتهديد مازن

ورشف رشفة وعاد يحادث نفسه : أنا كنت أتعجب من حياة خديجة معه .. لقد كان يضربها أحيانا كثيرة .. يضربها كما يؤدب الطفل .. ويهينها أمامنا دون أية حياء منا .. ثم يتصالحان ويضحكان ؛ كأن شيئا لم يحدث بينهما .. وعندما نثور ونحتج تطلب منا السكوت وعدم التدخل .

رشف رشفة ثانية وأشعل سيجارة جديدة وقال لنفسه : لقد وقع في قلبي أنه سيضربني في الشارع وأمام البنات والمرأة .. لديّ مسدس عليّ حمله من اليوم فصاعدا .. هل أستطيع إطلاق النار ؟ أأنا أستاذ الجامعة استعمل المسدس ؟!

قالت ثريا وهي تضع فنجانها بعد أن شربته : بماذا تفكر ؟ هل ستذهب لأبيك ؟

نظر إليها لحظات ، ثم تابع شرب القهوة حتى فرغ الكوب ورد : أفكر بالقتل !

جفلت وقالت بخوف : القتل ! قتل من ؟!

ـ قتل مازن .. ابن عمي .. لقد بصق في وجهي أمامكم .

ـ أرجوك يا فارس لا تقل مثل هذا الكلام .. الحيطان لها آذان .. لو أصابه شر لتهموك به .. فكر بالسفر خارج البلد .. تعاقد مع جامعات خارجية .

ـ أتخافين من القتل ؟ لم يبق لي كرامة .

ـ أرجوك دعنا من الكرامة والشرف .. منذ تزوجنا وأنا أضطرب كلما أراه ينظر إليّ وأشعر بحقده وكرهه لشخصي ..وأحس بأن نارا تخرج من عينيه نحوي .

ـ وأنا أكرهه أكثر منك ..أنا أكرهه منذ صغري .. عندما كنت أشاهده يضرب خديجة .. كنت أكاد أجن ؛ ولكنها تصيح بوجهي : اسكت لقد تعودت على ذلك .. وأبو عصام رجل عصبي المزاج ومتهور ..



ـ إنه وحش يا فارس .. ما العمل بما طلب ؟

ـ لقد كانت صاعقة في بيت أبي .. وكانت تهمة شنيعة .. اتهمني أمام العالم في بيت أبي بقتل أمي .. ولم يدافع عني أحد ؛ كأنهم مقرون بالتهمة ..أنا سبب موت أمي فاطمة ؟!

وفجأة رن الهاتف فمشى إليه وهو يقول : من يا ترى؟!

فرد وقال : محمود .. أهلا أخي محمود .. نعم مروا عليّ قبل ساعة .. تحدثنا قليلا أمام البيت في الشارع .. أبدا لم يدخلا البيت .. لا أدري أين ذهبا ؟ .. كيف حال الوالد؟ سلم عليه سأزوره قريبا

ووضع السماعة وشرب ما تبقى في كوب القهوة البارد وقال : يسألون عن المجرم .

ـ أحسن واحد في إخوتك محمود .. فهو مسالم وطيب .. ولكنه بغير ذرية .. مسكين !

ـ مريض بالعقم والضعف المنوي .. تعالج ولم ينجح معه العلاج .

ثم عاد الهاتف للرنين ثانية فقامت ثريا وردت ، وكان المتحدث ثانية محمود وأخبرهم أن السيد مازنا وخديجة قد تعرضا لحادث صدم بعد ابتعادهم عن بيتهم .. وحالة خديجة صعبة فالضربة كانت من جهتها .

بعد انتهاء شهر واحد على حادث مازن وخديجة كانت المرأة قد نجت من الموت ، ولم يكن الأجل قد حان ؛ ولكنها أصيبت بشلل جزئي أضعفها عن القيام بواجبات الأسرة ، وعليها أن تستمر بالعلاج الطبيعي للأعصاب والعضلات .

أما السيد مازن فكانت إصاباته خفيفة ، فتحسن وضعه خلال ذلك الشهر المنصرم ، وكان قد صدم عندما علم أن فارسا لم يذهب لبيت والده ، ولم يكترث لتهديد ، وتعجب من شخص هذا المخلوق ، وقال في نفسه حانقا : لابد أنه سر للحادث الذي أصابني ، ولابد أنه توقع موتي .. تعجب من عقوق هذا الرجل لأبيه ، وهو يصر على هذا العقوق ولا يبالي بواسطة وشفاعة أحد .. فقال معزيا نفسه : ولكنه أخبر شقيقه الأكبر محمودا أنه سيتصل بأبيه ويزوره وقد مضى الشهر ولم يتحرك الرجل .

فلما اطمئن على خديجة اتصل بالسيد فارس في جامعته ، ولما سمع فارس صوته أغلق الهاتف فورا بعد أن طلب منه عدم التدخل بينه وبين أبيه .

وكان الرجل فعلا راغبا بزيارة أبيه وبيت الوالد كما أخبر شقيقه محمودا ؛ ولكنه مع حادث خديجة وعلمه بوضعها الخطير جبن وخار عن الذهاب ، ربما توقع الأسوأ لها ، فقد رفع السماعة أكثر من مرة ليتصل بأبيه ، ثم يضعف عن فعل ذلك ، فيسمع همسا في كيانه يقول : "إنك متكبر ..إنك ساخط على أبيك الخباز ..لأنه خباز .. ألم تطلب منه أكثر من مرة أن يترك هذه الصنعة ؟ وأنت على مقاعد الجامعة واعتبرتها حرفة مهينة .. ألم تقل له يوما يا أبي لم تعد هذه تناسب وضعنا الاجتماعي؟ .. ولما أنهيت الماجستير باع والدك المخبز ، واشترى لمحمود الدكان يقتات منها ، وجلس محسن في البيت .

وقال لنفسه : لماذا عاد هذا الحوار الآن أيتها النفس؟! .. رغم تركه المخبز من أجلي بخلت عليه بالمال بزعم الدراسة والزواج .. وسكت الأب والأم .. هل أنا مقصر معهم ؟! .. لم يكن

أبي بحاجة لمالي ولا حتى مال إخوتي .. عندما أعاد بناء البيت القديم لم أقدم له شيئا .. بزعم أن جابرا ومحمودا يعيشان معه وهما قادران على المساعدة .. يا الهي !

هل ماتت أمي بسببي حقا كما يزعم ذاك الشيطان ؟ ثريا لم تطلب مني يوما إغضاب أمي أو أبي أو التمرد على قوانين العائلة .. أو تمنعني من زيارتهم .. كنا نزورهم سوية .. صحيح كانت زيارتنا قصيرة .. كنت مشغولا في الدراسة والتدريس .. كان الوقت ضيقا لديّ .. لابد من زيارة سريعة لأبي .. هذا مازن وحش .. سيظل يتصل بي هنا حيث أحاور نفسي الآن .. وفي البيت .. آه ! وتنهد بعمق وقال : لماذا لم يمت في هذا الحادث لارتاح منه ؟وهل الموت يريح الناس ؟!

عاد ليلة متأخرا وكثيرا ما يعود للبيت متأخرا خلال السنوات الأخيرة ، ولما عرضت عليه ثريا العشاء قال : هل أكلت البنات ؟

كان لفارس بنتان الكبرى سلوى ابنة تسع سنوات، والثانية حسناء ابنة أربع سنوات ، فردت الزوجة : نعم، ونمن ، ولا داع لإيقاظهن .. انتظرناك .. ولما أدركنا أنك ستتأخر أكلن بعض الحلوى ونمن على أمل رؤيتك في الصباح قبل ذهابهن للمدارس .

ـ أحسنت ، اذهبي وتعشي ، لقد كنت في ضيافة صديق وزميل في أحد مطاعم المدينة .. وأصر على مشاركتي طعامه.

فردت بجفاء : لست جائعة .. أتشرب الشاي أم القهوة ؟

ـ الذي يناسبك .

فلما عادت بالقهوة وبدأ الشرب فقالت : ماذا فعلت بشأن الرحيل ؟

ـ أنا لست متشجعا إليه كثيرا .. فأنا أحاول الانتقال لمدينة أخرى .. وربما تكون مدينة نصر .. ففيها جامعة مهمة .

قالت كأنها متهكمة : وكم تبعد نصر عن جوهر ؟!

ـ تزيد عن مائتي كيلو متر

ـ وهل يدعنا أهلك بدون منغصات وتلفونات ؟!

فقال ببعض الحدة : يا سيدتي لو سافرنا القمر سيتصلون وسيزعجون .. فكلما ألم وجع بالسيد محسن أو دخل المستشفى .. أبوك في خطر أبوك سيموت .. يريد أن يراك .. وأنا لماذا لا أريد زيارة أبي؟ حتى لا يعود الحال القديم .. هؤلاء الناس يظنون أن الدكتور في الجامعة وقته فراغ .. ويظنونه كالمدرس أربع خمس ساعات وفرط الدوام .. لا يدرون أن هناك محاضرة في الصباح .. وأخرى في المساء

ـ سفر لا يوجد ؟

ـ يوجد ؛ ولكن ليس الآن .. سيكون بعد وفاة الحاج محسن .. عليّ إعداد بحث لمؤتمر قريب وكذلك محاضرة .. فأريد أن اشتغل بها .. أنت تابعي أفلامك وقصصك .. آ .. ما آخر قصة قرأتيها ؟ ..ألا تفكرين بالعودة للعمل والوظيفة ؟ إذا كنت تشعرين بالملل والضجر .

فردت بملل من الحديث : أنا منذ ولادة حسناء كرهت الوظائف ..

السيدة ثريا هي خريجة كلية الاقتصاد وتحمل شهادة سكرتارية .. وتعرفت على فارس أثناء اشتراكهم ببعض المواد الدراسية ، وكان فارس يسبقها بعام دراسي واحد ، وبعد تخرجها عملت في شركة تجارية ، ولما ولدت ابنتها سلوى فارقت العمل بضع سنين ، ثم استعانت بخادمة في البيت ، وعادت للعمل كسكرتيرة في أحد المصارف ، ولما حملت بحسناء تركت العمل واستقرت في البيت ، وعمر حسناء اليوم فوق الأربع سنوات .. فلما سمعت زوجها يحثها للعودة العمل خشية الملل والوحدة في البيت فقالت : ونعود للمشاكل مع الخادمة .

فقال : قلت إذا عندك وقت فراغ ، ومللت البقاء في البيت وقلّت زياراتك فالعمل لا بأس به .

ـ لقد فكرت بالعمل قبل وفاة والدتك قبل سنة .. ولكني لم أتحمس له .. لديّ رغبة بمغادرة البلاد كنت آمل أن تسافر .. لقد مللت هذه البلد

ـ المشاكل طبيعية .. الحياة لا تنتهي هنا أو هناك يا ثريا .. الأعداء والخصوم لا ينتهون .

ـ أفكر بالحمل يا فارس .. ها هي حسناء تقترب من الخمس سنوات .. ألا يكفي انتظار ؟ ألا تريد ذكرا يحمل اسمك ؟ لديّ رغبة بولد ذكر يا فارس .

ـ قلت لك طفلان فقط .. لا فرق عندي كما ذكرت لك أكثر مرة بين ذكر وأنثى .. سلوى

وحسناء وكفى .. أتريدين أن أصير مثل محسن جيش من البنات والأولاد ؟

ـ كلكم سبعة أنفار .

ـ هؤلاء الذين عاشوا .. أمي كانت تتحدث عن موت ثلاثة آخرين .. نحن اتفقنا يا ثريا من أيام حبنا الأول على طفلين فحسب .

فقالت برجاء : بس ولد !!



كانت حبيبة عائدة من بيت أخيها مازن وقد صحبها زوجها خالد موسى في تلك الزيارة الخاصة لأخيها وزوجته المريضة خديجة ، ولما تعشيا العشاء الخفيف كما تعودا ، وأخذت الخادمة الأولاد للنوم جلس الزوجان في صالون البيت ، فقال خالد وهو يترك كوب الماء على منضدة صغيرة أمامه : أخوك مازن ناقم جدا على ابن عمه فارس .. اشتكى منه كثيرا .. كل الجلسة شكوى منه ..

ردت حبيبة قائلة : رغم أننا متزوجون أنا وأنت منذ أكثر من عشر سنوات ما زال أخي حاقدا عليه ؛ لأنه لم يتزوجني .. والكل منهم يقول "الزواج قسمة ونصيب وقدر".. مازن كان يعتقد أنني سأكون زوجة لفارس كما أنه زوج لخديجة .. ولما أحب فارس تلك الفتاة التي تزوجها بعد تخرجه من الجامعة ، وعلم مازن بذلك أصابه جنون ، بل لوح بتطليق خديجة إن لم يتزوجني فارس .. كنت أنا أيامها أدرس في الكلية .. لم يكن بيني وبين ابن عمي علاقة خاصة .. كنا كأولاد عم وأقارب وجيران .. كنا نسكن في حي واحد قبل رحيل أبي لضيق المكان فيها بعد .. فلليوم يبدو أن السيد مازنا غير مقتنع أنني متزوجة من حضرة الدكتور خالد ـ كلها أخبار قديمة والزواج قدر .. والدكتور فارس مرتاح مع زوجته .. وأخوك للأسف يعتبر حادث زوجته خديجة أن سببه فارس ؛ لأنهما كانا في زيارته وتهديده للصلح مع والده .. والرجل لم يستقبلهم الاستقبال اللائق ، بل كان حديثهم على باب الفيلا على رصيف الشارع .. ويفتخر أنه حقره وشتمه وبصق عليه في الشارع وأمام زوجته وبناته .

قالت حبيبة : أخي مازن عنيف وأخلاقه فيها خشونة .. لا أدري لماذا كل هذه الأحقاد والمشاجرات ؟! .. كل إنسان حر في زواجه وحياته .. وأنا كذا مرة ذكرت له أنه ليس بيني وبين فارس رباط أو كلام في الزواج .. لاعتبره غدر بي أو خانني .. فالرجل اختار .. لم يرفضني أو أنه كان يحبني كعروس الغد .. وإنما هذا كان كلام الكبار .. كأبي وعمي .. وكان الشاب يتردد علينا بحكم القرابة ، وبحكم زواج مازن من شقيقته .. ولم نأخذ كلام الكبار على محمل الجد .. بل لما التحق بالجامعة لم نعد نراه في البيت إلا نادرا .. وكان مازن هو الذي

يدندن حول زواجي من فارس .. فارس لحبيبة وحبيبة لفارس .. فلما لم يحصل النصيب ؛ كأنه تعقد وأحس أن فارسا غدر به ، وأن كرامته سقطت في الوحل .. ووقفت خديجة معه مؤيدة بحكم أنه زوجها ، ولترسخ ذلك في ذهنها ظانّة كغيرها أن الرجل فارس أحلامي ومتلهفة للاقتران به .. وأنا لم يكن بيني وبين الرجل شيء يا خالد .. ولا حتى رسالة أو كلام فارغ ممن يسمونه الحب .. وحتى جلساتنا كانت جلسات عائلية في غاية الاحترام والحشمة .. وكان الرجل ذكيا وحديثه ممتعا ؛ لأنه قارئ نهم وجيد .. فكان يقرأ ويقرأ .. فكنا ننبهر بمعلوماته لصغرنا فهو يكبرني بسنين .. ولما دخل الجامعة قلّت زيارته لبيت العائلة .. ولما دخلت الجامعة مثله زادت ثقافتنا ومعلوماتنا ..

ـ أنا ليتني مرة أقابله، ولا يجعل من عداوته لفارس موضوع حديثنا يا حبيبة ..آه ! إذا كان معنا جابر تحلى الجلسة .

تبسمت وقالت : جابر ..أيضا تعصب لخديجة ومازن .. واعتبر ترك فارس للزواج مني إهانة كبرى للعائلة كلها .. فكان من الجوقة التي اشتد غضبها ونقمها على فارس .. ولكن لما دخلت أنت على الخط خفت الحملة بعض الشيء على فارس .. وما زالت النار مشتعلة للأسف رغم مرور عشر سنوات على زواجي منك .. فالحقد عليه يجمعهم ويربطهم .. وأن إهانة حلت بهم .. جهل .. جهل .. حقيقة لمت مازنا أكثر من مرة ؛ لأنه هو المتعلم منهم ، فهو متخرج من الجامعة ..وإن احترف العمل في بيع وتجارة السيارات وتعلق بها من العمل مع أخواله .. ولكن لما اتركه ينسى ما لمته به .. ويعتبر كلامي كلاما في الهواء والفضاء .. والنساء عنده لا شيء حتى لو تخرجن من أكسفورد .

فقال خالد : أنا وربما لاحظت أحب التهرب من لقاءات شقيقك الفردية لكثرة حديثه عن عدوه فارس ورفضه نكاحك.. وهو للأسف ينسى أنه يتكلم مع زوج حبيبة .. ولا يعجبني هذا الكلام .

ـ يا سيدي لا تهتم به .. نحن لولا مرض أم عصام لما زرناهم .. فزيارتي لهم في المناسبات لا مهرب منها .. ولكن يا عزيزي لا أستطيع منعهم من زيارتي والمجيء إلينا بحكم القرابة

وبحكم أننا أطباء .. فأقل الناس تواصلا اجتماعيا مع العائلة هو الدكتور فارس .. فهو للأسف منذ أساء له جابر يوم وفاة امرأة عمي لم يزر والده ، وحتى أسمع أنه لا يحدثه بالهاتف .. هدى الله الجميع وغفر الله لهم .. رغم كثرة الشفاعات فما زال السيد حاملا على أبيه زاعما أنه وراء تطاول جابر عليه وصفعه مرتين أمام الناس .. وأن زعله على جابر تمثيل في تمثيل .. ومشهد مسرحي



اتصلت خديجة محسن بزوجها في متجره معلمة إياه أن والدها وعمها سالما في انتظاره في البيت لأمر هام .

فترك المتجر عائدا للبيت وهو في حيرة من هذه الزيارة في نصف النهار ، فرحب بهما، وتظاهر بالسعادة برؤيتها وهو متوجس خيفة منهما ، وبعد المجاملات التقليدية قال مازن : عسى أن يكون مجيئكم لأمر طيب ؟!

تنحنح محسن ثم قال : أنا يا مازن عتبان عليك .

لم يرد مازن إنما زاد تحديقه في وجه عمه ، فتابع محسن الذي زاد عن الستين سنة من العمر قائلا : هل أنا يا ابن أخي طلبت منك الذهاب لفارس لتهدده ليزورني ويتحدث معي ؟!

فنهض مازن قائما وقال : ويلاه ! .. وهل أنتظر يا عمي العزيز حتى تطلب أنت مني ذلك ؟! الرجل لم يبق عنده ذرة حياء .. هو لم يأخذ أحد الدكتوراه في الدنيا إلا فارس ؟ ذهبت أنا وهذه المسكينة ـ مشيرا لزوجته ـ لنصحه وإرشاده وتذكيره بحقك .. فهو يزعم أنك أنت الذي دفعت جابرا لصفعه أمام العائلة ويتهمه بقتل أمه بالجلطة التي أودت بحياتها .

فلما سكت فقال العم سالم : اهدأ يا ابن أخي .. وعد للجلوس .. نحن نعلم قصدك الشريف ولكن علمنا أيضا أنك أهنته ، وبصقت على اتجاهه في الشارع وهددته .

فصاح مازن معترضا : إذا الواحد رفع صوته على ناس فهل معنى هذا تهديد ؟ أنا ضقت ذرعا

من فعله وهجره لعمي وقد طال الهجر .. قد بلغ العام .. والرجل غير مبال وغير مكترث .. وكثيرا ما أسمع عمي يقول : لماذا لا يأتي فارس ؟ ماذا فعلت له ؟ ألم أغلق المخبز من أجل خاطره ؟ ألم .. ألم ... ؟ فحز هذا كله في نفسي .

ـ والبصق ؟!

ـ لقد رفض دخولنا بيته للمعاتبة .. أنا وأخته الكبيرة .. تصور هذا التصرف ، هذا الموقف اللئيم يا عم .. نحن نحل مشاكلنا في الشارع .. بل كان يسعى للفرار .. لا يريد مقابلتنا .

فقال محسن : يا ابن أخي أنا رجل كبير وبمقام والدك الغالي محمد جابر ـ رحمه الله تعالى ـ فأرجوك وأرجوك لا تتدخل بيني وبين فارس وغير فارس ..

احتد مازن وصاح : هو اشتكى لك ..

فقال سالم : لم يشتكِ أحد يا مازن .. إنما علمنا بهذه المعلومات من ابن عمك محمود .. ومحمود علم ذلك من ابنك عصام .

ـ ما المطلوب من يا عمي ؟ عدم التدخل بين العم وابنه العاق اللعين .. حاضر يا عمي ـ ووضع يده اليمنى على رأسه ـ .. أنا أصلا طول عمري أكره هذا الفارس العاق القاتل لأمه .. سأبتعد عن حياته .. وأنا أشفقت عليك يا عم محسن .. فجابر حردان .. وفارس حردان .. لم يعجبني هذا الحال والكل يتفرج .. اعمل خيرا تلق شرا ..

فقال محسن محاولا تهدئة الوضع : يا عم جزاك الله خيرا على نيتك الصالحة

وقال سالم : يا ابن أخي الزمن كفيل بإصلاح الأمور .. وسعيك مشكور

فقال مازن : على كل حال أنا آسف يا عمي محسن ويا عمي سالم .. أنتم كبار العيلة .. ماذا أقول ؟!

غضب مازن

بعدما رافق مازن أعمامه حتى باب البيت ، وركبوا السيارة عاد إلى حيث كانت خديجة تجلس وكلها رعب وتوجس فهي أعلم الخلق بسلوك زوجها وعنفه ، فقال بنبرة غاضبة : أرأيت عاقبة السعي في إعادة فارس للأسرة ؟! أرأيت الحسد والغيرة ؟ ألم أقل لك دعينا من فارس وأبي فارس ؟

حاولت خديجة التخفيف من حدة وغضب زوجها ، ولكن لطبعه الخشن صب غضبه ونقمته على زوجته المريضة العليلة ، وهي تترجاه أن يهدأ وأنها تتعهد له بعدم التدخل في شؤون فارس وغير فارس .. ولما احتدم الصراخ والغضب فزع عصام هو وزوجته على الصياح وبكاء أمه .

ولم تجدِ دموع وبكاء خديجة في تخفيف سخطه ، حتى أن الشجار وصل لعصام الذي تلقى صفعة قوية من يد أبيه نتيجة حشره نفسه بينهم ، فاشتد غضب عصام وهدد بترك بيت العائلة فما كان من رد مازن إلا أن قال : مع ألف قلعة .. نرتاح منك ومن المصروف عليك .. هو الكراج الذي تعمل فيه يطعمك خبزا .. اغرب عن وجهي .

عادت خديجة للتوسل والرجاء لتهدئة الحال ، ولكنّ عصاما ركب رأسه وأصر على ترك بيت العائلة ، وأنه ليس بحاجة لقرش منهم .

وكان خلال أيام يغادر بيت العائلة إلى بيت استأجره ، ولم يهتم ويكترث لدموع أمه وتوسلها لخزي الشيطان .

ولما عاد مازن في مساء ذلك اليوم واخبر أن ولده البكر رحل عن البيت قال لخديجة : هذا ما جنيناه من التدخل في شؤون فارس اللعين .. الحادث الذي عطلك عن الحياة الزوجية .. وأبعد الولد عنا .. فاعلمي يا ابنة العم أنني صممت على الزواج .. وعليك أن ترحلي أنت وبنيك للحياة مع السيد عصام ما دام قد صار رجلا ويقدر يفتح بيتا .. وأنا سأبحث عن زوجة جديدة .. وإذا لم يعجبك هذا القرار فالمحكمة بيني وبينك .. أنا بحاجة لامرأة .. أنا رجل كهل .. لا استطيع الحياة مع امرأة عليلة تحتاج لمن يخدمها .. وامرأة ابنك تخلت عنك ..

أريد امرأة أخرى .

قالت بانكسار : افعل ما تشاء يا ابن عمي .. تزوج .. من حقك الزواج .



بعد مضي أسابيع على خروج عصام من بيت أبيه مازن حتى سمع الناس أن الرجل قد خطب امرأة جديدة قد تخرجت من الجامعة حديثا ، ولما سأل محسن ابنته عن السبب قالت : أنت السبب يا أبي . قال محسن دهشا : أنا ؟!

ـ نعم ، أنسيت لقاءك والعم سالما بمازن ؟ وقد حذرته من التدخل بينك وفارس .. فلما انصرفتما صب جام غضبه عليّ يا أبي .. واعتبرني زوجة غير صالحة مشلولة ، وهو بحاجة لزوجة حتى لا يقع في الحرام .. فتدخل عصام لفض الخلاف بيننا فطرده من البيت وأسكنني محله .. فكل هذا من تحت رأس فارس .. فهو لعنة من اللعنات يا أبي .

ـ لا ، وألف لا ، هو اتخذ ذلك ذريعة للزواج ، فهو كان يلحن ويدندن للزواج منذ أصبت بالمرض .. وهو كان عامل نفسه شيخا علينا يا خديجة .. فلما طلبت منه الكف عن التدخل بيني وبين أولادي .. حسم أمره وتمرد .. على كل حال يا بنتي الرجل القوي لا يستطيع أن يبقى بغير زوجة .. وأنت لا تحبين لزوجك الزنا والفاحشة

ـ الحمد لله يا والدي أنا قبلت ورضيت بنصيبي وقدري .. ولولا وجود الأولاد الصغار لربما طلقني ورماني في الشارع .

ـ بيتنا يسعك يا أم عصام .. هذه الدنيا وتقلباتها .. علينا الرضا بالمقسوم

والمقدر ..لا يكمل الإيمان إلا بالتسليم للقضاء والقدر .. فالحلال أفضل وأشرف من الحرام فمازن ليس كأبيك العجوز ليس له رغبة وإرب في النساء .. فتحملي .. وأعود فأقول بيتي بيتك ومالي مالك .. وهو يبقى ابن عمك ووالد أبنائك .. اصبري اصبري واتقي الله .

تزوج مازن واسكن زوجته الثانية في شقة زوجته القديمة ، وقنعت خديجة بالحياة في ظل راجل كما يقال .

ذات صباح كان حمدي جُد شقيق السيدة ثريا متجها إلى عمله كعادته ، وكان عليه قضاء مهمة للعمل في منطقة قريبة من سكن فارس قبل أن ينطلق لمكان عمله ونشاطه ، ووجد أن لديه متسعا من الوقت بأن يمر على بيت شقيقته لشرب كوب قهوة أو شاي ، ويتحدث معها ويسمع أخبارها ، وهو يعلم أن ثريا لابد أن تكون في البيت في مثل هذا الوقت الباكر.. لأن الوقت لم يكن وقت زيارات خارجية فما زال النهار في أوله.

ولما اقترب بسيارته من مدخل فيلا فارس شاهد شخصا يدخل الفيلا مرتديا لملابس أنيقة ، فظن للوهلة الأولى أن فارسا ما زال في البيت لم يخرج لجامعته ، فتحمس للدخول أكثر ، فركن السيارة على طرف الشارع ثم مشى نحو الفيلا .. وتطلع حيث الموقف الخاص بسيارة فارس فوجده فارغا .. فدخل ولم يقرع الجرس ، وقد وجد باب الفيلا الداخلي مفتوحا وقال لنفسه متشككا: لم يخدعني بصري رأيت شخصا دخل الفيلا ؟!

فلما دخل الفيلا ونظر الصالة التي تواجه الباب ، فلم ير الداخل ولا فارسا .. فاضطرب وهتف : ثريا ثريا

فجاءت مسرعة مضطربة خائفة وهي ما زالت بثياب النوم فقالت : حمدي .. حمدي .. هل من شيء ؟!

ـ أين فارس ؟

ـ ذهب لجامعته

ـ لقد رأيت رجلا يدخل الفيلا !

ـ لم يدخل أحد .

نظر إليها نظرة حادة وقال : ثريا لست أعمى .. كنت أركن السيارة عندما دخل ظننت فارسا في البيت

ـ لم يدخل أحد .. بصرك خدك

تقدم بجراءة نحو غرفة .. فخرج الرجل وقال : عفوا

فنظر لأخته مستنكرا وقال : من هذا يا ثريا ؟!

فصاحت برجاء : استر يا حمدي استر

ـ أتخدعين زوجك ؟! .. هذا آخر شيء توقعته منك

توسلت إليه قائلة : استر عليّ يا حمدي أغواني الشيطان

صاح بغضب : أي شيطان ؟! أنت الشيطان .. لقد عادى الرجل أهله من أجلك من أجل الزواج منك .. من هذا العشيق ؟

تسلل الرجل هاربا ، وصفع حمدي أخته وقال : ماذا سنقول لفارس ؟ لقد فضحتينا

أخذت تقبل يده وتبكي وتترجى أن يستر عليها وأنها ستتوب

فقال بحدة وغيظ : لا تريدين زوجك اطلبي الطلاق ..أما الزنا وخداع

فهذا عمل مشين

فقالت من بين دموعها : لم نزن .. إنما نحن أصدقاء

قهقهة وهو في ذهوله وقال : أصدقاء ؟! صديق يأتي في هذا الصباح بعد خروج الزوج والبنات .. تقابلين الصديق بهذه الثياب العارية .. يا للعار! أختك يا حمدي خائنة .. ماذا سأفعل يا ملعونة ؟

فقالت : انس كأنك لم تر شيئا

ـ يا للوقاحة .. ثم ؟

ـ ثم لن ترى مني شيئا

ـ أهو أول عشيق ؟! لا أعتقد هذا .. ماذا ستقولين لبناتك يا ثريا هانم ؟ يا ثريا العفيفة ؟

ـ سامحني يا حمدي .. أنا أخطأت ..استر عليّ .. إن فارسا لم يعد يحبني إنني لم أعد أراه كثيرا .. هذا الذي سمح لي بالتمرد .. يخرج من الصباح ولا يعود إلا في وقت متأخر

ـ هذا لا يبرر الانحراف .. والإساءة ليست لفارس وحده .. العار يلحق أباك وأخاك وأهلك لو الأمر محصور فيك لهان الخطب .. هذا لا يبرر ما رأيت .. ألم تكوني تعايريني من الزواج من امرأة صديقي الميت يا ثريا .. يا للعار !! إني حائر .. ماذا أفعل ؟! أنا لا أرضى لنفسي الزنا

فكيف أراه لأختي ؟!

قالت بتوسل : صدق أنني لن أسمح لأحد أن يدخل بيتي من جديد

ـ من جديد ..ألم أقل لك إن هذا ليس أول رجل تخونين زوجك معه ؟! .. أنا لا أحب العنف وأنت تعرفين ذلك .. هذا زوجك المغفل يجب أن يعرف ليقرر

فصاحت : هل جننت يا حمدي ؟ سيقتلني

ـ لن يقتلك .. فهو ليس من الرجال الذين يقتلون .. لقد ضربه جابر وبصق عليه ولم يحرك ساكنا ، فالرجل هادئ يا خائنة .. فارس رجل مسالم وأكاديمي .. ونحن علمنا أن ابن عمه مازنا أساء إليه وتحمل وسكت .. وليست المشكلة في فارس وحده ..المشكلة أمك وأبوك .. ماذا أقول لهم ؟ أأقول لهم ذهبت لشرب فنجان شاي عند ثريا هذا الصباح ووجدتها تستقبل عشقيها في بيت زوجها

ـ هذه حياتي ..أنت تضخم الموضوع .. صدق لم يحصل بيننا أي شيء حرام

ـ لا أدري كيف أصدق ؟!.. ولماذا خرج من غرفة نومك؟ .. جاء يتغزل بك وينصرف .. ثريا ذاكرتي تعود للوراء .. الخادمة التي اتهمتيها بالعشق والهوى منذ سنوات .. وإنك وجدت معها رجلا .. لم أنس دموع تلك الخادمة .. إنها تنظر إليّ الآن .. إني أتذكر بشكل جيد .. إنني أتذكر اتهامك إياها ..ألم أقل إن هذا ليس أول رجل في حياتك ؟.. أنت خائنة رغم أنك أختي .. وصدق يومها زوجك أن الخادمة هي الخائنة وليست أنت .. وأن الخادمة بعد خروجك تتصل بعشيقها .. صدقناك يومذاك .. اليوم أنت وحدك في البيت من ستتهمين ؟ ما الحل ؟

قالت : الحل دعني وشأني .. لما يعرف فارس يفعل بي ما يحلو له من العذاب .. أنت لست زوجي ولا أبي ولا أمي .. وصرخت : أنا حرة .. أنا حرة !!

خرج حمدي في غضب وحيرة من بيت ثريا ، وهو يفكر بماذا يفعل بجريرة ثريا ؟ هل يفضح نفسه وأسرته ؟ هل يصرح لفارس بما عرف ؟ كيف سيكون موقفي أمام فارس اللعين ؟ هل اصمت حتى يكتشف الزوج جريمة زوجته وخيانتها ؟ نحن لن نستطيع أن نكون مثل الغربيين وغيرهم بدون غيرة وشرف .

كتب رسالة صغيرة لفارس " زوجتك تخونك "

لما قرأها فارس تعجب منها فهتف قائلا : من كتبها من أقاربك يا فارس؟! مازن لا أعتقد .. جابر .. لا أظن .. كيف تخونني ؟!



بعدما تلقى فارس تلك الرسالة القصيرة والتي فيها خبر خطير وهو أن زوجته تخونه ..أخذ يفكر بمن فعل ذلك وكتب له ؟ فكر بمازن وجابر .. وعادت به الذكريات عندما اشتغلت زوجته في المصرف وإلى ذلك الشاب الذي كان يرافقها ويوصلها للبيت .. وتذكر الخادمة .. والتهمة التي ألصقتها بها ثريا .. لأنها نبهته لدخول الرجل الغريب بيته دون علمه .. وبعد تفكير عميق طلب إجازة لمدة أسبوعين من إدارة الجامعة ..

لما علمت ثريا بهذه الإجازة تفاجأت للوهلة الأولى .. ولم تبد حماسا لبقائه في البيت ، فهو منذ تزوجها فمن النادر أن يأخذ إجازة داخلية لمدة أسبوعين .. وبعد أسبوع وضع أمامها الرسالة القصيرة " زوجتك تخونك " .. فلما قرأتها تلون وجهها فقال لها : من تظنين كتب لي هذه الرسالة يا ثريا ؟

لزمت الصمت ، وامتقع لون وجهها رعبا ، ثم لما رأته لم يتكلم قالت : لست أدري!! حسادنا كثر كما تعلم .

فقال بهدوء فهو له أسبوع يعد نفسه لهذه الحوار: ولكني مصدق ما في هذه الرسالة هذه المرة .

فصاحت فجأة : أتخونني يا فارس ؟!

ـ لم أنس تلك الخادمة .. لم أنس ذاك الزميل موظف البنك

ـ قلت لك لم يكن بيننا شيء يا فارس .. مجرد زميل يحب توصيلي للبيت ، وأنت تعلم زحمة السيارات .. وهو موظف في البنك

ـ لا تظني أنني صدقتك تلك الأيام .. كنت أخشى الفضيحة .. بعد أن قاتلت بقوة من أجل

زواجنا .. من أجل أن تكوني زوجتي يا ثريا .. كانت العائلة ترفض الاقتران بك .. ضغطوا بقوة .. ومع ذلك صممت على الزواج منك رغم تهديدهم أن مازنا سيطلق خديجة إن لم أتزوج شقيقته .. فاضطررت أن أصدق أنّ الخادمة تكذب وتفتري عليك .. وأن الرجل الذي كان في البيت صديق للخادمة وعشيقها .

فأخذت تقسم وتحلف أنها لم تخنه ، ولما كفت عن الحلف قال : ولكنك تحبينه .. ذهب حبي لك في الهواء .. ذهبت حرارة ودفء الحب الذي كان في ساحات الجامعة مع ولادة سلوى .. أنا مصدق لهذه الرسالة ؛ لأنه لا يكتبها إلا صديق ناصح .. ليس جابر ولا مازن .. فهم لا يعلمون بقصة الخادمة .. وذاك الموظف ماذا كان يعمل في البنك ؟ حسنا سأذهب لمقابلته ، أريد أن ارتاح يا ثريا أم أطلقك ويذهب كل في حال سبيله بدون فضائح .. حياتي وعملي في الجامعة لا تحتمل الفضائح الأخلاقية .. ومن أجل بناتنا عليك الانفصال بهدوء وبغير شوشرة وعدته بأنها ستحبس نفسها في البيت لن تخرج إلا معه، ولو حتى مات أبوها ، وأن يحضر خادمة لتكون سجانة لها قال : لا ، لا أريد المزيد من الشهود .. علينا أن نفترق بهدوء وبدون شوشرة ..أنا لا أقبل أن يكون لي شريك في الفراش .. وأنا لا أستطيع ترك عملي لمراقبة تحركاتك وتلفوناتك .. فهذه الرسالة لم تأت من فراغ .. لا تنفع الدموع اليوم .. البنات فكرت بأمرهن .. ستذهبين لأهلك بدونهنّ ..سأطلب لهن مربية خاصة وأجنبية .. وسأنقل سلوى لمدرسة داخلية

صاحت هائجة : أنت مجرم !

ـ لست مجرما .. أنا أعطيتك كل هذه السنوات كفرصة لتصلحي اعوجاجك وحالك ولكن السماح لم ينفع معك .. ما زلت تغدرين بي ، ولولا أن الرجل الناصح رأى شيئا جديدا ما كتب لي هذه الرسالة.. وإذا رجل البنك محب لك فبمجرد طلاقنا سيتقدم لك حتى لو كان متزوجا كما زعمت أيام تلك الخادمة

بكت بين يديه فقالت : كيف تثق بهذه القصاصة ؟

فقال: وكيف أثق بك أنا بعد هذه القصاصة "زوجتك تخونك" ؟ أتخشين أن لا يقترن بك

بعد زواجنا ..؟

بعد صمت يسير قال الدكتور فارس : ولكن أحب أن أخبرك قبل ذهابنا للمحكمة .. أنني متزوج عليك يا ثريا متزوج منذ ثلاث سنوات يا ثريا

فقالت مغتصبة ضحكة : لست غبية يا سيد فارس .. فأنا أعرف ذلك لا تظن أنني مغفلة كما تزعم ..فالمرأة تعرف الرجل عندما يعود من عند امرأة غيرها ؛ ولكني سكت ظننتها نزوة عابرة كما نسمع .

فقال : تزوجت لما أصررت على خيانتي .. لم أكن جاهلا سوء أعمالك .. صبرت على أمل أن تعقلي وتتركي ذلك الموظف .. صبرت من أجل حبنا المزعوم فكان حبنا وهما ..فمبارك عليك عشيقك يا مدام .. اسمه حسون .. مبارك عليك حسون .. لما جاءت الرسالة قلت انكشف الأمر .. سوف يشيع الأمر وأنا في غنى عنك وعن خيانتك .. ما أدري ما الذي أعجبك فيه ؟! لزمت الصمت .



وتم الطلاق قبل انقضاء إجازة فارس، ولما قابلت حمديا شقيقها قالت : ارتاح ضميرك . فنظر إليها باحتقار وقال : ماذا تقصدين ؟!

ـ الرسالة التي كتبتها لفارس .

ـ لم أكتب شيئا لفارس .. وإياك أن تدخلي بيتي يا ثريا .. أنا أكره شيء عندي الخيانة الزوجية فليأت عشيقك ويتزوجك .

ـ أنت مجرم أيضا ..

ـ مجرم .. مجرم ، عندما تصبحين امرأة صالحة .. ستعود الأخوة بيننا

ـ لست بحاجة إلى هذه الأخوة .

ـ لو كنت تحترمين الأخوة ما فعلت فعلتك .

وغادر منزل أبيه غاضبا .

الفضول

لما انتشر خبر طلاق فارس لثريا نزل هذا الخبر على مازن وجابر خبرا صاعقا ومثيرا ، والكل يسعى لمعرفة سبب هذا الطلاق لمعرفة السبب الحقيقي لذلك ، فحب الرجل لفتاته كان مدويا في العائلة والجيران ، فقد رفض الرجل ضغط والديه وأعمامه للزواج من حبيبة من أجل الزواج من ثريا ، فكان مازن يقول لجابر بفضول شديد : ألم تعرف شيئا من أمر هذا الطلاق المفاجئ ؟

ـ لقد حاولت بكل قوة ، ولم أعرف شيئا إلا إذا كانت لعنة أصابت أبناء الحاجة فاطمة ..

ـ ويلك ! أنا لم أطلق خديجة إذا كنت تلمح عليّ .. أختك أنت تعلم أنها لم تعد صالحة للمعاشرة الزوجية ..

تعذر جابر فقال : لم أقصد شيئا ..والأعجب تبين أن الرجل كان متزوجا سرا منذ سنوات .. أرأيت يا ابن العم ؟ اللعين متزوج من سنوات.. من قبل وفاة أمنا التي لو كانت تعرف ذلك لماتت سعيدة من بغضها لزوجة فارس .. ليس لها نصيب بالطيبات

ـ هذا الزواج الخفي لماذا كان؟.. فثريا فتاة جميلة وفاتنة .. وتلبس دائما آخر صرعات الموضة .. وحبيبته وزميلته في الجامعة وأم بناته

ـ هذا ما صدمني حقيقة .. لقد قاتل الدنيا بشراسة لينكحها رغما عن

اعتراضنا الشديد على شخصها .. لقد دافع عن زواجه منها بكل قوة ، ولم يأبه لأب وعم وخال وأم .. تلك أيام لا تنسى

سأل مازن : هل لمعرفتها بزواجه عليها دخل لطلب الطلاق ؟

ـ هذا الظاهر وهذا ما يشاع .. أمعقول أنها طيلة هذه السنوات الثلاث لا تعرف أنه متزوج عليها يا سيد مازن ؟ .. يقال إن للمرأة حاسة سادسة في مثل هكذا أمور

ـ ربما عرفت وصمتت لبعض الوقت ، ثم لم تعد تطيق الوضع ، وطلبت منه إنهاء الزواج منها فرفض ، فطلبت الطلاق فوافق ما دام قد انتقل حبه لامرأة أخرى .

عاد جابر يقول بعد فترة صمت : لن يهدأ لي بال يا أبا عصام حتى أعلم أسرار هذا الطلاق ..

وأنت ما أخبارك مع الزوجة الجديدة ؟ هل عادت بعد حردها الأخير؟

ـ إنها ملعونة .. النساء ماكرات ..آه لو تعلم كيف كانت تقابلني قبل الزواج منها؟! .. كنت أظن نفسي في الجنة وهي عند أهلها ؛ لكن بعد الزواج صارت نمرة .. هذه المرأة ما أن أمد يدي عليها حتى تلم ملابسها وترحل .. لقد ذلتني يا رجل .. لن أجد مثل أختك كانت تتحمل إهانتي وضربي لها دون تبرم .. لقد هممت بطلاقها أكثر من مرة .. لو أن أختك تشفى لطلقتها وخلصت من حردها .. وأنا هذه الأيام أفكر بالزواج مرة ثالثة لعلها تكون مثل أم عصام .

ـ النساء بلاء .. فأنا تزوجت مطلقة كما تعلم وامرأة فقيرة لتسلك معي ؛ ولكنها بعدما ولدت لي الولد الجديد تكاد تطلعني من ثيابي يا رجل .. بدأت تتمرد .. لولا شماتة هناء لطلقتها

فقال مازن : فعلا نساء ماكرات .. عليك يا جابر أن تعرف أسرار زواج فارس السري وأسباب طلاقه لتلك الحسناء .. إنني بشوق شديد لمعرفة ذلك فقد حاربنا بشدة من أجلها .

ـ سأسعى إلى ذلك الكشف .. وسيأتيك بالإخبار بمن لا تزود

ضحك مازن وقال : يا سلام دخلنا على الشعر !

***

اضطر فارس بعد انفصاله عن ثريا أن يظهر زواجه الثاني للعلن ؛ لإخفاء دوافعه الحقيقية لطلاقه لها ، فاعتقد الناس أنها اكتشفت أنه تزوج عليها فطلبت الطلاق ، وزواجه لم يكن سريا بمعنى الكلمة الحرفي لا يعرفه أحد ، كان الزواج معروفا لأهل الفتاة ، فهو كان مخفيا عن عائلته الكبيرة وأسرة ثريا أيضا ، وعن الفضوليين في الجامعة. والزوجة الثانية كانت إحدى طالبته ، ووافقت على الزواج منه وإخفاء الأمر عن الزوجة الأولى والمقربين ، وكان يعدها وأهلها بالصبر حتى يشهره للعلن ، وبعد هذه السنين جاء الوقت ، وعلم القاصي والداني أن الرجل كان متزوجا على زوجته الحسناء ثريا . والزوجة الجديدة قد اعتقدت أن الرجل طلق زوجته أم بناته من أجلها ، وأن ثريا رفضت أن تعيش زوجة أولى ، فوقع ذلك الطلاق ، وأبقى الدكتور هذا الإيحاء لدى أهلها وغيرها .

زهرة ـ وهذا اسم الزوجة الثانية ـ لم تكن طبعا تتوقع طلاق ثريا؛ كانت تظن أن الدكتور يمهد لإخبارها بزواجه الثاني ، فلزمت الصمت والسكون ، فهي أم بناته سلوى وحسناء .

لما أشهر هذا النكاح رحل فارس بزوجه إلى مدينة نصر، وانتقل للعمل في جامعتها ، وهي أيضا جامعة خاضعة للدولة ، وقد استقر في المدينة .

وكان الرجل قد ادخل ابنته سلوى في مدرسة داخلية في جوهر المدينة ، وأما حسناء فأخذها للعيش معه في نصر ، واستعان بخادمة للبيت ، فزهرة فتاة عاملة كانت تعمل بعد تخرجها في جامعة زوجها ، ولما انتقل نقلها معه أيضا . وبعد استقراره في مدينة نصر واجهته مشكلة جديدة كانت مؤجلة لحين ، كان الرجل قد طلب من الفتاة ألا تفكر بالحمل والولادة لريثما تتضح المواقف مع الزوجة ثريا ، ولما صار الطلاق ، وصار الرحيل ، استأذنته في الحمل ، وتوقفت عن أخذ موانع الحمل ، واستسلم الرجل لرغبتها من أجل ولادة مولود واحد ، ومضت الشهور ولم يحدث الحمل ، ترددت زهرة على عيادات العلاج النسائي والعقم ، فاخبروها أنها صالحة للحمل وليست لديها مشاكل جنسية وإخصاب .

ولما أخبرت الطبيب أن زوجها له بنات ، فطلب منها أن يعرض الرجل نفسه على العلاج والفحص الطبي . وبعد جدل عقيم استسلم لرغبتها ثانية ، وأجرى فحصا لجودة حيواناته المنوية ، وبعد عدة فحوص تبين للطبيب المعالج أن عنده ضعفا شديدا في حيواناته المنوية ، وبحاجة لمعالجات قد تستغرق بعض الوقت .

وبدأ فارس على مضض رحلة علاج من أجل بقاء زواجه الثاني عامرا ومستمرا ، وقد بلغت البنية الستة والعشرين سنة وهي بدون ولادة ، وكانت كل عودة من عند العيادة تقول له : أنت السبب .. قلت لك دعنا ننجب من أول زواجنا ، فكنت تقول اصبري أنا لا أحب المواليد الكثر .

فيحدث بينهم الشجار والصياح والعتاب ، وينام كل واحد منها في حجرة لعدة أيام أو حتى يقترب موعد مراجعة الطبيب المعالج ، وبعد حين من الزمن قال فارس بغضب خفيف : إذا كنت مصرة على الأولاد .. علينا أن ننفصل .. لأنني مللت من زيارة هؤلاء الأطباء والمختبرات

الذين لا يفقهون شيئا .

فصاحت غضبا : اشتقت لثريا .. لابد أن هذه الهواتف منها .. اشتقت لحبك الأول .

فقال ساخطا : لم أحن لها .. ولن أرجع لثريا يا زهرة ..ولم تكوني أنت السبب لطلاقي لها .. فقد كانت تعلم بزواجنا منذ أول سنة .. من روائح العطور التي كانت تعلق بثيابي بعد مغادرتك .. فهي أنثى ولها حاسة شم قوية

ـ لا أصدق ما تقول .. اتصلت بها ، وسألتها عن سبب الطلاق .. فقالت لي " أنت السبب يا زهرة .. أنت التي خطفت حبيبي مني .. لن أسامحك يا زهرة "

صرخ في وجهها : كذابة

ـ أنت الكذاب يا فارس .. إنني فعلا أفكر بالانفصال عنك .. رفضت أن أحمل .. رفضت أن يكون لديّ أطفال كباقي نساء العالم .. رضيت بالحبس والتنقل بين شقتي وبيت أمي .. وأتحمل الكلام القاسي من أجلك .. أما حياة بدون ذرية ما الفائدة منها ؟!

ـ تركت بناتي من أجلك .. سلوى في مدرسة داخلية .. وحسناء مع المربية في العاصمة يا زهرة .. وإذا جاءوا هنا الخادمة تقوم على خدمتهم لست أنت .

ـ صحيح ما تفوهت به ولا أنكره .. ورغم صغرهن فهنّ يكرهنني كرها ألمسه من أعينهن وحركاتهنّ .. وسلوى لما تأت إلى هنا تجعل البيت نكدا وشرا وحقدا

ـ أنت السبب ! لماذا لا تشعريهنّ بأنك تحبينهنّ وإنك أم لهنّ ؟! .. لم تعترضي على تعاقدي مع مربية لم تعترضي على وضعي سلوى في مدرسة داخلية .. فكيف سيتعاطفن معك ويظهرن مشاعر الود نحوك ؟! .. وأنا قبلت بهذا الوضع خشية المشاكل المعروفة بين الأبناء وزوجات الأب .. أتحبين أن تعرفي لماذا طلقت ثريا يا زهرة ؟

صاحت : أجل ؟

ـ جيد ! .. إنها امرأة خائنة !!

تفاجأت زهرة بالخبر وقالت : خائنة ؟!

ـ لقد خانتني قبل الزواج منك .. لقد عشقت رجلا غيري .. مات حبنا

التقت ثريا بالرجل الذي كان السبب في إفساد حياتها الزوجية ، الرجل الذي صاحبته أثناء عملها في البنك ، كانا يجلسان في حديقة عامة وواسعة ، فقالت له بنبرة فيها غضب وتهديد : حسون لي أشهر في انتظار خطبتي ..وأنا شبعت من تعذرك وتصبرك .

اخرج السيجارة من فمه وقال : أنت تعلمين كم أحبك ؟! لي سنوات غارق في هواك .. ولكن لا أدري كيف سأتخلص من امرأتي هذه الأيام ؟ فهي حامل كما أخبرتك .

ـ أنت قلت لي في المرة الماضية إنك ستدفعها لإسقاط الحمل .. واليوم أسمع كلاما آخر .. يبدو أنك نسيت الكثير من كلامك منذ التقينا قبل سنوات في البنك .. لقد نسيت فارسا من حسن كلامك وهواك فيّ .. خلي فارسا يطلقك اليوم وغدا سأتزوجك أو اطلب يدك .. أنسيت هذا الكلام وغيره ؟.. لي أشهر انتظر قدومك .. الكل حائر لماذا طلقني فارس الولهان في حبي وغرامي ؟ .. لماذا تخلى عن هذا الحب ؟ .. رفض ابنة عمه لأكون زوجته .

ـ ألم أقل لك اطلبي الطلاق قبل أن أتزوج ؟ ولكنك رفضت ورضيت بالعيش معي كصديقة وعشيقة .. فاضطررت للزواج كما تعلمين يا حبيبتي وطلبت مني الزواج فتزوجت .

ـ كنت أظن أن فارسا لن يكتشف الأمر ، ولن يعرف القصة خاصة بعد أن طردنا الخادمة التي فضحتني أمام زوجي الغارق في جامعته ومحاضراته .. وأنت تعلم أن فارسا صدق الأيمان التي حلفتها له .. ولولا مجيء حمدي المفاجئ لما كشف السر .. عليك بتطليق زوجتك بأسرع وقت ممكن .. لم أعد أطيق البقاء في البيت كالمنبوذة .. كما ضحيت بشرفي من أجلك عليك أن تقابل ذلك بالتضحية بزوجتك .. لا أحد يعلم السبب الحقيقي لطلاقي .. عليك بالحركة يا حسون.

بعد صمت قد طال قال : والمولود القادم ماذا أفعل به ؟! إنها ترفض إسقاط الحمل فهي تقول : أنا ما صدقت وحملت به

صاحت غضبا: طلقها بهذا العذر .

ردد قائلا : أطلقها بهذا العذر .. إنه ابني يا ثريا

ـ أنا تركت بناتي من أجلك يا حسون .. فارس لا يمكن أن يعيدني بعدما استقرت الحقيقة في قلبه .. قبل حدوث الطلاق كانت مجرد شكوك .

ـ لابد من زواجنا إذن . قالت بحدة: لابد .

قال بنوع من التوسل : ألا تتحملين حتى تلد ؟

ـ مللت الانتظار

ـ شهر واحد فقط

تنهدت أسفا وقالت : شهر واحد من أجل حبنا .. اقتربت السنة أن تنتهي منذ فارقت الرجل

ـ شهر واحد .. أنا لا استغني عن حبك .. علينا أن لا نلتقي حتى أنهي علاقتي بزوجتي .

ـ لن نلتقي بالعين المجردة حتى يذهب الشهر ..

بعد هذا اللقاء الذي تركت فيه الفرصة لحسون لترتيب أموره للخلاص من زوجته ، فقد اتصلت بعد أسبوع فطمأنها قائلا : الأمور تسير على خير ما يرام .. المشاجرات والمنازعات اشتدت بيننا .

وبعد أسبوع آخر لم يرد عليها البيت مما اضطرها للاتصال بالبنك ، فقيل لها إنه غير موجود .

وبعد حين اضطرت لزيارة البنك للقاء به ، فجاء الخبر الصاعق " إنه ترك العمل .. وربما سافر ". صاحت غير مصدقة: سافر!!

ـ سمعنا بذلك وأنهى خدماته عندنا

قضت أياما وهي تتصل بالرقم الذي بينها وبينه ، لا أحد يجيب .. هي لا تعرف بيته ولا حيه ولا زوجته .. تعرفا من خلال البنك ، وكان يصحبها بسيارته ويوصلها لبيتها .. ثم كانت تدعوه لشرب الشاي أو القهوة مع كل توصيلة ..حتى تطور الأمر للحب والعشق والزنا .. وأحيانا يصحبها لغداء في أحد المطاعم .

فبعد فشلها في اللقاء به والعثور عليه استوعبت غدره بها ، وأن دوره انتهى معها .. وأنها دمرت حياتها من أجل سماعها لكلام غزل ناعم .. ذكرها بأيام الحب بين ساحات وأشجار الجامعة .

الصلح

حميدة محسن تعلمت في كلية التمريض وهي تعمل في مشفى حكومي في مدينة جوهر بمؤهلها العلمي ، وهي صغرى ولادات فاطمة وزوجها محسن ، والعمل في المستشفيات يكون مجموعات مجموعات كل مجموعة لها جزء من اليوم والليلة ، ويتادور العاملون على ثلاث فترات عادة تسمى ورديات ، فشهر نهاري وشهر ليلي وشهر بين بين ، والفتاة هذه عندما بدأ سرد أحداث هذه القصة كانت متزوجة من أحد شباب الحي والجيران ، ولها عدد من المواليد ، وهي ما زالت تسكن في نفس حي والدها السيد محسن منذ ولدت وتزوجت ، وكانت حميدة هي البنت الوحيدة التي تعلمت في الجامعة من أسرة محسن ، لأنها أصغر البنات ، وقد تشجع الناس في إرسال بناتهم للجامعات .

كانت تسمع أخبار العائلة كما يسمع غيرها ، طلاق زواج ، كانت تتأثر بما تسمع ؛ ولكنها تلتزم الصمت ، ولا تعلق بشيء ، ولا تحشر نفسها مع أي طرف ، ولم تحاول ذلك .

وبينما هي في العمل ذات ليلة اتصل بها المكتب أن شقيقها يريد أن يراها ، فتركت طابق العمل إلى حيث مكتب إدارة التمريض في المستشفى لتجد فارسا في انتظارها، قد تفاجأت بطلبه ، ولما رأته أدركت أن الأمر لا يتعلق بعلاج ، فهو يتعالج في مستشفى الجامعة التي يعمل فيها لوجود مشفى كبير بين صروحها .

رحبت به وهي في غاية القلق والاستغراب فقال بعد الترحيب : مفاجأة أكيد !!

نظرت إليه قائلة : نعم .. مفاجأة خاصة من فارس !

مشيا نحو المقاعد في تلك القاعة وقال : أنا بخير يا حميدة .. لست مريضا بدنيا .. وإن كنت مريضا نفسيا .. الحياة صعبة .. أريد أن أسألك عن الوالد وأخباره وصحته .. أنا أعلم أنني مقصر في حقه وحقكم جميعا .. إنما الحياة التي أعيشها معقدة يا حميدة .. ومشاكلي لا تنتهي .. فمنذ طلاقي لثريا وأنا أعيش في جحيم .. ما أخبار الوالد ؟

ـ أراه كل يوم بفضل الله ، وهو بكل خير ، وصحته ممتازة .. ماذا تريد منه ؟!

ـ أريد أن أراه .. أراه بعيدا عن الحي وبدون علم أحد .

ـ ولماذا ؟!

ـ إنني بحاجة لدعوة منه .. بحاجة لرضى منه .

قالت : من هذه الناحية هو راض عنك رغم الجفاء منك .

ـ أريد أن أقبل يديه يا حميدة .. رتبي لقاء به

ـ أين ؟

ـ في بيت خالتي أم حسن ..

ـ بيتها بعيد عن بيت أبيك

ـ لا بعيد على السيارة .. فلنبق على اتصال .. وتحدثي مع خالتي أم حسن ومع أبي وردي لي الجواب .

ـ سأفعل يا فارس .. أبي مشتاق لرؤيتك وسماع صوتك يا فارس .

ـ اعرف ذلك .. حياة تعيسة يا حميدة .. لا تظني أنني سعيد بحياتي ..



كلية الطب

نحن اليوم في خريف سنة ١٩٩٥ ، وقد بدأ العام الجامعي الجديد ، وقد دخلت سلوى فارس مكتب والدها وبعد أن سلمت عليه قالت : معي صديق يجب أن تتعرف عليه .

ـ صديقك من ؟!

ـ أحد الزملاء يسبقني بسنة.. طبيب صاعد .

ـ رائع فليتفضل !

فتحت سلوى الباب ، ونادت على زميلها سامر : تعال يا سامر أبي هنا .

دخل سامر المكتب باسما ومرتبكا إلى حد ما وصافح الدكتور وهو يقول : سامر خالد يا سيدي طالب كلية الطب .

ـ أهلا وسهلا .. فارس محسن والد سلوى ودكتور لغة فرنساوية عميد كلية الآداب .. أتدرس مع سلوى في كلية الطب ؟

ـ أجل يا سيدي واسبقها بعام واحد فقط .. وكما تعلم يا سيدي أن هناك محاضرات مشتركة .. فتتيح لنا الالتقاء بزملاء جدد .

قالت سلوى : نعم يا أبي قد تعرفنا في أواخر الفصل الماضي .. والدكتور سامر شاب لطيف وصديق عزيز على قلبي .

تبسم فارس وقال: على قلبك .. أفهم أن هناك أكثر من الصداقة .

تبسمت وقالت : يعني ..

فقال سامر بشجاعة : سلوى عفوا الآنسة سلوى فتاة جريئة يا دكتور فارس .. نحن أصدقاء فحسب لم تتطور الأمور إلى أكثر من ذلك .. وهي رغبت وألحت أن تعرفني عليك ؛ لأنك ـ كما تقول هي ـ أب مثالي ولا تعارض أي صداقة وعلاقة بين الجنسين .

تبسم فارس وقال : حسب الأصول يا ابني نحن شرقيون ..إنما أعني العلاقات البريئة والزمالات الصحيحة.. الحرية جيدة ؛ ولكن لا تتطور إلى علاقات جنسية باسم الحرية .

هتف سامر فقال : نحن أبناء أصول يا سيدي العميد .. أنا والدي طبيب ، وكذلك أمي ، وأنا

طبيب في المستقبل .. ونحترم الأخلاق .. والآنسة سلوى صديقة عزيزة عليّ .. وإنني اقدرها يا سيدي الدكتور

فقالت سلوى ضاحكة : رائع .. رائع يا دكتور سامر !! لقد خشيت أن يغمى عليك وأنت تتعرف على أبي الغالي .

تبسم الرجلان وعاد الدكتور للترحيب بسامر قائلا : أهلا وسهلا .. أتشربون شيئا يا سلوى بمناسبة هذا التعارف ؟

ـ لا ، لم يبق وقت يا أبي لشرب شيء ؛ لكني أحببت أن أجمعك بصديقي سامر الذي كان يتهرب من اللقاء بك ..وكان مستصعبا لهذا اللقاء .. رغم كلامي الكثير عنك ليقتنع أنك لن تغضب من تعارفنا ولقاءاتنا ، وقلت له إن أبي على خلاف كثير من الناس .. المهم الاحترام المتبادل بين الأصدقاء.

فقال فارس : حسنا يا سلوى .. احرصي على نفسك ولا تسيء للثقة التي أوليتك إياها .. أهلا بالدكتور سامر ..أنا سعيد بالتعرف عليك وبصداقتك لسلوى العزيزة .. والبيت مفتوح لك

ومد يده مصافحا له ، وقبلت سلوى يد والدها وقبلته على خده وهي تهمس : شكرا أبي !

ولما أغلق الدكتور باب المكتب وراءهم قالت سلوى بفرح : أرأيت والدي العزيز ؟!.. أبي ليس معقدا .. ولا يعني هذا أنه متحرر للغاية .

ـ شكرا آنسة سلوى على إتاحة الفرصة للتعرف على والدك أستاذ الفرنساوية

أمسكت يده وقالت : قلنا كلمة آنسة مشطوبة .. نحن أصدقاء وفي أول طريق الهوى والحب

توقف ونظر في عينيها : أتحبينني يا سلوى ؟

ـ جدا جدا .. كأنك أول رجل أراه في حياتي التي مضت .. أضع رسمك في غرفتي الخاصة .. واليوم سأضعها علنا ..

ـ أيقبلني أبوك زوجا لك يا سلوى؟ .. الصداقة غير الزواج

قالت محتجة : من سيتزوج هو أم أنا ؟

ـ أنت طبعا .. أمك .. عفوا أخبرتيني أنها طلقت منذ سنوات .. هل أخبرتيها بحبك لي ؟

تضايقت وضغطت على يده وقالت : اخبرها ولماذا اخبرها ؟! فهي بعيدة عنا

ـ الأمور بينك وبينها يبدو ليست ولابد .. لماذا انفصلت عن أبيك ؟.. أذكر أنك أخبرتيني أنه تزوج سرا عليها، ولما عرفت بذلك الزواج طلبت الطلاق ، لم تقبل فكرة التعدد .. ثم طلق والدك الزوجة الثانية لعدم قدرته على الإنجاب .. سيء الحظ يبدو والدك

ـ فعلا يا سامر!! .. ولكنه طيب ويحبني أنا وحسناء حبا عظيما بعكس أمنا .. وفكر قبل سنوات بإعادة الكرة ولم يوفق .. فله أكثر من خمس سنوات أعزب حتى ربما أكثر من ذلك .. التقى بامرأة شابة وتصاحبا لفترة .. ولكنها رفضت الزواج منه كما علمنا منه ، ثم تباعدا لم يتم الزواج .. ولدينا شغالة تهتم بنا في البيت ، ولما ارجع من الجامعة تغادر إلى بيتها وعائلتها .. وفي البيت أيضا خادمة آسيوية دائمة من جنوب شرق آسيا .

ـ أنت درست في مدرسة داخلية ؟

ـ نعم ، طلق أبي أمي ، وأدخلني مدرسة داخلية ، وأحضر لأختي مربية أجنبية ؛ كأنها فرنسية فأبي مغرم بالفرنسيين وحياتهم وتقليدهم وطعامهم ..

ـ أتزورين أمك ؟

قالت بتأن :لا يمنعنا أبي من ذلك ، نذهب في المناسبات والأعياد .. بالضبط لماذا طلق أبي أمي ؟ لا أحد يعرف .. ورفض أبي بقاءنا عندها عند حصول الافتراق حتى حسناء الطفلة.. وزوجته التي كان متزوجها لم تقبل حياتنا معها .. ولكنهم بعد إعلان الزواج رحلوا لمدينة نصر .. وبعد حين اتفقا على الطلاق بسبب عدم قدرة أبي على الإنجاب بعد محاولات علاج أخذت سنة أو أكثر ..

فقال سامر : وكيف يكون لقاؤكم بأمكم ؟

قالت بضيق : أمي لا تحبنا كثيرا ولا قليلا يا سامر .. يكون اللقاء ساعة أو نصف ساعة وربما أقل من ذلك .. لا أشعر بشوقها لرؤيتنا .. أمي معقدة .. وهي متزوجة من رجل كبير في السن من جيل والدها ، وهو رجل له أبناء شباب وهو أيضا عليل وسقيم .. تزعم أمي أنه يضيق بوجودنا ؛ ولكني لم ألحظ ذلك منه .. فنمكث بعض الوقت ونغادرها غير آسفين على

اللقاء يا سامر .. هناك سر عميق بين أمي وأبي حتى تتضايق من لقائنا وزيارتنا .. أو زوجها الهرم حقا لا يرغب برؤيتنا معها .. وهي لم تنجب منه ، وهي كثيرة لشرب المسكر والدخان

كأن سامرا تفاجأ بذلك : أمك تسكر؟

ـ نعم ، أنا لا أحبها كثيرا يا سامر .. لا أدري لماذا ؟! ولكنها أمي

ـ أنا سعيد بصحبتك يا سلوى .. بس لا تفكري أنني زوج الغد الواعد

ـ لن اسمح لك بالزواج من غيري ..

قال مازحا : قد ألتقي قبل مغادرة الجامعة بفتاة أحلى وأجمل منك ..

ـ أنا أجمل فتاة في الكلية صدق ذلك وربما في الجامعة

تابع ضحكه وقال : عندما أتحدث معك يا سلوى أظن أنك فتاة أوروبية ولست عربية .

فتضاحكت وقالت : ربما ؛ لأنني تعلمت في مدرسة داخلية نظامها أوروبي يا سامر .. ولكنك أنت الحبيب الأول وستبقى الحبيب الأول ـ إن شاء الله ـ .. أتحبني يا سامر ؟!

ـ أنا لا أدري !



جلس فارس في بيته الذي استأجره بعد عودته للحياة في جوهر المدينة الكبيرة ، ووضعت أمامه الخادمة الأجنبية إبريق الشاي وبعض قطع البسكويت الأجنبي ، وطلب منها إرسال سلوى إليه ، فعادت تقول : إنها تتحدث بالتلفون .

فرفع صوته مناديا : سلوى الشاي يبرد .

فردت سلوى : يا أبي إنني أتحدث مع سامر .. سأعتذر منه بعد قليل .. سأشرب الشاي باردا ـ كما تشائين .. أخذ يشرب الشاي ويقرأ في كتاب بين يديه ، حتى أتته سلوى التي سكبت لنفسها كوبا من الشاي وأخذت ترشف الشاي منتظرة كلامه معها ، ولما لزم الصمت ، قالت محتجة : نعم يا أبي .. الآن سيغضب مني سامر .. سامر لا يحب أن أقطع عليه المكالمة ،

يجب أن ينهي هو المكالمة يا أبي الفاضل .

اعتذر الأب لابنته وقال : هذه المرة سماح ..إني أريد أن أسألك عن سامر هذا .. أتثقين بأخلاقه أم هو شاب عابث .. ؟

صاحت بدهشة مستهجنة : عابث! .. كلمة خطيرة يا أبي .. لو سمعها سامر لهجرني وبحث عن فتاة أخرى .. قلة بنات في الجامعة يا دكتور فارس ..

ـ لم تفهمي قصدي

قالت : فهمت قصدك يا دكتور .. سامر يا أبي شاب يصلي .

ـ يصلي .. يصلي ؟!

قالت مؤكدة ما تقصده : ويتردد على مسجد الجامعة ،ويستمع للمحاضرات والندوات الدينية

قال وما زالت الغربة تعتريه : سامر الذي عرفتينني عليه قبل أيام ؟!

ـ أجل ، هو يحب التدين، وإن لم يظهر عليه ذلك .. وهو لا يجلس في الجامعة مع أي فتاة سواي أنا وحدي

ـ سامر خالد ؟!

ـ نعم ، سامر خالد يا أبي ..حتى أنه يحثني على الصلاة والصيام .. فأقول له أنا لا أعرف ذلك في البيت .. نحن لا دين لنا ..لا أذكر أننا تسحرنا ليلة من الليالي .. أو أنني رأيت سجادة صلاة في البيت ..

قال : عجيب ما أسمع يا سلوى .. سامر يصلي ويصوم !

قالت مضيفة : بل أكثر أصدقائه من شباب التيار الإسلامي ؛ ولكنه أحبني .. أو قل أنا أحببته هو لم يصرح بذلك .. ولكن أفعاله وتعلقه بي تدل على حبه لي يا أبي .. وهو جيد في الدراسة ومحبوب من الأطباء

سكت فارس قليلا وقال : ولماذا لا تصلين ؟!

ـ هو يقول الذي يصلي عليه بلبس ملابس حشمة .. فهذه الثياب التي ألبسها سيئة وقبيحة في

نظره ..

ـ هو الذي يقول لك ذلك .. عجيب هذا الشاب ! أصادق في عواطفه نحوك ؟!

قال معترضة : وإلا لماذا يصاحبني؟! .. عابث ساخر .. أتظن أنه ممثل طامع بجسدي ؟ .. فكثيرات هنّ اللواتي يهبن أجسادهن للرجل بزعم الهوى والحرية .. لم يطلب مني قبلة واحدة سامر هذا .. يمسك بيدي أحيانا ليعبر لي عما في قلبه نحوي .. ونتصافح كلما نلتقي .

ـ ويصلي الدكتور سامر ؟!

ـ نعم ، هو يعتبرني مخطوبة له .. ويفكر جديا بطلب يدي منك

ـ أتقبلين به يا سلوى زوجا لك في المستقبل ؟

قالت بولهه الولهان : أنا يا أبي لا خيار لي نحوه .. الخيار له .. إنني أقول هذا بصدق لقد أحببته منذ التقينا .

ـ والصلاة والثياب ؟!

ـ هو لو أمرني بذلك بقوة لفعلت ونفذت يا أبي !

ـ أنا حقيقة معجب بصراحتك يا سلوى .. وأنت فعلا ابنة المدرسة التي تعلمت فيها .. ولكن احذري الغدر .. احذري من الذئاب

ـ سامر ليس ذئبا.. إنني أثق به.. وسيحبني ويخطبني .



فمن طبيعة وتقاليد الدراسة في الجامعات وجود فواصل بين المحاضرات بالنسبة للطلبة والمحاضرين ، فكان يقضي الطلاب هذه الأوقات بين المكتبات والنوادي العلمية والثقافية إذا كانت متوفرة في بعض الجامعات إن لم يكن كلها ، والبعض وربما الأكثر يقضي وقته بالثرثرة مع الطلاب الذكور والإناث ، ويذهب بعض الوقت في المطاعم وأمام آلات بيع الشراب ، والجامعات تتوفر فيها الحدائق والمتنزهات والأشجار .

فكلما التقت سلوى فارس بزميلها سامر في أحد أوقات الفراغ بين المحاضرة والأخرى تشتري له علبة عصير مثلجة فيتناولها الشاب شاكرا ، ثم يجري التعليق على شيء ما ، فذات نهار بعد أن أخذ منها علبة العصير قال : كأن ثوبك جديد .. هذه أول مرة أراه عليك .

تبسمت وقالت مسرورة : بدأت تهتم بما ألبس ..

ضحك على غمزها وقال : دائما أرى ما تلبسين .. ولكني لا أفهم كثيرا في الموضة والموديلات أنا أمي جاهل في ذلك صدقي يا سلوى

قالت : اعتراف جميل!! لقد كان أبي يسألني عنك منذ أيام قليلة ..

ـ جميل أيضا!!.. أن يسأل عني الدكتور فارس محسن

ـ أجل تحدثنا عنك في جلسة خاصة بيني وبينه

ـ ماذا يريد أن يعرف السيد الوالد العزيز ؟!

قالت مفكرة للحظات : يريد أن يعرف عن مدى العلاقة التي تربط بيننا .. هل نحن مجرد زملاء ورفاق جامعة .. أم أن بيننا علاقة عاطفية .. أي هل أنت صادق بحبي كما أحبك أنا ؟

ضحك سامر وقال : أحبك ، هل قلت له إنني أحبك .. لم أقلها يوما حسب علمي .. نحن أصدقاء وزملاء كلية واحدة .. أنت التي تظهرين لي حبك ليل نهار .. هل في رأيك هذه اللقاءات علامات الحب ؟

وتسألت : واتصالات الليل ؟!

فأجاب بابتسامة بريئة : الملل يا سلوى الملل .. أنا لا أحب الخروج من البيت كثيرا .. فلما أشعر بالزهق والملل اتصل بك ليزول ويذهب ضجري ومللي .

تبسمت وقالت : تسلية إذن

ـ أرأيت أنّنا تحدثنا يوما جادين عن الحياة الزوجية ؟.. أنت لا تصلين يا سلوى .. وأنت تتبرجين .. وهذه أشياء قلت لك أكثر من مرة إن أهلي لا يرضونها

ـ المهم أنت

فقال معترضا : وهم رأيهم مهم

ـ أنا إذا تزوجنا سأكون لك وليس لهم .

ـ لي ولهم

قالت : هل تعلم أن والدي تعجب من صلاتك وصيامك وعلاقتك بي ؟ .. أنا التي تلبس على الموضة وتأكل على الموضة .. تعجب جدا من صحبتنا .. فوالدي كما أخبرتك أنه لا يعرف الصلاة ولا الصوم

قال بأسف وحزن : قلت لي ذلك يا زينة .. وهذا الذي قد يعطل مشروع الزواج والخطبة .

ـ دخلنا في الجد .. هل حقا تفكر بخطبتي يا سامر أم تعبث بي ؟

ضحك ساخرا : أعبث بك ؟! .. لقد فتنني حسنك وهدوءك يا سلوى .. رغم أنك ابنة المدنية كما تزعمين .. فأنت ذات أخلاق تؤهلك لأن تكوني زوجتي ..

قالت بحب واضح : أشكرك .. آه كم أنا مفتونة بك !.. ألا يدل حديثك عن الخطبة على اعتراف أنك تحبني ؟!

ـ ليس ذلك شرطا .. كثير من الناس يتزوجون ثم يأتي الحب أو لا يأتي .. رجل يرى امرأة حسناء فتعجبه فيتزوجها قد يسعدان وقد يفترقان بعد حين .. ألم تخبريني عن الحب الكبير الذي كان بين والدك وأمك ؟ .. ثم انفصلا .. الحياة ليس شرط لنجاحها الحب .. ولكن الحب من مكملاتها .. الحب يضمد الجراح والتعب ..

ـ فلسفة إذن

قال : هذا الواقع .. أسباب نكاح المرأة بينها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

فرددت الصلاة على النبي فقد علمها سامر ذلك ، ثم قالت : لم أفهم

ـ أنا أعرف أنك لا تفهمين .. للأسف أنتم تعيشون بين المسلمين بأسمائكم فقط .. لكن ماذا أفعل لقلبي ؟!

ـ قلبك ؟!

قال : المهم .. الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن المرأة تنكح وتزوج لأربعة أسباب .. منها الجمال والحسن

ـ وما هي الأسباب الأخرى ؟

ـ أتحبين أن تعرفي ؟

ـ صدق أنني أحب .. ولا تظن أنني أتضايق عندما تتحدث عن الصلاة والصوم والوضوء .. إنني أتمنى من أعماق نفسي معرفة ذلك

قال فرحا : بشرى خير .. الأسباب الأخرى المال والنسب والدين .. قد يرغب الرجل بالزواج من امرأة لها مال كثير .. أو ابنة سلطان أو وزير .. أو دكتور كأبيك .. أو امرأة متميزة بالدين والخلق العظيم .

ـ جميل !.. أنا عندي جمال ومال ينقصني الدين يا سامر !



قال فارس مخاطبا ابنته سلوى ذات ليلة : إن حسناء ستقضي نهاية هذا الأسبوع معنا ما رأيك بدعوة صاحبك سامر لمشاركتنا الغداء لتتعمق معرفتنا به .. ؟

التقت عيناها بعيني أبيها وقالت: هل تظنه يقبل؟ .. علبة العصير يقبلها مني بصعوبة .. فهو يحب أن يقوم بدور الرجل فعلا .. وأن يقدم المشروبات الباردة والساخنة على نفقته الخاصة

ضحك فارس وقال : هذا صاحبك شرقي مائة في المائة .." الراجل يدفع" .. والله إن صاحبك عجيب .. يصلي ويصوم ويصاحب البنات !

قال مدافعة عن صاحبها : سامر لم أره يصاحب أي فتاة .. تحية وبس ..لا يصافح أي بنت يا أبي إلا أنا .. وهو يعتبرني خطيبة له .

قال مازحا : خطيبة بدون موافقة الأب !

ـ فتاة حاولت سرقته مني .. أو أرادت إغاظتي .. حاولت الانفراد معه بحديث .. فاعتذر إلا بوجودي .. ولا تنسى أنه متقدم عليّ بسنة دراسية ومع ذلك يحافظ على مشاعري .. لكني سأدعوه على لسانك أقول الوالد يدعوك لمشاركتنا الغداء ولتتعرف على الطفلة حسناء .

قال فارس : افعلي ذلك .. ادعوه باسمي .. رغم أنني لم أقابله إلا تلك المرة .. فإن هذا الشاب يستهويني مثلك يا سلوى .

وبعد لحظات صمت قالت سلوى فجأة : أتخشى عليّ منه يا أبي ؟ إنه يريد خطبتي حقيقة كما قلت من قبل رغم أنني لم أسمعه يقول " أحبك يا سلوى " ابدأ .. ولكن علاقته بي والجلوس معي والمشي معي تغني عن الكلام ..

ـ يبدو أنه لا يحضر مسلسلات ليحفظ هذه الجملة ..

ـ وأنا فعلا أتمنى الزواج منه يا أبي ..

قال : ولكنكم من سن متقاربة يا سلوى .. ربما يكون فارق السن البسيط من عوامل نجاح الزواج ..كنت أنا وأمك من سن واحدة تقريبا .. وعشنا قصة حب كما يقال وانسجام .. ومع ذلك فشل الزواج أمام العواصف .. فتزوجت عليها ..

فقالت باسمة : لا أعتقد أن السن سبب في تباعدكما .. فزهرة كانت تصغرك بكثير ثم طلقتها

ـ زهرة تريد الذرية .. وأنا لم يبق عندي ذرية

ـ ما هي العواصف التي فرقت بينك وبين أمي ؟

قال بعد تأنٍ: ضعف الحب بيننا ،ومشاكلي مع أهلي وأهلها

ـ جعلتها تتخلى عنا .. لابد أن شيئا أكبر من ذلك دفعكم للطلاق

ـ مشاكل أكبر!.. كانت علاقتي مع أهلي سيئة جدا يا سلوى

ـ وما زالت يا أبي .. من النادر أن أراك تلتقي بقريب .. فحتى جدنا قليلا ما نراه .. لماذا لا يزورنا الجد محسن ؟

قال ساهما : ظروف يا سلوى .. إنهم يتهمونني بقتل أمي أو إنني سبب موتها بالقلب .. أترين أنني يمكن أن أقتل أمي ؟!.. صحيح أنها ماتت على أثر موقف حاد .. فجعل بعض أقاربك أنني أنا القاتل ـ تنهد بعمق ـ مشاكل تراكمت فزاد الجفاء بيننا .. فكان البعد عنهم الحل السليم .. ولكنني أقابل أبي من زمن إلى زمن في بيت الخالة أم حسن بالترتيب مع حميدة عمتك حميدة

فاجأته بسؤال : هل تحب أباك يا أبي؟

ـ هل أحب أبي؟! طبعا أحب أبي .. قد يبدو لك أن بيننا برودا فالسبب أنهم يتهمونني بمقتل جدتك أمي .. حتى أن أحد أعمامك يوم موتها صفعني مرتين أمام حشد من الأقارب والجيران لأهلي .. وحقرني وطردني من دار أبي .. واتهمني علنا بمقتلها .. كانت إهانة قاسية وعجزت يومئذ عن فعل شيء .. ولم يدفع أحد الظن عني .. فغادرت كمدا مجروحا ناقما .. علمت فيما بعد أن والدي طرد عمك من بيته .

ـ أي عم ؟ لا أعتقد العم محمودا .. فهو يتحين أيام الجمع ليراك

ـ عمك جابر ، ولا أظنك تعرفينه جيدا

ـ إنه مجرد خيال ..أنا لا أعرفه فعلا .. حتى عماتنا لا نعرفهن معرفة جيدة يا أبي .. العمة حميدة عرفتنا عليها قبل سنوات ..

ـ نعم ، للأسف معرفتكم بعماتكم ضعيفة .. وبعد طلاقي لأمك أيضا خفت علاقتكنّ بأخوالكنّ وخالتكنّ .. ومن أجل المشاكل التي أحاطتني أرسلتكن للمدارس الداخلية لإبعادكنّ عن هذه التوترات والمناكفات .. كننا ننهش في بعضنا نهشا ، نحن ليس لنا من أهلنا إلا العم محمود والعمة حميدة التي تلقينها أحيانا عندما تصحبنني لبيت خالتي أم الحسن لرؤية أبي

ـ لماذا لا تتصالحون يا أبي ؟!

ـ الأمور تعقدت يا بنية .. فعمك جابر طلق زوجته الأولى ، وتزوج أخرى بسبب مشاكل العائلة .. وقد طرده أبي من بيت العائلة الكبير .. ووالد زوجته الأولى اشترى لابنته شقة واعتنى بها وبأولادها .. فشب الأولاد يبغضون أباهم ويعتبرونه مجرما ، وأولاده من أجيالكم .. وسمعت أن خضرا تزوج من عهد قريب ، ولم يدعُ والده أحدا منا لعرسه وزفافه .. وعمتك خديجة تعرضت لحادث هلك نصف جسدها منه ، فأصبحت مشلولة فتزوج عليها ابن عمنا عدة نساء .. وباقي عماتكم لي سنوات لم ألتقِ بهنّ .. فخطوط الاتصال بيننا ضعيفة وربما مقطوعة .. كنّ بعيدات عن مشاكل العائلة فظللن بعيدات .. فمنذ موت أمي تشتت العائلة وابتعدنا عن بعض وكلٌ انشغل بنفسه وحاله ..

بعد فترة صمت عاد يقول : نعود لدعوة سامر فبادري بالاتصال به ، وقدمي له العرض .. وما دام يفكر بالاقتران بك وتعتقدين أنه جاد فليتفضل للغداء معنا

ـ لا أظن أن سامرا يعبث بي وسيغدر بي ويتلاعب بعواطفي يا أبي الحبيب .. فأنت خير من يعلم الفساد في الأماكن المختلطة .. وبائعات الهوى كثر رغم تسربلهن بالدراسة .. فنسمع قصصا تقشعر لها الأبدان إذا كانت صحيحة يا أبي .. فبعض الفتيات تبدل ثلاثة أربعة عشاق في كم شهر .. كأن العواطف لعبة ومهزلة .. وعلى رأي سامر معرض الأزياء دائم ومستمر في الجامعة ..

همس فارس : نعم ، انهزمنا أمام الغرب .. بل انسحقنا للغاية يا سلوى ، أنا وأنت وغيرنا فنحن نرى ذلك هو جمال الحياة .. بل الحياة نفسها.. ما كان أمامي إلا أن أمشي أنا وأنت في

درب التقليد الأعمى والانصياع له .. نحن الأعضاء الضعاف نلهث وراء القوي في كل شيء

ـ هل نحن نادمون؟!

رد حائرا فقال : نادمون ! كيف نندم ؟ نحن لم نصنع ذلك بأيدينا .. الدول القوية هي التي تصدر لنا كل ذلك باسم الحرية .. وكلنا يحب الحرية.. باسم الديمقراطية .. وليس من السهل السير عكس التيار .. فلما انتقلنا من مدارس الفصل بين الجنسين إلى الجامعة والاختلاط بالنساء والفتيات والأفكار وسماع الحكايات والمغامرات ضعفنا.. فهذا شيء مثير ومبهر لشاب مراهق أن يجد نفسه بين عدد من الفتيات السافرات .. يتحدث معهن في أمور حساسة يخجل أن يتكلم بها أمام الفتيان .. فماذا ستكون النتيجة ؟ يوم مع هذه وآخر مع أخرى .. فأصبحت مصاحبة هذه ومصاحبة تلك أمر هين .. بل رأيت من يتلقى عشرات الرسائل من عشرات الفتيات في آن واحد .. انفلات عجيب وماكر .. بل يوصف الشاب الذي لا يصاحب فتاة أو أكثر متخلفا ومعقدا .. والشاب المنتقل من بيئة محافظة والمحروم من مصاحبة المراهقات يجد نفسه في بيئة الجامعة والاختلاط في لهفة وهوس .. والجامعة لابد منها اليوم للدارسة والعمل في المستقبل .. حتى أننا كنا نسمع بعض قصص الشباب في كليات تعتبر محافظة كالشريعة والعربية .. أرى الوضع اليوم أخف من أيامنا .. أو أن الناس اعتبرت الأمر عاديا طبيعيا فقل تناقل مغامرات الشباب والشابات كالسابق .. ها أنت تتحدثين عن صاحبنا سامر بأنه لا يرضى بمخالطة الفتيات والعبث بهن .. أنا أذكر أيام دراستي إذا لم نجلس بين خمس طالبات أصبحت منبوذا .. ولا يعني الجلوس معهنّ خداعهنّ بالحب والزواج والأوهام إنما التسلية والعبث .. السخرية من بعضنا البعض.. والكل يخترع حكايات البطولة

ـ لقد حاول بعضهم جري لمثل ذلك بعدم الالتزام والارتباط بشخص واحد خلال سنوات الجامعة ، فهذه سنوات طوال .. ولكنّ سامرا حذرني من اللعب على الحبال ، وحذرني من كثرة الأصدقاء .. سلام وبس .

ـ وهل أطعته بذلك ؟

ـ لا أستطيع أن أرفض يا أبي .. فسامر شيء مهم كما قلت لك في حياتي .. أنا أثناء المحاضرات

أحيانا أخرج رسمه وأنظر إليه .. أرغب أن أبقى معه باستمرار.. أحاديثه وأحلامه ساحرة وممتعة .. فلو قال شيء عليّ التنفيذ .. لا تزعل مما أصرح به.. أنا مسحورة به .. أرجو ألا تتضايق من حريتي يا أبي .

ـ كيف أتضايق من صراحتك ومن عواطفك الصريحة ؟!.. أنا أحب الصراحة حتى ولو كانت مؤلمة .. نحن في مجتمع مليء بالعيوب والأمراض .. وأنا تأثرت من كلامك مع سامر .. وحبك وميلك العجيب له .. والعجيب أنه يصلي ويصوم ويعترض على ثيابك القصيرة والبنطالات

قالت : هو يريد أن أتخلى عنها بدون ضغط وإكراه ، ولكني عاجزة عن فعل ذلك .. عاجزة للغاية .. تعودت عليها وأصبحت جزءا من كياني .. وهو يعلم أنني عاجزة وضعيفة .. فقال مرة "عندما تصيرين خطيبة يمكنني أن اشدد عليك يا سلوى "

ـ أتستطيعين الاستغناء عن هذه الثياب ، وهذا اللبس بعد أن تعودت عليها وعن المكياج ؟!

ـ المكياج لم أعد استعمله .. ألم تلحظ ذلك يا أبي ؟ لا استعمل إلا أحمر الشفاه .. حتى العطور الباريسية أتجنبها في الكلية .. استخدم بعض العطور ذات الرائحة الخفيفة

ـ وأين تذهب عطور باريس التي اجلبها لك ؟

ـ استخدمها داخل البيت .. وبعضها في خزانة الثياب .. سامر لا يحبها ، وقال إنها تثير الغرائز وتلفت أنظار الشباب أكثر .. للروائح إثارة حادة .



قبل سامر الدعوة التي قدمتها سلوى بلسانها عن رغبة أبيها بهذه الدعوة ، بل قبلها سريعا دون تردد أو تفكير مما أثار دهشة سلوى ؛ ولكنها لزمت الصمت في مناقشة سامر بسرعة قبوله .

وبعد صلاة الجمعة انطلق سامر إلى الضاحية التي يقطن فيها الدكتور فارس محسن ، ووجد الدكتور منتظرا أمام الفيلا ، وتصافح الرجلان وبعد التحية والسلام قال سامر : خشيت أن أضيع في هذا الحي .. لا يوجد محلات تسألهم عن بيتكم ..أسمع أن أهل مثل هذه الأحياء لا يعرفون بعضهم بعضا !

ضحك فارس وقال : إلى حد ما يا دكتور سامر.. الكل في عمله .. الرجال والنساء في الغالب فهم يحيون بعضهم بالإشارة ؛ لأن أغلبهم يركبون سيارات خاصة .. وهذه ضاحية من فلل مستقلة .. ربما نظام الشقق يسمح للجيران بالاختلاط أكثر.. أهلا وسهلا بك يا سامر.. أنا خشيت من كلام سلوى أن ترفض ..

قال سامر: هذه أول مرة أقبل دعوة مثل هذه من سلوى خارج الجامعة .. لست محبا لدعوات المحافل والمطاعم والسهرات ..

ـ هذا شيء لم تخبرني عنه سلوى .. ألم تخرجا معا للغداء في مطعم أو نادي ؟

ـ لا ، رغم محاولاتها .. حصرت صداقتنا في الجامعة

ـ ولا مسرح ولا سينما ؟

ـ لا أحب ذلك يا سيدي الدكتور .. قبل الجامعة دخلت السينما بضع مرات ، ثم أحسست بالندم والسخافة بعد حضور كل فلم ، وأنني ضيعت وقتا بغير فائدة وعلم ..أنا يا سيدي أحب العلم والقراءة الكثيرة

قال الدكتور : طال الوقوف بنا أمام البيت .. وسلوى وحسناء ينظران إلينا بغيظ .. انظر إليهنّ .. واعلم أنني معجب بك وبأفكارك .. فأنت رجل بمعنى الكلمة يا سامر

قال بحياء : شكرا سيدي ، وأنا أفخر بسماعي ذلك من شخصك الكريم

دخلا الفيلا وأخذت سلوى وحسناء تعاتبان أباهما على طول مكثهم أمام البيت فاعتذرا لهم وتابع سامر قائلا : التلفزيون والفضائيات أخذت موقع السينما والمسرح وحتى المعارض

ـ نعم ، الفضائيات عالم جديد في زمننا هذا

فصاحت سلوى: بماذا تتحدثان ؟ .. التلفزيون .. المسرح .. السينما .. ظننت لما رأيتكما تتحدثان أمام البيت أنك تعتذر لوالدي عن الغداء

ضحك سامر وقال : دعوة الدكتور لا ترد ، ولو أردت الاعتذار لاستخدمت الهاتف .. هذه حسناء الحسناء .. كيف حالك يا حسناء؟ .. أنا سامر زميل شقيقتك في الجامعة .

ـ اعرف .. لقد جننتني بالحديث عنك .. أنت إنسان عادي

ضحك فارس وسامر على مداعبة حسناء فقال سامر : أنا بالطبع إنسان عادي ، ولم أنزل من الفضاء .. من كوكب آخر .. مرحبا بك

رحبت الفتاة بسامر وقالت : أنا سعيدة بوجودك معنا يا دكتور سامر .

جلسوا في غرفة الاستقبال ، وبعدما قدمت لهم الخادمة شراب الفواكه قال فارس : لقد ظهر من حديثي مع سامر شيئا جديدا لم تتحدثي به أمامي ؟

نظرت الدكتورة سلوى لوالدها باسمة وقالت : شيء جديد لا أعرفه ؟!

ـ تعرفينه ولم تتكلمي به أمامي .. علمت أنكم لم تتناولوا طعاما في مطعم خارج أسوار الجامعة لم تترافقا في غداء أو عشاء أو سهرة في نادي أو مقهى

ضحكت سلوى وقالت وهي تنظر لسامر مرة ولأختها حسناء مرة أخرى : سامر رجل محافظ يخشى أن يرانا والده .. فتصير فضيحة

تضاحك السامعون على نكتة سلوى ثم قال سامر: أبي يثق بي وكذلك أمي .. ونحن ليس بيننا رباط خاص لنسهر ونتعشى .. وسمعتك مهمة عندي يا سلوى .. وأنا لست عاجزا عن فعل ذلك .. ولست بخيلا يا دكتور فارس .. فأنا أدرس على نفقة الوالدين .. فلن يعجزهما دفع المزيد من المال ..

قالت سلوى وهي تنتقل للجلوس بجواره : أنا امزح .. لا تغضب ..

ـ ابدأ لست غضبان ولا متضايقا .. فالذي بيننا سيكون حياتنا

فقالت : وسامر يا أبي ليس من عشاق المسارح والسينمات .. ويعتبر ذلك سخافة وإضاعة وقت .. فمسرحنا ساحات الجامعة وأشجارها .. وهو يحب الاستلقاء على الأعشاب .. ونقضي نصف وقتنا إن لم يكن كله .. عن الحديث عن النبات والزراعة وفوائدها .. والحشرات التي تعيش عليها وعجائب أفعالها ... فأخرج من محاضرة إلى محاضرة مع أستاذي سامر .

نهض فارس قائلا : لا بأس .. ها هي بيبيانا تقول إن الطعام قد وصل ..

دخل عمال أحد المطاعم يحملون صواني الطعام والعصائر .. ودخلوا به إلى غرفة سبقتهم إليها الخادمة ، وهم يعرفونها ؛ لأنها ليست أول مرة يقدمون بها لهذا البيت .. فكل مناسبة يأكلون في البيت تحضر لهم شركة صناعة الطعام الطعام للبيت .

فلما خرج عمال المطعم دعاهم فارس للغداء . ثم عادوا بعد طعامهم إلى صالة الجلوس ، فجلس سامر على أحد المقاعد الوثيرة وبجواره فارس وقابلتهما سلوى وحسناء ، ووضع بين أيديهم الشاي ، فسامر من المغرمين بشرب الشاي كما أخبر سلوى ، فلما وضع الكوب أمامه قالت : شاي على الطريقة الفلبينية فخادمتنا فلبينية يا سامر ..

فقال سامر : كلنا أبناء آدم وحواء

فضحك فارس وحسناء وقال فارس : هذا سامر صديقنا يا حسناء

فقالت بحياء : شاب لطيف

فضحك سامر وقال بحياء : شكرا يا حسناء الحسناء .. أنت تتلقين العلم في مدرسة داخلية مثل سلوى قبل الجامعة ..

ـ نعم يا دكتور .

ـ هل أنت مرتاحة فيها ؟

ـ يعني ...

فقال فارس متحسسا: ماذا يعني يا حسناء؟! .. أنت في مدرسة داخلية لظروفنا التي تعلمينها

أنا في العمل .. وسلوى في الجامعة .. ولا أم في البيت

فقالت حسناء : أنا أتمنى أن أعرف لماذا تكرهنا أمنا ؟ على غير ما نسمع عن الأمهات !

فقال فارس بضيق : أمك لا تكرهك يا حسناء ، لكل ظروفه وأحواله .. ألا تذهبين إليها كل شهر ؟.. لرؤيتها والجلوس معها

فصاحت بغضب خفيف : إني لا أحب رؤيتها ..

فنظر فارس لسامر وقال : لعل سلوى وضحت لك شيئا من طلاقي لأمهم .

ـ كأنني سمعت بعض الشيء .. لماذا لا تتزوج مرة أخرى يا دكتور فارس ؟! ..أنت ما زلت شابا

رد باسما : سأفعل في الوقت المناسب .. يا حسناء السيد سامر يدرس في كلية الطب مع شقيقتك سلوى ليصير طبيبا في الغد الواعد ..

ـ تشرفنا يا دكتور .. آسف لذكر بعض مشاكلنا وهمومنا أمامك

ـ أبدا يا حسناء .. نحن أهل ، وربما يكون ذلك قريبا إذا وافق الوالد العزيز

ضحك فارس وقد فهم مغزى كلام سامر: أوافق !.. أنت عجيب يا سامر .. اليوم الكلام لكم أنتم .. وهل إذا قلت لا ستقبل سلوى؟ .. سلوى تتحدث عنك أمامي بكلام أشعر بأنها تعبد الأرض التي تدوس عليها ..

قال سامر كأنه معترضا على تعبير فارس : استغفر الله .. استغفر الله .. العواطف في الإنسان عجيبة يا سيدي الفاضل .. أنا كما تعلم أسبق سلوى بعام دراسي كامل .. وقد التقيت بأوانس وموظفات كثر في الجامعة .. ومع ذلك لم اهتم بأي فتاة .. ومع احتكاك عدد منهن بي لتكوين صداقات .. أيضا رفضت أي صداقة بغير حدود المعرفة في قاعة الدرس .. إلى أن كنا يوما في مدرج محاضرة .. فجلست قريبا مني سلوى .. لقد كانت ثيابها جميلة ومثيرة للنظر .. وربما كل من في المحاضرة رآها وتأملها

قالت سلوى : ماذا تقصد بالمثيرة ؟ .. فأنا ألبس مثل كل بنات الكلية .. لا أذكر أني ألبس شيئا مميزا عنهن ..

فقال سامر ضاحكا : مع الاحترام لكم جميعا كنت يومها تلبسين ثيابا من ينظرها يظن أنك بلا ثياب .. معذرة يا دكتور .. لا أعرف أحيانا تلبس الفتيات ثيابا كأنها ليست ثيابا .. ثم تبين لي أنها موضة جديدة كانت تنتشر في البلد .. وكانت سلوى أيضا تضع عطرا ظاهرا للعيان .. ورائحته قوية وجميلة ونفاذة .. فشدت نظري إليها في ذلك اليوم .. وفوق ذلك كانت جميلة .. المهم انشغلت باختلاس النظر إليها وتحركت غرائز الإعجاب نحو هذه الفتاة .. وأدركت يومئذ أن بعض النساء تفتن الرجال .. إنني أتكلم بصراحة يا دكتور .. فصرت استرق النظر إليها .. والمفاجأة أنها كانت تفعل مثلي .. وكلما تتلاقى عيوننا نتبادل الابتسام .. وتكرر النظر واختلاس النظر بيننا .. بالنسبة لي أنا كانت هذه أول أنثى تثيرني يا دكتور فارس .. اغفر لي هذا الحديث الصريح لأن له ما بعده .. وهي زعمت بعد تعارفنا أنها كانت مهتمة بي من قبل ولكني لم أكن مكترثا .. بملاحقتها .. لما رأتني أحدق بها .. اقتربت مني وأحبت أن تتعرف عليّ .. ووجد ذلك في نفسي هوى .. فرحبت بها وقلت لها صراحة " إنني مفتون بك يا سلوى .. وهي أول مرة أضعف فيها أمام هذه العيون " ثم صرنا أصدقاء بمعنى الكلمة

وقالت سلوى بسرور بائن : وصرت تغار عليّ .. كأننا عنتر وعبلة.. أو قيس وليلى .. افعلي كذا ولا تفعلي كذا

وقال سامر : وجدتها تعشقني عشقا كنت غافلا عنه يا دكتور .. وأنا عرضت عليها أن أخطبها بسرعة الصاروخ ..

فقال فارس : رغم أن هذا الكلام الصريح صعب على النفوس .. ولكني معجب بك .. ومعجب بأسلوبك الراقي في الحديث وتبسيط القضايا .. ولا تشعر بالحرج مع أنك تتحدث مع والد الفتاة التي خفق لها قلب الشاب .. ومع ذلك لليوم لم تصرح لها بتلك الكلمة الخالدة ـ كلمة عظيمة .. ولكن أهل العبث جعلوها سخيفة .. بعض شباب الجامعة يقولها لخمس فتيات في اليوم الواحد .. أحبك .. أحبك .. فهل هذا حب ؟ إنه لهو ولعب .. كلمة تتردد على الأفواه بشكل متكرر وممج ، ويتغنى بها المغنون والمغنيات حتى صدعت رؤوسنا منها .. الحب يا سيدي الدكتور بالقلب والفعل

فهتفت حسناء معجبة : فعلا أنت مدهش يا سامر ! .. فأنا أرى أنك محب لسلوى أكثر من روميو الذي قرأنا قصته في المدرسة .. فهي من القصص المهمة لوليم شكسبير المسرحي الإنجليزي والشاعر العظيم .

فقال وهو يشكر حسناء برأسه : وهل يأتي طالب لخطبة فتاة من غير حب ورغبة وإعجاب ؟! طالب .. أتعرفين معنى طالب ؟! يعني عالة على أهله في دفع ثمن المحاضرات والكتب والمصروف .

فقال فارس : إنك كبير يا سامر ! ..أنت مثقف وقارئ جيد جدا .. فأنا كما قلت آنفا لا دخل لي بالموافقة .. الأمر لكما .. ولكن أهلك يا سامر ؟

ـ أهلي .. أهلي يعرفون بصداقتي لسلوى .. ولما وضحت لهم مشروع الخطبة خلال فترة الدراسة ، ثم الزواج يكون بعد التخرج .. وأخذت بذكر ما أعرفه عن سلوى وأسرتها .. قالوا " إنك قد ترفض بشدة "

صاح فارس دهشا : أرفض ؟! هو أنا الذي سيتزوج يا سامر ؟!

تبسم سامر وقالت سلوى مستغربة لكلامه : ماذا تقول ؟ أنا التي يجب أن توافق وتقبل !

صاح سامر : أنت موافقة يا سلوى .. هل غيرت رأيك ؟

فخفضت نظرها للأرض وقالت : وهل لي رأي يا سامر ؟!

فضحك فارس وحسناء لخضوع سلوى لسامر وعاد فارس يقول : ولماذا يتوقع أهلك أنني سأرفض ؟!

نظر إليهم سامر ناقلا بصره للجميع ثم قال : لما أخبرت أمي وأبي عن سلوى ووالد سلوى ضحكا ضحكا عاليا حتى ظننت أنني أتكلم بنكتة أو طرفة .. ولما دعتني سلوى لهذا الغداء قلت إنها فرصة للمكاشفة يا سيدي الدكتور

فقال الدكتور : ما زلت في حيرة ؟ هل لوالدك معرفة بي ؟

فابتسم سامر وقال : بل هم أقارب لك .

أطفأ فارس سيجارته للمفاجأة وحدق بعيني سامر وقال : أقارب لي !

ـ أجل يا سيدي الدكتور ، قالت أمي " في يوم من الأيام كان أهلها يرغبون بتزويجها منك "
وقف فارس دهشا وقال : يا الهي !.. حبيبة محمد .. أمك ابنة عمي.
ـ عرفت من عهد قريب أن أمي ابنة عمك .. فأبي هو الدكتور خالد موسى وأمي من ذكرت فلما تزوجت السيدة ثريا تزوج أبي خالد الطبيبة حبيبة وأنا ابنهم البكر .
وضع فارس ـ وهو يعاود الجلوس ـ رأسه بين يديه وقال: يا الله !



تلقى فارس اتصالا هاتفيا من شقيقته حميدة محسن قالت بعد السلام والسؤال عن الصحة :
إن أختك أمينة وأنا ندعوك لحفل زواج ابنها محمد على ابنتي ناعسة
ـ البنت صغيرة يا حميدة !.. أليست البنت الصغيرة ؟
ـ هي صغيرة بالنسبة لبنات اليوم .. فبعد سنة تأخذ الثانوية العامة .. لكن ابن أختي راغب بالزواج منها .. وأبوها موافق ، وكذلك البنت لم تمانع ولم نجبرها يا دكتور ..
ـ ومحمد هذا ماذا يعمل ؟
ـ هو مهندس .. عمره خمس وعشرون سنة .. درس هندسة مدنية .. أنت لا تعرفه .. أولاد أمينة أربعة وبنت واحدة ..هو معجب بالبنت .. وبين والده وزوجي قرابة أيضا .. وأنا يوم الخطبة لم أدعوك لمعرفتي برفضك لمثل هذه الحفلات العائلية كما عودتنا ..وأما اليوم فربما تغير الوضع
ـ تغير لماذا؟
ـ سمعنا أن ابنتك قد تتزوج من ابن حبيبة الدكتور سامر .
تبسم فارس وقال لنفسه " لا شيء يُسر" ثم رد : حقيقة كانت مفاجأة لي معرفة سامر خالد بسلوى .. وهو ولد لهلوب وعقله كبير .. أتعرفينه يا حميدة ؟
ـ لأ ، منذ تزوجت حبيبة من الدكتور خالد ، وعلاقتنا ضمن المناسبات الضيقة كعرس أو

مأتم .. والدكتور خالد قليل الاختلاط بنا وبعائلتنا .. وحتى زيارات حبيبة العائلية لا يرافقها فيها كثيرا .. فهو مشغول في عيادته ومرضاه .. وسامر لا أعرفه قطعيا .. ربما كنت أراه صغيرا ولكني اليوم لا أذكره .. فقط أسمع باسمه عندنا يأتي حديث أولاد حبيبة في أثناء أحاديثنا العامة والعابرة .. وحبيبة كما تعلم طبيبة مثل زوجها وعندها خمس أو ست مواليد .. وهي سيدة فاضلة وتكنى بأم سامر ..

ـ متى حفل زواجكم وأين مكانه ؟

ـ يبدو أنك ستغامر بالمجيء .. فحفل زواجنا سيكون في صالة حفلات عنوانها (صالة الشهد في شارع بهلول الشامي) الساعة التاسعة ليلا يوم الأربعاء

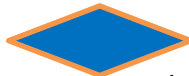
قال مضطربا : إذا جاءتني الشجاعة يا حميدة سآتي ومعي البنات .. هل سيدعى الدكتور خالد لهذا الحفلة ؟

ـ نحن في مثل هذه المناسبات يا فارس ندعو كل بنات العم وأبناء العم وأبناء الخالات .. وحبيبة ابنة عمي محمد .. وأنا وأمينة أهل العروس والعريس .. سندعوهم بإذن الله تعالى .. وسأدعوها بالهاتف أيضا فوق كرت الدعوة .. وأبين لها رغبتك بالتعرف على الدكتور خالد والد سامر

.. أليس ذلك جيدا ؟

ـ أنا أعرف ذكاءك يا حميدة .. أنا بالنسبة لزواج سلوى من ابن حبيبة لا اعتراض عندي .. الأمر كله لسلوى وسامر .. فهي التي ستوافق وتتحمل مسؤولية الزواج المبكر .. وأنا ليس في قلبي ضغينة لحبيبة .. أو غيرها .. وأنا لم أقل لحبيبة يوما ما إنني سأتزوجك .. إنما هو كلام الكبار .. تقليدا للعادة التي كانت سائدة قديما لا خيار للبنت .. اليوم الزمن تغير .. والمرأة لها حرية اختيار أكثر .

ـ توكل على الله .. والأمر لله .



قالت سلوى لسامر بهمس: والدي يرغب بأن نزوره في مكتبه اليوم قبل مغادرتنا الجامعة

ـ والدك لم يرفض كما توقعت أمي .
ـ أمك مخطئة .. أبي كما قال رأيي أنا المهم .. وتابعت وهي تبتسم : أنا يا سامر التي ستقبل أو ترفض

فقال متهكما وغامزا : مناي أن ترفضي ..

استمرت في ضحكها وقالت : للأسف لا أستطيع .. لو تتخلى عني يا سامر سأموت كمدا .. رغم وجود الكثير من الرجال هنا .. لم أجد بينهم إلا أنت رغم محاولات البعض معاكستي يا سامر .. جذبتني أنت وحدك

فقال : عجيب أمر القلوب يا فتاتي! ..إنني أسمع صوت المؤذن سأذهب للوضوء لقد فسد وضوئي في إحدى المحاضرات لم اصمد على وضوء الصباح .. ثم سأذهب للصلاة .. هل تعلمت الوضوء يا سلوى؟

تنهدت بأسف وأجابت : أذكر مرة أنك شرحته لي .. صدق سأصلي وأصوم عندما أخرج من بيت أبي .. إني أحب ذلك .. فبيتنا مليء بالشياطين يا سامر

ـ إذا صرت في بيتي فلا أقبل الكسل والتهاون في مثل هذه الأمور .. أمي تغضب عليك وعليّ .. أنا لما فاتحتهم بأمرك كان أول استفهام لهم " كيف هي والصلاة واللباس ؟"

ـ مناي أن أرى أمك يا سامر .. التي كان أهل أبي يرغبون بتزويجها من أبي ..

ـ وهي مشتاقة إليك ، وقالت كما قلت الآن " المنى والرغبة أن أرى ابنة فارس يا سامر " .. القلوب عند بعضها يا سلوى .. إنهم يتعجبون للقدر الذي جمعنا

فهتف سلوى بسعادة : أنا أحب أمك .. أحس أنني أحبها أكثر من أمي رغم أنني لم أرها

أخرج سامر رسما لها وقال : تأملي هذه الصورة للتي ستكون حماتك في وقت قريب .. تأمليها حتى أعود من الصلاة .

استقبل الدكتور فارس سلوى وسامرا ورحب بهم وسألهم عن المحاضرات التي استمعوا إليها هذا الصباح ، وأحضر لهم فراش القسم قهوة وبعد ذلك قال : أريد أن التقي بأسرتك يا سامر .. إذا لم يكن لديك حرج .. أريد أن أتعرف على والدك الفاضل .. مع أنني لابد التقيته

يوم زواج أمك .. في مناسبات مهمة في العائلة لكني لا أذكره جيدا ..

قال سامر : هو أيضا يعرفك بحكم المناسبات التي أشرت إليها.. وهو راغب بالتعرف عليك أكثر .. فأنا قبل ساعات كنت أقول لسلوى إن أمي راغبة بالالتقاء بها .. ومشتاقة لرؤيتها .

ـ أمك حبيبة .. إني أذكرها جيدا يا سامر .. فأخوها مازن خالك زوج أختي الكبرى خديجة ..

قالت سامر بشفقة : هي اليوم نصف مشلولة شفاها الله .. ومازن عدوك اللدود كما تقول أمي هو خالي .. وأمي سعيدة جدا يا دكتور لو حصل هذا الزواج وتعتبره من أعاجيب قدرة الباري .. وسلوى أغرقتني بالخجل وقد أقرت بأنها تحب أمي قبل أن تراها ..

ضحك فارس وعلق : يا سيدي ابنتي تموت فيك .. ولو أحببت حجرا لأحبته سلوى .. أنا مستغرب من حبها واستسلامها لك يا سامر ..

فقالت سلوى : بل أحبها أكثر من أمي .. التي تخلت عنا

نظر فارس لابنته وقال : ستبقى أمك يا سلوى .. نحن اخترنا الانفصال

لظروف أحاطت بنا .. وهي كانت تضع الزواج ثانية بين عينيها .. وهي لم تتخلَ عنكما ؛ ولكني أنا طلبت حضانتكما ورعايتكما بدون تدخل المحكمة وحكم القاضي .. كنت في أول سنوات المراهقة فأحببت تجنيبك المشاكل والعقد النفسية التي ربما تصدر عن انفصال الأبوين يا سلوى .. وكنت أرى يا سامر أنها لا تصلح لهما أما في ذلك الوقت .

فقالت سلوى : وأنا أحببت أم سامر لأنها أحسنت تربية سامر .. ووهبتني إياه .

فضحك سامر وفارس على طيبة سلوى وسذاجتها

فقال فارس : أكيد يا سلوى .. فسامر مخلوق عجيب ومحترم .. فثقافته وسلوكه وفكره أكبر من سنه ما دام يفهم في النباتات والحشرات والفلك والعواطف والعطور .. الاستقرار العائلي له دوره المهم في سعادة الإنسان وتنشئة الأطفال

قال سامر : هو ما تقول يا دكتور فارس .. والحياة لن تكون صورة واحدة .. التباين والتوافق كل هذه من صور الحياة الدنيا .. وأنا يشرفني أنا أكون عند حسن ظنكم .. وسأرتب لدعوة لكم مع الأسرة .. ولا تنسوا بالطبع صحبة حسناء بمعيتكم للتعرف على أهلي وأخواتي إن

شاء الله

ـ شكرا يا سامر .. فحسناء طبعا مبهورة بك .. وقد أغدقت المديح عليك وعلى سلوى لحسن اختيارها لك .. بعد مغادرتك ذلك اليوم .. هناك عرس لابن وبنت شقيقتيّ هل دعوت له ؟

فانتبه سامر وقال : كأنني سمعت بعض الحديث عنه في البيت .. بنت السيدة حميدة وابن شقيقتك أمينة ..

ـ نعم ، دعتني حميدة لذلك ووعدتها بالحضور .. فعلاقتي بحميدة دون أخواتي جيدة يا سامر .. فهذا العريس الذي اسمه محمد صدق أنني لا أعرفه جيدا .. بسبب مشاكل العائلة القديمة .. ولكن ابنها العريس شاب متعلم ومتخرج من كلية الهندسة .. وللأسف أنني لا أعرف أبناء أخواتي يا سامر .. والعجيب يا دكتور أن العروس تعتبر طفلة لم تأخذ الثانوية .. ما زال بعض الناس يتزوجون بناتا صغارا !

فقالت سلوى : ما زالت في المدرسة إذن

ـ ابنة سبع عشرة سنة .. ولكن الشاب يريدها .



التعارف

تناول الدكتور فارس وبنتاه الغداء على مائدة الدكتور خالد موسى وزوجته حبيبة محمد ، وكان لقاؤهم وديا وعاطفيا ، وقد احتضنت حبيبة بنتيّ فارس وهي تستقبلهما حتى أن دموع سلوى لامست وجه حبيبه وهما تتعانقان حتى أن حبيبة همست في إذنها : ما يبكيك ؟!

فسمعها فارس فرد عنها قائلا: لابد أنها تذكرت أمها

فمسحت دموعها وقالت : أجل يا أبي

وكانت حبيبة تعانق حسناء وتحضنها بعد أن تركت سلوى ، وسمعت فارسا يقول لابنته مؤنبا أو مذكرا : سلوى يا حبيبتي.. ليست كل النساء واحد .. نحن ضيوف

فقال الدكتور خالد : بل نحن أهل يا دكتور فارس .. أنا منذ زواج حبيبة لم أرك يا أهلا وسهلا بك يا أبا سلوى

ـ وأنا كذلك .. سعيد برؤيتكم .

ومع الغداء نسيت حادثة بكاء سلوى ، واندمج القوم بالحديث شرقا وغربا حتى قالت حبيبة : لما حدثني سامر أنه التقى بفتاة معه في الجامعة واستلطفها واستحسنها وأن لديه رغبة بطلب يدها والزواج منها .. طبعا لم نهتم أنا ووالده .. قلنا شاب انتقل من مدارس ذكورية لجامعات مختلطة .. فبعد حين سيغير رأيه ويتعرف على فتاة أخرى كعادة الطلاب والطالبات في الكليات المختلطة .. فنحن أيضا تعلمنا في الجامعات ونعرف مثل هذه القصص يا دكتور

فقال فارس : هكذا كل الأماكن المختلطة سواء الجامعات الحدائق النوادي .. وهي من حياة الجامعة .. فاليوم لا يكترث لمثل هذا القصص من كثرتها وتكرارها .. إلا إذا حدثت كارثة أخلاقية أو قصة فاضحة .. فالناس ما زالت تحب سماع فضائح الآخرين ويتذوقونها .. وتلوكها الألسن ، ثم بعد حين تذهب الحكاية أدراج الرياح ولا أحد يهتم بها إذا ظهر غيرها آ ، يا حبيبة لما أعلمك سامر بعلاقته بفتاة في جامعته

تبسمت حبيبة وقالت : قلت أنا وخالد أمر طبيعي اليوم .. ثم أخذ يكرر الحديث عن إعجابه بسلوى والخطبة لتصحيح الأمر بينهما وعدم الانحراف فقال له خالد " لا تتعجل يا سامر ..

ربما تلتقي غدا بفتاة أخرى وتغير إعجابك فأنت في بيئة مفتوحة وهذه سنوات سبع ".. وظل سامر يدندن حول الخطبة والزواج ثم حدثنا أنه اجتمع بوالد الفتاة وهو دكتور كبير في كلية الآداب وبعد حديث عرفت أنها ابنتك فدهشت أنا وخالد للتقدير الإلهي حتى أن أبا سامر علق قائلا " فارس يهرب من العائلة ، فهل يقبل بزواج ابنته ممن كانت العائلة ترغب بتزويجه إياها؟! ".. ثم لما دعوتم سامرا للغداء معكم وأنه سيتحدث معك بموضوع الخطبة والزواج قلت له إن والد الفتاة قد يرفضك ولا يرضاك زوجا لابنته .. فاستغرب للغاية فصارحته بقرابتنا .. وأنك ابن عم لي .. وأن خاله مازنا متزوج من شقيقتك السيدة خديجة .. وسردت على مسمعه رغبة العائلة القديمة بزواجنا وأنك تزوجت امرأة تعلمت معها وأنا تزوجت من والدك خالد .. وذكرت له المشاكل التي ترتبت على زواج فارس من امرأة غريبة عن العائلة

فاستغرق فارس بالضحك ثم قال بعدما سمع بعض التعليق من السامعين : أقدار يا حبيبة .. لم يكن شيء رسمي بيننا يا دكتور خالد .. وكما تذكرين يا حبيبة .. عندما تزوج مازن من ابنة عمه اختنا الكبرى أرادوا أن يجاملوا بعضهم والدي الأصغر من عمي محمد فقالوا لما يبلغ فارس وحبيبة سن الزواج فهما لبعض .. وشاع الأمر في العائلة فارس لحبيبة وحبيبة لفارس . هو كلام ولا رأي لي ولا لك يا حبيبة هو رأي .. سكتنا ابن العم لبنت العم .. ولما دخلت الجامعة صار معي ما صار لسلوى وسامر .. تعرفت على ثريا .. ودراسة شاب فقير من أسرة معدومة تشتغل لتأكل ينتقل للدارسة في الجامعة ، ويجد نفسه في مجتمع منفتح بنات تعرض أجسادهن ونحورهن للشباب بدون حياء ولا خجل .. ولا يعني هذا أن كل الفتيات يفعلن ذلك .. فهناك فتيات وطالبات محترمات لكن تلك البيئة التي وجدت نفسي فيها تساعد على العلاقات غير السوية .. الجامعة تعني الانفتاح .. فإما الانحراف والزنا وإما الحب الصادق .. فكانت ثريا القدر والنصيب .. واستمرت صداقتنا حتى تخرجنا ثم كان الزواج لابد منه .. فثارت العائلة ابنة عمك ابنة عمك التي لها سنوات تنتظر .. مع أنك كنت ما زلت على مقاعد الجامعة لم تتخرجي بعد

فقال خالد : العادات .. والتعصب لتلك العادات .. فنحن اليوم نشرف بك يا أبا سلوى

وبمصاهرتك .

ـ ونحن نتشرف بكم .. وأنا قلت للدكتور سامر ..لا أستطيع أن أقبل أو أرفض فالأمر لسلوى .. هكذا علمتني حياة الحرية والانفتاح .. مع اكتشافي للكثير من الشوائب فيها .. ودارت حياتي الخاصة في أحوال صعبة وسيئة حتى اضطررت للزواج السري لابد أنكم سمعتم بهذا بحكم القرابة بيني وبين زوجتك الفاضلة .. تزوجت من إحدى طالباتي ، ثم اضطررت ثانية لطلاقها لرغبتها في الولادة والذرية .. ولم استطع أن أقدم لها ذلك .. وقد غادرنا للحياة في مدينة نصر لبداية حياة جديدة لكن لرغبتها الشديدة للحمل فشل الزواج .. فعدت أعزبا .. وقد حاولت الزواج أكثر من مرة وبسبب ضعفي في الإنجاب .. يرفضن .. حتى مربية حسناء الفرنسية عرضت الزواج عليها ، ولما صارحتها بعدم قدرتي على الإنجاب رفضت .. وحتى قلت لها سأسمح لك بتبني طفل أو طفلة .. فرفضت وقالت تزوجت مرتين وفارقتهم لرفضهم الإنجاب .

فقال خالد : غريزة الأمومة كما يقال .

ـ تقريبا .. فاستسلمت لقدري والبقاء بغير زواج .. نساء يردن أبناء .. حتى أنني أذنت لزهرة زوجتي الثانية بتبني طفل من ملجأ أطفال فرفضت .. أنا منذ تزوجت بثريا شرطت عليها بمولودين فقط

فقال خالد متحمسا: أترغب بالزواج يا دكتور أم انتهى التفكير بذلك ؟!

ـ حاولت ورغم أن لي سنوات بدون زوجة .. ولكن إذا وجدت من ترضى بي على علاتي سأتزوج .

قال خالد : والبنات ؟

ضحكت سلوى : أنا لا اعتراض لي يا عم خالد .. فمن حقه أن يتزوج .. وهو كما سمعته بحث ولم يجد لحتى الآن .

ـ وأنت يا حسناء .

ضحكت حسناء وقالت : نحن يا عمي نحب لأبينا كل خير وتعودنا على زوجة الأب ..

ونحن لم نعش معها إلا في فترة العطل والإجازات

فعاد خالد ليقول : أنت تريدها متعلمة ومتخرجة من الجامعة ؟

تبسم فارس وقال : أكيد يا دكتور خالد .. حتى نستطيع أن نتحدث ونتناقش في موضوع ونفهم على بعضنا البعض .. فإذا حولك امرأة تراها مناسبة للعيش معي تالي العمر .. فبارك الله فيك .. ولابد أنك بحكم عملك مع الناس في العيادة .. مرت عليك مطلقات أرامل .. امرأة ليست بحاجة لخلفة .. وبحاجة لزوج فعلى الرحب والسعة يا دكتور .. جئنا نتعرف على أهلنا فصرنا نبحث عن خطيبة لنا .

قالت حبيبة مشجعة : لن يبخل عليك الدكتور خالد بذلك .. ما رأيك في ابنة الدكتور حمزة يا خالد ؟

هتف خالد من توارد الخواطر وقال : والله هي التي وقعت في بالي يا حبيبة .. تزوجت مرتين وطلقت من أجل الخلفة .. فشل زواجها بسبب عدم قدرتها على الحمل والولادة .. بل حاولت عن طريق أنبوب التخصيب ..ولكنها لم توفق .. وهي ليست جميلة يا دكتور لكنها مقبولة وطيبة .. هل أعرفكم بها وأهلها أم أتحدث بك عندهم ؟

فقالت حبيبة مذكرة : بس هي يا دكتور فارس تصلي وتلبس الشرعي .. لا تحب السفور والتبرج .

فحك رأسه فارس وقال : هذه مشكلة .. لن تقبل بي .. بصراحة أنا ابن المدنية .. أشرب الخمر بين الحين والآخر .. أنا متحرر للآخر كما يقال عنا من قبل الشيوخ .. وعملي بتدريس الفرنسية وحبي لها يجعلني أقلدهم .. لبسا أكلا شربا سهرا .. فأنا أعيش مثلهم .. لكني لم أعشق الفجور والخلاعة ..والخليلات ..

فقال خالد مزيلا للحرج : على كل حال إذا تذكرت امرأة غيرها تناسبك وتقبل بتقاليدك وعاداتك.. سأتصل بك

ذهب فارس وابنتاه إلى صالة حفل زواج محمد وناعسة أبناء أختيه أمينة وحميدة ، وكان ذلك في الوقت الأخير من الحفل ، وجلس على إحدى الموائد بعد أن حيا الجميع رافعا بيده للأعلى ، وقد قدم التهنئة للمهندس محمد ووالده اللذين كانا يستقبلان المهنئين على مدخل القاعة .

وكانت البنتان قد دخلتا القاعة المخصصة للنساء ، وكان الخبر منتشرا بين أفراد العائلة أن ابن حبيبة سيتزوج ابنة الدكتور فارس محسن ، فكانت التهاني تنهال على سلوى من فتيات ونساء لا تعرفهن .. وقدمت إليها حبيبة واحتضنها هي وأختها وكذلك فعلت عمتها حميدة .. وأخذت تعرف بعض الفتيات والنساء على بنات فارس .. حتى أن سلوى جلست على كرسي من كثرة المصفاحات والمعانقات ، واجتازت تلك الحفلة بشق الأنفس ، فلما ركبت بسيارة أبيها تنفست الصعداء وقالت لأبيها : كل هؤلاء أقاربك !

تبسم وقال : أكيد تعبت من كثرة السلام والتقبيل .. أنا لي أربعة أعمام وست خالات وأنا وإخوتي سبعة .. فلابد أننا أنتجنا جيشا من سكان هذه الأرض .. أرجو أن تكنّ سررتنّ بلقاء أقاربنا الأقربين

فقالت حسناء : تعبنا من كثرة السلام والمصافحة والمعانقة ..

ـ لأنكن أول مرة تلتقين بمثل هذه الجمع من تجمعات العائلة .. كان بيننا جفاء وعلاقتنا بهم سيئة .. ولعل زواج سلوى بابن حبيبة سيحسن من الحال وتختفي أو تضعف الأحقاد .. وأنا لولا حسن صحبتي لحميدة أم العروس ما ذهبت .. أكانت أم سامر في الحفل ؟

قالت سلوى : أمي حبيبة أشهرت خبر خطبتنا القريب .. مع أن الخبر معروف بينهم ؛ لأن من كانت تسلم تبارك لي بالخطبة .. مع أننا كما تعلم لم نفعل شيئا رسميا ، وأمي حبيبة امرأة رائعة وطيبة ومحبوبة .. لا أدري لماذا لم تتزوجها يا أبي ؟

ضحك فارس وقال : لو تزوجتها من أين سيأتيك سامر ؟ .. هذا قدر ونصيب

ـ صدقت يا أبي .. إنها حبيبة فعلا .. وكانت تفتخر بنا أمام أهلها .. وسمعتها تقول " قدر الله لي أن أتزوج طبيبا .. وها هو ابني سيتزوج طبيبة" .. وعانقتنا أنا وحسناء بحنان وحب ..

وكل نساء العائلة يحترمنها ويقدرنها .

فقالت حسناء : حقيقة أنت يا سلوى محظوظة جدا بهذه الأم الطيبة .. إنها تعالج نساء العائلة لوجه الله .. وتشارك في جمعيات لمساعدة الفقراء والمحتاجين .. بل تغضب وتتضايق إذا امرأة من قريباتها لم تتعالج عندها إذا كان المرض ضمن اختصاصها .. فهي طيبة .. ويتحدثن عنها بحب ووفاء .. لقد سحرت بها يا أبي .. لو تجدون لي عريسا عندها

قهقهة فارس وقال : كم عمرك يا حسناء ؟

ـ خمسة عشر عاما

ـ وتفكرين بالزواج ؟

ـ ها هي ناعسة بنت عمتي سبعة عشر عاما وتزوجت

فقال فارس ساخرا : حسنا .. اقنعي حماتك يا سلوى باختيار أحد أبنائها لأختك .. لتتزوجا في يوم واحد ..



كان سامر يجالس ويخاطب سلوى وهما يجلسان على مقعدين في إحدى حدائق الجامعة قائلا : كنت نجمة الحفل .. كيف وجدت حفلة أقاربك يا سلوى ؟

ـ وأقاربك .. أليسوا هم أخوالك ؟

قال ضاحكا : هم أقارب أمي صحيح .. ونعم الأقارب .. ما دامت بينهم سلوى ووالدها فارس ..

ـ لقد تعبت خدودي من القبل يا سامر .. الكل يريد أن يسلم ويعانق .. وجلست على كرسي من الإرهاق ..

ـ قالت أمي إنك وحسناء كنتما نجمتي الحفل أكثر من العروس .. فحضور والدك لهذا العرس كان عجيبا ومدهشا للناس .. كانوا يتوقعون اعتذاره وخاصة لما تأخر عن الحضور

قالت : هذا كان في بال الوالد ، ولكن حميدة عزيزة على قلب الوالد .. فهي صديقته الوحيدة من أخواته الأربع ..

عقب قائلا : عمك محمود علاقته جيدة أيضا

ـ وعمي محمود يودنا ، ويتصل بأبي ، ويزورنا بين الحين والآخر.. وهو عم مسكين لم يرزق البنين والبنات .. أتعرفه يا سامر ؟

ـ التقيت به أكثر من مرة .. سلام وكيف حالك ؟ .. وهو دائم الحزن ؛ ربما كما قلت ؛ لأنه لم يخلف ذرية .. هل التقيت جدك محسنا ؟

ضحكت وقالت : إنني أعرفه يا رجل .. أعرفه طفلة .. ونحن نلتقي به مع أبي في بيت خالة أبي أم الحسن .. أثناء السنوات الماضيات .. لا أدري لماذا لا يذهب أبي إلى بيته ؟!

ـ إذن تعرفين الحاج محسنا .. لربما خشية أن يلتقي برجال لا يرغب برؤيتهم كعمك جابر .. وزوج عمتك خديجة مازن شقيق أمي ..

ـ نعم ، أبي كثيرا ما يذكر هذين الاسمين بغضب ونقمة

قال : حكاية قديمة يا سلوى .. اليوم خالي مازن يشفق عليه

ـ لماذا ؟!

ـ منذ هجره لزوجته خديجة المصابة بالشلل وهو يتزوج ويطلق .. تزوج على أثر مرض عمتك امرأة أنجبت له طفلين .. ثم طلقها بالمعروف .. وتزوج ثالثة .. وبعد سنين طلبت الطلاق ، وكانت قد وافقت على بقاء أولاده من امرأته الثانية معهم ..لأنه قبل طلاق الثانية على شرط بقاء الأطفال معه .. ثم تزوج الرابعة ومشاكله معها لا تنتهي ، وصابر كما يحدث أمي على مضض .. المهم أنك سعدت بعرس ابن وبنت عماتك ..

ـ أعراسكم غير مختلطة .. كنت أحلم بأن نجلس معا .. لا نسلم على بعض فقط .. كأننا أغراب .. وكم احمر وجهك وأنا أسلم عليك أمام الناس !

ـ الحياء من الإيمان .. كنت على كل حال جليس والدك بعض الوقت .. وكان حديثنا عن خطبتنا .. وعلمت من أبي الذي رافقنا لهذه الحفلة ومن والدك أن أمرنا سيقرر قريبا .

ـ هل تعلم يا سيد سامر إن حسناء وقعت في حب أمك وتريد عريسا منها ؟!

ـ عريسا لمن ؟! لها .. قولي لها أمامها شوط طويل حتى تصل لمرحلة الزواج .. على كل أمي

أحبتها كما أحبتك واعتبرتها ابنة لها ...آه .. البكاء أتبكين ؟ إنني آسف يا سلوى .. أكيد ذكرتك بأمك .. ما أخبارها هذه الأيام ؟

ـ لي أكثر من شهر لم أرها .. إنها من النادر يا سامر أن ترفع التلفون للتحدث معنا زاعمة أنها لا تحب سماع صوت أبي .. ولما نتصل لنرتب للقاء وزيارة تزعم أنها مشغولة وأن زوجها مريض .. والبيت مشغول .. حجج كثيرة تلقيها في وجوهنا ومرات بضغط من أبي نذهب إليها بدون موعد .. تضطر لاستقبالنا بعض الوقت ..

ـ ألها أولاد من زوجها الآخر ؟

ـ لأ ، هو رجل كبير وعليل .. وهو صاحب لوالدها ترمل عن أم أولاده .. ولم يتقدم أحد للزواج من أمي .. فزوجها الرجل لصديقه .. وهو يسكن في عمارة مع أولاده أو بعضهم .. وربما يكون هو الذي منعها من الحمل ..

وصمت الشابان لحظات ثم عادت سلوى تقول : قلت لي إن كلاما في الحفلة كان حول خطبتنا فمتى ستكون الخطبة ؟

ـ لم يحددوا تاريخا ما .. المهم ـ إن شاء الله ـ قريبا .. وليس فقط خطبة .. بل سيعقد عقد الزواج أثناء الخطبة

فقالت : لماذا لا نتزوج على الفور يا سامر ؟ ..

ـ نحن على مقاعد الدرس يا فتاتي .. وأمامنا سنون .. ثلاث أربع سنوات يا بطلة

ـ إني لا أحب مفارقتك .. أحب أن أبقى معك باستمرار يا سامر .. إنني انتظر ساعات الدوام بهوى وهوس .. انتظرها بفارغ الصبر أيها العزيز .. الشوق غلاب .. كم أفرح عندما يرن الهاتف في الليل ..

فقال سامر : وعندي من الشوق ما عندك .. لا تظني أنني جامد العواطف .. ولكن أحيانا لا استطيع أن أتحدث عن العاطفة التي أكنها لك في قلبي يا سلوى .. أنا اعترفت لك أنك الفتاة الوحيدة التي جذبتني لهذا الذي يسمونه الحب .. وأنا ـ إن شاء الله ـ حبي لك صادق .. وليس لهو ولعب كما نراه من الكثير من زملاء الجامعة .

ـ آه .. ما أجملك لما تعترف بهذا الكلام المقدس عندي ! .. وأنا أصدقك .. بدأت تعترف .. فكلمة الشوق كلمة مثيرة واعتراف خطير

ضحك لكلمة اعتراف وقال : اعتراف!!.. وكل هذه الأيام والساعات التي أقضيها بصحبتك والحديث معك ليس فيها اعتراف واستسلام للقدر الذي ربطني بك .. لقد فتنت بك مذ رأيتك أول مرة لفتي نظري فيها بالمدرج

ـ لقد سبقتك في هذه النظرة .. كنت ألمحك باستمرار .. وأحاول لفت نظرك إليّ ولكنك كالناسك لا ترفع نظرك إلى النساء ..

ـ منذ وطئت قدماي هذا المكان صممت يا سلوى أن لا ادع وقتا للنساء في حياتي .. قررت الصوم عن ذلك حتى أتخرج .. ولكني فشلت عندما وقع نظري عليك .. وقعت في غرامك ضعفت ..

ـ يا سلام .. دخلنا على الغرام بعد الشوق

ـ عندي لك مفاجأة يا سلوى

ـ مفاجأة!! ما هي ؟

ـ قلت مفاجأة .

ـ وكيف اصبر ؟!

ـ أنا اعلم أن صبرك ضعيف .. على كل حال سأكشف لك الخبر .. أأنت متأكدة مائة بالمائة من عواطفك نحوي يا سلوى ؟! وتقبلين بي شريكا لحياتك .

نظرت إليه بدهشة وقالت : أأقبل ؟ ما أسخف هذا السؤال ! وهل بعد سنة تُسئل سلوى هذا السؤال ؟!

فخاطبها بشكل تمثيلي : يا بنت الزواج ليس مثل هذه الجلسات والأوقات نتسلى بها

هتفت بغيظ : نتسلى بها .. نحن نتسلى

قال : الزواج مسؤولية أتعين ذلك ؟

ـ ما معنى مسؤولية ؟

ـ صح ما معنى مسؤولية ؟ .. فعلا أنت لا تعرفين المسؤولية .. الغسيل عند الكوى والصباغ والصحون عند الخادمة .. والطعام من المطاعم .. عمرك غسلت وكويت نظفت مائدة وأطباقا ؟

ـ أتضحك مني ؟.. ما دام الخدم موجودين لماذا أغسل وأنظف ؟

ـ أترتبين فراشك لما تنهضي من النوم ؟

ـ ولماذا الخادمة ؟! التي يدفع أبي لها راتبا وأجرة

ـ معنى هذا يا حلوة .. أن اجلب لك خادمة معي ..عندما نتزوج .. سلوى وخادمة

ـ لقد رأيت في بيتكم خادمة ؟

ـ عند أمي وأبي خادمة .. صحيح ليس عندي يا سلوى .. عندما احتاج لكوب شاي أو كوب ماء سأطلبه من خادمة أمي وأبي ..

فقالت ببساطة : تعودت على الخادمة منذ طلاق أمي .. وسأتعلم لن أجبرك على التعاقد مع خادمة

ضحك سامر وقال : تتعلمين ماذا ؟ وماذا ستتعلمين ؟ أنا كما تعلمين أهلي ينفقون عليّ وعلى تعلمي في كلية الطب وأنت كذلك .. فهل سينفقون على خادمة إذا تزوجنا ؟.. أرأيت علينا أن لا نفكر بالزواج ونحن على مقاعد الجامعة ونحن عالة على الآخرين ؟

ـ فإذا عمل الشاي سيعطل زواجنا فسأتعلمه بسرعة .. ولا أظن أنني لا استطيع فعله .. صحيح أنا لم أجرب ذلك .. وليس الأمر صعبا ..

ـ والطعام والطهي

ـ يا الهي !.. أشياء لم أفكر بها صدق يا سامر

ـ ألم أقل لك الزواج مسؤولية ؟.. هناك زوج يريد أن يأكل ويشرب الماء والشاي والقهوة ويلبس ثيابا مغسولة ومكوية ..

قالت : أتعلم كل شيء .. مع الوقت أتعلم وأتقن فعل هذه الأشياء .. نحن منذ وجدنا على هذا الكوكب .. نعتمد على الأم والخدم .. وحتى المدرسة الداخلية كان موظفو الخدمة

يقدمون لنا الوجبات والخدمات .. أما ترتيب الغرف والملابس كنا نمارسها في غرف المدارس الداخلية .. كل فتاة لها سرير وخزانة .. وعلينا كنس الغرفة يوميا .. وعاملات الخدمة يدخلن الغرف لنظافتها كل أسبوع مرة .. بالمكنسة الكهربائية ..

ـ ها أنت تحملت بعض المسؤولية

ـ أتعلم يا سامر .. كما أنا أتعلم في كلية الطب .. قل لي المفاجأة

ـ المفاجأة هي رغبة والديّ بزواجنا المبكر .. والسكن معهم في البيت .. وتحمل نفقات بيتنا من ماء وكهرباء واتصالات وطعام وتأثيث البيت .. لكن الخادمة لم اسمع أبي وأمي يتحدثان عنها

قالت بفرح غامر : سأقوم بواجباتي الزوجية كما تحب يا سامر .. المهم أن نتزوج وأن أعيش مع أمي حبيبة

ـ هذا ما سمعت الأسرة تتحدث عنه يا سلوى ؛ ولكن هل يرضى والدك بزواجك قبل التخرج ؟ .. الذي سيبقى له خمس سنوات

قالت متظاهرة بالاعتراض على حشر والدها في أمرها : أبي ؟!.. قلت لك ألف مرة الأمر لي أنا يا سيدي .. آه !.. إني أحب أمي حبيبة لقد أحبتني بصدق !

أم العروس

رن ذات ليلة هاتف منزل فارس وكان المتصل زوجة فارس الأولى ثريا وطلبت الحديث معه :

نعم يا ثريا هانم .. ماذا جد؟! ألا تريدين حضور حفلة زواج ابنتك ؟ هكذا سمعت من سلوى ..

فصرخت : أنا أمها آخر من يعلم بمشروع زواجها يا فارس

ـ كان الكلام عن خطبة ثم تحول لزواج ، وأنا قلت لها عندما أذنت لهن بزيارتك آخر مرة أن تخبرك بقصة زواجها في صيف هذا العام .. فذكرت أنك غاضبة ولا ترغبين بحضور هذا الزواج فدهشت .. هي لم تخطب بعد ولم يكتب الكتاب .. وهي تعرفت على شاب في جامعتها وتطور الحال إلى زواج

ـ والعريس كما قالت قريب لك .. وأنا أعرف من هي أم العريس ولم أنس هذا الاسم يا دكتور فارس !

ـ هذا يا سيدتي الذي صار .. هل أقف في طريق سعادتها ؟.. فعليك أن تشاركي في حفل الزواج كأم صالحة

غضبت لغمزه وقالت صارخة : أنا لست أما صالحة يا فارس ! .. فلا داعي لمشاركتي في ذلك مبارك عليك بناتك

ـ على كل حال .. الزواج والخطبة في الصيف .. وبيننا وبين الصيف عدة أشهر .. فراجعي قراراتك .. وأنا لا مانع لديّ من حضورك .. فهي ابنتك كما هي ابنتي .. فلست آخر من يعلم .. فلم يحصل شيء سوى كلام في كلام .. مع السلامة .



وبينما السيدة ثريا في السوق لشراء هدية خاصة لابنتها التي ستتزوج خلال أسابيع قليلة ، وبينما هي تدخل محلا لبيع الذهب وجدت عشيقها القديم حسونا فقالت متفاجئة : حسون .. أنت هنا ! .. كيف حالك ؟

والتفت إليها وبدا مصدوما وقال : ثريا .. يا أهلا وسهلا
تصافحا بحرارة فهما أصدقاء قدماء وقالت: عشر سنوات لم أرك فيها يا حسون !
تطلع حسون في عيني صاحب المحل وقال : ماذا تريدين من الذهب ؟ سنتكلم في الشارع .
حيت صاحب المتجر وقالت : سأعود .. هيا بنا نشرب قهوة
تبعها حسون إلى مطعم في نفس الشارع ، ولما جلسا على إحدى الموائد قال : ما أخبارك لي زمن أبحث عنك منذ عدت من أوروبا ؟!
قالت ساخرة : آ .. منذ عدت من أوروبا .. ماذا كنت تفعل في أوروبا منذ هربت مني ؟!
فقال متظاهرا بالانكسار والأسف : أنا آسف يا ثريا لم استطع طلاق امرأتي الحامل .. ولما صارحتها بحبنا الذي تعرفينه رفضت الطلاق .. وألزمتني بالهجرة .. وخشيت الفضيحة .. فرتبت لي سفرا لليونان .. أنا ضعيف أمامها
ـ وتركتني اكتوي بنار الوحدة وتخليت عني .. أين تسكن اليوم ؟
ـ أين أسكن ؟!
ـ أريد مقابلة هذه الزوجة التي حرمتني منك
ـ لا يمكن هذا ، أنت تريدين تدمير حياتي الزوجية
ـ ألم تدمر حياتي ؟
ـ برضاك يا ثريا ..أنا أعلنت حبي لك أيام عملنا في البنك .. وأنت وافقت على حبنا .. هل أجبرتك على الزنا ؟ .. أنت رضيت بالزنا عن طيب خاطر وقلت إن فارسا مشغول بجامعته وطالباته .. فلننشغل نحن بالحب والعشق
ـ رضيت لأنني أحببتك بحق يا ملعون ، فتحت لك داري وبعت شرفي من أجلك ، ولما أخذت حريتي هربت .
ـ وأنا ما زلت محبا وعاشقا ومستعدا للزواج منك
ـ لقد تزوجت رجلا كبر أبي بعد هربك يا ملعون .. وذلك بعدما يئست من لقياك ومن وجودك .

كان جابر محسن وابن عمه مازن محمد يجلسان على إحدى الموائد في قاعة أحد الفنادق الفخمة قاعة زينت بالأعلام والرايات والأضواء والألوان ، وذلك في حفل زفاف سامر وسلوى الذي أراد والد سلوى أن يكون في أحد الفنادق الكبيرة ذات النجوم الخمسة ، وكان الحفل يشمل ما يسمى بالبوفيه المفتوح للمدعوين ، ورغم اعتراض الدكتور خالد في أول الأمر واعتبر ذلك خروجا عن المألوف في عائلته ، ثم وافق على ذلك بعدما قبل فارس أن يقاسمه نفقات هذا الحفل ، فلان بعد استسلام فارس للمقاسمة .

فكان جابر يقول : والله دنيا يا مازن !.. ها هو فارس وحبيبة يلتقيان من جديد .. ما أصابنا إلا الغم والهم طول هذه السنوات .. وها هم عادوا أصدقاء وأصهار

وضع مازن كوب العصير الذي كان يشربه وقال : صدقت يا أبا خضر .. خضنا معارك ومهاترات مع المدعو فارس .. وها نحن نحضر عرس ابن حبيبة وابنة فارس .. تصاريف القدر عجيبة .. الحياة مدرسة كما يقولون .. فارس الذي حارب الدنيا ليبتعد عن العائلة يعود إلينا من جديد .. لولا إعجاب أختي بسلوى لفسدت هذا الزواج على فارس اللعين .. لكنّ خالدا ليس من العائلة كما تعلم وخجلت من التدخل في زواج ابنه

ـ علمت أن طليقة فارس حضرت العرس

ـ إنها تجلس هناك مع حبيبة.. لقد ذهب الجمال الذي كانت تتباهى به يا جابر.. لليوم لم نعرف لماذا طلقها فارس ؟ الذي كافح العائلة كلها ليقترن بها ..أنسيت ذلك ؟

قال : تاريخ .. وهل ينسى يا ابن العم ؟! طلاقي لهناء كان من وراء قصص فارس وثريا.. فعلا لم تعد بذاك الجمال والرونق والثياب الباريسية التي عرفناها بها .. فهي امرأة رجل عجوز ورغم بحثي عن سبب الطلاق لم أصل لجواب سوى أن فارسا تعلق بحب جديد من إحدى طالبته وتزوجها سرا ، ولما كشفت ثريا أمر الزواج المخفي عنها طلبت الطلاق ، ورفضت أن تعيش ضرة ، وتخلت عن البنات لفارس .. فوافق على ذلك وطلقها

ـ هل تعلم أن أم خضر موجودة هنا ؟

ـ أعرف وسلمت عليها .. أحضرها خضر معه .. وخديجة أم عصام أتى بها ابنك أيضا .. لا أظن أن أحدا من عائلتنا تخلف عن هذه المناسبة .. فحبيبة سيدة كبيرة في العائلة

قال مازن : لقد اشترى الدكتور خالد غرفة نوم لولده لا مثيل لها في البلد .. مستوردة من أوروبا.. أرأيت البذخ والنفاق ؟!

ضحك جابر ضحكة قصيرة وقال : ابن أختك سيصير طبيبا كأبيه ، وسلوى ستكون طبيبة أيضا مثل أختك .. هل يدوم مثل هذا الزواج في رأيك ؟

ـ أختي مجنونة في سلوى .. وسلوى مجنونة فيها .. تحبها أكثر من أمها ، وتعلن ذلك على الناس .. وعلمت أنها لا تحسن صنع وغلي أبريق شاي أو صنع صحن سلطة

ـ لماذا ؟

قال :طول عمرها معتمدة على الخدم

ـ صحيح .. وحبيبة عندها خادمة.. الزوجات العاملات يحتجن لخادمات .. أرزاق يا دنيا

قال مازن : كنت أفكر بتزويج باسم من إحدى بنات حبيبة ؛ اليوم أفكر كثيرا ..أنا فارس أبغضه

ـ وما دخل فارس بحبيبة وزواج باسم ببنت حبيبة ؟!

ـ سلوى بنت فارس

قال جابر: يبدو أن فارس اليوم ليس كفارس زمان .. لليوم لم يجد امرأة ترضى به زوجا وقرينا لها .



كان حفل زواج سامر مشهودا وأحدث دويا قويا في عائلة محسن وأقاربه ، وكان ذلك بين حاسد ومحب ، وأنفقت فيه الأموال الكثيرة ، وغادر العروسان الفندق إلى المطار فور انتهاء الحفل للسفر إلى صيف سويسرا ، ثم فينا لقضاء ما يسمى اليوم شهر العسل وإجازة العرس .

وكانت السعادة تغمر العروسين ، وهما يصعدان سلم الطائرة المغادرة بعد حين إلى تلك البلاد

وكانت سلوى تهمس لسامر : إنني أسعد إنسانة يا سامر بوجودك معي وبقربي .. لقد أحضرت ملابس الصلاة معي ، ونفذت تعليماتك كما قلت .. وأخبرتني أمي حبيبة أن الثياب الشرعية الجلابيب داخل إحدى الحقائب

ـ رائع يا سلوى !! لم يبق لك عذر بعد الزواج للسفور وترك الصلاة .

ـ حتى أبي قال لي "افعلي كل ما تطلبه منك حبيبة وزوجك سامر .. الصلاة سكينة للمرء في هذه الزمن المليء بالأمراض النفسية "

قال سامر متحمسا : أحس أن والدك يريد أن يتوب يا سلوى ولكنه ضعيف ..آه لو قبل بالزواج من ابنة الدكتور حمزة تلك المرأة المطلقة مرتين ستساعده بالخروج من التردد والحيرة التي يحيا بها ..لابد أنك سمعت بحكاية تلك الإنسانة .. فربما عاد لفطرته السليمة .. ها نحن في شهر العسل ومع ذلك نصلي ونفرح ونتمتع بهذه الدنيا وجمالها.. عندما نعود للجامعة يا سلوى ستعودين بثياب طويلة وملابس توافق الشرع

فستكونين حديث الطلبة والزملاء ستتفاجأ صديقاتنا بك أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد يا زوجي الحبيب .. هل أنت سعيد يا سامر بالزواج مني ؟

ـ سعيد جدا ! كنت أظن أن الأمر سيطول حتى نتخرج ونعمل .. لكن أسرنا وقفت معنا .. فنحن عندما نتخرج قد يكون بين أيدينا طفلان

ـ أوه يا سامر أمستعجل على الأولاد ؟!

ـ ولماذا التأخير؟ .. أنا لست من أنصار تأخير الحمل .. المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. بل والدك المتعلم عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية والمتفرنس كما يقول همس في أذني "أحسن شيء الأولاد في أول الزواج "

تبسمت سلوى قائلة : لأنه لما تزوج على أمي زهرة أخر الحمل ، ولما طلقت أمي أرادت الزوجة الحمل ، فوجد أنه لا يستطيع الإنجاب فكان الطلاق .. فهو ملسوع كما يقال

ـ نترك الأمر لصاحب الأمر .. الله وحده هو الوهاب

ـ أنا تحت أمرك .. أنت دنياي يا فارسي الجميل!!

بعد زواج سلوى وسامر ومغادرتهما البلد لقضاء شهر العسل في ربوع أوروبا أخذ فارس يفكر جديا بالزواج ، فقد أصبح البيت خاويا ، وكان يصاحبه السرور في نهاية الأسبوع عندما تعود حسناء لقضاء يوم العطلة في البيت ، فاتصل بالدكتور خالد موسى وتحدث معه عن تلك المرأة التي ذكرها له منذ أشهر فقال خالد : إنك تشعر بالوحدة بعد سفر سلوى

ـ رغم مكثي في الجامعة كما تخبر ، فقد كانت سلوى مهمة لي في البيت يا دكتور خالد .. لها وحشة

ـ أكيد .. أنا من ذاك اليوم وأنا أبحث لك عن امرأة تناسبك وترضى بالحياة معك .. والإنسان لما يعوز شيئا توصد الأبواب وتقفل أمامه ، وعندما لا يريد الشيء تنهال الفرص عليه ..أنا لم أنساك يا أبا سلوى

ـ أنا أسالك عن تلك المرأة ابنة الدكتور .. نسيت اسمه رغم أنك عرفتني عليه يوم عرس سامر وسلوى

ـ تعني الدكتور حمزة صديقي وجاري في مجمع العيادات ..ولكنني ذكرت لك أن ابنته متدينة وتلبس الزي الشرعي .

فقال فارس ضاحكا: يا سيدي إذا قبلت بي وراقت في عيني .. أتدين مثلها

قال خالد بحماس : آه كلام جميل يا فارس !! تنوي ترك الفرنسة

ـ كبرنا يا خالد.. كبرنا .. وأنا قلت لك لست مدمن خمر أو زير نساء .. إنما لا أرى حرمة الخمر كما يراها المتشددون .. ولا أرى الزنا جريمة كبرى ما دامت بالتراضي دون إكراه واغتصاب .. أقول هذا متأثرا بالحضارة الفرنسية .. أنا منذ بلغت وأنا لا أعرف الصلاة والصوم .. كنت أضحك من أمي عندما تأمرني بالصلاة .. وتحاول تشجيعي على الصيام ..

ـ يا سيدي أنت تعلم أن دين الإسلام رحمة وأخلاق .. رويدا رويدا تعود لحضن الإسلام يا دكتور فارس .. التوبة في الإسلام لا تحتاج لقسيس أو شيخ .. دعنا نتقابل .. ما رأيك أن تتعشى معنا الليلة .. أنا أغلق عيادتي مع صلاة العشاء .. ستفرح حبيبة لذلك .. فقد أوصتها

سلوى وهي تغادر عليك .



نهض الرجلان عن مائدة الطعام وهما يحمدان الله تعالى ، وشكر فارس أم سامر على العشاء الذي قدم لهم ، وانتقلوا لمكتبة ومكتب الدكتور المنزلي ، وأخذ فارس يـتأمل في عناوين الكتب قبل الجلوس ، ثم جلس بعد حين مع حضور الشاي وقال : مكتبة جميلة يا خالد ! .. أنا مكتبتي كلها كتب فرنسية وإنجليزية وبعض معاجم اللغة العربية والموسوعات .. مكتبتك زاخرة بالكثير من التصانيف .. طب فلك دين تاريخ .. لغة ..لا أدري يا خالد لماذا أبغض الدين؟! رغم أن والديّ يصليان ويصومان .. وقد حجا بيت الله في مكة .

رد خالد : لقد كنت متأثرا بالغزو الثقافي الغربي والعالمي .. أثر فيك تخلف أو تأخر المسلمين في الصناعة والتكنولوجيا .. فظننت أن هؤلاء أفضل منا وأحسن منا .. لكن الحياة ليست المادة فحسب .. أشبعت الحاجات المادية حتى التخمة اليوم .. الروح لم تقدم لها حضارة الغرب أي شيء .. وأنت شاب صغير قد جرفك تيار التغريب التيار العلماني الذي عشعش في بلادنا .. وزعمتم أن الدين هو سبب ضعفنا ، وليس مصدر حياتنا وقوتنا .. قستم دين هؤلاء على ديننا وجعلتم كل الأديان في سلة واحدة وهي سبب تخلف الأمم .. ولما يتعمق المرء في ثقافة هؤلاء يجدها ضحلة فارغة رغم تشعباتها ..لا تجد عندهم شيئا جذابا إلا الشهوات .. وهي ذات عمر قصير .. وتصاحبها الآلام والأسقام .. فنحن اليوم نرى أهل الغرب يعتنقون إسلامنا ويقرأون كتب علمائنا .. فبعضهم يسلم مثلنا ، وبعضهم يتوقف حائرا مترددا .. لقد شوه المستعمر والغازي القديم دين ورسالة الإسلام .. وتبعهم بعض المرضى في هذه الفرية والدعاية المغرضة .. وجعلوه دينا ضد المدنية دينا ضد العلم وضد الحرية .. دين الإرهاب كما نرى ونسمع اليوم .. هناك إعلام وأقلام تشوه الدين في بلاد المسلمين .. ولكن اليوم الحمد لله بدأ الوعي الجماعي للإسلام يظهر من جديد .. ومكتبتي يا دكتور حتى أمرك ..

ـ شكرا ، أريد يا سيدي بهذه المناسبة كتابا أو كتابين يثيران في نفسي حب الإسلام والدين من جديد

ـ سأفعل .. والآن لنتحدث عن الزواج فأنت بحاجة لزوجة تسكن إليها بعد فراغ البيت من سلوى

ـ أتمنى لهما السعادة ، ما أخبارهما في أوروبا ؟

ـ ألم يتحدثوا معك؟ .. لقد تحدثا مرة من سويسرا ومرة من فينا .. اقترب الشهر على الزوال .. الأيام تمشي سريعا ، فكيف إذا كانت أيام أول الزواج ؟!

ـ اسأل الله لهما السلامة يا أبا سامر .. نعم ، تلك المرأة كيف سنقنعها بالقبول بي إذا عدت إلى الله ؟

ـ أنا سأتكلم مع والدها بصراحة عنك .. وأقول لهم إن الرجل وعدني بالتوبة وترك الخمر

ـ الخمر تركها سهل واعتبرني تركتها من هذه اللحظة .. تمر عليّ أسابيع ولا اشرب كأسا منها اشربها عند زيارة الأصدقاء وزملاء العمل في مناسبات معينة ..هي من باب المحاكاة لهؤلاء الأجانب .. بس المشكلة يا صديقي في الصلاة والصوم احتاج لوقت للثبات على فعلهما .. خمس صلوات قد تكون ثقيلة عليّ .. لكن صدق أنني عازم على ترك الكفر والعصيان .. وأنا سأعتبرك أخي الفاضل مستشاري الديني حتى ارجع إلى الله حقيقة ..

قال خالد سعيدا : حياك الله يا دكتور.. أنا مسرور من أجلك .. ومن التفكير في العودة إلى الدين .. سأنقل الصورة التي أنتم عليها للدكتور حمزة صديقنا الفاضل بكل صدق وأشجعه على الترحيب بك .. لا أخفي عنك سرا نحن جسسنا نبضها حولك لكنها قالت " إنه لا يصلي " .. نفرت من ذلك وقالت لحبيبة " الصلاة عمود الدين يا أم سامر " نحن حاولنا مساعدتك ، لكن تبين لنا أن المرأة مصرة على الصلاة ، ولا مانع لديها من الزواج منك إذا التزمت بالصلاة ، بل قبلت وعدا منك بالصلاة .. ولكن لمعرفتنا بمبادئك العدائية للتدين .. تجاهلنا الأمر يا دكتور .. ولأنك صارحتنا بالتغير الذي أنت مقبل عليه صارحناك بما جرى بيننا وبين البنت .. والمرأة كسيرة بسبب فشلها في الزواج مرتين وعدم قدرتها على الحمل ..

وبما أن عندك نية للتغير والعودة فسنشجعها على الاقتران بك بعد الالتقاء بعضكم ببعض ..

قال فارس : أشكرك وأشكر حبيبة أو السيدة حبيبة على هذا الاهتمام وعلى الجهود التي تبذلونها من أجلي .. وأنا مسلم لست ملحدا يا خالد .. لكني لا أعرف حقيقة الصلاة والصوم والدين لي عمر بعيد عن ذلك .. فقضية وجود الله لم تشغل بالي ؛ لأنني غير مهتم بالإيمان وعلاقة الإنسان بخالقه .. وحتى الفكر الفرنسي الحديث لا يفكر في هذه القضية كثيرا .. فالله موجود عندهم في الكنيسة .. أما في الشارع في البنك في السوق في الوزارة لا دخل له في ذلك .. وغير موجود .. هذه قضية فردية شخصية .. لا أنكر أنني تأثرت فعلا بالفكر والفلسفة المادية ، ودع ما لقيصر لقيصر .. ولم أحاول معرفة الله وصفاته أو صفات الإله الذي أومن به .. إن كان الإيمان بالله إيمان وجود أنا مؤمن به ربا وخالقا .. ولكن لم اهتم طيلة هذه السنوات كيف يعبد هذا الرب ؟! كيف أتقرب إليه ؟ فكل هذه العبادات غير ذات أهمية في حياتي .. ماذا أكل ؟ ماذا أشرب ؟ هذا حرام .. هذا حلال .. ما دام مسموح به في البلد ولا يخالف القانون فأنا اقبله يا سيدي .. فقضية شرب الخمر مثلا .. لم اسأل هل هو حلال أم حرام ؟ تعاملت معها كأمر اعتيادي .. هناك شباب مسلم يقولون لك الخمر حرام .. ولكننا نحبها نشربها .. كذلك التعامل المال والبنوك .. ولما آكل شيئا أقول الحمد لله .. ليس تدينا إنما شكرا لله .. وعادة .. ويتردد لفظ الله على لساني في محاضراتي وكلامي .. لكن لا التزام عندي نحو قضايا الدين .. فأنا محسوب على أصحاب الفكر الحر أصحاب الحرية غير المتدينين العلمانيين .. مع أنني لا أنتمي لحزب معين إلا عضو في بعض جمعيات فكرية علمية لها علاقات مع مراكز فرنسية لتبادل الثقافة والخبرات .. وصراحة بلادنا كما تعلم لا تحكمها العلمانية بشكل واضح .. ولا الديمقراطيات الغربية .. حكم مختلط .. بين ديني وعلماني ووطني .. هل نستطيع التمييز بصراحة يا دكتور خالد ؟

كانت حبيبة قد شرحت لنبيلة رغبة ابن عمها بالزواج من امرأة عاقر ، وحدثت الفتاة بأن الرجل ليس متدينا ولا مصليا .. واعتذرت الفتاة عن مثل هذا الزواج .

ولما أحس خالد بعد لقائه الأخير بفارس أن الرجل أخذ يعيد حساباته وتفكيره في العودة مجددا لأحضان الإسلام الذي هجره منذ بلغ البلوغ الشرعي ، وتركه نهائيا مع أول يوم في الجامعة .. ولم يعد يكترث لصلاة ولصوم ولمناسبة دينية .. وصلة رحم وعلاقات عائلية ككثير من الذين تيسرت لهم الدراسة في فترة الخمسينيات والستينيات في الجامعات فاعتبروا التمسك بالدين رجعية وتخلف وانحطاط ، وجعلوا الإسلام سبب ضعف الأمة وهوانها .. لكن في فترة الصحوة الإسلامية .. بدأت المعلومات تتغير .. والعودة إلى الإسلام تتجدد .. والإقبال على العلم الإسلامي والفكر الإسلامي كما يسميه البعض تعود .

تحدث الدكتور خالد بعد لقائه الأخير بفارس مع الدكتور حمزة زميله وصديقه في المهنة وفي المجمع الطبي ، ثم زاره في عيادته ، وجلسا يتحدثان بعد أن طلب الدكتور من سكرتيرة العيادة تأجيل المرضى لبعض الوقت .

شرح خالد القصة لحمزة وعن سبب الزيارة ، فدعاه حمزة لزيارتهم في

البيت ، وشرح التطورات الجديدة للبنت لعلها ترحب بها جد وتقبل بهذا الزواج .

وفي الليل كان خالد وحبيبة يطرقان بيت الدكتور حمزة ، وبعد الترحيب والمجاملات التقليدية مشى الدكتوران نحو مكتب ومكتبة الدكتور حمزة ، وكان الدكتور قد ذكر لابنته سبب هذه الزيارة فطلب منها أن تتبعه للمكتب والمكتبة قائلا : تعالي يا نبيلة .. فالأمر يخصك كما وضحت لك قبل ساعة ..

وظلت حبيبة جالسة مع زوجة الدكتور حمزة ، وكان كلامهم في نفس المهمة والغاية من الزيارة .

تبعتهم السيدة نبيلة بصحون الفاكهة ، ولما جلست حياها الدكتور خالد من جديد وشكرها ثم قال : الموضوع القديم يا أخت نبيلة .. موضوع الدكتور فارس محسن .. والد زوجة ابننا

سامر .. وقد حدثتك حبيبة عنه سابقا .

ردت قائلة : أذكر فعلا ذاك الحديث يا دكتور فارس ..أنا وافقت من حيث الفكرة على الزواج منه ، ولكن لما علمت أنه غير مصل اعتذرت وقلت لأبي ذلك .. لقد تضايقت من فكرة الزواج من رجل غير ملتزم يا عمي .. نحن كما تعلم منذ الصغر نحب الجنة والآخرة ، وأن السعادة الحقيقية في الآخرة وليست في الدنيا

ـ لا خلاف عندنا في ذلك .. لكن علينا أن نعيش دنيانا .. وأنها دار الاختبار .. نحن سلوى ابنة الدكتور أخذناها لا تعرف شيئا من الإسلام والوضوء ؛ ولكنّ سامرا طمأنني أنها من أول ساعة وصلوا فيها سويسرا تغيرت وصلت .. ونحن جهزنا لها الملابس المناسبة .. ولا تخرج إلا وهي تلبس الجلباب .. لديها رغبة عظيمة بالتغير .. مع أنهما في شهر العسل يا دكتور حمزة .. لم تقل لما نرجع لما ينته شهر العسل .. هم وجدوا أنفسهم في بيئة لا تعتبر الدين مهما في حياتهم .. فسوف ترون بفضل الله سلوى أخرى .. للأسف هؤلاء الزاعمون أنهم أحرار ودعاة حرية ما هم بأحرار ، بل أسرى التقليد للثقافة والفكر الغربي .. استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .. فيعتقدون أن الانفتاح والسفور هو الحياة هو السعادة .. وهذا وهم صاحب استسلامنا للفكر الغاصب .. فسلوى لم تر والدها في يوم من الأيام يسجد لله أو يضع سجادة صلاة ليصلي .. وأمها مثل أبيها .. مسلمون بلا دين وهوية .. ففارس ابن الجيل الذي استقبل الحضارة الغربية بخضوع وانبهار وابن الغرب والغزو الثقافي الغربي .. والذي انغرس فيه أعطاه لذريته .. لكن مع الصحوة وظهور الإسلام بدأت الكهول تعود لدين الله الحق .. فسلوى صبرنا على تركها أمور دينها حتى ترحل إلينا .. ومن أسباب تعجيلي لزواج سامر منها لنقلها لأسرتنا .. نحن نرى أن بيئتنا أصلح من بيئتهم يا دكتور حمزة

ـ أكيد يا خالد .. فحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل الذي قتل مائة نفس وقد التقى بالعالم الصالح فحثه على الانتقال إلى القرية الصالحة ليستطيع الثبات على توبته

ـ أحسنت يا دكتور حمزة ..البيئة لها دور مهم في تنشئة الإنسان

أثنى الدكتور حمزة على أفكار صديقه خالد ورغبته في إنقاذ الفتاة من الضياع ، ثم قال خالد :

والدكتور فارس لمست أن لديه رغبة بالعودة لحياة الإسلام والدين من جديد .. فهو بحاجة لمنقذ وشريك مساعد فأرى أن السيدة الفاضلة نبيلة تستطيع القيام بهذا العمل لوجه الله ..

وحدثهم عن فارس وسيرة حياته التي يعرف أهمها ثم ختم قائلا : حدثتكم عنه بتفصيل واضح .. وهو رجل لم يمارس الفجور والزنا .. ولو أراد ذلك فأماكن الفجور موجودة .. هو رجل هوي الغرب وأفكاره وفلسفته ؛ ولكنه منذ تعرفه بسامر أخذ يعيد ترتيب نفسه من جديد .. فأنا عرضت قصتي أمامكم حتى تكوني على بينة وصورة واضحة عن صهرنا .. وأنا حقيقة عندي أمل كبير أن يعود فارس للإسلام الذي عاداه أو تجاهله كل تلك السنوات المديدة، وقد أقر لي أن حياة العلمانية والعلمانيين فراغ ولهو وشهوات ، ووعدني بالصلاة .. لكنه قد يضعف عن بعضها لطول هجره لها .. ومع التشجيع والتذكير قد يثبت ، فهو قال ذلك " قد أضعف فاحتاج إلى تشجيع " .. فهذه مهمتك يا أخت نبيلة واستعيني بالله .. واستخيري الله ..ما رأيك يا دكتور حمزة ؟

بعد صمت قليل قال حمزة : هي مغامرة عظيمة يا نبيلة !.. وإذا لم تنجحي بمساعدته تستطيعين تركه وطلب الطلاق ، وسنصارحه بهذا صراحة ، وإذا نجحت كان نجاحك عظيما ولك أجر كبير ـ إن شاء الله تعالى ـ وأنا مثل خالد صار لديّ إحساس بأن الرجل راغب بك بعد كل هذه الشهور من الانتظار ، فهو يبحث عن امرأة متدينة تقبل به ليتغير.. وما دام الرجل يرفض الفجور والعشيقات ويرغب بالزواج فهذا يدل على نية صالحة .. وهو راغب بالعودة لحياة السكينة والبيت الدافئ .. لندعها تفكر بكل راحة يا دكتور خالد قبل أن ندعو الدكتور فارسا لشرب الشاي والقهوة

رد خالد متحمسا : أجل أجل أيها الصديق العزيز .. الحياة الزوجية جميلة يا نبيلة رغم ما فيها من بعض المنغصات .. والدكتور فارس ليس كبيرا في السن لم يبلغ الخمسين حسب علمي هو من جيلي تقريبا

فهزت الفتاة رأسها وقالت : سأفكر .. صباح الغد بإذن الله سبحانه سيكون الرد عند أبي .

رجع العروسان من شهر العسل بسلام وحفظ من الرحمن ، وكان وصولهما لبيت خالد الذي كان في استقبالهما وهو عائلته ، وتناولوا الغداء على مائدته ، ثم أخذت اتصالات الأقارب تتالى على البيت ، واتصلت سلوى بوالدها مخبرة له بعودتها ، وأنها مشتاقة لرؤيته وستزوره ليلا ، وهو قد عبر لها عن شوقه وسعادته بسعادتها وهو بشوق لرؤيتها وسماعها وأنه سيكون في انتظارهما .

أخذ سامر سيارة والده لهذه الزيارة ، ولما طرقا الباب فتحت لهما الخادمة التي رحبت بهما ، وباركت لهما زواجهما ، ودعت لهما بالحياة السعيدة ، ولما أصبحت سلوى داخل البيت قالت بصوت عال ومرح : أين أبي ؟

فردت الخادمة : إنه يصلي .. سيأتي بعد قليل .

هتف سامر دهشة : ماذا قلتي يا ..

ابتسمت الخادمة لدهشتهم وأدركت أنهم لا يعرفون أن السيد أصبح مصليا وقالت : نعم هو يصلي العشاء ..

قالت سلوى وهي تنظر في عيني سامر دهشة : أبي يصلي العشاء !.. ما أحلاك يا أبي ! .. الحمد لله .. أنت مبارك يا سامر !

بعد قليل جاء فارس باسما واحتضن سلوى وقبلها وقال : ما أجملك يا سلوى ؟ أنت جميلة وثيابك زادتك جمالا ؟ مرحبا بك يا حبيبتي .. وقرة

عيني .. لقد ازددت حسنا .

ثم تركها واحتضن سامرا قائلا : أهلا بولدي وصديقي الحمد لله على السلامة .. إنكم رائعون وفي غاية الصحة والعافية .. ما شاء الله .. ما شاء الله !

ولم ترك سامرا قال مداعبا : أنا خشيت أن تعودوا مكشرين ومتنكدين .. مرحبا بكم .. السعادة تفوح من حناياكم .

ـ شكرا يا عم ، بل السعادة غمرتنا أكثر لما علمنا من الخادمة أنك تصلي .. الحمد لله على هذه

قالت سلوى بفرح طاغ : أبي عندما دخلنا وسألنا عنك أخبرتنا ... أنك تصلي .. تفاجئنا ؛ ولكنها مفاجأة طيبة يا أبي .. لذيذة الصلاة يا أبي ..

قال فارس باسما : يبدو أن حبيبة لم تحدثكم عن توبتي .. أنا أشكرك جدا يا سامر .. لم أكن أتخيل أن سلوى ستكون جميلة للغاية بهذه الثياب

تبسم سامر وقال منشدا : عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبد لك المساويا

ـ جميل هذا الشعر ..!!

ـ لم يكن أمامنا وقت يا عم لسماع هذه الأخبار الطيبة .. العمات والخالات .. التلفونات لم تنقطع للتهنئة .. ولا تنس أنني أول من يتزوج من أبناء الدكتور خالد وحبيبة.. أنت يعني حقيقة تصلي وتعود للإسلام .. آه ما أحلى الإسلام مع العلم يا عماه !

ـ صدقت يا سامر .. سلوى كيف أنت وهذا الذي تلبسينه ؟

احتضنت أباها ثانية وقبلته من جبينه وقالت : كم أحبك يا أبي !.. سامر رجل عظيم! .. وأمي حبيبة سيدة فاضلة ..إني سعيد بك يا أبي .. وحكاية زواجك صحيحة

ـ أجل يا سلوى سأتزوج امرأة متدينة .. تريد شيخا فهداني الله ، وسأحاول أن أكون شيخا بحق

قال سامر : رائع يا عماه !.. ألف مبارك يا سيدي .. هذا البيت الواسع يحتاج لزوجة تسكن إليها .. أليس كذلك يا سلوى؟

فردت وهي تترك عنق والدها : طبعا ، نعم ، إن أبي يستحق زوجة صالحة بعد كل سنوات العزوبية التي انقضت .. مبارك يا أبي

ـ شكرا يا سلوى أنا سعيد بكم يا أولاد .. عدتم بكل سعادة وحب

فقال سامر : الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .. سلوى فتاة ناضجة ، وتعرف حقوق الزوج .. وتحب الطاعة وتكره المشاكسة

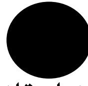
قال فارس معترفا : أنا أشكرك يا سامر .. لقد كنت قلقا بل خائفا على سلوى لما انتقلت من

المدرسة الداخلية للجامعة .. كنت خائفا جدا عليها ، وإن كظمت هذا الخوف ، ورغم تحرري وزعمي أنني متحرر من الدين والعادات والسمعة .. كنت أخشى أن تصطدم بشلة شباب لا أخلاق لهم ، ولا هم لهم إلا العبث بالفتيات وخداعهنّ وافتراسهنّ .. كما نسمع ونقرأ .. وتستهوي حبيبتي سلوى حياة الانفلات .. فسوف أقف حقيقة عاجزا عن منعها يا سامر ..لأن ذلك سيكون باسم الحرية .. ونحن في بلادنا مهما حاولنا التحلل من القيم .. تبقى قضية الزواج قضية في غاية الأهمية .. لا تستطيع الفتاة أن تعيش في مجتمعاتنا دون زواج وأهل كما يكون الحال في أوروبا والغرب .. هناك لو قضت العمر كله بدون زوج وأهل لا أحد يهتم ويكترث .. والشرقي يصعب عليه الزواج من فتاة كانت تمارس الجنس مع عدد من العشاق .. فهم عندنا في أول زواج لهم يرفضون الزواج من مطلقة أو أرملة .. فكيف بزانية ؟!



رفع فارس سماعة الهاتف ليرد فسمع صوتا يعرفه قديما أنه صوت حمدي شقيق زوجته الأولى وخال بناته : آ .. يا سيد حمدي مرحبا بك .. تريد لقائي .. أنا في البيت .. أنا في انتظارك .

نظر إلى ساعته فهي السادسة مساء فقال : ماذا يريد حمدي؟ لقد شاهدته في عرس سلوى .. هل يفكر بزيارتها ؟ ويريد أن يصحبني معه .. ثريا .. هل ثريا معه راغبة بزيارة ابنتها بعد عودتها من شهر العسل؟ .. لم يطلب مني لبس ثيابي .. ماذا يريد حمدي نسيبي القديم .. خال البنات ؟



كان وجه حمدي كئيبا حزينا عندما التقيا فاستقبله قلقا متوجسا وقال : حمدي !.. أراك ممتقع الوجه ؟!

ـ صدقت يا فارس .. لقد حدثت جريمة اليوم صباحا .

انقبض قلب فارس سريعا ووضع يده على صدره حيث القلب وقال : جريمة ؟!

ـ نعم ، لابد أن تعرف بها يا فارس .. لأنك والد البنات .. أكيد عادت سلوى من شهر العسل

ـ لها أسبوع أو عشرة أيام .. ثريا .. ما الجريمة ؟! وما دخل البنات ؟

ـ ثريا قتلت اليوم قبل الظهر

قال رعبا واستغرابا : يا الهي !!.. قتلت ؟! ومن قتلها ؟! ولماذا قتلت ؟!

ـ قتلها زوجها .. وقتل معها عشيقها .. حسون الذي تعرفه .

ـ أنا أعرفه!

ـ لا تجعل نفسك جاهلا يا فارس .. أنا أعلم لماذا طلقت ثريا؟ .. أنا الذي كتبت لك تلك الرسالة ؛ لأنني لم استطع فعل شيء .. حسون موظف البنك الذي تحدثت عنه الخادمة قديما .. أنا جئت إليها باكرا فوجدته في بيتك .. فكتبت لك تلك الرسالة .. لتعرف رغم أنها شقيقتي ؛ ولكني أكره وأبغض الزنا والخيانة .. لا أرضاهما لأحد .. وها هي أعادت الكرة مع زوجها

الجديد العجوز .. صديق أبي الذي رضي بها بعد ترمله ومن أجل صداقته لأبي .. فلما اكتشف خيانتها أطلق عليها النار وعلى عشيقها النذل .. ومات على الفور .. وهي ماتت بعد وصولها المستشفى بقليل .. فجئت إليك لنحسن التصرف من أجل بناتك يا فارس .. لا أحد يعلم بعهرها القديم سوانا ..أما اليوم فكل أسرة زوجها يعرفون .. فعلينا أن لا نتحدث عن ذاك الماضي .. على الماضي أن يبقى في صدورنا يا فارس .. ليبقى سبب طلاق أمهن زواجك سرا أتسمع ؟!

ـ إني أسمع يا حمدي .. أنا أقدر موقفك ونبلك القديم والجديد

ـ إذن اخبر بناتك بمقتل أمهن في ظرف مريب .. إنه خزي يا فارس ؛ ولكن علينا التصرف .



بعد تسلمهم الجثة من الشرطة والطب الشرعي جرت مراسم الدفن للسيدة ثريا حسب تعاليم الشريعة الإسلامية ، وأقيم بيت عزائها في منزل والدها ، ولاكت الألسن قصة مقتلها وخيانتها لزوجها الشيخ الكبير الذي ألقي به في السجن ليقدم للمحكمة .

وكان سامر يخفف من آلام الجرح الدامي والنفسي الذي أصاب سلوى من فعلة أمها البشعة فكانت تقول له : ألم أقل لك إني لا أحبها ؟! .. أرأيت ماذا فعلت بالشيخ المسكين؟! جعلت بيته وكرا للفسق والفجور! لماذا قبلت به ما دام كان رجلا كبيرا ؟

ـ يا سلوى هي أمك .. أمرها عند خالقها

فصاحت بحرقة وغل : فظيع ! فظيع الذي فعلته ! كان عليها أن تطلب الطلاق وتتزوج من ذلك العاشق الدنيء ! الخيانة قذرة .. مؤلمة يا سامر

ـ لقد ضعفت أمام الشهوات .. نسأل الله لها الرحمة .. اعلم قسوة الخبر عليك .. ولكن ليس للإنسان إلا ما سعى .. ضلت الطريق .. هدئي من نفسك .. وكما قال والدك لك " نحن من سنوات انتهينا من ثريا .. كان عليها أن تحافظ على شرفها وشرف عائلتها "

فقالت بأسى : لقد تمزقت قلوبنا من هذه الفضيحة .

كان جابر يحدث مازنا شامتا : أسمعت يا ابن العم قصة مطلقة فارس؟! لقد قتلها زوجها

العجوز بعدما ضبطها مع عشيقها في غرفة نومه .. قتل الرجل والمرأة .. ما أفجرها ! أتزني ببيت زوجها وعلى فراشه ؟!

فقال مازن : لقد عرفت التفاصيل الدقيقة .. قريب لزوجها المسكين زبون عندنا .. حدثني بالمأساة .

ـ هات ما عندك يا بطل ؟

ـ القصة يا سيدي .. أنها بعد طلاقها من أخيك ظلت بدون زواج .. ولما ترمل صاحب أبيها قريب زبوننا .. طلبها من أبيها فوافق ، ثم قبلت هي بالزوج الكبير وهو رجل غني صاحب ثروة وعمارات .. وسكنت مكان المرأة الميتة بعد أن أثثت من جديد .. ومنذ أشهر قليلة أخذ يتردد عليها رجل في البيت زاعمة لنساء أولاد الرجل الذين يسكن بعضهم في شقق العمارة أنه قريب لها .. فتحدث الأولاد لأبيهم عن زائر زوجته بعد حين ، فنفى معرفته بشيء وطلب منهم كتمان الأمر .. وقال "هناك خيانة ".. " إني بعد الإفطار لي فترة أو بعض الأيام أشرب قهوة وأنام على غير ما تعودت " .. طلب منهم الصمت ليتحقق من الأمر .. فقد أدرك أن زوجته تخونه ، وتضع له المنوم في يوم زيارة عشيقها لها .. ففي ذلك الصباح .. تظاهر أنه شرب القهوة ثم استلقى على الأريكة ونام .. وفعلا لم يمض وقت حتى زلف العشيق وذهبا لغرفة النوم وأغلقت الباب مع أنه لا يوجد معهم أحد في البيت من أطفال أو خدم .. فقام الرجل الشيخ المتناوم ، وكان قد أعد مسدسا خاصا به .. وكان لديه مفتاح الغرفة الثاني .. وفتح عليهما الباب بسرعة .. ولما رأى المشهد أطلق عليهما النار .. فقتل الرجل الفاجر على الفور .. والمرأة لفظت أنفاسها في المستشفى .. طبعا جاء رجال الأمن والإسعاف .. ووجدوا حبوب المنوم في الشقة .. فهذه قصة مقتل زوجة شقيقك القديمة .

ـ لا حول ولا قوة بالله .. آه .. مكر النساء .. عندما تفجر المرأة لا يردها شيء ، لا شرف ولا زوج ولا أبناء

ـ قل الحمد لله أنها فعلت فعلتها بعد طلاقها من فارس بعد عشر سنوات .. لو تورط معها لقضى وراء القضبان باقي عمره .

وقال جابر بعد تفكير : لقد حدث شوشرة قديما نحو هذه الموضوع بعد ولادة سلوى زوجة ابن أختك .. ثم توقف القيل والقال واستمر الزواج .. أترى أن فارسا طلقها بسبب عهرها ؟

ـ ولكنه كان متزوجا سرا عندما طلقها ، كان له زوجة سرية من سنوات يا جابر .. لا أعتقد أن أخاك وجد عندها رجلا .. ففارس كان تلك الأيام أكثر وقته في الجامعة .. فكيف سيكتشف خيانتها ؟ .. وأنا تأكدت أن سبب طلاقه أنها عرفت بزواجه عليها ، فخيرته بينها وبين زهرة .. لأنه كان يريد إشهار زواجه .. وها هو اليوم يستعد للزواج مرة ثالثة .

قال : فارس ؟!

ـ نعم ، ربما لولا هذه المأساة لتزوج.. ألا تدري أن أخاك صار مصليا ويرتاد المساجد ؟

صاح جابر استغرابا : فارس ! قال : آ ، فارس

قال متشككا : يا رجل فارس كان كافرا .. كان إبليس .. كان دائما يستهزأ بالصلاة والوضوء والاغتسال .. ولما يدخل البيت ويجد أمه تصلي يشوش عليها ويسخر منها

ـ كان يا ما كان .. سيتزوج ابنة الدكتور حمزة صديق الحاج خالد .. الدكتور خالد زوج حبيبة .. والعروس شيخة ؛ ولكنها لم توفق بزواجين سابقين بسبب عدم قدرتها على الإنجاب .. علمت كل هذا من أم سامر.. عندما ذهبنا لنبارك للعروسين بعد عودتهما من شهر العسل .. أو شهر النحل ..

ـ والله مساكين بنات أخي بعد هذه الفضيحة المدوية .. قُول سلوى نفقت وجبرها ابن أختك ..أما حسناء المسكينة من سيغامر ويتزوجها بعد فضيحة أمها

ـ ستجد صاحب النصيب .. ليست أول امرأة تفجر في التاريخ يا جابر .. الزنا معروف منذ أوائل التاريخ .. الناس تنسى مع الوقت .. وقد يأخذها أحد أبناء حبيبة .. سمعت مثل هذا الكلام .. وهي صغيرة بعد لم تتخرج من المدرسة الداخلية ، وعندما تصبح طبيبة أو صيدلانية ستجد عشرات العرسان ، بنات فارس عشن مع أبيهن أو تحت رعايته منذ انفصلت أمهن عن أبيهن، وهن هادئات بطبعهن ، سلوى لا تتكلم مع أحد إلا إذا وجه الحديث إليها مباشرة .. وكلامها مختصر ، لقد صدف أن خاطبتها في بيت حبيبة .. لا تحب الثرثرة كأبيها

ـ صدقت يا مازن بكل تكلمت به .. أصبحت خبيرا يا مازن في أمور البشر

رد متهكما : شبنا يا جابر .. شيبتني النساء .. زواج طلاق .. لم أعد أعرف الأولاد أبناء من منهنّ

ضحك جابر ضحكا عاليا وقال : معنى ذلك أنك خرفت

ـ خرفت !! يا أبا خضر ألم تجد إلا هذا الوصف ؟! أنا اعتبرك أكثر أبناء العائلة معرفة بي .

ـ وأنا أكثرهم فهما لك يا ابن عمي .



حادثة موت ثريا لم تؤثر كثيرا على فارس ؛ لأنه حذفها من حياته منذ طلقها ، وأراد من بناته عدم الاهتمام بسيرتها وقصتها ، ونحن نعلم برودة العلاقة بين الأم وبناتها ، من يوم أن حصل الانفصال لم تحاول المرأة التمسك بالبنات ، وخاصة حسناء الصغيرة التي كانت بنت أربع سنوات أو خمس ، فنسيت سريعا قبل انقضاء شهر على وفاتها .

وبعد حين يسير عاد الحديث عن زواج فارس ونبيلة التي وافقت على الاقتران به بعد أن وعدها بالبقاء على التوبة ، وأن تستمر في عبادتها ولبس ملابسها الشرعية ، وكان قد أخذ بممارسة الصلاة قبل قبولها ورضاها .

واستقبل السيد حمزة وعائلته الدكتور خالدا وزوجته وفارسا ، ودارت بينهم جلسة تعارف معمقة وفي نهاية الجلسة قال فارس : أنا كشفت لكم أوراقي .. ولا تعتقدوا أن سبب توبتي الزواج من الفاضلة نبيلة .. أنا تبت إلى الله لأنني بحاجة للتوبة .. من يوم أن التقيت بسامر ابن الدكتور خالد فقد أخذت أفكر بالإسلام وتقاليد الإسلام .. وجاء الحديث عن السيدة الفاضلة نبيلة دفعا قويا لعدم التردد واتخاذ القرار الحاسم والقضاء على التسويف .. ففكروا وردوا بنعم أو لا

وأكد الدكتور خالد على أن الدكتور فارسا ترك الخمر منذ عهد قريب .. وأنه يمارس الصلاة

حقيقة ، وهو يعود للإسلام شيئا فشيئا .

زارت نبيلة حبيبة وطلبت منها أن تسمح لها بمقابلة سلوى ، وبعد تعارف قالت نبيلة : يا سلوى أنت طيبة ورقيقة .. أريد أن أسالك عن أبيك واصدقينني النصيحة

ـ أنا تطلبين مني النصيحة ؟!

قالت مشجعة : أنت أعرف الناس بأبيك .. هل يمكن أن تستمر الحياة الزوجية مع والدك ؟

ـ أبي تزوج مرتين ، ولم تستمر الحياة الزوجية في كلتا الزيجتين ، قضى مع أمي بضع سنوات وكذلك مع زهرة .. ولكل زيجة ظروفها وأحوالها .. وهو يبحث عن حياة مستقرة ، وقد كبر أبي يا سيدة نبيلة .. ومنذ وعيت لم أسمع أو أرى أنه اتخذ عشيقة أو خليلة .. واليوم أبي يتغير خاصة بعد زواجي من سامر .. وتبقى الحياة الزوجية نجاحها أو فشلها بيد الله

ـ الصلاة والعبادة هل هو جاد فيها ؟

قالت : أتوقع أنه جاد يا أخت نبيلة .. لا أعتقد أنه يمثل وينافق ليتزوج منك .. فلو لم يجد ويلمس فيك أشياء هو بحاجة إليها لما تزوج وأصر عليك .. وهو ترك زهرة زوجته الثانية لأنها هي التي تريد ذلك .. تريد خلفة وهو ضعيف من هذه الناحية .. الإنجاب سبب الانفصال الثاني .. فحيواناته المنوية ضعيفة .. وحاول الزواج خلال هذه السنوات وبسبب هذا الموضوع وهو الحمل يرفضن ويصرفن نظر .. وكنا يوما في زيارة دار عمي خالد فحدثه بحاجته لامرأة تقبل به وليس لديها رغبة بالحمل أو تحمل أصلا .. فخطرت على بال الدكتور وزوجته .. ولما علم تدينك لم يرفض ؛ ولكنه تردد وفكر هل يستطيع التوبة والثبات عليها ؟ فكأنه تأثر بعمي خالد واتخذه صديقا ومستشارا

ـ أشكرك جدا يا سلوى .. نعم الصديقة أنت.. الله يستر عليك دنيا وآخرة .. الفشل في زواج ثالث سيحطمني يا سلوى .. وأنا رضيت بقسمة الله بعدم الذرية .. والأمر لله وحده

ـ الطب يا نبيلة يتقدم لا يأس مع الحياة .

استقبلت أسرة خالد السيد فارسا وابنته حسناء التي أصرت على زيارة سلوى لتزورا السيدة نبيلة حمزة عندما سمعت والدها يقول" إن الأمور في نهايتها"

وبعد حين يسير قامت حبيبة بأخذ سلوى وحسناء لزيارة نبيلة بعدما اتصلت بها بالتلفون ، فرحبت بتلك الزيارة ، ولما غادروا البيت قال فارس : حسناء رغم حياتها في مدرسة خاصة داخلية كما تعلمون قلقة من زواجي .. لا أدري لماذا ؟ بعكس سلوى التي كانت فرحة وسعيدة ؛ كأنها هي التي ستتزوج أعندك تفسير يا دكتور ؟

تبسم خالد وقال : هذا سؤال يوجه لطبيب نفسي .. على كل حال هو قلق من المجهول رغم بعدها عنك ، ولا تلتقي بك إلا نهاية الأسبوع والعطل الرسمية .. فهم كما تعلم بعد طلاق أمهم تعلقوا بك لأنك صرت الأم والأب بالنسبة لهم .. ولأن زوجتك زهرة كانت عدوة لهن كما فهمت منك .. فهي قلقة خائفة أن تحرمها الزوجة الجديدة من حنانك وعطفك نحوها .. فهي قد اعتادت أن تقضي إجازتها معك وحدك .. فالآن ستجد شريكا لها.. والسيدة نبيلة سيدة فاضلة لأنها من بيت أصيل يا فارس .. ونحن أصدقاء ونعرف أسرار بعض .. فلن تكون عدوة لحسناء وتمثل الدور السيئ لزوجة الأب .. ولا تنسى أن نبيلة حرمت من الأمومة فسترى حسناء كابنة لها وتفرغ عاطفتها نحوها .. والسيدة امرأة تضع مخافة الله بين عينيها يا فارس .

ـ طمأنتني يا دكتور .. أنتما تعلمان الباطن في نفس حسناء ، إنها لتخزن مأساة أمها ومقتلها وخيانتها للرجل الذي رضي بها زوجة .. وهي تقول إنها تعاني من همسات التلميذات وجلست أكثر من مرة عند الطبيبة النفسية في المدرسة .. وتحدثت مع تلك الطبيبة وطمأنتني أيضا على مشاعر الفتاة وتحملها للصدمة والمأساة ، ولم تؤثر على مستواها الدراسي والتعليمي .

قال سامر الصامت لهذه الجلسة معلقا : طيب هذا يا دكتور فارس .. الحمد لله .

فقال خالد : الحمد لله .. ما آخر أخبارك مع الإسلام ؟

قال : الحمد لله يا دكتور خالد .. الكتب التي تدفعها لي كتب عظيمة ، وبذل مؤلفوها جهودا جبارة وعظيمة لبيان محاسن الدين الإسلامي .. محاسن العقيدة .. محاسن الشريعة .. معاملات أخلاق .. معلومات كنت افتقدها يا خالد .. فرأيت من المؤسف تشبيه الدين الإسلامي بالدين اليهودي والنصراني .. والأديان الأخرى .. لا مجال للمقارنة بينهما .. شكل العبادة

عندهم لا يشبه شكل العبادة عندنا .. هناك آثار مجهولة كثيرة في تفاصيل تلك الديانات .. الاغتسال من الجنابة صفة الوضوء .. إنهم يصلون بغير وضوء .. صلاتهم لا ركوع فيها ولا سجود .. أنصبة الزكاة .. صفة صيامهم .. كيف يوحدون الله ؟!

أخذ نفسا وشرب ما قدمته الخادمة وعاد يقول : دين الإسلام يتحدث يا خالد .. في تفاصيل عجيبة .. لم أكن أفكر أن دينا يهتم بها .. دينا يبحث بها .. مثل آداب قضاء الحاجة .. عند الأديان الأخرى عادات .. في الإسلام عبادات .. تدخل بالقدم اليسرى للمرحاض .. تذكر اسم الله وتتعوذ من الشياطين .. كيف تخلع ثيابك ؟ .. تنظف نفسك بالورق والماء .. تخرج باليمين تدعو .. شيء عجيب هذا فعلا يا سيدي .. حتى الجهة التي تجلس فيها لقضاء الحاجة تحدث عنها النبي صلى الله عليه وسلم

قال سامر : جميل يا عمي ! إنك تقرأ بقلب متفتح للإسلام

ـ شكرا يا سامر .. آداب الجماع والمعاشرة الزوجية .. يتحدث عنها الإسلام قبل أن نسمع اليوم عن الحياة الجنسية والثقافة الجنسية والتربية الجنسية .. الذكر عند الجماع ..الاغتسال بعد الجماع الوضوء لتكرار الجماع .. المداعبة وغيرها أشياء يتحدث عنها الشرع .. ونحن كنا نستحي الحديث عنها يا خالد .. عمري ما اغتسلت بسبب الجماع أنا وثريا وحتى زهرة .. ننظف المكان .. وانتهى الموضوع ..الإسلام يا عالم يتحدث عن سنن الفطرة .. كتنظيف العانة وشعر الإبط .. وقص الشارب والظفر .. هذه قوانين التربية .. أنا عمري ما تأملت في هذه الآداب والسنن .. كان الغرب مهوى قلبي وحياتي .. النوم يتدخل فيه الإسلام .. على المرء أن يبدأ نومه على جنبه الأيمن ويضع يده على خده الأيمن .. ويقرأ الذكر المختار وبعض التعاويذ .. سورة الفلق سورة الناس .. حقيقة أنني دهش لعظمة هذا الدين .

قال خالد مبهورا : إنك تقرأ قراءة جادة وعميقة !

ـ شكرا يا سيدي .. أنا مغرم بالقراءة ، آلاف الكتب الفرنسية والإنجليزية قرأتها بلغة أهلها .. ويستهويني الفكر العميق والبعد عن السطحية .. أنا لا أدري لماذا لم أكن أقرأ كتب العلماء الأفذاذ من المسلمين ؟ .. لمَ غرس فينا كره الإسلام ؟! وإن الأديان سبب تعاسة العالم وسبب

الحروب .. نفرنا من قراءة مثل هذه الكتب التي تتحفني بها .. اختياراتك واعية .. وموصلة للرسالة يا سيد خالد .. الدين يهتم بالقلب .. هذه العضلة التي تدير هذا البدن .. وهي في غاية الأهمية من الناحية الروحية .. كالإيمان يجب أن يستقر في القلب وأن يكون مخلصا لله وأنه أسس العمل وقاعدته المتينة .. عمل بدون إخلاص لله يكون عملا فاشلا باطلا .. صوم بلا إخلاص .. مجرد ترك طعام وشراب كما تفعل الدواب في سباتها الشتوي .. كالدب القطبي مثلا .. لو اغتسلت مائة مرة ولم تقدر النية في القلب ستبقى جنبا وكأنك لم تغتسل .. ليست قضية انغماس بالماء فحسب .. يجب أن تصحبه نية صادقة متعبدة .. القلب شيء مثير .. يا خالد .. الإسلام ينصحك يرشدك أن تشرب جالسا أن تبول جالسا ، ولكنه لا يمنعك من الشرب قائما .. لا يمنعك من البول قائما .. لكننا نكون قد تركنا الأحسن .. قد يبدو هذا غير معلل وغير واضح ولكنه من الوحي ..

ـ إني أزداد إعجابا بك يا فارس

ـ هذا تعلمته من كتبك العظيمة .. وأنا أعجب من كاتبي هذه الكتب الرصينة المتعوب عليها من قبلهم .. فنحن من نزعم أننا أهل فكر ترتاح قلوبنا للفكر العميق .. وهناك بعض الناس أو جلهم يحتاج لكتب مبسطة وأسهل من التي أعرتني إياها .. حتى أنا من حماسي أخذت أقرأ بعض الكتب الفرنسية والإنجليزية التي تتحدث عن المسلمين وبلاد المسلمين ..

وبينما هم مستغرقون في تذوق الإسلام ومحاسنه ، وقد شربوا الشاي والقهوة وطعموا بعض الفاكهة عادت النسوة من زيارتهن لنبيلة وطرقت حسناء الباب ودخلت تصيح : " بابا بابا " وألقت نفسها عليه معانقة له ، ثم التفتت لهم قائلة : آسف يا عم خالد .. آسفة يا سامر ..

قال خالد : أنت في بيتك يا حسناء نحن أهل ..آ .. أرأيت السيدة الفاضلة نبيلة ؟

قبلت وجه أبيها وقالت : إنها رائعة يا أبي! .. لقد أحبتني من أول لقاء يا أبي .. اسأل سلوى ..احتضنتني وقالت " أنت حسناء أخت سلوى .. ما شاء الله .. أنت طيبة ورقيقة مثل سلوى أم مشاكسة ؟".. وبعد كلام قالت " أنا لم أوافق بعد يا حسناء .. أبوك ترك لي حرية التفكير وعدم العجلة .. وأنا بعد حديثي مع سلوى العزيزة عن والدك ـ نظر الأب إلى

سلوى التي ابتسمت له ـ أصبح القبول عندي تسعين بالمائة .. وأنت رأيك إيه ؟

فقال فارس : فعلا أنت رأيك إيه ؟ أنا لم أسمع رأيك بهذا العمل الضخم الزواج من جديد .

فقالت حسناء وهي ما زالت تطوق عنق أبيها قلت لها : أنا أحبك يا سيدة نبيلة .. ولازم تتزوجين أبي .. أبي مسكين .. وحيد في البيت .. عاوز امرأة طيبة مثلك

ذرفت دموع فارس تأثرا فدفع إليه خالد منديلا ورقيا وقال : رائع جدا يا حسناء ! أنت مائة في المائة تحبين والدك وسعادته .. فنحن الرجال مساكين .. لا نستطيع العيش بدون زوجات ربما النساء يصبرن أكثر عن بعد الرجال .. فأنا ألاحظ أن الرجال إذا ترملوا أو طلقوا يسرعون في البحث عن الشريك المناسب .. أما النساء الكبيرات فوق الخمسين يعزفن عن الزواج من جديد .. ربما تكون خاصية فسيولوجية يا فارس

ـ أنا دكتور لغة .. أنا أحبك يا حسناء يا أميرة .. اجلسي دعي عنقي ..أنا ليس لي في هذه الدنيا سوى أنت وسلوى أمنا الصغيرة ..



لقد قضي الأمر الذي فيه تستفتيان .. وافقت السيدة نبيلة على الاقتران من حضرة الدكتور فارس بعد تردد وخوف لازماها عددا من الأسابيع .. واحتفل القوم بزواجهما .. هو طلق مرتين وهي طلقت مرتين .. واستقرت الزوجة الجديدة في فيلا فارس المستأجرة ، وعادت الحياة الأسرية الدافئة لفارس بعد سنوات من العزوبية والجفاف الأسري .. ووجد الرجل المرأة إنسانة فاضلة وثقافتها الدينية راقية ، وأنها سيدة محترمة ، وأنها تسعى لإسعاده فعلا وحقيقة .. وكانت تتلقى حسناء في إجازاتها كأنها ابنة حقيقية لها .. وكان الرجل يبكي عندما تخلو به حسناء وتحدثه عن أخلاق زوجته وحسن رعايتها لها في أيام الإجازة .. بل من حبها لامرأة أبيها طلبت منه بعد حين بأن ينقلها لمدرسة خارجية ، وبعد تشاور مع نبيلة قالت : إذا كانت هذه رغبة الفتاة فأنا تحت أمرها .. ولا ضيق عندي من وجودها الدائم معنا .. لكن اسمح لي أن أتحدث معها بهذا الموضوع لأتأكد من رغبتها لفعل ذلك ، وأنها مقتنعة بما تطلب يا سيدي الدكتور .

ـ هي التي اعترفت بذلك قائلة "ما دام أن الله أرسل لي أما جديدة يا أبي لماذا أظل في المدرسة الداخلية ؟.. أنت تذهب لجامعتك وأنا لما أعود أجد أمي في البيت .. أنا أعترف أمامك أنك أميرة وإنسانة على خلق طيب .. لقد أحبتك الفتاة سريعا رغم أنني لم أكن أتوقع ذلك وبمثل هذه السرعة .. فإن زهرة بعد طلاقي لثريا رفضت بشدة بقاء البنات معنا مع أننا لم يكن بيننا مواليد .. أبت كل الإباء ولو ساعة واحدة يا نبيلة .. لم تكن أما يومذاك .. أنا سعيد بك يا سيدتي الكريمة ، ووالدك راجل فاضل وغانم .. والشكر لله .. أنت كنز عظيم ، ولا أقول ذلك تملقا لك ..أنت أدخلت السعادة على قلبي وقلب حسناء بحبك لنا .. وأنا قررت بمشيئة الله تعالى أن نتعالج أنا وإياك من أمراض العقم خارج البلاد .. فمكسب عظيم أن يهبني الله منك ذرية طيبة .. اليوم كما أسمع وأقرأ العلاج تطور .. وهناك ثورة في علاج أمراض الحمل والعقم .. سنسعى ولو لطفل واحد

تفاجأت بأفكار فارس فقالت باستغراب : أنا! أنت تعرف أني تزوجت مرتين وطلقت بسبب

الإنجاب وتعالجت ، لم يقصر أبي وأهلي في ذلك .. ولكن الأمر لله لا تقلق من جهتي ، وأنا راض بقدري يا أبا سلوى

ـ لا تيأسي يا سيدتي أنا تحدثت مع رجل في الجامعة عن العقم والإنجاب فقال "نحن كل يوم نجد جديدا في علم الجينات والطب والعقم " وذكر لي أسماء علماء في الإنجاب في لندن وبرلين .

تنهدت نبيلة وقالت : نذهب أوروبا

ـ سنذهب بمشيئة الله .. أنت إنسانة تستحق أن يضحي من أجلها الإنسان بكل ماله بكل شيء .

مسحت دمعات عن آماق عينيها وقالت : إنك كريم يا سيدي الدكتور!

ـ إن شاء الله في صيف العام القادم أكون قد حجزت لي ولك عند أحد هؤلاء الأطباء العلماء يجب أن يبقى لدينا أمل كبير بالإنجاب .. فأنت تستحقين التضحية .. لقد أدخلت السعادة والإيمان على بيتنا

ـ أشكرك يا سيدي الدكتور .. ما آخر أخبار عزيزتنا سلوى ؟

ـ أيام قليلة وتضع مولوها الأول بإذن الله .. وقررت أن تقضي أيام ولادتها الأولى بعد خروجها من المستشفى عندك يا نبيلة .. إذا كان ليس لديك مانع واعتراض

قالت بدهشة : مانع ! أنا أمهم يا سيدي الدكتور .. هذا الأمر يسعدني

ـ نعم ، أنا قررت قبل مشاورتك .. عندما التقيت بخالد وسامر جرى الحديث حول هذه الأمر فقلت لهم السيدة الفاضلة موجودة دائما في البيت .. فلن ترفض خدمة ابنتها .. وأنا أعرف أخلاقك العظيمة فتبرعت نيابة عنك

ـ اشكر ثقتك بي .. وأنا سعيدة بهذا العمل وعلى الرحب والسعة .. وسلوى ابنتي حقيقة يا فارس .. إني أحبها بصدق .

بعدما تحدثت نبيلة مع حسناء عن رغبتها بترك المدرسة الداخلية ، وأنها ترغب بالعودة للحياة بينهم ومعهم في البيت ، أتم فارس إخراجها من تلك المدرسة ونقلها

للقسم الخارجي الذي يتبع لنفس المدرسة .. فكان باص المدرسة يتولى نقلها من البيت للمدرسة ثم العودة ، واستقرت حسناء في البيت مع نبيلة .. وعاد لها الهدوء الأسري والدف العائلي الذي افتقدته منذ سنوات وسنوات .. وكانت نبيلة نعم الأم لها .. وأكدت لها أنها أم حقيقية لها .. وكان فارس يرى ويلحظ عمق الصداقة بين زوجته وابنته مما أكد له سعة قلب نبيلة وحسن تربيتها وأخلاقها .. وسر لتعلق حسناء بها ومحبتها لها .. وأخذت حسناء تحافظ على الصلاة ، وتتعلم منها بكل أريحية بدون أن تأمرها نبيلة بذلك .. وأخذت تتوسل لأبيها أن يشتري لها ملابسا كملابس سلوى ونبيلة.. فقال : الذي يلبس هذه الملابس الجميلة سيتحمل المسؤولية كاملة ..لا يرميها بعد أيام أو أشهر .. هذه الثياب الشرعية ستلقي عليك عبئا جديدا .. عندئذ عليك أن تكوني مسلمة حقيقية .. ليس مجرد كلام .

ـ إني أرى سلوى أجمل امرأة وهي تلبسها يا أبي

ـ سلوى أجمل وأحسن فتاة بدونها

قالت بإصرار : بل ملابس سلوى الشرعية جعلتها أجمل امرأة في الأرض .. صدق أنت لا تعرف في الملابس كما أعرف

ضحك فارس ونبيلة وقال : المهم الجوهر والقلب يا حسناء .. أنا فخور بك يا حسناء .. وعلى كل أمك نبيلة ستشتري لك مثلها لتجربي .. جربيها مدة من الوقت

فقالت نبيلة : هي التي ستشتري ملابسها يا سيدي الدكتور .. سنذهب للمتجر وهي تختار ما ترضاه وتقبله .. وتعجب به

فقالت حسناء : لكني لا أعرف شراء مثل هذه الثياب ولا أعرف اختيار الأجمل

ضحكت نبيلة وزوجها وقالت : ستتعلمين يا حبيبتي .. معارض ومتاجر المحلات الشرعية هي كشبيهاتها من محلات ملابس الموضة .. وستختارين من الألوان ما تحبين لا ما أحب أنا .. وسنشتري ثيابا نهديها لسلوى

عانقت حسناء زوجة أبيها وقبلت رأسها وقالت : أنت أم عظيمة أنت أحسن من أمي !

ـ نسال الله عز وجلّ لها الرحمة .. أنت طيبة يا حسناء .. لو ناديتني بنبيلة بدون أم لن أغضب

منك أو أتضايق أنت عزيزة على قلبي يا حبيبتي

فقال فارس : ستنجب لك نبيلة شقيقا أو شقيقة بإذن الله يا حسناء

ـ صحيح يا أبي ؟!

ـ إن شاء الله .. سنسافر الصيف القادم إلى بريطانيا للعلاج يا حسناء ، وستسافرين معنا حتى تفتح المدارس وتعودين .. إني راغب بأن يهبني الله ذرية طيبة سنتعالج يا حسناء .. والأمر لله

ـ جميل هذا ـ إن شاء الله ـ الله يرزقك طفلا أو أكثر يا أحلى أم .. يا سلام عندما يحل بيننا طفل صغير ..!

كانت نبيلة تمسح دموعها التي حاولت إخفاءها فقال فارس : لا تستحي من البكاء يا نبيلة .. فهي دموع نبيلة حقا ..أنت أدخلت السعادة علينا والإيمان بيننا .. آه كم كنا نفتقد مثل هذه الجلسات ..!!

فقالت نبيلة : السعادة يا سيدي الدكتور في طاعة الرحمن والخضوع له وحده .. فبخضوعنا للرحمن نحب بعضنا صادقين ونحفظ بعضنا

ـ الحمد لله الذي أكرمني بك .. لقد اتفقت أنا وأمك يا حسناء على بقاء سلوى عندنا عند ولادتها لنطرب على صوت مولودها .. ستخرج من المستشفى إلى هنا لنرى الطفل الجميل وهو يصيح ويصرخ مناديا على سلوى

ـ عظيم ! كم أرغب بأن أسمع صياح طفل يا أمي

ـ ستسمعين يا حبيبتي .. وستكونين في الغد الواعد أمّا عظيمة وتنجبين للأمة أبطالا وعلماء

ـ متى ستلد سلوى يا أبي ؟

قال : قريبا خلال هذا الشهر سيظهر مخلوق جديد على وجه الأرض .. سيغادر الرحم الصغير إلى الأرض الواسعة .. رحلة عجيبة لهذا المخلوق في رحم أمه ..آيات باهرة في خلق الإنسان يا حسناء .. علماء الأجنة يتحدثون عن إعجاز كبير في خلق وتولد الإنسان .. أشياء كنا نراها ونسمعها ونمر عليها مرور الكرام دون تأمل وفكر .. ولما صرنا نقرأ في القرآن عنها يأخذنا الإعجاب والدهشة لحديث مراحل تخلق الإنسان .. وذلك قبل وجود أجهزة التصوير

والأشعة والسونار .. القرآن حدثنا عن ذلك قبل مئات السنين .. حقيقة أنني في غاية الإعجاب .. فكلما أقرأ جديدا أرى كم كنت في جهل!.. الجهل غرور يا نبيلة .. اعتقدت أنني بإتقاني الفرنسية والإنجليزية وعملي في كلية اللغة الفرنسية أنني أصبحت حداثيا تقدميا من علماء الأرض في الترجمة .. فعندما كنت افتح كتابا في تلك اللغة أشعر وأحس أني تقدمت كثيرا في لغة القوم .. الغرور عندما يركب الإنسان يضخم له الأشياء ويصوره أنه فارس الزمان الأوحد بين قومه ؛ لأنه يعرف لغة هؤلاء .. لكني اليوم أحس أنني تافه .. عندما اكتشفت أنني لا أعرف الوضوء والطهارة وأبجديات التوحيد والصلاة .. إني ضحية الغزو الثقافي الذي عظم أولئك وبخس الإسلام .. فلقد خلق التواضع حتى يعلم الإنسان أنه لا شيء ..لا شيء .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .. هذا الذي نعرفه اليوم فقط من القليل ..



قال الدكتور خالد : عظيم يا فارس! إنك تتقدم في العلم الشرعي تقدما عظيما وسريعا .. وفعلا على المرء أن يستغل فورة الحماس قبل أن يعود للسكون .. لقد سمعت أنك ستسافر لبريطانيا خلال أيام

ـ صديق عزيز يا خالد .. لقد فاتني الكثير من صحبتك .. كم تمنيت لو التقينا قديما لأنهل من معارفك ومن هذه الكتب التي تختارها وتملكها ! .. لقد كان هدفي في السنوات الخالية متابعة الصحف الفرنسية .. إصدارات دور النشر الفرنسية .. اليوم زهدت فيها وأنا مبهور بكتب الأفذاذ من أهل الإسلام .. أما بالنسبة للسفر أيها الأخ العزيز .. سنذهب أنا والأخت الفاضلة للعلاج من العقم عند أحد الأخصائيين الكبار في بريطانيا .. فأنا كما تعلم أعاني من ضعف جودة الحيوان المنوي .. والأخت نبيلة عندها عيوب خلقية في جهازها التناسلي .. وهناك أمل كما قال لي أحد الزملاء في علم النساء وطبهن .. وهناك الأجهزة الأحدث تطورا وعندهم جراءة في العلاجات المعقدة أكثر من هنا .. والسيدة نبيلة يا خالد تستحق مني كل شيء .. فهي نور سطع علينا في البيت .. وحسناء تحبها حبا لم أكن أتخيله .. مما أضفى سعادة كبيرة علينا.. وهي في سن يمكنها أن تحمل بعد .. ورتبنا أوراقنا وتقاريرنا الطبية القديمة والحديثة .. بل الرجل العالم لما اطلع على الصور وتقاريرنا قال : الأمل كبير في الحمل الطبيعي وأن امرأتك لم تصل لمرحلة اليأس فهي دون الأربعين واحتمال حملها وارد .. واخبرني أن أمري أسهل مع المنشطات والمقويات للحيوان المنوي .. فشجعنا الرجل للسفر

ـ أنت أصيل يا فارس .. وشهم .. فعلا خسرنا سنوات من الصداقة بسبب القيل والقال .. وجزاك الله خيرا ..وأنا لديّ إحساس بكرم الله عز وجلّ لهذه المخلوقة الصابرة نبيلة

ـ إنها سيدة فاضلة .. ودائما أدعو لك ولحبيبة ولسامر وسلوى على ما أنعم الله عليّ أنا وحسناء على جمعكم لي بهذه السيدة

ـ تقادير الله تعالى .. إذن السفر قريب

ـ وسنأخذ حسناء معنا خلال فترة الصيف للتفرج والسياحة في بلاد الفرنجة كما يسمونهم في

كتب القدماء وأيام الحروب الصليبية التاريخية .

استأذن سامر وسلوى بالدخول وقبلت سلوى وجه أبيها وقالت : مرحبا أبي .. هل تجهزتم للسفر ؟

وجلست بجواره بعدما حيت عمها ، ثم قبل سامر جبين عمه ورحب به وأخذ مكانا في الغرفة وقال : نتمنى لكم النجاح يا عم في العلاج والشفاء .. أتحب أن ترى حفيدك الأول .

ـ لقد استمتعنا بوجوده نصف شهر .. وكانت أحلى الأيام عندنا .. فنحن منذ حسناء لم نسمع صوت بكاء طفل في بيتنا .. المواليد الجدد لهم بهجة على البيوت يا خالد .. عندما تهبط حسناء من الباص حافلة المدرسة تدخل راكضة إلى حيث يرقد محمد .. وتقبله وهي تلهث وتقول : إنه نائم يا سلوى .. ألا يريد أن يصرخ ويبكي ؟

فقال خالد : الأمومة غريزة كبيرة في الأمهات والبنات .. ولولا تلك الفطرة لتركت النساء الحبل والولادة .. رغم الألآم الشديدة التي تعانيها الوالدات ومع ذلك تجد رغبتهن في المزيد من الأولاد .. كانت النساء الأوائل وهن في جيل حسناء أو أقل بين أيديهن مواليد .. واحد أو أكثر .. النساء القديمات عجيبات فعلا .. حمل وزراعة وحطب ورعاية أطفال وأزواج ..

ـ الإنسان ابن البيئة التي يتواجد فيها .. ولادات عقود مضت كانت تتم في البيوت ، اليوم من النادر الولادة في بيت .. فكل مستشفى فيها قسم ولادة .. أين محمد يا سلوى ؟ أكيد مع حسناء

فقال سامر : حسناء لم تر بعد ولادتها مولودا ؛ فلذلك رغبتها أن يبقى محمد عندها .. فسمعتها تساوم سلوى على حضانته

فضحك القوم وقالت سلوى : قلت كيف سترضعينه يا حسناء هذا وليد يرضع من صدر أمه .. ليس فقط بالقنينة ؟ .. أنا أعطيه القنينة بسب غيابي في الجامعة ..

قال خالد : ليس هناك أفضل للطفل من حليب الأم .. الحليب الإلهي

خير غذاء للطفل يا فارس .. والرضاعة لا تكون في الغالب إلا من امرأة متزوجة وفي حالة وضع .. المرأة إذا لم ترضع من صدرها يجف حليبها ولبنها ..

فقال فارس : إن شاء الله نوفق أنا والسيدة نبيلة في رحلة العلاج ونخلف طفلا يكون أخا لهن بعد غياب طويل

تمتم الجميع بالدعاء .



سافر فارس ونبيلة وحسناء كما رتب للعلاج في البلاد الأجنبية ، والتقيا بالدكتور المعالج للعقم وجرت الفحوصات اللازمة والاختبارات والتحاليل المخبرية والصور الطبقية ، وبعد حين علم الدكتور أن العلاج قد يستغرق وقتا طويلا وليس سريعا كما ظن فارس في البداية .. ووافق فارس على البقاء ومدد إجازته من الجامعة .. وأعاد حسناء ورتب أمر معيشتها مع سلوى وسامر ، وفرحت حسناء ببقائها عند سلوى والطفل محمد ، ثم خيرها بالبقاء معهم أو العودة للمدرسة الداخلية .. فأحبت البقاء معهم ، ورحب الدكتور خالد بذلك واعتبرها كابنته كما قال لفارس ، ونقلت خادمة فارس للعمل في شقة سامر وسلوى .. وكانت حبيبة تغمرها بالمحبة والحنان وتتعشى دائما معهم وليس مع أختها ، وترعاها في دراستها .

وكانت أخبار لندن مطمئنة ومثيرة للدهشة والشكر ، فقد نقلت لهم عبر الأثير أن عملية زراعة حمل قد نجحت ، وأن هناك فرصة أن تلد نبيلة توأما .. ولله في خلقه شؤون .. ثم جاءت البشرى أن الحمل ثبت واجتاز مرحلة الخطر .. وخرجت نبيلة عن الشهر الثالث بسلام .. وغمر الفرح أحباب فارس ونبيلة .. ولما تقدم الحمل سافر الدكتور حمزة بنفسه وزوجته لبريطانيا لزيارة ابنته الصابرة ، ويقدم الشكر لصهره وزوج ابنته وللطبيب المعالج .. والبقاء معهم حتى تلد .. وكان اللقاء شاعريا عاطفيا تخللته الدموع والدعوات والرجاء .. وتأكد لهم تقدم الطب في بلاد الغرب رغم الانحراف العقدي الكبير لديهم (ولا تبخسوا الناس أشياءهم).. وجاءت ساعة الحسم وتمت الولادة القيصرية ، وأخرج الله وحده من رحمها ذكرين كاملين وبصحة جيدة ، وصارت نبيلة أما بعدما يئست من الأمومة الذاتية ..

فرحمة الله قريب من المحسنين .. وغمرت الأفراح الأسرات في لندن وفي جوهر ، وكانت حسناء تصيح فرحا وسعادة " لقد صار لي أخوان " ولما يتصل بها فارس كعادته منذ سافر تقول بلهفة : ألا أستطيع السفر ؟ .. إني أريد أن أراهما وأقبلهما وألاعبهما .. فيقول مخففا من لهفتها : أيام أو أسابيع لقد صبرنا سنوات .. يريد الطبيب مراقبتهما ومتابعتهما لحين .

بعد ثلاثة شهور من الولادة أذن لهم الطبيب بالعودة لبلادهم .. وكان الأهل في استقبالهم في المطار.. حتى أن والد فارس السيد محسن كان من ضمن المستقبلين ، وبعض شقيقات فارس وأخوه محمود الذي راوده الأمل في السفر والعلاج في أوروبا كأخيه ، ووعده فارس بالمساعدة وكانت الآنسة حسناء تحمل طفلا وسلوى الآخر وتقول : ألا استطيع حمل الاثنين يا أبي ؟

ـ تستطيعين عندما يبدآن الحبو والزحف .

وكان سامر وسلوى قد هيئا فيلا الوالد لاستقبال الضيوف والمواليد .

ولما استقروا في جوف البيت قال فارس : الشكر والحمد لله أولا وآخرا .. مبارك عليك يا نبيلة حسنا وحسينا .

وقالت سلوى : وقد عق والدها عنهما يا أبي

التفت فارس إلى الدكتور حمزة : كيف وقد كنت معنا ؟!

فقال حمزة : أنا أشكرك يا فارس .. جعل الله مقدمهم عليك مقدم سعد وبركة .. أنا اتصلت بالأولاد وأمرتهم بالذبح عنهم .. تأسيا بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم .. هذا بعض الهدية لهما .

قالت نبيلة : شكرا لك يا أبي !





جمال شاهين

رواية

شمس عَمري

جمال شاهين

دار المأمون للنشر والتوزيع

جمال شاهين

ليلة عرس



المكتبة الخاصة

رواية

شمس عَمري

جمال شاهين

المأمون



بقلم
جمال شاهين





بقلم
جمال شاهين







بقلم
جمال شاهين





جمال شاهين

المكتبة الخاصة

جمال شاهين



أيام الحداد

المكتبة الخاصة

غربي واتي

جمال شاهين



المكتبة الخاصة



اساتذ الفرنساوية

المكتبة الخاصة

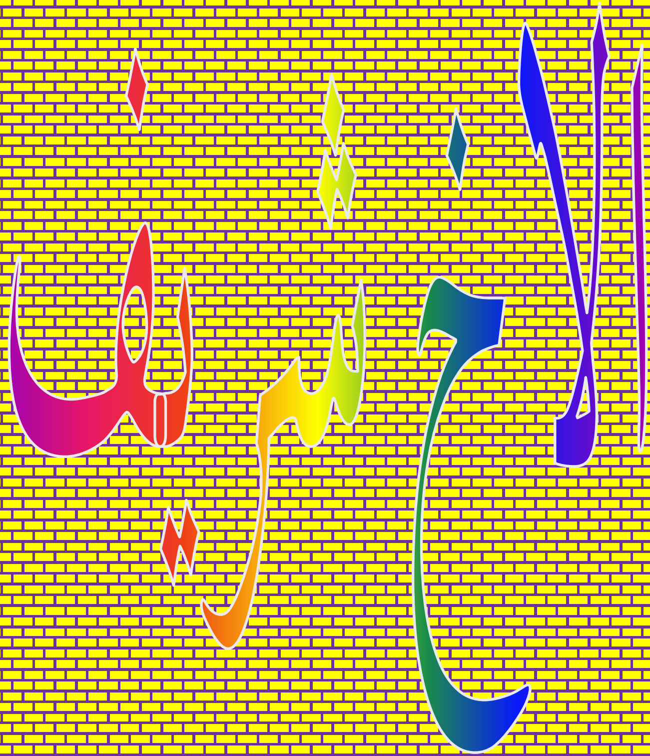
جمال شاهين

استاذ الفرنساوية

المكتبة الخاصة

المكتبة الخاصة تقدم لكم

هذه القصة



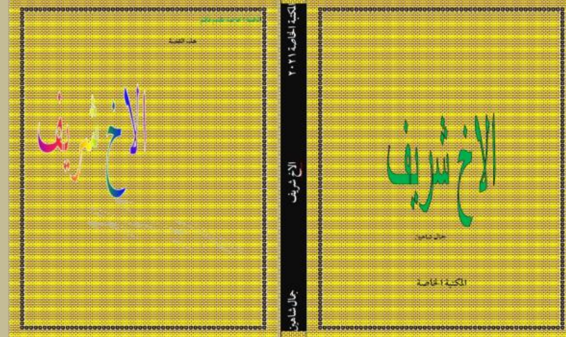
بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة جمال شاهين

الاخ شريف

النشر الاول ٢٠١٠ / النشر الثاني ٢٠١٨

النشر الثالث ٢٠٢١



حلت بالأسرة الصغيرة نكبة من نكبات الدنيا

المعيل أصيب بالشلل

فهجر الابن الأكبر المدرسة

من أجل أن يعيل الأسرة من فقرها

وضيّقا من أموال الزكاة والصدقات والجمعيات

الانسانية التي أعانت العائلة في مصيبتها

فأمسى حاقدا على شقيقه الموفق

ومالكا لملهى ليلي

ذاك أخي قسيم

صديقكم شريف ياسر


الأخ شريف
جمال شاهين

البركة مدينة تعتبر محافظة حسب الترتيب الإداري في البلد ، فهي واسعة المساحة، أحياؤها متعددة ، وهي متصلة بعاصمة القطر ، لا تفصلها عنها مدينة أخرى ، ولكن الحداثة والتطور في العاصمة " شين " أكثر وأسرع .

بدأت الرواية في شارع عمارة ، وهو شارع معروف مشهور في مدينة البركة ، ربما هو أشهر شارع فيها، وهو شارع الفقراء ، وهذا الاسم غالب عليه أكثر من الاسم الرسمي ، ومع شهرته في مدينة البركة لا يخلو من بضع عمارات ضخمة ، وأكثر ساكنيه يملكون قطعة واحدة أو شقة تتكون من حجرتين صغيرتين ومطبخ صغير ومرحاض ، والقليل كما قيل يملك حجرة ثالثة أو صالون ، وأغلب سكانه من العمال حتى اشتهر بين الأحياء بحي العمال ، ويمتد هذا الشارع لثلاثة أو أربعة كيلو مترات ، والبيوت على طرفي الشارع ، وفي منزل في وسطه بدأت قصتنا ، في بيت السيد الفاضل ياسر الكُمن .

ياسر عامل بسيط عامل بناء ، يعمل مع متعهدي ومقاولي الإنشاء والبناء ، يحمل الرمل والطوب والإسمنت وحديد التسليح ، ويأخذ أجرته عادة باليوم "عامل مياومة" هكذا يقال ، اليوم الذي يشتغل فيه يسجل له ، ويقبض أجرته نهاية الأسبوع ، أو نهاية الشهر حسب سياسة مقاول البناء ، فحياته المعيشية يوم بيوم ، اليوم الذي يقعد فيه عن العمل لا يأخذ عليه أجرة ، سواء كان الترك بعذر كمرض وتعب أم بغير عذر كمطر وبرد أو قلة شغل ، والرجل اعتاد على هذا النظام وهذه الحياة ، ورضي بما قسم له ، وتكيفت حياته على هذا الترتيب كما يقال ، فاليوم الذي يعمل فيه يوسع على نفسه والعيال ، واليوم الذي لا عمل فيه يقل المصروف والقوت . ومن طبيعة وقانون هذا الشغل التنقل بين المقاولين والمتعهدين ، وهو تارة يعمل مع المقاول فلان ، وتارة أخرى مع المقاول علان ، مرة مع حمدان ، ومرة مع زكي أبو سلمان. فهو يؤجر نفسه لساعات نهارية ببضعة قروش ، وربما تصل إلى دينار حسب سخاء وكرم صاحب العمل وحاجة العمل .

ياسر هذا متزوج منذ سنوات ، وكان سعيدا بزوجه حسنة، وكان يراها الدنيا كاملة ، وكانت هي راضية بخط سير حياتها ، فهي عندما تزوجته كانت تعلم مهنته أو وظيفته في هذه الدنيا ، وهي لم تكن ابنة أسرة ثرية ذاقت حلاوة الغنى وتزوجت فقيرا ، إنما انتقلت من أسرة مستورة إلى رجل من أسرة مستورة ، من نفس الطبقة الكادحة ، وعلى مستوى اجتماعي واحد ، فلم تكن تحلم بالعيش في قصر أو شقة واسعة ، لم تشتكِ أمام ياسر يوما من فقره وحاله ، رغم شظف العيش هذا كانا سعيدين متحابين ، ورغم منغصات الدنيا الكثيرة كانا راضيين مسرورين ، ورغم موت الكثير من مواليدهم كانا في حبور وسعادة .

يغادر الزوج البيت مبكرا حيث يعمل في ذلك النهار الذي بدأت فيه مأساة ياسر، ولما ينطلق الشابان ولدا ياسر وحسنة للمدرسة تبدأ حسنة بترتيب وتنظيف البيت ، وأحيانا تبدأ بترتيب الفراش واللحف بداية ، وأحيانا تبدأ بغسل الأواني والأطباق ، ثم تعود لترتيب غرف النوم .

خرج قسيم ابن الثالثة عشرة ربيعا إلى المدرسة ، ومعه شريف الذي يصغره بعام واحد ، شريف ياسر في الصف السادس الابتدائي ، وأخوه في الصف الأول الإعدادي ، كان شريف أذكى من قسيم في المدرسة ، وعندما بدأت هذه القصة كانت المدارس تكاد أن تغلق أبوابها .

حسنة عبد الحميد أم قسيم ودعت ولديها الذاهبين للمدرسة ، وأغلقت الباب خلفهما ، ودعت لهما في سرها ، ورتبت البيت الصغير ، وكنست الغرفتين ، ودخلت المطبخ الصغير لجلي الصحون وأدوات طعام الفطور من إبريق الشاي والأكواب .

وبينما هي تستمع للراديو يدندن في أغاني الصباح كالمعتاد طرق الباب بقوة ، فخفضت صوت المذياع ، فسمعت الطرق ثانية ، فتأكد لها أن الطرق على بابها ، وليس على باب جيرانها .. فتركت ما في يديها ، وأغلقت صنبور الماء " حنفية الماء " ..ولابد أنها بينها وبين نفسها تقول " من يطرق عليّ الباب ؟! فسمعت رجلا يطرق وينادي : يا أم قسيم ! .. يا أم قسيم !.. أنا سلمان .

شقت الباب وأخرجت رأسها ، وقد اضطرب قلبها فجأة ، فسلمان زميل زوجها في العمل

وابن شارعها فقالت : وعليكم السلام .. ما هناك يا أبا أحمد ؟!

- آسف لإزعاجك يا أم قسيم .. فالأخ ياسر وقع عليه حجر بناء أثناء الشغل ، ونقل للمستشفى .

فصاحت برعب : مات ؟!

- لأ ، يا أم قسيم ، لكنه مصاب ونقل للمستشفى ، وإذا أحببت أن آخذك إلى هناك .. فقد طلب مني المعلم علي ناشب أن أخبرك وأساعدك بالذهاب للمستشفى .

- حسنا ، انتظر يا أبا أحمد حتى ألبس ثيابي .



كان ياسر وسلمان يعملان مع المتعهد أو المعلم علي ناشب في بناء البيوت والعمارات كعمال يرفعون المواد من تراب وحديد وأسمنت وخلط مواد الإنشاء .. ومن ضمن عملهم حمل حجارة البناء ومناولتها للبنائين .. وكان ذلك الصباح يعمل الرجل مع أحد معلمي البناء فيناوله أحجار البناء والطين المخلوط المجبول .. وأثناء رفعه لحجر بناء مناولا له لمعلم البناء الذي يقف على سقالة بناء سقط عليه ، ربما ظن أو توهم أن الرجل البنّاء تناوله منه ، فوقع ياسر على الأرض وهو يصرخ من الألم ..وكانت ضربة الحجر شديدة على ظهره ، فأصيب عموده الفقري من الحجر ، ومن وقوعه على الأرض على حجر آخر ، فهرع العمال وحملوه للمستشفى .. وقضى الرجل أكثر من شهر في المستشفى ، ولما أخرج كان معطلا ومشلولا شللا نصفيا ، فعاد للبيت كئيبا حزينا ربما يائسا بائسا .. فهو لم يوفر قرشا لمثل هذا الحال ، لم يوفر قرشه الأبيض ليومه الأسود كما يقول أهل التوفير ، وربما لم يفكر يوما أن يصاب هو ويتعطل عن العمل ، رغم ما يحدث باستمرار من أحداث وإصابات للعمال .. فما كان يقبضه من أجرة ينفقه أولا بأول ، وأيام قلة عمله لا يشتري سوى دخانه مما ادخره أو زاد عن

مصروف البيت .

كانت صورة المستقبل أمامه وأمام الأسرة قاسية وسوداء قاتمة ، وأهله لم يكونوا أحسن حالا منه .. فقبل راضيا مستسلما ليد العون التي مدت إليه من الجمعيات الخيرية ، ومن صناديق الزكاة المنتشرة في طول البلاد وعرضها .. وأصبح الرجل عالة على المجتمع والأمة .. وكان علي ناشب قد مد له يد العون في أول الحادث ، وتكفل بعلاجه ومساعدة الأسرة بالأرز والسكر والشاي والفاكهة والطحين، ثم توقف عن ذلك بعد حين

٢

شعرت وأدركت الأسرة بالوضع الصعب الذي عصف بها ، فالمريض يحتاج لعلاج مستمر ومتابعة دائمة، والبيت يحتاج لمصروف ونفقات ، فكانت الأسرة تجاهد للحياة والعيش ، نجح شريف في فصله الدراسي وترفع للصف التالي ، أما قسيم فلم يوفق في فصله فعليه أن يعيد الصف مرة أخرى ، فأصبح الأخوان في مستوى دراسي واحد ، فكان قسيم يتذمر من البقاء في المدرسة ، ويظهر امتعاضه من التعليم ، ويضغط على الأسرة لترك المدرسة وتعلم حرفة ، ويعد الأسرة بالعمل والمساعدة في نفقات البيت ، ويدعي أن مساعدات الجمعيات لا تكفي ، وأنه يضيع الأيام هدرا ، وأن مصيره لسوق العمل ، فتسوق له الأم الأمية فضائل التعليم والحصول على شهادة علمية .. والمستقبل الزاهر والحياة الساكنة والوظيفة اللائقة أمام الناس والمجتمع .. وهو يرد عليها بحمية بأن الشهادات ليست ذات أهمية، والكثير من الناس سعداء بالمال والسيارات وليس معهم شهادات ، ويذكر لها بعض الأسماء اللامعة في المدينة أو في التاريخ .. ثم يعود ليبين لها أن وضعهم سيء ويحتاج لمزيد من المال والدخل .. وأن شريفا أذكى وأشطر منه ، وتدريس واحد في الجامعة ليس كتدريس اثنين .. وأحيانا يظهر لهم عجزه عن متابعة الدراسة والاستذكار والحفظ .. وعمله في مهنة تدر عليه بعض المال تخفف من أعباء الأسرة .. وكان يرى بحسه أن هذه النقطة ستدفعهم لقبول تركه المدرسة .. وكان عندما يضيق به الكلام والحال يصور لهم بشاعة أخذ أموال الجمعيات ، وأنها نوع من التسول

والشحذة ..

ولما وصل شريف للصف التاسع " الثالث الإعدادي " استسلمت الأسرة لضعف قسيم ، وأنه لن يتقدم في الدراسة ، وربما مكانه المناسب سوق الحرف المبكر ، وقد تعلم خلال هذه السنوات شرب السجائر كما علمت الأسرة ، ولم يعد له قدرة على البقاء في المدرسة .. وعلمت الأم أنه يسرق بعض المال الذي تخفيه، وتدخره لأيام الشدة الأكثر ألما وضيقا .. وعلموا أنه يذهب للسينما .. وكان يقسم لها ـ لأمه ـ آلاف الأيمان بأنه لم يسرق ، ولم يذهب إلى السينما .. فرأوا أن يعمل ليعيل نفسه على الأقل ، وصار أملهم الكبير بنجاح شريف الابن المؤدب العاقل .. وأن شريفا كما ترى أمه قد رسم لنفسه هدفا كبيرا .. وأنه ساع بقوة للوصول للثانوية العامة والنجاح بمشيئة الله سبحانه ، وأنه يسعى بصبر لنشلهم من الفقر والمسغبة .. سمح الوالدان لقسيم بالعمل ، وخرج من المدرسة ؛ كأنه حقق هدفا عظيما ،لا مذاكرة ولا حفظ ، ولا عتاب مدير أو أستاذ .

فقسيم كان يرى أن إخراج الأسرة من الفاقة والحاجة بالمهنة والحرفة التي لا تحتاج لشهادة ودراسة، وأما شريف فكان يرى أن الشهادة المفتاح الأول لمساعدة الأسرة ، وتغيير الوضع الماثل أمام عينيه .

قسيم يرى أن السنوات تضيع في المدرسة دون فائدة ؛ لأنه لا يحب المدرسة ، يدرس الشعبة مرتين لينجح تلقائيا دون نجاح حقيقي ، فلما نجح شريف في الثالث الإعدادي انصرف قسيم للعمل الحر كما يقول ، وكان خلال عطل المدارس في فصول الصيف الماضية قد اشتغل في العمل الحر ، مرة مع كهربائي (محترف تركيب وتمديد مواسير وأسلاك الكهرباء المنزلية) ، ومرة مع ما يسمونه السباك (مواسرجي) ومرة مع العمال في تحميل أو تفريغ سيارات الخضار الكبيرة كالبرادات والشاحنات .. ولكن بعد رسوبه المدرسي الأخير ، والموافقة الأسرية على تركه ساحات التعليم .. لم يبق أمامه إلا العمل والثبات على حرفة واحدة .. فاختار العمل مع عمال تركيب المواسير وما يسمى بالتدفئة المركزية .. وبعد شهور يسيرة انتقل للعمل مع بليط

ولما وصل شريف لامتحان التوجيهي .. كان قسيم قد اشتغل في ما يزيد عن خمس مهن أو حرف .. ومن ناحية مساعدة الأسرة ـ كما زعم ـ لم تستفد الأسرة من عمله الشيء الكثير .. فما يقبضه ينفقه على ملذاته ، وأحيانا بعد شجار يرمي دينارا على أمه وهو غاضب .. ولم يعد يعلق يوما على أموال الإحسان التي تنفق على البيت كما كان يعلق عليها قديما.. بل كان يأكل ويشرب من أموال الإحسان والجمعيات ؛ كأن لم يجعلها دافعا لهجره المدرسة .. تناسى الغيرة والحمية التي كانت تجتاحه عندما كان يرى رجال الجمعيات والمحسنين يدخلون على البيت بالمساعدات والصدقات .. وربما لو صادفته اليوم يصاب بفرح وسرور ، ويرى أنهم أزاحوا عن كاهله عبئا كبيرا ؛ كأنه الذي ينفق على الأسرة الجريحة ، وأن الأسرة ما زالت تحيا لم تهلك تجاوز سنه التاسعة عشرة وهو ما زال لم يحترف أي مهنة بعد .. يتنقل هنا وهناك .. لم تلصق به مهنة يشتهر بها بين الصناع .



كانت حسنة في جوف الليل وهي تقف بين يدي الرحمن تبكي لأجله وعلى خيبته، وتدعو الله مخلصة أن يوفق ابنها شريفا وألا يخيب أملها فيه ، كما خاب في ابنها الكبير الذي لا يبالي بوضع أبيه ، بل تراه في بعض الأيام لا يتحدث مع والده أو يسلم عليه ، يخرج صباحا غير مكترث، ويعود في آخر الليل بدون أن يسألها عنه أو يسلم عليه.

كان شريف يدرك ويعي الأمل المعقود عليه نحو أسرته ، ويشاهد خيبة الأسرة بقسيم ، وهو لم يفاجأ بذلك ، فهو يعرف قسيما خير المعرفة ، يعرف أنانيته وطمعه وحبه لذاته ، وضعف شعوره وإحساسه بالآخرين ، وضعف تحمله للمسئولية ، فهو يستعجل السنين لينتشل الأسرة من الفقر ، ومن هذه الحي المظلم ، وهو اليوم يجاهد ويقرأ ويحفظ لإنهاء الثانوية العامة بسلام .

ولكن قبل أن تأتي الامتحانات حدث أمر مهول بالنسبة لهم ، فبينما الأسرة ذات نهار تجلس حول مدفأة لتخفف للبرد المخيم على الناحية طرق الباب ؛ فإذا هو رجل شرطة يسأل عن قسيم ، وقد تبين لهم أنه متهم بالمشاركة مع بعض فتيان الحي بسرقـة دكان بقالة من أحد الأسواق ، ولما علم صاحب الدكان حال أبي قسيم وشلله وفقره ، وشاهد بكاء الأم وتوسلها تسامح معهم ، وأخلت الشرطة سبيله ، ولم ترفع القضية للقضاء .

وغضب الأب على الابن وصاح في وجهه وشتمه وحقره ، وكذلك شريف جرحه وذكره بأقواله وشهامته عندما كان يرغب بترك المدرسة من أجل مساعدتهم .. واحتجاجه على أموال الصدقات .. فتظاهر بالغضب والنقمة ، وقابل العتاب بهجر البيت غاضبا على تجريحهم وناقما عليهم صراخهم وتحقيرهم .. وهذه ليست أول مرة يهجر فيها البيت .. فمنذ أن كبر سنا واشتغل كان يترك البيت أياما زاعما أنه في ورشة بعيدة أو أي حجة أخرى.. ولما يجوع وتذهب الأموال يعود للبيت طالبا العفو والطعام .. وبعد هذه الحادثة عاد للبيت ، وطلب من أمه أن تعينه ببعض مال الصدقة ليتعلم قيادة السيارة .. وأمام ضغطه وصراخه وأنه ابن العائلة وأملها بأن ينصلح حاله .. وخوفها من تهديده المستمر بترك البيت والهروب للعاصمة شين .. وعلينا ألا ننسى حنان الأم أيضا .. ذهبت معه لأحد المدربين ، واطمأنت أن المال وصل للمدرب ، ووعدها الرجل بتعليمه السواقة .. وتأكدت أن المال لن ينفق على الدخان والسينما والملاهي دفعت الدفعة الأولى .

وقد صدق قسيم معها هذه المرة ، وحصل على رخصة القيادة المناسبة ، وأنهى الأخ شريف الثانوية العامة بنجاح وبنتيجة جيدة للغاية أهلته ليختار من الكليات الجامعية ما يشاء ؛ ولكن الشاب أمام الحاجة ووضع الأسرة اختار الالتحاق بالجيش والكليات العسكرية، وخاصة الهندسة العسكرية ، وبمساعدة بعض الأكابر تيسر له ذلك ، ليصبح ضابطا ومهندسا في نفس الآن .

وعادة طلاب الكليات العسكرية يتكفل الجيش والقوات المسلحة بتعليمهم وتدريسهم ،

وبعد ذلك يلتحقون للخدمة في صفوف ووحدات الجيش في طول البلاد وعرضها ، وبذلك لم يكلف والديه درهما واحدا ينفق عليه في أثناء الدراسة ، بل يأخذ راتبا وإن كان صغيرا يساعد به نفسه أولا ثم الأسرة .. والأهم من ذلك أنه يحصل لوالديه علاجا طبيا مجانا على حساب الخدمات الطبية للجيش ، فكان يرى أن ذلك توفيق من الله عز وجل .

وكان ذلك كله مفاجئا للأسرة ، فهم لم يحلموا يوما أن يلتحق ولد لهم بالقوات المسلحة ، فهم ربما كانوا يعتقدون أن الجيش لأبناء الذوات أو العائلات الخاصة ، وشريف نفسه لم يحدثهم يوما عن هذا الحلم والهدف ؛ لأنه ربما كان مثلهم يرى أن العمل في الجيش يحتاج لمميزات خاصة ، ولما استقر الشاب في الكلية العسكرية أو الجامعة العسكرية ، وأصدرت بطاقة العلاج الخاصة بوالده عرضه على أطباء الجيش من علماء وأخصائيين ، ولكن لطول فترة الرقود على الفراش ، وضعف العناية خلال السنوات الماضيات ، لم يكن هناك أمل كبير في شفائه من الشلل ، فقد ضعف الجسم عن المقاومة .. وأصبح يأخذ العلاجات الثمينة من صيدليات الجيش .. ورفعت الجمعيات الأهلية اسم العائلة من المساعدات والإحسان بناء على رغبة شريف ، وأعلمهم بتحسن الحال ، وأن غيرهم اليوم من الأسر أبدى وأولى منهم ، فأثنوا عليه شكرا ، وتنموا له التوفيق .

واحتج واعترض قسيم على تصرف أخيه شريف ، ومنعه من وصول المعونة إليهم ، وأمام الواقع الجديد من تصدر شريف للقيادة في البيت ، وجه الشاب قسيم وجه نحو العاصمة ، وادعى أن الحياة في مدينة البركة أصبحت سيئة ، وأن البيت صار جحيما ، ولما استقر في المدينة الجديدة استطاع العمل على سيارة نقل ركاب على أحد الخطوط الداخلية .

٣

الزمن يمشي ويسير قدما لا يتأثر بحادث جرى هنا وآخر هناك ، فهو يمضي إلى ما قدر له ، لا يوقفه مولد شخص ولا وفاته ، فكل ميسر لما خلق له ، فنحن نكبر ونزداد عمرا وسوف نهرم ونموت ، وما الأيام إلا أعمار الناس ، هذا يضحك والثاني يبكي ، موت وحياة ، ولكن السعيد من وعظ بغيره في دنيانا هذه .

الفقر معروف لكل الشعوب ، ولا يخلو منه مجتمع ، والناس يتفاوتون في الفقر والغنى والصحة والمرض. فقسيم ياسر منذ فشل في المدرسة وهو يصارع الحياة ، ولا يعرف كيف يستقر على هدف وغاية.. ترك المجاهدة في المدرسة ، ونزل لسوق العمل مدعيا أنه يفعل ذلك من أجل الأسرة الصغيرة، وليكف عنهم أخذ أموال الصدقة ، وحتى لا تبقى يدهم ممدودة كما كان يزعم لأمه .. وهذا مقصد نبيل وشريف ويشكر المرء عليه.

ولكن الشاب احترف أو قل عمل في أكثر من مهنة دون فائدة .. حتى سئم كل الأعمال.. وكبر الشاب ودخل العقد الثالث دون نتيجة مهمة .. وتعلم السواقة من أموال الإحسان التي كان يتظاهر بكرهها ، ويحقد على المحسنين ويقذفهم بشتى السباب .. حقق رخصة القيادة ولكنه لم يفلح بالثبات عند شخص يعمل عنده .. فتقدم لرخصة أعلى درجة تخوله العمل في قيادة مركبات الركاب .. فاستغل تدخل أخيه بوقف المعونة الخيرية عن الأسرة ليهرب أو يهاجر إلى العاصمة .. وكان كل هذه السنوات التي قضاها قبل سفره يتذمر من شظف العيش وضيق ذات اليد.. ويحلم الأحلام الخيالية من بناء شركات وتعهدات .. ولم تخلُ أيامه تلك من عمليات احتيال ونصب.. فالأخلاق الحميدة والطيبة لم يكن لها قيمة وأهمية عنده .. المتعة والراحة أجمل الأشياء في الحياة.. المبادئ والمثل شعارات فقط .. ولا أهمية لها إلا إذا وافقت هواه ومصلحته فحسب .

كان يتردد على مدينة البركة بين الفترة والأخرى ربما في الشهر مرة ، وأحيانا في عدد من الشهور مرة .. ولما تخرج أخوه مهندسا وضابطا ضاقت به الدنيا وحسده، وتمنى ولو أنه ظل

يكافح على مقاعد المدرسة .. ومرات يظهر اللوم على أمه التي تراخت وسمحت له بترك الدراسة .. ولا أحد يعقب على كلامه .. كان حقده على شريف واضحا للعيان ، وكان يزعم أمام أقرانه أنه هو الذي شارك في تعليم شريف مع إدراكه أن كل الناس يعرفون أن الحكومة هي التي علمت شريفا .. فلذلك يصمتون ولا يردون عليه ، وإذا تجاهل أحد هذه المعلومة وناقشه هذا الادعاء صاح : أنا لا أقصد فلوس المحاضرات والتدريب .. أقصد المصـروف وشراء الكتب والملابس المدنية. فيهز السامع رأسه ويلزم الصمت من الحديث مع مدع وأحمق تخرج شريف ياسر مهندسا ، وتعين ضابطا في قوات الهندسة العسكرية، فقال له والده : الآن يا شريف علينا أن نسعى لتزويج أخيك ؛ لعله يستقر ويعرف المسؤولية .

تدخلت الأم وقالت: أنا أرى الأفضل أن نبني بيتا يليق بالمهندس شريف الضابط .. ويكون هذا البيت هنا لقسيم .

قال الأب مبررا غايته مما اقترح : إن سيرة الولد سيئة لا تعجبني .. وعجزي لم يساعدني على تقويمه وردعه عن فلتانه .. عندما ألتقي ببعض أقاربي وإخواني أسمع عنه كلاما رديئا ومخزيا يا أم قسيم .. وأعلم المرار الذي في حلقك .. فاليوم نحن نعتمد على شريف بعد اعتمادنا الأول والآخر على الله .

شريف يعرف الكثير من مفاسد أخيه وشروره ، فلزم الصمت وترك الحوار والجدل بين الوالدين ، وفي نهاية الجلسة قال شريف : سنفعل كل شيء إن شاء الله .. سنشتري قطعة أرض صغيرة ، وعندما نبدأ البناء ويجهز الطابق الأول نكون خلال ذلك الوقت قد خطبنا لقسيم ..ولما نرحل يتزوج قسيم بإذن الله .. لعل أحواله تتحسن ويعود للسمعة الطيبة .. ويهجر أصحاب وجلساء السوء .

قال ياسر : بارك الله فيك يا ولدي! .. أنت مفخرة لنا .. نعم الابن يا شريف.. لولا همتك وأخلاقك لمت كمدا من سيرة أخيك السيئة .. استغل عجزي للعيش بلا حياء ولا أخلاق .

وأثنت الأم بدورها على ولدها ، وحثته على الرضا والصبر وتحمل مساوئ أخيه وقصصه ،

فضحك شريف وقال: لي سنون أسمع وأتحمل .. ولا أتدخل في حياته الخاصة إلا ناصحا مع أن الإساءة تلحق بنا جميعا ولا تصيبه وحده .

٤

قسيم ابن الربع قرن الممتلئ البدن المتوسط الطول كان مسكنه غرفة صغيرة في أسفل بناية في وسط العاصمة في حي قديم اسمه " حي السماعة "، ومسكنه لا يختلف عن مسكن الأسرة في بلدة البركة شارع عمارة .

ربما تجد منازل الكلاب عند بعض الناس أفضل من غرفته وملاحقها ، ووطد نفسه في أول الرحيل أن يعود لزيارة الأسرة في نهاية الأسبوع ليلة الجمعة ، فالعمل ينشط خلال أيام الأسبوع ، والأهل قد ملوا من إصلاحه كما يبدو فتركوه على هواه ، فكان يستقبل كضيف ويقدم له الطعام والفراش، ولا يطلب منه مالا للمشاركة في مصـروف العائلة، لقد كفاهم الله ﷻ المئونة براتب شريف ، وهو لم يقدم من نفسه شيئا للبيت ، وإنما في بعض الأحيان يلتقط بعض الفواكه التي تباع على أرصفة الطريق بين المدينتين ، وكان يتضايق بشدة من أي نصح وإرشاد يقدم إليه من قبل الوالدين ، وعندما يطلبان منه أن يحافظ على بعض ماله ويدخر منه للزواج وبناء أسرة ، فيدعي أنه قد بلغ سن الرشد والعقل ، ويعرف مصلحته ، وهدفه المنشود ، ويعرف أين المنفعة ؟ فلا داعي للنصح والتوجيه ، ومرات يتذمر من الشغل وقلة المال والعطل لتصليح السيارة ، وعندما تنصحه أمه بالصلاة والتوبة يغضب ويبين لهم أن هذه عادات قديمة ، ولم يعد أحد يصلي إلا أمه ، وعلى الإنسان أن يشبع شهواته ورغباته ، وأن الدين للعجائز فحسب ، وربما سمع كلاما قاسيا جارحا من أبيه ، ولائما لأمه في فشلها في تقويمه ، فتأخذ الأم بالبكاء بكاء مرا ؛ ولكنه لا يؤثر في الشاب يوما بل يتظاهر بالغضب والسخط من زيارتهم والجلوس معهم ويغادرهم غير آسف ، ولا يعود إليهم إلا بعد شهر ، وربما أكثر مبديا احتجاجه وعدم رغبته بسماع مثل هذه المقالات .

والواقع أنه أخذ يتعرف على أناس آخرين، وتتسع دائرة معارفه في العاصمة شين، ويجد مكانا

للتسلية والنزهات والمزيد من قضاء الشهوات مع أصدقاء وجلساء اللهو والخمر والقمار .
وهم في أول الأمر كانوا يقلقون على غيبته ، ويسألون أقربائهم الذين يعملون في العاصمة عنه ومع الوقت وبحكم العادة قلّ سؤلهم وتتبعهم لحال ابنهم . وبينما الوالدان يخططان لمستقبل وأحلام العائلة بعد تخرج شريف كما ذكرنا سابقا من الكلية العسكرية قسم الهندسة ،وأصبح ضابطا بنجمتين على كتفه أو ما يطلق عليه عسكريا " ملازم أول "، رن جرس الهاتف في المنزل – الهاتف الذي ركبته الدولة في بيت السيد ياسر بعد التحاق الشاب بالوحدات العسكرية المحاربة ، فأي ضابط عسكري يركب له جهاز هاتف ليتمكنوا من الاتصال به في أي وقت يحتاجونه فيه ؛ وليكون هو أيضا على اتصال مع أسرته – وكالعادة الجديدة قامت الأم حسنة لترد على الهاتف ، فسمعت صوتا متسائلا : أهذا بيت أبي قسيم ؟
ـ نعم !
ـ أنا صديق قسيم في العمل .. نعمل على نفس خط السير ..فالأخ قسيم تشاجر مع ناس .. وضربوه بسكين وهو في المستشفى
صاحت حسنة فجأة وقالت : ماذا ؟! سكين .. مستشفى !
كان شريف موجودا لحظتئذ في البيت ، ويتابع الاتصال ، فلما صاحت أمه أخذ السماعة منها وقال : من يتحدث ؟ أنا شريف أخو قسيم ما الأمر ؟! .. أهلا بك ..في أي مستشفى .. مستشفى الحياة الغالية شكرا أيها السيد .
وضع السماعة وقال بأسف وربما غيظ : حسبنا الله ونعم الوكيل .. مشاجرة على دور التحميل على الخط .. تطورت لضرب وملاكمة ثم سكاكين .. قسيم ضرب أحد السائقين موسا جاء في يديه ، فضرب الثاني قسيما بسكين جاءت في ذراعه .. سننزل العاصمة يا أبي .. هيا أيتها الأم .. يكفي دموعا .. سنذهب لمستشفى الحياة الغالية .. هون عليك يا أبي .. علينا بتزويجه قريبا ـ إن شاء الله ـ لعل الحال ينصلح ويستقيم .. سنستقل سيارة مباشرة إلى المستشفى .
وخرجوا والأب يسب ويشتم ولده الخائب الذي لم يراع أباه ، وما هو فيه من العجز والشلل ،

وها هو يضيف لحياتهم السكاكين والسواطير ، فازداد الغم والهم في قلب الأب الجريح وسمعوه وهم عند الباب يقول : ليته يموت ونخلص منه .

فقال شريف : لأ يا أبي .. لسوف يعقل ذات يوم .. ادع له بالهداية والرحمة .. قل الله يهديه .. هذه مشاكل ومشاجرات السواقين معروفة ومنتشرة في كل البلاد .. فأغلبهم شلل وعصابات فإذا قل الركاب يتشاجرون من الضجر والملل ، وإذا كثر الركاب تشاجر الركاب على الدور ، ويتدخل السائقون فتحصل المنازعات والمشاجرات ..أصلح الله الناس .. هدأ أعصابك يا أبي ، ولا تمقت نفسك .. ولن نتأخر عليك .. نطمأن على قسيم ثم نعود بإذن الله تعالى

فقالت حسنة : الله يهديك ويصلحك يا ابني يا قسيم.

ومرت أم قسيم على شقيقة زوجها التي تجاورها في الشارع ، وطلبت منها أن تمر على أبي قسيم وتقدم له العشاء إذا تأخرت عليها، فوعدتها المرأة بفعل ذلك لما علمت بالحادث الجديد لابن أخيها وقالت : متى تهدأ يا قسيم من المشاكل ؟.. الله يهديك يا ابن أخي إلى الخير والحق .



٥

مع الغروب دخلوا العاصمة وإلى المستشفى الذي يرقد فيه قسيم وصلوا ، وكان قد تم علاجه ولفت ذراعه المصابة بالشاش الطبي، ووجدوه ممددا على أحد الأسرة بعد المعالجة ، وكان وجهه لا يخلو من الكدمات والجروح ، سمح لهم الشرطي القائم على باب الغرفة بالدخول لغرفة المصاب عندما علم أنهم أمه وأخوه ، ولما هنئوه على السلامة ، قال معاتبا لهم كأنهم هم المقصرون في حقه : ألم أقل لك يا أمي اشترِ لي سيارة خاصة ؟.. لو كان لدي تكسي أجرة خاص .. لما تشاجرت مع هؤلاء الأوغاد والمجرمين وما حدثت تلك المعمعة .

قالت وقد مسحت دموعا سالت على خديها : لك سنوات تشتغل يا ابني ! ولليوم لم تدخر ثمن سيارة .. من أين تريد أن نشتري لك ؟!

نظر لشريف شزرا وقال : السيد استغنى عن أموال الجمعيات .. لقد قلنا لا داعي للعجلة .. قلنا متى يتخرج شريف كنا استغنينا عن إحسان الأغنياء .. كبرتم عن أموال الجمعيات والصدقات .

رد شريف محاولا التهدئة من انفعالاته ومتجاهلا غمز أخيه : هناك من أفقر منا يا قسيم .. ولو وضعت قرشك على قرشي لصار معنا حق سيارة صفراء ..ولكن ..

وقبل أن يقول ما بعد لكن صاح قسيم بغضب : اسمع لا تعيرني أرجوك .. أنت لماذا جئت لزيارتي ؟.. أنا لا أريد زيارتك !

ـ لماذا جئت لزيارتك؟ لماذا ؟! أنا جئت مع أمك يا محترم .. أنا أعرف أنك تبغضني .. وأنك تعتقد أنك تركت المدرسة من أجلي كما تشيع بين الناس .. أنت تركت المدرسة لفشلك في المدرسة .. والحمد لله رب العالمين لم استفد منك قرشا واحدا في المدرسة .. الزم حدودك .

فصرخ قسيم محتدا: اسمع أرجوك .. اخرج .. يا شرطي أخرج هذا الرجل من هنا .

ـ حسنا يا قسيم سأخرج .. أنت يجب أن تؤدب من جديد مع احترامي لأمي ..لا تدع أن الظروف أوصلتك إلى هذا ..أنت أوصلت نفسك إلى ما أنت عليه وفيه .

ـ لا أريد أن أسمع .. يا شرطي .. أخرجه من هنا

فقال الشرطي : يا أخ شريف هو مصاب ومتوتر دعك منه وتعال عندي

ـ حسنا.. إني انتظرك يا أمي في الممر .. هو الذي دفعني لهذا الكلام العلقم حتى يعرف حده .. وأننا كبرنا لم نعد أطفالا نأخذ مصروفنا من أهلينا .

ـ يا ليتني أموت .

ـ سوف تموت .. كل حي سيموت .

وغادر شريف الغرفة بعد هذا الانفعال المفاجئ ، وأخذ يتمشى في الممر والبهو، وأخذ قسيم يشكو لأمه قساوة قلب شريف عليه ولؤمه وحقده عليه فقالت : أنت مخطئ يا ولدي !.. فشريف يحبك ، وقبل أن نسمع بالحادث من زميل لك كنا نخطط لتزويجك وتسكينك مكاننا .. وكيف نخرجك مما أنت فيه من أخلاق سيئة لك وللعائلة ؟

ـ لا أحب الوعظ يا أماه !.. لا أريد أن تزوجوني ، أنا أزوج نفسي.. وتابع بعصبية : ءأنا أتزوج من مال شريف ؟!.. لا يمكن أن يحدث هذا ولو مت أعزبا .. مع السلامة يا أمي .. كلكم تكرهونني .. ألم تطمأنوا عليّ ؟!.. مع السلامة.

ـ نحن نكره أخلاقك السيئة .. هل هناك أم تكره ولدها ؟!

ـ نعم ، أنت أيضا تكرهينني أعرف هذا ..

ـ ويلك من الله !.. أنت ابني .. وقد دعوت الله كثيرا أن يبقيك لي.. لقد مات قبلك الكثير .. ولكنك أعوج .. ولا تعرف أنك أعوج أو أنك تتجاهل عوجك .

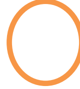
ـ أنا حر .. سلمي لي على أبي .. وأنا بخير.. ولا تسألوا عني .. أنا وحدي مرتاح في هذه الدنيا اللعينة .

ودعت له بالشفاء والسلامة وغادرته غاضبة ، ولم يحاول دعوتها للاعتذار ، وأخذ شريف يخفف من ضيقها وغضبها ، فقد كان يسمع بعض الكلام كلما يقترب من الباب ، وهو يسمعه يتكلم بصراخ وعصبية أزعجت كل من مر من عندهم ، وقال لأمه : لا تحزني يا أماه ! هو

يريد أن يحملنا سبب فشله في هذه الحياة .

وشكر شريف الشرطي الحارس ، وانصرفوا عائدين لمدينة البركة ، ولم يخبروا الأب عن سوء أخلاق ابنه ، وأعلموه أن إصابته متوسطة ، وهي في الذراع ، وسيخرج خلال أيام .

وفي الصباح التالي اتصلت الأم بالمستشفى فأخبروها أنه نائم ، ولا يرغب بالرد على أحد فقالت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. الله يصلحك يا قسيم .. ماذا أفعل حتى يتحسن حاله؟! .. صرت خائفة أن أزوجه بنت من بنات الناس فيسود وجوهنا .. رجل لا يعتمد عليه .. فمنذ اختار المهن وترك المدرسة ونحن لم نستفد منه شيئا يذكر ..إنا لله وإنا إليه راجعون .



كان الأخ شريف يتألم من كل كيانه لحال والده وانحباس بدنه بالشلل ؛ وذلك قدر الله ، فعلى المرء أن يقبل قدر الله ويسلم أمره لله ، لقد حاول عندما مكنه الله دخول القوات العسكرية الوطنية أن يستفيد من خدماتها الطبية والعلاجية في معالجة أبيه؛ ولكن تبين له أن الوقت قد تأخر ، ولا مجال عندهم في إزالة هذا المرض .. فاليوم يريد أن يدخل السعادة لوالديه عن طريق المال وإسكانهم في حي أفضل خدمة وحياة من حيبهم هذا ، في بيت واسع جديد ، وكانت أفعال أخيه الأكبر تسبب الحزن والألم للأب والأم وله .. ولا خلاص منها إلا بتوبة قسيم وعودة للأخلاق الفاضلة، وترك الزعرنة والفتونة .. ولكن الأمر كما رأينا زاد وأصبح يستخدم السكين والعصا ، ولما لم يعد يتحمل النقد اضطر لطرد أخيه من حضرته ثم أمه .

هذا ما كان يؤرق الضابط الصغير شريف تلك الأيام ؛ لذلك تجده حريصا للعودة إلى البيت فور انتهاء دوامه ؛ ليكون مع الأب الحزين والأم المسكينة ، فكان من النادر جدا أن يسهر خارج البيت أو يذهب لزيارة الأصدقاء وزملاء العمل والكلية وحتى أقاربه في الحي ومدينة البركة ؛ وكأنه ما زال على مقاعد المدرسة الثانوية ، وكان من طبيعة العمل العسكري أن يمكث الضابط بعض الليالي والأيام في معسكرات الجيش للمناوبة والطوارئ .. فكان يقوم بواجبه العسكري تلك الليلة من تفقد الغفارات وأحوال الأفراد والطعام المقدم لهم .

ويبدو أن بعض الزملاء الضباط لم يعجبهم وضع وحال زميلهم شريف بعدم السهر والعبث معهم والتمتع بحياة الشباب ، وبينما هم يغادرون معسكرهم مساء يوم أقسم أحد الزملاء أن يستضيفه عنده ، ويقضي ليلة في بيت أسرته ليزداد بهم معرفة ، وحاول الأخ شريف بكل ما يملك من قدرات أن يتملص من هذا القسم ، وأمام إصرار الزميل على هذه الضيافة له ولزميل آخر لهم وافق على هذه الزيارة ، وكان من عادة شريف أن يتصل بوالدته قبل مغادرة المعسكر لتعد لهم طبخة يحبها ويشتهيها هو أو والداه ، فلما وافق على زيارة الزميل فواز عاود الاتصال بأمه مخبرا بأنه لن يأتي الليلة لسبب طارئ ، وهذا معتاد في الحياة العسكرية ، بل ربما يُتصل به في البيت ليلتحق بوحدته العسكرية .

وقام الضابط فواز رامي بضيافتهم وهم في الطريق في أحد المطاعم الفخمة المعروفة له ، ويتكرر مروره عليها فهو زبون معروف لذلك المطعم ، وكان هذا الضابط يملك سيارة جديدة قدمها له والده حينما تخرج ضابطا ، فهو ابن أسرة ثرية بمعنى الكلمة ، فقبل شريف ياسر وعزمي سامح الدعوة والسهرة ، وكلهم أبناء دفعة واحدة ؛ ولكن مهنهم العسكرية مختلفة، وكلها تصب في الهندسة العسكرية .

فتفريعات الهندسة العسكرية هي نفس تفريعات الهندسة المدنية ، هندسة مدنية معمارية ، كيمياء ، مكانيك ، كهرباء ، وغير ذلك من التخصصات ، وحتى مدة الدراسة نفس مدتها في القطاع المدني خمسة سنوات على الأقل .

وبعد تناولهم الغداء ساقهم فواز إلى إحدى الحدائق العامة الكبيرة للترفه قبل ذهابهم لبيت العائلة ، ثم نزل بهم بعض أسواق المدينة ، واشترى قطعة من الذهب معلنا لهم أن اليوم عيد ميلاد أخته الأصغر منه .. فهي ستكون حفلة وسهرة بهذه المناسبة المهمة لديهم .. فأحس شريف بالضيق والحرج لهذا التطور .. فقد أدرك الغاية من هذه الزيارة .. وكان شريف يسمع عن مثل هذه الحفلات والسهرات ، وكان يرى ذلك من التقليد الأعمى للغرب ، ويراه من الإسراف والتبذير .

وفكر بالانسحاب ثم أدرك أن الأوان قد فات ، فقد دخل الليل وقد وافق على الزيارة وقبل دعوة الغداء والسهرة ، والسفر للبركة يحتاج لساعات فيزعج الأهل بدخوله عليهم بعد نصف الليل، وقد اعتذر لهم عن المجيء ، فسكت على مضض أو كالمغلوب على أمره ، حتى أن زميله عزميا لاحظ عليه الشرود والتوتر فقال : يبدو أن الأخ شريفا لا يحب مثل هذه الحفلات ؟!

تمهل شريف في الرد لحظات ثم قال : هذه أول مرة سأحضر حفلة عيد ميلاد يا أخ عزمي .. نحن أناس بسطاء.

فقال فواز : هي حفلة بسيطة أيضا يا أخ شريف .. أكل وشرب وبعض الموسيقى وقطع الجاتو والكيك .. وتقديم الهدايا الرمزية لهذه المناسبة والسلام .. عادات تعودنا عليها يا أخ شريف تقاليد وبس !!

ـ غفر الله لنا جميعا

فقال فواز : أنت اليوم ضابط يا شريف .. لازم أن تتغير .. وتحتك بالمجتمع وتتطور وتنفتح على الناس أكثر .. لابد من التغيير .. أنت الآن تمتلك المال والرتبة العسكرية والشهادة الهندسية .. لا تبقَ في عقلية الفقر وحي العمال الذي حدثتني عنه مرة ..أنت لا ينقصك مال يا سيدي الملازم .. سأسعى لتحديثك أنا والأخ عزمي .

فقال عزمي : نعم أيها الزميل .. انطواؤك على أحلامك ونفسك لا يسر صديق .. الآن كما قال فواز خرجت من قمم الفقر .. فأنت بحاجة أن تتغير وتتحضر .

فقال شريف متأوها : آه ! على كاهلي مسؤوليات نحو الوالدين ..أبي كما أخبرتم قديما مريض بحاجة لي .. فكم جاهد وتحمل حتى كبرنا ، فهل في لحظة ضعفه أسمح لنفسي بالانطلاق والانفلات ؟..هذا محال .

فقال عزمي : نحن لم نطلب منك التخلي عن والديك .. وهل نحن متخلون عن أبوينا ؟ .. إنما ندعوك لأخذ حظك من الدنيا .. من المرح واللهو والتمتع .. أنا أدرك المعاناة التي تعانيها ..

لقد حدثتني عن نفسك أيام الكلية .. وأخوك عليه واجب من المسؤولية .. لا يجب أن يظل خاليا منها .. وأنت وحدك تنفق على والديك .. هذه مسؤولية الجميع جميع الأخوة .

فقال فواز عندما رأى شريفا يبتسم من كلام عزمي ولم يعلق بشـيء : الدنيا تتغير يا شريف أنت الآن ابن القوات المسلحة.. وليس ابن حي العمال الحي المأساة كما سمعنا منك .

فقال شريف : أكيد الدنيا تتغير .. ولكن يجب أن أتغير للأفضل والأحسن .. وهل إذا جلست في ملهى أو حانة أتغير ؟! ففي حي العمال حانة خمر هل إذا راقصت صبية تغيرت ؟

فقال فواز : ليس هذا بالضبط قصدنا .. ولكن لابد من المرح والحب والسفر وسهرة هنا وسهرة هناك .. ليست الحياة شغل شغل .. ساعة وساعة .

ـ أحيانا أذهب لنادي العسكر في مدينة البركة .

فقال عزمي: هذا خبر جيد .. تفاعل مع الناس مع الضباط .. فالنوادي تعمل حفلات ونشاطات.. وتحتفي بالمناسبات الوطنية والدينية .. كم مرة ذهبت إليها ؟

فضحك شريف وقال : الحقيقة مرتان فقط ..أنا أقضي أكثر وقتي مع والدي المقعد أيها الأخوة تعودنا على ذلك منذ ابتلاه الله ﷻ بالشلل وأنا على هذا المنوال .

فقال فواز : ولماذا ذهبت للنادي إذن ؟ لابد أن أحدهم كلفك برسالة .. وذهبت إلى هناك من أجل ذلك .

تبسم شريف وقال : أحسنت .. أرجو أن أتغير للأفضل إن شاء الله .

فقال فواز : إنك خائف .. اعتبر هذه السهرة أول مرة وآخر مرة .

فقال عزمي : عليك أن لا تنزعج من مثل هذه اللقاءات يا شريف .. تلتقي بكثير من كبار الضباط في مثل هذه السهرات ..وليس كل سهراتنا رقص وموسيقى .

قال شريف : أنا فعلا مضطرب .. هذه أول مرة لا أكون في معسكري وأنام خارج البيت .. أحس كأنني ارتكب إثما كبيرا .

فقال عزمي : هون عليك .. مرتان أو ثلاث مرات ولسوف ترتاح نفسيا .. ولا تقلق على أمك

وأبيك ..وهدئ أعصابك .. ولسوف تسر من سهراتنا وتشكرنا على فعل ذلك أيها الصديق .

عاد شريف للضحك وقال : أسر بالرقص وأعياد الميلاد ؟!.

فقال عزمي :لابد أن تجرب وتخرج من القمم يا رجل ..أنت ضابط ومهندس وغدا ستكون قائد سرية أو كتيبة أو قائد لواء .

٦

بينما صاحبنا شريف يجلس في مكتبه في الوحدة العسكرية التي عين فيها تكلم معه مأمور السنترال (المقسم) داخل الوحدة قائلا : سيدي .. مكالمة خارجية !

خارجية تعني عندهم من غير وحدات الجيش من المدنيين على اصطلاحاتهم أو رقم مدني ، فردد المهندس : خارجية ! وخطر في باله على الفور أمه فقال لنفسه " لعلها أمي !"

ثم سمع صوتا نسائيا ، ولم يكن صوت أمه كما ظن ابتداء فقال : نعم .. أهلا وسهلا .. أنا شريف .. أوه الأخت عبير يا مرحبا !! .. فواز لا يعمل في هذا المكتب .. عفوا تريدينني أنا ! وتريدين شكري على حضور الحفلة ، شكرا لك عقبال نجاحك في الجامعة بإذن الله .. تريدين تعريفي على بعض زميلاتك اللواتي أعجبن بي .. كان الوقت ضيقا لتعريفي عليهن ليلة الحفلة شكرا .. أنا حضرت الحفلة صدفة إذا صح التعبير أنا لم أكن مدعوا .. آسف ، اعتذري لهن الوقت ضيق لا يسمح بمزيد من الجلسات .. صدقي أنها أول مرة أحضر حفلة ميلاد وموسيقى .. أنا إنسان بسيط .. ومتخرج من الكلية منذ شهور .. أشكرك مع السلامة .

وضع السماعة ومسح العرق المتصبب على جبينه وقال ضاحكا ضحكة صغيرة : تريد أن أتعرف على صويحباتها!! ..وتريد أن تتعرف عليّ أكثر .. يا للعجب ! بنات هؤلاء الناس جريئات على مخاطبة الرجال .. يا لها من فتنة ! وماذا نستفيد من هذه المعرفة ؟.. أأتزوج واحدة منهنّ ؟! .. على شاكلتهن .. لقد كنت في انبهار من تبرجهن وسفورهن تلك الليلة .. ظننت نفسي في ملهى ليلي كما نرى في أفلام التلفاز الأجنبية ..لا يمكن هذا .. أنا أتزوج واحدة منهن ..أنا سأتزوج ـ بإذن الله ـ فتاة مثل أمي امرأة صابرة .. حبيبتي يا أمي !

كم أحبك ! هل سألقى أنثى مثلك صابرة راضية بقدرها؟! .. زوج حيث لا زوج .. مسكين يا أبي ! البلاء شديد ولكنّ الثواب عظيم ..يخيل لي لو أنني تزوجت فتاة من صويحبات عبير اللواتي شاهدتهن تلك الليلة ، وحصل لي حادث خطير لهجرتني بسرعة الريح .. هل يقبلن أن يحيين حياة هادئة لا سهرات فيها ولا لهو ولا رجل ؟! اللهم إني أسألك الزوجة الصالحة يا رب يا الله ! حفلات عيد ميلاد . عيد شيطان .. ناس معهم فلوس لا يعلمون أين ينفقونها ؟!
يا رب سترك عليّ وعلى والديّ .



وتكرر الاتصال ثانية وثالثة حتى انزعج الشاب انزعاجا شديدا وخشي على سمعته وشرفه ، فطلب من عامل الاتصال أن يعتذر لكل امرأة تتصل به إلا أمه ، وغادر المكتب متوترا ومتجها إلى مسجد المعسكر لصلاة الظهر وهو يقول : أيعلم فواز بهذه المكالمات ؟! هل أعلمه بها وأطلب منه أن يكف أخته عن هذا العبث ؟ ولكن عزمي يقول " أتهرب من السعادة والثروة لا تدع الفرصة تفوتك ؟" أي فرصة ؟! .. وهل أنا على قد هؤلاء الناس ؟ يقول عزمي " تقضي عشرات السنين في الخدمة ، ولا يجتمع لك ما عند والد فواز من مال" .. سأصبح مليونيرا على رأيه .. وماذا سأفعل بالمليونير ؟ .. أين الكرامة والشرف ؟ أنا كنت استعر من إحسان الجمعيات .. وكنت أدعو الله ليل نهار أن أكبر وأتخلص من ذل الصدقة .. مع أنه مال أباحه الله ﷻ للفقراء والضعفاء .. اللهم غناك .. وسترك يا الله.. وهل من الضروري إذا أصبح الإنسان ضابطا أو مهندسا أن يخلع تقاليده وعاداته الحسنة ؟!
ودخل الصلاة وهو مهموم الفكر قلق من هذه الاتصالات الشيطانية ، وهو حائر من فتاة لا تجد ترحيبا ومع ذلك تعاود الكرة .

٧

كان شريف مناوبا في معسكره ذات ليلة ، وكان معه في تلك الوظيفة الليلية المهندس فواز ، وتركا نادي الضباط داخل وحدتهما ليتجولا على العساكر التي تحرس المعسكر ، وأثناء تجوالهما كانا يتسامران ويتناقشان ، وبعد دورتهم التقليدية على العساكر قفلا عائدين لنادي ضباط المعسكر حيث يسهر الضباط ، يشاهدون برامج التلفزيون المحلي ، ويشربون الشاي والقهوة والمرطبات ، ويثرثرون ، وفجأة قال فواز لشريف : يا ملازم شريف اشتكت الأخت عبير منك .

تفاجأ شريف بما سمع وهتف : ماذا ؟!

قال : أخبرتني أنك طلبت من مأمور الاتصال أن لا يصلها بك .

قال وهو ما زال مدهوشا : هي قالت لك ذلك ؟!

ـ نعم ، يا شريف .. يا صديقي عليك ألا تأخذ مثل هذه الاتصالات بحساسية ورعب .. نحن في مجتمع منفتح .. فمحادثة الشاب والشابة في بيئتنا أمر طبيعي ..لا يقوم على خيالات وحكايات ؛ ولكنك لم تعتد على مثل ذلك فتخاف وتقلق .. لن يكون هناك قصص حب وغير ذلك إذا تحدثت مع أختي أو قريبتي .. أنت لو درست في جامعة مدنية لشاهدت مثل هذه الأمور في حياة الجامعة .. تصاحب اليوم فلانة وغدا علانة .. فعليك أن تتعامل مع عبير أو صاحباتها كما تتعامل مع الزملاء الذكور .. تتعاون مع هذا وتكره هذا .. الفتاة وزميلاتها أعجبن بك تلك الليلة فيرغبن بالتعرف عليك أكثر ..والحديث أكثر .. فهن أصبحن ينظرن إليك أنك صديق العائلة .. لن يكون هناك زواج وعلاقات خاصة .. صداقة بريئة يا ملازم شريف .

كان شريف يسمع هذا وهو مذهول للأفكار المطروحة ، فلما سكت فواز وطال صمته قال : هذه المخالطة طبيعية في بيئتكم ؟!

قال : طبعا ، هذه مع الوقت أصبحت تقاليد وممارسات عادية لا تشكل أي ضغط نفسي علينا

فأنا أدعوك أن لا تعقد الأمور .. وخذ راحتك في الحديث مع عبير وصاحبات عبير .. المجتمعات تتغير يا شريف ..ولما تصبح من كبار الضباط ستأخذ زوجتك لمشاركة الضباط في حفلاتهم وسهراتهم .. وهذا سيسلم على زوجتك ..وهذا سوف يمازح زوجتك وإلا أصبحت منبوذا وشاذا .. فالأخت عبير تريد أن تخاطبك وتشاركك همومك وتناقش معها مشكلاتها .. لتخرجك مما أنت فيه من السذاجة والحياء الشديد .

قال شريف وهو ما زال مأخوذا بما سمع : أسمع كلاما خطيرا يا فواز .. أختك كما علمت منك أنها في الجامعة .. ألها أصدقاء في الجامعة ؟!

ضحك فواز ورد : هذا شيء طبيعي أن يكون لها أصدقاء من الجنسين .. كما لها أصدقاء من الجنسين في نادي العائلة والحي ..ولليوم ما سمعت أنها علقت بشاب ورغب بزواجها .. أنا أعجب بفتاة من فتيات المعارف وتعجب فيّ .. ولكن ما زلت كما أنا ، ولم أحيا قصة عاطفية ساخنة .. والزواج لم أفكر فيه بعد .. نحن أشراف يا زميلي الفاضل .. لكننا انتهينا من عقدة الاختلاط والخوف من العلاقات الخاصة بين الجنسين .

ـ أي صرتم مثل الأجانب ؟!

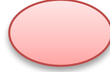
ـ نعم ، فأحيانا نشترك في حفلة شراب .. شراب خمر .. لكن لا نبالغ بتعاطي الخمر حتى السكر البالغ .

ـ هكذا مجتمعكم !

ـ نعم ، فلا تتردد في لقاء عبير والحديث معها .. وتقول إني خجلان من الزميل فواز .. نحن غير معقدين .. وإنها إذا اتصلت بك فتحدث معها وناقشها فيما تستشيرك به .. ولا يقع في بالك أنها مغرمة بك وتلف حولك .. فالفتيان حولها كثر .. تذكر هذا .. فهي راغبة في مساعدتك وإخراجك كما قلت لك أكثر من مرة من انطوائك وتقوقعك في عملك وخوفك من النساء كما بدأت لها تلك الليلة حتى لا تعرق وتتوتر إذا وقفت امرأة للحديث معك .. قد بدأت لنا طفلا صغيرا ليلة عيد ميلادها بخجلك واحمرار وجهك وارتباكك الشديد ..

فاستأذنتني لتجعل منك رجل مجتمع من الطراز الأول .. لذلك دعوتك لعيد ميلادها .. حدثتها عنك وعن انكماشك .. فطلبت مني أن أدعوك وأعرفك بها لتغيرك .

كان شريف يسمع حديث فواز وهو في غاية الاستغراب والتعجب ، فتاة تطلب من أخيها أن يعرفها عليه لتساعده من الخروج من عالمه إلى عالمها .. اضطرب عقل صاحبنا لهذه المبادئ والأفكار .. وعد فعل هذه الفتاة جرأة في غير محلها.. تطلب من أخيها أن يعرفها على شاب غريب ليتخذها صديقة .. فهم عندما تهوي فتاة للرذيلة يستسيغون الأمر ، ويعتبرون الأمر خاصا بالفتاة وحدها لا يضير أهلها .. أما نحن تنقلب عندنا الدنيا والعشيرة والعائلة لسقوط فتاة في مهاوي الفجور ويصيبنا الخزي أبد الدهر .. الناس عجايب ! أيُّهم الصحيح يا دنيا ؟!



ولم يكد شريف يستوعب حديث فواز حتى فاتحه عزمي سامح قريب فواز بالموضوع نفسه ، وتوسطه بينه وبين عبير ، وأنه يسيء إليها برفضه للحوار معها ، وأنها تُكن له من الود والاحترام الكثير ، وأعاد على مسمعه أن مثل هذه العلاقات والتصرفات بريئة من كل سوء وفساد ، وأن وسطهم الاجتماعي يتقبل مثل هذه الاجتماعات واللقاءات بأريحية كاملة ، وأن هذا الانفتاح بين الجنسين يزيل الكثير من العقد النفسية والاجتماعية والتوترات المختلفة .

فقال له شريف : رغم ما كنت أسمع في حينا وبيئتنا عن مشاكل وعلاقات غرامية بين فتيان الحي وفتياته .. فإني أعجب مما أسمع منك ومن الملازم فواز .

ـ نحن وصلت إلينا الحضارة قبلكم .. هل تظن أننا لا نغار على أخواتنا ؟!.. صدق أننا عندنا غيرة ربما أكثر من رجال حييكم ..

ـ أنا لم أتحدث عن الغيرة .. فالغيرة نسبية وتتفاوت من مجتمع لآخر.. هذا لا يخفى عليّ .. أنا أعلم وأقرأ أن فرنسيا قد يقتل ويغتال عشيقته إذا أحبت غيره وخانته .. لكل أمة طباعها وطقوسها .. ولكننا مسلمون !

ـ ونحن مسلمون ولكنك تقول في نفسك هل هؤلاء حقا مسلمون ؟!

ـ أكيد أنتم مسلمون .. ولكني أرى أن إسلامكم غير إسلامنا أو كما قلت سبقتمونا في التطور والحداثة .. يا أخ عزمي اعلم أنني عشت حياة صعبة مؤلمة.. أنتم لم تعيشوا المأساة التي عشنا بعض فصولها .. أنا لما تعرض أبي لسقوط حجر عليه في ورشة أو بناية ..كنت يومذاك في الصف السادس .. كنا في فقر مدقع .. كنا نبيت أحيانا كثيرة من غير عشاء .. عندما أصبح الوالد عاجزا يركب عجلة لم يكن يملك سوى عشرات من الدنانير .. لم يكن دخله وعمله يسمح له بالادخار .. والعلاج على حسابنا .. أو قل على حساب الجمعيات وأهل الخير .. الأقارب مثلنا لا يملكون الكثير وكلٌ عنده أحواله .. أنت لم تعرف الجوع والعري .. لم تلبس ثياب الصدقة والإحسان .. البنطال يبقى على جلدك سنة أو أكثر لا تستطيع أن تستغني عنه من الحاجة والفقر.. واقع مؤلم الذي عشته يا أخي .. وعليّ الآن عبء تغييره .. آه لو تعلم كم فرحت عندما قبلت أوراقي في الجيش .. كأني عانقت السماء ..أعدتني للوراء يا عزمي ..كيف يكون شعور المرء عندما يذهب للمدرسة بالثياب المستعملة والبالية ؟! .. ولكن الحاجة تلزمك أن تصمت .. لا أدري كيف يشعر المرء عندما تذهب الأم للعمل عند العائلات الغنية لتوفير الدواء للوالد المصاب؟! .. أقرانك في المدرسة يأكلون الساندويتشات الطازجة .. وأنت تنظر إليهم من بعيد .. وإذا لمحك أحدهم أشفق عليك وعرض عليك طعامه ، أي دم يبقى في وجه الإنسان؟! .. وأنت تتظاهر بالشبع مدعيا أنك أفطرت فطورا تتحدث عنه الأمعاء، وقد تكون بت طاويا على جوع .. ولا أقول لك إنني وحدي من كان يعاني مثل هذه الآلام .. فغيري كثير مر بمثل ظروفي .. ولكن أتصور أن أكثرهم ينسى مثل هذه الصور .. لم تر الحزن والبؤس في وجوهنا عندما يأتي العيد والأعياد.. الكل فرح ومبتهج إلا نحن في ضيق وألم .. وعندما نعود للمدرسة ويتحدث الأغنياء عن الرحلات والملابس وقصات الشعر وأفلام السينما التي تمتعوا بمشاهدتها وحدائق الحيوان التي زاروها .. والملاهي التي لعبوا فيها .. كم من الألم يحدث لنا! هذه حالنا يا سيدي.. أتريد مني أن أصاحب البنات وأسهر مع البنات.. وأسافر معهن؟! .. ولدنا فقراء فعرفنا قيمة القرش والدرهم ..هؤلاء

الفقراء عندما يذهب المعيل الوحيد لهم بموت أو مرض يضطرون لأكل وجبة واحدة دسمة في الشهر أو في عيد الأضحى .. ويرتدون الثياب العتيقة .. وبعض الأقران يدرسون في مدارس أهلية يذهبون في الحافلة ويعودون بها .

ـ عقدت الأمور يا شريف .. فهذه الأحوال يجب أن تدفعك لتغيير نمط حياتك .. وتتطلع إلى الغنى بعين جدية .. حتى لا يكرر أولادك مأساتك ..

ـ إنها ترسبات مريرة !.. وهي قد تكون دافعة للخروج من هذا الألم والجرح .. ونحتاج لسنين وسنين وليس ساعات وساعات .. يا عزمي كم كنا نصاب بالقلق والخوف عندما يتأخر المبلغ البسيط الذي تقدمه لنا الجمعيات !.. الدواء.. مصروف الشهر ..الحمد لله .. الحمد لله .. الحسرات لا تذهب من النفس .. عندما تنقل الوالد المشلول للمستشفى .. وأنت لا مال عندك .. مع أنه مبلغ بسيط تأخذه تلك المستشفيات التابعة للحكومة والدولة .. ولكنه كبير لدى المعدوم .. تستلف من هذا أو ذاك ..كم فرحت وسعدت عندما أخرجت بطاقة العلاج الطبي من القوات المسلحة ! وحملنا الوالد الصابر للمستشفى العسكري ، ولكن صدمنا بعد الكشف عليه ..أخبرونا أن الوقت قد فات وأن العلاج قد تأخر .. ذهب الأمل والفرح .. لو تم علاجه في مستشفيات وعناية خاصة قبل اليوم ربما تخلص من المشي على عجلة .. أرأيت يا صديقي مأساة الفقير في بلادنا ؟! .. وليت المأساة انتهت هنا يا أخ عزمي ..

ـ أهناك مأساة أخرى ؟!

ـ لي أخ أكبر مني بسنة ، كان ضعيفا في المدرسة ، يكره المدرسة والتعليم .. وكان يتكرر رسوبه في الفصول .. ولما حدثت مصيبة أبي أخذ يضغط علينا لترك المدرسة ويدعي أنه سيعمل من أجلنا .. وبعد تردد وصبر سمحنا له بترك المدرسة والعمل في سوق العمل الحر.. شاب صغير تملك بعض القروش ففسد وانحرف وضل الطريق فصار عبئا آخر على الأسرة ولكنه منذ فترة قبل تخرجنا من الكلية تعلم السواقة وهاجر للعاصمة وما زلنا نعاني من مشاكله ومتاعبه ..كلي ألم يا عزمي!

ـ مع احترامي لحكايتك وظروفك .. فهذا لا يمنعك أن تبحث عن حياتك الخاصة.. لماذا تدفع الثمن وحدك ؟

قال : أنا لم أدفع شيئا يستحق المكافأة .. لكن وظيفتي في الجيش ردت الكرامة لي وللأسرة ردت الشرف إلينا.. رفعت من الروح المعنوية لي أنا أولا ثم لأبي وأمي .. كل الناس أو أغلب الناس تعمل عند الناس .. وعمل عن آخر يفرق .. تعمل وأنت عزيز خير من أن تعمل وأنت ذليل .. أتريد مني أن أترك بيتي وأسرتي وظروفي لأسايركم في سياراتكم ونزهاتكم ؟! .. المال الذي سأنفقه على هذه الأشياء تحتاجه الأسرة .. ألا تحتاج هذه الأشياء لمال؟.. أنت تأخذ من أسرتك .. وكذلك فواز لا أحد يطالبكم بفلس .. مالك لك .. أما مالي فلي فيه شركاء حتى لو لم يطلبوا بأفواههم ..

ـ الحمد لله إن الكثير من الناس لا تفكر مثلك وإلا أغلقت الملاهي والمقاهي والخمارات و... و ...

ـ هذه حالتي .. فأخي قسيم الذي حدثتك عنه قبل قليل لم يحسبها هكذا .. ولم يفد الأسرة بقرش .. بل كان يسرق أحيانا أموال المساعدات التي كانت تقدم لنا .. وعمل سائقا ولم يفعل شيئا للأسرة .. ما زال عبئا علينا .. وإن خف هذا بعد رحيله للعاصمة شين ..الناس تتفاوت في الأمور المعنوية .. ها أنتم كما قلت لي تسمحون لبناتكم بمصاحبة الشباب والمعارف في الجامعة أو الحي ولا يثير ذلك فيكم الغيرة والحمية .. نحن في بعض مناطقنا نسمع عن جرائم العرض .. هذا قتل أخته أو أمه ..

ـ نتعجب عندما نسمع عن إزهاق روح بريئة لأمر تافه

ـ في نظركم .. أما عندهم فهو كرامة وشرف ورفع عار .. لأن الموضوع يؤثر على الجميع .. العائلة كلها .. أما في بيئتكم فيكون التأثير على الفتاة وحدها .. فلا يخجل أحدكم عندما يقابل أناسا تعرف حكايته .. أما في أحيائنا .. فالأمر قاس وعار وسبة..

ـ رغم أننا أبناء قطر واحد .. نظرتنا للأمور مختلفة .. نحن أنا وفواز رأينا أنك بحاجة

للتمدن والتحدث وترك الانطواء والحزن .. والعيش بحرية وانفتاح ومرح

ـ شعور نبيل أشكركم عليه .. كيف أنسى آلام أمي وهي تعمل في بيوت الموسرين في مدينة البركة من أجل إطعامنا من أجل أن توسع علينا بمزيد من الرفاهية والطعام ؟ .. تنظف بيوتهم ومراحيضهم ومطابخهم .. وتغسل مواعينهم وملابسهم ..وقد يتلف هؤلاء من الطعام الكثير ، ويلقى في حاويات ومزابل البلديات .. وقد يذهب بعضه للحيوانات .. أخي عزمي فلنبق أصدقاء وزملاء ودعنا من النساء .

ـ أنا أشعر معك في ظلم المجتمع لكم .. وأنه لم يقدم لكم العون الكافي .. ولكن هذا طبع الحياة .. والفقر ليس عيبا ؛ ولكن الغنى أجمل وأحسن في رأيي .. والغني قد يصاب ببلية لا ينتفع مما لديه من مال .. فيمنع من طعام معين من سفر ..هذه حياة وهبها الله لكل الخلق .. فعليك أن تمنح نفسك فرصة التمتع والتكيف مع حياتك الجديدة .. لا تنظر للوراء والفقراء فلن تخلو الدنيا منهم .. أنت ضابط مهندس دخلك ممتاز .. ولا تظن أن ملكنا للمال الكثير يعني أننا سعداء ولا مشاكل .. لا يخلو أحد من منغصات ومنكدات ومنازعات .. لكننا نحب الحياة ونسهر ونسكر ونلهو ونحب ونكره .. يجب أن نعيش ونرمي الماضي وراء ظهورنا

وصمت لحظات ثم عاد للكلام فقال : قد يكون صحيح أنني غني بثروة أبي وأمي .. أنا أعترف أن والدي كان يملك أربعة مصانع في البلاد ، ولكنه تعلق بالميسر ولعب القمار فخسرها كلها ثم انتحر في النهاية .. ولولا أموال أمي التي لم يستطع الوصول إليها لبتنا على الطوى كما يقال .. هكذا الحياة يا شريف .. وأنا وصلت الكلية العسكرية بواسطة والد فواز فبينه وبين أمي بعض القرابة .. ولكني أعيش حياتي وأصاحب الفتيات .. ولا أخشاهنّ .. وأتعامل معهنّ كما أتعامل معك ومع فواز .. والأخت عبير سمعت منا طرفا من حياتك البائسة في نظرنا.. فألحت على فواز أن يعرفك بها لتقوم بتغييرك .. وتنقلك من مجتمع الكآبة إلى مجتمع الفرح والسعادة .

قال شريف معقبا: كلام عجيب !.. النساء فتنة .. وأنا أسمع الكثير من المآسي بسببهن .. وشارعنا لا يخلو من الفتيات .. ولا يخلو من المنحرفات والساقطات .. وكثيرا ما نسمع عن قصة زواج غريبة .. وحكاية عشق غريبة ..ولكني وضعت لنفسي هدفا .. تعويض والديّ عما أصابهما بسبب فقرنا .. والبعد عن النساء وقضاياهن .. ليس حقدا على جنس النساء .. وإنني لن أتزوج في يوم ما .. لا ..لا .. سوف أتزوج بهدوء بدون صخب.. فأنا أحب الحياة الجادة والهادئة.

ـ لا غنى لنا عن صحبة النساء والسمر معهن والتمتع بالنظر لعيونهن وخدودهن وشعورهن ومحاسنهن بشكل عام .. والسرور بمغامراتهن .

ـ هذا عندنا حرام .

ـ وعندنا حلال !

ـ أخلاقنا لا تسمح بذلك .. فاعتذر لي للأخت عبير.. وحدثها ببعض ما سمعت مني عن نفسي وأسرتي ..وليس فعلي هذا عن بخل .. فأنا لا أسمح لنفسي بصرف قرش في غير محله الذي أراه صوابا يا صاحبي .. أمي وأبي أبدى فيه .. أنت لو ترى البيت الذي اسكنه الآن لعذرتني .. بل تعرفه لقد دعوتكم مرة إليه أثناء الكلية .

ـ ألم ترحلوا بعد ؟!.. سمعت مرة أنك سترحل عن الحي .

ـ نعم ، سوف نرحل بإذن الله .. قريبا سأشتري قطعة أرض للبناء عليها



٨

رغم كل التبريرات والاعتذارات والحجج التي بينها شريف لزميليه فواز وعزمي كانت عبير تصر على الحديث معه ، وتسعى إلى اللقاء به ، وتكوين علاقة صداقة معه كما تزعم ، فقال له فواز يوما: يا رجل جننتني عبير بكثرة السؤال عنك .. وعن أخبارك .. ولماذا تتهرب من اللقاء بها ؟..وهي تترجاك أن تزورنا في البيت .. لن تذهب بك إلى حديقة أو فلم أو مسرح .. مجرد لقاء من أجل الحوار .. يا سيدي أرجوك أن تجلس معها وتقنعها بأحوالك وظروفك وكفاحك .. لتكف عن إزعاجي أنا وعزمي .. تتهمنا بأننا نحن الذين نحول بين اجتماعكم .. تقول لك " إنها أخت ترغب بالحديث مع أخيها " .. أنا أدرك غرابة هذا الطلب عندك .. ولكنه بالنسبة لي شيء طبيعي يا شريف .

ـ هذا غير معقول يا فواز .. أرجوك أن تمنعها وتبعدها عني .. فهي تكثر من الاتصال بمأمور الاتصال سائلة عني وعن صحتي .. هذا أمر محرج لي ولك .

ـ أتوسل إليك أيها الصديق .. أن تلتقي بها وجها لوجه مرة واحدة ؛ لعلها تصدق حججك وأعذارك .. حوار ساعة تنهي فيه الموضوع .. فعندما تسمع منك تصدق أنك مرعوب من لقاء النساء ..سأدعوك في يوم عطلة لغداء ..وستتكلم كلنا جميعا لن تخلو بها ما دام الاختلاء من وجهة نظرك حرام ولا يجوز ..فأخشى أن تأتي لزيارتك هنا وتسبب لك حرجا كبيرا ..

فقال شريف وهو يتخيل فعل هذا الأمر : لا أستغرب فعلها ذلك !

ـ إذن قابلها بالحسنى .. وبين لها أنك لا تحب التعرف على الجنس الثاني .. وأن أمامك مسؤوليات كبيرة هي التي لا تسمح لك بمثل هذه الصداقات البريئة .

ـ عندي فكرة !!

قال فواز : هذا ما أحلم به .. قلها يا رجل !

خطرت لشريف فكرة عجيبة قد تكف الفتاة عن ملاحقته ومطاردته بغض النظر عن النوايا فقال : ما رأيك بأن أدعوك وأختك الفاضلة لزيارة بيتنا وتقابلان أمي وأبي .. لتر الآنسة بيتنا

وحياتنا على الواقع ؟

ـ إنها قسوة منك يا شريف !.. أتريد أن تصدمها ؟!

تبسم شريف وقال : أريد أن تعرف مجتمعنا وبيتنا وظروفنا .. فالأخ عزمي يعرف البيت .. قد زار مرة البركة فدعوته وشارك الأسرة طعام العشاء ..وإذا وافق هو أيضا على هذه الدعوة فحياه الله .

ـ وإذا رفضت ؟

ـ آمل أن لا ترفض ما دامت تسعى للقائي .. فهي راغبة بمعرفة أسباب تهربي من الرد على اتصالاتها .. والتهرب من أي لقاء بها.

ـ حسنا ، سأنقل لها هذه الدعوة .. لأنني مللت منك ومنها .. مصممة على تغييرك وجعلك " جنتلمان ".. حقيقة أنا كنت أرى أنك سهل لين .. ولما تتخلص من عقدة الفقر ..ستتلحلح يا شريف .. وترى أنها فرصة للاندماج في المجتمع الراقي .. لننتظر ما يحدث على الطبيعة .. وكيف ستكف عبير عن محاولة إخراجك من القاع إلى القمة ؟!

ـ أي قمة يا رجل ؟! .. عندما ترانا على الواقع والحقيقة ، وترى أمي التي صبرت وجاهدت حتى كبرنا ، وأصبحنا شبابا سترى أن ابتعادي عنهم لا يمكن .. بل هو المستحيل نفسه .. ولا وقت لدي للسهر والسمر والنزهات ..أفضل ساعات اليوم هي التي أقضيها بقرب أبي وأمي

ـ ما شاء الله !.. وفاء وحب كبير .. من يسمعك يظن أن عبير ستتزوجك وتأخذك من حضنهما ..مع أني أتمنى من كل قلبي أن تتزوج عبير من شاب محترم مثلك .. نحن بناتنا تنكح من أجل ثروة أبي يا شريف .. كل أزواج أخواتي تزوجوهن على طمع ورغبة في المزيد من المال ؛ ولكن هذه طبيعة بيئتنا كما يقال .

ـ وأنا أشرف بالزواج من بيتكم يا فواز !.. ولكن كما قلت الفارق الطبقي يقف حجر عثرة بيننا .

هز فواز رأسه وقال : نعم ، عند الزواج الأمر يتعقد ، فليس من السهل أن يوافق أبي على زواج

آخر بناته من رجل ماله قليل ..مع الاحترام الكامل لك أيها الأخ .

ـ تعجبني صراحتك يا فواز !.. ولكن كيف يسمح والدك لأختك باتخاذ أصدقاء ذكور لها؟!

ضحك فواز طويلا ثم قال : أنا أعرف أنك تستغرب جدا من هذا الانفتاح والاختلاط .. هو عرف اعتادوا عليه أو تربوا عليه وربينا عليه .. فهو يسمح لنفسه بالجلوس مع نساء وبنات الآخرين ، فلابد أن يسمح لنا ولأخواتنا بذلك .. المعاملة بالمثل ، ومع الأيام سادت هذه الأعراف .. أما الزواج ففيه مال ومطالبات ومصالح ومشاريع .. فالزوج أو الزوجة يجب أن يكون صاحب مال أو صاحبة مال .. للتجارة والعمل وللهو .. أحيانا تقام حفلة ينفق فيها المال الكثير الكثير ..أنت لا تعرف المباهج والسمر والملاهي .

ـ هذا من فضل ربي .. فقد تركت السمر لأخي الأكبر قسيم .. فقد تعرض لاعتداء بالسكاكين منذ حين .. ولما ذهبنا لزيارته والاطمئنان عليه طردنا ، ولم يعد يتصل بنا .. هذه إحدى فوائد السمر والسهر !

٩

ـ يا الهي! إنه بيت يكاد أن يسقط .. لا أعلم كيف يعيش فيه صاحبك ؟! .. هل ما زال في بلادنا ناس يسكنون مثل هذه البيوت الآيلة للسقوط ؟!

بهذا الاستغراب كانت عبير تحدث أخاها فوازا وعزميا ، وهم منصرفون من بيت صديق فواز المهندس شريف ، وأدرك الشابان أن الرسالة التي أرادها شريف قد وصلت لعبير ، فقال فواز وهو يتطلع في عيني عزمي ومخفيا ابتسامة : كل هذا الحي ..أو هذا الشارع على هذه الصورة يا عبير .. قوم بؤساء مساكين !

وقال عزمي تحزنا : نعم ، حياة صعبة وبيوت ضيقة ؛ ولكنهم يعيشون .

فعادت الفتاة تقول ربما بألم حقيقي : ألا تساعدهم الحكومات المتعاقبة ؟! ..ألا يمدون لهم يد العون ؟!

فقال فواز : تقدم لهم الدولة مساعدات يسيرة .. فمؤسسات التكافل موجودة .. ولكنه فتات

هذه البيوت كلها تحتاج إلى هدم وإعادة بناء أو ترحيل لمكان آخر .. وهذا يحتاج لأموال ضخمة .

وقال عزمي مكملا : هذا مشروع وطني يحتاج لجهد كل البلد ؛ ولكن من يقرع الجرس؟ .. فمثل هذه الأحياء تنشأ في أغلب المدن الصناعية .. أناس يتركون قراهم وأريافهم للعمل في المدن الصناعية وحولها ..وهنا تجد الإيجارات قليلة .. وأثمان المنازل أيضا قليلة .. فتتكون مثل هذه الأحياء فتضطر الدولة أو البلديات لتقديم الخدمات لهم من ماء وكهرباء وصرف صحي فقالت عبير بأسف وعتب : على الحكومة أن تهتم بهؤلاء الناس .. عندما أسمع أو كما قرأت منذ فترة عن سقوط بيت على أهله .. فأستغرب وأعتقد أن خللا في الإنشاء سبب ذلك .. أما مع هذه البيوت .. فسقوطها من الزمن .. إنه لشيء محزن أن يوجد مثل هذه الأحياء في البلاد ونحن نسمع أن الثري فلان خسر ملايين على طاولة خضراء في جلسة واحدة .

فقال فواز : هذا هو قصر صديقنا الأخ شريف !

فقالت : هذا يؤكد فعلا أنه بحاجة لإنقاذ ومساعدة .

قال فواز ساخرا : إنقاذ !

قالت : سأتكلم مع أبي ؛ لعله يقدم له قرضا يعينه على شراء بيت أحسن من هذا .

فقال عزمي : هو يفكر بشراء قطعة أرض .. ليبني عليها شقة .

قالت بضيق : يحتاج لسنين قبل أن يخرج من هذا المنزل الكئيب .. لابد من عمل شيء مهم من أجله .. ما دمنا تعرفنا عليه.. وهو زميل لكم منذ سنوات ..

فقال عزمي : يا عبير الأفضل أن تلزمي حدودك .. وحذار من فعل شيء لشريف ، فهو إنسان عصامي مكافح لن يقبل منا أي مساعدة مالية أو غير مالية.. هو لما قبل في الجيش فبعد أول راتب ذهب إلى الجمعيات الخيرية التي كانت تمدهم بالعون وشكرهم واستغنى عن مساعدتهم التي كانت شيئا يسيرا .

قالت : وضعهم محزن .. قلبي تمزق .. لم استسغ طعامهم مما ألم بي من الألم

قال فواز منتقدا : تصرفك هذا ضايقني ..كان عليك أن تراعي الشاب .. وتتظاهرين بالأكل وكيف تزعمين الشبع وأنت مدعوة لغداء ؟!

ـ لم انتبه لذلك إلا بعد انسحابي ونظرتك الحادة إليّ .. وما كان بالإمكان العودة للمائدة بعد أن أعلنت شبعي ..ومع ذلك علينا أن نحاول فعل أي شيء لصديقنا .

فضحك فواز على إصرار أخته بمساعدة شريف فقال : بماذا يا عبير؟! .. دعك من شريف وصداقة شريف ومساعدة شريف .. أنا استعنت بك وبأفكارك لنفتح له الطريق إلى عالم الأغنياء ومجالسهم .

صاحت : لابد من رد الدعوة كما دعاني سوف ادعوه .

قال فواز بحدة : هو دعاك لتكفي عنه .. وترينّ ظروفه على حقيقتها ، وأنه ليس لديه وقت للهو والسهر .

ـ أترضى لي الفشل ؟.

قال فواز : شريف عنيد .. وكرامته زائدة عن كرامات الناس ..

وحساس من جهة ثانية إلى آخر مثل هذه المصطلحات الفارغة .. حتى أنا أفكر بالابتعاد عنه وأنتقل إلى وحدة عسكرية أخرى .. فهو رجل صحبته مزعجة .. ومثيرة .

فقال عزمي : ولكنه مجتهد .. وكل الضباط يحبونه ويحترمون إخلاصه ونشاطه .

فعاد فواز يقول : أنا أشفقت عليه .. وقلت لو احتك معنا في بيئتنا وحياتنا سيتغير ويصبح ابن مدينة بحق .. ويبتعد عن الانطواء والانكفاء .. وهو زميل منذ أيام الدراسة الأولى .

قالت الفتاة : لم نصل محطة اليأس منه .. فالانتقال من جو إلى جو يحتاج إلى وقت .. ليس كل الناس يتغيرون بكلمة وبسرعة الصاروخ .. رويدا رويدا .. بعضهم يحتاج لسنوات ليتخلص من فكرة ثبت خطئها وانتهاء زمنها .

فقال فواز : أنا آسف .. سأرفع يدي من هذه المهمة .. وها هو عزمي معك في الركض لإنقاذ الرجل .. حقيقة أنني أشعر بالندم لذكره لك لسماع مشورتك .. أنا بعد هذه الزيارة والدعوة

لبيته رفعت يدي يا عبير .. أرجوك أن تفكري بالأمر بجدية .. والأيام وقيم المجتمع التي ستجد عليه لعلها تغيره ..وإذا رأينا تعديلا في أفكاره وأفعاله سنفتح له صدورنا.. فعلنا نحوه المناسب وهو ينفر ويفر .. نحن لن نأخذ منه شيئا .. وهو يرفض مساعدتنا .

قالت بغضب خفيف : أنت اخرج من الملعب .. سأدبر نفسي معه .. ولسوف تراه يجالسك ويسامرك في أكبر ملهى ليلي في بلادنا .. وسيكون أحد أفراد سهراتنا .

فقال عزمي : الأخت عبير ليست سهلة .. فقد ورطتها مع شريف يا ملازم فواز.



١٠

شريف ياسر يريد البعد عن عبير ، ولا يحب ولا يرغب بمثل هذا الانفتاح الاجتماعي ، فلم يكن يرى من الأخلاق الحسنة مصاحبة الفتيات ، وكان يعرف واجبه نحو والديه حق المعرفة ، ويرى أهمية القرش من أجل نفسه وأجل أسرته .. وكان يدرك إدراكا تاما البون الواسع بينه وبين أسرة فواز وعبير، هم أصحاب مال وشركات وتجارات ، وهو إنسان ضعيف الحال ، ويحتاج إلى زمن ليصبح منافسا لهؤلاء الناس ، وقد فكر حتى ولو غامر وتزوج منهم فسيبقى العنصر الضعيف في مجتمعهم ، ولن يتخلص من همساتهم وجرحهم لكرامته وعرضه .. فسيعتبرونه متسلقا ومستغلا لعواطف ابنتهم اتجاهه .. فكان يرى الأسلم الابتعاد عن مثل هكذا مجتمعات .. ويخشى من سوء تصرفهم إزاء والديه .. فرأى بزيارة عبير لبيت الأسرة ومعرفة وضعه الاجتماعي على حقيقته ، وحاجة أسرته للبقاء معها بأن يصرف الفتاة عن طريقه ودربه ، وأن تبقى علاقته بفواز علاقة زملاء عمل .

هذا ما كان يأمله الأخ شريف من هذه الدعوة وتلك الزيارة لبيت الأسرة ، ولكن هل وصلت الرسالة لعبير وقطعت الأمل من زيادة معرفة بشريف ؟!

والأخ شريف كان لا يرتاح كثيرا لصحبة فواز وعزمي ، لولا حياة
الكلية أيام الدراسة التي جمعتهم لانتهوا من حياته ، وكذلك عملهم في وحدة عسكرية واحدة فهو لم يكن يعجبه الكثير من أفعالهم الخاصة ، وكان يرى من مسايرتهم أنه لن يجني منهم إلا الشوك أو الحصرم .. فهذه بيئة كرهها من كثرة ما علق في ذهنه من انحلالها ، وضعف غيرتها وتهاونها في المحرمات ومحاكاتهم الغرب في الشهوات والملذات والتشبه .. فمنذ عرف فوازا وعزميا وهو يراهم يتهاونون في أمور الدين ، لا يعرفون الصلاة .. ولا يصومون ، ولا يتظاهرون بالصيام ، بل يجاهرون بالفطر ، وتعاطي التبغ جهارا في نهار الصوم .. ويلحظ استهزاءهم بالمتدينين وبالدين كلما يتاح لهم المجال .. فجل حديثهم عن النجوم في السينما والرياضة وسباق السيارات وإلقاء النكت والسخرية من خلق الله .. وحول المال والأثرياء في

البلد والعالم .. والمال فتنة.. وربما دمار وهلكة على من لا يعرف إدارته والاستفادة منه .. فحياتهم صاخبة بين الموسيقى وشبه الإباحية ، ويتحدثون عن الزنا بكل أريحية وبساطة .. وليس بأنه جريمة واعتداء على أعراض المسلمات .

فلما غادر ضيوفه البيت تنفس الصعداء ، وكأن جبلا أزيح عن كاهله ، فقالت له أمه فجأة : أترغب بالزواج منها يا شريف ؟!

تطلع الشاب في عيني أمه لحظات وقال :أتزوج من يا أمي ؟!

ـ إنها جميلة !!

أخذه الضحك لحظات حتى التفت إليه والده وقال : مالكم ؟

فرفع شريف صوته وقال باسما : اسمع يا أبي ! ماذا تقول أمي ؟ تسألني هل أرغب بالزواج من ضيفتنا أخت فواز ؟ الأخت عبير .

فقال الأب : والله يا ولدي إنها فتاة حلوة ولطيفة !

ـ حتى أنت يا أبي ! ..لا يا ناس ..ءأنا أتزوج من امرأة كهذه ؟ .. إنها كارثة !!

صاحت الأم دهشة : كارثة !.. لماذا يا رجل ؟!.. جمال.. ومال .. وأخت أصحابك.

فقال : هذه يا أمي تحتاج كل يوم لثوب أو اثنين .. كل سنة سيارة جديدة .. سهرات في نوادي الطبقة الثرية ..خادمة أو أكثر في البيت .. يا أمي نحن ناس على قد الحال .. هذه أبوها مليونير

تبسمت الأم أو كأنها حالمة : ماله ! تصير مثلهم يا ولدي الغالي .. سيارة .. دار .. خدم .. بستان .. وهي عروس حلوة .

قهقهة الشاب وقال : أنا جئت بها لهنا لهذه الدار بالذات حتى تعرف من أنا ومن نحن وتبتعد عن طريقي .. كان باستطاعتي دعوتهم لمطعم فخم .. هذه امرأة لا تصلح لي يا أمي .. وقال بصوت هامس لا يسمعه والده " لو أصابني مكروه يوما لأرسلت لي ورقة الطلاق " ..

وعاد رافعا صوته : المرأة ركن مهم في البيت .. فهي عماد التربية والوفاء.. لولاك يا أماه ما حل بنا أنا وأبي وقسيم.. لربما ضعنا.

فقال ياسر : هذا من رحمة الله علينا يا شريف .. بارك الله فيك كنت نعم الابن .. وعلى ذكر قسيم هل تكلم معك ؟

وقالت حسنة : فعلا هل تحدث معك منذ ذاك الحادث ؟!

ـ يتكلم معي ؟! .. أنا منذ دخلت الكلية العسكرية لم يتصل بي ولو نص تلفون .. ومنذ ذهبت للجمعية وطلبت منهم إيقاف المساعدة ، ودعم من هم أحوج منا بها وهو لا يطيق رد السلام عليّ .. هداه الله ـ يا أمي ـ وأصلحه الله .. اسألي عنه أبناء أعمامنا الذين يعملون في المدينة شين .

١١

عندما كانت تدعى أسرة ياسر للمشاركة في مناسبة فرح أو عزاء يذهب شريف إليها تصحبه أمه للقيام بواجب المجاملة الاجتماعي نحو أقاربه وجيرانه ، كان في الحي عرس دعيت إليه أسرة ياسر، وكالعادة أخذ شريف أمه إلى دار العرس ، فتمشي الأم حيث تجتمع النساء يغنين ويفرحن ، وتشارك النساء فرحهن واحتفالهن سواء كان العرس لذكر أم أنثى ، وأما شريف فيمشى بدوره إلى الخيمة الكبيرة التي ينصبها أهل العرس للرجال يستمعون فيها للغناء الشعبي ويشربون القهوة والشاي والمثلجات ، وفي نفس الوقت يأخذ الضيوف المتجاورون باستماع أخبار وأحوال بعضهم البعض ، فأهل المدن أغلب لقاءاتهم الاجتماعية تكون في المناسبات الاجتماعية لانشغالهم بوظائفهم وأعمالهم ، فكان شريف يتحدث تارة مع الذي عن يمينه ، وتارة أخرى مع الذي عن يساره ، وربما تحدث القوم بآخر الأخبار السياسية أو غلاء الأسعار لسلع معينة ، وفي تلك السهرة جاءت جلسته بقرب أحد أقاربه ، ولما تحول شريف للحديث مع هذا القريب سأله : يا شريف .. ألم تتصالحوا مع قسيم ؟

تأمل شريف عيني الرجل الكبير لثوان وقال : يا عم لحتى الآن لم نتصالح معه فهو حردان علينا .. عامل زعلان .

ـ هذا ما سمعته من ابني همام أيضا.. فهو كما تعرف يشتغل في العاصمة ، ويلتقي به أحيانا في

المقاهي والأسواق .. قال ابني لي: إنه التقى به مرة أثناء ركوبه معه في سيارته ، ولما سأله عنكم قال له " لي أشهر لم أرهم ، فهم محاربونني "

تبسم شريف وقال : أنت تعرفنا يا أبا همام ! ونحن لسنا سوى اثنين .. ولسنا متحاربين .. فهذا غير صحيح .. بل بالعكس نحن اليوم نسعى لتزويجه ؛ ولكنه يرفض أن يتزوج عن طريق أمه .. وأنا أكثر وقتي في الجيش والمعسكر .. وإذا كان ابنك همام عزيزا عليه فليحثه على المجيء لزيارة أبيه وأمه .. ولا داعي لكل هذا التشويه والإشاعات لسمعة أهله .. عامل نفسه مظلوم وضحية .

فقال الرجل : فعلا لازم أن يتزوج قسيم يا شريف.. ولما يكون له زوجة لابد أن يلتزم بحق البيت .

ـ ساعدونا في تحقيق ذلك يا أبا همام .. سندع له بيتنا هذا ، ونرحل حتى لا يدفع إيجار سكن بس يقوم بواجباته نحو أسرته .. اسعَ في ذلك يا عم وليقم همام بهذا الأمر ما دام يلتقي بقسيم ويقابله في شوارع العاصمة

ـ سأهتم بذلك .. سأحاول التدخل في شأنكم ، وأسعى في الصلح بينكم .

ـ وأنا أكون ممنونا لك ولشفاعتك.

ـ لا شكر على واجب .. أنتم ناس طيبون .. وأبوك رجل صابر .. والبلاء من الله .. ولابد من الرضا والصبر على قضاء الله وقدره .. وأنتم من الراضين والصابرين .. ولا ينكر صبركم إلا جاهل .. وأنت ابن مبارك يا شريف .

ـ بارك الله فيك يا عم .

ثم تغير الموضوع شرقا وغربا ، ثم استأذن شريف بالانصراف ممن حوله ، ومن أهل العرس ، وكان قد أرسل طفلا يخبر أمه برغبته بالانصراف وبانتهاء المجاملة لجيرانهم وأهليهم .



تلقى شريف رسالة من عبير تحثه في خطابها بالنظر إلى المجتمع نظرة تفاؤلية أكثر مما هو عليه

الآن .. وتطلب منه أن يغير من طباعه وتقوقعه في حارته .. وعليه أن ينطلق للحياة الأرحب والأوسع ، وأن يوسع من دائرة معارفه ، ويتغلغل في طبقات وفئات المجتمع ، وتتمنى له أفضل الأوقات والسعادة .

وبالطبع هو لم يتأثر بهذا الكلام ، وهذه النصائح ، واعتبرها من الكلام الفارغ ، وأنها دعوة للانحلال ، ونبذ القيم الصحيحة والعادات الحسنة .

وبعد حين جاءته رسالة ثانية تدعوه فيها لمقابلتها مع بعض صديقاتها لتطارح الأفكار وتبادل الخواطر ، وأنها تتيح له فرصة للتعرف على الجنس اللطيف ؛ ليتعلم المزح ومخاطبة الجنس الآخر .

فكان الشاب وهو يقرأ أفكار عبير يستغرب لهذه السخافات ، وهذه الأفكار، وهذه الجرأة التي تصدر منها ، ويعتبرها من قلة الحياء والأدب ، ويتعجب من وجود بنات بهذه الأفكار والأحلام ، ويرى الانحدار الصاعق التي هوت به فتيات الأمة .

وقد لاحظ منذ تلك الدعوة الخاصة لبيته اختفاء فواز من حياته رويدا رويدا ، ولم يعد يسمع منه أحاديث الانفتاح والتطور والسهرات والمتع والكيف والمستقبل ، والسيد عزمي بدوره أخذ يبتعد عنه أيضا، وإذا التقيا في مناوبة أو في ظرف ما كان حديثهم حول العمل والمناورات العسكرية والمشاكل العسكرية والتسليح والتدريب .. وتمنى لو فعلت عبير مثلهم ..واختفت من حياته .

وخطرت لشريف فكرة الانتقال لوحدة عسكرية أخرى ، قد ضاق ذرعا بمراسلات عبير السخيفة ، وحتى من رؤية فواز وعزمي ، ويحس أيضا أنهم يضيقون منه ، وأن زمالة الكلية العسكرية قد تلاشت وهزلت .. لذلك فلما أعلن عن عقد دورة خاصة في اللياقة والأمن كان أول المنتسبين لها ، ومدة ووقت هذه الدورة شهران ، ومكان تدريب هذه الدورة يكون الصحراء ، لا إجازات فيها ، وفيها انقطاع عن العالم .. لا رسائل لا استقبالات ولا اتصال بالأهل والأولاد والزوجات إلا سماع خبر وفاة أحد الوالدين أو الأبناء والزوجات هو الذي

يسمح به.

استمتع شريف بهذه الدورة العسكرية المهمة ، رغم القسوة في التدريبات ، ساعات ركض كثيرة وطويلة، وتسلق جبال وتلال ، وأحس أثناءها براحة كبيرة رغم قسوتها ، وشعر بأنه تخلص نهائيا من عبير وفواز وعزمي ، وكلما لاح فكره نحوهم كان يستغرب من برودة فواز نحو أخته وعدم غيرته عليها ، ويتهاون في حديثه عنها معه أو مع غيره .. ويتساءل: هل سأصل ليوم أسمح لأمي أو زوجتي أو حتى ابنتي لتحتك بالرجال بدون ضوابط ؟! إنه ليوم عسير .

فواز كما عرفنا أحب شريفا منذ أن درسا معا في كلية الجيش ، وأحس بحزن لحياة صديقه البائسة ، وفكر بنقل أفكاره وعاداته للسيد شريف ، وظن أنه إذا تحسن دخله المادي ، وأصبح ضابطا سيتغير وينتقل من مجتمعه وفقره إلى حياة الانبساط والحفلات الصاخبة ، ولكنه قد تفاجأ بعناد شريف وهربه من مثل هذه المناسبات والسهرات التي يراها مهوى كل شاب من سنه ، ورأى أن أخته التي تعاونت معه قد فشلت فشلا ذريعا بجلب شريف لحياتهم ، وأنه لم يتغير ، بل ينظر لعبير نظرة احتقار، وأنها بائعة هوى ، فانسحب من حياته كما أشرنا لذلك سابقا ، ولكن الذي لم يتأمله شريف جيدا وكان يستغربه ، أن الرجل هكذا تربى ، تربى ألا يغار على لقاء أمه وصحبتها لغير زوجها .. وسهرها مع من شاءت من الرجال .. وهكذا رأى إخوته الأكبر منه وأخواته .. تصاحب هذا يوما والآخر يوما ..وعليه أن لا يتدخل في مشاكل أحد إذا لم يلجأ إليه ويطلب مساعدته .. فأصبح هذا طبعا والنظر إليه ببرود وأمر لا يعنيه .

فشريف فشل في الانتقال إلى بيئة فواز ، وأنه استساغ حياة الابتعاد عن النساء والاختلاط في السهرات والمعارف .. وأنه كما يزعم فواز يعيش في مأساته التي ستقضي عليه ويبقى في قاع المجتمع .

وعزمي يتحرك بتحرك فواز ومشاورته ، فلما شاهد قريبه يبتعد عن الالتقاء بشريف ويتجنبه ، ويعمل معه في حدود الرسميات .. هو الآخر أخذ يبتعد رويدا رويدا حتى لا يظهر لشريف

أنه مسير وتابع لفواز .. وأنه لمستقل في القرار والحركة .

فهو لم يقطع علاقته بشريف قطعا تاما ، وكلما حاولت الآنسة عبير الحديث معهما عن شريف طلبا منها أن تنساه ولا تفكر به في خيالها ، فأدركت أنهما ناقمان وغاضبان من شريف ويئسا من دمجه في حياتهما .

حاولت بالرسائل المتكررة ، ولكن الرجل لم يرد على أي رسالة ؛ كأنه لا يقرأها ، ولم يحاول مناقشتها في أي فكرة طرحت في هذه الرسائل .



١٢

لما قضى الملازم شريف دورة اللياقة والحماية أعطي إجازة ثلاثة أيام ، وقد قضى ستين يوما لم ير فيها أسرته ، فكان في شوق كبير لهم ، وانتهى من عناقهما، وتناول الغداء الذي أعدته أمه وهو يكاد يطير من السعادة برؤيتهما والجلوس معهما ، وكان يشعر بسعادة غامرة بهما ، وهما كانا كذلك يبادلونه نفس العاطفة الدافئة والمشاعر الرقيقة ، فهذه أول مرة في حياته يغيب عنهما كل هذه المدة ، ولكنه تفاجأ في آخر النهار بأن الآنسة عبير قد زارتهم وقدمت لهم بعض الهدايا من الطعام المعلب والثياب الداخلية ، فأصابه الوجوم والضيق والانزعاج فقال معاتبا لأمه : كيف قبلت ذلك يا أماه ؟!

ـ فاجأتني بهذا يا شريف !.. ولم أدر إلا وهي تدخل هذه الأشياء للبيت .. وخجلت من الفتاة وقالت " إن شريفا في دورة خاصة فقد تحتاجون لمثل هذه الأطعمة" .. وطلبت مني السلام عليك وانصرفت .

فقال بغضب : فتاة وقحة فعلا !

فقالت الأم : إنها تمدحك يا شريف ..وتثني عليك خيرا .

قال وهو يكظم غيظه : لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا أمي سامحيني إذا ضايقتك .. أرجوك يا أمي إذا جاءت هذه الفتاة ثانية فاعتذري عن استقبالها .. فهؤلاء القوم من طينة غير طينتنا .. تخيلي يا أمي أنها فتاة تحاول الاتصال بي في العمل لتدعوني للسهر معها في مقهى أو ملهى .. أو لتناول الطعام معها .. لا حياء ولا خجل .. هؤلاء قوم أخلاقهم غير أخلاقنا.. وأنا أتهرب من اللقاء بهم .. وأنا دعوتهم للبيت كما تذكرين ليعلموا حالنا ، وأننا أناس بسطاء ، وأن حياتنا غير حياتهم .. ولا أصلح لمسايرتهم والتكيف معهم .. على كل حال انتهى الأمر .. فاستفيدي من هذه الأشياء أو تصدقي بها على الجيران هل من أخبار عن أخي الكبير قسيم ؟ هل طل عليكم خلال هذين الشهرين ؟

قالت : هون عليك يا ابني .. لا أخبار عن المحترم منذ ذلك الحادث .. كأنه ما صدق أن

يحدث له ما حدث ليخرجنا من حياته .. ذهبت لهمام لما سمعت أنه هنا وسألته عنه .. فاخبرني أنه تحدث معه ورغبه بالعودة لبيت العائلة ومصالحة أبيه وأمه .. فزعل منه وأمره ألا يحدثه بالموضوع ثانية ، وأنه لا أهل له .. وعلم منه أنه تزوج .

هتف شريف متعجبا ومستهجنا : تزوج ! .. كيف تزوج بدون أهل وأقارب ؟!

ـ زواج مخز وعار يا ولدي ! ..فعلينا أن ننسى هذا الولد العاق .

ـ من أين تزوج وكيف؟!

ـ على ذمة أبي همام .. أن هماما قال له : إنه فجر بامرأة ، وعرف أهلها بأمرهما، وأرادوا سفك دمه إلا إذا تزوجها وستر عليها .. هكذا تزوج قسيم أفندي !

صاح شريف بغضب من جديد قائلا : يا للعار!! .. يا للخزي !!

ـ هكذا تزوج يا ولدي .. بل أخبر همام والده أنها حملت منه قبل الزواج .. وهذا ما فضح الطابق .. وأرغموه على الزواج منها .

ـ يا للعار !! أعلم أبي بهذا الخزي ؟!

ـ حدثته بذلك .. فبكى .. ولكن ماذا سنفعل ؟ لزمنا الصمت .

ـ على كل حال علينا أن ننساه يا أماه ! .. لا ينفع الآن أي تقويم وإصلاح إذا صحت الرواية وهذه الأخبار المشينة ..هداه الله وتاب عليه .. وأنا قريبا سأبدأ بالبحث عن قطعة أرض في أحد أحياء المدينة الجديدة .. قد تجمع لديّ بعض المال .

قالت وهي تمسح قطرات دمع سالت على وجهها : حفظك الله لنا يا ولدي ..أتمنى لك التوفيق والخير .

ـ ربما نستأجر شقة يا أمي في مكان قريب من العمل .. فقد حان لنا أن نترك هذا الحي .

ـ وماذا سنفعل في هذا البيت ؟

ـ سنعطيه لأحد الأقارب المحتاجين له .

ـ نبيعه .

ـ لا داعي لبيعه .. ماذا سيكون ثمنه؟! .. ثمن زهيد فأعطيه لأحد الشبان المقبلين على الزواج من معارفنا وأقاربنا .

ـ كما تشاء يا ولدي ! بارك الله فيك وفي قلبك الطيب.

١٣

وقبل الرحيل من حي العمال تعرض السيد ياسر سليم لوعكة صحية ادخل على أثرها أحد مشافي مدينة البركة ، وبعد العلاجات الأولية نقل بسيارة طبية إلى أحد مشافي الجيش ، وبعد أيام من العلاج والتداوي فارقت الروح الجسد ، وتلقى الملازم شريف الأمر بقبول واستسلام لقضاء الله وقدره . وشيع الجثمان لمقبرة حي العمال ، وتقبل الشاب وجده سليم الذي يقطن عند عمه الكبير عمران وأعمامه التعازي بوالده من الجيران والأقارب من أعمام وأخوال ، والكل يوصيه بأمه خيرا .. وقام الشاب بما يلزمه من إحسان نحو أبيه ..وتصدق عنه بالمال .. وكان قد سدد كل الديون التي كانت على أبيه منذ وفق للعمل في القوات المسلحة ، وكذلك ديون أمه .

وقد شاركه العزاء الكثير من زملائه في معسكره ، وقد تلقى برقية عزاء من مكتب قائد الجيش الأكبر ، وكذلك من زميليه عزمي وفواز وشقيقته عبير .

ولما خفت آلام المصيبة وتبعاتها ، وأصبح ياسر في عالم الغيب عند مليك مقتدر أخذت الحياة تعود إلى طبيعتها ، ويسلو الحزن شيئا فشيئا من قلب شريف ، ولا تبقى إلا الذكريات بحلوها ومرها ، نشط في البحث عن شقة ، فكان يتردد باستمرار على مكاتب بيع وإيجار العقارات والشقق لاستئجار بيت مناسب .

ولما اتصل به أحد السماسرة معلنا له أنه وجد مطلبه ، فذهب شريف للمكتب العقاري وأخذ العنوان الذي هو في أقرب مدينة لمكان عمله ، ثم ذهب للشقة وشاهدها ، واستأجرها من مالكها بعد أن ارتاح لها ووقع العقد ، وما اكتمل العام على وفاة الوالد حتى كانوا يفارقون حي العمال لشقتهم الجديدة ، ويقدمون بيتهم القديم لأحد أقاربهم الذي تقبله مسرورا شاكرا

لهم ، وذرفت الأم الدموع الغزيرة على ذكرياتها في حي العمال أو شارع العمارة ..وإن كانت أيام شقاء وصبر لكنها لا تخلو من أيام جميلة .. من ولادتها فيها وزواج وولادة الأولاد .

رحلت حسنة إلى البيت الجديد ، وأدركت أنها دخلت عالم الشيخوخة ، ولقد أدرك شريف وحدتها حينما ينصرف إلى عمله ، وحينما يضطر للمناوبة في معسكره ، وكان يرى نفسه أنه غير مستعد للزواج ؛ لأنه كان يرى بناء البيت قبل المرأة ، إذا سئل عن ذلك ، وأن أكثر العرسان يسكنون بيوتا مستأجرة يقول لنفسه : لو لم يكن عند أبي بيت ولو كان قنا ، ماذا حل بنا ؟ يوم نستأجر عند فلان ، ويوم عند آخر ..الإنسان لا يعلم الغيب .. البيت يستر العورات والنكبات .

فحدث أمه بما يؤرقه من تركها وحدها ، وأنه يفكر بالتعاقد مع خادمة تساعدها وتؤنس وحدتها ، فقالت له أمه : هات لك زوجة يا ولدي بدلا من خادمة !

ـ إن شاء الله ستأتي يا أمي ..عندما يقام البيت الخاص بنا أولا .. فهذه الخادمة أمر مؤقت حتى أكون مرتاحا أثناء غيابي عنك .

عندئذ ذكرت الأم زوجها ياسرا فذرفت العين الدمع ، وأحست بالفراغ ، فقد كان رغم ضعفه ومرضه أنيس وحدتها ، وتسمع صوته وصراخه وتنشغل بشأنه ، أما اليوم فهي وحيدة البيت .. شريف ينطلق لعمله اليومي .. لذلك كانت تحب كثيرا يوم الجمعة يوم عطلته ..

وسمعت ابنها شريف يقول : سنة الحياة يا أمي الفراق! .. تذكرت أبي رحمه الله ..

قالت : رحم الله أباك ..لا يعوض عنه يا ولدي إلا أنا أرى أولادك حولي

ـ سيكون ذلك بمشيئة الله ..ابكي كما تشائين .. فالدموع تغسل الحزن والألم .

جاءت الخادمة التي لا تفقه العربية بشيء ، إنما كلمات ركيكة تعلمتها من طول خدمتها في بيوتات الناس ، وكان كل هم أم قسيم حث ولدها على الزواج والاقتران بفتاة ليملأ بيتها بالأولاد والصبية ، ثم تقول أحيانا : أين أنت يا قسيم العاق ؟! يموت أبوك ولا تظهر في عزائه .. هل أنجب أولادا يا ترى ؟!

وكلما يدخل شريف ويجلسان حتى تبدأ تشكو له الوحدة وحاجة البيت لزوجة وأولاد، وأن الخادمة لا تملأ البيت بالأنس ، فلما أكثرت الحديث بهذه الرغبة ، وأنها تحب أن ترى أحفادها قبل رحليها للعالم الآخر قال : ابحثي لي عن زوجة مناسبة لك أولا يا أمي قبل أن تكون مناسبة لي .. زوجة تحبك ، ولا أقضي ساعات راحتي بسماع شكواها وتدخلك في حياتها .

فتضحك أمه من مداعبته وتقول : وأين ستجد هذه الغادة ؟

وبعد التقاط نفس تقول : وأي بيت لا يخلو من المشاكل يا شريف ..

فقال ضاحكا : مشاكل عن مشاكل تختلف ..مشاكل تحل داخل البيت ليست كالمشاكل التي تحل في خارج البيت وفي المحاكم .

ـ لا تتشاءم كثيرا .. فالنساء خير وبركة .. أخت صاحبك فواز هل تزوجت ؟

فهم مغزى كلامها فتبسم وقال : هل تقبل أن تعيش معك يا أماه ؟..هل ستقوم تتسحر معنا يا أماه ؟ ـ كان زمن هذا التعليق موسم رمضان ـ نحن من طينة وهم من طينة أخرى .. إني أريد امرأة على شاكلتك يا أماه أو قريبا منها .. حسناء صبورة ترضى بالحياة مع أمي الحبيبة أمي هي أمها وزيادة .

ـ طيب ، ما تقول في ابنة الضابط التي أشرت إليها مرة ؟

أخذ الشاب يتذكر تلك الفتاة التي تشير إليها أمه ، وسمع أمه تقول : اسمها أسماء على ما اعتقد .

ـ ما شاء الله تذكرين جيدا يا أمي ! .. لم يحدث بعدها شيئا .. كنت يوما في زيارة لقائد المعسكر الكبير .. طلبت الإذن لمقابلة العميد الركن يحيى فأدخلني السكرتير عليه ؛ كأنه نسـي أن العميد يجلس مع ابنته .. ولما دخلت فوجئت بهما يتحدثان .. فحاولت الرجوع معتذرا ؛ ولكن الرجل قال : تفضل يا نقيب شريف هذه ابنتي العزيزة .. كانت قريبة من هذه المدينة فرغبت برؤية أبيها في عمله .. وقال لها هذا المهندس النقيب شريف يا أسماء .

فدخلت يا أمي وأغلقت الباب ، وكلي خجل وقلت : تشرفنا يا آنسة .

فرحبت بي وهي تبتسم : أهلا . فأشار لي العميد قائلا : اجلس يا بني .. قال بني يومها يا أمي فقلت : حاضر يا سيدي العميد .

وأخذت الفتاة بعد لحظات حقيبتها ، وبدأت تنهض ، فقال العميد : أسماء يا نقيب شريف السنة تنهي دراستها في كلية التربية .

فهززت رأسي وقلت : أهلا وسهلا .. تمنياتي لها بالنجاح يا سيدي العميد

ثم تفاجأت بقوله أمامها : أما زلت أعزبا يا شريف ؟

ـ أجل يا سيدي العميد .

ـ فتضاحك يا أمي وقال : ما رأيك بأسماء .. ألا تراها مناسبة لك ؟!

فضحكت وكلي خجل وقلت : والله هذا شرف كبير لي يا سيدي العميد !

وخرجت أسماء ولم تتكلم ؛ ووجهها غرق بالاحمرار والحياء مع ابتسامة صغيرة .. بعدها لم يحدث شيء .. بل انتقل العميد إلى قيادة الجيش الكبرى .

هذه ذكريات تلك الفتاة أسماء .. كل هذه تذكره شريف عندما رددت أمه اسم أسماء

فقال : إنها فتاة لطيفة كما بدأ لي .. ولكن والدها رجل فاضل .. وحسبتها دعابة وجس نبض لي ولها والله أعلم .

ـ اتصل به وذكره بك ربما مشاغله الكثيرة أنسته الموضوع .. والفتاة كانت في سنتها الأخيرة .. أعني ربما أنها غير متهيئة للزواج تلك الأيام.

ـ صحيح يا أمي وما زالت السنة الأخيرة قائمة لم تنته .

ـ حرك الماء الراكد .. أرغب أن أفرح بك يا ولدي قبل أن ألحق بأبيك رحمه الله .. وأنت لازم أن تتزوج من بنات العائلات .. لأنك كبير يا بني .. وستكبر بمشيئة الله .. وتصبح قائدا كبيرا إذا عشنا .

ـ أخشى ألا نوفق إذا تطلعنا إلى بنات الأسر الأرستقراطية .. هؤلاء يا أمي مطالبهم مثيرة وكثيرة .. وأنا أحب الراحة والسكون .. لا أفكر الليلة في مسرحية .. في فلم .. في مهرجان

غنائي .. معرض للثياب والجواهر .

ـ لا تخلو هذه الفئة ممن هم على شاكلتنا يا ولدي ..الفقر كفر يا شريف .. الفقر يذل الرجل ويقصف العمر .. ألم تر عندما كنا نحتاج لدواء مرتفع السعر ما يحل بنا من الضيق والحيرة والبحث عن دائن ؟!.. الحمد الله الذي أخرجنا من الفقر وذل الحاجة وانتظار إحسان فلان وفلان .

١٤

كان الأخ شريف يشعر ويعي الوحدة التي تعانيها أمه في البيت وحدها مع الخادمة الأعجمية ، وأن جهاز التلفزيون لا يبدد تلك الوحدة ولا المذياع ، ويعلم أن أمه لا تحب الاحتكاك بالجيران كثيرا ، وإطالة الجلسات معهن ، وهو لا يستطيع إزالتها ، ويرى السعادة التي ترتسم على وجه أمه عندما تفتح له الباب ، وهو يعلم الضيق الذي فيها من بُعد ابنها قسيم عنها ، ومن قصة زواجه المؤلمة من فتاة فرضت عليه قسرا بسبب علاقة جنسية آثمة ، ومن عدم تواصله معهم ببدنه وباتصالاته ، كان يدرك أن هذا مؤلم على قلب الأم ، ويسبب لها آلاما نفسية لا تستطيع أن تعبر عنها حتى لا تسبب له ألما وضيقا ، مضت شهور في الشقة الجديدة في مدينة لظ المدينة القريبة من معسكره ، فلما ذكرته أمه بأسماء .. أخذ يفكر بالزواج جديا وتأخير بناء البيت .. فطفقت صورة أسماء تتردد كثيرا على مخيلته ، ويحلم بأنها زوجة لها.. ويفكر بكيفية الوصول إليها .. وأنه شخص لا يحمل اسم عائلة كبيرة وعريقة في البلد مع عائلة كعائلة العميد ، ولابد أن الكثير من أبناء عائلتها ينتظرون تخرجها ليخطبوها ..وليس يملك شيئا مميزا لتقبل به وتفضله على الأقارب سوى شهادته وعمله كضابط .. فالعميد ابن عائلة كبيرة معروفة في البلاد ، وجل أقاربه من كبار الضباط والرتب العسكرية مثله .. وهل كان سيادة العميد ساخرا وهو يمازحه بهذا الزواج ؟! كيف أعرف ؟ كيف أتصل ؟!

ثم تراه مخاطبا نفسه بصوت عال : لا .. ثم يعود للتفكير والمحادثة مع نفسه : تزوج فتاة بسيطة ثقافتها بسيطة .. تتطلع إليك بأنك زوج وسيد .. وليس بالمثل ..إذا أغضبتها تطردك من

البيت ..أو ... أو ... ربما تريد ابنة العميد أن تشتغل كما تفعل بنات تلك العائلات .. ولكنها ستعمل في قطاع التدريس ..أمي .. إذا عملت ستظل أمي وحيدة حتى ولو تزوجت منها.. الأولاد .. أمي تريد الأبناء لا الزوجة ..أنا بحاجة لزوجة تستقر في البيت .. المرأة العاملة ستسبب لي المشاكل ولن تستفيد أمي من زواجي إذا أصرت الزوجة على العمل .. يا رب يسر ولا تعسر .. أنا يا رب عبدك الضعيف أعني على تحقيق هذا المأرب.. من أتزوج من أختار؟! أنا قليل الاختلاط بالأسر والعائلات.. وأمي ليس لها رغبة بزواجي من أقاربها أو أقارب أبي لم تحدثني عن بناتهم يوما .. إنها ترغب بزواجي من أسرة ذات اسم في البلد .. لقد رأت وعانت من الشقاء ، وإن عائلتنا وعائلتها لم تستطع الوقوف معنا أثناء محنة أبي .. كلهم فقراء مصروفهم على قد دخلهم.. وبما أنني تعلمت فعليّ أن أخرج من نطاق العائلة .. الفقر مر وعلقم .. ألم يقال " لو كان الفقر رجلا لقتلته؟!".. وأنا أحب أن تكون زوجتي وقرة عيني وأم أولادي بمشيئة الله مثل أمي ..ألم تتحمل مأساة أبي بصبر ورضا ؟.. إنني أسمع عن نساء يتخلين عن أزواجهن عند مرضهم المعيق عن العمل والحياة الزوجية .. وبعضهن تهرب مع عشيق لتجبره على الطلاق .. ليس كل النساء كأمي الحبيبة .

أمي .. مرض أبي وهي صغيرة السن وليس لها سوانا أنا وقسيم .. خلفت اثنين وماتا قبل ولادتنا .. وربما لو هجرت أبي وتزوجت لأنجبت غيرنا ؛ ولكنها رضيت بقسمتها وقدرها وتحملت المصيبة .. ولكنها بعدي لم تلد أحدا .. ولما أصيب أبي كنت ابن اثنتي عشـرة سنة .. هناك فترة طويلة بين إصابة أبي وولادتي ، لم تنجب خلالها أمي .. مع أن خالاتي لهن أولاد كثر .. أنا أستحي أن أسالها عن سبب ذلك .. وما زلت أستحي عن مثل هذا الاستفهام ..لابد أن العائق سبب غير شلل الوالد ..آه .. الزواج .. هل عندنا عقم ؟!



١٥

فكر شريف تفكيرا معمقا مع من يتحدث في موضوع الآنسة أسماء يحيى .. هو يعلم أنها ما زالت على مقاعد الجامعة .. وفي سنتها الجامعية الأخيرة ..هكذا فهم من حديث والدها في ذلك اللقاء الخاطف .. لقد راوده خاطر بأن تكون أنهت دراستها قبل انقضاء السنة الجامعية .. فاستعرض الأسماء التي يعرفها ويمكن أن تفيده في مثل هذا الأمر .. فلم يرسُ على بر ، ولن يفيده أحد إلا بالحديث مع نفس العميد .. وهذا أمر لا يستطيعه .. فكر أن يعرف مكان سكن العميد ، ويرسل أمه للتعرف على أسرة الفتاة ، والتحدث معهم في هذه القضية الحساسة .. فوجد نفسه لا يعرف أين يقطن العميد يحيى؟ .. ولكنه قال لنفسه : هذا سهل .. مكان السكن أستطيع معرفته بواسطة أحد الضباط الكبار .. آخذ منه عنوانه .

وعاد يساوره قلقه على أمه فيهامس نفسه فيقول : هل هي الفتاة الصالحة لي ولأمي قبلي ؟! هل يقبل والدها بجلوس ابنته في البيت لمراعاة أمي ؟ رغم معرفتي بلطفه وحسن أخلاقه معنا ومع الزملاء الضباط .. فأقول هذا زواج وليس لعبة تنس أو كرة قدم .. الزواج حياة .

ولكنه عزم على معرفة مكان البيت ، وستقوم أمه بهذه المهمة السؤال والتحري .. رفع سماعة الهاتف وطلب من عامل المقسم (السنترال) أن يصله بمقدم له معرفة به أثناء إحدى الدورات والتمرينات العسكرية ، وهو مهندس أقدم منه خدمة ورتبة طبعا .. ورحب المقدم نصار به وتبادلوا التحيات ، وسأله شريف عن عنوان العميد يحيى لأمر خاص ، وتفاجأ النقيب شريف عندما قال له المقدم نصار " إنه كان منذ أيام باجتماع ضم العميد يحيى .. وسأله عن شريف ياسر" .. فدهش شريف وقال : العميد سأل عني ؟!

ـ أجل ، وها أنت تسأل عن عنوانه ..أنا أعرف أنه يسكن في مدينة (شين) في الجهة الشـرقية ربما في حي ابن زيدون .. في بيت مستقل ليس في شقة .

شكره شريف ودعا له بخير ، ولما سمع السماعة توضع وضع هو الآخر سماعته وقال معقبا : العميد من سكان عاصمة البلاد .. حي ابن زيدون في شرق المدينة في بيت مستقل .. يا رجل

هل أنت مناسب لمصاهرة مثل هذا الرجل ؟ الزواج قدر يا شريف .. تقدم ولا توجل .. كله بأمره سبحانه .

وبعد يومين أو ثلاثة من محادثة شريف ونصار رن هاتف المكتب عنده ، وسمع مأمور الاتصال يخبره بأن العميد يحيى على الخط فرد قائلا : نعم ، يا سيدي العميد أنا شريف ياسر .

ـ أخبرني المقدم نصار أنك كنت تسأل عن عنواني هل من شيء يا بني ؟!

طبعا ارتبك شريف وضاق نفسه مع احمرار وجهه وتمالك أعصابه بسرعة وقال : شكرا يا سيدي العميد على هذا الاتصال .. كنت أفكر بزيارتك يا سيدي .. لأسألك في شأن خاص بي .

ـ ألا يمكن الحديث على التلفون ؟

ـ ممكن يا سيدي الكريم ..

ـ تفضل !

ـ أفكر يا سيدي العميد بأن أتقدم لدورة خارج القطر ، فأحببت أن أسمع نصحك ..وأنا أعيش مع والدتي وليس لها إلا أنا .. وأنا راغب بالتدريب في الخارج .. ودورات الخارج مهمة للضباط في أيامنا هذه .

ـ أحسنت ! .. على كل حال يوم الجمعة القادم كن في بيتي بين المغرب والعشاء .. ويمكنني استقبالك يا ابني للحديث معك .

ـ أشكرك يا سيدي العميد .. أشكرك الشكر الجزيل .



نزل شريف العاصمة بعد تناوله الغداء مع والدته.. فالعاصمة تبعد عن مدينة لظ ثلاث ساعات بالسيارة الصغيرة .. وبعد العصر وصل المدينة .. فذهب لأحد المساجد الكبيرة وصلى العصر .. ولما صلى المغرب بعد تفرج ومشي في شوارع العاصمة الكبيرة استأجر سيارة خاصة إلى حي ابن زيدون ، واستدل على البيت بحسن السؤال ، وهناك وجد العميد في استقباله ..وأعاد شريف شرح الوضع وغايته من الدورة الخارجية ، وشرح ظروفه وأن أمه تعيش معه وليس لها إلا هو بعد وفاة والده .

فبين له العميد محاسن الدورات في الخارج ، وأنه يكسب خبرة كبيرة مع هؤلاء الأجانب، وهم يتحلون بمهارات وقدرات تدريبية كبيرة ، ولا مجال عندهم للمجاملات أثناء الدورات إلا بحدود ضيقة ، فالاستفادة منهم محققة إذا كان لدى المتدرب رغبة حقيقية في الفائدة منهم ، فيأخذ الطالب خبرة عسكرية جيدة في حياته العسكرية ، وأما الدورات الداخلية فهي مهمة للعلاقات العامة ، وهي تظهر كفاءات الفرد في بيئته، ويتعرف عليه كبار الضباط ، ويطلعون على مواهبه ، ويستفيد الفرد منها في الترقيات العسكرية، وكلما كنت قريبا لكبار الضباط والوزراء فسيراعيك المدربون والمحاضرون لعلهم ينتفعون من قريبك الضابط أو الوزير في يوم من الأيام ، أما في الدورات الخارجية لا يراعى مثل هذا الجانب .. وبين له أن الدورات العسكرية بالجملة مفيدة وبحاجة لها الضابط النبيه .. وفي نهاية البيان قال العميد الركن : وبما أن ظروفك يا بني لا تسمح لك بترك أمك بدون رعاية.. فالأفضل أن تحرص على دورات الداخل .. ويمكنك أن تدرس دراسات عليا في الجامعات المحلية .. في التاريخ العسكري أو الجغرافيا العسكرية.. أو حتى التخصصات المدنية .

ـ أيسمح لنا بذلك ؟

ـ يسمح لك بذلك خاصة كلما ارتفعت رتبتك العسكرية .. ويمكنك التقدم لكلية الأركان العسكرية .. لتأخذ دورة أركان حرب .. المجال واسع .. والأم شيء عظيم.

ـ لا يسعني إلا أن أشكرك يا سيدي العميد على سماعك لي ولنصحك لي

وفجأة قال العميد : ألم تتزوج بعد يا شريف ؟ .. لم تتحدث عن زوجتك أمامي؟

ـ لا ، يا سيدي .

ـ عليك بالزواج .. فربما إذا تزوجت فتاة طيبة تستطيع أن تعتمد عليها إذا اضطررت للسفر إلى الخارج ؛ لأنه أحيانا يحتاج الجيش إلى إيفاد ضباط لدورات خارجية قصيرة .. وللتدرب على أجهزة حديثة .. فيلزم بعض الضباط بدون اختيار يا بني .. وإذا تعين ضابط لهذه المهمة فليس هناك مجال للرفض .. فالزوجة تهون عليك الأمر أثناء الغياب .

ـ فتيات اليوم تصعب حياتهن مع أمهات أزواجهنّ ..خاصة إذا تزوجت فتاة تحب العمل ومتخرجة من الجامعة .. إلا إذا تزوجت فتاة لم تتعلم في الجامعة .. ربما ترضى بالحياة مع أمي

ـ صحيح هذا الكلام إلى حد ما ؛ ولكن لا تخلو الدنيا من الطيبات ..وإذا تزوج الشاب من فتاة جاهلة وأمية فهذا سيسبب للمتعلم ضيقا وحرجا .. كم عمرك اليوم يا شريف ؟

ـ تجاوزت الخامسة والعشرين يا سيدي العميد .

ـ لي زميل وصديق عنده بنت حلوة مثلك.. سأحدثه عنك لعله يقبلك زوجا لابنته .. ولو كان لديّ ولد لزوجته إياها .

ـ عفوا يا سيدي أليس عندك أولاد ؟!

فقال بحزن واضح للعيان : لا يا بني ، أنا وهبت ابنة واحدة فقط ؛ ولكنها ماتت منذ شهور .

فقال : أسماء ؟! ـ نعم ، أسماء .

ـ كيف ماتت يا سيدي ؟! لم أسمع بذلك .

ـ بعد انتقالي لقيادة الجيش بأيام صدمها أحدهم بسيارته المسرعة .

بدأ شريف متأثرا للغاية ومتفاجئا وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .. والله يا سيدي لم أسمع بهذه المأساة عظم الله أجرك .. وآسف على تذكيرك بها

مسح الرجل دمعة تساقطت على خده وقال : الحمد لله على كل حال .. قدر الله وما شاء فعل هذا حال الدنيا يا بني .

١٦

بعد نصف الليل بقليل وصل شريف البيت ووجد أمه ما زالت في انتظاره ، وهو كان متوقعا لذلك ، فرد السلام وقال باسما : أما زلت مستيقظة يا أمي ؟

الأم كانت تحلم بأن يعود ولدها بعروسه سريعا ، تتمنى لو تفتح عينيها فتجد ابنها مع عروسه ، وهي تدعو بارئها ليل نهار بأن يسهل أمر زواج فلذة كبدها ، وآخر من تبقى لها في دنياها ، ولما أنارت النور وردت السلام وجلسوا في صالة البيت قالت : أجائع ؟

ـ أكلت في العاصمة يا أمي .

ـ إنك حزين يا ولدي !

ـ أنا حزين ! فعلا أنا حزين يا أمي ..كيف عرفت ؟!

ـ من نبرات صوتك ومن وجهك.. كأنك عائد من مأتم بدلا من عرس

ـ معك حق ؛ كأنني عائد من مأتم ..الدنيا مآسي يا أمي .

ـ ألم تذهب لمقابلة العميد يحيى وترى ابنته ؟!

ـ بلى ، يا أمي .. قد التقيته ويا ليتني ما قابلته !

وضعت الأم يدها على صدرها ، وتنهدت بعمق وهمست باضطراب : رفضك! ولماذا يرفضك ؟!

ـ لم يرفضني يا أمي ، بل رحب بي ، وكان يخاطبني بيا بني .. ولكن أسماء ماتت يا أمي !

وبكت العين ، وهتفت الأم بلوعة : ماتت !!

ـ رحمها الله .. صدمتها سيارة منذ شهور وماتت .. وجدتها ميتة.. وأنا لا أعلم .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

ـ أسماء التي رأيتها مرة واحدة وحلمنا بأن تكون زوجا لنا .. ماتت !

قالت: أليس لها أخوات؟

ـ رحمها الله تعالى ..إنها وحيدة أبيها يا أمي .. ليس للعميد يحيى سواها .. لا ذكور ولا بنات

أنجبها بعد علاج طويل .

ـ يا الهي كم الدنيا ضيقة ! ..حسبنا الله ونعم الوكيل .. سبحانه يا بني في علاه .. لا يبقى إلا هو .

ـ بعدما انتقل من وحدتنا العسكرية بزمن يسير تعرضت الفتاة لحادث سير أدى إلى موتها بعد أيام على سرير المستشفى .

ـ الدنيا مليئة بالمصائب ، ومن نظر مصيبة غيره هانت عليه مصيبته .

ـ واعتذرت له عن عدم سماعي بخبر موت ابنته .. وتأسفت له عن تذكيري له بها وتجديد الحزن في قلبه .. وقال بصبر "هذا قدر الله وإرادته " .. وقبلني بكل رضا وقال يا ابني يا شريف هذا أمر ربنا.. وقد حثني على الزواج يا أماه ..وأنه سيسعى لدى صديق له ليخطب ابنته لي .. تصوري يا أمي الشجاعة والإحسان.. وقال لي: لو كان لي ولد لخطبتها له يا ولدي من كثرة إعجابه بتلك الفتاة وبأهلها .

ـ هذا رجل مفضال يا بني !

ـ وحبب إليّ بأخذ الدورات الداخلية حتى أبقى بقربك يا أماه .. مع أنه بين لي أن ميزات الدورات الخارجية أهم وأخطر وأفضل في حياة الضابط .. ولكنه قال " من أجل الأم .. تهون كل الدورات .. وحثني على الزواج وعلى الدراسة العليا كالماجستير والدكتوراه في الهندسة وغيرها مما يفسح لي المجال لإلقاء المحاضرات في الجامعات والكليات .

ـ النفس تهفو أن ترى هذا الإنسان وأحيه لمحبته لك يا شريف .

ـ عندما أسمع بمناسبة سأفعل يا أمي حتى تريه وتتعرفي على زوجته المحترمة .. وإذا قدر الله لي الزواج من ابنة صديقه لسوف ترينه ، ونتعرف عليه أكثر، ونحسن صحبته بإذن الله .

١٧

سعى العميد يحيى سعيا جادا في زواج شريف من ابنة صديقه الدكتور سمعان فارس الطبيب العامل في أحد مشافي العاصمة ، ولم يتردد شريف في قبول الدعوة من العميد للتعرف على

الدكتور سمعان والتي جرت في منزل العميد يحيى ، وقبل الشاب واسطة العميد بدون أي تردد ، ثم قامت أم شريف وشريف بزيارة تعارف لمنزل الدكتور سمعان ، وعلى أثر هذا اللقاء وافقت الفتاة على الزواج من النقيب شريف ، وتبين لشريف أن الفتاة تعمل معلمة في قطاع التعليم والتدريس ، وكان العميد يحيى يقوم بدور الوالد للعروسين .

وأعلن الزواج وحجزت صالة للاحتفال ، ودعي الأصدقاء والأقارب ، وشارك بعض أقارب شريف من حي العمال وغيره وبعض الجيران حفل الزواج ، ودعي فواز وعزمي ؛ ولكنهما اعتذرا لشريف لظروف خاصة .

وكان شريف ياسر يرى أن السعادة قد حلت عليه بزواجه من تلك الفتاة ، وفرحت بها أمه ، وارتاحت لها كثيرا ، وكانا قد ذهبا إلى إحدى المدن السياحية ليقضيا أول أيام الزواج .. فهذه عادة تسربت لبلاد العرب والمسلمين من اتصالهم بالغرب الأوروبي ، ولما رجعا فرحين للبيت في لظ فكانت أول زيارة لهما للعاصمة إلى بيت العميد يحيى ، الذي سر من هذه الحركة اللطيفة وقدم لهما التهاني والدعاء بالتوفيق ، وتمنى لهما السعادة والحياة الهادئة .

وكملت سعادة العروسين وحسنة بولادة يسرا على رأس الحول من الزواج ، ولدت ذكرا جميلا أطلقا عليه اسم ياسر من أجل خاطر أمه وذكرى أبيه .

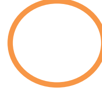
ولا نكاد نصف فرحة أم شريف برؤية حفيدها ياسر ..هي تعلم أن ابنها قسيما متزوج ؛ ولكنها لم تحظ برؤية أحد من أبنائه ، فكانت الجدة تقوم بدور الأم من فرحها بالمولود الجديد وربما كانت عندها أحلى الساعات عندما تخرج أمه لعملها بعد انقضاء إجازة الولادة وتبقى هي ترعى الوليد .

وذات ليلة أخبرها شريف أنه قرر بناء البيت الذي أجله من أجل الزواج .. والذي خطط له منذ حياة أبيه .. فقد اشترى قطعة أرض في مدينة البركة .. ولما بدأ الفتى الصغير ياسر يخطو ويمشي كان الزوجان يتهيآن لبناء البيت بما تجمع لديهم من مال .. وقد وعده الدكتور سمعان بمساعدته وتقديم القروض اللازمة له عند الحاجة والنقص ، وألا يلجأ للمصارف والبيوت

المالية ، وكانت يسرا قد أصرت على المساهمة في البناء من مدخراتها ، فقبل شريف ذلك على أن يكتب البيت باسمهما معا

وعندما ولدت يسرا المولود الثاني كان الطابق الأول قد جهز ، ولم يبق إلا الأثاث والرحيل ، وكانت الأم قد طلبت من ابنها بأن يسمي مولوده الجديد بيحيى تيمنا بمعروف العميد يحيى ، ووجد ذلك قبولا طيبا لدى الزوجين ، ولما أخبر سمعان العميد يحيى بذلك اتصل بالزوجين شاكرا ومهنئا ، وأرسل لهما هدية مناسبة مع والد يسرا سمعان فارس .

وبعد تعافي الأم من آلام الوضع وقد استردت عافيتها ، انتقلت أسرة شريف إلى مدينة البركة في حي الأمل .



عندما ارتقى الأخ شريف لرتبة رائد في القوات الهندسية ابتعث لكلية القيادة والأركان العسكرية ليؤهل أن يكون قائدا لكتيبة عسكرية ، يُمنح عادة الخريجون بعد إتمام الدراسة بنجاح درجة الماجستير في العلوم العسكرية ولقب أركان حرب ، فيقال الرائد الركن للضابط المتخرج من كلية الأركان ، ويكون ارتباط مواد المنهاج بكليات القادة بمهمة الكلية وفلسفتها التعليمية في العمل على تخريج ضابط قادر على العمل بكفاءة في المستويات التكتيكية ، وكضابط أركان حرب عام في كافة المستويات في القوات المسلحة.

ينقسم المنهج الدراسي في كليات الأركان إلى مراحل رئيسية : المرحلة الأساسية تكون بعد تأهل الضابط لهذه الدورة ، وتكون مدتها نحو أربعة أشهر، وتشمل على المواد العامة مثل التنظيم والاستخدام، والتكتيك العام ، والتدريب ، وواجبات الأركان ، والاستطلاع ، والجيوش الأجنبية، والمدفعية، والمهندسين، والحرب الكيمائية، والإشارة السلكي واللاسلكي والشؤون الإدارية، والحرب الإلكترونية، والتأمين الفني .. ويؤدي الدارس اختباراً في نهاية تلك المرحلة .

ثم المرحلة المتقدمة مدتها حوالي ثلاثة أشهر، وتشتمل هذه المرحلة على الدراسة النظرية

والتطبيقية لمستوى اللواء في المعارك الهجومية والدفاعية والمسير والمعركة التصادمية ، وجميع الأحوال الخاصة مثل القتال في المدن والقتال في الأراضي الجبلية، والحصار، وفك الحصار، العمليات الليلية.

ثم المرحلة الراقية ومدتها ثلاثة أشهر كسابقتها، وتشتمل على الدراسة النظرية والتطبيقية لمستوى الفرقة في المعارك الهجومية والدفاعية والمسير والمعركة التصادمية والعمل كنسق ثاني للجيش.. فالفرقة العسكرية تكتل ضخم من أفراد الجيش ، فهي تتكون من عدد من الألوية ، ربما ثلاثة ، دروع أو مشاة ، واللواء يتكون من ثلاث كتائب ، والكتيبة من ثلاث سرايا ، والسرية من فصائل سوى وحدات الإسناد والخدمات الأخرى .

ثم تأتي المرحلة النهائية التي مدتها حوالي شهرين، وتشتمل على مشروع مركز قيادة خارجي مستوى فرقة ، مناقشة البحوث الماجستير ، والاختبار النهائي.

ولما أنهى الرائد شريف دورة الأركان العسكرية عين كقائد إحدى كتائب المشاة العسكرية ، وشارك في مناورة عسكرية أبدع فيها، فعين بعد انتهائها مساعد قائد لواء مشاة ، وأرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية في دورة عسكرية متقدمة ، قضى جزءا منها في ألمانيا ، فأصبح الأخ شريف حينئذ معروفا على مستوى قيادات الجيش العليا وكبار العارفين بشؤون الضباط ، وقد كان مبرزا في جميع مشاركاته، وبعد عودته ألحق فترة بالقيادة العسكرية لبلده للاستماع لعدد من المحاضرات التثقيفية والتوجيهية ، وبينما هو يسمر ليلة في نادي ضباط القيادة مع الزملاء من وحدات الجيش المختلفة ، سأله أحد الضباط القريبين منه من قادة كتائب الدروع : هل لك يا أخ شريف أخ اسمه قسيم ياسر الكمن ؟

لم يرد شريف على الفور بل حدق في عيني زميله متفاجئا من الاستفهام، ثم قال ببطءٍ كأنه يتذكر أن له شقيقا بهذا الاسم : قسيم !! .. قسيم ياسر الكمن.. أين التقيت به ؟!

ضحك الضابط : لم ألتقِ به ، ولم أره يوما .

ـ نعم ، أنا كان لي أخ اسمه قسيم ..

ـ ميت ؟!

قال : لأ ، لي أكثر من عشر سنوات لم أره ..طردني وأنا أعوده في المستشفى المصاب فيه .. تعرض لحادث ضرب من بعض الناس ، ونقل للمستشفى ولما زرته طردني ، وطلب مني أن لا أسعى لرؤيته .. وأساء للأسف لي ولأمي .. في قصة طويلة .. وهجرنا ، ومن ذلك الحين لا نعرف عنه شيئا ..حدثني عنه .

ـ قسيم ياسر الكمن شقيق لك .

ـ نعم .. هذا اسم أخي الأكبر المختفي منذ عهد ليس بالقصير .. أين سمعت عنه يا سيدي ؟!

ـ ربما خمس عشرة سنة لم تروه ؟!

ـ ربما كل هذه السنوات .. لقد نسيناه كما نسينا يا رجل.. مات والده ولم يحضـر جنازته ، ولم يشارك في العزاء .. قصة مرة !

ـ على كل حال .. هو الآن في السجن .. متهم في قضية قتل .

بهت شريف وهتف للمفاجأة : قتل !! .. يا الهي !

ـ لي أخ من جيلي ضابط أمن في السجون .. جرى حديث بيننا ، وذكرت اسمك أمامه ذات ليلة .. فقال لي " عندي في السجن شخص اسمه قسيم الكمن.. ذكر لي مرة أن له أخا ضابطا كبيرا في الجيش اسمه شريف الكمن " .. فلما ذكرت اسمك أمامه تذكر ذلك السجين .. وذكر ذلك السجين .

ـ كيف جريمته ؟!

ـ لا أدري بالضبط كيف تفاصيلها ؟.. ولكني فهمت من أخي أنها جريمة قتل ، وهو شريك فيها .. وكأن الجريمة قتل زوجته .

ـ زوجته المقتولة !! .. يا الهي ! .. إذا علمت لي تفاصيل الجريمة .. ولم يكن في هذا إزعاج لك فأرجو أن تعرفني بالتفاصيل ، قد أتمكن من مساعدته بشـيء أو بمحامي .. وسألخص لك فصلا من سيرته يا رائد سمير لتتضح الصورة لديك .

اختصر شريف قصة أخيه قسيم للضابط سمير الذي قال معقبا على ما سمع : مات أبوك وهو عليه غاضب!.. هذا عاقبة العقوق يا شريف.. ثم يتزوج بغي!.. معذرة مما تفوهت به .

ـ لا عليك ، هذا هو الصواب .. هذا ما نقل لنا من قريب لنا اسمه همام كان يلتقي به في العاصمة .. بعد حادثة المستشفى التي ذكرتها لك لم يأت بيتنا في حي العمال .. ولما دخل والده المستشفى طلبت أمي من همام أن ينقل إليه مرض أبيه ..ولم يأت .. ومات أبونا وهو يرفض المجيء لرؤيته .. وهذه المرة الوحيدة التي أسمع عنه خبرا بعد وفاة أبي رحمه الله تعالى .. وهذا المستقبل الرديء كنت أتوقعه له .. وهذه عاقبة الشر عامة !

١٨

وفي اللقاء التالي الذي جمع بين شريف وسمير قال الأخير : لقد جاء أخي بملخص القصة يا أبا ياسر .. واعلم أولا أن أخاك له خمس سنوات في السجن ..وهو محكوم بخمس عشرة سنة مع الأشغال الشاقة .. وهو مشارك في الجريمة مع أخوين لزوجته .. وقد قتل معها رجل آخر .. كان موجودا معها في البيت ..أنا آسف .

قال شريف : لا عليك .. هذا نتيجة سوء الاختيار .. هذا واقع حدث فهل نهرب منه ؟.. فأخي فاسد وفاشل .. وقد حاولنا تقويمه وإعادته للأخلاق الحسنة .. لكنه كان معتدا مغرورا بقوله وأفكاره .. تابع

ـ القضية يا سيدي كما فهمت من أخي .. أن زوجة أخيك امرأة فاسدة من قبل الزواج منها .. سجل لها الأمن قضايا أخلاقية قبل لقائها بأخيك قسيم .. ولكن لما كشف إخوتها علاقتها الجنسية بأخيك وكانت حاملا .. ألزموه بالزواج منها وهددوه بالقتل .. وهم معروفون بالشراسة والإجرام .. فرضخ للتهديد وتزوج الفتاة ، وعاش معها كزوجة شرعية .. ومع غيرها من بنات الليل والزانيات .. وقد ثبت عليه أنه كان يأتي بالعشيقات للبيت على سمع وبصر زوجته .. ويطردها ليعاشر عشيقاته في بيتهم .. بل سمح لبعض الناس باتخاذ بيته للدعارة ، كما تكشف ذلك أثناء التحقيق في الجريمة .. بل تكشف أيضا عن دعارة جماعية

كانت تحدث في غرفة نومه ..حتى أن بعض إخوة زوجته شاركوا في مثل هذه القبائح والمفاسد .. رياح انحلال الحضارة الغربية يا سيدي وصلت إليهم في الانحلال والفجور.

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ، هذا ما يكسبه الناس من مشاهدة أفلام الجنس والإباحية ، التحلل من الأخلاق .. أمر فظيع يثير الاشمئزاز والقرف في النفوس الحية! ثم ماذا أيضا ؟!

ـ وكانت زوجته أمام هذا الواقع المتحلل والوقاحة تتخذ بدورها العشاق وتحضـرهم للبيت في فترة غياب رجلها عن البيت .. فهو كما أخبرتني يعمل سائقا على سيارة أجرة .. وهو عندما حدثت الجريمة كان يعمل في نفس هذه المهنة .

ـ صحيح .. مأساة !..فعندما تذهب الأخلاق والمروءة .. فيهون عليه كل شيء .

ـ ثم أحس أخوك أو قد اخبر أن زوجته تفعل ما يفعله من ورائه ، وأنها تخونه في وسط بيته.. فحدث بعض إخوتها بذلك الأمر ، فرفضوا أن يصدقوه وزعموا أن أختهم شريفة مع علمهم بقصة زواجها منه ، وإنما يريد التخلص منها لدعارته وفجوره .. وأكدوا له أنها بعد زواجها هدأت وعقلت وصلحت .. واتفقوا أن يعملوا لها كمينا قبل أن يطلقها كما هدد .. فيبدوا أنه بعد معاشرته لهم عرف نقاط ضعفهم .. فاستقوى عليهم بتهديده ، ووافقوا على خطته .. خرج كعادته في الصباح للعمل ، وبعد ساعة عاد ومعه اثنان من إخوة البنت ، وتسللوا للغرفة فوجدوا المرأة عارية والرجل العشيق مثلها مضطجعين على السـرير يأكلون بعض قطع الشوكولاتة أمام هذا المشهد المثير قتلوهما بالسكاكين على الفور.. وسلموا أنفسهم للشرطة.. هذه هي القصة يا أبا ياسر .

خيم الوجوم على شريف والحزن ثم قال : قصة محرقة وكلها خزي!.. هل لأخي أولاد من تلك العاهرة ؟ . . أوصل لمسمع أخيك شيئا من ذلك ؟

ـ نعم ، وتوقعت سؤالك عن ذلك ، وعلمت من أخي أن لهم ولدين فقط .. ولكنهما لم يكونا يعيشان مع والديهم ، كانا عند أم زوجة قسيم .. كان أخوك يضربهما ويسـيء إليهما ويتهمها بأنهما ليس منه .. فأخذتهم جدتهما لأمهم ، وهم عند مقتل أمهم كان أحدهما في العاشرة

والآخر يزيد عنه بسنتين ..

ـ أيحتاج الأمر لمحامي بعد كل هذه السنوات ؟

ـ الحكم صدر والتنفيذ جارٍ .. وإعادة المحكمة لا تفيد شيئا لأنهم اعترفوا بجريمتهم وأدينوا وهم لم يأخذوا حكم إعدام لأنها تعتبر من قضايا العرض والشرف .. وهم لم يأخذوا حكما مخففا بشكل كامل .. إنما خفف عنهم الإعدام والمؤبد ..

فتبسم شريف وقال كأنه متهكما : أين الشرف ؟! لقد حاولت أمي تقويم هذا الإنسان .. ولكن الدموع لا تقوّم الرجال يا أخ سمير .. حاولت إبقاءه في المدرسة .. ولكنه أصر على الفشل ، وأن الأسرة بحاجة لمن يعيلها ..فأصبحت الأسرة تعيله وتراعيه لعله يعود .. ولكن دون فائدة وهاجر للعاصمة للمال والعمل الأكثر .. حقيقة سيرة لا تسر أيها الصديق .. الحمد لله على كل حال ..لابد من زيارته .

ـ الزيارة مسموح بها وحسب المواعيد المقررة .. وسأحدث أخي ليرتب لك زيارة خاصة .. هل ستأتي أمك معك ؟

ـ لم أحدثها بشيء بعد ولن أروي لها شيئا مما سمعت وبعد زيارته لسوف أطلعها على شيء من قصته .. فهو ابنها لابد أن ترى ابنها العاق .

ـ سأكلم أخي بموضوع زيارتك وأنا آسف لإزعاجك بحديث أخيك .

ـ بل جزاك الله خيرا .. نحن لنا سنوات وسنوات لم نسمع عنه شيئا أكيدا .. فهذه القصة لم نسمعها من أحد غيرك ..هو أخي ولكنه كان بعيدا عن كل معارفه من أهل البركة .. كانوا يلتقون صدفة في السيارة في الشارع في المطعم .. ولو عرفت هذه القصة لأهل البركة لنقلت لأمي من قريباتها .. أو لعلهم عرفوا وصمتوا لخروجنا بعد موت أبي من بينهم .. ولكني أذكر أني تزوجت منذ عهد قريب ..ورأت بعض الجيران فالراجح لي أنهم لا يعرفون .

١٩

كانت حسنة أم قسيم تعرف متى يكون شريف منزعجا وقلقا من شيء يخص البيت والأسرة من النظر في وجهه وعينيه؟!.. فمنذ أيام والرجل يخفي ألما وحزنا ويبدوان واضحين على قسمات وجهه ، وكان يلزم الصمت وهي تنتظر أن يتكلم كعادته التي تعرفها فيه ، وظنت في نفسها أول الأمر أن بين الزوجين مشكلة خاصة ، فظلت محافظة على صمتها حتى طفح الكيل كما يقال ، فقالت لكنتها يوما : إنني أرى أبا ياسر منذ أيام مشغول الذهن يا أم ياسر هل من شيء يقلقه ؟!

فقالت يسرا : وأنا مثلك لاحظت ذلك ؛ ولكنه صامت ، وقلت لنفسي ربما هناك شيء في العمل .

ففرحت الأم بهذا الرد وقالت والسعادة تطل من عينيها : خشيت يا ابنتي أن يكون بينكم زعل شيء .. فلم أحب سؤاله عن ذلك .

ـ أبدا يا أمي .. كسائر الأزواج تحدث بيننا مماحكات خفيفة نسيطر عليها فورا ونتمالك أعصابنا .. أنا سعيدة جدا بزوجي وهو نعم الرجل

ـ وأنت نعم الفتاة والزوجة .. سعادتك هي سعادتي .. ولسوف أسأله الليلة فأنا أعرف ابني عندما يكون متضايقا من شيء خاص بنا.. بالبيت .. فضيق العمل ومتاعبه اعتاد أن ينساه بعد خروجه من مكان عمله .. لأنه يعتبر ذلك من لوازم العمل مهما كان .. قد لاحظت ذلك منذ أسبوع فاستحييت أن أحشر نفسي بينكم

ـ أبدا ..أنت أم رائعة ! واحشري نفسك بيننا ..عِشرة سنوات يا أمي .. اطمئني ليس من سوء بيني وبين العزيز شريف .. كلنا عيوب .. لا يخلو منها البشر !

ـ أنت بنت فاضلة ، وأنا أقدرك وأحبك كثيرا .

ـ أعلم ذلك الحب يا عمتي .. وأنا سعيد جدا بوجودك معنا .. فأنت نور حياتنا وبيتنا.. ولا أشعر بأي ضيق نحوك ..وأنا لن أجد حماة مثلك .. وأمي وأبي دائما يثنيان عليك الثناء الجميل

ويمدحان أخلاقك .

قالت : بارك الله فيك يا بنية ، وبارك الله في أهلك .. وجزى الله العميد يحيى خير الجزاء أن اختارك قرينة صالحة لشريف .

ـ نعم الصديق لأبي .. فكان كلما يراني يقول مبتسما " آه ، يا يسرا لو عندي ولد لكنت أفضل زوجة له بإذن الله " .. فسر أبي لما رآه يتدخل في زواجي ، وفاجأنا حقيقة باختياره يا أمي .

ـ الحمد لله .. الحمد لله .. بوركت يا ابنتي .. سأتكلم مع شريف ؛ لأنني لا أحب أن أراه منزعجا .. يبدو لي أنه عرف شيئا مزعجا عن أخيه التائه .. وقسيم ليس وراءه إلا الأخبار السيئة .. هداه الله .

ـ افعلي كما تشائين يا أمي الطيبة .. حتى أحفادك الأعزاء يحبونك أكثر منا .. لقد تعلقوا بك .

ـ حفظهم الله .. إنهم أولادي يا عزيزتي .. أنا حرمت من الذرية قبل مرض أبي قسيم .. حملت مرتين بعد ولادة شريف وأسقطت الحمل بعد شهرين تقريبا من كل حمل .. ثم علمت أن عندي مشاكل داخلية لا تسمح لي بالحمل وتحتاج إلى علاج مستمر والنتيجة غير مضمونة .. فرضينا بقسمة ربنا واكتفينا بشريف وقسيم الذي لا نعرف عنه شيئا منذ سنوات .



اطمأنت وارتاحت الأم حسنة على أن الزعل المرتسم على وجه ابنها لم يكن بينه وبين زوجه ، فقد وضعت في قلبها أن لا تتدخل بين الزوجين مهما حدث ، ومهما سمعت إلا إذا طلب منها الطرفان أن تتدخل ، ولكن الفتاة كانت طيبة وتحسن معاشرتها ، ولم تتبرم يوما من مشاركتها حياتهم ، وتتعامل معها كأم ثانية لها ، لذلك كان الاحترام بينهم متبادلا ، ولم تنظر يسرا لنفسها بأنها ابنة دكتور وعائلة غنية ، فهي تتحمل مسؤوليتها كاملة ، وتعرف لكل ذي حق حقه ومقامه .

والأم حسنة منذ دخل ابنها شريف الكلية العسكرية اعتبرته رجلا ، ولم تحاول التدخل في خططه وتفكيره إلا إذا فتح لها قلبه وأحب سماع مشورتها فكانت تتكلم وتبدي مشورتها

ورأيها ، وشريف كما مر معنا في الصفحات السابقة قد تحمل المسؤولية بقوة ، وعلم المطلوب منه لتسير السفينة بكل سلام وأمان .

وكانت مشاكل الزوجين والحياة الزوجية واختلاف وجهات النظر بينهما تحل داخل غرفة النوم بالتشاور وسعة الصدر ، وفهم كل منهما طريقة تفكير الآخر ، ووعيا قول النبي ﷺ (كلكم راع ومسؤول عن رعيته) .. ولم يتخلل حياتهم لحتى الآن مشكلة معقدة وكبيرة ، ويسرا سمعان استوعبت أم شريف وارتاحت لها .. فمشت الحياة هادئة منسابة كالماء المنهمر في نهر هادئ ، وكانا لا يتحدثان في مشاكل عملهما أمام بعضهما إلا في القليل النادر ، وخاصة شريف لأنه يعمل في مؤسسة مهمة، وليس من المستحسن ذكر قضاياها وهمومها أمام الناس .

لذلك لما رجع ذلك المساء ، وكانت الوجبة الرئيسية عندهم وجبة العشاء ، لأنه في فترة الغداء يكون في عمله ووظيفته ، وهم يحبون الاجتماع على المائدة ، فلما لبس ملابس البيت وصلى صلاة العصر ـ لأن الصلاة تدركه وهو في الطريق ـ التف الجميع حول المائدة المستقرة في المطبخ .. ولما ترفع الصحون والأوعية يتحولون إلى صالة البيت أو ما يسمى الصالون ..فتقدم لهم الخادمة الشاي ، وتضع أمامهم الفواكه ، فإما يتفرجون على برامج التلفزيون ، أو يتحدثون بما عندهم من أخبار الأهل أو ما قرأ أحدهم من خبر مثير في الجرائد .. وعند صلاة العشاء .. يذهب شريف للمسجد القريب إن وجد في نفسه خفة ونشاط بعد وجبة العشاء الدسمة في الغالب .. أو يصلي في البيت إذا كان مثقلا من الطعام .. ثم تقدم لهم القهوة في الصالون .. أو في أماكن تواجدهم لأن الأخ شريفا أحيانا كثيرة بعد صلاة العشاء يدخل المكتبة الصغيرة التي كونها في منزله فيصلي فيها العشاء ويبقى جالسا فيها ، فتأتيه القهوة تحملها زوجته أو أمه أو الخادمة .. فيتحدثون قليلا ، ثم يتركونه يقرأ .. ومكتبته هي مكتبه في البيت .. وتخرج الأم إلى الصالون لتشاهد مسلسلات التلفزيون أو تستمع لمحاضرة أو ندوة .. وأحيانا تجالسها يسرا وأحيانا أخرى تبقى فريدة وحدها لاشتغال يسرا بتحضير دروس مدرستها أو تصحيح كراسات الاختبارات .

ذاك المساء الذي حسمت حسنة فيه قرارها بمفاتحة شريف بالذي يضايقه فلذلك بعدما انتهى شريف من صلاته وطلب القهوة قالت له أمه هامسة : مالك يا شريف ؟!

ـ مالي !!

ـ لا يخفى عليّ حالك !..أهناك شيء عن قسيم ؟

ـ قسيم !!

ـ نعم ، لي أيام ألحظ حزنك وضيقك وأنت لائذ بالصمت لا تنفس عن نفسك .. والسرحان واضح عليك .. ولما تأكدت من عدم وجود شيء بينك وبين يسرا .. قلت الأمر يهمني أنا .. ولا يهمني في هذه الدنيا إلا أنت وأخوك .

نظر شريف إلى أمه وهو متعجب كما يقولون من حاسة الأم وابتسم ورد : أنا أعلم أنك تحبين الحديث معي من أيام .. عشرة عمر يا أمي .. تهمين بمفاتحتي بأمر ثم تكفين .. وأنا لم يكن لدي المعلومات الكافية .. فمثلك متردد في إسماعك أخبار أخي قسيم .

ـ أشركنا في همك يا ولدي .

ـ الهم يا أمي هو قسيم .

ـ ماله ؟!

قال : وصلني منذ أيام مضت أخبار سيئة عنه .

ـ مات ؟!

ـ أتخيل لو مات لوصلنا الخبر أسرع .. لا ، لم يمت ولكنه كميت يا أمي .. أيحتمل قلبك أخباره يا أمي ؟

ـ سيحتمل ، فقلبي تعود على تحمل المآسي يا شريف .. هكذا حوادث الدنيا بين نعم كبيرة ، ربما لا يحتملها القلب ، وبين نقم ونكبات يحتملها القلب .. تكلم .

قال : آه يا أماه! .. يجب أن أتكلم .. قسيم في السجن منذ سنوات .

ـ في السجن !.. وهذا الذي يضايقك .. وهل هذه أول مرة أسمع أنه في السجن يا أبا ياسر ..

رجل عاق لوالديه أين سيكون ؟

ـ سمعنا من قبل مثل هذه الأخبار ؛ ولكنه هذه المرة مسجون بقتل زوجته .. وضعت يدها على صدرها وتابع شريف كلامه : ألم تسمعي أبا همام يخبرنا يوما أنه تزوج رغم أنفه ؟

ـ سمعت ، قال لي ذلك العم أبو همام .

روى لها شريف ما سمعه من الضابط سمير ، ولما انتهى قالت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذا يا بني نتيجة المشي في طريق الضلال والزيغ ، والمشي مع أولاد الفجور والحرام والنساء الفاجرات .

لم تبك أم قسيم كما توقع شريف ، ولكنه أدرك الحزن الذي يغمر قلبها ، وتساءل "هل مات حب قسيم من قلبها أو ضعف؟ " ثم قال بعد فترة صمت : طلبت من صديقي الرائد سمير أن يؤمن لي زيارة خاصة عن طريق أخيه الضابط في السجن .. ولما كلمه الضابط محمود أخو سمير برغبتنا بزيارته ، وأننا قد علمنا بحبسه حديثا ، قال للضابط بغضب : هم لا يعرفون أنني مرمي هنا منذ خمس سنين .. كل البلد تعرف أنني مسجون " .. فأكد له الضابط جهلنا ، وأنه لم يرسل رسالة يخبرنا بها ، وأننا لا نعرف عنه شيئا منذ خمس عشرة سنة ..فقال لصديقنا " هؤلاء كذبة فجرة .. هم يعرفون كل شيء ؛ ولكنهم يستعرون مني .. لا أريد رؤية أحد منهم .. أنا لا أعرفهم ".. فقال له الضابط : " استقبل أمك وحدها " .. رفض يا أماه .. ولما أخبره الضابط بموت أبيه قال " سمعت " وسب أباه وشتمنا جميعا .. وما زال الضابط يحاول إقناعه بلقيانا .

ـ لا تحزن يا ولدي .. فقسيم منذ رحل من البركة تغير وقسى قلبه .. كان لا يأتينا إلا إذا احتاج لمال أو لم يجد أحدا يطعمه .. لقد غرق في الفساد وشرب الخمر وارتياد دور البغاء .. يعود إلينا ليس للسؤال عن أحوالنا وحاجتنا ويعطينا .. يطل ليأخذ فأعطيه بعض الدنانير فيعود من حيث أتى .. لقد نصحت وبكيت أمامه وترجيته أن يمشي على الطريق السوي على الصراط المستقيم وأن والده غاضب عليه .. فلم يهتز له شارب ، ويقول إذا لم نتمتع بشبابنا

متى سنتمتع ؟!.. عندما نشل مثل أبينا .. فألزم الصمت راجيا ربي تغيير الحال .. لكن الحمد لله ـ ورفعت يديها إلى السماء ـ الحمد لله .. الله عوضني بك خيرا .. وها هو وحده أكرمنا بأم ياسر البنت الحلال الأميرة الرائعة .. اجعلها في بؤبؤ عينيك يا شريف .. قسيم لا تشغل فكرك فيه .. انتهى من حياتنا كما يحب هو .. دع عنك الحزن يا شريف .. فقد تعودنا على غيابه .. حسبنا الله ونعم الوكيل .

٢٠

سعى شريف بعد فشله بلقاء أخيه للوصول إلى أبناء أخيه بمساعدة الضابط محمود أخو زميله سمير، فسأل الضابط محمود قسيما عن مصير أولاده ، ولماذا لا يأتون لزيارته ؟ فرد قسيم عليه بجفاء" إنهم ليسوا أولاده ، وإنهم يحملون اسمه كرها وغصبا عنه " عندما كان ضعيفا وجبانا عندما استسلم للزواج من أمهم رغم أنفه ، وذكر له أن المرأة الخائنة إذا خانت مرة استمرأت الخيانة ، وعندما وصل هذه الكلام لأشقاء زوجته المقتولة ، رفاقه في السجن والحكم ، نشب بينهم صراع وتهديد بالقتل داخل السجن ، حتى اضطرت إدارة السجن إلى نقل أشقاء المرأة إلى سجن آخر.

فشل شريف من مشاهدة أخيه ورفضه لزيارته رغم كثرة المحاولات والشفاعات ، ولم يفصح عن مصير أولاده للضابط محمود ، سعى الضابط محمود لمعرفة مصيرهم بواسطة دوائر الأمن الأخرى ، وتبين لهم أنهم كانوا يعيشون مع جدتهم أم البنت المقتولة التي وضعتهم بنفسها في بعض دور الأيتام ، ولما تبين لهم أنهم ليسوا بأيتام أعادوهم للمرأة الجدة ، ولعدم اهتمام الأم والأب بهم أخذتهم جمعية تبشيرية ، وفي الحقيقية تنصيريـة ، وقامت على رعايتهم فترة من الزمن ، ثم أخرجوهم من البلاد بدون علم أحد .. وثبت لرجال الشرطة أنهما لم يقتلا ، وإنما تم تصديرهم لدول النصارى وخاصة أمريكا الشمالية لحياة أفضل من حياتهم هنا بعد أن نبذهم أهلوهم ، وقد غيرت أسماؤهم وأصبحوا نصارى بعد تعميدهم كعادة النصارى .. وإلى هنا وقفت تحريات البوليس ، وتركت للأهل إقامة دعوى طلبهم وإعادتهم ، ولكن الأب

يرفض ويصر على البراءة من أبوتهم ، وأمهم هالكة .. فلزمت الشـرطة الصمت .. وكان قسيم مسرورا لاختفائهم من حياته للأبد .

وتألم شريف وأمه لهذا المصير السيء للطفلين ، وليس باستطاعتهم فعل شيء أمام عناد قسيم وسروره بهذا الأمر ، كما أعلن لهم الضابط محمود ذلك .. وما دام الأهل لا يستطيعون تقديم قضية للمحاكم المختصة .. فالحكومة ليست ملزمة في متابعة الموضوع ورفع قضية للمحاكم الدولية .. لأن الأمر سيبدو أمام المحاكم باختيار الوالدين ، ولم تكن هناك عملية بيع .. وصدم شريف من تخلي أخيه عن ولديه بسهولة وقال لنفسه مواسيا : " هو أعلم بهم ..وإنهم لا يحملون سوى اسمه .. قد يكون هذا صحيحا !"

وبعد حين من الألم والضيق رجع الهدوء لبيت شريف ، ولكن ظل يراودهم الأمل بأن يطلب قسيم لقاءهم والاجتماع بأمه .. وخرج قسيم من السجن بعد قضاء مدة الحبس كاملة ، ولم يحن لصدر أمه ، ولا لأخيه ، وظل مكابرا ومصـرا على عدم رؤيتهم وسماع صوتهم ومعانقتهم.



انتقل الأخ شريف للعمل في قيادة الجيش في قسم إدارة مشتريات الأدوات والمواد الهندسية في الجيش خاصة الوحدات الهندسية ، وكانت الحياة العسكرية تسير على خير ما يرام ، ولا تخلو الحياة بالطبع من المنغصات المعتادة من مشاكل العمل ، ومن موت صديق أو رفيق أو حتى من مرض الإنسان نفسه أو أحد أفراد أسرته .. لابد من هموم وغموم وأحزان هكذا سنة الحياة .. وحتى صاحبنا شريف نفسه دخل المستشفى العسكري عدة مرات لعلاج مرض عارض أو قلع ضرس أو لإجراء فحوص طبية .. ولكن بالمجمل كانت حياته رتيبة وطيبة بفضل من الله ﷻ .

وبعد حين يسير من عمله في قسم المشتريات عين مساعدا لمدير القسم الهندسي في القوات المسلحة كلها، وكانت بين يديه صلاحيات وأعمال كثيرة ، منها متابعة التدريبات والصناعات الهندسية داخل مصانع الجيش ومعسكراته ، الحرب الكيماوية ، الجسور الخاصة لسير الدبابات وناقلات الجنود عليها، وهندسة المتفجرات والألغام ، وبعض المحاضرات في كليات الجيش وأسلحته المختلفة.

وعلى حين غرة جاءته رسالة من أخيه قسيم ، وكان قد علم من بعض معارفه في الأجهزة الأمنية والشرطية بخروج أخيه من السجن ، وتفاجأ حقا من خطاب أخيه الذي جاءه على قيادة الجيش .. وكان فيه إخباره بخروجه من السجن ، وأنه ما زال يكرهه ، ويتمنى له التعاسة والمصائب والموت ، وبين السبب الذي دفعه لكتابة هذه الرسالة وهو المطالبة بميراث أبيه .

ألقى شريف الخطاب أمامه على المكتب ، وابتسم استغرابا وقال : ميراث أبي !! ميراث أبي !! هل ترك أبي شيئا ؟! .. حسب علمي أن أبي مات ولم يترك شيئا .. لم يدع وراءه درهما ولا دينارا .. ليطالب به هذا المجنون .. من قال له إن أباه ترك ميراثا ؟؟

وعاد وتابع قراءة الرسالة التي وجدها مليئة بالسب والتهديد إذا لم يحصل على الميراث المزعوم وتفاجأ في نهايتها بوجود رقم هاتف يمكنه الاتصال عليه لتسوية الميراث .

أعاد قراءتها ثانية وقال لنفسه : إنه بحاجة لفلوس ..أنا على استعداد لمساعدته إذا تعهد بالتوبة والأوبة .

ورفع سماعة الهاتف واتصل بالرقم الموجود على الورقة ، فوجده محل بقالة صغير في قلب العاصمة ، ولما أخبره الرجل أن أخاه ليس قريبا منه ، وعده بالاتصال ثانية في الساعة الثانية ظهرا ، فلينتظر مكالمته .

وما كاد يترك الهاتف حتى رن فرفعها ثانية وقال : نعم .. أهلا فواز .

فواز : هل صحيح أنه ثبت تخابر لعزمي مع جهة معادية ؟

ـ أنت أدرى يا أخي .. ألست في قسم الأمن العسكري ؟

ـ أنا أختي عبير حدثتني بذلك ، قالت إن زوجها عزميا مشتبه به في قضية أمنية ، وإنها علمت ذلك من قسم الهندسة حيث تعملون ؟!

ـ على كل حال أنا سمعت مثلما سمعتم .. ولكن ليس لدينا أوراق رسمية في عملية تخابر مع جهات معادية لمهندسي القيادة .. هل تحدثت معه ؟

ـ ممنوع الاتصال به .. هو موقوف في قسم مكافحة التجسس العسكري .. لقد توقعت وأملت أن يكون لديك المزيد من المعلومات .. رغم خطورة ما تحدثنا به .. فمعذرة وشكرا لك .

عندما وضع شريف السماعة عاودته الذكريات القديمة أيام تعرفه على عبير التي أصبحت فيما بعد زوجة لصديقه عزمي ..ورغم معرفة عزمي بأسرار عبير .. فقد تزوجها بعدما تركها زوجها الأول الذي طلبت منه الطلاق قبل أن تكتمل السنة الأولى للزواج .. فتقدم لها عزمي وقبلت به وتزوجا ..

وتذكر أنهم ابتعدوا عنه بعد زيارتهم لبيته أيام حي العمال في مدينة البركة .. وتذكر بعد ذلك أن الأمن العسكري اشتبه بعزمي هو ومجموعة من الضباط بالتخابر مع جهات أجنبية والعمل لصالحها داخل قيادة العسكر .. وهو يعلم أن الأمر لا يعدو سوى تحقيقات أولية .. ولم تكشف كل الخلية .. وقد لا تحدث محاكمات .. فهو يعلم أن بعض الضباط تستهويهم الاتصالات الخارجية للحصول على جنسيات أخرى ، والرحيل لتلك البلاد عند التقاعد والانصراف من حياة الجيش .. للحياة في بلاد الأجانب .. فتراهم يتهاونون في نقل أسرار الجيش وصفقات السلاح لتلك الدول طمعا بجواز سفر أجنبي .

ولما بلغت الساعة الثانية بعد الظهر اتصل شريف بالبقالة وعرف بنفسه ، وسمع البقال ينادي على أخيه قسيم فقال : أهلا يا قسيم .. الحمد لله على السلامة .. السلام عليكم .

ـ لا سلام ولا كلام .. أنت عدو لي .. أنا مضطر للحديث معك .. أريد حصتي من ميراث

أبيك ياسر.

ـ رحمه الله .. يا رجل قبل ميراث أبيك ..اسأل عن أمك.. التي ربتك وعانت من أجلك ما عانت وما زالت ، والتي كانت تصرف عليك من المال الذي كانت توفره .

ـ أنا لا أم لي ولا أهل .

ـ ليس لك أم ولا أهل ، ولماذا تطلب ميراث أبيك ؟.. إذا كان له ميراث

ـ أبي لم يقف ضدي ولم يعادني .

ـ أنت عاديت نفسك .. أنت عدو نفسك .. لنتقابل لنعرف هذا الميراث المزعوم الذي تطالب به .. أمك حسنة رغبتها أن تراك قبل أن تموت

ـ أنا أريد فقط ميراث أبي .

ـ وهل تأخذ ميراث أبيك على الهاتف؟.. تعال على القيادة .. سأنتظرك على الباب وندخل النادي الخاص .. ونتحدث عن ميراث أبيك ..وما هو ميراث أبيك ؟.. ذكرني به ؟

ـ ما زلت لا تعرف الميراث يا حضرة الباشا ؟ .. ميراث أبي يا حضرة الباشا .. الدار .. ألم يترك أبي لنا الدار ؟ .. وقد بعتها لفلان من الناس .

ضحك شريف وقال : بعتها !! .. هكذا قالوا لك .. لابد من المقابلة للحديث بموضوع الدار



٢١

انتظر شريف أسبوعا كاملا ليتصل به أخوه قسيم وآخر ولم يحدث الاتصال ، وكلما تحدث مع البقال أخبره بأنه لم يره منذ حين ، فأخذ منه عنوان البقالة ، وزار المكان وتعرف على البقال ، وسعى لرؤية أخيه أكثر من مرة ؛ ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، ونتيجة لهذا الغموض زار شريف صديقا له من كبار ضباط الأمن والشرطة ، ومن رجال البحث الجنائي ، وفاتحه بموضوع قسيم ، وأعلمه شريف بأن هذا الرجل شقيقه، وطلب منه أن يساعده باللقاء به ، فأخبره الضابط أن هذا الرجل معروف لدى دوائر الشرطة وأنه سجين سابق.. ولكنه تفاجأ بأنه شقيق له ، فأطلعه شريف على طرف من حكايتهم ، ووعده الضابط أن يسأل له عنه قائلا : إذا عرفت عنه شيئا سأخبرك بك .

ـ اتصل يا سيدي على مكتبي في قيادة الجيش .



كان شريف يعتقد أن أخاه بعد خروجه من السجن بعد كل هذه السنوات خلف القبضان سيعود للطريق السوي ، وأنه أخذ درسا مفيدا من قضائه كل هذه المدة وراء القضبان ، وسيترك الفجور ، ويكف عن الشرور ، ويبدأ حياة جديدة ، فكان يطمح بأن يساعده ماديا ومعنويا ، ويعينه على الزواج من جديد لعل وعسى .. ويصفى قلبه تجاه أمه وأخيه ، وبعد محادثته لقائد البحث الجنائي العام ، تلقى اتصالا من العميد دبور فقال لشـريف : بعدما عرفتني بأخيك بل على اسم أخيك .. وبينت لي رغبتك بمساعدته على ابتداء حياة نظيفة وجديدة وإبعاده عن حياة الضياع .. وأنا مهتم بأمره يا سيدي !

ـ لك مني أفضل الشكر ، وجزاك الله خير الجزاء يا سيدي .. أحب أن أخلي ذمتي نحوه .. وهو أخي مهما انحرف وضل .. وتلزمني رعايته إذا تعاون معي ورغب بحياة صافية هادئة.. فهو الآن بلا زوجة ولا أولاد .. ولا مأوى .

ـ جميل منك هذا أيها الأخ الكريم !.. ضابط كبير مثلك يفعل ذلك أو يسعى لذلك فهذا نبل نادر .. فبعض الناس ربما يستعر من ذلك ويخفيه .. المهم أنني قمت بالاتصالات اللازمة والدقيقة .. فتبين لي أنه بعد تاريخ مكالمتك معه خرج من البلد .. قد سافر لجزيرة قبرص.

ـ سافر ؟!

ـ نعم ، بعدما أطلق سراحه وقضاؤه مدة الحكم ، جدد جواز سفره ، وهو غير ممنوع من السفر فقد قضى محكوميته كاملة.. وهو غير مطلوب للإنتربول الدولي ، هو قد كان مجرما محليا وغير متابع دوليا.. وعلمت ذلك من رجالنا في المطار لأنه سافر جوا ، وقد كان بصحبة فتاة اسمها أو تسمي نفسها " نبيلة زوف " يبدو أنها أجنبية متعربة .

ـ والفلوس ؟!

ـ السجن يا سيدي العميد يسمح للسجناء بالعمل داخله .. ليعيل نفسه وأسرته إذا كان متزوجا ..وفي السجن يتعلمون الحرف والمهن المختلفة حتى إذا خرجوا منه ، وأحبوا الحياة الكريمة يكون لديهم حرفة يعملون بها .

ـ ما العمل الآن يا سيدي العميد ؟

قال : عندما يدخل البلد بإذن الله تعالى سأتحدث معك ، فقد طلبت من رجالنا المساعدة في هذه الخدمة لحضرتكم ..وأنا أقدر شجاعتك وحبك لأخيك رغم سمعته السيئة .

ـ جزاك الله كل الخير .. هذا واجب عليّ .. لا تنسى يا سيدي الاهتمام بهذه المساعدة .

ـ توكل على الله تعالى .

ولما وضع شريف سماعة الهاتف علق قائلا : سافر للخارج !.. ماذا يفعل في قبرص ؟! .. هل ذهب يبحث عن أولاده ؟ وإنما هجروا لأمريكا .. ومن هي نبيلة زوف ؟! .. والله إني راغب

في إنقاذه والوقوف بجانبه ، ما تبقى لنا في هذه الحياة الدنيا !..ألا يحب حياة السكون والحياة الوادعة الطيبة ؟ .. قبرص يا قبرص !! إنها جزيرة في البحر الأبيض المتوسط .. هل سيشتغل هناك ؟

٢٢

ذات نهار وصاحبنا شريف مشغول الفكر بسفر أخيه إلى جزيرة قبرص التي قسمت إلى دولتين قبرص التركية وقبرص اليونانية ، وما زال الصراع بين تركيا واليونان على تلك الجزيرة التي فتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أخبره سكرتير المكتب أن امرأة ترغب في مقابلته ، فقال دهشا: امرأة ! .. كيف وصلت إلى هنا ؟

ابتسم السكرتير وقال : زوجة أحد الزملاء .

ابتسم هو الآخر بدوره وقال : آ .. فهمت فلتتفضل .

فلما دخلت المكتب تفاجأ شريف حقا بها ، فهو منذ عهد بعيد لم يرها إنها السيدة عبير أخت فواز وزوجة عزمي ، فنهض عن كرسيه محييا ومرحبا ومشيرا لها بالجلوس على أحد المقاعد ، فلما جلست رحب بها ، وقرع جرسا فدخل عامل الخدمة للمكتب قائلا : سيدي !

ـ حسن .. انظر الأخت الكريمة ماذا تشرب ؟ أنا أعرف أنك تحبين القهوة .

قالت باسمة : لم تنس بعد !

فضحك وقال : وكيف أنساك يا سيدتي ؟!.. وأنت أول امرأة اقتحمت حياتي ..

ـ أول امرأة ! .. ألم تتعرف على فتيات المدارس أيام المراهقة ؟

ـ لم أتعرف .. وكنت أنت أول امرأة تعرض صداقتها عليّ ورفضتها .. أنا لم أعرف هذا الذي يسمونه الحب والعلاقات العاطفية .. أحسبه عبثا يا سيدتي عبثا!.. وعندما درست في كلية عسكرية كانت النساء فيها قلة ، ولا يسمح بالعلاقات العاطفية بين المجندين والمجندات .. وأكثر الطالبات من أبناء كبار الضباط .. ومن الصعب أن يغامر ضابط في تلك الأيام وهو تلميذ مستجد .. أهلا وسهلا

قالها عندما دخلت القهوة ووضعت أمام السيدة ، وانصرف حسن ، ورشفت المرأة رشفة ، ونظرت في عيني شريف الذي كان يراقبها أيضا ، فابتسمت ووضعت الفنجان قائلة : كيف زوجتك المدرسة والأولاد ؟.. لقد نسيت اسمها .

ـ لا حرج ، ليس مهما أن تتذكري اسمها ؛ ولكنها كانت الزوجة اللائقة بشخص مثلي .. يا سيدتي !

ـ والأم الفاضلة ؟

ـ كلنا بخير .. والحمد لله .

ـ رائع يا سيدي! أنا جئت أتحدث إليك بشأن صديق أو أخ لك كان اسمه عزميا.

ـ وما زال صديقا وأخا .

ـ نعم .. رفيق سنوات الكلية والجيش وهو زوجي كما تعلم .

ـ أعلم ، وكان بودي يوم زواجكم أن أشارككم الحضور بشخصي .. لكن كان عندي يومها ظروف شرحتها للزميل عزمي .. أكيد أنك جئت من أجل عزمي.. وليس من أجل رؤيتي.. ماذا تريدين مني ؟

ـ أرجو أن استفيد من هذا اللقاء .

ـ ما الذي ترغبين معرفته عن الزميل عزمي ؟ أنا قد فوجئت حقيقة بزواجه منك يا أخت عبير .

تبسمت وهي ترد : وأنا نفسي فوجئت بخطبته لي .. وكنت خارجة من زواج فاشل فقبلته على الفور دون تردد .. لا أدري لماذا ؟! كأني خشيت أن أظل أحمل لقب مطلقة .. جئت أسالك أيها الصديق القديم .. هل حقا عزمي جاسوس ؟!

بحلق شريف لحظات في سقف المكتب وقال لها ببطء : وماذا قال لك الأخ عزمي عندما سمحوا لك بمقابلته ؟

ـ وتعرف أنني قابلته ؟!

ـ هذا جيش يا أخت عبير .. والمقابلة مسجلة .. والسماح بزيارة مشتبه به في قضية خطيرة في الجيش ليس سهلا .. ولولا أخوك فواز .. وابن عم أبيك اللواء المتقاعد ما تمكنت من مقابلته قبل تقديمه للمحكمة العسكرية .. ودخولك عليّ معلوم لأمن الجيش .

ـ نفى أن يكون عميلا لأي جهة .

ـ رغم الخطر في هذا الموضوع هنا ، وحساسية القضية يمكنني أن أقول لك أن الأخ عزميا لم يثبت عليه التجسس لحتى الآن .. هو كان في المكان الخطأ والأصحاب الخطأ .. للأسف بعض ضباطنا لما يكونوا في دورات خارجية يختلطون إلى نساء تلك الأمم .. وبعضهم يتصرف بغير مسؤولية ، ويقع في الشهوات والسهرات غير الآمنة .. ويظن أحدهم أنه قائد الجيش الأعلى والأكبر ..ويعود لبلده ليعمل كمخبر أو عضو في شبكة تجسس .. وهنا يعاد تأهيلهم وإعادتهم للصف الوطني والمخلص للوطن .. وأولئك يجندونهم بذكاء .. فالبعض يجند تجنيدا كاملا للعمل مع العدو .. والبعض الآخر يوهم بأنه مجند لتضليل أمن البلد .. فالأخ عزمي لحتى الآن يا سيدتي لا يعرف موقعه في الشبكة التي قبض على الكثير من عناصرها .. فقبض بالخطأ على البعض في اجتماع سري أم هو مجند حقيقي وأنا لم اطلع على ملفات التحقيق ، وذلك ليس من اختصاصي .. ولكن بحكم مركزي الإداري أسمع .. فأنا لا أستطيع أن أنفي عنه الجاسوسية ولا أستطيع إثباتها .. ولكن عندي أمل كبير أن يكون بريئا .

ـ عندك أمل حقيقي ؟.. أم تريد أن ترفع من معنوياتي يا سيدي العميد !

ـ صدقي يا سيدتي لو كان في هذه القضية مجال للشفعة والوساطة لساعدت الأخ عزميا للصداقة القديمة بيننا .. ولكن في هذه القضايا لا يصلح التوسط قبل إنهاء التحقيق والمحاكمة .. فعليك بالصبر والتحمل ، ولا أقول لك كفي عن السعي في معرفة موقفه وحقيقة دوره مع احترامي للجميع .. فالأخ عزمي كان صاحب شراب وشره في ذلك .. وهذا لا يصلح أن يكون عميلا .

وقالت : أشكرك أيها العميد .. وكلامك واستقبالك لي .. وشجاعتك تؤكد لي أن معدنك

أصيل ، وأنك أهل للوفاء .. وأبارك للأم التي ربتك ، وسلم عليها أحلى السلام ، وكذلك زوجتك العزيزة .. فأنت خدمتني أكثر من أخي فواز .

ـ لا تعتبي على أحد .. ففواز موقفه دقيق أيضا .. فهو قريب عزمي وأخ زوجة عزمي ..لا تنسي ذلك .

قال : هذا ما ردده أمامي .

ـ كان الله في عون الجميع .

ـ شكرا مرة أخرى .. ونهضت مغادرة ، ووقف صاحبنا محييا ، وقد ضغط جرسا فدخل السكرتير فقال له : أوصلها إلى الباب يا سيدي الرائد .

كان منزل الأخ شريف في مدينة البركة يعج بالأنوار والأعلام والألوان والصياح ، كان الرجل يحتفل بتخرج ابنه الثاني يحيى من الجامعة فرع الآداب متخصصا في اللغة الفرنسية ، ولقد كان المجال أمامه مفتوحا للعمل في محطة التلفزيون الوطنية في قسم البرامج الفرنسية ، والذي شجعه على دراسة اللغة الفرنسية خاله العامل في تلك المحطة والحامل لنفس التخصص ، بل تلقى الشاب وهو في السنة الأخيرة للدراسة عرضا للدراسة في فرنسا للحصول على الدراسات العليا ، وفي أشهر جامعتها السوربون ، أما الابن الأول فكان يدرس في كلية الطب ولم يتخرج بعد ، فالطب يحتاج لسنوات أكثر من الآداب ، وكانت الجدة حسنة تجلس في الحفل كالعروس بين النساء من قريبات وجيران ، وهي فرحة وتغمرها السعادة والحبور، وهي تتودد لجاراتها القديمات من نساء حي العمال ، ولأخواتها وبناتهن ولقريبات وأخوات زوجها ياسر، وكانت تهمس في أذن أخت زوجها التي كانت تجاورها في البيت القديم ، وتستعين بها لرعاية شقيقها عندما تذهب لعمل ما : كنت أتمنى أن يشاركنا هذه السعادة أخوك ياسر رحمه الله .. لكنه سبقنا إلى رحمة الله .

تساقطت دمعات على خد الأخت وهي تقول : يا ليت !.. لكن كان الموت رحمة الله له .. ما عند الله خير لعباده .

كان شريف رغم المنصب العسكري الذي ارتقى إليه يصل الرحم خالاته وعماته وأعمامه وأخواله وبعض جيرانهم ، ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم كلما تيسـر الأمر له ، وإن لم يستطع بنفسه كان يرسل أمه ، ومرات يرسل معها زوجه ، فالواجبات الاجتماعية كان يحب المحافظة عليها قدر المستطاع ، ويراها من الأعمال الموروثة والطيبة ولا يجب التهاون بها ، وعوّد أبناءه على ذلك .

وهذه الحفلة قام بها رغبة لأمه ولزوجه وبعد تشاور قبل فعل هذا الحفل ، وتم تزيين البيت بالأنوار ودعوة الناس إلى حديقة بيته الكبيرة .. وتم تقديم الطعام والشراب الطيب للناس .. والشاي والقهوة .. وكان شريف يستقبل زواره من الضباط في الجيش والشـرطة والطيران ويرحب بهم أحسن الترحيب .. وكانوا يحيون ليلة من العمر .. فالفرح والسعادة لحظات تعبر في حياتهم يكسبونها من مشاكلهم وأشغالهم في الصراع في هذه الدنيا من أجل التقدم والتطور والمستقبل .. وبعد نصف الليل بساعة انتهى الحفل بنجاح يحيى .. ثم قام العمال المشرفون على الحفل بتنظيف المكان ، وسحب المقاعد وإنزال الأعلام والرايات ، ومع بواكير الفجر اختفى كل شيء كأن لم يكن هنا سهرة واحتفال .. وبعد انصراف العمال دخل العميد إلى حجرته لعله ينام ساعة أو ساعات ؛ ولكنه لم يكد يخلع ثيابه التي كان يستقبل بها ضيوفه حتى ارتفع صوت الأذان في المسجد القريب مناديا لصلاة الفجر.. فاستعد لذلك ، وانطلق لصلاة الجماعة كعادته ، ولما دخل المسجد وجد أبناءه الثلاثة في صحن المسجد ينتظرون إقامة الصلاة فقال لنفسه : الحمد لله الذي وفقني لتربية هؤلاء الشباب .. ورحم الله من فقدنا من الأبناء .

هو فقدهم أثناء فترة الحمل ، لم يفقدهم بعد الولادة ، وأحس أنه قام بواجبه نحو أبنائه بتوفيق وفضل من الله ﷻ .

٢٣

دخل شريف مساء ذات يوم حجرة أمه داعيا لها إلى طعام العشاء ، ففوجئ بها تبكي وتتنهد فاستغرب وقال قلقا : أمي ما يبكيك ؟!

مسحت الدموع التي أبت الانقطاع وقالت من خلالها : أهلا بك يا شريف يا قرة العين .. تذكرت أباك المسكين رحمه الله .. لو قدرت له الحياة لهذا الحين لرأى ما نحن فيه من نعيم الدنيا .. وتذكرت أخاك العاق ..

همس شريف متأثرا : رحم الله أبي الرحمة الواسعة .. ما عند الله ﷻ هو الخير كله .. ونعيم الدنيا زائل ومخلوط بالمنغصات والآلام يا أمي .. لا تحزني يا أمي .. دائما الخيرة فيما يختار الله لنا آلاف الناس إن لم يكن ملايين يموتون وهم فقراء.. هذه سنة الله في خلقه.. يولدون فقراء ويهلكون فقراء .. الله هو الذي يقول " { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} " .. وأما الأخ قسيم .. أنت تعلمين يا أمي كم سعيت للقياه! .. وقد تمنيت أن يكون بيننا .. توقعت أن يعود من السجن لنا للحضن الدافئ .. حضن أمه ..وكنت أنوي شراء بيت له وتزويجه من امرأة صالحة .. ليبدأ حياة جديدة ..وأن يكون قد استفاد من حياة السجن والحبس .. لكنه كما أخبرتك سابقا خرج من الوطن كله ، هاجر لقبرص مع امرأة روسية أو أرملة روسية .

عادت الأم تتنهد وتمسح العينين وتقول : رغبت برؤيته وأن أعانقه قبل موتي .. أحس أن أجلي قد دنا .. وانتهت رسالتي في هذه الحياة ..

ـ أطال الله بقاءك يا أمي .. حتى تقر عينك برؤية قسيم وأحفاده إن شاء الله .. والأمر لله من قبل ومن بعد .. الهم الذي عندك عليه هو عندي .. هو أخي يا أمي .. ونحن فتحنا له صدرنا منذ عهد بعيد .. ولكنه اختار الدرب المؤلم درب العذاب والشقاء .. ماذا يفعل في قبرص؟

ـ رضي الله عنك يا ولدي الغالي .. هيا بنا إلى الطعام فإنهم ينتظروننا .. كنت أنت العوض يا ولدي أنت البر ..أنت العزيز الغالي على قلب أمك .. مات أبوك وهو سعيد بنجاحك وكبر

عقلك ومعرفتك لطريقك .. مات وهو راض عليك كل الرضا .. وكان يقول " إذا مت مت وأنا مطمئن عليك يا حسنة .. فولدك شريف رجل بمعنى الكلمة" .. احتضن شريف أمه وذرفت الدموع وهو يقول : أنتم كل دنياي يا أمي .. لقد كان الألم يعتصر قلبي كلما أنظر لأبي الإنسان مسكين عندما يصبح ضعيفا لا حول له ولا قوة .. لولا الإيمان لهلكنا .

ـ سامحني يا بني على لحظات الضعف التي تنتابني ..

ـ ابكي يا أمي كما تشائين .. لو تدمع عيناي على أخي لتركتها تهطل الدمع ليل نهار .. السعادة الكاملة لا تتم إلا إذا اجتمع شملنا بأخي قسيم .. هداه الله .

قالت : رفع الله من مقامك يا ولدي .

ـ بارك الله فيك يا أمي! .. لا تظني أن منصبي يجعلني استعر من عودة قسيم إلينا .. أبدا يا أمي .. وربما قريبا أحال على التقاعد .. فأنا على وشك إنهاء ثلاثين سنة خدمة في القوات المسلحة .. فقد حان لي أن أستريح فلكل بداية نهاية .. الحمد لله الذي وفقنا وأتم عليّ النعم بالزواج والأولاد والأم العظيمة والزوجة الطيبة .. إنني سعيد بكم جميعا .

ـ ما أخبار والدة زوجك ؟

ـ هي بخير ، وستخرج قريبا من المستشفى ، تعرضت لجلطة قلبية خفيفة .. أو بداية جلطة .. وهي بخير وتسلم عليك وتطلب الدعاء لها منك ومن الأولاد .

ـ وهبها الله الصحة والشفاء .



٢٤

كان الأخ شريف يدرك إدراكا تاما أن الأم مهما جفاها ابنها وعقها تُكن له الحب والشوق ، هذه هي الفطرة التي فطرها الله ﷻ عليها {فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا }وكيف بقسيم وهو ابنها البكر وأول فرحة لها بالأمومة والنضج ؟.. وكان حزينا لضياع أخيه ، ومن ترديه في مهاوي الفسق والشهوات المحرمة ، ومن سلوكه السيئ لنفسه أولا ولوالديه ثانيا .. لقد كان من أعماق قلبه يتمنى أن ترى الأم ولدها القاسي القلب قبل مغادرتها الحياة من فوق الأرض وكلكم يذكر الجهود التي بذلها لزيارة أخيه في السجن واللقاء به أو بأمه ، وذاك القسيم يرفض بإصرار وعناد ، وخشي أن ينفذ تهديده بالانتحار إن اقتربا من السجن عنوة .

كان قسيم ياسر ينظر إليهما كأنهما سبب شقاوته ومعاناته وفجوره ، غير مبال بعاطفة أمه نحوه فهم اجتهدوا وسعوا لمساعدته وانتشاله من أوحال الضياع ، وهو غير حان لأمه ، وغير عابئ بحنان الأم .

هو الذي ترك مدينة والديه راحلا للعاصمة باختياره طامعا بفرص عمل أكثر ومال أكثر.. مع أنه كان بإمكانه العمل سائقا عند أصحاب السيارات وخطوط النقل في البركة .. فأمه هي التي دعمته بالمال المتوفر لديها ليتعلم القيادة بعد فشله في احتراف أي حرفة .

هذا كله أيضا يتذكره شريف بينه وبين نفسه ، ويتعجب من قسوة قسيم ، وكان يتوقع أن يطلب لقياهم وهو يقبع في السجن ، ويفتح معهم صفحة جديدة وحياة جديدة .. وكان يمني نفسه أن يقدم له شيئا ماديا يعيد الصفاء لأمه المهمومة عليه ..عادت به الذكريات لأيام مرض والده .. وتذرع قسيم بضعف أبيه ورغبته بترك المدرسة ؛ ليكون سيد البيت والمعيل للأسرة .. فعمل نجارا .. وعمل حدادا .. وعمل في تركيب المواسير التمديدات الصحية ..والتدفئة المركزية ..ومع البنائين .. لم يعرف الاستقرار في مهنة .. ولا حتى مع الباعة .. حتى حصل على رخصة القيادة .. فظن أنه أصبح قائد طائرة بوينج .. ثم هاجر لعاصمة الأحلام .. ولم يرسل شيئا من المال للأسرة القلقة بحجج كثيرة ..ومع ذلك كان يستقبل ويرحب به كأن

شيئا لم يحدث وليس مطلوبا منه شيء .. أين عداوتنا له التي يزعم ؟! .. رفضي لأموال الزكاة لأن حاجتنا إليها انتهت.. ولكن قلب الأم مليء بالعطف والحنان والحب .. مهما فعل الابن .. قد يبدو قاسيا في لحظات معينة ولكنها لحظات خاطفة قصيرة .. وتجلت قسوته عند وفاة أبيه لم يحن لأمه ويشفق عليها تلك الساعة .. يا إلهي رحماك !

وأنا مهما أساء لي لا يهم ، أما أمه وأبوه لا يصح .. يا الله ارحمنا ! .. أبي مات بحسـرة .. كان يسأل عنه كلما عاد لوعيه في أيامه الأخيرة .. هل جاء العاق ؟! هل أتى العاق ؟! ..كان يرغب برؤيته وهو يغادر الدنيا .. يراه وهو يحتضر.. ورغم الرسائل التي كانت ترسل إليه من أبناء الحي والأقارب .. كان لا يعيرها أدنى اهتمام ..وها هي الحبيبة التي أحببتها الحب الكبير تردد نفس الأمنيات .. يا الهي لا تحرمها من رؤية الولد العاق قبل مغادرتها دنيا الأحياء .. سأعاود الاتصال بالزميل دبور مدير البحث الجنائي .. يجب يا قسيم أن تأتي لترى أمك .. لتعانقك يا قاسي القلب .. أنت زعلان مني ..أمك لماذا تزعل منها ؟! وتسبب لها كل هذا الألم والحزن .. يريد المجرم أن يرتكب جريمته وبوائقه ولا يعاتبه أحد .. وينكر عليه تلك الأفعال .. يريد أن يقتل ولا يعاقب بالسجن أو الإعدام

بعدما تذكر هذه الصور والمشاهد التي مرت بهم دخل مكتبه واتصل بالضابط دبور مذكرا له بنفسه ، فأكد له الرجل أنه لم ينسه ، وما زال يذكره ، وما زال يتابع وعده، وسوف يعاود الكرة الليلة بالحديث مع زملائه في المطار ، وحتى مع نقاط العبور البرية والبحرية ، فشكره شريف وقال : إنها رغبة أمي العجوز أن ترى ابنها قبل الموت .. واعلم يا صديقي أنني أكون أسعد إنسان لو تحققت هذه الرغبة لنا .. لها أكثر من عشـرين سنة لم تره .. ابن عاق جاحد .. لا يعرف ما في قلب الأمهات .

٢٥

كل متابعات العميد دبور كانت نتيجتها سلبية ، فمنذ غادر الرجل البلاد جوا لم يعد إليها بعد ، ووعد العميد شريفا بالاستمرار في الانتظار ، ووضع اسمه على قائمة المطلوبين لمراجعة الأمن عند دخولهم البلاد ، وتسمي العامة هذه القائمة بالقائمة السوداء ، وذهب شريف بزيارة خاصة لزميله في دائرة البحث والتحري الكبرى ليشكره على تعاونه ومساعدته ، ومن ثم قص عليه بعض قصته مع شقيقه قسيم .

واتفق شريف على دعوة زميله إلى غداء في أحد صالات الفنادق الكبيرة ، ورفض اعتذار الرجل وأصر على ذلك الغداء ، وغادر مبنى الدائرة آملا بسماع أخبار من جزيرة قبرص ، فمدير الدائرة وعده بالاتصال ببعض زملائه في قبرص ، ووفى بوعده فاتصل بالعميد شريف وأخبره أن أخاه قد انتقل إلى اليونان ، وأنه قضى أسبوعين في قبرص فقط ، فاعتذر شريف عن إشغاله صديقه بقضية خاصة، فرد العميد دبور : أتخيل أنني أقدم خدمة لأمي يا أبا ياسر .. الأم غالية عندنا .. فتحياتي لأمك وسلم عليها سلاما خاصا مني .. والأمر بيد الله ﷻ وأرجو أن يعود الرجل وما زالت أمك على قيد الحياة وبصحة جيدة إن شاء الله .

فسر شريف لهذه الكلمات وقال : إنني عاجز عن شكرك يا سيدي العميد

وبعد هذا الاتصال بأسابيع اتصل العميد دبور ليلا مخبرا السيد شريفا بدخول أخيه قسيم قبل دقائق البلاد ، وأنه سمح لشرطة المطار بعدم توقيفه ، وأنه غير مطلوب للبوليس وأن المطلوب مراقبته فقط ، وأخبره أنه قادم من إيطاليا وبصحبة تلك المرأة الأجنبية، وأن رجالنا شاهدوه يركب سيارة أجرة لقلب العاصمة ، ولسوف نعرف مكانه فيها بعد .

ـ شكرا لكم جميعا .. عسى أن نعرف أين استقر ؟ ولسوف أذهب لبيته وأتواجه معه لعله يلين ويرضى بزيارة أمه قبل فوات الأوان .

وفي اليوم التالي لدخول الرجل البلد ، وبعدما قام شريف ببعض واجبات العمل وانتصف النهار تحدث مع ذلك البقال الذي وصله بأخيه يوما .. ولكن البقال خيب ظنه وأخبره أنه منذ

زمن طويل لم يره وعلم أنه مسافر .. فأدرك شريف بأن أخاه لم يمارس مهنته بعد .. وأن عليه أن ينتظر أياما لعله يظهر قبل أن يلجأ للشرطة من جديد .. وتساءل من جديد : من هذه المرأة التي صحبها لأوروبا وعاد معها ؟! هل تزوجها ؟ لابد أنها من غواني البلد .. فالطيور على أشكالها تقع ..أليس هكذا يقول هذا المثل ؟ .. سنعيد الكرة مع هذا البقال .. وأعاد الكرة خلال الأسبوع عدة مرات .. والرجل يؤكد له عدم عودته للعمل على خط السير .. وأن رفاق الخط يؤكدون عدم مجيئه من السفر

فوضع السماعة بحدة وهو يقول : هل يرفض الحديث معي هذا اللعين ؟ فيطلب من البقال إنكار وجوده .. سنعود لرجال الشرطة هم الأقدر على الإجابة .

من أجلك يا أمي سأفعل كل شيء .. ولن اهتم بهذه النجوم المعلقة على كتفيّ .



٢٦

وبينما السيد شريف يسعى ويجد للقاء أخيه العائد من أوروبا كلفته القيادة بالسفر في رحلة مشتريات للقوات العسكرية ، وبزيارة معارض عسكرية في أنحاء متفرقة من العالم ، وذلك ضمن لجنة شكلت لهذا الغرض ، وهذه اللجنة أحيانا تستغرق شهورا وهي تدور في المعارض العسكرية ، وتتجول في مصانع الأسلحة العالمية لعقد الصفقات ، وتتكون اللجنة من عدد كبير ومتنوع من الضباط للشراء وشحن الصفقات للبلاد .. فرافق الرجل اللجنة مندوبا عن سلاح الهندسة العسكرية .. والرجل متفان في خدمة وطنه وجيشه، ومنفذا لكل ما يطلب منه بدون تردد .. ربما تكون هذه المرة الوحيدة التي تمنى فيها أن لا يذهب في هذه الرحلة الطويلة للمشتريات والتجوال .. وفكر في الاعتذار ؛ ولكنه لم يعتد على هذا التخلف والاعتذار عن أي مهمة توكل إليه .. ولكن حلمه بأن ترى أمه أخاه العاق كان يلح عليه بالاعتذار .. وأمام الواجب الوظيفي ورغبة قائد الجيش على سفره .. رضي بمرافقة البعثة العسكرية ، ولم يبدُ عليه أي اعتراض، وإن بدا مهموما وقلقا على غير العادة التي يعرفه عليها كبار الضباط مما دفعهم عن الاستفسار عن سبب هذا الهم والحزن .. فتظاهر بكبر السن وضعف أمه وخشيته من موتها أثناء هذه الرحلة .

هم يمرون على المعارض التي دعوا إليها ، وقد يعقدون صفقات شراء بعض الأسلحة التي راقت لهم وهم يزورون أيضا مصانع لعقد صفقات توريد أسلحة وقطع غيار .. واستمر هذا العمل ثلاث أسابيع على الأقل في كل دولة قبل أن ينتقلوا لغيرها .. وربما يسبق بعضهم بعضا لمشاهدة عرض في أحد المعارض قبل إغلاقه مع أن معارض الأسلحة ربما تطول مدة العرض فيها عن المعارض الأخرى كالكتب والثياب وغير ذلك .

لقد كانت هذه الرحلة من أصعب الرحلات على نفسية صديقنا شريف خاصة .. ففي الرحلات السابقة كان يصاب بالفرح والسعادة ، وكان أحيانا يسعى إليها بنفسه .. ففي هذه البعثات تغيير روتين .. سياحة في الأرض .. فائدة مالية خاصة ..فيستمتع المكلف بمشاهدة

بلدان العالم وعادات الشعوب المثيرة للدهشة .. ومن عادة السائح التردد على الأماكن المبهجة للنفوس .. ويرون ما صنعه الإنسان على مدى التاريخ ويرون الأنهار العظيمة التي تخترق المدن .. فيعجبون من صنعة الباري ، ويلحظون التنويع البشـري في ألوان وصور الناس والمخلوقات ، واختلاف الألسن، وكيف يقف الإنسان كالأخرس ليفهم الآخرين بلغة الإشارة .. أو استخدام لغة وسيطة ..ألم يقل الله تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم: ٢٢]

٢٧

وبينما الرجل يتنقل في بلدان العالم مع الفريق بحثا عن جديد الأسلحة أخبره ابنه ياسر عبر الاتصال المتواصل بينهم أن أحد الضباط اتصل بالبيت يسأل عنه ويرغب بالحديث معه، فأخبرته أم ياسر بأنه غير موجود ، ولم تحدثه بسفره ، ولما عاود الضابط الاتصال رد عليه ياسر ، ولما علم بأنه مدير البحث الجنائي في عاصمة الدولة أعلمه بسفر الوالد في مهمة عسكرية خارج البلاد .

لما علم شريف بهذا الاتصال من العميد دبور أعلمهم أنه صاحب له ، وأعلمهم أنه سيتحدث معه ، فاتصل بمديرية البحث الجنائي الرقم المعروف لكل مطالع ومهتم ، فهو ينشـر عادة في الصحف المحلية وأدلة الهاتف .. فهو رقم غير سري .. فرد عليه عامل السنترال (المقسم) فطلب العميد دبور بعدما عرف بنفسه ، فلم يرد أحد من مكتبه ، فحول الاتصال لمساعد المدير الذي رحب بالعميد شريف ، وأعلمه أن العميد دبورا في مهمة .. وأنهى الاتصال ووعد باتصال آخر في وضح النهار .

وقد كان على أعضاء اللجنة في الصباح التالي الانتقال إلى بلد جديد لذلك تأخر الاتصال بالعميد دبور بعض الوقت .

وكان الاتصال كما هو معلوم لنا سيكون حول قسيم شقيق شريف ، فبعد التحية والمجاملات التقليدية أخبره العميد أن شقيقه على وشك فتح وإنشاء نادي ليلي ، وأن سفره لأوروبا كان

للتعاقد مع بعض بنات الهوى للعمل في النادي .. وعلم منه أن السيد قسيما سيكون مدير النادي ومعه شريكته نبيلة زوف ، وهي امرأة أجنبية كانت متزوجة من رجل عربي كان يدرس في بلادهم ، ولما عاد عادت معه ، ثم ترملت عنه .. ولما خرج قسيم من السجن زارها عدة مرات .. فهي معرفة قديمة له، ويعرف زوجها قبل جريمته ومكثه في السجن .. وهي امرأة بغي خلاصة الكلام .

فقال شريف : هي إذن ممولة النادي الليلي .

ـ مع احترامي لشخصك الفاضل .. فهي تعيش معه كزوجة أو عشيقة مثل الأجانب الذين نسمع عنهم .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ..وماذا سنجني من علاقة شبابنا بالأجانب غير التقليد الأعمى والانحلال ؟!.. أشكرك يا سيدي الكريم على هذه المعلومات التي لا شك أنك تعبت للحصول عليها .. فالنوادي الليلة اليوم من علامات الانفتاح والحداثة في بلادنا .. والخمور اليوم مباحة في أكثر بلاد المسلمين .

ـ نعم يا صديقي.. فالدول اليوم تسمح قوانينها بفتح مثل هذه الأماكن .. والهدف المعلن منها الأجانب ..السياح وسائقو الشاحنات الترانزيت .. ليرفهوا عن أنفسهم ويقضوا شهواتهم الجنسية .. ولكن للأسف أكثر زبائنها من أبناء البلد .. فروادها الشباب الفاسد .

ـ أصبحت بلادنا كسائر دول العالم ..في الترفيه والمجون .. أشكرك أيها الأخ العزيز عندما نعود سأتحدث معك .. وكلي ضيق وألم من رؤية هذا الإنسان وكيف سألاقي قوادا؟! .. مأساة يا سيدي ! كنت آمل إصلاحه وتوبته بعد قضاء أكثر من عشر سنوات في السجن ، مهنة عجيبة في هذه الدنيا.. بيوت دعارة تسمى نوادي ليلية .. أهناك نوادي نهارية ؟!

ـ لو أنك مثلنا في الشرطة لرأيت وسمعت العجب العجاب .. قضايا أخلاقية كثيرة ومرعبة الانحلال يزداد رغم الجهود التي تبذل للتخفيف والتقليل منه ، وليس القضاء عليه ووضع السماعة وهو يتذكر عبير وفوازا وعزميا.

٢٨

عندما تخلى شريف عن السماعة صدم أو شعر بصدمة لهول ما سمع .. أخوه أصبح مدير نادي أو ملهى ليلي .. خمار.. بيت للزنا والخمر.. تمنى لو تبكي عيناه كما يبكي قلبه وهمس : يا للعار!.. يا للخزي!.. أصبح أخي قوادا يدير بيتا للدعارة ..إنا لله وإنا إليه راجعون ..أعلم أن أناسا اليوم في بلاد المسلمين لا يستهجنون ذلك .. ويرون ذلك تجارة ومالا وربحا .. بل هناك أناس تستكثر على الصالحين بناء المساجد والمعابد .. إنما هو التقليد للغرب على قدم وساق ، ولا أحد يمنع ذلك التقليد الأعمى بحجة الحرية الفردية .. بحجة الترويج للسياحة والاقتصاد .. أعلم أننا شعوب غارقة في الاستعمار .. وتنهد بحسرة وعمق وقال لنفسه : وأعلم أن حالنا اليوم لا يسر صديق ولا عدو .. دور البغاء في عرض البلاد وطولها

وعاد يهمس بعد صمت وصفون : الدين اليوم في المعابد فقط .. في المجلات الإسلامية والصحف الإسلامية.. في المعاهد الدينية ومدارس القرآن فقط ..ألا نقرأ في الجرائد قصصا يشيب لها الولدان عن التحلل والفجور ؟! ..لماذا المتغربون الأوائل لم يأتونا بخير الحضارة الأوروبية ؟! .. العلم .. المصانع ..السلاح القوي .. الطائرات .. أشياء كثيرة كان عليهم أن يعتنوا بها ..احضروا لنا الترفيه والسخافة .. وينتشر السفه بقوة وسرعة ..أخي ابن أمي وأبي يحترف البغاء والزنا .. ماذا أقول لأمي ؟!.. ابنك أصبح زعيم ملهى دعارة .. يأخذ راتبه ومصروفه من وراء الفاجرات .. وهذا كسب خبيث .. يا إلهي لو تعلم أمي الشـريفة بهذا الانحدار لقسيم لخرت هالكة .. يا رب أعني على إخفاء هذا الأمر عنها.. تموت خير لها أن ترى ولدها قوادا .. سافر ليجلب بنات هوى لناديه .. لا يوجد في بلادنا غانيات وراقصات وساقطات .. ربما الأجنبيات يجلبن الزبائن أكثر .. لهذا الماخور .. وهذا بالتأكيد ليس أول مكان لمثل هذه القبائح .

يا إلهي .. هل يمكن إصلاح هذا الإنسان ؟ السجن خمسة عشـر عاما لم تردعه عن الفجور وتعيده للدين والإيمان ..هل طبع على قلبه ؟! ..عار لكل العائلة .. وأي عار؟ يا الله .. ليس

لنا خلاص من هذا العار إلا بموته .. بموته ..!! يجب أن يموت هذا الإنسان القذر .. المجرم اللعين.. يموت.. يقتل .. هل نغمس أيدينا بدمه ؟.. لا .. لا .. لا.. إلا القتل .. يقتل الأخ أخاه .. ويح قلبي .. أقول لأمي ابنك أصبح كذا وكذا .. أقول لأولادي عمكم كذا وكذا .. لو كنا في بلاد ضالة .. بلاد لا دين فيها .. لهان الأمر .. فليس بعد الكفر ذنب .. كيف النجاة من هذه الفضيحة ؟ من هذا العار ؟ .. لو كنت من عائلة فواز وعزمي لربما هان الأمر عليّ .. ونظرت إليه نظرة تجارية .. مشروع يدر دخلا .. ولكن هل يقبلون هم مثل هذا العمل ؟ ماذا سيقول عنا أهل البركة ؟!..نحن لا دخل لنا ، نحن ناس أشراف .. وقسيم هجرنا منذ عشرات السنين .. لكنه يبقى أخي.. ولا يهمنا كلام الناس .. ولكن سمعة العائلة ..المهم أمي ماذا سيصيبها لو علمت بمصير ابنها العاق ؟ .. لقد بدأ بتدمير حياته منذ عهد بعيد .. ونحن ضعفاء ماديا نأكل الخبز من إحسان الأغنياء والقادرين ..ألم يكن يرافق الشباب الفاسد إلى مدارس البنات يترصدونهن للعبث ؟!..ويكتب لهن رسائل الحب .. أي حب ؟ الحب الكاذب .. وكان يطير من الفرح عندما تخاطبه فتاة وتسير معه في الشارع .. أو تكتب له رسالة كنا نعتبر ذلك زمن مراهقة .. يومها بدأ فساد قسيم .. نعرف ونسمع أولاد الجيران يتحدثون عنه ونسكت ونعتبر ذلك فعل جهال .. هذا كان أول الفساد .. ولكن ماذا كان بوسع أبي أن يفعل؟ أبي العاجز الضعيف الذي يعيش على الصدقة .. أمي العاملة في بيوت الأغنياء.. ماذا ستصنع لرجل ظن أنه سيد العائلة وحامل مسؤوليتها ؟! .. وأنا .. الابن الصغير .. لا يجوز لي التدخل في حياة الكبير .. عليّ بالصمت.. ألم يتطور الأمر ويعاكس بنات الجيران وبعض بنات الأقارب؟! ..ألم تشكو بعض الأمهات أفعال قسيم لأمي ؟ ويعتذرون بالمراهقة والجهل والصغر وغدا يكبر ويعقل .. فهذه هي نتائج الجهل والمراهقة؟.. ألم يكن داعرا وتزوج من امرأة منحرفة؟.. ألم يتخلَ عن والديه ؟.. ألم يقتل ويسجن ؟.. فالملهى الليلي هو العمل المناسب واللائق به ..

كيف الخلاص ؟! ..الموت.. لا خلاص لنا من هذه الكارثة إلا بالموت .. أعصابنا لا تحتمل

مثل هكذا حياة ..نحن لسنا أبناء أوروبا ..

وبعد لحظات عاد يردد : أنت تكبر الموضوع يا شريف ..ما أنتم طول عمركم لا تسألون عنه.. لماذا أنت مهتم به اليوم ؟.. لماذا أنت مهتم بما يصنع ؟.. ليفعل ما يشاء ..لا داعي أن ترى أمك ابنها العاق.. بعد كل هذه السنين .. فلتمض الحياة كما مضت في السابق ..لا تزر وزارة وزر أخرى أين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! أين التعاون على البر والتقوى ؟! القضية أعقد من ذلك.. هو قد رفض لقاءنا وهو في زنازين السجن .. سلم أمرك لمولاك وادع لأخيك بالتوبة والهداية والنجاة من عقاب الله .. أيكفي هذا ؟ ماذا ستفعل ؟! ..

أمضى صاحبنا شريف عددا من الليالي مهموم الفكر ، ويعصره الألم والحزن على سقوط أخيه السقوط الذريع في الفجور والرذيلة.. وتتنازعه الأفكار المعتمة شرقا وغربا ، ويقارن في بعض الأحيان بين عادات أهل الشرق وأهل الغرب ..كان منزعجا لوضع أخيه .. كان يأمل أن ينتشله بعد ضياع تلك السنوات .. وأن يجعله إنسانا محترما فاضلا يمشي وهو مرفوع الهامة .. فقال : نحن أبناء حضارة عريقة .. تحرم الفاحشة والفواحش ما ظهر وما بطن .. في بلاد الروس ربما مثل هذه الأعمال تجد قبولا بين بعض فئات المجتمع .. ما الحل للخروج من هذه الورطة ؟ .. لقد تأخرنا في علاج الأخ قسيم .. استفحل الداء .. ماذا كان بوسعي أن أصنع له وأنا الأخ الأصغر.. وأب مشلول وأم ضعيفة تسعى لجلب الدواء لأب جريح ؟.. ماذا تفعل لشاب متمرد ولا يحسب حساب أحد ؟ .. شاب ناقم على المجتمع وعلى الأسرة .. وأنا قصرت كثيرا في البحث عنه .. لقد انتهى من حياتنا هكذا اعتبرناه .. ولولا لقائي بسمير .. ما علمت شيئا عن سجن أخي .. ولو كنا معه في أول القضية ربما وجدنا منه صفحا وندما.. تأخرنا.. لماذا لم يكتب لنا ؟ أو يتصل بنا ؟ ..كان يسير إلى الهاوية ونحن غير مكترثين صممنا آذننا عن سماع أخباره .. لقد كنا مسرورين ببعده عنا وإن لم نصرح بذلك.. علنا كنا نخشى من أعماله الخبيثة وسمعته السيئة .. كنت في مطلع الشباب والاهتمام بأبي ورعايته وأمي الأهم عندي.. نسيت قسيما أثناء قيامي بهذه المهام .. الحل أن نسلم الأمر لله وحده .. كنت أرغب

بأن أساعده للزواج من جديد .. وشراء بيت له ولزوجه .. وكنت أحلم أن أفتح له متجرا قرب بيته الجديد .. محل شريف ونظيف.. عليّ بمقابلته وعرض هذه الأشياء عليه .. نعم عليّ أن أسعى إليه ولكنه صديق لامرأة أجنبية يعيش معها كزوج ..وها هي ستفتح له ماخورا !.. وهذا العمل يستهويه .. عليّ أن أحاول .. أرسل له شخصا شفيعا .. ومن يكون هذا الشفيع بيننا ؟ إني أجهل حياة أخي جهلا تاما .

ومن كثرة الهم والضيق الذي أحاط به من سوء ما سمع عن مهنة أخيه أحس بآلام في صدره مما اضطر اللجنة أن تدخله أحد المستشفيات للمراقبة خوفا من التعرض لجلطة قلبية ..ورغم دخوله المشفى ظل الغم مسيطرا عليه ، بل تدهورت صحته بسبب تفكيره الطويل في القضية ، وترسخ لديه الاعتقاد أنه قصر كثيرا في حق أخيه .. كان عليه أن لا يقاطعه .. ولا يهجره .. والتغافل عنه .. كان يلزمه متابعته رغم زواجه الغريب والشاذ في نظرهم .. وأنه كان ضعيفا وحده أمام أهل تلك المرأة .. وأحس بالندم ولام نفسه .. بل لام أمه.. فقد كان عليها أن تدفعه لإنقاذ أخيه .. فقال صارخا في قلبه : كيف صارت الأمور؟!.. كانت أمي تخشى عليّ الغضب نحوها لكرهي لقسيم .. هل أخطأنا في حقه فعلا ؟ أم أني أضخم القضية ؟.. الظروف التي أحاطت بنا يومذاك جعلتنا نركب رؤوسنا ..وسمعته السيئة جعلتنا نتخلى عنه ونهمله ..

منع الرجل من الاتصال ببلده ، عملوا عليه عزل حتى يسترد الصحة .. فقام الرفاق بالرد على اتصالات الأسرة ..وأخبروهم أنه مريض معلول وطمأنوهم على صحته ..

وبينما شريف يعاني في المستشفى ، وقد ظهرت عليه أعراض الجلطة القلبية .. من الألم الشديد في الصدر .. والتعرق والإجهاد .. فقد أرهقه التفكير أو الندم .



كان هناك في النادي الليلي الذي يديره قسيم وعشيقته زوف تجري السهرات الماجنة ، وتعاقر الخمور حسب رغبات الزبائن والرواد وحسب ما يملكون من مال .. وكان أصحاب اللذة والفسق يترددون ويلجئون إلى هذه الأماكن لقضاء شهواتهم الجنسية ، ويشـربون الخمور .. وبنات الهوى تملأ النادي .. وأغلب رواد الملهى والنادي سائقو الشاحنات الكبيرة الذين يمرون من البلاد في طريقهم لبلادهم فيتركون سيارتهم في أطراف المدينة ويدخلونها للسكر والعربدة .. فقد كان مكان اختيار الملهى قريبا من محطات دخول السيارات الكبيرة .. وكذلك الشباب الفاسد من معارف قسيم يرتادون المكان .. وزوف الروسية بائعة الهوى معروفة لطالبي اللذة قبل لقائها بقسيم.

وذات ليلة جاء طالب هوى ، ودخل إحدى غرف الملهى لقضاء الشهوة .. وقاده أحد خدم الملهى إلى حجرة ليمارس الزنا مع إحدى البغايا ..ولما أضاء الحجرة .. لينظر الفتاة المحظوظ بمضاجعتها هذه الليلة .. طار صوابه وصحا من سكره .. فقد وجد أن الفتاة شقيقته.. وهي صاحت دهشة ورعبا كذلك .. فقال بدون وعي : ماذا تفعلين هنا؟!

ولم ترد عليه وظلت صامتة ؛ لأنها مستغربة لسؤاله في مثل هذا المكان ، فأعاد السؤال صارخا فقالت بوقاحة : الذي تفعله أنت ؟ ماذا يفعل الناس هنا ؟

أدرك أن سؤاله سؤال غبي فعاد يقول : ألك زمان ترددين على هذا الوكر؟

فردت بوقاحة الفاجرات : منذ أن فتحه صاحبك قسيم .

ـ إنك مجرمة !

ـ أتحله لنفسك ولا تحله لي ؟!من أنت لتحاسبني ؟!..أنت وأنا سواء ..

ـ ألم أحذرك من ارتياد مثل هذا الأوكار ؟!

ـ أتنفق عليّ ؟!

ولبست ثيابها ، وحاولت الخروج ، ومنعها قائلا : بيننا حساب ، ودفعها بقوة فوقعت على الأرض وصرخت بأعلى صوتها ، فأسرع فتوات النادي مسرعين للحجرة ، ودفعوا الباب

دون حياء وهم يصيحون : ماذا يجري هنا ؟
وكان الشاب الفاجر يصرخ وفي حالة هياج ، ويضـرب المرأة بكلتا يديه ، فأمسكوا به ، وأخرجوه ، وهم يضربونه بقوة باللكمات والصفعات ، حتى أتاهم المدير قائلا : مالك يا رجل ؟! لماذا تضرب تلك المرأة المسكينة ؟!.. أأنت جئت لتمتع شبابك أم جئت لتعارك النساء ؟
فصاح وهو يعتدل قائما ، وقد توقف الفتوات عن ضربه : يا مجرمون .. يا قسيم يا ملعون .. الملعونة إنها أختي!
ـ أختك يا للهول !.. هذه أختك ؟!
ـ أجل .
ساقه قسيم إلى غرفة خاصة بصحبة فتوات النادي ـ هؤلاء الفتوات يعملون في مثل هذه المواخير لإخراج الزبائن الذين لا يرغب بوجودهم ـ وأخذوا في تهدئته ، وأحضـر له قسيم قنينة خمرة فاخرة على حساب النادي ، وقدم له كأسا وقال : صدق أنني لا أعرف أنها أختك .. فتيات يطلبن العمل فنسمح لهن يا سيدي .. سأطردها وأحذرها من التردد علينا من أجلك ..هدئ أعصابك يا ابن الحلال .. لو كانت هذه أختي لتركتها تفعل ما تشاء ما دامت قد اختارت هذا الكار .. اذهبوا به إلى ... لينسى همه ويجدد نشاطه .
فصاح الشاب وقد أفرغ الشراب الذي قدم له في جوفه : أختي فاجرة .. أنا أختي فاجرة !!
فقال له أحد الشباب : هون عليك .. هي حرة مثلما أنت حر.. امرأة غير سائلة عن شرفها لماذا تغضب نفسك وتزعل ويحمر وجهك عليها ؟ .. هل نحن في جامع ؟!.. نحن في ملهى.. دعك منها وانس ما يسمونه الشرف والغيرة المزعومة.. وها هو المعلم سيطردها من هنا من أجل شواربك .. بس .. لكن دور الدعارة كثيرة يا زعيم ..
فقال قسيم معترضا : هذه ليست بيت دعارة .. يا رجل .. هذه خمارة .. من أجل سواد عيونه انتهى رزقها عندي .

فعاد الرجل يحملق في الوجوه المحدقة به ويقول : أختي زانية !

فقهقهة بعضهم وقال أحدهم : زانية !.. وهي آتية هنا تعمل ماذا ؟! .. تتعبد .. ما هو أنت مثلها ، لا تكبر الموضوع .. ستطرد من هنا وستذهب لنادي آخر .. اشرب كأسك ..ومتع نفسك وانس غيرك .. ها هو المعلم سيخسر فتاة من أجلك .. فحيوا المعلم يا شباب .

فصاح الشاب وهو يقذف الكأس على الأرض بعد أن أفرغها في جوفه : أنا مجرم .. أنا نذل .

فسمع أحدهم يقول متهكما: أأنت لليوم لا تعرف أنك نذل وحقير وحثالة المجتمع ؟! كأنك لم تعرف نفسك لليوم .. فكما تحب أن تتلذذ على بنات الناس .. هناك من سيتلذذ على بناتك لا تكن أنانيا يا عم .

وأخذ السكارى بالقهقهة والضحك العالي ، وأخذوا يقرعون آذانه بالنكت والكلمات الجارحة ، ويتلذذون على مصيبته وذله.. حتى قال المعلم : هي (...) تنتظرك .. انس يا رجل

وأخذ الشاب كأسا من أحد الرجال وشربها على جرعة واحدة ، ثم

قذفها على الأرض بقوة مثل السابقة ، وغادر المكان يترنح وساخطا ؛ كأنه يكتشف عهر أخته لأول مرة .. أو أنها تزني أول مرة .. وإنما جاءت لهذا الملهى الليلي بعد أن ملّت من الزنا إذا كان هناك ملال .. بنات الليل يتنقلن من رجل فاسق لآخر من أجل المال .. ورغم وجود الأمراض الجنسية الكثيرة فهن لا يبالين لأنهن استمرأن هذا العمل القذر والتجارة بفروجهن

وفي اليوم التالي عاد هذا الشاب إلى النادي ، وسأل عن أخته ، فأخبره المعلم قسيم أنه صرفها ، وطلب منها أن تبحث عن مكان آخر .

ويبدو أن الشاب لم يصدق قسيما ، فأخذ يدخل حجر البغايا حجرة حجرة حتى صاح فيه المعلم : هذه وقاحة وقلة أدب ..أنا ساكت عليك من ليلة أمس .. وأنا راعيت شعورك .. وأنت عامل نفسك شريف .. وأنت تعلم أن هذه الأماكن لا يرتادها الأشراف .. اسمع المحل في خدمتك .. وإلا سأدع الرجال يرمونك في الشارع .

فنظر الرجل إليه لحظات وكان يقف أمامه متحديا .. ونظر إلى زوجة قسيم التي كانت تجلس

خلف طاولة تدخن السيجار .. وكان بعض الرجال يقفون حولهم يتابعون المهزلة كما يقولون.

وابتعد الشاب الناقم خطوات عن المعلم قسيم ، وخلع معطفه وطرحه أرضا وهم ينظرون إليه بدهشة، ولا يدرون لماذا يفعل ذلك؟! .. ولكنهم شاهدوه يخرج رشاشا ويطلقه عليهم قبل أن يدركوا الأمر .. وعلا صوت الرصاص والصـراخ والركض وظل الرجل يطلق الرصاص والصياح حتى انتهى مخزن الرصاص .. ورمى الرشاش على الأرض .. وخطف زجاجة خمر وشربها وهو يقهقهه منتشيا بجريمته .. ثم لبس معطفه وغادر الملهى .. ولكنه عندما وصل مدخل العمارة .. وجد رجال الشرطة على الباب .. والناس وأصحاب المحلات متجمهرين أمام البناية

وهرعت سيارات الإسعاف وسيارات الشـرطة .. واعتقل الرجل الغاضب .. فقد اتصل أصحاب المحلات بهم فور سماع الرصاص في الطابق الثالث حيث يقبع الملهى الليلي .

ونقل الجرحى والقتلى إلى المستشفيات .. واعترف الرجل بجريمته ودوافعه للجريمة .. ولفظ قسيم أنفاسه الأخيرة في المستشفى .. وكان يردد وهو يموت : سامحيني يا أمي !.. سامحيني يا أمي !

هذا ما أخبر به أحد المسعفين المرافقين له أثناء نقله للمستشفى لأولاد السيد شريف .. عندما تحدث معهم العميد دبور ناقلا لهم خبر وفاة عمهم قسيم .. ولما علموا بذلك المصاب أخبروا جدتهم بعدما شعرت بما هم فيه من قلق وحزن .. وقالت بصبر: إنا لله وإنا إليه راجعون .. أريد أن أراه .

وبعد تشاور ذهبوا جميعهم إلى المستشفى الذي يرقد فيه الجثمان .. واستقبلهم الضابط دبور عند المستشفى وقدم لهم العزاء ، وقال لأم شريف : كنت أتمنى أن تريه يا أمي وهو حي .. وكنا نسعى أنا والأخ شريف لذلك ولكن سبق السيف العذل كما يقال .

ـ الأمر لله يا ولدي ..

دخلوا إلى حيث ترقد الجثة قبل تشريحها .. وقبلت الأم ولدها وهي تذرف الدموع الغزيرة وهي تقول : لي أكثر من عشرين سنة أنتظر عودته ورؤيته .. ما أقسى قلبك يا ولدي !! إلى رحمة الله .. إلى رحمة الله

ثم أخذها أحفادها إلى خارج المبنى حيث ينتظرهم صديق والدهم فقال لهم : عظم الله أجركم .. وأنا حاولت الاتصال بوالدكم للمجيء وحضور جنازة أخيه الذي كان يسعى للقائه منذ سنوات وسنوات .. ولكنه بعافية .. ولسوف يصل قريبا .. واطمأنوا عليه أنه بخير قدم الشباب الشكر الجزيل للعميد دبور على جهده معهم ، ودعا لهم الرجل ، وقال : أنا أعتز بصداقة أبيكم .. وهو أخ فاضل وأنا في خدمتكم .

أخذ الطبيب ياسر جدته إلى المستشفى للقيام ببعض الفحوصات ومراقبة قلبها بعد هذه الصدمة ، ووجدها بحالة جيدة ، وبعد ذلك عادوا لمدينة البركة للاستعداد لاستقبال الجثة ليجري تشيعيها حيث تريد الأم حسنة .. فهم لم يروا عمهم حيا منذ ولدوا على هذه الأرض ؛ ولكنهم رأوه ميتا مضرجا بدمائه مقتولا بدم بارد .. لذلك كانوا حائرين .. أيحزنون على العم المجهول أم لا يحزنون؟! هم يسمعون أن لهم عما زعلان من أمه وأخيه .. فحتى جدتهم بعدما غادرت المشفى حيث الجثمان لم تذرف الدمع ولزمت الصمت .. وربما كان حزنهم الحق على الحال التي هلك عليها العم قسيم ياسر .



٢٩

شيع أهالي حي العمال وجيران شريف في الحي الجديد حي الأمل جنازة السيد قسيم ، وهم يتهامسون بقصة مقتله ومكان موته في ملهى ليلي كما نشرتها بعض الصحف ؛ ولكنّ المحبين متألمون لهذه النهاية ولمكان هذه النهاية ، ويقارنون بينه وبين الذي يموت في ساحات الوغى أو ساحات المساجد .

وأقيمت خيمة العزاء في منزل العميد شريف شقيق السيد قسيم ، ولما انتهى العزاء بأيام دخل عليهم الوالد الحزين قادما من سفره ، واحتضن أمه وهو يبكي كالأطفال حزنا وألما ، وانخرطت هي الأخرى بالبكاء مثله ، وعزاها بولدها البكر وقال : حدثني بعض الزملاء بالأمر وعزوني به .. وتلقيت بعض البرقيات من قيادة الجيش وقادة الجيش .. وكنت طريح الفراش في أحد المشافي الأوروبية ..إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله.. تمنيت أن أراه مثلك يا أمي ولو جثة .. سيبقى الأخ الأكبر لي .. إنه أخي رغم ما جنت يداه .. عفا الله عنا وعنه يا أمي .. لم يقدر لك أن تريه حيا .. حتى وهو في السجن كان يرفض استقبالنا .. لقد كانت آخر نظرة إليه يوم زرناه معا في المستشفى وحدث ما حدث .. وكانت النظرة الأخيرة إليه منك أيضا في المستشفى ..سامحينا يا أمي .. غفر الله لأخي ..

واستدار مسلما على زوجته وأولاده ثم قال : قمتم بالواجب وأثلجتم صدري المتعب .. كنت أتمنى لو تعرفتم على أخ أبيكم وهو حي يرزق ، وتصافحوه ؛ لكن كما علمنا النبي ﷺ نقول " قدر الله وما شاء فعل فأن لو تفتح عمل الشيطان .."

وجلس الجميع وقال لهم وهو يتخذ مجلسا : هذه هي الحياة يا أبنائي .. حبوا بعضكم .. الأخوة كنز عظيم .. عندما يتألم الإنسان يقول " آخ " .. كونوا أخوة متحابين .. حسرة العداوة تمزق القلب.. مات العزيز أبي وهو يرغب برؤية قسيم .. هذه هي الدنيا يا أمي .. كنت أسعى سعيا حثيثا إليه.. وأتعبت صديقنا مدير البحث الجنائي في البحث عنه ..ولما اقتربنا منه.. خرج من الدنيا ..أنا متعب من السفر لم تعد الصحة كما كانت .. كدت أصاب

بجلطة ..ووقف ثانية وهو يردد : رحم الله قسيما .. سامحيه يا أمي .. الجاهل عدو نفسه .. كنت أتمنى لو كان عمكم فردا صالحا في المجتمع .. ولكنه اختار درب الشقاء والعصابات .

قالت الأم بحزن وغيظ : وهل يمكنني أن أسامحه يا ولدي ؟! وقد مات ياسر أبوك حزينا مغلولا مقهورا منه .. فكان عندما يفيق من الألم ..ألم يأت الابن العاق ؟! .. ألا يأتي لوداع أبيه في ساعاته الأخيرة ؟ .. ومات المسكين وكله أمل بإلقاء نظرة عليه .. رغم كل التوسلات التي أرسلتها إليه مع أبناء الحارة والجيران ..كان يسيء إليهم ويقول " أنا لا أهل لي .. أنا مقطوع من شجرة ".. ورغم العقوق كله لا أستطيع يا ولدي إلا أن أسامحه.. ولعل قتله كما أخبرتني إحدى الفاضلات كفارة له .. دم تلك المرأة التي كانت تسمى زوجته .. ودم المرأة الأخيرة .. صدقوا يا أولادي منذ سمعت بمقتل زوجته الأولى وأنا ينتابني إحساس بأن ابني سيموت مقتولا .. كان عليه أن يطلقها ولا يغدر بها ..

فقال شريف : كفر عن تلك الجريمة يا أمي خمس عشرة سنة في السجن .. قضاها بين القتلة واللصوص .. سامحك الله يا قسيم .. حاولنا التودد إليك ولكن عجزنا عن الالتقاء بك لإصلاحك وعلاجك .

وبينما هو يواسي أمه ونفسه ليدخل حجرة النوم وضع يده على صدره وقال : انقلوني للمستشفى إنني أحس بتعب شديد في صدري يا أولادي

فقالت حسنة : رحماك يا رب !.. ليس لي سواه بعدك ..

فقال : لا يا أمي ..فهؤلاء كلهم لك .(وكان يشير لأبنائه)

وأدخل مستشفى مدينة البركة ، وخضع للعناية الطبية مرة أخرى ، ثم نقل لمستشفى عسكري ومكث فيه أسبوعا قبل أن يعود للبيت ، ونصحه الطبيب النفسي ألا يفكر كثيرا بأخيه الميت ولكنه قبل أن يصل البيت طلب من أبنائه أن يأخذوه لقبر أخيه .. وبعد تردد وافقوا ومشوا به نحو المقبرة .. ووقف أمام قبر قسيم يناجي أخاه ويدعو له ساعة من الزمان .. ولما خرجوا به من المقبرة .. زار مكتب الزكاة في مدينة البركة ، وقابل مدير المكتب ، وكان بينهما معرفة

قديمة ، فعزاه الرجل ومخبرا له أن ذهب لبيت العزاء ليقوم بالواجب ؛ ولكنه لم يجده ، وعلم من يحيى بأنه مسافر .. فشكره شريف .. وقدم له شيكا بألف دينار توزع عن روح أخيه .. ثم رجعوا للمنزل .. فوجد والد زوجته وبعض أخوة يسرا في انتظاره .. ومكثوا معه وقتا قصيرا هنئوه فيه على سلامته.. وأدخل الرجل غرفة النوم.. وراح في سبات عميق.

ولما تماثل للشفاء التام عاد لمزاولة عمله في قيادة قسم الهندسة العسكرية.. وظل الزملاء يترددون على مكتبه لتعزيته في موت أخيه .. ويهنئونه على سلامته .. وكان من المعزين العميد دبور قائد البحث الجنائي .. وتعانقا كأنهما أصدقاء منذ عهد الطفولة .

وقضى الصاحب شريف أياما يستقبل معارفه من الضباط في التعزية أو يرد على الهاتف من أجل هذه الغاية .. كان محبوبا من الرتب الأعلى منه ومن الأدنى.. ورغم نصيحة الطبيب النفسي له عندما غادر المستشفى العسكري كان يفكر بأخيه كثيرا ويقول : كأنني كنت أدعو على أخي بالموت !.. ألم أتمنى في قرارة نفسي موته عندما علمت بمشروعه الدنيء؟.. لقد قلت لنفسي لا ينقذنا من سيرته القبيحة إلا الموت .. ولكني كنت أتمنى ذلك من القهر والغل وخيبة الأمل .. يا الله اغفر لي هذه الخطرات القاتلة .. اغفر يا رب .. أحيانا يرى الإنسان أن بطن الأرض خير من ظهرها .. ها هي أمي كانت ترى مقتله منذ مشاركته في مقتل من تسمى زوجة .. فعلا لماذا لم يطلقها بدل أن غمس يده بدمها ؟! بل رتب لها كمينا قاتلا وهو يعرف عنف أهلها الإنسان يتصرف تصرفات شاذة غير منطقية وهو لا يدري ألم يكن طلاق الفاجرة خير من مصرعها ؟! الشيطان يلبس على الإنسان فلا يعرف الاختيار المناسب العار لا يغسل إلا بالدم أليس هكذا يقال ؟! الطلاق أسلم وأحسن لضمير الإنسان وهل لهؤلاء العصاة ضمير حي؟! ضمير يؤنبهم لست أدري إنهم يمارسون الشر كالأكل والشرب واللعب وذاك الشاب القاتل هل حقا قتل غيرة وشهامة ؟! وهو الذي كاد أن يقع على أخته ألا يعتبر بنات الناس أخواته ؟! أي منطق هذا ؟! ما الذي دفعه لقتل كل هؤلاء الأبرياء؟ .. وأخته نجت من الملحمة .. وهو سيحكم عليه بالإعدام .. وهي ستمارس مهنتها بكل حرية .

٣٠

هذه الحكاية بدأت بمأساة منذ وقع حجر بناء في مبنى يُشيد على ظهر ياسر سليم أدى إلى شلل نصفي ثم أوصله للموت بعدما انتهى أجله ، وها هي الرواية أشرفت على الانتهاء بمأساة أخرى بمقتل قسيم ياسر بحادث مرعب في نادي ليلي .. هكذا الحياة .. بين فرح وترح .. موت وولادة .. ليل ونهار.. فرح وبؤس.. سعادة وشقاء.. ورأينا قصة نجاح الأخ شريف ومحافظته على أخلاقه رغم الإغراءات والفتن ، ورغم العمل الكبير الذي يعمله والمكان الكبير الذي يشغله .

فالجيوش كما هو معلوم قديما وحديثا من أهم المؤسسات في كل وطن وكل بلد .. ورجالها محظوظون ومحترمون عند الغني والفقير.. والأخ شريف حقق كل غايات الدنيا المهمة .. البيت.. الزوجة.. الأولاد .. المال .. والجاه المركز الكبير في جيش بلاده .. والأهم عنده أنه حافظ على شخصيته وكيانه من الذوبان في حمى التقليد الأعمى ، والركض حول كسب الثروات من أي مصدر كان .. من نصب واحتيال.. لقد قنع بدخله وراتبه الوظيفي.. واعتبره كافيا ومؤديا للغرض الدنيوي .. من حياة بسيطة .. وهدوء وسكون .. وهو موقن أن الحياة لا تخلوا من منغصات .. والصحة لا تدوم وأن الضعف سيصيب الإنسان مهما أوتي من قوة ، والسن له دوره .. ألم يقرأ في كتاب الله ﷻ { اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } الروم: ٥٤ والتعب والمجاهدات التي أصابته أثناء الدورات والتدريبات والمناورات العسكرية تركت بصماتها على بدنه .. وما أصاب والده لابد أنه ترك شيئا على روحه ونفسه.. وها هو آلمه ما صنع أخوه قسيم وأضعف قلبه.. فلذلك قدم طلب إحالة على التقاعد وإنهاء خدماته من القوات العسكرية .. التقاعد من الجيش الوطني .. ولقد كان القائد العام للجيش قد اطلع على تقاريره الطبية فوافق على تقاعده بعد نظر اللجنة الطبية العسكرية عليه .. وبينما هو ينتظر تقارير اللجان الطبية التي أجرت عليه الفحوص المناسبة تخرج ولده ياسر من كلية الطب

والتحق بالعمل في مستشفيات الدولة ليأخذ بعض الخبرة .. وفرح شريف بولده ياسر الذي سماه على اسم أبيه.. وهذا شيء مهم في حياة أسرة مكافحة .. أسرة خرجت من العدم والضعف والفقر .. وقد ذكرنا آنفا أن السيد يحيى تخرج من كلية الآداب متخصصا باللغة الفرنسية ، وقد انهالت عليه عروض العمل سواء في المؤسسات الإعلامية كالتلفزيون القومي حيث يعمل شقيق أمه في قسم البرامج الفرنسية ..أو الصحف الأجنبية في البلد .. أو شركات الترجمة .. ولكنه فضل السفر إلى فرنسا للدراسة على نفقة الجامعة التي تخرج منها ليدرس الدراسات العليا ثم يعمل في الجامعة محاضرا وأكاديميا .. ولكنه أجل الابتعاث حتى ينتهي شقيقه الأكبر من كلية الطب.

وأما الشاب الثالث محمد فهو ما زال على مقاعد كلية الهندسة ليكون مهندسا كأبيه .. هؤلاء فقط الذين أنجبهم السيد شريف ..

كانت الحجة حسنة سعيدة بأحفادها وسرت بنجاح سمي زوجها بالاسم .. وقالت وهي تعانقه فرحا : لو قدر الله لجدك ياسر الحياة لمثل هذا اليوم لمات من الفرح .. وافتخر بكم كما كان يفتخر أمام أقاربه بأبيكم شريف .. عاش المسكين قبل أن يكبر والدكم حياة الشقاء والبؤس .. ولكن الله عوضنا بكم خير العوض .. الآن عليك بالزواج يا ولدي ليكتمل فرحنا بكم ، ويسعد أبوكم برؤية أحفاده بعد كل هذا الجهاد .. ولخالك حسان ابنة رائعة الحسن والأدب .

ضحك ياسر وقال : هذه العروس جاهزة يا جدتي الغالية!.. هذا كله بدعائك وحبك لنا .. أنت جدة وأم عظيمة .

فقال شريف الذي كان يسمع أمه وهي تهنئ حفيدها الأول : يا ياسر .. من رأيي أن تحقق رغبة جدتك لتكمل فرحتها برؤية أولادك ..وأعتقد أن هذا رأي أمك .

فقالت الأم يسرا : هذا مناي يا أبا ياسر .. ونحن أنا وأمك من زمن قلنا له عن ابنة خاله حسان ..

ابتسم وقال ياسر : عندما أباشر العمل ـ إن شاء الله ـ سأحقق لكم هذه الرغبة .

فقال شريف : أنت باشر العمل ، ونحن سنباشر السعي في ذلك ، ربما يعتذر خالك أو البنت لا تريدك .

وأظهرت تقارير اللجان الطبية التي عقدت للضابط شريف ياسر سليم أنه بإمكانه مزاولة عمله والاستمرار فيه ، وهو يعاني من مشاكل في عضلة القلب ؛ ولكن بالعقاقير المناسبة يمكنه العمل لعدة سنوات داخل وحدات الجيش ، وأن لا يتعاطى التدخين والكحول ، وهو لم يعرف التدخين خلال كل سنين العمر التي مضت ، وأما الخمر فهو مبغض لها ، ولمن يشربها ولم يحاول شربها ولو مرة واحدة .. فتم نقله إلى كلية تدريب الضباط لإلقاء المحاضرات على الطلبة العسكريين .. وأثناء عمله في كلية الأركان رفع إلى رتبة لواء ركن ، ولم يمكث عاملا بهذه الرتبة سوى سنة واحدة ثم أحيل على التقاعد ، وكان يعمل آمرا للكلية عندما صدر كتاب تقاعده بعد خدمة تزيد عن الثلاثين سنة في وحدات القوات العسكرية في بلده .

وكان قبل تقاعده واعتزاله الجيش زوج ابنه يحيى من ابنة أحد زملائه القدامى الذين تخرجوا معه من كلية الهندسة العسكرية.. التقى به محاضرا

مثله في الكلية، وعادت بينهما العلاقات الخاصة ، وخاصة عندما تعاونا على تأليف كتاب يدرس في الكلية ..ونتيجة الزيارات العائلية كان زواج الشاب يحيى الذي يدرس في باريس من ابنة الزميل حماد .. وأصبح عندهم في البناية التي كبرت زوجتان .. ودخلت عليهم الأفراح والمسرات برؤية الجدة حسنة أبناء أحفادها، وأنستهم هذه المسرات مأساة عمهم قسيم .. ولما كانت زوجة يحيى تضع مولودها الأول كان صاحبنا شريف يغادر الكلية العسكرية متقاعدا عن العمل بعد قضاء زهرة شبابه بين وحدات وسرايا وكتائب وألوية وفرق الجيش .. وما عليه إلا أن يقوم بتبرئة ذمته من مؤسسات الجيش المختلفة ليحصل على راتبه الشهري التقاعدي .. ويجلس في بيته طالبا للسكون والهدوء وملاعبة الأطفال ومداعبتهم .. والحديث مع أمه التي بلغت من الكبر عتيا ، ولا تكاد تفارق حجرتها إلا

للذهاب للحمام .. فهي أصبحت تأكل طعامها في حجرتها ..حتى أن شريفا أحضر خادمة خاصة بها غير الخادمة التي تعمل في البيت .. وكان أحفادها عندما يعودون للبيت يكون دخولهم عليها والسلام عليها أول أعمالهم في البيت ، ثم الانصراف لرؤية أمهم وأبيهم ، ثم يصعدون لبيوتهم الخاصة بهم .. وإلى هنا نقف في حكاية السيد شريف ياسر الكمن .

جمال شاهين



الشفق

السوداء

تلاقت العيون الأربعة في المقهى الذهبي، وبعد شهور من النظرات تلاقت القلوب، فعرف أن الرجل يبحث عن رجل التقى به قبل ثلاثين سنة في هذا المقهى، وابتاع منه صورة مهينة لزوجته صورة عارية.

فحدثت حوارات وتحقيقات واعترافات عن الشفق السوداء.. فكسب الكاتب الهاوي من ورائها أكثر من ربع مليون، وزوجة غنية.. وهذا يؤكد غرائب الدنيا وأخبارها.

علي ابو خروف

هوايتي قراءة الكتب والقصص ، دخلت الحي المعروف بأبي خروف ، وخُبرت ان عدة مآسي جرت أهم أحداثها في هذا الحي ، فسمعت منها الكثير أثناء عيشي فيه ، وانتقيت لك عشر منها ، وراعيت سنواتها ، وتركت الكثير ؛ ربما نتحدث عنها إذا تيسر الأمر بمشيئة الله وحده.

ولا يعني هذا الكلام عن مآسي البشر أنه لم تكن هناك قصص نجاح وسعادة ؛ بل هي الكثرة الغالبة.

وكما عُلمنا السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ بنفسه، وقد قرأنا في الكتاب العظيم ما أصاب عاد وثمود ومدين وسدوم.

لعلك تستمتع ، وتحمد ربك وتشكره ببعد الشقاء عنك عندما ترى مآسي البشر ، وضعفهم عندما يتعدون عن الصراط السوي، ويسيرون وينغمسون مع شهواتهم وملذاتهم دون عقل وضابط وخلق ودين .

المحب لكم جمال

المكتبة الخاصة

جمال شاهين

ليلة عرس



المكتبة الخاصة

الزمردة

جلد الأسد

جمال شاهين

غسان والمدينة

مكر قديم

أحلام الأولاد

أسعد وأسود

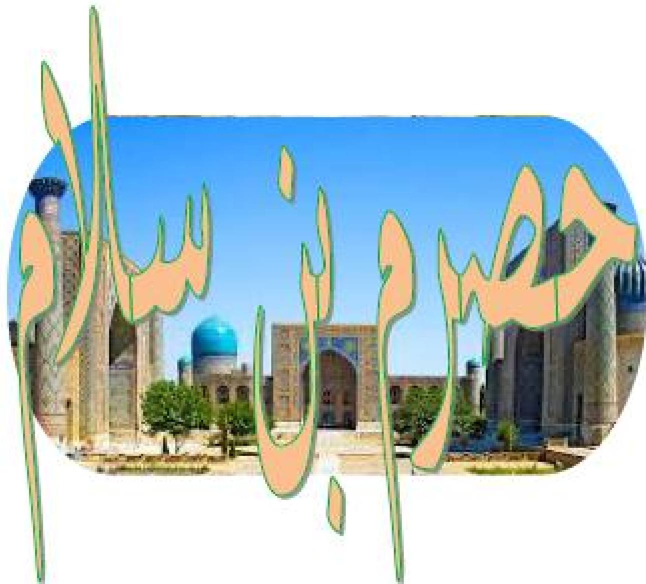
ثلاثة أبناء

ربيعة والسلطان

نبوءة سيف

عقيل والصياد

الصياد البحري هارون



مسبحة اللولو

اختفت مسبحة نادرة وثمينة من خزانة سرية .

كيف اختفت ؟ لا أحد يدري الحيلة

لم يقف الأمر ها هنا ، بل صاحب المسبحة اختفى أيضا

الشرطة في حيرة ، والأسرة والأصدقاء في حيرة !

كان الرجل في رحلة قطار متكررة بين سنة وأخرى

لم يصل الرجل إلى الفندق كما هو مرسوم

أين المسبحة ؟ أين الرجل ؟!

أجوبة كل هذه الاستفهامات ستجدها حين تقرأ هذه القصة

عالم الجريمة المدبرة عالم غامض!

ولكن النهاية حتمية بالنسبة للجاني !!

الأشرف

جمال شاهين

المكتبة الخاصة

جمال شاهين

صديق امي

المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

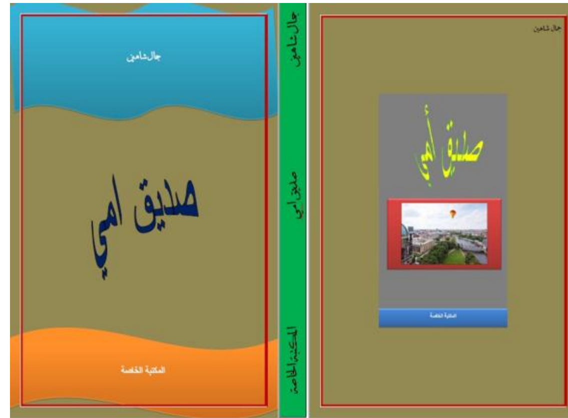
صديق امي

جمال شاهين

النشر الاول ٢٠٠٩

النشر الثاني ٢٠١٨

النشر الثالث ٢٠٢١



أمي

مات والدها قهرا

وهددت بالموت انتحارا

فحصلت على الطلاق غصبا

هربت قبل بلوغ أختي سنة

لتتزوج صديقها

فكانت هذه الرواية

ع . ح

صديق أمي؟


الأم شأن كبير للابن والبنت ، كلاهما يراها ملاكا يمشي على الأرض ، ينسى
الابن والبنت أنها إنسان لها حق الحياة ، ولها غرائز الخلق تشتهي
وتختار ، لا يريد لها أن تخطئ ، يريدها أن تبقى ملكا ، لأنه يعتقد أنها عظيما
في نفسه ، جوهرة نفيسة غالية ، فهذه حكاية امرأة عاشت بيننا كأم هاربة من
مسؤولياتها .. وهل تتخلى الأم عن مسؤولياتها ؟!.. هذه قصة عباس مع أمه
أغلى كيان يدب على
جمال

الحاج عزام

تبدأ القصة مع أصيل يوم الخميس من شهر أيلول عندما كان الحاج عزام محمد الرّشاد يجلس في محله الكبير في ذلك السوق القديم " سوق الليمون المحروق "، فهو سوق معروف ومشهور على مستوى المدينة كلها والقرى حولها .. فهو أول سوق أنشئ في هذه المدينة العربية .. وبجواره جامع المدينة التاريخي .. جامع سيدي محمد صلى الله عليه وسلم .. وتجد في هذه السوق المطعومات كلها والمشروبات كلها .. خضار .. فاكهة .. تسالي .. أدوات طهي كتب .. عطور .. عطارة .. لحوم .. اسماك .. دجاج .. سوق جامع لكل شيء ..وكان متجر الأخوين عزام ومسلم من أكبر وأوسع المتاجر فيه ، وهم ورثوا المحل الكبير عن أبيهم محمد الرّشاد .. ويعمل بين أيديهم في هذا المحل خمسة أفراد .. ولا يكاد المحل يخلو من الزبائن والرواد .. فهناك بضاعة تخرج ، وبضاعة تدخل من باب آخر للمتجر .. وبين سائل عن سلعة ومشترٍ لأخرى .. حبوب .. حمص .. فول .. ترمس .. زيت .. بهار .. قهوة .. عصير .. طحين .. جبنة .. وفي مدخل المتجر طاولة معدة لمحاسبة الزبائن عند الخروج .. وهي طاولة كبيرة وقديمة .. ويجلس على كرسي قربها الحاج عزام يحاسب المشترين ، ويبعد عنه كرسي آخر يجلس عليه شقيقه الأكبر ، شريكه يتابع الشغل والعمال والزبائن .. فهما شركاء منذ وفاة والدهم وورثتهم للمتجر ..وقد عملوا مع أبيهم في هذه التجارة منذ وعوا على الدنيا .. فلهم أكثر من ثلاثين سنة يعملون في هذا المتجر .. فهم ورثوا أعمال البقالة والسمانة عن أبيهم ، كما هو ورثها هو عن أبيه .. فحياتهم البيع والشراء .. ولديهم مصالح أخرى ، وتجارات أخرى . الحاج عزام زاد عمره عن الخمس والأربعين سنة ، وله زوجة ، ولم يوهب إلا ابنة واحدة تخرجت منذ أيام من الجامعة .. وأخوه مسلم يكبره بثلاث سنوات، لاحظ الحاج مسلم ضيق أخيه منذ ساعات الصباح .. واعتقد أن أخاه قد تشاجر مع زوجته ، فلم يحب الحديث في هذا الأمر .. لكنه عند المساء وقد خفت حدة الشغل ، فسأله عن سبب تجهمه ، فقال الرجل ؛

وكأنه كان ينتظر هذا الاستفهام من شقيقه الأكبر "البنت يا أخي "

فانزعج الشقيق الأكبر وهو يعلم عظم تعلق أخيه بابنته الوحيدة وقال : " البنت !! هل هي مريضة ؟ منذ أيام احتفلنا بتخرجها ونجاحها من الجامعة " .

تنهد الحاج عزام وقال بأسى : تمنيت لو لم أسمح لها بالدراسة في الجامعة يا أبا مصطفى .

ـ يبدو أن الأمر خطير يا أبا هدى !

ـ فعلا خطير .. خطير جدا .. لا مجال للحديث هنا

قال : شغلت قلبي .. أين ستتكلم ؟

ـ عندما نذهب بعد قليل لصلاة المغرب.. نمكث بعض الوقت في المسجد ، وسأحدثك بكل شيء .. إنني تعبان يا أبا مصطفى .

والتهى مسلم بمتابعة العمل ، وهو مشغول الفكر على شقيقه الذي يفترض أن تغمره السعادة بتخرج هدى وإكمالها جامعتها ، وكان الرجل محبا لأخيه الصغير فتضايق وتوتر لضيق عزام .

بعدما صليا سنة المغرب في الجامع الكبير المجاور لمتجرهما جلسا في زاوية من زوايا الجامع في أحد الأروقة .. فلما تمكنا من الجلوس همس مسلم : أخبرني يا أبا هدى على الذي يشغل مخك منذ الصباح؟

ـ كان من المفروض أن أكون سعيدا بإنهاء البنت جامعتها .. لابد أنك تذكر ذاك الشاب الذي كان يتعلم معها في الجامعة .. وجاءنا يوما خاطبا لها .

قال : أذكر أن ذلك كان قبل سنتين .. ولكني نسيت اسمه .. وأذكر أنك اعتذرت له ونصحته بأن يبحث عن بنت غيرها ..

ـ نعم ، وأمام إصرارها على الاقتران به .. أجلت الموضوع حتى إنهاء الجامعة .. وقبل أيام اتصل بي أخوه .. وذكرني بهذه الكلام .. فأخرته عدة أيام .. وبكل صراحة يا مسلم لن أزوج ابنتي لغريب وخاصة هذا الشاب .. ولولا كلامك وكلام بعض الأقارب ما درست هدى في

جامعة .. والآن عليك أن تقنع حسنا بالزواج منها .

ـ حسن !! .. وهل تقبل هي ؟

رفع صوته غضبا وقال : يجب أن تقبل .

فقال مسلم : وأنا أقول أيضا يجب أن يقبل حسن .. متى سيكون الإعلان عن ذلك ؟

ـ اليوم الخميس .. وغدا الجمعة سيكون الإعلان عن الزواج ليلا بعد صلاة العشاء .. أنا لا يمكن أن أزوج وحيدتي لغريب .. فحسن أولى بها يا أبا مصطفى .. سيتزوجها ويسكن معي في البيت .. بيتي بيته .. وكل تكاليف ومصاريف العرس والمهر عندي يا مسلم .. أرجوك ولا كلمة .. المهم أن لا يرفض حسن .

ـ كيف يرفض حسن ؟! .. الليلة سأتكلم معه ـ إن شاء الله ـ وأنقل لك موافقته .. حسن شاب طيب ولين ..

ظهرت سعادة عزام فقال : أنا في انتظار ردك .. حتى أرفض هؤلاء الناس ـ وضحك قهرا ـ ابنتي تحب شابا ، وتريد إجباري على قبوله زوجا لها .. خبت إن قبلت .. نحن في فرنسا والغرب .

لما علمت هدى قرار والدها ، رفضت الزواج منه ومن غيره .. وهددت بالموت ، فاشتد غضب عزام عليها ، وكاد أن يهجم عليها ليضربها ، لولا تدخل زوجته ومنعه من فعل ذلك واتصل بشقيق الشاب الذي سبب له كل هذا التوتر والألم ، وأخبره برفضه زواج ابنته من شقيقه ، وترجاه أن يختفي شقيقه من حياتها .. وطلب عزام من شقيقه مسلم محمد تأجيل إعلان الخطبة لأيام .

وجاء شقيق الشاب بلال بشفعاء ، فأخبرهم الحاج عزام أنه قريبا سيعلن زواجها على ابن أخيه حسن مسلم ..وترجاهم مرة أخرى أن يصرفوا ابنهم عن طريق ابنته .. وصداقة الجامعة انتهت بانتهاء الجامعة .. وحذرهم من غضبه وسوء العاقبة .

امتنعت الفتاة عن الأكل أمام إصرار والدها على اقترانها بحسن .. وبعد أيام نقلت للمستشفى .. وحاول أخوالها بعد اطلاعهم على أمرها التدخل ، فأساء لهم الحاج عزام وطردهم من بيته .. وسعوا لدى حسن ليرفض هذا الزواج ؛ لأنه لن يسعد مع أنثى ترفضه وتكرهه ولا تريده زوجا ، فقال بهدوء : أنا لا رأي لي في هذا الزواج! .. أبي يريد ذلك ، وعمي يريد ذلك ..وأنتم أقنعوها ببر أبيها في هذه القضية .. وليس عندي كلام آخر .

رغم أن هدى هي البنت الوحيدة للرجل رفض أشد الرفض أن تقترن من شاب عرفته أثناء دراستها في الجامعة ، ولما رأى رفض الفتاة للزواج من ابن أخيه حسن ، قال مهددا : إذا لم تقترني بحسن فلسوف أطلق أمك .

وأثار ذلك التهديد غضب الأم وأهلها ؛ ولكنه واجههم بقوله : لولا تسترها على ابنتها مع ذلك الشاب ما حصلت هذه الفضيحة .

أقسمت الأم بأنها لم تكن تعرف الشاب ، ولا تعرف بصحبته لابنتها إلا عندما جاء خاطبا ليدها قبل عامين .



زواج هدى

لما رأت هدى الخطر المحدق بأمها ، ورأت شدة أبيها الذي كان يدللها أحسن الدلال ، ويقدم لها كل الأشياء قبل معرفته لذاك الطالب بلال .. قبلت برفض زواجها منه ، وكذلك عدم الزواج من حسن .. قبل عزام الأمر على مضض ، وأجل زواج ابن شقيقه لبضعة شهور ؛ ليدبر الأمر كما أعلم شقيقه .

هدأت العاصفة لحين .. خلال هذه الأشهر اختفى السيد بلال من البلاد .. فقد هاجر لكندا في أمريكا الشمالية .. فلما علمت هدى بهذا الهروب أدركت أن الشاب استسلم ويئس منها .. حاولت أن تعرف عنوانه من إحدى شقيقاته .. فترجتها الشقيقة أن تبتعد عن شقيقها .. ولتبحث لها عن زوج غيره .. رغم جرح كرامتها بهذا الكلام سعت إلى معرفة العنوان من إخوته .. ولكنهم رفضوا التعاون وأخبروها أن والدها هدد بقتله إن لم يبتعد عنها .. وأن المشكلة محصورة بينها وبين أبيها .. وحاولت معهم مرة تلو مرة ، وتجد صدا ونصحا بنسيان بلال .. وكان أبوها أيضا يراجعها بالزواج من حسن ، فترفض وتقول : لا أريد الزواج كله لا من حسن ولا من غيره .

فيرد ساخطا :لابد من الزواج .. أحس بأني سأموت قريبا بسببك .. من ورائك يا هدى .. لابد من زواجك قبل موتي ..

وأمام توسلات الأم وبكائها ، وضغط أخوالها استسلمت هدى لرغبة أبيها .. وخلال أسابيع عقد القران ، وحصل الزواج .. ورحل حسن للحياة مع زوجه في قصر عمه الحاج عزام .. وكان الأب ربما أسعد الناس بهذا الزواج ، وكان حسن يقول لأم هدى : أنا أعلم أن هدى لا تحبني ولا ترغب بي زوجا ..ولا يمكن أن تحبني .. ولكنّ عمي أصر على زواجي منها ، ووافقه أبي .. وكان يرى علاقتها الغرامية بذاك الشاب إهانة لكرامته وثقته بها .. وإهانة لكل العائلة أيضا ، وقد كظم غيظه حتى تنهي جامعتها .. لا تغضبي مني وتكرهينني ، ولا هي

يجب أن تغضب مني .. ها هي في النهاية أطاعت والديها .. أرجو أن لا تكرهيني أنت .

ـ لا حرج عليك يا ولدي .. أنا أعرف عمك أكثر منك ، عشرة عمر .. وقد وقع عليك الاختيار .. فأتمنى لك السعادة والسلامة ، وأرجو الله أن يغير قلبها نحوك .

لم يستطع حسن رغم بساطته وطيبته أن يستولي على قلب وعواطف هدى .. كانت تبغضه وتحتد عليه وتجرحه بالكلام .. وهي تعلم يقينا أن لا يد له بالزواج منها .. حتى لو رفضها لوجدوا قريبا غيره .. أبوها متعصب للزواج من بنات العائلة .. ويحتقر أي شاب أو شابة يتزوج من خارج بنات الأسرة .. مع أن أمها من عائلة غير عائلة أبيها .. ولكنه ذكر لها أن ذلك حدث في ظروف خاصة ، وأن العائلة عندما أراد الزواج لم يكن فيها فتاة صالحة للزواج كلهن كنّ صغيرات ..

مضت الحياة ؛ لأنها لا تتوقف ، ولا تؤثر فيها الحوادث صغيرة كانت أم كبيرة .. أنجبت هدى قبل إتمام السنة الأولى للزواج المولود الأول ، وكان طفلا جميلا سماه عزام عباسا ..

حسن كان مدرسا لمادة الفيزياء في مدرسة صلاح الدين الثانوية .. ولما تزوج هدى كان له سنة واحدة في المدرسة .. فهو يكبرها بشهور فقط وتخرج معها من الجامعة .. وهدى بعد استقرار زواجها رغبت بالعمل كمدرسة ، فلم يرفض حسن هذه الرغبة ، إنما جاء الرفض من أبيها فقال مقنعا لها: أتريدين العمل بعشرين دينارا ؟.. لك مني كل شهر خمسون دينارا .. البيت هو مكان المرأة .. لما أموت تعملين كما تشائين .

ولزمت الصمت ، ولما ولدت مرة أخرى حاولت مع أبيها مرة أخرى فرفض ، فعجبت لرفضه ، وتعجب للعداوة التي تراه يكنها لها وللعمل النسائي .. لقد نسي الحب الكبير الذي كان يخصها به .. هي تعلم عمق الجرح الذي تركه بلال في قلب أبيها لها وله .. كره جنس النساء من وراء تلك العلاقة .. حتى عداوته لها لم تظهر أيام الجامعة رغم الجفاء الذي كان يظهره لها أحيانا .. وصدمت من إصراره على الرفض والعناد ، فمرضت ومرض المولود

الثاني ، ثم مات قبل أن يكمل ثلاثة أشهر .. فحزن عليه عزام وبكاه ؛ كأنه فلذة كبده .. حزن عليه أكثر من أمه هدى .. ومن تأثره بموته مرض هو ، وأدخل المشفى أياما .

كانت أم هدى تقف على الحياد ، وتجتهد على ذلك الحياد ، فكانت تراقب المشاهد بدون كلمة هنا أو هناك ، وتحث ابنتها على الصبر والرضا بقدرها ونصيبها .

كبر عباس وبلغ أربع سنوات ، ودخل في الخامسة عندما ولدت أمه أخته مريم ، وسماها بذلك الاسم الحاج عزام .. وقبل أن تتم شهرها الأول مرض جدها عزام ، وهلك على أثر عملية في القلب .. وكان يردد في ساعاته الأخيرة إذا زارته ابنته " أنت السبب .. أنت السبب " ويشير إليها .

فتنصرف باكية حزينة ، ومع حزنها وألمها من كلمات أبيها كانت تبغضه ولم تطلب منه أن يسامحها ويغفر لها .. وكان في انتظارها بعد موت أبيها مفاجأة قاسية ..وهي أن الأب لم يترك لها بعد الموت الشيء الكثير من الميراث بالنسبة لثروته .. فقد وجدوا أنه تنازل عن أغلب الأموال لحسن زوجها .. وكتب لعباس ومريم الكثير من الثروة ، وترك مبلغا باسم الزوجة ، وسجل القصر كله باسم حسن هبة من عمه لقبوله الزواج من ابنته .. حصلت هدى على خمسين ألف من ثروة أبيها .. وحصلت الأم ثمن الثروة التي ظلت وبقيت على اسم الحاج عزام .. سوى ما كتب على اسمها قبل موت الرجل .. وأخذت أمه أم مسلم التي تسكن مع مسلم سدس الثروة ، وورث أخوه مسلم باقي الثروة تعصيبا .



الطلاق

بعد انتهاء العزاء بأيام وقبل أن تقبض حصتها من ثروة أبيها طلبت هدى من حسن الطلاق ، فتعجب حسن من العجلة في طلبها الطلاق ، وإلا هذا كان متوقعا رغم وصية عمه ألا يفعل ذلك ، فقال لها متضايقا : كيف يكون ذلك ولحم أبيك لم يبرد ؟!.. أنا أعلم أنك قبلت بي رغم أنفك .. مكرهة .. وولدت لي ثلاثة ، ولم تقبلي بي زوجا ، ولم تطب صحبتي لك لليوم .. أنت لم تقدمي لي كأس شاي مرة واحدة من يدك .. الخادمة تطهو أو أمك ..

فصاحت فيه ساخطة : لماذا قبلت بي ؟

ـ الآن تصيحين.. لماذا قبلت بك ؟!.. لمَ لم تصري على الرفض ؟

ـ أنا بنت !!

ـ بنت !! .. كلام فارغ .. أنا كنت على وشك طلب يد ابنة خالتي حسناء .. ولكن أبي أصر على الزواج منك لرغبة عمي عزام بهذا الزواج .. الطلاق لا يمكن ؛ لأنها رغبة عمي .. الهجر ممكن ..

لزمت الصمت فهي قد سمعت من أمها بهذه الوصية .. ولما نقلت لها حصتها المالية حسب الشريعة الإسلامية بعد أشهر جددت الحديث حول طلاقها من حسن مسلم ، وسمعت نفس الرد ، فقالت لاستفزاز رجلها : كيف تعيش مع امرأة تبغضك وتكرهك ؟

ـ هذه المرأة أم الأطفال أم عباس ومريم .. تكرهين العشرة الزوجية .. فأنا مستعد لترك البيت لك .. اما الطلاق فإنه يقلق راحة عمي في قبره ..

صاحت هائجة : عمك ! عمك !.. عمك مجرم !

نهض قائما غاضبا وصاح فيها : عمي مجرم !! نسيت أنك ثلمت شرف أبيك .. أنت المجرمة . دخلت أمها على صياحهم وسمعته يقول : ألم يوصك أبوك عندما وافق على تقديم أوراقك للجامعة احذري الشباب وقصص الحب ؟ ووعدته أنت بالمحافظة على شرفك وشرف

العائلة ..ووعدته بعدم الوقوع في هذه القصة الفارغة ..

قالت الأم : ما هذا الكلام يا حسن ؟!

صاح فيها هي الأخرى قائلا : تصف عمي أبوها .. زوجك بالمجرم .. أرأيت مثل هذا العقوق ؟! تقول عنه مجرم ؛ لأنه زوجني منها .. أيقبل هذا يا سعيدة ؟ .. تريد الطلاق ولحم الحاج عزام لم يبرد بعد ..

قالت الأم جزعا : تريد الطلاق ؟!

صرخ وقد احمرت عيناه : من بعد العزاء وهي تطلب هذا ..

صاحت هدى : إني أكرهك .. طلقني .. وأبغض كل العائلة من أجلك وأجل أبي المجرم

صاح حسن : كل هذا من أجل شاب ضعيف .. قبض من أبيك بعض المال وتأشيرة هجرة فتخلى عنك سريعا ..

ـ هو أحسن منك .. وأنا أحبه .

لطمها على وجهها عدة صفعات ، وخرج من الغرفة ساخطا ناقما .

حاولت الأم أن تخفف من نقمتها وغضبها ، وحاولت إبعاد فكرة الطلاق من رأسها من أجل خاطر والدها ومن أجل الأولاد من أجل البنت الصغيرة ، فهاجت بعد هدوء وقالت : أنا لا يمكن أن أبقى على ذمته! ..أنا لا يمكن أن أبقى في السجن ..ذهب السجان الكبير .. وسأتخلص من السجان الصغير

قالت وهي تبكي : حسن ليس له دخل .. لو رفض حسن لأتى أبوك بعشرة غيره ..أبوك متعصب للعائلة والأسرة ..

ـ أريد الطلاق .. وبعد هذه اللطمة لن أجلس معه في دار

اتصلت الأم بإخوتها ، وتحدثوا مع والد حسن ، وطابت لهم فكرة الهجر ، ورأوها أفضل من الطلاق في الوقت الحاضر من أجل الرجل الميت .

هدى رفضت الحياة معهم إلا بالطلاق الكامل .. ولما رأى الشفعاء أن لا صلح بينهم ، ولم تنفع دعوات اصلاح ذات البين ، ولم ترق فكرة الهجر لهدى ، فذهب القوم لمحكمة شرعية ، وجرى الطلاق بعد خمس سنين من الزواج .

وظل حسن يحيا في القصر ـ فهو باسمه وملكه ، فقد تنازل له عمه عنه بعد ولادة عباس ـ ربما نكاية بهدى وزوجته .. ولكن رأينا أنه ترك لهنّ ثروة كبيرة في تلك السنوات .. وهدى بقيت فيه .. وبعدما هدأت زوبعة الطلاق أخذ السيد حسن السعي إلى زواج جديد ، وتزوج شقيقة الفتاة التي كانت ستكون زوجته أخت حسناء ، لولا دخول هدى على خط الزواج .. كانت الفتاة اسمها فائزة أخت حسناء .. فحسناء كانت قد تزوجت بعد زواج حسن بشهور وفائزة أحمد هي ابنة خالته ، وأمها قريبة لأبيه أيضا .. ولما تمت الخطبة .. بدأ الاستعداد للعرس.. وأجرى الأستاذ حسن بعض التحسينات في غرفة النوم .. .. ولما جهزت العروس تعين يوم الاحتفال بالزواج .

واعتذرت السيدة هدى من الذهاب لحضور حفلة العرس ..وتقرر أن تقضي بضعة أيام في منزل جدتها أم أمها .. وذهب الناس إلى صالة الحفل للاحتفال بزواج حسن وفائزة كعادة الناس .

وبعد رجوع العرسان للبيت بيومين أو ثلاثة اتصلت أم هدى ببيت أمها تطلب الحديث مع هدى ؛ لتطلب منها الرجوع للبيت .. بيت أبيها ..

فردت عليها أمها دهشة أن هدى رجعت للبيت ليلة العرس .. تركت أولادها عندها ، وقالت : " سأبات في بيتي عند أمي .. وأوصتني على أولادها " .

الهرب

كان آل الرّشاد منشغلين بالعرس ، وكانت هدى منشغلة بالاختفاء ، أقسمت الأم أمام العائلة بأنها لا تعلم من تدبير ابنتها شيئا ، ولا من أفكارها الرديئة شيئا ، فقامت الاتصالات والتحركات شرقا وغربا ، ثم وجدوا قصاصة ورقية في حجرتها تعلن فيها بأنها مهاجرة لكندا أو الولايات المتحدة ، وتطلب منهم عدم البحث عنها ، وأنها تبرأت من اسم العائلة إلى الأبد ولما اتصل أحد أقاربها باستعلامات المطار الدولي للمدينة أكد لهم سفرها في رحلة فرنسا ، وقد أصيب القوم بصدمة كبيرة ، وعاد عباس ومريم للحياة في قصر جدهم وأبيهم .

وكان الجميع يلوم هدى على فعلتها الشنيعة بترك أبنائها من أجل ذلك الرجل ، فقد ترك خروجها الخفي جرحا في كل أفراد عائلتها الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأقارب .. حتى فكروا بإرسال شخص أو أكثر لجلبها للبلاد ؛ ولكنهم وجدوا الأمر معقدا ، وليس يسيرا ، فالحكومة الكندية لن تسمح لهم بأخذها عنوة ، ولسوف تكبر القصة ، وتشيع في وسائل الإعلام ، وتكبر الفضيحة ، فرضخوا للسلم والعافية ، وإن كان لديهم أمل كبير بندمها ، واكتشاف خطئها الكبير في حق نفسها والعائلة الكبيرة ؛ ولربما العودة للحياة معهم .

بكى عباس أياما على اختفاء أمه ، ثم تعود على غيابها شيئا فشيئا ونسيها ، وتعلق بجدته وأبيه وزوج أبيه .

دخل المدرسة وبعده بسنوات لحقت به مريم .. وكانت حياتهم تمضي رتيبة هادئة ، لا تخلو من منغصات الدنيا .. هذا وُلد .. هذا مات .. هذا تزوج .. هذا مرض .. ويأخذ الزمن دورته .. وسنة تلو أخرى وصل عباس لكلية الطب ؛ لتحقيق رغبة الحاج عزام الذي حدد له هذا الهدف ، يوم حمله بين يديه لأول مرة ، حين ولادته ، قال : "هذا عباس سيكون طبيبا في العائلة " .. وقد ترك له جده ثروة كبيرة لتحقيق هذا الحلم .. تخرج من كلية الطب ، وكان جرح أمه الهاربة من أجل رجل يحز في نفسه ويثير الشجون في قلبه وكيانه .. ويعجب من

تخليها عنه وعن أخته ، وإن عذرها بالتخلي عن أبيه .. فهذا شأنها وحياتها الخاصة ..أما هو ومريم فلا عذر لها في ذلك ، فيتألم كلما ذكر هذا الألم .. بل كان يتفوه بكلمات قاسية وجارحة في حقها .. وحق كل النساء ، وقبل أن تتخرج شقيقته كطبيبة مثله ماتت جدته سعيدة .. ثم مات جده مسلم والد أبيه في أقل من شهر .

وكلما حدثه أبوه حسن عن أهمية الزواج في حياة البشر يرفض الاسترسال في هذا الموضوع ، فيقول حسن : لا يجب أن تجعل من قصة أمك عقدة لرفض الزواج .. كانت رغبة جدك عزام ـ رحمه الله ـ رفض الزواج بتلك الطريقة .. ومن ذلك الإنسان .. وأصر على زواجي منها هو وأبي .. كان من العار عندهم أن تتزوج الفتاة من حبيب لها .. وكانت أمك تبغضني وأعي ذلك ؛ ولكن حكم العائلة والتقاليد لها دور في حياتنا .. فغلب على ظنّنا أنها ستنسى أيام الجامعة .. بعد الزواج وبعد ولادة عباس وأخته مريم .. ولكنها ركبت رأسها كما يقولون .. ورغم أن جدك طلب مني عدم طلاقها بعد موته طلقتها .. فأمام ضغط العائلة ونشوزها قبلت بالطلاق .. ثم خدعتنا بالقصة التي تعلمها ..فلا تدع هذه الأفكار والصور أن تهدم حياتك وتعقدها ، فليس كل النساء يهربن ويعشقن .. وأنا حسب علمي لم أقصر بالعناية بكم وجدكم فعل كل شيء من أجلكم .. وضع المال باسمك في البنك وديعة وقال "إذا عاشت مريم ، فليعطها عباس مما كتبت له " .. وترك بيتا باسمك، وأجرته تعود إليك وإلى مريم .. وزوجة أبيك لم تقصر معكم .. هي لن تكون مثل الأم بالتأكيد .. والجدة سعيدة احتضنتكم منذ ولدتم .. فهناك نساء طيبات ورائعات يا ولدي .. ففائزة اهتمت بكم كما اهتمت بإخوتك .. فضل .. ومحمد .. راضية .. وسناء .. وعزام .. وقريبا ستتخرج مريم ، وستتم خطبتها لابن أخي محمد الدكتور يوسف .. وهو صديقك ويكبرك بسنة واحدة .. يا ولدي شريكة العمر لابد منها .. وأما فكرة السفر للبحث عن أمك فهي فكرة رديئة ، فهي لابد أنها اقترنت بذلك الفاسد الذي غرر بها ، وهي التي اختارت حياتها بنفسها .. لقد صدف أن

التقيت بأخيه الأكبر .. الذي جاء يوما طالبا ليدها أيام الجامعة ، فأقر لي بأن أخاه تزوج منها بعد طلاقها وهربها إليه في كندا .. وأنا لولا ضغط العائلة ما طلقتها ، كنت أريد هجرها ولكنهم خافوا أن تنتحر أو تهرب .. عرضت عليها أن تبقى لكم ..

كان الدكتور عباس يسمع ذلك الكلام الذي يعرفه ويحفظه عن ظهر قلب .. وهو شارد الفكر فقال : أنا فكرت بالسفر إليها لعلي أستطيع الإتيان بها .. ولكن كما قلت فقد تزوجت ذاك الرجل الماكر .. ولها ذرية منه

ـ إذن علينا أن ننسى أمرها حتى تفوق ، وتعرف حق العائلة والأبناء .. فأسع لزوجة حسناء تقر عينك بها ..وتعينك على حياة الدنيا

تنهد عباس ربما ضجرا وقال : لا تشغل بالك يا أبي بزواجي .. أنا تعقدت حقيقة من النساء بسبب أمي ، وبسبب البنات التي شاهدتهن في الجامعة .. قدمت أوراقي للعمل في طب الجيش .

ـ ولكن يا ابني لا غنى لنا عنهنّ رغم عوجهنّ .. فالزواج دين ، وسنة سيد المرسلين ، وأنت سيد العارفين .



قد سمع عباس قصة زواج أبيه وأمه عشرات المرات ، ولم يضع لوما على أبيه حسن ، وإنما كان الشاب يطيع رغبة أبيه وعمه .. وهو ما زال يذكر طيف أمه التي عاش معها أربع سنوات ونصف ..ويذكر ليلة هربها ؛ كأنه يراها اليوم .. وكلما يتذكر تلك الساعات الأخيرة يتمزق قلبه ألما وحزنا وأسفا .. اعتبرها قد خانت الأمومة ، الرسالة الحقيقية للأمهات .. أخذته

ومريم بسيارة أجرة لبيت جدتها .. لقضاء يومين أو ثلاثة .. نزلوا من السيارة ، وسمعها تطلب من السائق الانتظار .. وقرعت باب الجدة ، وفتحت الخادم لهم ـ كان ابن الجدة خالها قد ذهب لحضور حفل زواج حسن مسلم ـ وقالت لجدتها من بوابة البيت " احفظيهما حتى ارجع ".. شاهدها عباس تركب السيارة ، ولوحت لهما بيدها ، ثم اختفت ، ودخلوا البيت حيث قدمت لهما الخادم الشراب والحلوى .

وما زالت يدها تتحرك أمامه مودعة لهما .. هذه الصورة ، وهذا المشهد ما زال عالقا في ذهنه ومخيلته .. ويتسأل : كيف هان عليها فراقنا ؟! لو كان موتا لهان الأمر .. هربت .. هربت من أجل رجل أحبته ..!!

أما شقيقته مريم فهي لا تتذكر شيئا ، كانت ابنة سنة تقريبا .

وكلما يتذكر رغبة والده بتزويجه يهيج ويتضايق ويصرخ في داخله " لا زواج .. لا نساء .. النساء شر " ثم يتذكر قول بعضهم في ذلك " النساء شر لابد منه " من وضع هذه العبارة الخالدة ؟!.. ويغرق متأملا صحة هذه الحكمة والعبارة .. " شر لابد منه " .. لابد من امرأة في النهاية .. ولكن صديقنا الدكتور زاهر قطي يرى غير ذلك .. يرى أن النساء من نعم الله الكبرى على الذكر .. آدم لم يعش في الجنة بدون أنثى .. فخلق الله له حواء .. ويقول "النساء ذوات عقول ساذجة .. بسيطة .. لا يحببن التفكير المعقد ..عاطفتهن في عقولهن .. إذا أحبت شيئا كان هو الحياة والدنيا .. وإذا كرهت شيئا كان هو العذاب والجحيم "

عندما يتذكر عبارات زاهر قطي في النساء يقول : هل هناك غاية من النساء غير الإنجاب ؟ .. هل حقا ما يتحدثون به عن المتعة الجنسية والحياة الجنسية ؟! أم خرافات تنتقل عبر الأجيال ، وأصبحت كأنها حقائق ؟.. هل الحيوانات تستمتع بالمعاشرة الجنسية ؟.. أم جماعها للإنجاب وبقاء الجنس والنوع .. هل يختلف الإنسان عنها ؟!" .. وفي النهاية مهما فكرت وفلسفت الأمور يا عباس .. لابد من الزواج .. فليكن الزواج في النهاية

هَذَا جنَاهُ أَبِي عليَّ ... وَمَا جَنِيْتُ عَلَى أَحَدِ

ردد بيت الشاعر أبي العلاء مرات .. وقال : سألتحق بالجيش ثم أذهب للتخصص في جراحة القلب على نفقتهم في ألمانيا الغربية .. لعل انشغالي بالعلم والطب يندمل الجرح الذي يمرض قلبي .. هربت وتركت ولديها من أجل شهوة مع رجل .. حبيبها يا له من حب ! .. هل يستحق هذا الحبيب كل هذه التضحية ؟ النساء .. النساء مرض .. لقد سمعت الكثير من التعيير بسببها .. امرأة تترك أطفالها الصغار لأجل رجل.. يقولون هربت من أجل عشقيها .. عشقته !!..يا الله ! .. المرأة تترك الزوج من أجل أولادها .. ألم تفكر أمي بذلك ؟!.. إنها مجرمة ! .. إنها أمي !.. إنها أنانية !.. ألم تفكر بنا ؟ وما سيلحق بي وبمريم من فعلتها تلك ؟ لو ظلت على الطلاق لكان الأمر أهون .. رحماك يا الله .. أخطأت وأجرمت في حقنا !.. نحن في بلاد عربية .. العائلات لها حقوقها وتقاليدها .. نحن لسنا في أوروبا وأمريكا .. حتى لو أساء رجل للعشيرة والحمولة بحماقة .. لظل الناس في رواية حكايته .. فما أزال أسمعهم يتندرون بحكايات أموات في مجالسهم .. فلان حرامي لص مواشي .. وفلانة تخون زوجها ..حتى لو ضحكوا في وجهك وراعوا مشاعرك .. فهم يتناقلون تلك القصص .. هدى عزام هربت لكندا من أجل صاحبها الذي عرفته في الجامعة .. تركت أولادها من أجله .. الناس .. ويحنا من الناس .. ألم يقل لي ذلك العجوز عندما عرفوه عليّ وابن من أنا " أنت ابن تلك المرأة الهاربة إلى الغرب ؟" .. يا لها من لطمة! كدت أن أثور بوجه العجوز واطرحه أرضا .. ما ذنبي أنا ؟ هل قلت لها اهربي مع حبيبك ؟ وما ذنب مريم ؟!.. الحمد لله ان مريم ستتزوج ابن عمها يوسف .. فهم يعرفون قصة أمنا الهاربة ، ويعرف عقدتنا .. مسكينة مريم كم رأيتها تبكي وتبكي وهي تسمع قصة الهرب الشائن .. وتردد " ألم تفكر فينا ؟" .. " لماذا يحمل الأبناء خطأ الأجداد إن حسب ذلك خطأ ؟! "

هل أخطأ جدي عزام بإجبارها على الزواج من أبي حسن ؟ أين يكمن الخطأ ؟ كيف يسمح لها

الشيخ بالزواج من رجل التقطته في الجامعة والكلية ؟! .. لقد قبل الآلاف الخمسة والهجرة لكندا من جدي عزام ليختفي من حياتها .. إنه ثعبان .. لو اختفى من حياتها ما تورطت بالهرب إليه ظل خائنا يراسلها .. ألم يوجد بعد هربها بضع رسائل في حجرتها ؟ .. رغم تعهده وأخذه المال ظل خائنا .. كان أبي يعرف هذا ويصمت .. صحة الجد قد تعبت ، ولم تعد تتحمل أفعال هدى الصبيانية .. أفعال المراهقين .. حب .. هذا حب !.. أعطاني بعض الخطابات ذات مرة حتى لا أظلمه في يوم ما على طلاقها . وقال " يا بني جرحت كرامتي ومشاعري .. ولكن من أجلكم ومن أجل جدكم غضضت الطرف ، وتجرعت كأس السم .. واحتفظت بهذه الخطابات حتى لا يقال يوما أنني اخترعتها لأبرر طلاقي منها ".



طبيب في الجيش

تعاقد الطبيب عباس مع الطب العسكري ، وأخذ دورة عسكرية ابتدائية لمدة ثلاثة أشهر ، وأعطي رتبة عسكرية ثلاثة نجوم على كتفيه ، وستقوم الخدمة الطبية بإرساله لألمانيا الغربية لدراسة جراحة الدماغ والقلب أو أحدهما .. وألمانيا قد قسمت بعد هزيمة هتلر لدولتين شرقية تابعة للاتحاد السوفيتي ، وغربية تابعة لأوروبا والغرب .

وسعى حسن غير يائس لتزويجه قبل سفره للعمل في مستشفيات ألمانيا والتخصص الطبي فاعتذر ، وقال : اخترت الطب يا أبي على النساء .. خذ بالك من مريم ، فهي رقيقة المشاعر وتعاني مثلي من فعلة أمي .. لعل الجرح يندمل في قلوبنا مع الزمن .

ـ يا ولدي لا تزر وازرة وزر أخرى .

ـ ذاك عند الله سبحانه يا أبي !

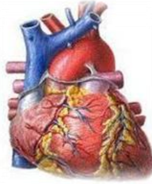
تنهد حسن حزنا ، وقال : سافر وتوكل على الله .. ولنكن على اتصال دائم .. فالغربة مرة .. وهذه آخر مرة أكلمك فيها عن الزواج.. فالزواج والحياة الزوجية في فترة الشباب هي من أجمل سنوات العمر.. والإنسان يضعف مع الوقت والتقدم في العمر ..

ـ سامحني يا أبي على مخالفتي لك في موضوع النساء .. رغم حواراتنا الكثيرة حوله لم استطع نسيان حادثة أمي .. سأدعوك لزيارة بلد هتلر برلين ..

أقام حسن وليمة كبيرة وليمة وداع لبكره ، دعا إليها إخوته وأبنائهم وأبناء عماته وأخوالهم ، ودعا إليها عباس بعض رفاقه الأطباء ، وكانت وليمة وداع يذكرها الأهل لسنوات ، وقد أدخلت هذه الوليمة السرور على قلبه ، ورأى العواطف الصادقة والمزيفة من الأقارب ؛ ولكنه سعد بوليمة أبيه ، وبعد أيام ركب الطائرة مسافرا إلى فرانكفورت في ألمانيا الغربية .

استقر عباس في مدينة ألمانية ، واستقر في سكن معدا سابقا لطلبة البعثات في عمارة واسعة وعديدة الطوابق ، وعين له مستشفى عسكريا كبيرا للعمل فيه والدراسة فيه .. وأخذ يتنقل

بين عمليات الجراحة في قسم جراحة القلب وجراحة الدماغ في المستشفى والبيت .. واندمج في هذه الحياة ، وأحيانا كثيرة كان يقضي الليل في المستشفى في أقسام الطوارئ ، وارتاح نفسيا أثناء ممارسة العمل .. وفي ساعات البيت يتحدث مع مريم والدكتور يوسف زوجها .. ويتصل بوالده وبعض الأصدقاء .. استعان بخادم عجوز تعنى بتنظيف وترتيب بيته أو قل شقته .. كان عليه أن يقضي أربع سنوات على الأقل لينال الاختصاص الطبي ، ويتخلل هذه السنوات إجازات سنوية .. فحياة الاختصاص ثقافة وعمل .. ندوات طبية .. والعمل في المستشفى .. وقد كان الطبيب مجتهدا ومتفوقا .



وبشكل عام يفضل بأن يكون التمويل للطبيب في ألمانيا أو أوروبا الغربية من جهة رسمية منحة أو بعثة ، وليس بتمويل شخصي خاصة لدرجة التخصص الطبي .. ويجب أن يكون الطالب مسجلا في النقابة في المقاطعة التي يعمل فيها .. وبعد مرور الوقت اللازم للتخصص وإنهاء كل الدورات النظرية والعملية المقررة ، واستيفاء شروط غرفة الأطباء الألمانية بالتخصص (تختلف بحسب التخصص) يقوم البروفيسور أو الطبيب المشرف على التخصص بكتابة تقرير نهائي شامل لكل المراحل التي مر بها الطالب ، ويزكى للتقدم لأداء امتحان التخصص ، ودون موافقته لا سبيل لأداء الامتحان .

وهناك من يجري الفحص المحلي والتجريبي لمعرفة القدرة النظرية له من قبل أخصائي المركز الذي يعمل فيه ، وتجرى دورات تدريبية في كل سنة في المراكز القلبية لمدة أسبوع للتحضير النظري قبل التقدم إلى الامتحانات ؛ لتقييم الطبيب قبل أن يتقدم إلى الفحص النهائي.

سوف يقوم طالب الاختصاص بكتابة طلب لتقديم امتحان التخصص مرفقا بتقرير المشرف

على تخصصه لغرفة الأطباء التابع لها المستشفى ، وهناك جداول للامتحانات تقوم غرفة الأطباء بعد مراجعة الملف الخاص ، وتقرير المشرف على تخصصه بإعطاء المتقدم موعدا للتقدم لتقديم الامتحان ودفع رسوم الفحص .

الامتحان هو عبارة عن مقابلة شفهية تتم بغرفة الأطباء ، ويتم من خلالها اختبار المتخصص من قبل أربعة أساتذة مختصين من مناطق مختلفة من ألمانيا أو من الأخصائيين المدعوين من خارج ألمانيا ، ولن يكون من ضمنهم أي ممتحن ممن تعمل معهم أو عملت عندهم .

يتم الفحص باللغة الألمانية ، ويدوم عادة من أربعين دقيقة إلى ساعة ، وبعد نهايته يطلب من المتقدم الانتظار خارجا لبعض الوقت ، ومن ثم ينادونه ليتلون عليه بروتوكول نتيجة الامتحان ، وأخذ شهادته الموقعة والمختومة من رئيس نقابة المقاطعة التي تنتمي إليها أو تقريرهم عن نقاط ضعفك والفترة الزمنية الإضافية التي تحتاجها لتقديم الامتحان من جديد

بعد الحصول على الشهادة يمكن طلب ترجمتها للغة الإنجليزية من قبل غرفة الأطباء المركزية مجانا بالإضافة إلى طلب تقيميها كأعلى شهادة يحصل عليها المتخصص في ألمانيا ومعادلتها حسب قانون الشهادات الأوربية فشهادة التخصص الألمانية أعلى من الزمالة البريطانية ، وتعادل شهادة إكمال التخصص التدريبي البريطانية ، تحصل على هذه الشهادة من غرفة الأطباء الألمانية ببرلين ومجانا .

ألمانيا هي الدولة الأولى في أوروبا التي تجرى فيها أكثر العمليات القلبية والإجراءات التشخيصية مثل القساطر { جمع قسطرة } أو إجراءات التوسيع بالبالون مقارنة مع جيرانها .

والمختص هو الطبيب الجراح العارف والمتمكن والملم نظريا وعمليا في المعالجة الجراحية لأمراض القلب المكتسبة والتشوهات الخلقية الولادية وأذيات القلب مع معالجة الأوعية المجاورة للقلب والأمراض الرئوية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع المرض القلبي ، بالإضافة إلى معرفة الإجراءات التشخيصية للمريض القلبي ، ومتابعة المريض أثناء وبعد

العمل الجراحي ، إن اختصاص جراحة القلب تغطي معالجة وتشخيص الأوعية الدموية المتواجدة في القفص الصدري فقط ، أما الأوعية خارج القفص الصدري فهي من اختصاص جراحين الأوعية. كان المشرفون على الطبيب عباس معجبين بقدراته ومهاراته ، وقد استوعب الشاب اللغة الألمانية وخاصة الطبية بسرعة .. وعباس صاحب خلق حسن منذ بداية حياته .. وكان معقدا من البنات والنساء ؛ لذلك كان يتعامل مع الطبيبات والممرضات والمريضات بجدية ورسمية تامة .. لا يحب المزح مع الفتيات عاملات ومريضات .. وحتى التدخين بغض إليه صغيرا ، ولم يشربه إذا صح هذا التعبير .. "ألا وهو قولنا شرب الدخان " .. لعلهم قاسوه على شرب الخمرة والكحول . كان عباس من هواة المطالعة وبشغف مشهود منذ نعومة أظفاره .. ولعب كرة القدم في أول سنوات الدراسة ؛ لأن هذه اللعبة بدأت تغزو العالم بجمع مكوناته ، وشاعت في المدارس الذكورية ، وقد تعرض لحادث خلال ممارستها ، ثم هجرها بعد شفائه من الكسر الذي أصابه .. وكان يهوى قراءة كتب الفلسفة والفكر والعقائد .. وكان يكره الاختلاط بالجنس الآخر ، ويتجنبه قدر الإمكان .

وكذلك السهرات كان لا يحب الإكثار منها ، وإذا حضرها كان مستمعا فحسب .. فإذا سمع بعض الأصدقاء يصفه بالمعقد .. فيقابله بابتسامة .. كان يلعب كرة الطاولة في الجامعة .. كان مغرما بالعزلة .. بعدما ارتاح للعمل والاختصاص في ألمانيا طلب من والده وشقيقته مريم زيارته والسياحة في بلاد الألمان والجرمان .

اعتذرت مريم وزوجها يوسف لشقيقها عن السفر ، وسافر والدها حسن لمدينة فرانكفورت واستقبله عباس في المطار ، واستقل وإياه سيارة تكسي إلى شقته .

وبعد استراحة لبضع ساعات خرجا للعشاء في أحد المطاعم التي يتردد عليها عباس ، وتجولا في أحد الأسواق القريبة من المطعم ، ثم عادوا للشقة .. حيث أعدت لهم الخادم العجوز القهوة بالحليب .

فقال حسن : أنا سعيد بسعادتك يا عباس العزيز.. شقتك واسعة رغم أن العائلات الألمانية صغيرة وقليلة العدد .. لا يحبون الأولاد الكثر مثلنا نحن الشرقيين .. طفل طفلان فحسب .

ـ الغالب يفعل ذلك ، وهناك عائلات تحب المواليد .. وتشجعهم الدولة أو المقاطعات على الإكثار من المواليد .. لقد عالجت نساء مريضات بالقلب ويحببن الإنجاب كنساء المسلمين .. والدولة تكفل المواليد بالرعاية والحضانة .. لتشجيع الولادات .. ألمانيا كما تعلم يا أبي خاضت في مطلع القرن العشرين حربين عالميتين .. وفقدت الكثير الكثير من أبنائها ، ولكنهم شعب قوي .. فنهض اقتصادهم وتطورهم بسرعة وعزيمة قوية .. والنساء لهنّ دور كبير بعد الحرب في بناء ألمانيا الجديدة .. وصناعة ألمانيا قوة اقتصادية كبيرة .. رغم بدايتها من الصفر لكن العقول بقيت وعمرت .. فأنا معجب بالشعب الألماني من أيام المدرسة الإعدادية حيث درسنا عن التاريخ الأوروبي .. فهم ينافسون الدول المنتصرة في الحرب الكونية .. لقد كانت الهزيمة حافزا كبيرا لهم للظهور على المسرح العالمي ، ومثلهم اليابان .. نحن العرب رغم كل الإمكانيات المادية المتوفرة في بلادنا ما زال تطورنا ضعيفا ضئيلا .. ألمانيا تصنع الدبابات والطائرات والسفن والصواريخ والغواصات .. علاقة ألمانيا بأمريكا جيدة .. وللأمريكان قواعد عسكرية هنا في ألمانيا منذ انتهاء الحرب الكونية الثانية .

ـ آباؤنا كانوا معجبين بهتلر والنازيين .. وكانوا يحلمون بأن تنتصر ألمانيا على الحلفاء .. ويساعدونا في الاستقلال والتحرر من القبضة الانجليزية .. وهزمت ألمانيا وظهرت دولة إسرائيل ..{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}

لما صمت حسن قال عباس : سمعت أنك تقاعدت يا أبي ؟

ـ أنا أنهيت خدماتي مع الحكومة بعد سفرك بسنة ..وأخوك فضل سيتزوج صيف هذا العام إن شاء الله تعالى ..

ـ هل أنهى الجامعة ؟

قال : على وشك التخرج .. أختي أم مسلم تريده لابنتها .. ابنتها تخرجت من الجامعة ببكالوريوس علوم ..

ـ على بركة الله .. نفس السن هما !

ـ لا ، فضل أكبر منها ، إنما تأخر سنة في الدراسة عندما مرض ، كما تذكر .. مريم اشتغلت في مستشفى خاص .. وأكيد أخبرتك بذلك ؛ لأنها تقول إنها تتصل بك دائما ..

تنهد عباس للحظات وأجاب بحرقة : إننا نخشى الأقارب من فعل أمنا .. فأنا سعيد بزواج مريم من يوسف .. فهو شاب نشيط وصديق عزيز لي .

قال : لا أحد يستطيع لومكم .. بل هم يشفقون أو كانوا يشفقون عليكم .. وأمكم أسأت للجميع .. هي لو اتصلت به ، وطالبته بالعودة ليتزوجها بين أهلها ، لا أحد سيعترض خاصة بعد موت عمي عزام ، قد يعترض بعضهم شكليا .. من يحرم الزواج المحترم ؟! .. اختارت طريقة سيئة لفرض الأمر الواقع .. أصلحها الله يا ولدي ..

قال عباس بحزن يشبه البكاء : للأسف كنت أشعر بالنقص والهزيمة عندما أجتمع بالأقارب

ـ أنت صنعت هذا الخوف .. فليست هي أول امرأة في العالم تفعل هذا .. ولا أحد مسؤول عن غيره إذا بلغ العقل والبدن .. المرء يتحمل مسؤولية تصرفاته وأخطائه .

ـ رغم اندماجي الشديد في العمل والعلاجات .. أحيانا أعيش مع صفحات الماضي .. وإساءة الإنسان لغيره حتى لو لم يقصد ذلك سيئة وجارحة للأحاسيس والعاطفة .. وأصل يا أبي إلى القول " لو أنها ماتت لكان ذلك خيرا لنا .. أما تتركنا من أجل شهوة وعاطفة فهذا الذي يحز في النفس ويقلقها" .. لليوم لم استطع النسيان .

قال حسن مشفقا ومتألما: كم أود لو تنسى هذه القصة !! لتحلو لك الحياة وتفكر بالأبوة والذرية الصالحة .. الحياة مليئة بالقصص والمآسي .. كان جدك عزام متعصبا للتقاليد والأسرة كان شيئا مستهجنا تلك الأيام .. أن يرى ابنته الوحيدة التي بذل الغالي والرخيص من أجلها

تأتيه بعريس من الجامعة .. أما اليوم فيستسيغ الناس مثل هذا الزواج .. التقاليد تتحول وتتغير .. فلسفة الناس في بعض العادات تتغير .. فاليوم نسمع أن فلانا من الناس تزوج فتاة تدرس معه .. فتاة تشتغل معه .. فلذلك بدأت تظهر العنوسة في مجتمعاتنا ، وزاد سن الزواج لدى الجنسين .. فكانت صدمة لجدك أن تأتيه ابنته بعريس لها .. فرفضه بشدة وهجّره من البلد .. وفعله كان مقبولا من الناس والعائلة يا عباس .. وشاء الله أن تلدكم أمكم من صلبي أنا.. أدوات منع الحمل لم تكن شائعة كشيوعها اليوم .. كان عمي يرى الأيام دواء للنكبات والمشاكل .. وأمك أصرت على الطلاق رفضت الهجر .. وتدخل أخوالها خشية أن تحرق نفسها أو تتجرع سما .. أو الهرب .. فاستسلمت لرغبتهم .. قصص الحياة كثيرة .. والعبرة في الذكرى .. والذكرى لا يجب أن تدمر حياتنا ..ونظل نتجرع مرارتها .

تنهد الشاب السامع الصامت وقال : ليتني أنسى .. لقد حملتني الهم منذ الصغر .. لماذا هربت أمك ؟ .. سؤال قاتل ..

ـ قلت لك يا عباس تزوج دعنا نزوجك .. مع الأسرة والأطفال ستنسى .. ستنسى .. أطفال تهتم بهم طعاما ولعبا ومدرسة .. ستنسى ما حملت من غم وهم .. فأنت في مهنة تريك مآسي البشر وآلام الناس .. الغني والفقير .. كيف يبكون ؟ وكيف يضحكون ؟ من يموت مريضهم يبكون ! .. من يشفى مريضهم يضحكون ويسرون ولو إلى حين .. عشرات يتزوجون ولا يوفقون في الزواج .. فسجلات المحاكم الشرعية تؤكد حالات الطلاق الكثيرة أن يظل الإنسان حبيس نفسه فسيدمر حياته كلها .. الأبوة حلوة يا ولدي .

أمضى الرجلان سهرة يقلبان فيها جروح الماضي وآمال الغد ، وكيف النجاة منها بعد مرور كل هذه السنين ؟

أم عباس

ذات ليلة عاد عباس بوالده من زيارة معرض طبي في صالة مشهورة في المدينة.. عرضت الخادم عليهما الطعام ، فأثنى عليها عباس ، وأعلمها بأنهم أكلا في أحد المطاعم ، وطلب منها صنع الشاي لهما ، وجلسا في غرفة المعيشة ، وقدمت لهما الخادم أطايب الفاكهة ..وأخذا يتحدثان عن مشاكل الشرق الأوسط وحرب لبنان ، ثم قال حسن : اقترب موعد سفري .. اليوم أكدت حجزي .. وأريد شراء بعض الهدايا للناس في الوطن .. أنا أعرف أنك غير ماهر في ذلك رغم أن جديك كانا من كبار التجار .. لكن دلني على سوق مهم في هذه البلدة .

قال : سأفعل .. وسأشتري هدية خاصة لمريم وزوجها يوسف ، ولأمي فائزة أم فضل .

رن جرس الباب ، فدهشا ممن يطرق عليهما البيت في الليل، وإن كان في أوله ، وجاءت الخادم تقول والاستغراب باد عليها : امرأة تريد الحديث معك يا سيد عباس !

ـ امرأة .. وما اسمها ؟!

ـ رفضت ذكر اسمها ، وهي مصرة على الدخول .. فالتفت عباس لوالده وقال : عجيب ليس لي صديقات من الجنس الآخر .. لا طبيبات ولا ممرضات !

قال حسن : دعيها تدخل .

وأشار عباس لها بالسماح لها بالدخول ، وخرج لصالة البيت ليرى المرأة ، ولما اجتازت البهو وقفت ، ولما رآها حسن هتفت هي استغرابا : حسن !

فحدق فيها دهشة هو الآخر وهمس : هدى عزام !

ونظر حسن لابنه وقال : هذه أمك يا عباس !

صاح عباس الذي تبع والده خارجا من غرفة المعيشة مذهولا : أمي .. هذه أمي !! وكان يشير إليها بيده مستنكرا .

فقالت بقوة : نعم ، أنا أمك يا عباس !

لم يتقدم نحوها ، وهي جمدت مكانها ، فقال حسن : سلم يا ولدي على أمك .

فقالت : لم أكن أعلم أنك هنا يا حسن .. عباس أنا أمك .

فقال الشاب المذهول وهو يشير إليها بسبابته : أنت أمي ؟! أنت أمي ؟! ولماذا جئت ؟!

فقال حسن مستغربا : ما هذا السؤال يا عباس ؟!

تقدمت هدى منه وسلمت عليه ، وحاولت احتضانه ، فدفعها برفق ، وقال بحدة خفيفة : بعد أكثر من عشرين سنة تذكرت ابنك عباسا .. أن لك ولدا اسمه عباس .. ما ذنب عباس ومريم ؟!

ـ هكذا تستقبل أمك يا عباس .. لم يحسن حسن تربيتك .

صمت حسن لم يرد على استفزازها رغم الألم الذي عصر قلبه ، فقال عباس بحدة أشد من الأول : أبي أحسن منك كثيرا ! .. أنا لا أشعر بأي ميل نحوك .. لم أحبك يوما ، ولا أتصور أن أحبك في يوم ما .. ولم أشتاق لك لحظة .. تأخرت يا أمي بالمجيء .

ـ أتريدني أن أنصرف ؟

ـ سيان عندي

قال حسن متدخلا : لا ، امكثي سيهدأ عباس .. ولكن كيف عرفت أنه هنا في هذه الشقة ؟!

ـ كيف حالك يا حسن ؟

ابتسم وقال : دعيك من حالي ..لابد أن أقارب زوجك ينقلون لك أخبار عباس وآل الرّشاد .

فقالت : هو ما تقول .

ـ أنا لم أحرمك من أولادك يا هدى .. أنت حرمت نفسك منهم .. وأنت التي هجرتنا .. رسالة برقية لم نر منك .

صاحت محتجة : حسن .. أنا ما زلت أكرهك .

ـ اكرهيني كما شئت .. عباس سأدخل حجرتي .. تحدث مع أمك ، تعرف عليها

فصاح عباس في وجهها : أرجوك أن تنصرفي .. أمي التي ولدتني ماتت .. أنا لا أحبك .. أنا أبغضك .

فقالت : هكذا ربوك وعلموك .. علموك بغضي .

ـ أنت بغضتيني لنفسك .. أم تترك صغارها لقضاء شهوة في حضن رجل .. مهما كان هذا الرجل .. الحشرة لا تتخلى عن أن بيوضها .. أبي قبل طلاقك رغم وصية أبيك .. ولكنك أنت رميتنا من أجل حبيبك وهواك .. من أجل صديقك .. من أجل شهوتك .

صرخت : عباس .. أرغموني على الزواج من أبيك .

ـ لا يوجد إرغام .. أنت مأساتي يا من كنت أمي .. أرجوك أن تنصرفي .. إني متعب لم أكن مستعدا لهذا اللقاء .. تهربين منا .. مني ومن مريم .. أنت لما هربت لم تكوني على ذمة أبي .. أكرهك !

قالت : سمموك عليّ .

ـ لم يسممني أحد .. أفعالك الدنيئة هي التي سممتني .. لبسنا العار من فعلتك الشنيعة .. خزيتينا أمام العائلة والناس .. أنت زرعت فيّ صورة مؤلمة للأمهات .. بعتنا من أجل شاب طماع .. شاب قبض المال من أبيك ليختفي من حياتك .. ثم نكص على عقبه .. خائن!

ـ عباس لا تسيء لزوج أمك والد إخوتك .. أنا مظلومة ، هم رفضوا زواجنا .

ـ أرجوك الخروج .. أنا لا أم لي .. ماتت في قلبي ، وإن كانت تمشي على الأرض .

ـ ألا تريد معانقة أمك وتقبلها ؟

صاح سخطا : أنت أم ؟! أي أم أنت ؟!

ـ أمك التي حملتك في بطنها شهورا ، واحتضنتك سنوات .

ضحك بسخرية وقال : ثم رمتني عند أقاربها ، وهربت للقاء الحبيب الخائن .. أمي التي قبلت بأبي زوجا ، ولما مات أبوها أجبرته على طلاقها .. اسمعي أنا أعرف تفاصيل حياتك ..

أمي التي كانت تتراسل مع حبيبها وهي على ذمة رجل ، وتفعل ذلك من وراء زوجها .

صرخت بشدة : عباس !!

ـ عباس يعرف كل الخزي .. أين احترام خاطر أبيك وزوجك ؟.. أين التضحية من أجل خاطر الأبناء ؟! .. أنت جنيت علينا .. دمرت حياتنا

ـ ما أقسى كلامك !

قال : قلبي مليء عليك .

ـ أحبك رغم كل هذا الكلام الجارح .

ـ دعيني من كذبك .. الحب تضحية ليس كلاما ..

ـ ألا تريد أن تتعرف على أخويك وزوج أمك ؟

قال هازئا : زوج أمي .. صديق أمي.. أجننت ؟ وهل مات أبي لأفرح بزواجك .

ـ سأغادرك الآن .. جئت من كندا من أجلك ، من أجل رؤيتك يا عباس

ـ لو لم أجئ إلى ألمانيا ما فكرت برؤيتي !



أغلقت الخادم باب الشقة بعد انصراف هدى ، وخرج حسن من حجرته ، وظل صامتا حتى وصل لعباس الذي ما زال قائما يتابع خطوات انصراف أمه بذهول ، وضع يده على كتفه برفق وهمس : عباس .. عباس

التفت إليه عباس منتفضا : ذهبت !

ـ نعم ، ذهبت .. ثم تنحنح وتابع قوله : لم تحسن استقبالها يا عباس إنها أمك وستبقى أمك .

قال بشروده : هذه هي أمي يا أبي! .. التي ولدتني قبل أكثر من ربع قرن .. أمي .. هل تحبني أمي يا أبي ؟!

ـ بالتأكيد أنها تحبك .. إنها أم .

ـ لا ، لا .. إنها تحب ذاك الرجل صديقها رفيق الجامعة .. الذي سافرت إليه وتخلت عنا .. إنها تحبه .. الأم تتخلى عن زوجها من أجل أبنائها .. لو كانت تحبنا يا أبي ما تركتك من أجلنا نحن أنا ومريم .. لظلت ، وبقيت معنا ..

قال حسن مخففا من الضيق الذي أصاب عباسا : بغض النظر عن كل الخواطر السوداء في ذهنك فهي أمك .. والدين عندنا يعظم الأم .. الأم لها حق كبير على الابن ..

وقال مجيبا بشرود في تلك الدقائق التي رأى فيها أمه : ونحن أليس لنا حق ؟

ـ لك حق .. حق الحمل والحياة والحضانة والتربية .. ولكن إذا لم يقم الأب أو الأم بهذا الحق لا يعني أن يذهب حق الأب والأم .. اسمع يا ولدي عليك أن تحسن استقبالها لأنها ستعود .. وهي تخاف من العودة لبلادنا للأفكار السيئة الشائعة في بلادنا عن الشرف والدم والعصبية .. فهي ربما تظن أننا سنفعل بها سوءا ؛ لأنها هربت وعصت الأسرة الكبيرة .. أما هنا فقوانين هذه البلاد يزعمون أنها تراعي حق النسوان أكثر من بلاد العرب والإسلام .. فديننا دين البر والوفاء للأم والبنت والشيخ الكبير .. ولسنا بحاجة لعيد الأم والأب .

لما لم يرد عباس تابع حسن الكلام : أنا مسافر بعد يومين ـ إن شاء الله تعالى ـ فأرجوك أن تحسن استقبالها ..فهي ابنة عم أبيك وابنة الحاج عزام جدك الفاضل .. اغفر لها يا عباس .. تعرف على الأخوة ، وربما تعود وهم بصحبتها .. هم أخوتك قدرا .. الإنسان لا يختار أباه ، ولا أمه ولا عائلته ولا بلده .. لا ضير من التعرف عليهم .. إنما هي سويعات ، وكل ينصرف لموطنه وعمله .. فهم أخوتك شئت أم أبيت .. وخذ بالك من عملك .

جلس الرجلان وقال عباس : أنت قوي يا أبي ! .. لا تحقد عليها .. ألا تكرهها ؟!

ابتسم حسن وطلب من الخادم صنع القهوة لهما وقال لولده بتمهل : ليس الأمر هكذا يا عباس يا عزيزي .. أنا لم أحبها يوما كزوج وحبيب .. حاولت ذلك ولم أنجح .. إنها كانت قاسية معي لم تفتح لي قلبها أبدا .. أنا كنت حقيقة لأمك مجرد زوج كرغبة أبي وعمي .. ومع ذلك صبرت لم أتزوج عليها .. ولم أفكر بذلك مع أن جدك الحاج عزام رغبني بذلك ، فقد أدرك كرهها الشديد لي ؛ لكني احترمت تضحيته ، وراعيت الجرح الذي سببته له .. وهي طول مدة زواجنا كانت تثيرني وتحثني على الطلاق ، وحتى عندما مرض جدك ذكرت ذلك ، وعند موته كررت الطلب .. كانت تكثر من قول " إني أبغضك .. كيف تعيش مع امرأة لا تحبك ؟ تستفزني لأطلقها .. الحب ليس الأساس الذي تقوم عليه الزوجية .. ربما يكون الزواج مصلحة مالية .. طمع .. لكن إذا زينت الحياة بالحب فهذا يضيف السعادة والبهاء للعلاقات الزوجية .. وقد يأتي الحب بعد الزواج ، وهذا أفضل من حب قبل الزواج .. وقصص فشل الزواج بعد حب كثيرة ..لأن أيام الحب ليست كأيام الحياة الزوجية .. مسؤولية وبيت وطعام وإنفاق .. فقصصه متكررة وفي كل المجتمعات .. وهذه المحبة أو المحب لو مات أحدهم .. سيبحث كل منهم عن حب جديد .. هكذا الحياة .. وفي النهاية هدى ابنة عمي .. رحم لي .. عليّ صلتها والإحسان إليها .. وهي أمكم ، كرهنا تصرفاتها ؛ ولكني لا أحقد على شخصها وذاتها .. رغم العار الذي سببته للأسرة والعائلة .. تظل قريبتنا وأمك وأم مريم .. الإنسان يضطر يا ولدي كثيرا أن يعيش مع خصومه وأعدائه ومبغضيه .. لا يوجد المجتمع المثالي النابض بالحب الكامل .. فأوصيك يا عباس أن تحسن المعاملة معها رغم فعلتها القبيحة في حقك وحق مريم وحق أبيها رحمه الله .

كان عباس يسمع وهو مستغرب من كلام والده في حق أمه .. كان يظن لو تمكن أبوه من أمه لخنقها .. لذلك لما صمت الأب ، قال عباس بتأنٍ : إنك أب مثالي .. كنت أتخيل لو أنك قبضت على عنق أمي لخنقتها .. من الألفاظ التي كانت تخرج منك أحيانا تجاهها .

تبسم حسن وأجاب : يا ولدي .. أنا ابن العائلة .. ونحن قوم نحيا على سمعتنا وشرفنا .. قد نتقاتل على شيء تافه من أجل الكرامة والشرف .. وهي أشياء معنوية .. لكن لها قيمة في نفوسنا .. وأنا لم أسيء لأمك وهي على ذمتي وتحت مسؤوليتي .. راعيت أنها قبلت بي مكرهة مرغمة .. كانت تعاملني باحتقار ؛ كأنني أنا فرضت نفسي عليها .. وكانت تجرح مشاعري بألفاظها المنتقاة.. تفعل ذلك لأغضب وأثور وأطلق .. كانت تنسى أني تزوجتها طاعة للكبار ولحبي للحاج عزام .. فهو الذي اختارني دون أفراد العائلة صهرا له .. فأصبر وأتحمل .. كما نصبر ونتحمل التلاميذ في المدرسة .. في البيت صبر وفي المدرسة صبر ..أمك يا عباس كأس شاي لم تصنعه لي أو تقدمه لي .. كانت الخادمة تصنعه وتقدمه لي أو جدتك أم هدى ـ رحمها الله ـ تقدمه لي .. كانت تجلس معنا على مائدة الطعام خشية وحياء من أبيها .. كنا نعيش كعائلة واحدة .. الخلاصة يا ابني الحياة تجارب ومدرسة عملية .. فأحسن لأمك ديانة مهما أسأت وقصرت في واجباتها .. أحسن إليها ليس لأنها أمك فحسب ، بل لأنها ابنة جدك عزام الذي أحبك كثيرا كأنك ابنه هو ..وفرح لمولدك فرحا كبيرا .. كان معتقدا أن مولدك سيصحح الأمور في البيت ، ويذهب النكد ، ويعيد هدى لصوابها وحياتها المرحة ، وتنسى أحلام اليقظة .. ولما رأى الأمور على غير ما يشتهي .. كتب باسمك الكثير من الأموال .. وأحسن إليها ؛ لأنها كانت زوجة لأبيك .

عادت الأم بعد أيام تطرق الباب ، وأخبرته الخادمة أن المرأة التي جاءت من أيام تريد الدخول وكان عباس تلك الليلة وحده ـ لقد سافر والده من حيث أتى ـ فأذن للخادم بالسماح بدخولها وكان مرتبكا فلبس روب المنزل ، وخرج لاستقبالها ، وكانت تجلس على مقعد في صالة البيت حيث يستقبل الضيوف ، فنهضت تسلم على ابنها ، فسلم عليها ببرود ، وحاولت معانقته فردها ، وقال : تفضلي بالجلوس يا أم عباس ، وجلس قبالتها .

وقالت وهي تجلس مرة أخرى ، وكلها ضيق من برودة الاستقبال: أبوك هنا ؟!

ـ سافر

ـ معي ناس

انتصب قائما وقال : من ؟!

قالت : اجلس .. أخواك

ـ فقط .

ـ وزوجي .. إنه يريد أن يتعرف عليك .

صاح غضبا وضيقا : لست محتاجا لهذه المعرفة .. أستطيع أن أرى أبناءك فقط .. أما زوجك فإني أبغضه للغاية .

ـ إنه زوجي والد إخوتك

ـ أرجوك ! .. أنا أراه وحشا غادرا منافقا خائنا .

ـ والد إخوتك وحش !!

فصاح هائجا : بل هو وغد حقير .

ازداد اضطرابها ، وقالت : ألا ترى أنك تقسو على أمك ؟

رد بكره بين فقال : أمي التي رمتني طفلا .. أهذه أم ؟! ورمت أختي وهي ابنة سنة ، لم تكمل رضاعتها.. أهذه أم ؟!.. هل أنت أم ؟!

ـ اجلس .. إنك تطردني بهذا التجريح

ـ لا أحبك أبدا .. لم أحبك يوما .. هل أنا صادق بعدم حبك أم أمثل وأتصنع ؟.. صورتك في عقلي سيئة سلبية .. أم سيئة .

ـ أعرف أنهم شوهوني لديك ولدى أختك .

ضحك ضحكة قصيرة مغتصبة وقال : الأمر لا يحتاج إلى تشويه .. أنت تخليت عنا من أجل ذلك اللعين .

ـ الأولاد في الشارع ينتظرون الأذن في الدخول

ـ يدخلون إلا فارس الحب ، لا أسمح له بدخول بيتي .

ـ إنه مثل أبيك .

صاح محتدا ومحتجا : مثل أبي! .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. أبي لا مثيل له في الدنيا .. أبي تقارنيه بزوجك الشريف النظيف

قالت بغيظ: سأنصرف إذا لم يدخل بلال زوجي الحبيب

ضحك وقال ساخرا : الحبيب يا له من حبيب ! .. افعلي ما تشائين ، لا يهمني انصرافك .. ليس لديّ عاطفة إليك .. أنت جئت كما زعمت للتتعرفي عليّ .. وها نحن تعارفنا .. ليت هذا التعارف كان في بلدنا وليس هنا

ـ تمنيت ذلك

ـ وما يمنعك ؟ أخائفة من القتل لغسل العار ؟ قومك لا يفعلون ذلك رغم الفعلة التي فعلتيها ..

ـ أتريد محاسبة أمك ؟

ـ لا ، إنما أذكرك بأنك لم تحبيني يوما ؛ لأنني ابن السيد حسن مسلم .. أمي التي كرهت ولادتي ، وتمنت في قرارة نفسها لو أني مت كأخي الذي مات .

ـ ما أقسى قلبك يا عباس !

قال : عجيب أمرك ، أنا قاسي القلب ..!! هل أنا التي تخلت عن أطفالها لتهرب منهم ؟

نهضت قائمة تقول : إلى اللقاء .. بما أنك لا ترغب باستقبال زوجي .. فلا داعي للبقاء هنا .

ـ وأنا لولا وصية أبي باستقبالك لما فتحت لك الباب .. أنا لا أريد أن أعرفك ، لا يمكن نسيان عشرين سنة من الحياة بابتسامة وكلمة .. عشرون سنة قضيتها بغير أم .. دون أم .. لو كانت ميتة لكانت ذكراها طيبة في قلبي .. لكانت رائعة وجميلة في حياتي .. أنا بغضت كل

النساء من أجلك .. رفضت الزواج وهجرته من أجل فعلتك الشنيعة .. فعمري ثلاثون سنة لا زوجة ولا ولد

قالت بشك : بسببي !!

صاح بحدة : نعم ، بسببك كرهت الفتيات

ـ لقد حشى القوم رأسك عليّ .. لم يحدثوك عن الظلم والطغيان اللذين مارسوهما عليّ .. لم يخبروك أنهم فرضوا أباك عليّ زوجا بالقوة والغصب والعدوان

ـ كذب .. وما ذنب حسن ؟!

ـ لماذا لم يرفض أبوك حسن ؟

ـ ولماذا لم ترفضي أنت ؟ هل يعصي حسن والده وعمه حتى لا يتزوجك ؟! وحتى ولو فعل سيأتي أبوك بغيره .. هل يعجز والدك الثري بأن يأت بزوج آخر.. حسن المظلوم ليس أنت .. حسن اجبر على الزواج منك .. وحسن لم يتخل عنا من أجل عيون امرأة حسناء .. حسن رفض الزواج عليك في حياة أبيك ؛ لأنه يحترم ويقدر الأهل العم والأب .. لا تشتكي الظلم تركتينا عند الجدة وهربت .. هربت لحبيبك .. أين الحب لنا ؟

قالت مدافعة عن هربها : أحببت بلالا قبل أن أتعرف على أبيك كزوج

ـ ما ذنب أبي !!

قالت : كان عليه أن يرفض الزواج من فتاة لا تريده .

ـ عدت للرفض ، ولماذا يرفض ؟! ألست ابنة عمه ؟ وأبوك اختاره دون غيره زوجا لك.. وأعطاه الكثير من المال حتى لا يحس بالغبن ..

ـ قصدك اشتراه

ـ والحبيب أخذ الآلاف وتأشيرة الهجرة ..أموال أبيك وخان العهد .. ظل يكتب لك رسائل الهوى والغرام .. أعرف كل شيء يا سيدتي .. ما دام لك محبا لماذا قبل الجبان بالهرب ؟!

ـ اصمت زوجي محترم .. ظل وفيا لي حتى لحقت به .. لم يتزوج من أجلي

ـ إذا أحببت الجلوس والحوار فاصرفي زوجك

ـ على كل حال ها نحن التقينا .. وأنا مسافرة قريبا

ووضعت بطاقة تعريف على منضدة صغيرة وقالت : هذا البطاقة عليها رقم فندقنا وغرفتنا فإذا أحببت التعرف علينا جميعنا فاتصل بنا ، ومشت إلى الباب ، وهي تتوقع أن يضعف ويدعوها للعودة وإدخال أولادها وزوجها ، ولما وصلت للباب الخارجي للشقة سمعته يقول : مع السلامة .. لا يشرفني التعرف على هذا الرجل ، ولا أرى صورته

نظرت إليه وقالت بنبرة غاضبة ومتوسلة : عباس

قابلها بنظرة حادة وقال : هذا ما عندي!

لم يشعر بعاطفة قوية وحب وحنان نحو أمه ، بل شعر بنفور وجفاء نحوها ، وإن كان في قرارة نفسه يتمنى اللقاء بها ورؤيتها ، ولما حصل ذلك لم يسعد به ، كان حائرا مرتبكا .

لما انصرفت تلك الليلة لم يحاول أن يتصل بها على ورقة الفندق التي تركتها على المنضدة الصغيرة ، بل لم ينظر لتلك البطاقة ، وكان يقول لنفسه بعد رحليها " لو كان أي رجل غير صديقها تزوجت به .. لربما عذرتها ، وقلت حقها أن تكره أبي ، ومن حقها الزواج .. أما أن تهرب لذاك اللعين .. فهذا إجرام في نظري .. لقد أسأت لرسالة الأمومة أهم رسالة للأم .. كيف تريد مني أن أصافح الرجل الذي أسأ إليّ ولمريم ؟ .. الحمد لله أن مريم لم تحضر مع أبي لن أتصل بها .. لو فعلت ذلك لفرضت عليّ مقابلة زوجها "

اتصلت هي به وقالت : يا ابني أنا أمك .. أمك رغم كل شيء

ـ أنا أعترف بأنك أمي .. أمي التي حملت بي رغم أنفها.. تسعة شهور .. حملتني على مضض الأم التي تحدثت مع طبيبها عن الإجهاض .. وأنك حملت بي كرها .. لقد تحدث طبيبك مرة أمامي .. تحدث صدفة لحسن وهو لا يعرف أنني ابنك عندما تكلم .. تحدث أنك طلبت منه

إجهاضك ، وأنك لا ترغبين بالحمل والولادة .. هو قال ذلك على سبيل الذكريات ..

صاحت على الهاتف غضبا : من أخبرك بذلك ؟!

ـ ألم أقل لك حضرة الطبيب تحدث بهذه الرغبة لحسن أبي وأنا بينهم .. كنت على معرض الإجهاض .. لكنه خشي غضب والدك ..والقانون

ـ ذكرت له ذلك على سبيل المزح والتذمر .. وإلا هناك عشرات الأطباء يجرون عملية الإجهاض ، ولا يسألون عن قانون ولا عن دين

ـ هذا الآن ليس مهما .. ماذا تريدين ؟

قالت : ألا تريد أن تودعني ؟ .. الليلة مسافر لبلدي

قال: بلدك !

ـ آ بلدي .. لقد تجنست بجنسية كندا منذ سنوات .. ألا تفكر بلقائي لوداعي ؟

ـ ليتني أستطيع .. لا أريد رؤية ذاك الرجل .. لقد كرهته أشد الكره والبغض .. لقد دمر كياني لقضاء شهوته .

قالت : قاسي القلب .. ذللت نفسي إليك ، وجئت بهم من كندا لنفتح صفحة جديدة في حياتنا .. وتلقى أخويك .. أهذه تربية حسن ؟

ضحك باستخفاف وقال : لا تذكري أبي بسوء .. فحسن خير الرجال .. حسن هو أبي الحبيب .. ورافقتك السلامة .. ولست بحاجة لفتح صفحة جديدة مع زوجك .. أمي الجرح الذي تركتيه في قلبي عميق .. كانت طعنة في القلب .. لا يمكن أن أنسى تلك الصورة وأنت تلوحين بيدك لنا من سيارة التاكسي .. لليوم لم أنس ذلك المشهد .. ولو كنت محبة لنا كما تزعمين اليوم .. لاتصلت بنا .. كتبت لنا .. زرتنا في سنوات ماضيات .. لكتبتي لهم معتذرة أنك أخطأت بفعلتك تلك .. ودعوت عريس الهنا ليخطبك من أهلك .. أما زواج بدون شهود وولي أهذا نكاح شرعي ؟

قاطعته غاضبة وقالت : مع السلامة يا عباس

ووضعت السماعة ، فسكت عباس ، وقال لنفسه : من المجرم منا ؟!

واستدعى الخادم ، وسألها كوب قهوة شرابه المفضل .. ومشى لمكتبه في الشقة وقال بصوت مسموع : لماذا جاءت ألمانيا ؟! هل حقا لتراني ؟ لتراني بعد كل هذه السنوات الطوال ..هل هذه أم تحب ؟ .. تزوجت مريم ولم تفكر بحضور زواجها أو حتى الاتصال بها لتبارك لها .. وحتى لم تسألني عنها بسؤال واحد .. أينا المجرم أيها الناس ؟



عشاء

كانت مريم ويوسف في زيارة للدكتور عباس العائد من ألمانيا محققا الاختصاص في جراحة القلب وجراحة الدماغ في بعثة خاصة على حساب طب الجيش ، ولما وصل البلاد رفع لرتبة رائد طبي ..وبعد السلام والمعانقة التقليدية قالت : كيف كانت أمك ؟

ابتسم عباس وقال : كما ترينها في الصورة المعلقة في بيتك .. ما الذي ذكرك بها ؟ للأسف إنها يا دكتور يوسف لم تسأل سؤالا واحدا عن مريم .. أنا أتعجب من هذه الأم !

قالت مريم : المهم أنك قابلتها ورأيتها وسمعت صوتها .

قال آسفا: زادتني عذابا يا مريم .. لقد أعادت أشجانا لقلبي كنت نسيتها مع الأيام .. ومنذ قابلتها رغم أنفي وأنا لا أدري لماذا جاءت لألمانيا؟!

تنهدت مريم وقد دمعت عيناها أو ترقق فيهما الدمع ، وقالت : كم أنا بحاجة لرؤية هذه الأم يا يوسف .. لأعرف لماذا رمتنا وهربت ؟! لقد حرمتنا الأمومة وقول هذه الكلمة " أمي"

فقال عباس : لماذا الحزن والأسف ؟ فقد تعودنا على خروجها من حياتنا .. عمر ومضى .. الأيام التي ذهبت لن تعود .. فلما تقابلنا لم أحاول ضمها لصدري .. لا أستطيع يا يوسف .. كان بيننا جبل هائل .. وفي المرة الثانية سعت لذلك فلم تسمح نفسي بذلك .. حاولت أن أرغم نفسي على استقبالها وزوجها .. لم أستطع تقبل مقابلته ومصافحته .. لو تزوجت رجلا غيره لكان الأمر مقبولا ومتقبلا يا مريم .. لكن تتخلى عنا وتهرب لرجل عرفته في الجامعة ، ورفضه والدها كان هذا سيئا وجهلا كبيرا .. كانت قاسية على طفولتنا

قالت مريم : ستبقى أمنا يا عباس .. أمي .. أمي .. ما أجمل وأحلى هذه الكلمة يا عباس!

وقضى الضيفان وقتا مع الدكتور عباس حسن ، وكان جل حديثهم عن الأم ثم الدراسة .. وفي آخر اللقاء كاشفه يوسف بسعيه للسفر القريب إلى إحدى دول الخليج العربي للعمل هو ومريم .

وكان عباس لما علم بزيارتهم تحادث مع أحد المطاعم ، وطلب منه إعداد عشاء له ولضيوفه .. لذلك انتقلوا إلى حجرة الطعام فور وصول سيارة المطعم، وانشغلوا بالطعام والمداعبة لبعضهم بالنكت حول الأكل الشرقي والألماني ، وبعد السهرة غادر الضيفان جناح الدكتور عباس في قصر جده عزام .

وقبل أن يخلع ملابسه الرسمية ويلبس ملابس النوم رن هاتف الشقة ، وكان المتصل والده حسن الذي اعتذر عن مشاركتهم الطعام لظرف خاص به ، وكان الرجل راغبا بالحديث مع مريم قبل انصرافها ، فأخبره عباس بانصرافهم ، وذكر له تعاقدهم للعمل في السعودية العربية في مستشفى خاص في مدينة جدة أو الرياض .

وكان عباس يستعد للرحيل إلى فيلته الجديدة التي أنشاها له والده عندما اقتربت عودته من ألمانيا بناء على رغبة عباس على ترك القصر .. وأصر على بنائها والانتقال من بيت جده عزام .. وقبل أن ينام تحدث مع الخادم الفلبيني وزوجته عن ترتيبات البيت الجديد ، وما يلزمهم من أثاث خاص بهم .. وكاشفه الخادم بمرض زوجته ، وأنها ستعود للبلاد لتموت عند أولادها ، وأن أخته ستقوم بالعمل معه في بيته .. فطلب عباس منه إيقاظه عند صلاة الفجر كالعادة



بعد عودة عباس بأسابيع يسيرة سافر يوسف وقرينته مريم للعمل في دولة العربية السعودية وهي إحدى بلدان الخليج العربي ، بل أكبرها مساحة وسكانا ، وكان عمله في شرق البلاد حيث الخليج العربي ، واستقر طبيبا في أحد مشافي مدينة الرياض ، وفي نفس المكان عملت زوجته .

رغم مرور الأيام والسنين ما زال عباس يرفض الزواج ، وأبدع في عمله ، وأصبح اسمه يبرز

في الجراحة سواء في الدماغ وأمراضه أم القلب وعملياته ، واستغرقت الحياة العملية كل وقته ونشاطه ، ووجدت روحه الانسجام من خلال العمل .

كانت تأتيه مراسلات من قبل أمه في المناسبات تطلب منه بعد التهنئة السعي للقاء فلا يرد عليها ، ولا يعيرها أدنى اهتمام .

كان والده حسن قد علم ودرس إخوته وزوجهم ذكورا وإناثا ، وظل صاحبنا راغبا بحياة العزوبية ويرفض دعوات والده لذلك . فكانت العائلة الكبيرة تتعجب من تركه للزواج وزهده فيه ، وقد قارب الأربعين عاما ، ومات والده حسن ، وكان يموت وهو يدعوه للزواج وهو مشفق عليه أن يغادر الدنيا بدون ذرية .

أم عباس المهاجرة كانت تتعذب من داخلها من عدم زواجه لذلك التاريخ ، وجعلها السبب في ذلك ـ كما أخبرها في لقاء ألمانيا ـ كما كتبت له في مناسبة عيد ، فعقب لنفسه : لو أنك أم صالحة ما هربت من أجل الزواج .. فأنا كرهت هذه العلاقة منك وبسببك .. تهجرين أولادك الأطفال من أجل الزواج .

وبالطبع لم يكتب لها ، بل جاءته رسالة تطلب منه المساعدة في علاج قلب زوجها الذي عاد لأرض الوطن للعلاج في مركز علاج القلب العسكري ، ولما سعى أحد أقرباء الزوج لذلك معرفا له بنفسه ، اعتذر عن الإشراف على شقيقه الذي هو زوج أمه ، بل أخذ إجازة لزيارة السعودية حيث شقيقته مريم وزوجها يوسف ابن عمه ، ومن هناك ذهب لأداء فريضة الحج والعمرة بصحبتها .

ولما عاد للبلد ، ووجد أن أمه جاءت تبحث عنه ، وتتابع علاج زوجها أخذ إجازة لمدة سنة ، فرّ فيها لأوروبا ، واستغلها في المزيد من الدورات التدريبية في مشافي ألمانيا حيث كوّن صداقات مع عدد مهم من جراحي القلب الألمان حيث تعلم جراحة الدماغ والقلب .

ورغم الرسائل التي وصلته من استياء أمه منه ، ومن هربه من اللقاء بها ، لم يكترث لها ، وأصر

على الهرب والبعد عنها ، حتى نقل له أحد الأطباء الأصدقاء موت زوج أمه ، فلم يكتب لها تعزية ، ولم يتصل بها .

لما انتهت السنة عاد للبلد من جديد ، وعاد لعمله في المستشفى العسكري الخاص بجراحة القلب ، وكان يمارس عمليات جراحة الدماغ في مستشفى آخر تابع للقوات المسلحة العربية .

كانت قصة أمه تشكل له عقدة ، كان يرى تخليها عنه طفلا جريمة كبيرة في حقه ، كان يرى هربها مصيبة كبيرة حلت به ، لم يستوعب أن تتخلى أمه عنه من أجل الزواج من رجل لا يرغب فيه والدها ، لذلك قبل بالهروب حتى لا يرى هذا الرجل الذي نكح أمه ، ورفض النكاح بسبب هذه العقدة ، فكان يرى بمنظاره الأسود .

ولما مات زوجها رفض التعزية فيه ، ولم يقبل رؤية إخوته منها ، ولم يقبل التعرف عليهم عندما جاءوا ألمانيا ، وكذلك عندما جاءوا البلد لمتابعة علاج أبيهم المريض بالقلب ، والذي أحب الموت في وطنه ، وحتى أنه طلب اللقاء بعباس من أجل المسامحة ، فأخبر الرجل أن ابن زوجته خرج من البلاد .

وحتى أن مريم كانت متعاطفة معه لما علمت بتلك المعلومة ، وكانت تستغرب من عدم سعي أمها للقاء بها بقدر ما كانت ملهوفة للقاء عباس المتعصب ضدها ، ولكنها راسلت ببرقية عزاء لأمها بضغط من يوسف ، والعائلة بشكل عام كانت تعامل هدى بقسوة وتجاهل ، فعمها منذ غادرت البلاد لم يحدث بينهما اتصال ، وكذلك أبناء عمها كانت سيئة عندهم ، واعتبروها خائنة للأسرة وللحاج عزام .



دخل عليه أخوه محمد حسن مكتبه في المستشفى يوما ، وقد أصبح مديرا لقسم جراحة

الدماغ والأعصاب وقال : اسمع يا عباس ، لقد تلقينا رسالة من أخيك داود يخبرنا أن أمك عادت للبلد ، وأدخلت مستشفى الأمراض العقلية ، فقد تعرضت لحادث سير في كندا ، وشفيت بدنيا ، ولم تشف عقليا ودماغيا .. والرجل يترجاك أن تقابل أمك وتهتم بها .

فرد عباس بحنق : يا محمد ليس لي أم ..

ـ العقوق يا ابن أبي !

قال بضيقه : هي بدأت بالعقوق .. ولليوم قصتها مخزية لي ، وأتجنب وأتحاشى الجلوس مع أبناء العائلة حتى لا يتكلم أحد بسيرتها وجرمها .. أبيت الزواج ، وغضب الوالد مني ، ومات حزينا من أجلي يا محمد .. فأنا اعتبرت نفسي بغير أم منذ هربت لعشيقها وصديقها .

ـ يا عباس هذا الكلام لا يصح في حقها .. نحن كبرنا .. كل الناس تخطيء وتعود ..

تنهد عميقا وقال : مات أبوها ساخطا عليها ، ومات عمي وهو مبغض لخيانتها .. المستشفى لا يخلو من أطباء كبار أفهم مني وأفضل مني ..

ـ السنون ألم تشفِ الجرح ؟

ـ كم هي متلهفة للقائي كما تزعم وتنشر ؟.. فلم تفكر بلقاء مريم ولو لدقائق .. أهذه أم يا محمد حسن ؟! .. يا رجل تترك مريم رضيعة لتتزوج من رجل ! .. أخطأت في حقنا فعليها أن تتحمل عاقبة كرهنا وبغضنا ، أنا لا أنسى زيارتها لألمانيا لتراني زاعمة أنها تخشى المجيء إلى هنا حتى لا تقتل .. أبوها هو الذي أعطى زوجها المال ، وسهل له الهجرة ؛ ليبتعد عنها ، وظلت خائنة لأبيها ولزوجها ويتراسلان .. الجرح عميق لن أقابلها ، فقل لمن يسمون أخوة لي هذا الكلام .. فلست بحاجة لمعرفتهم ، وهم ليسوا بحاجة لمعرفتي ، وها قد عشنا كل هذه السنوات بدون أن نلتقي ونتقابل .

فقال محمد بيأس من تغيير لقناعات عباس : ولا أمل بتغير الأفكار عندك

ـ القضية ليست قضية أمل.. القضية أنني لم أحبها، واعتبرت ما فعلته بي وبأختي مريم وبأبي

وبالعائلة شيء كبير لا يتسامح .. فهي لها أقارب زوج ، ولها أولاد من الحبيب الذي هربت من أجله فليهتموا بها هم .. وأقول شفاها الله من سقمها .

ـ ليس أمامي إلا أن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله .. وسأكتب للرجل وأخيه بهذه المعاني .. كان والدنا يحب أن تصفح عنها وتنسى ، ولو تحسنت علاقتك بها يا عباس لتحسنت علاقتها بشقيقتك مريم ، ربما هي كانت تريد أن تساوم بورقة مريم

قال ممتعضا : لا أعتقد هذا .. هي تكره مريم أكثر مني ، وتعرف أنها ولدتنا غصبا عنها ، وتعرف أنها تخلت عنها صغيرة يا محمد بنت شهور قريب من العام .. هي أجرمت في حقنا من أجل رجل .. أنا آسف يا محمد لعدم إبداء أي مرونة نحوها ؛ لأنني حسمت أمري من علاقتي بها

نهض محمد وقال وهو يمد يده مصافحا : إنها الأم

اغتصب ابتسامة خاطفة وقال : أي أم يا رجل ؟ لا اعتبرها أما البتة .. الدابة وهي عجماء غير عاقلة لا تتخلى عن أولادها الصغار مع الخطر المحدق بها وبهم .

ـ أنت رهيب ..وأعصابك شديدة .. إن أمي تبكي من أجلكما .

قال عباس : أمك عاطفتها أكثر من اللازم يا محمد .. حتى لو فكرت بزيارتها ومتابعتها إنما هي دقائق .. لن أطيق أن تعيش معي.. فلتبق مع أولاد الشهد أولاد صديق الجامعة

ـ وأنا أعتقد أنها لا تريد منك أكثر من ذلك .. فأخواك رغم عملهم في الغرب ، فهم متعلمون فأحدهم يعمل مديرا لشركة كان قد أنشاها والده لما استقر في كندا ، والآخر شريكه ، وكلاهما ـ كما فهمت من أحد أعمامهما ـ تخرج من الجامعة .

قال : ولماذا تركت العلاج هناك ؟! وأنت تعلم كم رقي الطب في الغرب وكندا خاصة !.. الطب لا يقارن ببلاد العرب .

ـ أنا لم ألتقِ بها كما تعلم ، وقلت إنما التقيت ببعض الأعمام أيام مرض زوجها بظروف خاصة

وهم يقرون بأن شقيقهم تصرف تصرفا ولدانيا بعلاقته بالسيدة هدى عزام ، فما دام قد قبل السفر والآلاف التي دفعها الحاج عزام كان عليه أن ينسى امرأة أو فتاة اسمها هدى .. المهم هذا حديث طويل .

وصافحه ثانية وقال : سامحني يا عباس .. هل ستسافر للسعودية كما سمعت ؟

ـ أنا أحب مريم كما تعلم ، ولا أحب حزنها ، وهي سقيمة ، وأولادها يرغبون برؤية خالهم.



سافر عباس إلى الرياض ملبيا نداء شقيقته ، ووجدها تعاني من جديد من مرض ضربها وهي صغيرة دون العشرين ، وقد اجتازته بصعوبة ونجت منه ، وها هو يعود إليها ، ووقع في قلبه أن نهايتها قد حانت .

ويعرف هذا المرض بداء الذئبة الحمامية ، وهو سقم يصيب الجهاز المناعي بالدم ، ويظهر في فترة البلوغ ، ويصيب النساء بنسبة أكبر من الرجال . طبيا لا يزال سبب الذئبة الحمراء غير معروف إلا أنه مرض من أمراض اضطراب الجهاز المناعي، ويعرف اختصارا بمرض الذئبة، يعمل هذا المرض على مهاجمة الأنسجة الضامة في الجسم كما لو كانت غريبة، مما يؤدي إلى إصابة أو تدمير أعضاء حيوية كالكلى والمفاصل والدماغ والقلب.

لا يعتبر مرض الذئبة الحمراء من الأمراض الوراثية إذ أنه لا ينتقل وراثيا من الآباء إلى الأبناء إلا أنه من الممكن وراثة بعض الجينات التي تحمل خصائص المرض فتزداد نسبة احتمال الإصابة به.

وربما حدوث اضطراب الهرمونات عند البلوغ أو التعرض لأشعة الشمس أو الإصابة ببعض الفيروسات أو تناول بعض الأدوية من أشهر العوامل التي تؤدى إلى الإصابة بالمرض.

ويصيب ذوي البشرة الداكنة أكثر مما يصيب البيض أو ذوي البشرة الفاتحة بمعدل ثلاث مرات تقريبا، وتكون الغالبية العظمى المصابة من النساء في سن الإخصاب (بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين من العمر) ؛ ولكن في الأطفال وقبل سن البلوغ تكون نسبة المرض في الذكور أكثر من الإناث.

هنالك عدة أنواع من مرض الذئبة الحمراء، منها الجلدي، ومنها الدوائي ومنها النوع الجهازي الشامل لجميع أعضاء الجسم أو بعض منها مع إصابة الجلد أو من دونه، وهو النوع الأكثر انتشاراً.. وكثيرون يعيشون حياة شبه طبيعية رغم وجود الأعراض المزمنة.

تتفاوت أعراض المرض بدرجة كبيرة تبعاً لنوع الأنسجة المصابة ودرجة إصابتها، وعادة ما تكون الأعراض الأولية المبكرة للمرض أعراضاً عامة كالحمى والإعياء والآلام الجسدية وفقدان الشهية ونقصان الوزن والغثيان والشعور بالتوعك، ومع مضي الوقت تبدأ الأعراض المميزة أو المتخصصة للمرض بالبروز ، وتكون نتيجة إصابة أعضاء متعددة من الجسم مثل الجلد والذي يكون في صورة طفح جلدي ، حساسية غير طبيعية لأشعة الشمس حتى بعض التعرض المحدود لها ، ويصاب آخرون بقروح في الفم والأنف وتقرحات جلدية تشبه قطع النقود ، قد تثار أعراض الذئبة في أي وقت ، وتندلع هذه الأعراض غالبا جراء التعرض للأشعة الفوق بنفسجية الصادرة من الشمس، أو نتيجة التعرض لضغوط عاطفية ونفسية، أو الإعياء أو عوامل أخرى.

أكثر مضاعفات الذئبة خطورة تلك التي تشمل ما يقوم به جهاز المناعة من تدمير لأعضاء رئيسية بالجسم كالكلى ، أو الرئتين مسببة التهاباً لبطانة أو غشاء الرئتين، أو تصيب صمامات القلب أو عضلة القلب ذاتها مما يؤدي إلى حدوث هبوط في القلب.

ولما كان الحمل يزيد من حدة المرض فينصح الأطباء مريضات الذئبة الحمراء باستشارة طبيب الروماتيزم قبل الحمل لعدة أسباب منها أن يقرر الطبيب السماح للمريضة بالحمل أم لا في

هذه المرحلة، ولعمل الاحتياطات اللازمة قبل السماح بالحمل ، لا يوجد علاج ناجع وجذري للمرض ، وعندما يتم تشخيص مرض الذئبة الحمراء يكون المرض غالباً في أشد مراحل نشاطه، وفي هذه المرحلة يحتاج الطبيب إلى استخدام كمية كبيرة من الأدوية للسيطرة على المرض ومنع تلف الأعضاء، وفي معظم الحالات يكون العلاج ناجحاً ، وتتم السيطرة على المرض الذي يبدأ نشاطه في التراجع، ويتم سحب الأدوية تدريجياً حتى يحتاج المريض إلى جرعات قليلة ، أو قد يتم الاستغناء عن العلاج تماماً.

فتقليل التوتر والموازنة بين الراحة والمجهود وتناول الطعام الصحي والدعم العائلي مما يساعد كثيراً على مواجهة المرض.

وسمعت أن من اجتاز خطر هذا المرض في سنته الأولى قد ينجو من مضاعفاته والموت ، وخطره يكمن في إضعافه أجهزة حيوية في بدن الكائن الحي ، وقد مر ذكرها ، والله هو وحده الشافي حقيقة من كل سقم ، كما جاء حكاية عن سيدنا إبراهيم في قوله تعالى {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠]

أصيبت مريم حسن بهذا الداء الخطير وهي دون العشرين من سني عمرها ، وشفيت منه ، وتحسنت حالها ، والتحقت بكلية الطب تأثرا بهذا البلاء ، واليوم يبدو لهم أنه كمن في بدنها كل هذه السنوات ، ثم جدد نشاطه عندما اقتربت من الأربعين ، وقد ولدت ثلاث مرات بعد زواجها من ابن عمها يوسف ؛ لذلك لما رآها عباس ، واطلع على تقارير الأطباء ، وتقارير الفحوص الطبية أدرك أن المرض قطع شوطا حادا في التأثير على القلب والكلى .

قضى عباس عشرة أيام عند ابن عمه وأخته ، ورأى المعاناة التي يعيشون فيها ، وأعلمه يوسف بأنه بعد تحسن صحة مريم سيقدم استقالته من المستشفى ويعودان للبلد ، فلم تعد حالة مريم السقمية تتحمل البقاء في الرياض .

زيارة الأم

لما رجع عباس من الرياض علم أن أخوته من أبيه زاروا أمه ، فلزم الصمت ، وتكلمت معه أخته راضية ـ وهي طبيبة أسنان ـ قائلة : عباس أمك تموت ، فاحصل على رضاها ، واغفر لها ماضيها .. فهي فاقدة القدرة العقلية ، فلديها اعتلال دماغي ، وسبب لها تلفا بالدماغ ، وستعيش معاقة إلى حد ما ، وهذا اختصاصك ، وليس لها إلا أنت .. أخوتك لن يأتوا من كندا للحياة هنا ، فحياتهم هناك ، وهم متزوجون من كنديات ..ورزقهم وتجارتهم هناك .. فوسع قلبك .. وأهل زوجها غير مكترثين .. هم مجرد زائرين وسيتلاشون مع الزمن ، سيملوا لا يربطهم بها شيء ، فبلال وقد مات ، والاولاد هناك .

صفن فيها للحظات ثم قال : ماذا يمكن أن أفعل لها غير ما يقدمه لها الأطباء الآخرون ؟ .. ولماذا لم تبق معهم للعلاج ؟ وأنت طبيبة وتعرفين تقدم الطب في كندا .

ـ عزيزي عباس .. هي تريد عطفا وحنانا .. إنها تردد اسمك .

قال وهو سارح في أفكاره وخياله : تردد اسمي .. ألم تتخل عنا يا أخت راضية ؟ ونحن بحاجة إلى عطفها وحنانها ، ألم تجبر أبي على طلاقها ؟ وخالف وصية والدها ورضخ لضغط العائلة وطلقها ، ولما طلقت هربت خفية .. وذاك الرجل غدر بجدي عزام ـ رحمه الله ـ وأخذ المال على أن يعيش في الغربة .. إنها بكل المقاييس أسأت لنا لي ولمريم وجدي والدها وأبي والعائلة الكبيرة .. كيف يصفو قلبي لها يا راضية ؟

ـ هذا شأنك يا أخي .. وهذه مشاعرك ؛ لكن كلمها زرها كما يفعل الغرباء.. هل ستبقى في مستشفى الأمراض العقلية ؟ أولئك يدفعون للمستشفى يدفعون ثمن الأدوية والإقامة .. وسيتوقفون .. أترى أيقبل جدك عزام أن تعيش ابنته في هكذا مكان ؟

قال : أين ستعيش يا راضية ؟ .. إذا تحسنت حالتها ستعيش في دار المسنين .. عندي .. أنا لا أستطيع يا راضية .. أنا عندي عمل ووظيفة .. سيكون عندها ممرضة ، وهناك سيكون

ممرضات وأطباء .. مكانها المستشفى أو دار المسنين

ـ إنها أمك .

ـ أعرف أنها أمي التي تركتني عند خالي وبيت جدتي وهربت لملاقاة حبيبها وتزوجته بدون موافقة أوليائها .. أمي التي ألبستني ثوب العار .. التي بغضت إليّ جنس النساء .. التي كانت ابنة عائلة محترمة .. عائلة تحترم وتقدر العادات الحسنة .. امرأة تتزوج من غير رضا أسرتها أي حب هذا يا راضية ؟

كان يتكلم بانفعال وتوتر فقال أخته : اهدأ يا ابن أبي .. أنا أدرك ما عانيت من ألم وحزن بسببها ؛ ولكنها تظل أمك .

ـ الأم التي لم تسأل عن ابنتها التي تموت اليوم من الحزن والمرض .

قالت بقلق وانزعاج : ما لها مريم ؟

ـ عاد إليها المرض القديم الذئبة ، وقد أثر على قلبها وكليتها فوضعها حرج يا راضية .

ـ لم نسمع

ـ اطلعت على التقارير في زيارتي الأخيرة إليها .. وقد تركت العمل منذ شهور أنهكها الوجع وها هو يوسف ابن عمنا سيقدم الاستقالة ويعود للحياة هنا ..

ـ أحزنتني يا عباس هل يمكن الحديث معها على الهاتف ؟

ـ ترد إذا كانت في البيت ، أما إذا كانت في المستشفى قد لا يسمحون له بالرد

ـ نعود لأمك .

ـ فلتبق أمي حيث هي يا راضية ، وإذا كانت القضية مجرد زيارة فرتبي لي زيارة .

قبلت راضية شقيقها عباس من رأسه وقالت وهي تمسح دمعة : عظيم يا عباس ! أنت أخي بحق !

استحى عباس من كلام وتوبيخ أخته راضية في شأن زيارة أمه ، وخاصة لما علم أنهم قاموا

بزيارتها في مستشفى الأمراض العقلية ، فرتبت السيدة راضية زيارة له إلى أمه بمساعدة زوجها المهندس عيسى سليم وهو قريب لهما ، وصديق أحد الأطباء في ذاك المشفى ، دخلوا إلى غرفتها في المستشفى ، وكانت هدى على علم بزيارة عباس ، وحتى أن المستشفى اهتم بهذه الزيارة ، واستقبل مدير المستشفى بشخصه وعدد من مساعديه الدكتور الأخصائي الكبير عباس ، فهو معروف في الوسط الطبي ، ولأنه ضابط كبير في الخدمات الطبية الخاصة بالجيش ، حتى أن مدير المستشفى استغرب من عدم اهتمامه بقضية أمه وإخضاعها للعلاج في مستشفيات الجيش والعسكر ، ورافقه إلى الغرفة التي ترقد فيها المريضة ، ولما رأته يدخل عليها همت بالنهوض ، ولكن الممرضة منعتها من ذلك فقالت بانفعال واضح : إنه عباس ولدي !

اقترب منها وقال : سلامتك يا أم داود .. أرجو لك السلامة . وصافح اليد التي مدت له وقال : كيف حالك ؟

ـ أما زلت غاضبا على أمك يا عباس ؟

التفت عباس لطبيب ومدير المستشفى الذي أحس أن في الجو شيئا غريبا وقال في اعتذار : أتسمح لي بالمغادرة يا دكتور عباس ؟

ـ لا بأس ، سأشرح لك الموقف الغريب قبل مغادرة المستشفى

ـ أنا آسف يا دكتور .

سلمت راضية على أم عباس، وقبلت خديها ودعت لها بالسلامة ، وسلم عيسى سليم عليها ورحبت بهم المرأة ، ولما انصرف مدير المستشفى غادرت الممرضة المريضة بإشارة منه ، وقالت هدى : الله يغفر الذنوب يا عباس .. ألا تغفر لأمك ؟

ـ القضية ليست قضية مغفرة .. يا أم داود .. القضية أكبر من ذلك .. أنت سلكت دربا وأنا سلكت دربا .. لقد تركتيني من أجل رجل هويته .. وهل هذا فعل يحتاج لمغفرة ؟ أنت

رميتنا .. وإذا كانت مثل هذه الزيارات تحل الإشكال فسأكرر الزيارة .. نحن التقينا كالأغراب في المانيا من سنوات خلت .. لكن الحياة مع بعض فهذا شاق على قلبي .. لقد كللتيني بالعار أمام أبناء العائلة يا أم داود

ـ أنا لا أريد من الدنيا إلا أن أراك.. أمعن النظر فيك .. أنت الابن الأول يا عباس ، رغم كرهي الشديد لأبيك أحببتك .. ورضعت من صدري يا عباس ..لا أريد الحياة معك .. بس أن أراك .. أنا أخطأت في حقك .. حكمت الهوى بيننا .

فقال بجفاء : حسنا ، سأخصص لك زيارة في الشهر الواحد لزمن محدود .. أنا لا يمكن أن أنسى الألم المستمر في قلبي وبدني منك .. وها هي ابنتك مريم ستعود للبلد ، وقد لا تعيش طويلا .. لماذا أنت لم تسع للقاء بها ؟ لماذا ؟!

هتفت : لا أحبها ، لا أحن إليها .. ما أحببتها .. لا أدري سبب ذلك !

ـ أليست شقيقتي ؟ أتحسين بالندم لأنك تركتيها رضيعة ؟

ـ لا أدري ..

ـ ولماذا تسعين إليّ ؟ قالت: لا أدري!

ـ حسنا يا أم داود سترتب لنا راضية أخت مريم موعد زياراتي لك .. وضعك الصحي مقبول وربما مع الوقت تتمكنين من العيش حياة طبيعية .. وسيتابعك فريق من أهل الاختصاص .. ولكنهم قد يتابعون علاجك في بيت المسنين ؛ لأن أكثره سيكون علاجا طبيعيا ونفسيا .. وحياتك في بيت صعب عليك .. وداود وأخوه يحيى على اتصال دائم بالمستشفى لمتابعة العلاج ودفع التكاليف ، وهم يدفعون من مالك ليس كرما منهم .

أخذتها موجة من البكاء وهي ترى عباسا ينصرف من الحجرة ، وهو خرج منقبض النفس والروح ويعجب من تعلقها به وكرهها لمريم .. أم هو تأنيب ضمير لتخليها عنها صغيرة ، فهي عاجزة من اللقاء بها .. لقد عقدت حياتها بتصرفها الأرعن .

تلف الدماغ

كان عباس قد مشى لبيت شقيقته مريم التي عادت إلى أرض الوطن وهي في غاية الإنهاك والضعف بسبب مرضها الذي عرفه القارئ وعرفناك بخطره ، وأخذت تتابع العلاج وجلساته في مشافي المدينة ، بل أخذ عباس يقدم أوراقها للمعالجة في مشافي الجيش ، وتيسر ذلك سريعا لعلاقات عباس القوية بمؤسسات الجيش والقوات العسكرية ، وكان هو يتابع بنفسه الإشراف على علة القلب .

رحبت مريم بعباس كعادتها ، وكان الحديث عن صحتها وحالتها المرضية ، فكان يقول مشجعا : عليك أن لا تستسلمي للضعف ، وليبق عندك حبا قويا للحياة .. واعلمي أن الأعمار بيد الله ، وليست بيد المرض .. وهذا الداء يمكن التعايش معه كما يتعايش مريض السكر والسرطان مع مرضه .. ويحيا العشرات والمئات وهم يعانون مع مرض القلب .

ـ أشكرك يا عباس أنت الباقي لي في هذه الدنيا .

قال : كلنا لك .. يوسف وأولادك وأولاد أبي .. فهم محبون لك ، ويتعاطفون معك كلنا أخوة وأهل .

ـ كيف أمنا يا عباس ؟

ـ مرضها صعب ، ربما أصعب مما أصابك .. وسنها لا تساعد على المقاومة ، والأطباء يقومون بواجبهم ، وهي ترقد في دار رعاية المرضى والكبار في السن " قصر الوفاء لرعاية المرضى والمسنين " يطلقون عليه هذا الاسم ، هو مكان جيد يجمع بين فندق ومستشفى وحديقة ؛ لأن حياتها في بيت خاص يحتاج إلى خدم وممرضات ورعاية خاصة.

بعد لحظات صمت قالت : أريد أن أقابلها يا عباس .. رغم مرور كل هذه السنوات من الجفاء والبعد .. وعدم سؤالها عني .

ـ عند زيارتي لها في المرة الآتية سنذهب سوية .. لقد سألت عنك المرة الماضية ، وكأني نسيت

أن أقول لك ، ولقد دهشت ، .. وربما لأنني كررت زيارتي لها تذكرت أن لها ابنة أيضا

وبعد سكوت ضئيل تابع فقال : أنا حقيقة أستغرب من عدم اهتمامها بك !

قالت معللة مفسرة : إنها تخشى من مقابلتي لها .. أمر نفسي .. فهي تخلت عني طفلة أكثر منك ربما تأنيب الضمير كما يقال .

هزّ رأسه وابتسم وقال : لا أعتقد أن لأمنا ضميرا .. من يتصرف مثلها لا ضمير عنده

ـ أنت تقسو عليها يا عباس

ـ أم تهجر طفليها لغير سبب مهم أيكون لديها ضمير ؟!

ـ الحياة همومها وأحوالها عجيبة .. وكما تقول راضية ستبقى أمنا ، وهي تقول علينا أن نستأجر لها بيتا خاصا .. من المعيب لنا أن نتركها في دار رعاية المرضى .. وهي تلوح بأنها ستفعل ذلك بنفسها .. فهذا معيب لكل العائلة ، فإذا تخلى عنها أبناء الحبيب ، فعلينا أن نقف معها من أجل خاطر المرحوم جدنا الحاج عزام .. تقول راضية : لو كان والدنا حسن حيا ما قبل بهذا الفعل .

فقال متضايقا مما سمع : ما أشد كلام راضية على القلب! .. ماذا سنفعل لها في البيت ؟ إنها مريضة دماغيا ، وتحتاج إلى مراقبة وعلاج طبيعي دائم .. وأخذ يتذكر مرض تلف الدماغ علميا .. فهو جراح دماغ كما نعلم.

تلف الدماغ هو تدمير خلايا المخ أو تدهورها ، تحدث إصابات الدماغ نتيجة لمجموعة كبيرة من العوامل الداخلية والخارجية ، وهناك إصابة الدماغ الرضية التي تتبع الصدمات الجسدية أو إصابة في الرأس من مصدر خارجي ، ينتج عن إصابات الدماغ في كثير من الأحيان ضعف أو إعاقة تتباين بشكل كبير في شدتها ، في حالات إصابات الدماغ الخطيرة ، يوجد احتمال كبير بحدوث إعاقة دائمة في بعض مناطق الجسم ، بما في ذلك العجز العصبي ، أو مشاكل في الحركة والكلام ، والتخلف العقلي، كما سينتج عنها أيضًا تغيرات في شخصية

المريض ، ينتج عن الحالات الأكثر شدة غيبوبة أو حالة أنباتية مستديمة ، حتى الحوادث الخفيفة يمكن أن يكون لها آثار على المدى الطويل أو أن تسبب أعراضًا تظهر بعد سنوات.

يمكن لإصابات الدماغ سواء الناجمة عن السكتة الدماغية، أو إدمان الكحول، أو إصابة الدماغ الرضية، أو نقص فيتامين ب أن تؤدي في بعض الأحيان إلى ذهان كورساكوف ، حيث يُصاب الفرد بهذيان الأراجيف بمعنى ينطوي هذيان الأراجيف على عدم القدرة على فصل ذاكرة أحلام اليقظة عن الذاكرة الحقيقية .

قد تنخرط عدة مهن في الرعاية الطبية وإعادة التأهيل للشخص الذي يعاني من ضعف بعد إصابة الدماغ ، أخصائيي الأعصاب ، وجراحي الأعصاب ، وأخصائيي العلاج الطبيعي وإعادة التأهيل ، وأخصائي علم النفس العصبي ، ويمكنهم المشاركة في تقييم مدى شدة الإصابة أو عمل استراتيجيات إعادة التأهيل، يمكن أن يشارك المعالجون المهنيون في إدارة برامج إعادة التأهيل للمساعدة في استعادة الوظائف المفقودة أو المساعدة في إعادة تعلم المهارات الأساسية .

يلعب أخصائي العلاج الطبيعي أيضا دورًا هاما في إعادة التأهيل بعد إصابة الدماغ ، وتشتمل العلاجات الأخرى لإصابات الدماغ على الأدوية ، والعلاج النفسي، وإعادة التأهيل العصبية ، وتعتمد العلاجات على مكان تلف الدماغ، وطبيعته وسببه .



مريم وهدى

بعد مغادرته مكان عمله ، التقى بمريم وزوجها يوسف في صالة استقبال الزوار في دار رعاية المرضى التي تديرها شركة خاصة فهي مؤسسة خاصة ، فبعد التحية والسلام مشى أمامهم طبيب مقيم في الدار " قصر الوفاء" لزيارة هدى عزام ، والطبيب المشرف هو طبيب نفسي ، وكان عباس حدثه عن هذه الزيارة وظروفها ، وأن هذا أول لقاء بين أم وابنتها منذ أكثر من أربعين سنة . لذلك كان الطبيب قد تحدث مع هدى ، وذكر لها أن ابنتها الوحيدة ترغب بزيارتها ، وهيئها لمثل هذا اللقاء العاطفي ، لم تتكلم وإنما كانت تهز رأسها بالموافقة ، وكان الدكتور قد رتب مع الممرضة المكلفة برعاية هدى الاستعداد لأي طارئ .

ركب الزوار المصعد للطابق الخامس حيث غرفة هدى ، ورحب بهم الطبيب النفسي المشرف عليها ، وكذلك حيتهم الممرضة الخاصة نوال ، دخل الدكتور سعيد ، وقال مخاطبا السيدة المريضة : كيف حالك يا أم عباس ؟ ها هو الدكتور عباس ومعه الدكتورة مريم.

دخل عباس وخلفه مريم ويوسف ، كانت نوال الممرضة قد أجلستها على سريرها ، وأسندت عدة وسائد خلف ظهرها ، كانت تبكي قبل دخول مريم وزاد البكاء والنشيج عند دخولهم ، ومريم تبكي مثلها ، ولما وضع عباس يده على رأسها اقتربت منها مريم وضمتها لصدرها ، وقد زاد نحيبهما وارتفع وهي تهمس : أمي أمي أمي حبيبتي يا أمي .

وتلك تردد مريم مريم مع مزيد من الدموع والنهنهات والشهقات ، وعباس يداعب شعرها واستمر البكاء والنشيج والتمتمة لدقائق ، وقال الطبيب المشرف : الحمد لله سارت الأمور على خير ما يرام .. اسمحوا لنا بالانصراف .. وسيكون العشاء حسب توصيتك يا دكتور ..

شكره عباس ، وكانت أمه تقول لمريم : أخطأت في حقك كثيرا يا مريم لقد ظلمتك معي .. استحيي أن أطلب مسامحتك وصفحك .. غلبني الهوى والعناد .. كان والدك أميرا ورضيا ومطيعا.. مريم كنت أخشى اللقاء بك .. تركتك رضيعة هل تسامحيني يا مريم ؟

كانت مريم تضع رأسها على صدره أمها وتبكي بعنف وصوت بكائها عال ، وتتنهد وتشهق بعمق ، وهي تسمع كلام أمها ، ولم تتكلم ، فأراد يوسف أن يبعدها ، فقالت : دعها يا ولدي لقد حرمتها من هذا الصدر .. غلبني الهوى والعناد .. أنت يوسف زوجها ؟

ـ أجل يا عمتي .. جئت البلاد منذ أسبوع .. شفاك وعافاك المولى .

قالت بحسرة وانكسار : شفائي يا ولدي برضا عباس ومريم عني ، رغم الصداع الذي أحس به ؛ فأنا سعيدة برؤيتي لهما قبل الفراق الأبدي.. لقد أخطأت وقصرت في رعايتهما .. غلبني الهوى والتحدي .. نسيتهما في صراعي مع أبي عزام .. كنت أظن أنني أفهم من أبي وعمي مسلم .. لقد تعلمت ودرست في الجامعة وهما أميان .

قال يوسف ساعيا للتخفيف من أثر الماضي على هذا اللقاء : ماض وانتهى بحلوه ومره يا أم عباس .

قالت متمنية : ليته ينتهي يا يوسف! إننا ما زلنا ندفع الثمن .. فهذا عباس يذكرني بجرمي كلما أذكر أنه شاب بدون زواج .. يرى أن النساء شر .. سيظل ضميري يعذبني بسبب هذا .

قال عباس : لست راغبا بالزواج يا أم داود ؟

فقالت وهي تداعب شعر ابنتها : دائما يريد تذكيري بالمرحوم أبي داود ، فلا يناديني بأمي أو بأم عباس

فقال عباس بجفاء اعتاد عليه : لم أتعود ذلك بعد .. والجرح لا يشفى سريعا يا أم داود .

قالت مريم وهي ترفع رأسها عن صدر أمها : عباس .. يوسف يجب أن نأخذها لبيتي .. دعونا نعيش ما تبقى لنا معا .

فقال عباس معترضا الرأي : أرأيت المكان يا مريم ويا يوسف ؟.. هذا بيت خاص لرعاية المرضى أصحاب المرض الصعب والذي يحتاج لوقت من العناية والمراقبة .. فهنا الأطباء والممرضات ، هذه ليست دار رعاية المسنين كما يرغب أولادها أولئك.. هذا شيء جديد في

بلادنا .. هذا فندق طبي .. وهذه الخدمة تقدم بمال ، وليست صدقة .. هذه الخدمة تقدم في هذه الدار بعد وضع رصيد عشرين ألف دينار في حساب المريض .. وأنت يا مريم صحتك ليست ولا بد .. وها أنا أقول بكلام غير عاطفي كلما تتحسن صحتك سيأتي يوسف بك إليها وقضاء ساعة أو أكثر معها ، وحتى أخوتك سيرحبون بصحبتك إليها إذا كان يوسف في عمله ومشغولا .. فهنا أفضل من البيت لها ولك .. أليس كذلك يا يوسف ؟.. هنا الأطباء والممرضات وإذا احتاجت لأخصائي ودواء فيوفرون ذلك فهم متعاقدون مع أطباء .. وأنا حصلت لها هذا المكان بصعوبة .. فهذه خمسة طوابق للنزلاء ، وأغلبها مشغول يا يوسف .

ـ أنت أمنت لها هذا المكان؟

ـ صحيح دار المسنين تخدم المرضى وغير المرضى ..وأجرتها أقل ، ولكن هنا أفضل ، وقد حولت إليها عددا من مرضاي الأثرياء .. ويمكن أن يأتي الأطفال لزيارة جدتهم يا مريم .. لا تدعوا العاطفة تتحكم فينا .

فلما رأوا أن المرأة تريد أن تستقر في البلد ، اجتمعت العائلة للتشاور في شأن هدى عزام ، اجتمعوا ليتفقوا على التصرف الأمثل لهم ولسمعة العائلة ، كانت مريم وإخوتها من أبيها يرغبون أن تعيش في بيت خاص لها ، ويشرف عليها طبيب خاص من خارج العائلة صديقا لهم ، ويقوم على خدمتها ممرضة دائمة وخادمة خاصة لتساعدها في الطعام والشراب والحمام . وكان من رأي عباس وبعض أبناء أعمامه بقائها في دار رعاية المرضى لتستمر متابعتها صحيا وعقليا ، وأن الدار تقدم خدمة راقية للمرضى مقابل التكاليف المادية العالية .

فقال أحد الأخوة : قد يطول مكثها وتتعبون من الدفع .

فقال عباس مبددا هذا الهاجس: هي التي تدفع من مالها ، وثروتها التي ورثتها عن أبيها ، ولها تقاعد اجتماعي من ضمان كندا .. فلحتى الآن ليست بحاجة لفلس واحد منا .. وأخبرني أخي عزام أن داود ويحيى اخبروه باتصال بينهم أن وضعها المالي جيد ، وقد جمعت مالا أثناء حياتها

هناك ، وورثت عن زوجها المال الكثير ، ولها نصيب في متاجرهم .

قالت راضية : القضية يا عباس بعد دار الرعاية عن المدينة .. مرة على مرة سيطرأ علينا الملل والتملص من زيارتها .. وأنت خاصة تعمل في الليل والنهار .

ـ أنا وعدتها بزيارة واحدة كل شهر يا راضية .. أنا لست مدينا لها بشيء .. حتى لو سكنت في شقة خاصة سأبقى على هذا الترتيب .. وأنتم أحرار .. أنا فعلت ما أردتم نحوها ، ومن أجل خاطر حياة أبي وجدي .

فقال يوسف لما رأى توتره : هدأ نفسك يا عباس .. كلنا يدرك الألم الذي يسكن قلبك .. ؛ ولكنها اليوم مريضة وكبيرة وضعيفة ، ونحن نقدم هذا العطف من أجلنا نحن ، ولسمعة العائلة ككل يا عباس .. الزيارات توزع على الجميع ، وبترتيب معين والذي يريد أن يزيد فلا حرج .

عادت مريم تقول وهي تبكي وتمسح دموعها وتضعف عن مقاومتها : الشقة حولنا أفضل لنا فلا يجب أن نعاملها بالمثل يا يوسف .. إذا كانت قريبة يمكنني التردد عليها باستمرار .. لولا مرضي ما قبلت لها الحياة دون بيتي ، فأنا طبيبة ؛ ولكن عندما يهيج المرض عندي أصبح ميتة فأزيد من ألمها .. هي اختارت الحياة هنا ، فعلينا أن نكون عند حسن الظن .

قال عباس بضيق واضح للعيان وعصبية : هم شجعوها للحياة هنا ، فعندهم طب وعلاج متقدم ، وهذا كله تحصله هناك بأسعار زهيدة وعلى التأمين الصحي ، ولكنهم ملّوا منها ، ولا وقت لديهم لرعايتها ، وزوجاتهم سيئات .. هذا كلام ابن عم لهم عاش هناك معهم بضع سنوات ، ثم رجع وكله خيبة ، قال لي وقد التقيت به أيام المستشفى "إن حياتهم سهرات ورقص ومجون ، ولا وقت لديهم للاهتمام بها ومتابعتها"

ـ هكذا حياتهم هناك يا عباس .. ونحن لا تهمنا حياتهم الخاصة .

عاد عباس ليقول بسخط بين : الآن صار لنا أم يا سادة .. سأترك البلد من أجلها

قالت راضية معترضة : ولماذا تترك البلد يا دكتور عباس ؟ وهل الهروب حل ؟ وهي لا تريد منا شيئا يا ابن أبي .. ليست بحاجة لمالنا .. هي تحتاج لرعاية معنوية وعطف وبعض الشفقة .. ووالدك وصاك عليها يا عباس ليس من أجلها هي .. من أجل أنها ابنة الحاج عزام الجد الذي أحبك أكثر من ابنته ، كما كان يحدث أبونا حسن رحمه الله .

قال بسخط : لا يريد قلبي أن يصفو لها يا عالم .

قال يوسف : الإنسان يزور عدوه وغريمه يا حضرة الدكتور .. أنت لو تزوجت لعرفت الأمومة والأبوة حق المعرفة يا عباس .. ألم تكن تلاحظ أيام الدراسة الفرق بين المدرس المتزوج وله ذرية والمدرس الأعزب ؟ .. فالحنان يتفاوت بين الناس .

ضحك عباس وقال : لم ألاحظ ذلك كنت أيام المدرسة حزينا ، وغارقا في همومي وهرب أمي الشائن ، كنت مخزيا يشار إليّ بالفتى الذي هربت أمه لعشيقها في أمريكا، كانت قصة جارحة خيم الوجوم القاتل على كل الجالسين ، وأدركوا عظم المرارة التي يعيشها الدكتور عباس ، حتى أن مريم ارتفع بكائها وقالت بعد حين : لماذا تذكرنا بمثل هذه المشاهد يا عباس ؟ كانت أياما مريعة .

ـ ليعلم هؤلاء الجالسون من أين تخرج هذه الألفاظ القاسية ؟ هم لم يعيشوا تلك اللحظات المؤلمة .. لقد قتلتنا وعذبتنا طوال سنوات عمرنا

قالت راضية : الزمن لن يعود يا أخي يا عباس .. ويقولون الزمن كفيل بتخفيف المصائب .. ولكن زمنك ما زال يؤلمك ويجرحك ..والأمر محزن لك ولنا ..كان الله في عونك .. وهل نستطيع إعادة دورة الزمان يا دكتور عباس ؟ هل نهرب من مواجهة الواقع ؟ ونترك ابنة الحاج عزام دون أدنى العطف والمساعدة .. نحن نساعد الغريب بالعطف والتواد والدواء والمال ..

قال بحدة : الغريب يساعد للحظات ووقت محدود .. والغريب لم يؤذنا في أنفسنا وحياتنا ..

قالت راضية : العجيب أنك تصلي يا عباس ، وتقرأ في الكتب الإسلامية!

ـ وهل أصير ملحدا ؟ كان أبي يحب أن نصلي ونصوم .. ها هي أمنا منذ طلقت لم تسجد لله .. لما سألتها مريم عن الصلاة ؟ قالت : وهل يذهب أحد للغرب ويحافظ على الصلاة يا مريم ؟ وزادت وأنا تركتها منذ مات أبي .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أنا كنت أظنها لا تصلي بسبب المرض والحادث .



قضية هدى

استقرار هدى في أرض الوطن بعد هروب استمر أكثر من ثلاثين عاما، وعودتها كمريضة أربك أحفاد الحاج عزام وشقيقه مسلم ، لقد استقر في وجدانهم أنها ستبقى مهاجرة حتى الممات ، هي رافقت زوجها عندما أتى للعلاج عند أهله أو إكمال العلاج في المدينة ، وإذا حصلت الوفاة كان يريد أن يدفن في بلده ، وهذا ما حصل ، ولكنها لم تلتق بفرد من أفراد العائلة ، ولم يسع للقاء بها أحد ، وسافرت بعد هلاكه ورحيله عن الدنيا ، ومضى الحدث ، ولم يهتموا به كثيرا ولا قليلا .

وأما استقرارها بينهم هذه الأيام فقلب حياتهم ، فهي وإن ترملت على زوج غير أبيهم ، فهي أم عباس ومريم ، وهي ابنة جدهم عزام ، وعباس بكرها هو الأولى بها ، وهو ما زال حاملا عليها ، ومتهربا من مسؤوليته الأدبية والدينية اتجاهها .

لذلك كان أشقاء عباس من أبيه بين نارين ، غضب عباس المكبوت والذي يثور بين الحين والأخر نحو وجودها بينهم ، ونار القرابة وأم أخيهم ، ومطلقة أبيهم حسن ، وابنة عم أبيهم وابنة جدهم عزام ، وهم يعلمون أن سبب رفض عباس الاقتران بأنثى هو قصة أمه ورميها لهم صغارا ، والهرب من الوطن للزواج من صديق الجامعة .

لذلك كانت راضية وأشقاؤها كلما التقوا بدون عباس ومريم في بيت والدتهم الأرملة فائزة يتحول حديثهم تلقائيا إلى معضلة هدى وعباس ومريم ، فبعد اللقاء الذي أشرنا إليه سابقا جلس الأخوة يتحدثون عن طريقة لإعادة الحياة إلى طبيعتها بين عباس وأمه ، فهم يعلمون أن أفعاله التي ظهرت لهم كانت ترضية لهم ، وليس من أجل أن هدى أمه ومريضة ، لقد خشي من اهتمامهم بها من دونه فيسبب لنفسه وجع رأس من جديد .

كان عباس بعد استقرار والدته في دار رعاية المرضى يمر عليها في الشهر مرة واحدة وذلك مساء الجمعة ويصحب مريم إذا كانت طيبة وبصحة جيدة ، ويتناول الغداء الذي يوصي عليه

المستشفى مع أمه ، ويسألها عن حالها وصحتها ويلزم الصمت ، وهي أحيانا تحثه على الزواج حتى لا تبقى حزينة ومتألمة لتركه سنة الله في خلقه ، فيقول لها بعد أن تردد أفكارها " فات الأوان يا أم داود " ويعود الصمت بينهم ، ومرات تسأل مريم عن وجعها وصحتها وتبكيان بضع دقائق ، وبعد تناول الغداء معها في غرفتها الفندقية يبدأ الاستعداد للمغادرة ، وتعانق ابنتها التي تفعل مثلها ، وتقبل مريم يدها وتلحق بعباس الذي يكون في انتظارها عند باب المصعد منتظرا صعوده .

واعتادت مريم أن تصحب زوجها يوسف في زيارة أخرى ، ولا تطول زيارة يوسف ؛ لأنه لا يتخللها طعام ، إنما يأخذون معهم بعض العصير والحلوى المسموح لها بتناولها ، وتشكيلة من الفواكه الطازجة .

يوسف التحق بالعمل في أحد المستشفيات ، وأما مريم فانشغلت بمرضها ، ورعاية أبنائها الذين شبوا ، وقد التحق أحدهم في الجامعة ليدرس مثلهم في كلية الطب والجراحة .

وكانت الأم تجعل لقاءها بيوسف ومريم حول الضغط على عباس ليقترن بأنثى ويتزوج فيقول يوسف : لقد تعب لسان والده يا عمتي وهو يرغبه في ذلك ، ومات وهو يحثه على ذلك لكنه في هذه القضية حسم أمره .. ورغم تعامله الكثير مع طبيبات وممرضات ومريضات لم نسمع أنه هم بالزواج حتى أننا مرة سمعنا أن له اهتماما خاصا بمريضة بنت أحد الشخصيات المهمة ، وقد زارها في البيت عدة مرات مما أثار دهشتنا ، واعتقدنا أن تغيرا سيحدث لعباس .. هذا نقل لنا ونحن نعمل في السعودية .. ثم انتهت القصة بدون نهاية .

وهكذا كانت زيارات راضية وإخوتها وزوجها وزوجاتهم ، وهي تترجاهم لتحقيق ذلك الهدف .

قضت هدى سنتها الأولى في دار رعاية المرضى أو كما يسميها شركاء الدار قصر الوفاء ، ولم يتحسن وضعها الصحي كما كان مرجوٌ من كثرة العلاجات التي تعرضت لها ، وأسرة حسن

مسلم لم تحسم أمر بقائها في ذلك المكان أم الحياة في شقة خاصة وسطهم ، بل عرضت فائزة أم فضل حياتها معها في عمارة والدها الحاج عزام ، العمارة التي ورثها حسن عن عمه عزام أي والد هدى . أصر عباس على بقائها حيث هي ، فهو يخشى مللهم بعد حين ، فأمراض الدماغ الشفاء منه إما صعب ، وقد يأخذ وقتا طويلا ، وإما لا يذهب إلا بالموت ، فيخشى أن تخفت فورة العاطفة والشفقة على أمه ويتورط هو معها ، وهو ما زال في نفسه غصة منها .

وهدى نفسها لما لمحوا لها بهذا العرض رفضت بشدة وغضب .. وهو الحياة في بيت والدها القديم حيث ذكرياتها الأولى وحياتها مع حسن ، وتذكرت مشاجراتها الكثيرة مع حسن ، وكذلك ذكرياتها مع أمها التي ماتت ، ولم تشهد جنازتها وأيامها الأخيرة ، رأت أن العودة إليه عذاب سيؤرق كيانها في سقمها ، وصارحت راضية بذلك بعدما رفضت الاقتراح بالعودة لبيت والدها . وبينما هم يتجادلون ويقترحون قدم عباس طلب تقاعد من الجيش ، وقبل طلبه وخلال شهور ترمج كطبيب من الجيش برتبة عميد ، وقد بلغ من العمر خمسين سنة ، وعرض عليه العمل في عدد من مستشفيات القطاع الخاص ، وبعضهم عرض العمل عليه في عيادات متخصصة في طب وأمراض القلب ، وتعاقد مع شركة عالمية للعمل في عمليات خاصة في أي مكان في العالم حسب الطلب ، لذلك بعد قبوله لدى تلك الشركة الطبية العالمية" الطبيب الطائر " بدأ يتنقل في بلدان العالم حيث يطلب منه السفر ، فمرة يجري عمليات في الهند ، ومرة أخرى في البرازيل ، ومرة ثالثة في جنوب أفريقيا ، فقل وجوده في البلد .

فقالت له مريم : أهذه حياة يا عباس ؟

ابتسم لها وقال : ولماذا الخوف؟ عليّ لا أسرة ولا أولاد.. بل ارتحت من مشاكل أم داود ..

ـ أمك يغمرها الندم يا عباس

ـ وماذا ينفع ندمها عباسا اليوم يا أختاه ؟ ـ إنها في النهاية أمنا.

ـ وماذا نفعل لها ؟ ها هي في مكان من أفضل أماكن الرعاية للمرضى في الشرق الأوسط..

وأطباء أكفاء يهتمون بها ، ونزورها كلما تحين الفرصة .. ماذا نفعل لها أكثر من ذلك ؟ ليس لدي أحفاد وأبناء يلتفون حولها .. حكموا عقولكم يا ناس

قال يوسف : صحتها تتدهور يا عباس

ـ المرض الدماغي ـ وأنتم الأطباء ـ تعلمون أنه من الصعب الشفاء منه نهائيا ، ولا تنسوا السن التي هي فيها ، ولم تكن الضربة والحادثة سهلة .. بل من فضل الله أن عاشت بعد الحادث .. أنا قرأت كل التقارير الطبية ، وتحدثت مع إدارة المرور في مونتريـال عن تفاصيل الحادث ، ومع المستشفى الذي تعالجت فيه بعد الحادث ، فقالوا "إنها اليوم بخير" لما أرسلت لهم صور التقارير ، لقد توقعوا موتها بعد حين يسير ظنا أن التلف سيزداد مع الوقت .

حمدت مريم ربها وقالت : كلما أراها وحيدة أحزن عليها ويتمزق قلبي .

ـ يا مريم العزيزة هي التي شاءت الحياة بعيدة عن العائلة وعنا .. هي بغضت أبي ؛ لأنه تزوجها غصبا عنها .. ولما مات أبوها طلبت الطلاق فور انتهاء العزاء ، وبعد ضغطها وتهديدها لهم بالانتحار وافق أبوك على الطلاق تحت الأمر الواقع .. وهي التي اختارت البعد والهرب عن الأسرة ، وضحت بنا من أجل شهوة حب مزعوم .. ومع ذلك سكت الناس عن فعلتها المشينة للأبد ، وقبلوا التعايش معها وفاء للحاج عزام ولأبي زوجها الأول .. وحتى لو سكنت بيتا سيكون مستشفى لها .. طبيب ممرض طباخة خادمة

ـ أنت تعقد الأمور .. لو كانت تعيش بيننا .. في أي وقت ليلا نهارا نمر عليها .. نسهر معها .. نشد من أزرها .. أنا لولا الناس حولي أولادي أولاد إخوتي وأولاد إخوة يوسف بناتهم نسائهم لانشغلت بمرضي وهلكت قديما

ـ صحيح هذا الكلام بحقك أما بحق أم داود فكل نساء العائلة لم يعجبهن فعلها .. فهل سيأتين ببناتهنّ ليتعلمن تفاصيل قصتها ؟ وإنها أحبت شابا في مقاعد الجامعة وضحت بالعائلة والعادات من أجل الهوى .. لقد أجرمت في حق العائلة المحافظة .

وصية مريم

لقد عمل عباس بعد تقاعده في مؤسسة طبية عالمية تعمل حول العالم ، ونتيجة لهذا العقد أصبح متنقلا بين مدن كثيرة في العالم لإجراء جراحات القلب والدماغ ، وكان يعمل ضمن فريق جراحي عالمي ، ولذلك كانوا يذهبون لإجراء عمليات في مواقع الكوارث العالمية من فيضانات وزلازل وبراكين .

ووجد الرجل راحة نفسية في هذه التجوال رغم مشقة السفر في الطائرات والقطارات والحافلات ، ولم يقصر بالاتصال مع أخته مريم وزوجها يوسف ، فقد صادقه منذ الطفولة ، فلذلك عندما كان يستقر في مدينة فكان أول هاتف يكون معهم ، وكانت تشغله صحة مريم كثيرا .

وبينما هو يوما في مدينة من مدن جنوب أفريقيا يعملون نشاطا طبيا ، وعندما عاد للفندق وقام بالاتصال بمنزل مريم ـ وقد كان له أكثر من أسبوع لم يتصل بهم ـ رد عليه ابن شقيقته محمد طالب كلية الطب ، فنقل إليه خبر وفاة شقيقته منذ يومين ، فاسترجع الرجل ، وترك السماعة وأخذ بالبكاء ساعة من الزمن ، ثم عاود الاتصال واستفصل من زوجها عن لحظاتها الأخيرة ووصيتها ، فقال يوسف بعد تقبله العزاء ورواية أيامها الأخيرة : كانت ترغب برؤيتك وهي تودع الدنيا ، ولم نتمكن من الاتصال بك .. وكانت وصيتها لك برعاية أمك والزواج ..كانت تتمنى

أن تراك زوجا وتحضر حفلة زواجك .

وعاود عباس البكاء وقال : سأتصل بك ثانية .. كنت أحبها كثيرا يا يوسف ، كانت هي دنياي ، وكنت أعطف عليها كثيرا ، في أقرب فرصة تتاح سآمر على البلاد ، وأزور قبرها ، وأتصدق عن روحها العزيزة إليّ .. لقد كانت النور لي في هذه الحياة .. أظلمت الدنيا في وجهي .. صبرك الله يا يوسف ..سلم لي على الأولاد سأكون بينكم قريبا .

أغلق الهاتف وعاد يسكب العبرات على شقيقته التي قضت عمرها في الألم والحزن والمرض ، كان يتذكر دموعها ونشيجها لما تخلو بنفسها ، عندما كبرت وعلمت بهرب أمها وتركتها صغيرة ، كانت في البداية تظن أن أمها ميتة ، ولما وعت لقضية هربها ، كانت تبكي كثيرا وعباس ينظر إليها حزنا وألما وضيقا .. سخط على الحياة التي اختارت له هذه الأم ، ثم يتوب إلى الله ويستغفره عندما يعاتبه والده بصوت رقيق وهادئ .. كان حسن المدرس يشعر بالألم الذي يعانون منه من تصرف أمهم الأرعن .. ويقول لهم " أسوأ الاحتمالات افرضوا أنها ماتت ".. وهل هذا الأسوأ يخفف الجرح النازف ؟ وهم يعلمون أنها مهاجرة .. تركتهم للزواج من رجل دغدغ عواطفها ، وأخذ مال جدهم ليبتعد عنها ؛ ولكنه خان العهد ، وظلا يتراسلان من وراء أبيهم الذي تظاهر بالغباء والجهل حتى لا يموت عمه كمدا وحزنا ، ولربما كان الجد يعلم هو الآخر بتلك الرسائل ، وتظاهر بالجهل حتى يدفع حسنا لطلاقها ، ثم مات معلولا بالقلب ، وأحب لعباس أن يكون طبيب قلب .

وها هو عباس يحلق في أجواء العالم ليعالج قلوب البشر ؛ ولكنها قلوب القادرين على دفع المال ، بل كان يسر سرورا كبيرا عندما يعالج جنديا صغير الرتبة في الجيش أكثر من معالجة كبار الضباط والشخصيات المهمة في البلاد .

شريط الذكريات والأحداث سواء الأسرية أم العلاجية يدور أمام ناظريه ولم يتوقف إلا عندما اتصلوا به للنزول لقاعة الطعام ، فاعتذر وطلب العشاء في غرفته ، وقد ذكر لمدير الحملة التي يصحبها ظرفه الحالي .



قضى عباس ست سنوات مع الفريق الطائر ، ثم عاد ليستقر في بيته الذي شيده في حياة والده حسن ، ولما زاره يوسف ابن عمه الذي تزوج ثانية بعد وفاة مريم بشهور . فقال له : لقد وعدتني بآخر زيارة للبلد بأنك تفكر بتحقيق وصية مريم بالزواج .

فقال عباس متظاهرا بالبلاهة : هل يتزوج المرء بعد الخمسين ؟!

ضحك يوسف وقال : المرء يتزوج على الثمانين يا عباس .. ها أنا تزوجت وأنا في الخمسين وولدت المرأة طفلين ، وعدنا نسمع بكاء الصغار من جديد بعد انقطاع طويل .

ـ كيف عائلتك الجديدة ؟

ـ هي من بنات بنات الخال ماجد ، قبلت بي ، وهي قد أنهت الجامعة قبل زواجنا بسنتين ، فيها عيب خلقي منع زواجها أو قل نفر الشباب عنها .. أختك راضية هي التي حدثتني عنها وسعت بذلك النكاح .. وهي طيبة ومسكينة .

ـ لقد رأيتها وهي فعلا طيبة ومسكينة .

ـ أنت الآن متقاعد فعليا !

ـ تقاعد من الالتزام بعقد أو مستشفى ، ولكني سأقوم بعمليات خاصة مع عدد من العيادات حسب الطلب والاتفاق .. وهل يتقاعد من معالجة الناس ؟! .. التقاعد فقط من الوظيفة .. بل تحدث معي الدكتور سرور لإنشاء مستشفى خاص ، فاعتذرت لا أحب العمل الإداري كثيرا .

قال يوسف محمد : جميل هذا الكلام ! .. سأتحدث مع المستشفى الذي اشتغل فيه ليتعاونوا معك في إجراء عمليات خاصة ، ففيه قسم عمليات للقلب ، سواء القسطرة أم القلب المفتوح

ـ حسب الظروف والفراغ .

ـ حسن ذا .. نعود لوصية مريم الغالية على قلبك .

ضحك عباس وقال : الزواج .. وهل من تقبل بهذا الشيخ الذي لم يعرف النساء ؟

ـ أختك راضية تحسن الاختيار ، فهي بحكم عملها طبيبة بمؤسسة اجتماعية ، ولعلاقتها بعدد من الجمعيات ستختار لك العروس المناسبة لرجل يكره النساء ..

قال مادحا لأخته : راضية أخت عزيزة أكثر من أم أسامة .

ـ أولاد وبنات عمي حسن كلهم أفاضل .. هل أتحدث معها أنا ؟

ـ نعم ، وصية مريم غالية على قلبي يا يوسف .. افعل لأنني أنا أستحي أن أحدثها بمثل هكذا موضوع .

تبسم ابن عمه وقال : أعرف ، ومن أجل ذلك تطوعت لفتح الموضوع معها .. وهذا الأمر سيسعد الجميع يا عباس ، وعلى رأسهم أم عباس ـ غفر الله لها ـ فصحتها للأسف في تدهور هل رأيتها ؟

ـ تعشيت معها ليلة أمس ، وسهرت عندها للعاشرة ليلا.

قال بسرور : تطور رهيب يا عباس .

ـ كانت متعبة ونقلوها لغرفة الفحص ومتابعة القلب ، فاضطررت للبقاء معها حتى انتهت الفحوصات ورسم القلب والدماغ .. من قبل المغرب وهم يتابعونها .. وهي كما قلت تضعف رويدا رويدا ؛ ولكن الدار تقوم بواجبها على خير ما يرام .

ـ ليس مجانا قد دفعتم ربع مليون منذ استقرت فيه .

ـ سندفعها في أي مكان ستكون فيه

ـ نسأل الله لها العافية وحسن الخاتمة ؛ ولكنها لو عادت للصلاة على الأقل .

ـ ضعف الذاكرة والوهن لا يمكنانها من معرفة الصلاة .. الله يلطف بها .

حضر العشاء من المطعم المتعاقد معه عباس ، وقامت الخادمة وشقيقها بتهيئة السفرة في قاعة الطعام ، ونهض إليها الرجلان ، وقال يوسف : كان محمد ابن شقيقتك راغب بالمجيء معي ،

ووجد زوجته الحامل عندها صداع فأجل المجيء

ـ كيف زوج فاطمة ابنتك ؟

ـ شاب طيب، وأهله من خيرة الناس ، ويعبرون عن سعادتهم بالتوفيق لاختيار فاطمة يوسف لابنهم .

ـ هو ليس من أقاربنا كما فهمت منك مرة ؟

ـ تعرفت على والده في المستشفى الذي أعمل فيه ، فهو رئيس قسم المحاسبة ، وتعمقت صداقتي به ، ولما تخرج ابنه من كلية الهندسة رغب بمصاهرتي ، فهو قد رأى البنت كذا مرة عندما كانت ترافق أمها للعلاج عندنا .. وبعد موت مريم وانتهاء ابنه من الجامعة كلمني وحصل القدر .. وهو شاب هادئ مثلك ، وها هي قد ولدت منه طفلة جميلة .. ولسوف يأتون للسلام عليك كما اتفقت معهم ، فأنت خالهم الغالي .. وسيف الصغير فهو يدرس في القاهرة كما تعلم .

ـ قابلته مرة أو أكثر هناك ، وقضى معي ليلة في الفندق

ـ وأعطيته خمسمائة دينار ليتبحبح بها .

ضحك عباس وقال: أقال لك ذلك ؟

ـ وهل يستطيع إخفاء ذلك ؟



تلقت راضية رغبة عباس بالزواج بحماس شديد ، وقالت ليوسف مبتهجة : هذا خبر رهيب! عباس يريد أن ينفذ وصية مريم ـ رحمها الله ـ سأهتم بتحقيق هذه الرغبة التي احتاجت لعشرات السنين حتى تتحقق ـ إن شاء الله ـ سنفترض أنه ترمل مثلك .. ولكنك تزوجت

صبية شابة بينك وبينها ثلاثون سنة .. أتراه يريد فتاة مثل أهلك ؟ عباس معقد من جهة النساء يا أبا محمد

ـ امرأة فوق الثلاثين ودون الأربعين حتى تنجب له ذرية يا راضية .

ـ اسمع يا يوسف ما رأيك بأخت زوجي الأرملة ؟

ـ نبيلة سليم .. كم ولد عندها ؟

ـ مات زوجها عنها على طفلين سعيد ابن اثني عشرة سنة وخولة عشر سنوات وهي دون الثلاثين سنة .. أصغر شقيقات عيسى كما تعلم ترملت منذ سنتين فقط .

ـ هل لعيسى زوجك كلام ؟

قالت : لا أعتقد أن يعترض عيسى .. فهو يحترم عباسا كثيرا رغم أنه يراه معقدا أو مكبر موضوع أمه أكثر من اللازم .. وهناك والديّ نبيلة أحياء .. وهم من العائلة الكبيرة .

ـ تحدثي مع أخيك بشأنها قبل أن يغير رأيه.. فمريم كما تعلمين كانت شيئا كبيرا بالنسبة لعباس .

ـ هذا معروف يا أبا محمد .. سأتصل به الآن وآخذ موعدا معه .

ـ هو أغلب الوقت في البيت منذ عاد من سفره الأخير ، وقد فسخ عقده مع الطب الطائر .. هذا الكلام كان بيننا ليلة أمس ..وذكر لها تعب أمه وقضاء ساعات معها في دار الرعاية .

لما انتهت المكالمة بينها وبين يوسف ، وقبل أن تتصل على عباس قال لها زوجها الذي دخل عليها وهي تتكلم في آخر المكالمة : أبو محمد الذي كان على الخط ؟

ـ أجل يا أبا سليم .. عرجنا على ذكرك أثناء الحديث

ـ ذكري .. خيرا إن شاء الله !

ـ يقول يوسف إن عباسا يريد تحقيق وصية مريم

ـ وصية مريم أختكم !

قالت : وهل هناك غيرها يا سليم ؟! .. وصيتها له وهي تحتضر بالزواج

ـ تذكرت نعم ، وهل سينفذ الوصية اليوم ؟

ـ يبدو ذلك ، فكان يوسف عنده ليلة أمس ، وحدثه عن تلك الوصية ، فكلفه بالبحث عن امرأة تقبل به في هذا السن ، فقال له يوسف "وها أنا تزوجت وأنا بمثل سنك .. لا يهم السن بالنسبة للزواج خاصة الرجال".. وكان يوسف يحدثني بذلك ، ويطلب مني السعي له بذلك فتذكرت نبيلة ما رأيك أنت ؟

ـ أختي نبيلة .. لا أدري يا راضية .. عباس جيد وأخوك ثانيا وقريبي ثالثا.. أيصلح عباس للزواج بعد كل هذه السنين من الهجر للنساء ؟

ـ من ناحية القدرة الجنسية " الباءة " لا أحد يعلم إلا هو .. هو إنسان له شهوة كغيره من الناس ، وأختك أرملة وعندها أولاد ، فلو لم تنجب منه لا حرج في نظري ، وسأتحدث معها صراحة بكل هذه المخاوف ..

ـ نعم ، عليك بالحديث معها دون مواربة يا راضية ، وقد عاشت سنوات بدون ولادات .. ابنتها عشر سنوات ، وفهمت منها أن زوجها اكتفى بالاثنين

وأكدت راضية قائلة : وكانت قابلة لذلك يا عيسى .. وسيهتم عباس بأولادها ورعايتهم وتدريسهم .. هي عصبية بعض الشيء كما تعلم ، وأرى أنها مناسبة لعباس ، فعباس من عشاق الصمت .

ـ وهي من عشاق الثرثرة . ـ هل يعترض والدك على عباس إذا قبلته نبيلة ؟

ـ أمي تحب عباسا ، وتتألم لمأساته ، والوالد يحترم عباسا ، ولا تنسي أن نبيلة أرملة.

ـ وأنا فكرت بها ؛ لأنها سيدة أرملة ، وأن عباسا كبير السن ، إنه يقترب من الستين ولم يعرف الحياة الزوجية .. فنبيلة عندها خبرة تستطيع تحمل عباس وظروفه ، وهي تعرف قصة أمه هدى .. سأتصل بعباس الآن وأرتب معه لقاء.

من قصص عمر

لما أنهت راضية حسن دوامها في العيادة الخاصة بها ، ركبت سيارتها ـ وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء ـ وسارت باتجاه بيت أخيها عباس الذي كان في انتظارها على موعد مسبق بينهما ، ولما دخلت الفيلا وجدت عنده بعض الضيوف ، فألقت التحية عليهم وقالت : سأدخل للصلاة فقد سمعته يؤذن للمغرب .

ولما قضت صلاتها ناداها عباس قائلا : تعالي لقد انصرف الزائرون .. إنهم أصدقاء الجيش .

فقالت وهي تغادر حجرة الصلاة : أذكر أنني قابلتهم هنا أكثر من مرة عساهم بخير .

ابتسم لأخته وقال : هم يعرفونك أيضا ، فهم أطباء ، ويهدونك السلام ، لما سمعوا باستقالتي من المستشفى الطائر جاءوا للسلام .. أهلا بالأخت الغالية .. العشاء قادم .

ـ أنت لماذا لا توظف عندك طاهيا بدل طعام هذه المطاعم ؟!

ضحك عباس ورد قائلا : عندي طباخ وأخته.. ولكني أحببت طعام السوق والمطاعم منذ استقلالي بالحياة .. فهم يقدمون الإفطار لي وأحيانا العشاء الخفيف ، أما لما تزورني أم سليم فمن الواجب إكرامها.. وكيف

وهي قادمة لي بعروس؟

ضحكت راضية وقالت : أنت عزيز على قلبي ! أنا أحبك يا عباس بحق ! .. وأنت نعم الأخ وأنت وصية أبينا حسن ـ رحمه الله ـ فقد ذهلت لما نقل لي يوسف أخيرا خبر رغبتك بتنفيذ وصية مريم الغالية علينا ـ رحمها الله الرحمة الواسعة ـ وقد عانت كثيرا في حياتها الدنيا ، وستجد ذلك الثواب الجزيل عند الله ..

ترحم على شقيقته مريم وقال : في رأيك أأصلح بعد هذا العمر للزواج ؟

ضحكت وقالت : أكيد لن تكون مثل الشباب .. فالسن له دوره في ضعف الناس ؛ ولكن الرجال يتزوجون ولو بلغوا مائة حتى أننا نسمع حكايات أن بعضهم يتزوج فتيات دون

العشرين .. واليوم يستخدم الناس الأدوية والمنشطات ..

دخلت الخادمة تخبر بوصول الطعام ، فنهض الأخوان إلى حجرة الطعام ، حيث كان الخادم يدخل المواد من سيارة شركة الأطعمة والوجبات ، وكان عباس يعرف الطعام الذي تشتهيه راضية ، ولما جهزت المائدة جلسوا يأكلون ، فقال عباس : أنا لليوم ـ كما تعرفين ـ لم أقرب النساء ، عافت النفس ذلك .. مع أني عشت أيام الشباب عدة سنوات في ألمانيا ، وتعرضت فيها للإغواء أكثر من مرة ، فكنت أرفض ممارسة الجنس مع أن فتياتهم لا يرون ذلك شيئا كبيرا ، كما هي نظرتنا نحن للجنس خارج الحياة الأسرية .. وهم عندهم ـ كما تعلمين ـ ثقافة الجنس أو الزنا الآمن

ـ هذا هو الصح الزنا .. عندهم وسائل الوقاية المتعددة ، ويعتبرون المعاشرة الزوجية كمن يأخذ إبرة بنسلين والعياذ بالله من سخط الله ، ورغم كل هذه الحمايات يا عباس تنتشر عندهم الأمراض الجنسية والعيادة الجنسية .. لا مجال للمقارنة بين نظافة وطهارة الإسلام والأديان الأخرى .. أنت تحسن اختيار الأطعمة يا عباس !

ـ علمتني الحياة ذلك والسفر خاصة ، بعض الناس يسافرون من قطر إلى آخر من أجل أكلة شهية في طوكيو في روما ..

ـ كل الناس تأكل ؛ لكن الأموال أين سينفقونها ؟

ـ هو مالهم ورزقهم ، فلماذا لا يتمتعون به في حياتهم؟ وما الفائدة لتركة للورثة والجمعيات وهو كثير ؟

سكب لهم الخادم الذي كان يقف مراقبا لهم شراب العصير عندما لاحظ أن الدكتور بدأ يمسح فمه ، وتناوله عباسا وجرعه ، وأعاد الكرة وهو يقول : كلي حسب طبعك يا راضية .. أنا تناولت بعض الفاكهة مع ضيوفي الكرام .

شكرته بعينيها ، ولما بلعت ما في فمها قالت باسمة : ألست في بيت أخي الغالي ؟

ـ إني أحترمك جدا يا راضية وأنت تعرفين هذا .. كيف أمك اليوم ؟

ـ إنها بشوق لرؤيتك بعد عودتك هذه .. وعندما تعلم برضوخك لوصية أختنا مريم ستدب فيها الحياة

قال : أمراض المفاصل تتعب الصغار قبل الكبار .. تكلمت معي بالهاتف ، ووعدتها بالمرور عليها .. فانقلي لها شوقي وتحياتي .

وانتقلوا لصالون الفيلا وقد وضعت أمامهم الفاكهة والشاي الأحمر وبعض أنواع من المكسرات التي يحبها عباس، ولما استرخوا على المقاعد قالت راضية : أفهم من كلامك الصريح أنك لم تعاشر امرأة طول حياتك .

ـ أبدا يا راضية حتى أثناء عملي الأخير مع المستشفى الطائر تعرضت لي بعض الطبيبات والممرضات العاملات ضمن الفريق لمثل هذا ، فاعتذرت ، بل استغربن جدا من عدم ممارستي للجنس لذلك اليوم .. لولا معرفتي بتهاونهم في مثل هذه العلاقات لتعجبت من حياتهم البهيمية .

ـ إنما هي ثقافة سائدة عندهم .. لذلك قد تعيش المرأة عندهم مع الرجل سنوات وسنوات بدون زواج وعقد رسمي .. حسنا يا أخي الحبيب أعندك صفات معينة للمرأة التي ترغب بها زوجة لك ؟

ـ حقيقي عندي قلق كبير من الزواج ، ولكن زواج يوسف بعد وفاة المرحومة مريم من فتاة تصغره بزمن كبير رفع من معنويتي للزواج ، وأخشى في نفس الوقت أن لا أنجح في الحياة الزوجية خاصة من ناحية المعاشرة يا راضية فأحطم المرأة التي ستكون زوجة لي ..فالطلاق عليّ سهل إذا لم أعد أصلح لهن .

ـ المشكلة هذه! وهي الضعف الجنسي لدى الرجال ، وهو سبب الكثير من حالات الطلاق في كل بلاد العرب والمسلمين .. وثقافة الأفلام الشائعة تثير الشجون لدى الجنسين ، ويعتقد

الرجل أنه مثل الجرذ لديه طاقة كبيرة في مخدع الزواج ، ولما يتزوج يكتشف أنه إنسان ليس حيوان .

ـ أنا أريد امرأة محترمة تقدر أنها تزوجت رجلا كهلا أو شيخا ، ولم تتزوج فتى مراهقا .. لو استطعت أن أقربها في الشهر مرة أن تحمد الله على ذلك .

ـ جيد هذا يا عباس! قرأت أن بعض الفقهاء جعلوا حظا للأنثى في الجماع مرة كل فصل أو أربعة أشهر.

ـ أبحث الفقهاء هذه المسألة يا راضية ؟!

ـ أو ليست من الدين ؟ اسمع هذه القصة التي اطلعت عليها ، وقد سمعتها أكثر من مرة من مرضاي ، يرون "أن القاضي كعب بن سور أحد قضاة المسلمين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا ، كان جالساً عند عمر بن الخطاب ، فجاءت امرأة تمدح زوجها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي ، والله إنه ليبيت ليله قائماً (يصلي صلاة قيام الليل) ، ويظل نهاره صائماً (تقصد صيام النفل) ، فلم يفطن عمر لمغزى مدحها وشكواها ، فاستغفر لها ، وأثنى عليها ، واستحيت المرأة وقامت راجعة .

فقال كعب : يا أمير المؤمنين : هلا أعديت المرأة على زوجها ، فلقد أبلغت إليك في الشكوى .

ففطن عمر فقال لكعب : اقض بينهما ، فإنك فهمت من أمرها ما لم أفهم

قال : فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهن ، فأقضي بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ، ولها يوم وليلة .

فقال عمر : والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، اذهب فأنت قاض على البصرة ، نعم القاضي أنت .

أعجب عباس بقضاء كعب وعقب فقال : لها ليلة من أربع ليال .. جميلة هذه القصة منك يا راضية! .. وهل أطيق ذلك بعد أن كبرت سني ؟!

ضحكت راضية وقالت : أنت تناسبك هذه القصة فاسمعها " جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقالت إن زوجها لا يصيبها فأرسل إلى زوجها فسأله ، فقال كبرت وذهبت قوتي ، فقال له : في كم تصيبها ؟ قال في كل طهر مرة (أي في الشهر الواحد) فقال عمر : اذهبي فإن فيه ما يكفي المرأة .



الخطيبة

لما أتمت راضية حسن قصة حكم عمر لتلك المرأة صمتت أو قل اشتغلت بقضم تفاحة ، وكان عباس مبهورا بما سمع فقال بعد صمت قصير : أنت رائعة يا أم سليم! .. لقد أعدت لي الثقة بهذه القصص اللطيفة .. خشية أن أظلم الإنسانة التي سأرتبط بها من تلك الناحية .. الآن ندخل على لب الموضوع ، هل ترين أني أصلح للزواج أم أني تأخرت وفات القطار ؟ عندما يقترب الإنسان من الستين ليس الأمر هينا يا راضية .. معنى ذلك أنه يقترب من سن الضعف والموت .

ـ لا أعتقد يا عباس أن الزواج مرتبط بسن معينة .. الرجل لا يستغني عن امرأة في حياته وحتى في أواخر عمره ، ربما المرأة تقبل بالحياة أرملة أو مطلقة أكثر من الرجل .. فهي تقبل في العيش بكنف الأبناء أكثر من الرجل .. القضية الأهم هو اختيار المرأة الملائمة له .. لقد عرفت رجلا تجاوز السبعين عندما ترمل ثم زوجه أولاده ؛ لأنه لم يقبل بحياة خادمة معه .. وتزوج امرأة فوق الخمسين بقليل ، وقد عالجتها أكثر من مرة ، وعرفت قصتها هذه ، وبعد حين افتقدتها ، فأخبرت أنها ماتت .. ماتت قبل الرجل العجوز .. الأعمار بيد الله

ـ أكيد أن الأعمار بيد الله .. أنا أريد امرأة تحب الستر والحياة البسيطة وتعلم من تزوجت .

ـ اسمع عندما حدثني الأخ يوسف عن زواجك اقترحت عليه أن نعرض عليك أرملة أخت عيسى زوجي وقريبتنا أيضا ، فهي قريبة من الثلاثين سنة ، ويمكن أن تحمل إذا لك نصيب في الذرية ، وثانيا هي أرملة وعندها طفلان ولد ابن اثني عشرة سنة وأخته تصغره بعامين يعني لها سنوات لم تخلف لعدم رغبة زوجها المتوفى بذلك .. وهي تعرفك حق المعرفة ، ووالدها وأمها يعرفانك .. وتحدثت مع عيسى ليلة أمس فلم يعترض .. ففكر فيها ؛ فإذا وافقت على الارتباط بها فسأتكلم معها ، فهي أرملة منذ سنتين قد تزيد شهور

ـ إني لا أذكر شكلها .

ـ أتحب مشاهدتها ؟

ـ لا بأس .

ـ حسن هذا ، سأدعوك للعشاء عندي يوم الجمعة القادم ، وأدعوها مع آل عمي سليم

بعد صمت قد طال قليلا قال : أنت ترينها مناسبة لرجل عجوز مثلي .. أليست صغيرة ؟ .. بيننا ثلاثون سنة .

ـ المرأة البالغة بنت العشرين كابنة الخمسين ما دامت تحيض .

ـ خبيرة في النساء!

قالت باسمة : الحياة تجارب يا أخي .

قال : نعم الحياة تجارب كما قلت .

ـ ومن خلال الالتقاء بالمرضى والصديقات نطلع على قصصهم وتجاربهم وهم يحبون نصحهم خاصة إذا وثقوا بك .

ـ كما قلت خبيرة في النساء!

ـ اسمع قال صلى الله عليه وسلم [فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها] * فهذا نص كلام النبي صلى الله عليه وسلم .. ما دامت امرأة صغيرة كبيرة كله من ناحية الجماع سيان .

* عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ فَقَضَى حَاجَتَهُ وَخَرَجَ وَقَالَ إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا قَالَ أَبُو عِيسَى حَدِيثُ جَابِرٍ حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ (ت) *عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَقَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّهُ يُضْمِرُ مَا فِي نَفْسِهِ(د)

ـ أنا ازداد بك إعجابا يا راضية.. تحسنين الإقناع .. وهذا كلام عظيم من الرسول صلى الله عليه وسلم .. إذاً علينا رؤية شقيقة عيسى لنتابع المشوار .. أهي راغبة بالزواج ؟

ـ هي مترددة قليلا ؛ لأنني حدثتها بذلك الأمر قديما لزميل لنا في المجمع الطبي .. ربما لأن وفاة زوجها كانت حديثة سنة أو أقل بشهر ..

ـ على كل حال إن قبلت بي .. لا تضغطي عليها يا راضية .. أنا أريد حياة زوجية هادئة ؛ كأنني لم أتزوج .

ابتسمت ابتسامة تشجيع وقالت : ستجد ما يسرك منها .. فأنا أعرف آل عمي حق المعرفة ، لا أذكر أنني تشاجرت مع عيسى مشاجرة يمكن أن تسميها مشاجرة ، فهو يحب الاختصار .. ورغم مرض زوجها في آخر سني عمره كانت راضية بنصيبها وصابرة ، والدليل على ذلك أيضا أنها لم تضغط عليه حسب حدود معرفتي من أجل المزيد من المواليد .. وأنا أراها مناسبة لسنك ، ولعدم خبرتك في النساء وهمومهن .. وهذا كله في علم الغيب ، وأرجو أن تقبل ، وإذا لم تقبل سأجد لك غيرها إن شاء الله تعالى

ـ سلمت أمري لك في هذه القضية المصيرية ، وأدعو الله أن يوفق ويسهل أمر هذا الزواج .. وأشكرك يا أخت راضية وآسف جدا لإزعاجك .

وانتقل الحديث إلى أخبار أولادها وزوجاتهم وحياتهم ومدارسهم وجامعاتهم ، فراضية ولدت ثمانية من المواليد .

بعد مغادرة راضية بيته شرب المزيد من القهوة ، وهو يقلب محطات التلفزيون الفضائية التي بدأت تنتشر وتزداد في أواخر تسعينيات القرن العشرين ، ولما لم يجد فيها شيئا مهما ـ فأكثرها تبث الأفلام الأجنبية القديمة والأغاني العتيقة وحوارات عقيمة ـ انتقل إلى غرفة المكتبة التي أقامها داخل الفيلا ، وكان قد تعاقد مع أكثر من دار نشر ومكتبات تجارية لتزوده بجديد المصنفات ، فكان بريده يحفل بمراسلات المكتبات وجديد الكتب ، وكان الخادم الآسيوي

يذهب لتلك المكتبات في أواخر كل شهر مرة لجلبها من تلك المكتبات التجارية ، ومع الزمن كبرت مكتبته أي كثرت موجوداتها من الكتب .

كانت بعض الكتب منتشرة على طاولات المكتبة ، فقد كان قد طلب من الخادم بألا يعيدها لمكانها في الرفوف .

قضى ساعات من الليل يقلب في بعض الكتب التي يقرأ فيها تلك الأيام ، وتصفح بعض المجلات العلمية التي يتابعها ، ومع أن القراءة هوايته الدائمة والمصاحبة له من عهد الطفولة ظل الفكر مشغولا بمشروع الزواج ، وكان بين الفينة والتي تليها يحدث نفسه سائلا " هل يستمر في أمر الزواج ؟ أم يستنكف عنه ؟ "

ثم يتذكر ابن عمه يوسف القريب من سنه وزواجه ثانية وزوجته الشابة سعيدة معه رغم فارق السن بينهما .. كان هاجس الخوف والقلق من الحياة الزوجية بعدما كبر سنه يؤرقه .. ثم تذكر الأرملة التي تسعى راضية للجمع بينهما والأولاد ، فيقول بعد عصف فكري " هل سأرتاح لوجودهم معي في البيت ؟ لم أعتد على الحياة مع الأطفال .. أنا كنت أحب أطفال مريم وأداعبهم وأعانقهم عند أمهم وأبيهم .. كنت أحيانا أسمح لهم بالمبيت هنا عندما كانوا يأتون من السعودية في إجازة .. سأضيف عبئا إضافيا لمارتن ودميانا .. أخشى أن أحطم قلب هذه الأرملة وأطلقها إذا ضقت ذرعا من الزواج .. أو لم ترتاح لي ..ولكنها شقيقة عيسى زوج راضية ستتحملني بحكم القرابة والمصاهرة .. ووالدها رجل فاضل أني أتذكره ، وهو مهندس بترول متقاعد ، لقد عالجته مرة في المشفى العسكري ، بل أذكر زوجته السيدة الفاضلة حليمة محمد .. أنا أذكرهم جيدا كانت تقول لي كلما نلتقي " قلبي معك يا عباس أنت أخ طيب لي ".. نحن من أبناء جيل واحد إلى حد ما .. ماتت مريم وهي مشفقة عليّ .. إنها تخشى أن أموت ولا ذرية لي .. اليوم يا مريم دور العناية بالكبار موجودة وشائعة ومقبولة من الناس .. كان الناس قبل عقود ينفرون من إبقاء الميت في ثلاجة الموتى ، ويعتبر الأبناء هذا

من العقوق .. أما اليوم فهو عرف مقبول .. لأن هذه الدور تخدم هؤلاء الكبار نفسيا وصحيا اليوم الأبناء في الوظائف والعمل .. المرأة تعمل والزوج يعمل .. فها هي من تزعم أنها أمي لولا هذه الأماكن ماذا سأفعل لها في البيت ؟ .. سأزهقها من شهر من شهرين من سنة .. هل سأترك العمل للبقاء عندها ؟ كيف كان يعيش الأوائل ؟ .. إنهم سكان أرياف .. فالأقارب كلهم حول بعض البعض ، هذا يرعى هذا ، وهذا يرعى هذه .. وشغلهم حول البيوت .. حياة المدن غير حياة الريف والقرى .. هل إذا هرمت سأنتظر من ابني أن يبقى بجواري ويترك وظيفته ؟ .. الدنيا تتغير .. نعم الدنيا تتغير .



رتبت راضية وزوجها وليمة طعام لحميها وأخت عيسى السيدة نبيلة وأطفالها ، وشاركهم عباس تلك الدعوة ، ولما قضي الأكل انتقلوا لصالة البيت حيث قدمت لهم خادمة راضية أكواب الشاي ، وجلس عباس مجاورا للمهندس المتقاعد سليم ، ودار بينهم حديث مقتضب حول السياسة والأحداث العالمية ، ثم تحدثوا عن أخبار الطب والأجهزة الطبيبة التي طورت الطب من أجهزة التصوير الطبقي والرنين المغناطيسي وأدوات الجراحة الليزرية ، وكانت راضية مندمجة في الحديث مع حماتها وبنت حميها ، وكان زوجها عيسى يلتزم الصمت ، وأحيانا يعقب بملاحظة على كلام أبيه هنا ، وتارة على كلام أمه هناك ، وأما الأطفال فقد انصرفوا للجلوس مع بعضهم في غرف أخرى .

وبعد ساعة قضاها عباس معهم استأذن بالانصراف لزيارة ليلية أخرى ، فسلم وغادر ، ولما عادت راضية وعيسى من مرافقته لباب الفيلا الداخلي قال والد زوجها : كيف حالك يا أم سليم ؟ كيف أنت وعباس ؟

ضحكت راضية وقالت : أولا طمني على صحتك وصحة العمة ، سمعت أنك كنت عند الطبيب اليوم !

ابتسم السيد سليم لكنته : شكرا أم سليم ، أصبحت متعبا ولم استطع تناول الفطور ..فأخذني نافز إلى الدكتور خيري طبيب العائلة ، وعلل خيري ذلك بالبرد ، وأسمع عنه كثيرا ، ولا أعرف ماذا تقصدون وتعنون بالبرد ؟

ـ سلامتك يا عمي الفاضل ، عندما تتعرض الأجسام للجو البارد الطقس البارد يصيبها تعب فالجو يؤثر على الجسم ؛ لذلك نلبس في الشتاء الملابس السميكة الدافئة ، والطعام الذي يكون في جوف البطن كالمعدة والأمعاء يتأثر بحرارة الجو من برودة وحر ، وهناك أناس أجسامهم محصنة ضد البرد لا يتأثرون بسهولة .. لكن البرد يسبب الكثير من الأوجاع للبدن ، وكذلك الحر الشديد ، وبالجملة الامتناع عن الأكل لساعات يعيد التوازن للجسم ، وربما إذا أخرج الإنسان ما في بطنه ارتاح يقال "برد الصيف أحد من السيف"

ـ بارك الله فيك يعني البرد هو البرد

ـ نعم ، لذلك يستحسن للإنسان ألا ينام إلا وقد غطى بطنه وصدره .. والإنسان يمكنه أن ينام بغير غطاء ، لكن لأن الليل أبرد من النهار لاختفاء الشمس ، فالثياب والأغطية تعطي الجسم الحرارة والدفء وحتى عادة يعالج المصاب بالبرد بالتدفئة ورفع درجة حرارة الغرفة والجسم . *

* إصابةُ البرْد : إصابات ناتجة عن البرد ، التعرض إلى درجات حرارة منخفضة، نتيجة عدم قدره الإنسان على التكيف هناك، إصابات البرد الطرفية وهي تعرض جزء من أجزاء الجسم إلى أصابه البرد ، ، أو إصابات البرد لكامل الجسم ، و قد يحدث أحيانا مزيجا من الاثنين معا ، هذه الإصابات شائعة بين الأشخاص الذي يقضون معظم أوقاتهم خارجا في المناخ البارد مثل الجنود. وتصاب الأنسجة لتعرضها لحرارة منخفضة، وليس بالضرورة منخفضة جداً ، وهناك انخفاض الحرارة الذي يحصل عند المسنين ، ويدوم لبضع ساعات.

ـ لعلي فهمت .. والآن ما مناسبة هذه الدعوة ؟

ـ وهل يكون للدعوة مناسبة ؟

ضحك وقال : خاصة إذا حضرها عباس .. نحن الدعوات قائمة دائما بيننا .

تطلعت راضية في عيني عيسى للحظات فابتسم لها ، فأدركت أنه تحدث بشيء لأهله فردت على عمها فقالت : عباس راغب بالزواج بعد هذا العمر يا عم سليم ، وكما تذكرون ماتت أختي مريم وهي توصي بأن يتزوج عباس .. وكان يماطل بظروف العمل الجوال كما تعلمون فلما عاد وأنهى عقده مع المستشفى الطائر ، ذكره يوسف ابن عمي وزوج مريم ـ رحمها الله ـ ذكره بوصية مريم ورغبتها التي ماتت عليها أن تراه أبا وزوجا ..وأنه أي يوسف ها هو قد تزوج كبيرا .. فطلب منه أن يجد امرأة تقبل به .. وفورا تحدث معي يوسف ونقل لي موافقة عباس على الزواج .. فذكرت له العزيزة نبيلة .. فطلب عباس أن ينظرها ، فكانت هذه الوليمة يا أخت نبيلة .

ضحكت نبيلة وأمها وسليم ، وقالت نبيلة : عيسى لم يستطع كتم الأمر .

فقال سليم : شكرا يا راضية أنت أغلى كنة عندي واسألي أم نافز

ـ وأنت عزيز على قلبي يا عم سليم .. أنا لا أريد الإحراج للغالية نبيلة ..

كان باستطاعتي الحديث مباشرة مع نبيلة ومعكم .. فعباس ما زال مترددا في أمر الزواج والأولاد ، فأبي ـ رحمه الله ـ مات وهو يوصينا جميعنا على عباس ومريم .



خطيبة أخرى

قضى السيد عباس سهرة عند أحد الزملاء وعاد للبيت بعد نصف الليل ، فوجد مارتن الخادم مستيقظا فحياه ، وقال معاتبا له بلطف : ما زلت مستيقظا يا صديقي؟! .. ألم أقل لك إذا بلغت الساعة الحادية عشرة فارقد ، وإذا احتجت خدماتك أرن عليك ..

فتمم الرجل بأنه مرتاح ، ولم ينم بعد ، وكان يتفرج على التلفزيون في حجرته ، فقال عباس : لا بأس ، ما دمت أنت صاحيا .. فاصنع لي الشاي ومعه بعض المكسرات ، فها أنا سألبس ملابس النوم ، وأسهر في المكتبة يا عم مارتن .

هزّ الرجل رأسه بالفهم ، وقبل أن يستدير ناحية المطبخ قال : أخت حضرتكم اتصلت أكثر من مرة .

ـ راضية ؟

ـ أجل .

قال وهو يمشي لحجرة النوم لخلع ملابسه وارتداء ثياب البيت : إنها تريد معرفة رأيي في نبيلة الساعة تقترب من الواحدة وراضية لا تحب السهر حتى تستيقظ على وقت صلاة الفجر وقيام الليل .. أنا محظوظ بأخت طيبة كراضية .. إنها تحترمني وتعرف حق الأخ الكبير ؛ ولكني أنا مسالم ولا أشعرهم بأني الأخ الكبير .. الأم تحتاج لزيارة ..لي أيام لم أزرها، وقد وعدتها أن أزورها في الأسبوع مرة أو مرتين .. واليوم لا عمل .. لا أدري لماذا أبناء الذي تاجرت به لم يزوروها منذ تركت كندا لهم ؟!.. ولكنهم يدفعون في تكاليف العلاج والرعاية .

ولما دخل المكتبة وجد الشاي والفواكه والمكسرات في انتظاره ، فشكر الخادم وطلب منه الذهاب للنوم ، فحنى الخادم رأسه قليلا ، وألقى تحية المساء واختفى .

سكب لنفسه الشاي الأسود ، وأخذ يرشف ويقزقز البزر الأبيض المالح ، والفستق الحلبي المملح أيضا ، ويفكر بقضية الزواج التي تشغله هذه الأيام ، وقد حدثه صديقه الذي سهر

عنده عن امرأة طبيبة عملت معهم قبل سنوات أثناء العمل في طب الجيش ، قد تقبل به عندما استشاره بزواجه المتأخر ، وتذكرها عباس جيدا ، وهي مثله لم تتزوج بعد لظروف معينة ، وقال الصديق : إذا كنت لا ترغب بالذرية فهي مناسبة .. بل صارحه صديقه بمناسبة الحديث أنها طلبت منه يوما ما أن يسعى لدى عباس بالزواج منها ، ولأنه يعرف وجهة نظره حول الزواج ، لم يكاشفه بهذا ، وزعم لها يومئذ أنه رفض وانتهى الأمر .

فقال لنفسه : نبيلة سليم أصغر منها سنا ، وقد تلد مع أنها كما سمعت من راضية لها زمن لم تحمل بناء على رغبة قرينها الذي اكتفى بالولد والبنت .. والدكتورة حسب ما أذكرها أجمل من نبيلة من جهة البشرة ؛ ولكنها قريبة من الخمسين هذه الأيام .. أنا لا أدري لماذا لم تتزوج ؟ فضلت التعليم والشهادات العليا على الزواج والأطفال حتى فاتها القطار كما يقال .

وبينما هو يقارن بين قريبته نبيلة وزميلته القديمة العانس ، رن الهاتف فلما سمع صوتها قال : أهلا أختي الغالية لم تنامي بعد أم نمت واستيقظت؟

ـ كلاهما .. أنا لما انشغل بموضوع مهم يصيبني القلق حتى انهيه بسلام .. لعلك استمعت بسهرتك .

ـ عرضت عليّ عروسا أخرى .. طبيبة عانس خدمت معي قديما .. ذكرني بها الدكتور مراد عبد الله .. ولكنها قريبة من الخمسين قد لا تلد .

ـ بالتأكيد لن تلد ، هذه يا أخي انقطع الطمث عنها من سنوات ، ولو ما زالت تحيض فحملها صعب يا عباس .. فنبيلة هناك أمل كبير أن تلد لك .. إلا إذا كانت القضية قضية زواج فحسب .

ـ وهل أستطيع التربية بعد وصولي لهذه السن ؟

ـ أنت خلّف وأنا أربي لك .. فلي أكثر من خمس أو ست سنوات لم ألد .

لم يعط عباس الموافقة لراضية لتبدأ في ترتيب أمر زواجه من السيدة نبيلة ، طلب منها السماح له

ببضعة أيام أسبوع على أكثر تقدير ، وقد أعلمته أن عيسى كان قد كاشفهم بسبب هذه الدعوة من دون علمها ، وأن القوم ينتظرون قراره الحاسم .

لما زار عباس أمه بعد تلك المحاورات وجدها ما زالت في الحال التي تركها عليها آخر مرة وتحدث مع الطبيب المقيم ، ومع مدير دار الرعاية وقصر الوفاء ، وهو طبيب أيضا متقاعد من وزارة الصحة ، ومع الممرضة القائمة على متابعتها في أغلب الأحيان ، وعلم أن وضعها الطبي مستقر على ما كانت عليه في آخر فحص ، وسيقومون ببعض التحاليل المخبرية للبول والدم ، وستؤخذ لها صورة طبقية للدماغ ، وسيمر عليها طبيب الدماغ والأعصاب بعد التصوير ، وأخبر أن أكلها ضعيف بسبب تعب في الأمعاء .

كانت لا تتكلم ترد عليه بالإشارة خلال الجلسة ، ولما انتهى من متابعة حالتها المرضية ، واقترب موعد المغادرة كاشفها بأمر زواجه ، فلمعت عيناها ببريق خاطف ، وارتسم السرور على وجهها فرحا ، كما بدا لعباس ، ثم قالت بلسان ثقيل : أصحيح ؟

ـ أجل يا أمي، أخيرا سأتزوج بمشيئة الله تعالى .

ـ أسعد خبر سمعته في حياتي ، الآن أحس أنك غفرت لي زواجي من بلال .

ـ الأمر لله يا أم داود .

تقدمت الممرضة القائمة عليها تلك الوردية وأعطتها إبرة تخدير لتنام ،

فسلم عليها عباس ، ولما أغمضت عيناها غادر الحجرة ، ثم نزل لموقف السيارات الخاص بدار الرعاية ، وركب سيارته ، وكان الوقت يقترب من الغروب ووقت صلاة المغرب ، بل أذّن وهو ينطلق في الطريق ، فلما اقترب من أحد المساجد القابعة على طرف الشارع نزل إليه لأداء صلاة الجماعة .

ذهب بعد الصلاة للعشاء في أحد مطاعم المدينة ، وكان على موعد لحضور محاضرة مسائية في أحد الفنادق عن الدماغ لدكتور عالمي من ألمانيا ، وقد تلقى عنده بعض المحاضرات أثناء

دراسته لتخصص الدماغ وأمراضه في المانيا ، وكان موعد المحاضرة العلمية التاسعة والنصف بترتيب من جمعية الأعصاب والدماغ .

ورحب به مدير الجمعية وهو يستقبله على مدخل القاعة ، وفي التاسعة والنصف بدأ الطبيب المحاضر محاضرته ، وكان الرجل شيخا هرما ؛ ولكنه بدا نشيطا وواعيا لما يتكلم ويتحدث عنه ، وقضى عباس أكثر من ساعتين بين سماع ونقاش بين المحاضر والجمهور العلمي ، وقد رأى عباس الكثير من أطباء الدماغ يستمعون للمحاضرة .

ولما وصل البيت صلى العشاء، وكان قد اتصل من الفندق بمارتن ، وطلب منه وضع ترمس شاي وفاكهة ومكسرات في المكتبة وليرقد ، فلما قضى الصلاة ذهب حيث حجرة المكتبة ، وقبل أن يبدأ بمراجعة أحد الأبحاث العلمية رن الهاتف فأدرك أنها راضية ؛ لأنه من النادر أن يتصل به أحد في مثل هذا الوقت ، فرحب بها وسمعها تقول : سمعت من مارتن أنك ذهبت لزيارة الأم الغالية.

ضحك عباس لكلمة غالية ؛ لأنها تعلم برودة العلاقة العاطفية بينه وبين أمه وقال : نعم ، قال لي مارتن أنك اتصلت ـ وكان ذلك عندما تحدثت معه من الفندق ـ إنها بخير ، ووضعها على ما كانت عليه من أيام ، لم تعد تأكل بشكل جيد ، وهذا طبيا مزعج .. وأنت كيف أمك ؟

ـ تحسنت صحتها بعد تلك الوقعة .. وغدا أو بعد غد ستخرج من المستشفى .

ـ سلامتها يا راضية ، سأزورها غدا ما رأيك أن نتقابل عندها ونتغدى سوية لنتكلم بموضوع نبيلة ؟

ـ هل عزمت أمرك ؟

ـ إلى حد ما .. غدا بعون الله نتكلم بالتفصيل .

ـ أقول مبارك يا عم عباس .

ـ قلت المرأة عرفت أننا تغدينا عندك لرؤيتها

ـ عيسى سليم كشف الأمر

ـ أترين أن لها شروطا معينة ؟

ـ هي لم توافق بعد إلا إذا كان السكوت علامة القبول .

لما انتهت زيارة أم فضل زوجة أبيه حسن أخذ عباس أخته راضية إلى أحد المطاعم التي يرتادها منذ عهد بعيد ، وفي صالة خاصة للأسر تناولوا الغداء كل حسب رغبته، ولما بدأ الأكل قالت راضية : أنت تعودت على أكل المطاعم منذ شببت يا عباس .. ماذا ستفعل بعد الزواج ؟ هل ستعود لطعام وطهي البيت ؟

ـ الطباخ موجود مارتن .. وهذا يعود لأم غسان .. أهي ماهرة في الطهي ؟

ـ كغيرها من النساء ليست متميزة حسب معرفتي بها .. أغلب وجباتهم صناعة بيتية ، لم يكن زوجها يحب أكل الأسواق ، وإنما يأكله في المناسبات والدعوات ..

ـ على كل سنجرب ذلك ، فإذا وجدناه أحسن من الأكل الخارجي سيقوم مارتن بالتعاون معها باختيار الأصناف .. على كل حال أنا موافق يا راضية على إتمام الزواج من أخت زوجك المهندس عيسى .. فانظري رأيها ورأي أطفالها أيضا ورأي والديها .

ـ العم سليم والعمة أم نافز لا اعتراض لديهم ، بل قدموا لي الشكر والثناء يوم الغداء ذاك .. فانكشف الطابق بعد مغادرتك ..فاكتشفت فورا أن عيسى صارحهم بسبب هذا الغداء والدعوة .. عيسى صريح يا عباس .. فلما سألوه عن المدعوين قال : عباس فقط فاستغرب الحاج سليم ، وقال : ولماذا عباس فقط ؟ فأخوة راضية كثر؟ فاضطر المسكين للإفصاح بالسبب .

ـ حسب معرفتي البسيطة بالدين فالنظر من أجل الخطبة والزواج مشروع ومباح

ـ أكيد هذا الأمر مشروع فعلا حتى ولو لم يقع زواج ، ورد عن الحبيب صلى الله عليه وسلم ـ وقبل أن تذكر الحديث مسحت فمها وشربت قليلا من الماء وتابعت : ـ " إذا خطب أحدكم

المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل " وهناك حديث آخر فقال النبي صلى الله عليه و سلم " انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما " .

ـ أنت تحبين حفظ الأحاديث

ضحكت راضية ضحكة قصيرة على بساطة عباس وقالت : احتاج لذلك في المحاضرات التي نقوم بإلقائها في الجمعيات والمحاضرات ، كما تحفظون أنتم أقوال مشاهير الأطباء.. فالنقول ممتعة وترسل بها رسالة واضحة .. اسمع هذه القصة عن النظر إلى المخطوبة

مسح عباس فمه وقد كف عن الأكل ، فهزت رأسها تسأله فقال : شبعت الحمد لله .. هات القصة

توقفت هي الأخرى وقالت : الحمد لله الذي أطعمانا هذا ورزقنيه من غير حول ولا قوة .. أشكرك يا عباس .. أنت نعم الأخ والصديق .

ـ لا شكر على واجب ..

ـ القصة يا سيدي العزيز " أن عمر خطب إلى علي ابنته أم كلثوم فذكر له صغرها ، فقال علي : أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأتك فأرسل بها إليه فكشف عن ساقها فقالت : لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينك ، وقبلها عمر وتزوجها ، وولدت له على ما أتذكر .

قال مندهشا : دائما رائعة يا أخت عباس ! .. كان والدنا حسن شغوفا بقراءة كتب الأحاديث والسنة .

ـ بل كان يحفظ كتاب رياض الصالحين عن ظهر قلب ، ولما صرت أحسن القراءة كان يسمح لي باستظهار حفظه .. إذن نكمل المشوار .. الليلة بعون المولى سأتحدث مع عمي وعمتي وهم يكلمون نبيلة .. وحسب الجو أرى أن نبيلة لا اعتراض لديها ، قلت لزمت الصمت يوم الغداء ذلك .. ولها سنتان أرملة .. والعلاقة الزوجية تنتهي بانتهاء العدة بين الأرملة والمتوفى ولا أعتقد أن أحدا من إخوتها سيعترض على الدكتور عباس بن حسن حفيد الحاج عزام ..

أقلت لأمك ؟

ـ نعم، ورأيت السرور في وجهها وعينيها ، وقالت : الآن أرى أنك غفرت لي زواجي من المذكور .

ـ مسكينة أمك، للأسف رجعت إلينا وهي مريضة لا حول لها ولا قوة ..

لما غادرت راضية المطعم ذهبت لبيت حميها لقضاء المهمة ، فكانت الفتاة في عجلة من أمرها فهي تريد أن تكسب الوقت أو تسابق الزمان كما يقولون ، فقد مات والدها وكله شوق وحسرة ليتزوج عباس ابنه البكر ، كان كلما يتزوج أحد أبنائه ، يقضي ساعات مع نفسه في البكاء من أجل عباس .. وهذا كله واعية له راضية ، فهي ترتيبها الثالثة من أبناء أمها فائزة ، وماتت مريم وكانت تتمنى أن ترى لعباس بيتا وزوجة وأسرة ، والكثير من أفراد العائلة رغبوا له ذلك ، قرعت الجرس وفتح أحد أبناء نافز فهو بكر عمها ، وهو ظل منذ تزوج ببيت الأسرة مع والديه ، قدم لها الشاب الصغير خده فقبلته وقالت : أين جدك وجدتك ؟

سمع أمه تصيح : من يا حمزة ؟

ـ امرأة عمي عيسى أم سليم .

خرجت أم حمزة ترحب براضية وتصافحها وقالت : أين عيسى والأولاد ؟

ـ جئت وحدي ، عساك بخير .. كيف نافز أبو صلاح ؟

قالت: كلنا بخير ، كيف أولادك جميعهم ؟ كيف أمك نسيت أن أسألك عنها ؟

ـ الحمد لله ، ربما تخرج غدا تحسنت كثيرا .. الكبار يكبرون ،وتضعف عظامهم ، وهشاشة العظام مرض شائع بسب بلوغ الناس سنا كان يصعب الوصول إليها إلا بأمر الله .. المداواة والطب بعد تقادير الله رفعت من سن الشيخوخة .

ـ إن شاء الله ربنا يشفيها ويخفف عنها الألم .. أمس ذهبت مع أسرة عمي لزيارتها .

ـ شكرا لكم .. العم والعمة موجودان ؟

ـ عمي مشى للجامع لأنه أذن المغرب قبل قليل .. تفضلي، أكيد عمتي تصلي وإلا خرجت ترحب بك .. فعمتي تحبك ـ كما تعلمين ـ حبا معروفا في العائلة .

ـ شعور متبادل يا أم صلاح ..

تقدمتها أم صلاح لشقة عمها وعمتها ، وفعلا كانت العمة تجلس على سجادة الصلاة تتابع فرضها ، فهي تصلي جالسة خاصة النافلة .

جلسن ينتظرن إنهاء صلاتها ويتحدثن بحديث هامس ، ولما سلمت أم نافز قامت لترحب براضية التي عانقتها ومقبلة ليدها ، فهي منذ أصبحت حماتها وهي تقبل يدها كلما تتقابلان وتدعوان لبعض ، ولما جلسن ثانية قالت أم صلاح وهي تقف : ما تحبين أن تشربي في مثل هذا الجو البارد مع أنه شهر الربيع

ـ نفس الشتاء ما زال فيه .. راضية مغرمة بالشاي مثل حبيبها عباس

ضحكت راضية : أجل يا امرأة عمي .. وأنا كنت قبل قليل أتغدى مع عباس ..

وقصت قصة زيارتها للمشفى حيث الأم ترقد ، ثم الغداء وختمت الكلام قائلة: " وأنا جئت إليكم هذا المساء أو الليل من أجل عباس "

ـ يا مرحبا بك .. أتريدين الكلام مع أبي نافز ؟

ـ الأفضل يا عمتي .. أيتأخر في بيت الله عزّ وجل ؟

ـ عادة يصلي المغرب ويبقى في المسجد حتى يصلي العشاء.. يتسلى مع الجيران والأقارب خاصة أخوه الأكبر منه محمد من رواد المسجد ..

جاءت أم صلاح بالشاي ، وببعض الكعك ، وقبل أن تجلس طلبت منها حماتها أن ترسل ابنها حمزة للمسجد ويقول لجده سليم " أم سليم في انتظاره "

سكبت أم صلاح الشاي وقدمته لحماتها وأم سليم ، وخرجت لتكلف ابنها الشاب بالمهمة ، وعادت للجلوس معهم ، وكان جل حديثهم حول عباس وأم عباس ، وعاد الصبي مخبرا أن

جده في الطريق ، وذهب ليدرس أو يشاهد التلفزيون ، وتابعت النسوة أحاديثهن عن المرض والصحة حتى دخل الحاج سليم ، فقامت راضية تسلم عليه وتقبل يده كما فعلت مع حماتها ، ولما انتهى الترحيب قال : لماذا تجلسن هنا ؟

ثم انتقلوا لصالون شقة الحاج سليم ، ولما جلسوا عاد الترحيب من جديد ، وذكر لها الحاج أن ابنها عبد السلام كان عندهم اليوم، ثم وضح لها سبب مجيئه .

قالت راضية بعد ذلك : قبل أن يؤذن للعشاء يا عمي كنت العصر مع عباس وتحدثنا في موضوع الزواج موضوع زواجه ، وباختصار الرجل بعد تفكير قد قبل الزواج من الأخت نبيلة ، وهي تعلم بظروفه وقصة حياته ، وطلب مني أن أعلن لكم ذلك ، وأن تشاوروا الأخت نبيلة بموافقة الدكتور العزيز على قلوبنا عباس على الاقتران بها .. وأنا حقيقة من محبتي لكم اخترتها لأخي الغالي عليّ ، كما تعلمون فعباس وصية أبي حسن رحمه الله تعالى .. ولتأخذ نبيلة وقتها وحريتها في القبول أو الرفض .. هذا زواج ، وحياة قد تكون صعبة مع رجل لم يعاشر النساء إلا في العمل والوظيفة .. فسيكون مضعضعا حتى يتكيف مع الحياة الأسرية وعباس معروف لكم .

أثنى الرجل وامرأته على همتها وأخلاقها ، وأثنوا على عباس الثناء الطيب ، وقال سليم : قومي يا أم نافز البسي لنذهب للبنت ومعنا راضية ، ونعرض عليها الأمر أمام ابنتا راضية .. فهي التي ستتزوج عباسا ولسن نحن .. فبينهم كما تعلمين يا راضية فارقا كبيرا في السن.. والأعمار بيد الله .. وحسب معلوماتي أن صحة عباس ممتازة ، ولم أسمع أنه يعاني من مرض أو سقم خطير .. هذه حياتها الجديدة ستكون .

خرجت أم نافز لغرفة نومها لتلبس ملابس الخروج ، واتصل سليم بابنته معلنا لها بزيارتهم ، وفي سيارة راضية انطلقوا إلى بيت السيدة نبيلة سليم

كانت نبيلة منذ ترملت تسكن في الشقة المستأجرة منذ حياة زوجها ، وكان والد زوجها هو الذي يدفع إيجارها بدلا عن ابنه الميت ، وذلك من الأموال التي ورثها عن ابنه الميت ، ومن أجل الإنفاق على الطفلين .

رحبت السيدة بوالديها واحتضنت راضية زوجة شقيقها عيسى ، ورحبت بها أحر ترحيب ، وقبل أن يبدأ الحديث ارتفع صوت الآذان في الحي . فقال السيد سليم : لابد من الصلاة .. وغادرهم لمسجد الحي .. وقالت نبيلة لابنها: ماذا قال لك المطعم ؟

احتجت راضية وقالت : قبل قليل أكلت مع عباس في مطعم { الوزة البيضاء } ، وخرجت من المطعم لبيت عمي سليم مباشرة .

ـ نحن لم نتعش يا أم سليم .. نتعشى عادة بعد صلاة العشاء

فقال الولد : قال لي مدير المطعم عند الصلاة ستكون سيارتنا أمام البيت ، وكأنني أسمع زامورها ..

وأسرع إلى الشارع ، وتبعه سليم ذاهبا إلى المسجد ، ادخل عمال المطعم الطعام وانصرفوا ، وقامت النساء للصلاة ، فقد صلت راضية المغرب قبل مغادرة بيت عمها .

وكانت نبيلة تعلم سبب هذه الزيارة ، واطمأنت على أم راضية وعن صحتها ، ولما حضر السيد سليم انتقلوا إلى غرفة المعيشة وأكلوا ما قسم الله لهم ، وعندما فرغوا منه حمدوا الله وشكروه ، وهم يشربون الشاي قال سليم : أنت تعلمين يا نبيلة برغبة عباس بالزواج منك ، وهو من جيل أبيك يا نبيلة ، وهو لم يسبق له الزواج كما تعلمين لأسباب خاصة به ، واليوم غير رأيه أو رضخ لوصية مريم ـ رحمها الله ـ وهو معروف لك ، وشقيق راضية زوجة أخيك وابنتنا راضية رأت أنك مناسبة له لأسباب بينتها لي أولا أنك أرملة ، والرجل لا فرق عنده بين أرملة ومطلقة وعذراء لأنه ليس بالشاب الصغير .. وثانيا أنك أم ولك أولاد وهناك احتمال أن تلدي منه واحتمال ألا يتحقق ذلك .. لن تحتاجي لأولاد إن عجز عن تحقيق ذلك ..

وثالثا هو لا يمانع بحياة الأولاد معك إلا إذا أهلهم رغبوا بهم .. ورابعا الزواج سترة والحزن لا يدوم والحياة ستمضي ، والعفة كنز من كنوز الدنيا .. وأنا وأمك لا اعتراض لدينا على هذا الزواج ، والأعمار بيد الله .. فالرجل يقترب من الستين مثلي .. وعباس معروف بهدوئه وصمته ، وهو صورة عن أبيه حسن عليه الرحمة من الله .. ففكري في حياتك جيدا .. ولابد أنك منذ تلك الدعوة عند عيسى وراضية تفكرين .. والأمر بين يديك .

قالت نبيلة : وهاهم أبنائي يسمعون ، وعندهم فكرة عن هذا الزواج .

قالت راضية : فكروا كما قال عمي وتشاوري مع الأولاد بكل حرية

قالت نبيلة : حقيقة أنا تحدثت مع أولادي وهاهم يسمعون ، والفتى لم يرفض ، والبنت لم تحسم أمرها ، فهي مترددة .. والآن صار الموضوع بشكل جدي ، وأنا الأخ عباس أعرفه جيدا ولا أعتقد أن السن يعيق الحياة الزوجية يا راضية

ردت راضية : صحة عباس الحمد لله معروفة ، وهو يهتم بذلك ، ولكن الزمن له دوره يا نبيلة يمرض كما يمرض الناس من أنفلونزا رشح صداع .. حسب علمي وأنا طبيبة أسنان لم يخلع إلا سنا واحدة .. وهو يحب الرياضة ، وله عضوية في النادي الخاص بالضباط ، ولا يدخن ، والكحول لم يعرف طريقها ، هو كما قال عمي سليم ابن أبيه .. ولا أعتقد أن يقف أولادك في طريق سعادتك .. والزواج فرصة جيدة لك يا نبيلة .. وهؤلاء الأبطال سيتزوجون لما يكبروا وكلما كبرت المرأة قلّت الفرص أليس كذلك يا عم سليم ؟

ـ هذا أكيد يا أم سليم .. لذلك بدأت العنوسة تشكل خطرا في المجتمعات الإسلامية والعربية فقد ارتفع سن الزواج بسبب التعليم وبسبب العزوف عن الحياة الزوجية .

ـ الآن حان وقت الانصراف يا عمي ويا عمتي ، لقد نقلنا رسالة الموافقة من عباس للأخت الفاضلة نبيلة

ـ شكرا لك يا ابنتي العزيزة .. سأتصل بنافز ليمر علينا ، ويتحدث مع أخته في هذا الأمر

ونعود معه للبيت .



مضى يومان قبل أن يصل الرد إلى راضية لذلك قالت لزوجها : هل من شيء يا عيسى لتتأخر أختك في الرد ؟

بعد تردد معروف في شخصيته قال : أنا على اتصال بأبي وأمي حتى أثناء العمل .. وأولاد نبيلة الولد يقول لها : " افعلي المناسب يا أمي ، والبنت ترفض زواجها ثانية "

ـ البنت عاطفية هذا شيء شائع ومفهوم

ـ نبيلة لها رغبة بالزواج .. إنما هي مترددة لسن عباس .. فهو من جيل الوالد .. تخشى أن تترمل ثانية

قالت راضية : قد تموت قبله .. لو فكر الناس بهذه الطريقة لما تزوج أحد يا عيسى .. هناك أناس مرضى بمعنى مرضى أي مرض دائم ويتزوجون ، ولو فكرنا بطريقة السنين لما تزوجت أنثى إلا من يوازيها بالسن .. هناك من يحبذون أن يكون فارق بين الزوجين على الأقل عقد من السنين .

ـ اقترحت عليها أمي أن يكتب لها عباس شقة باسمها لعلها تتشجع على الزواج .

قالت : رغم عدم اقتناعي بهذا الاقتراح يا عيسى سأنقله لعباس .. فلو مات عباس قبلها سترث الكثير من ماله ، بل ربما ترث قصره كله .

ـ هم يخشون الطلاق .. وليس الموت ، فالموت أمره لله .. الخوف من عدم انسجام عباس معها فيطلقها .

ـ هذا وارد لا أنكره يا عيسى .. قد لا يرتاح أخي مع الحياة الزوجية فيضطر للطلاق .. وأنا

من أجل ذلك سأنقل له رغبة نبيلة بأن تكون شقة باسمها لأنها بمجرد خروجها من شقتها سيسلمها أهل زوجها الميت لصاحبها .. هل هذا شرط أختك نبيلة الوحيد أم هناك أشياء أخرى يا أبا سليم ؟

قال : هذا كلام أمي لتشجعها على الزواج منه وتحسم التردد .. سأتحدث معها أمامك .

واقترب من الهاتف ، وتحدث مع أمه عن موضوع كتابة الشقة باسم نبيلة إذا وافقت على ذلك أغلق الهاتف وهو يقول : ستتحدث أمي معها بصورة جدية .

وبعد ساعة اتصلت به أمه مخبرة له أنه إذا كتبت شقة باسمها ستتزوج من عباس ، رفعت راضية سماعة الهاتف ، واتصلت ببيت عباس ، ولم يكن موجودا في البيت فقالت لمارتن : إذا عاد قبل العاشرة ليلا اتصل على بيتي يا عم مارتن .

تركت السماعة وقالت : ذهب لزيارة أمه ، لقد اتصل به مدير دار رعاية المسنين والمرضى .

العاشرة ليلا اتصل بها عباس ، وبعد التحية والسؤال عن أمه قالت : انتظرنا سنمر عليك أنا وعيسى .

لبست ثياب الخروج ، وكذلك عيسى والذي سبقها إلى سيارته ، وأدار ماتورها منتظرا ، ولما ركبت بجواره قالت : امش وتوكل على الله .

واستغرقت المسافة لبيت عباس نصف ساعة ، وأدخلهم الخادم لصالة الاستقبال حيث كان عباس في انتظارهم والترحيب بهم ، وبعد مجاملات تقليدية وشرب الشاي الذي جهزه الخادم أو أخته قالت راضية : كما تذكر يا عباس أنا تغديت معك قبل أيام ، وأخذت موافقتك على نبيلة ، وسرت لبيت عمي والد عيسى ، وحدثتهم بقبولك للزواج من نبيلة ، ومشينا أنا وعمي وعمتي لشقة نبيلة ، وذكرنا لها قبولك للزواج منها ، وتركنا الأمر والتفكير لها ولأولادها .. وشرحت له رغبتها بأن يشتري لها شقة وتكتب باسمها .

وأخذت هي وعيسى يذكران تبريرات هذا الطلب ، فقال عباس بعد صمتهم : لست بخيلا ؛

ولكني أرى هذا الطلب في غير محله .. حتى لو قررنا الانفصال وفشل الزواج فيمكن فعل ذلك عند الطلاق ، أما فعل ذلك مسبقا فأنا لا أراه صوابا يا عيسى .. الأصل في الزواج أن يقوم ليدوم ، فالطلاق وارد لكنه بحكم الاضطرار .. وإذا مت قبلها يا سيدي فهذه الفيلا ستكون من نصيبها إلا إذا أكرمني الله بذرية منها ، فسيكونون شركاء فيها وفي غيرها .

ودار نقاش هادئ بينهم ختمه عباس قائلا : إذا كانت ترفض الزواج مني أو من غيري فلتكن صريحة وشجاعة .. لا يجوز أن تخجل من راضية أو من أمها وأبيها في شأن خطير .

قال عيسى : هذا الشرط كان من أمي لتشجعها على الإقدام .

رد عباس قائلا : لا داعي للإغراءات والحوافز لتقبل بعباس يا أبا سليم .. أرجو يا راضية أن يصلني الجواب نهار الغد .

وودعهم إلى بوابة الفيلا ، وتمنى لهما السلامة ، وعاد لمكتبته وهو يقول : لا تريد الزواج تقولها بصراحة ، أما أنها تريد أن يظهر الرفض من غيرها لتبرر موقفها أمام راضية أو والديها .. فهذا غلط .

واتصل بمراد عبد الله وسأله عن صاحبتهم الدكتورة جيهان نادر .



زواج عباس

عند صلاة الفجر اتصلت راضية بعباس واعتذرت له عن زواجه من نبيلة فقال : لا عليك يا أخية .. مري عليّ بعد مغادرتك من العيادة ؛ لنذهب لرؤية الطبيبة التي حدثتك عنها سابقا ، فلما فارقتموني ليلة أمس تحدثت مع مراد عبد الله ، فاتصل بها فورا ، وأخذ لي موعدا معها في بيت أهلها .

ـ اعذرني يا عباس عن هذا المشوار لظروفي وللموقف الذي نحن فيه .

ـ الزواج قدر .. أيتضايق حموك من ذهابك معي ؟!

ـ إحراج إلى حد ما .

ـ شكرا إلى اللقاء .

ترك الهاتف وقال : سأتصل بيوسف لعله يذهب معي وزوجته .

قبل يوسف بعدما سمع قصة فشل زواجه من نبيلة الذهاب معه لمقابلة الطبيبة جيهان وأسرتها ، ورحب بهم ، وجرى تعارف بينهم ، وقبلت الدكتورة بالاقتران به ، ووافق والداها على موافقتها ، وتحدد بينهم المشي بالزواج حسب عادات أهل المدينة ؛ ولذلك بعدما عاد عباس للبيت ، وتناول العشاء ، اتصلت به راضية تبارك له الزواج ، فقد أخبرها يوسف بما اتفق عليه ، فشكرها عباس على جهدها معه .

وخلال أسبوع واحد جرت مراسيم الزواج الشرعية من كتابة العقد الشرعي بين يدي القاضي في إحدى المحاكم الشرعية المختصة بمثل هذه الأمور ، وتحدد موعد الزفاف ، ومكان إقامة الحفل في صالة تابعة لأحد نوادي الجيش ، وطلبت أمه منه أن يسمح لها بحضور هذه الحفلة ، فتشاور مع مدير الدار ، فوعده الرجل أن يعمل على ترتيب نقلها لحضور الحفلة والعودة بها ، فشكره عباس ودفع له أجر هذه الخدمة .

وفي الموعد المحدد للحفل توافد المدعون من طرف الفريقين ، وجرى الحفل حسب ما خطط

له ، وقدمت فرقة موسيقية تابعة للنادي نشاطا خاصا ، وتناول الجميع المطعومات والمشروبات من المثلجات والعصائر ، وقبل نهاية الحفل قدمت سيارة خاصة تابعة لدار الرعاية بأم عباس ، وحملت على عجلة متحركة إلى قاعة الحفل ، وتقدم منها عباس مرحبا وأخذ أقاربه يسلمون عليها ، ويباركون لها بزواج ابنها البكر، وهي تهز رأسها بالشكر بدون كلام ، ثم فعل ذلك أقارب وأهل العروس ، وجاءت العروس في النهاية ، وسلمت عليها وأخذت يدها مقبلة وداعية لها بالسلامة .

ثم عاد المدعوون لكراسيهم ، وعادت الموسيقى تعزف من جديد ، ولما انتهى الوقت المحدد للاحتفال بدأ الناس بالانصراف رويدا رويدا ، ولما انتهى العروسان من توديع ضيوفهم أخبرتهم الممرضة المرافقة للمريضة عن وفاتها ، وهي تدعو لعباس بالبركة والذرية الصالحة ، فنظر عباس لعروسه باسما ، وكذلك نظرت إليه ، وقالت : عظم الله أجرك يا عباس .

ـ شكر الله سعيك .. رحم الله تعالى أمي ابنة جدي الحاج عزام الرحمة الواسعة .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

تقدم أشقاؤه يعزونه في أمه هدى ويترحمون عليها ، فعانقهم وشكرهم وقال باكيا : هذه لحظة عجيبة من الحياة !

قالت راضية : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }

تمت بحمد لله




قصص وحكايات الهواري
الملك
ابنة الراعي

جمال شاهين

صديق أمي



المكتبة الخاصة



جمال شاهين

ليلة عرس

المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

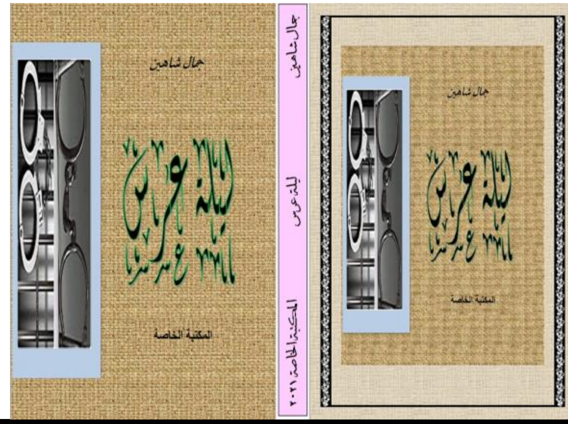
المكـتـبـة الخـاصـة

ليلة عرس

جمال شاهين

النشر الاول ١٩٩٩ / النشر الثاني ٢٠١٨

النشر الثالث ٢٠٢١



يزعمون لكم بحب الحرية الحرية الشخصية حرية الاعتقاد حرية الرأي كل الحريات

ولما يعود المرء المسلم لدينه ولباسه وإسلامه ؛ فإن ذلك في نظرهم وجهلهم تخلف ورجعية وجهل

الحق أنهم لا يعرفون الاسلام أبدا .

فوز

جمال شاهين

رفع معتصم الغطاء عن جسده النائم على أثر سماعه صوت رنين جرس باب الشقة في تلك الليلة الشديدة البرودة ، مع ما يصاحبها من ظلام دامس ومطر غزير ، فنظر إلى زوجته النائمة بجواره فوجدها هي الأخرى قد استيقظت على رنين الجرس ، فهمس كأنه حالم : هل هو جرس الباب ؟!

فقالت والدهشة مرتسمة على وجهها من السؤال: بالتأكيد أنه جرس الباب .. فجرس الهاتف رنينه مختلف.

فقال وهو يرفع الغطاء كله عن جسده ويستوي جالسا : حق ذلك! .. لقد غفلت عن اختلاف النغمتين ..وها هو يرن مرة أخرى !

وتمطى في الغرفة قليلا ، وأدخل رأسه في طاقية صوفية وقال: سأرى .. من الطارق ؟! بل من هذا المزعج في مثل هذه الليلة الباردة ؟!.

وغادر الغرفة متجها إلى باب الشقة ، وتبعته زوجته وهي في غاية القلق والتوتر ، بل كانت ترتجف خوفا ، فاقترب معتصم من باب الشقة الرئيسي ، وكان يتحرك بخفة حتى لا يسمح لقدميه بإخراج أيّ صوت يسمعه من يطرق الباب ، نظر معتصم من عدسة الباب فشاهد ثلاثة رجال يرتدون ملابس أنيقة ، وتقع هذه الشقة المطروقة ليلا في الطابق الثالث من عمارة مكونة من ستة طوابق في شارع البحر الأزرق ، في حي الزهرة وهو من الأحياء الحديثة في العاصمة .

همس معتصم بصوت فيه قلق ورجة : من بالباب ؟!

فقال أحد الرجال : افتح ـ يا معتصم ـ نحن رجال أمن .

فهمس معتصم لنفسه : أمن ..أمن! .. ويعرفون اسمي ! والتفت حوله فوجد زوجته وراءه ، فهمس قائلا وهو يضع سبابته على فمه: عودي لغرفتك .. إنهم رجال أمن ..لابد أنهم يريدون مهديا .

ورفع صوته مخاطبا رجال الأمن مظهرا الدهشة : أمن!.. شرطة ! .. وماذا تريدون منا ؟!

فقال أحدهم بصوت هادئ أو بدا طبيعيا لمعتصم: افتح .. يا معتصم ! .. نحن نريد أخاك مهديا.. ولدينا معلومات مؤكدة أنه يختبئ هنا .. عندك في بيتك يا سيد معتصم !.. عجل افتح قبل أن نخلع الباب.

فرد عليهم معتصم وقد عادت إليه شجاعته وهدوءه : انتظروا قليلا ريثما أخبر زوجتي ، ثم أفتح لكم .

ولم ينتظر الجواب فهرع مسرعا إلى الغرفة التي يرقد فيها مهدي ، فوجده هو الآخر مستيقظا وقد ارتدى ثيابه ، فقال مهدي : رجال المخابرات يا معتصم ؟

فهز معتصم رأسه بالإيجاب وقال : أجل ، ما أنت فاعل .. يا أخي ؟

قال مهدي وقد حاول أن يظهر شجاعا وهادئا أمام أخيه وزوجته: سأهرب .. سأهرب من نافذة الحمام .. وبواسطة مواسير المياه سأهبط على حديقة البناية .. ولسوف أتصل بك وأطمئنك.. وداعا.

ودخل الحمام ومن شباكه الصغير تسلل إلى الشارع ، واختفى في ظلمة الليل الحالك ، وخلال هروب مهدي عن طريق مواسير المياه ، كانت زوجة معتصم قد أكملت ارتداء جلبابها السميك الفضفاض ، وتهيأت لدخول رجال الأمن البيت، وفتح معتصم لهم الباب معتذرا لهم عن التأخير قليلا من الوقت ، واستقبلهم خير استقبال ، فقدم رئيسهم له بطاقته الرسمية وهو يقول متظاهرا بالأسف : نأسف للإزعاج ؛ ولكن لابد من القيام بواجبنا.. فأخوك مطلوب القبض عليه لإثارته الفتن والشغب يوم الاحتـفال الكبير في الجامعة ، ولفعلهم هذا الشغب أيضا أمام الحاكم ، وكذلك للإهانة العظمى التي لحقت بالحاكم في ذلك اليوم .. ولنا أكثر من ثلاثة أشهر نبحث عنه ونطارده ، وقد علمنا أخيرا أنه يختبئ عندك في بيتك .

وكان معتصم يسمع هذا الكلام وتبريرات مداهمة الشقة ـ وقد تناول بطاقة الضابط وتأملها ـ فقرأ بعينيه اسم الضابط عليها النقيب ساري .. من مباحث أمن وحـماية الدولة ، فلما أنـهى

الضابط كلامه ، وموضحا سبب هذا المجيء ، أعاد له معتصم البطاقة التعريفية ، وهو يبتسم ونادى زوجته : تعالي يا أم محمود !.

ولما أقبلت الزوجة نحو زوجها ، وقد ألقت السلام على القوم بصوت هامس ، قال معتصم : أيها السادة البيت تحت تصرفكم ، أرجو أن تفتشوا البيت كل البيت لتطمئن قلوبكم .

فنظر الرجال بعضهم إلى بعض ، وقال رئيسهم النقيب ساري وهو يبحلق في عيون معتصم : هل غادر مهدي المكان ؟!

فرد معتصم بثبات : قوموا بواجبكم كما تقولون .

فقال أحد مساعدي النقيب : فهل تعتقد أنك بكلامك هذا تصرفنا عن تفتيش المسكن ؟

فرد معتصم وما زالت الابتسامة ترتسم على محياه : فتشوا .. أيها السادة !

فأشار لهم رئيسهم بالتفتيش ، وكانت زوج معتصم تلوذ به ، وهو يهز رأسه باستمرار ، ويحد النظر في الضابط المسئول ، وتحرك الرجلان يبحثان في الغرف ، وينظران في خزانات الثياب ، وبحثوا تحت الاسرة ، وفي زوايا البيت المختلفة والحمامات ، وتم هذا كله في دقائق معدودات ، ولما انتهى التفتيش السريع تقدم أحدهم قائلا لسيده وهو في حيرة : لا يوجد أحد في البيت سوانا يا سيدي !

ففرك الضابط النقيب أنفه بشدة ، والتوتر والضيق ظاهران عليه ، وقال مخاطبا لمعتصم : ألم يكن مهدي هنا ؟!

فقال معتصم بهدوء : هذه مهمتك يا سيدي النقيب !.. يمكن للأخ أن يزور أخاه!

قال الضابط القائد وهو ينظر في عيني مهدي بغضب خفيف: أرجو أن أراك في الصباح في مركز الشرطة التابع لهذه المنطقة .. مركز شرطة حي الزهرة يا أبا محمود .

فرد معتصم باسما وببساطة قد تكون مصطنعة : أنا تحت أمرك يا سيدي ! أي ساعة تحب أن يكون ذلك ؟

قال رجل الأمن وكأنه حزين لخيبته في اعتقال مهدي بعد كل هذه الشهور من التقصي

والتحري : الحادية عشرة صباحا إذا تكرمت علينا !

وغادر الرجال الثلاثة الشقة ، وهم في دهشة وحيرة من فشلهم في القبض على الطالب النشيط والناشط السياسي في الجامعة "مهدي مروان "، فلقد أكد لهم المخبرون أن الشاب الطالب في كلية الهندسة يختبئ في شقة أخيه "معتصم مروان" الكائنة في شارع البحر الأزرق .



لما اختفى صوت أقدام رجال الأمن السري أغلق معتصم باب الشقة بالمفتاح من جديد ، والتفت إلى زوجته التي خلعت الخمار عن رأسها وقال وهو يتنهد بعمق: آه! .. لقد كانت ساعة رهيبة !! .. الحمد لله على كل حال يا أم محمود !

تمتمت المرأة بالشكر للرحمن عزّ وجل، وبدأت تعود لها نضارة وجهها وحيويتها وقالت: فعلا كانت ساعة رهيبة .. يا الله! .. الحمد لله .. الحمد لله على عدم حضور الأولاد هذا الموقف! .. الحمد لله حمدا كثيرا .

فقال معتصم وهو يمشي نحو غرفة النوم : الحمد لله .. ربنا لطف بنا .. لو كان محمود هنا وسأله رجال الشرطة عن عمه مهدي ماذا سيرد؟! أو حتى أمينة الصغيرة .. الموقف رهيب !! من حسن حظنا وحظهم أنهم لم يكونوا هنا الليلة .. مرة أخرى وأخرى الشكر لرب العباد .. الرعب والخوف قاتلان !!

ـ مهدي ؟! أتظنه نجا ؟!

ـ مهدي رياضي ، لا خوف عليه من تسلق المواسير ، لو حدث له شيء أثناء الهبوط لشعرنا به

ـ أرجو له السلامة .

ـ فكرت أن أنزل خلف العمارة لأطمئن عليه عندما ذهب هؤلاء القوم ؛

ولكني قلت لابد أنهم سيبقون رجالهم للمراقبة .. فالمعلومات لديهم دقيقة .. وهم يعرفوننا جيدا .

ـ لابد أن رجالهم بقوا ، .. ربنا يستر.

ـ هذه ليست أول مرة يتعرض فيها مهدي للمطاردة والاعتقال .. ولكنهم هذه المرة أساءوا لرجال الدولة ولرأس الدولة إساءة كبيرة .. هداهم الله .. سيقبض عليهم آجلا أم عاجلا .. وهو هذه المرة مصرٌ على عدم تسليم نفسه بعكس المرات السابقة كان يسلم لهم نفسه خلال أيام معدودات .

أخذت الزوجة تدعو لوالدة زوجها بالصبر والثبات ثم قالت : كان الله في عون الوالدة أم محمد .

تبسم معتصم وهو يتذكر اعتقالات سابقة لمهدي وهزّ رأسه وقال : لا عليك يا أم محمود ! ربما أنت أول مرة ترين رجال الأمن يأتون إلينا في هذا البيت ، في بيت الوالد عرفنا ذلك كثيرا أمي تعودت على شغب مهدي ومشاكله مع الأمن السري والاعتقال والتوقيف .



أما مهدي المـطارد من قبل رجال الأمن السري ، فقد هبط عن طريق مواسير المياه على أرض الحديقة الخلفية للعمارة ، وتحرك بخفة وهدوء بين الأشجار ، ثم غادر العمارة من بابـها الخلفي ، ولما أصبح على رصيف الشارع حمد الله على نجاته منهم ، وما زالت الرياح الباردة تعصف عصفا ، والأمطار تتساقط بغزارة وقوة فهمس محدثا نفسه : أين المفر .. أيها الفارس؟ .. إلى صديقي "نمر حميد" أرجو أن أجده في شقته .

وفي خطوات سريعة اخترق مهدي مروان عدة شوارع ، وفجأة وهو يهم بقطع أحد الشوارع وقفت أمامه سيارة الشرطة الليلة، فارتبك لحظات ، ثم تمالك أعصابه المتوترة عندما حدثه قائد السيارة : أين أيها الشاب! في هذا البرد والمطر والليل ؟!

فقال مهدي ، وكان قد أخفى نصف وجهه بغطاء رأسه موهما لهم أنه يفعل ذلك من شدة البرد : لقد أوصلت أخي للمستشفى القريب من هنا ، لقد أصابه مـغص حاد ، فنقلته إلى المستشفى بصحبة أمنا ..وتركت أمي عنده وأنا عائد للبيت ، فأنا أسكن قريبا من هنا في شارع الشريعة .

وتمعن السائق ومن معه في هيئة مهدي قليلا ، ثم انطلقت السيارة بـهم مسرعة ، فأسرع الشاب في اجتياز الشارع ، ثم دخل أحد الأزقة وهو

يقول : لقد نجوت منهم مرة أخرى فلله الحمد يا الله .

ومن شارع لشارع وصل بطل قصتنا الشاب المطارد من قبل مباحث أمن الدولة إلى حي يقطن فيه صاحبه "نـمر حميد " ، ولما دخل العمارة ليصعد إلى شقته ارتفع صوت آذان الـفجر معلنا عن بداية يوم جديد .. وعندما وقف مهدي أمام شقة نـمر يطرق الباب ، وقبل أن يُفتح الباب هبط رجل من الطوابق العليا .. رجل تجاوز الستين عاما ، ولما وجد مهديا أمامه حياه وقال بدون مقدمات : لقد حضر رجال الشرطة مساء أمس وقبضوا على ساكن هذه الشقة يا أخ ! .. لعلك صديقه أو قريبه.

رد مهدي باضطراب : قبضوا عليه!.. نعم ..نعم ..أنا صديقه ، كيف قبضوا عليه ؟ ولماذا ؟!

فقال الشيخ : ما اسمك يا بني ؟

فأجاب مهدي الرجل الشيخ : اسمي زكي يا سيدي الشيخ !.. أخبرني ما الذي جرى لصديقي ؟

فقال الشيخ : ليلة أمس عند صلاة العشاء ، وأنا صاعد هذا الدرج ، عائد من الجامع القريب كان رجال الشرطة يقبضون على ساكن هذه الشقة ـ وأشار بإصبعه السبابة إلى بابـها ـ وسمعت بعض سكان العمارة يتهامسون ويدّعون أنه رجل خطير ، مطلوب بعدة جرائم ، فمنهم مَن يقول أنه محتال عالمي ، ومنهم مَن يقول أنه مهرب عالمي شديد الخطر ، والله أعلم بالحق أيها السيد ... ! يا سيد زكي ما اسمك قريبك أو صديقك ؟؟

فقال مهدي من غير تردد : اسمه نمر ، فهو الآن بين يدي الشرطة .. أنا في الحقيقة ـ أيها الشيخ المحترم ـ قادم من سفر ، فقلت أمكث عند صاحبي بضع ليالي أبحث خلالها عن شقة أو منزل في أحد الأحياء ، أشكرك يا عم .

فرد الرجل قائلا : عمك أبو أحمد ! .. أسكن في الدور الرابع الشقة الأولى جهة اليمين يا ابني يا زكي !.

فقال مهدي: شكرا لك يا عم أبا احمد !..سأنتظر قليلا هنا ، ثم أذهب باحثا عن فندق أستأجر فيه سريرا .

فقال الرجل : هيا معي إلى المسجد أيها الغريب ، نصلي الصبح سوية ، وتظل في المسجد حتى تشرق الشمس ، ثم تبحث بعد ذلك عن سرير في أحد الفنادق .

رد عليه مهدي : سوف أستريح على هذا الدرج ثوان أيها الشيخ الفاضل ! ثم أتبعك يا عمي أبا أحمد !.

وتابع أبو أحمد نزوله درج العمارة متوجها للمسجد لصلاة الفجر جماعة ، بعد هذه الثرثرة الطويلة ، فلما خف سماع صوت نعل حذاء أبي أحمد قرع مهدي باب الشقة مرة أخرى بطريقة

خاصة ، ففتح له الباب ، وتعانق الصديقان مهدي ونمر ، وقال الأول : لـقد دهشت عندما سمعت هذا الشيخ يتحدث عن اعتقالك ، وأنهم قبضوا عليك .. لقد اندهشت حقا ، فلقد سمعت حركتك أمام الباب عندما طرقت الباب المرة الأولى .

فقال نمر : نعم ، عندما طرقت الباب كنت خارجا من الحمام ، فقد توضأت للصلاة ، فاقتربت من الباب ، وقبل أن أنظر في عدسته سمعت صوتيكما .. وما يقول عنا العم أبو أحمد ؟

قال مهدي : الشرطة .. ما قصة الشرطة ؟!

ـ هو يقول الصدق ، لقد داهمت الشرطة البيت أمس ، وأمسكوا بصاحبنا "علي سالم" معتقدين أنه أنا ، فماذا يتحدث عنا جيراننا ؟

فجلس مهدي على مقعد واسع وذهنه مشغول بكثير من الأفكار ، وربما الأحلام ، وقال مجيبا : إنـهم يقولون عنك مهرب دولي ، وبعضهم يقول إنك محتال عالمي ، وأنا جئت إليك في آخر الليل هاربا من شقة أخي معتصم ، فلقد داهمها الليلة رجال المباحث السرية ، فلقد اكتشفوا مكان اختفائي ، فأرى أنّ الأمر بدأ يضيق علينا ، سوف أستأجر بيتا في حي وضيع مكتظ بالناس ، أما الآن فعلينا بالصلاة ، ثم الهرب قبل أن يكتشف رجال الشرطة أنهم قبضوا على رجل بالخطأ .. فلا أظن يا صاحبي أنّ هناك خطرا على الأخ علي .

فقال نـمر : أعتقد هذا ؛ ولكن المحققين قد يكون لهم قول آخر ، ولا يرون رأينا ، وأنا أيضا سوف أغير سكني اليوم .. يا صديقي ! فهؤلاء القوم مصممون بالقبض على زعماء الطلاب وقادتهم في ذلك اليوم الخالد في تاريخ الجامعة ، كيف يقف الطلبة أمام حاكمهم المسلم يطالبونه بإلغاء القوانين الوضعية ، وترك التبعية لدول الكفر ؟! كيف يكون هذا ؟!

قال مهدي معقبا : قضيتنا تحتاج إلى تضحيات جسام ، وصبر جبابرة ، فإيقاظ الناس من سباتهم أمر عظيم وشاق .

ونهض مهدي واتجه نحو الحمام للاستنجاء والوضوء ، وبعدما قاما بإقامة الصلاة جماعة في

داخل الشقة قام نمر بإعداد الشاي ، وأحضر معه بعض قطع البسكويت ، وملأ الكوبين ووضع أحدهما أمام مهدي وهو يقول : اشرب يا أخي ! .. محنة ولسوف تزول وتندثر بإذن الله تعالى .. لا تهتم .. والصبر ممدوح .

قال مهدي مشجعا لصديقه في الحزب والجامعة : لست خائفا من الحبس والعقاب ..لابد من التضحية والصبر .. ونحن لم نفعل حراما ومنكرا .. وهذه المطالب والشعارات منذ نشأت الحركة الدينية في بلادنا وبلاد المسلمين ونحن ننشرها ونعلنها على الملأ يا أخي نمر .. ليست بدعا من الحديث .. وذاك المنشور الذي وزع يوم حفل التخرج وزعنا مثله أو شبيها له كثيرا في الماضي .. وهذه اليافطات التي أزعجت رجال الأمن .. لا تكاد تخرج مظاهرة حزبية إلا وقد رفعتها أو رفعت مثلها .. أم القضية أنها رفعت أمام الحاكم فأصبحت إهانة للحاكم .. عجيب أمر السلطة اليوم في بلاد المسلمين ! .. ألا تريد أن تصحو السلطة من نومها في العالم الإسلامي .. وتحكم البلاد بشرع الله ودين الله .. الناس يرغبون بدينهم وإسلامهم .. لماذا نحكم بغير دين الله ؟!

قال نمر حميد : اهدأ أيها الأخ الصديق .. لم نأت بشيء جديد .. ولكنهم اغتاظوا لأنهم طلبوا من قادة الطلاب الهدوء وعدم رفع الشعارات السياسية وخاصة الإسلامية أمام شخص الحاكم .. وبعض الشعارات المكتوبة على اليافطات كانت حقيقة حادة ومزعجة ، وفيها اتهام جريء بالعمالة للغرب والصليبية العالمية والماسونية ..

ـ كان لابد أن يصل لحكام المسلمين اليوم " أن لا أسرار اليوم " .. إذا كانت صحف بلادنا لا تتحدث عنهم بصراحة فصحافة الغرب وإعلام الغرب يتحدثون بصراحة عن تبعيتهم لهم .. لماذا الخداع والتمويه على الأمة ؟! لماذا ؟! .. عقيدة البراء والولاء يجب أن تكون واضحة لا لبس فيها .. والتعاون والاستفادة من مدنيتهم يجب أن تكون واضحة أيضا .. وعلى الأمة أن تعرف الثمن المدفوع للحصول على مدنيتهم وحضارتهم .. هذا إذا كان لديهم حضارة .

كان هذا الحديث قائما وهم يشربون الشاي ويأكلون قطع البسكويت ، ولما لم يتكلم نمر

بشيء قال مهدي : تكلمنا كثيرا بمثل هذا الكلام .. والآن قل لي كيف قبض على الصديق والزميل علي سالم .. ولم يقبض عليك أنت ؟!

ضحك نمر ضحكة قصيرة وقال : القدر!.. وأيضا تضحية من علي ومغامرة !! .. صلينا المغرب معا في مسجد الصديق أبي بكر .. المسجد القريب من هنا .. وكان عندي صداع شديد .. وقلت له ونحن في المسجد سأمرّ على الدكتور حاتم صديقنا ، فعيادته كما تعلم في نفس شارع المسجد ، واتفقنا على أن نلتقي في البيت ـ هذا ـ للعشاء معا بعد صلاة العشاء ، وهو كما تعلم يحمل مفتاح للشقة منذ تصاحبنا .. وكثيرا ما نام عندي .

وتابع نمر حميد الحديث فقال : لم أجد الدكتور في العيادة ، فقد انصرف لمعالجة مريض في بيته ، فجلست مع الممرض حلمي ، وتحدثت معه بالهاتف من العيادة ؛ لأن هاتف بيت المريض معروف لديهم ، فالدكتور يتردد عليه باستمرار .. فهو زبون دائم كما يقول حلمي .. فأخبرني أنه لن يتأخر ، وطلب مني الانتظار في العيادة .. وهو يحتاجني في موضوع

ابتسم مهدي وهمس : موضوع الزواج ؟!

ـ نعم ، فهو يرغب بالزواج مرة أخرى ، فامرأته مريضة للغاية كما تعلم ، وهي قد رضخت لرغبته بالزواج عليها .. كأنها خشيت الطلاق لما رأت إصراره على الزواج .

وبعد هنيهة عاد يقول: دخل العشاء ولم يحضر الطبيب ، فقد تأخر واضطررت أن أصلي في مصلى داخل العمارة الكبيرة .. ولما حضر تحدثنا في العلاج والزواج .. وكنت قد اتصلت بالبيت لأتحدث مع علي سالم ، وأعتذر له عن التأخير الطارئ .. فلم يرد البيت .. وقبل أن أغادر العيادة تحدث معي علي سالم مخبرا لي أنه معتقل بدلا مني ، وهو موجود لدى قسم الشرطة .. فهم معتقدون أنه أنا ، وهو لزم الصمت لأدبر أمري.. فاعتذرت للدكتور وعدت للبيت متسللا .. أعد نفسي للهرب والاختفاء.

ـ ألم يعرفوه ؟! أيعقل أن يخطئوا ؟!

ـ الذين قاموا بعملية الاعتقال الشرطة ، وليسوا البوليس السري .

علي سالم

بعد أيام من محاولة اعتقال مهدي ونمر خرج السيد علي سالم من دائرة التحقيق الأمني ، ورغم اكتشاف رجال التحقيق أن المقبوض عليه لم يكن نمر حميد حبسوه عندهم بضعة أيام على ذمة التحقيق ، .. لم يعترفوا بخطئهم ، ولولا واسطة عم الشاب الموظف الكبير في أجهزة الدولة لربما ألصقت به أي تهمة، رغم أنهم لم يجدوا في ملفه في الجامعة ، وقبل الجامعة أي نشاط حزبي وسياسي له .

وأعادوا الكرة في اليوم التالي على بيت نمر حميد ولكنهم لم يجدوه ، وأثناء مراقبتهم للمنزل قبضوا على رجال قد حضروا للشقة بسيارة نقل ، وبينما هم ينقلون محتويات البيت أوقفوهم ، ثم تبين لهم أن هؤلاء باعة يشترون الأثاث القديم والمستعمل ولا علاقة لهم بنمر حميد ، وإنما تسلموا مفتاح الشقة من وكيل صاحب العمارة الذي استلم المفتاح من نمر حميد ، وكلفه ببيع أثاث المنزل لتكملة حساب أجرة الشقة .

استمر مهدي ونمر يتابعان حكاية اعتقال علي سالم ، وهما في غاية الدهشة لاستمرار توقيفه لعلمهما الأكيد بعدم وجود نشاط سياسي للسيد علي ، فكان مهدي يقول لنمر : هذه الحكومات وأجهزة أمنها أعتقد أنها ترى كل من صاحب حزبيا فهو حزبي .. على هذا الأساس ـ والله أعلم ـ يطيلون حبس الصديق علي سالم .

تنهد نمر ثم أغمض عينيه وهو يقول : وهم يعلمون أن لنا زملاء من أحزاب أخرى يا أخي الفاضل .. أليس عماد ماركسيا ؟! وغيره كثير .. هم يقصدون الإذلال والتحقير .

ولما علما بالإفراج عنه بعد أيام ، لم يستطيعا زيارته في بيت والده إنما تحدثا معه بالهاتف وهنئاه على سلامته والنجاة من براثن رجال المكتب الأمني والسياسي، واتفقا على لقاء خارج البيت لسماع قصة التحقيق معه .

ولما جرت إحدى مباريات كرة القدم ذات الشعبية الكثيرة الجماهير التقى الشبان الثلاثة في مدرج المباراة ، وانشغل المشجعون بالصياح والصفير والتحدي ، ودارت بينهم بعض

التعليقات والمازحات حول الرياضة والجماهير اللاهية بمثل هذه المنافسات .. ابتعد الشباب الثلاثة إلى مكان يخف فيه الحضور والصياح .. ثم أخذ علي يحدثهم بقصة اعتقاله والتحقيق معه فقال باسما : تركني نمر ذاهبا للعيادة ، ومكثت في المسجد لصلاة العشاء جماعة .. وبعد الصلاة عدت للشقة منتظرا عودة نمر من العيادة ـ عيادة الدكتور حاتم ـ لتناول الطعام كما اتفقنا ، وكنت قدرت أن نمرا تعالج بين الصلاتين وسيصلي العشاء ويأتي سريعا .. فدخلت المطبخ لتجهيز الشاي ريثما يأتي الأستاذ .. وقبل أن أشعل النار وقد ملأت الإبريق بالماء ، وكنت أترنم ببعض أبيات الشعر التي حفظتها حديثا .. رن جرس الباب وأنا مستغرب لرنينه لعلمي بأن نمرا صاحب البيت ومعه المفتاح .. فخطر في بالي أنه أحد الجيران أو الزملاء .. فتركت الإبريق لأفتح للطارق ؛ فإذا هم رجال شرطة بلباسهم الرسمي .. دخلوا الشقة وطلبوا مصاحبتهم لقسم البوليس .. حاولت الرفض والاعتراض ولكنهم أصموا آذانهم .. وقام أحدهم بالبحث داخل الشقة عن أشخاص غيري ، ثم أغلقت الباب وسرت معهم ، وقد كان بعض سكان العمارة أو أناس من الشارع التموا على سيارة الشرطة ، ودفعوني في مقعد السيارة الخلفي .. وأنا أهزّ رأسي بسخرية .. أنا أعرف أنهم يقصدونك يا أخ نمر .. فقلت لنفسي : اصمت لنرى نهاية هذه السخافة .

ولزم الشابان الصمت فتابع علي الحديث : شيء مضحك !.. قلت لهم وأنا في السيارة يا ناس أنا ضيف لست صاحب الشقة ..فيضحكون ويسخرون ويقولون عندما تجلس أمام المحقق قل له ما تريد لعله يصدقك .. وصلنا للقسم ومركز الشرطة .. ساقوني إلى إحدى غرف أحد الضباط كما علمت بعد مكث يسير وسمعت أحدهم يقول : امكث هنا حتى يحضر سليم بيك .

ولما طال انتظار سليم بك استأذنت أحد الضباط بالحديث بالهاتف وأنا متوقع الرفض حقيقة ولكنه نظر إليّ ثوان وقال : تكلم واختصر . وأخبرني بأني مطلوب لأجهزة المخابرات المدنية ، فتبسمت وهززت رأسي ولم أعقب على كلامه ، وأخذت السماعة وتحدثت معك كما تذكر ،

وأنا أعرف مليون في المائة أنه ليس أنا المطلوب .. المطلوب الحقيقي أنت يا نمر ..

عند منتصف الليل حضر الضابط سليم وحياني ورحب بحضرتي وأخبرني بأنني سأرحل لدائرة التحقيق في مخابرات المدينة ، فحاولت أن أبين له هو الآخر أنني مقبوض عليّ بالخطأ فقطع عليّ الحديث قائلا : أن تفاهمنا سيكون هناك .. فعدت للصمت ثانية ..

ثم حضر شرطيان وساقاني إلى سيارة جيب عسكرية ، وانتقلنا لدائرة الأمن السري للتحقيق ولكنهم لم يحققوا معي تلك الليلة ، وقد وعدني حضرة الضابط سليم بالتحقيق في الصباح .. وهكذا نمنا أول ليلة عندهم .

وقبل الظهر في اليوم التالي أدخلوني لمكتب السيد سليم فرحب بي ثم قال : أفطرت ؟ فأشرت برأسي نعم .. فقال : هل شربت شيئا ؟ فذكرت له أنني شربت كوبا من الشاي .. فعاد يقول لي : أتشرب قهوة ؟ .. أنتم الشباب تحبون شرب القهوة بنهم .

لزمت الصمت ، فتركني جالسا في الغرفة الصغيرة وغاب بضعة دقائق ، وعاد ومعه موظف يحمل دفترا ، وقبل الحديث والتحقيق دخل أحدهم بفنجان القهوة ووضعه أمامي فقال لي الضابط سليم : تفضل اشرب يا أخ نمر.

فقلت وأنا أنظر في وجهه باسما : أنا لست نمرا .

ضحك الضابط وقال متهكما : جميل !! أنت نمر في ساحات الجامعة .. أما هنا فهل أصبحت هرة ؟ !!

فقلت بامتعاض وضيق لغبائهم وعجلتهم : لست نمرا ولا هرة يا حضرة الضابط أنا ...!

فقال ساخرا أيضا : لست نمرا ولا هرة فما تكون إذن ؟!

همست : علي !!

فتجهم وجهه وقال : علي !! .. ما معنى علي ؟!

فقلت : اسمي علي سالم .

وقد هيئت بطاقتي الشخصية ووضعتها أمامه على المكتب ، فنهض قائما ـ وقمت مثله ـ

يتفرس فيّ والغضب يرتسم على وجه وأخذ الهوية وهو يقول : ماذا تعني ؟!

ـ أعني أن رجالك قبضوا عليّ أنا ولم يقبضوا على نمر .

دقق الضابط في الهوية ثم ضغط على زر كهربائي ، ولما دخل شرطي قال له صائحا : أين نبيل ناظم ؟! فليحضر عاجلا .

ورجع فجلس وهو يقول : أنت لست نمرا ولا هرة .. أنت علي سالم .. الهوية ليست مزورة .. كيف حصل هذا ؟!

ـ كنت في شقة نمر عندما جاءوا للقبض عليه .. ولما قلت لهم إنني لست نمرا ظنوا أنني أسخر منهم ..

ـ وأنت تظاهرت بأنك نمر ليهرب صديقك ؟!

ـ لقد فتشوا الشقة يا سيدي .. لم يكن في الشقة إلا أنا .. ونحن زملاء في الجامعة ، ولدي مفتاح شقته للصداقة التي بيننا .

وبعد تحقيق حول ملابسات هذا الخطأ لم يفرجوا عني ، وأخذوا يتحرون عني في الجامعة ، وهل أنا حزبي أم لا .. ومع خطأهم قضيت عندهم عشرة أيام حتى توسط لي قريب من أقارب الوالد فأعتقوني.. طبعا سألوني عنكم ، وأدليت بما يعرفونه عنكم .. وأنا لا أعرف أكثر من ذلك .. إنكما شابان تنتميان للحزب الإسلامي الذي يدعو لعودة حكم الإسلام في الأرض .. وتبرأت أمامهم من مشاركتي في الاحتفال الصاخب ولا أدري هل صدقوني أم لا ؟ .. والضابط سليم بعد أن اكتشف الخطأ الذي وقع به رجاله لم أره ثانية .. ونقلت لقسم الأمن الذي اعتقلني ، وبعد إجراءات إدارية خرجت إليكم وأنا أحس أنهم معي .. أمامي وخلفي .

قال المهندس مهدي : شعور سوف يفارقك بعد حين .. فنحن لنا سنوات ونحن تحت العين .. الحمد لله على السلامة يا صديقنا الفاضل .. نحن قد تعودنا على الالتقاء بهم ..

فقال نمر: لقد أزعجني القبض عليك يا صديقي .. وأشكر لك تضحيتك .. لولا اتصالك تلك الأمسية لربما صادوني .. لأنه قد لا يخطر في بالي أنك معتقل سأظن أنك انصرفت لأمر

طارئ .. ومع ذلك اعلم أني قضيت ليلة اعتقالك الأولى في البيت في الشقة .. لابد يا أخي الكريم من التضحيات والصبر حتى يقضى الله تعالى أمرا كان مفعولا .

قال علي سالم : كان الله في عونكم .. أنا من عشرة أيام كرهتهم ، وكرهت حياتهم .. وعجبت لصبركم على الاعتقال والتحقيق .

تبسم مهدي وقال : تعودنا على اللقاء بهم .. وتحمل آذاهم .. والدين يحتاج للتضحيات والصبر كما قال نمر ..

قال نمر : ألم يصبر بلال وعمار يا أخ علي ؟!

قال علي : أتمنى لكم تحقيق أحلامكم !

قال مهدي : هذا ليس حلمنا وحدنا ؛ بل حلم الأمة .. ألا تشتهي أن يكون حكم الله ﷻ في الأرض ؟!

ضحك علي وقال : كيف لا أشتهي ؟!



في المدينة الكبيرة مصرف معروف ومشهور للناس ، مديره رجل مال وأعمال ذو غنىً واضح للعيان ، هو الاقتصادي الدكتور "سامي سبل نصار " ، يعتبر هذا الرجل في بلدنا رجل أعمال ناجح ، هذا الرجل الكهل لقد تيسرت له الدراسة في إحدى جامعات أمريكا ، فعندما أنهى دراسته الثانوية في قطره العزيز التحق بجامعة أمريكية لدراسة الاقتصاد والتجارة والإدارة ، وقضى من سنوات عمره هناك عشرين عاما ما بين دراسة وعمل ، ولما عاد الرجل لوطنه بكل الخبرة التي يحملها عمل في إحدى المؤسسات المالية الكبرى بضع سنين ، ثم أنشأ مصرفا مع ثلة من الأصدقاء ، وأصبح مديرا له ، فهو يعتبر رجلا ثريا من أثرياء المدينة ، وكذلك يعتبر رجل اقتصاد دولي ، له أهميته في بلده ، وهناك مَن يعده خبيرا عالميا ، فهو اقتصادي أمريكي ، فقد تشرب أيضا مع الاقتصاد أفكار الغرب الأمريكي وثقافة الغرب الأمريكي والأوروبي جميعا ، فهو لا يهمه الدين ، ولا يسأل عن الحلال أم الحرام ما دام الشيء جائزا في القوانين المعمول بها في البلد ، مع أن هذا الرجل في شهادة المواليد التي حصل عليها من دائرة إحصاء وتسجيل النفوس مسلم من أبوين مسلمين .

تزوج سامي سبل هذا فتاة أمريكية جذورها عربية ، قد هاجر أهلها قديما إلى أمريكا ، التقى بها أثناء الدراسة في الجامعة ، وحدث بينهما انسجام ، ولما حصل على الشهادة الجامعية الأولى { البكالوريوس } تزوجها ، ووهبه الخالق الوهاب منها ثلاثة أنفس ، الفتاة الكبرى بكره الآنسة سميرة ، وهي أثناء أحداث هذه القصة تدرس الطب في أمريكا ، فبعد أن أتمت دراستها الثانوية من مدرسة أهلية خاصة ذات مواصفات عالية ، سافرت لتلك البلاد ، وهي الآن تعيش في كنف أخوالها ، وأما الفتاة الثانية فهي الآنسة فوز ، التي تصغر أختها بسنتين ، وقد التحقت في جامعة قطرية ، تتعلم إدارة الأعمال ، وقد أنهت سنتها الثالثة ، أما النفس الثالثة، فهو فريد الابن الأصغر لهذه العائلة ، وهو يتعلم في كلية الشرطة ؛ ليكون ضابطا في المستقبل ، فسامي سبل يرى نفسه بأنه ابن الغرب وابن الثقافة والحضارة الأمريكية وربيب

العلمانية ، من أجل ذلك لم يكن سامي نصار يمارس الشعائر الإسلامية التقليدية من صلاة أو صوم أو حتى الاحتفاء بالأعياد الإسلامية ، فهذه الرموز العظيمة في الإسلام لم يكن لها في حياته شأن أو أدنى اهتمام ، ونفس المعاني والأفكار موجودة في حياة زوجته "شادية"، فهذه الأسرة منذ سنة مضت كانت تمر بها عاصفة ، ويمكننا أن نقول إعصار ، فهم في حالة انزعاج وقلق وتوتر وخوف من المجهول ، والعجيب أن سبب هذا كله هو دخول نور الإيمان والإسلام إلى هذه الأسرة .

فإن الابنة العزيزة "فوز سامي" تركت التقليد الأعمى للغرب ، وتابت إلى الله ، فالطالبة التي كانت ترتدي أجمل الثياب الفاضحة وأغلاها سعرا ، والتي كانت تتابع صرعات الموضة من لبس وقصات وتصفيف الشعر وزينة مثيرة وتبرج .. من لبس الثياب القصيرة المثيرة للشهوات والأغراء ، والتي كانت تقضي جل أوقاتها في اللهو والمرح البعيد عن لهو ومرح التعاليم الإسلامية .. لقد كانت فوز تختلط بالشباب في الأندية والمقاهي المختلطة ، وتمزح مع الشباب الأجنبي من غير حياء ولا رادع من دين أو عادات وتقاليد ..وكذلك ترافقهم في الحي والجامعة والمسرح ودور السينما، وتسمع للأصوات الموسيقية الصاخبة والأغاني المثيرة للغرائز والشهوات ، وكانت مشغولة في الحفلات الكثيرة الأسماء ، من حفلات أعياد الميلاد لها ، ولأصدقائها ومناسبات أخرى .

الفتاة التي تجد كل تشجيع من والديها للانخراط في هذا النمط من الحياة الماجنة والفاسدة ، لا توجد في بيئتهم قيم الإيمان والأخلاق لتردعهم ، فوالداها والحي الذي تعيش فيه كل ذلك يدفعها للانغماس في هذه الملذات الشهوانية البهيمية البعيدة كل البعد عن تعاليم وأخلاق الدين والإيمان ، هذه هي البيئة التي كانت تحيا فيها الآنسة فوز .

كل هذا قد تغير فجأة .. الفتاة عادت لدينها! .. الفتاة استيقظت من جاهليتها! ثابت إلى الله ، وبدأت تعود للأيمان المفقود من كيانها .. أخذت تتعلم الإسلام ؛ كأنها دخلت الإسلام من جديد .. فهي تقرأ عن الصلاة والإسلام .

فوز سامي اهتدت ورجعت لجلبابها وثوبها الشرعي وعنوان كرامتها وشرفها في هذه الجاهلية فقد ابتعدت عن أصدقائها المستهزئين بإسلامهم ، وهجرت أبناء وبنات صديقات أمها وأبيها .. وقد أتلفت آلات الموسيقى وأشرطة الأغاني والموسيقى التي تملكها ، وأخذت تؤب إلى الله تعالى ، وقد لاحظ والديّ فوز هذا الانقلاب المفاجئ من أول الأمر ، وظنوه بل اعتقدوه لحظة عابرة أو سحابة صيف زائلة .

يتذكر الوالد سامي عندما أخبرته زوجته شادية أنّ فوزا تسألها : لماذا لا تصلي أنت يا أمي ؟! بل لماذا لا يصلي أبي يا أمي ؟! ألسنا مسلمين ؟! وهل يكون إسلام من غير صلاة ؟!

كان الأب يظن ويعتقد أنّ هذه الأفكار دخلت البيت بسبب مرض ووفاة صديقة فوز الآنسة جميلة التي أصيبت بمرض عضال مخيف ، خطفها من بين أحضان أسرتها وأصدقائها ؛ لذلك لم يكترث الوالدان للتغير الذي طرأ على الفتاة ، ولكن فتاة قصتنا كانت على غير ما يظنون ، فلقد تخلصت من ملابس العري والتهتك ، ونبذت أصدقاء الإثارة ، بل أخذت تنطلق إلى بيوت الله والمراكز الدينية لتستمع الدروس والمواعظ ، وأحيانا تذهب إلى صلاة الجمعة في المساجد المنتشرة في طول البلاد وعرضها ، مضت شهور وتلتها شهور والفتاة تزداد تمسكا بتعاليم الإسلام الواضحة ، وأصبحت صديقاتها من الفتيات الملتزمات بآداب الحجاب والصلاة والإسلام ، أشرطة الكاسيت المسجل عليها آيات القرآن تصدح في جنبات الفيلا ، أصبح هناك صراع بين الأسرة المتغربة والفتاة المهتدية التائبة ، باتت فوز كابوسا لهم ، ارتفعت وتيرة التهديد والوعيد ، والفتاة تصر على التمسك بتوبتها والسير على هدي المسلمين الأولين ، لا تبرج ، ولا اختلاط ، ولا مصافحة للرجال الأجانب ، رجعت فوز لفطرتها السليمة .. إلى النور الذي أزال ظلمات الجاهلية الأولى .

ابن أحد الأصدقاء

ذات مساء والسيد سامي سبل يجلس وزوجته شادية في غرفة واسعة مؤثثة بأحدث وآخر طراز من المقاعد والديكورات والتحف والصور الفاتنة ، وبعد أن رشف الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة الذي قدمته له زوجه أم فريد ، وقد شربه وهو ملتزم بالصمت ، وهو ينفث دخان السيجارة ، وكانت زوجته تجاريه في الصمت وشرب القهوة ونـفث الدخان ، فلما انتهى من شرب القهوة قال بضيق وألم وحيرة: هذه الفتاة لا يصلح مـعها إرشاد ونصائح ، وقد ازداد تمسكها بهذه الطقوس القديمة العتيقة ، فأرى أن أزوجها من ابن أحد الأصدقاء قبل أن تنهي جامعتها .. لعلها تؤب وتثوب لنفسها ، وترجع لما كانت عليه من حياة وشباب ومتعة ، لقد صبرنا عليها كثيرا يا شادية! وأعصابي لم تعد تحتمل أفعالها وأقوالها ، فأود أن نفعل ذلك بهدوء ..لا أدري ما الذي قلب هذه الزهرة الجميلة وغيرها ؟! .. لقد كنت أبني عليها آمالا كبيرة في إدارة البنك .

ردت شادية على زوجها قائلة ؛ وكأنها مستخفة بفكرة زوجها : ومَن يقبل بها من أبناء أصدقائنا؟! .. فكلهم يعرفون أخلاقها الجديدة ، ويعرفون عنادها ، وقسوة قلبها .. فكم من مرة حاولت ردها وردعها عن هذه الطقوس العتيقة ؟!..وكم صديقة من صديقاتها الجدد قد طردتهن من هذا البيت؟!..وكم صرخت وكسرت من هذه الأشرطة التي تصغي إليها؟! .. ولكنها يا دكتور سامي تزداد تمسكا بهؤلاء الصديقات ، وتمسكا بهذه الأشرطة ، وتمسكا بهذه الثياب السوداء الموحشة .. لا أدري كيف تلبس النساء مثل هذه الملابس؟! ..كيف يتحركن ؟! كيف ينظرن ؟! كيف يتنفسن ؟! كيف يشتغلن ؟! .

فأجابها الأب والضيق جلي على وجهه وحتى في نبرات صوته : أنا ضقت ذرعا من أفعال ابنتك .. لم نعد نسر في لهونا وسهراتنا ونزهاتنا ، أمست مجالسنا كلها عن فوز ، وآخر أخبار فوز .. هل صحت من جنونها؟.. هل خلعت جلبابها؟ هل استيقظت من سكرتها ؟ يا أبا فريد التدين ليس هكذا.

ثم رفع صوته محتدا : يا شادية .. لقد أصبح البيت دار عبادة .. قرآن .. قرآن .. أريد أن أزوجها وأخلص من شرها .

فقالت الأم وهي تحرك يدها كأنه تدعوه للهدوء: وأنا مثلك قرفت منها ، وجعلت حياتي نكدا وغما .. مَن من أبناء أصدقائنا يرضى بها ؟! .. وهي بـهذه الصفات؟ وكل أصدقائنا حياتهم كحياتنا، من يشتري هم من صاحبه ؟! يا أبا فريد!

فقال الرجل المتمدن والمتغرب أكثر من الغربيين : أنا فكرت كثيرا في أمرها وأمرنا ، ولنا أكثر من سنة نقول اليوم أو غدا يرجع لها عقلها ، ومضى الزمن ولم ترجع لحياتنا الجميلة ، بل تزداد تهورا وحمقا وتعلقا بهذه العادات البالية.

وسكت قليلا يلتقط نفسه ثم قال مصطنعا الهدوء : فكرت بأمرنا ، فبان لي حلول مختلفة لإنهاء مشكلتنا بسلام وبدون مشاكل مضاعفة ، فتبين لي أن الحل الأمثل والأيسر هو زواج ابنتا ، فقد لمست من حديثي المتكرر معها بأنها لن تتغير مع الأيام .. ولن تصحو .. وأنا لا أحب الصراع والقتال ، ولا أحتمل أكثر من سنة .. فرأيت أن الزواج هو الحل الأيسر لنا ولها .

فقالت الزوجة بعد أن تأملت بقرار سامي : حسنا ؛ ولكن من يرضى بها من أبناء أصحابنا يا سامي ؟! أم تريد أن تزوجها لرجل من الشارع ؟! أم المهم أن نخلص من شبحها ، وما تثيره في أنفسنا من تلك العادات والتقاليد البالية التي عفا عليها الزمن وأكل كما أشرت يا دكتور سامي ؟!

فعندئذ قال سامي بكل هدوء وروية ؛ وكأنه وصل إلى ما يريد وارتاح إليه : لقد كلمت زميلي في البنك الأستاذ عمارا في هذا الموضوع وهذه المشكلة ، فأنبأني أن لديه شابا قد أنهى دراسته الجامعية منذ سنوات ، ويشتغل في مصنع كبير ، وله رغبة بالزواج ، وقال لي بأنه سيحاول إقناعه بفوز ، وسيرد عليّ خلال أيام قلائل .. وأنت عليك أن تهيئ الفتاة لهذا المشروع ، وأن تقنعيها بالقبول بهذا الزوج المنتظر .

ضحكت الأم وقهقهت وهي تسمع كلام زوجها ، ولما كفت عن الضحك قالت : والله يا سامي! أنت رتبت الأمر قبل أن تفاتحني فيه ؛ ولكن هو ما قررت وخططت ، فالأستاذ عمار صديقنا وكذلك زوجته رامية ..سأكلم فوزا بهذا الأمر العسير .. واعلم الآن بما أننا انتهينا من شأن العاقة ، أنه قد جاءتنا اليوم رسالة من ابنتنا سميرة تخبرنا فيها بأنها قادمة إلينا قريبا ، وبرفقتها ابن أخي فارس لقضاء إجازة في ربوع بلادنا ، فعليك أن تنظم وترتب وقتك للتجوال معهم يا سامي!.

فرد سامي بضيق : عندنا موسم عمل كبير يا شادية ! فإما أن تهيئ السائق "يام" للقيام بهذه المهمة ، أو احجزي لهم عن طريق شركة سياحية .. أنا لست مهيأ للسياحة والرحلات هذه الأيام ، فسوف يعقد في البلد مؤتمر اقتصادي مهم ومطلوب مني المشاركة فيه .

فاتحت الأم المتغربة ابنتها فوزا في مشروع زواجها القادم ، فرفضت فوز الفكرة بشدة ، وقالت لأمها بصراحة ووضوح وجرأة: أعلم أنكم تودون الخلاص مني، لقد ضقتم بي ذرعا ، فالانحلال والخير لا يجتمعان في هذا البيت ، وأنا بإذن الله لن أعود للضلال والفجور والخمور أبداً .. أبداً يا أمي ! لقد كنت في ضياع وضلال مبين ، الحياة ليست كأس خمر ، ورؤية فيلم سينما ماجن أو حتى غير ماجن ، أو حفلة رقص وغناء ، وأكل وشرب .. حياتنا هذه طريق إلى الدار الباقية إلى الخلود والسعادة الدائمة التي لا ينغصها مرض وفراق وموت.

وتريثت فوز لحظات ، ثم تابعت الكلام قائلة : واعلمي يا أمي العزيزة ! أنني لن أتزوج إلا من شاب مسلم .. مسلم بمعنى الكلمة ليس صورة فقط أو مسلما في البطاقة الشخصية فحسب .. إيش مسلم يشرب الخمر؟! .. مسلم يرقص مع النساء ، يجلس مع هذه مرة ، ومع تلك مرة .. الحمد لله الذي أنقذني من الهلاك والغي .. أتزوج ممن أريد أنا لا أنتم ! ولابدّ أن يكون ذلك بعد إنهاء دراستي الجامعية .

كانت فوز تتكلم بانفعال وحدة مع سيطرتها التامة على أعصابها ، وردت عليها أمها بكلام شديد مع صراخ وحدة وعصبية وسب ، وخلاصته "لابدّ من زواج فوز " ، فقالت فوز :

لولا الحياء والسمعة والعيب لرحلت عنكم ، وسكنت في شقة وحدي ؛ لترتاحوا من رؤيتي وسماع جنوني كما تقولون ؛ ولكني فتاة عزباء لا يحق لها العيش في منزل لوحدها ، فاصبروا حتى أنتهي من سنتي الأخيرة هذه ، ولسوف يهبنني الله تعالى الزوج الصالح .

فقالت أمها بجفاء وغضب : نحن نزوجك مَن نشاء ومَن نختار.

فقالت الفتاة بشجاعة وصلابة : أين الحرية التي علمتموني إياها يا أمي ؟! أين الحرية التي تتشدقون بها في مجالسكم وندواتكم وسهراتكم ؟!.. "لازم الشاب والفتاة يعطون الحرية الكاملة في كل شيء ".. أين حرية المرأة التي تتغنون بها ليل نهار؟! .. ففي هذه القضية المصيرية كشرتم عن أنيابكم وتتشددون عليّ .. أليس من حرية المرأة أن تختار شريك حياتها ؟ أو ليس من الحرية أن أعيش كما أريد وأرغب وأشتهي ؟! ..أليس من الحرية أن ألبس ما أشاء وأحب وأرضى ؟! أليس من الحرية التي علمتموني إياها أن أفعل ما أريد من غير رقيب ولا حافظ أو حسيب ؟! .. ألستم أهل الحرية كما تزعمون ؟! وهل الحرية والانفتاح فقط هو أن ألبس فستانا قصيرا أو بنطالا مزريا ؟ وهل الحرية أن أعرض شعري وجسدي للناظرين؟! أمي لقد كنت في جاهلية وظلام أسود ..أمي أنا عرفت الدرب والجادة .. هل يعقل أن يترك المرء النور والجمال ويعود للعتمة والجهل؟ أمي ! فلم لا يكون لي الحرية في لباس الجلباب وفي غطاء شعري وحتى وجهي ؟! فلم لا تكون لي الحرية في إكمال جامعتي والزواج ممن أراه مناسبا ؟!.. قولي لأبي العزيز ، لا زواج قبل إنهاء الدراسة .. ولا زواج من مسلم في البطاقة الشخصية فقط ، لا أريد أحدا من أبناء نواديه وحفلاته .

تقبلت الأم ثورة ابنتها بغيظ شديد وسخط وحيرة أيضا ؛ ولكنها أمام اندفاع الكلام من بين فكي فوز كالماء المتفجر، لم تستطع الكلام سوى التلويح باليدين والضغط على الأسنان والشفتين ، ولما سكتت فوز عن الكلام ، قالت الأم : ما كنت أود أن أسمع منك هذه المحاضرة .. نحن تركنا لك الحرية في الصلاة واللباس والتدين على أمل أن يكون ذلك غمامة صيف زائلة ، واعتقدنا أن ذلك حدث لك متأثرة بموت صديقتك العزيزة جميلة ؛ ولكن هذا

التدين زاد عن حده ..ونحن كما تعلمين أسرة منفتحة لا نستطيع الرجوع للوراء إلى عصور الظلام والتخلف.. نحن الآن في عصر الحاسوب والفضاء والذرة .. فما أنت عليه تقاليد بالية تبسمت فتاة قصتنا من كلام أمها الساذج ؛ ولكنه للأسف كلام كثير من المتغربين ، وقالت بكل ثقة : يا أمي المثقفة ! ما دخل الدين والعبادة في عصر الحاسوب والإيدز والسرطان ، فالدين لكل الأيام والعصور .. فالكفار والغرب عامة أولئك المتحضرون والمتقدمون أولئك النصارى واليهود الذين يعيشون في بلاد التقدم والتكنولوجيا هل ترك كل هؤلاء الناس أديانهم ؟! ..هل أغلقوا كنائسهم ومعابدهم؟!.. بل ما زالوا يتعصبون لنصرانيتهم ويهوديتهم ، بل نرى يا أمي ! الهندوس والبوذيين يتعصبون لآلهتهم .. نحن فقط الذين انسلخنا عن ديننا وإسلامنا ، فلا نحن متمسكون بإسلامنا ، ولا نحن خرجنا منه .. وما زال هؤلاء الكفار ينعتوننا بالمسلمين مع بعدنا المذهل عنه.. فلم لا نكون مسلمين حقا أيتها الأم ؟! أما فكرت أن تسجدي لله ولو مرة واحدة في حياتك ..آه .. يا أمي! .. إنك ابنة أمريكا.. هل يا ترى والدك عندما هاجر إلى هناك كان يعرف الصلاة والصوم ؟! أليس هناك موت ؟! هل نحن مخلدون في الدنيا؟! ها هي جميلة الجميلة والصغيرة، قد وقف الأطباء عاجزين عن مداواتها وعلاجها ، فماتت بالمرض العضال ، فما نفعها تقدم وحضارة الغرب.

فقالت الأم بغيظ وقهر : آه منك يا فوز ! أصبحنا لا نستطيع الكلام معك .. كم أود أن تفارقي هذا البيت ! نحن لم نتعود على ما أنت فيه .. نحن نعيش في كابوس ، حتى الطبيب النفسي هرب من لقائك ، وخشي على نفسه من أفكارك .. لقد نغصت علينا مرحنا وحياتنا الهادئة الساكنة الجميلة ، لم نعد نلتذ بحفلة وسهرة ..عليك أن تقبلي بالزواج ، فأعصابنا قد تعبت.. كيف نحيا من غير خمر ورقص وطرب لقد أدمنّا على ذلك؟!

ردت فوز بحزن وألم : هذه هي المأساة يا أمي ! .. أمضيت حياتك في أمريكا ما بين ملهى وحانة ومرقص ، فكيف تتغيرين ؟! كيف تتركين العادات السيئة التي تغلغلت في دمك وبدنك ؟! ..ولكني سوف أظل أدعو لـك بالهداية والتوبة ، لعل الله يهديك للصراط المستقيم

..أمي الحبيبة ! .. لقد كان العرب في الجاهلية يشربون الخمر، ويفعلون الموبقات؛ ولكنهم بالإسلام الصادق الصحيح تركوا تلك الأفعال القبيحة والملذات الفانية ..وأول الطريق يا أمي الحبيبة النية الصادقة

هاجت شادية ثانية ، فأخذت بالصياح والهذيان وتشتم ملاكها الجميل من جديد ، النور الذي بزغ في ظلمات البيت المعتم ، فتركت فوز أمها تصرخ وتولول ، وانسحبت لغرفتها ، وهي تلهج بالدعاء إلى الله أن يثبتها على ما هي عليه من الهداية والأيمان ، وأن يصلح الله قلب أمها المتغرب والمتفرنج أكثر من الفرنجة .



فوز سامي فتاة تجاوزت العشرين ربيعا أثناء حوادث هذه القصة ، فقد ولدت فوز في ولاية من الولايات الأمريكية الخمسين خلال غربة والدها للدراسة ثم العمل، ودرست سني حياتها الأولى في مدارس الغرب ، وهي فتاة ذكية وجميلة ، ولما عاد والدها لبلده العربي ، استقر في حي لا تكاد تفرقه عن أحياء الغرب الحديثة سواء في فيلاته أو قصوره أو شققه حتى في شوارعه ومتاجره ، وفي الحي الغربي أو المقلد للأحياء الغربية دور للهو ، ونوادي مختلطة ، ومسابح مختلطة ، وفيه داران للسينما ، ومسارح وصالات ومراقص وحانات ، ومدارسه أيضا مختلطة ، صمم وأنشئ على الطراز الغربي حذو القذة بالقذة ، وهذا الحي يقطنه كثير من الأثرياء الكبار في البلد ، وكذلك رجال المال والأعمال ، وكذلك عائلات الدبلوماسيين والغربيين ، فهو حي راق تتوفر فيه الأسواق الحديثة والخدمات التي تتطور سريعا ، وفوز ابنة بيئتها ، وهذا هو الحي الغربي ، فأبوها وأمها ومن يدور في فلكهم من الأهل والأقارب والجيران على شاكلتهم ، الأسماء فقط عربية وإسلامية ، أما الطباع والصفات فهي غربية إلى حد كبير ، الفتيات يلبسن البنطال القصير أو الضيق المجسم العورات من غير حياء وخجل ، احتضان شاب لفتاة لا حرج في تقاليدهم ، إنهم أصدقاء وأجواء حرية.. اللهو مع الشباب جائز وأمر طبيعي ومباح في عرفهم سواء في المسبح أم ملعب التنس أم غير ذلك من الأماكن الرحلات والاشتراك في الحفلات والمهرجانات بين الجنسين جائزة في شرعهم من غير حرج وضيق وتزمت ، ومنتشر بينهم التدخين سواء من السجائر أم النرجيلة، وشرب المسكرات شائع بينهم ، لا أحد ينكر عليهم ذلك ، بل بعض الأسر في الحي انتشر بين أفرادها تعاطي المخدرات ، وكذلك الأسماء الأوربية شاعت بين فتيان وفتيات الحي ، الغيرة على الأعراض ضعيفة بينهم إن لم تكن ميتة ، الرجل في الحي الغربي يرى ابنته أو أخته أو زوجته في مواقف مريبة فيتظاهر بأنه لم ير شيئا ، اختلاط تام بين الرجال والنساء والشباب والفتيات دون حرج أو عوائق ، هذه هي البيئة والأجواء التي كانت تعيش فيها الآنسة فوز ، ومن يعترض ويحتج

على هذا الوضع يوصف بالرجعي والمتزمت والمتخلف ؛ كأن الحي وسكانه قطعة من حي مدينة غربية أوروبية أو أمريكية ، ومع كل هذا الفساد المحيط بهذا المجتمع الصغير أنهت فوز دراستها الثانوية بنجاح ، وحصلت على مقعد جامعي في إحدى كليات التجارة والاقتصاد ، واختارت تخصص إدارة العمل على أمل العمل في المصرف الذي يملكه والدها ويديره في نفس الحين ، والآنسة فوز سامي كانت تقضي بعض مواسم الصيف والعطلات الصيفية أو الشتوية في رحلات إلى أوروبا أو أمريكا ، فأبوها ذو مال جسيم يوفر لها ذلك ، وأمها شادية تعشق السفر والرحلات السياحية ، فهذه صورة بسيطة للمكان والزمان اللذين نشأت فيهما بطلة هذه القصة فوز سامي ، تلك الفتاة الحسناء .



قد يكون من حسن حظ هؤلاء الناس أنهم يتعلمون في جامعات يتعلم فيها الفقراء والأغنياء والمتدينون والمتحللون .. وتتصارع عادة في الجامعات الأفكار والطروحات المختلفة سواء الدينية أم غير الدينية ، ففتاتنا الجميلة فتاة مستهترة بالحياة ، عندها لهو ولعب وزينة وتفاخر بالأموال والسيارات والرحلات وحفظ أسماء وأخبار نجوم الفن والرقص في العالم العربي والعالم الغربي ، فلباسها لباس فاضح لا حشمة فيه ولا ستر ، وسيارة فاخرة ، وزميل ولهان أو أكثر يحومون حولها كما تحوم الفراشة أو الذبابة حول الفانوس المشتعل ، زينة مثيرة.. عطر فرنسي فواح .. صلاة .. صوم .. طهارة ..إسلام .. هي كلمات تسمع بها أو قد تكون عرفتها من دراستها لمادة التربية الإسلامية أيام المدرسة ، أما تطبيقاتها ومعاني تلك الأسماء فهي طلاسم مجهولة أو رموز مغرقة في الغموض لشاعر من شعراء الرمزية ، وحتى سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فهي لا تعرف منها وعنها إلا النزر القليل .. من هو محمد ؟! ..

قد لا تعرف عنه شيئا مؤكدا أو دقيقا ، قد تقول عنه هو رجل صالح أو مصلح أو هو رجل بعثه الله للعرب القدماء ، فقد كانت فوز تدرس في مدرسة خاصة ، وهذه المدارس كل تركيزها على تحصيل اللغات الأجنبية، فالكوادر التعليمية فيها ـ تلك المدارس ـ أكثر كلامهم أمام الطلاب بتلك اللغات البريطانية الفرنسية ، فاللغة العربية في نظرهم لغة ثانوية ، فالعربية أقنعوهم أنها لا تصلح للرياضيات والعلوم ، وتجد المعلمين في تلك المدارس يودون لو يدرسون مادة التربية الإسلامية باللغة الإنجليزية ، فهم يتقنونها أكثر من عربيتهم التي لا يعرفون فاعلها من مفعولها ، فما أدراك بحروف الجر والشرط !

وفوز ابنة الدكتور سامي سبل كانت نجمة من نجوم حيها وكليتها ، الحياة عندها هي وصويحباتها مجرد لهو ومتع ، فالمال في أيديهم متوفر ، وفي النهاية يحصلون على شهادة جامعية وفرص العمل مهيأة لهم ، فهؤلاء الأثرياء لا بطالة أمامهم وفقر .

ولقد ذكرت لكم أيها القراء الأعزاء آنفا !.. أنّ هؤلاء الموسرين من حسن حظهم أنّ الجامعات التي يرسلون إليها ذرياتهم تحتوي على خليط من أبناء طبقات وفئات المجتمع المختلفة ، ففيها الأغنياء والفقراء والطبقة الوسطى ، ففيها التيارات السياسية المتنافسة والمتصارعة ، فالتيارات والأحزاب تتنازع وتقاتل من أجل الوصول إلى مقاعد البرلمان والحكومات ، وهذا الصراع صداه موجود بين طلاب الجامعات ، فتجد في القطر دعاة لأحزاب وطنية ، وآخرين لأحزاب ماركسية وقومية، وهناك دعاة التغريب والعلمانية الغربية، وكذلك الأحزاب الدينية وما يسمى الجماعات الإسلامية المتعددة الأسماء، المتنافسة مع بعضها أولا ، وثانيا مع الأحزاب الأخرى، باختصار نقول " خليط من الأفكار المتناقضة " ،.. هذا هو جو وبيئة الجامعات في بلاد المسلمين في هذا القرن ، أعود بكم إلى بطلة القصة فوز الطالبة في كلية التجارة ، فلفوز هذه صديقة وزميلة في الفصل اسمها أسماء ، وأسماء هذه لم تكن إلا فتاة ذكية ونشيطة في قسمها وكليتها ، ومثار اهتمام المدرسين والمحاضرين لذكائها وجديتها في الدراسة ، ومهارتها ومشاركتها في نشاطات الكلية المختلفة ، فهي فتاة ظاهرة

بارزة في الفصل والكلية، فهذا ما دفع فوز للاحتكاك بها ومصاحبتها ، بل ساعدتها فوز بالتدرب في مصرف والدها على أعمال السكرتارية والإدارة ، وأحيانا نادرة سمحت لها بزيارتها في البيت ومشاركتها في حفلات عيد ميلادها وغيرها من الحفلات .

وأسماء لم تكن من أبناء الطبقة الغنية والمسيطرة على ثروة القطر والبلد ، فأبوها بقال متوسط الحال ، يقطن في حي متواضع ، وقد لا يكون له سلطة قوية على أسرته في مثل هذا الزمن ، لذلك كانت أسماء فتاة متحررة في مقياس أهل هذا الزمان ، فهي غير ملتزمة باللباس الإسلامي للفتاة المؤمنة حق الأيمان ، ولكنها محافظة في أخلاقها العامة ، ولم تفسح المجال للعلاقات العاطفية العابرة في حياتها كما يفعل كثير من طلبة الجامعات اليوم باسم الحرية ، فزملاؤها الذكور مجرد أصدقاء دراسة ليس إلاّ ، قليلة الاختلاط بهم ومشاركتهم مجالسهم ، وقد تكون ثقافتها الدينية أحسن حالا من فوز ،.. فلقد كانت صداقة بين الطالبتين ؛ وإن لم تكن تلك الصداقة والعلاقة الحميمة بينهما ، فهناك مجاملات وملاطفات ، ففوز تستعين بدفاتر وكراسات أسماء التي تكتب عليها المحاضرات بسبب تغيبها المتكرر أو خروجها عن الاستماع لسبب ما ، ولم تكن أسماء تبخل عليها بجهدها ، لعلها تطمع أن تتوظف في مصرف والد فوز في يوم ما ، فكان في خلدها " أنّ صداقة فتاة مثل فوز لا يفرط فيها ، ولا تخلو من مصلحة " وكانت أسماء تطلع فوزا على أخبار ونشاطات الطلاب والجولات والرحلات وأمور أخرى ، وهذه صورة عن صداقة الفتاتين .



وتبدأ حكاية فوز مع الهداية والتوبة من الجامعة ، ذات نهار جامعي كانت فوز وأسماء تتحدثان تحت ظل شجرة فارهة في ساحة من ساحات الجامعة ، فوز جالسة على مقدمة سيارتها ، وأسماء أمامها تتحدث معها عن الدراسة والنشاطات في الكلية ، وبينما هما مندمجتان في الحديث ، الأولى جالسة والأخرى واقفة أقبلت نحوهما فتاة ترتدي جلبابا شرعيا فضفاضا مخفيا لجسدها كله الرأس والوجه والبدن ، وألقت عليهنّ السلام والتحية ، وصافحت أسماء بحرارة ومودة ، وأرادت أن تصافح فوزا ، فأشاحت فوز بوجهها عنها كأنها تنظر لشيء بعيد ولم تر اليد الممدودة إليها أو تظاهرت بأنها لم ترها ، بل أظهرت نـفورها منها بحركات سريعة وتقطيبة جبين ، ولكنّ الفتاة المحجبة لم تكترث للأمر ، وخاطبت أسماء قائلة: كيف حالك؟ ما أخبار الوالدين الطيبين؟

فردت أسماء بعجلة ومن غير ابتسام ؛ كأنها أدركت نـفور فوز من الوقوف مع هذه الفتاة الملتزمة ، فأرادت صرف الفتاة بسرعة فقالت : لا بأس ، لا أخبار جديدة إن الدراسة تمام ، والأسرة بخير ، والحمد لله ، وأنت ما أخبارك ؟

ردت الفتاة المحجبة : الحمد لله ، يا عزيزتي! والليلة سنقوم بزيارتكم، فأخي هلال سوف يطلب يد أختك العزيزة سماء ، وقد وافق والداك على زواجهما.

فقالت أسماء : أعرف ذلك يا هند ، مبارك لنا جميعا .

فقالت هند ، وقد أدركت أن أسماء قلقة لا ترغب في إطالة الحديث ، وهي تنظر لصاحبتها الكاسية العارية بطرف عينيها ؛ وكأنها تأسف لإطالة المقابلة : من صاحبتك هذه يا أسماء ؟؟

فنظرت أسماء لفوز ، ونظرت فوز في عيني أسماء ، وسكتت أسماء كأنها تنتظر الأذن من فوز لتجيب ، فردت فوز مخاطبة لهند راغبة بالتسلية بهذه الفتاة التي تريد التعرف عليها فقالت ونبرة ساخرة مستهزئة في صوتها : ما هذا اللباس يا هند ؟! لماذا تلبسون هذا اللباس المرعب؟! لماذا تخفين نفسك تحت هذه الثياب السوداء ؟ ألعلك قبيحة ؟ إنها ثياب مخيفة

ومنفرة وموحشة !

ورسمت فوز انقباضا وضيقا على وجهها ، لم تجب هند سريعا ، فتكلمت أسماء قبل أن تجيب هند ، بعد أن سمعت فوزا تفتح الحوار مع هند ، فتشجعت للكلام فقالت كأنها تريد الجواب على استفهام هند : إنـها يا فوز ! طالبة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، وهي طالبة مجتهدة ، وتحلم بأن تصبح بحرا كبيرا في علوم الشريعة .

ورسمت على وجهها ضحكة قصيرة ؛ وكأنها معجبة بالوصف الذي أطلقته على قريبتها هند ومداعبة للموقف المتوتر المشدود ، وجارتها فوز بالضحك كأنهنّ أحدثن طرفة ، وقالت فوز : وهل للشريعة علوم وبحار يا أسماء ؟!

ظلت هند ملتزمة بالصمت والتفكير ، وأخذت تتابع الحوار الساخر الدائر بين الفتاتين، فأجابت أسماء على سؤال فوز قائلة: أخشى أن أوجع رأسك يا صديقتي! .. فالشريعة لها علوم كثيرة لا أرى أنـه يهمك سماعها.

فقالت فوز ضاحكة : أنا لا أدري ما هي الشريعة أصلا ؟!

وأتبعت كلامها ضحكة هازئة ساخرة ، فجارتها أسماء في الضحك أيضا، وقالت كأنها موضحة لزميلتها ما التبس عليها : كلية تعليم الدين ، الصلاة والصوم والزكاة ..لابدّ أنك تعرفين ذلك ؟!

فردت فوز ساخرة : آه!.. لقد سمعت بهذه الألفاظ في بعض دروس الثانوية العامة .

والتفت إلى هند وقالت : يا آنسة هند ! لماذا لم تردي على سؤالي ؟ أود أن أعرف لماذا تلبس بعض الفتيات هذه الثياب القاتمة والمخيفة التي تثير في النفس مشاعر مؤلمة؟!

فقالت هند بقوة وفطنة وبكل هدوء : ولماذا أنت تلبسين هذه الثياب الفاضحة يا آنستي العزيزة ؟

فقالت فوز وهي تبتسم : نعم ، سؤال بسؤال ، هذه ثياب القرن .. الموضة ..الحداثة .. ثياب العصر.. ثياب الحرية والراحة.

فقالت هند وهي تبتسم: وهذه ـ وأشارت بيدها المخفاة بالقفاز نحو جلبابها ـ ثياب الإسلام ثياب أمر الله بلبسها .. أتعرفين الله؟!

فصاحت فوز منزعجة ومرتبكة : الله!.. ويلك أنا لا أعرف الله!.. وهل ترين أنني ملحدة ؟!

هند : رائع ! .. جواب جميل ! .. إذن أنت تعرفين الله سبحانه .. فالله هو الذي أمرني بارتداء هذه الثياب الموحشة والمخيفة والمقززة .. ثياب الفضيلة والحشمة والعفاف والشرف والعزة .. فأنا أطيع الله في لبس هذه الملابس ، وأنت تطيعين الموضة والعصر .

فردت فوز وقد احمر وجهها من الغضب والضيق : لا.. لا .. يا هند! .. هذه ثياب أجبرك والدك أو إخوتك على ارتدائها ، فلا بد أنهم أناس متزمتون متعصبون يعيشون بعقلية القرون الوسطى ، فلولا ذلك ما لبست هذه الثياب يا آنسة هند .

فقالت هند بهدوء : لا .. يا آنسة! ..ها هي أسماء رفيقتك هذه ابنة خالي لا تلبس مثلي ، مع أن والدها العزيز يصلي ويقوم بشعائر الإسلام الظاهرة ، وكذلك أختها سماء وبعض إخوتها يحافظون على تقاليد الإسلام الظاهرة ، وها هي يا آنسة ! لا ترتدي الزي الإسلامي .. قد يكون لتربية والديّ وأهلي أثر كبير على التزامي بالجلباب واللباس الرباني ؛ ولكن مجتمع كالذي نحيا فيه اليوم يدعو إلى التحرر والانفلات من ربقة الدين والتدين ، فلا أرى فيه سلطة قوية للوالدين كالزمان الماضي ، تجبر فيه الفتاة على اللباس الشرعي ، فذلك السلطان ذهب وضعف هذه الأيام يا آنسة فوز ! فلولا اقتناعي بها أفعل ما أطعت والديّ ، ولوجدت مائة طريقة وحجة للتخلص منه .

قالت فوز بحيرة وارتباك : أمعقول ما أسمع ؟! فتاة تلبس هذه الثياب بملء حريتها واختيارها في عصر تحرر المرأة .

فقالت هند وفي نبرتها تهكم وتعجب : تحرر المرأة .. من ماذا ؟! من اللباس الشرعي .. التحرر من طاعة الله .. فهل التحرر فقط يكون في التعري والتبرج؟! .. نحن نريد أن نتحرر من العبودية والتقليد للغرب .

حينئذ هدأت فوز أمام الكلمات الدافئة التي سمعتها من هند بحرارة وغيرة .

فقالت باستسلام غريب وربما لحظة صدق : أتعلمين يا آنسة هند أنك تثيرين اهتمامي ؟!.. وهل أسماء ابنة خالك ؟.

ردت أسماء بعد صمتها الطويل ، وانبهار مما سمعت من هند ، وجرأتها في الدفاع عن مبادئها : نعم .. هند ابنة عمتي ، وهي طالبة ملتزمة بالإسلام قولا وعملا وسلوكا ، ومن أنشط فتيات كليتها .

كانت فوز أثناء حوارها الحاد مع هند قد نزلت عن مقدمة السيارة ، وقالت بعد صمت أسماء : أتسمحين لي بمصافحتك يا آنسة هند؟

فردت هند بابتسامة خفيفة : أردت فعل ذلك عندما سلمت عليكنّ ؛ ولكنك تظاهرت بعدم رؤية يدي الممدودة إليك .

اعتذرت فوز اعتذارا كبيرا لهند ، ثم همست بصوت حالم : معذرة أيتها الفتاة الطيبة! إنني تعودت أن أنفر وأشمئز من هذه الأزياء الرهيبة على النفس ، بل أصاب بضيق منها ، وممن يلبسنها ، وأتعجب من كل امرأة ، أو فتاة تعيش في القرن العشرين وفي آخره بالذات ، وترضى أن ترتدي مثل هذا الزي وتلبسه ، فيخيل إليّ أننا ما زلنا نعيش في عصور الرومان السحيقة ، أو العصور الحجرية الموغلة في القدم ..عندما كانت المرأة منبوذة مجرد متاع وسلعة ..

ثم صمتت قليلا وعادت تقول : لا أدري لماذا أنفر من الدين ؟!

فقالت هند : يبدو لي أنك ضحية من ضحايا المجتمع والأسرة .

فأجابت فوز بدهشة ، وقد نفرت من كلمة " ضحية " : ضحية !! أنا ضحية من ضحايا المجتمع والأسرة ، بل أرى أنك أنت الضحية ، ضحية لتعصب والدك وأسرتك.. فلماذا لا تتمتعين بحياتك وشبابك ؟! ولماذا تغمرين نفسك بهذه التقاليد العتيقة ؟!

فأجابتها هند أيضا بهدوء وروية : أنت معك سيارة ، وأموال وغنية ، فيمكنك أن تتحصلي على متع الدنيا وملذاتها.. فالفتاة الفقيرة .. وما أكثر الفقيرات! كيف يمكنها أن تتمتع

بملذات الدنيا ؟! هل تبيع نفسها وجسدها وروحها لترى الدنيا ومتعها ؟! وماذا تستفيد عندما تهبط عليها أمراض المتع والدنيا ؟ وقد هجرها العشاق وأصحاب المال.. وهل الدنيا فقط لباس ورحلات وسيارات وخواتم ذهب وعقيق وحفلات وثياب حرير ، وأكل من طبق ذهبي ومن أفخر المأكولات ، وشرب شراب فاتك بالعقل والجسد والروح ؟! وهل هذه هي الحياة يا فوز؟! تمتع الجسد والتذ .. الروح والعقل أين ملذتها ؟ والموت ..وماذا بعد الموت ؟؟

قالت فوز: الله!! أنا لا أفكر بطريقتك .. ولا أفكر بالعواقب .. ولا أفكر بالآخرين ..أنا أفكر كيف أضيع الأيام ؟ كيف تمضي أوقاتي ؟ كيف أضحك ؟ كيف أمرح ؟ كيف أسهر ؟.. على كل يا آنسة هند ! طال بنا الحديث ، وعلى كل حال سأسمح لنفسي يا آنسة ! بالالتقاء بك مرة أخرى .. فأنا والله أول مرة أصغى لفتاة تلبس مثل هذه الثياب القاتمة ، فأنا لم أختلط في حياتي بفتيات يفكرن بطريقتك .. فالحق أنك أثرت اهتمامي بفطنتك وسرعة كلامك ، فبما أن الأخت أسماء قريبة لك فسترتب لنا لقاء ..أليس كذلك يا أسماء ؟.. ليس خطأ أن يسمع الإنسان كلاما طيبا من مثل الآنسة هند .. فنحن نقرأ عن الفنانين بل عن المجرمين من لصوص ومحتالين .. فلنقرأ عن الإسلام .

فقالت هند بحماس ظاهر : أرجو أن أراك يا فوز ! وألتـقي بك ثانية ، فعندك بذرة خير وفطرة سليمة في داخلك ، وشعرت من مجمل كلامك بأن في حياتك ملل وغم .

فقالت فوز : ألا تصافحيني الآن يا هند ؟!

فقالت هند وهي تمد يدها نحو فوز مصافحة لها : أنا آسفة فهذه يدي .

وتصافحت اليدان والقلبان وقالت فوز : سيكون لقاؤنا قريبا يا هند!.. فلي صديقة مريضة تعاني من مرض السرطان ، وهي عزيزة على قلبي ، وتمضي المسكينة أكثر أيامها على آسرة المستشفيات.. فقد أثر مرضها عليّ ، فأفكر أحيانا بها بعد الموت ..

ثم التفتت لأسماء قائلة : إنها جميلة ، زميلتنا يا أسماء ! فكثيرا ما تكون معي ، فهي منذ شهور

أخذت تعاني من مرض السرطان ، لقد ضربها هذا المرض في جهازها التنفسي ؛ لذلك بدأت تغيب عن المحاضرات والجامعة ، وكان الله في عونها .

قالت هند : أحسنت يا فوز ! كان الله في عونها ، لا بأس أن يعلم المسلم أنّ الله هو المعين الحقيقي عند المرض والبلاء .. شكرا لكم ، والسلام عليكم ، أراك مساءً يا أسماء ! إن شاء الله

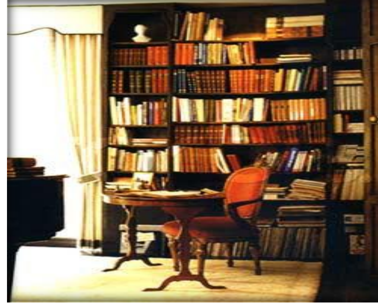
وابتعدت هند ، فقالت فوز معلقة ومبهورة : إنها فتاة مدهشة ! عندها ثقة كبيرة بنفسها .. هل يعقل أن تلبس هذه الملابس عن قناعة وحب ؟!

فردت أسماء قائلة : الحق يا فوز ! أنها من أسرة متدينة .. فأخوها مهدي من الشباب الذين يثيرون القلاقل في الجامعة في كل مناسبة وندوة ، وهم الذين يطالبون الحاكم والحكومة بتحكيم الشريعة الإسلامية وأسلمة الدولة والإدارة ، فهند أخت لذلك الشاب النشط في جماعات التيار الإسلامي ، وهو يثير المتاعب للإدارة والأمن ، واعتقل مرات ومرات ، وهو من الشباب الذين يطالبون ويدعون بالعودة للإسلام حاكما ومهيمنا على الأمة والمجتمع كله ، فهند أخت ذلك الشاب ، وأسرتها من الأسر المحافظة جداً جداً .

فقالت فوز وهي شاردة الذهن : والله يا أسماء ! ما أتعبت فكري ونفسي يوما لأفكر بالإسلام الذي هو ديني ..الحق أيتها الصديقة ! أن حياتي وحياة الكثير غيري هي الأكل والشرب ، والسهر والحفلات والمجون ، والرحلات إلى أوروبا وأمريكا ، وارتداء أغلى الملابس ، وحمل أثمن الحقائب ، وتبديل السيارة كل عام بأحدث موديل ، وحتى موت إنسان في الحي أو قريب لنا يمر في حياتنا من غير اكتراث ، فالعزاء في حينا ومجتمعنا نراه فرصة للاجتماع والثرثرة والدخان ، وحتى المقرئ أو قارئ القرآن الذي يحضرونه في حفلات العزاء ـ دعيني اسميها حفلات العزاء ـ يضعونه الشيخ المعمم في إحدى زوايا البيت أو صالة العزاء ، ويأخذ بقراءة القرآن ، والجالسون لا يكترثون بما يقرأ ، فهم مشغولون بالقيل والقال ، وفي آخر السهرة يعطى قليلا من المال بالنسبة لنا ، ثم ينصرف ، فالموت يعبر سريعا من حياتنا ولا نتعظ منه .. لقد شدتني ابنة عمتك ، فكرت قليلا ، لماذا هذه الصبية تغمر نفسها بهذه الملابس

السميكة الواسعة كأننا في شهر الثلج ؟ فأردت عندما رأيتها وهي تتحدث معك أن أتسلى بها وأهزؤ منها ؛ فإذا هي التي أثارت شهوتي للتعرف عليها أكثر ، هل هي جميلة يا أسماء ؟!

فقالت أسماء : إن كنت تقصدين بالجمال بياض البشرة فهي بيضاء البشرة يا صديقتي ! وليست بشعة لتخفي قبحها تحت نقابـها ؛ إنها تلبس هذه الثياب عن قناعة وطاعة ، وليس عن عادات وتقاليد فحسب ..إنها هند ابنة عمتي وأعرفها جيدا يا صديقتي !



هكذا كانت البداية لقاءً عابرا مع فتاة ترى أنها تمثل الفتاة المسلمة الملتزمة بأمر الله ونهيه .. فتاة كلها إيمان ونور، ترك لقاؤها العابر الدافئ أثره الكبير على هذه الفتاة - فوز - المتحررة المتبرجة المقلدة للمرأة الغربية الضائعة .

فوز - ومثلها كثير - تعاني من الفراغ الديني الذي يشبع الجانب الروحي من كونها إنسانا مركبا من روح وجسد ، وهي تعاني كذلك من الجهل الكبير في دينها وتعاليم إسلامها .

وتربيتها الغربية ، وتقليد والديها الأعمى للغرب ، حرفا فطرتها السليمة للتعلق بالكافر في علومه وعاداته وثقافته ، وفوز عندما أشارت بأن هدفها في الحياة قتل الوقت بأي طريق لم تجانب الصواب ، مال كثير ، بيت واسع يشبه بيوت الغرب ، عمل متيسر ، جنسية أمريكية متوفرة لأنها من مواليد تلك البلاد ، زوج لن يعجز والدها عن توفيره ، فأيامها مسارح ، مهرجانات ، غناء ، تمثيل ، رقص ، لهو .. عندما قالت لهند ذلك فهي صادقة أيضا ، فهي ترافق أمها غالبا إلى أقطار شتى ، من أجل مشاهدة معرض أو فيلم حديث أو عرض أزياء ؛ لتقول الأم أو البنت أمام الأصدقاء متفاخرة ومتباهية بأنها حضرت العرض الأول للمسرحية أو الفيلم أو معرض الفنان الفلاني ، ولكن لقاؤها العابر بهند ، مع مرض صديقة أحبتها "الحميمة جميلة" ، وما هي فيه من العذاب الغامض ، تحركت نوازع الخير والفطرة في نفسها وروحها ، لذلك لم يكد يمضي يومان على لقائها الخالد بهند حتى طلبت من زميلتها في الكلية والفصل أسماء أن تجمعها بهند مرة أخرى ، وترتب لها معها لقاء جديدا ، مما أدهش أسماء لهذه العجلة ، فربما وقع في نفس أسماء في المرة الماضية أن فوزا عرضت على هند تجديد اللقاء لتصرف هندا بلباقة وأدب وحسن مجاملة ، فقالت معلقة باستغراب ظاهر : بهذه السرعة ترغبين اللقاء بها ؟!

فقالت فوز محاولة التفسير لهذا الطلب : يحق لك أن تسألي هذا السؤال .. هند ابنة عمتك .. لقد سحرتني بقوة جنانها ، وحسن مدحها لديننا ، رغم الحدة التي أبدتها نحوي في بعض

الجمل في ذلك اللقاء المبهر .. فأنا أريد أن أجالسها لأنني عطشى للأيمان يا أسماء ! يا أسماء ! إنني أعيش في ظلام وحيرة ، مع توفر كل وسائل الحياة والرفاهية بين يدي ، وأنت تعرفين كل ذلك .. أريد أن أعرف هذا الإسلام الذي هو ديننا ، ودين أبي وأمي .. أريد أن أعرف هذا الدين الذي يدفع فتاة جميلة مثل هند لتخفي حسنها وفتنتنها عن أعين الناظرين ، وتدافع عن ذلك بقوة .. أريد أن أعرف لماذا نهرب عنه ومنه؟! .. لماذا نحب الغرب ومحاكاة الغرب لماذا؟؟! صدقيني يا عزيزتي ! لقد صدف مرة ونحن في جوف أمريكا العظمى أن كنا في حفل كبير لأبناء الجاليات العربية والإسلامية ـ بمناسبة دينية على ما أذكر ـ وأثناء الحفل تعرفت على فتاة أمريكية من أصل أمريكي ، كانت بجواري وكانت تلبس مثل هند ، ظننتها للوهلة الأولى مسلمة من بلاد المسلمين والعرب ؛ فإذا هي أمريكية الجنس ، وتحدثنا قليلا ، فلما علمت أنني مسلمة بالولادة صعقت لمشاهدتي بهذه الثياب التي على آخر طراز ، وأنا بالطبع لم أكترث لدهشتها ، بل أنا التي استغربت منها يوم ذاك ، وهمست لنفسي "أمريكية تلبس ملابس المتعصبات من المسلمين" ، وسكتت فوز كأنها تستذكر لقاءها مع الأمريكية المهتدية .

ثم قالت أسماء بعد لحظات خيم فيها عليهنّ الصمت : متى تريدين أن يكون الموعد واللقاء؟

قالت فوز وهي تتنهد بعمق : أتمنى أن يكون هذا مساء هذا اليوم ، هناك حفلة ستذهب إليها الأسرة ، واعتذرت عنها ، ومنذ فارقتنا هند وأنا أعيش معها .. فتنت بها يا أسماء ! طيفها معي منذ ذلك النهار .. لا أدري لماذا ؟!! سحرت بها ! .. وأود أن يكون اللقاء في منزل هند ، نعم ، أريد أن أراها بين أحضان أسرتها يا أسماء!

فقالت أسماء وهي متعجبة لكلمات فوز ومن إعجابها بابنة عمتها : ألا تخشين وتهابين اللقاء بها ؟! ..أخشى أن تخلعي هذه الملابس الجميلة يا فوز !

قالت فوز وربما فاجأت أسماء بردها : يا ليت ذلك يحدث ! لا تظني يا عزيزتي! أننا نحيا بسعادة .. السعادة ليست في المال وحده صدقيني .. المحروم من متعة المال يحلم بما حققناه من لهو ومتع ؛ فإني من أعماقي أتمنى أن أتغير .. مللت النادي .. مللت السفر .. مللت الأصدقاء

مللت نفسي .

فقالت أسماء وما زال تعجبها يزداد من فوز : ولكنك ما زلت صغيرة يا عزيزتي .. ما عشرون سنة في الحياة ؟!

فقالت فوز وهي تحلق بالأفق البعيد : التعب النفسي والقلق غير محكوم بسن .. اتصلي بي إذا وافقت هند ، وسوف أمر عليك لنذهب سوية ، وأرجو أن لا يكون في ذلك إحراج لك ولها.

فقالت أسماء : اعلمي أنّ هندا سوف تسر وتفرح بلقائك ، فبيتها مدرسة ، صديقة داخلة وأخرى خارجة .



واستقبلت هند الفتاتين بابتسامة بيضاء صافية ، وأبدت سرورها وسعادتها من اللقاء ، ورحبت بهن ترحيبا حارا ، واعتبرته مفاجأة سارة وبشرى خير ، فلما جلسن في غرفة هند قالت فوز بإعجاب واضح : ما أجملك يا هند! فكل هذا الحسن تخفيه تحت أسمالك العجيبة، كنت أظن أن هؤلاء الفتيات المحجبات يتحجبن ليخفين دمامتهن ، أو لأنهن لا يملكن الثياب الغالية ، ولا يستطعن مجاراة الموضة المتسارعة .. كم كنت مخطئة !

فقالت هند باسمة : مالك تكثرين الحديث عن الجلباب يا فوز؟!.. فالإسلام ليس الثوب فقط .. فالإسلام إيمان وتوحيد وعمل وخلق وسلوك .. أهلا أسماء ومرحبا ..أهلا بفوز .. ما أخباركنّ ؟؟

فأظهرن حمد الله عز وجل ، وتحدثن عن الدراسة قليلا ، ثم قالت هند لفوز : لا تعلمين كم سررت عندما أنبأتني الأخت أسماء عن رغبتك بزيارتي ولقائي! وبصراحة أقول وتقبلي ذلك مني .. فقد تأكد لي أنك ضحية الأسرة والمجتمع اللذين تعيشين فيهما .

فقالت فوز وابتسامة صغيرة ارتسمت على محياها الجميل ، ولم تتضايق من كلام هند بأنها ضحية للمجتمع والأسرة كما حدث لما سمعت هذه الكلمة في اللقاء السابق : وأنا مسرورة بك وبصحبتك وسماعك ، لقد أثرت بي كلماتك في ذلك اللقاء العابر والغريب ..

وقالت والجد ظاهر عليها : هند! أريد أن أعرف الإسلام الحقيقي ..أنا لا أعرف شيئا عن إسلامي ، نحن لا نعرف عنه إلا ما نسمعه من الغرب ومن المقلدين للغرب ..حدثيني عن التوبة .

قالت هند متأثرة بعواطف فوز ورغبتها بالتوبة : رائع يا فوز! سأحدثك عن التوبة ـ إن شاء الله ـ ولكن بما أنك خبرت الحياة منذ صغرك ونعومة أظفارك كما يقال ، ورأيت اللهو والنزهات والسهرات ، فاصدقيني القول هل أنت سعيدة في دنياك ؟!

فقالت أسماء مجيبة : وماذا ينقصها يا هند؟! ..القصر موجود ..والسيارة موجودة .. والمال وفير ..والرحلات متيسرة .. والوظيفة المناسبة جاهزة .. وزوج ثري منتظر .. أليست هذه الأشياء تحقق السعادة للمرء يا هند؟!

فلما لم تجب هند على اعتراض أسماء ، وما زالت تحدق النظر في فوز تنتظر منها الجواب ، فأجابت فوز وابتسامة خفيفة قد رسمت على وجهها الجاد : صحيح نحن أبناء الأغنياء جدا متوفرة لدينا هذه الأشياء التي تفوهت بها العزيزة أسماء ؛ ولكن حياتنا مادية لا غير ، وكما قلت لك يا أسماء! سابقا .. حياتنا لا معنى لها .. مجرد حياة .. ليس هناك أهداف نبيلة نسعى لتحقيقها .. من أهدافنا إمضاء الأوقات في الملاهي في المسرح واللهو ، وشرب الشراب المسكر للهرب من هموم الدنيا .. نفتعل المشاكل ، ونكبر الأشياء الصغيرة حتى نثير الاهتمام ، وننشط عقولنا الملبدة بغيوم سوداء .. نتخاصم على أتفه الأشياء .. لا نحس بمتعة فعل الخيرات من الإحسان ليتيم أو فقير .. بل المريض من حولنا نهتم به أول مرضه ، ثم يصبح نسيا منسيا .. وقد تعشق إحدانا هواية ما ، أو لعبة ما .. ولكن أيضا هذه الهوايات أو الألعاب ليس لها هدف سامٍ نبيل ، وإنما ذلك لتضيع الحياة أو التميز على الأصدقاء .. وماذا أقول أكثر من

ذلك ؟.. أين السعادة ؟!

قالت هند : رائع يا عزيزتي! .. توصيف جميل حقا .. على ذكر المرض ما أخبار صديقتك المريضة ما أخبار صحتها ؟؟

قالت فوز ونبرات الحزن واضحة عليها : آه جميلة ! ..هي التي أيقظتني من سباتي يا هند!.. منذ جئنا من بوسطن ، وتعرفت عليها ونحن نلهو معا.. كم لهونا معا ؟! كم رقصنا معا ؟ كم سافرنا معا ؟ وكم غنينا معا ؟ .. وها هي رغم صغر سنها قد ضربها السرطان .. أوقاتها أيام في المستشفيات ، وأيام في البيت ، بل عجزت عن الدراسة ، والطبيب يزورها يوميا ، والموت ينتظرها .. هذا ما جنته من الدخان والخمر ، والآن الجميع من حولها عاجزون عن مساعدتها بل بعض صديقاتنا مللن الحديث عنها ، ولا يرغبن بسماع أخبارها ، ويخشين ذكرها لأنها تذكرهن بالمرض والضعف ، فما نفع مال والدها ، ولا مال أخيها .. المال لا يعيد الصحة .

وبعد تبادل الفتيات الحديث الحزين حول الفتاة المريضة ، وظهر تأثر فوز الشديد بمرض صديقتها، قالت هند : هذا حقا محزن .. الإنسان لا يعلم متى تهجم عليه هذه الأمراض الصعبة .. حدثيها يا فوز! عن التوبة والندم .. فدموع التوبة دموع رحمة واستغفار .. فرحمة الله وسعت كل الأشياء ..واعلمي يا أختاه! أنك إذا أحببت الله حق المحبة أحبك سبحانه وتعالى .. فحب الله هو الحب الدائم والباقي أيتها الأخت الصديقة .. إنّ ديننا دين التوبة والندم .. والتوبة في ديننا العظيم لا تحتاج لواسطة أو شفيع ، عليك أن تبدئي عهدا جديدا مع الله سبحانه ، وتتأسفي على ما فرطت في جنب الله ، وتندمي على أفعال الشر التي جرت في غابر الأيام ، وتحاولي وتجتهدي ألا تقعي فيها مرة أخرى ، وتكثري من أعمال الخير، ومن الأعمال التي يحبها الله مالك السماوات والأرض ، وبالنسبة لنا نحن معشر النساء يا فوز ! من المهم للمرأة المسلمة أن تطيع الله في لباسها .. فالتائب أيتها الصديقة! عليه أن يترك المعاصي التي بينها القرآن والسنة النبوية ، ولا يعد ممارسا لها ، وعليه أن يندم على فعلها ، وعلى التائب أن يقوم بالواجبات المطلوبة منه ، وإن ضعف المسلم أمام الذنوب والشهوات يتوب مرة

أخرى وأخرى من غير يأس ، ولا يستسلم للشيطان ، ولا يخجل من التوبة المتكررة .. ومن المهم أيتها الصديقتان العزيزتان ! أن تمتلئ أنفسنا أنّ هذا الدين هو من لدن حكيم خبير ، من الله الضار والنافع والمعز والمذل ، وليس من صنع البشر ، سأعطيك بعض الرسائل العلمية الخفيفة والقصيرة لعلماء مسلمين أجلاء معاصرين ، فيها دفع كثير من الزيف والشبهات التي يثيرها أعداؤنا وأعداء الله حول دين الله الخالد ..المهم القراءة القراءة الواعية .. فكما تقرئين مجلات النساء والرياضة بحماس فاقرئيها أيضا بحماس .

قالت فوز باسمة وقد ازدادت حبا لهند وإعجابا بكلامها ، وقد أحست بعواطف جياشة نحوها : كم هو ممتع سماعك يا هند ؟!

ثم قالت متسألة : هل من الممكن أن أتخلص من عاداتي وأخلاقي السيئة ؟! وكيف سأواجه أبي وأمي بعد أن زرعوا فيّ حب الملابس العارية ، وحب السهرات والحفلات ، ومصاحبة الشباب والشابات ، وكذلك حب الكفار وحب الحضارة والمدنية الغربية وحب الغرب ؟؟!

أجابتها هند مشجعة وبكل ثقة : تتخلصين من كل ذلك رويدا رويدا .. فأصحاب رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا أهل جاهلية ، ولقد كانت عندهم عادات قبيحة ، من أشهرها وأد البنات ، وإدمان الخمر ؛ ولكنهم بفضل من الله ـ عز وجل ـ وإخلاص الأفئدة له وحده ، أزالوا تلك الحواجز الرهيبة ، وأصبحوا سادتنا وقدوتنا وسلفنا الصالح

تنهدت فوز بعمق وقالت : أريد أن أتوب يا هند! ساعديني يا سيدتي !

كانت أسماء تسمع كلمات هند وفوز وهي في غاية الدهشة والاستغراب للانقلاب الذي حدث لفوز من لقاءين فقط ، فوقع في روعها أنّ فوزا تمر في أزمة نفسية حادة ، وسوف تستيقظ منها بعد أيام ، وسمعت هند ترد على استغاثة فوز بحماس شديد : سأبذل قصارى جهدي لأنقذك من الظلام والضلال والجاهلية ، وسأكون لك أختا وأكثر ، وعليكِ بداية أن تتخلصي من غرورك ، وأنك ابنة رجل أعمال كبير .. مليونير أو أكثر .. تذكري أنك فتاة مسلمة ، وتحملين هذا الوصف العظيم .

تجدد اللقاء بين هند وفوز ، وتعمقت الصداقة بينهما ، وما يمر يوم إلا وتزور فوز هندا ، وتسمع منها كلاما طيبا عن الإسلام ، وإن لم ترها بالعين المجردة فتحدثها بالهاتف بالساعات وهي تهمس لها " إن حديثك يا هند! له لذة في وجداني وكياني " .

وما كاد يمضي شهران من العمر حتى عرفت الفتاة الإيمان ، وصفة الاغتسال من الحيض ، فهذا الفعل لا يمارس في البيت ، ولا تعرف أحكامه الشرعية ، وتعلمت الوضوء ، ونواقض الوضوء ، وهذا فعل لا يمارس في البيت أيضا ، وقرأت سورا من القرآن الكريم ، وقرأت عن حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وبعض صحبه الكرام ، وكيف انتقلوا من حياة الجاهلية الأولى لحياة الإيمان؟ وعلمت حجم وعظم التضحيات التي قدموها لدينهم ، وصبرهم على أذى أهليهم وقومهم ، وتحملهم الكثير من أجل تمسكهم بالإسلام .

فكلما وصل لذهن وعقل فتاة حكايتنا معلومات جديدة عن الدين الخالد كان يصيبها الانبهار لحد عظيم لهذه المعلومات الراقية ، وتتألم غاية الألم لجهلها الكبير هي ومن حولها من الأهل والأقارب والجيران بدينهم العظيم وإسلامهم الكبير.

فتتسأل بينها وبين نفسها : " لماذا كل هذا التجهيل بالدين في بيئتهم ؟!" وقد تقضي الساعات الطوال وهي تحاول الإجابة على هذا الاستفهام .

لقد كانت تتلقن من هنا وهناك ، أنّ الإسلام يحتقر النساء ، ويستعبدهن ويجعلهن خدما وجواري للأسياد ، ويحرمهن من القراءة والكتابة وطلب العلم ، ويمنعهنّ من الخروج من بيوتهنّ ، ويضيق عليهنّ في العمل والمهن ، وتلقنت أنّ الإسلام دين القتل والسفك والسيف ، وأنّه يهدر دم الكافرين به الذين لا يتبعونه ، ويأخذ الجزية والمال من اليهود والنصارى وغيرهم لإذلالهم ، وهو يرخص للرجل بالزواج بعدد من النساء في وقت واحد لمجرد العبث والمتعة .

ولكنها اليوم ترى هندا تتعلم مثلها في الجامعة ، وهي في قمة التمسك بتعاليم الإسلام ،

ورأت أختها تعمل معلمة في إحدى المدارس ، ولم تمنعها تعاليم الإسلام من العمل والخروج ، وبينت لها هند أنّ الإسلام يهدر دم الكافر المحارب للإسلام ؛ وليس المسالم والمعاهد ، وأن التعدد في الإسلام ليس لمجرد الشهوة ، إنمـا لحكم وحاجات مهمة ، إن لم يكن ضرورة في بعض الأحيان ، فهناك الفتاة المطلقة ، الأرملة ، العانس ، والعرجاء ، والقبيحة .. فمن يتزوج هؤلاء النسوة إن لم يكن هناك تعدد ؟!

وعلمت من هند أنّ من فوائد التعدد المحافظة على المجتمع المسلم من الوقوع في الفواحش ، من زنا وشذوذ وانتشار الأطفال غير الشرعيين.. وعلمت فوز أنّ الإسلام لا يحتقر النساء كما يروج المفسدون في الأرض .. بل الله هو الذي كرم بني آدم المسلم والكافر الذكر والأنثى ، وزاد الإسلام المرأة تكريما وتعظيما ، فهو يحترمها ويوجب على والديها حسن تربيتها ؛ لتكون لهما سترا من النار ، ويوجب الإنفاق عليها حتى تنتقل إلى عش الزوجية حيث المودة والرحمة ، فيتحمل الزوج النفقة عليها ، ثم الأبناء حتى مفارقة الدنيا إلى حياة البرزخ .

وعلمت فوز أنّ الحياة الزوجية في الإسلام حياة مقدسة بمعنى الكلمة ، حياة طيبة هانئة ، حياة تفاهم وود وسكينة ورحمة ، وليست مشروعا تجاريا ، ولا حياة خليلات وعشيقات وخيانة زوجية .

وبينت هند لها أنّ العقوبات والحدود التي جاء ذكرها في القرآن والسنة والتي شرعها العزيز الحكيم ؛ ليست لمجرد القسوة والتعذيب إنما هي لحماية الفرد والمجتمع المسلم من الفساد للدين والعقل والمال والنفس والنسل .

لقد تعلقت فوز بهند تعلقا عجيبا ؛ كأنها وجدت كنزا وجوهرة نادرة ، فما يهبط المساء حتى تزورها وتنهل من علمها وثقافتها الإسلامية الواسعة ، وتسمع منها ، وتسألها عما يخطر لها من أسئلة، وإن لم تتمكن من الذهاب إليها تكلمها بالهاتف، وكانت تستعير منها الكتب المفيدة ، وتقرأها إلى أن كان ذات ليلة ، وبعد حديث مشوق عن عظمة الإسلام ، وعظمة أمة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وفضلها الكبير، قالت هند لفوز : ألم يأن للذين أمنوا أن تخشع

قلوبهم لذكر الله يا فوز ؟؟!

وقالت فوز وهي تمسح دموعها المتساقطة على وجنتيها تأثرا بكلام هند : بلى يا صديقتي!.. بلى يا منقذتي! أنت نور أرسلك الله لي .. لقد أحببتك يا هند ! ولكني خائفة من أهلي وممن حولي .

قالت هند مشجعة صديقتها للعمل : اخط الخطوة الأولى ، وسيكون معك الرب عز وجل .. ألم تقرئي ما واجهه الصحابة في أول الدعوة ؟.. فلن يكون أهلك مثل صناديد قريش الكفرة ، فأهلك أولا وأخرا مسلمون .. فلقد أخبرتني الخياطة أنّ الجلباب الذي فصلته لـك قد جهز ، وهو هديتي المتواضعة لك أيتها الأخت الفاضلة !

فقالت فوز وهي شاردة اللب وتتصور موقف أهلها من توبتها وصلاتها وجلبابها : هل يقبل أبي وأمي أن ينهار ما غرسوه فيّ من بعد عن الدين ؟! وهل يتقبلون أن امتنع عن مصافحة الأصدقاء ، وعدم الجلوس معهم ؟! إنهم ينظرون إليّ طيلة الأيام الفائتة باستغراب ، ويعلقون عليّ التعليقات الساخرة ، وهم يعتقدون أنّ مرض صديقتي جميلة أثر عليّ ، وعلى أعصابي ، وغير أفكاري وأحلامي .

فقالت هند مقاطعة لفوز كأنها التقطت فكرة من كلامها : فوز! اجعلي من مرض صديقتك فرصة للتغيير والبداية ، هذه فرصة من عند الله ، استغلي هذه الفرصة وهذا الظرف وأعلني توبتك .. فهم سيعتقدون أنّ مرض صاحبتك هو الذي غيرك ، وأنـها ساعة عابرة ، ولسوف يغضون الطرف عن تصرفاتك الجديدة .. وأنت تكونين قد اجتزت الحواجز والخوف الجاثم عليك من التقاليد والعادات التي غرست فيك .. هي فرصة جيدة للبداية ، لا داعي للتردد .. مَن يكن مع الله يكن الله معه .. عندما تقطعين مع التوبة أياما ، ستتجمع فيك الشجاعة ، ويذهب الخوف الذي يضخمه الشيطان في نفسك .

ردت فوز بعد صمت عميق وتأمل بفكرة هند : فعلا يا هند! إنـها فكرة رائعة، وفرصة عليّ الاستفادة منها ، عندما آخذ منك غدا الجلباب الذي سأعتز به لأنه منك ، سأبدأ بالصلاة بإذن الله العلي العظيم .. اللهم قوي عزيمتي واشدد أزري.

ثم قالت بذهول وتعجب : عجيب أمري يا هند! كم كنت جريئة على المعاصي والسباحة أمام الفتيان دون حياء وخجل ؟! أما الصلاة فكلي خوف وتوتر وقلق ؛ كأني مقدمة على معركة .. يا الله! لقد كنت مجرمة وأنا لا أشعر يا أختي الغالي!

قالت هند : هوني عليك .. هي معركة فعلا يا فوز! وليست معركة سهلة ، ولا تنظري للوراء إلا للعظة والاعتبار .

لقد اجتازت فوز الخطوات الأولى ، فلبست الجلباب الشرعي للمرأة المسلمة ، وصارت تصلي ، ومرت الأيام الأولى في الفيلا ، ولم يجرؤ أحد أن يسألها عن عملها الجديد ، فلقد يسر الله لها الأمر كما تحب وتشتهي ، ووقعت الهيبة والرهبة في قلوبهم من مناقشتها والحديث معها في هذا التغير الجديد ، وكانوا يتوهمون أن هذا الانقلاب ، وهذا التغير حدث بسبب مرض صديقتها الخطير ، وخوف ورعب الفتاة من المرض ، فتركوها على راحتها ، وهي في نفس الوقت لا تمارس عملا محرما لتلام عليه ؛ ولكنه عمل غير معهود في البيت منذ أكثر من أربعين سنة ، الأب سامي لا يعرف الصلاة ، وكذلك الأم ، وهو عمل يجفلون منه ، ولم يفكروا بممارسته يوما ما ، ربما يرونه من علامات التخلف والعادات البالية ، وسرت فوز لنجاحها الأولي ، وعدم معارضة والديها لخطواتها الجريئة .

فتاة في أول العقد الثالث من العمر ، متحررة لآخر درجة تخرج على تقاليد الأسرة على حين غفلة منها ، وتعود للعصور القديمة عصر الصحابة والتابعين والجيل الأول من المسلمين ، وتتخلى عن عصر الحضارة والمدنية التي تغمر الكوكب ، هذا أمر مهم وخطير ومزعج لهم ، فبدأت بنات العائلات ـ أصدقاء العائلة ـ ينفضضن من حولها ، ولم يعدن يفرحن بأحاديثها والجلوس معها ، وما عدت ترى فوزا في البيت إلا وهي تقرأ أو تسمع أشرطة كاسيت إسلامية ، وأعادت ترتيب حجرتها بما يتناسب مع هدايتها ، فمزقت عن جدرانها صور الفنانين والراقصين ، وتخلصت من أدوات الموسيقى ، ومن أدوات الزينة المختلفة ، وهي تقرأ بشغف وعشق كل ما تختاره لها هند ؛ لتعرف الإسلام الذي كانت تحاربه وتعاديه من غير أن

تشعر وتدرك أنها كانت تقف مع أعداء الإسلام في خندق واحد للتربص بالإسلام الصابر العظيم .



ولقد تمنت فوز بعد أن قطعت شوطا مقبولا مع الهداية والتوبة أن تلتقي بتلك الفتاة الأمريكية المهتدية ، للتحدث إليها بفخر واعتزاز ، وتخبرها بأنها عادت وآبت لإسلامها، وندمت على سنوات الجهل والغي والسير وراء التيار الفاسد التائه.

أصبحت فوز بين عشية وضحاها حديث الجامعة ، وكليتها خاصة ، وعلاقتها الحميمة بأسماء وغيرها قد بردت وخفتت ، وكانت أوقات فراغها من محاضرات كليتها تمكثها عند هند في كلية الشريعة والعلوم الإسلامية ، وتعرفت على صديقات هند ، وسررن لتوبتها ، ودعون لها بالثبات على التوبة والفوز عند هبوب العواصف القادمة .

ومن الذين فرحوا جدا لانتصار فوز على واقعها الفاسد صديقتها المريضة جميلة ، وأعلنت هي الأخرى توبتها وندمها، واستسلمت لقضاء ربها بنفس مطمئنة ، وسألت الله حسن الختام وأن يقبلها ويجعلها من عباده الصالحين .

ولقد قامت هند وبعض أخواتها المسلمات بعيادة جميلة عدة مرات ؛ ليرفعن من معنوياتها أمام هذا المرض الهائل ، ويبينّ لها ثواب وأجر الصبر على الأسقام ، وأنّ مرض المسلم الصادق كفارة لذنوبه وخطاياه ، وماتت جميلة وهي سعيدة بما أكرمها الله به في أواخر أيامها من التوبة والهداية ، وبكتها الصديقات الملتزمات ، وأكثرهن بكاءً وحزنا عليها كانت فوز ، ورجون الله أن يتجاوز عن ذنوبها وسيئاتها ، ويتغمدها برحمته الواسعة .

وموت جميلة المتوقع لاستفحال المرض ، والمرض ذاته ليس سببا للموت كما هو معلوم ، فالموت سببه انتهاء الأجل ، وكذلك لعجز الأطباء عن فعل أي شيء أمام أمر الله تعالى وقدره

كل هذا زاد من تدين فوز ، وصغرت ملذات الدنيا أمام ناظريها ، فكانت تدخل عليها أمها فتجدها تذرف دموع الندم والتوبة ، فتتأملها لحظات ، وتخرج لا تتكلم معها كلمة واحدة ، وتظن أن ّكل هذا البكاء والحزن على فقد جميلة ، وازدادت الفتاة تمسكا بتعاليم الإسلام ، وما زالت تتردد مساءً على صديقتها هند ، بل أحضرتها لبيتها بضع مرات .

ولقد كان أهل فوز يرون أن الصدمة التي أصابتها بصديقتها جميلة هي التي دفعتها لهذه الأفعال ، والابتعاد عن السهرات والمناسبات والحفلات المنتشرة بينهم ، وحاولت بعض صديقاتها من بنات الحي انتشالها من وهدة الحزن والأسف على وفاة جميلة ، ولكن بعد الحديث معها وسماع كلامها وحوارها أخذوا يخشونها ويهربون من الجلوس معها ؛ لكثرة حديثها عن الموت والنار والعقاب ، بل اجتهد بعضهم وأدخل عليها طبيبا نفسيا لمعالجتها .

ومضت السنة الثالثة من الدراسة في الجامعة وفوز تحيا حياة جديدة حياة جادة ، حياة الإيمان والنور الإلهي ، حياة لها أهداف سامية راقية .. أليست الجنة هدفا عظيما للمرء المؤمن ؟! وهي الغاية الأولى للمؤمن .

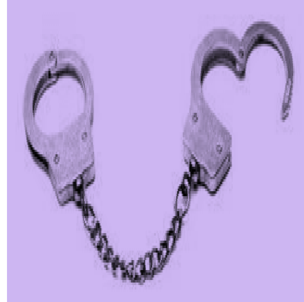
أمسى أهل أصدقاء فوز التائبة يحذرون بناتهم من الجلوس معها، والاستماع إلى مواعظها وحكاياتها عن الصالحين والتائبين ، ويتجنبون دعوتها لسهراتهم ومجونهم ، لقد باتت في نظرهم القاصر فيروسا يخشون أن ينتقل إليهم ، أو كابوسا يؤرق راحتهم ومتعهم ، أو وحشا كاسرا يريد أن يسمم متعهم وملذاتهم وشهواتهم وهواهم في الدنيا .

وكان الوالد سامي سبل يحاول وباستمرار كبح جماعها واندفاعها نحو التمسك بجذور الإسلام الأولى ، ثم يهرب منها أثناء المواجهة والمناقشة ، فهو خاوي العلم من ناحية الدين ، فهو يفهم في الإدارة والمال على الطريقة المادية الغربية ، أما الإسلام فهو مجهول عنده ، فتراه بعد كل حوار ومناقشة مع فتاته يكتشف أنه أمي وجاهل ، لا يعرف شيئا عن الدين ، فيترك النقاش ويدع الأمر للأيام ؛ لتعيد فوزا إلى ما كانت عليه من التمتع بالحياة ؛ كأن المسلم لا يتمتع في نظرهم بدنياه ، فيواسي نفسه هامسا " لابدّ أنّ الأيام ستنسي الفتاة موت صديقتها

العزيزة " ؛ ثم بعد حين يعيد الكرة آملا في الفوز والنجاح .. ولكن فوزا أنهت سنتها الثالثة في الكلية ، وهي ما تزال تشرق نورا وإيمانا ، وتزداد حبا وتمسكا في تعاليم دينها ، فانزعج الأب كثيرا حاول إقناعها برحلة إلى أمريكا أو أوروبا ، فرفضت العرض ، وبينت له أنها ملت من الرحلات والنزهات ، فلاح له أمل جديد بأن يزوجها لابن زميله في المصرف عمار ، فطلب من زوجته أن تعرض الفكرة على فوز ؛ ولكنّ الفتاة رفضت الحديث عن الزواج قبل إنهاء دراستها الجامعية ، وأن التعليم يجب أن يكون قبل الزواج ، وأضافت بأنها لن تتزوج إلا شابا مسلما ملتزما بالإسلام قولا وعملا .

ولقد كانت فوز عندما يحدث في منزل العائلة سهرة أو حفلة تهرب إلى بيت صديقتها هند ، وتتناجيان عن حلاوة الأيمان ، وزيادة الأيمان ، ومحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولقد تيقن لفوز ضعف حجج دعاة تحرير المرأة في بلاد المسلمين ، وأنهم ينفذون مشاريع الكفر لتغريب المرأة المسلمة ، وإبعادها عن دينها الحق ، بدل أن يردوها لدينها الجميل الذي يراعي الجسم والروح في الإنسان، وتبين لها أن المرأة المسلمة ليست أمة لأحد من الخلق ، إنما هي شقيقة للرجل ، وأمة لله وحده ، وليس الرجل مالكا لها كسلعة ومتاع ، ولا هو جلادها ، ووضح لها وضوح الشمس في كبد السماء أنّ هؤلاء الدعاة إنما يدعون لعري المرأة المسلمة ، وإلى الفاحشة من زنا وشذوذ ، ويدعون للخلاعة والتهتك بكل صورها، والى العلاقات المحرمة بين الجنسين ، والى الاختلاط المحرم ، والإجهاض ، فهم يشجعون العلاقات الآثمة ، ويبيحون الإجهاض ، وينشرون أدوات منع الحمل بين فتيات الجامعات والمراهقات للاستهتار بالعلاقات الشرعية ، وتسهيل الوقوع في جريمة الزنا ، فهم في واقع الحال يدعونها للتحرر من التمسك بدينها وطاعة ربها ، فالمرأة لا يمكن أن تكون رجلا ، وكذلك الرجل لا يمكن أن يكون امرأة ، فالله هو القائل { ليس الذكر كالأنثى } ، فعلمت فوز أنّه خفف عنها من فريضة الصلاة لنقص خاص بخلقها ، وذلك من باب التيسير ورفع المشقة عنها والحرج ، وذلك ليس تحقير لها وإهانة ، فهذا عذر شرعي يناسب تكوينها ، وعذر متكرر ، فرفع عنها

إعادة الصلاة لتكرره ، وبما أن الصيام عبادة سنوية أمرها الله بإعادة ما فاتها من الصوم بعذر الحيض أو النفاس ، وذا من فضل الباري سبحانه وتعالى ، من يفهم الإسلام حق الفهم وبنزاهة تامة يفهم لماذا جاءت بعض الفروقات بين الجنسين ؟! فأسقط الله عنها الحج إلا بمحرم ، فالمرأة في السفر تحتاج إلى رفيق وخادم وإلى من يساعدها في عبادة شاقة ، وكذلك أسقط عنها فريضة الجهاد لضعف بنيتها البدنية ولرعاية الأطفال ، وخوفا عليها من الوقوع في الأسر في حال فرار الجيش ، وغير ذلك من الحكم ، وأكرمها الإسلام أما وبنتا وأختا وزوجة ، وتبين لفوز أنّ تصرفات جهال المسلمين وغفلتهم ليست حجة على دين الله ، فالحجة القائمة على العباد كتاب الله وسنة الرسول .



لابدّ من الزواج

أخبر الزوج سامي نصار شادية زوجته عن موافقة ابن صديقه عمار على الزواج من كريمته فوز ، وبعد تشاور وتفاهم بينهما قررا التحدث معها مباشرة في الموضوع ؛ ليجري كتب عقد الزواج في أسرع وقت ممكن، ومن ثم تبدأ الاستعدادات لزواجهما ، وليكن ذلك أثناء وجود ابنتهم المهاجرة سميرة التي أرسلت لهم رسالة بأنها قادمة لمشاهدتهم بصحبة ابن خالها .

استقبلت فوز والديها بترحاب وحنان وحزن، ولما سمعت مشروعهما قالت الفتاة وهي تنظر لأمها بطرف عينيها: ألم تخبرك أمي برفضي؟! وعندما أتخرج من الجامعة نتكلم بمثل هذا الموضوع .

قالت الأم بضيق ونفرزة : أخبرته برفضك .

قال سامي بقوة وحدة، والضجر والغضب واضحان في عينيه ووجهه : الزواج لابدّ منه يا فتاتي!

قالت فوز بهدوء وأدب واحتجاج : يا أبي! ..أتريد إرغامي على هذا الزواج ؟ .. أبي! أين الحرية التي علمتموني إياها؟.. حرية الاختيار .. حرية التصرف .. حرية الرأي .. حرية الاعتقاد .. أين الحرية التي تتشدقون بها ؟!.. ألا تريد أن تنتظر وتصبر حتى أنهي دراستي وكليتي .

قطع الأب كلامها قائلا : تكملين الدراسة في بيت زوجك ، لقد اشترطت عليهم ذلك .

هزت رأسها عدة مرات رافضة الأمر، وقالت بقوة وتصميم وضغط على أعصابها : اعلم يا أبي العزيز ! أنني لا يمكن أن أعود للجهل والضلال .. أنا عرفت الصواب ، أبي !! إذا لم يعد لي مكان ومتسع في البيت أفارقه .. لا يمكن أن أعود للفسق والجهل بضغطك عليّ بهذه الفكرة .. الزواج أرفضه بشدة .

قال الأب والوجوم مرتسم على وجهه : فوز!.. حياتك هذه لا تعجبني نهائيا ..أتسمعين وتدركين ذلك ؟!.

همست كأنها تستغيث : إنها حياتي .

فتابع يقول بصوت قد ارتفع : نحن تركنا هذه الأشياء البالية منذ زمن بعيد، منذ غادرت هذا القطر أول مرة لم أعد أشاهد هذه الطقوس والتقاليد القديمة .. نحن خلقنا للدنيا فقط قال صلاة .. قال جلباب .. قال قرآن .. لم أعد أصبر واحتمل أوضاعك وأحوالك الجديدة هذا تخلف .. تخلف.

فرفعت فوز من نبرة صوتها هي الأخرى وقالت : أبي! هل طلبت منك ألا تشرب الخمر؟!..هل قلت لك يوما ألا تجلس مع النساء؟! ولا ترقص معهنّ ولا تخلوا بهن ..؟

قال واجما وساخطا : وهل أظل أنتظر حتى تقولي لي ذلك ؟!

فقالت: دعوني وشأني، أنا لا يمكن أن أتزوج ابن صاحبك عمار .. أنا أتزوج ممن أريد وأختار ، وأنا لا أريد زوجا مسلما بالبطاقة الشخصية ، سوف أتزوج مسلما بمعنى الكلمة .. مسلما يعرف ربه ودينه ..لا أريد أن أعود للكفر والجاهلية.

لقد كانت تتكلم الكلام الأخير بغضب ودموع حارة تتساقط على خديها فقالت الأم: عندما ترين ابن السيد عمار تبدين رأيك ، فسند شاب مكافح ، وتقول أخته نداء : " إنه يصلي ويصوم مثلك .. ولا يشرب الخمر " وهو كما قلنا لك ابن صاحب أبيك، وأخو صديقتك نداء ، وهو شاب جامعي لا يعتمد على ثروة أبيه ، فهو يشتغل في أحد المصانع الكبرى ، ويريد أن يكون ثروته بنفسه .

كانت فوز تهز رأسها وهي تسمع كلام أمها، وتمسح في نفس الوقت دموعها، ولما سكتت الأم من ذكر محاسن سند عمار ، قالت فوز: ولكنك يا أمي نسيت شيئا واحدا من صفات الأخ سند .

صاحت الأم بغضب معتقدة أن فوزا تسخر من مدحها لسند: لم أنس شيئا، فهو شاب مناسب لك ولنا ، وهو يصلي حسب رغبتك.

فقال الأب الحائر : ما الذي نسيته أمك يا فوز ؟!

قالت فوز بحدة : نسيتم أن تذكروا أنه يتعاطى الهيروين .. نداء نفسها كانت تقول ذلك ، ولقد حاولت توريطي في تعاطيها ، إنه مدمن مخدرات يا والدي العزيز!

قالت الأم بوجوم ودهشة : مخدرات!!

وقال الأب مستغربا الخبر : مخدرات ..لا علم لنا بذلك !!

فقالت فوز: نعم يا أمي الحنون ! إنّ هذا العريس المختار يتعاطى المخدرات ،   ويروجها أيضا، وأما الصلاة التي تظاهر بها فترة كانت لإخفاء أمره عن الفضوليين، هذا ما أعرفه عن الأخ سند .. ولولا الاضطرار ما تكلمت بذلك .

فقالت الأم ببطء : وهل يعرف أبوه بالأمر ؟!

فصاحت فوز: ولماذا لا يعرف والده؟! فنداء تعرف ، وتحاول بيعها بين الفتيات .

فقال سامي كأنه معتذر : صدقيني يا ابنتي ! أنني لا أعرف ذلك عنه .

قالت فوز بحدة وهي تنظر في وجه أبيها : وماذا تعرفون أنتم ؟! ..أنتم لا تفكرون إلا بقضاء شهواتكم وملذاتكم .. حياتكم خمر منكر نساء .. مللت هذه الحياة المرعبة .

اشتدّ الغضب بسامي نصار عندما سمع كلام فوز الجارح وقال : أنا ضال ..أنا مجرم .. أنا لا أريد هذه الحياة التي تعيشنها في بيتي .. نحن لا يناسبنا هذا .. نحن عشنا في أمريكا ، وعرفنا عادات لا نستطيع التخلص منها ، فأنت تخلصت من ذلك لصغر سنك ، ولم تقطعي شوطا طويلا فيها .. فالخمر لا يمكن التخلي عنها في يوم من الأيام ، وكذلك السيجار ، وكذلك الحفلات ، وغير ذلك مما لا يعجبك يا فوز! لا أحب كلما أراك أن أشعر بالندم والأسف .. لا أريد أن أتذكر أنني عاص .. لقد نسيت يا ابنتي ! هذه الطقوس التي تمارسينها .. لقد نسيت هذا الدين .. وأمك مثلي فهي ابنة الغرب وعادات الغرب .. نحن لا نحب هذا الأمور في بيتنا فرأيت أن زواجك خير لنا ولك .. دعينا نحيا حياتنا التي اخترناها بهدوء ، إنني أحرج أمام أصدقائي وزملائي المتحضرين منك ومن تصرفاتك .

قالت فوز وفي نبرتها رجاء وأمل: بل أنتم دعوني أعيش بسلام وهدوء ، تحملوني حتى أنهي

دراستي وسوف أفارقكم .

فقالت أم فوز : اعقلي يا فتاتي ! ودعك من ثياب الغربان ، عودي للحياة الجميلة ، فكل صديقاتك متضايقات منك ، ويسخرن منك ، يقلن وهل تمنع الصلاة الرقص والغناء ؟! ساعة لله وساعة للترويح عن النفس ، كثير من الفتيات يصلين وهنّ يخرجن بالملابس الحديثة ويجلسن مع الشباب بلا حرج ، ويقلن أنّ فوزا أصابها جنون وهوس الدين .

وتابع الأب قائلا : لقد أصبحنا سخرية لكل الأصدقاء، ويقولون الدكتور سامي لم يحسن تربية ابنته ، ولا نستطيع السيطرة عليك ، وأنك لا تطيعيننا .. أين طاعة الوالد التي في دينك هذا ؟!

فضحكت فوز ضحكة قصيرة وأردفت تقول: رائع كلامكم ! .. طاعة الوالد ! .. طاعة الوالد في ترك الدين.. لا يا أبي ! .. طاعة الوالدين تكون فيما أحله الله وأباحه .

فرجع الأب للزعيق والهياج : فوز!.. عليك أن تتزوجي بأسرع وقت ممكن ، ولو من الشيطان أو تسافري خلال أيام ..أدرسي في أمريكا .. أو أن تتخلي عن كل الجنون والهبل الذي أنت فيه

فقالت باكية ضاحكة : أتريد مني أن أتزوج من مدمن مخدرات .. لم تجد لي إلا شابا فاسقا ؟!

قالت الأم: لا أحد يريدك ، كلهم يقولون إنك معقدة ومجنونة ..لا أدري كيف رضي وقبل ابن الأستاذ عمار بالقران منك؟! لولا ثروة أبيك ما اقتنع بك يا عزيزتي !

قالت فوز : أنا لا أريد الرد عليكم. والتفت لأبيها قائلة : أنتم ترون أن الزواج يبعد شبحي عنكم ..أنتم بذلك تتخلصون من صوت القرآن يدندن في هذا البيت .. تريدون أن يبقى البيت في ظلام الجاهلية .. أنا لديّ حل يا أبي العزيز إن لم يعد لكم صبر على الشهور القليلة الباقية لأتخرج من كليتي ...

فقالت الأم مقاطعة : وأين ستذهبين بعدها ؟! هل ستفارقين البيت؟ الزواج هو الذي يخرجك من البيت اليوم أو غدا ، واليوم خير من غدٍ .

فقال الأب هازا رأسه ومحبطا : عليّ بالحل ، أرجوك تكلمي ، لقد تصدع رأسي من كثرة

الكلام .

فقالت فوز بروية : أتريد أن أفارق البيت لترتاح من شبحي يا أبي العزيز؟! أعرف أنني أسبب لكم حرجا وضيقا أمام أصدقائكم ورهطكم .. سأخرج من حياتكم ولن أساوم .. لن أتخلى عن إسلامي وطاعة الله حتى تتوقفوا عن مشروع زواجي .. حسنا سوف أتزوج لأخرج من حياتكم ؛ ولكن أنا التي سوف تحضر الزوج والرجل الذي أريد .. سوف أحضر لكم رجلا يخلصكم مني ؛ ولكن هذا الرجل الذي أختاره لا تسألني عن فصله وأصله .. سأرتب الأمر مع نفسي ومع الرجل المختار، ونكتب الكتاب في هذا البيت وأتزوجه من غير عرس وحفل .. أترضى بذلك ؟؟

اعترضت الأم وقالت : من هو هذا العريس ؟؟!

أمعنت فوز النظر في عيني أمها قائلة ومدافعة عن نفسها : والله يا أمي ! ليس هناك رجل معين في حياتي الخاصة ، لست عاشقة ، وأنت أكثر واحدة متأكدة من ذلك ؛ ولكني سأحدث صديقتي هندا ؛ لعلها ترشدني لزوج صالح ، وهو مطمع كل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر أمهلوني بضعة أيام .. أقل من أسبوع بمشيئة الله تعالى .. ما تقول يا أبي ؟

فقال الأب باستسلام كامل لشروط ابنته : أقبل اختيارك لأي شاب ؛ لكن على أن يكون متعلما ومتخرجا من إحدى الجامعات ، فعندئذ أنا موافق .. هذه حياتك ، وافعلي ما ترينه مناسبا .. خلال أيام أريد أن أنتهي من هذه المشكلة .. أرجوك يا فوز !

مسحت فوز دمعات حارة تساقطت على خديها وهي تسمع ردة فعل والدها ، وقالت بتنهد عميق: الخيرة فيما يختاره الله ..أيام يسيرة وسأحل مشكلتي أيها الوالدان القاسيان!

قال سامي ظانا أنه قد حقق الضغط الكامل على فتاته : اتركي ما أنت فيه من هذه الأحوال، واخلعي هذه الأسمال المقرفة المقززة ، وعودي للحياة الحلوة الجميلة نعرض عن الزواج .

فقالت فوز : صديقتي جميلة ماذا أصابها من الحياة الحلوة ؟! قل ..

فقال سامي مقاطعا وبنبرة حادة وغيظ : دعينا من جميلة.. وعجلي في الأمر الذي اتفقنا.. لم

أعد احتمل جو هذا البيت .. حياة عصرية .. وصلاة وصوم لا تنسجم في بيتنا هذا هل تدركين ذلك ؟! .

قالت فوز : لم تعد تحتمل رؤيتي وسماعي .. ما أقسى قلبك ! أنا قد أعذر أمي وطباعها، فهي قد ولدت هناك ، ورأت تحلل أسرتها واندماجها في حياة الغرب، أما أنت فقد ولدت هنا وترعرعت هنا ، ثم تيسرت لك الدراسة في تلك البلاد فلماذا لم تحافظ على إسلامك ؟!

فهز الدكتور سامي رأسه ونهض قائما وقال : هيا بنا يا شادية !

وغادراها ولم يعقبا على كلامها الأخير .

وعند غروب شمس ذلك النهار ركبت فوز سيارتها منطلقة لبيت صديقتها هند ولما جلست معها روت ما جرى لها مع أسرتها ، وكانت هند قد علمت كثيرا من التفاصيل عن أسرة فوز ، وأحوالهم ورغبتهم العجيبة بتزويجها لإنهاء مشكلتهم مع توبتها وأوبتها ، وكل ذلك علمته من فوز نفسها ، فلما أنهت فوز حديثها عما جرى بينها وبين والديها، والاتفاق الذي تم بينهم ، وكانت تروي الخبر والدموع تتساقط من عينيها والنشيج يخرج من حلقها ، وهند تخفف من مصابها وهمها ومن الضغط النفسي الواقع عليها ، ثم خاطبتها قائلة: هوني عنك أيتها الأخت! فالإيمان تضحية واختبار وابتلاء ، ولا تكرهي شيئا ، فالأمور كلها بيد الله وحده ، المهم يا فوز أنّ أهلك يرغبون بخروجك من مجتمعهم الفاسد ، فقد أصبحت كابوسا يجثم على صدورهم إنّ الشيطان هكذا يصورك لهم ، لا أدري ما هي الحرية التي يتغنى بها هؤلاء الأغنياء ؟! هل تمسك الفتاة بدينها ينافي الحرية ؟! ولكنهم قد طمس على أعينهم المال وفتنة الدنيا وشهواتها ، وهل يوافق والدك على أيّ شاب ترضينه أنت إذا تقدم إليك خاطبا ؟ .

قالت فوز : المهم أن أبتعد عن البيت ، لا يريدون سماع كلام الله ،..إنهم لا يريدون سماع آيات القرآن تتلى في البيت أو أترك التدين.

قالت هند باستغراب: إلى هذه الدرجة لا يحبون شعائر الإسلام ! كنت أرى أنّ هذا النفور موجود في شباب الأحزاب الشيوعية الماركسيين فقط ، أما العلمانيون كنت أظن أنهم لا

يبغضون هذه الشعائر من الصلاة والصوم واللباس الشرعي .

قالت فوز بحزن وأسف : للأسف أنا أعرف أنّ والديّ ينفـران من هذه الأشياء من قبل أن أتوب إلى الله ؛ ولكن إلى هذه الدرجة فهذا لم يخطر في بالي.. لنا قريب شيخ كبير كان أحيانا يزورنا بصحبة ابن له يعمل في أمريكا ، فعندما يأتي هذا الابن من الغرب يجيء للسلام على والدي ، فيصحبه في هذه الزيارة أبوه الشيخ الكبير ، فيرفع الآذان من مسجد الحي ، فيقوم الشيخ للصلاة ، فأسمع أبي يعلق ساخرا : يا أبا ناصر ! ما زلت تصلي ، لقد نسيت الناس هذه الطقوس .. ويأخذون في السخرية من الصلاة والآذان ومدفع رمضان ، كنت أظن الصلاة يومذاك تخلفا وجهلا ، وأنّ الصلاة للشيوخ الكبار فحسب .. استغفر الله .. مشاهد مؤلمة تمر في مخيلتي اليوم .. كنت لا أكترث لها يا صديقتي العزيزة ! .. هل من حل عندك يا هند ؟

قالت هند بصراحة وبعد برهة من التفكير والصمت : سأكلم أخي مهديا عنك أترضينه يا فوز؟!

حملقت فوز في عيني هند لحظات وقالت وهي في حالة اندهاش : أخوك مهدي ذاك الشاب المتشدد يرضى بي؟!..هل مثل هذا الشاب يفكر بالزواج ؟! هند أنا لم أنس ما فعلوه أمام الحاكم منذ شهور ، وما عرضوه عليه أثناء الاحتفال ، وطلبهم منه تحكيم القوانين الإسلامية والإسلام سلوكا وشريعة على العباد ، وغضب الحاكم عليهم يوم ذاك ، وقد سمعنا عن الشغب الذي حدث في ذلك اليوم .. مهدي يرضى بي أنا فوز نصار ؟!

فقالت هند : ومن ذلك اليوم وأجهزة الأمن السرية تطارده ، وكاد أن يقع بين أيديهم منذ أيام وهل الشرع يمنعه من الزواج ؟! ..صحيح أنه يحمل أفكارا لا تعجب حكامنا ؛ ولكنه إنسان له قلب .

فقالت فوز متفكرة متذكرة : لقد رأيته مرتين .. مرة عندما كنت أتردد عليك وأنا ألبس ملابس الكاسيات العاريات ، فدهش من رؤيتي وحياني بحياء ، ولما سألتك من هذا يومها ؟ قلت إنه مهدي شقيقك ، وكان يومها خارجا من البيت ، وأما المرة الثانية رأيته في الجامعة

عندما جاءك لغرض ما.

قالت هند باسمة: نعم ، هو هذا مهدي مروان ، وسيدهش عندما أعرض عليه الزواج منك ، لقد كان يظن في أول الأمر يا فوز! عندما اقتحمت علينا حياتنا وبيتنا أنك تعملين مع أجهزة الأمن ، وأنهم دفعوك للتجسس علينا ، وأنك مجندة للأمن السياسي .

فقالت فوز بدهشة : أوه ..هل هذا هو تفكيره ؟!

قالت هند : أنت تعرفين شباب الأحزاب الإسلامية ، فهم يخشون اختراقهم من قبل رجال الأمن ، فكان مهدي يذهب إلى ذلك التفكير ؛ ولكنه لما حدثته عن قوة توبتك ، وأنك جادة في التغير دعا لك بالثبات والنجاح .. وسوف تكون مفاجأة له عندما أخطبه لك .

فقالت فوز: أشكرك جدا ، فهذا دليل آخر على حبك لي حبك الكبير ، متى أسمع رده يا أختي العزيزة ؟

فقالت هند: فكما تعلمين أنه ما زال مطاردا منهم ، وبيتنا ما زال مراقبا ؛ ولكنه يتصل بي غالبا فعندما يتصل كعادته سأسر له بالأمر ، وأتصل بك لترتيب الأمر .. أمر هذا الزواج العاجل

فقالت فوز : كأنك واثقة من موافقته .

فقالت هند وهي تبتسم : ولـمَ لا يوافق ؟! فأنت فتاة جميلة وذات دين .. وتمرين بظرف صعب ، وهو يمر بظروف مماثلة ، وهو يسكن في منزل وحيدا فتسكنين معه حتى تكف الحكومة عنه ، ومهدي لي معزة خاصة في قلبه ، ومهما أطلب منه ينـفذ ، وأرجو من الله تعالى أن يتم هذا الزواج يا فوز ! فأنت تستحقين كل خير ومساعدة .. والحمد لله أنّ أباك موافق على زواجك ممن تختارين ، ولا يريد أن ينظر لمال أو غنى أو فقر.. ومهدي شاب جامعي فهو مهندس .. ومشكلته مع الحكومة سوف تنتهي بإذن الله .

وتعانقت الفتاتان ، ومسحت فوز ما تساقط على وجنيتها من دمع ، وبعد أن صلت فوز العشاء جماعة مع هند ، غادرت عائدة لمنزلها ، وقد خفت الثورة التي في قلبها التائب إلى مولاه عز وجل .

بعد توديعها لصديقتها الجديدة عادت هند لحجرتها ، وقد استغرقتها مشكلة فوز وأهمتها المشكلة ، وشغلتها عن واجباتها الأخرى ، وكانت مستغربة لموقف أسرتها القاسي معها، ورعبهم من توبتها وإسلامها مع أنهم يحملون اسم المسلمين على كواهلهم وأوراقهم الرسمية، حتى أنهم يرغبون بتسفيرها خارج البلاد ، أو تزويجها بأسرع حين لئلا يشاهدونها تعبد الله وتسمع كتاب الله .. يخافون إيمانها؛ كأنها وباء أصاب البيت .. ألهذا الحد يصل النفور من الإسلام عند هؤلاء القوم ؟! لماذا يبغضون الدين ؟! أهذه هي العلمانية والحرية الفردية التي يترنمون ويتغنون بها ليل نهار؟! كان من الأجدر أن يروا ذلك نورا بزغ وأشرق في بيتهم وساحتهم .. هل الانغماس في اللهو والموبقات يفعل كل هذا الكره للدين ؟!

ولكن الناس في هذا الزمن يصدر منهم العجب العجاب من الغرائب والأفعال والأحوال، وعندما تتحدث وتتحاور مع هذه الأنواع من البشر.. وتكلمهم عن الحرية وحرية العبادة والاعتقاد يردون عليك بصلف " أن التدين يشكل خطرا على العلمانية والحرية والديمقراطية والفن " .. لماذا ؟!

ها هم الغربيون الذين يقلدهم هؤلاء الناس ، ويتبعونهم يسمحون للناس بالعبادة وزيارة المعابد والتردد عليها وإظهار شعائر أديانهم إلا في بلاد المسلمين يشكل التدين خطرا على الحرية !

ودارت في ذهنها ودماغها أفكار كثيرة ثم همست بصوت منخفض : أيقبل مهدي بالزواج وهو في مثل هذا الظرف؟! أيقبل بالزواج من الآنسة فوز سامي؟! هل هي الزوجة المناسبة للمهندس مهدي يا هند ؟! .. فتاة مثلها وفي سنها تترك الملذات والمال تستحق المساعدة .. كل المساعدة .. تستحق أن نقف معها ونشد أزرها .. حبيبتي فوز .. ألقيت حملك عليّ ..لماذا لا يتزوج ؟! ألم ينتهِ من الدراسة ؟ وهل يجب ويلزم العمل قبل الزواج ؟ .. وأمر الحكومة والاختباء سينتهي كما انتهى غيره من الاختباء والاختفاء .. وعندما يعتقل كما اعتقل كثيرا

من المرات سيحبس بضعة شهور وينتهي الأمر .

هل هو الزوج المناسب لفوز؟ ربما قبلت اضطرارا وخجلا مني .. فهو شاب يحمل فكرا حركيا يسعى بقوة واندفاع نحو عودة الحياة الإسلامية للمجتمعات الإسلامية .. وكثير من شباب الإسلام في الشرق والغرب يسعون لهذا الهدف .. مجتمعات تعج بالأحزاب العلمانية من قومية واشتراكية لماذا لا يكون هناك أحزاب إسلامية ؟!

أمضت الفتاة ساعة أو أكثر وهي تدرس موضوع اقتران مهدي وفوز .. فظروف مهدي هذه الأيام صعبة وقلقة .. وفوز تمر في ظرف غريب وصعب إما التخلي عن التدين وإما الزواج .. فوز فتاة تابت من عهد حديث وهي بحاجة للدعم .. ولكن هل تناسب مهديا المتمسك بدينه وصلاته منذ نعومة أظفاره ؟.. أخي مهدي يسمع كلامي وآرائي .. وفوز طيبة ومحبة للتدين والدعوة رغم حداثة التزامها بأمر الله ونهيه.. لقد تركت كل هذا الإغراء والمدنية وراء ظهرها وتمسكت بالإسلام .. إنها تريد الإسلام الحقيقي .. لقد كانت سنة عاصفة ومهمة في حياتها .. صحيح أن مرض صديقتها جميلة وموتها أثرا فيها ودفعاها للتفكير بالمرض والموت والبحث عن السعادة الحقيقية ؛ ولكن تأثيرها بعد كل هذه الشهور لابد أنه خف وضعف .. فكم يمرض من الناس يوميا ؟ وكم يدفنون من الموتى ؟! .. إنها تريد الله سبحانه ! ..فزواجها من مهدي سيساعدها كثيرا في الثبات والقبض على دينها .. الفتن كقطع الليل المظلم .. ولكن المشكلة ظروف مهدي وصراعه مع النظام والأمن

اتصلت بأخيها معتصم وطلبت منه إذا اتصل به مهدي أن يتصل بها لأمر هام ومثير .. والتقت هند بأخيها مهدي في منزل إحدى خالتها ، وترك لهم محمد ابن خالتهم حجرته ، فشرحت له سبب هذا اللقاء المهم والمشكلة التي تحاول حلها ، ورغبته بالاقتران من فوز وبينت له أن القضية ليست قضية شفقة وعطف .. والعرسان لدى والدها كثر؛ ولكنها ترغب بزوج صاحب خلق ودين لتحافظ على توبتها ودينها وأخلاقها .. وأنها قد ألقت حملها على هند ورأت فيها الصديقة التي تستطيع مساعدتها والوقوف بجانبها في هذه المحنة والتحدي ..

وأبوها لم يشرط عليها إلا أن يكون العريس متخرجا من جامعة فقط .. وعندما يعلم الرجل باختيارها لمهدي سيقبل باختيار ابنته .

قال مهدي : ومشكلتي مع البوليس السري ؟

ـ فوز تعرف ذلك .. ولم تعترض على اختياري لك ، ولا على ظروفك .. إنما استبعدت قبولك أنت الملتزم والمتشدد في نظرها ونظر الكثير في الرضا بها قرينة .. الوضع ليس طبيعيا مائة بالمائة .. وبعد مناقشة الأمر من جوانب مختلفة .. والحديث عن حياته المضطربة هذه الأيام ، وقد يعاقب ويحبس هذه المرة أكثر من المرات السابقة .. وهونت عليه هند الأمر ، وأنها ستضع فوزا بالصورة القاتمة.. وأن المشاكل مع الأمن السري ستنهي يوما ما ، وأن الزواج مصير الكائن الحي ، وأن هذه الظروف لا تقف عائقا أمام مشروح الزواج العاجل.. وفي نهاية اللقاء استسلم مهدي لأفكار هند بالزواج من فوز في هذه الظروف .. وتناولوا الغداء مع خالتهم وابنها محمد الشاب الذي يدرس هو الآخر في كلية الهندسة .. ولما عرض الموضوع على محمد ، شجع بدوره مهديا على الزواج رغم ظرفه وقال أيضا : فوز فتاة شجاعة بما سمعت منكم عنها .. فهجر مغريات الدنيا في بيئة كبيئتها شجاعة يا مهدي .. وإن كنت تخشى ما يسمونه المستقبل ففوز لم تتلوث كثيرا ببيئتها .. فمن كلام هند عنها فهي جادة في الابتعاد عن حياة وطباع والديها وجيرانها .. فلا أعتقد أن هندا تتحدث عنها بعاطفة فحسب .

قالت هند : والله أنا أحببتها في الله عزّ وجل .. وأتمنى لها كل الخير.. ولم يخطر في بالي أن تكون زوجة لأخي الفاضل .. ولكن تسارع الأحداث بهذه العجلة ولجوئها إليّ ، ودموعها بين يديّ كل هذا دفعني لعرض الموضوع على مهدي .. فأنا صحيح أعرف كثيرا من الفتيات والصاحبات ولكني لا أعرف إخوانهن .. ولم يخطر في بالي لحظتها إلا مهديا .. فحدثتها عنه فسرت ، ولم ترفض بل وافقت وقالت " متى يكون رده ؟! "

فضحك محمد وقال: هذا من حبها وتقديرها لك يا هند .. لا أحد يتعرف عليك ويكرهك .. كلنا يعرف علم هند وتدينها وثقافتها .

هذا ما فعلته هند بعد أن انصرفت من عندها صديقتها فوز التي رمت حملها على هند ، أما ما حدث لفوز بعد لقائها الأخير بهند ، فقد دخلت عليها شادية في الصباح التالي ـ بعد انطلاق سامي سبل إلى مكان عمله ـ دخلت حجرة ابنتها فوز فوجدتها تقرأ القرآن ، فألقت عليها تحية الصباح ، ثم جلست على كرسي في غرفة فوز الخاصة ، فأغلقت فوز المصحف ، ورحبت بوالدتها ، وأخذت بالاستماع لحديث والدتها التي قالت : لقد اعتذر والدك للأستاذ عمار عن الزواج أمس ، وذلك بعد أن بين له رفضك الشديد ، وأن ابنه يتعاطى المخدرات القاتلة ، فأنكر الأستاذ عمار أولا ثم اعترف أنّ ولده أدمن عليها فترة ، ثم أقسم لأبيك أنّه تركها وما عاد يتعاطها ؛ ولكن أباك تمسك بالرفض والاعتذار ، وأنه عندما وافق مبدئيا كان يجهل ذلك الأمر .. وتعلمين أنّه فعل ذلك من أجل أن ترضي عنا .. وأنت ماذا فعلت ؟.

وضعت فوز المصحف الذي بين يديها على مكتبها وردت على أمها فقالت: أمي!.. أما فكرت يوما بالتوبة يا أماه؟!..أما فكرت بترك حياة اللهو والمجون؟!

فصاحت الأم بغيظ: فات الأوان يا بنيتي! يكفي أننا تركناك تفعلين ما تشائين، ونحن نريد أن نثبت لك أننا مع حرية المرأة الكاملة ، ورخصنا لك باختيار زوجك هل دبرت أمرك ؟.. نريد أن نتخلص من هذه المشكلة قبل مجيء سميرة وابن خالك فارس الدكتور مازن .

قالت فوز: أنتم الذين صنعتم من التزامي بديننا مشكلة ؛ كأنني دخلت في الإسلام من جديد نعم يا أمي! الحمد لله ، دبرت أمري ، وكلمت صديقتي هندا في الموضوع .. فلها أخ متدين جدا وهو متعلم .. مهندس قد تخرج حديثا منذ أشهر يسيرة .. ووعدتني هند بأنها سترتب الأمر معه ، وأرجو من الله أن يوافق ، فهو شاب شجاع وجريء ، ويقربني من هند أكثر.. آه يا أمي! كم أحببت هذه الفتاة !

تنهدت الأم وقالت: آه! .. وكم أكرها وأبغضها وأحقد عليها! لأنها سبب فسادك وتمردك علينا .

فابتسمت فوز وقالت: ألانها أنقذتني من النار؟! أتحبين أن أكون وقودا لنار جهنم يا أمي ؟!
قالت شادية وهي تصر على أسنانها : أيٌّ تفكير تفكرين ؟! كيف تفكرين يا فوز؟!
قالت فوز : هناك حساب بعد الموت ، ولمَ تهربين من الحقيقة ؟!
هزت الأم كتفيها ثم رسمت ابتسامة على وجهها ؛ وكأنها فطنت لشيء خفي من اختيار فوز لشقيق هند : فوز ! ألم ترتبي الأمر مع هذا المهندس من قبل ؟! .. ألا يوجد بينك وبين هذا الشاب علاقة عاطفية ؟! حكاية ما ، وهي التي غيرتك وبدلتك وقلبت كيانك .
قطعت فوز استرسال أمها بالكلام والشك والاتهام قائلة : لا ، يا أمي ! .. لم أتب من أجل أن أصل لقلبه .. بل والذي خلقني وخلقك ما رأيته إلا مرتين ، وما تكلمت معه أبدا ولو كلمة واحدة .. وأجلوا أمر الزواج ، وأنا سأعتذر لهند وله ؛ لأثبت لك أنني لا أهتم بالزواج الآن ، بل أنا أنتظر رده .
فقالت الأم بسرعة وبكشرة : لا تفعلي ذلك .. فأبوك يريد أن ينتهي من الموضوع بسرعة ، فهو متضايق منك جدا .. المهم رضاك علينا ، والزواج أبوك مصمم عليه ؛ لأنه يئس من عودتك لحياة المرح والفرح والرحلات .. فأي إنسان ترينه مناسبا لك ..فنحن موافقون عليه .. نحن يا فوز! لسنا قساة القلوب ، ولكن نمط الحياة التي تعودنا عليها منذ أربعين سنة ، لا يمكن تغييرها من أجل صدمة أثرت عليك ، فكم من الصديقات مرضن بالسرطان وغيره ، أو متن بحادث سير مرعب ، فلم يؤثر فينا ذلك إلا بضعة أيام ، وعدنا للحياة ، فوالدي العزيز مات بسرطان الكبد من كثرة ما شرب من الكحول ، ثم نسيناه ، فالفرح والمتعة أفضل من الحزن واليأس من الحياة .
همست فوز قائلة : الدين لا يمنع الفرح والمتعة ، ولا يقيد الحرية كما يشاع ..ألا تؤمنون بالآخرة ؟! الدنيا تحتاج والحياة الثانية تحتاج .. ربنا طلب منا ألا ننس نصيبنا وحظنا من الدنيا هناك زواج ، فلماذا الزنا ؟! وهناك الشراب المباح ، فلم الخمر ؟! هناك الطيبات ، فلم الخبائث؟! .. فالمؤمن ليس أنانيا ، فهو كما يحب الخير لنفسه ، عليه أن يحبه للآخرين ، فأنا

أحب لكم الخير والفوز برضا الله .. ألستم أبواي ؟!

ردت الأم بغير مبالاة كطبيعتها التي تأقلمت وتكيفت عليها : لا تشغلي قلبك علينا ، نحن اخترنا طريقنا وحياتنا، ونحن لن نتخلى عنك ، فستبقين ابنتنا الغالية، فاحيي حياتك كما تشائين وترغبين ، ونحن نعيش حياتنا كما نشاء ونشتهي.. متى سترد عليك الآنسة هند هذه ؟

قالت فوز : اخبري أبي أن الأمر سينتهي قريبا .. أنا متألم ومتضايق للغاية من تصرفكم ، وأكره حياتكم الماجنة وضلالكم .

أجابت شادية بجفاء : لو تركت هذه الخزعبلات التي تمارسينها ، لما جرى ما جرى ، ولا يهمنا كرهك لحياتنا وفسقنا كما تقولين، كلٌ يحيا الحياة التي يرتاح إليها، وعلى الصورة التي تعجبه ويحبها .

وتركت الأم غرفة ابنتها ، واتصلت بزوجها واختصرت له ما فعلته فوز، وعند الغروب تلقت فوز مكالمة هاتفية من صديقتها "هند مروان" تزف لها الموافقة والبشرى ، واستعداد مهدي للزواج رغم الظروف الصعبة المحيطة به ، واتفقتا على يوم يتعارفون فيه ، ويتحدثون مع والدها في الموضوع ، ليتم ترتيب يوم عقد الزواج والزفاف .

ولقد قام مهدي وأخوه معتصم وزوجته أم محمود وأخوهم الكبير محمد وزوجته وهند بزيارة ليلية إلى بيت السيد سامي ، وجرى التعارف بين سامي وصهره مهدي ، ورحب بهم الرجل ترحيبا كبيرا ، وأبدى الدكتور سامي ترحيبه الكبير بمهدي وأخويه ، وبارك له هذا الزواج ، واعتبر اختيار فوز لهذا الشاب اختيارا موفقا ، فهو في قرارة نفسه كان يخشى أن تأتيه بشاب غير متعلم في جامعة فقير معدم طامع بثروته ؛ ولكنه لما تعرف عليهم سر لاختيار هند وفوز ، وخلال أيام قليلة التقوا أمام إحدى المحاكم الشرعية ، وعلى يد قاضي المحكمة تم عقد القران حسب الأصول والأنظمة المرعية ، وتقرر أن يقوم أهل فوز بحفل عائلي متواضع جداً ، حفلة وداع لفوز مساء يوم اتفقوا عليه ، ثم يأتي المهدي ومعه عدد يسير من السيارات ، ويأخذون العروس من غير صفير وتصفيق ، ومن غير ضجة وضجيج ، وبدون أبواق ونفير بناء على

رغبة العروسين .

ولما علم أقارب سامي بهذا الزواج الغريب والعاجل دهشوا ، وتقولوا حوله الأقاويل ، واعتبروه زواجا سريا وشاذا ، فهم كانوا يرون الدكتور سامي يحتفل بعيد ميلاد فوز سنويا في فندق ذي خمسة نجوم أو نادي خاص ، وجن جنونه عندما رفضت فوز الاحتفال بعيد ميلادها العام الماضي ، واعتبرت فوز هذا الاحتفال تقليدا للغرب ومحاكاة للنصارى ، ولم يفعله المسلمون الأوائل .

ولقد جهز المهندس مهدي مروان بيته المستأجر بالأثاث المناسب ؛ وذلك بمساعدة والده وإخوته للظروف التي تلم به، وقد أحس بها القراء في مطلع القصة، وفي مساء يوم الخميس ، بعد صلاة العشاء ، خرجت ثلاث سيارات صغيرة من بيت مروان والد مهدي ، تحمل أفرادا من أسرة مروان لإحضار العروس من بيت والدها لبيت الحاج مروان ؛ ليتم الاحتفال بالزواج ، ثم ترسل العروس بعد الاحتفال لمنزل مهدي المستأجر ، وقد خطط ليكون حفلا بهيجا من أجل خاطر فوز ، وستقوم صديقات هند وأهلها بالواجب .

ولما ابتعدت السيارات عن منزل الحاج مروان ، غيرت إحدى السيارات طريقها نحو مسكن مهدي المختفي فيه عن عيون رجال الأمن السري ، فوجد سائق السيارة التي غيرت خط سيرها باتجاه منزل مهدي مهديا في انتظاره ، فحيا مهدي ابن عمه مالك عبد العزيز الذي طمأنه أنّ الأمور تسير على خير ما يرام ، فشكره مهدي ، ولحقوا بالسيارتين الأخريين قبل وصولهما لقصر الدكتور سامي ، وهناك أمام القصر الكبير وقفت السيارات ، فهبط معتصم وزوجته ، وأخوه هلال وزوجته سماء من السيارة الأولى ، ونزلت من السيارة الثانية هند وأحد إخوتها وبعض أخواتها ، ونزل من السيارة الثالثة مهدي وابن عمه مالك ، ودخلوا القصر ، وكان في استقبالهم الدكتور سامي المالي الكبير ، وكان معه في الاستقبال شقيقه سمير، وتقدمهم الدكتور إلى قاعة واسعة في القصر حيث يجلس ضيوفه من الأقارب والأصدقاء المقربين ، وصعدت هند والنساء اللواتي برفقتها إلى الطابق الثاني حيث تحتفل شادية ولفيف

من النساء بوداع العروس .

وقد قام سامي أمام لفيف الأقرباء بتعريف سريع للمهندس مهدي مروان ، وبارك له الأقارب والمدعوون بهذا الزوج ، وتمنوا لهم التوفيق والسعادة ، وبعد أن شربوا قهوة العرس ، كانت النساء قد هبطت من الطابق العلوي وهن يمشين خلف العروس الجميلة التي كانت تمسك بيد هند ، ولما صرن في القاعة الكبيرة وقفن برهة من الزمن يودعن فوزا ، ويدعون لها بالبركة والتوفيق ، ويباركن لأمها بهذه المناسبة التي ما رؤيت باسمة خلال ذلك الحفل .

ووقف مهدي وإخوانه يشكرون الدكتور سامي وأقاربه، ويتهيئون للخروج، عندما تقدم رجل أشيب فجأة مندفعا نحو مهدي ، ووضع يده على كتف مهدي أمام دهشة الجميع ، وهو يقول بتوتر ووجه عابس : أنت كما قيل منذ دقائق تدعى مهدي مروان .. طالب في كلية الهندسة وكان تخرجك قبل شهور .. أليس كذلك ؟

التفت إليه الجميع واجمين ، وقد خيم السكون على المكان ، وقال مهدي بهدوء : نعم يا سيدي أنا هو المذكور ؟!

فقال الرجل الأشيب بصوت عال نوع ما ، ومسموع لكل من في القاعة ذكورا كانوا أو إناثا : أنا العميد زكريا داود من مرتب الأمن السري .. ألقي القبض عليك باسم الحاكم الكبير للقطر لإثارتك الشغب وإهانة السلطات والحكومة .

ثم صاح بصوت مزعج وبانفعال شديد : أيها الناس ! هذا رجل مطارد ، ولنا مدة نبحث عنه ارتبك الحاضرون للمفاجأة ، وظهر الذعر والقلق على هذا الحفل المتواضع فقال مهدي بهدوء أعصاب : أتريد القبض عليّ .. أنا بين يديك ؟!

طلب العميد زكريا من ابنه أن يتصل برقم ما على الفور ، ويطلب سيارة أمن لاعتقال الشاب ، وكان سامي في غاية التوتر والقلق والحنق لهذه المفاجأة ، وكان ينظر لفوز بحنق وغضب يكاد أن ينفجر في الجميع

وفجأة تركت فوز يد هند وقالت العروس أمام ارتباك الحاضرين: أيها السادة ! هذا زوجي

أولا ، وأنا أعرف أنه مطارد من رجال الأمن والشرطة .. أتعرفون لماذا هو مطارد؟.. لأنه يطالب هو وثلة من أصدقائه حاكمنا العتيد بتطبيق شريعة الله على العباد .. هو ليس لصا أو مرابيا أو سكيرا أو متعاطيا للهيروين ..إنه شريف يقول الله ربي .

فقالت هند متأثرة بدفاع فوز ومعجبة بها وبشجاعتها : أحسنت يا فوز! وبوركت من الرب عزّ وجل ، وجزاك الله خيرا .

وهنا قال مهدي بصوت مرتفع : يا فوز ! اذهبي مع أهلي ، فأنت زوجتي ، وأنـتم يا معتصم! أتموا الفرح وحفل الزواج كأنني بينكم ، ولن تطول غيبتي ـ إن شاء الله ـ في مظالم وظلام هؤلاء الأتباع ..هيا خذوا فوزا وانصرفوا .

لم يتكلم والد فوز بل لزم الصمت ، وخرجت فوز والأخوة أمام صمت وذهول الجميع ، وركبت فوز مع هند ، وفي ذلك الحين وصلت سيارات الأمن ، وقبل أن يبتعد أهل العريس بعروسهم ، كان ضابط الأمن الذي اقتحم شقة معتصم منذ أسابيع يترجل من سيارته ، ويستلم مهديا من العميد زكريا وهو في غاية الدهشة مما جرى ، وتمنى النقيب ساري كما همس في أذن مهدي "أن لا يكون قد قبض عليه في يوم كهذا" .

وأدرك الضابط أن الصحافة أو صحافة المعارضة ستعمل من الحدث دراما ، يتحدث عنها الناس أياما وليالي ، وسيكتبون مانشتات صحفية مثيرة .



كان والد مهدي الحاج مروان قد أمر بتجهيز غرفة مهدي في بيته الكبير لتسكن فيها العروس ، حتى يخرج مهدي من معتقله ، ومع ما كانت فيه العائلة الكبيرة من ضيق وهم من اعتقاله وتوقيفه ، فقد كانوا مسرورين من عروسه ومن شجاعتها وثباتها ؛ فإنها لم تحاول البقاء في بيت والدها ريثما يخرج الزوج المعتقل .. أما هم فقد اعتادوا على المضايقات التي تحصل لهم بسبب نشاط مهدي وحماسه نحو الدعوة إلى عودة الحياة الإسلامية في المجتمعات المسلمة ، وبروز أحكام الشريعة الغراء في حياة الناس، والابتعاد عن مظاهر محاكاة وتقليد الكفار والغرب.

استقبلت فوز وفدا من طالبات كليتها أتين لتهنئتها بمناسبة زواجها من مهدي ، وكان من ضمن الوافدات أسماء قريبة هند كما يعرف القارئ المحترم ، فاستقبلتهن فوز في صالون البيت بيت والد مهدي .. وبعد الترحيب وتبادل التهاني المعتادة أخذن في الثرثرة حول ظروف هذا الزواج العاجل والذي جرى ليلة زفاف العروسين من القبض على العريس واعتقاله ، حتى أن إحدى الفتيات همست في أذن فوز قائلة : "إنهم يشيعون في الكلية والجامعة أن أهلك شاركوا في مؤامرة القبض على مهدي .. وبعضهم يتهمك بالتواطؤ في عملية الاعتقال!"

ضحكت فوز لهذه الإشاعة السخيفة وقالت معلقة وبصوت مسموع للفتيات الزميلات كلهن: وكان زواجي من مهدي مروان من ضمن اللعبة أو المؤامرة .. عقول سخيفة !.. الأمر حدث صدفة إذا جاز استخدام هذا التعبير .. قدر الله وما شاء فعل ..أصلا يا عزيزاتي أهلي لا يعلمون عن مهدي إلا أنه شاب متدين ، وأخ لهند ومتخرج حديثا من الجامعة ..لا يعلمون أنه من شباب الحزب الإسلامي .. على كل أنا سأعود للدوام والحضور مطلع الأسبوع القادم، وأسمع كل هذه الشائعات بنفسي .

فقالت أسماء : والله ألف مبارك يا عروس .. قصة زواج مثيرة .. لم تخبرينا بشيء قبل الزواج . أجابت فوز باسمة ومعتذرة في نفس الوقت : حدث الأمر بسرعة وعجلة .. وعتبك أنت

ليس عليّ إنما عتبك على هند ابن عمتك .. بل الأولى أن يكون على أختك سماء .. زوجة هلال

ضحكت أسماء وقالت: لقد سمعت بذلك في البيت ؛ ولكني لزمت الصمت لظرف مهدي ؛ ولانشغالك بالتجهيز ؛ ولكثرة غيابك خلال الأسبوع الفائت .. أين هند؟ .. كل هؤلاء الحسناوات أتين للتهنئة أولا ثم لرؤية الأخت هند والتعرف عليها.

قالت فوز: أهلا وسهلا .. أخبرتها بأمر هذه الزيارة ، وهي مع عمتي مشغولة بالمطبخ وستأتي بإذن الله .. يا مرحبا بصديقات الكلية .

قالت أسماء وهي تنهض قائمة : اسمحن لي أيتهن الزميلات بالدخول للسلام على عمتي .

وانصرفت للسلام على عمتها أم محمد والدة مهدي .

ولما عاد الهدوء للغرفة قالت إحدى الفتيات : إن شاء الله ، يا فوز ! أن تكون حياة سعيدة ، متى الغداء لقد شبعنا من هذه الفواكه .. لقد أنبأتنا أسماء بأنك هيأت لنا غداء خاصا .

كانت فوز قد أعدت الفاكهة والعصير والقهوة المرة ووضعتها في الصالون قبل مجيء صويحباتها حتى لا تنشغل عن صاحباتها بالذهاب والإياب لإحضار الضيافة والشراب .. كررت فوز الترحيب بهن ثانية وهي باسمة المحيا وقالت : سنتغدى إن شاء الله .. اصبرن رويدا !

ردت الفتاة التي استعجلت الغداء : إنني يا فوز مستعجلة في الانصراف لشأن .. فهذا ما دفعني للحديث عن الأكل.. وأنا لم أحب التخلف عن هذا اللقاء الجميل.

فقالت فوز : الشكر لكنّ جميعا .. اصبري قليلا .. ألا تحبين أن تري هندا ؟

وأخذت فوز تحدثهن عن قصة زواجها العاجل وملابسات هذا الزواج ، وبينما هن يصغين لحديث فوز دخلت عليهن هند تحمل عددا من الأطباق الفارغة فقمن يرحبن بها ، ووضعت هند أطباق الطعام على مائدة كبيرة ، واستدارت ترحب وتسلم عليهن بعد أن أخبرتهن فوز قائلة وقد بدت مسرورة من وجود هند: هذه هي العزيزة هند .. حبيبتي هند !

فتعرفت عليهن هند ، وأظهرت شكرها وامتنانها لهن على مجيئهن ، ودعتهن لأكل المزيد من

الفاكهة ، وبينت لهن محاسن تقديم أكل الفاكهة على الطعام ، واختصرت لهن آداب الطعام والضيافة في الإسلام والسنة ، وذكرت لهن طعام أهل الجنة ولباس أهل الجنة ونعيم الجنة باختصار مبين .. فهند فتاة تجعل من كل مجلس لها مع الناس مجلس دعوة وعلم وتذكير .. وفوز مسرورة منها ، وتعرف هذا الأسلوب منها ، فكانت تبتسم رغم المحنة التي تحيط بها .. وتحدثت هند في ذلك الموضوع مدة عشر دقائق ، كان فيها من التشويق والترغيب مما أسال اللعاب إلى تلك الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ..

وأقبلت أم محمد تحمل بعض الطعام وخلفها أسماء تحمل المزيد منه ، وخلال دقائق كانت الأفواه تشتغل بأكل الطيبات ، وقد تعرفن على حماة فوز السيدة أم محمد خلال تناول الطعام التي سرها اللقاء بهنّ وتمنت لهن السعادة في الدارين .

ولما انتهين من الطعام وفرغن منه ، قالت لهن هند ضاحكة : الآن اسمعن أيتهن العزيزات الغاليات هذه الحكمة ..

فالتفتن إليها مصغيات ، فقالت وما زالت باسمة الوجه: يروى أن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال لابنه الحسن ـ رضي الله عنه ـ يوما: " لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ، وقم عنه ونفسك تشتهيه ، وجود المضغ ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء (الحمام) .. ، فإذا استعملت هذا ، استغنيت عن الطب " .. هذا نصيحة بهذه المناسبة ، وأنا لم أقلها حتى فرغتن من الطعام ، حتى لا تقلن إن هندا روت لنا هذه النصيحة حتى لا نأكل كثيرا ونشبع بسرعة .. وتتهمنني بالدعوة للبخل .

فسرى بينهن الضحك والبسمات وقالت إحداهن : والله مشكورة يا هند .. أنت فتاة دمثة .. أنا اعبر لك عن امتناني لكم وإعجابي بك وبفوز .

وأخذ الحديث هذا المجرى حتى فرغن من نقل الصحون والأوعية للمطبخ ، وعادت هند بهن للإسلام والتمسك به والعمل بتعاليمه الثمينة .

ورجعت فوز للدوام في الجامعة ، وقد مرت أيام وأيام على اعتقال مهدي ، وهو قابع في سجن

الأمن السري ، حتى ينتهوا من التحقيق معه ، وقد منعوا عنه زيارة الأهل والمحامين ، وذات مساء كانت هند وفوز جالستين تتحدثان في الأمر.

فقالت هند : أتذكرين أول مرة التقينا فيها يا فوز !..كنت تجلسين على حافة سيارتك ، تتكلمين مع ابنة خالي أسماء ، وقد التقينا في ذاك اليوم بتقدير من الله يا عزيزتي ! هل كنت تظنين أنك ستصبحين من أسرتنا وزوجة لأخي مهدي؟! إنّ قدر الله فيه العجب العجاب .

فهمست فوز وكانت ساهمة النظر والفكر ، تفكر في ذاك اليوم الذي التقت به بهند لأول مرة ، وتفكر بزوجها القابع في سجن الأمن الخاص : مسكين مهدي ! .. نحن نجلس على الفراش الوثير ، وهو الآن مطروح في زنازين النظام الحاكم ..

وتابعت تقول كأنها مواسية لنفسها : ولكن على المرء أن لا يكره شيئا " رب ضارة نافعة " كما يقول المثل ..

ثم عادت لما سمعت من هند فقالت : يا هند! إنّ اللحظات التي تذكرينني بها لا أنساها أبدا ؛ ذاك يوم أصبح خالدا في مسيرة عمري ، لقد كنت في ضياع وحيرة .. الإنسان لا يحيا من غير غذاء الروح .. فأنا أرى أنّ أكثر الناس الضالين يلجئون للخمور والمسكرات للفراغ الروحي الذي يعانون منه ، ولضعفهم أمام معالجة مشاكلهم في الحياة .. أختي العزيزة هند! لقد اتصلت بي أمي أمس ، وباركت لي زواجي بعد كل هذه المدة من الحرد ، وأخبرتني أنّ أختي الكبيرة سميرة قد تصل الليلة من باريس ، فهي قد وصلت إليها بصحبة ابن خالي قادمين من أمريكا .

قالت هند : بالسلامة إن شاء الله تعالى .. كيف حال والدتك يا فوز ؟!

ابتسمت فوز وقالت: تقول إنها بخير ، ولا أدري ما هو الخير الذي ينشدونه من حياتهم! .. هداهم الله ، وأخبرتني أيضا أنّ والدي طلب من أحد محاميّ المصرف الاهتمام بقضية مهدي ، وأن يتعاون مع المحامي الذي كلفه والدي العزيز الحاج مروان الأستاذ القانوني إسماعيل أبو حسن .

ردت هند : شكرا لوالدك العزيز .. لقد تعودنا ـ يا فوز ـ على حبس مهدي بين الحين والحين الآخر ، وأنت سوف تتعودين على هذه الآلام ؛ ولكنهم هذه المرة كما علمت من أبي قد يحاكمونه ، ولا يكتفون بتوقيفه بعض الوقت ، لقد أساءوا للحاكم مباشرة في ميدان الاحتفال الكبـير ، ورفعوا يافطات تطالب بتحكيم القوانين الإسلامية ؛ وذلك دون إذن إدارة الجامعة ، ووزعوا بيانا على المشاركين في الاحتفال يندد بالظلم ، وترك شريعة الله ، كان يوما مثيرا ، فبعض الشباب اتهموا الحاكم بموالاة الكفار، والتعاون معهم على سحق دعاة الإسلام ، ومهدي من زعماء الطلبة في ذلك اليوم الغريب ؛ ولكن لهم الله ، ولن يصيب المرء إلا ما كتبه له الله.

فأخذت فوز بالدعاء لمهدي بالصبر والثبات ، ثم قالت بعدئذ : أنت عزيزة على قلبي يا هند ! وأنا أحببتك في الله.. وأرجو أن تكوني معي صريحة .. هل يتضايق والداك من خروجي للتسليم على أختي ، ونحن نمر في هذه الظروف القاسية .. أرجوك أن تتكلمي بصراحة ومن دون حرج ؟.

تطلعت هند في عيني فوز برهة من الوقت ، وابتسمت لها ابتسامة واسعة ، وهتفت قائلة : أنت مؤدبة جدا يا فوز ! وألفاظك مختارة بدقة ، فعندما تذكرين أبي تصفينه بوالدك العزيز ، فهذا لطف وأدب كبير منك ، وعندما تذكرين زوجك الذي لم تختل به أكثر من بضع دقائق منذ أن تعارفتم تغرقين بالدعاء والابتهال له ؛ كأنك عاشرتيه منذ عشرات السنين ، حقيقة أنّ والديك أحسنا تربيتك على اللطف والمجاملة ، فقط الدين قصروا أن يغذوك به .

قالت فوز : شكرا هند .. الدين وحده هو الذي أدبني يا هند! وهو الذي حسن أخلاقي .. أيُّ تربية في لبس الملابس العارية؟! .. والاختلاط مع المراهقين ومشاركتهم في المسبح ، فأيّ تربية يا عزيزتي ؟! أنا تعلمت منك وحدك يا هند ! أنت قدوة حسنة للفتيات وتتكلمين بأدب وحساسية ورقة ...

قطعت هند استرسال فوز قائلة : بارك الله فيك دعيك مني ، فأنا أحبك في الله يا فوز!

وتعرفين ذلك منذ تصاحبنا ، وأما بالنسبة لاستفسارك عن ضيق الوالدين من خروجك للسلام على أختك ، فاعلمي يا أختي العزيزة ! أنك لم تعرفينا جيدا بعد ، نحن لا نتعامل بحساسية زائدة في حياتنا الاجتماعية وعلاقتنا مع الآخرين .. نحن علمنا الوالد منذ الصغر أن نـقدم حكم الله وحكم الرسول صلى الله عليه وسلم علي أي تقليد وعادة وعرف ؛ فلذلك قد تكون بعض تصرفاتنا قد بدت لك غريبة ؛ ولكنها موافقة لدين الإسلام .. فالإسلام لا يمنع الابن أو الابنة من طاعة ورعاية والديهما الكافرين فكيف بالعاصيين ؟!..اذهبي إليهما وزوريهما في كل وقت ترينه مناسبا ، وهذا كلام أبي وأمي .. وليس بالضرورة أن تشرفنا أسرتك بالزيارة لنسمح لك بزيارتهما ، لكل ظروفه وأحواله الخاصة .. هل لأن والديك لم يحضرا لتهنئتك بالزواج يغضبنا هذا ؟ .. صدقي يا أختي العزيزة ! أننا لا نعتب على والديك ولا نعتبر ذلك تقصيرا ، ولا نكرههما ، ولا نحقد عليهما .. فظروف هذا الزواج كما تعلمين كانت غريبة ، والتطورات التي جرت غريبة أيضا ، فالأمر غير عادي .. هيا بنا إلى حجرة الوالدين لتسمعي منهما ، واعلمي أنّ القبض على مهدي في منزل أبيك ، ومن قريب والدك العميد زكريا ليس ذنبك ، ولا ذنب أبيك ، ونحن متأكدون أن الأمر صدفة وقدر ، والأدق أنه تقدير الله سبحانه ، ولا نشك ولو يسيرا أن لك دورا في ذلك الأمر ، ولا لأبيك يا فوز ! وتأكدي أن مهديا يرى ذلك مثلنا يا فوز! وكان لابدّ من مسكه في يوم ما ، فهو مطارد كما تعلمين منذ آخر الفصل الماضي ، ونحن حمدنا الله كثيرا أن مشكلته مع الجامعة والنظام جرت بعد انتهائه من مواد الفصل ، وكان ذلك آخر فصل له في الجامعة .. ومهدي مسرور بك جدا مع أنه لم يجالسك إلا بضع دقائق ؛ ولكنه شكرني كثيرا على اختياري لك ، مع أنّ الظروف هي التي جمعت بينكما ، وقبل كل ذلك تدبير وقدرة الله تعالى .

قالت فوز وهي تنهض قائمة ، وقد مسحت دموعا تساقطت على وجهها تأثرا بكلمات صديقتها هند : كم أسر وأنا أسمع كلامك العظيم ! وأتمنى لك السعادة يا أختي ! ويسر لك المولى زوجا صالحا تقر به عيناك

ردت هند بحياء المرأة المسلمة : أشكرك .. هيا بنا لوالديّ ليطمئن قلبك، وتتأكدي أنهم مسرورون بك أيتها العزيزة ! ويحبونك محبة الآباء لذراريهم، ويقدرون شجاعتك وموقفك الكبير ليلة العرس !

رحب الوالدان بالفتاتين، وأبدى الشيخ الكبير أبو محمد وزوجته أشد الترحيب بفوز ، وقال الأب والبشر والفرح مرتسمان على وجهه ، ويلمعان في عينيه : أنت عزيزة وغالية علينا كلنا يا ابنتي! .. نحن قوم لا نحب التشاؤم ، فالذي حدث قدر من الله ، ونحن نؤمن بقدر الله ، فلا تنظري إلى نفسك وقدومك علينا نظرة شؤم ، حاشا لله يا بنيتي ! أن نتطير من دخولك علينا ، يكفي أنك خرجت معنا ، ولم تبق في بيت والدك ، وربما يحق لك ذلك ، فهذا موقف كبير عندنا ، فعزيزتنا هند حدثتنا عنك ، وعن أحوالك عندما عرضت علينا موضوع الزواج .. وهذا من فضل الله الكبير عليك أن انتشلك من ضلال الدنيا المفتوحة لك من أوسع أبوابها وحماك من فتنتها .. فنحن أهلك وعزوتك ، وكنت أود أن أقدم لك شيئا تسر به نفسك ونفوسنا ؛ ولكني كما علمت من هند تملكين الكثير منه ، وأعلمي يا بنيتي الغالية! .. أنّ مالي كله تحت تصرفك.. أتبكين يا ابنتي ؟!

سالت دموع فوز من جديد عندما لامست كلمات الحاج مروان قلبها ، ولمست الحنان الذي يكنه مروان لشخصها ، والسعادة التي يظهرها لها ، وأخذت الأم وهند تمسحان دموعها المتساقطة ، وأخذ الحاج بالثناء عليها ، وعلى شجاعتها ، ويدعو لها بالثبات على التوبة في هذا الزمان الصعب ، وأثناء سماع فوز لكلام والد زوجها قامت بتقبيل يده أكثر من مرة ، وهو يرجوها ألا تفعل ، وكذلك أبدت أم محمد حنانها ومشاعرها الصادقة وسعادتها لكنتها الجديدة .

ثم قال الأب منفعلا بالمشاعر التي ظهرت في هذه الجلسة الدافئة : سأهديك شقة يا بنيتي! في عمارتنا الواقعة في شارع البحر الأزرق ، عندما تزورون بيت أبي محمود سوف ترين العمارة التي تفضل الله علينا بإنشائها ، وعندما يخلي أي مستأجر شقته ستكون تحت تصرفك ،

وسأكتبها باسمك لتبقى ذكرى من عمك أبي محمد .

ازدادت فوز شكرا لعمها وقالت بحرارة وحياء : ما أكرمك يا عماه ! .. بوركت يا عماه! .. أنا لا أريد شققا ولا عمارات .. أنا لا يهمني إلا الإفراج عن زوجي وإسعاده ورؤيته بقربي .

فقالت الأم : بارك الله فيك يا ابنتي العزيزة ! وإن شاء الله ستفرحان وتسعدان بحياتكم ، ويهبكم الباري سبحانه البنين والبنات .

وابتهل الجميع بالدعاء لها ولزوجها ، وترضىّ عليهما الوالدان ، ولما انتهى الوالدان من حمد الله وشكره ، قالت هند : أبي الحبيب ! إنّ فوزا الرائعة ترغب بزيارة أهلها .

فقال الأب بعجلة ودهشة : وهل هناك ما يمنع من ذلك ؟!

قالت هند : هي ترى أنّ الظروف المحيطة بنا ، وأنها زوجة بلا زوج ، ترى في ذلك حرجا لنا .

قال مروان: أبدا يا ابنتي ! لا عليك ، ولا يوجد أيّ حرج .. فهؤلاء أهلك أمك وأبوك ، ففي أي وقت اذهبي لزيارتهما يا ابنتي !

قالت فوز : الصدق يا عماه ! أنا لست مشتاقة لهم ؛ ولكنّ لي أختا قادمة من أمريكا الشمالية ، قد تصل الليلة ، فأود التسليم عليها ، فهذا سبب الزيارة ، فلي زمن لم أرها .

ردت الحاجة أم محمد : لا حرج يا بنيتي ! زوري أختك وأمك وأهلك ، فنحن ليس بيننا وبين أهلك أيّ شحناء وبغضاء ، وليس لهم يد في القبض على مهدي، وكان لابدّ أن يمسكوه في يوم من الأيام .

قالت فوز : أشكركم جدا ؛ كأنكم تنطقون عن قلب واحد ، لقد خشيت أن أسبب لكم حرجا ، أولا للظروف التي أحاطت بزواجنا ، وثانيا لم جرى لمهدي في بيت والدي ، على يد قريبه ، وثالثا لغياب عزيزنا مهدي لنأخذ منه الأذن الشرعي بالخروج أليس كذلك يا هند ؟!

تبسمت هند ، وقال الأب : بارك الله فيك يا ابنتي ! ..الحق أنك ذكية ولطيفة وطيبة ، وأتمنى لك من كل قلبي السعادة الأبدية في الدنيا في حياتك معنا .

واستأذنت الفتاتان من الوالدين، وعلقت فوز وهما تمشيان نحو حجرة فوز : أهلك طيبون

جدا يا صديقتي !

ردت هند شاكرة: هذا من لطفك يا عزيزتي ! .. وسلمي لي على والدتك وأختك واطلبي منهم أن يسامحونا على الإزعاج الذي سببناه لهم .

تبسمت فوز ولم تعلق بشيء .



انطلقت فوز في ضحى النهار التالي بسيارتها إلى قصر والدها ، لتحيي وتسلم على أختها القادمة من بلاد الغرب ، فأختها سميرة بعد نجاحها في الثانوية ، أرسلها سامي لدراسة الطب في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، ولما التقت الأختان تعانقتا عناقا حارا وبعد الكلام التقليدي المعتاد في مثل هذا المقام ، قالت سميرة متبسمة الوجه في وجه أختها : أوه .. يا فوز! عندما كانت تحدثني أمك عن جلبابك وصلاتك ، كنت أقول لها " أظن يا أمي ! أنها نزوة عابرة أو سحابة صيف زائلة "، لقد كنت مشتاقا لسفرك إلينا ، لقد تغيرت كثيرا .. أنت تغيرت فعلا يا فوز المشاكسة ! ..

ثم قالت مقطبة الجبين: والزواج الغريب والعجيب الذي حدثتني عنه أمك ..لا أدري كيف ترضين بهذا الزواج أو بهذه الحياة ؟!..ما الذي جرى لك أيتها البنت؟!

فنهضت فوز قائمة تتمشى أمام أختها وهي تقول باسمة : ألست جميلة بهذا الثوب الذي يغطي جسدي؟!.. جسدي كله ، ويخفي محاسني عن عيون الناظرين المراهقين ..لا تبحلقي فيّ .. الحسن والجمال لم يخلق في المرأة ؛ ليكون عرضة لكل الناس .. هو هبة ربانية ، ومن حق الزوج وحده النظر إليه يا أختي! ما أجمل ديننا يا دكتورة !

ثم عادت للجلوس والتحديق في وجه أختها وأمها .

فقالت الدكتورة متجهمة: أمرك مدهش.. فوز عاشقة الملابس الحريرية الثمينة ، والأغاني الغربية تتخلى عن كل ذلك ؟!

أجابتها فوز بسرور وثقة : الحمد لله رب العالمين ، لقد أدركني الله قبل السقوط الكامل في مهاوي الإباحية والمدنية الغربية .. لقد اخترت طريقي واخترت زوجي .. وضميري الآن مرتاح كل الارتياح .. ما أصعب الفراغ الروحي ! ، وأتمنى لك أن تتعرفي على حياة الإيمان والصلاة .. وما أروع المناجاة للرحمن !!

قالت سميرة بجفاء ونفور: لا تتمني لي ذلك .. تمني لي إنهاء دراستي والتخصص في جراحة

القلب أو أي جراحة .. المهم أن أكون جراحة .. قليل من النساء من يتخصصن في الجراحة .. آه ! لو يراك مازن الآن لشبع منك سخرية وضحكا ؛ ولكنه مازال نائما ، ولا يحب أن يوقظه أحد

وتحدثت فوز مع أمها بضع دقائق ، وعادت تتحدث مع أختها ، وتسألها عن حياتها وأخبارها في الغرب الأمريكي ، فأخذت سميرة تتكلم عن الغرب والحياة في أمريكا بكل حماس وحمية ، وتصف الحياة هناك بأنها جنة عدن ، وأن حياة الشرق كلها ظلام وفقر وجهل وتخلف وأمراض ، وتنمية ضعيفة للبشر والبلاد ، وحكام لا يحترمون الحرية الفردية ، ولا يهتمون بها هدفهم الأمثل المحافظة على كراسي الحكم التي يتربعون عليها بالقوة ؛ وليس باختيار الشعب لهم ، فهم يذلون شعوبهم إذلالا .

ولما انتهت سميرة من مدح وبيان فضائل الغرب الأمريكي في نظرها ، وبينت عدالة الأنظمة والقوانين في تلك البلاد ، وتساوي الناس هناك أمام القوانين صغيرهم وكبيرهم .

ردت فوز قائلة ، فهي كانت تحمل قبل أقل من سنتين مثل هذه الأفكار: هذه مأساتنا نحن المسلمين، ندافع عن الغرب أكثر من الغربيين أنفسهم؛ لأننا لا نحاول أن نرى عورات المجتمعات الضالة ، فيوجد في كلامك حق ، وفيه باطل كثير .. فحياتنا كلها ظلام هذا ليس صحيحا ، فالمتمسكون بدين ربهم بإسلامهم يحيون في نور وسعادة ، والدين لا يمكن أن يكون ظلاما ، بل حياتي السابقة كلها ليل وغفلة ، هدفها الأسمى إماتة الوقت في لهو ومتع زائلة ، والحياة من أجل الحياة ، وهل لهذا خلق الإنسان؟!..

وأما الكفار مهما كان عندهم من نور الدنيا ، فهم في ظلام وحياة ضنكا ، وأما الفقر ففي أمريكا فقر وفقراء وجياع ، ومع قوة أدوات الحماية عندهم فالجرائم الكبيرة والصغيرة شائعة في مدنهم ، وكل يوم تتناقل وكالات الأنباء عن فظائع الأجرام هناك ، لا تنكري ذلك ، يكفي أن أغنياء تلك البلاد يمشون ولهم حراس أمنيون يتبعونهم في خطواتهم ، فأيّ حياة هذه الحياة ؟! العلم الأرضي هم حقا متقدمون فيه ، ولا يمكن إنكار تفوقهم بذلك ، وهناك أيضا دول

في آسيا متقدمة فيه مثلهم ، بل تنافسهم وتسبقهم في بعضه ، وأما تأخر المسلمين فيه فله أسباب متعددة ، من أهمها تبعيتهم لدول الاستكبار والاستعمار ، أما علوم الدين والنجاة من ظلام الدنيا ، فالمسلمون لهم السبق في ذلك ، فتراثنا فيه خيرات وميزات ، نجهل الكثير الكثير منها، وهناك الفرص متاحة للأفراد للتميز أكثر من هنا ؛ لصلاح أنظمتهم السياسية ، فقد ابتعدوا أو انتهوا من الثورات والانقلابات ، وأما تواريخهم الماضية فكلها ثورات وحروب عالمية ، وأما الأمراض فهم حقا متقدمون في علاجها ، وبلاد العرب لا تخلوا من تقدم فيها ، وعندهم أمراض وعندنا أمراض .. وأما ظلم الحكام فهذا لا ينكره أحد ، فما زالت بلاد العرب والمسلمين تعاني من تسلط الحكم الديكتاتوري ، وهذا سببه لعلمك الاستعمار والاستعباد الذي خيم على بلاد العرب والمسلمين ، وأكثر هؤلاء الأوصياء من بقاياه .. فإسلامنا العظيم ما زال في صدور الرجال والنساء فقط ، أما في واقع الناس فهو مغيب ، والأدلة كثيرة ، وأشهر هذه الأدلة أنّ المحاكم التي تحكم في قضايا الناس وحاجتهم مختلفة الأنواع والأسماء .

قالت سميرة سامي التي كانت تسمع لأختها هذا الكلام الكبير والطويل بانبهار شديد : والله يا فوز ! إنك تغيرت واستقام لسانك الأعوج .. أما زلت تحفظين أغاني الشرق والغرب ؟!

ردت فوز: أتسخرين مني؟ .. الحمد لله رب العالمين ، لقد نسيتها كلها ، وقد أبدلني الله خيرا منها ، فقد حفظت سورة البقرة والأجزاء الأخيرة من كلام ربنا من القرآن الكريم .

قالت سميرة : لقد ذكرتيني بفتاة زميلة لي في كلية الطب من أسرة مسلمة تقطن أمريكا ، وهي من أسرة متدينة ، وهي تحفظ كما تدعي القرآن الكريم ، وهي مثلك متحمسة لدينها ؛ بل كثير من فتيات الغرب في الجامعة صححن أفكارهن عن الإسلام بعد مجالستها ..

ثم رسمت سميرة ابتسامة ساخرة على وجهها ، وهي تلتفت إلى أمها الجالسة منذ بداية اللقاء بصمت وقالت : ألم تهدي أمك يا فوز؟!

قالت فوز: أدعو لها ولك بالهداية ، والهادي هو الله ، فالهداية والتوفيق بيده وحده ، يهدي من

يشاء إلى ملكوته ، نحن علينا بالدعاء والدعوة وبس .

وهنا قالت سميرة : والآن ، ما قصة زوجك المحبوس ؟!

ردت فوز : شاب متحمس لدينه ، يرغب أن يرى أحكام الشريعة تطبق على مجتمع المسلمين ، فمن أجل ذلك هو محبوس .

ونهضت قائمة وهي تقول: وأريد أن أستأذن، وسوف أتصل بك ، وأنا مستعد لاستقبالك في بيتي إذا رضي والداك .

قالت الأم معترضة على اقتراح فوز : لا داعي لذلك ، فها أنت قد رأيتها ، ولما تشتاقي إليها فالبيت مفتوح لك ، فهذه أول مرة تزورنا منذ تزوجت .

فقالت سميرة : ما دام زوجك البطل مسجونا ابقي عندنا .

ابتسمت فوز وهي تقول : آسف جدا يا أختي الدكتورة ! فلي بيت وأهل ، أتريدين أن أضايق أبي العزيز ؟!.

فقالت سميرة وهي تنظر إلى قسمات وجه والدتها : سوف أزورها يا أمي ! لأرى هندا صاحبتها التي كانت تحدثني عنها في بعض رسائلها الجميلة ، إنها تحب هندا كثيرا .

فقالت الأم بامتعاض : هذا الأمر لأبيك !

وخرجت سميرة تودع أختها الصغيرة ، ولما وصلتا باب القصر قالت: يا فوز ! لم تسلمي على ابن خالك .

قالت فوز : سأكلمه بالهاتف .

قالت سميرة وهي تصافح يد أختها وتشد عليها: أنا بشوق كبير إليك يا فوز! لعلك تقضين بضع ليال معنا .

قالت فوز: أبوك لا يرضى ، ولا يحب رؤيتي ومجالستي ؛ لأني أذكره بمعاصيه وآثامه ، حتى لم يدعوني لطعام منذ خرجت من هذا البيت ، وأنا أرحب بك في غرفتي الخاصة .

ضحكت سميرة لقول فوز "غرفتي الخاصة " وقالت : في غرفتك! أليس لك شقة ؟!

قالت فوز: لي شقة ؛ ولكنها مغلقة، وأنا الآن أعيش عند أهل زوجي المسجون ـ فك الله كربه ـ يا حبيبتي! على كل حال إذا وافق أبوك لك على زيارتي فاتصلي بي ، وأنا أرحب بك ، وأسرة مهدي يرحبون بك ، وسأطلب من حماتي العجوز الطيبة أن تصنع لك طعاما لذيذا ، لم نأكل مثله في كنف والدنا العزيز، استأذني والدك وأخبريني ، على الأقل تتعرفين على أهلي الجدد .. أناس يعرفون الحب الخالص .

قالت سميرة بمرح وحماس: سوف أفعل أيتها الحبيبة! .. إنك تحبينهم حبا ظاهرا عليك يا فوز!

ردت فوز: أناس طيبون! وبيئة إيمان راقية ، الكبير والصغير ملتزم بالإسلام قولا وفعلا بدون جبر وإكراه ، مجتمع صغير محافظ ، الكبير

يرى أنه قدوة للصغير والصغير يحاكي الكبير.

قالت سميرة وفوز تجلس في مقعد السيارة : أنت شجاعة! لقد انتصرت على هواك وشهوات الشباب وهوسه في هذا الزمن المغري .. الزمن الصعب !



حكم القاضي في قضية المهندس مهدي مروان ، بعد ستة شهور من اعتقاله والتحقيق معه ، بحبسه واعتقاله خمس سنوات مع التنفيذ ؛ لأثارته الشغب والفتن في مدرجات الجامعة ، ويبدأ تنفيذ الحكم منذ أول يوم أوقفته فيه أجهزة الأمن ، وتلقت فوز وأسرة مهدي الحكم بصبر، صبر المؤمنين ، صبر الابتلاء ، وما كاد والد فوز يصل إليه هذا الحكم في زوج ابنته حتى اتصل بها ، وعرض عليها أن تفارق زوجها السجين ، وتطلب الطلاق منه ، فرفضت العرض بشدة وغضب، وأصرت بالبقاء على ذمة زوجها المتحمس لدينه وإسلامه .

وكان مهدي قد علم قبل جلسة الحكم في قضيته من لقائه بمحاميه أن التهمة ثابتة ، وأنه مذنب ، فلذلك طلب فوزا ، وعرض عليها الفراق ؛ ولكنها رفضت فكرة الطلاق ، وأصرت على أن تبقى حليلته ، وأن تقف بجانبه ، وأن ما يتعرضان له ، هو من الابتلاء والمحنة المقدرة على عباد الله المؤمنين ، والله بين أنّ العاقبة للمتقين.

وحاولت أسرة فوز أمها وأختها إقناعها بالطلاق والخلاص مما تورطت فيه على حد قولهم ، وأرسلت لها أختها التي تتعلم في أمريكا رسالة تحثها على فراق زوجها ، والسفر إلى أمريكا ، أو العودة لبيت الأسرة ، بعد أن حاولت إقناعها بذلك العرض على الهاتف ، وأيضا والد مهدي لمح لها بعد صدور الحكم بالطلاق من ولده بمثل هذه الفكرة ؛ ولكنها قالت بعزيمة وثبات: أنا ما زلت على مقاعد الدراسة، ودعوني أبقى بينكم ، فقد أحببتكم ، ووجدت لديكم الدفء الأسري ، فلا تحرمونني من ذلك ، وهذا قدري ، ولن أتخلى عن مهدي إلا إذا كان هو لا يريدني ، وتخلى عني .

فأثنت الأسرة ثناء حسنا على الفتاة الشجاعة إزاء هذا الموقف الكريم ، وانشغلت فوز وهند في الأيام الأخيرة من دراستهما ، وهما تدعوان في جوف الليل وثلثه الأخير بأن يهون المولى سبحانه ظلم السجن وظلامه عن العزيز مهدي .

وأثناء تقديم فوز لاختبارات الفصل الأخير من الدراسة ، مرضت والدة فوز وعادت إليها

بعض الأوجاع التي عانت منها في الماضي ، وسافر بها والدها للعلاج في مشافي أمريكا ، وعندما كانت فوز تستقبل نتائج الدراسة والفصل الأخير وتتهيأ لحفل التخرج السنوي ، جاءها نعي أمها التي ماتت في تلك البلاد حيث ولدت قبل خمسين عاما ، ماتت وهي على ضلال وجهل ، فذرفت فوز عليها الدموع الغزيرة ، ودعت الدعوات الحارة من أجل روح أمها الهالكة ، وقد علمت فوز من رسالة تلقتها من أختها سميرة أنّ أمها ماتت وهي تود وترغب في رؤيتها ؛ ولكن والدها رفض تلبية هذه الرغبة ، وحال دون تحقيقها ، ومع صعوبة الداء الذي ألمّ بها ، كان يرى سامي أنّ الموت ما يزال بعيدا عنها ، ولا يعلم أنّ الأجل إذا جاء لا يتأخر ساعة ، ولو كان حول المريض مائة طبيب وممرض .

وقام أهل مهدي بمواساة وتعزية فوز والتخفيف من ألمها وحزنها ، وصبرت ورضيت بقدر الله ، ولما أهل العام الدراسي قدمت أوراقها اللازمة للعمل في إحدى المدارس الأهلية الكبرى ولما علم مالك المدرسة أنّ فوزا ابنة المالي الكبير السيد سامي سبل مدير أحد البنوك المهمة في البلد ، لم يتأخر في تعيينها في إحدى المدارس التي يملكها ، واندمجت الفتاة في وظيفتها .

وكانت فوز بعد سفر والدتها للعلاج في أمريكا قد خفت علاقتها بقصر أبيها ، ولقد أرسلت لها سميرة دعوة من واشنطن لمشاركتها في حفل تخرجها طبيبة ، وكذلك اعتذرت لأخيها فريد عندما دعاها لحفلة تخرجه من الكلية الشرطية ، وقد أصبح ضابطا برتبة ملازم ، ثم جاءت رسالة لفوز من سميرة تخبرها أنها قررت البقاء في أمريكا للعمل في أحد المستشفيات، ومتابعة الدراسات العليا ، والتخصص في طب القلب أو الكلى ، وعندما تزوج فريد من ابنة أحد الضباط ، دعيت فوز لحفل الزواج ، فاعتذرت عن المشاركة في الحفلة التي أقيمت في أحد الفنادق الكبار ، ثم بعد العرس بأيام ذهبت وباركت لأخيها وزوجته بزواجهما ، في بيت والدها الذي استقرا فيه ، وتمنت لهما السعادة والتوفيق .

وكانت تقضي وقتها بعد عودتها من المدرسة مع كتاب الله ، والأحاديث النبوية ، وأحيانا ترافق هندا في زياراتها لأخواتها أو أقاربها ، وكم شعرت بالألم والحزن مع فرحها الشديد لهند

عندما تزوجت وفارقت بيت والدها ! فقد تزوجها ابن عمها مالك عبد العزيز ، وما كادت تمضي الأيام حتى ولدت هند ، وفوز ما زالت تنتظر زوجها القابع في السجن بفارغ الصبر والرضى ، وبعد أن وهبت هند المولود الثاني بأيام ، خرج مهدي من السجن الذي أمضى فيه ما يقارب أربع سنوات ، وفرحت الأسرة الكبيرة بعودته بعد عذاب السجن .

ولكنه خرج وكله إيمان وقوة ، وقد تمكن من حفظ كتاب الله تعالى ومعرفة الكثير من تفسيره ، وقراءة الكثير من كتب الإسلام العظيمة ، وبعد أن انتهى من استقبال الأهل والأصحاب المهنئين بخروجه من الحبس ، انتقل للسكن في الشقة التي أهداها والده لفوز في عمارة البحر الأزرق .

وكانت فوز قد حفظت أكثر من نصف القرآن في فترة غياب زوجها في السجن ، الزوج الذي لم تجلس معه إلا بعض الوقت قبل الزواج ؛ ولكنها كانت ترى أنّ ذلك اختبار وامتحان لها من الله عز وجل ، فصبرت صبر الموحدين على الفراق ، ولما خرج مهدي من سجنه ، حمدت الله حمدا كبيرا وكثيرا ، ورأت أنّ السعادة قد أقبلت إليها من جديد .

****

بعد خروج مهدي من السجن بأشهر يسيرة جرت في البلاد فتنة ، فقد قام أحد أفراد الأحزاب العلمانية المتطرفة بمحاولة اغتيال أحد كبار رجال الحاكم ، فوجه الاتهام بادي الأمر لشباب الأحزاب الإسلامية ، واقتيد مهدي من شقته في جوف الليل إلى دائرة التحقيق ، ومكث فيها أسبوعين ، وهو يخضع لقسوة العذاب والإهانات والظلم ، حتى تمكن رجال الأمن والشرطة من الوصول إلى بعض المتهمين في محاولة القتل ، فأفرج عن مهدي وزملائه ، فبعد هذه الحادث الصادم قرر مهدي الخروج من وطنه إلى وطن فيه أمان وحرية أكثر.. فقد أصبح العاملون للإسلام في ظل الأنظمة الحاكمة في بلاد الإسلام موضع اتهام في كل ظرف وحين .. فتعاقد مع إحدى الشركات الكبرى في أحد الأقطار الإسلامية الغنية ، ولما استقر في عمله الجديد هنالك ، انتقلت إليه زوجته فوز ، وطابت لهم الأيام والهدوء في بلاد الغربة ..

وكانت تأتيهم أخبار الوطن المحروق ، فقد تولى مقاليد الحكم والسلطة فيه دعاة القومية والعلمانية ، فازداد التضييق على الشباب المسلم الملتزم في شمال الوطن وجنوبه ، وكثرت حركة الاحتجاجات الشعبية هنا وهناك ؛ ولكن لا حياة لمن تنادي ، فلقد أصبح الوطن في ضنك شديد من هؤلاء المتسلقين .

وأمضى الزوجان عشر سنوات في الغربة ، وهما ينعمان برغد من العيش والسعادة والأمن ، وقد وهبهما الوهاب ولدين خلال تلك السنوات ، وعلم مهدي بعد كل هذه السنوات من السعادة والراحة أنّ والده مروان مريض وهو في أيامه الأخيرة كما يخبر الأطباء ـ وعلم ذلك عند الله تعالى ـ ولكن الأمراض والشيخوخة قد اشتدا عليه ، فأنهى عقد عمله ، وعاد للوطن إلى مسقط رأسه ، وعادت الأسرة لوطنها بعد هذه السنوات الطوال ، وهم مطمئنون ؛ ولكنهم ما كادوا يستقرون في الوطن حتى استدعت أجهزة الأمن مهديا ، وبعد استجواب طويل ، طلب منه إما المغادرة وإما تحمل ما يتعرض له من مضايقات ، فبين لهم مهدي دوافع حضوره لبلده ؛ ولكنهم أصروا على أنه رجل غير مرغوب ببقائه في وطنه ، ووضع تحت المراقبة الدائمة ؛ لأنه تبين لهم أنه كان على اتصال دائم برفاقه وأصحابه أثناء غربته ، ولديهم صور عن عدد من الرسائل التي كان يرسلها لأصدقائه يشجعهم فيها على الثبات والصبر على أذى الطواغيت ، لقد وقع بعضها بين أيدي أجهزة الدفاع عن الحاكم وأعوانه

وبينما صاحبنا مهدي يفكر وينظر بالتحذير الذي تلقاه من رجال الأمن السري ، قد قام أحد المسلمين المتعصبين الناقمين على النظام بإلقاء قنبلة على مركز أمني ، فاضطربت البلد وقامت وما قعدت ، فقامت الحكومة الحاكمة باعتقال أعداد كثيرة من الشباب المتدين والمتردد على المساجد ، وبينما صديقنا مهدي يجلس بين أهله في وسط بيته وحوله زوجته وولداه الصغيران وعنده أخوه معتصم وزوجه وبعض أطفالهما ، وهم يتسامرون في ذلك المساء ، قرع أحدهم الباب باب الشقة ، فنهضت فوز لتنظر الطارق معتقدة أنه أحد أبناء معتصم يريد الدخول ؛ ولكنها لما فتحت الباب فوجئت بأخيها الضابط فريد سامي ، ومعه عسكريان ، وهم في

عرض الباب ، فأصابتها الدهشة ، فهذه أول مرة تراه منذ أكثر من عشر سنوات .

فقال : مساء الخير يا فوز!.. كيف أنت ؟

فقالت ببطء وقلق : أهلا فريد .. ما الأمر ؟ فلا أرى أنك زائر.

قال بهمس واضطراب : الحق نعم ، ولسوف أزورك .. أنا لست زائرا أيتها الأخت المتمردة أنا أرسلوني للقبض علي زوجك.

فرددت قائلة وبدهشة : القبض على زوجي !! ويلك ! ويلك ! .. ألم يجدوا غيرك ليرسلوه ؟ حسبنا الله ونعم الوكيل .. ما التهمة هذه المرة ؟!

أجاب قائلا وهو ينكس وجه في الأرض : لست أدري!

ولحظ مهدي تأخر فوز عند الباب ، فاستأذن من أخيه لينظر من تكلم فوز فإذا هم رجال شرطة يقفون بالباب ، فقال : صبرا آل ياسر ! .. ما الأمر يا حضرة الضابط ؟ .

فنظر إليه الضابط قائلا : مطلوب .. ولا أدري ما التفاصيل ؟ إنما كلفوني بإحضارك أيها السيد .

فقالت فوز وكلها خجل واضطراب وامتقاع وجه : يا أبا عبد الرحمن ! .. أترى هذا الضابط الذي يقف أمامك ؟! ..إنه أخي فريد ..إنك لا تذكره على ما أعتقد !

فقال مهدي والدهشة مرتسمة على محياه : هذا أخوك ؟! للآسف إنني لم أره على ما أذكر إلا مرة أو مرتين .. لقد نسيت شكله .. معذرة !

قالت : نعم يا سيدي العزيز ! هذا أخي البار .

قال فريد بخجل وارتباك : أيها السيد ! أنا أقوم بواجبي .

فقال مهدي : تفضلوا .. سوف ألبس ثيابي وانطلق معكم ، فقد تعودت على استدعاءاتكم وتحقيقاتكم ، لا أدري ما الذي يخيف حكامنا من إسلامنا ؟! .. فها هم المتعصبون من النصارى والطوائف الأخرى يتمتعون في بلادهم بحرية ، ويتحركون ويتشددون ، ويعملون ولا تمنعهم سلطاتهم من العمل لمذاهبهم .

قال فريد بنبرة فيها حدة : أرجوك ..لا داعي لأي كلام .. البس ثيابك فقط ، وامش معنا ، وذلك من أجل خاطر أختي العزيزة ، وإلا فالمفروض أخذك بأي صفة وجدناك عليها .

رد مهدي مداعبا : لست سارقا ولا مجرما ولا قاتلا .

أجاب فريد وهو يتصنع الغضب: أنت أخطر على أمن البلد من كل ما ذكرت، البس بسرعة ولا تكثر من الرغي أيها الفارس !.. أعتذر إليك يا أختي !

فقالت فوز بحدة وضيق : لا عليك ، ما أنت إلا عبد لأسيادك أيها السيد !

صعق فريد لكلمات أخته الحادة ، ثم التزم الصمت ، وقال لنفسه : نعم ، أنا عبد لأسيادي .. ولِمَ لا أكون عبدا لهم ؟!

أطلع مهدي أخاه معتصما على جلية الأمر، وقال : لابد من الذهاب معهم ، خذ بالك من فوز والصبية ..

وسكت قليلا ثم قال بشدة وغضب : سأترك هذا القطر إن نجوت منهم هذه المرة .. إنني فكرت أو بدأت أفكر بالرحيل لبلاد الغرب والكفر ، فأنا أسمع أن فيها حرية لجميع الناس ولجميع الأديان .. يا رجل ! لم نفعل شيئا يضر البلد ، ومع ذلك يضيقون علينا في العمل ، وفي الحركة ، وفي النوم .. قاتلهم الله أنى يؤفكون ألهذه الدرجة يبغضون الدين والعاملين للدين ؟! .. يا أخي العزيز ! .. حتى الرسائل التي كنت أبعثها للصحاب والأحباب ، لقد اطلعوا عليها وصوروها ، وجواسيس الكفار والأعداء يرتعون في بلادنا ، ولا يستطيعون فتح رسالة أو طرد لهم .. حسبنا الله ونعم الوكيل !

فقال معتصم مواسيا: لابد لليل من نهاية! .. فهؤلاء العلمانيون ما صدقوا وهم يتسلطون على الناس والبشر ؛ ولكن فشلهم قريب .. فهم مبغضون من كافة الخلق ؛ واعلم أنّ الله مع الصابرين .

وانطلق مهدي مع نسيبه فريد إلى مركز الشرطة ، وهناك جاءت سيارة من سيارات الأمن السري ، وأخذوه إلى دائرة التحقيقات السرية ، وبعد أيام قضاها عندهم في سؤال وجواب

تركوه ليعود إلى شقته ، ولما استراح من عناء ما وجده في ظلمات وسراديب النظام الحاكم قال لفوز ذات ليلة فجأة : يا فوز العزيزة ! .. ما أخبار أبيك .. عمي .. حماي المحترم ؟ .

حملقت فوز في عيني مهدي لحظات ، فقد دهشت لسؤال مهدي المفاجئ عن والدها وقالت : أبي ! ..إنه بخير كما أخبرتني سميرة آخر مرة .

فقال : أما زالت تكتب إليك من أمريكا ، ما أخبارها الآن ؟.

ردت فوز ، وهي ما زالت حائرة من حديث مهدي المفاجئ عن أبيها وأختها : طيبة ، وإنها بخير ، وكما تعلم ، فهي قد تزوجت هناك من أحد أقاربنا ، وما زالت تشتغل هناك ، ولسوف تستقر هناك على ما أعتقد للأبد .. وأما أبي العزيز المحترم يا محترم ! منذ تزوج بعد وفاة أمي لم يكلمني إلا بضع مرات ، أظن أنها تعد على أصابع اليدين.. فلا أعلم أخباره التفصيلية .. فكل المدة التي قضيناها في الغربة لم يتصل بي مرة واحدة ؛ بل أنا التي كنت أكلمه ..

ورسمت ابتسامة على وجهها وهي تقول : هل من شيء تريده منه يا سيدي المحترم ؟!

فقال وهو ساهم النظر: نعم يا سيدتي المحترمة !.. فأبوك رجل أعمال كبير ، ومعروف في البلد ، وفي وسط رجال المال .. وها هو أخوك ضابط كبير أيضا رتبته رائد رتبة لا بأس بها.

فقالت : المهم ماذا تريد منهما ؟!

فتغير وجهه وتجهم ، وخيم الحزن عليه وهو يقول : فوز ! ..أريد أن أغادر هذا الوطن ، ألا يمكنه مساعدتنا للسفر إلى ألمانيا أو هولندا .. أوروبا مثلا.

فصمتت فوز صمتا طويلا ، وتأملت طلب مهدي بحيرة واستغراب ، ثم نظرت إليه وقالت: والأولاد أليس عليهم خطر في بلاد الكفر والضلال ؟!

فقال مهدي: لقد فكرت في ذلك يا عزيزتي ! وقد علمت أن بلاد الغرب تحسنت أحوالها مع الجاليات الإسلامية ، وثانيا أنّ هناك مدراس إسلامية تتبع للجاليات ، وثالثا نحن بحمد الله أطفالنا ذكور ، ولم نوهب الإناث بعد ، فالخوف على الفتيات أكثر من الذكور في تلك المجتمعات ، والخطر موجود لا أنكره ، ولن يكون احتكاكنا بهؤلاء القوم كثيرا .. وتنهد

وهو يقول : وأخيرا لم أعد أطيق الحياة هنا .. وعندما تتحسن أحوال بلادنا نعود إليها .. فأنا مخير بين الرحيل ، أو الاندماج في حركة تمرد لا يعلم مداها إلا الله .. فاعلمي أن صدور شباب الإسلام تغلي ، فما أحدثه هذا المتهور إلا شرارة صغيرة ، قد تشتعل بعدها النار والانفجار.

قالت فوز وهي تعمق الفكر والتدبر في كلام زوجها وحججه : فالأمر خطير تراه إذن !!

همس قائلا : كما ترين اعتقالات مستمرة ..إهانات مذلة .. فالبركان يكاد أن ينفجر .. والغضب في الصدور شديد .. وأنا أريد الهرب من هذه العاصفة القادمة .. فأكثر قيادات الفكر الإسلامي الآن شباب مندفعون ، وفي صدورهم كبت واحتقان مما يلقون من السلطات ووقت التغيير للأفضل لم يأت بعد .

وبعد حين من الصمت العميق بين الزوجين قالت المرأة : أمقتنع بما تفكر ، وبما تريد يا سيدي المحترم ؟!

رد الزوج المحترم قائلا : لست جبانا يا فوز ! وأنا منذ خرجت من السجن ، وسافرنا للعمل خرجت من قيادة الحزب الإسلامي وأنت تخبرين ذلك ، بل خفت علاقتي بالتيار الحركي ، بل لما ألقي بي في غياهب السجن خمسة أعوام نزعت مني القيادة الفرعية ، وأعطيت لشخص آخر ، وأصبحت شخصا ثانويا ، ولما سافرنا للخارج أصبحت عضوا مناصرا ..اعلمي يا سيدتي المحترمة ! أنه ما زال الخلل فينا ، فعندما كنت على مقاعد الدراسة كنت عضوا فعالا ومهما ، ولما طرحت في السجن أصبحت عضوا خاملا غير فعال ، فنحن بحاجة لإصلاح وتقويم ، فالأرض التي نقف عليها ليست صلبة، فالجهل بين شبابنا ما زال موجودا .. فالحماس وحده لا يكفي للتغيير .. والقدرة على التحمل لدى الكثير من الشباب ضعيفة .. القيادات مهتزة .. وأيضا هذا الحكم تحميه أيدي خفيه عالمية.. فجمهور الأحزاب الحاكمة جمهور ضئيل ومصطنع ، فما زالت قوى الاستكبار تربض وتتحكم في مقدرات البلاد بأشخاص منا!.. وأجهزة الأمن عندنا لا تريد أن تقتنع أني شخص عادي مثل كثير من خلق

الله ، فهي ما زالت ترى أني رأس مهم في الحزب .. فالخروج من الوطن في هذه الفترة يبدو لي أنه مهم .. هذا دفاعي عن نفسي أمامك .

قالت فوز مستسلمة لدفاع زوجها : سأكلم والدي ـ إن شاء الله ـ قريبا يا سيدي المحترم !

فقال مهدي : بل زوريه .. فهو والدك.. وما أساء إليك منذ فارقتيه .. وأما قصة وفاة أمك ورفضه ذهابك إليها هناك ، فهو معذور ؛ فإنه لم يكن يرى الموت قريبا منها .. فهؤلاء كما تعلمين يا عزيزتي! أكثرهم يهربون من حقيقة نهاية الحياة .. ورحم الله أمك ، وهدى الله أباك.

فقالت : حسن .. سأفعل وأزور أبي الذي لا يسأل عني ، منذ أن سافرنا لم أره .. فكلما أذهب إلى قصره خلال الإجازات التي كنا نقضيها هنا ، لا أجده ، وتصرفني زوجة أبي وتعدني بأنه سوف يتصل بي ، وتنتهي الإجازة ولم أره أو أسمع صوته ، ولم يحاول الالتقاء بي .. وحتى لا أظلمه كما أذكر كلمني مرتين أو ثلاث عن طريق الهاتف .

قال مهدي : ولكنه كان يرد عندما تتصلين به من هناك.

قالت: نعم ، عندما أتصل به أنا ، أما هو لم يتكلم معي إلا بضع مرات .. سامحه الله ، لا يقع في قلبك أني أكرهه .. هو أبي ؛ لكن ما خرج من قلبي هو عتب على تقصيره نحوي .

قال مهدي : لكل ظروفه وأحواله ، وهو قد اتخذ منك موقفا قاسيا منذ البدايات الأولى لتوبتك وهدايتك .. فيا سيدتي الغالية ! .. اذهبي إليه في مكان عمله في البنك .

فقالت: سأفعل يا أبا عبد الرحمن ! وأريد أن أخبرك بأمر حدث أثناء التحقيق الأخير معك .

فقال : تكلمي فكلي آذان تسمع .

قالت : أشكرك !.. وأعلم ما تعاني من آذى نفسي على الأقل ، بعد اعتقالك بيومين اتصلت زوجة أخي فريد فيّ ، وأخذت تتعذر لي عن تصرف فريد معك ؛ فكأن فريدا أخبرها خبرك ، فقالت لي معتذرة "كان على فريد أن يعتذر عن هذه المهمة " ، وهي تعتذر إليك وتتأسف لعدم لياقة ولباقة زوجها .

فقال مهدي باسما : بارك الله فيها ، وقبلت اعتذارها .. وفريد كما قلت له ما هو إلا عبد

لأسياده ، فهو كما يقول الضعفاء أعوان الطغاة دائما " ما أنا إلا عبد مأمور ".. فعليه أن يطيع أسياده طاعة عمياء ..عفا الله عن الجميع ، وعن أخيك المحترم

وقالت فوز: وهناك أمر آخر .. فزوجة فريد والدها ضابط كبير في الجيش .. ووعدتني يومها أن يهتم والدها بأمرك ؛ ولكنك ـ والحمد لله ـ لم تمكث طويلا لديهم .. وهي ترغب بزيارتي .

رد مهدي وقد عاد يضع رأسه على المخدة : على الرحب والسعة .

قالت : ولكنها أجلت ذلك يومذاك ريثما تخرج من المعتقل ، وها أنت قد خرجت فهل أتصل بها ادعوها ؟

رد قائلا وهو يفكر ويتأمل بما أخبر : افعلي .. ثم رسم على جبينه ابتسامة ، وتابع قائلا كأنه قد تذكر شيئا بعدما تأمل في كلام فوز الأخير : آه ! .. فعلا يا فوز! بعد يومين من التحقيق الصارم معي تغيرت معاملة المحققين والحراس معي ، لم يعودوا يقذفونني بالنعوت القذرة ، يا ابن كذا وكذا ، بل حسنوا من نوعية الطعام المقدم لي ، وسمحوا لي بمخالطة المعتقلين ، والحديث معهم ، بعد أن كنت في زنزانة انفرادية ..آه !.. الآن أدركت سر هذا التغير! .. أوه لابدّ أنّ والدها ضابط كبير ومهم أيضا .. لها الشكر الجزيل ولوالدها ، ورحبي بها ، وجزاها الله خيرا .



الرحيل عن الوطن

لقد أصاب مهدي اليأس والإحباط من ظلم ذوي القربى ، وأراد أن يأخذ بنصيحة رجال الأمن والتخلص من الاعتقالات المتكررة ، ومن ثم البحث عن السكينة في بلاد الكفر والغرب ، ومما دفعه وشجعه للهرب أيضا تشرذم التيارات الإسلامية العاملة لعودة الإسلام حاكما للأمة ، ومما دفع صاحبنا للهرب تدافع وتصارع الأحزاب الإسلامية مع بعضها البعض ، وكل ذلك يصب في مصلحة بقاء الحكم الفاسد ، وبقاء الأحزاب الإسلامية ضعيفة أمام العلمانيين والقوميين وغيرهم ، فلذلك كان القرار الحاسم من مهدي بمغادرة البلد من جديد إلى بلاد الغربة ، إلى بلاد يقال أنّ فيها حرية ؛ ولكن ضمن القانون الذي يسودها .

وفوجئ السيد سامي سبل برؤية ابنته في انتظاره أمام مكتبه في البنك الكبير الذي يديره ، وبعد كلام بارد وفاتر وعتاب خفيف بينهما استمع الأب لمشكلة ابنته، ثم قال شامتا أو متأسفا لحالهم : هذا اختيارك يا جميلتي ! ..أنت التي اختارت كل هذا العذاب .. فأنا لم أقس عليك يا بنيتي!.. فأنت التي اخترت دربا غير دربنا ، ولقد حاولت إنقاذك مما أنت فيه من الأحلام وأوهام القرون الوسطى ، فلا تكرهيني ولا تلوميني .. الناس تتقدم وأنتم ترجعون للوراء .

ولما رأى أنّ فتاته صامتة قال : سأدبر أمر سفركما .. أمهليني أسبوعا واحدا ، وسوف تكون تأشيرات دخول ألمانيا بين أيديكم .. أرسلي جوازات سفركم ، وأرجو منكم قبل سفركم أنّ أراك أنت والأولاد وزوجك الثائر الذي يحلم بأن يكون خليفة للمسلمين .

كانت الفتاة تسمع لكلمات السخرية والتهكم من والدها وهي واجمة صامتة ، فهي تعلم أنّ الجدال والتعقيب على كلامه لا جدوى ولا فائدة منه ، فلا حياة ، ولا فكر له إلا الازدياد من الأموال والكسب المشروع في قانون أهل الدنيا .. قانون الاستعمار والظلم .

وبالفعل لم تمض الأيام السبعة حتى كانت تأشيرات الدخول لدولة ألمانيا الأوروبية بين يدي فوز وزوجها مهدي ، وقال لهما مدير مكتب السيد سامي ، وهو يسلمها لهم : إن الوالد

المحترم قد حجز لكم أربع تذاكر إلى هناك ، ويود أن يراكم قبل سفركم ، فهو مساء يوم الأحد القادم موجود في البيت في انتظاركم .. الساعة الثامنة مساء لا تنسوا ذلك .

تعجب أصدقاء مهدي لما علموا برغبته بالهجرة والسفر إلى ألمانيا ، فتحدث معه أكثر من صديق معترضين على فكرة سفره ورحيله .. ثم نشط لزيارته ثلة منهم يتقدمهم صديقه نمر حميد ، وقد صحبتهم زوجاتهم في هذه الزيارة الخطيرة ، وبعدما تصافح القوم وأخذ كل واحد منهم مجلسه في غرفة الاستقبال قال له نمر مغضبا : أزعجتني جدا .. أنا لست مستوعبا لهجرتك الجديدة والمفاجئة!

وقال آخر : نحن نعرفك شجاعا ومقداما وقويا يا أبا عبد الرحمن!

وقال الثالث : نريد أن نعرف الحقيقة والدوافع لهذا الفرار يا صاحبي ؟!

مسح مهدي جبينه من قطرات العرق التي تجمعت عليه وقال بألم وتخاذل : أنا متألم حائر ومتعب وفي غاية الضيق .. رغم غربة عشر سنوات .. وبروز قيادات جديدة في الحزب ما زالت قوى الأمن تنظر إليّ على أنني زعيم كبير في الجماعة .. وهم أيها الأفاضل يضغطون عليّ ويصرون على رحيلي من البلد .. أنا عدوهم الوحيد على ما يبدو ..

ضحك أحد الأصدقاء وقال : يا رجل كلنا يحدث معه هذا! .. حرب نفسية .. حقد حسد كبر .. هم يرغبون باختفائنا للأبد .. فالكل منا متضايق منهم .. ولكن بفضل الله ما زال الشباب الناشئ ينضوي تحت لواء الجماعة رغم العذابات والألم الممارس علينا .. يا رجل! الإسلام يسري في دماء الأمة .. مهما بذلوا وحطموا سيبقى الإسلام .. الأمة بخير .. لكن الهرب والانزواء لا يحل مشاكلنا .. أنسيت سنة التدافع الإلهية؟! .. فهؤلاء الناس يدعون أنهم يقومون بواجبهم لحماية الديار والعباد منا .. نحن حملة الرايات الإيمانية .. هل جلبت العلمانية والقومية للأمة أي خير؟ نحن سقم لهم .. فقرار السفر يا صديقنا غير سليم .. وما يحدث لك يحدث لنا .. أنا لما أخبرني نمر باستعدادك للرحيل لأوروبا صدمت! .. الكل يهرب ويخاف .. أوروبا أوروبا .. أليست أوروبا وراء كل مصائبنا ومآسينا ؟! .. يا صديقنا ! يا

زعيمنا القديم ! مع كل الاضطهاد والإزعاج والخنق لقوانا مازال ـ كما قلت آنفا ـ الشباب يتجمعون تحت راية الإسلام .. الناس تريد الإسلام .. الإسلام لن يهزم يا صديقي .. أخي مهدي فكر من جديد في قرار سفرك .. ها أنا كم مرة أرسلوا لي لمراجعتهم ؟! أحيانا كثيرة يأتيني البلاغ على المدرسة التي أعمل بها .. وأتعطل عن التدريس وأسبب إزعاجا للمدرسة من إدارة وطلاب .. وأحيانا أخرى أقضي بضعة أيام في ضيافتهم .. ومع ذلك ما فكرت بالرحيل والهرب .. السجن والاعتقال لقد تعودنا عليهما .. وأنت أيضا قد قضيت سنوات عمرك وشبابك في السجن .. ألم تعتقل ليلة زفافك؟! وكنت جبلا ونموذجا شجاعا لشباب الفكر الإسلامي الحي..

قد خيم الصمت والوجوم على الجميع ، وهم يسمعون عتاب زميلهم لمهدي .. وعاد الصديق يقول بعدما لعق لعابه : إذا كانت زوجتك أم عبد الرحمن التي عهدناها شجاعة قد تغيرت فاسمح لنسائنا يتحدثن معها .

عندئذ قال مهدي مدافعا عن زوجه : صدق أن فوزا غير متشجعة للرحيل والهجرة أنا الذي ضغطت عليها لتدبر لنا أمر السفر .

فغر الأصدقاء أفواههم دهشة وتمتموا بغمغمات غير واضحة ثم قال نمر : مهدي .. صديقي أنا أسمع كلاما مدهشا! .. والله أنا وقع في قلبي أن أم عبد الرحمن هي التي تشجعك على الهجرة والسفر .. عندما أعود وأتذكر لأيام زمان أيام الجامعة ونشاطك المحموم أستغرب مما أسمع .. يا أخي كلنا تعرضنا للعذاب والهوان .. يا رجل أصحاب الفكر الدنيوي يثبتون على فكرهم العفن ويقاتلون من أجله .. وأنت سافرت للخارج وبقيت سنوات .. لماذا هذه الهزيمة؟! ما دامت السيدة الفاضلة غير متحمسة وغير مريدة للهجرة لماذا تسافر؟! .. فكر بروية وتأنٍ .. أنت صديق العمر! .. هؤلاء الخصوم سيذوبون كما ذاب غيرهم .

دخل عبد الرحمن مهدي بالشاي الساخن ووضعه على منضدة صغيرة ، وأخذ يسكبه في الأكواب ، ثم قدمه لأصدقاء أبيه ، وأثناء ذلك قال أحدهم : نخشى أن تخسر أبناءك في

الغربة يا ابن الحلال .. تلك المجتمعات فيها حرية زائدة .

صاح آخر : بل حرية مدمرة قاتلة !

كان مهدي يسمع وينظر لولده ولم ينطق حتى انصرف الفتى فقال : المسلمون اليوم في أوروبا أحسن حالا يا رجل! إنهم يتحركون بحرية .. يكتبون بحرية .. ألا تقرأ ما تأتينا به صحف العرب المهاجرة من أخبار ومعلومات؟! .. يعبدون بحرية .. يتنقلون بحرية ..

فقال أحدهم قاطعا الحديث : هذا وهم يا رجل .. هؤلاء الناس ما زالوا يبغضون الإسلام والدين .. ولا تنظر لحسنات القوم فحسب.. فالسلبيات كثيرة لا تكاد تحصى .. وكم من الأقارب هاجروا إلى هناك خلف المال والحرية والوهم ! ولكنهم ضاعوا وذابوا وفقدوا السيطرة على زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم .. انظر إلى عمك والد زوجتك مدير البنك عندما درس في أمريكا وعاش بها ردحا من الزمن ماذا أصبح ؟! وغيره كثير ..

فقال مهدي كأنه غير مقتنع بما يسمع : وهل للآباء سيطرة على أولادهم هنا في بلاد المسلمين.. الكل يقلد الغرب .. يقلدونهم في اللباس والعمارات والمجون ..

ـ يبقى الأمر أخف من هناك .. ما زالت التقاليد الإسلامية موجودة وتراعى يا أخ مهدي .. وما زال الفرق شاسعا بيننا وبينهم .

قال مهدي : الفرق صغير ..

قال آخر : أنت مرهق جدا .. كلك إحباط !

رد مهدي معترفا بضعفه : الوضع عندي ليس سلبيا ، لا أنكر ذلك أيها الأخوة .. لديهم مساجد كما لدينا مساجد .. لديهم دور لهو بصورها المختلفة ومثل ذلك عندنا .. المدارس التي تعلم الأبناء لا تختلف كثيرا عنهم .. دروس التربية الدينية ضئيلة عندنا ؛ ربما تكون دروس التربية الدينية عندهم أكثر مع يقيننا أن دينهم منسوخ .

أخذ الشباب الكهول يذكرون ويرون قصصا وأمثلة عن ضياع الأسر المهاجرة إلى العالم الغربي حتى ضجر مهدي مما يسمع فقال : يا قوم ! يا إخوان ! بقائي هنا ماذا يفيد المسلمين ؟!

أوراقي كلها محروقة .. إنما أزيد هموم أمي وأبي .. أزيد هموم الأطفال الصغار .. كل اعتقال ولو كان إزعاجا وحربا نفسية ضدنا كما ندعي ونقول .. أليس في ذلك هم وغم ومضايقة للوالدين والأبناء ؟! وركض إخوتي هنا وهناك ، أليس كل هذا يؤلمهم ويضايقهم ؟ وإن لم يقولوا بألسنتهم ؛ ولكن عيونهم تتكلم ! كلما يحدث همٌّ في البلد يحضر رجال الأمن في الليل وفي النهار للقبض علينا كأننا مجرمون ولصوص .. وهناك نسمع كل الألفاظ القذرة .. نحن كبرنا .

ضحك أحدهم وقال : الذي يسمعك يظن أننا بلغنا الخمسين والستين يا رجل .. أنت تتكلم بيأس وإحباط شديدين.. هذا ما عهدناه فيك .. أنت لم تكمل السنة بيننا منذ عدت من الغربة ومع ذلك أصبت بكل هذا الوهن .

وقال ثانٍ: أنت تعودت على الراحة والسكينة والحياة العائلية الهادئة .. يا أخي كلنا لنا أهل وآباء وإخوة وزوجات .. فيؤجرون ويثابون على مشاركتنا همومنا وأحلامنا.. أليس نسعى من أجلهم لتعود حياة المجتمع إسلامية؟!

فعاد مهدي يقول : وهل كنا في غربتنا في راحة ؟! .. كل الدول تتعاون على محاربتنا ومعاداتنا صحيح أننا لم نعتقل أثناء وجودنا هناك .. ولكننا تحت العين .. الرسائل مكشوفة .. الاتصالات مراقبة .. تحركاتنا تحت المجهر.. علينا بالصمت ..عدم الحديث في السياسة والإسلام الحركي !

وقال نمر حميد : ومع كل ذلك الهروب ليس هو الحل الوحيد ! مهدي أيها الصديق الحبيب ! لابد من الصبر والتصبر.. إن الفرج مع الصبر .

دخل الشاب الصغير يخبر والده أن طعام الغداء قد جهز وأعدت المائدة .. فدعا مهدي الأصدقاء إليه ، فعلق أحدهم وهم يسعون إلى غرفة الطعام فقال : إنك تريد يا مهدي! أن تحرمنا من هذه الجلسات .

ـ دعوني أجرب أوروبا.. أنا لا أخشى السجن فقد جربته .. والاعتقال الإداري فقد جربته ..

دعوني أجرب الهجرة !

ـ عجيب أمرك يا أخ مهدي !.. لا أعتقد أن الحاج مروان يرضى لك هذا الاغتراب .. وأنت عدت من الغربة لشيخوخة والديك .. فكيف تبتعد عنهما ؟!

فقال مهدي : أنا أرهقهما بكثرة حبسي وتوقيفي والتحقيق المتتابع معي .. إني أحس بالألم الذي أسببه لهما في سنهما هذه .. كلما يسمعان بأمر نقلي للأمن ينزعجان ويتحدثان مع المحامين.. تعب عليهم أيها الأعزاء .. لا أحد يستطيع إخفاء الخبر عنهما .. صدقوا هذا أيها الأخوة.

وتابع الأصدقاء ومن غير ملل ، ولا كلل المناقشة حول سفر مهدي المزمع على مائدة الطعام ، وأصر مهدي على الهجرة ولو لبضع سنين ، مدعيا أنه سيخدم الدعوة والدين من خارج الوطن ، ولن ينقطع عن التواصل معهم ومع الحزب .. وكشف لهم أنه حاول إنشاء شركة خاصة صغيرة ، وأن أجهزة أمن النظام حذرته من فعل ذلك ، فقال معقبا على هذا الكشف : أرأيتم ؟! إنهم يتمنون لنا الموت .. بل هؤلاء العلمانيون ربما يعتبروننا أمواتا .. علمانيو الغرب أصلح من هؤلاء التعساء .

قال أحد الأصدقاء : إذا على الشغل أنا مستعد أن أدبر لك عملا في شركة لأحد الأقارب .

قال مهدي : ستسبب له المضايقة والعذاب .. هم يا رجل يضيقون عليّ لأخرج من البلد .

ضحك أحدهم وقال : يا رجل أنت رجل مسالم .. منذ خرجت للعمل في الخارج ولم يوجد لك نشاط خطير ..

فأجاب مهدي: ملفي أسود .. أخذوا عني فكرة رهيبة .. كلما ينظر ضابط التحقيق في ملفي ويجده ضخما يظن أنني أكبر مجرم في العالم .. لا يوجد عندهم تبييض ملفات ، كما نسمع بتبييض السجون .. كل مقالة نشرتها لي الصحف حتى خارج البلد مصورة وموضوعة في الملف ، وأنني أهاجم فيها الحاكم والوزارة والأمن والشعب النائم .. علاقة سيئة بيني وبينهم هذه دول تحارب الدين رغم أنها تتدعي أن دينها الإسلام ..أي إسلام ؟ لا أدري ! هل نعود لتعداد مساوئ حكومات الدول الإسلامية وبما فيها العربية ؟!

قال أحدهم : الرحيل يا مهدي خطأ كبير !

قال مهدي بحدة : سأعود .. هل سأقضي العمر في ألمانيا ؟.. ألم يرحل الصحابة للحبشة مرة ومرتين ؟!

قال نمر بحزن وألم : هذا موقف شديد السلبية منك يا أبا عبد الرحمن .. نحن نصحنا لك كل النصح .. وبقاؤك في البلد خير لك ولأهلك ولأولادك .. هنا تجد القريب والأب والأم والأخ والعم والخال .

قال آخر وبنغمة آسفة أيضا : نحن يعز علينا فراقك .. فقد صحبناك منذ أيام الجامعة والهندسة .. ونحن لما أخبرتنا بأنك شبعت غربة فرحنا ، وقلنا ستعود أيام الشباب والنشاط .. أيام توزيع المنشورات وقيادة المظاهرات والاحتجاجات .

ـ أنتم تعلمون أن وجودي في الحزب اليوم شكليٌ .

ضحكوا وقال أحدهم : حتى لو شطبوا اسمك من قائمة الأعضاء .. ستبقى ابن الجماعة ابن الإسلام .

فقال مهدي وقد شربوا القهوة بعد تناول الغداء : يا قوم ! " قطعت جهيزة قول كل خطيب " .. فتأشيرات الدخول لألمانيا جاهزة وتذاكر السفر قد هيئت .. دعوني أعيش هذه التجربة الجديدة .. دعوا الحاج مروان أبا محمد ينام بهدوء ويرحل بسلام ورحمة من الله .. كلما أخرج من توقيف واستجواب وأذهب للسلام عليه يتمزق قلبي حزنا وبكاء .. أرجو أن لا تطول الغيبة .

ـ شيء مؤلم يا مهدي.. نحن بذلنا كل الجهد في ثنيك عن الهجرة إلى أوروبا التي قهرتنا بجيوشها واستعمارها .. وها هي اليوم تستقبل شبابنا ورجالنا وعلماءنا ومهندسينا ومفكرينا بكل صدر رحب .. يا للعجب كم نحب من استعبدنا ؟! يبدو بأنك بدأت تحلم مثل الكثير بالحصول على الجنسية الغربية .

تبسم مهدي وقال : وهل الجنسية الغربية تحمي الناس؟.. إنها تحمي ذوي الأصول الأوربية

أما نحن فلا .. صدقوا هذا!

ثم غرق مهدي فجأة في الضحك المرتفع حتى دهش الأصحاب من ضحكته فقال لهم : جن مهدي ، قولوا ذلك ، لا حرج عليكم !



وفي مساء الأحد المذكور التقى الأب بابنته فوز وزوجها مهدي لأول مرة ، منذ رأى رجال المخابرات يقبضون عليه في يوم فرحه وزواجه من ابنته ، وعانق الجد حفيديه عبد الرحمن وأحمد ، وأظهر فرحه برؤيتهما ، ودفع لكل واحد منهما شيكا بقيمة عشرة آلاف دولار أمريكيا، وأمضى الوالد ساعة من الزمن مع صهره وابنته، ولم يتكلم معه في مشاكله وهمومه ؛ ولكن مضى الحديث بينهم عن الحياة في أوروبا ، وتمتع الناس هناك بحقوقهم المدنية الكاملة ، ومدى احترامهم للقوانين والأنظمة التي صنعتها الأجيال .. ثم غادر مهدي وأسرته قافلين لبيتهم .

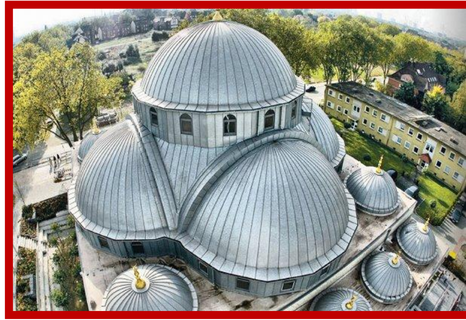
وكان الأب أثناء المغادرة قد أعطى ابنته شيكا بمبلغ كبير من المال، وأعطاها بضعة عناوين يمكنها الاتصال بها هناك لمساعدتهم في حياتهم في ألمانيا.

ولما تهيأت الأمور للسفر أصاب مهديا اكتئاب ، وتردد في الرحيل ، وقد فكر كثيرا بإلغاء الرحيل ؛ ولكنه كلما يهم باتخاذ هذا القرار يتذكر جلد الجلاد ، وصفع الجنود ، والبصق على وجهه ، وصور الإذلال المختلفة التي يتعرض لهم المعتقل في سراديب الأمن السري ، وإنه لا فائدة من البقاء هنا ، في هذا الوقت عزم على الرحيل ..إنه يتذكر ، كلما يرتكب متدين عملا أو شغبا يعتقل مهدي مروان ؛ فكأنه مسئول عنه ، وما زاد الطين بلة في نظره تفتت وتصارع الأحزاب الإسلامية مع بعضها البعض .. فغادر بطلي قصتنا هذه أرض الوطن إلى أرض الغرب يلتمسان الهدوء والسكينة وراحة البال .. فبلادهم لا إسلام يمارس فيها ، ولا علمانية

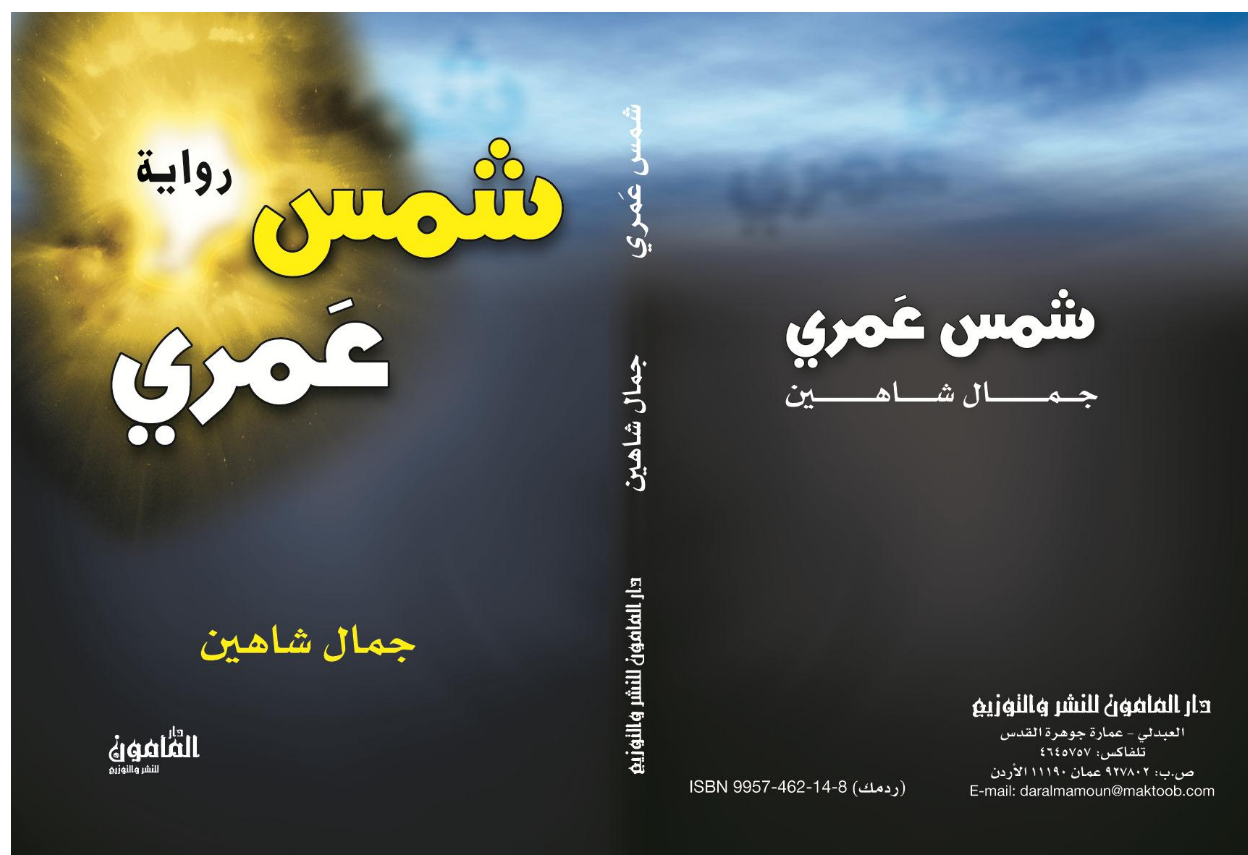
الغرب تطبق فيها .. نظام حسب الهوى والمزاج .. وفي ألمانيا استقرت الأسرة المهاجرة حتى تتحسن الظروف والأحوال في الوطن ، فلعلهما يعودان إليه مرة أخرى .. وذلك علمه عند رب العالمين .

" تمت بحمد الله "

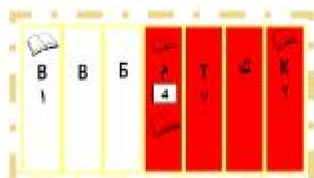
جمال شاهين



اقرا رواية


رواية
شمس عَمري
جمال شاهين
دار المأمون
للنشر والتوزيع
شمس عَمري
جمال شاهين
دار المأمون للنشر والتوزيع
شمس عَمري
دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com
ISBN 9957-462-14-8 (ردمك)

لغز



القصر الصحراوي

قصص وحكايات الفوارس

مغامرات وخيال وأحلام وأخلاق وأخيار وأشرار وفرسان وشجعان كل هذا وغيره تجده في هذه السلسلة من القصص الممتعة والمثيرة .





التحقيق الجنائي والجريمة

تأليف الكيوي

التدقيق اللغوي جمال محمود

قصص وحكايات التوارتي



جمال شاهين

ليلة عرس



المكتبة الخاصة

المكتبة الخاصة ٢٠٢١ جمال شاهين



الحفل بالقط الاسود

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

٢٠٢١

النشر الأول ٢٠١٤

الحفل بالقط الأسود

جمال شاهين



جمال شاهين

الحفل

بالقط الاسود

سندخل في هذه القصة حياة فئة من **الأرستقراطيين** الفئة المخملية من المجتمع في مجتمع **زريق** القمر الساطع ، ونسمع ونرى **أفكارهم** وأهدافهم **وإباحيتهم** وحياتهم الخاصة ؛ فترى فحشهم وابتذالهم وكلامهم وهمهم ومجالسهم ، سيكون بعض الجلاء والبيان والعمق **وقس** على ذلك كل المدن والحضر المعاصر والحديث وغالب تجمعات العصرانيين **ولهثهم** حول الشهوات والملذات المحرمة ، وسترى بعدهم عن **الأخلاق** الحسنة والتدين والعادات والتقاليد الحسنة والشرعية ، وترى الليالي الحمراء والخضراء **والصفراء** ، فالعالم يعاني من **الإباحية** وفشل منظومات **الزواج** على مستوى العالم واطلاق الغرائز بدون حياء ، وسمعت وقرأت واقعيا **عشرات** القصص لا يستطيع المرء البوح بتفاصيلها في زمن كهذا حتى لا يسأ **فهمه** مع أن كتب التاريخ والأدب تجد **مثلها** وافحش منها ، وتخجل **الكاتب** من نقلها ولتبقى في تلك الدواوين وعلى رفوف المكتبات ، **وللآسف** العالم مليئ بأفلام الإباحية فلا عاد **نفع** للكتابة حق الجنس **والجماع** جزء مهم من حياة الإنسان والحيوان والنبات ، فهو يسبب التكاثر والانتشار ؛ فلذلك أباحته **الشرائع** ونظمته **وضبطته** ؛ لأنه من سعادة الحياة الدنيا **والآخرة** وحق الفسق **والفجور** من أسباب الشقاء والتعاسة رغم **لذته**، فهو حاجة مهمة للإنسان كالأكل والشرب والنوم ، **فالانحراف** الشهواني مرض **ينخر** في الأمم والشعوب مما يثير **الشجن** والحزن . . **اللهم نسألك العافية والسلامة والمغفرة .**

قصر الطالع

الأضواء الشديدة الإضاءة تسطع في داخل القصر وخارجه ، وكان المكان قبل حين يسير قد شهد حفلة خاصة في قصر السيد نذير خاتم كيسون ، وكانت الساعة قاربت الثالثة فجرا عندما طفق الضيوف يغادرون القصر يترنحون من كثرة ما شربوا من خمر ، وطعموا من طعام وحلوى ، وتعبوا من رقص وطرب ، وكان الخدم يصحبونهم إلى سياراتهم ، والحرس يساعدونهم في ركوبها ، فقد اسرفوا في المشروبات والخمر بهذه المناسبة العجيبة، فقد كانوا يحتفلون باستيراد قط أسود من أوروبا من ألمانيا ، فقد هلك لصاحبة القصر السيدة الألمانية التركية الأب سلوفانا قط أسود فجأة ؛ فكتبت وخاطبت شركة لتهجين القطط وبيعها حسب رغبة الزبائن تطلب قطا ألمانيا ، ولما وصل القط المطلوب القصر أقامت السيدة على شرفه حفلة للأصدقاء والمعارف ، وبعد الرقص والطعام والسكر ، كان وضع المحتفلين بهذه المناسبة يرثى له ، وقد شربوا حتى الثمالة ، وكان آخر المغادرين صديق العائلة بسيل مجديان وزوجته الثانية ريما برسوم . وأغلق الحرس بوابة القصر ، وأغلق الخدم القصر نفسه ، وبدأت الأضواء تخفت رويدا رويدا ، وساقت خادمة السيدة سلوفانا سيدتها إلى حجرتها الخاصة ذات الأثاث الأوروبي ، وأخذ الخدم بتنظيف القاعة الخاصة بالحفلات والسهرات .

ودع السيد نذير قيم الخدم الهندي جومار ، ورد جومار : هل أوصلك إلى غرفتك سيدي .. أراك مرهقا متعبا ؟

قال : نعم ، شربت كثيرا ، ورقصت كثيرا ، كانت سهرة ممتعة .. أين ذهب القط الأسود ؟ ما اسمته سيدتك؟

قال : باريس ، على اسم باريس .

قال : فهي تحب تلك المدينة ؛ كما تتحدث عند ذكرها .

قال : ربما تحبها أكثر من برلين عاصمه بلدها يا سيدي !

قال : شكرا جومار .. الليلة أريد أن أنام في غرفة السيدة.

أمسك رئيس الخدم بيد سيده ، وصعد به إلى الطابق الأول ؛ حيث حجرة المدام سلوفانا التركية الأصل أو الأب والأم الألمانية المولودة في ألمانيا والتي عرفها في ألمانيا الغربية منذ سنوات قليلة ، خرجت الخادمة الفرنسية من غرفة السيدة ، وأدخلت السيد ، وأغلقت الباب خلفه ، كانت الخادمة قد ألبست سيدتها ملابس النوم، وقد استلقت على السرير ، وكانت في غاية الإعياء رقصت كثيرا وشربت كثيرا ، وغايتها التمتع بملذات الدنيا ، وشهوات الحياة.

قالت لزوجها : جئت إلى هنا ! لم تذهب إلى حجرتك.. أنا في غاية التعب يا نذير!

قال : فقط أريد النوم .. لا رغبه لي في المعاشرة اطمئني.

قالت باستنكار : لقد رأيتك تلحق فريدة إلى تلك الحجرة !

قال مبررا : ذهبنا نستريح بعض الوقت ، تعبنا من الرقص .

ضحكت وقالت باستهزاء : تعبت من الرقص .. أنا التي تعبت .. أنا رقصت مع الجميع .. ألم يحدث شيء بينكم ؟ إنها تعشقك ! نحن نساء ..لا نكتم شيئا عن بعض .. أو لا نستطيع كتم شيء حتى ولو معاشرتكم !

قال : سلوفانا صارحتك بعشقها لي .. هي مقبولة وجميلة وماهرة في الاتصال ؛ لكنها تسلم نفسها لأي عاشق ؛ لكنها تلزم الحذر عندما تكون في صحبته زوجها منذر .

قالت: وزوجها يغازلني ؛ كأنه يريد أن ينتقم منك مني !

قال ضاحكا ومتهكما : يريد أن ينتقم ! ما هو داعر !

قالت: نال قبلة مني .. من خدي .. سمحت له بها .

قال : أنا تركت حرية لك ؛ فكما أسمح لنفسي بمضاجعة النساء ..افعلي ما شئتي ؛ ولكنك تبقين ملكي وحبيبتي .

قالت : اقدر لك ذلك ؛ لكني أغار عليك ، وأتمنى أن تبقى لي وحدي.

قال : الحياة هناك ؛ ليست كحياة الشرقيين .. النساء هنا أقل مجونا وخيانة .. يزعم الشرقيون أنهم يغارون.. عندهم شرف أكثر من الغربيين .. ويزعم الشرقيون أن سببه قلة الغيرة عند

الغربيين بسبب لحم الخنزير وأكلنا للخنزير.. كان الليلة على المائدة وكلنا أكلنا الخنزير.

قالت: لا أعتقد صحة ذلك ! وهم لا يفرقون بينه وبين لحم الضأن .. أنا من مواليد ألمانيا ، وعشت فيها شبابي قبل أن ألقاك ، وهم يغارون ؛ كما تغارون ، ويقتلون نسائهم وعشيقاتهم ؛ ولكن الغيرة تختلف من بلد إلى آخر ، حتى من القروي ومن المدني .

خلع ملابس السهرة ، وارتدى ثوب النوم ، ورمى نفسه بجوارها ، فسمعها تهمس وتكرر : ألم تقضِ شهوتك من فريدة ؟

قال : كان زوجها يراقبنا ؛ بل تبعنا بعد حين ، لم أتمكن إلا من تقبيلها ومعانقتها .

قالت: لكنها قالت غير ذلك !

قال : قالت !

قالت: أصدقها أم أصدقك !

قال : ولكن زوجها لحق بنا.

قالت: أنت تعرف زوجها لا يهتم لمن تسلم نفسها إليه .. هو برميل شراب خاصة إذا كان مجانا .. نحن أبناء الغرب .. فهذه السهرات والحفلات لتغيير الجو .

قال : وتبادل الزوجات هل ...

قالت: لا كنت مستغرقة في الرقص.

قال : لا أدري لماذا تكذبين؟! لقد قال لي سعيد إنه قضى معك بعض الوقت الحميم.

قالت: كذاب ! إنه يسخر منك، لم أسمح له ، ولا أحد غيره .. اسأل جومار رئيس الخدم ، لم أغادر ساحة الاحتفال والرقص ، دخلت المرحاض دقائق ، فلما خرجت رأيته يفعل ما فعلت قال كأنه مؤكد الوصف: سعيد أكيد كذاب ، قلت لك أنا لا أغار ، أسمح لك أن تفعلي ما تشائين .. المهم أن يبقى هذا الفعل خفيا عني .. التغيير جيد حبيبتي! ألم يكن لك الأصدقاء والعشاق قبل أن نلتقي في ذلك النادي؟.. وأفاجأ بالجمال الجرماني.

قالت : قلت لك إن أمي ألمانية ، وأبي من أصل تركي ، انتقل جدي جانسل من أسيا إلى

تركيا قبل الحرب الأولى، وأثناء الحرب عمل ضابطا مع الألمان ؛ حيث كانت شراكة بين تركيا وألمانيا الموحدة ، وبعد توقف الحرب تزوج أرملة ألمانية ولدت باريش جانسل .. كما أنت عربي من زريق هذه المدينة .

ولما ظل صامتا تابعت : كان لي عشاق ؛ كما كان لك .. كان لي صديق بعد طلاقي من موريس لاندري ؛ لكن بعد زواجي منك وقد أصبحت زوجتك اختفى .. عليّ أن أحافظ على شرفك .

ضحك وجلس واشعل سيجارة ، وهتف في صوت عال : رائع !رائع ! لعلني أصدق هذا الكلام الرائع.

قالت بسخرية : هات سيجارة .. صدق أني لا أخونك صحيح أسمح لبعضهم بمعانقتي .. فقط معانقة .. تصبح على خير أيها الحبيب !

قال : السيجارة .

****

نام الزوجان على سرير واحد بعد حفل ساهر ماجن ، لما خمد نذير ذهب في سبات عميق ، وكانت سلوفانا تكاد أن تنام أو مضى على نومها نصف ساعه عندما رنّ جرس التلفون في الحجرة انزعجت ومدت يدها تلقائيا للهاتف ؛ كما تعودت ، فسمعت صوت جومار يعتذر عن الاتصال ، وسألها عن السيد ، فصرخت منزعجة : غرق في النوم .. لماذا هذا الإزعاج ؟! لم أكد اغفى.

قال : لدينا مشكلة .. أريد السيد.

صرخت: إنه نائم .. ما هي المشكلة؟!

قال : أريد السيد.

أغلقت السماعة بغضب ، فتح نذير عينيه على صياحها ، وحاول الكلام ، ثم لزم الصمت ، فقد ازداد ثقل اللسان ، وتابع النوم ؛ ولكن الهاتف رنّ مره ثانية ، فقالت : لن يبقى هذا

الرجل في البيت !

رفعت السماعة بغضب قائلة : أنت مزعج .

فقال: أنا آسف يا سيدتي! أريد السيد .. الأمر خطير .. كان عليه أن ينام في غرفته.. آسف آسف يا سيدتي !

قالت بحنق : إنه نائم .. لا يريد أن يستيقظ .

تناول الزوج السماعة منها بسخط قائلا: ماذا هناك يا جومار ؟لم ننم بعمق بعد .. هل بقي في القصر خمر ؟

قال : هناك سيد نائم في إحدى الحجرات زوج السيدة فريدة.. لا يريد أن يستيقظ هل استدعي له الطبيب؟

قال : طبيب ! لماذا ؟ إنه نائم شرب كثيرا من الكحول فليبق نائما.

قال : زوجته اتصلت .. هي التي اتصلت.. لما دخلت بيتها لم تر زوجها .. فتنبهت أنها تركته في تلك الحجرة نائما .

قال نذير : دعه نائما حتى الصباح.

قال : اخشى أن يكون ميتا .

قال : لا ، ليس بميت ، تناول حبة مخدر أو منوم .

سمع تنهد جومار وقال : كما تشاء يا سيدي !

وضع السماعة ، وسمع زوجته تسأل ، فقال : فريدة نسيت زوجها نائما في تلك الحجرة ، اتصلت بجومار فذهب لتلك الحجرة ليوقظه ، ورفض أن يستيقظ فظنه مريضا أو ميتا .

قالت : أسقيتموه مخدرا!

قال : نامي نامي ،لحق بنا ، وكان علينا أن نتخلص منه .

قالت بهزء : ألم أقل إنك قضيت ساعه لذة معها ؟.. أنا أعرف فريدة أكثر منك، وما تعرت إلا للقضاء عليك !

قال :كنا سكارى ، وليس على السكران حرج ، هي سلمت نفسها لي .

قالت : وماذا ستفعل مع زوجها لما يستيقظ ؟

قال : سينسى الأمر ، لست أول رجل ينام مع زوجته ، وهو يعرفها جيدا .

قالت : لو فعلت ذلك من ورائه لكان ألطف.

قال : المتعة تأتي فجأة يا سلوفانا ! أنا أحس بتعب .

قالت مفسرة تعبه : من السكر والجنس .. لا تراعي صحتك ..أطلب لك قهوة.

قال لها: اطلبي الطبيب.

قالت بقلق : الطبيب !

قال بوهن : أجل أو حتى سيارة الإسعاف إني أكاد أفقد الوعي .. صدري يضيق.

قالت : نصحك الطبيب بتقليل الشراب .. الكبد مريض عندك !

نهضت عن السرير وقالت : حتى أنا أكثرت من الشراب .. الصداع يكاد يفجر رأسي .

ارتدت الروب ، وضغطت على جرس الخادمة التي لبت النداء بعد حين يسير وفتحت الباب فقالت: اطلبي جومار

قالت الفرنسية : ما زال مستيقظا .

عندما رن الهاتف تحدث مع الخادمة ، ثم سمع السيدة تصيح فيه ، وتطلب منه سيارة الإسعاف: السيد نذير وجع .. معه وجع شديد.

قال: منذ قليل كنت أتحدث معه يا سيدتي !

قالت : افعل ما يطلب منك .

قال : حسنا !

جاء الطبيب ، وسيارة الإسعاف ، وتم نقل السيد نذير خاتم إلى سيارة الإسعاف الخاصة بالمستشفى المتعاقد معه للعلاج ومن يعيش في القصر ، ادخل غرفه العناية المركزة ، وبعد إجراءات طبية تحسنت أحوال نذير ، ونقل إلى غرفة خاصة للمتابعة في الصباح .

قضى السيد نذير ثلاثة أيام في المستشفى ، وعلم أنه كبده يعاني من مشاكل صحية زائدة ، وأكد له الطبيب عجز المستشفى عن معالجته ، وعليه أن يذهب للعلاج في ألمانيا ؛ حيث عولج سابقا في بداية مرضه ، رشحت ألمانيا لعلاجه ، فهو يحمل جنسيتها ، وتزوج السيدة سلوفانا فيها ، حيث تعرف عليها في أحد النوادي الفندقية التي اعتاد ارتيادها بصحبة والدها باريش ، فهو صاحب استثمارات كبيرة مشتركة في البرازيل سان باولو وريو دي جانيرو وسانتياغو وألمانيا في قطاع السيارات والفنادق وصناعة السلاح . فلم عاد للقصر أخذ الطبيب الخاص جدا به الدكتور رشدي بالو أخصائي القلب والأوعية ترتيب أمور سفره مع الأطباء الذين سيقابلهم في ميونخ جنوب شرق تلك البلاد ؛ حيث له شقه خاصة فيها ينزل فيها عندما تطول غيبته عن مدينة زريق (القمر صافي الضياء) .

بدأ الأصدقاء والمعارف يتوافدون على قصره للاطمئنان على صحته وتوديعه عندما انتشر نبأ السفر للعلاج في أوروبا ، وأخذت سلوفانا بدورها تستعد للسفر ومرافقته في رحله العلاج ، ويصحبها خادمتها الخاصة جوليا بانزر الفرنسية ، التي تعاقدت معها منذ عهد ليس بالبعيد أثناء رحلة من رحلاتها إلى فرنسا ، وطبيبها الخاص لوقان فريد آق ، ومنعه رشدي من تناول الكحول قبل رحلة العلاج ، ومنع أيضا من الاتصال والجماع بالنساء لأقصى حد ، وكان قديما أثناء انتقاله من البرازيل إلى ألمانيا تمت معالجته من مشاكل الكبد التي تظهر عليه بسبب الإكثار من الكحول بين حين وآخر ، ولديه متاعب في عضلة القلب والشرايين .

وكان الصديق بسيل مجديان صديق العائلة الصديق المقرب منهم أكثر من الآخرين ، كان يحثها على البقاء في القصر ، وكان يطمع في علاقة حميمة معها وحاول وسعى في ذلك ، وكان نذير قد سعى لهذه العلاقة مع ريما زوجة بسيل ، كانت السلوفانا تصده وتبين له أنها لا يمكن أن تخون نذير رغم خيانته المكشوفة لها ، وأن ما بينها وبينه وبينهم استلطاف لم يصل إلى هذه العلاقة الحميمية ، وكان نذير يحاول الوصول لإقامة علاقة متعة مع ريما ؛ ولكنها أيضا كانت

تصده ، وتتجنب الخلوة معه رغم الهدايا التي يتحفها بها ، كانت تقبل هداياه وتصده في لطف وتبين له أنها تكره الخيانة الزوجية رغم ما يعيشون فيه من الفساد والانحلال ، وكانت سلوفانا تشكر لها هذا الموقف مع أن ذلك لا يهمها كثيرا ، فهي تتقبلهم على مضض ، ولأنهم رفاق نذير فقط ، فهي تعرف زوجها أنه زير نساء ، وزير خمر قبل استقرارهم في زريق ؛ وإنما قبلت به للثروة والأموال التي دفعها لها عندما التقيا أول مرة في نادي أرستقراطي ألماني تابع لفندق ضخم ، وأظهر إعجابه بها فورا رغم أنها مطلقة ؛ لكنها فتنة وفتنته ، وخلال أشهر كان زواجهما ، وتزوجا بعقد شرعي قانوني ؛ لأن أهلها وهي أصروا على ذلك فوالدها باريش مسلم تركي ، وسلم ووافق على ذلك .

ومنحها حريه السفر والتنقل بين أوروبا و بلده زريق ، وهي كانت تعلم أن الرجل متزوج ، وأن زوجته البرازيلية هربت مع صديق لها ، واختفت في بلدان العالم ، طلقها غيابيا ، ولم تعرف أسباب هربها بالضبط ، وهو ولم يكشف لها كل شيء ، عرفت أن أحدهم استولى عليها واختفت فجأة ، وقضى سنة يبحث عنها ، ولما التقى سلوفانا نسيها وبعد سنتين رجع إلى بلده العربي زريق من ألمانيا ، واستقر في القصر الطالع(من أسماء القمر) ، ومتابعة شركاته واستثماراته المحلية، بحيث هو يملك مجموعه من الشركات والمصانع في بلده زريق ،بدأ بها وهو سان دي جانيرو ، وله استثمارات في البرازيل وألمانيا الغربية.

منذ التقى الطبيب بسيل بالسيدة سلوفانا وهو مفتون بها وبقوامها وجمالها الأوروبي وعيونها الزرق ، وحاول إقناعها بالاستسلام له كعشيق فراش ، وشجعها على الطلاق من زوجها ليتزوجها ، وتنجب منه ، طلق الأولى ، وأبدى استعداده لطلاق ريما زوجته الثانية مع أن له منها طفلين ، وأن ريما موافقة على ذلك الطلاق رغم رفض والديها من شدة ولعه وهواه وعشقه لسلولفانا ، رغم المصالح الكبيرة التي تربط بينه وبين والد ريما ، رفضت سلوفانا التخلي عن زوجها نذير مع ما لمسته من حب بسيل وتملقه لها حتى أن نذيرا أدرك ذلك التعلق والهوس والتملق حتى أنه وافق على طلاقها إذا قبلت بصديقه بسيل وقال : إنه يكثر التردد

عليك يا سلوفانا ويكثر من الاتصال لا أعتقد أنه حب حقيقي .. هو يريد الانتقام منى لمغازلتي زوجته ريما ، فيزعم حبك، وإنه ولهان.

قالت : تقريبا ؛ لكني اعتذر إليه ، رفضت رغبته بالزواج مني .. أنا لك وحدك رغم خياناتك الكثيرة .. أنا عرفتك قبل الرحيل إلى هذا البلد واعرف شلتك وهوسكم بالنساء والخمر والقمار .

قال : قلت لك ذلك عند الزواج ، أنا مفتون بالنساء ؛ خاصة بنات طبقتك والمشهورات .. وقلتي افعل ما تشاء .. وسمحت لك ببعض الانفلات .

قالت بفخر : صدق أنا منذ تزوجتك لم أمكن رجلا مني مع ما تراه من الرقص والقبل الخاطفة مع الأصدقاء أنا لك وحدك صدق ذلك .

قال : أتمنى أن يصدق ذلك .. كأنك نسيت اللعين !

قالت : ضعفت أمام فتنته وهجرك لي الشهور ، وقد انتهى ما بيننا .. تحدثنا كثيرا في هذا.. هل تحدد وقت الرحيل ؟ سأرحل معك.. أنت زوجي وحبي .

قال : أنت عجيبة ! لكنك بنت أوروبا .. تعاشر إحداكن الحمار وفي الصباح لا تعرفن الحمار البتة ! ما أخبار قطك الأسود باريس .

قالت : جاء الطبيب ونقله إلى مستشفى الحيوان أو عيادته الخاصة ؛ كأنه تأثر بمرضك ، وتعاطف معك ، وعاد وما زال متعبا ، فقد الكثير من الشعر .

قال نذير : ربما لم يتعود على مناخ زريق بعد .. والقط قطك ، أنا لا أحب القطط ولا الكلاب .. أميرتي علمت أن بسيلا حاول أو سعى لتقديم سيارة جديده لك

قالت ساخرة : رفضت بأدب ، وقلت الهدايا بعد الرجوع من رحلة العلاج .

قال : إنه معقد ، ويظن أنه دون جوان ، لا تقف امرأة أمام وسامته .

قالت : أنت تشتهي زوجته أمامه ، وألم تقل له إنك مستعد أن تدفع مائة ألف لتنام مع ريما ليلة واحدة ، فهو يعمل مثلك .

قال : لا حرج على السكران ، كنت سكران لا أدري بما يخرج .

قالت : وهل أنت تصحى بالليل.. أنت كما قلت لي تسكر منذ كنت طفلا .

قال : صحيح ! علموني عليها صغيرا ، وأنا كما تعلمين ولدت في البرازيل من أم برازيلية ، ووالدي مهاجر عربي ، وعدت للوطن حتى تخرجت من الثانوية العامة عشت في جدتي وعمي روح ، ثم هاجرت إلى أمريكا للدراسة الأولى ، ثم مسقط ولادتي لأبدأ حياة عملية مستقلة ، وتزوجت بنت أحد الشركاء ، كما حصل معنا ، وكانت حياتي الخمر والنساء في تلك البلاد ، بلاد مفتوحه مسموح فيها القمار النساء والخمر أكثر من البلاد العربية ، المهم موافقة الرجل والمرأة على إقامة علاقه ، فلو رأى الرجل أباه أمه أخته وبنته عليه أن يصمت ، ولا يعترض ، وألمانيا بلدك تبارك ذلك .. هناك تكثر أولاد الزنا يلقون في الزبالة ، وأعدادهم كثيرة في البرازيل بسبب الإباحية ؛ فاذا لم يمت في العالم الغربي الدولة المسؤولة تأخذه ؛ فهي المسؤولة عن الأطفال .. فالأب الذي يضرب أبناءه يؤخذون منه ، ويدفعونه إلى أسرة بديلة ، الآباء لا تتحمل المسؤولية ، هنا إذا فجر رجل بامرأة يزوجونهم إن لم يكونوا متزوجين ، وينسب المولود للأب حتى لو كان ابن زنا .. أقول أنا سعيد بصحبتك ، وسأضيف لحسابك نصف مليون عند السفر ؛ لأنك صبرتي وتحملت جنوني .

قالت: شكرا لك ، أنا زوجتك حتى الفراق .

قال: أنا أعلم أنك قبلت بي زوجا من أجل المال.



التهيئة

لم يكن السيد نذير مدير عام شركات ومصانع الشمس المشرقة يسمح للمديرين والعاملين في إدارة الشركات والمصانع المملوكة لشخصه أو مشارك في مجلس إدارتها المشاركة في السهرات والحفلات التي يقيمها سواء في قصره أو أي مكان آخر ، فقط أصدقاؤه وأصدقاء الزوجة .

تحدث مع نائبه علي يوسف لعقد مجتمع لمديري الشركات والمصانع قبل السفر للعلاج في ميونخ ، وحدد له التاريخ والوقت ، فرحب الدكتور المهندس علي بالاجتماع ، فهو له أكثر من شهر لم يجتمع بهم أو يدخل الإدارة .

فلما انتهى من الحديث مع المساعد أو النائب قالت له سلوفانا : أليس في ذلك خطر على صحتك ؟ فلك أسابيع تتابع العمل بالهاتف ، وتقرأ التقارير في المكتب الداخلي ، وتلتقي بعلي وبكر وتسمع منها .

قال : لا يكفي يا سيدتي مناقشة العمل عن طريق الهاتف ؛ لابد من عقد هذه الاجتماعات مع مدراء الشركات والمصانع ومن زيارتها شخصيا والتحدث مع الموظفين والعمال ؛ ليكون الاهتمام من الموظفين والمدراء ، ومشاهدة ردات الفعل والوجوه والعيون لها لغة يا سلوفانا .

قالت : رغم مجونك المعروف أنت في العمل والمال عملاق يا نذير !

قال مضيفا : الاتصال بهم والكلام المباشر معهم يضعف الانتهازيون ، ويتعرف المرء على الكفاءات واختيار الكوادر النشيطة ، ووضعهم في الأماكن الدقيقة.

قالت : أنا أشهد لك بالذكاء والمكر .. فأبي استعان بك لما عصفت به الأزمة ، وتحدث عن نجاحك وقدرتك في سان باولو وترجاك بالمجيء لألمانيا وأصلحت الحال وتزوجت ابنته .

قهقهة وقال : وألم استحوذ عليك وأتمتع بهذا الحسن والقوام؟ الدول تلين بالمال .

تبسمت وقالت : وبذلك أشهد أيضا ! لقد بهرتني وأقنعتي بأن أكون لك زوجة رغم ترفك الشائع ، وقد مللت مني سريعا .

تنهد وقال : لم أملّك ؛ لكني تزوجتك ، وقد أنهكتني النساء .. أخجل أن أبدو ضعيفا أمام

هذا الحسن .. العمل شيء واللهو والمرح شيء آخر .

قالت : هكذا تريد الدنيا منا أن نكون جادين وغير جادين .. أنت في العمل والإدارة بارع لقد قمت بإقناع أبي وأخي بالاقتناع بك والرضا بي زوجة لشريك أبي .

قال : توفيق من الله ..والدك فتح لي الطريق إليك ، وتحدث كثيرا عنك قبل اللقاء .

كان سيد نذير لا يوظف أنثى في إدارة شركة أو مصنع ، كان في العمل يحب التعامل مع الذكور ؛ لأنه ضعيف أمام إغرائهن وملابسهن ومساحيقهن يفتن بسهولة ويسقط في حبالهن وكيدهنّ ، ولا يحب أن يكون ضعيفا مع الموظفين ؛ لذلك كل عشيقاته كن من خارج العمل والوظيفة.

السكرتاريا يقوم بها رجال ، ولا يحب أيضا أن يشاركه المدراء لهوه وسهراته إلا بالحد الضيق والضروري ، أما مدراءه فيتخذون السكرتيرات دون ممانعة ، ويفعل هذا الترتيب للمحافظة على أسرار العمل والإنتاج والتصميمات .. فهو يعتقد أن النساء أسرع في نقل أخبار وأسرار الإدارة والشغل من الرجال .

دخل قاعة الاجتماع في مجمع شركاته ومصانعه مصانع وشركات الشمس المشرقة كان حازما مع الكادر الإداري ، جرت مجاملات الترحيب والدعاء بالسلامة والرحلة الشافية والعودة معافى ، واستمع لبعض المديرين ومشاكلهم ونجاحتهم قضى ثلاث ساعات يسمع ويناقش.

ولما غادر الكثير منهم قال : هل بقي شيء يا حكمت؟

قال أحد مساعدي القانوني بكر : نعم يا سيدي! نحن علاقتنا والقضايا القانونية خلال فترة غيابك لمتابعة العلاج مع من نتابع القضايا.

قال: الموت وارد يا حكمت ويا أستاذ بكر شركاتي وأموالي في ألمانيا لا مشاكل قانونية معكم ، ويتابعها مكتب لا دخل له هنا ، كما أنكم لا دخل لكم بألمانيا أو البرازيل كل بلد لها أنظمة خاصة في الاستثمار والتفاصيل .. وأموري هناك منظمة ومستقلة عن المجموعة ، وصيتي توزع بعد موتي بست سنين ، وكذلك حصصي في البرازيل ، المشكلة هنا ؛ لأن المال يوزع

حسب القانون الشرعي ، أنا أعرف بالقانون المالي والميراث ؛ وكما قلت لعلي يوسف وبكر أن يصرف على القصر وسلوفانا من أموالي هنا ، وبعد ست سنوات من الوفاة توزع الأموال المسجلة باسمي حسب قانون هذا البلد ، والثلث المسموح به كوصية مكتوب يا حكمت ، والاهم سأنقل ملكية نصف الشركات لزوجتي تمتلكها بعد موتي بست سنوات ، لأنها ستكون المديرة للمجموعة حتى ترثني ، وهي حرة التصرف ، البقاء شريكة أو تبيع حصتها ، أما هناك فتدفع لزوجتي كوصية بعد ست سنين ، أنتم لا دخل لكم فيها.

قال: جيد ! نعتمد توقيع وختم السيدة .. نتمنى لك السلامة ونجاح العملية .

قال: أشكر اهتمامك بهذه الجزئية المهمة .. وبالطبع ستبقى الأعمال قائمة بقيادة علي يوسف لمدة ست سنوات، ثم تصفى وتوزع لبعض الأندية والجمعيات والباقي لزوجتي.

قال حكمت : زوجتك قديرة على الإدارة.. أنا علمت أن وضعك الصحي حرج فمن أجل ذلك أحببت فهم ذلك.

قال: الدكتور علي عنده التفاصيل .

ـ أبوك وامك .

قال: من ميراثي هنا سيأخذون بعد إنهاء وتصفية الشركات والمصانع وحصصي فيها ، أنا أتعامل مع كل بلد حسب نظمها في المال .. هنا يسمحون بالوصية بثلث المال لمن يشاء والثلثان للورثة ، وأنا علاقتي بهم سيئة ؛ لعلك سمعت ، نتحدث بأضيق الحدود كل واحد ليس بحاجة للآخر ، فهم في مرضي هذا لم يتحدث أحدهم معي بالهاتف.

قال: نتمنى لك الشفاء والعافية شكرا على صراحتك.

قال: إلى اللقاء قضية المهندس حسن.

قال بكر : سنعمل على تسويتها ، كما اتفقنا معه، وغادر العمل أو المصنع .

قال: المهم غادر راضيا.

ضحك علي : لا أحد يترك عمله راضيا ومسرورا ، ولا اعتقد أن يجد من أكرم منا

قال: انه رجل فهمان وقادر على العطاء.

قال بكر : هذا لا ينكر يا سيدي !

قال علي: أكيد ، ولكن لا يبقى احد ولا يدوم ، ونحن تركنا باب العمل مفتوحا.. ما كان عليه أن يتلاعب بالمواد.

قال نذير : أنكر هذا التلاعب يا علي!

استقبلت سلوفانا زوجها بالعناق والقبل بعد عودته من الاجتماع الطويل على باب القصر : لعلك سعدت بلقاء أعوانك يا زوجي الحبيب ! كنت أضع يدي على صدري قلقا عليك.

قال باسما وشاكرا للاستقبال الدافئ : يستعدون لموتي ، لقد صارحهم الطبيب بذلك ، وأخبرهم أنك ستكونين الرئيسة والمديرة عليهم .. تكلم طبيبك أكثر مما ينبغي له.

ـ كل هذا عليّ القيام به !

قال مخففا الأمر : معك علي يوسف ، والمال في شراكتي لأبيك لك بعد موتي ، وثروتي في دي جانيرو أما هنا فسيكون الميراث حسب الشريعة المعمول بها هنا ، سيكون لك الربع بحكم عدم وجود أبناء لك مني إلا إذا لبسوني شرعا ابن الهاربة ستنقص حصتك ، ولكني طلبت كما تعلمين أن يؤخر توزيع المال بعد خمس ست سنين من موتي ، فعليك أن تديري العمل لتأخذي الأرباح حتى تمضي السنون.

قالت بدعاء : إن شاء الله تنجح العملية وتعود فحلا كما عهدناك.

قال بحسرة : أنهكتني النساء والغانيات ، ليتنا التقينا قبل سنين واكتفيت بك .. أنا أحبك يا سلوفانا.. حب من طرف واحد .. أنت أحببت المال أعلم ذلك .. وأنا سأتركه لك ، وهذا القصر سيكون لك .. قبل السفر سأنقل ملكيته لك رغم خياناتي التي لا تنتهي.. لم تخوني نذيرا إلا مع ...

قالت مذكرة : أنت قلت ذلك قبل زواجنا ، وأنا قبلت ذلك، فعليّ بالصبر .. ما تتركه لي كثير .. اهلك !

قال : سيأخذون بالميراث فقط .. لنا في هذه البلدة الكثير.. وهو كثير

قالت : على ذكر الأهل .. أبوك اتصل يريد مالا قرضا !

قال معللا : سمعت أن سفينة له غرقت وتضررت ، سأرفض قرضه .. متى اتصل؟

قالت : بعد خروجك بقليل ، وهو في تركيا في احد فنادقها ، وأمك مريضة

قال معرضا : مريضة! احضرها يتسول بها .

قالت : إنك قاسي نحوهم !

قال متأففا : منذ افترقنا من ربع قرن ، ونحن في جفاء .. الأبناء والبنات .. ساعدته مرات ، ولم يسدد فلسا من أي قرض.

قالت: أنا احب أن تكون علاقتك طيبة معهم .. فأمك تتهمني بإفسادك عليها

ضحك وقال : أنت طيبة ! المال يحتاج إلى قوة تحميه من القريب والغريب .

****

صار السيد يمارس عمله المكتبي يوميا ، وذات نهار اخبره السكرتير أن والديه بالباب ، فأذن لهما ، وترك الكرسي معانقا لهما ، واستأذن علي والسكرتير خالد بالإشارة فحنى لهما رأسه بالإذن ، وعاد إلى المكتب ، وهو يطمئنهما على صحته قائلا : مرض الكبد قد عاد من جديد يغيب ويظهر ، وقريبا سأسافر إلى ميونخ للعلاج في نفس المستشفى الذي تعالجت فيه لما غادرت البرازيل وتزوجت سلوفانا .. مرحبا أمي مرحبا أبي !

تمتما بما يناسب المقام وقالت أمه : أنا عاتبة عليك يا نذير ! لم أعد أسمع صوتك!

قال : الشغل كثير ، ولما أغادر العمل اشتغل بالشراب واللهو فأنسى .. أنت اتصلي كما كنت تفعلين قديما.

قالت: كلما اتصل ترد الخادمات .

فقال : ربما كان جومار يقول لي وأنس الرد من السكر .. أرسلت لك مالا جيدا

قالت بغضب وسخط : المبلغ غير جيد ثمن ثوب واحد!

قال متهكما : طاعة ! عشرة آلاف دولار ثمن ثوب واحد .. وأنت يا أبي بكم تشتري لها السروال؟

قالت: أريد خمسين ألفا، لقد رأيت عقدا من الزمرد في بروكسل وأعجبني!

قال مكرها : أنت لمن تجمعين ؟! حاضر سأقدم لك خمسين ألف سوى العشرة .. هل بقي لك أصدقاء .. أبي يقول هجروك كبرت وعجّزوا .

قال الأب: أنا لا أريد شيئا .. أريد قرضا كبيرا

قال : أنا اعتذر يا دكتور خاتم .. تأخذ باسم القرض ولا تسد .. السفينة المعطوبة أليست مؤمنة ؟ أتريد خمسين مثلها ؟

قال: أنا لا أقبل الصدقة .

قال: هذه ليست صدقة ، إنها عطية .. فلماذا القرض ؟!

قال: سنعوض أسر الضحايا والبحارة .

قال نذير : شركات التأمين ستدفع !

قال: يحتاج ذلك لوقت ، ولابد من المواساة العاجلة

قال محتجا : على حسابي.. اقترض من البنك .. دفع الأخوة!

قال: بدأت بك.. أنت أغنانا.

قال: حسد .. ضقت يوما ولم تقدم لي شيئا أنت وأطفالك

قال: هذا كان قديما قبل عشرين سنة .

قال: المرء لا ينسى السيء .. تخليتم عني كلكم حتى هذه - وأشار لأمه - قالت اعمل على قدر فلوسك .. وأنا عملت على قد فلوسي ، ووفقت بامتلاك أول مليون

قال: حسنا ! شكرا يا نذير ما دام عدنا للماضي البعيد

- أتريد خمسين ؟

قال: لا، أنا أريد قرضا بمليون .

ـ البنوك ستقرضك ما تريد.

قال: الفوائد ستكون كبيرة.

ـ بع بعض الأملاك

قام مودعا تتبعه زوجته بصمت ، وغادرا المكتب ، دخل السكرتير بعد انصرافهما: امرأة ترغب برؤيتك .

قال محتارا : امرأة تريد الحديث مع نذير خاتم ! ولماذا؟!

قال السكرتير : موظفة في احدى الوزرات .

قال مستفهما : تبرعات !

قال السكرتير : ربما ! تريد مقابلة شخصية.. رفضت الجلوس مع الدكتور علي

قال: اعتذر لها .. أنا سأغادر من الباب الأمني .. السائق جاهز.

قال السكرتير : نعم

غادر من باب آخر ، ووجد السائق في انتظاره ، فلما جلس قال : البيت يا جون.

تناول الغداء مع زوجته في قاعة طعام البيت ، وأخبره قيم القصر الهندي جومار ليلا بأن فريدة تريد مقابلة لتتدخل في الصلح بينها وبين زوجها، فهما في حالة حرب وخصومة من تلك الليلة ، وستكون حفلة صغيرة الليلة مع بضعة أشخاص بمناسبة عودته للمكتب والعمل.

قال باسما : سلوفانا تريد ذلك!

قال: نعم، يا سيدي ! وطلبت أن لا يكون خمر ومشروبات

فضحك وقال: وكيف ستكون حفلة؟!

قال: دعت عشرة أشخاص

قال: لو وضعت بعض المشروب يا جومار ! لي شهر لم اشرب سوى القليل ؛ لذلك أحس بالعطش سأحدد موعد السفر للعلاج

كان المدعون للحفلة الصغيرة من صديقات سلوفانا من الجالية التركية رجال أعمال من

أصول تركية وزوجاتهم، قضوا سهرة ممتعة من سهراتهم كما يزعمون، وعند منتصف الليل فضت وانقضت السهرة ، وغادر المدعوون القصر.

طلب نذير تجهيز حجرته الخاصة للمبيت فهمست زوجته : حجرتي جاهزة يا نذير!

قال: إنني متعب ، صرت اتعب من جرعة الخمر .. رأيت لم اشرب الكثير.

قالت: أنت يا حبيبي ممنوع عنها نهائيا .. توقف حتى تعود من العلاج

قال جومار: السيدة فريدة حضرت.

نظر لسلوفانا وقال: ما العمل ؟ منذ تلك الليلة وهي في خصومة مع زوجها ؛ كأنه أول مرة يعلم أنها تنام مع رجل آخر!

قالت: هذا الغريب ! هي تمارس البغاء والزنا بعلمه ورضاه ، يعلم بخيانتها.. لماذا هذه المرة يكبر القصة؟!

قال: يبدو أنه يرغب بالطلاق بدون تحمل توابعه ، لقد صدم من وضعها المخدر في شرابه ؛ كأنها أول مرة تفعل ذلك .. دعها تدخل يا جومار .. اجلسي يا سلوفانا لا رغبة لي بأي علاقة الليلة .

أشارت للخادمة الفرنسية بالابتعاد ، دخلت فريدة وعانقتها وهي تتأسف على إزعاجها وقالت:آسف يا سلوفانا .. أصبح مزعجا .. يعتبرني خرجت عن المألوف برقصي عارية أمامكم .. يريد طلاقي هل أقبل؟

قال نذير : أنا لا احب الطلاق يا فريدة ! ألا حل آخر؟

قالت: ما الحل الآخر؟

قال: تركك للرجال إلى حين .. هدنة من الزمن .

قالت: إنهم لا يتركونني .. يشتهون لحمي يا سلوفانا ! لا يستغنون عن اللقاء بي حتى أيام الحيض .. وأنا تعودت على مضاجعة الرجال مدمنة للخمر والجنس حتى أنني اترك الوظيفة ساعات لمعاشرتهم ثم أعود للعمل.

قالت السيدة : أنت مريضة .. عليك بالعلاج والعقاقير .. الشبق الزائد له علاج

قالت: أين العلاج؟

قالت السيدة : ليس هنا.. عند الأطباء .. أطباء العلاج النفسي يعالجون الشبق الزائد .. كل داء له دواء .

قالت: لا أدري سبب الغيرة لديه عندما يبدو عاجزا عن الاتصال بالنساء!

قال السيد: مريض مثلي.

قالت: قد يكون ذلك ؛ لذلك لا يريدني أن أمارس العلاقة والشهوة مع غيره

قالت السيدة : توقفي.. افرضي نفسك في مستشفى مريضة ممنوعة من الحركة .. ها هو زوجي الحبيب منذ تلك الليلة اللعينة لم يقرب أنثى، وقلل جدا من الكحول

قالت : لا استطيع .. تعب ليلة الاحتفال بالقط الأسود ، وأنا منها وأنا أعاني منه .. إنني اعجب منك وقدرتك على الصبر عن السيد نذير وعن الرجال.. لا يوجد لك عشاق من وراء نذير .

قال مادحا : هذا اجمل شيء فيها !

قالت: هل هو الوفاء؟

لم يرد احد فقالت : الحل أن ابتعد عن الرجال لحين.. إجازة .. وكم يكون هذا الحين ؟

قال متهكما : لا اعتقد نجاحك في ذلك ولو يوما واحدا ! كم ستصبرين ؟! أنا متأكد قبل حضورك إلى هنا قضيت بعض الوقت عند احدهم .. ولا احب أن اعرف من هو؟

قالت: لا استطيع الصبر ..كل من يطلبني أسير إليه حتى تمنيت أن اترك الطب واعمل في حانة ودار دعارة أربعا وعشرين ساعة .

قالت السيدة : هو الأفضل لك.. كم مريض سقط في شهوتك؟

قالت: أنا لا أريد الطلاق.. فالزواج سترة وتغطية يا سلوفانا

قال: ابتعد زوجك عن النساء

قالت: ظاهرا ابتعد ، فهو منذ زمن يتجنب معاشرتي خوفا من الأمراض يزعم

قالت السيدة : اعتبرني نفسك في حالة مرض

قالت: كنتم في سهرة الليلة كما بدا لي!

قالت السيدة : نعم زارتنا بعض جاليتي التركية ، فوالدي تركي الأصل وأمي ألمانية، فكانت حفلة صغيرة بمناسبة عودة نذير للعمل في المكاتب .. أريد النوم يا نذير هل تحب أن تنام معي في الحجرة ؟

صمت للحظات وقال: أكيد أنا منذ مرضت صرت أنام في حجرتك

قالت فريدة: أتسمحون أن اقضي الليل بالنوم في قصركم .. لم يبق على الفجر الكثير ..اخشى أن أعود للبيت واجد امرأة مع زوجي .

رحب نذير ببقائها فقال : لا تمانع سلوفانا بقضاء ليلتك هنا

قال: اقترب جومار .

فهب قائما : سيدي !

قال: خذ هذه السيدة إلى غرفة نوم الضيوف .

هزّ رأسه موافقا وقال : اتبعيني يا سيدتي !

قالت: شكرا لكما .. تصبحون على خير

قالت السيدة : لا بأس قد قبل السيد نومك في القصر .

قالت: شكرا عزيزتي.

صعدت سلوفانا إلى غرفتها أو جناحها يتبعها نذير وأحد الخدم يمسك به ، ولما دخلوا جناحها . قالت لزوجها : سيدي أنت ممنوع من معاشرة النساء والكحول ريثما تتعالج.. اذا جاءت من أجل المتعة معك فاذهب إليها إنها لا تستطيع أن تنام بدون رجل!

قال: معلوم .. اعرف هي جاءت من اجل ذلك ؛ وليس من اجل زوجها ، ولا انكر أنها فاتنة في إثارة الغريزة ؛ ولكني عاجز عن الحب والجماع.. مع أنها تقوم بالفحوصات الجنسية

باستمرار .. معاشرتها فيها مخاطرة .. الأمراض الجنسية كثيرة هذه الأيام ؛ لعل جومار ينام في فراشها ويسليها .

قالت السيدة : نعم ، الصحة تاج على رؤوس الأصحاء

خلعت الخادمة ملابس سيدتها وألبستها ملابس النوم وأدخلتها في الفراش وخرجت، فخلع نذير ثياب السهرة ولبس ملابس النوم ودخل الفراش ، وتناول حبتين منوم وبعد دقائق غرق في النوم حتى لا تظن سلوفانا أنه سيخرج إليها ليلا .

****

قاد جومار السيدة إلى غرفة نوم ، وتفقد الحجرة وقال: ادخلي دكتورة فريدة سأرسل الخادمة لترتيب السرير .

قالت: لا داعي أنا سأرتب السرير .. ارسل خادما ببعض الشراب

قال: سأرسل لك الساقي رومو

قالت: لا بأس .. فهو شاب لطيف هندي مثلك

قال: نعم ، وزوجته خادمة الغرف فتاة لطيفة .. هل من خدمة أخرى؟

- فقط الشراب مع رومو

اغلق الباب وخرج ، أتاها رومو بزجاجة كحول وكأس ووضعها على طاولة وقالت: ألا يوجد ملابس نوم يا رومو؟

فتح الخزانة وقال : هذا . وأشار لثوب معلق فيها .

فقالت: أوه! لم أره .. كيف اتصل بك اذا احتجت لشيء ؛ لأني لا أنام بسرعة؟

قال: هنا جرس . ودلها عليه بجوار المنضدة وقال: اضغطي عليه أكون عندك يا سيدتي .. نحن في خدمة ضيوف السيد نذير.

أراد الخروج فقالت: انتظر رومو

قال: سأقف خارج الغرفة حتى ترتدي ثياب النوم

قالت: لا تهتم عندما أنام سألبسها .. أتشرب ؟

قال: شكرا سيدتي ! وغادر الغرفة

فقالت لنفسها : سلوفانا تعلم لم جئت.. استولت عليه الليلة ؛ ولكنه لا يحبها ، ولا يحب مضاجعتها أم يكذب علينا .. وهل هو ممنوع من الحب فعلا ؟ هل احضر منذر فتاة لشقتنا الليلة ؟ إنه يعشق المومسات بنات الليل .. بنات النوادي الليلية .. هل استطيع أن اشتغل مومسا ؟ كان والديّ عاهرين فماذا سنكون نحن؟ هرب مني نذير.. هو يدرك أنني مفتونة به .. الخادم شاب بدا لي قويا ومعه زوجته كما قال جومار ، لا يقبل جومار معاشرتي.. كان يتهرب من إشاراتي كلما راودته .. ذات ليلة كاد يصفعني لما تحرشت به .. أحاول مع رومو بدا لينا.. زوجي الآن يداعب مومسا ، ولا احد يداعبني.. تعودت على الزنا ، هل هذا زنا ؟ شربت كوبا. ثم ضغطت على الجرس، فلبى الخادم وطرق الباب وقال: نعم ، سيدتي !

قالت: انظر هذا الخاتم

قال: جميل!

قالت: امسكه

فاقترب وتناوله بيده وتأمله فقالت: هو لك اذا قضيتك ليتك معي على هذا السرير

فقال: سيدي يغضب اذا علم

قالت: من سيخبر سيدك ؟

وأخذت تخلع ملابسه وأسقته كأسا وقد تعرت تماما ، وألقت نفسها على السرير ، فلم يملك نفسه أمام هذا العري فألقى نفسه جنبها ،وبينما هما في لذة الشهوة والفسق فتح الباب ودخل جومار وزوج السيدة ، فقال جومار : ماذا تفعل يا رومو ؟ كانا عاريين.

فقال الزوج: من رومو هذا ؟

فقال جومار : هذا الذي يجامع زوجتك.. احد خدم القصر سيد منذر

ارتدى رومو ثيابه عجلا وقال : هي راودني . وخرج مسرعا بإشارة من جومار

فقال: هذه زوجتك يا دكتور .. يبدو أننا ازعجنا الدكتورة .. فالسيد نام في غرفة زوجته الليلة وتركهم جومار وقال متهكما : الغرفة غرفتكم ، تابع السهرة معها بدلا من رومو .

ظلت عارية تماما ، ولم تكن أول مرة يراها جومار عارية ، فقد تعرت ليلة الاحتفال بالقط الأسود باريس .

فردت فقالت: جربني مرة يا جومار !

فقال جومار : لا احب الزنا ! فزوجك أولى بك.

وغادر الحجرة فقال زوجها: فشلت بالنوم مع نذير .. فكيف أقنعت رومو ؟

قالت: اخذ الخاتم .. ما الذي أتى بك؟ ألم تخبرني أنك مواعد مومسا لقضاء الليلة معك فقلت سأذهب اسهر مع نذير كما فعلنا ليلة القط الأسود.

قال: تسلينا بعض الوقت ، وفشلت في مهمتي ، وأخذت نصيبها وغادرت ، فقلت اذهب وأتفقد حبيبتي ، حاول جومار منعي من اللقاء بك ، وقلت أكيد فريدة في حضن نذير لذلك ترفض أخذي إليها ، فجئنا لأتأكد بأنك دون عشيقك السيد ، فوجدتك في حضن الخادم رومو .. كيف وجدتيه ؟

قالت: لم اعد اشعر بمتعة ، نصحتني سلوفانا بمراجعة العلاج النفسي لعلاج الشبق لم اعد أشبع من الرجال والجماع.

قال: فعلا أنت بحاجة لعلاج نفسي ! أنا لم اعد اصلح لك قضيت على شبابي ، لم تعد لديّ قوة عليك أن تبحثي عن زوج وذكر صالح للعمل ، وعليّ أن ابحث عن علاج للضعف الجنسي صرت عنينا . وتابع معيرا : خادم يا فريدة ! وبخاتم .. أصبحت مزبلة لمن هب ودب.. فمامة صاحت: اصمت أنت منذ تزوجتك وأنت عاجز .. السيد مريض وممنوع من الجنس والخمر ضحك وقال: نذير يصبر عن ذلك .. تعاشرين خادم نذير .. شيء مذل.. دكتورة تنام مع خادم.. وتدفعين له خاتما .. اختاري من السادة .. من الكبار

قالت متعجبة : تعيرني يا نذل ! أنا خادم وأنت مع ساقطات ومومسات .. كله جنس ..

خادم سيد كلب حمار .. كله جنس .

قال متابعا سخريته : هيا نعود للبيت .. هل قام بالواجب؟ بس بخاتم

قالت: بس بخاتم ، وقبل على الفور بدون تردد ، لم يستطع مقاومة الجمال والإغراء

قال: قررت فراقك يا فريدة ! لم تعد أعصابي تحتمل زناك وهوسك .. فقد انتهى العيش بيننا صرت عاجزا عن المعاشرة .

قالت: وهل تطيق دفع تكاليف الطلاق ؟

قال: سنتفق لأني سأترك الشقة .

****

أدخلت الخادمة الفرنسية القهوة الأمريكية على مخدع نذير وزوجته بعد تحية الصباح وقالت : هل احضر الفطور إلى هنا

تطلعت سلوفانا في عيون زوجها وقالت: سنفطر في قاعة الطعام مع تلك المرأة.

ـ لقد غادرت صباحا مع زوجها

قالت السيدة : خرجت مبكرة ومع رجلها !

ـ قبل الفجر بساعة

قال نذير وهو يزيح الغطاء ويرفع نفسه : هل أتى زوجها؟

قالت: نعم سيدي !

قال: حسنا . ضغط على جرس جومار وقال: البسي ثيابك سلوفانا

رشفت القهوة ووضعت الروب على ثياب النوم وجلست على احد المقاعد تتابع شرب القهوة

جاء جومار قيم القصر ورئيس الخدم في القصر : سيدي!

قال: ادخل .. ما الذي حدث الليلة يا جومار ؟! إن السيدة تتحدث عن زوج فريدة!

فقال جومار : أنت تعلم أخلاق السيدة ! لم تسطع النوم دون رجل معها ، ورفضت إرسال الخادمة لها فكلفت رومو زوجها بالاهتمام بخدمة السيدة ، فذهب إليها بالمشروب وتركها

تسكر وأعطاها ثياب للنوم ، ثم طلبته في الليل ، وأعطته خاتما لينام معها ففعل ، وجاء زوجها واستقبلته واعتقد أنك تنام معها ، فأصر أن يذهب لغرفتها فرأها عارية مع رومو .. فعلت ذلك مستسلما ؛ لأنه اتهمك بترتيب زياراتها الليلة للقصر ، وأخذ زوجته وهو يتوعد بالطلاق هذا ما حدث الليلة يا سيدي!

قال: شكرا مع السلامة.

وتبعته خادمة سلوفانا الخاصة ، دخل نذير الحمام وعاد للجلوس وشرب القهوة والتدخين وقال: امرأة عجيبة هذه الأنثى! لا تسطيع النوم بدون جسد جوارها .

قالت السيدة بحقد : عاهرة سيدي! امرأة شبقة مريضة ..كيف عرفتها؟

قال: في نادي قمار .. فتنتي بجمالها الفاتن كما ترين ولو بدون زينة .. تستغل ذلك لصيد الذكور .. وزوجها ديكور وعاهر مثلها ، دخلت النادي مع رفيق لي ، وكانت ليلتها هناك وتابعتني بإغراء فقلت لنفسي فريسة سهلة .. وزوجها مستهتر ؛ كأنه لا يرى ، فوقعت في شبكتها بسهولة فكان بيني وبينها اللقاء بسهولة .. وتكرر الموعد، ثم علمت منها أن زوجها لا غيرة عنده ويغض العين عن خلاعتها ، ووجدت أنها ليست لي وحدي.. عشاقها كثر ، كلما أراد احدهم التسلية تواعد معها ، فعلمت أنها فاجرة لا تشبع من الجنس ، وأحبت التعرف على زوجتي والمشاركة في سهراتي .

قالت السيدة بقرف بين : لها تسعة شهور تتردد على القصر وماجنة للغاية ، تعرت ليلة حفلة القط الأسود أمام كل المدعوين ، وكل صديقاتك منحرفات ؛ لكن فيهن شيء من الاحترام والأدب.

قال: حاولت التخلص منها ، إنها لعوب مومس يا سيدتي ! قد ننتهي منها في رحلة العلاج صدقي أني مللت منها بسرعة ؛ لكتها لعوب ويضعف الرجل أمام جسدها وإغراءها.

قالت السيدة : أنا اعلم أنك رجل شهواني تحب أجساد النساء ، منذ التقينا ببرلين ونظرتك الشهوانية لجسدي في المسبح كانت نظرة رغبة وشهوة ، فقلت لن أمنعك من قضاء شهوتك

من غيري لن أغار وقلت سأغض الطرف عن أفعالك؛ لأنني ابنة أوروبا ولا يهمني مع تنام من النساء .

قال: وضحنا الأمور عند الزواج ، وانا ضعيف أمام فتنة بنات حواء ، كانت ليلة القط شبه عارية لم تدع لي مجالا لتركها

قالت السيدة : عارية وليست شبه عارية ، ظنت نفسها في غرفة نوم

قال: نعم ، عارية.. لقد اشتهاها كل من حضر الحفلة

قالت السيدة : واستسلمت لها وسقتها لتلك الحجرة

قال: لم يكن الأمر سهلا عليّ ، وتعبت معها ، جسمي تدمر من معاشرتها

قالت السيدة : صحتك أهم منها ،ونقلت ليلتها للمستشفى قد تعب قلبك ..ورغم مرضك تأتيك للفجور للقضاء عليك ، ثم مكنت الخادم من نفسها .

قال: ماذا يفعل المسكين لما تعرت له ؟! عليها معالجة نفسها من الشبق

قالت السيدة : هل تفحص حقا؟

قال: تفحص مرغمة .

قالت السيدة مشككة : لا أظن عاهرة تهتم بصحتها الجنسية إلا اذا مرضت

قال: أنا افحص واحلل دائما ، لا اطمئن لهن ولغيرها

قالت السيدة : مرض الإيدز لا يرحم

قال: أنا احبك وتمنيت أن تلدين مني

قالت السيدة متمنية: ليت ذلك حصل لغمرتنا السعادة اكثر .



مالطة



انهى جومار خدمة رومو وزوجته في القصر بناء على رغبة من سلوفانا .قالت شاكرة له : القصر ليس دار دعارة وممارسة البغاء.

وأيد نذير الفصل ، وأخذ الخادمان حقوقهما المالية وتذاكر سفر لبلدهما الهند ، وأخذ السيد يستعد للسفر للعلاج في ميونخ كما رتب ، وزيارة برلين للقاء المكتب القانوني الذي يتابع استثماراته في ربوع بلاد الألمان ، وسترافقه زوجته إلى أوروبا والطبيب الخاص بسلوفانا كصديق للعائلة لوقان آق وخادتها الخاصة جوليا .

وأقامت السيدة حفلة وداع في القصر بمناسبة السفر والغياب إلى أوروبا ، دعت بعض أصدقاء نذير ، وبعض أصدقائها من الجالية التركية، فوالدها تركي متجنس في ألمانية وأمها ألمانية ، غلبت على ألمانيا الغربية بعد الحرب الكونية جالية تركية كبيرة للعمل كمهاجرين، التقى والدها باريش بامرأة ألمانية في مدينة ميونخ عملا معا في مصنع وتزوجا جسدا وروحا ومالا .

أحيت الحفل مغنية تركية وانتهت السهرة عند منتصف الليل ، وقدم للمحتفلين أثناء الحفلة الطعام والشراب والطرب ، وكانت هذه الحفلات الصغيرة والكبيرة من مهمة سلوفانا وكانت تدفع بسخاء ، فنذير يحب مثل هذا الصخب والطرب وهي مثله ، فقد كان يسافر لحضور مثل هذه الحفلات من بلد لآخر .. مال كثير ويحتاج لانفاق ، وكان يحب حفلات

الغناء وعروض السينما أو حتى مباراة كرة قدم في البرازيل أو ألمانيا .. يبحث عن المتعة واللهو . مضت حفلة الوداع بسلام دون مجون وزنا ، وعجبت بعضهن من عدم دعوته فريدة عشيقته فقال : هذه الحفلة من تدبير سلوفانا

فقال احدهم متهكما : أنت محظوظ بها المرة السابقة .. ليلة القط الأسود .. شوهت الحفلة بتعريها ورقصها أمامنا دون حياء.. فظننت نفسي في كباريه باريسي.

قال آخر : هناك التعري قطعة قطعة هكذا الحضارة في باريس وعموم أوروبا.

قال نذير : تعرت ؛ لأنها تعلم ضعفي أمام التعري ، وكانت آخر معاشرة لي معها .. لقد تعبت ومرضت أو تجدد المرض بسببها .

ـ معقول ! التزمت بأمر الطبيب !

قال : كان لابد من فعل ذلك.. الشراب والجنس أهلكاني .

قال : وضعك خطير اكثر مما نعتقد .

قال : فسلوفانا لا أقربها .

ـ ازعجني أمرك .. جميلة زوجتك !

قال : اذا مت يا بسيل مباركة عليك.

قال بسيل صديق اللهو والقمار والسكر والنساء : عجيب أمرك يا نذير ! إنها تقول لنا أنا تزوجت المال ولم أتزوج نذيرا .. قلبها لا يعرف الحب ، ولا حتى حب زوجها الأول

قال: لا أعرفه ولم اره ، سمعت عنه لما عرفني والدها بها كانت مطلقة ، هؤلاء الترك عجيبون رغم ما نراه في الأفلام والسينما التركية من إباحية ودعارة ، فهم يملكون الأخلاق.

قال: أتمنى لك الشفاء يا صديقي ! لا تظن أنني أتمنى لك الموت لأتزوج منها.

ضحك السيد: أنا قلت افعل .. اقنعها بالزواج منك وأنا حي.. فاجتهد بعد موتي.

قال: كأنك تودعنا يا نذير ! كلامك مخيف!

قال: أليست هذه حفلة الوداع ؟! الموت قريب .. كنت أتمنى أن تحبك لأخلص منها ،

وأتزوج غيرها .. اجتهد ربما تراك الزوج القادم .

قال: أترث مالك؟

قال: كل المال تقريبا ، لا وارث لي كما تعلم ، فلا ابن ولا أب

قال: علمت أن أباك قابلك في الشركة.

قال: يريد مليونا كقرض. . كل ثروتي مسجلة باسم سلوفانا اذا مت فدبر حالك .

قال: صدق يا سيدي أني احب لك الشفاء .. أنا لا انكر غرامي وعشقي لسلوفانا فأتمنى لك العودة معافى.

قال: أنا قبلت حبك لها على أمل أن تعرف سلوفانا حب الرجال .. مرت عليّ لحظات أشك بخيانتها لي ؛ لكنها تتظاهر بالزهد بالرجال والجماع.. رغم تقبليك لحذائها فشلت سيد بسيل

قال مقرا: فعلت ذلك في احدى السهرات .. زوجتك عندما تسمح لاحد بعصرها واحتضانها يظن أنها ستسلم له نفسها ، ثم تستيقظ كأن لم يكن شيء حدث.

قال: ليست بائعة هوى زوجتك ربما.. بينها وبين سلوفانا بعض الشبه

قال: ليست طاهرة .. اعلم أنك سعيت للإيقاع بها ؛ ولكنها لا تحبك شخصيا تراك ماجنا للغاية

قال: لها مغامرات!

قال: حاول من جديد اذا رجعت معافى من أمراضك وعجزك.

****

بعد هذه الحفلة الوداعية بليتين غادر نذير المدينة إلى دولة مالطة الجزيرة في البحر المتوسط لقضاء بضعة أيام قبل الانتقال لألمانيا ؛ حيث سيدخل مشفى للعلاج من مرض الكبد ؛ لأنه لا يعمل بشكل جيد ، وقد تعالج منه سابقا قبل سنوات عندما زار ألمانيا أول مرة ، فألمانيا بلدان وحدها بسمارك بدولة واحدة ، وبلد أدولف هتلر زعيم الحرب الثانية والحزب النازي الشهير في العالم.

ومالطة جزيرة وهي دولة تعيش على السياحة ، وتعتبر ضمن قارة أوروبا كقبرص فهي مليئة بالفنادق والمطاعم ، قدم أصدقاء نذير في الجزيرة لتحيته والترحيب به ؛ حيث نزل في احد الفنادق الكبيرة كعادته ، وفي نهاية السهرة دعاهم احد الأصدقاء لرحلة صغيرة على يخت يملكه حديثا ، فقبل نذير الدعوة ولرؤية اليخت ، واعتذرت سلوفانا لشعورها بالتعب والإرهاق وطبيبها المرافق فضل البقاء معها ، وسعى نذير خاتم للاعتذار عن رحلة اليخت الخاص ؛ ولكن الصديق أصر على صحبته والاستمتاع معه برحلة قصيرة في الجزيرة .

فقالت الزوجة أمام الإصرار : اذهب . وعليه أن ينتبه لصحته والشراب والنساء ، فوعد الصديق ألا تصحبهم نساء على اليخت فقط خمر ، وسيبعد نذير عنها ، في الصباح قدمت سيارة الصديق بسائق وقاده للبحر حيث يرسوا اليخت ، واستقبل في اليخت خير استقبال وترحيب ، وافطر مع القوم ومع الظهيرة ابحر اليخت في عباب الماء يحمل رفاق الرحلة ليجوب البحر عدة ساعات ، ودارت الكؤوس والفواحش في اليخت حتى الليل، ولما رسا اليخت ليلا على شاطئ الجزيرة كان نذير يظهر لهم في غاية التعب والضعف ، ولما وصل الفندق امر الطبيب بنقله للمستشفى ، واختار نذير مستشفى قريبا من الفندق ، وادخل غرفة العمليات في المستشفى الذي طلب الانتقال إليه ، وقرر فريق العلاج إجراء عملية قسطرة لقلبه بسبب أعراض الجلطة وبسبب زيادة التهاب الكبد ، ثم تأجلت العملية إلى ظرف آخر لضعفه ، قضى أياما في المستشفى ، واعترف لطبيبه وزوجته بممارسته الجنس مع فتيات القارب وتعاطيه الخمر والإكثار من الطعام.. ونسي نصائح سلوفانا ولوقان ، وقد استاءوا من تحويل الرحلة لمالطا قبل ميونخ .

قالت: هل اتصلت بمركز العلاج الألماني وأخبرتهم عن سبب التأخير؟

قال الطبيب المرافق : نعم فعلت ، سيكون نقله وسفره خطرا على حياته ، وزوجك للأسف خالف النصائح .

قالت: تعود على الزنا ، فهو من بداية شبابه يمارسه ، وأنا أشك أنه لم يفعل ذلك خلال

الشهرين الماضيين أنا لم أسمح له معي ولا مرة ، وحتى قبل مرضة ليلة الحفلة كان قد قضى أشهر قبل أي معاشرة كما ادعى ؛ لكن لها عشيقات وموسسات .. حياته الجنس والكحول .

قال لوقان : أرجو أن نصل ميونخ غدا بسلام مساء ، ونسلمه للمستشفى فوضعه ميؤوس منه ، فهؤلاء عاجزون عن متابعة العلاج ، وهو يدرك ذلك ، وقد غامر بنزهة اليخت والزورق ، نهذه اليخوت للدعارة فوق سطح البحر مثل الحانات والنوادي الليلية .. الإدمان على الزنا مشكلة عويصة.. المريض يجب أن يساعد طبيبه في علاجه ، ويسمع الإرشادات ويعمل بها .

قالت: إلى اللقاء يا دكتور صباحا .

قال الطبيب المرافق : شكرا مدام ! أتمنى أن نصل بسلام ، فأطباء ألمانيا افضل من أطباء مالطة، فهم ذو خبرة في علاج أمراض الكبد والقلب لعل وعسى

وفي الصباح قال الدكتور لسلوفانا: اتصل المستشفى قبل دقائق معلنا وفاة السيد نذير خاتم رحم الله الموتى جميعهم

قالت متظاهرة بالحزن : آمين يا دكتور ! فالموت خير له ، لو عاش سيبقى في فساده ، ولن يمنعه مرض القلب والكبد من الزنا .

قال الطبيب المرافق : أكيد .. من شب على شيء شاب عليه.

****

مرض الكبد الكحولي هو مصطلح يشمل المظاهر الكبدية للاستهلاك المفرط للكحول والتي تشمل الكبد الدهني ،والتهاب الكبد الكحولي ، والتهاب الكبد المُزمن المصحوب بتليف الكبد وتشمعه ، يؤدي استهلاك من ٦٠ إلى ٨٠ غرام يوميًا لمدة ٢٠ عام أو أكثر لدى الرجال ، أو ٢٠ غرام في اليوم للنساء إلى زيادة خطر التهاب الكبد وتليفه بنسبة ٧٪ إلى ٤٧٪ ، يُسرع التهاب الكبد سي أذية الكبد ، قد يؤدي سوء التغذية وخاصة نقص فيتامينات A وE إلى تفاقم تلف الكبد الناجم عن الكحول بسبب عدم تجدد خلايا الكبد.

يشكل هذا السبب مصدر قلق بشكل خاص ؛ لأن مدمني الكحول يعانون عادةً من سوء التغذية بسبب النظام الصحي السيء وفقدان الشهية والاعتلال الدماغي ، قد لا يبدي مرضى الكبد الكحولي في المراحل المبكرة أية أعراض، ولا يُكتشف المرض حتى الوصول إلى مراحل متقدمة ، يتعافى تشحم الكبد بعد التوقف عن تعاطي الكحول، بينما يؤدي استمرار تعاطي الكحول إلى زيادة خطر الإصابة بأمراض الكبد وتشمعه ، تشمل المظاهر السريرية للذين يعانون من التهاب الكبد الحاد الكحولي: الحمى واليرقان وتضخم الكبد ، حدوث اعتلال دماغ كبدي والحبن (تراكم السوائل في البطن). قد تكون ضخامة الكبد المؤلمة موجودة، لكن لا يوجد ألم بطني عادةً، في بعض الأحيان يشكل التوقف عن تناول الكحول الركيزة الأساسية في العلاج، ويجب على الأشخاص المصابين بالتهابات الكبد الفيروسية المزمن الامتناع عن تناول الكحول بسبب ارتفاع خطر التطور السريع لأمراض الكبد.

يتطور التهاب الكبد الكحولي نحو التشمع بنسبة تقدر بنحو ١٠- ٢٠٪ سنويًا ويصاب في نهاية المطاف ٧٠٪ منهم بالتشمع. يُحاوِل الكبد استعادة خلاياه للعمل. ومع استمرار عملية الإصلاح الكبدي تتكوَّن النُّدَب. وكلما تفاقم تليُّف الكبد، زاد التندُّب بكثرة، وزادت صعوبة قيام الكبد بوظائفه. والتليُّف الكبدي المتقدِّم يُهدِّد الحياة. والتضرُّر الكبدي الناتج عن تَلَف الكبد لا يمكن شفاؤه. يُمكِن أن تتضمَّن مضاعفات التليُّف ما يلي: فرط ضغط الدم في الأوردة التي تُغذِّي الكبد (فرط ضغط الدم البابِيِّ). يُبْطِئ التليُّف من تدفُّق الدم الطبيعي عبر الكبد، ومن ثم يزداد الضغط في الوريد الذي يجلب الدم من الأمعاء والطحال إلى الكبد ، تورُّم في الساقين والبطن. تضخُّم الطحال والنزيف. قد يجعل تليُّف الكبد من الصعب على جسمكَ معالجة المُغذِّيات؛ مما يُؤدِّي إلى الشعور بالضعف وفقدان الوزن. لن يستطيع الكبد المُتضرِّر من جرَّاء التليُّف تنقية الدم من السموم كما يفعل الكبد السليم. ويُمكِن لهذه السموم أن تتراكم في المخ وتُسبِّب التشوُّش الذهنيَّ وصعوبة التركيز. ويُمكِن أن يتطوَّر اعتلال الدماغ الكبديُّ، مع الوقت إلى عدم التجاوُب أو الغيبوبة. يحدُث اليرقان عندما تَعْجِز الكبد المريضة

عن إزالة ما يكفي من البيليروبين من دمكَ، وهو نفايات في الدم. يُسبِّب اليرقان اصفرار الجلد وبياض العينين وتَغَيُّم البول. يؤدي إلى زيادة مخاطر الإصابة بسرطان الكبد . نسبة كبيرة من الأشخاص الذين يُصابون بسرطان الكبد تَسبِق إصابتهم بتليُّف في الكبد.

العلاج لا تتناول المشروبات الكحولية إذا كنت مصابًا بتليف الكبد. اتَّبع نظامًا غذائيًّا صحيًّا. اختر حِميَة نباتية مليئة بالفواكه والخضراوات. اختر الحبوب الكاملة ومصادر البروتين الخالية من الدهون. قلِّل من كمية الأطعمة الدهنية والمقلية التي تتناولها. إن مشاركة الإبر في تعاطي المخدرات وممارسة الجنس دون ارتداء واقٍ، يمكن أن يزيد من خطر إصابتك بالتهاب الكبد **B** وَ**C**.

ما هو الكبد : هو عبارة عن غدة هضمية ملحقة بالجهاز الهضمي تنتج الصفراء ، مركب قلوي يساعد في تحطيم الدهون وعضو موجود فقط في الفقاريات يقوم بإزالة السمية من المُستقلَبات المختلفة وينتج المواد الكيميائية الحيوية اللازمة لعملية الهضم في الإنسان تشمل أدواره الأخرى في الاستقلاب: تنظيم تخزين الجليكوجين، تَفَكُّك كريات الدم الحمراء، وإنتاج الهرمونات. يتألف نسيج الكبد عالي التخصص من خلايا كبدية، تنظم مجموعة واسعة من التفاعلات الكيميائية الحيوية ذات الحجم الكبير، بما في ذلك تركيب وتحطيم الجزيئات الصغيرة والمعقدة، إذ أن العديد منها ضروري للوظائف الحيوية الطبيعية. تختلف التقديرات المتعلقة بالعدد الكلي لوظائف الكبد، يقوم بشكل عام بـ ٥٠٠ وظيفة. يتم تنفيذ الوظائف المختلفة للكبد بواسطة الخلايا الكبدية. يقوم بوظائف منفصلة ، ومشتركة مع الأجهزة والأعضاء الأخرى . الكبد هو العضو البشري الداخلي الوحيد القادر على التجديد الطبيعي للأنسجة المفقودة، وعمومًا تشمع الكبد مرض لا يمكن الشفاء منه، وعادةً ما يركز العلاج على منع تفاقم المرض وزيادة مضاعفاته. ويكون الخيار الوحيد المتاح في المراحل المتقدمة من تشمع الكبد هو عملية زرع الكبد.

**

عادت سلوفانا وصديقها الطبيب بجثة نذير داخل صندوق تابوت إلى الوطن ، وعملت له طقوس الدفن والموت حسب الشريعة الإسلامية، فهو مسلم من أب مسلم وأم نصرانية برازيلية ، وأقيم له العزاء على نفس العادات العربية من إقامة سرادق داخل القصر ، وحضر مجموعة من القراء يتلون القرآن عن روح نذير ، يتناوبون القراءة ، وربما أول مرة يصدح القرآن في القصر قصر الطالع .

تقدم الأصدقاء والمعارف والموظفون في شركاته لعزاء السيدة ووالديه الذين حضرا للمشاركة في الدفن والعزاء ؛ فليس له ذرية ، وأم سلوفانا قدمت من ميونخ لمواساة ابنتها وتطمئن عليها وامتلأت الصحف بصوره من المعزين والنقابات والتجمعات ، وذكرت بعض الصحف مسيرته في عالم المال والبزنس ، وبينت نجاحه في الإدارة والمال في البرازيل وألمانيا والوطن.

وأعلنت سلوفانا للعموم والصحف أنها ستقيم مشفى خاص باسمه عن روح نذير لمعالجة أمراض الكبد ، وطلبت من الدكتور العائلي بوضع الخطط لذلك المشروع الطبي.. وحين ترث المال سيتم الإنشاء الفعلي للمشروع.

أنفقت السيدة بعض الأموال لجمعيات الفقراء عن روح زوجها مما ادهش أصدقاء العائلة فنذير لم يعرف عنه التصدق ولو بدرهم واحد لجمعية البر والفقراء ، كان يتبرع لأندية رياضية جمعيات علمية وثقافية ، أرسلت السيدة لجمعيات خيرية في مصر وتركيا لها صداقات بها ، وأصبحت رئيسة مجلس الإدارة لشركات ومصانع الشمس المشرقة عمليا ، وكلفت علي يوسف بالاستمرار بالإدارة حتى تلتقط أنفساها .

رغبها والداها بالعودة لميونخ وتصفية أموال نذير فاعتذرت وقالت: سأبقى هنا أدير أعمال نذير . ولما ينته المستشفى الخاص ستفكر بأين تستقر ، وعرض عليها شقيق نذير السيد سمير أن يدير الأملاك وثروتها ، فشكرته ، وتمنت له التوفيق ، ولما رأت كثرة تردده على القصر طلبت منه أن لا يجلب لها الشبهات ، فغادر المهندس سمير البلد لما رأى منها الجفاء والريب والحذر إلى مصر ثم أمريكا الجنوبية حيث أعماله ، وأخذ الصيادون يحومون حول ثروتها

الكبيرة .

قال بسيل لسلوفانا: أدعو لك بالتوفيق في إدارة ثروات الصديق نذير ، كان نعم الأخ والصديق.

قالت السيدة : كيف أنت يا ريما ؟

تبسمت ريما وقالت: بخير ..قررت البقاء في بلادنا!

قالت السيدة : نعم ، سأدير أعمال زوجي وأتابع إقامة المشفى.. فالسيد كان عزيزا على قلبي وقبلت كل أفعاله السيئة كما اتفقنا عند الزواج .

قال : لم تحبيه يوما، كان يقول ذلك لنا!

قالت السيدة : هو الذي كان يقول هذا سيد بسيل ، ولست أنا ، هو يزعم أني تزوجت ماله وها هو ماله اصبح لي بإرادته.

قالت ريما: كان مفتونا بالنساء وكنت تتحملين !

فقال بسيل : سلوفانا سيدة عظيمة يا ريما مستعصية على الإغواء!

قالت السيدة : كل الرجال كذابون ، يتحدثون عن الحب من اجل صيدنا ومعاشرتنا يركضون وراء الشهوات باسم الحب .. نذير كان صريحا وشجاعا معي منذ البداية ، وأصر على الزواج مني ، ورخص لي بفعل ما أشاء .. وكان يعجب من عدم استسلامي للرجال يا ريما مثل نساء وبنات الأصدقاء .. نحن التقينا في نادي أثناء مشاهدته لي وانا أعوم في حوض سباحة، وكنت مطلقة ، ولم اسمح له بالنوم معي رغم محاولاته الملحة والمغرية ، فاستسلم للزواج لينال من جسدي ، وها هو الجنس قضى عليه ، ولم يهتم بتعاليم الأطباء ـ رحمه الله ـ أبي احب زواجي منه وقال :سوف يكبر ويترك هذه السفاسف .

قالت ريما : سعى للنيل مني واغدق عليّ من الهدايا والمال وعلى علم من بسيل حتى أنه تحدى بسيل أن ينال منك وما زال يهواك.

قالت السيدة : وها هو يكاد يبلعني بعينه ، أنا لا احب الجماع والاتصال كثيرا .. لا أدري لماذا

يا دكتورة ؟!

قالت: أنت ستديرين شركات نذير!

قالت السيدة : هذا ما يريده ـ رحمه الله ـ سأتابع الأعمال بجهد بسيط واترك الإدارة لعلي يوسف ورفاقه .. والدكتور علي هو القائم بالعمل في حياة نذير ، تغير بسيط.

فقال: نذير مات.. فعليك بالحذر والحرص فنذير يحسن المتابعة والفهم والألاعيب

قالت السيدة : سأفعل وسأنجح .

قال: نرجو ذلك

قالت السيدة : شكرا دكتور باسيل دكتورة ريما.



أخذت سلوفانا تتردد على الشركة والمجموعة الشمس المشرقة ، وتجلس مع الدكتور علي ومعاونيه ، وتجلس في مكتب زوجها تشرب القهوة معهم ، وتسمع ملاحظات علي وغيره وتوقع على ما يحتاج لتوقيع بوجود المحامي الخاص بها عند حضوره.

كانت تقدم لها العقود باللغة الإنجليزية مترجمة عن العربية فهي ألمانية من اصل تركي ولدت في ألمانيا وتعلمت الإنجليزية والتركية ولغتها العربية ضعيفة ، تترك المكتب ظهرا برفقة المحامي الخاص بها ، هو ينصرف لشركته إلا اذا دعته للقصر للغداء معها ومتابعة أوراقها وبعد الغداء تنام بعض الوقت ، ولما توقظها الخادمة تقدم لها الفاكهة والشراب ، ثم تطلع على البريد مع جومار في مكتبه ، وهي قد أوقفت الحفلات والموسيقى لثلاث شهور منذ وفاة نذير وتقوم بالسهر مع الأصدقاء للدخان والشراب ، ولا تخرج لحفلة أو سهرة خارج القصر احتراما لروح زوجها.

قال جومار: السيدة الدكتورة فريدة ترغب باللقاء بك اتصلت مرتين.

قالت السيدة بتأفف : نذير ومات ! ماذا تريد ؟ من يوم العزاء لم أرها ولم تتصل.. هل ما زالت مطلقة؟!

قال جومار: نعم ، اخبرني زوجها منذر أنه رفض الوساطات، وهو يرسم على زواج جديد

قالت السيدة بدهشة : معقول!

قال جومار: سمعت ذلك منه.. هل اتصل بها ؟

قالت السيدة : ما أخبار بسيل وريما؟

قال جومار: سافر أمريكا في زيارة خاصة .. واعتقد ريما معه.. له شقيق متورط في قضية بوليسية هناك.

قالت السيدة : هل طلب مساعدة منا؟

قال جومار: علمت هذا من بعض الأصدقاء ، هو لم يخبرني بالسفر .. بعض الأسر التركية من

أصدقائك يرغبون بالزيارة .

قالت السيدة : ادعهم للمجيء هؤلاء من أقارب أبي .

قال جومار: السيدة فريدة!

قالت السيدة : ماذا تريد؟!

قال جومار: لست ادري طلبت الحوار معك.

قالت السيدة : اعرف هدفها من الزيارة .. نذير ومات.. كانت عشيقة السيد ـ رحمه الله ـ فقط لم اكن استوعبها عاهرة !

تبسم جومار فقال: كانت سخيفة ولا احترام لك ولا القصر.

قالت السيدة : اذا عرفت الغاية من طلبها ، فحدد لها الوقت المناسب.. أنا لا أطيقها ولا احب رؤيتها ؛ ربما ترغب بالتوسط بينها وبين منذر.

قال جومار: قد يكون ذلك السبب .

قالت السيدة : حسنا يا جومار ! مدربة الرياضة هنا

قال جومار: إنها في غرفة التدريب تنتظر حضرتك

قالت : شكرا جومار أنت إنسان لطيف !

قال جومار: شكرا سيدتي أنا في الخدمة !

تركت مكتب جومار ، ونزلت قاعة الرياضة ، صافحت المدربة ، ودخلت غرفة الملابس الخاصة بالتمارين ، وعادت لقاعة الرياضة ، وبدأت بالتمارين الحركية ، وتابعت على أجهزة الحركة ، واستمر التمرين ساعة، ودخلت الفرنسية تعلن وصول بعض الضيوف، وأخذت المدربة بمسح العرق عن جسد السيدة ، ثم دخلت حمام القاعة ، واغتسلت ولبست ثيابها بمساعدة الفرنسية ، وقبلت المدربة ، وصعدت لصالة الاستقبال ، ورحبت بالضيوف وكانت النسوة بصحبة أزواجهن ، وتحدثوا حول الفن والأفلام والملابس الحديثة والموضة في أوروبا ، وتحدثوا عن ثروة نذير ، وذكرت لهم أن زوجها ترك كل ماله لها قبل موته.

قالت: أصبحت المليونيرة بدلا من نذير .

قالت السيدة ضاحكة : كنت زوجة المليونير !

قال: هل من عريس؟

قالت السيدة ضاحكة : لابد من ذلك.. ما زلت دون الأربعين .. طلقني كارل ، ومت عن واحد .

قالت: هل من احد ؟

قالت السيدة : أمي تحدثني عن احدهم في ميونخ من أقارب أبي ابنه من رجال المدينة

قال: كان زوجك عمل في النهار ولهو وقمار في الليل

قالت السيدة : نعم هذه حياته ، وكان أحيانا ينزل قاعة السينما في القصر لمشاهدة الدعارة

قالت: عليك أن تدخلي البرلمان .

قالت السيدة ضاحكة : لا احب السياسة ، ولا الضحك على الشعب ، ونذير لم يكن يحبها ولكنه كان يدعم ويتبرع لحملات بعضهم ، وكانوا لا يقصرون في حاجته وخدمته.

****

عندما تزوجت السيدة نذيرا كانت بنت ثماني وعشرين ، وأمضت ثمانية مع نذير في زريق وقبلها عامان في ألمانيا ، وكان السيد عاجزا عن الإخصاب، فلم تحمل منه ؛ فلذلك بعد انتهاء عدة الموت دعت رؤساء عدد من الجمعيات الخيرية إلى حفلة في فندق فخم لتأبين زوجها وتوزيع أموال عن روحه ، وبعد وجبة طعام وكلمات رثاء في نذير وزعت المال على مندوبي الجمعيات ، وقدر لها الأصدقاء والدكتور علي وطبيبها الخاص الوفاء لذكرى نذير .

ذكرنا أن شقيق زوجها سمير خاتم سعى لتقديم خدماته لها طمعا بالزواج منها، فرفضت وطلبت منه مغادرة القصر ، وأنها لا تفكر بالزواج ، فتركها ساخطا حاقدا وعاد لأعماله في أمريكا اللاتينية وعشيقاته ، وذكرت لها أمها زوجا من معارف وأقارب والدها طبيب أخصائي قلب ، واعتذرت عن الزواج ، وأن الزواج ليس من أولويتاها في الوقت الحالي .

علمت أن بسيلا عاد من أمريكا من جومار وله رغبة باللقاء بها ، فسمحت بذلك ولزوجته معه، جاء بسيل القصر برفقة ريما استقبلتهما سلوفانا : أنا لا انكر صداقة نذير لكما كيف صادقت نذيرا ؟

قال: ألم يخبرك المرحوم؟

قالت السيدة : لم اكن احب سؤاله ذلك .. فهذا سخيف! لكلٍ رفاقه وأصدقاؤه .. أليس هذا صحيحا يا مدام؟

قالت بهز رأس : صحيح.. نحن عرفناك عن طريق السيد ، وعرفته عن طريق زوجي طبيب العيون .

قالت السيدة : أعرفته عن طريق العيادة إذن.

قال مصححا : عرفته عن طريق نادي القمار الخاص بنا فايف كلب ، هو ليس محترفا للقمار هو صياد نساء ، ففي هذه النوادي تأتي الزوجات لمساندة الأزواج ببيع لحومهن للفائزين ، وتعرف على منذر وفريدة أولا .. هو يلعب للتسلية وللمغازلة ، ويكون في النادي من علية القوم ورجال البزنس .. لهو وعمل .. ليلة كنت ألعب في فايف كلب.. فأنا احب القمار ولا أغامر كثيرا مثل نذير .. ألعب عن مبلغ معين ؛ فاذا خسرته أتوقف فورا وبصرامة واهرب ، وكنت ألعب مع نذير ففاز وكسب مني وتوقفنا عن اللعب وتصادقنا اكثر ، وعرف مهنتي وأعادها إليّ بدلا وأجرة لفحص عينيه وصرنا أصدقاء، وسمح لنا بالتعرف على القصر وساكنيه ، فتعرفنا عليك ووقعت من نفسي موقعا حسنا ، ورجلك هوي ريما ، وسمح لي بالقرب منك وتحداني أن أنال منك ليلة بصراحة، فعجبت من ثقته بك ، وهو الخليع الماجن .. حياته النساء .. أدركت مع الوقت أنك صعبة رغم الاستهتار منك أحيانا ؛ لكنك لا تستسلمين لاحد حسب علمي ، ولا تحبين العلاقات الجنسية ، وفشل هو بإقامة علاقة مع ريما

قالت ريما: فلنتحدث بموضوع آخر يا بسيل ، ليس لكم إلا الحديث عن النساء والمتعة معهن

فضحك وقال : ولماذا خلقت النساء والغريزة فينا والملابس والإغراء ؟وأنا أقول أمام السيدة

اذا قبلتني زوجا على استعداد لطلاقك .

قالت سلوفانا : أتقبلين يا دكتورة؟!

قالت: عند الجد افكر ، أنا اعلم كم راودك ! وقبل حذاءك لينام معك، وفشل .. وأعجب منك وزهدك في الذكور ! .. جمال .. ملابس .. عطر.. احتضان الرجال والقبل أثناء الحفلات ثم كأن لم يكن شيء حدث.

قالت السيدة : تعودت على ذلك السقوط من أيام زوجي الأول ثم الاستيقاظ ؛ لكن لم استسلم لأحدهم بعد طلاقي منه .. وحاول صاحبكم نذير بكل جهد قبل الزواج ، قلت الجماع إلا بالزواج ، رغم كثرة الحفلات والمناسبات التي شاركنا فيها سوية .. فقبل الزواج على أن لا أغار اذا اتصل بأي امرأة.. فوافقت.. لذلك يزعم أني تزوجت ماله.. وأعلم يا دكتور زوغان عينك ورفاقه لهذا الجسد .. وهذا طبع الرجال حتى ولو كانوا متزوجين.. ولما تطلق ربما قد افكر بك زوجا .. لم ارتبط بأحد.

قال: ألا تحبين الإنجاب قبل فوات الأوان؟

قالت السيدة ضاحكة : احب الرحلات والسياحة والثياب .

قال: العشق!

قالت السيدة ضاحكة : لم اتخذ عشيقا من قبل ولا أظن.

قال بسيل : زعم نذير مرة أن لك عشيقا سريا .

قالت السيدة : نذير قال ذلك! فدعك من التفكير بي زوجة أو عشيقة

قال: أعندك عقدة من الرجال ؟

قالت السيدة : قل ذلك ، عرفت في الثانوية رجلا أحببته كما تحب المراهقات ، وفجأة احب زميلتي ، وتركني ، وتكرر ذلك معي في الجامعة .. يحبونني ثم ينقلبون لصديقاتي.. فهم يحبونك للزنا ، فلما يفشلون في مآربهم ينتقلون لأخرى طمعا مني باسترضائهم .

كانت سلوفانا تضطر لقَبول أصدقاء نذير ولو على مضض ، ولا يحق لها أن تفصلهم على الرضا بهم ، وكان من الترتيب بينها وبين نذير أن لا يأتي بعشيقاته للقصر ، فله أماكنه الخاصة ، أما الحفلات بصورها المختلفة فمقبولة في القصر ومن واجباتها .

سعت فريدة لترميم علاقتها بسلوفانا بعد موت نذير ، فبعد اتصالات كثيرة قبلت اللقاء بها فقالت ساعية لتبرير خلاعتها : المرحوم هو الذي اخبرني أنك لا تمانعين بإقامة علاقة بينه وبين أي امرأة وأنت تقبلين عشيقاته بروح رياضية.

فقالت السيدة : لست أول أنثى تبيع جسدها له أو تهبه له يا سيدة فريدة ! .. وأنت تعرفين ذلك يقينا ؛ لكنك أسأت للقصر وساكنيه.. أنا اعلم من نذير نفسه بعلاقاته الحميمية معكن ودخولك السهرات والحفلات بصفتك عشيقة أو احدى العشيقات .. هذا متفق عليه .. أمر الجماع كان محظورا هنا ؛ لكنك ليلة القط الأسود تعريت تماما وعربدت أمامنا ، فلم يحتمل نذير عريك وثارت غريزته ، وخشيت أن يفعلها أمام الضيوف ، وكان لابد من الاتصال بجسدك بكل وقاحة ، وكان تلك الأيام مريضا وممنوعا من الاتصال ، وخدرتم منذرا ، وكان الزنا بكل وقاحة ، ونحن نعلم أنك شبقة للغاية ، ولا تفوتين ليلة دون مضاجعة ، وجئت تلك الليلة رغبة بمعاشرة نذير ، ولم تصدقي بتعبه ومرضه ، وتظاهرت بحب النوم في القصر طمعا أن يعاشرك نذير ، فاعلن النوم في غرفتي لتغادرينا فلم تفعلي وأرسلت رسالة أنك مستعدة ، ولما لم يأتك استدعيت خادم الغرف ، وجاء زوجك ظانا أنك تحت نذير ، فوجد رومو فوقك وطلقت ، وتسببت بطرد الخادم وزوجته .. القصر مكان محترم يا دكتورة ليس حانة للدعارة لم تراعي مشاعر سيدة القصر .

فقالت : لم أخبر منه أنه يمنع المتعة في القصر ، وأنك ترفضين هذا الفعل هنا وتقبليه له هنالك

قالت السيدة : هذه الغرف يا سيدتي لضيوفنا من الخارج والداخل ، ربما يتأخر بنا السهر والاحتفال فيناموون مع زوجاتهم أو بناتهم.. فلنا أصدقاؤنا من بلدان شتى

فقالت: نعم حضرت كذا حفلة .

قالت السيدة بقوة وحماس : لا يحضرون يا فريدة لممارسة البغاء مع العشيقات حتى لو جاء احد مع زوجته غير الشرعية مجرد صديقة .. فهم يعرفون قانون القصر

فقالت وهي تجحرها بامتعاض : تبين أنك حاقدة عليّ يا سيدة لعلاقتي القوية بذكرك ! .. كان عليّ أن احترمك في حياة زوجك زير النساء .

قالت السيدة : أنا لست حاقدة عليك ! ولماذا احقد عليك ؟! ومن أنت لأحقد عليك؟! أنا احترمت وجودك ووجود شلة نذير جميعكم من اجل السيد.. وزوجي أعرف أنه زير نساء من قبل معرفتك.. فهو عاش في البرازيل وألمانيا ولا يهمه شرف .. حياته النساء والشراب .

فقالت : حسنا ! أنا شخص غير مرغوب فيه في حفلاتك وسهراتك ولو بصفة إدخال السرور والمتعة على سيدك .

قالت السيدة : الرجل مات ، ورحل عن الدنيا بما كسب ، وقد انتهت واستهلكت قواه الجنسية والكبدية .. وأنت سرعت بالقضاء عليه بعجزك عن تركه للزنا .. فهل ستمارسين السحاق معي .. لم اجرب ذلك.. فليس لك مقام يا دكتورة .. واذا احتجت يوما لمساعدة مالية فسنقدم لك المساعدة ؛ لأنك كما قلت أدخلت السرور على بدن نذير.

فقالت وهي تنهض : الوداع .. أنا سعيت ؛ لأكون صديقة لك لذكرى السنوات بيننا وما بيني وبين رجلك .

قالت السيدة لتغيظها : نذير لا يصادق رجلا يمنع زوجته منه .. المرأة قبل الرجل.. المال يشتري به الرجال ونساءهم .. ربما الوحيدة التي صمدت رغم ما تلقت من هدايا.. زوجها سمح لها بالنوم معه .. نفسها رفضت ، وزوجها قبل حذائي رغبة في قضاء ليلة معي .. وما زال يطاردني يا فريدة .. قبلني نذير ، وقد رفضت الإنجاب منه وقبل .

فقالت : بسيل يطمع بجمالك ومالك وهو الأهم فهو مستهلك مثل ذكرك الهالك.

قالت السيدة : المال شهوة كل البشر ! لولا خاتمك ما قبلك الخادم رومو

طلق طبيب العيون المشهور في زريق بسيل ريما بعد تفاهم بينهما على أمل أن تقبل سلوفانا زواجه منها بعد ترملها معتقدا أنها صغيرة على ترك الزواج ، وكان صديقه منذر يتحدث معه في نادي ليلي ؛ ححيث السكر والرقص والخمر : اذا كنت تحب أن نسعى لدى ريما وتعود لبيتك .. وأنا كلمتها فقالت الأمر عندك.

فقال بسيل: يا صديق العمر الذي بيني وبينها انتهى .. هي تعلم شغفي وجنوني في زوجة نذير منذ قابلتها لأول مرة .. وهي اليوم أرملة لن تجد خيرا مني.. وسوف تحن للرجال ، وسأكون أمامها .. وعلاقتي بريما كانت مسألة وقت يا منذر والطفلان تركتهما لها.

قال : ولكنك تحبها يا بسيل وزعمت أنك تزوجتها عن حب وغرام .. وصحيح أعرف ظروف زواجكما .. وتلك الأنثى مجرد شهوة ،.. ولولا زوجة نذير ما وصلت للطلاق ، ولا اعتقد أنها تستسلم لك.. فهناك طبيبها يرغب بها.. الطبيب التركي لوقان.

ـ ومن قال لك؟!

قال : سمعت ، وعمل معها لغرامه بها ، وكان نذير يبغضه ، وشك أن بينهما علاقة إباحية فابتعد الدكتور عن القصر عدة شهور ، ثم سمح له بالعودة ؛ لأنه من اصل تركي ؛ حيث أن والد سلوفانا تركي قوقازي .

فقال بسيل: لم اسمع من نذير مثل ما تقول .. لم تقبل الحلوة بي لوجود نذير .. فليس كل النساء فريدة .. سلوفانا تربية أوروبا.. امرأتك كانت مومسا اكثر من عاشقة .. رأيت عريها في تلك الحفلة الماجنة كراقصات العري في بريطانيا وأوروبا.

قال منذر : أنا لا يهمني شرف أو كرامة .. أنا طلقتها ، لم اعد أطيق رغباتها الإباحية، زادت وقاحتها الجنسية بحضوري .. هذا استهتار ويظن الناس أني احب ذلك واعمل قوادا .. لم أعد احتمل .. أنا أزني لكن بنوع من الستر .

فقال بسيل مذكرا رفيقه في الطب والقمار والمجون: لم تكن أول مرة تتعرى خلال حفلة!

قال : كانت جمهرة من المدعوين ليست بضعة أنفار .. وخدروني ليمارسا الزنا .

فقال بسيل ؛ كأنه يحتج : زوجتك متهورة ، سمعت أن سلوفانا طردتها .

قال : سلوفانا منذ هلك رفيقنا نذير لا تريدنا ؛ لا تحب رؤية وجوهنا ، فلذلك أنصحك بترك التفكير بنكاحها سنرفضك وتفضحك وتسخر منا.

فقال بسيل مبررا : نحن لم نكن لها أصدقاء .. عرفناها عن طريق زوجها .. ورخص لي بعشقها ومطاردتها .. وفشلت.. فهي ليست سهلة كنسائنا .. سأحاول وعبرت لها مرات عن حبي لها وافتتاني بها.

قال : رفضتك .. ألم تحدثنا بذلك؟!

فقال بسيل وهو متعلق بأمل : التكرار والأيام لها دور ، قد تغير رأيها ـ تنهد ـ لقد فتنت بها يا منذر.. وهي أرملة اليوم .

قال : كل النساء فتنة ! ما هي أرملة من أيام حياة نذير .. ينام في جناح وهي في جناح.

فقال بسيل: هناك فرق بين أنثى وأخرى، أظهرت هواي لها وافتناني بها في حياة زوجها ؛ بل تحداني أن أنال منها قبلة .. شخصيتها متناقضة .. تسمح لك بالقرب منها ، ولمس أشياء منها وضمها والرقص وعندما يصل للرغبة بالمعاشرة تقول لك قف ممنوع المرور .. إنها محيرة هي تعلم أن حياتنا مجون ونساء وعشق وفسق وهذا ما يجمعنا بنذير .

قال : القلوب قلوب!

فقال بسيل: لقد وصل بي الاهتمام بها حتى الجنون والهوس وتقول كادت تستسلم.

قال منذر : اعتقد أنها كانت تقامر زوجها لترى غيرته.

فقال بسيل: هما يعيشان شبه منفصلين ؛ كما قلت لكل منامه الخاص من سنوات قبل أن يظهر عجزه وضعفه اتجاههن .

قال : لعل لها علاقات خفية مع الخدم .

فقال بسيل: جومار في صف نذير ، لا يستطيع خيانة نذير .. وله زوجة هندية ويقال إنها مشلولة .. لها خادمة فرنسية تراقبها عين نذير عليها ا

قال : أعجب من بعض الرجال بابتعادهم عن النساء!

فقال بسيل: ليس يا منذر لهم نفس القدرات ألا ترى الرهبان والراهبات يزهدون في الحياة الجنسية ، وإن يحدث بينهم إغراءات وقضايا جنسية وحتى الحيوانات لها فترة ثم تضعف، فعالم الجنس عالم غريب وعجيب .. فمن الانحراف والشذوذ تجد احدهم يجامع الحيوان أو الموتى أو التعرض للضرب بما يسمى السادية أو الماسوشية .

قال : إذن لا تريد العودة للحسناء ربما.

ضحك بسيل وقال: وأنت عينك عليها وصدتك كثيرا !

قال : أراها خيرا من فريدة ، لا تضاجع من هب ودب .

ضحك بسيل ثانية وقال: يا سيدي مباركة عليك اذا قبلت بك.. أنت حاول مع الحسناء ربما وأنا أحاول مع أرملة نذير .. مات نذير وهو يطمع ليلة معها .. وأنا بدأت بالخطوة الأولى بطلاق الحسناء ؛ ولعل سلوفانا تغير رأيها نحو الرجال ونحوي خاصة.

تقدم نحوهما صبري وسعيد قائلا : آيا دكتور بسيل ما آخر أخبارك ؟

وقال صبري : هل تصالحت مع الدكتورة؟

قال منذر مرحبا بهم : لا يريد سأتقدم إليها خاطبا .. فهي افضل من فريدة اللعينة

قال سعيد باسما: نصيحتي يا منذر لا تتزوج فلتبق مع بنات الهوى عشيقاتك .. حر طليق فيقل شراؤك للثياب والعطور.

قال بسيل ساخرا : وهل هو الذي كان يكسو فريدة يا ناس .. كلها من العشاق ومن والديها الدكاترة .

قال صبري : معك حق يا بسيل .. هل صحيح هذا يا منذر ؟

قال منذر: بسيل مطلع على الأمر .. دخلها اكثر مني .. والدها يدفع .. فدخله كبير وليس لهم إلا هي .. وهو جراح يعمل في بريطانيا ويحمل جنسيتها من أيام الدراسة.. أسرة فاسدة ابتليت بها .

قال سعيد: أنت لا تقل عنها فُجرا.. لا تعمل نفسك ضحية .. ليلة القصر والهر الأسود ظننتك ستقتلها لما لحقت بها .. كلنا ادرك أنها تفعل ذلك لإغراء نذير ، وسقط في الفخ، ونقل للمستشفى .

قال صبري: استاءت سلوفانا من تعريها ورقصها عارية ..فهمست وكنت قريبا منها تحول القصر لكبريه فرنسي .

قال منذر: الملعونة تبعته فورا .. ادركت أنه استسلم للشهوة والإغراء ولما لحقت بها خدرتني واستيقظت مع شروق الشمس.. فقضت عليه حتى مات.

قال سعيد: ما أخبارك مع الأرملة يا بسيل ؟

فقال بسيل: طلقت ريما والأرملة السوداء ترفض اللقاء .. ونحن أصدقاء نذير وهو هلك

قال صبري: ترفض الزواج.

فقال بسيل: مني ومن غيري لحد الآن .. سأحاول، ولن تقف الحياة عندها

****

كانت السيدة سلوفانا تشهد حفلة اجتماعية لمساعدة جمعية اجتماع ـ وهي من الداعمين لهذه الجمعية منذ سكنت المدينة زريق وفي حياة نذير ـ والجمعية تهتم برعايا الجالية التركية خاصة ومديرة الجمعية من أصول تركية ، ولما انتهى الحفل بالكلمات والخطابات والتبرعات التقت بالسيد بسيل الذي طلب خمس دقائق للحديث معها ، فتركت رئيسة الجمعية لهما المكتب، فلما اغلق الباب قالت : ماذا تريد أيها الصديق السابق .. مطاردتك لي يجب أن تتوقف ، ويزعجني جومار بكثرة اتصالاتك وتزعجه يا دكتور ! علاقتي بكم انتهت بموت نذير ، هو الذي كان يجمعنا ، ولما كان يحترم أصدقائي كان عليّ أن احترم أصدقاءه يا دكتور ، وأنا لا اقدم جسدي لأي شخص يا دكتور.. الاتصال علاقة قصيرة ليست كالزواج .

فقال بسيل: كان بيننا ود يا سيدتي الكريمة ! صحيح، أنا من شلة نذير ؛ لكننا اصبحنا أصدقاء مدة خمس سنوات .

قالت السيدة : صحيح ، والسبب أنك صديق نذير .. زواج منك أو غيرك لا أريده عندما يحن جسدي لزوج سأجده ؛ وليس أنت، فعد لربها خيرا لك .. أنا احب أن أعيش بلا ذكر راهبة .. أنت من افضل أصدقاء نذير لا يعني أنك الأفضل عندي .. أنا لا احب الحب العابر ولا المتكرر .. أرجو أن تكف عني وعن جومار.. أنت خير أصحابه، وزوجتك خير الزوجات رفضت مضاجعة زوجي لاحترامها لي.

فقال بسيل: لقد طلقتها لتعلمي أنني فعلا محب لك واذا تزوجتك لن اقرب أنثى غيرك

ضحكت السيدة وقالت: نذير وهو مريض لم يستطع ترك العادات ! فكيف أُصدقك؟ أرجوك ابحث عن غيري .. لا اصلح زوجة لك ولغيرك بعد نذير .. اذا كنت بحاجة لمال فأعطيك

فقال بسيل: أنا أريدك أنت.. أحببتك.

قالت السيدة : أنا لا احبك .. ـ نظرت للساعة وقالت : اعتقد أن الدقائق الخمس انتهت

فقال بسيل بيأس : استطيع أن اصبر.

قالت السيدة : انك تمثل دور العاشق الولهان حقا!

قال بسيل بتوسل : اشفقي عليّ

قالت السيدة بصيحة : يا رجل كن رجلا ! لا تكن خانعا من اجل شهوة .. سمعت الكثير من الغزل وأنا زوجة صديقك ، وحاولت معي كثيرا.. أتريدني عشيقة ؟

فقال بسيل: لقد فتنت بك

طرق الباب فقالت: ادخلي نورا .. دكتور بسيل أرجوك أن تكف عن مطاردتي.. أنا لا افكر بالزواج .. أنا افكر بالسياسة.. أريد منصبا في البلاد.

فقال بسيل: أتحملين جنسية هذا البلد؟

قالت السيدة : لدي جنسية بحكم زواجي من نذير

فقال بسيل: لا تريدين الزواج

قالت السيدة : منك أنت الآن ؛ فاذا صدفت وزيرا ربما أقبل به .. المال موجود والمنصب مرغوب.

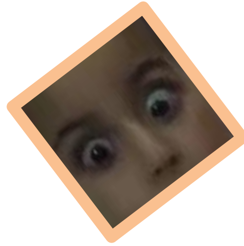
فقال بسيل: لا اعتقد أنك جادة ! فالمرحوم لم يكن يحب هؤلاء في منزله وسهراته رغم عمق علاقته ببعضهم من اجل المصالح

قالت السيدة : هذه سياسة نذير البعد عن الموظفين وعن المسؤولين في الدولة .. شكرا يا دكتورة نورا على دعوتي لهذه الحفلة التي تذكر الإنسان بطبقة الفقراء والضعفاء

أحنت نورا رأسها شاكرة دعم سلوفانا السخي ، وغادرت الغرفة يتبعها بسيل ، وكان السائق جودت في انتظارها وفتح لها الباب وسمعته يقول : لنبقى أصدقاء يا سلوفانا فنحن أصدقاء نذير

قالت السيدة : انتهى نذير من حياتي يا دكتور ! عد لريما أنت لم تضح لأجلي .. أنت طلقت من اجل المال ، لما علمت بطلاقها قلت لها إنني لن أتزوج زوجك ولو فرش لي الأرض ذهبا وليس بيني وبينه أي علاقة حميمية أو صداقة خاصة .. وصدقتني على ما اعتقد .. ابحث عن غيري .

جلست في السيارة ولوحت بيدها مودعة ، وكان يحدق بها ويقول لنفسه : سأصل لقلبك يا سلوفانا .. وكيف سأصل اليوم ؟ لا يوجد نذير لأراها.. هل هناك عشيق كما قال نذير؟! لها نصف عام دون رجل.. أين العشيق ؟ في ألمانيا .. لا احد من الشلة ، نذير لم يذكر اسمه أو صفته .. ذكر أن لها طفلا من عشيقها أم يكذب علينا أو من الزوج الأول .. لها رفاق في ميونخ وفي إسطنبول وأوروبا .



مضت السنة الأولى على الوفاة دون أن تفارق سلوفانا البلاد على غير العادة من عشقها للسفر والسياحة ، ولم تتزوج ، وكانت تمارس العمل في إدارة المجموعة ، وتطالع التقارير والميزانيات، وتعاون معها نائبها علي ومساعدوه بكل احترام ولم تكن توقع على ورقة دون فهمها ودون إشارة من محاميها الخاص جدا .

قال الدكتور مادحا: أثبتت يا سيدتي أنك سيدة قوية وإدارية من الطراز الرفيع خلال العام

قالت السيدة : شكرا .. هذا بهمة وجهد الفريق يا دكتور الذي يعمل معنا

قال : رغم الهزات العالمية في الأسواق كنت مديرة جيدة .

وأثنى مجلس الإدارة على جهدها ومثابرتها وحسن الأداء ومتابعتها قضايا المجموعة ، وأكدت لهم أنها درست الاقتصاد في افضل جامعات ألمانيا ، وأنها ابنة أسرة حياتها التجارة والصناعة ولم تعمل مع زوجها مباشرة لرغبته في ذلك ، لا يحب عمل النساء معه ، فهو رجل خبير من الصغر فلا يحتاج لمساعدة كبيرة ولا يثق في قدرة النساء على العطاء ، ويسربن أفكار وأسرار العمل بسهولة ، وساعد في إنقاذ شركات والدها وإخوتها في البرازيل وألمانيا ، وشاركهم في بعض الشركات قبل إعلان إفلاسها وتصفيتها ، وكان زواجها من ضمن نتائج الإصلاح وأخبرت أنها تراجع الملفات في القصر مع سكرتيرتها ومحاميها الخاص ، فلا تكتفي بما يقدم لها من الشركة ، وطلبت من الدكتور ومجلس الإدارة بتوزيع مكافآت مالية على جميع عمال وموظفي الشركات عن روح نذير ، فبين الدكتور أن المبلغ سيكون كبيرا.

قالت السيدة : مهما دفعت يا دكتور لعله ينتفع بها في قبره.

قال بكر متأثرا : وفيّة ، ونعم الزوجة!

قال : سأنفذ الأمر

غادرت بعد الظهر المقر ، وبينما كان جودت ينتظر دخولها السيارة سمعت من ينادي عليها فاذا هي ريما وتصافحتا وقالت : كنت في الشركة!

قالت : لا ، كنت في هذه البناية ـ وأشارت إليها ـ رأيت سيارتك والسيد جودت فقلت فرصة لأراك واسلم عليك .. وكيف حالك أيتها العزيزة ؟

قالت : أهلا بك أنا بخير.. وأنت هل عدت إليه أم تزوجت غيره؟

وقالت : لم اعد له ، ولم أتزوج غيره .. أعيش مع ابنيّ في شقة املكها.

قالت السيدة : اذكر أن احدهما كان ابن ثلاث سنوات لما عرفني نذير عليك

قالت: نعم ، واصبح في المرحلة الأولى من مراحل الدراسة المدرسية

قالت السيدة : ما شاء الله عساه صاحب لك !

قالت: عاش مع أمي ، ولما طلقني بسيل العام الفائت عادا للحياة معي ، وأنا مثلك كرهت جنس الرجال.. وأنت ما زلت على بعد عنهم!

قالت السيدة : طاردني طليقك ، وزعم أنه طلقك ليبرهن عن حبه لي .. وأنا لا أصدق الرجال إنهم طلاب شهوات فحسب .

قالت: وهناك نساء مثلهم!

قالت السيدة : لا انكر ذلك .. على ذكر النساء ما أخبار فريدة ؟

قالت: أخبارها سيئة من فضيحة لأخرى ، لم تتزوج ، ولم يطلبها احد.. التقيت بها في بضع سهرات دعيت إليها .

قالت السيدة باسمة : أما زالت تموت في الرجال؟

قالت: هذا سبب مشاكلها .. قلّ عشاقها من الطبقة الراقية ، ويتجنبون اللقاء بها

قالت السيدة ساخرة : عليها أن تترك الطب وتعمل في حانة وملهى ليلي

قالت: العشاق يملون بسرعة .. سمعت أنها سافرت للعلاج في الخارج سمعت أن أمراضا جنسية ظهرت عليها أعراضها مع كثرة فحوصها

قالت السيدة : كانت مستهترة بجسدها حتى أنها أغوت خادما في القصر وتسببت في طرده

قالت: هذه هي المشكلة.. اصبح عندها شبق وتهور في الإباحية

قالت السيدة : كيف انحرفت ؟

قالت ريا : سمعت أن السبب منذر زوجها ، كان يمارس الدعارة في شقته فأخذت تنافسه في الفجور ، وأصبحت عشيقة لكل معارفه .. وكان يجلب المومسات لبيته ويتنافسان في الفجور وتركها لغيره

قالت السيدة : إنها تخدره لتمارس الدعارة في الشقة كما قال نذير

قالت : سمعت بذلك .. حاول الزواج مني لما طلقت من بسيل .

****

تخلصت السيدة خلال عام مات من كل أصدقاء نذير ، وارتفعت علاقتها مع أصدقائها أفراد الجالية التركية في المدينة ، وبعض الأفراد الألمان والأوروبيين بحكم ولادتها في ألمانيا، ولم تخلُ السنة من محاولات زواج وخطاب ، فالمال من عوامل الجذب وطلب النساء ، وتلقت رسائل وتوسلات من بسيل، لم تكترث بها ، وكانت لا ترى وقتا لقرأتها فيحتفظ به جومار ، اخبرها جومار بمجيء المهندس سمير شقيق نذير ويرغب باللقاء بها ، وسعى لذلك في الشركة ، ولم يوفق فأخذ موعد لانشغالها ، فكان اللقاء في احد النوادي ، ولما التقيا وجلسا في الهواء الطلق

قالت السيدة : أهلا بحضرتك! أيام نذير لم تكن تظهر في القصر ولا في المدينة ! ماذا تريد أيها الصديق ؟

قال : حسنا ! سمعت أنك ستتزوجين الدكتور بسيل صديق نذير

ضحكت وقالت السيدة : سمعت! وممن سمعت ؟! وما دخلك بزواجي منه أو من غيره ؟ أبي لا يتدخل في زواجي .

قال : أبينكم قصة حب؟

تقدم النادل فقال: شاي قهوة شراب.

قال : أنا معجب يا سلوفانا ! وأنا مستعد لكل شروطك ، لديّ الكثير من المال.

قالت السيدة : لديّ الكثير منه يا سيد سمير .. أنا لا أثق برجل ولا بغني ولو لم أكن زوجة

أخيك الميت لا ارغب بالزواج ؛ ليكن هذا آخر العهد بيننا.

قال : أنا جئت من أجلك فلنجرب

قالت السيدة بحدة : نجرب ماذا! الزواج ؟!.. من قال إني سأتزوج الدكتور

قال : سمعت ولم اصدق

قالت السيدة : ولماذا لا اقبله ؟! أليس هو ذكرا مثلك ؟

قال : أحقا ستتزوجينه ؟

قالت السيدة : اذا رغبت بالزواج.. افكر فيه .. حولي الكثير منهم .. المال مغناطيس .. كلكم يريد المال .

قال : منه الكثير عندك

قالت السيدة : صاحب المال لا يشبع .. أنا اعرف الرجال .. والمرأة للهو والمتعة ثم رميها في الشارع أو معاشرة صديقتها أمامها .. ألم يفعل ذلك نذير؟!

قال : ليس كل الرجال واحد

قالت السيدة : صحيح ، ليس كل الرجال واحد ؛ لكن الكثير منهم مثل بعض .. والنساء تستغل ضعفكم أمام الإغراء .. عندما يستقر أحدكم في فندق همه النساء

قال : أنت عندك أفكار سيئة عن الرجال.

قالت السيدة : هكذا كان نذير يصف الرجال .. كل صفقة يتبعها حفلة إباحية وسكر انتهى الجد وبدا الهزل .. ماذا تفعلون ؟ مغنية عازفة راقصة عارضة زي عاهرة ممثلة إباحية النهار للعمل والليل للهو والقمار.. أول طلب من الفندق النساء

قال : لم يكن السيد يكتم عنك شيئا من مغامراته

قالت السيدة : ولماذا يكتم ؟ كان يتمنى أخوك أن يراني في أحضان رجل .. هذا ما تحدث به أمامي .

قال : ولماذا لا تفعلين ما دام قد رخص لك ؟

قالت السيدة : هو لم يرخص ، كان يريد أن أكون مثله ، حتى لا يحس أنني انظف منه .. فقد أذن لبسيل بأن يغويني حتى سقط في حبي وطلق زوجته.

قال : معقول!

قالت السيدة : معقول يا حضرة المهندس !

****

ظل أصدقاء نذير يطاردون السيدة لعلها تقبل احدهم قرينا أو عشيقا حتى مضت ثلاث سنوات دون فوز احدهم بغايته ، وكانت تدير المجموعة بقدرة وكفاءة ونجاح حتى شاع أنها التقت بشاب ألماني وجذبها الهوى نحوه ؛ لأنها كانت تكثر من السفر في السنة الأخيرة إلى ألمانيا ، وكان الشاب ابن صناعي كبير ، وشاع بأن سلوفانا تفكر بتقليص شركات المجموعة التي يملكها زوجها الميت ، وأعلن جومار إخبار الأصدقاء والصديقات أن السيدة ستغيب عن المدينة إلى اجل غير معلوم ، وتنقل كل الصلاحيات للدكتور علي يوسف، وترك الإدارة كاملة له ولمساعديه ، فترجح لدى المعارف أنها وقعت أخيرا في الغرام والحب .

كان المحامي بكر يسأل الدكتور عن صحة هذه الأقاويل: هل حقا ستتخلى السيدة عن الشركات؟!

قال: هي كلفتني باستلام كل العمل والإدارة والتواقيع .. هي فعلا تفكر ببيع كل هذه المشاريع والشركات أو تقليصها وتفكر بالعودة لميونخ حيث عاشت طفولتها .. تريد أن تستثمر في المؤسسات المالية فحسب ؛ ولكنها تنتظر مضي سنوات الوصية.

قال بكر : ملّت من القراءة والمتابعة.

قال: قد يكون ذلك .. النساء ليس عندهن نفس طويل في الأعمال والإدارة مثل الرجال.. فإما أن تعمل معه بثقة عمياء أو تظل متابعة ومراقبة .. فالسيدة لم تتعود على ذلك.. أنا كنت أظن أن تبيع الشركات أول وفاة زوجها أو تبيع نصفها

قال بكر : الناس طاقات والمرأة مرأة.

قال: نحن نقوم بالأعمال على خير ما يرام بسلوفانا وبدونها .. هي تعرف ذلك ؛ ربما السبب حبها ذاك الألماني ، فقد زارها في القصر مرتين ، وهو وريث شركات صناعية في اكثر من مقاطعة ألمانية ؛ لكنه اصغر منها بسنوات ، وهو طموح جدا ، وعلمت أن والده على وشك تسليمه الكثير من المصانع.

قال بكر: وهل يقبل بها زوجا ؟

قال علي : الزواج لست ادري ! أما العشق فهو وارد فالسيدة ما زالت صبية خمس وثلاثون سنة .. وما زال الفرسان يطاردونها في القصر في النادي في السفر ألا تعرف الخطيب ؟

قال: أكثره مزح .. فالدكتور بسيل طلق الدكتورة ربما ؛ ليتزوج منها ومنذر الأخصائي المشهور عرض نفسه وشقيق نذير يطارد ويأمل وطبيب تركي ورجل أعمال فارسي وبذل الكثير من الهداية وهي صامدة ترفض.

قال علي : أتعجب من رفضها وبعدها عن الرجال وهي في فترة النضوج يا دكتور بكر كانت لها مواقف ماجنة في سهرات زوجها! ربما مجاملة لنذير ، لم اسمع أنها رمت نفسها على رجل

قال: هذا المثير العجيب أيعقل أن هذا الألماني أوقعها؟

قال علي : المحاولات كثيرة وهي ذكية ، ولا اعتقد أنها بعيدة عن رجل ما .. فهي مشتركة في نادي تركي في استانبول ونادي أو اكثر في برلين وميونخ

قال: وكانت تسافر بدون نذير لمعارض وعروض أزياء وحفلات غناء عالمية

قال علي : كانت تفعل ولا يهتم نذير ، ولو كان لها عشيق أين العشيق ؟ لم يظهر .. لها ثلاث سنوات أرملة ؛ لكنها ذكية وحذرة ولابد من رجل .

قال: هل ستطول غيبتها يا علي؟

قال علي : ربما تمكث فترة طويلة ؛ كما تقول وفهمت منها .. فهي وكلتني توكيلا كاملا بالإدارة فهذا يعني طول غيابها .. علينا أن نهتم بعملنا والإنتاج .. وأعطتني بريدا خاصا للمراسلة ولا يعلمه احد .. صندوق بريد سري.

قال: الهاتف!

قال علي : رفضت استعماله بيننا تريد الاختفاء تماما عنا .. لماذا ؟! لست ادري يا دكتور بكر نحن يهمنا العمل، ولا تهمنا حياتها الخاصة.

قال: أكيد وهي حرة في نفسها ومالها.

مضى ثلاثة شهور على علي وهو يتلقى الاتصالات بالسؤال عنها ، وسبب اختفائها ، وتلقى جومار الكثير من الاتصالات والبرقيات للحصول على عنوان ومكان إقامتها ، وأشيع أنها تقضي شهر العسل في جزر إندونيسيا ؛ ولكن لم يدع احد لحفلة الزواج خاصة أتراك المدينة وحتى لوقان الطبيب ، ولم ينشر خبر زواجها في الصحف ولا في المجلات الاجتماعية ، ثم شاع خبر انفصالها عن زوجها الألماني البرت ، وكثرت الأقاويل والشائعات عن سبب الاختفاء الطوعي .

قال بسيل لمنذر والأصدقاء في نادي القمار كلب فايف : أين اختفت هذه المرأة ؟! كنت آمل أن ترضخ .

قال: ما زال عندك أمل وحتى بعد زواجها .. هل صح أن ريما تزوجت؟

قال بسيل: تزوجها صديق قديم لنا تدين .. امر الرجال عجيب وغريب.. صديق من أيام الجامعة

قال: لعله سعيد معها

قال بسيل : لا اتصال بيننا رغم وجود أطفال بيننا .. اتصل بها واسألها.. نساؤنا ديكور وشغل سهرات وحفلات وحمق

قال: حفلات تبادل الزوجات تحتاج لنساء على هذه الشاكلة .

****

ديانا كانت سكرتيرة لسلوفانا تداوم في القصر منذ سكنت فيه سلوفانا ، وكانت تعلم كيف يدار القصر ؟ الخدم والحرس والنظافة والطعام والشراب ، ويبدأ عملها صباحا حتى الخامسة

مساء كل يوم ما عدا السبت والأحد ، وبغياب سلوفانا مشت على نفس البرنامج وبالتعاون مع قيم القصر جومار الهندي ، اخبرها جومار بأنه سيترك العمل بضعة شهور للعودة إلى الهند ويرى ظروف عائلته وزوجته العليلة ، لم يعد يكفي الاتصال الهاتفي بهم ، وطلب منها أن تستعين بزوجها لإدامة الحياة بالقصر من رواتب وطعام وغيره ، وكانت ديانا بعيدة عن حفلات الزوجين تساعد مع جومار في ترتيبها ولا تشارك فيها ، وكانت خادمة سلوفانا جوليا تهتم بها وبنقلها لغرفة نومها اذا ثملت ، وتغير ثيابها ، وتهتم بغرفتها وتشرف على نظافتها وصيانتها ، وسافرت معها ، وأزعجتها فكرة طول الغياب لجومار ، هو الآخر وعدها بالاتصال بها بين الحين والآخر .

بذل الزوج سليم العون في الشهور الأولى ، ثم قال لديانا : ما الذي يجري ؟! له شهور متغيب عن القصر .

قالت: كثرت الاتصالات بينه وبين أهله ، وذهب لمعالجة الأمور ، وقد يقدم استقالته اذا اضطر للبقاء في الهند .

قال: القصر بدون جومار متعب.

قالت السيدة : قد أعين مديرا مؤقتا للقصر، تحدثت مع الدكتور علي فقال : تريثي قليلا فالذي فهمته أن أسرته لها مشاكل مع الشرطة وقضايا ومحاكم ، ولا تحل على التلفون أنا اعلم أنك مللت من الخدمة .

قال: أنا اقدر ذكاء جومار عليك بتغيير نظام المشتريات بدل أن نذهب للشركة الشركة تأتي للقصر

قالت السيدة : كان السيد والسيدة لا يحبون دخول سيارات البيع لداخل القصر لأسباب أمنية

قال: السيد مات والسيدة اختفت هل تزوجت؟

قالت السيدة : لم نسمع .. قيل تزوجت المهندس البرت الذي تردد على القصر مرات ولم نسمع شيئا مؤكدا .. هل تزوجته سرا ؟! اعتقد أن علاقتهما علاقة استثمار .. وهو يصغرها

بسنين

قال مداعبا : كما تزوجت نذيرا لماله تزوجها لمالها!

قالت السيدة : لابد لها من زوج ، فهي صغيرة واذا تزوجت البرت فهذا زواج محكوم عليه بالفشل لأنها الأكبر .

قال: هذا احد أسباب فشله ، والثاني أن الذي يحكمهم مصلحة ؛ فاذا تحطمت ولم تنجح فسيكون الفشل في الزواج.. ولكنه يظل ابن الصناعة القوية في ألمانيا والده ملك صناعي وشركات كبرى

قالت السيدة : صحيح ولكنها شركات مساهمة غالبا .

قال: أنا تعبت من العمل في القصر ، وهذا يضر بوظيفتي في السفارة

قالت السيدة : كيف؟

قال الزوج : رئيس الأمن نبهني لذلك الخطر .. أنا موظف سفارة فعليّ الابتعاد عن هذه الأعمال ولو كانت بهيئة معاونة للزوجة.

قالت: إذن علينا توريد هذه الأشياء للقصر .. سأرتب الأمر مع فريق الحراسة الذين ليس لهم عمل إلا الأكل والشرب والنوم.

قال: هذا واجبهم ، الحماية للقصر ، وإدخال الضيوف وتوديعهم ، انتهى زمن الحفلات والسهرات

قالت: رغم أنها لم تولد في تركيا ، ولم تعش فيها ، كانت تحبنا وتجاملنا وتدعم المشاريع الخيرية في تركيا وأتراك روسيا .

قال: لها عضوية في جمعيات خيرية في أنقرة وأنطاكيا وأذربيجان وطاجكستان وجمعيات أيتام فهي تحب العمل الخيري اكثر من نذير.

قالت السيدة : كنت اسلم لهم الشيكات وأقابلهم عندما يأتون للقصر وأومن لهم الفنادق وزيارة الجمعيات هنا ، وارتب زياراتها لتلك الأماكن .

قال: لم يكن نذير محبا للشيوخ والدعاة والدراويش.

قالت السيدة : لم يكن يعرف الدين والجوامع عاش اغلب سنوات حياته في البرازيل

قال: كل أسرته على شاكلته

قالت السيدة : كان يحب سماع بعض القرآن لدقائق معدودة ويغلق الجهاز!

قال دهشة : القرآن ! كيف؟!

قالت السيدة : لا ادري كيف؟ ! كان يوم الجمعة يسمع آيات وسورة الكهف!

قال: عجيب!!

قالت السيدة : لا تنسى أنه عربي ومسلم .. فهو يعرف العربية ؛ بل درس في مدارس عربية هنا ثم عاد للبرازيل ، ويتقن الإنجليزية حيث تعلمها هنا كذلك !



جنازة

كان الأصدقاء ماهر وسعيد وصبري وبسيل ومنذر يشاركون في جنازة زوجة صديقهم عريف ، وانشغل المشيعون بالدفن في احدى مقابر المدينة ، وماهر يقول: لم يمهلها المرض كثيرا ، عانت من صداع ثم تحول إلى مرض شديد وأعلن الأخصائي أنه سرطان دماغ .. وهذا مرض يقضي على المصاب بزمن يسير.

قال منذر: كانا شهرين صعبين على عريف.

قال بسيل: هذا الزوجة الثالثة حسب ما قيل ، هو طلق الدكتورة سهام بعد تخرجه من الجامعة

قال ماهر: احبها أثناء الجامعة وتزوجا، واتفقا على عدم الإنجاب حتى ينتهيا من الدراسة ولكنها حملت وولدت له بنتا ، ولما انتهى النفاس حدث الانفصال ، وأخذت البنت وعادت لبيت والديها ، وهي اليوم طبيبة لامعة في طب النساء والتوليد.

قال بسيل: اعرفها ، ربما ولدت ابنيّ تحت إشرافها .. إنها متدينة اليوم .. وهي امرأة فاضلة ونجت مما نغرق فيه من الخمر والميسر والمجون

قال منذر: هل أنت نادم؟

ضحك بسيل وقال : حالنا لا يسر !

قال ماهر: معكم حق ! تعلقنا بالنساء والشراب والقمار .. قبل أسبوع خسرت عشرة آلاف دولار.

قال: القمار كلنا يخسر .. مرة تكسب وعشر تخسر

قال منذر: هل من أخبار عن سلوفانا؟

قال ماهر: أنا لا اعلم حتى سمعت أن رئيس الخدم اختفى فهل وراء الأكمة ما وراءها

ضحك بسيل وهمس متفكها : تتزوج جومار مهزلة لو حدث ؟

قال منذر: هو سيد القصر بعد وفاة نذير .. وهو العشيق الخفي !

قال بسيل : لم يكن بينهما شيء، فكان من الصعب أن يخون ولي نعمته.. لو كانت تقبل العشاق

لكنت الأولى بها .. سمعت أن المهندس البرت قريب منها ورحلت للزواج منه.. فهو صاحب أموال ومن أقارب أمها.

قال ماهر: تزوجا

قال بسيل : لا ، لم اسمع ولكنهم يعيشون في أوروبا وأمريكا بدون زواج رسمي .. يبدو أن الدفن انتهى.

قال: اصبح الزميل أرملا.

قال منذر : حدثتم عن زوجته الأولى ، ولم تحدثونا عن الثانية.

قال ماهر : كان الزميل لا يحب الزنا والفاحشة ، ولما حملت سهام وولدت طلقها ، وعرض نفسه على زميلة لهما وقبلته وعاشا بضع سنوات ، ولما رغبت بالحمل رفض وتطلقا ، والده من الأثرياء كما تعلمون ، ثم أخذ مثلنا يتخلى عن معاداته للزنا ويرتاد النوادي والملاهي الليلية ، وتعلق مثل منذر بالمومسات وبنات الليل حتى التقى بي في نادي الأطباء واحتاج لزوجة للسهر والحفلات فتزوج هذه الميتة ، وتمنعت عن مسايرته في متعه وفجوره وتركها لنا ، ثم خضعت للواقع المقرف الذي نعيش فيه .

فقال منذر : ولدت طفلا

قال: لم يعد طفلا ، فهو شاب صغير في الإعدادية .. ها هو يقف بجوار القبر يصافح المعزين وبعد العزاء بجوار القبر اعلن احدهم أن الغداء عن روح الميتة سيكون في نادي العائلة وكذلك بيت العزاء .

قال منذر: افكر بالذهاب لحانة يا ماهر اشرب كأسا بهذه المناسبة.

قال بسيل: افكر بالعودة للبيت، لم انم الليلة.

قال: لعل أنثى في البيت

قال بسيل :صدق لا ، لي أسبوع أو اكثر دون لقاء أنثى .. اشعر بالسأم والملل من هذه العملية

قال: تزوج

قال بسيل : تزوجت وطلقت .. حياتنا مملة

قال منذر : ما زالت نفسك ترغب بتلك الأنثى

قال بسيل : هربت منا

قال ماهر: بل طردتنا .. كل أصدقاء صاحب القصر طردوا

قال منذر : فعلنا عادات قبيحة .. الصحة تغر.. الشهوات دمرتنا

قال صبري : كل الناس تشرب .. والجنس جزء مهم من حياة البشر .. جعل النهار للشغل والليل للنسوان

قال ماهر: غرقنا في الشهوات والملذات .. ها هي صديقتنا زوجة عريف تموت وقبلها نذير مات دون استعداد لهذا اليوم.

قال بسيل : بماذا نستعد ؟ بالصلاة ..وهل تعرفون الصلاة ؟ دخلوا فيها المسجد يصلون عليها وهي عمرها ما صلت .. وأكثرنا ظل في سيارته ينتظر الصلاة عليها.. لماذا يصلى عليها ؟ الصلاة على الميت عجيبة.. يقف المصلون يكبرون ويدعون بس لا سجود ولا ركوع

قال ماهر: هي تذكير لنا لنصحى من النوم والغفلة.

قال منذر: يوم مات أبي دخلت الجامع .. استحييت من البقاء في الخارج خارج المسجد والناس يصلون على أبي .

قال ماهر: هل اغتسلت للصلاة؟

قال بسيل : كن صادقا يا منذر .. فالمصلون يغتسلون عند كل جماع .. هل اغتسلت ؟

قال منذر: الحقيقة أني اغتسلت .. ولم اكن اعرف كيف يغتسلون من الجنابة ؟ نعم، اغتسلت اغتسالا على نية الصلاة على أبي رحمه الله.

قال بسيل : كنت مرة في ماليزيا مع بائعة هوى قضيت حاجتي منها فلما أردت صرفها مع الفجر سمعنا الآذان فقالت اغتسل واذهب صلي إنه يؤذن ضحكت بيني وبين نفسي تمارس البغاء وتدعوك للذهاب للجامع تقول هذا شيء وهذا شيء دهشت حقا!

قال ماهر: كثير مثلها يحمل هذا الشعار .. هذا شيء وهذا شيء .. هل يعقل أن يتعذب المسلم في القبر كما يشيع هؤلاء الشيوخ ؟

قال منذر: نسمع ولا نرى شيئا.

قال بسيل : وكيف سنرى ؟

قال منذر: عندما نموت.

قال بسيل : آ ! معك حق.

****

قبل مرور أربعين يوما على وفاة زوجة عريف دعا الأصدقاء لحفلة زواج مختصرة ، وكانت مفاجأة لهم .قال له ماهر : ألم تستعجل الأمر؟!

قال بسيل : فعلا امر مستعجل!

قال صدقي: أنا قلت لن تتزوج بعد هدى.

أجاب: أنتم تعرفون أنني تعرفت على غالية قبل هدى ببضعة شهور .. طبيبة انتقلت للعمل معنا في القسم ، وهي أرملة من سنوات ، ولها ولدان ، وبأسرع من الصاروخ صارت عشيقة كما تعلمون ، وخلال مرض هدى كانت البديل ، وتعرفت على والدها ، وهو تاجر كبير في المدينة ، وحذرني من التمادي في العلاقة مع ابنته دون عقد شرعي ؛ لأنه لقطني ليلة في شقة ابنته فطلب تصويب الوضع ، فحدثته عن مرض زوجتي فقبل الانتظار ما دامت في حالة احتضار وبعد العزاء بأسبوع طلب مني التعجيل بالزواج .. فهذا أيها الأصدقاء سبب العجلة.

قال منذر: لم لم تبتعد عنها؟

قال: علمت أن له أصدقاء فوق ، والرجل مصر على تصويب العلاقة، والفتاة طبيبة مثلنا

قال بسيل : وهل تظن نفسك الفارس الأول بعد ترملها؟

قال: أكيد لست الفارس الأول ؛ لكن أنا الذي صيد في بيتها.

قال ماهر: المشكلة أننا نزعم أننا نعرف نساءنا ، ونحن نسمح لهن بالخيانة في تلك الحفلات

المستهترة ، إنهن لا يصلحن ليكن أمهات

قال صدقي: نحن لم نتخذهن أمهات.. نحن بدأن معهن خليلات وزبائن لحفلات المجون وتبادل الزوجات .

قال ماهر: ولكن ريما ولدت لبسيل

قال بسيل :حدث خطأ ؛ فكان الإجهاض صعب ..كانت حياتها في خطر

قال صدقي: إذن ستتزوج يا دكتور

قال عريف : وضع مبلغ من المال في الحساب لإكمال الفلم

قال ماهر: أوه هذا مربط الفرس مال وأنثى لقد ابتاعوك

قال: تقريبا والحفلة عليها ، هدية في فندق خمس نجوم وشهر عسل في شرم الشيخ وستشربون خمورا فرنسية جيدة.

قال بسيل : وأولادها

قال: الأولاد في بيت أم أبيهم استقروا ، وشقتها بجوار شقة شقيقها ، والنساء لا تعجز عن تهريب العشاق كما فعلت معي.

قال منذر: وفعلت ذلك مع غيرك.

قال: الغيرة ماتت عندنا أو ولدنا بدونها .. من يتورط في القمار لا غيرة عنده مع الوقت وخلاعة الحانات.. كان همنا أن لا تخون إلا بعلمنا ورضانا

قال بسيل : أكيد الانحراف سهل ؛ لكن الخروج منه صعب ، الوحيدة التي عجزت عنها امرأة نذير .. كانت اللعينة ترخي الحبل لنا ثم تنقلب لسبع.. لا اذكر أن أحدا منا نالها

قال صبري: أنا لم انجح وابتعدت سريعا

قال ماهر: وأنا مثلك كانت تقربنا من بدنها ثم تبصق علينا

قال منذر: نحن عرفناها عن طريق زوجها الفاحش، نال نساءنا وتحدانا إلا ريما كشت منه رغم فحشها ورغم هداياه لها

قال بسيل : كانت فريدة أكثرهن عشقا له، وكان يستسلم سريعا لإغوائها.. هداياه تسيل لها اللعاب .. ربما لم يتمكن منها ، وكنت اعجب منها ، وسمح لي بمغازلة ومراودة زوجته لم تستلم ربما له وسلوفانا لي

قال صبري: ربما عجز عن جسدها ، وكان مغرما بفريدة طليقة منذر رغم كثرة العشيقات في أنحاء العالم

قال ماهر: ما أخبار فريدة ؟ منذ مرضت لم نعد نراها

قال: منذ طلقها منذر قلّ اللقاء بها .. غير صالحة للعمل أصبحت بحكم المومس ، تتردد على حانات البغاء بشكل دائم ، لم يعد الأطباء مثلنا يقربها ، ثم أرسلها أهلها للعلاج في فرنسا

قال بسيل : سمعت أن حالها تحسن قليلا واخبرني منذر أنها تمارس الأمر في باريس.

قال منذر: سرطن رحمها وأزيل هناك قال لي ذلك زوج احدى قريباتها تخلصوا منها .. الجنس سيدفع كل واحد منا الثمن كما حصل مع نذير.



كانت ديانا تدير القصر بغياب السيدة وجومار ، وتعذر زوجها العامل في القنصلية بمساعدتها اكثر من الشهور الثلاثة ، وتعاونت معها السكرتيرة نورما ريثما تظهر السيدة الكبيرة ، ذات نهار تحدثت نورما مع ديانا عن امرأة تقف أمام القصر ترغب بالدخول والحديث معها وأنها قادمة من أمريكا .

فقالت ديانا : سلوفانا غير موجودة

قالت نورما : وهي غير مصدقة بسفر سلوفانا .. هي مصرة على مقابلة المدام .. وتزعم أنها صديقة للسيد نذير أيام عيشه في البرازيل.

فقالت ديانا : نذير مات من سنوات !

قالت السكرتيرة :إنها تعلم .. هل اسمح للحرس بإدخالها لنفهم حكايتها؟ فالحارس يلح على ادخالها.

فقالت ديانا : ولماذا يلح الحارس؟

قالت نورما : يقول إنها مصرة على الدخول والحديث معنا.

فقالت ديانا : فلتدخل ويرافقها احد الحرس ، وسأقابلها أنا وإياك في قاعة الاستقبال الأولى

تركت السماعة وهي تقول: ماذا تريد هذه المرأة القادمة من كوبا ؟ وماذا تريد هذه السيدة؟

تركت المكتب ونزلت إلى قاعة الاستقبال الأولى ، وكانت السكرتيرة في انتظارها وقالت : ستأتي ومعها السيد عصام.

دخل عصام تصحبه المرأة وعرفت بنفسها داليا غسال حيتان عربية الأصل، قال الحارس: السيدة داليا تقول إنها زوجة للسيد نذير قبل أكثر من عشر سنوات.

صرخت ديانا حيرة : زوجة للسيد نذير ! وأبدت نورما دهشتها أيضا.

قالت وهي ترى اثر المفاجأة على السيدتين : أنا زوجته الرسمية الأولى يا سيدة ديانا وسيدة نورما .. أنا هربت منه لأسباب خاصة قبل سنوات إلى كوبا .

فقالت ديانا وهي تتذكر : كأنني سمعت بهذا الزواج .. والسيدة الكبيرة غير معروف مكان الإقامة في أوروبا منذ شهور .

قالت السيدة : اخبرني الحارس بذلك ؛ لكن لا اصدق أين ذهبت؟

قالت نورما : كما اختفيت أنت اختفت هي ، ولا نعلم أخبارها وحتى مدير القصر الهندي جومار غادر لبلده ولم يعد لحد الآن.

قالت السيدة : حين تزوجنا لم يكن هنا قصر .. تزوجته في البرازيل ؛ حيث تعرفنا هناك ؛ حيث بدأ حياته العملية الكبرى ، حدثت بيننا نزاعات عائلية ، هربت منه ، وترك المدينة ، ونزل ألمانيا ، ولم يطلقني عندما هربت منه .. وأنا الأحق بثروته من سيدتكم.. ما زلت على ذمته .

قالت نورما : إنه ميت يا مدام والأموال انتقلت للسيدة الكبيرة بوصية موثقة.. اغلب الأموال باسمها ما عدا الأموال هنا ستوزع حسب الشريعة الإسلامية وثلثها وصايا

قالت السيدة داليا : السيدة الكبيرة خارج البلاد أم لم ترغب بمقابلتي !

فقالت ديانا : منذ سنة سافرت لألمانيا؛ ربما تزوجت كما قيل ، ورئيس القصر جومار رحل لبلده الهند يتفقد زوجته وأولاده ، واذا لك حقوق ووثائق عليك بمكتب قانوني ومحامي وكيف تزوج السيدة ولم يثبت طلاقه منك؟

قالت السيدة بابتسامة : التزوير .. المال يستطيع التزوير لوثيقة طلاق .. وأنا أنجبت منه ولدا وهو شاب يعمل في هافانا .

قالت نورما دهشة : له ولد ، لم نسمع بذلك! نذير لا يعلم أن له ولدا ، ولم يترك له شيئا لابد لك من قضاء ومحاكم .

قالت السيدة : سأستعين بالقضاء ، وكنت ارغب بحل المشاكل بالتفاهم مع السيدة الكبيرة .. أنا املك الوثائق الصحيحة بأني زوجة شرعية لنذير .. أنا من مواليد البرازيل ، لما حضر البرازيل التقى بأسرتي وعمل في التجارة والنفط معنا ، ثم تزوجني ثم أصبحت حياتي معه في

خطر فاضطررت للهرب خشية على حياتي وولدي.

قالت نورما : هذا الكلام يا سيدتي لا يهمنا .. نحن موظفون في القصر .. والسيدة خارج البلاد .. ولا نعلم عنوانها قابلي مدير الشركات الدكتور علي يوسف

قالت السيدة : لم أتزوج بعد هربي .

أعطتها السكرتيرة عنوان الشركة والمحامي بكر

****

استقبل علي وبكر المرأة التي أعلنت أنها زوجة لنذير وتعرفوا عليها وشربوا القهوة بصحبتها وهم في دهشة من ظهور الزوجة الأولى .

قال بكر: أنت كنت زوجة للسيد للمرحوم نذير خاتم .

قالت السيدة : كنت زوجة ، وما زلت زوجة وأم ابنه الوحيد بول .

قال علي : ابنه اسمه بول اسم إنجليزي

قالت السيدة : سماه بهذا الاسم ؛ لأنه كان محبا للعبة كرة القدم ومشجعا برازيليا ؛ حيث رحل من هنا للعمل مع أسرتي لقرابة بينهم ، لا اعرف أصولها ، وكان شريكا نيابة عن والده المليونير ، تشاركنا في مصنع كبير ، ومن أول سنة تزوجنا ، ثم تبين لنا أنه عاشق للنساء ونتيجة لهذا الانحلال المفضوح تخليت عنه مع حبيب قبل أن اعرف نذيرا ، وهربنا لكوبا سرا ورفضت كشف مكاني للأسرة والأصدقاء ولنذير ، ولما غادر لألمانيا الغربية أخبرت أمي بمكان إقامتي ، ثم علمنا أنه تزوج ألمانية .

قال بكر: وابنه

قالت السيدة : ولد في أول سنة زواج وهرب معي ، وكان في مدرسة داخلية ، وهو اليوم في الجامعة

قال بكر: ما دمت تعلمين زواجه عليك فكيف تطلبين ماله؟

قالت السيدة : أنا زوجته الشرعية ومعي عقد الزواج.

قال علي : وكيف تزوج الألمانية؟!

قالت السيدة : لا ادري بالضبط! علمت أنه اتخذ زوجة ، ولم اسمع أنه طلقني.

قال بكر: كيف يعقد قرانه بدون طلاقك كما هو النظام الغربي ؟!

قالت السيدة : قد لا يكون بينهم عقد رسمي

قال بكر: هذا يحتاج أن نذهب لألمانيا.. فعليك بالسفر وتوثقي من عدم طلاقك رسميا ستوزع الأموال قريبا .

قالت السيدة : لم تأت أي وثيقة.

قال بكر: لا يمكن .. هناك عقد زواج قبل نفي التعدد .

قالت السيدة : قد يكون زور طلاقي .

قال بكر: هذا تثبتي منه هناك وليس هنا.

قال علي : الرجل بغض النظر عن عقد الزواج كتب الأملاك لزوجته سلوفانا ، ولم يحدثنا عن ابنه بول

قالت السيدة : سأذهب إلى ألمانيا

قال بكر: ولماذا تأخرت في الظهور .. له أربع سنوات في الموت.

قالت السيدة : لم اكن بحاجة للمال ولابنه حق بماله.

قال علي : هو ترك المال وصية لزوجته الألمانية وحصة لأمه.. فعل على طريقة الغرب كتابة الوصية .. وهل ما زال شريكا لأسرتكم؟

قالت السيدة : نعم ، ما زال شريكا .. فوالدي مات ، واعلمني قبل موته بأن زوجي مات وترك الثروة لزوجته الألمانية ولم يترك لي ولا لابنه أي دولار

قال بكر: الذي أشار عليك بالظهور كم سيأخذ ؟ فعليه أن يتابع الأمر في ألمانيا؛ وليس هنا واذا تزوجت كما قلت فلا شيء لك.

قالت السيدة : زواج بلا عقد .. صديق فقط ..وأحد المحامين قال لي ذلك بأنني رسميا على

ذمة المرحوم .. أنا أبي من اصل عربي، وأمي برازيلية ، فهي ثرية وتزوجت أبي مثل أسرة نذير

قال علي : عليك بالسفر إلى ألمانيا ومعرفة تفاصيل زواج المرحوم ..فأرملته خرجت من سنة من البلد هذا .. غادرت لظروف خاصة ربما زواج.

قالت السيدة متظاهرة بالدهشة : زواج !!

قال علي : ربما لم تفصح عن خبر واضح .. وتركت لنا الإدارة حتى ترجع .

قالت السيدة بنكهة ساخرة : لابد أنها وجدت زوجا يعوضها عن مغامرات نذير النسائية .. لقد علمت أنه مات محروما من النشاط الجنسي!

قال علي : لم تحضري الجنازة أنت ولا ابنه !

قالت السيدة مقرة : هو لم يعترف بابنه .. وهو احد المشاكل الكبرى بيننا ..كان يريد موته بيديّ ، وإنه لا يخلف ؛ ولكنه ابنه شكرا لكم.

غادرت وصحبها حاجب المكتب ، فقال بكر : الأمر يستحق الدهشة !



بُلغت ديانا بهاتف من طبيب القصر لوقان أن تهيء القصر لقرب عودة السيدة ، وتفاجأت المدبرة للقصر بالأمر فقالت: أتحدثت معك؟!

ـ نعم

فقالت ديانا : أين كانت؟!

قال : عندما تعود ستعرفين أين كانت؟

ـ معها زوجها!

قال الطبيب : زوجها ! ومن قال إنها تزوجت؟!

فقالت ديانا : لا اذكر من قال ذلك! عندما غادرت سمعنا أن علاقة خاصة مع البرت.

قال الطبيب : نعم، هناك علاقة خاصة هي علاقة عمل يا سيدة ديانا لما ترجع تسأل.

فقالت ديانا : شكرا دكتور.

قال الطبيب : جومار ما آخر خبره؟

فقالت ديانا : اخبرني باتصال هاتفي أنه يعيش أيام صعبة ، وطلب مني عندما تعود السيدة أن أتصل به، فقد تعرضت عائلته لحادث كبير ..احترق بعضهم، وبعضهم يصارع الموت .

قال الطبيب : لا حول ولا قوة إلا بالله على كل اذا اتصل اخبريه بقرب عودة السيدة للقصر

فقالت ديانا : سمعت من نورما أنه يفكر بالاستقالة لرعاية أهله .. سيأتي اذا عادت السيدة لبعض الوقت.

قال الطبيب : اهتمي بإعداد القصر.

فأخبرت ديانا الخدم والحرس والطهاة بما اخبر به الطبيب ، وعم الفرح في القصر، والسؤال الذي تردد على الألسن أين اختفت كل هذه المدة ؟ وما الخطب !

فقالت السكرتيرة العامة للقصر نورما : ألم يكن هناك زواج ؟

فقالت ديانا : استغرب الدكتور الحديث عن الزواج من البرت.. التقيا للعمل والتمويل.

قالت نورما : عمل سري وخطير !

فقالت ديانا : هي قررت السفر فجأة وأعلمت بأن رحلتها السرية قد تطول .

قالت نورما : هناك غموض في هذه السفرة يا ديانا حتى لم تترك لنا رقم هاتف أو عنوان بريد

فقالت ديانا : حضر البرت للقصر مرتين ، وكان حديثهما بالألمانية .. وأنا أعرف بعضها ، ولم اسمع إلا الحديث عن المصنع والتمويل ، فلم استغرب كثيرا من تصريح الطبيب، وكان دعاها لقضاء وقت في وطنها .. وأنا ظننت أن والدته أرسلته من اجل الزواج والمصنع حجة.

قالت نورما : أنا استقبلته في المرتين ، وتحدثنا بلغة بريطانيا حتى تنزل السيدة للقاء به

فقالت ديانا : أنا رجحت الزواج بعد سفر جومار ، فذهب مخي أنها قد تبيع القصر وأملاكها هنا .. بعد ترملها لا يربطها شيء بهذا البلد إلا الأعمال ، فنذير له مشاريع في ألمانيا والبرازيل وتشيلي وغيرها من البلدان.

قالت نورما : عندما تعود السيدة بالسلامة سنعرف الكثير من قصة هذه الرحلة الغامضة.

فقالت ديانا : قريبا لها سنة دون خبر ، يبدو أنها كانت على اتصال وتواصل مع طبيبها.. بدا لي أنه على علم بسبب غيابها .. هل لظهور الزوجة الأولى دور في ظهورها؟!

قالت نورما : سمعت من الدكتور علي أنها تزعم أنها زوجة ولم تطلق رسميا ، ولها ولد منه ينكره نذير ، وهو يدرس في جامعة كوبية اسمه بول .. لم نكن نسمع بهما حتى في الشركة .

فقالت ديانا : الحقيقة يوجد غموض في حياة نذير لسلوفانا ، فهي تزوجت ماله ، وطلقت من زوجها الأول ؛ ولعل نذيرا السبب ، وجاء لميونخ وبرلين لمساعدة والدها في أزمة صناعية ومالية ، فكانت في طريقه ووقع في غرامها ، كان مقلا من النوم معها ، كان رجل نساء خارج القصر إلا ما حدث من الدكتورة فريدة .

قالت نورما : رجال العمل والمال دائما يحيط الغموض بيومياتهم وحياتهم ، كان لا يسمح لأنثى في رياسة شركة أو مصنع ، ولا يسمح للمرأة أن تحضر أهم الاجتماعات ففي النهار عدو النساء والليل عشيق النساء .. أمره فيه غرابة.. فرغم كفاءة سلوفانا كانت بعيدة عن

الإدارة والشركة ، وعند خروجه للعلاج سمح لها بالإدارة والتردد على الشركة والمتابعة خارج القصر .

فقالت ديانا : تعب الكبد من الكحول وأجهزته التناسلية من الإباحية ، قد يكون سرطان الكبد من الكحول ، وكما تعلمين حفلات السيدين كثيرة على مدار السنة غير حفلات الصفقات خارج القصر.

قالت نورما : هذا ملاحظ كنا نتأخر في الفندق للصبح من اجل الزوار .. وصفقات تجارة الأسلحة متعبة .. لهم مصانع أسلحة في أمريكا اللاتينية.

فقالت ديانا : علمت من السيدة أن علاقاته مهمة مع وزارات الدفاع على مستوى العالم استفادوا من حرب العراق وايران وتحرير الكويت.

قالت نورما : هذه الصفقات عمولاتها مرتفعة وحتى تكاليف نقلها مرتفعة .

اتصل علي يسأل عن عودة السيدة ، ولم سمع قال: سأتحدث مع الطبيب شكرا مدام ديانا.

****

شاع الخبر في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه سلوفانا حتى أن بعض الصحف الاجتماعية أشاعت ونشرت هذا الخبر على صفحاتها ، فهي مديرة شركات ومصانع نذير خاتم .

الدكتور علي يقول: لماذا نشرت الصحف الخبر ، ونحن لا نعلم متى تأتي؟ ولماذا اختفت كل هذه الشهور؟!

قال بكر: كنت في مؤتمر وسألني صحفي عن صحة الخبر ، قلت سمعنا مثلكم، ونحن في الشركات نقوم بعملنا سواء وجدت أم سافرت .. العمل لا يتوقف على وجودها ، فهذه اغلبها شركات مساهمة عامة.. وهل كشف لك الدكتور شيئا عن سبب الاختفاء ؟

قال علي: نعم ، قال إنها كانت في رحلة علاج سرية .

قال بكر باستغراب : علاج مدهش ! والعلاج يحتاج إلى تكتم وسرية واختفاء عن العمل .. شهران مرض نذير واستمر العمل

قال علي: هذا ما كشفه لي لوقان ، لم يكن هناك زواج وغرام.

قال بكر: مما تعاني؟

قال علي: لم يصرح به.. لم تكن تعاني من مرض خطير حسب علمي يا بكر

قال بكر: هذا الدكتور خطير ! هل بينهما علاقة خاصة ؟ كان نذير لا يحبه ولا يطيقه ؛ لكنه من جالية القصر .. كانت تحترم الترك من كل البلدان .

قال علي: أليس هو الذي عينه طبيبا للقصر؟

قال بكر: بلى ، ولكن رغبتها هي التي أصرت على عمله طبيبا للقصر

قال علي: تميل كثيرا لجنسها !

قال بكر: اغلب القصر هنود من اتباع جومار .

قال علي: التوظيف كان عن طريقه الذي سافر ولم يرجع !

قال بكر: علمت أن زوجته وابنه تعرضا للحرق ، ومات ابن له في الحادث .

قال علي: هو متزوج ، ولم تحضر زوجته للقصر ولو مرة واحدة ، فكل من يسكن القصر معه زوجته إلا جومار .. احضره الهنود الذين بنوا القصر رئيسا للخدم ،ويعرفه نذير من وجوده في ألمانيا .. القصر خليط من الأجناس فخادمة سلوفانا الخاصة فرنسية ومدبرة القصر تركية وسكرتيرتها تركية الأصل إنجليزية الجنسية والسائق جودت تركي والطبيب تركي يعيش خارج القصر

قال بكر: لا اعتقد أن حياة خاصة بينه وبين السيدة رغم امتعاض السيد منه في السنوات الأخيرة .. لم يكن الطبيب الوحيد للقصر إنه أهمهم .. فكل شلة نذير أطباء.. وهو الذي نصحه بالسفر لألمانيا أو سويسرا عند تأزم وضعه الصحي.

قال علي: هل أمورنا حسنة قبل مجيئها؟

قال بكر: التقارير المحاسبية ممتازة وجاهزة ، والسكرتيرة نورما تتطلع عليها باستمرار

قال علي: بعد حين قريب ستصبح السيدة مالكة للأموال حسب الوصية وتوزيع الميراث

قال بكر: أنا عجبت من وصيته أن لا تسلم لها إلا بعد ست سنوات وألا تتزوج زواجا رسميا إلا بعد تملكها الأموال

قال علي: وصية غريبة !

قال بكر: لذلك استغربت لما قيل سافرت لتتزوج ! قلت ستفتقد الكثير من الثروة .

قال علي: لعلها لم تتطلع على هذا البند .

قال بكر: معقول

قال علي: هذا ما سمعته في زيارة المكتب في احدى الزيارات.

قال بكر: الزواج بدون عقد موجود في أوروبا العقد اختياري ، كان لها زوج مهندس طلقها وكان الزواج منها ضمن صفقة كما قال نذير يوما.

قال علي: وهذه التي تزعم أنها امرأته وولدت له بول.

قال بكر: قصتها غامضة.. يبدو أن احدهم طمعها بحصة من الثروة وصدقت إلا إذا كانت سلوفانا زوجة بدون عقد شرعي أو مدني .. وعلمت أنها تنوي السفر إلى أوروبا ؛ وربما تنتظر عودة سلوفانا اذا علمت بالإشاعة.

قال علي: لم يذكر يوما معلومات واضحة عن حياته في البرازيل

قال بكر: سنة علاج غريب !

قال علي: لا ادري!

******

كان الأطباء يجلسون في غرفة في نادي القمار يشربون ويتعاطون الكحول، وكان حديثهم حول ما نشرته الصحف أو بعضها حول عودة السيدة سلوفانة لمدينة زريق . فقال ماهر: أقرأت أو سمعت ما نشرته صحيفة الحمامة الزرقاء عن عودة الأرملة السوداء للبلاد؟! أتراها ستعود بزوجها الجديد؟

قال بسيل: وما ادراك أنها تزوجت؟

فقال ماهر: ألم يشاع أنها رحلت للزواج من الصبي البرت المهندس الصغير صديق العائلة؟

قال منذر: نعم، هذا قيل يا بسيل؟ و أليس هذا ما ترجح لدينا عند الاختفاء؟

قال بسيل: ولماذا تخفي هذا الزواج عن الأضواء والمجلات ؟! امرأة كسلوفانا وهي تعشق الشهرة والصحف والحفلات .. أنا مثلكم قرأت الخبر الذي نشرته صحف المجتمع ، فاتصلت بالدكتور علي ؛ لأنه هو الذي يدير الأملاك فأكد لي الخبر ، ولا يعرفون أي تفاصيل ولا وقت العودة ؛ إنما اخبرهم به طبيب سلوفانا أحد عشاقها الأوائل اذا صح وصدق اتهام نذير .

قال منذر: الخبر صدر عن التركي ؛ ليس من القصر !

فقال ماهر: قيم القصر في الهند ، ليس هناك زوج !

قال بسيل: لا يوجد زواج.

قال منذر ساخرا : هل لديك أمل باسيل؟

قال بسيل: لقد سيطرت عليّ، عشقتها بحق ، منذ طلاق ريما لم اسعد بامرأة .. لقد انتصرت عليّ

فقال ماهر: هذا أنت كنت في معركة!

قال بسيل: نعم ، معركة غرام وجنون ومراهقة .

فقال ماهر: معركة خاسرة من بدايتها ، وجعلتها فرصة للخلاص من ريما ، وهي فتحت لك الطريق لإغاظة زوجها الذي كسر تقاليد الزنا في القصر، حين تعرت له مطلقة منذر وخدرته وعاشرها فسقط مريضا حتى هلك.

قال بسيل: فتح لنا الطريق بصراحة وتحدي ، وترك لنا المحاولة، وكانت ليلة القط الأسود على وشك أن تحول الحفلة لجنس جماعي .. لقد ذلتنا تلك الليلة أمام نسائنا حتى سخرت ريما مني ثم تطوعت بألف دولار اذا تمكنت منها ، فاعترفت بفشلي وأنها صيد صعب رغم مكرها بنا ليلة القط الأسود لما ذهب نذير لمعاشرة فريدة .. قلت لسلوفانا سمحت لنذير بليلة مع ريما

فضحكت

فقال ماهر: ما رد ريما على هذا الادعاء؟

قال بسيل: قالت لا ادري إنني اكرهه رغم ما قدمه لي من هدايا ، لو اطمئن أنها تسلم لك ليلة لقدمت جسدي له أسبوعا .

قال منذر: تضحية كبيرة منها ماذا قلت لها؟

قال بسيل: قلت لها سأبذل جهدي معها لآخر يوم من العمر.. إنها امرأة تشتهى ، وإن لم تكن ملكة جمال العالم ، فقالت اذا سمحت لك بليلة فقدمني هدية وجارية لنذير .. مات نذير قبل أن أنال وأحقق شيئا.

قال منذر: أنا كنت استغرب من موقف ريما معه ، مع أنها سمحت لكل الشلة النوم معها ؛ لأنها تعلم أننا صحاب يجمعنا الجنس والخمر والقمار.. نذير لماذا لا؟!

فقال ماهر: نساؤنا لما تزوجناهنّ يعلمن أننا مجرد ديكور لهن .. كانت مكرهة على الممارسة بعكس فريدة .. تلك امرأة فعلا عاهرة .

قال بسيل: اليوم ريما تغيرت لم تكن نشطة جنسيا ، تتعب بسرعة وتكتفي بقضاء شهوة الشريك ، وتدخل في نوم عميق .. أما فريدة وغيرها تريد أن تبقى طول الليل في جماع ومداعبة ومجون .. كنت استسلم للنوم ويبدأ الإزعاج؛ لذلك صرت اهرب من مواعيدها ومواعدتها.. أما ريما فما صدقت أن اتركها .. تغيرت اليوم وتزوجت، وتركت الفجور وسمعت أنها تابت.

قال منذر: تابت ما معنى تابت ؟ كانت ضمن الفريق بحريتها

قال بسيل: صارت تصلي يا سيدي !

فقال ماهر: معقول

قال بسيل: زوجها الجديد كبير في العمر أرمل .. معرفة قديمة تغير .. علمت أنه يعاملها كابنة.. لديه بنات من سنها .. مجرد زواج .. أراه مناسب لها.

قال منذر: إنها ملّت ، وكانت مملة ، ملت من السهرات مثل بنات القرى

قال بسيل: هي كانت تفعل معكم إرضاء لي خشية الطلاق ، فقبلت بعد حين الدخول في هذا المضمار ، لم تكن تصدق أننا نتبادل الزوجات ، وأنها مجرد أفكار سينما وخيال.. كم خسرتم الليلة ؟

قال منذر: خسرت خمسة آلاف بعد أن كسبت في البداية خمسة راس براس .

فقال ماهر: بسيل كسب الليلة بعد خسارته قبل ليالي عشرة أنا فقدت الليلة عشرة

قال بسيل: ركبني الطمع الليلة وتجاوزت المحدد .

فقال ماهر: الدكتور جولس انتحر قبل أيام ، خسر عمارة كاملة

قال بسيل: خسر كل شيء ، المرأة تركته قبل الانتحار، وأولاده هجروه كذلك

قال منذر: لقد نزف أملاكه كلها .



كان القصر يتهيأ لاستقبال السيدة بأوامر من الطبيب الخاص ، وقام جودت بشراء سيارة ماركة جديدة وتهيئتها لاستقبال السيدة في المطار بصحبة الطبيب ونورما ، وتم شراء ملابس جديدة لسكان القصر بمناسبة العودة ، وكذلك تجديد الإضاءة ؛ ليكون القصر جاهزا لاستقبال سيدته، فتأكد لساكنيه ومعارفهم أن العودة قريبة وحقيقية ، كان الطبيب مبغوضا من نذير ، ولولا ثبات سلوفانا وإصرارها لطرد الطبيب وقالت بحزم: هذا طبيبي أنا دبر لك طبيبا ، فسلم واستعان بغيره ، وظل طبيبها طبيبها واتهمها حينا بعشقه فقالت : حرية . ولم يستطع إثبات ممارسته معها الزنا رغم شكه به .تجسس عليها بالخدم ، ولم يثبت أي لقاء جنسي بينهما فركن للصمت ، وكان يتقبل أوامره الطبية والصحية وقبل مرافقته في رحلة العلاج التي مات فيها .

طلب الطبيب من السائق الاستعداد ليلا للذهاب إلى المطار ، طائرة الواحدة ليلا ، انتقلوا ليلا للمطار ، ومعهم كلب السيدة وقطها الأسود ، فالكلب له خدم ، والقط له خادم يستوطنان القصر وهم من الهنود .

مع الفجر كانت السيدة تدخل القصر ضمن استقبال وترحيب من عمال وخدم القصر وعانقت الكلب وسلمته لخادمته والقط كذلك.

أعدت خادمتها الفرنسية جوليا التي عادت بصحبتها غرفتها ، وصعدت لغرفتها وغادر الطبيب القصر لم تتحدث بسر غيابها ، انهالت الاتصالات صباحا مرحبة بالسيدة وأعطت موعدا لعلي وبكر مساء اليوم .

فقالت: كانت سنة صعبة يا صديقي؛ ولكني نجوت بحمد الله.

قال علي: نجوت من ماذا ؟ نحن لم نعرف سر طول هذا الغياب ظننا أنك تزوجت البرت .

قالت السيدة: عندما أتنفس الصعداء سأقول لك القصة ، علمت بقصة المرأة القادمة من كوبا وابنها بول . روى لها القصة والابن لنذير.

سمعت السيدة صوت الأطباء بسيل ومنذر وماهر وطلبوا اللقاء بها للسلام عليها ، شكرت لهم الاتصال ،واعتذرت عن اللقاء فقال بسيل : لم الجفاء والبغضاء؟

قالت السيدة: لا جفاء ولا بغضاء، أنتم أصدقاء السيد ، ومات السيد وبأي صفة نكون أصدقاء ، وأنتم أصدقاء نسوان .

قال بسيل: يجب أن نبقى أصدقاء ؛ لأنك زوجة صديقنا .. من الوفاء له أن نبقى أصدقاء وصرنا أصدقاء لك وشاركنا في حفلاتك وسهراتك .

قالت السيدة: أنتم أصدقاء شراب وأجساد وقمار فما دوري بينكم ؟!

قال بسيل: لا تنتهي الصداقة بموت احدنا .

قالت السيدة بضيق بين : حبل الود انتهى يا دكتور ! قلت لك لا تفكر بي زوجة ، أنا كنت زوجة شكلا لصاحبك .. سلم على الرفاق.. وعندما اعمل حفلة تأبين سأدعوكم للسكر عن روحه لتلك الذكرى .

قال بسيل ساخطا : فيك خير يا مدام! أنت ملكة بغير تاج.. أنت من عجايب الدنيا السبع !

قضت السيدة أسابيع في المشاركة وحفلات في القصر والفنادق والشركات واستقبال الجالية والنوادي الخاصة والكل يريد أن يعبر عن حبه وإعجابه بها، والغريب أنها أقامت حفلات في القصر بدون خمور ، وانتشر أنها كانت في رحلة علاج من الإدمان على الكحول ، وأنها قضت الشهور في مركز ومشفى علاج من الإدمان في سويسرا ، وقد نجحت بترك الكحول إلى حد كبير ، وتخلصت من الخمر رويدا رويدا ، والمخدرات التي لم تتعمق فيها ، وكذلك ترك الدخان إلا القليل .

****

ذات نهار قالت ديانا : الحرس يقولون إن بالباب شخصا يزعم أنه ابن نذير وأمه يرغبان بالمقابلة .

السيدة قد علمت بقصة المرأة التي زارت القصر قبل شهور ، فأذنت لها بالدخول إلى احدى

قاعات استقبال خاصة ، وقدمت لهما القهوة والماء ، وبعد ربع ساعة حضرت سلوفانا القاعة وعرفت الزائرة بنفسها باسم داليا غسال حيتان وابنها بول.

قالت السيدة وهي تجلس : ماذا تريدون مني؟!

قالت السيدة داليا : أنا زوجة شرعية لنذير.

قالت السيدة: لنفرض صحة ذلك ماذا تريدون؟

قالت السيدة داليا : أريد حقي بمال زوجي وحق بول.

قالت السيدة: السيد لم يترك ثروة ، كتبها لي بوصية ، فهي باسمي، نذير لا يعترف بدين وتسلم لي بعد ست سنوات من وفاته ، وعلى أن لا أتزوج .. لا يوزع ماله كميراث إسلامي وديني لنتشارك في المال .

قالت السيدة داليا : ولكني زوجته الشرعية

قالت السيدة: وأنا زوجة شرعية ، وأنت طلقت غيابيا لغياب عنوانك، ولم ترسل لك وثيقة الإخبار بالطلاق، لقد هربت ومعك ابنك ولم يكن لك عنوان في دار الاختفاء يا أم بول .. اعرف قصتك في ريو دي جانيرو مع ابن زوجة أبيك بالتبني وأن والدك تزوج أرملة ثرية وطلق أمك قانونا ، وكانت زوجة أبيك متبنية لطفل من أيام زوجها الثري ، وكان بينك وبين الأخ بالتبني ما بين الأزواج وولدت بول ، وعرف السيد ذلك وأنكر أن يكون منه وهربت بابنك إلى جهة مجهولة.

قال بول : هذا لم تخبريني به يا أمي !

قالت السيدة سلام : بل أنت ابن نذير ، ولدتك أول سنوات الزواج ، وأنا على ذمته ، وما زلت دون طلاق قانوني .. لي أصدقاء كما له صديقات كما أن لك صديقات يا بول

قالت السيدة: ربما أرسلت وثيقة الطلاق إلى عنوانك في البرازيل ؛ لأن مكانك في كوبا كان مجهولا لنذير.. فهي عند والديك .. ولما غادر البرازيل كنت مختفية عن الجميع

قالت السيدة داليا: في القانون هذا ابنه .

قالت السيدة: نعم ، في القانون هذا صحيح ؛ ولكن الرجل لم يعترف به ، ومن اجل ذلك لم يوصي له، فتركها لي ، فهو لا يعترف بشريعة إسلامية، وهي مكتوبة أصلا في ألمانيا

قالت السيدة داليا : حق هذا الولد !

قالت السيدة: أنتم لا حق لكم عندي.. أنا ظللت أرملة حتى املك كل الثروة تنفيذا للوصية لماذا تأخرت في البحث عن حقك سيدة داليا ؟!

قالت السيدة داليا: أنا لما هربت اعتبرت أن نذيرا انتهى من حياتي ، ولما مات لم اكترث بموته لكن احد المحامين لما علم بأنني مسلمة وزوجي مسلم قال إني على النظام الإسلامي استحق جزءا من الثروة بحكم الميراث الإسلامي، وبول يستحق مالا من أبيه القانوني ، وإنكاره لأبوته لا ينفي أنه ولد وهو زوج لي .

قالت السيدة: هل سجل بول باسمه ؟

قالت السيدة داليا : لا ، صارت مشاكل عند ولادته ـ وكان شريكا لأبي وأسرتي ـ فوضع في ملجأ اللقطاء ، وقبل ابن زوجة أبي المتبنى بتسجيله باسمه ريثما تحل القضية ، وهربنا وتزوجنا في كوبا شكليا ، وسجل باسم أم مجهولة ، ثم صحح الوضع لما علمنا بموت نذير وتزوجنا رسميا ، وعاش بول في مدرسة داخلية .. وها هو تخرج من الجامعة ، وهو يعرف تفاصيل قصتي مع أخي الذي تزوجته وحمل بول اسمه قبل الهرب .. هو ابن بالتبني لزوجة أبي فصار أخ لي لما تزوج أبي أمه بعد طلاق أمي الحقيقية للزواج من الأرملة الغنية .

قال بول : حياتي مأساة! أنا في الحقيقة ولدت وهي على ذمة نذير ، وأنا لست في الحقيقة ابنه شرعيا أنا ابن عشيقها .. أمي عاهرة !

قالت السيدة داليا : حياتنا هكذا هناك يا سيدة سلوفانا ! لست فاجرة لما تزوجت نذيرا ، لم يكن احد يعلم ما بيني وبين جوني ، وتزوجت نذيرا ؛ لأن أبي أراد ذلك ، وكان نذير يريد تقوية العلاقة بأسرة أبي ، ولم ولدت بول استغرب نذير ، وتبين أنه يتعاطى ابر لمنع الحمل لعدم رغبته بذرية ، فوالدك الشرعي معروف لي ، وهو في القانون أخي ، وفي الحقيقة هو ابن متبنى؛

ليس من أمي ولا أبي إنه غير معروف بالنسبة لي وله ، هو ابن ملجأ لقطاء أو أيتام ، كان نذير لا يريد أن يولد له سواء بالزواج الصحيح أو الباطل ؛ لأنه يخشى أن تأتيه امرأة بمولود وتزعم أنه منه وأخضعت لفحص دي ان ايه

قالت السيدة: لا حقوق لكم عندي .. أنا مستعد أن أتكلف السفر لكوبا

****

غادرت داليا وبول ، ورافق الحارس داليا وبول، فصعدت السيدة لمكتبها تتبعها ديانا ونورما وبعد توجيهات ذهبت السكرتيرة لمكتبها، وقالت لديانا : لماذا ظهرت هذه المرأة الآن ديانا؟!

فقالت ديانا : سألت نفسي هذا السؤال عندما ظهرت لأول مرة ، وبعد سنوات من موته ، وبعد سفرك للعلاج !

قالت السيدة: الأمر مقلق لي ، لو ظهرت لما شاع خبر موته لبدأ الأمر طبيعيا ، وصدقت أنها هربت منه خوفا على ابن عشيقها بعد اربع سنوات .. وهل حقا لم تصل إليها وثيقة الطلاق ؟ وهل حقا تزوجت رسميا بعد موت نذير ؟! كنت مع أبي عندما ذهبنا لشركة محاماة ليعلن طلاقه منها ، وكان الطلاق ، وتعهد المكتب البرازيلي بإرسال كتاب الطلاق للأسرة ، وطلب الاتصال به ليصبح الطلاق رسميا واذا لها اعتراض أو حقوق ، فلم يتصل بنا المكتب لليوم أما بول فلم يتكلم عنه.. وهل حقا لم يكن ابنه وأنه كان يتعاطى موانع الحمل ؟ معي كان يأخذ حُقنا واحيانا استعمل مبيدا لحيوان المني ، لم يرغب بالذرية معي.. هل تعاقدتم مع خادمة جيدة ؟

فقالت ديانا : ما زال الإعلان ينشر في وكالات الاستخدام ، ومكتب المحامي مارسيل يتابع الإعلان وقابل بعضهن وعلى وشك التعاقد.

قالت السيدة: شكرا لكم ! ما صحة زوجك سليم آق محمد؟

فقالت ديانا : ذهبنا للمستشفى وجرى اللازم ، وقد نسافر لأنقرة أو استانبول للعلاج في وطننا افضل وبين أهلنا.

قالت السيدة: آه! أنا بحاجة إليك هذه الأيام.

فقالت ديانا : سأجتهد أن أكون معك .. ونورما ممتازة وتعاونت معها أثناء غيابك وغياب جومار فتستطيع القيام بالأعمال على خير ما يرام

فقالت ديانا : كنت افكر بتبديلها كما تحدثت مع الدكتور علي وبكر

فقالت ديانا : إنها متعاونة جدا ، وزوجها رجل ممتاز

قالت السيدة: الدكتور جواد

فقالت ديانا : نعم ، ويمر بوعكة صحية هو الآخر بسبب البرد القارس، ولما يتعافى سيمر عليك .. واشرف على علاج الطاهية شيذر وصحتها تتحسن ومشتاقة للعودة للمطبخ.

قالت السيدة: قدم لي بعض النصائح والفحوص قبل السفر لبازل لقد أتعبني الشراب والمخدرات تعلمت على ذلك من الصغر والحفلات الصاخبة .. الأصدقاء مشكلة أحيانا كثيرة .. الإنسان عدو نفسه

فقالت ديانا : مدربة الرياضة ستكون مساء اليوم في قاعة الرياضة، لقد عادت من دورة خاصة كما اخبرتني.

قالت السيدة: تحدثت معي وأعلمتني عن حجز أجهزة حديثة ومتطورة تحتاج لإدخالها القصر فرتبي معها ومع الشركات .. أحس بتعب من مقابلة هذه المرأة.. ابنها لا يتكلم كثيرا ؛ كأنه غير مقتنع بخطتها واحتيالها .. محتارة بسبب ظهورهم بعد اربع سنوات من الموت .. لا يسمح لي بالاطلاع على وثائق نذير الخاصة إلا بعد مرور السنوات الست.. أنا مسموح لي الاستفادة من أرباح شركاته هنا فقط ، وأما أموال ألمانيا والبرازيل فغير مخولة ببيعها والانتفاع بها لماذا ؟! لست ادري .. تحدثت قبل ذهابي لمركز العلاج مع محامين شركات نذير دون فائدة .. بعد الست يتغير الوضع.

فقالت ديانا : وما الذي يزعجك بمجيء هذه المرأة ؟!

قالت السيدة: ربما تكون أموال ظهرت للمحامين يسعون للاستيلاء عليها باسم هذه المرأة

وابنها وبول .. لقد ذكرت أن احد المحامين اعلمها بأنها لم تطلق رسميا وقانونيا.
فقالت ديانا : القانون الألماني لا يسمح بالتعدد يا سيدتي ! والسجل المدني الذي يوثق العقود هل يقبل العقد وهو على ذمته امرأة؟
قالت السيدة بابتسامة لطيبة ديانا : التزوير والمال .. كان زواجنا بظروف غامضة وسريعة ، أتى الرجل من البرازيل لمشاركة الأسرة بمشاريع صناعية عملاقة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من صناعة الأسلحة والسفن الحربية وتسويقها ، ومن أول سنة اعجب بي ، ورغبني أبي وأمي بالزواج منه لما فشل بإقامة علاقة معي ـ فأبي يعرفه من استشاراته في الأرجنتين والبرازيل ـ وكنت طلقت وانفصلت عن زوجي .. كان جميلا ، كما أنني جميلة وهو يعشق النساء والجميلات، ولتقوية العلاقة مع أبي والأسرة قبلت زواجه بشرط أن يترك لي الكثير من المال واشترط أن لا أتدخل في علاقاته الإباحية فقبلت ، واعلمني بأنه لا يحب الأبناء فوافق ذلك هوى في نفسي ، لم اكن أظن أن الزواج سيعمر كل هذه السنين ، وأنا لا اعرف الحب والغرام أنا احب المال يا ديانا والحفلات والشراب وأتعاطى قليلا من المخدرات الحشيش.. أشياء جمعتنا وقبلته زوجا ، وكان يعاني من مشاكل في الكبد قبل ترك البرازيل، تكلم عن سبب لا اذكره الآن، وتحدث عن الزواج وأنه سيطلق اذا عقد عليّ ؛ ليسمح له بذلك ، فعلمت بعضا من قصة زوجته ، ولم اسمع بولده بول ..الخلاصة قبل بشروطي ومطالبي وأنا قبلت شروطه وحريته تجاه النساء وحريتي نحو الرجال فقبل ، واتفقنا على ألا يعاشر امرأة في بيتي وشقتي ثم القصر لما جئنا هنا ؛ فلذلك كما تعلمين له شقتان في المدينة لعشيقاته ، وله فيهما خدم.. وما زال علي وبكر ينفقون على الشقق ريثما تباعان بعد السنوات الست ؛ لذلك كان في الغالب يعاشر متزوجات حتى اذا حصل حمل لا ينسب له ؛ لأن بعض الغانيات تمارس البغاء وتسعى للحمل لإجبار العشيق بالزواج منها .. فاحترم مشاعري حتى كانت ليلة القط الأسود وتعرت عشيقته أمام المحتفلين ومارسا البغاء في قاعة .. نذير ضعيف أمام العشيقات فلما تعرت لم يكن إلا الاستسلام لها .. وأراد أن ينام في غرفتي فسقط مريضا بسبب أمراض الكبد

ومنع من الاتصال بأنثى إلى حد كبير .. وكرر العمل في اليخت فمات قبل الوصول لميونخ للعلاج .. وترك لي حرية اتخاذ العشاق ، ولكن خارج القصر .. وانا امرأة مثلك زوجة ولا زوجة .. فكنت اتخذ العشاق خلال رحلاتي وحتى هنا.

فقالت ديانا : لم افهم! قالت السيدة: سوف تعلمين فيما بعد!

****

قالت السكرتيرة وهي تدخل مكتبها ، وكانت تلوح برسالة : هذه يا مدام ديانا رسالة للسيدة

تطلعت إليها وقالت ديانا : رسالة !لا تخلص الرسائل .

قالت السكرتيرة : هذه رسالة من شخص غير مرغوب به اسمه بسيل

تنهدت ديانا وقالت : أوه ! هذا الدكتور الولهان الذي عانق حذاء السيدة طمعا بموعد غرامي لا يمل من مطاردة السيدة .

قالت السكرتيرة : ماذا افعل بها ؟

فقالت ديانا : انتظري

اتصلت ـ السيدة ترقد في الفراش لمرض ألم بها ليلة امس ـ قالت السيدة: نعم ديانا الحمد لله.. أنا بخير قال الطبيب ألم خفيف يسبب الإرهاق.. السهر يتعبني كنا نسهر للفجر .. رسالة !

فقالت ديانا : رسالة من السيد بسيل .

قالت السيدة بسخط : لعنه الله ألا يريد الاختفاء من حياتي هذا الفاجر ؟ .. ضعيها على مكتبي

فقالت ديانا : حاضر سيدتي

أغلقت التلفون وقالت: اللعين ماذا يريد ليكتب ؟ ذكرني بريما التي تزوجت رجلا كبيرا وجعلها تلبس الحجاب.. فريدة لم اعد اعرف أخبارها هل ما زالت في فرنسا أم ماتت ؟

شغلت التلفاز على فضائيات الألمانية ونظرت للموبايل الصامت فرأت اتصالات من البرت " فهذا الشاب يزعم حبي ويطاردني بحجة إقامة المصانع يريد المال ، أمي السبب أرسلت لي طفلا" وقضت وقتا مع التلفاز ، وعصرا نزلت للغداء ثم دخلت مكتبها ترافقها ديانا

فقالت ديانا : أما كان من الأفضل أن نصعد بالمراسلات والبريد إلى حجرتك سيدتي فالضعف ما زال بين عليك.

قالت السيدة: لا يجب أن نستسلم للضعف يا ديانا ! لقد ألغيت الرياضة هذا المساء .. هذه الدنيا .. ألدينا زوار الليلة ؟

فقالت ديانا : هناك سيدة كبيرة تريد اللقاء بك، ويصحبها ابنها الطيار عزت فهو في زيارة للمدينة .

قالت السيدة: لا بأس .. شاب ظريف ومعه زوجته.

فقالت ديانا : لم تذكر أمه ذلك

قالت السيدة: زيارة أم شيء آخر!

فقالت ديانا : لم تذكر شيئا آخر

قالت السيدة: متى؟

فقالت ديانا : العاشرة ليلا ، وهي زيارة قصيرة كما قالت السيدة

قالت السيدة: ربما رغب عزت بالسلام عليّ .. أين رسالة بسيل اللعين؟

بحثت عنها في المكتب فقالت ديانا : لا ادري أين وضعتها نورما فهي عادت للمجموعة لجلب تقارير اخبرها عنها الدكتور علي ، وعاودت البحث ، ثم اتصلت على الشركة وقالت بصوت مسموع : ليست على المكتب ،لا يمكن لاحد أن يدخل ؛ لعلك نسيت وضعها هنا حسنا المكتب مفتوح شكرا لك.

أغلقت التلفون فقالت ديانا : ربما تكون في مكتبها .

قالت السيدة: هذا بريد اليوم خطابات من البرت

فقالت ديانا : نعم

وضعتها أمام السيدة واستأذنت لإحضار رسالة بسيل ، قرأت رسائل البرت التي يطمع فيها بدعوة ومقابلة من اجل الشراكة في مصنع جديد، انتهت من القراءة ودخلت ديانا وناولتها

الرسالة فقالت ديانا : اسمحي لي بالمغادرة زوجي اتصل.

قالت السيدة: شكرا وسلمي عليه وادعو له بالشفاء، وكلمني جومار وسيعود قريبا فقد ماتت زوجته ولحقت بابنها بسبب الحريق، لقد عانت حتى لفظت أنفاسها رحمها الله .

فقالت ديانا : رحمها الله حدثني أنها في وضع صعب كان الحادث مدمرا للبيت

قالت السيدة: عندما يأتي ستعودين للانصراف المبكر كما كنت

فقالت ديانا : نحن صديقات فوق الوظيفة

قالت السيدة: إلى اللقاء

غادرت المكتب والقصر ، وأخذت سلوفانا الرسالة وأغلقت المكتب وصعدت لحجرتها وهي ما زالت تشعر بالإرهاق وقالت : ماذا يريد عزت مني ؟ مجرد سلام

تمددت على الفراش فتحت رسالة بسيل المعطرة وقالت :هذا طبيب مراهق ما الذي يعجبه فيّ.

قرأت بعد التحية والسلام

خفق قلبي لك حتى عدت صبيا عاشقا لأجمل نساء العالم .. صورتك لا تكاد تفارقني.. لم اهوى امرأة كما هويتك.. طلقت من تعرفين لعلك تنظرين إليّ نظرة رضا وإحسان.. إنني أريدك وحدك .. سعيت للهروب من دقات القلب الملهوف بمزيد من الشراب والفجور؛ لكن دون فائدة.. غرقت في القمار لأنساك .. كلما اسمع اسمك وسيرتك وارى رسمك يطيش القلب هياما وغراما

يا سيدتي ما دمت بغير زوج فاجعلي العبد الذليل عبدا لك وزوجا لك اشفقي على هذا الولهان ألا تعرفين الحب؟ أنا لا اجد فتاة في الدنيا لا تعرف الحب.. ألم تخلقن للحب والهوى؟ .. أتاني هواها قبل أن اعرف الهوى يا حبيبتي!

أنا اعلم أنك لم تحبي نذيرا يوما ما ؛ وإنما كنتم زوجين فقط مجرد صفقة.. أما أنا فلك محب أريدك حبيبة .. عاشق يراك كل حين ولو لم تتزوجيني .. وقد أكون الزوج الوفي أنا لك وحدك يا سيدتي الملكة! آه على الحب !

رفضت السيدة الرد على أي اتصال ببسيل وأي رد على رسالة ، وذات نهار كانت تغادر المجموعة من الباب الخلفي والسري ، وكان جودت في انتظارها ، وقبل أن تركب السيارة ظهر بسيل أمامها فقالت بغضب: ماذا تريد أيها المراهق ؟!

بتوسل رد : لقاء قصير مع السيدة في أي مكان .

قالت السيدة: لا وقت لديّ أنت وقتك للحب والغرام .

ـ حياتي في خطر

ضحكت وقالت السيدة: حياتك في خطر !وماذا افعل ليزول الخطر؟

قال: اشفقي عليّ أنا مصاب بسرطان

قالت السيدة: سرطان !

قال: نعم ، أنا أعاني منه من شهور وقد أعالج بالعلاج الكيميائي

قالت السيدة: ما دمت تعاني فلماذا تطاردني كالأطفال؟

قال: أحببتك صدقا .. وقعت في حبك.. اشفقي على رجل يموت

قالت السيدة: ولماذا اشفق ؟ لقد صدمني الخبر دون شك

قال: حبيني وتزوجيني

قالت السيدة: وأترمل بعد شهور.. هذا تفكير صبي.

قال: اسعد ما تبقى من العمر

قالت السيدة: واشقى لو تزوجت يا ملعون ! سأفقد كل الثروة .. هكذا وصية نذير، فالزواج من شروط تنفيذ الوصية ؛ لعلك تهدأ .. قد اسمح لك بالزيارة للقصر والسمر معي من باب الشفقة والعطف

قال: قد اشفى

قالت السيدة: السرطان سرطان ستصل لنهاية .. زواج ممنوع .. من يعالجك ؟

قال: الدكتور رياض أمسياني

قالت السيدة: طبيب أورام

قال: نعم، اذكر لك عنوانه والمستشفى لعلكي تطمئنين على صدقي

قالت السيدة: أتحتاج إلى مساعدة مالية؟

قال: لا

ودعته وركبت السيارة وقالت لجودت: لنذهب للمستشفى والدكتور الذي سماه.

قال السائق : حاضر

زارت المستشفى والتقت بطبيه رياض وحدثها عن مرضة بسرطان القالون ، فتبرعت بألف دولار على اسمه ، وعادت للقصر تفكر به وبعشقه لها ، همست : الكل يمرض أما زواج فلا .. حب أي حب هذا ؟! .. زواجي سيكون بعد ست سنين لما امتلك المال! لماذا وضعت هذه السنين الستة؟ لماذا أرملة لست سنين؟ يريدني أن أصير عشيقة للرجال واغرق في مستنقع الإباحية ؛ لكني صبرت قليلا.. والزوج العشيق ينتظر بفارغ الصبر .. هو الوحيد الذي احبه قلبي الحب الحقيقي .. ستكون صدمة لكل من عرف سلوفانا .. وهو والد ابني .. عمره الآن عشر سنوات .. كان راغبا بالمجيء معي ؛ ليعرف أباه ويراه ، حملت به خفية وولدته سرا عنه كان يجب أن أصير أما .. لا صلة لنذير به.. ابني وحدي .. الرجل لا يحب الذرية أنا احبها قريبا سأحمل بالثاني والثالث .. جاءت داليا تبحث عن حق موهوم ، اضطررت للهرب إلى سويسرا حتى ولدته وأخفيته .. هل علم نذير شيئا عنه ؟ هل كشف أمره؟ هل شعر بحملي ؟ كدت أفاتحه .. يتعاطى موانع الحمل كما تفعل النساء.. لكن الحبيب قال فحص الجينات والحمض النووي يفضح السر .. فلنصبر حتى يموت .. وها قد مات .. سعينا إلى موته فمات ساعدني الدكتور بالسم البطيء وزاد مرض الكبد حتى اضطر السفر لألمانيا ، ثم عاد معافى فعدنا لنفس اللعبة وعولج في برلين وعاد ، فكان لا يجب أن يصل لألمانيا حتى لا يكشف التسمم.. الدكتور هل يقبل بالمال ويقبل لي بالزواج من حبيبي والد مايكل ؟ صبرت صبرت يا جسم !

بينما سلوفانا في قلق ومطاردات زواج وحب رجع جومار وباشر العمل فور عودته واستمع لديانا قبل منحها إجازة ، واستمع لنورما وكان قبل سماع ديانا ونورما قد خلا بسلوفانا واطمأن عليها ، وعزاه الموظفون بوفاة زوجته وابنه الصغير من الحريق ، وبرر طول غيابه بمعرفته بسبب سفر سلوفانا للعلاج من الإدمان الكحولي ، وتحدث عن الحريق في شقته ، وكيف نجا منه ، وماتت زوجته وابنه الوحيد وكيف قفز من النافذة ونجا ؟ وتحدث عن زواج جديد ثم صرف النظر ؛ لأن فكر بالعودة للمدينة زريق ، وأقامت سلوفانا حفلة صغيرة بمناسبة عودته ونجاته من الحريق ، وابدى السيد امتنانه للسيدة حتى أن طبيبها امتعض من الحفاوة التي أظهرتها السيدة لمدير القصر ، ولما سمع بقصة المرأة الكوبية وبول .

قالت :لا ادري لماذا ظهرت سيد جومار؟!

فقال : أمر محير ! نذير هلك من سنوات .. ومن هو المحامي الذي شجعها للمطالبة بحقها ؟ وهل لم تصلها وثيقة طلاقها فعلا أم تظاهرت طمعا بالمال ؟

قالت : مكتب ميونخ اكد إرسال الوثيقة للبرازيل لوالد داليا .. فقد تحدث محامي السيدة مع المكتب واكد إرسال الرسالة وطلب فيها إخبار الزوجة بأي حقوق تطلبها فلم يأت رد ، ولم تأت مطالب ، واكد مكتب السجل المدني للزواج لا يمكن إنشاء عقد دون وقوع الطلاق.. فالطلاق صحيح ما دامت الزوجة لم ترد أو تحضر لتعترض .. فهذا يعني أنها موافقة على الطلاق ، وشركة والدها استلمت الرسالة .

فقال : هل فعلا لم تتطلع على الوثيقة؟

قالت : ربما لأنها كانت عند زواجنا مختفية في هافانا ، وهو لا يعلم بمكانها كما اعلمني .. كانت علاقته بوالدها شراكة قوية في بعض المشاريع فلم يهتم كثيرا بمكان اختفائها .. السجل الألماني ينتظر شهرا قبل إيقاع الزواج بيني وبين نذير .. وهذا ما حصل .. نحن تزوجنا منذ إعلان العقد

قال: مكتب عقد الزواج أكد الطلاق

قالت : نعم ، لماذا جازفت وتكلفت الأموال أو قامرت بمعنى اصح؟ هل هناك أموال لم تكتب لي يا جومار؟

قال: حسب المعلومات القانونية أن الرجل كتبها كلها باسمك سوى بعض الوصايا إلا أمواله في البرازيل ستكون لمؤسسات خيرية ورياضية هناك ، وترك أمواله هنا لأبويه وأسرته تقسم حسب الشريعة .. أموال ألمانيا كلها ستكون لك كما علمنا .. الأموال النقدية في البنوك تقسم بعد السنوات الست .. الأرباح بعد موته كلها لك للإنفاق .. لكن هذه الأملاك لا تكتب وتسجل باسمك إلا بعد ست سنوات ودون زواج رسمي .. واذا تزوجت قانونيا كلها تصبح لمؤسسات خيرية في ألمانيا والبرازيل وتشيلي وهنا ويتحول هذا القصر إلى مؤسسة خيرية

قالت :أنت لا تعرف لماذا جاءت ؟ لم يحدثك نذير عنها.

قال: رغم ثقته الكبيرة بي فلم يحدثني عن أشياء كثيرة ، لما أعلمتني ديانا بالأمر قلت لها احتيال فقط ؛ ولكنك أكدت لي أنك تعرفين أن له امرأة في البرازيل أبوها مهاجر للاستثمار وشريك له في أمريكا اللاتينية.. فلا معلومات عنها .. والمحير لماذا تأخرت في الظهور ؟! فوالدها يعلم بموته من أول أيام الموت حتى بول هذا لم اسمع بي سيدتي!

قالت :لم يكتب له شيئا ؛ لأنه متأكد أن لا ذرية له .

قال: كان يرفض الإنجاب قال لا اقبل أن يكون لي ولد غير شرعي ..هل سعى معك؟

قالت :لا ، قال يا سلوفانا أنا لا أثق بامرأة أن لا تسلم نفسها لغيري ؛ فاذا ولدت ستعملين لي جنونا ابني ليس ابني ، وحتى لا تخدعني إحداهن بأنها حملت مني فأنا استعمل المانع فلن تفكر واحدة بخداعي .. كانت لديه عقدة حتى أنه مرة قال : هل أنا ابن أبي بيولوجيا ؟ لست ادري قلت اعمل دي ان ايه فرفض ، وقال ليبقى امل صغير أنني ابنه ، وهؤلاء إخوتي .. أمي ليست ملاكا وأبي كذلك .

حان الآن أن نكشف لك أسرار سلوفانا بنت أوروبا وحضارة أوروبا المعاصرة حتى لا يقع في نفسك أنها لا تعرف العبث والجنس ، وهي ابنة الحرية الجنسية والإباحية العالمية وابنة المجتمع الغربي الذي لا يرى في العلاقات خارج بيت الزواج من الزنا ما دامت برضا الطرفين ولا عقوبة على ذلك ، ويمكن للأنثى عندهم ممارسة الزنا في بيت الزوجية وبحضور الزوج ، تزوجت السيدة نذيرا بشروط ومواصفات اتفقا عليها ، ولما سجلوا الزواج قانونيا سلمت جسدها له ، وبدأ بإنشاء القصر في المدينة ؛ ليستقر فيها ويتابع أعماله ومصانعه بنفسه ، ولما كمل البناء رحلوا إليه ، وامتلك منزلين لعلاقاته الجنسية خارج القصر ، وكان جومار يشرف على خدمته وإدارة القصر نظافة ورواتب والتوظيف والإشراف على الحفلات والسهرات والتموين والصيانة وكل المهمات الخاصة بالقصر ، وكبرت مجموعة نذير التجارية والمصانع التي أقامها واشرف على رعايتها ، وسمح لها باتخاذ العشاق منذ وصل البلاد ، لأنه ملّها بسرعة بشرط ألا تحمل من احدهم ، فسكتت فكانت تنام في جناح وهو في جناح ؛ وربما يتغشاها بين فترة وأخرى ، وكان يجب أن يعلم الرجال الذين تتصل بهم منها أو من الخدم ، كانت مغرمة بالخمر كثيرا والمخدرات بدرجة أقل ، وكان يوفرها لها من البرازيل ، يقول لنفسه مبررا " امرأة تشتهي الرجال كما هو يشتهينهن ، هو ملّها قبل الرحيل ، وهي كبنات أوروبا من بلوغها تمارس الجنس بشكل متقطع ، يتزوجن في سن متأخرة، ويلدن طفلا أو اثنين ، واذا عجزن عن الإنجاب تتبنى إحداهن لقيطا أو اكثر من ملاجئ الأيتام من البلد أو من بلدان أخرى؛ وتسمى العلاقان الجنس العابر ، لم تتخذ رجلا دائما.. ليلة ليلتان في سياحة لما استقرت في القصر اشتغلت الحفلات والاجتماعيات امرأة مليونير ، استغلت جومار الرجل الدائم في القصر ، وصديق نذير من قبل عمله في القصر ، نذير مع عشيقاته وهي معه ، والرجل أمام رغبتها استسلم لها ، واستطاع إخفاء العلاقة معها عن نذير ؛ لأنها سمحت للطبيب لوقان أن يقيم معها علاقة بين حين وحين قبل تعلقها به ، أحس بها نذير وسعى لإبعاده عنها، ليس غيرة ؛ بل بغضا ، فكان جومار رجل الظل ، والطبيب قلل من اللقاء بها

أحس أن كل خدم القصر وجومار عيونا عليه ،واستمر جومار العشيق الأول والمقدم .

وظهرت السيدة شريفة أمام نذير وشلته ، وأنها تكره المعاشرة والرجال ، وغير مستهترة ، ولم تقبل أي علاقة معهم رغم جدهم وسعيهم كما يفعل مع زوجاتهم ، وفجأة حملت من جومار برغبة منها حنت للأمومة ورفضت الإجهاض رغم توسلات جومار خشية أن يقتله نذير ، وفي الوقت نفسه لا تريد خسارة ثروة نذير ، ففكرت بكشف الحمل له ، فذكرها جومار أن الرجل لا ينجب ، فشجعها للسفر إلى ألمانيا ، وتضع مولوهما دون علم احد من الأهل والأصدقاء عليها إخفاء المولود في بيوت الأمهات اللواتي لا يعرفن آباء ابناهن لإقامتهن علاقات دون زواج قانوني .

كانت أمام عشيقها جومار ؛ كأنها قحبة متهورة في غرامه ، ومثلت دور الزوجة الوفية المخلصة التي لا تحب الجنس ، وكان هذا يرضي غرور نذير نفسيا ؛ ولكن عقله لا يصدق أنها بدون ذكر ، ولم يهتم بذلك كثيرا ، سفرياتها كثيرة ، سافرت ألمانيا بحجة السياحة والأهل والملابس والمكياج ، ووضعت الطفل في سويسرا وعند أسرة مقابل المال ، وباسمها هي سجل دون أب رسميا ، وعند الأسرة باسم المرأة الحاضنة ، ورجعت للبلد رشيقة بثياب أوروبية وموضة جديدة ، نذير ركز شكه بالطبيب منذ وطأت أقدامهم زريق ، كان شكه كبيرا في الطبيب طبيبها الخاص ، لم يتوقع أن تسلم نفسها لخادم أو رئيس خدم هندي وصديق له ، وهذا الميزات شجعتها على إغوائه والسيطرة عليه ، كان نذير يدرك أنها تزني ، لم ير سفرياتها بريئة ، وكان الطبيب تحت عيني نذير في كل سفر ، ودائما يثبت بعده ولا يسافر أثناء سفرها ، قبل أن يفتنه حسنها كان لها أصدقاء ، وكلهم حدثه قضاء بعض الوقت معها ، خاصة لما تثمل بالشراب تكون مستسلمة لهم ؛ لكتها حينئذ كانت تستيقظ في آخر لحظة وترفض سحب معجب لحجرتها .

لاحظ نذير زيادة مشاكله الصحية بعد زمن ، تتحسن ويعود الوجع والصداع والغثيان ؛ لكن لا علاقة لسلوفانا أو الطبيب بالمطبخ ، هما بعيدان عن الطهي والخدمة ، كيف يتعرض لمواد

سمية ؟ تعالج في ألمانيا ، وأخبروه أنه يدخل بدنه وكبده مواد سامة اكثر من الطبيعي ، مات ضيف لديهم في احدى السهرات ونسب موته للمخدرات ، كان نذير مدركا أن احدهم يسعى لتدميره ، ولم يعرف كيف يدس له السم ونوعه ؟

****

جاء الخبر للسيدة أن ابنها ابن السنوات العشر اختفى من الشقة ، كانت كل زيارة لألمانيا تزوره وتعيش معه يوما أو ساعات عند تلك الأسرة التي تكلفت رعايته على أنه ابن لها مقابل مبلغا من المال ترسله سلوفانا ، ولما دخل المدرسة الخاصة تملكت شقة في برن وتعاقدت مع خادمة ومربية له ، وزعمت لهن أن والده مجهول ، وهذا امر طبيعي في تلك البلاد، وحتى بعض بلاد العرب ، وكانت كما قلت استأجرت مربية وخادمة له في شقة في عمارة كبيرة، فقد ماتت حاضنته روبيكا وكانت دائمة الاتصال بالمربية والخادمة وبه، فهي أرملة في نظر الناس ، وخشيت من كشف أمره أن تحرم من أموال نذير ولم يبق على السنين الست إلا القليل ، ثم سجلته في مدرسة داخلية تحت إشراف محامي سويسري ، وبقيت الخادمة والمربية في الشقة التي اشترتها في سويسرا لقضاء العطل والمناسبات معه.

اتصلت الخادمة على الرقم الخاص وأخبرتها أن المدرسة أخبرتها باختفاء مايكل والبوليس المحلي والمحامي يتابع الحكاية ، وكانت السيدة قد أعلمته بأنها ولدته ، ولم تعرف أباه ؛ ولكنها تعرف أنه ابنها . فقالت لجومار : امر خطير حدث أين ذهب ؟ ومن خطفه ؟!

قال: عليك بالسفر ومعرفة التفاصيل .. فهو ابني كما هو ابنك ؛ ليس لي إلا هو بعد موت ابني في الحريق .

انتشر خبر في القصر أن السيدة ستسافر لإجراء فحصوات في مركز معالجة الإدمان ، وقام جودت والطبيب بإيصالها للمطار للسفر إلى ألمانيا ثم سويسرا.



ظهر أمامك الكثير من الحقائق الخطيرة ، ساهمت الزوجة في مضاعفة مرض زوجها لأسباب نفسية من كره وحسد ، وبوضعها ولدا من قيم القصر وأن العشيق الطبيب قلّت علاقتها المحرمة به بعد اتصالها بجومار ، ولم تقدم نفسها لأصدقاء نذير بتبادل الزوجات ، فبدت نظيفة ثقيلة ، ولم تهتم بمغامرات نذير النسائية وظهرت غير مبالية، ولتزيد الطمأنينة في قلبه استخدمت خادمة فرنسية لغرفة نومها ، وقابل نذير تظاهرها بالإخلاص والوفاء له بالقبول ، وأنه صدق أنها له وحده ، واحتار بمن ويسعى لقتله ، وكيف لم يشك في علاقاتها العابرة ؟ فهو لا يستطيع مراقبتها في كل حين ، أما العشيق فكان مرفوضا منه حقدا شخصيا ، وفي مالطة تم الخلاص منه على اثر اشتداد المرض ليلة عودته من اليخت ، وعادت وعشيقها المهجور بتابوت نذير ، وكان يأمل ويمني النفس أن يكون الزوج بعد السنوات الست ، ولم يعلم بفجورها بجومار والابن الذي ولدته منه ؛ لأنها سنة الحمل أكثرت من السفر كل شهر بحجج كثيرة .

سافرت إلى ألمانيا كما تفعل دائما ، ثم برن سويسرا ، وقابلت الخادمة والمربية وأتاها المحامي الخاص برانس جالوري الذي قال: اتصلت بي المدرسة وأخبرتني أن مايكل خرج مع الطلاب لحضور حفل موسيقي استمر مائة وخمسين دقيقة ، ولم صعدوا للحافلات المدرسية لم يظهر مع المجموعة، فظنوا أنه ذهب لدورة المياه ، وقال زميل له لمرافق التلاميذ رآه يتحدث مع رجل همسا فترك مقعده وتبعه ، وكان الرجل يرتدي ثياب خدم الصالة الموسيقية ،وسمعه الزميل الشاب يقول: أمي أين هي ؟ ففهمت أن أمه جاءت لتراه ، كيف خرج من المسرح بدون إخطار المرشد لا احد يعرف وحراس الأبواب ظنوه سائرا للمراحيض أو الكافتيريا ويفعل ذلك الكثير من الطلاب والطالبات ، لا يذكر احد كيف فارق الأبواب الخارجية للمسرح ؟ لم ينتبه له احد ، فالحفلة حضرتها أكثر من مدرسة ، لم تكن حفلة خاصة بمدرسة واحدة ، فالزوار كثر ولم يستغيث الشاب أو يصرخ ، خرج بإرادته ، حققت الشرطة بطريقة خروجه واتصلوا ببيتك وأنكرت المربية والخادمة عودته ، وأنه عادة يعود آخر الأسبوع اذا لم يرغب

بقضاء العطلة في المدرسة ، وتابع برانس جالوري: ولكن في تصور البوليس أنه خطف بزعم أن أمه جاءت لزيارته فصدق ، وتبع الموظف المتنكر بزي موظفي المسرح ، وخرج إلى الشارع إلى سيارة ظن أن فيها أمه أو سيأخذونه لأمه واختفى ، ولم يتصل احد يطلب الفدية ، فالأمر خطير لدى البوليس ، ويخشون على حياته، لماذا يخطف ؟ لماذا يختفي؟ ألديك تفسير ؟ طلبت الشرطة ممن كان قرب المسرح والقاعة تلك الساعة أن يتصل بها إذا لمح شيئا لفت نظره .. وهذا يحتاج لوقت ليتذكر الشاهد ما حدث.. لم يكن هناك صراخ شجار ليلفت الناس.

كانت تسمع وتبكي وتقول لنفسها : من فعلها؟ ولماذا يخطف ابنها ؟ الخطف يكون لطلب المال أو الابتزاز أو الانتقام من يريد أن ينتقم منها أو يبتزها ؟ لا احد يعلم أن لديها ولدا إلا جومار فهل يخطف ابنه ؟! هو لا يعرف مكانه.. وإنه هنا .. ولم يره حيا.. هو يعلم أنه في أوروبا .. أوروبا قارة.. الدكتور أعلمته بحبي لجومار قبل وقت قصير ؛ ليكف عن الطمع بالزواج مني كما كثر كلامه بعد عودتي .. وأعلمته أنه أبوه وحبيبي وعشيقي وتحمل الصدمة .. ولماذا يخطفه ؟! هل للخادمة أو المربية يد في الجريمة ؟ ولكنهما لا تعرفان أباه .. أشاعت أنه نتيجة وثمرة مغامرة خاطئة .. لا تعرف ابن من ممن نامت معهم ؟هل لداليا وبول يد ؟ وكيف عرفا السر الخفي ؟ يكاد رأسي أن ينفجر .. لماذا جاءت تطلب حقها ؟ أتريد حقها بالخطف والابتزاز ؟ من الخائن ؟ جومار كيف عرف مكانه ؟ هو الذي يعرف أنه ابن سلوفانا .. وفي الأوراق المزيفة أنه ابن أنجيلا كارلس امرأة ألمانية فجرت ولم تعرف أباه ، ولدته على جواز سفرها المزيف أو المبتاع لإخفاء شخصيتها الحقيقية في السفر والرحلات ، ولماذا الخطف لما اقترب زواجي من أبيه والعيش في الهند وفي بومباي ؟ شخص يرغبه برؤية أمه فيترك المسرح إنه ملهوف لرؤية أمه .. الحياة أجبرتني أن أكون بعيدا عنك يا مايكل .. تبع الرجل دون تردد كما قال زميله.

فكرت كثيرا في حياتها وأسرار حياتها ، وذكرت أيام العلاج في سويسرا ؛ حيث كانت تتحدث معه كثيرا ، وغادرت المركز عدة مرات للعشاء والغداء معه ، واحتفلت معه بالعلاج من

الكحول.. لقد غامرت كثيرا بالظهور معه في المطاعم والملاهي ..هل كان احد يراقبني وكشف سري؟ لماذا خطف إن لم يكن احدهم يريد مالا ؟ لماذا اختفت الخادمة الآن؟ خرجت ولم تعد لها أيام .. أين ذهبت اللعينة ؟ هل لها يد في خطفه ؟ لم تظهر جثته لو كان مقتولا المحامي برانس جالوري يتابع القضية ساعة بساعة ، قضت شهرا في أوروبا ثم عادت للقصر عادت بخيبة وحيرة للقصر ، واستقبلها أهل القصر بفرح ، وبدا ظاهرا عليها الحزن وظنوا أن العلاج لم يحقق الغاية ، واختلت بالعشيق الدائم ، ووالد الطفل ، وسألها عن التفاصيل فقصت ما عرفته من المحامي والخادمة قبل هربها أو اختفائها ، وظل صامتا وكانا يجلسان في مكتب سلوفانا . قالت : تكلم ما بك؟

قال: هل قتل؟!

قالت : لم تظهر جثة.

قال: ومن خطفه ؟

قالت : لا احد يدري ، لو كان نذير حيا ؛ لقلت أنه فعلها وينتقم مني ومنك .. السيد مات ودفن هنا جئنا بتابوته هنا .. أنا لم اكشف السر لأحد وأنت؟

قال: لم افعل .. حملنا التابوت ولم نر من فيه .

قالت صارخة : ويحك أهو حي ؟!

تنهد وقال: الآن أشك بموته !

قالت : وكيف عرف بأمرنا وبوجود طفل لنا ؟ لما مات كان ابن ست سنوات يا جومار ليعرف بولادته .

قال: نذير ذكي وماكر وخبيث يا سلوفانا!

قالت : اعرف ؛ ولكنه ميت أسلط علينا أحدا أو عصابة ؟ هل لداليا وبول دور؟

قال: ظهورهم مثير للدهشة تركناه في المستشفى في النزع الأخير

قالت : هل لشقيقه سمير عيون علينا ؟ مأساة! هل تراه كان يعلم ما بيني وبينك؟

قال: كنت في حيرة !.. هل خفي عليه حملك ؛ كما خفي على الدكتور واهل القصر أم غفلنا عن العيون ؟

قالت : هل نترك ونخسر المعركة ؟

قال: معركة ! لماذا خطف؟ الخادمة يبدو أنها تلعب دورا .. أنا لا استطيع التحرك الآن.. أنا مجرد عشيق لسيدة القصر .. ولا احد يعرف بحبنا السري .. عليك الحياة في سويسرا لكشف اللغز .. إذا كنا نريد حياته لابد من البحث .

قالت : أنا مصدومة اكثر منك .. الأمر شديد الغموض ، قال زميل له إن احدهم همس له بكلام فهتف أمي وترك السماع وخرج لم ينتبه لخروجه احد ولم يصرخ ليلفت الأنظار كانت خطة مرسومة بعلم ومعرفة وقصد والمكان مزدحم بالتلاميذ

قال: القرائن تدل على ذلك

قالت : كيف عرف الخاطف أنه ابن سلوفانا ويعيش في تلك المدينة ؟!

قال: فعل ذلك ناس يعرفون كل السر.. كلفني مكتب تحري.

قالت : سيكشف سرنا وينشر في الصحف ، فكر المحامي بذلك فرفضت الاقتراح.. لما خرج مايكل نحو السيارة كما يقول البوليس مشى وحده ؛ لأنه لم يشاهد يمشي برفقة احد كان وحيدا ولم يتقدم احد للشهادة برؤيته مع رجل أو امرأة.. لم تكن الصورة تبين أن هناك خطفا الصحف نشرت الخطف وخاطبت القراء بالتقدم للشهادة .. والإذاعة والتلفاز الرسمي نشرت صوره .. جريمة محكمة ومدبرة.

قال: هذا واضح بين .. نذير هل نذير حي ؟! لا مصلحة لاحد في الانتقام إلا هو.. يكاد رأسي ينفجر .. لو عرف بحبنا وأني ختنته لما يموت كل هذه السنوات ؟ داليا خانته وهربت بابنها خشية منه على حياتها وحياة بول ..لم ينتقم منها يا سلوفانا!

تنهدت بألم وقالت : أنا لما حملت منك اشتقت لطفل من جسمي ودمي ..أحببتك بحق يا جومار ، لو كانت قضية متعة كان الطبيب كما تعلم قبلك ، وعلم مؤخرا بعلاقة بيني وبينك

بسبب وجودك الدائم في القصر .. وكثرة غياب السيد مع مومساته.. أردت الولد وأنت وافقت، نذير يرفض بشدة الذرية .. رتبنا الأمر جيدا وولدت دون علم احد .. وعاش لهذا اليوم يعلم أنني أمه ولا يدري من أبوه ؟ وأنت نعم الحبيب مع أن الطبيب كان يتوقع أن أتزوجه فقد ساعد في القضاء على نذير بطبه ، قال لا يجب أن يصل الرجل حيا لألمانيا ، ونذير ساعدنا بالقضاء عليه ، شارك رفاقا برحلة يخت ومرض خلالها ونقل للمستشفى ومات وأعطانا المستشفى تقرير الوفاة وشهادة الوفاة .. هل كشف الأمر لاحد لينتقموا منا ؟كان الوصية غريبة يا سيدي!

قال: فعلا دهشت منها !

قالت : قال لي مرات المرأة الأمينة العفيفة في مجتمعنا نحن لا توجد ، اعجب من عدم استسلامك لكل هؤلاء الأصدقاء وتعشقين ذاك الطبيب ، بررت وقلت هو طبيب من الجالية سأبقى شريفة حتى تموت ، فقال : ما زلت شابا وأعاشر عشرات النساء ،كان مفتونا بالنساء

قال: مرة قال لي لم تحضر زوجتك كسائر الخدم يا جومار كيف تصبر عنهن؟

قالت : ماذا قلت ؟!

قال: تظاهرت بالصبر وأقضي رغبتي بالإجازة.

قالت : أتراه صدقك؟! اعتقد أنه ظن أنك تقضي شهوتك مع زوجات الخدم .. لم يهتم بمشاعري هو جاء من البرازيل لمساعدة أبي والأسرة فاشتهاني وفشل بتحقيق مآربه إلا بالزواج وملّني بسرعة قبل الرحيل لبلده هذا .. وهذا متوقع .. كنت كأي فتاة أوروبية اذهب هنا وهناك وهو يسمح لي بذلك لتحقيق شهوتي كما يقول ، وسعى لتقديم رفاقه لي كما فعل بنسائهم إلا امرأة بسيل.. قبلت صداقة الطبيب كعشيق .. وكنت أخشاك لقربك منه حتى استسلمت لرغبتي فحملت منك ؛ لتبقى عشيقي وأحقق الأمومة وتلبي لي رغبتي في كل وقت احب فيه ممارسة الحب ؛ كما نسميه في أوروبا .. وكنت نعم الصديق ؛ ولكنك كنت تخشاه بشدة ، فكرت بالطلاق والهرب معك لبومباي ؛ كما فعلت زوجته البرازيلية لكنك

تخشى قتلك .. فالرجل لا يقبل الهزيمة ومع الحمل أصبحت اشجع قليلا ، وتنام معي بدون توتر وخوف.

قال: الخيانة الموت! كنت في أول الأمر خائفا وخشيت أن تكشفيني للسيد كما فعلت بالطبيب واطرد ومع الوقت ادركت تعلقك بي تعلقا حقيقيا ولست مجرد زبون عابر وتخلصت من التركي .. وأنا فعلا احب وأتمنى أن اقضي ما بقي لي من العمر بين يديك وفي قلبك.

قالت : وأنا كذلك يا جومار وأنا سعيدة بحبك لي وهواك لي وسينتصر حبنا حتى ولو كان نذير حيا .. وكما قلت بدأت معك لقضاء الرغبة والوحدة ، ولما رغبت بالأمومة تعمق حبي لك ولتكن أب ابني.



رتبت السيدة العودة لسويسرا واعتذرت لعلي بعجزها عن البقاء وقالت : عندما يسمح لي بالتصرف بأموال زوجي سأترك حصتي واسهمي لكم تستثمرونها ، وأعود لألمانيا فيبدو وضعي متعبا وأموري صعبة ، وهذه الحفلات أتعبتني نفسيا وبدنيا ، والذي يربطني بكم قد مات ، وسننهي خدم وموظفي القصر ، وأجل الحديث في ذلك لما تنفذ الوصية .

وانتشرت الشائعات حول صحة وحياة سلوفانا حتى أن ديانا سألت جومار فقال مجيبا: قد تنهي أعمالها الاستشارية هنا ، وتعود لوطنها فصحتها لم تعد كالأول ؛ ربما تمكث أسابيع قبل العودة للقصر والذي يؤخر إغلاق القصر وصية زوجها الغريبة .. الخمر والمخدرات انهكت أجهزتها يا ديانا ؛ لنستمر في عملنا حتى يقضي الله أمرا.. الذي يفرط في حفظ بدنه سيدفع الثمن كلما كبر سنه.

قالت : الأمر كهذا فحسب...

قال: نعم؛ أدعو لها بالعافية والتخلص من السموم.

قالت بحزن : تعلقت بها أثناء الجامعة ، ووفقني الله وابتعدت عنها سريعا ، اكتفيت بالدخان

وقليل من الخمر

قال: كلنا في فترة الشباب عشقنا الحشيش وغيره ، الأخطر الهيروين والمورفين والكوكائين

قالت : هل يطلب مني العمل في الليل ؟

قال: لا ، ما دمت موجودا فعملك كالمعتاد إلا اذا امرتني السيدة بالسفر لمساعدتها هناك

قالت : كان عندنا حفلة موسيقية !

قال: عملت على إلغائها قبل سفرها.

تركته لمكتبها وجاءت السكرتيرة نورما فقال: أُفضل أن تعودي للعمل في الشركة ، قد تطول غيبة السيدة اذا تقرر معاودة العلاج .

قالت : كانت ظاهرة الإرهاق والقلق والبكاء الأيام الأخيرة!

قال: العلاج مزعج عندما تعود تعودين ؛لأني أنا لا علاقة لي بالمجموعة ؛ وربما الحق بها

قالت نورما : تحدثت مع الدكتور علي حول ذلك فترك لي الحرية في البقاء هنا.

قال: نحن لسنا بحاجة لك .. من سيطلع على التقارير ويناقشك .. السيدة مالكة الشركات خارج البلاد .. فاحفظي موقعك هناك .. السيدة بعد السنوات الست ستصفي أعمالها وتغادر نهائيا لوطنها.. فتفقدين عملك في الشركة .. وبعد شهور سنبدأ بصرف الخدم ويقدم القصر لمؤسسات خيرية كما يريد السيد نذير .. وأنا شخصيا لا يضيرني نورما بقاؤك هنا .. أنا لولا طول فترة العلاج لرافقتها ، فهي وحدها لا يهتم احد من أهلها بها ، فهي بحاجة لنا.

وصلت السيدة لشقتها الخاصة في برن ووجدت المربية والخادمة في انتظارها ،واتصلت برانس جالوري المحامي ، فلما حضر قال : أنا أتابع تحريات البوليس أولا بأول ، وسُقت المربية ومرات الخادمة لمشاهدة عشرات الجثث لم تكن جثته بينهن .

قالت بأمل : مايكل حي !

قال: لحد الآن.

قالت : أنا أمه مستغربة لحادثة خطفه ولماذا ؟!

قال برانس جالوري: لما مكثت فترة العلاج هنا ألا تذكرين حادثة خاصة شخصا في المصحة ؟

قالت بتفكر : لا اذكر حادثا معينا ، لما كان يتاح لي الخروج أجيء لهنا.. نذهب للسينما للمطاعم النزهات الحدائق .. وأنا لا افتح صدري لاحد ، لم استشعر الخطر ، لا احد يعرف أني مليونيرة إلا الأقارب والأصدقاء.. أنا مجرد مواطنة ألمانية وأوروبية ، ولا أتكلم عن الشركات التي أديرها بعد موت زوجي الذي ليس هو والد الطفل .. الرجل الذي تزوجني لا يريد الذرية فاضطررت لأنجبه من ذكر آخر بدون علمه .

قال: أيعرف والده الحقيقي أن له ابن منك؟

قالت : يعرف ؛ لأنه يعمل معي ، وما زلنا نحب بعضنا ، ولم نتزوج زواجا رسميا وقد نتزوج بعد حين ، ونعلن عن مايكل ؛ ولكنه خطف .. من فعلها وله مصلحة في خطفه؟ الزوج قبل موته لا يعرف بعلاقتي بوالده .

وقصت قصة زواجها على المحامي ، وسبب اتخاذها عشيقا وحملها منه ، فلا يمكن لوالده خطفه ولماذا ؟ وهو لا يعرفه شخصيا ولم يرى ولده بعينيه ، فهو خائف من زوجي أن يقتله اذا عرف ، ولو تزوجنا بعد موته لفقدنا الثروة التي ملكني إياها وقصت قصة الوصية.

قال برانس : أتحبين مقابلة وزير الداخلية لمزيد من الضغط على البوليس؟

****

انتهى الرفاق من طاولة القمار ، وانتقلوا إلى غرفة الخمر في النادي ، تركوا الغرفة السرية إلى الغرفة العلنية ؛ لأن الخمر مباح علنا والقمار ممنوع علنا ، قدمت لهم المشروبات وتوابعها وكانت في صالة النادي فرقة تغني ويرقص الزبائن على انغامها ويتمايل السكارى مع الوصلة الأخيرة بعد نصف الليل.

قال بسيل: هل من أخبار جديدة نتسلى فيها؟

قال ماهر :سمعت عن آسرة قلبك ومن طبيبها التركي أنها عادت للعلاج من الإدمان.

قال منذر: لم تكن تشرب أمامنا الكثير أيام السيد.

قال عريف : أنت غلطان ! كانت تشرب اكثر منا ، وكانت الخادمة تسوقها وتصعد بها لغرفة نومها من شدة السكر ، وفعلت ذلك أمامي اكثر من مرة.

قال بسيل: كلام عريف الصواب ، كانت شرهة في الخمر من قبل زواجها بنذير ، ويجلب لها نذير الماريجوانا في رحلاته للبرازيل ، أما في المتعة فكانت مقلة ، كانت خمورها تأتيها من بلدها وفرنسا وأوروبا عامة ، لم اسمع أن أحدا عاشرها سوى ما أشيع عن الدكتور لوقان ؛ ولكنه لا ينام في القصر ؛ ربما في أوقات متفاوتة ؛ ولذلك كان نذير يبغضه ويتنازع معه

قال ماهر: فشلنا كلنا في اللقاء بها على سرير الهوى ، كانت تخاف نذير وغيرته رغم سماحه له بالخلوة بنا ، كانت تخشاه ، ولا اعتقد أن حياتها تخلو من العشاق خاصة لما تذهب لأوروبا

قال بسيل: في الغالب تذهب برفقة نذير .. نذير شك شكا كبيرا بطبيبها الخاص ، ولم يستطع إثبات ذلك

قال منذر : نذير حدثك بذلك.

قال: نعم ؛ لأنه كان يعجب أن تعيش امرأة في بيته، ولا تتخذ احدهم عشيقا لترفه عن نفسها ولو ساعات .

قال عريف: صحيح! مجتمع إباحي.. كيف ستعيش فيه بدون اتصال بأحدهم؟ قد يكون احد الخدم نال هذه الحظوة احد الحرس؛ ربما السحاق مع الخادمة الفرنسية جوليا.

قال بسيل: يغفل السيد عنهم ويعجز أن يجند احدهم لرصد الرجال والنساء في القصر وجومار عين نذير عليها .. ومن كشف له أمر الطبيب؟ الواقع يقول لابد من احدهم ، فلقاء سريع خاطف قد حصل مرات، أما استمتاع فيحتاج لوقت ، كلنا يذكر لما اقتحمت فريدة القصر لمعاشرة نذير ، وتركها ونام مع زوجته ، فاستعانت بخادم واضطر جومار لطرده ، وكان منذر في القصر

قال منذر : وكيف انسى ما رأيته ؟! إنها تمارس الدعارة في باريس .

قال ماهر : ما زالت حية هناك!

قال منذر : نعم، ما زالت بين قرى الشواذ وملاهي وحانات باريس .

قال ماهر : قرى شائعة في أوروبا وكندا ، وكذا زواج المثليين والمومسات فاغلب مدن اوروبا توجد فيها مثل هذه التجمعات والأحياء للمثليين(١)

قال بسيل: لا ادري لماذا غادرت لسويسرا هذه المرة؟ هل هي حقا مريضة؟!

قال ماهر : كانت في سويسرا المرة الماضية ، تذهب لميونخ لزيارة والديها ثم تتوجه إلى برن سويسرا .. وضح الدكتور ذلك لي ما أخبار قولونك؟

---

(١) قرية المثليين وتعرف أيضا بأسماء مثل: حي المثليين، أو مكان المثليين هي حي يعيش أو يتردد عليه عدد كبير من المثليات، المثليين، مزدوجي الميول الجنسي والعابرين جنسيا. تضم قرى المثليين عددا من المنشآت الموّجهة للمثليين، مثل حانات المثليين، النوادي الليلية، الحمامات، المطاعم، المحلات وبيع المكتبات من بين قرى المثليين الأكثر شهرة سوهو في لندن، برمنغهام في إنجلترا، الكنيسة وويلسلي في تورونتو، تشيلسي بمانهاتن في نيويورك ومنطقة كاسترو بسان فرانسيسكو تشويكا بمدريد، شونبيرج ببرلين، شارع القناة بمانشستر ولوماريه بباريس . في أمريكا الشمالية أيضا مثل مقاطعة لوس انجليس في غرب هوليوود، دوبونت سيركل بواشنطن ووسط مدينة أتلانتا. أعلى نسب السكان المثليين في مدن البرازيل جزء من شاطئ إيبانيما في ريو دي جانيرو قدرت دراسة أجرتها جامعة ساو باولو في ١٠ عواصم من الولايات البرازيلية، أن نسبة ٧.٨٪ من سكان البرازيل الذكور هم مثليون و٢.٦٪ هم من مزدوجي الميول الجنسي أي ما مجموعه ١٠.٤٪ ، في حين قدر أن نسبة ٤.٩٪ من السكان الإناث مثليات و١.٤٪ هم من مزدوجي الميول الجنسي أي ما مجموعه ٦.٣٪ في مدينة ريو دي جانيرو قدر ١٩.٣٪ من السكان الذكور أنهم مثليون أو مزدوجي الميول الجنسي.من بين السكان الإناث ، في مدينة ماناوس، قدرت نسبة ١٠.٢٪ أنهم مثليات أو مزدوجي الميول الجنسي ، المدينة الأمريكية التي تضم أكبر عدد من المثليين هي نيويورك حيث يقدر عدد السكان المثليين في المدينة بأكثر من ٢٧٢,٤٩٣ نسمة تحتل لوس أنجلوس المرتبة الثانية حيث يبلغ عدد سكانها المثليين ما يقارب ١٥٤,٢٧٠، تليها شيكاغو مع ١١٤,٤٤٩نسمة، وسان فرانسيسكو مع ٩٤,٢٣٤ نسمة. السياحة المثلية أو سياحة المثليين هو شكل من أشكال السياحة التي يتم تسويقها للأشخاص المثليين والمثليات ومزدوجي التوجه الجنسي والمتحولين .

قال: خضعت لجلسات علاجية .

قال ماهر : لم أكن اعلم أن هذا السرطان بهذه الخطورة !

قال عريف: كل أمراض السرطان خطيرة ! ليس هناك علاج كامل رغم كل التكنولوجيا السرطان يبقى القاتل الأول في العالم .. سلامتك بسيل .. هل للخمر علاقة به؟

قال بسيل: لا اعتقد، الدخان وتوابعه يقال له علاقة به ،والصحيح أنواع الطعام والنظام الغذائي لها دور ، فالكحول مصنوع مركب ليس موجود في الطبيعة ، فهي تصنع وتستخدم في الصناعة والمنظفات والمعقمات وهو أنواع ، وهناك كحول يستخرج من النفط كما اسمع فهذه الأورام خلل في عمل الخلية والجينات .. خلايا مريضة تنتشر .. مرض معقد ومفاجئ واعتقد أن له علاقة بالنظام الغذائي

قال عريف: لم تتحسن من جرعات الكيماوي

قال: لا يتحسن الواحد من جرعة واحدة هذه الأمور أمرها إلى الله

قال ماهر : معافى سيد بسيل.

قال: أتمنى لكم السلامة والعافية ..كل شيء يتعطل بالكيماوي.



جومار متهم

كانت الاتصالات بين جومار وسلوفانا مستمرة يسألها عن التطورات والأنباء ، وبينما هو ذات ليلة بمكتبه اتصل به الحرس مخبرا أن رجال البوليس يرغبون باللقاء معه أغلق مع سلوفانا ، وتأكد مما سمع وأمر بإدخالهم ، دخل الثلاثة سيرا على الأقدام ، وظل السائق عند الحرس بسيارته ، استقبلهم جومار بحذر وقلق ، ورحب بهم وتفاجأ بوجود ضابطين هنديين معه الضابط العربي ، فقال الضابط العربي : هؤلاء يرغبون بالحديث معك عن حادث حرق بيتك في بومباي .

عرف الضابطان الهنديان بنفسيهما ، وبينا سبب حضورهما ، وأنه مطلوب للمثول بين يدي البوليس في قضية احتراق بيته وموت زوجته أليش وابنه الصغير جان ؛ لأن تحقيقات الإطفاء والشرطة تبين أن الحدث بفعل متعمد ، ولم يكن حادثا عابرا كما بدأ أولا ، وأنه المشتبه به في هذا الحادث .

بعد صمت ونظر قال : المطلوب مني السفر للهند .. أنا مستعد للسفر أيها السادة ! كيف؟

ـ رتب أمورك بأسرع وقت لترافقنا ، وأنت الآن ممنوع من السفر إلا معنا لتقف أمام العدالة وتدافع عن نفسك فأهل زوجتك يتهمونك بالغدر بها وابنها .

قال: غدا مساء أكون جاهزا للمثول بين أيديكم ومقابلة الحكومة .. دعوني ارتب أمري واتصل بمحامي هناك سيكون معي في المطار .. هذا اتهام خطير! أنا اقتل زوجتي وابني

قال: هذا يقرره الاستجواب والأدلة والمحكمة.

وضعت حراسة على بوابة القصر من البوليس المحلي ، اتصل بسلوفانا وروى أمر الترحيل لبومباي.

قالت : اذهب ، وكل أموالي تحت أمرك ، سأضع مبلغا في حسابك أنت والد ابني.

شكرها ورتب أموره ، واستعد للسفر لمواجهة التحقيق ، وفي المساء التالي غادر القصر بمرافقة البوليس ، ولما استقر في مطار مومباي، كان محاميه في استقباله بالمطار ، ورافقه لمكتب البوليس

وأوقف في سجن الشرطة ريثما يعرض على قاضي التحقيق وكيل النائب العام ، ورفضوا الكفالة العدلية حتى يقف بين يدي المحقق العدلي، شجع المحامي العميل على الثبات على ما قاله يوم الحادث .

ولما مثل أمام المحقق قال: أنا اطلعت على محضر التحقيق وتبين للمعمل الجنائي للشرطة وللإطفاء أن الحادث مدبر ومفتعل ، وأن احدهم اشعل النار في غرفة النوم ، وذكرت أنك كنت نائما مع امرأتك واستيقظت وقد ملأ الدخان والنار الغرفة فصرخت ، فلم تستيقظ زوجتك وتذكرت أنها تنام على المنوم ، فخرجت من الباب وأيقظت ابنك وفتحت نافذة وتسلقت على مواسير المياه طمعا بالوصول للسطح وجان كومير يتبعك وهو يصيح أمي يا أبي ولم تفعل شيئا لإنقاذ المرأة بسبب الاختناق من الدخان والذعر وأثناء الصعود سقط ابنك ومات والمرأة نقلت للمستشفى شبه ميته، ثم ماتت هذه إفادتك.

قال: نعم ، هذا ما ذكرته للبوليس

قال المحقق: لم تعرف كيف اشتعلت النار بالغرفة المغلقة؟

قال: لم تكن مغلقة بالمفتاح يا سيدي !

قال المحقق: ومن سكب البنزين؟

قال المحقق: كنت نائما

قال المحقق: التشريح للجثة كما قلت بين أنها كانت تناولت منوما هل هذا معتاد منها؟

قال: اعتقد أنه تستخدمه من زمن . وذكر له صفة عمله وهجرته وقلة عودته إلا في الإجازات والطوارئ

قال المحقق: والابن.

قال: أنا أيقظته وبدأت التسلق خشية امتداد النار وتبعني وفقد توازنه وسقط ومات واتصلت بالإطفاء والإسعاف وكان احد الجيران سبقني بطلب الإطفائية .

قال المحقق: لم تحاول إسقاطه.

قال: ولماذا أسقطه وأقتل أمه؟ ماذا استفيد؟

قال المحقق: أنت عليك الإجابة.

قال: هل يعقل أن احرق زوجتي واقتل ابني ؟!

قال المحقق: النار اشتعلت عمدا ، ولم يؤكد احد أن زوجتك تتعاطى المخدر أو المنوم ولماذا هربت عن الطريق النافذة ولم تخرج من باب الشقة؟

قال: أنا ظننت أن النار تغمر البيت والنافذة قريبة وفتحت الشباك وقفزت وصعدت مستعينا بمواسير المياه .

قال: المحامي : هناك عدو فعل ذلك .

قال المحقق: من هو هذا العدو ما دام يعمل في تلك المدينة ؟ لم يظهر أي عدو .. لم ينشب الحريق في المطبخ ثم انتقل لغرفة النوم ، حدث الحريق في غرفة النوم ، من هو العدو ؟ ولماذا لم تخرج من الباب؟

قال: يا سيدي الدخان ملأ الشقة ، وما فكرت بأن الدخان في الغرفة فقط فالنافذة أنقذتني

قال المحقق: عادة الخائف يبحث عن الباب .

قال المحامي: هذا ما يؤكد براءته، لو كان هو فاعل الحريق لهرب من الباب ولم يسرع إلى النافذة لهرب من الباب وأيقظ الجيران .

****

كانت السيدة على اتصال مستمر بجومار ثم مع محاميه ، وعلمت تفاصيل المأزق الكبير الذي يعيشه باتهامه بقتل امرأته وابنه الشاب الصغير ، وهو قابع في سجن الشرطة ، والشرطة لم تستطع إثبات التهمة ، لم يشهد احد بأنه ابتاع البنزين ، ولم يشاهده أحد يدخله للبناية ؛ لكن الحادث متعمد بين واضح ، هل سكت عن المعتدي وهدده الفاعل ؟ ولماذا تتعاطى زوجته المنومات؟ فقالت أمها: إنها تستعين بها على النوم ، بشكل متقطع ، فهي تتعاطى الكحول منذ تزوجت جومار وتدخن مثله ، ولم تكن الزوجة الأولى ؛ إنما هي الثالثة تزوج الأولى أيام

الجامعة أنجبت طفلا مرضت على اثر الولادة وماتت ، وأمها أخذت الطفل وربته ، وهو اليوم يعمل بعد تخرجه من الجامعة ، وتزوج الثانية ثم انفصلا سريعا ، فقد كان لها عشيق ، ثم تزوج الثالثة التي ماتت حرقا ، وها هو متهم بقتلها وقتل ابنها ، وفي عهدها رحل للعمل مع نذير مديرا ورئيس خدم للقصر ، وعرض الطلاق عليها ، وقد رفض سفرها معه لصغر ابنه ورضيت أن تعيش على زيارات متقطعة .

والسيدة كانت في حالة صعبة ويائسة من عودة ابنها المخطوف ، وقد أكدت شرطة سويسرا عدم خروجه من البلاد بطريقة مشروعة ، فلا قيد له برا وبحرا وجوا إلا اذا خرج تهريبا وها هم على تعاون مع البوليس الفرنسي والألماني والإيطالي والنمساوي الدول المحيطة بسويسرا فالحدود مفتوحة مع هذه الدول ، ويمكن اختراقها والدخول إليها بسهولة ، فتشتت ذهنها بين مايكل الابن وجومار والأب .

فاجأها المحامي برانس بتلقي إشارة بوليسية ، تلقى البوليس إشارة من شرطة فرنسا بوجود الطفل في احد فنادق باريس ، لقد تحدثت خادمة غرف فندقية أنها رأت صورة للطفل في صحيفة وأنها ربطت بينها وبين الطفل في الفندق ، ونفى مدير الفندق وجود الطفل المفقود في فندقه ، ودخلوا الغرفة التي شوهد فيها الطفل ، وتبين أن الغرفة نزلت فيها امرأة ومعها ابنها قضت ليلتين ، وغادرت الفندق فهل لخادمة سلوفانا السويسرية دورا ؟ فهي غابت عن الشقة مدة أسبوع بعد مجيء سلوفانا لبرن تتابع الاختفاء وزعمت أنها ذهبت مع أصدقاء في رحلة خاصة ، ولم تكن رحلتها لفرنسا .

وعرض المحامي عليها السفر ومقابلة خادمة الفندق ومدير الفندق، فقبلت وسافرت معه لباريس ، ولما تمكنا من مقابلة الخادمة التي فصلت من العمل ، فقد اتصلت بالشرطة دون إخبار الإدارة طمعا بالجائزة التي أعلنت عنها سلوفانا بالتنسيق مع البوليس ، ولما رأت الصورة من المحامي أكدت أنها نفس صورة الصحيفة ونفس الصبي الذي كان في الفندق واكد مدير الفندق أن المرأة والطفل من كولومبيا القارة الجنوبية ولم يبدُ على الطفل الخطف

والطفل ابنها حسب الوثائق المقدمة للفندق ، اطلعها على صورتها في جواز السفر وصورة جواز الطفل ، وبعض اشرطه الفيديو لكاميرات المراقبة للممرات والصالات ، فأكدت سلوفانا أن الصور لابنها ، وأكدت شرطة باريس أن المرأة دخلت البلاد من نيويورك دون الطفل مايكل ، كان معها طفل تختلف صورته عن صورة طفلها، وقضت أسبوعين في باريس في ثلاثة فنادق ، ثم غادرت إلى النمسا ، وقد تكون هناك ، وقد تكون عادت لبلادها فلها اكثر من شهر مغادرة الفندق ، وسبب تأخير الخادمة بالبلاغ تأخرها برؤية صورة الطفل في الصحف الفرنسية فلما رأت الصورة والخطف تذكرت الطفل والطمع بالجائزة.

كان الجواب والتفسيرات مقنعا لها وللمحامي، فسافرا إلى شرطة فينا . وكان مدير البوليس في فينا على علم بقصة الطفل المخطوف ، بين لهم صحة دخول المرأة الكولومبية فينا والطفل ولم يقضيا ليلة في العاصمة ؛ بل سافرا إلى اليونان ، وسافرا اليونان ، واكد بوليس أثينا عبورها المدينة ، ثم غادرا برا إلى إسطنبول والشرق الأوسط في تركيا ، لم يثبت دخولهما الأراضي التركية بهذه الأسماء ، وعادا لسويسرا وهم يكاد يؤكدون أن الطفل ابن سلوفانا ، وهذا التنقل غريبا لهما .. هل تسير سيرا صحيحا أم وراء سراب ووهم ؟

علمت بأن جومار سيفرج عنه لعدم كفاية الأدلة ، ولم يستطيعوا إثبات شراء جومار للبنزين والمنوم ، وجومار لم يكن يملك سيارة أثناء وجوده في الهند ولو مستأجرة ؛ ليقال إنه ملأها من بنزين السيارة .



بعد شهور ثلاثة عادت سلوفانا للقصر ، وهي في غاية الحزن والذبول والهموم ، ولم تفصح بشيء لاحد حتى لطبيبها، ولم تباشر العمل بالشركات وطلبت من علي وبكر الاستمرار بالتوقيع عنها حسب الوكالة القانونية . جاءت رسالة من بسيل يخبرها أنه في المستشفى على وشك الموت ، ويتمنى رؤيتها وفعلت وقابلته وكرر له هواه لها . وقالت: ألم يفعل لك الطب شيئا؟

قال : فعلوا ما يستطيعون ولم ينجح الكيماوي ولا القص والمرض ينشط ، تمنيت الزواج منك وأتمنى السعادة لك.

فهمست : ذهبت السعادة

قال : لم افهم

قالت : لست سعيدة

قال : لديك المال وحولك الرجال.

قالت : الأمومة ، كنت احلم أن أكون أما مثل نساء العالمين.

قال : فعلا الأمومة الغريزة ! نحن لم نحب الأمومة لانفتاحنا على جنسكم .. كان على نذير أن يحقق لك ذلك

قالت : كان عقيما ويتعاطى الموانع.

قال : كنا نفعل العقم الصناعي، لم نحب الأبوة .

قالت : لك ولدان من ريما.

قال : صحيح ! كان هذا مطلع الزواج قبل الفسق ، نعم ينقصك الأمومة.. هل العلاج يحقق لك الأمومة أم يمنعك منها ؟

قالت : أنت تحدثت عن السعادة فلست سعيدة.. المرأة بدون ولد لا تكون سعيدة

قال : الغريزة كما يقولون.. تزوجي من يحقق لك ذلك

قالت : كيف كان يراني نذير بينكم؟!

قال : ملاك .. كان الرجل مغرما بك ويحب لك السعادة.

قالت بحسرة : لوكان محقا في حبه لرغب بالذرية.

قال : هذا النقطة كانت غامضة ، لم تكن أمه طاهرة كان يراها مومسا .. فالشرف والكرامة لا قيمة لها في حياتهم، فكان يعتقد أنه ابن غير شرعي كانت تقوم بالعلاقات دون خوف من أبيه كان يراها مومسا

قالت متظاهرة الاستغراب : يا الله ! أتحدث لك بهذه الشكوك؟!

قال : لذلك كان يكره أن تلد له امرأة.

قالت : العلم يستطيع كشف الأبوة والبنوة بفحص الجينات .

قال : صح ، فحص دي ان ايه لكن ما الفائدة من معرفة الحقيقة؟ أن يعرف الشخص أن المولود منه أو من غيره أو من أبيه أو من غيره .

قالت : أنراه شك يوما بأني قدمت جسدي لغيره؟

قال : الحق أنه متأكد من ذلك ، لا يرى في الكون امرأة عفيفة شريفة ، ويرى أنك نمت مع غيره بعد زواجكما ، وتيقن من علاقة بينك وبين الطبيب الخاص بك لوقان ، ثم هجرتيه ، ولم يعرف البديل

قالت : تحدث معك في هذا!

قال : نعم، كنت ثقة عنده واقرب الشلة لقلبه ، قال لا يمكن أن يكون هذا الطبيب شريفا عفيفا ومغامراته تزكم الأنوف.

قالت : هو قال ذلك عنه!

قال : نعم ، وتذكرين حاول طرده وإبعاده عنك فازددت تمسكا به ..أكان محقا في هذا الشك ؟

قالت : هل شك في غيره؟

قال : لا اذكر شكه في شخص معين كان شكا عاما.

قالت : علاقتي بالدكتور علاقة عابرة ومداعبات وقبل وضم كما فعلت معك كذا مرة لم تصل للمعاشرة .. كنت افهم غيرة نذير رغم تظاهره بالحرية

قال : كنت في سهرات أظن أننا كلنا سنقضي الليل في حضنك ، يصل بك الابتذال اكثر من فريدة ثم تصحين من السكرة وتأمرين الخدم بنقلك لسريرك أو العودة بك للبيت .

قالت : لي شهوة ورغبة مثلكم ، لست ملاكا ، وأنا مستيقظة اكره الرجال.. أنتم تريدون الجنس فقط.

قال : وأنت تريدين الحب الصادق.. وهو عزيز المنال في بيئة إباحية .

****

غادرت الخادمة بالطعام من غرفة نوم سلوفانا ؛ حيث تناولت القليل منه ، ودخلت ديانا وقالت ديانا: مساء الخير سيدتي

قالت : مساء الخير

وقالت ديانا: ما زلت مرهقة منذ عدت .. أنا حزينة من أجلك ! الطبيب قلق عليك وعلى صحتك

قالت : لست ادري ! أنا متعبة فعلا أمر في ظرف خاص.

وقالت ديانا: زوجي يريدني أن اترك العمل وأعود لتركيا ، فهو على وشك التقاعد من الخارجية .

قالت : يا الهي ! خبر صاعق تعودت عليك يا ديانا الأمينة المخلصة

وقالت ديانا: عشرون سنة هنا.

قالت : عشرون سنة.. عمر! هل تقاعد ؟

وقالت ديانا:هو الآن يعمل هناك اكثر وقته والقليل هنا.

قالت : من يستطيع القيام بأعمالك؟

وقالت ديانا:السكرتيرة نورما

قالت : تعرف عملك

وقالت ديانا:نعم ، عملنا معا عند ذهابك أول مرة للعلاج .

قالت : نورما هي ما زالت في الشركة تحدثي معها اذا قبلت العمل مكانك ، ثم أتعاقد معها الشركات لا دخل لها في القصر.

وقالت ديانا: اعلم سأتكلم معها واقنعها لتعمل معك في القصر

قالت : شكرا لك ديانا اذا وافقت سأتحدث معها ونعمل العقد.

قبلت ديانا السيدة من خديها وشكرت ودعت لها بالشفاء وزوال الحزن . قالت : قد نعمل لك حفلة وداع هنا للظروف التي تعصف بي.

وقالت ديانا: سنبقى أصدقاء أيتها السيدة الفاضلة!

قالت : شكرا ديانا ، وأنا بحاجة للأصدقاء المخلصين مثلك سلمي على زوجك سليم خالص السلام .. عندما ازور تركيا سأتصل بكم لسماع أخباركم.

غادرت ديانا وقالت سلوفانا : هكذا الدنيا فراق بعد فراق ..لا أخبار عن مايكل آه لا احد يشاركني حزني عليه .. من خطفه بهذا الحذق والفطنة والترتيب ؟ سويسرا فرنسا النمسا اليونان تركيا اختفى.. امرأة تحمل جواز سفر كولمبي والطفل جواز كولمبي.. الخادمة تؤكد أن الصورة للطفل الذي قضى ليلتين في الفندق.. دخل ولم يخرج .. من يعرف سري وابني؟ لو كان بسيل يعلم سري وعشقي يفعل ذلك .. لا ، لا .. داليا وبول .. هذا فعل رجل يملك مالا كثيرا ، لابد من زيارة أخرى لبسيل هو الأقرب لنذير سمح له بمغازلتي وإقناعي بالنوم معه .. هل يختلف الرجال ؟ كلهم سواء اذا قضى شهوته اصبح حملا وديعا بصعوبة أن يعيد الكرة .. كم منهم التقيت؟ كلهم أدعياء قوة .. ماذا أقول حتى جومار لم يكن بتلك الفحولة التي يفتخر بها الرجال ؟ كلهم دعاة وهمية أصبحت الشهوة مملة ومتعبة .. هل من أجل للطاقة ؟ يتوقف هرمون الجنس عندنا مبكرا ويقف الحمل.. عجيبة الحياة الجنسية.. كم كنا نفرح أيام الجامعة عندما تلتقط الفتاة عشيقا ليلة وأياما .. بعضهم عندما يحاول يفشل كأنه

طفل ؛ لكنها أعضاء خلقت لذلك .. كنت محبة لأن ألد شبعت من قضاء الرغبات المملة والأدوية والموانع والحذر من الحمل قبل الزواج .. خطف مايكل انتقام .. أحي نذير؟! انتقم منا بعد هذه السنين.. كيف عرف به قبل أن يموت؟ الجثة التي دفنت لمن ؟! الدكتور لما علم بموته ذهب المستشفى واستلم التابوت المغلق وشهادة الوفاة .. لم ير الجثة ؟ ولم يكن بحاجة لرؤيها ، ودفنت الجثة بواسطة شركة الدفن .. فتحوا التابوت وادخلوه القبر .. المسلمون لا يدفنون بالصندوق .. كان هناك جثة وإخراج الجثة يحتاج لأمر قضائي وشرطي .. أليس هناك حيلة لرؤية وجه الميت ؟! لماذا أحس هذه الأيام بحياة نذير ؟! إن الرجل يمكر بي لماذا سيطر عليّ هذا الشعور ؟ هل يصدر المستشفى شهادة مزيفة؟ لماذا مر على مالطا قبل السفر للعلاج ؟ هل هو مجرد للقاء جوني الملطي ؟ لماذا رافقهم في اليخت وسكر وزنى ؟ هل دفنّا ميتا آخر وسخر منا ؟ كان مريضا في المستشفى ، وكان في وضع صعب وفي غرفة العمليات وأجهزة وخراطيم ، لم يكن موته مفاجئا ، فالسموم التي كنت أضعها له في الشراب كانت تؤدي دورها ببطء، وكان الطبيب يساعد بذكاء وجومار يساعد بدون علم الطبيب، والطبيب بدون علم جومار تستبدل أدوية الكبد بوضع حبة أو حبتين في كل علبة ، وكانت تظهر مشاكلها بين زمن وآخر ، كل يريدني الزوجة بعد موته ، جومار قتل زوجته ؛ ليتمكن من الزواج مني أم لم يقتلها بنفسه .. لقد اقتربت نهاية السنوات الست ، وأنا قتلت زوجي من أجله هو الوحيد الذي فاز بقلبي وولدت منه .. لماذا فعلنا ذلك ؟ الهوى والعشق ما أنا شبعت منه قبل الزواج ، والدكتور غامر من اجلي .. كلهم يهوون الجسد ألا يشبعون؟ لقد نمت مع الدكتور اكثر من نذير لما رحلت إلى هنا .. وجومار كذلك .. هل استطعنا إخفاء الأمر عن نذير أم خدعنا وسكت لمثل هذا اليوم ؟ المال هل سيحول لي؟ .. لم افكر جيدا بسبب تأخير تنفيذ الوصية ومن عدم زواجي لماذا ؟

حدثت الطبيب في شكها بموت نذير ، وأنه ما زال حيا .. فاستغرب الدكتور وظن أنها ضربت في دماغها .

قال : لما وضع داخل التابوت لم نره كانت جثة في الصندوق ، وهو كان سيموت سواء في مالطا أو ميونخ الموت متوقع ، والشهادة رسمية ، وهذه مسؤولية يتحملها المستشفى حتى لو كان فيه نفس لمات بنقص الهواء والأوكسجين.

قالت : قد يزعم المستشفى أن خطأ حصل ، ولم يكن الميت نذيرا كان في غيبوبة ، ووضعوا جثة في تابوت على أنها لنذير وأخذناه على أنه نذير ألا يحدث ذلك في المشارح؟!

قال بتأمل: نادر جدا ! ويكشف ويصحح الخطأ .. والموت حدث من اربع سنوات وشهور

قالت : ألا من طريق لرؤية الجثة ويطمئن قلبي ؟

قال : ولماذا أنت تعتقدين حياته ؟!

قالت : أمور حدثت معي في سويسرا جعلتني أشك بموته وأنه حي.

قال : أمور مثل ...

قالت : أفعال لا يعرفها إلا هو ، وقابلت شخصا كأنه هو .

قال : جلست معه تحدثت معه!

قالت : لا ، قابلته كذا مرة ، وتعمد أن يريني نفسه، لولا يقيني بأن نذيرا ميت لقلت هو.

قال : نخشى طلب رؤية الجثة وتحدث قضية كبيرة.

****

سيطرت عليها فكرة العدو الزوج الميت ، لا احد يرغب بالانتقام منها إلا من تزوجها ، داليا حملت وانكره وهربت ولم يقتلها ويقتل بول، ما استعمل العنف ضدها ، ولم يقتل عشيقها ، فلو كشف أمري لطلقني ، وانتهى الأمر ، إلا اذا عرف سعي لتسميمه والقضاء عليه مع الطبيب وجومار ، كان منسجما مع جومار ، ذات مرة وكنا نشرب البرتقال فقال: فيه مرار سي الطعم . وتركه وتحدثت يومذاك وقلت : إنه من أجود الأنواع ومستورد خصيصا للقصر من اشهر المزارع الإسبانية. وانتهى الموضوع ، تابعت لنفسها : صحته كانت تتدهور بين حين وآخر بسبب مشاكل الكبد والجنس لم يشكُ من تسمم أو التعرض له ولا علاقة لي بالمطبخ ..

من خطف مايكل ؟ من تلك المرأة التي مثلت دور الأم ؟ الطفل الذي دخلت به نيويورك وفرنسا وتنقلت به بين عواصم البلاد .. كان مغرما بالأطعمة الدسمة .. تلاميذ المدرسة ذكروا أن رجلا تكلم معه في حفل الموسيقى وتبعه ظانا أن أمه في انتظاره لم تكن امرأة التي تحدثت معه.

صارحت الطبيب بسرها زعمت له أن ابنها اختفى، وهي كشفت له أنها حملت به من رجل أثناء وجودها في أوروبا ، ولا تعرف أباه ، ولا نذير يعرف بوجوده ، وصدقها الطبيب .. فمن يخطفه سوى نذير؟! فوعدها بالسفر إلى مالطا والتأكد من وفاته بطلب استخراج شهادة وفاة لضياع الشهادة القديمة أو احتراقها والتأكد من وفاة نذير فقال : أما الجثة المدفونة فأمرها صعب .. النبش بعد هذه السنوات بزعم دفن جثة غير جثة زوجها جثة من سيسألون؟ الأمر معقد وسيجري تحقيق جنائي ممن الخطأ ؟ وجثة من دفنت ؟ وأين جثة نذير اذا استبدلت؟

قالت : ولماذا لا تقبل الشرطة المحلية الأمر ببساطة ؟!

قال الطبيب: حتى لو فرضنا أن الرجل حي والتقاك ثلاث مرات أو ظهر لك ، ولم تهتمي ليقينك بوفاته لماذا ظهر؟ ولو كان موته خدعة فلم يفعل ذلك ؟ وجثة من التي أخرجت من التابوت وغسلت ودفنت في القبر ؟ ما الهدف من هذه الحيلة ؟ افرضي أنه اطلع على خيانتك الزوجية فهو اكبر خائن زوجية.. يريد الانتقام ولماذا ينتقم بهذه الحيلة ؟ ألم يكن يقدمك لأصدقائه ويتحداهم بالنوم معك .. وكنت تقبليهم وتحضنيهم وتراقصيهم وتظهرين أمام بالزينة والعطر وآخر تبرج .. فهل سيحاسبك على الطفل الذي لا تعرفين أباه وعاش بدون اسم أب ؟ وذكرت أنه غار من علاقتي بك ثم ترك الأمر لما تخليت عني وقل اللقاء بك كصديق بس كطبيب فقط والطفل الذي حملت لم يحمل اسمه ولا اسمك.

قالت : كل هذا معروف وصحيح ؛لأنه يثق بأنني لم امكن احدا من شلته مني، قال يوما اذا فعلت ذلك عليك ألا اعلم من هو صديقك وعشيقك يا سلوفانا ! أسمح لك باتخاذ عشيق سري فقط .. فأنا شرقي في دمي لست أوروبيا .. أمي اعتبرها موسا كان أبي ضعيفا ومتهاونا

أمام عشاقها ، وقد يعمل لاحدهم عشاء بعد خروجه من غرفتها.. أنا متأكد أن لك عشاقا لكن لا اقبل أن يخرج احدهم من حجرتك وآخذه بالأعناق والترحيب سألت أبي كيف ترضى لها أن تفعل ذلك بوجودك؟! رد ببساطة لست ذكرا مات ذكري وهي تعشق الجنس.

قال : عجيب !

قالت : وعجبت أنه حدث صاحبه بسيلا بذلك صارحني بسيل بذلك .. لذلك السيد كان لا يهتم بهم ويعتبرهم أحياء أموات ؛ ولذلك كان يسرف في السكر والمخدرات لذلك لما زاد شكه فيك أراد أن تبتعد وخشيت أن يؤذيك بسببي .. كيف عرف؟ الخدم لا يؤتمن لهم سريعو الاستدراج .. ولا ادري كيف عرف حقا ؟!

قال مجيبا : هو شك شكا لم يتقين ؛ لأننا نعيش في إباحية جماعية يا سلوفانا ! لا تحتاج لفطنة وذكاء .. لماذا نرقص ونطرب ونشرب ؟ وكلنا معروف بالفجور دون رادع لسنا دينيين.. فكل من يتحدث مع أنثى بالتأكيد لترتيب موعد أو مواعدة على رأي الغربيين .. حياتنا الملذات والشهوات .

قالت : كلامك صحيح وأعرفه كما تعرفه! نحن نجتمع للملذات والشهوات ..هل نجتمع لسماع محاضرة أو درس علمي؟ .. الجنس والسكر يجمعنا وتارة القمار ، سمح لي بالعشيق العابر دون تردد ؛ لأنه مّني قبل السكن في هذه الجبال ، ومقصر معي في العلاقات الخاصة وهو يعتقد أن كل النساء مومسات وفتيات حانات ويتاجرن بفروجهن لكسب المال من الذكور عنده عقد نفسية نحو جنسنا .

قال : أنت تقولين إنه لا يعرف ما كان بيننا بيقين ، ولا انكر ذكاءه ومكره وخبثه.

قالت : لا تنسى حياته في البرازيل، واكثر بلد فيها أولاد غير شرعيين وشذوذ وانحرافات شاذة.. تنافس الولايات المتحدة بالانحلال.

قال : ولا تنسي أنه كما وضحت من أسرة إباحية وأم فاسدة وأب بدون شهوة ولا تنسي قصة داليا وبول .. لماذا جاءت بعد زمن من موته بأي حق جاءت ؟

قالت : فكرت بقصتها كثيرا ولم اجد تعليلا وتفسيرا لحد الآن.

قال : تكلمت مع بعض محاميه في ميونخ وريو دي جانيرو فانكروا معرفتهم بها قال محامي البرازيل منذ هربت لم نسمع عنها شيئا ؛ كأنه تفاجأ بوجودها في كوبا .. هل هي زوجته الأولى فعلا أم مزيفة؟

قالت : معقول ! زوجة مزيفة محتالة ! أمي تلح عليّ ببيع القصر وكل استثماراتنا هنا بعد انتقال ملكيتها لشخصي والعودة لأوروبا

قال : هذا الأفضل بعد التملك التام.. هذا القصر كبير عليك ، لا أولاد ولا زوج خدم طهاة لماذا منعك من الزواج ؟

قالت : هذا ما جعلني أيضا أن أشك في موته.. امرأة أرملة شابة تمنع من الزواج ؛ كأنه يقول لي مارسي الجنس بدون زواج .

قال : من الصعب التحقق من الجثة اليوم .

قالت : لصوص القبور ألا يستطيعون فعل ذلك ؟

قال : يستطيعون؛ لكن كيف سينقلون الجثة وقد تآكل منها الكثير ؟

قالت : ثم تنقل لمكان سري خفي.

قال : جريمة ونضع انفسنا تحت الابتزاز تحت رحمة هؤلاء اللصوص .



مالطا

غادر الطبيب لوقان اتجاه جزيرة مالطا في المتوسط حيث قضى نذير نحبه ، وكان يحمل في حقيبته صورا لنذير والتقرير الطبي للوفاة ، بحث عن المستشفى الذي نعاه لهم، وسأل عنه جمعية الأطباء ، لا احد يعرف اسم هذا المستشفى على ظهر الجزيرة ، ذهب للمكان الذي يتذكره ، وجد هناك عيادة طبية ولم يجد المستشفى أصابته الحيرة والارتباك ، وعرض التقرير الطبي والشهادة على احد المحامين فقال له: هذا تقرير المستشفى الموهوم ، وأنت أدخلت الرجل إليه بنفسك !

قال : هذا ما حصل كنا في طريقنا لألمانيا لعلاجه، ونزلنا هنا لدعوة صديق له يملك يختا وفي اليخت خالف كل نصائح الطب وتحول إلى المستشفى ورأيناه في غرفة العمليات والأجهزة وهو يعاني وبعد أيام اتصلوا بأن الرجل قد مات ، ولما جهزوه في تابوت وهذه الأوراق رحلنا به إلى بلدنا ودفن حسب التقاليد الإسلامية.

قال القانوني: سأقوم بالحديث مع وزارة الصحة وأسأل عن هذا المستشفى الوهمي.

قضى أياما ثلاثة يبحث عن المستشفى الذي مات فيه نذير دون فائدة ، فقال :كانت سلوفانا صادقة في شكها في موت زوجها .. لماذا فعل هذه المسرحية ؟! هل عليه مخالفات ضريبية أو مطاردة من عصابات؟ هل تورطنا بإعلان موته ؟ فهذه جريمة .. من الميت الذي حملناه إلى المدينة ؟! هذه ورطة كبيرة يا سلوفانا ! نقل ميت والزعم أنه نذير .. لقد قضى علينا اللعين أهذه أوراق مزيفة ؟ تحدث مع السيدة عن اختفاء المستشفى ، وأن خدعة كبيرة وقعوا فيها فطلبت منه العودة ، ولما التقيا فصل لها ما فعله . فقالت : نحن لم ندفن نذيرا دفنا من ؟!

قال : هذه جريمة وقعنا فيها .. لا ادري ما العمل ؟! لكن السؤال لماذا فعل ذلك وهذا الموت الموهوم؟ أهو مطارد أم انتقام؟ ممن ؟ مني منك هربا من أجهزة مخابرات لتجارته في بيع الأسلحة والمخدرات هو شريك في شركات أسلحة وتاجر برازيلي وأوروبي

قالت : ولماذا ينتقم مني ؟ يطلقني وينتهي الأمر ، والمستشفى أين ذهب والناس وغرفة

العمليات واليخت؟ رأينا الممرضات والأطباء وسيارات الإسعاف كنا في مستشفى أليس كذلك؟

قال : هذا ما عشناه ! هل هو متنكر في القصر في المدينة ؟

قالت بوهن وصراخ : يتنكر لماذا ؟! أكاد أجن وأفقد صوابي .. ما الغاية من هذه اللعبة ؟! كنت عندما أرى شبيهه أتسأل لماذا يظهر هذا الرجل أمامي؟!

قال : وأنا مثلك أكاد أجن ! لمّ هذا العبث كل هذه السنوات ؟! من الذي دفناه ؟ وماذا سنقول للحكومة والدولة؟

قالت : ابني هو الذي خطفه .

قال : احتمال كبير.. نعم، لابد أنه هو لكن لماذا ؟!

قالت : أترى أن لزوجته الأولى دور في هذه المسرحية ؟

قال بحيرة : وماذا يجنيان اذا كان حيا كما نرى الآن ؟ بعض المال أم الاعتراف ببول ابنا.. أترين أننا دفنا شخصا أخرج من القبر بعد انصرافنا .. أمور تخيل العاقل.. مريض مستشفى يخت نقل تابوت دفن جثة شهادة وفاة تقرير طبي ماذا يقصد هذا المخبول ؟

قالت : أتراه كشف سعينا لتسميمه رويدا رويدا ؟

قال بحدة : لم نفعل ذلك.. إياك ذكر هذه الجريمة .. هو مات من أمراض الكبد والكحول والدواء سم كما هو علاج .

قالت : كيف سنتحقق من التابوت؟

قال : عليك كما قلت مرة عن طريق لصوص القبور.

قالت : وهل هناك منهم؟

قال : هناك كما سمعت منك ؛ ولكن كيف الوصول اليهم ؟

قالت : نباشون القبور لسرقة أشياء الأموات حتى أنهم مستعدون لسرقة أسنان الذهب من أفواههم يا دكتور!

قال : هذا في الدول الفقيرة أفريقيا الجنوبية والشمالية ، وما الفائدة بالنسبة لنا ما دام لا يوجد مستشفى وكله وهم؟ ..فنذير حي وقريبا سنعرف هذا وما دبره لنا ؟ هل من فائدة من نبش القبر ؟

قالت : نتأكد من وجود دفين .

قال مفكرا: الرجل ماكر وسيكشف نفسه قبل انتهاء السنوات الست ، فلا داعي لنباش ولص قبر .. هذا سيضر بنا اكثر مما نحن فيه ، ولم التقِ بلص قبر طول حياتي ؛ كأني سمعت ذلك بالأفلام عندما كنت صغيرا .

قالت : استعن بحفاري القبور بالمال .. علينا أن نتأكد أنه غير نذير خشية أن يظهر لنا الشبيه ويزعم أنه نذير .. القبر معروف مكانه لعل القبر اختفى

قال : ممكن نعمل على أن نذيرا حي؛ ليس ميتا .. نحن الذين بلغنا العالم عن موته واقمنا له العزاء والصدقات والتأبينات

قالت : اختفاء مايكل وظهور نذير .

قال : معرفة جثة من دفنا غير مهم لنا في هذه الورطة .. القضية كيف ننقل جثة ونزعم أنها نذير ؟ وأين نذير ؟ سنتهم بقتله وإظهار جثة غيره أمر معقد

قالت : سيظهر المجرم ، ويكشف لنا سره وسر هذا الاختفاء.. قصة عجيبة وموت عجيب ، لم يشك احد بموته ؛ لأنه كان متوقعا .

قال : شارك الكثير في هذه التمثيلية اليخت والمستشفى .. ونحن وأصحابه هنا اعتقدوا موته مثلنا وصاحبك بسيل طلق امرأته ليتزوجك.. لماذا اصطنع الموت ؟ وقال بغل :جننت من جنونه.. أيفعل هذا بشرا ؟!

قالت : وأنا مثلك فقدت الصواب .. مستشفى وهمي وأطباء وأجهزة طبية وشهادة وفاة وحمل تابوت كله كذب .. من الذي دفن فيه ؟ جثة من ؟

قال : قد نتهم بدفن رجل حي مخدر على أنه نذير .. أو ربما خنقا في التابوت .

صاحت : هذا مرعب مرعب مخيف !

****

ترجح لدى الدكتور والسيدة أن نذيرا يلعب لعبة خطيرة غامضة وغير معروف المقصود منها ولماذا صنع هذه التمثيلية ؟! وما زال يتظاهر بالموت ، وهل نبش القبر يفيد بعد أن اختفى المستشفى ؟

كان الدكتور والسيدة يلتقيان كل مساء أمام نافورة في القصر لمناقشة وتحليل وفهم القصد من هذه الحيلة والفعل الغامض لنذير ، هل نذير رتب لهذا الأمر ؟ولماذا يريد الانتقام؟ وجومار عالق في قضية احتراق زوجته وسقوط ابنه .. من الذي أحضر البنزين وسكبه في الحجرة ؟ هو ينكر فعل ذلك ، والبوليس لا يرى متهما غيره ، والدافع غير واضح للبوليس ، فليس هو بحاجة لقتلها ؛ فكان يمكنه طلاقها ؛ حيث هي شبه مهجورة .. هل تمارس الدعارة فترة غيابه؟ بل ثبت أنه كان يمدها بالمال لترعى على الأقل ابنه كومير ، وكانت تشرب الكحول والدخان من أمواله ، الحريق ثبت أنه متعمد ، والرجل تصرف تصرفا غريبا أيقظ ابنه وخرجا من النافذة للسطح مع أنه كان بإمكانه الوصول إلي الباب الرئيسي للشقة وزعم أن الدخان كان جهة الباب .

قالت: هل عملت شيئا لفتح القبر؟

قال:لم اعمل شيئا ، ولا اعرف كيفية إيجاد سارق القبر، وأخشى أن أتورط في جريمة أخرى وقد نجده فارغا ، ونتهم بسرقة ميت.. هل تعرفين سارقا في أوروبا؟

قالت: اسمع فقط

قال: في ألمانيا!

قالت: نعم وبعض بلدان أوروبا

قال: يفتحون التوابيت ويسرقون الجثث

قالت: نعم، عرضت قصص لممارسة الجنس مع الجثث من قبل منحرفين جنسيا ، و يفتحونها

وبيعها لأطباء للتدريب والتشريح أو تحنيط الهيكل العظمي والجمجمة ويظن من يراه أنه حصل عليه من مستشفى بإذن أهله أو مشردا لا أهل له ، وهناك متاحف للجماجم والأسنان

قال: دون حكم محكمة وموافقة الحكومات

قالت: سرقة عصابات

قال: عجيب هذا يا سيدتي ! وهل نجد نذيرا كما دفناه ولم يُرم؟

قالت: قد نكون حملنا تابوتا فارغا.

قال: لا يمكن هذا ! كنا فرحين بفوزنا وفي لهفة عارمة ، وقاموا بغسل جثته حسب الشريعة لم تكن جثته محروقة أو بقايا انفجار .. وأنا لم اعرف جثة من غسلت .

قالت: أحضرناه حيث احب أن يدفن .. كنا كما قلت في عجلة من أمرنا .. ظننت أن مراسيم الدفن جرت دون فتح التابوت .

قال: وعشت دور الأرملة الحزينة .. نتابع التمثيل ريثما تنتهي السنوات الست التي على وشك الانتهاء، وقد يكتشف الناس موته الكاذب.. لا مستشفى ولا جثته.. هذه ورطة كبيرة صدمة لي ولك ولأصحابه .

قالت: ألا يصدقنا احد ؟

قال: عندما يظهر علنا سيتهموننا بالخداع والتزوير وتقديم وثيقة مزورة .. هل من خبر من سويسرا؟

قالت: كل ليلة أتحدث مع المربية والمحامي ، لا جديد إلا مشاهدة المزيد من الجثث

قال بهمس : لعبة كبيرة !

فقالت: لماذا يلعب المجنون هذه اللعبة ؟!

قال: ؟ هذا اذا كان حيا حقا؟!

قالت: أوه ! ما زلت تشك ! اقسم أنه حي يسعى للانتقام مني ؟ لا ادري لماذا ؟ هل لأني ولدت خفية عنه ؟ خنته وأنجبت من غيره .. أتظن أنه يراه منك ؟ ولدت وأنا على ذمته .. ألا

يحق لي أن ألد واتخذ العشاق كما يفعل يا دكتور ؟!

قال مجاملا ومتملقا : يحق المعاملة بالمثل ، وهو رجل فاشل ، لا ضمير عنده، ما دام رضي بالعشق والفُجر لماذا يتزوج إنسانة عاقلة جميلة مثلك؟

قالت: طمعني بماله وثروته ، وعرف عمق حبي للمال والثروة ، وأن المال عندي قبل الحب والغرام .. أول مرة رآني ورأيته كان قادما من البرازيل لدعم مصنع الأسرة والشراكة مع والدي ، فأتى به إلى النادي الخاص ، وكنت أعوم في الماء مع رفاق النادي ، فرأيت أبي ونذيرا يتفرجان علينا فأشار لي أبي بالخروج للتعرف على السيد الذي كان مبهورا من قوامي وجمالي وعُريي بالمايوه ؛ فكان ملهوفا على جسدي بكل وضوح ، الشهوة تخرج من عينيه وتغزل بي بصدري ولحمي قبل أن يعرفني أبي عليه ، ثم قال: لمن كل هذا الجمال ؟ فقال أبي: رغم كل هذا الحسن لقد طلقت من قريب يا سيد نذير ، كأن أبي يقدمني له ، وغادرنا المسبح للغداء في فندق كبير

قال: كان وسيما فاتنا هو !

قالت: لا انكر .. سلاسل الذهب على عنقه ، خواتم الألماس على يديه ، الثياب الباهرة البذخ والمال .. كل هذا واضح عليه ، والحق أنه فتن كل رفاق المسبح.

قال: وكنت تغرفين من ثروته بشره ودون حساب .. وكتب لك الكثير، ووضع رصيدا كبيرا في الحساب

قالت: لا انكر كرمه .. كان هذا تمهيدا لأقبل الزواج بعد أن فشل في امتلاك جسدي ، سعى إليه بكل قوة وإغراء ، ولو حصل ما رغب ما تزوجنا ، هو اشتهى الجسد لم يحبني ، فهو رجل نساء كما حدثت أمي عنه ، والأيام أثبتت ذلك.

قال الطبيب آق : هل عرف بأمر جومار ؟ هو له نزعات شاذة وغريبة .. علاقتك بجومار كانت خفية اكثر مني معك.

قالت: كان لا يقرب حجرتي ومخدعي إلا آخر الليل قبل الفجر أو مع الفجر خشية أن يأتي

نذير فجأة لغرفته أو يكون احد الخدم مستيقظا .. هو يعيش أما أنا أموت بحسرة .

***

التقى الدكتور علي يوسف بسلوفانا حول البحيرة الحجرية في القصر ، قال : يا مدام ألم تخبرينا بموت السيد قبل سنوات أثناء وجودكم في مالطا ؟

قالت باضطراب : نعم ، أيها السيد عندما سافرنا مرّ بنا على مالطا بدلا من التوجه مباشرة إلى ميونخ كما تعلم .. قال سنمر على مالطا لرؤية صديق نسيت اسمه له يخت عند تلك الجزيرة ولما رجع من رحلة اليخت مرض ودخل مستشفى ، وذهبت والدكتور والخادمة الفرنسية جوليا للمستشفى ، وبعد أيام اتصلوا عند الفجر بخبر وفاة نذير وقاموا بإخراج التقرير الطبي والشهادة ، ونقلنا التابوت بالطائرة كمل تذكر وقمتم بإجراءات الدفن .

قال علي: جاءت رسالة فيها أن الرجل سيعود للبلد قريبا.

قالت: ممن جاءت؟!

قال علي: من مكتبه في البرازيل

قالت: أليس هذا ملفتا ومثيرا للنظر ما دام لم يكن ميتا حقيقة؟ لماذا جاءت امرأته البرازيلية تطلب حقها ؟ وأنت التقيت بها قبلي ، وله خمس سنوات لم يتحدث معكم أو معي لم فعل ذلك؟!

قال علي: نحن تعاملنا معك على أنه ميت!

قالت: وأنا عشت بدون زواج على أنه ميت ، ولا أتزوج حتى تمر السنوات الست

قال علي: امر محير فعلا ! لنا سنوات بدون أي اتصال

قالت: أنا لم أشع موته ! نحن يبدو أنا تعرضنا لخداع في مالطا منه ؛ ولسوف تظهر الحقائق .. أين قضى هذه السنوات؟ ولماذا هذا الخداع العجيب؟!

قال علي: أنت أدرى !

قالت: هل يتأثر العمل ؟

قال علي: الإدارة تتأثر ، والبورصة تتأثر ، فلنا شركات ضمن البورصة .

قالت: اعلم يا دكتور علي أن هناك لعبة كبيرة منه ، أنا من شهور وأنا أعاني من الرعب يا دكتور أرسلت الطبيب آق لمالطا ، ولم يجد المستشفى موجودا كان مستشفى وهميا لعمل هذه الحيلة .. لماذا ؟ لا اعرف .. هل هو متورط في صفقات سلاح غير شرعية مخدرات؟ أنا أعيش أرملة يا دكتور حسب وصيته.

قال علي: والعمل!

قالت: أنا اعتقدت وكما اعتقد الجميع أنه ميت حسب ما علمنا ..سننتظر حتى يظهر في البلد ونرى دوافع هذه الخدعة التي ورطني بها أنا والدكتور.. ومن الذي دفن؟!

قال علي: نحن في ارتباك واستغراب، نحن ندير الشركات على أنه ميت، اخبرنا مكتب برلين أن السيد في البرازيل مختفيا لأسباب خاصة ، ولم يثبت موته إلا عندكم ويعلمون أنه حي

قالت بدهشة : يعلمون أنه حي منذ إعلان وفاته.

قال علي: بعضهم .. لماذا فعلوا ذلك لا يعلمون؟ اخبرهم محامي برازيلي أن السيد حي ؛ إنما ما نشر في وطنه الأصلي إشاعات ؛ إنما هو اختفاء هربا من عصابات ومخابرات ، فتكتم على الأمر كأنه ميت.. ولماذا تركوك على الوهم؟!

قالت: حقيقة لا ادري يا علي ! نحن لم نعلن وفاته إلا هنا بناء على شهادة الوفاة التي قدمها الطبيب في مالطا ، وكان الوضع الصحي يكاد يقول بموته فسلمنا بذلك

قال: كان في اختفاء اختياري لأسباب خاصة ، ويدير الأعمال من سان باولو

قالت: ولماذا جعلنا نعتقد موته هنا ؟وعشنا هذه السنوات على ذلك يا علي ! كانت وصيته غريبة ومثيرة للتفكير ، وسمح لي بإدارة الشركات والتوقيع عنه

قال علي: هذا ما لا نفهمه ! حتى حضور داليا وبول كان غريبا.. وهما جاءا من كوبا .. أنت والطبيب آق في ورطة من في التابوت الذي دفناه؟

قالت: هو أراد أن نعتقد بموته.. نحن على حسن نوايانا .. ولا افهم الغاية من هذه اللعبة

المجنونة ؛ وكما ورطنا سينقذنا .. الآن فهمنا الست سنوات ومنعي من الزواج ..سأعقد اجتماعا هنا ولأول مرة لأوضح الموقف مم سيحدث؟

قال علي: وماذا سنفعل بالاجتماع؟ .. العمل يمضي بدون نذير وبدونك يا سيدتي ! عندما تلقيت الرسالة استغربت وتفاجأت .. خمس سنوات دون أي تلفون منه .. هل هناك لعبة وعملية نصب ؟ تحدثت مع مكتب المحاماة في برلين فأكد لي لما توثق من شخصي بأن نذيرا يعمل في البرازيل منذ اختفى لأسباب خاصة .

تنهدت وقالت: أنا صدمت بعد عودة لوقان آق من مالطا يقول لي يبدو أن نذيرا فعلا حي لا مستشفى ولا غرفة عمليات ، ولا ادري من في التابوت؟ علي نعمل اجتماع مصغر اشرح موقفي للإدارة أنت وبكر ولوقان ومن تحب .. وجومار في الهند كما رويت لك سابقا .. الثامنة مساء يجب أن افهم ولماذا حشرني في هذه اللعبة ؟ والجثة المدفونة لمن ؟ من الذي دفن؟

قال علي: فعلا جثة من التي حملتموها معكم ؟ وكيف لم تخاطبكم حكومة مالطا عن الجثة؟

تنهدت وقالت: لما رجع من رحلة اليخت كان متعبا يا علي وأمراض الأزمة كانت بينة عليه وأمراض الكبد كانت تصاحبه كما تعلم من قبل زواجنا فذهبنا للمستشفى عند النبأ ورأيناه مسجى على السرير والأجهزة لم ترفع عنه بعد ، وقالوا للوقان سيوضع في التابوت كان على السرير ميتا وفكت عنه الأجهزة والأوكسجين، وانطلق لوقان لمكتب الطبيب المشرف لاستلام التقرير وأخذ شهادة الوفاة ، ولما جهز التابوت واغلق تماما ، وحان وقت السفر نقل التابوت للطائرة ، وفتح في قصر الدفن وغسل وكفن وصلي عليه ، وحملتموه للمقبرة وواريتموه القبر الخاص بعائلته الكبيرة .. هذا فلم سينمائي يا علي مرسوم ومدبر ، ونحن شاركنا في اللعبة دون اتفاق معنا !

قال علي: حسنا! كما قيل لعبة كبيرة.. السبب مجهول وسيكشف ، وجومار ذهب بعد موته للمستشفى وظن أنه يحمل التابوت الذي فيه نذيرا .. وهو في الهند ومتهم بموت زوجته المحروقة أو المختنقة وسقوط ابنه الصغير أثناء الهرب.

قالت: عنده مشاكل كبيرة كما أخبرتك ؛ ربما اذا عاد نذير للقصر قد يعود اذا لم يحكم عليه بالحبس.. كان يدير طقم الخدم الهندي في القصر باقتدار وخبرة هل هناك إمكانية لفتح التابوت ومعرفة شخص المدفون ؟

قال: الأمر ليس سهلا هذه جريمة دولية ! حسنا أيتها السيدة ! سنجتمع ونسمع ونرتب لعودة السيد ونعلن ذلك في الصحف .

أخبرت سلوفانا الطبيب بملخص الحوار مع علي يوسف ، ودعته لحضور الاجتماع للتفكير في عودة نذير للبلد وهو يقول ساخطا: لماذا هذه اللعبة الشيطانية؟! طار مخي ولم اعرف الهدف وهل زال الخطر عنه ليظهر حيا؟

قالت: لا احد هنا يعلم إلا أنه مات ، وبعض المحامين في برلين والبرازيل يعلمون بحياته ومات لأسباب خاصة حتى عني ما العمل ؟

قال:سأتحدث مع محامي في هذه القضية الصادمة .. لماذا خدعنا طوال هذه السنوات وأوهمنا بموته ؟

قالت: اصبر حتى يعود للبلاد .. ابني أين ؟

ضحك وقال: ابنك عنده !

قالت: ولماذا خطفه؟! أتراه قتله؟!

قال: لا أظن .. ظهوره سيكشف شيئا .. سيتعرض لمشاكل اذا كان خاطفا ، لن يعترف بخطفه أو قتله ..هذا مجنون حقا ! يستحق الحجر في مصح أمراض عقلية!

قالت: جثة التابوت !

قال: هذه القضية الكبرى بسبب اختفاء المستشفى وزيف التقرير ووثيقة الموت اعتقد أنك ستطلقين استعدي لذلك انتهى دورك في اللعبة الغامضة .

قالت: وهل الأمر بسيط لهذه الدرجة ؟!

قال بحيرة : نحن يا سلوفانا لا نعلم لماذا فعل هذا الجنون وهذا الإيهام ؟! وجعلنا نعتقد موته

وننشره في البلد ونقيم بيت عزاء ولم تتزوجي وأضحت الوصية كأنها غير موجودة .. واخترع مسرحية المشفى وغرفة العمليات .. أكيد مخرج وممثلون قاموا بهذه اللعبة الجنونية شغل إنتاج أفلام بدون تصوير .

قالت: سيكشف التفصيل كما قلت سنعرف الأسباب الخاصة لموته هنا

قال: هل هذا انتقام ؟!

****

تسرب خبر عودة نذير للحياة بقصة غامضة بعد سنوات من الغياب والسؤال الصريح لماذا كان هذا الاختفاء ؟! ومن الذي دفن ؟ وكيف نشرت سلوفانا ولوقان وفاته ودفنه ؟ومن خدعهما ؟هل هو نذير نفسه؟

تكررت الاجتماعات بين السيدة وديانا ولوقان وبكر وعلي واطلعت السيدة والطبيب على نص الرسالة التي وردت من البرازيل التي تخبر بعودته ، وكانت الرسالة مطبوعة ؛ ولكن عليها توقيع وختم السيد ، وجاء فيها أنه تعالج في كوبا .

فقالت: لماذا كوبا ؟ ونحن كنا قبل تمثيلية الموت ذاهبون لميونخ؟

قال بكر: لم يفصح الرجل عن سبب العلاج في كوبا .. ولماذا كل هذه السنوات في العلاج ؟ هل لما سلمك الإدارة أنهى علاقته بنا ؟

قالت: لست ادري ولا علم لي بهذه الأفكار .. هذا لهو الجنون بعينه .. هل العلاج يحتاج أن يظهر ميتا ويورطنا في نقل تابوت على أنه فيه؟ هذا الجنون بعينه !

وقص الطبيب آق تفاصيل الرحلة لمالطا بناء على رغبته وقال : وقد وضح الآن لماذا عرج بنا لمالطا مع أننا كنا في عجلة للمستشفى في ميونخ للموعد المضروب معهم ؟ وذكر حفلة اليخت وصناعة مستشفى سينمائي وغرفة عمليات وغرفة انعاش وأنه مرض وفارق الحياة وقال مختتما القصة : واستلمنا الجثة داخل تابوت . وعقب : لم افهم هذه المسرحية ! وما هي الأسباب الخاصة ؟وأساء لزوجته ولي بفعله الأحمق وسأقيم دعوة عليه وبدأت بها وسلوفانا

ستطلب الطلاق فور عودته ، حرمها من الزواج خلال السنوات الخمس.. ولو تزوجت ماذا سيكون موقفها أمام القانون؟ تتزوج وزوجها حي ستتهم بالتزوير لتتزوج .

قالت: نحن لما استلمنا التابوت ظننا أنه فيه لما رأيناه ميتا قد فككت عنه بعض الأجهزة بحضورنا .. سأتقدم بشكوى للمدعي العام قبل الطلاق .

صاح الطبيب: لماذا أيها السادة فعل بنا هذا واحرجنا اليوم أمام الصحافة؟ لماذا هذه الحيلة السخيفة؟

قال علي: فعلا أيها الكرام الأمر غامض بشدة ، ما الغاية من ادعاء الموت حتى عشنا على أنه في حالة موت؟!

قال لوقان وعاد إليه الشك والوسواس : أنتم واثقون أن الرسالة هذه منه ! وليست لعبة جديدة !

قال بكر : هذا ما يحير يا لوقان ! أنتم لم تفتحوا التابوت وترون من فيه.

قال لوقان: أبدا ذهب اعتقادنا أنه ميت وجثته دخلت فيه حسب العادة ، وطلب من المستشفى أن يدفن بالتابوت كما وصى وطلب منهم ، وهنا رفضوا الوصية بدفن التابوت إلا بعد تغسيله كما تذكرون ، وأخذ الأمر على حسن نية وأوراق وتقرير طبي.. نحن غرباء في مالطا، كانت الفكرة أن نذهب إلى ميونخ مباشرة، ليلة السفر زعم أن صديقا له يرغب بلقائه في مالطة ، الصديق اشترى يختا جديدا ويرغب أن يراه نذير في طريقه لألمانيا وعمل جولة لليلة واحدة فقلنا لن تفرق هذه الليلة ونزلنا في فندق وجاء الصديق ودعانا للاحتفال باليخت الجديد واعتذرت أنا وإياها، وحاولنا منعه بسبب صحته فقال ساعات ورجع ليلا منهكا من الشراب والنساء ونقل للمستشفى بزعم أن حالة أزمة قلبية وبعد أيام اتصل المستسقى مخبرا بموته فجرا فذهبنا لذلك المستشفى المزيف ورأيناه في الغرفة وقد فككت الأجهزة الحثية عنه وأخذت بإجراءات التقرير الطبي وشهادة الوفاة وجاء جومار بعدما جهزوه لينقل إلى المطار وحملت سيارة المستشفى التابوت وجئنا به

قال بكر: لم تشكوا بشيء وأن المستشفى مزيف.

قال لوقان: أبدا.. كان الفلم متقنا وبدون كاميرات تصوير .

قالت: لم نشك بترتيب وموت مزيف .. خرجنا به كما تعلمون بوضع صحي صعب بسبب التهابات الكبد الدائمة ، ولم أكن أتدخل في عمله وإدارته ومراسلاته ، وهو شريك والدي وإخوتي والأسرة وتتابع الأرباح السنوية حسب الاتفاق

قال علي: الرسالة تزعم أنه في كوبا ولا هاتف في الرسالة ولا حتى عنوان مراسلة

قال بكر: هل يتعالج هناك من الكبد أم المخدرات ؟ولما هرب منكم بهذه الحيلة ؟ فكان يسافر مرارا بدونكم وبدون هذه الخطة.. الأمر يا علي ما زال يلفه الغموض !

قال لوقان : كان يقصد أن يظهر أمامنا ميتا خلال السنوات الخمس، ولما ذهبت لمالطا وجدت مكان المستشفى عيادة ولم تتحول العمارة إلى مستشفى أو مستشفى تحول لعمارة وظنوا أنني مجنون .

قال: قصة عجيبة ومحيرة!



مضى شهر على رسالة نذير إلى علي يوسف ، ولم يتصل ، ولم يكتب ، ومكتب برلين لم يتلق شيئا ؛لأن السيد لا علاقة مباشرة له في شركة ألمانيا ، هو شريك لهم في رأس المال والأرباح وشركة محاماة تتابع أمواله واستثماراته ، انتهت علاقته الإدارية بالمصانع لما ترك ألمانيا ، وهم لا يعرفون أنه حي أو ميت ولا يهمهم ذلك ، الأرباح توضع في حسابه المعروف لهم.. من يستفيد من الحساب غير مهم؟ هذا ما تعرفه سلوفانا ، ووالدها هو شريك مالي وما زال عقده ساريا لم يطلب احد توقيفه أو بيعه .

كانت السيدة وعشيقها السابق لوقان في حيرة واضطراب من هذا الاختفاء، وعشيقها والد ابنها المخطوف جومار في معاناة مع البوليس الهندي ، وما زال ممنوعا من السفر حتى يغلق ملف القضية ، ويوجه الاتهام للجاني .

قال علي لبكر : هل من جديد ؟

قال بكر : الجديد الحيرة يا صديقي ! منذ وصول تلك الرسالة من كوبا ولم يصل شيء بعدها ونحن لا علاقة لنا بمشاريعه في البرازيل أو حتى كوبا .. نحن صدقنا موته ، والقرائن والملابسات تدل على حياته ، ولماذا الرجل يتصرف بهذا الغموض؟!

قال علي: والزوجة مصدومة هي وعشيقها القديم هل هو حي أم ميت؟

قال بكر : والرسالة!

قال علي لبكر : الرسالة كما رأيناها عليها توقيعه وختمه المعروفان لنا .. وهي قادمة من كوبا فعلا .. وكوبا بلد يعالج فيها المدمنون ومشهورة بذلك .. فالمشاهير المدمنون يعالجون فيها

قال بكر : قصته مع السيدة محيرة لماذا ورطها بهذه القضية؟ تظاهر بالموت وسافر لكوبا على أنه ميت حتى طليقته وبول يعيشان هناك.

قال علي: اذكر ذلك ، لماذا فعل هذه الفعلة؟! مرضه معروف قبل نقل نشاطه الاستثماري بنفسه لهنا ، وكان رجل شراب وزنا ، وكان يأخذ حقن منع الحمل ومبيدات المني خشية أن

تنجب له ، اعتقد أن لدى السيدة وصديقها الطبيب أمور أخرى لم يفصحا عنها يا دكتور بكر وهل جومار انهى خدماته؟

قال بكر : لا ، لا، ما زال موظفا في القصر ،وعلمت أنه متهم بحرق زوجته أو قل مشتبه به ونحن لا علاقة لنا بخدم وموظفي القصر علاقتهم مع نذير ثم مع السيدة.

قال علي: الاختفاء خمس سنوات غريب ومزعج حتى السيدة اختفت لشهور للمعالجة من إدمان الكحول .. الحمد لله أن العمل لا يتأثر كثيرا بتصرفاتهم .

قال بكر : أنا كنت افكر بعد تملك السيدة أموالها بشكل كامل أن اطلب منها بيع حصتها في المجموعة ونعيد هيكلة المجموعة من جديد ، وقد نتخلص من بعض المصانع .

قال علي: تحدثت معها بذلك.. تحدثنا وقالت كنت افكر بذلك وبيع القصر والعودة لوطنها في ألمانيا .. لا شيء يربطها بهذا البلد فموطنها أوروبا.

قال بكر : ألم تختار زوجا لليوم؟!

قال علي: الوصية أجلت فكرة الزواج والزواج .. وإلا عدد كبير سعى لذلك ظهر البرت قريب أمها، الدكتور لوقان مع أنه متزوج وله أولاد ؛ لكن المال يغري

قال بكر : هذه المرأة جميلة وحولها الأصدقاء.

قال علي: شاع قديما عن علاقة آثمة بينها وبين الطبيب، وغضب منه نذير، ثم قل اتصاله بها فبقي مجرد طبيب.. الدكتور بسيل صديق نذير ـ شلة نادي القمار ـ سعى للزواج منها بعد موت نذير وفشل وطاردها هو وغيره بالرسائل والمحاولات ، وطلق زوجته لتحقيق هذه الرغبة حتى هلك من قريب بسرطان القالون ، وحلم منذر بذلك ، طلق زوجته والتهى ببنات الملاهي ، التقيته مرة فقال عن صاحبه : مات وهو في حسرة من فشله بالزواج منها كان يعشقها كالمراهق وقال متحسرا : ابتعدت عنا بعد موت نذير ، وفقدنا حفلات القصر والقط الأسود والأحمر

قال بكر : نعم ، تحدثت السيدة عن إزعاجه لها ..السيد كان يلعب القمار

قال علي: تعرف عليهم في نوادي القمار ..كان مقلا يلعبها كهواية وتسلية .. همه النساء والزوجات .. وفرصة للقاء نساء علية القوم كما يقال .. لأن هذه النوادي يغزوها الأثرياء وأصحاب الأموال والأرصدة الكبيرة .. شعاره النهار عمل والليل سكر ونساء .. وكان يحب أن يكنّ من المتعلمات كالمهندسات والطبيبات .. ليس سرا كان يجلب فتيات من أوروبا وروسيا يقضين ضيوفا في شقتيه للمتعة والتسلية.

قال بكر : المال .. هو يريد المتعة والفسق وهن يردن المال .. كانت سلوفانا تضيق من ذلك وطلبت منه ممارسة دعارته خارج القصر .

قال علي: كما قلت قبل ثوان الشقتان كانتا مسرح العمليات ، وكانت تعلم بأفعاله وساكتة ؛ لأنها تزوجته من اجل المال؛ لكن قصة الموت لليوم لم افهم المغزى منها!

قال بكر : من يعش سيعلم الحقيقة والسر .. الوصية كانت مريبة ، ولم ندقق فيها والميراث كتب تأخيره بعد مضي السنوات

قال علي: إنها تعيش صدمة .

قال بكر : كسبت الأرباح خلال السنين الماضية أهي غنية؟

قال علي: لقد كانت وما زالت تملك الملايين باسمها وحدها.

****

القصر يرقب عودة نذير حسب الرسالة التي أرسلت للسيد علي ، دخل جومار القصر واستقبلته السيدة أمام القصر ، ورحبت به وعانقته أمام دهشة الحرس والموظفين ، فقد ذهب جودت لجلبه من المطار ، ذهبت به السيدة إلى مكتبها الخاص تصحبها نورما التي احتلت مكان السيدة ديانا التي رحلت لتركيا .

ادخل الخدم القهوة واستأذنت نورما بالعودة لمكتبها ، فلما اغلق الباب نهضت السيدة وعانقت السيد عناق الولهان ، وعادت لمقعدها ، وقالت: ابننا ما زال مفقودا لا جديد ، وما حدث معك ؟

قال: لم يستطيعوا اتهامي لنقص الأدلة ، واستطاع المحامي بعد جهد جهيد أن يسمح لي بالخروج والعودة للعمل ، وتعهدت بالمثول بين أيديهم في أي وقت يطلبونني فيه .. وهل من أخبار عن عودة السيد ؟

قالت: كما أخبرتك ، بعث رسالة غامضة للشركة ؛ بل للدكتور علي ، ولم يتطور شيء بعدها ولم يعد ونحن نعيش في حيرة وارتباك.

قال: هل حقا هو حي ؟

قالت: مكتب المحامي في برلين يؤكد أن الرجل غير ميت ، وأرسلت لهم صور التقرير وشهادة الوفاة ، وتحدثوا مع مالطا ، وارسلوا لهم الصور، فنفوا وجود هذا المستشفى في البلاد ومعلومات التقرير ورقمه لا وجود لها ، ودائرة توثيق المواليد والموتى لا يوجد فيها اسم هذا الشخص ولا وزارة الخارجية لديها وثائق باسمه كميت حتى أمي وأبي دهشا من حياته.. هم مثلي صدقوا بموته ، ولم يهتموا بحياته أو موته، فالعمل هو شريك مالي فقط انسحب من مجلس الإدارة عندما رحل لهذه المدينة ، وكانت الأرباح توضع في حسابه حتى اليوم ، وستوزع ثروته بعد السنوات الست.

قال: لماذا وضعنا في هذا المأزق؟

قالت: لا تفسير عند احد سيد جومار ، طلبنا التحقيق في الجثة التي في التابوت ، رفضت السلطات حتى يظهر السيد حيا فإخراج لجثة مربوط بحياة نذير فعليا حتى يفهموا هذه الخدعة واللعبة.

قال: ونحن ماذا سنفعل؟

قالت: سأطلب الطلاق فورا فور ظهوره ونتزوج في ألمانيا.

قال: ويقبل والدك!

قالت: هناك لا دخل للأهل في حياتي الخاصة ، ويمكنك أن تعيش مع امرأة بدون عقد

ـ والولد

قالت: عندما نتزوج ننجب غيره بإذن الله.. أنا أبي مسلم مثلك.. أمي بروتستانتية

قال: أنا احب أن نعيش كزوجين ، يصعب عليّ الحياة على طريقتكم الغربية

قالت: أنت حبيبي وجعلتني أما.. أنت والد ابني .

قال: سنستمر بالبحث عنه بإذن الله .. ما رأيك أن نعيش في الهند؟ فبومباي مدينة عظيمة وبلد المال والاستثمار في الهند.

قالت: بعد الطلاق والخلاص نفعل.. أنا احب الشرق وسحره .

قال: ألم يعلم ما فعلنا؟!

قالت: صدق لا ادري، لم يحدثني يوما عن شكه فيك وبما يأكل ويشرب .. قضيتك ليس لها حل.. إنني بشوق إليك .. كان وجه مايكل بلون وجهك.

قال: وأنا كذلك كلي شوق.. واحلم باليوم الذي نعيش في أمان ؛ ولكن الوصية الخبيثة جعلتنا نصبر ونؤجل الزواج على غير ما رسمنا ودبرنا .. وأنا احتفظ بصور مايكل .

قالت: هل ستمكث هنا؟

قال: مسموح لي العمل والبقاء حتى يحتاجني البوليس.

قالت: وكيف سيعرفون الفاعل والقاتل؟

قال: لا ادري كيف ؟!اذا اعترف شخص بذلك فتتم براءتي من افتعال الحريق

قالت: ألا تعرفه أنت؟

قال: لو عرفته لا استطيع اتهامه .. أنا لا ادري لماذا فعل ذلك ؟ كنت افكر بالطلاق لولا الطفل جان كومير .. وأمرُنا كان ينتظر السنوات الست ؛ لنغادر البلاد .. النساء عندنا لا تحب الطلاق ولكنه يقع .

عبرت له عن حبها وشوقها ، وأنها ستكون له فور طلاقها ، وأن نذيرا انتهى من حياتها وسيبحثان عن الولد ، قالت : الدكتور لوقان يرى أنك قتلت زوجتك تمهيدا للزواج ؛ لأن قوانين ألمانيا لا تقبل الجمع بين الزوجات.

ضحك وقال: لماذا اقتلها ؟وهي ترعى الشاب الصغير ، وابني الكبير يعمل بعيدا عنا ، وتزوج في دلهي وهي ليست أمه .

قالت: حسنا! باشر عملك في القصر كالمعتاد ، وأنا في انتظارك آخر الليل اشتقت إليك

فقبلها وداعبها وخرج لمكتبه ، واجتمع بنورما والموظفين ، وكان يقول لنفسه : هل استمر مع هذه الأنثى أم اهرب؟ هل نذير حي ؟ وهل له يد في سعيه لحرقي ؟ فحرق المرأة لاتهم بقتلها هل كان يعلم بتبديل بعض حبات الحبوب بطلب من لوقان وسلوفانا ؟ دفعتني إلى الجريمة بزعمها حبي .. أغرتنا نحن العاشقين بالجريمة .. اذا اكتشف عشقي لها والتآمر معها وعرف أن مايكل ابني من زوجته لن يرحمني .. إنه حقود وماكر، له يد في قتل الزوجة يتكشف لك يا جومار .. عشرة سنوات معه !

****

سيطرت سلوفانا سيطرة كاملة على جومار بعد أن ابتعد عنها لوقان بسبب اكتشاف نذير العلاقته بينهما ، ورغبت بجومار للمتعة وتخلي نذير عن معاشرتها منذ تركا ألمانيا ملّ منها ومن جسدها كما توقعت ، فهو لا تبقى له عشيقة إلا أياما أو بعض الأسابيع ، ولكن احترم مشاعرها كما يزعم ومارس فجوره في شقق خاصة كما مر معنا ، فلما ابتعد الطبيب ومنعه نذير من النوم في القصر استطاعت إغراء جومار والإيقاع به واستسلم لها ويستغل الليالي التي لا يعود نذير فيها للقصر ؛ ليكون بدلا منه حتى أعلمته بحملها منه واستقبلت ذلك بفرح وأن هذ ا هدف لها وسعت إليه من الاتصال به فأصبح زوجا لها وبحذر شديد .

كانت تعيش في جناح خاص ، وخادمتها الفرنسية التي تعاقدت معها تنام خارج الجناح ووجدت كخادمة وعين وليطمئن نذير بعدم تسلل لوقان للمبيت معها .

فكان جومار يغشاها اذا كان السيد خارج القصر حتى الثانية فجرا خشية أن يعود ليلا بعد سهرة في نادي ، وكانت تستقبله بحب ووله بعد ولادتها منها ، فاصبح هو الزوج الحقيقي لها فيقضي بين يديها ساعة من الزمن ، ثم يتسلل لحجرته ، وكان نذير يعجب من عدم رغبته

بإحضار زوجته ، والفرنسية جوليا تؤكد أن لا احد يدخل عليها ؛ لأنها هي نفسها كانت مشغولة بأحد خدم القصر رغم وجود الزوجة ، وكانت تدفع له مقابل الفاحشة كما فعلت زوجة منذر مع رومو .

كان جومار رغم السنوات والعادة يخشى انكشاف أمره والتعرض للأذى البدني كالقتل ، وكان مهيئا نفسه للفرار معها للهند عند الاضطرار ، وهي لم تمكن أحدا من رفاق نذير أن يشاركها الفراش رغم ترخيصه لها بالفجور ، فجومار الزوج والخادم الأمين والشريف والزاهد في النساء أمام سيد القصر والخدم والحرس ، وكان نذير يحتقر الخدم ، مع حاجته للخدم ويعجب نفسيا كيف رضوا بهذه الحياة ؟ ويخدمون السادة ، وكانت سلوفانا تدرك لو عرف أنها عشقت الخادم ليصاب بالجنون ؛ لذلك كانت تظن أنه لا يخطر بباله أن تعيش حياة فسق مع خادم أو حتى رئيس خدم ، فكيف لو علم بحملها منه ، وكان جومار يعلم هذه الحقيقة والنظرة الطبقية منه للناس ، وكيف سر عندما رآه يطرد الخادم رومو الذى مارس المتعة مع فريدة واعتبرها منحطة وحرمها من اللقاء به.. لم يكن يزني ببنات الهوى والمومسات كانت فرائسه من بنات وزوجات الأرستقراطية وعلية المجتمع.

والسيدة كانت تراه افضل عشيق عرفته في عمرها ، ووجدته الأفضل بعد خروج الدكتور لوقان من حياتها كعشيق الذي شك به نذير ، وهو متزوج وله صديقات غيرها كما صارحها بذلك.. ولم تسع للتحقق من هذا الادعاء.

فكان جومار خاتما بيدها ، ونذير يصعب عليه أن يصدق أن تتخذ منه عشيقا ، والخادمة أكدت له بعده عنها ، المرأة عندما تفجر تستطيع ترتيب الأمر والظروف ، ولا يهمها الفجور مع ملك أو عبد ؛ لأنها أصبحت تخضع لشهوتها الجامحة ، واستطاع جومار أن يكون الفارس الملبي لها رغبتها ورغب هو بذلك وإن تظاهر بغير ذلك وقبل هداياها ومالها ونسي زوجته أليشا بالان ، وكان تتدعي في قلبها الانتقام من زوجها، الزوج المستهتر بعلاقته النسائية "كما تخونني أخونك" ولكن جومار خادم يا سلوفانا وتقول : أأمن !

لذلك بعد رجوع جومار للقصر عادت الليالي الخاصة بينهما من الفحش والزنى ، فجوليا فصلت وعادت لبلادها من قبل بسبب رحلات سويسرا ، كانت تجلس وفتحت جهاز الحاسوب الخاص بها لتتفقد الاميلات الإلكترونية ، فلها أيام لم تنظر إليها ، ولما شغلته تبين أن في الجهاز قرص سي دي ارتبكت ، فهي من النادر أن تضع القرص، ولما اشتغل الحاسوب فتحت القرص ؛ فإذا هو فلم ، يصورها وهي عارية على السرير وجومار ينظر إليها ، فأوقفت الحاسوب ورددت: من فعل هذا ؟! وتابعت المشاهدة فلم اباحي لها مع جومار خلع ثيابه واعتلاها .. ربع ساعة مدة الفلم ، ثم خرج أو اختفى عن الكاميرا ، دهشت وجنت من الفلم وممن صوره ؟وممن وضعه في الحاسوب ؟ الصور في نفس الحجرة لكن الأثاث الموجود غير الموجود في الفلم فهذا يدل على قدمه .. متى ؟ ومن وضعه في الحاسوب ؟!

ارتدت الثياب وذهبت لمكتب جومار ، وهي تحمل القرص ، واستمع لها فصعق ، وامتقع وجهه وهو يشاهده وقال : كيف حصل هذا ؟!ومتى؟! يبدو أنه قديم منذ اعترفنا بحبنا .. الأثاث يدل على ذلك هل كان في الحجرة كاميرات سرية؟

وقالت : الفلم يؤكد ذلك ، كنا مكشوفين لنذير !

وقال : هل هو الذي صوره وسكت عنا تلك الأيام ؟

قالت : كيف وضعوا كاميرا في حجرتي؟

فسر لها قائلا : كنت تسافرين خاصة فترة الولادة فدسوا الكاميرا ، هل هن موجودات الآن سأعمل تفتيشا.

وقالت : والقرص !

وقال : احدهم دخل حديثا ووضعه في حاسوبك .

وقالت : وكيف أكدت أنه قديم ؟

قال : من أثاث الغرفة وألوان الستائر ، وهذه الألوان والموديل كانت في فترة بداية حبنا

وقالت : هناك غيرة وانتقام ومكر

وقال برعب : أنا لا احتمل هذه اللعبة .. علينا بالهرب يا سلوفانا ! لا ندري ما يخطط لنا.. أنا سأهرب يا سيدتي ونلتقي في الهند هناك مليار بنو آدم يعيشون فيها.

قالت بتأمل : وهل هذا يحل الإشكال؟ تمالك أعصابك .. أنا حرة في جسدي ، وهو يعلم أنني مارست الفسق مع غيره في رحلاتي السياحية .. هو الذي يزعجه العشيق الدائم ليس ليلة مع هذا وليلة مع آخر .. لماذا انزعج من لوقان وسمح لشلته الأطباء أن يحاولوا معي وإغوائي ؟ لماذا ظهر هذا الشريط في هذا الوقت ؟ ومن ادخله الغرفة ؟ سأتحدث مع علي .

اتصلت فورا بعلي ، وذكر أن الرجل لم يبعث شيئا بعد تلك الرسالة لليوم، وهم في حيرة من صحة الرسالة رغم وجود التوقيع والختم.

قالت لجومار : لم يخبر بعودته .. لم يظهر

قال : هل عاد دون الاتصال بهم أم أنه كاذب؟! كيف وضع القرص في حاسوبك الشخصي؟

وقالت : ولماذا يكذب وأنا التي كلفته بإدارة الشركة ؟

قال : إني مرعوب يا سيدتي ! فلماذا صورنا وصمت طيلة هذا السنوات؟!

قالت : ليقول لي إني مطلع على خيانتك منذ بدأت ، وقد يكون هو وراء قتل زوجتك يا جومار .

قال : حياتي إذن في خطر! وقد كنت أنا المقصود بحرق غرفة نومي.

وقالت : اجل هذا بين الآن .. من الجاسوس علينا ؟

وقال : ما تقولين في هذه السكرتيرة التي استلمت مكان ديانا؟

وقالت : إنها تعمل منذ وفاته هنا ، وعملت مع ديانا فترة علاجي في بازل ، وعلي رشحها للعمل معي.

وقال : لا يوجد موظفون جدد غيرها ، والحرس يستبدلون من الشركة الخاصة بالأمن ، ولا يدخلون القصر مساكنهم عند الباب .

قالت : قد يتسلل احد الخدم .

وقال : الذي دخل رجل ذكي ! أين زرع كاميراته ؟ وهل ما زالت موجودة؟

وقالت : اصعد للجناح وسأجلس مع نورما ، واذا لم تكشفها سندعو مهندسا للبحث عنها

وقال : بالك هل ما زالت ؟ والفلم قديم التصوير .. سنغير موقع اللقاء

وقالت : في حجرتك لا اصبر عنك ، وأحضرت لك أدوية تنشطك .. دع الخوف واذا حدث الطلاق فورا سنتزوج.

وقال : أنا خائف سوف انتظرك في الهند ؛ لعله اكتشف إنني ساعدتك في الخلاص منه

وقالت : لا اعتقد أنه عرف .

وقال : هو يعاقبنا من اجل ذلك ؛ وليس من اجل الحب والغرام.. عليّ بالهرب

قالت : والهرب هل ينجيك من انتقامه؟ لقد خطف ابننا يا جومار فهذا هو الانتقام .. أنا لست ضعيفة .



حياة نذير

نذير عاش طفولة بائسة أخلاقيا ، والده مهاجر شرق أوسطي إلى البرازيل ، عمل مهندسا في شركات الكيماويات وصناعة البترول ، تزوج امرأة ثرية في سان دي جانيرو ، وولدت له وكان أخرهم نذير ، عندما كان نذير طفلا دون الخمسة دخل حجرة أمه فجأة فرأها في أحضان رجل غير أبيه ، عارية وهو عار ، فلما شاهدهما صعق ، مشهد تخزن في الذاكرة ؛ كما كان يقول لأمه وأبيه ، وصاحت أين كارينا ؟ المربية تقصد ، ونهضت عن السرير ودفعت العشيق بعنف وهي تصرخ : لماذا لم تغلق الباب بالمفتاح ؟

فقال وهو يلبس ملابسه: لقد نسيت لما رأيت جمالك يا حبيبتي!

جاءت المربية مهرولة فصرخت فيها :كيف تسمحين لنذير يدخل علينا؟

وقالت : ظننته مشى للحمام سيدتي !

هذا المشهد تكرر منه متعمدا لتكف عن الزنا في البيت ، أنبته أمه ووبخته ، ولم يرتدع ، وانبه والده بالدخول حجرة النوم دون قرع الباب ، واتهمه بالكذب عن حديثه عن رجل مع أمه ، وتكرر هذا المشهد في طفولته ، فوالدته لم تعبأ بأبيه حتى أنه لم كبر ودخل الجامعة سأله عن سبب صمته فقال له: أنا مريض وضعيف جنسيا ، وأمك عاهرة وأنتم خمسة .

وبعد هذه التكرارات أرسل لزريق عند أعمامه وعائلته الكبيرة لإكمال المدرسة ، ورجع لدراسة الجامعة كلية الاقتصاد في فلوريدا الأمريكية ، وكلما زار البرازيل وجد أمه كما تركها تعبث بعشاقها أمامه بدون حياء ؛ لذلك كان يمارس الفسق مع الفتيات دون تأنيب ضمير وأخلاق رادعة ، ولما تخرج من الجامعة بكالوريوس إدارة اشتغل مع أبيه في احدى شركات العائلة ثم أرسله والده للعمل في الصناعة مع شريك له ، ثم تعرف على مستثمرين في صناعة السلاح والطائرات الحربية ، وتعرف على احد الكبار وتعلق بابنته داليا ، وخلال سنوات امتلك ثروة كبيرة وتزوج ابنة غسال حيتان ، ثم اكتشف أنها عشيقة لابن زوجة غسال المتبنى بعدما طلق والدتها البرازيلية ؛ حيث تزوج امرأة غنية لها ابن متبنى من زوجها الأول ،

وولدت له داليا وهي على ذمته أمام القانون ، فلما علم نذير بالولادة أراد أن يطلقها فهربت بابنها من أخيها إلى كوبا ، فترك الأمر لتبقى الشراكة مع غسال الذي يستثمر أموال الأرملة الثرية ، ونسي موضوع داليا ، وكان يعمل ويستثمر مع آخرين في الصناعات الثقيلة ، ولم يتزوج على داليا ولم يطلقها ،والتهى بغانيات رجال الأعمال، ولم يعترف ببول ابنا ، وفي كوبا تزوجت عشيقها وحمل بول اسمه وهي غير مطلقة ، وكان نذير يستخدم الواقي الذكري وأدوية منع الحمل حتى لا يخدع كرة أخرى، حقق السيد نجاحا كبيرا في البرازيل وتشيلي حتى اصبح له شهرة بين رجال الأعمال في العالم ، وذلك في حوالي خمس عشرة سنة ، وكان والد سلوفانا يمر بأزمة عاصفة في بعض الشركات في وطنه برلين الغربية ، والتقى به أثناء رحلة في البرازيل يتفقد استثماراته في صناعة السيارات والشاحنات والجرافات ، وعرض عليه أن يستثمر بعض الملايين في ميونخ وبرلين وفرانكفورت ، فانتقل لألمانيا مستثمرا ، والتقى بسلوفانا وعشقها من أول لقاء ، وحاول معاشرتها بدون زواج ؛ ولكنها ادركت تأثير جمالها عليه ، وتزوجا كما مر معنا ، ولما رتب أمور الشراكة مع والدها وأسرته عاد لبلده ليعيش فيه ويتابع استثماراته وقد شيد القصر قبل عودته لزريق .

كان يكره النساء بشدة رغم العشق النهم الشديد لأجسامهن ، وكل عشيقاته من الطبقة المخملية، لم يجامع بنت هوى أو مومس .. بنات ليل ؛ إنما الطبقة العليا ؛ لأن المال والذهب والسهرات هو السلاح الذي تسيل له لعابهن ، جل عشيقاته بنات عائلات ثرية ، كانت أمه لها من العشاق حسب كل جيل ، كان الماضي لأمه يرهقه، ولا يثق بأنثى، وأخواته إنه أخواته وجدهن مثل أمه ، ووالده لا ذكر عنده ، كان عاجزا عن إتيان النساء لمرض أصابه، يتفرج على أفلام الإباحية ، ومارس الزنا مع نساء القمار إلا ريما مع علمه بأن منذرا وماهرا وعريفا نالوا منها ، كانت ترهبه وتخافه ، وكان يعلم بعشق زوجته المهجورة بلوقان طبيبها وطرده وتشاجر معه ، ثم اكتفى بأن يكون طبيب القصر ، ولم يعد يقبل بياته في القصر ، كان لا يحب لزوجته أن تتخذ عشيقا دائما ؛ ولأنها امرأة بحاجة لمن يداعبها وتداعبه ، وكانت تسكر مثله

لبغضها له ، فتهرب للخمر والحشيش وفترة تعاطت الكوكائين، وتعبت منه ؛ ولكنها لما اتخذت جومار زوجا سريا حتى تحمل منه جنينا بصحة جيدة ، كان لا يحب أن يعرف عشاقها العابرين سواء هنا أو في أوروبا ، وادرك أن الطبيب ملّ منها وأصبح صديقا وطبيبا لها فحسب ، ثم تفاجأ بعلاقتها بجومار الخادم وقال لنفسه : لهذه الدرجة انحطت يا الهي! لما تسيطر الشهوة والرغبة على الإنسان مثلنا ، خشي الفضيحة رغم الصدمة ، فزاد الاحتقار لها فصور لها فلما مع الخادم ، واكتشف أن حياته بخطر منهما ، وأنهم يدسون لها السم البطيء كلما يتحسن الكبد ينتكس ، ويزعم أن المخدرات والكحول والنسوان السبب ؛ لكنه لم يعرف كيف يسمم ؟ ثم اكتشف أن زوجته ولدت من الهندي من سنوات كما فعلت داليا اكتشف ذلك من مكالمة خاطئة في البداية ، لم يعرف من أبيه ، كانت السيدة في أوروبا تتفقد ابنها وجومار في إجازة فركبت الكاميرا الخفية في مكتب جومار ، وفي غرفة نومها ، كان يحبها كلما يهم بالانتقام يقف جسدها الذي ارتوى منه حائلا من الانتقام ، فهو لا يقربها ربما كل بضعة شهور كإحسان ، ففكر بالتظاهر بالموت ، وبدأت الخطة عندما مرض ليلة القط الأسود.

****

تكشفت للسيدة أن علاقتها المحرمة بجومار مصورة ومكشوفة كل هذه السنوات بناء على أن القرص مصور من زمن بعيد ، وكانت تقول له: أتراه يعرف بحملي منك؟

قال : اعتقد ذلك ، لم يكن غبيا نحن كنا الأغبياء يا سيدتي ! فهو رجل يتعامل مع الكاميرات في المصانع والإدارة والفنادق .

وقالت : هل وجد المهندس مكان الكاميرا؟

وقال : يقول لا يوجد في غرفة النوم أي كاميرا ؛ ربما استعملها في وقت ما أو كاميرا غير ثابتة في دمية في تحفة في زجاجة عطر ثم أخفيت .

وقالت : وهل عرفت من وضع القرص في الحاسوب ؟

قال : لم استطع معرفة عين نذير ، إنني مرعوب أعيش في رعب يا سيدتي ! سيعمل على

فضحي سأقدم استقالتي والنفاد بجلدي .. هل تستطيعين حمايتي ؟ أنت زوجته الشرعية وألمانية فلا يستطيع إيذائك ، والذي سعى لحرقي سيكرر الفعلة .

قالت : أنا اقدر ضعفك أيها الحبيب ! وأنا مثلك موقفي ضعيف ..الشواهد الصبيانية تدل على جنونه ؛ فكان طلاقي اسهل من كل هذه الألعاب ؛ لكن ابني ضاع في هذا الصراع هل هو حي ؟ وهل عرف بأننا كنا نتآمر على حياته.. الطبيب لوقان اخبرني أن السم لا يمكن أن يعرف تظهر آثاره فقط .. هي عقاقير طبية وهو كان مريضا بالكبد ، ولم ينقطع عن تعاطي الكحول فبدل أن تساعده على الشفاء تساعد على قتله .. لقد تعامل مع لوقان بقسوة وحقد فقبل الدكتور المساعدة على الفتك به ، ولما انسحب الطبيب من حياتي ، وجدت نفسي افكر فيك ووجدتك في لهفة إليّ ، وفكرت فيك كثيرا قبل المغامرة بسمعتي ، وجدتك محبا لي كما أحببتك وأحببت أن ألد منك وأحقق ذلك ، وما زلت احبك يا جومار ، واحلم بالزواج منك ، وأنك الرجل الذي أحببت أن أختم حياتي بالزواج منه وستكون الزوج الأخير لسلوفانا.

فقال : وأنا أحببتك من قلبي وبصدق ؛ ليس فقط من اجل الشهوة ، أنت غامرت من اجلي فأنا احلم أن أعيش معك زوجا وبأمان، وعشنا السنوات الخمس على هذا الأمل، ونجتمع بابننا .

قالت : فهذه الأقراص لا تخيفني هي مزعجة فقط، واذا سافرت لا قيمة لها ، وأصدقاؤنا هنا لا أهمية لهم في حياتي ، كما تركت أصدقاء ميونخ وبرلين فنتركهم ، هم مجرد ذكريات لا علاقة حميمية مع احدهم ، رأيت ما فعلت بشلة وأطباء نذير ؛ كأنهم لا شيء ..أنا أحببتك وحدك فهو يحب عشرات النساء.

وقال : عليّ يا سيدتي بالعودة للهند حتى ترسلين لي ونجتمع للابد ، وسأحاول مساعدة الشرطة بكشف ملابسات حرق الشقة وادفع عن نفسي الشبهة

وقالت : هل أنت متأكد أن في هربك تحفظ حياتك ؟

وقال : اعتقد ذلك .

وقالت مشككة : قد ينال منك هناك.. أنت هنا بحمايتي وحماية قانون البلد.. ونحن لا نستطيع الزواج قبل طلاقي رسميا .. أنا لست أرملة عشنا الوهم كما أراد ، واذا عدت للهند سأغادر إلى ألمانيا حتى يظهر الميت الشيطان نذير خاتم ، ثم انتقل إلى جنيف في سويسرا وأقابل المحامي وربما آتيك الهند .

وقال : أما من خبر من المحامي؟

وقالت : لا خبر.. السيد نذير ينتقم منا بلا شك .. جريمة شكلها انتقام .. أنا حذرت لوقان منه

وقال : أيمكن أن يقتله؟

وقالت : قتلنا ...الحقد وحش يا سيدي!

وقال : ولماذا صنع مسرحية الموت؟ للانتقام

وقالت : نعم ، عشنا في وهم ولهفة انتظار السنين لامتلاك الأموال.. الأعمال لا تهتم بموته كما يموت الكثير ، وحصته تنقل لغيره ، والأموال لورثته.. على كل تملكت الكثير من الأرباح خلالها وهي باسمي ، ولما نقترن سأكتب وصية لصالحك ؛ لتثق بحبي لك ، وسنسعى لحمل جديد ؛ ولعله يحدث قبل سفرك .

وقال : كانت الست سنوات للتضليل.. لعبة ذكية !

وقالت : سأبدأ بفحوص إخصاب يا جومار ! أرجوك لا تتعجل .. نحن في أوروبا لا يهم الحمل بزواج وعقد وغير عقد .. المهم أن تقوم العلاقة برضا الطرفين دون اغتصاب

وقال : أنا مستعد ؛ لأنني ربطت نفسي بك .

امضيا شهرا يمارسان الجماع ، ولم يحصل أي حمل ، ويبدو أن الخوف أثر على نشاط جومار وحسم الأمر بالرحيل .

وقالت : ألم تعرف عين الرجل ؟

وقال : كلهم عيون له

وقالت : الخدم في القصر

قال : الأمر محير كلهم هنود إلا اذا كانت نورما

وقالت : لا اعتقد أن لها دورا .

وقال : المال

وقالت : هي موظفة جاءت القصر بعد موته وسفري للعلاج .. ها هو قرص ثاني يوضع في الحاسوب يا جومار ! كنت عند الطبيبة أنا وإياك وضع قرص حاسوب ولما عدنا وجدناه

وقال : سأجن لابد من هربي قبل أن أموت رعبا .. اهربي إلى والديك .

****

جلست السيدة مع عشيقها القديم الدكتور لوقان فريد ، واطلعته على خوف جومار الشديد من عودة نذير ورغبته بالهرب من البلد وترك الوظيفة . والطبيب هذا كان العشيق الأول لما رحلت إلى المدينة وابتعد عنها نذير ، وملها كما يمل عشيقاته بسرعة ، فتعرفت عليه أثناء وعكة ألمت بها وتردد على القصر كطبيب عن طريق ديانا ، ووجد الدكتور أنها تعاني من الوحدة ، وبدا معها قصة غرام ، فكلما يسهر نذير تتصل به ، ويقضي الوقت معها ، ثم يغادر القصر ووصل خبر الخلوات بها لنذير ، وصور لهما قرص فيديو ، وأهداه إياه ، فابتعد مطرودا ومفضوحا ، وبعدها تزوج وبقيت علاقته بها كطبيب خاص ، وذلك بعد منازعات بينهما ، ورفضه معاشرتها كزوجة ورفضه طلاقها بشكل قانوني انتقلت لجومار خادم نذير الأمين ، وحملت منه وبمعرفة من الطبيب الذي ساعدها في إخفاء الحمل ظانا أن والده ذكرا أوروبيا، وسعى معها وجومار بالقضاء على نذير بإبدال أدوية الكبد بأدوية تزيد من حالته المرضية ووضع أدوية فاسدة أو منتهية الوقت والصلاحية دون أن يدرك نذير ذلك ؛ لأن هذه الأدوية تأتيه مباشرة من ألمانيا أو تركيا ، فلوقان مصدر ثقة عندها وشريك متورط معها حتى أنه بارك لها عشقها وتفريغ شهوتها مع جومار ، فلما حدثته عن مخاوف جومار من اللقاء بنذير ،

شجعها على تركه يهرب ، ولما تتطلق تتزوجه قانونا ، ويبدآن من جديد ، وحدثته عن الأقراص الإلكترونية في حجرة نومها ، فزاد يقينه بوجوده بينهم متخفيا وبجواز سفر برازيلي وقال: هذا شيطان . وتذكر القرص الذي أرسله إليه ليبن له أنه على علم بما بينه وبين امرأته.

فقالت : لابد أنه ادرك سعي للقضاء عليه.

فقاف : هذه الأدوية من الصعب كشف خطرها ، فالمنوم منوم واذا اخذ الشخص زيادة فيموت منتحرا ، وأدوية الأعصاب والأمراض الصعبة تتحول لسموم ، فأدوية القلب لو اخذ الشخص جرعة زيادة تسبب له مشاكل أو الوفاة ، والتشريح يبين ذلك وينسب الخطأ للمريض بعدم التزامه بالجرعة المقدرة ، والمختبرات الحديثة تسطيع تحليل الأدوية وتحدد خطرها ، الأسبرين تناول عدد كبير منه كجرعة واحدة تؤدي للموت ، نحن كنا نستبدل حبتين أو ثلاث ليبدو الأمر طبيعيا ، وأن الأدوية السبب ، يمكننا استخدام الأدوية كسموم والخطر عليّ وعلى وجومار اكثر منك .. أنا أوفرها وجومار يضعها في علب الأدوية الخاصة

قالت : الخطر على الجميع ، سأطلب الطلاق فور ظهوره ، لا استطيع طلب الطلاق إلا اذا ظهر حيا .. أنا أرملة في نظر القانون ، لا تطلق

قال: نعم أنت أرملة حتى يخرج من القمم

قالت: واذا لم يحضر في وقت قريب سأغادر لألمانيا ، وألتقي بالأسرة ، وأراجع مركز المعالجة وأعيش في شقتي في سويسرا شقة ابني المفقود .

فكر قبل رده فقال: خطوة طيبة ! نحن لحد الآن لم نفهم لماذا هذه المسرحية وهذه الحيلة ؟ هل أنت المقصودة أم فعل ذلك لغرض خفي اشتركنا فيه لأمر خفي ؟

قالت: الغرض الخفي الانتقام الحقد ، لي سنوات بعيدة عنك جسديا ، والسيد جومار يستطيع طرده وصرفه بجرة قلم ؛ كما طردنا رومو الخادم .. أنا أرى السم السبب ، فهو كما تعلم جوعان نساء وأسرته كلها مثله .. أتعلم أن شقيقه سمير سعى للزواج مني، تخيل لو قبلت الموقف الدنيء الذي سأكون فيه .. أسرة قذرة منحطة .. فالسم هو وراء الحكاية .. احس

وادرك أن حياته في خطر .. أتذكر ذات ليلة تحدث معي أن الاغتيال لبعض الناس بالسم .. الآن اجزم أن الكلام كان موجها لي ، لم انتبه لذلك ، وأنه يحاورني أنا ومتهما بذلك ظننته مجرد كلام عابر وكلام للتسلية .

قال: هو معقد ، مريض نفسي ، لم احبه يوما متعجرف شرس لسانه بذيء لولا صداقتي لك لما دخلت القصر نهائيا .. حبي لك والصداقة دفعتاني على تحمل وقاحته ولم احب أن أكون الصديق الجبان وقليل الوفاء .

قالت: أنا أحببتك تلك الأيام ، كنت الرحل الحبيب يا لوقان ، ورأيت إخلاصك نحوي وأشفقت عليّ من حرمان الونيس ، وكنت من الجالية أيضا ، ولما حدثت المشاكل دخل جومار كموظف لدى نذير ، فاصبح محط اهتمامي ، ولم احب إفساد حياتك الزوجية ، كانت امرأتك تغار مني بعد زواجك وتكرهني وتعرف ما كان بيننا ؛ كأنني أول امرأة في حياتك الخاصة

قال: لقد شكت من البداية فأخبرتها بحبي لك حتى تكف عن الغيرة ، وهددتها بالانفصال فسكتت على مضض ، وأنا قللت وأنهيت مغامراتي معك بسبب زواجي وبسبب زوجك حيث زودني بقرص حاسوب وأنا في حجرتك كما يفعل معك الآن.

قالت: لم تخبرني به .. أنت صديق وفي ، ولا انسى الساعات التي قضيناها معا ، وأنت رفضت أن احمل منك وأنا على ذمة نذير وأنا امتلأت نفسي بالشوق ؛ لأن يكون لي طفل أو طفلة .

قال: الولد مشكلة وأنت زوجة لغيري ، أنت تزوجت الرجل لماله كما اخبرتيني وهو وافق وبين لك أنه يرفض أن يكون أبا.

قالت: أنت لو عشت في أوروبا الغربية مثلي لرأيت ذلك أمرا طبيعيا ، نساء تعاشر الرجال للحمل ، لدينا بنوك مني وأرحام مستأجرة ؛ كما تلقح الحيوانات يا لوقان! مؤسسة الزواج معقدة وفاشلة.

قال: نسمع ونقرأ .. المرأة تعيش مع رجل سنوات وتلد منه، ثم يحدث الزواج القانوني ، ثم يتحول الأبناء إلى شرعيين

فقالت: الحياة هنا مملة وصعبة ؛ إذن إثبات جريمة علينا صعب افهم منك ومع هذا المجنون والمعقد

قال: قد تكون الحياة في موطنك افضل لأعصابك .. ومن يدير القصر ؟

قالت: سأطلب من الدكتور علي أو بكر بتعيين مدير للقصر ريثما يعود السيد.. لقد كان انتقامه رهيبا يا دكتور! كيف عرف بأمر ابني ومكانه؟

قال: هل ثبت أنه وراء خطفه؟

قالت: لا عدو إلا هو

قال: الله اعلم سيدة سلوفانا

****

الوضع الغامض والخطر دفع جومار للاستقالة للسيدة وقدم الطلب بذلك وأصبحت نورما مديرة القصر ، ولما حصّل حقوقه المالية غادر البلاد سرا ، وبعد رحيله رحلت سلوفانا ومن ألمانيا أخبرت الدكتور علي بعودتها لموطنها ، فعين مديرا عاما للقصر ونورما مساعدة له ، فهو المسؤول عن الطهاة والبستانيين والخدم وعاملات الصالون والإضاءة والنظافة ، وقدم لوقان استقالته من خدمة المرضى في القصر ، وبين أنه كان يفعل ذلك خدمة وصداقة للسيدة ، وعينت الشركة الطبيب نصري عزات معالجا لمرضى القصر .

وصلت السيدة لشقتها في ميونخ التي وهبها لها نذير عند زواجهما كهدية وعلامة حب ، واتصلت بوالديها وأعلمتهم بعودتها للحياة في أوروبا.

ولما التقوا في شقتها وتناولوا العشاء واخذوا بالشرب ، قالت الأم: أنت أشعت خبر وفاة السيد وحملت لقب الأرملة.

قالت: هذا ما حصل فعلا ، وحصلنا على تقرير طبي وشهادة وفاة وحملنا التابوت وصلي عليه ودفن في التابوت لوصيته بذلك.. لماذا فعل هذه الحيلة واشركنا فيها ؟ لليوم لا نعرف ولليوم لم يظهر بدنه ، والسلطات رفضت فتح القبر قبل ظهوره حيا .

قال أبوها: أنا لما انتشر الخبر عندكم وعدنا من زريق تحدثت مع الشركاء قالوا لا يهمنا موته فهو شريك مالي والأرباح تحول لحسابه حتى ينقل للورثة ، وفي البرازيل لم يأبهم خبر الوفاة وهو ليس عندهم بذاته ؛ لأن العمال والإدارة بشر يموتون ، فالعمل المؤسسي لا يؤثر فيه وفاة أو انفصال مدير شريك أو مساهم كثيرا ، وهو منذ غادر لمدينته خف اتصاله بالشركات والمصانع هنا ، وقال المحامي أوكل لسلوفانا الإدارة قبل ذهابه للعلاج .

قالت: نحن كنا نتعامل على أنه ميت ، ونسخة الوصية أثارت في البداية الاستغراب من نقل الأموال لحسابي بعد ست سنوات ، وشرط عدم زواجي خلالها ، وحجزنا له في مركز العلاج لمرضه الكبدي هنا.

قال أبوها: ولماذا هذا الاختفاء الغريب ؟ ! هل هو متورط في قضية تتطلب هذا الاختفاء؟!

حركت الرأس وقالت: لست ادري ! جهزنا انفسنا للسفر إلى هنا ، وقبل السفر المباشر ذكر أن رفيقا له دعاه لمشاهده يخته في جزيرة مالطا ، وذهبنا وجاء الرجل الداعي للفندق ؛ حيث ننزل وسهر معنا ودعانا لجولة في اليخت ، نحن لم نر اليخت ، كان الأمر طبيعيا ، أنا والطبيب اعتذرنا ، وحاولنا منعه لأن اليخت سيكون فيه خمر ونساء ، فغامر وذهب وعاد متعبا وحضرت سيارة إسعاف ونقلته لمستشفى تبين أنه غير موجود ، ودخلنا غرفة العمليات والأجهزة والأوكسجين كانت أعراض جلطة ، وبعد أيام اخبرنا فجرا بمفارقته الدنيا وطلبت جومار الخادم وعلمنا أنه أوصى بدفنه بالتابوت كما يفعل النصارى عندكم وأخذنا تقرير الطبيب والمستشفى وشهادة والوفاة ثم نقلوا التابوت للمطار ، ثم عدنا للمدينة وحضرت شركة دفن الموتى وغسلوه على أنه ولد مسلما صلوا عليه وحملوه لمدفن العائلة ورافقهم الطبيب والأصدقاء وجومار ، ونشر الخبر ، اخوه سمير جاء للعزاء عن عائلته في البرازيل وطلب يدي للزواج ، واستلمت الإدارة ثلاث سنوات وتعبت من الكحول فجئت للعلاج في سويسرا كما تعلمون ، وقضيت شهورا بالتردد على عيادات العلاج ، وعدت للمدينة وبدأت تتسرب الإشاعات عن حياة نذير وتوقف تنفيذ الوصية ؛ حيث جاءت رسالة

للشركة أنه سيعود ولليوم ما عاد ، ذهب لوقان لمالطة ووجد أنه لا يوجد في المكان مستشفى ولا اصل للتقرير والشهادة ، لعبة شاركنا فيها ولا ندري لماذا ؟! هل هناك عملية احتيال؟ فعدت للوطن قبل عودته وسيكون الطلاق العمل الأول لي معه

قالت الأم: الطلاق لماذا ؟

قالت: وهل يفعل ذلك عاقل يا أبي ؟! وهو لا يريد أولاد ، وارغب بولادة واحد على الأقل وأنا دخلت على الأربعين.. إنه مجنون ولا يشبع من النساء والفسق.

قال أبوها: ونحن لنا خمس سنوات لم نره ، وهو شريك ، ترسل أرباحه لحسابه والمكتب القانوني لم يطلب حصته لتباع نتعامل معه على أنه حي.

قالت الأم: سمعنا أن لك طفلا ، من أين أتيت به؟

نظرت لامها وقالت: تبنيته سرا خفية عن نذير ، وكلما ازور أوروبا أتفقده ؛ ولكنه خطف

قالت الأم: اختفى !

قال أبوها: ليس من نذير سمعنا غير ذلك

قالت: لا، نذير يحقن نفسه بمانع الحمل ، ولا يحب الأطفال

قال الأب: احدهم سألني هل ولدت ابنها من زوجها ؟ قلت لم نسمع

قالت الأم: صحيح

قالت: صحيح ! وليس من نذير

قالت الأم: ليس منك.. ابن غير شرعي أم متبنى

قالت: الحق هو مني يا أمي حملته بدون علمه وولدته في برن

قال أبوها: لا يعلم بوجوده !

قالت: حسب علمي لا يعلم ؛ لأنه يعيش في سويسرا في شقة أملكها ؛ ولكني بعد خطفه من سنة اجزم بأنه هو الذي خطفه .

قال أبوها: هذا اتهام خطير !

قالت: لا احد له مصلحة في خطفه إلا هو

قال أبوها: وما المصلحة في خطفه؟

قصت قصة الخطف والبحث في فرنسا والنمسا وتركيا وختمت بقول: أنا أريد ذرية وهو لا يريد

قالت الأم: أتعرفين أباه؟

قالت: اعرف أباه ؛ ولكنه في السجلات ابن من غير أب

قال أبوها: هذا يجهله السيد

قالت: كنت اعتقد أنه يجهل ذلك ، لم يحدثني عن الحمل ؛ لأنه لا يمسني ليشتبه بحمل

قال أبوها: لماذا لم تنسبيه له ؟

قالت: إنه يتعاطى كما قلت موانع الحمل ومبيد الحيوانات المنوية

قال أبوها: قانونا سيكون باسمه شاء أو أبى ؛ لأنك زوجته قانونا

قالت: فولدته وأخفيته ؛ لأنني كنت متوقعة موته بسب التهابات الكبد ودهون الكبد فهو يشرب كثيرا ، وظهرت له زوجة ولها ولد اسمه بول .. هربت به مع عشيقها لكوبا وتخرج من الجامعة

قال والدها: سمعنا بها هناك

قالت الأم: صحيح .. بنت غسال، شريكه في المصانع

قضت شهورا في ألمانيا ولا أخبار عن مايكل ، ثم انتقلت لشقة سويسرا ، ولما وصلت واستقرت أنهت عقديّ الخادمة والمربية ، وعرضت الشقة للبيع ، واشترت شقة جديدة وجلبت خادمة جديدة ، وكتبت رسالة لجومار تدعوه للسفر لسويسرا والحياة معها في شقتها الجديدة ، وبينما هي تنظر رده اخبرها محاميها برانس أن مكتب قانوني في برلين ارسل له وثيقة طلاق رسمية ، وينتظر موافقتها على الطلاق لإتمام الطلاق ، وأن زوجها سيدفع لها خمس ملايين ، ولن يقاسمها ثروته ، وتأكدت حياته بهذه الرسالة ، وأنه مطلع على أسرار حياتها مع

لوقان وجومار ، وطالبها بالتنازل عن وكالة المجموعة الوكالة الخاصة ، وكان المحامي يراسل مكتب قانون برلين ، وسعى المحامي للقاء نذير ، فاخبره المكتب أن الرجل يعيش في كوبا ويصعب عليه الحضور شخصيا، وترك لها زوجها رسالة في برلين سترسل لها في وقت معين حسب ترتيب السيد

****

حدثها جومار أن السلطات لا تسمح له بالسفر إلى أوروبا ؛ لأنه ما زال المشتبه به في القضية بحرق غرفة نوم زوجته وموتها ، وتسبب في قتل ابنه الصغير الحدث ، وخشية الحصول على جنسية أوروبية فيضعف طلبه ، وأنه يفكر بالهرب ، ووعدها بالسفر في اقرب فرصة ليبحثا عن ابنهما المخطوف ومعرفة مصيره .فقالت : أنا في انتظارك .

كانت تقضي الوقت بين المعارض والأزياء والمسارح والأفلام، وذات ليلة وهي في احد المطاعم الشهيرة تتناول وجبة العشاء وحدها كما اعتادت اقترب منها رجل فحياها وقال : سيدة سلوفانا!

تطلعت في وجهه وقالت: نعم سيدي ! من أنت ؟

جلس على مقعد قبالتها ، وطلب من النادل أن يحضر طعامه إلى مائدة السيدة ، وقال: أنا أعرفك أنت ابنة السيد باريش جانسل

قالت: هو أبي فعلا

قال: وأنا صديقه الدكتور بيرس اوكلي

قالت: تذكرتك! أنت تعمل في الجامعة جامعة لودفيغ ماكسيميليان

قال: نعم، أنا محاضر كنت في تلك الجامعة اقدم جامعات ميونخ

قالت: تذكرتك ورأيتك في مجالس أبي مرحبا بك

قال: ما أخبارك؟

قالت: كنت من زمن قريب عند الأسرة

قال: أما زلت تعشين في زريق ؟

قالت: رحلت منها ، وقد تطلقنا من عهد يسير

قال: السيد نذير صديق الأسرة طلقك! لقد عرفني عليه السيد باريش

قالت: انفصلنا، أتعمل في الجامعات؟

قال: نعم ، وما زلت .. وجئت هنا لمجموعة من المحاضرات في التاريخ الأوروبي في القرون الوسطى .. فلما رأيتك قلت إنها ابنة صديقي باريش رجل الصناعة ، نحن أبناء الجالية التركية في ميونخ ، من عهد بعيد لم نلتق ، وما زال والدك صديقا

قالت: تذكرتك جيدا .. ولك ابنة تزوجت من لاعب كرة قدم ، ولم يكن ذلك يعجبك

قال: جميل ! اليوم البنات سيدات أنفسهن

قالت: ما أخبارها ؟

قال: عاشت معه سنوات ، أنجبت خلالها طفلين وانفصلا .. البنات يقبلن المتزوج بسهولة فتزوجت الثاني والثالث وهي تعمل في احد بنوك برلين.

قالت: الحياة لا يرسمها الإنسان لنفسه ، وإن بدا له ذلك

قال: هل تعشين هنا؟

قالت: الآن نعم ، غدا لا ادري

قال: هل تقبلين دعوتي غدا للغداء؟

قالت: لا مانع لديّ على أن تقبل دعوتي أيضا



جومار في سويسرا

استطاع جومار أن يطير إلى سويسرا ؛ حيث تعيش عشيقته التي استقبلته نصف الليل في المطار وساقته لأحد المطاعم وتعشيا معا ، وانتقلت به لشقتها الجديدة ، وقضت بين يديه ليلة من لياليها في قصر نذير.

وحدثها عن طريقة هروبه إليها ، وبعد أيام حدثها عن إمكانية الزواج القانوني، فأجلت الموضوع لأسابيع ، فاستغرب ذلك أين اللهفة التي كانت لديها في القصر قبل عودته للهند ؟!

فقالت : صحيح تخلصت من ذلك الشرير ، والأفضل أن نبقى على هذا الوضع حتى يظهر ابننا فأنا لم أقابل السيد ولم يظهر لا في أوروبا ولا في القصر

قال: أنا اذا تزوجنا أتمكن من الحصول على الجنسية الألمانية أو الإقامة الدائمة في ألمانيا

قالت: الزواج ارتباط يا جومار أريد أن أعيش بدون ارتباط حرة

قال: يبدو أن حبنا ضعف

قالت: لم يضعف ؛ ولكني في أزمة نفسية يا حبيبي .. أنت عندك قضية وأنا افقد ابني

قال: وهو ابني

قالت: أنت غير مهتم كما أنا !

قال: إنه ولدي ، وقبلت بفعلك رغم الخطر الذي كان محدقا بي وما زال

قالت: اصبر ، ها نحن نعيش كما كنّا في القصر .. ألست تملك جسدي ومالي.. لست مستعدة لزواج قانوني .

قال حزينا أو متصنعا الحزن : كما تشائين يا سيدتي! كنت احلم بأن أكون الزوج ، وانتهى دور العشيق

قالت: ستكون عندما تخرج بريئا من موت زوجتك، نتزوج ثم تحبس وأتعرض لفضيحة جديدة .. حبيبي لنا سنوات نعيش معا ، لو حملت منك مرة أخرى ؛ ربما يتغير الأمر أنا دون أطفال رغم المال الذي أنفقته على قضيتك ما زلت متهما ، لم تسطع رشوة القضاة وإنهاء الملف

ولو أرادوا القبض عليك سيطلبونه عن طريق البوليس الدولي فماذا يحل بي جومار في الوسط الاجتماعي الذي أعيش فيه؟ اسع لحل قضيتك.

قال: لم أكن اسمع هذا الكلام في القصر

قالت: كنت مرتبطة برجل ، حبسك يضرني ، أنت كنت الزوج كما تعلم

قال: هذا كلام جديد للموقف

قالت: أبدا نحن هنا لا تهمنا العلاقة الزوجية اصبر اصبر

قال: إلى متى اصبر؟ لي أسابيع .. الحياة بدون زواج هي حياة الدواب

قالت: حياة الدواب ! وما كانت حياتنا في القصر ؟!

قال: كنت عشيقا لك كغيري ، وما دمت طلقت فالزواج أحسن .

قالت: لم افهم وجهة نظرك، يبدو أنك متعب من قضية قتل زوجتك ، ومن الهرب افرض أننا تزوجنا واعتقلت ، هل أظل مرتبطة بك حتى تخرج من السجن ؟ وأترجاك حتى تطلقني أو تعدم يا جومار .. احصل على البراءة ، وسأكون لك زوجة شرعية ونعيش في الهند.

قال: تغيرت يا سلوفانا ! رغبت بالزواج منذ وضعت قدميّ في المطار لأصبح مواطنا أوروبيا وترفع سلطات الهند من بقائي في قائمة المتهمين .

نامت ولم تسمح له النوم في سريرها ، فشعر بالغضب والخزي ، وفي الصباح خرج باكرا وغاضبا وحائرا ، وسكن احد الفنادق وأمضى ثلاثة ليال ، ولم تتصل به فأدرك أن تغيرا كبيرا حدث في حياتها بعد تحررها من نذير ، وأنها وجدت عشيقا جديدا ، فهو اعرف الناس بها وكان مخدوعا بها .

نهشته الغيرة وكان يظن أنه الذكر الوحيد بعد تخليها عن لوقان ، وها هي تتخلى عنه ،كان يظن أن لا أحد ركبها منذ سعد بها ، فاستسلم ، وعاد للشقة وطرق الباب ، ولما فتحته قالت : عدت يا جومار ! ادخل

كان يقف خلفها رجل صغير فقالت : صديقي جاك

فدخل غاضبا وحانقا ومكشرا وصائحا : جاك العشيق الجديد .. أنا ادركت أن هناك رجلا آخر في حياتك ! .. شكرًا سيدتي ! أتمنى لك التوفيق مع جاك . وغادر الشقة دون أن يسمع كلمة وعاد للفندق ، وفي الصباح سافر إلى سنغافورة ومنها للهند ، وعرف أن الخائنة لعرضها لا يحلو لها إلا الخيانة ، يوم الاستقبال شعر بتغير المرأة ، وأن الخائن لولي نعمته سيلقى الجزاء بعد حين ، وأنه خسر الزوجة والابن ، وشارك في جريمة لقتل نذير ، خسر أحلامه بالمليونيرية، خسر المعركة .

*****

ذكرنا أن السيدة تواعدت مع دكتور الجامعة ببيرس اوكلي على مائدة الغداء ، ولما وصلت للقاعة وجدت معه شابا طالبا في الجامعة اسمه جاك ، أخذ عنوانها وكان يتردد عليها لممارسة الفسق أو الحب كما يسمونه غربيا ، فلما جاء جومار وعرف بفارسها الجديد غادر سويسرا سريعا ، وكان الشاب يصغرها بعشرين سنة يدرس الماجستير .

هي لما استقرت في بلدها كانت تفكر بإنهاء علاقتها بجومار للظروف المحيطة به، وقد تحررت من تقاليد القصر وضياع ابنها الذي يربطها به ، ووجدت من يشتهي لحمها رغم الفارق الكبير بينهم في السن ، مضت شهور واختفى جاك من حياتها اختفى بدون كلمة واحدة كوداع أو اعتذار وغير رقمه الخلوي ، واتصلت بالجامعة ، وتمنت لو أخذت رقم تلفون المحاضر ، وأخبرتها الجامعة بانتهاء الفصل عاد لفرنسا، فأدركت أنها أصبحت كبيرة وأنها تُمل سريعا .. وهكذا حياة الغربيين ، فتذكرت أصدقاء نذير والدكتورة فريدة التي هجرها الجميع ، واشتغلت مومسا في باريس ، وقبل ذلك اشتغلت في الدعارة في الملاهي الليلية، تذكرتها ،وقالت : هل سأكون مثلها؟ لقد خسرت الكلب الوفي الذي يقبل قدميّ قبل أن يصل لوسطي تخلص من رقمه الدولي .. وها هو جاك استفاد بدنيا ومالا ، لقد كبرت يا سلوفانا .. عليّ أن أحب رجلا جديدا .. من يتزوجني ؟!

بينما هي ذات ليلة في احد الملاهي تتصيد رفيقا رأت جاك يراقص فتاة صغيرة فأشارت

برأسها له، ولما اقتربت منه قال :هذه صديقتي الجديدة ما أخبارك؟

قالت: بخير لم تعيد المال !

قال: لا شيء عليّ.. لقد أخذتيه من بدني

قالت: هكذا تعيش ،كم دفعت لك هذه ؟

قال: أرجوك .. وقبض يد صديقته وقال :هيا بنا

قالت: سدد حسابك

قال: سددته من بدني . وغادر الحانة تصحبه رفيقته فقالت: هكذا هم الرجال وترعت من الكؤوس ، ولم توفق باصطياد رفيق ليل .

غادرت الحانة والمرقص وهي تقول : أليس هذا فعل المومسات يا سلوفانا ؟ ألا أستطيع شراء ذكر ، إني أملك عشرة ملايين ، عادت تفكر بجومار والبحث عنه والزواج منه ، هو غامر وهرب من اجل الزواج ، وليس من اجل العشق ، وهي غامرت وعلقت بهذا الشاب وصدقت أحلامه وحبه للنساء الكهلات.

اتصلت بسكرتيرة القصر ، وطلبت منها عنوان جومار في الهند أو أرقام تلفوناته ، فأعطتها الأرقام التي كان يتصل بها في وطنه وسألت: هل عاد سيد القصر ؟

قالت نورما : ما زال الأمر غامضا ، وعلمنا أنه اجرى اتصالا بالدكتور علي

قالت: شكرًا سأتكلم معه

قالت: سمعنا أنك حصلت على الطلاق

قالت: حصل هذا ، شكرًا.

أغلقت الخط قبل أن تضطر لشرح قصة الطلاق ، واتصلت بعلي وبعد التحية . قال :نعم اتصل فهو على قيد الحياة ، ويعالج في مركز خاص ، ولم يذكر اسم المرض ، واسم المركز وأعلمني أنه أغلق علاقته بك وأن لا علاقة لك بالشركات ، ودفع خمسة ملايين مخالصة وطلقك ، وأتمنى لك السعادة والتوفيق

انتهى الاتصال ، وأخذت تحاول الاتصال بالهند وبالأرقام التي أخذتها من نورما ، ولم ينتج عنها شيء مهم ، وكتبت رسالة لأحد العنوانين، ثم كتبت لكل العنوانين ، ولم يرد عليها عنوان ، فصاحت مقهورة : مع من كان يتصل أو يراسل . ثم جاءتها رسالة من المحامي الذي تذكرته في النهاية ، فاخبرها انه يقبع في السجن متهما بالقتل لزوجته وابنه .

بحثت عن شركة سياحية لرحلة إلى شرق الهند حيث بومباي ، فالسياحة اليوم تجارة مهمة لكل الدول ، حجزت مع شركة لتلك القارة ، وركزت على بومباي ووفقت للمطلوب ، ولما اكتمل الكروب السياحي ، حجز لهم على الطائرة لزيارة المعابد الهندية والأماكن التاريخية وأبلغت مكتب العمارة بأمر رحلتها ، وتركت المفتاح لرعايتها وتنظيفها ، وركبت لطهران وتابعت للهند .

كانت سلوفانا لما نزلت سويسرا لا تحب الظهور في المجتمع الراقي لأسباب خاصة؛ فكان لا يظهر عليها أنها امرأة ثرية ، امرأة غنية دون مظاهر حماية لنفسها ، فهي في سويسرا مجهولة وتبحث عن ابن لها .

****

تأكد لنا أن السيد نذيرا لم يكن ميتا حقيقيا؛ كما أوهم لوقان وسلوفانا رفاقه في العلاج ، تبين لنا أنه استطاع إثبات خيانة زوجته بالطبيب ، وأرسل له قرص دعارة ، فخفت علاقته بها كعشيق ، واستطاعت الكاميرا الخفية كشف سقوطها مع الخادم من بدايتها وسكت عن الأمر وشغله بعشيقاته تركها تمارس دعارتها مع جومار ، وقد احتقرها لهذا السقط ، وأن جومار ضعيف أمام أمرها ، وأن لا فائدة من طرده ، ويقوم بخدمة القصر بكفاءة ، وستبحث عن غيره عن لوقان جديد وجومار آخر ، ولم يكتشف سر حملها بسبب كثرة سفرها إلى أوروبا تلك السنة خاصة الشهور الأربعة الأخيرة ، وانشغاله بشهواته ، ولم ينتبه مبكرا لسعيها في قتله وأنها تتآمر على حياته إلا لما أخذت الأوجاع تتكرر كل فترة وأخرى ، وكشف له المعالجون أن الأمر غير طبيعي ، فقل طعامه في القصر ، ولم يذهب الألم ، وتبين له أن الأدوية

هي السبب وأكد بعض الأخصائيين أن الدواء المستخدم فيه مشاكل ، وعرف بقصة الطفل وظن أنه متبنى سرا ، ثم علم بأنها ولدته هي من المستشفى الذي وضعت، ولم يعرف والده ؛ لكن عشاقها لا يعدون.. ممن علقت به؟

وكانت له رحلات للبرازيل فيمر على أمريكا وعياداتها من اجل الكبد والأسقام الأخرى ، وله معرفة برجال السينما والتصوير للإعلان ، فرتب مع مخرج لتلك الحيلة ، وتصنع المرض لما جهز المخرج قصة إظهار موته ، ووضعت أمام الساحة واجهة مستشفى وسيارات إسعاف وغرفة عمليات وممثلين، والسلطات تظن أنه فعلا يتم تصوير فلم ومشاهد من فلم كبير وعملت التمثيلية وحمل التابوت للمطار ، ولما طارت الجثة فكك المستشفى ، ورجعت كاميرات التصوير وغادر من قاموا بالأدوار ، وانتهى الفلم وغادر نذير وفريق العمل إلى أمريكا زاعمين تكميل الفلم في أمريكا ؛ لذلك لما جاء لوقان يسأل بعد سنوات كان الأمر منسيا ؛ لأن كل من شاهد المكان عرف أن المكان أعد لتصوير بعض المشاهد لنذير كما قلنا .

غادر التابوت إلى الوطن يحمل جثة مشرد مشتراة لمشهد من الفلم وقاموا زعما بدفنها ، وغادر نذير إلى البرازيل ثم إلى كوبا للعلاج من الإدمان على الكحول والمخدرات ومعالجة السموم ، وكان يتابع قصة موته وهو يتنقل بين كوبا والبرازيل ، وأثناء وجوده في هافانا استطاع معرفة سكن زوجته الهاربة من سنين وابنها بول، وكلف محاميا خاصا في البرازيل أن يتصل بها ويقنعها بميراث لها في وطنه ، وصدقت المرأة واتفقت على نسبة للمحامي وأعطاها المال وذهبت للقصر كما قصصنا ، ولم رجعت سلوفانا من رحلة العلاج أرسلها وابنها مرة أخرى، وقد فشلت في تحقيق فلس من القصر وأعطاهما المحامي المال وأرسلها لزوجها في كوبا ، أحب نذير إزعاج القصر والانتقام هدف نذير ، وصحته لم تتحسن كثيرا ، قلل فقط من الخمر ، وكان يتابع نشاط شركاته في المدينة بأصدقاء سريين ، وكتب رسالة لعلي حتى يشعره أنه حي وأن الوصية باطلة ، وحسابه في أوروبا تتضخم فيه الأموال ويسحب منها القليل؛ فكانت أموال البرازيل ومصنع تشيلي تغطي مصاريف العلاج والحياة .

وكانت السيدة وأهل القصر يعيشون على موته حتى فقد ابن السيدة ، وبدأ الشك في حياته وزاد الشك برسالة كوبا ومقتل امرأة جومار حرقا واتهام جومار ؛ لكن لم يثبت شراء البنزين من قبل جومار ، وهو لا يملك سيارة ، ولما طلقت تأكدت من حياته ، وأنه في كوبا باسم العلاج ، وأرسل عددا من الأقراص ليعلمها أنه مطلع على دعارتها مع الطبيب وجومار وكانت ترغب بلقائه ليعيد لها ابنها فرفض المجيء لأوروبا وظلت في حيرة هل هو حي أو ميت ؟

هذه تفاصيل حيلة نذير لعقاب زوجته وعشاقها ، والنجاة بحياته من سعيها لقتله ، وحل قضية الزواج بخمسة ملايين، لأن قوانين الغرب تلزمه بدفع نصف ثروته لشريكته.

****

سافرت إلى الهند لتصالح العشيق بعد فشلها بالاستمرار بعلاقة مستمرة مع الطالب جاك فأدركت أنها وصلت لسن لا يرغبها الشباب ، علاقات سريعة مثل أيام الجامعة والمراهقة قضاء رغبة والحصول على بعض مالها، أحست أن أفضل رجل لها جومار ، وخرجت في رحلة سياحية نحو الهند ، ولما انتهت الجولة وأشرفت على النهاية انفصلت عن المجموعة باتفاق عقد في سويسرا ، فودعت رفاق الرحلة وانتقلت لفندق آخر ، استطاعت الوصول لمحامي جومار ورحب بها ، وشكر لها اهتمامها بمواطن بلده ، وأبدى استعداده للتعاون معها لمساعدته ، واتُهم خادمها بالجريمة رغم عدم كفاية الأدلة لعدم ظهور مشتبه آخر ، ولإصرار أهل المرأة باتهامه ، فحكم عليه بخمس سنوات لإغلاق ملف القضية ؛ لتقصيره في إنقاذها والتأخر في إبلاغ السلطات.

قالت: أنا ساعدته ماليا ليتخلص من الحكم والحصول على البراءة

قال: إعادة فتح القضية لغير صالحه ولا فائدة من ذلك، فلن يتغير الحكم ،قد تمضي سنوات السجن قبل فتح القضية ، القضايا كثيرة والجرائم كل دقيقة ، فالأفضل أن يقضي المدة حتى لا يبقى تحت رحمة المحاكمة وأهل المرأة .. صحيح عندنا قانون مدني وعصري كما عندكم

لكن التطبيق يتفاوت.. نحن السجون مكتظة بالناس ، سأسعى لترتيب زيارة لك لتشدي من أزره وأنك معه معنويا.

قالت: الرشوة

قال: فعلنا الكثير دون نجاح ، أخذت الأموال دون فائدة ، قد نستطيع بعد قضاء نصف المدة ببعض المال تخفيف مدة الحبس باسم حسن السلوك للسجين .

قالت: حسنا يا أستاذ! رتب لي لقاء به ، ولن أبخل عليك بالمال.

قال: الزيارة مسموحة لكل السجناء ؛ سأرتب زيارة خاصة للقاء دون حواجز زجاجية وشبك.

استطاع المحامي الهندي الحصول على زيارة خاصة ، ولما رآها تفاجأ وقبل يديها وقال: سيدتي هنا .. عساك بخير!

قالت: أنا بشوق لك يا جومار ! لما علمت بحبسك تألمت وجئت لأراك ؛ لكي أساعدك وأشد أزرك ، ومحاميك ساعدني للحديث معك ، وسيستمر معك حتى يفك أسرك وتحصل على عفو وتخفيف مدة الحكم .

قال: ربما بعض قضاء نصف المدة يتحقق الإفراج .. كيف أنت وأخبارك؟

قالت: بخير وأتحسر على فقد ابني ومشتاقة صدقا .. يسعدني أن تعمل معي بعد الإفراج ؛ لأني سأقوم بعمل مشاريع خاصة بي ، وأي مال يلزمك اكتب أو اتصل بي حتى تنتهي محكوميتك والمحامي سيتابعك وقد نعمل شركة هنا في بومباي وسأزورك باستمرار .

قال: شكرًا لك سيدتي قلبك كبير .. ما أخبار السيد جاك؟

نظرت إليه نظرة صاعقة وقالت بغضب مكبوت : بخبر هو طالب في الجامعة .. وعندما يفرج عنك ستجدني بانتظارك .. لا أنسى سنوات قضيناها في القصر

قال: هل من أخبار عن مايكل؟

قالت: لا، سيد جومار

تحدثت مع المحامي تشكره لتأمينه هذه المقابلة ، ووجهته للاهتمام بجومار ، ودعت جومار للصبر وقالت: وأنا معك جومار واذا كنت ترى ببقائي هنا فائدة فأنا مستعدة للبقاء

قبل يدها وقال: شكرًا ! لن أنسى هذه الزيارة ، ولا داعي لبقائك فالوقت طويل، وقد يغضب جاك ، وعندما اخرج من السجن قد أكون لك خادما وعبدا

قالت: سأضع لك رصيدا في البنك، ألك حساب ؟ لا يمكن أن أنساك من اجل مايكل

قال: هل ظهر زوج السيدة ؟

قالت: لم يظهر في القصر بعد ، هو يعالج في جزيرة كوبا ، لا ادري مما يعالج كل هذه السنوات .

قال: إذن هو حي حقيقي لم يمت ؛ كما عشنا السنوات الست

قالت: كانت لعبة شيطانية إلى اللقاء جومار .. انتظر عودتك

قال: أين؟

قالت: في سويسرا

قال: وجاك

قالت: هو طالب فرنسي سيغادر لبلده

قال: أنا سأسعى لمعرفة قاتل زوجتي ، لن أنسى هذه السنوات هنا

قالت: سنفكر؛ لعله نذير

قال: لا أشك بذلك .



عادت إلى سويسرا بدون جومار وما زالت خائفة من العيش حياة طبيعية ، وكانت تعتقد أن خطف ابنها من فعل زوجها وحبس جومار من فعل زوجها إنه ينتقم لسعيهم لقتله بوضع أدوية في علب الدواء لتعجل بموته، فسيطرت عليها فكرة اللقاء به ، وتطلب العفو عنها ، وعن ابنها فرحلت لبرلين وميونخ وقضت بعض الوقت مع أمها ولم تجد لدى والدها أي عنوان خاص لنذير في البرازيل سوى مكاتب الشركة ، وكذلك مكتب القانون الذي يتعامل معه ، فوجدت صندوق بريد له في برازيليا وآخر في سان ريو دي جانيرو

فسافرت إلى أمريكا مطار جون كنيدي في نيو يورك ومنها للبرازيل العاصمة ، وهذه أول مرة تدخل أمريكا الجنوبية لقد زارت نيويورك ولوس أنجلوس قبل الزواج وبعد الزواج منه ؛ بل كان يصحبها لحضور افتتاح وعرض فلم أمريكي جديد .

لم تُمارس العمل منذ زواجها إلا عند وفاة نذير المصطنعة ، وكانت الأرباح تصرف على القصر خدمة وموظفين وخدم ، استطاعت الوصول لمكتب شركات نذير وشركائه ، والتقت بوالد داليا السيد غسال ورحب بها وقال لها: إن نذيرا ممول ومستثمر ، عمل في مجلس الإدارة فترة وجيزة وانتقل لألمانيا ثم استقر مديرا لشركاته في وطنه الأول . وذكر لها أن الرجل له استثمارات كثيرة في البرازيل وبعض دول أمريكا الجنوبية ، فله شراكات في عدة فنادق سياحية وصناعة السلاح ، هو مساهم ولا يدير الأعمال بنفسه ، يتردد على البلاد لمتابعة أمواله، وهو حاليا مريض يتعالج في كوبا من سنوات ، ولا يعرف عنوانه ولا حتى عنوان ابنته وابنها بول .

هي تعلم أن الرجل لم يكن يباشر الأعمال بيده إلا في الوطن ، فهو يستثمر في المشاريع والبنوك ففكرت بالسفر إلى كوبا ، حاولت مع المكتب القانوني في البرازيل أن يؤمن لها مقابلة معه ، فبين المكتب أن ذلك ليس من اختصاصه خشية أن يتعرض السيد لمحاولة اغتيال ، وهم لا يعرفون مكانه الخاص ، وأعطاها عنوان لمراسلته ، واستعملت أرقام تلفونات فباءت بالفشل ولما رأت صعوبة الوصول إليه أجلت رحلة كوبا وعادت لأوروبا تعالج نفسها مما ألم بها من

أتعاب السفر. ولما تعافت من وعكتها الصحية ، اتصلت مع المحامي الذي يتابع قصة ابنها المختطف ، اعلمها أن لديه رسالة من زوجها السابق فتفاجأت من الخبر ، وكان فيها علمت أنك زرت البرازيل سعيا للقاء بي ماذا تريدين ؟! ووجدت عنوان مراسلة فكتبت رسالة قصيرة أريد ابني أو رؤيتك، فجاء الرد قصيرا أيضا أي ابن ! نحن لم ننجب!

فكتبت اعلم أنك تعلم أن لي ابنا، فرد : أنت لم تخبرني أن لك ابنا قبل زواجي منك ، ولم اخبر أنك ولدت مني؛ فأنا لا أنجب ، فمن هو والده ؟ كتبت: اسمح لي باللقاء بك ، فكتب : عندما يتحسن الوضع الصحي والأمني ، فكتبت تذكره بحبه لها وإقناعها بالزواج منه رغم كثرة عشيقاته وحياته الماجنة، فكتب لها : أن غرامياته كانت مكشوفة لها ومعروفة ، وأنه لم يسع لتلد له ، ولما أشفى بشكل تام ، سأسعى للقاء هذا الابن ألا تعرفين من أبوه؟ كتبت : اعرف أباه ، هو ليس لك ، وأتمنى أن أعرف لماذا لم تحب الإنجاب والذرية ؟والحياة بدون الأولاد تعيسة وبائسة، فكتب لها : اذا احدنا شقي فلماذا يشقي غيره ؟! ابنك مفقود أتحبين أن ابحث عنه؟ كتبت : هذا يحتاج إلى مقابلة كتب : أنا لا أستطيع المقابلة والمال يساعد في البحث ومكتب تحريات خاص ،كتبت : أتمنى لك السلامة لا أنسى الأيام التي عشتها في حمايتك، كتب: لم تكن أياما سعيدة ، سعدت بك أول سنة ، ثم تغيرت كليا وخنتني قبل الانتقال لوطني وقصري ، ثم خنتيني مع لوقان ، والأدهى والاحقر مع الخدم وعلى رأسهم جومار .. خادم يشاركك الفراش، رغم أني سمحت لك بتكوين علاقات مع الأطباء فكان ذلك غاية الذل والاحتقار ابنة العائلات الأرستقراطية تعشق وتزني بخادم حتى خجلت من معاقبته وطرده كما فعلتم مع الخادم رومو .

****

زارت سلوفانا المحامي في مكتبه ، وكلمته عن فكرة تكليف مكتب تحريات خاص فضحك وقال : في مسائل الخطف الشرطة أقوى وأقدر من مكتب تحريات ، ولو فرضا وسمعنا أن مايكل في مدينة أو قرية قد يستطيع التحري الخاص معرفة مكان الإخفاء فيها، أما على

مستوى البلد وأوروبا فالشرطة اقدر أجهزة عناصر ، اتصالات مع شرطة الدول فالشرطة بأجهزتها وإمكانياتها عجزت ..فهل رجل واحد أو اكثر يستطيعون تحقيق شيء وبعد سنتين؟ القصة غامضة يا سيدتي ! العادة الخاطفون يخطفون للفدية للابتزاز وللانتقام ؛ ولكنك ذكرت أن لا أعداء لك ،وذكرت لي لو أن زوجك نذير حي لشككت فيه ، وها هو تبين أنه حي ، نحتاج لاعتراف منه حتى يتعرض لاستجواب ، وأدلة الشك لا تكفي للاتهام لو تم القبض على منفذ الخطف واعترف واتُهم السيد لتحركت الشرطة ؛ لأنه اذا لم يثبت الاتهام يرفع قضية ضدك بتشويه سمعته وشرفه أنت عشت سنوات على أنه ميت ، ولا تعرفين لماذا تظاهر لك بالموت ؟

قالت: لليوم لا اعرف القصد ، لو كان لا يريدني لاتفقنا على الطلاق كما فعلنا مؤخرا .. هو يتعالج في كوبا في مكان مجهول ، لماذا ! وهل هو صحيح؟ الله اعلم ، ترك مالطا لكوبا .. طول عمره يعاني من الكبد ، تعلق بالخمر من الطفولة لديه تشمع كبدي ويرفض الاجتماع بي.

قال: ربما وضعه الصحي لا يسمح بمثل هذه المقابلة ، وسافرت البرازيل لهذه الغاية ولم تتمكني من معرفة مستقر علاجه

قالت: نعم ، كما رويت لك ، وهو الذي أشار للاستعانة بالبوليس الخاص وأنه مستعد لدفع التكاليف .

قال: وكيف تشكين فيه؟!

قالت بضحكة ساخرة : يفعل للمراوغة يا سيدي ! فقد عاشرته عشر سنوات متواصلة، في ألمانيا سنتان وثمانية في بلده قبل تمثيلية الموت.. أنا لم احبه هو احبني ، وكان يساعد أبي في مشاريع تكاد أن تموت فساهم في إنقاذها بأمواله وخبرته الاقتصادية ، ولما انتقلنا للعيش في بلده هجرني فاتخذت العشاق وحصل الحمل ، فجئت إلى هنا وولدته دون أن يحس به ، واشتريت الشقة والخادمة والمربية ، وكلفتك بمتابعتهما راتبا واهتماما بأمر مايكل ، والتفاصيل تعرفها ، رفضت الإجهاض كما طلب مني طبيبي الخاص هنا الدكتور انطون بلوكاي ، ولما

اختفى الصبي فجأة كان نذير في نظري ميتا .. هو كان يعلم أن لي علاقات برجال غيره ؛ كما يفعل هو.

قال: وماذا نشاطاتك اليوم؟

قالت: ليس لديّ أي نشاط جدي .. أنا بين المسارح والأفلام والحانات .. حاولت اتخاذ صديق شاب ، دمنا أسابيع وهرب.. أنت تعرف الشباب يهربون من الأكبر منهم سنا لا يتمتعون معهن ، وبعد الأربعين المرأة تبدأ دورتها الشهرية تختل ، والفتيات الصغيرات يملئن الشوارع والحانات ، والكبار من الرجال يتعبون من الجماع.

قال: نعم ، المرأة تعاني في خريف العمر ومنتصفه وحتى الكبار يهربون للصغيرات وحتى أنهم يتفرجون على أفلام الإباحية لضعفهم الجنسي حتى في بعض البلدان الآسيوية وغيرها ترين فتيات الريف يأتين المدن الكبرى للبغاء والدعارة خمس ست سنوات وتعود للريف تتزوج من رجل كبير في السن وتفتح حانوتا في قريتها للعمل والدخل ، وعادة الكبيرات في الملاهي يقدمن خدمات جنسية للزبائن الضعفاء في مثل هذا الفعل ، فالأفضل هو الزواج وبشيء من المنشطات تستمر الحياة ، والشباب يحبون الصغيرات ولهن جاذبية ..تزوجي رجل من جيلك الشباب أو اكبر بسنوات .. الصغار يملوا الكبيرات بسرعة كما نلاحظ

قالت: أنفقت على بعضهم وهجروني دون كلمة الوداع

قال: لعلك لم تخسري الكثير

قالت: اكثر من عشرين ألف يورو

قال: مبلغ كبير كيف التقيتم بهم؟

قالت: في الحانات والمطاعم

قال: سأهتم بذلك.. هل لك شروط ؟ زواج رسمي طبعا لا

قالت: هل يقبل شاب أو رجل اصغر مني بي زوجة ؟

قال: المال حلال المشاكل يا سيدتي !

قالت: هل ترى المومسات مترفهات في حياتهن ؟

قال: لا اعتقد ، عليهن أن يعملن من اجل المال ولشراء المخدرات وإجراء الفحوصات ولا يصلحن إلا أن يكنّ مومسات ، ويستخدمن في التهريب ونقل المواد ، فحياتهن قبيحة والرجال يعاشرونهن لسرعة الخلاص منهن بدون تبعات ، وحتى بعضهنّ يغتصبهن دون أجرة.. الزواج اليوم شكلي لا المرأة مقتنعة برجل واحد ، ولا الرجل مقتنع بإمراه واحدة .

قالت بتحزن : المعاشرة عذاب رغم لذتها ، ويسعى إليها الناس، إن عرف العشيق أنني مع غيره نسيني أو أصبحت احتياط .. اليوم الإعلان كله نساء مغريات ومثيرات ؛ وإذا تزوجت احدهم سأكتشف أنه يذهب لغيري يأكل يسكر على نفقتي ويمارس قوته وشهوته مع صبية أو يرغبون بممارسات شاذة .. الإباحية ظاهرة عالمية ، ولا احد يفكر بعلاجها حتى صرنا نرى مسارح لممارسة الإباحية أمام الناس ليس أفلام فحسب

قال: الركض وراء المال والثراء السريع .. اذا وجدت باحثا عن الحياة الهادئة سأخبرك ..هل تحدث محامي طليقك عن الوثيقة التي نذير عنده لما تطلقتم ؟

قالت : رفض تسليمي إياها؛ لأنها لا تفتح إلا عند تحقق موت نذير

قال : أترين بها معلومات عن مايكل؟

قالت : هم لا يعرفون كما يزعمون.



كانت تشعر بالندم عن تخليها عن جومار الذي جاءها هاربا من القضاء الهندي ؛ ليتزوج منها ويكمل حياته بقربها بعد طلاقها ؛ وليتمكن من أخذ الجنسية الغربية بعد زمن بزواجه من غربية ، وينجو من الحبس بجريمة لم يفعلها ، فوجدها بين يدي طالب الجامعة وترفض الزواج ، فاتصلت بالمحامي الهندي الموكل بمتابعة قضية جومار فطمأنها على صحته وحاله ، وهو يستغرب اهتمام هذه السيدة الغنية بمتهم بقتل زوجته وابنه ، ما هو إلا رجل عمل خادما للقصر كما علم منه كان رئيسا للخدم فقال : غريبة هذه الأنثى ! لماذا تهتم بشخص مسجون ؟

وهي تقول : لو لم يظهر جاك في حياتي ؛ لربما كنت تزوجته وعاش هنا ، لقد عشقته فعلا ولو أنه خادم حقير على رأي نذير .. إنه مخلص وشجاع قبل معاشرتي بوجود زوجي الجنتلمان ، وكان يفعل ما أريده والاهم أن قبل لي أن أكون أما وألد منه رغم الرعب الذي حل به عندما علم بحملي.. كيف عرف اللعين بابني؟! كان عليّ أن أعيش بعيدا عنه ، أيعقل أن نذيرا لا علاقة باختفائه؟ لا يمكن أن اصدق أن نذيرا بعيد عن الجريمة .. هل قتل واختفت جثته ؟ كيف عرف أنه ابني وسكنه ؟ هل للخادمة أو المربية شأن ؟ هنّ لا يعرفن نذيرا ، ولا يعلمن عن حياتي شيئا في قصر زريق .. إنهن يعتقدن أني اعمل في برلين .. هل حدث اتصال مع القصر ورد نذير وانكشف السر ؟ هل كان يتجسس عليّ عندما أسافر؟ هل هو الذي كان يظهر لي أثناء موته المزيف؟ من هم جواسيسه في القصر؟ ولماذا هو يكره الإنجاب؟

وللجواب على هذا السؤال نعود للسيد نذير القابع في كوبا قال يوما لاحد الأصدقاء : سأكشف لك سرا ـ لما سأله عن سبب الخوف من الخلفة ـ أرجو ألا تتحدث به إلا بعد موتي ووعده الصديق بذلك ، فقال: عندما كنت طفلا عرفت أن أمي زانية وبرضا أبي فكرهت النساء ، نفسي لم تتقبل فجورها ، وأمارس الزنا ؛ كأنني انتقم من أمي ونساء العالم ، فصار الزنا أمرا طبيعيا في المدرسة في الجامعة كلما يتاح افعله.. امرأة متزوجة أرملة مطلقة بكر ثيب

انتقم لنفسي ، وتشترى المرأة بهدية بسيطة وبإشارة عفوية تتهافت النساء عليك من اجل المال سافرت للبرازيل شابا وحصلت على ثروة كبيرة .. كنت اذهب لوس أنجلوس للقاء فاتنة ظهرت صورتها في الأفلام أو في مجلة.. هل أنا ابن أبي ما دامت أمي خائنة وتهب نفسها لمن هب ودب ؟ ولما انتشر اختبار دي ان ايه واستخدامه في التحقيقات الجنائية، وقدرته على تحديد الأب البيولوجي سيطرت عليّ الفكرة ، ولو عرفت أن من هو أبي ليس أبي من سيكون أبي عشرات عاشروا أمي.. التقيت بطبيب جنائي فقال : الأمر بسيط اذا أحببت ذلك .. وقت يسير تعرف النتيجة .. اليوم النتائج اكثر دقة عينة دم أو لعاب منك وأخرى من أبيك أو احد فعلا ابن أبيك أو أخت أو جد والمقارنة بين الجينات ، وحصلت على عينة شعر من أبي وتم الفحص وتبين أن الرجل ليس أبي الحقيقي .. أنا ابن من ؟ فمن الصعب الوصول إليه؛ فأنا احمل جينات أب مجهول الأب .. فأمي لا تعرفه ؛ لذلك كرهت أن يكون أطفال لي .. فأنا لست ابن هذا الرجل حقا.. الأولاد إخواني من أمي فقط .. وهل نحن من نفس الرجل الذي أنجبتني منه أم نحن من عدة رجال؟ .. المهم الأم ؛ فلذلك اكرهها بشدة ، كان على أبي لما أصابه العجز الجنسي بتطليقها .. نحن مأساة حرمت على نفسي الإنجاب.. فصرت أنا الذي يأخذ مانع الحمل يا طارق .. مرة فتاة حبلت وزعمت أنها حملت مني ، فضحكت وقلت أنا لا أنجب يا جميلة وأتعاطى إبر منع الحمل القاتلة للحيوان المنوي .. ابحثي عن عشيق آخر .. فهذا سر تحريم الذرية على نفسي حتى لا يحمل احد اسم العائلة، وهو ليس من العائلة .. جريمة أن تحمل المرأة طفلا ليس من زوجها الشرعي ؛ لذلك كتبت كل الأموال في البرازيل وألمانيا لمؤسسات ونوادي وجمعيات ومؤسسات طبية ومعامل أبحاث وجامعات وكتبت أموال البلد لسلوفانا ؛ لكنها لما خانتني غيرت الأمر.

هذا هو سر كره نذير للأطفال ، فهو ابن وضحية الإباحية والانحراف اللذين يجتاحان العالم شرقه وغربه بعد الحرب الثانية ؛ حيث هلك ملايين الرجال ، وانتشار عمل النسوان في المصانع والمكاتب بثياب العري وشيوع الاغتصاب إلى مستو عال .

اكتشف نذير مؤخرا المؤامرة على حياته من قبل الزوجة والعشقين ، لاحظ في السنوات الأخيرة أن الأدوية التي يستخدمها للتخفيف من آلام الكبد تزيده ضررا في بعض الأيام فينسب ذلك للخمر التي يكثر من شربها ، ولما يكون في سفر يتحسن الوضع ، فدفع الدواء وهو في أمريكا لأحد المختبرات بناء على نصيحة طبية ، فوجدوا حبة غير مناسبة لجسمه وسقمه، فهل هي من المصنع ؟ فأكد له المختبر والطبيب ما دامت حبة واحدة ، فهي مدسوسة لأن الجرعات اذا لم تكن مناسبة للجسم تضاعف المرض ؛ فلذلك يقوم الأطباء بإعطاء المرضى الجرعات المناسبة ثم تزاد الكمية تدريجيا أو ينقل لدواء أقوى .. من يعبث بالدواء؟ الدكتور لوقان يكرهه وزوجته، فلابد أن الطبيب يوفر الأقراص الضارة وجومار يضيفها للعلبة، لم يستطع الوصول لكيفية وضع الدواء في العلبة، فكتم الأمر خاصة لما اكتشف عشقها للخادم ادرك أنه متآمر معهم ، وأما الأقراص المغنطة فهم في المصانع يراقبون العمال من خلال الكاميرات في غرفة الإدارة ، وهذ اليوم معمول به في البنك في الشركة المصنع، فطلب من احد المهندسين الذي بينهم علاقة قوية بأن يضع له كاميرات في غرفة نوم زوجته؛ ليعرف من هو عشيقها ، فاشترى كاميرات صغيرة التي تستعمل وتستخدم في التجسس ولدى أجهزة المخابرات ، ولما توفرت الكاميرات فأثناء غيابها عن القصر وضعت كاميرات سرية بدون أسلاك ، فزرع المهندس خمسة في كل جهة واحدة والسقف ، وبعد فترة حضر المهندس بعملية تمويه وأخرجها إلى شقة من شقق السيد ، وحولت الصور إلى جهاز خاص ثم أصبحت فلما أرسل منه نسخة للدكتور لوقان ، فأدرك أنه مكشوف لنذير فترك زيارة غرفة العشيقة واقتصر على العلاج وتزوج؛ ليؤكد لنذير أنه ابتعد عن امرأته ، وأعاد نذير الكرة وفعلا لم يعد الدكتور يتسلل لغرفة النوم ، ثم بعد حين ربما سنة أو اقل وجد أنها تزني مع جومار فاحتار نذير من سقوطها المريع ، ودعاها للبغاء مع الأطباء فتظاهرت بالشرف والعفة هكذا كانت تصور الأفلام ، ولم تكن الأفلام بصوت ، فيديو بدون صوت ، ووضعها في خزانته الخاصة في البنك وذات مرة كان يجلس في مكتب سلوفانا في القصر وذهبت السيدة

لمكتب ديانا لحاجة ورن هاتف سلوفانا الخاص ففتح الخط فسمع امرأة تقول: سيدتي الطفل مريض فسكت وسمعها تسأل سننقله للمستشفى واغلق الخط ، وما دخلها في الطفل أي طفل ؟ وهل لها طفل ؟ هل تبنت طفلا دون مشورة ؟ علم أن الرقم من أوروبا عليه مفتاح سويسرا الدولي ترك المكتب وذهب لمكتبه يفكر واهتم بالموضوع وما اكثر المواضيع ؟ سافرت بزعم ما فتابعها ورآها تدخل المستشفى ذهب متنكرا كما يفعل في الحفلات التنكرية ، دخل المستشفى لعمل فحص للكبد مرضه المعروف ، ورأى الطفل عرف الشقة عرف المحامي والمربية والخادمة السؤال ابنها أم تبنته !

هو لم يتضايق كثيرا من مغامراتها الشهوانية امرأة كغيرها من النساء تبحث عن اللذة والمتعة ما دام هو يوفرها لنفسه، هي ابنة أوروبا وإلا لماذا تتبرج النساء وتتابع الأزياء لإغراء الرجال ؟! واحتقر علاقتها بخادم حتى عجب فعلق لا تحسن الاختيار ، لم يعرف ممن ولدت ، فزوجته البرازيلية كان يعرف من أين أتت بالولد ؟جومار لم يسافر معها لأنه خاص به ليشك بأنه أبوه وفي أوروبا مسجل مجهول الأب ، عرف أن الولد هي حملت به ابن بطنها ، واعتقد أن جومار لا يعرف بالحمل والولادة ؛ إنما هو شريك الفراش بدلا عنه، ولما تأكد له أنهم يسعون إلى قتله بمضاعفة قوة المرض حتى يبدو موته طبيعيا ، وأنهم يدفعون إليه بأدوية لتقتله كما يقال بجرعة زائدة ، فرتب وصنع خدعة الموت والوصية لخداعها وخداع الشركاء ، فوافق على مرافقة لوقان معهم في رحلة العلاج ، ولم يكن يعلم أنهم خططوا لموته قبل دخول مركز العلاج ، كان يتعاطى المخدر ؛ وليس مدمنا ، تعلق بها أثناء عمله وحياته في البرازيل بين وقت وآخر ، يستعملها مع الدخان ، خطط للانتقام ، وكانت سلوفانا تستغل الحفلات لوضع حبة مضرة في كأس نذير خلال الرقص، حدثت مسرحية مالطا بتحويل عمارة وساحتها لمستشفى لتصوير الفلم ، وعادوا بالتابوت وانتظار السنوات الست ، وغادر نذير لكوبا للعلاج من اثر الكحول والمخدرات ، واغلق المستشفى وزعموا أن التصوير سينقل لمكان آخر وبعد سنوات ثلاثة بدأ الانتقام بترتيب سفر جومار للهند ، وتم الحرق لشقته ، ولكنه نجا وتعرض للاشتباه

مع أن القصد كان القتل بحريق ، وكان الفاعل مستأجرا في العمارة قبل عودة جومار بشهور ولما تم ترحيل الطفل مايكل إلى أمريكا اللاتينية بخطة ماكرة طلب من المهندس الصديق بوضع القرص في حاسوب غرفة النوم ، وكان في البلاد بجواز سفر برازيلي ، ثم دفعها للهرب إلى أوروبا وجومار للهند ، وسر من حبسه فيما بعد وأسف لموت أليشا زوجته ، وطلقها ودفع لها للإيهام بأنه بريء من خطف الطفل ، ومن سعيه في قتل جومار ، وكان يفكر بقتل الطبيب الذي كان يوفر الأدوية السامة لقتله ببطء في الوقت المناسب ، كانوا مصدومين من عودته للحياة وأن مكرهم كان مكشوفا له ، وكل ينتظر العقاب.

قضى سنوات ثلاث يخطط للانتقام وزار أوروبا ورأى السيدة أو تعمد الظهور أمامها ثلاث مرات ، وكان لنذير قصر صغير في تشيلي ؛ حيث كان شريكا في ثلاثة مصانع في ذلك البلد ولما يزور البرازيل وتشيلي ينزل فيه ، وزار بومباي لترتيب قتل جومار العين بالعين ، ورأينا كيف رتب لحرقه في شقته ، ولم تنجح الخطة وأرضى غروره حبسه ، رتب لخطف مايكل كما رأينا ، وقامت المرأة الكولومبية بعملية التمويه نقل لفرنسا ثم الجنوب الفرنسي ، وكان الهدف هو مقابلة والده الذي أخفته عنه أمه خشية أن يعيش معه ، ومن فرنسا إلى مالطا وأمريكا ثم قصر تشيلي ، وأخبر أن أمه ماتت في تحطم طائرة ، وأنه هو والده الحقيقي ، ذهبت به إلى أوروبا حيث ولدته لتبعده عنه ، وأخفته عنه ، وادخله في مدرسة داخلية وعين له خادمة ومربية . واستسلم الصبي لهذه الحقائق لكثرة غياب أمه وعيشه مع المربية والخادمة ، وتزوره أمه بين فترة وأخرى، وزعمت أن والده مجهول ، وأنه بحث عنه حتى وجده ؛ فلذلك بدا أنه غير مهتم ببعده عن أمه ؛ لأنها كانت هي بعيدة عنه منذ صغره ، تمر عليه بزيارات وتعيش معه بغموض مما دفعه لتصديق رواية نذير ، فكل وقته مع الخادمة والمربية ، واقتنع أن هذا المحسن والده المجهول الذي لم تعرفه به أمه ، كان يعجب من عدم معرفته لأبيه أمام التلاميذ ، ولما ماتت بحادث سقوط الطائرة استطاع أبوه بعمل هذه الحيلة ليعيش في قصر أبيه ، طاب له العيش في تلك المدينة والمدرسة الأمريكية الخاصة سانتياغو

ست سنوات مضت دون وجود نذير في موطنه حيث عاش طفولته وتعليمه المدرسي، اتصل بالدكتور علي، وطلب منه تجديد تأثيث القصر ، وتغيير الخدم الهنود ، وتغيير شركة الحراسة ولما يتجهز القصر بعد التجديدات والإدارة سيعود للبلد ، وأرسل إليه شيكا بثلاثة ملايين ، ولما انتهت التجديدات وإنهاء خدمات القدامى رجع نذير للمدينة ، واستقبله في المطار عدد من مدراء الشركات والمصانع ، وكان ظاهرا عليه الضعف والإنهاك رغم تركه الكحول والمخدرات وترك السوجار الكوبي ، واكتفى بالدخان الألماني حيث تعلق به عندما نزل ألمانيا للشراكة مع والد سلوفانا ، وترك قبل ذلك النساء وبدا للمستقبلين أنه ميت حقيقة وتعين طبيبان وممرضات في القصر.

استقبل الكثير من الضيوف ورجال المال والعمل ، وكشف لبعضهم سعي زوجته لقتله بالعبث بالأدوية ليتضاعف المرض ، والتظاهر بالموت ، نقل أمواله إلى حساباته في ألمانيا حتى اذا مات لا يرثه احد حيث توهب لمراكز علمية وطبية. استقبل الرفاق القدامى كمنذر وماهر وعريف وغيرهم الذين أنهكتهم أمراض الجنس والخمر وتفاجأ بزيارة ريما وزوجها الشيخ وفرح بزيارتها واهدها سيارة لزوجها احدث طراز ، وسألها عن فريدة التي هاجرت لفرنسا عند أسرتها فقالت: اشتغلت في الدعارة حتى هلكت في باريس ودفنت هناك . فترحم عليها، وأمر بصرف مكافأة لكل عمال المصانع والشركات وأمر بتقديم مبنى مستشفى لوزارة الصحة وعددا من المدارس في أنحاء البلاد يكتب عليها نذير خاتم ، وممن جاء لزيارته مطلقته سلوفانا ، ورأته محطما ، فقال: لا تحزني عليّ يا سلوفانا ؛ لأنك ساهمت بتدميره .

قالت: اقسم

قال: لا تقسمي أنا أموت من سم عشيقك لوقان الذي مات قبل أن انتقم منه

قالت: اقسم

قال: لن اصدق قسمك

قالت: أنت وعدني بالمساعدة في لقاء ابني

قال: كنت سأكلف مكتب تحريات على نفقتي .. ابن من هو؟

قالت: لا ادري لما حملت به لم أفكر بأبيه .. المهم أن أكون أما .

قال: فعلت ما فعلت زوجتي الأولى داليا ، حملت من أخيها ، وأرادت أن أكون أباه .. يا للنساء !

قالت: غلبتني الأمومة

قال: ولماذا لم تجهضي وأنت زوجة ؟! اطلبي الطلاق .. خفت على الأموال .. هل ابن لوقان أم الخادم جومار؟

قالت: أتقسم أنك لا تعرف مقر مايكل ؟

قال: ابنك ! لا اعرف أن لك ابنا إلا منك.. من سيقول لي أن لزوجتك ابنا في أوروبا ؟ لو عرفت لطلقتك كما فعلت بداليا .. أنا صدمت لما عرفت أن الخادم يركبك وأنت ابنة الأرستقراطية .. خادم ..خجلت أن اطرده كما طرد رومو لم ركب فريدة بخاتم وزنا بها.. أهو أبو الطفل؟

قالت: لا ادري يا سيدي !كما كنت تعاشر الكثير كان الكثير يحلم بي.. احلف على جهلك لحياة ابني

قال: ولماذا احلف ؟ وأنا عرفت منك .. أنا في الأول ظننته طفلا متبنى من دار أيتام

قالت: ألم تقتله ؟

قال: اقتله!

قالت: ومن حرق زوجة جومار ؟

قال: مع السلامة يا سيدة انتهت الزيارة .. اقتل احرق من قتل لوقان ؟

قالت: أنت ! أنت عبثت بسيارته.

ضغط على الجرس ، فدخل الحارس الذي رافقها فقال: اطردها خارج القصر ،واستدعي لي الطبيب الذي كان هنا في أول اللقاء

ودخل الطبيب والدكتور علي ، وتعجب من قصة حملها ، وخطف ابنها ، وعلم أن القصر كان غارقا بالإباحية ؛ ولكنها وهي تقف أمام البوابة وهي تشتم وتلعن القاتل نذيرا انتشر بين الحرس خبر لفظ السيد أنفاسه ، فتوقفت عن السب والركوب بالسيارة المستأجرة ، لم يحتمل كلامها واتهامها بقتل الدكتور لوقان وحرق زوجة جومار البريئة وخطف ابنها وحضرت سيارة الإسعاف لنقل الرجل للمستشفى وقالت باكية : فقدت ابني للأبد

وقام الدكتور علي والمحامي بكر وإدارة الشركة بالإشراف على جنازته للمرة الثانية وبعد إنهاء خدمات أهل القصر سلم القصر لجمعية خاصة طلبته من نذير لتحويله لمستشفى خاص بالجمعية ، وعادت سلوفانا لأوروبا بعدما حضرت دفن زوجها السابق ، كررت البكاء عليه كما بكته قبل سنوات .

قبل السفر التقت بالدكتور لوقان ؛ حيث حدث معه حادث سيارة قبل حضور نذير للوطن أصيب منه بالشلل ، ولم يمت كما اعتقد نذير ؛لأن أشيع أنه مات في الحادث ؛ فكان يتوقع أن يقتل من نذير ، فلما انتشر خبر موت نذير اتصل بسلوفانا ، وأحب أن يلتقي بها قبل عودتها لأوروبا وفرحت جدا بنجاته من الموت ، وحزنت للشلل الذي حل به .

قال: لست نادما على سعي في الخلاص منه ..ألم تعرفي نتيجة عن الولد؟

قالت: لم يعترف بخطفه ، وكان مهتما بمعرفة شخص أبيه

قال: ربما الذين خطفوه لما يصلهم خبر موته بعد ليفرجوا عنه

قالت: قد يقتلونه لإنهاء موضوعه بعد موته.. أتراه حيّا يا دكتور ؟

قال: لم تظهر جثته.. فهذا يعني أنه حي إلا اذا دفن في قاع البحر ، ولا اعتقد أن يقتله؛ لينتقم منك

قالت: إنه يريد تعذيبي ، لو أراد قتلي لفعل ؛ كما فعل بامرأة جومار

قال: وهل ثبت أنه الفاعل ؟ ما حدث معه؟

قالت: حبس في القضية خمس سنوات؛ ليس أمامهم سواه ، ترك المرأة تحترق وهرب

قال: اذكر أن المرأة تعرضت للحرق قبل موتها

قالت: هذا حدث لاستدراجه للهند ؛ ليشرف على علاجها ، وكنت أنا أتعالج في سويسرا كما تذكر

قال: يا ! هذا مجرم عتيد له أعوانه !

قالت: عاش في البرازيل ؛ حيث السيارات المصفحة ، والطائرات الخاصة .. والمال يشتري الرجال .

قال: لقد كرهته منذ عرفتك يا سيدتي ! جمالك يسحر الرجال وأشفقت عليك لما رأيت من الحزن وعدم احترامه مشاعرك .

قالت: أنا اعرف هذا عنه ، وهو اعزب قبل الزواج ، كان مغرما بالجمال والنساء ، كان المال مغريا لصبية مثلي .. حياتها وسعادتها المال، وهو سيؤمن لي المال وما تشتهيه المرأة ، وسخي بالهداية والمال ، وكانت الأسرة ترى مصلحة لها ولي بالزواج منه ليستمر بدعم المصانع.

قال: أنا حقدت عليه منذ التقيت بك ، مرة دخلت القصر لأراك فأخبروني أنك في زيارة قصيرة ، فدخلت مكتبه قلت أدردش معه تمضية لمجيئك ، ولما أدخلني الخادم ونظر إليّ فقال باحتقار واستعلاء : أخطأت العنوان يا دكتور ! هذا مكتبي وليس مكتب عشيقتك.. أنا لا ادري كيف اتخذتك عشيقا ؟ رددت بغضب : أنا لست عشيقا يا سيد نذير أنا متزوج كانت زوجتي الأولى مريضة كما تذكرين وماتت أثناء علاقتنا

فقال ضاحكا : أتظنني مغفلا ؟ أنت كلب لها ، لا تظن أني مغفل

وكان الكلام قبل أن اجلس فقام فاقترب مني وبصق في وجهي وقال : اخرج أنت حقير تنام معها في القصر ، وهي حقيرة مثلك.. اتفقنا على الفجور خارج القصر.. جعلتم القصر ماخور ..وسأرسل لك قرص دعارتك معها .. وأرسل الملعون لي قرص حاسوب سي دي يضع في قصرك كاميرات بحثت عنها ، فلم أجدها فلزمت الصمت عن هذه الحادثة والإهانة

قالت: لم تقل عن هذه الحادثة إلا اليوم!

قال: نعم ، وماذا أقول لك سيدتي ؟ لذلك رحبت بمساعدتك للخلاص منه

قالت: كانت إهانة كبيرة ؛ ولكن زوجي يسمح لنفسه بالزنا .. عليه أن يقبل زنا امرأته دون غضب وغيرة ما أخبار زوجتك وابنتك؟

قال: الأولى ـ رحمها الله ـ لم تكن طاهرة ، وابنتي منها لم أر ولم اسمع عنها السوء.. أنا استسلمت لإغرائك وأنت رحبت بي عشيقا

قالت: تحولت لجومار لوجوده في القصر ، وأنت سعدت بذلك، ولم تقف ضده ، فأدركت أنك انسحبت وخفت .

قال: السبب نذير ، وأصبح عدوا لي ورأيت الابتعاد لمصلحتنا

قالت: لقد كنّا في حرب

قال: وماذا ستفعلين الآن؟

قالت: استعد للعودة لسويسرا وقد اعمل مشروعا ألتهي به ، وإذا خرج جومار من السجن قد أتزوجه كما وعدته يوما .

قال: تنظرين خمس سنوات .

قالت: قد يخفف الحكم ، قابلته في السجن ، فهو تعرض مثلك للأذى بسببي ، وسعيت للزواج من أوروبي ، كلهم يريد علاقة دون ارتباط بعقد قانوني، ويفضلون الصغيرات على الكهلات مثلي ، تعرفت على شاب طالب فرنسي عاش معي بضعة شهور وتركني وقد نال مني بعض المال.. الزواج معقد اليوم في بلادنا

قال ناصحا : الأفضل أن تتزوجي زوجا أوروبيا، فأنت معك ثروة كبيرة ..ستجدين الزوج المناسب في لحظة من اللحظات.

قالت: لست صغيرة يا دكتور قريبة من الخمس والأربعين .. لا أريد زواجا شكليا يقضي طاقته ورغباته في الملاهي والحانات كما عشت مع نذير.

قال: ستجدين الحبيب

قالت: عجوزا أنفق عليه

قال: لو كنت سليما لتزوجتك وتركت التي عندي.

قالت: شكرًا لوقان

قال: لماذا كان هاجرا لك؟

قالت: معقد! دخل يوما حجرة أمه ، وهو طفل فوجدها تُمارس الحب مع عشيق ، وتكرر ذلك فتعقد ، ولم يتقبل الأمر لصغر سنه ، ورحله أبوه إلى هنا لزريق حتى أنهى الدراسة والتحق بجامعة أمريكية وتعلم الزنا والعهر والخمر مع الاقتصاد

*****

رجعت السيدة للشقة محطمة نفسيا واليأس التام من الاجتماع بابنها ، وعدم اعتراف نذير بحياته أو خطفه ، فأخذت تفكر بحياتها وحبس جومار ، ففكرت بالجمعيات الاجتماعية والحركة معها لإشغال الوقت ، فقد ملّت المسارح والنوادي والسينما، ففكرت بجمعيات تركية كانت تقدم لها الهبات والدعم أثناء حياتها بزريق ، فاتصلت بجمعية كانت تمر عليها سيدة لاستلام الشيكات والدعم ، فرحبت بها السيدة (ايسون احمد بوراك)، وكان لهذه الجمعية مقر جمع في ميونخ بين الجالية التركية في ألمانيا ، ومقرها الرئيسي في إسطنبول ؛ حيث ذهبت يوما تبحث عن ابنها مرافق المرأة الكولومبية ، جمعية الأمل مهتمة بالفقراء وضحايا الكوارث في تركيا والعالم الإسلامي؛ لتخفيف ضرر الزلازل والفياضات والتسونامي عنهم . كانت معروفة وصديقة للجمعية ، وكانت السيدة ديانا زوجة الدبلوماسي التركي سليم قد عرفتها على مندوبة الجمعية ايسون وصارت بينهنّ صداقة ، واتصلت بديانا التي تسكن في تلك المدينة فساعدت السيدة بالاتصال ايسون ، ورحبن بها في ربوع بلدها الأصلي ، سافرت بعد ترتيبات إلى تركيا ، ولما استقرت في الفندق اتصلت بديانا وجاءت للفندق ، وأخذتها للغداء مع الأسرة ورحب بها زوج ديانا الذي يعرفها أيام زريق وحفلاتها التي لا تنتهي ، واتصلت ديانا بالجمعية ، فعلمت أن السيدة ايسون قد تقاعدت من العمل ببدنها ، ورحبت

إدارة الجمعية بهن وحضرت معهن موظفة الجمعية السابقة ايسون ، وبعد التعارف والذكريات فقابلت السيدة رئيسة الجمعية السيدة زينب برقوقا والمدير العام للفرع الإسطنبولي الدكتور احمد يوسف اصلون ، ورحبوا بعملها معهم ؛ لأنها تعاني من الفراغ في بلدها ، ولا زوج ولا ولد ، وهي تعود جذورها للجنس التركي ، وإن لم تولد في تركيا ، فأخبرها المدير بأن عليها بأخذ دورة إسعاف أولية والتمريض والاستماع إلى محاضرات عن كيفية التعامل مع المصابين والأهالي في أماكن الحدث ، وهذا العلم ضروري قبل الذهاب إلى تلك الأماكن ، وكيفية التعامل مع المترجمين والناس المنكوبين ، اجتازت السيدة الدورات والأعراف المتبعة أثناء عملية الإنقاذ والمساعدة ، وأقبلت على العمل بحماس ونشاط ، وكانت تقضي الإجازات القصيرة في سويسرا وسعيدة بحياتها مع الحوادث، وفي آخر إجازة رن جرس الهاتف في الشقة فقالت الخادمة: محامي من الهند ، انقبض قلبها من كلمة الهند ، وأخذت السماعة من يد الخادمة ، فلها شهور لم تتحدث معه منذ سافرت تركيا ، كان محامي جومار وقال : لي أيام اتصل حتى ظننت أنني أخطأت الرقم

رحبت به وعلمت منه أن جومار تعرض لطلق ناري من شرطة السجن ؛ حيث حدث تمرد داخل مهاجع السجن أو بعضها أدى إلى إطلاق نار ، ونقل السيد للمستشفى مصابا ، وقد يفرج عنه بعد الشفاء، أظهرت الفرح لسماع الخبر وقالت : عندما أجد الوقت المناسب سأزوركم .

ادرك المحامي أن حماسها الذي لمسه ورآه في الماضي قد ضعف وخفت ، كانت المرة الماضية تتحدث كالمحب والمشتقاق ، وهي بعدما تركت السماعة قالت : مات حبك يا جومار ! أنت من الماضي والذي يربطني بك فُقد وضاع ، كنت أريد شيئا بيني وبينك ، لقد سكت جسدي عن طلب الشهوة ، وجدت حياتي في جمعية الإنقاذ والأمل لأهل الزلازل والفيضانات حتى أني أريد أن اصلي وأصوم مثلهم ومثلهن حتى أن الأوروبيات اللواتي يعملن معنا يصلين ويقرأن القرآن متدينات ، وبعضهن لم يكن مسلمات فأسلمن ، أنا مسلمة، العمل مطلوب

كالعمل العبادي ، لم يعد الزواج مهما لي يا جومار ، لقد خان سيده بدون مقدمات من اجل الفسق مع سيدة القصر ، سأهتم بالإسلام مثل رفيقات وصاحبات العمل التطوعي؛ بل يفكرون بجعلي مديرة فرع للجمعية، ذهبت لمركز إسلامي ، وطلبت مساعدتهم بتعلم أركان الإسلام والصلاة ، وصارت تصلي خمس صلوات ، وتعلمتها بلغة العرب لغة نذير ، كانت أمها تزور الكنيسة وتسمع القداس ، أما والدها المسلم فلم تره يدخل مسجدا حتى جومار لم تره يصلي ؛ بل كان مثلهم يسكر ،لم يكن مسلما ؛ لعله من طائفة السيخ ،العمل الخيري أفضل من علاقات عابرة .

قبل العودة لتركيا اتصل بها برانس قائلا : أين أنت ؟ كلما اتصل تقول رايسا أنها في تركيا وكنت مشغولا جدا .. متى تمرين علينا؟

قالت : اعمل في تركيا مسعفة في جمعية للكوارث ما الأمر؟

قال : تحدث معي محامي برلين ، فقد علموا بموت السيد نذير خاتم موتا حقيقيا ، ولك عندهم رسالة خاصة كأمانة يرغبون زيارة منك شخصيا لاستلامها

قالت : صحيح تذكرتها .. سأمر عليك.. هل من جديد حول مايكل؟

قال : لا جديد.. مري لأسمع أخبارك سمعت من رايسا أنك ستبيعين الشقة والخلاص من رايسا.

قالت : افكر بالاستقرار في تركيا لحين ؛ فأنا سعيدة في العمل معهم ، وعدت لإسلامي

قابلت المحامي برانس ، ودفعت له أتعابه ، وأنهت عقدها معه بمتابعة مايكل قبل الاختفاء وبعده ، وكلفته ببيع الشقة وإنهاء عقد رايسا ، وسافرت برلين لاستلام الأمانة فدفع الرجل إليها شيكا بمليون دولار أمريكي تسحب من بنك ألماني ، ورسالة قرأتها في الفندق كتب فيها "اطمئني على ابنك حي".

كانت تشعر بالسعادة من عملها في الجمعية رغم المشقة البدنية في التنقل إلى مواضع الكوارث والنكبات الطبيعية ، وترى عذابات الناس وآلامهم بكسر عضو رضوض بدن بفقد أم أو أب أو زوجة وأسرة ، فلم تكن تتأثر كثيرا عندما تراها في الأقلام والأخبار لحظات من الحزن تمر سريعا، اليوم تمكث الصور أياما من العطف والحزن ، فهم يقدمون الطعام والخيام والثياب والبطانيات للمنكوبين الناجين والإسعاف للجرحى ، فكانت تحس بالسعادة ، وهي تساعد إخوانها في الإنسانية لتخفيف المصائب عنهم والآلام.

قضت خمس سنوات من عمرها في العمل والإشراف على معسكرات المساعدات، وكانت تقدم الدعم البدني والمالي من نفسها ، وتقرر أن تكون مديرة فرع من فروع الجمعية ، فقد كبرت سنها وهي تحمل شهادة جامعية في الإدارة من جامعة برلين .

استأجرت شقة في تركيا حيث تمارس عملها الميداني ثم الإداري ، حتى عرض عليها مدير فرع إستنبول زوجا أرملا طبيبا متطوعا ويرافق حملات إغاثة الجمعية ، وبعد جلسات خاصة قبلت الاقتران به وعلى الشريعة الإسلامية الصحيحة ، وقلنا إنها أصبحت من أهل الصلاة والصيام وقراءة القرآن ، واطلعت على مختصر تاريخ تركيا قبل الجمهورية والعلمانية ، وقد كانت دولة كبرى قبل قرن من الزمان، وعرفت أن زواج المسلمين هو الزواج الصحيح، أما زواج نذير كان على طريقة الغرب ، وعرفت أنها زوجة حقيقية اذا تألمت ومرضت تجد أولاد زوجها وبناته يغمرونها بالحب والدعاء والزيارة وأن زوجها يحبها رغم زواجه قبلها من غيرها ، وكانت زوجات الأبناء أو أزواج البنات يسألون عنها ويتصلون بها ، هذه المشاعر لم تلمسها من والديها ، كانت تعيش مع الدكتور في بيته وتمارس عملها في الجمعية ؛ كأنها غير متزوجة ، وأحيانا تجلس مع زوجها في العيادة التي هي في نفس حي السكن وحتى في أيام الكوارث يسافران معا ، لم تَر امرأة تتسلل لبيت زوجها واستغلال غيابها ، ولم تسمع بمثل هذه الحكايات في بيت أولاده أو بناته مع أن تركيا دولة علمانية وفيها ما في أوروبا من الملاهي

والحانات والإباحية .

ورحلت معه وابنه الصغير برحلة للحج إلى اقدم بيت للعبادة في الدنيا ، وتفاجأت بالكم الكبير من البشر في مكان واحد اسمه عرفات، واحتفلت الأسرة والجيران في الوداع والاستقبال، وتزينت البيوت بالأنوار والأعلام والأشجار وذبح الخرفان .

كانت لغات العالم ولهجاتها في يوم عرفة ، والتقت بعدد من الألمان والألمانيات يأتون للحج وشاهدت إزدحامات الصلاة في الحرم المكي ، واستيقاظ الناس وهم يهرعون للصلوات الخمس في المسجد الحرام، كانت في دهشة في ممارسة كل نسك وأن هذا العمل مطلوب فرضا مرة واحدة في العمر للقادر ، تعجبت من ترتيب كل هذه الطقوس من قبل السفر حتى العودة للديار وإقبال الناس لأكل تمر الحجاز وشرب ماء زمزم ، وزارت المدينة حيث دفن الرسول الأعظم ﷺ معلم الناس كل هذا الخير ، شعرت بالسعادة الروحية التي كانت تفتقدها في صباها وحياتها في القصر حتى لما زارت ساحة الفاتيكان مرة لم تحس بالجمال والسعادة كما أحست برحلة الحج رغم المشي والسعي والطواف .

****

أمضت السيدة عشر سنوات مع الجمعية التركية وتقاعد زوجها من العمل مع الجمعية بدنيا ولحقت به ، وتوقفت عن العمل الخيري ببدنها ، وظلت على الدعم المادي ، وما لبثت أن ترملت بوفاة الدكتور من أزمة قلبية ، ففضلت أن تعود لسويسرا رغم سعي أولاد زوجها لبقائها تعيش معهم ، أحبت أن تقضي باقي العمر في سويسرا ؛ حيث عرفت الأمومة وفقد مايكل ، اشترى لها صديقها المحامي شقة بدلا من تلك التي باعها لها ، وكانت خلال عملها في تركيا كونت علاقات جيدة مع جمعيات ومؤسسات إسلامية في ألمانيا وسويسرا وباريس حيث تنتشر المراكز الإسلامية والمساجد والجمعيات الخيرية التي تخدم الجاليات الإسلامية المهاجرة من بلدان العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ، وكانت تقوم معهم بزيارة المرضى والمعوزين والمحتاجين وتسارع لحضور الندوات والمحاضرات والافطارات الرمضانية .

ذات صباح اتجهت لجامع باريس الكبير لصلاة العيد ولقاء صديقة عملت معها في تركيا ومن جيلها ، كانت تنتظر الصديقة والرفيقة اقترب منها شاب ومعه امرأة محجبة وقال: ألست السيدة سلوفانا ؟

حدقت في عينيه وهتفت: أوه! السيد جاك طالب الجامعة في سويسرا

صاح جذلا: جاك الفقير بلحمه طالب الماجستير

قالت: أهلا جاك .. أراك بلحية وصديقة محجبة؟!

قال: نورا جزائرية زوجتي .. سلوفانا صديقة أيام الدراسة للماجستير صديقة لي في سويسرا ألمانية الجنسية . وعرف نورا على سلوفانا

قالت: تزوجت يا جاك !

قال: نعم ، عندما تعرفت على الطبيبة نورا في المستشفى تزوجتها ، ودخلت دينها ، من خمس سنوات تعرفت عليها وتزوجنا برضا أهلها ، ولدت طفلين لي ..وأنت ما أخبارك أراك أمام المسجد .

قالت: صليت العيد وانتظر صديقة لنقوم بزيارات على المرضى وبعض الفقراء

قال: رائع ! دخلت الإسلام

قالت: أنا مسلمة وعدت مسلمة يا جاك ! أمي ألمانية وأبي تركي مسلم ، وأنا مسرورة بإسلامك

قال: لابد من جلسة خاصة لأسمع حكايتك فأنا ونورا ندعوك وصديقتك لزيارتنا في بيتنا المتواضع

قالت: اذا تبقى لدينا وقت نلتقي .

نقل رقم هاتفها وقال: غدا سأتصل بك بعد العشاء لنرتب لدعوة في مطعم ..اليوم مشغلون بسبب زيارات العيد، لها أقارب هنا يتفقدون بعضهم.. أني سعيد بعودتك للإسلام

قالت: وأنا سعيدة بإسلامك ومرحبًا بأختنا الطبيبة المسلمة

شكرت نورا السيدة وعبرت عن فرحها بعودتها للدين ، وسمعت زوجها يقول: السيدة مليونيرة كبيرة ، وها هي تقف أمام مسجد باريس بدون حرس ! هل تتواصلين مع أبيك وأمك ؟

قالت: أبي مات ، وأنا أرملة مات زوجي الأخير بأزمة قلبية ، وزوجي الأول نذير مات رحمهم الله جميعا .

قال: اغفري فضولي .. وابنك المخطوف هل وجدتيه ؟

بكت وهو يذكرها بالطفل وقالت : منذ فقده لم أره ،لا ادرى أحي أم ميت؟

قال: آسف بحديثي عنه، كلنا حزن من أجلك .. ألم تحملي من زوجك الأخير؟

قالت: لقد صرت في الخمسين ومن الصعب أن احمل ؛ ولعل زوجتك تشرح لك

قال: على كل حال آسف جدا ، سنرتب للقاء ..كل عام وأنت بخير .. إلى اللقاء ..لقد ساعدتيني بالمال أيام الجامعة .

قالت: غفر الله لنا

حضرت صديقتها بعد انصرافه بدقائق ، وذهبتا للمهمة التي اجتمعتا من أجلها ، وهي توزيع هبات على مستشفيات يتعالج فيها أناس من الجاليات الإسلامية.



عرفنا أن الذي رتب عملية خطف مايكل من أوروبا إلى أمريكا زوجها نذير خاتم بسبب تأمرها على حياته ، وبسبب حملها وهي زوجة له ، وذكرنا أن ابن العشر سنوات استقر في مدرسة داخلية تابعة للولايات الأمريكية المتحدة في تشيلي ، وأن أمه ماتت في حادث طائرة فاضطر والده الحقيقي لنقله من أوروبا والحياة في أمريكا الجنوبية في فيلا باسمه ، ورتب له خدم ومربيات ، ومكتب قانوني يشرف على ذلك ، وسجل باسمه الجديد توماس نذير خاتم عشرين مليونا يمتلكها عند بلوغه الحادية وعشرين سنة ، بعضها في تشيلي والبعض الآخر في فلوريدا في بنك أمريكي ، وكان حساب نذير في البرازيل يرسل تكاليف الخدم والمحامي والمدرسة، لم يقتله نذير إنما حرم أمه منه ، وزعم مقتلها حتى لا يفكر باللقاء بها ، فهو لم يكن يعيش معها أصلا كان يراها عند زياراتها لأوروبا ، وبعد هذه الترتيبات لم ير أباه ؛ لأنه ذهب لمتابعة العلاج في كوبا ، ثم رحل لموطنه حيث مات ودفن فيها كما كان يحب ويرغب ، ووصل إليه خبر وفاة والده ، ولم يتأثر كثيرا لموته رآه أياما معدودة فحسب ، انتقل لأمريكا فلوريدا لدراسة الطب ، ولما بلغ السن القانونية اصبح مالكا للثروة التي سجلها والدها باسمه واشترى منزلا في أمريكا ، وطلب من مكتب تشيلي ببيع الفيلا ، وأنه لن يعود لتلك البلد البائسة ، وكانت الثروة تدر عليه دخلا كبيرا ، أرباح لتلك الملايين ، وحصل على الجنسية الأمريكية أثناء الدراسة وبسبب الأموال المودعة في البنوك ، تخرج طبيبا وانتقل للشمال الأمريكي للماجستير الطبي في أمراض القلب ،وبعضهم نصحه بالذهاب إلى ألمانيا ؛ لأنها من أقوى الدول في جراحة القلب .

فقبل في جامعة في برلين ، فرحل إليها ، وكان ما زال يذكر صورة أمه في سويسرا وحبها له ويذكر الأب الذي نقله بعد موتها إلى أمريكا ، وسجل باسمه الملايين ثم مات ، ولا يفعل ذلك إلا رجل كريم وأب حقيقي ، ويذكر أن اسمه في أوروبا مايكل بدون أب ، وفي أمريكا توماس نذير خاتم وأن والده من بلاد العرب يعيش في أمريكا .

كان لتوماس أصدقاء في تشيلي وفي فلوريدا ثم في برلين من الجنسين ، كانت بشرته سمراء وعيونه زرقاء ، وكان لديه مجموعة من الصور لنذير أرسلت له في مناسبات وذكريات، وكابن للغرب مارس المعاشرة مع بعض الفتيات في الأميركتين ، وكان مقلا للشراب ، يخشى أن يصيبه ما أصاب أمه وأبوه منه ، وكان في أوروبا يحذر من العلاقات الجنسية خشية العدوى من الأمراض الجنسية رغم وجود أدوات الحماية، ربما تمضي شهور قبل أن يجامع امرأة ولا يفكر بالزواج القانوني ، قالت له صديقة في المستشفى : لم تر الأب الذي ترك لك هذه الثروة إلا مرات معدودة أثناء نقلك لأمريكا من هذه البلاد .

قال: صدقي ذلك، لما علم بموت أمي بحادث طائرة اعترف بي واضطر لترحيلي سرا إلى تشيلي وسجل لي الأموال ، وبعدها ذهب للعلاج من الإدمان، وعاد لبلده العربي ومات ، كانت أمي تخفي عني اسم أبي وتزورني كل شهر أو شهرين يوما أو يومين كانت خائفة أن يعرف زوجها مكان إخفائي

قالت: وباقي ثروته!

قال: علمت من المحامي في تشيلي أنها وزعت على جمعيات ومؤسسات

قالت: وهل أمك ماتت حقيقة؟

قال: هكذا قيل لي ، ولم اهتم بصدق وكذب الخبر ، وكيف لي أن اعرف كنت صبيا لما نقلوني إلى أمريكا وقابلت أبي في البرازيل أولا.

قالت: وهذه الملايين ماذا ستفعل بها ؟

قال: سأعيش بها ، ولست بحاجة للوظيفة ، قد أقيم مستشفى بعد زمن للعمل فيه .. أفكر برحلة علمية للقطب الجنوبي.

قالت: لا يوجد مرضى فيه إلا البطاريق والطيور ..ألا تفكر بالزواج؟

قال: الآن لا

قالت بجرأة : تزوجني يا توماس أنا احبك!

قال: أنا لم أحب أنثى بعد .. البنات رخصن من انفسهن.. بعض المال وعشاء يتناكحان

قالت: جيد ! عندما ترحل للقطب خذني معك قد تحبني هناك

قال: قد افعل.

قالت: زرت وطن أبيك

قال: قد افعل .. لا يربطني به شيء ، ولا اعرف أين هو ؟

****

قامت السيدة بزيارة خاصة لتركيا بدعوة من ابن زوجها لتشارك في حفل زواج ابنته، وهم لم يفوتوا مناسبة اجتماعية إلا واتصلوا بها ودعوتها ، وفي الغالب تلبي الدعوة وتقدم الهدايا فهي لم تنقطع علاقاتها بالجمعية وبديانا .

ذهبت للمشاركة في ٢٠١٠ في حفل زواج حفيدة لزوجها التركي ، وكانوا يستقبلونها بالمطار نساء ورجالا، وكانوا في الأعياد يرسلوا لها الهدايا وبطاقات العيد ، وكانت ترفض قضاء النوم في بيت احدهم ، وتفضل النوم في الفنادق ، لقد أوصاهم والدهم على الإحسان إليها وحبها . وكان من برامجها بعد الوصول الاتصال بديانا صديقة القصر ، وكانت ديانا قد تعرضت لحادث سير قبل هذه الزيارة للمدينة، فأخذها احد الأبناء للقاء السيدة ، فلما التقتا في الفندق قالت لها : كنت في ألمانيا للعلاج في عضلة القلب وسرعة وتسارع دقاته.

فعتبت عليها عدم إخبارها ، فسويسرا بجوار ألمانيا ، بينهما حدود مشتركة وجزء كبير من السويسريين يتكلمون الألمانية ولغة رسمية للبلاد .

وبعد العتب قالت : هل لنذير خاتم أولاد سوى ما أشيع عن بول ؟

قالت متفاجئة : أولاد! عشت معنا عمرا .. لا ، ما الأمر أبدا .. عشنا سنوات وكان لا يحب الأولاد.. امرأته البرازيلية ؛ كما تذكرين حملت ببول وهي على ذمته ،ثم هربت القصة

قالت ديانا : اذكر تلك المرأة وابنها ؛ ولكنه لم يحمل اسم نذير

قالت: ما الأمر ؟

قالت ديانا : ألم يكن له ولد من عشيقة أو صديقة أو ابن متبنى

قالت وهي في حالة دهشة : نذير كان يتعاطى حقن منع الحمل خشية أن تحمل منه ماجنة وتزعم أنه منه وحتى مني رفض ما سبب هذا الكلام؟

قالت ديانا : السبب سيدتي وصديقتي كنت في مركز علاج ألماني ، وكان بين فريق العلاج طبيب أمريكي يحمل اسم توماس نذير خاتم طبيب قلب وشرايين.

قالت: توماس نذير خاتم !!

قالت ديانا : حتى أن زوجي سأله أنت عربي تحمل جنسية أمريكا فحسب، ضحك الطبيب وقال : صحيح ! أنا عمري ما دخلت بلاد العرب؛ لكن لي أصدقاء منهم في أمريكا أثناء الجامعة ، وأبي عربي أمريكي ، فقال له زوجي إننا عشنا وعاشرنا شخصا اسمه نذير خاتم قبل سنوات طويلة ، وذكرنا له اسم المدينة، فرد على زوجي لم أر أبي إلا مرات قليلة في البرازيل وترك لي الملايين، وأمي رأيتها مرات كثيرة قبل رحيلي لأمريكا .

قالت: توماس نذير خاتم! المعلومات عندي لا ذرية له ، ولا اعلم أنه تبنى طفلا

قالت ديانا : حدثه زوجي عنك ، فقال الطبيب : لا اعرفها ؛ ولكني أذكر وأنا صغير عشت في سويسرا

فنطقت بدون وعي: ابني أكيد أنه ابني !

قالت ديانا : ابنك! كيف ؟!ألم تذكري قبل دقائق أن نذيرا لا ابن له.

انتبهت السيدة وقالت: نعم ، كنت تبنيت طفلا في احدى رحلاتي لأوروبا ، ثم فقد هذا الطفل في ظروف غامضة، شككت يومها بأن نذيرا سرقه.. عليك يا ديانا أن تعطيني اسم المستشفى يجب أن ألتقي به ؛ لعله ابني المسروق المفقود من عشرين سنة.

قالت ديانا : كنت متبنية لطفل!

قالت: نعم ، دون علم نذير ، ولما خطف اتهمت نذيرا، فنفى علمه بخطفه.. بعد حضور زواج حفيدة زوجي الطبيب عليّ أن اذهب لبرلين وأقابله عسى أن يكون هو ؛ولعله يتذكرني بعد

قالت ديانا : كيف سيتذكرك؟!

قالت: كنت كلما اذهب سويسرا ألتقي به واجلس معه ، ولدي صوره ونحن معا ،ولدي المربية والمحامي الذي كان يشرف عليه .. خطفه النذل وأعطاه اسمه .

قالت ديانا : سبحان الله رب ضارة نافعة!

قالت: شفاك الله يا ديانا !أعدت لي الحياة إن تبين أنه المفقود ، وسأخبرك إن كان هو .. يا رب دعوت ربي كثيرا أن لا أموت قبل أن القاه .

قالت ديانا : أرجو أن يكون ابنك المفقود.

بعد حضورها حفلة زواج حفيدة زوجها ، ذهبت لخزانة في البنك في برن ، وأخرجت منها مجموعة من صور لها مع مايكل ، وسافرت لبرلين مباشرة ، وفي الصباح قصدت المستشفى، وكانت تسأل سيسأل عن أبيه الحقيقي عن جومار .. هل يقبل أني أمه ؟ وقد ولد وأنا على ذمة نذير ، وسيسألني لما عاش بعيدا عني وعن أبيه ، سأقص الحقيقة ، سيعرف أنه لم يكن ابن زوجي أبوه خادم القصر جومار ، المهم أنا أمه.. غير مهم من أبوه ، سيسأل لماذا كان يعيش في سويسرا بعيدا عن والديه؟ لماذا لم يزره أبوه في سويسرا ؟ ولماذا غير أبوه اسمه من مايكل لتوماس ؟ سيعرف أن له أبا آخر أبا بيولوجيا ..يا لها من ورطة ؟! كنت أريد طفلا ، وزوجي لا يريد أي طفل ، كنت أريد ابنا مني مهما كان أبوه ، كان أبوه مرعوبا أن يعرف نذير أنني ولدت منه .. هل استمر على أنه ابني بالتبني ، ولكن سجلات المستشفى ستكشف أني أمه وأبوه مجهول .. يا لحياتنا المعقدة !

سأقول الحقيقة بحذافيرها .. المهم أن يعلم أني أمه ..وهو حر في حياته .. هل سيقبلني في حياته ولا يغضب ؟ هل سيحقد على خاطفه؟ القانون سيجعله يحمل اسمه ، ولدته وأنا زوجة لنذير ، سيبقى يحمل الاسم .. هل سيعرفني عندما يراني ؟ كان ابن عشر سنوات .

فتحت الباب شابة فقالت السيدة: مساء الخير

تطلعت الفتاة دهشة وقالت : مساء الخير!

قالت: أريد الدكتور توماس طبيب القلب أخذت العنوان من المستشفى .

قالت: هو يستعد للسفر

قالت: أنا السيدة سلوفانا من سويسرا

سمعت الفتاة صوت توماس : من طرق الباب يا جينا؟

قالت: امرأة ترتدي حجابا ،ممن نراهن في الشوارع والأسواق ، أخذت عنوانك من المستشفى

قال: دعيها تدخل ، واذهبي البسي ثيابك لنر ما تريد السيدة المحجبة؟

رفعت السلسلة ، وأدخلت السيدة: ادخلي مدام سلوفانا

دخلت السيدة تتبع الفتاة ، وأشارت لها بالجلوس ، وخرجت تلبس ثيابها ، وما كادت تجلس حتى كان الرجل يدخل الغرفة ، وهو يلبس روب الحمام ، حيث كان يستحم ولما رآها قال بدون تمهيد : أمي ! أنت أمي! أنت حية !

قالت: أنا أمك وما زلت حية! وتعانقا وسلوفانا تبكي وتقول : عرفتني مايكل عرفتني مايكل أنا أمك !

قال: قيل لي إنك مت بحادث طائرة.

قالت : كذبوا عليك حتى لا تفكر بي، لقد خطفوك ليحرموني منك.

دخلت الفتاة لتجد صديقها يطوق المحجبة بذراعيه فهمست: توماس!

قال: إنها أمي يا جينا ! أمي لم أنساك أبدا ؛ ولكني علمت أنك ميتة هكذا قيل لي .

قالت: آه يا حبيبي ! لقد تعذبت من أجلك أرادوا حرماني منك .

قال: اذهبي إلى حجرتك جينا.. دعيني اجلس مع أمي وحدنا.. من هو الرجل الذي خطفني وحرمنا من بعض ؟!

قالت: من تحمل اسمه.

قال: نذير خاتم!

قالت: اجل

قال: أهو زوجك؟

قالت: اجل

فكر لحظات وقال: ولم خطفني منك أم الوقت غير مناسب لسماع الجواب؟

قالت: ستسمع كل شيء . فتحت حقيبتها وأخرجت صورا لهما ومع التلاميذ.

فنظر إليها وقال: أنا أعرفك بدونها ،لما افترقنا كنت ابن عشر سنوات ، أكلنا معا ، لعبنا معا مع أنها أيام قليلة إلى مجموع السنوات.

قالت: الظروف الصعبة

قال: فهمت

قالت: وماذا فهمت؟!

قال: لم أكن ابن أبي نذير.

قالت بانكسار : نعم ، هذه هي الحقيقة ، حملت بك من رجل آخر ؛ فكان عليّ إخفائك عن نذير خاتم .. كنت امرأة فاسدة ، لم استطع أن اعترف له أني حملت من رجل آخر

قال: من أبي الحقيقي؟

قالت : لست ادري يا ولدي .. انظر إلى هذه الصورة تعبر لك عن حبي الكبير لك وحبي لحياتك بعد أن حملت بك رفضت الإجهاض .. كنت أريد ابنا يقول لي أمي .

قال: أنا احبك يا أمي !حتى لما قالوا لي إنك ميتة ، كانت ما زالت ذكرياتنا مغروسة في دماغي وكنت ادرك خوفك من أن يعرف احد أنك أمي وأكدت لي الخادمة والمربية سبب بعدك عني قلن إنك وضعتيني في ظروف غير طبيعية ، وهذا لا يهمني ، ولما قيل إنك ميتة صدقت لأنك بعيدة عني .

قالت: كذبوا عليك لتهدأ وتقبل تغيير اسمك.

قال: كنت صغيرا وواعيا ، عشت في تشيلي في قصر صغير وخدم ومربيات وحرس ومال وتعلمت في مدرسة داخلية تابعة للأمريكان ، والرجل الذي احمل اسمه التقيت به خلال وجودي في قصره في البرازيل ، ولما سافرت لتشيلي لم أره ، رتب أموري وسجل باسمي عشرين مليونا في أمريكا يسمح لي بالتصرف فيها لما ابلغ السن المالي ، وكان محاميه في البرازيل يدفع مصاريف القصر والخدم والمدرسة الداخلية ، فدل هذا على حبه لي وإنني ابنه واليوم تقولين إنه ليس أبي الحقيقي.

قالت: هو أبوك القانوني ، أبوك البيولوجي رجل آخر لا أظنه حيّا اليوم، أنت فلذة من جسدي ، لما اخبرني الطبيب بالحمل أراد الطبيب أن اعمل الإجهاض؛ لأن أباك القانوني كان يأخذ حقن منع الحمل ، نحن كنّا نعيش في جو إباحي له عشرات من العشيقات فرحلت لسويسرا لما قرب الوضع وولدتك فيها.

قال: خشيت أن يكتشف زوجك خيانتك.

قالت: لم تكن خيانة ؛ لأنه كان يسمح لي بمعاشرة الرجال، وأنا امرأة كسائر النساء

قال: تشتهي المرأة ما يشتيه الرجل ، لا إنكار لذلك ؛ ولست بمقام من يحاسب ، هذا حق الزوج على ما أظن .

قالت: كنت امرأة ، هل علمت أن أباك القانوني قد مات؟

قال: علمت قبل انتقالي لدراسة الطب في فلوريدا ، وتحصلت على الجنسية الأمريكية، كيف وصلت إليّ؟

قالت: امرأة صديقة تعالجت عندك هي تركية ، كانت سكرتيرة في القصر أيام زواجي من أبيك القانوني كنت في زيارة لتركيا والتقيت بها فقصت عليّ التقائها وزوجها بك

قال: عرفتها السيدة ديانا وزوجها سليم عمل في السفارات.

قالت: نعم ، فقد تزوجت بعد طلاقي من نذير طبيبا تركيا ؛ لأن والدي ألماني من أصل تركي

وأمي من أصل ألماني.

قال: كان أبي مريضا يتعالج في كوبا قبل أن يرحل لوطنه ؛ حيث مات .. سمعت من أعوانه أنه مات بالسم أو متأثرا بالسم

قالت: السم! كان مريضا بالكبد من كثرة الشراب وسم الكحول ، وأنا تعالجت منه في سويسرا ، وكنت أراك كثيرا ..حياتنا مجون ولهو ، لو كان أبوك المزعوم يقبل الإنجاب لتغير الوضع

قال: رحمه الله ..أنت متدينة يا أمي !

قالت: متدينة ..أنا مسلمة عادت لإسلامها ، وأنت مسلم لأن نذيرا مسلم .. فأبي جدك مسلم تركي وإن ولد في ألمانيا .. جاء السيد من البرازيل لمساعدة الأسرة بالمال وتعرفنا وتزوجنا .. فأنا عشت في تركيا مع زوجي الطبيب وزرنا مكة .

قال: الحج ! هل أبي البيولوجي مسلم ؟

قالت: لا ادري

قال: اليوم الإسلام موجود في كل العالم والمساجد ، وطعامهم الحلال منتشر لمن يهمه الحلال

قالت: المسلمون شعوب كثيرة

قال: ماذا تريد أمي من ابنها جراح القلب؟

قالت: لا شيء لست بحاجة لمال ، أملك مثلك الملايين ، لما طلقني نذير اكتفيت بخمس ملايين للخلاص منه.. ومن سنوات عندما مات منحني مليونا آخر ، وكتب لي ابنك حي ، ولم يذكر أين تعيش؟ فقط أريد حبك ،وأن تعلم أني أحبك ومكثت زمنا أبحث عنك.

صمت دقائق يحدق فيها قبل أن يقول :لا فائدة من عودتي لمايكل يا أمي!

قالت: لا تغير شيئا .. المهم أن نتواصل ونحب بعضنا.. تزورني وأزورك كلما يتاح ذلك لكل منا .. أنا لي سبعة أولاد في تركيا.. قبل مجيئ إليك كنت احضر حفل زواج حفيدة زوجي رحمه الله .

قال: الأمر هين .. وأنا على وشك السفر والرحيل إلى القطب الجنوبي في بعثة علمية

قالت: القطب الجنوبي ! هل هناك بشر ؟ هناك الثلج والجليد والبطاريق والفقمات

قال: يجرون دراسات على حيوانات وطيور ، كيف تطيق العيش في تلك البيئة ؟ وأنا طبيب للبعثة ، ومعي زميلتي جينا وهي طبيبة مثلي ، ولما ارجع سأزورك ، ولن أنسى سنوات الطفولة التي عشناها معا ، كانت لي صديقة في المدرسة ...

قالت: الآنسة كارمن ، وإنها ما زالت تذكرك كلما نلتقي تسأل عنك إنها تحب الأطفال فأصبحت مدرسة أطفال لديها طفلان .

قال: نعم، كنت احبها.. ألها عنوان عندك ؟ أنت تعيشين هنا أم في سويسرا ؟

قالت: أحب سويسرا منذ ولدتك فيها ، لا أقارب لي فيها ؛ لكن اليوم لي صديقات في أنحاء أوروبا تعرفت عليهن أثناء عملي في جمعيات الإغاثة التركية ؛ نذير لما علم بحياتك اغتم وانتقم مني بخطفك وأبعدك عني كل هذه السنين .. متى سفركم؟

قال: سنسافر لكندا ، فالبعثة كندية ، وعندما يتحدد الوقت سأخبرك ؛ لعلك تأتين للحياة معي .. تلك الأيام أبي الحقيقي لم يهتم بي .

قالت: كان لا يستطيع كان مرعوبا من السيد.

قال باحتقار : أكان من حثالة الناس من خدم القصر ؟! يا للنساء

تألمت لقسوة الكلام ولم ترد ، فكرر ببغض : خادم يا أمي! أبي خادم .. هل من الممكن التعرف عليه ؟ لابد من زيارة له .

قالت: لما تعود سالما بإذن الله تعالى ستجد عندي الخبر اليقين أيها الحبيب! لك حياتك ولي حياتي .. الأمومة حياة الأنثى مهما سعى لقتلها الجهلاء .. فالله خلقنا لنكون أمهات

قال: اعتذر من قسوة العتاب ..أنت تعرفين الله وتصلين له!

قالت: نعم ، وساعدت في إنقاذ حياة البشر بسبب الكوارث والفيضانات .

قال: نلتقي يا أمي نلتقي بمشيئة الله

قالت: لديّ امل كبير.. نلتقي بمشيئة الله تعالى

ودعته بعناق ودموع ، وخرجوا الثلاثة من الشقة إلى المطار ، ركب طائرة كندا ، وأمه تلوح لهما بيديها ، وعادت لقضاء الليل في الفندق ، وفي الصباح رحلت لميونخ لزيارة والدتها في بيت المسنين ؛ حيث انتقلت إليه بعد ترملها ، وقضت أسبوعا بجوارها ، ثم رحلت لشقتها في برن ولما وصلت أخبرتها الخادمة الأخيرة بعد انتهاء وظيفتها في تركيا، أن تتصل بالمحامي برانس فقد اتصل يسأل عنها، وفي الليل رنت على هاتفه الخاص ، وحدثته عن التقائها بمايكل وسمع قصته وحياته في أمريكا اللاتينية ، ولما انتهت، سألت عن سبب الاتصال في الشقة ، ضحك وقال : ملجأ القطط أخبرني بموت القط الأسود باريس.



القطط السوداء هي قطط محلية ذات فرو أسود من سلالة القطط الأصيلة أو المختلطة، واعترفت جمعية (CFA) بأثنين وعشرين نوع من سلالة القطط الذين يولدون بفراء أسود، ويكثر هذا النسل في بومباي، والذكور منهم يكون فروهم أسود بالكامل أكثر من الإناث، وذلك بسبب ارتفاع صبغة الميلانين لديهم التي بسببها أيضا يصبح لون العينين أصفر ، قد يكون فرو القطة أسود كسواد الفحم أو الأسود المائل للرمادي أو الأسود المائل للبني، وقد تظهر بعض العلامات الباهتة حتى على فرو القطة السوداء تحت الضوء. ويمكن أن يتحول الفرو إلى اللون البني(لون الصدأ) تحت أشعة الشمس ، فإن جمعية محبي القطط تسمح باللون الأسود كخيار في واحد وعشرين سلالة أخرى، ووصف اللون لهذه السلالات هو أسود: أسود فاحم من الجذور حتى الأطراف، خالي تماما من اللون البني (الصدأ). جلد الأنف: أسود ، باطن الكف: أسود أو بني.

و الاستثناءات هي: القط الشرقي: الأبنوس (أسود) أسود فاحم من الجذور حتى الأطراف، خالي تماما من اللون البني (الصدأ) أو الدخاني جلد الأنف: أسود، باطن الكف: أسود أو بني. القط الفرعوني : أسود بالكامل من أنفه إلى طرف ذيله، جلد الأنف: أسود، باطن الكف: أسود أو بني.

الخرافات والتحيز وجلب الحظ الجيد أو السيء: يختلف التراث المحيط بالقطط السوداء من ثقافة إلى أخرى، ويعتقد الاسكتلنديون أن وصول القط الأسود الغريب إلى المنزل يدل على الازدهار، وفي الأساطير السلتية هناك خرافة تعرف باسم **Cat Sìth** و تأخذ شكل قطة سوداء، وكانت القطط السوداء أيضاً تدل على الحظ الجيد في بقية بريطانيا واليابان، وعلاوة على ذلك فإنه يُعتقد أن الآنسة التي تملك قطة سوداء سيكون لديها العديد من الخاطبين، وفي التاريخ الغربي كان يُنظر إلى القطط السوداء عادة على أنها رمزاً للشر وبالتحديد يشتبه في أن لها علاقة بالسحرة، أو في الواقع أن السحرة يقومون بتحويل أنفسهم إلى قطط سوداء، وتعتبر

معظم أوروبا أن القط الأسود رمزاً للحظ السيئ، ولا سيما إذا كان هناك شخص يمشي في طريقه ومر من أمامه قط فإنهم يعتقدون أنه فأل لسوء الحظ وللموت، ويعتقد البعض في ألمانيا أن القطط السوداء التي تعبر أمام الشخص من اليمين إلى اليسار هي نذير شؤم، ولكن من اليسار إلى اليمين عكس ذلك، وفي المملكة المتحدة فإنه من الشائع أن القط الأسود الذي يعبر أمام الشخص هو فأل خير. ولقد تمكنت القطة السوداء في التراث من التحول إلى طابع بشري لتعمل كجاسوسة أو ساعية للسحرة أو الشياطين، فعندما وصل الحجاج إلى صخرة بليموث كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بالكتاب المقدس، وأيضاً يؤمنون بأن أي شيء يعتبر من الشيطان، وكانت تلك المجموعة مريبة للغاية وكانوا ينظرون إلى القطة السوداء على أنها رفيقة للسحرة، وأي شخص يُقبض عليه ومعه قطة سوداء سيعاقب بشدة أو حتى يقتل، هم ينظرون إلى القط الأسود كجزء من الشيطان والشعوذة وبسبب هذه الخرافات قتل الناس القطط السوداء، ولا يوجد دليل على أن إنجلترا أقامت مذابح منتظمة وواسعة النطاق على القطط "الشيطانية" أو حرقها في منتصف الصيف، كما يحدث أحيانًا في أماكن أخرى في أوروبا.

على النقيض فإنه كانت القوى الخارقة للطبيعة المنسوبة إلى القطط السوداء يُنظر إليها في بعض الأحيان بشكل إيجابي، وعلى سبيل المثال البحارة الذين يفكرون في "قطة السفينة" يريدون الحصول على واحدة سوداء لأنها تجلب الحظ الجيد، وتحتفظ زوجات الصيادين بعض الأحيان بالقطط السوداء في المنزل أيضاً على أمل أن يستخدموا تأثير القطط لحماية أزواجهن في البحر.

ويرجع لوجهة نظر أن القطط السوداء مخلوقات مواتية على وجه التحديد إلى الآلهة المصرية (باستت)، وهي آلهة القط، واعتقدت الأسر المصرية أنها يمكن أن تحصل على الدعم من باستت باستضافة القطط سوداء في منازلهم ، وكان العاهل الإنكليزي تشارلز الأول في أوائل القرن السابع عشر مصدقاً لهذا الاعتقاد، حيث قيل بأنه عند وفاة قطته السوداء الأليفة رثى حاله بأن توفيقه رحل، ووفقاً لادعائه تم اعتقاله في اليوم التالي وأُتهم بالخيانة العظمى. ويعتقد قراصنة القرن الثامن عشر أن القطة السوداء تجلب أنواعًا مختلفة من الحظ، فإذا كانت قطة

سوداء تسير نحو شخص ما فسيكون ذلك الشخص سيئ الحظ، أما إذا كانت القطة السوداء تمشي بعيدا عن شخص ما فإن هذا الشخص سيكون ذا حظ سعيد .

و على العكس في المملكة المتحدة إذا ما سارت قطّة سوداء نحو شخص ما فإنها تجلب الحظ السعيد، ولكن إذا انحرفت عن مسارها فإنها تأخذ الحظ الطيب أو السعيد معها، إذا كانت القطة السوداء تسير على متن سفينة ثم مشت خارجا، فالسفينة ستغرق في رحلتها التالية.

إن احتمال تبني القطط السوداء في الملاجئ الأمريكية أقل مقارنة بالألوان الأخرى باستثناء اللون البني، وعموماً فإن الحيوانات السوداء تأخذ وقتاً أطول للعثور على منازل، وبعض الملاجئ أيضاً تعلق أو تحد من تبني القطط السوداء خلال فترة عيد الهالوين خشية تعرضهم للتعذيب، أو استخدامهم كزخارف حية للعطلة ومن ثم التخلي عنهم. على الرغم من هذا فإنه لم يوثق أحد من قبل في تاريخ العمل الإنساني أي علاقة بين تبني القطط السوداء والقطط التي تُقتل أو تُصاب. فعندما يتم الإبلاغ عن حالات القتل هذه تشير الأدلة الجنائية إلى الحيوانات المفترسة الطبيعية مثل القيوط والنسور أو الطيور الجارحة كسبب محتمل، ويوم ١٧ أغسطس هو "يوم تقدير القط الأسود". وفي الأيام الأولى للتلفزيون في الولايات المتحدة، استخدمت العديد من المحطات الموجودة ترددات عالية جدًا على القناة ١٣ وجلبوا قطة سوداء من أجل جعل الرياضة الموجودة على تلك القناة غير محظوظة.

وفي شهادة أُدلي بها أمام المحكمة في محاكمة ١٩١٨ لعمال الصناعة في العالم، قال رالف شابلن الذي يُنسب إليه إنشاء رمز القط الأسود الخاص بعمال صناعة العالم **IWW** أن القطة السوداء "شاع استخدامها من قبل الأولاد باعتبار أنها تمثل فكرة التخريب". و الفكرة هي تخويف صاحب العمل من خلال ذكر التخريب أو عن طريق وضع قطة سوداء في مكان ما، أنت تعرف إذا رأيت قطة سوداء تمر عبر طريقك إذا كنت مؤمنًا بالخرافات سيكون لديك حظ سيء، وفكرة التخريب هي استخدام قطة سوداء صغيرة لتخويف رئيس العمل. عندما تم إعادة صياغة نظام تسمية برنامج المكوك الفضائي للبعثات لتفادي ظهور **STS-١٣** ، قام

البعض منهم بتصديق الخرافة وفي أبولو ١٣ والطاقم الذي كان من المفترض أن يكون في STS-١٣ (انتقل إلى STS- ١٤ C) قاموا برسم هزلي يحتوي على قطة سوداء وعلى رقم ١٣. كانت المهمة ناجحة وحتى أنها هبطت الجمعة في اليوم ١٣. كان السبب الرئيسي الآخر لنظام الترقيم الجديد هو استيعاب عدد أكبر بكثير من عمليات الإطلاق.

تم تحديد ٢٧/ ٢٠١٤ أكتوبر "يوم القط الأسود" من قبل حماية القطط في المملكة المتحدة وبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية وذلك للاحتفال بفضائلها وتشجيع الناس على تبني القطط السوداء غير مرغوب فيها، وتشير الأرقام الخاصة بحماية القطط إلى أن القطط السوداء تواجه صعوبة للعثور على منزل جديد أكثر من الألوان الأخرى.

و في عام ٢٠١٤ ذكرت **RSPCA** أن ٧٠ ٪ من القطط المهجورة في رعايتها كانت سوداء مما يشير إلى أن السبب المحتمل هو أن الناس يعتبرون القطط السوداء غير جذابة . في الولايات المتحدة "يوم تقدير القطة السوداء" هو ١٧ من أغسطس. وأظهرت الأبحاث التي أجرتها **ASPCA** أن القطط السوداء تملك فرصة أقل للتبني من القطط الأخرى في الملاجئ ، وهذا يمكن أن يكون جزئياً بسبب الخرافة وراء أن القطط السوداء ترتبط بالسحر أو الحظ السيئ أو لأنها تبدو مملة بجانب القطط الملونة . وفي عام ٢٠١٤ ، نظمت تورونتو أكبر المدن الكندية حدثًا في يوم الجمعة الأسود حيث انه يمكن للناس أن يتبنوا قطة سوداء دون دفع رسم التبني المعتاد البالغة قدرها ٧٥ دولارًا، وذلك لتشجيع تبني القطط السوداء. وقد انتشر هذا الاتجاه الآن في الولايات المتحدة حيث توفر العديد من الملاجئ تبنيًا مجانيًا للقطط السوداء يوم الجمعة السوداء.

قدس الفراعنة منذ آلاف السنين القط ، وقد نُظر إليه بتبجيل واحترام، وكان جزاء من يقتل قطًّا عقوبة الإعدام، فعلى عكس ما يتوقع الناس ويسود بينهم الآن، كانت النظرة الخاصة بالمصريين القدماء تحديدًا، تجاه القطط جميعًا، سوداء اللون كانت أو بأي لون آخر، نظرة مليئة بالاحترام والتقدير، تجاه تلك الحيوانات الأليفة صغيرة الحجم، وكان عبور القطة السوداء

أمامهم لا يحمل معه أي مشاعر سلبية، بل إنه كان يدعوهم إلى التفاؤل، وانتظار قدوم الخير والرخاء.

في عصور ظلام أوروبا الوسطى ارتبطت القطط السوداء بالساحرات والمشعوذين؛ ذلك أن كل ساحرة كانت تصحب معها قطة، وهذا الأمر جعل الناس يتأكدون من اعتقادهم بأن القطة السوداء ما هي إلا جنيّ متخفٍ، قصة من القرن السادس عشر الميلادي لأب وابنه كانا مسافرين، وقد مرت قطة سوداء من أمامهما، فقام الولد بقذفها بحجر، فركضت القطة بعيدًا لبيت إحدى الساحرات، وفي الصباح وجدوا الساحرة وفي وجهها كدمات، فاعتقدوا أن الساحرة كانت متشكلة في هيئة القطة وأنها جني.

سئل الشيخ الألباني رحمه الله: هل القطة السوداء شيطان ؟ فأجاب: "لا ، ذاك هو الكلب الأسود شيطان " انتهى

قال ابن تيمية: إِنَّ الْكَلْبَ الْأَسْوَدَ شَيْطَانُ ، الْكِلَابِ وَالْجِنُّ تَتَصَوَّرُ بِصُورَتِهِ كَثِيرًا وَكَذَلِكَ صُورَةُ الْقِطِّ الْأَسْوَدِ؛ لِأَنَّ السَّوَادَ أَجْمَعُ لِلْقُوَى الشَّيْطَانِيَّةِ مِنْ غَيْرِهِ.

الإسلام يبيح تربية القطط بجميع الألوان والقطط من الطوافين والطوافات .

الفتاة الأوروبية الغربية: تفرح بها أمها كثيرا ؛ ولكن لا أحد يعرف من هو أباها ؟ تدخل الروضة والمرحلة الأساسية ومرحلة الثانوية والمراهقة وهي لا تعرف من هو والدها ؟ خلال كل هذه المراحل تتنقل أمها من رجل إلى آخر محاولة الحصول على زوج قبل أن ينقضي قطار العمر. عندما تبلغ الفتاة الـ ١٨ سنة من عمرها تختار إما أن تستمر في العيش مع أمها وتشارك في إيجار السكن ، أو تطرد من المنزل ! غالبا تخرج من المنزل ؛ لأنها لا تزال طالبة في الجامعة وترغب في السكن مع صديقها الحالي! تضطر إلى العمل في أي مجال حتى البغاء والحانات مهما كان للحصول على المال ودفع رسوم الجامعة ورسوم سكنها مع صديقها « هذا في حال أنها استمرت مع صديق واحد » تتعرض للتحرش يوميا وليس أمامها إلا خيارين إما أن تنحرف أو تستمر في التنقل من سكن إلى آخر ومن صديق إلى آخر!

تقوم بعض الشركات الغربية باستغلال الكثير من الفتيات لعمل أفلام إباحية وانحرافات جنسية ، تتعرض الكثير من الفتيات للاغتصاب وربما القتل والضرب في الشارع في الملاهي! عندما تكبر في السن يتركها أولادها فلا مفر من رميها في بيوت العجزة والمسنين ،وزيارتها في عيد الأم .

أما حياة الفتاة المسلمة فعندما تولد يفرح بها الأب والأم والجد والجدة والأهل والأحباب، ويعق عنها بشاة ويتصدق بفضة بوزن شعرها ، تدخل جميع مراحل الدراسة وهي تعيش بسعادة في كنف أمها وأبيها ، تنهي دراستها وجامعتها وهي تعيش في بيت أبيها وأمها وأسرتها معززة مكرمة ، يأتي إليها خطيب فيقوم الأب بالبحث عنه والسؤال عن دينه وأخلاقه ، تتزوج وتنجب وتتكرر السعادة مع ابنتها وتتكرر نفس مراحل عمرها ، عندما تكبر في السن يتنافس الأبناء في خدمتها ورعايتها والبر والإحسان إليها . ثم يأتي علماني أحمق إلينا وينادي بحقوق المرأة ! ويقول رجعية معقدة ؛ لأنها تغطي وجهها وتصون نفسها وتصون مجتمعها من الفتنة .

أيها المسلمون استيقظوا من غفلتكم وخدعة الحرية التي يروج لها الغرب الحمد لله على نعمة الإسلام !

المكتبة الخاصة ٢٠٢١ جمال شاهين



الحفل بالقط الاسود

جمال شاهين

امرأة نزيـه



بسم الله الرحمن الرحيم

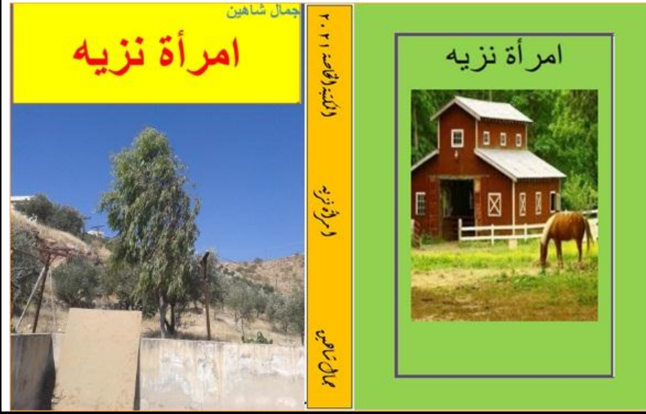
المكتبة الخاصة

٢٠٢١

النشر الأول

امرأة نزيه

جمال شاهين



جمال شاهين



لما التحق" نزيه يوسف" في كلية التجارة حسب رغبته كان معه ابن عمه "رافع محمد" كلاهما في نفس الجامعة ، ذهب رافع إلى كلية التربية تخصص الرياضيات ؛ لتحقيق رغبته بأن يكون معلما لهذه المادة في قريته جمالة أو ما حولها من القرى رغبة في التدريس والعمل مع أسرته في الزراعة والحقول ، لم يكن محبا للحياة في المدن الكبرى كابني عمه نزيه وإبراهيم .

كان إبراهيم الابن الذكر الأكبر ليوسف الجمالي ، وقد سبقهم بعام دراسي واحد ، فبينه وبين نزيه من العمر سنة وبضعة شهور ، وهو طالب في كلية الحقوق السنة الثانية ، وكان مستأجرا شقة مع زميل من جمالة ، ولما حضر نزيه ورافع للدراسة الجامعية ترك الشقة عن رغبة واتفاق مسبق بينه وبين إبراهيم ؛ ليفسح المجال لهما ، وانتقل للعيش مع قريب له كما كان مرتبا بينهم فقد سمح له إبراهيم للعيش معه بدون مقابل من باب الإحسان والجيرة . وكان مع نزيه في الجامعة من بلدة جمالة كثير من أبناء الفلاحين والقرية ، فكان معه سوى رافع زميل شاب اسمه" نعيم أشرف " درس الثلاثة الثانوية في مدرسة واحدة ، ودخل نعيم ونزيه كلية التجارة سوية كذلك ، فكانوا رفاق درب ، وكان معهم طلاب آخرون من القرية قد سبقوهم للجامعة ، وممن انهوا الثانوية معهم . كان أهل القرى والريف الفلاحون يحبون إعطاء أبناءهم فرصة للتعليم والدراسة اذا اجتازوا الثانوية العامة ، والناس تحاكي بعضها البعض ، وتنظر وتقلد لبعضها البعض ، والشهادات تحقق لهم المستوى الاجتماعي ، وتعلي من شأنهم أمام بعضم البعض ، ويفخر الأهل بتعليم الأولاد وتدريسهم ، وقد يملك بعضهم مالا أكثر من مائة شهادة وشهادة . العادة أن أهل القرية والريف يعرفون بعضهم بعضا أكثر من أهل المدن ، فالقرية تعداد سكانها أقل كما هو معلوم ؛ فلذلك ترى الناس في القرية يعرفون بعضهم ، حتى أن بعضهم تراه يعرف نساء وبنات الناس ، هذه امرأة فلان ، وتلك بنت حمدان وهذه أخت زيد ، وحتى أنهم يمكنهم أن يعرفوا بعضهم بسبب اللهجة أو كلمات يلفظها سكان وأهالي منطقة ما ، فيعرفون أهل تلك البلدة ، فكذلك شبان وبنات جمالة تراهم يحيون

بعضهم عند كل لقاء . أما من ولدوا في المدينة فيصعب عليهم معرفة أبناء قريتهم من لهجتهم وطريقة لفظهم الكلام فأهل المدينة لا يعرفون بعضهم إلا اذا جرى تعارف واحتكاك بينهم . وممن كان في فصل وسنة نزيه من أهل جماله زميله في المدرسة الثانوية نعيم اشرف كما ذكرنا ، وممن رافقهم وصحبهم من طلبة المحاسبة في كلية التجارة الطالب سليم عبد الله ، وهو من سكان مدينة سلام الدين ، هؤلاء الأربعة كانوا رفاقا وقريبين من بعضهم بعضا ؛ كأنهم أشقاء ، ثلاثة في كلية التجارة ، ورافع محمد طالب كلية التربية ، وهو رفيقهم بحكم أنه ابن عم نزيه يوسف وصديق لنعيم اشرف ابن بلدة جمالة . ونزيه ورافع يعيشان مع إبراهيم يوسف طالب الحقوق ، وهو يسبقهم بعام واحد فحسب ، وكان بيته المستأجر من عام قريبا بضعة كيلو مترات عن الجامعة ، وذكرنا أنه سمح لزميل أن يحيا معه العام المنقرض ، ونعيم سكن مع قريب له في قلب المدينة ، وأما سليم فيعيش مع أهله وبيت والده وأسرته .

وكان الأربعة يلتقون في غير الجامعة في مقهى الجامعة الذي يقع في شارع الجامعة ؛ حيث يلتقي الطلبة من جميع الكليات للحديث والدردشة وشرب الشاي والقهوة والمثلجات بأنواعها ، والمقهى هذا يستقبل الجنسين لم يكن خاصا بجنس كما في بعض المقاهي في المدن ، وهذا كان في الثلث الأخير عام ١٩٦٠ . يجلسون للحديث عن المحاضرات والمواد الدراسية ، ويعلقون ويسخرون على المحاضرين والمدرسين ، وتصرفاتهم وحركاتهم والطرائف التي تحدث بين المحاضرين والطلاب ، وما يحدث من نشاط بين الطلاب والكتل الحزبية والإدارة والأمن الجامعي والأمن السري، وما ينشر بين الطلاب من نشرات سرية وعلنية وبيانات سياسية حول قضايا الداخل والخارج .

كان نزيه مجادلا ومناكفا من ثانوية جمالة ، ومحبا للنقاش والجدل ، ولا يتقبل المعلومات بسهولة ودون معارضة وعقلانية قبل أن يستسلم للمعلومة المطروحة ، وهو من عشاق القراءة والكتب والمجلات والجرائد وسماع الأخبار ، ومناقشتها ، ويتحدث في السياسة والعلوم والفلك والنظريات والبديهيات وتحركات الزعماء والأعلام ، وكان الأحداث المهمة

تلك الفترة من الزمن الثورات العربية في شمال أفريقيا والوعود الفرنسية لهم بالاستقلال ، وشغلتهم وحدة مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة ، وسعي إمام اليمن بالانضمام إليها ، وأن تحرير فلسطين قد اقترب ، وكان الاستعمار الأوربي يرحل عن البلدان العربية رويدا رويدا بعد أن زرع الحركة الصهيونية في قلب العالم العربي في فلسطين العربية .

فقد ظهرت قبل أعوام دولة اسمها إسرائيل على أرض اسمها فلسطين الساحلية ، واستولت مصر الملكية على غزة أو قطاع صغير من غزة التاريخية، وكانت الأحداث دائمة ومستمرة في هذا القطاع الجزء الفلسطيني على ساحل البحر المتوسط . وحديث فلسطين عنوان الصحف والمقالات والمجلات العربية والعالمية والإذاعات وهو الخبر المتصدر كتابة وصوتا ، والشباب والأحزاب ديدنهم نقل الأخبار والتعليق والتعقيب عليها ، كل حسب ثقافته وميوله الفكرية ونزيه ورفاقه شأنهم شأن الشباب في ذلك الحين ، وكان الطالب سليم من شباب فلسطين وأحد المهاجرين من حرب ما يسمى النكبة ـ فقد سمي عام الخروج الفلسطيني من قراهم والساحل الغربي نكبة فلسطين ـ إلى مدينة "سلام الدين " احدى مدن العرب في القرن العشرين ، وهو شاب من أسرة وطنية ، له أقارب وأعمام قتلوا سواء في جيش الإنقاذ العربي أو الجهاد المقدس جيش عبد القادر الحسيني المناضل الشهير الذي قتل على أرض القسطل ، بلدة مقدسية . عام النكبة والهجرة الفلسطينية عام ١٩٤٨، فقد طرد ما يقارب المليون إنسان من قراهم ومدنهم التي تزيد عن ٥٠٠ قرية ومدينة ، هي كارثة بحق رغم استخدام العالم لكلمات وألفاظ لتهون الأمر على المشردين لليوم ؛ حيث تسطر قصة نزيه يوسف .سقطت البلاد والعباد على أيدي شرذمة من اليهود كما سماهم القرآن على لسان المجرم العالمي فرعون ، فهم يزعمون أنهم أحفاد وذرية يعقوب وهو إسرائيل . سبعة جيوش عربية سوى مجاهدي فلسطين سعوا إلى صد ومنع قيام دولة صهيون حتى أن رافعا قال لسليم بتردد وحيرة : أيعقل أن تغلب إسرائيل الناشئة سبعة جيوش عربية؟!

ضحك سليم وقال : صحيح وهذا هو الواقع .. هزمت الجيوش السبعة يا أستاذ رافع!

ـ كيف تم ذلك؟!

ابتسم سليم لرافع قائلا: أنا كنت طفلا ابن عشر سنوات يا صديقي وأخي ! أدرك الرحيل من القرية مشيا على الأرجل ليلا نهارا إلى تجمعات شرقا.. حيث ما يعرف اليوم بالضفة .. ومنها إلى مدينة سلام مدينتنا هذه للحياة والعمل .. هذا ما حصل .. قام الجيش الصهيوني الهاجاناه بطردنا من قرانا ومدننا .. رحلنا عن الرملة .. مدينة مهمة وسط فلسطين غرب بيت المقدس .. مدينة شهيرة في التاريخ .. أول من أنشأها الأمويون خاصة الخليفة السابع سليمان بن عبد الملك .. وكما تعلم واشتهر تفرق أهل الساحل الغربي لفلسطين شرقا وشمالا وجنوبا وبعضهم ركب البحر جهة مصر خاصة من كانت جذورهم من مصر .. فلسطين تاريخ حافل وعجيب من الغزاة .

قال نزيه مؤكدا : فعلا تلك الديار كل أجناس العالم أو أغلبها جاءت إليها .. الحملات الصليبية جلبت بشرا من جل أنحاء أوروبا إليها.. تابع يا سليم.

قال : شكرا يا نزيه ! حتى من يسمون أنفسهم باليهود أجناس شتى فيهم الفرنسي الأمريكي الألماني الروسي البولندي .. يهود العرب المغرب مصر العراق .. الحديث ذو شجون كما يقال .. حقيقة حياتنا نحن الفلسطينيين عجيبة.. تشرد .. .. خيم .. مخيمات.. بؤس

قال نزيه مضيفا : طرد اليهود الملاعين يا رافع مليون فلسطيني سنة ٤٨ .. وانكسرت الجيوش السبعة .. وأصبح الفلسطينيون لاجئين هنا وفي الدول المحيطة بأرض فلسطين المقدسة .. حتى أننا سمعنا أن هذه الجيوش ذهبت للقتال بدون أسلحة وأدوات فعلية للقتال .. ظنوا أنهم ذاهبون لمصارعة الثيران أو شمة هوا أو فزعة عربية .. ولا ادري صحة ذلك !

قال رافع : معقول هذا!

قال سليم : هذا ما كان ! يبدو أن نزيها قرأ جيدا مادة القضية الفلسطينية .. الواقع أن هذه الدول كلها كانت تحت الحماية البريطانية والانتداب الإنكليزي وغيره .. وأسباب الهزيمة والنكبة الكارثة كثيرة .. سوريا ولبنان كما تعلمنا كانتا تحت الرعاية الفرنسية وإن كان

ظاهرهما الاستقلال .. الأردن والعراق كان الضباط الإنكليز هم الذين يسيطرون على قيادة الجيوش .. كانت بالمجمل دولا ضعيفة .. يعتمدون على الحماس والشجاعة الفردية والفزعة .. والسعودية دولة ناشئة وبرعاية الإنكليز والأمريكان بعد الحرب الكونية التي انتهت قبل نكبة فلسطين بثلاث سنوات وقوات من السودان والمغرب ..واليمن الشمالي في حالة تخلف وجهل فظيع أيام الإمامة .. كان أستاذ التاريخ مدرسنا في الثانوية يسخر بشدة من هذه الجيوش السبعة ..كان قوامها كما يقول ثلث جيش إسرائيل .. وإسرائيل تسليح من أحدث وأفضل الأسلحة والذخيرة .. وحتى الروح القتالية أفضل مما في جيوش الجامعة العربية .. كانت مجال سخرية للعالم .. وأستاذنا كان يقول : نشأت هذه الدولة كالخيال ، لم يكن الكثير من الشعب الفلسطيني يصدق أن هذه الشرذمة سيقيمون دولة وكيانا ؛ لكن هذا ما حصل طردنا وشتتنا وصارت لهم دولة يا رافع .. وقد دق اسفين كبير في أمة العرب .. والحديث أكثر من ذي شجون اذا كان ذا شجون .

قال رافع حزينا : معك حق ! ففلسطين مأساة وكارثة كبرى ليست نكبة فحسب .. فآلاف من الناس يعيشون في عشرات المخيمات بعد العز والسعادة والفلاحة .. نحن في الريف لم نشعر بمأساتكم .. تأثرنا بما سمعنا من مدرسينا الأفاضل .. ولكن لم يكن هذا التأثير كما نرى منك ..كانت مادة تدرس .. لا يعرف الحق والألم إلا من كابده .. المخيمات مؤلمة ويا لها من مخيمات! فربما أنت تعرف عنها أكثر بكثير منا .. عشت في المخيم يا سليم !

رد بحزن فقال : نعم ، عاشت فيها الأسرة في أول الهجرة بضع سنين.. ثم اشترى جدي بيتا واسعا له ولأولاده الأربعة .. منهم أبي .. كان الجد من الملاك في الرملة ، وله أصدقاء في مدينة سلام الدين ، وعمي تزوج منها بعد الخروج الكبير ، هو الوحيد لم يكن متزوجا في البلدة ذات التاريخ العريق منذ شيدها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك رحمه الله .

الشارع الممتد من وسط سلام الدين إلى بنايات وعمارات الجامعة شارع طويل عدة كيلو مترات ، وهو مليءٌ بالمطاعم والمقاهي والمكتبات ، وقرب الجامعة بيوت وشقق مفروشة لسكن الطلاب القادمين من الريف والمدن البعيدة أو المبتعثين من الدول الأخرى. وقرب الجامعة مقاهي كثيرة ، أحدها يحمل اسم مقهى الجامعة ، كان طلاب كلية التجارة وغيرها يترددون عليه لشرب الشاي والقهوة والمرطبات الشائعة ، ونهتم به دون غيره ؛ لأن نزيه يوسف ورفاقه يعتبرونه مقاههم المفضل ، سواء في العطل أو عند الخروج من أسوار الكليات وهو حمل اسم الجامعة فنال شهرة على غيره وربما هو أقدم مقاهي الشارع الذي يحمل اسم شارع الجامعة . ويتردد على هذا المقهى طلاب وطالبات القسم الداخلي ، وسكان الشقق المفروشة والمؤجرة للطلاب ، فهو مكان مناسب للقاءات والمناقشات الطلابية ، وسهل اللقاء به لشهرته وقدمه ، وهو مكان متسع ، وبجواره عدد من المطاعم التي توفر الطعام والوجبات الخفيفة للزبائن ، فتسطيع شراء ساندويتش وتتناولها في المقهى مع كوب شاي أو عصير.

وفيه تجد الأخبار ونقلها ، والسياسة ودواوينها ، والصحف ومقالاتها ، وشباب الأحزاب والتيارات الفكرية والثقافية والعلمانية والدينية ، طاولات للجدال وإظهار الأفكار والأحلام ، وهنا يتبادل الطلاب المعلومات والحكايات والتعارف ، وما يحدث في الكليات من طرائف وقصص للطلاب والمحاضرين والإدارات فتعلم كل ما يدور داخل أسوار وقاعات الكليات. كان الحديث يدور تلك الأيام وذاك العام عن الصراع من أجل الاستقلال في الشمال الإفريقي ، والثورة الكوبية ، والصراع الكبير بين الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والشرق والغرب ، فالحديث في السياسة والانقلابات العالمية والعربية مستمر ودائم ، والصراع بين العلمانيين والإسلاميين ، وبين القوميين والوطنيين وحتى بين التيارات والأحزاب والطوائف الإسلامية اليسار واليمين . للحق كما سبق وذكرنا أن في شارع الجامعة المار ذكره مقاهي أخرى حتى الملاهي والنوادي متوفرة على جوانبه ؛ وإنما ركزنا على مقهى الجامعة ؛ لأنه المقهى

الذي يرتاده نزيه يوسف ورفاقه رافع ونعيم أشرف وسليم وعدد من أبناء جمالة الذين يتعلمون في تلك الجامعة ، ومن خلاله تعرفوا بشكل جيد على عماد مصطفى ونعيم احمد من كليات أخرى ، وهما من شباب حزب التحرير الإسلامي ، حزب إسلامي نشأ من قبل سنوات قليلة في الضفة الغربية ، وخلال القهوة والشاي والمثلجات والمشروبات يجري طرح القضايا الدينية والسياسية والعلمية والصراعات ، وأهمها الصراع العربي الصهيوني ، وكيف نجحت إسرائيل في قيام الكيان الصهيوني بين أمة العرب ، وهم لا يمتون للجنس العربي ، وهم بين الأغلبية ذات اللسان العربي ، وبين الصراع الغربي بزعامة أمريكا والاتحاد الروسي الشرقي ، ومشاكل الأحزاب العلمانية في بلاد العرب ، وفشلها في الحكم والاقتصاد .

وكان نزيه يرى أن حزب التحرير منشق عن جمعية الإخوان المسلمون ، وأنه يحمل أفكار فرقة المعتزلة في الصفات الإلهية ، واعتقاد عذاب القبر الذي لا يجزمون به ؛ لأن الاعتقاد يحتاج إلى جزم في الكليات العقدية ، واذا أنكر شباب الحزب ذلك ، التحرير والمعتزلة العقل هو عمود فقري ويقدمونه على فهم النصوص، وكان نزيه يحب ذلك ويقف معهم في أهمية العقل ومقارعتهم للشيوعيين ، ويمدح المعتزلة في التحسين العقلي والتقبيح للأشياء ، فالحسن ما يراه العقل . كان نزيه يحب المطالعة كثيرا ، وكان معظما للعقل مثل شباب حزب التحرير ، ويحب الجدال والاقتناع اقتناعا حقيقا بما يطرح للنقاش ، ولا يقبل الحقائق بيسر وسهولة ، ووجد نفسه محبا لشباب حزب التحرير المنشق عن الإخوان أو المتأثر بهم في مطلع الخمسينات على يد القاضي تقي الدين النبهاني ، ولم ينتم له ، فأهل القرى لا يعرفون الأحزاب ولا وقت لديهم للسياسة والأحزاب والاجتماعات ؛ ربما يسمعون بها ممن يرتادون ويعملون في المدن لاعتناقهم لها أو جلوسهم مع الحزبيين . قلنا عماد ونعيم من رواد المقهى كانوا من حزب التحرير الذي يسعى لعودة الخلافة ولو بانقلاب عسكري يدعمه الحزب ، فكل كلامهم حول السياسة وأمريكا وبريطانيا .

ففي بعض الأحيان يدخل الشباب اليساري الشيوعي للمقهى للقاء شخص أو تناول قهوة

وغيرها ، فيلتقون بشباب التحرير والإخوان ويحصل الجدل حول الماركسية واللينينية ، ويشترك نزيه ورفاقه معهم في الجدل والنقاش ، وعن فضائل الفكر اليساري والفكر الإسلامي، كل حسب وجهته وثقافته ، وماذا قدم المسلمون للعالم؟ وما قدمت المنظومة السوفيتية للعالم ومقاومتها للعلمانية والرأسمالية والليبرالية ، وكيف تحارب الشيوعية الاستعمار والاستبداد ؟ وما تكرسه الصوفية والدين لبقاء الطغيان والخضوع وإن الآخرة أهم وهم يشككون في العقاب والاقتصاص الأخروي .

فكان نزيه متشجعا ومبتهجا في مثل هكذا جدل ، ويحشر الفكر المعتزلي في الحوار والجدل والعقل وتمجيده وتفنيده لضلال الشيوعيين حتى لقبوه بالجعد بن درهم أحد رجال الاعتزال القديم ، واطلق عليه هذا الاسم تهكما ،فيقال قد جاء جعد نطق جعد ، وانتشر هذا الاسم في المقهى وساحات وقاعات الجامعة ، وعرفوه بهذه اللقب حتى من لا يعرف المقصود من هذا الاسم ؛ لأنه يدرس في كلية تجارية لا تعرف مثل هذه الأسماء بالمجمل، فهي كلية محاسبة وتدقيق وموازنة وشركات وأموال. انتهى الفصل الثاني ، وقفل الطلاب لقراهم وبلداتهم في إجازة صيفية ممتدة في فصل الصيف حتى الخريف ، وكان من المعتاد سخرية أبناء المدن من أبناء الفلاحين والقرى ويصفونهم بالرعاة والمزارعين والجهل والحمق والغباء والسذج ويعتبرون أنفسهم أذكى وأحضر .

كان رافع محمد قريب نزيه يقول له بعد تناولهم طعامهم في شقة إبراهيم طالب الحقوق ،وقد تركهم إبراهيم إلى حجرة النوم ليراجع ويذاكر ويقرأ : أنا لم أفهم كلامك عن حزب التحرير والصوفية !

وقد دار بين إبراهيم ونزيه أثناء العشاء ذكر عن الفريقين أحدهم يتابع السياسة والآخر يتابع حلقات الذكر بالقفز . ابتسم نزيه لابن عمه وهو يترك كوب الشاي فارغا : هذان الشابان عماد ونعيم رفيقه يزعمون أنهم مناصرون متعاطفون أعضاء لا تعرف الحق أنهم في الحزب الإسلامي .

قال رافع محمد : ما الفرق بينهم وبين غيرهم ؟ كل كلامهم في السياسة وأمريكا وبريطانيا والأذناب يقصدون أذناب الاستعمار .. الخلافة الحل لتمزق الأمة ويظنون أنهم بتنصيب الخليفة تحل المشاكل وتحرر فلسطين .

ضحك نزيه وقال : هذه الخلافة عقدتهم وديدنهم ؛ بل ظنوا أن الخلافة ستكون بعد ثلاث عشرة سنة من تأسيس الحزب ، واقتربت السنوات على الزوال ، هم قاسوها على مدة الدعوة الإسلامية في مكة .. هذه أحزاب برزت بعد سقوط الخلافة العثمانية في مطلع القرن كما قرأنا .. حزب التحرير قبل سنوات ظهر بعد نكبة صديقنا سليم أو نكبة العرب .. قبل سنوات ظهرت أحزاب إسلامية معاصرة لإحياء العودة إلى الدولة الواحدة إلى خلافة إسلامية ، وهو نظام الحكم الإسلامي بعد موت النبي ﷺ .. الاستعمار الأوروبي استطاع إنهاء نظام الخلافة في تركيا اليوم .. والخلافة كانت مؤسسة رمزية دينية قائمة في إسطنبول التي كانت تسمى الاستانة .. انتهت على يد شخص عسكري اسمه مصطفى كمال أعلن الجمهورية التركية العلمانية التي تعني فصل الدين عن الحكم والدولة .. وكان ذلك سنة٢٣ أو ٢٤ لا أذكر بالضبط .. أنشأ الرجل جمهورية كسائر الدول والجمهوريات الإسلامية .. النظام الجمهوري ، كما في وقتنا .. جمهورية في سوريا في العراق في لبنان في ايران .

وتابع فقال : بعضهم جهر بالعلمانية وأعلنها ، وبعضهم أسرها .. وكما درسنا وعلمت .. قسم الاستعمار الغربي البلاد إلى دويلات سوريا لبنان العراق الأردن وسعوا لتقسيم سوريا أقساما أخرى .. وفلسطين كما في قرار التقسيم الدولي عام ٤٧ .. قل غربها أعطوها لليهود لإقامة دولة صهيونية وقطعة من جنوبها لمصر وشرقها للفلسطينيين ثم ضموه لشرق الأردن .. وركزوا لنجاح مكرهم على الأعراق والجنس عرب ترك كرد أرمن وغير ذلك من الملل والأديان ، كما ترى اليوم .. المنتصر يفعل ما يريد .. وقبل العرب بهذا التقسيم والحدود .. ومصر كبرى الدول العربية والأكثر بشرا كانت محتلة قبل سقوط الدولة العثمانية .. وشمال أفريقيا خاضع لفرنسا إلا ليبيا حكمها الطليان .. وها نحن نسمع أن الجزائر وتونس على

وشك الاستقلال .. المهم من نتائج الحرب الكبرى تحول تركيا إلى جمهورية وقومية تركية.

قال: جيد الكلام ! ولماذا الخلافة ؟!

قال نزيه كأنه خبير تاريخي وفيلسوف : في رأيي أنا أن الخلافة الحقيقية انتهت بدخول المغول وأحفاد جنكيز خان بغداد بزعامة هولاكو عام ٦٥٦ هجري .. انتهت الخلافة الإسلامية العربية.. فلما ظهر المماليك كقوة في مصر مماليك الملك الصالح الأيوبي ابن أخ القائد الشهير صلاح الدين احتاجوا لدعم رمزي لتثبيت حكمهم فجلبوا عباسيا وتوجوه خليفة .. فسكت الناس فكان الخليفة كما نرى ملوك أوروبا ملوكا دون حكم .. شغل مراسم .. الذي يحكم ويرسم رئيس الوزراء وحكومته وحزبه المنتخب من الشعب .. وظل الخلافة حتى فتح الترك القسطنطينية آخر معاقل الروم .. فغزا الغازي سليم الثاني الشام والعراق ومصر وضمها للحكم العثماني نسبة إلى عثمان بن طغرل ..فأخذ وساق الخليفة إلى الاستانة .. ثم تنازل الخليفة لسليم ؛ فأصبح خليفة المسلمين يا رافع يا ابن عمي .. وذلك قبل أربعة قرون .. وحكموا أجزاء من البلقان .. وبلاد العرب بلاد شاسعة .. حكمونا للحق باسم الإسلام .. وخضعت لهم أمم وأجناس شتى.. حقيقة انتهاء الرمز أصاب المسلمين في حسرة ذلك الوقت .. وحزب التحرير يسعى دون الأحزاب الإسلامية الأخرى لعودة الخليفة أولا .. أنت تعلم أن عرب الشام والعراق والحجاز انفكوا عنها تلك الخلافة خلال الحرب الكونية الأولى .. وقامت جامعة عربية لتوحيدهم .. وما زالوا يحلمون بذلك من سنة ١٩٤٥ أو من قبل .

قال رافع : لماذا جلبوا اليهود المناحيس الذين لا يتكلمون العربية مثلنا إلى بلاد العرب ؟!

رد نزيه ببطء : صنعوا هذا الكيان لأهداف خاصة واستعمارية ؛ لأنهم يدركون أنهم راحلون كما رحلوا عن الهند بعد قرون من ابتلاع خيراتهم وثرواتهم ، وقد قامت في الهند ثورات وحركات أدت لتحرر الهند واستقلالها عن التاج البريطاني ومن غاياتهم بقاء العرب منقسمون ومتفرقون .. فجلبوهم ؛ ليكونوا يدهم الطولى في بلادنا .. ظهرت حركات دينية وعلمانية تبغض المستعمر في وعي الشعب .. وهذا ما حصل .. وقيل خرجت القوات

العسكرية وأبقت التوابع بأسماء مختلفة .. ظهرت جمعية الإخوان المسلمون على يد المدرس حسن البنا عام ١٩٢٨ وبعض رفاقه كجمعية دينية لإعادة الوعي الديني بين المسلمين والعودة للروح الإسلامية وتمهيدا لعودة الإسلام كمنهج حياة بين العباد وفي البلاد ، ثم جروا وانخرطوا في السياسة والعمل العسكري لإخراج الإنجليز من بلاد مصر .. وبعد الحرب الثانية تولدت حركات مشابهة في الفكر والعمل في بلاد الشام والعراق وبعض البلدان الإسلامية المستقلة .. وفلسطين قضية النظام العربي والفشل العربي ، حتى الكفاح المسلح الفلسطيني ضعيف ومشتت كما نقرأ ونسمع في الترانزستورات .. الراديو أقصد .. وأعتقد أن سليما ؛ ربما لديه معرفة عن قضيته أكثر منا .. والواقع كان الله في عونهم .. جزء ضم لشرق الأردن وجزء صغير ضم لمصر .. والقسم الأكبر أصبح دولة قومية لليهود الملاعين أخبث شعوب الأمم اليوم .. وحزب صديقنا عماد ونعيم كان مؤسسه الفلسطيني القاضي تقي الدين النبهاني من أسرة عريقة دينية دارسا الشريعة في أزهر مصر وتعرف على الإخوان ، ثم انشق عنهم حسب ما قرأت في بعض المجلات أو كما قيل ، وأسس حزب التحرير وشارك الحزب في انتخابات عام ١٩٥٥ في الأردن ؛ لأن القدس حيث عمل النبهاني قاضيا شرعيا في محاكم الأردن وفاز ممثلهم بمقعد عن مدينة قلقيلية .. وشعارهم طلب النصرة لإنشاء خلافة عربية تعم العالم ؛ لعلهم ينجحون يا ابن عمي والله أعلم .. حتى أنهم يؤيدون قيام انقلاب عسكري لهذه الغاية .. فالانقلابات تملأ الساحة العربية في مصر قبل سنوات وسوريا قبلها وبعدها .. وقبل ثلاث سنوات قاسم في العراق .. وفي وايران وأفريقيا السمراء .. انقلابات شغالة .

فلما صمت نزيه قال رافع : ما الفرق بين هذه المسميات ما دام كلها تعمل للدين؟!

تنهد نزيه وقال مفكرا في الإجابة : الفرق يا ابن عمي الإخوان يقال إصلاح من الفرد وتربية ، ثم الصعود .. التحرير إصلاح من الأعلى وفرض القوانين بقوة السلطة والحكم .. والناس تلتزم بها .. والصوفية والجماعات القادمة من الشرق لا يهتمون بالسياسة .. ويتعايشون مع كل

النظم حتى ولو كانت كافرة في نظر الإسلاميين .. والصوفية طرق كثيرة يتوارثها الأبناء عن الآباء .. فموسى الطالب المعمم طرقي مختلف عن التحريرين .. والإخوان فيهم صوفيون وأشاعرة وسلفيون اتباع السعودية والخليج العربي.. اهتم الإخوان بإصلاح الفرد والتحرير بإصلاح الحكم ..والجماعة يقولون لو أمر الخليفة بإغلاق الخمارات نفذ وأطاع الناس فورا .. اغلق البنك يغلق البنك.. أما جماعة الشيخ حسن تربية الفرد على الخلق الحسن التمسك بالدين رويدا رويدا نصل للحكم ، ويعملون مع الأحزاب العلمانية كالوفد في مصر والبعث في سوريا ، ويعملون بالسياسة والنيابة وأقول وفق الله الجميع .. لقد تعبت يا رافع !

قال : عافاك الله .. أحسنت !.. أختم .. أنت مع من؟!

قال نزيه : أنا مع المحاسبة مع أفكار المعتزلة!!



الرفاق في القرية

انتهى العام الجامعي الأول لنزيه يوسف ورفاقه فرجع لجمالة لقضاء فصل الصيف في ربوع وشوارع القرية ومزارعها ، عاد لمسقط الرأس للراحة ، وشم هواء ونسيم الصيف ، هم طبعا لم ينقطعوا نهائيا عن القرية خلال العام الأول .

وبعد حين يسير من العطلة دعا نزيه ورافع ونعيم زميلهم في الكلية سليما ودعوا أيضا رفاق المقهى عمادا ونعيما ؛ لتناول الطعام في بلدتهم وقريتهم المدينة الصغيرة ، فالقرى تكبر كما المدن وكانوا في الترحيب بهم في محطة الحافلات في جمالة ، وتعانقوا عناق المشتاقين ؛ كأن لهم سنوات لم يروا بعضا. في مزرعة يوسف والد نزيه وعم رافع كانت حفلة الشواء والغذاء ، وسر الضيوف من الضيافة والفواكه الطازجة والطيبة من فواكه المزرعة .

فقال عماد : حتى نبقى على تواصل أيها الأصدقاء خلال شهور الصيف.. لماذا لم تشتركوا في نادي الجامعة.. نلتقي كل أسبوع مرة على الأقل .. فالحديث معكم ومع أفكاركم ممتع ومثري .. فنادي الجامعة لا يتوقف نشاطه صيفا .. فهو يعمل على مدار العام .. فنلتقي ونرى ونسمع بعضنا بعضا.

فقال رافع : حدثني عنه زميلي طلال ورافقته إليه أكثر من مرة .. الحق يا نزيه أن فيه مكتبة كبيرة .. وتقرأ الصحف المحلية والدولية مجانا .. وللعلم المشروبات والمطعومات بمقابل والتدريب الرياضي كذلك .. الاشتراك فقط للدخول فحسب.

قال عماد : صحيح الخدمة بمقابل .. الماء والوضوء دون مقابل .. والاشتراك دينار واحد في الأسبوع الواحد .. يمكنك الدفع أسبوعيا أو شهريا .. فالمبلغ بسيط قد يرى الطالب المبلغ كبيرا خاصة على البسطاء ؛ ولكن والدك صاحب هذه المزرعة لن يعجز عن دفعها.. بارك الله لكم فيها نقول ما شاء لا قوة إلا بالله!

قال نزيه : شكرا لكم

ودعا وبارك الجميع وقال نزيه : الحمد لله.. الأمور المادية طيبة .. والوالد سخي حقيقة ..

واسأل جارنا نعيما .. فهو خير من يعرف الوالد .. فالوالد وأعمامي يقدمون ما تيسر لجمعيات القرية وحتى قرى مجاورة .. ونخرج الصدقة والزكاة .. فوالدي متدين ومتعلم ويحب العلم وطلبة العلم .

فقال نعيم أشرف : والسيد الكريم يوسف أبو إبراهيم معروف بالجود ومساعدة الأيتام في البلدة والبلدات الأضعف منا .. ويشارك في مناسبات ونشاطات القرية والبلدية .

فقال نزيه ممتنا : شكرا نعيم ! ولا تنسوا أننا نسكن بيتا في سلام .. فالوالد يدفع أجرته ومصروفاته .. ورغم الصيف فما زال مستأجرا ، ويتردد عليه إبراهيم ويقضي كثيرا من الوقت فيه .. وفكرة الاشتراك في النادي راودتني من العام الدراسي الماضي .. وكان المقهى يغني عنها .. وأنا على علاقة طيبة مع أبناء وبنات أخوالي وخالاتي في سلام فكنت أقضي معهم كل أوقات الفراغ ، وهم يرحبون بذلك .. ولم ألمس منهم الضيق .. ورافع يعرف ذلك .. فربما هذا سبب دفعني للتقاعس عن قضاء وقت في النادي وغيره.. ولكنكم شجعتموني الآن وصحبتكم مثيرة وممتعة .

تبسم رافع وعقب قائلا وممازحا : خاصة أن ابنة خاله باكر الآنسة مارينا تحب صحبته كثيرا .. وترافقه إلى المسرح ودور العرض .. وقبل ذلك إلى مطاعم وفنادق علية القوم .. الله أعلم أن الفتى راغب بالزواج منها كما يهمس إبراهيم .

ضحك الشباب ، وقال عماد: الكل يحب الزواج يا رافع ! البنت بنت خال .. بنت مال وجاه .

قال نزيه : نحن في الريف ليس من السهل إقامة علاقة عاطفية بين شاب وشابة .. ذلك يسبب مشاكل وحساسيات بين العائلات .. فقد يحدث الحب وينتهي بالزواج سريعا إلا اذا تدخل أبناء العم أو الخال ويتزوجون البنت سريعا .. تحدث القصص بحدود ضيقة.. أما في المدينة والجامعة كما سمعنا ورأينا فالأمر مقبول ، ولا وجود للأهل والعقارب قصدي الأقارب .

قال رافع : ألا تحبان بعضكم ؟

ـ الصراحة أنا أحب ذلك ؛ ولكن ليس بيننا قصة حب .. فعاداتهم يا عماد غير عاداتنا .. فلا

أرى والدي يا رافع يقبل .

قال سليم مستفهما : الالتزام لا يوجد عندها!

ـ نعم ، هذا هو الإشكال .. هي مجرد صداقة وقرابة ..والحب وقصصه أستحي أن أفعله معها.. ثم مستواها الاجتماعي والمالي أكثر من أسرتنا .

قال رافع : هذا صحيح .. فعمها مليونير ، وكذلك والدها .. وهم من رجالات السلطة والحكم .

عاد الكلام لنزيه : وأنتم تعلمون .. كيف أتعامل مع فتيات الكلية والجامعة ؟ أنا متدين مثلك يا عماد ويا نعيم .. لكني وكثير من أهالي جمالة معجبون بأخوالي وصعودهم الكبير في الإدارة والمال .. شاكر نوار الجمالي وباكر نوار الجمالي من نجوم مدينة سلام . ولابد أنكم سمعتم بهذه الأسماء ما دمتم من سكان المدينة وتحبون قراءة الصحف .

هز عماد رأسه وقال : أنا أسمع بهما .. ولي قريب يعمل مع خالك شاكر .

وقال نعيم مؤكدا : نعم نعم ، فهم معروفون خاصة خالك شاكر فهو أحد رجالات المال والأعمال والدولة .

قال نزيه : أنا معجب بأخوالي وأعيش معهم خاصة العام الفائت ؛كأنني ابن لهم وابنة خالي التي أشار إليها رافع أنهت السنة الثانوية ، وستكون معي في كلية التجارة حسب ما قال شقيق أمي .. أما الزواج أيها الأصدقاء فأمره ليس سهلا رغم أن أمي أختهم.. فنحن فلاحون وأولاد قرى بالنسبة إليهم.

قال نعيم: الناس تتغير

قال سليم : كنا أبناء مخيمات ، ثم تعلمنا وتغيرنا إلى حد ما .

قال رافع : صحيح ما تفوه به ابن عمي .. فهم أخواله لزم كما يقال.. أبوه عمي يوسف متدين جدا .. وأخواله انفتاح كامل .. الإسلام في الهوية فقط .. رافقت نزيها مرة إلى مناسبة لهم فلم أعجب بتقليدهم للحضارة الغربية.

قال عماد مضيفا : قل الموضة الغربية !

قال رافع : اللبس والزينة والخمر عادة حتى أنهم سكبوا لنا خمرا حتى وقع في نفسي أن نزيها تعلمها منهم فصارحته بخاطري فأقسم أنه لم يتعاطها في حياته ، وهم لا يشربون أمامه إلا في مثل تلك الحفلة وما شابهها.

قال عماد مستهجنا : ابنة خالك عروس الغد تشرب ! أنت درويش يا صديقنا .

ضحك نزيه على وصفه بدرويش ونظر لرافع وقال : أنا لست درويشا .. هنا في القرية زاويتان .. فالزاوية زوايا عائلات .. حضرت بعض حلقاتهم من باب الفضول فلا أفكر بالدروشة يا سيد عماد .. وأما الأخوال فلي سنة أخلاطهم يا شباب.. نعم ، الشراب عندهم كالماء ؛ ولكن والله أعلم اذا صار نصيب بمصاهرتهم لا أقبل شربها.. أما اليوم فمجرد وجهات نظر .. لا سلطة وحكم لي عليها .

قال رافع محذرا : إلا اذا هزمتك ووقعت في حبها .. وجرفك تيار التغريب .. فهو محبوب من خاله باكر وزوجته .. وأغلب أبناءهم ، وحتى بنات خالك شاكر يتقربن إليك ؛ لكن مارينا أكثرهن اهتماما بصديقي نزيه .. أنا أقول ذلك أمام الأخوة حتى لا يصيبك الحرج في العام القادم أمامنا .. فهي سوف تلزق بك.

ضحك الشباب ، وقال سليم : ما دامت علاقتك بها قوية لهذا الحد سيحدث ما يتوقعه رافع! ما قولك يا نعيم بن أشرف .

تبسم نعيم وقال : أنا والأخ نعيم نحب الصمت

قال نعيم الثاني : معك حق يا نعيم ! فليقل خيرا أو ليصمت ، وقالوا الكلام من فضة والصمت من ذهب.

فقال رافع مداعبا : ذهب تركي عثماني ولّا ذهب محلي!

فقال سليم : الذهب ذهب في كل بلدان العالم

صاح نزيه معقبا على كلام ابن عمه عن مارينا : رافع صديق وأخ عزير .. وكل أفكاري

وأسراري معه .
ـ شكرا ابن عمي ! نزيه صاحب خلق ودين ..فعمي صارم في أمر الصلاة والصيام والدين عامة .. رافقهم للمسرح والسينما والمقاهي الخاصة بهم .. وفي الجملة هو معجب بحياة المدينة ربما أكثر منكم .. وهو يرغب بعد الجامعة بالعمل في المدينة بعكسي أنا .. أنا سأدرس هنا ـ إن شاء الله ـ بعد التخرج .
قال سليم عندما عم الصمت : الريف ممتع إلى حد كبير يا رافع ؛ لكن فرص العمل قليلة فيه للمتعلمين كموظف وصناعة .. هو مجتمع زراعي في الغالب.
قال نعيم اشرف: كلامك صحيح إلى حد كبير ! فأغلب مصانعه ورشات صغيرة لا تستوعب الكثير من الأيدي العاملة .. والمتعلمون أغلبهم يرحل للعمل في المدن .. ولكن بدأت القرية والقرى تكبر وتكثر المؤسسات والمهن والحرف والمصانع المهمة .. لم تعد القرية قرية يا إخوان .. بدأت مصانع تنقل مصانعها إلى أطراف البلدات.. والأسر تزيد وتزيد .. وتنتشر العيادات والمراكز الصحية والمجالس القروية لتطوير القرى.. وأخذ أبناء القرى الذين يعملون في المدن يستثمرون بعض أموالهم في قراهم لتخف الهجرة للمدن الكبرى .
قال نعيم الثاني : نفهم من كلامك يا رافع أن صديقنا عينه على ابنة خاله اذا سمح عمك العزير !
رد رافع مبتسما من العودة لحكاية نزيه : تقول أمي إن امرأة عمي تريد ذلك بكل قوة وحماسة ، وتقول: كما تزوجني يوسف فلنجدد النسب والمصاهرة يا أم مروان مع أخي الكبير .
قال نزيه: أنا لا مانع عندي .. قلت لكم لعلي أهزمها وأعيدها لحظيرة المعتزلة أو .. أو حزب التحرير.
ضحكوا وقال عماد: لدينا نساء وزوجات وبنات وأخوات يحملن أفكار الحزب .. لكن هؤلاء يا شباب من الصعب عودتهم للتدين كما نقرأ ونسمع ممن هم أكبر سنا وأكثر خبرة .. لكن ليس هناك على الله بعزيز .. قد يتوب أحدهم ويرجع .. وفي الغالب يتوجهون إلى

الطرق الصوفية أو إلى جماعة محمد الياس الهندية .

قال نعيم وهو يقف وينفض سرواله مم علق به : حان وقت العودة لسلام يا عماد ! نحتاج إلى ساعتين للوصول لسلام.

قال نزيه : بإمكانكم المبيت .. فلكل عائلة كبيرة دار ضيافة في هذه القرى .. وبيوتنا أيضا ترحب بكم .

قال سليم : أنا أفضل العودة يا إخوان!

قال عماد واقفا : وأنا كذلك .. خلف الله عليكم خيرا .. نشكرك سيد جعد .. لا ندري أكان جعد القديم سخيا مثلك أم لا ؟!

قال رافع ساخرا : اسمه يدل على بخله ، والله اعلم !

قال سليم: أرى أن الاسم لصق بك يا نزيه ! ما تحدثت مع أحدهم في الكلية أو في المقهى وعطفنا على ذكرك إلا قالوا تقصد الشيخ الجعد .

تبسم نزيه وقال : صدقوا يا قوم لا أعرف الكثير عن هذا الجعد .. سمعت أنه ضحي به يوم أضحى

قال نعيم الثاني : يقال إنهم ضحوا به يوم أضحى .. هل يجوز ذلك يا عماد ؟!

صاح عماد : بالطبع لا يجوز لو صح ذلك .. الأضحية فقط من الأنعام الثلاثة .

قال رافع : ثلاث أو أربع!

قال سليم : سمعت أن بعضهم يجيز الأضحية بالديك والأرنب .

قال عماد: لا أظن ذلك صحيحا .. كيف سيوزع هذا الديك يا سليم ؟

قال نزيه: صدقوا لا أعرف الكثير عن الجعد وعن المعتزلة ؛ إنما رؤوس أقلام فقط وأظن أنها فرقة ضعفت أو اختفت ؛ ولكن إخواننا التحرريون يحملون بعضا من فكرهم في قضايا عقدية أشهرها إنكار عذاب القبر ، وجعلهم العقل الحكم على القضايا العقدية كما فعلت المعتزلة القديمة ؛ ربما احتاجوا إليه لمجادلة الملحدين والفرق الأخرى كالصوفية وغيرهم

ومناظرة النصارى واليهود والعلمانيين.

قال عماد: التحرير يأخذ الكثير من الفقه من فقه الأحناف.. فالشيخ النبهاني قاضي شرعي وتعلم في الأزهر .. والقضاء ما زال في بلاد الشام والعراق متأثرا بالفقه الحنفي.. فقه الدولة العثمانية كما هو معلوم .

سليم : حان وقت الانصراف أيها الكرام ـ وتصافح الشبان ـ وقال كما اتفقت مع عماد ونعيم على دعوتكم إلى الغداء في بيت والدي الأسبوع القادم .

قال عماد : أنا قبلت الدعوة .

وقال رافع رافعا سبابته : وأنا نيابة عن نزيه ونعيم قد وافقت.



كان الشباب الثلاثة من جمالة يداومون كل نهار اثنين في نادي الجامعة ،فليتقون برفاقهم نعيم وعماد يتبادلون الأخبار، ونشاطهم الاجتماعي والسياسي ، خاصة نعيم وعماد ، فهما مهتمان بالسياسة والأخبار والكتابة في بعض الصحف اذا سمح لهما بذلك ، ويتابعان ما يحدث من قضايا وطنية أو عالمية ، وتعرفوا بشكل خاص على أحمد وفريد ومصطفى ، فهؤلاء من رواد النادي من طلبة الهندسة ومتدينون ، وسعت بعض الفتيات المترددات على النادي اختراق هذه المجموعة ؛ ولكنهم لأنهم جادون في القراءة ومناقشة الكتب الموجودة والقضايا السياسية والاقتصادية والثقافية ابتعدن عنهم ، وهم أيضا لم يفتحوا لهن المجال للحديث حول الفضائح والموضة والأفلام . كان رفاق الهندسة من أتباع حزب إسلامي نشأ من ثلاث أربع سنوات ، ليس لهم منهاج معين وواضح ، فهم حزب إسلامي قريب من السلطة ، ومدعوم من النظام بشكل واضح لكل ذي عين ، ويركز هذا الحزب على الأخلاق والصوفية أي البعد عن السياسة ، والبعد عن الحكم والتشريع الإسلامي الصريح .

قال احمد معرفا بحزبه وساعيا لتجنيدهم : بما أننا حزب فيحق لنا أن نتكلم في السياسة .. ولكن ليس كل حديثنا سياسة .. هناك أمور أخرى.. ثقافة الشعب اقتصاد الشعب .. أخلاق الشعب .. فالأخلاق السيئة تنتشر بقوة بين الناس الغش والغدر والخيانة .. فنحن نهتم بهذه القضايا التي لا تجد اهتماما كافيا من الفرق الأخرى .. إخواننا التحريريون ـ وأشار لعماد ونعيم ـ يريدون خليفة .. نحن جاء خليفة أو لم يجئ لا يهمنا .. وجماعة جمعية إخواننا الإخوان همهم السلطة ومجلس الشعب وتحرير فلسطين.. ولا ننكر جهادهم في مقارعة اليهود والإنكليز في مصر وفلسطين .. والخلاصة نحن نكمل بعضنا بعضا .. فنحن معترف بنا من النظام وبعيدون عن العنف والانقلابات كما رأينا في سوريا والعراق ومصر .

فقال نعيم : وهل لكم وزراء ونواب؟

قال مصطفى : لنا نواب .. أما وزراء لا .. فنحن حزب حديث يا أخ نعيم .. فنحن نمثل

الإسلام في الدولة ؛ لنكون مع الأحزاب الأخرى .. أحزاب اليمين واليسار .. فنحن الحزب الإسلامي الوحيد في الدولة مع العلمانيين والاشتراكيين والليبراليين .

قال رافع مبتسما : عظيم ! .. هذا عندنا ديمقراطية يا نزيه !.. نحن في القرى لا نسمع بذلك .. أنتم تختلفون عن الإخوان والتحرير والدراويش .. نحن عندنا في جمالة زاويتان للدروشة والقفز .

رد مصطفى قائلا : الإخوان لهم نواب في المجلس.. الإخوان ليسوا حزبا .. إنهم مجرد جمعيات منتشرة في البلاد .. لكنهم يعملون في السياسة .. لذلك لمخالفتهم أنشأ الشيخ تقي النبهاني حزب التحرير والدعوة للخلافة .. وشاركوا في الأردن في الانتخابات وفازوا بمقعد أو اثنين فهم يعترفون بالحكومات وقام الحزب في القدس ابتداء.

وقال احمد : سعى هذا الحزب ليصل للحكم عن طريق الانتخابات والصندوق يا نزيه ! ولكنه لحتى الآن لم يصل.. لم يجدوا من ينصرهم لتحقيق الغاية .. ويعتبرون الحكومة في بلدهم منحرفة لا تريد دينا ولا إسلاما .

قال عماد متحمسا : الإسلام سيحكم كل البلاد

ضحك احمد وقال : والشيوعيون يقولون مثل ذلك .. الشيوعية ستحكم هذا العالم

قال رافع متهكما : والرأسمالية تحلم بذلك .

وقضى الرفاق صيفهم في نادي الجامعة خاصة شباب جمالة ، فكانوا أحيانا ينتقلون لصالات الرياضة قاعة ألعاب الجمباز والرياضات الحركية وممارسة القفز والقفز ، ثم يجتمعون على طعام الغداء في مطعم النادي ، وعلى نفقتهم الخاصة ، وقبل الغروب وبعد صلاة العصر يغادرون النادي على أمل اللقاء الأسبوع القادم .

قال نزيه لرافع وهم يجلسون في الحافلة الذاهبة لجمالة والبلدات التي في الطريق : رأيتك تجلس مع ليلى .. وفي غاية الانسجام.

ردد رافع كلمة انسجام وقال : هي زميلتنا في الكلية ، وأحيانا أتحدث معها كما تعلم .. وقلت

لك أنا فلاح ابن فلاح .. وهي ابنة المدينة .. وأبوها كما نعلم رجل بنوك .. وأيضا هي ملحدة ماركسية لينينية أحبت الحديث معي فقلت لها مستفزا : ألم تجدوا الاله بعد ؟ فضحكت وقالت : ليس لك إلا هذا السؤال يا رافع ؟ هل ترى أن لهذا الوجود ربا ؟ أنت تعلم أن هذا لا يشغل ماركس ولينين كثيرا .. فقلت لها للأسف ولدت بعد هلاكهما ، ولم أشرف باللقاء بهما ..وأنا يا ابن عمي اختلطت بها في نهاية الفصل عندما سمعتها ذات مرة تتحدث مع بعض الزملاء تشكك بالله أمام سارة وعيدة ، ثم رحبت بالحديث معي وتسعد بذلك كما عبرت وفرحت لما علمت أنني اشتركت في النادي .. وهي تطمع وتود بأن أتخلص من رواسب القرية وسذاجتها.

ـ وماذا قلت لها عن وجود الله ؟

قال : ماذا أقول؟ قلت لها مستحيل أن أرى هذا الكون سماء أرض بدون موجد يا ليلى .. العجيب أن الملحدين في الغرب وروسيا لا يفكرون في وجوده كثيرا ؛ إنما تشغل بال شيوعيي العرب وبلاد المسلمين .

قال نزيه : لأننا يا صديقي في بلاد لا تكفر بالله كما كفر أولئك .

ـ قلت المهم لا يمكن أن يكون هذا الكون يا ليلى بدون صانع .. لولا أن أبي تزوج أمي لم أكن أتحدث معك الآن .. هل رأيت مخلوقا بدون أبوين ؟ الكرسي الذي نجلس لا يقبل عقلي أو عقلك أن يكون بدون نجار أو حرفي صنعه وركبه .. لا أدري كيف تعتقدون أن الكون والقمر والأرض بدون مكون موجد ؟! كيف أوجد نفسه عشوائيا أو صدفة أو خلقته الطبيعة كما ترون ؟ فقالت : مذاكر جيدا فضحكت وقلت : لازم نذاكر حتى نستطيع الحديث مع أفكاركم الخبيثة والساذجة ، فقهقهت وقالت : لن تغلب.. نحن لا يهمنا وجود الخالق أو لا يوجد .. نريد أن نصبح أحرارا .. نأكل مما نزرع .. نلبس مما نصنع.. قلت :وهل الدين يعارض ذلك ؟ نتمنى أن نصبح أمة قوية قادرة على فعل ذلك يا ليلى . قالت: وما تقول في خلق الإنسان الأول آدم ليس له أب ولا أم ؟ قلت : هذا خلق خاص وبداية البشر .. لكل

شيء بداية.. البرتقالة التي أمامك لولا المزارع والشجرة التي زرعها والماء والتراب والسماد والرعاية ما صارت برتقالة.. سيارتك التي ابتاعها والدك من صنعها واستوردها وهكذا كنا ندردش يا ابن العم

قال : المهم لا يوجد حب.

قال متعجبا : الحب تركته لك .. هل تريد أن يقضي عليّ أبي وعمي وحتى خالي الشيخ بالزواج من ملحدة ؟!

ـ قد تسلم من جديد.

ـ اذا تزوجت كما يحصل لكل ذكر .. سأتزوج من جمالة .. فبنات جمالة أفضل ونعرف عادات وطباع بعضنا يا بطل !

ـ أصيل يا ابن العم !



منذ سكن نزيه المدينة مع شقيقه الأكبر إبراهيم أخذ يتردد على قصري خاليه شاكر وباكر ، ووجد منهم ترحابا وحفاوة ، وأكثر من اهتم به ابنة خاله باكر الآنسة مارينا التي تدرس في آخر الثانوية العامة ، ووجد انبساطا مريحا كذلك من والدتها ، فكان وجوده مقبولا من جميع الأسرة بشكل عام ، فهو ابن أختهم . وكان يسهر معهم خاصة مع مارينا وأمها رغم أنها لم تكن قريبة لخاله ، وتنادى بأم رشاد ، وكانت تبش له وتستقبله بحماس ، تقول ؛ كأنها رضيت به زوجا لابنتها في المستقبل رغم أنه ابن قرية ابن الريف ، وهو شاب محافظ متدين على غير ما هم عليه . أما إبراهيم فلم ينسجم معهم ومع طباعهم وتقاليدهم المفرطة في محاكة الغرب ، فلم يجازف بالزيارة إلا في المناسبات المهمة كالأعياد وعيادة المريض ، ولا يطيل الجلوس بعكس نزيه الذي قد يقضي ساعات من الليل .

كان الفتى نزيه معجبا كثيرا بأخواله وصعودهم الكبير في الدولة والإدارة والمال ، وكان طامعا بأن يصير مثلهم في تفوقهم المالي والاجتماعي ، وكان معجبا وشاكرا لمارينا التي تهتم به كلما قدم ، وتخدمه بنفسها ، وتتحدث معه بكل أريحية ؛ كأنها فعلا راغبة بالاقتران به ، وكان يكثر تعليقهم بأنها سوف تغير من عاداته وتقاليده القروية ، وكانت تخفف من التبرج والسفور عند مجيئه ، وفي الحقيقة كان يمني النفس بقبولها به قرينا ، وأمه تلمح له حول ذلك وتهيجه بهذا الاتجاه ، وبتجديد المصاهرة بين العائلتين .

كانت مارينا منذ ظهر نزيه في قصرهم لا تظهر أمامه إلا بثياب محتشمة ، لا تلبس القميص القصير الذي يكشف الذراع ونصف العضد أو الكتفين ، وتلبس الفستان الذي يغطي نصف الساقين على الأقل حتى يتحدثان بحرية ، وبدون نظر منه إلى الفراغ خجلا من أن تلتقي عيناها ، ولا تستخدم المكياج سوى أحمر الشفاه كانت منسجمة معه وأخذت تخفف من جلساتها مع أقاربها وأصدقاء العائلة لتقضي أكثر الوقت مع نزيه اذا زار البيت ، وما أكثر الزيارات المسائية!

كانت تعلم أنه متدين ، وترى كما تحدث والدها وأمها أن ذلك يعود لطبيعة القرية والمحافظة على تقاليد القرية ، كأن الدين لأهل القرى فقط ، فتركا الشابة تتعامل معه بدون تلميحات وتحذيرات كأن حالهم يقولون إنه العريس المناسب في الغد .

اجتازت مارينا الثانوية العامة بنجاح مقبول ، كانت درجاتها أقل من نزيه وبمساعدة والدها ، وعمها الوزير شاكر في تلك الفترة قبلت في كلية التجارة حيث يدرس نزيه . وهنأها نزيه على النجاح ، وقدم لها هدية ، وبارك لها التسجيل في كلية التجارة ، واختارت إدارة العمل للعمل في شركات الأسرة ، كما فعلت أخواتها الأكبر منها وإخوانها .

رحب بها نزيه في مطلع العام الدراسي الجديد ، وفعل مثله رافع الذي تعرف عليها من خلال نزيه العام الفائت ، ورافقهم لحضور بعض الأفلام والمسرحيات في المدينة سلام الدين . وأصبحت رفيقته في ساحات الجامعة والمطاعم والمشارب وأوقات الفراغ من المحاضرات.

وكان هو أيضا يجلس معها في أوقات فراغها ويترك رافعا ونعيما ، كان رافع يجلس قليلا معهم يتبادل معها التحية والصحة والأهل ، ثم ينصرف. كان جل حديثهم حول الملابس والموضة والطعام والسهرات وآخر الأفلام والمسرحيات والنزهات ، واذا توقفت معها بنات الكلية والقريبات يتركهم نزيه ـ لا يحب البقاء في مجلس النساء وحوارهن ـ كانت ابنة خالتها نادية تكثر من اللقاء بها ، فهن في شعبة واحدة ؛ فإذا لم تكن مع شاب أو شابة ترافق مارينا .

وكانت لها ابنة خالة أخرى اسمها جميلة مع رافع في كلية التربية ، وقد عرف ذلك بدخول مارينا الجامعة . وجميلة تفاجأت بقرابة رافع لنزيه ، فهي تعرفت عليه في العام الفائت ، وهي عرفت نزيها من خلال زيارتها لبيت خالتها أم رشاد ، ونزيه عرفها من خلال مارينا والأسرة .

فرافع طالب نشيط في كلية التربية، وطالب رياضيات ، ومعروف بفطنته وذكائه بين الزملاء ، وهو كما علمنا راغب بالعمل مدرسا في القرية أو القرى المجاورة حسب الفرصة ، هو لا يحب المدينة بعكس نزيه ، هذا ما يخبر به ، وحلمه الزواج والبيت والسيارة ، لا يحب الصخب والانفلات ، ويشترك مع نزيه بحب القراءة والمكتبة والنقاش ، ولا يحب السياسة والأحزاب

فهي لا تشغل بال القروي كثيرا.

علمت مارينا أن رفاق نزيه يسمونه الجعد بن درهم أحد زعماء الجهمية والمعتزلة في الزمن العباسي القديم ؛ لأنه اشتهر بالدفاع عن أفكار المعتزلة وتعظيمهم للعقل ويقدمونه على الحديث والوحي ، ويحسنون ما يحسنه العقل ، ويقبحون ما يقبحه العقل والفكر.

وكانت أيضا تكره الكلام عن الماركسية وداروين ، كان أهم الحديث عندها الأفلام وآخر الأفلام والمسرح ، وآخر ما يعرض من اللباس والمكياج وقصات الشعر ، ولا تحب السياسة والمكتبة والكتب الثقافية ، تمارس الرياضة في الجامعة والنوادي الخاصة بالعائلة ، وكانت لا تفوت رحلة جامعية سواء في كليتها أو كليات أخرى مع صويحباتها ومعارف الأسرة اذا دعيت . أما نزيه يوسف فبعيد عن هذا النشاط ، وشارك مرات معدودة كل سنوات الدراسة في الرحلات الجامعية ، زار بعض المتاحف برفقة رافع ونعيم للفضول والمعرفة ، وكذلك بعض الأثار في سلام .

فكان رافع يقول لنزيه بحضور نعيم أشرف وسليم : لا أعرف كيف تنسجم معها ؟! لا عقل لها .. الفلم المسرحية معرض فلان .. جلب ملابس من فرنسا

قال : ماذا تريد من بنت هكذا ربيت؟ سينما مكياج حفلات سهرات عيد ميلاد ؛ لكني أستمتع بسخافتها .. فمعكم الجد ومعها الهزل والترفيه .. ما رأيك يا سليم؟

ضحك سليم وقال: منك مقبول ؛ بل يا رافع نزيه لا يفكر بابنة خاله .. هو يفكر بأخواله ومراكزهم وكيف يصير مثلهم ؟ وها هو خاله شاكر المليونير والاقتصادي يصبح ضمن الوزارة التي تكونت من شهور هذا المهم عند نزيه.

قال نعيم : هذا الصواب يا رافع .. هو يحب المدينة .. وسوف يعمل في المال مع أهل المال.

قال نزيه : هي تطالع ؛ لكن في مجلات الأزياء وحواء والأفلام يا رافع .. المال موجود .. والعمل لتمضية الوقت .. هل تظن أن راتب الوظيفة يشتري لها ثوبا أو بنطالا أو زجاجة شراب ؟ علينا أن نحمد الله كثيرا أننا ولدنا في الريف والدين .

ـ أخشى أن تذهب بك مع الوقت .

فكر رويدا وقال : عشت سنة معهم ، ولم أمسك كأس شراب ، ولم ألعب الميسر ولو عن درهم واحد .. الحامي الواقي هو الله .. وكما قال سليم أنا أحب أن أصل إلى ما وصلوا فنرفع من قريتنا وحياتنا .. أنت تعرف حياة الفلاح وكفاحه والمطر والموسم والجفاف .. حقيقة وليس سرا قليل من الفتيات جادات حسب علمي .. ومارينا يا رافع كغيرها من البنات جامعة وظيفة زواج وبعض الأطفال وأحلامها اللباس الأجنبي والمطاعم والمأكولات .. والمفاضلة بين المطاعم والطعام.. هل أحدثها عن المعتزلة والأشاعرة والتحرير والإخوان ماركس لينين ستالين خروتشوف الحروب .. هذه مواضيع لا تهتم بها هي وغيرها من الحريم .

قال رافع : ها هن بنات الجامعة ينشطن في الانتخابات ومجالس الجامعة !

قال : كم نسبتهن للذكور ؟ أنت تعلم حبي لطعام المدينة .. وأحب الطعام اللذيذ .. فما جئت المدينة يوما إلا زرت أفضل وأشهر المطاعم .. طعام الريف بسيط

ضحك نعيم وقال ضاحكا : والله سبب مقبول ! ومعقول للبقاء في المدينة يا رافع ! الحياة أكل وشرب ونوم وعمل لبضع سويعات.

ردد رافع: أكيد ابنة الخال تعرف ضعف نزيه نحو الأكل .. فهي تهتم بمعدته وطلب أفضل الأطعمة لعريس المستقبل.

قال نزيه باسما : دار خالي يا ابن عمي .. وهم يرحبون بي منذ وطئت قدماي ديارهم وقصورهم.

قال سليم : تزوجها وأنت تدرس .. فأنت تعلم أن راتبك الوظيفي في أي قطاع ما دمت تهوى أكل المطاعم الراقية لن يكفيك بضع وجبات .

قهقهة الشباب وتابع سليم: فهم سيؤمنون لك الطعام والبيت .

تنهد رفيقهم نزيه بعميق وقال هازّا رأسه : أبي يا سليم مع أنه نسيب وصهر لهم علاقته بهم ضعيفة وباردة ! .. ولا يراهم شيئا ، لا وزارة ولا رئاسة تعني عنده شيئا .. يرى حياة القرية

أفضل حياة .. زراعة شجرة جديدة هي الدنيا والحياة ويقول: لولا الزراعة في رأيه لهلك الناس .. أمي الفاضلة ترى ذلك وترغبني في الزواج من بنات إخوانها .. وتردد من جاور السعداء سعد .. وأخوالي منذ هجروا القرية قلّ اهتمامهم ورعايتهم للقرية .. وباعوا أغلب أملاكهم وضعفت صلتهم بالبلدة .. فلا يأتون إلا في عزاء مهم أو فرح يستفيدون منه .. رغم مشاريعهم الكثيرة في المدينة .. في القرية ولا مشروع حتى زيارتهم لأمي قليل جدا .. لا في عيد ولا في مرض ؛ لكنهم لا يقصرون اذا زارتهم .. فيقدمون لها المال والهدايا.. ولا أدري وصديقي رافع يؤيدني أنني لا أعرف السبب الحقيقي لهذا التباعد والبرود بينهم وبين والدي العزيز .. فهل تراه يقبل أن أتزوج مدنية ومتبرجة ؟.. فأبي وعمي أبناء الريف منذ ولدوا وشبوا.

قال نعيم مواسيا ومشجعا : قد تسطيع تغييرها وتعيدها لحظيرة التوبة اذا كانت راغبة بك حقا .. وهذا الملاحظ هنا .. فهي كما يبدو لنا تلبس ثياب مستوردة؛ ربما من باريس...

قال رافع متهكما : قالت أختها إنهم عندما يذهبون لأوروبا لقضاء إجازة يشترون من باريس ولندن، وحتى طعامهم كثير منه مستورد .. فهم يحبون الأجانب ويمدحونهم كثيرا .. وأنا أشفق على نزيه منهم إن سيطروا عليه .. وتركه للقرية سيضعف مقاومته .. أتمنى أن تعيش البنت معه بسلام إن قدر لهما الزواج .. أقول لكم عمرها ما زارت القرية ..قرية جدها وحيث ولد والدها وعمها .. ولا رأيناها ابدأ تدخل قريتنا للتعرف على قرية أبيها أو تصل رحمها عمتها أم إبراهيم .. والله من كل قلبي أحب أن يحقق أحلامه في المال والمنصب الذي يحلم به .. ها نحن نرى خاله شاكرا وزيرا .

قال نزيه مبررا بذخهم وإسرافهم : هم مثل طبقتهم هنا .. ويشترون الثياب من هنا مثلنا ؛ ولكنهم يتعاملون مع محلات وأسواق تناسب مستواهم الاجتماعي أدعو لي بالزواج منها .. فهؤلاء هل يقبلون بشاب قروي مثلي ؟!

قال سليم ضاحكا : ولماذا كل هذا التقرب والاحتفاء بك يا نزيه لا تتغابى ؟!

قال رافع : وهذه العطور التي تعبق أنوفنا منها !

ضحك نزيه وعلق : أغلبها باريسي .. مدينة العطور .. أكيد أن راتبي لسنة لا يغطي ثمن زجاجة عطر من عطر خالي .. كيف أعيش معها حياة التبرج والبذخ يا رافع ؟!

فأجاب سليم : الحب والهوى يا سيد جعد يذلل كل العقبات .

رافع : كلام سليم .. نتمنى لك كل توفيق معها أو مع غيرها !

قال نزيه باسما :كلنا ـ إن شاء الله ـ سيتزوج يا شباب .. والنساء حظ .. أنا صريح معكم أرغب بها قرينة .. والتغيير بيد الله تعالى اذا نظرت إليّ على أني فلاح سيفشل الزواج بلا شك .. أنا فلاح أرضى بالكفاف والقليل .. المشكلة الكبرى أنها تشرب الخمر ليس الثياب واللباس فقط .. أخبرتني بذلك .. وقللت تعاطيها فقط في الحفلات.

قال رافع : وما أكثر حفلاتهم يا رفاق ! لا يخلو أسبوع إلا ويدعى نزيه لحفلة وسهرة من سهراتهم .

تبسم نزيه معترفا : نعم : يتدربون على ذلك منذ المرحلة الثانوية لن تكون الحياة الزوجية معهم سهلة في نظري ونظر شقيقي إبراهيم .

ورد لفظ المعتزلة وتردد أثناء حوارات الشباب نزيه وشلته الجامعية طالب كلية التجارة والاقتصاد فرع المحاسبة فمن هم المعتزلة ؟ المعتزلة فرقة من فرق المسلمين كما ورد في أحاديث افتراق الأمة المحمدية إلى طوائف وشيع وأحزاب وفرق ، وأشهرها الشيعة الروافض والقدرية والمرجئة والخوارج ، المعتزلة برزت في مدينة البصرة الكائنة في جنوب العراق المعروف لدينا ، ظهرت البصرة خلال الفتح الإسلامي لبلاد الرافدين فهي إحدى حواضر الإسلام وأمصارهم ، فقد كانت بدايتها في عصر الخليفة الكبير العادل عمر بن الخطاب ، وكانت من أوائل أمصار المسلمين التي شيدت في عصره وهي قرينة الكوفة.

البصرة مدينة العلم والعلماء والزهاد والفكر والفرق ، ففي هذه البلدة برزت طائفة المعتزلة كفرقة عقدية تخالف منهج وطريقة أهل السنة والجماعة في فهم العقيدة الإيمان والكفر والقدر والعقل والنقل والوحي والتحسين والتقبيح وفهم الصفات الإلهية، فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في أواخر العصر الأموي ، وقد ازدهرت في العصر العباسي ، وقد لعبت دوراً رئيسياً سواء على المستوى الديني والسياسي، ولقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية فاعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل حسب وصفهم ، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل ولو لم يرد شرع بذلك ، وإذا تعارض النص مع العقل قدموا العقل لأنه أصل النص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك موجب وآمر وناه، لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل وجعلوه حاكماً على النص ، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل وسيلة لفهم النص وليس حاكماً عليه

ونسبت الفرقة إلى حركة قام بها إمام المعتزلة واصل بن عطاء ، فقد كان من تلاميذ إمام أهل السنة في البصرة ، الإمام المشهور الحسن بن أبي الحسن البصري تلميذ أنس وعدد من علماء الصحابة العظام ، فأنس بن مالك كان مستوطنا البصرة ، وكان الحسن كذلك ، والحسن كان

واعظ زمانه في ذلك الثغر المهم في التاريخ ، وأدرك الحجاج طاغية العراق وبني أمية المعروف ، وابن زياد الثقفيان ، وحكم العراق الإمام الراشد علي على أثر اغتيال الخليفة الراشد عثمان بن عفان. كان واصل في مجلس للحسن أبي سعيد في حلقة علم فاعترض على مسألة مهمة وهي ما يقول السادة العلماء في الحكم على الظالم المسلم الذي يسفك دماء المسلمين على الشبهة هل هو مسلم أم كافر ، فكان الحسن يرى أنه مع ظلمه وبغيه مازال مسلما ، أما واصل واتباعه فرأوه في منزلة بين المنزلتين ، لا مسلم ، ولا كافر ، يعامل في الدنيا كمسلم ، وفي الآخرة كافر في نار جهنم ، واعتزلوا حلقة علم الحسن البصري فقال " اعتزلنا واصل " فسموا المعتزلة لاعتزالهم مجلس علم الحسن ، وقيل غير ذلك. أنكروا الصفات على فهم أهل السنة والجماعة وأهل الحديث كالبخاري ومسلم ، وبرعوا في المناظرات العقلية ، وانتشرت أقوالهم في التوحيد والقدر والعدل وخلق القرآن والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وشاعت بينهم أقوال الجعد بن درهم وجهم وبشر المريسي في خلق القرآن حتى اقتنع بها الخليفة العباسي المأمون وخلفه ، وأرادوا إجبار العلماء على حمل ونشر مقالتهم ، وظهرت فتنة خلق القرآن في الأمصار ، واستشهد فيها علماء وأتباع العلماء ، وخاض فيها الخاصة والعامة ، واستمرت عقود حتى كان عصر الخليفة المتوكل ابن المعتصم وأوقف هذه البدعة ، وأحيا مذاهب أهل السنة ، وقدمهم على المعتزلة ، ثم أخذت تنحسر رويدا رويدا بدعة فرقة المعتزلة حتى أصبحوا مجرد تاريخ وتراث ، واليوم هناك بعض الفرق والأحزاب تحاول إحياء أفكارهم وأخبارهم بدعم من حكومات وجمعيات وتعظيم العقل، ودوره في العقائد؛ لكن إحياء الميت ليس أمرا بسيطا وسهلا بعد قرون من ضعفه وموته ، حقيقة أن الأفكار والمبادئ الضالة لا تموت ؛ ولكنها تضعف وتجمد ، ثم تحور وتعدل ،فتجد من يهيم بها ويسعى لإحيائها وتنشيطها.

علمتم أن نزيها يسبق ابنة خاله بسنة جامعية واحدة ، وكلاهما من طلبة كلية التجارة ، فمضت الأعوام المتبقية بين مارينا ورفيقاتها وبين رفاقه في الكلية والمقهى والنادي الجامعي ، وكان يتناقش مع الفتيات مع وجود مارينا المواد الدراسية والأسئلة ومراجعة معلومة وموازنة عامة وكان يناقش ويحاور اليساريين والقوميين والناصرين وقبلهم التيار الديني ، وعندما فشلت الوحدة المصرية السورية ، كانت فترة من السخرية من الناصريين والقوميين والبعثيين والقوميين العرب حركة حداد وحبش الحركة القومية التي ظهرت على أثر نكبة فلسطين ٤٨ بين طلاب وخريجي الجامعة الأمريكية في بيروت . وكان يناكف الشيوعيين أتباع ماركس وأنجلز أصحاب البيان الشيوعي الصادر في ١٨٤٨، ورعاع الاتحاد السوفيتي ، ويذكر بجرائمهم اتجاه المسلمين في الشيشان وداغستان والقرم والقوقاز وأفريقيا وآسيا ، وحبهم لسفك الدماء مثل الرأسماليين وممتصي ثروات وخيرات البلاد والشعوب الضعيفة ، ولا يقلون عنهم إجراما .

ويجادل الإسلامين من تحريرين وإخوان وطرقيين والحزب الإسلامي، كان يهاجم الجميع دون هوادة ، ويدافع عن الفرق الإسلامية المنحرفة كالمعتزلة والشيعة الاثني عشرية والخوارج ، حتى اشتهر بين الطلبة بجعد بن درهم القائل بخلق القرآن ، حتى أنه كان يدافع عن عباد البقر وبوذا لإغاظة مناقشيه باسم حرية الاعتقاد ولا إكراه في الدين كما نصت آية البقرة . فكان رافع يطلق عليه المجادل الأول على مستوى الجامعة، وكما قلنا قضى سنوات الجامعة بين مقهى الجامعة والنادي وسهرات أخواله ومناسباتهم التي لا تنتهي ، وقليلا ما يفوت فرصة لزيارتهم حتى وضح واشتهر أن الشاب راغب بالزواج من مارينا ، وكانا كأنهما مخطوبان.

وهي نفسها كانت تحس وتشعر ؛ كأنها مخطوبة لابن عمتها بدون عقد ، وبدون خاتم ، ترغب بأن تتزوجه كفكرة مجردة ، وهي تزعم أمام صديقاتها وبنات العائلة بعدم رغبتها بالزواج المبكر والحمل والولادة .

إبراهيم سعى وكان يحاول كبح جماح نزيه عن ابنة خالها باكر ، ويحذره من التمادي في العلاقة معها ، ولا يعود لزمن المراهقة ، وقصص الحب الفارغة ، وكان معجبا بشقيقه بثباته على الصلاة والصيام حتى أنه في شهر الصيام لا يذهب إليهم إلا قليلا ، فهم لا يوجد لديهم شهر رمضان ، وطقوسه وصيامه ، ومائدة إفطار لا أحد يصوم .

التقوا جميعا في مقهى الجامعة ، وكانوا يودعون أنفسهم بقرب التخرج والاندماج في سوق الشغل ، ويتذكرون الأيام والساعات الجميلة التي مرت بهم خلال السنوات الأربع والجدال والقيل والقال ، والأحداث الصاخبة، وهم على أمل أن تستمر الصداقة إلى النهاية ، وألا تدفعهم الحياة العملية على عدم اللقاء ، وعليهم الانضمام إلى نادي خريجي كلية التجارة الكائن في قلب مدينة سلام في شارع البحر الأحمر للحديث والحوار والتشارك في تناول وجبة جماعية ، فأيام الجامعة من اللحظات التي لا تنسى في تاريخ الطالب في المرحلة التي تفصل بين طلاب الثانوية والحياة العملية والأسرة والزواج.

جرت مراسم التخرج كما خططت لها إدارة الجامعة في حفل سنوي ، ولباس خاص ، ووزعت الشهادات ، وأخذت الصور الثابتة والمتحركة ، وودع الطلاب بعضهم ، وتمنوا لبعضهم النجاح والتوفيق والعمل . وتمنت مارينا وصديقاتها الحياة السعيدة لنزيه وابن عمه خريج كلية التربية ، وطلبت مارينا منه أن يزورها بعد عودته للريف ولا ينساها ، وأملت أن يوفق والدها بتعينه في وزارة المالية ، وتمنت أختها له ذلك .

قالت مارينا : أما زال إبراهيم في الشقة ؟

قال : نعم ، فهو يتدرب على المحاماة .. سنتا تدريب حتى يتمكن من مزاولة المهنة ، وهو يحلم بأن يكون قاضيا في الدولة، وسيحقق ذلك بمشيئة الله ، وهو على وشك الزواج من ابنة دكتور درسه فترة، فقد يلتحق بمعهد القضاء الوطني.

هتفت : يستاهل.. هو شاب جاد وناجح .. وأنت ماذا ستفعل بعد العودة إلى القرية؟ لا أدري كيف يعيش الناس في تلك القرى المغلقة؟!

نزيه يعلم جهل مارينا وأسرة خاليه بحياة القرى والفلاحين الشجر والبقر ، فهم يظنون أن سكان القرى في غابات وأدغال أفريقيا . أجاب مبتسما وعالما بضحالة فكر مارينا واختها : سأعود للقرية . وتنهد

قالت : مر علينا كلما تشتاق إلينا .. فنحن نرحب بك دائما .. فأنت كما تعلم جوليا أضفت لحياتنا شيئا جديدا .. فأمي وأبي يعتبرانك منا .. لقد فزت بقلوب الجميع .. وكنت فاضلا ومحترما ... فكم تحبك أمي !

ـ القلوب عند بعض .. لقد اعتبرتني كابن لها .. وأمي تعترف بفضلها ووقوفها وأسرتها وخالي باكر معي .

أكدت جوليا معنى كلام شقيقتها مارينا ، وكانت العائلة سعيدة بحبه لهم ، وأنها تهتم بسماع أحاديثك وأخبارك في القرية أو المدينة .

فقال مفعما بحبهم له : أعرف عمق الود بيننا .. وأربع سنوات بينكم أمر مهم .. وخالي وعدني بالمساعدة للعمل في وزارة المالية معهم .. وأن اختياري للمحاسبة كان موفقا .. وبارك لي نجاحي .

قالت جوليا مؤكدة: أبي جاد في ذلك .. ليس مجرد مجاملة .. ويتوقع لك مستقبلا جميلا مثله في مستقبل الأيام .. ولابد أنه وضح لك ذلك .

قال : نعم ، نعم ، لم يقصر جزاه الله خيرا .

قالت جوليا :لا تنسى صداقتنا يا نزيه! فمارينا تراك بعين المحب .

ضحكوا على الغمز والتلميح وقال : قد يتحقق ذلك وخلال شهور ستلحق بي ثم أنت .

قالت : أكيد أكيد يا ابن عمتي ! الأيام تمضي كغمضة عين .

قضى أياما في المدينة للحصول على وثائق الجامعة من شهادات وكشوف الدرجات وودع خاليه والأسرة ذكورا وإناثا ، وترك إبراهيم ، وعاد للريف وقلبه معلق بالوظيفة الموعودة وفوقها مارينا رفيقة السنوات الأربع .

الزواج والحرب

رجع نزيه يوسف للقرية مرغما، فقد انتهت سنوات الدراسة ، وترك قلبه ورغبته للحياة في المدينة وآملا بالعودة السريعة ، وقد قدم طلب استخدام وعمل في وزارة المالية كمحاسب ؛ وذلك حسب تعليمات خاله باكر . وكان يساعد الوالد في إدارة المزارع والتجارة في البلدة ، حدثه والده عن الزواج والاستقرار في البلدة ، وأن يدع التفكير في الحياة في المدينة والعمل فيها وليعمل مدرسا في البلدة وما حولها من القرى .

وأراد يوسف تزويجه ، فتحدثت أمه مع شقيقها باكر حول زواج نزيه من مارينا ، فتعجب باكر من سرعة يوسف في تزويجه ، وأدرك غاية يوسف من العجلة ، فشدوا الأخوان شاكر وباكر الرحال للقرية ، وتناقشوا مع يوسف في زواج مارينا من نزيه، والشاب لديه رغبة فيها ، والبنت لها رغبة فيه ، وأن الشاب مستقبله في المدينة ، وأمامه المستقبل في الدولة.

قبل يوسف رغبة ابنه في زواجه من بنت أخ زوجته ، واعتذر لصديقه قديس وشاع خبر الضغط على يوسف في البلدة الريفية فتألم وقبل ، ورحل نزيه للمدينة وقد تعين موظفا في احدى دوائر المالية ، وتزوج في مطلع عام ١٩٦٥ قبل أن تختم مارينا جامعتها بفصل واحد ، وهو الأخير ، وقبل حرب ٦٧حزيران الشهيرة ؛ حيث دمرت إسرائيل الدول العربية باحتلال الضفة الغربية من مملكة الأردن ، وسيناء المصرية ، وجبال الجولان السورية في حرب سريعة ، أيام قليلة حرب سميت النكسة ، وآخرون سموها حرب الأيام الستة ، وكانت هزيمة فادحة ولم يقم بعدها للعرب قائمة ، ولليوم الجولان مع إسرائيل ، وكذلك الضفة، وسيناء أخليت من إسرائيل بمعاهدات سياسية ، وبدون جيش مصري فيها. كانت هزيمة ساحقة ما زالت تعاني منها الدول العربية ، ونشأت منظمات فلسطينية لتحرير فلسطين من النهر إلى البحر، ولليوم لم يتحقق هذه الشعار والهدف . نشأت في منتصف الستينات منظمة التحرير الفلسطينية ، وحركة فتح وغيرها من الحركات ذات توجهات أيدولوجية مختلفة إلى حد التناقض في الهدف والغاية والوسائل ، وزاد تشرذم العرب نحو الشرق والغرب والضياع.

اشتعلت الحروب الأهلية في الدول العربية في الأردن وسوريا ولبنان والعراق واليمن . الفلسطينيون خاضوا حربا مع النظام الحاكم في عمان ، وسحقوا ، ورحلوا إلى لبنان ، وهناك وقعت حرب بينهم وبين طوائف لبنان ، استمرت لعام ١٩٩٠ حتى هدأت بخسارة للجميع وطردت المنظمة لعدة دول عربية بعيدة عن حدود فلسطين.

حرب لبنان شغلت دول العالم الكبرى ، تجمعت أجهزة مخابرات العالم ووكالات الصحافة والأنباء العالمية ، تورطت فيها إسرائيل سوريا العراق مصر الخليج العربي ، لقاءات اجتماعات لجان قمم عربية إسلامية اغتيالات انسحابات ، ولم يسفر ذلك عن شيء مهم .

وكان صاحبنا نزيه ـ كما سنفصل ـ قد اختفى وابتعد عن الحرب ، وعاش في الأرجنتين هاربا من مارينا وخاليه ،وفتحت عليه الدنيا والتجارة كما سيتبين في الصفحات القادمة.

القرية تكبر بكثرة السكان ، وبكثرة البناء السكني ، ولما تكثر الأسر بالزواج تكبر القرية ، تدخل فيها الصناعات الخفيفة والمشاغل والمتاجر تصبح نصف مدينة ، لم تعد جمالة قرية صغيرة ، كثرت المدارس ، زاد عدد الأطباء ، كثرت العيادات ، تقوم على أطرافها المصانع ؛ فتصبح ؛ كأنها مدينة صغيرة .. هكذا أصبحت قرية جمالة التابعة لمدينة سلام الدين قرية السيد نزيه يوسف الجمالي .. نسبة إليها، ولم يكن المولود الفرد لأبيه يوسف كما ذكر آنفا .

القرية الكبيرة جمالة تسكنها عائلات من أصول شتى ، لم تكن من عائلة أو حمولة واحدة ، بل من أسر كثير؛ ولكنك تستطيع أن تقول إن العائلات تصاهرت مع الكثير من الأسر الأخرى عادة مشاكل ونزاعات القرية أقل من نزاعات المدن ، ولابد من المشاكل والصراعات ، والتنافس موجود في القرى كما هو موجود في المدن ، القرية مدينة صغيرة .

الحكومات تهتم بإنشاء الطرق والشوارع المسفلتة خاصة في القرى المهمة ؛ لتسهيل نقل الثمار والمزروعات إلى المدينة ؛ ولتقل حوادث الطرق ، المدينة بحاجة لخضار وفواكه من المزارع أغلب الأيام ، ومن الاستيراد الخارجي كذلك . كانت تتوفر الطرق والبنية التحتية في القرية جمالة ، وما جاورها من البلدات فكانت تتوفر فيها المدارس والعيادات والجمعيات وهي تابعة إداريا لمدينة سلام ، فبينها وبين المدينة سلام عدة بلدات.

والتنقل بينها وبين مركز سلام ميسور وسهل في أقل من ساعتين يكون الراكب في أحدهما .

دخل نزيه الطفل المدرسة الأولى في البلدة مثله مثل سائر أبناء وأطفال البلدة وأخوته ذكورا وإناثا ، وتمتد الدراسة الرسمية عشر سنوات بعد سن السابعة وبعد انتهاء الثانوية ، إما أن يدرس في معهد فني حرفي لمدة سنتين أو يلتحق بالجامعة في مدينة سلام.

في القرية معاهد زراعية ؛ لأنها قرية تكثر فيها المزارع والحقول ، وتقام مثل المعاهد بين عدة قرى لخدمة أبناء عدة بلدات ، ومعاهد مهنية أيضا ، لا يوجد فيها جامعة ، فمن يرغب في تكميل الجامعة عليه الدراسة في المدن الكبيرة ، وينتج عن ذلك إما السكن في المدينة لتوفير

الوقت وقت التنقل بين البلدة والمدينة أو يسافر بأي وسيلة نقل بينهما كل نهار ، وكل الأهالي يكون لهم أقارب في المدينة للعمل كموظفين في دواوين الحكومة أو الشركات التجارية أو الصناعية . كانت الدراسة في القرى عشر سنوات بعد سن السابعة ، ويدرس الصغار في مدارس الروضة قبل المرحلة الأساسية ، ثم عامان المرحلة الثانوية ثم الكليات المتوسطة بعشرات التخصصات ، أو الجامعة بعشرات الاختيارات.

كان والد نزيه صاحب هذه الحكاية متعلما ، ومحبا لتعليم الأبناء بغض النظر عن الجنس ، وكان يقرأ في كتب القدماء ويقتني ما تيسر منها ، ومجالسا لشيخ الجامع وعلماء القرية أثناء تواجدهم في القرية لزيارة أهليهم وأقاربهم رغم العمل الزراعي والحيواني ، أهل الأرياف يقبلون على التعليم مثل أهل المدن ، والأنظمة المعاصرة قوانينها تلزم الآباء بتعليم أبناهم المرحلة الأساسية على الأقل ؛ لذلك تقوم الحكومات الحديثة والعصرية بإنشاء المدارس في المدن والأرياف إما بناء أو استئجارا ، وتمنع القوانين المعاصرة عمالة الأطفال ، وتعاقب أصحاب العمل والأهالي .. فالابتدائي إلزامي لكل الأطفال .

انتقل الشاب اليافع للمدينة مع الكثير من أقرانه للدراسة الجامعية في مدينة سلام ليدرس في كليات التجارة كما أحب واختار ، وكما شجعه أشقاء أمه عندما باركوا له بالنجاح .

كان والده يوسف الجمالي محسوبا من الأغنياء في البلدة جمالة وما حولها ، فهو تاجر مهم يتاجر في المواشي الابل ، ويتاجر في الأغنام والعجول والألبان والأجبان والسمن والزبدة ، ويملك أراضي خاصة به يقوم على زراعتها ومتابعتها ، ويصدر فواكها إلى المدن الكبيرة المحيطة في البلدة . نقول هذا لتعلم ؛ أنه لم يكن الشاب يعوزه المال واللباس للدراسة والحياة في المدينة تحت رعاية أخواله وشقيقه الأكبر الذي سبقه لدراسة القانون في سلام ، كان يتردد على منازل أخواله وخالاته في كل المناسبات ، وكانت تعجبه حياة المدينة أكثر من حياة الريف ، وهو دخل كلية التجارة ليعمل في شركات أخواله أو الحكومة ، مع اندماجه في سهرات وحفلات خاليه شاكر وباكر ما ترك الصلاة والصيام ، ولم يقرب الخمر والزنا .. ومن البداية التقى بابنة

خاله مارينا ، وكانت تقرب منه أكثر من غيرها من بنات العائلة ، وكانت تحرص على دعوته في كل مناسبة اجتماعية أو طعام في البيت حتى قيل إن بينهما مشروع زواج، مع أن هذا مجرد كلام رغم انسجامهما ، فالشاب بالنسبة لهم متدين ، ومارينا لا تعرف صلاة ولا طهارة ولا صيام إنما حوارات واحاديث ؛ ولكنها كانت تراعي اللبس أمامه وفي حضرته ، وكانت الأسرة ترى أن تغييره وتقبله لعاداتهم وطباعهم بعد هجرهم للقرية قد تسمح باقترانه بها .. فهو ابن أختهم .. إذن كانوا يرون تغيره من صفات القرية المحافظة إلى سفور وانفتاح المدينة قد يوافقون على زواجه منها.. فتعلم منها الجلوس مع الفتيات في منازلهم أو في الجامعة .. تعلم منها ومن إخوتها ذكورا وإناثا الذهاب لدور السينما والمسارح ، حضور حفلات خاصة في نوادي أخواله .. رأى الحياة المنفتحة كما يدعون في المدينة .. وكان يرى الكثير من المواقف والمشاهد السيئة حسب بيئة القرية ، وقد ترتكب من أجلها المشاجرات والمنازعات لو جرت في الريف . تخرج الابن الأكبر ليوسف من كلية الحقوق وكان الوالد يخاطبه على انفراد بعدما انصرف المهنئون وكان الحديث في الدكان في سوق البلدة : إذن ستعود للمدينة للعمل في مكتب محاماة .

ـ نعم سأتدرب كم سنة ، ثم اشتغل في وزارة العدل ، ثم سلك القضاء مع مرور العمر اذا شاء ربي .

ـ والزواج !كنا نتزوج قبل بلوغ العشرين!

ـ الدكتور نوار صاحبك ، حدثني عن ابنته المحامية نجاح التي ستتخرج الموسم القادم .. قال أبوك صديقي وابن قريتي فأنا أحب أن نتناسب يا إبراهيم ..وأنا عرفت معدنك خلال سنوات الكلية .. ونجاح تحدثت عنك ..ففهمت مغزى كلامها .. شاور الوالد .

عادت الذكريات بيوسف إلى أيام الطفولة واللعب والركض واللهو مع الدكتور نوار ، ثم رحيل الأسرة لسلام والدراسة والزواج فقال : صديق عزيز ! ونعم النسيب .. اذا أنت لك رغبة بمصاهرته أنا لا مانع لدي يا إبراهيم !

ـ أنا ما زلت أفكر يا أبي .

ـ نزيه ما أخباره مع أخواله؟

بعد صمت يسير أجاب أباه : كما يقال هم يرسمون عليه .. وكأنهم يرغبون به نسيبا لهم .. فعلاقته مع ابنة الخال باكر قوية .. دائما تعزمه على الحفلات والولائم وهو مندمج معهم وحتى أنها بحضوره تلبس ملابس حشمة إلى حد ما .. لقد قبلت بعض مناسبتهم .. ربما يحتاجهم المرء في بعض الظروف والمعاملات .

ـ الصلاة .

ـ هذا هو العجيب .. هو ملتزم بالصلاة وفي رمضان نادرا ما يذهب إليهم .. يتبادلون الاحاديث على التلفون .. فهم كما تعرف هجروا الدين والعبادات منذ فارقوا القرية.. وتجارتهم ومصانعهم كبيرة .. وخالي شاكر رأس كبير في الاستثمار وأوشك أن يكون وزيرا للصناعة .. والخال باكر رأس في وزارة المالية يشار له بالبنان.

ـ أنت غير منسجم معهم !

ابتسم إبراهيم : أخوالي ! ..لكن أحوالهم لا أرتاح لها الشراب والخنزير والتعري لا أحبه .. الناس تتغير لا تنحط هذا رأيي .. هم أحرار كما يقول نزيه هذا منهجهم وسلوكهم في الحياة تجد بناتهم وشبابهم في خلاعة .. لكن السيد جعد ـ ضحك ـ أعني نزيها الذي يتبنى بعض أفكار جماعة الاعتزال الذين يمجدون العقل والتحسين العقلي فرقة ظهرت قديما وقويت شوكتها من بعض أبناء الخليفة هارون الرشيد.. لابد أنك قرأت عنها .

ـ نعم ، نعم .. هم أتباع واصل بن عطاء .

ـ صحيح ! فنزيه يحمل بعض أفكارهم حتى يقال إن بعض رفاق الجامعة يسمونه جعد بن درهم الجهمي المعتزلي ؛ ربما مناكفة لزملائه .. ففكر المعتزلة أصبح ضعيفا .. ولا أحد يدافع عنه .. أصبح نظريا لا تأثير له على العوام ؛ وإنما حمله أناس سعيا للسلطة والحكم .

ـ اذا تحب الزواج فأنا جاهز والمال متوفر بفضل الله .

ـ بنت الدكتور نوار تحتاج لسنة حتى تنهي كليتها .. ننتظر ربما تغيرها السنة .. والكلام لأبيها فحسب.

ـ وقتما تشاء.. فخير الله موجود ولو كانت ابنة صديقنا نوار.

فتخرج صديقنا نزيه يوسف من كلية التجارة كما تخرج سابقوه ، ويتخرج الدارسون بعد إكمال اربع سنوات في الكلية الجامعية ، وهو اليوم ابن ثلاث وعشرين سنة . عاد للقرية مستقرا فيها ليعمل مع والده في التجارة أو يعمل موظفا في ديوان الدولة أو شركات خاصة أو في أحد البنوك أو التعليم والمعارف إداريا أو مدرسا .. أمامه المجال واسعا.

تعاظمت علاقة نزيه بأخواله في مدينة سلام خلال سنوات الجامعة ، كان يتردد على بيوتهم بأريحية ويجلس مع شبابهم وبناتهم بدون حرج ؛ كأنه يجلس في مجالس ومطاعم الكليات، يشاركهم الكثير من الاجتماعيات ..السهرات ..المناقشات .. طرفهم .. ومواقفهم.. وقصصهم ، لم يشعر بينهم بأي حرج .. يحدثهم عن أخباره في البلدة في الكلية .. كان يرغب بالعمل معهم بعد التخرج كما لمسنا في حديثنا عن حياته أثناء فصول الجامعة ، وكان يرى مستقبله في مجاورتهم أو التوظف في قطاع الحكومة ؛ ليكون مثلهم أو أكثر .. فشقيقه إبراهيم ظل يعيش في سلام ، ومازال يقطن البيت المستأجر ، وهو يفكر بالزواج من ابنة الدكتور نوار للبقاء في المدينة والدراسات العليا وهذا ما حصل .

فهم أي أخواله من أثرياء المدينة من رجالات الدولة ، فهم باعوا أكثر أملاكهم في جمالة قديما وسكنوا المدينة وعملوا في التجارة والصناعة والقليل من الزراعة .. وكانوا أهل نفوذ مع رجالات الدولة .. وكانت ابنة خاله الأنسة مارينا تستلطف نزيه وقريبة منه خلال فترة الجامعة .. وكان معجبا بها ، وكانت أمه تود أن يقترن بها على غير رغبة والده يوسف الذي يراهم من غير أخلاق ،وهو من طبقة وهم من طبقة .. فحياتهم الخاصة خمور سفور اختلاط انحلال .. حياة لا تعجب الفلاح والقروي والمتدين .

كان خاله باكر قد أقنعه بالعمل موظفا في الحكومة ؛ ليكون شيئا ما في مستقبل الأيام مثلهم ..

وسهل توظيفه بنفسه ومعارفه وقوة شقيقه الأكبر شاكر. فرحل إلى المدينة بتشجيع من أمه وموافقة من أبيه على مضض وعدم ارتياح ، اشتغل في دائرة مالية لوزارة التجارة حيث يعمل أبناء خال له . عادة موظفو الحكومة الرسميين مرتباتهم أقل من أشباههم في القطاع غير الحكومي فراتبه ضئيل مقارنه مع القطاع الأهلي .

أخبره والده يوسف بعد أسابيع من عمله رغبته بتزويجه من ابنة أحد العاملين معه في جمالة ابنة صديقه قديس الأنسة نهلة قديس ، فلم يبد رفضا فبدل أن يبقى في شقته وحيدا رحب بالفكرة والعرض .

قال الوالد : أحببت أن أزوجك ابنة صاحبي قديس لتقوية الصلة والمحبة بيننا ، فنحن نعمل سوية من سنوات كما تخبر .. وعنده خمس بنات.. وحدثته بالأمر فرحب بذلك .. وقال شاور نزيه وأنا سأتكلم مع نهلة.. فاسمها نهلة وهي ستنهي الجامعة مطلع الصيف .

قال نزيه مجاملا : العم أبو أحمد رجل فاضل .. إن شاء الله الرحمن الرحيم أفكر يا أبي .. ويكون الأمر كما تشاء وتحب .

قال الأب : فكر فكر .. أنا أحب صديقنا وشريكنا في بعض الأعمال منذ سنوات ولا تقول إني أضغط عليك .. بما أننا زوجنا إبراهيم .. وأنت تلي إبراهيم فأحب أن أقوي علاقتي بالسيد قديس بالمصاهرة ، ولا يعني هذا إجبارك .. يجب أن تكون مقتنعا بالأمر وبالبنت يا ولدي .. أنت تعلمت وتخرجت من الجامعة وموظف فتعرف مصلحتك.. فكر فكر مرة ثانية ، ثم أسمعني جوابك .. سمعت من أمك أن أخوالك يرغبون بتزويجك من بناتهم .. أنا لا مانع لديّ اذا كانت رغبتك حقا ؛ لكن لهم عاداتهم التي لا تروق لي .. لكن أنت الذي سيتزوج ..

ـ جزاك الله خيرا

تابع الأب : وأنا أحب تزويجك ؛لأنك تسكن وحيدا في شقتك أو بيتك المستأجر

ـ إن شاء الله

ـ الله يجمعنا على خير اذا كان لك نصيب في بنت أبي احمد .

عرض الأب على نزيه الزواج من ابنة قديس أحمد وترك له الخيار والتفكير ، وأن يرد عليه في زيارته القادمة للقرية .. فالشاب لما تدبر أخواله عمله في وظيفة مالية في المدينة سلام رحل إليها ، واستأجر شقة في حي جمال الدين الأفغاني والشارع يحمل نفس الاسم .

فلما سمع شاكر خاله الكبير بالمشروع ورغبة والده يوسف أقنعه بالزواج من ابنة شقيقه باكر مارينا ابنة خاله ، وهي متعلمة مثله وستعمل في شركات الأسرة ، ولها رغبة به ، كان بينهما ود أثناء إقامته في المدينة .

قال شاكر لشقيقه باكر بضيق : الرجل يريد أن يسبقنا .

وسافر شاكر للقرية ، وأقنع يوسف إبراهيم بحسن الزواج من ابنة خاله ، وزعم أن الشاب يرغب فيها منذ دخل سلام ، وأنهم سوى القرابة أصدقاء ، وأنهم سيدعمونه للزواج من ابنة شقيقه باكر ، وبعد جدل ونقاش رضخ يوسف لرغبتهم . فاضطر يوسف للاعتذار لصديقه قديس ، وحدثه عن رغبة أشقاء زوجته بتزويجه من ابنتهم ، وقبل الرجل الاعتذار .

والفتاة نهلة متعلمة ومتخرجة من جامعة الأندلس العربية فتزوجها ابن عمها خالد .

كانت مارينا باكر لديها هوى بنزيه منذ جاء للمدينة وحتى والديها كانوا يرونه زوجا مناسبا ، وأن تدينه سيذهب ويخف مع مرور الزمن كما حصل معهم .. فحياة المدينة تختلف عن حياة الريف ، ومشاغل المدينة أكثر من مشاغل القرية والرجل له سنوات قريبا منهم ، ولم يشكُ من طباعهم وتقاليدهم التي يعيبها المتدينون ويرونها بعيدة عن الدين . . والحق التدين في المدينة أوعى وأفضل من القرية ، فالجهل كبير في القرى ، وتدينهم فطري ، فتجد بينهم عادات وتقاليد جاهلية وبدع أكثر من المدن .

مارينا لم تكن متعجلة على الزواج ، وكانت أصغر سنا من نزيه بسنة تقريبا أي من نفس السن والجيل ، وكانا في كلية واحدة كلية التجارة كما مر معكم ، كان هو في شعبة المحاسبة المالية ، وكانت هي في شعبة إدارة المال والعمل ، ولقب نزيه بجعد بينهم ، وهو اسم أطلق عليه من رفاق الكلية لاهتمامه بفرقة المعتزلة القديمة أثناء محاضرة ، قال المحاضر : أنت مثل جعد بن

درهم يا نزيه ! وانتشر الاسم كدعابة ونقلت هذه السخرية لخارج الكلية ،ولأسرة أخواله فأصبح ينادى بنزيه الجعد ، فقبل الأمر . وكان نزيه بالنسبة لأسرة أخواله وأقاربهم متدينا وملتزما وشيخا حيث يطلق هذا الوصف على المتدين ، فهو يحافظ على الصلاة ويتردد على الجوامع ويصوم شهر الصيام هكذا تعود وتربى .

تزوج ابنة خاله ، واشتروا لها شقة خاصة كهدية ، فسكت الشاب فهو متخرج منذ شهور فقط ويعمل موظفا من شهور أيضا، وهم أهل، فأمه أختهم وعمة مارينا. كان سعيدا ومنتشيا بزواجه منها ، وقد راوده هذا الحلم عندما أكثر من الاختلاط بهم ، وكان يرى الأمر صعبا ، فلم ير أحدا تزوج منهم منذ تركوا القرية ، كانوا يرون أنفسهم أنهم أكبر من القرية وناسها، ولا يصاهرون إلا الأسر الثرية والنافذة مثلهم . كان نزيه يرى كيف يستقبلهم رجالات القرية عندما يحضرون لعزاء ، فيكون في رفقتهم سيد المجلس للقرية ويحتفون بهم كأنهم ملوك .

قبلت مارينا الزواج خشية أن تفقده ، لقد وافق هواها ؛ ولكنها كانت تفضل تأخر الاقتران ، فقد أحب والده أن يسارع في زواجه خشية زواجه منها ، وقد تدخل عمها شاكر بقوة من أجل ذلك ، وكانت أسرتها ترغب به قرينا لها عند الزواج ، ولدت له المرأة أربعة أطفال في بضع سنين في أقل من عشرة سنوات ، وكان الرجل محبا للذرية أكثر منها ، مثل والده ، وأهل القرى غالبا يحبون الذرية الكثيرة .

كان نزيه راغبا بابنة خاله باكر منذ وضع قدميه في دارهم وقصرهم ، وكانت أمها تحبه وتوده أيام الجامعة ، وتتصل بوالدته وتطمئن على صحتها وأحوالها باستمرار ، والشاب كان يأمل أن يؤثر على مارينا اذا نكحها أن تقلع عن عاداتها السيئة ؛ كأن تترك السفور ، ولبس ملابس التشبه بالذكور والخروج بالبنطال والقميص الذي يكشف الساعد ونصف العضد أو اليد كلها بحكم أنها زوجة ، وأصبح له عليها سلطة وقوامة ، لم ينجح ، لم تترك التبرج للشارع ، والاختلاط في الحفلات ، والرقص مع أصدقاء ، لم تترك شرب الخمر ولا التدخين ، وجد نفسه مجرد زوج وذكر ، لا صلاة ولا رمضان ، وجد نفسه ضعيفا أمام تيار التغريب ؛ بل

وجدهم يسعون بقوة لتغريبه لتحويله إلى نمط حياتهم، فيدعونه لمصاحبة زوجاتهم وبناتهم والخلوة ، وأن هذا عين الحرية والحداثة والتقدم والحضارة ، رغم السنوات العشر من المعاشرة الزوجية وصحبته لها لم تتغير لم تتأقلم ظلت على ما شبت عليه ، وهو بفضل الله ونصائح إبراهيم ظل ثابتا على أصالته ، فمارينا لم تقم بزيارة واحدة للقرية لزيارة عمتها أو حماها ، وكانت عمتها تأتي بشخصها وذاتها لتهنئتها بولادة وبمناسبة .. كانت زوجة إبراهيم تجاملها في المناسبات كولادة وأعياد وتزورها في شقتها ، أما هي فلم تفعل ولو مرة واحدة ، وتركت امرأة إبراهيم تلك المجاملة لما بدأت تنشب في حياتها الزوجية النزاعات حتى لا يظن أنها تتدخل في شأنهم حتى إبراهيم كف عن تلك الزيارات الشخصية ؛ وإنما يطمئن على شقيقه بالهاتف أو يزوره نزيه أو يلتقيان في مكان عام .

ولدت مارينا بداية ابنها ناصر ، وبعد سنتين جاء سامي ثم ميساء ونداء وبعدئذ مرضت مرضا خطرا ، عجزت منه عن الحمل وهذا لا يهمها ؛ بل أسعدها وغم قرينها ، والأخطر أنها أصبحت كلما يحصل بينهما جماع واتصال جنسي تصاب بنزيف المهبل والرحم ، أصابها عقم ونزيف ، ولم يعرف سببه ، فبعد كل اتصال جنسي يحدث النزيف ، وتحمل للعيادات ، ولم يشخص الأطباء وأهل الاختصاص السبب ، وبعضم نسبه لمشاكل هرمونية ، وضاق الشاب بهذا الحال ، وأصبحت كل معاشرة فضيحة ودكتور ، وتبع ذلك نزاعات عائلية ، وكرهت المرأة أي اتصال جنسي وتعتبره اغتصاب ، وأخذت تشير له أن يبحث ويتصل بالخليلات ، فهي عاجزة عن تلبية حاجته تلك فيقول محتجا : أهذا حل يا بنت الحلال ؟! آلجأ للزنا والمومسات .. أنا لست عمك وعمي باكر .. أنا أصلي وأعبد الحي القيوم .. أنا لست في أمريكا أو فرنسا !

ـ ما الحل ؟! أنا أبحث عن العلاج والدواء ، فقدت الكثير من الدم جراء أي لقاء

ـ وأنا ما ذنبي ولماذا يتزوج الناس ؟!

قالت بصياح وحدة : الحل يا حبيبي الزواج عليّ .. أنا لا أقبل .. وأبي يرفض .. نحن لا نؤمن

بالتعدد ..وليس عندنا دين.. أهلي تركوا الدين للمزارعين .. وعمي يرفض بشدة .. وكل إخوتي وأخواتي وأزواجهن .

قال بغضب وجنون : الزنا عندي مرفوض .. والخدن والعشيقات مرفوض .

ووصل الزواج لعشر سنوات دون شفاء مع كثرة المعالجات والفحوصات حتى أخبر الرجل أنه سيتزوج عليها ضرة وقد طفح الكيل. أخواله رفضوا هذا الحل ، وهي كذلك رفضت هذا الحل إلا بطلاقها ، ووالدها وشقيقه رفضوا الزواج عليها والطلاق .

زار شاكر الجمالي المليونير وباكر مدير الجمرك القومي بيت نزيه وبعد الترحيب والتظاهر بالغضب والضيق قال شاكر الذي كان وزيرا سابقا : يا سيد نزيه! نحن أحببناك لأنك ابن أختنا وعاشرتنا ولمسنا هواك معنا .. وكنا نراك قريبا من مارينا أيام انتقالك للدراسة .. ومارينا أعجبت بك .. فقبلنا أن تكون قرينا لابنة أخي ، وهذا المرض لم يجد له الأطباء لحتى علاج حاسم .. ويقولون إنه مع الزمن يزول .. صحيح أن لك ثلاث سنوات تعاني وزوجتك من العلاقة الخاصة .. فعليك الصبر .. وأنت متدين .

ـ لي ثلاث سنوات صابر يا خالي الكبير.. تربيتي يا جماعة لا تسمح لي المبيت مع بنات الهوى .. وهذا لا يتوافق مع تديني

ـ والحل يا أبا ناصر

قال متوسلا : الحل أن أتزوج أخرى .. أفضل لي ولها .. الحل أن تسمحوا لي بذلك.

قال باكر : يا ابن أختي هذا لا يرضينا ، ولا يرضي مارينا أم أطفالك الأربعة

ـ هذا اضطرار يا خالي العزيز

ـ لا نراه اضطرارا .. كما قال لك خالك شاكر الأطباء قالوا سيزول.. أرسلناكم لفرنسا من أجلك ، وهم فشلوا في منع النزيف.. اصبر بضع سنوات

قال : أنا لم تعد عند طاقة للصبر ؛ ليكن زواجي حالة استثنائية

قال شاكر : هذا مغلق.. لن نقبل زواجك ثانية

ـ هناك الطلاق .. ننهي العلاقة بالمعروف

قال باكر : نحن عندنا الزواج على رأيهم كاثوليكي

ـ نحن عندنا الزواج إسلامي

قال شاكر : فكر بحل آخر لا زواج ولا طلاق دبرك نفسك

قال : الحرام

قال شاكر : تجنب الاتصال المباشر

قال : كيف ستلد ؟!

وأصبحت الزوجة عصبية ، وزاد شربها للكحول ، واشتهرت بذلك ، وشاعت المشاكل والنزاعات بينهم واشتدت ، وتدفعه للبحث عن البغايا وبنات الهوى لقضاء شهوته ورغبته الجنسية ، فيقول : هذا الحل عندك.. أنا المتدين أقضي شهوتي في أحضان المريضات بالزهري

ـ طلقني

قال : أبوك وعمك يرفضان والشرع يجيز الزواج ...

قطعت جملته صارخة : أنا كما تعلم لا أعرف شرعا ولا دينا.. أنا لا أدري كيف رضيت بك شريك فراش وأنت مجرد فلاح ؟

قال بجنون : بل أنا الذي عليه أن يسأل هذا السؤال .. وهو يعلم أنك تسكرين وتخالطين القريب والغريب.. ولا احترام لزوج وتقدير

أمست مارينا باكر عصبية جدا ومتوترة دائما ، وتغضب لأتفه المشاكل ، وأصبحت حياة جعد حياة نكد ، وهروب إلى المقاهي والتجمعات ، ولم تنته النزاعات والحرد والزعل بهروبه ، فلما يحضر في نصف الليل تتجدد الصرخات والسباب والتعيير ، أو يجدها ما زالت تسهر وتخمر مع رفاقها وزوجاتهم وبناتهم .. فيتصايحون وينقلب إلى حجرته مغموما متمزقا .

فترك المدينة نحو القرية هربا من المشاجرات والفضائح والحياة الكئيبة، يغيب بضعة أيام ، وأكثر من أخذ الإجازات ، وترتب على ذلك كثرة الأخطاء في العمل فاضطرت الدائرة إلى

تنزيل رتبته من رئيس قسم في دائرة المحاسبة إلى موظف في مكتب صغير ، وسمع من مديره أنه قد ينقل إلى قسم في احدى دوائر العمل في وزارة العمل والتشغيل في مدينة أخرى .

فقال ساخطا : أعرف أن السيد باكر الجمالي وراء كل هذا التضييق .. يريد أن يعرفني حجمي رغم كل هذه السنوات من العمل والانضباط !.. وكم أثنيت عليّ أنت يا عيسى .

ولما أصبح يكثر من المبيت في البلدة أشاعت مارينا أنه تزوج سرا في القرية ، واتهمته في ذلك رغم تأكيد والدها وعمها أنه لم يفعل ذلك ؛ إنما لجأ للقرية من التعب النفسي من المشاكل الدائمة بينهم ، وعجزهم عن حلها والتفاهم .

ذهبت مارينا لفرنسا للعلاج من النزيف ومشاكل الجماع ، ولم تخرج بنتيجة جيدة كما ذكرنا في سطور سابقة .وكان لنزيه ابن عم قد هاجر قديما للأرجنتين في أمريكا الجنوبية ، ولما جاء زائرا وسمع بمشكلة نزيه ، أقنعه بالهجرة معه ، ووجد ذلك ارتياحا لدى نزيه وتشجيعا من أبيه يوسف ، وكان الوالد يعلم شقاء نزيه مع زوجه وأهلها ، فوافق على رحيله خفية عن أهل امرأته وعن أمه أم إبراهيم ، وذلك نتيجة أنهم يرفضون زواجه عليها ، ويرفضون طلاقه لها ليتزوج أخرى .

وقدم استقالته للدائرة التي يعمل فيها قبل نقله لمركز عمل جديد ، وظن خاله باكر أنه يفعل ذلك للضغط عليهم ويغيظه ، وأنه ليس بحاجة للوظيفة ، وأنه سيعمل عملا حرا في القرية ، وتظاهر هو بذلك ، وطلب من مارينا أن تستعد للرحيل إلى القرية ، وهذا رفضته في أول زواجهما فكيف اليوم ؟ فهي مع مرور سنوات على الزواج لم تقم بزيارة واحدة للقرية ، فرفضت من جديد ، وهو يعلم ذلك ، وأصرت على البقاء في مدينة سلام ، فتظاهر بالغضب والسخط ، ورجع للقرية زاعما النقمة والحرد ، وعلى حين غفلة من أهلها سافر مع ابن عمه طلال إلى إسبانيا ، ومنها لبيونس آيرس . ولما علم والد مارينا بسفره ، وتيقن منه ذهب للقرية وتشاجر مع أخته وزوجها يوسف، فانكرا معرفتهما بخطة نزيه .

فقال يوسف بعصبية وردة فعل غاضبة : الحق عليك وعلى ابنتك .. الرجل لا يستطيع يا باكر

العيش والعفاف بدون زوجة .. أولادي وأنت تعرف لا يقبلون العشيقات وبنات الليل .. علمتهم على طهارة الذيل والعفة .. فابنتكم لم تعد صالحة للمعاشرة الزوجية .. وقد عالجتموها في داخل وخارج البلاد ولم تتحسن ولها أكثر من سنوات .. صحيح المرض قدر والعلاج قدر .. فالزوجة الثانية تؤدي الغرض المطلوب .. واعلم يا باكر بأنني سأتزوج على أختك قبلتم أو لم تقبلوا .. لم .. لم أعد أخشاكم واحترمكم .



كونت سوريا صداعا وصراعا لبعض الدول العربية مصر الأردن السعودية العراق منذ رحلة الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي ، فكان المصريون يطمعون بحكم سوريا ، وتحقق لهم ذلك بما سمي الوحدة المصرية السورية ، عندما تنازل القوتلي لناصر وإعلان الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨. الجمهورية العربية المتحدة هو الاسم الرسمي للكيان السياسي المتشكل إثر الوحدة بين جمهوريتي مصر وسوريا ، أعلنت الوحدة في ٢٢ شباط ١٩٥٨ بتوقيع ميثاق الجمهورية المتحدة من قبل الرئيسين السوري شكري القوتلي والمصري جمال عبد الناصر .

اختير عبد الناصر رئيسًا ، والقاهرة عاصمة للجمهورية الجديدة ، تم توحيد برلماني البلدين في مجلس الأمة بالقاهرة ، وألغيت الوزارات الإقليمية لصالح وزارة موحدة في القاهرة أيضًا .

أنهيت الوحدة بانقلاب عسكري في دمشق يوم ٢٨ أيلول ١٩٦١ ، وأعلنت سوريا عن قيام الجمهورية العربية السورية، بينما احتفظت مصر باسم الجمهورية العربية المتحدة حتى عام ١٩٧١عندما سميت باسمها الحالي جمهورية مصر العربية وذلك بعد موت الزعيم القومي ناصر . والهاشميون القادمون من الحجاز هم أول من حكم سوريا بعد الحرب الأولى وما سمي بالحكومة الفيصلية التي قضت عليها فرنسا ، واستعمرت سوريا عقدين من الزمان وشكلت جمهورية بعد فصل لبنان وفلسطين والأردن عنها ، وعجز ملك ومؤسس الأردن الحديث من ضمها لملكه ، والملك السعودي عبد العزيز وخلفه طمعا في السيطرة عليها ، فكان صراع كبير يدور حولها سرا وجهرا والعراق مرات وكرات سعى للوحدة مع سوريا ، نجحت مؤامرة سايكس بيكو في تفتيت أملاك آل عثمان ، تحررت سوريا من الفرنسيين ، وعاشت فترة انقلابات تقرب من العشرين حتى استقر الحكم للعلويين باسم البعث ، حزب قومي عربي حكم العراق وسوريا ، وحاول في دول أخرى.

سقطت سوريا البعثية في مستنقع لبنان في السبعينات ، وفقدت الكثير من شبابها وثروتها فيه ، مرة تقف مع المارونيين حكام لبنان ، ومرة مع الفرق الأخرى وتصارعت مع إسرائيل على

أرض لبنان ، وجرت حرب أهلية بعد الثمانين في ربوع سوريا مع الإسلام الإخواني ، وما زال حكم العلويين مستمرا باسم البعث ، وهي دولة غير مستقرة وفقيرة ، وقد فقدت جبال الجولان عام ٦٧، وما زالت لا تحرك ساكنا من أجلها ؛ ولكنها دولة يحسب لها حسابها في صراع الشرق الأوسط القائم منذ سقوط الحكم العثماني عن بلاد الشام ، وخضوع هذه البلاد للانتداب والاستبداد ، وفي سنة١٩٩٠ همدت الحرب الأهلية في لبنان باتفاق الطائف بين الطوائف . لبنان وبلاد الشام كلها دول هشة بالجمل سياسيا واقتصاديا ، تعتمد على دعم الدول القوية والدول الغنية بالقروض والمعونات والهبات . وسمع نزيه الكثير عن سوريا ولبنان في مهجره الأرجنتيني لوجود أعداد كثيرة من المهاجرين السوريين واللبنانيين في الأرجنتين ، وفي دول أمريكا الجنوبية ، فهناك جاليات عربية كبيرة ، ربما الشوام أكثرهم.

عرب الأرجنتين هم المواطنون الأرجنتينيون أو المقيمون بها ذوي أصول عربية قدموا خلال موجات هجرة مختلفة ، لديهم هوية لغوية وثقافية واحدة ، ينحدر أغلبهم من لبنان و سوريا و المغرب، يقال عرب الأرجنتين من أكبر مجموعات الشتات العربي في العالم ، حتى مع التنوع العرقي والديني و اللغوي للأرجنتين فإن العرب الأرجنتينيين يحملون تراثا تشترك فيه اللغة ، الثقافة والتقاليد السياسية.

الزواج المختلط عال جدا ما بين الأعراق عند الجالية العربية، بغض النظر عن الانتماء الديني معظم أفراد الجالية لديهم والد واحد من أصل عربي ، نتيجة لذلك ، ظهر تحول ملحوظ عن اللغة العربية ، قلةٌ من يتكلمون العربية، غالبا ما تقتصر هذه المعرفة في الكلمات الأساسية عكس الأغلبية خاصة الأجيال الأصغر سنا، والتي تتكلم الإسبانية كلغة أولى لأنها اللغة الرسمية الأولى للبلاد .

فنزيه يوسف منذ حط رحله هناك تزوج امرأة شامية ، وولدت له أربعة مواليد مثل مارينا ، والشوام فتحوا له المجال للتجارة والعمل في الغربة والمهجر .

هو سافر مطلع ست وسبعين ، فأهل الغرب العرب يسعدون بزواج بناتهم من أبناء العرب ،

والمهاجرون يرونها فرصة للاستقرار ونسيان البلاد ، فهم يحبون ذلك لتقارب عاداتهم وثقافتهم وديانتهم ، والاشتراك في اللغة العربية ، وتأتي الأخبار الحسنة والسيئة عن أهليهم وأقاربهم في أوطانهم ، وقصة الجاسوس الإسرائيلي كوهين وحياته وقتا في الأرجنتين قصة متداولة بينهم ، وجواسيس الأسد موجودة بينهم ، وسمعوا عن مذابح الأسد والبعث في حماة وعموم سوريا وتل الزعتر في لبنان ، تردد صدى هذه المجازر بين أبناء سوريا الكبرى في الغربة . هي أخبار مثيرة ومؤلمة للأسر العربية الشامية، فمنهم من فقد بعض أهله وأقاربه. ولا ينسى الشوام وصول كارلوس منعم ذوي الأصول العربية السورية لحكم بلاد الأرجنتين .

حدثت ثورة تاريخية في ايران هزت دول العالم عام ١٩٧٩ ، بزعامة عالم شيعي اسمه علي الخميني على ملكية ايران ، وهرب الشاه ، وتسلم الحكم حكومة دينية شيعية إسلامية ، اهتز الشرق الأوسط والعالم ، قدم الخميني من آخر منافيه في فرنسا على طائرة فرنسية إلى طهران عاصمة محمد رضا بهلوي وبلاد فارس ، وانتهى حكم السفاك جهاز مخابرات بهلوي.

وقام الثوار بسفك دم الكثير من رجال هذا الجهاز وضباط الجيش بعملية تطهير ضخمة ، واستطاعت أمريكا وأتباعها تحميس العراق لمحاربة الخميني بحرب دموية كانت خدمة للاستعمار اكثر من خدمتها للقضايا العربية ، دفع فيها العراق الغالي والنفيس والرخيص ، خسرت البشر والثروة الكبيرة ، وخرجت من الحرب مهيضة الجناح ، غارقة في ديون ومليارات تحتاج لمائة سنة لسدادها ، وسميت هذه الحرب الطويلة حرب الخليج الأولى . كانت ورطة كبيرة سقط فيها العرب ،كما سقطوا في حروبهم مع إسرائيل، دامت الحرب ثمانية أعوام ، خسر فيها الفريقان ملايين البشر ومليارات الأموال ، ولم ينتصر أحد على الآخر، وكان القتال ؛ لأن العراق تطلق على الخليج العربي والطرف الثاني يسميه الخليج الفارسي ، وبعض الأرض الحدودية مختلف عليها . وكانت الثورة والحرب بعد سفر نزيه بسنوات ثلاث أصبح العراق بلدا فقيرا وضعيفا بعد أن كان دائنا، أصبح مدينا لدول خليجية وغيرها من الدول التي زودته بالسلاح ، والحرب مجهولة السبب الحقيقي في النهاية .

ولما سكتت المدافع شرقا دخل العراق في حرب الكويت ، وجيشت الجيوش لتحريرها من الغزاة العراقيين ، وهزم العراق هزيمة ماحقة ، وتعرض لغزو أمريكي شرس ، وحوصر حصارا قاهرا لسنوات قبل أن يدخل الجيش الأمريكي بغداد . كانت مغامرات عسكرية رهيبة لقادة العراق أصابت الأمة العراقية بمقتل ، وحدث في مطلع التسعينيات انهيار المنظومة السوفيتية والشيوعية ، وسقطت سقوطا مدويا ، وأصبحت في خبر كان .

وكل هذه الأحداث التي أشرنا إليها وغيرها وصاحبنا نزيه يعيش في الغربة وراء الأطلسي غربه في حياة هادئة سعيدة .

كان نزيه كغيره يتابع ويسمع الأخبار والانهيار ، ويفرح اذا فرح المهاجرون ، ويحزن اذا حزنوا على أحداث الشرق ودمار الدول ، فبعد عام ٢٠٠٣ وسقوط بغداد المدوي والسريع ، وقد احتلها الأمريكان ، وانهوا حكم البعث فكر نزيه بالعودة لسلام وجمالة ، وكان تحقيق ذلك في العام التالي ، عاد بعد غربة امتدت اكثر من خمس وعشرين عاما.

إذن ترك جعد المدينة تحت ضغط الواقع ، وخشية اشتداد النزاع بينه وبين زوجته أولا وأخواله ثانيا ، وفي النهاية خرج خفية مهاجرا جهة الغرب إلى أمريكا الجنوبية للعمل مع ابن عمه طلال وذريته وأنسبائه ، وترك زوجة غاضبة ناقمة وأطفالا صغارا أربعة .

كان بكره ناصر عند الهرب والهجرة ابن عشر سنوات ، وكان يرسل المال لأبيه للإنفاق على الأولاد ، والشقة في سلام كما مر معنا كانت هدية للزوجة من والدها وعمها عند الزواج ، فالغربة لم تنسيه أطفاله والأمانة الملقاة على عاتقه والمسؤولية التربوية ، حياته أصبحت جحيما في المدينة . كتبنا أن باكرا وشاكرا الجمالي عرفوا بهرب زوج ابنتهم إلى الغرب ونجح بالانفكاك منهم وعنهم ، فاسقط في أيديهم ، وهناك لابد أن يتزوج ، وهذا دافعه المهم للخروج للغرب وربما تطلق البنت غيابا في محاكم الغرب التي ترفض التعدد طبعا ، وأصابهم الغيظ والسخط والغضب حتى تسببوا بزواج يوسف على أختهم ، ولولا تدخل أخوة نزيه وأهل القرية لساقوا أم إبراهيم أختهم للمدينة ، والمرأة أيضا للحق رفضت المسير معهم ، وأن أبناءها شباب يستطيعون الوقوف معها والقيام بالواجب اذا قصر يوسف ، ولم يحصل أن مد يوسف يده عليها يوما أو قصر في حقها ، فهي أم أولاده الثمانية ، فاضطروا للصمت رغم العداء السافر بين الفريقين ، وهم في قرارة أنفسهم يرغبون ببقائها ، فأم إبراهيم لها خمسة من الذكور وثلاث إناث ، فقد رفض الأبناء الطلاق والرحيل ، والأب لم يتحدث عن طلاق ما دامت قابلة زواجه فصمتوا على الهزيمة المعنوية التي أحاطت بهم .

ومارينا نفسها رفضت أن تطلب الطلاق، ولن تتزوج مرة أخرى كما تحدث بعضهم حتى ولو جاءت قسيمة طلاقها من الغرب .

وقالت : سوف أصبر ، مصيره العودة .. ولن يطيق الغربة والبعد عن العائلة.

لم يصب ظنها وهاجسها، ولم تأت قسيمة الطلاق، بل أتاهم خبر زواجه فور استقراره في العاصمة الأرجنتينية. ولكن طال الرجوع ، ولم يأتهم كتاب بطلاقها حتى أنها كانت ترفض

أن يكتبوا له ليطلقها ؛ لأنهم سمعوا من بعض إخوته أبناء أختهم أنه تزوج هناك ويحيا حياة طيبة ، ويتقدم في عمله وشغله .

أهملت مارينا في تربية الأطفال نتيجة تركها وصدمتها ، ولم تكترث لهم ؛ كأنهم أولاد نزيه فقط وكان شغلها الشاغل الانتقام الانتقام من أولادها نكاية بأبيهم الهارب ؛ لذلك كانت المربية هي التي تقوم على رعايتهم ؛ فلذلك شب الأولاد لا يرونها أما لهم . ولم تكن تكترث بهم وبهمومهم ومشاكلهم اليومية ودراستهم ، وأخوالهم وجدهم باكر مثلها ومثلهم ، وكانت تلوم أمها ووالدها بتزويجها له وهو القروي الفقير ، ونسيت أنها هي التي كانت تهواه وتراه رجل الغد والزوج المطلوب .. فتقضي وقتا بسبه وشتمه ولعنه ولعن الساعة التي تعرفت عليه فيها، كانت المرأة في بعض المناسبات العائلية وما أكثرها تشرب حتى الثمالة زاعمة لأهلها أنها تريد نسيان سنوات الظلم والاغتصاب من زوجها .

ترك ناصر المدرسة بعد فشله في الثانوية العامة ، ولم يسع للإعادة ، واتجه للعمل مصلحا للسيارات الصغيرة الصالون بمساعدة زميل سبقه إليها تاركا المدرسة قبل سنتين ، وناصر هذا أعجبته مهنة تصليح السيارات والتحق في محل صديقه لؤي ، وكان يتردد عليه سابقا ، فقد استهوته فكرة تصليح السيارات ومغرما بها ويحلم بصناعة سيارة تطير ، فلذلك لما رسب في الدراسة اشتغل مع زميله لؤي ، وبعد حين فتحا محلا أو محطة تصليح مع شاب أكبر منهما بسنتين وأقدم منهما وأكثر خبرة منهما .

وسكت جده باكر على اختياره وفشله ، واعتبره ابن أبيه الفاشل ، ولم يعتب على ابنته بكلمة ولوم ، وترك ابنته تفعل ما تراه من فجور وفسق .

أما ناصر فنهاره عمل وليله فسق وفجور ، فقد غرق في الدعارة والحانات والسفر لقضاء الشهوات والبغاء ، وأمه لم تهتم بسيرته ؛ لأنها مثله أصبحت تصادق هذا ثم هذا ، وعرفت بالسوء والطيش في وسط الأسرة ، لا هم لها إلا الشراب والسهرات والحفلات، تريد الانتقام من نزيه ومن نفسها ، وحاول والدها وأمها وإخوتها بعض الحين صرفها عن التهتك والمجون

بدون مناسبة وهوس فتزجرهم بكل كلام نابي فيلوذون بالصمت فهم مثلها في الانحلال الخلقي.. وفاقد الشي لا يعطيه . فكانت تعمل حفلات وسهرات في بيتها ، وتخلق مناسبات وأحوال لهذا الضياع والتهتك ، تساير عصابتها في المجون والفساد لا رادع لها ، وكذا مرة غازلت أزواج صاحبتها ، وقضت معهم مغامرات جنسية شاذة كلما سمح لها بدنها العليل بذلك، فكان السكر والطعام والغناء والطرب أهم أعمالها في الليل ، ومنها تعلم ناصر وسامي الانحلال والفساد والزنا .

كبر ناصر في هذا الجو الماجن ؛ لذلك كان يرفض فكرة الزواج ، لقد تعقد منه ، وأمام ضغط جده باكر وللتغطية على فجوره وسيرته القبيحة أجبروه على الزواج ، فرضخ واستسلم لهم ، وتزوج من فتاة على شاكلتهم ، وبعد شهور من العيش معها وجدها أفجر منه ، فلم يعد يطيق معاشرتها والحياة معها ، فطردها شر طردة بعد أن لطمها عدة لطمات أثناء سكره وسكرها ، وحدث الانفصال بدون طلاق ؛ ربما البعد يحببهم ببعض هكذا اقترحوا عليهما ، لقد رفضها بكل قوة ، وظل يعيش مع العاهرات وبنات الهوى المومسات حتى أصابه حادث سير وهو عائد لبيت أمه من حفلة ماجنة ، وسبب الحادث له إعاقة ، وأصبح عاجزا عن خدمة نفسه ، ويتحرك على عجلة ، فزادت مشاجراته مع أمه ، ولم يعد يصمت ويحتمل حفلاتها وسهراتها وعشاقها في البيت ، وصار يتهمها بالفجور والفحش مباشرة دون حياء أو خجل، وأنها تخلت عن العناية بهم صغارا ورمتهم للشارع ، ويدعوها لتمارس فحشها خارج البيت ، وأنها هي التي علمتهم على الفحش والنساء والسكر ، ومضاجعة بنات صديقاتها ونساء أصحابها دون حياء دون أخلاق بحجة الانتقام من زوجها الهارب منها.

وتحدث المشاكل والصراعات والصياح واللعن والقبح والدفع والزق ، ويحضر الأخوال والأجداد لتخفيف حدة النزاع أو نقلها للمستشفيات والعيادات، ومرات تتدخل الشرطة ، وأصبحت حياة الأسرة لا تطاق ، وسفروه أوروبا للعلاج ، وقضى عاما في ربوعها حتى استطاع المشي على عكازات ، وتخلى عن العجلة ، وسعوا لإعادة زوجته إليه ؛ لكنها رفضت

وهو رفض قائلا: وأنا قوي تفجر ! فكيف وأنا ضعيف عاجز عن خدمة نفسي .

وطالبت المرأة الطلاق الرسمي ؛ لكنه رفض الطلاق بشدة ، وهكذا كان وضعه عندما رجع والده من غربته وهجرته .

****

سامي أصغر من ناصر بسنتين كانت فترة مراهقته سيئة كشقيقه اختلاط بالنساء والبنات ، والشراب كشقيقه وأبناء أخواله وخالاته في سلام ، بيئة لا تراعي السن والأخلاق الفاضلة.

لما نجح في الثانوية العامة التحق بكلية الحقوق في الجامعة الوطنية في مدينة سلام واستمر على منوال الأسرة ، يعني من التهتك والرضى بما يحدث في الشقة من حفلات ولعب ميسر وألفاظ بذيئة تقشعر منها الأبدان ، لا تحس أنك في بيت محترم حتى أن بعض الجيران تأذوا من سهرهم وصياحهم وطربهم ؛ كأنهم في ملهى ليلي صاخب . حتى أن باكرا تحدث معها أن تخفف من سهراتها البيتية وعبثها ، فقد تحدثت معه بعض دوريات ومرتبات الأمن والآداب ، والسيد شاكر أشار إلى ذلك في اتصال وقال: كأنك ما صدقت وتخلصت من نزيه .. أنت تنتقمين من نفسك ليس منه ! فغضبت منه فصرخ فيها هائجا : اعرفي مقامك يا ساقطة أنا عمك . وأغلق هاتفه في وجهها .

وجاءت الشرطة وأخذوها لنقطة شرطة ، وعملت تعهدا بألا تزعج الجيران ، ثم مشت بصحبة باكر إلى بيت أو قصر شاكر واعتذرت وترجت .

فقال مودعا : لك الحرية أن تفعلي ما تشائين ؛ لكن لا تؤذي الجيران حتى يصل الأمر أن تتكلم معنا الشرطة .. لعنة الله عليك مع السلامة .

لما تخرج سامي محاميا عمل في احدى شركات القانون ، وزوجه خاله شاكر من احدى بنات ابنه إسكندر الأنسة جود إسكندر ، وكانت معرفة بينهما قبل الجامعة فهي بنت ابن جده شاكر شقيق جده باكر ، وولدت له طفلا سماه ماهرا.

قال لأمه ذات مساء : سمعت أن جدي يوسف مريض فلدي رغبة بزيارته والاطمئنان عليه

مباشرة.

صاحت صارخة : مائة مرة مرضنا ، وما زارنا ، وأنا ما زلت امرأة ابنه.

ضخك سخرية وقال : جميل ! جميل قولك إنك امرأة ابنه .. فعلا جميل قولك هذا ! هو الكبير يا مارينا باكر ، وهو والد أبينا يا سيدة مارينا!

صرخت : كلم جدك ووالد جود قبل الجنون.. فنحن من سنوات لا نلتقي حتى في جنازات القرية .

قال : وما دخل هؤلاء في زيارتي يا مارينا ؟

ـ هم الذين اعتنوا بكم وزوجوك ابنتهم.

قهقهة عاليا وصرخ في وجهها : لا تكذبي ، لم يعتني بنا أحد .. ولم يربنا أحد .. هل تعلم الزنا والسكر اعتناء؟ .. دعينا من ذكرهم يا سيدة مارينا .. أنا قررت وسأذهب ؛ لكني أحببت إخبارك حتى لا تسمعي من المغرضين .. هم أهلنا شئنا أم أبينا !

قالت بهزء : صار لكم أهل بعدما كبرناكم !

فصرخ في وجهها : على حساب من درست وتعلمت وأكلت ولبست وصرفت .. لم تدفعي درهما واحدا أنت وأشقاؤك يا سيدة مارينا يا أم ناصر ! .. علاج ناصر كان من جيب أبي .. نحن كبرنا .. فسادنا وقبحنا أنت سببه .. انتقمت من الهارب منك منا نحن !

هاجت وماجت وشتمت ولعنت ثم قالت وهي تجلس نصف عارية : أبوكم تخلى عنكم .. هرب مثل الجبان .

صاح : أبونا لم يتخل عنا .. أنت تخليت عنا .. رفضت زواجه لما أصبحت غير صالحة للمعاشرة الصحيحة .. نحن لما كبرنا عرفنا التفاصيل .. فاضطر للهرب للأرجنتين .. أنتم منعتموه من الزواج والطلاق.. نحن اليوم نعرف كل شيء .. وضياع ناصر وهروبنا للسكر أنت سببه .. لما نراك تقبلين رجلا وتمزحين معه بشهوة .. كان علينا أن نصمت ونغمض أعيننا .. زوجتيه عاهرة.. بنت صديقة .. أبوها غني مثلنا أخوها كذا وكذا.. وفشل زواج

ميساء أنت أيضا سببه حتى أنها كرهت الرجال والبيت الخاص .. وهي تعيش في وسط كومة من الرجال الذئاب ليس لهم إلا الحملقة في النساء والسعي للفاحشة منهن .

صرخت : كبرت فعلا يا سامي !

ـ قطعا كبرت وصرت محاميا وأفهم في القانون.

صاحت: لا تنسى يا حضرة المحامي أن زوجتك جدها عمي .

ـ ماذا يعني هذا يا أم ناصر نزيه ؟!

قالت : يعني أنك تغضب زوجتك وأباها وجدها .

ـ كلام فارغ ! وهل زيارة الجد يوسف تضايق أباك وأهلك ووالد جود؟!

فقالت بضيق : طبعا هناك ضرر .. وسمعة وكرامة .. نحن أعداء .. ألم يرميني أبوك ؛ كأنني خرقة بالية بعدما عقمت ومرضت بسببه .

قال : من حقه الزواج .. هل يزني رجل متدين ؟ وأنت تزوجتيه وهو متدين يا أم ناصر .. لم يطرأ عليه التدين فجأة .. لم يتغير .. وتركك على ما ربيت عليه .. لم يصير مثله منا سوى نداء .. ضعنا وراء الكؤوس والفروج .. ماذا جنينا إلا الريب في زوجاتنا وأمهاتنا ؟! .. هو لم يهدد بالطلاق إلا للضغط عليك وعلى أهلك .

قالت : وهل من حقه طلاقي بعد أن جعلنا منه موظفا مهما ، وأتلف بدني بالخلفة ؟ يريد أن ألد كما ولدت أمه مليون بني آدم .

قال: للقربى لم يطلق كما علمت ..والدين يسمح له بالزواج عليك .

صرخت بغيظ وقهر : وهل له دين ؟ كان متخذا التدين تغطية لفحشه وتفحشه

قطع كلامها ليقول : لم يخبر أحد بذلك .. لا داعي للتبلي والافتراء.. أبي متدين منذ جاء لدراسة الجامعة في سلام .. ولقب بجعد المعتزلي ؛ لأنه متدين ويكرر اسم جعد وأتباعه في كل حوار يجري بين الطلاب .. فهو كان يصلي ويصوم .. وعلمت أن كل أعمامي مثله وعلى شاكلته .

قالت بسخرية : هذا أنت مطلع على سيرة حياة أبيك وأسرته !

تبسم قائلا : لست طفلا غرا يا أم ناصر .. لم يصدف أن أراك تسجدين يوما لله

ـ تركنا الدين في جمالة قبل أن أولد يا حضرة المحامي الفاشل !

ـ هذا اختيارك .. وتركتينا نعمل بالفواسق حتى ترتكبين فواحشك بحرية

قالت بسخرية : صلي ومن يمنعك ؟

صرخ : أنت!

قالت بدهشة : أنا ! كيف يا لعين؟

قال مبينا : لقد نشأنا على استهتارك بالشرف والكرامة.. الحياة ملذات وشهوات

ـ العري القائم والاستهتار بالشرف والأعراض! هكذا نشأت وربيت

قال حاقدا : لم تراع لنا حياء وأننا صغار .. تبرجك الصارخ قدام زوارك وسكرك .. لا تجعلي من نفسك امرأة شهيدة وصالحة ومظلومة .. نحن اليوم نعرف بعض أكثر .. فنفهم معنى التعري والتبرج .. ولنا كما للناس أعين .. وأنا صغير كم مرة رأيتك تخرجين من غرفة نومك شبه عارية ذاهبة للحمام ، ويكون بعضهم في فراشك كنت أسمع بعض كلامكم القذر لما كبرت فهمته .

قالت بغير اكتراث : يا لك من شيطان !.. لم أكن أحسب لكم أي حساب .. أنتم أبناء اللعين

ـ إذن دعي الشرف يا ...

صرخت بغل وجنون : أنا حرة .. هذه حياتي .. والجسد جسدي

ضحك عاليا وقال: هذا قول كل ... لك حياتك ولنا حياتنا .. سأذهب ..

ولم انتشر خبر زيارة المحامي سامي إلى قرية جمالة وزيارة الجد يوسف خاصة انزعج الجد باكر الذي أعلن الحرب على زوج أخته وذريته منذ هرب زوج ابنته للغرب الأمريكي ، وقد علم جده باكر وشاكر بزيارته لجده خصيصا في القرية وبلدتهم القديمة من مارينا نفسها ، فطلب منه شاكر جد جود طلاق حفيدته مدعيا الغضب والنقمة .

ففعل سامي الطلب بكل سهولة ، ودون تردد ؛ كأنه كان ينتظر ذلك ، فلم تكن حياته مريحة معها ، وجود أيضا كانت تكرهه وتفضل الجلوس مع أصدقائها وصديقاتها من الجلوس معه وتزعم أنها تزوجته مكرهة لرغبة جدها بذلك . وترك الطفل لها على رغبتهم ، ولم يترج ، ولم يندم ؛ كأنه كان ينتظر هذه اللحظة بدا لهم ذلك ، فقالت أمه : أنت ما صدقت يا سامي !

فقال سامي وهو المثقف اليساري الشيوعي : ولماذا امرأة وبيت وطبيب؟! فالبغايا موجودات يا أم ناصر .. وفتيات الحانات يملأن الشوارع الراقية .. لما كبرت كرهتكم.. أسرة حاقدة ملوثة .. وهي قبلت الطلاق لما عرض .. وزعمت أنها تزوجتني مرغمة مع اني أنا قبلتها على مضض .. فهي سلمت نفسها لي قبل أن نتزوج يا سيدة مارينا ! بدل المرة مرات ، لم أتزوجها بكرا .

صاحت : يا الهي لم تتكلم بذلك!

رد قائلا : وبعد الشراب هل يبقى كلام ؟ وماذا ينتج عن مثل سهراتكم وحفلاتكم وتقليدكم للغرب إلا الانحلال والتهاون في مثل هذه اللقاءات .. عندما ترقصن شبه عاريات ماذا تردن منا ؟ وهل حقا هذه الحفلات بريئة ؟ مجرد غناء ورقص وطرب .. لا تتغابي وإلا كيف علقنا في هذه الأوحال والأهوال ؟

أما ميساء فتخرجت من كلية الآداب ، وعملت في الإذاعة الوطنية قسم الترجمة ، لم تكن حياتها الخاصة بأحسن من ناصر وسامي ، عاشت شبابها في بيئة فاسدة في نظرنا ، تعلمت السكر والرقص والخلاعة والتبرج والسفور والسهر والهوى واللهو ؛ لذلك لما دخلت الجامعة كان حولها شلة من الفتيات والشباب ممن هم على شاكلتها " الطيور على أشكالها تقع " هكذا قال القدماء لم تتغير البيئة عن البيت والأسرة ، أحبها أحدهم اسمه أدهم أوهمها أنها أول أنثى في حياته ، ووعدها بالزواج بعد الحب ، وكانت قبل الجامعة تعلقت بصداقة وقصة حب مع ابن خال لها ، وتركها وتعلق قلبه بصديقة لها ، وهجرتها ولم تأسف على حب فاشل ؛ لذلك ادعت أنها أحبت أدهم رفيق الكلية وصدقته بزعم تعلقه بها ، وما فعلت ذلك إلا لتكون مثل رفيقاتها لها صديق وحبيب ، ولكنه ملّها سريعا ، قبل انتهاء السنة الأولى بشهور ، فاقترب منها زميل لهما يعرف علاقتها بالطالب أدهم ، وأشفق على حبها الفاشل من أدهم ، واستمر حبهما المزعوم حتى السنة الأولى ، ثم أعجب بفتاة أخرى ، واعتذر لها عن الساعات الجميلة التي قضاها معها ، ولم تطل الفترة فترة الانتظار فجاء فارس ثالث ، فهي تقبلهم كما تقول من باب المكايدة والمغايظة ، وحتى لا تبقى حياتها الجامعية خالية من حبيب ورفيق ككثير من طالبات الكلية ، وفي السنة الثالثة حدثها طالب عن الزواج فقبلت ، وتزوجا فعلا رغم اعتراض العائلة في البداية ، ثم سكتوا فالمرء حر ، وولدت منه طفلا على غير رغبة من كليهما ومن أسرته وأسرتها ، وقبل التخرج حدث الطلاق المتوقع ، فلما عملت بالإذاعة عرض بعضهم الزواج عليها فرفضت ، ورفضت أي علاقة جنسية خارج الزواج التي يسمونها علاقات عابرة .

لم تترك الشراب والدخان ، ولا الاتصال بالذكور والإناث بزعم الصداقة والزملاء ، مشاكلها مع أمها لم تتوقف منذ أنهت الجامعة ..حتى فكرت بالحياة وحدها لترتاح من حفلات وسهرات أمها .

وكما كان سامي يتهم أمه بإفسادهم كرها وبغضا بأبيهم ، وزرعت فيهم عادات الغرب في الأكل والشرب والعلاقات الجنسية المحرمة باسم الحرية الفردية ، وتسمح لها بحضور حفلاتها ومجونها في شقتها أو عند أصدقاء العائلة .. منذ كانت فتاة صغيرة ومراهقة حتى رسخت هذه القبائح في وجدانها وكيانها ، ومن العادات القبيحة إظهار بدنها أمام الرجال والفتيان دون اهتمام لخلق وحياء.. الغناء والغنج والمغازلة حتى صارت أمور طبيعية بالنسبة لها ، تعقدت من فكرة الزواج والارتباط برجل واحد وأسرة وحمل ، كلما يطلبها رجل للزواج ترفض وأنها تعيش على راحتها ، وكان أهل طفلتها أخذوا الطفلة ، ولم يطمأنوا لتربيتها المستهترة ، ولسمعة أمها السيئة ، وقبلت ميساء الأمر بعد تردد ؛ ولكنها في وجدانها رأت المصلحة للبنت عند جدتها خوفا من تكتسب أخلاقها وفسادها وتهورها ، وكانت تقول لسامي : لماذا نعيش هكذا يا سامي شهوات سهرات؟ هل هذه حياة ؟ لماذا زرعت فينا انحلالها ؟ فهل هكذا تنتقم ممن هو أبونا ؟

قال ربما بحسرة : ربينا على ما هو أسوأ من عادات الغربيين.. لم نرب جيدا يا ميساء .. تركتنا نرى في أفعالنا أنها هي الحياة الجميلة .. المتع فحسب .. كنا نرى أمنا وما تقوم به هو الحياة .. اللذة المادية فحسب .. الحرية في كل شيء في البدن والأخلاق والطعام .. لماذا نحرم ونحلل ؟ ما يباع في الأسواق يؤكل .. نأكل الخنزير أو لا نأكله .. الخمر كالماء .. كانت تريدنا كذلك حتى لا نعترض على زلاتها وعشاقها .. كانت ترى بذلك انتقاما من الرجل الذي رماها عظاما كما تقول .. كانت ترى أن فعلها هو الصواب والمناسب للعصر .. ولما صرنا في الجامعات لم يتغير شيء.. وجدنا الكثير ممن رافقنا وصحبنا على شاكلتنا .. لم تختلف حياة ومجون الجامعة عن مجون البيت .. فلماذا نغار ونعقد الأمور ؟ ولماذا نفكر بالشيطان وشجرة آدم ؟وجدنا الكثير مثلنا ..كنا نرى أختنا نداء معقدة .. مريضة نفسية .. ومضللة مع أنها الصغيرة .. لم تنحرف وتسقط مثلنا كما تبين لنا اليوم .. رفضت السقوط في الخمرة والاختلاط .. لديها نزعة دينية بنت أبيها يقال .. كنا نقول دعوها بنت مريضة معقدة .. لم تهتم بأجواء

الإباحية في العائلة .. وها هي تدرس في كلية الشريعة على غير رغبة منا جميعا .. ولا تتكلم معنا أو غيرنا إلا في الدين والإيمان .. قال الله قال النبي .. فنسخر منها وسميناها جعد الصغيرة تمييزا عن والدنا .. وكثيرا سمعت أمك تقول لا أدري كيف تعلقت بالدين يا نداء ؟ لا أحد يصلي أو يصوم في البيت ؛ وربما كلنا يشك بوجود الله .

وتابع : فترد عليها بقوة وشجاعة الله الذي تشكين فيه حماني من خمركم من مجونكم وتبرجكم لمن هب ودب .. الله بغض لي سهراتكم ومجالسكم السيئة .. وهو الذي حبب إليّ قراءة الكتب الدينية .

فسكت ثواني كأنه يتكلم مع نداء : فكنا نسخر منها في البداية ..واليوم نكتشف أنها أفضلنا .. وأكثرنا سكينة وراحة .. وهمها وحلمها أن تتزوج رجلا صالحا متدينا .. وأعتقد بعد آخر حديث لي معها أنها وجدته .. فصديقتها فاطمة محيسن لها شقيق متدين؛ ربما يقترن بها بعد انتهاء الجامعة العام القادم .

قالت ميساء بضيق وربما غيرة : هي معقدة ! وليست الدنيا صلاة صوم عمرة .. لم أعجب يا سامي بخط سير حياتها ، ولا حياة هؤلاء المتدينين.. كانوا يزعجوننا في الجامعة والكليات المختلطة .. ولم أعجب بمجالسهم وحواراتهم اللباس اللباس يقولون لنا : أهذا لباس أحفاد الصحابة أحفاد عمر وأبي بكر؟ يريدون أن نعيش حياة أولئك المخلوقات .

قال منفسا من ضيقها : كل حر في حياته واختياره يا ميساء.. لكم دينكم ولي دين.. أنا محامي ورأيت وقرأت الكثير من القضايا .. وأنت كموظفة إذاعة تعرفين الرجال شبانا وكهولا .. فأولئك في رأيي حياتهم أهدأ من حياتنا .. ولا يعني ذلك أنهم أفضل منا .. لكن عيش نداء في أسرة مفككة مثل أسرتنا تعد معجزة .. لا زنا ، لا شراب ،لا قمار ، لا سفور وتعري تعد آية من آيات الله .. بدون مكابرة يا ميساء .. لا تقولي إننا سعداء ؛ إنما نحن عائشين.. أنت نفسك تركت ابنتك خشية عليها من مثل حياتنا .. وأنا طلقت امرأتي جود والطفل حماية له .. لم أحب أن يعيش مع أمي وصديقاتها الفاجرات.. فنجاة نداء من حياة ساخرة مستهترة في

نظري أمر عظيم .. علمنا أن أجدادنا باكرا وشاكرا خرجوا من القرية لفسادهم وتهاونهم في علاقة الرجال والنساء وذوبانهم في الترف والاستهتار والخمر .. الدولة فيها من أهل الريف وزراء ونواب ومحافظين .. الفرص هنا للمناصب أكثر .. لا أدري اذا كان هذا صحيحا .. فكانت المدينة أستر وخير لهم من القرية التي ما زالت محافظة إلى حد كبير.. وتدين الناس في القرى والريف بين .. ويستحي الشخص أن يفعل شيئا تعاب عليه كل العائلة .. فالتدين في القرى أمر مهم ولو نفاقا .

تنهدت ميساء وقالت كأنها تأسف على حالها : تأثرنا بدعاة حق المرأة .. بتقليد بنات أوروبا الغربية والعيش مع رجل بدون زواج .. وكلهم خوّان تضحك في وجهه صديقتك يغدر بها ، ويذهب إليها .. وينسى الوعود والكلام المعسول مما تعرفه يا سامي .. نحن في الهوا سوا .. كل كان يزعم أنك الحب الأول والأخير .

فقال مؤكدا المعنى : وحتى البنات يا ميساء تترك الزميل والرفيق بحجج واهية .. كلمة خرجت غيرة أو خطأ تنهي علاقة شهور وتفسدها.

ـ هل حقا ستذهب للقرية لتزور جدك يوسف ؟

ـ أليس هو الذي أرسل الأموال لندرس في الجامعات ؟!

قالت : لا ننكر هذا ؛ ولكنها أموال أبينا .. ليس بيننا زيارات منذ هاجر ما يسمى والدنا .

قال موضحا : كانت الأموال تصل لجدنا ؛ لينفق علينا .. ونتعلم على نفقة الوالد فجدنا باكر لا دخل له ولا حتى أمك .. فقد علمت من بعض أبناء أعمامنا الذين نلتقي بهم صدفة فيحدثوننا عن النفقة .. وعلمت منهم أن السيد الأب يعيش في بحبوبة من العيش .. ولنا أخوة هناك .. فله شركات وأعمال هناك .

قالت : أسمع مثلك .. فالأموال لابد أنها تأتي منه يا سامي .. سنرى ماذا سينتج عن زيارتك المرفوضة من قبل أمي التي طلبت مني إقناعك بعدم التهور والزيارة ؟

قال : سيرافقني قريب لأبي إلى القرية كما رتبت .. زميل في المهنة تعارفنا في احدى المحاكم

وتبين لنا أننا أقرباء وأبناء بلدة واحدة .. ولما علم ذلك الجد يوسف حثه على الإتيان بي للتعرف عليّ بعد ما كبرت .. فنحن منذ هرب أبي للأرجنتين أبعدونا عنهم .. وقفت أمنا ضد أي فكرة للذهاب والالتقاء بهم .. منعنا من الذهاب للقرية يا ميساء .. ممنوع التعرف على أعمامنا وأبناءهم .

ـ حق هذا ! أمر شائن وسيء يا سامي .. الغريب نتعرف عليه.. ما دخلنا نحن في نزاعهم !

قال بقرف وضجر : هذا البغض والانتقام من الضعفاء.. عادات بغيضة مقرفة.

****

رغم الفساد والانحلال في بيت مارينا باكر كانت نداء صغرى بنات نزيه تحب التدين منذ نعومة أظفارها متأثرة ببعض معلمات المدرسة الابتدائية ثم الثانوية ، كنا يتواصين على رعايتها فكانت ترى أن ما يحدث في البيت من سهر وخمر واختلاط وتبرج أمرا سيئا وقبيحا وانحرافا عن الفطرة التي جبل عليها الإنسان وهي الطهارة كما جاء في الحديث النبوي عشرة من الفطرة ، لذلك كشفت بعضه لمعلمة الدين ، فاهتمت برعايتها ومساعدتها ودعمها نفسيا ومعنويا ، واتخذتها صديقة خاصة ، وتتصل بها هاتفيا لصلاة الفجر ، وتدعوها لحضور ندوات دينية ، وكانت معلمتها في الثانوية قدوة حسنة لها بتوصية من مربية المرحلة الأولى في التعليم ، وقد تغير نظام التعليم في البلاد ، سنوات الدراسة مرحلة أولى ست سنوات تبدأ من السنة السادسة حتى السنة الثانية عشرة ، ثم ثلاث سنوات مرحلة متوسطة إعدادية ، ومرحلة ثانوية ثلاثة أعوام ومنها للجامعة ، وتشجعها المعلمة على الصلاة ، وترك السفور والتبرج، وتدفعها للصبر والتحمل حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وأن الفرج قريب من المحسنين ، والفتاة تريد ذلك وترغب فيه ، الطهارة والصلاح ، فلم تنغمس بما يجري في البيت من موبقات واستهتار ، ولم تعر ذلك السفه اهتماما توفيقا وفضلا من الله ، وقد حاولت وسعت أمها الإيقاع بها ، وجرها لحماقاتها وفجورها ؛ لكن الله حفظها ، واستجاب دعاءها ، ودعاء معلمتها الخاصة ، لم تسقط في براثن الإباحية والمجون ؛ بل كانت تذهب سرا إلى قرية أبيها

جمالة ، وتلتقي بجدها وأعمامها ، وتساعدها في ذلك قريبة لها من المدينة ابنة عمها إبراهيم يوسف ، وتعرفت على جدها وأعمامها واهتموا بها خفية . وكان الجد يدفع لها المال لتشتري الكتب الدينية والثياب الشرعية الحشمة ، وكانت تكتب رسائل لأبيها خفية عن أمها وتبعث له صورا لها ، ويرسل لها الهدايا الخاصة ، ولم تر رغبة أبيها بالمزيد من الذرية معيبا ؛ بل هو الأمر الشرعي ومباحا وغاية من غايات الزواج كما فهمت من معلمتها الطيبة .

وكان الأب المهاجر يوصي والده بالإحسان إليها ويدعمها بما تريد ، ويرسل له المال المناسب . وكانت نداء تقدم النصائح السريعة لأشقائها كلما سنحت الفرصة والمقام ، وكانت ميساء تنهرها مرات بلطف ومرات بحدة عن تقديم أي نصح لها ودعوتها للصلاة والحشمة ، وكانت تسخر مما تلبس هي ومن على شاكلتها من بنات الجامعة والشارع. دخلت كلية الشريعة رغم اعتراض البعض ؛ ولكن جدها يوسف شجعها على ذلك الاختيار ، وتكفل بكل مصاريفها ورسومها وثيابها ، والحق أن والدها نزيه هو الذي تكفل برسوم الجامعة ومصاريفها كما أنفق على ميساء وسامي ، وهذا أكده الجد يوسف ، وأنه كان يرسل المال لعم أمها شاكر حسب الوصول والأصول . كانت الفتاة تعيش في البيت في شبه عزلة ، شغلها الدراسة والقراءة ، ولم تقم يوما بدعوة زميلة جامعة أو مسجد لبيتها .

كانت فاطمة محيسن صديقتها الأقرب إلى قلبها وروحها في الكلية تعلم ظروفها البيتية ، وتدعوها كثيرا لبيتها للطعام للدراسة للنزهات للندوات والمحاضرات حتى أن فاطمة همست في أذنها أن شقيقها صديق يرغب بخطبتها بعد تخرجها . وفعلا حدث ما همست به فاطمة ، فلما تخرجت من كلية الشريعة خلال شهور أعلنت خطبتها ، الشاب الصيدلي صديق محيسن ونداء نزيه ، وقد وافق عليه جدها نزيه وأعمامها قبل أمهم وإخوتها.

وعملت في قطاع التعليم والتدريس متأثرة بمعلمتها في الثانوية السيدة الفاضلة أمية محمود معلمة التربية الدينية ، كما حلمت ورغبت ، وكان زوجها صديق قد تخرج من كلية الصحة والطب كصيدلي ، وكان يكبرها بسنوات قليلة ، وكانت تحبه كما أحبت شقيقته فاطمة

وأسرتها ، والشاب رغب بها قرينة منذ وقعت عيناه عليها في رفقة فاطمة .

كانت علاقتها الاجتماعية بأمها وأختها وأخويها بعد الزواج ضعيفة ، وهم ربما ما صدقوا وخلصوا منها فكانت تزعج ضمائرهم ، وعلاقتها ببيت جدها يوسف أفضل وأقوى منذ مدت الجسور الرحمية بينهم ، ويدعونها وزوجها للقرية والمشاركة في مناسباتهم وأفراحهم وأعيادهم ويدعونها في شهر الصيام للإفطار هي وزوجها وحموها ؛ لأنه شهر تكثر فيه دعوات الإفطار ، وكانت تحبهم كثيرا وتفخر بهم . وسعد الجد يوسف بزواجها من صديق محيسن ، وأهداه سيارة صغيرة وبعد تردد قبلها ، وقال: أرى جدك يوسف يحبك حبا جما.

فقصت عليه فصلا من حياة أسرتها ، وأنها كانت تزوره خفية عن أمها ووالدها الحاقد على جدها وذريته ، فهم يبغضون أسرة جدها أشد الحقد والبغض لتركه وهجره أمها وهجرته للأرجنتين بعد أن رفضوا أن يتزوج عليها ولرغبته بالمزيد من الخلفة والبنين .

تعلمت القيادة للسيارة ، وقبلت عرض وهدية زوجها السيارة لما حصلت على الرخصة ، اشترى لها سيارة مما أغضب الجد يوسف من تصرفه .

فقال له: يا ولدي إن زوجتك درة في العائلة ، ونحن الله أعطانا الكثير رغم حياتنا في القرية الواسعة ، ووالدها صاحب أموال وشركات مع أولاد إخوتي هناك.. وله زوجة وأخوة لنداء .. وقد ولدت زوجة أبيها أربعة أخوة .. وهو سعيد بأخبارها .. وأخبرني أنها تكتب له من أيام مدرستها الثانوية ، ويتحدث معها في الهاتف عندما كانت تزورنا أو من بيت عمها إبراهيم .. فلإبراهيم بنت من جيلها .. وهما رفيقتان .. وقد يعود أبوها نهائيا للبلد .. وسيترك إدارة العمل لزوجته وابنه الأكبر جعفر .. وأولاد أخي يعقوب لهم زمن بعيد هناك .. الله وفقهم خير توفيق .. وقد جاء بضع مرات بعد وفاة أمه.. وقد رأته نداء في كل زيارة .. ولما مات أخي نائل أتى أيضا ؛ لكنه لا يمكث أياما كثيرة خشية أن يؤذيه أهل زوجته أم نداء .. زوجته أم جعفر لا ترغب بالمجيء معه .. فهي غير مقتنعة ببلادنا .. هي من عائلة قديمة هاجرت غربا.. هي من أصول شامية هاجر أهلها قبل قرن ونصف ، فلا تعرف هذه الدنيا ..

فلا تأخذ يا ولدي الأمور بحساسية .. فما نجمعه سيبقى في الدنيا ، لن يذهب معنا للمدافن .. ونداء كما تعلم هي خير أبناء نزيه في هذا البلد .. وهي بنت رضية وطيبة .. ونحن لسنا بيننا وبين أولاد نزيه معاداة أو حرب .. هم اختاروا البقاء في حضن أخوالهم ؛ بل لما زارني سامي نزيه قبل سنوات غضبوا منه.. وطلقوا ابنتهم منه .. وأحيانا يحتاج لبعض المال فيتصل بي.. وأساعده طبعا دون علم أمه .. فزوجتي المرحومة أختهم .. وهي عمة حماتك .. ولدي اضطر للهرب منهم يا صديق .. ووجد السلامة الخروج بدل الصراع .. وهم أصحاب نفوذ في المدينة .



لم تكن تربية مارينا بين والديها تربية إسلامية في مجتمع مسلم ، كانت تربيتها متأثرة بتربية الغرب ومحاكاة العادات والتقاليد الأجنبية ، المشاكلة في الطعام والشراب وطريقة الأكل والتعري شبه الكامل ، ولبس موديلات حديثة ، استخدام المكياج في كل وقت ، وأمام الأب والعم والأخ والأخت والأجنبي ، الاختلاط بجميع الأصدقاء شبانا وفتيات ، مشاركتهم في حفلاتهم في الرقص والغناء ، والمزح بالأشياء والألفاظ البذيئة دون أدب أو حياء ، وسكر حتى الثمالة ولعب القمار . تقام الحفلات المختلطة في البيوت والنوادي العائلية ، تعرفت على نزيه عندما جاء المدينة ليدرس في الجامعة ، فأكثر من التردد على بيت خاله باكر وشاكر وخالته هيام وسلمى ، واحتك بهم ، وهم استلطفوه دون أخيه الذي سبقه في الدراسة في المدينة ودون الذين جاءوا من بعده .

أعجب الشاب القروي بمارينا من أول زيارة ، وكان معجبا بأخواله قبل الجامعة وقبل السكن في المدينة ، وهي كذلك أعجبت به ، ورأته شابا قويا ووسيما ، وحلمت به زوجا مناسبا عند الزواج. ولم تحدث بينهم قصة غرام وعشق ، وكانا يتحدثون عن الحشمة والسفور والمقارنة بين أهل المدينة وأهل الريف والقرى ، وطباع وعادات القرية والمدينة العصرية ، ورأت أن الإنسان يتغير مع تقدم الزمن والحياة في بيئة جديدة ؛ كما حدث مع أبيها وعمها ، وأن الشاب مع الوقت سيتطور ويتحدث ويتعصرن ، كانت الفتاة في نفس سنه تصغره بشهور ، وتدرس في نفس الجامعة كما سبق وفصلنا ، والإنسان في حياة منفتحة قد يزداد انحلالا وتقبلا لحياتهم الاجتماعية والثقافية وتنحصر تقاليد القرية مع الوقت .

وكانت تخصه بدعوات ومشاوير كابن عمة ، وبدفع وتشجيع من أمها ، وصمت من الأب ، فاعتقدت أنهم راضون عن علاقتها وانفتاحها على نزيه، وهو الآخر فتن بها وبلطفها وحسنها وقبولها الجلوس والخروج معه ، وهو تمناها زوجة في يوم ما .. مجرد تمني، وشجعته أمه على الارتباط بها ؛ لعل خاله يقبله قرينا لها .

فهو يعلم يقينا أن والده لا يقبل بها وهي على هذه الهيئة السافرة ، سيقان مكشوفة ، نصف أفخاذ عارية ، قص شعر مثل الشباب ، أما هو فوجهة نظره أنه كان يرى أنها قد تتغير عند الزواج ككثير من الفتيات .. وتقل حركات لفت الذكور .

وكان باكر وزوجته يرونه العريس المناسب لها ، فأمه أخت باكر ، وشاكر عمها يراه مثلهم ، والفتاة لم تظهر الامتناع والنفور من زواجها منه ، كلما تشير أمها لذلك ، بل بشت في وجه وشجعته ، فهو في نظرها ونظرهم شخص بسيط طيب قادم من الريف ، وكان الشاب يومها يرى أخواله مهمين في مستقبله وعمله ، فهم سادة يجلسون مع الوزراء والحكومة ، وخاله شاكر كان وزير الجمارك ، وتذكر أن أهل القرية عملوا احتفالا كبيرا لما صدر قرار وزارته ، وظهر اسم القرية على خارطة البلد في الإعلام والصحف كبلدة الوزير الأولى ، وأضيفت إليه صفات كثيرة ، وفوق المنصب السياسي هو مليونير في مقاييس تلك الفترة من الزمن ، وخاله باكر موظف كبير في وزارة الاقتصاد والمال ، وتحدث والدها عن رغبته بتزويجه مارينا ، وأن لها ميلا نحوه ، ولم يعترض الفكرة، وشاكر خاله وعده بذلك بعد الجامعة . فلما تخرج من كليته يحمل بكالوريوس تجارة واقتصاد ، تم توظيفه في الدائرة المالية ؛ ليكون مسؤولا في الكبر كخاله ، كان يرى السعادة والطموح بقربهم ، والسعد بجوارهم وما هي إلا سنوات ويصبح رجلا مهما في الوزارة . واستقر في المدينة نتيجة العمل الوظيفي في الحكومة ، وأحب والده تزويجه من بنت صديقه قديس احمد ، واستطاع شاكر إقناعه بالزواج من ابنة أخيه مارينا ، وأن ذلك من مصلحته ، ومن رغبته بها ، وأن مستقبله الكبير مضمون ، ورضي يوسف من أجل خاطر أم إبراهيم زوجته التي كانت تميل إلى ذلك وقبل تدخل شاكر وضغطه.

وحصل الزواج كما ذكرنا في أول الحكاية ، وبعد أن وضعت مارينا ابنتها نداء بشهور أصيبت بداء هرموني كما تبين يسبب نزيفا في الرحم والمهبل، وأصبح اللقاء الزوجي يشكل عبئا وإرهاقا له ولها وللأسرة ، وتضطر لزيارة الطبيب عند كل جماع ولقاء ، مما أزعج نزيه والأسرة وتوقف الحمل والحبل ، فلم تعد قادرة على الإنجاب والمعاشرة الشرعية ، وأصبح النزف

والدم حاجزا عن الحياة الجنسية الطبيعية، والعلاجات غير موفقة ، وهو من محبي الإكثار من الذرية ، ولا يقرب الزنا والفواحش ، ولم يعرفهما . ورغب نزيه بعد فشل العلاج بالزواج من أنثى أخرى ، وطلب منها أن تختارها هي بنفسها ، وفكرة التعدد غير مقبولة في وسطهم في وسط أخواله وخالاته ، الفكرة مرفوضة أساسا دون تفكير ودون تردد ، ووجد أن الطلاق مرفوض أيضا ، فالأحسن عندهم معاشرة البغايا وبائعات الهوى أو من بنات المعارف الساقطات أو بنات الحانات ، وهو لا يرتاح لهذا الخيار للقضاء على الرغبة والشهوة .

هو لم يقبل فكرة النوم مع امرأة متزوجة أو مومس ، والنوم مع إحداهن بالحرام والزنا ، وقد استهجن بشدة وقبح هذا التفكير المنافي للفطرة الطيبة ، وأنها ستغض الطرف عن مثل هكذا علاقات ، دهش من شدة تأثرهم بالغرب حتى في الجماع من مومس وبنت داعرة ، نزيه المتدين يقع في الزنا ، ورغم قضاء هذه السنوات معهم لم يضعف أمام انحلالاهم وسكرهم ، ولم يستسغ فكرة اللهو والسهر الممارس في حياة أخواله وذريتهم ، فكان يهرب منها ، وقد سكت عن سلوك زوجته في بعض المرات تجنبا للصراع معها ومع أخواله ، وكان آملا بإصلاح زوجته في وقت ما ، كانوا لا يعتبرون الزنا والفاحشة جرما ما دام كلا الطرفين موافق على هذا الفعل الفاحش ، فهذا مباح في قانونهم الأرضي ، المهم رضا الطرفين .

أمام الواقع المر أكثر من الذهاب للبلدة ، هجر البيت ورحل للقرية ، التقى في إحدى الزيارات بابن عم له هاجر للأرجنتين قديما ، فحدثه عن همه وغمه ، فشجعه طلال يعقوب القادم في زيارة للقرية بالذهاب والسفر معه ، وترك البلد ، وأخذ بكيل المدح للهجرة والغربة والحياة في تلك الديار من العالم ، وأن أعداد العرب فيها في ازدياد ، وأنك تجد شوارع كلها من الجاليات العربية السوري اللبناني الأردني العراقي عرب شمال أفريقيا ، وتجد فيها مشروبات عربية وكل أصناف الطعام العربي واللباس العربي ، فما كاد طلال يسكت عن ذكر محاسن تلك البلاد والعباد حتى كان نزيه مقتنعا ، متقبلا الفكرة ، وأن الهجرة هي الحل السليم والصواب ، ورتبا لها سرا خشية أن يعرقل أخواله سفره وهجرته.

قدم استقالته من الدائرة زاعما الحياة في القرية تخلصا من المشاكل الزوجية، وظنت مارينا أنه يسعى للزواج في القرية ، وكان له الهرب دون علمهم.

فجن باكر وشاكر ومارينا لما عرفوا بفراره إلى الغرب ، وبعد حين نسيت الزوج والشرف ، وأخذت تزيد من تبرجها وعريها وخروجها وسكرها وسفرها ، واللقاء بالرجال وسيدات المجتمع، وتقبل هذا وذاك، ويلمسها هذا وذاك دون حياء وخجل ، وحتى أنها سمحت لنفسها باتخاذ العشاق ؛ كلما سمحت صحتها الجنسية بذلك ، لا رقيب ولا حسيب ، أب لا يهتم ، وكذلك أم ، أبناء صغار فلا أحد يسأل ويعترض ، الطلاق لم يحصل لم تأت وثيقة الطلاق ، فتزوج هناك بدون اهتمام ، فلما تحركها الرغبة والغلمة تقبل أي عشيق وزان ، فصار الزنا أمرا طبيعيا في رأيها وحياتها ؛ بل كانت تترك أولادها وبيتها أياما وليال لتعيش مع الزناة في أكواخهم ونزهاتهم ورحلاتهم وشاليهاتهم ، وقيل إنها سقطت في وحل الرذيلة وهي في الثانوية قبل أن تلتقي بنزيه وتتعرف عليه ، لكن بعد هجرة نزيه لها اشتهرت بذلك الفحش ، فتسكر وتزني وتقامر ، ولا أحد يعترض على هذا الانفلات حتى أولادها علمتهم على تلك الأفعال الدنيئة وأوقعتهم في براثن الفسق واللذة المحرمة إلا نداء نجت من الانحلال الخلقي الذي عم البيت ، فدخل الثلاثة عالمها الفاسد القبيح باسم الحرية والديمقراطية ، وهي لم تكترث بهم وبنقدهم وتعليقاتهم ولهم ، حياتهم اللا مبالاة ؛ فاذا تحدث أحدهم واحتج تصرخ "إنها حرة في حياتها وشهواتها" فيلزمون الصمت ؛ فهم مثلها في الفاحشة والعلاقات الخبيثة فهم أتباع الهوى والشيطان ؛ فالذي يرضونه لأنفسهم عليهم أن يرضوه لأمهم ولأختهم ، استطاعت بفسقها أن توصلهم للهاوية وحب الشهوات والمجون ، فالكل في الهوا سوا ، وكانت تزعم أنها تنتقم من أبيهم عندما تكلمها أمها بالتخفيف من تهورها فبعض الشرف ، وأن أولادها كبروا.

لم ينجُ من نقمتها وغلها وحقدها إلا نداء كما علمنا ، فقد حفظها الباري في علاه ، ويسر لها من يوجهها التوجيه السليم ، فكانت القراءة ورعايتها من بعض معلماتها المخلصات في

النصح والرعاية والإرشاد أن يوصلنها سفينة النجاة "احفظ الله يحفظك"

ومضت السنون بخيرها وشرها فبدت لهم في نظرهم وفكرهم أنها لم تكن أما صالحة ؛ إنها تكرههم وتحقد عليهم ؛ فلم تظهر حبها وحنانها وعطفها لهم أو تحس بهم حتى رأينا أن ناصرا يأخذ بضربها وصفعها ودفعها وشتمها عند كل نزاع وحوار حاد ، وخاصة بعدما تعرض لحادث ، وتعرض فيه لشلل ، وعجز عن العمل ، كان عائدا من حفلة سكر وعربدة ، فوقع الحادث بعد خروجهم من بيت أحد الأصدقاء الماجنين .

فيقول ببغض : أنت سبب تعليمنا الشراب والسكر لأقصى حد.. ألم تشبعي من الفواحش والرجال يا ... يا ... .

عشرات من الأوصاف يطلقها في وجهها : لقد عجّزت.. ما زلت تزعمين أنك شابة بهذا التبرج والمساحيق والصالونات .

فتعود لكلمة الحرية وحقها في الاستماع بالحياة قبل الفناء ، وأن الأدوية تعيد لها قوة الشباب، ويبقى حولها الأصدقاء الذكور والإناث .

فيقول لها من غير أدب وحياء وبر أم : الذين ينامون معك كلهم عواجيز مثلك يا مارينا .. هل من شاب يغامر ويقضي شهوته في حضنك ؟ وضحك وتابع سخريته وتحقيره : لا أعتقد .. أنت أحقر أم في التاريخ القديم والحديث .

ويعود للشتم والسب فيصفها بأقبح الأوصاف ؛ كأنهما يجلسان في حانة من حانات السكارى وهي تصاب بالسرور مما توصف به لا تحتج ولا تتأفف ، وهو لم يشعر بأنه يخاطب أمه للحظة كان كأنه يخاطب فتاة في ملهى أو مرقص أو شارع بنات الهوى .

ويقول : أنت مجرمة وملعونة .. لقد نجا منك ذلك الجبان الهارب .. وهل ذاك الهارب يهمه فعلك فينا ؟.. وما تفعلين بروحك وشهوتك ؟..والذين يضاجعونك مجرمين مثلك .. يزعمون أن لهم قدرة وطاقة على الزنا، وهم يترنحون في مشيتهم وحركتهم .. هم يأتونك طمعا بالشراب والطعام والمال . هكذا كانت مجالسهم لما تعرض للحادث .

سامي ترك الزواج ، ولم يتصالح مع قريبته جود بنت ابن خاله شاكر ، وقال لأمه : عندما اشتاق للنساء فها هي نوادينا فيها من هي مستعدة لقضاء ليلة في حضني .. وهناك نساء ببضع دراهم يؤدين الغرض وانتهى الأمر .. لا تقلقي عليّ يا أم ناصر

اعترضت وقالت بهمس : والأمراض الخبيثة !

قال بهدوء وعدم اكتراث : لم يعد للحياة قيمة .. وهل الزوجة شريفة يا شريفة ؟ ولماذا أنت لا تخشين الأمراض؟!

قالت بثقة : أنا أخشاها ، ودائما أقوم بالتحاليل والفحوص.

تنهد بأسف : الوحيدة التي نجت من قبحك وتربيتك الإباحية نداء .. لا أدري فعلا كيف نجت وفلتت من تربيتك الحسنة ؟وضحك .

سامي لا يخاطبها بأمي منذ عهد بعيد حذفها من قاموسه ، يناديها بأم ناصر أو مارينا ، وهي لم تعد تهتم بهذه الصفة العظيمة " الأم" ، وعندما يراها مقبلة من صالون التبرج والمكياج يصرخ : أنت مثل القردة ؛ ربما القردة أجمل منها كما يقول ناصر ! .. كيف ينظر إليك السفلة من الرجال؟! ألا تزهقون وتملون ؟!

قالت متحدية احتقارهم : مهما وصفتم وسخرتم ما زلت حية . . ولي رجالي وعشاقي .. ولن أغير طباعي ؛ فكما أنتم أحرار فأنا حرة .

قال بغيظ خفي : نعم ، أنت حرة.. المشكلة يا حرة يتغزلون بك أمامنا .. كأننا حشرات .. أليست عندك مشاعر وقلب ؟ كم أبغضك أيتها الحشرة ؟

ذكرنا أن السيد نزيها ترك البلاد تحت الظروف التي أحاطت به ورغبته بالزواج من جديد ، ولما قابل ابن عمه طلال يعقوب وشكى له حاله ، ولما سمع طلال مشكلته شجعه على الهرب والهجرة والخلاص من مشاكله ونزاعه مع أخواله المتنفذين في الدولة ، ولما وصل تلك الديار الكبيرة في الغرب الأمريكي ، دبر له ابن عمه الزواج من فتاة عربية والدها من أصول سورية ، فالسوريون وأهل الشام وصلوا الأرجنتين والبرازيل في القرن الماضي ١٨٧٦ ، يعيشون في تلك البلاد من مائة سنة . وكان العرب يشكلون عددا لا بأس به من الناس في تلك البلاد الواسعة والكبيرة ، حتى أنك اليوم قد تجد أحياء كلها من الجاليات العربية ، وأغلبهم من الشوام واللبنانيين والفلسطينيين خاصة بعد نكبة فلسطين المشهورة وطرد الناس من أوطانهم ١٩٤٨ . الحروب الشرسة تسبب الهرب واللجوء ، كانت الفتاة متخرجة من الجامعة وتعمل مع والدها في مصنع اسماك ، ويملك مطعما مهما للعرب لطهي وشوي الأسماك المختلفة الألوان والأحجام والأشكال. اشتغل قبل ذلك مع ابن عمه فترة ، ثم مع والد زوجته وإخوتها فترة أخرى ، ثم أسس شركة مالية لتبادل العملة صرافة ، والمشروع يولد آخر حتى ملك مكتب محاسبة خاص . مع كل هذا الفضل والثروة والشركات والتجارة كان محبا للعودة لبلده والموت فيه ؛ فلذلك لما تسلم ابنه جعفر الابن الكبير من امرأته العربية ازداد تفكيره بالعودة للقرية بعد أكثر من سبع وعشرين سنة من الزمن ، واقترب من الستين من العمر حسم أمر العودة لجهالة مسقط رأسه ، والزوجة لم تقبل مغادرة البلاد ، وفضلت البقاء حيث ولدت ، وعاشت كل هذه السنين ؛ وكذلك فضل الأبناء الأربعة منها البقاء ، ورفضوا العودة لديار العرب المجهولة بالنسبة ؛ وحيث الصراعات التي لا تنتهي وتنتشر أخبارها في كل العالم ، وكان آخرها سقوط بغداد في يد دول التحالف الغربي ، وإنهاء حكم البعث فيها .

كما خرج وحيدا عاد وحيدا وسعيدا ، وكان والده وإخوته أقاموا وشيدوا له قصرا صغيرا من سنوات مضت ؛ لأنه كان يتحدث عن العودة منذ وقت قديم ، فلما كبر جعفر وتسلم

الشركات والأشغال حسم أمره ، وغادر الديار للوطن .

فرح بعودته لجهالة محبوه ، والده الشيخ يوسف وإخوته وأخواته ، ورحبوا باستقراره بينهم ، حتى أن بعض صحف البلاد ذكرت عودته ، ورغبته بالاستقرار بين ذويه باقي عمره ، وهو رجل أعمال ثري قادم من وراء البحار ، فقد قام بالمشاركة مع إخوته بإنشاء وإقامة بعض المشاريع المهمة في المدينة سلام قبل العودة . ولما استقر في البلاد قام بتطليق زوجته رسميا ، وأشهر طلاقه من مارينا حسب القانون ، ونشرت بعض الصحف هذا الخبر ، وتلقت المرأة وإخوتها ووالدها وعمها الكبير شاكر الأمر بالصمت ، فهي كانت تعتبر بحكم المطلقة منذ هرب كما يقولون ، ولم يجد جديد على الواقع المعاش بين جميع الأطراف .

وكانت الفكرة أن يتزوج من جديد مرة ثالثة ؛ ليستقر نهائيا في القرية وربوع الوطن ، وقام بالبدء بالتخطيط لبضعة مشاريع في القرية لإشغال وقته فيها ، إقامة مدرسة في القرية مدرسة خاصة ؛ كما فعل في الأرجنتين حيث أنشأ معهدا لتدريس اللغة العربية ، وخطط لأنشاء مركز طبي في الزمن القريب ؛ ليخدم القرية والناس والبلدات المجاورة .. هذا ما بدأ يرسم له سعى أخواله عن طريق وسيط بعد أن هدأت زوبعة الطلاق الرسمي أن يعيد مارينا إلى ذمته من أجل خاطر أولاده ، ويبقى الحال كما كان أثناء الهجرة كل في بلده .. هذا ما نقله الشفيع له فقال للوسيط متعجبا من شفاعته ورغبتهم : لنا عمر ؛ كأننا مطلقون .. أنا سأتزوج ثالثة .. وهم لا يرضون بأن تكون ابنتهم ضرة .. امرأتي هناك لم اطلقها.. ما زالت على ذمتي ؛ ولكنها أبت أن ترجع معي ، وكذلك أولادي منها .. ولا داعي للمشاكل .. ولي أشهر هنا ، ولم يطل عليّ ولد منهم يسلم عليّ باستثناء قرة عيني نداء كما تخبر.. فأي خاطر يهمهم.. ولا أرغب بأي علاقة مع أولاد أخوالي وأخوالي وخالاتي .. وسمعة مارينا في الحضيض .. وتزكم الأنوف ، حتى وأنا في تلك البلاد وصلتني أخبار طيشها وفسادها ، وأنها أفسدت ذريتي بزعم الانتقام مني إلا نداء الابنة الصالحة .. فأي خاطر يحتاجونه .. فالطلاق حصل هناك ؛ وإنما أعلنته هنا وشهرته ..ولا أعتقد أنها ترغب فيّ ؛ إنما هذه أفكار شاكر وباكر .

فبعد هذه الوساطة بأسابيع معدودة تعرض الرجل لمحاولة قتل في القرية من قبل مجهولين بعد خروجه من المسجد المجاور لبيته وقصره الصغير ، أغلق الموظف بوابة بيت الله ، وقف أمام المسجد بعد انتهاء صلاة الفجر ، وقف مع شابين كان قد رتب لعملهما معه في وقت سابق ، كانوا يتحدثون عن المركز الطبي الخاص ، وما تم إنجازه من بناء المدرسة والمركز ، وبينما هما يتكلمان أطلقت عليهم النار فأصابت أحد الشابين ، فصرخ ووقع أرضا ، وكانت سيارة تنطلق مسرعة لم يتمكنا من حفظ رقمها .

وعجزت الشرطة والأمن من معرفة الجانيين مطلق النار والسائق ، ومات الشاب قبل الوصول للمشفى ؛ لتأخر وصول سيارة الإسعاف لمكان الحادث ، وتحول المكان لمسرح جريمة .

وقال نزيه لمن اجتمع حوله : أعتقد أنني المقصود بالجريمة وليس المهندس . وهكذا ترجح لدى الشرطة ، فلم تستطع الشرطة اتهام أهل الحي أو البلدة ، وزعمت في النهاية أن الفاعل من خارج الحي ؛ وربما القرية كلها ، وأثار نزيه الريب والاشتباه حول أخواله وزوجته المطلقة. وترك الحادث الرهيب صدمة كبيرة في البلدة الريفية ، فجرائم القتل من الأمور النادرة فيها ، والكل اعتقد أن المقصود نزيه . وفقدت البلدة شابا مهندسا كان مشرفا على البناء الخاص لنزيه ، وترجح لدى نزيه وأبيه وأهله أن أعداء نزيه زوجته وأهلها هم وراء الحادث البشع ؛ لكن لماذا القتل اليوم ؟! فهو مفارقهم من عهد بعيد ، ومدينة سلام تأثرت بهذا الحادث الكبير وكتبت الصحف عن تعرض العائد من الغربة إلى محاولة اغتيال، ولم يعرف الدافع ولم يعلم الجناة لحتى اليوم .

فقلل نزيه نتيجة لهذا الإجرام السافر من الخروج للمسجد على الفجر والعشاء خشية تكرار الجريمة واستغلال العتمة وضعف الإنارة العامة ، كان نزيه يقول لنفسه ويجزم علنا أن الفاعل من طرف زوجته ومن والدها وعمها ، فهم أصحاب النفوذ والقوة ، فكلاهما اعتلى منصبا في الإدارة للدولة ؛ ولكن الاتهام بدون دليل لا يساوي فلسا عند القضاء والعدالة ،

فسلم المتابعة للمدرسة والعيادة لوالده الشيخ وإخوته من زوجة أبيه أم نزار ، ورتب مع والده فقط للاختفاء من جديد متوقعا أن يعاود المجرمون الكرة بعد هدوء ونوم أعين الحكومة ، وسيعود حتما بعد انكشاف الغمة .. هذا ما رآه حلا عاجلا ومؤقتا في الزمن الحاضر .

وكان قد رتب مع ابنه جعفر في بيونس آيرس أن يتحدث مع محقق أرجنتيني سوري الجذر حول قضيته استعان به في قضايا في الأرجنتين ، وأعطاه الرجل عنوان صديق له في دمشق عمل معه في الأرجنتين قبل أن يعود للشام ويستقر مثله بعد غربة عمل فيها مع شرطة ولاية العاصمة . وافق الوالد على اختفائه سرا حتى تظهر أشياء جديدة في الأفق ؛ على نظرية أن المجرم لا يقبل الفشل ، وقد وجد الفاعل كما يظنان من يغطي عليه في الجريمة التي حصلت وذهب ضحيتها شاب صغير يعمل مهندسا مدنيا ، وأخبره أنه سيكتب له من منفاه الجديد ومخبأه ، وطلب من أبيه أن يبدو الأمر كأن أحدهم اختطفه ؛ ليثير الرعب والاستفزاز في أخواله ومطلقته ، فعلى الأب أن يجعل ذلك اختطافا كما سنرى ، فهما متأكدان أن القاتل سيكرر ما بدأه ، فهم يحقدون عليه حقدا شديدا ، حتى أنهم دمروا حياة فلذات كبده الثلاثة كما عرفنا ، واجبروه قبل ربع قرن على ترك الوظيفة بعد خدمة امتدت عشر سنوات ، والحياة تحت رحمة الاغتيال مقيتة وصعبة ، لم يتقبلوا الطلاق الرسمي واعتبروه إهانة لذواتهم وهيئاتهم فهي التي هاجر وهرب من الحياة معها .

اختفى من جديد على حين غفلة من أهل القرية والبلدة ، اختفى نزيه يوسف مع إشاعة وإذاعة أنه اختطف ليلا من بيته تحت تهديد السلاح ، وانتشر بعد ذلك أن الخاطفين قتلوه ، ولسوف تظهر الجثة ، ولو بعد حين ، ونجح يوسف ببث هذه الإشاعات دون أن تبدو أنها صادرة عنه ومن فمه . ارتبك الناس في البلدة ووجد الخبر صداه في مدينة سلام ، فهناك من صدق ، وكان ينتظر ظهور الجثة للصلاة عليها ودفنها ، وهناك من يشكك بحدوث شيء كهذا ، فالناس لا تعيش في الأميركتين حيث تكثر مثل هذه القصص والجرائم ، فالذي صدق حادث القتل دفعه للتصديق بقصة الخطف ، لم يطلب الخاطفون كالعادة فدية ، ولم تظهر جثة

نزيه ، شك بوجود ذلك الخطف الكثير .

****

انتهى خطيب مسجد جمالة من خطبة الجمعة ، وقد كانت عن الإيذاء للمسلمين والتعرض لهم بالقتل غيلة أو الخطف لنزاعات دنيوية شخصية أو مالية ، ولما صلى الخطيب بالناس ركعتين صلاة الجمعة ، وسلم عن يمينه ثم يساره استدار بوجهه للناس فرأى الشيخ يوسف يصلي خلفه فأشار له بالانتظار . أخذ بعض المصلين بصلاة السنة البعدية للجمعة ، وفريق بذكر أذكار ما بعد الصلاة ، وفريق ثالث خرجوا من المسجد للصلاة في بيوتهم .

وحين قل المصلون نهض الشيخ وسلم وصافح الشيخ يوسف أبا إبراهيم الذي قام بدوره ، وكان معه ابنه نزار ، وبعد التحية والسلام قال الشيخ : ألا من أخبار عن أبي ناصر ؟

ابتسم يوسف : أنت ما أخبارك أولا ؟

ـ بخير .. كيف حالك يا أبا يزن ؟

ـ تمام بحمد الله .. سمعت من أبي أنك ستترك القرية وتعود للمدينة ؛ لعلك خفت !

ضحك الأمام عبد الله محمود : لي زمن في هذه الوظيفة .. وهناك موجة إحالات على إنهاء الخدمة .. هذا هو نظام الخدمة في الدولة والمساجد .. فكما يعلم الوالد الحبيب أنا لم أشهد الجريمة .. لما تنته الصلاة أذكر أذكار الصلاة البعدية ، وأغادر برفقة أبيك أو غيره حتى تفرق بيننا الطريق .. هل من أخبار عن نزيه ؟

قال نزار : لا أخبار .. ما زال مختفيا .. لا ندري هل حقا اختطف كما يتحدث الناس أم عاد للأرجنتين ؟.. لو خطف لم يطلب خاطفوه فدية ، ولم تظهر جثته لنقول كان مخطوفا صدقا وحقا.

الشيخ : الصبر يا أبا إبراهيم! هل توصلت الشرطة لجديد بشأن القاتل ؟

قال يوسف: يا أخي لا جديد .. لقد نجا الفاعل بفعلته .. وأشكر اهتمامك بنا .. سيعرف قاتل المهندس يوما ما.. الأمر لله من قبل ومن بعد يا شيخ عبد الله.. هل صدر كتاب التقاعد

الخاص بك؟

ـ بعض الزملاء يخبرونني بذلك ، وبعضهم يخبر بعدم صدوره بعد .

الشيخ عندما جرى اطلاق الرصاص لم يكن في المسجد ؛ إنما الذي كان موجودا خادم المسجد وكان يغلق باب المسجد ، وقد غادر كل المصلين للجماعة ، وأخذ بإغلاق الأبواب بعد إطفاء الأنوار ، وأثناء غلق الباب الرئيس ، سمع صوت الرصاص ، ثم صرخ المصاب وترنح على الأرض أمام دهشة نزيه ومساعد المهندس ، وعاد الخادم وفتح المسجد ، واستخدم الهاتف متصلا بالإسعاف ثم الشرطة .

الإمام عبد الله له زمن يسير في المسجد من حوالي عشر سنوات ، نقل إلى القرية من سلام تأديبا ولأنه مزعج للأمن في خطبه ، فهو عضو سابق في حزب التحرير ، فهو يحب الحديث في السياسة والتعليق على أفعال النظام وسياساته؛ فلذلك تنقل في عدد من مساجد سلام ، ثم نفي لجمالة وتعرف على يوسف وبعض أفراد الأسرة ، تخرج من كلية الشريعة وعمل معلما بضع سنين ، وتحول لدائرة المساجد للعمل كخطيب جمعة وإمام .

تعرف على نزيه قديما عندما كان يأتي جمالة زائرا تعارفا ، وسر بعودته النهائية ، وكان يريد مساعدته بالزواج من احدى قريباته ، ولكن الحادث الغادر صرفهم عن الموضوع ، وكان مثل ناس القرية مستغربا لوقوع هذه الجريمة الغامضة ، فالمهندس القتيل متزوج وعنده طفلة من زوجته الطبيبة ؛ ليقال جريمة عرض وشرف ، وجرائم القتل عن العرض في الغالب فاعلها يسلم نفسه للشرطة . تيسر له الحج أكثر من مرة مع بعثات الحج التابعة لدائرة المساجد، وكان يستطيع الفتوى اذا اضطر لها ، وكما قلنا هو مهتما بالقضايا السياسية مع بعده عن حزبه ونشاطه.

خرج الشيخ بصحبة الشيخ يوسف ونزار المهندس وتوقفا أمام بوابة المسجد الخارجية فقال وهو يشير بإصبعه : هنا جرت الجريمة .. اتصل بي بكر المؤذن وصوته يغمره الرعب شعرت به على التلفون .. وقلت أنا قادم وقد أخبرني بإخباره الشرطة والإسعاف .. وصلت سريعا يا

نزار !.. وجدت جمهرة من الناس من ضمنهم الشيخ الوالد .. كان أحدهم يساعد الضحية بوقف النزيف والدم .. كانت أكثر من رصاصة ..كان صديقنا نزيه مصدوما وممتقع الوجه والدموع تسيل .. وقال : لما ربت على كتفه فداني الرجل ..كانوا يقصدونني .. فقلت بدهشة: من هم ؟ ! سكت . حضرت الإسعاف ومدير نقطة جمالة، وبعد حين حضر مندوبو مكتب مدعي عام سلام والتحقيق الجنائي .. ودخلت أنا ونزيه ساحة المسجد هذه ـ وأشار إليها ـ وجلسنا على تلك الدرجات ، ثم نقل نزيه والشاب غانم للعيادة لمعالجة الصدمة .. كان يوما عصيبا على نزيه والقرية ككل.

قال الشيخ يوسف : نعم ، أول مرة في حياتي أرى قتيلا بالرصاص .. شاهدنا الأموات .. حضرنا عددا منها.

قال نزار: أنا كنت في المدينة كما تعلم يا شيخ عبد الله !

ـ أعرف .. حضرت وإبراهيم وباقي الأخوة الكرام .. غمر الحزن البلدة كلها .. الكل كان يرى أنها ساعات ويعرف القاتل ؛ لكن مرت شهور.

ـ هذا يدل على أنها مخطط لها .. والوقت وعتمة ما بعد الفجر ، وخلو الشوارع من السيارات والمارة سهل إلى حد كبير بانفلات الجناة.

فقال نزار : هل فعلا استطاعوا اختطاف أخي ؟ فالأخ منذ عاد وهو يصلي خلفك يا شيخ عبد الله.. ويجلس معك ومع رافع ابن عمنا ، وذكر أن لك قريبا اسمه عماد درس معهم في الجامعة ـ وهذا الاسم قوّى العلاقة السريعة بيننا .. ويوم الحادث تغيب رافع عن صلاة الفجر .. وعلمت من أخيه حامد أنه بات في سلام عند شقيقته.

قال يوسف وقد مشوا نحو منازلهم : كانت مريضة .. وأدخلت مستشفى نادي الرماية لعمل عملية .

فقال نزار : ألم يكشف لك نزيه شيئا عن خططه بعد الحادث؟

ـ كان راغبا بالزواج لما استقر بيننا ، وقد تحدثت مع ابن عم لي في شأنه .. وقبل الحسم جرى ما

تحدثنا به من دقائق .. وتأجل الموضوع .. كان موت المهندس صدمة كبيرة بالنسبة لنا .. وكنا نفكر بسبيل حمايته من الغدر مرة أخرى .. ذكرنا لما ترجح لدينا أنه المقصود بأن المجرم سيعاود الكرة ما دام طليقا قبل أن يقبض عليه .. وكان حزينا جدا على زوجة المهندس الأرملة الشابة والطفلة .

قال نزار : ولماذا خطفوه هذه المرة اذا صحت إشاعة خطفه؟

قال الشيخ : لم يثبت الخطف ، كيف خطفوه ؟متى خطف ؟ والشيخ يوسف لم يبلغ عن خطف؟

قال يوسف : عن ماذا ابلغ ؟ وأنت قلت لم يثبت الخطف .. ونزيه قد سافر للأرجنتين سرا قبل عقدين ونصف .. ويأتي دون إخبار ، ويسافر دون إعلام أحد .. العداء عميق بينه وبين أخواله .. وها هو تعرض لمحاولة اغتيال!

ـ هل تعتقد أن أخواله يفعلون ذلك؟

ـ أنا أظن فقط ؛ إنما هو شعور فقط ؛ لذلك لم نوجه لهم أي اتهام .. فنزيه كما تخبر ليس له أعداء إلا هم .. وأنا لا أعتقد أنه خطف فلماذا يخطف ؟!

ـ وأنا أظن ذلك .. فالقاتل لماذا يخطف؟! لا أدري كيف شاعت إشاعة الخطف والقتل وكيف بدأت ؟!

قال نزار بتردد : خطف وقتل وأخفيت الجثة ؛ كما نسمع ونرى في جرائم أمريكا والله أعلم .

كانوا قد وصلوا عمارة يوسف فقال : تفضل معنا يا شيخ عبد الله نفطر معية ونشرب الشاي .. ونسمع حكايتك مع المشيخة ، ونزاعك مع السلطة ، فكان نزيه يحدثني عن حزبكم العتيد.

وصلت هذه الأخبار والشائعات لمارينا وأولادها حتى ناصر ، فقال لها : أرجو أن لا يكون لك يد في محاولة قتل أبينا .. فأنتما دون زواج منفصلان منذ أكثر من خمس وعشرين سنة .. فلا أعتقد أن طلاقه يسيء إليك ولجدي أو حتى عمك .. فأنت بحكم المطلقة منذ رحل غربا .. فأنا مطلق وسامي وميساء .. فكلنا فاشلون بالزواج .. ولم نقتل بسبب ذلك .. وسامي كان زوج بنت إسكندر ابن عمك شاكر .. واذا تأكد ذلك .. وصدق ما يهمس به الناس سنضطر لقتلكم أنت وإخوتك دون رحمة وشفقة .. هو في النهاية والدنا ..ولا يعني أني أمشي على عكاكيز لا أستطيع استعمال السلاح.. أنا يراودني شك كبير بأن لكم يد في محاولة القتل التي أدت لقتل ذلك الشاب .

قالت باحتقار : دعك من التهويش .. فأنا لماذا أقتل أباك ؟! وكما قلت فلنا زمن مبتعدون عن بعض ..كنا بحكم المطلقين .

قال بحدة : يا مارينا ! أنا أعرف حقدك وحقد أبيك وحقد عمك على أبي الهارب منكم ..ولما جاء للحياة في وطنه اختفى .. ويشاع أنه خطف وقتل.

قالت بتهكم وهزء : أين الشرطة ؟ لم نسمع أن الشرطة تدخلت للبحث عنه وعن خاطفيه وقاتليه .. إنما هو عاد للأرجنتين ؛ لأنه جبان.. والهرب أسلم له .

تنهد بعمق وتأوه وقال : ليتني أصدق براءتكم ؛ فأنا أعرف خبثكم ولؤمكم .. إنكم تحقدون على أبي وجدي وكل أسرة يوسف .. كم من الألفاظ الحاقدة وقعت في قلبي منكم.. أنت وأبوك وعمك الحقود الأسود من زمن بعيد .. عمك سمعته يقول "فلت اللعين مني .. كنت سأحرقه لكنه فلت " وقال أبوك متبجحا "أجبرته على الاستقالة ، واعتقدت أنه سيأتيني ذليلا لأعيده لمركزه.. استقال وهرب المنحوس " .. وأنت أهملتي رعايتنا والعناية بنا .. وعلمتينا على كل قبيح لحقدك وبغضك عليه .. نحن دفعنا ثمن حقدك القذر وقذارتك ومجونك .. أنت والدة سيئة وهو أب جبان !

حركت رأسها مستنكرة : ولماذا نقتله يا ناصر؟ فما بيننا انتهى قديما.

ضحك وقال : ما دمنا أحياء لن ينتهي ما بيننا ..فهو أبونا .. والرجل لم يقصر في الإنفاق علينا وتدريس سامي وميساء ونداء.

قالت : يا ولدي العاق صدق أنه لا علاقة لي به ..فقد شطبته من حياتي .

دخل سامي المحامي وقال : أسمع صوتكم مرتفعا ..هل من شجار جديد ؟ ألا تنتهي المعارك بينكم ؟! أعتقد أن كل سكان العمارة يسمعون صراخكم .

قال ناصر : ربما هذه أول لم نتشاجر .. لكننا تعودنا على الصوت المرتفع والصياح.

قالت : تعال اجلس أيها المحامي النشيط !.. أخوك العتيد أبو العكاكيز يتهمني بخطف أبيك وقتله قبل أسابيع كما يشاع.. أتصدق هذا الاتهام ؟ وكما ذكرت بعض الصحف اللعينة

فقال بعدما جلس وأخذ يشعل غليونه الإنكليزي: والله معه حق يا أم ناصر !

صاح ناصر محتجا : ليست أمي نادها بيا سيدة مارينا .. تسميني أبا العكاكيز التي سمحت لي بالسكر منذ الصغر بعد هرب الأب اللعين الذي تركني لأم مجرمة

قالت بالكلام لسامي : اسمع .. لا يعلم كم أنفقت عليه للعلاج من الحادث ؟

قهقهه ناصر عاليا : هذا زعم يا سيدة مارينا ..لقد علمت أن أبي الهارب منك هو الذي دفع الكثير..

قال سامي : لا أعداء لأبينا يا سيدة مارينا إلا أنت وأبوك وعمك وبعض أولادهم .. فطول عمر الرجل في الخارج في الأرجنتين .. فهل في هذه الشهور تكوّن له أعداء ؟ لم يكمل السنة هنا .. وأنا أشك لا أتهم .. المنطق يقول ذلك.. هل لأبي أعداء في القرية ولأعمامنا أعداء يتربصون به ؟!.. لم نسمع بهؤلاء الأعداء .. فعمي إبراهيم قاضي كبير اليوم في المحاكم .. كبرت الناس.. السؤال المثير فعلا لماذا اختفى أبونا من جديد؟ لم ينتشر خبر سفره وهجرته.. انتشر خبر خطفه وقتله ، وما لم تظهر جثته سيبقى كمفقود .. والمدهش حقا لماذا اختفى ؟ ! لي اتصالات مع أولاد أعمامنا .. وأكدت لي نداء ابنة أبي أن والدها لم يعد في القرية .. فهي تتردد

على القرية دائما وزوجها الدكتور الصيدلي صديق صديق لجدي يوسف والد زوجك الشرعي

قال ناصر ساخرا : وهل لها زوج غير شرعي ؟ لم نحضر العرس يا سمسم .

تابع سامي السخرية : كان لها عرسان كثر يا ناصر علمتنا الوقاحة للأسف ؛ ولكنهم اليوم هجروها وملّوا منها ومن دعواتها .. أصبحوا ذكريات ورفقاء كأس فقط ، كما قال أحدهم العمر عبر.. والنساء تكبر بسرعة.

وتابع ناصر سخريته وقال : جميل يا سامي قولك زوجها الشرعي !.. اليوم لا أحد يتطلع في وجهها رغم تبرجها وصالوناتها وثيابها أمامهم عارية .. أمك أصبحت عجوزا يا حضرة المحامي .

ـ الحقيقة أمك عجوز منذ تخلص منها أبونا .

قال : لا ، لا ، ما زالت شابة .. أمورة وحلوة وتسهر وتلعب الورق والقمار.. بس دائما خسرانة .. آه لو تسمع ألفاظها الفاحشة مع شلة الأنس .. فتظن نفسك في كرخانة وسوق الخنزير في قلب المدينة حيث يجتمع الحشاشون وحثالة المجتمع حتى أنني مرات اضطر أن أخرج من غرفتي وأقف أمامهن ليخففن من قبحهن ويخجلن .. ومرات يتمادين بالقبح والزفت .. على كل دعنا من أخلاق هذه العجوز الشمطاء .

صاحت وماجت وقبحت ولعنت وقامت تقول : أنا عجوز شمطاء !! أنا أمكم يا ملاعين ! يا لكم من ذرية عفنة مجرمة !

غمرتهم القهقهة وقالوا: تربيتك يا طاهرة !.. أنت جنيت علينا .

عادت للجلوس وهي تشعل سيجارة من جديد وتقول موبخة : لا تلوموني يا همل .. لوموا أنفسكم .. أنتم جنيتم على أنفسكم .. ها هي نداء امرأة صالحة .. لو كنتم ترون أني أجرمت في حقكم كنتم أخذتم طريق نداء صغراكم .. كنتم قد جعلتموها هدفا ونصبا لسخريتكم .. كفوا عن تحميلي فشلكم في حياتكم وزواجكم .

قال سامي : أبناء من نحن ؟.. هل أنت فعلا بريئة مما يشاع يا سيدة مارينا أم ناصر

قالت بتأفف وضجر : ولمَ اقتله واشنق من أجل رجل تافه.. لن أرث عنه درهما واحدا .. أنتم ورثته .. فأنتم ربما تسعون للخلاص منه لترثوه.

قال سامي : لسنا وحدنا .. لنا أخوة أربعة في الأرجنتين .. فماذا سينالنا ؟ .. وأكثر مشاريعه شراكة مع ابن عمه الذي مات هناك كما خبرنا أو مع أهل زوجته الشوام .

قال ناصر : سمعت أنه انفصل عنه قبل موته .. فكل يعمل وحده مع ذريته .. هكذا علمت من أختنا الصغيرة أم محمد .. فهل لديه ثروة كثيرة يا سامي لنهتم بميراثه؟

قال المحامي: لم تثبت وفاته يا ناصر .. لم تظهر الجثة لنطالب بحصتنا .. فالأمر يا أخي البكر غامض.. هو يعتبر الآن مختفيا مفقودا .. لم تقم الشرطة بأي تحريات .. ولم تخطر ببلاغ .. فدعك من أحلام الثروة .. فها هي ـ هذه ـ كنزك .



مضت ستون يوما على انتشار خبر خطف المهاجر نزيه يوسف ، حضر البلاد ابنه جعفر المعروف لأقربائه في جمالة ـ قد جاء به نزيه قديما وهو شاب صغير ـ والتقى بجده يوسف وبعض أعمامه وأقربائه في جمالة ، وشاع أن الرجل قدم من وراء المحيط الأطلسي يسأل عن أبيه المفقود ، ويتحرى عنه عن اختفاء أبيه .

ونشرت بعض الصحف الخبر ، وذكرت القراء برجل الأعمال والمال نزيه يوسف ، وكرر خبر اختفائه قبل ستين يوما ، وأن الاختفاء حدث بعد أسابيع من محاولة اغتياله الفاشلة والتي أدت إلى قتل شاب ، وأن الشرطة لم تعرف لحد اليوم القاتل للشاب أمام أحد مساجد البلدة .

وتعرف جعفر في الزيارة التي لم تكن الأولى على أخته من أبيه نداء ، وعلى زوجها صديق وتذكرهما ، وسعد بالتعرف عليها وبقرينها واللقاء بهما ، ووعده بفتح مصنع دواء على مستوى البلد ، وتابع جعفر مبنى المدرسة والمكان الطبي، واتفق مع صديق على إقامة صيدلية مشاركة بينهم بجوار المركز الطبي .

وأدرك الشيخ ومن حوله أن الشاب حضر باتفاق مع والده المختفي من أجل المدرسة والمركز ولتحريك قضية اختفاء أبيه ، وظهر أمام سكان البلدة بثوب الباحث عن والده المفقود . امضى جعفر شهرا في ربوع وطن أبيه ، ثم ودع الأقارب وغادر إلى الأرجنتين. فكانت زوجة يوسف أم نزار تقول لزوجها بعد سفر جعفر : أنا في حيرة !.. هل حقا جاءنا يسأل عن أبيه يا حاج يوسف أم لمتابعة مشاريع أبيه ؟ أنا فعلا في حيرة يا حاج يوسف من اختفاء ابنك ، ولم تحرك ساكنا ، لم تشكو للشرطة حتى نزار ابني البكر قال : أرى يا أمي أن أبي لا يهتم بأمر اختفاء نزيه أم أن أبي اعتاد على فراقه .. ومجيء جعفر وتحدثه عن ذلك الغياب ، ولم يخطرا الأمن والبوليس .. ولم نعرف لليوم أعداء أخي ..ولم نر تحقيقا .. وسين جيم

ابتسم يوسف لقرينته التي تصغره بما يزيد عن عشر سنوات وقال : يا أم نزار نحن استيقظنا من النوم ، ثم علمنا أن نزيها لا يوجد في البلدة ، لم نر جثة ، ولم نخبر بسفر أو وداع فماذا

سنقول للشرطة ؟ هل هو صغير فاقد للأهلية ؟ لم يهدده أحد بالخطف.. هو رجل عاقل مدرك .. صحيح هو تعرض لمحاولة قتل، ولم تستطع الشرطة الوصول للجاني .. وما زال دم خالد معلقا .. وأهله يقولون لماذا يقتل خالد ؟.. وكلنا يقول لماذا يقتل المهندس خالد ؟.. لا نشاط سياسي له ، ولا علاقة له مع عصابات ومهربات

قالت : هذا المحير! أجمع أهل البلدة أن المقصود ابنك نزيه .. ولماذا ؟! وهو حضر من السفر من شهور قليلة .. وليس له أعداء سوى أخواله ومطلقته .. وتبين أن لا علاقة لهم بالمحاولة والجريمة .

قال بشك بين : لكن هذا لم يثبت ؛ لأنه لم يقبض على القاتل .. هذا ما يجعلنا في حيرة .. ولو قتل نزية لظهرت جثته .. وإذا كان خطف لم يطلب أحد فدية.. هل غادر خشية أن يقتل ويؤذى ؟وهل له أعداء في الأرجنتين طاردوه إلى هنا ؟ .. ومجيء جعفر إلى هنا يدل على أنه لم يذهب إلى هناك إلى تلك البلاد .. لم يتخلص من مشاريع أبيه ؛ بل تابعها ، وكلف صديقا وحسنا شقيقه بالاهتمام بها .

قالت بحيرة : رغم ما تقوله يا حاج يوسف أحس وأشعر أنك تعرف أين ذهب ولدك ؟ .. من البداية أدرك الجميع ذلك !

قال باسما : قد يكون شعورك صحيحا وصائبا

قالت : ألم يتصل ؟

ـ ولماذا يتصل ؟! الرجل كاد أن يقتل برصاص الغدر ، ورأى عجز الشرطة عن معرفة العصابة والجناة .. واختفى حتى يكتشف الجناة أو تمسك بهم الدولة .

****

بعد سفر جعفر بأيام حضر ضباط التحقيق الجنائي من مدينة سلام الدين بصحبة مدير نقطة الأمن في القرية وما حولها إلى منزل السيد يوسف الجمالي .

رحب الحاج بهم ، وهو على معرفة بزعيم نقطة الشرطة المحلية الذي عرفهم على بعض ،

وشرح للحاج الهدف من الزيارة من قبل رجال التحقيق ، وسألوه عن قصة اختفاء ابنه نزيه الذي أثار لغطا وإشاعات تنشرها الصحف والمجلات ومحاولة الاغتيال .

فرد يوسف :لا أعلم شيئا! لقد حققت الشرطة في جريمة قتل المهندس خالد أمام المسجد بعد انتهاء صلاة الفجر وانصراف المصلين ؛ كما يعرف حبيبنا الملازم أبو حسن .. فكان ابني نزيه والمهندس خالد ـ رحمه الله ـ وشاب ثالث عصام بناءة يتحدثون عن بناء مدرسة ومركز صحي جديد في البلدة ؛ وفجأة اطلقت عليهم النار من سيارة سوداء وهربوا، وترجح للأمن أن المقصود ابني ، والواقع يؤكد ذلك ، ودفع ولدي ألف دولار مواساة لأسرة القتيل .. ريثما تعرف الشرطة الجناة .. وبعد ذلك بحين يسير استيقظنا على اختفاء ابني من البلدة ، فخرجت تلك الإشاعات التي يتحدث الناس على أثر الاختفاء .. لعله سافر خفية كما فعل سابقا .. فلم نر جثة ولم نتلق طلب فدية ؛ كما يكون العادة من الخطف .. فكيف سنبلغ الشرطة عن رجل بالغ عاقل ؟! فربما والراجح أنه هرب حتى لا يتمكن منه خصومه الذين لا نعرفهم .. والشرطة كما يعلم الضابط لم تعرف السيارة ، ولا المعتدين .. فهل نستطيع فعل شيء غير واضح قبل ظهور جسم ابني اذا كان ميتا .

وحدثهم ببعض حكايته مع أخواله وزوجته المطلقة ، وهجرته للأرجنتين ؛ ولعله كما قلت لأبي حسن اختفى بإرادته؛ للحفاظ على حياته.

قال المحقق : نحن تحدثنا قبل المجي للقرية جمالة واللقاء بك سيد يوسف مع ابنك القاضي إبراهيم يوسف في المدينة سلام .. التابعون أنتم لها إداريا .. قال لنا كما قلت إن شفيقه هرب قديما من أهل زوجته أخواله للأرجنتين للراحة من النزاع والقيل والقال .. وقضى ثلاثين سنة هناك .. في البداية وأول الأمر لم يعرف أحد قصة السفر خفية ؛ فلعله فعل كالسابق ؛ لكن لما حضر ابنه من هناك يسأل عنه ارتفع الشك لدينا في خطفه وموته وإخفاء جثته في قبر مجهول .. وقال لنا القاضي : إن الأمر محير ، فأولاده يسألون عنه ، ولم يتصل بهم كما أخبر حفيدك عمه .. أنت ما رايك؟

قال الشيخ : رأيي يا سيدي أن الأمر غامض .. منذ اختفى لم يتصل بي ، ولا بابنته الطاهرة نداء في مدينة سلام .. وهو يحبها كثيرا ، فهي الوحيدة من أبنائه هنا على علاقات طيبة معه ومعنا ، وهي الصالحة من ذريته هنا ؛ وإنما سعى جعفر ابنه الأرجنتيني لمعرفة مصير والده لما وصلت الإشاعات إلى بيونس آيرس .. فذكرنا له ما سمعتم .. ولم نجد شيئا يستدعي دعوة الشرطة .. ماذا نقول ؟ فالشرطة كما قال بكري إبراهيم أخبرته أن اسمه لم يخرج من الحدود البرية والبحرية والجوية .. ومن أجل ذلك لم نقدم شكوى للشرطة.. فلعله مختفي داخل البلاد يا أبا حسن والأخوة الكرام .. وذلك خوفا من اغتياله والمحاولة من جديد اذا ثبت أنه المقصود من الاغتيال الفاشل كما رجح الناس ونحن .. وأخطر أعدائه أخواله وهم أصحاب شركات ونفوذ في المدينة وأيضا مطلقته .. والشرطة قالت لا دخل لهم في الجريمة .. فهي جريمة ما زالت مفتوحة على ما أظن .

قال : الشرطة لا تستطيع التدخل بشكل رسمي إلا باتهام معين أو معينين وبلاغ رسمي لدى المدعي العام أو الشرطة .

قال يوسف : نحن في الحقيقة تعودنا على غيابه .. فهو قضى نصف عمره اذا كان هناك نصف وربع للعمر في الأرجنتين وحضر من زمن قريب .. هو هاجر وتزوج وانجب في الغربة ؛ إنما أحب أن يكمل سنين عمره هنا بيننا .

فقال القائد : نعتقد من حديثك أنه اختفى بإرادته ، وما زلنا نبحث ونتحرى عن الجاني في قتل المهندس ابن هذه البلدة .. لم يستطع أحد أخذ رقم السيارة لسرعة اختفائها أو أخفي الرقم بطريقة ما .. وانشغال ابنك والشاب الآخر بالمصاب المفاجأة كان لها تأثير عليهم .. حتى اللون لم يتضح بشكل دقيق .. فعتمة الشارع وانطفاء أنوار المسجد ساعدت على إخفاء مواصفات السيارة .. ولم يكن أمام المسجد سواهم الثلاثة عندما اطلق الرصاص .

عقب يوسف : كان معد للجريمة بصورة جيدة .

قال القائد : صحيح ! أنا بنفسي راجعت ملف القضية قبل أن أقابل ابنك إبراهيم ووجهة

نظرنا قريبة من بعض .. علمنا أن ابنك قلل من الخروج بناء على نصح الأمن والضابط علي أبو حسن ؛ بل علمنا أنه كان يكثر من النوم في هذا المنزل بعد الحادث ؛ لأنه يعيش وحيدا منذ رجع من غربته يعني قل مبيته في بيته الخاص .. فنرى أنه أمام هذا الواقع فكر وهرب وخرج من القرية وكل البلد .. ما رأيك ؟

هز يوسف رأسه ورد : الواقع يقول ذلك ، ولم يخرج بشكل رسمي من البلاد خشية أن يعرف خصومه جهة هربه ..لديهم إمكانات لمعرفة جهة خروجه .. أو ما زال في البلد مجهول مكان الإقامة طالما القاتل مجهول .

ـ لم تثبت أي علاقة لهم بالحادث .. صدق أن مدير البوليس تحدث معهم بكل صراحة .

ـ ربما له خصوم غيرهم .. له شهران ونصف في البلد .. مهما فكرنا في الأعداء والخصوم والشر . . هل هناك غيرهم ؟

الضابط : أليس هم أخواله وأصهارك ؟ .. فهو تزوج ابنة خاله باكر .. حتى أولاده لم يلتقوا به عند عودته إلا ابنته الصغيرة.

قال: نعم ، كأنه ليس أباهم .. الشك موجود سيدي القائد ؛ لأنه لما حط قدمه هنا أول أمر فعله أشهر طلاقه من أمهم ؛ ربما أوقع لديهم ردة فعل .. وأرسل لها عقد الطلاق مع المحامي .. فهي كانت بحكم المطلقة منذ وطئت قدماه تلك الديار .

قال : على كل ما زلنا يا أبا إبراهيم نتابع التحقيق والبحث عن قتلة الشاب، ولم تغلق القضية ، واذا جد جديد سيكون لنا حديث .. وفعلا نفى أصهارك بحزم أي علاقة لهم في الاغتيال .. ولا مصلحة واضحة في المحاولة .. وقالوا ماذا نجني من قتله ؟ فهم لا يرثونه وأختهم زوجتك ماتت قديما .. وزوجته كانت في عداد المطلقات وموقف أولاده في السليم .. واستئجار قاتل يضع الجميع تحت الابتزاز فرقبته تحت حبل المشنقة لموت المهندس

قال: أكيد.؟ أنا أشكر اهتمامكم للقضاء على الشائعات.

أثارت رحلة جعفر لبلد أبيه إزعاجا وقلقا في أنحاء البلدة ، وتبعها مجيء الشرطة لبيت يوسف فزاد من الإشاعات والخوف والدهشة والحيرة بين سكان البلدة ، وما حولها من البلدات الزراعية ، وكذلك بين إخوة نزيه والعائلة الكبيرة ، في الأول غلب على ظنهم أنه عاد للأرجنتين سرا لدواعي أمنية بطريقة سرية وخفية ، وشاع وراج بين الناس أن الشرطة ربما وجدت جثة نزيه ، وجعفر أفصح لأقاربه بأنه لم يلتق أباه منذ ترك الغربة ، ولاحظ الأخوة أن والدهم لم يكترث كثيرا لغياب نزيه ، ولم يقلق فغلب على قلوبهم أنه علم بغيبته ومكان سفره ولكن مجيء جعفر وتر الأمر بينهم وأربك خواطرهم ، فتسألوا هل الاختفاء مدبر أم أن هناك جريمة قتل فعلا ؟! وجاءت الشرطة للبلدة فارتفع التوتر القلق بينهم ، وأجريت تحريات وسؤلات فزاد الغموض ، لا أحد لديه معلومات عن الاختفاء ، فهو بعد الحادث قلل الاختلاط مع ناس القرية إلا في منزله أو منزل أبيه من باب الحذر ، وقلل من الخروج للأماكن العامة ، كالمساجد والمقاهي والنوادي الثقافية والعلمية والشعرية ، وأوقف مشاريعه الجديدة حتى جاء جعفر ، وبدأ العمل فيها ، ودخل زوج نداء صديق في المشاريع والبناء والصيدلية ، والأب يوسف لم يتكلم لأحد بشيء خاص منذ اختفاء نزيه الغامض .

فقال أحدهم متمنيا : لو الشرطة ألقت القبض على قاتل المهندس المسكين لما وصلنا إلى هذا الوضع المحير والمربك !

قال إبراهيم : لو .. لو .. الشرطة عجزت فليس لديهم خيوط وإشارات عندما يصلون إلى جديد سيتحركون .. فاضطر أبو ناصر للاختفاء دون علمنا ، وليس له أصحاب ثقات ؛ ليكشف لهم أمره ووجهته .. هكذا فهمت الأمر ابتداء .. ولا أدري كيف شاع ، وبدأ أمر الخطف والقتل ؟ كيف بدأت الإشاعة ؟ ومن نشرها ؟! كيف قالوا قتل ولا وجود لجثة ؟ ولو وجدوا جثة في مكان ما لطلبوا منا أو من أبنائه مشاهدتها والتحقق منها .

قال نزار : ولكنك يا إبراهيم يومها لم تبد قلقا وخوفا وانزعاجا .. وأبي لم يهتم للأمر .. فترك

ذلك لدينا انطباعا أنكما تعرفان شيئا وتكتمانه .. واحترمنا سكوتكم أنا وبقية الأخوة والأخوات .. فقلنا بينكم سر خاص فلزمنا الصمت .

رد إبراهيم : قال نزيه تلك الأيام ما دام لم يثبت لدى الشرطة شيء لابد من حل .. لم يكن أمام نزيه البقاء ، فهذا ما خطر لي تلك الأيام العصيبة.. فالذي سعى لقتله أول مرة سيعيد الكرة .. فأصبحت حياته مقيدة كما تعلمون .. كان راغبا بالاستقرار والزواج حتى الموت وانتهاء الأجل ؛ لكنه لم يرد أن يموت مغتالا وغيلة .. وتألم وحزن كثيرا على اغتيال ذاك الشاب الطيب الذي أصابته رصاصات الغدر بدلا منه .. والشاب لم يكن غريبا عن البلدة ، فهو ابنها ولم نعرف له أعداء ؛ ليقال أنه المقصود .

قال نزار متمما : أجمع الناس والشرطة أن الهدف هو نزيه شقيقكم .. وأخوالكم هم أعداؤه وخصومه .. والشرطة تزعم وتؤكد أنهم أبرياء ولا مصلحة لهم في إيذائه وأبرياء من دم القتيل .. كيف تأكدوا لم يحدثوننا بذلك؟ .. والقاضي إبراهيم حاول معرفة أسباب ثقة الشرطة ، فأكدوا له أن مواقعهم الإدارية التي كانت لهم في الدولة تصعب مهمة إقدامهم على الجريمة .. خاصة أننا أقارب كما قالوا ، ولا فائدة تعود عليهم من قتله .. ولا دلائل على الجريمة سوى عداوتهم القديمة وإجباره على ترك الوظيفة .. أما نحن فلليوم لا نرى أنهم أبرياء .. وأن حقدهم دائم .. ومن أهم الأدلة على الحقد ـ ولو كان قديما ـ أنهم افسدوا ذريته عليه حتى مجرد سلام على أبيهم لم يفعلوا .. أليس كذلك أيها القوم؟!

قال زكريا : الظواهر تدل على ذلك ..لا يعقل أن ناصرا أو ساميا يستعجل قتل أبيه .. فناصر ضعيف الحركة وسامي محامي .. وله سمعة جيدة في المدينة .. ومطلقته مارينا ماذا تستفيد من مقتله ؟ فأمهم تملك الكثير من الأموال والأرصدة كما هو معلوم .. ودرس الشباب على نفقة أبيهم لم يقصر معهم ماديا .. وشارك في علاج ابنه عندما تعرض لحادث وهو سكران منذ سنوات .. والقاتل في الشريعة لا يرث مورثه كما هو معلوم في شريعتنا .. الصحيح أن لا علاقة بين القتل وأولاده ؛ لكننا خاصة من يعيش في المدينة يسمع أخبار أبناء أخوالنا وأخوالنا

من قبل .. فهم نجوم وأصحاب مراكز علمية وتجارية .. فأخبارهم معروفة لمن يهتم بهم.. والشرطة أكدت لإبراهيم أن لا يد لهم في الجريمة .. فقلنا لعل له أعداء من الغرب مع صعوبة هذا الاحتمال .. فله هناك زوجة وأولاد وأقارب .

قال القاضي : كلنا يعرف هذا التحليل .. ما الحل ؟ الخطف جريمة كبرى .. والعصابات تخطف من أجل المال الفدية أو من أجل الشاهد أو إسكات الخصم العدو بالخلاص منه .. وفي الغالب تظهر جثة المخطوف ولو بعد حين .. نحن نعيش في حيرة وارتباك أيها الكرام .. فسكوتنا عما حدث أصبح مزعجا لنا وللأقارب ولأهل القرية .. فكلما نقابل أحدهم يقول طال صمتكم .. يجب أن تتحركوا .. الابن البعيد حضر يسأل عن والده لما سمع بغيابه .. وأنتم صامتون .. ماذا نفعل لمواجهة الناس ؟ من أجل هذا طلبنا هذا اللقاء.

قال نزار المهندس : الحق أننا لا ندري ما يجب فعله! لو كان عند الشرطة شيء مفيد لأخبرونا به ؛ لأخبروا به على الأقل الدكتور القاضي .. فهو ابن الدولة مثلهم .. فعملك الكبير يلزمهم الهمس لك بما عندهم ولو مجاملة .. وأنت معروف لهم .. فلك عشرات السنين في سلك القضاء ولك أصدقاء في وكلاء النيابة .. هل فعلا أن السيد أبا ناصر مخطوف ومقتول .. عن نفسي من ناحية الإحساس لم أحس وأشعر بذلك .. والإحساس ليس دليلا على حياة البشر وموتهم.. صحيح أن بعض الجثث قد تختفي سنوات وسنوات ولا تظهر .. أنا متأكد أن هذا لم يقع في قلوبنا منذ اختفاء نزيه .. واعتقدت أن أبي العزيز بينه وبين الأخ المهاجر شيء خفي.. لم يظهر قلقا وخوفا وحزنا على غيابه.. واعتقدنا أنه عاد لزوجته وأولاده هناك.. ولا أدري لماذا يخفي الحاج الوالد عنا اختفاء نزيه؟!

فلما احدقوا النظر في وجه أبيهم تبسم وقال باسما : دعوا الكلام للزمن أيها الأعزاء فجعفر جاء كما فهمت منه لمتابعة مشاريع أبيه وموضوع الصيدلية الخاصة بصديق ؛ لأن نزيه تكلم مع صديق ونداء قبل الحادث .. وها أنتم ترون أن الرجل يتابع من مخبئه الأعمال والإعداد لإنشاء مصنع أدوية كبير على مستوى القطر والأقطار المجاورة كالأردن والعراق وبلاد الشام

قال القاضي : وليس كما أشاعت الصحف أنه أتى ليبحث عن أبيه !
هز رأسه وقال نافيا : هذا أمام الناس.. تحدثنا عن العمل، لم نتحدث عن الاختباء
قال إبراهيم بعد صمت أبيه : يمكن أن أقول لكم إن شقيقنا العزيز حي يرزق ؛ وربما هو في الأرجنتين ؛ فالوالد مطمئن جدا .. لكن كيف خرج بدون المرور على الحدود فهذا مثير .. فاسمه لم يظهر برا ولا بحرا ولاجوا لا بجوازه المحلي ولا الأجنبي .
قال نزار : ربما كان ذلك من ضمن الخطة بينه وبين أبي يا دكتور إبراهيم
إبراهيم : المهم أنه حي وموجود ، وأخفى أمره لحاجة في نفس يعقوب.
قال زكريا : نعم ، حاجة في نفس يعقوب.. وهذا المهم وبيت القصيد أيها الأخوة الأعزاء.

****

بعد هدوء دام لأسابيع أتى جعفر للبلدة من جديد ، وعادت الصحف أو بعضها تتحدث عن اختفاء نزيه يوسف الغريب ، وزعمت أنه قدم لمتابعة البحث والتحري عن والده المختفي منذ عدة شهور. وعادت الشائعات والقيل والقال ، وكان صديق قد انتهى من بناء المدرسة والمركز الصحي والصيدلية ، واتفق مع جعفر وأخوة نزيه على متابعة التشطيب وإقامة الكادر وأن يكون العاملون ممن يرغب من أهل البلدة وعلى رأسهم زوجة القتيل الطبيبة النسائية سميرة حسين اذا أحبت ترك العمل في الحكومة.
فالمدرسة متهيئة لتدريس الطلاب الذكور من الصف الأول الأساسي إلى انتهاء المرحلة الإعدادية الأساسية ، وشكل صديق وصهره جعفر مجلس إدارة للمدرسة وآخر للمركز الصحي ، وأخبر صديق جعفرا أنه وجد قطعة الأرض المناسبة لإنشاء المصنع ـ مصنع الدواء ـ وأنه يستطيع المساهمة بثلث المصنع ، وعلى جعفر تغطية الثلثين ، ووعده بالرد سريعا ومن ثم تحويل الأموال ، وربما يقتسم الثلثين مع أبيه ، واعلمه أن أباه على وشك العودة كما قال في حديث بينهما . وكانت الصيدلية الخاصة في البلدة باسم صديق ، ولجعفر نسبة بسيطة في رأس المال اتفقوا عليها ، ورغبه جده يوسف بإقامة مدرسة مثلها للإناث.. فاليوم إقبال كبير على

تدريس البنات في المدارس الأهلية .. وأقسم جعفر لعمه إبراهيم أنه لم ير والده منذ غادر الأرجنتين ؛ ولكنهما يتواصلان بالرسائل والهاتف في بعض الأحيان ، واعترف لعمه أنه في قطر مجاور ، وعلى وشك العودة للقرية تصحبه زوجة جديدة .

فسكت إبراهيم لثوان وقال : أصدقك ، وأنا الآن متأكد أنك جئت بأمر من أبيك الغالي . وبارك له على إكمال مشاريع والده ، وحياه على الاستثمار في البلد ، وأثنى على صديق زوج ابنة شقيقه نزيه.

كان جعفر على اتصال مع والده منذ حادثة الاغتيال ، وعلى علم بالمنفى الاختياري والغاية من السفر . وكان نزيه قد قطع الاتصال بوالده منذ خروجه ، وطلب من ولده جعفر متابعة المشاريع التي رسمها رغبة بعدم إشغال جده بمثل هذه الأمور ، وكان نزيه قد رتب لخروج سري وتهريب ؛ ليلتقي بضابط عربي أرجنتيني عمل في الشرطة الجنائية ، وصديق له في الشام عاد لبلده مثله الذي سلم أعماله إلى ذريته هناك ، يريد منه أن يكشف له من قام باغتياله ، وقبل الضابط المتقاعد خدمته مقابل أجرة ومصاريف ، وكان عليهما أن يلتقيا في دمشق الشام. قضى جعفر المهمة التي كلف بها من قبل والده ، وودعهم وغادر جمالة ليلا وخفية كما جاء على غير ميعاد .

نعود لنزيه المهاجر كما يحب أن يسميه إخوانه وأهل البلدة ، فقد سمعوا من جعفر أنه سيعود قريبا بدون تحديد وقت معين ، وتركهم ينتظرون عودته من مهربه ومنفاه الاختياري ، خرج من جمالة كمغامر بترتيب معين إلى مدينة عمادنا ، وهي بلدة حدودية عن طريق شاب تعرف عليه في أحد مساجد البلدة الذي وعد بمساعدته بعد نجاته من الاغتيال ، فهذا الشاب أوصله سرا إلى رفيق له في بلدة عمادنا الحدودية ، تعرف عليه أثناء عمله على الشاحنات الكبيرة التي تعمل بين الدول والأقطار لنقل البضائع والخضار والفواكه ، ورتب له الهرب إلى الشام دمشق عن طريقه بدون أن يعبر نقطة الحدود الرسمية حتى لا يختم على جوازه زيادة في الحذر ؛ ليلتقي بالضابط السوري الأرجنتيني الذي عرفه أيام الهجرة الطويلة كما روينا ، وعلى السائق ابن تلك القرى تهريبه لسوريا بدون العبور على حدود رسمية كما يفعل مهربو المخدرات والممنوعات ، فاستطاع زياد رفيق أحمد الجمالي إدخاله سوريا دون المرور على نقطة الشرطة والحدود ببعض المال داخل شاحنة محملة بضاعة ، ولم يختم على زواجه بالعبور ، فلم يسجل عبوره برا ولا بحرا ولا جوا وذلك كما يرغب ، ونزل في قرية قريبة من أبواب دمشق بضعة أيام ؛ لينتقل منها إلى شمال غرب سوريا مدينة قريبة من البحر الأبيض المتوسط في منطقة إدلب السورية ، وهناك تظاهر وظهر أنه سوري أرجنتيني كما ظهر في جواز سفره الأرجنتيني والتقى بتاجر اسمه عايش حسين زوده باسمه زياد سائق الشاحنة ، وبعد تعارف يسير شاركه في متجره على أن يتزوج أخته الأرملة والمطلقة السيدة عريفة حسين الإدلبي .. هذا رتب له قبل الرحيل السري ، بعد حين تزوج نزيه من المرأة شقيقة عايش ، وكانت تملك شقة أو بيت قريب من بيت أخيها عايش الإدلبي ، وكانت أرملة لديها بنت واحدة تدرس في الجامعة ، فساعد في تعليمها والصرف عليها كما اتفق مع أمها وخالها.

نزل نزيه بعدما تزوج الأرملة مدينة دمشق ، واتصل بالضابط البوليسي نواس العائد من الأرجنتين قبله بسنوات ، والتقيا في صالة فندق كبير وسياحي ، ولما انتهيا من الطعام ذهبا إلى

غرفة نزيه ، وحدثه وروى له محاولة اغتياله في قريته الهادئة والوديعة ، ولما فهم المحقق القضية وما هو المطلوب منه غادر الفندق مستعدا للسفر إلى مدينة سلام .

وبعد أيام قضاها في ربوع دمشق رجع نزيه إلى إدلب وبيت زوجته الأرملة التي كانت تحلم بالخلفة والولادة من نزيه ، فهي لم تكن صغيرة كانت في الأربعينيات من العمر ، ففرصة الحمل ستكون ضعيفة لمن في مثل سنها ؛ ولكن ممكن أن تحمل وتلد المرأة في مثل هذا السن .

ووجد نزيه أن لديها رغبة قوية في الحمل والولادة ، وكانت تضغط في هذا الاتجاه ، وهو لا مانع لديه بالحمل وأن تلد ؛ لكن كما علم من شقيقها عندها بعض المشكل الصحية ، فاهتم بعلاجها والإنفاق بسخاء ، وهو يعلم أنه أحد أسباب دوام العشرة بين الزوجين ، ويتنازلون عن المشاكل التي تعصف في الأسرة من أجلهم ، والرجل يعتبر مليونيرا حقيقة ، غني قادم من الأرجنتين ؛ حيث نجح ماليا واقتصاديا ، وأصبح دكتورا في المحاسبة والإدارة المالية ، ويتقن الإنجليزية والإسبانية لغة الأرجنتين المكتسبة من الاستعمار الإسباني للقارة الجنوبية .

ومع التردد على العيادات في الشام وتركيا المدن القريبة من الشمال السوري لم تثمر عن شيء من جهتها ، فتحدث نزيه مع عايش شريك التجارة في المواشي والصوف الطبيعي أن تكف عن طلب الولادة بعد عدم الفائدة والعجز عندها ، وقد رافقها عايش في السفر إلى الشام ومقابلة أخصائيين العقم والنساء . وخلال فترة البحث عن علاج كان نزيه قد التقى بالضابط المحقق كارلوس سعيد نواس الذي قال له: يبدو أنك أخطأت في اتهام أخوالك وزوجتك المطلقة يا نزيه .

فرد نزيه متأملا : أنا أثق بكلامك .. هناك قاتل وجريمة حدثت .. لا أعتقد أن أحدا أتى من الأرجنتين ليغتالني في بلدي يا كارل! لابد من عدو ..والقتيل لا أعداء له ؛ ليكون هو المقصود .. فلماذا يقتل ؟!

فقال المحقق المتقاعد : ظهرت في المجتمع المخملي كمهاجر غني قادم من أمريكا .. تعرفت على بعض أصدقاء أسر أخوالك مدعيا الرغبة بالاستثمار في البلد كما اتفقنا .. قدمت لي

مشاريع متنوعة ، وخلال شهر دعوت للسهرات والحفلات بكل سهولة .. مستثمر قادم من الغرب .. حتى أنني شعرت بأنني مكشوف ومعروف رغم أني لم أر تلك الوجوه من قبل يا نزيه .. سهرات حفلات دون فائدة .. والتقيت بمطلقتك مارينا وابنك سامي المحامي.. ودعتني للبيت ساعية لعلاقة جنسية مع مستثمر أجنبي .. وبينت لها ولغيرها من نساء ذاك المجتمع كبري وضعفي فانصرفت عني.. كبيرة وما زالت تبحث عن لذة الجنس ..وتزعم أنها تلتقي بشباب .. ولن أصدق أن شابا يلتقي بها لمضاجعتها يا نزيه.. المهم أنها منحلة لأخر درجة كما ذكرت لي .. وابنك سامي لا يُكن لها أي احترام حتى زعمت لناصر ابنك وسامي أنني التقيت بك أثناء زيارة لأقارب لي في الأرجنتين فاعلمني أنك عدت للبلد ، ثم هربت بعد محاولة أحدهم النيل منك.. لم أجد أثرا ولو صغيرا يبين محاولة الاعتداء منهم عليك .

قال نزيه وهو يحاول أن يصدق ما سمع : هل أعود للقرية وأنا مطمئن ؟!

قال كارلوس نواس مفكرا : لماذا يغتالون المهندس ؟ لم يشتغل معهم يوما ، ولا يعرفونه ؛ لأنه ليس من نفس قريتكم.. هو من قرية قريبة ، لما تزوج الدكتورة بنت بلدتكم رحل إليها وسكن في جمالة .. لم أجد له خصماء إن كان له خصوم.. الشرطة لم تصل للمجرم .

تنهد نزيه وقال : الجريمة مدبرة ومخطط لها يا كارل! .. كلنا أدركنا ذلك من الوهلة الأولى .. لم تجب على سؤالي هل أعود للوطن ؟

قال المحقق على مهل : حاول أحدهم قتلك حقيقة يا نزيه .. ثلاث رصاصات في مكان مهم لنزيه .. بعد صلاة الفجر ، وبقاء بعض العتمة .. والشوارع خالية من السيارات والمارة .. ومطلق الرصاص أخطأ الهدف بسبب العجلة .. فأصاب المهندس بدلا منك .. القاتل يعرف ما يفعل .. فلا أستطيع أن أبث في قلبك السكينة يا نزيه يا ابن يوسف!.. فالذي أراد قتلك، ولم يُعرف بالتأكيد سيعيد الكرة .. لكن لماذا ؟ لا جواب .. الدافع الإجرامي غامض .. ما هي الغاية من قتلك ؟ فقط الكره .. والحقد . . فزوجتك لك عقود هاجرها وشبه مطلقها .. فلماذا تنتقم اليوم ؟! فهي لا تعرف عنك شيئا بعد الرحيل .. وأخوالك لماذا يا صديقي ؟ فأمك

همزة الوصل بينكم ماتت بعد سفرك بسنوات.

ـ قبل الحادث لقد سعوا لإعادتها إلى ذمتي لما أشهرت طلاقي .. ولم يتضح سبب ذلك.. والشفيع لم يعرف السبب ، زعم أن ذلك من أجل خاطر الأولاد الذين لم يقدم أحدهم القرية للسلام عليّ أو حتى يكلف نفسه بالاتصال باستثناء ابنتي منها نداء .. وقالت نداء : لم يفعلوا ذلك عندما لاتهم بأنني تركت تربيتهم لمجرمة

قال كارلوس مبررا : هم خافوا أن يفعل غيرك ببناتهم مثلك يا نزيه ، وتصبح مثالا ونموذجا لمن بعدك .. هم يدافعون عن نظام بنوه من قبل أن تولد .

ـ لقد طلق ابني سامي ابنة ابن كبيرهم شاكر ؛ بل هددوا بموتي اذا لم أتراجع عن الطلاق الرسمي، لا يقبلون الهزيمة ، واعتبرت تهديدهم ساعة غضب .. وأفهمتني الشرطة أن لا يد لهم .. قلنا طيب من ؟.. مثلك سكتوا .. كما أخبرتك .. أنا أعرف عظم نفوذهم في الدولة .. وهذا أحد أسباب تشجعي على قبول الزواج من مارينا طمعا بمنصب إداري كبير مع تقدم الزمن .

قال : فالغضب والكلام خلاله بالتهديد والوعيد والموت وجهة نظر مقبولة لدى الشرطة والبوليس .. بس فليس كل من يهدد يقتل .. يوضع موضع اشتباه فحسب.. الغاضب يكفر ويضرب وقد يقتل ويطلق .

قال نزيه منهيا العقد : غدا نلتقي لأقدم لك أتعابك كلها.. ومصاريف الرحلة انتهى أمرها أم بقي لك في ذمتي شيئا .

ـ لا ؛ بل زاد .

قال : مبارك عليك .. مسامح فيه ..غدا سأسحب من البنك وأسدد الفاتورة.

رجع للشمال حيث الزوجة وابنتها وشريكه عايش ، وكان محتارا في حسم الأمر وممن يريد تعجيل موته ؛ فإذا لم يكن والد زوجته وعمها من يكون ؟! هل أحد أبناء مارينا يسعى لذلك من أجل المال والميراث؟ .. والميراث .. لم يخطر ذلك في بالي .. هل يرغبون بميراثي ويتعجلون

ذلك ؟ فسامي عمله جيد ومحامي ناجح .. وناصر يدير مصلحة ، ويأخذ من أمه .. وميساء أمورها سالكة .. وكلهم فشلوا في الزواج وتكوين أسر .. سامي طلق بنت خاله إسكندر ، وناصر طلق ويمشي على عكاز .. مارينا ماذا تريد من قتلي؟ أتريد الانتقام ؟ نحن عشنا عشر سنوات وآخر ثلاث سنوات منها أغلبها قضيتها في القرية ، ثم هربت لأمريكا اللاتينية مع ابن عم لي ـ رحمه الله ـ خلصني من وجع الرأس .. الأولاد هناك كانوا يحبون بقائي بينهم .. وهذه المرأة عاد بها الحنين لولادة ذكر .. والأمر بيد الله .. وسعيت بإخلاص لمساعدة عريفة على الإنجاب والحمل رغم بلوغي الستين.. الأمر بيد مولاي عز وجل .. الطب يقول: إنها غير صالحة للحمل .



طلب نزيه من عايش شقيق الأرملة عريفة أن يقنع أخته بالكف عن عرض نفسها على الأطباء ، وأن الزواج والحبل بأمر الله وقدره ، وقد رحلوا في أنحاء البلاد وجنوب تركيا دون فائدة حتى يبقيها على ذمته لتعود معه لجمالة ، هذا ما أخذه في قضية عريفة ، وبعد عودة المحقق كارلوس من سلام ولقائهما كما روينا قبل سطور أخذ يخطط للعودة لبلده سلام .. سأل نفسه كثيرا من الأسئلة .. هل يهرب أم يطلق أم يرحل للأرجنتين من جديد ؟ .. هو ترك الغربة ؛ ليختم حياته في جمالة ، ويقصد الديار المقدسة والمساجد الثلاثة للحج ، يريد إقامة ركن الإسلام الخامس .. يريد الحياة في الوطن.. ملّ وشبع من الغربة .. أولاده في سلام نسوه ، ويحق لهم ذلك .. فقد ابتعد عنهم ثلاثين سنة .. وأولاده في الغربة رفضوا العودة ، فتلك الديار ديارهم .

فلما تحدث مع زوجته بما يفكر من العودة لموطنه ، فقالت : لماذا لا نذهب إلى بلاد الكفار ونحاول العلاج عندهم ؟

فابتسم لها قائلا : الطب هنا كما هو هناك .. الطب علم عالمي ؛ ليس خاص بدولة دون الأخرى .. قد تكون التطورات أو التقدم أكثر وأسرع من البلدان العربية ؛ لكسلنا ونومنا الطويل.. فالأدوية الموجودة هناك موجودة عندنا ..والعواقر بالملايين عندهم .. ليس مقصورا فحسب على بلاد العرب أوطاني .. وقد قام عايش بك بجولات شرقا وغرب ؛ لأنني أنا أحب الخلفة أيضا مع أن عندي ثمانية بين ذكر وأنثى .. أربع في بلدي وأربع في بيونس ايرس .. فأنت غير قادرة على الإنجاب .. والسن تقدم بك .. فالرحم شبه ميت .. ولم أبخل عليك بالمال والدراهم .

قالت بصوت واهن وربما فيه حسرة أو خيبة أمل : لا أنكر فضلك يا أبا ناصر ، ولا كرمك معي .. مع ابنتي .. وحتى مع شقيقي الباقي عايش .

قال : الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .. ماذا أفعل لك ؟ الأمر لله فهو صاحب الأمر.

تنهدت وبكت وقالت : أنا لما ترملت على هدى حزنت كثيرا ، وكانت رغبتي بالزواج من أجل الحمل والولادة .. مولود مثل كل نسوان العالم ، رغبت بمولود ذكر من أجل خاطري وخاطر هدى ، وتزوجت ثانية من أجل هذه الغاية .. ولما عجزت عن ذلك طلقني الرجل .

فقال بعتب : ولماذا قمنا بكل هذه الفحوصات وأنت عاقر ؟ .. هذا تصرف شائن يا عريفة !

هتفت بحزن : الأمل يا سيدي ! الأمل .. وسخاؤك شجعني على المحاولة.. فأنت صاحب مال كما قال عايش وكريم .. الحمد لله أن عندي هدى .

قال بقلبه الكبير : الحمد لله .. اهتمي بها ، وادعو الله أن يحفظها لك ، ويهبها ابن الحلال ، وتلد لك البنين والبنات ، وترين أحفادك .

قالت : إن شاء الله .. سامحني يا سيدي الكريم .. المرأة خلقت ؛ لتكون أما يا نزيه .. وعايش طلب من البداية أن أسلم أمري إلى الله .

قال مشجعا : وهو الأفضل أن نسلم أمرنا في جميع أمورنا إلى الله.. فهو يتولانا بفضله ورحمته

قالت : ما رأيك بالسفر إلى الأرجنتين ؛ لتغيير الجو ونرى أسرتك وأقاربك وتعرفني بهم ؟

ضحك قليلا ورد : ترغبين بالسفر إلى آخر العالم .. فقبل قليل قلنا دعي التفكير بالعلاج .. فهم بلاد ضعيفة مثلنا يحكمهم العسكر والجنرالات ..وطبهم مثل طب بلادنا .. سنسافر إلى بلدي سلام عندما يشاء ربي .. وبعد تخرج هدى نفكر بالأمر .. ولعل زواجها يكون قريبا فابن شقيقك حاطت عينه عليها كما تقولون

قالت بضيق : صحيح .. وهو من أجل ذلك يكثر التردد علينا ؛ لكنها ترفضه ، ولا تريده .. ولمحت لي وله أكثر من مرة أن لا يفكر بها كزوجة .. ولها صديق راغب فيها كزوجة بعد الدراسة .

قال : تريده أكثر من ابن خالها .. وعايش يعرف ذلك.

قالت بفتور : قلت له ذلك .. وجلال ابنه عنده أمل أنها ستغير رأيها عندما يبتعد عنها رفيقها في الجامعة .. وستجده أمامها .. فهو مصر .. والأمر دائما لله يا أبا ناصر

ـ الله يستر يا عريفة!

قالت : لا تخشى شيئا .. أنا كنت أرغب بابن خالتي نبيلة ؛ ولكن قبل زواجنا مات ، فتزوجت والد هدى الأستاذ عبد الحميد .. ولدت قبلها أنثى ماتت طفلة ، ثم جاءت هدى ، ثم لحق بابنته .. وبعد سنوات زوجوني من آخر .. وتبين أني غير قادرة على الحبل .. فبعد علاج فاشل حصل الفراق إلى أن يسرك الله من سنة زمان بعد ترمل أكثر من عشرين سنة .

قال : لم يتقدم إليك خلالها أحد .

قالت : النصيب يحكم .. تقدم الكثير ؛ولكن لم يحصل أي نصيب .. كلهم يرغب بالذرية .. وليس المتعة والمعاشرة فحسب .. أنت الوحيد الذي يريد زوجة والحلال .

قال : نعم يا عريفة ! أريد زوجة والحلال لم أعرف طول العمر بفضل الله طريق الزنا والفواحش .. وأمر الذرية أحببته ؛ ولكني سلمته لربي سبحانه وتعالى يا أم هدى!

****

هدى عبد الحميد ابنة السيدة عريفة لما نكحت أمها زوجها الثالث نزيه يوسف كانت تتعلم في الجامعة في المستوى الثالث ، وكان خالها عايش هو الذي يتولى الإنفاق والمصروف عليهما لفقر أمها وإحسانا عليهما . ولما التقى به زياد السائق وحدثه عن نزيه الشيخ وأنه يرغب بالزواج من امرأة أرملة أو مطلقة حدثه عن أخته ، وحصل النصيب المقدر ، وكان عايش ينفق عليها لتعيل أمها في المستقبل اذا بقيا على قيد الحياة .

كان ولده جلال يرغب بها حليلة ، وتخيل وتصور أن انفاق والده عليها سيدفعها للقبول به زوجا ؛ لترد على الأقل الجميل كما يقال ، وجلال يعمل مع أبيه في تربية المواشي ، ولا يحمل أي شهادة علمية ، واعتبر ذلك مقايضة ، ولم أحست البنت بذلك ، وضحت له أن لا يحلم بها قرينة ، وأن هواها مع زميل معها في الجامعة ؛ لكن الشاب جلال مقتنع أن ما بعد الجامعة يتغير ، وأنه أكبر منها سنا ، وذاك من جيلها.

أحبت الفتاة ابن الجامعة محي الدين العبد ، وأنه أفضل وأنسب من ابن الخال ، وكانوا يرون

الفصل بعد التخرج ، وأمها صارحت شقيقها بموقف البنت ، ولا يضيع جلال عمره في الانتظار ، ولا يزعل من فشلها بإقناع هدى بالزواج منه.

فقال جلال : يا عمتي حب الجامعة حب فارغ ، ولا يثمر .. ونهايته الفشل والضياع .. ولا أدري لماذا أنت صامتة على هذا العبث يا عمة ؟!

قالت معتذرة ومجيبة : بنات اليوم يا ابن أخي لسن كبنات زمان !.. اليوم الشبان أمامها كثر .. ولا غنى لنا عن تعليم البنات.. صار التعليم الجامعي خطوة لطلب يد البنات والوظيفة .. أيام زمان تغيرت وولت .

فقال بحزن : الصبر طيب .. بعد التخرج يكون للقصة بقية .. فلتحب من تشاء.. وأنا يمكنني الزواج في أي حين .. لقد أحبت شابا قبله ، ولما رأى حشمتها وزيها وتمنعها تركها .. هؤلاء يرغبون بالشهوات الحرام .. ولولا تربيتها الجيدة من قبلك لذهبت في درب الإثم والخنا والحرام .. ربنا يستر عليها .

قالت : أنا لا أريد أن أخسر والدك .. فلم يبق من ذرية أبينا إلا أنا وهو .

قال : أولاد أعمامنا موجودون .. وأبناء أخواتك

قالت : أنا أقول عن ذرية أبي .

****

قالت الفتاة لجلال بحدة : أنت لن تكون زوجي يا جلال ! لن يكون زواجنا مفيدا للعائلة .. لم أشعر بأنني سأكون زوجة لك.

قال : أنا أشعر بذلك يا هدى ! ستكونين زوجتي يوما ما .. ولن أتزوجك رغما عنك كما نرى في الأفلام والمسلسلات السيئة الذكر .. أنا كما تعلمين ورددنا مرارا من سنين صارحتك برغبتي الاقتران بك.. والتخرج على الأبواب .. وسيقع حبك لي مع الزمن .

قالت بسخط وعصبية :لا تريد أن تفهم !.. أي زمن يا جلال ! هل لأن والدك ينفق عليّ أصبحت زوجتك .. دعني وشأني يا ابن خالي .

قيل هذا قديما ، وهذا الوضع تغير ، جاء نزيه الزوج الغني ، وأنفق على الفتاة بسخاء واضح ؛ كأنها ابنة صلبية ، وزادت تجارة عايش تجارة الغنم والصوف والأعلاف بالتمويل الذي قدمه نزيه . عارضت هدى في البداية نكاح أمها مرة ثالثة ، وذكرتها بزواجها الثاني والطلاق.

فقالت : هذا حال الدنيا يا هدى! .. وأخي خالك يريد ذلك .. والرجل غريب عن المدينة ، فهو من بلدة سلام .. ونخفف من العبء عن كاهل خالك .. والرجل سيساعد خالك في عمله .. ويساعدك لإنهاء هذا العام .. والرجل سيشارك خالك في شغله وتجارته.. والزواج شرعة الله يا حبيبتي .. وعسى أن أطعم بشقيق لك.. وأنت تعلمين أن أباك لم يترك لنا شيئا إلا هذا البيت ، ولنا فيه شركاء بحكم الورثة لو فارقناه باعوه ثاني يوم ؛ بل الرجل كما قال أخي سيدفع لنا أجرة رغم أنه بيتي وينفق عليك حتى تتخرجي وتتزوجي ابن الحلال.

حصل الزواج كما تعلمون ، وأحب نزيه دفع الأجرة ، ولا يعيش على إحسان الزوجة في بضع دنانير أو ليرات كما يتعامل السوريون . ولما فشل كارلوس في مهمته البوليسية فكر بالعودة إلى جمالة مسقط رأسه ، ويعيش حياته آملا بالسلام والأمان .

أنهت هدى الجامعة تحمل شهادة لتدريس اللغة الفرنسية لغة المستعمر لشمال سوريا الكبرى ، ووجدت فرصة عمل في العاصمة في إحدى الصحف الأجنبية .

أبدى الخال والأم الامتعاض والاعتراض على بداية العمل خارج المحافظة ، ولما تحدثوا عن الزواج ، فأخبرتهم أن صديقها تخلى عن الزواج قبل التخرج بشهور ، ولا ترغب بابن خالها ، وأما نزيه فقال : الأفضل أن يكون الزواج برضى الطرفين .. واليوم لا داعي للضغوط والإجبار ، وعلى جلال أن يقترن بغيرها .. وأنا سأتحدث معه . فهدى أخبرتني بذلك ، وأعلمتني بترك صديقها الزواج منها قبل تأمين مستقبله في سوق العمل .

وسافرت هدى للعمل في العاصمة ، والتحقت فعلا في الجريدة الأجنبية التي تكتب للأجانب في البلد العربي السوري باللسان الفرنسي . ومضت السنوات الثلاثة في سوريا ، وحسم الأمر .. وحان زمن العودة للقرية والتوكل على الله ، وأخبر عايش بالأمر ، ولما يستقر في جمالة

سيبعث لأخذ زوجته عريفة ، وأنه ترك وتنازل له عن أموال الشراكة .

ولما نزل الشام التقى بهدى في شقتها المستأجرة ، وودعها وأعطاها بعض المال ، وسافر جوا إلى مدينة سلام ؛ لعله يلقى فيها السلام والإكرام ، وكان قد اتصل بأبيه وأخبره بقرار العودة لمدينة السلام . تفاجأ أهل البلدة بعودته ، كما تفاجأوا باختفائه ، ورحبوا به بحرارة ؛ كأنه ميت وعاد للدنيا من جديد ، وعلمت الصحف المحلية بالعودة ، ونشرت الخبر في ثنايا السطور والصفحات ، وتبين لهم أن الخطف والقتل إشاعات وأباطيل .

****

لما استقر في البلد اتصل بأخ عريفة وطلب منه المجيء بأخته لجمالة حيث يعيش ، وطار بها عايش لسلام ، وصحب زوجته معه ، ورحبت بهم عائلة يوسف الجمالي خير ترحيب ، وقدمت لهم أفضل الضيافة وقدم عايش وزوجته الشكر الجزيل ، وتمنى له السعادة والحياة الطيبة برفقة وصحبة أخته.

وكان يهمس لأخته : هذا بيتك وقصرك الجميل .. وزوجك السخي الطيب وأهله الكرام .. حافظي على هذه النعمة .. واشكري العالي في علاه .. واعلمي أن سبب مجيئه بلادنا مشاكله مع أخواله ووالد زوجته المطلقة .. فاحرسيه قدر طاقك .. فالرجل كما حدث تعرض لغدر من مجهول ، ولم يعرف رغم مرور هذه السنين.

قالت : لم أكن أظن أنه سيد .. فأخوه الأكبر قاضي كبير في البلد ..وأخواله من كبار وعلية القوم .. كان أحدهم وزيرا .. وإخوته أصبحوا في مراكز متقدمة في البلد .

قال : لكنه أغناهم يا عريفة كما حدثني والده الشيخ .. فقد وفق كثيرا في هجرته لبلاد أمريكا .. ودفع بسخاء لعلاجك ولابنتك.. فقد كان سيدا كريما بحق .

قالت : نعم ، كان يتحدث عن أملاكه وأولاده في تلك البلاد البعيدة ، وأن زوجته أم جعفر من أصل سوري مثلي أنا.. وتحدث عن ضعف العلاقة بينه وبين أولاده من ابنة خاله باكر هنا .. وابنته الصغيرة نداء امرأة محترمة وفاضلة رحبت بي وتمنت لي التوفيق في الحياة مع أبيها ..

أسأل الله أن يحفظه من يد الغدر .. وقد قام صهره بتشييد مصنع دواء كبير في طرف البلدة يتكلم عنه البشر فهم فيه شركاء .

قال: صحيح والفضل لله سبحانه ، وهو موفق .. وسوف يشرع ببناء مسجد عن روح الشاب الذي قتل غدرا نيابة عنه .. وتعهد لزوجته الطبيبة التي تعمل في المركز الطبي بتعليم ابنها وابنتها على نفقته عندما يدخلان الجامعة رغم أن زوجها الثاني رفض ذلك التعهد فالطفل ابنه .. هكذا المفروض أن يكون من يملك .. هل يأخذ الإنسان عند الدفن شيئا ؟!

قالت بصوت منخفض : هل زال الخطر عنه يا عايش ؟

ـ لا أحد يدري .. انتبهي لمن يزوره .. من يرقب البيت ؟ هو وضع ثقته الكاملة بمولاه عز وجل .. ولا يرغب بالعودة لبلاد الأجانب .

ـ الأمر لصاحب الأمر يا سيدي !

قال : نعم ، الأمر لله .. خذي بالك .. وعليك برعايته ؛ لتدوم العشرة ، ولا تعودي لموضوع الخلفة والحمل .. أنا مسافر للبلد غدا أو بعده.

ـ والبنت !

قال لطمأنتها على هدى : البنت ـ يا عريفة ـ ليست بحاجة لك.. فهي تعيش في الشام وحدها منذ شهور .. بنات اليوم لهن طباع الرجال ؛ ربما تسعد برحيلك إلى جمالة .. وقد قل مجيئها إليك بسبب الشغل .. ولعلها تجد ابن الحلال .. وجلال يئس وتزوج بنت أختنا .. فماذا تفعلين لها ؟ والتلفون بينكم موجود .. اليوم الذكر لا يستطيع إجبار امرأته على أمر .. فكيف بابنة الجامعة؟ والطنطنة حول حرية المرأة وحق الإنسان شمخ بأنوفهن للسماء ؟ فكيف بابنته يا عريفة ؟!.. نقول الله يستر عليها .. اشغلي بالك في نزيه

قالت : أمين أمين .. أسأل الله أن يكون قريبا ؛ لارتاح من همها يا عايش .. عاشت يتيمة كما تخبر.

قال مواسيا : كلنا أيتام .. كنت قلقا وخائفا من غضب نزيه عليك أيام فترة المعالجة من العقم

.. خفت أن يثور ، وقد ارتحت له وأحبه قلبي ، والمحبة من الله.

قالت : الأمل يا أخي الأمل وكرمه .. والطب يوميا يتقدم كما يزعم كل حكيم قابلناه وتعالجنا عنده .

قال : هو يتحدث عن الحج ؛ ربما يذهب بك للحج معه .. الناس تحب أن تختم كبرها برحلة البيت العتيق والمدينة فتصبحين الحاجة عريفة.

قالت : إن شاء الله .. الله كريم .. أشكرك أنت وزوجتك يا ابن أمي وأبي.. واذا باع البيت الورثة سأتنازل عن حصتي لك .

قال : قد أؤجره ..فهو لن يباع في ساعات.. حتى أتأكد من ثباتك على ذمة زوجك .. فالغربة مرة ؛ ربما تشعرين بالوحشة بعد حين .



كان نزيه يوسف يدرك أن عدوه الخفي الذي فشل في صيده والغدر به سيكرر فعلته رغم خروجه لمدة ثلاث سنوات قضاها في شمال سوريا سيحاول مرة أخرى ؛ فكان يقول لأبيه الشيخ : أحس أنني متبوع ومراقب .. ففي المسجد رجل غريب ومريب .. أنا أعلم عظم حقد مارينا عليّ قبل سفري القديم .. خشيت أن تضع لي سما في طعامي في ساعة جنون .. وكذلك والدها ، وأنه هو وراء الجريمة إحساس لا يفارقني .. هم أرسلوا القاتل المستأجر .. أنا عشت قريبا منهم يا أبي.. كان باكر شرسا حقودا منتقما مخيفا ، وكذلك شاكر ولكنهم خاليّ .. كانوا لا يسمحون لأحد أن ينال منهم ..كان موظفو شركاتهم مرتعبين منهم .. ومن انتقامهم ، لا يسامحون المخطئ البتة.

قال الشيخ وهو يعود لستين سنة للوراء : أنا أعرف أخوالك الأربعة وأبناء عمهم حق المعرفة قبل أن تولد يا نزيه .. لقد رأيت وعرفت عنفهم هنا قبل أن يرحلوا للمدينة .. ويرتاح الناس منهم ومن شرورهم .. وأنا تزوجت أمك أختهم ـ رحمها الله ـ لمصاهرات قديمة بين عائلتينا ولظروف معينة ، ولكف شرهم عن أبي المسكين الذي ضغط عليّ لمصاهرتهم ولديون تراكمت عليه لوالدهم ووالده .. وكان بينهم عمل خفي شعرت به لما تزوجت أمك ؛ لكني لم أعرف تفاصيله ولم أفهمه حتى زوجتي أمك لا تعرفه .. المهم أن أبي تورط معهم في تهريب مخدرات أو سلاح بسيارته .. ومات بظروف مريبة يا نزيه.. ولم تعرف التفاصيل .. مرض ثم مات قبل أي علاج ناجع .. ولكنك لما سكنت المدينة هويتهم واستلطفت الفتاة .. أنا سعيت لإنقاذك سريعا وبطريقة أدبية ..ولكن كان هواك معهم ، وترى المستقبل معهم .. فقلت الناس تتغير .. فهم يرسمون ويدبرون لاختيار أزواج بناتهم وأخواتهم .. والناس تريد المال والشهوات .. أنت كررت حادث أبي ، صحبهم حتى زوجوني أمك بظروف غير ظروفك بالتأكيد ؛ وربما مات أبونا مخنوقا ، لم يكن مرضه خطيرا كما قال طبيب القرية .. لم يكن معه أحد تلك الليلة إلا جدتك الضعيفة السمع والبصر ، ولم تسمع حسا وصوتا ،ولم تر شيئا حتى

وقع الموت .. ولم يعرض الوالد ـ رحمه الله ـ على الطبيب الشرعي قالوا وفاة طبيعية.. لم يخطر على بالنا القتل تلك الأيام .. ولم تعش أمي بعده كثيرا .. وماذا ستفعل أمام إحساسك المرعب مع ما قيل وقال عن موته ؟

قال نزيه : كنت أطمع أن أصير مثلهم ثريا من رجال الحكم. صمت لحظات ، وعاد يقول : لا داعي لنبش الماضي ، نكنت معجبا بهم وقوتهم .. صممت أن أعمل كمينا ؛ فإما أن أقتل أو أنجو .

ـ ولماذا لا تذهب إلى الأرجنتين ؟فلك أسرة وتخلص من الخوف من المجهول!

ـ وعريفة ؟

قال : تأخذها معك .

فكر قليلا وقال : هذا ليس حلا عدت لادفن هنا يا أبي !.. عمها كان يرفض الطلاق بشدة ؛ كأنني متزوج ابنته هو .. حتى لا أشجع غيري على فتح هذا الباب بزعمه .. ففرت إليكم تجنبا للمشاكل .. وابني سامي طلق ابنة ابنه إسكندر وصمت.. تشاطر عليّ فقط.

ـ ظرفك كان قبل ثلاثين سنة يا نزيه ! ولا تنسى أنه هو الذي جاءني ليمنع زواجك من ابنة قديس شريكي رحمه الله وغفر له ..فهو الذي زوجك بنفسه .. على كل ما هو الكمين الذي تفكر فيه؟

قال صافنا : الكمين أن رجلا كما قلت سكن حديثا في البلدة ، ويصلي في مسجدنا ، وشعرت أنه جاء لأمر خفي .. فسألت عنه فقيل سكن من أيام رغم زعمه التدين والفقر والمسكنة .

ـ يستغل الدين للجريمة .

قال : المراقبة فقط ..للأسف مثله كثير .. يستغلون لمثل هذه الأعمال القذرة من التلصص والتجسس.

قال يوسف : ألا ترى أن خوفك وقلقك جعلك تفكر بذلك وتشك في الرجل ؟!

رد نزيه : الكمين سيكشف ذلك .. أراه يتابعني بعينيه في المسجد بحقد ومكر.

الرجل قلق على حياته ، وهو يعلم قوة حقد مطلقته عليه وتهديداتها بقصف حياته أثناء فترة زعلهما الأولى ، عندما كشف مرضها الجنسي ، وتلويحه بالزواج ، لم يتقبلوا الزواج عليها ؛ فكانت أشدهم سخطا وحمقا ا، وقد دمرت أولاده دون شفقة وعطف ، وتذكر كيف أجبروه على الزواج منها ؟ رغم رفض والده للزواج من بناتهم ، وسعى لتزويجه من ابنة صديقه قديس وصمتت أمه أمام ضغطهم ، وحدثته عن المستقبل أمامه بتقوية علاقته بخاليه .

وقال له أبوه مستسلما : تزوج .. أطعهم يا نزيه ! هم أخوالك تزوج كما تزوجت أمك .. نحن أهل وأقارب .

لما كبر عرف معنى هذه الجملة بشكل جيد ، فهجرته أنجته من مضايقتهم وحقدهم وبغضهم لهذا الخوف الذي تجمع في بدنه هرب سرا وخفية خشية الإيذاء البدني والعدوان ، كان يخافهم ومرعوبا منهم ومن تهديداتهم ، لم يعلم أن جده قد يكون مات خنقا وجناية ، الوالد لم يصرح بذلك إلا له ؛ فكان لديه شك كبير باغتيال أبيه ، فالذي يقتل مرة وينجو يفعل ذلك ثانية، بالتأكيد لم يفعل ذلك شاكر أو باكر .. قد يكون والده مخطئا في ظنه ، لكن أحاطت بجده ظروف سيئة جعلت أبي يشك ويظن .. ألم يتعرض هو لإطلاق النار أدت إلى موت المهندس خالد ؟.. الخال لا يقتل بيده ، يقتل بماله ونفوذه .. الشرطة لم تجد أدلة ملموسة على الجريمة ، لا تريد أدلة ظرفية يسهل إنكارها.

لما قرر نزيه العودة لجمالة كلف جعفر بإرسال سيارة مصفحة ضد الرصاص ، ومثل هذه السيارات منتشرة في القارة الجنوبية لسطوة وعنف عصابات المخدرات ، ووصلت بعد مجيئه بزمن يسير ، وأصبح يتنقل بها للمسجد والسوق والأعمال ، ولم يعد يمشي على القدم .. كانت هذه الوسيلة توفر الأمان بعض الأمان .

لما علم بمجيء الرجل للحي حديثا ، وتردده على مسجد الحي أو المجاور بعد عودته من الشام اشتغل به ، وظنه جاسوسا من قبل أخواله ومطلقته . ولما سئل الرجل عن سبب سكنه البلدة ، ادعى أنه يعمل في مشغل على طرف القرية بينها وبين قرية أخرى ، وهو يعمل في

تصليح الآلات المنزلية كالغسالات والمكانس الكهربائية وما شابهها ، والمحل تبين أنه قديم ، وفيه قريب للرجل الغريب ، وتشارك معه من زمن قريب ، فارتبك نزيه لما علم هذه المعلومات ، وكان كثرة اختلاسه النظر إليه شغله وأربكه ، وتبين أنهما قريبان يعملان في نفس الحرفة ، وأنه يعمل بيده كفني ، وأن نظره إليه مجرد فضول ، لما سمع من بعض المصلين أن هذا الرجل كاد أن يقتل على باب المسجد ، وقد قتل شاب بدلا منه ، فهو لا يستطيع قتل نملة، فكيف يقتل إنسانا خفية ويهرب ؟ فلم يبدو لنزيه بعد ذلك أنه عين لأخواله ، كان رجلا بسيطا ، فنزيه يعلم أن لأسرة أخواله علاقات جيدة مع أجهزة الأمن شرطة استخبارات ، فقد عاش بينهم عشرة أعوام ، ورأى قوتهم وعلاقاتهم ،وكيف يحلون مشاكلهم وقضاياهم مع الآخرين ، وكيف كان يعامل في وزارته ، فهو ابن أخت الوزير شاكر ، وحماه باكر ، فهم رجال مال وأعمال ، فكانوا يشكلون قوة اقتصادية في المدينة ، واليوم زادت وكثرت العائلات القوية والأسر الأخرى بزيادة عدد سكان المدينة ، وزادت المنافسات والمصالح بينهم على النفوذ والسوق والمال . كان نزيه يعلم قوتهم ومصاهراتهم وانحلالهم خاصة أبناؤهم وأحفادهم اليوم .. اعتقد نزيه أن خصوماته معهم انتهت بسفره إلى الأرجنتين ، وثانيا بفشل محاولة قتله ، وأصبحوا تحت عين الأمن ، وهو يرى نفسه أنه لا يقل عنهم ذكاء وفطنة ، وقد نجح نجاحا كبيرا في الأرجنتين ؛ ولكن لهم قوة في الأمن .

اختفى رجل المسجد رجل تصليح الآلات المنزلية ، وهل أدرك أن الناس يشكون بأنه عميل لأهل سلام أم أن الرجل شعر بضيق وعيون الناس ترنو إليه ؟ هل نقل إليه أحدهم قلق نزيه منه ؟ ربما .. فكما ظهر فجأة اختفى فجأة ، رحل قبل عمل الكمين ، وترجح لدى نزيه أن لا علاقة له بأخواله ؛ إنما تصادف سكنه برجعته ، وتوقف الكمين الذي كان يفكر بعمله .

وبينما هو في هذه الحيرة والارتباك ، اتصل به ولده ناصر دون إشارات ومقدمات ، وأنه أخذ رقم منزله من شقيقته الصغيرة نداء . وقال بعد التحية والتعريف بشخصه : أعرف أنك أبي .. وأنك هربت من أمي.. فلا داعي للعتب والاعتذار لا منا ولا منك .

وكان الاتصال دون تمهيد ، وطلب منه اللقاء لأمر خاص ، فرحب نزيه باللقاء الخاص وسعى أن يكون اللقاء في البلدة ، فمن القلق والخوف همس لنفسه : هل هو شريك معهم رغبة بالميراث ؟ فهو ضعيف الحال كما فهمت من نداء الغالية ؛ ولكنها تقول إن علاقته بأمه وأهلها في غاية السوء ..كلها مشاحنات ومشاكسات .. وهمس : هل يستدرجونه للمدينة ؟

وكان اللقاء في القرية كما رغب ، وجاء ناصر بسيارة أجرة ، وجلسا في بيت أبيه يوسف وبعد الضيافة ، قال ناصر : أنا لا أزعم حبك .. فقد تعودنا على بعدك وغيبتك .. ولا أزعم الشوق إليك .. أنت بالنسبة لي مجرد أب .. قضى شهوته ممن هي أمي فجاء ناصر.. ولا انكر أفضالك على الإنفاق عليّ وعلى إخوتي وتدريسهم وعلاجي .. ولا أعتب عليك تركنا عند ممن تسمى أمنا .. وليس لي دين وأي مبدأ.. فأخوالي وأخوالك أعداء وخصوم لك .. وكرههم وبغضهم لك انتقل إلينا .. وحقدهم عليك وعلينا .. وربما وسوس لك الشيطان برغبتنا بقتلك من أجل المال ؛ كما لمحت بعض الصحف المجرمة .. صراع عائلي كاد يؤدي بمقتل نزيه يوسف رجل الأعمال القادم من الأرجنتين .. فأنا جئت إليكم رسولا منهم أحمل رسالة .. هم يعلمون أنك أرسلت لهم ضابطا غبيا عاش في وسطهم ؛ ليعرف دورهم في محاولة القتل .. الرجل الشامي الفاشل .. كما يقول خالك شاكر .. هم يرغبون في الصلح وإنهاء الإشكال والقيل والقال.

قال : الصلح ! أي صلح يا ولدي .. هم أعلنوا للبوليس أنهم أبرياء من دم المهندس خالد .. ولا يد لهم في مصرعه ، فهل سيدفعون الدية ؟

قال : لن يدفعوا دية ، ولا يؤمنوا بها .. أنت تعلم يقينا أننا لا دين لنا .. ولن يقروا بجريمة أنكروا فعلها قبل سنوات .. هم يريدون صلحا حتى لا تبقى الجرائد الحاقدة تتكلم في القضية وأن السيد امتلك سيارة مصفحة ناقلة جند يتحرك بها خشية الغدر به .. وهربك القديم والجديد.. يريدون فتح صفحة بيضاء .. لكم دينكم ولي دين .. أدركوا أن أمرهم مكشوف .. وأنك لو قتلت سيتهمون بدمك .. وأنك ربما تفكر بالانتقام .. ومن هي أمي كما تزعم فهي

على وشك النهاية .. فيها علل كثيرة سوى أمراض الزمن.. أمراض الكحول والفحش .. فهي بعدك أصبحت عشيقة كل الرجال .. تنتقم منك بفعل القبح والفحش لا أدري كيف هذا الانتقام ؟! لا يمر علينا يوم ، ولا يدخل طبيب المنزل لمعاينتها وكتب روشته طبية ، ويعيب على وصفات من سبقه .

تنهد نزيه أسفا وقال بكره بين : هي لا تعرف شرفا ولا عفة.. همها القمار والتبرج والسفور وبعض المخدرات .

قال : أنت أعرف بها منا .

فقال : وكيف يكون الصلح يا ناصر الذي سمحت لنفسك أن تكون فيه رسولا ووسيطا ؟ ! ومن يكفله ؟ ودم القتيل غيلة ...

قال ببرود : إن الإجابات والقصة القديمة لا أعرف عنها شيئا واضحا .. أنت كما علمنا شككت في جدي باكر وشاكر .. وأنا شككت في أمي التي كانت زوجة لك .. نفت أي علاقة لها في الجريمة .. وإنك بعيد عنها من عهد بعيد .. فلماذا تقتل اليوم ؟ .. وكما أحبتك شابا كرهتك وبغضتك كهلا وشيخا .

تنهد ثانية وقال : اذا لم يكونوا هم من يكون يا ناصر ؟ كيف الصلح ؟ ومع من ؟

قال : مع جدي الذي كلفني باللقاء بك وشقيقه اللعين .. آه كم أكرههم !.. أنا لا أحبهم .. ولكني اليوم عالة عليهم .

قال : أبهم قوة ومورة ؟

قال : بيتنا ميت ، وهما ميتان ؛ لكن عقلهما ما زال يمكر .. عقل مجرم .. ما زالا يديران الأعمال والمال ويسيطران على كل أفراد الأسر .

ـ وأنت ألم تفكر بالعودة للدين والحياة الهادئة والزواج ؟

قال : حياتي هادئة إلا اذا اعتبرت الشراب والبغاء ضد الحياة الهادئة.

قال بشفقة واضحة : الشراب الذي احترفته هو الذي حطمك.. ألم يكن هو سبب ما حل بك

وبأمك كما قلت قبل دقائق ؟ .. والبغاء يجعل من الرجل حيوانا فحسب يتنقل من نعجة إلى أخرى .. الحيوان الذكر وظيفته النزو على الإناث والطعام .. الحياة في هذه البلدة هادئة جدا يا ناصر .. أنت ماذا تعمل اليوم؟ قالت نداء : إنك لا تعمل منذ الشلل الجزئي الذي أصابك ، وتعتمد على جيب أمك ، وكلفت أحدهم بالشغل في محطة التصليح ، وإنك لا تستفيد منها شيئا ؛ إنما وسيلة للخروج من البيت، وإنك تشتغل كباقي الناس .

قال : جيب أمي ممتلئة ! أليست هي التي علمتني الشراب والنساء؟ .. أمي جيبها كان ينفق بإسراف وجنون على مجونها ومكياجها وسفورها.. أنا أتاجر بالسيارات المستعملة أيضا .

قال : ارحل هنا ، وسأعمل لك أحسن مصلحة ، وراتب شهري ، ونجد لك زوجة.

قال : أعلم أنك رجل طيب وسخي وثري .. ماذا أقول لعم مارينا العجوز ؟

ـ دم الميت القتيل لم يبرد.. ماذا قالوا بخصوصه ؟

ـ اذا صح ظنك لن يعترفوا بالفاعل والمدبر يا سيد نزيه!

قال : يا ولدي الدم في رقبتنا .. أنا صحيح قدمت للأرملة ووالديه مالا .. وهم يعلمون أن المقصود بالاغتيال نزيه .

قال : ماذا أقول لهم ؟

ـ أين اللقاء؟

قال : أنت أين تحب؟

قال باسما : هنا .. أتراهم يقبلون ؟

قال : ولم لا يقبلون ؟! هي بلدهم ، وما زال لهم أملاك فيها .

قال : رتب الأمر .. فأنا ليس لي عدو سواهم.. أنا ظننت أن حقدهم همد وبرد منذ مغادرتي أرض سلام .

قال بحقد وغيظ : هؤلاء عيلة لا ينام حقدهم وبغضهم إلا بزوال الخصم .. تعودوا على الظلم وسحق خصومهم .. فرغم كبر سنهم عندما تذكر أمامهم يفقدوا الصواب ..

ويندهش السامعون لشماتتهم وبغضهم ، وأولادهم أسوا منهم حتى الأحفاد ورثوا كبرهم وحسدهم .. نحن من عاش في حضنهم .. قضيت عمري في النزاع والشتائم معهم ؛ لكنهم أقاربنا وأخوالنا .. إنهم في ضيق .. يبدو أن الشرطة لما عدت حذرتهم من المساس بك.. فالشك منطقا متجه إليهم .. واليوم شقيقك إبراهيم عمي رجل كبير في الدولة .. وكذلك ابنه القاضي أيضا .. فاللعب ليس لصالحهم .. فلذلك يريدان أن يظهر الصلح أمام الناس ، وتكتب عنه الصحف .

ـ التقيت بعمك؟

ـ مرات بسبب الكثير من القضايا المالية والأخلاقية .. وساعدني في قضية مالية ، ودفع أتعاب المحامي.

****

ذهب نزيه وشقيقه الأكبر إبراهيم وابن أبيهم نزار وثلاثة من أبناء عمومتهم إلى فندق ذي نجوم خمسة في مدينة سلام في قلب المدينة الزاهرة للقاء أخوالهم لإجراء مصالحة تاريخية وعهد بينهم ؛ ليعيش الكل في سلام . حضر من الفريق الثاني باكر وشاكر وابن لهم وبعض الأحفاد ، وكانت امرأة كبيرة بينهم هي سكرتيرة قديمة للسيد شاكر .

كان اللقاء في صالة من صالات الطعام في الفندق ، والتفوا حول طاولة كبيرة أعدت للقاء ـ فهذا الفندق ملك لهما ـ فبعد الترحيب والتذكير بالقرابة والخؤولة قال شاكر : نحن بيننا صلة قرابة تجمعنا .. وأمكم يا حضرة القاضي أختنا وابنة أبينا ـ رحمهم الله ـ وبيننا مصاهرات قديمة وحديثة .. وسامي ابن أخيك تزوج ابنة ابني ؛ كما تزوج أخوك ابنة أخي .. ونحن قبل ذلك أبناء قرية واحدة ، وهي بلدتنا ، وإن تركناها .. ولم يبق لنا فيها الكثير من الأملاك والأراضي.. ونحن هجرناها بداية شبابنا.. وكانت بلدة صغيرة .. فطاب لوالدنا العيش في المدينة لخدمته في الجيش ، ووصل لرتبة عالية كما تعلمون ، ثم رحلت بعد استقراره في المدينة باقي أفراد الأسرة كلها .. أقصد فرعنا نحن .. والله أعطانا .. وصرنا على ما نحن فيه .. ولا

داعي للخوض في تفاصيله.. ووفقنا في التجارة والصناعة بعد بيع الكثير من أملاكنا في القرية .. وقدر لنا الوصول لمنازل مهمة في الدولة .. وتزوجت أختنا من أبيكم الشيخ يوسف.. فنحن أخوالكم رغم أنوفكم ..ولم نكن نقصر في مساعدتكم بالتعلم والعمل في المدينة إلى أن جاء السيد نزيه المدينة ، وتعمقت علاقتنا به على غير ميعاد .. وهو ابن أختنا ، وكان محبا لنا ومعجبا ومتعاونا ، ولم ينتقد طباعنا وعاداتنا التي تختلف عن طباع وعادات القرية .. وكان بينه وبين ابنة أخي استلطاف منذ حل في منازلنا ، وأحبه باكر ورآه مناسبا ومقبولا لابنته .. لا نريد أن نقول حبا وغراما .. وهو يومها كان شابا ذكيا .. وكنا نرى له مستقبلا واعدا في الدولة والوظيفة العمومية ..وبمساعدتنا قلنا سيصل لهدفه .. فرأينا أن نزوجهما لامتداد الصلة بيننا وبين أختنا وبين عائلتكم .. ولم يعترض.. ولما هم والدكم يوسف بتزويجه اضطررت للضغط عليه وتزويجه من مارينا لما بينهم من استلطاف وحضوره بعض حفلاتنا ، وقبوله دعواتها وسهراتها ، واعتذر أبوكم من صديقه في القرية ، وتزوج نزيه من مارينا ، وعاشوا في انسجام ووظيفة جيدة ، وكما هو معروف رواتب الحكومة ليست كرواتب المؤسسات الخاصة .. ونحن كن نرسم له مستقبلا مهما مع تقدم العمر .. ابن أختنا وزوج ابنة أخي ..هذا كله تعرفونه أيها السادة ، ثم حدث بعد ولادة صغرى بنات مارينا باكر مرضا عجزت على إثره مارينا من الولادة مع أن أربعة مواليد كفاية في مثل هذا الزمن.. والأخطر المرض الجنسي وصعوبة الممارسة الجنسية كما تعلمون ..ولم يفلح العلاج ..وعانى نزيه .. وهو نظيف لم ير بجواز الاتصال بالنساء عن غير الزواج كما يفعل غيره .. فأخذ يفكر مبكرا بالزواج على مارينا .. وكانت مارينا ترفض بشدة .. وكذلك والدها وأنا .. فهذا أمر محذوف في قانوننا .. فرأى الطلاق ، وهذا رفضناه ذاك الزمن ؛ لأنه إساءة لنا قبل مارينا .. فمنذ رحلنا للمدينة حرمنا التعدد والطلاق .. ونزيه يعلم هذه المبادئ لمعايشته معنا .. وصبر قليلا .. ثم هرب إلى الأرجنتين كما خبرنا بعد حين .. وخف نزيف الدم عن مارينا ، لم تتعافى تماما رغم إرسالها للعلاج في فرنسا .. صحيح نحن قمنا بتهديده وتخويفه من الزواج عليها . . ومنعه من

الطلاق ، ورغبناه عندما هاجر للقرية أن يعود لها ولأولاده الأطفال ؛ لكنه فضل الهرب ، ثم علمنا بزواجه ، ولم تصل ورقة الطلاق ، فتركنا الأمر .. وظلت مارينا في نظرنا زوجة زوجها مهاجر .. وهذا موجود في واقع الناس .. ولما عاد كما تعلمون أول فعل فعله أشهر طلاقه زاعما أنه طلقها في الأرجنتين حتى تسمح له المحكمة بالزواج ؛ ليتزوج من جديد .. وتعرض كما يقال لمحاولة اغتيال .. وشكت الشرطة بأننا وراءها حتى سألتنا الشرطة على استحياء .. وبيّنّا لهم بعدنا عن الجريمة ..وصدقونا ؛ لأنه ليس لديهم شاهد أو دليل .. مجرد شك .. ولكن هناك جريمة .. هناك رجل محترم قتل .. فاتهام نزيه مجرد وهم .. والشرطة كما طلبت أنا منهم أن يتحروا جيدا .. فهناك ضحية .. ثم هرب أخوكم للشام ، وأرسل لنا محققا ساذجا وأحمق .. أراد أن يعمل هولمز علينا .. ومكث شهورا بيننا .. ويبدو أنه اقتنع ببعدنا عن الحادث الإجرامي .. رغم شدتنا في التعامل مع من يعمل معنا ويخدعنا .. ويبدو أن الشرطي الخاص اقنعه ببراءتنا من دم الرجل .

صاح نزيه : من قتله ؟.. هل انتحر ؟ أليس هناك قاتل ؟ .. رصاص أطلق علينا يا أبا سليم .. لماذا قتل ؟

قال شاكر بحدة : قتل نعم قتل ! هل يعني هذا أننا نحن قتلناه؟! اصمت والزم الصمت .. رغم سني ما زلت قويا ، وما زلت خالك.. نحن لم نقتله .. ولماذا نقتل؟! سألت نفسك .. وما الفائدة من قتلتك؟ .. لن نرث درهما منك .. لا نحن ، ولا مارينا .. الشك في أولادك أولى .. قد يستفيدون من موتك مع أنهم ليسوا في حاجة لمالك .. فسامي محامي كبير اليوم كما يعلم إبراهيم .. وميساء ناجحة ولها عمر في الإذاعة الوطنية .. وقد ارتكب سامي جرما كبيرا في نظرنا وطلق ابنة ابني ولم نقتله يا إبراهيم !

قال إبراهيم : العفو يا خالي ! المشكلة والقضية أن هناك قتيلا .. جريمة لم تكشف خيوطها .. ولم نعرف فاعلها .. هناك قاتل مجهول للعدالة .

قال الخال : ستصل الشرطة يوما ما إلى قاتله .. سمعنا عن جرائم في بلاد متقدمة كأمريكا

وكندا بعد عشرات السنين عرفوا القاتل .. نحن نريد الصلح ليس ؛ لأننا قتلة .. نريد الصلح لنخلص نحن وأنتم من غمز الصحف ورجال الصحافة والأحزاب .. ونحن نقترب من الموت .. فنتعاهد على طي صفحات الماضي والهرب والجريمة .. فرأيت هذا الاجتماع ، وأننا أهل وأقارب وأبناء بلدة واحدة يا إبراهيم الغالي.. فأنت فخر لنا جميعنا ، ليس لنزيه ويوسف فحسب .. فأنت ابن أختنا .. ونتعهد بالاعتذار علنا ؛ لينشر في الصحف أنه لا شيء بيننا ، وكل في بيته .. وبالنسبة لأهل المهندس القتيل سنقدم معونة ، وليست دية لوالديه وزوجته وابنه وابنته إلى أن يكشف المجرم .

قال إبراهيم : ومن يضمن هذا الصلح يا خال ؟ ولا يتعرض شقيقنا نزيه للقتل

قال شاكر : كل الموجودين هنا

حينئذ انطلقت رصاصة استقرت في صدر شاكر ، وكانت امرأة تقف بالباب

فصاح باكر : ويحك يا مارينا قتلت عمك!

قال العم : إذن أنت المجرمة التي سعت لقتل نزيه!

كان أمن الفندق قريبا من مارينا فطرحها أرضا قبل أن تطلق الرصاص ثانية

قال باكر : لعنة الله عليك أنت المجرمة إذن ! لماذا ؟!

ردت بحقد وغضب : دعوني .. لماذا ؟.. أنت تسألني لماذا ؟كان يجب أن يموت نزيه .. صبرت سنوات وسنوات .. كنت في أفكر بقتله قبل سفره وهربه .. وكأنه شعر بذلك .. وهرب للقرية ، وسافر خفية .. كان حقدي كبيرا عليه .. جعلني حقيرة لكل الأقارب والصديقات .. أنا تعلمت الرماية في نادي الرماية.. فلما عاد تجدد الحقد في هذا القلب الميت .. لقد جعلني هربه عاهرة تنام في حضن من هب ودب .. صرت في نظرهم امرأة ميتة لا تصلح أن تكون امرأة .. كل من نام معي رفض أن يكرر التجربة .. هو السبب جرح كبريائي بهجري ؛ كأنني امرأة عجوز .

لما انتهى التحقيق مع نزيه رجع للقرية في سيارته المصفحة ، وقد انتشر خبر حادث الفندق في الأخبار المرئية ومواقع الشبكات والإنترنت والصحف المسائية . استقبلت الأسرة نزيه ونزار الذي رافقهم للقرية ، وكان من ضمن المستقبلين الشيخ الكبير يوسف ، والشيخ عبد الله إمام المسجد المتقاعد ، وظل نزيلا في البلدة حيث تزوج امرأة منها ، واستقر فيها ؛ حيث أن زوجته توفيت قبل التقاعد بأيام .

هنأ الحاضرون نزيها على نجاته مرة أخرى ، ولما سئل عن إصابة خاله أجاب بأن الوضع حرج فقد استقرت الرصاصة الوحيدة في وسط الصدر ؛ ولكنها بعيدة عن القلب .

وأعلن أنه سيقيم وليمة لأهل القرية شكرا لله على نجاته من الغدر مرة ثانية ، ولانتهاء الغمة ، وزوال الخطر .

قال الشيخ عبد الله : الحمد لله على السلامة ، لم تكن مفاجأة كبيرة لك أنها طليقتك .. هل لها شريك في الجريمة الأولى ؟

قال مجيبا : تزعم أنها قامت بالفعل وحدها ، حضرت مرات متخفية للقرية ؛ حيث راقبتني ، وعرفت ترتيب حضوري لصلاة الفجر ، وفعلت فعلتها الجنونية ويبدو أن الشرطة لم يصدقوا كلامها ، ويعتقدون أن معها رجل ، لأن من عادتي الانصراف معك ومع أبي فور انتهاء الأذكار دبر الصلاة ونفترق قرب بيت وعمارة الوالد .. فكيف عرفت أنني سأقف أمام المسجد ؟! وذكرت أنها كانت تحضر مرتين للمنطقة عند الصباح ؛ لعلها تصدفني وحيدا خارجا من المسجد ..وجاءت الفرصة بأسرع مما توقعت .. وعندما أطلقت الرصاص تحرك الشاب فأصيب وأسرعت بالفرار ، وعادت لبيتها ؛كأن لم تفعل شيئا ، والأولاد لاحظوا في الشهر الأخير قبل القتل خروجها المتكرر ليلا ، فظنوا أنها تذهب إلى عشاقها للسهر والسكر إنما كانت تذهب إلى أحد الفنادق وقبل الفجر تأتي جمالة.

قال يوسف : هذه مجرمة كبيرة!

قال الشيخ المتقاعد : فكر شيطاني ! لعلها تقرأ أو تحضر أفلام ومسلسلات الشرطة فخططت ونفذت .

قضى القوم حتى الفجر يرحبون بالجيران والضيوف ، كلهم أقبلوا لتهنئة نزيه على نجاته ، والقبض على قاتلة المهندس خالد ، ولما ارتفع الآذان الكثير منهم انتقل للصلاة في مساجد البلدة.

أولم السيد نزيه وليمة كبيرة لأهل البلدة ، ودعا إليها كل من رغب حتى أنه دعا إليها عمادا وسليما ونعيما زملاء الجامعة ، وعلى رأسهم ابن عمه رافع.

كان اللقاء ممتعا وحدثا لا ينسى في جمالة ، وكان نزيه يقول لنداء : لا تحزني يا أم محمد على إجرام أمك.. فهي لم تحاول قتلي فحسب ، فقد قتلت إخوتك الثلاثة من شدة غلها عليّ .. كنت أراها مجنونة عندما نتشاجر ونتنازع عند مرضها .. قضيت أياما فعلا عصيبة .. كانت تهددني بالسكين أكثر مرة .. كنت أهرب للقرية خشية أن تنفذ تهديدها .. كنت أنام في غرفة وحدي مغلقا الباب بالمفتاح .. لا أكل من طعامها اذا طهت .. عشت معها في رعب .. لا أحس بالراحة والأمن إلا في هذه القرية وأترك المدينة .. أنا قادر على ضربها وإيذائها ؛ لكن نفسي لا تطاوعني تعودنا على احترام النساء .. وأعلم سطوة والدها وخالي شاكر لو آذيتها .. فكان الهرب .. ولما عدت يا بنيتي حاولت قتلي كما تعلمين ؛ لكن لم يشأ الله ذلك وكررت ذلك أمام أهلها .. المهم أن أموت قبلها فآذت عمها ، لم أمت كما رغبت .. حقدها كحقد بعير .. فلا أحب أن تحزني كثيرا يا نداء !

كان سليم زميل نزيه في كلية التجارة قد حضر الوليمة التي دعاه إليها نزيه بصحبة ابنه خالد ـ وهو طبيب عيون في مستشفى خاص ـ والسيد سليم أكمل الدراسات العليا وحصل شهادة الدكتوراه ، وقد عمل أول أمره محاسبا في بنك ، وهو اليوم مدير عدة شركات ـ مجموعة من الشركات ـ واستمرت علاقته بنزيه ورافع ونعيم أشرف وعماد ونعيم محمد حتى اليوم وحتى ونزيه في الأرجنتين ، كانت بينهم مخاطبات ، تناول سليم الطعام وغادر عائدا للمدينة .

أما عماد فأصر الشيخ عبد الله على بقائه هو وزوجته في ضيافته ، ورتب لوليمة خاصة في بيته دعا إليها نزيه والشيخ يوسف والمهندس نزار وزوجاتهم. ولما تناول الضيوف الطعام ، غادر نزار وزوجته وأمه المنزل ، وكان عماد يستعد للعودة للمدينة سلام بعد تقديم شكره الجزيل لقريبه عبد الله محمود . ولما جلسوا يشربون الشاي قال عماد : كبرنا يا نزيه ! والله ألف حمد لله على السلامة .. لقد نجوت بفضل الله.

أجاب : صحيح .. أنا أعرف بغضها من ذاك الوقت .. وأبي يعرف ذلك .. لذلك فضلت الهجرة مرغما ؛ ولكنه قدري .

واختلط الكلام ، وتحدثوا في السياسة ـ الموضوع الذي يستهوي عبدالله وعماد ـ حتى قال نزيه : ما أخبار الحزب ؟ منذ ظهرت الحركات الجهادية وحبها للعنف خفت صوتكم.

فال عماد : قبل الحديث عن حزبنا يا أبا ناصر .. لي صديق صحفي يرغب بسماع سيرتك وسيرة مطلقتك ونشرها .. فكر بذلك .. أما حزبنا فما زال قائما ، ويصدر بياناته ؛ ربما صار عددنا قريبا من المليون على مستوى العالم .. وما زلنا نسعى للخلافة ، وليس على طريقة القاعدة وغيرها من الحركات الجهادية ، ولابد من ظهورها قريبا كما أخبر النبي ﷺ في أحاديث ثابتة كما يقول الألباني في بعض كتبه صح يا عبدالله !

قال الشيخ مجيبا ومتذكرا : هناك أخبار نبوية بذلك منها قول الرسول : قال يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك . ورد هذا الخبر في كتاب سنن الإمام أبي داود ، وهو كتاب يعمل به أهل السنة والجماعة

قال الشيخ يوسف : كتاب معروف ومعتمد عندنا .. وفيه يا شيخ عبد الله أكثر من خمسة آلاف حديث .

ـ صحيح يا أبا إبراهيم .. وفي كتاب الإمام المبجل أحمد بن حنبل حديث آخر يخبر النبي ﷺ الأمة عن الخلافة الراشدة في آخر الزمان قال: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم

يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت ".

قال عماد : ولن تنسوا حديث فتح رومية كما فتحت القسطنطينية .

قال نزيه متعجبا من البشارة : يا الهي الإسلام يحكم روما!

قال يوسف : ألم يحكم هذه البلاد ويستقر فيها ليس على الله شيء بعزيز؟

قال الشيخ: نعم ليس على الله شيء بعزيز .. يرونه بعيدا ونراه قريبا.

جمال أبو الحسن

انتهت الحكاية بحمد الله



امرأة نزيـه



جمال شاهين



المكتبة الخاصة ٢٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

٢٠٢١

النشر الأول

رهاب الطلاق

جمال شاهين



اجتمع ثلة من أعضاء نادي هواة الخط العربي

في أمسية وسهرة من سهرات النادي يتسامرون ويقصون

وكان القص عن حكايات طلاقهم وفشلهم في علاقة زواجهم.

فتكلم المحامي عن الطلاق في حياة أسرته

وتحدث الآخرون

وتكلم الضابط كيف تسبب الطلاق بموت والده ؟

وكيف ولدت امرأة احدهم بعد زواجه عليها؟

عشر حكايات مسليات

رهاب الطلاق

نادي الخط العربي

جلس مجموعة من الأصدقاء في نادي الخط العربي ؛ حيث يلتقي هواة ومحترفو الكتابة بالخطوط العربية التراثية والمتطورة والمعاصرة وأصدقاؤهم يثرثرون عندما لا يكون عندهم نشاطات ثقافية أدبية شعرية ، يتحدثون في أحوال البلاد ، وقضايا السياسة والاقتصاد والأسعار ، وكل يدلي بدلوه ؛ كأنه الخبير فيما يتحدث عنه.

وهؤلاء الأفاضل يعملون في مهن وحرف شتى ، الطبيب المهندس المحامي المدرس الشاعر الإعلامي ؛ الضابط ؛ لكن حب الخطوط يجمعهم كما يقال ، وبعضهم يتحدث عن همومه المتنوعة في العمل والوظيفة أو في البيت مع الأسرة مع الزوجة مع الأبناء مع الجيران مع الآباء والأقارب يسعون للتنفيس عن أنفسهم .

جلست مجموعة منهم تتحدث عن سيرهم بفشلهم في زواجهم ، وعلاقاتهم الزوجية ، ويشاركهم الإصغاء من يحب سماع قصص الطلاق والفراق ، فتراه معهم مصغيا لحكاياتهم ، مواسيا لنفسه أو لزميله في نادي الخط ، فهم أعضاء فيه لإشغال أنفسهم بالخط العربي وزخرفاته ونسيان القضايا والغموم أثناء الكتابة والتخطيط ، فالزواج والفراق حديث لا ينتهي ، فلان تزوج ، فلان طلق ، فلان ترمل ، ونظرة منك إلى دور المحاكم الشرعية ومؤسسات الإحصاء تتأكد من ذلك ، ناس فرحة وسعيدة بعقد الزواج ، وناس مقطبة وحزينة وهي تستلم عقد الطلاق .

أسباب التسريح والفراق كثيرة ، منها سوء الاختيار ، ظروف معينة ، عادات وتقاليد لم تتغير بطول الأيام ، وأشياء أخرى منها الضعف الجنسي والأمراض والفرق الكبير في السن والحياة الصعبة والفقر والعجز ، وربما عدم الكفاءة والمجتمع المريض اجتماعيا ، ولا ننسى ضعف الدين وهجره ، والأفلام والمؤسسات الاجتماعية الضعيفة .

جلس المحامي طارق سليم ورفيقه عزيز وآخرون يستعرضون الأيام وحكايات انفصالهم ، لعلهم يواسون أنفسهم من هذا الفشل ونجاح غيرهم، لماذا فشلوا ؟! لماذا نجح غيرهم ؟!

نحن يهمنا أن نسمع القصة ونكتبها فأي تعليق قد لا يجدي نفعا !

بدأ المحامي طارق سليم بحكايته مع الطلاق في أسرته ، وعزيز فارس يصغي إليه بشغف وأسف . اذا كان هناك يوم أسود ويوم أبيض فكان طلاق أم طارق من سليم يوما أسود ، وسيزيد الظلمة في حياته ، وإن لم تكن الأيام جميلة وبيضاء في بيت والده فالمشاكل والنزاعات كثيرة في البيت ، فمنذ ولد وهو يسمع الصراخ والضرب والشتم واللكم ، وكلما كبر فهم أكثر. لم تكن حياة سليم حياة مثالية فمنذ تزوج نهى شادير وهو يعيش معها حياة نكد ومشاجرات ، كانت في نظره سيئة وبلاء ابتلي به ، وتعتبره هي أسوأ رجل في العالم، وتلعن اليوم الذي رأتها فيه أمه ، ومالت إليها كزوجة لابنها سليم .

لما وضعت مولودها الأول عايدة ، ظن الأهل من الطرفين أن الأمور قد تتحسن وتهدأ المنازعات بينهما والتي تحدث في البيت كل ساعة ؛ ولكن الأمور ظلت على سابقتها .

ويقول له أخوه سعيد : لما تكبر زوجتك في السن ستتحسن وتبتعد عن المشاكل، فزوجتك صغيرة أربعة عشر عاما دون خبرة وتجارب ، فستكبر وستكبر الطفلة، فيرد سليم : أمي تزوجت في مثل سنها .. ساعة سوداء التي رأتها فيها أمي.

قال سعيد مبررا فعل أمه : أنت كنت ملهوفا على الزواج يا سليم ! لا تجعل الحق على أمك ، أنت لما رأيتها رأيت القمر ، وأحسن فتاة في العالم تشبه الممثلة المصرية فلانة ، لم تعد تحتمل الصبر على الزواج ؛ بل أسرعت بالزواج ، لم تنتظر عودة أخيك سرحان من السفر للمشاركة في زواجك.

قال سليم مكسوفا : كنت أريد زوجة ، كنت أخشى على نفسي الفتن والنساء ، أصبحت ابن اثنين وعشرين سنة يا سعيد! ألا ترى الكاسيات العاريات أينما مشيت ؟!

قال سعيد : عليك أن ترضى بنصيبك وقدرك.

قال سليم مادحا حماه : والدها رائع! ويقف بجانبي .. المأساة أمها تقويها عليّ وتتهمني بالظلم وإهانة ابنتها التي هي امرأتي .. هل ضرب الرجل امرأته يصبح ظلما ؟!

قال سعيد : غلط أيضا أن يضرب الرجل امرأته!

قال سليم : إنها تثير أعصابي وغضبي يا سعيد! إنها لا تحسن الطبخ والنفخ ، ولا كوي الملابس ولا غسل الثياب .

قال سعيد : إنها صغيرة ! ولم تكن أكبر أخواتها ؛ لتتعلم قبل الزواج ، لم يلحقها دور التدريب.. الكبرى أولى ؛ لأن الناس تتوقع زواج الكبرى قبل الصغرى فتأخذ الأمهات بتدريب الأكبر على أعمال المنزل يا فهيم !

قال سليم : يا رجل ! لها عندي سنتان ، ولم تتعلم شيئا.

قال سعيد : سوف تتعلم يا سليم! الصبر مفتاح الفرج والنجاح.

قال طارق للسامعين : وضعت مولودها الثاني ، وسموه طلالا ، بعد استراحة الولادة وزيارات الناس للوالدة ، رجعت المشاجرات والعنف والزعل والحرد والصلح حتى أنها صارت تسيء لحماتها بدون حياء ، ولا تجلس معها ، ولا تلتقي بها ، وتتهمها بأنها زوجتها وحشا لا بشرا.

ونتيجة لهذه الكلمات تنشب المعارك ، يضرب سليم زوجته ، ويرتفع الصراخ والعويل ، ويفزع الجيران والإخوان ، هذه حياة سليم، فطالبته أمه بأن يرحل لبيت مستقل ، لم تعد الجدة تحتمل مشاكله وأم طلال ، فرفض الطلب.

وقال : لا آمن عليها أن لا تخونني أثناء ذهابي للعمل.. تربيتها فاسدة ، فهي تهددني دائما بالهرب وترك الدار .

عاد يوما من الشغل ، ووجد الدنيا مقلوبة رأسا على عقب، فقدت مدت يدها على أمه ، دفعتها بقوة فسقطت على الأرض ، فقامت بناتها عماتي بضربها بالأحذية والشباشب ، فطردها سليم بعد ضربها إلى بيت أمها.

قضت بضعة أشهر عند والديها ، ثم تدخل أهل الإصلاح ، وردوها لبيت زوجها ، واعتذرت لعمتها حماتها وقبلت يدها ورأسها ، وخيم الهدوء والسكون على البيت عدة أيام فقط .

وضعت أمي مولودها الثالث ، وكانت أنثى سميت عالية . شجع بعض أصدقاء سليم بالزواج على امرأته عساها تعقل ، ما دام عاجزا عن طلاقها بعد ولادة ثلاثة ، وأخذ هذا الاقتراح حيزا من فكره ، وفكر أن يتزوج سرا عن أسرته وزوجته ،ولكنه لم يجد من تقبل به بهذه الصورة ، زواج بدون علم الأقارب وأمه وزوجته .

فأخذ يقلل من وجوده في البيت ، يتعشى بعد العمل ، ويخرج ويسهر في المقاهي وعند الأصحاب ، وزوجته غير مبالية بسهره ، وحتى أنها لا تفتح له الباب أو تقدم له الطعام بعد السهر ، تجعل من نفسها غارقة في النوم .

ولد الرابع طارق سليم ، لم تخف وتقل المنازعات ، واعتاد سليم السهر في المقاهي ولعب الشدة لجوف الليل ، وبدأ السفر في رحلات خارج البلد بزعم الراحة والسكون والاستجمام.

وأخذت الإشاعات تسري عنه ، وتردد في البيت الكبير أنه يدخل الخمارات ودور البغاء ، وهو يقسم للأسرة بكذب ذلك.

فقال له أبوه : اذا كنت تفعل ذلك بسبب امرأتك طلقها، وتزوج غيرها.. خمر.. زنا ، لا أقبله لأي ابن .

قال سليم : والأولاد!

ـ يذهبون معها .

قال سليم : والنفقة عليهم !

فقال أبوه : ألست تنفق عليهم ؟ أنا لا أحب أن أسمع أنك تسكر وتزني بحجة المشاكل مع أم طلال .. فأنت لا تسيء لنفسك وحدك ، أنت تسيء لنا لأخواتك للعائلة ، لا تجعل زوجتك شماعة للفجور .. تمنعك من القرب منها ، طلقها وأرح رأسك.

قال سليم : والأولاد!

فقال له أبوه : لست أول من يطلق وله أولاد ، أو تزوج عليها.

قال سليم : لا تقبل تريد الطلاق قبل الضرة .. تناقشنا في الموضوع.

فقال له أبوه : خلاص طلق يا ولدي ! منذ تزوجتما وأنتما في فضائح ، ومعارك البسوس .

قال سليم : سأفكر بذلك .

فقال أبوه : إياك مما أسمع .. سأطردك من البيت العائلي ، وأغضب عليك.. لا يكون حل المشاكل بالخمر والزنا.

لم أدخل المدرسة عندما رحلوا من بيت جدي منذر ، سكنّا ببيت قريب من بيت جدي شادير كان الرحيل مؤلما وقاسيا ، حملت السيارة الأثاث من بيت أبي إلى البيت الجديد ، وعلمت من أخوات أمي أن أمي طلقت ، وفهمت منهن أن أبي تخلى عنا لأمي .

برغم الطلاق واختفاء أبي من بيتنا وحياتنا ما زالت أمي عصبية ومتوترة باستمرار ، تصيح وتصرخ فينا لكل سبب مهم وغير مهم ، تتشاجر معنا بدلا من أبي ، وتتشاجر مع أمها جدتي حليمة في كل زيارة لبيت جدي بزعم أنها سبب زواجها من أبي وتزويجها بسن مبكرة ثم طلاقها ، وحرمتها من تكميل المدرسة والجامعة وأفسدت عليها حلمها ؛ حيث كانت تحلم بالعمل ممرضة ، مدرسة مثل شقيقتها أو قريباتها.

دخلت المدرسة بعد حادث الطلاق ، وعلمت أن أبي يرسل لنا المصروف وإيجار البيت ، لم يغمر السكون البيت ؛ كما كنا نرجو ونحلم ، كنت أرى الأكبر مني يبكون ، ويضربون ، ويصرخ في وجوههم ، ويتلقون البصق والسب ، كثيرا ما رأيت عايدة وعالية في بكاء ، وتمسحان الدمع باستمرار ، ولم تعودا تتحملان عصبية أمي ، فتهربان لبيت الجد شادير ، وعلمت أن جدتي بعد شهور من الطلاق والرحيل أخذت تسعى لإعادة أمي لزوجها أبي ، ولما فشلت في مسعاها فأخذت تسعى لتزويجها من رجل آخر ، وأمي ترفض الزواج ؛ ولو من الوزير ، وبينت رغبتها بالعودة للدراسة رغم بلوغها السابعة والعشرين ، وتحدث المشاجرات بسبب هذه الرغبة ، وأسمع والدها يشجعها على الزواج بدل المدرسة والكلام الفارغ ، وأن تعيدنا لأبينا بدل تحمل مسؤوليتنا ، وأمي ترد وتقول : لو رميتهم على سليم فلن أتزوج ، أريد أن أبقى مطلقة بدون زوج .. هو الزوج غنيمة !

سمعنا بعد سنة وأكثر أن أبي وجد من تقبل به زوجا ، وأن زوجته ترفض قبولنا للعيش معها فلنعيش عند أمه ، ونحن الأربعة لم نحب العودة للعيش معهم، نريد البقاء مع أمنا المتمسكة بنا ، وترفض الزواج من أجلنا ، ونتمنى أن يغمر البيت السكون .

كانت عايدة تهتم بتدريسي ورعايتي في المدرسة ، كانت صبية قد بلغت سن الرشد والبلوغ ؛ كما أسمع ، وأصبح عمرها في سن زواج أمي نهى شادير ،كانت حياتي رغم صغري عذاب مع أمي ، لا تهدأ ، ولا تكل ولا تمل من النزاع والشجار حتى مع جاراتها ، الحياة مع أمي كانت صعبة وقاسية وبذيئة بألفاظها القذرة ؛ مسببة للحرج والقبح للذكور والإناث ، ونتعرض للصفع والرفس بسبب وبدون سبب ، وكان همها الأول العودة للثانوية العامة والدراسة . لم تكن حياتنا أصلح وأحسن من بيت أبي ، لم تكن حياتنا سعيدة في البيت الجديد صياح ضرب هرب لبيت الجدة ، كثرت المشاجرات الحادة مع الجدة جارتنا ، جدتي راغبة بزواج أمي قبل فوات الأوان ، وأمي ترفض بشدة ، وهمها التقدم لامتحان الثانوية العامة .

ولما أنهيت الثاني الابتدائي طلقت خالتي فايزة ، كانت مثل أمي كثيرة المشاكل وإن بصورة أقل ، طلقها الأستاذ عيسى احمد ، وسبب تركها وطلاقها عجزها عن الخلفة والولادة ؛ كما علمت عندما كبرت ، وأما جدتي فادعت أن زوجها هو الضعيف والعاجز عن الإخصاب ، وأن ابنتها سليمة وصحتها سليمة ، وكان طلاقها متوقعا كطلاق أمي نهى ، رجعت للعيش مع والديها ؛ ليس معها ذرية لتعيش مثلنا في بيت مستأجر ، وهذا أزعج كنائن جدتي ، وأنا الصغير كنت أفكر لماذا يتزوج الناس ويتطلقون بعد حين بعد سنوات؟! عقلي الغريزي لم يستوعب القضية ، أمي طلقت بسبب زواجها أبي رغما عنها ، وأنها تزوجت صغيرة على الزواج ، لما كبرت ونضجت فوجدت في الحياة أن هذا ليس سببا لحصول الطلاق ، فالكثير من الأمهات تزوجن في سن صغير ، حتى قانون الأحوال الشخصية يجيز زواج ابنة الأربع عشرة سنة ، ثم رفع إلى ست عشرة سنة لقلة زواج البنات في ذلك السن ، وإتاحة فرص الدراسة للبنات ، فتصل البنت إلى ثماني عشرة سنة لإنهاء الثانوية، أقصد عندما يجيز القانون

زواجهن بهذا العمر فهن أهل للمعاشرة والولادة . فأبي بعد طلاق أمي فتح مطعما خاصا به في المدينة ، انفصل عن شريكه غيث ، وكان يستقبلنا في الشهر مرة .

****

لما أنهيت السنة الابتدائية الثالثة علمت أن أختي الكبيرة كبرت وتركت المدرسة لتتزوج فهي في عمر يصح به زواجها، وجدتي تلح على زواجها ، وهي نفسها ترغب بذلك لتتخلص من شرور أمها ، وكانت تصاحب أبناء الشوارع الذكور ، ولا تهتم لزجر وعادات حسنة ، فلما كثر الكلام على عايدة أخذت جدتي تبحث لها عن عريس ، فأمي غير مبالية بأخلاقنا ، فأولاد أخوالي وخالاتي وجدي مستاؤون من أفعال عايدة وعلاقاتها الغرامية مع شبان الأحياء الأخرى ، حتى أنها كانت تأخذني معها عند بعض مقابلاتها الغرامية ، وكنت استغرب اجتماعها بمثل هؤلاء الأغراب واسمع غزلهم لها وتقبيلهم لها في عتمة الليل ، وكلام الحب والغرام . وأبي لما سمع أن أحدهم تقدم إليها رحب بذلك سريعا ، فقد وصل إليه خبر مشيها مع المراهقين من أخوالي وأبنائهم ؛ لأنهم سعوا إليه ليأخذها من حضانة أمنا ويرفض أخذ بعضنا يطلب بأخذنا كلنا الأربعة ، وأمنا ترفض .

وخلال عطلة الصيف رحلت عايدة كزوجة ، كان زوجها شابا يعمل نجارا من حارة بعيدة عن حارة جدي ، وأمه صديقة لجدتي أم أمي ، واحتفلنا بزواجها كما يحتفل أهل الحي ، ويستطيع المرء السير إلى بيتها مشيا على القدم في أقل من ساعة نكون عندها ، أحسسنا ببعض الفراغ بعد رحليها ، ثم أصبحت ذكرى في حياتنا ونحن نصارع هذه الحياة بحلوها ومرها ، وبعد انتهاء قصة بكر أمي عادت الجدة تلح على أمي بالزواج ، أسمعها تقول : الأولاد سيكبرون ويتزوجون وتظلين وحيدة والسنوات تمضي ، وعليك بالزواج قبل فوات الأوان ، وأنك ما زلت شابة لم تبلغ الأربعين ،وستجدين من يقبلك كضرة مع نسائه .

ولكن أمي نهى ترفض فكرة الزواج نهائيا وبشدة ، وإنها كرهت الرجال والأزواج، وكانت قد حاولت النجاح في الثانوية العامة ، ولم تفلح في المرة الأولى ومرة ثانية وفشلت ، ثم استسلمت

للفشل ، وأخذت تفكر بالعمل خارج البيت بحجة أن ما يدفعه أبي أصبح قليلا لا يكفي الإنفاق على البيت مع أن البيت نقص مصروف عايدة ؛ ولكن جدي وأخوالي رفضوا هذه الفعلة . وبعد شهور من رحيل شقيقتي أخذت أمي وجدتي تكرران من زيارتها خلال الأسبوع ، فعلمت أنها حامل وعلى وشك الولادة بمولودها الأول ، فتذهبان لمساعدتها بأعمال البيت ، وطهو الطعام لزوجها.

أنا كنت أقضي نصف نهاري في المدرسة ، والنصف الباقي في اللعب مع أطفال الشارع ، كنت أحب اللعب والشارع أكثر من البيت ، صراخ وزعيق الشارع أهون على نفسي من زعيق وصياح أمي ، ورغم ذهاب عايدة ظلت المشاكل والنزاعات والعويل في البيت ، تحول وانتقل أكثرها لأخي الكبير طلال ولأختي عالية، وشتم الأب مستمرا في جو البيت ، وحتى لأبيها وأمها ؛ كما يشرب أحدنا الماء ، وأم أبي لها حصة في السب والقذف بألفاظ بذيئة واتهامها بالعهر والفجور كلمات أخجل أنا الذكر من نعت أحد بها ؛ لأنهم دمروا حياتها وحرموها من إكمال مدرستها ، وكانت تلعن الساعة التي رأتها أم سليم مع أمها وأحبتها ودخلت قلبها ، ورغبت فيها حليلة لابنها ..أبي.

كنا نذهب لمطعم الوالد في وسط المدينة ؛ حيث أصبح مالكا لمطعم ، كما حدثت سابقا ، وقد انفصل عن شريكه ، وكان يكرمنا بوجبة وببعض المال ، وكنت أحس بأنه غير مسرور من زيارتنا الشهرية ، منذ طلقنا لم يدعنا لبيت جدي أو التعرف على زوجه الأولى والثانية ، وكان يهملنا ويطلب من عمال المطعم عدم الاهتمام بنا كثيرا حتى نمل وننصرف بسرعة ، فيعطينا بعض قطع النقود لنعجل بالعودة لأمنا .

كنا نعلم وندرك أنه تزوج بعد ترك أمنا ، وطلقها بسبب عجزها عن الحمل العاجل ، ثم تزوج أخرى وما زالت على ذمته ؛ كما نسمع من الجدة ، وهي امرأة مطلقة مثل أمي ، ولها أولاد من طليقها الأول أو الثاني، وعلمنا أنها لم تلد من أبي حتى ذلك الوقت ، وسمعت جدتي

تقول لأمي بأنه غير قادر على الإنجاب بعد طلاقها ، فقد قامت الجدة بعمل سحر لأبي وشعوذة أدت مفعولها فيه .

أنهى طلال الثانوية بنجاح كبير رغم بيئة بيتنا السيئة والظروف الصعبة ، ورغب بدراسة الطب ، ورفض أبي تقديم أي دعم ومساعدة بأعذار شتى ، لا صحة لها ، وطالبه بالعمل بدل تضييع سبع سنوات في الطب ، وتعلم غز إبر ، وحمل سماعة طبية على رقبته ، وأنه غير ملزم بتعليمه، فغضب طلال منه وهجره ، ولم يعد يصحبنا للمطعم وزيارة سليم أبي ، واستعان بمساعدة بعض الخيرين بجمعيات خيرية تقدم مساعدات للدراسة ، وقبلته الجمعية ، فصرت أذهب وحدي لزيارة أبي ، وأنقل له أهم أخبارنا ، وأحيانا ترافقني عالية للخروج من جو البيت ، ولعن أمي وصياحها الذي تعودنا عليه ، وكانت ترفض أي شيء يقدم لها من أكل وحلوى ومال . تفاجأنا لما استقر شقيقي في كلية الطب بطلاق عايدة ، ورغم التوقيت المفاجئ كان هذا متوقعا من كثرة المنازعات ، كانت نسخة عن أمي ، وصمد الزواج خمس سنوات ، نتج عنه طفلان ، ورغم الوساطات أصر الزوج النجار على الطلاق وأختي نفسها ترفض الرجعة ، وأنهت العدة الشرعية في بيت أمي ، وكانت أمي طلبت منها إعادة الطفلين لأبيهما ؛ لرفضه الإنفاق عليهما إلا بما قررته المحكمة وهو مبلغ بسيط ، لا يفتح بيت ، ولا حتى إيجار بيت ، وتنازلت عن حضانتهما لحماتها ، وخيم على البيت الألم والحزن على الخيبة والفشل ، ورحل طلال إلى سكن طلبة خارج أسوار الجامعة.

كنت أسمع وأصمت ، لم يشتد عودي للتدخل في مشاكل الكبار ؛ كما تقول لي أمي ، ثم أصبحت غير مبال بأمر الأسرة ، بعد شهور ستة من الطلاق تقدم رجل لشقيقتي المطلقة وقبلت به أمي سريعا ؛ كأنها تريد التخلص من عايدة ، هكذا بدا الأمر ، وعلمت أن هذا الرجل هو سبب طلاقها من زوجها ، وهو الذي شجعها على الطلاق ليتزوجها بزعم الحب والهوى ، وانخدعت به ، وكانت تلتقي به خفية وعرف زوجها بخيانتها وحبها ، فكان الطلاق. ورفضت عالية أي زواج قبل الجامعة ، ووافقتها أمي على ذلك ، ولم تقبلا بأي

عريس من قبل أم أمي ، ولا من قبل وطرف أبي ، وأخذت الثانوية العامة بنجاح وقبلت في الجامعة ، ووافقت الجمعية على مساعدتها ؛ كما تساعد طلالا .

اقترب امتحان الثانوية لي ، لحقت بهم ، طلقت عايدة من حبيبها رايق ، وقد ولدت له طفلا واحدا ، وسعى أهل الخير بينهما ، فرفض عودتها بحجة أنه بدأ بمشروع زواج جديد ، وأنها غير أمينة على شرفه وسمعته ، وهو الذي أفسدها على زوجها النجار .

أنهيت الثانوية بنجاح ، وكانت عايدة تزف لزوج ثالث ، رجلا يكبرها بعشرين سنة ؛ لكنه فتن بجمالها وملاحتها كما زعم لنا ، هي كانت تفرح بالزوج ، وكنت أفرح بكلية الحقوق ، وبدعم من الجمعيات وقرض تعليمي من الحكومة .

*****

تيسر لأخي الكبير الدراسة في كلية الطب ، كما حلم ورغب وعلى حساب جمعية الخير على أن يسدد نصف القيمة والمصاريف عند الوظيفة ، الطب يستغرق سبع سنوات تعليم ، وذكرت أن أخي ترك البيت عندما طلقت عايدة ، وعادت لبيت أمي ، وسكن مع زملاء في سكن خارج الجامعة ، وكان قليل الزيارة لنا ربما في الشهر مرة ، ويطلب بعض المال لينفقه على نفسه من جدي أو أخوالي، ومرات توجهه أمي لأبي ، فيضطر أمام ضغط الحاجة أن يذهب فيتحصل على القليل ، والكثير يتحصل عليه خاصة في سنواته الأواخر.

أبي كان يدفع أحيانا رغم رفضه لتكاليف الدراسة ؛ لأنه لم ينجب من نسائه بعد أمي ، وتزعم جدتي بأنها عملت له سحرا وحجابا قضى عليه ، وثانيا أصبح يقال له أبو الدكتور طلال ، فينتشي أمام رواد المطعم وأهله ، وكان طلال يستغل ذلك الإحساس فيغامر بالذهاب إليه وقد قضى أكثر من سنة لا يقابل أباه ، ونحن نراه بين الحين والآخر.

أمام إصراره تقدم في السنوات ، وكان لا يحب الشكوى ؛ فكان والد أمي يعطيه بين الفينة والأخرى خفية عن أبنائه ، ويمدح شجاعته وعزيمته .

أنهت عالية دراسة بكالوريوس اللغة الإنجليزية قبل إنهاء سنوات الطب السبعة، فشهادة

الآداب أربع سنوات فحسب ، وفي آخر سنة تعرفت على شاب ؛ كما زعمت ، وجاء لأمي خاطبا فقط ، والزواج بعد التخرج والعمل ، وفعلا حدث ذلك تزوجا بعد التحرج ببضعة شهور ، وعملت عالية في قطاع التعليم ، وهو مثلها ، هما يزعمان أنهما تزوجا عن حب وتعارف ، ثم تبين أن هذا غير صحيح فبعد أقل من شهرين حردت عن بيت الزوج من مشاجرة صغيرة بينها وبين حماتها اضطر الشاب أن يصف مع أمه ، وحدث الصلح بعد أسبوع وعادت لبيت الحبيب بحلم أن يعيشا وحدهما خارج بيت الأسرة الكبيرة ؛ ولكنّ إيهابا عاجز عن تنفيذ هذا الاقتراح بحكم أنه أكبر أفراد أبيه ، وأنه تعلم على نفقتهم وما لهم فهو لا يستطيع اتخاذ القرار وحده ، فبعد أن يتعلم أحد إخوته ويتزوج ، فيفرغ له الشقة ويستأجر بيتا ... متى هذا ؟ الله اعلم .

المحاماة أربع سنوات مثل الآداب ، طلال تخرج قبلي بعام . عرض أبي عليّ الزواج من ابنة أخيه بعد تخرجي ، فرفضت ، ولا أرى الزواج مهما في حياتي أنا ، فاستعرضت طلاق أمي ، وطلاقه من زوجته الثانية ، وذكرت عايدة خلال سنوات تزوجت ثلاث مرات، زواج نهايته طلاق لماذا ؟! خالتي طلقت ، عالية كادت تطلق ، أصبح زواجها على مهب الريح ، واذا فكرت بالزواج يوما ما سأتزوج أجنبية إنجليزية أو فرنسية.

فيضحك الوالد ويقول : ومن أين ستأتي بهذه الإنجليزية وأنت في هذا البلد الأسود العقيم ؟

فأقول : سأسافر إلى هناك إلى بريطانيا لدراسة الماجستير أو الدكتوراه ، سأعمل وأجمع بعض المال ، وأسد بعضه للجمعية التي صرفت عليّ مصاريف الجامعة ، وها أنا بدأت بالمراسلة لجامعاتهم.

فيضحك أبي ويقول : سنصاهر الإنجليز آخر الزمن ! ويصير لي كنة إنجليزية.. كيف سأتحدث معها؟!

قلت مازحا : تتعلم الإنجليزي.

قال معترضا : هي تتعلم العربية.

فصرت كلما ألقاه يهمس : تزوج بنت أخي، بنت عمك ، أخي بحبك .

قلت بقسوة : أين كان حبه لما طلقت أمي؟ أين كان حبه لما دخلت الكلية ؟ تخليتم عنا أنت وعليتك ، تسولنا من الجمعيات .

اشتغلت في مكتب محاماة متدربا حتى يسمح لي بمزاولة العمل ، تعليمات وزارة العدل.

عملت كمتدرب في مكتب أحد المحامين المهمين في البلد وذلك بشفاعة وواسطة خالي الدكتور رمضان شادير ، وكنت فعلا مقتنعا بفكرة الزواج من أوروبية لكثرة الطلاق في حياتي سواء من جهة أمي أو من جهة أبي ، أبي مطلق ، وطلق الثانية ومشاكل بينه وبين زوجته الثالثة معها ومع أولادها الذين شبوا كما نسمع ونخبر ، وطلاق أمي وخالتي ، الحق أن خالتي كانت مظلومة في طلاقها؛ لأنها لا تحبل عاقر ، وأمي كانت ترفض الزواج ثانية ، وحاولت الدراسة ولم تفلح ، ثم رأيت طلاق أختي الكبيرة كرتين ، ثم استقرت في بيت رجل يكبرها بعشرين سنة ، وأختي المتعلمة والمعلمة زواجها في مهب الريح ، ويرفض زوجها ترك بيت والديه ، وتزوجت خالتي العاقر رجلا لمجرد خدمته وإمتاعه جنسيا اذا كان عنده طاقة لذلك ، فزوجته عليلة، ولا يريد المزيد من الخلفة .

تخرج طلال وعمل في مستشفى خاص ، بقيت أنا مع أمي في البيت ، وأبي طبعا توقف من زمن من دفع مصاريف البيت ، فقد انتهت الحضانة . وطلال يشجعني على الزواج فأقول أنت الأولى أنت الكبير ، فأخبرني أنه قريب من الزواج ، فقد صادق طبيبة تكبره بسنتين منذ سنوات ؛ ربما يغامر ويتزوجها فاعترضت على كبر سنها.

فقال مبررا : عرفتها في الجامعة ، وهي طبيبة جميلة ومحترمة بمعنى الكلمة ، وتخرجت قبلي ، وجرى بيننا استلطاف وإعجاب ، وسأصبر سنة فإذا لم تتزوج سأتقدم لها وأغامر .

أخي يرى الزواج مغامرة ، وفعلا بعد تخرجه بعام ونصف تزوجا ، وقد ظلت الفتاة تنتظره ، وتمهل أهلها ، حتى حصل بينهم المقدر الزواج ، وكان والدي سيد وديك الحفل ؛ كما أحب

أن يظهر ، وكان يشيع أنه هو الذي تكفل بتدريسنا ونفقاتنا ، ونحن نعرف كذبه بهذا الاستعراض ، والكثير يصدق ويثني عليه ،ولما يتحدث أحدهم لنا بذلك ندهش ، ومضى العرس بسلام ، وطلال لم يكترث لما أشاع سليم للناس .

وقال بأدب : هو أبي ،والمقربون يعرفون من تكفل بتعليمنا .

فبعد زواج شقيقي قررت دراسة ماجستير في القانون ، وانتسبت لأهم جامعة في البلد ، وعملت في شركة قانونية كبرى ، واشتريت سيارة صغيرة ، وخططت لدراسة الدكتوراه في بلاد الغرب ، تعرفت على فتاة تدرس مثلي في الجامعة ، وأعجبت بها ، حسناء بمعنى الكلمة وراودتني فكرة الزواج ونسيان بنات الغرب ، وتركت مراسلة الأجنبيات اللواتي يتركن عناوينهن في صفحات المجلات الأجنبية للتعارف والمراسلة ، علمت منها أنها خطبت فترة قصيرة من قريب لعائلتها ، ثم تركا بعضهما ، سعيت لمعرفة سبب الانفصال والبعد ، فزعمت أنها لم ترض تصرفاته ، ولم ترتاح لأمه.

سمحت لنفسي بالجلوس معها والحديث عن حياتنا الخاصة ، وعن أحلامنا ، ونتناول الطعام في المطاعم ، وبعض السهرات في المسارح ودور السينما وتبادل الهدايا .

ذات جلسة قالت: أخبرتني بأنك ما زلت اعزبا .

قلت : نعم.

قالت : ألم تفكر بالزواج؟

قلت : أفكر فيه مثل خلق الله ؛ إنما أخافه.

قالت : لماذا؟!

فتحدثت لها عن طلاق أمي وأبي وأختي وخالتي ، وقلت: لماذا الزواج نهايته طلاق ؟!

قالت : هكذا الحياة.. رجل لم ينسجم مع امرأته فماذا يكون؟ الطلاق هو الحل.

قلت : الطلاق سيء يا سامية! يقسم العائلة إلى عائلات مشاجرات حرب إشاعات ظلم الأطفال .. كانت أمي أحسن حالا عند زوجها ، سمعتها طيبة .

قالت : أمك ليست هي المقياس، هي تزوجت في سن صغيرة لم تستوعب الزواج والحقوق والواجبات ، وتزوجت دون رضاها الكامل ، لتقبل وتتحمل مسؤولية خيارها .

قلت : ولماذا تتزوج بغير رضاها يا سامية ؟ كانت تصب سوء اختيارها علينا نحن .. تصب غضبها علينا ؛ كأننا نحن الذين زوجناها لأبي ، أبي كان مهملا لنا غير مهتم بتربيتنا ، وحتى الإنفاق علينا ، ولولا حكم المحكمة لما دفع لنا شيئا ، الحقيقة مرة حياة المطلقين .. صعبة وعذاب بصمت سواء للرجل أم المرأة.

قالت : لا يصح أن تجعل حياتك مقياس للمجتمع وللسعادة والشقاء ، فجداتك من الجهتين لم تتطلقا ، وأعمامك وأخوالك كذلك ، شرع الطلاق كما تعلم حلا لمشاكل زوجية يا طارق ؛ لذلك طلاق النصارى ممنوع خاصة طائفة الكاثوليك إلا بحدود ضيقة، لذلك يقال زواج كاثوليكي ، نتيجة لصعوبة الطلاق يقبل الزوجان الخيانة الزوجية بكل صمت .. فمشاكل الحياة لا تنتهي .. مشاكل في البيت في العمل في كل مكان .. ونحن محامون أليس كذلك ؟ تعلمنا لمعالجة ومساعدة الناس في حل المنازعات والقضايا .. فحياة الناس اليوم خاصة المدن معقدة وكثيرة .. وأنا متخصصة في قضايا الأسرة والمرأة الشرعية .. فالنساء ضعيفات أمام الأزواج والقهر من الزوج ومن أهلها .. وفي الغالب تنتهي القضايا بالصلح .

قلت : قضايا الأسرة كثيرة ، وبخبرتك ما هو أكثر سبب للطلاق؟

قالت بعد تفكير : الأسباب والدوافع كثيرة ، والأهل لهم دور كبير سواء من جهة الأب أو من جهة الزوجة، فعدم انسجام الزوجة بحماتها وحميها وذريتهم تكثر النزاعات والاتهامات ، وضعف استقلال الرجل عن الأسرة في حياته ومشاكله ؛ وربما عدم قيام الزواج على الكفاءة يسبب النزاعات ، وكذلك المستوى الاجتماعي بين الزوجين ، فالأهل لا يعرفون بعضهم إلا بعد زواج الشابين ، طباع عائلة الزوج تختلف عن طباع أسرة الزوجة ، والانصهار يحتاج لزمن ، لذلك تجد زواج أهل الريف أقل طلاقا من زواج أهل المدن ، وكل له طريقته في حل المشاكل ، ويتعجلون في الإنجاب سعيا في تثبيت الزواج من أي هزة ومحنة ، والإنجاب

السريع قبل التكيف يذهب ضحيته المواليد ، الأهل يرون الإنجاب سدا لنجاح الزواج والزوج أو الزوجة يريان الخشية من الضعف الجنسي في تأخير الحمل ، وتكثر الإشاعات والأقاويل اذا تأخرت في الحمل ، وعند الطلاق لا يقف الأطفال مانعا وعائقا للانفصال ، ولا الأخلاق تمنع ذلك .

قلت : الطلاق فعلا مشكلة يا سامية ! مشكلة اجتماعية تعم الأرض .

قالت : لذلك في الغرب يسمحون للعلاقات خارج بيت الزوجية خارج قانون الأسرة ، وهذا لا ينفع عندنا لارتباط اجتماعي كبير بين العائلات ، البالغ عندهم لا يكلف والده بالتدخل بحياته والإنفاق عليه ، ويكون بينهم علاقات شبه زوجية دون عقد زواج موثق.

****

كانت دراستي الماجستير مسائية وليلية ؛ لعملي صباحا حتى العصر ، فالدراسة سنتان أربعة فصول على الأقل ، وإعداد رسالة قانونية في نهاية الدراسة ومناقشتها أمام لجنة من رجال القانون في الجامعة. كانت صداقتي لسامية خلال هذه السنوات ممتعة ، نقضي ساعات الفراغ سوية في المطعم الجامعي أو مطعم خارج أسوار الجامعة ، حسب الفراغ بين المحاضرات نجلس في ساحات وحدائق الكلية أو مكتبة القانون في الجامعة لإعداد أبحاثنا الجامعية ، وتقليب صفحات المراجع الكبيرة . كانت حياتي أمامها ، علمت قصة حياة أبي وأمي والأسرة هي لم تكن لديها الشجاعة ؛ لتتحدث عن نفسها وأسرتها بالكثير من التفاصيل ، حدثتني عن أخ يكبرها بسنوات ، ويعمل مهندسا ، وبدا لي أن علاقتها به جيدة وممتازة رغم أنه متزوج ، ويسكن في فيلا بعيدة عن بيت الأسرة ، هو الوحيد الذي علمت منها بعض حياته وسيرته.

ذات يوم قالت: ألا تريد الزواج بعد الماجستير أم ما زالت عقدة الأجنبية في نفسك ؟

قلت : الحقيقة لم أتخلص من فكرة الزواج بأوروبية.

قالت بابتسامة : وهل لا يتطلقون أولئك ؟!

قلت : الطلاق في كل المجتمعات حسب معلوماتي حتى الكاثوليكية.

قالت : ادن جرب الزواج من عربية.

قلت : ما زال صراخ وصياح والديّ في أذناي ، طلاقهما حصل وأنا صغير ، نستيقظ من النوم على صياحه وشتمه وذلك قبل ذهابه للمطعم، معركة في الليل معركة في العطل .. معارك .. ولما حصل الطلاق ، لم أفهمه بعد يا سامية ! كنت على وشك دخول الصف الأول ، ولما رحلنا عن بيت أبي وأسرته ظلت أمي تصيح وتصرخ في وجوهنا ووجه أمها على الحامية والباردة كما يقال ، ولا نفهم لماذا الشجار مع الجميع ؛ كأننا نحن الذين طلقناها.

قالت : وكيف هي اليوم بعد أن خلت الدار ؟

قلت : تريد أن أتزوج وأسكن معها ، فأقول لتفضحيني بالشجار ، لو تزوجت سأهرب مثل طلال شقيقي الطبيب.. اليوم تذهب لجدتي أمها تتصايح معها، وما زالت تتهمها بتدمير شبابها ، وتركها المدرسة .. أبي رغبني بالزواج من ابنة أخيه ، وهي تلح عليّ بالزواج من ابنة أخيها أو أخواتها.

قالت : وهل بينت لها رغبتك بالزواج من إنجليزية كما تحلم؟

قلت : راسلت بعضهن ، فأنا أتقن الكتابة والقراءة بلغة الإنجليز حتى اذا ظهرت رواية مترجمة ولها دعاية وصورت فلما ، أطلبها بلغة الإنجليز ؛ ليس حبا بهم ؛ إنما لغتهم لغة عالمية يتواصل الناس بها في أنحاء مدن العالم الكبرى، لولا المال لأخذت الماجستير عندهم ؛ ربما الدكتوراه افعلها ؛ لعلي أفتح شركة واعمل في التدريس مثل هؤلاء المدرسين، أنت تعلمين قيمة شهادة بريطانيا فرنسا ، لها أهمية في البلاد المستعمرة عربية كانت أو إسلامية.. أنت لماذا تهتمين بزواجي أم مجرد حديث لتمضية الوقت ؟ هل مللت من جلساتي؟

قالت : أنا أستمتع بسماعك يا طارق ، والجلوس معك ومرافقتك للمسرح والسينما وأقدر احترامك لي !

قلت : ألا تتحرجين من ذلك يا سامية!

قالت : لا ، منذ دخلت الجامعة ملكت نفسي ملكا حقيقيا ، لا أحد يتدخل في حياتي

الشخصية لا أب ولا أم ولا أخ ، المهم أن أحسن الخيار في الأصدقاء والصديقات ؛ كما يردد أبي وأمي .. هناك ثقة كبيرة بي.

قلت : أو لم تزل القدم بك نتيجة هذه الثقة!

قالت : قليلا ، رافقت فتاة وشابا في أول شركة عملت فيها ، لما سمحت النقابة لي بالعمل بعد حصة التدريب ، اشتغلت رسميا في تلك الشركة القانونية ، رأيت فسادا بينهم وأمورا سيئة فأسرعت بالابتعاد عنهما ، تبين لي أن بينهما أكثر من زمالة وصداقة ، بينهما علاقات جنسية ، وهذه لا تروق لي ، ولا يعني هذا أنني متدينة ، أنا لا أرحب بالعلاقات الجنسية قبل الزواج ، ثم اكتشفت أنهما يحملان أفكارا الحادية وشيوعية ، نعود نفكر الله موجود وغير موجود ، قضينا فصولا في الكلية والجامعة حول هذه القضية ، فتركت الشركة ونسيتهما ، سعوا لتجديد الصداقة معي ورفضتها ، ثم تعرفت على شاب ، وجرى بيننا استلطاف ومشروع زواج ، وعرضني على أمه وبعض أهله ، ودعاني لتناول الطعام معهم أكثر من مرة وبعد فترة رفضت الارتباط به ، لقد رأيت سيطرة أمه عليه في أكثر من زيارة.

قلت : ربما تظاهرت بذلك لتبعدك عنه .

قالت : لا أعتقد ، فشخصيته داخل الشركة قوية جدا ، أما أمام أمه فشخص باهت دون شخصية .

قلت : لكنه شجاع عندما زوّرك بيته ، وعرضك على أمه وأهله .

قالت : في الأول رحبت بي كزوجة لابنها في المستقبل ، ثم لاحظت من خلال الجلسات عدم راحتها للزواج من ابنها يا طارق ، لم تشجعه على الزواج ، صرنا نتحدث عن السياسة والاقتصاد ، ثم أحجمت عن الزواج منه ومن غيره.

قلت : لو فكرت بالزواج من عربية ؛ لكنت أنت يا سامية ! قد أفكر فيك .. خبرتك ، وخبرت عمق تفكيرك وتحليلك للمسائل والقضايا.

قالت : لكني أنثى ! أغضب وأفرح .

قلت : أعرف أنك أنثى ، وتحملين صفات النسوان .. اليوم الدكتور أنثى وذكر والهندسة والقانون .. الفروق تذوب في المدن .

قالت : ما أخبار جدك والد أمك ؟

قلت : جدي كما أخبرتك سابقا ، ما زال يرقد على سرير الشفاء والعافية ، لي خال طبيب ، وكان يقوم على مساعدتنا ماديا ومعنويا خلال الجامعة ، وعند طلاق أمي وهو بار جدا بأبيه ، فيقضي الكثير من الوقت معه في المستشفى ومع الأطباء ، وأشعر أن جدي مقبل على الموت ، والله تعالى أعلم .

قالت : ألا تريد أن تعرفني على أمك المجاهدة؟!

قلت : مجاهدة ! أمي لم تجاهد ، زهقتنا عيشتنا قبل الطلاق وبعده.

قالت : إنها أمك ، ورفضت الزواج من أجلكم .

قلت : مرات أقول كيف تحملها أبي خمسة عشر عاما ؟! ونحن أطفال كنها نظنها مظلومة حقا ولما بدأت أفهم رأيت أن أبي هو المظلوم بتحمله مشاكلها وصراخها ، الرجل عندما يعود من العمل يحتاج للراحة ؛ وليس الشكوى من أمه من أبيه من أخته من جيرانه ، يحتاج للسكون والهدوء قبل سماع القصص ، ما هو استوى من مشاكل الشغل والشارع .

قالت : إنك تلتمس عذرا لأبيك ، وتلوم أمك ، هل تساعده ماديا ؟

قلت : لا ، يرفض أي مساعدة بحجة أنه لم يدعمنا أيام الجامعة لضعف إمكانيته المالية ، وهذا صحيح ، كان يملك مطعما ، وما زال يملكه بعد طلاق أمي كاملا فخوفه من أمه يبدو مثل صاحبك الذي تحدثت عنه ، أقول إنه كان بخيلا ؛ بل مثل الناس ينفق ؛ لكن بدون سخاء وكرم.

قالت : ألم تختلف معه بشأن زواجك؟

قلت : هذا موضوعه الدائم.

مات جد طارق بعد هذا اللقاء بأيام ، وذهبت سامية لصيوان العزاء ،وصحبتها شقيقتها

شادية ، وعزتا والدة طارق وطارق ، وتعرفتا عليها وعلى أمها ، وشكرها طارق على هذه اللفتة ، فلما التقيا في الجامعة وبعد منوعات من الحديث ، قال: الفتاة التي صحبتها أصغر منك

قالت : نعم ، تدرس في الجامعة سنة رابعة بكالوريوس رياضيات .

قلت : إنها لطيفة ! مخطوبة .

قالت : لا ، ترفض الزواج قبل التخرج .

قلت : إنها جميلة ألا تقبلني زوجا !

ضحكت و قالت : غيرت رأيك عن الأوروبيات!

قلت : العين لها دور يا سامية!

قالت : أتحب أن أحدثها عنك؟ حب من أول نظرة ؛ لكنك ستنتظر سنة أو باقي السنة.

قلت : أنت واثقة من قبولها!

قالت : لا طبعا ، سأقول لها عنك ، وستتعرف عليها اذا وافقت.

قلت : هل ترين أني أصلح زوجا ؟

قالت : عجيب سؤالك ! من معرفتي بك ومعرفتي بأختي أرى أنك مقبول لدى الأسرة.

قلت : سأدعوكم للعشاء يوم الخميس القادم أنت وشقيقتك شادية، هل تقبل الدعوة ؟

قالت : سأعرضها عليها .. أنت في نظري شاب جيد ومكافح.

قبلت شادية الدعوة والتقوا ليلة الخميس على مائدة العشاء ، وجرى تعارف موسع بينهم أكثر من ليلة العزاء ، وشكرته على الاهتمام بها ؛ كما نقلت سامية وقالت: عجيب أن تغير رأيك بالزواج من رؤيتي من أول مرة وفي العزاء!

قلت : العزاء اليوم كأنه كرنفال احتفال يا آنسة.

قالت شادية : في صحة في كلامك ، لم يعد الحزن كما كنا نراه صغارا.

تناولوا الطعام مع دردشة وكلام حول الزواج والطلاق ، ووافقت مشاركتهم بعض السهرات للمزيد من المعرفة ، وهكذا كان.

تخرجت وسامية من الماجستير ، وقويت صداقتي بشادية ، وأصبحت ترافقني في السهرات بمعرفة سامية ، وأمر زواجنا أصبح واقعا مرحبا به من سامية وأهلها ، وتمنت لنا السعادة والتوفيق ، وتفاجأت بزواجها بعد الماجستير بأقل من شهرين، تزوجت أحد أخوة زميلة عمل ، ووافقت بسرعة أدهشتني ، ولما تخرجت شادية تزوجتها ، وفوجئت بكلام من شادية أن أختها كانت ترغب بي زوجا ؛ ولكنها لم تحب أن تبدأ هي في طلبي ، وكانت سريعة بتعريفي بشادية ، وشادية قبلتني بسرعة بدون تردد ، حصل الزواج بيني وبين شادية ، وكان الحفل في فندق مشهور ، دفعت الكثير مما أملك والدين ، واستأجرت شقة تليق بعروسي مع أن أمي انتقلت للعيش مع أمها لرعايتها التي فقدت نظرها وضعف جدا رغم وجود زوجات أخوالي في نفس العمارة ، ظلت الشقة مستأجرة ، أمي لم تعد الأم القديمة التي عشت معها ، منذ خلصت الكلية لم يعد جلوسي معها كثيرا .

بدت شادية زوجة طيبة وجيدة ، وتعد الطعام بشكل جيد ، وترحب بالضيف والصديق ، ولم تستثقلهم ، ولم تكن مشغولة بالحمل وملهوفة لتتأكد من صلاحها كم يزعم العرسان الجدد ، حتى اضطررت أن أسالها ألا تحبين الحمل ؟

قالت : أحبه ؛ ولكني لست مستعجلة.

قلت : وأنا مثلك ، فلنترك الأمر لله وحده.

قالت : وهو كذلك.

مضت سنة على زواجنا ، وكنا في غاية السعادة والانسجام ، كنا نزور سامية وزوجها المهندس ياسين ، وكان شابا جيدا ومهذبا وانطوائيا ، وكانت سعيدة معه وتحبه ، وأنهما يتعالجان من أجل الحمل. كانا يفرحان بكل زيارة نقوم بها لهما ، وكانت سامية تشجع شادية على الحمل خشية أن أسافر لبريطانيا والزواج من إنجليزية ، مع أني طردت هذه الفكرة من رأسي بعد زواجي من شادية ، اعتقدت أنني خلصت من تلك العقدة ، وزواجي منها يؤكد ذلك.

طبعا لا تخلو حياتنا من المنغصات ، ومشاكل الحياة الدنيا ، ولا أنكر أني تزوجت زوجتي عن

حب وعشق من أول نظرة . مرت صفحات حياتي في الجامعة والماجستير بكل احترام للجنس الآخر ، كلنا بشر ، ولم أحاول العبث بأي فتاة ، كانت صداقاتي واضحة بينة ، وكانت رغبتي فعلا أن أتزوج غير عربية ؛ ولكني لم أخطو خطوات جادة وصارمة ، ولا أنكر أن شادية فتاة جميلة وفائقة الجمال ، وأن حسنها وطفولتها شدتني إليها بسرعة حتى أني تسألت مرات هل أتت بها سامية للعزاء عن قصد أو غير قصد ؟ فهي لم تكن تحدثني عنها أبدا ، كانت زوجة مثالية ؛ لكن بعد التحاقها بالوظيفة العامة بشهور أخذت حياتنا تتغير ، أنا لست ضد عمل النساء ؛ لكن عملهن أفسد حياة الناس ، الزوجة أهم عمل لها الوجود في البيت ، تعمل في البيت الحقل ، حدث التقصير ، أعود من الشركة لا أجدها ، الطعام تعمله مبكرا، تأتي مرهقة تعبانة ، تنام رأسها فيه صداع ، وبدأت تطرح فكرة جلب خادمة للبيت ؛ لتقوم بتنظيف البيت والطهي والغسيل ، فتسألت ليس بخلا هل هذه الأشياء تحتاج لخادمة ؟ نحن اثنان فقط ، والشقة صغيرة لا مكان للخادمة فيها ، كنت أرى الخادمات في بيت خالي الدكتور رمضان ، وبعض أخوالي الآخرين ، وتفاجأت أنها تريد مني أن أدفع راتب الخادمة ، فقلت بصورة مزاح الذي يريد الخادمة يدفع أجرتها.

فصاحت فجأة: أتقارنني بالخادمة ! هل أنا مجرد خادمة لحضرتك ، وفي نظرك.

قلت : لا ، أنت زوجة وحبيبة .. هل شرائي للخضروات والفواكه وكل شيء يعني أني خادم بمعنى كلمة خدم .. البيت لا يحتاج لخادم أو خادمة ليس لدينا أطفال بحاجة إلى مراقبة وحماية أثناء انصرافنا للعمل .. مجرد صحن طبيخ أو كوب شاي يحتاج لخادم .

المهم حدثت مشاجرات وبدأت تكثر ، واشتد الكلام حول استئجار خادمة ؛ لتقوم بأعمال شادية المنزلية ، ورفضت جلب خادمة بقوة ، لم ترق لي الفكرة وذكرتها بأني ما زلت أسدد ديون الماجستير والزواج . غضبت مني ، وطلبت الذهاب إلى بيت أسرتها لقضاء يومين أو ثلاث ، فسمحت لها دون تشنج .

لم أكن أتصور أن تكون قضية الخادمة لتبق شادية أسبوعا في بيت أهلها حتى اضطررت

للذهاب إلى هناك ومعرفة سبب التأخير ، وجرى النقاش في بيت أسرتها وعن ضرورة جلب خادمة ؛ لتخفيف أعباء البيت عن شادية ، فتعجبت من كثرة الأعباء التي يتحدثون عنها ، والراحة والشغل ، وذكرت لهم: نحن اثنان فقط فلماذا ندخل خادمة البيت؟! في النهاية انتهى الجدل بأن أدفع نصف أجرتها ، وهي تتكلف بالنصف الثاني، أنا استأت من شادية وحتى أهلها ، وشعرت حينئذ أن الفراق اقترب ساورني رهاب الفراق ، نحن نسكن شقة صغيرة فأين تبات الخادمة ، ولم ترتاح نفسي لهذا الضغط ، وتدخل سامية صديقة الماجستير وزوجها في فرض رأيهم عليّ.

تكفل زوج سامية بسؤال مكاتب تشغيل العاملات في البيوت ، وجاءت الخادمة فاضطررت لتغيير الشقة بأوسع من أجل غرفة لمبيت الخادمة ، والرحيل وما أدراك ما الرحيل ؟ تذكرت يوم رحلينا من بيت سليم حين طلقت نهى أمي ، الحق تطيرت ، ووقع في قلبي الطلاق من جديد ؛ كما حدث يوم نزاعنا على جلب خادمة ، آه أيها الرفاق على وجع الرحيل! واستسلمت للأمر خشية الطلاق ورهابه ، لا أريده ، تزوجنا عن حب متبادل واقتناع.

الشقة الجديدة لم تبعد كثيرا عن شقتي الأولى ، فلما استقرت الخادمة في الشقة بدأت أتأخر في العودة للبيت ، قلت ما دام لدى الزوجة من يسليها في البيت صرت أسهر مع الزملاء والمعارف القدماء والجدد من أمثالكم ، وعدت لنادي الخط العربي ، فأنا عرفته من أيام الكلية ووجدت راحة فيه ، وهربا من مشاكل البيت والأقارب ، ممتع تعلم فنون الخط والاستغراق في رسم آية أو حديث أو بيت شعر أو حكمة ، وعدت أدخل المقاهي من جديد التي كنت أتردد عليها قبل الزواج ، وسبب تغيير المنهج بمشاكل ونزاعات مع شادية ؛ ولكني لم أكترث ولم أعد أرافقها في زيارة أهلها وسامية وغيرها من الشقيقات ، وامتلكت سيارة خاصة بها ، فقلت اسهري عند سامية وأمك.

فقالت بانفعال غاضب : تفعل ذلك ؛ لأني أجبرتك على استئجار خادمة!

قلت بهدوء : أنا لم أجبر يا سيدتي! اختصرت الشر والفتنة فحسب ، وقبلت ذلك من أجلك

وأجل راحتك ، والأعباء الملقاة على عاتقيك ، ومن أجل خاطر سامية ، وزوجها دعاني أن لا أكبر المسألة ، وأنه متعاقد مع خادمة ، ونسي أن الخادمة ليست من أجل عيون زوجته ؛ إنما من أجل أمه الضعيفة التي تعيش معهم .

قالت بصوت عال : لا ، لا تضحك على نفسك ، أنت منذ طلبت الخادمة تغيرت نفسك ؛ كأنني طلبت رأس كليب ، ولبن العصافير ، واليوم تتأخر بحجة وجود الخادمة معي ، وأن تأخرك لا يضر بي.

قلت : بدأت أفكر بالضغط على أمي ؛ لتعيش معنا باقي عمرها ، فقد سمعت أنها تتذمر من الحياة مع أمها.

قالت بصوت عال : أتريد أن تفعل مثل سامية وزوجها ؟

قلت : بوجود الخادمة لن تؤثر عليك ، ولن تحتاجي لخدمتها ، والخادمة قادرة على خدمتنا نحن الثلاثة ، وبدل أن تبقى الخادمة وحدها تكون أمي معها .

قالت بتحد : لن تقبل أمك بالرحيل عن أمها ، أنا أعرف نفسية أمك يا طارق ! أنت لم تعد تحب الهدوء ، تبحث عن المشاجرات ، أنا صممت على الخادمة حتى لا تراني مقصرة في خدمة البيت وخدمتك.

قلت : يا عزيزتي! الخدمة .. من يغسل ملابسي ؟ لا أنت ، ولا الخادمة .. الغسالة تغسلها ، وكنت أغسل ثيابي في بيت أمي ، والملابس الخارجية البذلات نذهب بهن إلى المغسلة والكوى والطعام أكثره من المطاعم يا بطة !

قالت: ألا ترى في كلامك ظلما لي واتهاما بالتقصير في طاعتك ورعايتك ؟ وجبة الفطور هي التي تجمعنا ، الغداء بالمطعم وصار العشاء.

قلت : أنا لا أحب طعام هؤلاء العجم .. أقرف من طبخهم .

قالت بصوت عال : المطاعم من يعمل بها ؟ اذا السهر مع الشباب يريحك مني فافعله .. سأتحمل أيها الزوج العزيز.

أخذت أقلل من السهر ليلا ؛ لأني مدرك أن الانفصال قادم ، شعور تملكني بقوة ؛ لكنه ينتظر القشة ، فكنت أرجع عند العاشرة ليلا أو مع هبوط الليل ، وأعتقد أن زوجتي سكتت على مضض واختصار للشر ، وتركت زيارة أهلها أختها أخواتها انتهت في برنامجي إلا الزيارات الضرورية التي لا بد منها في حالة المرض ودخول أحدهم المستشفى ، أما السهر للسهر فاعتذر دائما ، وتذهب وحدها وهي تحمل اعتذاري ، وفور خروجها ، ولم تحترم وجودي أغادر الشقة فورا حتى قالت يوما : لم تعد الحياة معك تعجبني .

قلت : لماذا ؟!

قالت بعد أخذها نفسا : لم تعد طارق الذي تعلقت به من مدح سامية ، لم تعد الصديق الحبيب .. كل هذا بسبب دفع نصف أجرة الخادمة أنا سأدفع نصفك .

قلت : أنا لم أتغير يا شادية ! أنت التي تغيرت منذ استلامك للوظيفة .. أصبح العمل أهم مني ؛ لعل الحب برد اذا كان الحب يبرد.

قالت: أنا ما زلت أحبك ، وها أنا أذهب للطبيبة للحمل منك ؛ لتتأكد أني أحبك.

قلت : وأنا فعلت ذلك بعد زواجنا بسنة ، لما لم يحصل الحمل ، ولا تأخذين موانع فذهبت أطمئن على جودة المني .

اعترفت تلك الساعة أنها كانت تأخذ موانع حمل منذ تزوجنا ، تريد معرفة قوة حبنا ، وهل يثبت زواجنا ؟ وإنها تركت ذلك من شهور.

فقلت لها وأنا أسيطر على أعصابي : لماذا فعلت ذلك بدون علمي ودون اتفاق ؟!

قالت: ألم نتفق على تأخير الحمل؟

قلت : لا ، لم نتفق يا شادية ! نحن قلنا أن يأتي الحمل بأمر الله وحده وقتما يريده ، لا أن نمنعه نحن .. إني أتألم جدا من هذه الحقيقة.

قالت: لم أكن أرغب بالحمل سريعا ، فأخذت الحبوب ، وأنت تعلم أن الحبوب لا تمنع الحمل بالكلية مائة بالمائة.

قلت : لكنك بفعلتك هذه جعلتيني أخضع لفحوص طبية لا لازمة لها ، ولما أسمع نتيجة الفحص أظن أن خطأ حدث فاذهب لمختبر آخر ، ظننت أني عقيم .

قالت: لم أفكر بذلك ، ولم تقل لي أنك تفحص قدرتك الإنجابية ، وأنا أخطأت واعترف بذلك.

قلت : بهذه البساطة يا شادية!

قالت: أنا آسف ، دعني أسالك عن أمك.

قلت متهكما : دعني أسالك عن أمي ، ثم تابعت : أمي مريضة وعاتبة عليك ، فإنك لم تذهبي إليها ولم تتصلي بها، وقالت لي لعلك متزوج بنت الرئيس .

قالت: لم تطلب مني ذلك ، ولم تقل لي عن زيارتها ، وغدا سأمر عليها وحدي وأعتذر لها.

قلت : وأعتذر لها .. على كل حال أحب أن أخبرك بأنني سأسافر لليونان لمدة أسبوع تغيير جو ؛ وربما منها لفرنسا وبريطانيا.

قالت: فرنسا وبريطانيا لم تتحدث عن ذلك!

قلت : ها أنا تحدثت .. رحلة اليونان سياحة مع شركة سياحية.

قالت بسخرية : مجرد سياحة!

قلت : مجرد سياحة! أما إذا تمكنت من السفر لفرنسا أو بريطانيا فمن أجل الدراسة والدكتوراه.

قالت بتهكم : الحلم القديم!

قلت : حلم الدراسة ؛ وليس الزواج ، ولولا عشقي لك ليلة العزاء لما تزوجتك .

قالت: أما زلت تحبني يا طارق مثل تلك الفترة؟

قلت : لا أدري!

قالت بحزن : لا تدري! ومن يدري ؟

رافقت المجموعة السياحية بالطائرة إلى أثينا عاصمة بلاد اليونان ،كنا عشرين سائحا بين ذكر

وأنثى ، بعضنا فرادى مثلي ، وبعضهم أزواج رجل وامرأته أو أخته ، كان في صحبتي صديقي احمد ناصر المحامي ، تعرفت عليه أيام التدريب ، وظلت الصداقة مستمرة ، ونلتقي بين الفينة والأخرى، انطلقنا في حافلة إلى فندق الحجز ؛ كما رتبت شركة السياحة ؛ لنزور معالم أثينا السياحية التاريخية القديمة والمعاصرة ، وجولات تسوق في أهم الأسواق ، وبعد الجولة المرتبة سيسمح لنا التحرك بحرية داخل المدينة على أن نبقى على اتصال مستمر مع مرشد الرحلة خشية التعرض لإحداث وحوادث ، والأفضل أن يترافق كل اثنين أو أكثر في أي مشوار ، وعند الدخول للحانات والملاهي الحذر والانتباه من اللصوص وحرامية السياحة والنشل.

الأيام الأولى كان أغلبنا يدور ويتحرك قريبا من الفندق ، اللسان العربي متواجد في المدينة ، والمسارح بالعربي متيسرة لخدمة السواح العرب ، والسحنة الشرقية موجودة ، فقد علمت أن اليونان كانت تخضع للحكم العثماني كسائر بلاد العرب قبل تفكك إمبراطورية آل عثمان ، أنا لا أتعاطى الخمر رغم ظروف تفككنا الأسري ، ولم أمارس الزنا في يوم من الأيام رغم سهولة ذلك في مثل هذا الزمن ، ولست أحسب نفسي متدينا شيخا مع أن بعضهم يلقبني بالشيخ ، ولا أحافظ للآسف على الصلاة ، لم تكن أمي تهتم بذلك قبل الطلاق وبعده ، ما رأيتها تصلي أبي كان متدينا ومصليا ، كنت أيام المدرسة أصلي متقطعا ، أما أخي طلال فكان من أهل الصلاة ، ويرتاد المساجد ، ويصلي الجمعة ، وكان يمشي مع الجماعات الدينية ، واستمر على ذلك أيام الجامعة ، وكان نشيطا في الحركة الإسلامية ، لم أكن أهتم بذلك.

زوجتي شادية مثلي لم تعرف الصلاة ولا الصيام ، ولم نكن نتحدث عن ذلك في البيت ، تركت رفيقي يستمع باللهو والحانات ، وأما أنا فأتركه وأمشي لمراكز علمية أخذت عناوينها قبل الرحلة ، وقمت باتصالات بفرنسا وبريطانيا لتأمين رحلة دراسة ، ووفقت بذلك في جامعة خارج لندن على أن أرسل لهم صورا عن البكالوريوس والماجستير ؛ لذلك لما عدت من السياحة تابعت المراسلة ، ثم كانت الموافقة في تلك الجامعة .

وكانت شادية تتابع ذلك بصمت وغير مبالية ، فهي تعلم كم راسلت قبل زواجنا والتعرف

عليها ، ولم تحاول تشجيعي على السفر ، فلما تمت الموافقة ،قالت : هل سأسافر معك ؟

قلت : أنا سأدرس على نفقتي وبعض القروض ؛ لست مبتعثا .. والحياة في أوروبا ليست كما هنا .. إنها مكلفة ، والدراسة لن تطول .

قالت بصوت عال : وهل سأبقى وحدي؟

قلت : الخادمة معك أو عيشي مع أمك ريثما أرجع .

وفجأة قالت : ما رأيك بالانفصال؟

هتفت رعبا ودهشة: الطلاق!!

قالت: نعم ، الطلاق.

قلت : أنا أحبك، وما زلت على حبك ، وأراك الزوجة والحياة يا شادية ! رغم الفتور بيننا.. أبغض الطلاق وحتى الكلمة !

قالت : لكني أخذت أفكر فيه منذ سفرك لليونان دوني.

قلت : صدقي يا شادية ما زلت كما عهدتيني ، لم أمس امرأة غيرك كل حياتي ؛ وكما قلت لك قديما أن عملك أبعد روحك عني ، ومن حقك العمل ؛ ولست ضد عمل النساء ، واذا كنت تفكرين أنني سأسافر للزواج من إنجليزية فأنت مخطئة ، فقد انتهى ذلك منذ تزوجتك.

قالت : أنت لم تعد طارق الذي أحببته.

قلت : أنا ما زلت طارقا ، وقبلت عذرك بالنسبة للحمل.

قالت: لنا قرب السنة ولم يحدث.

قلت : عندما يريد الله يحدث ، وعندما أرتب أموري هناك سأدعوك لزيارتي نحتاج لمال كثير ، وأنا كما تعلمين لست غنيا .

قالت : فكر بالانفصال.

كان يجلس في مكتبه ذلك اليوم الأخير للعمل ، وهو يستعد لترك الشركة للسفر إلى أوروبا ، ويفكر بالطلاق الذي تعقد منه يوم غادر بيت أبيه مرافقا لأمه لأنها طلقت ، يفكر فيه بعمق ،

وليس هناك أطفال سيرافقون شادية إلى بيت أمها ؛ لن يتأثر الأطفال بالطلاق ، إنه لا يريد الطلاق ، ولا يريد صحبة زوجته لبريطانيا ، لماذا تريد الطلاق بعد سنوات من الزواج ؟ هي التي كانت غير راغبة بالحمل والولادة .. الطلاق كم أبغضه وأخشاه ! أهو الحل في رأيك ؟ إنها مجرد سنتين وأعود ، قد أشتغل محاضرا في الكلية يا شادية!

كان طارق يتذكر الطلاق في أسرته عندما همست شادية برغبتها بهذه الصفة ، وعلمت برغبته بالسفر لبريطانيا كطالب حقوق ، وهو يرغب بالسفر وحيدا لتقليل تكاليف الحياة في دولة صناعية متقدمة ومن الدول العظمى الخمسة.

فقال لنفسه وهو يسرد مشاهد حياته ، والطلاق في حياة الأسرة : هل جاء الدور عليّ ؟ ها هو طلال يعيش سعيدا مع الطبيبة التي تكبره بسنتين ، ولم أسمع أن الأمر بينهما وصل للطلاق ، وكذلك عالية تزعزت حياتها قليلا ، ثم استقرت ، هل تطلق يا طارق شادية أم تطلق الدراسة ؟ ولو فعلت هل تستمر الحياة ؟

عاد للبيت مهموما ومحتارا ومفكرا ، ولما تعشى مع زوجته ، وقد اتفقا على ذلك العشاء معا ، ولما جلسا في غرفة المعيشة ، قالت وهي تسكب القهوة لهما : ما أخبار السفر ؟

قلت : سيكون قريبا يا حياتي !

قالت: وأنا!

قلت : أنا أحبك ، وقانون الغرب لا يسمح بالتعدد يا شادية! هما سنتان ، وأصبح دكتورا في القانون ، لو سافرت للعمل في الخليج ؛ كما يفعل الكثير من الأصدقاء والمعلمين لا يصحبون زوجاتهم .. أنا ذاهب للدراسة ؛ وليس للزواج ، ولن تطول الغيبة.

قالت: ولماذا لا أصحبك في هذه الرحلة؟

قلت : وعملك.

قالت: يسمح لي بإجازة دون راتب ، كما يفعل المعلمون المعارون لدول الخليج .. وهل تسمح

لي بالسفر للعمل هناك دونك؟

قلت : هذه المقاربة غير عادلة يا شادية ! هل تذهب زوجة للعمل هناك دون زوجها؟

قالت بصوت ساخط : لا فرق بين ذكر وأنثى.

قلت : نظريا يا سيدتي ! واذا سمحت نفسك بالعمل هناك دون زوج أو أخ فافعلي

قالت بصوت عال : إذن سأرتب سفرا للعمل هناك حتى تعود .

قلت : افعلي ذلك اذا كان هذا يمنع طلاقنا.

قالت بصوت كله غضب : واذا قلت إني مصرة على الطلاق.

قلت : لم أعد أصلح لك زوجا ! واذا رفضت السفر تصرفين نظرا عن الطلاق.

قالت: لا ، أنا ومنذ قضية الخادمة أفكر بهذه الفكرة ، ومنذ عرفت أنك اعتبرت ذلك هزيمة لذكوريتك ، كما تردد هذا الكلام.

قلت : حسنا يا شادية! سنحتكم لشقيقتك سامية.

قالت صارخة : وما دخلها في حياتنا الخاصة ؟!

قلت : نعم ، أدركت فيما بعد أنها هي التي كانت ترسم لزواجي منك ، وكانت ذكية في ذلك ، ولم يكن اللقاء في العزاء صدفة يا شادية!

قالت : بل صدفة أحبت أن أرافقها في أداء العزاء لصديقها في الماجستير ، وكانت سامية تتحدث عنك بإعجاب ؛ وربما كانت تعتقد أنك ستتزوجها يوما ما.

قلت : كانت أكبر مني بسنة ، وأسمع أن من أسباب فشل الزواج كبر المرأة عن الرجل.

قالت بصوت عال : كلام فارغ يا طارق ! فلا داعي لأخذ رأي سامية في هذه المسألة .

قلت : أهناك ذكر آخر؟

أظهرت الغضب ، وبدا متصنعا ، وقالت : أنا محترمة يا طارق ! وأنت تعرف ذلك لا أسمح لنفسي بخيانتك ما دمت قد رضيتك ذكرا لي ، لم أحب رجلا قبل اللقاء بك .

قلت : وإلا ما السبب الحقيقي للطلاق ؟

قالت: السفر والدراسة ، وأنا متأكد أن حلمك القديم ما زال مخزونا في عقلك وخيالك .

قلت : جيد! هو حلم كما تفوهت .. ما كل ما يتمنى المرء يدركه يا حبيبتي! قلت لك مرارا وتكرارا إن هذه الفكرة طارت مع شوقي وحبك ، وتلك البلاد لا تسمح بالتعدد قبل طلاقك .

قالت ضاحكة : الرجال متقلبون ، غمزة من حسناء تنسون عشرة عمر ، لم أعد أحس بحبك يا طارق كما كنا قديما !

قلت : أنت تصنعين المشاكل والبرود.

قالت : وأنا أقول أنك أنت الذي يجعل من الحبة قبة ، وأنا صممت على الخادمة حتى لا أقصر في حقك وفي خدمة البيت ، وأنا وفية لك ولشرفي ، وأنت الزوجة عندك مجرد خادمة وغسالة .

قلت : هكذا هي الزوجة ، وهذه هي النظرة القديمة ، فلم أتعامل معك على هذا المبدأ .

قالت: هكذا الحال يا صديقي! لم تتحمس لوجود الخادمة لما اقترحت ذلك ، وقلت إن البيت لا يحتاج لخادمة .

قلت : ألا تريدين الحديث مع سامية ؟ ناقيشها في الطلاق .

قالت: أنا بكل قواي العقلية يا طارق لست بحاجة لمشورة أحد في حياتي الخاصة

قلت : الطلاق يعني أنك تقولين تزوح إنجليزية لتحقق حلم صباك!

قالت: أخشى أن ترسل لي خطاب الطلاق ؛ لأنهم كما تعلم لن يسمحوا بالزواج قبل تطليقي وأنت لا تقبل أن تتخذ خليلة لتجرب نساء الإنجليز

قلت : وهل تختلف النساء في كل أنحاء العالم عن بعضهن ؟ خليلة .. أنا درست في الجامعة ، وتعرفين الجامعة مسرح للهوى والعشق ، وقابلت فتيات شتى ، فلم تهفو نفسي للفاحشة ؛ إنما هي سنتان يا حبيبتي !

قالت: قد تغير رأيك وتستقر هناك .

أخذت تتحدث عن حرية أولئك الخلق وسعادتهم والتزامهم بالقانون والابتعاد عن

المحسوبية والقبلية. ثم تسألت وقالت: أليس لديهم احترام للنساء ؟ كما نسمع وأن الناس سواسية أمام القضاء أو هكذا نسمع، أما الواقع فالله أعلم.

قلت : حسنا يا شادية! اذا حدث السفر يكون لك ما شئت ، وسأدفع لك المؤخر كاملا دون تقسيط ، أنا أعلم أن السنوات الأخيرة معك كانت كلها كره وبغض لي ، وصبرت على أمل أن يعود الصفاء المفقود .. ما الذي قلبك وغيرك ؟ لست أدري ! وقضية الخادمة لا اعتقد أنها السبب .

قالت: أنت مخطئ الغِ السفر سألغ طلب الفراق .

قلت : ولماذا ألغي السفر ؟! ألا تريدين أن أصير كبيرا في البلد محاضرا أكاديميا وزيرا .

قالت : يسرني ذلك ، وفخر لي ، ويمكنك أخذ الدكتوراه هنا ، اذا الشهادة ستجعلك وزيرا .

قلت : أغلب قادة البلد الأكاديميين شهادتهم غربية ، وأنت تعلمين قيمة الشهادة من بريطانيا في بلد كان محكوما لهم في يوم من الأيام ، فمن درس في أوروبا الشرقية وموسكو يتأخر عملهم في الحكومة والسفارات والوظائف العليا ، ولولا الحاجة اليهم كأطباء لما عملوا إلا في القطاع الخاص ، فكيف بمحامي ؟

قالت: إنهم يحصلون على الشهادات بالمال والواسطة وبالدخول في الشيوعية والبلد يرفض النظام الشيوعي والاشتراكي والفكر الإلحادي يا طارق!

قلت : فلنفكر في حياتنا من جديد ما دمت أنا المخطئ .

قالت: أنا أريدك ومتمسكة فيك ؛ ولكني قلقة من سفرك لبلد قضيت سنوات تكتب لهم من أجل قبولك.

حياتي الزوجية كانت كما يقال على كف عفريت ، الدراسة في الغرب أو الطلاق كنت أتعامل مع الوضع بهدوء وروية ، بعيد عن الانفعال ، ورمي يمين الطلاق، فهو لا يربطني بها إلا الحب والاختيار وعقد الزواج الشرعي ، فتحدثت مع صديق، من أهل العلم والمشايخ الدكتور غازي محمود دكتور شريعة تعرفت عليه أثناء دراسة الماجستير ؛ لأن في دراسة

القانون مواد الأحوال الشخصية والمواريث ، وكان اللقاء في منزل الدكتور عن موعد متفق عليه ، وبعد حديث ذكريات قصير ، شرح له طارق قضيته وكرهه للطلاق وبغضه له منذ رأى طلاق أمه وأخته وأثره على نفسيته ، وقصة الاختيار بين السفر أو الطلاق .

قال الدكتور غازي : إذن هي خائفة من الطلاق بعد سفرك ،وتريد أن تسبق الأحداث.

قلت : هي تظن أنني عندما أحط رجلاي هناك سأجد زوجة في انتظاري ، وأرى طابورا من بنات الإنجليز يرحبن لاختار واحدة ، وإني ذاهب لتحقيق حلمي أو كلام رددته قبل الزواج أمام شقيقتها أثناء دراستنا الماجستير، وإني مفتون بالعيون الزرق والشعر الأشقر ؛ وكما غيرت رأيي وتزوجتها ، سأفعل ذلك هناك.

قال الدكتور غازي : أتعتقد من داخلك أن هذا هو السبب فعلا ؟ أم هناك أسباب خفية أخرى، كعجزها عن الحمل ، وزعمت لك بأنها كانت تأخذ مانعا للحمل .

قلت : أنا صدقتها بفعل ذلك ، وكانت مفاجأة لي ؛ لأننا من البداية اتفقنا على الخلفة بكل راحة ، لم تأخذ موانع لولب أو حبوب حتى تفاجأت بأنها خائفة من الطلاق فأحبت تأخير الحمل ، ولم يحدث الحمل ، فشككت في نفسي فقمت بفعل عدة فحوصات بدون علمها ، وكلها بينت أنه لا مشاكل عندي للإخصاب ؛ ربما الإعاقة من الزوجة ، واعترفت أنها منذ تزوجنا وهي تتعاطى الحبوب ثم تركتها رغبة في الحمل.

قال الدكتور غازي : وهل حقا ستتزوج أجنبية اذا سافرت؟

قلت : لا ، انتهى موضوع الزواج من غربية منذ نكحتها ، وأنا عندي المرأة مرأة في كل البلدان خاصة من ناحية المعاشرة ، هي خائفة من تجدد هواجس الماضي ، وأنا محب للدراسة في الغرب لأهمية شهادتهم في بلدنا وغيره من بلدان العرب والمستوى الاجتماعي والاكاديمي ، وفرصة تكون للعمل الجامعي بشهادة أوروبية وأنت تعلم وزن مثل هكذا شهادة في بلادنا.

قال الدكتور غازي : نعم ، أعرف ، وأنت لا تستطيع أخذها معك .

قلت متسائلا : وهل أخذها يا دكتور يمنعني من الزواج والطلاق ؟ عندما يريد الإنسان

تدمير حياته الزوجية هل يصعب عليه ذلك ؟! لكن وجودها معي يعني تكاليف أكثر وأنا لست غنيا أعتمد على الله وعملي يا دكتور غازي! فالواحد ليس كائنين ، ستمل سريعا من الوحدة خلال شهور ، وتحتاج لشم هوا ونزهات ، وستحن لأهلها أريد أن أزور الوطن أرى أمي وأبي، ستمل من البيت وحدها ، هي لم تفكر بمثل هذه التفاصيل والأشياء ؛ ولكني فكرت فيها ، هي تظن بمصاحبتي ستمنعني من الزواج عليها ، غير مصدقة أنني ذاهب للدراسة فحسب.

قال الدكتور غازي : هل ناقشت أمرك هذا مع أحد غيري؟

قلت : لا ، كنت سأناقش الموضوع مع شقيقتها سامية التي درست وإياها إنك تعرفها، درسنا معا ، وكانت السبب في زواجي من أختها ، ولا أدري هل هي التي رتبت الزواج أم جاء عفويا ؟!

قال الدكتور غازي : اذكرها ، وتتحدث معي هاتفيا حول بعض القضايا الأسرية والأحكام الشرعية والنفقة والميراث ، والتقينا أكثر من مرة شخصيا ، وهي سيدة فاضلة ومتزنة ، ولاحظت ذلك أيام الجامعة .

قلت : نعم ، وأنا زوج أختها منذ أكثر من أربع سنوات.

قال الدكتور: أنت لا تريد الطلاق ، وتريد السفر ، ألا تفكر بالبقاء هنا ودراسة الدكتوراه هنا من أجل بقاء الزواج.

قلت : استطيع البقاء هنا ، والدراسة هنا ؛ لكنني غير مقتنع باعتراضها وتوجسها وأنا اليوم أرى أن الطلاق حاصل في أي لحظة ، ما دام الطلاق دخل البيت .

قال غازي : ليس شرطا يا طارق! هي خائفة من شيء ، قد يكون خوفها وقلقها في محله ؛ ربما هي تعرف صفات وأحوال فيها تدفعها لهذا القلق والاحتياط ولا اعتقد أن في حياتها رجل آخر يدفع بها للطلاق .

قلت : أنا شككت بذلك ولا أعتقده .

قال الدكتور غازي : لو أنك متدين يا طارق! ربما دفعها هذا للثقة بك أكثر.. الصلاة حماية للأسرة.

قلت مستغربا : وما دخل الصلاة يا دكتور بالطلاق ؟ كان أبي مصليا وطلق أمي !

قال الدكتور: ما يجري معك غير ما جرى مع والديك ، الصلاة تزرع الطمأنينة بين الناس الفرد والمجتمع ، بين الزوج والزوجة ، فالذي يكون متصلا بربه تزداد ثقته بنفسه ، ويثق به الآخرون ، ويقولون إنه يصلي ؛ لذلك تجد من يريد خداع الناس يتظاهر بالتدين.. أعد حياة الدين لبيتك.

قلت : وهل بذلك ستسمح لي زوجتي بالسفر وتتخلى عن الطلاق؟

قال الدكتور غازي : أنا لا أرى أن السفر سبب الطلاق أو طلب الطلاق ، هناك أمور أخرى لدى زوجتك.

قلت : فكرت؛ ولكني لم أجد شيئا بيننا.

قال الدكتور: قل لها إنك ستأخذها معك عندما تسافر ، وتستقر في تلك البلاد وترى الأحوال .

قلت : والمال يا سيدي !

قال الدكتور غازي : أنا سأسلفك ما تشاء من المال.

قلت : أوه يا دكتور هذا كثير !

قال الدكتور غازي : أنا واثق أنك ستسدها يا صديقي !

قلت : والموت!

قال الدكتور: إن مت قبلي سوف أسامحك بها.

تفاجأت شادية بصلاة طارق وعودته لقراءة القرآن ويجهر بالتلاوة ، وكتب الدين وتعلم الصلاة ، كانت تراقب ذلك بصمت فبعد العشاء قالت : ماذا فكرت بطلاقنا بالمعروف؟

قلت : لا أستطيع فراقك ، أنت حياتي وقدري حتى ولو لم تلدي ، هذا أمر الله وستسافرين معي إن شاء الله .

قالت: غيرت رأيك!

قلت : تيسر لي قرضا حسنا .

قالت: دين .

قلت : نعم ، وسأسدده على أقل من مهلي .. تيسر المال .. عليك أن تطلبي الإجازة من عملك فاذا بدأت الدراسة سافرنا.

قالت: والصلاة!

قلت : عدت إلى الله نصحني غازي بالصلاة قبل السفر والتوبة.

قالت: من غازي؟

قلت : صديق في كلية الشريعة ، درسني بعض مواد القانون أيام الماجستير ، تعرفه أختك سامية.. درسنا معا.

قالت: حدث أمر.

قلت : أمر ! ما هو؟

قالت: حدثت سامية عن طلاقنا والسفر ، فنصحتني أن أسمح لك بالسفر وحدك

قلت : لا ، لا، إن شاء الله سنسافر معا ؛ لتثقي أنني ما زلت على العهد ومخلصا لك ، وبأنني لن أتزوج أجنبية ، وشكرا على نصيحة سامية ، وأنت رفضت حشرها في الموضوع ما الذي جد ؟

قالت: لا أدري من أخبرها ؟

قلت : أنا لم أحدثها بذلك ، وأنا فعلا تيسر لي المال الذي كان عائقا .

قالت: ممن ؟

قلت : من الدكتور غازي .

قالت: ما قصة غازي هذا؟

قلت : لا قصة ، ولا حكاية ، ذهبت أسأله عن حل لمشكلتنا فنصحني بالصلاة والتوبة قبل السفر وعرض عليّ المال لبقاء حياتنا الزوجية قائمة.

قالت: إنه رجل فاضل كريم!

قلت : نعم.

قالت: إذن سافر دوني ، أنا أعلم قدر حبك لي رغم كثرة أخطائي وشطحاتي ، أنت تغيرت بعد طلبي للخادمة ، واعتبرت نفسك مهزوما ، وأجرة الخادمة ؛ كما قلت كلها عليّ ، وأنا أراجع الطبيبات من أجل الحمل.

قلت : ستسافرين معي يا شادية !

قالت: سأزورك يا سيدي ! أنا واثقة من عواطفك نحوي ، وأثق بكل أفعالك هذه الأيام التي أعادت السكينة لنفسي وقلبي ، وأتمنى أن أكون أمّا لأطفالك.

قلت : وهذا يتطلب مرافقتي .

قالت: سأكرر زيارتك في كل إجازة تلوح لي ، وسأصلي مثلك .

قلت : جميل أن أسمع ذلك ! أفضل سفرك ، والعلاج هناك ميسور ، والمال تيسر بفضل ربي ؛ بل الرجل سامحني بها اذا مت قبله.

رن جرس الهاتف ، فذهبت إليه كما هو مرتب بينهم ، فكانت سامية ، وتحدثتا قليلا والتفتت إليه : سامية تريد الزيارة هي وزوجها فأذنت لهم.

قلت : حسنا يا شادية ! سأذهب وألبس ثيابي .

فطارق لا يحب استقبال زائريه بلباس البيت والنوم ، يستقبلهم بلباس الخروج، في أقل من

ساعة كانت الأسرة تستقبل سامية وزوجها وطفلها الصغير ناصر .

قام الترحيب والعناق ، وجلسوا يتسامرون ودار الحديث عن الصحة والحال والطقس والأخبار الخاصة بالعمل والأهل ، ووضعت الفاكهة والمكسرات أمامهم ، وجرى الحديث عن قصة صلاة طارق وتوبته ، فشكر ربه ، وحدثهم عن زيارته للدكتور غازي ، مما أدهش سامية فهي تعرفه ، وذكرت سامية أنها تتحدث معه حول قضايا فقهية ، وزارته أكثر من مرة ، وقال ياسين لشادية : ماذا حدث في موضوع الطلاق؟

نظرت إليه بحدة ، ثم نظرت لسامية ، وخيم الصمت فقالت سامية : تحدثت مع ياسين في ذلك ، وأنك ترغبين بالطلاق بسبب رغبته بالسفر لبريطانيا ، وأحب ياسين الحديث معكم بهذا الأمر الخاص.

قال ياسين : لا تجعل سفرك سبب طلاقك ، يمكنك الدراسة هنا حتى لا تخسروا بعضكم ، وتجعلوا السفر سبب الفراق وقطع العشرة.

قال طارق بضيق : سنسافر معا يا أبا ناصر استلفت مالا لتكاليف الحياة في الغربة.

قالت شادية بصوت جاد وحانق : قلت لك لا داعي للاستلاف ، وأعد المال اذا أخذته للدكتور غازي .

قالت سامية : استدنت من غازي يا طارق!

قلت : الرجل من نفسه عرض عليّ ذلك حتى لا يحدث الطلاق.

قالت: أنا ضغطت عليك لأعرف عمق حبك لي

قال ياسين : لا داعي للدين يا أستاذ طارق !

قالت شادية : سيسافر وسأبقى هنا في الانتظار ؛ فأنا أثق به.

قالت سامية : ماذا يقول السيد طارق؟

قلت لهم بكل هدوء : أنا قررت أن أطلقك يا شادية !ولن أسافر .

صاحت سامية : هل جننت؟

قلت : لم أجن ؛ ولكن حياتنا أصبحت بأيدي غيرنا ، اشهدوا أنني أطلق شادية أنت طالق ! وغدا نقوم بين يدي القاضي .. لا تبكي .. عندما أشرت عليك أن نشرك سامية في المشكلة ، رفضت واعترضت ، وقلت لا داعي ليتدخل أحد في حياتنا الخاصة ، ولما استشرت الدكتور ، واستعد لمساعدتي ماديا لتسافري معي قلت إني اختبرك.. فهل هذا اختبار ؟ فنحن معا من سنوات ، وخدعتيني بأخذ أقراص منع الحمل سنوات خشية الطلاق وضياع الأطفال؛ حتى ظننت أني مريض عاجز عن الإخصاب ، وعملت عددا من الفحوص ، فذهبت وتحدثت مع سامية عن رغبتك بالطلاق ، ونصحتك بعدم ذلك وعدم السفر فاستمعت لها أما أنا فزبلت رأيي وقولي .

وهكذا يا أخ عزيز كان طلاقي من زوجتي بعد أكثر من أربع سنوات زواج .. وأحمد ربي أنها لم تلد مني ، وتربطني بها ذرية ، كما حصل بين سليم ونهى.

الأرمل عزيز

قال عزيز فارس: أنا لم تطلق أمي ؛ كما طلقت أمك ، وسني أكبر من سنك ، كنت ابن عشر سنين في المرحلة الابتدائية لما ماتت أمي بسبب مرض عضال أصابها ، وبسببه توقفت عن الحمل ، فكنت أصغر الأسرة مثلك ، أختي فايزة تكبرني بعامين ، وفايز الأول بأربع سنوات ، وكلنا تلاميذ عند موتها ، لم يكن فايز ذكيا ونشيطا في المدرسة ، كان يستصعب الدرس ، وكانوا يحثونه على الوصول لنهاية المرحلة الإعدادية ، لينقله إلى مصنع أو تجارة . وعلى أثر موت أمي تعقدت حياتنا المنزلية ، ترك فايز المدرسة ، ولم يهتم أبي لذلك ، وألحق بمتجر لقريب لأبي، لم يمكث طويلا فيه انتقل للعمل في تصليح السيارات ، كان مهووسا بالسيارات ويحلم بأن يكون سائق شاحنة كبيرة. البيت بدون أم صعب يا طارق حتى ولو مطلقة ، لم تكن فايزة مستعدة للطهو والغسيل والتنظيف رغم أنها كانت فتاة ناضجة وبالغة . لم يمض شهور حتى كانت الأسرة تحتفل بزواج أبي ، لقد دبرت له أمّه زوجة جديدة من الأسرة الكبيرة ، ونحن لم نعرفها قبلا إلا عندما دخلت بيتنا ، في البداية كانت طيبة ومحترمة ، ولما تأخر حملها من أبي بدأت تحدث المشاجرات بينهما ، والحديث عن العلاج والعقم ، وتبين أن المشاكل لديها رغم أن أبي لم ينجب بعد ولادتي ، والسبب عجز أمي عن تحقيق ذلك بسبب مرضها. امرأته لم تصدق أنها الضعيفة والعليلة ، فصارت تفتعل المشاكل معنا ؛ كأننا نحن العاجزون عن الحمل وسببه ، وتتهمنا بالإساءة إليها ، وعدم التعامل معها كأم جديدة لنا ، أول الأمر صدق أبي كلامها واتهامها ، ولما أخذ يسمع عن مشاكل فايز خارج البيت ويدخن ويشرب الكحول أدرك أنه أخطأ في ضربنا وتوبيخنا وأصبحت الشكاوى تأتي من الجيران وبنات الجيران ، وعلم أن زوجته سببت انحراف فايز وضياعه ، صعب عليه الحال ، كان الوالد صاحب متجر في مركز وقلب المدينة لبيع الأقمشة المحلية والمستوردة ، كان شريكا مع ابن عم له. كان من نتيجة زواج أبي فساد ابنه الكبير ، وكثرة تغيبه ليلا عن البيت ، ومشيه مع أصحاب السوء ، وشاع خبر انحرافه في العائلة الكبيرة ، وبدا والدي مصدوما من تلك الأخبار ، وانفلات فايز

ويحمل الزوجة جهرا السبب ، وإنها لم تحسن رعايته في مراهقته ، ويسبها ويصفعها ويتهمها بالتقصير معه . حتى جاء يوم وأخبره أحد الأقارب أنه رأى فايزة تتمشى مع شاب غريب في أحد شوارع المدينة ، فجن أبي واعتدى عليها بالرفس والشتم ، وهي تحلف بأنها ما فعلت ؛ وإنما كانت مع إحدى زميلتها لحضور مسرحية ، وإن الشاب عاكسها وتحرش بها ، ولما تكررت الحادثة حرمها أبي من المدرسة، وأصبحت سجينة البيت ، وزوجته الرقيب والسجان . الزمن يمشي ولا يتوقف، وقبلت فايزة ترك المدرسة ، وهي ما صدقت ؛ لأنها لم تكن شاطرة ومجتهدة ، وطلب أبي من أمه وزوجته وأخواته أن يبحثن لها عن عريس ، فزواجها خير للجميع ، ولما يسألني أبي عن فايز ، أقول يرفض العودة للبيت ، وينام في الكراج الورشة التي يعمل فيها ، وإنه لا يرحب بالعودة ، وأرسل إليه أبي بعض الأقارب ليعود للبيت ، ويدع التشرد والنوم في الشوارع والمحطات ، وكانت الإجابة تأتي بالرفض ، ولن يعود وزوجة أبيه في البيت ، ويقول للشفيع غدا تتهمني بالاعتداء عليها لاغتصابها ، هذه امرأة لا أخلاق لها . فيسخط أبي ويجن ويصرخ ويشتم ، ويرقد الموضوع لأيام أو أسابيع ، ثم يثور من جديد . أنا الوحيد الذي أحب المدرسة والتعليم والشهادة ، وأتقدم بكل قوة في الصفوف وقبل الوصول لنهاية الدراسة تقدم أحدهم للزواج من فايزة ، وبعد عدة لقاءات وافق أبي ؛ بحيث كان العريس يمت بصلة قرابة لزوجة أبي ، قرابة بعيدة قالوا وكما فهمت ، ولما تجهزت العروس خلال أشهر رحلت لبيت زوجها في شارع بعيد عن شارعنا ، ولم يشهد فايز زواج أخته رغم تبليغي به ، ثم علمنا بعد زواجها بسفره للعمل في إحدى دول الخليج الصاعدة ، فقد أصبح سائق شاحنة فعلا كما حلم وخطط، ومرت سنوات دون رؤيته لأبي ، ويرفض كل صلح ، وكل يركب رأسه ، ومضت سنوات على تهاجرهما ، أكملت الثانوية ، ونجحت وإلى كلية الهندسة توجهت بالمعدل المطلوب ، وتيسرت الدراسة على نفقة الوزارة المختصة ، فخفف ذلك عن جيب أبي ، وكان أبي يحب نجاحي ، وفرح بذلك ويعتبرني الأفضل بين اخوي .

كنت أكره قعدة البيت يا طارق ! كنت أعود من الجامعة إلى قلب المدينة أتناول الغداء أو العشاء ، وأجلس على مقهى العين الخضراء شارع البرق ، مقهى في الطابق الرابع من البناية ، أكثر رواده من طلبة الجامعات والمثقفين ، هو مقهى هادئ وجميل أنا لم أكن أحب لعب الشدة ، كنت أحب الفرجة والجلوس معهم ، واذا مللت منه أجلس في شرفة أنظر المدينة والناس ، وليلا أعود للنوم ، واذا سئلت عن الطعام أخبرهم بأني تعشيت في المدينة. نظمت الجامعة رحلات عمرة إلى مكة ، فسجلت فيها ، وباشرت الصلاة منذ سمعت عن رحلات العمرة ، والسبب زميل متدين وحركي اسمه عبد الرحمن وكان من أفضل زملاء الكلية ، وسعى لضمي للحزب الذي ينشط فيه ، واعتذرت له بلطف، وبعدم محبتي للسياسة ودهاليزها .

فقال : نحن نعمل لعودة الحياة الإسلامية الصحيحة إلى حد ما في المجتمع ، وأنت ترى الضياع الحاصل في الشباب ، البعد عن الدين يعني القرب من المخدرات والخمور ، المهم قبل العمرة اتخذت بالصلاة ، وأصبحت مهتما بالرحلة ، وحدثت الرحلة ، وكانت ممتعة ورائعة ، وتعرفت على مهبط الوحي في مكة والكعبة والمدينة مدفن سيد البشر محمد ﷺ . قبل انتهاء سنوات الجامعة مات فايز بتدهور شاحنته في رحلة إلى العراق ، ومات قبل أن نراه حيا في المستشفى ، ونقلت جثته لمقبرة العائلة ، ورغم الجفاء بينه وبين فايز كان أبي حزينا ، وقال لي : تمنيت أن أراه زوجا ، وعائدا للبيت طالبا العفو والصفح .. رحمه الله الرحمة الواسعة ، وقبل مرور أربعين يوما على الوفاة طلق أبي زوجته ، ولما سألته عن السبب ، زعم أنه بغضها بموت فايز ، وهي سبب فقده وخروجه من البيت وعن طاعته ، وفايز بكر أبي ، وأخذ يرغبني بالزواج قبل إنهاء الجامعة ورفضت هذا العرض والعروس التي تقدم لي بها ، فلما رأى رفضي الشديد تزوج هو من فتاة دون الثلاثين ؛ لتنجب له ، فهو يطمع بمزيد من الخلفة.

سعت مطلقته للعودة إليه ، ووعدته بالسلام والطاعة ، والتزام البيت ، فقد كانت كثيرة الخروج تبدأ من الجارات حتى تصل لكل نساء الحي ، فاخبرها بسعيه للخلفة ، وقد تعب من

عجزها عن الحمل ، فهددته بتطليق ابنته من قريبها ، ولم يهتم أبي بذلك الادعاء ، أما أنا فتوقعت حدوث شيء ، فهي لم تكن حسنة الخلق معنا ، كان البيت وكرا للنساء فترة ما بعد الظهر. كم يدخل عليها من النساء الكبيرات والصغيرات ؟ وكنت أتسأل عن سبب تردد كل هؤلاء النساء بيت الوالد ، ثم اكتشفت أنهن يأتين لتقرأ لهن الفنجان والبخت ويعرفن المستقبل ، تجمع شعوذة وقراءة الغيب والحجب السحرية ، ولم تكن تهتم على اعتراضاتي ، على دخولهن وخروجهن ، لم أحبها يوما يا طارق ! لكنها زوجة أبي ، وشعرت بأن لها دورا سيئا في هرب فايز من البيت ، وكانت تشتكيه كثيرا لأبي . وكنت أرى وأبرر ذلك بسبب الجهل ، وعدم التعلم إلا صفوفا محدودة ، تركت المدرسة مبكرا ، والعمل في البيت ، أخذت فايزة كلما تزور أبي تشتكي له من طليقته وتتدخل في حياتها ، وتفسد حماتها عليها ، وتحرض زوجها على الطلاق ، وستزوجه امرأة أحسن منها ، وإنها غلطت وتسرعت في تزويجه فايزة ، قابل أبي الزوج وحذره من طليقته ، وأنها تسعى لخراب بيته ؛ لأنه طلقها ، وراسلته ليعيدها إلى ذمته ضرة ، فلما رفض هددته بتطليق فايزة ، ومنعه من استقبالها في بيته ولا فضل لها بتزويجه ، وأعلمه أن امرأته الجديدة حامل بفضل الله . ولم تعد فايزة تستقبل تلك المرأة ، وتشجعت من قوة وموقف أبي ، وكان زوجها طيبا وجيدا وذا شخصية ضعيفة ، وولدت فايزة طفلين قبل هذه المشاكل ، ولكن المطلقة لا تهدأ ولا تمل ، كنت أسمع عن حركاتها للإفساد مما دفع أبي على إقناعه بالرحيل من الحي ، وسيتكفل ويدفع أبي له أجرة البيت الجديد ، ورحلت أختي من الحي إلى حينا ، وبيت قريب من شارعنا ، وأنا بدوري أنهيت خمس سنوات في الهندسة ، وعمل لي والدي حفلة تخرج تحدث الشارع عنها لأعوام قادمة ، دعا إليها كل العائلة والجيران وذبح الغنم ، وكان يوما مشهودا في الحي . الأعمال كانت تعرض عليّ قبل التخرج ، تعلمت الهندسة المدنية وكنت مبدعا في الرسم الهندسي .

تسلمت العمل في إحدى شركات الإنشاء والتعمير ، وحينئذ فكرت بالزواج بشكل جدّي ، معي دراهم وفلوس ، خلال الدراسة كونت علاقات مع بعض الفتيات المهندسات ، ولم أعد

واحدة منهن بالزواج ، فكرت بالزواج من ابنة خالي عماد الدين ، كان لديه بعض الأوانس في تلك الفترة ، فحدثت خالتي فاطمة عن ابنة خالي الآنسة جيهان. شاورت شقيقها برغبتي بمصاهرته ، فرحب بذلك وطلب الجلوس معي والتقينا في مقهى عام ، فنحن منذ وفاة أمنا ضعفت علاقتنا الاجتماعية بهم إلا في الحالات الضرورية أو الطارئة ؛ كموت فايز ، زواج فايزة أو مرض أبي بمرض أدخل فيه المستشفى، أكدت له رغبتي بمصاهرته ، وقد تحدثت مع خالتي فاطمة .

فقال: تحدثت معي عن رغبتك بجيهان ، المشكلة يا عزيز أن هناك فتاة أكبر منها عزباء ، ومن الصعب تقديم الصغرى على الكبرى ، أنت رجل محترم يتاجر بك وبما أن هواك مع جيهان عليك أن تنتظر حتى يتسهل درب بسيمة أو تتزوجها .

قلت بحيرة : لا أدري يا خال! أنا فعلا طمحت نفسي للزواج من جيهان ، ورأيت الأمر ميسورا ، لم أكن أعلم بهذا القانون ؛ لذلك دفعت خالتي للحديث معك حتى لا أسبب إحراجا لكم ، وأسمع ردكم.

قال : ردنا عليك.. نعم ابن الأخت .. فبسيمة أكبر من جيهان .. لماذا لا تأخذها؟

قلت: أنت تعلم أننا لما ترمل أبي ، لم نعد نرى بعضنا إلا في المناسبات الاجتماعية فظلت جيهان في نفسي من الصغر اذا قدر الله لي الزواج دون أخواتها ، هي تصغرني بسنة أو سنتين .

قال : سنتان ، إنها على مقاعد الجامعة بعد.

قلت: فالآنسة بسيمة على الرأس والعين يا خالي.

قال : هل تصبر حتى يأتيها النصيب؟

قلت بحيرة : كم سأصبر؟ شهر شهران سنة.

قال : النصيب والقدر هو الذي يحدد الوقت.

قلت: نخطب ، ونؤجل الزواج حتى تتزوج بسيمة.

قال : الخطبة الطويلة مزعجة يا عزيز!

قلت : نتزوج دون مراعاة السن .

قال : لا أريد أن أحرج بسيمة .. أجرح شعورها يا عزيز ! فلتصبر حتى يأتيها نصيبها .. أنا لا أزوج بناتي لأي عريس .. اصبر بضعة أشهر.

قلت بحيرة : حسنا ! سأصبر ستة أشهر يكفي.

قال : جيد يا ابن أختي! لعل الله يحدث أمرا.

قال : أرجوك يا عزيز لا تتحدث عن هذا الاتفاق لأحد ، وسأطلب من فاطمة الصمت ، وأشرح لها الأمر .

قلت: افعل ما تراه.

مضت الشهور الستة يا طارق ! ولم تتزوج بسيمة ، ولم أسمع بأي خطيب ، وتحدثت مع خالي وقال: الأمر لله يا عزيز ! إما أن تتزوج بسيمة ، وإما أن تبحث عن آنسة أخرى ، أنا عاجز عن تقديم جيهان على بسيمة ..اقبل عذري يا ابن أختي.

قبلت عذره يا طارق ، وخطبت فتاة عن طريق صديق لي ، وبعد فترة قصيرة حدث الانفصال ولم نكمل المشوار ، ولم تكن الزوجة المناسبة ، وخرجنا كما يقال بأقل الخسائر . وأثناء البحث عن زوجة جديدة تمكنت مطلقة أبي بإقناع زوجها بالزواج على أختي ، ولما علم والدي بذلك خيّر فايزة بالبقاء أو الطلاق ، فقبلت أن تبقى زوجة ثانية على الطلاق ، وتوقف أبي عن دفع أجرة البيت ، وأصبح جل وقتها في بيت أبي ، وبدأت المشاكل مع زوجة أبي ، مما اضطر أبي بتهديدها بالطلاق . وظلت المشاكل تعصف بين المرأتين ، وأنا أتلهف على الزواج للخروج من بيت العائلة لراحة النفس، استطاعت عمتي أن تجد فتاة تقبل بي ، وكانت فتاة تعمل مديرة مؤسسة خاصة ، خلال شهر كنت زوجا لمنال عبد الرؤوف. سكنت في شقة في حي راق ، وكانت الفتاة جميلة وطيبة ونشيطة ، اعتبرت نفسي محظوظا بالزواج منها ، وإنني أحبها وتحبني وكانت تملك سيارة ، كما أملك أنا واحدة . ينطلق كل منا لعمله صباحا ، ونجتمع مساء قبل الغروب ، وبعد زواجي بوقت يسير دعيت لحفلة زواج ابنة خالي جيهان قبل زواج بسيمة .

كنت أتأخر في العودة للبيت لطبيعة عملي من مكان العمل إلى مكاتب الشركة لتقديم تقرير العمل اليومي وحضور الاجتماعات الإدارية . كان بيننا انسجام وتفاهم ، والأمور تسير بريح طيبة بفضل الله ، كنا نتغلب على أي صعوبة تحدث ، مضت نصف سنة بكل هدوء وصفاء ، وبدأت تتعالج من أجل الحمل ، وقد أصيبت بالتهابات ومشاكل صحية ، أنا مثلك لم أكن أهتم بالحمل بأي لهفة ، تركت الأمر على أقل من مهله ، وتعرضت لعمل اختبار لمعرفة جودة المني وقوته ، وتبين أن أمري جيد ، والحمل سيتم بإذن الله ؛ فكان هذا الموضوع الحساس يعمل لنا بعض المنغصات ، حصل الحمل ، ولم يثبت حدث الإجهاض ، وارتحنا لحدوث الحمل نفسيا ، ولسوف ينجح مرة أخرى بعد حين. مضت سنتان ، ولم نوفق في تثبيت الحمل ، ورغبتها أمها بالطلاق ، وأنني مريض غير قادر على التلقيح والإخصاب مع أن المشاكل طبيا من جهتها ، تحمل ويفشل الحمل ، طلبت منها أن تكف أمها عن تنغيص حياتنا ، وسنعيش بدون ذرية ؛ كما يعيش ملايين الأزواج في العالم بدون خلفة. تهدأ الأمور حينا أسبوعا شهرا وتعود للفحوص والعلاج والأدوية دون فائدة، ثم حسمت أمرها ، وقالت : خلاص تعبت ، ليكن الطلاق بيننا يا عزيز! أنا فاشلة في الحمل منك ، ولن تكف أمي وإخواني من حشر أنفسهم بيني وبينك ، وأنت تعبت . أقنعتها أمها بالزواج من رجل آخر ، وسيتحسن الحمل ، وأكد لي أحد الأطباء قائلا : ممكن هذا يا عزيز! الرجال يختلفون عن بعض ؛ كما تختلف البصمات القدر هو الفصل في ذلك ، قد يكون نصيبك عند امرأة أخرى . وذكر لي قصصا في ذلك ، ولما رأيت إصرارها ورغبتها ذهبنا للقاضي الشرعي وحصل الطلاق ، ودفعت مؤجلها رغم أنها سامحتني فيه ، وها أنا اليوم مثلك أبحث عن شريكة جديدة ، فالزنا والحانات لا تحل شهوة الرجل الشريف مثلنا!

زوجتي ابنة عمي

اسمي عمر تركت المدرسة صبيا ، ولحقت بالعمل مع أبي في سوق التجار ؛ حيث يبيع أبي الثياب والملابس الجاهزة الرجالية والنسائية للصغار والكبار ، وعدد كبير من العائلة الكبيرة وأصهارهم يعملون في هذه التجارة من زمن بعيد ، وكان المكسب جيدا ، والله بارك في التجارة كما نسمع ، حتى أن السوق اشتهر باسم العائلة فتعلمت المهنة وتشربتها من الصغر ، البيع والشراء ، ولم أكن الوحيد الذي يعمل مع أبي ، فالمحل كبير والزبائن كثر ، فالمحل يحتاج لكثير من العمالة ، ومن يكبر منا يستطيع فتح محل لنفسه وحيدا أو شريكا في نفس السوق أو غيره ، فالدنيا واسعة ، والرزق على الله ، وعلينا المشي والسعي .

تزوج أخي الكبير محمد من قريبة لنا ، والدها يعمل مثلنا في السوق ، وانتقل للعمل مع حميه ؛ لأن ابنه ترك العمل مع أبيه لمهنة أخرى أو قل كره تجارة الملابس والثياب والقماش ، وتزوج أخي الآخر محمود ، وبقي يعمل معنا ، ووقف الدور عندي عند عمر ، وكنت وأتوقع أن يكون ذلك خلال العامين القادمين إن عشت فأخي محمد تزوج عند العشرين ، ومحمود نحوه وأنا قريب منها. فبدأت أهيئ نفسي لهذا الحدث الكبير في حياة كل إنسان عاقل ، وبيت العائلة يكبر ، ولاحظت أن عمي فوازا شقيق أبي حسان أخذ يهتم بي أكثر من اللازم فأدركت أن العروس ستكون ابنته ، ويرغب بمصاهرة أبي شقيقه حسان. كانت العائلة تفخر بتزويج بناتهم من نفس العائلة ، أما الذكور فيتزوجون من غير العائلة بدون حرج ، كانوا لا يحبون تغريب نكاح البنت إلا في الحدود الدنيا فتصلني الهدايا من البنطالات والقمصان عندما تعرض أول مرة ، قناني العطر ، فتأكد لي أني المرشح للزواج من إحدى صبايا العم ، وذلك من تقاليد العائلة الكبيرة .. أحب ذلك بصراحة ، كنت معجبا بنعيمة ، وكانت في الإعدادية البنات عندنا آخر صف لهنّ الثانوية العامة ، ثم الزواج ، ويتوقف التعليم وإن لم تتزوج ، فأكثرهن يصبحن سيدات بيت قبل الثامنة عشرة ، ونحن الذكور عشرون ، ولم يكن لديّ مانع من الاقتران بها ؛ لكن هناك اثنتان أكبر منها أو من سنها ، لدى عمي توائم واهتم بي

أولاد العم أكثر من الطبيعي ، ويدعونني لمشاركتهم الغداء وشرب الشاي أو القهوة ، كان اهتمامهم بشخصي بعد زواج محمود زائدا وبينا. مضت الأيام حتى أتى وقت الزواج ، وتحدثت أمي مع أمها، وانتقل الكلام للأب والعم ، وتيسرت أمور الزواج حسب ما رتب دون عوائق ، وحسب عوايد الناس في الزواج والأقارب ، نكحت ابنة عمي نعيمة فواز ، وفرحت بها ، وتعلمون لهفة الشباب إلى النكاح لغض البصر وحفظ الفرج ، وأحببتها كما يحب الرجل الزوجة وانقضى شهر العسل ، لم يكن شهرا فقط أسبوعا ، وفي داخل البلد، وصرت بعد صلاة المغرب في مسجد السوق أعود للبيت ، وأنا أسكن مع والديّ بيت العائلة في شقة في العمارة الخاصة بالعائلة ، وأصبح إغلاق المحلات من اختصاص أبي والعمال ، وبدا العم يشجعني على بناء بيت مستقل لي وللغد ؛ كما يفعلون والعيش مع ابنته دون والدي ، ورحب والدي بذلك ودعمني بقطعة أرض سجلها باسمي ، كما فعل مع أخوي محمد ومحمود ، وخلال سنة كان البيت معدا للرحيل بدعم من عمي وأبي وأخوة نعيمة فواز، كان سخاؤهم واضحا ،ورحلنا للبيت الجديد .

كان الهم المزعج للعائلة كلها عدم حصول الحمل لنعيمة خلال هذه الفترة، فبدأ الإزعاج من عند أمي ، ثم حماتي وأبي وعمي ، وعملنا الفحوصات الطبية لمعرفة سبب التأخير والإعاقة ، فتبين أن السبب البنت ، وبدأت رحلة العلاج بين الأطباء والمختبرات ، والمراكز المختصة في علاج العقم ، ومشاكل الجهاز التناسلي انقضت خمس سنوات دون فائدة ، ودون حمل ، وأنا كلي شوق لرؤية ذريتي ، وكنت أتألم عندما تلد زوجة أخي محمد أو محمود وخواتي وإخواني الأصغر الذين تزوجوا بعدي ، كنت أعيش في ظلام دامس ، أعيش في حسرة أريد طفلا كسائر الخلق ، اللهفة موجودة فيّ بقوة ، وبدا الهمس أن أتزوج امرأة أخرى أتزوج من جديد ، وأجرب حظي مع أخرى ، وهمست بذلك لنعيمة ؛ لكنها رفضت التفكير بهذه الفكرة ، وأن تكون ضرة ، وانتقل الكلام لأمي وحماتي وأبي وعمي والعائلة كلها ، وغضب العم وأعمامي من هذا الهمس ، وعاب القوم الزواج على ابنة العم حتى لو لم تلد ، وعليّ الرضا بالقضاء

والقدر والنصيب واستقرار العائلة، وأنا أصيح ، وأصرخ في وجوههم أريد ابنا ، أريد أن أصير أبا ، فيقال لو كان العوق منك أتقبل بتركها لك ، فأصيح الشرع سمح لنا بالتعدد ، الشرع هو الذي سمح لنا بالزواج ؛ ولأنها ابنة عمي فلتبق على ذمتي ، لا أريد طلاقها ، أريد طفلا ينادي يا بابا بابا.

****

أريد الطلاق بقوة ، وهم يرفضون بقوة ، تركت العمل مع والدي ، وبدأت بمحل صغير وحدي ، خلال سنتين كبرت المحل في سوق آخر ، أصبح عندي شريك في التجارة ، أهملت زوجتي لم أعد أقربها ، واعتبرت أن اللقاءات بها إهدار لما بقي معي من قدرة على الإنجاب ، شكت لأمها ، فطردتها من البيت ، أجبروني على ردها ، نتشاجر كثيرا ، كل وجباتي الغذائية في السوق ، حتى حرمتها من وجودي معها طوال يوم الجمعة ، كنت أخرج للجامع ولا أعود إلا في الليل ، فتضطر للمبيت عند أهلها خشية المبيت وحدها أو يسأ لسمعتها ، سافرت عددا من البلدان .

قال لي شريكي وهو من العائلة : يا عمر لك عشر سنوات في عذاب ، تزوج سرا ولما تلد زوجتك ضعهم تحت الأمر الواقع ، إما أن يقبلوا الطلاق أو التعدد.

ساعدني حسام وساقني إلى شيخ يعالج بالقرآن والطب الشعبي ، ورحب بنا الشيخ عبد الرحمن ، ووعد بالمساعدة على تحقيق الزواج ، وقال مشجعا على التعدد : لما تتزوج الثانية لسوف زوجتك الأولى تحمل بإذن الله .

قلت بحيرة : معقول هذا الكلام يا سيد حسام ! معقول تتأثر النساء ببعض

ـ ربما يحدث معها هذا التأثير .

لم أقتنع أن نعيمة ستحمل لما أتزوج عليها ، لنا عشر سنوات ، وقلت :سأحتفظ بها اذا لم تطلب الطلاق لعل فكرتك تصح يا مولانا .. هي لو لم تخضع لضغط العائلة لقبلت الطلاق .

استأجرت شقة بمعاونة حسام في حي شعبي ، واستطاع عبد الرحمن من تدبير زوجة فقيرة من

عائلة مستورة ، وتزوجت على سنة الله ورسوله ﷺ . وولدت قبل ذكرى زواجي بسنة ، وغمرني الفرح ، وأعلمت أمي بأني صرت أبا بعد طول انتظار ، ولما علمت نعيمة بزواجي وأني خلفت تركت البيت ، حدثت ضجة في العائلة ، وكنت متوقعا لهذه الزوبعة ، قابلت الأمر ببرود . طلب مني أبي طلاق نعيمة ؛ لأنها لا تقبل أن تعيش ضرة ، طلقتها ؛ كما رغبوا وعدت للحياة في بيتي لأن نعيمة أخذت الكثير من أثاث الشقة ورحلت. ولدت منى ابني الثاني ، وأصبح أمر منى مقبولا عند والديّ ، ولم تتزوج نعيمة فبدأت الشفاعات لعودتها ، وبضغط عائلي قبلت ، ولكن بعد بناء شقة ثانية وساعدني أبي في ذلك للتعجيل بعودة نعيمة إلى شقتها التي ساعدني والدها بإقامتها ، تم البناء ، وانتقلت منى للشقة العليا ، وتزوجت نعيمة من جديد وعادت لشقتها ، وبعد فترة جفاء لانت وتقبلت الزوجة الثانية ، وتقبلت منى بيسر الضرة ، وكنا نأكل جميعا ، وفي الليل ليلة مع منى ، وليلة مع نعيمة ، ولما وضعت منى ابني الثالث حملت نعيمة ، وصدقت نبوءة الشيخ عبد الرحمن وأرسلت للشيخ هدية من نعيمة ، والحمد لله .. فاليوم عندي أربعة من منى ، واثنان من نعيمة ؛ حيث أمست أما بعد أن صرت أبا .

قال طارق : صديقنا حمزة قصته مؤلمة أكثر منا ، وهو ضابط شرطة فاطلع على الكثير من تفاصيلها في ملفات الشرطة والادعاء العام.

قال عزيز : تابعت بعض فصولها في صفحات الحوادث في الجرائد قبل التعرف عليك.

تنحنح الرائد حمزة وقال : نعم ، الطلاق مأساة فعلا ، وسبب خطير لانحراف ضحاياه انحراف الأبناء ، وانحراف الزوجة ، وحتى الزوج .. قصتي بدأت وأنا طفل مثل صديقي المحامي طارق ، ولدت أمي فاطمة أبنائها الخمسة في حي البطن ، كان آخرهم حمزة عندما طلقها زوجها حسام براهم ، فاضطرت للرحيل إلى حي أبي حية في دار السلام ، فقد دبر لها شقيقها مالك بيتا فيه ، فهو من سكانه، ولما طلقت فاطمة زكريا لم تكن تملك من المال إلا مؤخر صداقها ، وكان عمر حمزة يومئذ خمس سنوات ، ولم يستطع أهلها تقديم الكثير لفقرهم وقلة المال بين أيديهم ، فاضطرت أن تعمل في بيوت الأغنياء كشغالة وخادمة في أبي حية وخارج أبي حية ؛ لأنها لما طلقت كان عمر ابنتها الكبرى سهيلة ابنة ثلاثة عشر عاما ، وهي طالبة في المرحلة الإعدادية وكان السيد الوالد كف عن النفقة عن أولاده نسي أنه أب .

ونحن اليوم في عام ١٩٨٠ في هذا العام سيتخرج ابن فاطمة الصغير حمزة من كلية الشرطة كضابط ، وهو الابن الوحيد الذي استطاع اجتياز المرحلة الثانوية بنجاح ، واستطاعت والدته بحكم عملها كعاملة فترة من الزمن في بيت وقصر وزير داخلية أن تتمكن من إدخاله كلية الشرطة ، فلما لجأت إلى الوزير المتقاعد شفع وتوسط له في كلية الشرطة ، وقبل فيها بعد اجتياز الاختبارات والفحوصات اللازمة ، وها هو هذا العام على وشك التخرج.

ولم يوفق ابن فاطمة إياد من إكمال الدراسة وعمل في مهنة الحدادة ، وأما بناتها فقد زوجتهن قبل إنهائهن الثانوية ، كان زواج البنات في ذلك الزمن سهلا ، يتزوجن دون بلوغهن العشرين خاصة اللواتي لا يرغبن بالدراسات العليا ، ويرين تكوين أسرة أفضل من الوظيفة والشهادة ، في سنة ثمانين قد بلغت الكبرى حوالي ثلاثين سنة ، ولديها أربعة أطفال ، وكانت قد تزوجت

وهي ابنة خمس عشرة سنة ، وبعدها بثلاث سنوات تزوجت سالمة التي سميت على اسم والدة أبيها حسام براهم ، ثم تبعتها سلوى ، وواحدة منهن أخذها ابن خالها ، وما زالت تسكن في الحي ، أما إياد عندما بدأت الحكاية فقد بلغ الرابعة والعشرين ، ولم يتمكن من الزواج بعد . عشرات مئات من البنات تطلق وترمل في الدنيا وهذا يومي؛ لكن الذي جعل قصة هذه المرأة حكاية تكتب ، الأحداث التي ستقرأها في سطور هذه القصة.

حسام براهم تعرف على والد فاطمة السيد زكريا ؛ حيث كان يعمل مناديا للركاب والمسافرين إلى البلاد المجاورة في سيارات التاكسي ، ويعمل فراشا في مكتب السفريات الخارجية في مجمع كبير في المدينة لنقل الركاب ، ومن خلال عمله تعرف على فاطمة وأبيها وقبله الأخير زوجا لابنته بعد قبولها ، وكان ذلك في مطلع الخمسينات . ولما خلفت الخمسة جرى طلاقها ؛ لأن حضرة الزوج تعرف على أنثى شابة تاجرة تكثر من السفر لخارج البلد لشراء الثياب بسعر زهيد ، وبيعها في محلها، أغرته بالزواج منها ، ووقع وسقط في غرامها وهواها ، وقبلت الاقتران به اذا طلق امرأته ، وامرأته فاطمة قبلت أن تعيش ضرة على أن تبقى على ذمته ، ولم تنفع الشفاعات والواسطات لرده لعقله ، وحتى أن تعيش على ذمته وبجواره. ورفضت تلك المرأة حلوة بكر تلك الفكرة إلا طلاقها ، وأن يبقى له وحدها ، والرجل كان مفتونا بجمالها وبقبولها له ، وحصل الطلاق وخرجت من بيت حسام ورحلت إلى أبي حية وسكنت فيه بجوار شقيقها مالك ، واضطرت للعمل في البيوت لتقوت نفسها وعيالها الخمسة . قد عرفتم سبب طلاق فاطمة أم إياد ورحيلها لحي آخر ، والذي طور القصة عن المعتاد هو سكن الزوج في أبي حية بعد حين ، وشفع بعض أزواج بناته ، وبعض رجال الحي بالشفاعة له عند مطلقته للزواج من جديد ، وأنه مستعد لطلاق حلوة بكر ، ورفضت فاطمة العودة والزواج ، وأنها رفضت الزواج بعد طلاقها ، وله سنتان يحاول ويوسط دون فائدة ، وأعلمت المرأة الوسطاء بعدم حاجتها لرجل وزوج ، وأخبرت أنها لن تنسى أيام الطرد والبهدلة ، وتخليه عن النفقة على ذريته كل هذه السنين ، فله سنتان يتوسل

ويشفع الناس ، وهذا دفع للتشاجر مع ابنه إياد، وطلبه منه الرحيل عن الحي، وأخبر امرأته عن حياة زوجها في أبي حية ورغبته بمصالحة امرأته المطلقة ورغبته بطلاقها، فجاءت المرأة للحي وبهدلته أمام سكان الحي وأخذته لبيته في حي البطن قهرا ، وأغلقت الدار وأخذت المفاتيح ، ووعدت صاحب العقار بدفع الإيجار آخر الشهر .

وسبب هربه وسعيه للزواج من مطلقته أنه عرف أن حلوة سيئة الأخلاق وشكا له بعض جيرانه من تردد بعض الغرباء عليها أثناء عمله. حلوة كانت مطلقة قبل زواجها من حسام ، وطلقت لأنها لا تلد ، وطمعت بالزواج منه لتلد ، وقد أنجبت فاطمة منه خمسة ، وظلت تتردد على أطباء النساء والعقم خمس سنوات دون أمل في الحمل ، وحملت حساما لعدد من الفحوص ، وتبين لها أن لا مشاكل عنده ، ولكنها لا تقنع بذلك ، واتهمته بالعجز والضعف وبدأت تنحرف وتتواعد مع الزناة حتى فاحت رائحتها في الحي ، وعلم الزوج بخياناتها ، ونشبت المشاجرات باستمرار ، ويترك البيت بالأيام والأسابيع ؛ حيث ينام في مكاتب الشركة ، ومرات في الفنادق الشعبية ، ثم استأجر شقة في أبي حية طمعا بالعودة لفاطمة وهربا من الحياة مع حلوة . ولما علمت بحياته في أبي حية ذهبت إليه ، وجرته لبيته الذي كتبه باسمه واسمها ، وقد تنازل عن نصفه لها . ولما وصل الحي غافلها وهرب ، وذهب صباحا للمحكمة وطلقها غيابيا ، واختفى من الحي ولما بلغها طلاقه ، ما عادت تبحث عنه ، وأن عليها الذهاب للقاضي ؛ ليحدث بينهما الطلاق القانوني بعد الشرعي بعد أخذ حقها الشرعي من المتاع ومؤجل المهر .

****

غادر حمزة مكان ولادته وهو ابن خمس سنوات ، وتلقى سنوات تعليمه الأولى في حي أبي حية ولما تخرج أو نجح في الثانوية بواسطة التحق بكلية الشرطة العربية ، ومنذ غادر طفلا لم ير والده ؛ إنما يسمع عنه القليل من الأخبار حتى تفاجأ من سنتين أن والده يسكن في الحي، وجاء ليعيد أمه إلى ذمته ، فصدم بل حذر أمه أن ترضخ لهذه الرغبة ، ولم ينجح حسام في

مسعاه ، وخلال هذين العامين رفض الشاب اللقاء بأبيه والجلوس معه ، وشجع أخاه إيادا بكشف أمره لزوجته حلوة ، وفعلا كانت عند حسن ظنه ، فأقبلت وقلّت قيمته ،وجرته لحي بطن ، وتنفس حمزة الصعداء ؛ لأنه عندما كان يراه في شوارع الحي ينتقل لمكان آخر ، ويتعوذ من الشيطان ، وكان يكرهه للمعاناة التي عانتها الأسرة من طلاق أمه ، ومن عدم صرفه عليه ومن كثر لعانات أمه عليه ، خلال السابعة عشرة التي مضت لهم في الحي . جاءت الأخبار لحمزة عن طلاق أبيه لحلوة طلاقا شرعيا ، وينتظرون الطلاق القانوني حسب تعاليم القانوني المدني من توثيق العقود الشرعية كالزواج والطلاق والوصايا والميراث .

كان من المتوقع أن يتخرج حمزة خريف هذا العام من الكلية كضابط شرطة ، ذات نهار طلب منه أحد المدرسين بالذهاب لمكتب عميد الجامعة الشرطية ، فدهش لهذا الطلب، وسمح له المحاضر بالخروج ، فزاد توتره ، وظن أن مكروها أو موتا أصاب أحد أفراد العائلة. دخل مكتب سكرتير العميد ، فلما رآه رحب به ، ودخل مكتب العميد يستأذن له، ثم أمره بالدخول فدخل وألقى السلام وأدى التحية العسكرية ، ولما أشار له العميد بالجلوس شاهد والده يجلس في الغرفة وبجواره رجل آخر ، فذهل وأصابه مغص وضيق.

قال العميد لما جلس الضابط له : مرحبا ملازم حمزة! أتعرف هذا الرجل ؟

رد وبدون أن ينظر إلى أبيه قال : نعم ، يقال هذا أبي.

قال : جاءنا يشكوك !

قال : يشكوني ،أنا لا أعرفه يا سيدي ! .. أنا من عشرين سنة لم أجالسه ، لقد طلق أمي وتخلى عنا وانا ابن خمسة أعوام ، وهو يعلم كما شقيت أمي لتنفق علينا ، اشتغلت في البيوت ، ولم يرسل لنا مالا ولو أجرة البيت ملابس العيد مصروف .. بماذا يشكوني يا سيدي؟

قال : يزعم أنك اعتديت عليه ، ولا تساعده ماديا..

قال : هذه أول مرة يجمعني به مجلس منذ طردنا من بيته .. هذا يا سيدي الذي حاول ضربه شقيقي الأكبر ، ثم عرفت امرأته الثانية بهربه لحينا ، وجاءت وضربته أمام الناس، وأغلقت

الدار ، وسلمت البيت لصاحب العقار ، وجرته معها ، وأسرتي لم تحضر المشاجرة؛ إنما سمعنا بها من الجيران ، ولدينا عشرات الشهود.

قال العميد لحسام : أسمعت ؟!

قال متلجلجا :أنا لم أقل ضربني بيده يا سيدي ! انهم وزوا امرأتي عليّ ، وعرفوها بيتي، وأنا جئت مع هذا السائق المحترم ؛ لتصلح بيني وبين أولادي.

قال العميد: هذا يا سيد مكان دراسة ، كان الأولى بك أن تذهب لمركز شرطة أو محكمة.

ضغط على جرس والتفت للضابط قائلا: اذهب إلى محاضرتك.

دخل السكرتير فقال له العميد : فليذهب الحارس بهذين الرجلين لباب الكلية وقال لحسام : الرجل الذي أرسلك إلى هنا جانبك الصواب وسخر منك مع السلامة.

***

لما التقى حمزة بصديقه في الكلية نائل قال : أصحيح ما انتشر بين الطلاب عن مجيء أبيك المجهول لك منذ طلقت أمك كما أخبرتني يوما يشكوك للآمر للكلية؟!

قال باسما : نعم ، أرأيت الوقاحة يا صديقي ؟! بعد أن رمانا في الشارع جاء يتسول عندنا ، إنه خبيث .

قال : إنه أبوك !

تنهد وقال : هذه المأساة يا نائل !

بعد ظهور السيد حسام في كلية الشرطة بأيام علمت الأسرة أن زوجة أبيهم رحلت لحي أبي حية ، واستأجرت نفس دار حسام زاعمة أنها تنتظر عودته ؛ لأن المحكمة أجلت النظر في طلاقهما لاختفاء الزوج ، وعدم حضوره جلسة المحكمة ليبت في دعوته بالطلاق منها ، وأعلنت أنها أجرت بيتها.

فكان سلمان يتحدث مع إياد حسام في مقهى الحي قائلا : ولماذا جاءت لتسكن هنا وهي التي أخرجت زوجها غصبا منه ؟!

تنهد إياد بأسف وقال : الله يستر يا عم سلمان ، هذه المرأة سيئة ، أعرف عنها سوء الأخلاق قبل أن أعرف أنها زوجة أبي ، أنت تعلم أن أبي تزوجها بعد ما طلق أمي ، ورحلنا من حي بطن ولم نره منذ ذلك الزمن ، ولم يحاول أن يرانا وينفق علينا إلا لما زهق من فجورها ، وفاحت ريحتها بين الجيران ، وأنها تمارس الدعارة ، وسكن في حينا هذا.

فقال أبو مالك : لقد علمت قصتكم بالتفصيل منذ رحلت أمكم لهنا ، وخالك مالك صديق لي .. لا أحد يدري لماذا رحلت إلى هنا؟!

ـ نحن كشفنا أمر أبي لها لتأخذه إليها وإلى بيته ، فالبيت هو الذي امتلكه وصاحبه؛ لكننا عرفنا من زوج أختي أنه تنازل عن نصفه لها لما تزوجا.

ـ قال وقع في حبها

ـ سمعنا من أمي ، لا أعلم ما هذا الحب !

ـ أمك أم صابرة ومجاهدة ربتكم بكدها وتعبها وصحتها .. المهم كونوا على حذر ، لم تختر هذا الحي منتظرة عودة أبيكم ..أبوكم لما سكن هنا كانت تظن أنه مسافر مهاجر كما زعم لها ، وهي غير مهتمة به وصدقت الزعم ..هي لها دكان ملابس في حي بطن .

قال : سمعنا يسمونه اليوم نوفتيه .

ـ صحيح .. ألا أخبار عن أبيكم ؟

ـ منذ ذهب يشكونا في كلية الشرطة لم نعرف عنه شيئا.

وقص مختصرا قصة كلية الشرطة ، استغرب سلمان هذه القصة وقال : الناس تشكوا في المخافر والمحاكم.

ـ هذا ما حدث وطرد شر طردة من مدير الكلية .

فقال سلمان : مجيء هذه المرأة إلى هذا الحي وراؤه أمر ما يا إياد احذروا القرب منها ..ألا تعلم مكان اختفاء أبيك ؟

هز رأسه نافيا معرفته بمكانه وقال : طوال سنوات مكثه هنا كانت تظن أنه مهاجر إلى أوروبا

كما تخبر وكما شاع ، لما نقلنا لها خبر حياته في أبي حية دهشت.. وقبل أن أطرق بابها أخبرني صاحب بقالة قريب من بيتها أنها امرأة سيئة وفاجرة ظن أنني أحد زبائنها .

صاح سلمان : تمارس الدعارة في بيتها !

ـ هذا ما فهمته من البقال ..وأنا لم أقل لها أنا ابن من ؟ أخبرتها بسكن زوجها من الباب ، ولم ادخل

ـ نعم، أحسنت بهذا التصرف.

ـ لكن لما عرفت ذلك عنها ولما قابلت البقال وأنها امرأة أبي صدمت يا عم أبا مالك!

فقال : لماذا ؟!

قال : تذكرت أني دخلت الحي قبل سنوات وإلى ذلك المنزل .. كنت أعمل مع شاب يتردد عليها للبغاء والزنا ، وكان يحدثني عنها ويراودني لمرافقته إلى دار الخيانة ، فذهبت معه لتصليح خزان ماء مخروم .. تخيل لو طاوعته في فجوره ، ثم اكتشفت أنها امرأة أبي لما طفح الكيل ومضايقته لأمي ولنا وللبنات !

قال: تزوج يا إياد ! فالزنا فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، فأنت سمعتك ليست على ما يرام

قال بحزن : إنك تذكر لما عشت فترة في اليونان تعلمت الفجور ، ولا تنسى طلاق أمي وبؤسنا يا أبا مالك ، فوقعت في الشراب والبنات ..

ـ لكنك اليوم تعمل، وعليك بالزواج خذ بهذه النصيحة يا ولدي خلينا نسمع عن أخلاقك الحسنة.

فكان الشيخ سلمان كلما يصطدم بإياد في مقهى الحي يتحدث معه حول والده وزوجته التي تعيش في الحي فقال ذات مساء: ما بال امرأة أبيك تستقر هنا لتعيش في شقة أبيك المختفي ؟

ـ نحن مثلك مستغربون لقد علمنا أن أبي طلقها غيابا وهرب بعدما بهدلته كما تخبر قبل شهور مضت .

قال: ألم تطلقها المحكمة؟!

ـ بلى ، لا تطلق تماما حتى تقر باستلام حقها بالكامل بلقاء أمام القاضي وقيل إن الطلاق معلق قانونيا حتى يمتثلان أمام قاضي التطليق، أما لماذا جاءت للحياة وفي نفس شقة أبي ؟! لا نعلم ، وهذ يحيرنا ولا اتصال بيننا .

قال بفضول : كيف تعرف عليها والدك ؟

قال إياد بعد ضحكة قصيرة : ذكرت لك قصة طرد أمنا المسكينة الفقيرة كان بسببها، أبي كان يعمل مناديا للركاب في السفريات الخارجية في شركة سفريات المحيط في منطقة غاية ومراسل أيضا في مكتب الشركة ، فتعرف على والد أمي وتزوج ابنته على سنة الله ورسوله ، وكان له بيت يملكه في بطن امتلكه قبل الزواج ، وعاشا بسعادة ، وولدتنا الخمسة في بطن ، كانت حلوة بياعة ، وتسافر لشراء ملابس داخلية خاصة بالنساء ، فعرفها من كثرة سفاريتها ويساعدها في التحميل والتنزيل ، فصار بينهم كلام ومعرفة ، وللسيدة محل بيع دكان ملابس كانت متزوجة عندما عرفها أبي حسام، فلما طلقت صار لها اهتمام أكثر بأبي ، ولها شريكة في الدكان ، وكان أبي يمازحها أثناء التحميل والتنزيل ، وتقدم له البقشيش بسخاء ، وقع في هواها واشتهاها ، لابد أنها أوقعته في غرامها ، وصدق أنها تحبه ، وهي غنية ، وتعمل ، وهي مطلقة، أقنعته بالزواج منها وشرطت عليه طلاق أمي ونصف الدار ، وصدق ونفذ شروطها وتزوجا وطردنا من بطن.

قال : كيف اقتنع بها؟

قال إياد : لما رأت لهفته نحوها ، قالت تتزوجني يا حسام ما دمت أنا حلوة في عينك أنا مطلقة من فترة.

قال : عندي امرأة وأولاد يا حلوة ! هذا تحدث به مع خالي مالك وهو يشفعه للزواج من أمي

قالت : أنا احلى منها وأنا معي مصاري وفلوس.

تكرر هذا العرض ، فوقع في شبكة المطلقة ، فطلق وطردنا حتى لم يقبل أن تعيش والدتي في الحي في بيت مستأجر ، رفض ، وأخذنا صاحبك الخال وعشنا وكبرنا هنا ، وتزعم بدخول

الزناة على بيتها أنهم تجار تعقد معهم صفقات ملابس، وتبين للجيران أنها صفقات زنا .

قال : أمر مؤسف يا إياد

قال إياد : مؤسف جدا ! ولما تقاعد تظاهر بالسفر لليونان وسافر إلينا رغبة بالعودة لأمي ورفضت بقوة ورفضنا ، فاضطررنا لفضحه ليخف عنا وعنها ، وطلق واختفى.

قال السيد : سنعرف سر الرحيل.

قال إياد : نحن سنرحل من الحي اذا لم ترحل ، سنرحل بعد تخرج حمزة ، نحن نحب السلام

قال: كما نصحتك دائما تزوج ودعك من الهمالة والشراب ريحتك ظاهرة يا إياد

قال إياد : سقطت للأسف في الرذيلة ، وافكر بنصحك ونفسي بكل قوة

نهض سلمان داعيا له بالتوفيق: وفقك الله ها هو الشيخ سمور يتنحنح لرفع الآذان صافحه ، وانتقل إياد إلى طاولة الشلة وغادر أبو مالك المقهى متوجها للجامع ولما أصبح خارج المقهى كان رجل أشيب قد ترك تاكسيا يقف على الرصيف يتلفت شمالا ويمينا ، فلما رأى سلمان صاح : يا أخ يا أخ فالتفت سلمان وقال :نعم ، نعم أيها السيد

قال الغريب : هذا جامع حي أبي حية .

ـ نعم ، ولا يوجد غيره

قال : شكرا أنا عائد للوطن ، لي أخت كانت تسكن في بطن ، ولما وصلت شقتها قيل إنها رحلت لأبي حية ، وهناك مقهى بجنب الجامع يمكنهم إرشادي لبيت حلوة بكر شقيقتي .

ـ حسنا من أنت ؟

قال : أنا حامد بكر

ـ أهلا أخوك سلمان مالك.. من أختك قلت؟

قال : حلوة بكر وزوجها حسام براهم

قال : آ .. انتظر

رجع المقهى ونادى إياد وحدثه عن المهاجر وقال : هذا شقيق زوجة أبيك يريد بيتها

تصافح الرجلان : هذا الشاب سيدلك على شقة أختك سيد حامد بكر.

ودخل المسجد وساقه إياد إلى شقة حلوة بصمت ، وأشار لشقتها ورجع للمقهى سريعا ،وقد رآه يطرق باب بيتها.

****

لاحظ وأدرك حامد خلال أيام أن شقيقته مستاءة من وجوده معها ، وكررت أكثر من مرة تحثه على الرحيل والعودة لمهجره على غير مرات سابقة في حي بطن قال مرارا : أين حسام ؟ ولماذا رحلتم من شقتكم وتسكنون بالإيجار ؟

صرخت : تطلقنا!

قال : تطلقت، لم تقولي منذ جئت ! ومن الرجل الذي زارك تلك الليلة قرب نصف الليل؟

قالت : تاجر

فقال : شكله أزعر وهامل .. تاجر في نصف الليل وسكران .. أين حسام؟!

قالت: هجرني منذ عامين يا حامد! ثم قدم طلب طلاق للقاضي غيابيا لم اذهب للمحكمة

قال: ولماذا أجرت بيته؟!

أجابت في ضجر وملل: البيت مشترك ، كان من شروط قبولي له بعدما طلق امرأته نصف البيت ، وله سنتان مختفي من حياتي وظننته مهاجرا مثلك ، ثم عرفت بعد سنتين أنه يعيش في هذا البيت يسعى للزواج من أم أولاده من جديد ، وأنا هنا لأن مطلقته وأولاده يحيون هنا فرحلت أتابع الوضع.

قال : المرة الماضية لما جئتك من أوروبا شجعتيني على البقاء والاستثمار هنا وقلت : كفاك غربة .. المرة تطلبين رحيلي .. أمورك غير طبيعية ، أنا أخوك على استعداد على مساعدتك

قالت: أعرف أنك أخي .. المشاكل تعصف بي بهرب زوجي .. تظاهر أنه هاجر، وكان يسكن في هذه الشقة ، وله سنتان يطارد فاطمة مطلقته ، وترفضه هي وذريتها حتى كشفوا لي اختفائه في حي أبي حية فأخذته عنوة لبطن ، فهرب من جديد بعد أن دخل على القاضي

وسجل طلاقي واختفى ، فجئت لعله يظهر

قال: اسمعي المرة الماضية قبل سنوات سمعت عنك أخبار سيئة لم أصدقها ظننتها وشايات ، أما زيارة الليلة فدعتني أصدق ما قيل ، فالزائر ليس على هيئة تاجر وبياع هيئته هيئة مجرم وحشرة.

صاحت: حامد لا تتدخل في شأني وحياتي حتى ولو صحبت حمارا .. ماذا تفعل أنت في أوروبا لا زوجة ولا أولاد ؟

قلل بهزء : اشتغل

صرخت : أتريد أن أصدق أنك لا تسكر ولا تقرب النسوان

قال : لو حصل ليس عندي زوجة أخونها .. أنت لك زوج محترم يحتاج لاحترامك

قال : عندما يحترم شرفي أحترم شرفه وسمعته

ضحك قليلا : أتريدين أن أصدق أن حساما يصاحب النساء إنه رجل بسيط وغلبان

قالت: متى ستسافر؟

قال : لما أقابله سوف أسافر

قالت : له زمن مختفي ، لا أعلم في أي بلدة مختفيا!

قال: سأبحث عنه ، وأعرف الحكاية، كان مجنونا ومغرما بك عندما تزوجك

قالت : تغير

قال : سبب التغيير

قالت : المهم تغير ، لا أعرف السبب

قال : لابد من سبب

قالت : لا أريد أن تعيش في بيتي.

قال : سأستأجر شقة في الحي ، وكلمت صاحب المقهى في ذلك ، لست حريصا أن أعيش معك

حدث أمر قبل رحيل حامد ، استيقظ ذات ليلة عند الثانية صباحا متحفزا ومنزعجا على صوت طرق ضعيف على باب الشقة ، فقام حامد وشق ستارة النافذة ، فأرخى أذنيه وسمع أخته تمشي في الممر ، وتفتح الباب ببطء وتهمس مرحبة بالتاجر الذي زارها من أيام ، لم يدخل الرجل الشقة ، خرج الرجل للشارع حيث كانت تقف سيارة نقل صغيرة أمام بوابة العمارة ورأى التاجر يتحدث مع سائق السيارة ، وأخذا يحملان صناديق كرتونية إلى داخل الشقة لمدة نصف ساعة اقترب من الباب بعد توقف حركة الإدخال ، وسمع الرجل يطلب البقاء معها ساعة زمان ، فهمست أن حامدا نائم لم يرحل ، فقال متى سيرحل؟ لماذا لا نتزوج ونخلص من لقاءات الخفية ؟ ألم يطلقك حسام اذهبي للمحكمة وتطلقي ؟ لم يسمع ردها ، وسمعه : علينا أن نتزوج .. ألسنا نحب بعضنا ؟ أنا مشتاق لك اذهبي للقاضي.

قالت : أنا سأبحث عنه واحضره للقاضي يا عيني!

سمع غلق الباب ، فعاد للنافذة ، وشاهده ركب السيارة ، ويبتعدان، عاد للفراش يفكر بفساد أخته وفرار زوجها وقال : أكيد أنها بضاعة مسروقة! من أين يسرقها هذا الحرامي؟ قالت: إنه لا يعمل .. سرقة مصنع .. ماذا تستفيد من الشراكة مع لص ؟ عليّ معرفة هذا الرجل .

****

الحداد إياد يقف على باب المقهى والجامع منتظرا المهندس بلال وكان الحاج سلمان يغادر المقهى لصلاة المغرب فلمح إيادا فقال مداعبا وداعيا : هل ستدخل للصلاة؟

تنهد إياد : يا الله ليتني أصلي!

قال : لماذا يا ليتني ؟! ادخل مرة مرتان تتعود

قال : إن شاء الله يا عم سلمان أنا أترقب المهندس بلالا بيننا موعد.. ها قد ظهر

تقدم المهندس منهما مسلما ومصافحا قائلا : خير أيها الشباب

ضحك سلمان: أدعو صديقنا إيادا ليجرب طعم الصلاة، اليوم يكثر تردد الشباب والفتيان على المساجد، لم تعد تقتصر على الكهول والشيوخ

قال : إن شاء الله لما أتزوج أصلي كما نصحتني.. سوف أتوب التوبة حلوة نلتقي بعد الصلاة يا باش مهندس أبا محمد.

قال سلمان : آه من سوف !

قال بلال : حسنا لن نلتقي في المقهى ، في فناء الجامع .. وكيف حال العم سلمان شيخ شباب أبي حية

قال : والله أنت نوارة الحي وصهر حبيبنا أبي خالد

دخلا المسجد لصلاة المغرب الذي ارتفع آذانه لعنان السماء مناديا أهل الصلاة ليقوموا للصلاة

قال بلال : للأسف كثير من الشبان يظنون أن الجوامع والصلاة لكبار السن يا عم أبا مالك

قال : صحيح ، بدا الأمر يتغير وصرنا نرى الشباب مثلك في المسجد وحتى الأطفال

قال : تأثر الناس بالصحوة ، ولها تأثير وأنصار في الجامعات والأحياء .. هزيمة ١٩٦٧ قضت على القومية واليسارية ، وضعف صوتهم لم ير الناس البسطاء خيرا من القومية والشيوعية حتى بدأت تتسرب أنباء أن الاتحاد السوفيتي يعاني اقتصاديا وسياسيا .

قال : الغرب يضغط لموته بشدة وبكل قوة ، فحرب النجوم وعسكرة الفضاء مخيفة .. الله يجعل كيدهم في نحرهم.

خرج الناس من الجامع بعد الصلاة ، ودخل إياد للقاء المهندس، فوجده ينتظره على مقعد حجري في ساحة الجامع حيث يستريح عليها كبار السن للاستراحة أو الحديث رحب بلال بإياد فقال : جئت من أجل الحديد

قال : نعم ، تكلم معي شريكي زاهر مخبرا أن المهندس محمودا تحدث معه عن أبواب حديد وطلب مني أن اتصل أو أمر عليك

قال : أنت تعلم أن محمودا قريب لزاهر

قال إياد : عرفت ذلك ، وعملنا لبيته شغلا وقدمت إليك لمعرفة العنوان

قال : جيد! سأعطيك عنوان الفيلا ، غدا إن شاء الله تعالى قبل الظهر سأكون فيها وعليك

بأخذ المقاييس ، ثم نتفق أو تتفاهم مع شريك زاهر مع محمود

قال : حاضر يا سيدي أبا محمد

ذكر له عنوان الفيلا التي بحاجة لحمايات وأبواب معدنية وشكر الشاب المهندس فقال بلال: أراك غدا إن شاء الله قبل المغادرة ماذا حدث مع والدك ؟

ضحك إياد : لما رجع لبيته عاود الهرب ، فامرأته غير شريفة ، فطلقها غيابيا ، واختفى فأجرت امرأة أبي البيت ورحلت إلى هنا طمعا بأن يعود إلينا ، وها هو أخوها المهاجر يسكن معها ، وعلمنا أنه يبحث عن شقة في الحي ، وتفكر بالزواج من الحرامي السابق مهراوي

قال : سمعت أنه ذهب لكلية حمزة يشتكيه ، ويطلب مساعدة مالية.. هو يبقى أبوكم مهما فعل ، الإحسان مطلوب .. هو كيف يصرف وينفق؟

قال : هو متقاعد له دخل من صندق التأمين الوطني الاجتماعي، وله بيت ، ولكن هذه أخذت نصفه باسم الزواج ، هو لما تركها أول مرة وسكن هنا لم يطلب منا مساعدة.. تفاجأنا بذهابه لكلية الشرطة بطلب مساعدة ، وحمزة ما زال طالبا ، جاء هنا سعيا للعودة لأمي فرفضت، ونحن شجعناها على ذلك ، وهي تعقدت من الرجال ، ورفضت الزواج قبل أن يأتي أبي للحي ، وطلب منه آمر الكلية أن يتجه للمحكمة ويطلب نفقة ، حمزة لا ينفق فلسا علينا أنا انفق على أمي وعليّ الفواتير والإيجار فحسب

قال بلال : المهم البر ولو كان الأب كافرا ، ألم تعرفوا لماذا رحلت إلى هنا حقيقة ؟

قال : هذا لغز ! سيكتشف قريبا ؛ ربما عودة أخيها خربط المخطط ؛ ولكنه سيترك الشقة ويعيش وحده ، فبيتها بيت للحرامي مهراوي ، قبل ليالي أزعجت سكان العمارة قبل الفجر لقد ادخلوا صناديق كرتون، ثم تبين أنها أحذية مسروقة من أحد المصانع أو غير مسروقة ، لم يتضح الأمر ، وهي لها محل في بطن وآخر وسط البلد ، هي طول عمرها بياعة ؛ لكنها تعمل مومسا ، وكما تعلم هؤلاء البغايا مع التقدم في السن يهجرن من الزناة ، وهن في الكبر يدفعنا للغواية ، فهذا المهراوي الحرامي السابق يرغب بإعلان الزواج منها ؛ ولكنها ما زالت على ذمة

أبي لم يحصل الطلاق كاملا ، فهم يبحثون عن والدي ليكتمل الطلاق كما قال لي مهراوي فأنا أعرفه قبل أن يأتي هنا ، تريد الطلاق رسميا حتى يصح العقد عليها

قال : هداها الله يا إياد ! أتمنى أن أراك في مسجدنا

قال : أتمنى أنا نفسي ذلك

قال : اقدم على الخطوة الأولى وسترتاح

قال : العم سلمان دائما ينصحني بالزواج والصلاة انتظر تخرج حمزة.

أصبح حمزة حسام ضابط شرطة ، وأقامت كلية تخريج ضباط الشرطة حفلا للخريجين ، وتخرج الفوج الجديد من طلبة الكلية الشرطية بعد أربع سنوات دراسة شرطية ، واحتفلت فاطمة زكريا في شقتها وحيها بتخرج ابنها حمزة كضابط شرطة في الشرطة الجنائية ، وقدمت الحلوى والمشروبات للجيران وأصدقاء وأقارب العائلة.

وبعد إجازة التخرج عين برتبة ملازم أول في دائرة شرطة شماليا في شمال البلاد ، لم يتعين في العاصمة كما كان يأمل .

البضاعة التي سرقها مهراوي وخزنها عند عشيقته حلوة بكر في حي أبي حية ، شاع أمرها في الحي ، وشاهد حامد بكر الضيف القادم من أوروبا تلك الصفقة ، فاسرع بترك الشقة بعد أيام حيث وجد شقة يعيش فيها ريثما يقرر السفر أو البقاء في الوطن ، وقد استطاع معرفة مصدر ومكان السرقة ، فقد عرفت الشرطة أن الحارس الليلي ساعد في سرقتها من مخازن المصنع والشركة ، وقبض على مهراوي والحارس جرور وقبض على السائق بعد مطاردة شرطية وكذلك التاجر الذي تلقى البضاعة من الحرامية ، وهم ينتظرون المحكمة.

*****

كان أحد الرعاة يرعى في واد السعدانة قرب مدينة شماليا عندما شاهد أحد الكلاب يجري نحو جسم فظن في أول الأمر أن حيوانا قد هلك ، وأن رائحته هي التي تعبق المكان ، فمشى حيث ينبح الكلب، فوجد جثة إنسان ميت ، ووجده مطعونا بسكين عدة طعنات فعاد لأول

مدينة أو قرية مسكونة ، واتصل بالشرطة وتبين للشرطة أنها جثة حسام براهم ، وأن القتل منذ عهد قريب ، وتبين أن القتيل والد زميلهم الجديد حمزة حسام ، وكلف حمزة بالمشاركة في التحقيق ، المشتبه الأول في جريمة القتل أقرب الناس للضحية ، أجرت الشرطة التحقيقات الأولى ، وتتبعت الأيام الأخيرة من حياته قبل مقتله ، تبين لهم أنه يسكن في شارع ندى في مدينة شماليا الشمالية ، كان يعيش في بيت هالك وحده ، وقريبا منه ابن عم له اسمه حميد الدين وعلموا أنه كان في المستشفى مريضا ، وأن ابنه ايادا زاره باتصال من حميد ومن حسام نفسه رغم سوء علاقاته مع أولاده الذين يعادونه ، وذكرت التحقيقات زيارته قبل سنة لكلية الشرطة ، وتبين للمختبر الجنائي أن القتل تم بالخنق والطعن ، ونقلت الجثة إلى واد السعدانة .

اخبر إياد أنه تلقى اتصالا أثناء وجوده في المقهى من قريب أبيه أولا، ثم اتصال من أبيه ، وزاره مريضا ، ووعده بزيارة أخرى لما يخرج من المستشفى ؛ ليتعرف على مسكنه .

اشتبهت الشرطة بحلوة الهارب منها حيث علمت الشرطة بزيارتها له ، وتحدثت معه على الطلاق في المحكمة ، وأكد حميد الاتفاق على ذلك ، وأنها كانت تبحث عنه منذ هرب عنها ، ولم تعرف مسكنه وخرج دون معرفتها، فأخلي سبيلها دون توجيه أي اتهام ، ولكن أحد الجيران كشف أن امرأة زارته قبل اختفائه .

انتقل حمزة إلى بيت في مدينة شماليا قريبا من مكان وظيفته ، وانشغل إياد أمام هذا الواقع بالبحث عن زوجة بشكل جدي وسيطلق العزوبية.

خرج مهراوي من السجن بعد شهور ستة ، وعاد لبيته يخطط للزواج من حلوة بعد ترملها وانتهاء عدة الوفاة خلال فترة السجن .

كلفت الشرطة حمزة متابعة قضية والده بعدما عجزوا عن معرفة الفاعل، فقد اشتبه بإياد أولا ثم حلوة ومهراوي ، ولكنه كان سجينا عندما قتل الرجل . تزوجت حلوة من مهراوي وأصبحت علاقتهما الجنسية شرعية ، ذات ليلة زارهم حارس مصنع الأحذية جرور الذي مهد لسرقة المخازن ، وطلب منه مالا بسب طرده من العمل وحبسه ثلاثة شهور فأعطاه

مهراوي ، وطلب منه أن يبحث عن عمل بدل التسول ، وتكرر الطلب فتضايق مهرواي ورفض أن يدفع، فقال أمام حلوة : أنا ساعدتك في الخلاص من حسام ، ولم تدفع شيئا .

فقالت حلوة : ماذا تقصد يا ملعون؟!

جحرها وصرخ : أغراني زوجك بقتله وخنقه ليتزوج حلوة بكر .

صاح مهراوي: لم أطلب قتله يا مجرم ، قلت لك هدده ؛ ليسرع في طلاقها لنتزوج بعد خروجي من الحبس ، مللت من الزنا وبنات الهوى ، فقلت لي رفض الذهاب معها للمحكمة وصفعك وبصق في وجهك، فخنقته وطعنته غضبا لروحك يا جرور!

حدث شجار بينهم ، ووعده مهراوي بمال ، وطلب مهلة ، وبعد أيام وجدت جثة الحارس في بيته ، أخبرت حلوة بعد مقتل الحارس شقيقها بأن الحارس هو الذي قتل زوجها بمؤامرة بينه وبين مهراوي وزوجها قتله ، وأنها ستخرج من البلد خشية على حياتها منه ، فاتصل حامد بحمزة والتقيا وحدثه بقاتل أبيه ، واختفى مهرواي وحلوة ، ولم تطل مطاردته ، وحاول إلصاق التهمة بزوجته ، وكانت قد أخبرت شريكتها بالدكان بغدر مهرواي بزوجها ليتزوج منها قانونا ، وتبين للبوليس أنها بعد مقتل الحارس غادرت البلاد .

قال طارق: هذه قصة صديقي حمزة حسام انتهت بمقتل أبيه حسام رحمه الله تعالى

قال عزيز : عظم الله أجرك يا صديق النادي وإن جاء العزاء بعد عمر .. فقد اهتمت الصحف يومذاك بجريمة واد السعدانة البشعة ، ولم نكن نعرف الرائد حمزة.

وقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون .. وهل أنت سالك مع أهلك؟

شكرهم حمزة وقال : عشت مع أم مطلقة ـ رحمها الله ـ ماتت من سنوات ، وزوجتي طيبة وولدت لي ثلاثة ، فأنا أحسن نصيبا من طارق ، ولي سنوات ارغبه بالزواج ، وليست كل النساء شادية .

قال: أهاب النساء ، يكفرن العشير ، وتعودت العيش بدونهنّ ، وأتمنى لكم النجاح معهنّ لدي رهاب الطلاق.

قال عزيز : ها قد التقينا مرة ثانية أيها الفضلاء ! وقلنا عند انصرافنا تلك الليلة عندما نجتمع سنسمع ونفسح المجال لباقي قصص الأخوة الكرام وحكايات طلاقهم أو طلاق أهاليهم .. تحدث دكتور جمعة العامد .

قال : شكرا عزيز والشكر لكل الأخوة الجالسين معنا .. كما تحدث الصديق الخطاط حمزة نحن هنا خطاطون أو تجمعنا هذه الهواية الممتعة ، ننسى هنا مهننا وأعمالنا وأشغالنا وبيوتنا ، وتجمعنا هذه الهواية الممتعة الجميلة ، وأكيد لكل واحد منا قصة لطيفة في غرامه بالخطوط العربية والزخرفة ،وكيف تعلق بها وهويها ، وأنا حدثت طارق سليم بقصتي منذ تعرفنا هنا على بعضنا ؛ ولكن بعض الإخوة لم يسمعوها ، ذكر طارق أن شقيقه طلالا الطبيب تعرف على زميلة أثناء الدراسة ، وتكبره بعامين وانسجاما ، وما زال زواجهما ناجحا على غير ظن صديقنا طارق أن السن قد يكون من أسباب فشل العلاقة الزوجية ، تعمقت معرفتي بالزميلة الطبيبة لمياء السيد ، وأصبح حلمنا الاقتران ، ونسينا فارق السن بيننا ، وحلمنا بتكوين أسرة بيننا امرأ ينتظر إنهاء الدارسة والبكالوريوس ، وعشنا سنوات الكلية الطبية على هذا الأمل ، والإنسان يحيا بالآمال والأحلام ، وتمنى لنا زملاء الكلية التوفيق والنجاح ، وابتعد عنا العابثون والعابثات، فقلّ التحرش بها ، وقلّ تقرب الزميلات مني ، والأيام لا تتوقف ، وفور التخرج ، وقبل التدرب في مشافي الدولة تناقشت وأبي تيسير العامد في أمر الزواج خشية أن تغير الدكتورة ريا جميل رأيها ، دعوتها لمكتب أبي في شركة هندسة النحاس والكوابل ، وتحدثنا عن الزواج والقران ، وأبدت قبولها بأريحية حتى قبل أن تشاور أسرتها في موضوع مصيري ، وهي رحبت كذلك بالزواج قبل العمل رسميا أنا وهي ، فنحن على قائمة التوظيف والتشغيل الحكومية ، المفاجأة أن أمي اعترضت ، وقال : إن حب الكليات والجامعات نهايته الفشل ، ولا ينهض على أسس قوية ، ولا يحتمل الهزات ، وسخرت من هذا التبرير والرفض ، وجرت نقاشات حادة بيني وبين أمي ؛ ولكنها أصرت على موقفها ورفضها وعدم قبولها

زواجي من الزميلة لمياء السيد، ووقف أبي معي ، وتعجب مثلي من رفضها ، وذكر عيوب الطبيبة وهي لم ترها بعد ، وكان الزواج الشرعي رغم معارضة أمي وأخوالي ، واشترى لي والدي شقة تزوجت بها ، ثم عرفت سبب شدة غضب والدتي عليّ وعلى لمياء ، كانت ترسم على زواجي من ابنة أخيها الآنسة هيفاء ، وكانت متفقة معهم على ذلك دون علمي، وعلم أبي المهندس خالد العامد ، وكان خالي والد هيفاء يظن الأمر كله بيدها ، وأوقف كل مشاريع الزواج من ابنته هيفاء على أمل زواجي منها بعد الكلية ، ولم أكن اعلم بذلك البتة ، مما أدهشنا هذا الخبر وانتشاره بعد الزواج ، وصممت أمي على محاربة لمياء والنزاع معها واتهامها بسرقتي منها . نتيجة لموقف أمي المؤلم ممعنا ندر أن نذهب لبيت الوالد خشية أن نعود بمشاجرة وأوصاف سيئة وقبائح ، وبعد زواجي بسنة لم تخمد نيران والدتي وبناتها معنا ، فلم تتغير البغضاء بمضي الوقت ، وحدث ذات ليلة أن دعاني أبي ولمياء للعشاء معهم ، فقد أقام وليمة لوالده الشيخ وأعمامي وعماتي بمناسبة عودة والده من العمرة ، فبعد تردد ذهبنا لنشارك في الدعوة والعشاء ، ووصلنا مع دخول الطعام الجاهز من سيارة والي ـ مطاعم والي الشهيرة في المدينة ـ وجلسنا كما كان يجلس الآخرون ، جلست وبجواري ويساري لمياء كالمعتاد ، وكانت أخت لي اسمها ساري على يسارها هي وزوجها ، وزوجها ابن خال لي اسمه ياسر ، جاء معها لأنه زوج شقيقتي ، فما كدنا نجلس ، وقدم خادم البيت الطعام حتى نهضت أختي بنفرزة وهي تقول :شبعت هيا يا ياسر ! لم يبدأ القوم يا إخوان الطعام ، ما زال الخدم يوزعونه على الأواني ، مختصر القص حردت أختي، وهي كبرى ذرية أبي ، وبدا حردها واضحا لجلوسنا بجوارها وتبعها زوجها ، فقال أبي بغضب : لا أحب أن أراكم في البيت، لعنة الله عليك وعلى أمك. وهاجت أمي وتوقف الأكل، وارتفع الزعيق والشتم والسب، وكان يا إخوان من نتيجته غضب جدي من أمي وابن خالي وحرد هو الآخر ، وطلق أبي أمي قبل انصراف جدي وأعمامي ، وقال لابن خالي : خذ عمتك معك غدا نقف على باب المحكمة لعنكم الله .

قال الدكتور جمعة: وبالفعل أيها الزملاء انفصل أبي عن أمي، وذلك من نتائج زواجي من الدكتورة لمياء السيد دون رضا ومباركة أمي ، لحد ذلك الزمن ظل الزواج بيننا صامدا ، خلال الشهور الماضيات بسبب الزواج ، كان يتردد علينا بين الحين والآخر جارة لمياء وشقيقها ، وكان الأمر مقبولا ، جيران قبل أن أتعرف على زوجتي، وتعرفت عليهم أثناء فترة الخطوبة الرسمية ، ورأيت الأمر عاديا ؛ لكني تفاجأت في سهرة في شقتي بعد كارثة أمي أن صرحت الجارة سميرة بقولها إن شقيقها سامر كان راغبا بالزواج من زوجتي ، وينتظر تخرجها ، تطلعت في عيني لمياء والشقيق سامر فقال سامر: أنا تفاجأت فعلا بزواجك منها يا دكتور جمعة !

قالت زوجتي دون مواربة : كان بيننا ود قبل الجامعة ، وأثناء الجامعة لم يصل إلى الزواج يا سميرة.

قالت سميرة : كنت أظن أن هذا سيحدث.

قلت محدقا في عيونها وتبرجها للمياء : لماذا لم تكشفين ذلك يا لمياء؟!

قالت : اخترتك أنت ، كان كلامك وحبك أقوى مما بيني وبين سامر .

قالت سميرة بضحكة مقتضبة : أنت ملتيي من سامر أحببت التغيير .

صاح شقيقها محتجا : لماذا هذا الحديث يا سميرة؟! الزواج نصيب

قالت : كنت تحلم بالزواج منها ؛ ولكنك تفاجأت بخطبتها لا تنكر ذلك.

قال جمعة : ما وظيفتك بالدنيا يا سامر ؟

قال : درست إدارة واقتصاد ، ومدير عدة مصانع مع أبي.

قلت بوقاحة : أصدقني هل نمت معها ؟

قالت سميرة مجيبة : وهل هناك حب بدون ذلك يا دكتور؟!

التفت لزوجتي وقلت بارتباك: هل... هل ...؟

قالت دون خجل : هذا قبل الزواج .

قلت بسخرية ومرارة في نفس الوقت : قبل الزواج !

قالت : وهل نحاسب على أفعالنا قبل الزواج؟!

قلت : أنت طالق يا لمياء ! مباركة عليك سامر

قال : جننت يا دكتور!

قلت : كلا ، خذوها معكم ، خدعتني بزعم الحب ، ومرات كثيرة قالت إنها عذراء مع أنني شككت أيام زواجي الأولى بعذريتها.

قال سامر لأخته : لماذا كشفت المستور يا سميرة؟!

قالت : تزوجها ، لا داعي لاستمرار الخيانة يا سامر !

قلت مصعوقا : ما زالت تخونني!

قالت لمياء : هددني بكشف الأمر إليك إن ابتعدت عنه ، ولم اسلمه جسدي.

قلت : يا الهي! وضربته لكمة على وجهه، وأنا أصيح :حقير نذل خائن !

قالت مقرة : ماذا افعل يا جمعة ؟! كنت سكرانة لما غدر بي واغتصبني قبل الزواج ؟

قلت : انصرفوا.. احذر أن أراك .. تأتينا يا فاجر لترتيب الغدر والفُجر يا فجرة!

قال: لن أنسى اللكمة.

قلت : أرجو أن لا تنساها يا خائن!

صعقت ذلك الليل وأصابني الإحباط واليأس أيها الأحباب.

قال حمزة : كان موقفها صعبا ! كيف ستوضح لك جريمتها واغتصابها؟

قلت: كيف تقبل الزواج بي وهي عاهرة ؟!

قال: حبك أعماك عن رؤية عيوبها .

قال طارق : تابع حكايتك .

قلت: خرجوا ، فسميرة لم تعد تحتمل ثقتي العمياء بزوجتي الخائنة، أخبرت أبي بطلاقي للمياء دون الإفصاح بالحقيقة ، وطلبت منه مصالحة أمي وردها ، وأعلمها أني تخلصت من

عدوتها لمياء زاعما أني لا أقبل بكارثة أمي بعدما فكرت بعميق ، وصدق أبي زعمي ، وتحدثت مع أمي وقلت لها الموقف ، وإني تخلصت من لمياء لتعود للمصالحة مع أبي ، وحدث ذلك بفضل الله وتزوجا من جديد ، سمعت بعد شهور بزواج مطلقتي من سامر للملمة الفضيحة .. لي قريب يعيش في أوروبا ، فلما سمع بفشل زواجي فحدثني عن شقيقة زوجته، فسافرت مهموما مقهورا إلى تلك البلاد ، وعرفني بعد أيام على البنت ، وقضيت شهرين معها ومع قريبي ، أتعرف عليها أحدثها عن نفسي ، وتحدثني عن نفسها حتى استطعت أن اتخذ قرار الزواج منها ، وحصل فعلا الزواج واحتفلنا به ، وعدت بها لأرض الوطن ، ولم يطل البحث عن عمل ، ولا أنسى أن أذكر لكم أن أبي يساعدني ماديا سواء في الدراسة ، سواء في الزواج الأول والثاني ، ولم أكد استقر حتى ظهرت عداوة أمي لزواجي من أوروبية مع أن هيفاء ابنة أخيها تزوجت قبل طلاقي من لمياء ، حتى سألتها ما العيب أن أتزوج غربية ؟ وهي أخت زوجة السيد مالك قميص.. هل لازم أتزوج عن طريقك ؟ لما رأيت حقد أمي لزوجتي والإساءة إليها في الصغيرة والكبيرة هاجرنا لكندا دون علمها ، وسمح لي أبي بترك البلاد ، وأعلمني أنه على وشك الزواج على أمي .. الحياة مع أمي وأشقائها صعبة ، ويتدخلون في كل شيء .. وفعلا تزوج الوالد من أرملة ، وطلق أمي من جديد ، وحصلت مضايقات ومشاجرات بينه وبين البنات ؛ حيث وقفن مع أمهن دون تردد ، حتى أن ابن خالي طلق أختي ساري التي سببت طلاق أمها قبل سنوات .. مرضت أمي بعد حين يسير ، وأصابتها جلطة عاصفة هدت كيانها ، وعاشت بضعة أشهر تعاني صحيا ، وتكررت الجلطة وماتت ـ رحمها الله ـ وجاءتني نداءات بالعودة ، قضيت سنتين في الغربة ، وعدت لأبي، ووجدته سعيدا بزوجته الأرملة ، وأسعدني ذلك حقا ، كان أبي محبا وعطوفا عليّ اكثر من أمي ، وعدت لهواية وعضوية نادي الخط العربي والزخرفة الإسلامية التي ما زالت تزين قصور ومساجد العرب في الأندلس ، وأنا سعيد حقيقة بزوجتي الأوروبية ، وها نحن نسعى للخلفة بعد أن استقر زواجنا وتعمق الحب بيننا ، وقد تعلمت العربية في مؤسسة تعليم اللغة العربية للأجانب ،

ونحن اليوم سعداء نأمل بمولود يزيد دفء الحب والحياة بيننا ، هذه قصة طلاقي باختصار أرجو أن يكون واضحا للجميع.. فالحياة عجيبة وقصصها أعجب ؛ ولكنها دنيانا وحياتنا ، علينا أن نحياها بحلوها ومرها ، وشرفت بالتعرف على طارق وعزيز والتاجر عمر وعلى الجميع وعلى حبيبنا حمزة حسام.

قال طارق : عفاك الله ، ومن قلبي أتمنى نجاح زواجك الثاني ودوامه، لقد حلمت يوما كما رويت لكم بالزواج من أجنبية ؛ فأنا حلمت وجمعة حقق ذلك الحلم.

فقال عمر : أليس لها أخت يا جمعة ؟ كما ساعدك قريبك مالك من الزواج من شقيقة أهله ساعد طارق لنكاح أختها .

ضحك الدكتور وقال : والله فكرة ؛ لكن حسب معلوماتي لا اذكر أني سمعتهم يتحدثون عن أخت ثالثة ..سأسال زوجتي الليلة.

قال عمر باسما : جاء دورك يا مهندس نعمان بدير !

قال طارق سليم : يا نعمان بن بدير هات مع عندك من قصص الطلاق والفراق والتسريح بإحسان كما نص القرآن .

قال عزير : التسريح اليوم بفضائح وصحف وجرائم ، قديما كان الطلاق سهلا وبدون محاكم وقضايا ومشاهدة .

قال حمزة معللا : الحياة تعقدت ، ومشاكل الناس زادت وتنوعت وتضخمت، اليوم نعالج قضايا شرطية فيصيبنا الذهول من تفاصيلها ، نواجه حرق أصابع كي أجساد حرق بيوت ، انحلال غريب ، وخيانات رهيبة بهيمية وحيوانية، لا تدري كيف تحدث بين البشر ؟

قال طارق مفسرا : الكحول والمخدرات والسموم خراب البيوت ، ضاعت العقول والقلوب وهناك تضخيم للحرية المطلقة والشخصية .. تكلم يا سيد نعمان .. فنحن في المحاماة نسمع ونرى قضايا قانونية عجيبة ومثيرة مثلك يا حمزة .

قال نعمان : أنا يا دكتور طارق لم اطلق كما طلقت ، ولا أبي بدير طلق ، كما طلق والدك يا حمزة واختفى ـ رحمه الله تعالى ـ ولا أمي طلقت ، أمورنا بفضل الله طيبة ، والغيب علمه عند الله أنا أختي طلقت وكذا أخ لي ، درست شقيقتي دينا بدير الجامعة ، ودخلت كلية الإعلام ، كانت ترغب بالعمل في التلفزيون كمذيعة أو محررة أخبار ، وخلال الجامعة كونت علاقات صحفية مع بعض الصحفيين ، وكتبت ونشرت لها تلك الصحف والمجلات مقالات خواطر تعليقات ، تخرجت أختي من كلية وقدمت أوراقها للعمل في محطة التلفزيون الوطني ، وقبلت كموظفة وداومت فترة تحت التمرين ؛ ولكن بدا لنا أن الراتب لم يوافق هواها كما وضحت لما تركت التلفزيون ، بعد أقل من نصف سنة تركته للعمل في الصحافة في صحيفة الثورة مع ابن عمتي جبير المحرر فيها ، وبعد شهور علمنا رغبتها بالزواج من الصحفي جبير تزوج السيد جبير دينا ابنة خاله بدير ، فرحنا لهما فرحا كبيرا وعمنا السرور ، فهي الكبيرة في

ذرية أبي ، وأول زواج في الأسرة . لم تكن دينا والعائلة أسرة متدينة؛ لنهتم بأخلاق جبير وخفاياه وصلاحه وفساده ، رجل وبس ، وجبير على نفس الشاكلة ، لا يختلف عن دينا ، لا دين ولا صلاة ، أقول صراحة أن الشاب كان زانيا وسكيرا وهذا معروفا للجميع ، والرجل صاحب سهرات ومجون ، وقلنا هذا اختيارها ، وهي أنثى ناضجة ، ولا طاعة لنا عليها ، وكما نوهت آنفا نحن أسرة غير متدينة لنقيس على مقياس الدين والصفات الحسنة والخلق الحسن، ولكننا نقدس الزواج ، ولا ترتاح نفوسنا للخيانة الزوجية ومقدماتها ولا توابعها، وقلنا وأملنا ؛ لعله بعد الزواج يعقل ويرتاح للحياة الزوجية الشرعية والحلال ، ويترك الفساد والمواخير والحانات وعلب الليل والساقطات ، رائحته تزكم الأنوف حقا .

تخرجت كشقيقتي مهندسا كالأخ عزيز ، واشتغلت بشكل رسمي في شركة كبيرة يديرها الوالد وبعض أشقائه رحم الله أبي ، فهو اليوم في دار الحق في مدافن العائلة ـ ترحم الأصدقاء على والد نعمان وآبائهم ـ وتابع نعمان فقال : وأخي منير أصغر مني بسنتين لم يكن صالحا درس المحاسبة المالية ، واشتغل في شركة مالية كبرى على سمعة وأموال الأسرة المودعة فيها خاصة أبي وأعمامي ، تزوجت أنا العبد الفقير إلى الله بعد ممارسة العمل بسنة ، صديق لي ساعدني على الزواج من شقيقته ، وهي لحد الآن نعم الزوجة والقرينة ، وما زلنا حبايب ولا داعي لذكر باقي أولاد الأسرة ، فهم مثلي سعداء والحمد لله ، الصغير منير المحاسب تعرف على أنثى في المؤسسة المالية اسمها دانيا ، هذا اليوم أمر طبيعي ، فالشركات والمصانع يعمل فيها من الجنسين ، فالتعارف حاصل ، فكانت دانيا اختيار منير بدير كزوجة ، قبل والدي الاختيار ولو على مضض ؛ لأن أبي كان يرغب وتكلم بذلك لو منير يتزوج شقيقة جبير ابنة عمته ، فكما تزوج ابن عمتي أختي ابنة خاله ، فعلى أحدنا الزواج من بنات العمة ؛ لتزداد أواصر العائلتين وتمتد الصلات.

سكتت العائلة على اختيار منير حسب قانون الحرية والديمقراطية التي يتغنى بها أهل الشرق قبل أهل الغرب، ولا يجوز لأحد الرفض والاعتراض والنصح على خيار الآخر ، فكيف

الرفض ؟!كان ابن والدي منير صاحب خمر وميسر ، علق بها من عم لنا قريبا من جيله وتساهل أبي في ردعه وزجره وتربيتنا ، حرية شخصية يقال ، والتهاون شعار الوالدين، المهم عدم إيذاء الآخرين بدنيا ومعنويا ، التساهل مع الجميع ، وقلت ذلك لكم لأنه بدأ لنا أن الفتاة تفاجأت بذلك وشكت من ذلك ؛ كانت تراه مدخنا ومحبا للأفلام والسينما والمسرح والحفلات والقليل من الشراب في المناسبات ، عرفت فيه شيئا أو أشياء لم تكن تراها وهي ترسم عليه كزوج، رأته رجلا منفتحا أنيقا محبا للزينة والعطور والأطعمة الغربية والبذلات الغربية ، فلما طفق يستلف من مالها للقمار وشرابه وسهرات البيت ، ويجلب البنات والرفاق للسكر والقمار عرفته على حقيقته ، وأنه مولع بالقمار هجرت البيت ، وظن منير أن الأمر لبضعة أيام ، ثم تعود أو تتصل به ليأتي لأخذها ، ويا دار ما دخلك شر ،وهذا حدث كثيرا منذ اقترنا ، ونسمع به من أمي أو عمنا رفيق منير أو بنات أمي كتسلية ، كانت مشاجرات البيت كثيرة بينهما بسبب القمار والعربدة ، هذه المرة طالت المدة ، مضى أكثر من شهر ودانيا في بيت والدها ، وركب أخي رأسه ولم يسع لإعادتها والتصالح معها ، وحتى هي غيرت دائرة العمل تجنبا للقاء به ، انتقلت لفرع آخر تابع للمؤسسة المالية ، ونحن نراقب المسرحية دون تأثر كبير ، ونسمعه يتذمر من النساء والغدر والخيانة ولعن النساء والعاهرات ، نتركه للحظات ، فقد وصل لمسامع العيلة أن دينا شقيقتي علقت بشاب صحفي يشتغل معهم في صحيفة الثورة وأحبا بعضهما ؛ كما زعمت لأمي وأبي، وكان ردهما السكوت كعادتهما لعدم جدوى التعليق والنصح للجميع ، فاللامبالاة أفضل في قناعتهما ، لما وصلت المعلومة لجبير وأدرك أن الزوجة تخونه مع زميل له تزوج صديقة لها قبلته وليحطمها كما قال ، ولم يطلقها ، وشرّط للطلاق أن تعيد أمواله إليه ، المهر وحفلة الزواج، فخضعت وأعادت جزءا كبيرا منها تفاهما عليه مع العشيق ورئيس التحرير للجريدة خشية التأثير على مقالات وإعلانات الصحيفة القومية والثورية، فطلقها رسميا ، ولم يعقد عليها زميلها وحبيبها، وجبير انتقل للعمل في صحيفة أخرى ، والأسرة نبذتها بدون قرار رسمي، والكل يتجنب مجالستها مما

دفعها لإيجار شقة للعيش وحدها ، كنا ننتظر زواجها لترحل ، فلم تتزوج كما قلت من حبيبها ورحلت ، فتنفس والدي الصعداء كما يقال ، وعدنا لزيارتها كما عودناهما ، وكان رحيلها يا أحباب حقيقة بطلب من أبي ، فهو لا يحتمل سكرها ورفاقها في بيته، ولا يحتمل وجودها وعشيقها فرحلت ، ثم ماتت بعد حين في شقتها وهي تتعاطى المخدرات ، وقيل جرعة مخدر زائد ، وجرى تحقيق مع شلة تلك الليلة ، ولم تكن هناك جناية أو جريمة حسب قول الأمن ، ثم علمنا أنها بدأت التعاطي منذ تزوجت جبيرا ؛ بل قيل تعلمت ذلك أثناء الدراسة الجامعية وقد يكون ذلك صحيحا ، أما أخي منير فذكرت لكم أن زوجته هجرته لما كثرت الديون عليه لها ولغيرها ، ويتملص من سدادها حتى قالت لي شخصيا استدان منها خمسة آلاف دينار محلي وتفاجأ منير بوقت متأخر أن زوجته المهجورة من سنة ونصف بأنها حامل ، في البداية ظنها لعبة ليردها ويتصالحا ، وسعى للتحقق من الخبر ، وأكدت له أمها بحصوله رغم أنفها ، وأنها تعرضت للاغتصاب ، فجن جنونه وطلب منها الإجهاض ، ولن يعترف بابن الزنا ، ووعدها بالصلح والعودة بعد الإجهاض ، وهو مستعد لتطليق صديقتها والزواج من جديد ، فأصرت على بقاء الحمل والوقت فات ، وأنها غير مستعدة لمخاطر الإجهاض ، رغم الجهود والتوسلات ، وتأخر وقت أخباره ، وضعت طفلها ، وحمل الطفل اسمه قانونا ، وفقد منير الصواب رغم الجهود التي بذلها لنفي الأبوة ، ولدت سفاحا ، ووقع الطلاق رسميا ، واختفى الرضيع ، واتهمته مطلقته بخطفه وقتله .. هذه قصص الطلاق في أسرتنا وعائلتي أيها الهواة في الخط العربي وزخرفته.

قدم لهم المهندس عزيز أكواب الشاي الكبيرة التي أعدها ، وهو يقول : تمتعوا بعصير العصر الشاي السيلاني.. اذكر أنهم كانوا يقولون لنا ونحن في المدارس أن الشاي ظهر ميلاده في الصين.. واليوم اسم على كل لسان.. ميد أن جاينا.. صنع في الصين.

قال حمزة : صحيح .. اكتشفه راعي صيني ، وانتشر في الهند وباكستان وجنوب آسيا وشرقها.

حسن شماس عالم هندسة ذرية ، وهو عضو في نادي الخط العربي في البلاد دار السلام ، وكان يتردد على نادي ابن مقلة نادي الخط العربي قبل سفره إلى أمريكا للدراسة في الهندسة الذرية ، قرأ مقالا عن الخط العربي وجماليته في احدى المجلات الأدبية، وتعلق بالخط ؛ حيث كان يمارسه عند الملل من الكتب المدرسية والثقافية ، ووجد ترحابا من قيم النادي وتشجيعا ، والتحق بدورة في تعلم الخط الثلثي والكوفي والديواني مع المدرب الأستاذ الخطاط علي المطاط نجح نجاحا كبيرا في الثانوية العامة الفرع العلمي ، وساعده خاله العالم في أمريكا بالسفر والالتحاق بجامعة في فرجينيا الشمالية قسم الفيزياء والهندسة الذرية ، تعلم اللغة الأمريكية والتحق في الكلية بأشراف ورعاية من خاله ياسين دروب، والمحاضر في تلك الجامعة ، وبعد سنوات عاد للوطن لوعكة صحية أصابت أمه ، وترجح لهم موتها ؛ لكن الأعمار بيد الله والوقت للرحيل بيده سبحانه ، وكل نفس ذائقة الموت ، لا مفر من الموت ، وفي هذه الزيارة أصر والده على زواجه من ابنة صديقه غالب كلمان خوفا عليه من فساد الإباحية المنتشر في الغرب ، قال حسن : وبعد الزواج عدت لمتابعة الدراسة والسعي لتمكين زوجتي هدى من السفر ، ولم يطل سفر هدى ، فلحقت بي ، وولدت لي محمدا وقبله مايا ، تخرجت من الجامعة بتفوق كبير ، وعملت في جامعة مدرسا خمس سنوات أخرى ، ولما توفي خالي ياسين اثر حادث سير عدت للعمل في جامعة دار السلام الكبرى ، وعدت للنادي هذا للترفيه والعودة للهواية الخط العربي ، وها نحن نتعرف على الكثير من الوجوه الجديدة المرحة ، ووجدنا رئاسة النادي بوجه جديد ، ورحم الرب سبحانه الوالد والصديق وحيد الدين العالم في العربية والخط ، وقد سمحت لنفسي بالجلوس معكم لما لمحت انسجامكم ، وأسمع حكاياتكم العجيبة والغريبة في قضية الطلاق المؤرقة لكل دول العالم ، والعجيب أنها تحدث في بلاد المسلمين والعرب بمثل ما تحدث في عالم الغرب ، أما قصة الطلاق في أسرتي فكانت مع ابنتي مايا التي أنجبتها في أمريكا ، كان أبي قد وافق على زواجها من ابن أخي حسين ،

ويمكن القول بكل صراحة أنه اجبرنا على القبول به ، وما كان أمامي إلا إرضاء أبي سيد العائلة ، وهو الذي تكلف أموال السفر والدراسة في الغرب ، وكانت البنت بارة بنا وعند حسن ظننا ، وبعد تردد قليل منها ، وسماع كلام أبي وأمي جديها استسلمت للزواج لاختيار الجد ، ورضيت أمها هدى وباركت لها ، وتزوجت مايا ابن أخي داود حسين ، وأنجبت منه طفلا بعد حين ، لم تحمل إلا بعد سنة ونصف من الاقتران ، وبدأت وهبت العاصفة، فهرب ابن أخي من المدينة دون سابق إنذار ، وسافر للعمل مدرسا في دولة عربية ، وسبب الهرب كما زعم لأبيه حسين فيما بعد أنه تعلق بمعلمة تعمل هناك ، عرفها عن طريق صحيفة أو مجلة وكان يراسلها وتراسله ، وتتصل به عن طريق الهاتف ، وتزوجا سرا عنا فور وصوله لذلك القطر ، ودون علم ابنتي وحتى أحد من ذويه ، فصدمنا من طريقة خروجه من البلد لتلك الدولة ، ثم الزواج بتلك السرعة، زعم لأبيه ؛ ليضعنا تحت الأمر الواقع ، ولا يسمع اعتراضا وهو مدرس فهمان ، فما كان ابنتي أن قالت ابنتي : كما ضغطتم عليّ للزواج منه، فعليكم الضغط عليه ليطلقني أنا لم أحبه يوما ، فسافرت إليه أيها الأخوة الطيبون ، وطلبت منه العودة وطلاق البنت ، فضغطت عليه الزوجة الثانية ، فعاد مرغما ، وطلق البنت ، ثم سافر ، وتزوجت ابنتي بعد شهور ، وزواجها بفضل الله صامد ، وأبدلها الله خيرا من ابن أخي ، حاول أخي أن يزوجها لابنه الآخر أو ابن اختنا كضرة ، فرفضت ، ثم تيسر الزواج من أحد معارف صديقة لها ، وهي تعيش بسعادة وفضل من العزيز الحكيم ، وولدت من زوجها محمد ربحي ثلاثة أطفال ولله الحمد والفضل .

وأضيف وأختم وعاد ابن أخي بعد سنوات بلا حبيبته ، فقد طرد من وظيفته وفصل ، وزوجته رفضت ترك العمل والعودة معه ، ورفضت العيش في بلادنا ، وهو اليوم يعيش بلا امرأة .. هذه قصة ابنتي وطلاقها.

حسنا أيها الأصدقاء! جاء الدور أو وصلني الدور .. قصص طلاقي لا تبدو مثيرة ومزعجة ، كنت أتزوج بأمر ، وأطلق بأمر بما أنكم اجتمعتم للسمر والثرثرة في مثل هكذا موضوع سأدلي بدلوي .. اسمعوا بارك الله فيكم .. ترملت أمي ـ رحمها الله ـ وأنا ابن عشر سنين ولم تلد غيري ، هكذا قال الخطاط عضو النادي عبد الواحد منازلي: فلذلك عجلت الوالدة بزواجي وأنا لم ابلغ العشرين سنة ، ولم يكن لي الاختيار بمن تكون الزوجة ، زوجتني من ابنة أختها الآنسة نادية بليل ، مضت سنة زواج دون أن تلد نادية مثل زوجة الصديق عمر فزوجتني أمي من ابنة أخت ثانية خالتي الثانية السيدة سعدية محمود ، وولدت سعدية بنتا ثم بنتا ثم بنتا ، وذلك لا يعجب أمي تريد ذكورا ذكورا ، كانت ولادة سعدية كارثة ومناحة بدلا من الفرح والاحتفال ، وترفض التهنئة بالبنت ، وقبل أن ابلغ الثلاثين زوجتي امرأة غريبة من خارج الأقارب ، كما قيل لها من الحجابين والفتاحين والدراويش بتغريب النكاح ، مع أن سعدية ولدت ثلاث مرات ، غربنا النكاح ، المهم تزوجت مريم من بلدة أخرى عن طريق الأجاويد لتلد الذكور لأمي ، وطلبت السيدة نادية بعد زواجي الثالث طلبت الطلاق ، ووافقنا على ذلك ، دون أي اعتراض ، للتذكير أنا كنت دخلت الجيش بعد الثانوية ، وتزوجت نادية كضرة من ابن عم لها ، وهذا تقليد موجود في العائلة أن تتزوج المطلقة أو الأرملة اذا رغبت من الأقارب ، والعجيب لنا طبعا أنها ولدت من ابن عمها ذكرا ، مما أغضب أمي منها ومن أختها أم نادية ، واتهمتها علنا بأخذ موانع الحبل ، مع أنها لما تزوجتها كانت ابنة خمس عشرة سنة ، لا تعرف بمثل هذه الأمور ، فهي تركت المدرسة عند زواجنا ، ولما اعترضت عليها ، قالت: أمها علمتها ذلك ؛ لأنها تكرهنا ، يعني خالتي تكره أمي ، وأكثرت من قول الإشاعات وكيل الاتهامات ، وإنها كانت تعشق ابن عمها بعلم خالتي ، فضاق زوجها بالأقاويل والاتهامات ، حتى طلقها ليرتاح من قيل وقال ، ووقفت الشحناء في العائلة ، وسعت أمي لإرضاء أختها أم نادية لتزويجها لي مرة أخرى ، فرفضت بكل قوة ،

وتزوجت أخت لها طلقت قبلها لمشاكل لا داعي لبيانها ، فهدأت المعركة تماما ، وعادت نادية لابن عمها ، وولدت له من جديد ، وأختها لم تلد لي كما لم تلد لزوجها الأول ، قمنا بعمل فحوص وتحاليل لمدة خمس سنوات يا عمر ! وظلت عاقرا ، وعملوا الحجب والرقى والشعبذة دون نتيجة ، زوجتني أمي امرأة أخرى ، فصار عندي أربعة في العمارة لمزيد من الذرية والذكور ، وطلبت مني خالتي أم نادية تطليق ابنتها ليلى بليل ، ففعلت لأني صرت حيوانا لمزرعة الخراف ، وتزوجت وولدت من زوجها الثالث بدون علاج وبدون حجاب الأمر لله من قبل ومن بعد .. وهكذا حياتي زواج طلاق حتى ماتت أمي ـ رحمها الله ـ وعندي اليوم جيش من البنات ، والقليل من الذكور ، والآن عندي ثلاث زوجات يتنافسن على إرضائي وأصبحت عجوزا قبل الأوان .. نسأل الله الرحمة والعفو والبركة وحسن الختام.

قال عزيز : كان الله في عونك.

قال: وفي عون الجميع .. لي خمس سنوات بدون حالة ولادة .. وقد زوجنا بعض البنات ربنا يستر عليهن وعليكم بفضله جاء دورك يا عدنان أعندك حكاية ؟

قهقهة الشيخ عدنان مسرورا ، وهو دكتور لغة عربية ، ومدرب خطوط وزخرفة في النادي وقال باسما : حقيقة طربت واستمتعت بقصص وسير حياتكم في قضية الطلاق ومأسيه وغرائبه ، حكايات عجيبة ! غرابة طلاق المحامي طارق ، كادت مشاكله العائلية تنتهي سمحت له زوجته بالسفر ، وقدم له غازي المال ليبقى الزواج ؛ ولكنه طلق لتدخل أخت زوجته زميلة الماجستير وزوجها في حياته الخاصة مع أنه رغب بذلك ، وهي التي رفضت التدخل بينهما لماذا طلقت ؟!

ضحك طارق وقال بترو : تأتي لحظات يا دكتور عدنان يتصرف فيها الإنسان بأفكار وأفعال وانفعال بنت الساعة والموقف ، ويصعب التراجع عن القرار ، سألت نفسي مرارا ، لو لم يحضر هؤلاء سامية وزوجها تلك الليلة هل سيحصل الطلاق ؟ الجواب أن الطلاق سيحصل أدركت ذلك منذ طلبت الخادمة ، وفرضهم ذلك عليّ بطريقة الاستحياء واختصار الشر ، لم اهضم التدخل بسهولة ، ومن ثم قصة أخذها موانع الحمل دون معرفتي ، مع أن ذلك كان في النهاية لمصلحتي ؛ حيث طلقت ؛ وليس معها عايدة وطلال وعالية وطارق .

قال عمر : ولم تتزوج بعدها !

تنهد فقال : حاول بعض الأصدقاء وأخي طلال ، وما زلت رغم بلوغي الخمسين دون زوجة ولا أمارس الزنا لتصريف الطاقة الجنسية العفة تاج فوق الرؤوس .

صفق الجمع وقال عدنان : وشادية !

قال : سعى بعضهم للصلح بيننا ، واستعانت سامية بالدكتور غازي أستاذنا في الجامعة اعتذرت ، فلما يئسوا مني تزوجت قريب أو صديق لزوج سامية ، ثم اختفت من حياتي لحد الآن .. قص علينا ما عندك .

قال عدنان : قبل قصي أقول لحمزة حسام براهم صديقنا الشجاع ، سمعنا أن أباك ذهب للمحكمة لطلاق امرأة أبيك ، ولم يكتمل الطلاق ، فتسبب فيها بعد بمقتله ؛ لأنه لو طلق لما

التقى بالحارس القاتل ، فلم تبين لنا عدم اكتمال طلاقه ـ رحمه الله ـ وشغلتنا بأخبار شقيقك إياد وأبي مالك .

غمرهم الضحك وقال حمزة : لا أحد ينجو من عمق فهمك ، أنا لم يكن لي دور كبير إلا في النهايات ؛ لأني كنت في الجامعة الشرطية ولا أعود إلا نهاية الأسبوع ، فأسمع من إياد من خالي مالك من أمي من البنات ، وحدثت الجريمة في منطقة وظيفتي ، أما قضية الطلاق فذهب الوالد للمحكمة متهما لامرأته بالفاحشة . فقال له القاضي: هذا يحتاج لشهود وتحقيق وهذا من مهام الشرطة والمحاكم المدنية ، وليس لك عندنا إلا الطلاق ، وأن تدفع حقوقها المالية ، فطلق حتى تحضر المرأة وقد استلمت مؤجلها ، وتقر بذلك أمام القاضي، ووالدي لا يملك المؤخر المقدر بعشرة آلاف دينار ، فتابع رحلة الاختفاء.

قال عدنان : أحسنت أبا علاء وضحت الصورة .. قصتي ليس لي قصة ، لم أطلق البتة لي ابنة أخت عاشت قصة طلاق لا بأس من قصها وسردها على آذانكم في هذا الاجتماع المحترم.

قال طارق مستفسرا : أذكر أنك قلت لي قديما أنك خطبت وتركت.

قال عدنان :صحيح ، لم يحدث طلاق يا دكتور طارق!

قال: تفضل

قال عدنان : أبدا بقصتها ، أعجبت بطالبة معنا في الجامعة ، واتفقنا على الزواج بعد انتهاء الجامعة ، كنا كلينا في قسم اللغة العربية ، وذهبنا وتحدثنا مع أهلها، وتم قبولي كزوج لها وسعدت بذلك ، وقبل التخرج بفصل لاحظت اهتمامها بزميل ، ثم طلبت بفسخ الخطبة ، ولم أتردد في فعل ذلك ، وفعلا اعترف لي الزميل بحبه لها ، وشكرني على فسخ الخطبة والفاتحة ، وما يفعله الله تعالى فيه كل الخير ، وإن بدا قاسيا ، وبعد الجامعة والعمل في قطاع التعليم والمعارف تزوجت امرأتي أم احمد من ربع قرن ، وأمورنا تمام وعلى خير ما يرام بفضل الله ورحمته ؛ ولكن لديّ قصة يمكنكم سماعها وإضافتها لحكاياتكم ، ابنة أختي منار راضي تخرجت من كلية الطب، وتقدم خاطبا من أقاربها الكثير ، فاختارت طبيبا يعمل معها في

المستشفى ، وسأروي القصة على طريقة طارق وحمزة.

قال الطبيب جهاد لمنار في مطعم القسم مكان الاستراحة : كيف حال الدكتورة منار؟

قالت : أهلا دكتور جهاد اجلس اشرب قهوتك.

قال: جئت لأجلس معك ، دلتني عليك الدكتورة سمية رشيد.

قالت بحيرة : دلتك عليّ ! ما نحن نعرف بعضنا منذ اشتغلنا هنا وفي هذا القسم .

قال: اعرف ، وكم شربنا القهوة والشاي ؛ إنما حدثتها عن الزواج والرغبة فيه ، فقالت: فاتح الطبية الفاضلة منار بذلك ، فهي عزباء مثلك.

قالت باسمة : أهلا وسهلا .. عروس ..لي شهور في العمل، متخرجة حديثا .

قال: لا اعتقد أني أول من يتقدم إليك .. خاصة طبيبة جميلة ومحترمة مثل الطبية منار

قالت : يسعدني أن أسمع هذا الغزل اللطيف

قال: ما هذا بغزل!

ضحكت وقالت : سمعتك تقول جميلة ! .. حسن .. كيف أنت وحرية المرأة والسفور ؟ كيف تراني؟

قال: لست ضد حرية النساء وتبرجهن للشارع .

قالت : وأهلك الأم والأب.

قال: أنا الذي سيتزوج.

قالت : هل يعني هذا أنهم لا يحشرون أنفسهم في حياتك ؟ كم أخا لك وأختا؟

قال: لم نخطب بعد

قالت : أنت طيب ! وسمعتك جيدة في القسم سوف أفكر في عرضك.

قال: أرجو ألا يطول التفكير .. فأهلي يرغبون بزواجي ويفرحون بي.

مرت أيام على عرض السيد جهاد ، وحدثتني منار بعرض طبيب المستشفى ، وقالت: هل من الضروري يا خالي الزواج ؟ منذ التخرج والعروض تنهال كما أحدثك دائما .

قلت: أشكر ثقتك بي يا منار ! هذا قانون البشر.. قانون التزاوج لإعمار الدنيا .. ولا اعتقد أنك ترفضين الزواج كفكرة وحياة ، ولولا التزاوج ما كنا أنا وأنت نجلس هنا .. والدكتور بعد إنهاء الجامعة كغاية أولى حققها يحتاج لزوجة وأولاد .. هل تحبين أن اسأل عنه وعن أهله كعادتنا نحن الشرقيين أم معرفتك به كفاية.

قالت :لا أعرف عنه إلا أنه زميل عمل يسبقني بسنة أو سنتين طبية لا اعرف عنه الكثير

قلت : يمكنك سؤال مديرة القسم والتي وجهته نحوك أو ممن خالطهم أكثر منك.

قالت : الصديقة راوية لم تسمع عنه شيئا لافتا للنظر .

قلت : الأفضل سماع الأطباء الذكور

قالت : أتحرج من ذلك ، علاقتي بهم رسمية في حدود العمل .

قال: حسنا ! فاطلبي منه بعض أرقام الهاتف المُعرفة به، وأنا اكلمهم واسمع كلامهم

قالت : أشكرك خالي ، أمي ترغب بزواجي ، وأبي يطلب التأني وعدم العجلة في الاختيار

قلت : السن يا خالي مهم في النساء .. أنت تجاوزت الست والعشرين .. أنتن بخلاف الرجال .. التأخير ليس في مصلحتكن .. كلما كبرت البنت عندنا قلّ الخطاب .

قضت اكثر من أسبوعين تسأل وتسمع ، ولما التقت مباشرة بالطبيب جهاد على فنجان قهوة في مطعم المستشفى ، قالت : ما زلت تراني أهل للزواج يا دكتور أم هناك أخريات .

ابتسم وقال: أنا لم أعرف قصص الحب يا دكتورة ، كانت حياتي الشخصية جادة ، ورغبت بالزواج من طبيبة مثلي مع أن بعض الناس لا يرجح هذا الاختيار .. دوامنا أول النهار في المساء في الليل .. هل فكرت كفاية ؟

قالت : فكرت ، والكل يرغبني بالزواج والعمر وفرص الزواج تقل مع الكبر ؛ كأنني عجوز اذا كنت يا دكتور مناسبة لحضرتك فأهلا وسهلا ، وكل من سألناه عن شخصك أثنى عليك الثناء الحسن.

قال مظهرا السرور : شكرا سأقوم وأمي بزيارتكم لوضع النقاط على الحروف .. والتوفيق

بيد الله .

قالت : نحن في انتظاركم .. وهذا عنوان السكن .

وهكذا كان، ذهب جهاد ووالدته وأخته لزيارة بيت الدكتورة ، وجلس القوم في جلسة تعارفية ، واتفق القوم على الاتفاق بعد ثلاثة أيام لإعلان الموافقة ، وتمت الخطبة الشرعية الإيجاب والقبول ، وتحدد أن يكون الاقتران بعد أسابيع ، وتدوين العقد في المحكمة الشرعية ، وتعيين يوم الزفاف ، واحتفل الزملاء بخطبة الشابين .

قال عدنان : لم يتم الزفاف ، ولا كتب العقد ، السبب أن حضرة الدكتور تبين لنا أنه قبل عمله في مستشفى منار الوطني الحكومي قد اشتغل في مستشفى خاص وفصل أو طرد بسبب علاقة أو تحرش مع ممرضة ، وتكتم على تلك الحادثة ، وكشفت لما نشرت الصحف خطبة جهاد ومنار ، ووصلت المعلومة للممرضة المتحرش بها فسعت للوصول إلى هاتف منار وكشفت لها قصتها ، وزارت منار مدير المستشفى ، وأقر ببعض أفعال الدكتور ، ولما حدثت جهادا بقصة الممرضة حاول الإنكار وزعم أنها هي عرضت نفسها وصداقتها عليه .

فقالت : أنت تكذب بصراحة ، وأنت فصلت وطردت .

وأخذ يحلف ويقسم ببراءته فقالت : أنا قابلت مدير المستشفى وأكد لي قصة الممرضة جميلة حوشن وغير ذلك .

قال: حسنا! انتهى الموضوع يا دكتورة

قالت : الكذب حباله قصيرة يا جهاد ! كل تكاليف الخطبة سأعطيك إياها كما دخلنا بالمعروف نفترق بالمعروف.

قال: كما تريدين

قالت :لم تكن صادقا معي ، وزعمت أنك لم تعرف الحب والبنات ، وأنك تعيش حياة جادة

قال: أتمنى لك التوفيق.

قالت وهي تنهض : وأتمناه لك.

وفشل الاختيار ، وانتشر سبب الانفصال مما سبب فضيحة للدكتور جهاد وانتقل لمستشفى آخر يبحث عن زوجة ، تقدم مدير المختبرات في المستشفى لمنار بعد هدوء العاصفة وبعد عدة لقاءات ، قبلت منار به زوجا وتزوجت الدكتور رمال حسني ، واحتفلوا بالزواج في صالة أفراح شهيرة في ضاحية المدينة ، وفرح المحبون ، وتألم المبغضون ، وبعد الزواج بشهر قريبا قدم الدكتور رمال حسني استقالته لمدير المشفى ؛ لأنه كان ينتظر الرحيل لدولة خليجية للعمل في مستشفى عالمي .

قالت : هل من ردود ؟ لك ثلاثة اشهر تنتظر.

قال: حينما اصل سأقدم أوراق سفرك وأوراق عملك سواء معي أم مع الحكومة.

قالت : الغربة مرة يقولون

قال: لن نشعر بالغربة ، أغلب وقتنا في العمل، ولي أقارب كثر سبقوني ، وأنا عن طريقهم قدمت أوراقي ، والراتب ضعفي راتبي هنا

قالت :هو هذا المغري في تلك الديار ذات الحر وارتفاع الرطوبة

قال: الإنسان يتكيف يا منار .. ولسنا أول من يهاجر إليها .. بعضهم يهاجر إلى أمريكا وأوروبا .. كل بلد لها محاسن ومساوئ .. لم يحصل حمل

قالت : أراك متعجلا

قال: أمي المستعجلة كلما اتصل بها تسأل

قالت : بعد مضي الشهر السادس اذا لم يحصل المطلوب، ولم تسافر نجري فحوصات تناسلية وطبية .. طمن أمك .

قال: إن شاء الله.

قبل دخول الشهر السادس لزواجهما رحل رمال حسني للقطر العربي لممارسة العمل كمدير مختبر طبي في الدولة العربية ، وعادت منار للحياة في بيت والديها حتى يتيسر أمر رحليها وقدمت استقالتها لمديرها ، ونقلت ما يلزمها من ملابس وأغراض ، وعرضت الشقة للإيجار

كشقة مفروشة ، لأن الشقة ملك الدكتور رمال حسني ، أجرت منار فحوصات مخبرية لجهازها التناسلي ، وأظهرت التحاليل المخبرية وصور المبايض والرحم أنها صالحة للحمل ، لم يكشف عن عيوب تمنع الحمل والإخصاب ، وكانت تنتظر الرحيل بهوس وشوق ، ورحلت فور قبول سفرها وهجرتها ، ورحب بها زوجها بشوق وحنان ، ونقلت له نتائج الاختبارات ، واطلع على التقارير ، وغمرته الغبطة والحبور ، وطمأنها على تحاليله التي أجراها في مختبر المستشفى ، وأنه أيضا لا يعاني من معوقات إنجابية ، وخلال شهرين تمكنت من العمل في احد المراكز الطبية ريثما يتيسر لها الوظيفة في مستشفى حكومي ، وقد استطاع رمال حسني من توظيفها في مكان عملة في مستشفى الشرق الأقصى الأوربي الذي يعمل في المنطقة العربية الخليجية.

مضت السنة الأولى بينهما دون أن يتحقق الحمل، وارتفع منسوب القلق والتوتر في علاقاتهما الجنسية من عدم إنتاج بيضة مخصبة ، السنة ذهبت من عمرهما دون ثمرة ، كثرت الفحوص وزيارة عيادات المشاكل التناسلية دون معرفة العوائق ، ولديهما لهفة للخلفة ، انقضت أخرى سنة ، تزوج الطبيب سرا أو خفية عن زوجته منار ، تزوج طبيبة من بلده تعمل هي وشقيقها منذ عهد قريب في تلك المدينة ، وبعد زواجها عاد اخوها للوطن ، فلما علمت منار بزواج رمال حسني دون تمهل وتردد طلبت الطلاق ، وعجل رمال حسني به ، وكأنه كان ينتظره، لم يحب أن يأتي الطلاق منه ابتداء، فزوجته الثانية تقبلت الأمر ، عادت منار إلى بلدها ووطنها بعد ما يقارب خمس سنوات ، واستقرت طبيبة في احد المشافي ، وكانت في حالة نفسية صعبة ومؤلمة لها وللعائلة ، تجاوزت الثلاثين سنة ، ولم تلد وحتى لم تعد زوجة ، مضت الأيام عندما عرضت عليها أختي أمها أن تتزوج من عيسى مسلم ، قريب لنا على ضرة ، ومن ضغطنا قبلت، وتزوجها الدكتور عيسى ضرة لأمراته ، والمفاجأة أيها الفضلاء أنها حملت من الكهل عيسى ، وعمنا وغمرنا الفرح ، وذبحت أمها النذور كما قيل ، وولدت أخيرا الطبيبة بنتا جميلة ، سميت هبة ، ثم ولدت ابنا سمته خالدا ، وهنا بعد ميلاد خالد بشهور أخذت تطلب

من الدكتور عيسى مسلم طلاق زوجته أم الأولاد الأربعة ، أحدهم ابن اثني عشرة سنة، مما أثار دهشتنا وحيرتنا، والحجة أن ضرتها أم وائل لا تحترمها هي وذريتها ، كل مشكلة تصير معركة ، وأصرت على طلاق أم وائل أو طلاقها هي فقلت لها :يا أم خالد ما بك؟

قالت مستهجنة : شكى لك يا خالي!

قلت : أمك أختي هي التي طلبت مني أن أتكلم معك

قالت : لم اعد أطيقها ، واخشى على أولادي منها ومن غدرها

قلت : إنهم أخوة أولادك ، ووالدهم واحد.. فهذا وسواس يا دكتورة فنحن فرحنا جدا لولادتك وسعادتك ؛ فليس لك الحق في تطليق ضرتك، فالرجل لم يتزوجها لكره أو بغض الدكتور رغب في التعدد ، وعيسى كان يبحث عن امرأة ثانية ليس لبغض لها ، فعلت أمك ذلك شفقة عليك ومحبة لك.

قالت :كرهت الشراكة والخوف

قلت لها : خوف وهمي ، ولن تضرك أم وائل وهي سيدة فاضلة ومحترمة

قالت : أنا حامل في البطن الثالث ، فعليه أن يفكر يا أنا يا هي

قالت : هذا ليس عدلا أنت في شقتك ، وهي في شقتها ؛ بل صارحني أنه أمام الصراع بينكما يفكر ببناء شقة ثالثة ليتزوج ثالثة

قالت : هددني بذلك مرات

قلت : نصيحتي قبل انصرافي تمسكي بزوجك وأحبي أولاده ، فهم أخوة خالد وأخته هبة فالرجل لو لم يردها لطلقها قبل قبولك به .

ظلت النزاعات العائلية بين منار وزوجها حتى وصلت لصفع أم ووائل لمشاجرة بدت بالكلام ، عندما شكى الصبي لأمه أن خالته صفعته وبصقت عليه، فعتبت أمه على منار فما كان منها إلا أن شتمتها وأهلها ، وضربتها على وجهها ، فما كان من الدكتور عيسى لما علم بالمعركة أن طلق منار التي رفضت الاعتذار لأم وائل والصبي المراهق؛ بل تحدته قائلة : يا أنا

يا هي!

قال : أنت طالق ، غدا نطلق أمام القاضي.. أنت طالق.. يا دكتورة لولا خاطر أمك وخالك ما تزوجتك، كما رضيت صفية بك ضرة كان عليك أن تحمدي الله على زواجك مني.. أهلك أولى بك ، وأنا كنت افكر ببناء شقة ثالثة لأتزوج أرملة أخي عفيف .. قلت من هنا حتى أبني واذا لم تتزوج سأضمها لكنّ حتى أربي أطفال أخي معنا.

حصل الطلاق ، ورفض عيسى التراجع من أجل الجنين قال عدنان :وثق الطلاق وأخذت منار عفش الشقة وحقوقها المالية ، وبدل أن يبني عيسى أثث الشقة من جديد ، وتزوج فعلا أرملة عفيف ، وكان لديها ثلاثة أطفال ، فعفيف اصغر من عيسى .. لما ولدت سعى بعضهم لدى عيسى بالزواج منها من جديد ، فرفض وقال: نسائي مستعدات لتربية أولادها اذا لديها رغبة بالتخلي عن حضانتهم ، اضطرت منار لاستئجار خادمة لرعايتهم أثناء عملها ودوامها وامتلكت شقة خاصة بها ، والتزم عيسى بدفع الحضانة القانونية حسب قرار المحكمة ، وهي اليوم تعيش مع ثلاثة أطفال وترفض الزواج لأن كل من يتحدث عنها فوق الخمسين ، إما أرامل أو مطلقين أو يرغبون بالتعدد لعجز نسائهم عن الجماع بسبب الأمراض والسن .

قال عمر : هل انتهت قصة ابنة أختك؟

قال : لم يبق الكثير أيها التاجر القماش! أنت عندك اثنتان ابنة عمك وبنت كانت يتيمة لأن اليتم بعد البلوغ ينتهي

قال ضاحكا : زمان انتهى قبل أن أتزوجها .. بس الناس تظل تقول اليتيمة يا دكتور عدنان

قال طارق : اكمل السطر الأخير يا أخ عدنان

قال : بقي اكثر من سطر .. أربعة أو خمسة اسطر

غمرهم الضحك وقال عزيز : هات الفصل الأخير من مأساة الدكتورة منار التي طلقت نفسها بنفسها.

قال مبينا موقفها الغريب : هي توهمت يا أخ عزيز أن عيسى مسلم تزوجها من نفسه وعن

غرام وإعجاب .. لم تعرف بدورنا أنا وأختي لزواجه منها .. ظنت أن الدكتور اغرم بها لما رآها في عرس أخيها ، وتهامس مع أمها وهو يحدق بها فاعجب بها ، ومال إليها ، هكذا ظنت إنما كان قصد أختي تعريفه بها ؛ ليفكر فيها كزوجة ثانية ، ولما شاهدها قال لي : اذا قبلت فحي هلا .. وقدر الله الزواج أيها الاحبة .

قال حمزة :السطر الأخير يا سيد عدنان

قال : السطر الأخير يا عمر ! عاشت الطبيبة وحدها مستقلة ، وما زالت ، وقد كبر خالد والبنتان ، والكبرى دخلت الجامعة وقد يتزوجها أحد أولادي اذا قدر الله ذلك ؛ لكن السطر أن الدكتور رمال حسني زوجها الأول رجع للوطن ، تصحبه زوجته وأولاده أنجب بعد زواجه الثانية ، ولما علم بأن السيدة منار مطلقة اتصل بها عن طريق وسيط أنه مستعد للاقتران بها ، فأخبرت الشفيع أنها تقبل اذا طلق امرأته التي تزوجها ، وكانت سبب انفصالهما فعجز عن ذلك، فكيف يطلقها وهي التي أعادت له فحولته وبسمة الحياة ؟.. الإنسان المسلم عندما تذهب من نفسه فورة الجنس والشهوة والرغبة يريد الأبناء " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين" انتهت الشهوة للجنس الآخر ، فيحتاج الولد ثم المال والخيل

قال حمزة: أحسنت يا دكتور ترغب بمصاهرة ابنة أختك!

قال : هي صديقتي ولست خالا فحسب ، وتحب سماع رأيي وكلامي ، وبحكم ذلك عرفت الكثير من تفاصيل حياتها ، وزوجها والد بناتها صديقي ، وقريب ، فأمه ابنة خالة لأمي وكلاهما الابن والبنت مرحب بذلك

قال : والبنت مرحبة.

قال : البنت وابني لحد الآن لا اعتراض لديهما .. بقي الأستاذ ماهر الخطاط لم يرو قصة طلاق عاصرها.

قال ماهر : أنا نفسي طلقت مرتين ، أنا عجبت من اهتمامكم بهذا الموضوع ، والتركيز على الطلاق؛ لأن ظاهرة الطلاق موجودة ومنتشرة في كل بلدان مدن وقرى العالم بصور مختلفة بقانون وبغير قانون ، أنا كما يعلم كل أعضاء النادي أعمل خطاطا كمهنة ،وليس كهاو فقط أرسم لوحات وآرمات للدكاكين والمهرجانات والأطباء والمحامين والمدارس والسيارات حرفة جميلة ، تعلقت بالمهنة شابا مراهقا ، كان في شارعنا خطاطا ومحل عمل اليافطات واللوحات الصغيرة والكبيرة للبيوت ، فتعلقت بمهنته وتدربت عنده بعد العودة من المدرسة والرجل لم يبخل عليّ بمعرفته وخبرته ، فلما أنهيت الثانوية العامة فلم أتابع الدراسة التحقت بسوق العمل عملت مع الخطاط في شارعنا ، ثم فتحت محلا خاصا بي ومع صديق، ولما التقيت بالدكتور عدنان قبل عمر طويل صرنا رفاقا ، حضر لأعمل لهم لوحة لحفل أو مناسبة ثم تطورت العلاقة ، وجذبني للاشتراك في النادي لقضاء أوقات الفراغ والمشاركة في نشاطات ومعارضه ومعرفة فنون الخط العربي القديم والمعاصر

قال عدنان : نعم ، ماهر حسان موهبة كبيرة في تخطيط اللوحات واليافطات ، وكثيرا ما قمنا بتكليفه بالخط والرسم بالخط على نشاطات النادي ومعرضكم .

قال طارق : كل الموجودين هنا يدركون ذلك ، كلمنا عن حكايات طلاقك يا أبا لؤي لنختم هذه الفقرة من رهاب الطلاق .

قال : نعم ، كانت عيني لما صرت في الثانوية ونضجت جنسيا على سعيدة ابنة الجيران ، كانت في نظري أجمل بنت رأتها عيني ، وقلت هذا الإعجاب لأمي ، فقالت : أنت صغير يا ماهر انتظر حتى يتزوج أخوك حمدي أولا ، ولما تخلص الجامعة

قلت : لا ارغب بالجامعة ولا المعهد ، سأعمل مع الخطاط برهان الدين ، وافتح محلا

قالت : لما تفتح محلك وتستقل سنخطب لك سعيدة بنت أم راسم

قال : كان كلامي في السليم ، ولما أصبحت صاحب محل ، ولي دخل خاص بي تزوجت

سعيدة ، وسعدت بها ، وكانت نعم الزوجة ، حملت كذا مرة ثم يسقط الحمل، كان يقال السبب الجنين مشوه ، لم يكتمل خلقه فيسقط ، بعد عشر سنوات زواج حل بي مرض أضعف طاقتي وقدرتي الجنسية ، وعجزت عن الاتصال الجنسي والإخصاب ، علاجات أدوية من غير فائدة ، فطلقت سعيدة بالاتفاق وشفقة عليها ؛ لعل الله يعوضها خيرا مني ، وتزوجها بعد حين ابن عم لها يعيش في شارعنا ومتزوج ، وبالفعل لحد الآن خلفت منه اثنين .. هذه المرأة الأولى في حياتي .. سافرت مصر للعلاج من العجز الجنسي وبعد علاجات عدت لأتزوج حتى أرى هل عادت إليّ القدرة على المعاشرة ، فسعى أهلي لزواجي من امرأة عاقر كتجربة حتى لا تزعجني امرأة بالخلفة والحمل ، فوافقت على هذه الأفكار ، ووجدوا امرأة فيها هذه الصفة ، العجز عن الحمل ، وسمعت قصتي وعجزي عن المعاشرة وغشيان النساء وأن مهمتها الأساسية خدمة ماهر ، قبلت لعلها حينئذ وازنت بين خدمة العائلة وخدمة فرد تزوجنا وجددت الأثاث لكسب حبها ، هي موظفة ، رتبنا على أنها فور انتهاء العمل تعود للبيت ، وأنا عادة أنهي بعد العصر بقليل إلا في الأيام التي تحتاج لتأخير ، ولما يكون مشوار للنادي هذا أسوقها إلى بيت أمها الأرملة أو بيت أمي الأرملة أيضا ؛ حيث مات أبي ـ رحمه الله ـ قبل طلاقي لسعيدة .. بصراحة كل العلاجات هنا أو في مصر لم تفد بقيت طبيعتي ميتة وربما أن هرمونات معينة عاجزة عن تنشيط القوة الجنسية ، لا تحدث أي إثارة فقبلت واستسلمت ، وأدوية البروستات لم تعيدني حيا ، عاشت السيدة ماري معي سنة دون مشاكل واعتقدت أنها تقبلت الوضع وعجزي الجنسي ، ولم اقصر معها في الثياب والنزهات والمطاعم سعيت لتعويضها ببعض متع الحياة ؛ ولكن بعد سنة وشهور صارت تتأخر في العودة للبيت حججها ذهبت مع زميلة لحفلة لسهرة ، تضايقت من تكرار ذلك ولم تسكن النفس لتبريراتها فقلت لابن عم لي في الشرطة : يا يامن جئتك في قضية وغوشت قلبي ، وهو يعرف مشاكلي الصحية.

فقال : تكلم يا سيد ماهر الحبيب

قلت : أنت تعلم أني تزوجت ماري وأنا لا أصلح للنساء ، وقبلتها عن طيب خاطر ؛ لأنها لا تصلح للولادة ، وهي قرب سني

قال : نعم

قلت : لها فترة غير طبيعية ، تتأخر في العودة للبيت بحجج شتى، وأشم روائح عطر على ثيابها وتارة أشم الخمر ، وتظنني لا أعرف رائحة الكحول بسبب عملي بالدهان والبوية والمذيبات .

قال بصراحة : تراها تزني !

قلت : هذا ما وقع في نفسي، قد حنت للرجال كما يقال .

قال : أوه ! وضع خطير يا ماهر !

قلت : حتى لو كنت عاجزا ، لا يمكن يا يامن أن أكون خنزيرا أو ديوثا.

قال : صحيح ، سأعرف لك الحقيقة.. سأتحدث مع بعض الزملاء وآتيك بالخبر اليقين.

قال : طلب بعض المعلومات عنها ، ووعدني بانتظار أسبوع ، قبل اللقاء معه لسماع تحرياته السرية ، وكنت عائدا من هنا للبيت ، فوجدت أخي مرادا ينتظرني أمام البيت ، فسلمت وسلم وقال : لا تنزل من السيارة.

قلت : هل حدث لأمي شيء؟!

جلس بجواري وقال: لا ، زوجتك ماري عملت حادث سير ، ضربت سيارة وهي سكرانة وهي في مخفر راس برقوق .. تحدث معنا زوج أختها بعد أن بلغته الشرطة .

قلت : سكرانة ! ما المطلوب؟!

قال : سنذهب للمخفر ، ونراها أولا ، ونعرف تفاصيل الحادث ، ونعرف ما حدث بالضبط وما حدث مع السيارة الأخرى

قال : انطلقنا إلى راس برقوق ووصلنا موقع الشرطة ، وقابلنا شقيقها مجيد أولا فأعاد على مسامعنا ما تكلم به مراد ، ودخلنا فرأيتها ، فأخذت في البكاء ، فقلت : لما قلت لك رائحتك

رائحة خمر قبل أيام أقسمت أنك لا تشربين ، التفت إلى شقيقها وشقيقه وقال: منذ اشهر أخذت تعود للبيت متأخرة ، وندر أن تعود مبكرة ، وتزعم أنها في سهرة عند الزميلات خطبة زواج عيد ميلاد أسماء أخرى ..أشم رائحة العطر والشراب تنكر .. لا تبكي .. ماذا صار للموجدين في السيارة الثانية؟

قال شقيقها : رضوض وجروح ، واعتقد أنهم خرجوا الآن ، وستتكفل زوجتك لتخرج معنا فقد تم فحصها وتأكد تعاطيها للكحول .

ارتفعت الأصوات قليلا وأخذت مرادا وقلت : امرأتي سكرانة يا مجيد!

قال : الآن ليس وقتا للوم .. كل العالم يسكر.. اذهب على بركة الله.. غدا نلتقي سيد ماهر

قال : تكلمت معهما بحدة ، وغادرنا المخفر في غاية السخط .

وقال مراد: لا أدري يا ابن أمي ! هل ستقف على السكر فامرأتك ليست نظيفة؟!

قلت : قد يبدو كلاما صحيحا ، منذ أيام صارحت ابن عمنا يمان ببعض المعلومات عنها حتى اطلقها بيقين وبدون ندم .. كفى سنة ونصف معها.

قال : صبرك الله .. نصيبك .

قلت : نعم ، نصيبي.. المرأة شابة يا مراد وتحتاج لذكر ولو أنها لا تنجب.

قال : صحيح ، الله يستر عليها.

صباح اليوم التالي أحضر مجيد شقيقته لبيت زوجها ، وقبلت رأسه ورجله ، فقال : أنا مجيد كما تخبر غير صالح للنساء ، وأختك بحاجة لرجل ، فأشرف لي ولكم أن نفترق بالمعروف ؛ كما دخلنا بالمعروف ، والله يستر عليها وستأخذ حقها كاملا.

قال : اخز الشيطان ، وستخدمك بعيونها ، وحتى ستترك الوظيفة وتقر في البيت ، فسمعتك سمعتنا يا سيد ماهر .

دخل مراد وابن عمي يمان أبو سعيد وسمعوا آخر الكلام ، فقال يمان: الأفضل يا مجيد أن تأخذ أختك فابن عمي رجل طيب وغلبان ، وسمعته لا تحتاج لتلويث .

صاح مجيد : من أنت ؟وما مكانك من الإعراب لتتحدث عن سمعته ؟

قال ماهر : هذا ابن عمي أبو سعيد ، وكما قلت نخرج بالمعروف يا مجيد.. الله يبعث لها من هو خير وأصلح مني ، ولا داعي لنشر غسيلنا.

قال : غلطت يا ماهر وسكرت وندمت .

قال : قلت أمس في المخفر ليست المرة الأولى يا أبا مروان!

قالت وهي تبكي : سامحني يا ماهر الشيطان والصبايا اغوينني .

قال يمان: دعونا من إبليس وأتباعه.. نخرج بالمعروف يا مجيد .. أختك تتردد بصراحة على النوادي الليلة قبل زواجها من ماهر ، ولها قضايا عند شرطة الآداب ، لقد خدعوا ابن عمي عند زواجه منها.

صرخ فقال : كلامك خطير وشنيع!

قال يمان : أنا شرطي وابن العم قبل أيام قبل الحادث طلب مني معلومات حول سلوكها فالرجل ارتاب فيها من شهور وحتى لا ينتشر شيء ، فالأفضل لها ولكم أن تخرجوا بالمعروف لقد خدع الرجل ، فأنا لم ذكرت اسمها الكامل لبعض الجهات قالوا يا رجل كيف تزوجها ابن عمك ؟! فيا سيد نحن لن قبل أن تعيش بيننا مومس .

قال : مومس !

قال : أتريد أن أصدق أنك لا تعرف أختك حق المعرفة ؟! أنا تفاجأت بالمعلومات التي نقلت إليّ يا مجيد ، واستغربت كيف ضحكتم على ماهر وخدعتموه ، ونحن ظننا أنه سأل عنها كفاية ؛ لكن حادث السيارة زاد من كشف الأمر ، الآن سنذهب للمحكمة ونطلقها لننسى أمركم ويا دار ما دخلك شر.

هجمت المرأة على يد يمان تقبلها ، وهي تبكي وتقول: استر عليّ .. استر عليّ أبا سعيد فلنذهب يا مجيد للمحكمة.

قال ماهر : أدركت تمام الإدراك أن شقيقها يعلم فجورها وفسقها ،وأنني خدعت فيها ،

وكنت ستارة لدعارتها ، وحسن ظني بهم، وبمن رشحوها للزواج مني .

قال : ومشينا لأقرب دار قضاء وطلقتها ، ورفضت أخذ مؤجل المهر ، وطلب منا مجيد الستر عليها ، ووعدناه أن نزعم أن سبب الطلاق السكر فقط إلا اذا سأل شخص عن الزواج منها سألنا نحن الثلاثة .. وافترقنا على باب دار القضاء الشرعي.

فقال عدنان : هذه مأساة الأخ العزيز ماهر بلونة ، وهو منذ عشرين لم يعطر أنفه برائحة أنثى وقنع بالحياة بدون نساء كالرهبان ، وهو يردد لم يبق من العمر الكثير.

دعا له الجميع بحسن الختام ، وقال طارق: رحمك الرب يا ماهر ! هذه أول أسمع مأساتك؛ ربما أنت أكثرنا إيلاما .. النساء بلايا بجلد أملس. وهنّ حبائل الشيطان.

قال عزيز : لكن يا إخوان لا تحلو الحياة إلا بهن هن الأوانس والأمهات والأخوات والبنات والحبيبات .

قال عدنان: رفقا بالقوارير يا أنجشة ، ولا تحلو الجنة إلا بهن يا إخوان.

قال عمر : وحتى الدنيا وحياتنا ، وها قد وجدنا عند كل منا حكاية مع الطلاق .. ويا لها من نهاية.

قال الدكتور جمعة : صحيح الزواج والطلاق لا انفكاك عنهما، سعيد بزواجه ، حزين بطلاقه .. هذه الدنيا وأحوالها وتقلبها .

شعر

أبيات من قصيدة أو نونية الإمام الشهير بابن القيم عن النسوان في الدنيا والآخرة

لا تسبينّك صورة من تحتها ... الداء الدوي تبوء بالخسران

قبحت خلائقها وقبح فعلها ... شيطانة في صورة الإنسان

تنقاد للأنذال والأرذال هم ... أكفاؤها من دون ذي الإحسان

ما ثم من دين ولا عقل ولا ... خلق ولا خوف من الرحمان

وجمالها زور ومصنوع فإن ... تركته لم تطمح لها العينان

طبعت على ترك الحفاظ فما لها ... بوفاء حق البعل قط يدان

إن قصر الساعي عليها ساعة ... قالت وهل أوليت من إحسان

أفكارها في المكر والكيد الذي ... قد حار فيه فكرة الإنسان

فجمالها قشر رقيق تحته ... ما شئت من عيب ومن نقصان

أما جميلات الوجوه فخائنا ... ت بعولهن وهن للأخدان

والحافظات الغيب منهن التي ... قد أصبحت فردا من النسوان

فانظر مصارع من يليك ومن خلا ... من قبل من شيب ومن شبان

وارغب بعقلك أن تبيع العالي الـ ... ـباقي بذا الأدنى الذي هو فان

كملت خلائقها وأكمل حسنها ... كالبدر ليل الست بعد ثمان

والشمس تجري في محاسن وجهها ... والليل تحت ذوائب الأغصان

وكلاهما مرآة صاحبه إذا ... ما شاء يبصر وجهه يريان

فيرى محاسن وجهه في وجهها ... وترى محاسنها به بعيان

حمر الخدود ثغورهن لآلئ ... سود العيون فواتر الأجفان

والبرق يبدو حين يبسم ثغرها ... فيضيء سقف القصر بالجدران

يُقَال أشأم من البسوس ، وأحمق من دغة ، وَأَمْنَع من أم قرفة ، وأقود من ظلمَة ، وَأَبْصر من زرقاء الْيَمَامَة .

إِذا قَالَت حذام فصدقوها ** فَإِن القَوْل مَا قَالَت حذام

وقالوا: إياك أعنى واسمعي يَا جَارة

قَالُوا : رمتني بدائها وانسلت

وَقَوْلهمْ : النِّسَاء حبائل الشَّيْطَان

وَقَوْلهمْ : كل ذَات صدار خَالَة

وقَوْلهم : كل فتاة بأبيها معجبة

وقَول النَّبِي ﷺ :خياركم خياركم لأَهله

وقَول مُعَاوِيَة : إِنَّهُنَّ يغلبن الْكِرَام ويغلبهن اللئام

وقَوْلهم : تجوع الْحرَّة وَلَا تَأْكُل بثدييها

الحفل بالقط الأسود

امراة نزيه

رهاب الطلاق

أيام الحداد

حياتي قبل الحياة

شمس عمري

جمال شاهين

أيتام الحداد



المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

جمال شاهين

ايتام الحداد

النشر الاول ٢٠٠٥

النشر الثاني ٢٠١٨

الاخير الثالث ٢٠٢١



تفاجأ الأيتام باختيارها لزوجها

فكان طلاق أمها من الرجل

الذي ضحى وجاهد من أجلهم

ومن أجل تعليمهم.

ثم تبين أن زوجها الاول

هو قريب لزوج أمهم ..

هذه سيرة حياة منى ربيع؛

لعلك تستمتع بقراءتها

كما استمتعت أنا براوية أحداثها

جمال

ايتام الحداد

□□□

حزن خليل

توقفت السيارة الصغيرة على مدخل الشارع الصغير المؤدي لمنزل السيد فرفر ، فرغم صغر السيارة الأجرة ؛ فإنها لا تستطيع الاندفاع في ذاك الشارع للمشقة التي قد يواجهها السائق ، فالشارع لا يتسع إلا لسيارة واحدة فقط .. فتح الشاب الذي يجلس بجوار السائق الباب ونزل منها بعجلة ليفتح الباب الخلفي حيث قام بمساعدة الرجل المريض خليل فرفر وأنزله رويدا رويدا ، ثم نزلت زوجته جميلة التي كانت تجلس بجواره في المقعد الخلفي ، وقد اتكأ عليها الرجل المريض .. وكان الشاب اليافع يمارس العمل مع زوج أمه وهو يتمتم ويدعو له بالشفاء والصحة والسلامة .. ولما اتكأ المريض على أم الشاب قام الشاب بإغلاق أبواب السيارة ، ونقد سائق الأجرة أجره ، وشكره على تعاونه وصبره معهم ، ثم وضع يد المريض فوق عاتقه ليسير به ، وتهادى الرجل المريض بينهما حتى وصلا لمدخل البيت في نفس الشارع الفرعي الضيق ، ويبعد البيت عن الشارع شارع السيارات الرئيسي حيث توقفت سيارة التاكسي حوالي خمسين خطوة وقد تزيد قليلا .

وكان كل من مرّ عليهم من أهل الحي والشارع أثناء الوصول للبيت يحييهم ويدعو للسيد فرفر أبي أحمد بالسلامة ، حتى أن بعض النسوة فتحت أبواب بيوتهن يحيين أبا أحمد ويتمنين له العافية والسلامة .

ولما استقر الرجل الكهل في بيته وفي حجرته الخاصة حمد الله وشكر أولاد زوجته .. الابن مالك الذي كان برفقته عند خروجه من المستشفى .. وشكر زوجته أم الأولاد أم ربيع .

وجاء ربيع الشاب وسلم على زوج أمه ودعا له بالعافية والشفاء ، وكذلك أتت حنين أصغر أفراد العائلة وقبلت يد عمها زوج أمها ودعت له بالشفاء والسلامة ، فهو بمقام الأب ، فشكرهم ودعا لهم ، وأثنى عليهم ، وتمنى لهم كامل السعادة والتوفيق في الدنيا والآخرة .. ثم خرجت الأم بعدما التقطت أنفاسها لتصنع لهم طعام الغداء .

ولما شرب الرجل المعافى بعض الماء سأل عن البنت البكر لزوجته " جميلة صلاح أم ربيع"

فقال الشاب ربيع : لم تعد يا عمي من الجامعة.. بعد قليل ستحضر .. أما أنا فقد أنهيت محاضراتي مبكرا حتى فكرت أن أذهب إليكم في المستشفى ؛ ولكن غلب على ظني أنكم خرجتم فعدت للبيت .

فقال فرفر: جزاك الله خيرا يا ولدي ، تأخرنا لبعض الإجراءات ، ولما دفعنا الأجرة ، ولملمنا أوراقنا وحصلنا على الأدوية اللازمة عدنا .. وأحيانا إن لم يكن غالبا تأخذ هذه الإجراءات بعض الوقت .

فقال الشاب : الحمد لله على السلامة يا عم ! أذهب الله عنك البأس .. شدة وتزول بإذن الله .

ـ شكرا يا ولدي .. وبارك الله فيك ، وفي إخوتك ، لقد قمتم بالواجب وزيادة .

وقال كأنه متحسرا : أولاد أمي وأبي لم يفعلوا ما فعلتم .. بوركتم وبوركت أمكم .. لقد صبرت معي الصبر الجميل .. إنها بركتنا ..

وأغمض خليل فرفر عينيه ؛ وكأنه أنـهك وتعب من الكلام ، فسمع الأولاد يستأذنون بالخروج وتركوه ليستريح .. فتمتم ببضع كلمات وأخلد للنوم ، فقد تعب من مشوار الطريق ومن جلسة السيارة ، فقد كان البيت بعيدا عن المستشفى ، ولكنه تحمل وشكر الله وحمده على تخفيف المصاب الذي ألم به .

ولما دخل المساء والليل توافد الجيران على بيت أبي أحمد لتهنئته بمناسبة خروجه من المستشفى سالما بعدما أمضى فيه سبعة أيام بلياليها ـ وكان قد أغمي عليه أثناء وجوده بمحددته ، فنقله العمال إلى مستشفى الحكومة ، فوجدوا أن لديه مشاكل في الصدر والقلب والأوعية ـ رحب الرجل بزائريه وجيرانه وطمأنهم على صحته وشكر لهم خطواتهم ، ورغم البشاشة التي كان يظهرها لعائديه ، كان منقبض النفس، وتظهر بعض الأحيان لمحات الحزن والضيق عليه .

فلما انصرف العائدون وعاد السكون للبيت وانصرف أولاد زوجته جميلة لحجراتهم قالت له الزوجة : مالك يا أبا أحمد كنت تسرح وأنت تتحدث مع هؤلاء الناس والزوار .. أيوجعك شيء ؟!

فهرش رأسه وهو سارح الذهن وقال : الحمد لله على كل حال يا أم ربيع .. أنا بخير ؛ ولكن يؤلمني ويحز في نفسي أنني لم أر أحدا من إخوتي وأخواتي أو بنيهم يزورني في المستشفى رغم مكثي الطويل .. حتى في المرض يا جميلة لم أرهم بقربي .. أنا لم أقصر في تعليمهم ، ولا في زواجهم ، ولم آكل من خيرات أبيهم مليما واحدا ..

فقالت الزوجة: يا أبا أحمد لا تشغل بالك ، ربما لم يسمعوا بمرضك ، فأنت تعلم أنهم يسكنون في أماكن بعيدة عن الحي ، ولا علاقة لهم بالحي منذ كبروا ورحلوا

ـ وأختي صبرية .. لا يبعد بيتها عن بيتنا هذا إلا بضعة شوارع .. أمعقول لم تسمع هي الأخرى بسقمي وقضائي عدة أيام في المستشفى؟! .. ابن عمي أبو شريف القاطن في آخر الدنيا سمع وزارني يا أم ربيع .

ـ الغائب يا ابن الحلال عذره معه .

ـ هذا ما يحزنني يا جميلة ويسرح بي في حال هذه الدنيا .. بارك الله فيك وفي أولادك لقد قمتم بالواجب وزيادة .

فقالت : الأولاد أولادك يا ابن الحلال .. فهذا أقل حق يقدمونه لك .. ألم تحضنهم صغارا وتستر على أمهم؟ .. أنت بركتنا يا أبا أحمد !.. شفاك الله وأبقاك لنا .

فقال وما زال الألم يسيطر عليه ، وكذا الحزن ويحز في نفسه: مهما كبر الإنسان يا جميلة ، ومهما ارتقى العلا في هذه الدنيا لا يجب أن يكبر على أهله .. هل لأنني أصررت أن أبقى حدادا يكرهونني ويقاطعونني ؟!.. فأبي كان سيد الحدادين في زمانه ؟! .. فهل الإنسان إذا تزوج ابنة عائلات انسلخ من جلده ؟! ونسي أخاه الأكبر منه .. الأخ الذي شقي وجاهد حتى يتعلم إخوته في الجامعة .. عيب يا زمن عيب ..!!

وتساقطت دموع خليل فرفر الحداد وهو يتذكر مقاطعة إخوته له أخذت الزوجة تمسح دموعه وتواسيه ، وتهون عليه الأمر ، وترفع من نفسيته المتعبة وتخفف من ألـمه ، ومن ثم قالت : يا أبا أحمد ما الذي ذكرك بهم؟ فهم منذ سنوات لم تلتقِ بهم وتتحادث معهم ..

وصبرية ألم تتشاجر مع زوجها ؟ أنسيت أنك ضربته لما غلط عليك .. فهي معذورة ومغلوبة على أمرها يا أبا أحمد .. أتريدها أن تترك الأولاد اليوم ؟!

فقال وهو سارح الذهن في ماضي الأيام : أنا ضربت المنحوس من أجلها .. لم أحتمل دموعها فتضايقت منه لما صار يشتم فيها وفيّ من غير خجل ولا حياء .. آ .. كان باستطاعتها أن تخطف رجلها وتزورني في المستشفى .. حق الإخوة .. أنا عفنت هناك .. ولكنها لا تريد .. فأولادها اليوم شباب ، وبعضهم تزوج كما سمعت .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أمري إلى الله ..

بعد مضي أسبوع آخر قضاه خليل فرفر في البيت تعافى ، وعادت له صحته التي كان يباهي بها أهل السوق والحي إلى ما كانت عليه قبل المرض ، وذلك كما أخبره الطبيب المعالج ، ورخص له الطبيب مزاولة العمل .. فعاد لمحددته في شارع (نهر الربيع) حيث تكثر الحوانيت والدكاكين لمثل هذه الأعمال .. ففتح المحل وقد وجد الشابين اللذين يعملان معه في انتظاره ، فهما بعد مرضه بأيام أغلقا الدكان لقلة أعمال الحدادة ، ولغياب المعلم خليل أحمد فرفر .



فهذه أول مرة منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة مضت من حياته يضطر خليل أحمد لترك المحل كل هذه المدة ، وحتى هذه أول مرة يمرض هذا المرض ويدخل المستشفى ويبيت فيه ، فلذلك كان متألما جدا من عدم وجود إخوته وأخواته حوله ، فيبدو أن هذه أول مرة يشعر بأنه وحيد لا أهل له ، أو كأنه اكتشف أنه لا أهل له .. حتى أولاد مطلقته الأولى وزوجها عادوه وزاروه واطمأنوا على صحته ، فقد كان خليل قد تزوج قديما ، ولم تأكد له عدم قدرته على الإنجاب طلق زوجته التي تزوجت رجلا من رجال الحي ، وخلفت منه بنين وبنات .. وعجب أيضا من عدم زيارة أولاد إخوته له ، فأسف لهذا الوضع والحال ، وشعر أنه وحيد في هذه الدنيا ..

وشكر الله أن سخر له أولاد زوجته جميلة للوقوف بجانبه في هذه المحنة الكبيرة .. فهو منذ سنوات تزوج الأرملة جميلة على أمل أن تنجب له بنين وبنات ؛ لأنها ترملت على أربعة أطفال

لما ارتفعت شمس النهار بدأ يهل أصحاب المحلات المجاورة للسلام على المعلم خليل أقدم حداد في سوق نهر الربيع ، له تاريخ قديم في السوق منذ حياة أبيه أحمد .. فكانوا يهنئونه على سلامته وعلى عودته للعمل .. فشكرهم وقدم لهم المشروب المناسب ، وقضى يومه الأول في العمل في استقبال وتوديع الجيران في العمل .. ومع ذلك عندما عاد ليلا للبيت عاد مهموما حزينا .. وعاد للحديث عن أهله الذين تخلوا عنه في هذه الأزمة مما دفع زوجته جميلة لأن تقول : يا ابن الحلال .. انس من ينساك .. لماذا تشغل فكرك فيهم هذه الأيام ؟! فأنتم لكم سنون لا تلتقون .. وأنت يا خليل مقصر معهم .

فاحتد الكهل الحداد وصاح : أنا مقصر معهم يا جميلة ! .. من علمهم ؟ من رضي بالفقر من أجلهم .. خالد .. من علمه ؟ وأدخله الجامعة .. منير باشا من صرف عليه حتى صار باشا .. البنات فاطمة وسعيدة .. وصبرية .. !

ـ صبرية قلنا زعلانة لزعل زوجها .. وهي أحسن واحدة كانت معك رغم عتبها الدائم عليك أنك لم تدعها تتعلم كما تعلمت أختاها ..

فقال محتجا : أنا .. لم أعلم فاطمة ولا سعيدة إخوتهن خالد ومنير هما اللذان صرفا عليهنّ .. كنت أريد تزويجهنّ بعد الثانوية .. ولكن الأخ خالد هو الذي علمهنّ .. فأنا لست مع تعليم البنات في الجامعات في تلك الأيام يا جميلة.. ثم أن صبرية تزوجت بعد وفاة أبي بفترة قصيرة حرام أن تلومني على التدريس .. ثم ما كنت أقصر معها في أي مناسبة أو في مال .. في أول حياتها الزوجية .. رحم الله أمي تعلم كما كنت أساعدها لتستقر حياتها الزوجية مع ذلك المعتوه جابر .. لنا أكثر من خمس سنين متشاجرين مع زوجها ، لقد حاول بعض أولاد الحلال بالصلح بيننا ؛ ولكنه أقسم الأيمان المغلظة على عدم الصلح وعلى عدم دخولي بيته ، وأنني إذا دخلت بيته سيطلق صبرية .. فهذا ما يمنعني من زيارتها يا جميلة .

فقالت : ربما حالف عليها أن لا تزورك .

فقال: ولكني مريض .. كدت أن أموت ولا أحد حولي إلا أولاد امرأتي .. يا عار ! يا عار على الأهل !

فقالت وكأنها يئست من إقناعه بعدم التأثر عن تفقد إخوته له : والله ما أدري ماذا أقول لك يا عزيزي؟! .. لا تشغل بالك كثيرا حتى لا تتعب ثانية .. فالهم يمرض القلب يا أبا أحمد .

فاستغفر خليل ربه واحتسب ثم قال : أنا أول مرة أشعر أنني وحيد في

هذه الدنيا يا جميلة .. لا تزعلي من كلامي ، أنا لا أنسى فضلكم ووقفتكم معي يا أم ربيع ..

ـ يا رجل نحن أهلك وأنت أهلنا .. أنت زوجي وأبو الأولاد .. من علمهم ودرسهم ورباهم ؟.. أولادي وإن لم يكونوا من صلبك ؛ ولكنك أبوهم بالتربية والتعليم .. هم أبناؤك أنا فقط راغبة أن أعرف لماذا أنت وأهلك أقصد إخوتك وأخواتك متعادين ومتخاصمين منذ تزوجنا بل من قبل أن نتزوج ؟! .. لماذا أنتم هكذا ؟! أما آن لك أن تخبرني بسبب هذه العداوة والهجر يا أبا أحمد ؟

فقال وهو يفكر بجواب جميلة : صدقي أيتها العزيزة أنه لا شيء في نظري لهذا الهجران والعداوة إذا كان هناك عداوة !



مصالحة

كانت صبرية أحمد فرفر تجلس مع زوجها جابر حامد في صالة البيت يتفرجون على التلفزيون عندما دخل ابنهم الشاب عدنان جابر ، وكان متجهم الوجه ، الضيق في محياه ، وقد لاحظ الجميع ذلك ، مما دفع إحدى البنات الجالسات لتسأله عن سبب نكده وتجهمه ، فلم يرد وتجاهل السؤال ، وسأل عن العشاء ، فأشارت صبرية لإحدى البنات أن تذهب لتسخن الطبيخ والأكل ، فنهضت المشار إليها وهي تقول : اتبعني إلى المطبخ يا بطل .. واحد يجيء في نصف الليل ولا يتعشى في مطعم أو في السوق!

فقال بغضب : لم تتجاوز الساعة العاشرة يا ست الحسن بعد .. وإذا تريدون أن أتعشى في الخارج فلماذا تطبخون في الدار ؟!

فسمعوا جابر يقول : لماذا الصراخ يا أولاد؟.. خلونا نتفرج على هذا المسلسل بهدوء ..

فقال عدنان وهو يقف غضبا : ظلوا تفرجواألا تزهقون وتملون من الأفلام والمسلسلات ؟!

فصاح الأب جابر بغضب : أحسن من سماع أفلامك ومسلسلاتك يا ابن صبرية .

فتدخلت الأم صبرية وقالت : ومالها صبرية يا أبا الأسود ؟!

وخرج عدنان غير مبالي ، وترك الزوجان يتشاجران ويتناقران ، ولما أكل نصيبه من الطعام عاد لصالة البيت فقال له أبوه : آ ، يا عدنان ملئت كرشك !

فقال الشاب المتجهم الذي يبدو أن الطعام لم يذهب نكده وضيقه : طعام كالزفت .. لا أدري كيف نأكل هذا الأكل ؟!

فارتفع صوته أمه ثانية تقول : لا يعجبك طعام أمك يا ملعون .. تزوج كما تزوج أخوك .. تزوج أفضل طباخة في البلد .. أكل المطاعم أحسن من أكلي ..

واحتدم الجدال بين أفراد العائلة ، ثم سمعوا عدنان يقول في نهاية الجدل حول الطعام والطهي الجيد والسيئ : سأتزوج يا أمي الحبيبة ، وستكون زوجتي أمهر طاهية وطباخة في البلد ، ولن تروا وجهي بعدما أتزوج ..

فقال جابر محتدا: مع ألف قلعة .. على من ستطلع ؟.. على أخوالك يا أستاذ.

ـ على أخوالي على أعمامي المهم أخلص !

فصاح الأب جابر : من الآن اخرج واغرب عنا .. لماذا تنتظر حتى الزواج ؟! .. اخرج من الآن يا ملعون .

فعاد عدنان يقول وهو يخفض صوته : ها هو نسيبك دخل المستشفى ، ومكث أياما فيها .. وكل أهل الحارة زاروه إلا أنتم .

فقال جابر كأنه كسب المعركة في جدله : لما يزرنا نزره !

ـ الناس تزور المريض .. وأنت حالف يمين أن لا يدخل بيتك .

ـ آ .. حالف يمين ! .. يا رجل خالك نذل .. يا رجل في واحد في الدنيا يهين ويضرب زوج أخته ! صهره .. امش اخرج من هنا قبل أن ترى ما لا يسرك ..

فقال عدنان الغاضب : يا رجل الناس تستغل هذه المناسبات للتصالح والتسامح والتصافي .. يا عالم الكل يلوموننا على عدم زيارتنا لخالنا.. أولاد الأرملة يقفون معه ، ونحن أقرب الناس إليه حرمتمونا من زيارته .. اليوم التقيت به في السوق .. في البداية تظاهرت بأنني لم أره .. وهو فعل مثلي .. يا للعار!

فقالت صبرية : ماذا كنت تفعل هناك ؟!

فقال : ذهبت أصلح السيارة عند كراج خميس .. فهو قد فتح محلا قريبا من محددة أبي أحمد .. بينما أنا أجلس معهم أتى خالي ، فلما لمحني تظاهر بأنه لم يرني ، وأنا كنت من قبل قد فعلت مثله .. فتكلم مع المعلم خميس بأمر وخرج مسرعا ، وبعدها قال لي خميس " أصحيح أن أبا أحمد خالك يا عدنان ؟" وقبل أن أجيب كان ابن ابن أخيك الذي يتدرب عنده قد قال : " آ يا معلمي ، المعلم خليل خال الأستاذ عدنان بس لا يتكلمون مع بعض من زمان .. وكل الحارة تعرف ذلك .. حتى أنني سمعت أبي يقول " إن المعلم خليلا دخل المستشفى وخرج منها ، ولا أحد من أهله زاره أو جاء يسلم عليه بعد طلوعه منها " .. فعضضت على شفتي

حرقة ، فقال لي خميس " أصحيح ما قال الصبي يا عدنان ؟! " أقررت بسوء العلاقة بيننا منذ عهد بعيد .. أيرضيكم هذا ؟!

فقال جابر بصياح : لماذا يضربني ويعمل عليّ عنتر؟!

ـ الناس تتشاجر وتتحارب وتتعادى ؛ ولكنهم في نهاية المطاف يتصالحون .. لا عداوة للأبد طيب أنت زعلان منه للأبد وامرأتك أخته لا تزوره .. هذا حال سيئ يا أبي! أمي أخته الشقيقة بنت أمه وأبيه .. وهو الذي رباها بعد وفاة أبيها وصرف عليها وزوجك إياها ..

فقال الأب بحقد واضح على خليل ومن غير وعي : كان يوما أسود !

فانفجرت الأم صبرية وصاحت هائجة غاضبة : يوم زواجنا يوم أسود يا جابر؟! .. آه منكم يا رجال !

ثم عادت وخفضت من صوتها قائلة: على كل حال لا أريد التدخل في الحوار بينكم ، لا أريد أن يكبر الموضوع ، فعدنان شاب متعلم ويعرف يتكلم ..

فتنهد عدنان وقال: ما فائدة التعليم ونحن لا نعرف أن نحل قضايانا ومشاكلنا وعلاقاتنا الاجتماعية؟! .. الحق أنني قد خزيت هذا النهار .. عليكم بتصحيح هذه العلاقة .

فقال جابر بهدوء : يا ولدي دعك من هذا الأمر ، فنحن قد طاب لنا العيش فلنا أكثر من خمس سنين مرتاحون من خليل وحمق خليل .

فقال عدنان مستنكرا : أنا لا أدري لماذا علاقة أخوالي وخالاتي ببعض سيئة وأي عداوة بينهم ؟! .. لماذا خالي خالد لا يزورنا ؟ ولماذا لا تزوره أمنا ؟!

فقال جابر معلقا أو متهكما : هؤلاء أولاد كبارات ونحن أولاد مقاطيع !

فقال عدنان هازئا : المعلم خليل أولاد كبارات .. هو رجل مسكين فقير لا يملك شروى نقير فهو مدين للمعلم خميس بخمسمائة دينار.

فقال صبرية بقلق ودهشة : مديون ؟! هو لا يشتغل ؟!

ـ لا ، هو يشتغل إنما توقف عن الشغل بسب المرض، وقد عاد وفتح المحل؛ ولكنه احتاج المال

كما أخبرني خميس ليكمل تعليم أولاد الأرملة أم ربيع .

فتسألت صبرية وكأنها تلوم أخاها لاستقراضه المال فقالت : وماذا يستفيد من أولاد الأرملة جميلة ليستدين من أجلهم ؟!

ـ ها هم احتضنوه خلال مرضه ، وما قصروا معه ، وغدا لما يتخرجوا من الجامعات ويتوظفوا سيعوضونه عن هذا ...

فدخل جابر على خط الحوار وقال بحقد واضح : غدا سيرمونه ، ولا يهتمون به، ويبحثون عن أنفسهم ويتزوجون وينسونه ..

فقال عدنان كأنه محتجا على حقد والده : لا يا أبي .. الناس يثنون على زوجته وعلى أولادها ، والبنت الكبرى للأرملة أنـهت الجامعة منذ أيام ، وقد علمت أنـها أنـهت آداب إنجليزي ولسوف تجد فرصة عمل بسرعة

كانت صبرية تنظر في عيني ولدها عندما قالت له : ومن قال لك كل هذه المعلومات ؟!

تبسم الشاب وفطن لغمز أمه فقال : المعلم خميس .. فهو صديق للمعلم خليل ، ويسمع منه أخباره وأخبار أولاد زوجته .. وهذا ليس سرا .. كل الناس في الحارة والحي يعلمون أن خليلا يعلم أولاد زوجته .. وهل في الأحياء الشعبية أسرار يا أمي ؟!

فقال جابر : صحيح .. وأنت ما الذي رماك على المعلم خميس ؟

ـ السيارة ! وأعطال السيارة .. أخو المعلم خميس زميل لنا في المدرسة وعرفنا على ورشة أخيه فكلما تخرب وتعطل العروسة نذهب إليه ونمكث عنده حتى يصلحها ، وخلال ذلك يجر الحديث بعضه البعض .. وغدا خميس يحدث أخاه بعداوتنا لخالنا ، والأستاذ جمعة ينشر الخبر في المدرسة بين الأساتذة ، فيقال الأستاذ المصلح عدنان جابر حامد المرشد النفسي والاجتماعي في المدرسة متدابر مع خاله .. آخ إني أتألم لهذا الحال العجيب؟!

فقال جابر: ماذا تريدون أن نفعل؟!انذهب لخالك نعتذر له أم هو يأتي للاعتذار ؟ حلها يا ابن صبرية .

فقال عدنان: لابد أن هناك حلا أو حلولا .. كان يجب أن نستغل هذه المناسبة لمرض خالي لتصحيح الوضع وفتح صفحة جديدة بيننا ؛ ولكننا سمعنا وأغلقنا آذاننا كالمعتاد .. كان عليّ أن أتصرف ، وإنما خشيت زعلكما وخشيت أن تتهم هذه ـ وأشار لأمه ـ أنها أرسلتني لخالي .. لماذا نحن نصلي ونعبد الحي القيوم ؟! .. وقلوبنا فيها بغض وكره لبعضنا البعض .

ـ لا تدخل الصلاة في الموضوع .. لا أدري ما الذي فتح علينا هذا الديوان؟! فخالك الملعون له شهر مريض فلم يعد الوقت مناسبا للزيارة فات الأوان ..

فتمتم عدنان قائلا: فات الأوان ولم يفت الأوان .. حتى أولاد أخوالي خالد ومنير وخالاتي فاطمة وسعيدة لا نعرفهم ولا يعرفوننا .. تقول أمي إنها كانت قديما تزورهم ثم انقطعت الزيارات منذ عهد بعيد .. لماذا هذا؟! خليل وتشاجر معك وأهانك .. والآخرون ما بيننا وبينهم ؟!

فقالت صبرية كأنها حالمة في المجهول : خليل هو السبب في العداوة بيننا وبينهم .

فقال الشاب دهشا ومستغربا : خليل! وهم أيضا كما نعلم لا يزورونه ، ولا أظن أن أولاده أيضا يعرفونه ! .. فأنتم متهاجرون .. هنا شيء غامض بينكم ! .. أتعرف شيئا يا أبي؟ أم أنكم لستم إخوة يا أمي ؟!

فقالت صبرية : ماذا تقصد ؟!

ـ لا أقصد شيئا .. عجيب أمر أسرتكم يا أمي ! .. والعجيب أنني أفكر بذلك اليوم .. لهذه الدرجة أثر فيّ عتاب الأخ خميس أم كلمات ذلك الصبي .. الصبي يعرف جفوتنا لخالنا .. كأنني كنت نائما واستيقظت ، سأتكلم مع أخي الكبير لعلي أجد عنده حلا مناسبا لمشاكل العائلة .

فقال الأب: يا ولدي هذه دفاتر قديمة لا داع لفتحها ، ودع أخاك في حاله، وخلينا نبحث لك عن ابنة الحلال وتستقر في بيتك .

فقال عدنان : وما دخل هذا في السعي في لملمة تشتت أولاد جدي أحمد وأحفادهم .. عار

هذا ! عيب هذا! .. نحن مدرسون مربون أجيال! ألا يكفي كل هذا الزمن؟! ونحن نرى ولا نرى ونسمع ولا نسمع .. تمزق قلبي اليوم يا أبتي على هذا الحال .. أبناء الغريب يقومون بالمعلم خليل في هذه الأزمة ، ونحن وضعنا في آذاننا قطنا .. ولما كنت أسمع بعض جارات أمي يحدثنها عن مرض أخيها كنت أظن أن المريض رجل آخر .. رجل لا يقرب لنا ، وليس بيننا معرفة ورحم وقرابة وجيرة .. قال المعلم خميس " إن المعلم خليلا يبكي ويتكلم بحرقة لعدم وجود أحد من إخوته حوله في هذه الأزمة .. أثناء المرض " هذا كلام خميس قاله ليس لي وحدي.. فقد جعلني الرسول والبريد بينكم وبين خالي ..

فقال جابر: لا حول ولا قوة إلا بالله .. افعل ما تراه مناسبا يا ولدي .. أنا ما كنت أظن يوما أن أسمع مثل هذا الكلام .. سأكفر عن أيماني المغلظة .. وسوف أتحدث مع شيخ المسجد واستفتيه في كفاراتها .. فقد مزقت قلبي رغم قسوته على المعلم خليل .. العيال كبرت يا صبرية !

فنهض عدنان وقبل رأس أبيه ، وبدأ مرتاحا لنجاحه فيما قصد وقال: بوركت يا أبي قال النبي محمد ﷺ " أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما " .. والآن يا أمي الحبيبة يا أمنا الغالية نريد أن نعرف سبب هذه العداوة المديدة بين الإخوة بينك وبين خالي منير وخالد وخالاتي فاطمة وسعيدة .. فالعداوة بينك وبين خالي خليل نعلم أن سببها المشاجرة الكبيرة التي حدثت بين أبي وبينه.



وظيفة لمنى

وقفت الشابة الحسناء منى ربيع على مدخل العمارة الضخمة ، وتلفت يمينا وشمالا ثم دخلت البوابة الرئيسية وتوقفت عند لوحة كبيرة تظهر عليها أسماء ومواقع الشركات والمكاتب التي تشغل هذه العمارة في شارع ابن رشد الأندلسي ، فلما وجدت الاسم الذي جاءت من أجله إلى هذه البناية ، تحركت نحو المصاعد لتصعد حيث مكتب الشركة التي قرأت إعلانها في الجريدة وركبت المصعد إلى الطابق السادس ، ثم وجدت نفسها في رواق فاتجهت حيث رأت مكتب الشركة التي ترغب بتقديم أوراقها للعمل فيها ، وصلت للشقة التي تشغلها شركة التجارة العالمية .. كان باب الشقة مفتوحا .. فدخلت فرأت فراشا أو موظفا قد نهض عن كرسيه يسألها فقالت : أريد تقديم طلب استخدام فقد قرأت ..

فرحب بها الشاب وقال : حسنا .. ادخلي إلى هذه الغرفة .

وطرق لها الباب الذي أشار إليه فشكرته منى ربيع ، ودخلت الغرفة المكتب فوجدت فتاة تجلس وراء مكتب واسع ، فأشارت لها الفتاة بالجلوس على أحد المقاعد الموجودة في الحجرة ثم أخذت ترحب بها ، وعلمت من الفتاة الزائرة الهدف الذي أتت من أجله للشركة وقالت منى : لقد قرأت في الجريدة حاجتكم لموظفة تجيد وتتقن اللغة الإنجليزية .

ـ نعم ، أيتها الآنسة .. ما اسم الأخت ؟

ـ منى ساعد ربيع .. خريجة آداب إنجليزي منذ شهرين تقريبا .

ـ أوه ! خريجة جديدة .. عزباء أكيد؟

ـ نعم .

ـ رائع آنسة منى .. يا هلا .

ـ شكرا

ـ أهلا وسهلا مرة أخرى .. هات أوراقك لأكتب لك طلب استخدام .. نحن الآن بحاجة لموظفة واحدة يا آنسة منى ، وقد تقدم لنا حتى الآن خمس فتيات طيبات مثلك .. وخلال أيام

سنتصل بك لمقابلة المديرة أو نائبها .. ولكن لماذا لم تتقدمي بأوراقك للمدارس أو الوزارات ؟

ردت منى على فضول الفتاة قائلة : رأيت العمل في الشركات التجارية أفضل من التدريس .. وأنا أحب الترجمة .. فهذا ما شجعني للمجيء إليكم .

طلبت الفتاة الموظفة قهوة لمنى وخلال شربها لها أتمت إجراءات تصوير الأوراق والوثائق اللازمة وتعبئة طلب الاستخدام ، وتحدثت الفتاة حول نشاط الشركة وعملها في السوق .

&&&

ثم انصرفت منى عائدة لبيت زوج أمها ، وحدثت أمها بما فعلته من تقديم طلب استخدام ، وكان أخواها يرغبان بالتحاقها بالتدريس ثم دراسة الماجستير للعمل في الجامعات ، ودافعت منى بقوة عن وجهة نظرها ورغبتها للعمل بالقطاع التجاري ، وقد وافق زوج أمها خليل على مثل هذا العمل على مضض واستحياء، وكان يدعو الله ليلا ونهارا أن يتقدم للفتاة شاب وتتزوجه ، فالسيد خليل لم يكن يحب التدريس والعمل للبنات ما زال يحمل الأفكار القديمة والتقليدية .

لم يطل انتظار منى فقد دعيت لمقابلة المديرة وجرى الفحص اللازم لها وللفتيات الأخريات اللواتي تقدمن للعمل في هذه المهنة .. الترجمة .. وقد تقدمت إحدى الفتيات على منى فاعتذرت لها المديرة ، فعادت منى للبيت كاسفة البال حزينة ، ومضت أيام في ألم وقراءة للإعلانات من جديد ، وبينما هي على هذا الحال اتصلت بها الشركة للتجارة العالمية وتحدثت معها موظفة الشركة وطلبت حضورها ثانية لمقابلة المديرة ، فلبت الآنسة الدعوة ، وعلمت أن الفتاة التي تم اختيارها قد تركت العمل واعتذرت بعد أسبوع من الدوام ، وعجبت منى من ذلك ، ولم تعرف سبب ابتعاد تلك الفتاة بهذه السرعة ؛ ولكنها وافقت على العمل ، فأدخلتها السكرتيرة على المديرة التي كانت تجلس مع شقيقها نائبها فرحبت بها المديرة ، وتحدثت معها عن النصيب والقدر ، ووقعت معهم على عقد العمل ، وعادت للبيت مسرورة مرحة تحمل الحلوى ، وتستعد لمباشرة الشغل .

كانت جميلة أم ربيع مسرورة لعمل ابنتها البكر ، بل أنها كانت تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر وبشوق وسعادة ، فهي تعرف ما يلقى زوجها خليل الحداد البسيط من معاناة من أجل تدريس وتعليم الأولاد ، وتعلم أنه يقترض المال من أصحابه ليصرف وينفق على ذلك القصد فهو منذ تزوجها قد تعهد لها بأن يبذل قصارى جهده وعرقه لتعليم أولادها ، وقد مانعت من الزواج بعد ترملها لهذه الغاية النبيلة ، وعلى هذا الشرط وافقت للزواج منه ، وهو عبء آخر على المعلم خليل سوى نفقات البيت والعائلة ، ومضت الحياة سعيدة حتى بلغت منى الثانوية العامة ونجحت نجاحا كبيرا ، فحاول خليل التملص من تعليمها لبغضه تدريس الفتيات ، وكاد يحصل شقاق بين الزوجين ؛ ولكنه استسلم وتذكر تعهده لها ، وواسى نفسه بأن البنت ابنة زوجته وليست ابنته الصلبية .. فقبل دخولها الجامعة مكرها أو مغلوبا على أمره ، ثم بعدها بعام نجح ربيع الذي يحمل اسم العائلة عائلة ربيع والتحق هو الآخر بالجامعة ، فزاد الضغط على جيب أبي أحمد ؛ وهو من أهل الوفاء فتحمل الديون عن رضى وصبر وأمل، وكانت أم ربيع تعلم قدر هذه التضحيات ، بل أفراد الأسرة كلهم يعرفون ذلك .. فلذلك لما باشرت منى العمل كانت الأم من أسعد الناس ، وصار لديها أمل كبير بتعليم الآخرين من غير الحاجة لأبي أحمد ومال أبي أحمد ، فلسوف تنتهي حاجته للاستدانة من ذا وذاك ، ولم تكن الفتاة الشابة قليلة الوفاء وناسية للمعروف ، فلما استلمت أول مرتب وضعته في حجر أمها الصابرة ، فأشارت عليها بأن تقدمه لزوج أمها ، وتقبل أبو أحمد هذه الحركة بسرور وتقدير وفرح ، وشكر البنت وأمها ، وبعد جدال تقرر أن يبقى المال مع الأم مع جميلة بعد أن يئست من قبول أبي أحمد له ، وأبى أيضا أن يسدد بعض الديون منه .

ولم تكد تمضي سنة ونصف على عمل منى حتى تخرج ربيع من الجامعة ، وبدأ هو الآخر يبحث عن عمل ، لقد درس في قسم الهندسة الكهربائية في كلية الهندسة ، وخلال أشهر يسيرة التحق بإحدى الشركات الكبرى العاملة في مجال الهندسة الكهربائية .. وكبر فرح جميلة ، فها هو جهادها وصبرها بدأ يؤتي أكله وثمره ، وعرضت على قرينها التوقف عن العمل وإغلاق

المحددة والاعتناء بصحته، فقال لها خليل: صحيح أن صحتي لم تعد كالماضي ؛ ولكن يا جميلة لا يليق بي الجلوس في البيت كالنساء.. فحتى بنات اليوم يشتغلن ، ولا يحببن البقاء في البيوت ولا تنسي يا عزيزتي أن الأولاد كبروا وبحاجة لكل دينار وقرش .. أولا لشراء أرض حتى يبنوا لهم بيتا ، وثانيا الزواج ألا تريدين أن يتزوج ربيع كما يتزوج خلق الله؟ .. والعمل الحياة بالنسبة لي يا جميلة ..

وقد حاولت جميلة إقناع خليل فقالت : ربيع لن يتزوج قبل إنـهاء مالك وحنين الجامعة ويعملان وبعد ذلك نفكر بتزويجه .. فأنت كافحت وجاهدت معنا وصبرت معنا يا أبا أحمد فالأولاد راغبون بأن تتقاعد وتستريح فهم يعلمون ويقدرون فضلك عليهم وجهادك معهم .

ـ أنا أقدر تعاطفهم ؛ ولا أستطيع يا عزيزتي القعود فالعمل حياتي .. منذ الطفولة .. وأنا ابن عشر سنين وأنا اشتغل في المحددة مع حياة المرحوم أبي ، ولما مات كنت شابا صغيرا وتحملت المسؤولية ، واستمريت في العمل ، وتعلم أخواي من وراء هذه المحددة ، وأحد أسباب زعلهم مني استمراري للعمل في محددة الوالد رحمه الله .. وسأبقى اشتغل يا جميلة حتى الموت فالأولاد عليهم أن يحافظوا على ثروتهم ويزوجون بعضهم .. ومن حقك عليهم الرعاية والمساعدة .. ولكني أرغب بالاستمرار بتعليم مالك وحنين والمساعدة في تعليمهم يا جميلة كما فعلنا مع ربيع ومنى كما تعهدت لك قديما .

ـ أنا أعرفك جيدا يا أبا أحمد .. بارك الله فيك .. كفيت ووفيت يا سيدي .. ولم تقصر معنا .. وجزاك الله عنا كل خير .. والأولاد لا يمكن أن ينسوا معروفك وفضلك وحسن رعايتك وحبك لهم .

ـ وأنا لا أنسى وقفتكم معي عندما مرضت قبل سنوات ، فكنتم نعم الأهل ، ونعم أهل الوفاء .. نسأل الله أن يديم علينا النعم والعافية .. الآن فلنفكر بشراء قطعة أرض لبناء بيت مناسب لربيع ولأخيه ثم يفكر ببنت الحلال .. خلينا نفرح بأبنائه يا جميلة ..

اعتدلت في جلستها وقالت جميلة : يا أبا أحمد! صبرية أختك منذ أيام قد التقينا وحدثتني عن

منى وأنها ترغب بطلب يدها لابنها عدنان ..

فقال خليل : أنا تكلم معي عدنان مباشرة بهذا ، ونصحته بالابتعاد عنا ، وأنا يا جميلة لا أنصحك بتزويج ابنتك من ابن صبرية .. صحيح نحن تصالحنا بفضل هذا الولد ؛ ولكننا لم نرتح لنسبهم .. فأنا غير متشجع لذلك .

فقالت : ولكن عدنان شاب محترم ومدرس نشيط .

فقال خليل : ما زلت لا أراه المناسب لكم .. وإذا تكلمت مع البنت في ذلك فأكدي لها أنني لا أرى ابن أختي المناسب لها والبنات كثير .

ـ ما زال في نفسك شيء من صبرية ؟!

ـ لا شيء في نفسي نحوها ونحو زوجها جابر ؛ ولكن زوجها وعائلته لم أرتح لهم ، ولا أحب لكم أن تكرروا التجربة .. وعلى كل حال الأمر يعود لمنى، ولا أظنها ترضى به، فمنى تتطلع إلى فوق أكثر من اللازم .. وأتمنى لها التوفيق .

كانت جميلة قد فاتحت ابنتها بالموضوع قبل أن تفاتح زوجها بالموضوع ؛ ولكنها أحبت أن تسمع رأي قرينها .. وكانت الفتاة قد رفضته فعلا ، وادعت أنها مهتمة بتعليم أخويها والمساعدة في مصروف البيت .. وهل هذا صحيح ؟

الحقيقة أن أحلام منى كانت أكبر من عدنان ، ومن الاقتران بشاب في حي فقير أو يغلب على سكانه الفقر وقلة المال ، حي شعبي غير منظم أنشئ عشوائيا .. حي برقوقة .. كانت تتطلع إلى فوق إلى أعلى .. كانت على علاقة عاطفية مع نائب مدير الشركة الشاب حازم ناصر .. فقد سمحت لنفسها بالارتباط به عاطفيا وعلى وعد بالزواج ، وكان العائق أمامها ليتحقق الزواج منه حياتها في ذلك الحي المتواضع هكذا ترى منى .. وكان حازم هذا يخشى أن يرفضها أهله لأنها تسكن في ذلك الحي .. حي الضعفاء .. فهم يطمعون أن يقترن بفتاة أرستقراطية من بنات الأسر الغنية ؛ لذلك كان هناك قصة حب دافئة تجري فصولها داخل الشركة للتجارة العالمية .. وكانت المديرة أخت حازم تعرف ذلك ، وكانت تحاول كبح جماح

أخيها من الاندفاع في عاطفته وتعلقه بالفتاة .. بل فكرت أن تصرف منى من العمل ؛ ولكن حازما كان يهددها ويصبرها .. فكانت تنظر للموضوع على أنها تسلية وقصة عبثية مصيرها الفشل للفارق الطبقي الكبير بين العائلتين .. فمن أين جاء الفارق الطبقي الاجتماعي ؟ الله أعلم .

وكانت منى ترى أنها ستصعد للطبقة الثرية وأصحاب الملايين على أكتاف حازم العاشق الولهان .. فكانت تنتظر الساعة التي سيرحل فيها المهندس ربيع من حارة الفقراء والتطلع إلى أعلى بفارغ الصبر .. وكانت تحركه وتثيره رويدا رويدا ؛ ولكنه أمام رغبة عمه خليل زوج أمه للبقاء في حي برقوقة ، ولتربيته لهم ونفقته عليهم صغارا أيتاما يضعف عن الرحيل ، ويعود ويطلب منها الصبر والتريث.. كانت منى ترى أن هذا العامل هو الذي يؤخر حازم من الارتباط بها رسميا .. فهو قد حدثها عن أهله وطبقته وصعوبة قبولهم للزواج من فتاة تعمل من أجل الراتب لتنفقه على أهلها .. وقد استرقت السمع على بعض مشاجرات الأخوين من أجلها .. فالشاب متمسك بها ، والأخت ترى أن منى ليست أهلا للزواج من حازم .. وكانت تهدده بكشف الأمر لوالديها فيصبرها حازم ويقول : لما أتزوج أو ترين أني ذهبت للمأذون فتتكلمين مع أمي ..

رغم معرفة منى لهذا الكلام فقد أصرت على أن تكون صديقة للسيد حازم وكانت واثقة من ميله وحبه لها .. هذا السبب الرئيس لرفض منى ساعد ربيع للسيد عدنان جابر ابن أخت زوج أمها خليل ، كل شاب يتطلع للزواج من فتاة محترمة ، وكل شابة تتطلع إلى مثل ذلك .. وكانت منى تدفع حازما لمكاشفة والديه بحبهما عندما كانت تيأس من ربيع أخيها ، فذاك يصبرها حتى يتخرج مالك وحنين مثلهما ، وذاك يصبرها حتى ترحل من حي برقوقة أشهر حي شعبي ربما في العاصمة .

زواج رغم أنف الجميع

لم يمض بضعة أشهر حتى تلقت عائلة خليل بطاقة دعوة لحضور حفل زواج عدنان جابر من ابنة أخت السيدة جميلة صلاح السيدة عزيزة صلاح الآنسة الفاضلة حليمة توفيق ، فقال خليل لزوجته بعدما انتهى من قراءة بطاقة الدعوة : ها هم اتفقوا يا جميلة .. لقد كان أخوك عمار رافضا لهذا الزواج .. لا أدري لمَ؟! فوالد الفتاة كان راضيا وموافقا وقابلا وحتى أختك عزيزة .. وحتى الفتاة نفسها كما علمنا كانت راضية بالزواج من ابن أختي إلا عمارا لماذا ؟! أسمعت شيئا ؟!

فقالت جميلة الأرملة التي ترملت على أربعة أطفال ، وتزوجت من صاحبنا الحداد خليل المحروم من الذرية لعلل فيه، قالت مجيبة لأسئلة زوجها: عمار رفض؛ لأننا نحن رفضنا أن نزوجه من منى مع أنه ابن أختك ، فظن أن في الشاب عيبا نعلمه نحن ولا نريد إظهاره .. فكيف جميلة زوجة خليل أخو صبرية يرفضون عدنان؟! لابد أن هناك شيئا منعهم.. لم يقتنع أن البنت ترفض الزواج .. فهذا سبب رفضه ومعارضته وإصراره على الرفض .. والله عدنان ولد جيد نحن أبناء حارة واحدة ونعرف بعضنا بعضا .. فهذا حسب علمي سبب الرفض .

ـ هو زارني في المحددة أكثر من مرة راغبا بمعرفة سبب رفضنا لعدنان قريبي فقلت له ما قلت الآن ؛ ولكنه كان يخرج ثم يعود بعد أيام ليسأل نفس السؤال ..

ـ الحمد لله رب العالمين أنه وافق في النهاية .. فعمار مجنون وموسوس مع أنه ليس والدها ولا أخاها وكاد أن يفض السامر .. هداه الله .

ـ العجيب في الموقف يا جميلة أن جابرا والد عدنان لم يغضب ولم يثر وصبر وتحمل .. فجابر رجل عصبي وسريع الغضب والحقد .

ـ جابر كبر يا خليل .. لم يعد جابر الذي تشاجرت معه وحرد عليك سنوات .. الناس تتغير والأولاد أصبحوا كبارا ، وقد أصبح جدا لقد ولدت زوجة ابنه البكر علي .. وهل سيسكن عدنان بعروسه مع أهله ؟

ـ لا ، حدثني بأنه سيستأجر بيتا ، هنا في حي برقوقة .. لا يريد أن يخرج كما فعل أخوه .

ـ كل شيء نصيب وقدر .. أنا كنت أحب أن تتزوج منه منى ، فهو شاب وأستاذ محترم ؛ ولكنها تتدعي أنها لا تفكر بالزواج ..ولن تتزوج حتى يتخرج مالك وحنين من الجامعة .

فقال خليل كأنه محذر من سن زواج الفتاة : كبرت البنت يا جميلة .. المهندس ربيع يستطيع القيام بالواجب وأنا .. فالزواج محمدة وستر يا جميلة .

ـ أعرف يا خليل ؛ ولكني ربيتهم على الحرية والاختيار والقناعة .. فلا أريد أن أهدم ما بنيت .. فكذا امرأة من الجارات طلبنها لأولادهن وهي لا تريد الزواج .. وقد فهمت من كلامها أنها ترغب برجل من خارج هذا الحي ، ولم يقسم النصيب بعد ..

تبسم المعلم خليل وقال: أحلام منى الكبيرة !..على كل حال وفقها الله ويسر لها ابن الحلال حتى تحقق أحلامها .. فالبنات هم يا جميلة.. ومالك بقي له سنتان ويتخرج ، وحنين السنة تنهي الثانوية العامة بنجاح إن شاء الله .



بعد هذا الحديث بأيام يسيرة كانت سيارة حديثة وفخمة تدخل سوق الربيع وتقف قريبا من محل خليل الحداد ، فلما توقفت تماما هبط منها شاب أنيق ممتلئ البدن يلبس ثيابا تدل على أنه من أبناء الذوات أي الأغنياء سكان الأحياء الراقية جدا ، ومشى نحو دكان خليل وقال : السلام عليكم.

وكان خليل والعاملان اللذان يعملان معه يرمقونه بأعينهم منذ وقفت سيارته الأمريكية ؛ فوقع في نفوسهم أنه زبون قد أتى لحاجة ، فردوا التحية بأحسن منها ورحبوا به ، وتقدم منه خليل مستقبلا ومرحبا فقال : نعم يا أخي .

خلع الشاب نظارته الشمسية وتطلع في شخص خليل ـ خليل تجاوز الأربعين عاما وهو بدين

الجسم إلى حد ما ، منتفخ الوجه يغلب عليه السمرة ، وخفيف شعر الرأس وليس طويلا ـ وقال الشاب بعد تأمله لهيكل المعلم خليل الذي يرتدي ثياب الحدادة : المعلم خليل .. أليس كذلك ؟!

بحلق خليل ثانية في الرجل الذي يراه أول مرة ويعرف اسمه فقال : نعم .. أنا خليل يا أخ ؟!

ـ أنا اسمي حازم .. أنا أتيت إليك في موضوع خاص يا أخ خليل .. لا أريد صنع باب ولا شباك .

ـ لا بأس .. أهلا وسهلا كيف عرفتني ؟!

قال الشاب: سوف تعرف .. أين تحب أن نتكلم ؟

دهش خليل وقال : أين نتكلم ؟! هنا .. تكلم .

تلفت الشاب حوله وقال: هنا يا سيدي! .. ألا يوجد مطعم هنا أو مقهى ؟ موضوع خاص يا أخي العزيز ؟.

ـ أعرف وأنت ذكرت أنه موضوع خاص .. ألا ينفع الكلام فيه هنا ؟ .. هيا نجلس في مطعم حسني يا أخي .

وألـقى بعض الأوامر على العاملين وساق الشاب حازما نحو مطعم حسني .. إنه مطعم سوق وورشات فنية متنوعة ، يوفر للعمال داخل السوق الحمص والفول والخبز والشاي وغير ذلك من المأكولات السريعة النقل .. لما جلسا على إحدى موائد المطعم العتيقة قال حازم: أنا آسف لإزعاجك يا أخ خليل ..أنا صاحب الشركة التي تعمل فيها منى ربيع ابنة زوجتك أم ربيع .

استغرب خليل وعرف أنه يعرفهم جيدا ، وظن أن شيئا جرى لمنى، ووضع وهيئة الشاب لا يوحي بذلك ، وكذلك أدرك لو أنه حصل لمنى مكروه لاتصلوا بالبيت فهاتف البيت معروف للشركة ، فلابد أن الأمر أهم من الاتصال ، فلزم الصمت فعاد الشاب يقول لما رأى خليلا قد صمت ولم يرد بشيء: أنا يا سيدي لديّ رغبة بالاقتران بها ، ولما حدثتها بذلك طلبت مني

الحديث معك ؛ لأنك أنت بمقام والدها ـ رحمه الله ـ فهذا سبب زيارتي إليك ومعرفتي بك بشخصك الكريم واسمك الفاضل .

فكر خليل لحظات بما سمع وقال : هي أرسلتك إليّ ؟ .. هل يعني هذا أنها موافقة على الزواج منك .. يا أخي ؟!

ـ أكيد ؛ ولكنها تكن لك الود والاحترام ، فجعلت الأمر إليك ، وسأكلم والدتها وأخاها ربيعا أيضا ؛ ولكنها أحبت أن أبدأ بك .

فتمتم وغمغم خليل ببضع كلمات ثم قال : عرفنا بنفسك وبأهلك ، ثم فليأت أهلك للحديث معنا في البيت ..هكذا الأصول يا ابن الأصول !

ـ منى ربيع لها ثلاث سنوات تعمل معنا في الشركة يا أخ خليل ! فنحن نعرف بعضنا بعضا من سنوات .. فهي ستذكر لكم شيئا عني وعن أهلي وسنتعرف على بعض أكثر يا أخي أبي أحمد ..

تبسم خليل ابتسامة كلها امتعاض وقال : تعرفون بعضا بعضا .

ـ نحن زملاء عمل لا يذهب ظنك بعيدا يا سيدي .. نحن أشراف لا نحب العبث والتغرير بالبنات.

قال خليل : آ .. أكيد الإنسان عندما يسمح لأخته أو ابنته بالعمل والشغل لابد أن يدرك أنها تزامل وتصاحب الشباب وتختلط بهم .. أكيد .. حسنا أيها الشاب بارك الله فيك .. سأتكلم الليلة مع منى وإخوة منى وأم منى .. والنصيب هو الذي يغلب في النهاية .

قام حازم وهو يصافح الحداد خليلا قائلا : أشكرك يا سيدي ، وقد سهلت عليّ الكثير من الأمر .. تأكد يا أخ خليل أن منى فتاة محترمة وطيبة وذكية .

هزّ خليل منكبيه وهو يصافح الرجل وقال : أكيد .. أيضا .. بارك الله فيك عندما يأتي أهلك ونتفق سندعها ترد بنفسها عليك .

خرج الشاب من المطعم شاكرا وزائحا عن كتفيه عبئا كبيرا ؛ لأنه أخذ يجفف عرق جبينه

وهو يسير نحو سيارته ، وظل خليل يهز رأسه مرات ومرات وهو يتابعه بعينيه وقال متبرما : بنات اليوم أمرهن عجيب يخطبن في العمل! .. لماذا لم تطلب منه أن يرسل أهله للبيت اختصارا للوقت ؟! .. أيام وسأكتشف لغز هذه الزيارة .

تعمد المعلم خليل أحمد التأخر في العمل ذلك المساء ، ودخل البيت بعد صلاة العشاء ، ولما تناول العشاء مع أم ربيع جلسا في صالة البيت ، وتناسى موضوع منى وتشاغل بالحديث عن آخر أخبار العالم من انقلابات وثورات وحوادث جسام ، وبعدما انصرف الأولاد لحجراتهم ودراستهم تطلعت جميلة بعيني خليل بضع مرات ثم لم تعد تصبر فقالت : يا أبا أحمد أزارك أحد اليوم ؟!

كان خليل يدرك أنه آخر من يعلم في موضوع منى ، وكان يرى أن جميلة هي التي طلبت من ابنتها أن تطلب من حازم أن يذهب إليه ويجامله ، كان لديه إحساس قوي أن الأمور جاهزة ، وأن جميلة تعلم ، وأنهم يريدون مجاملته وإشعاره بأنهم لا يعملون شيئا إلا بإذنه ؛ ولكنه يعرف حجمه وأنه هو مجرد زوج لأمهم ، والأمر كله بأيديهم أو لمنى نفسها ؛ لأنها منذ تخرجت واشتغلت وأصبحت تملك المال وتحملت المسؤولية ظهرت شخصيتها المتمردة والآمرة ، وكان خليل يتجنب الصراع العائلي ، وكان حكمته أنها أيام وسينصرف كل مخلوق لحياته ودنياه ، ستتزوج منى وحنين وربيع ومالك وسيصفي البيت خاليا منهم خلال سنوات ، فهو والدهم بالتربية والنفقة ، فتظاهر خليل بالتجاهل عندما سمع السؤال ؛ ولكنه أمام إلحاح زوجته قال: أتقصدين شخصا معينا يا جميلة؟ فأنا زارني عشرات الأشخاص والناس .. من جيران العمل وأصحاب شغل كما تعرفين .

ـ ليس هؤلاء .. قالت منى إن صاحب العمل أو الشركة التي تشتغل فيها راغب بالزواج منها ، وإنها أرسلته ليتحدث معك .

ـ آ .. الأخ حازم ! نعم لقد أتانا هذا الشاب صاحب السيارة الأمريكية الفارهة .. نعم تذكرت لقد جاء يا جميلة وقلت له لما نتشاور؛ ولكني أرى أن الأمر لا يحتاج لمشاورة ..

فالبنت ما دامت قد بعثته إلينا فهي موافقة ، وقد قال لي إنه صديق أو زميل لها منذ ثلاث سنوات.. والأمر لكم يا جميلة .. أنا كل هذه اللفلفات لا أحبها .. ما دامت هي منسجمة معه وتراه مناسبا ، فلماذا لم تطلب منه أن يرسل أهله لنتفق ونخبر أعمامها وأخوالها ونخلص الموضوع ؟

قالت بارتباك واضح في كلامها : ما المشكلة هي في أهله يا خليل !

ـ أهله ما لهم ؟!

ـ الشاب راغب بالاقتران بمنى ، ومنى لا تمانع بذلك ؛ ولكنّ أهله وأخته مديرة الشركة يرفضون هذا الزواج ويعارضونه .. لأننا من سكان حي برقوقة .. أسمعت بمثل هذا العيب والعذر يا خليل؟! .. شهادة البنت لا تكفي عند هؤلاء البشر.. وهل الناس بأماكن معيشتهم ومنامهم ؟!

فقال خليل وهو ممتعض مما يسمع : هؤلاء الأثرياء يا جميلة لا يعتبروننا بشرا مثلهم ، كما نحن لا نحبهم ، فالأفضل للإنسان أن يلبس من ثوبه .. شبان الحي أفضل وأحسن .. وأنا لو منى ابنتي لا أقبل لها الاقتران بمثل هذا الرجل ، فهؤلاء ينظرون إلينا من فوق.. وما دام أهله ممانعين وغير قابلين للزواج فلتنساه وتشتغل في مكان آخر ..

ـ المشكلة الكبرى أن منى تريده ! .. وتريد الزواج منه بدون موافقة أهله .. كما هو مصر ويتحدى أهله ..

فاستغرب خليل من هذا المنطق وقال بنبرة غاضبة : يا سلام!.. يا سلام!.. أنا أرفض هذا الزواج بهذه الطريقة .. أهله يجب أن يأتوا لطلبها منا ومن إخوتها حسب عادات الناس .. هل شاورت المهندس ؟!

ـ المهندس محتار وترك الأمر لك فأنت أبو العائلة ؟

ضحك خليل كأنه سمع نكتة وقال: لي!.. أنا زوج أمها لست وليها ، فأولياؤها إخوتها وأعمامها .

ـ دعنا من أعمامها .. اليوم سيصير لها أعمام! أنت عمها وخالها وأهلها .

ـ إذا جاء أهله يخطبونها ربما نوافق يا جميلة! زواج من وراء الأهل غير صحيح وخطأ كبير لا يقبل به عاقل سليم المخ ..

ـ أنا تكلمت معها بكل هذه الأفكار ؛ ولكنها تتدعي أن سعادتها ستكون مع ذاك الإنسان ..

صاح فقال : أي سعادة يا امرأة ؟!.. نحن في مجتمعات شرقية .. للأسر دور في حياة الزوجين ، فكل خلل سيعود علينا ؛ لأنها ستعود إلينا .. ففشل هذا الزواج سيكون كارثة للبيت ولنا .

ـ قالت إن الأوراق الرسمية تحفظ الحقوق والتبعات.

ـ أي حقوق؟! السمعة يا امرأة سمعتنا ! .. أنا غير مقتنع بزواج بدون رضى والديه وأسرته ..

الأم قلقة وخائفة فقالت: تقول منى إن الحياة تتطورت، والمهم رضا الزوجين ، وهو له زمن يحارب أهله ويتحداهم ، وهو متمسك بها ، وله زمن طويل يقنع فيهم وهم متمسكون برأيهم

ـ نصيحتي لك ولابنتك أن تنسى هذا الزواج .. حتى لو عاشا في بيت بعيد عن أهله .. فالحياة الاجتماعية ستكون لصيقة بهم زيارات مناسبات أعياد .

تحدثت منى مباشرة مع زوج أمها لما نقلت لها أمها رفضه على الزواج بدون مجيء أهله لطلبها وحاولت إقناعه بوجهة نظرها بالزواج بحازم الذي تحدى أهله من أجلها ، فلم يقتنع خليل بكل حججها، وغضب منها حتى اضطرته أن يرفع صوته فيها ، وتكهرب الجو في البيت مما دفع المهندس أن يستسلم لرغبتها عندما سمعها تهدد بالزواج منه دون موافقتهم فوقف معها ، فزاد التوتر داخل البيت وعلى أثر ذلك قرر المهندس أن يرحل من البيت ، وحاول مالك وحنان تهدئة التوتر والغضب ؛ ولكن منى رفضت الانصياع لرغبتهم ، وأصرت على الزواج بالطريقة التي تناسبها دون تدخل من أحد .. وأمام هذا الواقع الجديد انفعل خليل ورمى يمين الطلاق على جميلة .

وخلال أيام يسيرة رحلت الأسرة من الحارة من بعد أن تتطورت الأمور بين خليل الحداد وجميلة التي لن تتخلى عن الحياة مع أولادها .

ثم تزوجت منى من صديقها في الشركة الشاب حازم ناصر شاكرني .

لقد اختارت جميلة الأولاد على زوجها الذي كافح معها حتى علم لها أولادها .. هل هذا وفاء أم عقوق؟ أم أن الظروف قست على الجميع؟ وليس القبول بطريقة منى بالزواج مقبول لدى المعلم خليل .. هل هذا السبب ؟!



اهتز حي برقوقة لطلاق الحداد خليل وجميلة ، فقد كان ينظر لهذه الأسرة بعين الاعتبار والمثالية ، وكانوا يقولون عن أولاد جميلة " أيتام خليل " فقد رعاهم صغارا وأنفق عليهم حتى شبوا ودخلوا الجامعات ، فقد كان الانفصال ضخما هزّ الناس ، ولاموا أيتام خليل عن تخليهم عنه والانصياع لرأي أنثى .. ولكن أمام هول الحدث في نظر خليل كان لابد من الفراق .. الأم اختارت الأبناء ، لا يربطها بخليل أي رباط إلا رباط الزواج ، فليس بينهما أولاد يربطونهما معا ، فضحت بزوجها من أجل خاطر أولادها .. وقد لامها كل أهل الحي حتى أخواتها ، وعابوا زواج ابنتها بدون رضا وعلم أهله .. وهم رضخوا للأمر الواقع خوفا من الفضيحة ، وتمرد منى على تعاليم الأسرة ، ورميها التقاليد والاعتبار لفلان وفلان في عرض الحائط ، فهي مصممة على الزواج من السيد حازم معتقدة أنها مضحية مقابل تضحية حازم وتمرده على رفض أمه وأبيه ، أمام هذا الإصرار والعناد استسلم المهندس ربيع ساعد ربيع لزواج أخته من حازم ناصر شاكرني ، وأمام عناد خليل كان الانفصال بين الزوجين ليتم زواج أخطر من طلاق جميلة عندهم ، فالأولاد لا يمكن لهم الحياة بدون أمهم ، فبلع خليل الضربة والتضحية ، وعاش مصدوما بضعة أيام ؛ ولكنه في قرارة نفسه انتصر لكرامته وتقاليده ، ولا يقول عنه الناس إنه إمعة لا رأي له .. وبدأ حدادنا يبحث عن امرأة جديدة ، فلم تكن جميلة الزوجة الأولى في حياة المعلم الحداد خليل .. فمشكلته الكبرى عدم قدرته على

الإنجاب ، وكان سببا لزواجين فاشلين قبل جميلة ، سعى بعض الأصحاب والأحباب والجيران لتزويجه لما رأوا حزنه على فراق الزوجة والأولاد الذين كانوا يطلقون عليهم " أيتام خليل " لحبه لهم وتربيته لهم ، وقد رفض الحداد الخضوع للواقع والاستسلام لزواج مثير وقلق، فكان يقول لمحبيه " قدر الله وما شاء فعل .. الذل كفر وملعون"

ولم تمضِ على تطليقه أم ربيع بضعة شهور حتى كان أهل الحي قد زوجوه من امرأة اقتربت من الخمسين ؛ لتقوم على رعايته وخدمته وتغسل ثيابه وتصنع طعامه ، فعادت الحياة رتيبة وطيبة في بيت خليل ؛ وكأنه نسي مأساته أو تضحيته بجميلة ، ولم يندم على أي فلس أو قرش أنفقه عليهم جميعهم ، فقد احتسب كل ذلك عند الله ، فهو عندما تزوجها قصد كفالة أيتـامها وكان وضع خليل وقصته مع أيتامه يشف صدر شخص حقود وناقم على خليل ، وهذا الشخص معروف لكم وهو جابر والد الأستاذ عدنان ابن أخت خليل ، وقد مر ذكرهم الذي كان يقول لابنه عدنان : أرأيت يا ولد ما فعل أولاد الأرملة بخالك ؟ أرأيت البررة ؟! ألم أقل لك غدا سيرمونه وينبذونه نبذ النواة .. خالك رغم قوته مسكين طيب ومغفل كبير .

فيجيب عدنان : مأساة! بل كارثة كبرى هزت كل حي برقوقة .. وعلى كل حال خالي جمل المحامل يا أبي .. لقد علم إخوته وكبرهم وأنكروه ولم يتعرفوا عليه .. قلّ الوفاء في هذا الزمان يا أبي .. لقد صدمت وأنا أسمع أخبار خالي .. ولكنه صبر صبر الرجال .. إنه جبار يا أبي .. هذه الفتاة التي فكرت يوما بالزواج منها دمرت العائلتين .. الحمد لله الذي نجاني منها .

ضحك جابر وقال : يا ولد لا تنسى أنك متزوج ابنة خالتها فانتبه لنفسك .

ـ ليس كل الناس واحدا يا أبي .. والله الأمر عجيب وغريب ! .. كانت جميلة مضرب المثل في الحارة يا أبي وكذلك أولادها .. البنات مشكلة وبلاء !

فأعجب جابر بتعليق عدنان فقال منفسا عما يكتمه في النفس عن البنات : البنات يا ولدي يقصمن الظهر.. والاختلاط بالرجال وأصحاب المال يفعل المصائب، والقصص والحكايا كثيرة ؛ ولكن خالك العرة تزوج هذه المرة من امرأة لا أولاد لها .

ـ هي عاقر كما يقال ، تزوجت من قبل ثلاث أو أربع مرات ، ويقال إنها امرأة محترمة ومتدينة ولكن صحتها ليست كما يرام.

ـ خمسون سنة ولا تكون متدينة! مسكين أبو نسب ! مسكين يا أبا أحمد والله مسكين! .. أنا لا ألوم البنت منى .. فالهوى غلاب كما يقال ؛ ولكن أخوتها ربيع ومالك كيف رضخوا لرغبتها وهواها .. أين الرجولة ؟!

ـ يا أبي هم خشوا الفضيحة أن تتزوج رغم أنوفهم ودون مشورتهم.. فالفتاة كما فهمت من بعض الناس وحتى زوجتي كانت مصرة على الاقتران من المدعو حازم تحديا لأهله وتمسكا به .. فالشاب يريدها مع شدة رفض أهله من زواجه من حي برقوقة .. كأن حي برقوقة من دنيا أخرى وسكانه من كوكب المشتري .. وأيضا يقال إنهم أصدقاء وعشاق منذ أول يوم اشتغلت فيه بنت جميلة في الشركة .

ـ الناس يا عدنان تسمع وتتحدث.. وربك هو الستير.

ـ ما هم إلا جيراننا وأصدقاؤنا ، وربيع مجروح ، والله يوفقهم ، وقد رحلوا من الحارة ، ولكن قصتهم للأسف على كل لسان ولم ترحل معهم.. فالناس لا ترحم ولا تعذر .. فتقول زوجتي إنهم استأجروا فيلا في شارع الخضر في حي رحمات وهو من الأحياء الحديثة والراقية في العاصمة الكبيرة.. سهل الله لهم الأمور.



تزوجت منى من الشاب حازم ناصر في حفل صغير ، حضره قليل من الأصدقاء والمعارف ، فهم يعرفون ظروف هذا الزواج ، فلم يحضر والداه ولا إخوته وأخواته حتى أخته عبير مديرة الشركة لم تستطع أن تحضر وتخالف أوامر الأم فاطمة ، ولا أحد من أقارب الزوج ، وذكرنا أن خليلا تزوج من امرأة اسمها حسنية طلقت بضع مرات ، وذكرنا تزوج عدنان من ابنة أخت

جميلة ، وكان زواجه خلال العاصفة التي عصفت ببيت الحداد خليل .

ولما تزوجت منى رحلت لبيت زوجها ، وهدأت المشاكل والكلام الحاد الذي كان يجري بين مالك وحنين من جهة ومنى من جهة أخرى ، ويتهمونها بالأنانية والنرجسية ، وكان الشاب ربيع يفكر بعد زواج منى بإعادة المياه لمجاريها بين والدته والسيد خليل فرفر ؛ ولكنه لما علم بزواج خليل قفل على الموضوع والتهى بشغله وتعليم مالك وحنين ، ولما علمت جميلة من ابنة أختها التي تزوجت عدنان ابن أخت خليل بزواج خليل أحست بغلطتها الكبيرة ، وشعرت بالندم وأصابها الاكتئاب والألم ، فهي كان عندها أمل بأن خليلا بعدما يسمع بزواج منى سيأتي ويصالحها وتعود معه لحي برقوقة ، فهي قضت معظم عمرها فيه ولادة وزواج وأولاد.. وأنه بعد زواج منى لا يلومه أحد بإرجاعها لذمته وعصمته ، ولكنها مع انتشار خبر زواج خليل تباطأت بالمصالحة ولزمت الصمت والحزن .. فهي تدرك كم من التضحيات قدمها خليل لها ولأولادها حتى يكبروا ، بل منى أكثر واحدة أنفق عليها حتى تتعلم لأنها البكر.. أعمامهم تخلوا عنهم، وأخوالهم ساعدوا بالشيء اليسير.. خليل كان لهم نعم الأب والرجل .

كانت تفكر بطريقة ترد له الجميل والمعروف ، ورغم ما شجر بينهم لم يقل لهم هاتوا ما أنفقت عليكم من مال .. فكرت ولم تتوصل لطريقة لائقة ، فخليل رغم طيبة نفسه ؛ ولكنه عنيد وعزيز النفس ، وأمام هذا الهم الذي غمر تفكيرها فاتحت ولدها ربيعا لعل لديه طريقة ما يردون له بعض المال مقابل المعروف الكبير الذي تركه في أعناقهم .

فقال: كنت أفكر يا أمي بأن أردك إليه عندما تسكن العاصفة التي صنعتها منى ؛ ولكن أهل الحي وأصدقاءه أسرعوا فزوجوه ، ولو أرسلنا له مالا فلن يقبله، فأنت تعرفين عزة نفس المعلم خليل يا أمي .. لا أعلم طريقة أو حيلة نرد له فيها بعض فضله علينا .

ـ فكر يا حبيبي ـ رضي الله عنك ـ بطريقة بحيلة بوسيلة .. أنا لست نادمة على الطلاق ، فأنا بعد وفاة والدكم رفضت الزواج ، ولم تعد بي رغبة للرجال يا ولدي.. كنتم أنتم حياتي ودنياي

ولما تعهد لي خليل أمام إخوتي بتعليمكم وافقت على الاقتران به والزواج ثانية ؛ ولكن أختك وضعتنا في موقف حرج وصعب.. على كل حال هي تزوجت.. الله يستر عليها ، وأتمنى لها ولكم التوفيق ؛ رغم أن هذا الزواج الغريب حصل ما زلت أجد في نفسي منه قلقا وخوفا .. فأخشى أن يجبره أهله بعد حين على طلاقها، ويعتبروها نزوة شاب وانتهى الموضوع بالنسبة لهم ، وتبقى منى ونحن بحسرة هذا الزواج القلق.. فهؤلاء الأثرياء ليس عندهم أمان .. فهم ينظرون إلينا من أعلى .. ولكن منى مفتونة به ؛ كأنه لم يخلق رجل غيره في الدنيا .

تنهد المهندس ربيع ربيع وقال: سامحها الله يا أمي .. وهذا الشعور يراودني أنا أيضا يا أمي .. فمنى تعتبر حازما سلما للصعود لطبقة رجال المال والأعمال ، لو اشتغلت بالتدريس وبحثت عن زوج وبيت هادئ لكان خيرا ..هي لا تفكر بالأمومة والأولاد تحلم بالفلوس الكثيرة والطائرات .. أنا كنت أظن أن هذه أحلام يقظة ومراهقة ، عندما كانت تحلم أمامنا بالقصور والعمارات وأخبار رجال المال في المجلات والصحف .. على كل حال يا أمي زوبعة ومرت ، وسامحينا عما سببناه لك من ألم وجرح خلال هذه الشهور الصعبة .. فلم أجد أمامي إلا أن أقف مع منى .. فمنى كانت ستتزوج من المحترم حازم شئنا أم أبينا .. فلو رفضنا وتزوجت رغم أنوفنا .. فسيكون عار علينا أشد مما حصل ، وسيلازمنا طول حياتنا .. فهذا ما دفعني للتحيز لها أمام والدنا أبي أحمد وأعمامنا وأخوالنا وحتى مالك وحنين ، قد وضعتنا في موقف حرج للغاية .. فخليل أحمد ركب رأسه رغم أنني ترجيته ألف مرة ، وحاولت تهدئة ثورته وإقناعه بالحسنى ؛ ولكنه غلط في حقنا ووصف هذا العمل بالزنا والفاحشة .. زواج بدون رضا الأهل ما هو بزواج في رأيه وكان يقول " هل نحن في أوروبا في أستراليا في أمريكا ؟! "

مسحت جميلة دمعة نزلت على خدها وقالت : كانت أيام صعبة يا ولدي.. وليس أمامي إلا اختياركم والانحياز إليكم .

ـ منى كانت وجهة نظرها أن حازما قد ضحى من أجلها تضحية كبيرة ، تحدى أهله وأصر على الزواج منها ألا يستحق أن تضحي هي من أجله وترفس كل التقاليد والعادات البالية ؟

ـ المهم يا ابني ألا تترك هذه الزيجة في نفسك شيئا نحوها ، فأنت الكبير وسيد العائلة ، فمالك ما زال صغيرا خبرته بالدنيا قليلة .. فالبنات تغلبهنّ العاطفة .. فهي رأت تحدي الشاب لأهله أمرا كبيرا وخطيرا .. فهو في عينها قد رفض الاقتران من بنات أصحاب والده المليونير ولا من قريباته .. هؤلاء الأغنياء الكبار وأصحاب الملايين كما نرى في المسلسلات والتلفزيون لا يحبون الفقراء والزواج منهم .. فنحن عندهم قوم متخلفون جرب وهم آخر طراز أو موديل أدعو الله تعالى أن تستقر في حياتها الزوجية ؛ ولكن يا أمي يا حبيبي أموال أبيه وأمه لا يستطيع أن يتخلى عنها من أجل امرأة ..

رد ربيع : هذا ما يقلق .. ميراث كبير لدى أبيه وأمه ! ولا شيء لدى منى منها !

ـ سلم أمرنا إلى الله .. هي التي اختارت ورضيت رغم الحجج والأمثلة التي سردناها على مسمعها أنا وخالاتك وعماتك ولكنها أبت أن تسمع ..



سقوط الحلم

كانت منى ربيع الشابة الحسناء ذات الخمس والعشرين سنة ترى نفسها فتاة مثقفة خريجة جامعة لغة أجنبية ، عانت من الفقر وظلم المجتمع عند وفاة أبيها ، أهل أبيها تخلو عنهم إلى حد ما ؛ لأنهم فقراء مثلهم ، والوالد تركهم من غير ثروة وميراث ، فكانت تحلم بأن تصنع مستقبلها بيدها، وأن لا تعمل موظفة في مدرسة براتب محدود ، وهي كانت تنتظر تخرج أخوها من الجامعة لتبدأ في تحقيق بعض ما رسمته في مخيلتها ، فلما التقت بحازم ابن مدير إحدى الشركات التي يملكها والده رأتها فرصة لأن تصير شيئا ما في هذا المجتمع الذي يحترم أصحاب المال ، بل في كل زمان لأهل الثروة احترام وتبجيل .

كانت تريد أن تتحدى التقاليد التي درج عليها الناس ، وكانت ترى أن حازما المحب لها قد تحدى أهله الأثرياء ملاك الأموال الكثيرة ، وأنه قد عاداهم من أجلها فلماذا لا تكافئه على الأقل بالخروج على التقاليد؟ وقد بادلته الحب ، فهي تقول لنفسها " إنها لم تر أنها تعشقه العشق الذي يتحدث عنه العشاق والشعار ؛ ولكنه في نظرها مشروع زواج جيد ، ويضعها على طريق تحقيق الأحلام الكبيرة " وتزوجت بفتى الأحلام .. وكان الشاب الذي قضى ثلاث سنوات بقربها محاولا أن يعيش معها قصة عشق وغرام قد فشل في ذلك ، وأن لا سبيل له على جسدها إلا بالزواج الشرعي .. وكان حازم في أول الأمر عند الزواج بعدما سكنت نفسه إليها مقدرا لها هذه الشجاعة والقوة ؛ ولكنه كان في قرارة نفسه يخشى ردة فعل العائلة أمه وأبيه .. أمه فاطمة كانت أشد رفضا لزواجه من فتاة فقيرة مع أنها لم تكن فقيرة عند الزواج ، كان لها ثلاث سنوات تعمل في شركتهم.. ووافق قول أمه هوى في نفس أبيه ناصر .. فهو ابن رجل ورث الثروة والمال الكثير عن الأسرة .. فوالده صاحب مشاريع وصناعة ، وهو كان دكتورا يدرس في الجامعة ثم استقال من التدريس وبدأ يعمل في السوق .. وكان قد تزوج امرأته فاطمة أخت أحد أصدقائه الكبار وأحد زملائه في الجامعة عندما كانا يدرسان معا ، وهي أيضا تحمل شهادة عليا .. فزادت ثروته وثروة العائلة ، فكل إخوته يماثلونه في

الشهادات العلمية والمال .. فكانت فكرة زواج أحد أبنائه الأربعة من فتاة بسيطة موظفة لديهم فكرة عقيمة وسيئة .. ولم يقتنع بوجهة نظر ابنه .. فنفرت العائلة من هذا الزواج ، واعتبروا الفتاة صائدة رجال طامعة في مالهم ، وأنها افترست ولدهم حازما .. فحاولوا صد ومنع هذا الزواج بالحوار والجدال .. ولكن الشاب المتعلم لم يقتنع بأي حجة لهم ، وأصر على أخذ حريته الكاملة في الاختيار لشريكة العمر .. وتم الزواج كما ذكرنا آنفا رغم أنف الأسرة ولم تشارك العائلة ولو مجاملة بفرح حازم حتى أقاربه وأعمامه ؛ فهم ليس على استعداد لعداء ناصر وفاطمة فقاطعوا حفل الزواج .. فغضب حازم منهم ، وكان يظن أنه عندما يضعهم تحت الأمر الواقع سيستسلمون وينصلح الحال .. فاستمر العناد من الفريقين ، وظل على تحديه للكبار وتزوج فتاة الأحلام ، واستأجر شقة واسعة في إحدى الضواحي .. ولما حصل الزواج ، ورأت العائلة ذلك الواقع فاعتبروا ذلك هزيمة لهم .. طلب الوالد ناصر الغاضب منه بعد حين من زواج ولده بأن يترك العمل في الشركة وكل شركاته الأخرى ، ففصل هو وزوجته .. فقامت منى باختلاس زيارة للوالد في عمله فطردها شر طردة ، واتهمها بسرقة ولده ، ولم تجدِ دموعها نفعا .. وقام حازم بفتح شركة باسمه الخاص مصنع مواد غذائية .. استأجر أرضا وأنشأ عليها مخازن كبيرة واشترى ماكينات وسيارات نقل وتوزيع .. ولكن هذه الشركة بعد أشهر تعثرت ، فهو وإن وجد المخازن والمال فالاستثمار ليس هينا ويحتاج إلى صبر ودراية ؛ وعندئذ بدأت عواقب تحديه للعائلة تظهر أمامه .. هل يستسلم للعائلة ولوالديه ؟ .. حاولت منى قدر استطاعتها أن تقوم مع زوجها بما يلزم ، بذلت كل أموالها لمساعدة حازم ، وكانت تقترض من أهلها وخصوصا أخيها ربيع ، ولما انهارت الشركة ذهبت الأموال .. وصل الأمر بين الزوجين للانفصال .. ولكنهما أصرا على العناد ، فكابرا وفكرا بالهجرة إلى أمريكا الشمالية .. وأخذ حازم يسعى في ذلك ، وبواسطة قريب له هناك تمكن من الرحيل وحده .. وترك منى عند أهلها بعد أن أخلى الشقة التي عجز عن سداد أجرها لبضعة شهور.

كانت جميلة وأولادها يتعجبون من تصرفات أسرة حازم وتعاليهم وعدم وقوفهم مع ابنهم ، وفوق ذلك كان الشاب حازم يرفض فكرة الإنجاب المبكر، فلم تحمل منى خلال هذه السنة والشهور الصعبة .. فبعد سفر زوجها إلى أمريكا عادت تبحث عن عمل مؤقت حتى يرسل لها حازم أمرا بالسفر ويرسل لها تأشيرة دخول تلك البلاد .

وقد استفادت منى خلال شهور الزواج ، ومن عشرتها لحازم شرب الخمر والتدخين.. فلما استقرت في البيت عند العائلة وقف أهلها ضد هذه الأفعال الخبيثة بشدة .. ولما أصرت على ذلك طلب منها أخواها مالك وحنين الحياة وحدها بأن تستأجر بيتا وتسكن وحدها .. وفعلا استأجرت شقة بعدما استلمت عملا يدر عليها دخلا .. وكانت الشقة المستأجرة قريبة من بيت إخوتها .. وكانت منى ترى أحلامها تتحطم ، وأن الصعود على أكتاف حازم قد فشل .

كانت جميلة حزينة وحائرة في أمر ابنتها وما وصلت إليه من الضعف والهزال والكآبة ، وما تحمله من هم ، ولم تفرح بزواجها الذي ضحت من أجله ، فهي حزينة لحزن ابنتها وجرحها الأليم وحائرة في تصرفاتها وتعلقها بالخمر الذي لم يعهد في بيتهم من قبل زواجها ، وبين الأولاد الذين لا تعجبهم تصرفات منى ، فهي حائرة ماذا تفعل ؟!

وبعد رحيل منى وحياتها في شقة وحدها قريبة من بيت أمها في حي رحمات .. سافر المهندس ربيع بعد أن عقد قرانه على ابنة خاله سعيد .. فتاة تعمل مُدرسة في مَدرسة .. فقد سافر إلى إحدى دول البترول العربي للعمل في إحدى الشركات .. فهل هو يهرب من مشاكل العائلة أم بحثا عن دخل أفضل ؟

فلما كانت منى تزور أهلها بعد سفر ربيع لم تعد تلقى الترحيب الذي كانت تلقاه من ربيع ، فكان مالك يقابلها بوجه متجهم يتكلم معها بنبرة غاضبة إن لم يكن فيها احتقار ، وهذا تراه أيضا من أختها الصغيرة حنين ، وجل كلامهم يدعوانها للعودة للصواب وترك التبغ والخمر والسكر ، فتثور وتنفعل وتطلب منهم بحدة وضيق أن لا يتدخلوا في حياتها وأن ذلك شأنها ، ثم تغضب في نهاية الجلسة وتنصرف لشقتها ودعوات جميلة تلاحقها داعية لها بالهداية والسكينة

□□□

كل زيارة مشاجرة ، وتحتج عليهم بأنها تصرف على نفسها وشهواتها من مالها وتعبها ، ولا تأخذ منهم مليما واحدا ، ويغضب منها أيضا الأخوان حتى أن مالكا في إحدى المرات لطمها على وجهها وهو يقول غاضبا : أنت أنانية ودمرت حياتنا وسمعتنا بزواجك المهين والتعيس . فتبكي وتهيج ثم تحرد على البيت بضعة أيام أو أسابيع ثم تعود.. وكانت جميلة ترى ما يحدث لهم عقابا لهم لنبذهم خليل وتخليهم عنه.. فتلزم الصمت والبكاء .



وكانت أخبار حازم المهاجر التي تأتي لا تسر بعد ، فهو لم يوفق في عمل مناسب.. وتعلق الشاب بالمخدرات والنساء حتى أن حالته الصحية تدهورت بسرعة وساءت ، فأرسل قريبه أخباره لوالديه ، ثم هو أرسل يستجدي والده وأمه أن يصفحا عنه.. فصم الوالد العنيد أذنيه وأرسل إليهم قريبهم ثانية أخباره السيئة وتعلقه بالمخدرات والماريجوانا وعصابات المخدرات فطلبت فاطمة الأم بعد صمم من ناصر التصرف.. فوافق الوالد على عودته وعلاجه إذا تخلى عن زوجته منى وطلقها قبل عودته للبلاد.. ولما علم حازم بذلك الشرط وافق عليه .. وعاد للبلد بعدما أرسلت ورقة الطلاق لمنى عن طريق المحامي .

تلقت منى ورقة الطلاق بهدوء وسكينة فهي كانت تتوقع هذه النتيجة ، وكادت أن تحصل قبل سفره ؛ وذلك عندما فشل مشروع الشركة الذي أغرق حازما بالديون ، فهو قد كان يحملها مسؤولية فشله ومعاداة والديه لهما.. ولكنها كانا يكابران ويعاندان .. أما الذي تأثر وتألم كثيرا بطلاق منى أمها جميلة مع إحساسها القديم بذلك ؛ فهي التي ذرفت الدمع الغزير.. أضحت الأم مطلقة والبنت مطلقة .. وعرفت حينئذ معنى إصرار خليل أحمد على عدم زواجها بدون موافقة والديه ومجيئهم بأنفسهم لطلب يدها .

منى لم تعرف أن حازما قد عاد من أمريكا ليعالج من المخدرات والكحول التي أفرط فيها ، فهي ظنت أنه طلقها وظل هناك عند قريبه ومعارف أبيه ؛ ولأن إجراءات طلاقها قام بها محامي ناصر شاكراني .

حاول مالك الشاب الذي تخرج من كلية الحقوق حديثا ليكون محاميا انتشال منى أخته من صدمتها ، وفتح صفحة جديدة مع الحياة والعائلة ؛ ولكنها أبت العودة للبيت والحياة مع مالك ومواعظه وتوبيخه وحتى تجريحه وسخريته.. ورفضت ترك الخمر والدخان والسهرات وأصرت على الاستقلال بحياتها ، ولو كانت وحيدة .. وقد أرسل إليها ربيع عددا من الرسائل المواسية والحاثة على التوبة وترك المكابرة والعودة للبيت ، ولكنها اعتذرت لأخيها ربيع بلطف لم تكنه له من احترام خاص ، وأعلمته أنها ستبقى مستقلة عنهم عن الأسرة ، وعرض مالك عليها عرضها على طبيب نفسي فرفضت بشدة ، وزاد غضبها منه مع أن قصده شريف وهو مساعدتها للخروج من أزمتها النفسية .

وذات يوم وبينما هي في مقر عملها في إحدى الشركات دخلت أخت طليقها حازم عبير ناصر وبينما عبير تبحث بعينها في أطراف القاعة تفاجأت المديرة السابقة لمنى برؤيتها ؛ ولكنها أمام الموقف حيتها وابتسمت لها ، فتركت منى مقعدها وخرجت ترحب بها وتسلم عليها وصافحتها قائلة : كيف حالك يا عبير ؟ ما أخبار حازم اليوم ؟ وكيف أمريكا ؟!

ردت عبير قائلة : الحمد لله .. كيف أنت ؟ وهل لك زمان تعملين هنا ؟

ـ الحمد لله أنا بألف بخير .. أعمل هنا فقط منذ سافر أخوك أمريكا ..

ـ مسكين حازم يا منى! .. لقد دمر وهلك .. ألم أنصحك يا منى أن تبتعدي عنه؟! .. أنا أدرى منك بأمي وأبي يا منى .. ولكنك للأسف شديدة العناد والتحدي إذا صممت على شيء لم تكوني الفتاة الأولى في حياة حازم .. ولكنك استطعت أن ترغميه على الزواج منك .. لا تنكري .. أنا في البداية كنت أظن أن السيد يعبث بك كما عبث بغيرك .

كانت منى مقهورة مما تسمع وتغض من طرفها وهي تسمع عتاب ولوم عبير الحاد ثم قالت

منى محاولة تغيير الحديث : مضى وزال ومات يا عبير .. أي خدمة تريدين ؟

ـ أشكرك .. أنا على موعد مع مديرك شفيق حسين .. اعلمي أن حازما هنا في البلاد لقد رجع محطما منهكا من الكحول والمخدرات ، وأدخل مركزا لعلاج السموم البيضاء أو السوداء .. وهو اليوم مريض طريح الفراش ..

لقد تفاجأت منى بوجوده فقالت بدهشة : حازم هنا ؟!!

ـ نعم هنا وهو سقيم .. وأرجو ألا تفكري باللقاء به أو الكلام معه بالهاتف .. هو ما زال يردد ويهذي باسمك ويلوم والديه على إجباره على تطليقك ..

حاولت منى تكلف الابتسام فقالت : لقد انتهى حازم من حياتي يا عبير! .. وأتمنى له الشفاء والصحة.. شكرا على هذه المقابلة اللطيفة وعلى النصائح وعلى المعلومات التي سمحت لي بسماعها .

ـ لا شكر على واجب.. أنت عملت معنا سنوات يا منى ! لا يمكن نسيانها بسرعة .. كنت أتمنى لو ظللنا أصدقاء ؛ ولكنك خربت كل شيء بزواجك من حازم .. شكرا .

ـ قدر الله وما شاء فعل .. سلام . تذكرت هذه العبارة التي كانت تسمعها كثيرا من مالك يقولها وهو مواسٍ لها .

ـ قبل انصرافي نصيحة أخيرة يا منى .. لا تلبسي ثوبا أكبر منك ولا يناسب مستواك الاجتماعي ، حتى لو استمر زواج حازم منك فمصيره الفشل .. أنا أعرف من أخي ومن هو حازم ؟؟! مع السلامة .

كانت عبير كما يعرف قارئ هذا السفر لا تستحي من منى منذ أيام عملها موظفة في الشركة وهي ما زالت تنظر إليها على أنها مجرد عاملة بسيطة في الشركة العالمية للتجارة .. موظفة في قسم الترجمة .. ورغم الأحداث العاصفة في حياة منى التي تعرفها عبير لم تكترث لقسوة الكلام الذي تفوهت به .. فهي المديرة وتلك مجرد موظفة لديها .

عادت منى لمقعدها منهارة ، وقد أخذت تدخن ، وربما مسحت دموعا سالت على مكياجها

وزينتها التقليدية ، وتتذكر تفاصيل علاقتها مع عبير ، ثم همست مخاطبة نفسها : إنك ملعونة كنت تريدينني مجرد عشيقة وخليلة لشقيقك ! .. حازم في المدينة ويعالج من المخدرات والكحول .. ناس مجرمون .. قساة القلوب !! تنهدت وقالت : لقد دمرني معه ..هو يجد من يعالجه أما أنا فلا .. الكل يتفرج عليّ .. على مأساتي .. أكيد زوج أمي خليل شامت بما جرى لي .. لابد أن ابنة خالتي زوج السيد عدنان جابر تنقل لهم كل شيء عني .. بل ما زال ربيع وعدنان أصدقاء .

تنهدت ثانية ومسحت دموعها التي سالت على خديها وقالت : يا الله ! ماذا أفعل ؟! إني جريحة وأمي جريحة وكانت تحدثني بخوفها من هذا الزواج .. اعتقدت أنني أتعامل مع رجل مع بطل .. لا أدري لماذا هؤلاء الناس يكرهوننا ؟! .. هل نحن في عصر الظلمات والعبيد والهنود ؟! نحن في قرن الحريات وحقوق النساء .. ألم تتزوجي يا منى كما شئت ومن اخترت؟! أليست هذه الحرية التي تنشدها النساء؟! دخان .. سكر .. حفلات .. سهرات ورحلات ونزهات مع الرجال والأغراب .. ألم أفعل كل ما أراده حازم؟! ومع ذلك أهله لم يقبلوني.. لماذا لماذا يخافون مني ويكرهونني؟!.. هل أنا حقا صائدة رجال ؟! هل كان حازم يحبني حقا ؟ أم لحظة ضعف واشتهاء جسد ؟! لقد قاوم معي وتحدى أهله وخسر أمواله من أجلي من أجل حبنا وحياتنا.. ولكنه كان يرفض الأولاد .. لا يريدني أن اخلف .. هكذا عادتهم كان يقول .. الأولاد بعد حين .. لابد أنه كان متوقعا وحاسبا لهذا الفشل ؟ سنتان مكثت على ذمته ولم أرَ أمه .. يا لها من امرأة قاسية القلب! لم تشفق على عواطف ابنها ، لم تفكر مرة بزيارة ابنها لتفتح معه صفحة جديدة .. وتتقبل الأمر الواقع .. تتعرف على كنتها ..إنها أقسى من ناصر والد حازم ! من أي عائلة هذه المرأة المجرمة؟! ألسنا بشرا مثلهم؟! عبير هذه التي دخلت على مدير المحل .. لماذا هي عانس لليوم؟ لماذا لم تتزوج بعد رغم الثراء العريض المحيط بها ؟! وهي جميلة ليست دميمة ..لابد أن أهلها وراء عنوستها ، هي أكبر مني ببضع سنوات .. كان حازم لا يحب الكلام عنها .. إيه كنت أتمنى أن اقتحم هذا العالم وأصعد

بسرعة الصاروخ للمال والجاه ؛ ولكنهم وقفوا سدا أمام دخولي لعالمهم .. هل أنا أخطأت بحق إخوتي وأمي وزوج أمي ؟! أنا كنت أرى السعادة مع حازم إنهم لا يرون ما أرى .. ألم يكونوا يريدون تزويجي؟ وتذكرت ابنة خالتها فرددت بين جوانحها " هل ابنة خالتي سعيدة مع عدنان الذي سعى ليكون لي زوج ؟ .. سأعمل لها زيارة وأنظر حياتها في حارة برقوقة .. لا داعي لذلك .. انتهى حي برقوقة من حياتنا وأحلامنا.. لماذا كان هذا المكان سببا في عدم قبولهم زواجنا ؟! ..أليس هو مكان كغيره من الأماكن ؟ والله إن فيه أغنياء ربما عددهم أكثر من أحيائهم !

وبينما هي مستغرقة بهذه الأفكار والتساؤلات رأت عبير تشير إليها مودعة .. فانتبهت إليها في اللحظة الأخيرة ، ورفعت يدها محيية بالإشارة ، وعادت تفكر بحياتها وأحوالها .



زواج حنين

لما رجع ربيع من سفرته الخليجية في موسم الصيف كعادة المغتربين قضى أيام الإجازة يعد للزواج من ابنة خاله أمينة ، وخلال هذه الفترة حاول إقناع أخته بالعدول عن العادات السيئة التي تعلمتها من حازم بترك الدخان والخمرة والعودة لبيت الأسرة ، وأن الطلاق والفشل في مشروع لا يعني هذا نهاية الدنيا ، وحثها على عدم المكابرة ، فلم تر منى من كلام أخيها شيئا جديدا ، فقالت " لكم حياتكم ولي حياتي "

وقبل سفره بأيام تزوج ، ومكث ثلاثة أيام ، ثم سافر وصحبته زوجته لشغله في تلك البلاد .

تخرجت حنين من الجامعة ، وقد درست مثل أختها في كلية الآداب تخصص إنجليزي ، وقبل أن تبحث عن عمل كان أخ لصديقة لها اسمها عائشة يتقدم لخطبتها من أهلها.. فقد رآها عدة مرات وهي تزور أخته ، فأعجب بها وبحسنها وأدبها ، وكان قد تحدث مع أخيها مالك المحامي ، وكانت حنين تحب عائشة كثيرا خلال فترة الجامعة ، وجرى بينهم كلام أثناء الجامعة في موضوع الزواج ، وأمهلوهم حتى تنتهي من الجامعة.. وكان مالك على علم بذلك ولم يبدِ أي معارضة.. وقبل أن تبحث حنين عن عمل عقد قرانها على الشاب سعد الدين .. وأرادت منى أن تفسد هذا الزواج الذي لم يرُق لها بحجة أن الشاب غير متعلم في الجامعة، واتهمته بالجهل والأمية ؛ ولكن حنين رفضت حجة أختها منى ، وقالت لها " كما أنت اخترت زوجك أو من كان زوجك حسب هواك ، فأنا لا اعتراض لديّ على سعد الدين .. فأهله أناس طيبون ، وأعرفهم ووالده رجل ميسور ، ولهم محلات كبيرة تبيع مواد الإنشاء والكهرباء والماء .. والشهادة في نظري ليست كل شيء "

لم تقتنع منى بحجج حنين ، وتكلمت بكلام قاس بحق زوج أختها ؛ ولكنهم كتبوا الكتاب الشرعي رغم شدة كلامها وثرثرتها ومعارضتها وسخطها ، وترجونها أن لا تتدخل في شأنهم كما هي تحب أن لا يتدخلوا بشأنها ، فلم تقبل هذه المعادلة وحاولت دفع الشاب للابتعاد ؛ ولكنه اتخذ قراره ، وكان يعرف عقدة منى وقصة زواجها وطلاقها، فتحمل سلاطة لسانها ،

وصمم في قلبه أن يمكر بها مكرا يمنعها في يوم من الأيام التدخل بحياة أختها وحياته .

وبالفعل لما رجع ربيع من سفره ـ وكان بين يديه طفل صغير ، فرحت به جميلة فرحا كبيرا ـ تم زواج حنين من سعد الدين ، وكان والد سعد الدين يملك عمارة مؤلفة من عدة طوابق في شارع إبراهيم حي الجزيرة ، وكان هذا الرجل كلما تزوج ولد من أولاده أسكنه في شقة من شقق العمارة بعد رحيل مستأجرها.

ولقد وجدت حنين ربيع الاستقرار والهدوء في بيت زوجها ، وهذا ما تنشده المرأة العاقلة .

كان سعد الدين يعمل ويشتغل مع والده في محله الكبير ، وكان موفقا والعمل مزدهر، وكان محبا لزوجته حنين ، ويرثي لم حصل لأخت حنين من زواج فاشل ، ويأسف لم هي عليه من خمر ؛ لأن أسرتها أسرة كريمة لا يوجد بينهم هذه الحاجة .. فحتى الدخان وإن كان يجد قبولا لدى الناس اليوم ، ففي أسرة منى لا أحد يدخن ، فيُرى الأمر مستهجنا وشاذا ، وبعد تزوجه حنينا ذهب الخوف منها ، ومن أن تفسد مشروع زواجه ، فأخذ يحاول إقناعها بالسير على خط العائلة ، ويشجعها للعودة إلى حضن الأسرة الدافئ ، حضن الأم جميلة .. فتسخر منه ، فهو في نظرها رجل جاهل عامي لم يستطع النجاح في الثانوية العامة ، وكانت تغتاظ من حنين كلما تذكرت ذلك ، كيف ربطت نفسها بهذا الإنسان ؟! .. يبدو أن للشهادة العلمية في نفسها شيئا كبيرا .. ثم تنهره وتصده أن يتحدث معها ناصحا مرشدا ، وتترجاه في بعض الأحايين أن لا يتدخل في شأنها ، فيستحي الشاب من فظاظتها ويعتذر لها، ويلزم الصمت ، ورغم تدخل حماته لصالحه ، فيتضايق ثم يختصر الزيارة ، وينصرف ومعه زوجته التي ربما تتكلم بكلمة قاسية مع أختها .

وكان كلما فتح موضوع منى أمامه يظهر حزنه لحنين ورغبته في إنقاذها وإخراجها مما هي فيه ، فيقول بحزن وألم : هي معقدة أو هي عقدت نفسها .. هي ليست أول امرأة تتزوج وتتطلق .. وليست أول امرأة تفتح مشروعا ويخسر ويفشل .. آلاف الرجال والناس يعملون في مشاريع وتغلق وتدمر .. هكذا قانون التجارة والصناعة والزراعة .

ـ هي التي عقدت نفسها .. إنها تشعر بعقدة الذنب ؛ لأنها لم تسمع كلامنا ونصحنا .. ليس لفشلها في الزواج وتحطم أحلامها الكبيرة التي بنتها على الزواج من ابن مليونير .. إنها تشعر بعقدة الذنب ؛ لأنها كانت السبب في طلاق أمها من السيد خليل أبي أحمد .. الرجل الوفي الذي ساعدنا حتى كبرنا ، وأنفق علينا حتى تعلمت منى وتخرجت من الجامعة ، وشارك في تعليم ربيع الهندسة .. فلما جاء زمن الوفاء والجد خذلته، ودفعته لطلاق أمها من أجل الزواج من حازم نائب المديرة في شركة التجارة العالمية .. لقد عشنا يا سعد أيام مؤلمة ومرهقة للأعصاب ومتعبة .. لقد كان أخي ربيع يفكر بعد زواج منى وهدوء العاصفة التي عصفت بنا أن يصالح أمي على زوجها خليل ؛ ولكن أهل حي برقوقة يحبون المعلم خليلا فعجلوا بزواجه من امرأة من حيهم ، سمعنا من ابنة خالتي التي تزوجها ابن أخت خليل أنها مريضة وأكثر دخل خليل ينفق على علاجها .. لقد حزنّا كثيرا لم حصل ؛ ولكننا كنا ضعفاء أمام تمرد منى على تقاليد الأسرة والناس .. تعودنا أن نحسب ما سيقول الناس .

ـ لله الأمر من قبل ومن بعد يا حنين! وكما هو معلوم أنه لا يأس مع

الحياة .. فالإنسان يكبو ويسقط ويتعثر ويقوم من كبوته وسقطته وتعثره .. وهذه الخمر والسهرات لا تغني ولا تسمن من جوع ، فالحياة مجاهدة وكفاح وتعب ونجاح وفشل .. أنا سعيد بك يا حنين ولا أنسى موقفك معي عندما حاولت أختك عرقلة زواجنا بكل ما أوتيت من قوة ، حتى أدهشتني ، حتى كنت أظن كأنني سأتزوجها هي .. أنا لم أتعلم لأنني لم أكن أحب المدرسة والدراسة ، وأنا ما صدقت وأن أنهي الإعدادية ؛ ولكن الأهل دفعوني بقوة حتى وصلت الثانوية ولم أفلح .. فليست الحياة كلها دراسة وجامعات وشهادات .. هذه أقسام وأرزاق ، فأنا دخلي من المحل يا حنين كما تعلمين أكثر من دخل مهندس حكومة أو طبيب حكومة ودولة .

ـ يا سعد الإنسان بأخلاقه وطيبته ، والمال وسيلة لتحقيق أهداف وغايات صالحة .. فها هو خليل أحمد زوج أمي السابق حداد بسيط وقديم .. استطاع أن يصرف علينا كل هذه

السنوات ، كانت منى أكبر إخوتي عندما تزوج أمنا ، عمرها عشر سنوات أقل أو أكثر قليلا بدخله البسيط صرف علينا طعاما وشرابا ومدرسة ولباسا ، ما كنا نشعر بأننا أيتام ، كل عيد يكسونا أحسن الثياب ، وعند دخولنا المدارس يكسونا ويشتري لنا الحقائب والدفاتر والمصروف المدرسي ، ولم نسمعه يمن علينا بذلك يوما ما ، قدم لنا الكثير دون أقاربنا من أعمام وأخوال ، مع أننا نسكن في نفس الحي ؛ ولكن ظروفهم صعبة .. وتعلمت منى سنواتها الأربع من جيبه وحده ، وكان يستلف دون علمنا ليكمل تعليم منى وربيع ، وكان يعتبر ذلك من العهد الذي قطعه لأمنا عندما تقدم للزواج منها بعدما ترملت بسنين .. ورغم حرمانه من الأولاد وابتعاد أهله عنه أقصد إخوته وأخواته إلا واحدة وهي أم عدنان زوج ابنة خالتي كان شاكرا لله صابرا محافظا على الفرض والعبادات ، ويحبنا ولا يبخل علينا بشيء .. تكلمت أثناء المشكلة يا سعد ؛ ولكنني يومذاك كنت صغيرة غير مسموعة الصوت .. وقد كان الوضع حرجا جدا .. منى مصممة على الزواج كما تشاء ولو احترقت الدنيا كلها وخربت مائة مالطة ، كانت مصممة على الزواج بدون موافقة وطلب أهل حازم .. وخليل أبى ورفض ولما رأى ربيع الأمر المعقد اختار الوقوف مع منى ؛ لأنه الكبير وولي الأمر حتى لا تتزوج بدون إذنه وخشي الفضيحة .. ولما بكيت أمام منى لتصرف النظر عن هذا الزواج ، فكانت تدفعني بعنف وتقول: أنت صغيرة يا حنين ! .. لما تكبري وتعرفي تعذريني .. فلما كبرت كما ترى منى حتى رأيتها مطلقة ، وذهب الزوج الذي قاتلت من أجله .. وأغرقت ربيعا بالديون أي عذر أعذرها به اليوم لا أدري ما هو؟ فقط أقول إنها متأثرة بأفكار حرية المرأة والخروج على التقاليد والمناضلة لأخذ الحقوق المزعومة .. فهل إذا تزوجت المرأة رغم أنف أهلها أصبحت حرة ومتمدنة ؟ .. هناك جهل كبير في فهم الحقوق والحرية .. المرأة ألا تعمل ؟ إنها تعمل وتشتغل وتدرس وتُدرس وتربي وتزرع وتحصد .. فهل كل رجل يصلح لعمل كل شيء ؟ لا ، هناك أعمال لا يقوم بعملها إلا بعض الناس ، فكذلك أعمال النساء .. وهناك أعمال بالتأكيد لا تناسب بعض النساء.. تناسب البعض ولا تناسب البعض .. فهل هذا تمييز

بين النساء؟! .. فرجل يعمل في الجيش ورجل آخر لا يرتاح للعمل في الجيش .. امرأة تشتغل ممرضة ، وأخرى لا تميل إلى ذلك العمل ..أتفهم عليّ ؟

ضحك سعد الدين وقال : أنا أفهم قصدك .. لا يعني أنني لم أصل للجامعة لا أعرف القراءة أنا أعرف القراءة والثقافة والحسابات والمبيعات والمشتريات .. الأخت منى متأثرة بما حصل معها ، فعندما تعرفني جيدا ستحسن استقبالي والحديث معي يا حنين .. أنا لست حاقدا عليها البتة .. أقدر ظروفها وحالتها النفسية .. وأنا سعيد بكل ما أسمع منك .. كانت عائشة تحدثني عنك كثيرا ، وعن أدبك وأخلاقك وتواضعك رغم ذكائك المشهود في الكلية.. كنت أخشى أن تكون الجامعة حاجزا بيني وبينك وترفضينني ؛ ولكن الأخت العزيزة كانت دائما تطمأنني على موافقتك ، وأنك لا تنظرين للشهادات والمال نظرة علو وتكبر .

ـ الحمد لله الذي وفقنا يا سعد .. فأمك امرأة فاضلة وطيبة لقد أحببتها قبل أن يخطر ببالي الزواج منك .. وعائشة تعرف ذلك.

ـ وهل تغير هذا الحب بعد الزواج ؟!

ـ أبدا ، يوميا أشرب معها القهوة ، فبعد خروجك للمحل أذهب إليها ونجلس معا .

ـ أنا حزين لأمك فهي دائما حزينة تبتسم رغم عنها .

ـ أمي حزينة من أجل ما حصل لمنى ، وما حصل منا نحو السيد الكريم خليل الذي بذل كل شيء من أجلنا ، فإنها لا تستطيع نسيانه ليس كزوج فحسب وإنما كرجل ربانا ، حتى أن أهل الحي كانوا يسموننا على اسمه فيقول أيتام الحداد خليل .. أمي مشغولة جدا تبحث عن طريقة ترد له معروفه ، ففكرنا أن نهبه مالا ولكننا نعرفه فلن يقبله ؛ لأن ما قدمه لنا من باب الواجب والعهد والثواب فلا يرتقب ثوابا منا .. وهذا أيضا يزعج الأخ ربيع يريد أن يعطيه شيئا .. ومتألمة لم حدث من طلاق لمنى ، ولتمرد منى على طباع الأسرة ، والانحراف الخطير الذي تسير فيه .. لقد حاولنا ، وأنت حاولت إقناعها بالحياة مع الأسرة مع أمها ومالك وترك الفسق من خمر وسهر وأفلام وحفلات .. نترجاها بالأوبة لحياتنا الماضية الهادئة ، حياتنا

□□□

القديمة ولتبدأ من جديد .

هنا وهو يسمع شكواها من منى خطر لسعد فكرة كانت راودته قديما منذ اصطدم بمنى فقال : لي صديق ماهر وحاذق في التعامل مع البنات والنساء لعله يستطيع نشلها من الأوحال التي دخلتها ؟

فكرت حنين للحظات وقالت : ماذا يفعل معها ؟ ومن هو؟!

ـ من هو؟ هو برهان صاحبي وغير متزوج مع أنه قريب من الثلاثين سنة .. لا أدري هل تعرفينه؟ هو لم يزرنا هنا زارنا عند أمي ، جاء مع أمه ليبارك لنا .. فأمه صديقة لأمي .. كنا جيرانا قبل أن نعمر في هذا الشارع .. إنه شاب ذكي ، وله قدرة على مساعدة الناس وعلى حل المشاكل .. فربما لو التقى بمنى استطاع إصلاحها وإقناعها بالعودة لبيت أمك .. وعلى كل سأتشاور معه في القضية التي تؤرقنا ، فنحن خائفون على منى من السقوط في براثن الرذيلة يا حنين .. والبنت أن تعيش وحدها بدون أهل أو زوج هذا عيب عندنا كما تعلمين .. صحيح هي قريبة من بيت والدتك .. ولكن ألسنة الناس لا ترحم ..

ـ كل هذا فكرنا فيه أنا ومالك وأمي .. فسمعتنا أغلى شيء عندنا يا سعد

ـ ربما استطاع الأخ برهان أن يصل لقلب منى ويتزوجها ، فمنى جميلة ليست بشعة ، وإذا لم يوفق لذلك الزواج قد يستطيع إبعادها عما هي فيه .. فهي تمشي للضياع والدمار!

ـ عرفني عليه قبل أن يتصرف أي شيء يعود علينا باللوم يا عزيزي سعد.

ـ آخر مرة التقينا بها حدثني أنه يفكر بالزواج مثلي ، وأنه يبحث عن عروس ، قد تكون أختك يا حنين ! ونصبح عديلين بعد الصداقة والجيرة القديمة.

كان سعد يعلم قصة منى قبل زواجه من حنين عن طريق أخته عائشة التي كانت حنين تطلعها على مشاكل البيت والعائلة لتسمع رأيها ومشورتها .. ولكنه لم يشعر بخطر منى على زواجه إلا عندما اعترضت على الزواج بشدة ، وأحس بخطرها ومرضها ، ولما تزوج حنينا أدرك أنه نجا من تمردها ؛ ولكنه ما زال خائفا منها ويخشى من أي مشكلة تحصل بينه وبين

زوجته كما يحصل مع أغلب الأزواج إن لم يكن كل الأزواج ، فتتدخل فيها منى وتتدخل في حياتهم.. لذلك أحب أن يفاتح حنينا بما جال في فكره خوفا من حدوث أي تطور لا تحمد عقباه ويحسب عليه .. فهو يعرف قدرات صديقه برهان وسرعة تكوينه علاقات عاطفية مع البنات والنساء ورغم ذلك لم يتزوج لليوم .. فهو يريد أن يدفعه للزواج من منى ، ربما تمكن من الحياة معها وإيعادها لحظيرة العائلة وتخليصها من عقدة الطلاق .. هكذا فكر سعد الدين وكان جادا بفكرته ، فلما طلبت حنين التعرف على برهان أخذ يفكر بالموضوع جديا وعقليا .

فلم تذكره حنين ولا تذكر أنها رأته منذ تزوجا فقال لها : سأناقشه بدوري في الموضوع ، قد يوافق المحترم على الزواج منها إذا وفق في الوصول لقلبها ورضيت به، لعله يساعدها في محنتها فهي في محنة وعذاب صامت .

ـ لقد حاول ربيع ومالك إقناعها بالدخول على طبيب علاج نفسي لكن نفخة الكبر التي لديها تمنعها من الاعتراف بأنها مريضة نفسيا ، والله أنا أحب لها الزواج والاستقرار ببيت بزوج محب لها .. فحياتها بين الخمر والحفلات والسهرات والمسارح حياة لا تسر الصديق قبل العدو ، ونخشى خشية حقيقية أن تنزلق للفجور والفاحشة .. فماذا سيحدث لأمي وأخواي إن سقطت في الرذيلة ؟! .. فالخمر كما هو معروف مفتاح كل شر وخبيث .. فنحن لليوم لا نعلم لها مثل هذه الأفعال الشنيعة ولكن الأيام والانهيار مرعبان .. ونحن لا نستطيع أن نراقبها كطفلة صغيرة طول اليوم .

ـ الله يستر! .. على كل حال الحافظ هو الله وهو صاحب الستر.

ـ السقوط مريع يا سعد .. أتمنى من كل قلبي أن تعود أختي منى لحيويتها وواقعها .. لقد حلمت بأن تكون من رجال الأعمال وأصحاب الملايين بسنوات .. كانت ترى بزواجها من حازم الدرجة الأولى والمهمة للصعود في سلم الثراء الفاحش .. هل أنت واثق من صاحبك هذا ؟ ومن أخلاقه ؟!

ـ كل الثقة ، برهان أمره عجيب مع الحسناوات اللاهيات طبعا ، ما وضع نفسه في طريق فتاة

إلا هويته وعشقته ، فكثير من أصحابنا قديما كانوا يحذرون من إدخاله بيوتهم لم يتركه من أثر على قلوب الفتيات .

ـ أمعقول أن يوجد إنسان فاتنا للنساء بهذه الصورة كما تقول؟!

ـ برهان بهاء وحسن وطول قامة ووسامة مثيرة حقا ، ولولا أخلاقه وأسرته المحافظة لفسد منذ زمن .. ولعل منى تكون من نصيبه وترضى به .

ـ أنا أبدو خائفة على منى منه يا سعد ! أخشى أن تتعلق به كما تصف وتقول ثم لا يتزوجها .



برهان صاحب سعد هو شاب جميل الصورة حقا قوي البنية ذو عيون خضر أبيض اللون جميل الشعر ، هو صاحب صورة حسنة فعلا ، ومنذ كان في المدارس الثانوية وهو مقبول من قبل المراهقات المتحررات ، وله قصص طريفة معهن، ولما انتسب للجامعة استغل هذه الصفات في التفاف البنات حوله ؛ ولكنه لم يدع أنه يحب واحدة منهن أو يعشقها .. إنما هنّ صديقات وزميلات ، فهذه إحدى مساوئ الاختلاط في الجامعات ، ومع عبثه معهنّ فلم تتمكن فتاة لعوب من إقناعه بالزواج ، وقد تخرج من كلية التجارة بمهنة محاسب ، واشتغل في أحد البنوك ، وحصل له من موظفات البنك العزباوات الطامعات بالاقتران به مثل ما حصل له في أيام المراهقة والثانوية والجامعات ، وكان يستغل هذه الخصلة للعبث بهن والتسلية ، كان يدعي أنه أفهم رجل في نفسية وطبيعة النساء ، وكان سعد الدين قد اشتكى له وحدثه عن منى وأحلامها وأوهامها ، ولم يترك شاردة وواردة يعرفها عنها لم يذكرها له حتى يقنعه بهذه المغامرة الحساسة ، كان سعد يرغب بأن يقوم برهان بدور فارس الأحلام الجديد في حياة منى لعلها تنسى فشلها في الزواج وتقترن به أو حتى بغيره .

هو كان يعرف أن صاحبه يدعي أنه لا يريد الارتباط بامرأة ، وأنه ما زال صغيرا على الزواج

مع أنه يقترب من الثلاثين سنة ، وأصابه فرح لما لمح له في اللقاءات الأخيرة بأنه بدأ يفكر في الزواج ، فشجعه على هذه المغامرة الكبيرة والخطرة ، وصارح زوجته بفكرته خوفا من تطورات سيئة فيجد لديها العذر ، فهو يعرف قدرة صاحبه وغروره وتصميمه .

وكانت حنين تحب إنقاذ أختها ، وكانت تخشى عليها الانزلاق في مغامرات ولهو قبيح ، والسقوط في براثن الفجور والشرور ، ومع ذلك كان متوجسة من حيلة سعد أو خطته ، فاللعب والعبث بالعواطف البشرية ليس أمرا محمودا وهينا وسهلا .. فمنى لم يعهد عليها الحب والهوى ، فلولا المصلحة والحلم الكبير الذي كانت تحلم بتحقيقه من وراء حازم ما قبلت به زوجا ، فقد كانت تراه درجة لعالم المال والغنى ورجال الأعمال وغير ذلك من الأسماء الكبيرة .. فمنذ دخلت في سن المراهقة في حي برقوقة لم تسمع لها حكاية أو عبث مع شباب الحي ، بل كانت تحتقر كل فتاة تجعل ذلك هدفا ووسيلة للتسلية .. وحتى عندما التحقت بالجامعة وصحبتها لزملاء الكلية لم تتحدث يوما ما عن غرام وعن إعجاب بشخص ما .. كانت حياتها جادة ولديها أحلام ومشاريع .. ولما بسط سعد الدين المسألة لزوجته فرضيت بهذه المغامرة حرصا على عودة أختها لما كانت عليه قبل الزواج ؛ ولكنها مع قبولها للفكرة كانت قلقة أن تصبح هذه الحيلة حقيقة وينسحب برهان ولا يتزوج بمنى.. جرى لقاء قصير بين برهان وحنين وسعد وأعطته فكرة عن أختها وقصتها ، ووعدها الشاب إن تعلقت به ورضيت به زوجا سوف يتزوجها حقا ، وعلى أثر هذا الاتفاق قام سعد الدين ذات مساء بانتظار منى حتى خرجت من مكان عملها الذي اشتغلت فيه بعد سفر زوجها إلى أمريكا ، وكان يجلس هو وبرهان صديقه في سيارة .. فلما مشت نحو سيارتها الخاصة ـ أشار إليها ـ قائلا : هذه العروس يا سيد الفرسان !

فتأملها برهان من بعيد حيث تقف سيارتها ، ولما اختفت الفتاة وعد صاحبه خيرا .. وهو يقول مطمئنا صاحبه: إن ارتاحت لها النفس يا سعد سأفكر بالزواج منها ..لا تنسى يا سعد أنها امرأة مطلقة.

وافترق الرجلان بعد ذلك ، كان هدف خطة برهان خدمة سعد والفتاة أيضا، وأما الزواج فتركه للظروف والقناعة .. وكانت الخطة في فكره التعرف على منى كما تتعرف على الآخرين ثم يأتي دور العاشق المحب ، قد يتزوج وقد لا يتزوج ، هذا واضح بالنسبة له ولسعد ، أما حنين فكانت ترى أنه دور للزواج من أختها .

كان عليه أن يتعرف على الفتاة ثم يقوم بدور المحب ليقوم على تغيير أفكارها نحو الرجال والمال ، وأن تترك الخمر والعادات السيئة التي تعلمتها من زواجها بالسيد حازم.. المغامرة دقيقة وحساسة هـي تدخل في المشاعر والعواطف.

استهوته المغامرة التي أوحى بها سعد الشاب ، فهو دائما المحبوب المطارد من قبل الجنس الآخر ، أما أن يحب هو فهذا لم يحدث معه من قبل .. فبدأ يدرس القصة والموضوع ويسأل عن عمل الشركة وتفاصيله ومحاولة التعرف على بعض أفراد الشركة ، وقبل أن يباشر المهمة التي كلف بها .. أخبره سعد بتردد زوجته وتخشى تعلق أختها ببرهان حقيقة ، ثم يظهر لها أن هذا مكر وحيلة إذا لم يحصل زواج ، فتصاب منى بصدمة جديدة مدمرة تقضي عليها وأنها ترجوه أن يكف عن فعل أي شيء .

فقال برهان وقد استوعب مخاوف حنين : أنا راغب بالزواج ولكن قد لا تكون هي المناسبة لي ومع أنني كما تعلم لم أوكد رغبتي بالزواج ، ربما هذه الفتاة تحقق لي هذه الحاجة والرغبة وأعزم على الزواج .. وكما تعلم يا أخي الفاضل أن كل إخوتي تزوجوا ، الأكبر والأصغر والذكر والأنثى ولم يبق إلا أنا ، والكل ينتظر الساعة التي أتزوج بها .. فصدق يا سعد! لو أن السيدة منى ربيع أخت زوجتك الفاضلة أحبتني فعلا ، وتأكد لي هذا الحب وقبلت شروطي فسأعقد قراني عليها .. وأنا متأكد يا صاحبي لو أن الفتاة أحبتني كما أريد ستترك ما هي عليه من خمر ودخان وسهر وملابس عارية .. قل لزوجتك أنا مستعد للزواج منها حقيقة .. لا أدري لماذا اعترف بذلك ؟ هل هو الغرور يا سعد والتحدي أم الحمق والجنون ؟!

ـ وعد أن تتزوجها ؟!

ـ وعد أن أتزوجها فعلا إن حدث اتفاق ووفاق .. هي ليست بشعة كما نظرتها وليست جميلة جدا .. هي مقبولة لديّ ، صدق ذلك ، وهي مغامرة حلوة بالنسبة لي ، أنا لديّ أحلام كبيرة ربما تتحقق على يد هذه المخلوقة التي دمرت ولم تعط الفرصة المناسبة .. مما سمعته منكم عن زوجها فهو شخص ضعيف ومتردد ، ولم يحسن المغامرة والمخاطرة .

وعاد سعد يقول : وأنا قلق على النتائج التي ستحدث .. لقد كبر الخوف في نفسي أيها الصديق .. أتعدني ثانية أنك إذا فزت بقلبها أن تتزوجها فعلا ولم تدعها يا برهان؟

فكر برهان لحظات وقال : لا أستطيع أن أعدك يا صاحبي بشيء إلا إذا رضيت بالشروط التي ذكرتها لك .. فربما لا تعجبني أفكار البنت ، وأن يكون عنادها شديدا.. فأنا أقول إن صار بينا ود وتفاهم أحسم أمر الزواج .. فأنا التقيت بكثير من النساء اللواتي يشربن الخمر والدخان والحبوب المخدرة ويقضين حياتهن في اللهو والمسارح والسهر والمهرجانات ومع ذلك ما زلت عفيف الفرج يا صاحبي .. أنا الظروف إذا جاز الاحتكام إليها حكمت عليّ أن أكون فاتنا ومقبولا لبنات حواء ؛ ولكنّ أخلاقي لا تسمح لي بالتغوط في علاقات محرمة .. وأنت أكثر الناس يعرف ذلك عني رغم ما أثير حولي من قصص وإشاعات!

قال سعد كأنه يتذكر شيئا : ربما كلام أختي عائشة عنها ، ثم أثناء خطبتي لحنين ، وعندما يتحدثون عن طباعها وحياتها الخاصة كنت تخطر في بالي وأتسأل هل يستطيع برهان تكوين علاقة عاطفية مع هكذا امرأة ؟! .. امرأة تنفر من الرجال مع أنها تعيش وسط الرجال وترفض الزواج ثانية .. ألحت عليّ هذه الفكرة فحدثتك عن تلك الفتاة المتمردة ، ولما شرحت فكرتي لزوجتي تحمست بداية ثم بدأ القلق والخوف يتسرب لقلوبنا .. وأن تعرف منى بهذا العبث فتدمر حياتنا .. أرأيت كيف اندفعنا في هذا الأمر من غير أن نتروى؟ من أجل هذه الخواطر وغيرها أطلب منك صرف نظر يا أخي العزيز .

ـ أنت تحرجني يا سعد ! .. على كل حال أنا لم أبدأ بعد أمهلني بضعة أيام أعيد تفكيري في الأمر ، أنا لا أستطيع أن ألزم نفسي بزواج غامض وغريب فعلا .

ـ فكر يا صديقي ، الزواج مسؤولية وليس لعبا.. والله أن أسرة زوجتي أناس طيبون ويستحقون كل خير ، وأشعر بالضيق والحرج الذي تسببه لهم تلك الأنثى بتصرفاتها الانفعالية ، فنحن بعدما فكرنا بالمغامرة خشينا إن صدقت منى بالزواج والحب ولم تحسم أمرك أن تصاب هذه المنحوسة بانهيار عصبي فوق ما هي فيه من اكتئاب وتمرد .. خوف في محله.

ـ حسنا أيها الصاحب سأفكر أمهلني يومين أو ثلاثة .

بعد أيام عاد برهان يقول لصاحبه سعد الدين : انتهى الأمر أيها الصديق .. قل لزوجتك إنني أنسحب من هذه المهمة ، لا أستطيع أن أربط نفسي بزواج قد لا أرتاح له ثم يفشل ؛ فسيكون دمارا على منى وعليّ أيضا.

شكر سعد صاحبه برهان عن تخليه عما اتفقا عليه، وأخبر سعد زوجته بانسحاب برهان عن طريق منى.

وهل حقيقة صرف برهان نظرا عن القضية وما كان يخطط له من اصطياد قلب منى ربيع ؟!



برهان لم ينسحب كما ادعى وزعم لصاحبه ، فهو أحب المغامرة وحده وأن يعمل بدون مراقبة ومتابعة من سعد وزوجته ، لقد أعجبته المغامرة وربما غروره استيقظ نحو ما كان يراه من تهافت بعض الفتيات حوله ، وأحس براحة كبيرة عندما علم وتأكد أن سعدا وزوجته اقتنعا بتركه ما اتفقوا عليه ، فهو يعرف ضعف النساء وقلوبهنّ المتقلبة والكثيرة التبدل في الآراء والقناعات ، وهو يعرف حب سعد لحنين، فكم كان يحدثه عنها وعن هواه لها وتمنيه ورغبته بالزواج منها والحياة معها؟! .. فالمغامرات تحتاج لقلب قوي ولعدم تردد " واقدم إذا حق اللقا في الأول ".. فلماذا لا يغامر؟ كان يرى أنه لن يخسر شيئا إذا صدته منى ورفضت هواه ،

وربما يستطيع أن يفوز بقلبها وإنقاذها بهذه الطريقة الغريبة قبل أن تسقط من كبرها وتعجرفها في حفر النوادي الليلة والخمارات ، لو أنها اصطدمت برجل صاحب مال ووعدها بمال كثير ربما سقطت وهوت ثانية.. إنها مغامرة وقال : أحس بأنها مغامرة جديدة بالنسبة لي في السابق كنت كالمصباح الملتهب تحوم حوله الفراشات ، أما الآن فستكون منى ربيع المصباح وأنا أحوم حولها، فهي مغامرة من نوع جديد.. عليّ أن أعطي نفسي مزيدا من الوقت قبل الدخول في هذه المغامرة الغريبة ، وسأتابع جمع المعلومات عن البنت قبل أن أضع نفسي في طريقها .. هي صحيح فتاة مطلقة ألا تفكر في الزواج ثانية ؟! أيعقل هذا ؟! ألا تحلم بأن تصير أما ؟ أليس كل أنثى تحلم بأن تكون أما ولها أطفال؟! إذن لابد من رجل .. ومن أجل ذلك يبحث الرجل عن أنثى ، والأنثى تبحث عن رجل .. وليس كل فتاة يطرق بابها الرجل المناسب وإلا تعقد الزواج في حياة البشر .. ومنى أليست أنثى مها حاولت التشبه بالرجال؟!.. ربما لو كان عندها ولد من طليقها لصرفت النظر عن الزواج الجديد والرجل الجديد ألا يقال "ظل رجل ولا ظل حيط ".. نحن نسمع ونقرأ أن نساء متزوجات يسقطن في الحب والعشق .. ألم تترك فلانة زوجها الذي خلفت منه ست أولاد من أجل غمزة وهمسة من رجل ادعى الوله بها؟! خصوصا إذا لم يكن هناك أخلاق وقيم عزيزة وكبيرة عند أولئك النسوة .. سأتابع دراستها ثم أغامر هذه المغامرة .. منى ربيع اسم جميل .. لها أخ مهندس يعمل في الخليج اسمه ربيع .. ولها أخ آخر اسمه مالك محامي غير متزوج ، وحنين زوجة لصاحبي سعد الدين.. وعاشوا أيتاما تحت رعاية رجل حداد اسمه خليل أحمد .. رجل فاضل محروم من الخلفة والذرية مع تزوجه أكثر من مرة ..وبسبب زواج منى من ابن الثري ناصر أحد أصحاب الأموال الكثيرة في البلد طلق خليل الحداد أم الأولاد التي تزوجها ليكفل أولادها ، وعاشوا سعداء حتى تخرجت منى من الجامعة وتبعها ربيع .. وهذه الشركة التي عملت بها منى أعرفها وأعرف مديرتها ، ولهم معاملات وأرصدة في البنك الذي أعمل فيه مجرد محاسب متوسط ، لست صغيرا معي بكالوريوس محاسبة من جامعة معتبرة في البلاد

بسبب هذا الزواج في نظرهم طلقت الأم ثم البنت .. ثم .. ثم ماذا؟ أتتزوجها يا برهان وتطلقها ؟! .. يا لها من كارثة !! بدأت أرجف من هذه المغامرة أو اللعبة .. الفتيات كثيرات يا رجل فابحث عن حليلة بينهن ودعك من مطلقة.. هل الطلاق جريمة ؟ بالتأكيد لأ .. دعك من هذا الخيال الذي يمخر دماغك ويذهب بك شمالا وشرقا .. منى ربيع ولم لا تكون زوجتي ؟! هل لأنها مطلقة ؟! فالمطلقات كثر هذه الأيام .. هل لأنها انحرفت عن عادات الأسرة وجارت زوجها فتعلمت السكر والدخان لا أتزوجها ؟! .. فتاة لها أحلام كبيرة .. لماذا لا تحلم؟ هل الحلم فقد خاص بالرجال ؟ الطموح أليس هو ممدوح في نظر العقلاء ؟ آه! كم أتمنى أن أجلس معها وأسمع أحلامها وأفكارها ربما تلاقت مع أفكاري وأحلامي وعبثي لابد من الوصول لقلب منى ربيع وأتعرف عليه.. قد تكون نصيبي في هذه الدنيا وتكون زوجة الغد .. أنا أول مرة أفكر بالدوران حول امرأة ! كانت الإناث تدور وتلف حولي.. يا سعد قلبت كياني.. ما زلت على البر أيها الإنسان .. اذهب لوالدك محمود صالح وقل له يا أبي اذهب واطلب لي يد منى ربيع .. قد ترفض وتطردننا ، فسعد أعطاني فكرة رديئة عنها .. أقول له يا أبي أريد أن أتزوج ، ابحثوا لي عن فتاة ، تحركي يا أمي يا أختي يا عمتي يا خالتي.. برهان الذي تنتظرون زواجه يريد الزواج .. ابحثوا لي عن عروس مللت حياة العزوبية .. أريد الاستقرار.. الاستقرار .. ما هو الاستقرار؟ .. هل إذا تزوج الإنسان استقر؟! بل المسؤوليات العظام تزداد.. مصروف زيادة .. مراجعات للأطباء زيادة .. مناسبات اجتماعية زيادة .. زيارة فلان وفلانة .. الاستقرار.. ربما يقصدون فيه العودة من العمل للبيت ، ومن البيت للعمل.. لا سهرات ولا حفلات .. ولعلهم يقصدون السكن النفسي وعدم النظر إلى هذه وإلى تلك .. وقد يقصدون بالاستقرار أشياء أخرى .. لا ، سأذهب للبحث عن قلب منى ربيع .. الفتاة المطلقة أخت حنين زوج صاحبي وجاري القديم سعد الدين.. الله يا ملهم الناس التوفيق وفقني لم فيه الخير؛ فإن كان الطريق إلى قلب منى خيرا فيسره لي يا الله !

الخطوة الأولى

كان عدنان جابر على اتصال دائم بالمهندس ربيع رغم كل المشاكل التي مرّ ذكرها، وكان يلتمس دائما لصاحبه عذرا بما جرى، وكان عدنان يرسل زوجته حليمة إلى زيارة خالتها جميلة باستمرار وحسب الظروف ، فما زال بينه وبين ربيع ود قديم من أيام الحي وبسبب مصاهرتهم لأقرباء جميلة ، فعدنان متزوج من ابنة أختها، وربيع متزوج من ابنة أخيها ، فكان بينهما مراسلات ومجاملات وعلاقات أسرية ، وكان ربيع قد كاشف عدنان برغبته بمساعدة خاله خليل بأي طريقة لرد بعض جميله ومعروفه القديم عليهم ، فيصبره عدنان ويقول له دع ذلك للأيام.

فقد جاءت الأيام ، فذات ليلة اتصل عدنان بربيع المتغرب بالهاتف وأخبره أن زوجة خاله خليل في المستشفى وتعاني من مرض شديد وقديم .. فالموت في انتظارها كما تنتشر الشائعات في الحي ، وكان عدنان قد سمع من ربيع مرة أو أكثر يقول " لو لم يتعجل خالك بالزواج لكنت رددت أمي إليه .. فهي تشعر بأنها ظلمت الرجل بتركه من أجل ابنتها منى .. ولكن الظروف حكمت يومها "

وكان عدنان عندما يلتقي بخاله يحدثه عن أخبار جميلة ، ويلمس في نفس خاله الحنين لهم ، فأحب أن يعرف رأي ربيع إذا حدثت وفاة امرأة خاله المتوقعة ، وهل لدى أمه الرغبة بالعودة لخاله خليل .

فقال ربيع: لا أدري ـ يا عدنان ـ بعد هذه السنوات رأي أمي!.. سوف أتحدث مع أخي مالك ليجس نبض أمه ورأيه أيضا.

ـ ومنى؟

ـ لا تهتم ، فهي اختارت الانفصال عن العائلة ، وتتصرف تصرفات حمقاء ، فنحن ننتظر حتى تتدعثر بابن الحلال وتعود إلى حياة العائلة ، كلنا مستاؤون من سلوكها وانتقامها من نفسها.. لا يهمنا رأيها .. المهم رأي أمي يا عزيزي .. ولنبقَ على اتصال ، فخالك رجل لا يمكن نسيان

فضله ، وهو معذور جدا بما فعل وتصرف تلك الأيام ، وأنا بينت لك ضعفنا وحرجنا الشديد يومئذ في ذلك الموقف الغريب .. أشكرك على هذا الاهتمام .

وما تحدث به عدنان عن تعب زوجة خاله كان صحيحا ، فبعد هذه المكالمة بأيام قليلة رحلت تلك المرأة من الدنيا إلى دار خير منها ، وتلقى خليل قضاء الله بروح المؤمن الصابر، وتقبل فيها العزاء ، وعاد يعيش وحيدا في البيت الذي ورثه عن والده منذ عقود ، وبعد حين يسير فاتحه عدنان بما همس به في أذن ربيع.. فرفض خليل الحديث في هذا الموضوع ابتداء ، ثم بدأ يفكر ويسأل ابن أخته عدنان هل يمكن تحقيق ذلك ؟.

فوعده عدنان خيرا وأنه سيتكلم مع ربيع ومالك في الموضوع ، فبعد تمنع رضي خليل بأن تعود له زوجته جميلة إذا رضيت بالعودة إلى برقوقة ، فهي أكثر امرأة عاشت معه ، فنشط عدنان جابر في الموضوع ، وفعلا استطاع ربيع ومالك أن يقنعا والدتهم بالعودة للسيد خليل ، وجرى تصالح بينهم وعتاب ، ودافع كل شخص عن وجهة نظره وتصرفه تلك الأيام ، ثم تم عقد زواج خليل من جديد على زوجته السابقة جميلة ، وعادت للحياة من جديد في حي برقوقة ، وقد حاولت منى بدورها إفشال هذا المشروع ؛ ولكن مالكا وقف أمامها بحدة وقوة وساندته حنين بذلك ، فتركوا حي الرحمات وهجروه وعادوا لحيهم القديم.. وأما منى بعدما فشلت من صرف أمها من العودة لخليل فرفضت العودة للحياة والسكن في حي برقوقة ، وظلت تسكن في الشقة التي تستأجرها .. وقد بذل مالك جهده الجبار لتعود للحياة معهم ، وأن العم خليلا ليس بينهم وبينه ثأر فأبت أشد الإباء ، وحاول عدنان زوج ابنة خالتها معها ، ووعدها بأن يسعى بالبحث لها عن زوج صالح مناسب لعل الله يهبها منه ذرية طيبة يعيد لها نضارتها وشبابها ، فكانت تحدثهم بحدة وغضب وعدم احترام أحيانا ، ولم تسمع لكلامهم وأفكارهم الضعيفة ، وسخرت منهم ومن كل الرجال ، وختم مالك حواره معها في النهاية قائلا : ماذا أفعل لك يا أختاه؟! تزوجت كما شئت وسكتنا.. وهل حازم هو آخر الدنيا وآخر المطاف ؟ والذي خلق حازما لم يخلق غيره؟ .. وبذل الربيع كل ماله ومدخراته لمساعدتكم في

المصنع الفاشل وسكتنا.. وها هو حازم قد تزوج بعدما تعالج من المخدرات ، وسمعنا أنه خلف ولدا

فصاحت ضجرة : أعرف كل ذلك.. وحازم انتهى من حياتي .

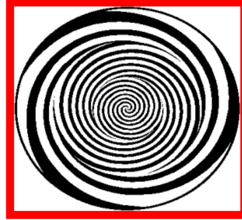
ـ إذن انظري أنت لحياتك ومستقبلك.. فالحياة ليست ضيقة بهذا الشكل .. افترضي هلاكه وموته .. تفكري في نفسك يا أختي! ها هي حنين قد أصبح عندها طفل .. فنحن أناس يحيون على سمعتهم وشرفهم .

فقالت بحدتها : أنا شريفة يا سيد مالك .

ـ وأنا لم أقل غير ذلك .. وأطمئن من هذه الناحية .

ـ وأنا أعرف الشرف أكثر منكم .. اسكن في برقوقة ، وكن مطمئنا من هذه الناحية ، أنا لا يمكن أن أدخل رجلا لشقتي خلسة .. إنني اكره كل الرجال والناس فدعوني .

وحاولت حنين إقناعها بأن تعرض نفسها على طبيب نفساني وتتعالج عنده ، فرفضت وأصرت أنها في عافية ، ولا أمراض نفسية تعاني منها، ولا تحتاج لطبيب نفسي ولا بدني .



هذه الأحداث الأخيرة في حياة الأسرة علمها برهان محمود من صديقه سعد الدين ، فكان يرى أنها تصب في صالح المغامرة التي هو مقبل عليها ؛ ولكن الذي يخيفه في هذه المغامرة أن تتعلق به منى تعلقا حقيقيا رغم ما يقال عنها من قسوة قلب أو بغض لجنس الرجال ، وأنها لا تدع العاطفة تملكها وتسيطر عليها.. فالطموح إذا كان لدى الأنثى لا يدفعها للتصرف كالرجال .. المرأة تبقى امرأة مهما حاولت محاكاة ومشابهة الجنس الآخر بقص شعر ولبس بنطال وتدخين سيجارة .. فكل ذلك تمثيل وتزوير وتشبع بما لم يعط .

لما اكتملت خطة برهان في ذهنه كان قد حسم أمره فقال لنفسه : إذا جرى بينا قبول وانسجام

وتعلقت بي هذه الفتاة سأحقق حلم صديقي سعد الدين وأتزوجها .. ألم يحلم ذات يوم بأن أكون عديله ؟ " رغبتي أن تكون عديلي يا برهان ، أنت صديق غانم " هكذا تمنى يوما .. ثم إنها تتحدى غروري وجمالي .. سوف أتزوج وستوافق أمي وكذلك أبي .. مطلقة مطلقة لن يعترضا على اختياري.. سأبدأ بتنفيذ الخطة .

لما انصرف برهان من البنك بعد الظهر اتجه إلى الشركة التي تعمل فيها منى ربيع ، فكانت شركة للتجارة العامة ، كانت الشركة تتعامل بأشياء كثيرة ؛ ولكن أكثر نشاطها في استيراد الأثاث المكتبي الأوروبي والثريات الضخمة والفخمة التي تعلق في المساجد والصالات الكبرى وصالونات البيوت الكبيرة والواسعة اسمها " شركة شفيق للتجارة العامة " .. الشركة ضمن بناية تتكون من عدة طوابق تشغل الشركة بعضها .. كان مكتب منى في الطابق الأرضي وهو في قسم المراسلات التجارية .. دخل برهان الشركة واتجه حيث تجلس منى مباشرة وحياها ، وكان يتظاهر بأنه جاهل لأي مكتب يسير ويتجه ، وعرفها بنفسه قبل أن تفكر بسبب دخوله عليها دون الآخرين ، وحدثها برغبته بشراء أثاث لمكتب وشقة سيتخذها مكانا لعمل خاص به ، هو وبعض شركائه سينشئها حديثا .. بالطبع دهشت منى لمجيئه إليها مباشرة حتى أن العاملين والعاملات في نفس القسم ظنوه صديقا ومعرفة لمنى ، وهي قد ارتبكت بداية ، ولم تفكر أن هذا المجيء كان مقصودا ، فرحبت به وقبلت السيجارة التي دفعها إليها من غير تردد .

فبعد أن شرح لها حاجته التي ذكرنا بسرعة قال مبررا دخوله عليها : لما دخلت القاعة تطلعت هنا وهناك فلم أر نفسي إلا وأنا مندفع اتجاه مكتبك.. فأريدك أن تفيديني بالأثاث المناسب والأرخص .. أنا أريد أثاثا جيدا وأنيقا لأنني في بداية مشروعي ورأس مالنا على قد الحال .. فمن الجميل والمستحسن أن لا يدفع الإنسان الكثير منه على أثاث ربما لا ينجح المشروع .

فقالت وقد تمالكت أعصابها : نعم هذه ملاحظة جديرة بالاهتمام .. ماذا تعمل وما نوع العمل الذي ترغب به ؟!

ولما مرّ الفراش قريبا منهم طلبت منى منه قهوة للزبون ، فشكرها برهان وهو يحس بنفسه أنه اجتاز الخطوة المهمة .. فشرح لها طبيعة عمله في البنك وأنه مجرد موظف صغير ولديه أمل بفتح مكتب تدقيق محاسبي خاص به مع بعض الشركاء ، أبدت سرورها منه وتمنت له التوفيق ، وطلبت من إحدى زميلاتها مجموعة من دفاتر الإعلانات ويسمونها "الكتالوجات" للأثاث المكتبي ، فقال برهان مستدركا موهما لها بجهله عندما دخل عليها دون الآخرين : إذا لم يكن هذا عملك فأذهب إليها أنا آسف يا سيدتي أنا قصدت النصيحة والاستفادة من خبرتك .

تبسمت منى لاعتذاره اللطيف وقالت : أبدا أنت رجل لطيف .. كلنا في خدمة الشركة.. أنا عملي هنا الترجمة والمراسلات التجارية للشركات الأوروبية أو الصينية والمحلية .. وأهلا بك

ـ أنا اسمي برهان محمود الدين .. كما قلت لك موظف في بنك المدينة الخضراء .

ـ أهلا وسهلا اشرب قهوتك .

لما أقبلت الفتاة التي تقوم بعرض الأثاث على الزبائن ، تناولت منى منها كتيبات الإعلان والنماذج وشكرتها بهز رأسها ، وأخذت تقلب الصفحات أمام برهان الذي قال : أرجو نصيحتك بإخلاص.

ـ أكيد سأساعدك قدر الإمكان .. وسوف أتكلم مع مدير المبيعات من أجلك فأنا أشكر ثقتك بي.. فكل هذه العيون تنظر إلينا يظنون أنك قريب لي وتريد أن توسطني في شراء أثاث

لاحظ برهان نظرات العيون إليهم ، وهو كان يقصد ويسعى لهذا المعنى

الخفي فقال شاكرا : بارك الله فيك .. آسف لإزعاجك

وأخذ يقلب الصفحات وهي تحدثه عن هذا الأثاث وثمنه وذاك حتى استقر على أثاث معين وقال : قد يكون هذا مناسبا .. ما رأيك ؟

تأملته لحظات وقالت : جيد وأعتقد أن ثمنه مناسب لمكتب متواضع .

ـ أيوجد مثله في معرض الشركة ؟

ـ ممكن .. سوف أسأل .

نهضت عن مكتبها حيث الشخص المختص بالموجودات مما يعرض في هذه النماذج ، فقالت الفتاة المسؤولة عن ذلك بعدما نظرت في أوراقها : الآن لا يوجد من هذا النموذج يا منى ؛ ولكن كما أعلم أن صفقة منه في الطريق ربما وصلت الميناء وبقي إجراءات التخليص ثم الشحن .

فقال برهان: ألا يوجد هنا معرض يا آنسة بدلا من النظر إلى هذه "الكتالوجات" والصور؟

ردت منى : يوجد يا ... في الطابق الثاني معرض كبير ؛ بل لدينا عدة معارض منتشرة في العاصمة سوى العملاء .. تفضل إلى فوق .

لا شعوريا أرادت منى أن يبدو لزملائها أن الشاب الذي دخل مكتبها دون مقدمات قريبا لها أو صديقا، فاستأذنت شركاءها في المكتب بضع دقائق ، وصعدت ببرهان إلى الطابق الثاني حيث المعرض الكبير لنماذج وعينات من الأثاث المكتبي والكريستال الثمين والتحف.. وتفرج برهان وتأمل ثم هبطا ثانية وهو يقول : شكرا .. سأمر ثانية .

وعدها بالمجيء ثانية بعد أيام قد يكون وصل النموذج الذي اختاره فوعدته منى خيرا ، وعندما يستقر على الشراء سوف تساعده وتتحدث مع مدير وصاحب الشركة ليعطيه نسبة خصم.

وعاد للبيت مسرورا من مغامرته، وأخذ يفكر بكل ما جرى بينه وبين الفتاة المعقدة ، فوجدها كغيرها من الفتيات ، فقد تعاملت معه بلطف وأدب وهدوء ، وليس كما تصورها من كلام أختها وزوج أختها سعد الدين ، فقد تقبلته سريعا ومن غير نفور ، صحيح أنها تعاملت معه كزبون ، وتعاطفت معه معتقدة أنه إنسان بسيط وساذج يحتاج لخبرة الآخرين ، متحمس لشراء أثاث أنيق ولائق بمكتبه .. ولم تحاول إرشاده لمن يهمهم الأمر للتخلص منه ، بل حاولت خدمته كغريق لجأ إليها ، وبعد أن تذكر كل المقابلة والحركات والكلمات قال : هناك ملاحظتان على هذا اللقاء .. الأولى أنها فتاة لطيفة كأي فتاة عرفتها تحب المساعدة والتعاون ،

□□□

لم تكن متكبرة ولا متعجرفة هي عاملتني بأنني إنسان ضعيف ، وليست عنده خبرة شخص يريد شراء أثاث مكتب مناسب ورخيص .. والثانية أنها كانت مشغولة بنظرات وحركات زملائها في القاعة والذين في نفس مكتبها .. هل هو قلق المطلقات ؟ فهؤلاء يظنون أن كل من تحدث معها عريس المستقبل .. وهي تحسب لنظراتهم ومراقبتهم أمرا .. الآن عليّ الاستعداد للجولة التالية .. هل سأضطر لشراء أثاث فعلا أم اعتذر بأي حجة ؟ لابد من الاعتذار .. زيارة ثانية وثالثة وينتهي الموضوع ، إما أن نصبح أصدقاء أو أعداء .. فسلم أمرك يا إنسان لخالق الأكوان صاحب الشأن الله العلي المتعال . هذه خطوة برهان الأولى ، لقاء سريع مع منى حول الشراء والبيع والأثاث وفتح مشروع أو الحلم بفتح مشروع ، ألم تحلم هي بفتح مشروع ؟ بل فتحت مشروعا ولكنه فشل .. لماذا فشل ؟!



منى ربيع هل ترك في نفسها هذا اللقاء العابر شيئا ؟! إنها تلتقي في العمل الكثير من الرجال والنساء والعاملين ..هل ساءلت نفسها عنه عندما انصرف هذا العابر أم انتهى من فكرها بمجرد مغادرته المتجر؟ .. هو أحبها أن تكون وسيطة وناصحة له.. وهي أبدت استعدادها لذلك رغم أن هذا ليس من اختصاصها في أعمال المتجر المختلفة.. هل كانت تنتظر عودة برهان إليها ثانية كما وعد ؟ .. هل ذكرها طموحه بعمل مشروع بمشروعها القديم ؟ .. هل ذكرتها لفظة " آنسة " عندما لفظها أثناء الحوار بشيء؟.. يبدو لنا أن السيدة منى لم تحمل هذا اللقاء أكثر مما يحتمل .. فهي لم تكترث لهذا اللقاء الذي اعتبرته صدفة وعابرا وعارضا وغير مخطط له بدقة وعناية وتأن وصبر .. فلو كل شخص تلتقي به في المحل أو الدكان أو المسرح ستجعل من لقائه سببا فسترهق بدنها ونفسها منشغلة به وبأحواله وتؤلف له قصة وتفكر بها فلن تنته من ذلك.. ويؤكد لنا أن شيئا من هذا الاهتمام والاحتفاء بهذا اللقاء لم يحدث ، وأن اللقاء تجاري فحسب ؛ فإنها لم تحاول معرفة هاتف الرجل وعنوانه ، وحتى عنوان المكتب الذي سيفتحه ، أو سؤاله أي سؤال شخصي سوى معرفة عمله واسمه ، ولم تعلق على أحلامه ومشروعه بأي كلمة مهمة ، إنما كان همها مساعدته في شراء الأثاث ، ومحاولة الظهور أمام العاملين بأنه معرفة أو أرسله إليها شخص تعرفه ؛ لتستطيع مساعدته عند عقد الشراء وتحصل له بعض الخصم التجاري.. فحتى عندما صعدت به لمعرض الأثاث في الطابق العلوي كان كل كلامها حول الأثاث والمواصفات التجارية للمنتج والأنسب لمكتب صغير ومن صنعه؟ أصناعة محلية أم كلها أوروبية ، ومن الأجود ؟ وانتهى كل شيء بالنسبة لمنى بخروج الرجل من مكتبها .

ومنذ تزوجت أمها ثانية ، وعادت لحي برقوقة لم تزرها ولم تحاول الذهاب إليه ؛ كأنها على عداوة وحقد وبغض لهذا الحي ومن فيه ، مع أن الحي لم يفعل لها شيئا .. لماذا تكرهه؟! لذلك كانت كلما تحدثت معها الوالدة تدعوها لزيارتها والسلام على عمها خليل ، وتتسأل عن عدم

مجيئها للسلام على الرجل الذي رباها وصرف عليها حتى تعلمت وتخرجت من الجامعة ، فتعتذر وهي غير مهتمة برضا أحد ، وتدعوها لزيارتها هي ومالك ، فتسكت الأم وتدعو لها بالهداية وتسلم وتغلق الهاتف ، وكان خليل يرغب رغبة أكيدة بعودة منى لتقر بأنه كان على حق في معارضة زواجها من حازم ناصر بدون موافقة أهله .

فلما تكلمه جميلة عند نهاية الاتصال تراه يبدي رغبته بعودتها ، ويبدي استعداده للذهاب إليها ومصالحتها ، فتشكره جميلة على هذا الاستعداد والهم وتقول له: إن منى التي كان يعرفها وديعة أليفة قد تغيرت بعد الزواج والطلاق .

فيلوذ الأب الروحي لمنى بالصمت ، ويعودون للحديث عن مالك وحثه على الزواج والارتباط بفتاة تقر بها عينه ، فيحدثهم مالك عن رغبته ببناء بيت واسع كبير ، وهو يفكر بشراء بيت قديم وهدمه وإنشاء مكانه عمارة كبيرة من عدة طوابق ، وأنه يتشاور مع ربيع في هذا الموضوع ، ويطلب من عمه زوج أمه أن يساعده في البحث عن بيت في الحي معروض للبيع ، فيعده خليل خيرا وأنه سيبذل قصارى جهده .

لقد كان الهدوء يسم حياة مالك وأمه وخليل ، فقد عاد الصفاء والود القديم ؛ ولكن خلا البيت القديم من ثلاثة أنفار ، ربيع تزوج وسافر للخليج العربي ، وحنين تزوجت وتسكن عند أهل زوجها ، وبقيت منى تعيش وحيدة في حي رحمات .

ولكن كان يقلقهم ويزعجهم عناد منى وإصرارها على الحياة بعيدة عنهم ، وحياة المرأة وحيدة من غير بعل وأهل في بيت مستقل كان يعتبر عيبا في عرف الأسر المحافظة التي ما زالت متمسكة بأهداب التدين ، فمن العيب أن تعيش المرأة العزباء بعيدة على الأقل عن بيت أقاربها وأهلها درءا للشبهات والقيل والقال ، ودفعا للحرج عن سمعة العائلة وشرفها فكانوا يرون حياة منى المطلقة في شقة وحدها أمرا غير طبيعي وغير سوي فهذا ما يزعج الأسرة الصغيرة ، والإنسان الشريف عنده سمعته وشرفه وكرامته تعادل حياته فأي انزلاق يحدث في أسرة مسلمة أو عربية ولو كانت بعيدة عن الدين الحقيقي سيترك أثره على سمعة

العائلة كلها ، وليس الفرد الذي قام بالعمل المشؤوم وخصوصا أهل الأنثى.. فهذا مثير للخوف فعلا في بيت خليل ، الحياة طيبة ، خليل يخرج في الصباح لمحددته التي ورثها عن والده ، وينطلق مالك إلى شركة المحاماة التي يعمل فيها ، وهو يفكر بفتح شركة خاصة مع بعض الزملاء عندما يشتد عوده في سوق المحامين ، وتبقى الأم جميلة لتنظيف البيت وإعداد الطعام ، وتجلس تشاهد التلفاز أو تستقبل بعض الجارات للثرثرة ونقل الأخبار أو تقوم هي بالذهاب لبيوت الجارات أو تزور أخواتها القاطنات في الحي حي برقوقة ، وأحيانا أخرى تزور صبرية أخت خليل أو تستقبلها ، وقبل عودة مالك تعود للبيت وكان مالك يغادر دوامه بعد الظهر بساعتين .



ذهب برهان للشركة التي تعمل فيها منى ربيع كما وعدها بعد يومين، واتجه كالمرة السابقة إلى حيث تجلس منى ، وكان دخوله هذه المرة في الصباح قبل الظهر، فقد أخذ إجازة قصيرة من البنك ، فوجدها تتحدث مع شخص ، فحياها فرحبت به وأذنت له بالجلوس على أحد الكراسي التي أشارت إليها فجلس ، وعادت تتابع حديثها مع الرجل الذي قطعه برهان بدخوله عليهما ، فسمعها تعد الرجل بالمساعدة قدر الإمكان ، فصافحها الرجل وانصرف شاكرا ، ثم استدارت إلى برهان وقالت : أهلا بالأستاذ .. آه لقد نسيت اسمك يا أخي .

ـ إنك تذكريني على كل حال .

ـ أذكرك بالطبع ، لقد جئت راغبا بشراء أثاث لمكتب تدقيق حسابات مالية ولكني للأسف نسيت اسمك فقط لما يمر علينا من كثرة الأسماء .

ـ لا حرج عليك يا أختي العزيزة اسمي برهان محمود .. لقد رأيت في المرة الماضية أثاث مكتب جميل ومناسبا لمكتبي الناشئ في أحد" كتالوجات الإعلان "ا لتي عرضتيها عليّ ، ولما

سألت الموظفة المسؤولة عن ذلك النوع قالت لا يوجد الآن منه ، وبعد أيام سيكون موجودا ويصل من الشحن والتخليص للمعرض .. فأسرعت إليكم ربما يكون قد وصل وأكون زبونا .

ضحكت منى وقالت : أهلا وسهلا .. انتظر لحظات حتى أسال لك عنه

غابت بضع دقائق ثم عادت تقول : للأسف لم يصل بعد يا أخ برهان .. على كل حال أعطني رقم هاتفك ولما تصل الكمية وتجهز للبيع أتصل بك .. ما رأيك ؟

ـ أخشى أن يكون في ذلك إزعاج لك .. وأخشى أن تنسيني أثناء أشغالك الكثيرة .. لا بأس سأمر عليك مرة ثالثة ..

ـ أبدا لا تعتذر عن إزعاجي .. نحن في خدمة الناس المحترمين يا سيد برهان .. لا يكلفني الاتصال شيء ، فأنا أحببت خدمتك ونصحك كما طلبت مني، والنسيان وارد ولكني سأبذل جهدي ألا أنساك. وكتبت شيئا على ورقة أمامها .

وأخذ الشاب يشكرها ، ويثني على خلقها وتعاونها ، ويتعذر من إزعاجه لها، وهي أيضا تبادله التعذر، وأنها تقوم بواجبها ولا تنتظر جزاء ولا شكورا ، إنما تقصد المساعدة والمعونة والنصيحة ، وتظاهر بأنه لا يريد إعطاءها رقم الهاتف ، مبديا استعداده للمرور كل يومين أو ثلاثة مرة ، فأصرت منى على أخذ رقمه وأنها ستتذكره فور وصول هذا النوع من الخشب والأثاث للشركة ، فأعطاها رقم هاتف البنك حتى تتصل به في النهار ؛ لأنه لا يكون في البيت أثناء عملها لتتصل به ، وذكر لها أنه أعزب بعد ، فعندما ينهي عمله يذهب هنا وهناك مبررا لها بذلك عدم إعطائها هاتف منزله ، وقدم لها السيجارة وأسقته هي القهوة مرة أخرى ، وحاول الاعتذار عن شربها ، ولما رأى ترحيبها وإصرارها تظاهر بالاستحياء ، وشرب القهوة وغادر الشركة وعيون الموظفين ترمقه باستغراب ، ولما انصرف قالت إحدى العاملات لمنى : من هذا ؟!

تطلعت إليها منى بطرف حاجبها وقالت : صديق يا عزيزتي أمل .. معرفة موظف في بنك

المدينة الخضراء يريد تأثيث مكتب ، له أصدقاء يحاولون إنشاء مكتب تدقيق حسابات .. فأرشدته لأثاث معين عندنا ؛ ولكنه للأسف غير متوفر هذه الأيام .. لا أدري لماذا ؟!

ـ أنا آسفة إذا ضايقتك بالسؤال .

ـ لا يا حبيبتي ، أنا كما تعلمين ليس من اختصاصي البيع والعرض ؛ ولكنه يخصني فيأتيني فأنا أقوم على خدمته مجاملة للمعرفة فلا تشغلي فكرك .

ـ أشغل فكري ! أنا متأسفة مرة أخرى يبدو أن الحديث معك معصية.. سلام.

ـ مع ألف سلامة يبدو أن الصراحة قاتلة سلام وخبري الجميع بما قلت .

ـ أنت حساسة أكثر من اللازم يا منى .. أنا لم أقصد سوءا عندما سألت عنه قد يكون الفضول .. آسف .

ـ حياك الله .. قصدك سوءا أو خيرا حياك الله

ـ والله أنت عجيبة يا منى وتتعصبين بسرعة !

وأخرجت علبة الدخان وأشعلت سيجارة وتظاهرت بأنها مشغولة بأوراق أمامها فتيات اليوم يدخنّ كالرجال ، وربما أكثر من الرجال، فتقليد الرجال أصبح لديهن دين وتقدم ، حتى لو كان التقليد قتل النفس، فلم يكفيهنّ التقليد باللباس وقص الشعر، فتقليدهن بأشياء كثيرة بالدخان والخمر والسهر ولعب الورق وكرة القدم .. عافانا الله وإياكم من الجهل والتقليد الأعمى .

انتظر برهان ثلاثة أيام أخر ولم تتصل به منى ، فأدرك أنه لم يترك لديها أي تأثير حتى ولو للثرثرة ، فهي تتعامل معه بحدود الصفقة والعرض والزبون ، فقال مفكرا : أنا ظننت أنها طلبت رقم الهاتف لتبدأ علاقة جديدة معي .. صداقة .. أنا فعلا مغرور.. أنا لاحظت اختلاس نظراتها نحوي وأشرت لها بأنني عازب .. كل هذا لم يحرك ساكنا في قلبها .. أنا لم أتعود أن أطارد الفتيات ، تعودت أن تطاردني الفتيات يدرن حولي .. لماذا لا تحوم هذه حولي؟! هل تعرف عني شيئا؟ هل حدثتها حنين بهذه الفكرة الجنونية وأنها تعرف أنني ممثل ؟

لا تفعل حنين ذلك ، فهي تخاف أختها بل مرعوبة منها.. فعندما تتحدث عنها كانت تتحدث وكأن وحشا أمامها .. تتكلم عنها بخوف وقلق.. أنا وإياك والزمن طويل كما يقولون .

ظهر اليوم التالي اتصل برهان بالشركة من البنك ، وطلب منى وذكرها بنفسه فقالت : أهلا بك ولكن كيف عرفت اسمي ؟!

تضاحك وقال : سألت أحد العاملين عندما كنا في المعرض في الطابق الثاني عندما لاحظت أنك لا ترغبين بتعريفي بنفسك .. أنا آسف إذا أزعجتك ولكن لي ثلاثة أيام أنتظر الاتصال فلم يحصل فظننت أنك نسيتيني من تكاثر العملاء.

ـ لو حصل شيء يا أخ برهان لاتصلت بك ، فأنت أصبحت معرفة وصديق .. أهلا وسهلا وإذا وصلت تلك البضاعة سأتصل بك .. سبحان الله ! اخترنا شيئا فإذا هو غير موجود .. ما رأيك أن تختار نوعا آخر من الموجود ؟ وسوف ادع أبا محمد شفيق أن يخصم لك ويساعدك على أنك قريب لي.. نحن المشكلة عندنا أننا لا نبيع بالقسط يا أخ برهان

ـ أشكرك يا أخت منى حتى لو لم نشترِ من عندكم ، فتكفينا معرفتك وصداقتك وشهامتك أشكرك الشكر الجزيل ، وعندما نفتح المكتب إذا أحببت أن أدعوك لحفل الافتتاح المتواضع فيا مرحبا بك فلن أنسى مساعدتك .

ضحكت على الهاتف وقالت : لم أفعل شيئا يا أخ برهان ، أنت رجل محترم ، وأنا في خدمتك ، على كل حال ابحث في معارض الأثاث الأخرى قد تجد ما لم تجده عندنا ، وإذا لم توفق فاتصل بي حتى إذا جاءت الشحنة المنتظرة سأتصل بك .. أما إذا كنت تريد نموذجا غير الذي شاهدناه في " الكتالوج" .. تعال وسأساعدك عند صاحب الشركة شفيق .

ـ لا ، أنا أعجبني اختيارك ومتفائل به ، فشكله جميل وحجمه جيد ورخيص في نفس الوقت آ .. أأدعوك لحفل الافتتاح الذي سيكون قريبا إن شاء الله .. فأنا عاجز عن شكرك .

ضحكت ثانية وقالت : أنا لم أفعل شيء بعد

ـ لا ، لقد فعلت الكثير ، يكفيني أنك لم تكشري في وجهي ، وهل أنسى فناجين القهوة التي

قدمتيها لي .. لا أعتقد أن أي زبون يدخل عليكم يحصل له ما حصل لي .

ضحكت منى أيضا وقالت: هذا لطف منك يا سيد برهان ! على كل حال معرفتك مكسب كيف سيكون هذه الحفل الذي تدعوني إليه ؟

ـ كما يحتفل الآخرون .. ولكن حفلنا سيكون صغيرا ومقصورا على بعض الأصدقاء من أصحاب الشركات والمصانع .. وأنت اعتبري نفسك منهم .

ـ شكرا أخجلتني يا برهان! .. كأننا نعرف بعضنا منذ سنوات.. إنهم يريدون الهاتف آسف يبدو أن الحديث طال .. هات رقم بيتك سأكلمك في البيت .. شكرا لك وربما أدعو نفسي لحضور حفل الافتتاح ـ نقلت الرقم ـ شكرا .

ووضع كلا الطرفين السماعة ، وأخذ يمسح العرق المتصبب عن جبينه ، وهل هذا بداية علاقة غرامية؟.. لحتى الآن لا ندري ، ممكن أن يكون ذلك ، وممكن أن يكون غير ذلك .. فالكلام كله يدور حول العمل والأثاث وحفل الافتتاح .

دعيت منى لمكتب المدير وعاتبها على طول مدة الاتصال ، فتأسفت له وأخبرته أن المكالمة أتت إليها من الخارج ، ليست هي المتصلة ، وأنها استحت أن تقطع الحوار ، فصرفها المدير منبها على اختصار المكالمات سواء الواردة أم الصادرة ، أما برهان فكان الاتصال عبر مقسم فلم يثر إزعاج لدى البنك ، ولما عاد الهدوء لنفس برهان قال : هل وقعت السمكة في السنارة أم لا ؟ الأنثى ستبقى أنثى .. أي صبية من غير زوج يحلو لها الكلام والحديث مع رجل ، ولو لم يكن في الهوى والغرام والزواج .. أعود للسؤال الكبير.. هل أتزوج من تلك المرأة ؟ من تلك المطلقة؟ من سيعترض من الأهل والأصدقاء؟

بعد أيام من الاتصال الأخير اتصلت منى ببيت برهان ، ولم يكن في البيت تلك الساعة ، ولم تترك له لحتى الآن رقم هاتف بيتها ؛ فإنها ما زالت المكالمات متعلقة بالتجارة والبيع وفتح المكتب.. لما أنهى أعماله في الصباح التالي في البنك اتصل بالشركة واعتذر لها عن عدم وجوده في البيت ، فقبلت اعتذاره وقال لها: إنه سينتظر مكالمتها في التاسعة ليلا حتى لا يطيل عليها .

فرحبت بذلك وأغلقت الهاتف وهي مسرورة بهذا التصرف ، فهي خشيت أن يطول الحديث كالمرة الماضية ويحدث إحراج وإشكال .

في التاسعة ليلا كانت منى تتصل ببرهان وأخبرته أن الأثاث المنشود قد وصل بعد أن سألت عن أخباره وصحته فلما قالت ذلك ، قال بنغمة حزن : هذه الأيام حدث إشكال ، ربما يتأخر فتح المكتب وشراء الأثاث بضعة أيام ، ولما سألت عن سبب ذلك .

قال لها : إن أحد الشركاء انسحب ، فبقي هو وشريك آخر وقال أيضا : إن تأخير هذا الأثاث كان خيرا لهم ، ولو اشتروه لأصبح من الصعب انسحاب الشريك الثالث لظرف طارئ يمر به.. فنحن كما تعلمين يا أخت منى بالكاد دفعنا الإيجار لنصف سنة وخلو رجل المأجور .

فأبدت أسفها لما حدث وعقبت قائلة : كما يقال كل تأخيرة فيها خيرة ..

ـ يظهر هذا .. أنا قد قمت بإجراءات ترخيص المكتب ، وعلى وشك الحصول على التصريح اللازم لمزاولة المهنة .. على كل نحن نبحث عن شريك ثالث ، فنحن نحاول إقناع زملائنا في البنك ، كان يسرنا أن تشرفيننا في حفل الافتتاح الذي كنا نحلم به.. أحيانا الأحلام لا تتحقق بسهولة ويسر يا أخت منى

ـ أكيد

ـ ولكني استفدت من هذا المحاولة أنني تعرفت عليك يا أخت منى .. رغم أنني لم أرك إلا مرتين ؛ ولكنها تركت في نفسي أثرا لا ينسى يا آنسة منى .

ضحكت منى وقالت : أنا لم أفعل شيئا يا أخ برهان ولكنك شاب نبيل .. أنا مستعدة لأي خدمة ، ولو كان لديّ معرفة بالمحاسبة لربما شاركتكم في مشروعكم .. فعندما تستقر أموركم فأنا على استعداد لأي مساعدة تطلبونها منى وشكرا .

ـ انتظري يا أخت منى! أنا راغب بشكرك بطريقة عملية إذا تكرمت عليّ بالموافقة على عشاء بسيط في مكان جميل .

عشاء عمل

منى لقد كان لقاؤها بالسيد برهان بالنسبة لها أمرا طبيعيا ، فهي لم تفكر بعلاقة عاطفية .. كانت تراه صديقا وزميلا مثلما كانت تفعل أيام الجامعة وأيام عملها في شركة عبير ناصر ، فهي مهيأة لقبول أي صداقة بريئة ، ولم تنظر لبرهان على أنه يدور حولها أو يقوم بدور معين لتحبه وتهيم به .. فكلامهم كله حول العمل والصداقة .. فهي منذ التقت بزوجها السابق حازم وهي تعرف الذهاب للمطاعم والمسارح ، فمنذ أن أصبحا صديقين كما يقولان وهي ترافقه وتصحبه بزيارة لبعض مصانع والده ، وأهلها لم يحاولوا الاعتراض ، فكانت ترى هذا من طبيعة الانفتاح على الجنس الآخر ، ولا فرق بين رجل وشاب ما دام كل شخص ملتزما حدود الصداقة ، فهي لم تعتد لبس الثوب الشرعي بل تخرج سافرة متبرجة ، لم يكن التدين وتحكيم أمر الله نبراس الأسرة ، فهم كعامة الناس متساهلون في حدود الدين بل يمكننا القول أن التدين أضحى أمرا شخصيا فقط ، كتبت هذا الكلام ليعرف القارئ أن قبول منى للعشاء مع برهان وغيره أمر اعتيادي.. فهي منذ دخلت الجامعة ودخلت سوق العمل وتقابل وتتحدث مع الرجال دون حرج وتمييز .. وحتى لما أحبها حازم نائب مدير الشركة تعاملت معه بعاطفة باردة ، وإنما كان حبها له مصلحة وأملا وهي لم تنكر ذلك ، ولما اقترنت به كانت تجلس مع أصحابه وزوجاتهم وتتقبل دعواتهم وسهراتهم ، فلم تكن تشعر بحرج وضيق وتردد .. فتجلس مع الرجال وتتحدث معهم براحة تامة ، بل تعلمت منهم الدخان والسكر واللهو والرقص ، فهي لما تلقت دعوة برهان وقبلتها كانت عندها من هذا الباب .. دعوة صديق وليس دعوة غرام وعشق ، فهي لم تكن حتى هذه اللحظات تدرك أنها تسير إلى قصة حب وزواج .. فلقاؤها بالرجال منذ سبع وثمان سنوات أمرا غير مثير لها.. فالاختلاط مباح وحتى الخلوة ليس لها اعتبار عندها.. فكما هو معروف للإنسان إذا اعتاد الجلوس والحديث مع الجنس الآخر ذهب الحاجز النفسي والخوف من هذه اللقاءات .

لذلك ذهبت للموعد المضروب بينهما بكل ثقة وطمأنينة ، وعلى إحدى موائد المطعم التقيا ،

وجرت بينهما المجاملات التي تحدث بين الأصدقاء منذ زمن بعيد .. وبذل برهان قصارى جهده ليقدم لها أفضل مأكول ، وهي مستغربة لهذا الكرم والجهد في الحقيقة .. فهي لم تعمل له شيئا مهما سوى أنها حاولت مساعدته في شراء أثاث مكتب ، وعندما وصل الأثاث المعين تأجل أمر شرائه ، وتقبلت الأمر دون ريبة وشك ، حتى لم تفكر بالطريقة التي دخل عليها برهان ابتداء هل هي صدفة أم مرتبة ومقصودة ؟ .. ودار الحديث بينهما أيضا أثناء الأكل حول المكتب والمشروع ، فعاد يشكو لها انسحاب أحد الشركاء والشريك الآخر ازداد تردده بعد انسحاب الزميل الثالث فسمعته يقول : يبدو لي أنه يفكر بالانسحاب ولكنه مستحي مني للزمالة والصداقة ولبعض الأموال التي قمنا بدفعها .. فأنا بدأت أفكر بتأجيل المشروع وأن أتحمل جميع الخسائر وأصبر بضع سنين أخرى وأفتح مكتبا وحدي .. فالشركة تركة .. أليس هكذا يقول أصحاب الأمثال ؟ مع أن أكثر الشركات اليوم شركات مساهمة فيها آلاف الشركاء .

ضحكت منى لخاتمة كلامه وقالت : هذا مثل " موديل " قديم قبل أن يعرف الناس البنوك والشركات المساهمة الكبيرة .. ولكن شركتك ينطبق عليها مثلك القديم

فتبسم الشاب وقال : جائز .

فتابعت منى قائلة : الشركة اليوم مهمة ، فالمشاريع غدت ضخمة بل هناك شركات تتكون من مجموعة من الشركات .. الآلة كبرت المشاريع ؛ ولكن ضبط الإدارة والنظام والتعليمات يؤدي كل ذلك لحسن الإدارة والنجاح .. المهم الإدارة القوية.. وألا تكون تحت ضغط الشركاء فقد تنجح يا سيد برهان .. ولولا قلة ما أملك يا سيد برهان وجهلي بالمحاسبة لشاركتك ، فأنت إنسان محترم وقد ارتاحت نفسي إليك ، وأنا أحب الشباب الذي لديه طموح ، ولا يكتفي براتب آخر الشهر والراحة .. ولولا أنني لا أحب القروض البنكية لنصحتك بأخذ قرض من البنك .. ولكن القروض إذا لم يوفق الإنسان في البداية وسريعا تكون عليه نقمة وعبء شديد ؛ ربما تحرقه وتدمره .. هذه البنوك وأنت ابن البنوك تعلم أكثر

مني أنها لا ترحم العميل إذا خسر أو فشل العمل .

تظاهر برهان بمعرفة خطر القروض البنكية وقال : أعرف ! .. كم بكى بعض العملاء عندما خسروا مشاريعهم وعقاراتهم وأحلامهم عند المدير .. فالقرض البنكي إذا لم يسدد حسب الاتفاق يزيد ويتضاعف ومن ثَم المحاكم .. فتحجر على عقار الشخص وأملاكه وماله .. فالقروض البنكية مصيبة.. وأنا شاكر لك جدا نصيحتك .. فأنا أقول أن أكبر فائدة استفدتها من محاولة فتح المكتب القانوني .. المكتب الحلم هي أنت التقائي بالأخت منى ، وتعرفي على إنسانة مثلك.. مع عدم معرفتنا السابقة لبعض أبديت أريحية لمساعدتي والتعاون معي دون سابق لقاء .. وأنا أيضا أعبر لك عن سعادتي لهذا اللقاء وقبول هذا الغداء المتأخر.. فأنا أحب حقيقة سد بعض معروفك .

ابتسمت منى وقالت : يا رجل ، أنا لم أفعل شيئا لأسمع الكثير من الشكر ، وأنت لم تشتر الأثاث .. ولكن كما قلت أحسن فائدة من وراء هذه المحاولة أن تعارفنا.. وأنا ليست لديّ عقدة للتعرف على الرجال والنساء .. فأنا اشتغلت في شركة غير التي تعرفنا من خلالها ، وكذلك فتحت مرة مشروعا كالذي تحلم به ؛ ولكنه خسر وتورطنا مع بعض الشركات والبنوك .

كان برهان كما نعلم يمثل ويكذب ، ولم يشرع في أي مشروع ، إنما اتخذ المشروع ذريعة لفتح حوار مع السيدة منى ربيع ، وقد نجح في ذلك وها هو يدعوها لغداء أو عشاء فسمه ما شئت أيها القارئ العزيز فتقبل ، فلما أشارت منى لمشروعها الفاشل تساءل صاحبنا برهان متصنعا الدهشة فقال: مشروع وفشل ! فإذا لم يكن لديك مانع فإني أحب أن أسمع .

سردت عليه قصة المصنع الذي أنشأته مع زوجها السابق حازم ، ولما انتهت القصة ، قال برهان متصنعا الدهشة ثانية لأنه يعرف الجواب : أمتزوجة أنت ؟!

نظرت إليه وصمتت لحظات وقالت : كنت !.. فشل المشروع الذي بنيت عليه آمالا كبارا ، وفشل الزواج الذي أيضا بنيت عليه آمالا كبارا أيضا .. هؤلاء الأثرياء الكبار عندهم حقد

وحسد مخيفان .

ـ لك حكاية يا أخت منى ..وهل أفهم أنك تعيشين من غير زوج ؟

ـ لقد أجبره أهله يا سيدي على طلاقي ، أنا آسف لحديثي معك في أمور خاصة ؛ ولكن توقف مشروعك آثار أشجان عندي أيها الصديق .. فأحيانا العجلة وعدم التفكير المتأني في المشاريع الكبيرة والأحلام الكبيرة يفسدها ولا تحقق المرجو منها.. الصناعة تحتاج يا أخ برهان إلى معرفة شاملة بالمشروع .. وتحتاج لفهم جيد ومتقن للتسويق .. ربما أمور المكاتب المحاسبية تختلف عن الاستثمار الصناعي ، حتى لا تعتقد أنني أحاول إحباطك عن مشروعك أو حلمك كما تقول .

ـ أكيد فالمكاتب لا تحتاج إلى آلات كثيرة وكبيرة .. هي طاولة وخزانة وهاتف وقطع من الكراسي وآلة كاتبة وعلاقات عامة مع الأصدقاء وأصحاب الشركات وقليل من الدعاية والسمعة .. ورأس مال صغير .

نهضت منى بعدما وضعت علبة سجائرها وقداحتها في حقيبة اليد النسائية وهي تقول : شكرا يا أخ برهان على هذا الطعام والغداء بالنسبة لي ، وربما يكون عندك عشاء ـ وضحكت ضحكة قصيرة ـ والآن اسمح لي بالعودة للعمل والشركة

ـ تتأخرون في الدوام ؟

ـ للتاسعة ليلا في أيام الصيف هذه .

فنهض برهان وهو يقول : شكرا لك أيضا على قبول غداء العبد الضعيف برهان .. وأنا أرغب فعلا أن نصبح أصدقاء إذا لم يكن لديك مانع .

ضحكت وقالت : ها نحن قد صرنا أصدقاء .

ـ قصدي أن يتكرر اللقاء.. فربما استفدت من أفكارك وخبرتك ، وربما تشاركنا معا في مشروع

ـ أنت تعرف عنواني ، وعندما تحتاج لمشورتي وخبرتي كما تتدعي فاتصل بي إن شئت .

ـ أنا ممنون لك يا سيدتي !

ـ إلى اللقاء ..

ـ أهلا بك وشكرا مرة أخرى على قبول الدعوة .

انصرفت منى إلى عملها وهي تعتقد أنها اكتسبت صديقا جديدا أضافته إلى قائمة المعارف والأصدقاء ، وعاد برهان لبيته مفكرا بما حصل من تطورات ، وهو يقول محدثا نفسه: إنها تحب الحديث عن المشاريع والعمل أكثر من الزواج والعواطف ألا تفكر بي عاطفيا؟! .. لم ألحظ شيئا في هذا الاتجاه ، هي أقرت أنها مستعدة لعمل أي صداقة مع أي شخص يروق لها وليس مع برهان وحده .. فهل أنا مجرد رجل في حياتها ؟! ألم أترك في نفسها أي أثر عاطفي ؟! أعندها برود عاطفي شديد ؟! .. لم تتحدث عن حب وزواج وكيف تزوجت حازما ؟ المشاريع إنها تفكر بالمغامرة معي بالمشروع ؛ ولكنها مترددة بحسم الأمر .. هل أصارحها بأمر المشروع ؟ وأن المكتب ليس مشروعي الآن ، وإن راودني حلم أن أفعله ذات يوم ، وأقول لها إنك أنت مشروعي الحقيقي ؟ هل تتقبلني وتغفر لي هذه الوسيلة للوصول لقلبها ؟!

بعد هذا اللقاء على الغداء اتخذ برهان فرصة للمراجعة والانتظار عدة أيام لحسم الأمر معها ، لقد قرر الزواج منها إذا قبلت به زوجا .

هل ترك هذا اللقاء وهذه الدعوة وما قبلها من مقابلات في المحل واتصالات أثرا في نفس منى؟ هل خطر على بالها الحب والزواج من برهان ؟ هي تحدثت عن زواجها الفاشل ولو باختصار ، ولم تبدِ نقمة وحقدا إلا على والديّ زوجها ، وهي تحملهم فشل الزواج وفشل المصنع .. أراد الانتظار بضعة أيام لينظر ويرى هل ترك هذا اللقاء الطويل أثره على السيدة منى ربيع؟ هل تتصل به منى وتسأل عنه وعن أخباره أم أنها نسيته وتجاهلته بعد خروجها من باب المطعم؟!

مضت عشرة أيام ولم يحصل ويحدث أي اتصال بينهما ، هو لم يتصل بالشركة ، ومنى لم تتصل به في البيت ؛ لأنها تعرف رقم هاتف البيت ، ولم تتصل به في البنك ، فعقب برهان على هذا

بعد هذا الصبر فقال لنفسه : أنا مجرد رجل عابر سبيل كأي رجل التقته في سنواتها الماضيات.. لم أترك لديها فكرا .. هل تعرف شيئا عن علاقتي بسعد الدين زوج أختها وتمثل دور الجاهل والماكر معا ؟ هل أتصل أنا ؟ يبدو أن الطبخة لم تستوِ ولم تنضج الثمرة .. المشكلة أنني أريدها هي أن تحدثني عن الحب والهوى كما كانت تفعل بي الفتيات من قبل .. ولكني المرة هذه أنا الذي يريد إيقاعها في حبي .. دنيا ماكرة ..الصبر جميل .. هذا زواج أيها الإنسان وليس قصة غرام أو مسلسل في تلفزيون .

وانقضت أيام أخرى ولم يأت الاتصال المنشود والذي يتوقعه برهان ، وقد يكون حلم به أيضا في منامه ويقظته .. أليس هو فارس الصبايا والوسامة والمصباح الذي تحوم حوله الفراشات لتحترق؟! .. إذن منى فكرت به كصديق فحسب ، فقرر أن يتصل بها ؛ ولكن قبل أن يتخذ القرار الجازم توعكت صحة أمه ، ودخلت المستشفى، فأجل المغامرة النهائية .. قضت الأم أكثر من عشرة أيام في المستشفى .. ومع مرور هذه الأيام العشرة لم يحدث اتصال من منى ببرهان ؛ ولكن ذكرت له إحدى أخواته مرة أن امرأة اتصلت تسأل عنه مساء ولم تذكر اسمها ووعدت بالاتصال ثانية .. فوقع في نفسه أنها منى ربيع فظل على أمل الاتصال .. وقد شعر فارسنا شعورا غريبا وهو أن وسامته وجماله اللذين كانا محل افتخار وغرور منه لم يؤديا ما يطمع منهما .. فمنى غير كل البنات اللواتي صاحبهنّ والتقى بهنّ ..فهما لم يؤثرا بتلك المرأة مع أنها مطلقة فها هو شهر يكاد أن ينصرم ولم تسأل عنه.. ولم تفكر بالاتصال به .. ربما فكرت ولكنها مستحية وهو يقاوم .. وفي قرارة نفسه كان سعيدا بفعلها هذا ، وأن منى ليست ساذجة وسهلة الاصطياد ، ورغم ما تمارسه من انحلال فلديها جدية .. وبعد أن هدأت عاصفة مرض والدته وخرجت من المستشفى سالمة وانشغالهم بها كل هذه الأيام.. التقى بسعد الدين الذي عتب عليه لعدم إخباره بوجع أمه ، فاعتذر له برهان بالنسيان والانشغال ، وظن أن بعض أخواته لابد أنها تحدثت مع والدته لمَ بينهم من الصداقة والجيرة وإن تباعدت المساكن منذ سنوات .

وساق برهان الحديث عن منى وأخبارها ، وهل تزوجت ثانية ؟ فأعلمه سعد أنه منذ رحل أهلها من حي الرحمات ، وعادوا لبيت خليل في حي برقوقة لم يرها ولو مرة واحدة .. لأنها رافضة الحياة معهم وترك ما هي فيه من سكر وسهر وسينما .. فلم يعد يصادفها كما كان يحدث معه في حي رحمات .. لأنه كلما كان يذهب بزوجته لزيارة أمها وأخيها ، تحضر منى للسلام والجلوس مع أختها فيلتقيان .. فأخبارها كما هي ؛ ولكنها مازالت عازمة ومصرة على الحياة بعيدا عن أهلها أو حي برقوقة بالذات لماذا؟ لا أحد يعلم سبب حقدها على برقوقة .

ثم أخذ يحدثه عن الحداد خليل وطيبته وبساطته وسماحته ، وكيف ربى أولاد أم ربيع ، ودرسهم حتى كبروا وصاروا يعتمدون على أنفسهم؟ وما زال لا ينتظر منهم جزاء ولا شكورا.. وحدثه عن حي برقوقة وحب الناس فيه لبعضهم وتعاطفهم مع بعض بشكل ملفت للنظر، وحدثه عن مالك شقيق منى وحنين زوجته وانشغاله بشراء بيت لإنشاء عمارة كبيرة عليه.. ولما انصرف سعد بوالدته التي كانت تقوم بزيارة أم برهان التي تعافت من سقمها ، قال برهان لنفسه : لا جديد في حياة منى ، لا أخبار عنها .. حسنا يا ابنة الكرام ! سأستمر في هذه اللعبة

لم يأتِ الاتصال من الفتاة التي حدثته عنها أخته ، فذهب ظنه أنها فتاة أخرى لم تكن منى .. فاستعد للقاء آخر مع منى ربيع الفتاة المتمردة على تقاليد العائلة ، وتحاول أن تستفيد من الحرية التي شاعت بين نساء القرن العشرين بأكبر مساحة وطاقة .. ثلاثة لقاءات وعدة اتصالات لم تحدث شيئا .. اتصل كعادته من البنك ، وجرت المجاملات والاعتذارات اللازمة ودار الحديث من جديد حول المشروع التجاري الذي يرغب السيد برهان بإنشائه ، وادعى أنه وجد شريكا ثالثا وهم يستعدون لفتح المكتب من جديد وربما يشترون الأثاث المزعوم قريبا ، وأنه اتصل بها ليعلم إذا ما زالت راغبة بمساعدتهم على الحصول على ذلك الأثاث السابق الذكر ، وفي نهاية الحديث دعاها لغداء آخر، فحاولت الاعتذار ابتداء ولكنه أصر وأنه سيتحدث معها في موضوع مهم.. فرحبت بذلك .. ولما طال الحديث تعرضت لعتاب جديد

من صاحب الشركة .. وغادرت الشركة غاضبة وهددت بتقديم استقالتها ..

وكان أبو محمد شفيق قال لها : أنت عصبية أكثر من اللازم اليوم يا منى .. هذا شغل .. لو كل مكالمة منا أو مستقبلة تأخذ هذا الوقت لتعطل الشغل .. وإذا أنت غير مرتاحة للعمل معنا قدمي استقالتك وبدون تهديد ، واذهبي لحسام وخذي حسابك.. نحن نقدر ونحترم قدرتك على العمل ومتابعة المراسلات أرجو أن يكون كلامي واضحا لك .

ولما انصرفت غاضبة مكثت يومين غائبة عن العمل ، ولما رجعت سألها المدير عن سبب تغيبها، فزعمت أنها كانت مريضة ، واعتذرت له عن سبب عصبيتها قبل يومين وعن تصرفها ذلك .. فقبل الرجل عذرها وطلب منها العودة لمكتبها، كانت منى تحلم بالاستقلال عن العمل كمخدومة ، وأن يكون لها مشروعها الخاص ، وأن تكون هي صاحبة المصنع أو الشركة ؛ ولكن المال الذي تملكه لا يكفي لمغامرة جديدة ، حتى ولو باعت سيارتها الصغيرة ، وما حصلت عليه من مؤخر صداقها بعد طلاقها لا يكفي في نظرها للمخاطرة من جديد ، فإنها ما زالت مدينة لربيع ، فهو لليوم لم يطالبها لا هي ولا زوجها بدرهم واحد .. لذلك لما التقت بالسيد برهان نفست له بمشاكلها في الشركة ، وتعاطف معها برهان وحثها على الصبر وعدم الاستقالة ، وكانت هذه أول مرة تحدثه عن مشاكلها الخاصة شاكية له همها ، فسر من ذلك واعتبر أنها بدأت تثق به ، وتطمئن إليه أكثر، واعتبر ذلك تقدما.. ولما انتهت من عرض مشكلتها مع المدير الذي يضيق عليها عند استعمال الهاتف بحجة ضيق وقت العمل .. ثم تحدث برهان من جديد عن المشروع الخاص ووجود الشريك الثالث ، وأنهم قريبا سيفتحون المكتب المحاسبي ، وأنهم إذا نجحوا في مشروعهم ربما يستعينون بها في إدارة المكتب والقيام بأعمال السكرتاريا إذا لم تمانع في ذلك .

فقالت ضاحكة من فكرة برهان التعاطفية مع مشكلتها الخاصة : عندما يحين الوقت سوف أفكر ، أنا قرفت من شفيق ومعاملته ، هو يفكر بأنني بنت صغيرة .. فعندما يقف مشروعكم الحلم على قدميه ويشب قائما سأفكر بالعمل معكم وربما أساهم معكم بمبلغ معين إن نجح

مشروعكم

ـ على الرحب والسعة يا أخت منى .. أنا سعيد باللقاء بك ثانية يا أخت منى .. لقد انشغلنا بمرض أمي ، فقد مرضت ومكثت أياما في المشفى ، وكل أولادها متزوجون إلا أنا.. الصغير متزوج والكبير متزوج وهي تريد تزويجي قبل موتها ومغادرتها الدنيا.. وحدثها عن الأسرة ثم قال في نهاية الحديث عن الأسرة والزواج : أليس حولك فتاة تقبل بي زوجا ؟ .. فأنا لا أريد فتاة من العائلة .

غرقت منى بالضحك قالت : هذه المهمة الوحيدة التي لم اشتغل بها يوما يا برهان .. على كل حال أذكر لي مواصفات الفتاة التي تحلم بها زوجة لك ، رغم اختلاطي بالفتيات والعوانس لم يخطر ببالي أن يطلب مني أحدهم شيئا مثل هذا..

ـ فليكن أنا أول طالب .. فتاة جميلة ، فتاة عاملة ، أنا صحيح لست بحاجة لدخلها ؛ ولكن الحياة كما تعلمين اليوم مشاركة ومصروف وتحمل مسؤوليات وإيجار بيت وغير ذلك مما تعرفينه ، وأنت خبرت الحياة الزوجية كما ذكرت لي المرة السابقة .. قبل شهر .. هذا هو الموضوع المهم يا أخت منى !



اعتراف منى

لما عادت السيدة منى لبيتها بعد لقائها الأخير ببرهان همست لنفسها كأنها أول مرة تفكر بالزواج ثانية: هل يخطبني من نفسي هذا الشاب؟! وأنا لم أفكر بذلك منذ التقينا.. ولكني ذكرت أمامه أنني متزوجة ، وبعدها لم يعد يخاطبني بآنسة التي تشير وتدل على العزوبية في عرف الناس .. ثم أخذت تتذكر وتعيد صور التقائها ببرهان منذ البداية .. أفعال بريئة! وقد التقى بي في مكان العمل.. وتعرفنا من أجل شراء الأثاث ، وعرفني على مكان عمله .. وعلى هاتف أهله ..هل يقصدني أنا بالزواج؟ .. إنه يعرف أنني امرأة تزوجت وطلقت ؛ ولكني ذكرت له أيضا أن سبب فشل زواجي أهل الزوج وليس مني .. برهان الذي لم يسبق له الزواج يتزوج مني أنا ! .. ما موقف أهله بالزواج من مطلقة ؟! هل يرضونني لابنهم زوجة ؟ لماذا يريدني أنا زوجة ؟ هل خلت الدنيا من النساء؟ أوه! هل عنده مشكلة معينة أو عيب ما ؟ الأسئلة كثيرة يا منى .. هو أخبرني أنه لم يتزوج من قبل ولا حتى خطب فترك .. هل أكرر تجربة الزواج ثانية ؟ حازم أين أنت يا حازم؟! لقد تزوج بعدما تخلص من المخدرات .. وولد له كما علمت ؟ لقد نسيني تماما .. وقد نسيته ، ليس هناك أمل ولو ضئيل بأن يعود إليّ حتى لو قبر والديه .. فهو قد تزوج ابنة خالته .. عندما يموت أبوه ربما ذكرني .. أمه ستمنعه .. عندما تموت أمه سيذكرني ويتذكر أنني ضحيت بكل شيء من أجله .. تزوجته رغم أنف أهلي .. ورغم رفض والديه للزواج .. قدمت له كل ثروتي وثروة أخي ربيع .. عبير تكرهني ووقفت ضد زواجنا .. ستمنعه أيضا .. فلمَ لا أنساه كما نسيني؟! ولم يكترث بي ، لم يتصل بي ليعتذر عمّا سببه لي من دمار وجرح .. منذ افترقنا لم يحصل بيننا أي لقاء .. بإمكانه أن يتصل ويعتذر ويأسف ويشكو ضعفه .. لابد أنه يحملني سبب شقائه .. انتهى هذا المخلوق من حياتي ، قالت ذلك وهي تضغط على أسنانها غلا وقهرا .. سأذكر لبرهان أنني امرأة مطلقة مرة أخرى حتى يقطع أمله من التفكير بالزواج مني .. هو يعرف ذلك .. ولسوف أوكده له .

تنهدت بعمق وعادت تردد : الزواج والحب .. أيحبني برهان وأنا لا أحس؟ .. لم نقف قليلا

عند الحب .. رجل دخل المتجر لشراء أثاث .. جاهل بالسوق فالتجأ إليّ .. فعظم عنده تعاطفي معه وعدم طرده من مكتبي أو أنني اعتذرت وقلت له ليس هذا من اختصاصي اذهب إلى ...

تنهدت مرة أخرى وقالت: هو والله رجل حسن الهيئة ، بل جميل جدا .. لماذا لم يتزوج بعد وهو بهذا الحسن والبهاء ؟! الناس أمرها غريب .. وهو موفق بالعمل وله أخ طبيب وأخ مهندس .. لقد تحدث معي عن الأسرة .. أكيد أنه يتحدث عن الزواج مني .. لست حمقاء ليطلب مني أنا أن أبحث له عن زوجة .. ماذا الذي أعجبه فيّ ؟ انفتاحي على الجنس الآخر .. جمالي .. لست بالفاتنة بل هو أجمل مني إذا كان الجمال بالبياض .. أخلاقي .. أي أخلاق؟! وهم يرون جلوسنا مع الرجال حرام وعيب .. لعله ليس منهم .. لم يعلق يوما على شربي للدخان أو على لبسي البنطلون وقص شعري .. هما لقاءان في المطعم كيف سيسمح لنفسه بمثل هكذا نقد؟! .. أمر هذا الزواج غريب .. ربما فعلا يقصد امرأة غيري .. ولكن ما أدراه أني أعمل خاطبة.. فهذا لم يحدث بيننا ليقع في ظنه شيئا من ذلك .. عيناه كانت تخاطبني أنا .. كانت تتكلم ؛ ولكنه أراد أن يترك فرصة للتفكير بما أشار إليه .. شاب ذكي ولطيف .. منى ساعد تتزوج من جديد !.. إنني أشرب الخمر .. هل هو سكير مثل صاحبي القديم ؟ آه! هذا ما جنيته من صحبة حازم وأصحابه الخمر .. قارورة الخمر في ثلاجة البيت باستمرار .. آه !.. حنين عندها ولد ، وبعد حين سيأتي الثاني ، وأنا البكر والكبيرة في عائلة ساعد ولم اخلف بعد لم أحب الأمومة التي يتحدثون عنها .. لا ، لأنك لم تجربيها.. الأمومة فطرة يا منى .. لا تكابري في هذه .. الدابة تحب الأمومة .. إنني أحب الأفلام والسهرات والاختلاط ولعب الورق ، ولا أتحرج من اللعب والجلوس مع الرجال.. هل يقبلني الرجل بهذه الصفات ؟!

أخذت تتذكر أحداثا جرت بينها وبين برهان ، وأعادت التفكير مرات ومرات .. وهمست لنفسها : كان رزينا معي مؤدبا، وكما كنت أنا كذلك ، لم يكن بيننا تهتك ليطمع بي ..



قررت الاتصال به ودعوته لعشاء ليلي ومصارحته بأمرها مفصلا.. وقبل برهان الدعوة بسرور ورضا ، وتعجب أن تكون قد وجدت له عروسا بهذه السرعة .. فلما التقيا وأنهيا الطعام ورفعت الأواني ، وأحضر لهم العامل أو النادل الشاي ، سألته منى عن مشروع المكتب فلما حدثها عن ذلك الحلم بضع جمل قال باسما: لا أعتقد أنك دعوتني وخسرت هذا المبلغ لتسأليني عن المكتب الحلم هو حلم .. يبدو أنه يريد أن يتعثر من جديد .. الناس تخاف ولا تحب الإقدام والمخاطرة .. أنا توقعت أن تحدثيني عن الطلب الذي طلبته منك في آخر مرة التقينا وحتى أنني ظننت أنك أتيت بالعروس معك .

تأملته لحظات وقالت باسمة : العروس ستأتي قريبا إن شاء الله ، وربما خلال هذه الجلسة .. وأنا أحببت أن أكرمك كما تحب إكرامي ، وليس دفع الأموال من أجل الأصدقاء خسارة يا سيد برهان .. فأنا كما تعلم متزوجة .

ـ ذكرت ذلك وأنك قد طلقت بسبب والديه .

ـ لقد ذكرت لك فشلي في الزواج وفي المشاريع .. فأنا أحمل لقب مطلقة يا أخ برهان إذا كنت تفكر بالزواج مني.. أنا لما عدت للبيت فكرت بطلبك الغريب والمفاجئ أن تطلب مني أنا أن أبحث لك عن عروس .. فماذا كنت تقصد بطلبك؟! ألم تقصدني أنا ؟!

كان برهان يتابعها بعينيه بانبهار، ولما سألته سكت لحظات ثم قال : أنت صريحة جدا وشجاعة !

ـ الصراحة راحة .. أنا فكرت بكلامك اللطيف ، وحديثك عن أمك ورغبتها بتزويجك وأسرتك أيضا ، ثم طلبك الأخير مني ، فلما تأملته وقع في نفسي أنك تخطبني بطريقة ذكية وغير مباشرة ، وقلت لنفسي ربما أنك خلال الشهر الذي لم نلتقِ فيه قد نسيت أنني متزوجة وفاشلة في الزواج .. فكان لابد من هذا اللقاء لأذكرك .

ـ ذكرت أنك فشلت في زواجك ولم انسَ ، وذكرت أن أهل زوجك رفضوك، وأن هؤلاء الأثرياء لا يحبون الفقراء الذين يحلمون بالصعود لفوق .. اسمعي يا أخت منى.. إن طلاقك

لا يعيبك بشيء .. ولا يجب أن ينظر للطلاق دائما أنه شر .. ولكن تعقد المجتمعات المعاصرة لكثرة مشاكل الحياة اليومية والاستهلاك وأمور أخرى عقدت قضية الطلاق في حياة الناس ، مع أن الطلاق كما هو معروف للجميع حل لمشكلة تعقدت بين الزوجين .. المهم أنا لا أرى أن هذا عيب فيك .. وأنا معجب بك منذ أول مرة رأيتك فيها.. لا تقولي حب من أول نظرة أنا شاب مثقف ومتعلم ولست مراهقا.. والأحداث تطورت وأعلم أنك من غير زوج .. ولي رغبة حقيقية بالاقتران بك إذا وافقت ؛ ولكني خجلت أن أصارحك بذلك في المرة الماضية.. خشيت أن تظني أن ذلك شفقة وعطف عندما حدثتيني بمرارة عن صاحب المعرض وأنك فكرت بالاستقالة .. خشيت أن تفهميني أنني أخطبك عاطفيا ومتأثرا بما رويت وليس بعقلي وفكري وإنما طلبي ردة فعل لضيقك .. وبما أنك تحبين الصراحة فأنا أطلبك من نفسك قبل أن أقابل والديك أو أهلك .

التزمت الصمت وهي تسمع هذه الكلمات والتبريرات وبعد لحظات من سماعها طلب برهان قالت متسألة: أأنا أتزوج مرة أخرى؟ لا أدري ماذا أقول لك أيها الإنسان ؟ أأنت حر مثلي ؟

قال دهشا: حر؟!

- نعم

- وهل أنا رقيق؟!

- لا أقصد الرق القديم .. أنا فتاة أدعي أنني متحررة يا برهان .. وجلوسي معك أكثر من مرة وقبولي دعوتك للغداء أكثر من مرة يؤكد لك هذه الحرية .. وقد لا تعلم يا برهان أنني أشرب الخمر .. لم تفاجأ بالخبر؟!

هزّ رأسه ضاحكا ، ولم ينبس بكلمة فتابعت شرح حريتها : وأحضر آخر الأفلام .. وألبس ما أشاء من الثياب الطويلة والقصيرة .. وأقص شعري حسب الموضة .. وأضع على وجهي كل المساحيق والبودرة والمكياج كما ترى عليّ الآن

ضحك ولم يعقب فتابعت قائلة : والدخان ، إنك تعلم أنني أدخن وأكثر من مرة أشعلت لي

السيجارة ، وأنت تدخن سيجارة وأنا أدخن عشرة مقابلها.. وسأقص عليك شيئا من أمري أنا أكبر أفراد الأسرة .. عائلتي .. مات أبي وأنا صغيرة قبل سني المراهقة ، وولدت ونشأت في حي قديم من أقدم أحياء العاصمة ، ونشأ الحي فوضويا واسمه حي برقوقة، ربما على اسم شخص أو عائلة سكنت فيه ، كان المهاجرون من المدن والقرى الأخرى يسكنون فيه لرخصه وعدم تبعيته لبلدية حتى كبر.. وهو من أشهر أحياء المدينة التي تكبر كل يوم .. أنشئ من غير نظام ثم تطور وتحدث بعد ذلك .. تزوجت أمي رجلا حدادا من الحي بعد وفاة أبي بسنين ، وقام هذا الرجل فينا مقام الوالد.. مشكلة حي برقوقة في نظري أنه لا أسرار فيه ، فالناس يعرفون عن بعض كل شيء.. لا أسرار داخل البيوت وخارجها .. المهم أن هذا الحداد بعد أن وافقت أمي على الزواج منه بعدما طلبها من إخوتها الذين يعيش بعضهم في حي برقوقة ، كان قد تعهد لها بتعليمنا إذا كبرنا ونجحنا في الثانوية العامة حتى نتخرج من الجامعات .

اقترب منهم جرسون فقال برهان مقاطعا : أتشربين شيئا آخر ؟

ـ لا ، شكرا ، دعني أعرفك بنفسي أكثر ؛ لأن هذا الكلام سيكون له ما بعده يا أخ برهان .

طلب لنفسه قهوة ولما ابتعد العامل قال : تابعي ، إنني مصغ إليك .

ونحن نعلم أن الذي ستقوله منى يعرفه برهان أو يعرف أكثره من سعد الدين صديقه ، بعد هدوء يسير قالت منى : تزوجت أمي الحداد خليلا، وأخذ سكان الحي يسموننا بـ "أيتام الحداد خليل"، وانتقلنا معها إلى بيت خليل أحمد عامل حدادة قديمة.. وكان الرجل عند كلمته فقام برعايتنا أحسن رعاية ، وكان يعتبرنا أولاده لأن المسكين قد حرم من الخلفة والذرية .. فكنا كأبنائه حقيقة .. المهم نجحت ودخلت الجامعة رغم معارضته بداية للأفكار السيئة التي يحملها عن الجامعات وتعليم البنات والأشياء التي تسمع بها ونعرفها نحن أليس كذلك ؟

ـ بلى ؛ ولكن لابد من الدراسة .

ـ ولكنه أمام ضغط أمي والعهد القديم وأنا أول الوفاء بالعهد تكفل بالصرف والنفقة على

تعليمي حتى تخرجت من الجامعة .. وبعدي بسنة دخل أخي الأصغر مني الجامعة .. فالحق أن الرجل بذل وسعه وجاهد معنا ، وخلال شهور يسيرة كنت موظفة في شركة وتحملت عبء المساعدة في تدريس أخي حتى يتخرج من كلية الهندسة ، وظل الرجل يشارك في تعليم أخي ، ويصرف هذا الحداد الفاضل على البيت ويتحمل تكاليف الحياة دون شكوى وأنين .. ولما عملت في إحدى الشركات الكبيرة التقيت بابن صاحب الشركة ، وصار بيننا انسجام خلال شهور .. وأنا كنت فعلا متحررة ، ولا تهمني التقاليد والعادات ولا حتى الاعتبارات ، وقد عشت قصة حب معه حتى تخرج أخي من كلية الهندسة.. وفعلا أصبح أخي ربيع مهندسا وخف العبء أكثر عن خليل وعني .. وكنت خلال هذه السنوات أرفض أي زواج بحجة تعليم أخي والعائلة.. والصحيح أني كنت مرتبطة بمن أصبح زوجي السيد حازم .. هذا الرجل كان فعلا يريدني زوجة صالحة ؛ ولكن أسرته ترفض فكرة الزواج من فتاة معدمة مثلي لا ثروة ولا رصيد لديها .. مع أنني أحمل شهادة مهمة آداب إنجليزي ، وجهدي كان واضحا في الشركة ؛ ولكن مديرة الشركة التي كنت أعمل بها وهي أخت الشاب الذي يرغب بي زوجة كانت من رأي والديها في رفضي دخول عالمهم الغني . وبعد ثلاث سنوات لا أذكر بالضبط وافقت على الزواج والارتباط الجسدي بحازم يا أخ برهان .. كان يريد الزواج مني دون موافقة أهله ، فهم مصرون على رفضي رغم أنهم لا يعرفونني بشكل جيد ربما رأوني أثناء سنوات العمل .. وأمام هذا الموقف الشجاع منه في نظري وافقت أنا على الزفاف منه دون رضا أهله كلهم، ودون اعتبار لتحذيرات أخته مديرتنا أنا وإياه .. قابل الشاب أهلي، ورفض زوج أمي الزواج بهذه الصورة ، وأصر على حضور والديه لخطبتي كما يخطب البشر.. ولكن أمي وأخي المهندس خوفا من زواجي دون أمرهم ورضاهم وافقوا ، فاضطر خليل الحداد أن يطلق أمي ، ورحلنا لحي الرحمات أحسن أحياء المدينة تلك الأيام ، فطلقت أمي من أجل زواجي أنا يا برهان .. وتم زواجي رغم أنف خليل وأنف والديّ زوجي وأخته .. ولكنهما أصرا العناد والتحدي ودفعوا حازما للابتعاد عن شركات والده .. فلحبه الكبير لي ، وربما

للتضحية التي قدمتها له من أجل الزواج دون موافقة أهله وتطليق أمي من خليل بعد عشرة تلك السنوات ، وما بذله الرجل من أجلنا أصر على بقائي على ذمته .. وجمعنا ما نملك من مال ، واقترضتنا من بعض البنوك التي لحازم علاقة ومعرفة بها ، وفتحنا مصنعا ولكنه لم يكمل السنة فقد خسر وانكسر وفشل المشروع وكثر الدائنون.. فدفعنا ما فوقنا وتحتنا لبقاء عش الزوجية ، وكان قد طلب مني من أول الزواج عدم الإنجاب المبكر .. فهؤلاء الأكابر لا يحبون الولادة مبكرا كما نحب نحن البسطاء .. المهم يا برهان أمام ذلك الواقع المؤلم راسل ابن عم له في أمريكا ليسافر إلى هناك ؛ فهو لم يحسن تدبير نفسه، فقد كان هنا يعتمد على سمعة أبيه وأعمامه وأخواله الكبار ولكنّ أباه دمره وحطمه ، وهو كان وراء فشل مشروعنا بمكره وخبثه.. وأنت تعلم أن بضاعة لا تسوق ولا تجد لها زبائن ستفسد إن كان مواد غذائية المهم أيها الأخ برهان سافر صاحبي البطل في نظري إلى أمريكا بعدما غرقنا في الديون ؛ ولكنه اشتغل هناك كما علمت بالمخدرات والهيروين .. فمرض بسرعة ولم يتحمل جسده المخدرات واستسلم لأمر والديه وضعف لطلب والديه وطلقني من هناك ، ودفع لي أحد محامي والده مؤخر صداقي وزادني خمسة الآلاف دينار أخرى لتسهيل إجراءات الطلاق .. وعاد الزوج من هناك دون أن أعلم ، وعالجوه هنا ، وفور تعافيه زوجوه ليقطعوا الأمل لديه بالعودة إليّ ، ولم يحاول الاتصال بي ولو للاعتذار؛ ولكني علمت من أخته عبير وبعض أصدقائنا أنه تزوج فتاة من العائلة ، وأنجب منها ، وهو اليوم مجرد موظف في إحدى شركات أبيه وأمه .. عايش على الهامش يأكل ويشرب ويسكر .. لا رأي ولا مال .. فهو دمر وحطم وذهبت أنا في الرجلين

ولما سكتت وطال الصمت هنيهة قال : يا لها من أيام عصيبة عليك يا أخت منى !

ـ لم تنتهِ القصة يا برهان .. المهم أنني تعلقت بعادات سيئة في نظر أهلي إخوتي وأمي .. الدخان والخمر واللباس العري .. والأنانية فلما طلقت وعدت للحياة معهم بعد إخلائي الشقة التي عشنا فيها .. حاولوا إعادة تأهيلي كما يقول مالك أخي ، ولما أرادوا منعي مما تعودت عليه خلال حياتي مع الزوج حازم صارت مشاكل عائلية اضطررت بعدها للحياة في

شقة وحدي ؛ ولكنها قريبة من شقتهم في رحمات .. ثم سافر أخي المهندس للخليج للعمل هناك وتزوج من ابنة خالي .. وتزوجت أختي الصغيرة رابع العائلة .. ثم أعادوا أمي لزوجها الحداد ورحلوا لحي برقوقة ، وأنا رفضت العودة لبرقوقة لما كان من أثره السيئ على مسيرة زواجي ، فتعقدت منه وزاد بغضي له .. فأنا اليوم فتاة مطلقة تسكن في شقة وحدها ولديها عادات سيئة كثيرة ويصعب فراقها.. والآن بعدما أسمعتك سيرة حياتي الخاصة .. ادع لك التفكير فيها ؛ فإن رأيتني بعد ذلك المرأة المناسبة لك وللحياة مع أسرتك سأفكر أنا للاقتران بك.. أنا صريحة معك للغاية يا أخ برهان.. واعلم لليوم أنني لم أفكر بك عاطفيا .. فيبدو أن ما يسميه الناس اليوم الحب قد مات في قلبي .. ربما يتغير ذلك فيما بعد أو كما يقولون حب بعد الزواج .. وأنت إذا أحببت أن تحدثني عن نفسك أكثر فأنا مستعدة للسماع والجلوس معك لآخر الليل .. وأما إذا أحببت أن لا تتكلم بشيء حتى تفكر بما سمعت مني عن نفسي فلك ذلك أيها الصديق .

ـ فعلا أنت صريحة وشجاعة يا منى والصراحة راحة .. نحن نكره النفاق وأنا لا أحبه سأفكر بكل كلمة نطقت بها ، ولي عندك طلب صغير ..

ضحكت منى وقالت : الخمر؟!

ـ نعم الخمر.. أنا لا أبخس ذكاءك أيضا .. أنا قد أغفر كل شيء لزوجتي إلا الخمر .. أنا لم أشرب الخمر وعمري كله ما شربتها ولا فكرت فيها ولو على سبيل المزح ومجاراة الأصحاب.. فهل تعدينني بالتفكير في هذا الأمر؟ ويمكنك التخلص من الخمر.. وباقي الأمور هينة وقد أقبلها وندعها للأيام ، وأعدك أن لا أجبرك على ترك أي شيء تحبينه من هذه العادات .. دخان سينما سهرات رقص .. الخمر يا منى حتى احسم أمري الذي كان محسوما بالزواج منك .

ـ أنت فعلا لطيف يا صديقي العزيز .. لا تتخيل أيها الإنسان إنني مدمنة خمر .. إنما هي أمر عادي في حياتي بعد زواجي من حازم .. ولتعلم أنني لم أتعلم شرب الخمر أثناء العمل معه في

الشركة لم أكن أشربها البتة ، لا هي ولا حتى الدخان .. إنما حصل ذلك بعد الزواج ، لقد كانت رائحته كريهة جدا فجاريته حتى لا أتأفف منه ومن رائحته النتنة فتعاطيت الخمر والدخان.. ولما حصلت المشكلة وتبعها الطلاق عن بعد زاد تعلقي بهما أكثر ظانا كما يظن الكثير أنهما يزيلان الهموم والغموم ، وما ذلك إلا ضحك على اللحى كما يقولون .. إنما هما شهوة كباقي الشهوات السيئة .. على كل عندما أسمع رأيك الحاسم فيّ ربما أعدك بترك الخمر .. أما الحب إذا كنت تنشده عندي فهو لليوم غير موجود .. إنني أبغض الرجال رغم ما تراه من صداقة بيني وبينك.. ربما لوالد حازم وما فعله بي عندما دخلت عليه مكتبه بعد مطاردة شاقة ، وقد ترجيته أن يصفح عن ابنه وكلي دموع واستجداء ، فما كان منه إلا أن طردني وحطمني ودمرني .. إنه يوم شؤم ..

رق برهان لما تعرضت له من الإهانة والطرد فقال : يبدو أن هذا موقف عنيف لا ينسى .

ـ من يومها كرهت جنس الرجال مع أنني موقنة أنهم ليسوا سواء .. الذل والهوان دمار للإنسان يا سيد برهان .. أنا ليست لديّ عقدة قديمة نحوهم ، وإن بدا لك ولغيرك أنني أحب تقليدهم في قص الشعر ولبس البنطال وغير ذلك .. على كل سيكون لنا كلام إذا حدث توافق بيننا ؛ ولكن قبل الانصراف ليفكر كل منا بالآخر لماذا أنت لليوم غير متزوج ؟! رغم أنك قريب من الثلاثين يا سيدي .

ـ فعلا قريب من الثلاثين .. بالضبط ثمانية وعشرون إلا أشهرا .. وأنا التقيت بمئات الفتيات سواء في الجامعة أو البنك أو في الحياة كلها .. لليوم لم أتزوج ربما لتكوني قدري ونصيبي أنت يا منى .

ـ أوه! .. أنا .. أنا لم أكن أظن أن أحدا سيفكر بي كزوجة يا برهان .. ولكني أبيت أن أعيش عشيقة أو خليلة.. ورغم خوف أهلي عليّ من الانزلاق والوصول إلى ذلك .. فقد حاول البعض الحياة معي هكذا ، فرفضت لم أقبل أن أعيش كدابة .. وإن كنت غير مبال بالتقاليد والطقوس .. فللشرف شأن عندي رغم طول علاقتي بحازم الزوج السابق لي قبل الزواج ،

فهو لم يستطع لن ينال مني ولو قبلة واحدة رغم محاولاته الكثيرة .. مع تأثري ببنات أوروبا وأمريكا في هذا الجانب لم أتهاون وأتحلل .. وأنا ذكرت لك سبب تعلقي بالخمر والدخان ، ولا أقول هذا الكلام مبررا لك ومشجعا لك للاقتران بي .. صدق حتى لو لم يحصل بيننا ما عرضت عليّ من زواج سأحتفظ بك صديقا حتى أنت تخرج من حياتي أو تطلب مني هجرك

ـ اسمعي أنا أريد أن أقول لك أنك أول فتاة أو امرأة تؤثر فيّ .. لا أدري لماذا؟! أنا منجذب إليك بقوة مع ما ذكرته عن نفسك من صفات وعادات لا تروق لي.. ومع أن الناس لا يحبون الوضوح والصراحة في مثل هكذا قضية ولكني معجب بصراحتك وشجاعتك ، رغم أن العقل قد يعتبر ذلك فضائح ؛ ولكننا نعيش ظروفا خاصة ، وقد يعتبر هذا مبررا لهذه الاعترافات الخاصة .. وخط دفاع في المستقبل .

ـ أنا كانت أحلامي كبيرة يا برهان .. كنت أحلم بأن أكون ملكة غير متوجة كما يقال .. كنت عندما التقيت بحازم ناصر اعتبره الدرجة الأولى في سلم الوصول للتاج .. ولكنه دمر أحلامي وأعادني لحي برقوقة .. فتاة لا أحلام لها ولا طموح .. كان الزواج عندي مجرد عادة وتقليد وديكور لابد منه ..

ـ والآن؟!

ـ والآن .. أمل في الحياة من جديد .. أمل في تحقيق الأمومة التي تتحدث عنها النساء والأمهات .. لي أخت متزوجة وإنها ما لقيتني إلا حدثتني عن حلاوة الأمومة وضم رضيع إلى صدر أمه.. إنها تحاول بذلك تشجيعي على الزواج من جديد .. أنا لم أُبدِ لهم اعتراضي يوما على الزواج ثانية .. إنهم يريدون تزويجي من أي رجل وهذا لا يصح عندي يا برهان .. طال الحديث أيها الصديق .. لا أنكر أنك هززتني في المرة الماضية بعرضك وهذه المرة ، وها نحن وضعنا النقاط على الحروف وعلينا التفكير بروية بما جرى بيننا.. هيا ننصرف وأشكرك كل الشكر على إصغائك لي .. وأنت أول رجل يسمح لي بسماع همسات قلبي وقصة هلاكي .. لعلك الملاك المرسل لإنقاذي أيها الصديق .. إلى اللقاء .

منى تعرف الحقيقة

دخل برهان بيت العائلة ودخل حجرته الخاصة ، وأغلق بابها بالمفتاح على غير العادة ، وذهب في تفكير عميق في نهاية مغامرته ، وأن الفتاة تنتظر رده بعدما أعاد إليها الأمل في السعادة من جديد .. الزواج حدث كبير ، ومن أهم الأحداث الخاصة في حياة الإنسان مهما حاول البعض من التقليل من أهميته وشأنه .. هل يضحي ويتزوج من مطلقة؟ عاداتها القبيحة هل تتخلص منها ؟.. إنه يريد امرأة صالحة.. منى لديها بذرة وخامة طيبة .. ستعود أنثى طبيعية.. ستتخلص من تفكير الرجل .. من سيعارض هذا الزواج من العائلة ؟! .. أمه ستعارض هذا الزواج .. كيف يتزوج فتاة مطلقة ومن سنه؟ أما أبوه فإقناعه سهل وميسور .. وهل يتزوج بدون موافقتهم كما حصل مع زوجها السابق؟!.. هو يختلف عن حازم.. فهو مستقل في عمله ومصروفه وحركته .. لا يتدخل أبوه في حياته الخاصة .. ترك لهم حرية التصرف .. المهم عنده احترام الناس.. أمه ستعارض الزواج بس لأنها امرأة مطلقة ، ولسنها القريب من سنه وربما تكبره بأشهر .. أو ستعارض لأنه لم يطلب منها البحث عن عروس ، بحث بنفسه وطلب من منى أن تبحث عن عروس ، كان يمهد بذلك لطلب يدها ، وأدركت أنها المقصودة بطلبه ، وفتحت له قلبها وقصت عليه أخطر أحداث حياتها ليكون على بينة من ماضيها ؛ ولتكون الحياة بينهما واضحة وضوح الشمس ..وهي صادقة لم تحدثه عن حب وغرام وغزل ، فمنى لا تعرف ذلك ، واعترفت له أن حياتها وزواجها لحازم لم يكن عن حب وعشق إنما لمصلحة وبحكم العادة .. إنما المحب كان حازم .. واليوم المعجب والمحب برهان لقد طمعت بالزواج مني ، ولها رغبة بذلك ؛ ولكنها تحب أن تعطيني فرصة للتفكير ، لا تريد العجلة ثم نندم .. إنها تريد أن تكون أنثى وأم .. وهذا تفكير جيد وطبيعي .. وقال : إذا رفضت الزواج منها بعدما زرعت الأمل في قلبها من جديد سيدب في قلبها اليأس ، وسأساعد في تدميرها بعد ذلك الأمل الذي كان يلمع ببريق عينيها .. إنها فتاة عاشت في أحلام وأوهام الثروة ، ولما اصطدمت في الواقع الصعب أحست أنها وقعت في بئر عميقة ولا

تستطيع الخروج منها .. فأصرت على التمرد والعناد والبقاء على عادات السوء .. كيف سأقنع أمي بها ؟ ليس بعد الصراحة راحة .. الصراحة راحة .. أنا عن نفسي ليس لديّ مانع من الزواج من منى ربيع حتى ولو كانت مطلقة .. أمي العقبة الآن !

قضى أياما وهو يقنع والدته بمنى ، وهو يريد أن يحقق لها أمنيتها ورغبتها بزواجه ، وأعلمها أنه تعرف على فتاة وأعجبته غاية العجب ؛ ولكنها تزوجت من قبل وطلقها زوجها بعد سفره إلى أمريكا.. وهي تشتغل براتب جيد ، وليس لديها أولاد من زوجها .. وأخطر ما قاله لأمه أنه اعترف بأن قلبه يميل إليها .. وأنه يرى سعادته معها وإذا لم يتزوجها لن يتزوج أبدا ..

وبعد تردد ورفض من قبل أمه ، وقد رأت أم عبد القادر والدة برهان عزمه وتصميمه استسلمت لرغبته .. وأحبت أن ترى هذه الفتاة المطلقة التي أسرته وجذبته ودفعته ليتفوه أمامها بهذا الكلام الخطير والتهديد الصريح .. وأن تتعرف على أهلها .. والأب محمود الدين لم يعترض فقد ترك الأمر لولده ، وأنه هو الذي سيتزوج وهذه حياته ، وكان برهان يعرف والده وسياسته .. فوالده لا يحب تعقيد الأمور .. وكان برهان يريد صناعة منى من جديد ، وتعود ابنة صالحة للمجتمع، ولا تظل متعلقة بالغرب والانفلات ، واعتبر هذا الهدف غايته المهمة .. وإن أعجب بها وحريتها في الاختيار ؛ ولكنه يحب لها أن تختار الأجمل والأحسن ، وليس فقط التشبه بالرجال لتصبح من رجال الأعمال وأصحاب الشركات .. المرأة يجب أن تبقى المرأة .. فهل الحرية فقط أن ألبس وأسهر ؟ فقال ساخرا : يتشبهنّ بالرجال بلبس البذلات وقص الشعر والاجتماعات .. ثم يضعن أدوات الزينة على حواجبهنّ وخدودهنّ وأجفانهنّ .. قاتل الله الجهل !



رتب صاحبنا برهان أمر الأسرة قبل أن يحسم الأمر مع منى ، ثم اتصل بصديقته منى وحدثها

عن سبب تأخره في الرد .. فسرت من رده ومن موافقة أمه وأبيه ، واتفقا على عشاء آخر ، وكالعادة وفي نفس المطعم الذي دخل تاريخ حياتها التقيا ، وبعدما تناولا الطعام ورفعت الصحون والأواني وأحضر الشاي كالعادة أيضا قالت منى وهي تحاول أن تظهر طبيعية ، وليست منفعلة أو قلقة لأن برهان أعلمها بالهاتف موافقته : هل فكرت جيدا يا برهان باختياري زوجة لك وكنة لأمك ؟!

ـ فكرت بعمق يا أخت منى ، وقضيت الأيام الثلاثة أقنع أمي .. فزواج شاب أعزب لأول مرة من امرأة مطلقة مرفوض شيئا ما لدى الأسر كما تعلمين .. فمن الشائع لدى العوام أن المطلقة يتزوجها أرمل .. كبير في السن .. أو رجل متزوج امرأة ويريدها ضرة .. وغير هذا .. الناس يحبون أن يتزوج البكر بكرا .. ووالدي كما ذكرت لك على الهاتف لقد ترك للإخوة وحتى الأخوات أن يتزوجن حسب رغبتهنّ ، ولحتى الآن لم تطلق واحدة من زوجات الإخوة ولا الأخوات .. فالمهم أن تكوني أنت مقتنعة بي وميل القلب سيأتي فيما بعد .

ـ أنا لم أكن أتصور أن تصل هذه المعرفة بيننا إلى هذه النتيجة ، ربما لأن الرجال كانوا يمرون في حياتي كأرقام وأعلام ..وقلت لك سبب تعاستي وحقدي على جنس الرجال والد حازم .. لقد كان قاسي القلب معي .. فتراودني صورة وخيال .. أن أكون سيدة كبيرة ومهمة في البلد فيدخل عليّ الرجل مستعطفا متوسلا .. فأذكره بنفسي ثم أطرده شر طردة .. أه !

وقال برهان مقاطعا : وقلب أمه ألم يكن قاسيا ؟ أم حازم .

تفكرت لحظات وقالت : ممكن !!.. هي كانت رافضة كما علمت من حازم وأخته عبير .. فأنا لم أرها يا سيدي ولم أفكر بمقابلتها .

ـ قد تكون هي التي قست قلب زوجها عليك .

ـ هي لا تعرفني .. وكما أعلم فهي لا تتدخل في عمل زوجها ولا عمري رأيتها في الشركة .. ومع ذلك لم يخطر في بالي أن أقابلها ..غيرة .. تكبر .. ممكن .. كنت أعتقد بأنني سأفتح الصين والهند كما يقال بمسكي بزمام حازم .. في رأيك كان عليّ أن أحقد على النساء أيضا .. فلماذا

أحمل والد حازم كل الفشل ؟ لا أدري.. كنت أحلم بغرور .. كنت أرى أنني سأصبح سيدة ثرية وصاحبة مال كثير أنا والسيد حازم ، ربما الجلسات الشاعرية لم تدعني أعرفه جيدا ، هو يحدثني عن الحب والنساء ومغامراته الكثيرة مع البنات المتزوجات ، وأن أحدثه عن الشركات والأموال .. كنت أراه درجة في الصعود إلى هؤلاء الكبار أصحاب الملايين .. غدا سأجلس مع المليونير ناصر ومع المليونير فلان وفلان .. ولكني سأصعد اليوم على كتفيّ السيد برهان لا أدري إلى أين ؟ إلى أين يا سيد برهان ؟

ـ على الرحب والسعة ، فكتفايّ قادران على حملك لتري العالم من فوقهما .. لن أقصر يا عزيزتي سأضع كل ثروتي التي لا تتجاوز عشرة آلاف بين يديك .. وربما أنفقتها على زواجنا .

ـ والمكتب ؟!

ـ المكتب !! المكتب !! .. منى! منى ! هل أنت جادة بالزواج مني وموافقة وراضية بي ؟

دهشت منى للسؤال وللحركات التي بدت منه بعد كل هذه الحوارات واللقاءات فقالت بدهشة : ماذا تقصد أيها الإنسان؟! تسرب لقلبي قلق من سؤالك .. بعد كل هذا الكلام تسألني عن الرضا والموافقة ؟!

ـ أسمعي يا منى ولابد أن تسمعي ، أولا أحب أن أقسم لك يا عزيزتي بأنني راغب بك زوجة على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

اضطرب قلب منى لهذا القسم وقالت: إنك تثير الحيرة والخوف في نفسي ! ما الأمر ؟! .. إن قلبي يدق بعنف؟! وكانت قد وضعت يدها على صدرها .

ـ مهلا أيتها العزيزة .. أنا سأكشف لك سرا وأرجو ألا يتغير رأيك فيّ ..

ـ أوه إنك تخيفني الآن وارتفعت دقات قلبي !!

ـ أنت شجاعة وصاحبة تجربة .. أحب أن تعلمي يا منى حتى لا تتفاجئي في يوم ما بأنني مخادع ومنافق وكذاب ومحتال ..

وكان لون وجهها يتغير مع كل كلمة يتفوه بها برهان ، وزادت دقات قلبها ، كانت تنتظر

مفاجأة قاسية ، فقالت باضطراب وقد حاولت أن تبدو هادئة : سر! .. قل ما هذا السر! .. هل أنت تسخر مني بالحديث عن الزواج وموافقة أمك وأبيك؟!

ـ يا عزيزتي .. أنا تعرفت عليك ودخلت حياتك من أجل الزواج منك ! .. ولم أكن أريد فتح مشروع أو مكتب تدقيق وإن كان هذا حلمي حقيقة .. ولكني فعلت ذلك لأصل لقلبك والزواج منك .. اهدئي لا تغمضي عينيك ..

فتحت عيناها وحدقت به وقالت بحيرة : لم أفهم منك شيئا بعد .. أين الخداع ؟!

ـ حسنا ستفهمين إن أصغيت إليّ جيدا .. أنا أريد أن أقول لك ذلك حتى إذا جرى الزواج الذي رسمت له وخططت له ، وتكتشفين فيما بعد أنه بدأ مزحا وأصبح جدا فتقولين عني مخادع منافق .. أوكد لك رغبتي بالزواج منك زوجة شرعية ، ولم أفكر يوما بأن أضحك منك واتخذك خليلة أو عشيقة ثم غيرت رأيي بعدئذ .. أتسمعين من البداية وتغفرين إذا كان في الأمر أي خطأ شنيع ؟!

أشعلت سيجارة وأخذت تنفث عليها بتوتر وما زالت ممتقعة الوجه وقالت: عجيب أمرك الليلة يا برهان !.. لقد سقط قلبي بين قدمي .. تؤكد لي بأنك راض بي زوجة وتقول أن هناك سرا .. اكشفه .. تكلم .

ـ سأتكلم .. كان باستطاعتي يا منى أن أتابع الزواج معك بدون كشف السر ووضع الحقيقة بين يديك ؛ ولكني رجل أخاف من الغد ومن كلام الناس غدا ..

ـ إنك ما زلت تضعني في دوامة ولغز .. تكلم يا إنسان ولا تخش شيئا

ـ سأتكلم بصراحة لأن الصراحة راحة كما قلت قديما.. أنا منذ مراهقتي ويراني الأصدقاء والأصحاب فتنة للنساء .. كثير من مراهقات الحي تعلقن بي وأغرقنني بالرسائل والهدايا .. ولما انتقلت للجامعة حصل لي مثل ذلك ، التفت حولي فتيات كثيرات من سنوات مختلفة ومن كليات مختلفة ، فكنت بين معارفي ألقب بفاتن النساء وأحيانا أخرى المصباح لتساقط بعض البنات عليّ أملا بالزواج مني .. لا ينقصني جمال وشباب وقامة ومال أيضا .. ومع ذلك لم

□□□

أتزوج لليوم واحدة منهنّ ، وأنا شريف مثلك يا منى ، ولا تسمح لي أخلاقي أن أكون زير نساء .. ولا تسمح لي أخلاقي وإن كان فيها سوء بالزنا والفاحشة ، فهذا أمر قبيح لدينا في الأسرة ، ولم يحدث أن وقع فيه أحد من إخوتي ولا أخواتي ..ولا نرضاه لأخواتنا وأهلنا ولا نقبله لبنات الناس .. حدثني أحدهم عنك وأنك عاصية على الرجال بعد طلاقك من السيد حازم فقبلت التحدي وعرفني عليك .

ـ عرفك عليّ .. متى ؟!

تبسم برهان وقال: أشار إليك وأنت مغادرة من الشركة والمعرض .. هكذا سار وهكذا كانت البداية .. ثم خاف الشخص عليك وسحب التحدي فيما بعد ، وخشي أن تتعلقي بي كالمراهقات التي ذكرت لك أمري معهن ، ثم أصدمك بعدم الزواج ؛ ولكن المغامرة استهوتني وأظهرت له أنني انسحبت وجرى الذي تعرفين تفصيله .. أنا دخلت حياتك عن علم ومعرفة وإرادة وتخطيط .

طرحت السيجارة وقالت : أمعقول ما أسمع ؟! ..

ـ ولمَ لا يكون معقولا ؟!

ـ يعني أنك رسمت وخططت ووصلت لهذه النتيجة .. أريد شراء أثاث .. أريد مساعدتك إنك لجريء يا برهان .. أين كان عقلي وفكري؟!

ـ كان عقلك وفكرك معك.. وأنت تعاملت معيّ طبيعيا دون اهتمام بالحب والعشق الذي أردتك أن تقعي فيه من غروري وبناء على ذكريات المراهقة والجامعة وحتى البنك الممتلئ بالفتيات الأوانس والعوانس.. كان قصدك مساعدتي في الحصول على أثاث جيد ورخيص خدمة إنسانية للنصيحة التي طلبتها منك .. لم تنظري إليّ على أني فارس أحلامك .. أنت تعاملت معي كصديق ومعرفة تحبين خدمته .. وأنا عرفت ذلك وكل هذه المشاعر .. فقررت أن أتزوجك إذا وافقت ، فأنا أقر بأنني فشلت بأن أجعلك تعشقينني كما تعودت من فتيات غيرك ، وكما طلب مني من أجلك أنت ولأنهم يحبونك !

صفنت لحظات كأنها مذهولة ثم قالت : فعلا هذه مفاجأة كبيرة ..!!

ـ أنا أريدك يا منى ، وقد وافق أهلي فعلا على طلب يدك .. وأرجو أن أكون لك نعم الزوج .. والحب يأتي .. ولولا اقتناعي بك ما قمت بهذا الدور والاستمرار به ..لا أحد يضغط عليّ إنما بدأت فكرة وراقت لي وسلمت أمري للباري في علاه .

ـ عجايب الناس ! ومن الذي سلطك عليّ ؟!

ـ لن أقول الآن ، لأنه هو يعتقد أنني صرفت نظر عن التحدي وعن الفكرة الغريبة .. فإذا لم تقبلي بي قد تغضبين منه .. فأنا يا أخت منى أريدك زوجة .. هل توافقين عليّ بعدما سمعت اعترافي ؟ وإنني لم أوضع في طريقك صدفة ، وإنما كان بترتيب من نفسي .. لأتزوجك .

ـ مغامرة وجهد كبير بذلته يا برهان .. حيرتني يا رجل! أتريدني زوجة بصدق ؟! .. وليس تتمة للفِلم .

ـ أريدك زوجة بصدق .. ولو لم أردك زوجة بصدق ما تابعت التحدي .. وكان باستطاعتي الاختفاء من حياتك كأي رجل تعرفت عليه واختفى .. ولو لم أردك بصدق لما ظللت ثلاثة أيام أقنع أمي بالزواج من منى ربيع .. وأنا سأصعد وأحقق لك أحلامك وتصبحين بمشيئة الله صاحبة أموال وقصور .

ـ أنت ؟ أنت الذي ستصنع لي ذلك ؟!

ـ نحن معا .. لا تستهيني بقدراتي يا منى ، وأنا رضيت بك دون نساء العالمين .. سنبني أحلامنا معا ، فالذي وصل إلى قلب منى سيصل بها إلى كل الأحلام والسعادة . . وقبل المغادرة من هذا المكان الليلة سأسمع ردك ؟

ـ وهل تظن أنني سأرفض بعد هذا الاعتراف وكل هذا الحب ؟! .. أنت كما قلت لك سابقا ورغم ما حدثتني به الليلة إنسان ذكي وفطن .. ومع أن هذه حيلة كبيرة ؛ ولكنها تدل على عقل كبير وصبر جميل .. وأنا سعيدة يا برهان أن تقبل بي زوجة رغم أن هذه مغامرة عجيبة للوصول إليّ .. إليّ أنا ومع ما تعرفه عني من سيئات .

ـ أنا اعترفت لك بهذه المغامرة أو الخديعة للقصد الشريف ، وها أنت رأيت برهان .. إني أريدك فعلا لا مزحا ولا مقلبا ، وأيضا اعترفت ؛لأنه ستكون مفاجأة عندما نعلن الزواج .. عندما يعرف أحدهم أني خدعته أيضا بادعائي الانسحاب من التحدي .. ثم تعرفين الحقيقة من غيري فهذا مؤلم لي ولك ، فلربما لطباعك العنيدة كما قيل عنك ترفضينني غدا كزوج إذا عرفت هذه الحقائق وتظنين أني ضحكت عليك .. فالاحتياط واجب .

ـ ما زلت تثبت لي ذكائك وبعد نظرك.. معك حق وقد غلبتني ؛ ربما الأنفة تدفعني للغضب والثورة .. أنا معجبة بك وبطريقتك المدهشة للتعرف عليّ ، وأريدك كما تريدني ؛ ولكن اسمع لا تطمع بحبي وهواي الذي فعلت كل هذا من أجله .. نحن سنكون زوجين فقط .

ـ سأسعدك يا منى .. لأني اخترتك بكامل حريتي ، وإن كانت طريقة التعارف غريبة .. ولكن الظروف والأحوال بعد مشيئة الرحمن تحكم الإنسان أحيانا .. فلولا رغبة ذاك الرجل الغريبة ما عرفت منى ، ولا أكلت أنا ومنى معا ..ولا سهرنا معا .. القدر والنصيب أراد لنا ذلك ويحكم الله ما يريد .. أنا لست أصغر إخوتي ومع ذلك تزوجوا إلا أنا .. أليس هذا من قدر الله تعالى ؟!

ـ ماذا تريد مني ؟ وأنا معجبة بك وليس إعجاب العشاق .. افهم ذلك .

ـ أفهمه يا سيدتي .. أمي تريد أن تتعرف عليك وعلى أهلك قصدي أمك وأخوك مالك وربيع وحنين .

سرحت منى قليلا ثم قالت : رائع ! أنت تعرف كل أسماء العائلة .. أمك تريد أن تتعرف عليّ على كنتها وزوجة ابنها الباقي من غير زواج .. هكذا يفعل الناس .. أليست هي موافقة وما فائدة المعرفة ؟!

ـ عادات .

ـ نعم عادات .. ومن أجل هذه العادات طلقت أمي ، ثم طلقت أنا .. أنت تعرف عني كل شيء من قبل أن أشرحه لك يا خبيث ..

ـ ليس كل شيء .. أهمه فقط ..

ـ من هو مصدر معلوماتك ؟ .. مالك ؟!

ـ أخوك ؟! .. لا تشغلي بالك ، هو غدا سيفرح وغيره سيفرح ويتباهى أمامك بأنه السبب في دفعي إليك .

ـ لا يخطر في بالي أحد .. خليل ؟

ـ من خليل ؟! زوج أمك الحداد الغلبان المسكين .

ـ لا يمكن لخليل بفكره البسيط وطيبته أن يفكر بهكذا طريقة وحيلة ، ولا يعرف مكان عملي وسط هذه المدينة .. من يا سيد برهان ؟!

ـ ستعرفين قريبا ـ إن شاء الله ـ وستكون مفاجأة طيبة له .. أمي كيف ستراك ؟

ـ هل تحب أن نذهب إليها سويا الآن في هذا الليل البهيم ؟

ـ أوه ! .. أفعلها إذا شئت.. أنا أعرف أنك لا تحبين حي برقوقة ، وأنك ما زلت في شقتك المستأجرة .. فأرى أنه لابد لك أن تتصالحي مع حي برقوقة حتى نتزوج كما يتزوج البشر.. بضعة أيام وتكونين في بيت زوجك السيد برهان محمود الدين .

ـ حي برقوقة!! .. نعم .. لتعلم إنني لست كما قيل لك عنيدة ومتكبرة ولا أتخلى عن رأيي ولو كان خطأ كبيرا .. سأتصل بأمي وأفرحها بهذا الخبر ، وأني رضيت بالزواج من رجل مثلك يا برهان من أجل خاطر أمي .. وسأفتح صفحة جديدة مع السيد المحترم خليل .. آه يا برهان ! لقد سحرتني بنبلك وحبك .. هل تعلم أنك ستدخل السعادة بهذا الزواج على قلوب كثيرة ؟ ستجعلني أسيرة لك بفرحهم وحبهم لي .

ـ أنت عاقلة ومهما حاول الإنسان تغيير جلده سيعود إليه في يوم طال الزمان أو قصر .. ولكن القوم ربما لم يحسنوا التعامل معك أو أن التجارب الفائتة صقلتك بأسرع وقت .. رتبي الأمور حتى أقوم أنا ووالديّ وبعض أخواتي بزيارة برقوقة ونتعرف على برقوقة وخليل سيد برقوقة ثم نرتب اللمسات الأخيرة من هذه المسرحية أو الفِلم على قولك أو الرواية أو القصة الأسماء

كثيرة هذه الأيام .. اختاري ما تشائين .. بس أرجوك أن تحذفي زجاجات الخمر من ثلاجتك قبل تسليمها لصاحب العمارة .

ـ وحتى هذه تعرفها .. فمصدر معلوماتك قريب مني جدا .. أنا تخلصت منها منذ اللقاء الماضي .. وكنت واثقا من قبولك بي رغم أنني لست بالفتاة الجميلة البيضاء الطويلة القامة النحيفة ولست بالغنية لا أدري كيف قبلت بي يا برهان؟ هل هي شفقة وعطف وإحسان ؟!

قهقهة الشاب جزلا وقال : زواج يكون هكذا مصيبة في نظري مع أنه يحدث في ظروف معينة أرملة عندها أولاد .. يتيمة فقيرة .. أنا قد عرفتيني جيدا من هذه اللقاءات المتكررة أنا مقتنع بك بكل جوارحي وعقلي .. أنا معجب بك ليس عاطفيا فقط .. المهم أنت أن تقتنعي فيّ !

ـ أنا لا أنسى أنك أخرجتني من أزمة كبيرة عصفت بي يا برهان .. لقد لعبت دورك جيدا ، فأنت أول إنسان تعامل معي بأنني إنسانة.. وكان حديثك جادا وعمليا فأنت ممثل بارع على كل حال .

ـ هو ليس تمثيلا وإن بدأ كذلك .. هو حقيقة ولكنه أتى هكذا وبهذه الصورة .. كيف سأتحدث معك بالزواج ؟!.. أمن أول مرة أدخل عليك المكتب وأقول لك أريد أن أتزوجك بدون معرفة .. رأيتك في الشارع وأحببتك فتزوجيني .. كان لابد من حوار وجدال وقيل وقال .. هيا بنا طال سهرنا وتعجلي بالأمر .

ـ يقولون في العجلة الندامة .

ـ هذا في الشر وليس في كل شيء والله أعلم .

ـ ألا تريد أن نعيش فترة خطوبة ؟

ـ وهذه الأيام ألا تكفي فترة خطوبة؟!.. نحن خالفنا فيها كل الأعراف والأذواق ولكننا نعلق كل ذلك على شماعة الظروف .

قالت : ليس أمامي إلا أن أقول شكرا لك ، وأرجو أن تكون الزوج المناسب يا برهان، وأن تكون أول وآخر رجل في حياتي بعد ذاك الضعيف .. وسيكون لك مني الاحترام اللائق بك .

ـ سامحيه يا منى وأخرجيه من حياتك .. سنبدأ معا ، وسأضع على رأسك في يوم من الأيام التاج الذي تحلمين به مع أن زمن التيجان ولى ، فاليوم أكثر دول العالم جمهوريات ..

ضحكت منى: ما أحلى كلامك يا برهان! .. أنا خائفة أن نقف بعد حين قصير أمام المحكمة لينصرف كلٌ منا إلى بيت أهله .

ـ هذا في علم الغيب .. نحن الآن منسجمان ومتفقان والسعادة في أيدينا ويمكننا أن نحافظ عليها ونقويها .. إذا تفاهمنا وتحملنا بعضنا بعضا ، ولا ننسى أننا نعيش في أسر ما زالت محافظة ، وإن تراخت قبضتها بعض الشيء بسبب الغزو الثقافي والاقتصادي والسياسي والتقليد الأعمى .. ونحن فتحنا أوراقنا أمام بعضنا البعض ، وهناك بعض الهنات ستزول بمشيئة الله سبحانه .

ـ لن أكون معك عنيدة .. أحس هو إحساس أنك تفهمني .. سترى منى الفتاة التي تخرجت من الجامعة فقط .

ـ لا ، أريد منى التي استفادت من تجربتها الأولى .



عجبت منى وهي تقود سيارتها تلك الليلة عائدة للبيت من قصة برهان ، ولم تغضب وتثور ؛ بل أعجبت بحيلة برهان ، وأعادت ترتيب الأحداث ، فوجدت كلامه منطقيا وصحيحا ، وأنه دخل مكتبها زاعما الحاجة لشراء أثاث مكتب لفتح مكتب محاسبي .. أأحد يجهل سؤال الموظفين الذي أمامه ؟.. لم تفكر بهذه النقطة إلا الليلة .. وكانت تتذكر وتبتسم .. لم يتحدث معها عن الحب والعشق لتنتبه لمكره ، كان ينتظر أن تهيم به .. وفي النهاية سرت من هذه الطريقة والحيلة وأرضت غرورها ، والأهم من ذلك في نظرها أن هناك من يرغب بها زوجة صالحة.. واعترفت بأنها ساذجة ، وليس كما تتدعي بأنها ذكية وفطنة وتستطيع تفسير كل شيء

وكل حركة وكلمة ، وقالت لنفسها : والله لم يخطر ببالي أن هذا الرجل جاء ليطرق باب قلبي وليس باب مكتبي .. لقد كان ممثلا بارعا ؛ ولكنني ارتحت إليه ووجدته ناضجا وعاقلا وغير متعصب للتقاليد والأصول .. ولم يقع في قلبي أنه يفعل ذلك للزواج مني إلا تلك المرة عندما طلب مني أن أبحث له عن زوجة .. فطنت لمغزى كلامه وأنه يلمح للزواج مني .. لكن من ذا الذي كلفه وأرسله إليّ وعرفه بي ليقوم بهذه الحيلة الكبيرة ؟.. سوف أعرف قريبا !

وظلت مشغولة الفكر والذهن وتراجع ما جرى بينها وبين السيد برهان منذ أول لقاء .. وأنها وافقت على الزواج دون مشاورة أحد من أهلها ، ولا مجال للتراجع .. ومن حسن حظها تلك الليلة الهامة أن السيارات كانت خفيفة في الشوارع وإلا صدمت في إحداهن وهي مشغولة الفكر ، وكانت الساعة قريبة من منتصف الليل عندما وصلت موقف سيارات العمارة التي تسكن فيها .. فلما أطفأت نور سيارتها ونزلت منها ، وقد تأكدت من إغلاق كل أبوابها ، لمحت سيارة قد أضيئت ووقف عندها شبح كان ينظر إليها وهو صامت ، فدققت النظر فيه لحظات فظنت للوهلة الأولى أنه مستأجر مثلها عائد من سهرة ، فلم تعره أي انتباه ؛ ولكنها لما وجدته ينظر إليها أعادت التحديق فيه ثم همست بصوت مسموع : مالك !

فقال بنبرة فيها حدة : نعم ، يقال إنني أخوك مالك .

مشت نحوه مرحبة ومصافحة: أهلا بك .. ما الذي أتى بك.. ونظرت للساعة على معصمها وقالت : بعد الثانية عشرة والربع .. ؟!

ـ نعم ، الساعة نصف الليل ، لي ثلاث ساعات أنتظرك يا ابنة المحترمين .. أين كنت ؟ هل يوجد سينمات لم تغلق أبوابها بعد ؟

ـ أين كنت؟! أين كنت؟! السؤال التقليدي .. تفضل لا داعي للثرثرة هنا .. هل من شيء خطير لتنتظرني ثلاث ساعات؟!

تنهد بعمق وقال : آه منك يا منى !

لم تثر منى في وجهه كعادتها عندما يحتج على تصرف وفعل لها ، فكان لا يعجبها احتجاج أو

اعتراض أو حتى أي كلام ، لم تغضب ولم تثر في وجهه المحتج كالمعتاد منها دائما ، ويبدو أن مالكا قد دهش لعدم ثورتها وكذلك لهدوئها ، وقد يكون علله بالليل والوقت غير المناسب للثورة والغضب ، ثم سمعها تقول ثانية: تعال ندخل ونتكلم في الداخل .. فأريدك أنا في أمر مهم وخطير .

تعجب مالك من هدوء أخته الغريب بالنسبة له فقال مرددا : أمر مهم ـ ومشيا نحو مدخل العمارة للصعود إلى شقة منى بعدما أغلق هو الآخر سيارته ـ على كل حال نحن اتصلنا بك أكثر من مرة ، ولما زهقنا من كثرة الاتصال ولم تردِي أمرتني أمك المسكينة بالمسير إليك .. خافت عليك ، خافت أن يكون أصابك شيء ولا تستطيعين الرد ، وأنا أقول لها صدقي يا أمي الطيبة أن منى خارج البيت في سهرة في مسرح في دار سينما .. وبعد انتظار ومحاولات نفذت أمر أمك المسكينة .. وجئت ولم أجد أختي الفاضلة المرأة المتحررة والتي لا تحسب للناس أي حساب ولا لأمها .. فعدت وجلست في سيارتي انتظر ؛ لأني لو عدت للبيت ستطلب مني الأم المسكينة العودة .. آه .. القلق .. قلق الأم ، وأكيد أمي الآن على نار ، ولو عند خليل أبي أحمد سيارة قد تكون أرسلته ليبحث عني أنا الآخر ..

سمعت منى تأنيب وعتاب مالك بصمت وهدوء ، كانت شقتها في الطابق الثالث فركبا المصعد إليها حيث الشقة ، وفتحت الباب وأنارت الإضاءة وقالت : أهلا بأخي العزيز مالك ! ادخل .

ـ سأدخل مع إنني لا أحب زيارتك كما تعلمين ، ولا أحب دخول شقتك !

قالت مداعبة : ادخل .. من اليوم فصاعدا ستزورني وتشرب عندي الشاي وتأكل الطعام .

ظن مالك أن أخته سكرانة مع أنه لم يشم رائحتها منذ وقفا عند السيارة في موقف العمارة ، فقال متهكما : أشرب الشاي وآكل الطعام .. منذ تزوجت منى لم أرها تصنع الشاي وتصنع الطعام .. أنا خائف أن أشرب الخمر والدخان .

ضحكت وقالت : أنا أعرف أنك مالك! .. لا ، لن تشرب الخمر ، الخمر تخلصت منها ..

اذهب إلى الثلاجة ولن تجد فيها خمرا .

أصيب بالدهشة التي لازمته منذ بداية هذا اللقاء . وهمس لنفسه " إنها صاحية .. وهادئة بشكل غريب هذا اللقاء" ورفع الصوت قائلا: منى ماذا تقولين؟!

ـ هذا ما حصل هجرت الخمر.. يا أخي المحامي ! .. ماذا تريد أمي الفاضلة من ابنتها الفاضلة ؟!

ضحك مالك لسخريتها وقال : أنا لا أدري لماذا أنت معقدة يا منى ؟ أنا اليوم مع ذلك أرى عجبا ! ألم يحن الوقت لتشفقي على أمك وتعودي للحياة معنا ؟ .. وما دمت ذكرت أنك تركت الخمر فالمشكلة انتهت وانحلت .. سنخصص لك حجرة خاصة لتنامي فيها وتدخني فيها كيفما يحلو لك .

ـ ماذا تريد أمك لترسلك إليّ في الليل ؟.. أم أنها بعثتك لترى هل أدخلت رجلا بيتي ؟!

ـ مسكينة أمك! لا تفكر بهذا الخاطر، فالأم ترى ابنتها أشرف فتاة تمشي على الأرض .. ربما وقع في قلب مالك مثل هذا ؛ ولكنه يعرف أخته جيدا.. أتهزئين من قلقنا وخوفنا ؟؟ لولا معرفتي الجيدة بك من هذا الناحية لاحترقت أعصابي يا منى .. والفجور لا يحتاج لشقة اليوم فالنوادي الليلية وصالات الفجور كثيرة وميسرة .. أمك أرسلتني .. أين ذاهبة ؟

ـ سأصنع لك القهوة ، وأنت تكلم مع أمك بالهاتف لقد نسينا طمأنتها علينا .

كان مالك متعجبا جدا من أخته الليلة فقال : أتصنعين القهوة ؟! .. اصنعي القهوة .. وراء القهوة الليلة سر!

دخلت منى مطبخها ضاحكة ، واتصل مالك بأمه التي لم تنم حتى تلك الساعة ، فهدأ من أعصابها وقال : الآن وصلت ولم تخبرني لحتى اللحظة أين كانت ؟! .. ربما كانت في حفلة عرس لإحدى صديقتها وتأخرت السهرة .. أنت تعرفين أين تسهر منى ؟ .. ألم نتجاور شهورا ؟!.. وها هي قد صنعت لي قهوة يا أمي أتسمعين يا أمي ؟ منى عملت لأخيها قهوة ! وذلك على مسمع من منى التي كانت تضع أمامه منضدة صغيرة وفنجان القهوة ثم قال

مكررا : أتسمعين يا أمي ؟ منى صنعت لي القهوة ؛ فإذا حصل لي شيء فمن قهوة منى .. آ .. تتكلمين معها.. خذي كلمي أمك

تناولت منى السماعة من يد أخيها الممدودة وقالت : أهلا أمي .. أنا بخير .. أين كنت ؟ لم أكن في السينما ولا في حفلة عرس كنت أتعشى في أحد المطاعم مع أحد الناس .. لا تثوري ولا تغضبي ستفرحين قريبا ، وسأعود للحياة معكم في حي برقوقة .. أجل والله وسأتصالح مع العم خليل .. سلمي عليه ..

خطف مالك السماعة من يد منى وقال لأمه : يبدو أن منى قد جنت يا أمي .. فأنا أسمع كلاما غريبا الليلة ! .. منى التي تريد أن تعيش على القمر ؛ لتكون فوق الناس ستعود لحي برقوقة .. يبدو يا أمي أن هناك زوجا في الطريق .

تطلعت منى في عيني مالك وقالت : أتعرف شيئا ؟

ضحك مالك وقال : سلام يا أمي يبدو أن قصة مهمة سأسمعها .

ووضع الهاتف والتفت لأخته وقال : أأعرف شيئا ؟! ماذا أعرف ؟!

قالت منى : اشرب قهوتك .. وقل لي هل تعرف شخصا اسمه برهان ؟!

- برهان .. من برهان هذا؟!

- مالك احلف بالله إنك لا تعرف شخصا بهذا الاسم

- من غير حلفان لا أعرف شخصا بهذا الاسم .. وحتى ولا زبون وعميل لنا في المكتب القانوني بهذا الاسم

فقالت كأنها تحدث نفسها: وهو قال إنه لا يعرفك .. من وضعه في طريقي؟! .. أخي مالك هناك شاب أو رجل يريدني زوجة.. ماذا تقول ؟

- أقول في ماذا ؟! من هو هذا الرجل ؟

- إنه برهان !!

- برهان .. من برهان هذا؟! تحدثي بالتفصيل الممل .. سأقضي الليلة هنا يبدو أن تغييرات

كبيرة ستحدث في الدنيا

ـ بس في دنيا منى وأسرة منى .

أوجزت القصة بكل صراحة لأخيها فقال : والله هذا إنسان عجيب! .. يفعل كل ذلك ليتزوج منك .. ليصل إلى قلب منى ، وأي قلب قلب منى ؟! لف كل هذه اللفة الطويلة ليقول لك في النهاية " أتقبلين بي زوجة ؟" ..

ضحك مالك همهمة وقال : ومن أرسله ليقوم بهذه المهمة العظيمة والتمثيلية الغريبة؟!

ـ لا أدري ، ولم يذكر لي اسمه ، خشي أن يوغر قلبي عليه إن لم يحصل النصيب وإذا حصل النصيب سيكون مفاجأة لي ولهذا المحرض .

ـ منى أنت طبعا موافقة عليه!.. فأنت الليلة في ساعة تجلي وسعادة بينة ، الآن فهمت كل تصرفاتك ، والعجيب أنك تقولين لا تحبينه ومصدقة نفسك .. على كل ليس هذا مهما على رأي السيد برهان ، سيأتي الحب بعد الزواج فليأت كما يشاء .. مع أن في نظري كل عملكم هذا هو الحب الحب منكم الاثنان .. منى يا أختي الفاضلة أنت الليلة يجب أن تنامي في حي برقوقة وتتحدثي مع أمك.. فهي لن تصبر للصباح لتراك وتسمعك فأخشى أن تطلب مني أن آتيك ثانية .. وأنت طبعا مقتنعة به بعدما لف حول العالم ليصل إليك وبناء على طلب وتكليف من بعض الناس .. من يكون مرة أخرى أحد الناس ؟!

ـ وأنت ما رأيك ؟

ـ أنا أحب لك الزواج .. وأنت تعرفين ما يعني الزواج في حياة فتاة شرقية ، وفي أسرة تزعم أنها ما زالت محافظة .. أنت أعلم مني بفلسفة ذلك الأمر .. ورغم أن ذلك مريح لنا ؛ ولكننا نحب أن يكون زواجا متكافئا ومناسبا .. فلو لا سمح الله فشلت في الاختيار مرة أخرى ستبكين الدم بدلا من الدمع .. فإذا أنت راغبة بالسؤال عنه وعن أهله ؛ فأنا مستعد للقيام بهذه المهمة التقليدية التي لم تعد تغني ولا تسمن كثيرا في أيامنا هذه لقلة الصدق عند الناس في مثل هذه الأمور .

□□□

ـ لم يبق وقت للسؤال ، وتحدثنا عن أنفسنا بما فيه الكفاية .. وقد حدثتك عن الترتيب الذي جرت فيه الحكاية ، وقد وافقت وهو وافق ووافق أهله وبالذات والديه ؛ ولكن أمه تريد أن تراني قبل الزواج وتتعرف عليّ وعلى أهلي.. فأنا سأعود إليكم مؤقتا بضعة أيام .. فسيكون الزواج قريبا ربما بعد أسبوع أو شهر على الأكثر .. فهل عندك اعتراض ؟

ـ وهل إذا اعترضت ستعبرين اعتراضي يا منى ؟! .. رغم هذا فكلامك الليلة جميل وعقلاني وهادئ .. فأنا لما سألت السؤال العادي أين كنت؟ لم تثوري مع أنني كنت أستعد للمعركة ولهيجان أختي منى.. ولكنك فاجأتيني حقيقة ، لم تتعصبي ولم تنفعلي مما أثار دهشتي ، فوقع في نفسي أنك قد شربت كأسا أو أكثر قبل مجيئك .. ولكن لا رائحة بادية منك .. فزادت دهشتي.. وهذا جميل وعظيم من هذا البرهان أن قلبك وغيرك بسرعة! ومع ذلك تدّعين أنك لا تحبينه ، مجرد مشروع زواج جديد يا منى ! الزواج أعظم من مشروع إنه حياة جديدة .. دنيا جديدة .. فأنا كم قبلت يديك وترجيتك لتدعي الخمر والدخان .. فلم تفعلي.. فاعلمي يا شقيقتي الغالية أن الرجال ليس كلهم واحد ومثل بعض ..

ـ أنا فرحانة ولن أتوقف كثيرا عند عتابك .. ولكنك تفكر مثل برهان .. عندما تحدثت عن حقدي على الرجال وبغضهم ، ومع ذلك تقبل الاتهام بروح طيبة ، بل قال لم لا تكون أمه سبب قسوة أبيه عليك .. جنس النساء .. فكابرت وحاولت أن لا أقر بذلك .. مع أنني أعرف رفض أمه الشديد لي ..

ـ أحسن الرجل! فهناك رجال طيبون ورجال سيئون والنساء مثل ذلك .. وحتى ممكن أن يكون في الرجل الواحد جانب طيب وجانب خبيث .. وهذا الرجل رائع من غير أن أعرفه الذي شككك في قناعاتك في فترة وجيزة .. أتعرفين لماذا ؟ لأنها لا تقوم على أساس صلب وقاعدة صلبة .. أنا أحب هذا الرجل بدلا عنك !

ـ فعلا أعترف لك أنني تغيرت يا مالك.. وأعترف أن هذا الإنسان فتل لي مخي بسرعة كبيرة .. هو جعلني أن أقتنع أنه ما زال في الدنيا خير وحب .. فأنا أعترف أمامك أن بعض الرجال ،

وحتى من كانوا يسمون أصدقاء لنا أنا وحازم حاولوا توريطي في علاقات آثمة وليالي حمراء وصفراء .. وأن الزواج لم يعد مهما في حياة الناس.. ولما يشتاق الإنسان للأولاد فيذهب للملاجئ وقرى الأطفال فيتبنى ما يشاء منهم .. ولولا التربية التي ورثتها من الأسرة لانزلقت .. ولبغضي للرجال أيضا .

ـ الحمد لله على حفظه ، والله هذا ما كنا نخشاه جميعا عليك يا منى .. انبهارك بالغرب، وما يقال عن الحرية الواسعة كان يخيفنا ، وكم دعوت الله في جوف الليالي أن يحفظك الله .. فأنا ابن المدنية المعاصرة ، ونعرف الحفر الموضوعة لإفساد نساء المسلمين وبيوت المسلمين ..جزاك الله ألف خير يا برهان .. وحفظك الله يا اختنا الفاضلة .. ما أروع العفة والشرف؟!

ـ أشكرك .. على دعواتك الصادقة .. أنت لا اعتراض عندك ..

ضحك قليلا وقال باسما: على ماذا أعترض وأنتم موافقون؟! .. وستتعرف على النسيب والصهر قريبا .. هيا بنا فأمنا بانتظارنا .. وقبل الشاب أخته من رأسها قائلا: أنت الآن أحسن أخت في الدنيا .. كيف ستنامين الليلة في حي برقوقة بعد كل هذه السنوات ؟ وهل سيحصل نوم الليلة أصلا ؟! .. نحن سعداء وفرحون أكثر منك .. نحن أناس بسطاء يا منى سمعتنا وشرفنا أغلى ما نملك .. هيا أسرعي خذي ما يناسبك من الثياب ، وأنا بشوق لأرى وأقابل هذا الرجل الذي أعاد لك عقلك وقلبك القديم قبل أن نتعرف على أصحاب الملايين .

ـ وأنا أريد أن أعرف من أرسله إليّ .

قامت منى وأدخلت الفناجين الفارغة إلى المطبخ ، وتبعها مالك وفتح الثلاجة وقال : فعلا لا يوجد فيها المشروب الخبيث .. كادت أمك مرة أن تشرب من إحدى الزجاجات معتقدة أنها قنينة ماء لولا رائحتها الكريهة التي ملأت خيشوم أمك .

تبسمت منى وقالت : والله تألمت يومها .. وعجزت عن التصرف ..

ـ أنا سعيد بما حصل يا منى رغم أنه في عرفنا غير لائق ؛ ولكنه في عرف منى مشروع وحق .. لا تغضبي دعيني أتكلم بحرية .. أختك حنين ستفرح فرحا لا يعلمه إلا الله .. وأمك وكل

الناس في حي برقوقة وحتى خليل الأب الروحي لنا .. أين أنت يا سيد برهان؟.. لأقدم لك ألف تحية وتحية عما صنعت .. دائما الأزواج يصنعون النساء ..

كانت منى تضحك من شدة فرح مالك ، وهي كانت تتوقع ذلك وتعرف الخوف الذي كان يخيم عليهم من أفعالها وتصرفاتها ، ولما سمعت كلام مالك الأخير قالت : يجب أن تقدم التحية للشخص الذي أرسله وأقنعه بهذه المغامرة أو المصيدة التي ورطته بالزواج مني ، بالزواج من منى ربيع .

ـ هو أيضا يستحق مليون تحية .. ولماذا فعل ذلك؟! وما يهمه من أمرك ومن زواجك ليطلب منه خوض هذه المغامرة الغريبة .

ـ أنا في البداية عندما كاشفني برهان بهذه الحقيقة دهشت وعجبت .. ولكن برهان شجاع وذكي، وهذا يثبت لي أيضا تعوده على مجالسة البنات وفهم خباياهنّ، فلم أشعر أنه يمثل دورا ما في أي لحظة ما.. ولولا ذلك ما قام بهذه المغامرة الغريبة .. فهو دائما كما قال كان يقوم بدور المصباح كما كان يسميه أصحابه لمطاردة البنات له.. فهو هذه المرة قلب الأمر .. أنا أصبحت المصباح وهو الفراشة .. فقام بمطاردة امرأة ومطلقة .. ركز على مطلقة يا مالك.. مع أنه عازب لليوم ولا يوجد عنده عيب يمنعه من الزواج .. فلما حدثني بالحقيقة العجيبة مساء اليوم الفائت ظننت أنك تعرفه، وأنك متآمر معه وسلطته عليّ ؛ ولكنه نفى معرفته بك ، وقال سيكون ذلك مفاجأة لنا ولمن طلب منه ذلك ثم سحب تحديه .. فالرجل المكلف خاف على مشاعري من الصدمة إذا لم يقتنع بي برهان زوجة .

فقال مالك مخمنا : ربيع .. أخونا ربيع ولكن من أين عرف برهان هذا؟! عدنان زوج ابن خالتك؟

ـ عدنان ابن أخت خليل .

فكرت لحظات ثم قالت : والله ممكن !.. ولكنه لا يعرفني شخصيا ، ولا أذكر أنني رأيته ليهتم بي وبمشاكلي .

ـ عدنان .. ممكن عن طريق ابنة خالتك إذا حدثته عنك وعن أحوالك الشاذة في نظرنا فأشفق عليك وأرسل صاحبه هذا .

ـ على كل سنعرف قريبا هذا المحب لنا .. ولكنك يا أخي يا مالك لم تخبرني للآن لماذا أرسلتك أمي إليّ ؟!

ضحك مالك وهما يغلقان باب الشقة ويركبان المصعد وقال : لم يعد الكلام مناسبا بما جئت به إليك ؟

ـ أزوج آخر؟!

ضحك كثيرا وقال: لا .. وهل نستطيع نحن أن نأتيك بعريس؟! يا سيدتي هذا أخوك ربيع وجد لك عملا حيث تعلمين ، فتحدث مع أمي ، فاتصلت بك لتقول لك ذلك فلم تجدك ، ثم اتصلت عدة مرات فخافت عليك فأرسلتني .



قالت منى لمالك: إذا صار نصيب وتزوجت من المدعو برهان .. بالتأكيد سنرحل لبيت خاص به .. فأي شيء من أثاث وأغراض هذه الشقة يلزمكم فخذوه قبل بيعه .

قال مالك: لما يحصل النصيب نفكر بالخلاص من هذه الأغراض والذي يريد شيئا نرسله له .. امش .

وركب كل واحد منهما سيارته منطلقين لحي برقوقة بعد ساعات من نصف الليل ، وساروا على أضواء الأعمدة الكهربائية والسيارات والسماء نحو برقوقة .. وكانت مشاعر وخواطر تدور في رأس ودماغ منى وهي تعود إلى ذلك الحي الذي ولدت ونشأت وترعرعت فيه .. فلما وصلت أمام بيت خليل أصابها اضطراب مفاجئ فلها سنوات هاجرة لهذا المكان وهجرته بغضا له.. همست لمالك الذي وقف بجوارها عن اضطرابها فقال : هي أيام معدودات وستغادرين حي برقوقة الذي تستائين منه.. ألم تقولي لي ذلك يوما ؟ بس احذري التشاؤم منه فنحن نحبه .

فتح مالك الباب الخارجي بمفتاح يحمله معه، ودخل وتبعته منى ، وقد أغلقت الباب وراءها وكانت إضاءة البيت تنير مدخل البيت .. البيت عبارة عن طابق واحد مكون من عدة حجرات.. كانت جميلة تقف على باب صالة البيت تنتظر رجوع مالك .. فمنذ سمعت صوت ماتور السيارة تهيأت وخليل لاستقبالهم .. هرعت إليها منى وعانقتها ؛ وكأنها لم ترها منذ عهد.. وتقدمت من خليل الذي كان يقف قريبا من زوجته وسلمت عليه وقبلت يده وهي تتمتم بكلمات الاعتذار والعفو والأسف ، فاحتضنها مقبلا رأسها ومداعبا لشعرها وسامحها وقال : أهلا بك يا ابنتي .. البيت بيتك .. الحمد لله الذي أحياني ورأيتك تعودين إلينا فأنتم دنياي .

ـ أنا آسفة جدا يا عمي بما سببته لك من آلام وهموم .

ـ ما فات مات .. نحن أبناء اليوم ، فمرحبا بك يا منى ، ولا نقول إلا قدر الله وما شاء فعل..

والحياة تجارب ، وتجارب الناس تتفاوت في هذه الدنيا .. يا ألف مرحبا وسهلا .

وروت لهم ما جدّ من حياتها ، ففرحت أمها بما سمعت ، وقال خليل : هذا والله ابن حلال ويعرف الأصول .. أتمنى لك التوفيق والعزة يا ابنتي .. وسنتعرف على الأستاذ برهان وأهل برهان .. فهذا هو الصحيح يا منى .. فوسائل التعارف بين الناس كثيرة ولله الحمد .. والأهل درء لحل المشاكل الزوجية إذا استعصت على الزوجين ، كلمة من الأم ، وكلمة من الأب ينصلح الحال.. مع أن كثيرا من المشاكل اليوم بين الأزواج من الأهل .. ولكن الأهل لهم دور مهم في حياة الأولاد .. الأهل لازم أن يتعرفوا على بعض ، ويوافقوا على الزواج لاستمرار الزواج والحياة الزوجية .. العداوة مرة .. لن نعود للحديث في الماضي اطمئني .. صفحة وطويت .

قالت منى: تحدث كما شئت يا عمي .. وكما قلت الحياة تجارب .. كانت الظروف يومها قد دفعتني لقبول الزواج الغريب .. فتحدي حازم لأسرته والإصرار على الزواج مني رغم رفضهم الشديد .. هذا ما دفعني لتجاوز الحدود واللياقة .. وحازم إنسان رائع ؛ ولكنه ضعيف أمام أهله ولم يحتمل الصراع والمعركة .. تكلم بما شئت واعتب كيف شئت .. !

فقال خليل أبو أحمد بحماس: أتحبين أن أذهب واسأل لك عن عائلة برهان وأهله ؟

ـ الشكر لك .. تطوع مالك للقيام بالمهمة ، وقلت له لا داعي فهو قد حدثني عن أهله بالتفصيل ، فهم أناس مثلنا ماليا واجتماعيا .. ولما يحضروا تحدث معهم بما شئت واسألهم عن أنفسهم بما شئت .. فكلمة جميلة سمعتها منه واصفا للعائلة طربت لها " هو ليس أصغر الأسرة .. تزوج أخوته ، ولم تطلق زوجة ، وتزوجت أخواته ، ولم تطلق واحدة منهن .. فهو سيسعى أن لا يحصل ذلك في حياته " .. رغم أنني المرأة المطلقة التي ستكون بينهن .. الشاب مقتنع بي جدا ، ونحن تعرفنا منذ أقل من شهرين قد مضيا ..

ـ كلام جميل ووعد حسن ، والتوفيق بأمر الله سبحانه ، وهذا فال حسن .. وأنت تستحقين كل خير وسعادة وحب .. وأنا جاهز للقائهم في أي وقت تحبينه .

ـ بوركت يا أبا أحمد أيها الوالد الطيب .. فأنا ابنتك مهما حصل بيننا .

ـ أكيد .



في مساء اليوم التالي ذهب برهان ووالداه وأخت له لزيارة بيت أبي أحمد الحداد خليل، واستقبلتهم العائلة خير استقبال ، وتم التعارف بين العائلتين ، ولمست أم برهان طيبة جميلة وزوجها الحداد خليل ، وانشرح صدرها لهم ولهذا النسب كما قالت وكأنها تعرفهم منذ زمن وتم الاتفاق على الزواج على حسب رغبة الزوجين برهان ومنى ، وتركوا أمر ترتيب إجراءات عقد القران والزواج للشابين ، وبعدئذ غادر الضيوف البيت فرحين متفقين لولادة أسرة جديدة يتمنون لها الحياة والديمومة والسعادة .

وعند انصراف القوم قالت منى لبرهان وهو يصافحها مودعا: لم تحصل المفاجأة التي حدثتني عنها .

ضحك وقال لها ولمالك القريب منها : ستحصل .. ربما بعد أيام .. ربما بعد انصرافي ، سوف تحصل وتعرفين من رماني عليك .. شكرا يا مالك .. أنا أتشرف بكم وبهذا النسب .

فقال مالك خجلا : بل نحن نتشرف بك وبأهلك .. حياك الله يا برهان .. أنا أحببتك قبل أن أراك منذ سمعت القصة .. إذا منى لم تحبك بعد كما تدعي فأنا أحبك .. ولا يهمك فما زال عندها بعض بواقي الماضي .. لي كلام كثير معك .

كان مالك يتكلم ومنى تنخز فيه ليصمت فقال برهان : شكرا ، وسيكون بيننا كلام ولقاء فنحن قريبا سنصبح أهلا .

ـ نحن أصبحنا أهلا منذ ليلة أمس .. حياك الله وبياك ..

ورفع برهان صوته مودعا أبا أحمد الذي عقب بعد انصرافهم : هؤلاء هم الناس يا جميلة !!

ضحك الجميع على تعليق خليل ، وأدركوا أنه مبسوط من هذا الزواج ، ودخلوا للبيت مسرورين ، ثم اتصلت جميلة بابنتها حنين فور دخولها ، وأخبرتها بخطبة منى ، فاستغربت من ذلك فهي لم تسمع شيئا عن الأمر ، واستغربت أكثر لما ذكرت لها اسم العريس وعائلته وقالت بلهفة : أنا قادمة الآن وسأتصل بسعد الدين .

فلما سمع سعد الدين كلام حنين استأذن من والده للعودة للبيت فعاد مسرعا، ولما تناول عشاءه كان يقول : برهان صاحبي يا حنين ؟!

قالت : أنا لما سمعت اسم برهان قلت لفسي إنه صاحبك برهان .. هل حدثك بشيء ؟!

ـ لا ، منذ عهد قريب التقينا بعدما خرجت أمه من المستشفى ، زرته مع أمي وأبي كما تذكرين ولم يحدثني عن زواج ولا غيره .

ـ هل تظن أن هناك برهان آخر .. هيا أسرع .. تكلمت معي أمي وقالت إن أناسا أتوا لخطبة منى ، وإنهم اتفقوا قبل قليل ، ولما سألتها من هو العريس وعائلته ؟ ذكرت اسمه واسم عائلته ولكن اسم العائلة ذهب عن بالي لما سمعت اسم برهان .. وهم من سكان حي (أبو حسبة) فلما سمعت الاسم قلت لعله صاحبك برهان الذي عرفتني عليه مرة فقلت لها إنني آتية واتصلت بك .

ـ صدقي أنني لا أعرف شيئا.. يبدو أن الأمور جرت بسرعة .. هيا بنا نذهب ونسمع .. وهذا اسم حينا القديم إذا كنت تذكرين .

قالت: المهم أن منى عادت لحي برقوقة وتصالحت مع عمنا خليل .. أتصدق ؟

ـ منى ؟ وأين تعنتها ؟! .. لابد أنه برهان صاحبي .. فهذا إنسان ساحر .. سوف ترين منى أخرى غير التي كنت تعرفينها إذا كان الرجل فعلا هو برهان محمود الدين ..

ـ والخمر ؟!

ـ لا أدري ؛ ولكنها ستهجرها بالتأكيد ..

ـ اتصل بصاحبك برهان لنتأكد هل هو العريس ؟

كان سعد يهز رأسه وهو يفكر بما سمع من معلومات وهو يقول : أكيد برهان.. لقد سخر منا عندما تظاهر بالانسحاب .. عندما رأى خوفنا وقلقنا أظهر لنا انسحابه .. أنا أعرف برهان جيدا .. إنه ماكر!

اتصل سعد في بيت صديقه برهان فلم يجده ، فتحدث مع أمه التي أكدت له أنهم قبل قليل عادوا من حي برقوقة ، وقد طلبوا لبرهان فتاة من ذلك الحي ، فشكرها وبارك لها ، ووعدها أن يتصل مرة أخرى ببرهان ليبارك له ، والتفت لزوجته بعدما وضع الهاتف قائلا : عملها المنحوس! .. نعم عادوا قبل قليل من حي برقوقة وقد اتفقوا على الزواج .. سنذهب لأمك ونسمع منهم الحكاية .. ولا تتكلمي بشيء حتى نرى برهان ونعرف منه تفصيل كل شيء يا حنين .. ولابد أن أحداثا حدثت لتغير منى من أفكارها وعنادها وتعود لحي برقوقة بالذات ، وهي التي كانت تقول عنه عندما نتناقش في ذلك " إنه جهنم الحمراء"

ـ معك حق .. نلزم الصمت حتى يتضح كل شيء أمامنا .

غادروا العمارة بعد أن مروا على والدة سعد وأخبروها بأنهم ذاهبون لبيت الحداد خليل عم حنين .

استقبلت جميلة ابنتها بالأحضان كعادتها وبفرح ظاهر للعيان ، وقبلت زوج ابنتها، وفعل مثلها المعلم خليل ، ورحبوا بهم ترحيبا كبيرا ، وحتى مالك ومنى التي كانت تضحك لأختها وهي تستعد لسماع الكثير من الكلام والغمز شاركوا في الفرحة من جديد، وقال سعد مخاطبا لعمته : يبدو يا عمتي أن أمورا كثيرة حدثت في البيت !

قال مالك : معك حق يا سعد !

فقال خليل : أرأيت يا منى يا ابنتي كم يحبك الناس ؟!

فقالت حنين : حدثونا بكل شيء .

فقال مالك : لا شيء ، شاب اسمه برهان من حي (أبو حسبة) يعمل محاسبا في أحد البنوك تقدم لخطبة يدها ، وقد وافقت منى على الزواج منه عن رضا وطيب خاطر ، وجاء أهله

لمقابلتنا حسب الأصول وقد وافقنا .

قالت حنين متضاحكة : لا ، لا .. لابد أن هناك تفاصيل كثيرة حدثت لتوافق أختي الغالية منى .. تعالي يا حبيبتي إلى حجرة أمك لتشرحي لي كل شيء .. لقد بكينا وترجينا من أجل أن تعود لعقلها ولحي برقوقة يا مالك .

أمسكت منى بيد أختها الأصغر منها، ونهضت قائمة ومشتا نحو غرفة أمهم، وفيها سمعت حنين تفاصيل تعارفها على برهان، ولما انتهت منها قالت حنين بحماس وفرح : والله ولد جدع !! لقد استطاع أن ينشلك من الضياع والغربة .. يا له من مقدام !

ـ أتعرفينه يا حنين ؟!

سكت حنين لحظات وقالت: أأعرفه؟! من أين سأعرفه ؟ هل ترين أنني أسمح لنفسي مثلك بالجلوس مع الرجال الأجانب ؟!

ـ نسيت أنك شيخة .. هيا نخرج أكيد سعد الدين زوجك مشتاق لمعرفة أسرار هذا الانقلاب لقد كان يتضايق مني كثيرا !

ـ ويلك ، وهل في العائلة أحد لم يتضايق منك حتى ربيع ؟!

وكان هؤلاء خلال خلوة البنات يتحدثون عن الحياة والسعادة والانسجام وأهمية التكافؤ بالزواج .. ولزم سعد الدين التجاهل من حيث معرفته ببرهان رغم انفعاله الشديد لم حدث ، ولما عادت البنتان كانوا قد شربوا القهوة والشاي ، وما زالت الفواكه موضوعة على منضدة أمامهم ، فتناول سعد واحدة ودفعها لمنى وهو يقول : مبارك يا عروس ..

ـ أهلا سعد ، وبارك الله فيك وقد أعلمت امرأتك بتفاصيل المعركة التي دارت بيني وبين السيد برهان وستنقلها لك ..

ـ معركة !! وهل كنتم يا منى في معركة ؟!

فقال مالك غامزا: يظهر يا سعد أنك من الفرح نسيت منى.. ونسيت قساوتها عليك وأنت تحاول تليينها علينا .. ونسيت محاولتها عرقلة زواجك من حنين .

□□□

نخزت منى مالك بقوة وقالت : أما زلت تذكر ؟! لقد سامحني سعد ، أليس كذلك يا سعد ؟

ـ لقد نسيت .. منى تحبني وتحترمني ؛ ولكنها كانت تكابر وتظن أن القوة بالجاه والغنى فقط فالأخلاق قوة .. أنا مسرور لما حدث لك يا منى .

ـ هل سامحتني يا سعد ؟ .. ربما كنت قاسية عليك في تلك الأيام .. أنا فعلا كنت أمر بعاصفة وأحوال صعبة ؛ ولكن هذا الشاب استطاع قلب تفكيري وردي للحياة البسيطة التي عقدتها اليأس مشكلة .. انهيار الأشياء الكبيرة مشكلة أكبر .. وبالفعل ليس الطلاق والفشل هو نهاية المطاف أو الدنيا .. أنا جد سعيدة بمشاعركم التي أراها نحوي .

ـ أنا سامحتك اليوم وأمس يا أخت منى .

فقال مالك مداعبا : واعلموا أن منى قد حرمت على نفسها الخمر ، رغم ما بذلنا من جهد وعرق وكلام ونصح وتهديد لترك هذا الجرم ، ولم تكترث لنا ؛ ولكن كلمة من الفارس الشجاع برهان عادت لعقلها الذي حاولت إذهابه بالخمر.. بقي الدخان وستتخلص منه قريبا هكذا وعدني برهان .

ضحكت منى وقالت : الدخان أنتم تعلمون أنني لم أدخن ، ولم اسكر إلا لما ارتبطت بذلك المدعو حازم ، وذكرت لبرهان سبب تعلقي بهما .. والأحداث أثرت فيّ .. ولست بالشرهة والمدمنة في كليهما .. هؤلاء القوم عندهم الخمر والقمار جزء من الحياة .

فقال خليل : الحمد لله على نجاتك من ذلك ومنهم أيضا .

فقال سعد مشجعا : ألف مبارك يا أختي يا منى .. وإن شاء ستتركين الدخان كما تركت المنكر.. أنت على وشك ولادة جديدة .. فكلنا كان خائفا عليك من الضياع والمزيد من الانحراف .

وقضى القوم سهرة رائعة وممتعة فرحين بعودة منى لحظيرة العائلة ، وشاكرين لهذا الشاب الذي استطاع أن يحدث فيها هذا التغيير الذي كان بعيدا في نظرهم ولم يستطيعوه .. وبينما هم في سرورهم اتصل ربيع من بلاد الغربة وعبر لهم من هناك عن سعادته وفرحه الغامر ، فقد

كان مالك قد اتصل به فلم يجده ، وتحدث مع زوجته وحدثها عن خطبة منى مرة أخرى ، فلما عاد للبيت روت الزوجة له الخبر السعيد فبان الفرح على وجهه ، واتصل بهم وشاركهم فرحهم وسعادتهم ، وتكلم مع أمه وزوج أمه ثم مع منى وبارك لها العودة للبيت وزواجها وأبدى شوقه لمشاركتهم سهرتهم والتعرف على زوج منى والالتقاء به .. وتحدث مع حنين أيضا وزوجها سعد .



عقد قران منى وبرهان بحفلة صغيرة تمت في بيت الحداد خليل ، واتفقوا أن يكون الزفاف في وقت قريب .. فعرضت منى أثاث بيتها من ثلاجة وغسالة وأواني على برهان فاعتذر عن ذلك وقال : لست متكبرا على ذلك .. ولكني أحب أن أشتري كل شيء جديدا .. فاهديها أو تصدقي بها ..

ولما انتهى كلامهم عن تأثيث البيت ، وعن مكان السكن ، قالت منى : لي زمن منذ جئت بأهلك إلينا لا أراك تدخن يا برهان .. حتى أن مالك قال لي إنك لا تدخن، فأقسمت له أنك تدخن ، وقد كنت تشعل لي أحيانا السيجارة .. وقد قدمت لي مرات السجائر نفسها .. في الشركة وفي المطعم .

ضحك برهان وقال : للأسف لا أملك ثمن الدخان.

ـ أتسخر مني؟ أنا كنت أريد أن أسألك عن ذلك منذ ذلك اليوم .. ولكني قدرت أنك لا تريد أن تدخن أمام أمي وعمي خليل لكرههما للدخان .. وعدم حبهما الدخان والتدخين .. فلذلك عندما أريد أن أدخن أدخل حجرتي الخاصة التي أنام فيها.. فهم يكرهون رائحة الدخان مع أنهم يستنشقون رائحة دخان السيارات والباصات .

ـ هناك فرق .

ـ صدق لا فرق كله دخان .. ولكن ليس هذا مهما الآن .. فيمكنك أن تأخذ راحتك في بيتنا هذا ، وتدخن كما تشاء وخذ هذه السيجارة هدية مني .

تناول برهان سيجارة منى وأخذ يمزقها ، ومنى تنظر إليه بغضب وحيرة ، ثم رماها في منفضة سجائر موضوعة أمامه فقالت : لماذا أتلفتها ؟ ألا تدخن هذا النوع ؟ أنا لم انتبه لنوع وماركة سجائرك.

ـ أنا لا أدخن فعلا كما قال مالك .

أخذت منى بالضحك العالي وقالت : أنت لا تدخن لو لم ترك عيناي هاتين ـ وأشارت لعينيها

ـ لربما صدقت أنك لا تدخن .

ضحك برهان وقال جادا : صدقي يا منى بأنني لا أدخن .. إنما دخنت مضطرا .. فأنت تعرفين أن السيجارة أصبحت اليوم وسيلة للقلوب والحديث . وزاد في الضحك .

صرخت قائلة : ماذا أسمع ؟!

ـ دخني يا منى .. إذا الإنسان ما امتنع من نفسه لن يمنعه أحد .. فمرضى القلب المدخنون يمنعون عن التدخين فيدخنون .. بس أنا لم أكن أدخن ، إنما كان ذلك وسيلة وأداة من أدوات المغامرة التي قمت بها لغزو قلب الفاضلة منى ربيع ونجحت .

ـ فعلا نجحت يا برهان .. ولكني لم أعرف من رماك عليّ لحتى اليوم .

ـ لليوم ؟! .. ألم يحاول كشف نفسه ؟

ـ أأعرفه أنا ؟

ـ نعم تعرفينه ؛ ولكن يبدو أنه لا يريد إظهار حماقته ، لا أدري خوفا منك أم مني يا سيدتي الكريمة !

أمالت رأسها قريبا من رأسه وقالت : اهمس في أذني من هو ؟

ـ سأهمس عندما يأذن لي .

ـ يا رجل فكرت بكل الناس ولم أعرفه .. أتعرف شخصا اسمه عدنان جابر؟

ـ عدنان جابر .. ابن أخت خليل ؟

ـ آ ..

ـ نعم ، تعرفت عليه وهو شاب محترم وناضج وفاضل ، وهو صديق لأخيك ربيع كما فهمت من أختك حنين وحتى من مالك .

ـ هم أبناء حارة واحدة .. وكلاهما ربيع وعدنان تزوجا من أقارب أمي .. فربيع أخذ ابنة خالي وخاله .. والأخ عدنان جابر تزوج ابنة خالتي .. عرفتك عليها يوم كتب الكتاب .

ـ أجل وقد دعانا عدنان لغداء أو عشاء حسب رغبتنا .. فشكرته .

ـ نعم هو رجل محترم فعلا .. هل تعلم أنه فكر يوما بالزواج مني ؟.. عندما أراد الزواج ذكرني ؛ ولكني كنت مرتبطة بالمدعو حازم من غير عقد فأخذ ابنة خالتي .

ـ الزواج كما يقال " قسمة ونصيب " ، مع الاختيار الكامل للإنسان فهو قدر من الله .. لماذا اختار فلان فلانة ؟ ولماذا رضيت فلانة بفلان ؟ .. فهذه قدر مقدر.. كنا تحدثنا مرة عن المشاريع ، وقلت لك فكري لنا بمشروع تجاري نتشارك فيه .

أدنت رأسها من أذنه ثانية وهمست قائلة : مكتب تدقيق كما تحب وتحلم

تنهد قائلا : إيه، والله إنه حلم لي ! وهو حلم بسيط ليس كأحلام منى كما أعتقد .

ـ خلاص أنشئه ودعني أعمل مديرة له حتى تتقاعد من البنك .. أم تفكر بالاستقالة ؟

ـ المكتب المشكلة يا منى لا يحتاج لغة إنجليزية وترجمة .. كل الحسابات تجري بالعربية ربما نكتب الأرقام بالإنجليزية .. سأفكر لك بمشروع تقر به عينيك وتعرفين من هو برهان ذاك المغامر الصعلوك الذي دخل حياتك رغم أنفك .

ـ أحسنت رغم أنفي فعلا ! .. أنا لما تعاملت معك صدق أن الزواج لم يخطر ببالي .. لم أقف مفكرا طويلا عند اقتحامك لمكتبي ذلك النهار ، ولم أسأل نفسي لماذا دخلت عليّ بتلك الصورة البريئة ؟ الرجل الساذج البسيط الذي يخاف أن يشتري مكتبا وأثاثا بدون مشورة أحد .. ويخشى أن يضحك عليه ، وأتعاطف معه وأصدق أنه إنسان طيب مسكين بحاجة لمساعدة

ومشورة .

ـ كان لابد من فعل ذلك في نظري لتتعاطفي معي .. دخلت فتظاهرت أنني حائر لا أدري أين أذهب ؟.. ثم دفعت باب مكتبك ودخلت وبصوت ناعم ضعيف أذكر حاجتي وكلي خجل وحياء .. وكنت أحسب أنك رأيتني ولو بطرف عينك عندما دخلت المتجر من وراء الزجاج ولو من غير شعور أو اكتراث ..فاعتقدت أنني إنسان حائر جاهل بالمعرض .. واتجهت إليك من دون الآخرين عفويا وبدون قصد .. فدبت فيك الحمية العربية وأحببت مساعدة هذا المسكين ـ وسكت لحظات ـ وكذلك لإرضاء غرورك .. لا تنكرين .. فكل عيون العاملين كانت تراقبنا وتريد أن تعرف ما الذي جرى؟ .. ولماذا دخل هذا الرجل الأنيق الوسيم مكتب منى وتحدث معها ؟

ـ داهية ماكر يا رجل! لابد أن ذلك حصل معي .. منحوس أنت.. بل تشاجرت مع بعض العاملات من أجلك .. ثم تشاجرت مع المدير من أجل هواتفك .. أقر لك بأنك مغامر جيد وتفكر بردة فعل خصمك .. أو الشخص المقابل لك .. وأكيد أنك قارئ جيد .

ـ أنا قارئ جيد حقا.. وأحب قراءة الكتب المثيرة ولدي الكثير منها .. ستجدينها في شقتنا إن شاء الله تعالى .

لما حضر المعلم خليل من شغله ، وتناول الجميع العشاء ، واندمج خليل وبرهان بالحديث ، ونسوا منى التي تحضر لهم ساعة فاكهة وساعة تصنع شايا وساعة قهوة ، ولحظ مالك غيظها لإهمالهم لها ، وكان مالك السامع أكثر منه متكلما تلك السهرة ينظر إليها وهو يضحك ثم عقب فقال لها : يا منى .. اهدئي .. لك أكثر من ساعتين ترغين مع برهان .. أعطينا فرصة نتحدث معه .. فبرهان رجل عجيب ومثقف ولديه قصص وحكايات مدهشة .. وفي كل شيء يتحدث ، فحتى العم خليل معجب به جدا ويراه نوعا فريدا من الرجال في الدنيا ، وقد شرحت له قصة اصطياده لك بالتفصيل .. فهو قد فعل الذي عجزنا عنه في شهور وسنوات وغدا ستتركين الدخان كما وعدنا السيد برهان ..

كانت منى تتحمل تعليقات مالك اللاذعة ، وهي تعرف ربما أكثر من غيرها كيف يكسب برهان الأصدقاء بسرعة وحذاقة ؟ فردت على مالك ببعض الغيظ وردة الفعل فقالت : اسمع أنا تفاهمت معه على كل شيء .. أفعل ما أريد وأترك ما أريد .. والدخان الذي ما زال يزعجك ويثيرك ويهيجك ..حسنا لن أدخنه ، مبسوط يا سيدي مالك .

ـ صحتك غالية علينا ..

وذهبت لحجرتها وأحضرت علب السجائر والتبغ ، وأخذت تتلفها وهي تقول لمالك : ارتحت الآن .

وألقتها في سلة النفايات، وارتفع الصياح في الحجرة مباركا هذه الخطوة الشجاعة ، ورمت على أمها القداحة قائلة : هذا تصلح لإشعال الغاز .

وقالت جميلة لما هدأت الأصوات والفرحة والنكات والتعليقات التي قيلت: والله هالبرهان ولد مبارك ! والله يا منى نتعجب عندما نتذكر عنادك الماضي وأحوالك وبعدما عرفت هذا الشاب نلمس الفرق الكبير .. رضى الله عنك يا ابنتي وبارك الله لك في زوجك المحترم .

غرق برهان طبعا بالخجل والعرق وهو يسمع كلمات الثناء والمدح ويرى نظرات العيون من منى ومالك فقال : بوركت يا أمي .. هذا من فضل الله علينا .. ومنى إنسانة عاقلة ؛ ولكن النفس تضعف أحيانا فتحاج لدواء ، وربما يكون الدواء كلمة طيبة ، ربما نظرة حانية فيها عتاب خفيف تفعل الأعاجيب .

قالت منى بابتسامة واسعة : شكرا لك برهان .. أنا يا أمي مع ذلك لم أحبه بعد ؛ ولكني معجبة بطبيبي فالحب غير الإعجاب في نظري ، وقد يكون في نظر الآخرين ، وأنا لست عنيدة كما تشيعون عني .. أنا إذا اعتقدت شيئا لا أتزحزح عنه إلا إذا اقتنعت فعلا بضعفه وبطلانه.. وأنا لليوم لا أعرف برهان جيدا ولكنني مقتنعة به وبأفكاره .

واختلط الحديث بين الجميع ، حتى أن جميلة تمنت وجود ربيع بينهم ليشاركهم السعادة ، فهو كم دعا وتوسل إلى الله أن يهدي أخته ويحفظها مما انزلقت إليه بزواجها من حازم من عادات

سيئة ورديئة ، فقال مالك عندما سمع تمني أمه: سأخبره بكل شيء يا أمي .

وأمضى القوم سهرة ممتعة ، واستأذن برهان بالانصراف وهم يحثونه على المجيء غدا وأن البيت بيته حقيقة لا مجاملة ، فيقول : هو أكيد بيتنا ، والله لا يمل من سماع الشيخ أبي أحمد وأم ربيع والأخ مالك وإنني اندمجت معكم في هذه المدة الوجيزة اندماجا كاملا .. حتى بدأت أفكر بالحياة والسكن في حي برقوقة.. فقد لمست عواطف ومشاعر وحنانا عجيبا في ناس الحي .. فهم يحبونكم كأنكم أهل ، وهم ينظرون إليّ كبطل أنقذ ضحية .. مع أني طالب زواج فقط .. فهم يخجلونني بالثناء والمجاملات كلما التقينا بأحد في المسجد أو في الطريق .. وهذا من حبهم لكم .

فتحمس خليل وقال: كلامك دائما سكر وحلو يا برهان .. تفهم في كل شيء وسكنك هنا مكسب لنا وللحي .

فقال برهان : بارك الله فيك يا عم ؛ ولكني وعدت منى بأن أطير بها من حي برقوقة عند الزواج ، فأمي تريدني أن أجاورها وأسكن معها في العمارة يا عم خليل .. لا أعلم ما القصة التي بينها وبين هؤلاء الناس الذين يحبونها أكثر مني وكانوا خائفين عليها كخوفهم على أبنائهم .

فهتف خليل : أرأيت يا منى ؟! كلام هذا الإنسان .. على كل نحن نتشرف بك يا ابني يا برهان يا ابن الأجواد والله كأننا نعرفك من أربعين سنة .

فتبسم مالك وقال : لم يكن مولودا يا عم أبا أحمد .

ـ رجل يدخل المخ يا ابني يا مالك!

فقال برهان : شكرا لك يا عمي ، أنا مسرور بصحبتكم ومعرفتكم وأرجو أن أكون عند حسن ظنكم جميعا .. دعواتك يا أم ربيع .. ادعي لنا وأنت تسجدين بين يدي ربك .

فقالت جميلة : لم انقطع عن الدعاء يوما ما يا ولدي .. ومنذ تصاهرنا وأنا أخصك بالدعاء .

فقالت منى : والله يا برهان كما يقال " أكلت بعقل الناس حلاوة " !

فتبسم لمعاكستها وغمزها وضغط على يدها مودعا : أو لم أفعل ذلك؟! .. إنهم أناس طيبون يا مجنونة ! .. هكذا الناس .. البساطة والأمل والحب .. أبغض شيء إليّ النفاق والمجاملات الكاذبة .. سلام الله عليكم نلتقي قريبا .

وركب مالك بجوار برهان الذي جلس في سيارته فقالت أمه : أين ؟!

ـ سأمشي معه لرأس الشارع .

وقالت منى معاكسة : ماذا تريد منه ؟ اطلب مني أولا وأنا أوصل له الرسالة .. جاملني يا أخي على الأقل !

فقال مالك ساخرا وجادا وبصوت مسموع لهم : يريد مني بعض المال ليكمل مشروع الزواج اكتشف برهان أن ثروته لا تكفي فناشدني المساعدة فدبت فيّ النخوة والشهامة .

ـ أنا أولى منك بأسلافه .. على كل سيقول لي برهان ما ستقوله له .

ـ لا أظنه يكشف السر .

أشار لهم برهان مودعا بيده وتحرك بسيارته ، ولما أصبحا على رأس الشارع الصغير أوقف برهان السيارة والتفت لمالك الذي قال : يا أخ برهان أنت أكثر من زوج أخت وأكثر من صديق .. أنت أخ كريم وكما يقال " رب أخ لك لم تلده أمك " فنحن إخوة في الدين والعقيدة وإخوة في الصداقة والحب والصهر .. فإذا كنت محتاجا لأي فلوس فلديّ ما يساعد قبله برهان وقال : أنتم أحلى ناس .. مستورة يا رجل ! والحمد لله أنا لي سبع سنوات اشتغل في البنك ، ولست بالمبذر ولا المدخن ، وعلمنا حضرة الوالد حفظه الله لنا أن نحتفظ بأموالنا لمثل هذه الظروف .. فلا يقبل منا المشاركة في مصروف البيت إلا ما ندخله خفية عنه ، وهو يقول لنا : لما احتاج سأطلب منكم .. فالحمد لله وأشكرك جدا على هذا الموقف النبيل .

ـ نحن فرحون بك جدا جدا يا برهان .. أنت قدمت لنا فضلا ومعروفا كبيرا .. أنت قدمت للعائلة تضحية كبيرة وإيثار كبير .. أنت أنقذتنا كلنا من الضياع وليس منى فقط .. والله لو سقطت منى في الرذيلة لوصمتنا جميعا في العار ، وأنت خير من يعرف أهمية هذا عندنا نحن

أبناء مثل هذه الأحياء .. آه لو تعلم كم عانينا في السنوات الأخيرة ؟! منذ تزوجت ونحن نعاني ألما نفسيا وبدنيا ننظر إلى بعضنا في حزن وأسى .. ونحن اليوم نضحك من أعماق قلوبنا كنا عاجزين معها لآخر درجة ..

ـ القدر .. الله يحكم ما يريد !.. فابحث لك يا مالك عن زوجة صالحة تقر بها عينك .. فمنى رغم ما بدر منها وما حصل هو أمر طبيعي .. البيئة لها دور مهم كما تعلم في تكوين الفرد مهما حاول التحرر من قيودها .. البعض منا يحلم أحلاما كبيرة ..ولا يعرفون كيف يكون تحقيقها بسرعة ؟.. منى يا أخي لم تحب زوجها حازما يوما ما إنما كانت تراه جسرا أو درجة في سلك طويل وربما سلك قصير لتصير من أصحاب الثروات الهائلة .. ولكن هذه الدرجة انكسرت بسرعة ، ولم يتحقق شيء من الحلم .. فصدمت فزاد تمردها .



رسالة حازم

ولما وصلت منى صباح أحد الأيام إلى الشركة ، وذلك بعد كتابتها كتاب الزواج بزمن يسير أخبرها أحد العاملين أن رسالة أتت إليها مساء أمس ، وهي كانت قد تركت الشركة بعد ظهر أمس للقاء برهان والذهاب لمعرض ومتجر أثاث لحجز أثاث غرفة النوم والبيت فتسألت : أين هي ؟

فأخبرها الموظف أنها عند المدير فشكرته ، وطلبت منه فنجان قهوة ، ولما شربت القهوة ، ورتبت مكتبها صعدت إلى مكتب المدير في الطابق الثاني .. وصبحت عليه ، وذكرت له سبب مجيئها ، فتطلع على سطح مكتبه يمينا وشمالا وفتح "جوارير" أو أدراج المكتب وتطلع فيها فلم يرها فقال : نعم جاءت رسالة للسيدة منى ربيع أمس .. كيف تمشي أمور الزواج يا أخت منى ؟

ـ تمشي بتوفيق من الله .. أنا أول مرة تصلني رسالة خاصة هنا .

ـ فعلا وأنا مثلك دهشت .. ربما تكون تهنئة من أحد الأصدقاء أو الصديقات بمناسبة عقد قرانك .

وبينما هو يقلب في الأوراق والملفات التي أمامه وجد الرسالة فقدمها لمنى وهو يقول بجد : ها هي يا سيدة منى .. هل ستستمرين في العمل بعد الزواج ؟

ـ زوجي لا يمانع من العمل لحتى الآن .. ولما أنوِ ترك العمل سأخبرك قبل استقالتي يا سيدي

ـ أشكرك يا أخت منى .. وحقيقة قد يكون حدث بيننا في الشهر الماضي بعض الحدة ولكن من معرفتي بك إنك تقدرين وضعنا .

ـ بل أنا التي تأسف لما حدث .. آسف جدا يا سيدي .

ـ بارك الله فيك .. وشكرا لك أرجو أن تدعينا عند حفل الزواج .

ـ ولا يهمك ، سأفعل إن شاء الله .

ـ أطلب لك قهوة .

□□□

ـ لا ، شربتها قبل أن أصعد إليك .. إن الفراش باسم هو الذي ذكر لي أمر الرسالة .. فأنا لم أعتد على الرسائل الخاصة ؛ ربما تكون تهنئة كما قلت

وكانت منى قد تناولت الرسالة من المدير ، ووضعتها في حقيبة اليد التي تحملها كما تفعل النساء في هذه الأيام .

ولما انتهى الكلام مع المدير هبطت إلى مكتبها ، ولما جلست وتطلعت على العاملين الذين يرمقونها بعيونهم الفضولية وقد انشغلوا بواجباتهم ، أخرجت الرسالة فكان مظروفها كبير الحجم ومعطر ومن النوع الثمين ، وكان عليه عنوان الشركة التي تعمل فيها ، ويسلم ليد السيدة منى ربيع ، وأما المرسل فلم تجد له اسما معينا إنما عنوان فقط .. تحسستها لحظات ، ونظرت للخط المكتوب به العناوين فارتعش قلبها ويدها وهمست : إنه خط حازم ناصر .. زوجي الأول .. خطه لا أنساه أبدا !

وضعت الرسالة على المكتب وأخذت تحدق النظر إليها بضع دقائق ولم تفتحها ثم وضعتها في الحقيبة ثانية وهي تقول : سيفتحها العزيز برهان أولا .. أمعقول عرف بزواجي فأحب أن يهنئني بذلك ؟! .. ما الذي ذكره بي ؟! وكيف عرف أني وجدت رجلا قد يكون خيرا منه بل هو خير..؟! لابد أنه يعرف أنني أعمل هنا من عبير من بعض الأصدقاء القدامى .

نظرت في أوراق الشغل التي أمامها دقائق ، ثم رفعت سماعة الهاتف وتحدثت مع البنك وطلبت برهان وطلبت اللقاء به ليلا ولما سألها عن السبب قالت : لما نلتقِ ستعرف السلام عليكم .

وضعت السماعة ، وراحت في تفكير قديم أيام زواجها الأول أيام حازم .. وعادت بعد حين تنظر فيما أمامها من ملفات ومراسلات .

كالعادة زار برهان حي برقوقة ملبيا دعوة واتصال منى حيث وجدها ومعها أمها في انتظاره ، وأن السيد خليلا ذهب للصلاة في المسجد ، وأن المحامي مالكا عند أخته حنين ، وكان برهان قد أتى بأمه معه ، فانشغلت جميلة بأم برهان ، ودخل برهان حجرة منى التي قدمت له العصير

الذي يحبه بعدما قدمت منه لحماتها وأمها ، ولما جلست قبالته وسألها عن صحتها وحالها وفعلت مثله ، ثم سألها : هل دخنت منذ مزقت علب الدخان ؟

فتبسمت وقالت : أتريد الصدق ؟

ـ نعم !

ـ ضعفت في الشغل وتسولت بضع سجائر .. لم اشترِ علبة واحدة منذ تلك الليلة .. سأتخلص منه .

ـ إن شاء الله .. ما الذي جد وطلبت زيارتي لبيتكم .. وأنا أمس عندكم لنصف الليل .

ـ أمر مهم وغريب .

ونهضت وأتت بحقيبة اليد الصغيرة ، وأخرجت منها الرسالة التي وجدتها في انتظارها صباح اليوم في الشركة فقال : ما هذا ؟!

جلست وناولته الرسالة ، أمسك بالرسالة وقلبها بين يديه ، وقرأ ما عليها ، وتسأل بدهشة عما تريد ، فقالت: اليوم صباحا عندما دخلت الشركة ومكتبي أخبرني الفراش باسم أن رسالة وصلت أمس بعد الظهر لي شخصيا وهي مع المدير .. فاستغربت وشربت القهوة كالمعتاد وصعدت لحضرة المدير شفيق وطلبتها منه وهو مستغرب مثلي .. فهذه أول مرة تصل رسالة شخصية باسم منى للشركة منذ عملت معه بعد سفر حازم زوجي السابق .. مالك أتغار ؟!

ـ لا .. لا .. دعينا منه الآن أكملي .

ـ تحدثت مع السيد شفيق ، وتسامحنا عن مشاكلنا السابقة ، وطلب مني أن أدعوه لحفلة الزواج فوعدته بذلك ، فاجعله على رأس القائمة .. وأخذت الرسالة ونزلت إلى مكتبي ، وأنا أظن كما ظن المدير أنها تهنئة وتبريك من أحد أو إحدى المعارف .. لما نظرت إليها وإلى اسم المرسل فلم أجد له اسما كما تلاحظ ، فيوجد عنوان ولا يوجد اسم المرسل حتى العنوان ربما يكون وهميا .. أما عنوان الشركة التي أعمل فصحيح .. ولكني لما نظرت الخط ودققته عرفت أنه خط من ؟.. إنه خط حازم !

ـ حازم ؟!

ـ نعم ، حازم يا سيدي العزيز ، فاضطربت وارتعشت وتسألت ما الذي ذكره بي بعد هذه الأيام والشهور؟! وكيف عرف بزواجي وخطبتي إلى آخره ؟ .. فهو منذ سافر أمريكا تحدث معي من هناك مرتين أو ثلاث على ما أذكر ثم أرسل ورقة الطلاق أو وكالة بالطلاق ، والمحامي محامي والده بلغني ذلك .. وانتهى ما بيننا .. فانزعجت ولم أفتح الرسالة ، وتركت أمر فتحها لك يا سيدي فمن أجل ذلك اتصلت بك.

كان برهان يقلب الرسالة ، وهو يسمع تفاصيل مجيء الرسالة ، وموقف منى منها فقال بعد صمتها : أخائفة من شيء ؟!

ـ أنا رغم انحرافي الذي تعرفه يا سيد برهان .. عندي إخلاص ووفاء وأحسب لكل شيء .. فهذا الرجل لا حق له اليوم ليكتب لي أو أن يتحدث معي .. لا أحب أن أجرح مشاعرك .. ولو كان الشيء تافها .

ـ هل اتصل بك منذ عاد للبلد ؟

ـ أبدا .. هذا أول اتصال، أنا علمت بعض أخباره وبعودته من أخته عبير ومن بعض الأصدقاء لنا الذين ابتعدوا عني بعد سفره لأمريكا الشمالية .. فنلتقي صدفة فنسمع أخبار بعض .

ـ أنا أقدر لك هذا التصرف الحسن .. ولكني لست حساسا لهذه الدرجة .. أقرئيها يا منى ولا تقلقي .

ـ هل أمزقها ولا أقرأها ؟!

ـ أخائفة من شيء ؟!

ـ عندي قلق ما ..

ـ أنا أقدر شجاعتك يا منى !.. وكان باستطاعتك قراءتها وأتلافها دون إعلامي وبدون أن أعلم فهذه شجاعة وأدب راق .. فأنا لما اقترنت بك وصممت على الاقتران بك فعن معرفة

وعن دراسة .. ليس اعتباطا كما يتبادر إليك ، فأنا أعرفك جيدا ، وأعرف أهلك جميعهم من قبل الزواج سماعا طبعا ، فلدي معلومات مهمة عنكم .

ـ من مصدرك الخاص .. ليتني أعرف ذلك المصدر !

ـ مصادر كثيرة على كل حال .. أنا أسمح لك بقراءتها .

ـ نقرأها معا ؟!

ـ وحدك أفضل .. فهي رسالة خاصة لك أنت أنت .. وهل أنت متأكدة أنها من حازم ؟

ـ اشتغلنا معا سنوات ، فأعرف خطه جيدا ، وأعرف ضعفه ، فهو خائف أن يضع اسمه ، وحتى عنوانه الصحيح ، حتى إذا فقدت أو ردها البريد ولم تصل لي وردوها لا تعود إليه .

ـ أنا لا أريد قراءتها يا عزيزتي .. أقرئيها أولا وإذا رأيت من المناسب قراءة ما كتب لك ، فربما أسمح لنفسي بقراءتها ..لا تتحرجي من قراءتها

وطرق على الباب طرقا خفيفا فنهضت منى وفتحت الباب : أبا أحمد .. تفضل يا عم.. أنا فكرت أمي أحضرت الشاي الذي يحبه زوج ابنتها .. عمي خليل يا برهان .

نهض برهان مسرعا ومصافحا للعم خليل وهو يقول : أهلا وسهلا بالرجل الفاضل ، وقال برهان لمنى : أقرئي الرسالة ثم الحقي بنا .. هيا يا عمي أبا أحمد نجلس في الصالة .. كنا نتحدث في موضوع خاص وإلا جلسنا مع العجائز .

ذهب الرجلان حيث الصالة وحيث تجلس المرأتان ، وظلت منى في الغرفة حائرة بين القراءة للرسالة أو تمزيقها ، فعندما تغلب أنها مجرد مباركة وتهنئة تهم بتمزيقها .. وعندما تغلب أنه قد يكون فيها شيء غير ذلك ربما معلومات مهمة ترغب بفتحها .

وأما برهان فتحدث مع السيد خليل بضع دقائق ثم التفت إلى أمه قائلا : آ يا أمي كيف أنت وحماتي ؟

ضحكت الأم لسؤال ولدها الساذج ، وأخذت تكيل لهم المدح والثناء والطيبة والصبر على تعليم الأولاد وتربيتهم ، وتثني على همة خليل ، وجميلة تشكرها وتثني عليها وعلى أصلها

وجذورها .. وخليل وبرهان يبتسمان ويرشفان الشاي ، ودخلت عليهم منى وأخذت تتحدث مع حماتها وترحب بها ، وقد سمعت آخر الثناء فشكرت حماتها على إهدائها لهم لفلذة كبدها برهان ، ثم تطلع برهان في منى وسألها : أقرأتيها ؟

هزت رأسها بالنفي وقالت : إنني مترددة وسأقرأها فيما بعد .

ولما سأل خليل عن الموضوع غير الشابين مجرى الحديث والحوار بعدما قالت منى : رسالة لي يا عم .

وبينما هم منسجمون بالحديث دخل مالك وخلفه حنين وزوجها سعد الدين الذي قال مازحا : والله يا برهان أنت مرابط هنا !.. منذ متى وأنتم هنا يا خالتي أم العبد ؟!

قالت أم العبد ـ ابنها الكبير اسمه عبد القادر ـ والدة برهان: والله يا ابني منذ ساعة أو أكثر .. كيف أمك وأخواتك ووالدك الحاج ؟

رد سعد فقال : الكل بخير يا خالتي وبشوق لكم .. وكيف أنتم ؟

ـ الحمد لله .

ـ كيف صحتك اليوم ؟ أكيد مع خطبة برهان تحسنت أكثر !

ضحكت وقالت : الحمد لله يا ابني .. ها هو أصبح عديلك .

قالت منى مخاطبة حماتها : أتعرفون بعضا يا خالة من زمان ؟!

ردت المرأة بسرعة وبراءة : طبعا يا بنية .. كم مرة طلبت من برهان أن يتزوج من بنات أم سعدي ؟! .. ولكن النصيب حكم في النهاية لنتعرف على هذه الوجوه الطيبة .

تمتم الجميع بالشكر ، وكانت منى تتطلع في عيني برهان ، وكأنها اكتشفت سرا ، وقالت بنبرة مثيرة : برهان !

هتف وقد فهم مقصدها : نعم يا سيدتي !

فدخل مالك على الخط فورا ، وقال : يبدو أن اللغز يريد أن يحل يا سيد برهان .

أدرك سعد ما يتغامزون حوله ، فنظر في عيني برهان لحظات ، ثم نقله لمنى قائلا : وهل قال

لك إنه لا يعرفني قبل تعارفكما ؟

ـ لا .. أنا ما سألته ؟

فقال برهان مريحا لأعصاب الجميع وهو يبدل نظره بين منى ومالك وسعد : أنت لم تسأليني عن سعد الدين يوما ما .. فسعد الدين هو سبب تلاقينا وزواجنا .. إنه يحبكم جدا ويبغي لكم الخير فألقاني عليكم .. لنصير كما يحب عدايل .

همست منى كأنها مذهولة وهي تحملق بسعد : أنت يا سعد الدين ؟!

قالت حنين : هذا من حبه لك كما قال برهان .

قام مالك واحتضن سعد الدين قائلا : جزاك الله خيرا يا سعد ..

قال سعد متحمسا ومرتبكا في نفس الحين : لم استطع أن أقدم لها شيئا .. فقلت برهان صاحب هذا الشأن .. مع أنني تراجعت من خوف حنين وقلقها على مشاعر أختها وأعلمني المحترم أنه انسحب ولكنه مكر بي .

فقالت منى: أنا أصبحت مدينة لك يا سعد الدين بهذا الزواج.. وبهذا الزوج .

ـ ولحنين .

فقالت : ولحنين ...اسمحوا لي الآن بأخذ حنين لغرفتي بعض الوقت .. تعالي يا كذابة !

تبعت حنين منى ، وجلستا في حجرة منى التي فارقتها قبل دخولهم بقليل ، وقالت لها : هو الأخ سعد الدين المتآمر عليّ ؟

ـ نعم سعد الدين أبو زكي هو المتآمر على أخت حنين .. هو برهان لم يقل لك ذلك ؟! .. أنا فهمت من سعد أن برهان ذكر لك ذلك .

هزت رأسها وقالت : ذكر برهان كل شيء .. وأنه لم يلتق بي صدفة إنما كان عن قصد وتخطيط .. وأن أحدهم دفعه لذلك ؛ ولكنه لم يذكر اسمه .. وما توقعت أن تكونا أنتما .. ولما سألتك ذات يوم تعرفين برهان أنكرت معرفتكم به .

ـ أنا لم أنكر .. فأنا لا أعرفه يا أختي فهم جيران قدامى .. سعد الدين كان خائفا وقلقا عليك كالآخرين .. فتحدث معه برهان ذات يوم عن رغبته في الزواج .. فأشار سعد إليك وحدثه بقصتك الرائعة .. وتكبرك على جنس الرجال .. فبدأت مزحة .. ولم هو معروف عن برهان من كثرة التفاف البنات حوله أيام الحي والصغر وكذلك أثناء الدراسة الجامعية.. استغرب طبعا هذه المعلومات وهذه الوسيلة .. وبعد تردد وافقنا على الفكرة والمحاولة .. ثم قبل بداية المغامرة المثيرة طلبنا منه الانسحاب ، خشينا على عواطفك الغالية علينا من الصدمة إذا لم يقتنع بالزواج منك .. لأنه لم يكن حسم أمره بالزواج بعد .. وكان سعد قد تعجب كثيرا من رفضك زواجي منه .. وكنت أنا قد ذكرت لعائشة أخته بعض ظروفك يا حبيبتي .. فكانت مشكلتك مشكلة لسعد .. وهم جيران وأصدقاء قبل أن يبني والد سعد ويرحل من حي " أبو حسبة"، وبقيت العلاقات والجيرة بينهم مستمرة ، فأشفق عليك وأراد أن يتحدى برهان بك ، وأنك لا يمكن أن تتحدي غروره ، ولما أقنعني بالفكرة طلبت منه أن يعرفني بصاحبه برهان هذا .. واتفقنا على المغامرة .. رغبة منا لإنقاذك من مرضك ، نحن كنا نرى أنك مريضة ولكن خفنا عليك بعد الاتفاق مع برهان ، خفنا أن يحدث شيء ليس بالحسبان فهذه عواطف ومشاعر .. ونحن ظننا أن المهمة انتهت .. لأنه وافق على الزواج وقبل بالزواج إذا لمس عندك

□□□

قبول للتغير ، أما إذا لم تقبلي فسيعتذر .. ورفض أن يربط نفسه بوعد مجهول العواقب .. فوافق على الانتهاء من المهمة وانتهى دورنا.. ولكن ظهر لنا أن برهان أخلف الوعد وتظاهر بالانسحاب خوفا علينا .. وتابع مغامرته حتى اصطاد السمكة ونجح في الوصول إلى منى ربيع .

هزت رأسها وقالت : اصطاد السمكة ! أنا سمكة في رأيكم ! والله يا سعد! لا يوجد أحد في الدنيا غير مهم .. من معرفتي بسعد لم يخطر في بالي أبدا .. خطر في بالي في الأول مالك .. وسبحان الله لما عدت للبيت في ليلة اتفاقي مع برهان وجدت مالكا في انتظاري فاضطرب مخي وتسألت: هل بينهما اتفاق مالك وبرهان؟ .. وكان برهان قد أنكر أن يكون لمالك يد في اللعبة ثم فكرت بعدنان ابن أخت خليل .. أما سعد فكنت أراه حاقدا عليّ ولا يطيقني ومنذ رحلت أمي ومالك لبرقوقة لم أره .

ـ سعد لا يعرف الحقد .. كان قد قلق من تدخلك في منع زواجه ، وصعب عليه موقفك الحاد واللئيم منه ؛ ولكنه لما شرحت له قصتك بالتفصيل طبعا أشفق عليك وخشي عليك الضياع ، مثلنا يا عصفورة ..

ـ عصفورة .. سمكة .. على كل حال برهان رجل لا بأس به ومقبول .. فيوجد كثير من التوافق بيننا .. والقدر حكم بيننا .. أنا شاكر لك ولزوجك وأعرف محبتك لي وستبقين أختي الصغيرة .. مع أنك اليوم أم لطفل والثاني على الطريق.

واحتضنت أختها لدورها ولو البسيط في زواجها وتعرفها على برهان ، كانت منى تشعر وتدرك مشاعر القوم اتجاهها ، ويبدو أنها بعدت عنهم كثيرا في السنوات الأخيرة ، ولما أنهت حنين ما عندها التفتت للرسالة التي ما زالت مطروحة على المنضدة وقالت : من ربيع ؟!

ـ لا .. انظري إليها

أمسكت بها حنين وقرأت ما عليها ثم قالت : ليست من ربيع .. ممن ؟

ـ حازم !

□□□

ـ من حازم ؟!

ـ الله ! زوجي السابق .

ـ أوه ..! لقد نسيته ! عمره ما دخل مخي .. والله ما أدري كيف تعلقت به ؟! .. عفوا ، أنت تعلقت بأموال أبيه .. وماذا يريد ؟! ألم ننتهِ منه لليوم ؟! وهل يعرف برهان بهذه الرسالة ؟ وماذا فيها ؟!

ـ ما زلت كما أنت لا تحبين المذكور ؟

صاحت حنين فجأة : خلاص انتهى من حياتنا ، صدقي أنني لم ارتح له يوما ولم يدخل عقلي منه شيء .. دعينا منه .. آماذا يريد منك اليوم ؟

ـ لا شيء .. وجدت هذه الرسالة في الشركة صباح اليوم ، ولما رأيت الخط عرفت أنه خط السيد حازم ناصر ، مع أنه لم يكتب اسمه عليها ، فوضعتها في الحقيبة ، واتصلت ببرهان ليفتحها ، فاعتذر وأذن لي بقراءتها .. فوضعتها لأقرأها وما زلت مترددا في النظر فيها .

ـ مزقيها .

ـ الفضول يا حنين ، قد يكون فيها شيء غير التهنئة كما أتوقع ، فنحن عشنا مع بعض سنوات قبل الزواج وبعده والمحير لي كيف عرف بزواجي بهذه السرعة ليبادر بهذه الرسالة والتهنئة ؟ وهو يعرف مكان عملي من أخته عبير ، دخلت شركتنا مرتين أو ربما من أحد أصدقائنا القدامى الذين يعرفون مكان عملي .. أما الزواج وعقد القران كيف عرف به ؟!

ـ لك أكثر من أسبوع كاتبة لكتاب الزواج ، والناس تنشر الأخبار بسرعة !

وفتحت الرسالة وهي تقول : ها أنا فتحتها ، وسأقرأها نيابة عنك يا منى .. ترى ماذا سيكتب الحبيب السابق ؟!

ـ حنين !

ـ منى !

ـ أنا أختك الكبيرة سأبقى .

ـ أعرف وأنا سأبقى أختك الصغيرة !

وأخرجت الرسالة المكونة من صفحات أنيقة يفوح منها العطر ، فقالت : يا سلام يا سلام ! هذا مجنون إذا ما زال يفكر بك عاطفيا .

كانت رسالة يتحدث فيها عن أيام الشركة ، أول أيام تعرفه على منى ، وكيف تولع بها وهام بها دون كثير من فتيات العمل؟.. ثم يعتذر لها عن فشلهما، وتحطم أحلامها معا.. ثم تهنئة بالزواج ، وذكر أنه عرف ذلك من بعض الأصدقاء، وتمنيات بالسعادة ، ويطلب منها المسامحة والعفو.

ولما انتهت حنين من القراءة بصوت مسموع صفنوا ببعض وقالت حنين : هل أمزقها أم تحبين أن تحتفظي بها ذكرى ؟!

ـ مسكين يا حنين! حازم .. ضحى من أجلي ..

صاحت حنين : لم يضح بشيء .. فالطلاق كان واردا حتى لو رضي والده .. فهو ضعيف الشخصية عابث ، ومن أجل هذا لم يجعله والده في منصب مدير شركة مصنع .. كان يعمل تحت إدارة أخته لضعفه وحمقه.. وأنت تعلقت به واستغللت هواه لك ليكون درجة وسلما لتصلي لعرش أحلامك الخيالية .. تقفزين مرة واحدة .. وكنت ترين أن ضعفه سيجعلك تحكمينه كما تحبين .

سكتت منى ثوان معدودات ثم قالت : أنا أعرفك ! وأعرف رأيك فيّ وفي حازم .. وتنهدت وقالت : دعينا منه هل اطلع برهان عليها ؟

ـ كما تشائين .. برهان رجل متزن وعاقل وطموح مثلك ، ويستخدم عقله وفكره قبل عاطفته .. أنا سأرسله لك

خرجت حنين وأرسلت برهان الذي دخل قائلا وقد وجدها تمسك بالرسالة بعد أن رمتها عليها حنين : آ ؟

ـ فتحتها حنين وقرأتها عليّ فإذا أنت تحب قراءتها فافعل .

ـ شكرا يا عزيزتي .. قالت لي حنين ملخصها .. واحتفظي بها إن شئت .

ـ إن شئت ماذا تقصد ؟!

وطفقت تمزقها قطعا قطعا وكان برهان يقول : يا منى! هذا جزء من حياتك ، أيام عمر، لا يمكن نسيانها بسهولة ستبقى تاريخ .. المهم أن يبقى تاريخ ولا أطلب منك عدم تذكرها .. فالإنسان يتذكر مواقف من طفولته .. فكيف من شبابه وأعصابه ؟! .. ولكن راعي مشاعري واعلمي أنني لا أكن لهذا الإنسان أي حقد وبغض ؛ لأنني لا أعرفه .. فالزواج قدر رباني .. ممكن غدا أموت ؟ وتتزوجين غيري هذه سنة الحياة

ـ أنت كما تراك حنين عقلانيا تستخدم العقل أكثر من العاطفة يا سيدي البطل

ـ ولو حدث العكس ، هل تقبلين أن أبقى من غير زوجة ؟ .. هكذا العقل يقول .. بطل لا بأس .. صراحة حنين ناضجة أكثر منك مع أنها الصغرى آسف لقول ذلك .. ربما لأنها لم تخضع لتجربة عاطفية في حياتها ، فرغت عاطفتها بعد الزواج ، فلذلك تحكم عقلها في فعلها واختيارها .. لا تغاري من أختك أنا لم أرها إلا بضع مرات بحكم زيارة سعد لبيتنا ، وذلك بعد كتابة كتابنا فلمست فيها رجاحة العقل .. ولا يعني ذلك أنك لا تفكرين .. بل تفكرين ولكن للأحلام والخيال دور كبير في حياتك .. الواقع غير الخيال .

ـ لولا أنني أعلم أنك تحبني وتموت فيّ لصنعت لك مشكلة .

ـ وأنا أعرفك وأعرف أنك تحبينني؛ ولكنك ما زلت متمسكة ببقايا من الماضي .. هيا نمشي للقوم .. سأجلس قليلا وآخذ أمي وانصرف .. المهم أنك علمت الليلة من كانوا وراء تعارفنا وارتاح قلبك .

تبسمت قائلة : سعد الدين .. صدق أنه لم يخطر في ذهني .. لأنه لم يدخل كما يقولون لي من زور .. ما أحببته يوما ..

ـ ليس مهما أن تحبيه أنت ، المهم أن تهواه وتحبه امرأته .. هو أيضا لا يهمه حبك له ولا يسعى إليه .. مشكلتك أنك لا تحبين أحدا .

ضحكت وقالت : مالك عصبت ؟! .. كنت أراه إنسانا مهملا ، وأعجب من رضا حنين به زوجا .. فهو غير متعلم لم يأخذ الثانوية .

ـ الشهادة ليست كل الدنيا يا سيدتي .. ولكنه تاجر ماهر ، هذا الذي ترينه نجح في التجارة أكثر منك .. ويدير حسابات المحل مثلي أنا المتعلم في الجامعة محاسبة .

ـ عظيم ! .. إنك مغرم به وتدافع عنه بقوة .. هدئ أعصابك ، أنا أقول لك رأيي فيه قبل أن أتعرف عليك ..

ـ لست غاضبا ، وأنت تعرفين أنني لا أغضب بسهولة ولا استفز .. ولكنه صديق وأخ عزيز وأريد أن أبين لك من هو هذا الذي لم يملأ عينيك ؟

ـ خلاص يا سيدي الآن عرفت من هو سعد الدين ؟.. وسأحسب له ألف حساب .. وفعلا وحق أنه نجح في التجارة والبيع مع والده وأنا لم أنجح في التجارة .. يبدو لي فعلا أنني كنت مغرورة .. لا تضحك .. ولا أحسن الفهم والتقدير ..

ـ سعد الدين لا تحسبي له ألف حساب ، فهو صديق وأخ ، ولن يتدخل في شيء بيننا كما أنا لا أسمح لنفسي بالتدخل في حياته .. فنحن اليوم أسرة واحدة .. وأنت تحسنين التفكير والتقدير .. ولكن الخبرة العملية عندك نظرية أكثر مما هي في واقع السوق والحياة .. وكذلك تتعجلين النتائج ولا تكملين التقدير ، وحصول الانحرافات خلال الممارسة وارد ، ثم تقويمها ومعالجتها مهم ..

ـ على كل أنت زوجي وحبيبي وأميري ، وستعلمني من جديد وتجعلني ملكة غير متوجة .

ـ رائع .. رائع استسلامك يا سيدتي ! وأنا أحب فيك الاستسلام للواقع الجديد وعدم التشدد للماضي .. لقد قالوا لي " إنك تحبين الرفض والعناد " .. فمنذ التقينا لم ألمس هذه الصفة ولا هذا الطبع .

ـ أنت محاور بارع ..لا أجد مجالا للمكابرة أمامك .. فما أريده تعدني بفعله !

وأحنت رأسها للأسفل وقالت صادقة : غيرتني يا برهان .. جعلتني أعرف من أنا .. كلما

أفكر بكلماتك وأفكارك أقر بين وبين نفسي أنك فاضل وخيّر وتبسط الحياة جدا .. لم أكن أظن في يوم من الأيام أن رجلا عاقلا مثلك ومن سني يقبل بالزواج وبفتاة مطلقة مثلي .

ـ هذه عقدتك يا فتاتي .. لست أول إنسان في الدنيا يتزوج امرأة تزوجت من قبل .. فما الفرق بين الأرملة والمطلقة كليهما من غير زوج ؟! .. النساء تضخم هذه الكلمة حتى أصبحت كلمة مخيفة وظلالها مرعبة .. فالطلاق كما يقال ليس نهاية الدنيا والمطاف .. إنما هو حل لمشكلة بين زوجين .. ولكنّ الإعلام وحقوق المرأة في زماننا جعلت منه قضية كبرى وفضيحة ومأساة .. وتحمل عادة المرأة المسؤولية عن الطلاق .. فيخافها الرجال .. فلا يتقبلها كزوجة إلا الناس المتزوجون من قبل على أساس أن لديهم خبرة ومعرفة للتعامل مع هذا النوع من النساء .. وكل هذا وهم.. إنما تسلك المرأة في الزواج الثاني خوفا من الطلاق من جديد .. فترضى بكل هوان وذل ليبقَ الزواج ، فيصبح الزوج الثاني سيد الموقف ، وأنه استطاع ترويضها .. مع أن الأوائل كانوا يتزوجون ويطلقون ويترملون ولا يعتبرون ذلك قضية كبيرة فالحياة وجدت لتستمر حتى حين .

ـ ها أنت صرت فيلسوفا وواعظا عليّ يا سيدي !

ـ نحن أبناء الثقافة الإسلامية.. ومنذ التقينا لم أتحدث معك عن الحلال والحرام ، إنما من الأعراف والعادات والعرف الشائع بيننا أتعامل معكِ يا سيدتي .

ـ أنت كنز حقيقي يا سيدي! ولست مجاملة أو لأنك زوجي.. كلما أتحدث معك أستفيد شيئا كثيرا .. مع أنني ابنة جامعة ؛ فكأنني لم أتعلم شيئا .

ـ لا ، أنت تعلمت ولكن الجامعة لا تعلم إلا العلم الأكاديمي والنظري .. أنا درست كذا مادة في المحاسبة والبنوك والشركات العامة وغير ذلك من فروع البكالوريوس ؛ ولكنني عمليا أمارس جزءا صغيرا جدا من المحاسبة ، ربما طفل إذا مرن عليه قام به .. ولا أعني بكلامي هذا التقليل من العلم الأكاديمي .

فرح منى

انتقلت منى لبيت زوجها بعد أسابيع قليلة من عقد قرانها ، وبدأت الحياة الزوجية الثانية لمنى ربيع ، ومرت الأسابيع الأولى من حياتها العائلية طيبة وهادئة، وقد لمست الفرق الكبير بين أيام زواجها من حازم وزواجها من برهان ، كان زواجها الأول كله هموما وتوترا ونكدا من جهة أهله ومن جهة أهلها ، كان يوم زفافها من حازم كيوم إخراج جنازة ، الكل مكشر ومنقبض وينتظر انتهاء حفل الزفاف بفارغ الصبر ، فقد كانت الوجوه واجمة وحزينة ، ويوم زفاف برهان كانت المشاعر الرقيقة والصادقة والابتسامات والفرح واضحا لكل الناس ، وكان الناس كأسرة واحدة ، وكان خليل من أفرح الناس كأنه قد زوج ابنيه برهان ومنى .. وشارك كثير من الجيران وأهل برقوقة العروسين والأسرتين حفلهم وفرحهم ، فحضر عدنان ووالده وأمه صبرية وزوجته ، وخالتها لمنى وأخوالها وأعمامها ، مما دفعها لأن تسكب الدموع تأثرا ، وعجبت من مشاعرهم وحبهم لها ولأهلها ، فعندما تزوجت والناس راضون عن العريس وأهل العريس خرجت عواطفهم محبة .. ورأت الفرح أيضا في عيون أخوات زوجها وزوجات أخوته فقد كانوا جميعهم مسرورين ، كأنهم يزفون بكرا لأخيهم ، وكأنها تتزوج أول مرة ، حتى أنها لم تشعر بأنها امرأة مطلقة من فرح الناس بزواجها ، فقدرت هذا كله لبرهان ، وعرفت فضل الله عليها ، ثم فضل هذا الرجل الذي اقتحم عليها حياتها ليخرجها من البؤس والشؤم الذي أحاط بها فيزداد تساقط الدموع تأثرا .. وأدركت حب الناس لبرهان وبهذه السرعة .. فقد فرض نفسه على الجيران وأهل الحي بأسابيع قليلة ، ومن مصاحبته لخليل للصلاة في المسجد ، فأصبح كأنه من أهل الحي .. فبدأت تعرف أهمية الناس في حياة بعضهم البعض .. وأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بمعزل عن الناس وإن حاول صنع ذلك .. لابد من الأصدقاء والأهل والأصحاب .. رأت أشياء جديدة في احتفال الناس بزواجها .. وكانت تحاول فهم ذلك ثم قالت : هو نفس السر الذي شدني إليه وجعلني أقف ضعيفة للغاية أمامه .. كأنه مغناطيس .. أتمنى أن أحقق له السعادة التي أملها مني .. أنت حياتي يا

□□□

برهان .

مرت أسابيع على الزواج ، وهي تعيش هذه الخيالات واللمسات التي مضت من عمرها .. أحست أنها مدينة بهذه السعادة والفرح والمشاعر لزوجها برهان ، أعادها للحياة من جديد .. كانت تهرب من جمال الحياة لتسكب لنفسها كأس خمر لتتوه في ظلمات الشراب ، لتنسى نفسها ومشاكلها التي صنعتها بيدها وبيد من اختارته شريكا لها .. الرجال يتفاوتون في المواهب والقدرات .. تريد أن تسد زوجها الذي صنع لها كل هذه السعادة وغمرها بتلك الأيام الجميلة ولو شيئا يسيرا من المعروف ؛ لذلك كانت تلح عليه منذ زفا لبعضهما بأن يفتح مكتبا للتدقيق المحاسبي كما كان يحلم وكما ادعى لها فيقول : إن شاء الله سأفتح هذا المكتب يا عزيزتي .. ولكني لست بعجلة من أمري .

فقطعت عليه اعتراضه قائلا : أنا أعلم أن العرس كلفك مالا كثيرا ، ورفضت أي مساعدة مني مع أنك قلت لي إننا أصبحنا شيئا واحدا.. فاعلم يا عزيزي أن كل من مالي وسيارتي هو لك من غير منة .. أنا لو قدمت روحي لك ما وفيتك معروفك .. أنا عندي كلام كثير أحب أن أسمعك إياه .

ـ جميل منك هذا الكلام .. والاعتراف بالفضل أجمل وأرقى !

احتجت بأن هذا ليس كلاما بل أنها تريد وتقصد تحقيق ذلك .. ولتعبر له عن مقدار سعادتها به وبأن أحلامه هي أحلامها .. وأقرت له أنها تحبه من أعماق فؤادها ، وأنه أسرها بأخلاقه وفضله ، وتحس أنها تريد أن تعبر له عن ذلك بشيء عملي ، فأخبرها أنه لا يوجد بين الزوجين فرق فهما جسد واحدة وروح واحدة .. وأن الحياة تفاهم وتحمل وقناعة ، وكادت أموال منى أن تجعل بينهم فتنة ، وتغضب منه منى ، فرفضه الاستفادة من ثروتها يعني أن يعاملها بحساسية وحذر فيصبرها قائلا : يا ابنة الحلال .. اصبري .. ليس المكتب هو أن نشتري الخشب ولوحة يكتب عليها اسم المكتب .. الشغل هذا يحتاج لعلاقات عامة مع أصحاب الشركات والبنوك .. مكتب بدون زبائن لا شيء .. سيغلق بعد أول إيجار لصاحب العمارة ..

سأضع الأمر جديا في دماغي .. وسأعمل في مكتب تدقيق بعد دوامي في البنك حتى أتمرن وأعرف أسرار عمل مثل هذه المكاتب ، حتى أتقن المهنة ، وبعد سنة على الأقل أكون قد تعلمت أهم أسرار العمل ، ثم أبحث عن شركاء وأنت منهم ، وإن شاء الله تعالى نفتح هذا المكتب .. الكلام كما تعلمين سهل أنا صحيح دارس محاسبة وأحمل بكالوريوس فيها ومن كلية تجارة واقتصاد .. فالتدقيق جهد وتعب ومسؤولية أمام الشركة وأمام أجهزة الرقابة وأمام أصحاب الشركة من مساهمين وغيرهم .

اقتنعت منى في النهاية بوجهة نظره ، ووضح لها أن العلاقة الزوجية ليست شركة تجارية وليست علاقة امتنان وهبة ، وأن الزوج إذا فعل شيئا حسنا لزوجته ينتظر أن تكافئه عليه وهو يفعل مثل ذلك .. فكلمة طيبة ودعاء أفضل من ذلك .. والحياة الزوجية أكبر من التعزيز والحوافز .. هي حب وانسجام وتفاهم .. فتقر له باسمة : يكفيني نجاحا في هذه الدنيا أنني امتلكت قلبك في أسابيع يسيرة .

ـ أنا لا أنكر ذلك .. رغم العيوب التي صورت عنك أو كانت فيك ، فكنت معي غير ما قيل وأحسست أن سعادتي الدنيوية عند قلبك .

فتقر له معترفة أنه ملك قلبها منذ طلبها تلك الليلة للزواج ، وتعترف أنها

كانت تغالط نفسها في ذلك ، فيفرح من صدقها ويقول : من سعادة المرء أن يجد امرأة تفهمه وتقدره ويفهمها ويقدرها .. وإذا خيم عليهم الحب بظلاله الكبيرة فهذا خير وسعادة ؛ لأن الحب الحقيقي يذلل الصعاب والمشاكل ، وتظهر علامات صدق الحب عند المشاكل الدقيقة .



وبعد حملها عرض برهان عليها ترك العمل إذا رغبت في ذلك للتفرغ للحمل ومتاعبه التي ظهرت عليها ، ووعدها أنه عندما يفتح المكتب الذي بدأ يخطط له سيكون لها عمل فيه حتى

ينصرف من البنك فتعود هي للبيت .. التناوب في إدارة المصلحة ، ترددت في البداية لقبول هذه الرغبة ، ثم تركت معرض شفيق للأثاث والتحف والثريات .. وبعد شهور وضعت منى ربيع مولودها الأول ، وعندئذ عرفت معنى الأمومة والولادة والرضاعة والحضانة وبكاء الطفل في أي ساعة من ساعات اليوم والليل .. تستيقظ في نصف الليل لترضع الطفل الباكي لتنظف الطفل الشاكي .. وكانت تتذكر أحاديث أختها حنين لها عن رسالة الأمومة ، وهذه العاطفة بين الأم والطفل .. فتحتقر أفكارها الرديئة ، وتضع اللوم على حازم ، ثم نفسها ، وتتعجب لعدم حبهم لسرعة الحمل الذي يقوي الروابط الزوجية بين الزوجين ، ويدفعهم للتنازل عن كثير من الأخطاء والمشاحنات من أجل هؤلاء الصغار .. واستغربت أكثر عندما أطلق برهان على ابنها اسم زوج أمها خليل ، فلما تسألت عن سبب ذلك الاختيار، فهو لم يسم على اسم أبيه أو أخيه أو جده ، فقال باسما : هذا الرجل كبير عندي يا منى رغم أنني لم أعرفه إلا عندما تزوجتك ؛ ولكني أحبه حبا كبيرا ..وأحبني هو نفس الحب .

ـ الكل مستغرب منكما ، حتى والدتي تتعجب من حبه لك وكثرة سؤله عنك .. متى سيزورنا برهان ومنى ؟ .. متى سيأخذنا مالك إليهما ؟ .. ولما سألته أمي عن سبب هذا الحب الكبير بينكما فلم يقل سوى أن هذا الولد دخل مخي ..

فكر برهان لحظات ثم قال : هذا رجل مجاهد .. علم إخوته وتنكروا له .. أنا أعرفهم .. لقد درسني أحدهم في الجامعة .. ولما أتذكره وأتذكر خليلا استغرب لكليهما أحدهم متواضع بسيط والآخر معقد منفوخ .. لا يزورونه ولا يودونه وهو أكبرهم .. وهم المتعلمون المثقفون الكبار .. وهو مع ذلك صابر ومتحمل لجفائهم وقال لي" لولا أنهم لا يحبون رؤيتي لمشيت إليهم، ولو ذهبت لا يخرجون لمقابلتي، يتركون معي بواب القصر أو إحدى الخادمات " والأخ الثاني عرفته من تردد اسمه في البنك وأعرف بعض أبنائهم يا منى .

ـ لست قليلا يا برهان .. نحن عشنا في بيت خليل دهرا ولم نعرفهم ولم نلتقِ بهم .

ـ أنا تعجبت في البداية لما حدثني عنهم .. فظننت أن في عقل الرجل شيئا .. ولكنه لما بين لي

أنهم بعدما تعلموا وتزوجوا من بنات أكابر البلد انسلخوا من جلدهم .. أدركت عظمة هذا الرجل وصبره وإيثاره ، وكان يزورهم قديما ، وكانوا يعاملونه كمتسول أتى إليهم .. ولما عرف ذلك الواقع السيئ وطفح الكيل نسيهم ، ولما تزوج أمكم أصبحوا أسماء يعرفها فقط وهو يحبكم حبا جما ، وذكر لي مرة أنه مرض وكيف وجدكم حوله دون أهله ؟ .. فهو لم ينس لكم هذه الجميل الذي ربما لا يأبه له كثير من الناس .. يا منى الناس في الشارع لو وقع أحدهم مغمى عليه لأخذوه المستشفى وعطفوا عليه وانتهى الموضوع ، ولكنه يراكم خيرا من أهله الأقربين .. وعرفته على أخي الدكتور عبد القادر ، فهو طبيب أمراض صدرية ، وطلبت منه أن يهتم به ، وترجيت خليلا أن يمر عليه باستمرار .. فعبد القادر طبيب يحب الخير والمساعدة أكثر من المال أم أنا غلطان .

ـ أبدا ما شاء الله! .. أنتم عائلة رائعة يا برهان! تعلمتم جميعا ذكورا واناثا ، وقد تفاوت تعليمكم ، وتحبون بعضكم وتحترمون بعضكم احتراما واضحا وحبا واضحا للعيان .. ولا تمايز بينكم.. فالدكتور عبد القادر متواضع جدا لآخر درجة .. بل لا تحس أنه طبيب إلا في العيادة .. كلكم بركة حتى عمتي الحجة ووالدك الفاضل .. أنا محظوظة بكم جميعكم ..الألفة والانسجام يجثمان عليكم.. وحتى أخواتكم المتعلمات قد علمت منهن أنه لم يصدف أن حردت إحداهن عن بيت زوجها ولو بضعة أيام .. مهما حدث بينها وبين زوجها من شجار وعتاب .

ـ نحن نعتبر هذا عيبا كبيرا يا منى وخطرا كبيرا على الأسرة ، فأبي يأمرنا ويحثنا على الصبر والتحمل للأخطاء وأنه لا كمال بشري .. والحرد وترك بيت الزواج مفسدة .. والتي لا ترتاح مع زوجها تذهب به إلى المحكمة ، وتتنازل عن حقوقها وتعود لبيت أبيها .. والحمد لله حمدا كثيرا أن وفقنا جميعا في اختيار زوجاتنا ، وكذلك الأخوات اختار الله تعالى لهنّ من الأزواج الصالحين والطيبين .. ونسأله تعالى أن يديم هذه النعم على الجميع .

ـ آمين .

ـ وأنا سميت ابني البكر والأول خليلا لحبي لخليل ، ولفضله الكبير عليكم ، وهو لا ينتظر منكم شيئا إنما فعل ما فعل لوجه الله .. ولأن منى جرحت قلبه يوما ما ، فبهذا الاسم نعيد لقلبه الطيب الحنان والعطف اللذين فقدهما أثناء تمرد منى .. وأيضا لأنه محروم من الذرية ؛ فلعل هذا الاسم يرد له شيئا معنويا هو يبحث عنه ويأمله .. ولقد رأيت كم فرح وتعجب من اختيارنا لهذا الاسم المبارك !

ـ أنت دائما رائع يا برهان !.. والله ما فكرت بهذه التفكير .. وأنا أقر أن المعلم خليلا له أكبر الفضل علينا وعليّ أنا بالذات ، كل تعلمي وشهادتي بفضل إنفاقه وسخائه ، وكان يكرمني بالمصروف أكثر من إخوتي حتى لا أشتهي شيئا في الجامعة ولا أحصل عليه .. لقد غلبتني أحلامي وجعلتني جاحدا لهذا الرجل ، ولم أحسن أن أشعره أنني ابنة حقيقية له .

ـ إذن هذا الاسم شيء رمزي نقدمه يا منى لهذا الرجل .

ـ جزاك الله خيرا يا برهان .

مع ولادة خليل الصغير بدأت منى تستعيد حيويتها وروحها ، وصارت تنظر للحياة نظرة جديدة وآمالا جديدة ، وتتخلص من أفعالها الماضية ، وتعيد ترتيب حياتها وعلاقاتها الاجتماعية مع أهلها وأقاربها من خالات وعمات وأعمام وأخوال وأولادهم ، وكذلك مع أهل زوجها ، ومنذ انتقلت لبيت برهان لم تعد تسمح لنفسها بالجلوس مع الرجال إلا في حدود ضيقة وبوجود زوجها.. وابتعدت أيضا عن الدخان والخمر وهجرت الملاهي والسهر مع الأصدقاء والصديقات خارج البيوت كما كانت تفعل.. ابتعدت أيضا عن السينما والتعلق بالأفلام والمسرح والمهرجانات .. فلما تقارن بين هاتين الحياتين ، الماضية مع حازم الشاب الغني ابن الأموال الكثيرة .. وحياتها مع الشاب الميسور الحال ، فتلمس السعادة الحقيقية مع برهان وحياة الأسرة المتعة ، وأن السعادة لم تكن بكأس خمر وقهقهة تملأ المكان وغمزة من هذا ولمسة من ذاك .. فحازم يحب اللهو والمزح والخمر ، وبرهان يحب البيت والأسرة والحياة داخل الأسرة .. داخل البيت .. الحنو والاهتمام بمشاكل العائلة والتعاطف والتعاون الإيجابي

□□□

ففكر برهان ناضج ويعتمد على نفسه .. فحياتها مع برهان ساكنة وهادئة .. تفاهم ونقاش وإقناع .. ليس فقط عرض الفكرة ثم تنفيذها كيفما طرحت .. والاعتماد على التمويل فقط .. شكرت الله كثيرا على تداركه لها قبل السقوط والهاوية .. كان الأصدقاء من حولها أثناء حياتها مع حازم لا يرون فيها إلا جسدها ، ومحاولة الوصول لهذه الجسد ولو رويدا رويدا ، ولولا المقاومة الفطرية الموجودة في داخلها لسقطت منذ تعلق بها حازم .. ألم يراودها عددا من المرات قبل الزواج منها ؟!

ولكنها وإن كانت تساير الرجل السابق فهو كالخاتم بيدها.. أما برهان يستخدم ذهنه وفكره ثم يطيع ، ووجدت أن أهلها وإخوتها يحبون هذه الحياة .. يحبون المرأة أن تكون امرأة وبس طائعة للزوج .. تذكرت دموع ربيع وهي تقارن بين حياتيها عندما أتى من الخليج ولمس التغير الذي طرأ عليها ، لقد تفاجأ بالانقلاب الكبير ، فبكى بين يديها حتى أبكاها.. أدركت كم كان في قلبه من الألم والحزن الذي تظاهر بإخفائه وكتمه .. وأدركت أن الانتقال من بيئة تراعى التقاليد والعادات التقليدية ليس سهلا ربما يحتاج لجيل أو أكثر حتى يستقر التغير ولا ينتكس .

فهمست وهي تتذكر ذلك: مسكين ربيع ! تحمل المسؤولية صغيرا وكان يخاف مني وعليّ .. لا زالت المرأة أسيرة مجتمعها مهما تطور وتحدث .. الانفلات يعني النبذ ولو من أقرب الناس .. كانت تمر عليّ لحظات عندما أدخل في جدل مع مالك أشعر أنه سينقض عليّ صفعا ولطما وضربا وإهانة؛ ولكنه يسمع كلام أمي ويخشى عليها العوارض .. لم استطع أن أصنع عالمي الموهوم ..

والله الولادة حلوة وجزء من حياة الأنثى ولِمَ المكابرة ؟! .. بكاء الرضيع أجمل موسيقى على قلب الأم إنه نداء إليها .. هناك ظلم في الجامعات وكلام كثير عن البنات والتحرر والمجتمع الذكوري .. مع أن أكثر الرجال مساكين في هذا الزمان .. يصارعون ويطاردون من أجل لقمة العيش .. ها هو ربيع يتغرب من أجل المال والطعام ..

أختي حنين الصغرى بيننا كانت أنضج مني تعلمت في الجامعة مثلي، وتحقق حلم أمي وهدفها الأهم وتعلم الجميع بفضل الله .. ولكنها لم تحاول التمرد على ما تعارف عليه الناس في بلادنا.. الناس لا يحبون ولا يرتاحون للمرأة التي ترتدي ثياب الرجال.. ولو تماشوا معها وسايروها.. التقليد الأعمى نحن من نقلد ؟! الشرق أم الغرب .. فالبنات في اليابان وكوريا يفعلن مثلنا

ولم يخرجها من أفكارها وخواطرها إلا بكاء خليل الصغير فانتبهت وعادت للواقع ، وهرعت للسرير سعيدة ومفعمة بالشعور العبق من صياح الطفل .

الأمومة كنز لا يعلمه إلا من يعرفها حق المعرفة .. الأمومة عواطف جياشة .. تجديد للحياة جزء من الأم كيف ستصبح أما بغير أبناء ؟

وعادت الخواطر إليها وهي تلقم ثدها للوليد الذي كف عن الصياح وانشغل بالرضع فتممت : أنا أسمي ابني خليلا .. لم أعترض صمت عندما علمت ذلك .. كم فرح خليل للاسم ودفع مائة دينار نقوطا وهدية للصبي .. حتى أمي فرحت ، ولم تصدق ذلك وسرت لاختيار برهان هذا الاسم ، مع أنه لم يكن اسم زوجها الأول .. والدنا الحبيب رحمه الله .. أهل زوجي فرحوا ولم يعترضوا ويحتجوا على الاسم .. وبرهان أكثرهم سعادة ، وكان سعيدا باختياره الاسم وصمتي وعدم اعتراضي .. أبو خليل .. أم خليل .. اسم عظيم .. والله في الدنيا أناس ذو أخلاق كبيرة .. يرغمونك على الخضوع والرضا والاستسلام .. حتى أخي ربيع كان مسرورا لاختيار برهان لهذا الاسم مع أنه هو لم يسم ولده على اسم خليل .. أنا منى التي سببت المشاكل للعائلة تسمي ابنها خليلا .. مع أنه ليس بالرد الكافي لمكارم خليل علينا فرحوا بذلك الاسم .. إنه اختيار سيدي وحبيبي برهان ؟ أسرني هذا الرجل بدماثة أخلاقه .. أخي كان أولى أن يطلق اسم خليل على أحد أبنائه .. هل أنا كنت وحشا وعنيدة ورديئة قبل لقائي بهذا الإنسان؟ .. هل في التمرد على التقاليد ومسايرة الحداثة والمعاصرة قساوة قلب وعناد ؟ لم أكن شريرة أبحث عن المشاكل والشر .. ولو لم يقم والديّ حازم بمحاربتنا هل

حصل هذا الانقلاب ؟ هل نصنع نحن أقدارنا بأيدينا ؟! هل أنسى يوم دخلت عليه مكتبه ؟ مكتب ناصر ! وجرحني وشتمني وحقرني واتهمني بسارقة وخاطفة ابنه وأنني دمرته وأغرقته بالديون وطامعة في ثروته وطردني شر طردة .. تذكرت منى كل ذلك وهي ترضع وليدها الأول .. فسقطت الدموع بحرقة من غير أن تشعر وهي تتصور ذلك المشهد الذليل بين يدي رجل لا يرحم مشاعر الآخرين .

وبينما هي في هذه الحالة دخل برهان وانتبه لاحمرار عينيها فهمس : أأنك وجعة ؟!

ـ وجعة !

وتنهدت بخجل وقالت : قلبي مجروح يا برهان!



كما وعدها برهان ، فعلا الوعد دين عند الرجل الحر، بعد سنة وشهور قليلة وقد عمل في مكتب تدقيق كمتدرب بعد انصرافه من البنك تشجع على إنشاء مكتب صغير للتدقيق المحاسبي للشركات الصغيرة والمتوسطة ، وحصل على الترخيص اللازم له من الدوائر المختصة في البلد .

ووضع زوجته مديرة للمكتب خلال فترة دوامه في البنك ، ووضع عندها سكرتيرة فتاة متخرجة من الجامعة حديثا .. ولما يرجع من وظيفة البنك يجد زوجته قد عادت من العمل وأعدت الغذاء فيأكلان معا ، ثم يذهبان للعمل ، وتنصرف السكرتيرة في المساء عند الرابعة بعد الظهر .. وبعد حين أدخل زميلين للعمل معه في الفترة المسائية ، ولزمت منى البيت في الفترة المسائية .. ومن خلال علاقاته الشخصية وعلاقات إخوته الآخرين تحرك نشاط المكتب وحصل على عقود محاسبية وتدقيق لكثير من الشركات العاملة الصغيرة الحجم ، وكان يتقدم عمل المكتب ويتوسع وكثر الموظفون ، فقد أضاف فراشا للمكتب ومندوب علاقات عامة

متجول .. عدا السكرتيرة وزميليه .. وما مضت سنوات ثلاث على المشروع حتى قدم استقالته للبنك ، وأصبح مديرا للمكتب وعلت شهرته بين الناس ، وكما هو معروف في القطاع التجاري أن الموازنات المالية للشركات سنوية ومستمرة .. فهذا يعني عملا محاسبيا دائما ومستمرا ، وخلال هذه السنوات ولدت منى ابنتها الأولى ، وكانت منى أيضا تدير العمل باقتدار ، وحصلت على دورات في المحاسبة المالية والبنكية وإعداد الموازنات العامة وحسابات الأرباح والخسائر .. وكان الدوام في المكتب على فترتين صباحية بإدارة برهان وزوجته وفراش وموظفة السكرتارية .. والثانية بعد الظهر ينصرف برهان وزوجته للبيت .. وعند العصر في الرابعة مساء يحضر صاحبا برهان للعمل في المكتب والقيام بالمهام الموكولة لهما .. وتنصرف موظفة السكرتارية عند الثالثة مساء ، ولما يحضر حسن وعمران ينصرف المراسل أبو غسان ، وعندما يشتد الضغط في العمل يداوم برهان معهم مساء وبعض الليل .. كانت الأمور تسير على ما يرام ، والعمل يتقدم والدخل يزيد ، وخلال فترة الصباح كان برهان يترك زوجته منى في المكتب ويتحرك إلى الشركات المتعاقد معها لمراجعة سجلاتها التجارية والمحاسبية قبل أن يعود بما يلزم من تلك السجلات والدفاتر التجارية للمكتب لدراستها وتصحيحها ليقوم بوضع التقرير المالي لها أو تصحيح الأخطاء المحاسبية الموجودة فيها ثم إعادتها للشركة .. ولما استقل برهان بالعمل كانت منى تضع مولودها الثالث .. فانقطعت عن الدوام بإجازة ولادة خاصة ، فقام برهان وحده بالأعمال التي كانت تقوم بها ..وعندما يخرج للمرور على الشركات المتعاقد معها كان يعتمد على السكرتيرة في إدارة المكتب ريثما يعود .. ولكنه كان يعاني من تبدل السكرتيرات .. فلأن أي سكرتيرة إذا وجدت فرصة عمل أفضل انتقلت إليها ، فكانت هذه مشكلة عند برهان ولم يتمكن من حلها بعد ، فما تكاد العاملة تتأقلم على نشاط المكتب حتى تترك العمل .

انتهت إجازة منى بعد شهر من الولادة ، ورجعت للدوام في المكتب بضع ساعات صباحية حتى يرجع برهان من جولته الصباحية على الشركات ، وتعود للبيت لرضاعة مولودها الذي

تتركه عند والدة زوجها .

ذات يوم وبعد ولادتها الثالثة التي أشرنا إليها وقد انتهت إجازاتها ، وكانت تجلس في المكتب لتقوم ببعض الأعمال ريثما يأتي برهان الذي خرج بعد قيامه ببعض الأعمال داخل المكتب .. وبينما هي مستغرقة بما كلفت به من مراجعة دخلت عليها فتاة ، فلما رأتها عرفتها ، ولا يمكن أيضا نسيانها رغم مرور هذه السنين ، إنها عبير ناصر أخت حازم الزوج الأول لمنى ومديرتها السابقة مديرة الشركة العالمية للتجارة .. كانت مفاجأة للاثنتين بعد كل هذه السنين .. لقد التقتا مرة عندما كانت منى تعمل في شركة الأثاث المستورد ، فقالت عبير بدهشة كانت واضحة : منى ! .. مرحبا .. ماذا تفعلين هنا وراء هذا المكتب ؟!

نهضت منى وقد زالت دهشتها وسلمت على عبير، وأذنت لها بالجلوس ورحبت بها وقالت : أهلا بك .. ها نحن التقينا من جديد .. أي خدمة نقدمها لك يا سيدتي ؟!

ـ خدمة .. أين برهان ؟!

ـ قهوة .. شاي .. ماء ..

ـ لا شيء شكرا .

ـ يا أبا غسان فنجان قهوة للأخت المحترمة .

قالت عبير: أتشتغلين هنا ؟ تركت معرض شفيق .. أذكر أننا تلاقينا هناك في الشركة مرة .

ـ هذا زمان .. منذ خمس سنوات .. اليوم أنا أعمل هنا .

قالت عبير مستفسرة: لقد جئت مرتين خلال الأسابيع الماضية ولم أرك .. أاشتغلت حديثا ؟!

ـ أهلا بك .. لي سنوات هنا ؛ ولكنني كنت ألد .

ـ كنت تلدين ! الحمد لله على السلامة .. آ ، قد علمنا بزواجك .. مبارك يا منى ربيع ..إن شاء مرتاحة مع زوجك الجديد ؟

ـ جدا على أفضل زوج وقعت والحمد لله .. عندي اليوم ثلاثة أطفال بفضل الله .. وأنت هل تزوجت بعد؟

ـ حظي تعيس يا منى .. يبدو أن حظك أحسن .. تزوجت مرتين ، الأولى فشلت قبل ليلة الزفاف.. والثانية عشنا تحت سقف واحد مدة سنة ، ثم حدث الانفصال .. أنا حظي سيئ مع الرجال .. وأنت كيف وزوجك الحالي ؟

ـ كما قلت لك قبل دقائق أفضل الأزواج .. تمام .. أتردين شيئا من المكتب قبل عودة السيد برهان أم تنتظرينه ؟.. هو الآن موعد عودته .

ـ والله الزواج رائع يا منى ! خصوصا الأطفال .. عندك ثلاثة أطفال .. أكيد الحياة حلوة معهم .. كيف حياتك اليوم مع زوجك الجديد ؟

ـ هي بالتأكيد أفضل من الحياة مع أخيك .. فأنا في قمة السعادة والحياة .. تركت الدخان والخمر والتبرج والسفور والمكياج خارج الدار .. الحمد لله أنا سعيدة .

ـ أنا نصحتك يا منى .. ولكنك لم تفهميني جيدا تلك الأيام .. نحن رغم ملكنا الكثير فحياتنا تعيسة يا منى .. الحياة ليست المال فقط .. فأنا خطيبي الأول بعد كتابة الكتاب طلقني ؛ لأنني رفضت أن أضع في حسابه آلاف الدنانير .. أرأيت المال ؟ هو تزوج المال كما قال لي مودعا .. والآخر مثله صديق لأبي تزوجني من أجل مال أبي .. ولما طلب من أبي المال ، ورفض والدي في قصة لا داعي لسردها هو الآخر قال " أنت لا تصلحين لي .. نحن تزوجنا لنستفيد من مال أبيك لفتح مصنع ، فرفض أبوك ، وطلب مني أن أعود لبيت أبي وخلال أسبوع كان الطلاق .. أرأيت طمع الناس ؟!.. وأنا أعترف أنهم تزوجونني من أجل المال .. ولكن طمعهم كبير ..

وبينما هما تتحدثان بحكم صداقتهما القديمة أقبل برهان ، ولما رأى عبير رحب بها وقال لها : معذرة لم أتأخر كثيرا ؟

ـ أبدا .. هذه الفتاة الحلوة ـ وأشارت لمنى ـ كانت تعمل عندنا في يوم من الأيام يا سيد برهان ومضى الوقت بدون أن نحس بتأخرك إذا تأخرت . ونظرت للساعة التي على معصمها .

والتفت برهان نحو منى زوجته ؛ وكأنه دهش من قولها " تعمل عندنا " وقال : عندكم ؟!

ـ مالك دهشت ؟! منى فتاة جبارة .. وتتقن الإنجليزية بطلاقة .. وتحب العمل وتجتهد فيه .

تطلعت منى في عيني برهان وقالت : أيام شركة التجارة العالمية.. حدثتك عنها ، وكان ذلك عندما تخرجت من الجامعة ، كانت أول شركة أعمل فيها .. أوه ذكريات حلوة ! وهزت رأسها بغيظ .

قالت عبير: فعلا ، كان لمنى هناك ذكريات حلوة ..أليس كذلك يا أخت منى؟!

تبسمت منى وقالت : أكيد والسيد برهان يعرفها بالتفصيل الممل .. أليس كذلك يا سيد برهان؟!

وقبل أن يرد برهان قالت عبير باستغراب : أمعقول هذا يا برهان ؟!

مشى برهان نحو مكتبه وجلس على كرسيه وقال : أتعرفين منى يا عبير؟

ـ ألم تسمع ما قلنا ؟ أول عمل كان لها عندنا .

قال برهان لمنى : أتدرين يا منى؟ .. أن هذه الفتاة كانت معنا في الجامعة ، وكانت تسبقني بسنة أو سنتين .. أتذكرين كم يا عبير؟

ـ سنتان على ما أذكر .

قال برهان وهو ينظر لمنى ويبتسم: أتدرين يا أخت منى أن عبير هذه ـ وأشار بإصبع السبابة إليها ـ التي اشتغلت عندها سنوات كانت تطاردني لتتزوجني مع أنني أصغر منها بسنتين أيام الجامعة ؟ ولكني رفضت .. صح يا عبير؟!

ضحكت المرأة وقالت : صح يا برهان أما زلت تذكر؟! .. لقد كنت شابا جميلا ومثيرا ! ولست الوحيدة على ما أذكر التي كانت هائمة بحسنك .. لقد كنت مثار اهتمام الكثير من البنات ، وكلنا تحلم بأن تفوز بقلب البطل .. ولكنك سخرت منا وخرجت من الجامعة بلا واحدة منا

وكان برهان يبتسم وهو يسمع الرد ، ولما صمتت عبير قال : أتدرين يا أخت منى ؟.. هذه عبير كانت ترجاني لأشارك في حفلة عيد ميلاد لها أو لأخواتها أو مناسبة ما.. كانت تراني مثل

هؤلاء الأوروبيين طويل وأبيض وعيون ملونة .. وتسعى لأتعرف على والدها .. فأرفض كل هذا .. صح يا عبير!

كانت هي مستغرقة بالضحك وقالت : صح .. آه .. إنك ما زلت تتذكر .. أيام ممتعة .. لا تنسى .

وتنهدت ثانية وهي تقول : فعلا لا تنسى ها أنت لم تنسها يا برهان .. كنت أسعى لأتزوجك رغما عنك .. فلو تعرفت على والدي ربما أجبرته على أن يزوجني منك .. ولكنك كنت تخاف من لقاء والدي صاحب الملايين .

فقالت منى غامزة بقصتها مع حازم : ولو وافق برهان على الزواج منك يومذاك أيقبل أهلك ووالداك على الخصوص ؟

ضحكت عبير وفهمت مقصد منى الخفي وقالت: كنت أعتبر نفسي أنني ما زلت في فترة المراهقة ، ونحن نعتبر الجامعة امتدادا لتلك الفترة ، ويحق لنا أن نفعل ما نشاء من لهو وحب وغزل .. وفي تلك الأيام كان لا يستطيع ناصر أن يرفض لي طلبا .. ولنا طرقنا في إجبار والدينا على الاستسلام لرغباتنا .. ولو وافق اللئيم لكان الآن يملك نصف شركات أبي ؛ ولكنه يحب الفقر والتعاسة .. وأنا أرى أن الأخت منى محل ثقة كبيرة عندك يا برهان .. فأتحدث أمامها بكل شيء وبصراحة.

طبعا برهان أدرك منذ أول الحوار أن منى لم تكشف لها أنهما زوجان فلزم الصمت في هذه النقطة ، فرد على الفتاة : طبعا .. ومنى جزء كبير ومهم من العمل وأكثر من ثقة وتكلمي بكل راحة .

ردت وهي ترمقه هل هو ساخر متهكما أم جادا ؟ : تستحق ذلك فأنا أعرف كفاءتها.. هل تعلم أن الأستاذة الفاضلة كانت في يوم من الأيام زوجة لأخي حازم ؟

تبسم وقال : أعرف ذلك .. حدثتني بذلك منى ؟

ـ حدثتك ! كيف حدثتك؟ هي فاجأتني بوجودها هنا .. لما زرتك في المرتين السابقتين لم أرها

وذكرت لي أنها كانت في ولادة ورضاعة .. وهي اليوم عرفت أنني أتيت لشغل معك .. وأنا عرفتك وتذكرتك كما تعلم من الإعلان في إحدى الصحف .. فلما قرأت اسمك على الفور عرفت اسمك وتذكرتك وتعارفنا من جديد .. فكيف حدثتك عن أخي حازم ؟!

ـ صدقي أنها حدثتني بقصة زواجها من شخص اسمه حازم ؛ ولكن لم أكن أعرف من هو حازم ؟ أي شخص هو حازم بالذات فقط رجل ، ولم أكن أعرف أن لحازم زوج منى السابق أختا اسمها عبير إلا الآن .. وأن هذه العبير هي زميلتنا أيام الجامعة ..وهل لك قصد آخر؟!

ـ أتزوجك مثلا ؟! أنا أعرفك؟ وهل أنت لليوم بغير زوجة ؟ .. حتى أفكر بالزواج منك .. صدق أن الذكرى والعمل جمعتنا هذه الأيام .. ولا بد أنك متزوج .. أنا غير محظوظة في الزواج يا سيد برهان يا أبا خليل .. أذكر أنك قلت إنك تنادى بأبي خليل وهذا يدل على أنك ذا زوجة .. وقبل حضورك كنت أشكو حظي لمنى .

ـ حسن هذا ، ألا تريدين أن ندخل في موضوع الشغل ؟

ـ انسَ يا رجل! أنا جئت لأتحدث مع برهان الصديق الغزال المحبوب .. الشغل لا ينتهي أنا آتيك للتسلية وقليل من الشغل .

فهز برهان رأسه ضاحكا وهو يقول لمنى : اسمعي بنات الأكابر .. نحن فتحنا المكتب للشغل وهي تريد أن تعود للوراء عشر سنين .. كانت يا منى السيدة عبير قديما تحاول أن تكتب بي شعرا.

وأخذ يرتفع صوته بالضحك فقالت وهي تضحك معه : هل تنكر أنك كنت أوسم شاب في الجامعة ؟ وأننا كنا لا نراك إلا أحد أبناء الأوروبيين .. كانت ابتسامة منك تذيب قلوبنا ، وكل منا تدعي أن الابتسامة كانت لها.. هند قتلت نفسها لتحظى بعلاقة عاطفية معك .. كنت غريبا يوم ذاك يا برهان.. كنت تقترب منا .. وفجأة تبتعد .

ـ عبير.. دعينا من الماضي حتى لا تتضايق منى من كلامنا وذكرياتنا القديمة .

ـ أنا لما شعرت أنك تتحدث أمامها بحرية وراحة ، وأنها حدثتك بكل شيء عن حياتها

الخاصة .. فرأيت أنه لا شيء يخجل منه إذا سمعته منى.. فمنى معرفة قديمة وأخت عزيزة رغم فشل زواجها من أخي حازم ، لو لم يحدث الزواج لربما أصبحت موظفة كبيرة في شركاتنا اليوم .. والله لقد نصحتها بعدم الزواج من أخي .. ليس عن حقد وغيرة ؛ ولكنني أعرف أخي أكثر منها ، وطلبت من أخي أيضا بالوقوف عند حده ؛ ولكن غلبتهم العواطف ونسوا العواصف .. أمي لما سمعت أن الفتاة التي يريدها حازم تسكن في حي برقوقة كادت تنتحر لتمنع هذا الزواج .

ـ يا عبير.. يا سيدة عبير ندخل في الشغل ما الذي تريدونه بالضبط مني؟ .. أنا راجعت حسابات الفرع كلها ، هناك بعض الأخطاء ، وهناك فقد لبعض الفواتير

فقطعت منى استرسال برهان قائلة : ربما وجودي يشوش على عبير .. أنا

سأجلس في مكتب السكرتيرة .. انتظرك يا عبير .

ـ شكرا لك .

قال برهان مخاطبا منى : منى إذا أحببت الانصراف فافعلي ، لابد أن الرضيع الآن يحتاج لحليبك .

ضحكت عبير وقالت : الله ! الله ! حتى في الحليب تتدخل !

ضحك هو ومنى وقال باسما : حتى في الحليب يا عبير ! .. منى ربيع ـ يا أخت عبير ـ هي زوجتي أم أولادي!!

كانت كلمات برهان الأخيرة مفاجأة صاعقة ومذهلة لعبير ناصر، فبحلقت لحظات عميقة بعيني برهان حتى استوعبت الحقيقة وقالت : منى هذه ـ ورفعت يدها مشيرة لها ـ زوجتك أنت؟!

لم تتكلم منى ، فقال برهان المبتسم : أجل ، منى ربيع زوجتي ، وأعلم أنها كانت زوجة لشخص اسمه حازم ناصر ، واليوم عرفنا أنه أخوك .. ومنى شريكتي في هذا المكتب يا "مدام" عبير .

كانت تحرك رأسها وتنقل بصرها بينهما دهشة وعجبا وتقول : دنيا عجيبة يا منى !!

همست منى وقالت محاولة التقليل من دهشة عبير واستغرابها : ما العجب؟! هل الزواج ثانية عجيب لهذا الحد؟!

قالت عبير: ليس الزواج هو العجيب .. فكل يتزوج مرة وثانية ولكن الزواج من برهان هو العجيب .. هل تزوجت قبلها ؟!

رد بصراحة : لأ .. هي أول امرأة ارتبط بها .. وهي سيدة فاضلة ومن عائلة فاضلة كريمة.

قالت عبير : ولكنها مطلقة !

ـ وماذا تعني مطلقة ؟! ها أنت طلقت مرة وتزوجت ثانية وستتزوجين ثالثة إن شاء الله .

قالت بحسرة : إنهم لا يتزوجونني أنا .. إنهم يتزوجون مالي ومال أبي ! قلة بنات غير متزوجات !

فقال بحزم وثقة : وأنا أتزوج أخلاقا أهلا كراما .. فربيع أخوها مهندس يعمل في دول النفط العربي منذ سنوات .. وأخوها مالك محام نشيط وله مستقبل باهر في سلك المحاماة والصحافة ، وبما إنك تحبين قراءة الصحف فسوف تجدين له مقالات موقعة باسم مالك ربيع وربما يكبر ويصبح نقيبا للمحامين ذات يوم .

ـ أنا فعلا أقرأ لهذا الاسم وتعجبني مقالاته يا برهان .. بس اليوم أكتشف وأعرف أنه شقيق

منى ربيع ونسيبك يا أخي .. وأنت غارق في الحب لأذنيك .

ـ لنا خمس سنوات متزوجون تقريبا .. وأنا فرضت نفسي عليها .. وهذا هو الحب الحقيقي .. تعرفنا على بعض فترة ربما امتدت لشهرين وحصل النصيب .. أليس كذلك يا أم خليل ؟!

تبسمت منى لكل كلام برهان ، والتفتت نحو عبير وقالت : أتمنى لك التوفيق يا عبير .. وكل الكلام الذي سمعته منك قبل دخول برهان وبعده لا يهمني كثيرا .. فالحياة عجيبة كما قلت .. وتسرني صداقتك .. وأنا سعيدة بزوجي هذا .. والله ييسر لك زوجا تقر به عينك رغم النكد الذي كنت تسببيه لنا أيام الشركة فهو أصبح من التاريخ .

ـ سامحيني يا منى .. ربما كنت أسيء إليك ولكن من أجلك ، وقلت لك ذلك مرارا ، وإن أخي حازما ليس الرجل المناسب لك .. والأخ برهان أعرفه جيدا منذ أيام الجامعة وهنيئا لك به وهنيئا له فيك .. فهو إنسان يستحق الحب والحياة السعيدة .. وأنا لمست التغيير الذي في حياتك من هذه الجلسة .. لحظت لباسك الجديد وتغطية شعرك ، ولم أرَ المكياج الذي كنت تبالغين في وضعه على وجهك وعيونك .. ولحظت أيضا تركك للدخان ، فلم تدخني أي سيجارة منذ التقينا قبل ساعة أو أكثر .. والآن أدركت مصدر هذا الانقلاب وأنكما متوافقان وستوفقان .. فبرهان رغم ما سمعتي مني عن التفاف البنات حوله ومطاردتهنّ وعبثه بهن أيام الدراسة لم يكن فاسدا وهاملا ،ولم يكن من أهل الدخان والتبغ ، وإن كان يومها ينفق على الحسناوات بسخاء ، ولابد أنه تخلص من هذه العادة .

ضحك الزوجان وقال : تسرنا صداقتك يا عبير أنا ومنى ، ولا تحسس لدينا من جهة زواج منى من أخيك ، فهذا تاريخ كما قالت منى ، والإنسان لا يهرب من تاريخه .. ولكن لا تدعيننا لحفلاتك وسهراتك .

قهقهت عبير وقالت: أنت أيام العزوبية ولم تفعلها ! .. ولم يعد لتلك الحفلات بهجة وروعة ، بل صارت كلها مللا وضجرا وإرهاقا ، وسأحتفظ بصداقتكما .. واسمحوا لي الآن بالانصراف لقد تأخرت عن الشركة .

ـ والعمل ؟!

ـ سأعود .. ألم نصبح أصدقاء؟!

وصافحتهما وخرجت مسرعة ، وهي مستغربة للقدر الذي جمع بينهما ، ولما خرجت أغلق أبو غسان الباب خلفها، وكان برهان يقول لمنى بعد مغادرتها مكتبهما : مفاجأة لك !

ـ ولك !

ـ نعم ، عندما كنت تذكرين اسم عبير على لسانك لم يخطر في بالي أنها تلك الفتاة التي أعرفها في الجامعة .. كانت معروفة بثرائها ولهوها .. وفتيات اسمهن عبير كثر في هذه الدنيا .. فأنا أصلا بعدما تخرجت نسيتها فهي تخرجت قبلي .. وكيف سأفطن أن السيد حازما أخ لعبير إحدى زميلات الكلية .. وهي اطلعت على عنوان المكتب كما قالت اليوم وقبل اليوم من أحد الإعلانات في الصحف .. فإذا كان يا منى في العمل معها ما يزعجك ويذكرك بالماضي سأعتذر لها عن الشغل الذي بيننا وأرسلها لمكتب آخر .. ولكنهم أصحاب شركات وأموال والتعامل معهم مفيد .

ـ لا ، لا أنظر للقضية يا صاحبي من هذه الزاوية وبحساسية .. العمل عمل يا رجل .. ولا أخاف منها ولا من أخيها .. فالماضي كما أخبرتني وعلمتني سابقا هو ذكرى لا يمكن نسيانها بسهولة ولا تجاهلها وهي كامنة في النفس .. ولن تشوش على حياتنا ، وأنا واثقة بك ، ولم يخطر في بالي يوما أنك ستسيئ إليّ .. وحتى ولو فعلت ، فأنا سأسامحك ، فأنت غيرت دنياي وطريقة نظري وتفكيري للدنيا .. ودفعتني لأنظر إليها بمنظار وعين أخرى ... وأنت والد ثلاثة أطفال .. فهذا أمان آخر .. أنت أعز إنسان عندي يا أبا خليل .

ـ آه ما أقسى هذا الكلام يا عزيزتي وأحلاه ! .. الحياة الزوجية سكن ومودة ورحمة واندماج هذا كلام ربنا .. أنا قصدي حتى لا تشعري بالضيق والنفور والتوتر من دخلوها المكتب أو ذهابنا لشركاتهم لمراجعة السجلات والدفاتر .. هذا تعامل واحتكاك .

ـ افعل ما تراه مناسبا ولا يهمني أمرها .. واعلم أن هذه ليس أول مرة التقي بها بعد طلاقي

من أخيها وتركي للعمل معها ..

ـ هذا عمل ليس لقاء فحسب .

ـ لا تخشَ على أحاسيسي ومشاعري من الغيرة والخوف أيها العزيز.. صدق أنني تعاملت معها بأريحية ، وغضضت الطرف عن كثير من إشاراتها فأنا أعرفها .. فعبير إنسانة بسيطة يا برهان ؛ ولكن الثروة والأرستقراطية الواهمة تظهر هؤلاء الناس بثياب أخرى .

ـ معك حق .. هيا اذهبي يا عزيزتي للبيت لابد أن محمدا أزعج جدته بالبكاء .. وأنا أحببت أن أعبث بها أمامك .. فأنا لم تهزني أموال أبيها وهي صغيرة لم تعرك الحياة ، مع أن المال أصبح في هذا الزمان كل شيء عند الكثير من الناس .



عادت منى للبيت ؛ ولكنها لم تنسَ هذه الساعة التي قضتها مع عبير، وهمست لنفسها وهي تركب السيارة عائدة للبيت: أنا أثق ببرهان ثقة كبيرة وعمياء ، ولا يمكنها أن تهز شعرة في شاربه ، وإن فهمت من مجمل كلامها أنها جاءت للمكتب لتدور وتلف حوله .. فهي ما زالت تفكر بعقلية الطالبة التي دخلت الجامعة .. فبرهان رجل عاقل ولا يسمح لعواطفه في القضايا ولا يحكمها في قضاياه .

ولكن قلقا ما خيم في باطن منى .. فقالت لنفسها : هل صدفة لقائها في المكتب أم أنها تعرف أنني زوجة برهان وتريد بي شيئا ؟! .. عبير ليست ذكية لقد تعاملت معها سنوات .. هي تقليدية في عملها وإداراتها إنما تنفذ تعليمات والدها وأعمامها ليس عندها إبداع مميز ..

ولم تكن حقيقة قلقها من علاقة بين زوجها برهان وعبير.. فبرهان يتعامل مع عدد كبير من النساء العاملات .. إنما كان قلقها من جهة حازم أن يعرف مكان عملها ، ويحاول اللقاء بها لصنع المشاكل لها ، عندما يعلم بأنها دخلت مشروعا جديدا مع زوجها الجديد ، ولكنها

تهمس لنفسها " منذ افترقنا لم نتصل ببعض إلا تلك الرسالة اللعينة التي تحدث فيها عن ماضينا الأسود ، وكانت بعد عقدي على حبيبي برهان "، ولأنه يعتبرها كما قال مرات أثناء الزواج إنها سبب تدمير حياته وفشله .. جعلها السبب .. من هذه الجهة كان القلق الذي لمس قلب منى وتفكيرها وهي تعود للبيت ذلك النهار .. ربما تفكر عبير بوضع أخيها في طريقنا ثانية لتعكير صفونا .. فأنا أعرف حقدها الماضي عليّ ، وإن كانت تتظاهر أن ذلك لمصلحتي.. إنها عادتنا بشدة ، وكم مرة سمعتها تهدد أخاها وتحذره من التورط معي ؟.. قبل أن يعرف والداها شيئا .. بل هي التي عرفتهم على هذه العلاقة والصداقة .. ولابد أنها هي التي ملئت قلبيهما علينا .. فكيف الفتاة الفقيرة التي أتت من حي برقوقة تتزوج من حازم الثري ابن الثري بسرعة وسهولة وعلى طبق من فضة ؟ وغدا يسيطران على الشركة ويطردانها ..

كانت هذه الأفكار والخواطر والخيالات تمر في ذهنها وهي تعود للبيت مغادرة المكتب حيث أولادها خليل وزهرة ومحمد .

ولما وصلت البيت وأدخلت السيارة الخاصة بها لمكانها مشت إلى أم زوجها ، وجلست معها بعض الوقت ، وحملت أطفالها ودخلت شقتها ، وكانت قد شعرت أن لقاءها بعبير هذه المرة ترك في نفسها هما غامضا .. ولكن معرفتها لبرهان الزوج الذي اختارها دون النساء لا يمكن أن تؤثر به فتاة لعوب ، وإن كانت أموال أبيها تملأ الأرض .. فيسكن القلب ويهدأ من جديد .

بعد هذا اللقاء بين عبير ومنى في مكتب برهان الذي ألقى ظلالا وتوجسا في قلب منى كانت عبير ترسل إحدى موظفات الشركة للمراجعة مع السيد برهان ، ولحظ برهان ذلك وأنها تحاول تجنب اللقاء به شخصيا .. فلم يكترث لذلك فهو يهمه في معرفته بها العمل والشغل ، ولا تهمة العلاقات الاجتماعية الأخرى .

وبعد حين يسير تلقى المكتب دعوة من عبير ، تدعوه فيها وزوجته للمشاركة في حفل افتتاح مصنع جديد .. وذكرت في الدعوة موقع المصنع ومكان الاحتفال الذي سيحدث وساعة الاحتفال ..وكانت هذه الدعوات مهمة لرجال المال والأعمال للالتقاء والتعارف والدعاية

والإعلان وأخذ عقود عمل .. فهي ليست أول مرة يتلقى مكتب برهان دعوة لحضور افتتاح أو احتفال .. فسبق له أن دعي لمثلها .. أما من عبير فالأمر يختلف وخصوصا منى المدعوة باسمها وزوجها " برهان وزوجته " .. لأنه من الممكن الالتقاء بحازم زوجها السابق ، وليس بينهم رابط من ولد أو قرابة .. فتشاور برهان مع زوجته فقالت : اذهب أنت كالمعتاد ، وأنت تعرف أنني قليل ما رافقتك لمثل هذه الاحتفالات ولا أشارك فيها كثيرا .. والأخت عبير تريد التعبير لنا بهذه الدعوة عن صداقتها لنا.. وصدق لو أرى حازما سيكون الأمر كرؤيتي لأي رجل ..

تبسم برهان وقال: العاطفة مشكلة يا سيدتي .. فأنا لا أعتقد أنك عندما ترين طليقك ستشتاقين للماضي ، فهذا ذهب ومات ؛ ولكنّ الرؤية تجدد الذكريات والجروح ، وقد تسبب لك إحراجا من نوع ما وألما وضيقا .

ـ قد يحدث ذلك ، وأنا في غنى عنه .. اذهب وحدك فهذه المناسبات تفتح لك عملا ومعارف جددا من رجال المال والعمل .

ـ هذه هي الفائدة المرجوة وحدها من مثل هذه الدعوات ، وهي التي يسعى إليها المكتب .. ولكنني قررت الآن أن لا أذهب .. ليس خوفا من رؤية من كان زوجا لك أو حرجا منه .. الإنسان يتزوج ابنة عمه ويطلقها ويزورها ويصل رحمه .. وقد لا نرى حازما هناك .. ولكني سأرسل حسنا وعمران .

ـ هذا جيد ، ولكن عبير تريدك أنت وأنا فخصتنا بالدعوة .

ـ هي تعرفهما .. لقد أرسلتهما للشركة مرات .

ـ على كل حال الأمر سيان عندي يا برهان ذهبت أنت أو غيرك .. أنا لا أتعامل معهم بحساسية التي قد تبدو لك .. فأنت حياتي ، وثقتي بك أكثر من ثقتي بنفسي .. فلولاك لضعت ، ولا يمكن أن أنسى اقتحامك لحياتي ، وجودك في حياتي غيرني يا برهان .. من المهم أن أذكرك أن اليوم سيأتي ربيع من السفر كما أخبرتني أمي.. أراغب أن تذهب معي لنكون

□□□

في استقباله كما تعودنا أم على تسهيل المولى؟

ـ ربيع ! بل سأكون أول الناس ، فالعم خليل اتصل بي وقال لي إني مشتاق للقياك وللحديث معك ولخليل.. وهذه فرصة لنراه ونسمر معه .. ثم نرى مالكا فهو يفكر بالزواج كما علمت ويريد أن يطلق العزوبية .

ـ الزواج ؟! هذا خبر سعيد ومفرح .. لم أسمع أمي تتحدث عنه .. متى قال لك ذلك ؟!

ـ زرته من زمن قريب في مكتبه.. وربما ينقل مكتبه إلى حي برقوقة عندما ينتهي بناء العمارة التي أوشكت على التشطيب كما أخبرني .

ـ من سيتزوج ؟!

ـ لم يقل لي شيئا عن الزوجة .. إنما يفكر بالزواج بعد انتهاء البناية .. ولا أدري هل التقى بفتاة أم لا ؟!

ـ على كل هذا خبر يستحق النشر الليلة .

وعاد برهان يقول : أنا أظن أنها فتاة بنت أحد المحامين الكبار .

ـ تظن .. كيف ذلك ؟!

ـ قديما منذ سنة أو أكثر .. تحدث مالك أمامي بشيء عن فتاة ، وأنه يفكر بالاقتران بها إذا وافق أهلها .. ثم انقطع الحديث عنها وعن أهلها ، وبعد ذلك لم يذكر شيئا فاعتقدت أن الموضوع قد انتهى ، وأن تلك الفتاة رفضت أو أهلها رفضوا .

ـ ومن هو هذا المحامي الكبير ؟!

ـ أظن أنها ابنة النقيب الحالي أو الذي قبله .. لا أدري بالضبط .

فغرت منى فاها استغرابا وقالت: أوه ابنة النقيب!.. هذه قصة كبيرة يا برهان!

ـ مالك شاب نشيط في النقابة كما تعلمين ، وصاحب ثقافة وعلم .

في بيت خليل

سبقت منى زوجها إلى بيت أهلها ، واتصلت ببرهان تعلمه أن الطائرة التي تقل ربيع وعائلته قد تتأخر عن موعدها المقرر، كما يتكرر ذلك عادة وباستمرار في مطارات الدول العربية ودول العالم النامي ، ولقد كان الترتيب أن يذهب مالك وزوج أخته سعد الدين لانتظاره في المطار .. ولما دخل الليل أتى سعد الدين بزوجته حنين عند أهلها ومع أولادها الأربعة ، ولما حضر مالك وشربوا الشاي ، وكان قد أتى بعدد من الساندويتشات معه فأكلوها ، ولما أراد الخروج للمطار التفت لعمه خليل وعرض عليه الذهاب معهم ومرافقتهم فقال كأنه معتذرا : علمت من منى أن الأخ برهان سيأتي الليلة أيضا .

ـ آ ، فهمت عليك ، حبيب القلب سيأتي .. أنت لا تحب أن تفوت الحديث مع برهان .. الله يجزيك الخير يا عم أبا أحمد .. سلام عليكم ادع لنا يا أمي .. هل جهزت الشاي لهم يا منى ؟

ـ نعم يا حضرة العريس ! هو على طاولة المطبخ .

نظر إليها مستغربا وقال : العريس ؟! إن شاء الله .. سآخذ لهم ساندويتشات خفيفة عن الطريق .. سلام عليكم . . هل يلزمكم شيء قبل الخروج ؟

ردت جميلة بالنفي ودعت لهم بالسلامة ، وخرج الشابان في سيارة مالك وسيارة سعد الدين نحو المطار لاستقبال ربيع وعائلته ، ولما اختفى الشابان قالت منى بصوت مسموع لأختها وأمها وزوج أمها : هل صحيح أن مالكا سيتزوج ؟!

تطلعت إليها حنين وقالت: أسمعت شيئا ؟ سمعتك تقولين له يا حضرة العريس .. فاستغرب وقال إن شاء الله ..ألديك أخبار؟

وقال خليل : وممن سمعت يا منى ؟!

فقالت منى : يا أم ربيع مالك صامتة ؟! أتعرفين شيئا ولا تريدين قوله ؟! هل طلب منك مالك أن لا تتحدثي بذلك ؟

أصغت جميلة لابنتها ، وهزت رأسها نافية علمها بشيء دونهم ، ولم يخصها مالك بسر وطلب

□□□

عدم إذاعته ثم قالت : منذ بدأ يبني في العمارة وهو يقول سأتزوج ولليوم لم يتزوج .. والله يا بنات لم أسمع شيئا .. تعال يا خليل ! فقد كان خليل في حضن السيد خليل .

فنهض الفتى الصغير من حضن خليل إلى حضن جدته التي اعتنقته وقبلته وأجلسته في حجرها وهي تدعو له ولأبيه بالصحة وطول العمر .

فعادت حنين تتساءل : آ يا منى أخبرينا بما وصل إليك من علم !

قالت منى: اليوم هذا .. أخبرني برهان وأنا أغادر المكتب ظهرا أن مالكا يفكر بالزواج وربما قريبا .. وها هي العمارة التي أشارت إليها أمي على وشك الانتهاء منها ، وهو كما يعلم الجميع كان يؤجل موضوع الزواج حتى ينتهي من البناء والعمران .

قالت جميلة : ما دام حدث برهان بشيء من هذا فلابد أنه سيفعل .. فمالك لا يحب الإفصاح كثيرا عن مشاريعه .

فاحتج خليل وقال : لأ يا جميلة ! فمالك لا يكتم عنا شيئا .

قالت مستدركة : قصدي أنه يقول الشيء ولا يدخل في التفاصيل .

وقالت منى : وأخبرني أبو خليل أن مالكا سينقل مكتبه للعمارة الجديدة .

ضحك خليل وقال : هذا أخبرنا به مالك يا جميلة ! .. بل أخبرنا أنه سيفتح مكتبا في العمارة وسيبقى مكتبه القديم حيث هو ؛ لأن له زبائن هناك يريد أن يحافظ عليهم وخصوصا القدامى ، ومن ثم يتعرفون على المكتب الجديد .. فمالك شاب فطن يا منى ويخطط بهدوء .. فهذه العمارة التي قامت فمنذ تزوجت أمك ثانية وهو يرسم ويخطط لها .. وقد تشارك كما تعلمين مع ربيع أخيك فيها .. ولا أدري هل اشتركتم أنتم فيها ودار حنين أم زكي ؟!

ردت منى قبل حنين فقالت : عرض الأمر علينا .. وكنا أيامها نخطط لفتح المكتب فاعتذرنا يا عم أبا أحمد .

وقالت حنين : وكذلك اعتذر سعد الدين لمالك وشكره على عرضه .

فقالت جميلة : ولكني علمت من مالك أنه مدين لكم ببعض المال .. كم هو المبلغ يا خليل ؟

فحاولت منى وحنين عدم ذكر الدين ، وكم هو المبلغ ولكن أبا أحمد قال : يا بنات ليس هناك أسرار .. فمالك أخبرني أنه استلف من سعد الدين خمسة آلاف ومن برهان مثلها .. والدنيا حياة أو موت .

فقالت منى : ليست أسرارا يا عمي .. فنحن أهل وأسرة واحدة ..

فقال خليل : أخبرنا مالك بذلك لحوادث الدهر .. فلدي ورقة فيها هذه الأرقام وغيرها ، وستجدونها في أوراقي يا جميلة إن حصل لي شيء .. فالإنسان المسلم المتدين بالذات عليه أن يوضح ذلك للأقربين لعوارض الزمان .

قالت جميلة : بارك الله فيك يا أبا أحمد لم تقصد البنات الإساءة إليك

قال خليل : أعرف وأفهم ذلك .. إنهن فعلن ذلك من باب الأدب ليس من باب الإساءة يا جميلة .

قالت حنين: هذا قصدنا يا عم .. رأينا من العيب أن نتحدث عن ديننا لأخوتنا .. ولا نقصد إخفاء شيء عنك .. فأنت بركتنا ، ولا ننسى أفضالك الكثيرة والكبيرة علينا .

فقال خليل : ولكن الحقوق المالية من المهم أن يعرف بها الأقربون يا أم خليل ويا أم زكي .

ـ بارك الله فيك يا عم أنت بركتنا وخيرنا .. يا منى لم تخبرينا عما قاله برهان عن زواج مالك متى وممن ؟!

ـ هو لم يحدد زمان إنما قال لبرهان إنه يفكر بالزواج قريبا .. ويعتقد برهان أنها فتاة من بنات كبار المحامين .

ردت حنين : كبار المحامين !! من هو ؟!

رن الجرس الخارجي للبيت فقالت منى : برهان!

وقفزت مسرعة لفتح الباب ، وفعلا كان برهان الذي دخل مسلما على الجميع وقال : ذهب الشباب للمطار.

قال خليل : نعم انطلقوا منذ وقت قصير .

وتحدث الجميع سوية بضع دقائق ثم خرج خليل وبرهان لصلاة العشاء ، فقد ارتفع صوت المؤذن يعلن للناس دخول وقت صلاة العشاء آخر صلاة في اليوم .

وقامت النساء أيضا بعد انتهاء النداء للصلاة ، وتركوا أطفالهم يلعبون ويحبون ، ولما أنهين أداء الصلاة دخلن المطبخ لأعداد الطعام والعشاء للضيوف والقادمين .



ولما رجع أبو أحمد وضيفه من الجامع جلسوا في غرفة الاستقبال يتسامرون وينتظرون ، ووضعت أمامهم أم ربيع بعضا من الفواكه المختلفة الأشكال والألوان والأحجام، وجلست تسمع حوارهم وكلامهم ، ومع الفارق الكبير في السن بين الرجلين فهما كانا كأنهما صديقان حميمان من أيام الطفولة ، تحدثوا في السياسة والأخبار والأسعار، والانحراف الفكري لدى فئات الشباب ، والميوعة التي تغلب على كثير من الشباب والإناث في هذا الزمان .. وتكلموا حول مشاكل التجار والصناع والاقتصاد والفساد ، كلمة هنا وكلمة هناك ، ولما سأل برهان العم خليل عن سبب تمسكه بالحدادة القديمة وإصراره على ذلك مع ظهور مادة الألمنيوم وكثرة استعمالها في العمران الحديث ، وأن الحدادة التقليدية خف سوقها وقلّ استخدامها في النوافذ والأبواب

فرد خليل وهو يضحك : العادة والإلف يا أبا خليل .. ألفت هذه الحرفة منذ الصغر ، والشغل ما زال مستمرا وإن قل الطلب .. فصناعة الأبواب الحديدية موجودة .. والأسوار ذات الأشكال والزخرفة ما زالت موجودة .. والعرائش والمراجيح وغير ذلك .. صحيح أن العمارات والشقق لم تعد تستعمل شبابيك وأبواب الحديد ولكن ما زال السوق قائما .. وحتى هذه العمارات ما زالت تستعمل في الأبواب الخارجية الحديد الصلب ، وكذلك أبواب المواقف الخاصة بالسيارات ومداخل العمارات الرئيسية .. فالحديد ما زال سيد المعادن

والصناعة .. فالألف والعادة والوراثة كما تعلم سبب تمسكي بالحدادة القديمة .

ـ رائع جدا يا أبا أحمد .. ما رأيك أن تصبح معلما في مصنع كبير أو محددة كبيرة .. مجرد مشرف لا تعمل بيدك ، فأنت مع قوتك وحبك للشغل فقد كبرت يا أبا أحمد

ـ لا أستطيع .. هذه المحددة منذ عهد وحياة أبي ـ رحمه الله ـ وأنا أعمل فيها .. غيرنا فقد البناء عندما جرى تحديث وتطوير المنطقة ، أنا لا أجد راحتي إلا فيها .. فلو تركتها قد يصير بي كما يصير في السمك إذا خرج من الماء .

ـ حسن هذا ! .. تعمل فيها وفي المصنع .. الصبح في المصنع وعند العصر تعود لمحددتك .. وأنت كما أعلم يعمل عندك شابان .. أنا عارف أنك قانع وراض بما يدخل عليك من المال والرزق ، ولم تعد كما أخبرتني بحاجة لكثير من الأموال ، فأولاد أم ربيع كبروا واعتمدوا على أنفسهم .. وفضل الله علينا كبير ؛ ولكن العمل سنة الحياة ألا ترى أصحاب الملايين يعملون ويديرون الشركات .. فهل هم بحاجة لمال وراتب آخر الشهر؟ العمل مطلوب للرجال في كل وقت .. ونحن أخي المهندس عبد الرحيم أبو بلال والعائلة نريد أن نساهم في إنشاء مصنع للحديد ، فرن ضخم للصهر ولتكوين الحديد بأشكال مختلفة .. مصنع في المعادن والصلب وهو يحتاج لمراقبين ومعلمين مثلك .. فأبو بلال الذي سيكون مالك ومدير المصنع سيعجبه عمل رجل أمين مثلك معه .

وأخذ برهان يشرح لخليل أحمد نشاط المصنع وطموحه ثم قال : ولما حدثت أخي عبد الرحيم أن يجعل لك مكانا في المصنع رحب بذلك ، وقمنا بزيارتك في المحددة وعرفتك عليه .. فعبد الرحيم كما تعلم مهندس معادن .

فقال خليل : أعرفه جيدا .. بل زارني مرات بعدما تعارفنا ، وكلفني بصناعة عدد من الأبواب والقواعد لخزانات المياه العلوية وللمكيفات المعلقة .. نحن أصدقاء وأخوة يا أبا خليل .

ـ عظيم جدا !! إذن الأخ العزيز بحاجتك فهو سيُكون شركة خاصة ، نساهم فيها نحن الأخوة والأقارب والأصهار .. وسأكون له شريكا بمبلغ حوالي عشرة آلاف دينار وهكذا

الأخوة أقل أو أكثر .. وأنت إذا أحببت المساهمة ، وسأطرح الأمر على سعد الدين إذا أحب أن يساهم في رأس المال .. فالمشروع واعد بإذن الله يا عمتي ويا عمي وعبد الرحيم منذ سنوات يخطط له .. ليس فكرة خاطفة .

ـ الحدادة المعاصرة لست بارعا فيها .

ـ يا رجل نحن نريد خبرتك.. فالمصنع سيعمل به مهندسون وفنّيون وسيتكون أكثر من خط إنتاج .. ستصنع فيه قضبان الحدادة والبناء والخزائن المعدنية .. مصنع ضخم ربما يتجاوز رأس المال الأولي المائة ألف دينار يا سيدي في مراحله الأُول .

ـ والله مبلغ كبير!

ـ هو مصنع على مستوى المنطقة ؛ وربما يكون هناك تصدير لخارج الدولة .. وكنت يا عمتي أحب أن يساهم فيه الأخوان ربيع ومالك ، ولكني أعرف ظروفهما وقد أنهك العقار جيوبهما ؛ ولكنه الحمد لله قد انتهى وقريبا سيتم تأجيره وسيدر عليهما دخلا جيدا .. وإذا أحبا المشاركة في المراحل القادمة سندخلهم في المشروع

وقبل أن ترد الأم دخلت منى وحنين وألقيتا التحية ، وجلستا واستمعتا آخر الكلام فقالت حنين : تحدث معهما يا برهان في الموضوع ربما ساهما بمبلغ يسير.

ـ أكيد سأتكلم معهما في ذلك ، ولكن أقدر وضعهما الحالي .. والأخ مالك له علم بالموضوع ، فهو الذي سيرتب لنا العقود والأوراق اللازمة للمنشأ .

فقال خليل : والله هذا مشروع ضخم !

قالت منى : طبعا يا عمي .. هذا مصنع حديد .. عبد الرحيم الأخ عبد الرحيم لديه طموح كبير ، وسيجعله مصنعا ضخما وعلى مستوى المنطقة ولكن على عدة مراحل كما فهمنا منه ..

فقال خليل: الله يوفق يا إخوان .. أنا وجميلة سنساهم بمبلغ بسيط إذا أحببتم أو إذا ساهم الأولاد سنضع رأس مالنا في حصتهم يا جميلة .

قالت جميلة شاكرة : إن شاء الله .. الطعام جاهز يا بنات ؟

ردت حنين : نعم يا أمي .

فالتفتت جميلة لخليل وبرهان: هل تتعشيان يا أبا أحمد أنت وبرهان .. أم تنتظران باقي الناس؟

قال خليل ضاحكا: أنا عن نفسي شبعت من كلام برهان .. وأستطيع أن أصبر .. وأنت يا أبا خليل .. ألا تريد أن تأكل؟ .. لا تجامل عمتك إذا كنت جاهزا للأكل فتفضل .

فتبسم السيد برهان لكلام الحداد خليل ومداعبته البريئة ورد عليه : شكرا يا عمي .. أنا تغديت متأخرا ، فلما أخبرتني منى عن تأخر الطائرة أخرت الغداء .. وهذه الفاكهة قد ملئت بطوننا .. المهم يا أخ أبا أحمد فكر جيدا بالعمل معنا في المصنع ، فأنت صديق عزيز وخبرة لا يستهان بها .

ـ هذا من فضلك يا أستاذ برهان .. أنت أحسن إنسان تعرفت عليه في حياتي كلها رغم فارق السن بيننا .

ـ السن ليست عبرة يا صديقي! المهم الانسجام وتلاقي الأفكار والخواطر وقبل كل ذلك المحبة .

وتدخلت منى قائلة ومعقبة على كلام أبي أحمد : والله مناي أن أعرف سر تلاقيكما لهذه الدرجة يا عمي يا أبا أحمد .

تطلع إليها ضاحكا وقال : لا أدري يا عزيزتي يا منى !.. منذ دخل هذا الرجل بيتنا في اليوم الذي تعرفينه انشرح له صدري ، ووقع حبه في قلبي ونفسي كأنني أعرفه منذ سنوات ، وحدث انسجام بيننا وأنا أفضله على إخوتي من أبي .

فقال برهان : على ذكر إخوتك يا أبا أحمد ، ذكرت لنا قديما أن لك إخوة من امرأة أبيك الحاج أحمد فرفر .

تنهد الحداد خليل وقال : نعم ، نعم ، يا أخي يا برهان .. عندما تزوج أبي أمي خلفتني أنا وصبرية ، ثم مرضت ولم تعد تستطع الحمل ، وبعد يأس تزوج امرأة عليها أنجبت منه ولدين وابنتين ، ثم ذهبتا إلى الموت هما الاثنتان رحمهما الله .

□□□

عند منتصف الليل أقبل مالك وسعد الدين بربيع وعائلته ، وتعانق الأحباب واجتمع الشمل في بيت السيد خليل فرفر، وكان لقاء طيبا ظهرت فيه العواطف الرقيقة والمشاعر الناعمة والود والحب بين هذه الأسر الأربعة .. وبعدما استراح المسافرون قليلا وضع بين أيديهم العشاء المتأخر ، وتناول الجميع طعامهم ، ثم أخذ برهان أولاده الثلاثة خليلا وزهرة ومحمدا وزوجته قافلين لبيتهم بعدما استقبلوا ربيعا وأسرته كما اعتادوا على ذلك سنويا ، وبعد مغادرتهم بقليل انصرف سعد الدين بعائلته الأولاد والزوجة مغادرين لبيتهم وقد قاموا بواجب الترحيب بأخ زوجته ، وقضت العائلة ساعة أخرى في الحديث والترحيب ، ثم انصرف كل منهم إلى حيث يرقد وينام ، ورقد القوم سريعا في نوم عميق بعد السهر والعشاء.

وفي الصباح التالي انطلق خليل لمحددته وهو يفكر بعرض صاحبه برهان ، ولم يتخذ القرار الحاسم بعد ، فهمس لنفسه محاولا إنهاء ما يدور في نفسه من تردد .. كان الأمر صعبا على روحه ونفسه ، فهو قد اعتاد على المحددة الصغيرة والعمل البسيط ، بل كان عندما يطرح عليه عرض كبير من الشغل يستعين ببعض المعارف من الحدادين الآخرين لإتمام المهمة والعطاء .. كانت حياته بسيطة لا تعقيد فيها .. أجرة بيت لا يدفع ، فهو يملك البيت ، والأمور ميسرة ، وكان أخوته قد تنازلوا له عن البيت قديما قبل أن يهجروه وقد قام بتوسيعه وتحديثه .. والفواتير الأخرى من ماء وكهرباء وهاتف لا تكلفه كثيرا ، ومنذ كبر أولاد زوجته قل الإنفاق على البيت ، فالأولاد قد تحملوا المسؤولية كاملا .. فمالك وربيع يرسلان المال لأمها باستمرار ، وحتى البنات يدفعن المال لأمهن بسخاء فكان أكثر ماله يدخره .. وحياته هادئة والأيام طيبة .. والأولاد دائما حولهم في البيت ، وهم لا يشكلون أي عبء مالي على جيبه رغم محبته لفعل ذلك .. فمالك لا يمر يوم إلا وهو يدخل صناديق الفاكهة المتنوعة للبيت .. فكان يرى العمل في المصنع مشقة وتغيير ما تعود عليه .. ولكن برهان حبيبه يحب تعاونه معهم .. إنه يريد أن يكرمه بطريقة لطيفة .. فهمس قائلا لنفسه المترددة : عندما يتم بناء

المصنع وصنع الفرن سأقرر وأتخذ قراري الأخير .
فلما وصل لهذه النتيجة ارتاحت نفسه ، فخفت حدة التوتر بينه وبين روحه فهو يقدر برهان ويعتبره أكثر من ابن وأخ .



وأما مالك فبعد أن صلى الفجر جلس في المسجد كعادته ، ولما صلى صلاة الشروق عاد للبيت فوجد أمه قد صنعت له القهوة بالحليب وطعاما يسيرا ، فأكل الطعام وشرب قهوته ، حتى أتى وقت الذهاب للعمل فودع أمه وسألها كالعادة إذا كان يلزم البيت شيء هذا النهار فقالت : سأشترى ما نحتاجه من هنا من دكاكين الحي وإذا اضطررنا لشيء سأتصل بك .. فبعد قليل سيأتي إخوتي للسلام على ربيع وابنتهم .. وربما تأتي صبرية أخت خليل ، فقد تحدثت معي على الهاتف قبل دخولك تسأل عن وصول ربيع وزوجته وأولاده .. المهم أن البيت سيظل اليوم مشغولا طول النهار.. وإذا رغبت أن تتغذى مع أخيك فافعل .. فمنى وحنين ستحضران بعد الظهر .
ـ إذا صار لدي وقت سأحضر الغداء يا أمي .. لا أدري ماذا سيحدث اليوم ؟ . . فالقضايا تملأ المكتب وشركائي لهم رأي .. أحيانا الجلسات تأخذ منا وقتا غير مخطط له .. السلام عليكم يا أمي .
ومشى نحو الباب الخارجي للبيت ، ولكنه بعد لحظات سمعها تنادي عليه : انتظر يا مالك .
توقف والتفت إليها فقالت : هل صحيح أنك ستتزوج قريبا ؟
تبسم وقال : قريبا ! .. من قال ذلك ؟!
ـ منى سمعت برهان يتحدث بذلك !
ضحك وقال : سأتزوج إن شاء الله تعالى يا أمي ! أما قريبا فصدقني أنني لا أدري يا أمي ! كما

□□□

قلت لك سابقا عندما ننتهي من العمارة ونؤجر ما نريد تأجيره سيكون الزواج .

ـ بل سمعنا أنها ابنة أحد كبار المحامين .

تعجب مالك وقال : برهان قال ذلك ؟!

ـ قاله لمنى ، ومنى أخبرتنا به .

تبسم مالك وقال لأمه : يبدو أن برهان هذا يعلم أكثر مني يا أمي .

ـ لا تمزح

ـ هو في كلام يا أمي ، ولكن قبل أن يحصل شيء جدي وحقيقي فالكلام غير لائق .. فكما تعرفين الكلام يمشي وأنت تعرفين كيف يمشي ؟ .. فعندما يحدث شيء ستعلمون به .. فبرهان هذا عجيب فعلا من أخبره بذلك ؟!

ـ أنت ؟!

ـ أنا ؟! ممكن ولكن متى كان ذلك ؟! .. أنا تحدثت فعلا منذ عهد قريب مع برهان بفكرة الزواج وأنني قد أتزوج خلال العام ؛ ولكن لم أقل بالضبط متى ؟ ولم أقل من هي المرأة ؟

ـ هذا ما سمعناه من أختك أم خليل .. هو للحق لم يتكلم أمامنا بشيء .

ـ على كل ادع لي يا أمي بالتوفيق .. كلام برهان فيه كثير من الدقة بس الذي أدهشني معرفته بأمر العروس وكبار المحامين!

ـ أنت لم تقل له ذلك ؟! ما بك يا ولدي ؟! وكيف عرف إذن ؟!

ضحك مالك لحظات وقال : لا أذكر أننا تحدثنا بشيء من ذلك .. السلام عليكم يا أمي سلمي على ربيع وامرأته وعلى كل ضيوفك اليوم .. أنا وصيت أبا خضر صاحب المطعم على كمية من الحلويات الشهية لتقديمها لضيوفك اليوم وتكريمهم بها .. لقد صلى الفجر معنا وسيرسلها لكم .

ـ وصيت ، جزاك الله خيرا .. والله أنا نسيت أمر الحلويات ..

ـ أنا لا أنسى .. ألم يعد هذا تقليدا عندنا ؟ كلما يرجع الأخ الكريم من السفر نقدم للناس

الحلوى والفاكهة .. وإذا نقصت الفواكه فخذي من عند سعدي وأنا سأمر وأدفع له إن شاء الله .

ـ توكل على الله رضي الله عنك ، لقد عوضني الله خيرا بكم يا ولدي الحمد لله على توفيقه .. وهذا الرجل الصالح ـ تعني خليلا ـ ماله حلال جزاه الله خيرا قام عليكم أحسن قيام .

ـ الحمد لله يا أمي.. فأبو أحمد بركتنا وسيدنا وخيرنا، وكسب أجرنا ، فالساعي على الأرملة واليتيم كالمجاهد في سبيل الله.. ونحن بودنا لو نقدم له أفئدتنا ؛ ولكنه بفضل الله تعالى مرتاح منا ، ودائما يثني علينا ، ونحن نقدر له كل شيء ..

ـ صحبتك السلامة يا ولدي .. انتبه وأنت تسوق سيارتك فحوادث السيارات تزداد وتكثر في المدينة .

ضحك الشاب وقال : الأعمار بيد الله يا أمي بسيارة أو غير سيارة .

ـ الحذر مطلوب ..

ـ لا مفر من القدر يا أمي ! سأفعل بنصحك .. المهم رضاك علينا وأكثري من الدعاء لنا ، فدعاء الأم عظيم ومسموع عند الله الرب العظيم .



لما استيقظ ربيع عتب على أمه على أنها لم توقظهم للصلاة فقالت: قد فعلت ولكن يبدو أن النعس والتعب حط رحاله عليكم ، فرحلة الطائرة رغم الراحة المتوفرة فيها ففيها مشقة وإرهاق نفسي .

صلى الصبح هو وزوجته ، وما كاد يخرج من الحمام ويتناول الإفطار حتى كان خاله والد زوجته وزوجة خاله حماته يجلسون مع أمه ، وقام الترحيب والعناق والسؤال عن الصحة والعافية والسفر والغربة .

بدأ أقارب ربيع يهلون للسلام عليه كعادتهم عندما يرجع كل سنة من سفره .. وانقضى النهار باستقبال وتوديع ، وفي المساء زاره بعض أعمامه وزوجاتهم وأبنائهم الكبار .. وقام بهذا

الواجب أيضا بعض الجيران ، وقضت الأسرة بضعة أيام على هذه الحال والمنوال .. فقد اعتاد أهل برقوقة على هذه المجاملات للتعبير عن حبهم للمغترب .

ولما عاد مالك أحد الأيام مساء مبكرا وقد خفت الرجل عن البيت فجلسوا جلسة عائلية في صالة البيت ، وكانت زوجة ربيع قد أخذت بعض أولادها لزيارة أهلها والمبيت عندهم ليلة

قال ربيع مخاطبا أخاه مالكا : ما أخبار العمارة ؟

ـ ألم تذهب إليها بعد ؟!

رد ربيع باسما وقال : الناس ، وأنت عارف ناس برقوقة .. لي أربعة أيام لم أخرج من البيت إلا للمسجد .. وذهبنا فقط لمنزل خالي والد زوجتي للغداء عندهم فقط ؛ ولكن أمي حدثتني عنها بعض الشيء .

ـ الحمد لله رب العالمين شهر ونصف أو شهران سينتهي كل شيء بمشيئة الله .. الطابق الأول تم تأجيره كما اتفقنا محلات تجارية ، والطابق الثاني كما تعلم ثلاث شقق استأجرت شقة لمكتبنا الجديد ، وشقة استأجرها الدكتور حسن عيادة وهو صديق لنا ، والثالثة شبه محجوزة لأحد الأصدقاء وهم يعملون في الطباعة والورق .. والطابق الثالث شقة لك وأخرى لي والثالثة لم تؤجر بعد ، والطابق الأخير كما تعلم عليه شقتان يا سيدي ، هناك بعض الناس حدثوني عنهما ولكن أجلت الأمر للتشاور معك ، فربما يريد أحد يخصك السكن فيهن ، وسمعت أمك تقول " إن أخ زوجتك حسني ابن خالنا ربما يرحل ويسكن في الحي "

فقالت جميلة : أنا قالت لي ذلك امرأة خالك فاطمة حماتك يا ربيع .

فقال ربيع : لا حرج يا أمي .. لك الشكر يا مالك على المجهود الكبير الذي بذلته خلال هذه السنوات الماضيات .

ضحك مالك وقال : سامحك الله يا أبا ساعد! هل بين الأخوة مجهود ؟ ولو أن المال متوفر بين أيدينا مرة واحدة لانتهى المشروع منذ سنوات أو من سنة واحدة .. ولكنني أحببت أن نعمل حسب الإمكانيات حتى لا نغرق بالديون كثيرا ، ونحن ما زلنا مدينين لسعد الدين وبرهان

وبعض المحلات لها بواقي حسابات ، وكذلك والد سعد له علينا باقي ثمن حديد وإسمنت ومواد طلاء ودهان وهو رجل فاضل قال لي "على أقل من مهلك يا بني .. فنحن أهل" ولولا أنني أخشى أن يزعل لسددته فورا ولكن قلت رويدا رويدا ، فالرجل طيب ومحترم ، ولو دفعتهن له مرة واحدة لظن أن في النفس شيئا فيزعل ويزعل سعد .. وحنين طلبت مني فعل ذلك ، فالرجل يحب أن يخدمنا ويفعل من أجلنا شيئا ، إنه يريد أن يجاملنا .

فقال خليل : الحمد لله يا أولادي.. الله فضله كبير علينا .. والحقيقة أن أصهارنا أناس أصحاب فضل ومروءة ، وأنتم يا أولاد طيبون وتستحقون كل خير

قالت جميلة: الحمد لله على فضله.. والشكر لله .. كل هذا ببركتك يا أبا أحمد .. ومن حرصك على الحلال وإطعامنا الحلال ، الله يسر لنا أولاد الحلال .

ـ بوركت يا أم ربيع .. أنت أصيلة وطيبة يا أم الجميع .

قال مالك : بارك الله فيك يا عم أبا أحمد.. غدا إن شاء الله عندما أرجع من المكتب سنذهب للبناية ونتفرج على ما سميته يا ربيع المجهود .. نحن منا المال أما الذين قاموا بالجهد والإنشاء هم العمال والمقاول وأهل الحرف .. وإذا أحببت اذهب في الصباح وخذ معك أمك وزوجتك وتفرجوا .. فستجدون الحارس أدهم فهو ما زال يعمل معنا ، وقد نبقيه بوابا للعمارة إذا أحب البقاء معنا .. ففي الطابق الأرضي سكن قد يصلح لبواب أو حارس عازب .. وظل شيء واحد بعد تشطيب العمارة وقد أجلته إلى أجل غير مسمى كما تعلم وهو المصعد الكهربائي .

واختلط الحديث بينهم في مواضيع شتى حتى جاء ذكر الزواج ، فعاد ربيع يسأل : ألم تقرر الزواج بعد ؟ .. أصحيح ما يشاع عن زواجك ؟

ضحك مالك ووضع كأس الشاي من يده وقال: كما يشاع ..حلوة هذه الكلمة! .. فعلا هي الكلمة المناسبة .. أنا ذكرت قديما أنني عندما أنتهي من العمارة وأستلم الشقة الخاصة بي سأبدأ بتجهيزها ، وعندما أجد بنت الحلال سنتزوج كما يتزوج خلق الله سبحانه .. فالحمد لله والشكر لله والفضل كله لله الأمور تسير تمام لليوم .

وقطع ربيع استرسال مالك قائلا: وهل صحيح ما يشاع أنها ابنة أحد المحامين الكبار؟

ـ هذا الغريب في الأمر يا ربيع! والعجيب أنهم ينسبون القول لبرهان ولا أدري من أين أتى به برهان ؟!

تبسم ربيع وقال: وبرهان حبيبنا لا يرمي الكلام كما تعلم جزافا .. ربما صارحت صاحبا بذلك وألقاه في أذن برهان .

ضحك مالك لحظات وقال : معك حق .. من سيكون ؟!

تبسم ربيع وقال: معناه صحيح .. هناك كلام يبدو في ذلك .. وهذا الكلام وصل لبرهان الحبيب .. هذا الرجل لو ذهب معي للخليج لصار مليونيرا .. فهو رجل فهمان في المحاسبة والشركات والدراسات ؛ لكنه قنع بهذا المكتب الصغير .

ـ الرجل فعلا عجيب عرضت عليه الملايين فرفضها .



قام ربيع كعادته عندما يرجع من السفر كل سنة بزيارة أعمامه وعماته وخالاته وأخواله وبعض الأقارب وأختيه ، فيمكث شهرا في ربوع الوطن بين الأهل ومحبيه ، وبين مستقبل وزائر ومودع ، ولم ينس زيارة صبرية أخت خليل ، فكان يعتبرها كعمة له ، وكذلك يخص بزيارة صديقه عدنان جابر وزوج ابنة خالته ، وكان يتمنى لو يزور أخوة خليل وأخواته الأخريات ، ولكنهم لا يعرفونهم ولا يعرفون سكناهم ، فهو يقدر ويعظم دور خليل زوج أمه في حياتهم وتربيتهم وتعليمهم ، ولما انتهت الإجازة السنوية سافر من جديد للخليج ، وعاد السكون والهدوء لمنزل السيد خليل فقد سافر الضيف العزيز .

ربيع لم يعادِ ويجافِ أهله وأقربائه وخصوصا أعمامه اللذين تخلو عنهم صغارا .. ولكنه عذرهم ولم يجافهم أو يفكر بالانتقام منهم ؛ بل قدر ظروفهم وحياتهم ، وكان يصل عماته بالمال ، وكذلك أعمامه المحتاجين ؛ بل ساعد بعض أبنائهم للعمل حيث يعمل ، وقد تحسنت

□□□

العلاقات بينهم خصوصا بعد سكناهم ثانية في حي برقوقة ، وأصبحوا كبارا بل يتطلع بعض أعمامه وعماته لتزويج بناتهم من أخيه مالك ، وهم مستغربون لتأخر مالك بالزواج لهذا اليوم ، فقد كان ولدا بارا بالجميع، وحتى مالك المحامي لم يكن يقصر في هذا الجانب الاجتماعي والإنساني، فكثير ما يأخذ أمه ويشارك أعمامه وأولادهم في مناسبتهم من فرح وترح ، ويساعدهم بما استطاع ، فعلاقته طيبة مع الجميع بل كانت أسرة خليل مجال فخر لأهل الحي فهم يستفيدون من عمله في سلك المحاماة في حل مشاكلهم وقضاياهم ، وكانوا يفخرون به أيضا بأنه كاتب بارع في الصحافة والمجلات .

وكان مالك الشاب القوي البنية الأنيق دائما يقدر زوج أمه خليلا التقدير اللائق به والكبير كان يراه رجلا عظيما ، ويتمنى من أعماق قلبه أن يقدم له شيئا ولو يسيرا من بعض دينه ومعروفه معهم .. فلليوم هم عاجزون عن سداد شيء ، فهو لم يحتاجهم في شيء مهم .. وكان يحترم زوجي أختيه أيضا الاحترام اللائق بهما ، ويرى أنهم من خير الناس وأحبهم إليه ، ويقدر لبرهان العمل الكبير من زواجه بأخته منى ، لقد كان خائفا عليها جدا من الضياع ، وتؤرق فكره منذ كان يدرس في الكلية الجامعية .. كان يخشى على أخته من هذا المجتمع الذي يتفتت وينفلت كل يوم .. ويزداد فيه تمرد الإناث على تقاليد العائلات ، ومع ذلك الانفلات المعروف إن أصابت الفتاة شيئا سيئا يبقى عار على العائلات ، رغم ضعف الروابط الأسرية والعائلية مقارنة بعقود مضت .. ورغم ترك الناس لبناتهم بالانخراط والتقليد الأعمى والبعد عن الدين.. ما زال يعاب الآباء والأخوة والعشيرة بتصرفاتهنّ المشينة والمنحرفة .. فكان خائفا من انفلات منى ، وكان يرى ذلك بأم عينيه لقد أصبحت تدخن وتشرب الخمر وتلبس الملابس الفاضحة وتجلس مع الرجال والنساء دون حياء ، وتتكلم مثلهم بسخيف الكلام باسم المدنية والحضارة والحرية والتعليم .. فكان ينظر لبرهان على أنه بطل صنع لهم معروفا عظيما ، ويتمنى من أعماق قلبه أن يجزيه بعض الجزاء .. فكان يرى برهان أكثر من صديق وزوج أخت ، كان يراه أخا لم تلده أمه .

□□□

دخلت منى المكتب بصحبة زوجها كالمعتاد صباحا ، وبعد حين يسير استأذن برهان للمرور على بعض الشركات للمراجعة والمتابعة والتدقيق ، وبينما منى تقوم ببعض أعمال العمل التي طلب منها برهان القيام بها ريثما يرجع رن جرس الهاتف فرفعت السماعة وقالت : نعم

ـ عفوا .. ألم تعرفيني يا منى ؟!

ارتبكت وهي تسمع السؤال وقالت : آسف ، أرجو ألا أسمع صوتك مرة أخرى!

ووضعت السماعة وتوترت أعصابها ، وظهر الغضب على محياها ، وتغير لونها واكفهر وجهها غضبا.. ورن الهاتف ثانية فرفعت صوتها للعاملة التي في المكتب المجاور أن ترد على الهاتف : ردي عليه يا سلام !

تحدثت سلام مع المتصل ثم قالت لمنى وهي مستغربة رفض منى للحديث مع المتصل: إنه يريدك أنت .. يريد أن يسألك عن سبب عدم حضورك حفل المصنع الذي دعيتم إليه من قبل السيدة عبير ناصر!

ردت عليها بغضب قائلة : أغلقي السماعة في وجهه .. إنه رجل حقير!

عجبت سلام بالطبع لهذا الكلام ، واعتذرت للرجل ووضعت السماعة ، واقتربت من منى الغاضبة وقالت : مالك يا أستاذة منى ؟! عفوا طبعا للسؤال !

عادت منى للجلوس على مكتبها ونظرت إليها لحظات ثم قالت : أنا آسفة يا سلام لرفعي صوتي في وجهك .. المتصل استفزني ، ولما اتصل ثانية أذنت لك أن تردي عليه لأنني أغلقت السماعة في وجهه ولا أريد سماع صوته .. معذرة يا أختي

ـ أتعرفينه ؟!

ـ نعم ، أشكرك .. أين أبو غسان ؟

ـ ذهب للفطور .. هل تريدين شيئا ؟

ـ كنت أرغب بشرب كوب من القهوة .

ـ أصنعه لك .

□□□

ـ لا .. أرجوك عودي لمكتبك .. أنا بنفسي سأعد القهوة .

مشت نحو المكان الذي تصنع فيه القهوة والشاي ، وصنعت لها ولسلام القهوة ، شكرتها سلام على تواضعها ، وكررت منى الاعتذار ثانية وهي تقول : اعذريني يا سلام .

ـ لقد عذرتك يا أختاه .. بس لو أعرف سبب انفعالك الشديد فقد احمر وجهك للغاية .

ـ ستعرفين .. وليس الآن .

عادت الفتاة ترشف القهوة وتنظر في الملفات التي أمامها ، وأما منى فدخلت لمكتبها وهي تقول : اللعين ماذا يريد ؟! ليس هناك شيء يربطنا ؟! إنهم يريدون تدمير حياتي .. عبير شيطانة .. إنها تحلم ببرهان! غبية جدا .. فهو أيام الجامعة لم يهتم بها .. فاليوم تتصور أن يقع في حبالها !

لما رجع برهان أدرك بحسه المرهف وهو يدخل المكتب قلق وتوتر منى ، فشحوب وجهها واضح فسألها عم بها فلم تكتمه شيئا وكانت تحدثه بغضب وهيجان ثم قالت : أرأيت تلك الملعونة ؟! ماذا ستفعل ؟!

ـ اهدئي أولا يا عزيزتي .. فالتوتر يوهن التفكير.. سأتكلم مع عبير .. وأيضا سأقطع علاقتي العملية معهم .

ـ لا تفعل أنا لا أخوض حربا معها !

ـ هذا لا أسمح به يا منى .. هذا عبث ولعب عيال وسخافة .. أنا عند الضرورة سأتكلم مع ناصر نفسه ، ونحن في غنى عن الشغل معهم .. اهدئي أيتها العزيزة .

ـ أفكر أنا بترك العمل !

ـ الهروب .. لا يا حبيبتي .. فالهرب لا يحل دائما المشاكل .. فالسخفاء ..

دمعت عيناها وهي تقطع كلامه قائلة : أنا لا أريد أن أخسرك !

استغرب برهان التصريح وضحك وقال : نحن لنا سنوات متزوجون يا ابنة العم .. أنا لا تؤثر فيّ حركات الصبيان ، ونحن كبرنا على لعب العيال ، وأنت لم تعرفي لماذا اتصل ؟ هل

فقط اتصل ليسأل عن سبب عدم حضورك حفل الافتتاح .. ولماذا يريدك أن تحضري ذاك الحفل ؟!.. أنت تفاجأت بالاتصال فتوترت بسرعة وخانتك الحكمة .. وأنا أستطيع أن أوقفه عند حده ، ولكني خائف عليك على أعصابك .

ـ فعلا تهيجت أعصابي .. عندما قال "ألم تعرفيني يا منى؟" فما كدت أعرف وأتحقق من صوته حتى ارتبكت ووضعت السماعة .

ـ صدقي لو أراد التعامل معي كعميل ربما لا أهتم ، فسيكون كأي زبون وعميل .. أنا أحب أن تكوني طبيعية وحتى مع حازم ، وأنا واثق بأنه أصبح ماض في حياتك .. على كل حال لا تقلقي سأتحدث مع عبير بداية وأعرف منها سر هذا الاتصال ، وأعرف أيضا مدى دورها في هذه اللعبة إذا كان هناك لعبة ، وإذا وجدت أي عبث سأنهي كل الأعمال التي بيننا وبينهم ، فنحن في ألف غنى عن شركاتهم ومشاريعهم وحفلاتهم .. عودي للبيت الآن ، وسوقي السيارة بكل هدوء ، فأمي تريد زيارة أمك فخذيها وانسِ هذا الهاتف وسأتصرف .

أثنت عليه منى لسانا وقلبا ، وهدأت أعصابها قليلا ، واعتذرت لسلام ثانية وهي تغادر، وانصرفت قافلة لبيتها ، ومع كل حديث برهان المطمئن لها ما زال القلق من المجهول ، وكانت ترى أن هذه بداية لتحرشات جديدة ، فهي تعي بشكل جيد أن حازما ابتعد عنها لخاطر أهله وضغطهم ، وحتى زواجه من قريبته كان رغم أنفه .. وكانت تعتقد أن مجيء عبير بعد سنوات من فتح المكتب لم يكن صدفة وقراءة إعلان في جريدة .. كانت ترى أن عبير لما عرفت من هو برهان صاحب المكتب طمعت فيه ، وظنت أن الأيام والحياة الصعبة غيرته .. ولكنها فوجئت بأن زوجته هي منى زوجة شقيقها حازم .. فإدخال عبير حازما بطريقة ما سيكون فيه خراب لبيتها ، هذا ما كانت تتخيله منى من الاعتقادات والتخيلات .. بل ذهب بها التفكير أن عبير كانت تعرف بزواجها من برهان للرسالة التي جاءت لها من حازم بعد كتبها كتابها على برهان بأيام .. وإنما تظاهرت بأنها تفاجأت بزواجهما من بعض .. كانت خواطر تروح وتجيء في ذهن فتاة قصتنا هذه .

لما خرجت منى قام برهان ببعض الأعمال ، ثم تكلم مع عبير وحدثها عن اتصال أخيها حازم بمنى فقالت عبير : لا تزعل يا برهان .. أنا كنت قد حدثت أخي عن زواج امرأته السابقة منك .. وكان المسكين يأمل برؤيتها في حفل افتتاح المصنع ليعتذر لها عما سببه لها من ألم وعذاب وخذلان .

ـ يا عبير .. هذا كلام فارغ وسخيف .. فهي على ذمة رجل اليوم .. وهي لا تريد اعتذارا ولا أسفا ..أنا أعرف أنه ما زال لها في نفسه شيء لأنه طلقها مكرها ومجبرا .. ولكن كل شيء انتهى فليحترم نفسه .

ـ لا .. لا .. يا برهان .. حازم مسكين محطم شخص من غير إرادة .

ـ لا ، هو ما زال في نفسه من ناحيتها شيء .. عندما أعلنت زواجي منها كتب لها رسالة تهنئة ، وفيها كلمات حنين وأسف وغير ذلك ، ولما لم يحدث بعدئذ شيء نسيت الأمر .. فحذار من غضبي .

ضحكت المرأة وقالت ساخرة : ماذا ستفعل ؟!

ـ اضحكي ما تشائين .. أنت تعرفين برهان ماذا يفعل إذا غضب ؟! لقد عرفت بعض حكاياتي أيام الكلية .

ـ هل نحن في العصور الوسطى !

ـ العصور الوسطى .. عصور شيكاغو .. المهم إذا أحببت أن نبقى أصدقاء فلتكن صداقتنا العمل وحده .

عادت عبير للتهدئة والاعتذار وقالت : قلت له دعنا من هذه الدعوة .. دعنا من منى ربيع .. فهي تعيش في كنف غيرك وأنت عندك امرأة .. فالملعون كان مغرما فيها .

ـ كلام سخيف يا عبير .. هذا حب مراهقين .. ساعة هنا وساعة مع تلك .. أليس هو الذي طلقها ؟! والآن أنا زوجها ..فليفهم ذلك وإذا اتصل مرة أخرى سأتكلم مع والدكم مباشرة

ـ خلاص يا سيدي .. أنا آسفة .. سأفعل ما تشاء .. لن يعيدها بل أنا سأتحدث مع الوالد إذا

علمت بشيء .. اطمئن .

ـ أنا أقبل منك هذا الكلام.. فنحن عرب ونغار على أعراضنا يا عبير .. نحن ما زلنا نعيش في تقاليد وعادات الماضي .. لسنا مثلكم نتزوج ونترك نساءنا على حل شعورهن ومصاحبتهن للرجال مهما كانوا.. أو الزوجة تترك زوجها يصاحب من شاء .. نحن عرب مسلمون .

ـ ما أقسى كلامك !

ـ هذا واقعكم لم نأت بالكلام من دورنا .. أرجوك أن تنصحيه أن ينسى هاتف المكتب .. رجاء يا أخت عبير .

ـ ولا يهمك يا عزيزي .

شكرها ووضع السماعة ومسح العرق المتصبب على جبينه وقال لنفسه : أرجو أن تكون قد فهمت الدرس .. أنا إذا غضبت وحقدت أدمر الدنيا .. لعنة الله تعالى عليه .. سم بدني وأعصابي .. مسكينة منى !!

وما كاد برهان يضع السماعة ويتكلم بهذه الكلمات حتى رن الهاتف فإذا هي عبير ثانية ، فاستغرب وقال : آ .. يا عبير؟!

قالت : حازم عندي ويريد أن يعتذر لك ؟

ـ لا أريد اعتذاره .. المهم أن ينسى أنه كان يعرف أنثى اسمها منى ربيع ، فليكن تعاملكم معي في الشغل فحسب ، وإذا شئتم اسحبوا العقود التي بيننا .. فأنا بغنى عن مشاريعكم .

ـ يا ابن الحلال لا تغضب .. فنحن معرفة وزملاء قبل أن نعرف كلينا منى .. ولكنّ حازما مصر على الحديث معك لديه كلام خاص كما يقول

ـ لا أريد أن يكلمني ، أنت فهميه كل ما قلته لك يا عزيزتي يا عبير .. مع السلامة

أعاد سماعة الهاتف لمكانها وقال : لو كان هذا الرجل صادقا بعلاقته بمنى لما انشغل بالمخدرات للهروب من الحياة ومن زوجته .. لكان قد كافح وعمل أي شيء لتدوم الحياة مع منى ، أليس معه شهادة جامعية ؟! كان باستطاعته أن يعمل في أي شركة ويفتح بيتا .. لكنه

اعتاد على التبذير والسكر والقمار .. وأنا متأكد أن أكثر أمواله هلكت على موائد القمار .. ولكن يبدو أن منى لم تكن تعرف ذلك .. فإذا عبير وهي في الجامعة كانت تمارس الميسر .. فكيف بحازم المدلل الضعيف الشخصية ؟! ولو كان يحب حقيقة ما طلق متظاهرا بالاستسلام لوالده .. إنه صاحب منى أصلا محاولا الضحك عليها بالحب والعشق ، ولما فشل في تحقيق مأربه الشهواني رضخ لأمر الزواج اضطرارا وهي أرغمته على ذلك ؛ لأنها كانت تريده سلما للمجد والمال ، فشخصية منى قوية وحذرة .. أنا أعرف هؤلاء الناس !

عكف برهان على العمل من جديد وهو مشوش الذهن وسارح الفكر بما حدث ، فالاتصال هذا عمل اضطراب في هذه الأسرة الوادعة الحالمة .. وقبل أن يغادر المكتب رن الهاتف في الثانية ظهرا ، رفعت سلام السماعة وردت ونادت عليه فهو يقف بالباب لينصرف وقد ارتدى جاكيتته فقال : من ؟

ـ رجل يريد الحديث معك لم يذكر اسمه .

عاد لمكتب سلام وأخذ السماعة من يدها وقال : نعم .. نعم .. أنا برهان

ـ أريد أن أقابلك أنت شخصيا يا أخي .

ـ تقابلني من أنت ؟!

ـ أنا حازم !



لقاء مع حازم

لما عادت منى من بيت والدتها بصحبة والدة زوجها أم عبد القادر ، وتعشى الزوج والأولاد ، وجلسا في حجرة التلفزيون يسهران ويسمران ، ولما خيم الصمت على الحجرة قالت منى : أكلمت عبير يا أبا خليل ؟

ـ نعم ، اتصلت بها وبهدلتها وهددتها بالحديث مع والدها ، وترضتني ألا أفعل ، ثم أنهيت الاتصال ، ثم عاودت الاتصال مخبرة أن حازما يرغب بالحديث معي ، فرفضت وأكدت تحذيري .. ولكن قبل مغادرة المكتب رن الهاتف ، وأنا أقف على الباب مغادرا ، فردت سلام ونادتني للرد على المتصل ، فإذا هو حازم ناصر ، ويطلب مقابلتي أنا شخصيا ويترجاني لقبول هذه المقابلة .

ـ مقابلتك ! .. ما أوقحه ! لا حياء عنده !

ـ المهم أننا اتفقنا على اللقاء يا منى .

ـ اتفقتم !.. ماذا تريد منه ؟!

ـ سأسمع ما الذي يشاءوه منا.. ولا تخافي ولا تحزني يا عزيزتي .. هذا إنسان ضائع.. هناك مشكلة كما يقول ويطلب مساعدتي في حلها .. أريد أن أعرف ماذا يريد منا ؟!

ـ أمرك غريب يا عزيزي!

ـ علينا أن لا نأخذ الأمور بحساسية كبيرة يا عزيزتي الغالية.. فحياتنا وسعادتنا وتفاهمنا أكبر منه .. وأنا مستغرب لهذه التصرفات الصبيانية .

صفنت منى لحظات ببرهان ثم قالت: أنا سأقول لك هاجسا في نفسي واستحيي أن أقوله .

اهتم برهان بكلامها وقال: هاجس ! .. احكي ؟!

ـ أنا منذ رأيت عبير في المكتب وأنا متوجسة خيفة منها .. وأظن أنها لم تدخل المكتب عن جهل وحسن نية .. فأخشى أنها تريد منك شيئا خاصا

ضحك برهان لهاجس زوجته وقال : أتعنين أنها تقصد الزواج مني ؟!

ـ يعني !

ـ لا ، هل هي غبية لهذه الدرجة يا منى ؟

ـ هذا ليس غباء .. هي امرأة فاشلة في الزواج .. وهي تريد زوجا وهي تظن بالاقتراب منك وبدعمها المالي لك سيكبر المكتب ورويدا رويدا تتزوجك .

قهقهة برهان لأفكار زوجته وخوفها وقال : هذا كلام أفلام يا منى ! .. يظهر أن الأفلام القديمة التي كنت تكثرين من حضورها تشوش عليك وتضع هذا الوهم في نفسك .. فخيالك القديم يستيقظ .

صفنت منى بكلام زوجها ثم قالت : أترى ذلك ؟!

ـ بكل تأكيد يا عزيزتي .. أنا لست طفلا لتغرر بي فتاة وتافهة مثلها .. أنا فلوسها لم تشتريني وأنا طالب ضعيف يأخذ مصروفه من أبيه .. ومعها سيارة وعطر وشلة .. فكيف اليوم وأنا مرتاح نفسيا ومبسوط وسعيد بزوجتي منى وخليل وزهرة ومحمد ؟.. لا تخافي أيتها العزيزة .. صحيح النساء ذات مكر وحيل ولكن ليس لهذه الدرجة .

ـ حسنا ، ومقابلتك لهذا الرجل؟!

ـ أقصد أن أعرف ما الذي يريده من طلب المقابلة ؟! .. لا أعلم بالضبط لماذا أنت خائفة وقلقة من هذا اللقاء يا عزيزتي ؟!

ـ أنا لست خائفة من المدعو حازم .. فهو ضعيف الرأي والشخصية أنا خائفة ممن يحركه ويسره .

ـ لا أعتقد أن عبير بهذا الذكاء والتخطيط الذي تتحسسين منه .. إنها لا تفكر جيدا إنها تعمل وتنفذ فقط ، أنا راغب أن أعرف ماذا يريدون وما الذي إليه يسعون؟ .. هل يفكر هذا الغبي بأنه الممكن أنك سترجعين إليه ؟ وأين أبوه يا صاحبتي ؟

ـ إنه يعرف أنني متزوجة كما تذكر من رسالته السخيفة قبل سنوات ، ويعرف من هو زوجي ؟ .. عبير تسعى لشيء منا يا برهان !

ـ الأيام ستظهر ذلك .. وأنا فكرت بما حصل ، ومنذ التقيت بعبير أول مرة ولليوم بالهاتف الأخير بيننا لم ألمس مكرا وحيلة .. يبدو لي أن في البيت عندهم مشكلة ما ، فدخول منى على الخط فجأة .. ربما يحدث شيئا ما .

ـ لم أفهم عليك !

ـ تخيلي معي لو أن مشكلة أو مشاكل بين حازم وزوجته التي هي قريبته كما سمعت منك يوما ما .. بل ابنة خالته أو لا أذكر ربما ابنة عمه ناسي الآن .. المهم أنها قريبته.. وهذه القريبة بالتأكيد تعرف قصة زواجه من منى ، ومحاربته لأهله من أجل الزواج منها والتفاصيل المعروفة لك .. هذه الزوجة غضبى من حازم .. فلقاء مع منى يوم افتتاح المصنع أمامها وأمام الآخرين .. ثم اتصال ثم لقاء .. تسمع هذه القريبة والأهل بذلك .. سيحدث قلق داخل العائلة .. فتعود للهدوء والسكينة وترقيع الموضوع .. ممكن أن يكون هذا صحيحا ؟!

ـ معقول ما تقول! .. فبمثل هذه الحركات والبلبلة تحدث ضجة وكلام وإشاعات عن محاولة السيد حازم العودة إلى مطلقته القديمة .. سخفاء !

ـ معقول ، وهذا الكلام ليس تخيلي أو من عندي ، أنا تحدثت مع فتاة عاملة في مكاتب الشركة عند عبير .. تعرفت عليها أثناء ترددي على دفاتر المحاسبة في الشركة .. فلما عدت للبيت قبل عودتك أنت وأمي تذكرتها وتحدثت معها مباشرة ، وبطريقتي الخاصة علمت منها أن حازما لديه مشاكل كثيرة داخل البيت وكثيرا ما تصل أخبار مشاكله مع زوجته أو أمه للشركة .. وكثيرا ما غضبت منه وهجرته لبيت أهلها ثم تعود ، تصلحهما الأختان أمه وخالته .. بل صرحت لي أن الأمور مرة وصلت بينهما للطلاق .. مشاكل كثيرة داخل البيت.. فرتبت الأمور على ضوء هذه المعلومات فوقع في نفسي أنه يحاول الاتصال بك لإرباك العائلة .. فأقنع أخته بدعوتنا لحفل الافتتاح ، ولكننا خيبنا رجاءه بعدم الذهاب، فلو ذهبنا للحفل لقاء عابر معك باسم الاعتذار تسري إشاعات معينة .. ففكر بعد الفشل بالاتصال .. تحدث إشاعات أن حازما جدد الاتصال بزوجته السابقة .. تصل المعلومات للزوجة والأم .. تعود الزوجة

الغاضبة منه خاضعة خوفا من عودة منى لحياتهم من جديد .. فربما اتصل ممهدا لطلب لقاء.. الأخلاق إذا فقدت عند الناس مشكلة، ويستسهلون كل الوسائل لارتكاب ما يشاءون .

ـ كلامك معقول إلى حد كبير .. وهذه سهلة إذا أحببت أن أتصل ببعض

الصديقات القديمات وستحدثني بكل شيء مفصلا ولكن لماذا يريد اللقاء بك ؟!

ـ سؤال مهم .. ومربك لم رتبته وتخيلته .. وهذا سنعرفه من اللقاء .. وأنت اتصلي بمن يستطيع أن يمدك بمعلومات صحيحة وواضحة .. وعندما أذهب إلى اللقاء الذي سيكون يوم الخميس الآتي في نادي السبع بجعات المعروف تكونين جمعت لي معلومات مهمة .. للخميس باقي يومين حاولي .

وبعد صمت قالت منى : غريب تفكيرك ! .. ودور عبير في الموضوع ؟!

ـ بعد اللقاء سيتضح دور عبير وغير عبير .. فاصبري أيتها الحبيبة .. فحبنا أكبر من هذه التفاهات .. نحن لا نعيش في مسلسل أو فيلم يا حبيبتي .

ـ معك حق .. الوسواس مخيف أحيانا .

ـ هل ترين أنني أفرط بك بسهولة ؟ تضحك في وجهي امرأة لعوب أنسى منى وأضحي بسعادتنا .. فنحن نعيش حياة طيبة بفضل من الله تعالى .. هؤلاء أبناء القصور العالية والحدائق المعلقة حياتهم ضحلة بحث عن الملذات والمفاسد إلا من رحم ربك .. هدئي قلبك المضطرب منذ سماع صوت ذلك الرجل .. ما أخبار العم خليل ؟

تبسمت وهي تقول : عاتب عليك لأنك لم تأتِ معنا .

ـ معه حق لي أكثر من أسبوع لم أره .. سندعوهم الجمعة للغداء معنا ما تقولين ؟

ـ لا مانع لديّ وجاهزة لصنع أحسن وأطيب الطعام .

ـ لا ، سأوصي على طعام من المطعم .

احتجت منى على الاقتراح قائلة : لا ، لا .. أبو أحمد يحب طهي البيوت يا أبا خليل !

ـ أعرف ذلك ؛ لكني لا أحب إتعابك هذه الأيام ، فالحمل في أوله وهو متعب ومرهق ،

وهنا يقولون يكون خوف على الجنين في مراحله الأولى .

ـ لا تهتم .. فسوف تساعدني أمي .

ـ كما تشائين .. أنا أستطيع أن أطلب من أختي أم محمد المجيء والمساعدة ، ولكن هذا سيضطرنا لندعوها للغداء معنا .. وأنا أريد أن أقصر الدعوة على أسرتك فقط أمك وأخوك وأبو أحمد .

ـ ادعها إذا شئت ، ويسرني فعل ذلك .

ـ لا ، أنا أريد أن أتحدث وأجلس مع أبي أحمد وحده .

ـ والله أنا أتعجب من هذه المحبة بينكما .. فكلما أجلس مع أمي ساعة يتردد اسمك على لسانه عشرات المرات .

ـ مسكين فقط يا منى !! رجل وحيد في الدنيا .. أهله تخلو عنه لما أصبحوا بشوات وكبار .. فلمس فينا الحنان والحب والإحسان والسماع والإصغاء لحديثه عندما يتكلم .. فأحبنا وأحس أنني كأخ أصغر له .

ـ بارك الله فيك ، فأمي دائما تدعو لك لحب أبي أحمد لك وفرحه بك .. والله يا برهان لقد عرفت رجالا كثرا شبانا وأصحاب أموال في حياتي القديمة قبل أن ألقاك وأتعرف عليك فوجدتك رجلا عجيبا فريدا كأنك لست من طينتهم .. مع أنك طبيعي في تصرفاتك وأقوالك وأفعالك وسلوكك .. لقد كنت قبل أن تتحدث عن عبير وحازم كنت أتخيل أن مؤامرة تحاك حولي .. مع أنهم لا يربطني بهم شيء .. قدر الله أن لا أخلف منه حتى لا يكون بيني وبينه رابط في يوم من الأيام ، ولا يوجد بيننا أي قرابة .. ومع ذلك لما سمعت صوته وتذكرته .. اشتعلت نار في قلبي وتهيجت مما يجري حولي ، ولكن تبسيطك للأمور أراح نفسي وروحي .. أنت رجل مختلف عن الآخرين .

ـ أنا رجل مثلهم ، ولكني زوج وحبيب وأستخدم عقلي قبل قلبي .. ربما لو إنسان غيري سمع أو حدث عن اتصال بين زوج وطليقته وهي على ذمة رجل آخر لهاج الشك والريب في

نفسه ولعب الفأر في عبه كما يقال .. وظن أن شيئا يدور من ورائه .. فأنا إذا لم أعرف زوجتي وأخلاقها وطبيعتها فهذا إقلال لعقلي .. المحاسبة والرياضيات مادة عقلية يا منى .. الحساب مادة عقلية معنوية فهي أفادتني في حياتي الواقعية .

ـ الله يجزيك الخير .. سأتصل ببعض الصديقات القديمات إذا استطعت أن أصل إليهنّ بعد كل هذه السنوات ..ثم أتحدث مع والدتي وادعوها للغداء .

ـ جيد .. وأفضل أن لا تذهبي للمكتب هذين اليومين لترتاح أعصابك.. لأ اذهبي .. اذهبي .. سأغير ترتيب خروجي من المكتب .. أنا خائف أن يأتي فجأة ويصيبك شيء .. انفعال غضب فيضر بك وبما تحملين في رحمك .. أنا أعرف من هي منى ؟! أما إذا كنت معك ستقوى عزيمتك وشجاعتك .

ـ أنا لا أخافه .. لكني لا أسمح لنفسي أن أتحدث معه بعدما غدر بي وتخلى عني وأصبحت زوجتك ..

ـ مشكلتك معه نفسية ، صدقي لو رأيتيه مرة واحدة ، ولم تكترثي به سينتهي كل هذا الإشكال النفسي يا حبيبتي .. الإنسان يخاصم ويعادي كثيرا من الناس ويراهم ويجالسهم ، فقط أول مرة بعد المشكلة يتوتر ويكثر من اختلاس النظر لخصمه .. وبعد حين ينتهي الموضوع ويصبح الأمر عاديا ؛ كأنهم لا يعرفون بعضهم بعضا .. فالإنسان يحضر جلسة ندوة يرى كثيرا من الأشخاص الذين يحضرون تلك الجلسة ، ربما رأى بعضهم أثناء الدخول والجلوس ، وبعد حين لا يعرفهم إلا إذا كان أحدهم لفت النظر خلال الندوة بسؤال ، بظهور موقف منه أو صورة من أحدهم تبقى عالقة في مخيلة الإنسان .. الإنسان يتزوج قريبة ابنة عمه ابنة خاله أو خالته وينفصلان بسبب معين فيلتقيان ويتحدثان ، وربما يتناسبان في يوم من الأيام بأولادهما طبعا .. حركة الحياة والعمر فيها صور وخيالات لا تخطر على البال .. فلو التقيت بذاك الرجل مرة فاجتهدي أن تكوني عادية غير متوترة لحظات ودقائق ولسوف يختفي من حياتك .. فإذا فعلت ذلك لسوف ترتاح نفسك وخوفك يزول .. وأنت كما كنت

تقولين الشخصية الأقوى فلا تهابي .

ـ أنا خائفة على مشاعرك ، وأن تسيء فهمي ، وتظن سوءا ، ويدخل الريب والشك لقلبك نحوي .

قال : لا ، هذا تفكير ساذج للغاية ، فأنا أكبر من ذلك ، وأنا أبني قراري كما تعلمين ـ وقد جربت ذلك ـ على يقين ودراسة وفهم .. ليس اعتباطا .. الموقف والمشهد المريب معروف .. لو ـ لا سمح الله ـ لو رأيتك مع رجل ، حازم أو غيره في وضع مريب ممكن أن يقوى الشك لديّ ، كأن أراه واضعا يده على شعرك على جبينك .. تجلسين جلسة مبتذلة .. فهذه صور تثير القلق وتزرع الشك في نفس الرائي .

ـ لا سمح الله أن أفعل ذلك . وضحكا معا .



ذهب برهان يوم الخميس عصرا حسب الموعد المضروب بينه وبين حازم إلى نادي السبع بجعات ، وفي إحدى صالات النادي جلس ينتظر ويبحث عن السيد حازم ناصر في المكان المتفق عليه ، ولم يطل الانتظار فبينما هو يراقب الداخلين والخارجين دخل شاب من سنه يتطلع ويتلفت يمينا وشمالا حتى تلاقت الأعين فاقترب منه الشاب وحياه باسما : السيد برهان محمود .

قام برهان وسلم على الرجل وقال : نعم .. تفضل يا أخ حازم .

جلس وقال : كيف أنت؟!

ـ تمام وأنت ؟!

ـ بخير.. أنا آسف جدا لهذا الإزعاج .. أكيد الأخت منى انزعجت وتضايقت من ظهوري المفاجئ في حياتها .

ـ أكيد يا أخ حازم .. ولا تنسى أنك تتكلم مع زوجها ، وأنت تجلس مع والد وأب أولادها .

ـ أعرف كل شيء يا سيدي! .. أعرف أنها زوجتك وأن لديك ثلاثة أطفال ، وأنها سعيدة بحياتها الزوجية معك .. الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن ماضيه بسهولة ويهمله !

ـ ماذا تريد منا يا أخ حازم ؟!

ـ ألا تشرب شيئا ؟!

ـ سنشرب .. المهم لماذا اتصلت بمنى ثم بي يا سيد حازم يا محترم ؟!

ـ لا تظن بي سوءا ، وإني أريد أن أخرب البيوت .. ولو كان لدي نية سوء لما سعيت للقائك .. أنا كنت أحب أن أسمع رأي منى في أمر دون علمك.. لا أريد أن يحصل بينكما مشاكل وزعل ولكنها خافت وأبت أن تفتح حوارا بينا .. منى تغيرت!

ـ رأي منى ! أفصح !

ـ اصبر يا أخي .. فمنى شكت لك ، أظن أنها خافت مني ، وظنت أني أريد أن أعيد الماضي .. أتحدث عن الحب الذي كنت أتحدث عنه قديما ، الحب قد مات في أمريكا مع الماريجوانا والكحول .. أنا آسف لهذا الكلام .. فاطمئن يا أخي .. فأنا أعرف أنها زوجتك ، ولكما أبناء ولا أسعى لشقاق بينكما ، فأنت علمت بالاتصال ، وأنا كنت أحاول رؤيتها في يوم افتتاح المصنع أحد مصانع أبي الجديدة .. علمت من عبير علاقتك بالشركة .. فلما لم تحضرا سعيت للاتصال فرفضت التجاوب ، وأنت لما علمت تحدثت مع عبير بعصبية وتهديد.. فاضطررت أنا للحديث معك ، وتم هذا اللقاء بناء على ذلك الاتصال .

كان برهان يسمع ويظن أن الشاب غير واع لما يقول مع أنه لم يشم منه رائحة خمر .. فكان دهشا ويصبر نفسه ويراقب حازما ويترقب ماذا سيقول ؟.. أشعل حازم سيجارة جديدة وقال : سأشرب شيئا .. أتشرب شيئا ؟

ـ قهوة إذا ممكن .

نادى حازم على النادل وطلب منه قهوة لهما ، وعاد ينظر لبرهان وهو شارد البصر، وتابع

□□□

الحديث قائلا : اطمئن أنا لا أفكر بالعودة لمنى إذا تبادر لذهنكما شيء من ذلك القبيل .. ولا تظن أنني سأترجاك لتطلقها ، فهذا غير منطقي وغير سليم يا أخ برهان وصعب .. فالأسرة التي أنا منها ما زالت تكره منى .. بل يبغضونني لليوم بسبب هذا الزواج .

احتار برهان بعقل هذا الرجل ، وأحضرت القهوة فرشف رشفة وقال : ولماذا اتصلت بها إذن؟! .. إذا لا يوجد عندك مثل هذه الخواطر الرديئة !

ـ الرديئة !.. المشكلة يا سيد برهان كما قلت قبل دقائق إنني كنت أرغب أن يكون الموضوع بيني وبينها .. هو لا يخصك ولكن الأخت عبير طلبت مني أن أتحدث معك مباشرة قائلة " منى القديمة التي تعرفها يا حازم ليست منى التي تزوجت برهان " .. فاتصلت بك بعد تفكير وتردد وقلق خاشيا أن تسيء فهمي وقصدي

يكاد الصبر أن يفقده برهان فقال : يا رجل ادخل على المشكلة التي تريد أن تتحدث عنها .. ها نحن تقابلنا لنرى ونسمع .

ـ جيد! .. لابد أن منى ربيع زوجتك اليوم ، وزوجتي سابقا حدثتك عن ماضيها وكيف تزوجنا وكيف تطلقنا ؟

قال برهان بضجر وضيق : نعم ، أعرف كل شيء .. وأنك كنت مغرما بها وضحيت برضا أهلك من أجل الزواج منها .. أعرف كل هذا .

ـ لا تتعصب يا عزيزي.. المهم أنك تعرف ، جيد هذا .. ولابد أنك تعرف أيضا أن والدي ناصرا حاربنا بعد الزواج مباشرة وطردنا من العمل في شركاته .

ـ أعرف هذا أيضا .. وإنكم قمتم بفتح مصنع مواد غذائية ، وإنه فشل بعد زمن يسير .

ـ جيد .. جيد .. أنا أريد الوصول لهذا المصنع التعيس .. المصنع يا حبيبي هو المشكلة ، وكنت أريد الحديث مع السيدة الفاضلة منى ربيع من أجل المصنع .. كنت أريد أن أسمع كلامها من دون علمك حتى لا أسبب لها مشاكل ومعاناة معك .

ضجر برهان وقال بغضب مكتوم : ما هي المشكلة يا سيد حازم ؟!

ـ المشكلة .. هي مشكلة .. سأقول ما هي المشكلة ؟

ـ لا تتردد إذا كانت هناك مشكلة سأساعدك قل ما هي المشكلة ؟!

ـ جيد .. لما أنشأنا هذا المصنع ـ يا أخ برهان ـ احتاج لمال لاستئجار المبنى ، ومال لشراء سيارات توزيع .. مال للعمال والفنيين .. مال لشراء الماكينات .. مال لدفع الأجور .. مال لشراء المواد الخام .. وأنا ومنى لم نكن نملك المال الكافي لمشروع طموح .. فبعد تفكير كامل أخذنا بعض القروض من مؤسسات مالية .. وتم إنشاء شركة بيني وبين منى ، وسجلت رسميا واستأجرنا أرضا صناعية ، وتم تركيب مباني جاهزة عليها وقيام عنابر فوقها .. وتم شراء الماكينات بالتقسيط ، وكل ذلك بالقروض التي حصلنا عليها.. واشترينا أربعة سيارات للنقل والتوزيع وبالتقسيط أيضا ..وكانت القروض والمشتريات تزيد عن مائة ألف يا صاحبي ، منها قروض نقدية حوالي خمسين ألف .. خلال أربعة وخمسة شهور بدأ العمل والإنتاج ؛ لأن ماكينات العمل اشتريناها من السوق المحلي .. وهذا الإنتاج مطلوب منه كما تعلم ولأنك تشتغل بالمحاسبة والتدقيق مطلوب منه أن يغطي تسديد القروض البنكية وأقساط الشركات الأخرى ، الشركات التي أخذنا منها السيارات والماكينات ومواد التصنيع وأجور العمال والمهندسين .. وبعد حين تبين لنا ضعف التسويق للمنافسات الأخرى في السوق ، ولكثرة الصيانة في ماكينات المصنع فقد صار عندنا عجز في التسديد ، وبعد سنة فشل المصنع فشلا ذريعا ، ولم نغطِ الديون فأحبطنا إحباطا كبيرا .. ترك العمال والمهندسون المصنع المنهار لتأخرنا المتكرر في صرف رواتبهم .. شركات توريد مواد التصنيع امتنعت عن التوريد إلينا .. بعنا بقايا المصنع .. آلات المصنع أصبحت مستعملة وبيعت بهذه الصفة .. سيارات المصنع أصبحت مستعملة.. أرض أعيدت لأصحابها .. المهم بقي لشركة السيارات حوالي عشرة آلاف من ثمن السيارات .. وشركة استيراد الماكينات حوالي عشرين ألف .. سددنا باقي حساب القروض البنكية من تصفية المصنع .. أمام هذا الواقع المرير هربت إلى أمريكا آملا بالعمل والنجاح في بلاد الدولار.. كانت كل القروض والمشتريات باسمي

الشخصي وحدي يا برهان .. اتفقت مع هؤلاء الدائنين أن تدفع لهم منى الأقساط حتى أرتب أمري في أمريكا ..وهناك وبسرعة تعلقت بالمخدرات ، فلم أتمكن من العمل ، ودبت بي الهموم والأسقام .. اتصل ابن عمي الذي ساعدني بالوصول إلى هناك بأهلي لأني دخلت المستشفيات كذا مرة .. أهلي طالبوني بتطليق زوجتي لإعادتي إلى حضن العائلة ، لم يكن أمامي إلا الاستسلام لهم ، فحصل الطلاق هناك حسب طلبهم ، وقام محامي والدي بالاتصال بمنى وجرت إجراءات الطلاق المعروفة .. وأحضرت إلى هنا وتمت معالجتي في أحد مراكز علاج الإدمان مع أنني لم أدمن بعد .. وأنا في فترة الأحداث والهروب نسيت قروض السيارات الأربعة والماكينات .. ومنى التي اشتغلت وتعهدت بالسداد حتى أدبر أمري ، فبعد الطلاق لم تسدد أي دفعة ، ولم تهتم ولم تشعرني بذلك ، وأنا لم انتبه لذلك مع تسارع الفشل والحياة عندي يا سيدي المحترم .. وبعد حين اتصلت بي هذه الشركات .. ولم علموا بإدخالي مركز المعالجة تريثوا إلى حين ، وطلبت منهم عبير أن يصبروا حتى أتعافى.. فصبروا على أمل تحصيل حقهم وأموالهم .. ولما تعافيت من تعاطي المخدر وخف تعلقي بها .. رتبت الأمور معهم وبالمبلغ البسيط الذي يهبه لي والدي آخر كل شهر أسدد هذا وهذا .. ثم زوجوني بقريبة لنا .. وأمضيت سنوات وأنا جليس البيت والملهى إذا سمح لي بالخروج .. ثم علمت بزواج منى من بعض الرفاق .

ـ لم نصل للمشكلة بعد ؟

ـ اقتربنا يا سيدي .. لشح ما أحصل عليه من أبي لم أعد أسدد كثيرا من الديون المكتوبة عليّ لهذه الشركات .. ورفض والدي مساعدتي أكثر من مرة ، وكذلك أمي وعبير وكل إخوتي .. وحتى زوجتي وأهلها .. الكل يقول لي "من ورطك في الديون والمصانع فليسدد عنك ".. أمام هذا المنطلق كنت أدفع شهرا لهذا وشهرا آخر لذاك .. وبعد تفكير وضغط اقتنعت يا سيدي أنه يجب على منى أن تساعدني في تسديد الديون لأننا شركاء وهي تعرف هذا .. فأنا حاولت أن أتحمل تسديد الدين وحدي .. ولكنني ضعيف وعاجز .. فهذه المشكلة التي

دعتني أحاول اللقاء بمنى ربيع .. يا أخ برهان .. علينا ديون قديمة ونحن اشتركنا في الحصول عليها ، فلا يجب أن أتحملها وحدي ، وهي التي دفعتني لهذه المغامرة الكبيرة .. وهذا سبب محاولتي الاتصال بها دون علمك وبعد هذه السنوات الخمس أنا لم أسدد لليوم إلا خمسة آلاف دينار ، والباقي مبلغ كبير يزيد على العشرين ألف .. جزء منه لشركات بيع السيارات وجزء آخر لشركة بيع الماكينات الصناعية .. فهم يقولون منى شريكتي في الشركة فعليها أن تساعدك في تحمل هذا الدين ! .. أنا يا سيدي لو كنت أملك هذا المال لدفعته ، ولم تسمعا صوتي أنت ولا منى .. فنحن مستعدون ـ قصدي أهلي ـ لخسارة مليون على طاولة القمار ولا ندفع فلسا لآخر ولو إحسانا .. ماذا يا سيدي أفعل؟! أنا لا أعمل منذ عدت من أمريكا .. أنا مريض منهك البدن .. جلسات علاج طبيعي مستمرة .. مراجعات للطبيب النفسي كل شهر .. راتب ضئيل صدقة من الوالد .. لا تستغرب ما أقول !.. أنا بزواجي من منى غصبا عنهم وهم يعادونني ؛ كأنني ارتكبت جريمة كبرى .. لا أدري لما يكرهوننا لهذه الدرجة .. يرون أنها هي التي دمرتني وعلمتني تعاطي الأفيون والحشيشة وحب الهلوسة .. وحتى الخمر التي تملأ بيوتهم.. هذه هي المشكلة يا سيد برهان .. علينا أموال وعلينا تسديدها.. فقل لمنى إن هذا سبب محاولة الحديث معها أو اللقاء بها .. لا سبب غيره .. كنت أحب سماع رأيها وقولها دون أن تعرف أنت .. لنتصرف .. ولكنها تحسب لك ألف حساب وتخاف أن أثير في نفسك الشك فهربت من الإجابة .

فكر برهان تفكيرا عميقا وهو يسمع المشكلة ، وقد أدركها عقله واستوعبها، ثم قال: أخ حازم .. حذرها مطلوب .. والحل بسيط أنا سأزور هذه الشركات التي اشتريت منها الماكينات والسيارات وأنظر كما دفعتم وكم بقي .. المهم أن البنوك حساباتها مغلقة .

ـ البنوك حسب علمي أن حساباتها قد سكرناها من المبيعات الأولى ، ثم من تصفية أموال الشركة.. ومن حقك أن تتأكد من ديون الشركات ، وأنا في خدمتك .. وحاول أن تساعدنا في حل المشكلة ، فكما أنا عليّ دين فعلى منى مثله .. فنحن شركاء يا سيد برهان .

□□□

ـ لا أنكر أنكم شركاء في الدين .. دع المشكلة عندي.. سأعرف مقدار الدين بالضبط أنت عليك النصف وعلى منى النصف .. أليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدي الشركة باسمينا ، المتبقي يزيد على العشرين ألف .. وأنا سددت خلال هذه السنوات ما يقارب الخمسة آلاف دينار .. وكانت منى قد سددت بعض الدين عند سفري لأمريكا.. ولما حصل الطلاق لم تعد تدفع شيئا .. سأعطيك عناوين الشركات وأسماءها التجارية وانظر في دفاترهم .

ـ أعطني فقط أسماءها ، فكثير من الشركات أعرف عناوينها ومقراتها ومواقعها .. سنتعاون معك في حل المشكلة مشكلة هذه الديون يا أخ حازم .. وهذا من حقك أيضا ..

ـ صدق أتيت إليك وكلي خوف وحرج .. وأنت لا ذنب لك في هذه الديون .. وستقول أصحاب الملايين يعجزون عن تسديد مبلغ بسيط تافه .

ـ لا حرج عليك يا صاحبي .. وهم لا دخل لهم في تسديد ديون قديمة .. ولو فعلوا لكان كرما منهم .. ستحل المشكلة بمشيئة الله .. إن شاء الله أنت مرتاح في حياتك الزوجية ؟!

ـ حياتي الزوجية !

ـ نعم .

ـ أنا حي ميت يا أخ برهان .. أنا مثل الدابة أو قطة عند أمي .. آكل وأشرب وأنام .. أنا زوجوني بعد تحسن صحتي من ابنة أخت أمي ابنة خالتي ويا ليتني لم أتزوج .. إنهم بعدما عالجوني من تورطي في المخدرات زوجوني سريعا حتى أنسى امرأتي المطلقة حتى لا أفكر في يوم من الأيام بالاتصال بها والعودة إليها ، هذا قبل أن تتزوجك .. خافوا أن أعود إليها .. زوجوني بهذه الفتاة التي كانت أبغض امرأة عندي في هذه الدنيا .. نحن نعرف بعض بحكم القرابة .. المهم يا سيدي أني رجل بغير إرادة .. مسلوب الإرادة عليل .. زوجوني وسكنت مع أمي وزوجها .. تخرج هي للعمل ، وأظل أنا الرجل في البيت حتى تعود في المساء .. نخرج لزيارة أمها .. أختها .. وأحيانا كثيرة تذهب وحدها.. إنها فقط شريكة في غرفة النوم

وأحيانا كثيرة أهجر هذه الغرفة وأنام في زاوية من زوايا البيت الواسع .. ولدت لي ولدا سميته جلالا أو قل هي سمته .. من جلال لا أدري قد يكون اسم صديق لها ، وقد يكون اسم عشيق لها .. لا أدري .. لم أحبه .. لا أدري لماذا ؟ وقبل أيام ولدت لي المولود الثالث وسميناه ناصرا .. تريد أن تنافق لأبي ؛ ولكنها ولدته عند أمها .. فلها شهور أو قل منذ حملت وهي تعيش عند أمها .. طبيب داخل وطبيب خارج ..المهم أنا اسمي زوج .

وصمت لحظات يتأمل فيها برهان وعاد يقول : أكيد أنت سعيد جدا مع منى .. فهي امرأة نشيطة ومخلصة !

ـ الحمد لله رب العالمين .. سأهتم بمشكلتك يا أخ حازم واعتبرني صديقا لك .. وستكف الشركات عن مراسلتك والاتصال بك .. ولكن قل لي .

ـ ماذا أقول ؟!

ـ قل لي .. هل تملك ما تسدد به حصتك من الدين ؟

ـ ليس لدي رصيد .. رصيدي صفر مكعب ..أنا يصرف لي خمسمائة دينار آخر كل شهر يا أخ برهان .. لا تكفيني خمرا وسيجارا .. جلسة واحدة في مطعم تكلف خمسين دينارا أو تزيد

ـ ألا تلعب القمار؟!

ضحك حازم وقال : هذه المشكلة الكبرى يا صاحبي .. القمار مرض أشد من الخمر .. القمار تعلمتها منذ المراهقة .. وما الذي ساعد في تدميري إلا القمار!

ـ أكانت منى تلعب القمار عندما كنتم تديرون المصنع ؟

ـ لا أدري .. صدق أنني لا أعلم .. أنا ألعب القمار وأمارسها ولكن ليس باستمرار وشراهة قماري هي مبالغ بسيطة .

ـ أتمارسها اليوم ؟

ـ عندما تسنح لي فرصة للالتقاء بالأصحاب .

ـ نعود للدين ، كيف ستسدد حصتك من الدين يا صاحبي ؟!

ـ سأسدد كما أسدد اليوم .. أدفع شهرا وشهرا آخر لا أدفع .

ـ لأ ، يا حازم نحن نريد أن نخلص من هذا الدين حتى لا يعد لديك حجة للاتصال بمنى .

ـ صح معك حق ! .. تحدث مع عبير فهي تتدعي أنكما أصدقاء قدامى !

ـ صديق أيام الجامعة فقط يا حازم .. درسنا في كلية واحدة .. وأخذنا بعض المواد الدراسية معا .. وهي كانت تسبقني بسنتين .

ـ تكلم معها .. تسلفني حصتي وتخصمها من راتبي .. فهي التي تعطيني الراتب ؛ لأنني كنت ضمن كادر الشركة التي تديرها .. فهم يعتبرون أنني ما زلت أحد موظفي الشركة !

ـ جيد ! .. سأتفاهم وأتفق مع عبير إن شاء الله .. فلما أعرف المبلغ المتبقي عليكما عند إغلاق المصنع وتصفيته سأتصرف.. لو أنكم بعتم المصنع نفسه بماكيناته وسيارته وخسارته لإدارة جديدة ربما هم تحملوا الدين .

قال : لم يتيسر يومذاك مشتر يا سيدي الفاضل .. وكان الوضع النفسي لنا سيئا والفشل والإحباط كانا قد دمرانا .. ومعاداة أبي كانت أهم أسباب الفشل الذريع لنا.

ـ حسنا يا حازم سأدقق الحسابات القديمة، وأنظر كم دفعت منى قبل أن تطلق وتكف عن الدفع ؟ وكم دفعت أنت خلال هذه السنوات وبعد الطلاق .. وأرتب الأمور مع عبير ومعك .. فإذا دفعت عنك عبير انتهى الموضوع بيننا وبينكم .. وإذا لم توافق عبير على إسلافك المبلغ لتغطية دينك وحصتك .. سأضطر أن أذهب بك للشركتين وأدفع أمامك حصة ونصيب منى لكل منهما ، وأنت تسدد ما عليك كما تشاء ، ولا دخل لمنى في دينك الباقي يا سيد حازم .

ـ افعل ما تراه مناسبا .. ولنبق أصدقاء يا أخ برهان .. أنت رجل عملي وفهمان .. وأنا حقيقة كنت قلقا من اللقاء بك ومترددا أقول لنفسي ما دخلك في دين قديم على امرأة لم تكن زوجتك أيام إنشاء الدين ؟

ـ أنا وزوجتي اليوم شيء واحد .. وهي مسؤولة الآن مني.. وهذا حق ودين عليكما معا ..

نحن لا نرض بأكل الحرام .. وشكرا على ثنائك لشخصي .. ولكن صداقتنا لا تنفع يا أخي فأنت من بيئة وأنا من بيئة .

ـ مضبوط يا سيدي ، ولولا أن تفهمني خطأ لقلت إنني أتمنى أن أكون لك صديقا دائما ، لكن عدني واسمح لي أن أتحدث معك كلما احتاج لمساعدة منك .

ـ افعل يا حازم أنا تحت أمرك .. كلما تواجه مشكلة وتحتاج لمشورة اتصل بي .. وإذا تحب أن أتحدث مع والدك من أجل أن يساعدك في تسديد الدين عن حصتك فأنا مستعد .

ـ لا .. لا .. تكلم مع عبير ، وإذا لم توافق فالحل الثاني مقبول عندي .

ـ والآن سأدعوك للغداء معي يا حازم .. ولولا الحساسية التي قد تسببها لنا يا سيد حازم لاتخذتك صديقا وقبلت صداقتك .. أنت إنسان مسكين .. بس تعلقك بعادات قبيحة من شرب خمر وقمار وتدخين يضعفك ويضعف إرادتك ، وما تراه من علة وهوان هو بسبب ذلك .. فلو أنك تبتـعد رويدا رويدا عن هذه الرذائل ستتحسن صحتك ويصحو عقلك وتصبح رجلا بمعنى الكلمة .

ـ فكرت بذلك ونصحني بعض المخلصين .. ولكن لا حياة لي إلا بالخمر والدخان .. ألا تسكر منى زوجتك ؟! .. على علمي أنها تعلمت ذلك .

ـ الحمد لله لقد تابت عن كل ذلك ، تابت عن الخمر والتبغ والعري.. بل تركت الخمر قبل عقد القران ..

ـ تحسد على ذلك ، لقد تخلصت من هذه السموم .. الحمد لله منى إنسانة عظيمة .. أخ برهان أنا أزداد بك إعجابا .. بل صبرك عليّ كل هذا الوقت زاد من اعترافي بشهامتك وتحملك .. ألم تتزوج قبل زواجك منى ربيع ؟!

ـ هي أول امرأة تدخل قلبي .

تنهد الشاب العليل بعمق وقال : ليتنا كنا نعرفك أيام زواجنا يا برهان ؛ ربما وقفت بجانبنا .

ـ لا تأسف على ما فات .. الحياة أمامك يا أخي .. من المهم أن تتوب وتترك هذه الأشياء

القبيحة التي تهلكك وتدمرك ، وابدأ من جديد بعزم وقوة وستتغير وتتحسن صحتك وإرادتك .

ـ ولكنهم يفعلون مثلي يا برهان ومع ذلك هم أقوياء وأثرياء وأشداء .

ـ الناس قدراتهم متفاوتة ، وأنت تعودت أن تعتمد على غيرك .. فلما حاولت أن تعتمد على نفسك لم تنجح ولم تفلح .. لضعف القدرة التفكيرية عندك وتعودت أن توجه من قبل غيرك

ـ كانت معي زوجتك !!

ـ صحيح يا حازم ، ولكن متى كانت موظفة مكتب! ..لا تدري ما السوق وما المصنع ؟ .. وكانت مغامرة كبيرة منكما في ظروف نفسية حادة وشرسة .. وربما الأشخاص الذين استشرتموهم لم يكونوا ذوي خبرة كافية .. ولا يعني كلامي أن كل من يسكر لا يدير شركة وفاشل .. فكل هؤلاء الأجانب يسكرون ويملكون ويديرون شركات ضخمة .. فأحيانا الذكاء والمستشارون عندهم ذو فهم في الإدارة والنجاح .. وهناك عباقرة في الذكاء ولكنهم فاشلون في جمع المال .. فأنا أطلب منك ذلك شخصيا لأنك ضعيف الإرادة والتفكير، وذكاؤك مع الاحترام اللازم يا أخ حازم ضعيف كذلك .. فالاعتماد على الآخرين في إدارة حياة الفرد يضعف التفكير ويصبح مجرد متلقيا ومنفذا للأوامر والتوجيهات ..

ـ لا يسعني أيها الأخ إلا أن أشكرك وأنتظر تدبيرك .

ونهض الرجلان إلى حيث المطعم في نادي السبع بجعات ، وعلى إحدى موائد الطعام تناولا وجبة طعام على نفقة برهان الذي أصر على الدفع رغم محاولة حازم أن يدفع ، ولما انتهيا من الطعام كباقي البشر قال برهان : سأنصرف الآن .. وتحدث معي واذكر لي أسماء الشركات يا أخ حازم .

ـ أعرف أسماءها .

وذكر أسماءها لبرهان الذي دونها على قصاصة ورقية وعرف موقعها ، وتصافح الرجلان ثانية واتجه كل منهم حيث تقف سيارته .

وهكذا افترق زوجيّ منى ربيع الأول والثاني بعدما التقيا ، وصل برهان البيت بعد العصر وقبل الغروب بساعة ، فقد طال اللقاء بمن كان زوجا لامرأته التي كانت تنتظر عودته على جمر ، فما كادت تراه يدخل مسلما حتى ازداد اضطرابها وهي لا تدري كيف تفسر هذا التوتر ولما خلع الجاكيت قالت : تكلم !!

ضحك من توتر أعصابها وقال : بماذا أتكلم ؟! اطمئني لا شيء مما تحدثنا به .. فهو إنسان مسكين ، وما زال يعاني من زواجه بك .

ـ يعاني ! لم أفهم !

ـ سأفهمك بكل شيء . قال: هل تغديت ؟!

ـ نعم ، مع زوجك السابق .

ـ مع زوجي السابق ؟!

ـ أليس هو زوجك السابق وشريكك السابق في المصنع ؟

ـ برهان ! .. تكلم لترتاح أعصابي .

ـ فلترتاح يا سيدتي .. هناك مشكلة قديمة من أيام الشركة .

ـ مشكلة قديمة من أيام المصنع لم أفهم ؟!

ـ حسنا ، سأفهمك ولكن بعد إحضار كوب من الشاي المعروف لك .

احتجت وقالت: هذا وقته يا سيدي العزيز! تلعب بي! تكلم قبل أن تشرب الشاي .. لنشربه معا .

ـ جائز !

نهضت منى لصنع الشاي بعد أن طمأنها برهان ، وقبل أن يشرع برهان بالحديث مفصلا عن مقابلته لحازم رن جرس الهاتف في البيت ، وكان المتصل مالك شقيق منى وبعدما استمع لكلام مالك قال : نحن قادمون .

وضعت منى صينية الشاي على منضدة وتسألت برأسها فقال : الحاجة جميلة ما زالت مريضة !

ـ تحدثت معها ظهرا وطمأنتني .. هل حدث شيء؟!

ـ لا أعلم ..المهم أن مالكا يريدنا.. وقال إن الطبيب المعالج خرج من عندهم قبل قليل .

قام برهان فارتدى الجاكيت وجلس يشرب الشاي وهو يقول: جهزي نفسك للخروج وجهزي الأولاد .. أو دعيهم عند أمي أو أختي .. ثم الحقي بي عند السيارة سأشرب الشاي وأنزل .

ـ إنني خائفة على أمي يا برهان!

ـ مم؟! .. هو إذا دخل الطبيب على أمك ستخافين .. ما هو كل يوم يدخل .. الكل يمرض يا عزيزتي .

انصرفت منى لتلبس ثياب الخروج ، وتجهز الأولاد وتخيرهم إما مرافقتهم عند جدتهم المريضة جميلة ، وإما بقاؤهم عند جدتهم السليمة ، شرب برهان الشاي وخرج يجهز السيارة .

وبعد عشر دقائق أو ربع ساعة كانت منى تجلس بجواره وهما ينطلقان نحو حي برقوقة ، وفي الطريق فصل لها برهان لقاءه بحازم ، فتذكرت منى ذلك الدين، واعترفت بوجوده وأنها نسيته وأهملته بعدما أتتها ورقة الطلاق ، وقالت : أنا لما طلقت نسيت أمر هذا الدين .. ولم يخطر ببالي لليوم ، والآن عندما سمعته منك تذكرته .. وعبير لم تشر إليه كما حدثتني عندما عاتبتها .

ـ هي أكيد تعرف بالمشكلة وتركت الأمر لحازم .

ـ لو أنها ذكرت شيئا لذهبت كل الظنون التي خيمت على عقلي وقلبي .. وماذا ستفعل؟!

ـ سأدبر الأمر، ووضعت الحل بين يدي حازم .. ولما نطمئن على الحاجة جميلة ـ إن شاء الله تعالى ـ نحل مشكلتنا الخاصة ، وهي محلولة بمشيئة الله تعالى .

ـ جزاك الله كل خير أيها الأمير .. لولاك لكنت ...

ـ لا داعي للولاك .. فنحن شيء واحد ، ودينك هو ديني ، وجزاك الله أنت خيرا .. ألم تأتيني بثلاثة أولاد والرابع على الطريق .. ؟

ـ المبلغ كبير!

ـ سعادتنا أهم من المبلغ .. وأنت عاملة عندنا ولا تأخذين راتبا لليوم بل جعلته من الأرباح ..لا تنزعجي ولا تتألمي أحسن أتضايق أنا .. فالمال خلق لقضاء الحاجات وحل المشاكل .

ووصلوا لحي برقوقة ودخلت السيارة الشارع الضيق الذي وصفناه في أول القصة ، فوجدوا سيارة سعد الدين أيضا أمام البيت ، فركن السيارة بجوارها وهبطا منها واتجها إلى بيت المعلم خليل ، فتلقاهم مالك باسما ومعتذرا عن الإزعاج ، ولما دخلوا على الحاجة المسجاة على سريرها حيوها ، وتقدمت منها منى وقبلت يدها ، وكان خليل يجلس على كرسي قريبا من رأسها ، ولما رأى برهان نهض مصافحا ومعانقا له ، ثم سلم برهان على أم زوجته داعيا لها بالعافية والصحة ، ورافعا من روحها المعنوية ، ثم بعدما صافح سعد الدين ، وحيا حنين جلس على كرسي قدمه له المعلم خليل الذي عاد يجلس بالقرب من رأس جميلة التي كانت تهمس بصوت ضعيف تعتذر عن إزعاجها لهم ، وهم يجاملونها ويدعون لها بالخير والسلامة ، ثم خرجوا يجلسون في صالة البيت ، ولما هدأ المكان قال برهان مخاطبا مالكا وسعد الدين : ما دام الدكتور قال ادخلوها المستشفى فلتفعل يا مالك وأنت يا عم خليل

قال مالك: إنها ترفض ، وترى أنها وعكة عابرة .. أمي تنسى السن والضعف البشري، وتقول إنها ستذهب في الصباح للمستشفى ، وتأخذ الصور والتحاليل الطبية المطلوبة وتعود ، لا تريد المبيت بأي مستشفى .. والطبيب يرى أنها تحتاج لإدخال الليلة للمتابعة تحت الأجهزة

فالقلب ضرباته غير منتظمة .. ويضيق النفس عندها كثيرا .. حاول يا برهان ! فقد حاول سعد وحنين منذ دخلا إقناعها بالذهاب وتهز رأسها بالنفي .. ونحن ما زلنا في المساء وعلى وشك دخول الليل حاول يا برهان !

قالت منى وقد خرجت من عند أمها من لحظات فقال برهان : آيا منى .. كيف عمتي ؟!

ـ لا تتكلم .. بعدما خرجتم لزمت الصمت ، وتحرك شفتيها فقط ، وتفتح عينها وتغمضها ، وحنين تقول إن الطبيب طلب إدخالها المستشفى وهي ترفض .

التفت برهان لخليل أحمد وقال : يا أبا أحمد ما رأيك أنت؟!

ـ أنا ؟!

ـ طبعا أنت!

ـ أنا يا ابن أخي لا مانع عندي ، فصحتها غالية عليّ ، كما هي غالية على مالك والبنات وعليكم كلكم .. أتشكون في ذلك؟

ضحك برهان وقال: أيشك أحدنا؟! فكلنا يعرف ما تعني لك العمة جميلة .. ولكن لو أنك أنت ترجيتها أن تفعل ستطيعك .. فلك معزة عندها يا أبا أحمد .

ـ لقد فعلت قبل أن تأتي ولكنها خائفة .

ـ أنت زوجها لو ضغطت عليها بكلامك ستفعل.. أتقصدون مستشفى معينا ؟

قال مالك: الطبيب " عسيب محمد " يعمل في مستشفى (الإيمان) وهو الطبيب الذي تراجعه أمي منذ سنوات إلا إذا كان عندك مستشفى آخر .

ـ أنا سأتحدث معي أخي عبد القادر ، وأسأله عن أفضل مستشفى لمتابعة مشاكل القلب والتنفس .

قال خليل : تكلمه قبل موافقة جميلة .

ضحك برهان وقال : يا عم خليل ! موافقة جميلة قصدي عمتي جميلة عليك أنت .. صح يا سعد ؟!

قال سعد : هذا أقل شيء يقوم به العم أبو أحمد البركة .

قال خليل مستسلما : أمري إلى الله سأحاول مرة أخرى .. عسى أن توافق عندما أنقل لها قرار أولادها وأنسابها .. تعالي أنت يا منى فلنحاول وها هي حنين عندها

فقام برهان وهو يقول : وأنا ذاهب للحديث مع الدكتور عبد القادر .

فقال مالك : أين ستذهب ؟. التلفون موجود هنا .

ـ أنا عارف أنه موجود هنا سأذهب إليه .

اقترب برهان من جهاز الهاتف المركون في إحدى زاوية الحجرة ، واتصل بأخيه الطبيب عبد القادر ، وحدثه بضع دقائق ، ووضع سماعة الهاتف والتفت لمالك وسعد الدين قائلا : يقول أخي عبد القادر إن المستشفى (الإيمان) لا بأس به مقبول وفيه أجهزة حديثة .. قوموا ندخل على العمة لنرى هل يقنع أبو أحمد حرمه بالدخول للمستشفى بضعة أيام ؟! .

لما دخلوا وجدوا الجميع صامتين وبعد السلام قال برهان : مالكم صامتون ؟! .. هل فشل العم أبو أحمد بإقناع زوجته الفاضلة أن تهتم بصحتها وعافيتها وتدخل المستشفى بضعة أيام لمراقبة قلبها الحنون ؟

قالت حنين وهي تمسح دمعة خرجت من بين رموشها : للأسف يا أبا خليل أمي مصرة على البقاء في البيت ، وأن وضعها لا يحتاج لمستشفى .. لا تريد أن تفهم أن القصة هي إجراءات وقائية ومراقبة لمشاكل في القلب بضع ساعات تحت أجهزة عناية دقيقة .. حاول يا برهان !

فرفع برهان من صوته قائلا لتسمع عمته : أخشى أن تكسفني عمتي الطيبة فدعوها على راحتها .. أو لننقل المستشفى للبيت .

فتحت جميلة عينيها المسبلتين من الإرهاق أو النعس وغممت ببضع كلمات تبين فيها أن برهان لا يكسف ولا يرد طلبه ، ففرحوا بذلك الكلام فهتف سعد الدين: ما دام يا خالتي الطيبة أن البرهان هذا لا يكسف ولا يفشل .. ولا يرد فقومي البسي ولنذهب بك للمستشفى حتى نطمئن عليك ، ويطمئن مالك وأم خليل وأم سعدي .. وأولنا الحاج أبو أحمد .. فنحن

سنبقى في قلق وسهر ، وهناك بعد مراقبة ضربات القلب وعضلة القلب فهم أهل الاختصاص سيقررون أن تباتي أو لا تباتي .. فنحن نريد أن نطمئن عليك يا أم ربيع كيف سنعود لبيوتنا وننام؟ ونحن لم نطمئن على صحتك الغالية يا أغلى حماة في العالم .. وأنت تعرفين خوف الأبناء والبنات .. فعندما نعود للبيت ستبقى حنين على خوف وقلق اتصل يا سعد اتصل يا برهان .. وتقول أمي أمي .. سأقوم وأتصل .. آ يا مالك آ يا عمي خليل كيف الحاجة ؟!..سنقضي الليل في إزعاج لكم وسيظل التلفون يرن طول الليل .

قال برهان : والله يا عمتي بعد كلام أبي زكي لم يبق لك حجة .. وهو كلام منطقي يا أم ربيع وإذا اتصلنا بربيع سيضطر لأخذ إجازة .. أنت كنت ترين كم كان يوصينا عليك كلما أراد السفر.. هيا يا عمة يا بركة .

أمام إلحاح الأسرة استسلمت الحجة جميلة لرغبة الجميع ، فدمعت عينيها من التأثر بكلامهم ومشاعرهم ، وركبت سيارة مالك بعدما جهزت للخروج ، وأغلقوا الدار وانطلقوا للمستشفى ، وبعدما تحدث مالك مع الطبيب عسيب الذي قال لهم: سأتحدث مع الإدارة وأنا قادم .

قاموا بإجراء اللازم مع هيئة الاستقبال من تقديم المعلومات الأولية للسيدة جميلة ، ولما وصل الدكتور عسيب المشرف على متابعتها ، قام هو وزملاؤه بإجراء المناسب وتركيب الأجهزة اللازمة .. وجلس الأخوة في قاعة قريبة من الغرفة التي ادخلوا جميلة إليها ، وكان القوم يتحدثون ويهمسون ويلهجون لها بالشفاء ، وبعد زمن خرج لهم الدكتور المختص عسيب وطمأنهم ، وطلب منهم توديع أمهم والعودة لبيوتهم ، ففعلوا وشجعوا الأم على الصبر، ولما خرجوا من الحجرة قال برهان لخليل: ما دام يا أبا أحمد أن الحاجة جميلة البركة سترقد هنا للصباح ما رأيك أن تذهب معي أنا ومنى للمبيت معنا الليلة وتحل علينا ضيفا ؟.. وأنت يا مالك ما تقول ؟

فقال سعد الدين : واحد عندك وواحد عندنا .

فقال مالك : لا أستطيع أيها الأحبة.. فعندي قضايا وملفات في البيت تحتاج لمراجعة .. أما يمكنني بعد اتفاقكم أن أذهب للعشاء عند أحدكم .. أو نتعشى عندك يا سعد ، ويذهب العم خليل مع برهان .. فالعم خليل لن يعرف الليلة النوم .. ولسوف ندعه يزعج برهان ومنى الليلة .. لأنه كل وقت سيقول يا برهان يا منى اتصلوا في جميلة .. اتصل يا برهان في حماتك .

تبسم الجميع لمداعبة مالك وقال خليل : والله صحيح يا ولد ! .. عشرة عمر يا بني .. اقتراح مالك جيد ما رأيك يا أبا خليل ؟ .. خلينا نرى العم خليل .

ضحك الجميع فهم يعرفون حب خليل لسميه ابن برهان ومنى خليل الصغير كما يقولون عنه

فقال أبو خليل : وماذا ستفعل منى بالطعام

الذي صنعته اليوم ولم نأكل منه بعد؟!

قالت حنين : ألم تتغذيا منه ؟! آه يا منى ألم تغذي زوجك اليوم ؟!

ردت منى ضاحكة قائلة : اليوم قد تغذى البطل مع من كان زوجي السابق حازم ناصر!

دهش القوم للخبر وقال مالك : حازم ناصر .. ما الأمر يا برهان ؟!

وقال برهان وكأنه عاتب على منى : نعم .. نعم ، اليوم التقيت به في موضوع .. فأنتم تعلمون أن عملنا المحاسبي يدفعنا للتعامل مع كثير من الشركات والمصانع والمحلات والمتاجر .. ولنا علاقات عامة مع أشخاص .. وحازم ابن صاحب كثير من هذه الشركات ، فالتقينا به في نادي السبع بجعات وقسم الله لنا أن نأكل معا .

فقال مالك : مع حازم زوج منى السابق ؟!

قالت منى : نعم يا مالك مع السيد حازم شخصيا .

تبسمت حنين وقالت : هناك شيء يا أبا خليل ؟!

قال سعد الدين : طال وقوفنا .. تكلم يا برهان .

تكلم برهان بالموضوع صراحة، وكان يتكلم والقوم ينظرون لمنى ، وختم قائلا: هو ليس سرا

□□□

إنما كنت أريد أن أحل الإشكال أنا ومنى ؛ ولكنها يبدو أنها تريد نشره للعائلة .

فقال خليل : وماذا ستفعل يا أبا خليل؟!

ـ اتفقت معه على الحل .. سأذهب يا عمي إلى أصحاب الشركات الدائنين وأعرف مقدار الدين كاملا ، وما دفع منه من قبل منى وحازم ؛ لأنه قبل طلاقهما سددت جزءا منه ، وهو بعدما رجع سدد جزءا آخر خلال هذه السنوات .. وسنرى كم حصة منى من هذا الدين وندفعها إن شاء الله .. والأخ حازم يسدد حصته ونغلق هذا الملف إلى الأبد إن شاء الله .

فقال سعد : لقد ذكرت أنه لا يملك شيئا .. فكيف سيغطي نصيبه ؟!

فأجاب برهان : هو يأخذ راتبا شهريا مقداره كما يقول نصف ألف من أخته عبير مديرة الشركة التي كانت تعمل بها منى عندما تعرفت عليه ، ولكنه يبذرها على لهوه وعبثه .. وسأتفق مع عبير أخته أن تدفعها عنه مرة واحدة لتغلق حسابه وتخصمها من راتبه .. وإذا لم توافق سأذهب به للشركة وأدفع حصة منى أمامه والباقي يدفعه هو بطريقته الخاصة .. المهم نحن نبرئ ذمتنا أمام الله .

قالت حنين وهي منفعلة من موقف برهان : أنت إنسان رائع جدا يا برهان ! .. أخلاقك عالية ومرؤتك كبيرة .. لو أن أحدا غيرك ربما تخلى عن امرأته في مثل هكذا ظرف وأزمة .. لأن المبلغ الذي سيدفعه سيزوجه مرة أخرى .. بارك الله فيك .. ونحن وسعد الدين سنساهم في تسديد المبلغ فمنى حبيبتنا .

أثنى الجميع على شهامة برهان بعد كلمات حنين مم أبكى منى وسقطت دموع بعضهم تأثرا ، وشكر برهان حنينا على كلامها في شخصه ، وأبدى امتنانه لهم جميعا على مشاعرهم واقتراحهم وقال : لا تنسوا يا إخوان أن منى تعمل في مكتبنا موظفة وهي شريكة في الأرباح مثلي ، وإن لم يكن لنا راتب محدد كباقي العاملين .

قال مالك مداعبا ومستفزا لمنى : أي شغل لمنى يا أستاذ برهان ؟

ـ إنها موظفة، ولها حق مالي ، وإن كان وقت دوامها قليل للرضاعة والحمل!

فقالت منى : نعم يا أخوة .. أنا أعرف أن هذا عبء جديد ألقيه على سيدي برهان ، ويمكنني أن أرفض الدفع ولو فلسا واحدا ؛ لأن الدين كله مسجل باسم السيد حازم وفي عنقه ، ولكن علمني برهان أن أضع مخافة الله بين عيني ، وأنا كنت شريكة لذلك الرجل في ذلك القرض وإن لم يكن باسمي .. وزوجي الفاضل والله وعد بتسديده قبل أن يحدثني بشيء ويستشيرني والله ما علمت بتصرفه إلا بعد رجوعه من مقابلة الرجل ونحن سائرون إليكم ؛ لأن مالك اتصل ليخبرنا عن تعب أمي في دخول زوجي الفاضل البيت ، وأنا آسف لكشف الأمر لكم ولكن رأيتها فرصة لتعرفوا بأمر هذا الدين الجديد والذي يضعه برهان في عنقي

فقال برهان : يا ابنة الحلال لا داعي لمثل هذا الكلام ، فنحن شيء واحد وإن كنا جسدين .

فقال مالك : ونحن أهل .. ورضي الله عنك يا أخ برهان .. وقد طال بنا المكث أمام المستشفى وركبوا سياراتهم منطلقين لبيت سعد الدين ، وعنده تناول الجميع عشاء خفيفا وشربوا الشاي وأكلوا الفاكهة وسهروا لقرب نصف الليل ، وكانت منى أثناء السهرة قد تحدثت مع ممرضات المستشفى تسأل عن أمها فطمأنوها على وضعها ، ولما حان الانصراف قالت منى لبرهان : الآن الأولاد قد ناموا .. وشبعوا نوما .

وخرج مالك وخليل وبرهان ومنى عائدين لبيوتهم ، ولكنهم مروا على المستشفى قبل التوجه إليها ، فقيل لهم أن جميلة نائمة ، فأخذ برهان العم خليلا ضيفا عنده ، وانصرف مالك وحيدا للبيت معتذرا لأخته وصهره

وقضى خليل ليلة في بيت زوج بنت امرأته ، وفي الصباح حمله برهان إلى عمله ، ثم عاد للبيت وأخذ زوجته وانطلق بها إلى مكتب العمل ، ولما جلسوا قليلا قامت منى بالاتصال بالمستشفى ثانية ؛ لأنها اتصلت صباحا مبكرا فقيل لها " إنها نائمة بعد أن صلت الفجر"، واطمأنت على أمها بالحديث معها ، ولما اطمأنت عاتبها برهان على كشف أمر الدين فقالت : أنا أعلم بما في قلبك من حب لي ولأهلي ، وأفضالك كثيرة والمجهول منها أكثر من المعروف.. وهذا جميل كبير يا برهان .. ولقد عبرت حنين عن امتناني لك ، كان باستطاعتك التجاهل أو التزوج على

رأي حنين .. فلا تزعل من ذكر هذا الفضل يا أبا خليل .

ـ أنا كنت سأتحدث مع مالك بذلك ، لأعرف هل يحتاج الموضوع لأجراء قانوني أم لا ؟!

ضحكت وقالت : اختصرت عليك الطريق.

تبسم وقال : الأمر ليس سرا .. ولما تعلم أمك بذلك ستقول لمالك ادفع لا يجب أن يدفع زوج أختك كل المبلغ عيب و .. و .. ومالك كما تعلمين لا يقصر بذلك ، ولكنه مقبل على زواج كما تعلمين قريبا .. فالعمارة قد انتهت بفضل الله ، وبعض المستأجرين سكن ، وبعضهم بدأ يعمل ديكورات محلاته وتجارته .. ولنا عليه مبلغ فسيزداد الضغط عليه .. على كل حال طلبت من خليل ليلة أمس أن لا يتحدثوا بالموضوع أمام أمك يا منى .. وسأتحدث مع مالك بذلك ، وأنت حدثي حنين أن تكتم عنها الأمر هي وسعد وألا يفشو هذا الأمر أمام الناس والحاجة جميلة .



كان جابر زوج صبرية أحمد ووالد عدنان المدرس المعروف لكم يجلس أمام بيته على رصيف الشارع ، ومعه زوجه صبرية ، وبعض الجيران يجلسون حوله، ويتحدثون عن الحفلة والدعوة التي أقامها مالك لأهل الحي بمناسبة إنهاء أعمال العمارة الكبيرة بالنسبة إليه ، وامتد إنشاؤها ما يقارب خمس سنوات كما يعلم قرائنا الأفاضل .

وكان الحديث يدور عن وفاء أبناء جميلة للحي ، وعن التوفيق الذي يحيون فيه ، وكان الأكثر منهم معجبا بهم وبمالك على الأخص فقال جابر : والله أولاد جميلة صاروا وصاروا !!

فقالت صبرية: هذا وفق من الله ..الله سبحانه لا يضيع الأيتام .. بس ها المالك لو أنه يتزوج كباقي إخوته .. المسكين لليوم عازب !

قالت امرأة جالسة معهم : سمعت أكثر من مرة جميلة أم ربيع تقول إنه سيتزوج بعد انتهاء

العمارة .. وها هي العمارة قد انتهت!

وأكد ذلك أكثر من رجل حاضر وأكثر من امرأة وقال أحدهم : بل في العمارة شقة له وشقة لأخيه ربيع .. والله إنهم أولاد حلال وبركة وصاروا كما قال زوجك يا صبرية ! .. وحتى أصهارهم ناس طيبون ، فزوج منى أستاذ فهمان وعارف بكل شيء .. وأخذ الناس يكيلون المدح لبرهان وعائلة برهان وأهل برهان ، ثم لحق سعد الدين وأهله شيئا من ذلك المدح والثناء ، وما ساعدوا به مالكا من مواد البناء والإسمنت والدهان والمواسير بأنواعها المختلفة فقالت صبرية: ما هو بفلوس ! .. صحيح هي دين وبطيء السداد كما سمعت من أخي أبي أحمد .

وشرق القوم وغربوا في قيل وقال .. فإذا عدنان وزوجته آتيان نحو بيت الوالدين فقالت امرأة : ها هو الأستاذ عدنان قادم يا صبرية ومعه زوجته ابنة أخت جميلة وأولادهم .

اقتربت عائلة عدنان منهم وألقوا عليهم السلام ، وصافح عدنان الرجال وأمه وصافحت زوجته النساء وعمها جابر، ثم قال عدنان: خير يا ناس.. مالكم مجتمعون على باب الدار .. هل من شيء ؟!

ضحكوا كأنهم استغربوا سؤال عدنان ، وقال أحدهم : كنا عائدين من وليمة ودعوة مالك ربيع .. ورأيناك هناك مثلنا .. فوقفنا هنا على باب داركم نتحدث عن هذه الدنيا وعجايبها!

تبسم عدنان وقال مداعبا الجيران: آ .. تتحدثون عن الطعام وحسنه أم العمارة وآل ربيع ؟!

جابر : عن الجميع .. نتحدث عن العز الذي صار لأولاد ساعد ربيع زوج خالتك يا حليمة .. الذي مات ولم يترك لأولاده شيئا يذكر !

فقال عدنان : ترك لهم الله يا أبي! .. الله لا ينسى عبيده وخلقه فهو الذي يرزق الطير والنمل والسمك .. فكيف هذا الإنسان؟!.. الحق أن أولاد أم ربيع صبروا وتحملوا فظفروا .. وفضل الله يؤتيه من يشاء .. فهم يستحقون كل خير وسعادة ألا تريدون أن تدخلوا البيت يا أمي ؟!

وقبل أن ترد الأم صبرية قالت إحدى النساء : إيش يا أبا رفيق ألا تحب أن تقف معنا ؟!

□□□

ـ أبدا يا أم محمد .. فأنتم بركتنا .

فقالت صبرية : تفضل يا ولدي .. تفضلوا يا نسوان !

فقالت امرأة مستفسرة : شكرا يا أم علي ألا تريد أن تبني لك عمارة يا عدنان مثل أقاربك ؟!

تبسم الشاب وقال : إن شاء الله .. بس أنا اشتريت بيتا وهو من دورين .. ألم تسمعي بذلك؟!

ـ أخبرتنا أمك يا عيني !

ـ ها أنا أخبرتك ، وقد أجرت طابقا ، وأعيش أنا والأولاد في طابق ، وهو يا خالتي في شارع (النعسان) غرب برقوقة .. قريب من بيت المختار الأحمدي أبي عز الدين إذا أحببت زيارتنا .

ـ يا ابني ألف مبارك .. والله يوفقك يا ابني .. هل صحيح يا أبا رفيق أن مالكا سيتزوج بعدما أنهى تشطيب العمارة وأجرها ؟!

ـ طبعا يا خالتي .. مالك شاب ناجح بمعنى الكلمة .. وسيفرح أهل برقوقة بجميع شوارعهم ودورهم بزواج مالك ، وسيكون زواجا مهما يتحدثون عنه إلى الممات .

ضحك البعض بصوت عال ، وبعضهم أبدى دهشته فقال جابر : إيش يا عدنان .. هل سيتزوج مالك ربيع ابنة الحاكم والسلطان ؟!

تبسم عدنان ونظر لزوجته وهي ابنة خالة مالك وقال : علمت أن سيتزوج من ابنة نقيب محامين البلد .

هتف أحدهم : ابنة النقيب مرة واحدة ؟!

ضحك عدنان لسذاجة الناس وقال : مرة واحدة .. مالك محامي مثل أبيها .. قريبا ستسمعون مثل هذا الكلام .. فمالك ابن حيكم سيصل إلى فوق .. ربما ترونه في يوم ما وزيرا !

فقال جابر : والله يا عدنان كلامك ثقيل اليوم !

ـ لا تستغرب يا أبي! .. فمالك خلال هذه السنوات شق طريقه بنجاح رغم أنه لم يبلغ الثلاثين من العمر؛ ولكنه نشيط جدا في النقابة والانتخابات ..وهو متواضع للغاية ، كلكم تعرفونه وتعرفون ذلك عنه.. فرغم نشاطه فما زال يسكن في بيت خليل بيت زوج أمه .. ولكن الذي

أشرت إليه من التوقع ربما يحدث بعد سنوات عشر .. خمس الله أعلم .. لأنه إذا تزوج ابنة النقيب القانوني الكبير "عبد الكريم " سيدفعه لرئاسة النقابة في المستقبل ، فلربما يصبح نائبا للنقيب في السنوات المقبلة ، وبعدها نقيبا ، وهؤلاء كما تعلمون تعرض عليهم الوزارة .

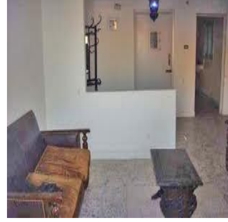
قال أحدهم : والله ممكن ! .. الله على كل شيء قدير .

ـ وأيضا الأخ مالك سيجعل له مكتبا في هذه العمارة .. فقد استأجر مكتبا .

فقالت صبرية بدهشة : استأجر ! .. أليس هو صاحب العمارة ؟!

ـ هي له يا أمي ولكن أخاه ربيعا شريك له ، ودفع كما دفع مالك .

تمتم بعضهم بأنهم فهموا القصد ، ودفع عدنان باب البيت ودخل وتبعته أمه أم علي ، وبدأ الناس ينفضون من أمام البيت وهم يقولون : والله يا جميلة عرفت أن تربي !.. أيتام المعلم خليل ! .. بركات الحداد خليل أبي أحمد .



لم يكد يمضي أسابيع على هذا الكلام الذي تحدث به عدنان أمام بيت والده حتى أعلن في الحي عن خطبة الشاب مالك ربيع على ابنة السيد عبد الكريم نقيب المحامين في المدينة ، وكان مالك قد تعرف على الفتاة قدرا فقد عمل متدربا عند والدها قبل أن يصبح النقيب نقيبا بزمن فأصبح معرفة وصديقا للأستاذ القانوني الكبير في البلد ، ولما تخرج من الكلية الحقوقية عمل في أحد مكاتب الأستاذ عبد الكريم ، فقد كان

للرجل عدة مكاتب منتشرة في المدينة الكبيرة وضواحيها ، والمكتب الذي مارس فيه العمل كان يديره ابن النقيب الذي صار نقيبا فيما بعد ، وأصبح صديقا لابنه نضال ، وتصادف أن تعرف على الفتاة أثناء حفل زواج نضال ، وأعجبت الفتاة الطالبة بعد بالشاب ، وظهر لمالك أنها تعرفه أثناء تردده على بيت أبيها مع نضال أيام الكلية ، ووعده نضال خيرا .. وهي كانت

تدرس الطب في بريطانيا فهي أنهت الثانوية وسافرت لبريطانيا للدراسة في جامعات بريطانيا لأن أخوالها يعيشون منذ زمن في تلك البلاد .. ولما عادت وجدت الشاب ما زال في انتظارها وكان لديه أمل ، وكان الأستاذ عبد الكريم محبا لمالك ويرى له مستقبلا مهما في النقابة لنشاطه الفردي الكبير ، ولنشاطه الواضح في الحزب رغم صغر سنه ، ولقوة كتاباته في الصحف والمجلات العامة والحزبية .. فهو شاب نشط متحرك واجتماعي معروف .. ورغم دخوله الحزب مبكرا منذ التحق بكلية القانون فقليل من سكان برقوقة يدركون هذا النشاط الحزبي .. كانوا يرونه إنسانيا مساعدا متعاطفا مشاركا.. ومكافحا ومحبا لهم جميعهم وابن حيهم الوفي ولم يقصر في مساعدة يستطيع ويقدر عليها ولا يفعلها.. فبعضهم كان يرى أنه جدير بأن يصل لأي مركز في البلد.

المهم لنا أنه بعدما عادت الفتاة الطبيبة من أوروبا وقد حصلت على شهادة كبيرة في الطب وأخذت تستعد للتخصص في أمراض النساء.. وأنهى مالك مشروعه الخاص تم القران المنتظر ، وسعد أهل الحي بهذا القران ، وسعد خليل وأم ربيع بهذا القران ، وذكره بإخوته الذين عندما تزوجوا من بنات الأكابر نسوا أهليهم وحيهم ، فذا مالك يتزوج من ابنة رجل كبير ومعروف في البلد وما زال ابن برقوقة ويسكن عند زوج أمه ولم يستعر ويخزَ من ذلك ، وظل بيت جميلة وخليل أياما في استقبال المهنئين والمادحين ، وكانت منى تقول لبرهان : والله يا برهان أنت تعرف مالكا أكثر منا !

ـ مالك عندما كنت أجلس معه أسمع منه بعض الهمسات ، وبطريقتي التي عرفت بعضها أجمع هذه المعلومات وأصل لحقيقة ما .. هو قديما تكلم معي عن ابنة النقيب قبل أن يصير نقيبا .. عندما كانت تتعلم في كلية الطب وكانت طالبة .. وحدثني يومها عن الأمل الكبير لقوة علاقته بأخيها نضال .. وجاءت الأيام ومضت الأيام .. وأحيانا أسأله فجأة عن العروس مازحا فيقول إنها في بريطانيا ثم يفطن للسؤال ويقول " الله أعلم ، نحن لم نتفق على شيء هو مجرد وعد منها ومن صديقي نضال " .. ولما لم يتحدث عن الزواج خلال هذه السنوات

توقعت وحسبت أن الأمل ما زال لديه .

ـ الحقيقة الفتاة رائعة الحسن وأديبة جدا .. رغم أنها طبيبة متخرجة ومن أوروبا ، وهي ابنة النقيب بالنسبة لنا ولو لم تحمل هذه الشهادات .. وأنا رغم ما حدثتني عنه سابقا حول هذا الزواج يا برهان لم أكن أتصور مالكا يفكر بهذا الطموح ، ويصبر هذا الصبر .. كنت أظن أنني أنا الوحيدة في حي برقوقة أو قل أسرة ربيع لديها طموح في العائلة .

ضحك برهان وقال مداعبا : عادت منى لغرورها القديم !

ـ اضحك ومعك حق في أن تضحك .. كان مالك منزعجا مني قديما .

ـ كان مالك منزعجا منك قبل أن يتعرف على النقيب وعلى ابنته!

ـ أيضا كلامك حق!! .. نسيت أنني تزوجت وهو في الكلية بعد .. اعلم يا عزيزي أني سعيدة بذلك .. ولا تظن أنني أحسد أخي وإن كان يحسد ويغبط .. فأنا أحب أهل الطموح !

ـ مالك هادئ وصبور.. هو أثناء تدريبه في مكتب الأستاذ الكبير عبد الكريم وأثناء الدراسة وبعد الجامعة حدثت الصداقة بينهم ، ويومها كان السيد عبد الكريم من كبار المحامين ومن أقطاب الحزب ، وكما فهمت من مالك فيما بعد أن السيد عبد الكريم يصادق كل من رغب في صداقته شابا كان أم كهلا .. يصادق كل الناس .. ليس مالك خاصة.. وهو رجل شعبي مع أنه قانوني كبير ومعروف في ذاك الوسط .. حصل التعارف بينهم والزمالة في المهنة والنقابة والحزب ، المهم أن الرجل أعجب بأخيك مالك .. ولما أنهى الدراسة شغله في مكتب ابنه نضال ، ونضال زميل لأخيك في الكلية وهو أقدم من مالك بسنة على ما أذكر .. تعمقت صداقتهما لتوافقهما في كثير من الأفكار .. وكان نضال هذا يحب مالكا جدا ويثق به ثقة كبيرة ، واستطاع دمجه وإدخاله في الحزب فقويت الصداقة أكثر.. وكانت الفتاة هناء تتردد على المكتب للقاء أخيها ، وكانت قد دخلت كلية الطب وتأتي في العطل من بريطانيا.. فتعرفت على مالك في تلك الفترة وتعرف عليها .. احذري أن تتخيلي أن قصة حب وغرام حصلت بينهم .. هو مجرد تعارف عابر .. فمالك شاب متدين منذ صغره كما تعلمين ويعرف نفسه جيدا ، وهي ابنة

السيد عبد الكريم الرجل الذي يحترمه ويقدره .. وأخت صديقه نضال .. والفتاة أيضا متدينة وربما أكثر من مالك وتلبس الثوب الإسلامي إذا يحق لنا أن نسمي هذا الاسم .. المهم أن الفتاة أبدت اهتماما بمالك بمعرفة نضال .. ولما تزوج نضال اقتربت المسافة بينهما أكثر وتشجع مالك ساعد ربيع وتحدث مع نضال عن أخته .. فسر الشاب من ذلك ووعده بأن يتحدث معها .. ويوم زفاف نضال حدث لقاء عابر بين الاثنين ووافقت الفتاة على الزواج منه إذا لم يمانع والدها وباقي إخوتها .. وأخبرته أنها تدرس خارج البلد ودراستها طويلة .. فذكر لها ظروفه ومشروعه وأنه سينتظر .. وانتهى الموضوع سنوات وهذا كلام مالك ، وكان أحيانا يسألني : هل تغير رأيها يا برهان بعد عودتها ؟! أنا نضال يطمئنني وأنها تسأله عني وعن أخباري .. وحتى أن بعض أولاد خالها الذين يعيشون في بريطانيا فكروا بالزواج منها فاعتذرت لهم ، وأنها تحب الحياة في بلدها العربي.. كانت الفتاة تريد مالكا .. ولما عادت قبل سنة تقريبا كان مالك يستعد لإنهاء العمارة .. وظهرت الأخبار التي سربتها لكم ، كان مالك قلقا من ناحية أنها ربما لا تريد الزواج منه بعد رجوعها .. فلما شجعه نضال .. وقوت هي بنفسها قلبه صارح والدها بذلك .. فلم يمانع نهائيا بل أثنى على أخيك ورحب به صهرا له ، ويبدو أن نضالا كان قد مهد له عند والديه .. وهذا نتيجته ظهرت اليوم .

كانت منى تسمع وهي تسرح أحيانا ولما صمت برهان قالت : رغم ثرائهم الواضح يا برهان عندهم تواضع كبير .. فقد تعرفت أثناء الحفلة على بعض أخواتها لأن بعض الأخوات الأخريات متزوجات في بريطانيا ..

ـ ونحن تعرفنا على إخوتها الشباب قبل الحفلة ويوم الحفلة ..

ـ المهم أنني لمست فرقا كبيرا بينهم وبين أهل زوجي القديم ، وقلت شتان بين الثرى والثريا ، مع أنهم أصحاب أموال كثيرة وأصحاب شهادات .. مع أنني كانت لديّ فكرة سيئة عن كل الأغنياء ..

تبسم برهان وهو يرد عليها : أنت تعاملت مع طبقة أغنياء غير طبقة هؤلاء الذين تعامل

معهم مالك .. ليس كل الأغنياء انسلخوا من جلدهم وتغربوا وتفرنجوا على رأي بعضهم .. فكل شخص له تجارب شخصية خاصة .

ـ عندي سؤال خجلت أن أسأله لها ولمالك! وهو هل ستسكن في حي برقوقة ؟!

ـ بالتأكيد .. أليس لمالك شقة هناك ؟!



كان أكثر سكان حي برقوقة ينظرون لخطبة مالك نظرة إعجاب وتقدير مع أنه زواج كأي زواج ، والقدر جمع بينهما بين مالك وابنة المحامي الدكتور عبد الكريم ، فحي برقوقة الذي يتردد اسمه كثيرا في سطور هذه القصة لا يذهب بك الظن للوهلة الأولى أنه حي فقراء وعميان وعجزة ، إنما هو حي شعبي أي نهض ابتداء على غير ترتيب وتنظيم إداري مدني ، كان البناء فيه عشوائيا وبدون ترخيص من البلدية والإدارة العامة للعاصمة .

كان كلما قدم فقير من مدن وقرى البلاد المختلفة للعمل في العاصمة أو للعلاج إذا كان مريضا ينصب بيتا أو خيمة في ذلك المكان ، ثم تزايدت العائلات المهاجرة من الأرياف والقرى البعيدة إلى العاصمة ، ولا يستطيعون السكن في الأحياء المنظمة لعجزهم عن دفع الضرائب مقابل الخدمات المقدمة لهم ، فينزلون الحي المذكور ، فكبر الحي وتمدد شيئا فشيئا ، ويبدو أن أول من أقام فيه إنسان اسمه برقوقة أو عائلته تحمل هذا الاسم فاشتهر بذلك ، ولما اهتمت به الدولة والبلدية ظل يحمل هذا الاسم الشائع، ثم دخلت عليه بعد زمن خدمات البنية التحية، ونظمت شوارعه ، وهدمت بعض أبياته لتوسيع وإعادة تنظيم الحي ، فأدخلت عليه خدمات الكهرباء والماء والصرف الصحي والهاتف والبريد ، وتحدثت بنايته وعماراته ، وشوارعه أنيرت بالكهرباء بعدما أنشئت الأعمدة اللازمة ، لقد جرى تطوير الحي ولكنه ظل يحمل اسم الحي الشعبي ، وظلت بعض شوارعه ضيقة إلى حد ما ، وبقيت أكثر عمارته ومبانيه

متلاصقة وتخلو من الحدائق الجانبية ، ومع الأيام ورحيل البعض من العائلات توسعت المباني بالنسبة للذي تمكن من شراء بيتين متجاورين فأكثر ، فمالك عندما قام بإنشاء العمارة التي مر ذكرها قد تمكن من شراء بنايتين قديمتين وهدمهما وأقام العمارة مكانها ، وهكذا كان يفعل غيره إذا تمكن من شراء مبنيين هالكين .. ندخل منزل صبرية زوجة جابر وعندهم عدنان وأولاده وأهله ، وكان جابر يقول مخاطبا عدنان : والله مالك صار وصار يا عدنان ! .. لقد كان في الحفل من رجالات البلد!

قال عدنان باسما لأنه هو الآخر حضر الحفل ورأى ما رآه أبوه : آ .. يا أبي .. حتى زوجته طبيبة في البلد ، وتقول عنها أم رفيق فتاة مؤدبة للغاية ، وتحسن المجاملة ، وكانت فرحة بزواجها من مالك ابن حي برقوقة .. فهي قد درست الطب عند أخوالها في بريطانيا ، وتخصصت في أمراض النساء أو بدأت دراسة هذا التخصص ، ولها أكثر من سنة في البلد وهما يرتبان لهذا الزواج .. فقد كان بينهما معرفة منذ سنوات .

ـ يعني كانوا يحبون بعضهم كما نرى في التمثيليات .

ـ ليس بتلك الصورة .. مالك شاب على خلق طيب كما يعلم الجميع .. والفتاة مثله متدينة ولا تخالط الأجانب .. وقد تعرفوا على بعض صدفة ، وعمره طبعا ما جلس معها في خلوة .. لم يلتق بها في منتزه أو مسرح أو سينما .. هذا كلام فارغ بالتأكيد .. هو كان يعمل عند أبيها قبل أن يراها أثناء فترة التدريب المعروف .. وقبل أن يفتح مكتبه الخاص مع بعض الزملاء .. ولما تخرجت الفتاة من الجامعة الطبية تحدث مع أخيها نضال زميله في المحاماة .. وجرى ما يمكن أن نسميه خطبة ووعد ، ولما عادت من لندن حصل النصيب والقدر .. هذه هي القصة لا حب وعذاب وسوالف .. والفتاة ليست دميمة أو جاهلة بل هي متدينة وتلبس الملابس الشرعية الكاملة !

وأخذت صبرية تكيل لها المدح والثناء واللطف ، وتتحدث عن حسنها وتواضعها وحلاوة كلامها وعلى أدب أخلاق أمها وأخواتها ، وتدعو لمالك بالتوفيق وقالت متحسرة : أما أنا

إخوتي لما تزوجوا بنات الأكابر لم نعد نعرفهم .. لعنة الله عليهم !

وقال جابر: يا أم علي دعينا من إخوتك وأخواتك .. وما هو الحزب الذي يشتغل فيه مالك ابن جميلة ؟

تطلع عدنان في وجه أبيه وقال : الحزب جماعة يهتمون بالسياسة وأوضاع الحاكم والمحكوم ، ويتجمعون على مبادئ معينة ، ويشكلون هيئة تسمى حزبا .. والكلام واسع في ذلك يا أبي .. أهم شغلهم الاهتمام بالحكم والسياسة .. ومالك لما كان في الجامعة التقى ببعض أفراد الحزب لأنهم ينشطون في الجامعات وبين الطلبة ، فنشط ودخل الحزب ، والحزب لا يعطي راتبا بل الأعضاء يدفعون اشتراكات في الغالب يا أبي .. فبعض الشباب الجامعي يستهويه العمل الحزبي للحركة والنشاط وتحقيق الأحلام والهوايات.. والسيد عبد الكريم من كبار رجال الحزب وهؤلاء دعاة للحفاظ على النظام الحاكم والبعد عن التبعية للغرب والدول الكبرى فدخل مالك الحزب أيام الجامعة ، وتعرف على هؤلاء الناس وأصبح منهم ، ولما تخرج ساعدته مهنته للبقاء معهم لنشاطهم في النقابات ودفاعهم عن الحريات وحقوق الضعفاء ، والسعي لتحقيق ما نسميه العدالة الاجتماعية لكل رعايا الدولة .. وله مستقبل إن عاش معهم فربما كما قلت سابقا وعشنا أن نرى ابن حارتنا وزيرا .. فعندما تنشأ حكومة حزبية تحكم البلد تزداد فرصة هؤلاء الشباب في الوصول لكرسي الوزارة .. لأنه لما تشكل حكومة حزبية أو من عدة أحزاب يتوزعون المناصب بحسب اتفاقهم .

فتعجب جابر وقال : والله مالك ممكن أن يصل ! .. فهو ذكي وصبور كما عرفنا من قصة زواجه من بنت النقيب .. فهو يعمل بهدوء وأناة .. والله عظيم يا أولاد ! .. الله أنقذهم بعد أن كادت أختهم منى أن توسخ سمعتهم كما تذكرون .

قالت صبرية : إيه منى اليوم سيدة فاضلة وأم لأربعة عيال .. زوجها ابن حلال استطاع أن يعيد تربيتها من جديد .. فهي تصلي وتلبس مثل أختها حنين .. ولم تعد تدخن منذ تزوجت ذاك الشاب المحترم .. لقد التقيت به أكثر من مرة في بيت أخي خليل .. والله شاب بطل ..

أخي خليل لا يحب في الدنيا أحدا سواه .. وهو قد سمى ابنه على اسم أخي خليل .

فقال جابر : فهو صديق خليل الوحيد في الدنيا .. أنا كنت خائفا على خليل لما يكبر أولاد جميلة !

فقال عدنان : برهان أخ كريم ، وحتى أهله ناس طيبون كرام .. فإخوته كلهم متعلمون فأخوه الأكبر طبيب ، وأنت تعرفه يا أبي أخذتك مرة إليه

ـ أعرف يا ابني .. الدكتور عبد القادر هو طبيب وإنسان أيضا ، ويحترم كل من يأتيه من طرف برهان وحتى أولاد جميلة ، فيهتم بهم ضيافة وعلاج .

فقال عدنان : وله أخ مهندس فتح مصنعا كبيرا للحديد وصهره ، وحتى خالنا خليل التحق بالعمل معهم فيه .. وأي شاب من الحارة أحب العمل فيه يسهل له برهان الالتحاق بالعمل

فقالت صبرية كأنها تسمع ذلك أول مرة : خليل معقول وسكر المصلحة ؟!

ـ لأ .. المحددة مفتوحة ؛ ولكنه يعمل مراقبا ومشرفا على بعض نشاط وخطوط إنتاج المصنع وعماله .

فقال جابر : آ ..سمعنا بذلك .. بل قال لي إنه ساهم بمبلغ في المصنع .

فتبسم عدنان وقال : نعم هو مبلغ زهيد ، وإنما هو من باب المشاركة والتعاون يا أبي .. فالمصنع كلف عشرات الألوف .. ففيه فرن ضخم لصهر الحديد وتحويله لعجينة لإعادة سكبه

قالت صبرية : الله يوفق الجميع .. كل إنسان يأخذ نصيبه في هذه الدنيا .. أولاد جميلة قصة نجاح جميلة في الحي .. أنا أذكرها أيام ترملت المسكينة ، كان حالها مؤلما جدا .. فأهلها لم يستطيعوا تقديم اليسير لها ولأطفالها الأربعة .. حتى أفرجها الله عليهم بزواجها من أخي خليل فتحسنت حالهم قليلا قليلا .. ونياتهم صالحة .. يا عدنان يا ابني هذه العروس التي سيتزوجها مالك ستسكن هنا في حي برقوقة كما يشاع ؟

ـ ولماذا يشاع يا أمي ؟!.. هذه الحقيقة .. ألم يخص مالك نفسه بشقة في العمارة التي بناها هو وأخوه .

ـ بنت عائلات كبيرة .. من بنات القصور والفيلات تعيش هنا !

ـ تعيش يا أمي كما نعيش نحن من عشرات السنين.. المهم أن يقنع الزوجان ببعضهما البعض فمالك لا يستطيع في الوقت الحالي أن يعيش بعيدا عن أمه وزوج أمه .. فليس له إلا هذه الأم والزوج الذي كبرهم وعلمهم وصبر حتى اشتد عودهم .

قال جابر: الصحيح أولاد جميلة أبطال وجدعان ويستحقون كل خير .. ويحبون بعضهم بعضا ومتعاونون مع بعض إلى أقصى درجات التعاون ويعملون يدا واحدة .. ويستحقون كل إعجاب وتحية .. فكل أهل الحي من أوله لآخره يحبونهم ويحترمونهم .. كثير من أبناء الحي لما كبروا ووسع الله عليهم كثيرا رحلوا وأخذوا أهليهم ونسوا الحي .. وحتى بعضهم نسوا أهليهم ..فأولاد جميلة ثبتوا على حبهم لهذا الحي وناس الحي رغم خروجهم منه أيام طلاق أخيك لأمهم عندما حدثت تلك الفتنة .. ولكن الله لطف بهم بظهور ذاك الشاب الكريم في حياتهم .

ـ صح .. متى سنذهب لنبارك لهم يا أبي ويا أمي .

قالت صبرية : أنا باركت لجميلة وخليل .

ـ نريد أن نبارك لمالك نفسه .. الناس لا تنتهي من المباركة لأمه ، فكما قال الوالد أهل الحي يحبونهم .. فتقول أم رفيق أن أهل الحي يوميا يمشون لبيت أم ربيع ونحن نريد أن نبارك لمالك نفسه .

قال جابر: وقتما تشاءون يا أبا رفيق .. فالعادات الحسنة يفضل أن تبقى حية بين الناس .

ـ جيد .. سأكلمه بالهاتف .

وطلب من رفيق أن يحضر له هاتف بيت جده من صالة البيت ، فأحضر

الفتى الهاتف من الصالة وغرزه في موضعه داخل الحجرة التي يجلسون فيها واتصل بمكتب مالك فردت عليه موظفة فقال : مالك موجود ؟!

ـ نعم من يريده ؟!

ـ صاحبه عدنان !

ـ لحظات

أخذ مالك الهاتف ورد على عدنان : آ .. يا أبا رفيق !

ـ كيف حالك ؟

ـ بخير يا عدنان .. كيف أنت وعمتي صبرية ووالدك وأم رفيق ؟

ـ الكل بخير .. والكل يسلم عليك .

ـ أي خدمة يا صديقي المحترم ؟!

ـ نحب أن نراك لنبارك لك بمناسبة عقد القران .

ـ بارك الله فيكم .. أهلا وسهلا مساء اليوم بعد صلاة العشاء سأكون في البيت يا أستاذ عدنان وأحلى عدنان .. وأنا في انتظاركم وبارك الله فيكم .



لم يتغير مالك بسبب هذا الزواج الكبير في نظر الآخرين ، واستقبل زوج صبرية أخت المعلم خليل السيد جابرا وبعض أفراد أسرتهم وابنة خالته التي أتت أيضا بصحبتهم استقبلهم في بيت زوج أمه خليل ، ورحب الجميع بهم ، وشربوا الشاي والقهوة وتمتعوا بالطيبات من الفواكه والحلوى التي لم تنقطع من البيت منذ إشهار الخطبة والقران .. وسهر القوم سهرة ممتعة حتى عقب جابر قائلا : ما شاء يا جميلة يا أم ربيع ! صبرت ونلتي .. مالك بطل لم يتغير به شيئا .. ابنك ابن مبارك

ضحكوا وقال خليل : يا أبا علي مالك يحب أهل برقوقة ، ويحب الحي أكثر مني ، وسيبقى الابن الوفي مهما ارتفع في هذه الدنيا الهالكة ، فكثير من هؤلاء الناس الكبار يعرفهم مالك شخصيا بحكم أنه عضو في هذا الذي يسمونه الحزب .

قال مالك : يا أبا علي الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتقوى ، وكما تعلمون هذه أقدار يقدرها العلي القدير .. يعني لو التقيت بفتاة أخرى خلال هذه السنوات ربما تزوجتها.. فأنا لم اسعَ للزواج من ابنة مسؤول كبير .. ولو رفضتني عندما التقينا أول مرة لربما تزوجت قديما ؛ ولكنها زرعت عندي أمل ، وتحقق هذا الأمل .. وكل هذا بفضل الله تعالى .. لا هو بشطارتي ولا بقوتي .. والحمد لله على أفضاله التي لا تحصى ولا تدرك ولو سكنت في أي أرض سأبقى ابن الحي والأهل والجيران يا أبا علي يا بركة !

قالت صبرية: هل ستسكن هنا يا مالك بعد الزواج ؟!

ضحك مالك وقال: أكيد يا عمتي أكيد .. أمي هنا وزوج أمي هنا .. فأنا معهم حتى المهات وأمد الله بأعمارهم .

فغمغم خليل قائلا : مالك ولد بار بنا يا صبرية .. وأمير!

مالك رد فقال : شكرا لك يا عم! .. أنت بركتنا ولولاك بعد فضل الله لم نكن شيئا .. فالله سخرك لنا .. ونحن مهما فعلنا لك سنبقى مقصرين ، ونحن معا حتى يفرق بيننا ما يفرق بين الأحباب .. سأتزوج في الحي يا أم علي ، وسأسكن في شقتي التي تعرفونها في عمارة الربيع .. ولو رضي العم خليل بالبناء هنا لبنينا طابقين أو حتى ثلاثة لهم واحد ولربيع واحد ولي واحد

فقالت صبرية : ولماذا لا يرضى أبو أحمد ؟!

فقال خليل : هذا عبء كبير على الأولاد .. فالعمارة كلفت يا صبرية .. ويريد أن يكتب البناية إذا بنوها باسمي من أجل أن يأتي أخوتك العاقون خالد ومنير غدا يطلبون ميراثهم .. وعندما نموت يبنون كما يشاءون !

فقال جابر : أصيل يا أبا أحمد ..

قال عدنان : يا خال .. أمد الله في عمرك .. لا أعتقد أن الشباب سيرحلون من برقوقة .. من الميلاد حتى المهات آ يا مالك !

قال مالك : أكيد هذا يا عدنان ! أنا قد عشت كم سنة خارج الحي في حي راق جدا في العمران

والخدمات والنظافة .. كما تعلمون في حي الرحمات ، ولم أكن فيه سعيدا .. آه كم فرحت لما عدنا إلى هنا ! .. ولست متكبرا على غيره من الأحياء والشوارع .. الناس هم الذين يصنعون حلاوة المكان والحي أو تعاسته .. لو كان جيراننا أشقياء وسيئين لربما هجرنا المكان ، وأقنعنا العم خليل بالرحيل ، رغم أن هذا صعب علينا ومؤلم.. ولكن الحمد لله الناس هنا كالأهل .. فالعم أبو أحمد أيضا من الميلاد حتى المات .

قالت صبرية : أبو أحمد لم يولد هنا مثلك !

قال خليل باسما : فعلا أنا لم أولد هنا يا مالك ! .. أنا ولدت في مدينة أخرى .. ثم رحلنا إلى هنا وأنا صغير، كانت أمي ـ رحمها الله ـ بعدما ولدت صبرية قد مرضت ، فجاء أبي إلى هذه المدينة لعلاجها .. ولما طال العلاج وكان يحتاج للتنقل بين المدينتين .. اشترى هذا البيت ، وكان عبارة عن حجرتين من الطين القديم .. واستأجر محددة في شارع الربيع الذي تعرفونه يا أبا علي .. واستمر العلاج لأمي ، ولم تستطع الخلفة بسبب المرض ، فتزوج أبي عليها .. صبرية تذكر ذلك لأنه استمر في علاجها حتى كبرت صبرية ، وصار عمرها قريب من العشر سنوات ، وأنجبت امرأة أبي أربعة من أبي ، ثم هلك أبي وأنا شاب صغير دون العشرين .. فتحملت المسؤولية الكاملة ، وكنت قد تركت المدرسة صغيرا وتعلمت الحدادة من أبي .. ثم ماتت أمي بعد حين بعد زواج صبرية بأيام .. وتكفلت بإخوتي الأربعة الصغار وأمهم ، وربيتهم وتعلموا وهاجروا لأمريكا والبرازيل وغيرها من البلاد ، ولكن قبل هجرتهم وبعدما أنهى منير الجامعة رحلوا وسكنوا في منطقة أخرى قريبة كما ادعوا من مكان عمل خالد ، وكانوا قد أصروا على تعليم البنات في الجامعات وصار بيننا مشاكل بسبب هذه الموضوع.

عبير ناصر

كانت صحف الحزب قد نشرت خبر عقد قران السيد مالك ربيع على الآنسة هناء عبد الكريم الذي كان في تلك الأيام نقيبا لمحامي البلاد ، ومالك نفسه معروف شخصه في الوسط الحزبي قبل ظهور هذا النسب والمصاهرة ، فلذلك كان من الأمر الطبيعي أن تنشر مجلات الحزب وصحيفته اليومية خبر هذا الزواج ، وإن لم يكن مجاملة لمالك فللنقيب نفسه .. وكذلك لكتابات مالك الصحفية ، فهو منذ أيام الجامعة وهو يكتب للصحيفة اليومية للحزب ، وباستمرار للمجلات المختلفة من أسبوعية شهرية نشرات توعية .. فلذلك جاءت صور مختلفة ومشاهد من الحفلة في تلك الصحف .. منها العريس مع حميه أبي عزام النقيب .. صور للعريس مع بعض رجالات الحزب .. وصور لوالد العروس مع شخصيات معروفة وعامة .. فبعد نشر هذه الصور اتصلت ذات صباح عبير ناصر بمكتب السيد برهان وبعد التحية والسلام قالت : يا برهان .. أليس هذا الشاب الذي ظهرت صوره في بعض الصحف نسيبك ؟!

كان برهان يعرف أنها تدرك الجواب ، وإنما للتأكد وللحديث في الموضوع ، فاسم مالك ظهر واضحا في الصحف التي نشرت الخبر والصور .. وعبير رأت مالكا وتعرفت عليه أثناء قضية تسديد دين حازم ومنى ، فقال برهان وهو يستحضر هذه المعلومات : نعم هو يا عبير .. لقد زرناك مرة .. لابد أنك تذكرينه ؟!

ـ هذا هو الذي دفعني للحديث معك .. فصوره والتهاني تلفت النظر .. وخصوصا عندما تكون العروس ابنة النقيب وهو من شخصيات البلد .. إيش القصة ؟!

ضحك برهان وقال : تكلمي بصراحة !

قالت باسمة وغامزة : صعود غريب وسريع فالذي فشلت فيه منى سوف يحققه مالك أخو منى !! .. إنهم يتطلعون لفوق أكثر من اللازم !

استمر برهان في ضحكه وقال : وما الذي يضيرك أو يضيركم ؟

□□□

ـ ثم أنها طبيبة ومتعلمة في لندن .. كيف التموا على بعض ؟!

ـ ألم تذكر الصحف القصة ؟!

ـ لا .. الصحف لا تذكر قصص التعارف يا أبا خليل .

ـ الصداقة يا عبير .. فالأخ مالك صديق للعائلة .. وهو رجل فاضل وخلوق ونشيط في عمله ومهنته .. وهو ابن الحزب أيضا ..

ـ الحزب !! هذا واضح من كثرة التهاني الحزبية .. إنه ابن الحزب ؛ ولكن هذا صعود مبكر!

ـ كيف مبكر؟! له عشر سنوات في الحزب .. والأمور ليست بالسنين إنها بالبروز والنشاط !

ـ اسمع قل بصراحة ألا يوجد قصة حب بينهما ؟ .. ليرضخ النقيب وأسرته لهذا الزواج!

ـ لا ، صدقي ذلك وإلا لأشارت الصحف المعارضة لذلك ، وغمزت في هذا الزواج .

ـ معقول !.. حتى أن بعضها تبارك له شخصيا ، فكثير من زملاء العمل السياسي يهنئونه ويكبرون خطوة النقيب ، ثم يتبعون التهنئة للنقيب بالتهنئة لمالك والعروس الدكتورة .. أكيد زوجتك منى سعيدة من ذلك؟!

ـ أليس العريس أخاها ؟! ولم لا تفرح يا سيدة عبير!

ـ أين سيسكن الفتى ؟!

ضحك برهان وقال : أنت مثل سكان حي برقوقة .. يسألون أين سيسكن ويعيش ابن الحي عند الزواج ؟.. ليس هناك أسرار سيقطن العرسان في حي برقوقة

ـ أوه !!

ـ مالك صعقت وصرخت ؟! .. هذا الشاب سوف ترونه يوما ما على كرسي الوزارة .. وقولي برهان قال! .. أنا أعرف مالكا جيدا وذا قدرات عجيبة في التفكير والإدارة والتخطيط .. فلتة من فلتات الزمان ، وإن يظهر للمتعرف عليه ابتداء أنه ليس كذلك !

ـ شكرا لك! والله يوم عرفتني به كان يوما سعيدا .. عندما يعلم أبي وأعمامي وأخوالي بذلك سيندمون على تطليق مني .

□□□

ضحك برهان ، ولم يغضب منها بالإشارة لزوجته وقال : هذه هي الدنيا يا عبير!

ـ شكرا ثانية أنت شجاع .. خفت أن لا تشبع فضولي .. سأقول لأبي وأنظر ماذا يكون رد فعلهم ؟ .. فأبي له علاقة بالنقيب عبد الكريم قبل أن يصبح نقيبا وقد التقوا كثيرا في حفلات خيرية .. بارك للأخت منى هذا الإنجاز .

ـ ابشري !

لما علم والد حازم من عبير من هو مالك نسيب الدكتور القانوني الكبير والمعروف عبد الكريم أبي عزام ، وأنه شقيق زوجة حازم الأولى والمطلقة دهش وعجب من ذلك ، ولما نظر في الصور التي قدمتها له عبير من بعض المجلات والصحف التفت لزوجته وقال : أرأيت يا فطوم ما تقول عبير؟!

قالت نافرة : عرفت قبل أن تقول عبير .. فبعض النساء تطوعن وقلن لي ذلك!

فالتفت ناصر لعبير وقال : وما أخبار تلك البنت يا عبير؟! .. هل تزوجت أم ما زالت مطلقة عزباء ؟!

ـ تزوجت زميلا لي أعرفه عندما كنت في الجامعة .

ـ زميل لك ، كيف ؟!

ـ بالصدفة عرفت .. شاب أنت تعرفه مدقق حسابات له سمعة طيبة في التدقيق .. الأستاذ برهان محمود .

رفع صوته استغرابا ودهشة وقال : برهان هو الذي تزوج منى ربيع طليقة حازم ..!!

ـ نعم يا أبي .. تعرف عليها أثناء عملها في شركة الثريات والأثاث وتزوجها، وهي سعيدة معه للغاية ، وأنجبت منه لليوم أربعة أطفال أو ثلاثة لا أدري بالضبط

ـ السيد برهان أعرفه والتقيت به عدة مرات في مناسبات مختلفة ، وهو شاب طموح وذكي في المحاسبة ، لقد عرفني عليه بعض الزملاء والعملاء .. هو نفسه زوج منى ربيع ؟!

ـ نعم يا أبي .. وهو الذي أغلق دين منى مع حازم .

هز رأسه وقال : علاقتكم جيدة !

ـ الشغل ، ثم يجر الشغل الأمور الخاصة .. إعلان قرأته في عدة صحف إعلانية تذكرته .. فاتصلت به فوجدته فعلا الزميل الذي درس معي في الجامعة ، ثم التقيت بمنى في مكتبه ذات صباح فظننتها عاملة عنده ؛ فإذا هي زوجته وشريكته في المكتب .

ـ إذن مالك الذي ناسب الأستاذ القانوني عبد الكريم هو شقيق منى ؟!

عبير : أجل يا أبي !

تنهد وقال: إذن هو يعلم أنني والد حازم زوج منى الأول ! نتمنى له التوفيق ونحن انتهى ما بيننا وبين منى ربيع .. أليس كذلك يا فاطمة ؟!

قالت الأم بضيق : بالتأكيد هؤلاء الناس من طينة ونحن من طينة .. اهتمي بعملك يا عبير وابحثي لك عن زوج ، فها أنت قفزت على ثلاثين وليس عندك ولد ولا بيت .

ـ الأبطال الذين يتطلعون إليّ ليسوا من طبقتنا .. أناس مثل برهان ومالك .. أولاد أصحاب الملايين لا ينظرون إليّ .. كم لأبي من الأصدقاء؟ ولك أنت أيضا ومع ذلك لليوم لم تتمكنوا من إيجاد رجل يقبلني زوجة دائمة !

صاحت أمها فيها : أنت خائبة كل أخواتك تزوجن وخلفن .. التهي بشغلك ودعيك من هؤلاء الناس .

كانت كلما تفكر بكلام أمها تتعجب من بغضها الشديد للفقراء أو أبناء الفقراء حتى ولو أصبحوا ميسوري الحال ، وأصبحوا من أهل المال والشهادات والأعمال .. ومع ذلك يبقون عند أمها فقراء .. فتلزم الصمت وتعود للإلتهاء بشغلها والمهمات التي تكلف بها من قبل والدها وشركائه .



وعندما دخل الصيف ورجع ربيع ربيع إلى بلده في إجازته السنوية كالمعتاد تم حفل زفاف

السيد مالك ربيع على كريمة السيد عبد الكريم علي ، وتم الاحتفال في قاعة من قاعات النادي للحزب الكبير، وشارك أناس كثير في هذا الحفل ، فمحبو مالك في برقوقة وغيرها حضروا حفل الزفاف ، وأصدقاء ومحبو النقيب والزملاء أيضا تواجدوا في قاعة الحفل ، وانتقلت الطبيبة هناء عبد الكريم إلى بيت زوجها في عمارة الربيع في شقة مالك في الطابق الثالث من العمارة ، ولقد كان الحفل مشهودا من الصحافة العامة والخاصة ، وكان فرح أهل برقوقة لا يوصف بزواج ابن حيهم من ابنة النقيب وكانوا يرونه زواجا نادرا من وجهة نظرهم .

كانت منى تنظر لأخيها قبل أن تعرف أنه يفكر بالزواج من ابنة النقيب القانوني المعروف في البلاد شرقا وغربا على أنه إنسان يكافح ويبحث عن المستوى الاجتماعي اللائق به ، وهي بلا شك تذكر موقفه الحاد معها ومنها عندما قررت الزواج بحازم .. كان رافضا لهذا الزواج بقوة ولكنه استسلم لقول ربيع وأمه .. وهي كانت لا تعتبر كلامه معها شيئا يستحق الاهتمام والرد والإقناع وأنه مجرد طفل ، وحتى عندما أصبح محاميا كانت ترى أن عمله مجرد وظيفة لتدر عليه دخلا ثم سيتزوج فتاة يلتهي بها كباقي البشر .. وأنه منغلق الفكر ، وربما تشبهه بزوج أمها خليل لحبه لحي برقوقة .. وحتى بعدما تزوجت برهان كان مالك بالنسبة لها الطفل الذي يصغرها بسنوات ، وأنه إنسان ليس لديه طموح رغم كثرة كتاباته للصحف والمجلات ونشاطه الحزبي ؛ لأنها لا تؤمن بالأحزاب وما تنادي به هذه الأحزاب ، وما فكرت مرة بقراءة مقال لأخيها ربما تقرأ عنوان المقال فقط .. فلما سمعت بمشروع زواجه من ابنة أحد كبار المحامين .. تغيرت الصورة النمطية في ذهنها قليلا .. رأى فتاة حسناء وأعجب بها .. وها هو بنى عمارة ليكون له بيت كباقي الشباب .. أما لما عرفت من هي الفتاة وما تحمل من شهادة طبيبة كبيرة ودراسة في الخارج وصبر سنوات على وعد أدركت أن أخاها رجل بمعنى الكلمة وأنه يتطلع للمجد وأنه صبور.. وأن ربيعا الذي جاراها قديما في أحلامها ومغامرتها لا شيء أمام مالك ، وأنها كانت جاهلة أو متجاهلة لقدرات مالك وطموحاته المعقولة .. وعجبت

□□□

من قدرته الكبيرة على إخفاء شخصيته الحقيقية الشخصية القوية عن الناس ، والظهور أمامهم بالشخص البسيط الساذج .. وأخذت تدرك عمق تفكير مالك وسياسته وتفاعله مع الناس وأهمية انضوائه للحزب الكبير أحد أهم أحزاب البلد .. ومع ذلك كان قليل الكلام عن ذلك النشاط والطموح .. وجعل أعماله وأفعاله تدفعه للإمام وتعرف به.. وأن أمامه مستقبل زاهر.. فبرهان يقول "قد يصير وزيرا في يوم ما عن طريق الحزب والنقابة " .. ومع هذا الطموح الموجود لديه كما يقول برهان ، وله هذه القدرات ، ومع ذلك يسكن في حي قديم حي تاريخي.. شوارعه الداخلية ضيقة .. فميله السياسي وحسن خلقه واهتمامه بالناس وقضاياهم يدفعون به للبقاء في حي قديم .. قاعدة شعبية بالمفهوم السياسي .. إذا فكر بالانتخابات ومقاعد البرلمان ستكون قاعدته أهل حي برقوقة أولا .. وكانت تنزعج جدا عندما تسمعه يتحدث مع حنين عن الحكم والمحكوم والحاكم والعدالة الاجتماعية فتعتقد أنه شاب فارغ.. أما هي فكانت تفكر وتحلم بالقصور والمال الكثير والرحلات العالمية والسهرات في أنحاء العالم .. وأما هو فيحلم بتحسين أحوال البلاد ، أحوال الناس ، رفع دخل الفرد في البلاد ، رفع مستوى الخدمات المقدمة للشعب في كل ربوع البلاد .. تحسين حال الضعفاء تحسين الحياة الاجتماعية للجميع رفع مستوى الطبقات الفقيرة

بعد زواج مالك عرفت من هو مالك ؟ فكانت تهمس لبرهان ببعض هذه الأفكار فيقول لها برهان : مالك فارس صادق مع نفسه ومع الآخرين .. وما هو انتهازي .. والحزب يحقق الطموح السياسي للفرد ، فاستفاد سريعا من فرصته عندما دخل الجامعة ، وربما يكون أحسن الاختيار والحزب المناسب لأفكاره وأحلامه .. فهو أحب برقوقة قبل التعرف على الحزب ، ثم أحب أن يصنع لنفسه قاعدة شعبية ، فكما يحب الحي فيريد أن يستثمر هذا الحب لنفسه ولأهل الحي .. فعندما يكبر ويصبح مؤهلا للانتخابات البرلمانية يكون مقبولا من العامة بشخصه وحيويته .. ليس بماله وشراء الأصوات كما هو معروف .. وها هو الحظ خدمه فتعرف على النقيب عبد الكريم ثم أصبح صهرا له ، وهو غير مزور بل واضح وشجاع ..

والفتاة التي تزوجها ليست ساذجة وقليلة الثقافة ؛ بل ربما تكون ثقافتها أكبر من ثقافة مالك أو تعادلها.. وهي قد مالت إليه وتجاوزت كل التقاليد المتبعة عندهم فأعجبت به وبطموحه ، ولم تنظر ماذا كان قديما؟ وهل يليق به أن يناسب عائلتهم الكبيرة والمعروفة ؟ فما دام والدها يجله ، وكذلك صديقه نضال يجله ويراه مناسبا لها ، فلم تتردد ولم تختر عليه من الآخرين .

ـ أنا لم أعرف أخي مالكا إلا عندما خطب ، وأظهر الخطبة على الملأ ، ثم عرفت من هم أهل برقوقة ؟ .. وكم يحبونه ؟! فالحب من الطرفين .. ليس مجرد ساكن بينهم وابن فلانة وفلان .. فعرفت معنى مهتم بقضاياهم ومطالبهم وسعيه معهم والتصاقه الكبير بهم ، أدى كل هذا ذلك اليوم ثماره ، وأن حياته المتواضعة في بيت خليل الحداد أكدت للناس أنه منهم ومثلهم .. أنا الآن قد أكون بدأت أفهم ابن أمي وأبي .

ـ مالك بسيط يا منى .. غير معقد .. يسعى لتحقيق أهدافه ككل إنسان يضع أهدافا نصب عينه لتحلو الحياة ؛ ولكن ببطء وهدوء وحسب الحاجة ، ويمكن أن يعدل ويغير في الأداء .. فمع تحزبه ونشاطه في الحزب فمن النادر أن يطلب من أحد أن يتحزب ، هو يحب نشر الوعي السياسي بين الشباب ، والشاب بنفسه يتجه للحزب المناسب .. هو إذا سنحت له الفرصة ذكر الحزب وأهدافه وأحلامه أمام الحاضرين .. فمن راق له الكلام خصه وتوسع معه في الموضوع ، فيما جرى ويجري في البلد بدون تضخيم وتكبير لموقف الحزب ، عرف الناس الحزب من الأفعال والنتائج .. هو معهم في كل قضية .. في دار البلدية في دار كذا وكذا .. مشكلة في مدرسة جاهز للمساعدة .. طالب عمل مشكلة مع أستاذ أو مديره ، طلبوا منه المساعدة ضحى بوقته وساعد في حل المشكلة أو التخفيف من أضرارها ونتائجها .. امرأة فقيرة تحتاج مساعدة يقوم ويرسلها للجهات المهمة .. وبمعرفته يساعد قدر الإمكان دون مبالغة .. هذه هي حيوية مالك ربيع .. قضايا سيئة يبتعد عنها .

ـ أتعرف كل ذلك عنه من أين ؟!

ـ أنا أُسأل عن ذلك .. عجيب أمرك يا منى ! .. من معاشرته .. من الجلوس معه في جلسات

بعيدة عن النساء .. عن أم منى ومنى وغيرهن .. فمالك يعرف كيف يتكلم ؟ ومتى يتكلم ومن يخاطب ؟ فأمه لا تهمها سياسة واقتصاد ، فلماذا يملأ رأسها ويزعجها بالسياسة والاقتصاد وقضايا وعواصف الوطن ؟! خليل يحب أن يتكلم عن الحدادة ومشاكل الحدادين والسوق والجيران .. فيتحدث معه عن الحدادة والجيران .. فلان مريض يذهبان معا لعيادته والسؤال عنه .. فلان في المستشفى اركب يا عم خمس ..عشر دقائق .. فلان عاوز مساعدة .. يساعده ، ما عنده كبر وتعالي ! ولما يجلس معي ونتحدث بالسياسة يتحدث معي بالسياسة ، ويبين رأي وموقف الحزب في القضية وتعليقهم وتحليلهم .. نتحدث عن الاقتصاد وسوق العمل .. يفعل فهو قارئ جيد للغاية .. يكتب كما تعلمين للصحف الكبيرة مقالات وأفكار وتعليقات جيدة .. صحيفة الحزب يكتب بها باستمرار من أيام الكلية فظهر وبرز اسمه .. الإعلام دعاية للشخص .. مجلات الحزب المتنوعة يكتب فيها أيضا باستمرار ومنذ سنوات .. ها هو يستعد بعد هذا الزواج للماجستير والدكتوراه !

فغرت منى فاها دهشة وقائلة : يريد أن يدرس ثانية ؟!

ـ هكذا تريد منه زوجته هناء .. وهذا ضروري حتى يصبح خبيرا كبيرا في القانون المحلي والدولي .

ـ والفلوس ؟!

ـ العمارة المؤجرة له نصيب فيها .. والمكتب .. والزوجة الطبيبة .

ـ لماذا لم يدرس قديما ؟!

ـ حاول الدراسة فترة ثم انقطع لظروف معينة .

ـ ظروف أي ظروف ؟! لم أسمع بذلك .

ضحك برهان ؛ لأنه يدرك أن منى لم تكن في هذه الفترة تهتم بإخوتها

وقال باسما : أعتقد بناء العمارة .. وأنا عرضت عليه المال يا منى فقال يكفي ما أخذنا منك .. واعلمي أنه دفع ألفين من جيبته في موضوع حازم .

ـ ألفان ! لم تقل لي ذلك ؟!

ـ حلفني أن لا أقول .

ـ ولماذا قلت ؟!

ـ انفعال ولتعلمي ذلك ، وليبق معلوما لديك للزمن ..هذا زمن يا منى أحداثه كثيرة ومتلاحقة .. وسأكفر عن يميني إن شاء الله تعالى .

قالت بتأثر وندم على ماض مازال يعشش في مخيلتها : أنا يا برهان كلما أتذكر صراخ مالك في وجهي واحتجاجه على تصرفاتي تدمع عيناي ، أيام كنت أظن أني عاقلة وعارفة الدنيا وأنها للأغنياء فقط .. أتسكرين يا منى وتحششين؟ ويصرخ في وجهي وهو يهدد بقبضته غضبا ، وأنا أصيح في وجه ابتعد عني لا دخل لك في حياتي وتصرفاتي .. اسكر .. احشش .. اسهر .. ولولا احترامه لأمي وخوفه من حدث لها ، وكذلك خجله من ربيع الأكبر منه كنت أظن أنه سيخنقني ويتخلص مني .. بل كنت أتخيله أو أحلم به يضغط على عنقي ، كنت أخاف وأصاب بالرعب من عصبيته .. ولكن كانت طباعي حادة .. ولما طلقني حازم .. سمعت منه كلاما يمزق ويدمي القلب وأشد من الطلاق كان عليّ " هذا حازم الذي تاجرت فيه " .. كم سمعت منه من الكلام القاسي ؟ .. ماذا استفدت من حازم أفندي ؟! .. سكر .. دخان .. سهر .. رقص .. عودي لأصلك .. انظري إلى حنين الصغيرة التي تفهم أكثر منك ، تعرف من هم أهلها وعاداتهم ؟ .. فأصفه بالغباء والتخلف والرجعية والعقد .. لي أيام وأيام أتذكر مثل هذه المشاهد والصور .. كان يخيل لي أنه يكرهني بشدة ، ويحقد عليّ ويريد الخلاص منى وربما كان أسعد بني آدم عندما عرف أنني تركت الخمر .. كان قلقا عليّ أن أسقط سقوطا مريعا في براثن الفجور والنوادي الليلة ..لأنني أخذت حرية أكثر من اللازم في نظره .

ـ ومع ذلك لم يحاول يوما أن يراقبك .. سلم الأمر لله ولدعاء أمه .. عندما يتكلم عن تلك الأيام يا منى تكاد الدموع تطفر من عينيه .. إنه يتألم عندما يسمع عن سقوط امرأة أو فتاة في مهاوي الشيطان ، وخصوصا إذا كانت عفيفة وشريفة وأهلها كذلك .. وكان يخشى أن لا

تكوني عرفتيني على نفسك جيدا ، قصده على الأشياء التي اكتسبتيها من معاشرة حازم وأصحابه .. فلما عرف أنني أعرف كل شيء كاد لا يصدق أني إنسان عاقل .. وأخذ يعانقني ويبكي ، وسألته مرة ألم تحاول التجسس عليها ؟ .. أتدرين ماذا قال ؟!

مسحت دموعا تساقطت على خديها وقالت : أيام سوداء .. ماذا قال ؟!

ـ قال أخاف .. كنت أخاف يا برهان أن أرى شيئا قبيحا لا أحب أن أنطق به على لساني لهوله فأفقد أعصابي وروحي ، فافعل شيئا لا تحمد عقباه وأنا له كاره .. أو لا أفعل شيئا .. كانت أيام عصيبة مرت في حياتي .. أخاف أن تضيع منى انتقاما من الحياة والفشل .. تضيع كما ضاعت آلاف الفتيات .. ولكن الله سلم وجاء المنقذ الأستاذ برهان محمود .. البطل .



فعلا كان مالك يرغب بالحصول على الشهادات العليا في القانون والمحاماة ، وحاول قديما أن يدرس الماجستير المرحلة التي تسبق الدكتوراه ، ثم انسحب للضغط المالي وانشغاله في بناء العمارة ، وأخذ يفكر بجد بعد زواجه أن يأخذ هذه الشهادات من سوربون فرنسا أو كامبردج بريطانيا إن تيسر له ذلك ، فشهادة الدول الأجنبية خاصة الأوربية الغربية لها قبول لدى العالم ، فالشهادة من بلاد العرب في هذا الزمان قيمتها ضعيفة عالميا داخل البلاد وخارج البلاد ، فترى الذي يحمل شهادة من أوروبا أو أمريكا له احترام وتقديم على غيره ممن يحمل نفس الشهادة ولو من بلده .. فتخلى مالك عن الدراسة أو المحاولة وانشغل بالبناء وانتظار الزواج ، ولما حصل الزواج وفرح بزوجه هناء ، وكانت الفتاة تعلم رغبة مالك تلك من أخيها نضال .. وأنه راغب بالدراسات العليا .. فلم يكد يمضي على زواجها أيام معدودات حتى ذكرته بتلك الرغبة ، وأن أموالها وما تملك من ثروة بين يديه .. فهي قد اشتغلت أثناء حياتها في لندن ، وبعد عودتها ، فهي تملك ثروة جيدة .. فوافق مالك بعد نقاش وحوار وجدال بالتي هي

□□□

أحسن على الدراسة للقانون الدولي العام ، وهي تعمل في مستشفى على تدريب كاف في قسم النسائية والتوليد لتحصل على التخصص ، فراسل بعض الجامعات الأوروبية ، وجاءته عدة موافقات ، ومنها موافقة من إحدى جامعات بريطانيا بمساعدة أخوال هناء .. بقيت مشكلة أمه من سيبقى عندها ؟ صحيح هي عند زوجها ؛ ولكن لها حق كبير أن يبقى على الأقل أحدهم قريبا منها .. فتحدث مع ربيع بذلك الأمر.. فأبدى استعداده للاستقالة والعودة للوطن ، وأن لأمه حقا عليه ، وأن لمالك الحق بالمزيد من العلم، وإنما هي سنوات معدودة ، فهو لم يخرج من البلد إلا في رحلات قصيرة .. وفعلا خلال أسابيع يسيرة كانت العائلة تستقبل ربيع وعائلته وذلك أمام دهشة الجميع ، وتفاجأ الأهل والمحبون بهذه العودة ، ووضح لهم مالك الأمر ، فأكبر الجميع هذه التضحية والإيثار من ربيع نحو أخيه مالك .. واعتذر مالك من أمه وزوج أمه وأختيه وبين لهم وجهة نظره .. فاقتنع الجميع بطموحه وأثنوا على ربيع أبي ساعد خيرا .. وودع الأهل والأحباب مالك ربيع وزوجته هناء عبد الكريم المسافرين لبلاد الإنجليز ، ولم يعترض أحد ، وقال ربيع : نعم ، من حق مالك أن يسافر وأرعى أمي .. فهو قد قام بالواجب وزيادة .

فشكروه على موقفه الشجاع والنبيل وحبه لأخيه ، فهما لا يحبان أن يتركا أمهما وزوجها بدون أحدهما .. فقدر لهم الناس والمعارف هذا الموقف .. وخلال أيام يسيرة كان المهندس ربيع يمسك عملا في إحدى الشركات الكبار .. وساعد في ذلك خبرته خلال هذه السنوات ، وكذلك والد هناء كما أوصاه مالك وابنته هناء ، فقام بالاتصال بمعارفه قبل عودة ربيع ، وكان مالك قد قام بفرش شقة ربيع حسب طلب ربيع ، فلما حضر ربيع صيف هذه السنة عندما تزوج مالك نزل في شقته المفروشة .. فلما رجع كانت الشقة جاهزة للسكن فيها مباشرة .. ولما يريد المولى سبحانه أن يصير أمر ما يسره ولا يرده أحد .. له الأمر من قبل ومن بعد !

بعد سفر مالك كانت منى ربيع تقول لبرهان : الأمور تسير سريعا يا أبا خليل .. إلى بريطانيا

ابن أمي وأبي يرحل !

ـ الله يوفقه فمالك رضى الوالدة .. دائما أسمعها تدعو له وتثني عليه .. والأيام تمضي سريعا قبل هذا القرار العاجل والرحيل العاجل كانت قيادة الحزب تفكر أن تجعله في أكبر هيئة قيادية لنشاطه وكفاءته ولمصاهرته زعيم كبير من رجال الحزب .. فالسيد عبد الكريم من مؤسسي هذا الحزب منذ كان شابا متخرجا من الجامعة حديثا.. ولكنهم لما عرفوا رغبته بالسفر لبريطانيا والدراسة أجلوا القرار .. وأنا عن نفسي معجب بأخيك إعجاب لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وقد يغيب عنا خمس سنوات ، وأنا من الآن أشعر بأنني فقدت جزءا من روحي وبدني .. نعم الأخ والحبيب مالك .

ـ الله يجزيك الخير يا أبا خليل .. ومالك دائما يوصيني عليك ، ويذكرني بك وبطاعتك ، فهو يحبك في الله .. ويفرح عندما يراك في البيت ويهمس في أذني : برهان سيد وملك ! لما أره ينفتح له قلبي ، احذري أن يتضايق منك ولو عن مزح .. فأهمس له : إنه سيدي وأنا أسيرة عنده!.. هو حياتي يا رجل!.. فيفرح ويقول: أنت فعلا أختي وهذا العشم فيك .

فهمس برهان متأثرا : شعور متبادل إن شاء الله ، وأنا أحبكم في الله الذي لا إله إلا هو الفرد الصمد .. أنا يا منى كلما أراك معي وتحدثينني أستغرب عم كان يقال لي عنك. آه ! عندما أتذكر كلام سعد الدين عندما طلب يد أختك وهو يتحدث عنك بخوف ورعب ، وأنت تتحدثين معه بعجرفة وتعالي .. وإنك وإنك .. أتخيل أنك جبار يسعى في الأرض .. ولا رحمة ولا شفقة ..!!

فقالت باسمة : ما أقسى ما حمل عني! .. لا أنكر أنني كنت غبية وعصبية أكثر من اللازم .. كنت أرى أنَّ أفكاري وثقافتي خير الفكر والثقافة .. أنا أتكلم لغة الإنجليز أقرأ ما يكتب بلسانهم .. كان تأثير المدرسين عليّ في الجامعة كبير .. كانوا يغرسون فينا أفكارا سيئة عن التخلف العربي والإسلامي ، ويحدثوننا عن محاسنهم والديمقراطية والحقوق .. فأرى كل تصرف من مالك وأمي وخليل تصرفا عبيطا وغبيا .. وأن الحياة الثروة الكبيرة والمال الكثير

حتى صدمت عند الزواج الأول كيف رفض أهله المتحررين المتغربين دخولي حياتهم ؟! .. فتحديت التقاليد وصممت على الزواج على طريقتي الخاصة .. ولما حدث الطلاق بالصورة التي تعرفها زاد ارتباكي وتشتتي .. وجاء زواج حنين من سعد الدين الجاهل الأمي يومذاك في نظري هدما لكل أفكاري ..

ـ سألته ذات مرة بعد زواجنا عنك فيقول ضاحكا " منى التي عرفتها عندما تقدمت للزواج من حنين غير التي تزوجتك " ونأخذ بالضحك ، وأقول له " صدق أننا التقينا بضع مرات وكل كلامنا كان عن الأثاث وفتح المكتب وشركاء .. لم ندخل في قصة غرام وغسل دماغ " فلا يصدق وربما لليوم لا يصدق .

ـ أنا اعتذرت له عن تلك الساعات المرعبة، وعن موقفي الحاد منه .. وشكرته ألف مرة على فكرته الغريبة التي أنقذتني فعلا من الحيرة ووهم الحرية وعلى اختيارك عريسا لي .. كثيرا ما تسحرنا تلك الأفكار الكبرى والشعارات الواسعة الرنانة .. فنتمسك بها ولا نمحصها .. أنت أمير حياتي يا أبا خليل ! وتستحق الشكر في كل ثانية .. شكرا لله الذي رماك عليّ ..

ـ منى عندي فكرة تراودني منذ زمن وأنا متردد في طرحها عليك !

ـ فكرة ! وما هي الفكرة هذه؟!

ـ الدراسة !

ـ الدراسة ! من يدرس أنا أم أنت ؟!

ـ أنت طبعا .. أفكر أن تدرسين دراسات عليا حتى تحصلين الدكتوراه ، وخلال هذه السنوات سأقوم وبمساعدة إخوتي وإخوتك بإنشاء شركة خاصة لإنشاء وبناء مدرسة خاصة .. ولما تنهين دراستك تكون المدرسة قد جهزت .. فأنت شابة ناضجة .

ـ آه .. كم بغضت التعليم والتدريس يا برهان ؟

ـ الشهادة العليا تعطيك قوة ومركزا في الوسط التعليمي ، وصدقي أن خير قطاع لعمل النساء هو التدريس .. يكون أغلب المجتمع الذي تتعاملين معه من النساء والبنات.. فيكون

هناك العمل بحرية وانطلاق وابتعاد عن تقليد ومراعاة الجنس الآخر .

ـ فلسفة إذن ؟!

ـ فكري بجد .. فأنت ذكية وتقرئين بالإنجليزية وتجيدينها، وهذا شهادة تفتح الأفق أمامك ، وستكون الدراسة أمامك سهلة .. المهم الإرادة الصادقة .. صدقي لو الشهادة العليا تفيدني شخصيا في عملي لسعيت إليها .. فعمل المكتب عندي عال للغاية كما تعلمين ..

وعدته منى بالتفكير وبعدما فكرت وتناقشت بالفكرة مع أختها حنين التي شجعتها لآخر درجة فقالت لها منى : ولماذا لا ندرس معا ؟!

قالت حنين : أحب ذلك ؛ ولكني رضيت بمهمة ربة بيت أكثر من الدراسة .. فأنا أحب الأمومة والبيت ، وربما إذا أنشأتم مدرسة قد اشتغل معكم .. مع أنني لم اشتغل بالتدريس منذ تخرجت .. البيت حياتي وسري ، أنا مشكلتي ـ إذا كانت مشكلة ـ لا أحب العمل خارج البيت .. وحتى أناس يطلبون مني تدريس أبنائهم دروس خصوصية فاعتذر .. ولا تظني أن زوجي يمنعني من العمل والتدريس .. فكل أخواته المتعلمات يشتغلن بشهاداتهن .

فبعد تشجيع حنين لمنى وافقت على فكرة برهان ، وطلبت منه أن تدرس بدون علم أحد إلا هو وحنين حتى ترى نفسها هل تستطيع الدراسة والاستمرار فيها أم لا ؟ .. فبعد نظر قال : لا بأس ؛ ولكن إذا عرف أحد لا تتعاملي مع الموضوع بحساسية .. فهذه سنوات وليس ساعات ، وليعرف الناس ! ثم عندما تندمجين في الدراسة لن تهتمي بالناس وحديث الناس .

سجلت منى للماجستير في إحدى الجامعات المحلية ، وبعد حين يسير سجلت لدراسة تربوية عليا تسمى الدبلوم التربوي لمدة عام واحد .. وكان برهان ينفق عليها بسخاء .. فعمله يدر عليه دخلا جيدا .. بل كان يفكر بتوسيع المكتب قبل أن يقنع منى بالدراسة العليا .. هو يعلم طموحات زوجته الكبيرة وأحلامها الكبيرة وأنها استسلمت لأفكاره وسيطرته عليها .. وأنها تراه ملاكا هبط عليها من السماء .. فما يقوله ويعرضه تقبله وتسلم له تسليما كاملا وإن تناقشا حوله .. فهي ترى أن أفكاره صائبة وملهمة .. فهي اعتبرته الفارس الذي هبط عليها لينقذها

من الضياع والحيرة ، ويحفظ سمعة عائلتها وشرفها من السقوط .. فما أوحى به إليها تنفذه عن رضا وحب ودون تردد .. مع أنها لم تحب وتهوى التدريس يوما مع أنها تحمل بكالوريوس لغة إنجليزية ، وهذا تخصص مقبول في كل المدارس العامة والخاصة .. لم تفكر بالعمل معلمة بل تبغض هذه الوظيفة .. فلما حثها على الدراسة العليا وأنه يفكر بتكوين مدرسة .. أقنعت نفسها بالقبول والرضا بها ، ونفذت رغبته ، إنها كثيرا ما تحاول فهم سيطرة برهان عليها لدرجة أنها لا تقول لا .. فلم تفهم السر ؛ ولكنها كانت سعيدة ، وترى أن زوجها أنجح زوج في العالم .. هي عندما فارقت زوجها الأول وطلقها اعتقدت أن حياتها كامرأة صالحة ونافعة انتهت ، ولا تظن أن رجلا يفكر بها كزوجة وحبيبة .. قد يتزوجها مطلق لتربي له أطفاله أو أرمل لنفس الغاية ، أما أن يتقدم لها رجل بكر لم يتزوج فكان احتمالا ضئيلا .. وإن فكرت بشيء من ذلك فترى أن رجلا عجوزا له عدة نساء يرضى أن يضمها لنسائه عطفا وإحسانا .. فكان الزواج الجيد من جديد في نظرها بعيد المنال .. فالبنات كثير، وربما أكثر من الذكور في المدينة .. فلذلك كان كلام برهان وطلباته أوامر لا تقبل الرد .. ومع ذلك الانقياد التام لم تره زوجا متسلطا أو جشعا أو بخيلا .. إنما تراه يبحث عن سعادتها وسعادة أبنائه الأربعة .. ويعمل من أجلها وأجلهم .. لم يتعامل معها خلال هذه السنوات على أنها مطلقة أو أنه تصدق عليها بهذا الزواج .. وأنه يريد إذلالها وتحقيرها .. إنه يتعامل معها على أنها حبيبة وصديقة وأم أطفاله وأنها امرأة فاضلة .. فحتى الدين الذي سدده عنها لم يقف عنده كثيرا ، وتعهد بسداده قبل أن يشاورها .. فقد دفع الجزء الأكبر منه دون تردد واستبطاء .. إنه دائما يقدم سعادتها على سعادته وإن حياتها كأم لم تكن مرهقة .. تعمل ساعات قليلة ثم تعود لبيتها .. وأمه تقبل حضانتهم أثناء غيابها بكل أريحية وحب مع أن أحفادها كثر فهذه أفعال ومشاعر تأسر الإنسان ..

تقدمت للدراسة المزدوجة بقوة وحذر وترقب أيضا .. فهي لم تفكر بعد تخرجها الجامعي الأول بالدراسة العليا .. كانت تريد المال سريعا .. ولكنها تتذكر الظروف عندما تخرجت

□□□

وأسرعت لسوق العمل من أجل الأسرة ، كان عندها هذا الهم .. فالعم خليل لم يقصر خلال كل هذه السنوات ، الأقربون صمتوا ولم يفعلوا شيئا لهم .. كان خليل الحداد ينفق بدون ضجر وملل ومنة .. عجيب هذا الإنسان .. علم إخوته وقابلوه بالجحود ولم تره يعيب عليهم إلا عندما مرض ذات سنة ، يومها شعر بأن لا أهل له إلا هم أولاد جميلة .. لم تكن أنانية ، هي تعلم حجم الجهاد الذي قدمه خليل زوج أمها لها ولأخوتها .. ومع ذلك لم يأخذ منهم شيئا لحتى اليوم .. وما زال كما تقول أمها يشارك في مصروف ونفقات البيت ولو بشكل رمزي .. إنه إنسان رائع يعادل برهان في الطيبة والشهامة والإيثار.. فلما كانت منى تفكر بخليل تتعجب من بعد أهله عنه ، وهو بهذه الأريحية والطيبة .. فتتسأل لماذا إخوته خالد ومنير لا يتعرفان عليه ؟! .. أليس هو أخاهم ؟ .. صحيح هو أخوهم من جهة الأب فقط ؛ ولكنه الأخ الأكبر لهم ! .. فخليل إنسان طيب ويحب الناس .. ولا يكره ولا يعادي .. هل فقط لأنه اعترض على تعليم أخواته في ذلك الزمان يكرهونه ؟!

غرقت في تفكير عميق في هذه النقطة .. فلم تجد سرا أو شيئا غامضا .. فهو رجل ذو سلوك حسن ، يحترم الآخرين والجيران وإن كان فيه حدة وعصبية لكنها تذهب سريعا .. لم تذكر أنه تشاجر مع جيرانه يوما ما .. فقط مرة تشاجر مع زوج أخته صبرية وتقاطعوا سنوات على أثرها .. فلم تصل إلى معرفة شيء ولسبب مقنع لهذه العداوة بينهم .. فكرت أن تتحدث مع عمها خليل لعله يوضح لها السر .. فكانت أمها تحبذ ألا يتحدث معه أحد بذلك .. فإنه يتضايق .. تذكرت المرة التي مرض فيها وأدخل المستشفى ورقد فيها أسبوعا .. كم كان غضبه عليهم شديدا ؟! وكم كان ممنونا لهم يريد أن يضع الدنيا بين أيديهم ؟! .. إنهم وقفوا معه بأنهم نقلوه للمستشفى وعادوه فيه .. فاعتبر ذلك معروفا كبيرا .. وهذا المعروف يقدم لكل محتاج وجار ..

أقدمت منى على الدراسة بتردد وقلق ، وبعد حين بدأت تتأقلم مع القراءة والمراجعة والاستذكار .. وقف معها برهان بكل جدية وتعاون .. وأخذ هو يدرس فكرة إنشاء مدرسة

بشكل جدي كذلك .

فكان بين أمرين إما البناء أو الاستئجار .. الاستئجار أسهل وأخف ماليا في المرحلة الأولى .. فتشاور مع إخوته أو بعضهم ، فبعضهم شجع وبعضهم توقف وفضل عدم إبداء رأيه.. فهم يحبون التعاون والمشاركة في المشاريع .. فالمهندس عبد الرحيم مكث سنوات وهو يخطط لبناء مصنع المعادن وها هو ينهض على قدميه .

فكانت فكرة بناء مدرسة فكرة مشجعة ولها سوق واعد .. فطلبوا من برهان إعداد دراسة أولية عنها ، وعن الموقع المناسب لها .. وهل تكون للذكور أو الإناث أو مدرستان واحدة للذكور وأخرى للإناث ؟ .. مراحل التدريس .. جميع المراحل أم التدرج .. فأخذ برهان جميع الملاحظات ، وبدأ يفكر بالأمر ويشاور ويناقش مع الأصدقاء ورجال المال .. حتى أن أحدا من أصحاب المال عرض أن يفتح له مدرسة ويكون هو المسؤول عنها .. فاعتذر عن ذلك وهو يقول : أنا أريد أن يكون هذا المشروع خاصا بي يا سيدي .. أنا لا أبحث عن ممول واحد ، وربما أنا لا أعمل في المدرسة إلا مدقق حسابات فقط .. ولكنه وعده إن فشل في تدبير الشركاء أن يستعين به في إقامة المشروع .



□□□

شراء مدرسة

أمضى برهان شهورا يدرس مشروع بناء مدرسة ، وقام بدراسة الأمر .. مدرسة كبيرة أم مدرسة صغيرة جنس واحد أم جنسان .. وذات يوم اتصلت امرأة ببرهان وذكرت له أنها تملك مدرسة صغيرة وترغب ببيعها ، وذكرت له أيضا أنه هنالك إمكانية لتوسيع هذه المدرسة ، فأخذ منها العنوان وذهب للقائها ببيتها وبصحبته زوجته منى .. ولما وصل لبيتها فوجدها تسكن في فيلا كبيرة .. وفتح لهم بواب الفيلا ، ورحب بهم وساقهم لسيدة الفيلا وعاد لبابه .. وجلسوا في الصالون ينتظرونها ، وبعد دقائق أقبلت عليهم امرأة فوق الأربعين هكذا قدرها برهان ، وعليها مسحة كبيرة من الحسن والجمال والاحترام ، وبعد التحية والترحيب قالت : أنا " نازك حاتم " مربية ومعلمة ولي أخ يعرفك يا أخ برهان .

تنحنح برهان بصوت هادئ وقال: تشرفنا .. ومن هو؟! فعملي يا سيدتي الفاضلة يسمح لي بالتعرف على أشخاص كثر .

ـ إنه مراد حاتم !

ـ نعم ، أعرفه حق المعرفة ! صاحب شركة سيارات ، ومعه وكالة مهمة في شارع زرياب .. صح ؟

ـ نعم هو .. يبدو أنك ذكرت أمامه حاجتك لشراء مدرسة ، لتستثمر أموالك فيها .. فتذكرني ؛ لأنني منذ فترة قد قررت بيع مدرستي ، وأن أسافر لأوروبا عند ابني .. فأنا منذ سنة واحدة قد فقدت زوجي وترملت .. وأصبحت في البيت وحيدة ، فدعاني ابني للحياة معه في أوروبا .. فأعطاني مراد رقمك رقم هاتفك لأتصل بك .

قام الزوجان بالتعزية والمواساة والدعاء وقال برهان: أعرف الأخ مراد ، وبارك الله فيك .. فمراد أعرفه معرفة جيدة .. أين هذه المدرسة وكم فصل دراسي فيها ؟

قالت المرأة : ستراها على الطبيعة أنت وزوجتك الأخت منى كما ذكرتم لي .. يا مرحبا بكم .. بعدما نشرب القهوة سنذهب .

ودخلت الخادمة أو الشغالة بصينية عليها ثلاثة فناجين للقهوة ، ورشف الجميع فناجينهم ، وكان برهان يعرفها على نشاطه وعمله بأنه صاحب مكتب تدقيق مالي وحسابات منذ سنوات ثم ركبت المرأة سيارتها ، وانطلقت أمامهم إلى المدرسة التي أنشأها لها زوجها قبل وفاته بسنوات ؛ لتكون هي المسؤولة عنها ومديرة لها .

رحبت نائبة المديرة والمعلمات بالمديرة نازك وضيوفها .. وتفرج برهان ومنى على بناء المدرسة وكانت مدرسة صغيرة تتكون من خمسة فصول دراسة ، فقط أطفال صغار .. ومكاتب إدارة ومكتبة ومختبر وساحة صغيرة .. وتبين لبرهان أنه يمكنه تحديثها وإنشاء طوابق جديدة ومسموح البناء في تلك المنطقة .. ولما عادوا للإدارة شكرها برهان وقال : يوم أو يومان أرد لك خبرا .. فهي صغيرة ولكن كما ذكرت يمكن توسيعها ، وبجوارها أرض خالية لم يبنَ عليها ، ربما تمكنّا أيضا من شرائها .. فنصنع عليها ساحة للعب .. وكم تريدين ثمنا لهذا البناء والترخيص؟

ـ عندما توافق مبدئيا على الشراء سنتفق .. فأنت صديق مراد وأوصاني أخي عليك ، وإذا اشتريتم فهؤلاء العاملات حافظوا عليهن ، فلهن سمعة طيبة عند التلاميذ والأهالي .

ـ أكيد يا سيدتي الفاضلة .. قريبا سأتصل بك ثانية .

ـ آ يا منى لم تتكلمي منذ دخلنا هنا ؟!

تبسمت منى وقالت : لا شيء لديّ يا سيدتي .. لا بأس بها ، كخطوة أولى لنا جيدة يا برهان .

شربوا العصير المثلج ، وشكروا السيدة والمعلمات الأخريات ، وانصرف برهان وزوجته عائدين للمكتب ، وخلال العودة استطلع رأي منى فكررت العبارة التي قالتها في المدرسة .

فقال برهان : ممكن تحديث المدرسة أو هدمها وبنائها من جديد وبتصميم جديد إذا تم الشراء للقطعة المجاورة .. عندما أسمع وأعلم كم تطلب سأحاول تطويرها لمدرسة متوسطة الحجم للإناث ، وربما اجعل المشروع خاصا بنا فقط واعتذر لأخوتي .. فلي قطعة أرض اشتريتها قديما قبل أن نتعرف على منى ، وبعد أن اشتغلت في البنك .. وهي حوالي خمسة دونمات ..

فسأعرضها على أخي المهندس فهو شريكي في المكان له خمسة ولي خمسة .. أو نُكون شركة ونبحث عن بناء آخر ونجعله مدرسة للذكور ، وإذا نجح المشروع نفتح فروعا أخرى في مناطق أخرى في المدينة .. فالتعليم الخاص يحقق نجاحا لدى الناس في هذه الأيام

ـ هذا أفضل من الانفراد الكامل .. فأنتم ما زلتم تتشاركون في المشاريع الضخمة والكبيرة يا أبا خليل .

ـ أعرف هذا .. أنا لا أفكر بالتخلي عن الشراكة مع الإخوة ، لكنّ بعضهم غير متحمس للمشروع لا أريد أن يشاركوا خجلا .. وستحل المشكلة إن شاء الله إذا كان هناك مشكلة .. المهم إذا اشترينا هذه المدرسة ستصبحين مديرة عليها فورا بدلا من المديرة نازك .. وتبقين الكادر كما هو اعتبري نفسك بينهم ضيفة حتى تنتهي الدراسة العليا وتصبحين دكتورة .

ـ رائع هذا !.. أتدرب على الإدارة المدرسية ، وأتعلم كيف التعامل مع المعلمات والأهالي والطلبة الصغار؟

ـ إن شاء الله سنتفق على السعر .. حتى أعرض الأرض للبيع

ـ على بركة الله .

تشاور برهان مع بعض إخوته في أمر المدرسة التي عرضت عليه ، فقال له أخوه الدكتور عبد القادر : ممتاز ! قبل أن نبني مدرسة كبيرة تكون هذه نواة .. أنا أعرف أن التعليم قطاع تجاري واعد والاستثمار فيه جيد ، ولكن الكثير من الناس يدبون عليه .. نحن نساعدك في شراء هذه المدرسة كقرض حسن لك ولأم خليل .. وعلى ضوء تجربتكما ونجاحها نكبر المشروع وننشئ مدرسة فخمة ، ونضم لها هذه المدرسة وندفع لك المبلغ المناسب .

قال المهندس عبد الرحيم : هذا أحسن من الدخول في مشروع كبير ، شراء وإنشاء مباني وشراء باصات وتعاقد مع مدرسين فرأي أبي حسن جيد .. لما تعرف الثمن نقرر كيف سيدفع الدين ؟ ولا داعي لبيع قطعة الأرض اليوم .

وعلق باقي الأخوة وكلهم أبدى استعداده للمساهمة في قرض حسن لأخيهم برهان وزوجته

منى .. وترك بيع الأرض ، ثم تقوم التجربة للمشروع الأكبر في المستقبل .

ولقي هذا الاقتراح هوى وراحة لدى برهان ومنى أيضا .. فهي فرصة لامتلاك مدرسة صغيرة وتدريب منى على إدارتها ، ووافقوا أيضا على دعمه لشراء الأرض المجاورة لها على سبيل القرض الحسن .. فشكرهم برهان الشكر الجزيل وعانقهم فردا فردا معربا عن امتنانه لهم جميعهم ولنسائهم اللواتي شاركن في المشاورة ، ثم قال الوالد : وأنا سأكون معكم في القرض الحسن .. وأنا مستعد للتنازل عنه إذا قبل أبو خليل .

فشكرت منى والد زوجها وأخوته ، وأثنت على تجمعهم وحبهم واتفاقهم ، فشكروها بدورهم ، وهم يرجون لها النجاح التام في إدارة هذه المدرسة .

عندما اتصل برهان بالسيدة نازك وأخبرها بأنه فكر ودرس الموضوع ، وأنه أصبح جاهزا للشراء إذا ناسبه الثمن المعروض ، فدعته لزيارتها في الوقت المناسب له والعاجل بالنسبة لها للحديث حول الثمن ، فلبى الدعوة وساق منى وانطلق إليها ثانية ، وبعد مجاملات طلبت المرأة ثمن الأرض والبناء والرخصة عشرين ألف دينار .. فوافق برهان دون تردد وجدال ، فقد كان يضع ويقدر لهذه المشروع خمسين ألف من الدنانير ، وهو قد دهش من هذا السعر ؛ لأن المدرسة تعتبر في حي من أحياء المدينة الراقية ، وعادة تكون أثمان الأراضي والمباني والإيجارات فيها مرتفعة .. وأمام الدهشة التي أصابته من السعر صمت ولم يفاصل ويساوم ، وخلال أيام كان مكتب صديقه مالك يوقع له عقد البيع والشراء مع السيدة نازك ، حتى أن برهان بعد إتمام الصفقة اتصل بأخيها حاتم وسأله عن سبب بيع أخته للمدرسة بعد أن عرفه بنفسه وأنه اشترى العقار منها ، فقال له حاتم : بارك الله لك يا صديقي ! أختي منذ مات زوجها قد زهدت في الدنيا والعمل .. وهي ليس لها إلا ولد وبنت .. البنت ماتت بحادث منذ سنوات ، وعلى أثر موتها تعب زوجها وقبل سنة لحق بابنته .. وهي قد ورثت ثروة كبيرة عنهما .. وهذه المدرسة قديمة يا صاحبي فباعتها على سعرها القديم ، وهي ستسافر إلى ابنها في أوروبا للحياة عنده بقية العمر .. ومرة أخرى بارك الله لك .

ـ إنها سيدة فاضلة .. شكرا لك .

تم نقل ملكية المدرسة للسيد برهان محمود الذي رفضت شريكته منى أن يكتبها باسمها فتعجب برهان من ذلك .

ورحبت المعلمات بالصديقة منى ، وأبدين الاستعداد التام للتعاون معها كما كن يتعاملن مع أم شريف ، وتعرف برهان وزوجته على السائقين العاملين في المدرسة ، وعلى الحارس ، وعلى خادمة المدرسة ، وطلبوا منهم الاستمرار على ما كانوا عليه ، وأنه لن يحدث أي تغيير حتى نهاية الموسم الدراسي ، ثم تجدد العقود في الإعداد للموسم الدراسي القادم .

وأخذ برهان يسعى لشراء الأرض المجاورة .. لم يقترض برهان من إخوته أي مبلغ ، واستغرب إخوته لزهد المبلغ المدفوع مع أن المدرسة تقع في ضاحية راقية .

وتفاجأ أهل منى بالمشروع الجديد بعدما قصت عليهم منى أنها صارت مديرة مدرسة صغيرة وشاركوها الفرحة والابتهاج ، وأبدى ربيع لصهره برهان المساعدة بأي مبلغ عند شراء الأرض المجاورة .. وكان ربيع ومالك قد سددا دين برهان ، وبقي القليل من دين سعد الدين ووالده .. وكان ربيع يفكر بتركيب المصعد الكهربائي للعمارة الذي أجلوه لحين .

وأرسل مالك تهنئة خاصة لمنى وبرهان، وكان مما قاله في رسالته لمنى "... كنت أحب لك هذه المهنة منذ أول يوم تخرجت فيه من الجامعة ؛ ولكن أقول سبحان الله !! ولله في خلقه شؤون ، وقدر الله وما شاء فعل أيتها الأخت الحبيبة .. وخطوة جيدة وإلى الأمام يا ابنة الكرام ... "

وتلقت تحية واتصال من هناء .. وقد فرحت منى بتعليق مالك الحبيب .. وكانت منى تذهب للمدرسة في الصباح ساعتين من الزمن ، ثم تعود للبيت والاستعداد للذهاب للجامعة .. ثم تفاجأ ربيع والعائلة مرة أخرى بعودة منى للدراسة من جديد ، فأثنى ربيع على زوجها برهان الثناء الجزيل واعتبره عملة نادرة في هذه الأيام .. فمنذ اقترن بمنى لم تشكُ منه يوما ما ولو شكوى بسيطة .. بل كانت تعترف أنها عاجزة عن شكره إلا باللفظ دون الأفعال ، وتود أن

□□□

ترد ولو شيئا من معروفه وكرمه معها ، فتعجب لضعفها وعجزها من تقديم الشكر ورد الجميل له ولزوج أمها خليل .. فهم لا ينقصهم المال والسعادة .. فتدعو لهم بقول " جزاكم الله خيرا "، وكان صاحبنا برهان من أسرة طيبة يعرفون

الأدب والحلال والحرام ، ويعرفون العيب ، وهو رجل ناضج .

خلال شهور تمكن برهان محمود الدين من شراء الأرض المجاورة للمدرسة ، وطفق يتصل بالمهندسين والمصممين لإجراء تصميم مقبول ولائق بتحديث المدرسة الصغيرة .. وهذا لم يكن صعبا على ابن السوق .. وتقرر بدء الإنشاء عند بداية العطلة الصيفية للطلاب.. ورصد الأموال اللازمة كما بينها ووضحها له المهندسون المعماريون والمدنيون .. وأرسل له مالك خمسة آلاف جنيه إسترليني هدية منه لأخته .. وبعدد تردد قبلها برهان على اعتبار أنهم أسرة واحدة ، وسرت منى لتصرف أخيها ولفة ذكية وكريمة ، وعرفت قيمة الأخوة أكثر من ذي قبل رغم ما كان بينهم من جفاء قبل زواجها من برهان ، وهو كما علمنا قد أصبح من ضمن الماضي الذي ذهب مع حازم ناصر .. وفوجئت منى أيضا بمبلغ آخر من مالك أرسله إليها خاصة لما علم بدراستها للماجستير والدبلوم المهني في التربية ، مما دعا برهان أن يتحدث معه بالهاتف ، فأقنعه مالك بقبوله وأن لا يأخذ الموضوع بحساسية ، وأن منى غالية عليه ، وأنه مهما دفع من مال لها فهو يسير، فهي التي ساهمت بدراسته ودراسة حنين مع ربيع أيضا .. وبين له أن يعمل في بريطانيا منذ وطئت قدماه البلاد فأخوال زوجته أصحاب مصالح وأعمال مهمة وكبيرة في البلاد ، فالأموال كثيرة ، وأنه أرسل لحنين مالا وحثها على الدراسة مثل منى ؛ ولكنها تصر على حياة الأم داخل بيتها ، وربة بيت كأمها وأنها سعيدة بأطفالها وزوجها .. وأنه أرسل لها ثمن سيارة والمال قد وصل لربيع .

كان كرم مالك مثيرا للدهشة مع أنه كريم منذ عرفوه ؛ ولكن أموال بريطانيا كثيرة ، وأخوال هناء وفروا لهم العمل فور استقرارهم ، فوجدوا العمل والراحة والدراسة .. بل أحبوا مالكا واستلطفوه وهنئوا هناء على حسن اختيارها ، وأنجبت له المولود الأول هناك وقد سموه

برهان .

فلم علم برهان بذلك سجد لله شكرا ، وزاد حب مالك في قلبه وعلم أكثر صدق ومقدار حب مالك له ، وأما منى فلما سمعت من زوجها الخبر ذرفت الدموع تأثرا بتسمية مالك لمولوده الأول على اسم زوجها .. فقام الزوجان بشراء هدية خاصة وثمينة وإرسالها بطرد بريدي للمولود ، واتصلوا بالهاتف شاكرين ومتأثرين فقال لهم مالك : والله هذا أقل القليل .. فبرهان حبيبنا وأخونا الكبير والفارس الجميل في حياتنا وأسرتنا.

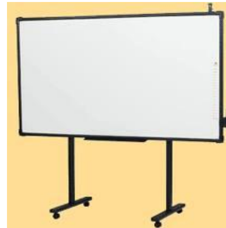
كانت أخبار مالك وتقدمه هناك تفرح أهله ومحبوه ، والكل ينتظر عودته بفارغ الصبر.. وحتى صحف الحزب التي كان معها على اتصال بالمقالات والخواطر والأفكار ذكرت نجاحه وتقدمه في أبحاث الجامعة وهنئوه بالمولود وتمنوا له المزيد من التوفيق والنجاح والعودة لتراب الوطن سالما عالما .

قالت عبير مرة لأمها مناكفة : أرأيت يا أمي نسيبنا السابق .. يدرس في بريطانيا القانون الدولي .. وولدت له امرأته ولدا فسماه برهان تيمنا باسم صاحبه وصديقه وزوج أخته منى ربيع ؟!

فتمتمت الأم بحقد وضيق وقالت : يا عبير! ألم أقل إنني لا أحب سماع اسم هذه المرأة أمامي ؟!

ـ المهم أن الصحف تتحدث عن نشاطه وأخباره هناك ، وهو يعيش في بريطانيا .

ـ وما يعنيننا هذا ؟!



مالك ربيع منذ سافر كما ذكرنا آنفا ظل على اتصال دائم بصحف الحزب وغيرها، ويمدها بأفكاره ومقالاته ومشاهداته في بلاد الإنجليز ، وتنشر له الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية والصحيفة الأسبوعية .. فقد ظل على تواصل مع قرائه ومحبيه ، وكما هو بارع في المحاماة ، وكذلك في الصحافة التي نشط فيها منذ أيام الكلية ، فقد كان خطيبا مفوها في مهرجانات وحفلات الحزب وفي قاعات المحاكم .

وكما يقال غائب بجسمه حاضر بروحه ، ولا ننسى زوجته هناء ، كانت تكتب بين الحين والآخر للصحف المختلفة ، ومنذ الصغر وهي تشارك في الكتابة ، فقد نشرت بعض القصص القصيرة الشائعة في هذا الزمان .. فقد نشرت لها عدة صحف متداولة في البلد قصصها ، بل كانت تكتب لمجلات ثقافية خارج القطر والمصر.. ولديها أيضا محاولات شعرية ، وإن لم تكن بالقوة والبراعة التي في كتابة القصص القصيرة والخواطر والنشرات العلمية .. وقد حاولت كتابة الرواية الرومانسية ولكنها لم توفق .. وكانت تقرأ لكثير من الشعراء ، وكان لها مقال دائم في مجلة طبية يرعاها الحزب ، ولها صداقة قوية مع مديرة التحرير لتلك المجلة ، وحتى لما ذهبت لبريطانيا قبل سنوات ظلت تواصل الكتابة والنشر لمجلتها المفضلة ، وتكتب أحيانا لصحف الحزب الأخرى ، وكانت أثناء الجامعة عضو مهم في الحزب ونشيط بين النساء المثقفات ، فهي معروفة وإن كانت شهرة والدها تغطي عليها وعلى إخوتها العاملين مثلها في الحزب .. فقد كانت تعلق وتنتقد .. وكان والدهم له تأثير كبير عليهم في دفعهم للانخراط في العمل السياسي مبكرين وعاملين ليسوا خاملين .. فنضال شخص مرموق في الحزب لا يقل عن مالك همة ونشاطا وظهورا .. فحياتهم في الغرب الأوروبي لم تمنعهم من الحياة وجدانيا وعاطفيا مع وطنهم وهمومه ومشاكله الكثيرة التي لا تنقضي ولا تنتهي .

ولما تعرف أخوال هناء على مالك زوج بنت أختهم معرفة حقيقية فرحوا به ، وكان أكثرهم فرحا خالها سامي وهو بروفيسور وأكاديمي معروف في إحدى الجامعات الإنجليزية ، وحثه

على البقاء في بريطانيا وأن يسعى للعمل الأكاديمي فيها . وبين له مالك تعلقه الكبر بأهله وببلده وأمه وإخوته .

لقد كانت دراسة مالك في بريطانيا تمشي بكل توفيق من الله تعالى ، وكان يتحرك بين المحاضرات والمحاكم ومكاتب المحاماة ، والمستشفى الذي تشتغل فيه هناء ، وللمزيد من الشهادات الطبية والعلمية ، وقد تعرف مالك على أخوال زوجته المهاجرين منذ عهد بعيد ، وتعرف على كثير من أبنائهم ، وكان يشاركهم في دعواتهم ومناسباتهم ، وسعد جدا عندما وضعت هناء مولودها الأول ، فسماه برهان على اسم زوج أخته السيد برهان محمود ، وكان فرحا به وعق عنه يوم سابعه ، ودعا بعض المعارف وبعض أخوال زوجته وأبنائهم وزوجاتهم وملأ الطفل عليهم البيت صياحا وبكاء وأعطى للحياة مذاقا آخر، وكانت هناء في غاية السرور بهذا المولود رغم مشاق الحمل والولادة ، فهو حياة جديدة ، وأجمل شيء في الكون أن تصبح المرأة أما ، فهنا تكون التضحية والإيثار والسهر والإرضاع بدون مقابل إلا بسمة بريئة تتكون على وجه الرضيع .

وكان مالك فرحا بما يصل إليه من أخبار أخته منى واشتغالها بالتدريس الذي كان يتمناه لها قديما ، فلم يجد ليعبر لها عن حبه لها وفرحه بمشروع شراء المدرسة إلا المال ، فقدم ما تحدثنا عنه ، وأهدى لأخته حنين محاولا العدل والبر مقابل ذلك ثمن سيارة كلف ربيع بشرائها .

ولما أنهى الشاب الماجستير في القانون نزل البلاد في إجازة قصيرة مدة شهر للكرة الثانية والحصول على الدكتوراه كما خطط ورسم .. وأمضى الشهر في أحضان الأم والأهل والأصدقاء والأصهار ، وقبل أن يغادر للندن عرض على أمه والحداد خليل السفر معهم لزيارة بلاد الإنجليز والنظر للبلد التي استعمرت الكثير من البلاد في القرون الخالية .. فوجدت الدعوى قبولا لدى السيد خليل .. وبعد تردد يسير راقت الفكرة لجميلة أم ربيع .. فليس كل حين يلوح للمرء زيارة تلك البلاد ، وقد وعدتهم هناء بإجراء فحوصات طبية لهم في مشافي بريطانيا ذات الشهرة العالمية .. وبالفعل سافر خليل وجميلة إلى بلاد الضباب والبرد

والبلاد التي يقال عن حريتها الواسعة .

ووجدا الود من أقارب هناء ، وامضوا عدة أسابيع ممتعة في بريطانيا ، بلاد الاستعمار والحضارة الإنجليزية .. ولما عادوا لبلدهم كان في استقبالهم في المطار الدولي ربيع أبو ساعد وسعد الدين أبو سعدي وبرهان أبو خليل وزوجاتهم وأولادهم الغلمان .

وقد لمحوا الفرح والسعادة عليهم من هذه الرحلة التي لم تخطر لهم في بال في يوم من الأيام خليل الحداد يدخل بريطانيا بلد تشرتشل ومونتغمري والملكة فيكتوريا وشارل ديكنز .



بريطانيا هي مملكة تسمى" المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية " .. وتتألف هذه المملكة من إنجلترا وويلز وإسكتلندا وإيرلندا الشمالية ، يزيد سكانها على الخمسين مليون .. ومناخ بريطانيا معتدل رغم تعرضه لتقلبات جوية متكررة ..الحرارة لا تتجاوز الثلاثين مئوية ولا تقل عن عشر درجات تحت الصفر .. يوجد فيها ثمانون ميناء بحريا تجاريا ، وأهم مطاراتها مطار هيثرو في لندن ، وأشهر جامعتها " أكسفورد " و " كامبردج " .. وقصر باكنجهام مقر إقامة ملوك وملكات بريطانيا ، لندن هي عاصمة المملكة وعاصمة إنجلترا خاصة ، عملة بريطانيا الجنيه الإسترليني ويقسم إلى مائة بنس ، واللغة الرسمية هي اللغة الإنجليزية .

تزخر العاصمة لندن بالحياة والمباني الأثرية التاريخية ، فهناك متحف لندن الذي يحكي تاريخ هذه المدينة منذ العهود القديمة ، ومن أشهر حدائقها " حديقة هايد بارك " مساحتها ٥٥ هكتارا ، تضم أكثر من ٣٠٠٠ نوع من الأشجار والنباتات البريطانية الغريبة .



كان مالك عندما يجلس مع زوجته تسمعه يكثر من الحديث عن خليل ويثني عليه ، ويذكر ما

قدمه لهم وهم صغار أيتام ، فحينئذ تدرك فضل هذا الحداد عليهم ورعايتهم صغارا .. وترى كيف سخره الله ليكون لهم أب ؟ فوالدهم مات ولم يترك لهم شيئا يذكر ، وأعمامهم تخلوا عنهم لفقرهم هم الآخرون ، فإعالة أسرة عند الفقير لأمر قاس .. والأخوال قدموا النزر اليسير جدا .. فقد كان أولادهم صغارا مثل أولاد جميلة ، ولديهم أسر كثيرة العيال ، ودخلهم المادي ضيق ، فجاء الفرج على يد هذا الحداد ، وقدم الغالي والرخيص دون ابتغاء جزاء منهم .. فأعجبت وأكبرت الفتاة هذا الرجل الذي قدم ولم ينتظر جزاء ولا شكورا ، وكانت تعرف حب مالك لبرهان ، ومع ذلك لما تسأله عن برهان فيقول باسما شاكرا حامدا : برهان !.. هو الذي أعاد لنا حلاوة وجمال الحياة يا هناء .. أنا كنت أعيش في كابوس دائم ، في توتر وقلق على منى لا يعلمه إلا الرب المعبود .. منى كانت قد اختارت طريقا كاد أن يهلكنا لم تحسن اختيار الزوج .. نظرت فقط للمال والثروة التي يملكها والداه .. هذا الكلام عن زوج منى الأول .. وإن كان هذا الزوج مجرد موظف صغير ويحمل لقب نائب المدير .. وكنت أنا صغيرا في أول سنوات الجامعة .. وعندما عرضت هذا الزوج على العائلة حاولت الاعتراض والرفض ؛ ولكن اعتراضي لا قيمة له عند منى يومذاك وضعيفا ، ومنى البكر وعمرها وصل لربع قرن وقد رفضت كثيرا من شباب الحي من أجلي أنا وحنين والعائلة .. مع أن ربيعا أنهى الجامعة بعدها بسنة وشارك في تحمل أعباء العائلة ، والعم خليل ما زال ينفق علينا بسخاء كعادته .. وللأسف كان أخي الأكبر ألعوبة في يدها ويخاف ويخجل ويغير رأيه بسرعة ، وساعدت في تعليمه في السنة الأخيرة مع العم خليل فكان أسيرا لها .. المهم حكمت علينا بأن نخرج من حي برقوقة لإتمام زواجها من ذلك الشاب ، واستأجرت لنا بيتا في حي الرحمات أجمل أحياء العاصمة ، فعلت الكثير للزواج ممن كانت تراه أنه سيضعها على سلم رجال الأعمال والمال .. لقد كانت مبهورة بالحرية التي يتحدث عنها مدرسوها في الجامعة .. فرأت تطبيقها علينا ونسيت واقعنا وأين نعيش ونسكن ؟!.. أهل هذا الشاب الغني بغنى أبيه وأمه حاربوا هذا الزواج بشدة وقوة ؛ لأنه لم يرق لهم ولا يناسب مستواهم الاجتماعي .. لماذا

لليوم لا نعلم ؟! ولكن الشابين أصرا عليه وتزوجا رغم أنف الجميع ، هو رغم أنف أهله ، وهي رغم أنوفنا ، وإن تظاهرنا بالرضا خشية هربها أو تتخطى دور ربيع القائم بمقام الولي والأب .. ورغم طلاق أمنا من خليل .. بالطبع رفض عمي أبو أحمد هذه الطريقة وطلق أمنا ومع ذلك لم تهتم منى وتزوجا .. وتعلمت منه شرب الخمر والدخان والسهر والمجون من رقص وغيره .. المهم فشل وتحطم هذا الزواج بضغط من أسرة الشاب ، فتحطمت منى معه ولم تقبل أي علاج نفسي .. وهرب الزوج لأمريكا مثقلا بالديون والهموم آملا بالثروة في بلد الدولار .. سكنت معنا ولسوء أخلاقها تلك الأيام رفضت أنا وحنين حياتها معنا وهي تشرب الخمر والدخان .. وبعد مشاكل وشجار ولسع كلماتنا ، وأمام تكبرها وتعجرفها وعنادها استأجرت بيتا قريبا منا .. وكانت بعد سفر الزوج المدين والهارب تعمل في معرض أثاث مكتبي وغيره .. آه يا هناء كانت أيام سوداء ومخيفة للرجل الشريف ، ونخشى عليها السقوط والانحدار في الفواحش والملاهي وخاصة لما أعلن طلاقها من أمريكا بواسطة محامي والد الشاب .. ولكن الله سلم ولطف .. كانت مستقلة عنا لها حياتها الخاصة .. حتى تخرجت أنا وحنين .. وكان العم خليل قد تزوج بعد طلاقه لأمنا ؛ ولكنها ماتت بسب علل فيها وانتهاء الأجل المحتوم ، فتدخل ابن أخت خليل الأستاذ عدنان ـ وهو متزوج من ابنة أخت أمي ـ وربيع أخي فتزوج خليل أمنا ثانية ، وعدنا لحي برقوقة الذي أحببناه صغارا وكبارا ، وتزوجت حنين من سعد الدين ونحن في المهجر في حي رحمات .. وظلت منى وحدها في حي الرحمات .

كانت هناء تسمع باهتمام لهذه المعلومات الجديدة ، هي كانت قد سمعت أن منى تزوجت وطلقت ثم تزوجها برهان ؛ ولكنها لم تسمع مثل هذه التفاصيل إلا اليوم ، ولم تسمع عن طلاق جميلة من خليل ثم عودتها إليه ثانية ، فقالت وهي مشدوهة بهذه القصة الإنسانية : أين دور برهان الذي فتح عليك كل هذا الكلام ؟!

ـ أنت أكيد تسألت كثيرا .. لماذا اقترح هذا الزوج تسمية بكره برهان ؟ .. هل فقط لأن زوج

□□□

أخته اسمه برهان وبينهما ود وحب واحترام ؟! .. برهان ظهر دوره بعد زواج حنين من سعد الدين .. كانت منى تريد عرقلة زواج حنين من سعد الدين من شاب غير متعلم في الجامعة ؛ ولكن حنين الطيبة أصرت على الزواج منه عن رضا وقناعة .. وسعد هذا دهش من اعتراض منى الحاد على شخصه ، وأنه طلب الزواج من حنين ليس منها لترفضه .. وجلس معها عدة جلسات فتعقد من أفكارها ومنها أيضا ، وخشي على زواجه منها .. فخطر في باله خاطر غريب يتلخص بأن صاحبه برهان معروف بين الأصدقاء بالمصباح .

ـ المصباح ؟! .. ماذا تعني بالمصباح ؟!

ضحك مالك وقال ضاحكا : نعم المصباح .. أنت رأيت برهان ، فلن أصفه لك .. فمن حسنه ووسامته كانت فتيات الحي المراهقات يطاردنه ويتلقى رسائلهن وإشاراتهن ويتسلى بهن ، الفتى المحبوب .. ولما انتقل للجامعة كانت أيضا فتيات الكلية طبعا اللواتي ما زلن مراهقات يدرن حوله وكل واحدة تحاول صيده ، وأن تحبه أو تعيش معه قصة عاطفية .. القصص المعروفة لديك.. فصار عنده خبرة بالغزل والمشاكسة والجلوس معهن في ساحات الجامعة وغابات الجامعة .. وكان له صديقات أيام المراهقة والثانوية ثم أيام الجامعة ، فشبهه أصحابه بالمصباح الذي تحوم وتدور حوله الفراشات ، تشبيه لطيف إلى حد ما .. فخطر لسعد صهرنا العزيز أن يجرب برهان غزلياته القديمة مع منى ربيع لعلها تهواه وتقع في حبه ويتزوجان .. سعد يريده أن يلعب اللعبة القديمة ، بعد تفكير وتردد رضي برهان بلعب هذا الدور .. وأطلع سعد حنين على هذا الدور والفكرة وبعد الموافقة وإقناع برهان بها سحبا العرض ؛ خشيا على منى أن تتعلق بالشاب ويستنكف عن الزواج بأن لا تروق له منى .. وكان برهان لذلك السن لم يتزوج بعد ولم يخطب .. فلغوا الاتفاق ، وتظاهر برهان بالرضا والاستسلام لرغبتهما .. ولف حول منى التي عرفه سعد عليها قبل إلغاء العرض على شخصها عندما خرجت ذات مساء من مكان عملها .. فتعرف برهان بحيلة ذكية على منى وتصادقا دون أن تقع في هواه كما كان يظن ويرسم .. بل هو الذي أحبها واقتنع بها كزوجة ..

ولكنها لما عرض عليها الزواج منه قبلته ، بعدما اتفقا على أن تترك الخمر قبل حدوث الزواج ففعلت .. وبعدما كتبا كتاب الزواج تخلت عن الدخان لما عرفت أنه لا يدخن .. ثم أخذت تتغير شيئا فشيئا .. والحمد لله عادت للحياة من جديد .. وتخلت عن كل تلك العادات التي اكتسبتها من عملها السابق وزواجها الأول .. كان انقلاب كبير يا هناء ! .. وكانت منى تفعل كل ما يوحي به برهان ولا تقول لا ، ومع ذلك تدعي أنها لا تحبه .. وبعد ولادتها لابنها خليل الذي سماه سميا لزوج أمنا .. أقرت له بالحب .. أما أنا وحنين فقد غمرنا الفرح وعادت إلينا الحياة الضاحكة وشكرنا مولانا عزّ وجل الشرف غالي يا هناء .. سقطة واحدة تخرب الدنيا !
فعلقت هناء التي اندمجت بسماع القصة : هو فعلا بطل .. سمعت اعترافها بحبها الكبير لبرهان منها وأنه أعطاها حياة جديدة .. ولكنها تفاصيل مثيرة يا أبا برهان .. وحنين تحدثت بشيء يسير عن برهان وهي مثلك تراه ملاكا هبط عليكم .. وتقول " نحن فرحنا وسعدنا بزواج برهان ومنى أكثر من منى نفسها " .. مع أن منى شخصية هادئة ومحببة .
ـ أنت عرفتيها بعد زواجها من الفارس الصديق والأخ الكبير برهان .. لو كنت تعرفينها قبل لقائها ببرهان لكنت تندهشين وربما لا تصدقين .. كانت دائما تحب الرفض والمعارضة .. فلو بقيت على ما كانت عليه قبل لقائها ببرهان ، فقد تكون ستعترض على زواجنا ، كانت تعتبر المجلببات فتيات مريضات ومعقدات ومقهورات من الكلام الأجوف والفارغ المعروف عند دعاة الانحلال والفسوق .. كانت بوقا لهم .. فلما صارا زوجين لعمري ما سمعتها تقول له لا وهو ذكي وفطن أيضا لم يدعها تحتاج لهذه الكلمة يوما ما .. فلليوم ما زلت أنا وحنين مستغربين من شخصيتها أمام برهان .. وحتى نسيبنا سعد الدين يقول لي " منى التي عرفتها في رحمات غير منى التي عرفتها في برقوقة "، ولا يقع في خلدك أنه جبار وقاس .. لا .. لا .. إنه إنسان بسيط ، ولا يحب تعقيد الأمور ؛ ولكن له أسلوب ذكي في عرض الأمور ومناقشتها للوصول للنتيجة التي يرغب فيها هو .. ولا يقع في قلبك يا هناء أن الرجل كان زير نساء .. رغم ما حدثتك عنه من مغامراته العاطفية .. إنما كان يراها نوعا من اللهو والتسلية في تلك

الأيام .. أنا أقول ذلك حتى لا يذهب بك الظن إلى خلق سيئ في الرجل .. حتى قبل الزواج من منى كانت بعض عاملات البنك العازبات يحاولن التغرير به .. فلم يكترث ولم يتزوج أي واحدة منهن .. وأقسم لي أنه ما زنى بامرأة قط ، رغم الفرص والفتن التي وقع فيها ولكن الله حفظه ونجاه .. والحافظ هو الله تعالى .

وأخذت هناء تثني على برهان ومنى ، وتدعو الله لهما بالثبات وحسن الختام ، فشكرها بدوره مالك ، وعرفت حينئذ لماذا اختار مالك هذا الاسم لابنه البكر؟ ثم انتقل الحديث بينهما لموضع آخر فقالت : الكتاب .. ماذا فعلت بالكتاب؟!

ـ ذهبت مع ابن خالك محمد إلى دار نشر هنا ، وبعد أيام سيردون عليّ ، وهم يرغبون بترجمة الكتاب إذا وافقوا على النشر .. فما رأيك بأن تترجميه للإنجليزية أنت ؟ إذا كان لديك وقت .. فهم يريدون أن يصدر بطبعتين إنجليزية لتوزع في أوروبا وعربية للشرق العربي وعرب أوروبا .

ـ لي ابنة خال إنجليزية أكثر من الإنجليز سأتشاور معها ونترجمه معا إذا حصل أي تفاهم بينك وبين دار النشر ، ولسوف أتحدث معها قريبا .. فهي مغرمة بالأدب الغربي ، ونشرت العديد من الترجمات لكتب وقصص عربية .. وإنجليزية للعربية .. وأنت تعرفها .. فزوجها طبيب جراح في المستشفى الذي أعمل فيه .. علا ابنة خالي عماد .

تذكرها مالك وزوجها وقال: خيرا إن شاء الله .. اذهبي لزيارتها ، نحن نباشر بالترجمة قبل موافقة دار النشر .. فإذا رفضوا سنعرضه على غيرهم .. قال لي ابن خالك محمد إن دور النشر كثيرة هنا ، ربما يحتاج الإنسان لطبعه كتابه أو ديوانه أن يعرضه على عشرين أو ثلاثين دار نشر حتى تقبله واحدة .. فقلت له لي سنتان أصنف فيه وأكتب فيه منذ سكنت لندن فلسنا بعجلة .

ـ دور النشر كما تعلم عندها أولويات .. أنا قرأته كله كما تعلم ، فالكتاب ممتاز ، فالعلم والحديث عنه مهم فالكتاب يوضح للناس الاهتمام بالعلم ، وكيف كان العلم عند المسلمين إبان حضارتهم التليدة ؟ ومشجعا للشباب المسلم وغير المسلم على مواصلة رسالة العلم .. بل

□□□

قرأت كل المسودات قبل أن تبيضه .. ولسوف يلقى قبولا إن شاء الله عند المثقفين .. وسأدفع بعض الأصدقاء الإنجليز إذا ترجم وطبع للحديث عنه في صحفهم ومجلاتهم

ـ كنت أريد نشره في البلاد ، ولكن صاحبنا زياد نبهني أنه لا يجوز نشر الكتاب في أكثر من دار للنشر إلا بالاتفاق بين الناشرين لحفظ حقوق النشر والتأليف.. فأنا أعرف هذه الإشكالية ؛ ولكن في بلادنا يتساهلون فيها مع أن القوانين تمنعها .. فيمكن نشر المصنف في بلدين دون اتفاق دور النشر .

ـ إذن أنا سأهتم بترجمته مع ابنة خالي ـ إن شاء الله ـ قريبا ، خلال شهر واحد سيكون مترجما الترجمة الأولى ثم تراجع وتكتب على الآلة الكاتبة ثم يصور .. وفي أي لحظة يحصل الاتفاق مع أي دار نشر ستكون ترجمته جاهزة .

ـ وها أنا قد بدأت أضع خطة لكتاب عن الأدب العربي في أول الحضارة الإسلامية وعهد الصحابة الأوائل والأمويين .. وقد نصنف أنا وأنت كتابا مشتركا عن بعض الشعراء نذكر فيه قبسا من حياتهم وقبسا من أشعارهم .. فننشره أولا في الصحافة المهاجرة ثم نحوله لكتاب

ـ إذا وفقت في نشر بعض أعمالك هنا سأحاول أن أفعل مثلك .. فلدي الكثير من الكتابات الأدبية والعلمية .

ـ ما رأيك بأن ننشئ دار نشر ومكتبة كبيرة عندما نعود للبلد ؟

ـ تحتاج لتفرغ يا أبا برهان .

ـ يا سيدتي لن نعمل فيها بأنفسنا .. لعلي أجد من الأحباب من يقوم على إدارتها ، ولي أصحاب عشاق للأدب والذوق الفني والأدبي .. سأكتب لبرهان زوج أختي في هذا الموضوع

□□□

استقالة معلمة

كانت المدرسة التي اشتراها برهان تتكون من خمسة صفوف بين روضة أطفال والتعليم الابتدائي الأساسي ، وهم خليط من الجنسين .. وتم إنشاء عشرة فصول أخرى ، فأصبح بإمكان المدرسة تدريس سنتين قبل المرحلة الأساسية الإلزامية ، ثم الصف الأول والثاني والثالث والرابع فقط .. وبقيت صفوف خالية تستوعب الطلاب كلما تقدموا حتى الصف الرابع الابتدائي .

أبقت منى المعلمات الخمسة العاملات ، وأبقت نائبة المديرة السابقة ، وعينت مجموعة أخرى من صديقات المعلمات العاملات في مدرستها ، وكانت نائب المديرة المعلمة "سلمى خليل " معلمة قديرة وذات علاقة واسعة في المنطقة .. وكانت منى تعتمد عليها اعتمادا كليا.. فكانت تأتي صباحا وتمكث في المدرسة حتى خروج التلاميذ الصغار ذكورا وإناثا للاستراحة ، ثم تنصرف للبيت أو غيره بعد عودتهم للفصول .. فكل اعتمادها كان على السيدة سلمى ، وكانت هذه المعلمة عند حسن ظن برهان ومنى .. وكانت منى تعود للبيت قبل الظهر رغم أن دراستها كلها مساء .. ولكنها أحبت أن تبقى تقوم بدورها في البيت كما كانت في المكتب.. فهي عندها أربعة أطفال .. ثم أنهت الماجستير، وناقشت الرسالة العلمية وحققت النجاح المطلوب ، وكانت قبله قد أنهت بشهور دراسة الدبلوم التربوي ، وقد بذلت جهودا جبارة خلال السنتين الماضيتين ؛ ولكن تمكنها من اللغة الأجنبية تمكنا ممتازا قد ساعدها في تحقيق الإنجاز والنجاح.. فهي قد عملت سنوات في الشركات في قطاع الترجمة فظلت على اتصال باللغة الأجنبية .. وحتى لما نكحت السيد برهان لم تنقطع عن قراءة الأدب الأمريكي والإنجليزي بلغة القوم .. فظلت على تواصل مع تلك اللغة .. فلما أنهت دراسة الماجستير وسجلت للدكتوراه كانت تقضي الأيام التي لا تذهب بها للجامعة كاملة في المدرسة .. ومع ذلك كان اعتمادها كبيرا على سلمى التي كانت تشتغل كأن المدرسة لها، وهي التي كانت علاقتها قوية بالأهالي، ويرسل الناس أبناءهم للمدرسة على سمعتها وشهرتها ..وهي التي

تأتي بمعلمة مكان معلمة انتقلت أو استقالت.. فهي صاحبة الاختصاص، ومنى تقر كل تصرفاتها وتبدي سرورها لهمتها وقدرتها ونشاطها وإخلاصها ، ولم تقصر معها في الجانب المادي والحوافز .. وكان الأهالي أكثر معرفتهم وعلاقتهم خلال السنوات بسلمى أكثر من منى .. فكانت منى تعتبر نفسها ضيفة عليهم وعلى المدرسة ومشرفة تربوية .. كانت المدرسة ناجحة كما تبين لبرهان من تدقيق ومتابعة حسابات المدرسة .. حتى بدأ يتشجع لإنشاء مجموعة مدراس بأن يشكل شركة تعليمية ضخمة ؛ ولكن إخوته طلبوا منه التريث ، فمدرسته ليس لها إلا سنتان ودخلت في الثالثة ، وهي تقع في منطقة أغلب سكانها من ذوي الدخل المرتفع ، والمدارس دعاية وشهرة .. بل طرح عليهم أخوه عبد القادر أن ينشئوا مصنع دواء .. فالدواء له سوق كبير في الداخل والخارج ، وكان ابنه البكر قد تخرج صيدلانيا منذ سنوات ، وهو يستعد لأخذ دكتوراه في الصيدلة .. فوجد عبد القادر تشجيعا من الأخوة ، وطلبوا من الصيدلي محمد الاهتمام بالموضوع فالاستثمار في القطاع الصحي له سوق نشيط هذه الأيام .. فاستسلم برهان لرغبتهم وقال : أنا خلال هذه السنة سأسدد لكم ديونكم إن شاء الله تعالى ، وعندما تنشئون المصنع أنا مستعد لشراء أسهم أم سيكون شركة خاصة مثل مصنع عبد الرحيم ؟

ـ نفكر بأن يكون شركة خاصة كما فعلنا في مصنع الحديد والمعادن .. الأقارب والأصدقاء فحسب .

ـ أنا معكم ؛ ولكني سأستمر في نشاطي بقطاع التعليم ، ربما أستعين بإخوة منى وأشاركهم في بناء مدرستين كبيرتين .

فقال المهندس عبد الرحيم : لا بأس .. افعل ما تشاء .. المهم اعمل مدرسة واحدة كبيرة إما للذكور وإما للإناث .. ونحن في المستقبل إذا رأينا تقدما واضحا ومفيدا للجميع نشارك معكم في تضخيم المشروع .



أخذ برهان موافقة إخوته على مشروعه في إنشاء مدرسة كبيرة ، ويريد الآن شركاء بعدما رفضوا المشاركة في هذه المرحلة أيضا .. فتحدث مع ربيع ومع سعد الدين ابدوا استعدادهم للمشاركة بنسب معينة ، حتى إن مالكا عندما تحدث معه برهان بمشروعه الجديد قال : سأساهم أنا وزوجتي وأولاد حماي عبد الكريم .

فسر برهان من مشاركة الجميع ، وبدأ يخطط لشراء الأرض في المكان المناسب .

ذات صباح بينما المديرة منى تجلس في مكتبها المدرسي تشرب الشاي دخلت عليها مساعدتها سلمى وبعد المجاملات التقليدية قالت لها : المعلمة التي تم تعيينها حديثا منذ أسبوع المعلمة " سلوى فراس" ..

ـ ما بالها ؟ .. هل تريد أن تستقيل ؟

ـ لأ ؛ ولكنها ترغب بالحديث معك في موضوع خاص .

ـ خيرا إن شاء الله .. فلتتفضل .

ـ خاص خاص .. عائليا!

ـ عائلي .. ماذا تقصدين ؟! دعيها تدخل .. أم هي في الفصل ؟

ـ هي فراغ ليس عندها درس .. معلمة الإنجليزية في فصلها .

ـ دعيها تأتي .. أنا مستغرب للموضوع العائلي .. لم أفهم معنى عائلي!!

خرجت سلمى وعادت بعد قليل بالمعلمة سلوى ، رحبت بها منى كعادتها ، وطلبت منها الجلوس ، وطلبت للجميع قهوة من شغالة المدرسة أم أحمد ..

وقالت منى : أهلا بك .. الأخت سلمى تقول إنك تريدينني في موضوع عائلي خاص تفضلي

ـ أنت لم تعرفيني؟! أدركت ذلك منذ تقابلنا من أجل العمل معكم ، وكانت معنا المعلمة الفاضلة سلمى .

ـ أجل .. أنا لم أعرفك ؛ لأنني لا أظن أننا التقينا قبل ذلك اليوم .. أتعرفينني أنت قبل تعارفنا هنا ؟!

ـ نعم .. ألا تعرفين مدام اسمها عبير ناصر ؟

جفلت منى وتململت في مقعدها وقالت : بلى ! وما زلنا أصدقاء .

تفاجأت الأخرى بالجواب وقالت : أصدقاء ؟!

ـ نعم .. أصدقاء .

ـ لم أفهم بعد ؟!

تبسمت أم خليل وقالت : أنت عرفيني على نفسك ، وسوف أعرفك ما تجهلين أو ما أربكك ؟!

ردت سلوى : أنا ابنة خالة عبير!

رددت منى : ابنة خالة عبير ناصر مديرة شركة التجارة العالمية !

ـ آ .

ـ يا أهلا وسهلا بك .. أنا لا أعرفك حقا إلا لما انتسبت لمدرستنا هذه .. وأنا وعبير رغم ما جرى بيني وبين أخيها ما زلنا أصدقاء .. ولابد أنك تعرفين ما جرى بيني وبين السيد حازم .

ـ أجل يا عزيزتي .. أنا لما رأيتك في المقابلة عرفتك .. أنا معلمة متقاعدة ، كما ذكرت لكم سابقا .. ونحن أثرياء طبعا والعمل هنا للتسلية ولحبي للتعليم .

لم تتكلم منى ، وتابعت سلوى الكلام قائلة : أنا جد فخورة بك يا أخت منى رغم ما سببه ابن خالتي لك من تعاسة ، وهذا أمر مضى منذ سنوات .. فأنا أعرفك عندما كنت تعملين في الشركة مع عبير وحازم .. وذلك عندما كنت أمر على عبير في حاجة ما .. فرأيتك أكثر من مرة ، وربما ألقيت عليك التحية ، فكانت عبير لا تحب لنا الجلوس مع العاملات معها .. وهي أيامها كانت غاضبة ناقمة عليك على ما أذكر لمَ كان بينك وبين أخيها حازم .. فلما رأيتك يوم المقابلة التي رتبتها الأخت سلمى تذكرتك جيدا ، وسامحيني بأن ذكرت للأخت سلمى بعضا من قصتك .

نظرت منى لسلمى وقالت : سلمى أخت عزيزة .. وها أنا أتكلم أمامها ، ولم أطلب منها أن

تتركنا .. هذا ليس سرا .. هذا فعل حدث ومضى ، وعشرات من الناس يعرفونه .. ولست أول امرأة تتزوج وتفشل في زواجها ، ثم توفق بفضل الله في زواج آخر .. أليس كذلك يا أخت سلمى ؟!

ـ طبعا .. أنت سيدة رائعة يا منى ! وتفرضين احترامك على الآخرين .. فأنا لا أذكر أنني سمعتك ترفعين صوتك عليّ أو على أيّ معلمة .. وهذا الأمر الذي أحبت أن تكشفه لك الأخت سلوى يا أم خليل ..

فقالت المرأة : ذكرت أنك صديقة لعبير ابنة خالتي كيف ذلك ؟!

ضحكت منى وقالت : هذا ما أربكك إذن .. نعم نحن أصدقاء رغم ما جرى .. وقد التقينا أكثر من مرة بعد طلاقي من أخيها .. ولها شغل خاص مع مكتب زوجي برهان .. زوجي له شركة تدقيق محاسبي ، وله تعاملات مع عبير وبعض أقاربكم أيضا .. بس للأسف لا أعرف أحدا منكم إلا عبير .. وزوجي صديق لها منذ أيام الجامعة .. عندما كانا يدرسان معا .. الزواج حظ يا أخت سلوى ، فإذا الإنسان لم يوفق في جانب ، ربما يوفق في آخر .. فمرحبا بك يا أخت سلوى ، فأنت عزيزة وصديقة أيضا .. بس الذي أرغب أن أعرفه لليوم يا أخت سلوى ! هو لماذا خالتك أم حازم كانت تكرهني وتبغضني؟! مع أنني لم أرها يوما ما ، وهي لم ترني على ما أعتقد .. زوج خالتك رأيته في الشركة عدة مرات .. ولم يحدث بيننا كلام سوى التحية والسلام !

ـ ونحن صدقيني لا ندري .. نحن تفاجئنا يومذاك من رفضهم الزواج منك ، ولم نعرف السبب .. وقد تعجبين إذا قلت إن خالتي هي سبب الرفض الرئيسي .. وحتى منعتنا من المشاركة في العرس !

ـ على كل أشكرك ، وإذا عرفت في يوم من الأيام هذا السر الغريب وسبب الرفض فخبريني به فأنا أحب أن أسمعه .

ـ وأحب أن أذكر لك أيتها الأخت الفاضلة .. أن زوجك السابق الأخ حازم هو زوج أختي

ولها بنت طفلة تدرس هنا .. وربما درس بعض أولاده هنا قبل استلامك لأدارتها .

ـ صدقي أيتها الأخت المحترمة .. أنني لا أعرف آباء هؤلاء الأطفال .. ربما القليل .. فالعبء الكبير حقيقة واقع على كتف أو أكتاف الفاضلة ـ وكانت تشير لسلمى ـ سلمى جزاها الله كل خير .. وهذا أمر عادي يا سلوى .. واعلمي حتى بعد طلاقنا وزواج كل منا ، رفضت خالتك وزوجها تسديد دين كان علينا أيام زواجنا ، وكان مقداره حوالي خمسة وعشرين ألف دينار .. فاتصل بنا حازم وقابله زوجي برهان وتفاهما على تسديد الدين ، ودفعت عبير حصة حازم على أن تخصمها من راتبه الذي تعطيه إياه الذي ينفقه حيث تعلمين فغضت تلك المرأة من طرفها وتابعت منى قائلة : وسدد زوجي العزيز برهان النصف الثاني وانتهى الأمر بفضل الله .. وكما قالت أختي الصغرى كان باستطاعته طلاقي والزواج بالمبلغ الذي سدده عني .. فليس كل الناس واحد .. ولكن كما قلت لك قبل لحظات .. أنا بشوق لأعرف لماذا خالتك تبغضني وتكرهني بشدة ؟! وعداوة وحقد لماذا ؟!

ـ تأكدي يا أم خليل إذا عرفت شيئا سأحدثك به .. فأنت سيدة رائعة كما قالت الأخت سلمى ، استمعت الكلام بأريحية وراحة كنت لا أتوقعها منك .. فنحن صحيح أقارب ولكن لكل منا حدوده ، واعلمي بأنني سعيد جدا بالعمل معكم ، وأنا تعجبني مثابرتك ومكافحتك وجهادك للوصول إلى هذه الدرجة من العلم

ـ شكرا .. وأنا سعيد بما أسمع من ثنائك .

خرجت المعلمتان من غرفة المديرة منى ربيع التي نهضت تنظر لصورة ومنظر معلق على جدار الحجرة وتقول : أخت زوجة حازم ! .. وابنة أختها تلميذة هنا .

وبعد أيام يسيرة من هذه المقابلة ، استقالت السيدة سلوى من المدرسة التي مديرتها منى ، وتم سحب الطفلة (سهى) من المدرسة ، فلما تسألت سلمى أمام منى عما حدث قالت لها : الأمر هين يا سلمى!.. الأخت الكريمة سلوى تحدثت أمام أمها عني عن منى ربيع وأمها حدثت أختها أم زوجي الأول جدة الطفلة سهى ، فكان القرار الصارم بأن تترك المعلمة سلوى

المدرسة بأي حجة من الحجج .. لا أدري يا أخت سلمى منذ سنوات وسنوات وأنا أتمنى أن أعرف لماذا هؤلاء الناس يكرهونني ؟!

وقصت عليها طرفا من قصتها وزواجها من حازم ابن خالة المعلمة سلوى .. ولما انتهت منى قالت سلمى : أمر محير .. كل هذا الحقد !

ـ مع أنني كما ذكرت سابقا لا أعرف هذه الأم .. وربما التقينا ولم أعرفها ؛ لأن حازما كان يخافها جدا .. وأزعلت أهلي وزوج أمي وتزوجته ؛ ولكنه خذلني ومع ذلك كان الذي حصل خيرا لي فيما بعد فأنا الآن من أسعد الناس بزوجي وأولادي .. الله لا يضيع عباده يا سلمى !

ـ ونعم بالله .. لا إله إلا الله !



سلمى صديقة لسلوى فراس أثناء عملها في مدرسة حكومية ، ولما حصلت على التقاعد عملت مع السيدة نازك إحدى صديقاتها منذ أنشأت مدرستها الخاصة ، فهي قد خدمت في المدارس الرسمية للدولة ما يقارب العشرين عام ، وخلال هذه المدة تعرفت على أعداد كثيرة من المعلمات ، فكانت تعمل لإشغال وقت الفراغ ، وللصداقة التي بينها وبين السيدة نازك واندمجت معها ، ولما اشترى ـ كما نعرف ـ برهان المدرسة وافق على بقاء الكادر العامل في المدرسة كما هو ، بل زاده وترك أمر التعيين أيضا للسيدة سلمى خليل ، ومنى تمسكت بقوة بالسيدة سلمى كما وضح لنا أيضا ولم تتخلَ عنها ، فهي صاحبة خبرة كبيرة في التعليم والإدارة المدرسية ، مع أنها أمضت حياتها في مدارس الدولة معلمة غير مديرة .. ولأن المدرسة بدأت صغيرة فتمكنت من القيام بدورها بنجاح ، وثانيا منى مشغولة بالدراسة كما هو معروف لقارئ هذا السفر ، وثالثا منى لم تعمل بالتدريس سابقا ، لا في القطاع العام ولا القطاع الخاص مع أن شهادتها الجامعية تسمح لها بذلك .

فكانت السيدة سلمى هي التي تتصل بالمعلمات الزميلات والمعارف أيام العمل في الحكومة لتعينهنّ في مدرسة نازك من قبل وبرهان في الوقت الحالي ، وعندما وسعت المدرسة وأضيفت فصول جديدة تركوا لها مهمة جلب المعلمات العاملات .. وكان لهذه المعلمة تعلق كبير في المدرسة الصغيرة ، وأصبحت جزءا من كينونتها ؛ كأنها ملك لها .

ولما تعينت سلوى كان ذلك بناء على رغبة واتصال من سلمى ، وكانت سلوى سعيدة بالعمل مع عدد من زميلاتها وعلى رأسهنّ سلمى .. ولكنها فاجأت الجميع بعد حين عندما قدمت استقالتها بعد أسبوع من جلستها الخاصة مع منى .. ومنى لم تحاول إخفاء شيء أمام سلمى ولا أمام سلوى .. فكانت سلمى تقدر لمنى ذلك الموقف ، وتجعل ذلك الاعتراف من باب الثقة بها .. وأنه لا أسرار خاصة وخطيرة في حياتها.. وأحبت منى أن يكون الحديث أمام سلمى قطعا للإشاعات التي ستحدث لو كان الجلسة سرية وخاصة .. وهذه الاستقالة المفاجأة بعد ذلك الاجتماع لو لم تكن سلمى موجودة ربما كثر القيل والقال في وسط المعلمات .. فكان هذا من حس حظ منى .. فإذن الاستقالة كانت صادرة ونابعة من عند تلك المعلمة وحدها ، مع أن منى وسلمى تدركان أن تلك الجلسة وراء وخلف تلك الاستقالة ، ولم يكن استنتاج منى بعيدا عن الصواب .. فكانت سلمى تعتبر ذلك من ذكاء وفطنة منى .. فلو لم تكن حاضرة في الجلسة لظنت أن منى أسأت لسلوى بكلمة ، وهذا سيترك أثره على باقي المعلمات .. ولكنّ الله سلم وأدركت سلمى أن منى محقة في محاولة معرفة سر هذه العداوة والبغضاء ، رغم مرور كل هذه السنوات ، ورغم طلاق حازم لمنى منذ عشر سنوات .. شغلت هذه القضية فكر سلمى ربما أكثر من منى ربيع .. منى كانت مجرد عاملة موظفة في شركة من شركاتهم .. أعجب بها الشاب وأحبها وتزوجها رغم أنف العائلة ، وهذا كثير في العائلات وبين الناس .. وفعلا هذا سر يحتاج لكشف .. ولماذا العداء لليوم ؟ فحازم تزوج أخت سلوى وله بنون وبنات ، ومنى تزوجت ولها بنون وبنات!

فأخذت سلمى على نفسها وعاتقها السعي لمعرفة سر هذه العداوة والبغضاء دون علم منى ..

وهذا دفعها لزيارة سلوى فراس في بيتها والحديث معها عن السبب الحقيقي لتقديم استقالتها وبعد حديث طويل وممل بينهما اعترفت المرأة أنه كان هناك ضغط عليها من أمها وخالتها .. ولم تعرف سبب هذا الضغط إلا أنه يتعلق بزوجة حازم القديمة السيدة منى ربيع ، وأن أختها زوجة لحازم .. وحدثتها عن انحلال حازم وسكره الجنوني وعن لعبه القمار ، وأنه أول النهار رهين البيت وآخره رهين الملاهي والسهرات.. وأنها تخشى عليه الجنون ، وقضاء بقاء عمره في دار المجانين ، وأن الله رحم منى منه وخلصها منها .. وأن أختها تعاني معه من الظلم والعذاب رغم القرابة بينهم ، وأن أكثر أيامها تقضيها في بيت أمها .. ثم بينت لها أن خالتها قوية وعنيدة ، وأنها عملت فترة طويلة محاضرة في الجامعات ، وأن معها شهادات عليا من أمريكا الشمالية .. ولم كبرت وتعرضت لبعض الأمراض وأهمها أمراض في الجهاز الهضمي لجئت للبيت والسكينة .. ولما سألتها سلمى عن سر عداوتها الغريب لمنى ؟!

همست سلوى بأنها لا تعرف سر هذا العداء ، وأصبح الأمر ماضيا لدى العائلة ، ولم يهتم أحد بالبحث عن السر؛ لأنه لا يهمهم بشيء .. وأكدت لصديقتها أن أمها أخت أم زوج أختها لا تعرف ؛ ولكنها الصغيرة فتسلم لأختها بما تطلب ولا تناقش ، وأبدت لسلمى هي نفسها رغبتها بمحاولة معرفة سبب الضغط عليها ؛ ولكنها لم تتمكن من تحصيل أي معلومة وسبب صريح ، سوى ذاك الزواج الفاشل وأنه لا يجوز العمل عند امرأة كانت موظفة عندهم ومطلقة من زوج أختها .. وعلقت أن هذا منطق أعوج بالطبع .. وخوفا من المشاكل لها ولأختها فضلت الاستقالة ؛ ولأن زوجها هي أيضا من أقارب ناصر زوج خالتها حتى أنها قالت : تحدثت أنا مع عبير ابنة خالتي أخت حازم عن منى زوجة أخيها السابق وعن المدرسة فقالت لي " إن منى فتاة مقاتلة وصبورة وفاضلة ، وإنه لولا أمي لعاشت معنا سعيدة واستفدنا من خبرتها وأحلامها " .. الحقيقة أنها أبدت تعاطفا معها ، مع أنني أذكر قديما أنها كانت تذمها وتعتبرها متسلقة وطماعة ؛ ولكن قد يكون هذا تأثرا بأقوال أمها .. وهي الأخرى مسكينة تزوجت مرتين ولم ينجح زواجها، وما زالت من غير رجل وأسرة .. وقالت لي "

حاولت معرفة سبب عداء أمي الدائم والعنيد لمنى والعنيد بالذات فلم أعرف .. وحدثتني أن لمنى أخا معروفا في عرض البلد وطولها محاميا وصحافيا وحزبيا .. وسردت على مسمعها بعضا مما تكلمت به عبير عن مالك ، وأنه تزوج ابنة نقيب المحامين منذ سنوات الأستاذ الكبير عبد الكريم .. ومع ذلك لم تتغير نظرتها لمنى ، كأن بينهم ثأر .. وقالت معقبة : مع أن الأخت منى لا تعرف حماتها يومئذ ، ولم تجلس معها ساعة من الوقت قبل الزواج من حازم ولا بعده وفي الختام أكدت لسلمى أنها ستحاول البحث عن السر الغامض لهذه العداوة غير الواضحة لأحد .

مشت سلمى لبيت خالة سلوى ، ووجدتها في البيت وتظاهرت بالسذاجة ، وأنها جاءت لتستفسر فقط من أم الطفلة سهى لماذا سحبوها من المدرسة ؟ هل لهم أي نقد أو تقصير على المعلمات ، على السائق ، على المدرسة ؟ فأبدت الدكتورة فاطمة أم خالد أنه لا سبب يعيب المدرسة لسحب ابنتهم ، إنما أحبوا أن تذهب مع أختها الأكبر منها ليكونا في مدرسة واحدة .. وأن المدرسة جيدة ، وقد تعلم فيها كثير من أحفادها .. فشكرتها سلمى ، وتأكد لها أن الأمر شخصي للغاية وعجبت في نفسها من ذلك .. فمنى ليست من جيل السيدة فاطمة ، فمنى من جيل بناتها وأبنائها .. ومنى عملت فترة قصيرة في الشركة ثم تزوجت من حازم .. تحدثت مع أم الطفلة وهي أخت سلوى فذكرت نفس حجة خالتها ولزمت الصمت ، ولم تحب سلمى تطوير الموضوع مع ما تجمع لديها من معلومات حول السبب الخفي ، ففضلت الانسحاب من البيت وهي تقول لهم : نحن حريصون على سمعة المدرسة يا أم خالد ويا أم سهى .. فخشيت أن يكون السبب في المدرسة من معلمات وإدارة وسائقي الباصات .. فالحمد لله على ثنائكم .. فالمدرسة وإن لم أكن أنا مالكها فهي ترعرت ونشأت على جهودي .

اضطرت فاطمة أن تكيل المديح لسلمى وإدارتها وكفاءتها وحبها للأطفال وتعليم الأطفال .. وغادرت القصر المنيف وهي حيرى من العداوة بين منى والسيدة فاطمة .

ولما التقت بمنى صارحتها بما فعلت ، فدهشت منى وقالت : والله أنت شجاعة للغاية يا

سلمى !

ـ أنا أدركت أن السبب شخصي يا سيدتي منذ انسحاب سلوى .. وخشيت أن يثير انسحاب سلوى وابنة أختها من المدرسة بلبلة لدى الأهالي ، فالكلام يمشي ويقال ويقال .. فبهذه الزيارة نقطع الطريق على الأقاويل .. فسيقال إن الأستاذة سلمى ذهبت تستفسر عن سبب انسحاب المعلمة المفاجئ والبنت .. وإننا نهتم فعلا بأبنائنا الطلاب .. فالمدارس الخاصة كما تعلمين يا سيدتي تقوم على الدعاية الحسنة .. ثم نحن أصدقاء قدامى منذ كنت معلمة في إحدى مدارس الحكومة .. ولكني شعرت أن السبب هو تعرفها عليك .. فبحسن نية تحدثت مع أمها وخالتها .. فلما علمت الخالة فاطمة من الأخت سعيدة بأن السيدة منى ربيع مديرة المدرسة طلبت منها الضغط على ابنتها لتقديم استقالتها ممن كانت موظفة عندهم في يوم من الأيام .

فقالت منى : أنا ذهب بي الظن أنني التقيت بها أيام الدراسة في الجامعة قديما ، وعرفتني لما اشتغلت عندهم فلسبب ما رفضتني زوجة لابنها .. فراجعت أسماء المدرسات لي في الجامعة فلم أجد واحدة منهن تسمى فاطمة أحمد ولا حتى سعيدة أحمد .. قلت ربما تعرفت عليهن أيام التعليم فلم يحصل .. وكانت عبير قد حدثتني أنهنّ اشتغلن في الخارج في جامعات خارج البلد.. وعملن هنا بضع سنوات .. ثم مرضت أمها ولزمت البيت .

وقالت سلمى : أما أختها أم سلوى .. ما زالت تحاضر محاضرات متفرقة في جامعات مختلفة .. معها دكتوراه علم نفس .. وهؤلاء قوم يملكون الأموال الكثيرة .. فلهم شركات في الخارج .

فقالت منى : أعرف الكثير عنهم يا أخت سلمى !

كانت سلوى فراس قبل أن تتعرف على منى ربيع منذ أسابيع تعتقد أن خالتها فاطمة رفضت زواج ابنها من منى في تلك الأيام فقط ؛ لأنها فتاة فقيرة من حي برقوقة وأن الحظ ابتسم لها ونالت قسطا من التعليم الجامعي ، والتقت بابنها فأرادت أن تصبح ثرية من قفزة واحدة .. متسلقة كما يقولون .. وأنها غير مناسبة لابنها الغني بغنى والده المليونير صاحب الأموال

الكثيرة .. وما هي إلا مجرد موظفة صغيرة تقبع في أحد مكاتب شركاتهم المتعددة ، وأن راتبها يساوي راتب خادم أو شغالة عندهم .. هكذا كانت تعتقد سلوى قبل أن تسمع منى ، وأن هذا سبب الرفض لذلك الزواج .. أما اليوم فإنها ترى أن هناك أسبابا أخرى ، وأن أمرا شخصيا في الموضوع .. لأن منى طلقت وخرجت من حياة الأسرة والعائلة .. وأحد أعمامها تزوج مرتين وطلق ، ولم يعد لنسائهم المطلقات ذكر في العائلة وأهمية .. فلماذا منى يبقى حقدهم عليها لليوم وقد خرجت من حياتهم ؟! فلماذا طلبت منها خالتها ترك المدرسة تلك ؟ وسحبت حفيدتها منها أيضا ؟.. فهذا لغز محير يدفع الإنسان العاقل للتساؤل والسعي لمعرفة السر؟ حاولت فهم ذلك من أمها ، فلم تجد عندها شيئا إلا أنها كانت زوجة لحازم في يوم من الأيام .. وأنها كانت مجرد عاملة في الشركة ، وهذا سبب كاف لعدم التعامل معها ، والعمل عندها كمعلمة تحت إدارتها .. وخوفا أن يعرف حازم زوج أختها بشيء .. فهو ما زال يكن الود والحب والحنين لمنى في رأيهم ! ولكن سلوى تعلم أن حازما له معرفة بزوج منى ، وأنها أم ولها أولاد ، ولا يمكن أن تفكر أن ترجع لحازم بعدما طلقها من أمريكا وتزوج أختها .. رغم أن حياتها معه تعيسة .. مجرد زوجين وجسدين لا روح بينهما .. وهناك علاقة جيدة بين عبير وزوج منى وأن زوج خالتها ناصر يعلم بهذه العلاقة والعمل .

وأكيد القارئ لهذا السفر يود مثلهم معرفة سر هذا الكره والبغض عن بعد لمنى .. وهذا سنعرفه قريبا إن شاء الله .. ولسوف يعرف أنه ليس لمنى سبب رئيسي في هذا الكره إنما هو هوى نفسي ومزاج لئيم ، وحذرا من تصحيح علاقة انتهت .



الأخت منى ربيع لم تنشغل كثيرا في هذه الحادثة .. فهي قد اعتبرت أن هؤلاء الناس قد خرجوا من حياتها منذ تزوجت زوجها الحبيب برهان محمود الدين ، وكما سمعنا مالكا يقول

" إنه لم يدع لها فرصة لتقول لا " .. وكانت حياتها الزوجية ممتعة جدا وهادئة ، فعلاقتها بزوجها على أفضل ما يرام ، تفاهم كامل بين الزوجين ، وهي تناقش وتتحدث بصراحة ؛ ولكنها مقرة بفضل ورجاحة عقل برهان ، وإنه زوج غير متسلط ويحترم الزوجة .. وعلاقتها بأهله مثيرة للإعجاب مع وجود حماتها وعمها والد زوجها وإخوته الكثر ستة إخوة .. وثلاث أخوات ، فكلهم أسرة واحدة ، ويحبون بعضهم جدا ، احترام الكل للكل ، رغم اختلاف مهنهم وعملهم ، فحتى أولادهم الذين شبوا وتعلموا يحترمون أعمامهم احتراما كاملا .. وكذلك علاقة زوجها مع أهلها علاقة ود وحب وتعاون يغبطون عليه .. فدائما تسمع أمها تدعو لزوجها بالخير والسعادة ، وحتى زوج أمها فهو يحب برهان حبا جما ، ويراه صديقه الوحيد في هذه الدنيا رغم ما بينهما من السنون .. فلذلك مرت هذه العاصفة إذا كانت عاصفة من دون حديث يذكر .. وعاد الهدوء ثانية للمدرسة ، وكل يحتفظ بخواطره .. وعادت منى تشغل نفسها بإعداد رسالة الدكتوراه التي كانت تدور حول الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر.. ولما علمت بأن مالكا قد أقام دار نشر ومكتبة مع بعض زملاء الأدب سرت بذلك وأملت بطبع رسالة الماجستير والدكتوراه عندهم .. ووصلتها كتب مالك التي نشرها في بريطانيا من تأليفه ، فعرفت شيئا آخر عن أخيها .. تأليف الكتب ، مع أنها أحيانا قليلة كانت تقرأ مقالات وخواطر مالك في الصحف التي كان يدخلها برهان البيت أو المكتب .. أما تأليف الكتب فقد فوجئت به وقالت لبرهان وهو يقدم لها هدية أخيها : أصبح الفارس مؤلفا وكاتبا في بلاد الإنجليز.

ـ أتدرين من تترجم له ؟!

ضحكت وقالت: ويك ! إنها زوجته .. أليس هذا المكتوب على الكتاب ترجمة هناء عبد الكريم و ... من هذه ؟!

ـ لقد سألت ؛ إنها ابنة خال هناء .. فتاة تهتم بالترجمة والأدب وقد عملت في بعض الصحف الإنجليزية كمترجمة .

فقالت منى : ولكن الأخ مالكا نسي أن له أختين أيضا تتقنان اللغة الإنجليزية وأنني مترجمة ماهرة .. وسأتصل به وبهناء يا برهان .

ـ وأيضا طبع الكتابان باللغة العربية يا منى ! ولكن أحد الأصدقاء رآهما معي في المكتب فأعرتهما له .

ـ تعني أنه كتبهما باللغة العربية ونشرهما ثم ترجما .. فعلا الأصل بالعربية ثم ترجم هذا منوه به على الكتابين .. فمالك يفهم اللغة الأجنبية ، لقد نسيت فهو يدرس الدكتوراه بتلك اللغة .. يا لي من مغفلة !

ـ القصة أن مالكا كتبهما للجاليات العربية هناك .. فالعرب هناك كثر كما تعلمين .. فشركة النشر طلبت ترجمتهما لنشرهما بلغة أهل البلاد .. فقامت هناء وقريبتها بترجمتهما بسرعة وهذه هي الثمار .. هذه هي الحكاية هو لم يكتبهما باللغة الأجنبية .

ـ متى تحدثت معه ؟ لم أرك تتصل به ؟

ـ ذات زمن مضى تحدثت معه من المكتب بشأن أحد الأصدقاء الراغبين للذهاب لبريطانيا للدراسة .. ويومها سألته عن أخباره وآخر نشاطاته .. فذكر لي ذلك ويبدو أنني نسيت أن أذكر لك ذلك .. وها أنا اليوم

عندما جلبت البريد وجدت طردا لدى البريد ؛ فإذا هو كتب من مالك .

فسرحت في ذكريات قديمة عن مالك ، وعبرت عن افتتانها بأخيها ثانية ثم قالت : لم أكن أتصور هذه القدرات عند هذا الإنسان !.. أنا ما زلت أنظر إليه كأنه طفل صغير ! أضاحكه وأداعبه .. حبيبي برهان .. ما رأيك أن نسافر لندن ؟!

ـ لندن ؟!

ـ نعم .. أنا كما تعلم رسالتي في الأدب الإنجليزي في القرن التاسع عشر .. وبريطانيا هي أم الإنجليز .

تحدثت منى مع هناء مباشرة في موضوع سفرها لبريطانيا عدة أيام .. فرحبت هناء بذلك ، وقالت لها : أيام لا تكفي شهر على الأقل .

ووعدتها أن تكلف ابنة خالها أن تهيئ لها أماكن ومراكز الجامعات الملائمة لأهم المراجع الأدبية اللازمة لكتابة الرسالة الجامعية .. فقدمت منى لها الشكر الجزيل وأبدت امتنانها الكبير لحضرتها وحماسها .. ورحب مالك بالفكرة وشجع أخته على الزيارة ، وسعى برهان للحصول على تأشيرات السفر لبريطانيا ، ورغبت منى بالإتيان بأمها للحياة مع أولادها الكبار الثلاثة .. والرابع قررت أخذه معها ، ولكن أهل زوجها وخاصة أخت برهان التي تسكن معهم في العمارة أبدت استعدادها لرعايتهم وإعدادهم للذهاب لمدارسهم خلال فترة غيابهم .. وتطوعت والدة برهان بالمبيت معهم إذا لم يرتاحوا للمبيت عند جدهم وجدتهم .. لقد حلت مشكلة رعاية الأطفال .. ولما جهزت التأشيرات سافر الزوجان والطفلة الصغيرة ولقد كان في انتظارهم في مطار هيثرو الإنجليزي مالك وزوجته ، وتعانق وتصافح الأحباب وإلى شقة مالك انطلقوا فرحين .

وعانق برهان برهان الصغير الذي كبر وصار يمشي على قدميه ويقف ، وكانت هناء قد رتبت رحلة سياحية للضيفين في ربوع الجزر البريطانية أم الاستعمار والتاريخ العريق ، ثم تعاونت مع ابنة خالها علا لإرشاد منى إلى الأماكن التي تهتم بالأدب وتاريخ الإنجليز من دور نشر ومكتبات عامة وخاصة ومتاحف أدبية .. واشترت منى الكثير من الكتب الأدبية.. وسرت من الرحلة العلمية والسياحية ، وشكرت هناء على تعاونها الكبير وعلى المعونة التي قدمتها لها هي وابنة خالها ، وتمنت منى لو أنها قدمت الدكتوراه في بلاد الإنجليز ، فعقب برهان على هذه التمني قائلا : لم يفت شيء اعملي دكتوراه ثانية .

فضحكت وقالت : والله فكرة ..ولكن ليس الآن !

ـ أنا جاهز يا عزيزتي !

ومضى الشهر الجميل كما يقال بلمح البصر ورجع الزوجان إلى أرض الوطن .. وأقبل الأحباب والأصدقاء يسلمون عليهم ويسألونهم عن رحلتهم وعن بلاد الضباب .

خلال سنوات إعداد منى لأطروحة الدكتوراه كان السيد برهان قد تمكن من شراء قطعتي أرض في مكانين متباعدين ، مساحة كل قطعة ما يقارب عشرة دونمات ، واحدة لإقامة مدرسة للذكور عليها ، والثانية مدرسة للإناث .. فبرهان من أنصار الفصل بين الجنسين في التعليم .. وكان يطمع أن تكون كل مدرسة من الصف الأول إلى نهاية التعليم الثانوي .. على أن تكون كل مرحلة شبه منفصلة .. الأساسي الصفوف الأولى في مبنى مستقل ضمن المبنى العام ، والمتوسطة كذلك ، والثانوية كذلك .. فوضعت التصاميم الهندسية على هذا الأساس وحسب المواصفات المحلية والعالمية .. وشكل مجلس إدارة للمدرستين .. وكان قد جمع من إخوة زوجته وزوجاتهم وعديله سعد عن كل شخص عشرة آلاف دينار ، وشارك بعض الأصدقاء والمعارف لإخوة منى في المشروع .. وممن اشترك في هذا المشروع الأستاذ عدنان وزوجته ابنة خالة منى ، وكان السيد عدنان قد أنهى الماجستير وكان يستعد للدكتوراه مثل منى ربيع .. وكذلك يستعد للتقاعد من العمل الحكومي والعمل مع برهان .. وكذلك زوجته التي بلغت سن التقاعد .. ووصلت للمدة التي تسمح لها بالتقاعد .

كون برهان شركة تعليمية خاصة من أصدقائه وأصدقاء العائلة ؛ لأن الأرض كلفت ما يزيد عن المائة ألف دينار .. ولما أنهت منى الدكتوراه ، وناقشت أطروحتها وحصلت على تلك الشهادة ، حتى بدأ برهان وشركاؤه يستعدون لإنشاء المباني ، وقد جمعوا مبلغا يعادل ربع مليون ، وكانت مدرسة الذكور قد أقيمت مبانيها قبل إنهاء منى للجامعة العليا .. ولم يبق فيها إلا أعمال التشطيب للتسليم للنهائي من قبل الشركة المنفذة للمشروع للانتقال للمشروع الآخر .. وكان مالك أيضا قد أنهى دراسته في بريطانيا ، وقرر البقاء سنتين أخريين لمزاولة العمل على شهادته الأخيرة ، ومحاضرا في إحدى الجامعات لمزيد من الخبرة في القانون الدولي والعالمي .. وكثر تردده إلى أرض الوطن في الإجازات والمناسبات ، فقد أصبح لديه وقت أكثر

للحركة .. ودار النشر التي أنشأها مع ثلة من أصدقائه قد اجتازت مرحلة الولادة ، وأصبحت قادرة على الطباعة والتوزيع .. ولكن حدث للأخ برهان قبل مجيء مالك حادث كاد أن يؤدي بحياته ؛ ولكن الله لطف فيه .. فقد تعرضت سيارة برهان للصدم أثناء توقفه عند إحدى الشركات ليقوم بتدقيق سجلاتها وحساباتها وتقديم تقرير محايد عنها .. وأصيب عموده الفقري من الصدمة .. فعجز عن المشي وأصبح بحاجة لعجلة يسير بها .. وتقبل برهان والقوم أمر الله بالرضا والاستسلام .. وخضع للعلاج المستمر في البلد ، ثم سافر لبريطانيا مع مالك ، وتعرض للعلاج وكان الأطباء هناك يرون أنه سيتحسن مع مرور الوقت والزمان .. فوجد بعض المشقة في بداية الأمر للتكيف مع الحياة والعلة ؛ ولكنه اجتاز هذه المحنة وصبر عليها.. وكان أصحابه يتابعون المشاريع عنه ، وتابع هو العلاج .. وتم إنشاء المدرستين وهو يعاني من تلك الحادثة .. وخلال هذه الفترة العصيبة من حياته ظهر الحب الكبير من منى لزوجها ورفيق دربها في الحياة ، وأبدت استعدادها للتخلي عن العمل للبقاء بقربه ، ورافقته في رحلة العلاج لبريطانيا .

وعاد مالك للبلاد وكان قريبا جدا من زوج أخته والعمل معه ، وسافر معه إلى ألمانيا للعلاج في إحدى المستشفيات التي علموا عنها .. وتقدم خطوة جيدة في العلاج ، وأصبح يستطيع النهوض والحركة ولكن بشكل بطيء .. واشتروا له سيارة خاصة ؛ ولكنه وجد مشقة في القيادة .. فعينوا له سائقا يتنقل به بين أعماله .. فهو لم يحب البقاء في البيت فكان العمل حياته رغم رحلات العلاج هذه.. ولما التقى بأحد العلماء فشجعه إلى السفر إلى مكة والحج والاستسقاء من ماء زمزم فوجدت الفكرة رضى في نفسه .. فحج به مالك وبزوجته وأخته منى ، وفرحوا بهذه الرحلة الإيمانية التي زادت من صلابة برهان .. ونشطت منى في عملها وإدارة أعمال زوجها ، واستمرت هذه المحنة على ما يزيد عن خمس سنوات ، ثم تعافى منها السيد برهان وعادت أعصابه تعمل بشكل جيد ، وتخلص من العجلة نهائيا ؛ ولكن الأطباء طلبوا منه أن يبتعد عن الحركات العنيفة .. والابتعاد عن الرياضة البدنية .. فحمد الله على ما

وصل إليه من عافية ، وفرح الأهل والمحبون لذلك .. وكان سعيدا بنجاح المدارس التي قام على إنشائها .

ولما هدأ وضع برهان الطبي تركت منى المدرسة الخاصة التي كانت مديرة لها لسلمى ، وكانت قد عرضت إدارتها على إحدى أخوات برهان ، فاعتذرت عن ذلك وأحبت العمل كمعلمة في مدرسة الإناث الكبرى .. والتحقت منى بالتدريس في الجامعات .

وأصبح الأخ عدنان جابر مديرا لمدرسة الذكور بعد تقاعده من مدرسة الحكومة .



ذات نهار والدكتورة منى ربيع في مكتبها في الجامعة في كلية الآداب فرع تعليم اللغة الإنجليزية طرق الباب عليها أحد الطلاب فأذنت له ، وكان معه فتاة فبعد الترحيب تسألت منى عما يريدون فقال الشاب: هذه ابنة خالتي الآنسة حنان !

دهشت منى لهذا التعريف وعادت تقول : وأنت ؟!

ـ ألا تعرفينني يا دكتورة ؟!

ـ لا !

ـ أنا وهي من طلابك ، فأنا حسن حازم سنة ثالثة آداب إنجليزي.

تبسمت منى له ، وقد فهمت ما يرمي إليه ، وقالت مجاملة : تريد أن تقول إننا معرفة سابقة ؟!

تبسم هو الآخر في وجهها وقال : يعني .. لم يشأ الله أن تكوني أمي !

ـ أهلا بك كيف حال والدك اليوم؟ .. أنا لما قرأت اسمك في أحد الكشوف وقع في نفسي أن تكون ابن حازم ناصر زوجي الأول . . وأنا فعلا كنت زوجة لأبيك في يوم ما !

ـ أبي مريض للغاية يا دكتورة ..

ـ مريض!.. شفاه الله .. وهذه الفتاة الجميلة ابنة خالتك لعلها الأستاذة سلوى فراس ؟!

قالت الفتاة : نعم أنا ابنة السيدة سلوى فراس يا دكتورة .

ـ كيف أمك اليوم تعارفنا فترة قصيرة من الزمن ؟!

ـ صح ، وهي التي ذكرت لنا أنها تعرفك .. أنا سنة أولى إنجليزي .. فمرة ذكرت اسمك أمام أمي ، فاستغربت وذكرت لنا أنها تعرفك ، ثم تحدثت مع الأستاذة سلمى تسألها عنك فأخبرتها الأستاذة سلمى أنك تعملين في هذه الجامعة .. وذكرت لي أنها عملت فترة قصيرة في مدرسة الأستاذة سلمى فتعرفت عليك .. وذكرت ذلك لحسن ابن خالتي فاستغرب وسأل عمته عبير عنك ، فذكرت له أنك كنت زوجة لأبيه كما ذكرت الآن ، وحالت الظروف الصعبة تلك الأيام دون بقاء ذاك الزواج .. فسامحينا !

عادت الدكتورة ترحب بالشابين ثم قالت : أنا سعيد بمعرفتكم شخصيا وسلموا لي على أمهاتكم .. وأنت يا حسن كابني .. فلي ولد السنة سينتهي من الثانوية العامة اسمه خليل .. وهكذا القدر يا ولدي .. لم يقدر لي الله أن أكون أمك !

فشكرها حسن على لطفها وعدم تجاهله وعدم جفائها معهم فقال : سامحي والدي يا دكتورة .

ـ لقد سامحته يا بني .. ولما حججت سامحته هناك أيضا .. وهذا الزواج قدر والفراق قدر .. لم نوفق في الزواج ، وأتمنى لكما كل نجاح وتوفيق في هذه الحياة .

فقال حسن بحزن : شكرا يا دكتورة ! والدي حقيقة مرضه صعب .. مرضه في الكبد ، وهو بين الحياة والموت .. لقد دمرته وأهلكته الكحول وحرقته .. فاعف عنه .

ـ قد عفوت وسامحت ، سامحه الله يا حسن .. وحياة سعيدة للجميع وسلمي لي على أمك يا حنان .

وغادر الشابان المكتب وهما مفعمان بالشكر لمنى ربيع ، وأما منى فكأن لم يكن شيء كما قلنا مرارا ، فقد نسيت حازما ولا تهمها أخبار حازم .. وهل تمنت له الشفاء من أعماق قلبها وبصدق هذا يعلمه الله وحده ؟!

كانت الجامعة تريد أن ترسل عددا من حملة الشهادات العليا لدورة علمية في أمريكا ، ورشحت

عمادة الجامعة منى ربيع لهذه البعثة أو الدورة ، ولما تشاورت مع زوجها ذكرها بدراسة الأولاد فلم تجد حماسا لدى زوجها فاعتذرت عنها، وطلبت تأجيلها ، وأبدى برهان اعتذاره لذلك ، فقالت معتذرة : لا تعتذر يا سيدي أنت عندي أهم وأعظم من الدورة والشهادة .. وإذا كنت تحب أن أترك الجامعة ، فأنا على استعداد .. أنا لا أنسى ، ولا يمكن أن أنسى من هو برهان ؟! وكل هذه السعادة التي ارفل فيها من برهان .

تضاحك برهان وقال : جزاك الله خيرا .. أنا يهمني تقدمك العلمي لحاجة في نفسي .. ولكن الأولاد بدءوا يدخلون المراحل التعليمية المهمة يا منى .. وإبراهيم ابن سنة اليوم .. وخليل على أبواب الثانوية العامة .. فلتكن أي دورات خلال هذه السنوات داخل البلاد .. فبعد سنتين ستدخل زهرة إلى الثانوية العامة .. ثم محمد .. وجميلة .. إبراهيم قد يتأخر فهو وليد .. فجاء الأوان اليوم لأن نهتم بهم فهم حياتنا أو أهم منها .

تبسمت قائلة : صدق أنني مقتنعة بما تقول ، ورفضت السفرة بكل أريحية ورضا مع أنهم كانوا سيسمحون لي بأخذ أفراد العائلة كلها .. ولكن ما هي الحاجة التي في نفسك ؟!

ضحك برهان لحظات وقال : أنسيت أنني وعدتك أن تكوني ملكة .

أخذت بالضحك وقالت : ما أنا يا سيدي ملكة! .. ألست ملكة في بيتي وبين أولادي وزوجي الملك .. اسمع أنا كل أحلام الماضي قد نسيتها .. فأنا أحمد الله ليل نهار عما حصل لنا من الخير والتوفيق والسعادة والحب العظيم بيننا جميعا .

فحمد الله وقال : الحمد لله ، لم تذهب جهودي سدى ، فها هو المكتب الذي دارت عليه أحلامنا الأولى قد أصبح مكتبا كبيرا ومنافسا عظيما في البلاد .. والمدارس التي كانت حلما أصبحت رموزا تربوية وعلمية مهمة في البلاد .. وها هو سهمنا في مصنع عبد الرحيم يدر علينا دخلا كبيرا .. وها هو مصنع الدواء الذي أنشأه ابن أخي يتقدم وننعم بثروته .. ولنا مدرستنا الخاصة .. فأنت ملكة غير متوجة يا سيدتي .. ولم يبق إلا أن نبني القصر وذلك قريبا

ـ الحمد لله حمدا كثيرا .. ما كنت أدري ما سيصير بي لو لم يضعك الله تعالى في طريقي ؟! ..

عندما أتخيل شيئا من تلك الهفوات الكبرى أبكي وتدمع عيناي .. نعم ، لقد يسرك الله تعالى لتنقذني من السقوط والجهل .. الشهادة وحدها لا ترفع الجهل عن الإنسان يا برهان! .. فناس معهم الكثير من الشهادات ولكنهم غارقون في الشهوات والضلال ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا كنت أرى الحياة قصة فِلم أو أغنية ماجنة !



بعد اعتذار منى ربيع عن الذهاب لأمريكا لمدة سنة في دورة علمية ، بعدها بشهور يسيرة حدثت حادثة عجيبة في حي برقوقة كشفت كثيرا من الأسرار لمنى وبرهان وغيرهم .

وبينما مالك وربيع الأخوان وزوجاتهم وبعض أولادهم يسمرون في منزل خليل أبي أحمد زوج أمهم جميلة ، وقفت على رأس الشارع سيارة أمريكية حديثة جدا ، وهبط منها شابان في العشرين من عمرهما وامرأة وسألوا من وجدوه يقف على رأس الشارع عن منزل خليل أحمد فرفر.. فأرشدهم الناس لبيت الحداد خليل ، فقد أصبح أبو أحمد قصة كبيرة من قصص حي برقوقة .. فهو قد صنع من الأيتام كما كان يقال " أيتام الحداد خليل " قصة مشرفة مشرقة للحي وأبناء الحي .. فيضرب بهم المثل في النجاح والوفاء .. ورغم الشهادات التي يملكها أيتام خليل ظلوا قريبين من الحي وأبناء الحي .

المهم طرق الشابان والمرأة المرافقة لهما بيت الحاج خليل فرفر في ذلك الليل ـ البيت الذي ظل على ما بناه المعلم خليل ، ويرفض إعادة بنائه ـ وجاء أحد الأبناء يقول لهم : يا أبي ! هناك أناس ومعهم امرأة يريدون جدنا خليلا !

فقال خليل الذي سمع الغلام : ضيوف !

رد الفتى : أناس غرباء لم نرهم من قبل ، شكلهم يدل على أنهم ليسوا من هذا الحي !

قال مالك : فلتدخل البنات .. حتى أنظر من هم ؟ .. انتظري يا أمي هنا .. معهم امرأة !

تركت الفتيات بتريث غرفة الجلوس ودخلن حجرة من حجرات البيت ، وكان مالك قد خرج يستقبل ويرحب بالضيوف فقال أحدهم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

رد مالك السلام باسما وقال مرحبا : أهلا وسهلا .. أتريدون الحاج خليل أحمد فرفر ؟!

ـ نعم .. نحن قادمون للقاء السيد خليل فرفر .

ـ تفضلوا .

تبعوا مالكا لغرفة الجلوس فرحب خليل وربيع بالضيوف ورحبت جميلة بالمرأة ، ولما جلسوا قال خليل : أهلا بكم !

تنحنح أحد الشابين وكان العرق يتصبب على جبينه مما أدهش الحاضرين وقال مضطربا : نحن في موقف حرج جدا .. فمعذرة !

دهش خليل وغيره وقال : حرج ! .. لم أفهم يا ابني ولمَ الحرج ؟!

فقال الشاب بغصة : نحن ـ وأشار للشاب الآخر ـ أحفاد أحد إخوتك يا حاج أبي أحمد .. أنا أحمد وذا أخي يوسف !

تغير وجه خليل وحدق بالشابين وتلون لونه واضطرب صوته وعاد يقول : إخوتي أنا !

ـ نعم ، أنا ابن ابن أخيك منير إذا ما زلت تذكره .. وهذه ابنته ـ وأشار للمرأة ـ .. أي عمتي أحلام ..

التفت خليل لابني زوجته جميلة وقال مذهولا : أسمعتم ما قيل أمامي .. أم نحن في حلم ؟!

قال مالك الذي تمالك أعصابه بسرعة كعادته : نعم يا عم سمعنا إنهم يزعمون أنهم أحفاد أخيك منير يا عم خليل .. أهلا وسهلا بكم .. يا مرحبا بكم من جديد .. فنحن ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

فقام الشابان يعانقان جدهما خليلا وهما يبكيان ويتنهدان ، وفعلت المرأة مثلهما وقالت : أنا أحلام ابنة أخيك يا عم !.. واعلم يا عم أننا لم نعلم بوجودك وأن لنا أقاربا لا نعرفهم إلا منذ أيام قليلة .. لا نعرف إلا عمنا خالدا وعمتنا فاطمة وعمتنا وسعيدة ..

تكلمت المرأة بما يطيب لها ، وخليل ساكت ، ولما صمتت ، سكت خليل لحظات أخرى ثم قال : غفر الله لإخوتي .. ما الذي ذكرهم بي بعد ثلاثين سنة أو أربعين ربما تنقص سنتان أو ثلاث ؟!

عاد أحد الشابين يقول : هذا هو السؤال المهم ؟ نحن نشأنا لا نعرف من أقاربنا إلا ما ذكرتهم لك عمتنا أحلام ..

فقال خليل المبهور: والله يا أولاد ! .. لم يحدثوكم عن صبرية وخليل .. نحن أولاد العتيقة .. متنا عندهم .. يا هلا بكم .. نعم كيف عرفتم أن لكم أقارب يا أحمد.. أنت اسمك أحمد .. ما زال جدك يذكر أن له والدا اسمه أحمد .. فاسم والدي أحمد رحمه الله ..

فقال أحدهم : كيف عرفنا بأن لنا أقاربا ؟! لأنه ـ يا جدي ـ أحد إخوتك على فراش الموت أخوك منير على فراش الموت فطلب رؤيتكم أنت وأخته صبرية .

ـ منير يموت إذن ! .. لا إله إلا الله .. يا خسارة ! عرف وهو يموت أن له إخوة .. أكمل يا بني أكمل .. هذه هي الدنيا !

عاد الشاب يقول والعرق يسيل على خديه : أخذ يلح على رؤيتك ورؤية أخته صبرية ويبكي فلما سألنا عنكم اعترفوا لنا بوجودكم في هذه الدنيا ، وأنكم تعيشون معنا في هذا البلد ، وأنكم أحياء ترزقون ، وترددت العائلة بالوصول إليكم؛ ولكن أمام إلحاح جدي رق له الأولاد وكلفوني وأخي وعمتي بهذه المهمة يا سيدي يا أبا أحمد .

وبكت المرأة المدعوة أحلام ، وذرفت الدمع الغزير بين يدي عمها ليعفو ويصفح عن عقوق أخيه ، فربت خليل على كتفها وقال بعين باكية : هل قال لك أبوك من أدخله الجامعة وأنفق عليه وعلى أخيه الأكبر منه ؟ .. سامح الله أمه كانت تبغضنا مع أن أبي تزوجها على أمي .. واعلموا مع أنني نسيت أخواي وأختاي منذ عقود .. أنا جاهز للمصافحة والمساعدة والمسامحة .. أليس كذلك يا جميلة ويا ربيع ويا مالك ؟!

كانت دموع مالك تتساقط تأثرا بالموقف فمسح تلك الدمعات وقال : قلبك كبير يا عم ! ..

فأنت سيد العائلة شاءوا أم أبوا ولا يصح إلا الصحيح .

وتكلم ربيع بكلام شبيه بكلام أخيه مالك ، وقال مالك : العم خليل صاحب القلب الكبير مستعد لمقابلة إخوته أو أخيه المريض ، وسنذهب الآن بكم إلى بيت صبرية أم علي جدتكم أو عمتكم ونرجو من الله تعالى أن تقبل الصفح والعفو .. أتذهب يا عمي أبا أحمد معهم أم نرشدهم ؟

فقالت المرأة برجاء : أرجوك يا عمي العزيز يا صاحب القلب الكبير أن ترافقنا .. والله نحن لمنا والدينا لوما شديدا ، وعتبنا على صمت عماتنا وعمنا خالد على هذا الصمت الرهيب .

كان خليل قد تجاوز الستين سنة عند هذا الحدث ، فلم يعد لديه رغبة في العداوة والبغضاء ، فحمد الله على هذه الصحوة وإن كانت متأخرة جدا

وساق الأولاد لبيت صبرية ، وقبل أن ينطلقوا نادى الزوجات والأبناء ليتعرفوا على أبناء إخوته وأحفادهم .. وكان مالك قد قام بالاتصال مع الدكتور عدنان جابر ، وطلب منه أن ينتظرهم في بيت والده وشرح له الأمر بسرعة ، وعاد للمجلس يقول : تحدثت مع عدنان يا عمي يا أبا أحمد ليلتقينا عند والدته .

ـ أحسنت يا مالك .. هيا ربيع .. هيا جميلة .

ذهب الثلاثة إلى سيارتهم ، وانطلق خليل مع أولاد زوجته بسيارة مالك ، وخلال دقائق كانوا يقفون أمام بيت صبرية ، وكان عدنان أمامهم يقف أمام بيت العائلة ، وكان قد تكلم مع أبيه وأمه بالهاتف .

كانت أنوار البيت منارة لم تطفأ بعد ، فالناس ما زالوا في سهر ، زلف خليل وراء عدنان واستقبلهم جابر وصبرية ، ولما جلسوا في صالون البيت الواسع ، تكلم خليل بضع جمل ، ثم قال مالك المحامي : هؤلاء يا عمتي أم علي أحفاد أخيك الأصغر المدعو منير أحمد فرفر .. وهذه المرأة ابنة أخيك .

فنهض الأحفاد ثانية وسلموا على جدتهم ، وقبلوا يدها ، وعادوا لمجلسهم ، وعانقت المرأة

□□□

الشابة المرأة الكهلة ، وتخلل ذلك بعض الدموع والشهقات ، وتحدث أحمد عن جهلهم بوجود إخوة لجدهم غير الذين يعرفونهم ، وأن جدهم مريض ؛ وربما يكون في أيامه الأخيرة ، فقد أقعده المرض العضال ، وأنه يطلب مصافحتهم ورؤيتهم والصفح عنه لتجاهلهم كل هذا العمر .. فبكت صبرية وذرفت الدمع ، وشاركتها جميلة البكاء والمرأة الأخرى ، وقال عدنان : نسأل الله العافية لجدكم منير .. وكنا ننتظر مثل هذه الخطوة منذ عشرات السنين يا أخ مالك .. ربما منذ ثلاثين سنة !

فقال خليل : وتعلم صبرية أنني سعيت لهم ، وفعلت مثلي صبرية ؛ ولكنهم هربوا لأمريكا ، ولم يتصلوا بنا بمناسبة وغير مناسبة .. ولما رجعوا اتصلت بهم فطلبوا مني الرحيل من حي برقوقة والحياة معهم وترك الحدادة ، ولما رفضت ذلك غضبوا وأنكروني فزرتهم مرة أو مرتين ثم هجرتهم كما هجروني .. منذ تركوا الحي بأمهم لم يدخلوه نهائيا ، وها هي صبرية تشهد على ذلك .. ولما كنت أزورهم في بيوتهم كانت زوجاتهم ينظرنّ إليّ ؛ كأنني متسول شحاذ دخل عليهم .. فلما رأيت الجفاء وقلة الاحترام قطعت الزيارة إليهم ومع ذلك لم يسألوا فيّ ..وهم فعلوا ذلك مع صبرية أصلا .. لا أذكر أن أحدهم أو إحدى زوجاتهم دخلت بيت صبرية .. فقد قاطعوها وهم يدرسون ؛ لأنها تزوجت الأخ جابر .. لأنني أنا زوجتها ، ولم أبقها تخدم أمهم مع أن لها بنتين .. ولما تخرجوا من الجامعات أخذوا أمهم ـ رحمها الله ـ وخرجوا من الحي وتزوجوا من بنات الأكابر ورويدا رويدا نسوا أن لهم إخوة ورحم .. وحتى البنات تزوجن من غير مشورة معي ، بل علمت بزواجهن من بعض الناس .. فقد هاجروا للدراسة والعمل ولما كانوا ينزلون البلد لا يتصلون بنا ، ولا نعرف مساكنهم أو الشقق التي استأجروها لنسلم عليهم .. فنسيناهم كما نسونا .. فمأساة يا إخوان مأساة!! أسوأ شيء أن ينسى الإنسان الإحسان والجميل الذي قدم له .. استعروا منا أنا وصبرية .. سامحهم الله يا أولاد .. آ يا أحمد هل عرفت الحق أنت وأخوك وعمتكم ؟!

تمتم الشباب وقال أحدهم : أمر يؤسف له يا جدنا العزيز !! صدق أننا تفاجئنا بهذه الاستغاثة

وظننا أن جدنا يهذي ويطلب أناسا ميتين فعلا .. حتى أقرت جدتنا بالحقيقة المغيبة .. فأدركنا الخطأ الشنيع الذي وقع فيه الإخوة بحقكم .

فقال أبو أحمد : أنا ألوم أجدادكم .. وأكثر لومي كان على امرأة أبي .. أظهرت لهم أننا نبغضهم ، وأننا أخذنا أموال والدنا دونهم .. فشبوا على كرهنا ، وإنني أنفق عليهم من أموال أبي الحداد المسكين الذي هلك ـ رحمه الله ـ وأنا ابن عشر سنين قد تزيد سنتين .. كانت امرأة سيئة لم تربهم على حبنا أنا وصبرية .. فأنا الذي لم أقصر معهم أيام الجامعة ، وأنفقت عليهم بفضل الله من شغل محددة أبي من عرقي أنا .. أبي لم يترك لنا إلا الشيء اليسير ، وصبرية كانت تدرك ذلك .. والبيت الذي ما زلت أسكن فيه منذ اشتراه والدنا ـ رحمه الله ـ هو نفس البيت الذي تركه الوالد ؛ ولكني جددت بناءه كما تعلمون .. كانوا يتطلعون لفوق فوق .. لا مانع من التطلع والصعود لفوق ؛ ولكن هذا لا يسمح للواحد أن ينسى أهله .. فها هو الشاب البطل ـ وأشار لمالك وهو منفعل ـ محامي كبير ودكتور في القانون الدولي ، ودرس في الخارج في بريطانيا أعظم دولة في أوروبا ؛ ولكنه يعيش معنا في حي برقوقة لم يتكبر علينا .. لماذا لم يجبر أمه للخروج من الحي؟! .. للحياة في حي يليق بمقامه .. ولكن الحداد الفقير خليل زوج أمه لا يريد الخروج .. فقبل الأمر برضا ؛ بل لم يحاول الحياة خارج الحي .. بل تزوج ابنة رجل القانون الأول في بلادنا النقيب السابق عبد الكريم ، وسكن بزوجته ابنة الأكابر في حي برقوقة. ألا تطيب الحياة أيها الناس إلا في أحياء الكبار؟!.. ألا يوجد تعساء في تلك الأحياء؟! وهذا مهندس كبير ومدير شركة كبرى ويسكن في حي برقوقة ـ وأشار لربيع ـ وهذا الدكتور عدنان ابن أختي هذه وابن هذا الرجل الفاضل يسكن في حي برقوقة .. ألا تطيب الحياة إلا في حي رحمات وبركات .

قال مالك : اهدأ يا عم .. راع صحتك .

مسح خليل فمه وحاول الهدوء فقال : أنا أريد أن أقول هذا أمام هؤلاء الشبان الأبطال لينقلوا الكلام لأهليهم .. ويتعلموا هم أيضا .. أنتم يا مالك ويا ربيع ويا ابن أختي فخر الحي

فها هو ربيع مدير شركة كبيرة في البلد ، ويسكن في حي برقوقة ، ويبني في حي برقوقة ، ويعيش في بيت متواضع ، ويسهر يوميا مع أمه .. وها هو ابن عمتك يا أحلام الأستاذ الدكتور ومدير مدارس خاصة ، ويستطيع أن يكون أستاذا كبيرا في جامعة أو معهد يسكن قرب أهله في حي برقوقة .. ويا ابنة أخي لو سكن الإنسان في أي حي من أحياء المدينة والدولة ؛ لكن لا ينسى أهله حتى ولو ظلموه ونهبوه .. أنا متأكد أن أجدادكم لا يعرفون أحدا من عائلة فرفر .. فهم نسوا هذه العائلة منذ نكحوا بنات الأكابر .. فنحن أكثر أقاربنا لا يسكنون هذه المدينة لعلمكم يا أولاد .. نحن أبناء بلدة بعيدة من هنا ، جاء أبي لظروف مرض أمنا .. ومرات قليلة كنت أذهب إليهم للمشاركة في عزاء أو فرح ..

يذكر القراء الكرام أن خليلا ذكر سابقا أن والده أتى به وبصبرية وأمهما لمعالجة زوجته أم خليل بعد ولادتها لصبرية بشهور ثم هلك ، ولما فضفض خليل عن نفسه قال : آ ، يا صبرية ! أتحبين الصلح مع إخوتك بل الذهاب إلى وداع أخيك الذي يموت أم ... ؟

فقال عدنان : لا يا خال أنت صاحب القلب الكبير .. سنذهب جميعا للتعرف على أخوالنا وأولادهم وخالاتنا وأولادهنّ !

فقال خليل ملتفا للضيوف : على كل ها أنتم عرفتم البيوت يا أولاد .. وغدا اتصلوا بمالك حتى يرتب لنا زيارة لأبيكم .

فقالت المرأة : ألا تذهب معنا الليلة يا عم ؟!

ـ غدا يا بنية .. حتى تهدأ أعصابنا ونستوعب القضية .. لا أريد أن أنفعل أمامهم ويحدث ما لا نحب .. فهيئوا النفوس أنتم ، وغدا ترتبون مع مالك أو عدنان وتأتون إلينا ونرافقكم إلى حيت تتفقون ، ويذهب الكبار لمصالحة الصغار .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

الصلح

انتشر الخبر سريعا ، كان لانتشار هذا الحدث في برقوقة وأحباب برقوقة خبرا مهما ومثيرا ، فتحدث الناس عن ظهور إخوة الحاج خليل فرفر بعد هذه السنوات من الاختفاء ؛ كأنهم جاءوا من كوكب آخر ، والمؤلم أنهم من سكان المدينة الكبيرة ، وليس كما يشاع بأنهم تركوا البلاد والعباد منذ عشرات السنين ، وإن لهم أحفادا وأبناء ، وإنهم ليسوا في أمريكا اللاتينية وغيرها من مدن العالم كما أشيع في بعض الأحيان .. إذن لخليل وصبرية أهل في المدينة !

فهم منذ انقطع عنهم خليل لم يظهروا في حياته .. واستغربت منى لهذا الخبر العجيب ، أخوة يعيشون في مدينة واحدة لا يتصلون ببعض منذ عقود .. واشتغلت الهواتف يمينا وشمالا تنقل هذا الخبر .. ومثل ذلك حدث في قصر السيد منير أحمد وزوجته وبين الأولاد والأحفاد .. وانشغل الجميع بالتهيؤ والاستعداد لمقابلة الأخ الأكبر لهم ، فكان خالد الشقيق الأكبر لمنير على اتصال مع أخيه ليفهم الكيفية التي سيلتقون بها بإخوتهم خليل وصبرية.. وطلب خالد من الشقيقتين فاطمة وسعيدة المشاركة في هذه المصالحة التي ستتم في بيت الدكتور منير .. فأجلتا اللقاء إلى لقاء آخر ، بعد تصالحهما ، فلم يضغط عليهما ، وترك لهما الحرية ..

ورتب مالك وعدنان مع أحمد ويوسف أن يكون اللقاء الأخوي بعد صلاة العصر ، فلما أتى عصر اليوم التالي أقبل الشابان بالسيارة الأمريكية التي أتيا بها ليلة أمس ، وعلى رأس الشارع المعروف لنا انتظرا ، ولما خرج خليل من المسجد اتجه إليهما وحياهما ، فقال أحد الشابين معتذرا : اعذرنا يا جدي ، كان من المفروض أن يأتي جدنا إليك ليقدم لك اعتذاره ولكنا بينّا لكم عذره .. والجد خالد مستحيي من مقابلتكم .. فالبركة فيكم .. وتأكد يا سيدي أن الجد منيرا بشوق كبير لحضرتكم وإلى أخته أم علي .. وكله ندم وآسف وحسرة .

وكان مالك قد ذهب لإحضار عمته صبرية وأمه وعدنان ، فركب عدنان وأمه مع ربيع ، وركب مع مالك المعلم خليل وجميلة .. وانطلقوا خلف السيارة الأمريكية

وكانوا قد عرفوا المنطقة التي هم ذاهبون إليها ، وفي أقل من ساعة كانوا يزلفون القصر

الجميل الذي يعيش فيه الدكتور منير أحمد .. وكان بعض الشباب يقفون أمام الباب في انتظارهم .. ولما هبط الضيوف تقدمهم خليل أبو أحمد فصافح الشباب وحيا الفتيات وكان الحفيد أحمد يعلن لهم أسمائهم بصوت مسموع ، وتقدم بعضهم أمام الحداد خليل نحو القاعة التي يجلس فيها المريض .. ولما لمح خليل أخاه المريض تقدم نحوه مسرعا ، وانحنى عليه وعانقه وهو يقول : سامحك الله يا منير .. قطعتم الرحم .. غفر الله لنا.

خرجت هذه الكلمات وهو يقبل جبين أخيه والدموع تتساقط على خديه ولحيته والآخر يقول بصوت واهن : سامحني يا خليل .. ظلمناك بهجرنا ـ وأشار لخالد ـ وهذا أخوك خالد .

انتقل خليل معانقا لخالد الذي يقف مضطربا ووجه شاحب ، وتقدمت صبرية لأخيها العليل تعانقه وتسلم عليه ، وهم يبكيان ، وهو يعتذر لها عن عقوقه لها ونسيانه إياهم ، وإنه ناكر للجميل والمعروف .. فسامحته وهي تذرف الدموع ، وجرى العتاب بينهم بلطف مراعاة لصحة السيد منير .. وتعارف الجميع ، واعتذر خالد لهم عن أخواته وقال : لقد خشين توتر هذا اللقاء .. خوفا وشفقة على أخيهنّ منير ؛ ولكنهن راغبات بالاعتذار لكم .. وسنحاول الاتصال معهن الآن ونقل لهن أن الأمور تسير على ما يرام .. وأن قلب أبي أحمد قلب واسع ، وسيبقى الأخ الأكبر لأسرة أحمد فرفر .. أخذتنا الدنيا وضيق الأفق يا أبا أحمد وغرتنا الأموال والمناصب .. فسامحونا ونحن بين يديك .. لعنة الله على قسوة القلب والجهل .. فأنت الأخ الكبير وصاحب الفؤاد الواسع فاصفح عنا فنحن إخوتك الصغار الذين كنت تنفق عليهم وتعلمهم !

تبسم أبو أحمد لمداعبة خالد وهكذا فهمها وقال : الحمد لله ، وأقول كما قال النبي يوسف عليه السلام " قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " غفر الله لنا ولكم وها هو حبيبي مالك ابن زوجتي الفاضلة أم ربيع بطل ومحامي قد الدنيا في البلد ودكتور عالمي ، ودرس الدكتوراه في بلاد السكسون ومؤلف كتب ويكتب في الصحف ، وتزوج ابنة نقيب المحامين الأسبق النقيب المشهور الأستاذ الكبير عبد الكريم أبو عزمي ، ومع ذلك ها

هو يعيش معنا في حي برقوقة ، وبنى بيتا في برقوقة .. ولم يتخلَ عن أمه وزوج أمه .. لم يكبر علينا ، ولم يقل لأمه أنا رجل كبير في البلد وهذا الحي لا يليق بي لنرحل لحي بركات وغيره من الأحياء الحديثة والراقية.. وذا أخوه ربيع المهندس المعروف ومدير شركة كبيرة في البلد .. يسكن حي برقوقة الحي الغلبان .. وذا ابن أختكم الدكتور عدنان جابر ولد وعاش وكبر في حي برقوقة ومدير مدرسة كبرى ومسؤول في مجلس إدارة مدارس أخرى ، والدكتور عدنان يمكنه العمل في أكبر جامعة في البلد ، وإخوته صاروا ، منهم الطبيب ومنهم المحامي والمهندس ، وإن رحل بعضهم لأحياء أخرى لم يطلبوا من أهليهم الرحيل والحياة في تلك الأحياء.. الناس هي ترفع من مستوى الحي رويدا رويدا ، تطور الحي بالمباني الشاهقة والشركات والمطاعم والخدمات والشوارع .. نعم هذا هو الأصل .... فلو سكن الشخص في حي بركات حي أصحاب الأموال والثروات فلا ينقطعوا عن أقاربهم الفقراء والضعفاء.. هل لأن أخاهم حداد وأمي عيب وعار .. كان لابد من قول هذه الكلمات لأنفس عن نفسي .. وغفر الله لنا ولكم ولا تثريب عليكم.. كان من اللازم حضور البنات هذه الجلسة .. لم يعد أمامنا من العمر الكثير .. فنحن حضرنا ولم يهتز لنا شارب ولم تنقص لنا كرامة ..

كرر الأخوان الاعتذار من جديد ، واعترفوا بتقصيرهم ، وقدروا شجاعة خليل وجهاده في تعليمهم ، وأنهم غرتهم الدنيا والمال والسمعة ، وشكر مالك فخر عمه بهم ، وتمنى دوام العافية لهم ، وطلب منير الهاتف وتحدث مع أختيه شخصيا وحثها على المجيء ، وكان بعض أحفاد فاطمة وسعيدة بين الحاضرين والمستقبلين وحاضرين لقاء الصلح هذا، فتطوع بعضهم للمجيء بجداتهم وأعمامهم .. فصاح منير : المهم جداتكم الآن اذهبوا وارجعوا بهنّ بسرعة حتى يرتاح ضميري وأفارق هذه الدنيا وأنا راض عن الجميع ، وقد نلت بركات أخي الكبير خليل وأختي الكبيرة صبرية .

وذهب حفيدان كل بسيارته لجلب جدته وحثها على المجيء ، وفعلا بعد حين يسير كانت الأخوات قد قدمن بدون أزواجهن وحتى أبنائهن ، وتصافحت الأخوات مع الأخوين خليل

وصبرية ، وأخذن يبررن هجرهن تبريرات لا تدخل عقل إنسان واع ومدرك ، وإنما كان الهجر مجرد جحود وهوى، فالعقوق ليس له عذر أو حجة ؛ فإنما حجة نفسية وغضب وكره وحقد خفي ، وبينما الجميع يعتذرون ويتعارفون ويتسامحون دخلت امرأة المجلس وسلمت ، فقالت لها امرأة جالسة في المجلس : تعالي تعرفي وسلمي على خالك الحاج خليل يا عبير وعلى خالتك الحاجة صبرية .

كان مالك قد عرف من هي المرأة عندما زلفت المجلس ، بل هي عرفته لما شاهدته ، وقد تلاقت عيونها ودهش كلا الاثنين ؛ ولكنها تقدمت تصافح خالها المدعو خليل ورأسها تدور بكثير من الأفكار والخيالات ، وهذا عند مالك أيضا ، ولما انتهت من الترحيب والتعرف التفتت لمالك الصامت والناظر إليها بوجه متلون : ألست مالك ربيع ؟!

هزّ رأسه وقال : بلى ، وألست عبير ناصر ؟!

قالت : بلى ! وأشارت بيدها مستفهمة حتى أن أحدهم قال : لعلكم تعرفون بعضا ؟!

نظر مالك للسائل لحظات سريعة وأفكار كثيرة تلف في دماغه وذاكرته ورد: نعم نعرف بعضا ولقد التقيت بالأخت مرة واحدة على ما أذكر في شركة التجارة العالمية .

قالت عبير : أجل ، وكنت يومها مع برهان زوج أختك منى ربيع !

فتمم مالك ساهما فقال : زوج أختي منى ربيع .. منى ربيع ؟!

ولما خيم الصمت على المكان قال مالك : هذه يا عم خليل يا أبا أحمد ابنة أختك ـ وأشار لعبير ـ عبير تكون أخت زوج منى السابق حازم ناصر !

ذهل السامعون ، وغمم خليل وهو كالمصعوق فقال : ماذا قلت ؟!

ـ أقول أن ابن أختك المسمى حازما هو الذي تزوج أختنا في يوم من الأيام !

كانت العيون تتطلع في بعضها البعض استغرابا وقال خليل : أمعقول هذا يا فاطمة ؟!

فقال مالك : بالتأكيد أليس هكذا يا عبير؟!

فقالت : طبعا ، ما دام أنا أخت حازم .. فحازم ابن أخت خليل أحمد فرفر ، والتفتت لأمها

الشاحبة اللون كالأموات وقالت لها فجأة: أتعرفين ذلك يا أمي ؟!

طأطأت فاطمة رأسها مقرة بمعرفة هذه الحقيقة وقالت : كنت أعرف! ولما عرفت صدمت ! ومن أجل ذاك حاربت ذاك الزواج بشدة .

تعجب القوم لقسوة قلب هذه المرأة ولؤمها، فقهقه خليل من القهر وقال : دنيا !! ولكن هذا كان خيرا لنا وللبنت .. أنتم لا تستأهلون ظفرا من بنات أم ربيع .

فتدخلت عبير قائلة : والله يا خالي ما كنا نعلم هذه الحقيقة ، نحن أصلا لا نعرفكم .. نحن من قريب عرفنا أن لنا خالا ثالثا وخالة ثالثة .

فرد مالك وبحدة خفيفة : لا عليك يا عبير .. نحن الآن واليوم فهمنا لماذا لا تريدون مصاهرتنا ؟! .. ولكن الحمد لله أن الله تعالى أبدلها زوجا خيرا منه ألف مرة .

فقالت أم حازم : لا أدري ما أقول يا سيد مالك ؟ .. الأمر كله لله ، وتذكر الآن أن المدعو حازما مريض ويوشك على الموت فكبده مريضة .. والأمر لله !

فتمتموا بالدعاء والشفاء له ، وعاد خليل يقول : كان من المفروض يا فاطمة أن تستغلي هذه الفرصة للمصالحة ومعالجة الوضع الخطأ .. قدر الله وما شاء فعل ، يا أخية فقد يسر لها الله الأخ برهان ، رجل مقدام أحببته أنا أكثر منكم ومن أولادي لو كان لي أولاد .. رجل فاضل أعاد لنا الفرح والحب .. مرضت قديما مرة ودخلت المستشفى أول مرة في حياتي ، ومكثت فيه أسبوعا كاملا ، يومها تمنيت لو كان إخوتي حولي .. ذاك الحدث لا أنساه لليوم .. يومها تمنيت لو أن إخوتي وأبناءهم حولي .. ولكن أولاد هذه المرأة الصابرة معي ـ وأشار لجميلة ـ وقفوا معي وقفة لا يمكن نسيانها .. كانوا معي ؛ كأنني أبوهم الحقيقي ؛ كأنهم من صلبي أنا وللأسف يومها كنت أنا وأختكم صبرية على زعل ؛ لأنني على زعل مع زوجها أبي علي .. يومها أحسست بالوحدة في هذه الدنيا .. حتى سعى الابن البار عدنان يومذاك للصلح بيني وبين أبيه .. حتى أن عدنان سعى بعد تصالحي مع والده أبي علي لخطبة منى والزواج منها ، فرفضته أنا قبل أن ترفضه منى التي كانت متعلقة بابنكم يومذاك ، وقلت له يا ابن أختي أنتم

كذا وكذا ، ولم أفتح الموضوع مع أم ربيع بطلبه حتى هي فاتحتني به ؛ لأن صبرية تحدثت معها فأبديت أيضا عدم حماسي لهذه المصاهرة مع أني لست إلا زوج أم للبنت وإخوتها ، وتركنا الأمر للبنت ، فاعتذرت لأنها تدرس إخوتها وتساهم في تدريسهم ، وكان مالك وحنين صغارا يدرسون بعد .. فظهر لنا المدعو ابنك يا فاطمة ابن أختي ولم أكن أعرف هذا .. فجاءني للمحل وتحدثت معه فقلت احضر أهلك وحياك الله .. ثم تبين لي أن متفق مع منى الفاضلة على كل شيء ، وعرفنا أن أهله غير راضين بهذه الزواج ، وأنه يريد الاقتران بها دون رضا أهله ، فظنت منى الطيبة أن ذلك شجاعة وتضحية منه فأحبت أن تجاريه .. وأنا رفضت يومها بشدة .. ولكنها أبت وغلبتها العواطف وموقفه الغريب وما كانت تراه في التلفزيون فأصرت على الزواج منه ، فاضطررت لتطليق هذه المرأة الفاضلة بعد عشرة سنوات.. ورحلوا من برقوقة لإتمام هذا الزواج الشاذ عندي .. ومع ذلك حارب أهل حازم هذا الزواج ورفضوه .. لماذا رفضت يا فاطمة ؟!

سعلت فاطمة عدة سعلات قبل أن تجيب على السؤال وقالت : رفضت لأنني عرفت أن الفتاة من حي برقوقة .. وكان أبغض شيء إليّ ولليوم هذا الحي مع أنني ولدت فيه وكبرت فيه .. كانت عبير تحدثني عن الحب المزعوم والموهوم بين حازم وابنتكم .. ولما عرفت عنوان منى صدمت ولم ارتح لهذا الزواج البتة .. وهذا العنوان موجود في ملفها في الشركة .. ثم عرفت من هي منى عندما سألت بعض الناس .. فصعقت أكثر .. خليل أحمد أخي ابن أبي متزوج أم تلك المنى فزاد رفضي وغضبي .. وقلت " نحن ما صدقنا أن ننسى خليلا وصبرية وبرقوقة " فحذرت حازما من هذا الزواج ، ودفعت عبير لتحاول دفع منى عن هذا الزواج .. وأظهرت أمامهم أن هذه فتاة طماعة جشعة متسلقة تريد الولوغ في ثروتنا ومالنا .. وما هي إلا مجرد موظفة صغيرة في شركة .. لا يجوز التعلق بها .. وأننا لا نتزوج إلا من بنات الأكابر والأثرياء وليس أي أثرياء .. وهكذا تزوج أولادي الكبار والبنات ، فاقتنع الجميع بوجه نظري ولم يدققوا عن سبب رفضي الشديد .. أعرفتم لماذا رفضت هذا الزواج ؟! ولكنه عاند وتزوج

رغم أنفنا ، ولم أقبل بالهزيمة والخضوع لمَ يسمونه الأمر الواقع .. وطردناه من الشركة ليطلق فكابر وفتح مصنعا فدمره المصنع وسافر هاربا لأمريكا ، وهناك تحطم نهائيا وسقط في براثن المخدرات والكحول بكثرة .. وأرسل لنا يريد التوبة والعودة ، فطلبنا منه الطلاق قبل العودة فحصل ذلك .. وأما لماذا كرهتك أنت يا خليل ؟ لأنني كنت أحلم بدخول الجامعة .. وكنت أنت ترفض بشدة .. وكانت أمنا تكرهكم فغرست فينا هذا الكره ، وأشعرتنا أنك تدرسنا من ميراث أبينا ليس من شغلك وعملك .. وإنما تتظاهر بأنك تنفق علينا لتحملنا جميلة ومنّا .. وكانت مشاكلك المتكررة مع أمنا تدفعنا لهذه الكره والحقد والبغض ، ونراك عدوا لنا ولطموحنا ، ولا تنسى شتمك لأمنا وتهديدها بزواجنا بعد الثانوية العامة ووجود العريس على الباب كما فعلت بأختنا صبرية ..فلما تخرج أخوتنا طلبت أمنا الرحيل من برقوقة .. وحصل ذلك بعد عدة مشاجرات بينك وبيننا .. ثم تعرف أخوتنا على زملاء أغنياء وأكابر وتزوجوا من بناتهم .. ولما درسنا زوجنا أخوتنا منهم .. ورويدا رويدا انسلخنا من جلدنا وعشنا ردحا من الزمن في أمريكا ، فنسينا خليلا وصبرية .. وماتت أمنا وهي غاضبة عليكما وكذلك نسينا برقوقة .. ولما عدنا للبلاد كانت الدنيا قد تغيرت ولم نحاول البحث عنكم والسؤال عنكم ، وانشغلنا بالاستثمار والشركات حتى ظهرت لنا السيدة منى ، وعرفت أنا من هي منى ؟! فجن جنوني فحاربت الزواج بشراسة .. فهذا سبب حقدي وبغضي أنا وسعيدة لك يا خليل وراحت صبرية كما يقولون في الرجلين .. لأن أي اتصال بصبرية سيعيد خليل إلينا .. وتزوجت قبل أن نهجرك ونبتعد عنك نهائيا !

ـ حقد اسود ! وبما أننا في جلسة مصافاة وفتح صفحة جديدة .. اعلمي أن طلاق منى كان خيرا لها ولنا .. وأنت لا تستحقين النعمة .. فمنى الآن دكتورة كبيرة في الجامعة .. وأنتم أفسدتم أخلاقها ، والحمد لله الذي نجاها منك ومن زوجك ومن ابنك الساقط .. وكاد المنحوس أن يدمرها ، فساءت أخلاقها وتحطمت أحلامها عندكم.. ولما طلقت وخلصت منكم كنت قد تزوجت امرأة بعد طلاقي لجميلة ثم ماتت ، وقام المهندس ربيع والأستاذ

□□□

عدنان بتزويجي من جميلة ثانية بعدما ترملت ، وكان عدنان متزوجا من ابنة أخت جميلة ..
وعادت جميلة أم ربيع للحياة معي من جديد في حي برقوقة ، وعادت المياه لمجاريها .. ثم ظهر لنا البطل برهان أبو خليل ، واستطاع أن يعيد منى لحظيرة العائلة بعدما أفسدتموها .. ونحن اليوم أسعد البشر .. فعادت البسمة والحياة الحلوة بزواج منى من برهان محمود الدين .. فمنى اليوم غير منى التي أفسدتموها بكبركم واحتقاركم للفقراء لقد نسيتم من أنتم ؟! الخيرة فيما يختار العلي القدير .

فقالت عبير : والله يا خال ما كنت أعرف أن منى إلا موظفة عندنا ، وأنها استطاعت أن تسيطر على أخي حازم ، وأن علاقتها كانت في البداية لهو وعبث وإعجاب شباب ببعض.. وكما تعلمت أننا لا نتزوج إلا من أبناء الأكابر والأثرياء فهذا مسحوب أيضا على البنات .. مع أنني رأيت أحد أبناء خالتي سعيدة تزوج من فتاة أقل منا ثراء ومال .. فلتأثري بهذا المبدأ التعيس قنعت مع أمي في رفض الزواج ممن أقل منا مالا وجاها حفاظا على هذا المبدأ الأناني وعلى تقاليد العائلة .. وبما أننا في جلسة مصالحة وفتح صفحة جديدة فأقول أننا أخطأنا في حقكم عن جهل وبصمتنا .. المشكلة أننا لم نسمع بكم إلا منذ مرض خالي منير شفاه الله !

فقال أحد الشبان مداعبا عبير : والله يا عبير أصبحت تحسين الخطابة والكلام .. من أين استجديت كل هذه الشجاعة ؟!

التفتت إليه عبير وتبسمت لهذا التعليق المتهكم ، ونظرت لمالك الصامت كالتمثال وقالت وهي تشير إليه : من هذا الرجل ! من مالك ربيع ! .. ومن الأخ برهان ! فأنتم لا تعرفون مالكا ولا برهان .. فبرهان هذا زوج من كانت زوجة أخي ، إنه إنسان بطل كما قال الخال خليل .. فأنا أعرفه منذ أيام دراستي في الجامعة .. حتى أننا كنا نسميه المصباح أو هو كان يحب أن يدعى بذلك اللقب.. أتدرون لماذا أيها الضاحكون ؟

ـ آ .. آ .. أيتها الخطيبة ؟!

فتابعت تقول غير عابئة بتهكمهم : لأن كثيرا من فتيات الكلية كن يرغبن وتود إحداهن أن

يكون صديقها ، فكنا من جماله وحسنه ووسامته نحوم حوله كما تحوم الفراشات حول النار والفانوس.. ومع ذلك لم تسجل عليه أي قصة أخلاقية في الجامعة ومع كثرة صديقاته .. ومع ذلك لما قصد الزواج هذا الإنسان تزوج امرأة مطلقة ؛ لأنها الوحيدة التي أحبها بصدق مع أنه لم يرها إلا مرات قليلة .. كما قال لي .. أتدرون من هذه الفتاة ؟ إنكم سمعتم اسمها يتردد هنا إنها منى ربيع ربيبة خالي الحداد .. الذي لم يستعر من مهنته لليوم .. فبرهان بطل فعلا كما قال الخال أبو أحمد.. برهان بدأ ومنى في فتح مكتب تدقيق صغير للحسابات والموازنات للشركات العامة والخاصة وللجرد أيضا .. فتذكرته وتعارفنا من جديد والتقيت بمنى ربيع من جديد .. في البداية ظننتها عاملة معه .. لأنني التقيت بها قبل زواجها ثانية في متجر أثاث كبير .. ولما عرفت أنها زوجة لبرهان كانت بالنسبة لي مفاجأة أيها الكرام .. ولما تأكد ذلك عندي أكبرت الأخ برهان .. ترك كثير من الحسناوات ليرتبط بمنى المطلقة .. هذا موقف كبير ، ومع أنه عرف أنها كانت زوجة لأخي استمر بيننا العمل والشغل ، وكان بغنى عن الشغل معنا ، فالشغل لديه يكبر ويكبر فاليوم مكتبه من أكبر مكاتب الحسابات في البلد.. وحاولت أمي أن أبتعد عنه ؛ لأنه زوج منى أو مطلقة أخي ؛ ولكن برهان ومنى الشركاء في المكتب اعتبروا الأمر عاديا وليس بالضرورة أن كل زواج ينجح .. واعلم يا خال خليل أن أخي حازما عندما كان زوجا لمنى وطرد من حظيرة العائلة لتمرده على قانون أمي أخذ قروضا وفتح مصنعا ؛ ولكنه انكسر ، وصفي المصنع بعد حين ، وبيع ما بيع ، وبقيت قروضا عليه وهي باسمه .. اسمه وحده .. سافر لأمريكا آملا بتحقيق الأحلام في بلد الدولار كما حدث لوالديه قديما .. ولكنه سقط في تعاطي المخدرات وشراهة الخمر آملا بنسيان ما هو فيه من ضعف.. الهيروين لا يرحم.. تضايق أولاد العم منه بعد نقله للمستشفيات عدة مرات فأرسلوا لنا ، فوافق الأهل على عودته إذا طلق منى ربيع .. ففعل وتنازل عن حبه وزوجته ، وصفى المحامي قضية منى مع أخيها مالك المحامي الصغير تلك الأيام .. وعاد حازم المريض المتعاطي إلى هنا للعلاج من المخدرات ، وأدخل كما يعلم الجميع لمركز علاج المخدرات

والإدمان .. وكانت الأخت منى تسد أقساط الدين التي تركها قبل سفره ، فلما طلقت توقفت عن ذلك .. فلما علمت الشركات بعودته عادت تطالبه بتسديد الأقساط الشهرية .. فسدد بعضها مما يأخذه من راتب من الشركة .. شهر يسدد وآخر لا يدفع .. ورفض الوالدان التسديد عنه .. وطلبا منه أن يطلب من شريكته أن تسدد عنه .. فهي التي ورطته في المصنع والديون .. فالتقى بالأخ برهان بالبطل برهان ربما الكثير من الأهل لا يعرفون ذلك .. المهم أن برهان تحدث مع مالك ربيع بالموضوع ، وتحدثوا معي بعد أن عرفوا كم بقي للشركات الدائنة ودفعوا النصف مع أن الأوراق والكمبيالات مسجلة باسم حازم .. فيومها عرفني الأخ برهان على الأستاذ المحامي مالك ـ وكانت تشير إليه ـ ودفعوا النصف عن رضى، وهذا النصف يزوج برهان من فتاة أخرى .. وأنا دفعت حصة حازم وأغلقنا الديون القديمة .. وعلى أن أخصم المبلغ من الراتب الذي أدفعه لحازم .. هذا موقف كبير لبرهان ومالك ؛ لأنني علمت من برهان أن الأخ مالكا دفع مساهمة في دين أخته ألفين دينار.. وأنه طلب منه أن لا يذكر ذلك أمام منى.. هكذا الرجال يا خال خليل! .. وظلت علاقتنا ببرهان طيبة وحسنة ؛ ولكنها في حدود العمل فحسب وما زالت .. ثم علمنا فيما بعد بزواج السيد مالك من ابنة النقيب عبد الكريم وهو صاحب للوالد .. وأخذت أقرأ كتابات الأخ مالك بشغف في الصحف الحزبية وغير الحزبية مع أنني لم أره إلا مرة واحدة .. وحدثت الوالدين بهذا الزواج وقلت لهما إن مالكا هذا أخ للسيدة منى ربيع ، وهو يكاد أن يصير من الأكابر .. لم تهتم أمي بذلك الخبر ، ولم تندم حتى أنني بصراحة أقول يومها شعرت أن بين أمي ومنى حقد شخصي وأنا أقول أمام الجميع يا أخ مالك أنا معجبة بك غاية الإعجاب ، وأقرأ كل ما تكتب أو يصل إليّ .. وتعجبني مقالتك النقدية أو التوعوية والتثقيفية .. أنت مبدع ، وكلما التقي ببرهان إلا وتكون أنت محور حديثنا ، وقد أهداني الأخ برهان بعض كتبتك عندما رأى شغفي بما تكتب في المجلات وغيرها .. فأنا بعد كل هذا الكلام تعلمت الشجاعة والخطابة من هذين الشخصين .

فأبدى مالك شكره وامتنانه لما تفوهت عبير ، وقال بنوع من العتب : شكرا .. يا حبذا لو كتمت أمر الدين .

فعادت تقول وهي تهز رأسها : وربما بعضكم لا يعلم أن الأخت منى اليوم دكتورة كبيرة في الجامعة ، وأمي تعلم أن حسنا ابن حازم يتتلمذ على يديها ، وكذلك حنان ابنة سلوى بنت خالتي سعيدة .. فلما علمت أمي أن سلوى ابنة أختها تعمل عند منى في مدرسة الأطفال قبل سنوات تألمت وتضايقت ، فعجبنا لهذا التشنج ، وأصرت على سعيدة أن تترك ابنتها سلوى المدرسة ، وسحبت ابنا صغيرا لحازم من المدرسة لأن الأخت منى مديرة لهذه المدرسة لماذا ؟ اليوم فقط عرفنا لماذا ؟! وحدثني حسن ابن أخي أنه عرف الدكتورة منى على شخصه ، وأنه ابن زوجها الأول، وأخبرها أن والده مريض .. فلم تتضايق من هذه المعرفة ، بل سامحت والده ، وأخبرته أنها سامحته عندما حجت مع زوجها برهان .. ودعت له بالهداية والشفاء .. وأن هذا تاريخ لا يهرب منه الإنسان! .. في النهاية أقول يا خال هنيئا لك هؤلاء الأيتام البربرة وقد صنعت منهم رجالا أوفياء ، وقد صنعت قبلهم من أخويك رجالا ولكنهم خذلوك .. هنيئا لك هذا الجهاد .

فرح خليل بهذا الكلام من ابنة أخته وقال : أنت فعلا شجاعة يا عبير عندما قلت كل هذا الكلام الطيب !

فهمست ثانية : تعلمت الشجاعة كما قلت لكم من الأخ برهان والأخ مالك .. وأنا سعيدة بهذه المعرفة مع أنني أعرفه من الكتابات والمقالات ، فهذا سيعزز الاتصال بيننا يا خال خليل فهذا يوم ممتع أن تعرفنا على خال طيب لنا مثلك .

لزم أخوالها وحتى أمها وخالتها الصمت ، ولم يعلق أحد بشيء على كلام عبير ، وقد تعجبوا فعلا من قدرتها على الحديث بهذا الشكل ..

وقالت أيضا : أنا فعلا سعيدة اليوم ؛ لأننا سنصبح أصدقاء حقيقيين يا أخ مالك يا أبا برهان !

فقال لها مالك : بارك الله فيك .. وتشرفنا صداقتك .. وكل من يحبه العم خليل فنحن نحبه فالعم خليل والد الجميع ، ونحن والله نتمنى أن نقدم له شيئا ولو يسيرا لمَ بذله من أجلنا .. والأخ برهان رجل مبارك يا أخت عبير !

فقال أبو أحمد : نعم ، هذا الإنسان الغائب الآن الحاضر دائما بركة لنا جميعا .. أتدري يا أخي يا منير ويا أخي يا خالد أن هذا الشاب عندما ناسبنا وأخذ ابنتنا منى رضي الله عليها ؟ .. فله أخ طبيب ربما سمعتم به الدكتور عبد القادر محمود الدين .. فمنذ تصاهرنا وتعارفنا وهو يتابعني أنا وزوجتي جميلة دوما ، وعندما نحاول أن ندفع شيئا يزعل ويحلف ويغضب منا .. ويصر علينا أن نمر عليه دائما .. ولما حاول ربيع ومالك نقلنا لغيره رفض وعتب علينا .. هذا أخو برهان فقط .. وهو طبيب كبير .. فالحق أن ابنة أختي عبير أحسنت الكلام ووضحت أشياء قاسية ؛ ولكنها جميلة وتدفع بقوة لفتح صفحة جديدة بيضاء .. والاستكبار والاستعلاء على خلق الله يضر يا إخوان الشخص نفسه .. ما أثرتم عليّ بشيء .. ربما تأثرت نفسيا في بعض اللحظات العابرة ؛ لأن الأخوة كنز كبير .. ولن نعود لدفاتر قديمة وحسابات عتيقة فنحن كبرنا وكلنا على وشك الرحيل .. فلتصفوا القلوب يا فاطمة ونتسامح ونعفو .. ماذا يقول الدكتور مالك ربيع ؟!

التفت مالك لعمه وترك الهمس مع عبير شاكرا لها ما تفوهت به نحوه ونحو أخته وزوج أخته السيد برهان فقال مالك رادا على العم خليل : كما تشاء يا عم فأنت كما تعلم منذ عقود وليس اليوم أن كلمتك أمر .. ونحن ليس بيننا وبين هؤلاء القوم أي مشكلة .. فالزواج كما يقول الناس " قسمة ونصيب " والأمر كما قالت السيدة فاطمة " الأمر كله لله " ، وأنا بالنيابة عن أختي منى أقول ومع ما سبب لها من ألم ، وما تعرضت له من الطرد والتجريح في مكتب السيد ناصر .. إنها مسامحة وغافرة ، وقد أكدت الأخت عبير بارك الله فيها أن ابن السيد حازم تلميذ هو وابن خالته عندها ، فقد أكدا لهم أن الدكتورة قد سامحت وغفرت لزوجها الأول .. واليوم عرفنا سر هذه العداوة والبغضاء العجيبة ، وكما قال والدنا الكبير أبو أحمد "

□□□

لا تثريب عليكم اليوم " ولله الحمد والمنة والفضل بيد الله سبحانه .

وتسامح القوم من جديد بالألفاظ المهذبة ، وعلى أمل أن تصفو القلوب كما صفت الأيدي والألسن .



وما انتهى شهر على هذا الصلح المتأخر عند آل فرفر حتى هلك اثنان ، فالسيد الدكتور الاقتصادي منير أحمد رحل وترك الدنيا لعالم آخر ، عالم غيبي ، وبعده بأسابيع لحق به ابن أخته حازم ناصر بعد أن قضت الكحول والتشمع على كبده ، ولم تعد صالحة في جسمه ، فانتقل هو الآخر من هذا الوجود إلى وجود آخر ، وإلى رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء علما .

يؤثر الموت على الناس ؛ ولكن تأثيره متفاوت بينهم ، فربما مرّ على أسرة خليل فرفر وجابر مرور الكرام .. على حسب الحب والصداقة يكون تأثير الموت ، فمن الموتى من ينساه الناس بعد موته بساعات أو أقل ، ومنهم بعد أيام ، وبعضهم بعد سنين ..

وشارك خليل وأولاد زوجته بالعزاء كما يليق بهم ، وعادوا للحياة سريعا ؛ كأن لم يكن هذا الحدث .. ولكنهم كانوا وما زالوا بين أنفسهم يستغربون من حقد فاطمة على أخيها خليل.. وكيف أثر هذا الحقد عليها حتى دفعها لتقف أمام سعادة ابنها وزوجته حتى فرقتهما عن بعضهما ؟.

ومع الصلح الذي حدث وموت ابنها حازم ما فكرت بزيارة أخيها خليل أو زيارة الحارة التي ولدت فيها والبيت الذي استقبل صرختها الأولى في هذه الدنيا .. والسيد خليل مع ذلك لم يهتم بذلك كثيرا ، وشارك في عزاء ولدها ، وقام برفقة صبرية أخته وزوجته جميلة بزيارتها

بضع مرات قبل موت حازم وبعده .
وتأثرت الدكتورة منى ربيع قليلا بما علمت من سر عذابها مع زوجها الأول ، والسبب الرئيس لبغضها، ومع ذلك مرّ الحدث بعد كل هذه السنين مرّ سريعا وذكرى ، وشاركت بالتعزية بنفسها وشخصها بالسيد منير وبالسيد حازم ، وتقبلت عذر أمه ولم تقل لها إلا " قدر الله وما شاء فعل .. هذا أمر الله .. والخيرة فيما يختاره الباري سبحانه وتعالى "، وكان أكثر حديثها مع السيدة عبير ناصر ، وقد تعرفت على بعض شقيقاتها الحاضرات العزاء ، وإن كانت قد عرفت بعضهنّ أيام عملها معها في الشركة .
وتلقت كذلك أثناء العزاء بحازم اعتذار السيد ناصر الثري المعروف بالبلد ، وتأسف لها عن موقفه ضد زواجها ، وعن موقفه عندما طردها من مكتبه ، وتأسف عن جهله بدوافع زوجته التي عادت وحاربت ذاك الزواج .
فقبلت السيدة منى ربيع عذره واعتبرته من الماضي الذي مات ، وإنه ليس لديها حقد وكره لأحد ، فأثنى عليها تلميذها حسن ابن الميت ، وأراد السيد ناصر أن يهديها سيارة من آخر طراز ، فرفضت ورفض زوجها برهان هذا الإهداء شاكرا للرجل ، وقال له : الكلام بلسم للجراح يا سيد ناصر .. وكما قالت الدكتورة منى "الأمر لله " .
واضح أن هناك علاقة جيدة بين الأسر بعد هذه المصالحة ، وبعد دخول الموت بينهم مذكرا بالآخرة والحياة الباقية .
فكان خليل يقول لجميلة : إنني يا جميلة أتذكر باستمرار الأيام التي كنت أئن منها من بعد وجفاء إخوتي وأولادهم عني .. ما زلت أتذكر تلك الشكاوي .. فها هي الأمور بعد عقود من السنين تعود صافية .. أليس من المؤلم أن نخسر ثلاثين سنة ونحن متدابرون متقاطعون؟! آه منك أيها الإنسان ! .. الحمد لله على كل حال.. الإنسان اليوم يموت قرير العين .. رحم الله سيدنا يعقوب .. كيد أولاده أبعد عنه يوسف أربعين سنة .. كما نذكر ونقول كثيرا .. الصبر جميل .. لقد رفع الأولاد جميعهم منى وربيع ومالك وحنين وبرهان وسعد وعدنان رأسي

□□□

شامخا يا جميلة .. رضي الله عنهم ، وهم محل فخر كبير لدى أهل برقوقة .

قالت جميلة : هذا من خيرك يا خليل .. ألم تربهم صغارا وتعلمهم شبابا؟ فأنت والدنا وسيدنا وهل ينسى فضلك ؟! ومهما قدمنا فنحن مقصرون ، فأيام الفقر واليتم لا تنسى يا رجل .. لقد كنت لنا خيرا من الأهل والأقارب .

ـ بل أنتم كنتم لي خيرا من الأهل والأقارب.. هل دخل ابن برهان كلية الطب كما سمعنا من منى ؟!

ـ نعم .. لقد تيسر له مقعد في كلية الطب ، يريد أن يكون مثل عمه عبد القادر وبعض أبناء أعمامه الآخرين ، وهو شاب نبيه وابن أبيه .. فسيصير خليل الصغير طبيبا إن شاء الله تعالى !

ـ وابن أمه كذلك يا جميلة !

ـ وأمه يا خليل !

بعد موت الأخ لأب لخليل بشهور قليلة اعتذر خليل من برهان وأخيه المهندس عبد الرحيم وترك العمل في المصنع ، وبعد إلحاح منه وافق الرجلان على ذلك التقاعد .. ثم بعد ذلك بقليل ترك عمل المحددة الذي ضعف أصلا منذ عمل في مصنع الحديد .

وكانت أيام هذه الأسر تمر هادئة وطبيعية دون مشاكل وهموم تذكر .. الكل في عمله ووظيفته برهان أصبح معروفا بين رجال المال والأعمال ، واشتهر في المدينة بالمحاسب الكبير ، ثم إن صحته بعدما تحسنت كما قلنا سابقا أخذت مشاكله في الجهاز العصبي تعود ويضعف بدنه ، حتى أنه بعد حين ترك مزاولة الأعمال وعكف في البيت يقرأ ويكتب حتى يعود الأولاد من جامعاتهم ومدارسهم .. وفي المساء يذهب للسهر عند مالك أو ربيع أو خليل ، وأحيانا كثيرة يلتقي الجميع في بيت أم ربيع ، ومعهم سعد الدين وحنين ، وأحيانا أخرى يرافقهم الأولاد والبنات .. وقبل أن يتخرج خليل برهان من كلية الطب كطبيب عام رحل السيد خليل أحمد فرفر عن هذه الدنيا ، وأصاب القوم حزن شديد على فراقه ، فقد أحبوه حبا جما ؛ ولكن هذا هو مصير الكائن الحي ، وحتى أن جميلة على أثر وفاته ظهر عليها الكبر سريعا ، وأصرت

زوجة مالك على أن تعيش حماتها بقية عمرها عندها ؛ ولكن ربيعا رفض وعارض وقال لهم : أمي أنا أحق بها ، وإن ابنة أخيها عندي .

وقوموا بيت خليل ووزعوا قيمته على الورثة ، فكان من نصيب جميلة الربع لعدم وجود أبناء للسيد خليل ، ووزع الباقي على صبرية شقيقته ، وعلى إخوته وأخواته لأب خالد وفاطمة وسعيدة وتنازلوا عنه للفقراء لأن صبرية رفضت أخذ حصصهم ، وأقام أيتام خليل الحداد عمارة متوسطة مكان البيت ، وسكن فيها ربيع وأفراد أسرته ومعهم الحاجة جميلة من أجل الذكريات التي كانت لهم مع أبي أحمد خليل فرفر أبوهم الروحي راعي الأيتام .

وأما بطلة هذه القصة الإنسانية الدكتورة منى ربيع فقد تربعت على كرسي عمادة كلية الآداب ولما تخرج خليل ابنها من كلية الطب قدمت استقالتها من العمل ، وعكفت قرب زوجها العليل الذي أخذت قواه تضعف يوما بعد يوم وآثرت البقاء معه وحوله وقالت : آن لي أن أتقاعد!

وكانوا قد تركوا بيت العائلة بيت الأسرة الكبيرة ، وأنشئوا قصرا خاصا بهم وبأولادهم في حي مجاور لحيهم ، وقد أقامت منى خلال سنوات البناء حديقة رائعة في جنبات القصر ، وعرائش العنب ، وأحواض الأزهار والورود .. وكان بيتهم قد أصبح محطة للزائرين والمحبين لبرهان .

ورغم العلاجات الكثيرة التي أخذها السيد برهان محمود ، فما كاد يتخرج ابنه محمد من الجامعة بقليل حتى كان يفارق الدنيا تاركا محبيه يبكون عليه الدموع الحارقة .. فقد كان محبوبا لديهم.. بل أصيب مالك بصدمة لم يتوقعها مع أنهم كانوا يرونه يذوب بينهم كل يوم.. وترك العمل أياما حتى استرد أعصابه وهدوءه واستوعب المصيبة .

وأصبحت منى وحيدة القصر وسيدته الأولى.. يذهب الأولاد لعملهم ودراستهم وتبقى وحدها مع الخادمة التي شغلتها عندما رحلت للقصر .. فكانت تتحرك وحدها في البيت والحجرات .. تجلس على كل مقعد كانت ترى برهان جالسا عليه ، وتأخذ بمخاطبته .. تذكر كلماته وأحلامه .. تنتقل للمكتبة الكبيرة التي كانت في وسط البيت ، وتجلس فيها طويلا كما

كان يفعل برهان في السنوات الأخيرة .. تقرأ من الكتب ما كان يحب أن يقرأه مرة ومرتين .. تقف إلى الشباك حيث كان يقف ، وتنظر للفراغ والهواء ، وتبقى واقفة تبحلق في الفضاء مقدرة المدة التي كان يقفها وتفعل كما كان يفعل .. لقد أحبت هذا الإنسان من كل قلبها ، وقد شغفها حبا بأخلاقه وكرمه وحبه لها .. فهو الشمعة التي أضاءت لها الحياة بعدما كادت تهوي في دركات الشقاء والفساد والتقليد الأعمى .. كانت تحس أنفاسه حولها ، وهو يبتسم لها ، ويحبب لها الحياة ، وأن المطلقة ليست نهاية حياتها في الطلاق .. المجتمع المعاصر يقسو على المطلقة ، ويجعل كل أسباب الطلاق عليها ويحملها لها .. أو فشل الإنسان في مصنع فهذا لا يعني نهايته ، فلكل جواد كبوة .. تدور في البيت ساهمة الذهن والفكر سارحة في ذكريات وجلسات.. تجلس في حدائق القصر وتتلفت يمينا وشمالا كما كان يفعل برهان .. وتقطف وردة حسناء وتقول لنفسها : كان يحب قطف الورود ويستنشق عبيرها .. ثم يقدمها لها مع ضحكة وبسمة كبيرة ولفظة حلوة كالشهد .

لقد شعر الأبناء بالفراغ الكبير الذي تركه والدهم في حياة منى أمهم.. وأصابتهم الحيرة بما يفعلون .. وتحدثوا مع خالهم مالك لحب أمهم له فقال لهم : دعوها إنها تحب برهان .. هي ليست مريضة .. إنما تحب أن تعيش مع تلك الذكريات .. أنتم لا تعرفون برهان كما تعرفه منى .. ذلك الفارس الجميل الذي هبط عليها من السماء كما كانت تقول .

كانت منى تقرأ كل ما خطه زوجها من خواطر وأفكار ، وكانت تفكر بطباعتها ولكنها قالت " لأ .. هي لي وحدي .. وبعدما ألحق به إلى هناك وأموت يفعل بها الأولاد ما يشاءون "

تقدم أحدهم للزواج من ابنتها التي تصغر خليل بسنتين .. احتارت في الأمر .. فالبنت كبرت تكاد أن تصل للخامسة العشرين وتحتاج لزوج .. أسرة جديدة .. وتحدث الأولاد مع خالهم مالك لمعرفتهم بقوة محبته لأبيهم وحبه له، ولإعجاب أمهم بأخيها مالك وأنها تقدم رأيه كما عرفوا ذلك من أبيهم.. تحدث مالك أبو برهان معها في شأن البنت والزواج فتركت الأمر له فتحدث مع جدها الشيخ الكبير وأعمامها، وتزوجت من قريب لأبيها يعمل طبيبا ، ورحلت

زهرة من البيت .. بعد وقت يسير خليل أيضا تزوج .. امرأة جديدة دخلت القصر وهي أيضا من بنات أحد أعمامه.. منى لا تحس بذلك كانت ترى أشخاصا يدخلون ويخرجون .

جلب لها خليل طبيبا نفسيا وتحدث معها فترة من الوقت ثم قال لزميله في المهنة : لا شيء عندها إنها سليمة الذهن والبدن .. ولكنها تحب أن تعيش على ذكريات الماضي مع زوجها الذي مات .. لقد كانت متعلقة به تعلقا ملك عليها كل مشاعرها وحواسها ، فهي لم تفكر بأنه سيتركها في يوم الأيام .. فأصابها ذهول أثر على الدماغ .. فهي تشعر أنه لم يفارقها بعد .. وأنها تشعر بفراغ كبير بعد ذهاب بدنه .. فهي تحب العيش مع ذكرياته وحركاته ؛ كأنها لم تفارقه ولم يمت في قلبها بعد .. دعوها فرويدا رويدا ستنسى كل ذلك ، ومع مرور الزمن سيزول الوهم وتعود للواقع والحقيقة .. دعوها مستمتعة بهذا الوهم .. أعتقد أنه لا خطر عليها وعلى عقلها بإذن الله .

كانت منى مدركة للقلق الذي يساور الأسرة من اعتكافها الدائم في البيت ، وإنما تتحرك في الأماكن التي كان يجلس فيها برهان .. وتدرك أن ابنها البكر تزوج وأن هناك زوجة لابنها تعيش معهم في البيت .. وأن ابنتها الكبيرة زهرة قد تزوجت .. تدرك ذلك كله ؛ ولكنها أحبت أن تعيش على أن برهان ما زال معها .. وإلا هي كانت تدرك أنه عندما تجدد المرض والعلة بدأ يموت ويذوي كالشمعة المحترقة.. كانت ترى ذلك وتشعر؛ ولكنها صامتة حزينة من الداخل ، لم تحب أن يعرف أنها تعرف أنه يموت ، وأن الطب عاجز عن فعل شيء .. كانت تعيش في سعادة في مثل هذه الذكريات ، ثم ألف الأولاد هذه التصرفات الساذجة .. ووصوا الخادمة أن تضعها تحت مراقبتها وعيونها باستمرار .

كان مالك ربيع يعرف شخصية منى وتكوين منى ، وفهمها منذ الصبا وعرف من هو برهان بالنسبة لمنى التي انهارت أحلامها الكبيرة في أول معركة من حياتها، ولولا ظهور هذا الإنسان في حياتها لربما ضاعت وسقطت .. وكيف ملك جوارح وفكر منى؟ وإن كانت تحاول أن لا تظهر بالضعف أمامه .. فبرهان شيء عظيم بالنسبة لها .. ولما تقدم أحدهم للزواج منها

ضحك مالك لهذا العرض مع أن منى قد دخلت على الخمسين وزادت ، ومع ذلك لا يظهر هذا السن عليها ، ويمكنها أن تعيش زوجة من جديد ؛ لكنه يعلم أن منى كانت لا ترى في الدنيا إلا برهان .. وتحرج من الطلب ، وحدث ابن منى الطبيب عن رغبة الرجل الصديق للعائلة بهذه الرغبة .. فلم يتحمس ويتشجع أولادها لهذا الطلب .. بل تعجبوا ممن سيفاتح منى بذلك .. صحيح أن برهان مات منذ أربع سنوات ؛ لكنها مازالت تناجيه وتعيش ساهمة معه في البيت .. فكر مالك قليلا بعد صمت الأولاد .. فكر أن يضع الأمر بين يدي حنين التي أبدت شكوكها بموافقة منى على الزواج ، ولو كان الزوج صديقا لهم وللأسرة .. وهو عالم أرمل مثل منى.. وأمام إلحاح العائلة تحدثت حنين مع أختها في موضوع الزواج والحياة الزوجية .. ولم تثر منى في وجهها واستمعت لها هادئة ساهمة كعادتها بعد موت برهان .. فتشجعت حنين وأعادت كلامها عن استمرارية الحياة وأن الزواج من عمارة الكون وسمة الحياة .. إنهم كانوا يرون ربما أن يكون زواجها ثانية مخرجا لها من الحالة النفسية التي تحياها .. فظهور رجل آخر في حياتها قد يساعد على عودتها للحياة والعمل من جديد ، فلما سمعت كلام حنين قالت لها منى : أنا أعرف أنكم تظنون أنني مريضة لأنني منذ مات فارسي وسيدي برهان وأنا أعيش على أنفاسه وذكرياته .. وأعرف أنكم تظنون بزواجي عافيتي .. أنا وحدي أعيش هذه الذكريات والأحلام يا حنين يا حبيبة منى .. وأنا أعرف أن برهان لن يغضب مني إذا تزوجت بعده .. فهو يحب لي السعادة .. فأنا سعيدة بحياتي يا حنين .. أنا غير محتاجة لرجل بحياتي لأنني أحب أن أبقى لحبيبي في الدنيا والآخرة إن شاء الله.. لست بحاجة للرجال أو لرجل ينسيني برهان وأيامه وأحلامنا.. فأخبري مالكا أن يعتذر لصديقه وصديق العائلة .. ودعوني أحيا هذه الأيام الباقية لي بهدوء وسكون كما أحب .

حاولت حنين مرة أخرى ثم عانقت أختها وقالت في النهاية : برهان يستحق أن تلقيه في الآخرة .. واعذريني لهذه المحاولة .. عيشي في أحلامك وهمساتك مع البطل برهان .. فهو الذي أعطاك الحياة من جديد بعد فضل الله ، رحمه الله رحمة واسعة .

لما مات برهان محمود وترك منى ربيع وحدها في القصر قل خروجها منه .. أيامها تتجول داخل حجرات القصر وحدائق القصر ، وإذا جلست مع ضيوفها وضيوف أولادها تجدها صامتة ساهمة تمسك وريقات كتبها برهان أيام عكوفه في البيت .. وإذا تكلمت تكلمت عن أيام برهان ومواقف دارت بينهم .

ماتت أمها جميلة وهي على هذه الحالة بكت قليلا ، ولما انتهى العزاء عادت لبيتها ساكنة هادئة عرض عليها أحد أصدقاء العائلة إدارة جامعة أهلية ، فضحكت للعرض وقالت : أشكرك يا دكتور نزار .. فأنا نسيت التعليم والمحاضرات والإدارة .. أنا لست بحاجة لمال وإشغال وقت فوقتي في المكتبة أقرأ وأكتب !

وهذه المحاولة فشلت أيضا في إعادة منى لحياة العائلة والعمل ، بل شركة المحاسبة والتدقيق التي أنشأها برهان ومنى قام الأولاد ببيع حصة والدهم فيها ، وكان خليل يتفاوض مع أعمامه وأخواله لإنشاء مستشفى خاص حديث ومتطور ، وكف الأهل والأصدقاء من التدخل في حياة منى الخاصة .. ولكنهم كانوا حولها باستمرار يغدقون عليها من حبهم وعطفهم .. فأبناء أختها وإخوتها يترددون دائما عليها ، وفي كل فرصة يجيئون للقصر ويسعدون برؤيتها وسماع حديثها وذكرياتها وكلامها عن برهان زوجها رغم سماعه مرات ومرات .. يسمعون بصمت وهدوء ثم ينصرفون !

وحتى عبير ناصر زارتها وجلست معها عدة مرات ، وكان كل حديثهما حول برهان وأخلاق برهان .. وتتذكر منى أول مرة رأت فيها برهان عندما دخل عليها معرض الأثاث مستنجدا بها طالبا مساعدتها لشراء أثاث مكتب للمكتب الذي كان يحلم بولادته .. كان يقصد التعرف عليها والاحتكاك بها .. فتفرح وتملأ السعادة وجهها .

تراها الخادمة تخاطب الكتب ورفوف المكتبة ؛ كأنها تتحدث مع الزوج الغالي .. رغبوها بالسياحة في الأرض .. نزهة .. رحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المشرفة .. اعتذرت عن كل هذا

فمنى كما يعلم القارئ العزيز قد قامت بأداء فريضة الحج والعمرة في حياة زوجها برهان كانت ترغب أن تعيش مع ذكرياته .. كانت سعادتها كل هذه السنوات على هذه الذكريات .

دخلت عليها ابنتها جميلة يوما قائلة : كيف حالك يا أمي الغالية ؟!

ـ بخير يا ابنتي .. أتصدقت عن والدك اليوم ؟

ـ نعم تصدقت بمائة دينار .. وخالي مالك ما زال ينفق على كل الأسر التي كان يساعدها والدنا الحبيب يا أمي الحبيبة .

ـ شكرا لكم جميعا .. مالك مثلي حزين لذهاب برهان كيف أطفالك ؟

ـ بخير يا أمي الغالية .. سيمر زوجي ليجلس معك مساء .

ـ يا مرحبا بكم .. هل عندك كلام ؟؟

ـ نعم يا أمي الغالية .. خالي الدكتور مالك رشحوه لمنصب رئيس الحزب .. وربما يشارك في انتخابات المجلس النيابي .. أحببت أن أقول لك ذلك الخبر .. ويشاع أن الحزب قد يشارك في الوزارة القادمة .

ـ مالك بطل مثل برهان .. ويستحق كل خير .. خالك إنسان عظيم يا جميلة !.. رحمك الله يا برهان .. كنت تحب أن تأتيني بأخبار مالك قبل أن تظهر .. كان أبوك برهان ذا ذكاء نادر .. ويستطيع كشف الأخبار بسرعة ، وربطها ببعض ويخرج بنتيجة تصدق غالبا .. رحمك الله يا برهان .. أسعيدة أنت مع زوجك ؟!

ـ نعم يا أمي الغالية .. أنا في غاية السعادة والحب مع محمد عبد الرحيم .

ـ نعم ، أجمل شيء في الكون الحياة الزوجية السعيدة .. إنها تخفف من مشاق وإرهاق العمل والحياة يا جميلة .. فحبي زوجك واخلصي له .. فأولاد الحاج محمود الدين وأحفاده أناس رائعون وطيبون ويحترمون نساءهم وبناتهم .. لعله يكون كأبيك .. مع أنني لا أرى له مثيلا !

ـ أكيد يا أمي الغالية فأبي فارس ورجل عظيم !

وأخذت تكيل مدح أبيها الحبيب أمام أمها التي تحب سماع ذلك ، والأم تؤكد ذلك ، ثم

انسحبت البنت من عند أمها عندما حضر الأخوة من الخارج ، وذهبت تقول لأخيها الطبيب وهي تبكي بحرقة : يا خليل إنني أخاف على أمي الجنون والهلوسة !

قال خليل : لا تخافي ولا تبكي .. أمك لا شيء فيها .. فقد تحدثت مع عدد من الأطباء والأخصائيين النفسيين وعلماء الأمراض النفسية والعصبية ، كلهم أكد لي أنها طبيعية ، وإنما هي ترى راحتها في هذه الحياة .. وها أنتم ترون أنها تتحدث معنا وتسأل عنا وعن أخبارنا ، وتفرح لما نتحدث عن شيء مفرح ، وتحزن لما نحدثها عن شيء محزن .. وإن يبدو لنا أنها غير متفاعلة معنا كما كنا نعهدها قديما .. إنما الأمر أنها ملت الحياة بفقد برهان وأحست بفراغ كبير بفقده البدني .. فقد كان يشكل شيئا كبيرا في حياتها.. والإنسان عندما يفقد شيئا كبيرا يعز ويصعب نسيانه بسهولة ، فكيف إذا كان زوج مثل أبينا ؟! .. لا جنون هنالك ولا مرض نفسي .. وهذه الأعراض لا تشكل عليها أي خطر .. ولو كانت حالتها مرضا لزادت مع كل هذه السنوات التي مرت عليها .

مسحت الفتاة الدموع التي تساقطت أسفا وحزنا على أمها ، ودعت لأخيها بالتوفيق وقالت : أرجو ذلك يا أخي .. فأنا أحب أمي جدا .. وابن عمك زوجي محمد قادم الليلة للعشاء معكم والجلوس مع أمي .

ضحكوا وقال خليل : ونحن نحبها مثلك لن نقول أكثر منك .. فالحب هو الحياة ! .. وأهلا بأبي زكريا ..

وقد تزوج أولاد منى ذكورهم وإناثهم إلا صغيرهم إبراهيم ، وهي ما زالت تعيش في صومعتها وذكرياتها الخاصة مع برهان .. وقد تأقلم الأولاد وزوجاتهم على هذا الوضع .. تصمت طويلا ثم حديث عن برهان الميت .. كانوا يستغربون من حب منى للبقاء في البيت ، وكم كانت تكره الخروج ولو بضع ساعات .. حتى عندما تساق للعيادة أو المستشفى عندما توعك تشعر بتعب ونصب حتى ترجع إلى البيت فيعود لها الهدوء ويختفي التوتر.. وتعود الابتسامة ترتسم على وجهها الشاحب السارح .

كانت مسرورة في حياتها مع ذكرياتها .. كرروا عليها العودة للعمل والإدارة ووضعها في منصب رفيع بإحدى الوزارات كأمينة عامة .. فضحكت وقالت : سنة .. سنتان ثم ماذا ؟! لا دعوني في صومعتي ومع كتب وأوراق سيدي برهان .. أنا شبعت من الدنيا .. أليس لي بيت وأولاد وأحفاد وتزوجت مرتين ؟! كفاية .. فلندع الفرصة لغيرنا .. أنا ما صدقت واستقلت من عمادة الكلية .

فيدركون أنها في وعيها الكامل .. فيلوذون بالصمت ، وتختفي الوسائل والمحاولات إلى وقت آخر لإخراجها من تقوقعها في بيتها .

قبل أن نودع أبطال قصتنا الذين عشنا معهم هذه الصفحات والأحداث الشخصية من حياتهم المديدة .. ندخل بكم إلى بيت السيد مالك ربيع أحد أشخاص هذه القصة .. كلنا يعرف مالكا ونعرف نشاطه المستمر منذ وعي على هذه الدنيا ، كانت زوجته هناء تجلس معه في شرفة البيت الحديث الذي أنشأه في حي برقوقة ، وكان والد هناء قد مات منذ أيام قليلة ، فقال لها : رحم الله الوالد يا أم برهان .. كان والدا لي ليس لك فحسب .. كان محبا لأمته ، وكان رائدا وطامعا أن يجعل الحزب حزب الأمة والشعب .. وقد تضايق من فشل الحزب في الانتخابات الأخيرة ، ومن عدم تحقيق الحزب لمقاعد تليق بالحزب العريق .. لقد بذلنا جهدا جبارا ؛ ولكن الناس لم يروا ويقدروا هذه الجهود .

فقالت الطبية هناء الواعية للحس السياسي في البلد منذ نعومة أظفارها لحياتها في بيت تشغله السياسة: هناك أخطاء كان على أبي ـ رحمه الله ـ أن يدركها ويتنبه لها .. فالتغيير متسارع في المدينة والمدنية ، وبين الناس وبين الطلاب والعمال.. فالأجور تتضاءل أمام الاستهلاك الكبير.. فالسلع كثيرة والخدمات أكثر وأصبحت مهمة لحياة الناس ورفاهيتهم .. والأجور لم تعد تغطي الكثير من هذه الخدمات والسلع

ـ ولكننا بذلنا جهودا جبارة في تحسين أوضاع العمال والصناع.. واستيراد مواد رخيصة ونظيفة

ـ وأذكر أن التنافس الحزبي كان شديدا في هذا الموسم .. الخدمات الاجتماعية أيضا أصابها

ضعف وترهل يا مالك .. لا يجب أن تعتمدوا على تاريخ الحزب وماضي الحزب .. التجدد مطلوب بين كل زمن وآخر

ـ هناك عدة لجان قامت لدراسة أسباب الخفوق الكبير في الشارع .. فرحم الله الوالد عبد الكريم لقد أثرت نتائج الحزب على صحته ونفسيته

ـ رحمه الله .. المهم أن لا تتأثر أنت بالهزيمة التي حدثت ، وعليك أن تعيد تقييم نفسك ودورك أنا استغربت لعدم ترشحك في هذه الدورة .. مع أنك أذعت رغبتك بذلك .

قال: للأسف أنا كنت أعرف نقاط الضعف عندنا ، وحاولت من خلال الصحيفة إرسال رسائل لمجلس قيادة الحزب .. لكنهم لم يسمعوا شيئا .. لم يعد بعضنا يقرأ لبعض .. شبعنا أو مللنا من القراءة .. فلذت بالصمت حتى تنقشع هذه الجولة .. ولما خيبت النتائج الآمال ، بعضهم صحي وبعضهم ما زال يكابر .. ثم كان قرار عدم المشاركة في أي حكومة جديدة حتى يعود للحزب حيويته وحضوره الشعبي .. ثم جاء موت الوالد العزيز!

ـ سمعت من نضال أنه سيحدث تغير كبير في قيادة وإدارة الحزب!

ضحك برهان وقال : ولكنه تغيير رؤوس بدون تغيير فكر وأساليب فذا لا يحل الضعف الموجود فينا .. فالحماس وحده أحيانا كثيرة لا ينفع .

ـ تحدث مع نضال فربما استفاد من ملاحظاتك .

ـ تحدثت معه كثيرا .. فأخوك يجب أن يسير على خطى والدك ، وهو إرضاء جميع الأعضاء والقيادات .. وعدم قطع الخطوط مع الشباب والكبار .. وأنا أخشى إذا لم يحدث تغيير جدي في بنية الحزب أن نخسر في الانتخابات القادمة خسارة أكبر وأشد من هذه التي وقعت منذ شهور ، ونفشل فشلا ذريعا إذا بقي الصراع الخفي بيننا .. يستغل البعض مرونة الأنظمة والتعاليم للعبث وتحقيق مأرب شخصية .

اهتزت هناء لم يتفوه به مالك وقالت : الوضع خطير إذن !.. تناقش مع نضال وأخي الأكبر عزمي وغيره من الشباب الصاعد .. فقد زادت الأحزاب في البلد .

ـ أخشى أن يفسر ذلك على غير محله ، وعلى أنه رغبة في الانشقاق والابتعاد .. ولكن سأحاول صادقا وأحاول .. فضعف الحزب موت لنا

ـ إن شاء الله سيتحسن الحال .. فكافأتك معروفة للجميع .

تبسم مالك وقال : الكفاءة جيدة وممتازة ؛ لكن الآخرين أحيانا لا تعجبهم هذه الكفاءة ، ويحبون الإصرار على تحجيم الآخرين .. حتى أن بعضهم لا يحب الانتقاد الذي أعرض به في الصحف والمجلات ويتهمون ويتهمون ..

ـ حاول أيها الحبيب ..أنا واثقة من قدرتك ومن أساليبك الذكية لتحقيق الغايات الكبرى .. فقد سمعت أبي يوما يقول " إنك أمل الحزب في المستقبل "

ـ أرجو ذلك يا أم برهان .. تحدث معي من أيام ـ أثناء عزاء والدك ـ ابن خالك عماد ..

ـ ما رأيك بأن ندعوه وأخته (علا) وخالي للغداء معنا غدا .

ـ تحدثت معه ومع ابنة خالك بذلك ؛ ولكنهم اعتذروا بأن وقتهم ضيق ، فهم جاءوا لعزاء أمك أولا ثم أنتم .. وأثناء لقائي بابنة خالك طلبت مني كتابا جديدا لترجمته ونشره في أوروبا فتركت هذا الأمر لك لتختاري بعضا من الكتب المتوسطة الحجم التي الفتها لتقوم هي بترجمتها وطبعها ونشرها ..

ـ سأتحدث مع خالي ثانية وأدعوه للعشاء معنا غدا .

ـ افعلي .. فهي فرصة للقاء الأولاد بهم .. فهم يذكرونهم من أيام بريطانيا .. وكثيرا ما يسألني عنهم برهان .

نهضت هناء واتصلت ببيت أهلها سائلة عن خالها ، فلم تجده ولا أولاده ، فقد ذهبوا للفندق فإنه يحب المبيت في الفندق .. اتصلت بالفندق فقيل لها إنه لم يحضر بل خرج مع ولديه في مشوار .. فتركت هاتف منزلها عند موظف الاستقبال قائلة : إذا سمحت دعهم يتصلون بهذا الرقم !

وعادت للجلوس وهي تقول : عندما يأتون سأحاول أن أقنع ابنة خالي بزيارة الدكتورة منى

أم خليل .. كانت منى عندما تقرأ في الكتاب الذي ترجمناه لك قديما تحب أن تتعرف على مشاركتي في الترجمة ، وتقول ضاحكة : أنا خريجة إنجليزي وقضيت سنوات عمري في الترجمة .. وللأسف لم أترجم لأخي أي كتابفأضحك وأقول لها " الحظ يا أخت الحبيب "

قال مالك : والله فكرة ! يا هناء ! لماذا لا أطلب منها ترجمة كتاب .. فأنا لدي كتاب في القانون لم يترجم ولم يطبع !

ـ كتاب في القانون .. ما هو هذا الكتاب الذي لم يطبع ؟!

ـ مجموعة محاضرات كنت قد ألقيتها في إحدى الجامعات .. عن أهمية القانون في حياة الناس وأهمية الالتزام بالقانون لتحقيق العدالة في الأرض .. مع مقارنات فقهية أصولية .

ـ حاول .. إن منى ـ رضي الله عنها ـ لا تحب أن تخرج من حياتها مع برهان رحمه الله .. مع أنها موقنة بموته ورحيله .. تعيش معه لليوم !



قامت هناء وابنة خالها علا بزيارة الدكتورة منى ، ولما عرفت منى زائرتها انبسطت ورحبت بها ترحيبا حارا ، وقالت : يا سلام ! .. نحن التقينا في لندن على ما أذكر ، وإن كان وقت اللقاء قصيرا ؟!

هتفت هناء فرحة بتذكر منى وقالت : يا الله ! فعلا قد التقيتها ، أنا ظننت أنها أول مرة تلتقيان

ردت منى : لا ، نحن التقينا مرة أثناء علاج برهان في بريطانيا بعد الحادث الذي أتعبه وكان لقاؤنا قصيرا .. فأهلا بمترجمات كتب أخي مالك .

ولما شربوا الشاي نزلت بهم منى إلى إحدى حدائق القصر ، ولما جلسوا ، قالت منى : لقد كان العزيز برهان يحب كل مساء أن يجلس هنا .. ونذهب في تذكر أول أيام التقينا بها !

عزت الضيفة منى بوفاة زوجها ، وإن كان العزاء متأخرا ، فقالت منى : نحن قد تلقينا برقية عزاء منكم ، أنا ما زلت بوعي الكامل يا (أخت علا) ربما أساء أحدهم لي وذكر لك أنني أهذي أو مجنونة !

ضحكن وقال الضيفة : لا ، الكل يحبك يا منى ، ويحبون السيد برهان .. لكني أحببت اللقاء بك ؛ لأنني مسافرة عن قريب ، وقد أخذت بعض كتب أخيك لترجمتها ونشرها هناك ..

هناء قالت هنا : منى يا حبيبتي .. لا أحد يقول عنك كلاما سيئا ، بل كلنا يقدر لك هذا الوفاء العجيب والحب الكبير .. والأخ برهان كنا نحبه في الله ونقدره .. فلا تهتمي بغمز وإشارات الناس .

ضحكت منى وهي ترد : أنا لا أزعل منك أبدا يا هناء ! أنت عزيزة عليّ .. وأنا أحبك في الله أنا كنت أريد أن أقول أن بعضهم يهمس بأنني فقدت عقلي بعد موت زوجي .. فهذا غير صحيح ؛ ولكني زهدت في هذه الدنيا ، وما زلت أعيش مع سيدي برهان بروحه .. فإذا فارقنا الجسد فالروح معي !

وبعد دندنة متفرقة قالت هناء : أختي منى! أبو برهان أخوك المحب لك يريد منك أن تترجمي

له مجموعة من المحاضرات القانونية تذكرك وهو يدفع بعض كتبه لعلا ، ويريد أن نتقاسم العمل أنا وأنت فما تقولين ؟!

تبسمت منى للاقتراح وقالت : على الرحب والسعة .. هاتيها ، أنا عندي وقت فراغ ، فأترجمها وأنت تدققينها .

فرحت هناء وضيفتها بقبول منى السريع للعرض ، وقالت هناء : رائعة أنت ! .. الآن سأتحدث مع مالك .. فهو كان مستحيي أن يفاتحك بهذا الموضوع ، خشي أن تضعيه في غير محله .

ـ مالك لا يرد ولا يكسف يا هناء .. لقد كان حبيب برهان ، وسمى ابنه ببرهان ، فهذا يحسب له .. ولي أيام لم أرَ الشاب .. إنه حبيبي يا هناء وأحب أن أراه دائما !

ـ وهو يحبك ، ويفخر بك ، ويرى أنك أحلى وأكبر عمة في الدنيا ..

تركتهم هناء يتحدثون ، ومشت نحو الهاتف ، وتحدثت مع زوجها الذي فرح فرحا كبيرا ولبى النداء سريعا .

وبالفعل قامت منى بترجمة المحاضرات أمام دهشة محبيها ، وأشرفت هناء على تدقيقها ومراجعتها فوجدتها في أحسن ترجمة، وسعد مالك من النتيجة ، وقال: أرأيت أنها بكامل وعيها ؟!.. ولكنها لا تريد أن تعيش الواقع أحبت أن تبقى في ماضيها .. كأن الزمن عندها وقف أو توقف عند موت الحبيب أبي خليل فقط ، ولم يعد يتقدم .. سأدفع هذه الترجمة للطباعة فورا ، لعل طلبة كليات الحقوق ينتفعون بما فيها .. ولتبق منى تعيش حياتها الخاصة كما تشاء ..

كان أولاد منى أيضا فرحين من ترجمة أمهم لمحاضرات خالهم ، فقد كان هاجس يقلقهم على ذهاب عقل أمهم ، وإنها تتصرف لا إراديا .. ولكن ترجمتها لهذه المحاضرات وتأكيد هناء لدقة ترجمتها أعاد للجميع الثقة والطمأنينة أن ذاكرتها طبيعية وسليمة ؛ ولكن كما قال مالك " لا تريد أن تعيش الواقع "

□□□

ولما سأل مالك أحد علماء الطب النفسي عن هذه النتيجة ، قال له : هذا يؤكد أنها مدركة تماما لم يجري حولها ، وأنها تحب هذا العمل حبا كبيرا ـ أقصد الترجمة ـ وهذا يؤكد ـ كما قلت لك أكثر من مرة سابقا ـ قدرتها العقلية الكاملة ، وإنما هي ما زالت تعيش لحظات الفراق التي ألمت بها .. لا تريد نسيان هذا الزوج ولو للحظة .. فاطمئن يا صديقي ولا تقلق .



عاد الهدوء من جديد للأسرة ومحبي السيدة منى ، وانشغل مالك بالحزب ومشاكله وانفضاض الكثير من الجماهير عنه .. وكتب عدة مقالات حادة ، ونشر أفكاره وملاحظاته في الصحف العاملة ، ومع ذلك النشاط المحموم تعرض الحزب لنكسة أخرى في الانتخابات التي حصلت ، ولم يتقدم على الصفوف كما كان في السنين القديمة أيام شبابه .. فبعد أن هدأت عاصفة الانتخابات الأخيرة والنتائج القاسية ، اجتمعت قيادات الحزب الذي ينشط فيه مالك ربيع ، وبعد قراءة تقارير مختلفة قدمت من باحثين وناشطين في الحزب ، تقرر أن تشكل زعامة جديدة للحزب ، وأن تحال وجوه قديمة وكبيرة في العمر على التقاعد .. وفي هذه الثورة الداخلية اعتلى مالك قيادة الحزب وأصبح نضال عبد الكريم نائبه ، وشكل مجلس زعامة من الوجوه الجديدة والناشطة في الحزب ، وكثفت الاجتماعات والأبحاث والدراسات لتجديد نشاط الحزب وعودته للتقدم للإمام أكثر .. وكان الشبان الجدد ينتظرون الانتخابات القادمة على نار ليروا هل لأفكارهم وأعمالهم ومشاريعهم قد وجدت قبولا قويا

داخل الحزب وخارجه .. وقد اتخذ قرار هام في داخل لوائح الحزب أن القيادة الجديدة إذا فشلت بالوصول لمراكز متقدمة بالحزب أن ينسحبوا لوجوه جديدة أخرى .. وأخذ مالك يعد نفسه لترشيح نفسه عن منطقته نائبا وممثلا لهم وللحزب في دائرته الانتخابية .

وقبل أن تأتي الانتخابات العامة المنتظرة للقيادة الجديدة ، حدثت انتخابات نقابية للمحامين ،

ودخل ابن المهندس ربيع الأستاذ المحامي زياد الذي أنهى المحاماة كعمه في إحدى قوائم التنافس على مجلس النقابة ، وفعلا حقق فوزا طيبا سر به عمه ووالده وحتى عمته منى اتصلت به مهنئة وباركت له هذا النجاح على غير عادتها منذ سنوات .

وكانت عائلة ربيع تحب لو تخرج منى لحياتها التي كانت عليها قبل موت برهان وأحب بعض أحفاد منير فرفر مناسبة ربيع ربيع ، فاعتذر لهم ، وناسبوا الأستاذ عدنان ابن صبرية أخت خليل وأختهم .



كان لربيع ساعد بنت ـ وهي الصغرى عنده ـ كان لديه هوى وميل بتزويجها من ابن أخته منى الصغير إبراهيم ، وهو آخر أولاد منى ، فقد تزوج خليل ومحمد وزهرة وجميلة ، ولم يبق إلا هو والذي شارف على إنهاء الجامعة .

والشاب لم يظهر ممانعة لهذه الرغبة التي قالها خاله أمامه كثيرا ، وإن كان هواه أن يتزوج من بنات خاله مالك ، لم يعلمه من حب خاله لوالده ، وحب والده لخاله مالك أيام حياته ، ولم سمع عنهما من الصداقة والإخاء

وكانت منى كما علمنا ذاهلة عن هذه الأمور.. وتركت الشباب يتزوجون كما يحبون ويرغبون ولم تحشر نفسها في شيء من ذلك ، وقبل الأولاد منها ذلك .. فذات مرة تحدث ربيع مع ابن أخته إبراهيم بموضوع الزواج من ابنته ، فارتبك الشاب وقال : لا أدري يا خال .. هلا حدثت أمي بذلك ؟!

ـ سأفعل يا بني !

وكان إبراهيم يعلم أن ابنة خاله لا تريده ، وهي التي صارحته بذلك الأمر دون مواربة ؛ ولكنه لا يريد أن يشعر خاله بأن الرفض منه ، يريد من الفتاة أن تقول لأبيها ، فرد على خاله لما

قال " سأفعل يا بني " قال : يا خال هل شاورت سعاد ربما لا ترغب بالزواج مني ؟!

ضحك ربيع وقال وهو ينظر لزوجته ؛ وكأنه واثق من قبول ابنته: البنات عندنا مع أننا نترك لهن الحرية في الاختيار يقبلن ما نختاره لهن .. فكذا مرة ذكرت أمامها رغبتي بتزويجك منها ولم تمانع .. ابشر بها إن شاء الله !

بالطبع دهش إبراهيم لثقة خاله بابنته ، فهي التي ترجته أن يعتذر من خطبتها، وهو أصلا لا يريدها ، إنه يحلم بابنة خاله مالك الحسناء " هند " فعاد يقول : حدث أمي بالأمر والبنت !

فقال ربيع : قريبا بإذن الله .

ولما غادر الشاب بيت خاله تحدث ربيع مع البنت التي ما زالت على مقاعد الدرس مثل إبراهيم ، فلحظ أنها لم توافق كما تفعل كل مرة فاستغرب ، فقالت لها أمها : مالك ؟!

ـ أنا لا أريد الزواج اليوم ، وأنا وإبراهيم ما زلنا نتعلم .

ـ سيتخرج هذا الفصل ، وأبوك راغب بمد الجذور بيننا وبينهم .

ـ ليس على حسابي يا أمي !

صعق الأب وقال دهشا : هل من عيب في ابن عمتك؟!.. فقريبا سيتخرج من كلية الطب ، ويصبح طبيبا ثم سيسافر لبريطانيا للاختصاص والعالمية في الطب ، وسوف يعمل مع أخيه في المستشفى !

ـ أنا لا أرغبه ولا أحبه ! أنظر إليه يا أبي كأحد إخوتي !

قالت الأم : عجيب يا سعاد! والله يا بنت كنا نحسب ونرى أنك كنت موافقة في الماضي .. هل أغضبك بشيء ؟ أو طلب منك شيئا ؟! حتى أنني دهشت عندما طلب إبراهيم أخذ رأيك .. هل من شيء بينكم اصدقينا الحديث ولن نجبرك على شيء ؟!

ـ لا أريده فقط .. لا أريده زوجا !

ـ لماذا يا بنية ؟ هل قال لك ذلك ؟!

ـ لأ .. هو الأمر إليه عادي ، تزوجني أو تزوج أي فتاة أخرى .

فقال ربيع : ما الأمر يا سعاد قبل أن أتحدث مع أختي أم خليل ؟!

ـ هو أخي فقط فليتزوج غيري !

صاح ربيع مخاطبا زوجته : اذهبي بها ، فسعاد خجلة من الكلام أمامي ، قد يكون لديها كلام خاص فلا تحب أن يسمعه أبوها .

نهضت أم ساعد المستغربة لمفاجأة ابنتها قائلة بغضب خفيف : اتبعيني نحن قبل قليل حدثنا إبراهيم بالزواج منك !

احتار ربيع في تفسير ما كان ، فكان كلما حدثها عن إبراهيم تبدي ابتسامتها وراحتها .. ما الذي جد ؟! هل تعلقت بشاب من شباب الجامعة ؟!



ولما عاد إبراهيم للبيت صعد إلى المكتبة حيث تحب أمه الجلوس فقال لها بعدما حياها ما تحدث به خاله ربيع .. ثم صارحها برغبته بابنة خاله مالك الآنسة هند .

لزمت الأم الصمت ولم تعلق ، هي لم تتدخل في زواج أي ولد من أولادها ذكورا وإناثا .. الأربعة الأكبر من إبراهيم ، فلما لاحظ الشاب صمت أمه انصرف إلى حجرته مستغربا من صمت أمه ، ولما رجع أخوه من المستشفى تحدث معه في مشكلة ابنة خاله ربيع ، فقال له : عندما يتحدث معنا خالنا ربيع في الموضوع نرد عليه .

ـ أنا تحدثت مع سعاد وقالت مباشرة وجها لوجه أنا لا أريدك زوجا .. وقلت لها وأنا مثلك لا أريدك زوجة .. ولكن خالي الطيب راغب بشدة بهذه المصاهرة !

ـ وهل تكلمت مع أمك بذلك ؟!

ـ نعم ؛ ولكنها لم تقل شيئا.. لزمت الصمت فتركتها .. أتحدث معها ثانية ؟!

ـ علينا الآن بالصمت يا إبراهيم حتى يتكلم معنا أبو ساعد .. لأننا لو حدثنا خالنا مالكا

برغبتك قد يرفض أو يترك الرد .. لأن الكل يعرف أن الخال ربيعا راغب بتزويجك ابنته منذ دخلت الجامعة .

ـ حسنا سأصمت !

ـ لأننا نحرج أنفسنا مع أخوالنا .. فما دامت البنت لا تريدك سينتهي الإشكال من عندهم .. دع الحل للأيام والصبر فرج .

ـ سامح الله خالي .. كان من المفروض أن لا يتكلم بمثل هذا الكلام .

ـ هذا من حبه لأمك .. فكلنا تزوج من أقارب الوالد ـ رحمه الله ـ أنا ومحمد وزهرة وجميلة ولم يبق إلا أنت .. فالناس كما تعلم تقوي من الصلات والعلاقات الاجتماعية بالمصاهرة والزواج فكما تزوج ابنه من ابنة عمته حنين ، يريد أن يعطي ابنته لك .. هذا قصد خالك ربيع .. فالمشكلة سهلة ، وهذا زواج وليس لعب عيال .. إذا لم يكن برضى الطرفين ، فستكون الحياة الزوجية صعبة وشاقة .. فإذا عرف خالي برغبتك من الزواج من ابنة أخيه مالك سيفرح ويسر ويصرف نظر عن ابنته .. ولكن وكما تقول إن البنت غير راغبة بالزواج حاليا ستصارح هي والدها أو أمها وينتهي موضوعها .

ـ تكلم معه في ذلك ، قل له سعاد لا تريده .. وإنها صارحت إبراهيم بذلك ..

ـ الله سيسهل ولا تنزعج .

ـ أنا لست منزعجا ؛ ولكن من العيب أن يتزوج الإنسان فتاه لا تتقبله ، فلو لم تقل بلسانها ؛ ربما صمت ورضيت بتحقيق رغبة خالي .

ـ الله يفعل ما يشاء أيها الأخ العزيز .. اذهب الآن واجلس مع أمك ، وسآتيك أنا وزوجتي للجلوس معكم .

ـ شكرا !

زواج إبراهيم

اتصل المهندس ربيع بابن أخته إبراهيم الطالب في كلية الطب ، وطلب لقاءه بعدما رأى رفض ابنته له ، فذهب الشاب على حسب الموعد بينهما ، ودخل فلقي الفتاة في وجهه فحياها باسما وقال مستفسرا : آ يا سعاد أين الوالدان ؟!

ـ إنهم في انتظارك يا ابن العمة الغالية .. أنا ذكرت لهم أنني لا أريدك زوجا .. لا تزعل مني !

ـ أبدا يا سعاد!.. أنا سمعت هذا الكلام منك سابقا .. ولم أسألك لماذا ؟! .. فأنا لا تفكرين أنني مستعجل على الزواج نفسه يا غالية .. إنما أريد الزواج من أجل السفر والدراسة في الخارج كما فعل خالي مالك .. فنساء أوروبا كما يقال مثيرات للغرائز والجنس.. قلت أتزوج قبل السفر .. وأنا لولا رغبة والدك خالي العزيز ما تكلمت معك في الموضوع .

ـ المهم يا ابن عمتي الغالية لا تزعل مني .. والآن ادخل على خالك وأمي ، وسيقولان لك عن عدم رغبتي بالزواج في الوقت الحالي ، ولو تصبر بضع سنين حتى أتخرج ومن نحو هذا الكلام !

ـ سلام الله عليك .

ودخلت في إحدى زوايا البيت ، وصعد الشاب إبراهيم برهان إلى المكان الذي يحب أن يجلس فيه خاله ربيع .. وسلم عليه وعلى زوجته أم ساعد ، وألقى نفسه على مقعد مريح ، وأجاب عن أسئلة خاله عن حال أمه وإخوته كلهم، ثم قال ربيع: يا إبراهيم يا ابن أختي العزيزة والكريمة لماذا أنت مستعجل على الزواج ؟! ألا تصبر بضع سنين حتى تعود من أوروبا ؟! وتكون سعاد قد أنهت وخلصت جامعتها ؟!

ورددت الزوجة مثل هذا الكلام ، فتبسم إبراهيم وهو يرد عليهما : يا خال ! ويا امرأة خالي أم ساعد! أنا لما حدثت أخي خليلا عن الزواج ؛ لأنني أريد أن أذهب في طلب العلم وتحصيل الشهادة الخاصة في الجراحة الخاصة والاختصاص الطبي والزمالة البريطانية وأنا متزوج .. والزواج حصن وعفة للرجال الأشراف يا خال .. ولما أنت لمحت لي قديما برغبتك بمناسبة

أمي والعائلة ، وأن سعاد زوجة مناسبة لي تقبلت الأمر .. فأنا لا تهمني من تكون امرأتي!! إلا أن تكون حسناء ، مربية بصورة طيبة ، ومتعلمة ومتدينة .. وتأملت سعاد فوجدت أن ذلك فيها ؛ ولكني لمست في الآونة الأخيرة عدم رغبتها بالزواج.. فلما حدثتني في المرة السابقة طلبت منك الحديث معها قبل أمي !

ـ والله يا إبراهيم أنا أقدر هذا الكلام الجيد منك .. وفعلا من الحكمة وبعد النظر أن يحصن المسلم نفسه بالزواج قبل السفر إلى تلك الديار ، ذا خير وفضل وسد للذريعة .. وفيه المصلحة والخير ، أنا لدي رغبة كبيرة أن تقترب من العائلة لأن كل إخوتك تزوجوا من أقارب والدهم رحمه الله رحمة واسعة .. وغدا عندما نفارق نحن هذه الدنيا ستبتعدون عنا وعن أهل أمكم .. فمن هذا الجانب رأيت أن نكسبك ونعيد التقارب بين العائلتين .. فغدا عندما نهلك أنا ومنى ستضعف صلتكم بأولاد خالك .. فالزواج يقرب هذه العلاقة ويجددها .

ـ وأنا يا خال رضيت من هذا الباب ؛ لأنني فعلا أسعى أن أقترب منكم ، ومن أجل حبي لأمي التي ما زالت تحيا على ذكريات الماضي عافاها الله من كل سقم.. أرغب أن أكون صهرا لكم !

قالت زوجة ربيع : أنت شاب صريح يا إبراهيم ! .. ألا تدري لماذا لا تريد سعاد الزواج منك ؟!

تبسم الشاب الدكتور وقال: أنا لاحظت ـ كما قلت قبل قليل ـ تردد سعاد بالقبول بي كزوج فصارحتها بذلك الإحساس والشعور .. فقالت " لا تزعل يا ابن عمتي أنا غير مستعجلة على الزواج ، وأنا أقدرك وأحبك وأحب أمك وأبي وأمي وإخوتي.. أحبكم كلكم ؛ ولكن الزواج لست مستعجلة في شأنه " فسكت دقائق ثم قلت لها ولكني أنا مستعجل سأتزوج قبل السفر"، وتركت الأمر لكما لعلكما تقنعانها بالرضا ؛ ولكنها مصرة على عدم الزواج اليوم.. وأنا آسف يا خالي ويا امرأة خالي، أنا مضطر للزواج من غيرها .. لا أستطيع الانتظار سأتزوج غيرها ..

فقالت : كلامك ممتاز ورائع يا إبراهيم وصريح فعلا .. ونحن لا نغضب منك .. يعني أن سعاد هي لا تريدك ليس أنت .. ليس بينكما اتفاق وإنك لا تريدها ؟!

ضحك إبراهيم لوجهة نظر امرأة خاله وقال : لا ، ليس هناك مؤامرة !

فقالت بصراحة : أتحب سعاد شابا آخر ؟!

ـ أشكرك يا زوجة خالي على سؤالك هذا .. ذكرت لها ذلك ، كنت معها صريحا يا خالي ، وأقسمت لي أنها لا تحب شابا أو طالبا معها في الجامعة ، إنما هي تحب أن تعيش وحيدة حتى حين ، ثم فيما بعد تفكر بالزواج والحب والغرام .. هذا ما أقسمت عليه .. وأنا ليست في حياتي امرأة معينة ، أنا لا أسمح لنفسي بذلك يا أم ساعد !

فقال ربيع : بارك الله فيك يا إبراهيم .. أنت الآن أعدت السكينة لقلوبنا .. نحن نخاف ونقلق من عبث البنات في سنوات الدراسة والجامعة .. فأنا كنت أرى أنها معجبة بك وراغبة بك أهلا لها!

فقطع وقال : وما زالت يا خال! ولكنها لا ترى الزواج في الوقت الحالي ، وهي حرة ، نحن في زمن الحرية كما يقولون ، لم يعد يجدي الضغط على البنات للاقتران بمن لا يرغبن .

وخيم الصمت لحظات على الثلاثة ، فقالت المرأة قاطعة الصمت : أمصر على الزواج يا إبراهيم ولا تريد الانتظار؟ فلربما غيرت سعاد رأيها بعد تخرجها .. فخالك ربيع يحبكم ووضح لك وجهة نظره وغايته من هذا الزواج .. وأنت أيضا بينت وجهة نظرك فمعه حق ومعك حق .. ونحن نثق بأنك ستعف نفسك عن بنات الإنجليز وغير الإنجليز هناك!

ـ هذا أكيد بفضل من الله ؛ ولكني يا أم ساعد راغب في النكاح .. أنا عمري خمس وعشرون سنة يا امرأة خالي .. وأنا ذاهب لهناك لقضاء ربما خمس سنوات فأكثر ، فسوف أتخصص كما تعلمون في جراحة القلب ، وقد أعمل هناك بضع سنين أخرى .. فالحياة الزوجية استقرار وأمان .

فعادت امرأته خاله تقول : ولكن لو تزوجتك سعاد فهي ما زالت تدرس وأمامها سنتان

جامعة سوى هذه السنة .

ـ تكمل هناك أو تدرس من جديد وشهادات بريطانيا مقبولة في كل دول العالم !

عندئذ قال ربيع : أنا أعتذر لك يا ابن أختي عما وعدتك به سابقا ، نادي ابنتك يا أم ساعد .. وأنا كان مناي أن تكون صهرا لي وختنا ؛ ولكن الأمر كله بيد الله مولانا عز وجل .

نادت الأم ابنتها سعاد التي أقبلت باسمة وقالت: آ.. ماذا تريدون أن تسمعوني من قرارات ؟!

رفعت أمها صوتها في وجهها وقالت : تعالي اجلسي !

فلما أخذت مجلسها بينهم قال ربيع : لا أعلق على كلامك وتهكمك .. أنا اعتذرت لابن عمتك عن الوعود والكلام الذي أسمعته إياه .. وكما يقال كل شيء بقدر.. وأعاد لي كلامه عنك ثقتي بك ، فأنا خشيت أن تكوني جاهلة وساذجة وتضحين بابن عمتك الطبيب الباهر من أجل تعرفك بشاب في الجامعة ، ووعدك بأحلام وأوهام وسيارات وعمارات .

وقبل أن ترد سعاد قال إبراهيم : اطمئن يا خالي .. الأخت الفاضلة سعاد طمأنتني جدا وأقسمت أمامي أنها ترفضني ؛ لأنها ما زالت صغيرة على الزواج ومسؤولياته .. أليس كذلك يا سعاد ؟!

ـ بلى يا ابن عمتي الكريمة .. فأنا لو رفضت الاقتران من أجل شاب ضحك عليّ وغرر بي لصارحتك يا إبراهيم! وقد أخفي ذلك عن والديّ ولكن عنك لا أستطيع ، إنني أجلك وأقدرك .

قال ربيع وقد تذكر الماضي البعيد : ذكرتموني ببرهان ـ رحمه الله ـ ووالدتك يا إبراهيم .. كانت أختي منى معه امرأة عجيبة .. أنتم لا تعرفون منى قبل أن تتزوج من أبيك ، ربما سمعتم شيئا يسيرا .. ومع أننا لم نسمع أنه رفع صوته عليها في يوم ما ؛ ولكنه سحرها وقلبها رأسا على عقب ، رأينا منى أخرى .. وكنت أنا ربيع الابن الكبير لساعد أخاف وأتحاشى من مناقشتها ومجادلتها ، وهي أكبر مني سنا .. ولكن المرحوم ـ رحمه الله ـ جعل منها صورة أخرى اذهب لخالك مالك فهو يستطيع أن يحدث عنها أحسن مني ؛ لأنهما كانا كثيرا الشجار والقتال ،

فأقف أنا وأمي ـ رحمها الله ـ حائرين لا حول لنا ولا قوة .. أو اذهب إلى خالتك حنين ، فهي كانت دائما من صف مالك ، وتغضب منى كثيرا ولا تهتم بشعورها وأحاسيسها .. رحمك الله يا برهان .

وبكى الرجل وهو يتذكر تلك الأيام الصعبة ، وتأثر الجميع ، فبكت المرأة فهي تعرف ابنة عمتها منى جيدا ، وذرف الطبيب إبراهيم الدموع ، فقد مات والده وهو طفل صغير لم يغرف من حب أبيه كثيرا .. ومسحت سعاد دموعها ، وبعد حين قال إبراهيم : رحمك الله يا أبي! .. شكرا لكم على هذا الحب والإعجاب بوالدي .. سأنسحب يا خالي .

ـ لا ، أنا دعوتك على العشاء ولم ننس .. وامرأة خالك لديها عروس أحسن من ابنتنا !

قالت سعاد باسمة: أحسن مني أنا يا أبي! من هي هذه التي هي أحسن مني ؟!

قالت الأم : سعاد أيضا اسمها ابنة أخي حسان .. أتعرفينها يا سعاد ؟!

صاحت سعاد وهي مستغربة لسؤال أمها : وكيف لا أعرفها ؟! ألا أعرف ابنة خالي؟! والله حلوة يا إبراهيم ، وهي على وشك التخرج حسب علمي .. بضعة أشهر وتتخرج ، ويمكنها أن تلحق بك !

ضحك إبراهيم وقال مداعبا : سعاد زوجتني سعاد وسفرتني وألحقتها بي ! .. أنا أحب المزح معك يا سعاد .. اعذرني يا خال واعذريني يا أم ساعد .. أنا سأفرح قلبكم .. أنا كاشفت أخي خليلا ، وذكرت له قبل مجيء إليكم أن ابنة خالي سعاد لا ترغب بالزواج في هذه الفترة مني أو من غيري ، إنها صارحتني بذلك ؛ ولكنه طلب منى الصبر والتريث .. وقال " إذا أصرت الفتاة على رفضك سنطلب لك ابنة خالك مالك الآنسة هند ".

فصاحت سعاد ثانية : هند! ولكنها صغيرة .. طفلة !

لم يعر أحد ملاحظة سعاد اهتماما ، وقال ربيع كأنه عاد للواقع : والله فكرة يا إبراهيم .. أليس كذلك يا أم ساعد ؟!

ـ فكرة جيدة ! إذا وافقت أمها على زواجها ، فمالك أبو برهان لن يرفض ، فنحن نعرف

مقدار حبه لبرهان ـ رحمه الله ـ وسيقدمها لك على طبق من ذهب ، ولكن الأم وابنتها أتقبلان بك زوجا ؟!

فقال ربيع : لا أدري والله يا ابن أختي .. وإذا وافقوا كيف ستتزوجها قبل إنهاء الدراسة الثانوية ؟!

قال إبراهيم : الثانوية كما أعلم لم يبق لها إلا شهور ، وأنا بعدي لم أتخرج أمامي أيضا بضعة شهور المهم أن يوافقوا وسأدع خليل يتحدث معك لتتحدثا مع خالي مالك وعائلته .. أنا أحب أن أقترب منكم يا خال !

قال ربيع متحمسا للفكرة : ابشر .. مالك كما قالت أم ساعد سيسر بهذا النسب مثلي بل أكثر مني .. المشكلة البنت أتقبل بالزواج ؟ فهي في سن صغيرة ؛ فإذا سعاد الكبيرة والناضجة .. تريد الزواج بعد الدراسة والجامعة !

واختلط الحديث والحوار بينهم وقال في نهايته إبراهيم : تركت شأن الحديث في هذا الموضوع بين يديك يا خالي وأخي خليل ..وأنت يا سعاد احذري أن تتكلمي مع البنت قبل أن يفاتحهم أبوك بالموضوع .. والليلة بعد انصرافي سأحدث أمي بذلك وأخي خليلا .

فقال ربيع : الله يتمم على خير .. والله نحن سعيدون لو تم هذا النسب يا ابن أختي.. نحن نحب أن تبقى رائحة برهان الأخ الحبيب حولنا ، فنحن أحببناه ونبجله .. وله محبة كبيرة وعظيمة عند خالك مالك ، وإذا شئت سأتصل به في هذه اللحظة وندعوه للعشاء معنا ونفتح معه الكلام ليقنع ابنته وزوجته .

ـ إذن اتصل مع أخي خليل .. أو أنا أتحدث معه وأشرح له الموقف .

ـ افعل .. وأنا سوف ادعوه لمشاركتنا العشاء .

ضحكت سعاد وهي تقول : مبارك يا إبراهيم .. لا تحقد عليّ !

ـ لا اطمئني ، أنت ستبقين ابنة خالي يا لئيمة !

شرح إبراهيم لخليل على الهاتف التطورات التي حدثت هذا المساء ، ثم تحدث مع أمه منى التي لم تزد إلا أن قالت " افعل ما تشاء " ، وتحدث ربيع مع ابن أخته خليل داعيا له للعشاء هو وزوجته فوافق ، وتحدث ربيع مع بيت مالك فلم يجده في البيت ، فأعطاه برهان رقم تلفون ، فاتصل به فوجده في اجتماع مع شباب الحزب ، فدعاه للعشاء ، فاعتذر له عن العشاء ووعده بالمرور عليه بعد انتهاء الاجتماع .

قضى الأخوان سهرة ممتعة في بيت خالهم ربيع ، وشارك فيها بعض أولاد الخال ، وتناول الجميع الطعام الذي أعده لهم أبو ساعد وأم ساعد ، ثم أقبل المحامي ابن ربيع عضو رئاسة النقابة السيد زياد وعمه مالك ، فوضعت لهم زوجة المحامي الطعام ، ولما أكلا ذهبا إلى حيث يسمر ربيع مع ضيوفه ، وتحدثوا في السياسة والحروب والأزمات العاصفة في العالم والأمم ، والمواضيع التي يحب أن يجول فيها مالك أبو برهان .. ثم انتقل الحديث للزواج والبنات وسفر إبراهيم لبريطانيا بعد تخرجه للتخصص في جراحة القلب والشرايين والصدر ، حتى وصلوا لبيت القصيد وهو زواج إبراهيم قبل سفره ، وتحدث ربيع عن رغبته بتزويج إبراهيم من ابنته سعاد ؛ ولكنها لا تريد الزواج اليوم أي قبل إنهاء الدراسة والجامعة ، وصارح ربيع أخاه مالكا برغبتهم بمصاهرة إبراهيم ابن أخيهم برهان وأختهم منى ، وإن لإبراهيم هوى في ابنته هند .

ضحك مالك ملء فمه وقال : لففتم الشرق والغرب والعالم كله لتصلوا لهذه الجملة .. والله هذا أحسن نسب يا إبراهيم .. أنا دائما أناجي أباك ، لا تفكر أن أمك فقط تعيش مع ذكرياته وأنا مثلها .. ذاك الإنسان حبه كبير في قلبي .. ولا تظن أنني عندما سميت ابني برهان ضعف حبي له .. يا رجل أبوكم جزء من كبدي وقلبي .. سبحان الله! هذا المخلوق أحببناه حبا كبيرا حتى العم خليل ـ رحمه الله ـ أحبه مثلنا .. أمكم كانت قد تورطت في دين كبير قبل زواجها من أبيكم رحمه المولى .. فلما أخبر بذلك الدين لم يتردد ولو للحظة في سده ، ولم يحتج ، ولم يقل

لها أنا لا دخل لي بك .. بل قال أنا أسدد عنك .. بل الأصح أنه وافق على التسديد قبل أن يشاورها بذلك .. وهو مبلغ لم يكن بسيطا في ذلك الزمان ، وكان في أول صعود السلم .. حوالي اثني عشر ألف دينار يا رجل .. حتى الأخت حنين تأثرت جدا وقالت لو كان أحد غير برهان ربما تزوج بهذا المبلغ امرأة أخرى .. وذهبت أنا وإياه للدائنين وراجعنا الدين ، ودفع المبلغ عن طيب نفس .. هذا موقف واحد من مواقف أبيكم معنا .. وأنا أقدر لكم هذا الاختيار .. وأنا أقول أمامك يا ابنة أخي أنك خاسرة يا سعاد ! ولا تفهمي من كلامي أنني أريد تخجيلك لتتراجعي عن قرارك ، وإنني لا أريد أن أزوج ابنتي لابن أختي بل هذا تشريف وفضل كبير لنا كما قال الأخ ربيع .. ونحن مع حرية الاختيار والقناعة بشريك الحياة .. هذه حياة ليس لقاء عابر أو شركة مؤقتة .. وهذا جيد جدا أن يكون إبراهيم من حصتنا .. الليلة إن شاء الله تعالى أتحدث مع هناء التي لن تعارض بالتأكيد ، فهي تعلم مدى صداقتي لوالدكم رحمه الله .. المهم الفتاة يا إبراهيم أن توافق .. فهي ترى نفسها صغيرة بعد .. رغم أن الزواج فطرة .. لكن بنات اليوم يحببن الدراسة والعمل .. سأقوم بدوري ، وأنت عليك دور آخر يا إبراهيم وهو مهم أيضا .

قال إبراهيم : كيف يا خال لم أفهم ؟!

ـ نحن يا خال لا نحب الحديث عن الزواج أمام أبنائنا سواء كانوا ذكورا أم إناثا ، حتى ولو عن مداعبة ومزح .. فنترك الأمر لهم حتى يكبروا .. البنت بالتأكيد ستفاجأ بالأمر .. ولكني سأسمح لك بالحديث معها.. هي في مقاييس زواج هذا الزمان طفلة .. صحيح أنها في آخر سنة دراسية وأنها امرأة بالغ ، ولكن المسؤولية والزواج يبدو لي أن بنات الجامعة لا يستوعبنه بشكل جيد .. حاول الحديث معها مرة ومرتين .

ـ سأفعل يا خالي.. أنا راغب بالزواج قبل سفري ، وأحب أن استقر عاطفيا ؛ لأنني لا أريد أن تشغلني هذه القضية أثناء مكثي هناك الذي قد يستغرق عشر سنوات بين دراسة وعمل .

فقال مالك : بل نحن مسرورون منك ومن تفكيرك السليم .. وكما قلت لكم هذا النسب

يشرفنا وكرم منكم يا ابن أختي .

وبعد سهرة جميلة غادرهم مالك نحو بيته القريب في حي برقوقة ، ثم انصرف خليل وزوجته بسيارته ، وتبعه إبراهيم أيضا بسيارته .. دخل إبراهيم على أمه التي وجدها تجلس في الصالون ، فقبل يدها وجلس ملاصقا لها وقال بحب : وحدك يا أمي ؟!

ـ قبل قليل انصرف أخوك وزوجته .. ماذا فعلتم مع أخوالكم ؟!

حدثها بكل شيء حدث أثناء الجلسة ، فقالت أمه : ستقبل هند يا ولدي .. وستسافر معك .. ستتركنا يا إبراهيم !

ـ العلم يا أمي عندهم ! في قديم الزمان كان أبناء أوروبا يسافرون لحواضر العالم الإسلامي في إسبانيا الأندلس ومصر والشام.. اليوم نحن نرحل إليهم .. لقد قرأت كتاب خالي مالك القديم عن العلم في الإسلام وهو مترجم أيضا .. كتاب جميل وممتع لو يعيد خالي طبعه سأذكره بذلك .. ما رأيك يا أمي بأن ترحلي معي؟ .. سأسر بوجودك الدائم معي .. ستملئين عليّ البيت وتشدي من أزري .. بريطانيا بلاد جميلة كما يقال .. إذا تزوجت من ابنة خالي مالك سنلتقي بأقارب أمها .. فهم متجنسون هناك .

صمتت منى لحظات ثم تكلمت بضع دقائق حتى سمعها تقول : أأترك

دار برهان .. وأنفاسه لأعيش هناك في البرد والثلج ؟!

ـ نأخذها معنا يا أمي !

نظرت في عينيه لحظات وقالت بحيرة : كيف نأخذها ؟! هل نأخذ القصر معنا ؟!

تبسم إبراهيم لإثارة أمه وقال : ليس كذلك .. نأخذ الكتب التي كان الوالد يحب قراءتها .. الثياب التي كان يرتديها .. الأوراق التي كان يكتبها .. الأشياء الحلوة الخاصة عنده !

ـ الجدران التي كان يضع يده عليها .. النوافذ التي كان يفتحها .. المقاعد التي كان يجلس عليها كيف سنأخذها معنا ؟!

ـ ستبقى هنا ريثما نعود .. لن تطول غيبتنا يا أمي .. لقد ذهبتم كما أعلم إلى هناك ، مشيتم في

شوارع لندن ومعالمها !

ـ لا .. دعني هنا يا ولدي الحبيب .

ـ سأشتاق إليك كثيرا يا أمي ! أنا تعودت على رؤيتك كل يوم .. لا أنام قبل أن أقبل رأسك سأفقد كل هذه اللحظات .. أنا تعودت عليك منذ مات أبي رحمه الله !

ـ مات أبوك .. مات جسده فقط .. أما روحه فهي ما زالت موجودة معنا !

ـ أكيد يا أمي أن جسده فقط هو الذي غادرنا .. والروح معنا وستذهب معنا وتسافر معنا لتبقى معنا .

ـ لا ، الروح ستبقى هنا في هذا القصر ، لن تخرج حتى أموت أنا .

تنهد الفتى وتأوه : آه .. آه يا أمي .. هل نامت أم السعد ؟

ـ انصرفت قبل دخولكم .. أتريد شيئا ؟

ـ كنت أريد .. أن أشرب قهوة أو أي شيء .

ـ لا تزعل ولا تتضايق .. أنا سأصنع لك القهوة .

ـ لا أريد يا أمي .

ـ لا ، ستشرب ، أتظن أنني لا أحسن صنع القهوة ..

ونهضت باتجاه المطبخ ، وقال إبراهيم : سأذهب معك يا أمي .. أنا أعرف أن قهوتك رائعة ، ولا أحد يجاريك في صنعها وأنك ماهرة في غلي القهوة

ودخلا المطبخ معا ، وأنارت الكهرباء وأخذت تعد وتصنع القهوة ، وإبراهيم يتابعها حتى غلت القهوة وملئت الفناجين منها، وجلسا في المطبخ يتحدثان ويرشفان القهوة .



ولما دخل مالك البيت قريبا من نصف الليل وجد أن زوجته هناء مستيقظة ، وتجلس في مكتبة

المنزل ، فاتجه إليها ووقف على بابها محييا ومسلما ، ثم قال : ما زلت مستيقظة ؟!

ردت السلام وأجابت باسمة : كنت قد انتهيت من القراءة ، وأردت النهوض فسمعت صوت سيارتك فانتظرتك .. كيف الأهل ؟!

فدخل المكتبة وجلس وقال : بخير ويسلمون .. اجلسي مالك وقفت ؟!

ـ ألا تريد النوم ؟!

ـ بعد قليل !

ـ أتريد شيئا؟!

ـ أنا تعشيت في بيت ربيع ، وكان هناك خليل وإبراهيم أولاد منى .. وجرى الحديث عن الزواج .. زواج إبراهيم ابن أخي برهان رحمه الله .. وكان ربيع لديه رغبة بتزويجه ابنته سعاد ؛ ولكن البنت لا تفكر بالزواج منه أو من غيره في الوقت الحالي .. فطلبوا ابنتنا هندا .

هتفت بعجب واستغراب : هند!

ـ نعم .. وأنا هذا الطلب الوحيد الذي أرجوك أن لا ترفضيه يا هناء !

وحدثها عن ملابسات الموضوع ، وعن حبه العتيد لبرهان محمود ، وأن هذا النسب سيبقي العلاقة بينا وبين أسرة برهان ومنى ، فكل أولاده تزوجوا من أقاربهم إلا إبراهيم ، والشاب محب لمصاهرتنا قبل السفر لبريطانيا للدراسة والتعليم العالي

تعاطفت هناء مع كلام زوجها وقالت : أنا مثلك أحب منى وزوجها المرحوم برهان .. وإبراهيم شاب ممتاز جدا فكثير ما يتردد علينا ويجلس معنا ولكن هند هل تصلح زوجة ؟! فنحن لم نهيئها لذلك .. ولا تعتقد أني أعارض زواج الشابة الصغيرة .. لكننا نعيش في مجتمع لا يتحمس لهذا الزواج .. فشهادة الجامعة أصبحت إحدى الأوليات المهمة لدينا .. فالدراسة والتعليم والجامعة يا أبا برهان

ـ كل هذه أعرفه وأقدره يا أم برهان .. تحدثي مع البنت في الأمر الخطير ، وبيني وجهة نظرنا بكل صدق وصراحة ، واسمحي لإبراهيم بالحوار معها ، فادعيه للغداء أو العشاء لعلها

تقتنع به وبكلامه .

ـ حاضر يا سيدي ! سأفعل كل ما بوسعي ولتقر عينك !

ـ أهي نائمة الآن ؟

ـ سأطرق باب حجرتها .

كان مالك يريد أن ينهي الموضوع بسرعة ليدخل الابتسامة على العائلتين ، وليطمئن قلب إبراهيم وتسكن جوارحه ، قامت المرأة ، وطرقت الباب كانت بناتها الثلاثة يرقدن في حجرة واحدة ومستيقظات ولكن تحت اللحف ـ فقالت إحداهنّ : آ يا أمي خير ؟ الدنيا آخر ليل !

قالت الأم بصوت ضعيف : أنا ظننت أنكنّ في سابع نومة ..

وفتحت الباب وأدخلت رأسها تقول : ما الذي يقلقكن لهذه الساعة ؟!

قالت واحدة منهن : كنا ننتظر والدنا .. فتأخر فأصابنا القلق وطار النوم عن عيوننا .. ولما سمعنا السيارة ارتاحت قلوبنا ، وقلنا الوقت غير مناسب للحديث معه في نصف الليل !

ـ أحسنتنّ يا بنات .. بعد صلاة الفجر عندما يرجع من المسجد تحدثنّ معه .. أما أنت يا هند تعالي إلى المكتبة أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم لك .

ضحكت البنات الثلاثة لهذا الطلب ، فتسألت الأم عن سبب هذا الضحك ، فقالت واحدة منهن : موضوع مهم يا أمي ومع هند !

ـ آ موضوع مهم وخاص .

فعدن للضحك من جديد ، قالت الأم لهند التي نهضت من فراشها ولفت نفسها بثوب سميك : لماذا يضحكن ؟!

ـ امشي يا أمي .. هؤلاء .. وسكتت

عادت الأم تتسأل ، فقالت إحداهنّ : موضوع خاص أو مهم معناه يا أمي أن هناك عريسا لهند !

صعقت الأم وقالت : ويلكن أكنتنّ تسترقن السمع ؟!

أنكرن هذه التهمة باسمات ، وقالت إحداهنّ مستفسرة : يا أمي أنت دائما تتحدثين معنا كلنا كفريق واحد .. إلا هذه اللحظة .. فماذا سيكون الموضوع إن لم يكن زواج وعرسان ؟! .. من هو حضرة العريس ؟!

فصاحت هند : وهل وافقت حتى تسألن عنه ؟ نمن خير لكن .

فصاحت هناء بدون مواربة : إبراهيم برهان ابن عمتك منى ما دمتنّ تعرفن في مثل هذه القصص فهتفن متعجبات : أوه !!

وأخذت هناء هندا ، ومشت بها نحو المكتبة التي غادرها مالك، فشرحت لها الموقف بكل صراحة ووضوح ، ثم قالت : الأمر إليك وبين يديك .. هذا مصيرك ، إن طاب لك الاقتران بإبراهيم ودراسة الجامعة في بلاد الإنجليز فحسن هذا وأهلا وسهلا ، وإن رفضت لا بأس عليك ، وكل واحد عند أهله !

صمتت هند فترة ثم قالت: وأنت يا أمي ؟

ـ أنا بصراحة أحب لك أن تتزوجي من ابن عمتك منى .. إبراهيم شاب عاقل وطموح وممتاز جدا .. وبعد شهور يتخرج طبيبا، وبعد الزواج سيسافر للخارج ردحا من الزمن .. وبزواجك منه تذهبين إلى هناك وتتعلمين هناك ، وكذلك تتعرفين على أخوال أمك وخالتك شمسة التي تزوجت من ابن خالي .

ـ أروح لندن مرة واحدة !

ـ ليست جديدة لندن علينا .. عشت أنا وأبوك فيها زمنا .. وأبوك كما قلت أيضا راغب بهذا الزواج وإن كانت سنك صغيرة بعد .. هذا رأينا نحن ، والرأي كما يقال الأول والأخير لك يا حبيبتي .. وأكرر أن الزواج مسؤولية وحمل ورضاع .

ـ والدراسة ؟!

ـ بعد نجاحك في الثانوية سيكون الزواج إذا حكم النصيب ، وبالطبع هناك إبراهيم سيهتم بدراستك الجامعية والماجستير والدكتوراه إذا أحببت المتابعة .

حسم الأمر

طلبت الفتاة التفكير والنظر في الموضوع بعدما تنتهي من امتحانات المدرسة والتقت عدة مرات بإبراهيم ، وشرح لها رغبته الكبيرة بها ، وإن الدراسة ليست عائقا للحياة الزوجية ، ومع كل هذه المحاولات طلبت الفتاة الانتظار حتى تنتهي من امتحانات الثانوية العامة ، ولم تبدِ قبولا صريحا ولا رفضا قاطعا ، إنما ستحسم الأمر بعد الثانوية ، فقبل إبراهيم بالانتظار هذه الأشهر المتبقية للتقدم لامتحان الشهادة الثانوية الذي تعقده الحكومة للطلاب .. مع أن هذا الجواب المرن لم يشجعه ، وخشي أن يذهب انتظاره إلى لا شيء .. ومالك أيضا تضايق من توقف وتردد ابنته في القبول .. كان يريدها أن تقبل وتتم الخطبة ويؤجل الزواج إلى أي وقت يشاءون ، ولكن هندا اعتذرت لأبيها ، وإن أدركت ما تركت في قلب أبيها من ألم ، فهو ربما يحب أولاد برهان أكثر من أولاده .. فهو دائما يذكره ويتحدث عنه .

حاولت هند التخفيف من ردها عن قلب أبيها ، وبعد عتاب أمها لترددها في حسم الموقف ، ورغم الكلام الذي سمعته من أمها قالت لأمها " يا أمي أخاف أن أتسرع في مثل هذه القرار ثم أندم ، وأدمر حياتي وحياة الأخ إبراهيم والأسرة كلها .. أنا أعرف محبة إبراهيم لنا، والغاية من الزواج منا وغايته الأخرى من هذا الزواج قبل السفر"

فتركتها الأم وشأنها ، ولم تعد تفتح معها موضوع إبراهيم ، وحاولت هند شرح موقفها لوالدها والتخفيف عن قلبه ، فقال لها كلمة واحدة : أنت حرة يا هند .. فاليوم أنت توقفت في حسم الأمر ، وقبل إبراهيم على مضض ، كان يريد جوابا صريحا نعم أم لا .. وغدا نحن قد نتوقف إذا تقدم إليك عريس ولم يعجبنا .

ـ إلى ذلك اليوم يفرجها الله .. وأنا لم أرفض إبراهيم يا أبي! إنما أحببت التأني في الجواب .

ـ الشاب مستعجل ، لو قلت نعم انتهى الإشكال ، هو يصبر ونحن نصبر .. وهو قد جلس معك مرات محاولا سماع نعم ، وأنت تصرين على الانتظار .

ـ أنا حائرة يا أبي يا حبيبي .. أخشى التسرع في القبول ، ثم لا نندمج معا ويفسد الزواج ، ماذا

سيحل بالعائلتين يا أبي ؟! هذا التصور مخيف !

ـ على كل حال رضي الشاب بالانتظار هذه الشهور .. هو شارينا ونحن نتململ .. أنا حزين له يا هند !

كلما تجلس هند مع أبيها تكرر أسفها واعتذارها له ، حتى تفاجأ ذات يوم وهم يدعونه لحضور خطبة إبراهيم من إحدى بنات عماته ، فصعق مالك وربيع وهناء للخبر حتى أن مالكا ذرف الدمع مما أدمع قلب هند الصغير وأبكاها ، وسألها " هل حدث بينكم شيء ؟! فقالت بأسف وبكاء : منذ افترقنا لم يتحدث معي! "

ولما التقى إبراهيم بخاله اعتذر له عن عدم صبره وانتظاره أكثر من شهرين .. ، فبكى مالك ثانية بين يدي ابن أخته وقال : كان باستطاعتي إرغامها على الرضا بك يا إبراهيم ! ولكني كنت حريصا على سعادتك وحياتك الهادئة .. فأنت لا تقبل العيش مع فتاة لم تجزم أمرها .

قال إبراهيم : أعرف ذلك وأتمنى لها كل سعادة وتوفيق .. وأنا كنت أحب أن ادخل السرور على قلب أمي بالزواج منكم ، ولكن أقول قدر الله وما شاء فعل .. فالسكينة والرحمة ضروريتان للحياة والسعادة الزوجية .. وصعب عليّ رهن مصيري لشهور ثم أسمع بعد ذلك كلمة آسف .

ترك هذا الزواج في نفس مالك شيئا مؤلما وجرحا كبيرا في قلبه ، وأحس بالخجل لفشله بإقناع ابنته من الزواج من ابن أخته وحبيبه برهان .. وفي هذه اللحظة أدرك أن الحبل الذي كاد أن يمد قطع ، وها هم أبناء أخته الخمسة يعودون لحضن عائلتهم العائلة الطيبة ، وقالت هناء مواسية لزوجها الحزين ومخففة من العناء النفسي عنده : غدا لما نزوج برهان نزوجه من أقارب برهان.

ـ لا يصح يا هناء ! فزواج إبراهيم من بناتنا كان أفضل ، ولكننا سنبقى أخوال الأولاد !

ـ أنا أشعر بما أصابك من ألم .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان المهندس ربيع ساعد أيضا قد شعر بالأسى والخسارة الكبيرة في فشلهم من تزويج

□□□

إبراهيم الذي رغب فيهم .. وربما كل العائلة تأثرت بهذه القضية .. وأدركوا أن أولاد برهان ومنى ابتعدوا عن حياتهم ، ولسوف يرونهم في المناسبات واللقاءات العابرة .

وقبل أن تنتهي هند من امتحان شهادة الثانوية كان إبراهيم يتزوج من ابنة عمته الطالبة في الجامعة ، وسكن في الفيلا أو القصر الجميل كباقي إخوته .. ولما أنهى الجامعة ، وتخرج منها أرسل أوراقه إلى جامعات الطب الإنجليزية .. ولم يطل الانتظار ، فعندما كانت هند تفرح بنجاحها في الثانوية العامة ، كان إبراهيم وزوجته يغادران أرض الوطن إلى الجزر البريطانية حيث الشهادات العالمية والعلم والعمل .

عندما التقى مالك بمنى عاتبته كثيرا على عدم تزويج ابنته من ابنها ، فبكى بين يديها كالطفل الصغير ، وقال معتذرا : كان بقدرتي إجبارها يا أم خليل ! ولكن خفت أن تجعل حياة إبراهيم شقاء ونكد ، ونندم عندما تحس أننا أجبرناها على الزواج منه .

وذكرته بأيامها الأولى عندما تزوجت حازم ، وكيف كان موقفه حادا ؟ وكيف كان رفضه ومعارضته رغم صغره آنذاك ، فقال : أنا لم أنس ذلك يا منى .. وأنا نبهت ابنتي من هذا الموقف ، قلت لها غدا ستأتيننا بزوج لا نرضاه ستبكين .. سامحيني يا منى !

ـ ليس لي عندكم شيء ، إنما كان الأمل والعشم ؛ ولكن أرسلت وراءك لأخبرك أنني سأسافر إلى لندن للحياة مع إبراهيم ، إنه يريدني أن أكون بقربه وأنه لا يستطيع العيش بدوني .. وقد تأثرت بدموعه ونشيجه على الهاتف .. فإبراهيم ولدي الأخير وفلذة كبدي .. وأنا أحسست بفارغ كبير لما تأكد لي بعده .. وسأترك حبيبي برهان برهة من الزمن.. فخذ بالك من الأولاد ، وساعدهم إذا واجهوا أي مشكلة أو قضية ، فهم يحبونكم ولكنكم بخلتم عليهم بفتاة .. ربيع لم يستطع إجبار ابنته .. ومالك لم يستطع ذلك .. أنا أعذر ربيعا لم أعرف من شخصيته المسالمة الهادئة الوديعة ، أما أنت يا مالك كنت تعمل نفسك في وجهي بطلا وشجاعا .. لا تبكي انتهى الأمر !

ـ لا تقسي عليّ يا منى !

ـ أنا لا أقسو عليك ، فالولد غير الأخ والأخت !

ـ سامحيني .. أنا لو أنه ضغط عليّ إبراهيم بعض الشيء ولكنه لم يفعل !

ـ أخلاقه لا تسمح له أن يفعل ، كان يريدكم وأنتم رفضتموه .. على كل حال كان لابد لي من معاتبتك فاقبل ذلك مني .. وسأتصل بكم من لندن .

ـ ألا تريدين أن نودعك ؟!

ـ لا داعي فوقتكم ثمين !

ـ منى يا أخية ! لا تقسي علينا !

ـ أنتم قسوتم على أنفسكم ، عندما جاءني إبراهيم وقال لي إنه سيتزوج من ابنتك .. فرحت وبشرته بموافقة هند لم أعلمه من شخصيتك وقدرتك على الإقناع .. تفاجأت لما لم يحدث هذا الزواج .. انظر بنات أخواتهم وإخوتهم يوافقون بدون تردد إذا وافق الأب ، لم يكن للبنت كلمة ومع ذلك لا تجبر .. فأنا الآن عرفت تربية الحاج محمود من تربيتنا نحن .. كان أولاد الحاج محمود كلهم يد واحدة ، عندما كان أحدهم يريد أن يفتح مصلحة يجمع إخوته ويتشاورون ويتفقون أو يختلفون .. تذكرت اجتماعاتهم عند إنشاء المصنع مصنع الحديد .. اجتماعاتهم عند بناء المدارس .. مكتب برهان .. المستشفى .. مصنع الدواء .. وغير ذلك من الاستثمار

ـ صحيح ، هم خير منا وأجمع منا وأوفق منا ، هذا واضح للعيان يا أخية .. معك حق يا منى .. غفر الله لنا يا أخية .. متى ستسافرين أحب أن أرافقك للمطار ؟

ـ سأتصل بك من هناك .

ـ هذه قسوة وعتاب شديد ، ما زلت غاضبة ؟!

ـ عندما أموت سينتهي كل شيء بينكم وبين أولاد الحاج محمود .

ـ سنبقى أخوال أولادهم .. وسأزوج برهان من فتاة منهم .. سنبقى متصلين بهم .. أنا لا

يمكن أن أنسى العزيز برهان مثلك يا منى .. برهان جدد لي حياتي وقوى عزيمتي في الاندفاع للأمام ، كان مستشارا صادقا وشجاعا وأمينا أيضا !

ـ حسنا ! سأقبل عذرك اليوم قبل غد ، اذهب الآن واخطب ابنة مريم أخت برهان ، فزوجها من العائلة وهو ابن عمها .. فلزوجة إبراهيم أخت توأم !

ـ سأفعل الآن .. بس سامحيني .. وسيتزوج إن شاء الله قبل سفرك يا منى.

مسحت دموعها وهي تعلم أنها قست على أخيها ، وقالت : أرجو أن يوافق ابنك ، ولا يفعل بك كابنتك ، وألا يكون ينظر لفتاة ما .

قبل مالك باحترام يد أخته الكبيرة التي أخذت تمسح دموعه ودموعها حتى أن الدكتور خليلا دخل عليهما ولم يشعرا به وهم في هذا الوضع الغريب ، فقال دهشا : دموع وشهقات .. ما الأمر يا خالي ؟!

قبل مالك يد أخته ثانية وقال : سأفعل كل ما تشتهينه يا منى .. قاتل الله الضعف .. ستعرف كل شيء قريبا يا خالي .

ونهض قائما وقال خليل : اجلس أبا برهان .. اجلس يا خال نتحدث بعض الوقت .

ـ لا يحق لي الجلوس هنا قبل أن أحقق ما اتفقت عليه أنا وأمك سامحيني يا منى .. أمك ستسافر يا خليل إلى لندن ، وأخشى أن لا نرى بعضنا بعد هذه السفرة !

قالت منى قبل أن يتكلم خليل : الأعمار بيد الله يا أخي .. انطلق وافعل ما هممت به !

ترك مالك أخته مهموما مقبوض النفس ، وقال خليل لأمه : ما الذي هم به أخوك ؟!

فتبسمت الأم وقالت : ستعرفه بعد ساعة !

ـ بعد ساعة !.. حسن وما قصة السفر الذي أشار إليه الخال الفاضل ؟!

ـ ألم أقل لك إن إبراهيم يتحدث معي يوميا وهو يبكي ؟! .. صعب عليه فراقي فيريدني معه حتى ينتهي من الدراسة .. وأنا أيضا صعب عليّ بعده عني يا خليل!

ـ رغم أن هذا يؤلمني يا أمي .. أتحمل وأصبر من أجل إبراهيم الصغير! متى يكون السفر ؟

مع أن إبراهيم دائما يتحدث معي لكنه لم يذكر شيئا ، نحن تعودنا على نفسك معنا .. سيحرمنا إبراهيم من هذه النعمة ! تغيير الجو لا بأس به يا أمي

ـ لا يعني هذا أنني سأترك برهان .. لا .. سآخذ كل ما يذكرني به معي إلى هناك .. ولو يحمل القصر والأثاث لأخذتها معي .

صفن خليل لحظات وقال : افعلي ما تشائين يا أغلى أم .. سنتحدث معكم كثيرا كل يوم إن شاء الله ..

وبينما هما يتناجيان أقبل أخوه محمد وزوجاتهم وأطفالهم والتفوا حول الأم ، وقد استغربوا لما علموا برغبة منى بالسفر المفاجئ .. فهي منذ ترملت لا تحب مفارقة البيت ولو لساعات .. فهي لم تفارق البيت إلا مضطرة لعيادة مريض أو تعزية عزيز أو تهنئة بزواج أو نجاح أو مريضة إلى المستشفى والعيادات .. فهي تريد ترك القصر وذكريات برهان .. رغم فرحهم بهذا التطور المفاجئ .. قلقوا على فراقها .. وبينما هم يعبرون عن مشاعرهم بحرية وصدق ويتحدثون عن أخبارهم وأحلامهم رن جرس القصر معلنا عن ظهور قادم ، ودخل برهان وتقدم من عمته وقبل رأسها ويدها وقال : أرسلني أبي إليك ، وأنا بين يديك يا عمتي الحبيبة قبلته من خديه ، ودعت له بالخير ثم قالت : برهان ! آه يا حبيبي ! كم فرح زوج عمتك عندما أخبره أبوك بمولدك وتسميتك برهان .. وكم فرح زوج أمي جدتك جميلة العم خليل عندما أخبره برهان بأننا سمينا ابننا خليلا .. سبحان الله! الأسماء مع أنها على أبدان مختلفة لها تأثير وحلاوة على النفوس .. كان أبوك يحب برهان ، فأراد أن يعبر عن هذا الحب فسماك بهذا الاسم العزيز والغالي يا ابن الغالي .. تعال اجلس بقربي أيها الحبيب .

فجلس على الكنبة أو الأريكة التي تجلس عليها فأخذت تداعب وتعبث في شعره وتقول : أهلا بابن الغالي .. وهو يتمتم بكلمات الشكر ، وقالت : أقال لك أبوك شيئا ؟!

قال بحزن : دخل علينا باكيا .. فبكينا ظنّنا أن مصيبة ألمت بنا أو مات أحد .. ثم صرف الجميع وتحدث معي وحدي فقال : اذهب إلى عمتك الدكتورة منى ربيع .. لتزوجك ممن

تشاء .. ففهمت القضية .. فجئت إليك سريعا !

ـ أتقبل أن أزوجك كما أشاء يا حبيبي يا برهان !

وضمت رأسه لصدرها وقبلته ، وتساقطت دمعات من عيونها ثم شرقتها وهي تسمع الشاب يقول: ولو لم أقبل لم آت يا عمتي.. فدموع والدي عزيزة وغالية علينا .. ونحن منذ تزوج إبراهيم ونحن نعيش في حزن وألم وبكاء.. فأنا خفت على والدي من جلطات الدم وغيرها ..

ـ سلامة أبيك ألف سلامة .. جيد قبولك يا برهان ! وعافى الله أباك .. خليل اتصل بزوج عمتك مريم .. وأنت يا محمد اذهب مع أخيك ، وسأركب أنا مع ابن أخي مالك .. سنخطب ابنة عمتكم لابن أخي .. توأم زوجة إبراهيم .

قال محمد : أنت ستخطبين له؟!

ـ نعم أنا!



تعجبت مريم أخت برهان وزوجها من هذه الزيارة ، وممن من منى ربيع ! فحصل استنفار عجيب في البيت ، فمنى تفارق البيت جرا ، وما تصدق أن تعود وتنتهي من حاجتها خارج البيت .. وكان الوقت مساء بعد العشاء بقليل لم يكن بيت مريم بعيدا عن قصر السيد برهان استقبل موسى ومريم أم خليل بالترحاب الحار الدافئ والفرح الواضح ، فهي أيضا حماة ابنتهم منى ، وكانت أخت برهان صديقة لمنى منذ تزوجت شقيقها برهان ، وكان زوجها ابن عمها موسى .. فلما ولدت ابنتيها التوأم سمت واحدة منهما منى ، وهي التي تزوجها إبراهيم وسافر بها إلى بريطانيا.. وجلس الضيوف وأهل البيت في صالة واسعة ، وكان أهل الدار يرحبون بضيوفهم الكرام ، ثم تحدثت منى عن سبب هذه الزيارة المفاجئة ، وأشارت لابن أخيها برهان ، وطلبت منهم أي فتاة ، وإن كانت توأم منى الآنسة أميرة فذلك خير.. فسر

□□□

القوم ، وقامت مريم تعانق منى وهي تقول : يا أهلا بكم جميعا .. وأهلا ببرهان سمي أخي العزيز برهان رحمه الله تعالى ..

وقال زوج مريم عندما نظرت إليه زوجته : أهلا وسهلا بك يا أم خليل والله هذا شرف آخر تقدميه لنا .. فأهلا بك يا برهان .. وعلى الرحب والسعة .. يا مريم تحدثي مع البنت ، وليراها الشاب فإذا راقت له فبها ونعمت .. وإن لم ترق له فلها أختان.

فقالت منى : بارك الله فيك يا أبا أيوب ! .. ستروق له فسنعيد إليكم البرهان الجديد .

ـ شكرا لك يا أم خليل .. مقدارك عظيم عندنا .. كل العائلة تجلك .

قالت مريم : جزاك الله خيرا يا أم خليل .. أنت بركة عائلة الحاج محمود .. سأرسلها لكم لتسلم عليكم وترونها .

سرت منى وأولادها لسرعة إجابة موسى وزوجته لرغبتهم ، وأثنت على أبي أيوب بما فتح الله عليها من الكلام الحسن والامتنان ، وما عادت الأم للجلوس ثانية حتى أقبلت الفتاة المنشودة وقد لبست ثيابها الشرعية .. فهؤلاء الناس ما زالوا يراعون المحافظة وعدم الاختلاط والخلوة فسلمت على زوجة خالها برهان وقبلتها ، وحيت الجميع ، وجلست حيث أشار لها والدها وقال موسى : هذه يا برهان توأم منى زوجة ابن عمتك أم خليل .. وهذا يا أميرة برهان ابن الأخ الفاضل مالك ربيع شقيق الدكتورة منى .. فقد أقبل بعمته وأولاد عمته يطلبونك منا .. فنحن رحبنا بهذا ، والقول الآن لك ؟!

تبسمت الفتاة وقالت وهي تنظر في عينيّ برهان الذي احمر وجهه خجلا : وأنا قبلت يا أبي ! اختيار امرأة خالي رحمه الله .

لم تطلب الانتظار مع أنها طالبة في الجامعة كأختها منى ، فقامت منى جذلة واحتضنت الفتاة مقبلة لها عدة قبلات معبرة عن فرحها وسعادتها بسرعة جوابها وقالت : مبارك يا ابنتي .. ونعمت التربية يا أبا أيوب ويا بنيتي .

ومسحت دمعات تساقطت على خديها مما أدهش العروس وأهلها واعتبروها دموع الفرح ؛

ولكن برهان فهم مغزى هذه الدموع .. وقال موسى : ألف مبارك يا أم خليل .. أميرة قدرت مجيئك شخصيا لطلب يدها لأبن أخيك .. آ ، يا برهان لم تقل شيئا ؟!

تمتم الشاب بخجل وحياء: لا كلام لي يا سيدي .. أنا سعيد بموافقتكم وقبول الآنسة بي .

انتقلت منى لابن أخيها واحتضنه هو الآخر وباركت له وقالت : أنا سعيدة اليوم يا أولاد .. عدنا أسرة واحدة بمشيئة الله ..

وقام خليل بالاتصال بخاله مالك ربيع ، وطلب منه المجيء ليطلب ويخطب لابنه .

وجرت الاتصالات موسى بوالده وبعض إخوته ، ومريم تحدثت مع أخيها عبد القادر وعبد الرحيم ، وكان مالك يتصل بربيع وبأخته حنين وبنضال وعزمي بعض أشقاء هناء ، والتقوا على باب بيت أبي برهان ، ثم انطلقوا إلى بيت أبي أيوب ، والتقى الجميع هناك ببيت ابن عم برهان المحبوب لهم ، وحدثت الخطبة بحضور كبار العائلتين ، وحدثت سهرة كبيرة بين تلك الأسر ، واتفقوا أن يكون الحفل الكبير للإعلان عن الزواج في وقت قريب ، وقبل سفر السيدة منى إلى لندن.. وكانت منى نجمة هذا اللقاء.. فهي منذ عشر سنوات أو أكثر لم تشاهد بمثل هذا الحبور والسعادة والمشاركة كأن العروسين ابناها .

ولما غادروا البيت ركبت منى مع أخيها مالك في سيارته نحو بيتها ، فقال لها وهم عائدون : جزاك الله خيرا يا أختاه ! لقد صنعت لنا عملا عظيما .. لقد أعدت البسمة لقلوبنا .

ـ خسارة يا مالك ! أن نخسر هذه العائلة.

ـ أعرف ذلك .. مع أننا ندعي أننا محافظون على عاداتنا وتقاليدنا فهم خير منا .. فبناتهم كريمات طاعتهنّ لأهلن دون تردد .. همس لي برهان بكل ما جرى وهو لا يكاد يصدق .. بنت في الجامعة ترى الخطيب أول مرة لا تطلب مهلة ما دام والداها وافقوا !

ـ نعم ، لم تطلب مهلة ولو دقائق.. هو وافق وذهبت الأم لحجرة الفتاة وحدها ، لم يقم الرجل من مجلسه لنقول ضغط عليها .. أنا كانت يدي على قلبي أن تتردد وتطلب مهلة أو لما تتخرج من الجامعة كما فعلت ابنة ربيع .. دائما خيرهم كبير وكثير علينا .

ـ والله لا ننسى ذلك يا أخية .. الحمد لله الذي وفقنا لهذه الخطوة الصغيرة لترضي عنا وعلينا .

ـ لا تزعل من كلامي معك مساء هذا اليوم .. أنا من حبي لكم تكلمت بما سمعت مني .. أنا أريد أن يبقى أبنائي قريبين منكم .. النساء تقرب وتباعد .. فبالمصاهرة نبقى قريبين من بعض أكثر .

ـ أدرك هذا القصد الكبير.. لا تعلمين كما ندمت عندما علمت بخطبة إبراهيم .. صعقت لدرجة أنني أول مرة لم استوعب ما حصل .. ولكنه صار والحمد لله هو وابني عديلان وسنعزز هذه المصاهرة بغيرها يا منى .. فأعطونا برهان الغالي وها نحن أعطيناهم برهان فلذة الكبد .

ـ ابنك رائع ومهذب جدا وأعجبني للغاية !

ـ هو أدرك الألم الذي أصابنا من زواج إبراهيم .. أنا قلت له الأمر ، ثم قلت اذهب لعمتك فقال لبيك يا أبي وأنا تحت أمركم .

ـ أنا هكذا أحب الأبناء.. فلا يجب أن نتأخر كثيرا بالتفكير الفردي والانفلات في الحرية الشخصية .. نحن ما زلنا أسر لديها دين عظيم .. ونعيش في مجتمع لا يمكن أن ينفتح انفتاح الغرب .. ما أخبار حزبك العجوز ؟!

مسح دمعة سقطت على خده وقال : تريدين تغيير الموضوع والحوار .. أنت أختنا الكبيرة اليوم ، أي أمنا يا منى ، رحم الله الحاجة جميلة .. ورحم الله أبا أحمد .. وأنا وهناء ـ وكانت هناء على ذكرها قد ركبت سيارة أحد إخوتها ، فقد شعرت أن منى ستتحدث مع مالك ، فلم ترغب بحشر نفسها والاستماع ـ نقدر لك هذا الجهد وممتنون لك فعلا .. وأرجو أن لا تسافري قبل زواج برهان .. فبرهان ابنك اليوم .

ـ هذا الولد أحببته منذ ولد .

ـ وما زلنا نحتفظ بالهدية التي أرسلتموها لنا إلى لندن بمناسبة ولادته.. رحمك الله يا أبا خليل فكلما أجلس مع نفسي وأتذكره تبكي وتدمع عيناي يا منى .. لا أقول ذلك نفاقا يا منى ..

□□□

والیوم ولدنا طیار ماهر في سلاح الطیران العسكري

ـ هل تعلم أنهم لم یسألونني عن عمله ؟!

تبسم وقال : نحن أهل یا منى .. لابد أنهم یعرفون .. فبرهان لیس غریب علیهم .. لقد كان برهان العزیز یصحبه معه كثیرا .

ـ أحسنت !

ـ سنتصل بإبراهیم ونخبره بهذا الخبر السعید لیصفح عن أخواله .

ـ سیتصل هو .. لقد اتصلت أمیرة عروسكم بأختها قبل مجیئك بأهلك ، لابد أنه اتصل هناك لیبارك لهم ، وربما اتصل بكم في البیت ، إبراهیم أكثر أبنائي حبا لكم .. وسیتصل هنا ، ولابد أنه طلب الحدیث معي ، سنعرف الآن من زوجات الأبناء .

وقفت السیارة على باب البیت ، ثم تبعتها سیارة خلیل ومحمد وبرهان الذي نزل وقال لهما : كنتم تسیرون ببطء شدید .. وكأنكم نسیتم أن الوقت نصف لیل .

قال مالك : لم ننس اذهب بمن معك للبیت سأسهر مع عمتكم .. أنا منذ زمن افتقدت مثل هذه السهرات الرومانسیة أو الشاعریة مع الأخت الحبیبة.. انصرف یا ابني وقل لأمك لتنام قد یطول السهر !

تنهدت منى وهي تسمع كلمات مالك ولما سكت قالت : منذ مات برهان !.. نعم منذ مات برهان ! .. تفضلوا .

وبینما هم واقفون جاءت هناء التي كانت في سیارة أخیها نضال الذي تقدم نحوهم ، وشكر بدوره الدكتورة منى ، فتقبلت شكره بحنان وامتنان ، وقالت هناء : لك الشكر یا أم خلیل.. وسنظل نشكرك .. فأنت أعدت لنا الصفاء بجهل البنات .. فهنّ لا یعرفن مثل هذه المعاني العائلیة الكبیرة والسرور والحبور بین القلوب .

ـ لا بأس یا امرأة أخي .. سامحیني إذا أخذت دورك في الخطبة لابنك .. تفضلوا نحن ظنّنا أنكم عدتم لبیوتكم .

ـ بارك الله فيك الوقت متأخر ..

وركبت هناء في سيارة برهان الذي قال لعمته : السلام عليكم ، سنمر عليك يا عمة أنا وأمي والعروس ، فهي تريد أن تشتري أنت لها الذهب والزينة .

ـ أنا .. أبشر وسأدفع ثمنه أنا إكراما لعيونكم جميعكم .

احتج برهان وقال : لا ، لا .

قال مالك : اسكت يا برهان .. أنا أعرف عمتك ، هي تريد تسديد دين قديم أو تذكرني بدين قديم !

ضحكت منى وقالت : لا والله ! أنا أعرف أنك وضعت ألفين دينار من ذلك الدين ، دين المصنع .. لا أنسى ، فبرهان صارحني بذلك عند موته .. وخيرك كثير يا مالك .. لقد كانت هداياك لنا كبيرة وثمينة .. ولكن أحب أن أشارككم فرحتكم ، وابنة أختي مريم تطلب ذلك مني .

ولما ابتعدت سيارتي برهان ونضال دخلت منى القصر ، وكان أولادها قد سبقوهما بالدخول ، قالت منى : مع أن الوقت صيف أشعر ببرد في هذا الليل .. فلنجلس في المكتبة حيث كان برهان الحبيب يحب المكث والسمر والإطالة يا مالك

ـ حاضر .

جلس الأخوان في مكتبة البيت ، وأحضرت لهما خادمة البيت أم السعد القهوة .. أخذت منى كتابا كان يحب برهان قراءته وطفقت تقلب صفحاته .

قال مالك بعد صمت : أراغبة بالرحيل يا أخية ؟

ـ أجل أيها الأخ الحبيب .. أنا أحب إبراهيم ، ربما أكثر من إخوته ، وهو حبيبي ، وهو شبيه أبيه صورة وخلقا .. فكلما أراه أحس أنني أجلس مع برهان .. فهذه الشهور القليلة التي غابها عن عيناي آلمتني وأحسستني بفراغ كالفراغ الذي أحسست به عند فقد برهان .. دموعه عزيزة عليّ يا مالك ! .. وكأنه هو الآخر يحس بفقدي ، لقد مات أبوه وهو صغير عشر

سنوات تزيد سنتان أو ثلاث على ما أذكر .

ـ كان عملك معنا اليوم كبير ، فالشكر لك يا منى! ونحن فرحنا بخطبة برهان ، وفرحتنا أكبر بمشاركتك لنا وظهورك في حياتنا من جديد .. كان الكل مشدوه بوجودك معنا .. لقد خاف الجميع على عقلك يا منى .. ومع ما تعرفين عني كان ينتابني بعض الأحيان قلق وتوجس .. الحمد لله رب العالمين على عافيتك .. وعيشي مع حبيبنا برهان كما يطيب لك ، وخذي أوراقه وكتبه ورسائله ، وسنأتيك نحن لندن .. ونكتفي بسماعكم ريثما تعودون لنا سالمين ظافرين .

وغرق الأخوان يتذكران الماضي ، وأيام زمان ، وسهراتهم مع برهان والعم خليل ونوادر برهان اللطيفة .. وفجأة كأنه تذكر شيئا فقال : أتذكرين عبير ناصر؟!

ـ وكيف أنساها؟! وهي أول امرأة عملت موظفة صغيرة عندها ، آ.. مالها؟!

ـ اتصلت بي منذ أيام .. ودعتني لحضور حفلة زواج ابنها البكر فهو يستعد للزواج .

ـ تزوجت هي ؟! .. آ ، أذكر أنها تزوجت بعدما تصالحنا مع أهل خليل فرفر .. كأنني أذكر يا مالك أنها دعتنا للحفلة يومذاك !

فقال مالك : ذهبت أنا وعدنان وأمي والعم خليل واعتذرت أنت .. وكأن برهان لحق بنا .

ـ نعم ، نعم ، برهان وحده ذهب .. ما شاء الله ابنها كبر ويريد الزواج !

ـ الأيام تعبر سريعا يا أم خليل .. رحم الله الحاج خليل أبا أحمد .. كان نعم الرجل والأب .. أخونا ربيع يقول "إنه يفكر بإنشاء مسجد عن روح خليل زوج أمنا"

ـ فكرة طيبة ! .. نعم ، كان لنا نعم الوالد .. فنحن لا نعرف أبانا ساعدا ـ رحمه الله ـ كما عرفنا خليلا ، الوالد مات ونحن أطفال يا مالك .. صورته خيال في ذهني .. أبو أحمد رجل نادر ، ومع ذلك لم يحتاج لنا كثيرا طول حياته .. قل لربيع إنني سأساهم في هذا المسجد .. ما زالت أموال المصنع مصنع عبد الرحيم تهل علينا .

ـ لقد أصبح المصنع عدة مصانع شركة ضخمة .. خلاص سنشترك كلنا ، وسأتحدث مع حنين

إذا أحبت أن تساهم بشيء ، حتى لا تغضب علينا إن تجاهلناها .. ويقول الأخ الكبير ربيع إن المسجد قد يزيد بناؤه وأرضه عن مائة ألف دينار .

ـ المال ليس مهما يا أخي .. أموال أمهم لم يحتاج إليها الأولاد ، فحتى

دراسة إبراهيم كانت من أموال خليل ومحمد .. أصروا على دفع أموال الدراسة ، وحتى سفرة لندن هم يمولونها .. فهم يدعون أنهم استفادوا من أموال الوالد ، وإبراهيم لم ينتفع منها كثيرا وتقبل إبراهيم الأمر بطيب نفس ومن غير حساسية .. وطلبوا منه أن يصرف أمواله إذا أحب على نفسه وزوجته.. فوافق إبراهيم أيضا .. إبراهيم طيب مثل أخي ربيع يذكرني بمسالمته ومسايرته بربيع ساعد .

ـ هم تربيتك وتربية أبي خليل ـ رحمه الله ـ تربية ممتازة يا أخية .. وإبراهيم زاد عليهم بأنه تربيتك أنت خاصة .. والله كان مناي وبودي أن يتزوج ابنتي هند .. لكن الدلع زاد عندنا .. والله يا منى ! إن هناء تألمت مثلي وزيادة .. وكانت راغبة بهذا الزواج والنسب .. سوى القربى التي تجمعنا كانت راغبة أن يتزوج ابنتها ليكون قريبا من رعاية أخوالها ويعيش معهم براحة .. وخالتها لهند متزوجة منهم كما تعلمين .. ولكن نقول ما علمناه الرسول صلى الله عليه وسلم " قدر الله وما شاء فعل " .

وبينما هما يتسامران ويتذاكران أيام الشباب وقصص الشباب ، اتصل إبراهيم طالبا الحديث مع أمه ، وشكرها على خطوتها الجميلة ، وتحدثت منى زوجته مع منى أمه ، وأثنت عليها كثيرا وباركت جهدها الخالص بتزويج أختها من ابن أخيها وأبدت شوقها لرؤيتها قريبا كما وعدتهم ، ولما علم إبراهيم أن خاله يسمر مع أمه في مثل هذا الوقت سر قلبه وطلب الحديث مع الخال ، وبعد التهنئة قال : كنت أرغب أن أكون البطل عندكم ولكن للقدر حكمه ، والله فعال لما يريد.. لن تزعل إنها تسمع ، فهي تعلم أنني رغبت بمصاهرتكم رغبت ببنات أخوالي ورفضنني بحجج واهية.. وأحسنت أمي باختيار أميرة عروسا لبرهان مالك.

أخذ مالك في الضحك لصراحة ابن أخته ، وقال : سأسافر مع أمك ، واعتذر إليك ثانية .

وأخذت منى موسى التلفون من زوجها ، وهنئت الدكتور المحامي المعروف مالك ربيع ، ودعته بحرارة لزيارة لندن مع عمتها فوعدها بتلبية الدعوة .

ولما ترك الأولاد الهاتف قالت منى : ألا تريد العودة لبيتك ؟ فأكيد هناء وبرهان ينتظرونك للتشاور .

ـ ذكرت لهم أننا في يوم تاريخي من حياتنا بعد فقد الكثير من أحبابنا .. قلت لهم سأستعيد ذكرياتي الليلة مع أختي منى ربيع .. فإن سهروا فهم يسهرون بفرحتهم بابننا برهان .

ـ وهل حقا سترافقني في السفر؟!

ـ نعم .. أنا تعبت أعصابي في الفترة الماضية .. وستسافر معنا أم برهان .. ولي أيضا عمل هناك طباعة كتاب .. فقد تحدث معي ابن خال هناء في ذلك .. وأنت شجعتيني .

وظلا سهرانين حتى صليا الفجر ، ثم غادر مالك بيت أخته عائدا للبيت وهو حالم لا يريد النوم مما غمر قلبه من الحبور بما حصل لولده برهان ، ومن رضا منى عليه .. ولما وصل البيت وصعد للطابق الثاني ، وجد هناء ما زالت تجلس في المكتبة ، فخطر له أنها قامت للصلاة ، وجلست تقرأ في المصحف ، لم يخطر له أنها ساهرة مثله ، فسلم وحيا وألقى ببدنه على أريكة ،

وقالت : قبل قليل انصرف الأولاد .. فخشيت إذا نمت أن تذهب عليّ صلاة الفجر .. لعلك قضيت سهرة ممتعة مع أم خليل؟!

ـ أجل يا أم برهان .. لقد عادت بي الذكريات لسنوات خلت .. كبرنا ومرت تلك السنون مستعجلة.. وقد نسافر مع منى لندن.. رحلة نزهة ما رأيك بمرافقتنا ؟! ونزور أختك وأخوالك .. وأنت تذكرين أن ابنة خالك كتبت لنا عن أحد الكتب التي أعدتها للنشر.. وأنت ذكرت أن ابن خالك تحدث أيضا بهذا الشأن .. فهي فرصة .

ـ وزواج برهان ؟!

ـ ستسافر منى بعد زواج برهان .

ـ إذا تمكنت من أخذ إجازة سأفعل ، وحتى إذا سمح لبرهان بالسفر إلى الخارج لقضاء شهر العسل فنأخذهم معنا فيقضون إجازة عرس في أوروبا .

خلال شهر واحد تحقق زواج برهان مالك على أميرة موسى ، وتم الزفاف المنشود ، وتحقق الفرح للجميع ، ولم تتمكن هناء من السفر مع زوجها ، وكذلك برهان بسبب أنه ضابط طيار وقد فرح أحباب منى وأصدقاء العائلة وأحفادها بمشاركتها لهم العرس ، وبسفرها وترك القصر ولو إلى حين.. فهي منذ هلك برهان وهي معتصمة بين جدران القصر ولا تخرج إلا مضطرة .. أو مجاملة لأقصى درجة .. وقامت ببعض الزيارات ، ودفعت أموالا لربيع للمشاركة والمساهمة في بناء المسجد عن روح خليل أحمد فرفر .

وقضت مع أخيها مالك أياما جميلة في معالم لندن ، ثم عاد مالك مسرورا مطمئنا على صحة أخته وعافيتها .. وسر إبراهيم من وجود أمه معه ، وكذلك زوجته منى ، ولم تنقطع الاتصالات الهاتفية مع أفراد العائلة ، فما يمر يوم إلا وهم يتلقون اتصالا من فلان ، وآخر من فلان مستفسرا عن حالتهم .. وبعد عودة مالك للبلد كانت منى تبقى عاكفة في البيت حتى يرجع إبراهيم من الجامعة ، ومنى من جامعتها ، وزارتها أخت هناء " شمسة " عدة مرات بناء على اتصال أختها بها ، وأصبحتا صديقتين غربة .. وكان أخوال هناء يترددون عليهم

لزيارتهم والسمر معهم أيضا بطلب من هناء عبد الكريم .. وكانت بعض نسائهم الكبيرات في السن والمتقاعدات من الوظائف والأعمال يترددن على الدكتورة في الصباح لشرب القهوة والثرثرة والحديث معها ، وجاءتها أنباء الانتخابات لمجلس البرلمان في بلدها ، وقد علمت وهي تقرأ صحف بريطانيا الإنجليزية والعربية بفوز أخيها مالك نائبا عن حي برقوقة والدائرة التابع لها هذا الحي من المدينة .. وكان نجاحه متوقعا للجميع ، ولو شارك في دورة سابقة لحقق مثل هذا الفوز لشهرته في تلك المنطقة.. فهو شخص شعبي أي معروف للعامة والخاصة في الحي ، وقصة نجاحه وخدمته لأبناء الحي معروفة .. في النشاطات العامة والخاصة ومساعدته للناس معلومة فهو شعبي من أيام العم خليل الحداد .. ومكتبه كان متعاونا ومفتوحا للضعفاء قبل الأقوياء .. وكان أهل الحي ينتظرون مشاركته قديما لاهتمامه بالسياسة الوطنية والدولية.. ومع هذا الفوز لمالك فإن الحزب الذي يتزعمه لم يحقق الآمال الكبيرة والخطط التي نفذها ورسمها.. فأمام هذا الفشل للحزب اضطر مالك وغيره من قيادات الحزب عن التخلي عن زعامته لقيادة جديدة كما اتفقوا سابقا ، وبرزت قيادة مشتركة من القدماء والشباب الجدد .

اتصلت منى على أثر معرفتها بالفوز بمالك وهنأته ، ولكنها شعرت بأنه غير سعيد بالنجاح ، ولم يكن مسرورا كثيرا بهذا الفوز الذي كان واثقا منه ، وشكى لها ضعف نتائج الحزب ، فتمنت له التوفيق والبحث من جديد عن أسباب الفشل ، وشكرها الشكر الجزيل على اهتمامها بأخباره وأخبار العائلة ، وسمع منها أخبار إبراهيم وقرينته .



وبعد حين يسير استقبلت خبر نجاح ابن أخيها ربيع المحامي زياد بفوزه بمنصب نقيب المحامين في بلدها بالطبع ، لم تكن المفاجأة كبيرة لها ، ولا لإبراهيم بسبب أن ابن أخيها كان

من أعضاء القيادة في النقابة في الدورات الماضية ، فكان الوصول لهذا المقعد متوقعا ، وتحدثت مع ربيع ومع ابن أخيها وباركت له هذا التقدم وهنأته بهذا الفوز له وللعائلة .

وبعد حين اتصل بها ربيع مخبرا لها أن ابنته سعاد راغبة بالدراسة العليا في بريطانيا ، وطلب مساعدتها بذلك فرحبت بذلك ووعدته خيرا .. وكلمت منى إبراهيم فسعى لها بالحصول على قبول في إحدى الجامعات الإنجليزية العريقة .. واستقبلها هو وزوجته في مطار هيثرو الإنجليزي ، وأسكنها معهم في الشقة الواسعة ، وأحسنت عمتها استقبالها والترحيب بها .. وقام إبراهيم وزوجته بعد استقرارها بتعريفها على أهم معالم لندن وأهميتها في العالم الحديث ، وأن العلم فيها يعادل العلم في أمريكا الشمالية وحواضر العالم الأخرى .



لم تشعر سعاد خلال الشهور الأولى من وجودها في بيت عمتها وابنها إبراهيم بأي وحشة أو غربة .. ولم تشعر من إبراهيم وزوجته منى بأي مضايقة رغم أنها رفضته ذات يوم كزوج وقرين .. وحتى زوجته التي تعرف بهذه الحكاية لم يحدث بينهنّ أي مشادة أو موقف فيه غيرة وقلق .. وكانت هي قلقة ومتخوفة من هذه الناحية ؛ ولكنها مع الأيام ذهبت واستقر الأمن ، وأدركت أن الأخلاق شيء عظيم عندهم، وشكرت الله على ذلك ، فقد كانت خائفة أن يعاملها إبراهيم بحساسية وانتقام ، وتضطر للحياة بعيدة عن جو الأسرة والأهل .. وعمتها منى كانت تضفي عليها الحنان والحب .. وكانت أمها تتحدث معها باستمرار وكذلك الوالد وكانت تصارح والديها بهذا العطف والحنان لتزيل عنهم ذلك القلق الذي كان عندهم أيضا لموقفهم الضعيف من زواجها .. فخشي من بغض إبراهيم لابنتهم .. ولكن لما طمأنتهم الفتاة فرحوا بهذه الأخبار فرحا كبيرا وتيقنوا أكثر ما هي تربية منى وبرهان .. مع أن إبراهيم لم يعش من حياته مع والده كثيرا ؛ ولكن تربية العائلة بشكل عام لها تأثير على الآخرين ،

فأعجبهم ذلك واطمأنوا على ابنتهم .

كانت حياة الدكتورة في بريطانيا مع ولدها وزوجته هادئة جدا كما كانت في بلدها ومسقط رأسها ، وتأتيها الأخبار باستمرار ، والاتصالات لا تنقطع من أولادها من زوجاتهم أو أزواج بناتها من أبناء إخوتها وبناتهم ، فكانت مطمئنة عليهم ؛ كأنها تحيا بينهم ، حدث حدث يوما ما حرك السكون الراكد في البيت اللندني .. لقد عرفنا أن لهناء أهل مالك شقيق منى أقارب في بريطانيا منذ زمن ، وأن أختا لها قد تزوجت منهم ، وذكرنا أنها كانت تتردد على منى في بعض الأحيان ، على طلب ورجاء من أختها هناء التي كلما تتصل بها تذكرها بزيارة منى والثرثرة معها ، حتى لا تشعر بالوحدة خصوصا في الفترة الصباحية عندما يذهب الأولاد للدراسة والعمل .. وكانت منى تفرح بذلك اللقاء وتشكر هناء في نفسها ، وتدرك أن هذا من حثها ورغبتها بإدخال السرور على قلبها .. ومع أن منى اعتادت على الوحدة والحياة الصامتة منذ هلاك برهان .. الإنسان يحب الونس والحديث والحوار .. وكانت منى تفرح أيضا لمجيء المرأة في أول النهار عندما تكون وحيدة مع الصحف والمجلات والتلفاز .. زارت هذه المرأة الطيبة شقيقة هناء ذات صباح منى كالمعتاد ، ورحبت بها منى واندمجن في الحديث والأخبار والسياسة والاقتصاد والبطالة وقضايا العالم الشائعة في ذلك الحين ، وكانت منى قد أعدت القهوة وأحضرت الفاكهة والمكسرات قبل الجلوس والاستغراق في هذه الأحاديث المسلية .. فهذه ليست أول مرة تلتقيان .. وبينما هنّ مستغرقات في الثرثرة النسائية خرجت سعاد من حجرتها في ذلك النهار ، ولم يكن عندها محاضرات اليوم ، وقد كانت قد سهرت طويلا ليلة أمس على التلفاز ، فاستغرقت في نوم عميق ، لولا أن عمتها أيقظتها للصلاة لما استيقظت وربما صلت وهي نائمة .. سألت المرأة الضيفة منى عن هذه الصبية ، فكأنها أول مرة تصادفها وإلا هي تعرف زوجة إبراهيم ، فقالت منى : هذه ابنة أخي الأكبر المهندس ربيع ..

ـ أوه ما شاء الله ! عروس جميلة يا أم خليل ..ماذا تفعل هنا زيارة .. رحلة ؟!

ـ لا ، يا أم سعيد ، خلصت جامعتها الأولى هناك في البلد ، وأحبت أن تدرس وتحصل

الماجستير والدكتوراه هنا ، فأرسلها أخي ربيع ، فجاءت تعيش معنا لتتعلم وتحصل الشهادات العليا .. أحبت استغلال وجودنا هنا .. ولو لم نكن نحن هنا ما أرسلها ربيع .

كانت سعاد في هذه اللحظة قد غسلت وجهها وحسنت من تسريحتها ، وجاءت وحيت المرأة وعمتها ، وسمعت آخر كلام عمتها .. ثم جلست ، وبعد أن عرفت منى ابنة أخيها على شقيقة هناء أم سعيد التي فرحت بهذه المعرفة .. قالت لها أم سعيد : أمتزوجة أنت يا سعاد ؟!

احمر وجه سعاد ونظرت لعمتها وأجابت المرأة بحياء : لا يا خالتي .

وتحدثت عن امرأة عمها بحديث حسن وطيب ، أفرح وسر منى وأخت هناء ، ثم نهضت واستأذنت لدخول المطبخ لأعداد طعام الفطور لنفسها ، فهي لم تفطر بعد وعرضت على المرأتين مشاركتها الطعام ، فشكرتها أم سعيد وقالت منى : قد أفطرت مع الأولاد .. افطري يا حبيبتي .

ولما اختفت الفتاة في المطبخ قالت أم سعيد : عندي ابن يا منى في سن الزواج وهو من جيل سعاد .. ألا تزوجوننا هذه البنت ولتبقى عندنا هنا في بلاد الإنجليز ؟!

ضحكت منى وقالت : الله يحسن إليك يا أم سعيد أنتم بركة .. ومنذ دخلت علينا هناء لم نسمع بمشكلة بينها وبين أخي مالك .. وسمت ابنها برهان وقبلت به عن طيب خاطر .. والأمر في النهاية للبنت وأهلها أقصد والديها .

وحدثتها بقصة إبراهيم مع سعاد ، فأعجبت المرأة بالفتاة ، وعجبت من حياتها معهم أو في بيت يسكنه إبراهيم الذي رفضته ، وكررت طلبها ورغبتها بأخذها لابنها ، فقالت لها منى : سأتحدث معها في الموضوع يا أختي العزيزة نحن أهل وأقارب ، وتشرفنا كثيرا لما تزوج أخي مالك من ابنة النقيب الكبير المرحوم عبد الكريم والدك الفاضل ، وأصابنا حبور عظيم ، وكان جميل هذا القران وحلم صعب ..

فشكرتها أم سعيد على ثنائها على والدها وإخوتها وأخوالها القاطنين بريطانيا وراحت منى تتحدث عن ذكرياتها وزواج مالك شقيقها من ابنة النقيب عبد الكريم ، فسرت المرأة مما

سمعت من ذكريات وهمسات وحب لها ولأسرتها ، وأحست أن الأمر سيكون كما ترغب ، وقامت تنصرف ولما وقفتا عند الباب ، قالت أم سعيد : كلامك رائع يا أم خليل وزادني ثقة بقبولكم ! .. شاوري البنت وأنا سأشاور ابني وسأتصل بك الليلة أو صباح الغد .

ولما عادت منى للجلوس أقبلت ابنة أخيها عليها ، قالت وهي تلقي بنفسها على الكرسي : كنتن تتحدثن عني .. ماذا تريد شقيقة هناء ؟!

ـ ألم تسمعي شيئا ؟!

ـ كأنني سمعت أو فهمت ، فكانت تكثر الحديث عن ابنها.. عن ابنها محمد ماذا يعمل ؟ ماذا يعمل يا سعاد ؟ مدير شركة مع والده !

ـ ليس هذا المهم.. المهم أن هذه المرأة أعجبت بحضرتك ، وتريد أن تشاور ابنها ليتزوجك ، وأنا مطلوب مني أن أشاورك !

ـ وأنت ما رأيك يا عمتي الغالية ؟ وعانقتها ضاحكة .

ـ اجلسي .. الرأي لك يا ابنة أخي .. فهؤلاء الناس عرفناهم ، وأختها زوجة عمك مالك ليست غريبة .. ومن يوم دخلت أسرتنا وهي سيدة فاضلة .. ولم نسمع عن أي مشكلة أو مشاجرة بينها وبين عمك .. مع أنها تزوجته وهي طبيبة كبيرة وابنة النقيب وابنة عائلة مهمة وأظن أنك ولدت على يديها فهي قابلتك .. وكثير من بنات أقاربنا الحوامل ترددن عليها ، ولم نسمع أنها أخذت منهن فلسا واحدا ، بل كانت تصرف لهن الدواء على سبيل الهدية ..

ضحكت سعاد وقالت بهدوء : آ ، يا عمتي الحبيبة ! أتريدين تعريفي بزوجة العم الغالي ؟

ـ جميل هذا!.. شاوري نفسك، فإذا كنت راغبة بالزواج كأي امرأة في العالم ، ثم وافق الشاب على اختيار أمه ، سأتحدث مع والدك الغالي يا غالية .. بس اعلمي أنك ستعيشين هنا ، هؤلاء الناس مواطنون هنا ليسوا مثلنا !

ـ آ، يا عمتي !! .. أنا جئت للعلم للدكتوراه ! أريد أن أصير دكتورة مثلك !

ـ يا بنت أنا صرت دكتورة وكان عندي أربعة أولاد ، كلهم إلا إبراهيم ، ولد أثناء مرض أبيه

رحمه الله .. واليوم من النادر أن يمنع أحد من التعليم ، وطرق ووسائل التعليم تنوعت وتعددت ، ويمكن للعاشق للتعليم أن يتحصل على شهادات ودراسات عليا بقليل من الوقت .. بالانتساب والمراسلة وغير ذلك مم نقرأ عنه .. أنا لم أر الشاب يا سعاد لأبدي رأيي ولكننا نعرفهم من معرفتنا بهناء وأهل هناء .. فنحن نعرفهم قبل هذا اللقاء ..

ـ لا أحد يقدر على مجادلتك يا عمتي الغالية .. سأتحدث مع إبراهيم .

ـ إبراهيم ! .. وما دخل إبراهيم ؟

ـ أحب أن أسمع رأيه .. الزواج هنا يعني البقاء هنا .

ـ أكيد أيتها الطفلة .. ماذا سيقول لك إبراهيم ؟! هل سيقول لا تتزوجي يا سعاد فأولاد البلد والوطن أفضل ؟!

ـ أحب أن أسمع رأي من كان يحلم ويريد أن يتخذني زوجة في يوم ما .

ـ دلوعة.. أنا أعرف أخي ربيعا ، طيب وعنده حنان أكثر من اللازم ، ومتساهل لآخر نفس .. شاوري إبراهيم كما تحبين .

فلما عاد إبراهيم مساء حدثته سعاد بما قالت أمه منى ، ولما انتهت من شرح قضيتها أو مداعبتها قال: أنا أعلم أنك تتحدثين بمواضيع مهمة بطريقة المزح والضحك.. وكما قالت عمتك إنهم أناس قد عرفناهم .. ولا تعتقدي أننا نريد التخلص منك .. أو ضقنا بك خلال هذه الشهور التي تقترب من سنة .. لا أظن أنك رأيت منا تبرما و ...

قاطعته قائلة : نحن أهل يا إبراهيم .. أنا ابنة خالك ربيع وأنت ابن عمتي منى .. صدق أنني قصصت على أبي وأمي عن حبكم لي ، وأنكم تعاملونني كأنني ابنتكم

نهض صائحا متظاهرا بالهياج : يا مجنونة ! أنت ابنتنا .. شئت أم أبيت .. أمي عمتك وأبوك خالي .. أنت منا من لحمنا ودمنا ..

ـ اهدأ !

ـ أنا هادئ .. أنا لا استفز بسهولة .. أنا قلت تلك الملاحظة حتى لا يقع في قلبك أننا متعبون

ومنزعجون منك ، ومتضايقون ننتظر اليوم الذي تفارقينا به بشوق وعجلة .. الأمر لا يحتاج لتفكير طويل وممل .. فإذا راقت لك الحياة والاستقرار في لندن مثل هؤلاء الناس ، ووافق الشاب فتزوجي وادرسي .. أما إذا كنت تريدين أن تتزوجي بعدما تصبحين دكتورة فانتظري وقولي لهم لا .. فالشاب سيتزوج منك أو من غيرك ، ولست البنت الوحيدة في الدنيا !

ـ يا الله ! ما أقسى قلبك !

ـ أنا ؟!

ـ لا ، أنا ! أنت تريد أن تذكرني بموقفي معك عندما أراد والدي تزويجي لك .. تريد أن تذكرني بأنني اعتذرت لك عن الزواج قبل سنتين أو ثلاث .

ـ يا حبيبتي يا ابنة خالي .. أنا لم أعش معك قصة غرام لأبكي على الأيام والليالي التي كنا نضحك بها على بعض .. أنا كنت راغبا يا مجنونة ! لا تزعلي من هذه الصفة .. أنا كنت راغبا بالزواج منكم من بنات أخوالي من أجل خاطر أمي الحبيبة .. كل إخوتي تزوجوا من بنات أعمامهم وعماتهم .. وزوجتي هذه الجالسة الصامتة منذ جلسنا أحسن من مائة واحدة مثلك .

ضحكت سعاد وهي تنظر لعمتها الصامتة لهذا الحوار ، ونظرت لمنى زوجة إبراهيم أيضا الصامتة كالتمثال ؛ ولكنها تبسمت لكلام إبراهيم الأخير وقالت سعاد باسمة : أكيد هي أحسن مني مليون مرة ، أليست زوجتك وستضع لك الابن البكر بعد أيام ؟! إذن أنت ترى أن الزواج مناسب لي وسترة للبنت .. والدكتوراه تأتي فيها بعد .

ـ لازم تسخرين !

ـ كما تسخر أنت مني ، وعامل نفسك رجل عليّ .. صح يا عمتي ! .. صح يا منى موسى ؟!

قالت الزوجة : أنا وعمتي جمهور .. آ ، يا عمتي ؟!

قالت منى ربيع : فعلا نحن جمهور يا ابنة أخي .. نحن سعيدون بوجودك بيننا ، ونحن أهل يا عاقلة.. على كل حال عندما تتحدث معي أم سعيد في الموضوع وتنقل رأي ابنها سأقول لها هات ابنك حتى تراه العروس ، فإن النظر له كلام ، فإن راق في نظرها قبلته زوجا ووافقت

عليه .

قالت سعاد باسمة وهي تنهض معانقة لعمتها : نعم ، هذا هو الكلام المنطقي يا أخ إبراهيم !

رن الهاتف ، كان المتحدث مالك سلم ، وناول إبراهيم السماعة لأمه قائلا : خالنا العزيز مالك!

تناولت الأم الهاتف ، وتكلمت مع أخيها بشوق وحب ، وسمعته يقول بعد ذلك : طلب مني بعض الصحاب الكبار أن أرشحك لكرسي الوزارة !

هتفت بصوت مرتفع ودهش : الوزارة ؟!

ـ نعم ، إنهم يريدون امرأة كبيرة في السن ومعها دكتوراه .. لتكون ضمن تشكيل الحكومة الجديدة .. ماذا قلت فهم مستعجلون على الرد ؟!

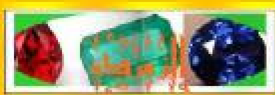
ضحكت منى ملء شدقيها وقالت : أنا منى ربيع أصير وزيرة ! .. شكرا يا أبا برهان .. شكرا لك ولجهودك الكبيرة .

"تمت"

جمال شاهين

□□□

قصص الزمردة




قصص وحكايات الهواري
الملك
ابنة الراعي

قصص وحكايات الفوارس

مغامرات وخيال وأحلام وأخلاق وأخيار وأشرار وفرسان وشجعان كل هذا وغيره تجده في هذه السلسلة من القصص الممتعة والمثيرة .


التحقيق الجنائي والجريمة

الجواهر العشر

غسان والمدينة

مكر نديم

أحلام الأولاد

أسعد وأسود

ثلاثة أبناء

ربيعة والسلطان

زوبعة صيف

عقيل والصياد

الصياد البحري هارون

المدينة البيضاء

□□□



بقلم

جمال شاهين



شارع البحيرة الخامسة



الكتاب الثاني



جمال شاهين

قصص وحكايات الفوارس



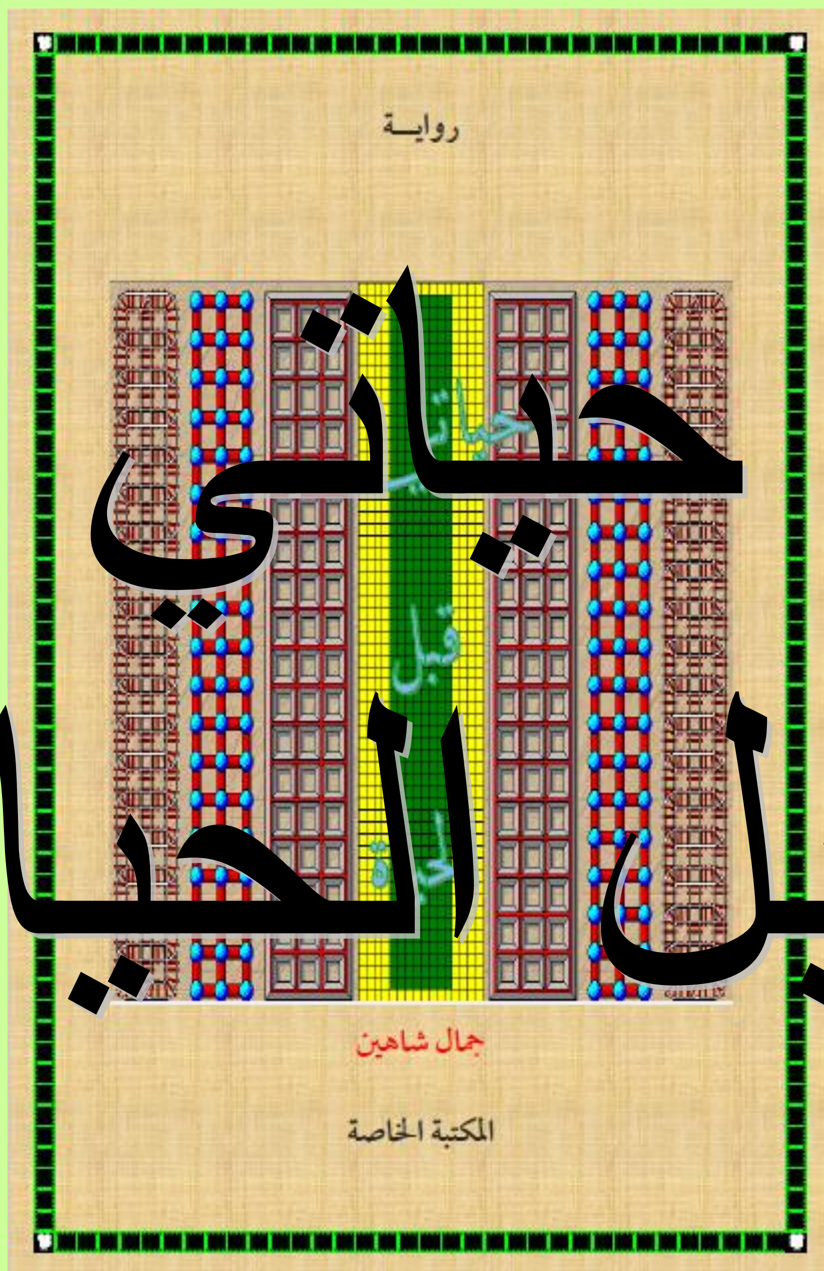
تفاجأ الأيتام باختيارها لزوجها فكان طلاق أمها من الرجل الذي ضحى وجاهد من أجلهم ومن أجل تعليمهم .

ثم تبين أن زوجها الاول هو قريب لزوج أمهم .. هذه سيرة حياة منى ربيع؛ لعلك تستمتع بقراءتها كما استمتعت أنا براوية أحداثها

جمال

المكتبة الخاصة

حياتي قبل الحياة



بسم الله الرحمن الرحيم

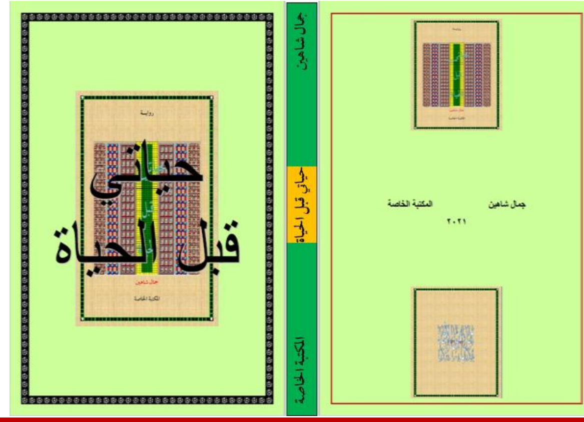
المكتبة الخاصة

حياتي قبل الحياة

جمال شاهين

النشر الاول ٢٠١٨

النشر الثاني ٢٠٢١



هذه قصة ثلاثة رفاق

عاش اثنان منهم حياة رفاهية ومتع دنيوية

وثالثهم كان فقيرا ومكافحا البؤس

افترق عنهم عندما فشل في الثانوية العامة

والتحق بالعسكر خادما للعلم

ثم ترك الحياة الأولى إلى حياة التوبة والإيمان

وبعد حين لحق به أولى وثاني

إلى حياة أخرى

حياتي

قبل

الحياة

نادي القراءة

دخلت قاعة القراءة الكبرى في نادي القراءة في شارع القارئ ، في هذه القاعة تجد عددا كبيرا من القراءة الصغار والكبار الذكور والاناث ، ولا يجلس فيها إلا من يرغب في القراءة فقط ، أما من أحب الثرثرة والمجادلة فهناك قاعات أخرى لذلك ، وفي النادي مقاهي صغيرة لجلسات خاصة أو عائلية ، ومطاعم متنوعة ، ولديهم في النادي مسرح صغير ، وصالة عرض لأفلام خاصة ، والاشتراك في النادي كعضو مقابل مبلغ يسير .

وأهم رواد النادي الأدباء والشعراء وغيرهم ، والنادي مفتوح لكل المواطنين ، ولا أريد أن أزيد في وصف نادي الثقافة والقراءة المجانية ، المهم أنني زرت النادي على موعد مسبق مع ثلاثة أشخاص عرفتهم من زمن بعيد من أيام المرحلة الاعدادية وأحببتهم ، أقصد الصديق العزيز مال الدين حسين الدين .. وثاني عرفني عليه مال الدين في المرحلة الثانوية ، ثم قبل سنوات عرفني على توأمه الأخت الفاضلة أولى التي تركت المعهد الفرنسي وتزوجت رجلا قد تزوج مرات متعددة ، وعملت في المعارف كمدرسة حتى تقاعدت من زمن يسير .

درسنا في مدرسة اعدادية واحدة أنا ومال الدين ، وكنا نقرأ الروايات البوليسية معا سواء في المدرسة أو في المنازل ، ونتبادلها ، ولما انتهى الثالث الإعدادي رحل لمدرسة ثانوية ، وذهبت لأخرى ، وظللنا أصدقاء لليوم عام ١٩١٧ ، وأصبحت أستطيع كتابة رواية ، وأستطيع تأليف كتاب ،فرغبت أن يحدثني عن أشياء عن حياته ؛ لعلي أستطيع تحويلها لقصة يتسلى بها الناس ، وذكرى لي ، ويطلع عليها الأجيال القادمة ؛ كي يعرفوا صورة مجتمعنا ؛ كما نجتهد لنعرف كيفية كانت حياتهم ومعيشتهم ، وبعد نقاش جاد قَبل أن يتحدث عن محطات مهمة منها ، أو أهمها واخترنا الحديث عن علاقته بأسرة ثاني موسى شاب تعرفنا عليه في فترة الثانوية .. وقصته فيها أشياء مهمة ..كيف هي حياة تلك الأسر الغنية إلى حد ما ؟ وكيف يستطيع الانسان التخلص من رواسب الماضي مهما كانت ؟ وأن التوبة يمكن أن تكون لكل عاصي أن يتحصل عليها مهما ارتكب من المعاصي .. ووافقت السيدة أولى بالحديث عن

علاقتها وعواطفها نحو مال ومقاومته لرغباتها الشهوانية ، وأنه استطاع أن يقنعها بالشفاء من كل أمراض المدنية والرغبة التي تدفع الناس للضياع مهما كان السقوط ، وذلك الفصل الذي كتبته عن نفسها واعترافاتها الصريحة ، قد تُعين من عاشت بمثل ظروفها وحالها أن تعود للحياة السليمة المتوافقة مع الحياة الإسلامية ، ولا تبقى على عنادها ، وتستسلم لشيطانها إلى الأبد .

قرأت في كتاب لمدة ساعة ، ثم غادرت قاعة القراءة متوجها لمطعم النادي الذي يسمونه المطعم الصحراوي بسبب شبه قاعاته بلون الصحراء والرمال حيث سيكون اللقاء على مائدة مال .

وما كدت أجلس حتى رأيت ستة عيون تحدق بي باسمة ، فابتسمت لهم ، وانتقلت لمائدتهم مصافحا لمال وثاني ومحييا لأولى ، ومعزيا بوفاة زوجها فشكرتني ، ورحبنا ببعضنا ، وتحدثنا عن أمورنا الخاصة، وأخبارنا ، وتناولنا وجبة مشتركة ، توددنا فيها لبعضنا بعضا حتى أني قلت لأولى: هل من زواج جديد ؟

ابتسمت وقالت : حدث ثاني عزيزي مالا بذلك فقال : أولى تترمل يا مال .. فهي كانت تريدك زوجا .

فقلت : وماذا رد مال يا ثاني ؟!

فتنهد ثاني وقال: قال بعد سبع وخمسين سنة نعدد ! وبعد أن داهمتنا الامراض نكرر .. أولى ذكرى جميلة يا ثاني ! ولا امرأة بقيت لي صديقة إلا هي .. فلنبق على ذلك .. وهي أخت فاضلة .. وكلما ترغب بزيارتها ؛ فأنا مستعد لمرافقتك نتبادل معها الحديث عن الروايات وغيرها .. فما زالت هذه الهواية تصاحبنا .

قال أولى : هذا أفضل يا جمال ! .. فصحتي اليوم لا تجعلني زوجة تقوم بواجباتها الزوجية ، ولن أتخلى عن شقيقي ثاني الأرمل مثلي من سنوات .

قال : أنت تعشين في بيتكم في درب القلعة !

قالت : نعم ، عدت إليه والعود أحمد كما كنا نعيش أيام والديّ وأهلا بكم في كل وقت وحين .

قال مال مندهشا : هل رحلت ؟!

قالت : منذ أن انتهت عدة الوفاة قبلني ثاني بالحياة معه .

فقال مال : هذا أسهل للقاء بك ! لم أعرف هذه المعلومة إلا الآن .

قال ثاني مبتسما : لها أيام معي يا مال .. والحمد لله ـ ووضع كفه على صدره وقلبه ـ وأنا سعيد بعودتها للبيت.. وكما تعلم أن شقيقي يزيد يعيش في الطابق الأرضي منذ وفاة والدتي .. وأنا في الطابق الاعلى .. واليوم لماذا التقينا هنا ؟

فقال الكاتب الراوي : لشكركم على ما كتبتم من خصوصياتكم ، ولأعزي أولى وإن تأخر عزائي ؛ لأنني لم أكن في المدينة من شهور ، ولأخذ موافقتكم على نشر ما اعترفتم به ، وامكانية نشره كما كتبتم ؛ لعل من اطلع عليها يعلم أن باب التوبة مفتوح ، وأن السعادة بالعودة إلى الإسلام مهما ارتكب الانسان من الآثام ، وأنه يمكن للمبتلى بالجنس ومشاهدة أفلامه أن يلجأ للإسلام ؛ لينجو من براثنه كما حصل لكما .

فقال مال : ويرغب صديقنا بإلقاء عددا من الاسئلة علينا خاصة أولى .

فقال الراوي : نعم، إذا أحبت ذلك ، والاسئلة حساسة نوعا ما ؛ وربما محرجة ؛ ولكن حراجتها أقل مما قلتموه .

قالت المرأة : هنا ..!!

قال : سنرتب لهذا إذا قبلتم .. وأقترح أن يكون في منزلك يا ثاني .

قال ثاني : لا مانع لديّ في الاجابة على أي سؤال أما أولى فلا أدري ؟

التفت الجميع إليها وقالت : كيف هي الاسئلة ؟

قال : عن المرأة والحياة الجنسية .

قالت بتردد قصير : إذا كان السؤال مناسبا أجيب عليه .. فأنا مربية ومدرسة وأواجه ؛ بل واجهت مثل هذه المشاكل من الطالبات والمراهقات .

انتقلنا لأحد مقاهي النادي ؛ لنشرب القهوة ، ونرتب لموعد مناسب لعرض بعض الاسئلة المحرجة على أم جلال .

الحياة الجنسية

ذهبنا لبيت ثاني في درب القلعة ، وطفرت الدموع من مال عندما دخل البيت وهو يصعد للطابق الثاني .

فقلت : تذكرت الماضي.

قال : تذكرت الماضي وأم ثاني وأباه .. كلما ألتقي بثاني هنا تدمع عيناي يا جمال .. كانت تألفني تلك المرأة ـ رحمها الله ـ وتتحدث معي كصديق ورجل كبير .. رغم صغر سني يومئذ .

وجدنا ثانيا قد أعد لنا غداء وضيافة ، فقبلنا ضيافته وشقيقته، وترحمنا على الأموات وذكريات الطفولة والمراهقة .

وقدمت لنا خادمته الشاي والفواكه ، وتحدثنا عن أحوالنا وذرياتنا وقال مال : لنبدأ لمَ اجتمعنا له .

قلت : السؤال للجميع ..هل وجدتم من فرق بين الحياتين حياة الجهل والعصيان وحياة التوبة ؟

تركوا الإجابة أولا لأم جلال ، فابتسمت وقالت : تقديم المرأة حسنا ! وهل لهذا التقديم سند شرعي ؟

صمت الثلاثة وقال مال : الدكتور يشير للعبد الضعيف بالرد .. بارك الله فيكم .. الاكرام والاحترام مستحب إن لم يكن واجبا .. الحق أن هناك تفصيلا .. ففي بر الوالدين حق الأم مقدم على حق الأب للحديث الصحيح عن النبي ﷺ أمك أمك أمك .

قال جمال : جميل ! حملته أمه وهنا ووضعته وهنا ، ثم الرضاعة .

قال مال : إكرام العالم والرجل الكبير والمرأة الكبيرة وذو الشيبة مطلوب شرعا ، والايثار مرغوب فيه ؛ لكن قولهم "لا إيثار في القربات أو الطاعات " بعضهم يرى ذلك ، وابن القيم الامام عارض هذه القاعدة في بعض كتبه وبعضها أيدها .

وحق الضعيفين حرج عليه النبي ﷺ أما عبارة النساء أولا فهناك تحوم حولها قصصا أشهرها

القصة الايطالية " أن شابا أحب فتاة وأحبته ، ورفض أهلها زواجهما ، فقتل نفسه قبلها ، وهي نكصت ، ثم تزوجت غيره " فلذلك ظهرت عبارة " النساء أولا" من باب الحذر الذي ظاهره الاحترام ، ثم أصبح هذا عرفا في الغرب وعند الاحداث الجسام يقدم انقاذ النساء والاطفال على الرجال وفي كثير من الامور .

قال الكاتب : جميل فعلا ! لعل السيدة تجيب أولا .

قالت أولى : دائما أنت ممتع يا مال ! ما زلت تقرأ .

فضحكنا وقال ثاني : مال عجيب ! شكرا لك يا صديقنا .

قالت السيدة : حياتي بعد التوبة بالتأكيد أفضل وأروع .. فرق كبير بين حياة الهدف والغاية واضحة منها رضا الله والجنة ، وحياة من أجل الحياة ، ثم موت لا أدري ما بعده ! كنا نبحث عن متع الدنيا بدون غاية .. لهو ولعب وإضاعة الوقت .. هذا ما عندي .

قال ثاني مكملا : كان همنا اشباع الغرائز والحاجات الفسيولوجية فقط .. أما الروح فلم يكن لنا أي اهتمام بها { أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ }.. الحياة بعد الضياع كما قالت شقيقتي أرقى وأعظم .

قال مال : أنا فترة ضياعي كانت أقل منهما ؛ لكن حياتي بعد التوبة والعودة أفضل وخير مليون مرة عن حياة الجاهلية .. ذاك الفضل من الله لنا جميعا .. قد تكون توبهما أكثر دفئا مني ، فالذي يقع في الآثام أكثر تكون توبته فيها حرارة أكثر ؛ ولكنها توبة ، فأنا مثلا لم أعرف الخمر والنساء .

قال ثاني : ما أصعب أن يكون هدفك في الحياء لمجرد الشهوات والملذات !

قالت أولى : المشكلة البيئة والتربية .. الكل لديه الرغبة بكسب الملذات .. هكذا الحياة في نظرهم .. مال يجلب ، ثم ينفق على تلك الشهوات بدون ضوابط ، بدون غايات عظيمة .

قال الكاتب : جزاكم الله خيرا .. المهم لماذا الجنس يفسد حياتنا ؟

قال ثاني : لابد منه للحياة ، وهو فطرة وطبع وغريزة خلقت فينا والانبياء مارسوه .

قال مال : بالزواج ، ولم يفعلوه خارج الزواج .

قال ثاني : أكيد .. أنا قصدي الحاجة الجنسية مغروزة في الجنسين الذكر والأنثى ، فكما نأكل ونشرب ونتنفس ونُخرج وننام فالجنس مثل ذلك .

قال الكاتب : هذا مسلم به يا أصدقائي !.. السؤال لماذا نذهب إليه خارج العلاقة الزوجية ؟

قالت أولى : كما قال ثاني الغريزة فينا كغيرها من الغرائز ، وتبدأ ظاهرة بعد سن البلوغ لكلا الجنسين ، ويبدأ التفكير فيها ، ويتفاوت ذلك بين شخص وآخر ، والمجتمع الذي يعيش فيه الشخص هو الذي يكبح اندفاعها أو الاندفاع فيها دون محاسبة .. فنحن الشرقيون لا نحب تصريفها إلا في علاقة شرعية في مؤسسة الزواج " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أحصن للفرج ، وأغض للبصر " فالبصر مفتاح الجنس .. أما المسلم الذي يجهل دينه ، ويجهل الحلال والحرام ؛ فإذا وجد منفذا إليها سيذهب إليه سواء بالمال أم بالحب والغرام .. فنحن نسميه الزنا ما دام لم يكن هناك زواج .. وغيرنا يسميه غراما وعشقا وخدنا ما دام بالرضا .. والسن له دور كبير في هذه الغريزة اقداما أو تراجعا .. تفكيرنا فيها اليوم ليس كما فكرنا فيه أيام الشباب .

قلت : والبرود الجنسي أهو مرض ؟

قالت : أنا معلمة ، ولم أدرس علم النفس إلا كثقافة .. وكنت أرى ما تعاني منه المراهقات خاصة الضعيفات في التحصيل الدراسي فينشغلن فيه كثيرا .. توصف الكثير من النساء بذلك .. لأن الرجل يستطيع إنهاء الجماع بدقائق وأما الانثى فيتحقق لها ذلك بعد زمن .. فهذا ما يدفعهم لوصف الأنثى بالبرود .. وربما لا تهتم بما يقال عن النشوة والرعشة ..المهم عندها الحب والعاطفة والاشباع العاطفي بالكلام بالغزل واللمس .. فالزواج هو من أجل الجنس وقضاء الرغبة .. فالمرأة تلبس وتأكل وتشرب في بيت والديها فلماذا تقترن برجل ؟ !" زين للناس حب الشهوات من النساء" فالرجل هدفه الجنس والمرأة هدفها الحب .. وهذا

معروف من قدم الزمن .. فالمرأة عندما تحمل تقل رغبتها في اللقاء ؛ إنما تقبل به إرضاء للزوج .. وهي مستعدة لقضاء أربعين يوما في النفاس ولا تفكر به ، ولا يعني هذا أنها عديمة الرغبة ؛ لأنها كما قلتم حاجة فسيولوجية ، يحتاجها الجسم .. والحديث النبوي موجه للذكور "يا معشر الشباب" والمرأة تستطيع أن تعيش أرملة أكثر من الرجل.. وأيضا الزوجة الأهم عندها الولد والامومة ، وفي نظري هي أصبر من الرجل عن المعاشرة .

قلت : وما تقولين بالحرية الجنسية والزنا؟

قالت : يقصدون بالحرية الجنسية ممارسة الجنس بدون زواج وعقود مثل البهائم تماما ودون مساءلة .. والفتاة تستدرج لذلك بداية بالحب والكلام الجميل والغزل وهذا الذي يثيرها وترغب فيه ، وأن يكون لديها حبيب ، ثم تتطور العلاقة للجنس؛ لأن الشاب يريد ذلك ، وهي تقبل ظانة أنه صادق العواطف ، وهو أخذ ما أراده منها ، وأصبحت ضحية له ، ثم سيملها وسيعتقد أنها سلمت نفسها لغيره ، كما سلمت نفسها إليه ، فينتقل لغيرها .. أما لماذا تقبل الزوجة وذات الزوج الزنا ؟ فأعتقد أن ذلك له أسبابا كثيرة ، قد تكون الرغبة والشهوة ، وأن الزوج لم يحقق لها ذلك بسبب الامراض والعنة ؛ لأنه ليست كل النساء بنفس القوة والشبق والاعتدال .. فلها حيز في جسدها ، وقد يكون فعلها للثأر لكرامتها من زوجها بكثرة خيانته لها .. فأنا عشت في أسرة فاجرة ـ أقصد أسرة زوجي الأول ـ الكل يبحث عن الزنا والانحرافات الجنسية ، وتعرضت للإذلال بسبب هذه العلاقة يا سيدي ، ولم أكن أعرف من الدين شيئا ؛ فلذلك اضطررت أن أتخذ العشاق عمدا ، ولم يكونا بتلك الفحولة التي يتحدث عنها بعض الناس .. كانت معاندة لمازن كما كتبت ، وأنني لم أهتم بهجره لي .. وتذكر عندما تقرأ قصتي كان ذلك لقبول هؤلاء لي ، وأن وجود ذكر ليس من الأمر بصعوبة ؛ إنما تسلية والتخلص من الانشغال بتلك الرغبة الملحة .. وتذكروا أنني لم أكن متدينة لأخشى هذه الجريمة .

قلت: أشكرك الدين هو المانع للإنسان من السقوط والركض وراء هذه الرغبة ولو بالزنا .

قالت : أكيد وليس الخوف من أمراض الجنس وغير ذلك أليس كذلك يا ثاني ؟

قال ثاني : بلى ، هذا صحيح .. أنا وقعت في الفاحشة صغيرا وكبيرا ، بدأت تسلية ورغبة سهلة التحقق .. يختلف هدفي عن هدف أولى .. وأنا تلك الأيام كنت أشفق على أولى ، وأتعجب من صبرها عن الرجال ، وكبتها لرغبتها الجنسية .. فنحن أقصد عائلتنا لم نكن ننظر للقضية ؛ كما ننظر إليها اليوم .. رغبة وعلينا تحقيقها سواء بالحلال أم الحرام .. فهذا الميزان غير موجود في العائلة هكذا تعلمنا يا جمال !

قال جمال الراوي : التحدث بهذا الأمر أمام البنات والفتيان بصراحة أصواب أم خطأ ؟

قالت : ربما في زمن كهذا .. زمن منفتح بالحديث عنه ، ووجود الصور والافلام الاباحية الحديث عنه مهم ، ويساعدهم بحماية أنفسهم ، فما يقول الدكتور ؟

قال الدكتور : الحديث جائز .. عندما نقرأ في كتب كذم الهوى لابن الجوزي ، وطوق الحمامة لابن حزم ، وأخبار النساء لابن القيم ، ونقرأ قصة النبي يوسف عليه السلام والكثير من الكتب داخل الكتب فيمكننا أن نتحدث عن الجنس بكل حرية ، وأرى أننا بحاجة بالحديث عنه أكثر ؛ لأنه أصبح يشكل خطرا على الشباب ذكورا واناثا ، والكثير من الجنسين جهال بالإسلام والتدين ، والتقليد للحضارة الغربية واضح في كل شيء أكل شرب لباس حلق الشعر ؛ فإذا تركنا هؤلاء بغير علم فسيضيعون كما ضعت وكما مرضت منه .. فكل شيء عندنا فيه علم .. الاستنجاء الاغتسال ادأب الزواج .. ما يقول عزيزنا مال ؟

ابتسم مال الدين وشكر وقال : الافلام الاباحية تملأ الانترنت ، وتختلف الغايات لكل شخص بالنظر إليها ، حتى أن البعض وصل للإدمان .. فنحن بحاجة لأدوية وحلول ؛ وكما قال الدكتور كثير من المسلمين لا يتحصنون بالدين والطهارة .. وهذه الغريزة من أقوى وأعنف الغرائز وأهلكت أمما كما نقرأ وحدث من قوم لوط .. لكن هل يكفي التثقيف فيها لحل مشاكلها ؟ هل يكفي أن نقول حرام ؟ هناك من لا يهمهم الحرام ، وهم يأكلون الربا .. فهي معصية مثل سائر المعاصي .. وهل يكفي حماية الشباب الملتزم المتدين منها ؟ فالضعف

يقع فيه الجميع .. وسن الزواج ارتفع في كثير من بلداننا الاسلامية ، والطلاق زاد في غالب بلدان العالم .

قلت : حسن ما الحل ؟

قال مال : الحل ، لابد أن يكون هناك من حل وحلول .. والتمسك بالدين أحد الحلول ، فها هم في الغرب يتعلمون عن الجنس من أول الابتدائي ، ومع ذلك بلدانهم ترتكب فيها جرائم الاغتصاب وهتك الاعراض .. والمرأة اليوم لها نفس صفات المرأة من أول الزمن .. والشهوات نفس الشهوات .. اليوم مثيرات الغرائز أكثر .

قال جمال : كيف نقاوم الافلام الجنسية ؟

قالت : أنا عندي فتيات تشاهد هذه الافلام بدون مانع .. ويعترفن بأن والديهنّ يفعلون ذلك .. فماذا سيمنعهن من الوقوع في الجنس إذا توفرت لهن الاماكن لفعل ذلك ؟

قلت: هذه هي المأساة يا دكتور !

قال الدكتور : حتى لو سمحنا شرعا بجواز رؤيتها هل ستعالج بذلك القضية ؟ فالنسبة للمتدين يكون الحل سهلا ، ولكن بالنسبة للصغار والجهال أنا في رأيي أن الأمر صعب .. الناس تعرف ضرر السجائر وتدخن ، يعرفون خطر الخمر ويشربونها .. أنا لا حل قاطع عندي .. فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

قال مال : الارادة للمبتلى أن يحمي نفسه ، ولا يشاهدها، ويبحث عن البديل الشرعي .

قلت : وما هو البديل؟

قال مال : البديل القراءة للكتب للقصص اشغال وقت الفراغ .

قال جمال : حسن .. لماذا العلاقة الجنسية مفسدة للحياة الزوجية ؟

قالت : لأنها الغاية من الزواج ؛ فإذا ضعفت ضعف الود والسكن بينهما .. وهي من أسباب فسخ الزواج ، وقد تكون من دوافع التعدد .. إذا كان الضعف من قبل الزوجة .. وقد تترك المرأة زوجها بسبب عجزه ومرضه .

قال الدكتور : إلا إذا كان كلاهما عاجزا عن المعاشرة بسبب .. أمراض .. كبر .. صبر أو أحدهم يرغب بالتضحية من أجل الآخر .

قال الكاتب : هل تكون السعادة بدون مال ؟

فقال مال : كل الفقراء سعداء من غير مال في الغالب .

هززت رأسي وسألت : هل تكون السعادة بدون جنس ؟

قال الدكتور : أعتقد جاوبنا على هذا السؤال ..لماذا العلاقة تلك مفسدة للحياة الزوجية ؟ يمكن أن تتحقق السعادة بدون جنس بقبول كل واحد منهما الآخر بكل عيوبه .

قلت : آخر سؤال .. الجهل بالجنس هل يضير ؟

قالت أولى : في رأيي لا يضير ، كما العلم به قد لا يفيد .. فهل القدماء وأهل الارياف والبوادي مثقفون في الجنس ؟ انهم يعيشون على الفطرة كما يقال .. وهذا أمر ينقل لهم بالتجربة ؛ لذلك تجد الكثير من الشعوذات والوصفات شائعة بينهم ..لا يضير الجهل به .

قال الدكتور : أعتقد أن جواب أولى فيه الكثير من الصواب .. فالقدماء والأميون في العالم يتزوجون ويعرفونه بدون ثقافة .. يتعلمونه من الحيوانات التي تعيش بينهم .

قال الكاتب : علينا أن نشرب آخر فنجان لنرحل .. وعندي عرض لكم يا ثاني وأخته .

خيم الصمت ، وحضرت القهوة التي اعدتها الخادمة ، ولما شربت .

قال الكاتب : بارك الله فيكم .

قال الدكتور : قلت أن لديك عرضا .

ابتسم هو ومال فقال الكاتب : العرض .. كلنا نعلم هوى أولى بالزواج من مال يا ثاني قبل هذه الحياة المديدة .. العرض هو خطبة الرجل لها .

قالت : وي يا جمال ! بعد كل السنين .

قلت : فكري يا سيدتي بعرضنا .. فأنتم من سن واحدة .. نفس العمر .. أنت كبيرة .. وهو مثلك .. تذكري أنه رجل العجوز .

قالت : ما الفائدة منه ؟ قال مال : شكرا يا أولى !

قال الكاتب : من سمع كلامك يظن أنك مراهقة .. ما رأيك يا دكتور ؟

قال ضاحكا :الرأي لأولى .. لقد أحبت الرجل بجنون حتى أني تفاجأت لما علمت بتلك الرغبة بالزواج منه ، وكان صديقي الفاضل يومئذ يخدم الجيش

نظرت أولى في عيني مال وقالت : أأنت جاد بعرض جمال ؟

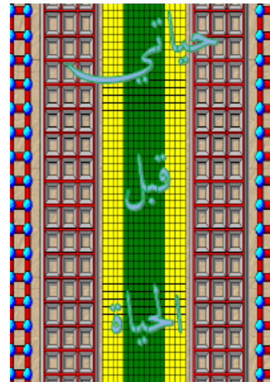
رد : وهل هو يمزح ؟

قالت : يا الهي ! أفي هذا السن أتزوج ؟!

قال الدكتور نيابة عنها : على بركة يا أولى ! الاحلام تتحقق مرات في أجيال أخرى .

أخذت بالبكاء ،وانصرف الضيفان ، وقد قبلت بالزواج من حبيبها الأول ، ونقول بارك الله لهما وعليهما ، وجمع بينهما على خير ، ويسر لهما الاقتران والسعادة .

ولما نقرأ هذه الفصول من ذكريات الاصدقاء الثلاثة نحضر حفل زفافها ونبارك لهما من جديد ، ونصف ليلة زواجها الأولى فإلى الذكريات والاحداث .



البداية

بدأت حكايتي لما أصدرت وزارة المعارف نتائج الثانوية العامة لعام ١٩٧٨، لم أجد اسمي في قوائم الناجحين .. والحق أنني أعلم ذلك ؛ لأنني لم أقدم الاختبارات بشكل جيد ومريح ، فقد قصرت في بعض المواد وأهمها الرياضيات .

رغم الذكاء كما أزعم فشلت في اجتياز تلك المادة .. كنت ضعيفا في تلك المادة ، ولم أتحصل على دروس تقوية ، وخاصة فيها وفي مادة اللغة الأجنبية .. فنحن نأخذ مادة لغة أجنبية انجليزية أو فرنسية .. فأخذت الاولى منهما .. وعلى ما أظن حملتها مع مادة الرياضات الفرع العلمي .

كان صديقي ثاني أذكى مني في مواد الدراسة والحفظ والاستذكار .. فكان نجاحه متوقعا ، ولم يكن مفاجئا ، وكذلك نجاح شقيقته أولى توأمه . كنت أعيش في وادي النزهات ، وهو يسكن في درب القلعة ، ولم يكونا بعيدين عن بعضهما ، وكلاهما من أحياء المدينة الكبيرة .

المدرسة الثانوية بين الحيين هي التي جمعتنا ، وتعرفنا فيها على بعض ، من الصف العاشر درسنا سوية ثلاث سنوات ، كان بيته بيتي ، وكانت الثانوية تلك الأيام أول وثاني وثالث .

التقينا أول مرة في ملعب كرة اليد ، وجمعنا الملعب ، فصرنا أخوة لعبة ومدرسة ، نجحت في اللعب أكثر منه ، وتقدمت فيها ؛ ولكني لم ألعب مع فريق المدرسة .. تقدم آخرون عليّ.

كان دراسة أكثر مني ، ونجح في النهاية ورسبت . قالت توأمه عندما ذهبت إليهم مهنئا ومباركا : خيرها في غيرها يا مال الدين ـ هذا اسمي ـ أحببت لك النجاح مثلنا ؛ لكنك كنت يائسا وبائسا ، تلعب كثيرا ومغرقا في اللعب والسجائر.

قلت : مبارك النجاح يا أولى ..تمنيت لك ذلك .. وشكرا على مواساتك.. أين رفيقنا ثاني؟

ـ تفضل أبي في الداخل .. ذهب لشراء بعض الحلوى لما علم بقدومك ـ إن شاء الله ـ تنجح في المرة القادمة .. أكيد ستعيد الكرة .

كانت أولى عندما تعلم بمجيء مال تلبس ثيابا جميلة وتمشط شعرها .. فهي ترى أنه يحب

□□□

ذلك ، فرددت على أكيدها فقلت: لست أدري يا جميلتي ! دائما أنت جميلة .. والنجاح جمّلك أكثر .. وجوابا على السؤال لست أدري ؛ ربما .. العلم عند الله يا أولى العزيزة .. سنفتقد الزيارات بعد الثانوية .

قالت وحبها معروف لديّ : لن نغلق الباب في وجهك .. أنت صديق العائلة ..كل العائلة .. ولَك مودة في قلوبنا جميعنا .

قال : سنفترق يا عزيزتي !

قالت بحماس : سنبقى أصدقاء كما كنّا في هذه السنوات الثلاث .. أنت عزيز على القلب يا سيد مال الدين .. كل العائلة تعتبرك ابنا لها .. فالحديث معك ممتع .. هل قرأت قصصا جديدة ؟!

تبسمت وقلت : نعم ، قرأت العربي المجلة .. وبعض الألغاز المصرية التي نحب متابعتها التي قد وصل أعداد جديدة منها .. سآتيك بها .

قالت : إني بدأت أقرأ أجاثا كريستي طبعة المكتبة الثقافية .. لقد أحضر لي الوالد بعضها فهو محب لها .

ـ قرأت لها قصة أو اثنتين .. الشبح الغامض ، ولا أظن أنه الاسم الحقيقي .

خرج والد أولى أبو ثاني مرحبا بمال ومصافحا ، وبارك له مال بنجاح ولديه ، وتمنى موسى والدهما النجاح له في الجولة القادمة.

فقال مال : إذا تقدمت إليها يا سيدي .. اعلم أنني مسرور لم حصل لولديك الآنسة أولى والعزيز ثاني .

جلس مال في غرفة الضيوف ، وقدمت أم ثاني ، وقبلت الشاب صديق ابنها البكر كما تفعل في كثير من الأحيان ، ورحبت به .. فهو صديق ابنها الأهم في السنوات الأخيرة .. وكم سهرا معا .. ودرسا معا .

فقالت : كان عليك أن تجاهد يا مال .

□□□

ـ فعلت يا خالتي .. الرياضيات مادة كانت صعبة عليّ رغم حبي لها.

قالت : لعل المرة القادمة تكون أفضل .

ـ لا أدري! هل ستكون جولة قادمة ؟

قالت أولى : اسمح لي أن أحضر لكم الشاي .

هززت رأسي وقلت : شكرًا يا أولى سنفتقد شايك .

قالت أم ثاني : ستبقى صديق العائلة يا مال .. فهذه سنوات من العمر مضت تعودنا على وجودك معنا في المساء والليل .. ستبقى صديق الشباب حتى أولى كانت تحب وجودك الدائم وتعتبرك أفضل من كثير من صديقاتها وزميلاتها في المدرسة .. وترتاح في الحديث معك لصغرك وثقافتك خاصة غرامك في المطالعة التي تهواها .. فحتى ابني يزيد يحبك ويغرم باحاديثك الشيقة وأخبارك الغريبة .

قال : أنا أقدر لكم حبكم لشخصي يا خالتي .. كنتم لي كالأهل .. لن أنسى صداقتكم لي وكرمكم وتحملكم لإزعاجي .. افكر بتسليم نفسي للجيش .. وأخدم ما عليّ .. ولا داعي للتأجيل قبل اعادة الكرة .

قال موسى : الأفضل يا مال أن تدرس قبل الجيش .. فهو لن يطير .. ويصبر عليك .. أخشى إن قدمت الجيش أن تنسى الثانوية بسبب خدمة الجيش .

قالت الأم: كلام عمك موسى في موضعه ومحله .

قال : النفس شالت كما يقال من الدراسة .

قال موسى : لا تيأس يا ولدي ..فأنا قلت ذلك حتى لا تنسى المعلومات التي حفظتها خلال فترة الدراسة .. فلابد أنها مخزنة في دماغك .. وذهابك لخدمة العلم والجيش قد ينسيك إياها كلها أو أكثرها .. وعليك بدروس خصوصية للرياضيات واللغة الأجنبية وأي مادة صعبة.

أحضرت أولى الشاي حسب ما تعرف عن حب مال للشاي ، وأحضرت معه بعض المكسرات ، وسكبت الشاي وقالت : تفضل يا أبي

تناول موسى الكوب شاكرا برأسه ، وقبل مال المراهق الكوب ، وهو يقول : شكرًا أولى سنفتقد شايك

ـ البيت مفتوح لك.. سنبقى أصدقاء ، وستجمعنا القصص والكتب .. فأنت أخ كريم للعائلة ، وأخ لثاني .

قال مال : ماذا ستدرس الآنسة بعد النجاح يا أبا ثاني ؟

قال : كليه الآداب لغات فرنسي أو إنجليزي

قالت أمها : أنا أرغب أن تدرس إدارة أعمال .

قال مال : المحاسبة جيدة أو السكرتارية .. اللغات أتصور أجود يا عّم موسى .

قال موسى : الاختيار يعود إليها .. هي من سيتعلم لا نحن .. اللغات تعمل في الترجمة في الصحف في التعليم حتى في المؤسسات المالية .

ـ والأخ ثاني .

ـ يريد أن يدرس في كلية العلوم فيزياء كيمياء مدرس العلوم .

قال : أتمنى لهما كل توفيق .

قالت أولى : كنّا نتمنى مرافقتنا في الجامعة يا أخ مال .

قالت الأم : لن تفرق سنة إذا أعاد الامتحان

قال بضيق : النفس تعبت يا أم ثاني عن الدراسة .. أحبطت ولا رغبة للمعاودة هذه الأيام .

قال موسى : بعد حين سيذهب أثر الفشل .. وتعود لك الحيوية التي نعهدها فيك .. وتنشط للعودة والدراسة .. فأنت تمتلك الروح الإيجابية يا مال !

قال : أنت متفائل يا عمي!

قال : وأنت عليك أن تتفاءل ولا تحبط .. عظماء لم ينجحوا من أول مرة في المدارس ثم نجحوا .

ضحك مال قليلا وقال : عظماء.. يا إلهي!

□□□

قالت أم ثاني : لا تدع اليأس يغزوك يا مال .. كن كما تعودنا عليك .

قال: يبدو أن ثانيا سيتأخر .

صاحت أولى : اصبر يا صديقنا .. إنه قادم .. صدق أنه ذهب لشراء الحلوى لما علم أنك قادم لزيارتنا .. فإننا محبوك ، ونعتبرك من أفضل الأصدقاء في السنوات الأخيرة .. ويحب الكل سماع أخبارك وأشعارك .

قال موسى: أما زلت تكتب القصائد ؟

تبسم الشاب وقال : استهواني الشعر زمنا .. اليوم هجرته ؛ لكن الآنسة تحب أن تذكرني بما كتبت لها أول تعارفنا بكم .. كانت تطلب مني قصائد لمناسبات معينة فأصدق أنني شاعر واكتب لها.

قالت أولى : صدق أن معلمة اللغة العربية أعجبت كثيرا من قصيدتين لك .. ولم تصدق أن هاوٍ ألفهما .

ضحك مال الدين وقال: أما أنني شاعر فلا ؛ وإنما معلمتك تلك لا تفقه في الشعر والأدب شيئا .

قال موسى بتردد : ربما ؛ ولكنك تكتب جيدا .. لقد قرأت لي أولى بعضا مما كتبت لها وراق لي .

قال بحياء : أشكرك يا عم موسى على لطفك مرة ثانية .. أيضا راق لي الرسم كما استهواني الشعر .. ربما يفعل الانسان ذلك متأثرا بما يقرأ عن أبطال القصص وقدراتهم الخارقة .. فبعضهم يفعل مثل هذه الأشياء

قال موسى : هكذا الناس يبدون بالمحاكاة والتقليد ، ثم الاحتراف يا بني .. لا يولد أحد شاعرا أو قاصا أو رساما .. ها هي أولى تحب رسم الخطوط والزخرفة العربية .. ولعلك تعرف عنها هذه الهواية.. فأولى يعجبها رأيك في كل شيء .. فهي تعتبرك عملة نادرة .

غرق مال ضحكا وقال : أنا وأولى نحب المطالعة ، هذا ما جمعنا أكثر .. نتبادل المعلومات

حول القصص والروايات والمجلات .. أليس كذلك يا أولى ؟

ـ صحيح يا أبي .. ولكني أعجبت بك قبل أن أعرف هوايتك هذه .. فأنت قارئ جيد ومثقف .. ولاعب كرة يد جيد كما يقول ثاني .

قال موسى : ولاعب شطرنج ممتاز .. أعجبني لعبك يا بني .. لو تجد ناديا ومدربا ؛ لربما أصبحت بطلا في هذه اللعبة

قال مال : وماذا أفعل في البطولة يا عّم ؟! .. فالأفضل أن أبقى هاويا .. فحياتنا صعبة وشقاء وفقر ، وأمامنا العمل والجيش الاجباري

قالت أم ثاني : المهم الدراسة والثانوية يا مال .

حضر ثاني وجلب معه العشاء والحلوى ، ورحبنا ببعض عناقا .. فنحن رفاق المرحلة الثانوية .. وكرر مال المباركة ، وكرر الآخر المواساة ، فهما قد التقيا يوم إصدار النتائج منذ اسبوع ؛ إنما مال أحب أن يهنئه أمام الأسرة كلها ، ويبارك للآنسة أولى التي كانت تفخر بصداقته وصحبته لكل الأسرة ، وتفخر بصداقته لثاني .. وتجلس معهما في أوقات تركهما للدراسة والمراجعة .. وتسمع كلامه وثقافته ونشاطه .. وهو يسمع قصصها في المدرسة مع المدرسات والطالبات .. وبالمجمل يسمعان أفكار وأحلام بعضهما ، وتجمعهما هواية الكتب والقصص وتبادلها والتعليق عليها .

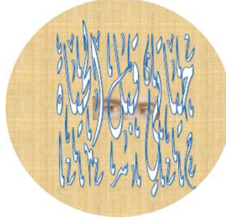
ولما انتهى الطعام والحلوى عادوا للجلوس في غرفة الاستقبال يشربون الماء والشاي من جديد .

وكان ثاني ووالده يرغبان الشاب بتكرار الامتحان قبل الخدمة العسكرية الالزامية والجيش والتجنيد ، وأن الشهادة إحدى وسائل التقدم والمستوى الاجتماعي ، وأن الشهادة ليست هي مصير الانسان ، ويستطيع الانسان تحقيق الثروة والعمل من غير شهادة وجامعة ؛وإنما الشهادة مهمة في حياة المثقف ، وقد يعمل بها في الوظائف الحكومية وغير الحكومية .. وكذلك مواصلة الدراسات العليا كالدكتوراه للعمل في الادارة كدكتور أو جامعة .. وفي نهاية الجلسة

دفعت أولى له مجموعة من القصص والكتب وقالت : لنبقى على تواصل ، وبيننا هذه الكتب .. فأنا أعلم شغفك بذلك .. ؛ ربما الجامعة ستبعدنا عن بعض أياما وشهورا .. فأرجو أن نبقى على تواصل واتصال ، وأن تبقى صداقتك لثاني ولي .. أليس كذلك يا ثاني ؟

هتف ثاني : بلى ، يا أولى .. فالأخ مال صديق كبير لكل الأسرة .. وعزيز على الجميع .. وبالتأكيد سنبقى زملاء كما كنّا خلال السنوات الثلاث.. يا مال فالبيت بيتك .. فأنت أخي كما أولى اختي .. فلا تخجل من زيارتنا رغم الفراق .

قال الشاب حياء : أنتم أغلى من الأهل يا ثاني ويا أولى .. لا أريد أن أدلل على ذلك .. فاحترامكم واجب وفرض عليّ .. وأنت نعم الأخ ، وأنت نعمت الأخت .. لا أنسى فضلكم وحبكم وتشجيعكم وسهرنا معا ، والحظ لم يحالفني وقد ضعفت الهمة .



التحق الشقيقان ثاني وأولى بالجامعة العربية الأول في كلية العلوم تخصص فيزياء ؛ ليكون معلم فيزياء .. فهو يحب التدريس ، وتعجبه مهنة المدرس ودوام نصف نهار .. وأولى دخلت الآداب لدراسة اللغة الفرنسية كما أحبت فهي معجبة بفرنسا والثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي ؛ كأنها متأثرة بأدباء فرنسا .. وأنا أصرت أمي الغالية على قلبي أن أحاول مرة أخرى، وتكفلت بالمصاريف والنفقة على الدراسة الخاصة ، فسجلت اسمي في مدرسة خاصة بموقع عجيب في وسط المدينة قرب محكمة شرعية ، وحصلت على تأجيل خدمة الجيش الإجبارية لعام آخر .. فخدمة العلم لابد منها قبل الدراسة وبعدها .. فالكل ملزم بقضاء سنتين أو أكثر في القوات المسلحة الوطنية .

لم استطع الاستمرار في المدرسة ، ضقت ذرعا وإفلاسا .. كرهت مقاعد الدرس ، وجدت نفسي غير قادر على الاستمرار .. لماذا لليوم لا أدري السبب ؟! لم استطع إكمال المرحلة

الثانوية عام تسعة وسبعون فقررت أن اتعلَّم فن التمديدات الكهربائية الخاصة بالمنازل والفنادق والفلل والمدارس حتى ينتهي العام الدراسي وألتحق بالتجنيد ..حسمت أمري أمام الملأ من قومي وخلاني في هذه الخطة .. الجيش أولا أخلص من الإجباري ثم عودة للثانوية .. لابد من التغيير ، وجدت تشجيعا من بعضهم ، وبعضهم رفض هذه الخطة ..التعليم أولا وهكذا ..وتلقيت رسالة من الصديقة أولى

" عزّ عليّ يأسك من الثانوية العامة يا مال الدين .. علمتك مقداما مثابرا .. لا أدري لماذا تضعف عن قراءة كتب المدرسة ؟! وأنت تقرأ عشرات الصفحات من الكتب والمجلات والروايات .. أليس هذا من العجيب ؟! .. المحبة الغالي على قلبها أولى موسى .

فعلا هذا ما يحير كل من عرفني أيها الاصدقاء علقت القراءة والغرام بها منذ الفصل الخامس ، كنت أقرأ قصة الزير سالم والهلالية منذ الصف الخامس أو الرابع ؛ بل أذكر أنني اشتريت قصة المهلهل وأنا في الخامس الابتدائي الأساسي .. وقرأتها في ثلاثة أيام بخطها الصغير وصفحاتها الكثيرة ، وعلى قراءة سلسلة الألغاز المصرية التي أغرمت بها في المرحلة الإعدادية المتوسطة ، كنت أقرأ الكثير منها خلال الحصص في المدرسة.

كانت في طريق المدرسة مكتبة تؤجر هذه القصص ، فكنت أقف أمام المكتبة أقرأ لغزا لم أقرأه بقرشين على ما أذكر اليوم بأقل من ساعة ، ثم أستأجر عددا آخر لقرأتها في البيت ..كنت مستمتعا بذلك ..القراءة متعة ولذة لا حرمنا الله منها ، وما زلت لليوم محبا لها .. عجيب حبي للقراءة وكرهي لدروس وكتب المدرسة الثانوية رغم غرامي في المعرفة وكل المعرفة .

تعرفت على مجلة العربي الكويتية صغيرا .. كان ثمن العدد عندما بدأت أتابعها بثمان قروش وعشرة قروش .. كانت مجلة أنيقة وورقها أبيض مصقول من أجود الورق اللامع في ذلك الزمن .. كانت مجلة فاخرة .. وتعرفت على الكثير من مجلات ذلك الزمن سوبرمان الوطواط النجوم مجلة الشطرنج وكتب الشطرنج العراقية والمصرية .. وما زلت احتفظ بشيء منها ؛ وربما زاد .. وتعلمت لعب الشطرنج وافتتاحيتها ونهاياتها .. وكنت أذهب هناك وهناك

للمباريات والتحدي .. أصابني هوس فيها .. وألفت كتابا صغيرا فيها .. وما زال مخطوطا بخطي الصعب القراءة ؛ ولكن لغة الشطرنج رموز وسهلة القراءة للمحب الولهان ، وشكلنا يومها نواة نادي شطرنج ، وصحبتني في رحلة التجنيد ، وفقدت رقعة أو حجزت في فترة التدريب الأساسي .

أما مهنة الفني الكهربائي فهي مهنة جميلة لمن أحبها وأتقنها، وعرف أسراها .. كانت أجرة العامل يوم عملت فيها خمسة وسبعين قرشا ؛ ولأني كنت أحمل شهادة توجيهي راسب أجرت دينارا واحدا في اليوم .. من الصبح حتى المساء بعد العصر.. تعلمتها خلال شهرين ، وكان بإمكاني العمل في ورشة وحدي .. وفعلا قد عملت ؛ لكن الانسان يحتاج للمزيد من الخبرة ، الفكرة واحدة ؛ لكن الفن فيها يختلف ..يختلف التمديد في المنازل عن الفنادق والمدارس .. وربما أعطاني المتعهد الاول دينارا خجلا أقول ربما ؛ لأنه رفع أجور كثير من العمال .. عادة أصحاب الشغل يحبون إطالة فترة التعلم للجديد أكبر فترة من الزمن .. بعض المعلمين الذين عملت معهم أسرعوا في نقل خبرتهم لي ؛ ربما محبة أو غير ذلك .. والله أعلم .

السبب أن الفني إذا تعلم الحرفة بسرعة سينتقل للعمل معلما وبأجرة أكبر .. فالعامل اجرته بسيطة وقليلة بالنسبة للمعلم المتقن .

كان عليّ أن أتعلم قبل التجنيد والوقت يداهمني .. الموعد مع الجيش في شهر أيلول عام ثمانين .. لم يكن العمل غريبا عليّ .. كنّا في عطل المدارس السنوية في الصيف نعمل .. وقد عملت في مهن مختلفة مع المعارف ، وحتى في البيع المتجول كالحلوى والبالة والتحميل والتنزيل للرمل والطوب والبلاط والاسمنت ، وفي أماكن مختلفة في المدينة وحتى الفواكه والخضار في أماكنها والأسواق الكبيرة .. الواحد يحتاج لمصروف والشراء للدخان والتبغ ..قصة كبيرة عطلة المدارس .. فقد كنّا نرفع المواد للطوابق لمعلمين البناء والقصارة والبلاط وغيرهم عملت في حدادة البناء والنجارة وتنظيف الخشب من المسامير وفك الطوبار مع عدد من المعلمين شقاء في شقاء ؛ لكننا كنّا شبابا على قدرة على إنجاز مثل هذه الأعمال .

كان من نتيجة مثل هذه الأعمال الجلوس في المقاهي للتعاقد مع معلمي مثل هذه المهن .. وكان من نتيجة الجلوس فيها لعب الورق والشدة والتعلق بالدخان والسينما والرياضة .

لم يكن العمل في هذه المهن والحرف مستمرا ،كان متقطعا لم يكن دائما .. كان يخضع لعوامل وظروف شتى .. كنّا نعمل حتى نعود للمدرسة والعام الدراسي من جديد .. بعض الشباب يقضون تلك الأيام في النوادي والمسارح وغيرها .. نحن بحاجة لمصروف أثناء انقطاع المدارس ..كم هو قاس الفقر والطفر!

رغم هذه الآلام ما زلت أقرأ وأقرأ .. إنني مفتون بالقراءة . كنت أجلس ورفاقي في مقهى وسط المدينة ، مع جلوسي وتعرفي على عشرات المقاهي في أنحاء العاصمة إذ أنا من سكان العاصمة كما يقال .

عرفت مقاهي الحي والأحياء المجاورة ؛ لكن مقهى الذهب في سوق الذهب هو المقهى الأهم يومها .. مقهى الشلة والرفاق واللعب والعنوان .

لم نلعب الميسر من يملك يدفع .. تعلمنا عشرات الألعاب من ألعاب الكوتشينة بأسماء كثيرة .. ألعاب كثيرة.. اللعب أيام الشباب له مواسم.. كنّا نستمتع بكرة القدم لعبا ومشاهدة حيث كان فريقان يشغلان تنافسنا ومجادلاتنا ومعاركنا وصراعنا .

" لم تعد تتصل بنا يا مال ! فشقيقي ثاني حبيبك يقول :إنه لم يعد يراك .. لا تنسى ثلاث سنوات صداقة جمعتنا .. لديّ قصص وكتب كثيرة تحتاج إليك أكثر من الأول ؛ لأنني طالبة جامعة ، حتى ابنة عمي تسأل عنك.. فقلت لها مع رسوبك هربت من الحي .. ولم تعد قدماك تدخل حي درب القلعة .. المخلصة أولى .

أجبت برسالة " أشكر اهتمامك أنت وعزة بشخصي .. كانت مثلك تحب لي النجاح .. حاولت الدراسة من تشجيعكم ، ولكني ضعفت وغادرت المدرسة بعد أن دفعت الرسوم وبعض الاقساط .. إنني أعمل وأستعد للتجنيد .. فموعدي شهر أيلول ثمانين .. نعم شهر أيلول الموعد يا أولى .. أحب رسائلك وكلماتك ونصائحك .. ألم تجدي صديقا بعد في طلاب

الجامعة ؟ .. يقولون الجامعات مرتع لقصص الحب والغرام وغير ذلك .. المخلص مال الدين حسين .

كتبت بعد حين " لا يا صديقنا ، بعدي لم أجد أو اتخذ صديقا محبا عاشقا مع أن بعض الفتيات تنقلن خلال هذه الشهور بين أكثر من حبيب وصديق .. هناك أحدهم يحاول يحوم حولي ؛ لكن ثقافته ضحلة .. وأتعجب كيف نجح في الثانوية وأنت رسبت؟! صديقك جل وقته مع الفتيات والحبيبات كما يحدثني .. أتمنى لك التوفيق ؛ ولعل الجيش يضيف لك تجربة جديدة ومفيدة وتستمتع به؛ لعلك تزورنا قبل التحاقك بالجيش .. فسأطلب من ثاني أن يدعوك لتناول العشاء والطعام مع الأسرة ..وأخيرا لثاني صديقتان في الجامعة لحتى الآن .. لا أدري من تكسبه وتفوز به؟ أمي كما تعلم تخاف من الفتيات وألعابهن مثلك تماما .. لم أعد أسمع أخبار فتاتك نهلة ..المشتاقة لكم أولى .

كان لابد من الرد أدبا " كما هي يا أولى ..تحضر في الصيف مع أسرتها من الخليج.. فوالدها حسب ما أعلم يعمل في تلك البلاد .. ولا أدري ما يعمل ؟! فأنا كما أخبرتك شفويا عيوننا فقط التي تحب بعضها.. لم أكتب لها ، ولم تكتب لي ؛ لكنها عندما تراني أقف قرب بيت عمها حيث ينزلون لقضاء إجازة الصيف تخرج لتبادلني العيون والهوى .. هذا حبنا إذا سميته حبا .. فهي تبدي اهتماما بي .. أنا أفهمه والعشاق يفهمونه .. ولكني عذري الهوى على رأي بعضهم .. أنا رأيت بعض حب المراهقين والفتية من الجنسين رأيتهم أثناء لقاءاتهم وجلساتهم التي يسمح لي بالقرب منها كحارس أمين فأرى حبهن وشوقهن .. وما هو بحب ! الكل يتسلى ببعض ؛ فإنهنّ عند أول طارق يتزوجن ويختفين من وجوهنا .. هدفهنّ التسلية بالشباب .. ولم يعجبني هذا السخف .. شكرًا لرسائلك اللطيفة .. لعلي أزوركم قبل السفر إلى معسكر التدريب .. فقد قمت بالفحص الطبي ، وعين شهر تسعة أيلول الشهر التاسع من العام ثمانين لدخول المعسكر .. لعلنا نلتقي .. سلمي على والديك وإخوتك سلام كبير .. المخلص مال الدين حسين .

فعلا قمت بإجراءات الالتحاق بمعسكر التدريب كمجند لمدة عامين ، قمت بالفحص الطبي المقرر ، وتعين يوم الاجتماع في منطقة من المدينة فلا أذكر اسمها اليوم ؛ لكنها في المدينة الكبيرة .

ودعت الأهل والعمل ؛ ولعلي كنت أملك بعض المال ، ولا أذكر قيمته وعدده ، ولما أعلن عن اسمي صعدت لحافلة عسكرية سيارة كبيرة معدة لحمل الجنود والطعام والذخيرة ، قد تكون علامة للخشونة العسكرية .. ولما اكتمل العدد المطلوب للشاحنة تحركت بنا جهة معسكر التدريب حيث يتسع المعسكر المقصود عشرات ألوف المجندين في البلاد .. وهو في قلب الصحراء وعادة كل أربعة شهور يستقبل المعسكر دفعة جديدة من المجندين .. السنة تستقبل فيها ثلاث دفعات على ما أذكر .. كنت من الدفع الأولى بعد العاشرة .. المهم دفعة شهر أيلول عام ثمانين .

وصلنا المعسكر مع الليل أول الليل ، كان الاستقبال في المعسكر الصحراوي الضخم من قبل الجنود الأقدم والضباط وضباط الصف ،كل ثلاثين مجند ضمن فصيل .

الفصيل يسمى فصيل مشاة لأخذ دورة أساسية أولية .. بعد الوصول يذهب بنا إلى الحلاق ليحلق رؤوسنا على نمرة صفر زيرو بواسطة ماكينة كهرباء .. ثم يصوروننا لإخراج بطاقة عسكرية ورقم عسكري لمجند بدون رتبة عسكرية مكلف عسكري اجباري.. ثم يستلم المجند ملابس وثياب عسكرية بدلات كاكي تسمى فوتيك ، وملابس مراسم للمغادرة والخروج من المعسكر حالة الإجازة ، ملابس داخلية جوارب جاكيت عسكري فلدة .. معطف شتوي للوظيفة العسكرية ليلا ، ملابس صوفية للبرد والشتاء .. بوريه غطاء رأس شعارات معدنية عليها اسم الجيش والشعار المعدني المعلق على البوريه .. حذاء طويل الساق للتدريب وآخر للإجازة .. علب طلاء أسود لتلميع الحذاء .. صندوق معدني لحفظ الملابس .. بطانيات وسرير وكوب للشاي والماء وصحن للطعام ومعلقة وربما أشياء أخرى غابت عن ذهني .

الحمام جماعي كحمامات المساجد .. عدة مراحيض خارج ثكنة المنامات .. الثكنة العسكرية تتسع فصيل كامل .. وكل عدة فصائل تعتبر سرية ومجموعة سرايا تشكل كتيبة وهكذا ثم لواء فرقة جيش .

للمجند ثلاث وجبات يوميا في الصباح مع شروق الشمس عند الظهر وفي الغروب ثالثة ، وبين الصباح والظهر وجبة على نفقة المجند يشتريها من دكان ومطعم الوحدة أو تجلب من الخارج عن طريق أحدهم .. ويباع في المعسكر في دكان الجندي الكنتين المعلبات والسجائر والحلوى الرخيصة وهناك نادي وتلفزيون وشراء الشاي وغيره .

وهناك حلاق وكوّى .. ويبدأ التدريب صباحا حتى الظهيرة ثم حصة تدريب عصرا يوميا ما عدا الجمعة.. وهناك عيادة أولية .. الدورة هي لياقة بدنية والطابور العسكري والمشية العسكرية وألعاب رياضة المشي .. وهناك عقوبات بدنية ووظائف حراسة ليلا غفارات تسمى .

حلق الدقن واللحية فرض كل صباح ، وكذا ترتيب السرير وتصفيط الأغطية البطانيات يوميا ما عدا يوم الجمعة وقبل المغادرة للتدريب أو الإجازة .

كثيرة الطوابير على المراحيض والمغاسل على الطعام والتدريب وكل شيء. يمضي الشهر الاول بدون اجازة للمجند إلا من كان له واسطة أو مات أحد والديه .

يدرب المجند على بعض قطع السلاح ، وأهمها بندقية فردية فكا وتركيبا ، ويتدرب على تنظيفها وتلميعها وعلى بعض الأسلحة الأخرى والقنابل اليدوية .. والرماية الحية لعدد من الطلقات في آخر الدورة التي تحتاج لثلاثة شهور ، ثم ينقل المجند بعدها الى وحدات متنوعة من الجيش في طول البلاد وعرضها حسب الحاجة والثقافة والمستوى العلمي .. كانت دفعتنا أول دفعة تحتوي عددا كثيرا من المتعلمين في الغالب .

الحراسات الليلية التدريبية يتعرض فيها المجند للتفتيش من قبل عرفاء الفصيل ومن ضباط الصف ومن الضباط في بعض الأحيان.

يدرب المجند على استخدام القنابل اليدوية وسحب الصاعق وقذفها على مكان معين ، وعلى مدفع الهاون وعلى المدفع المحمول على الكتف لتفجير الدبابات والناقلات والاليات العسكرية وأغلبه تدريب نظري .

كل التركيز على المشية العسكرية يد يمين مع رجل يسار والالتفات يمين يسار . بعد الشهر الأول من الحجز والتدريب يسمح للمجند بإجازة نهاية الاسبوع بعد ظهر الخميس لصباح السبت .. والبعيد ربما يعطى يوما آخر كل أسبوعين .

يغادر المجند المعسكر بواسطة حافلة عسكرية لأقرب مدينة كبيرة ، فينام ليلة الجمعة وليلة السبت ويسعى صباحا لمعسكره أو لمكان معين .. وتأتي سيارة عسكرية لنقله للمعسكر الكبير في جوف الصحراء القاحلة .

والعسكري يجب أن يتناول وجبة الغداء يوم الخميس قبل مغادرة المعسكر بثيابه الرسمية .. فلكل عسكري وجبة طعام مخصص حسب برنامج ما.

ولكل سرية نادي عسكري ، ومطعم للطعام والسهر والسمر يسمى كانتين .. وله ميس ودكان وفي النادي كراسي وتلفزيون ويعرض برامج ميكي ماوس .. والمعسكر له وقت يتوقف فيه التيار الكهربائي عدة ساعات .. وعند الفجر تعود الكهرباء ، ويبدأ صحيان العساكر ، ويبدأ النشاط بحلق اللحى والذهاب لدورات المياه ، ثم تلميع البسطار والشعار العسكري المعلق على البوريه ، والاستعداد لطابور الافطار ، ثم الانطلاق لميدان التدريب .. وبعد حين شهر يقل التدريب المسائي .. ويسمح بلعب كرة القدم وغيرها .

وكونت نادي شطرنج رغم أنها غير ممنوعة حجزت لنهاية الدورة ، ثم انتقلت ، ولم تعد إليّ الرقعة ولا القطع .. وأحيانا يقام طابور ليلي أو عند الغروب كتدريب مفاجئ أو عقابي حتى يتعلم المجند الخضوع والضبط العسكري .

ثلاثة شهور متتابعة في ذلك التدريب ، ثم يتخرج المجند ، ويرسل إلى وحدات الجيش المختلفة .. وألحقت بكتيبة اتصالات لاسلكي وسلكي في الشمال حيث الحدود كمجند إشارة

واتصالات .. سأتحدث لك يا أولى عن أسلحة الجيش ؛ لأني كتبت هذا الكلام لصديقتي أولى فهي تحب ذلك كما أحس وأشعر .. واعترفت لي باستمتاعها بأي حديث أتكلم به .. واستمتعت في قراءة تلك الصفحات .

كنت مستعيرا لصندوق بريد من أحد رفاق الحي في وادي النزهات المجاور لدرب القلعة ، وقد كان السبب اشتراكي بمسابقة شطرنج عن طريق مجلة الشطرنج ، وهي اللعب مع ثلاثة آخرين بالمراسلة على ما أذكر ولمدة محددة من الزمن .. شطرنج بالمراسلة نقلة إرسال نقلة استقبال .. أذكر أنني فزت على اثنين والثالث انتهى الوقت المحدد .. والمفاجأة أن أحدهم بعد انتهاء الدور كان أحد طلبة المدرسة أحد الشعب الأخرى .. ورفضت الالتقاء به بعد انتهاء الدور .. ونشرت النتائج في أحد الأعداد .. وما زلت أحتفظ بوثائق ومسودات تلك الأدوار البسيطة .. وأنا ألفت كتابا قبل الجيش في الشطرنج ولعبها وقراءة أدوارها .

واحتفظت بصندوق البريد إلى حين ، وأستلم رسائل أولى عليه أثناء دراستها في الجامعة .. فكنت أستغل فرصة الإجازة لقراءة تلك الرسائل الجميلة والمثيرة .. كانت تكتب لي من مقاعد وحدائق وساحات الجامعة .

كتبت لي رسالة جاء فيها " صديقي البطل مال الدين حسين حولي شباب رغم حبهم لي كما يزعمون ويدعون أنا غير مقتنعة بهم .. وأحدهم يزعم أنني فتاته المنشودة والتي كان يبحث عنها خياله من سنوات ؛ بل كلهم يقول ذلك .. وهل يصدق هذا الزعم ؟ صديقي أنت الوحيد الذي اقتنعت بما يحمل من أفكار ومعتقدات رغم هروبك الى الجيش والصحراء الحارة المليئة بالغبار والرمال لم أميل لأحدهم ما رأيك بصحبة هؤلاء الطلبة العشاق ؟ وأختي ثاني محتار في اختياري لأحدهم .. وطلب مني أن أخذ رأيك ومشورتك بتلك الصداقات .. وأنت لم تعد تزورنا منذ دخلنا الجامعة ؛ كأن لم يكن بيننا صداقة وزمالة وساعات رائعة .. نعم صداقتنا لم تنقطع ماذا أفعل صديقي بهؤلاء الفرسان ؟ قل لي أيها الصديق المخلص .. أنا على يقين أنني لن اتزوج أحدهم ؛ لأننا من جيل واحدة سن واحدة .. وأمي لها قريب يكبرني

□□□

بسنوات مستعد وجاهز ؛ ليكون لي زوجا .. وهو من أقاربها وتريد فعلا تحقيق ذلك قبل أن أتورط بعلاقة فاشلة مع أحدهم .. تراه مناسبا ..ولكنها فترة الجامعة يا مال .. وتقول إن أبي يقبله ولا يمانع إذا قبلته وترك الأمر لي ، ولم يتحدث معي بذلك وهذا طبع أبي .. أليس هذه معضلة ؟ عندما تأخذ إجازة ، وتقرأ هذه الرسالة زرنا .. فالبيت ينتظر زيارتك .. ويعرف أهلي عمق ما بيننا من صداقة وانفتاح .. وإن رأيك أفضل من رأي ثاني .. فأمي سمحت لي بدعوتك ومشاركتك بهذا الكلام .. أمي تحبك كما تعلم .. وترى نضجك وعجبت من فشلك في الثانوية.. وترى أن ظروف صعبة حدثت لك ، ولم تكشفها لنا .. أمي لولا السن المتقاربة بيننا يا مال لشجعتك على الاقتران بي لشغفي بك وبكلامك أيام مراهقتي التي لم تنته بعد .. وأنت تعرف ذلك ، وسمعته أكثر من مرة من أمي .. فأمي تزوجت أبي عن حب تقول .. فهي تحبك مثلنا .

فكتبت لها " أن لا تتعمق بحب طلاب ، فهذا لا يقوم على أساس متين .. رغبات ثم يبحث عن غيرها ؛ لعله في سنة أخرى يرى فتاة أخرى فيتحول إليها .. فالجميلات كثيرات والصائدات العابثات أكثر ؛ فإذا رأى أجمل منك سينقلب قلبه إليها .. لا أساس سليم لهذه العلاقات .. الاختلاط بين الجنسين والمراهقين مضلة كبيرة .

وأما الزواج من قريب أمك فقد يكون مبكرا .. أنت في السنة الثانية أليس كذلك ؟ فلينتظر إلى ما بعد الجامعة أو قرب انتهائها صديقتي .. فليس الزواج أثناء الجامعة مفيدا خشية الحمل والولادة وتعطل عن الدراسة ، وهناك الرضاعة الطبيعية أفضل من رضاعة القنينة " هكذا كتبت لصديقتي بعد تخرجي من الدورة الأساسية للمشاة .. وعندما رحلت لصحراء جديدة حيث وحدة عسكرية للخدمة باقي سنوات الخدمة في سلاح الاتصالات السلكية واللاسلكية كتبت لي.

" أنها ترغب أن تعيش قصة حب ، فالشاب يستهويها وهو يعشقها بشدة "

كتبت لها " الفشل صعب خاصة في الحب ، فقد يكون صاحبك هذا عاشق جسد .. وما هو

لعاشق روحك "

كتبت " كل الفتيات لهن أكثر من صديق ، ويتحدثن عن علاقات بريئة"

فكتبت لها " أي براءة في عشق جامعة؟ هل الشاب مستعد للزواج منك عند التخرج أم سيعمل حتى يظفر بك ؟ وكم سيستغرق وهو يجمع المال يا أولى ؟!"

كتبت" أني أقسو عليها"

كتبت" أنا أمنعك من التهور .. والأمر إليك .. وأنت طلبت مشورتي " ووعدتها بلقاء مباشر عندما يروق لي الجو ووعدتها أن يكون قريبا .

أنا أعلم أن أمها تحبّني ، وتراني صديقا حقيقيا للعائلة الكريمة .



□□□

سوق العمل والتدريس

أمضيت أكثر من سنة في خدمة الجيش الوطني ، وقررت في أول إجازة أن أزور بيت صديقي ثاني وشقيقته أولى ، كانت أولى وشقيقها يقتربان من إنهاء السنة الثالثة من الجامعة .

كان اللقاء بعد المغرب ، وكان يوما ماطرا ، لم يتغير رقم هاتف منزلهم الذي أحفظه منذ بدأت صداقتنا قبل خمس سنوات تقريبا ، رحبت بي أم ثاني ، وطلبت مني العشاء معهم ، فلهم أكثر من سنتين لم يروني جسديا .

حين دخلت درب القلعة عادت بي الذكريات لإيام الثانوية والصداقة وبدايتها .. ذكريات جميلة .. تعشقت عبير تلك الأيام والليالي والسهر مع ثاني وأسرته ، وجلسات أولى الأدبية وغير ذلك .

وقفت أمام بوابة البيت لأضغط على زر الجرس الكهربائي .. فكرت كم ضغطت عليه عدد كرات ليلا ونهارا وصيفا وشتاء . . لما ضغطت فتحت أولى البوابة .. كانت جميلة كما تعودت على أناقتها دائما .. كانت تحب الجلوس معنا بملابس الخروج قليلا ما جلست معنا بثياب المهنة أو المنامات .

كانت جميلة تلك اللحظة ؛ كأنها عروس ترحب بزوجها ، وتسريحة شعر وعطر بين فواح يضرب الأنف سريعا .. فتحت البوابة فرحة وسعيدة بي شعرت بذلك ، ورددت البوابة لأسمعها تهمس باضطراب قبل التحية :كم أنت قاس يا مال! سنتان ولم تضغط على هذا الجرس .

دخلت البوابة وأنا أقول بعشق ووله :تحياتي .. الدنيا صعبة سلام عليك .

ـ وعليك السلام يا حبيب !

تصافحنا كما تعودنا وفاجأتني بأن ضمتني لصدرها ضمًّا عنيفا ، وتأوهت وارتجفت وصعقت .

قالت : لا تخف إنني أحبك.. أنت أخ عزيز وصديق غالي .

قلت مذهولا : يا إلهي !ماذا فعلت يا ابنة الكرام ؟

ـ أحبك أحبك .

ـ وأنا أحبك إنك عزيزة على قلبي ولكن ...

ـ لا تخف .. لن أتزوجك .. فأنت تحترم الأسرة .. ولا تحب أن تبدو خائنا .. أعرف هذا وحفظته .. ونحن من سن واحدة .. فنحن أقوى من الزواج .

ـ ماذا ستقول أمك وهي تنظر إلينا ؟!

ـ لن تقول شيئا .. لن تفعل شيئا .. هي تعلم كم أحبك وأرغب فيك شريك حياة .. وكما تقول لو لم تكونا قريبا سن لكنت أولى الناس بالزواج مني .. هكذا تَر أمي المانع السن .

ـ العاطفة قوية عندك نحوي يا أولى!

ابتعدت عن صدري بعد كل هذه الهمسات ، وأخذت يدي وقبلتها ؛ وربما تمنت تلك اللحظة لو قبلت شفتيها .. فهي تعلم حبي لها ؛ كأنها تقول ذلك ؛ ولكنها تعلم حيائي من أمها .. فهمست دون وعي : حبيبتي ! آه !! ليتني أحبك .

وقلت لنفسي وهي تداعب وجهي : هل جنت أولى ؟ فهي لم تفعل ذلك معي من قبل .

ولما زلفنا للداخل قبلتني أمها من وجنتي كما كانت تفعل قديما وقالت : أهلًا بالفارس مال الدين .. قلبك قاسي علينا .

قبلت كفها وقلت : أبدا أبدا أيتها الخالة الغالية ! إنما الحال تغير بعد الثانوية ..كان الفراق اضطرارا كما تعلمين .. انتهت الدراسة بفشلي ، ونجاح أولادك .. وغدا سيتزوج ثاني وأولى وأنا .. أليست هكذا الدنيا يا سيدتي الكريمة ؟

ـ يا لك من فيلسوف .. نعم ، هذا المصير .. كيف أنت والتجنيد ؟

ـ في خير حال .. مستمتع به .. لقد أنهيت دورة اللياقة والمشاة ودورة الاتصالات والشيفرات العسكرية .. وانتقلت إلى وحدة مقاتلة في سلاح الدبابات والفرسان أو الدروع كما تسمى اليوم .. أين الرجال ؟

□□□

قالت أولى وهي تنظر إليّ بشغف بين: أبي عند أمه ومعه أفراد الأسرة .. ويعتذر لك .. ولتعلم أن أمه مريضة .. وثاني سيأتي فهو مع صديقته في المسرح .

ـ إنه يعلم بمجيئ .

قالت :كلنا يعلم أيها الغالي والجافي .. هو يعلم بالتأكيد.. ألم ترتب معه قبل الاتصال بنا ؟ ولكن موعده مع تلك الفتاة مرتب له قبل اتصالك وسيجمع بين الامرين مسرح وحب ومال .

قال متهكما: من صديقته اليوم ؟!

ضحكنا الثلاثة وردت أولى : كثيرات يا حبيبي حسناوات أخي كثيرات .. وأنا دون حبيب حتى الشاب الذي حدثتك عنه طار من برودتي كما يقول .. قد وجد من تعشقه وتحبه كما يزعم .. فارقني .. كم شكرتك من قلبي عندما ذكرت لي سوء حب الجامعة والتقلب ! كان يراني الأولى في حياته وهواه .. وأمي تعلم بنصحك وتعلم بمثل هذه الحكايات .. والحق أننا نحب مثل هذه الأشياء يا مال ؛ لكنك دائما في خيالي محذرا .

قلت : الحمد لله على صبرك .. هؤلاء الشباب يحبون مثل هذه الصداقات العابرة والعلاقات الطيارة .. فأنا أسمع قصصهم وضحكهم من قلوب العذارى .. ألم يقل شوقي : خدعوك بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناء؟ .. نسمع بقصص الحب والغرام والهوى أسهل كلمة تقال أحبك .

قالت دون تمهيد : من أجل ذلك ضممتك لصدري وتنهدت ؛ لتسمع خفق قلبي لك .. أنت أحسن حبيب ..أنا أقر بذلك أمام أمي .. تراك أمي خبيرا في فهم البنات .

نظرت لأمها بخجل واضطراب التي ابتسمت لي ولم تنطق وقلت: مما أقرأ وأقرأ .

لما قلت ذلك قالت أمها: أنت تحسن القراءة والتدبر يا مال .. فكلنا يقرأ ..قراءة عن قراءة تفرق .. منذ وعيت وأنا أقرأ الصحف اليومية والجرائد ، وحتى لما تركت العمل ظلت عادة تصفح الصحف والمجلات النسائية هوايتي .. وفيها عرض الكثير من المشاكل والحلول

المقدمة لإصحاب الحاجات وطالبي النصح والإرشادات .

ولما سكتت أم ثاني عدت أسأل عن أفراد الأسرة فقالت : يزيد مع أبيه كما قلنا وعلا عند صديقة لها تدرسان ..فهي في نهاية العام الجامعي الأول .

صحت : يا إلهي ! الأيام تمر من بين أيدينا بسرعة .

قالت أم ثاني : سنتعشى ، ولن ننتظر ، فقد سمحوا لنا بذلك .. هيا إلى غرفة الطعام

قال مال : أستطيع الانتظار يا سيدتي !

اجابت : ولماذا الانتظار ؟! موسى سيتعشى مع والده وإخوته .. وثاني قد يتعشى مع رفيقة المسرح الآنسة منايا .

قلت : هذا اسمها !

قالت : نعم ، هذا اسمها .. منايا

ـ حسنا يا سيدتي !

قالت أولى : سنتعشى يا مال ثم نجلس وحدنا على انفراد .. بيننا حديث طويل .. أرجو ألا تتردد .. وسيكون الباب مواربا ، قد تسمعنا أمي ، وقد لا تسمعنا .. هذا يعود لها .. الحديث حول مشاكلي وزواجي من مازن قريب أمي .. بيني وبينك فأنا أحب أن أسمع كلامك وحدي .

نظر لأمها وقال : الخلوة خطرة يا أميرة أولى.. أليس كذلك يا أم ثاني؟!

ـ كأنك شيخ يا مال ، الخلوة هذه عند المتدينين .

قالت أمها : هي تريد ذلك .. وأنا أعرفك أزعم جيدا يا مال .. سأكون في الصالون .. وقد أسمع كلامكم .. فهي تريد رأيك في موضوع مهم وخطير .. وقد أدخل عليكم بين الفينة والأخرى بشيء.. أنت ابن ثالث لي

قلت بخجل شديد : ما أخطر هذا الكلام يا أم ثاني !

قالت : نحن جربناك وأنت في سن المراهقة ، لم تختلس قبلة من أولى رغم اعجابكما ببعض ..

وابنتي تحب رأيك في أمورها الخاصة .. ومن إعجابها بك كنت أظن أن بينكم علاقة خاصة ؛ ولكن أولى نفت ذلك .

قلت : لم أكن أسمح لنفسي بالخيانة .. أنتم فتحتم لي قلوبكم قبل بيوتكم .. فأنتم أعز الأهل والأصدقاء .. والأيام دلت وأكدت ذلك .. فلن أجرؤ على خيانتكم .. لا أذكر أني قبلت أنثى باسم الحب والصداقة .. أنا عشقت الحب العذري إذا كان هذا صحيحا .. لم أقبلها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها .. كما زعم زوج ليلى لقيس بن الملوح العاشق المشهور .. وأولى وثقت بي .. فلم يحدث أن قربت يدي لشيء منها ولو مازحا .. لم يحدث سوى المصافحة .

قالت : هذا ما تأكدت منه.. وأنا أثق بأولى خاصة تلك الأيام يا صديقنا .. أما أيام الجامعة فهي مسؤولة عن نفسها .. أنت رائع! ومن يعرفك يعجب بك ويحبك بحق .. ألم تعانق فتاة في حياتك ؟

ـ لم يحدث يا سيدتي هذا إلا اليوم عندما فاجأتني الفاتنة أولى بذلك على الباب إذا كنت تشيرين إلى ذلك ..وهي ترحب بي .. وكان ذلك مفاجأة

ـ وأنا تفاجأت مثلك برغبتها .. وأنا سمحت لها بذلك .. قالت أنا مشتاقة لضم مال إلى صدري إني أحبه فقلت افعلي .

تفاجأت حقا من صراحتها فقلت : يا إلهي! ألم تخافي من ردة فعلي وضعفي؟

ـ ماذا ستفعل ؟ أنت في الهواء .. وأولى ناضجة ، ولو تريد الخيانة لفعلت ذلك .. فحولها شبان كثر .. زملاء كثر .. وهي تسمع نصحك.

تبسمت لهذا الحوار وقلت لأولى: ألم يقبلك أحد ؟

قالت : حدث مرة واحدة دون رغبة مني ؛ ولكني أبعدته واحتقرته ، وقضيت يومين أبكي ، وأمي تهون الأمر عليّ ، تعلمت أن أكون لرجل واحد وهو زوجي .

قالت أمها : نحن في عصر عجيب يا مال .. ماذا يفعل الأهل أمام هذا الانفتاح الإباحي الرهيب ؟! القصص والصور والأشرطة والسينما والتلفزيون والرغبات والشهوات ، ونحن

أسرة غير متدينة ، وأنت تعلم ذلك ، لست غريبا عن عاداتنا .. فزوجي يشرب الخمر من قبل أن أتزوجه وعلمني على شربها .. وهو لا يحب ذلك للأولاد يقول لهم لما تكبروا افعلوا ما شئتم .. هو لا يشرب أمامهم .. نفعل ذلك في حجرة نومنا ؛ ولكنه أحيانا يكون سكرانا أمامهم .. وأحيانا اضطر لشرب القليل من سوء رائحتها كالدخان تعلمته منه .

قالت أولى: أمي دعينا من عيوب أبي .

ردت : مال اليوم كبير .. وكان يسأل ثانيا عن ذلك قديما .. كما قلت نحن لسنا أسرة متدينة ومتزمتة .

قلت مرددا مفكرا : متدينة ومتزمتة.. نعم ، ماذا يعني هذا ؟!

قالت: أنا أسأل عن هذا .. أنت الذي عليه الإجابة يا مال.. أنت تعرف في الدين أكثر منا لقد سمعت بعضا من أحاديثك لثاني أيام الثانوية عن الأحزاب الدينية .. أما زلت تذكر ذلك ؟

ـ نعم ، وما زلت أصلي أحيانا وأصوم كذلك .. أنا من أسرة متدينة كما الكثير من الأسر .. تدين تقليدي يا أم مال ؛ لذلك أفعل ذلك .. وأترك ثم أعود ، ولا أعتبر نفسي متدينا وملتزما .. وأعتبر نفسي إلى حد ما مصليا .

نهضت قائلة : حسنا ! هيا إلى العشاء طال الحديث .

قالت أولى : حبيبي ـ وهذا لفظ دارج بينهم ـ قالت : حبيبي مال الدين اسمك مثل أسماء الباكستانيين مال الدين حسين الدين

تبسم ورد : ربما أحد أجدادي منهم يا عزيزتي .

ـ ما أجملك ! تسخر مني !

ـ صدقني لا أدري .

دخلوا حجرة الطعام المعروفة جيدا لمال ، وضعت المائدة وانشغل مال أثناء الأكل يفكر بما سمع هذا المساء ، وعن سبب غياب الرجال وحتى باقي أفراد الأسرة ، وعن هذا اللقاء المرتب ، لم يأكل كثيرا ، وفعلوا مثله ، ولما انتهى الأكل ، ورفعت الأطعمة.

قالت أم ثاني : سأدخل المطبخ لغسل الأواني يا أولى خذي راحتك مع مال .. ودعي الباب مفتوحا كما اتفقنا .

ذهب مال بصحبة الفتاة إلى غرفة من غرف البيت إلى حجرة جلوس ؛ ربما استخدمت يوما في الدراسة ، وتركا الباب نصف فتحة .

قالت بعد الجلوس قبالة بعضهم : دخن إذا أحببت ـ ووضعت أمامه منفضة سجائر ـ فهي تعلم أن الشاب يدخن من أيام الثانوية .

فاستأذن بإشعال سيجارة فقال : شكرًا أولى.. ما الأمر ؟ الجو غريب الليلة .. ولماذا هذا الاستقبال والاجتماع ؟

حدقت للحظات بعينيه وقالت : نعم ، أنا تصرفت معك هذا المساء تصرفات غريبة تصرفات مراهقة .. سأفسرها لك .. أتسمح لي بالدخان ؟

قدم لها سيجارة وهو على استغراب ؛ لأنه يعرفها أنها لا تدخن .

فقال : لعل الجامعة علمتك التدخين مع الدروس .

ابتسمت وقالت :فأفعل ذلك في بعض الأحيان .. أتسول سيجارة من أبي أو إخوتي وبعض الزميلات .

ـ حسنا .. أنا مصغ لفاتنتي .

قالت : أنت دخلت بيتنا منذ ست سنوات أليس كذلك؟

ـ بلى ، منذ تعرفت على ثاني في المدرسة الثانوية ، واتخذنا بعضنا رفاقا وزملاء ، ثم تعرفت على الأسرة .

قالت : ومع ذلك لم تحاول مغازلتي كما يفعل الشباب .. لقد اعتبرتني كأخت حقيقية ، مع أنني كنت أجلس بينكم في ملابس البيت .. وقال لك ثاني أمر عادي إنها كأختك .

قال : وأنا اعتبرت ذلك حقيقة يا أولى .. ويجذبنا حب القراءة والهوايات المشتركة .. وأنت لم تحاولي مغازلتي .

ـ بل حاولت ؛ ولكنك تجاهلت ذلك ؛ وافترضت فيّ البراءة والعفوية .. أنت تعرف أنني أحببت أن أكون لك حبيبة غير الصداقة .

قلت معترفا لا مجال للكذب : أعلم ؛ ولكن ثقة أمك وأبيك بي منعتني من ذلك .. وتطورت تلك النظرات والاشارات وتجاهلتها .

ـ أنا كنت أختبرك لما تجاهلت حبي ؟

ـ وهل نجحت في امتحانك ؟

ـ جدا ، وأصبحت أغلى صديق .. وجعلتني ألا أنصاع لرغبات الجسد وقبول معاكسات الشبان .. حتى أنت عندي أفضل من البنات والقريبات ورأيك مقدس .

ـ ومن أجل هذا قبلت صداقتك الأخوية .

وقالت بدون مقدمات : ألم تشتهيني يا مال كزوجة عشيقة كما كنّا نقرأ ؟

كان سؤالا صريحا وصارخا بالشهوة ، فهي اليوم طالبة كلية ناضجة كأنثى ، نظرت في عينيها وبعد فترة صمت قلت : حصل ؛ لكن هناك موانع وضوابط يا أولى .. وهل كل ما يشتهى ينال .. أشتهي طعاما فاكهة ما ولم أحصل عليها .. ماذا أفعل ؟ وهكذا النساء .. ليس كل ما يشتهيه المرء يدركه .. نرى شيئا في فلم في الشارع في الكتاب نشتهيه لا نحصل إليه أو هو خيال .. كم راودني خيالك في بعض الساعات !

ـ جميل منك هذا الاعتراف! ألم تفكر بامتلاكي كأي أنثى أو الزواج مني؟

قلت : فكرت ؛ ولكنه مجرد فكر .. أنت أنثى .. ولماذا خلقت الأنثى ؟ ليشتهيها الذكور .. وستكونين لرجل واحد .. أنت أنثى وأنا ذكر .

قالت : لما احتضنتك قبل ساعة تحركت غريزتك نحوي.

تنهدت بعمق وأنا لا أدري أين ذاهبة بي الليلة : أكيد ! لست حجرا أو ملاكا يا أولى .. وهذا في رأيي أمر طبيعي ؛ ولكني تمالكت نفسي ورغبتي .. وقلت جنت فتاتي .. ولما رأيت أمك تقف على الباب استغربت تصرفك .. وأدركت أنها تراقب ذلك ، وتعرف تصرفك وأنني

سأعرف سبب هذا الفعل الغريب .

تأوهت وعادت للتنهد وقالت: آه يا مال ! لقد اشتهيتك كزوج وتخيلتك تنام معي في الفراش ..وحلمت بذلك عددا من المرات ؛ ولكني أعرف وفاءك وبغضك للخيانة ، وتكره الخائنات .. ولو حصل هذا واقعا لابتعدت عن البيت.

ـ لماذا هذا الحديث اليوم ؟

همست بوضوح :لأنني أحبك كحب امرأة لزوج وعشيق .. أرى فيك حبيبا وعشيقا .

ـ زوجا ! يا لك من طفلة ! وهل يستطيع مجند بعشر دنانير أن يفتح بيتا وأن يكون زوجا ؟! فإذا قضى الانسان شهوة الجسد ماذا سيكون بعدها؟.. لشهوة الروح أفضل أكمل .. متعة الجسد تنتهي بقضاء الشهوة والرغبة .. الشهوة التي تجتاح الناس اليوم .. كم يفتن الشباب إذا رأوْا صورة امرأة عارية ؟

ـ وهذا تجده عندنا في الجامعة ترى اللهفة في عيونهم وشفاههم عندما يجدون مجلة اباحية ...

ـ الموضوع المهم .

عادت تقول :نعم ، المهم أنك اشتهيني كما تشتهي الرجال النساء ؛ ولكن هناك موانع أبعدتك عني .

ـ أكيد ..وأنت تعرفينها ، وحديثك الليلة عجيب !

ـ أكيد يحق لك أن تستغرب هذه الصراحة .. عندما كنا نتكلم بمثل ذلك بها في الروايات كنت لا تستغرب .. أما لما نتكلم عن أنفسنا تستغرب ؛ ربما تقول هذه وقاحة ـ وأشارت إلي بالصمت ـ أمي يا مال تريد تزويجي من قريب لها وأنا أدرس .. لا تريد لي السقوط في أحضان الشبان والطلاب خاصة الذي حدثتك عنه في رسالة ، ثم وجد من تقبله عشيقا حبيبا .. ليست الاسماء القضية .. ترى أنني أضعف أمام الرغبة .. تخشى أن انفلت كما حصل لثاني بعد هذه السنوات من الكبت .. والشاب قريبها راغب فيّ بقوة ، وزارنا في البيت .. وأبي لا يمانع ، ويرى ذلك أحسن من علاقات الدراسة .. وأنت ما تقول ؟

حككت رأسي الأقرع وقلت: أنا بالطبع أعرف أولى وأحلامها وخيالاتها .. أنا بالطبع لا أعرف الشاب .. وأنت فعلا خائفة على نفسك .. ليس أمك فحسب .. أليس كذلك ؟

قالت : بلى ، أنا صريحة ، وأنا مثل الناس .. الرغبة تجتاحنا يا مال .. دائما أفكر برجل يداعبني ويثيرني كما أسمع من البنات .. ذاك الشاب كاد يوقع بي ، وأستسلم لرغبة هذا الجسد .. وهو تحول لزميلة لي لاستسلم له كما فعلت صديقتي .. وأطلب منه العودة .. ويرى أنني سأضعف وأسلمه جسدي .. فهو يتعرض لي عن بعد ؛ كأنه يقول أنا جاهز حتى لو أنني أصادق فلانة .. فأمي تريد أن أقبل بمازن قبل الضياع في مستنقع الغرائز .. وأنا أريد رجلا صراحة يا مال .. أنا أنثى .

قلت : اسمه مازن .. أنت مقتنعة به.. وقد قدم البيت عدة مرات .. أنت فتاة ناضجة يا أولى .. تستطيعين أخذ القرار بالزواج .

قالت بسخرية : هكذا ببساطة ..أنا لست مقتنعة به ؛ لكنه رجل مثلك يلبي حاجتي لرجل .

ـ نعم ، هكذا ببساطة ..أنت من كلامك الليلة .. النار تشتعل في قلبك للحب والغرام .. جسدك يضعف أمام الرغبة .. الزواج خير من العلاقات السريعة.. تزوجي ؛ ولتكن الخطبة سريعة خشية الاستسلام لها ، ثم يطلقك قبل الزواج الفعلي كما يغرر ببعض الفتيات .

ـ هل تراني شهوانية ؟

ـ ليس هذا قصدي ..كلنا لديه شهوة ، وخلقت فينا .. أنت لديك طاقة تُحبين تفريغها ؛ فلتكن بالحلال والبعد عن الغرام الفاشل؛ ولتكن في حب مازن الذي هو قريب أمك ..ويحبك .

صرخت : يحبني ! كيف عرفت ؟هل تعرفه ؟! هو يشتهيني فقط .

ـ لا ، ولا أذكر أنني رأيته عندكم ، ولا صدفته ؛ ولكن بعض رسائلك وأنت تتحدثين عنه ، والرغبة الجامحة في ثنايا كلامك وألفاظك تدل أو توحي بحبه لك وحبك له .

قالت بتفكر : الرغبة الجامحة يا إلهي ! لم أعاشر رجلا يا مال ما زلت عذراء!

□□□

قلت : أنا لم أقل إنك عاشرت رجلا ؛ لكن الكلام له إيحاءات وما وراءه .. ولهفتك على الاقتران قبل إنهاء الجامعة يدل على قوة الرغبة لشريك

قالت: أمعقول هذا كلامي ،ولا أشعر به معقول ؟!

قلت بصرامة : نعم ، معقول يا صديقتي .. لو تسمح الظروف لأعدت قراءة ما تكتبين .

عادت للسكون والتحديق في عيني : أستغرب منك هذا الكلام ، وهذا الفهم .. أنا أفكر كغيري برجل المستقبل .. أليس هذا أمرا فطريا ؟

ـ بلى ، المرأة خلقت لتكون زوجة .." خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها "

ـ هذا قرآن !

ـ نعم ، قرآن .

ـ تقرأ القرآن يا مال !

ـ أكيد ، وأصلي وأصوم .

عادت تقول : أتزوج من مازن وترضاه لي ؟

قلت : مازن خير من غيره .. فهو يريدك .. وهو يعرفك ما دام قريبا لكم .. ويكبرك سنا ويشتغل .. فهو الذي حرك غرائزك للزواج .. وهو معروف للأسرة وخاصة أمك .. وهي تراه مناسبا لشبابك .

قالت بعشق لي : وأنت ألا أنتظرك ؟.. وربما الإشارات التي بانت لك في الرسائل موجهة إليك أنت .

قلت : نحن من جيل واحد وأصدقاء ومتى ؟

ـ الأصدقاء يتزوجون .

وانتقلت وجلست لصق فخذيه ووضعت يدها على فخذه وقالت: أليست لديك رغبة فيّ ؟

ـ أنا أحبك فعلا يا أولى ؛ لكن زوجة يصعب ذلك وبعيد .. أنا لم أنجح في الثانوية بعد .. لا دار ولا مال .. وإذا عدت إليها سيكون لديك على الأقل طفلان وربما أكثر .

مست وجهه وقالت : آه كم أرغب فيك ؟!

ـ ويحك أترضين لي الزنا والفاحشة ؟

ـ لم أفعل شيئا بعد والباب مفتوح .

تنهد وقال: الخلوة يا حلوة .

همست : قبلني يا مال .. دعني أشبع من شفتيك قبلني قبلة العاشق .

همست : يا الهي! الرغبة ترتفع لديّ أيتها الحبيبة .

ـ أنا أرغب فيك أنت .

طوقت عنقه فقال: لا، لا يا أولى .. فلنبق أصدقاء شرفاء .. أنت جميلة ومثيرة .. وعيناك جميلة وكلماتك تشعل النار في جسدي .

ـ وأنت جميل ! أنت أجمل فارسا أحببته كما تحب النساء الرجال .

اقتربت شفتاها من شفتيه وقالت : قبلني .

ـ الباب مفتوح

ـ أعلم .. قبلة الفراق والزواج من غيرك .

ـ لا سنبقى أصدقاء يا أولى .. لا تستسلمي للشيطان .

ـ القبلة الوحيدة استسلام للشيطان .

قلت : القبلة مفتاح الجنس .. أرجوك يا أولى تزوجي .. أنت النار والشهوة تلعبان بك .

ـ أتخاف من القبلة .. دعني أقبلك أنا .

ـ يا إلهي !ما بك اليوم ؟

ـ أهواك وأرجوك .

ـ كيف ؟ ابتعدي أين أمك ؟

ـ أمي في غرفتها ، لم أسمح لها بسماعنا .

ـ والباب المفتوح

□□□

قالت : لنتكلم بحرية ، ونحب بعضنا بحرية

ـ لا أريد أن أخسر صداقتك ورسائلك بقضاء شهوتنا يا أولى .

ـ لن أسامحك إذا لم تقبلني

ـ وأنا لن أسامح نفسي إذا فعلت .

ـ لي سنون أحبك .

ـ لم أفكر بذلك .. نحن أصدقاء ..عليك بالزواج من مازن في أسرع وقت .. تزوجي يا حبيبتي لم يعد عندك صبر عن الحب والجنس .

قالت : لم يعد عندي صبر عن الجنس .. أريد رجلا أنام معه وأحضنه ويضمني إلى صدره .. لماذا لا تكون أنت يا مال؟ أنت صديق العمر .

ـ أتقبلين لي الخيانة ؟

قالت وأنا أكاد أصدق : هذه ليست خيانة ..الكل يعلم في هذا البيت بحبي وشغفي بك .. وإنني أحبك كحبيب .. أحبك أكثر من الصداقة .. أمي ستقبل أن أتزوجك .. أنت لا تفارق فراشي يا مال .. أحس بك في كل لحظة .. ومعي في الحمام في الفراش في الجامعة رغم براءة نظراتك لجسدي فأنت تحب وتشتهي هذا الجسد وترغب فيه.

قلت : أنا أعترف باشتهاء هذا الجسد ؛ ولكني لم أفكر بأن أكون الزوج الذي ينام مع هذا الجسد

قالت : طال انتظار القبلة .. مالك تقف !

ـ طالت الخلوة .

ـ أحبك . وقبلتني رغم أنفي وهمست : جسدي لك وقتما تشاء بزواج أو غيره لن تغضب منك الأسرة يا مال .

تزوجت أولى من مازن بعد هذا اللقاء الغريب والمثير ، وتعجبت من موقف الأسرة كلها منه .. موقف والد أولى .. كيف سمح لها بهذا اللقاء ؟! موقف أمها الموجودة معنا .. وفعلا لم

□□□

تظهر بعد العشاء .. ذهاب ثاني ويزيد وعلا

اعتذرت لهم عن حفل الزواج الذي دعيت إليه ؛ كأن لم يحدث تلك الليلة شيء .. هل كانوا يجهلون أمر ما سيحدث ؟

وبقيت في المعسكر لم آخذ إجازتي الأسبوعية للبيت حتى استوعب ما حدث تلك الليلة ، كان اللقاء مرعبا بالنسبة لي ، وعلمت منه خطر الخلوة بأنثى يحل الزواج منها ، علمت خطر الشهوة ؛ لأني كدت أستسلم لنداء الرغبة وأقع في الحرام ، وعلمت منه خطر صداقة الجنس الآخر .. نارا اشتعلت في لحمي كله ، وما صدقت أن نجوت وخرجت من البيت هاربا ، ولم أقابل أحدا أثناء هربي قصدي أمها .. هربت من النار المشتعلة في جسد أولى .. أدركت خطر الجنس والنساء والغريزة تلك الساعة .. وكم راودتني النفس بالاستسلام .. الفتاة تريد ذلك بدون أي شك ، ولا ترى فيه أي حرج حتى ولو في قعر بيتها .. فكرت بضمها لصدري ومداعبة جسدها وأشياء أخرى .. كانت مستسلمة للغاية .. كانت ستسلمني جسدها بدون أدنى شك .. تلك اللحظات تفاجأت بصبري وهي تعرض نفسها عليّ .. الله سلم .. الخلوة بهنّ فتنة كبيرة .. فهن فتنة كبيرة جدا .. كانت ساعة مرعبة لأعصابي وشهوتي .. كنت لما أسمع قصة من معارفنا عن سقوطه اتهمه بالرضا والخور .. ومن ثم عجبت بعد النجاة من نجاة النبي يوسف الصديق من امرأة العزيز .. من امرأة حاكمة مالكة ، ومن شاب محكوم .. من شاب في بلد غربة .. فأنا امرأة لم تكن حاكمة، ولا تملك شيئا كادت توقع بي وتهوي بي إلى مستنقع الفسق والأجساد ، وتهوي بنفسها ، وتمرغ شرفها للذة دقائق .

أصبحت بعيدا عن أسرة موسى .. قصتي معهم انتهت بانتهاء الثانوية العامة ، ظلت علاقة مناسبات ومجاملات .. وكانت أكثر علاقة ظلت مع أولى بواسطة الكتابة إلى أن كانت الليلة التي أرادت الفتاة أن اعاشرها معاشرة الأزواج .. مما اضطرني للهرب .. وأنا في رعب وحيرة من تصرفات تلك الليلة السوداء .. أرسلت لي عدة رسائل تعتذر عما فعلت قبل أن تنكح مازنا ، ولم أرد عليها شكرتني في بعضها على أنني لم أستسلم لرغبتها الجامحة وطيشها تلك

الليلة .. وقالت : سأبقى أحبك حتى ولو كنت مع مازن في الفراش . المهم أنها تزوجت بعد الحادث في الصيف ، وأصبحت ذات بعل وهي على مقاعد الجامعة .. وأنا تغير مسار حياتي الشخصية .. أنهيت خدمة العلم في العام التالي في الشهر التاسع كما بدأت منه .. والحمد لله أصبحت حرا طليقا ، وشلت عن عاتقي هما وشبحا رغم استمتاعي صدقا بهذين العامين .. كان موقع خدمتي ممتعا ومثيرا .

ولما عدت للحياة المدنية كنت في حيرة ما العمل ؟ ما المطلوب ؟ تعددت المهن والأعمال .. الشاب يحتاج لمصروف ودخان وحياة ، لابد من العمل فاشتغلت في الطوبار والبناء كنجار وكحداد بناء .. كانت أياما قاسية وفراغا عجيبا في الحياة .. شهادة اللاسلكي لم أعمل بها ـ شهادة منحت لي من القيادة العامة لجيش الوطن ـ فكانت العودة للمدرسة في فكري .. أنا أعشق الفكر والأدب أكثر من المهن وعمل اليد .. أمضيت عاما ونصفا في حيرة وارتباك واضطراب حتى قدمت الثانوية العامة عام أربعة وثمانين ، ونجحت بفضل الله تعالى نجاحا بسيطا ؛ لأني درست في البيت فقط دراسة بيتية وامتحان .. وكان النجاح الغريب والمفاجئ لكل من يعرفني .. وبعد ذلك ماذا أدرس بهذا المعدل القليل ؟ ماذا أدرس ؟ حيرة من جديد !كان لي زملاء مثلي درسوا محاسبة إحدى أعمال قسم الاقتصاد والتجارة .. والنتيجة العمل كمحاسب في شركة تجارية أو بنك .. نعم بنك تجاري .. هذا ما كان أمامي .. دراسة معهد في كليات تجارية كليات متوسطة بين الجامعة والثانوية ..قد تكون جسرا للجامعة ، وكان عليّ أن أعمل لتأمين أقساط الدراسة.. العمل صباحا والدراسة مساء للحصول على أي شهادة.. كان أمامي الدراسة كمعلم أو إدارة أعمال أو سكرتارية معهد متوسط.. في النهاية درست في المعهد ليلا أو عصرا بعد دوامي في الورشات كفني كهربائي .. ولم أعمل في مهنة المحاسب يوما واحدا ولا ساعة واحدة مجرد شهادة ؛ لأنه في العام أربع وثمانين نفسه تغير مسار الحياة فعلا .. أصبحت متدينا بمعنى الكلمة .. تركت لحيتي على سجيتها .. وبدأت أقرأ في كتب الدين والعودة إلى الإسلام .. تفضل الباري بالعودة والمن عليّ بذلك .

لا أذكر كيف كانت اللحظة الاولى للتوبة ؟ مرضت مرضا شديدا الانفلونزا الحادة ، بعد أسبوعين تحسن الوضع ، تركت الدخان نهائيا بفضل الله .. تبت إلى الله .. لم تكن التوبة على يد شخص ما .. نفسي اشتاقت للتوبة والأوبة .. بدأت أرتاد المسجد لصلاة الجماعة خاصة العصر .. تعرفت على إمام المسجد المصري الجنسية ـ مسجد الحي ، أقدم مساجد وادي النزهات ـ المسجد معروف لي ، وترددت عليه كثيرا .. وأصلي فيه الجمعة غالبا ، ومنذ عهد الطفولة .. كنت أجلس عصرا لاستماع كلام الرسول ﷺ على لسان الشيخ .. كان يقرأ من كتاب "اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم" أحببت الشيخ شريفا .. وشجعني الشيخ على العلم الشرعي .. وقرأت التوحيد للشيخ محمد ، والواسطية لابن تيمية .. وجدت علما جديدا ؛ لكن العمل صباحا والدراسة ليلا لم يسمحا لي بالجلوس طويلا مع الشيخ الشاب المتحمس ، الحنبلي المذهب ، القادم من الجامعة الاسلامية في مدينة النبي ﷺ عرفنا الشيخ الفاضل على العلماء ورأينا شيخ العصر في مسجدنا الشيخ أبا عبد الرحمن الألباني ـ رحمه الله ـ كان ذَا هيبة ، ويذكرك بعلماء السلف .. كنت مبهورا به .

لكن شيخ جامعنا قامت عليه حربا خفية أجبرته على الرحيل والعودة لمصر .. فغادر الشيخ الشريف العزيز النفس إلى بلده .. أصبح المسجد في حيرة ، وخفت العلم السني والحماس العلمي لحين .. واشتعل الصراع بين الأحزاب الإخوان التحرير الدعوة الصوفية .. حرب خفية .. ثم سيطر التيار السلفي على المسجد .. انسحب الاخوان إلى مساجد أخرى .. اختفى الصوفية .. وضعف التبليغيون .. وأكثرهم أصبح سلفيا .

عدت للتوبة والإسلام ، وأصبحت محبا للصلاة بروحها وقنوتها ، محبا للعلماء لدروس المشايخ والعلم الشرعي .. أخذت أنسى صفحات الماضي وحوارات الماضي وفتيات الماضي .. انتهت المراهقة وإن كانت متأخرة .

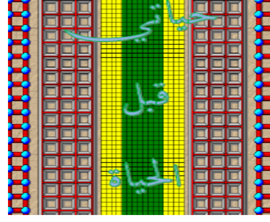
بعد زمن المحاسبة بيسير تعرفت على شيء يسمى المعهد الشرعي .. معهد يعلم علوم الإسلام ويدرس المواد الشرعية مجانا وشهادة وفرصة عمل في وزارة الدين والإسلام .. قدمت أوراقي

وكان ذلك في آخر عام سبع وثمانين .. وقد مضى الفصل الأول من الدراسة ، وبدأت لما قبلت من الفصل الثاني .. تأجل الفصل الأول حتى انتهي من الثاني والثالث والرابع ، ثم العودة للفصل الأول .. وبدأت مطلع سبع وثمانين .. نعم قبلني مدير المعهد كطالب مكافح ومجتهد ومحب للعلم الديني .. أحببت العلم الديني .. وهو علم لا يشبع منه حتى القبر ، وإن كانت الدراسة الشرعية كمعهد وجامعة لا تشبع نهم المحب العاشق للعلوم والمنهاج الاسلامي ؛ ولكنها مفاتيح للعلوم كما كان يقول أحد علماء المعهد .. كان لديّ جوع وعطش لفهم الإسلام .. مضت سنتا الدراسة سريعا سريعا .. وأعتقد أنني تخرجت من المعهد عام تسع وثمانين ، وبعد التخرج بشهور عينت كإمام مسجد في أحد مساجد المدينة .

أما صديقتي القديمة أولى فتزوجت كما قلت لكم من قريب أمها ، وتخرجت من الجامعة تحمل شهادة جامعة آداب لغة أجنبية عام اثنين وثمانين .. وأصبحت أما .. وذكرت أنها رغبت بتسمية ابن لها بمال على اسمي ، ورفض زوجها هذا الاختيار بشدة ، واتهمها بعشقي ..وأنها باعت جسدها لي قبل زواجهما حتى رغبت بالانفصال ، لو لا تدخل أمها في نفي ذلك الاتهام ، وأقسمت لمازن أنه لم يكن بينها وبيني أي علاقة جسدية .. وهدأت الأمور ، وعملت في معهد لتدريس اللغة الفرنسية للطلاب الراغبين بذلك .. والمعهد تابع للسفارة الفرنسية .. وراتبها أكبر من راتب زوجها .

وأما ثاني فقد تخرج مدرسا لمادة الفيزياء كما أحب أن يكون ، وعمل في مدرسة عسكرية أثناء خدمته للعلم كمدرس لمادة العلوم ، ثم الفيزياء لطلاب المرحلة الثانوية .. وتزوج ، ولم يتزوج من فتيات الجامعة وعشيقاته ، ولم أحضر زواجه أيضا رغم تلقيّ دعوة واتصالا هاتفيا .. كنت يومها قد أصبحت شيخا لا يحضر الأعراس وما شابهها .. أصبح العلم والسمت الشرعي مهواي .. أصبحت مجالس العلم مهواي وراحتي .. فكنت أتنقل بين المساجد لسماعها .. عادت البسمة لأمي بعد عودتي للدراسة ، وكما فشلت أولا في الثانوية كنت الناجح الأول فيها على مستوى العائلة .. إنه القدر العجيب .. أين يذهب بنا القدر؟

يذهب بنا إلى حيث يشاء الله .. سبحان ربي !



تزوج ثاني بعد أكثر من عام في العمل كمدرس تلاميذ ، لم يتزوج كما ذكرت سابقا من رفيقات الجامعة اللواتي تعرف عليهن ؛ وربما نال منهنّ جنسيا كما تدعي أولى ، ولثاني علاقات جنسية كاملة من أيام الثانوية .. علمت ذلك من رسالة من أولى التي لم تنقطع بالكتابة إليّ حتى بعد تلك الليلة السوداء الغريبة كما وصفت لكم .. وأنا في العادة قليلا ما أرد عليها قبل تلك الحادثة .. علمت منها قصة تفاصيل زواج ثاني .. الفتاة جارة لهم في الدرب لم يكن بينهم علاقات خاصة .. كلهم من سكان درب القلعة .. كان والد الفتاة ميساء مديرا لمدرسة .. فتاة تصغره بثلاث سنوات .. رآها مرة واحدة بعد تعرفه على أبيها المدير والقيم لمدرسة ثانوية .. فخطبها من أبيها الذي قبله ، ورحب به صهرا له ولأسرته بحق الجيرة وبحق زمالة للتدريس .

ولما دعيت لحفل الزواج اعتذرت لهم بأني لا أحضر حفلات زواج مختلط ـ وقد أصبحت متدينا بحق وحقيقة.. وهم وغيرهم لم يكونوا يتوقعوا أن أتدين بتلك الصفة ، وأصبح شيخا حقيقة .. فأنا منذ فشلي في الثانوية ضعفت لقاءاتي بتلك الأسرة ، وإن بقينا أصدقاء ، ثم كانت تلك الليلة التي أرادت أولى أن تصبح فيها علاقتنا علاقة أجساد بعد أن كانت علاقة أرواح وربك نجى وستر .. والذي ما زال يحيرني دور أمها الموجودة معنا في البيت ودور اختفاء باقي أفراد الأسرة.. أمر محير وما زال غامضا !

أولى مع ذلك لم تيأس من صداقتي ، وظلت تكتب لي من حين لآخر بأخبارها ومشاكلها مع زوجها وأسرتها .. تعتبرني ملاكا ومستشارا أبديا ، ولم أعد أكتب لها منذ هربي منها تلك الليلة السوداء كما كنت أفعل أحيانا قبلها .. وما زلت متشوقا لمعرفة سر تلك الليلة فعلا ..ولماذا

□□□

سمحت لنفسها بعرض جسدها وشبابها عليّ مع وجود أمها في البيت ؟ تعشت الأم معنا وسر اختفاء أبيها وشقيقيها وأختها ..وأختها تزوجت أيضا بعد دراسة الجامعة ..

وأنا لا أدري لماذا أرادت أن تتحول الصداقة البريئة ـ كما كنّا نزعم ـ إلى صداقة جسد ؟! نحن في زمن عجيب .. لماذا لم أعرف ؟ لم تكشف لي سر تلك الساعة في أي خطاب .. فقط شكرتني على عدم الاستسلام لرغبتها وضعفها .

ولما قبلت في معهد المحاسبة أصبح عملي في الورشات من الصباح حتى الثانية ظهرا ست ساعات شغل فقط ، ثم المعهد حتى الغروب .. وكانت رحلة متعبة .. وتعلمت لكل بداية نهاية .. والأيام تمضي وعليّ الصبر .. فأمي تحب لي ذلك ، وجاهدت معي دعاء ومالا .. وكانت غايتها أن يتعلم أكثر عدد ممكن من ذريتها .

ولا أذكر أثناء الدراسة الأولى أي حدث مهم في حياتي الخاصة والعامة سوى توبتي وحبي لصلاة الجماعة سواء في البرد والحر .. وكانت ملاحقة المشايخ وسماعهم والجلوس معهم مهمة .. ولم أتخذ منهم شيخا دائما إنما محاضرات وبعض الدراسات.. لذلك رحبت بدراسة المعهد الشرعي بعد ذلك .

هجرت معارفي القدامى سلام وانتهى الكلام .. بحثت عن أصدقاء جدد .. وكان لي ذلك بفضل الله حتى أن بعض القدامى يراهن على الانتكاس وينتظر عودتي إلى التيه وحلق اللحية التي اقتنعت أنها سنة نبوية ، ومن يومئذ لم أمد يدي إليها .. من تلك السنة منذ سمعت أحاديث اعفائها.. والحمد لله كانت السنة هواي ومقصودي ومبتغاي حتى الموت .. بعدت عن البدع بكل عنفوان وقوة .. وحاربنا أهل البدع قدر المستطاع وباللين والرفق ، لم نكفر أحدا ، ولم نحمل سيفا بالعلم والقدوة قدر الطاقة .

رأيت مؤامرة على إمام مسجدنا السني ؛ ولكن البذرة وجدت ، وأنبتت جيلا سلفيا عاشقا عاملا بالسنة والحمد لله .. وما زال أكثرهم سنيا ملتزما وذلك الفضل من الله وحده .

كانت معركة رهيبة اضطر فيها الشيخ المهاجر للاستقالة والعودة لبلاده رأيت كيف يحارب

العلماء بكل بغض وكره ؟! .. كنت يومئذ تلميذ معهد المحاسبة .. كثير من فصول المعركة لم أرها سمعتها سماعا .. قضى عندنا الشيخ أربعة عشر شهرا ما زالت في وجداني وذاكرتي .. تعلمنا منه سنة الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ..حب صلاة الجماعة ، وطلب العلم وحب العلماء السنيين .. رفض الاعتذار للخصوم بإباء ليبقى .. نعم رفض ورفض الانتقال لمسجد آخر .

عرفت كيف يحارب العلماء ؟ ظل المسجد لشباب السنة والاعتقاد الصحيح اعتقاد السلف الصالح .. وذُكرنا بكيف كان يحارب أهل السنة في القديم والحديث من قبل العامة والسفهاء والمخاتير والأحزاب والوجهاء الجهال ؟ ..كان وقتي لا يسمح لي بالقتال عمل شغل دراسة.

أنهيت المحاسبة وعرض عليّ العمل في السعودية في أحد بنوك الربا المشهورة ، والعمل في تونس كمحاسب ، العمل في مصنع للفول كمراقب عمال ، العمل في مصنع مواسير ، العمل كرئيس فرقة حفلات زمار أو طبال يا للناس ! ويا للجهل ! وكان الاختيار الدراسة من جديد دراسة الشريعة في كلية شرعية على نفقة وزارة الجوامع والدين ؛لأكون إماما من بعد الضياع والتيه .. وهذا شيء لم أفكر ؛ ولكنه صار بفضل من ربي .

اتخذت كما قلت أصدقاء جددا ، وهجرت أصدقائي القدامى هجرا جميلا ، وهجرت المقاهي والسينما والرياضة معهم منذ بدأت التدين الحقيقي .

ذكرنا أن صاحبنا وصديق الشباب ثانيا تزوج بعد عمله كأستاذ مدرسة من بنت مدير المدرسة ، وظهر أنها من بنات الجيران ، لم نكن نعرفهم تلك الأيام ؛ لأني أعرف الكثير من رفاقه في درب القلعة ، ولم تمض حياته الزوجية آمنة هادئة .. كانت هناك مشاكل سمعت عنها من بعض رفاقنا إذا تقابلنا وسألت عنه ، واتصل بي وطلب المساعدة وزعم أنني تخليت عنه، وعن صداقته ، ونسيت العشرة والعيش والملح ، وطلب العون وتجديد الصداقة فذكرت له أنني تغيرت وعدت للإسلام والأمان والدين وأنني تغيرت ، ولم أعد كما عرفني أول مرة .. وتركت كل الماضي .. وأنا أعلم أنه سمع بقصتي وتغيري .. هذا أمر لم يكن مخفيا أو سرا ..

وأبدى رغبة باللقاء بي لمساعدته في مشكلته الخاصة ، فوافقت ، فلا تُنسى كما يقال عِشرة سنوات مهمة من حياة الإنسان .. وكان ذلك بعد أكثر من سبع سنوات من الفراق والبرود .

جاءني إلى المسجد مسجد الرباط ، استقبلته عند باب المسجد وعانقني وعانقته وتعاتبنا ، كل يلوم الآخر .

وقال : أين سنتحدث ؟

أخذته إلى مكتبة بيت الله حيث كنت أحد أعضاء المكتبة وأحد المسؤولين عنها .. وعاد العتاب ، وتذاكرنا أيام زمان .. وتناسيت تلك الليلة الغامضة من حياتي .. فهو لم يشهدها .

قال : أنا تزوجت بنت زميل لنا في التدريس . وقص عليّ حكاية زواجه من ميساء بنت المدير وبنت الجيران .. والقصة أن البنت راغبة في الانفصال وتركه بسبب الحمل وتأخره.

فقلت : وما موقف والدها وأسرتها ؟

الوالد : يا مال متردد .. وأمها ترغب بذلك .. وترى أن هذه السنوات كفاية عن تأخر الحمل .. هذه الحكاية يا شيخ مال الدين .

ـ وسبب عدم التخليف .

ـ يبدو أنني عاجز عن ذلك برغم الفحوصات التي تقول غير ذلك ، وأن سنوات الزواج هذه كافية.. لنا أكثر من سنتين يا صاحبي .

ـ سنتان زواج تكفي .. وماذا أستطيع أن أقدم لك أنا ؟

ـ تتحدث مع والد البنت وتبين له مساوئ الطلاق ، وأن الصبر مطلوب ، وأن الذرية من الله .

ـ وهو المربي لا يعرف ذلك .

ـ يعرفه ؛ ولكن لما يسمعه من غيري له وقع آخر .. ويزعم أنه التقى بك .

ـ التقى بي ويعرفني !

قال : هو ذكر ذلك أمامي .

قلت لصديق المرحلة الثانوية : صدق يا ثاني أنني لا أعرفه ؛ ربما إذا رأيته تذكرته .. المهم أن

ألقاه .. فأنت صديق العمر .. ذكريات وسهرات يا ثاني .

قال : هذا العشم فيك يا مال .. متى سنذهب ؟

ـ اليوم .. وسآخذ معي بلالا .

ـ من بلال ؟

قلت مبتسما : صديق الجامع .. هو حلال مثل هذه القضايا والمشاكل .

عرفه على سيد بلال ، وبعد صلاة المغرب انطلقوا الى درب القلعة ، وطرقوا بيت المدير حمي ثاني أبي ميساء .. ومن حسن الحظ وجدوا الرجل في البيت وذكر أنه يعرفهم ، وصلينا في مسجدهم .. ورحب بهم ، ولما عرف سبب الزيارة امتعض في البداية ، ثم قال: أنا جاهز لأي حكم منكم ، فمجيئكم مقدر عندي .

استمعوا لسبب المشاكل بين الزوجين من طرف الرجل وابنته التي حضرت الجلسة لتشهد الكلام ونتائجه في آخر الجلسة ، وأبدت استعدادها للعودة لبيت الزوجية على شرط أن تعيش في بيت مستقل ، وبعد تردد ونقاش قال ثاني : عليّ أن أتحدث في ذلك مع والدي .. فكما تعلم يا مال بيت الأسرة كبير وواسع .. وأنا أكبر الأبناء .. وإذا سبب طلب الطلاق هذا سأستأجر بيتا يا ميساء .. وأمري إلى الله كما يقال .. ويا سيد مال الدين ويا أخي بلال إذا لم يحدث حمل خلال سنتين لثلاث سأطلق ، ومن حقها أن تكون أما .

تم الاتفاق على ذلك ، وأن من حق ميساء الذرية بعد سنوات خمس أو ست من الزواج ؛ لأن ذلك أحد غايات الزواج .

حضر والد ثاني بناء على هاتف ، وراح في عناق طويل مع مال ، وعلق على لحيته مع قليل من العتاب .. واطلع على الاتفاق وحديث الصلح .. وطلب هو من والد ميساء أن يستأجر بيتا لابنته بيتا قريبا من داره .

ولما قال الرجل : تشاور مع أم ثاني .

قال بحدة : امرأتي تحب سعادة ابنها يا أبا رمضان .. ونحن نحب لهما أن يرزقا ذرية .. من

□□□

يكره ذلك ؟! ولماذا تتزوج الناس ؟ وأنا ساعدت في علاجه .. وكل أطباء العقم أكد أنه يستطيع أن ينجب ، ليس لديه مشاكل من هذه الناحية طبيا .. وميساء تعلم ذلك .. شكرًا لك شيخ مال الدين وشكرا شيخ بلال .

وتم الصلح ، وانصرف الشيخان لحيهما شاكرين الله على ما أجرى على أيديهما من صلح ومنع طلاق ولو إلى حين .

وتلقى مال رسالة من أولى بسبب هذه الحادثة ، وتمنت أن تعود الصداقة القديمة بينهم ، وأن ينسى مال تلك الليلة ، وما حدث فيها من إغواء ومراودة .

وما زال مال الدين يرغب بمعرفة سر تلك الليلة والمراودة مع علم والدة أولى وثاني بها .. ولماذا سمحت لابنتها بذلك؟!



□□□

السفر والإمامة

"ما دمت يا مال الدين محبا للعلم الشرعي فهناك معهد شرعي مجاني في ذلك الموقع يعلم الدين "

هذا ما قاله لي طالب الماجستير الشرعي الإندونيسي عبد المجيد الساكن في الحي ، ويصلي في مسجدنا ، ويعاشرنا ليتعلم اللسان العربي الشعبي .

ـ أين ؟ وذكر مكانا جوابا على أين .

ذهب مال وقدم الأوراق المطلوبة للمعهد الشرعي ،ولما قبل تفاجأ فعلا .. وشكر الله على قبوله تلميذا شرعيا، وسيبدأ الدراسة من الفصل الثاني فالأول قد فات موعده .. والدراسة صباحا وتنتهي ظهرا ، فلا مجال للعمل صباحا في الكهرباء أو غيرها .

الدراسة الشرعية مواد ومعارف دينية فقه تاريخ خطابة ووعظ قرآن تجويد لغة نحو شعر أدب حديث مصطلح عبادات معاملات حدود تاريخ فقه تاريخ تشريع .

مضى الفصل كما تمضي الأيام ، تجدد حماسي مع مضي الفصل الاول لي .. كانت الدراسة جميلة في شيء تحبه وتهواه .. وإن لم ترو عطشان وتسد جوعا للعلم الشرعي .. نتف ومفاتيح على رأي أحد الشيوخ في المعهد ..كنّا نخطب في مساجد تحت التدريب تسمى مساجد صغيرة ، ولما اشتغلنا في القرى كانت كبيرة .

وصاحبي ثاني بعد عودة امرأته ميساء له تعاقد للعمل في إحدى دول النفط كما يفعل الشباب العربي تحسينا لوضعه المالي بضع سنين .. أنا في الشريعة المتوسطة وهو إلى السفر .

ولما تخرجت من المعهد الشرعي رجع لأرض الوطن منهيا عقده ومطلقا لزوجته حسب الاتفاق الذي ذكرناه سابقا .. لم تلد المرأة ؛ فكان الفراق ، فارقها بمعروف ، وواسيته وقلت الخيرة فيما يختاره الله الملك .. وقد بارك تخرجي ونجاحي وعملي كإمام مسجد ، وهو دهش مما حصل لي وانقلاب حياتي .. نحن قدمنا الثانوية أول مرة ثمان وسبعين درس وتزوج وعمل وسافر ، وأنا بعد عشر سنين تخرجت ، وتعينت إماما سنة تسع وثمانين .

عملت إماما للصلاة وخطيبا في أحد مساجد القرى البعيدة عن قلب المدينة الكبيرة .

أهم عمل ووظيفة للإمام إقامة الصلاة لرواد المسجد صلاة الجماعة ، ثم الخطبة نهار الجمعة ومناسبات الأعياد والمواعظ في بعض المساجد في المنطقة .. ووفقت في ذلك بفضل ربي وباختيار ربي .. ولم أفكر يوما بأني سأكون إماما وشيخا .

الإمام يعد الخطبة ليلقيها على مسامع الحاضرين لصلاة الجمعة ..وما زلت أحتفظ بخطب البدايات ، وكان الجهد فيها واضحا والمصادر مبينة .

كان مسجدي مسجدا قرويا وبسيطا بمعنى الكلمة ، لا مشاكل فيه تذكر ، ولا أحزاب ، ولا تيارات حزبية .. صلي وامش .. وكنت أقضي يوم العطلة الأسبوعية كموظف في وادي النزهات عند أصدقائي الجدد في تلك الدكان الصغيرة مع الصديق الكبير حسين .

عملت في مهنة لم أفكر فيها يوما ، ولم تخطر في بالي هذه الوظيفة العظيمة .. وكانت قدرا عجيبا .. ويحق للمرء أن يعجب من تدبير القدر ، ويستسلم له ، كنت في تيه ، ثم نور وإيمان ، إنه أمر ربي لا إله إلا هو .. لا راد لأمره سبحانه وتعالى!

لم أكن تزوجت بعد ، وقد اقتربت من ثلاثين سنة ، أنهيت المعهد الاول ، ثم التحقت بالمعهد الثاني، ولم يكن بينهما فاصل طويل إنه القدر !

الناس لا تحب أن يكون الشيخ والإمام أعزبا .. فهذا يتحدث عن أخته ، وهذا عن قريبته وجاريته مما دفعني لمفاتحة أمي بالزواج ، فاقترحت أن أتزوج من بنات العائلة الكبيرة ، ولا داعي لتغريب النكاح .. وأنا لم يكن في خلدي أي أنثى معينة ؛ لأني لا أعرف بنات العائلة بصورة بينة .. وقدر الله أن يكون الزواج في أيلول عام تسعين .

وبدأت حياتي الزوجية سلسة وهادئة ساكنة .. والحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى .

ولما رجع صديقي ثاني من الغربة جدد الاتصال بي ، وبدأ يأتي للقائي في دكان صاحبي حسين لسماع أخباري ورحلة تديني .. وأسمع أخباره وأفكاره .. وكان لقاؤنا كل سبت حيث هو يوم عطلتي بدلا من الجمعة ، نجلس في الدكان دكان الأخ "حسين خلو " نشرب الشاي

□□□

نتناول بعض الطعام مع صديقنا الفاضل .. وكان نعم الأخ والفاضل ؛وربما يحضر بعض الرفاق والأئمة ونتحدث في مسائل شتى وحتى السياسة والاقتصاد .

كان ثاني يرغب بالزواج من جديد ، فالرجل لا يستطيع العيش بدون امرأة ؛ ولكن مشكلة الخلفة تقف حجر عثرة أمامه ؛ فكان يفكر بنكاح أرملة أو مطلقة تقبل به .. فهو من جيلي ثلاثون سنة .

تجددت الصداقة القديمة صداقة الثانوية ؛ لكن دون أن أذهب لبيته ، فالوضع غير مناسب .. أنا اليوم متدين وملتزم ، وهو وهم غير ذلك .. وبيتي بعيد في قرية .

قال : يا مال أريد زوجة .. لا أريد العودة لإيام الجامعة وتلك الأعمال .

فكرت وقلت : هل تحبها فتاة متدينة ؟

ـ لم أصل قط .

ـ التوبة بابها مفتوح .

ـ التوبة كيف تكون ؟

قلت : كما فعلت .

ـ والخمر!

أجبت : كانوا أكثر منك سكرا وخمرا وتابوا .. وأنت في السفر لم تكن تشربها

ضحك وقال: كانت تهرب إلينا .. تباع سرا في بعض المدن الساحلية ، وتهرب للداخل .

ـ ثاني عليك أن تتغير .. ألم تمل من الخمر والعبث والنساء ؟ كنت سيّء السمعة أيام الجامعة .

قال : ملعونات .. لقد دمرنني فتيات الجامعة .. كل من عرفتهن تزوجن .

قلت : سيجدن من هو على شاكلتهنّ .. إذا أحببت أن تعود علاقتنا كما كانت قديما عليك أن تتغير .. عليك بالتوبة يا ثاني .. أنا اليوم محسوب على طلبة العلم .

ـ هذا يحرجك .

قلت : نعم ، عندما يعلم الناس فساد أخلاقك ماذا يقولون علينا ؟ .. عليك أن تحسم أمرك ؛

لأكون لك عونا .

ـ سأفكر .

ـ فكر كما شئت .. سمعنا أن أولى ولدت ولادة صعبة .

قال: كادت أن تهلك ؛ ولكن لها عمر .. من أخبرك ؟

ـ رأيت شقيقك يزيدا في السوق قبل زمن يسير .. كنت أشتري ثوبا جديدا وحدثني عن ذلك .

ـ ما زالت تتحدث عنك وتحبك .

ـ لم يحدث بيني وبينها شيء سيئا مريبا يا ثاني أيام صداقة الشباب.. وأنت خير من يعرف ذلك .. رأيت صداقاتها من صداقتي معك .

ـ هذا ما عرفته .. وأنا تفاجأت حقا لما أخذت تتحدث عن رغبتها بالزواج منك أيام الجامعة وأيام تجنيدك .. ظننت أن بينكم شيئا دون علمي ، وأنك رغبت بها زوجة ، فكنت في دهشة وحيرة وسكت .

ـ صدقني كنت أظنها تمزح عندما نتكلم في مثل ذلك الموضوع .

ـ كلنا أحببناك يا مال ؛ لكنها أيام الجامعة اعترفت للأسرة بأنها تريدك زوجا فدهشت أنا وأمي وأبي من رغبتها تلك .. وقلنا لها تفاهمي مع مال .

ـ دعنا من الماضي يا ثاني ! فأنت صديق الذكريات .. عد إلى الله .. دعك من أفكار الإلحاد واللادين

قال : أليس اللادين دينا ؟

قلت : دين الهوى والشيطان.. الذي لا دين صحيح له يعبد الشيطان .

قال : أنت بطل يا مال الدين !ولك من اسمك نصيب وجاهدت وتركت جاهليتك وشيطانك ..ما هو الشيطان ؟

أجبت: لما تتدين ستتعرف على الشيطان عندما تصلي ستعرف الشيطان وما هو الشيطان ؟ ..

عندما تتوب فعلا ستعرف من الشيطان صدق ذلك .

ـ فعلا أرغب بمعرفة هذا الشيطان الذي تتكلمون عنه وتتعوذون منه .

قلت : لا أدري كيف عملت في الخليج ؟

تبسم : هناك الكثير من الفجرة والفسقة مثلي كما نحن في نظركم .. الشيطان كما تزعمون في كل مكان .

صرخت مللا: أنت أحد الشياطين يا ثاني .. لا تضحك قال تعالى : ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان .. إن لم تعبد الرحمن ستعبد من ؟ ..الشيطان

ـ على كل حال أنا حريص على صداقتك .. وقد أتعرف على هذا الشيطان الذي يتحدث عنه الشيوخ .

ـ الله يهديك ويصلحك .

ردد: أمين .. وأتمنى ذلك ، تحملني يا مال !

ـ إني أتحملك وأحب لك الخير ، وما أحب لنفسي .. سلم على الوالدة والوالد كانوا لي كأبوين .

ـ أمي عاتبة عليك كثيرا .. كانت تعتبر نفسها أما لك .

ـ وأنا أعتبرها كذلك .

□□□

الحج موسم ثلاث وتسعين

كان موسم الحج على ما أذكر عام ثلاث وتسعين صيفا في حزيران على ما أذكر .. ولم يكن الأمر سهلا .. فهذه أول مرة أغادر البلاد أو قل أسافر .

فكانت الرحلة شاقة ومتعبة ؛ ولكنه حج ، وقدره الله لي ، وشكرته كثيرا وأثنيت عليه على هذه النعمة الكبيرة .. والحمد لله حمدا كثيرا .

ولطبعي الخجول أعجز عن وصف هذه الرحلة إلا أنها كانت متعبة ، ورافقت الحجيج بانفعال متباين بين الخوف والحماس .. وبذلت جهدي وعلمي المتواضع في بيان وشرح مناسك الحج وإن وقع مني بعض الأخطاء ، الجميل في الحج أنه عبادة جماعية .

زرنا المدينة أولا بعد رحلة شاقة في حافلات متعبة ، زرنا المدينة المقدسة والقبر الشريف والبقيع والمواقع التاريخية البارزة .

وانتقلنا لمكة الشريفة ، ورجعت للديار سالما بفضل الله تعالى .. فله الحمد والمنة .. فتحصيل فريضة الحاج لشاب صغير من الأمور المهمة في حياة المسلم خاصة إذا كان صغيرا أو موظفا صغيرا .. وذكريات تلك الرحلة مشوشة في ذهني ؛ لأني أكتب هذه السطور بعد أكثر من ربع قرن .

ولما عدت غانما قدم الناس والجيران والأصدقاء للتهنئة والتبريك وشراب الماء المقدس زمزم ، وأكل التمر الحجازي ، والحصول على الهدايا ، ولابد أنني أحضرت منها ؛ لأن هذه أول مرة أسافر فيها خارج البلد .

أكيد كنت متوترا وقلقا عند السفر ، وسعيدا عند العودة .. وقد أصبحت حاجا وعمري ثلاث وثلاثون سنة .

الحج عظيم ! ويذكرك بأشياء كثيرة وعميقة في التاريخ .

علمت من صديقي القديم ثاني أن والديه حجا مثلي وفي نفس الموسم ؛ ولكنا لم نلتق خلال الموسم .

لدى الناس عادة أن المسلم عندما يكبر ويزيد عمره عن الخمسين والستين عليه أن يحج ويسلم وأن عهد المعاصي والشباب انتهى .

فرحت لهذا الخبر فرحا صادقا ، وأنهما عادا للحق والإسلام ، وتابا إلى الله ورغبت بالذهاب للسلام عليهما ، وتهنئتهما بالحج ، والمباركة لهما ، واللقاء بهما بعد هذه السنين من الفراق ، وأنا أحببت ذلك اليوم لذكريات الماضي ، وتأخر هذا اللقاء بضعة شهور لظروف خاصة بهم .. مرضت الأم مرضا شديدا ، وعانت منه ؛ ولكنها كسبت الحج والتوبة .

وثاني ترك الشراب كما قال ، وأخذ يصلي ويقطع كما قال .

في الشتاء كان اللقاء رحبت بي أم ثاني على النمط القديم عانقتني ، ونسيت نفسها ، وأنا تجاهلت الأمر ، ثم تذكرت أنني أصبحت شيخا وإماما وهي حاجة ، وكنت بلحية طويلة وثوبا سنيا وبعد قالت ونحن نجلس : أنت شيخ بجد يا مال الدين !

تحدثنا عن الصحة ومرضها وشفائها وتقاعد موسى من العمل ، وتحدثنا عن رحلة الحج وتعبها وحرها وقالت : أنا تركت السفور والخمور قبل الحج يا مال وكذلك زوجي .

ـ الحمد لله له الفضل والمنة .

ـ تأثرنا بك يا مال الدين سماعا .. أنت قدوة لنا في العودة لديننا .

ـ أنا لا شيء يا أم ثاني .. أين الحاج موسى ؟

ـ سيأتي مبكرا .. هو في بيت أمه .. أنت تعلم أن والده مات قبل موسم الحج وتلقينا برقية منك .

قالت : رحم الله أموات المسلمين .. والحمد لله على الهداية .

ـ أولى صديقتك القديمة هنا .. أتأذن لها بتحيتك .

ـ هذا إحراج يا أم ثاني .

كانت تقف بالباب ،وقالت ربما بتهكم أو جدية : لماذا الإحراج أيها الشيخ ؟! ألا تستقبل النساء ؟ وقد لبست ملابس محتشمة إلا شعر رأسي .. لم أستطع تغطيته ..لم أتعود على ذلك .

نهضت قائما وعيناي في الارض : مرحبا يا أخت أولى ! كيف أنت ؟ وماذا سميت بكرك ؟

ـ كنت راغبة بتسميته مال .. مازن زوجي رفض هذا الاسم .. وظن أن بيني وبينك ما يشين وسوء حتى أنني أقسمت له أنك شريف وعفيف .. وما زال قلبه منك بشيء ، وحدثت بيننا الكثير من المشاحنات بسبب صداقتنا .. الناس لا يصدقون أننا شرفاء .. وكثير من البنات أحبت شخصا ، ولم تتزوجه ، والعكس يحصل .

ـ هو جاهل .. أنا لما أراد زواجك جاءني دون أن أعرفه .. وسأل عن علاقتي بك ، فأقسمت له أننا لم يحصل بيننا مريب ، ولم أمس شعرة منك .

ـ لم يقل لي ذلك .

ـ وهل يقول الأزواج كل شيء يا أم ... ؟

قالت : أم جلال .. ابني الأكبر جلال .. اهلًا بك يا صديقنا القديم .

ـ أين زوجك ؟

ـ في البيت رفض المجيء للتعرف عليك .. هل علمت أن ثانيا سيتزوج أخت مازن .. أخته الأرملة .. وأنا نصحته بالبعد عنها يا مال الدين .

نظرت لثاني وقلت : أما زلت قوية يا أولى تتدخلين في شأن الآخرين ؟

حدقت بي : أأنا قوية يا مال ؟

ـ أنا أعرفك.. اجلسي .

وجلس الشيخ وجلست وفعل ثاني مثلهم ، وقال لما خيم الصمت والسكون : نعم، يا مال .. قد أتزوج شفاء شقيقة مازن الأرملة .. لديها ثلاثة أطفال ؛ ولعل الرابع يكون مني .

ـ إن شاء الله يا ثاني .

قالت أولى : أتمنى من أعماق قلبي أن يطول زواجك منها .. كان زوجها جميل يعاني ويعاني يا ابن أمي وأبي .. كيف الحج يا مال ؟

ـ الحمد لله وفقنا إلى ذلك ، وأتمناه لك .

ـ شكرًا .. دائما أنت رائع ! كم الفرق بين أيام زمان وأيام اليوم يا مال.. أكيد أنك لا تدخن اليوم .. وأنا أعلم عمرك ما شربتها يوما ما .

قلت مبتسما : نعم ، نعم ، لم أعرف الشراب بفضل الله أيام ضعف الإيمان أيام الجهل ولا الزنا .. والسجائر تركتها منذ أكثر من عشر سنين .. من أربع وثمانين .

قالت : أتخيل الزمن وقف بنا إلى تلك الأيام .. كم هي سريعة رغم ذلك! في نظري ما زلت رائعا يا مال !

ـ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما في أنفسهم .

ـ تعودنا على السفور والتبرج والقليل من الخمر .

ـ هداكم الله .. مالك يا أم ثاني صامتة ؟

قالت صافنة ساهمة : كم تغيرت يا مال الدين ! وكم الفرق بينك وبين أيام زمان أيام يوم دخلت علينا صديقا للعائلة !

ـ ولكني يا أم ثاني رغم ذلك لم يعهد على شرب الخمر ولا الزنا .. وهذا ما كان يحير ثاني ويقول : أكثر رفاقك يسكرون ويخمرون ويعرفون البنات وجل أوقاتهم في التسكع إلا أنت !

قال ثاني : إني أذكر ذلك الكلام بيننا ..كأنك كنت شيخا بيننا .. لم تكن تبدو لنا متدينا مثل اليوم .. كنت كأغلب الناس .

ـ كنت أصوم وأصلي.

ـ ليس كمثل هذه الأيام .. اليوم تغبط يا صاحبي .. هل أدعوك لحفل زواجي ؟

ـ لا ، لن أحضره .. اليوم لا أحضر حفل زواج إلا إذا كان شرعيا .

ـ وهل زواجنا غير شرعي ؟

ـ قصدي الحفل والفرق الموسيقية .

ـ لكم دينكم أيها الشيوخ ولنا ديننا ؛ ولكني لا أستغني عن صداقتك .. ولا أنسى موقفك أنت والشيخ بلال معي أيام ميساء .. لقد زوجها والدها .

ـ هل ولدت ؟!

ـ لم أسمع .. أسمعت شيئا يا أولى ؟

قالت : لا ، لم أسمع بعد .. ألا ترغب بزيارتي يا مال ؟ أعرفك على مازن .

ـ لا داعي لإحراجه .. فالرجل يكرهني كما بد لي من كلامك .. ويعتقد أنه كان بيننا سوء وما يشين .

قالت : هو يتحدث عن ذلك لسوء ظنه بي .. فهو يعرف من أنا ؟ وأنا أعرف من هو ؟ حياتنا جافة .. مجرد شريكين سرير واحد يا مال الدين .. أنا لم أحسن الاختيار .

ـ على المرء أن يرضى بما قدر له يا أولى .. تخيلي لو تزوجتك كما كنت ترغبين .. هل تقبلين بلبس الجلباب والزي الشرعي وأن تتركي التبرج والسفور والعطور .

ـ لم يكن يخطر هذا في بالي رغم لمحات التدين التي كانت فيك .. لم أكن أتصور كما قالت أمي أن تصبح إماما وشيخا .

قلت : أنا لست شيخا بمعنى الشيخ .. أنا دراستي متواضعة .

ـ لكنك إمام وحاج اليوم .

ـ ذلك الفضل من الله وحده .

قالت : المهم انصح صاحبك بالبحث عن زوجة غير شقيقة مازن .

قالت الأم : دعيك من ذلك يا أولى .

صاحت : حتى لو طلقني مازن كما يهدد دائما .. سأتكلم احذر يا ثاني إنها امرأة عوجاء غير مضبوطة .. إنها امرأة منحرفة .

قالت الأم : لا وقت لهذا الكلام أمام مال يا أولى .

صاحت : مال أخ وصديق عزيز .. سأنصرف الآن .. ليتك ترد على رسائلي المستمرة إليك ..وعليك أن تنسى تلك الليلة من حياتنا .

قال مال : ليتني أنسى يا أولى!

ـ عليك بالنسيان .. حج مبارك .. ربما أحج في يوم ما .. ها هي أمي تخلت عما كانت عليه .. المرض يهد البدن والنفس .

قالت الأم : كم أنت قاسية يا أولى ! أنا لم أجبرك على الزواج من قريبي مازن .. أنت كنت تريدون زوجا أو رجلا .. ومازن راغب فيك وتكلم عليك .. هل جئت بعريس ورفضته ؟ انصرفي إلى بيتك .

ـ كان العريس موجودا يا أمي .وأشارت إليّ

أجابتها : لم يكن مال ـ وها هو يسمع ـ يرغب فيك زوجة .. ولم يكن سنه تؤهله للزواج ..كان مجندا بعشر دنانير ..أليس كذلك يا مال ؟

قالت بغضب : لو وافق لانتظرت حتى أتخرج وأصرف عليه حتى يقوم على قدميه .. لم يكن عليّ خدمة علم .. وكان عملي سريعا ومحجوزا .. وها هو قريبك يستدين مني ، ولم يسدد فلسا واحدا .

قال مال : لم يكن في بالي الزواج من أولى للصداقة والثقة التي أوليتموني إياها يا أم ثاني ، وأكدت ذلك لثاني أن الذي بيني وبين أولى حب الكتب والقراءة .. وما لمست يدي شيئا من بدنها إلا مصافحتها ، وحتى الزواج نفسه لم يخطر في بالي تلك الأيام .. طالب فاشل وفقير .. كانت عائلتي غير قادرة على تزويجي يا أم ثاني .. فنحن أكلنا عيش وملح ، فلا أخون هذه النعمة .. فهل أخونكم ؟ كان عليّ أن أكون رجلا بمعنى الكلمة .. وصدقوني ما عرفت الفاحشة مع أي بنت متزوجة أو غير متزوجة .. وهذا من حفظ ربي .. رغم العبث في مثل هذه المواضيع ؛ انما هي من الأفلام والمجلات .. وثاني كان يعلم ذلك عني.. وأولى نفسها تعلم ذلك كنت أخاف النساء والبنات .. كانت الصداقة غايتي الوحيدة وحب الكتب والقراءة هي التي وثقت علاقتي بأولى .. هل رأيتني غازلتك يا أولى ؟

قالت مقرة : كنت أنا المخطئة ، فلما كنت أسمع حديثك عن شعراء الجاهلية.. أمرؤ القيس ونساؤه وعنترة وعبلة أظن أن هذه الكلام لي كلام مبطن .. إياك أعني واسمعي يا جارة .

ـ وماذا أفعل لظنك .. أنا كنت جادا وأحب قراءة تلك الاشياء ، وحفظ تلك الأشعار والقصص .. والإنسان يستمتع إذا وجد من يصغي له كما كنت تصغين .

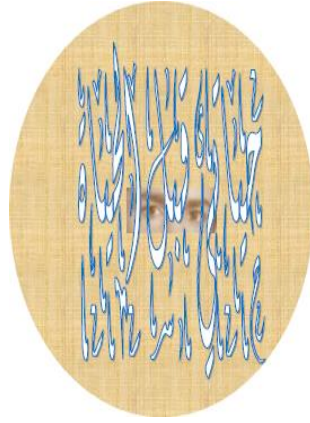
تنهدت قائلة : هذه أدركته بعد تلك الايام الجميلة .

ـ نعم ، فلتبق ذكريات جميلة .

قالت : إلى اللقاء .. المهم انقذ صاحبك من هذا الزواج.

التفت لصاحبي وقلت : عجيب هذا الزواج في نظري !

صاح ثاني بغضب وضيق : أريد امرأة.. هل أعود لإيام الجامعة والحانات يا مال ؟ يحتاج الرجل لأنثى في البيت .. لا أدري كيف صبرت أنت عن النساء لثلاثين سنة ؟! أولى عندها ذلك أفضل من هذا الزواج .. أظل أعتمد على أمي في غسل ملابسي الداخلية ، وغسل ثيابي وكويها يا مال .. وأنا لا أستطيع أن أكون متدينا مثلك ، وأتزوج امرأة متدينة تلبس ثيابا سوداء تدخل الحزن والضيق على النفس مع السلامة يا أولى .. حافظي أنت على بيتك وأولادك .



□□□

ذكريات أخيرة

هذه ليست مذكرات كاملة شاملة أو يوميات إنها مشهد مختصر من حياتي أو جزء منها ، لم أكتب عن كل الأصدقاء والأسر التي عرفتها وعرفتني ، لم أكتب عن صديقي الذي غرق ومات عندما كنّا صغارا ، ولا عن الآخر الذي صعق من أجل إنقاذ أمه من غسالة ـ رحمهم الله ـ وعن غيرهم ..كانت حياتنا في ذلك الحي صعبة فقر وتشرد وبؤس وخيم ومخيمات ومياه وسيول هذا ابتعد عنه القلم ، ولا حاجة لذكره .. فقط قصة أسرة أحببتها مراهقا وشابا، وما زلنا على الدرب .

إنها أسرة ثاني التي عرفتها أيام الجاهلية كما أحب تسميتها وأيام العودة والإسلام بعد فترة ضياع وتيه .. كان من حولي فرق الإلحاد والأحزاب الدينية .. وسبحان ربي لم أقع في شبكة هؤلاء ولا أولئك.

لماذا ؟ لا جواب.. ليس عندي جواب ..كان لي رفاق غرقوا في مستنقع الجنس والزنا .. ولي أصحاب استعفوا ونجوا .. كنت متفرجا على الطرفين حتى وصلت لمرحلة التوبة الحقيقية بعد إنهاء مرحلة الجندية الإجبارية .. هكذا كان يسمى التجنيد الإجباري ..لماذا ؟ لا أعرف .. كنت مغرما يوميا بالجلوس في المقاهي .. وكله مع التوبة مات واختفى ، والسينما وحتى الرياضة إلا لعبة الشطرنج ما زلت أهواها وأمارسها .

كل رفيق له حكاية ونوادر .. تعلقي بالدِّين دفعني لترك كل زملاء الماضي أفرادا وأسرا إلا ثاني وأسرته .. اتخذت رفاقا جددا .. لا أعرف من ماضيهم شيئا .. وهم كذلك جمعنا الدين والعلم .. إنهم ملتزمون .. بعضهم سار للجهاد ورجع ، وبعضهم مات هناك .. أقصد الجهاد في أفغانستان .. وبعضهم طلب العلم وأصبح دكتورا في الشريعة الاسلامية .. وبعضهم رحل عن الدنيا إلى رحمة الله .

وتعلقت في فترة التسعينيات بقراءة المجلات الإسلامية والثقافية وحتى السياسية والأدبية ، وجدت بعد حين لديّ ألف عدد منها.. منها العربي والفيصل والمجلة العربية والمنهل والحرس

والثقافية الأردنية واليرموك وطبيبك وطبيب العائلة والحكيم ومنار الإسلام والأمة وماجد وأحمد والمستقبل وفصول والقصة والقاهرة وأسماء كثيرة لعلي اعمل بها قائمة للتاريخ ؛ لأن بعضها عجزت عن الاستمرار في مطالعتها ، وعرفت سلسلة عالم المعرفة وغيرها .. العلم والثقافة لا يشبع منهما .. وعشرات الروايات والقصص الواقعية والخيالية قرأت وملكت .

وعليّ أن أختم هذه الذكريات بقصة ثاني وأولى توأمه ، فلم نتحدث عن أخيه ولا أخته علا ، لم تكن علاقتي بهما قوية ؛ ربما يعتبروني نكرة ولا يُستحق الجلوس والحديث معي .. لكل رأيه وشأنه .. لم أتحدث عن أسرتي أخوتي أهلي زوجتي فله مقام آخر .

كما توقعت أولى كان زواج ثاني الثاني جحيما حسب رسائل أولى ، وحسب ما يصلني من مقاطع .. بعد الزواج بزمن يسير بدأت المشاكل الزوجية بين ثاني والأرملة شقيقة مازن .. الأسرتان منفتحتان كما يزعمون بمعنى أن الدين لا أهمية له في حياتهم العامة والخاصة .. ومتشابهات بينهم كالسفور والخمور والصالونات واللبس والربا .. حياتهم الاجتماعية بشكل عام مفتوحة ومرنة .. الذوق العام عنوانها .. ومع ذلك لم يتقبل ثاني حياة زوجته العامة والخاصة فهي تحتفظ بكل أصدقائها وأصدقاء شقيقها مازن وآخرين وشقيقاتها وزوجها السابق في سهرات وحفلات داخلية وخارجية ، لم يحتمل ثاني هذه الحياة الصاخبة والمجون والاستهتار بالأجساد والشراب ؛ فكان زوج وليس بزوج ولا خصوصية .. شلة تدخل وشلة تغيب .. تسهر في البيت ؛ كأن لا زوج لها .. لم يستطع ثاني التأقلم والتكيف معها ومجاراتها كما تقول أولى سواء في البيت في الفنادق والملاهي .. وتريد أن ينفق عليها وعلى كل ذلك وشراء الملابس ودفع للصالون أجرة المكياج والتبرج وعلى أصحابها وسكرهم ومجونهم .

تدخلت أمه في الأمر ، فرفضت الأرملة السابقة نصحها والتدخل بينهما وحياتها.

غرق في المزيد من الشرب زاعما الهرب من الذل والهوان الذي يعيشه مع زوجته ، وأهملها ولم يعد يقربها كزوجة ، ولا هي سائلة عن ذلك ، ومضت سنة على هذا الحال الأسود ، لم تعد زوجة في نظره ، وضاق والده موسى من تصرفات زوجة ابنه الشاذة والمثيرة والماجنة ورغبه

بالطلاق والخلاص منها ، ولم تعد تعجب ثاني حياتها المستهترة بكل الأخلاق والقيم على الأقل في البيت الخاص بهما بيت الأسرة بيت الأب .. وتضييع حياته بالسكر والمخدرات لا يحل مشاكله فما يكاد يهبط الليل حتى يغرق في الشراب والسكر حتى ترجع المرأة من سهرها أو يخرجون من بيتها .. والإزعاج للوالد والوالدة لا ينتهي فأصر والده على طلاقها أو يغادر بيت الأسرة وحتى أمه قريبتها لم تعد تطيقها وتصبر عليها .. وكثرت المشاجرات والمنازعات بين الأسر دون فائدة .

استأجر بيتا عند مازن شقيق المرأة ؛ فكان ثاني يترك المرأة مع شلتها ويقضي ليله عند أمه طعاما وشرابا .. وقبل مضي السنة الثانية كان الطلاق ، ودفع الوالد كل ما يترتب عليه لإنقاذ ابنه ثاني .. وكانت سمعة ثاني في المدرسة والوزارة والجيران في أسواء سمعة .. ونتيجة لطلاق أخت مازن طلقت أولى هي الأخرى .. مأساة اجتماعية .. وكتبت لي الآن تحررت من سنوات العذاب يا مال .. صدق أنني كنت في عذاب .. وليس زواج .. كنت أعيش في الجحيم التي يتحدث عنها الشيوخ إذا كان هناك جحيما كما تقولون.

كتبت لها مضطرا عن حقيقة وجود الجحيم وأن جحيم الدنيا مع جحيم الأخرة لا يذكر .

فلم تتأثر من كلامي ، ولم تهتم برسالتي ، وكتبت ترد بعد حين لم يعد لكلامك تأثير عليّ كالماضي يا مال .. ولا أدري لماذا كان كلامك قديما مقدس عندي ؟ اليوم أنت لا شيء .

دعوت لها بالهداية وتوقفت عن الكتابة لها ناصحا ومرشدا ، وأحببت لها ما أحببت لنفسي ، وأشفقت عليها وعلى ثاني إلى أن سمعت بموت أمها وحضرت دفنها ، وتكلمت واعظا على قبرها لنفسي والحاضرين .. وبعد انتهاء العزاء فكرت باللقاء بها وبشقيقها.

ولكن يزيد رفض ذلك ، وأعلمني أن شقيقه يعيش في حالة إحباط ويأس ولا يفارق البيت ويعيش مع الخمر ليل نهار .. وأولى تعود من عملها وتفعل مثله شراب في شراب حتى أنها تطرد أولادها إذا جاءوا لرؤيتها ، وأن طلاقهما كارثة أكثر من كارثة الزواج .. فعجزت عن الحل والمساعدة .

الحق لم تكن تشغل حياة ثاني وأخته حياتي إلا قليلا ؛ إنما ذكريات سنوات الثانوية هي سبب اهتمامي بهم وتطاردني وتلاحقني للاهتمام بهما وبأخبارهما .. فنحن منذ فشلي الأول في الثانوية ضعف ما بيننا بشكل عام ؛ لكنها الذكريات واللحظات الممتعة لم تختفِ تماما .. فكنت اضطر للحديث هاتفيا مع يزيد للسؤال عنهما ، ويخبرني أن حياتهما مزرية خمر مخدرات .. وهي بعد الطلاق في حياة مزرية .. ليس كما كانت تزعم قبل الطلاق .. وكشف لي يزيد أمرا خطيرا حدث في البيت بيت الوالد .. فقد حاول ثاني الاعتداء جنسيا على أولى وضربته بسكين مطبخ .. وطلب مني يومها المساعدة ، فجئت البيت ، وكان الوالد الأرمل محطما حزينا ، وبكى وهو يتحدث عن فعل ثاني .

فقال : لقد حاول الملعون معاشرة أخته أثناء نومها .

تكلمت معه ، وكان في حالة سكر ورفض أي مساعدة وقال : لا تصدق ذلك ..إنها هي التي تتحرش بي .. لقد اشتاقت لزوجها اللعين ، اشتاقت لعشاقها بعد الطلاق .

ـ ما هذا الكلام يا ثاني ؟

ـ كان مازن مجرما يا مال ، كان لا يغار عليها ، يسمح لها بالنوم مع العشاق.

ـ لا أحب أن أسمع هذا الكلام يا ثاني .. قبل سنوات نصحتك بالتوبة والتدين ، ولو فعلت لزوجتك زوجة عفيفة شريفة .

ـ ليتني أصغيت إليك ..كان مازن اللعين يرسم عليّ للزواج من أخته العاهرة .

ـ لم يفت الوقت والأوان .. دع الشراب والمخدرات .

ـ لا تصدق أنني حاولت الاعتداء عليها .. هي توهمت ذلك وصدقته .. أنا دخلت غرفتها لم أكن أظن أنها تنام عارية مجردة من الثياب .. ظننت أنها خرجت من الاستحمام لعارض ما .. فاقتربت منها .. فتوهمت أنني أريد اغتصابها فصرخت وصرخت ، وذهبت للمطبخ وأخذت سكينا ؛ كأنها سكين فواكه وضربتني بها على ذراعي .

ـ حسنا يا ثاني ! إنني أصدقك أين أولى ؟

قال : في بيت خالتي أم مالك .

ـ حسنا ! متى ستبدأ التوبة ؟

ـ عليّ أن أتوب يا مال .

ـ بعد هذه السمعة عليك بالتوبة يا ثاني .. أنت ما زلت شابا يا رجل لم نبلغ الأربعين بعد .

تحمس ثاني موسى وذهب للحمام بعدما ضعف السكر ، واغتسل ، وبدأت توبته بعد ذلك الحادث المؤلم ، وعاهدني على ترك الخمر والمخدرات .

وخلال أشهر كان رجلا آخر فعلا ، وتبين لي فعلا أن حادث اتهامه بمحاولة الاعتداء على شقيقته وهما منها ، للوضع المريب ، وهو نومها عارية ، فحسبها قد داخت أثناء الاستحمام ، فأراد مساعدتها ، وهي استيقظت فتوهمت أنه حاول الاعتداء عليها .

ترك بيت الأسرة لما ترك الخمر والمخدر ، واستأجر بيتا خاصا في وادي النزهات حينا القديم ، وفرح والده الشيخ الكبير بذلك فرحا لا يوصف .. واقتنع بأن أولى بالغت في اتهامه ، ثم درس ماجستير شريعة ودكتوراه شريعة .. وعدنا أصدقاء أنا إمام صغير .. وهو دكتور شريعة في إحدى الدول .. وما زالت صداقتنا .

وكتبت لي أولى رسالة ترغب بلقائي لكشف سر تلك الليلة السوداء في صداقتنا عندما أرادت تقديم جسدها على مذبح الحب والشهوات إذا قابلتها في بيت والدها .

وعليّ أن أترك الكلام لأولى ؛ لتكتب فصلا من حياتها أو جزءا من أيام عمرها كما اتفقنا مع راوي هذه القصة صديقنا جمال شاهين .

أولى موسى

سأكشف أوراقي وأهم ذكرياتي لكاتب "حياتي قبل الحياة " التي تحدث فيها مال عن مراحل أيامه ومراهقته وتوبته المفاجئة .

أنا كنت في زمن تهرب فيه الناس من التدين والإيمان ، كان الصعود للفكر المزيف القومي والوطني واللاديني ، فليكن هذا معلوما لديكم ، ولا يعني هذا أنه لم يكن هناك متدينين وجوامع ومشايخ ، كان وجودهم صامتا خافتا ضعيفا ، لا اهتمام ولا اكتراث لوجودهم حتى معلمات التربية الدينية كان صوتهن خافتا ، ولا يبدين لك أنهنّ متدينات ، ولا تأثير لهن على الطالبات ، أخص من علمنني في المراحل الدراسية الثلاث .

نحن مسلمون بالهوية والاسماء فقط ، أنا دخلت المدرسة عام ستة وستين ، اليوم في نظري تغير الحال ، تغير كثيرا ، لما تعرفت على السيد مال الشاب الرفيع الأسمر كنا من أهل الدنيا ؛ وكأننا خلقنا لها فحسب ، ولا نعرف الآخرة ، وما فكرنا فيها إلا بقدر ضئيل وغموض ، لا أحد يتحدث بحرارة وقوة عن الدين ، أو لا يوجد حولك وقربك من يكلمك عن الدين .

قصتي تبدأ مع وجودي على ظهر هذه الأرض عندما خرجت صارخا من رحم أمي في مطلع الستينيات ؛ لذلك يجدر بي أن أتحدث عن زواج أبي وأمي ؛ لأنه كان لهم نصيب من الحديث في الفصل الأول من الذكريات .

عائلة أبي غنية ، وإن لم تكن من الطبقة العليا في المدينة ، وليسوا من الطبقة المتوسطة ،كنا بينهما ..كان والده موظفا في الدولة كما هو ، ويملكون عقارات وأراضي زراعية يتوارثونها ، وتدر عليهم مالا مستمرا .. هم من أبناء المدينة ، وإن تمتد الجذور إلى الريف.. فتاريخ العائلة يقول إنهم من الأسر الثرية ،لم يكونوا من أهل الفقر والفاقة كما علمت من تاريخ العائلة .. وبعض رجالها خدموا السلاطين الذين حكموا البلاد قديما ، وبعضهم كان يملك المراكب والسفن .. أقول ذلك الكلام ؛ لأن والدي موظف وزارة المالية ، ولا يعتمد على راتب الوظيفة والحكومة فحسب ، هناك دخل ودخول أخرى تمد بها الأسرة ؛ لأننا نعيش في بحبوحة من

العيش .. وحياة المدينة تختلف كثيرا عن حياة القرى والريف والبادية ؛ لذلك تجد فيها عائلات لا تعرف دينها عامة وخاصة .. وقد يكون التدين في القرى أكثر ؛ ولكن الجهل يغمره أكثر .

أقول ذلك ؛ لأنه لم يكن في بيتنا دين ؛ انما نحن مسلمون فحسب ، فلا نعرف الصلاة والصوم وطقوسهما .. فكنا نحتفل بالأعياد عادة ، من لبس وحلويات ، وتهاني ، وزيارات ، وقد يضحي الوالد وأجدادي وأعمامي كما يفعل المسلمون الموسرون .

فأبي لا يعرف الدين ، ونحوه أمي ، فهي من عائلة شبيهة بعائلة أبي دينا ومالا .. الأخلاق هي الدين فقط .

تخرج أبي من الجامعة القسم التجاري والاقتصادي ، والتحق بالعمل فور تخرجه في وزارة المالية للدولة حتى أصبح مع الزمن مدير الموازنة العامة للدولة ، وذلك في آخر أيامه الوظيفية وقد حصل على الماجستير والدكتوراه في المحاسبة والضرائب .

تعرف على أمي من خلال الوزارة حيث التحقت هي أيضا كموظفة في نفس الوزارة ، ولما تعرف عليها وتعارفا ، وبعد قصة غرام قصيرة تزوجا .

أبي عمل قبل أمي في الدائرة المالية ، وبعد عام من تعارفهما العاطفي تزوجا كأي زواج ، وبمساعدة والده جدي أمير بنى والدي بيتا في درب القلعة حيث التقيت بهال الدين .. وهو درب تجد به أحياء يسكنها الأغنياء ، وحي أغلب سكانه فقراء ، وحي خليط من الفريقين .. نحن في قسم بدا بداية للموسرين .. ومنهم من يعمل مع والديّ في الوزارة .

كان والدي موسى مجتهدا في عمله ، ومثله أمي ، أبي أكمل الدراسات العليا ، أمي توقفت عند الشهادة الأولى .. فيعتبر الوالد خبيرا اقتصاديا في الدولة والمال .. كان السيد الوالد محبا لأمي ، وإن تخلل حياته قبل الزواج علاقات عابرة مع الجنس الآخر وخلال البحث عن زوجة وحتى بعد زواجه له سقطات وهفوات وغراميات مع العاملات ، أمي لم يحدث لها من ذلك شيء .. وهي صامتة عن حياتها الخاصة قبل الزواج ، وأثناء الزواج وأبي يثق بها ويحبها كحب

الرجل لزوجته وأم أولاده .. لم نعرف عنها الكثير سوى أنها زوجة مخلصة لوالدي الغالي .. وأبي الرجل الصامت الذي لا يتكلم عن نفسه ، لكن نعرف عنه من سقطات اللسان من كلام وتعليقات بعض الأقارب وأصدقاء العائلة وزملاء العمل .. نسمعها على سبيل الدعابة والاستفزاز .. كان وما زال محبا للطرب وكبار المغنين الذين عرفهم في مطلع حياته .. وكان يحب السمر منذ أيام الشباب والمسرح والسينما خاصة الأفلام الكبيرة والمصحوبة بدعاية خلابة .

أبي يشرب الخمر أو الشراب ولا يكثر منها إلا في مناسبات وسهرات خاصة مع بعض رفاقه ، ويكثر منها في سهرات ماجنة ، وله براد خاص لها ، ولا يحب أن يشرب أمامنا .

ويقول : لما تكبروا افعلوا ما شئتم ، عندما تستقلون في حياتكم افعلوا ما شئتم ، لا يتعاطها أحدكم على حسابنا.

لم يحاول تعليمنا الشرب ، وأنا عرفتها بعد المرحلة الإعدادية خلال مناسبات عائلية وحفلات في النادي أو غيره ، وأحيانا أختلس من زجاجة أمي ، أمي تعلمتها من أبي ، ولا تكثر منها ؛ لكنها تشربها ، ولا تسمح لأبي أن يسكر أمامنا ، وهو غالبا في حجرته لما يستقر في البيت .

فالتدين كما نعرفه اليوم لم يكن له وجود في بيتنا ، ولا أقول ذلك لأبرر سوء أخلاقي فيما بعد ، فلا صوم ، ولا صلاة ، نسمع بهما فقط .. عندنا سجادة واحدة ، لما يصدف وجود جدنا يستخدمها، ثم تخفى في خزانة حتى يأتي مرة أخرى ، حتى جدنا عرفنا أنه صلى على كبر .. وهذا حدث مع أبي وأمي أيضا كما سأتحدث .. ولما تعرفنا على مال الدين لم يكن متدينا بالنسبة لنا ، وإن يتحدث عن صلاته وصومه ، لم أره يصلي في بيتنا ، أما الصيام فبدا لنا أنه يفعل ذلك ، وهو في الغالب ما يأتينا مساء بعد الغروب أو بعد العشاء خاصة أيام الشتاء ذات النهار القصير ، وحديث الدين ثانوي بينه وبين مال أو تعليق على تدين رفيق لهما في المدرسة واتهامه بالتدين الكاذب والسخرية منه .. والحق كان الفتى إذا تكلم في الدين تراه مبدعا ، ويزعم لنا أنه جالس بعض الشيوخ وشباب التيار الإسلامي ، ولم يستهويه التدين والأحزاب الدينية ، أو

نراه كذلك لجهلنا بالدين .

أقول ذلك وأكتبه ؛ لتعلم أن ما نفعله لا يحاكم دينيا ، نحن نفعله بحكم العادة والتقاليد والأخلاق التي تربينا عليها .

حياة مال تلك الأيام مثلنا أنا وثاني ؛ والحق أنه لم يشرب الخمر ، وصدقنا ذلك ، وأكد ثاني ذلك ، ولم يقرب النساء المتزوجات والعازبات كثاني، الذي له علاقات مع متزوجات ، وهو من مستوى اجتماعي فقير .. وفي البداية عجبت من صحبة ثاني له ، ولم نعرف أهله وإخوته ، أخي ثاني تعرف على بعض اخوانه فيما بعد ، فهو له أخوة كثر .

بعد زواج أمي هدى سالم وأبي موسى أمير بسنتين ولدتنا أمي ، كانت أول ولادة لها ، وضعت توأما ، خرجت أولا للدنيا ؛ ولذلك سميت أولى ، وبعد أقل من ساعة خرج شقيقي ثاني ، وقبلت العائلة هذه الاسماء ، ولدنا في مستشفى الأجنبي الامريكاني ، ويتعالج فيه الأجانب وجاليات السفارات من بلدنا ومن البلدان المجاورة .

لم نختار نحن أسماؤنا ، كان الاختيار لها من قبل أبي .

أبي كغيره من الرجال لا يحب الكثير من الكلام ، كان يحضر معه بعض الكتب والمجلات الاقتصادية العالمية يقرأها في المنزل ، كان عمله مستغرقا وقته ويتقنه ، وكان يملك سيارة منذ عمل موظفا صغيرا في الدائرة المالية للحكومة ، وبعد ولادتي بسنتين ولدت أختي علا ، ثم كان يزيد ، ثم توقفت أمي عن الحبل والولادة .

وقالوا كفى ، كان تأثير الحضارة الغربية على أسرتنا بينا واضحا وكبيرا وحتى على كل العائلة عائلة جدي وأمي وكأعمامي وأخوالي وخالتي ناعمة لها ولد واحد فقط ، لم يكونوا يحبون الكثير من المواليد بعكس الفقراء في البلد .

درسنا كغيرنا في مدارس الحكومة ، لم ندرس في مدارس خاصة السبب في اعتقادي قرب مدارس الحكومة من بيتنا .. مدرستي تبعد عن البيت أقل من نصف كيلو متر ، والذكور تبعد عن الإناث مثل ذلك ، لم تكن المدارس مختلطة في الغالب .. كانت الصراعات العسكرية

محتدمة ؛ لأن البلاد بعد تفكك الدولة العثمانية انقسمت لدول بعضها خاضع للاستعمار الانجليزي وبعضها للفرنسي خاصة بلاد الشأم والعراق .. وكانت الانقلابات العسكرية كثيرة هنا وهناك .

كانت الألعاب والأطعمة توفر لنا بشكل جيد ودائم .. والدراجات واللعب في الشارع ، وأحيانا يأخذنا الوالدان لنادي الوزارة أو نادي المقاصد الأكبر حيث هو نادي الطبقة الغنية في المدينة ثقافي رياضي واشتراكات ، ولا يدخله إلا الأعضاء المساهمون .

الملابس حدث عنها ولا حرج كثيرة ومتعددة ، والاحذية كذلك .. كنّا منعمين ، ولم نشعر بحاجة لشيء أو نقص .. النادي يوفر لنا مجالات اللهو والأصدقاء والرياضة والمكتبات وألعاب الصغار المراجيح وغيرها حتى صالة العرض والمسرح الصغير يوجدان في نادي المقاصد الأكبر ، وقاعة الألعاب الرياضية والتنس .. ويمكن للشخص أن يختلط بالشبان والبنات الأكبر منه سنا سواء من أقاربنا أو جيراننا أو معارف والدينا ؛ لكن الإنسان يجب أن يصاحب ممن من جيله وعقله .

أحسست في مرحلة الإعدادية بتغير النظام في حياتي وحياة ثاني ، وإنني أصبحت فتاة بالغة تأتيها الدورة ، فعليها أن تبتعد عن الشبان من جيلها .. وتغير نظام التعامل معي في البيت ، وأن البنت تختلف عن الرجل بسبب الحيض ، وعليّ الابتعاد عن الذكور والعبث ،المهم.. أنني أنثى وشابة عليّ مرافقة الفتيات من جيلي ، وكان ذلك .

بدأنا نسمع الغزل والحب بين شاب وفتاة .. وهناك أشياء على الفتاة مراعاتها .. ونسمع عن المعاكسات ورسائل الغرام من المراهقين ، وأشرطة الأغاني تهدى للمراهقات والمراهقين .

وبدأنا نتعرض للمعاكسات والاشارات ، ونسمع بعض مغامرات الفتيات عن عشاقهنّ واصطحابهنّ لدور السينما والمطاعم والمشي في الاسواق والمتنزهات .. كنت أحب أن أسمع ، ولم أحب أن أمارس ذلك عمليا رغم محاولة بعض الفتيات جري لذلك الحب الساذج .. استسخفت الكثير من تصرفاتهن ومراهقتهنّ .. وحببتني أمي بالقراءة والقصص والروايات

والكتب لتفريغ هذه العاطفة والرغبة .. فكان عشاقي وأصدقائي أبطال هذه القصص وصفحاتها ، واطلعت على قصص عربية وغربية وفرنسية مترجمة كأحدب نوتردام ، والكونت دي مونت ، والبؤساء المختصرة ؛ لأنني لما كبرت علمت أن هناك طبعة مطولة ، واكتفيت بالمختصرة ، وكثير من القصص غير المشتهرة قرأت ، وكنت أصحب أمي وأبي للسينما والمسرح ، ولم أجد البطل المشاهد في الروايات والافلام على أرض الواقع تلك الفترة من حياتي ولكني رغبت أن يكون لي حبيب وصديق أتحدث معه وأحبه ويحبني ويحلق بي في الفضاء الواسع .

حاول بعض أقاربي من أولاد أعمامي وأخوالي أن يكون ذلك الحبيب والبطل ، ولم أستسغ ذلك ، لم أجد أحدهم ذلك البطل الذي رسمته في وجداني وأحلامي ، وانتهت المرحلة الإعدادية دون حبيب وصديق ، لم أعمل علاقة مع أي شاب قريب أو غريب ، لم أجد ذلك الفارس القادم على جواده الأبيض ؛ ليطير بي إلى عنان السماء ، لم أجده حتى أنني كنت أسمع كلمات جافة وحادة من بعض الفتيات لفشلي في تجربة هذا الحب ، وهذه المغامرات .. فبعضهن تحدثك عن شاب اليوم بغرام ووله ، وبعد أيام تسبه وتخونه، وتخون صديقاتها بأنها استولت عليه ، وأخذته منها ، وضحكت عليها عندما صحبتها أثناء مقابلة لرفيقها فانقلب إليها .. وقصص كثيرة نحو ذلك ، ثم وجدت آخر ، ثم عاد لها الأول نادما ومعتذرا.. أهذا هو حب جولييت وروميو ؟ .. وإذا علقت الفتاة بشاب أكبر سنا منها تجده راغبا في جسدها ، ويرغبها بالاستسلام للجنس وقضاء الشهوة .. ويحدث الفصام إن لم يحدث الاستسلام .. فهل هذا حب أم زواج أم عبث وسخف ؟! فكانت تحدث مآسي ومحاولات انتحار أو زواج قسري .. وتنحرف فتيات صغيرات إلى الرذيلة .. وتنقل من شاب إلى آخر .. وتفسد بنات ، وتنحرف أخريات باسم الحب .. هذه علاقات المرحلة الإعدادية .. أقول مضت ، ولم أجد لي حبيبا كما فعلت أخريات .. ابنة عمي عزة أكثر من عشرة شبان علقت بهم ، رافقت بعضهم لوسط المدينة ودور السينما .

ظهور مال الدين

انتقلت إلى المدرسة الثانوية للبنات ..قد يكون فيها أكثر من عشرة صفوف أول ثانوي .. وانتقل شقيقي الغالي ثاني نصفي الثاني إلى مدرسة ثانوية للذكور .. وقضى ثاني فترة عبث وتسالي كما يقول في فترة الاعدادية مع العابثات من بنات المدارس أو من بنات الجيران والشارع في درب القلعة .. عادة شبان الحي يذهبون لمصاحبة البنات في أحياء أخرى ، وكانت علاقته قصيرة معهن كغيره من الفتيان ، وحتى في النادي كانت حوله شلل من البنات .

انتقل إلى مدرسة بين درب القلعة ووادي النزهات في الحسينات وغيرها من الاحياء .. كانت تلك المدرسة تستوعب أيضا أعدادا كبيرة من طلاب الثانوية القسم العلمي ؛ لأن المرحلة الثانوية فيها عدة أقسام منها العلمي ويستطيع الطالب بعد الثانوية أن يتعلم كل التخصصات ، والقسم الأدبي يتعلم في الدراسات الأدبية والتجارية ، والتجاري يتخصص في أعمال التجارة .. وهناك القسم الصناعي والزراعي والفندقي والشرعي .. والبنات أيضا لهن تخصصات خاصة بهن كالخياطة والتمريض .

فيها مدرسة الحسينات التقى ثاني بمال الدين الشاب اليافع الأسمر النحيف الذي يشبه الهنود أو اليمنيين لونا وبنية .. التقيا لأول مرة ، فقد جاء من مدارس وادي النزهات للقسم العلمي .. فالناجح فيه يدرس طب هندسة قانون ادارة أدب مجاله واسع .. تعرف عليه في ملعب كرة اليد ، كلاهما يلعبها أو يهوى لعبها ، وثاني تعلمها في نادي المقاصد ، على أثر نزاع بينهما على هدف محسوب أو ملغي تعارفا ، ثم ترافقا وتصادقا فوق العادة ، وتطورت صحبتهما ، وجمعهما سوى الرياضة الدخان ، ثاني يدخن لإكمال صورته أمام حبيباته المراهقات ومال لم أعرف لماذا تعلم الدخان ؟ .. كان ثاني من النادر احضار أصحابه إلى داخل البيت ؛ لأنه لا يحب جلوس البيت كثيرا .. دائما خارج البيت مع أبناء أقاربنا أو أبناء الجيران من جيله أو من أبناء أحد الناديين .

كان مال من شباب المقاهي ، في فترة ما بعد المدرسة .. ويذهب لمقاهي وسط المدينة .. وله

مقهى مفضل علمته طبعا فيما بعد اسمه مقهى الذهب في سوق الذهب .. مقهى كبير .. ويغلق بابه ليلا عند منتصف الليل ، وهو يجلس في مقاهي النزهات والحسينات وحتى درب القلعة .. فالمقاهي كالمساجد منتشرة في الأحياء للشباب والكبار .. يلعبون فيها ألعاب الورق والشطرنج وتدخين النرجيلة ونقل الاخبار والتعليق عليها .

لما يكون مارّا من دربنا نحو مقاهي قلب المدينة ، ومن أمام منزلنا يصفر لثاني فيخرج له في الشارع ، ويرافقه للمقهى أو وسط المدينة .. وأحيانا يرافقه للسينما إذا كان هناك عرض لفلم جديد .. كلاهما يذهب للسينما.. أما المقاهي فتعلمها ثاني من مال ورفاقه في المدرسة أو الحي .. وأثناء العودة ليلا تراه يوصل ثانيا لباب البيت ، ويتابع طريقه سيرًا على القدم جهة وادي النزهات .. لا يهاب المشي في أنصاف الليل ، واعتاد على ذلك كما يقول ثاني .. وكان يقول لأمي زميل المدرسة وفي ملعب كرة اليد ، ومحترف في لعب الورق .. فأمي تلعب الورق مع بعض الزميلات.. أمي تدخن وتشرب القليل من الخمر، تزعم أنها تعلمت ذلك من أبي .

قبل نهاية الفصل الأول من الأول الثانوي دعاه ثاني لدخول البيت على غير العادة ؛ لكننا نعلم من كلامه معنا عنه قوة الصداقة بينهما خلال هذه الشهور ، فهما لا يفترقان في المدرسة إلا أثناء الدروس ، دعاه ثاني لشرب الشاي فهما مغرمان به ـ هذا طبعا علمناه فيما بعد ـ وكان معهما يومئذ شاب ثالث صديق لمال ومن حي النزهات ، وهي المرة الأولى والأخيرة التي دخل ذلك الشاب منزلنا العتيد ، نحن كان ينظر إلينا أننا أغنياء ومن الطبقات العليا مع أننا غير ذلك ؛ لكن ذلك الجزء من الحي هكذا كانت صورته عن باقي أحياء درب القلعة .. جلسوا في صالون البيت ، وقدمت لهم أمي الشاي ، وتعرفت عليهما ، وشجعتهما على الدراسة والمدرسة وبينت لهم أهمية النجاح .. وانصرفت ، وأثنت أمي أمامي على مال من أول جلسة .. كان يخجل كما تقول من التحديق والنظر إليها بعكس زميله الثاني ؛ كأنه كان متعجبا من جلوس أم ثاني معهم ، ولو لبضع دقائق .

أما أنا فلم أكترث لهما ، ولم يكن أمر دخولهما مهما لي ؛ ربما تسألت لا شعوريا كيف أدخلهما

ثاني لبيته ؟.. نحن البنات أنا وعلا أمر دخول زميلاتنا وجاراتنا إلينا أمرا معتادا.. لم يكن حدث مهما وهكذا نظرت لزيارة مال ، لولا اهتمام أمي وحديثها عن مال أمامي لم أعر ذلك الزائر أي اهتمام .

فنحن لا نعرف أصدقاء ثاني من الحي أو النادي ، فهم يظهرون ويختفون مثل رفيقاته.. ليس له صديق دائم ؛ لكنا أدركنا أن علاقة مال وثاني فوق العادة وقوية .. فهو يتحدث عنه أمام أمي قبل أن يدخل البيت لشرب الشاي .. وكان ذلك من خلال الملعب والمقهى والرياضة والمدرسة .

بعد هذه الزيارة للبيت بأسبوع حضر مال مرة أخرى ، ورحبت به أمي مرة أخرى .. وهو كالعادة يأتي بعد الغروب إذا أراد الدخول .. أما إن كان لديهم سينما أو مقهى يلتقيان قبل الغروب ويمشيان لوسط المدينة .. فلا يبعد قلب المدينة عن درب القلعة كثيرا .. أما إذا كان السهر في البيت لدراسة أو اختبار يأتي بعد المغرب أو العشاء .. ويظل عندنا لنصف الليل وأكون عادة مستيقظة إما بقراءة رواية أو مادة دراسية .. وقليلا ما يكلفني بصنع الشاي أو القهوة .. أمي تفعل ذلك حتى تنام .. وأحيانا ثاني نفسه يفعل ذلك عندما يدخل مال المرحاض .. أبي وأمي في بعض الأمسيات يذهبان للسينما أو المسرح أو زيارة أو مناسبة فيأتي مال ويسهر مع ثاني .

قبل نهاية الفصل أخذت زيارة مال تتكرر للبيت ، وإذا لم تكن أمي في البيت أنا أصنع الشاي لهما ، ويقدمه ثاني له لا أدخل عليهما ، ولم أفكر يوما بالتعرف عليه ، لم أكن قد وصلت لهذه المرحلة ، وكما لا أحب دخول ثاني عليّ وأنا مختلي مع صديقاتي .. فلا أسمح لنفسي بذلك ، ثم أنا بنت .. وصرنا نسمع باسم مال يتردد في بيتنا .. تعرف عليه والدي ، وأثنى عليه ووصفه بالجيد ، ويزيد أيضا تعرف عليه ؛ ولكنه ينسحب لغرفته .. يزيد لا يحب الجلوس مع ثاني كثيرا .. فهما لا يتفقان في الميول والطباع .. له رفاقه وشلته .

كانا يذهبان للسينما معا ، لم يعد ثاني يرافقنا إلى العروض الجديدة في البلد .. وهو من قبل مال

كان مقلا من صحبتنا .. ويذهبان معا للمقهى مخبرا لأمي .. أو يذهبان لمطعم للعشاء .. كانت أمي تحب معرفة أين نحن ذاهبون ؟ ولم يكن ثاني يرى في ذلك تدخلا .. هو يعلم كم تحبه أمه ! وكم هي متعلقة به ! كان ذلك واضحا لنا في البيت ، ولا يعني ذلك أنها كانت تميزه عنا ..

كان ثاني معجبا بصديقه مال للغاية ، ويبدو أن مالا مثله في الإعجاب والصداقة رغم ما بيننا وبين مال من الفارق المالي ، وتكرار الزيارة يدل على ذلك ، ودخوله البيت يدل على ذلك ..كان يغيب أسبوعا أو أكثر قبل أن يزورنا في البيت ، ومرات يوميا ؛ كأنهما يتفقان على ذلك في المدرسة .. وقلت لكم كان سهرهما يطول لنصف الليل في الغالب ، وكلما مررنا قرب باب الصالون نشم رائحة التبغ ، ونسمع ثرثرتهما ومرحهما .

مضى الأول الثانوي دون أي اهتمام زائد مني بمال ، رغم كثرة تردد اسمه في البيت من قبل أمي أو ثاني .

حدثني ثاني عن شغف مال بالقصص والكتب خارج كتب المدرسة ، وعن حبه للألغاز والمغامرات وارسين لوبين وشارلوك هولمز وأجاثا وديماس وزيفاكو وغيرهم ممن تكثر ترجمات أعمالهم في المكتبات التجارية .

لم يظهر مال خلال عطلة الصيف إلا مرات معدودة ، علمنا من ثاني أنه يشتغل لينفق على نفسه ورواياته ، وأنه لم يكن من الأغنياء مثلنا يجد من يصرف عليه .

المهم أصبح مال معروفا داخل الأسرة نسمع ونهتم بأخباره من ثاني .. وهذا يتحدث به لوالدتي التي كانت تسأل عنه بشكل دائم ومعجبة بصداقته لثاني .. فهو لا يشرب الخمر .. أمي لا تحب الخمر ؛ إنما تشربها مجاراة لوالدي وأصدقائهم نادرا ما تسكر وتثمل .. ولا يعرف البنات حتى أن ثانيا قلّت مغامراته النسائية ومواعدتهنّ .. فكنت أشعر أحيانا بالغيرة من حب أمي لثاني .. وكان ثاني يحدثها بكل شيء من أخباره في المدرسة والأماكن الأخرى .. ومرات بالتفصيل الممل ، وتصغي إليه بكل كيانها حتى يصمت ، أما أبي فلم يكن كذلك ، هو يجلس

قليلا معنا أو يعالج مشكلة معنا ، ويدخل غرفة نومه ، ولا يخرج منها للعشاء معنا .. ونحن نرى أنه يفعل هذا ليسكر وحده ، فلا يحب أن نراه يشرب ، وأحيانا يخرج لنا وهو ثمل ويتحدث مع أمي بعصبية أو صراخ ويعود لحجرته ، وقد لا نعرف سبب هذا الانفعال ، ولا نهتم عادة لماذا فعل ذلك ؟

هكذا ظهر السيد مال الدين في بيتنا وبيننا كصديق لتوأمي ، كانت نفسي تراودني بالتعرف على مال والحديث معه كما تفعل أمي ؛ لكن كانت هناك حواجز لم تكسر .. هو صديق أخي .. وهو ذكر وغريب عن العائلة ، لا يمت للعائلة بأي صلة.. والذي دفعني لهذه التفكير أيضا طول صحبته لمال وحبه للقراءة ؛ كما يكثر ثاني من تكرار ذلك أمامي ؛ كأنها إشارات للقاء به .. أنا أبناء العمومة والخالات وغيرهم لقاءات قصيرة وعابرة تحية وسلام ووداع عندما يزوروننا أو نزورهم أو نراهم في النادي أو في نزهة ورحلة عائلية .. أمي هذا ما كانت تسمح به .. أمي كانت تريد مني ومن شقيقتي أن نصل لبيت الزواج بدون مشاكل وذكريات سيئة وقصص لا أخلاقية، وتقول أهم شيء للفتاة سمعتها وشرفها ؛ لذلك ما كنت أحب التمشي مع الشباب أقارب أو أباعد ، وعندما أجلس في مكتبة النادي إذا حاول أحد الشباب الاقتراب وفتح حوار لم أرد أتجاهله أو أغادر ؛ لأن الشاب إذا وجد صمتا انصرف .. وأدرك أنني لا أحب مرافقة الذكور فينصرف .. البنت هي التي تسمح له بالتمادي ، وسيجد ضالته في غيرها ؛ فإذا تعلقت ببعض الفتيان ، ثم تركتهم أو تركوها تبين لها أنهم يريدون الجسد ليس الروح .. يتحول اللقاء معهم للحديث عن الجنس والاثارة سواء مع القريب أم البعيد .. وإما أن تستسلم الأنثى لهم للعبث بها أو تهرب قبل فوات الأوان .. قبلني أحد الأقارب فغضبت منه ، وغضبت أمي ، ولم يعد يسمح له بدخول البيت .. كانت أمي حريصة أكثر منا في مثل هذه العلاقات الطائشة كذا تسميها .

كما ذكرت لكم علاقتي مع الجنس الآخر من الأقارب لم تتطور مع أحدهم إلى علاقة عاطفية وغرامية ؛ لأن الزواج لم يكن في مقدمة أولوياتي .. الجامعة أولا .

وذكرت لكم أن مالا دخل بيت الأسرة في الأول الثانوي لي ولثاني ، وأصبح صديقا للأسرة بشكل عام ومقبولا وعلى غير العائدة ؛ لأننا لم نعرف خلال السنوات الماضيات صديقا ثابتا لثاني ، صديقا دائما .. فهذا جعلنا نهتم بالأمر إلى حد ما حتى أن أمنا كانت تبش له وتقبله ، ولم يعترض هو ولا ثاني ؛ وكأنه ابن لها .. لم أفكر في ذلك إلا فيما بعد طبعا .

وكان أبي قد تقبله صديقا لثاني ، ولم يحتج أو يعترض هو الآخر رغم خطورة المرحلة ، واقترابنا من الثانوية العامة التي ستنقلنا لمرحلة مهمة ومصيرية .. فكان يخرج من غرفته يسلم والجلوس بعض الوقت ، ويدخل لحجرته ؛ فكان من طبع الوالد المكث في حجرته ، وأحيانا كثيرة يغلق الباب بالمفتاح ؛ ربما لمعاقرة الشراب دون ازعاج ، وتطرق أمي الباب عليه إذا أرادت الدخول ويفتح لها .. وعادة أمنا تبقى معنا حتى ساعة النوم نومها .

كنت أرى مالا من النافذة أثناء عبوره بوابة البيت ، فعرفت صورته .. فهو يقرع الجرس ، وهو يعلم أنه في البيت ، فيخرج له ثاني ؛ لأنه على ما أعتقد يرتبان لذلك في المدرسة ، لم يصدف أن رن الهاتف من أجل ذلك ؛ لأنني في الغالب من يرد على الهاتف ، ويزيد أحيانا .. يكون البيت خاليا في أول النهار غالب الأيام .. نحن نذهب إلى المدارس والأبوان للوظيفة إلا أيام العطل أو عطلة أحدنا لظرف ما ، ويرجع الأبوان مع العصر الرابعة مساء صيفا وشتاء ، لم تكن لديّ رغبة في البداية إلى التعرف إلى مال الدين أولا إنه شاب وثانيا ثاني لا يحب ذلك ، ولم يحدث أن عرفني على شاب من معارف النادي وغيره وثالثا أمي لا تسمح بذلك لقريب فكيف بغريب ؟ لكن علاقة مال بالعائلة على غير ما عهد في الماضي .. والشاب له سنة في صحبة أخي ، وما زالت صحبتهما مستمرة ، وهذا لم يعهد في ثاني .

أبي لا يتدخل في حياتنا منذ الصغر ترك المهمة للوالدة هدى سالم . في عطلة الصيف لم يحضر مال لبيتنا إلا مرات معدودة ، وكانت يوم الجمعة حيث تخرج العائلة في رحلات خلوية أو حدائق عامة كبيرة ، وإذا لم يخرج ثاني معنا ندرك أن مالا سيزوره ويتغديان في مطعم ، ثم تكون الزيارة والسهرة .. فهما يهويان مشاهدة الافلام السينمائية وأكل المطاعم والمقهى يلعبان

بعض الوقت ويقفلان للبيت وإكمال السمر .. كان ثاني يتحدث معي بذلك عن نشاطه وصاحباته ومعارفه وأنا أسمع ؛ وكأنني لا أسمع ، ولم أعجب بمال إلا أنه قارئ مثلي .. لا أهتم بالرياضة لعبا واعلاما أو لعب الورق .. كنت مرات أخذ سيجارة من أمي كنت مدخنة ربما في الأسبوع مرة ، ولم يكن ذلك ممنوعا كان متروكا لذوقنا .. فكثير من فتيات النادي الأول والثاني تدخن .. نادي المالية فقط لأعضاء الوزارة ولعائلاتهم .

لما جاء الثاني الثانوي حدثت تطورات بالنسبة لي ، استمرت الصداقة بين ثاني ومال سواء في المدرسة في الشوارع في البيت والأخير هو المهم بالنسبة لي وكان يأتي وحيدا كما تعودنا في العام الفائت ، الشاب الذي رافقهم مرة لم يعد ؛ لذلك نسيناه .

كانت أمي ترحب بمال كما تعودت ، وأصبح صديقا لها ، وتطبع على خديه قبلاتها كما تفعل معنا .. كيف حدث هذا ؟! لا أدري ؛ بل تجلس وتتحدث معهم ؛ كما تتحدث مع رجال النادي ، كانت تدخل عليهم بالشاي والمكسرات ، وأحيانا تقدم لهما عشاء خفيفا ، وتجلس تسمع لكلامهم وتعلق وتناقش .. فأدركت أن الأمر تطور كثيرا ، وأن الشاب أصبح ابن العائلة ، لا صديق فحسب ، ولم تفسح لي المجال للتعرف عليه ، ومشاركتهم الجلسة مع أنني لمحت لها بذلك .. فلم تدعوني لفعل ذلك .. وثاني رغم أنه يحدثني عنه لم يدعوني لذلك ، ولم يمنعني .. وأبي أحيانا على غير العادة يطيل الجلوس معهم ، ويتناقش مع مال بأمور غريبة علينا حول الأخبار والسياسة وهذا لم يكن من طباع أبي في البيت ، ثم كان يشجعهم على الدراسة والاستعداد للعام القادم .. هذا التطور حدث من أول شهر في السنة الثانية ؛ إنهم لا يحبون السهر في الخارج لثاني ؛ فكأنهم وجدوا ذلك أفضل من خروجهم للمقاهي ، ولم يعودا يلحان على ثاني لمرافقتهم إلى مشواريهم وعروضهم المسرحية والزيارات والحفلات الغنائية..

فأخذت أفكر جديا بالتعرف على هذا الشاب الذي غير سلوكيات في البيت دون إرادته بالتأكيد ، وقلت ما دام الشاب صديق الأسرة لماذا لا أتعرف عليه مثلهم ، وقد أصبح مقبولا ؟

خرجت الأسرة لشراء ملابس وسهرة ، فآثرت البقاء ، واعتذرت عن الخروج معهم .. وجدتها فرصة بريئة للتعرف على مال ، وتطوعت لتقديم الخدمة لهما بدلا عن أمي ، ولم يعترض ثاني على ذلك ، لما جهزت لهما الشاي لبست ملابس جميلة ، لم أدخل عليهما بالبيجامة وثياب البيت ، طرقت الباب بلطف .

فقال ثاني : ادخلي يا أولى.

دخلت وسلمت ووضعت الشاي على طاولة أو منضدة وحييت الشاب وقلت بحياء قبل أن أصبه : أهلا بالأخ مال الدين .

فبادر ثاني فقال : هذه توأمي يا مال ، ولدت قبلي بزمن يسير .. نحن توأم .. وسبق أن حدثتك عن ذلك ؛ فسميت أولى ؛ لأنها ولدت قبلي، وسميت ثانيا

كنت أسكب لهما الشاي ، وتابع : وهذا حبيبي مال الدين حسين رفيق المدرسة والملعب والصف .. لقد انتقل لصفي يا أولى .

تمتم مال مرحبا وفعلت مثله ، وأدركت بقوة عمق الصداقة بينهما ؛ كأنه يعرفه على زميل .

وعاد مال يقول : أهلا بالآنسة العزيزة أولى .. تشرفنا بالأخت العزيزة ـ وكان يشير إليّ بالجلوس ـ أخت حبيبي ثاني .. فأنا مثلك أحب المطالعة كما يحدثني ثاني عنك .

ثاني يحدثه عني عجبت ، وعجبت لجرأته أيضا فهو يتكلم ؛ كأننا أصدقاء منذ عهد بعيد .

نظرت لثاني الذي قال دون حرج وتردد : نعم ، هو مثلك في حب الروايات المملة .. يموت في القصص والقصص الفارغة منذ الطفولة .. نحن من نفس السن يا أولى ؛ وربما ولد يقرأ .

وضحكوا وتبسمت وتعجبت من كليهما ؛ كأني أجلس معهم من قبل قرن ، وكررت الترحيب بمال وشكرته وقلت وأنا أقف: تريد شيئا آخر يا ثاني .

فقال : ما دام أهلك في الخارج اجلسي معنا .. فمال أصبح من العائلة كما تقول أمك وابن لها ؛ ولعلك تجدين بعض القصص التي ليست عندك .

عدت للجلوس وأنا مصدومة من تصرف ثاني ، فجلست قبالتهم ، وعدنا أنا ومال نرحب

ببعضنا ونختلس النظر ببعض .. وبدأ أنه لم يجلس مع فتاة قبل هذه المرة رغم جراءة كلامه لي في أول لقاء .. وأخذنا الحديث عن القصص والروايات بسرعة ؛ ولعل أول رواية تحدثنا عنها إحدى روائع يوسف السباعي ، وتحدثنا عن بعض مسرحيات شكسبير ، ووجدت لديه اطلاعا رائعا ، وبعد حين استنزفنا معلوماتنا واستعراضنا كمجاملة.

فقال لي ثاني : كيف ترين ثقافة مال يا أولى ؟

ضحكت وقلت : صاحبك قارئ عميق ! يقرأ شرقا وغربا .. فهو يقرأ عربيا وغربيا .

وبعد نصف ساعة استأذنت لأحضر لهم شيئا آخر فقال مال : الشاي يكفي يا عزيزتي أولى! أنا سررت بالتعرف عليك .. فقد أكثر أخي ثاني بالحديث عن ثقافتك وحبك للقصص .

شكرته وقلت لثاني: أتشربون القهوة ؟

قال : لا بأس .. أنت لماذا لم ترافقي العائلة ؟

فقلت دون تردد : شعرت بالتعب اليوم ، ولا رغبة لحضور المسرح .. وعدت نهى صديقتي في المدرسة بأن نحضرها معا .

ـ القهوة يا أولى قبل أن تنامي .

هكذا بدأ أول جلوس لي مع مال ، تعرفت عليه تلك الليلة مباشرة كضيف وصديق للعائلة ،ووجدته شابا مثقفا ومهذبا وحييا رغم تظاهره بالجراءة للحديث معي أو هو جريء بالكلام حقيقة ؛ كأنه لا يخاطب فتاة لأول مرة يجلس معها أو من كثرة حديث ثاني له عني وحبي للقراءة بدا ؛ كأننا أصدقاء .. وثاني كما ذكرت سابقا كان يحدثني عنه بدون تحرج ، ولا أعتقد أن أخي يظن أنه ستحدث قصة حب بيننا من لقاء .. فأخي فاشل في علاقاته مع الجنس الآخر لم أسمع له قصة في ذلك تستحق الاهتمام ، صحبة سريعة وفراق .

أدخلت القهوة ، وخرجت متظاهرة بأنني شبعت من الحديث معهم عن الأدب والروايات .. الحق أنني كنت مبهورة بمال ، ورغم صغر سنه كان قارئا ممتازا بدا ذلك من خلال اللقاء ، لم يكن دعي ، وعلمت أنه لاعب شطرنج ممتاز من خلال كلامنا .

لما رجعت الأسرة تلك الليلة كان مال مغادرا ، وثاني نائما ، وأنا مستيقظة وظللت في انتظارهم لأرى الملابس الجديدة ، ولم أحدث أمي عن جلوسي لمال ، تركت ذلك لثاني الذي لا يخفي شيئا عنها .. لقد رغبت بالجلوس معه ثانية ، لم تكن رغبة حب وعشق ، فبيننا فارق طبقي كبير ؛ فأنا ثرية كما قلت لكم بثراء والديّ ، ومال فقير كما علمت من أمي وثاني ، واجتياز ذلك الحاجز ليس من السهولة بمكان .

غاب مال أياما قبل العودة لسهرة أخرى والحديث عن الأدب والقصص ؛ لذلك قلت لثاني: لقد وعدت ـ كما تعلم ـ مالا صاحبك بثلاث روايات .. هل تأخذها له ؟

قال : لا داعي لأخذها له في المدرسة عندما يأتي أعطيه إياها .. أنا لاحظت أنه أعجبك الحديث معه عن الروايات وانسجمتما معا .

أجبت ملاحظة أخي : كان واعيا يا ثاني لما يقرأ .. تظن أنه يحفظ الرواية عن ظهر قلب .. أنا بنت ووقتي في البيت أكثر منه كما بدا من كلامك فأتأمل وأدقق فيما أقرأ ، فظهر أنه يقرأ أكثر مني وأنا أقرأ أقل منه، ومع ذلك كان يعرف الكثير من التفاصيل في قصة شكسبير عطيل والملك لير .

قال معجبا : عندما يتحدث مال عن قصة يا أولى يستطيع تلخيصها بكلمات .. ويستطيع تفصيلها ؛ كأنه يقرأها لك بفقراتها .. حسب رغبة المستمع .. وهو يحب الشعر ، ويحفظ عشرات القصائد في الشعر القديم المعلقات والحماسة والحديث كشوقي والبارودي.. الشعر الحر يقرأ منه ؛ ولكنه لا يحبه ، ولا يراه شعرا .

ـ لا يراه شعرا ! وماذا يراه ؟

تبسم وقال : هبلا وضحكا على الناس ؛ لذلك يقول لي هذا عمره قصير لا يبقى إلا في المكتبات .

ـ شوقتني للجدل معه .

قال : اعلمي أنه يكره الجنس الآخر .

□□□

ـ يكرهنا !

ـ حذر .. لا صديقة له .. يكتب رسائل غزل للبنات لأصحابنا .

قلت : كيف كان يحدثني ؛ كأننا أصدقاء من قرن ؟

قال : ربما من كثر حديثي عنك ؛ وربما لصداقته لأمي .

قلت : بماذا يتحدث مع أمي ؟

تنهد ورد : ألم تحدثك أمك عن ذلك ؟

ـ ولماذا تحدثني عنه ؟!

قال مؤكدا لي اعجابه بصديقه مال : لا أحد يجلس معه جلسة شاعرية إلا فتن به .. هو يحضر الفلم مرة واحدة يصبح ؛ كأنه هو كاتب سيناريو الفلم أو قصته .. لابد أن تجلسي معه أكثر ؛ لتستمتعي بالحوار معه .

فقلت : أمي قد تعارض جلوسنا مع غريب .

قال بثقة : لا، ذكرت أمامي كذا مرة ، لو جلست معك أولى لسرت من الحديث معك حول القصص والكتب .

قلت استغرابا : أمي قالت ذلك!

قال : أمك مثلي مسرورة بصداقتنا .. فهي تحدثه عن مشكلة بينها وبين صديقة لها في النوادي في الدائرة تجد لديه أفضل الاقتراحات لحلها .. فهو مثقف في الدين في المجلات والفن .

تفاجأت بما أسمع من ثاني ، وكدت لا أصدقه .. أمي تناقش مشاكلها مع مال الشاب الصغير !ولكن أعلم أن أمي تجلس معهم في الغالب إن لم تكن في خارج البيت .. ومهد لي ثاني بهذا الحوار العودة للحديث مع مال بدون أي حرج وأي محظورات .

وقال : تجدينه يعرف تفاصيل القصة رغم كثرة قراءاته .. وبعض القصص يقرأها أكثر من مرة ومرات .. ويعلق لو فعل المؤلف كذا لكان أفضل

قلت : أوه ! يريد أن يعدل على فكر الكاتب وخياله.

قال : هو يقول " الكاتب يقول ما يقول " ربما الفكرة التي عندي لم تأت بخياله .. ومرات يحصر الكاتب الحل باحتمال أو اثنين.. فيقول هناك احتمال ثالث ورابع ؛ لكنه أي الكاتب يعلم أن القارئ لا يهمه التفكير يهمه القراءة والانتهاء منها .

قلت : هذه فلسفة .. فعلا لمست بالوقت القصير معه أن عنده شغف .. وجدت من يسابقني.

ـ مال بعد انصرافه مغادرا من عندي يظل للصبح يقرأ لا ينام قبل قراءة رواية أو قصة كاملة .

ـ والمدرسة !

قال : يأتي .. لا يحب الغياب.. قد يقرأ بعض القصص ذات الحجم الصغير في المدرسة .. يقرأ ذلك أكثر من كتب المدرسة .. وعند اللعب يلعب حتى يمل .. سواء في ملعب السلة أو كرة اليد حيث بدأت حكايتي معه .

سألت : ما الذي جمعكم ويجمعكم ؟

قال : أنا عرفته من خلال ملعب كرة اليد ،كنّا نلعب سوية ضمن فريق واحد أو خصمين .. وهو هذا العام انتقل لصفي .. فصرنا أبناء صف واحد .. وهو جيد في الدراسة ؛ لكن لديه ضعف في مادة اللغة الأجنبية ومادة الرياضيات إلى حد ما .. الكمال لله وحده .

عدت أقول : المهم لديّ روايات جديدة لو أعطيته إياها .

ـ عندما يحضر يا أولى أفضل ، وإذا أحببت فاستعيري منه .. فهو يملك الكثير ، ويفقد الكثير لدى الشباب .. فهو يوزعها بين زميل وآخر .

ـ أخشى أن لا تسمح أمك بالجلوس معكم .

قال كأنه غير مصدق بمنعها : أمي لا تسمح ! هي تجلس معنا .. هذا الأمر لك .. فمال شاب محترم ، وأثق به ، ويحترم التقاليد والبيت .. وهو يحب من يسمع له عن الأدب والشعر .. إنه يقول الشعر ، ويرسم أحيانا .. هواياته كثيرة يا أولى .. والشاب لا يحب البنات والمغامرات العاطفية .

ـ قلت ذلك ؛ ولكنه شاب مراهق .

تبسم وقال : هو يكتب الرسائل للعشاق كما قلت لك .. ويقول لي هذا دليل كذب هؤلاء المحبين .. غيرهم يكتب لهم فأين الحب والمشاعر ؟ هم يبحثون عن التسلية .. وهو لم يحاول لنفسه إلا مرتين ، ثم ندم كما قال لي .. وأبدى اعجابه بك خاصة حبك للقراءة .

ـ قال لك ذلك .

قال : نعم ، إعجاب قراءة ،لا إعجاب شاب بفتاة هوى وغرام .. فهو يفتن لما يجد من يقرأ مثله ، ويطالع مثله .. ولو كانت أولى .. ويحب من يسمع له ويناقشه في قراءته .. يقول نمتحن الذاكرة .. من أجل هذا أعجب بك .

ـ أخشى أن يحبني ما دام يكره جنس النساء!

قال : لا أعتقد أن يصل الأمر إلى ذلك .. هو لا يحب مرافقة الشباب لمدارس البنات للصيد كما يقول .

ـ ليصيد فتاة ! وضحكت أولى

وتابع شقيقي : وهذا ما يفعله بعض الزملاء .. بعضهم يذهب لمرافقة صديقته أو حبيبته لبيتها .. مال لا يستسيغ هذا الهبل كما يقول .. ويقول تضيع ساعة أو أكثر في التسكع والكلام الفارغ .. وأيضا نحن أصدقاء فلا أظن أن يغدر بنا .. وأنا أعتبرك أعقلنا في البيت .

ـ لكنني أنثى ولي مشاعر وعواطف .. قد أحبه أنا .

قال بهدوء : ممكن .. لكنني لم أسمع عنك شيئا من هذا القبيل .

ـ لم أجد الفارس الذي أهام به .. قد يكون مالا . ضحك شقيقي وقال : لا أعتقد .. فالشاب محترم .. ونحن نحن.. وهو شاب فقير يعلم ما الفرق بين أسرتينا إلا إذا أنت عشقته كما يحدث في بعض القصص ..الأميرة تحب الفقير و .. و.. و ..

ضحكت وقلت : وهذا يحدث في الروايات وفي الواقع .. أنت تثق به لهذه الدرجة .. وهذا حب كبير منك له .

□□□

ـ أعز صديق ؛ بل هو صديقي الوحيد اليوم ، حتى أمي اقتنعت بصداقتنا ، وتحدثه عن صديقاتها ونوادرها في النادي ومع الجارات .

قلت : هذا ما يثير الدهشة !

فقال : وأنا أثق بك .. وأنا لا أمنعك من الحب ، ولا دخل لي بذلك ؛ لكن لا أحب أن أخسر مالا يا أولى .. وكثيرا ما ذكرت اسمك أمامه .. نحن توأم .. فهو يعتبرك أنا.. وأنا فكرت قبل نهاية الفصل الماضي أن أعرفك عليه ؛ لتتحدثنا عن هوايتكما المشتركة القراءة للروايات .

ـ أنت تغامر بعواطفي يا ثاني .

ـ صحيح لم يسجل عليك صحبة شاب في النادي أو الشارع ؛ لكنك تتحدثين مع أولاد العم والخال بأدب واحترام .

قلت : لم يعجبني أحدهم لأحبه .. أنا أرغب بالجامعة قبل الحب يا ثاني .

ـ كلنا يريد ذلك .

قلت لنفسي : عجيب أخي في هذا الحديث ! هل يرغب لي بحب مال.. هذا غير معقول طبعا .. ويتحدث عني لمال ؛ كأنه يتحدث عن فتاة لا تمت له بصلة .. وثاني نادرا ما يشرب الخمر لأقول كان ثملا ؛ لكني طربت لصراحته وشجاعته ؛ ليتحدث معي بهذه الصراحة عن موضوع حساس ودقيق في نظر الناس والأسرة .. فهو لا يخشى عليّ من عشق صاحبه .. هل لأنه لم يسجل عليّ قصصا قبل ذلك.. فرآني عاقلة ومحافظة إذا صح التعبير .. فها هو مال يرى مثلي سخافة هذه العلاقات ويعتبرها هبلا .. ويكتب رسائل ويسخر من ناقليها لمحبوباتهم وهي تحمل أفكاره ولغته.

فقلت : شكرًا ثاني إنني أحبك أنت .. وشكرا لثقتك بي .. أنا مثل صاحبك أعتبر هذه العلاقات أسخف من السخف .. عاطفة مزيفة يا أخي العزيز

قال : نعم ، بينكما أشياء متشابهة .. تعودنا على حسن تصرفك .

احتضنت شقيقي بحب ، وقبلته من رأسه ..كان لقاء غريبا من ثاني وجريئا وصادقا .

الصداقة

حضر مال بعد هذا الحوار الجريء والصريح بيني وبين ثاني ، وإنه لا يعتبر جلوسي مع صديقه محرجا له ، وسمحت أمي لي بالجلوس والحوار دون أي مانع لما علمت عن جلوسي القصير معهم منذ فترة ، ودردشة مال معي.. لم تَر خطرا عليّ من الحديث معه ، والحديث يدور داخل البيت وبوجود ثاني .. وتقبل مال وجودي معهم ، ولم ير في ذلك أي حرج .. وهذا ما عبر به صراحة لأمي .

فقال : أولى أختي كما أنت والدتي . فهو يعتبر نفسه صديق لكل العائلة، وكان حديثنا عن الأدب والقصص ، وخرجت للقاء كالمرة السابقة بلباس الخروج من البيت ، كنت ألبس السروال الطويل عادة وبلوزة تغطي الذراعين ، ورأسي وشعري مكشوف .. نحن لا نلبس غطاء الرأس ، وكنا نتحدث نحن الأربعة ؛كأننا نجلس في النادي ، وكانت أمي تمدحني وتثني على عقلي وتربيتي المتزنة ، ومال يثني على تربيتها .

كانت أمي معجبة بمال ، ومحبة له حتى أن وسواسا دخل قلبي من هذا الحب لهذا المراهق ؛ ولكني طردت هذه الخواطر الرديئة لعدم وجود ما يدل عليها ، وثانيا وجود ثاني معهم ، وأخلاق مال ، وقبول والدي لجلوسها معه دون اعتراض ، ولم أعرف عن أمي قصصا سيئة بعكس أبي .

وقالت : العجيب يا مال إنك تزعم أنك تكره البنات ، وأنك لم تصاحب أي فتاة .. وأنت في هذه السن ، وتحفظ كل هذا الغزل !

كان قد أسمعنا بعض أبيات الغزل لشعراء الجاهلية .

فقال : الغزل كان كتمهيد للشعر والقصائد ، وكذلك وصف الناقة والاطلال .

فقال ثاني معلقا : يحفظه ؛ ليكتب رسائل الغزل للزملاء .

وتحدثنا حول هذا الموضوع ثم قال : شكرًا لكم .. أنتم كأهلي .. وثاني يعلم ذلك .

بعد هذا اللقاء الثاني الدافئ كانت أمي تعتبر خروجي للترحيب بمال أمرا طبيعيا عاديا ، ولم

□□□

يعد خروجي لذلك محرجا لي .. وانسجمت حقيقة معهم في الحديث عن شأني الخاص والعام كما هم يفعلون .. فأمي تحدثهم عن مشاكلها في الدائرة أو مشاكل الموظفات وتسمع تعليقات مال وثاني ؛كأنها تتشاور معهم .. وكل جلسة تأخذ بعض الوقت للحديث عن الروايات والجديد منها في الأسواق ، ورأينا في هذه القصة وتلك ، وكانت أمي مسرورة من انسجامي مع مال حتى أني صرت أحدثه عن مشاكلي في المدرسة ومع الزميلات ، وأسمع حكمه ورأيه .. وأنا أتعجب من ذلك الانسجام والسماع حتى أني سألت نفسي لما كنت أتحدث معه عن أمور خاصة .. هل أنا مغرمة به من غير أن أشعر ؟! أهذا هو الحب الذي يتحدثون عنه ؟! هو لا يتحدث عن الحب كعلاقة معي .. فالفجوة بيننا كبيرة .. وصارت لديّ خشية من الوقوع في هواه.. أنا لم أفكر بذلك ؛ لكنه أصبح هاجسا في وجداني ومخيلتي ، وقلت لنفسي : ثاني يتحدث عني معه بدون أي حرج ..كانت ثقته بمال كبيرة ، وحتى أمي تثق به من ناحيتي ، وتقبلت جلوسي معه بالبيجامة .. فعلت ذلك مرة ، ولم تهتم أمي ولا ثاني .. هل يرغبون بزواجي منه ويمهدون لذلك ؟ إنه فقير من الفئة الكادحة .. كيف سيوفر لي عيشا كما أعيش في بيت أبي ؟ كنت في حيرة في تفسير هذا السماح ..كنت أجلس معهم بثياب الخروج إلا مرة كسرت الحاجز ، ولم يحدث شيء ، حتى مال لم يعلق ، وقلت لنفسي سأكرر ذلك بعد حين .. لم أحاول الغزل معه أو اعطاءه فكرة أني أغرم به .. وهذا لم يكن بعد ؛ إنما صار هذا بعد .. وتجاهلني كليا لما أخذت أرسل له إشارات عاطفية ورغبة بعلاقة عاطفية ؛ ربما استاء وخشي من تطور الأمر .. صرت حقيقة أتشوق للقائه كالعاشق الولهان .. وخشيت الافتضاح وإدراك أمي لحركاتي أو حتى ثاني لما أبوح به له من كلام حب ومن غمز وجمل معلقة .. فكنت أتحدث عن غراميات فتيات المدرسة والجيران ، وما أسمع من قصص البنات ، وأتحدث معه صدقا ؛ كأنني أتحدث مع صديقة أو زميلة مدرسة ، وأتحدث مع ثاني عنه بدون أي حساب .

قلت لكم إن العائلة لتمضية حياتها تذهب للمسارح والسينما والحدائق والنزهات .. فأبي

يحب ذلك ، وفي الغالب ترافقه أمي .. أما نحن مرة هكذا ومرة أخرى لا نذهب حسب المزاج والرغبة .. وتمنيت مرافقتهم لمال وثاني إلى السينما أو مطعم ، لم أكشف مكنون قلبي لهم .

وأصبح مع الوقت وجودي معهم أمرا طبيعيا ، ولو لوقت قصير إذا كانت هناك صديقة أو أقارب يزورونا من جنسنا النسوي.. لم أجد معارضة من أحد أو نقد .. وترى أمي أن ذلك طبيعي ما دمت أنا راضية به ، ويريحني من البقاء وحدي في غرفتي حتى لو بقيت لنصف الليل.

مال أحدث تغيرات لم أتخيل حدوثها في البيت ، حتى أبي لم يعترض على طول سهرنا معه ، كان يرى مالا رجلا ومهما في البيت ، ويعتبر مالا كنزا أن خفف من سهر ثاني في الخارج ، وإذا خرج مع مال نعرف مكانهما.

كنّا مرة أنا وثاني ومال وحدنا في البيت ، كانت النية أن يذهبا للمقهى لموعد مع رفاقهم في لعب الورق ، ولما علم مال بخروج العائلة واقتراح ثاني البقاء في البيت وعدم تركي وحدي ، وافق مال على الاقتراح ، وأنا أسمع بعد تردد قصير ، وقوله الأصدقاء سيعتبون علينا نعتذر لهم غدا ، ودخلا وقال ثاني : لغينا الخروج يا أولى .. لم نحب أن تبقي وحدك خوفا عليك من الغيلان يقال يا مال إن الغول حيوان خرافي !

قال : نعم ، هذا صحيح مع أن الأمهات تخوف صغارها بالغول والغولة .

حييت مالا كالعادة ، أصبح أمرا لازما الخروج للترحيب به ، وشكرت شقيقي على تعاطفه ، وقلت مازحة : لعلك خفت يا ثاني أن أدخل صديقا في غيبتكم .

ضحكوا وقال : لم يخطر في بالي ذلك يا أولى .. فأنت في الخارج لا صديق لك .

ـ القلوب تتغير يا مال أليس كذلك ؟

قال ثاني : أختي يا مال لم نسجل عليها صحبة شاب .. أنا فعلت وفشلت علا مثلي .. أما يزيد فله عدة رفيقات كما يزعم.. وتذكر يا صديقي أنه يصغرني بأربع سنوات ؛ ولكني لا أصدقه .. فهو إذا جلس مع فتاة اعتبرها حبيبة .. ادخل أيها الصديق !

بيتنا واسع يتكون من طابقين ، نحن الأولاد الأربعة لنا الطابق العلوي والأسفل للوالدين وغرف الاستقبال والمعيشة .. الذي تقدم في علاقتي بمال أصبحت أمد يدي لمصافحته ، وهو يفعل مثلي.. وأحيانا يمازحني بكلمة غزلية أو بيت شعر عاطفي ، ويقول : البنات تحب الغزل يا ثاني ولو نفاقا .

فيقول ثاني : أصحيح يا أولى ؟

رددت : قد يكون ذلك صحيحا كما نرى من بنات المدرسة .. ترى الشاب يكلمها بما يفعل مال .. فتذوب حبا ، وتصنع من الحبة قبة .

فعقب : إذاً يا مال احذر من الغزل بأولى ؛ لأنها إذا أحببتك ستغير حياتك

قال : بماذا ستتغير حياتي يا ثاني ؟

لم أشعر أن مالا يغازلني من خلف الستارة بما يفتتح حديثه معي ، فقد قال ثاني : إن مالا يكره النساء .. وكررت أمي ذلك .. فهل هو صادق بكره النساء أم هو زعم؟! لم أتناقش معه في ذلك لحتى ذلك الوقت .

كنت أفكر بهذه الكلمة والكره ، وما يعني الكره لنا عنده ؟ وهو منسجم معنا أنا وأمي ، ونحن من جنس النساء ، لم أشعر بأنه يكرهني ، ويعاملني بضيق أو بغض ؛ بل أراه فرحا وباشا لرؤيتي ، ويقابلني بالابتسام والغزل .. وفيه صفات جميلة وطيبة ، بل صرت أتخيله معي في السرير زوجا ويداعبني وأداعبه .. وأحلم به زوجا ، ثم أعترض على هذه الأفكار ، وهذا الخيال .

صنعت لهما الشاي ، ثم دخلت ولبست ملابس البيت ، خلعت ملابس الخروج ، وكان الأمر عاديا بالنسبة لهم ، لم يعلق أحدهم على فعل هذا .

وهما مغرمان بالشاي ؛ ربما يشربان إبريقا كاملا ، ويطلبان المزيد ، يتحدثان عن الرياضة ومنافساتها والنوادي الرياضية .

ويتحدثان عن المدرسة والطلاب والمدرسين والمدير ، وعن مغامرات الشباب النسائية ، ثم

يفسحان المجال لي للحديث عما أشاء من قصص في المدرسة مع الزميلات في النادي كما يتحدثون .. نضحك نعلق ندخن .. أنا لا أكثر من الدخان سيجارة أو اثنتان طول الجلسة .. ثم نأخذ بالحديث المشترك بيني وبين مال عن آخر لغز بوليسي وصل البلد .. فهذه الألغاز كانت تصل شهريا للمدينة ، ونتحدث عن المؤلفين مثل هوجو وإسكندر وزولا والسباعي ، ومن يخطر على بالنا ، ثم سمعته يقول : أنت فتاة عجيبة وممتع الحديث معك !..لم أكن أتخيل فتاة في سنك تقرأ مثلي.. أغلب البنات يبحثن عن الأغاني العاطفية والمغامرات الولدانية.. أما الثقافة والجدية فهذا قليل .. أقول ذلك حقيقة .

قلت : كما تجد شبابا جادين .. هناك فتيات جادة ، ولا يفارقن المكتبات سواء في المدرسة أو النوادي .. وهناك الزاهدات في الثقافة .

ضحك وقال : حلوة كلمة الزاهدات يا ثاني ! لي صديق عاجز عن قراءة الرسائل التي تأتيه من الصبايا .. صدقوا أنني لا أبالغ سوى الهدايا والدفاتر التذكارية التي تهل عليه منهن .

أخذ ثاني يكيل له المدح حتى غرق بالخجل والحياء ولي .

فقال مال : أنا الحيي من النساء اندمجت في النقاش معك.. أنت ممتازة يا آنسة حقا .. ففي كتب المدرسة تتعمقين ، وفي القصص تقرئين بصورة جدية وتعين ما فيها .. هذا ذكاء منك!

قلت لنفسي : أهذا غزل فيّ منه ؟ هل هو حب مبطن؟! أمره يحير .

وهذا الكلام لما يصدر من شاب مراهق لفتاة مراهقة ، فهو خطير وجريء وأمام أخي، فقلت : شكرًا لكما .. أشكر لك هذا الثناء لي ولأخي الحبيب وتوأمي يا مال .

قال : هذه الهواية ليست لدى ثاني .

فقال ثاني : رغم سعي أمي لزرع هذه الهواية فيّ لم أنجح ؛ لكنها نجحت مع أولى .. وتعطيها لتشتري الكتب والقصص .. حتى يزيد وعلا ليسا مثلها

قال مال : متى تقرئين هذه القصص والكتب ؟

قلت : عادة في المساء قبل النوم أو قبل الذهاب للمدرسة إذا استيقظت مبكرة .

قال : تستغلين الوقت .

ـ أجل ، أستريح لما أرجع من المدرسة.. في العادة لم يكن والدي قد عادا من الدوام اليومي .. نتناول الطعام المعد ليلا أو فجرا ، ثم أراجع إن لم أنم بعض الوقت حسب إرهاق المدرسة ، ثم القراءة إلا إذا خرجنا في أمر ؛ ولكني أقرأ قبل النوم حتى لما أسهر بصحبتكم أفعل قبل النوم .. ولا يعني هذا أنني محبوسة .. وأنا لا أخرج دائما معهم .. فاستغل خروجهم في المطالعة .. أخرج لتغيير الجو واكتساب المعارف من مخالطة الناس .. ولي منافسات في المدرسة وفي نادي المقاصد أو نادي المالية .

عقب مال : هذا أفضل شيء للفتاة .. أحسن من تضييع وقتها في التسكع مع شباب مثلج غير محترم يبحث عن الشهوات والوهم والضياع .

ضحكنا فقد قالها بعصبية وحقد بدا لي وقلت بمكر :كان ثاني يحب ذلك وما زال .

قال ثاني : لا ، يا أولى تغير الوضع منذ عرفت مالا .. لا أدري يا مال لماذا تهرب مني الفتيات سريعا ويبحثن عن غيري ؟! لست بشعا ، أنت الوحيد الذي لا يمل من سماعي .. قبل جلوسك معي كانت هذه ـ وأشار إليّ ـ تسمع خمس دقائق وتنسحب .. اليوم تجلس معي وتسمع بالساعات .

فقال مال باسما : لأنني موجود ؛ ربما أنت وحدك ممل .

ـ لماذا أنت لا تمل من سماعي ؟!

ضحك مال وقال : لا أدري! .. أذكر أول مرة تعرفت عليك بجد كما تذكر عندما جرى بيننا نزاع على هدف .. هل هو صحيح أم لا ؟ ثم تصالحنا وأصبحنا أصدقاء .

قلت : تخاصمتا على هدف .

قال : أنا زعمت أن الهدف خاطئا ، وأصر ثاني على صحته ، وحكم الزملاء بيننا .. وجمعنا الدخان سرا في المدرسة .. هات سيجارة خذ سيجارة وصرنا زملاء صف بعد زمالة الملعب .

قال ثاني : وجدت فيك شيئا جعلني أرتاح لصحبتك .. وأنك لا تستسلم للخصم بسهولة ،

ثم تقبل الاعتذار وتعتذر .

ـ شكرًا يا ثاني .

كانت سهرة ممتعة معهما وخرج الشاب ليلا ، وقد صافحني مودعا ، وهو يقول : الحديث معك في غاية المتعة.. أخشى أن أغير نظرتي عن النساء .

قال ثاني : ليتني أفهم هذه النظرة ! وأنت لم تصاحب فتاة .

ضحك قائلا : ها أنا صاحبت شقيقتك الغالية .. ومن خلالها سأفهم عقلية النساء .

فتجرأ ثاني فقال : هل تعتقد أنك ستصل يوما إلى علاقة غرام معها ؟

صاح :لا ، لا ، لست من أهل الغرام والهوى .

وقلت : أنا وأنا مثلك . ولم يكن ذلك صحيحا .

وسلم واختفى ، وأنا ذهبت لسريري أحلم بالغرام والهوى .. هل يتحدث عني هذا المراهق ؟ لقد أحببته فعلا إنه يدرك أنني وقعت في هواه ؛ لذلك يذكر الحواجز .. لا يريدني أن أتورط . قضيت ساعة أتقلب في سريري وأتخيله ينام بجواري .. هل ورطني ثاني وأمي بهذا ؟ لكني كنت أرغب باللقاء به من أجل القصص وهذه الهواية وقلت : لا يمكن أن يغامر معي ، فليس هناك أمل لزواج بيني وبينه ، ولا أظنه يقبل أن أكون عشيقة له .

أصبحت في مأزق حقيقي ، فقررت أن أتوقف عن الجلوس معهم ، فثاني يورط بي دون أن أشعر .. هل ما بي حب كالذي أسمعه من بنات المدرسة والنادي؟ لذلك لما جاء بعد ليال تظاهرت بالمرض ، وقاومت لم أشاركهم السهر .. وفعلا قضيت المساء مريضة بالصداع ، ثم القيء وبعد هذه المرضة خرجت ، وجلست وقتا قصيرا ، ثم اعتذرت بالتعب والصداع فرافقتني أمي لحجرتي وقالت : ما بك يا أولى ؟

ـ متعبة يا أمي ! دروس اليوم أتعبتني .

ـ هل أسأ إليك مال أو ثاني ؟

قلت : لماذا هذا السؤال يا أمي ؟!

قالت : أنت منذ جلستك الأخيرة معهم عند غيابنا مترددة في السهر معنا

ـ لا ، لم يغضبني أحد منهما ؛ بل أن أسر من الجلوس معهم .. وأنفس عن روحي .

ـ من أجل هذا سمحت لك بصحبتهم .

قلت : شكرًا لك يا أمي .. فرصة طيبة ؛ لكنني متعبة فعلا يا أمي .

ـ حسن !

لما حضر مال في الزيارة التالية ـ كان يحضر في الأسبوع ؛ ربما ثلاث مرات للسهر ـ أيام الاختبارات كان يتوقف الشاب عن الزيارة ـ فلبست أجمل الفساتين ، ونزلت مرحبا به ، وحضرت أمي كالعادة بالشاي والمكسرات أو البسكويت، نهض مال مسلما ومسلما خديه لأمي ، أصبح طقسا مطلوبا بدا لي ، ولما عادوا للجلوس قال: أهلا بأمي الثانية .

رحبت به أمي من جديد ، وسألته عن أمه وأهله وقالت: كيف أنت اليوم يا أولى ؟

قلت : بخير يا أمي

قال : تركتها متعبة المرة الماضية الحمد لله على السلامة .

قلت : لي أسبوع منهكة يا مال .. لم أستطع السهر معكم المرات الماضية .

قال ثاني: أنت لا تنامين مبكرة عادة .

ـ نعم ، كان لدينا في المدرسة أسبوع نشاط متعب .

دعت لي أمي والشابان بالعافية والقوة ، وتحدث ثاني عن قرب امتحانات الفصل الأول والاستعداد لها ، ثم عقب فقال : هل فتحت كتابا يا مال استعدادا لها ؟

تطلع في عيني وقال :أنا لا أعرف كيف يقرأ الناس في كتب المدرسة ؟!

فقالت أمي : كما تقرأ في كتب غير المدرسة .

قال : هذا سر.. أنا أندمج في قراءة كتب علمية وأدبية .. ولما أفتح كتاب المدرسة أنعس وأحس بثقل .

قلت : كثير من الناس مثلك .. كيف تنجح؟

قال ثاني : فعلا كيف تنجح ؟ عمرك ما حملت مادة .. وأنت تعلم أن شرح الاستاذ لا يكفي .

قال: أتصفح الكتاب .. وقد أركز على أشياء معينة .. وربك يجبر .

قالت أمي : إلهام يعني!

تبسم وقال : تقريبا ؛ لذلك أترك الدراسة لثاني .

قلت : ألا تغش وتكتب رشتات ؟

قال : أبدا ؛ بل بعضهم يغش عني .. أنا فقط أسعى للنجاح ،لا أهتم بالعلامات العليا .. والأسئلة متنوعة للقوي والمتوسط والضعيف .

قال ثاني : الأسبوع القادم قد تبدأ الامتحانات حسب ما تسرب .. أين ستقضي أسبوعك ؟

ـ رفاق المقهى يتذمرون من غيبتي ..سأستغل الإجازة عنك معهم ..والنادي الذي أسسناه سأتفرغ له .

قالت أمي : أي نادي ؟

قال ثاني : أولاد حيه أسسوا نادي للعب كرة القدم نادي شعبي.. ومال له نادي شطرنج خاص.

تحدث الشاب عن قصة نواديه ولعبه فيهما ، ولما خيم الصمت ، قالت أمي بسؤال مفاجئ له ؛ وكأنه لي : ألم تعرف الحب يا مال ؟

تطلع إليّ للحظات ، وقال : عرفته كما عرفه ثاني ؛ لكنني ما خرجت مع أي فتاة للمشي في شارع إلى مطعم إلى سينما .. تعرفت على بعض الفتيات في الحي ..نتحدث في ضوء النهار ؛ بل كتبت شعرا في واحدة منهن .. ولم أجلس معها في خلوة ؛ كأنها طلبت أن أكتب فيها قصيدة ففعلت .. ومرة فتاة دعتني لحبها فاعتذرت لما نقلت لي رسالتها .. وهناك فتاة أراها في السنة مرة عندما تأتي من السفر ، حب سنوي .. ويصدف أن أكون منتظرا رفيقا تقف قبالتي تبادلني حركة العيون وغير ذلك .. وأحيانا أشاركها الهبل ، ثم لما تسافر ينتهي الأمر جملة .

قلت : وكيف تزعم أنك تكره النساء ؟

قال : وما زلت .. ولا أعتبر هذه الوقفات غراما بالنساء أو حبا يا آنسة .. الحب الذي أعرفه غير ذلك .. ها هو ثاني التقى بعشرات الصبايا ، ولم يقع في حب إحداهن أو العكس.. الحب أعمق من ذلك.. لي أصدقاء سنوات يغرقون في الحب واللقاءات .. ويحلمون بالزواج من محبوباتهم يا أم ثاني .. أما لقاء فكيف حالك ؟ ما أخبارك ؟ يمسك يدها .. أهذا حب ؟ لا لا .. هذه سذاجة .

قالت أمي : وإذا كانت هناك فتاة تحبك ، وأنت لا تستطيع حبها ماذا عليها أن تفعل ؟

قال ثاني : ولماذا يحبها يا أمي؟ وهو عاجز عن حبها والوصول إليها .

قلت لنفسي : هل تقصدني أمي وتريد نقل رسالة لي ؟

فقلت : ولماذا لا يستطيع حبها يا أمي ؟!

قالت أمي: امرأة متزوجة مثلا أحبتك ماذا تفعل يا مال ؟

قال باسما : أهذا لغز أم حقيقة ؟

ـ لنفرض أنه حقيقة .

رد بجرأة عرفتها فيه : هذه لا تحبه ؛ إنما تشتهيه ..تريد الزنا ، والله أعلم .

فقال ثاني : فعلا هذه امرأة شهوانية تطلب الفاحشة يا أمي .. ما دام لها زوج فلتحبه .. أما إذا لم تحبه فتطلب الطلاق .

قال مال :نعم ، تطلب الطلاق وتحبه .. وقد لا يقبل بها المحب زوجة .

تنهدت أمي وقالت : هذا إذا كانت متزوجة ، وإذا كانت عزباء أو مطلقة أو أرملة أحبت مالا وأنت لا ترغبها حبيبة ماذا تفعل هذه الفتاة ؟

فقال : ماذا تفعل يا ثاني ؟

رد : لماذا لا يستطيع حبها؟

قالت : أميرة ملكة غنية

ـ فعلا هذه صعبة يا مال .

فقال مال : يهاجر من البلد حتى تتزوج أو ...

وسكت فقلت : أو !

قال : لا داعي لأو .

قالت أمي : أو تموت يا أولى .

صحت : أوه ! حسن هذا له !.. وهي ماذا تفعل ليذهب عنها هذا الهوى ؟

قال ثاني : تنسى وتبحث عن ذكر آخر ؛ لنفرض أن الحبيب قد مات .. هل ستبقى من غير حبيب ؟ لا يصدق ذلك .

قال مال : عليها بنسيانه ، وكما قال ثاني تبحث عن رجل من مستواها الاجتماعي .

هل هذه كانت رسالة لي؟ هل أدركت أمي الحب الصامت في قلبي لحبيبي مال ؟ أنا أدرك تماما أن مالا يحس بحبي ..وأن كل هذه الأشعار الغزلية رسالة لي ..أنا غنية وهو فقير .. أنا أبي دكتور مالية ووالده عامل بسيط .. أحببته وسأظل أحبه وإن لم أتزوجه .. فهذا الحل عندي يا مال .. الأيام قد يكون لها أمر وكلام آخر .. حبيبي مال .. ألستم أنتم الذين سمحتم لي بالجلوس معه واللقاء به؟!

اختفى مال مع أيام الامتحانات ، قالت أمي : أتحبين الشاب يا أولى ؟

نظرت إليها مليا ثم قلت : ولماذا لا أحبه ؟ ألستم تحبونه ؟!

قالت بهدوء : نحن أحببناه كصديق لنا.. أما أنت فتحبينه كحبيب ؟

قلت : لا أدري!

ـ أنا أمك يا أولى ، وأعرفك لست غبية .

قلت : والحل يا أمي!

كان الحديث بيننا فقط : أنت من جيله ..وأنت من تعرفين من نحن ؟وهو صديق ثاني ، ولا يقبل خيانته .

قلت : أنا حبي له في قلبي يا أمي ! وأعرف من أنا ؟ ومن نحن ؟ ومن هو ؟

□□□

قالت : فالزواج منه يا ابنتي صعب .. وأنت أمامك الجامعة قبل الزواج .

قلت : أعرف يا أمي .. لن أخلو به .. ولن أغازله .. ولن أكتب له .

ـ الأمر صعب عليك ، ولم أكن أتوقع منك ذلك .

ـ القلب بيد الله .

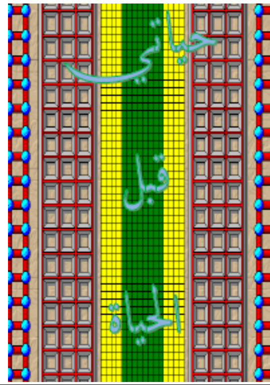
ـ العقل من الله .

قلت : لم يلمسني يا أمي ، ولم نخلُ ببعضنا .. فأحبه في الخيال ، وأعرف أنه لا يفكر بي زوجة أو حبيبة .

قالت : نسلم أمرنا لله أفضل .

قلت : أشكرك يا أمي ! وإذا ترين أن لا أخرج للحديث معكم أفعل .

قالت : لا أمنعك من ذلك .. فليبق الأمر بينكم حول هوايتكم المشتركة فثاني لن يتخلى عنه بسهولة .. فلنصبر حتى تنتهي هذه المرحلة .



□□□

النجاح والفراق

أحببت مالا حبا صامتا ، رغبت بأن أتمشى وإياه في حديقة ، أذهب معه إلى مسرح أو دار عرض .. الحواجز بين العائلات لا تسمح بذلك إلا إذا تحديت أسرتي.. وهل يقبل مال ذلك؟ لا أظنه يقبل ؛ لأن الحب بدا داخل بيتنا ، لم أعرفه في شارع أو نادي أو أي مكان ..نشأ الحب في بيتنا .. وهو صديق أخي الوحيد ..وأنا متأكدة أن الشاب يحبني ، عيونه تتكلم ، وحركاته وحديثه يقول ذلك ؛ ولكنه لا يريد خيانة صديقه الذي سمح له بدخول البيت والجلوس مع أمه وأبيه وأخته .. نعم عليّ أن أكظم عشقي لهذا الشاب كما يفعل هو .. الحب الصامت .

رضيت كما تريد والدتي بحبي الصامت والجلوس معهم ، وحصر علاقتي به بالقصص والثقافة ، لا مجال للخلوة والقبل والمداعبة تركتها للفراش والأحلام والخيال.

دخلت الثانوية العامة ، وبدا الاجتهاد لي ولثاني .. علينا أن نجتهد .. عرض الوالد علينا المدرسين الخصوصيين ، فقبل ثاني ورفضت أنا فلست بحاجة لهم .. قلّت زيارات مال .. لم تنقطع كانت ليلة الجمعة فقط ، ولم يحدث لحبي الصامت أي تطور .. اليأس فقط .. فنحن من جيل واحد ..وهو الفقير وأنا بنت الغني .. ومال لم يحاول جري لعمل يسيء للعائلة .. وجاءت الامتحانات بعد سنة طويلة .. نجحت بمعدل جيد جدا ، وثاني تقريبا مثلي وأما صاحبنا مال فلم ينجح .. وهذا كان متوقعا كما قال ثاني .. فهو ضعيف للغاية في مادتي الرياضيات واللغات الأجنبية .. كنّا نتمنى له النجاح مثلنا .. واتصل بي مهنئا وبأمي ، ووعد بزيارة من أجل ذلك .. وفعلا كانت بعد هدوء عاصفة نتائج الثانوية العامة .. حضر بعد أسبوع بعد ترتيب مع ثاني وقبلني لأول مره من ناصيتي وهو على البوابة مهنئا .. وقبل أمي مباركا .. وسهرنا معه ، وجاء والدي وثاني .. وتعشينا سوية بصحبته وواسيناه وحدثنا أنه يفكر بالذهاب لخدمة العلم ، وشجعناه جميعنا بالكرة ثانية .. وعرفت أنها زيارة وداع أيضا . ولما انصرف شكرنا شكرًا أخجلنا .. فالرجل له لسان جميل ، وتمنى لي التوفيق في الجامعة ،

وسمحت له بتقبيلي ثانية .

وقلت له : أحبك وسأبقى أحبك فقال همسا مثلي : وأنا كذلك . وأعطاني رقم صندوق بريده وقبل ثاني وأمي وقال : لعلنا نلتقي .. الأمور ستتغير .

قالت وقد دمعت عيناها : أحببناك يا مال ، ونتمنى أن لا يكون هذا لقاء وداع .

قال : لا أنساكم يا خالتي أبدا .. فأحلى ثلاث سنين كانت لحتى الآن .. واستوصوا بأولى خيرا .. فهي أعز صديقة ومعرفة لي .

فقال ثاني : أحبك يا مال كما أحب أسرتي .. وأنت الصديق الغالي.. وستبقى صداقتنا ..فانت تعرف البيت والحي والهاتف.

اختفى جسد مال ، ودخلت حجرتي أبكي .. بكيت وكثيرا ما بكيت من أجل مال ..وكنت قد تصورت معه في البيت طبعا .. تصورنا ذات ليلة بكاميرا اشتراها يزيد ، فهو من هواة التصوير.

أخرجت تلك الصور ونظرتها من جديد ، وهمست : أحبك يا مال الدين هل تكون شريك هذا السرير يوما ما ؟ أليس ذلك نهاية الحب الزواج ؟

التحقت بكلية اللغات أدرس اللغة الفرنسية كما كنت أرغب ، وأخي كلية العلوم ؛ ليكون مدرس علوم .

يشعر الانسان بالفرق بين الثانوية والجامعة ، شعرت أنني كبرت سنوات .. الاختلاط لم يكن جديدا عليّ ، فنحن نختلط بهم في النوادي التي نشترك فيها ، لم أكون أي صداقة مع فتيان وشباب النوادي ، لم أجد من يهواه القلب .

كنّا نتابع أخبار مال الدين عن طريق ثاني الذي اشتغل مثلي في الجامعة ، وبدا يتلاشى مال من حياته ، فقد وجد في البنات وفتيات الجامعة هوى ورغبة أكثر ، فبدأت مغامراته سريعا .. وأمي تتابعه بحرقة وخوف .. فهي درست في الجامعة مثلنا ، وتعرف مغامرات الجامعة وبنات الجامعة حيث يضيع الشباب بين السيقان والخمور والفجور ، وتخاف عليّ أيضا من التعرف

على شاب شهواني يفترسني كما تقول بكل صراحة .. الشباب عندها ذئاب يبحثون عن الرغبات .. والفتيات مستعدات لذلك ،وأنا لمست ذلك سريعا.

فكنت أكتب لمال بما أرى وأسمع ، ويقدم لي النصائح والإرشادات والمحافظة على نفسي وشرفي وعدم الانزلاق في مغامرات غير محسوبة .. وكنت أسمع ما يقول وينصح وأقبل به .. أكتب له وأنا في الحديقة ، وأنا في المكتبة .. كنت أجد لذة في الكتابة إليه وسماع أخباره .. وفرحت لما أخبرني أن أمه مصرة على أن يعيد ، وأنه سجل في مدرسة خاصة ، ثم علمت أنه ملّ وأخذ يعمل في مهن مختلفة، وأنه مصمم على الذهاب للجيش وأداء خدمة العلم .

الجامعة عالم جميل لمن أحب أن يكون جميلا ، وعالم بشع لمن أراد ذلك .. مطاردة الشباب للبنات أمر تشمئز منه النفس .. ترى ذكورا لا هم لهم إلا البنات .. وبنات أيضا لا هم لهن إلا ذلك .. وهناك الجادون من كلا الجنسين فتعرضت لمضايقات ومحاولات تكوين صداقات همها العبث والشهوات قاومت وركزت على دراستي ؛ لكن فرعي كله شباب من أسر غنية .. الدراسة أمر ثاني لهم ..تصاحبه تجده يريد جرك لحفلات وسهرات ..وبعض الصديقات سقطن ، وصار همهن قضاء ليلة في حضن شاب فاسد شهواني .. ثم تنتقل لآخر .. وأخرى ترغب بزوج بعد التخرج.. فيقضي شهوته ويتركها تبحث عن غيره .. الوضع لم يكن مريحا لي .. وبعضهن تساعد الشباب في اصطياد الشابات لمثل هذه المغامرات .. استطعت اجتياز السنة الأولى بدون السقوط رغم فساد من حاولت صداقتهن .. لم تسمح لي نصائح وحماية أمي ورسائل مال بالانزلاق للهاوية .. ولم أجد الفارس الصادق الذي لا يريد الجسد .

لديّ جهاز مناعة ولكن الإثارة والرغبة تلتهب في الجسم مما تسمع وترى تظن أن الجامعة مرتع للبغاء .. تدخل حديقة تجد ما يريب .. تدخل المطعم كذلك .. وجدت النادي أهون شرا من ساحات الجامعة وخاصة كلية الآداب .

كنت أتحدث مع أمي عن ذلك ، وتنصحني بحسن الاختيار للزملاء والزميلات ، وأن الفتاة إذا سلمت نفسها لشاب سيهجرها بعد حين ويبحث عن غيرها .. وهي ستضطر البحث عن

غيره لتجبر كسرها فالصبر والثبات هو الأفضل .. وأكثر أحاديث الشباب عن الرغبة والجنس والعلاقات العابرة ، وأن فترة الجامعة لن تعود .
دخلت السنة الثانية وعلاقتي بمال رسائل ، وهو يستعد للذهاب للجيش لأداء التجنيد الإجباري كما يسمونه .
ولما تجند دخلت السنة الثالثة في الجامعة ، أصبح لديّ الرغبة بقوة لإيجاد البديل عن مال ، وأن لا أمل بالزواج منه ونهاية لحبي له .. هو خرج من الدراسة ، وهذا سبب آخر يباعد بيننا سوى المستوى الاجتماعي والطبقي المصطنع والسن ؛ لكن حبه في القلب .. فحدثتني أمي عن زوج عن ابن خالتها مازن سميح درس الطب سنة ، ثم تركه ودرس القانون ، وهو يعمل محاميا في مكتب خالي هاني سالم .. وهو يرغب بزوجة بعد تخرجه وعمله .. أنا أعرفه جيدا ، دخل بيتنا ، ودخلنا بيت أمه خالة أمي ، وأعرفه من خلال النادي المقاصد الكبرى .. وكان ينظر إليّ حقيقة دائما بشهوة ورغبة واضحة في عينيه .. حاول معاكستي مرارا ؛ لكني اعتذرت له ، وأخبرته أنا لا أحب هذه الأفعال الصبيانية ، وانتهى الأمر حتى دخلت في السنة الثالثة .. وكان هناك شاب جامعي يرغب بي زوجة بعد التخرج ، ولم ينل مني قبلة فانقلب إلى فتاة تمشي معي ؛ ليدفعني للغيرة ؛ ليعود إليّ فتجاهلته .. فحاول ثانية فصرفته بالتي هي أحسن .. كان الأمل في الحياة مع الشاب الذي تفتح له قلبي يتضاءل .. مازن مصر على الزواج مني وخالة أمي تضغط على أمي وأبي .. وأن الشاب مستعد للصبر حتى أتخرج إذا حدثت الخطبة أو الزواج واكمال الدراسة .. وأنا الرغبة برجل تزيد في جسمي .. الجسم يصيح والشهوة تزيد والهرمون يرتفع لديّ .. مغامرات ثاني تعزز النار في جسدي .. أريد رجلا .. أريد حبيبا ..أريد أن أفرغ طاقتي التي زادت لديّ حتى أن أمي أدركت أنني على وشك السقوط ، وأنني ما زلت متعلقة بمال.
قالت أمي : تزوجي من مازن.. أليس هو رجلا كغيره ؟
قلت : لا أحبه يا أمي كيف سأسلمه جسدي قبل روحي ؟

ـ قد تحبينه بعد الزواج .

قلت : هل الزواج قضاء الشهوة فحسب ؟

ـ هذه أهمها.

قلت : أنا أريد مالا .. هو الحبيب الذي أحببته .

قالت : أمر الوصول إليه أمر لا تقبله العائلة يا ابنتي.. أما مازن فلن يعترض أحد .

قلت : هل أسلم نفسي لشباب الجامعة أفضل على أمل أن يحن أحدهم للزواج مني .

ـ لا شباب الجامعة ولا مال .. مال لا يقبل أن يتزوجك .

قلت بغضب : لماذا ؟ لأنني ابنة هدى سالم وموسى أمير .

قالت : لأشياء أخرى .

قلت : صدقي لو لم يجد رفضا منكم لقبل أن يبادلني الحب .. ولم ينظر للغنى والفقر .. هل سيبقى فقيرا يا أمي؟ .. وأنا سأعمل براتب كبير لما أتخرج .. ها أنت تساعدين أبي في مصروف البيت .. لو وجد تشجيعا منك لعبر عن حبه صراحة لي.

قالت : وكيف سيقبل بك وهو في الجيش بعشرة دنانير لا تكفيه سجائر ؟!

قلت : سيقبل .. أنا متأكدة أن الشاب يرغب بي ؛ لكن الحواجز التي كانت في طريقه دفعته أن يبتعد .. ولماذا يعترض ثاني على الزواج من صديقه ؟

ـ أنا أعلم رغبتك الشديدة به من تلك الأيام .. الظروف لم تكن تسمح .. أنتم صغار .

ـ دعيني أحاول ؛ فإذا رفضني سأقبل الزواج من قريبك مازن .

قالت : كيف ستحاولين ؟!

قلت : سأقنعه بالزواج مني وبحبي له .

قالت : افعلي ما تشائين يا أولى !

عانقت أمي وأخذت موافقتها على الاقتران بمال ، وقلت الآن جاء دورك يا مال .

تحدثت مع ثاني عن رغبتي بإقناع مال صاحبه بالزواج مني فامتعض ، وقلت : وافقت أمي

على ذلك .. وأنا معجبة به .

ـ وهل وافق هو ؟!

ـ لا نتحدث بذلك.. وهو كما تعلم في الجيش .. وأنت منذ انتهاء الثانوية لم تعد تجتمع به إلا عرضا .

قال : لم تجدي إلا مالا !

حدثته عن مازن وعدم رغبتي بالزواج منه ، وإذا وافق مال سأتزوج منه رغم فقره .

قال : لم أكن أظن أنك واقعة في هواه لهذا الحد .

ـ لم يظهر لي ذلك .. أنا التي أحببته ، ورفضته أمك .

ـ وأبي .

قلت : ليس مهم رأي أبي .. الرأي لي يا ثاني .

قال : المطلوب مني .

قلت : أنا أريد أن يزورنا مال وأصارحه برغبتي هذه ، وأحاول إقناعه ؛ فإذا لم يوافق سأتزوج مازنا .. هكذا اتفقت مع أمك .

قال : البنات عجيبات .

قلت : لم أحب أحدا في الجامعة .. أريد مقابلته في البيت ؛ لأتحدث معه في الأمر ، وأحسم أمر مازن .. عليك أن ترتب دعوة له وأنا أحدد اليوم .

استسلم ثاني لرغبة شقيقته ، وخشي أن تقابله من دون علمهم ، وحدث مالا برغبته بلقائه ورغبة أولى أن تحدثه شخصيا بأمر مهم وشخصي ، وتحدد له وقت اللقاء.

اللقاء الحاسم

وافق مال على الزيارة واللقاء وبعد غروب الشمس في يوم ماطر ذهب لدرب القلعة ، وضغط على الجرس ، فتحت أولى البوابة ، ولما دخل عانقته ، واحتضنته وضمته لصدرها كغائب رجع من السفر ، وقلبها يخفق بشدة .. وارتبك مال لفعلها ، وكانت ترتدي فستانا فوق الركبة ، وتضع عطرا مثيرا للرجال ، كانت كأنها زوجة في استقبال زوجها العائد من السفر .

جلسوا في الصالون ورحبت أمها به وكان حديثا مطولا ، ثم خلت به وحدثته عن رغبتها بالزواج منه ، وكانت تقوم بحركات اغراء ورغبة جنسية واضحة ،وتكاد أن تسلم نفسها له ، وهو يتمالك رغبته وشهوته ويدافع عن نفسه ، ولا يحب الخيانة والزنا ، وبذلت جهدها لينام معها ، ولو ساعة ما دام لا يرغب بها زوجة ، وكانت ساعة عصيبة عليه مما دفعه أن يرفعها عن فخذيه ، فقد جلست عليهما ، وحاولت تقبيله من شفتيه وهو يمانع ، ووضعت يده على ثدييها ، فدفعها عن نفسه ، ونهض قائما وخرج مسرعا من البيت ، وهو لا يدرك ما حدث ، ويعجب من رغبتها واستسلامها لشهوة الجنس ، ولما اختفى دخلت أمها ، ووجدتها تبكي فصاحت : سلمته جسدي ورفض هرب .

ـ ماذا فعلت ؟

قلت : عرضت عليه بدني ورفضه .

قالت : ماذا أسمع ؟! هل جننت؟!

قلت بجنون الشهوة : أريد رجلا .

قالت : تريدين رجلا بالحرام !

صحت فيها : وهل نحن نعرف الحرام ؟!

قالت : هل فعل بك شيئا؟

صرخت : هرب .. رفض هذا الجسد .. سأتزوج مازنا لعلي أجد لديه ما لم أجده عند مال .. أأتخذ عشاقا لتهدأ النار في هذا الجسد ؟

قالت أمي وقد عاد إليها طبعها: وهل الجنس يهدئ النار ؟

قلت : الجنس حاجة ملحة للجسم .

قالت : أنت جننت .

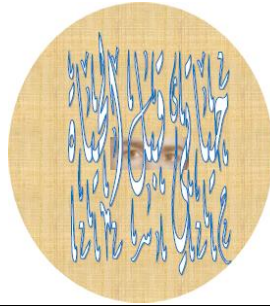
صحت : وماذا يفعل ثاني ويزيد مع البنات ؟!

أخذت تبكي أمي ، وأنا أبكي .

ثم سكنّا ، وكان الحل قبول مازن ذكرا لي ، وكان ذلك خلال صيف العام الثالث لي في الجامعة .

لقد فشلت بإقناع مال بالزواج مع اعترافه بحبه لي واشتهائه لجسدي ، وقدمت له بدني على طبق من فضه ولم يقبل، وأعلم أنني أخطأت خطأ كبيرا في حقه .. وأما أهلي فليس لهم اهتمام عندي .

أتى مازن وأهله ، وقرأوا فاتحتي ، وقبلني الشاب بشهوة أشعلت الرغبة فيّ وأسرعنا بالزواج ، وسلمت نفسي لمازن البغيض لقلبي، ولم أحبه يوما ؛ إنما كان مجرد شريك فراش ، لم أجد عنده الحب ؛ إنها شهوة نقضيها معا ، ولما ينته اللقاء ؛ كأننا أصدقاء شارع أو نادي .. كنّا مجرد زوجين .. ولم يكن بالزوج المنشود ،ولم تكن معاشرته ترضي امرأة .. كله عيوب .. وأعتقد أنه عاشر نساء غيري .. فهو لم يكن شريفا وطاهرا .. وأنا منذ أول ليلة اعتقدت أن له عشيقات وبنات هوى .. كان مستهلكا أقول ذلك ؛ لأن هذا واضح وبان مع الوقت .



التخرج

بعد زواجي السيء من المحامي مازن سميح ابن السبع والعشرين سنة بسنة تخرجت من الكلية .. وكان أبي قد يسر لي عملا فور تخرجي في معهد تدريس اللغة الفرنسية للشباب العرب .. وكنت قد ذهبت عددا من المرات للمعهد ولي معرفة به .. وكان هناك شبه اتفاق على ذلك .. ورغم ما حدث بيني وبين مال كنت أكتب له ، واعتذرت له عن تلك الليلة السوداء ، وبدا أنه تقبل اعتذاري ورغبتي به زوجا أو عشيقا .

ولما تخرجت هو أيضا أنهى خدمة الجيش ، وقل رده على رسائلي ، وبعد تلك الليلة لم يطرق باب بيتنا ، وخفت علاقته أصلا ببيتنا كما تعلمون منذ النجاح في الثانوية .. وظللت متعلقة به رغم زواجي ، ولم يكن مازن الرجل المريح لي .. فأنا كنت أسمع قبل الزواج عن مغامراته النسائية السيئة ؛ لكن الأسر عندنا تسمح بذلك للرجال وتغض الطرف عنه .. وقد حدث ذلك لأبي قبل استقراره العاطفي ، وسكتت أمي عن ذلك ..ولما دخلنا سن المراهقة لم يحدث ذلك من أبينا أو لم نسمع .. وقبلت بالزواج ؛ لأني احتجت لإشباع تلك الغريزة بالحلال قبل السقوط الذي أخذ يلح عليّ .

قلت يوما لمازن : هناك امرأة تتصل كثيرا بالبيت اسمها بلا

حك رأسه وقال : هل تريد شيئا ؟

تقول : إن لها قضية عندك .

قال : لها قضية عندنا ولماذا لا تتصل بالمكتب ؟

ـ وتقول إنها صديقة لك .

ـ صديقاتي كثيرات يا أولى .

قلت : ألا تريد أن تخفف علاقتك مع النساء وقد تزوجت ؟

قال : أرغب بذلك ؛ ولكن التخلص منهن يحتاج لوقت يا أولى .

قلت : لك اليوم زوجة وحبيبة .

قال : أنت زوجة .. لست حبيبة .. أنت حبيبك مال .

قلت : قلت لك ليس بيني وبينه أي علاقة جسدية يا مازن .. وأنا تعلقت به فترة الثانوية .. فقد اختفى من حياتنا بعد نجاحنا في الثانوية .. وما خرجت معه يوما ، ولا خليت به خمس دقائق يا مازن .

قال ببرود : ليتني أصدق .

قلت : ليس بالضرورة أن تصدق .. أنت لا تستطيع محاسبتي على عمل فعلته قبل زواجنا .. هل سألتك عن نسائك قبل الزواج ؟.. وأنت لليوم تُمارس البغاء معهن .

قال : أنا حر .

قلت : إذاً لا حق لك بمحاسبتي ، ولو اتخذت عشيقا .

قال بوقاحة : اتخذي عشيقا إلا مالا .

قلت : كانت لحظة ضعف عندما قبلت بك .

قال : أعلم ، ووقع في قلبي أنك سلمت لنفسك لرجل ، واحتجت لترقيع الأمر .

قلت : لو حدث ذلك ما تزوجتك ، ولو قبل بي مال ما تزوجتك يا مازن .

رد قائلا : أعلم .. متى ستحملين ؟

قلت : أنا لا مشكلة لديّ .. المشكلة عندك.. قلت لا خلفة قبل خمس سنوات زواج .

قال : غيرت رغبتي ، أمي وأمك يريدان الحمل .

قلت: سأتوقف عن أخذ الحبوب ؛ لعلك إذا صرت أبا تترك النساء والعشيقات .

قال : لا عشيقات لديّ .

قلت : لا تضحك عليّ .. أنا سمعت من أختيك شفاء وهناء وأخيك هاني

فقال ساخرا : هذا لا شيء يخفى .

هكذا كنّا نقضي أوقاتنا بنشر غسيلنا خاصة مازن .. وكان عليّ القبول بهذا الواقع المر ؛ لأنني لم أتزوج ملاكا كما تقول أمي .

□□□

شغل العمل في المعهد الفرنسي وقتي من المهاترات مع زوجي الشبق للنساء وهو ضعيف جنسيا ، لم أجد فيه الفحولة التي يتظاهر بها أو أنا مريضة جنسيا ، مع أنني لم أمارس الجنس قبل الزواج ، كنت عذراء لما تزوجت الفاشل مازن .

الدوام في المعهد يبدأ من العاشرة صباحا حتى الثانية بعد الظهر أربع ساعات التدريس .. هناك أنشطة أخرى رياضة مكتبة أبحاث ترجمات تأخذ المزيد من الوقت .. قد أعود مع الغروب للبيت أو أذهب في زيارات خاصة .. أصبح البقاء في البيت للشقاء والنزاع ..وكثيرا أذهب للمبيت عند أمي فأجدها وحدها تجلس مع التلفزيون ، وأبي في حجرته يخرج مرات ليرحب بي ، ومرات لا أراه ، هذا طبعه منذ دخلنا الجامعة .. رغبة القراءة استمرت معي طول سنوات الجامعة وفي المعهد ..كنت أقرأ الروايات باللغة الفرنسية .. فاطلع على طبعات أصلية لأدباء فرنسا .. بعد سنة من العمل ذهبت في رحلة لفرنسا وباريس على نفقة المعهد للمزيد من المعرفة عن فرنسا .

بعد عودتي بيسير علمت أنني حامل من المدعو مازن ، وفي عام أربعة وثمانين وضعت مولودي الأول .. كان ذكرا ، تشاجرت مع مازن على تسميته أردت أن اسميه مالا بدون الدين ، فرفض مازن بشدة ، وعيرني بأنه اسم عشيقي .. يا ليته كان عشيقي ! تدخلت أمي وخالتها وسميناه جلالا ، ولما انتهت اجازة الأمومة تكفلت برعايته حماتي أم مازن ، حتى أعود من المعهد ، فتركت العمل الاضافي ، ومع وجود الطفل لم نخلص من المناكفات مع بعض حتى وصل به الظن مرة أن يقول هذا الطفل من أين أتيت به ؟ فصعقت للاتهام ، وكاد الأمر يصل للطلاق والفراق ، وتم ترقيع الأمر ، وعدت إليه ذليلة .

أحببت طفلي ، ولم يرضع من صدري سوى أول أيام ، ثم كف صدري عن الحليب ، فتعود على الحليب الصناعي .

رغم ولادتي لجلال لم تنته المشاكل مع مازن ، وقلت له مرة : لماذا تزوجتني يا مازن ما دمت تراني مومسا ؟

□□□

فقال : انتقام .

دهشت وقلت : انتقام ! وماذا فعلت لك للانتقام مني ؟!

قال : أسأت لي مرة في النادي أمام حنان .

قلت : من حنان ؟!

ضحك وقال متهكما : لا تعرفين حنان !

قلت : لا أعرفها .

فصرخ في وجهي : بنت الدكتور باسم .

تأوهت وقلت : آه ! تلك السمراء .. وكيف أسأت لك ؟

قال : كنت أجلس معها نشرب الكولا ، وسلمت علينا من رؤوس مناخيرك ؛ كأننا حشرات ثم قلت لها: ألم تجدي إلا هذا المراهق تحبينه ؟ فقالت : نعم ، هو مراهق بغيض ؛ لكنه مسلي . . ثم ابتعدت عنا .

قلت : كم كان عمري يومها ؟

قال : ليس مهم العمر ..أسأت لنا ، وابتعدت عني قائلة قريبتك تحتقرك

قلت : ومن أجل هذا تزوجتني لتنتقم .

قال : نعم ، هذا أحد الأسباب .

صرخت في وجهه : يا لك من نذل ! خطر في بالي أنك أحببتني يوما ما دون أن أدري .. رغم سماعي الكثير عن قصصك من البنات والنساء المتزوجات قبلت بك .

قال : لتغطي على فجورك .

قلت : لست فاجرة أيها الفاجر الحقير ! ولكني سأصير فاجرة بسببك .

قال : غير مهم ؛ بل سأصاب بالسرور لو رأيتك في حضن رجل غيري .

طفح الكيل ، كان زوجي لا يقربني بالشهر أو أكثر بحجة معاقبتي ، وهو يعاشر عشيقاته والخائنات ، وأعرف بعضهن ، يدخلن بيت العائلة بثياب الشرف والعفاف ، وكانت أخته

شفاء التي تبغضني أكثر منه توفر له مثل ذلك ؛ لأنها بغي وتخون زوجها .

كان أخي ثاني خلال سنوات الجامعة قد فسد ، وأكثر من الزنا حتى فاحت ريحته وتعالج من السفلس كما قيل .. التحق بالجيش بعد الجامعة كسائر الشباب ، ولما أنهى تدريبه الأولي عمل في المدارس العسكرية ، ثم تزوج من ابنة مدير مدرسة ، ووجدنا أنه من سكان درب القلعة .. فتاة اسمها ميساء وكان زواجه في منتصف أربع وثمانين .. وفي هذا السنة علمت أن مالا نجح في الثانوية ، والتزم بالدين والتدين .. وتفاجأت حقا بذلك .. مال يتمشيخ وكتبت له حول ذلك ، وكتب بصحة هذه الاخبار ،وأنه سيدرس معهد متوسط لتخصص المحاسبة في القسم التجاري ، ففرحت له من كل قلبي وأحببت لقاءه فاعتذر بشدة ، وكتب لا أنسى تلك الليلة السوداء ، فبكيت لكلامه ، وعلمت أن الجرح كبير وذلك عندما أردته أن ينام معي ولو ساعة .



المعهد فيه رجال يعملون مثلي ، لاحظت أن أحدهم يطيل النظر إليّ ، ويحاول التقرب إلي أكثر ، فقررت أن أقبل صداقته ؛ لأخفف من التوتر الذي يحصل بيني وبين مازن .

فرافقته للمسرح والمطعم وخلال فترة قصيرة أصبحنا أصدقاء ، وانتشر ذلك في المعهد .. هذا الصديق وزميل العمل كان يكبرني بعدد سنين ، دخل في الأربعينات عندما صاحبته ، كان هدفي التسلية وإراحة أعصابي من مازن ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذ يظهر لي أنه محب لي منذ التحقت بالعمل معهم ، ويرى أنني الصديقة التي كان يبحث عنها .. طبعا لم أصدق ذلك .. وأعرف رغبته في جسدي .. وأنا تقربت إليه من أجل هذه الغاية ؛ لكن عليّ تمثيل دور الساذجة والبلهاء .. المهم أخذ يمهد لذلك بلمسي برغبة ، ويدعوني لبيته وشرب كأس معه .. وعلمت من الأول أنه مطلق أو هاجرته زوجته ..وأنا كانت لديّ الرغبة أن أسلم جسدي

لرجل غير زوجي .. وأرى هذه التجربة ؛ لكني لم أحب أن أبدو متعجلة .
وبعد ستة شهور صحبته للبيت ، وتناولنا العشاء والشراب ، ولم يحدث بيننا أي جماع مدح واعجاب بي وبجمالي.. وخلال شهر كنت عشيقة له في الفراش ، ولم يختلف كثيرا عن مازن ، لم يكن بتلك القوة الجنسية ؛ بل كان يأخذ أدوية لتقوية فحولته ؛ لكني رضيت به عشيقا يعبث بي كيف يشاء ؟
ورتبنا أن يكون لقاؤنا كل أسبوع مرة حتى يبقى الأمر خفيا عن زوجي مع أن ذلك لا يهمني .. فقد أصبح لي عشيق وإن كان يكبرني سنوات .. عشيق خير من لا شيء .
وكان يحاول إسعادي بهذا اللقاء وأن يظهر بالفارس القوي والعشيق الفريد مع أنني أرآه يتعاطى الأدوية لتقوية طاقته ، ولا يترك شيئا فيّ إلا قبله وداعبه موهمي بحبه وشوقه لجسدي .
قبلت به عشيقا مع أنه يكبرني بخمس عشرة سنة نكاية بهجر مازن لي ولكرهي لمازن .
كنت عندما أعود من العمل يوميا أمر على أمي إلا القليل من الأيام .. فلما أصبحت ذَا عشيق كنت استحم في منزلها قبل العودة للبيت ، وأتعشى معها واتصل بالبيت ؛ فإذا كان مازن في البيت أترك له خبرا بمكان وجودي أو أتحدث مع خالة أمي .. وهو لا يهتم بتأخري ؛ لأنه غالبا لا يعود للمنزل إلا بعد نصف الليل .. إما مع نسائه أو مع سهراته الماجنة .. فهو يسهر معهم في النوادي الليلية أو المنزلية .. وكانت والدته تعتني بالطفل أكثر مني بحكم أنني امرأة عاملة .
ذات يوم اتصلت بي امرأة تريد مقابلتي في البيت أو أي مكان .. وكان الموضوع عن مازن ، واتفقنا على مكان اللقاء في مطعم في أحد أحياء المدينة الراقية .
ولما التقينا وعرفتني على نفسها ، وأهم تعريف أنها صديقة لمازن ، ولها عليه أموال ، وأنها تفكر بتقديم شكوى ضده لدى المدعي العام.
فقلت لها : أنا لا أدري ما المطلوب مني ؟!
قالت : أنت زوجته فعليك التسديد عنه حتى لا يسجن .

ضحكت وقلت : أدفع عنه .. وهل هو معسر يا سيدتي ؟

قالت : لا يريد أن يدفع .. يتحداني ويقول : احبسيني .. وأنا من أجل خاطرك وسمعتك لم أقدم الشكوى .

قلت : ما طبيعة العلاقة بينكم ليستلف منك ؟

قالت : ضحك عليّ واتخذني خليلة ، وزعم حبه لي ، وأنه من غير امرأة ، وأخذ أموالا ؛ ليقيم بها مشاريع .. وأنا صدقت .. أنا امرأة مطلقة ؛ لذلك صدقته ، وظننت أننا في النهاية سنتزوج .

قلت : وبكم نصب عليك .

قالت : عشرة آلاف دينار .

قلت : مبلغ محرز .. هذا نصاب دولي وعلى مستوى .. ماذا تعملين أنت ؟

قالت : أنا طبيبة .

قلت دهشة : طبيبة .. وكيف تورطت معه ؟!

قالت : احتجت لحضرة محامي يا سيدة أولى .. فدلوني على مكتبه .. ورحب بي .. وأقنعني أن قضيتي ناجحة .. وإنني سأفوز فيها على زوجي الذي طلقني ، ويعيد لي الأموال التي أخذها مني ، وبعد عدة لقاءات أصبحنا أصدقاء ، ثم سلمته نفسي على أمل أن نتزوج ؛ لأنه زعم أنه غير متزوج .. وصدقت ذلك .. وأنت تعرفين كيف يضحكون علينا ؟

قلت : يضحكون علينا .. تابعي .

وتابعت : وخلال متابعة قضية طليقي أخذ يحدثني عن المشاريع والاستثمار وأنا مصدقة ؛ لأنني في النهاية سأكون زوجة له .. ثم عرفت أنه متزوج منك .. وأنا مجرد فتاة ليل وقضاء وطر ،فصممت على مقاضاته إن لم يدفع .

وبعد فترة صمت قلت : وهل تعتقدين أنني سأدفع عنه يا حضرة الدكتورة ؟ أتعرفين أين صرف تلك الأموال ؟

قالت : لا أدري .

قلت بزعيق وحقد : على السهرات الجنسية والقمار .

قالت : هو عرف كيف يضحك عليّ ؟ .. لعب على وطر الطلاق والزواج وهو محامي .

عدت للصراخ : هو فاجر ومجرم ، لا يمكنني أن أدفع فلسا .

قالت : وسمعة العائلة وابنك عندما يحبس أبوه .

قلت : أنا أدفع ثمن فجوره .. اذهبي لأمه فهي تملك الكثير من الأموال ؛ لعلها تصدق حكايتك ، وتدفع لك .. فهي يهمها سمعة العائلة أكثر مني .

قالت : أترين ذلك ؟!

قلت : نعم .

قالت : شكرًا لك .. يعني أنك غير مهتمة بحسبه .

قلت : ولا موته .. ولست أنت أول عشيقة وخليلة له .

قالت بانكسار : عرفت ذلك مؤخرا .

وودعتها متمنيا لها النجاح ، وعدت لبيت أمي وقصصت لها هذا المغامرة لابن خالتها .

فقالت أمي : قد تكون كاذبة ، وطمعت بقرشين منك .

ضحكت وقلت : ممكن يا أمي !

كانت حياة شقيقي ثاني صعبة بعد سنة زواج ، كانت ميساء ترغب بالولادة فور زواجها ، وهي من أسرة تحب ذلك ، ومضت سنة زواج ، ولم يحدث الحمل ، وبعد سنتين من الزواج زادت المشاكل ، ورغبت ميساء بالانفصال عن زوجها ، وكان ثاني متمسكا بها .. فهو قد ملّ من الزنا والبنات لما انتهى من الجامعة والجيش .. والمفاجأة أني سمعت أن مالا تدخل في عدم طلاق أخي من ميساء .. ولجأ ثاني إليه للتدخل في قصته ، ونجح في تأجيل الطلاق لسنتين أخريتين ، وأن صلحا حدث بين ثاني ومال أو عودة لماضيهما .. وسافر ثاني إلى الخليج للعمل كمدرس متعاقد ، ولما قضى موسمين رجع ، وتم طلاق ميساء بعد فشلهم بالحمل ، وأخذ

يفكر بالزواج من جديد كما كان يتحدث مع أمي وأبي.. وكان البحث صعبا عن امرأة تقبل به كشاب عقيم إلا امرأة لا ترغب بالذرية .

لما رجع ثاني من العمل في الخليج ، وقد طلقت زوجته عادت صداقته لمال وكان يذهب إليه رغم أن مالا خلال عمل ثاني في الخليج درس في معهد شرعي ؛ ليكون شيخا حقيقيا وحصل ذلك .. عادت صداقته لمال ، وكان ثاني يريد الزواج .. وأنا اكتفيت بساعة أو ساعة ونصف أقضيها مع عشيق المعهد في يوم من الاسبوع ؛ لذلك كنت غير مهتم بهجر مازن لجسدي فوجدت البديل كما يقال .. وكان الرجل يكتفي بهذا اللقاء ، ويرى أنه أشبع رغبته وقضى وطره .. وكان أحيانا يطمع بالمزيد من الزيارات فأقول يكفي مرة .. وكنا نرتب لهذا اللقاء من خلال المعهد .. وكانت أغلب زيارتي لشقته ليلة الجمعة ، فيجهز الشراب والدواء ولما يأتِ الليل أذهب لبيته بسيارتي ، وأقضي معه الوقت والخمر والزنا وأعود لبيت أمي .. وإذا لم تكن لديّ رغبة اعتذر له فيقبل اعتذاري .

ولما حضرت عشيقة مازن الطبيبة تطلب المال مني ، ورفضت الدفع، ذهبت فعلا لأمه ولم تحصل على شيء ، فرفعت قضية على مازن ، ولما عرف جديتها بعودة فلوسها إليها ، تفاهم معها واضطر لمصالحتي وأن نعود للفراش من جديد ، وأن عليّ الحمل لطفل آخر ، فقبلت وساهمت بسد دينه ، وهجرت صاحبي ، وقلت حين تعود المشاكل سأعود إليك ، فعرف الرجل الهدف من إقامة علاقة جنسية معه ، وتقبل الأمر ودعا لي بالتوفيق ، وفعلا أصبحت حاملا خلال ثلاثة شهور من الصلح ، ومازن التزم الهدوء خلال هذه الفترة ، ولما علم بالحمل بدا يتهرب من النوم معي بحجة أنني حامل ويعود للسهر والحياة خارج البيت .

وبعد حين ولدت طفلة بصعوبة كادت تذهب بحياتي ، وفرحت بمولودتي الجديدة ، وتم علاجي من مشقة الحبل بربط المواسير كما يقولون لمنعي من الحبل ثانية ، وحمدت الله على نجاتي من الموت.

وكان ثاني ما زال يبحث عن امرأة ، فعرض مازن الزواج من أخته الأرملة شفاء التي ترملت

منذ شهور بعد حملي بشهر أو أكثر ، ونصحت أخي رغم معرفتي بفساده الابتعاد عنها ، فهي مستعدة لإحضار رجل للبيت أمامه إذا أعجب بها ورغب فيها .. فهي مستعدة لذلك ، وكانت تفعل ذلك في حياة زوجها .

ومن المعلوم في نظري أن أي علاقة تقوم بين امرأة ورجل خارج العمل نهايتها علاقة جنسية ؛ ربما تبدأ سريعا أو رويدا رويدا .. أما صداقة وأفكار هذا استدراج وسخرية من بعض .. وهذا جربته لما تعاملت مع زميلي في المعهد بعد حين تكشفت نواياه ونواي .. وأنا قبلت ذلك ؛ لأني أريد ذلك وهو أكيد فعل ؛ لأنه يريد ذلك .. ولم أر أن مازنا يستحق المحافظة على شرفه .. وأنا لم يعد يهمني ما يقال عن الشرف .

منذ أن حملت ومازن ابتعد عني كزوج ، وعاد لمجونه ولهوه .. ولماذا الناس يتزوجون ؟ وأنا بدوري عدت إلى العشيق الذي تقبل العودة بكل فرح وسعادة.. أنا طبعا لم أزعم أني أحبه ؛ إنما هو شريك في السرير .. وكان يستقبلني كزوجة عادت إليه .. وأنا لا أعرف لماذا طلق زوجته أو طلقته ؟

في المعهد ذات يوم قلت له : قلت الليلة موعدنا .

فقال : أنا جاهز .

ولما ذهبت إليه ليلا وجدت أن لديه ضيفا ، فتظاهرت أني قادمة لزيارة عمل ، وسلمت على صاحبه ، وكان رجلا من جيله ، وبعد حديث يسير علمت أنه عاجز عن النوم معي ، وأن صاحبه مستعد ؛ لأن يكون بديلا له هذه الليلة . ففكرت قليلا وبعد شرب قليل من الخمر ، وافقت وسلمته جسدي ، وودعتها وأنا أزعم أني استمعت بصحبتها .

وعاتبت صاحبي في اليوم التالي ، فقال : كنت مريضا ، ولن أحقق لك رغبتك وأنا أعرف رغبتك .. وهو مثلي من غير زوجة ويعيش على احسان الصديقات.. والرجل مستعد للعودة إذا قبلت ذلك .

قلت : سأفكر.. الرجل أقوى منك جنسيا .

أصبح لي عشيقان ، كنت أحيانا أقبل لقاءهما بي معا ، ومرات أكتفي برفيق المعهد ، لم يعد الجنس عقدة ومحرجا لي .. كانت أمي تحس بسقوطي وبيعي لجسدي ؛ لتعويض هجر مازن لي .. فاضطررت أن أعترف لها باتخاذ العشاق وسكتت فماذا ستفعل ؟ وهي تعلم ما بيني وبين مازن .

والفتاة أو المرأة إذا تناولت الشراب وسكَّرت ماذا يهمها من يقضي شهوته معها ؟ الخمر مصيبة .. فهي ؛ ربما لا تميز رجل عن آخر .

تابت أمي وأبي بعد عودة شقيقي من السعودية ، ترك أبي وأمي الخمر ، وبدأت أسمع برغبتهما بالحج لتكفير ذنوبها ، وكان يكثران من الحديث عن مال الشاب الصغير كيف تاب ورجع للإسلام ودرس الشريعة وتعين اماما لمسجد ؟ وهذا كله ينقله لهما ثاني .. وتمنيت من كل قلبي أن تعود الأيام الخوالي ، وأن نعود لتلك الجلسات والمناقشات .. وأن يعود الحب الصامت لمال .. ما زلت أهواه رغم التغير الذي حل به .

ثم حدث الحج حقيقة ، ذهبت أمي وأبي للحج ، وأنا كانت حياتي رتيبة عمل في المعهد من الصباح حتى المساء ، أطفالي مع جدتهم منذ خروجي للعمل ، وفترة الصباح أجلس معهم بعض الوقت .. جلال دخل المدرسة .. وعشاقي لهم ليلة في الاسبوع أو ساعات .. وهكذا مضت الأيام .. وهجري من مازن كزوجة .. يزعم أنه لا يستمتع بمعاشرتي ، ويراني عجوزا .. وأنا تلك الأيام لم أبلغ الثلاثين من العمر ..وحاول عشيقي الثاني تكرار اللقاء مرتين في الاسبوع فقلت له : أنا أعرف أنني لست المرأة الوحيدة معك .. فلنبق على هذا الترتيب وإلا هجرتكما .

لما رجعت أمي من الحج مرضت ، وزارنا مال ، والتقيت به من جديد وعادت أحلامي القديمة والشوق للاستمتاع بجسده الشاب ،كما كان يحدث معي في السرير وأيام مراهقتي ؛ ولكنه أبعد ما يكون أن يحقق لي ذلك .. فهو اليوم متدين ومتمشيخ حقيقة وواقعا وإماما لمسجد ، ولا يعني هذا أن الشيخ ملاك ، ونصحت شقيقي ثاني أمامه بعدم نكاح أخت مازن

ونصحه مال بعدما دار بيننا حوار وعتاب .. وتزوج ثاني من الأرملة شفاء وعاش سنتين في جحيم وشقاء كما يقول وأصبح مدمنا على الشراب والخمر ليل نهار حتى اضطر لطلاقها ، وطلقت أنا معه .. وأنا عدت لبيت والديّ وإن كانت أكثر أيامي فيه .. ولم تمكث أمي طويلا بعد طلاق ثاني.. وماتت .. وحزنت على أبي حزنا شديدا .. فقد أصبح وحيدا في شقته حتى أنني فكرت بالتقاعد من أجله وقلت : ماذا أفعل له ؟ أنا ابنته الابنة ليست كالزوجة .. وكان والديّ تقاعدا منذ زمن قبل طلاق ميساء .

غرق ثاني بالشراب ، وترك التعليم بإجازة طويلة ، وذات يوم رغبت بالاستحمام وخلعت ملابسي كلها لدخول الحمام ، ولم أرتدِ الروب بعد وشعرت بدوخان .. وأنا كنت أنام في بيتي عارية من أجل إغواء زوجي وذلك في أول زواجنا ، ولما لم يهتم بي عدت للنوم بثياب النوم .

نمت أو ارتميت على السرير حتى تزول الدوخة وأعود للحمام للاغتسال وكنت ليلتها قد عدت من بيت عشيقي ، ولم اغتسل بعد ؛ وبينما أنا نائمة دخل ثاني لا أدري لماذا ؟ فوجدني عارية فاقترب مني ودنا وهمس أولى أولى ففتحت عيناي وظننته يحاول اغتصابي .. فصرخت ففزع أبي ، وظن ما ظننته ، وقمت عارية ، وأحضرت سكينا من المطبخ وضربته بها ، فتلقاها بذراعه وبرر ذلك فقال : فكرت أنها مغمى عليها . وأبي يصفع به ثم قال : لماذا أنت عارية ؟ انتبهت لنفسي ، فوضعت الروب على بدني وقلت : كنت سأستحم ، وشعرت بدوخة فطرحت نفسي على التخت .

فهذه قصة الاعتداء عليّ التي بررها ثاني فقال : دخلت الغرفة أبحث عن دخان . فوجدني على تلك الهيئة فظن أن شيئا حدث لي اثناء الاغتسال ، وحضر يزيد الذي يسكن في الطابق الأرضي مع أبي بعد وفاة أمي .

وبعد ذلك بأيام وأثناء ترحيلي لبيت خالتي لقضاء بضعة الأيام حضر ثاني لبيت الأسرة كما علمت ، وتحدث مع ثاني ، ثم حدثت توبة ثاني ، وهجر البيت ؛ لأعود للعيش مع أبي ويزيد ، وعاد للتدريس ودراسة ماجستير الشريعة والدكتوراه فيما بعد .

وأنا بعد الحادثة هجرت صديق المعهد ، فقد اتهمني ثاني بالفجور ، وبيع جسدي .. ولا أدري كيف عرف مازن أو هو ؟

وسافرت إلى فرنسا للعمل في معهد هناك ،وقضيت سنتين فيه ، وكان لي صديق على طريقة الغربيين ، ثم عدت للبلاد ، وقد أنهيت علاقتي بالمعهد ، ووجدت صديق المعهد قد مات ؛ بل علمت بموته وأنا في فرنسا أثر مرض عضال .

وكتبت لمال رسالة أطلب منه أن يجد لي زوجا صالحا ، وإنني راغبة باللحاق بهما .. فوعدني بذلك إذا تيقن من توبتي .

مات أبي موسى أمير ، ولبست الحجاب كما أراد مال ، وعرضت نفسي عليه زوجة ثانية .

فقال معتذرا : لديّ زوجي ، ولا رغبة لي بالتعدد يا أولى .. وأنت أختي وسأزوجك .

وتحقق ذلك بعد شهور ووفى بوعده ، وأنا اليوم زوجة سعيدة ، لم أكن أول زوجة للرجل ، كان متزوجا قبل ذلك ، ولما تدين تركته ابنة عمه لتدينه ، وعشت معه لليوم أحلى أيام الزواج ، وأصلي وأصوم ، ولم يسألني يوما عن الماضي ، ويقول : الماضي للعبرة يا أولى ! ونحن أبناء اليوم .. وكنت أتمنى أن تلدي مني ؛ ولكن مالا قال لي : إنك كدت أن تموتي في ولادتك لابنتك وحدث لك ما حدث .

قلت : يا حبيبي وقرة عيني لم أعرف الدين إلا منذ عهد قريب من سنة ، ولم يكن باستطاعتي عدم التوقف عن الولادة .. كانت حياتي في نظرهم أهم وإذا أنت بحاجة لأولاد فتزوج عليّ فمال حدثني عن ذلك ؛ فأنا لديّ شاب وابنة .

وضمني إلى صدره بحنان وهمس في أذني : عندما يشاء ربي !

حديث ثاني

قصتي مع مال قصة حياة ، لم يكن الفتى ابن حارتي ، ابن النادي المالي نادي العائلة بحكم الوظيفة ، ولا نادي الأقارب وبعض الجيران الأغنياء ، تعارفنا في مدرسة الحسنات الكبرى في المرحلة الثانوية ، وسأذكر من خلال القصة لمحات عن المرحلة السابقة ، المدرسة جمعتنا ، لم نكن أبناء فصل واحد ، كانت شعب الأول الثانوي كثيرة ، كنت أحب لعب كرة اليد ومارستها في النادي المقاصد ، وفي المدرسة الثانوية ، جميع الملاعب كرة القدم واليد والطائرة والسلة وقاعة جمباز وحفرة الرمل للقفز ، كانت مدرسة مهمة فيها مختبرات ومكتبة متميزة .

التقينا في ملعب كرة اليد ، ومن خلال اللعب والاحتكاك تعارفنا ، ثم ازداد التعارف نتيجة التمرينات ، حدث بيننا نزاع خفيف ، وحين انتهى أخذنا نعتذر لبعض ، وكل واحد يبرر انفعاله .

ونتيجة لهذه المنازعة أصبحنا أصدقاء ، وكبرت العلاقة بيننا ، ووجدت أن الشاب يدخن مثلي ، فصرنا ندخن سرا في المدرسة مع بعض رفاقه ورفاقي ، ثم تطورت العلاقة لما استثنينا من اللعب مع فريق المدرسة ، واكتفينا باللعب لمجرد اللعب ، وعرفني على مقهاه المفضل في وسط المدينة مقهى الذهب في سوق الذهب ، وكان له رفاق يحبون الافلام السينمائية ، فشاركتهم تلك الافلام ، وكانوا لا يحبون المسرح كأسرتنا ، وتعمقت العلاقة بمال دون الآخرين ، ولما كان ينزل للمقهى ماشيا لوسط البلد يمر من عند بيتنا في درب القلعة ، ويأخذني معه إذا رغبت ،وكان من احترامه لي يعود معي حتى لا أرجع وحيدا في الليل يصحبني لبوابة البيت ويودعني ، ويتابع عودته لحي النزهات الكبير لوجود أحياء أخرى تحمل هذا الاسم .

وكان شابا مثقفا وقارئا ممتازا للكتب غير المدرسية ، وله هوايات أخرى ، وكان في الركض سريعا ، وكان في كرة القدم لاعبا ومشجعا للنادي الذي أشجعه ، فزاد تعلقي به ، وأخذ أصحابي في الحي يختفون من حياتي ، ويندر اللقاء بهم ، وخفت علاقتي مع البنات سواء في

شوارع المدينة أو نوادي العائلة ، وقلّت زيارتي للنوادي ، وتلك الايام في الفترة الإعدادية لم أكن ناضجا جنسيا كما نضجت في أول الثانوية حتى أنني تورطت في علاقات جنسية كاملة مع نساء متزوجات يعملن في الدعارة مقابل بعض المال ، ولكني كنت مقلا من الاتصال بهنّ .. كان مال يحذرني بقوة من الانزلاق في الجنس والعلاقات الآثمة ، وأن هؤلاء النساء قد يحملن الأمراض الجنسية لكثرة ما يمارسن البغاء مع رجال دون فحوصات وعلاجات ، فاقتنعت بكلامه ؛ ولربما يمر أكثر من شهر دون الوقوع في الزنا ، وعجبت من عفة صاحبي رغم حبه وكتابته لرسائل الغرام لرفاقه ، أو معارفه بناء على رغبتهم ، ومع حفظه لمعلقة أمرؤ القيس التي تتحدث عن غراميات ذلك الشاعر مع عُنيزة وفاطمة وغيرهن من النساء كحادثة سرق ملابس السابحات .

نتيجة لذلك سمحت لصديقي أن يدخل البيت لرغبة أمي باستقراري في البيت ، والابتعاد عن البنات ، فقد كانت لي صديقات من بنات العائلة والنوادي ، ولي غراميات لطيفة لم يدخلها الجنس لعدم بلوغي ونضجي الكامل ، مع وقوع ذلك لبعض رفاق النادي الأكبر سنا ، حتى أنني رأيت شقيقتي علا أكثر من مرة تعانق أو يعانقها بعض الفتيان ، فيعتذران ويزعمون أنهما محبان لبعض ، أما أختي أولى فلم يصدف أن رأيتها تعمل علاقة عاطفية مع أحدهم ، ولم أسمع ، وأمي علاقتي بها قوية ، وأطلعها على الكثير من أفعالي ، وتنصحني بضبط علاقاتي مع الفتيات ، وحدثتها عن أفعال علا ؛ لأرى ردة فعلها فقالت: مراهقة ! والمراهقات يحببن سماع كلمات الحب والغزل كما تفعل مع صاحباتك .

رحبت أمي بدخول مال لبيتنا وأحبته كما صرحت لي بذلك ، وكانت تقوم على خدمتنا ، وتجلس معنا ، ثم تقبل والدي هذه الصداقة ، ورآها جيدة لي للبقاء في المنزل وقتا أكثر والدراسة أكثر .

لم يكن مال صديقا ورفيقا مزعجا سواء في المدرسة أو الملعب أو المقهى اعتبرني أخا له وصديقا ، ويطلعني على أسراره وأخبار أصدقائه ،فكبرت الثقة بيننا حتى اعترفت له

بمغامراتي الجنسية ، فلم يغضب مني ؛ بل أقر أن له أصدقاء وقعوا بها وقعت به ، وما كان له إلا أن ينصحهم كما ينصحني ، فقلّت ذكرياتي السيئة مع البغايا ، كنت أخاف من معاشرة الأبكار لصغرهن وخشية وقوعهن في الحمل ، والاساءة إلى ما يسمى غشاء البكارة ، ثم الاجهاض ، مع أن بعضهن فقدن ذلك لقضاء رغباتهن الجنسية أو محاولة إيقاع أحدهم للزواج منهن ، كما حدث مع أحد رفاق المدرسة ؛ لكنني سقطت في براثن وحمى الاباحية ، وتمنيت وجود الجواري التي كانت في العهود القديمة التي قرأنا عنها في الكتب .

كانت علاقة مال في البيت في بيت العائلة محصورة بي ، وكانت أمي إذا لم يكن عندها أمر خارج البيت تسمح لنفسها بالجلوس معنا ، وكان مال يقبل ذلك ، ولا يتحرج منها ، ولم يعترض على ذلك .

ويقول : أمك خائفة عليك تخشى أن أفسدك بأفكاري وخيالي .

فأقول : ولا تهتم ، أمي تعرف من أنا ، وتعرف فسادي وغزلياتي ، ولا تقول شيئا إنها تريدني أن أنجح في الثانوية العامة ، وأتوظف مثلها ، وأدبر أمري في الحياة ؛ بل إنها حدثتني عن الزواج حتى ابتعد عن العاهرات .

فيقول: لو فعلت ذلك كان أفضل لك من الزنا .

كنت أرافق مالا للمقهى ، وذلك عصرا ، يمر عليّ إذا وافقت على ذلك في المدرسة ، وتعلمت منهم بعض الألعاب ، ولا أذكر أسماءها وقوانينها .

الحقيقة أن الجلوس مع مال ولو لدقائق ممتع تستفيد لعبا وثقافة وحتى أحيانا يتحدث في السياسة التي أمتعض من الحديث فيها ، ولا أحبها ، ممكن بسبب تكويني البيتي ، فلا ذكر وأهمية لها في البيت .

مضت السنة الأولى ثانوية بسلام ، وعلاقة حسنة مع مال ، وفي الصيف عرفت من مال أنه يعمل ويشتغل هنا وهناك ؛ ليصرف وينفق على نفسه ، فهو ابن أسرة فقيرة ، أولا بأول ، وله عدد من الأخوة والأخوات ، وقليلا ما يجلس في البيت ، النوم فقط ، وعلاقته جيدة مع

الأسرة ؛ لكن الوضع الاجتماعي والحالة المالية تدفعه للعمل ؛ فهو يدخن ، ويشتري الكتب والروايات ، وغرامه بذلك عجيبا .

يقول : إنه يشتريها من الصف الخامس ويقرأها ، وحتى في مكتبة المدرسة الثانوية كان محبا لذلك ، فأتحرر منه لما يذهب إليها ، وأخبرني أنه قرأ فيها بعض الكتب عن الجزائر والاستعمار يهوى سوى الأدب قراءة كتب التاريخ وسير التاريخ سواء علماء أو قادة .

لا أنكر أن صداقتي القوية لمال في المرحلة الثانوية حمتني من المغامرات الجنسية كثيرا ، وقللت منها ، كانت ثورة الاباحية والشهوانية تجتاحني بقوة ، فكنت أغامر قليلا حتى أني ابتعدت عن شباب أفلام الاباحية ، ومجلات العري التي كنا نتبادلها أيام الثالث الإعدادي ، حتى في النادي كنّا نتبادل تلك الصور زاعمين ؛ بأنها خفية عن الآباء والأمهات ؛ لكن الشهوة والرغبة والتجربة عندما تعصف بالمراهق مثلي الذي لا قدوة له ، ولا مانع يمنعه ، ولا أحد يزجره ويحذره ، فالراجح أن يتلوث ويزل ويهوي إلى الرذيلة .. انتفعت بصحبته تلك الأيام ، في أشهر الصيف قلّ لقائي بمال إلا ببعض الجمع عندما يزورني في البيت ، وأتمشى معه أحيانا في شوارع الحي ، لا أريد أن تسمع أمي أو أحد في البيت همومي الجنسية وسقطاتي ، فكان يقضي الوقت في لومي وخشيته عليّ من النساء الفاجرات .

عدنا للمدرسة وعدنا للقاء في البيت بكثرة ؛ ربما ثلاث مرات في الاسبوع.. وأنا أحب ذلك ؛ لأنه يمنعني من مرافقة شباب الجنس وفيديوهات الاباحية ، ويكثر من لومي ، وأنا فعلا أشعر بحاجة إلى ذلك ؛ فلم يكن لأبي ولا أمي أن يمنعاني من ذلك ، رغم أن علاقتهم ببعض عادية ، وقليلة النزاعات بينهم ، ويذهبون لنادي المالية في الغالب معا ، ونحن نذهب بمعيتهم خاصة في فترة الطفولة الاولى .. أنا بعد المرحلة الابتدائية قللت كثيرا من مرافقة هؤلاء الفتيان للسينما أو المسرح .

عدنا لتلك اللقاءات والسمر في البيت ، وقلت لكم الأسرة أحبت ذلك ، حتى شقيقتي أولى رغبت بالتعرف عليه مباشرة .

وأخرجت توأمي من قممها لما أكثرت لها من الحديث عن مال وحبه للقراءة مثلها ، كنت أحب أن تجلس معه لتلهو بالحديث والكلام معه ، وأعرف أن مالا لا يحب محاورة البنات مثلي ولكنه استطاع الحديث مع والدتي ، وحتى والدي لما يكون تاركا للخمر ، ومحبا للثرثرة مع الشباب مثلنا ..فكنت أحزن على أختي المحبة للعزلة والانعكاف في حجرتها لقراءة الروايات وكانت أمي تقبل ذلك ؛ لأني مرة قلت لها : لا يمانع مال بحضور أولى جلستنا . فقالت : وأنا لا أمانع ، فالشاب محترم .. ما رأيته مرة يحاول الإساءة إليّ بالكلام وحتى النظر ككثير من رجال النادي ، فهو يراني كما تراني أنت ؛ ولكن دعها تفعل هذا بنفسها بقناعتها . وحدث ذلك ذات ليلة عادة كانت تبدأ زيارات مال للبيت بعد آذان المغرب أو العشاء ، وكانت الأسرة في الخارج ، ولم ترافقهم الفتاة ، وتطوعت بخدمتنا بدلا عن أمي ، والتقت بمال وأعجبت به وأريحيته وحبه للقراءة والروايات ، وأفسحت ليلتها المجال لها للحديث معه ، وهو تحدث معها بكل انبساط ؛ وكأنه يحدثني ، وكان هذا عجيبا في نفسي ، حتى ظننت أن لمال صديقات يتحاور معهن ، رغم تظاهره بكره الجنس النسوي ، وانبسطت ليلتها أولى به ، وشكرتني فيما بعد على سماحي لها بالجلوس معه ومناقشته ومجادلته. وأصبح هذا أمرا مقبولا لدى العائلة .

ولم أدرك عمق علاقة أولى بمال إلا في وقت متأخر ، أحبت الشاب أكثر من المتاح ، أنا لم أكن ضد أي علاقة عاطفية لها مع أي شاب .. هذا أمر لم يكن يهمني كثيرا ؛ ليس قلة غيرة ؛ إنما هكذا تربينا أن البنت مثل الشاب ، وكنت أعجب من عدم تكوينها علاقات مع شباب الناديين ، وحتى مع أبناء الاقارب ، بعكس علا التي أعتقد أنها عاشت لحظات وقصصا عاطفية سواء في مرحلة الاعدادية او الثانوية ، كانت تصغرني بعامين ، كانت علاقتي بهم علاقة أسرة أبناء وبنات رجل وأم .. كانت أمي لا تحب تهورات علا ، وكثيرا ما سمعتها توجهها ، والمهم لأمي أن تصل البنت لبيت زوجها عذراء بكرا ، وتغض الطرف عن علاقتها مع أبناء الاقارب.. وكنت أرى أولى جامدة ؛ فلذلك رحبت بوجودها معنا ؛ لكن

أن تحب مالا كما ظهر فيما بعد فهذا أدهشني حقيقة ! وهي اكتشفت صعوبة الزواج منه بنفسها ، كان المستوى الاجتماعي يمنع ذلك .. فقر مال ، ونحن أبناء سن واحدة أحد الحواجز الأخرى ، وعادة يكون عندنا الزوج يكبر الفتاة بسنة على الأقل إن لم يكن سنوات .. فكانت كما ظهر تحبه بصمت ، ومال لم يسع إلى ذلك ، ويعتبر فعل ذلك خيانة ؛ لثقتي وثقة أمي به ، حيث كانت تقبله وتستقبله كابن لها ، وتخدمنا بنفسها ، وتشاركه مشاكلها في النادي والعمل ، وتسمع رأيه ، وهو يبادلها الصداقة ، وكان الجنس بعيدا عنه وعنها ، رغم أنهما رجل وامرأة ، فلم أسجل عليه حكاية من ذلك ، فكيف مع أمي التي أحبته كابن لها واحترمته ؟ وحتى لو أحب أولى فعلا ما كان يقبل بالخيانة والعشق والمواعيد الخفية ، كانت صداقتنا قوية ، وأنا تساهلت مع أولى بالجلوس معنا ؛ لتنفس عن وحدتها وعزلتها ، وأمي وحتى أبي لم يبديا أي اعتراض على جلوسها وحديثها مع مال ، وأنا تفاجأت عندما رأيت رغبتها الشديدة فيما بعد للزواج من مال المجند بمبلغ بسيط ، لا يكفيه دخان ومواصلات ، ولما حاولت ذلك اعتذر لها ، وكان جيدا لها ولنا .

كانت فترة الصيف فترة انفلات مع الجنس الآخر ، بغياب مال أصدقاء السوء كانوا هم أصحاب النفوذ عليّ .. من أين كانوا يأتون ببائعات الهوى؟ لا أدري صدق ذلك ؛ لكنهن موجودات ، وبمبالغ بسيطة لا تكاد تصدق ..إنهن مومسات غير محترفات كما نسمع عن المحترفات .. ولا أرغب بالتوسع بالحديث عن هذا الالم القاتل .. مستنقع الجنس قذر وعذاب ..وكنت أعجب من مال وغيره ممن يملكون شهواتهم امام الموج الهادر من الاباحية.. لم يكن مال مسلحا بالحماية القوية للدفاع عن نفسه امام الاغواء والاغراء .

وجاءت السنة المهمة والاخيرة ، وعاد مال ؛ ولكن بزيارات أقل بسبب الدراسة المكثفة ، وكثرة دروس الخصوصي ومراكز التقوية لمادة الاحياء الكيمياء الفيزياء الانجليزية الرياضيات ، لم أكن ضعيفا دراسيا بكل هذه المواد ؛ ربما الموضة التي دفعتني لدراستها سواء في البيت أم مراكز تقوية كنت أعلم أن مالا لن ينجح ؛ لأنه هو يقول ذلك ، ولا يحب دروس

التقوية رغبة أو قلة مال .. نجحت ونجحت أولى بعلامات أعلى مني .. وكان الفراق شبه الكامل أو الكامل ، هي ـ أعني الصداقة واللقاء البيتي ـ خفت في فترة الدراسة ؛ ولكنها بعد الثانوية ستصبح ضعيفة بالتأكيد .. نحن سنصبح في الجامعة .. وهو إما أن يعيد أو يذهب للجيش .. وفرحت صدقا لما أخبرني بلقاء عابر أنه سوف يعيد لرغبة أمه بذلك ، فأبوه كما بدا من كلامه لا يهمه نجاحه أو رسوبه ، فله أخ شقيق ترك المدرسة قبل الثانوية العامة ، ولم يكترث له والده .

أنا بالنسبة لي مال أصبح خارج الأصدقاء ، وأما أولى فكانت تكتب له وتقول أحيانا يرد على خطاباتها .. أنا لم يكن بيني وبينه أي رسالة إذا التقينا بظرف ما نعاتب بعضنا بأدب ، ويتمنى كل واحد لصاحبه الخير والتوفيق .

علمت من أولى أن الرجل لم يكمل الدراسة ، وتركها والتحق بعمل الكهرباء والطوبار ، وكنت أسمع بعضا من أخباره من بعض معارفه الذين ألتقيهم بغير ميعاد .. وأنا ما زلت أحبه ، وأقول لأولى سلمي عليه عندما تكتبين له .

منذ وطئت قدماي الجامعة وكلية العلوم تعرفت على الجنس الآخر ، وبدأت أزعم لهن الحب والهوى ؛ وربما أمكث مع الواحدة أياما أو أسابيع ، وأنتقل لغيرها ، وهي تفعل مثلي ، وبعضهن أسهر معهن سهرات ليلية ، وراغبات بالعلاقة الجنسية الكاملة ؛ وكأنها جاءت للجامعة من أجل ذلك ، وإذا تيسر المكان فلم أكن أقصر ، حتى علمت أنني أصبت بمرض جنسي بكتيري ؛ ربما كان في أواخر السنة الثانية ، يسمونه الإفرنجي والسفلس والزهري .

كانت صدمة صاعقة وقاتلة ، وتذكرت نصائح مال ، وأخذت بالعلاج سرا ، ووقفت أمي وأبي معي . وقالت :كم نصحتك يا ثاني من تلك الأفعال وتقول لي إنك تبالغين يا أمي؟!

هجرت النساء والزنا مرغما كما يقال ، وأخذت بالعلاج ، وأخبرني الطبيب بالتحسن ، وأن عليّ أن لا أقرب الجنس قبل الشفاء التام ، في آخر السنة الثالثة رغبت أولى بالزواج قبل إنهاء الجامعة ..كان قريب لأمي قد أكثر من ذكرها ، وتحدث معي من أجل الضغط عليها ، وأنه

مغرم بها ، وبأخلاقها وبعدها عن الرجال ، كما اشتهر ذلك عنها.

واعترفت لي بحبها لمال ، وأن حبه رغم بعده عنا ما زال في قلبها ، وكان ذلك مفاجئا لي حقا .. فمال ذهب للجيش ، وهو فقير لا يملك مالا ؛ ليتزوج ، ووضع أسرته لا يستطيع مساعدته في زواج ، وعرضت أنها ستعرض الأمر على مال ، وأنه إذا رفضها زوجة ستقبل بالسيد مازن المحامي المتخرج من سنوات ، ويعمل في مكتب خالي المحامي ، وكانت أمه خالة أمي ، ورتبت لقاء خاصا بين مال وأولى في البيت بوجود أمي ، ولما عدت في الليل ، وجدت أن الحزن يخيم على البيت ، وأن مالا رفض الزواج من الفتاة رغم محاولتها إقناعه بذلك ، وأنها ستساعده ماديا حتى يقف على رجليه ، وأن عملها سيكون فور التخرج .

رفض السيد مال لصداقته لنا ، ولمعرفته بمن هو ؟ أنا لم أحاول وأسعى لإقناعه بها زوجة ويا ليتني فعلت ! .. نحن الفارق المالي والاجتماعي بيننا للأسف كبير ، وكان مهما في العائلة، ولم يكن بينهم أي اتصال عاطفي أيام الثانوية ، ولا بعدها كان حب من طرفها وحدها ؛ بل علمت من أمي فيما بعد ، بعد سنين أنها حاولت إغوائه بمضاجعتها فأبى وهرب .

تزوجت أولى في الصيف ، وأنهت السنة الرابعة كزوجة ، وأنا أعرف مازنا ، كان أسوأ مني في علاقته بالنساء والبنات ، وسمعته معروفة في العائلات القريبة ؛ ونحن نغرش عن أي علاقات جنسية خارج الزواج لأي رجل في العائلة ، فهذا معروف في العائلة التساهل بعلاقة الرجال بالنساء ، حتى البنات نسكت ونتستر إذا حدثت أي إساءة لبنت من أقاربنا أدت لفقد بكارتها وزناها ، وهذا المسمى الصحيح ؛ لكن هكذا تعلمنا .

وكان حظ أولى هذا الانسان ، فعليها أن تتعايش مع هكذا رجل . انهيت الجامعة بسلام ، وتخرجت من كلية العلوم ، ويمكنني أن أعمل كمدرس أو في مختبر .

وكان التخرج في عام اثنين وثمانين ، بعد أربع سنوات دراسة ، ثمانية فصول عليّ أن التحق بالجيش ، وفعلا في شهر أيلول ذهبت لدورة مشاة أساسية هكذا تسمى ، تستمر ثلاثة شهور وبعدها عينت في مدرسة عسكرية لتدريس الطلاب في المرحلة الاساسية ، ثم نقلت إلى

□□□

المرحلة الاعدادية .

وعاد بي الحنين للنساء ، فكان الزواج وعن طريق زميل في التدريس عرفني على مدير مدرسة لديه بنات في سن الزواج ، والغريب أو القدر أن هذا المدير يسكن في حي درب القلعة ، وذهبت مع أمي ورأينا العروس ، وكانت حسناء ، وقد درست معهد متوسط ، وتعمل في مستشفى محاسبة ، وتزوجتها فور إنهاء خدمة العلم .. زوجتي المحاسبة اسمها ميساء جميلة وذات خلق بمقياسي ؛ ولكن الزوجات ثقيلات في التعامل مع الازواج خاصة في العلاقة الحميمية ، تجده كأنه واجب عليها يجب أن تخلص منه ، لا يفعلن كما تفعل بنات الهوى من الإثارة والإغراء ، همها الأول من تلك العلاقة الحمل والولادة ، وليس إمتاع الزوج ، ومن كان مثلي قد يزيغ ويعود للانحراف ؛ ولكن مرضي الجنسي السابق دفعني للصبر ، وتحقيق رغبتها بالحمل ، قد فشلت ، فما زلت أعاني من تبعاته أقصد المرض .. وهذا أمر أخفيته عنها ورأيت بأن لا داعي لفتح صفحات الماضي ، وكانت الفحوص تؤكد أن الحمل قد يقع في أي لحظة ؛ لكن أسرة الفتاة خاصة أمها كانت تضغط عليها لتحقيق ذلك ، وأنا عاجز ، فمرات كنت لا أستطيع إكمال عملية الجماع ، فقدت الكثير من طاقتي الجنسية مع بنات الجامعة والنساء الماجنات .. كانت مأساة حياتي الجنسية أثناء الزواج .

علمت من أولى بنجاح مال في الثانوية ، وهو ويدرس المحاسبة في معهد متوسط ، يعمل لمساعدة نفسه وبمساعدة من أخيه بدفع تكاليف الدراسة والأهم أنه تدين.. وهذا أثار استغرابي .. وسعيت للاتصال به ، وتأكدت من تلك الاخبار .

علمت من والدها لميساء الاستاذ سعيد حسن أنه يعرف مالا كشيخ ، وأنه جاء لمسجد الحي لسماع بعض الدروس التي كان يقيمها إمام المسجد ؛ لذلك لما اشتد الضغط عليّ للانفصال طلبت تدخله ، وفعلا وفق بإصلاح ذات البين بيننا ، وأن أعطى فرصة أخرى ؛ لعل الحمل يحدث ، فتمدد الزواج لسنتين أو ثلاث .

وخرجت أعيش بعيدا عن بيت الوالد ، ثم تعاقدت للعمل في الخارج ، فغادرت لدول

الخليج وعملت قريبا من خمس سنوات فيها ، وفي السنة الثانية لما عدت للبلد طلقت ميساء حسب الاتفاق ، وإنني عاجز عن تحقيق الحمل .

عدت من السفر نهائيا عام تسع وثمانين ، وأنهيت رحلة التعاقد ، وعدت مدرسا للعمل في مدارس الحكومة مادة العلوم في المرحلة الثانوية ، وعدت للقاء بمال ، وقد تعين إماما لمسجد في إحدى القرى البعيدة ، فصرت ألتقي به في دكان صاحبه حسين خلو ، ونتذكر أيام زمان ، وأيام الثانوية ، وحدثته عن رغبتي بالزواج .

فقال : يا حبيبي يا ثاني أنت غير متدين.. تدين مثلي لأسعى لك في ذلك .

تجادلنا حول هذه النقطة .. التدين .. وأهمها ترك الخمر والشراب ، واستصعبت التدين ، ووعدته بترك الخمر والشراب ، وكان يظن أنني تركت الشراب لعملي في السعودية ، فأخبرته أن ذلك يحدث وإن بصورة سرية ، وهناك من يهرب الشراب .

حياة أولى مع زوجها كانت سيئة ، وكنت أسمع عنها من أمي ، وأحزن عليها ، وأدركت أن زواجها من مازن غلطة كبيرة ؛ ولكن ليس بيدي حيلة .. والصفات الحسنة لا تباع في الاسواق .. والرجل زير نساء ، وليست مغامراته نزوات عارضة ، وسفري ساعدني أن أبتعد عن مشاكلهما وسماعها ،وآلمني بأن الرجل هجرها في الفراش ، ولا يقربها بالأشهر ، وأنها ترغب بالطلاق .

تاب والديّ ، وهذا أمر نراه في العائلة الكبيرة ، بعد أن ينتهي الكبير من أعمال الدنيا ، ويدركه العمر الستين يترك الخمر والنسوان ، ويتوب ويسعى للحج ، فحجوا عام ثلاث وتسعين.

وزار مال أمي ووالدي ، وبارك لهم الحج ، ونصحني مال بعدم الزواج من شفاء شقيقة مازن .

لم أجد امرأة تقبل بي كزوج إلا هي تلك الفترة ، ولم أقبل اعتراض أولى ومال ، وسكنت مع والدي ، فشفاء شقيقة مازن وقريبة أمي ، ويومها بعد زواجي لأخته سعيت بعودة علاقته لأولى وتحسينها بحكم المصاهرة الجديدة ، ودعوته لترك هجرها في الفراش كما شاع في

الأسرة ، فتظاهر أنه مضطر لهذا الهجر ، وأن السبب أنها تتخذ العشاق ، طبعا لم أستغرب ذلك الدفاع ، ففي النهاية أولى امرأة وأنثى ، ولها رغبات كغيرها من النساء ، وبما أن الرجل ابتعد عنها ستبحث عن ذكر غيره .. وبما أنه يخونها علنا ، فهي مستعدة لخيانته ؛ ولكنه أحب أن يؤكد لي أن زوجته تخونه ، كما يخونها ، وأن لها عشاقا ، وأنه مستعد أن يعرفني عليهم ، وليبين لي فساد أولى ، حتى لا أبقى مصدقا أنها له وحده ، فدفعني الفضول لذلك ، وفعلا جمعني بصاحب أولى في المعهد . وقال لي : هذا الرجل العجوز عشيقها !

حاول الرجل في البداية تكذيب مازن ، ثم اعترف أن بينهما علاقة جنسية منذ سنوات ، وأن له رفيق يشاركه في النوم معها : فتساءلت أهناك امرأة شريفة ؟

ولما شككت بالأمر ، وأن الامر مرتب بينهم . قال مازن : أنت لم تصدق ذلك ، أنا لست مغفلا يا ثاني .. أنا الوحيد الذي لم أستطع أن اثبت أن له علاقة جنسية معها هو مال .. واليوم صاحبك شيخا وإماما للناس .

فرددت مقسما :أقسم لك إن مالا لم يعمل معها علاقة قبل الزواج ولا بعده .

قال :أنا قابلته قبل زواجي من أختك ، وأقسم لي كما أقسمت لي ؛ ولكنها تحبه ، وهي تعترف لي بذلك ، وأرادت أن تسمي ابني جلالا مالا .

قلت : سمعت يا مازن .. أهذا الرجل العجوز أأنت متأكد أنه عشيق لأولى ؟ كيف عرفت ذلك ؟

قال : الأمر ليس صعبا يا ثاني.. أنا لما تركت النوم مع أختك ، وهي لم تكترث ، ولم تسع لإرضائي .. عليّ أن أدرك أنها وجدت البديل ، وببعض الجهد وببعض الحوار مع موظفي المعهد الذين يعرفونني كزوج لها أخبروني عن أكثر الناس لقاء بها بعد الدوام والعمل ، وراقبت شقته ، وعرفت شريكي في الفراش .. والحق لم يكن بيننا فراش إلا أمام الناس .. المقربون يعرف أننا بعيدون عن بعض ، وإنني تصالحت معها بعد مشكلة تلك الطبيبة المطلقة ثم قابلت الرجل وبقليل من التهديد اعترف لي بما يجري في بيته ليلة الجمعة .

قلت : وهل يمكنني أن أتأكد بنفسي ؟

قال :إذا لم تصدق أفعل .

وأعطاني عنوان الرجل وموعد ذهابها إليه ، وفعلت ، ورأيتها تدخل وهي في غاية التبرج ؛ وكأنها ذاهبة للقاء زوجها ، لا تظنوا أنني تألمت ؛ فأنا أقبل ذلك ؛ لأن لي مغامرات حتى وأنا متزوج ، ولا يعني هذا عدم الغيرة ، ما دام زوجها يرضى بفجورها فهل أمنعها أنا ؟! وأنا الرجل الفاجر مثلها ؛ لكن لمعرفتي القديمة بأولى استغربت ، إنها الشهوة الفتاكة لمن أرخى لها العنان .. رأيتها تخرج بعد أكثر من ساعة من بيت عشيقها ، والرجل يوصلها لسيارتها ثم قبل يدها عندما تصافحا ، ثم رأيت العشيق الثاني يخرج بعد وقت يسير ، ويركب سيارته ، عشيقان في ليلة واحدة عدت مغموما ، وانتهى الموضوع ، وأن أختي كسائر النساء .

بعد عدة أسابيع من زواجي من شفاء بدأت حفلات السهر والمجون في شقة شفاء .

لم ترع لي حرمة أو أني زوج جديد ، فبدا أصدقاؤها أيام زوجها الميت يهلون للشقة ، ويلعبون الميسر ، ويمارسون البغاء مع نساء بعضهم ، وعرضوا عليّ مشاركتهم المجون ، فاحتججت على ذلك . فقالت شفاء : ثاني لا تعمل حالك شريف .

فقلت لها : أنا شريف ، ولم يحدث أن تركت ميساء مع رجل غيري .

صاحت : أنا لست ميساء .. وأنا أعرف شرفك .. ولا تنسى مرضك الجنسي أيام زمان .

قلت بذل : في البيت لا داعي لذلك ، لا أحب أن أكون قوادا .

انسحب الضيوف تلك الليلة ، وتعهد أحدهم بأن يكون السهر في بيته ، وبعد أيام عادوا ، وكان لهم ما لا يحتمل .

فهربت للخمر من شذوذهم ومجونهم حتى أنني لم أعد قادرًا على إقامة علاقة جنسية معها ، وكانت تعيرني : أرأيت أنك لم تعد ذكرا ؟

وزادت الخمر عندي ، فهذا كان الحل في نظري ، وافتعلت المشاكل والنزاع ، ومن ثم الشكوى لمازن وأمها ، فيقول : أنت لم تكن تعرف علاقات شفاء أيام زوجها جميل ؛ لكنه

كان أنشط منك ينام مع نسائهم.. المعاملة بالمثل .

قلت : أختك شاذة يعني !

قال : ماذا يسمى تبادل الزوجات يا ثاني ؟

قلت : لا أطيق ذلك .

قال : مع الوقت ستتعود .

لم أستطع التعود على تلك الانحرافات ، وسكنا بشقة عند مازن ، ثم صار أكثر وقتي في درب القلعة عند أمي أشكو لها غمي وشذوذ ابنة خالتها ، فكعادتها تصمت ، صبرت سنتين دون حل ، أصر أبي على طلاقي لها قبل هلاكي أنا ، وحصل الطلاق ، ودفع والدي حقوقها ، واضطر مازن لطلاق أولى بالمقابل زاعما أن ذلك ارضاء لأمه وأخته ، وانتهى ما بيني وتلك الفاجرة .

وبعد طلاقنا بأسابيع ماتت أمي حزنا وكمدا على حالي وحال أولى ، فهي كانت تعرف من أولى نفسها عن علاقتها بالرجال والعشاق ، كنت أتسأل أين هي الحياة السعيدة ؟

جاء مال وقدم لي العزاء ، وعزى كل الأسرة ، وأشفق على والدي ، وحثني على التوبة والتدين وترك الخمر ، فبدأت مقتنعا بما يقول ؛ ولكنني ضعيف وعاجز عن فعل ذلك ، وكانت حالة أولى بعد موت أمي صعبة ، وغرقت هي الأخرى بالإكثار من السكر والاعتزال بعد الدوام حتى أنها كرهت طفليها ، ولم تعد ترحب بهما .

ذات ليلة احتجت لدخان ، لم يحضر يزيد لي الدخان ، فذهبت لحجرة أولى لآخذ علبة منها ، فوجدتها عارية تماما ، فظننت أنها كانت تريد الاستحمام ، وحدث معها شيء ، فاقتربت منها ؛ لأوقظها ففتحت عينيها ،وظنت أني كنت أرغب باغتصابها فصرخت وصاحت ، فجاء أبي الذي ينام في الطابق الثاني معنا ؛ لأن يزيد بعد موت أمي جاء وسكن في البيت ، وأنا ذكرت لهم أني دخلت أريد الدخان ، ولم يصدق أبي دفاعي ، وهي ذهبت للمطبخ وأحضرت سكينا وحاولت قتلي ، وجاء يزيد ، ولبست ثيابها ، وأخذوها إلى بيت خالتي خوفا مني ، وبعد أيام

حضر مال ، وتحدث عن تلك المشكلة ، وبينت له أسباب ذهابي لغرفتها والحال التي وجدتها عليها ، وحدثني أن لا مخرج لي من هذه الورطة إلا العودة إلى الله ، وترك السكر وعاهدته على فعل ذلك ، واغتسلت وعلمني الصلاة والوضوء ، وكان كل أسبوع يأتيني لذلك ، وخلال شهور تخلصت من الشراب نهائيا بفضل الله ، وعدت للتدريس ، وكنت قد رحلت من البيت حتى تعود أولى إليه ، وعدت بتشجيع من العزيز مال إلى دراسة ماجستير شرعي ، ثم الدكتوراه وعرفني مال على بعض رفاقه الشيوخ والعلماء أو طلبة العلم في حي النزهات ، ثم سافرت للعمل في إحدى الجامعات في دول الخليج ، وكان والدي مسرورا مما آلت إليه حياتي ، وصدق طبعا أن أولى فهمت ما حدث خطأ .

ثم علمت من مال بزواج أولى وتوبتها ، وأنها سعيدة مع زوجها الجديد ، وأنها قد تركت المعهد والعشاق ، وعلمت بعد حوالي أربعين سنة أن السعادة والنظافة فقط بالتمسك بدين الإسلام ، فهو الذي يحمينا من الخدن والخليلات والعشاق والزنا والخمر والاباحية الجنسية .

ثم يسر الله لي أرملة لديها طفلان قد مات زوجها بحادث سير ، وهم مغتربون مثلي وقبلت بي تلك الأرملة عن طريق زميل لنا في الجامعة .

وكنت أكتب لمال وأسمع أخباره ، وهو يسمع أخباري ، ثم قررت العودة للوطن بعد اغتراب لبضع سنين ، وكان السبب موت والدي ـ رحمه الله ـ وحضرت دفنه ، ثم على أثر ذلك تصالحت مع أولى ، وبكت ندما على اتهامي ، وتسرعها تلك الليلة في اتهامي للنيل منها.

وحياتي اليوم تمضي مع الكتب الدينية والاصدقاء المتدينين ومناقشات علمية ومتابعة بعض القنوات الفضائية .. هذا مختصر حياتي .. ليس فيها شيء مهم ؛ ولكن كاتب هذه الرواية أحب أن أتحدث عن أهم محطات الحياة كما فعل مال ثم أولى ..وشكرا .

الفصل الأخير

احتفل رفيق دربي مال وبعض الأصدقاء بزواجه من أولى ، وحملهم ثاني بسيارته من قاعة الحفل إلى بيتهما وشقتهما المستأجرة في درب القلعة ، ولما جلسوا في غرفة الصالون ، استأذن ثاني ، وغادر البيت ، وأغلق مال الباب عاد إلى حبيبته التي أخذت بخلع ثوب الحفل ، ثم قبلها قبلة انتظرتها أربعين سنة ، وضمها إلى صدره ، ووضع يده على رأسها وقال "اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه"

وقال : فلنتوضأ أيتها الحبيبة ونصلي ركعتين أيتها الحبيبة عملا بسنة حبيبنا محمد ﷺ فتوضآ ، وصلت خلفته ركعتين لله تعالى .

وقال بعد الصلاة : اللهم بارك لي في أهلي ، وبارك لهم فيّ ، اللهم اجمع بيننا ما جمعت بخير ، وفرق بيننا إذا فرقت إلى خير .

وقدم لها قطعة من الشوكولاتة ، وهو يقول : كنت تحبين هذا النوع منها يا حبيبتي .. وحين نسهر في بيتكم كنت تقدميها لي . واطعمها إياها بيده وقال : حبيبتي !

قالت : كم أحببتك يا مال ؟

قال : الخيرة فيما يقدره الله .. لو تزوجنا قديما ؛ ربما تطلقنا عندما تدينت يا حبيبتي ! وضمها إلى صدره ، وأخذت هي تبكي وتقول : رحمك الله يا أمي !

فأخذ منديلا ورقيا ، ومسح لها دموعها ، وهو يقبل رأسها ويداعب شعرها : الأمر لله من قبل ومن بعد .

قالت :رجعت بي إلى أيام الصبا .

قال : الرسول ﷺ تزوج أغلب نساءه بعد الخمسين .. المهم السعادة .

ضمته لصدره من جديد وهمست : رضيت بي أخيرا يا مال !

قال :تغيرت الاحوال يا ملكيتي ! أنت تعلمين أنني أحببتك وتمنيتك زوجة ؛ لكن تلك الأيام كان زواجنا صعبا .

قالت : صدقت .. هل غفرت لي تلك الليلة ؟

قال : فعلت أيتها الحبيبة .. فأنت الآن لي وأنا لك .

عانقته وقالت: حياتي أسعدتني وانسيتني عذاب تلك الأيام من الجاهلية

قال : حياتنا الحق في إسلامنا .

قالت : الحمد لله رب العالمين .

حضر ثاني صباحا ، وجلب معه فطورا وحلوى ، وقال : لعلكما قضيتما ليلة سعيدة .

حمدا الله وشكراه وقال مال : عدنا لإيام الصبا يا أخي الكريم .

قالت : شكرا يا ثاني ! وكم ندمت عندما طعنتك بالسكين !

قال : تسامحنا يا أخية .. أنت خير أهلي لي اليوم .. وها قد عاد القدر وجمعنا جمعا ، لم نكن نحلم به .. وجئتم بخبر سعيد .

قالت : ما هو ؟

قال وهو يقبل يدها : كيف عروسك يا مال !

قال : قلت عدنا لإيام الصبا ، ما الخبر السعيد ؟

قال : لنفطر أولا قبل أن يقبل الاصدقاء والاقارب للمباركة لكم . دخلوا المطبخ

قال ثاني : هل قرأتم قرآنا ؟

قالت : الحمد لله صلينا الفجر معا ، وقرأنا ما تيسر منه .. وجلسنا نتغزل ببعض مثل تلك الأيام .. ما زال مال يحفظ تلك الاشعار عن حب عنترة وعبلة .

دارٌ لآنِسَةٍ غَضيضٍ طَرْفُها ... طَوْعِ العِنانِ لَذيذَةِ المُتَبَسِّمِ

يا دارَ عَبلَةَ بالجِواءِ تَكَلّمي ... وَعِمي صَباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي

أنّي عَداني أَنْ أَزورَكِ فاعْلَمي ... ما قَدْ عَلِمتِ وبعضَ ما لم تَعْلَمي

يا عَبْلَ لَوْ أَبْصَرْتِني لرأيتني ... في الحربِ أُقدِمُ كالهزْبرِ الضّيغمِ

وقال :

□□□

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ والرِّمَاحُ نَواهِلٌ ... مِنّي وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دَمي

فَوَدِدْتُ تَقبيلَ السّيُوفِ لأنّها ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ المُتبَسِّمِ

وقال مال ضاحكا :

وَقَد يَجمَعُ اللهُ الشَتيتَينِ بَعدَما....... يَظُنّانِ كُلَّ الظَنِّ أَن لا تَلاقِيا

لَحى اللهُ أَقواماً يَقولونَ إِنَّنا ...... وَجَدنا طَوالَ الدَهرِ لِلحُبِّ شافِيا

قال ثاني : أكيد قضيت ليلتك تقص عليها أشعار الغزل .

أكلوا وشربوا الشاي من أيدي أولى ، ولما رجعوا لصالون الشقة قالت : طال انتظارنا للخبر السعيد ..هل وجدت عروسا كصاحبك مال ؟

قال : سأجد ـ إن شاء الله ـ الخبر السعيد أن شقيقنا المهندس يزيد سيفارق البيت قريبا بسبب زواجكما وينتقل لشقة في بنايته في العريقات وسيضعها تحت تصرفكم أنت ومال .. وهكذا نعود جيرانا .

قالت : خبر سعيد .. الماضي يعود يا مال !

قال مال : أنتم لم تقتسموا ميراث والديكم .

قال ثاني : قسم قديما .. ولماذا السؤال ؟

قال : كنت أظن أن له الارضي ولك الثاني .

قال : لا ، هو البيت الوحيد الذي ترك بدون تقسيم يا مال ! ظل للجميع وقبل أن أنسى ابنك المحامي وابنتك سيأتيان ليلا لتهنئتك بالزواج .. تحدثا معي بذلك .

نظرت أولى لمال ، وقالت : هددنني إذا تزوجتك سيقتلني !

قال مال باسما : أليس هو ابن زوجك الأول الذ ي كان يغار مني وأنا بعيد عنكم ؟

قال ثاني : لا تهتما بكلامه وتهديده .. هو فارغ مثل أبيه الميت .

قالت : يمر عليّ يا مال سنة أو أكثر حتى يزورني هو وأخته زاعمين أنني لم أربيهم ولم أهتم بهم قبل طلاقي من أبيهم ومن بعده .

قال مال : أهلا بهم ومرحبا يا ثاني .

قال ثاني : لم يكن من السهل نفسيا حضور زواج أمهم .

قالت : أنا لم أطلب منهم ذلك يا ثاني .

حضر جلال مساء وزوجته المحامية مثله لشقة أمه ليبارك لها زواجها ولما قرع الباب فتح له ثاني خاله وصافحه وحيا زوجته أم أمجد وتقدمها لصالة الاستقبال ، وصافح الرجل أمه ؛كأنه يصافح امرأة أجنبية وقال بصوت جاف متظاهرا بأن زواجها لم يرق له : مبارك يا أم جلال !

وأشار خاله لمال وقال : هذا زوجها مال الدين !

فقال : مرحبا . وجلس دون أن يصافحه متجاهلا يده التي مدت فقال مال : أهلا بالمحامي الغاضب !

هنف الشاب :لماذا الغاضب ؟

وكانت زوجته تعانق حماتها ، وتبارك ، وتقول : لا تهتمي يا عمتي بحركات جلال الرعناء .. مرحبا أيها السيد الكبير !

قال مال : أهلا يا ابنتي ومرحبا .. تفضلي بالجلوس .

جاورت زوجها ، وقالت : كيف أنت يا خال ؟

قال ثاني : أهلا لمياء بخير .. وأنت ووالداك ؟

ـ كلنا بخير

رحبت أولى بلمياء وسألتها عن أهلها وعادت للصمت والوجوم ، وقال ثاني : أين أختك ؟

ـ لم تحضر من العمل ؛ لكنها ستأتي .. واجب علينا لابد منه .

ضحكت أولى : ومنذ متى وأنت تعرف الواجب ؟

قال مال : يا حبيبتي ! جلال مازال شابا صغيرا .

قالت لمياء : كيف أنت والسيد يا عمتي ؟

قالت أولى : أهلا بكم .

قال جلال : لا أدري كيف امرأة بسنك تتزوج ؟!

قالت زوجته ـ وهي تتناول العصير من خادمة ثاني التي أحضرها لما أحضر الغداء لصهره واخته ـ : كما تتزوج النساء .. وهل للزواج عمر ؟

صاح الشاب : أنا لم أطلب الاجابة منك يا حضرة الدكتورة .

هي دكتورة في القانون قالت بحدة : ونحن منذ متى نتدخل في حياة أمك يا جلال ! وكما قالت لك إنها تمكث بالشهور ولا تتفضل عليها بزيارة .

وقف جلال وقال : مبارك يا أم جلال ! واسمحوا لنا بالانصراف .

قال ثاني : هو الأفضل .. فأنت ابن من ؟

صرخ جلال : ابن الشيطان يا دكتور !

قالت أولى : أفعالك هذه لا تزعجني .. أنت ما زلت طفلا .. شكرا لك يا لمياء !

قال مال : عندما تهدأ أعصابك فأسمح لك بالحديث معي ، فلن أحدثك عن البر والاحسان .. فأنت جاهل فيهما مع السلامة .

فقال جلال بحدة : تطردني !

قال مال : هذا بيتي يا ولدي ! من لا يحترمه فلا يستحق الاحترام .

خرج ساخطا تتبعه زوجته ، وهي تعتذر لهم ولما خرجوا قال مال : فعلت ذلك ؛ لعله يعود للحديث معي .. فهو مسكين جاهل .

قالت : حبيبي مال لا تغضب .. فنحن علاقتنا مع بعض سيئة .. فقد أشبعه والده كلاما سيئا عني ، وأني تخليت عنه ، وعن أخته صغيرا وشابا .. وأنا لا أكترث ببره وإحسانه .. فهو لا يعرف مثل هذه المعاني .. وله قصص كثيرة مع والده وجدته خالة أمي .. هو قدم مجاملا ليس لي وإنما لأقاربه .

قال ثاني : علينا أن ننسى هذه الزيارة .

قال مال : بالنسبة لي هذا لقاء عابر .

وبعد حين يسير رن الجرس ، وفتح ثاني واستقبل ابنة أخته فقبلته ، ودخلت وقالت : زوجي يعتذر لأمر طارئ .

وسلمت على والدتها وقبلتها من وجنتيها وقالت : مبارك يا أمي ! مبارك يا شيخ مال !

وجلست ، ولما كررت التهنئة والمجاملة قالت : تحدث معي جلال وخرج غاضبا ما الذي حدث ؟

قالت أولى : اسمعي منه ، فلن تصدقي ولو قلنا شيء أنت ما أخبارك ؟

قالت : كيف حالك يا شيخ مال ؟

قال : أهلا ابنتي! أنا بخير ..وأتمنى أن أراك بلباس أجمل من هذا .. لباس الطاهرات .

امتعضت البنت للغمز وقالت : شكرا ؛ لعل ذلك يتحقق في يوم ما .. كان عليّ أن أزوركم بلباس شرعي ؛ لكني جئت من العمل مباشرة .

قال ثاني : للأسف أسرة صهرنا السابق لا يعرفون ذلك .

قالت فريدة : يا خالي نحن جئت لأبارك لأمي .. فدعنا من أسرة أبي وأسرة أمي .. مبارك يا أمي ! والسلام عليكم قد أتمكن من العودة مع نضال .

قالت : لا داعي يا فريدة! فقد قمت بالواجب على رأي أخيك مع السلامة .

ودعها خالها للباب ، ودعا لها بالهداية فقالت : آمين، شكرا لك يا خالي .. فزوجي نضال يصلي مثلكم ؛ لكنه غير متشدد .

قال : لا أعلم كيف نحن متشددون ؟ عليك أن تصلي مثل زوجك حتى لا يجد من تصلي ويطلقك .

ضحكت وقالت : يطلقني ؛ لأني لا أصلي !

قال : قد يفعل .. عمره ما قال لك صلي!

قالت : إنه يصلي من عهد قريب .. ولا أدري كيف انقلب ؟!

قبلته وقالت : سيأتي نضال للتهنئة لأمي فهو يودها .

قال : أهلا وسهلا وتشرفنا.

كانوا يجلسون بعد زواجهم بأسبوع في نادي القراءة في انتظار الكاتب الذي دخل عليهم محييا بكل حب وقال : كيف عروسنا ؟

قالت : جزاك الله كل خير ! لقد حققت لي حلما ما كنت أظن أنه يحدث يوما ما ؛ فأنا مدينة بهذه السعادة .

قال : أنت لستِ مدينة لي بشيء ، ولم أتعب بإقناع مال الدين ، قلت له اليوم الفرصة متاحة لتعود مراهقا صغيرا ، فقال : كيف؟ قلت : ما دامت السيدة الفاضلة متدينة مثلك ، وترملت فتزوجها ، فستعود مراهقا . فقال : وهل تقبل بهذا الشيخ العجوز ؟ فقلت : ستقبل إذا كانت تحبك .

فقالت : ويلك !!

قال : يا سيدتي كثير من النساء تنكح من لا تحبه ؛ لأنها ترغب بأن تكون زوجة ؛ فإذا أتيحت لها الفرصة ؛ لتنكح من أحبيته لمَ لا تقبل ؟

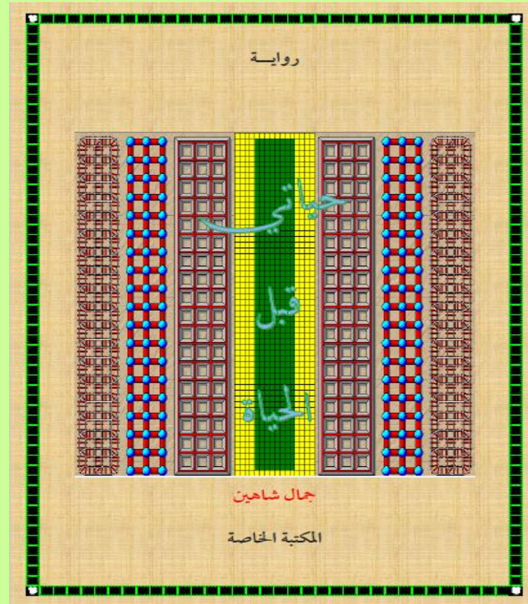
قالت : أي فلسفة هذه ؟

قال : وفقكم الله تعالى .. ودعونا من الفلسفة والحكمة .

جمال

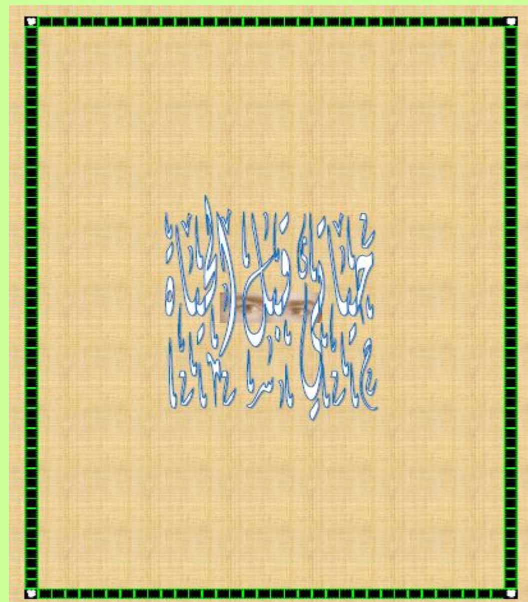
"تمت بحمد الله"

□□□



جمال شاهين المكتبة الخاصة

٢٠٢١



شمس عَمري

رواية

جمال شاهين

دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

شمس عمري

جمال شاهين

النشر الاول ٢٠٠٢/ النشر الثاني ٢٠١٨

طباعة ٢٠٠٦

الاخير الثالث ٢٠٢١



عَمري يستيقظ كل يوم عند سماع آذان الفجر

نعم الفجر ..

تغير أسلم تاب

اشتعلت الحرب الشعواء

اختفى في مدينة الريحانة

ثم عاد عملاقا منتصرا ملتزما محبوبا

فأصبح شمسا منيرة لأسرته ومن حوله وأقاربه

إنه صديقنا عَمري

هذا ما ستقرأه في هذه القصة

جمال

بسم الله الرحمن الرحيم

شَمسُ عَمري

تأليف

جمال شاهين

دار المأمون
للنشر والتوزيع

٨١٣.٩

شَمس عَمري / الروايات العربية / / العصر الحديث

جمال شاهين / مؤلف من الأردن

الطبعة الأولـى

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر : ١٧٩١/ ٦/ ٢٠٠٦

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : ١٧٤٠ / ٦ / ٢٠٠٦

دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي – عمارة جوهرة القدس

تلفاكس : ٤٦٤٥٧٥٧ – ٦ –٠٠٩٦٢

ص.ب ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن

E-mail : daralmamoun@maktoob.com

ردمك : ٨ – ١٤ – ٤٦٢ – ٩٩٥٧ ISBN

عمري

منذ شهور قد انقضت والشاب عمري ناصح يستيقظ فجرا عندما يرتفع آذان الفجر عاليـا في المسجد القريب من قصرهم " فيلا ناصح الخابي" ، وهذا الصحيان اليومي يتكرر كأنـه عـلى موعد معه، ومن النادر أن يفوته سماع صوت المؤذن لصلاة الفجر في مسجد الحـي ، فـيجلس على سريره بضع دقائق ثم يعود للنوم ثانيـة وهـو يتسـاءل : " أيوجـد أحـد يصـلي في هـذا المسجد ؟! ولماذا أصلا بنوا هذا الجامع هنا ؟! ..آ .. فلربما للصلاة على أموات الحي .. ربما " ويغفو وهو يردد هذه الاستفهامات ، ثم تطور هذا الحال بعد حين فصار ينهض مـن فراشـه ويجلس في شرفة مطلة على المسجد، فيشاهد بعض الناس يتحركون نحـو بيـت الله في ظـلام الليل فيصيبه العجب من هؤلاء، كان عمري يرى الـدين والصـلاة وغيرهـا أشـياء قديمـة أشياء بالية .. تراث .. من مخلفات الماضي .. فهو منذ خرج للدنيا لم يشاهد والديه يصليان في يوم ما .. سافر لبريطانيا بعد نجاحه في الثانوية العامة " التوجيهي " لدراسة التجارة والإدارة في جامعة لندن، فعرف المدنية والمدينة الغربية، وبعـد سـبع سـنوات أمضـاها هنـاك في بـلاد الضباب وأي ضباب ؟ ! عاد لأرض الوطن .

فأخذ مشهد مراقبة المسجد والمصلين عند الفجر يتكرر معه في أغلب الأحيان والأيام .. فتدثر ذات فجر بثياب سميكة ، ومشى إلى المسجد فدخله وصلى مع الناس من غير وضوء ولا طهارة ، فهو لا يعرفهما، وإن تعلم شيئا منهما في الصغر أو سمع به في المدرسة، فهو الآن لا يفقه ولا يعي من ذلك شيئا ، لقد كان يدرس كأبناء طبقته في مدارس أجنبية، فمادة التربية الإسلامية كانوا يمرون عليها مرور الكرام وللنجاح فقط .

بعد أن استقر في البلد على أثر عودته من لندن كان هناك دافع باطني يدفعه للصلاة .. للإسلام الذي هجره بل الذي لا يعرفه .. إنه شغوف بمراقبة وملاحظة بعض عمال المصنع الذين يصلون ويتعاطف معهم ويشجعهم على الصلاة ويسمح لهم بالصلاة في وقتين الظهر والعصر، والتوقف عن العمل للصلاة، ويتهاون معهم رغم تعاليه وكشرة وجهه أمامهم ..

□□□

إنه يحب المصلين، وفي قرارة نفسه يتمنى أن يصير مثلهم ، لقد ملّ من حياة العبث واللهو والنساء بل قرف ذلك كله وملّه قبل عودته من بريطانيا من أرض الغواية ..

كان الوضع رهيبا عليه في المسجد رهبة الإيمان وتلاوة القرآن .. أناس من طبقة راقية يفارقون أسرتهم الدافئة ليصطفوا وراء الإمام الذي يشدو بهم بحركات وصوت من القرآن .. القرآن إنه كتاب الله للمسلمين .. فيهمس لنفسه: "يوجد إذن في الحي خلق يصلون، لم يكن المسجد فارغا، فيه بشر يعبدون الله ! وتهمس شفتاه أثناء العودة للبيت: " أحقا هناك جنة ونار ؟ وكيف هما ؟! "

كان كل أسبوع يترك الشرفة مرة واحدة متسللا إلى المسجد، ويردد بين حناياه وهو مفعم بالتوتر والوجل والقلق : " لماذا لا أتوب ؟! كيف أتوب ؟! ماذا أفعل ؟ أتكلم مع الشيخ ؟ لا .. أأشتري بعضا من الكتب ؟! "

كان عمري الخابي يفكر ويتعجب من حياة الأسرة كلها، وجدها في نظره حياة عبثية، لا أهداف عظيمة ومهمة أمامهم، والده ناصح الخابي هدفه في هذه الحياة المزيد من الثروة .. المزيد من اللهو .. حسابات تكبر في البنوك .. رحلات سياحية لأوربا وأمريكا .. إشباع الجسد فقط، أما الروح فليس لها شيء .. ولكن والده غير ملحد فهو يؤمن بالله، بل يراه يتبرع لبعض الجمعيات الإسلامية بالمال .. بل يتذكر أنه قد تبرع لتشييد المسجد المقام في هذا الحي .. هذا المسجد المجاور .. إنه لا يحارب الدين، إنه لا يعادي الإسلام .. ولكنه لا يمارس الإسلام .. لا صلاة ولا زكاة .. ولا حج ولا صوم رمضان .. أليست هذه أركان الدين كما سمعت الشيخ الإمام يتحدث ذات صباح ؟!

فعمري ابن هذا الأب، فلما نجح في الدراسة الثانوية أرسله لبريطانيا للحصول على شهادة إنجليزية بدراسة التجارة والأعمال المالية وكسب وتعلم لغة الإنجليز، وهو الابن البكر، ولقد كان بين يديه هناك المال والحرية المطلقة .. فدرس واشتغل؛ ولكنه خلال تلك السنوات السبع زاد عبثه ولهوه، وتعرف على فتيات وغانيات المجتمع في لندن وضواحيها، فحب

وانحب، شرب الشراب المسكر، سافر فرنسا وجنوبها، فعرف ملاهي ونوادي لندن وباريس، تفرج على مسارح تلك المدن وحاناتها، تعلم العلم الأكاديمي، حصل على شهادة الجامعة، وتعلم معه حياة المجون من شبابها وبناتها، طرد من عمله أكثر من مرة، فطلب منه والده العودة للبلاد فعاد بعدما سدد عنه الأب الغني كل ديونه، فاشتغل مع والده بعد حين، بعد سنة من الإحباط والانهيار استسلم واقتنع بالعمل مع سيادة الوالد ناصح وأخيه ناجح، فالسيد ناصح الخابي يملك عددا من المصانع في البلاد .. فبعد ثلاث سنوات وهو يعمل تحت إشراف الوالد ناصح جعله نائبا له في مصنع إنتاج السجاد والموكيت والخيوط، فأصبح الابن الأكبر لناصح باشا الشاب عمري نائبا للمدير .. نائب والده .. والمصنع بالمقياس التجاري في البلاد ناجح .. إنتاج جيد وتوزيع وتسويق جيد، وقد استطاع عمري أن يقود المصنع بنجاح ، وإن لم يكن النجاح الذي يطمح ويحلم به ناصح الخابي، فقد أمضى الشاب سنتين أو أكثر في إدارة مصنع السجاد، فقد كان والده يطمع أن يضيف خطوط إنتاج أخرى للمصنع ليتمكن من التصدير إلى الأقطار المجاورة ..

كما ذكرنا كان عمري يتسلل لصلاة الفجر مرة واحدة في الأسبوع، يتحرك كما يتحرك الناس خلف شيخ الصلاة .. فذات نهار أدخل إلى مكتبه حيث إدارة المصنع شابا شيخا متدينا من عمال المصنع ذا لحية طويلة، وظن العامل حسن أن هناك شكوى عليه أو مشكلة ما .. فأشار عمري لحسن بالجلوس، ولما أغلق الفراش الباب عليهما، قال عمري للشاب المتدين بعد الترحيب والتحية: " يا أخ حسن! .. كيف الصلاة ؟ وماذا تفعلون في الصلاة ؟ "

بهر حسن لهذا الاستفهام، ووجم لحظات قبل أن يفيق من الدهشة وقال لنفسه وهو ينظر في عيني نائب المدير : " مسلم يسأل عن كيفية الصلاة وماذا تفعل في الصلاة ؟! " ثم أجاب مديره : " ماذا يقصد السيد المدير بكيف الصلاة ؟ ! "

كان عمري يسأل حسنا وهو قائم فجلس قريبا منه وقال : " يا أخ حسن ! .. أنا .. أنا أريد أن أتعلم كيف أصلي صلاة صحيحة ؟!.. صدق يا أخ حسن أنني لا أعرف كيف تكون

الصلاة ؟ .. أراكم تقفون وتنحنون وتسجدون وتتحدثون عن الوضوء .. ولا تستغرب جهلنا بذلك رغم حملنا للشهادات والجامعات .. "

فقال الشاب العامل : " ألم تتعلم ذلك في المدارس ؟! "

فقال عمري كأنه محتجا : " أيّ مدارس يا أخي ؟! .. أنا قضيت ثلث عمري في بريطانيا .. ولكنني أحس بحيرة .. بضيق .. أحيا في ظلام .. أريد أن أتوب .. "

تألم حسن المدهوش مما يسمع وقال : " معك حق ، مدارس هذه الأيام لا تعلم الدين والقرآن لدي كتب عن الصلاة والوضوء .. سآتيك بها .. "

فقال عمري : " أريد أن أسمع .. لا أريد القراءة الآن "

فرد حسن : " تسمع وتـقرأ "

ـ " سوف أفعل "

فقال حسن وهو يهم بالقيام : " العمل يا سيدي والعمال ؟ "

ـ " لا تقلق .. بضع دقائق كل يوم .. إنني أتألم من داخلي يا حسن .. ضقت بهذه الحياة ومللت الملذات .. "

فقال حسن : " أنا لي صديق طيب وطالب علم، فما رأيك أن تزوره بعد انتهاء الدوام وتتعرف عليه فهو أقدر مني على مساعدتك "

فقال عمري : " أريد أن أعرف ما تعرفه أنت الآن .. كيف تتوضأ ؟ كيف تصلي ؟ .. وسوف أقرأ وسوف أقابل صاحبك .. أنا عطش جدا للإيمان والصلاة "

أخذ حسن يشرح لنائب مدير المصنع كيف الصلاة ، وحدثه عن صفة الاغتسال من الجنابة ، ثم الوضوء للصلاة ، وعلمه أساسيات الصلاة وهيئاتها ، ثم أخذ يتردد على مكتبه كل يوم مدة نصف ساعة تـقل ولا تزيد يعلمه مما يعلم ويمارس ، وكان عمري قد طلب من حسن أن لا يحدث أحدا بما يعلمه ؛كأنه خائف من الناس أو من نفسه ، فعاهده حسن على ذلك بناء على رغبته ، وعلى أثر تلك اللقاءات فقد أصبح الشيخ حسن العامل صديقا لابن المدير البكر

وكثر تردد عمري على المسجد لصلاة الصبح ، فما زال يستيقظ من نومه عندما يسمع صوت المؤذن ، وكثر الهمس في المصنع حول صداقة عمري نائب المدير بالعامل حسن ، بل كان أحيانا يركب حسن مع عمري بسيارته يوصله لأقرب موقف سيارات ليعود إلى أهله ، وأحيانا أخرى يوصله لبيته بنفسه مما زاد من الإشاعات والتكهنات حول هذه الصداقة سواء في المصنع حيث العمال أم في مكاتب الإدارة ، والكل يتطلع ويتشوق لمعرفة أسرارها ، واستمر حسن يتردد على عمري في مكتبه مدة قد تقترب من الشهرين حتى أصبح السيد عمري متقنا للصلاة والوضوء ، وكان سعيدا بذلك ثم الـتقى وتعرف بصديق حسن الشيخ " علي الحمد " الذي أخذ يشرح له أركان الإيمان والإسلام ومسائل الاعتقاد والآداب ، مما أدهش عمري عندما سمع بآداب النوم والطعام والسفر والسلام وغير ذلك من مواضيع وفقه ، وكبر تعلق عمري بحسن وصاحبه علي ، وكان مسرورا بصحبتهما ورفقتهما ، وذات يوم عندما عاد عمري للبيت التقى بأمه في صالة البيت فقالت الأم : " إيه يا عمري ! .. لم تعد تكثر من الجلوس معنا ..أمس تركتنا والضيوف ودخلت للنوم .. ومتى ينام عمري مبكرا مما أدهش بنات عمك ؟ ! "

فقال بلطف: " لم أعد أحب السهريا أمي ..إنني في حيرة .. لماذا نعيش ؟ ! لماذا نأكل ونشرب ونلهو ؟؟ "

ردت الأم باستغراب : "لماذا نعيش ولماذا نلهو ؟! ما هذه الأسئلة يا بني؟ هل بك مرض ؟؟ أنا لي فترة طويلة ألاحظ عليك الشرود والقلق .. وكثيرا ما أراك عند الفجر تجلس عند الشرفة وحتى في شدة البرد والمطر .. "

فقال : " إني حائر يا أماه .. هل خلقنا فقط للعبث والمزح والسهر ؟ أليس هناك آخرة ؟! "

فقالت الأم بقلق : " احذر أن يكون كلام أم سعيد حقا ؟ "

فقال بشرود : " أم سعيد عمتي ؟! وما هو كلامها ؟ "

فقالت بلهجتها القلقة : " إن صاحبا لابنها خالد يراك تتردد على المسجد عند صلاة الفجر "

ضحك عمري وقال : وهل هذا عيب ؟! .. لي زمن أتردد على المسجد وأصلي الفجر .. روحي تطلب الصلاة يا أمي .. "

رفعت الأم من صوتها وقالت : " ويلك ! أجننت يا فتى فالصلاة للعجايز وكبار السن ؟! .. أنا لما سمعتها تتكلم بذلك ضحكت منها وقلت لها " كل الناس يصلون إلا عمريا .. فعمري ابن لندن وابن المدنية .. "

فقال عمري مسايرا سذاجة أمه : " وهل المدنية تمنع الصلاة يا أمي ؟ ! .. الصلاة شيء مهم في حياة الإنسان .. البوذيون يصلون .. ! "

فقالت الأم : " إنك تتكلم بجد ؟ هذه أمور لا نحب رؤيتها في البيت .. أنا لما حدثتني بدرية عن أشرطة كاسيت القرآن الموجودة في غرفتك ظننتها لأحد عمالك .. "

فقال عمري : " أمي إنني بحاجة للراحة الآن أجلي الكلام لوقت آخر .."

فقالت : " هذا أمر خطير لا يؤجل .. هذا البيت ليس مكانا للعبادة "

جحرها عمري بطرف عينيه قائلا : " إنك تتكلمين بلسان الشيطان .."

وانسحب إلى حجرته وألقى بنفسه على السرير ثم راح في سبات عميق .

حسن

كان المدير العام لجميع شركات ومصانع الخابي الأستاذ ناصح الخابي يتابع نشاطات مصنع السجاد عن طريق ولده عمري ، وعن طريق التقرير المالي الذي يعده كبير محاسبي المصنع أسبوعيا ويقدمه إلى مكاتب الشركات الرئيسية ، وكان أيضا يتلقى تقريرا إداريا من السكرتاريا للمصنع وشؤون العمال والموظفين ، ولقد كانت الآنسة العانس " نسرين غانم " من قدماء موظفي المصنع ، فهي بذكائها وخبرتها تعرف كل نشاطات وإنتاج المصنع ، فكان أحيانا يتصل بها السيد ناصح ليسمع منها أخبار المصنع وعلاقات العمال والإدارة ، وكان السيد المدير يحب أن تكون علاقـات العمال بالإدارة علاقـات جامدة في حدود العمل والإشراف فقط ، لذلك كان المدير متضايقا من علاقـات نائبه في المصنع بالعامل حسن وغيره وذات صباح عندما دخل عمري مكتبه وجد أمرا بنـقل العامل حسن إلى مصنع آخر أو فصله من العمل ، فطلب السكرتيرة وسألها " من أتى بهذا الطلب ؟ "

فأجابت " وصل مع البريد من الإدارة العامة "

فقال باقتضاب : " مع السلامة " ومزق الطلب ورماه في سلة النفايات كأنه لم يتلقه ، ثم تابع قراءة الخطابات الأخرى ومراسلات الشركات وطلباتها ويشرح عليها باللازم ، ثم نزل ومعه مدير الإنتاج المهندس رياض نحو ماكنات النسيج والتصنيع ، فمكث بين العمال بضع ساعات ، ثم رجع للمكتب ومعه رفيقه حسن فشربا الشاي ، ثم غادر الشركة عائدا للبيت ، ولم يكد يدخل غرفته الخاصة حتى رن جرس الهاتف ، وكان المتحدث والده ناصح وتحدث معه بغضب : " لماذا تركت المصنع يا عمري ؟ ! .. لقد دهشت عندما أخبروني بأنك انصرفت للبيت، منذ متى وأنت تترك الشغل للغرباء ؟! "

ـ " باختصار يا أبي إنني متعب فقلت لمدير الإنتاج المهندس رياض إنني أشعر بإرهاق .. ورياض هو أنا ، ألم تـقل لي ذلك مرارا وهو ليس غريبا عن العمل .. ؟"

ـ حسنا .. لما أراك مساء نتكلم ، فأنا لم تعد تعجبني أفعالك هذه الأيام "

ضحك عمري وهو يقول : " لما تعود إن شاء الله .. أسمع هذه الأفعال التي لا تعجبك "

فتمتم الأب بكلمات أخرى غاضبة وأغلق الهاتف ، ووضع عمـري السماعة من جانبه وهـو يقول : " لماذا يكرهون التوبة .. الصلاة ؟؟! .. وهل العلمانية التي يتمسكون بها تمنع الناس من الصلاة ؟ إنهم قوم ظالمون .. ما ألذ الكلام الذي أسمعه من الشيخ علي والشيخ حسن !! إنني عطش وجائع لمثل هذا الكلام الروحاني "

ثم نهض فصلى الظهر ورقد ، فهو على موعد مع محاضرة إسلامية في نادي الصلاح ، وتبسم وهو يتذكر ذلك وقال : " والله صرت أحضر محاضرات دينية بدلا من حفلات الأغاني والرقص "

*****

فعندما عاد عمري من الدرس الديني بعد صلاة العشاء ،كان والده قد خرج هو وزوجته إلى حضور حفلة عيد ميلاد إحدى بنات أصدقائه ، فحمد الله على عدم لقاء الوالد فأخلد إلى النوم ، وكان من عادته الاستيقاظ فجرا فيتسلل إلى الجامع لصلاة الصبح ، ولما تنقضي الصلاة يعود ويطلب من الشغالة حسنية كوبا من الحليب ، ثم يقرأ حزبا من القرآن ، ثم يخرج من حجرته فيجلس في حديقة الفيلا ساعة من الزمن ، ولما تصل عقارب الساعة إلى السابعة صباحا ينطلق إلى المصنع ، فهذا ديدنه منذ تحرك الإيمان والهداية في قلبه ، فيصل قبل مجيء العمال فيجلس مع رجال الحراسة والأمن ، المكلفون بحماية المصنع ، فيداعبهم ويمزح معهم ، وقد يشرب الشاي معهم مما يثير عجبهم ، لقد كان عمري قبل سنة بل شهور لا يحب إلقاء السلام على أحد ، ولا يحب الكلام مع أحد ، ولهم منذ شهور يحسون ويدركون التغير الذي حدث لعمري ؛ ولكنهم لا يعرفون سر ذلك التحول الحقيقي .. فهناك أقوال وإشاعات تتردد في ثنايا المصنع ، منها أنه سيترك المصنع لإدارة مصنع آخر من مصانع والده فيحب أن يترك طابعا وأثرا حسنا لدى الناس البسطاء في آخر ايامه بينهم ، ومنهم من يقول إنه غضبان من والده فيحب أن يغير التقاليد السائرة بين الإدارة والعمال من الجفاء والصلابة ، ويقولون أقوالا أخرى ، ولم يتحدث أحدهم على أن الدين والتوبة هي التي جعلته يتغير ويتواضع للجلوس والحديث مع الحراس والعمال ، ويشرب الشاي بصحبتهم ، ويمزح معهم ولا

يتطلع إليهم من عل ، وما هو إلا إنسان بسيط مثلهم ؛ ولكن الله ابتلاه واختبره بنعمة المال والثراء والغنى وابن المدير ، هذا لم يدر في خلد أحد من العمال والحراس إلا حسن الذي عاهده على الكتمان وعدم التحدث عن توبته وتركه للمعاصي ، وكذلك لم يعد يحمل السكرتيرة نسرين غانم في سيارته عند انصرافه من العمل ، بل يتأخر في المصنع أحيانا كثيرة حتى تنصرف الأوانس والسيدات ، لقد كانت نسرين غانم تظهر نفسها مالكة للمصنع لأنها من أوائل الموظفات اللواتي عملن في المصنع وهو قيد الإنشاء والتأسيس قبل أكثر من عشر سنوات ؛ ولأن السيد ناصحا يعتمد عليها فكانت ترى نفسها المديرة الفعلية للمصنع ، ولولا أن عمريا استلم منصب نائب المدير لظلت ترى نفسها في تلك الصورة ، لم يعد الشاب يتكلم كثيرا مع فتيات المصنع أو يغازلهن كما كان يفعل معهن قديما عندما كان يرى فتاة حلوة ، التغير والانقلاب بدأا يظهران على طباع وأخلاق عمري ؛ وحتى الدوام الوظيفي كان من النادر أن يدخل المصنع قبل العاشرة صباحا بعكس هذه الأيام .

إذن أصبح الشاب ابن الثلاثين ربيعا يتابع الجميع بل يتقبل الأخطاء والأعذار بكل سهولة ، لم يعد يصرخ ويرفع صوته ويصب غضبه على من يرتكب خطأ في المصنع ، فقد أصبح يتدبر الأمر ويحاول إصلاحه بدون غضب بل يضغط على مدير الإنتاج للعفو والمسامحة ، والإنتاج لم يتأثر بنقص وغش بهذا الأسلوب اللين .

وفي ذلك الصباح لم يحاول انتظار خروج الوالد لسماع بعض طلباته وتعليماته ، فلما حان وقت انطلاقة الصباح ركب سيارته متجها إلى المصنع كعادته الجديدة ، فجلس مع رجال الأمن والحماية وشرب الشاي معهم ، ولما أقبل الفراشون وفتحوا المكاتب دخل إلى مكتبه ، وقد كان على المكتب مذياع صغير ففتحه على إذاعة القرآن الكريم وشرع يستمع اليه بتأمل ، فلما شعر بدخول موظفي السكرتاريا والإدارة إلى مكاتبهم أغلقه وانتظر دخول السكرتيرة عليه بملفات وبريد وأعمال المكتب لهذا النهار .. وكأنه فوجئ بدخول الآنسة نسرين ، فعادة أول من يدخل عليه صباح كل يوم سكرتيرته "ريما" ، وإذا كان هناك أشياء مهمة تتبعها الآنسة نسرين .. فرحب بها وعلى وجهه السؤال .. فوضعت الأوراق على المكتب وقالت : " الآنسة

ربما طلبت إجازة أمس ووافق عليها المهندس رياض .. وربما تستقيل .. "

فهتف باستغراب : " تستـقيل ! ولماذا ؟! "

ـ " تقول إن هناك مشروع خطبة وزواج والخطيب المتقدم لها لا يحب لها العمل كسكرتيرة "

فقال بهدوء : " عقبال عندك يا آنسة نسرين .. "

وقبل أن يتابع كلامه قالت : " يا ليت يا أستاذ عمري ! "

وتابع عمري قائلا : " إن شاء الله .. فربما فتاة مهذبة .. كم أسأت لها قديما ؟ ولا أظن إلا أنها راضية عني في الأيام الأخيرة .. "

فضحكت نسرين وقالت : " كل العمال يتحدثون عن التغيير الجاري لنائب المدير .. فلم يعودوا يسمعون صوتكم المرتفع وشتمك ونفرزتك ؛ وهم يتساءلون بينهم ما الذي قلب الأستاذ عمري إلى هذه الهيئة الحسنة .. "

فتبسم وقال بدون أن يشعرها بما وراء الكلام : " الإيمان!! "

فقالت باسمة ومتشككة : " فكلنا مؤمنون ، وهل نحن كفار يا حضرة الأستاذ ؟ ! "

فضحك أو تبسم وقال : " ماذا في هذه الأوراق التي وضعت على المكتب ؟ بل قبل ذلك .. اتصالات أمس ؟ "

فأخرجت ورقة من ثوبها وقالت : " اتصالات كثيرة أجاب عليها المهندس رياض ؛ ولكن أهمها تلفون حضرة الوالد المدير العام .. فلقد اتصل وسأل عن نقل ذلك العامل .. "

فقال عمري وهو ينظر في وجهها : " وماذا قلت له يا عزيزتي ؟!"

قالت وهي تنظر في عيني عمري بقلق وحيرة : " أولا قلت له إنك غادرت المصنع إلى البيت كما أخبرتنا .. وثانيا قلت له إنك لم تنقل العامل ولم يتصرف نائب المدير بـعد .. "

هز عمري كتفيه وهو يسمعها ، فلما صمتت قال : " ما هي أسباب نقل هذا الشاب أو طرده كما تريدون ؟ "

فقالت بنبرة تهكمية :" كما نريد .. بل كما يريد المدير العام السيد ناصح "

فضحك عمري ورد : " وهل يعرف حضرة الوالد المدير الشاب العامل حسنا ؟ .. فالوالد

□□□

المدير يأتي المصنع في الأسبوع مرة ، ويمكث ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يغادر ، وأحيانا لا يرى ولا يقبل مقابلة أي عامل .. يا آنسة نسرين .. "

فقالت بقلق وتوتر : " ماذا تقصد ؟! "

فقال بنبرة فيها حدة : " أقصد يا آنسة نسرين ! ما هي الشكوى التي رفعت للوالد عن حسن ليطلب فصله ؟! .. أم لأنني استدعيه لأسأله عن العمال وأحوال العمال ؟ "

فقالت بدهشة وضيق : " أنت تستدعيه من أجل ذلك .. ؟! "

فقال وهو يحدق النظر في عينيها : " وإلا لماذا أجتمع به كل يوم؟"

فقالت بحيرة : " لست ادري ! اسأل الوالد عن سبب نـقله أو فصله ؟ "

فقال : " بالتأكيد سوف أسأله .. أنا لم أجلس معه أمس .. على كل حال عودي لمكتبك ريثما أطلع على هذه الملفات والخطابات .. "

خرجت نسرين من مكتب عمري محتارة ومدهوشة من كلام عمري وهي تقول لنفسها : " يا لك من ولد ذكي !! إذن حسن جاسوسك على العمال .. وأنا كنت أظنه يعلمك الصلاة والوضوء .. آه .. إنك داهية خبيث يا عمري ! ابن أبيك ! .. عرفت كيف تلعب بحسن ؟!.. دخلت عليه من باب الصلاة والتوبة .. أليس بذلك يتحدثان ؟ ! .. هذا ما سمعته أذناي .. عليّ أن اصلح الخطأ حالا قبل أن ينقل حسن أو يطرد"

فخرجت من مكتبها واتصلت بالسيد المدير ، ونقلت له الصورة الخاطئة التي نقلتها له عن حسن ، فاستغرب المدير من ذلك وقال : " لا بأس .. سوف أتجاهل المطالبة بنقل حسن لمصنع الزيوت .. "

وتجاهلت نسرين عين ناصح في المصنع الشيخ حسنا ؛ فهي تعتقد الآن أنه عميل عمري بين العمال ، وما الحديث عن الصلاة والإسلام والتدين والخلوات ما هي إلا غطاء أمام عيون وآذان العمال ولكنها عادت تهمس قائلة مترددة في الاستنتاج : " ولكن عمرياً قد تغير فعلا .. هل هذا كله تمثيل في تمثيل ؟! .. الله أعلم .. أمر محير ! "

كانت العلاقة الحسنة بين حسن وعمري قد عظمت ، وأصبح عمري ابن المليونير الفتى الثري صديقا للشاب العامل الفقير في مصنع السجاد ، نسي عمري الفارق الطبقي بينهما ، ووجد راحة وحلاوة في صداقة حسن أكثر مما وجدها في أبناء عمه وأبناء أصدقاء أبيه والعائلة ، فقد وجد أن العلاقة بينه وبين حسن علاقة حب في الله ، ليس هناك مصالح مادية تربطهما .. وقد استطاع معالجة مشكلة حسن بسرعة وذكاء، فهو يعرف بكل يقين أن الآنسة نسرين عين والده في المصنع ، وهذا لا يخفى على أي رجل يملك ذرة بسيطة من العقل والفطنة .. لأنها تعطي نفسها أكبر من حجمها في المصنع بحجة أنها من أقدم الموظفات .. وعمري لا ينكر قدراتها الكبيرة في داخل الإدارة والاجتماعات والعلاقات العامة .. فقد استطاع أن يوحي إليها بأن حسنا عين له بين العمال ينقل له أقوالهم ونشاطهم .. وعمري لا يقتنع بجودة هذا الأسلوب في السيطرة على إدارة المصنع .. فكانت القاعدة عنده " حسن الإنتاج وحسن التوزيع هما كفاءة العمال والإدارة ؛ فإذا كان هناك إنتاج مقبول فمعنى ذلك أن العمال يؤدون واجباتهم وينفذون خطط العمل المرسومة " .. ولكنه يعرف نفسية الآنسة وأنها عين والده عليهم فجاءها من هذا الباب فأوحى إليها أن حسنا عينه ورجله عند العمال ، فتقبلت ذلك بسهولة ، ولذلك أسرعت بتصحيح الأمر مع السيد ناصح ، فسر عمري من نفسه وعلق قائلا : " المريض يظن أن كل الناس مرضى مثله " .

وهكذا استمرت العلاقة داخل المصنع طيبة بين حسن وعمري ، وأما نسرين فقد قتلها الشك والوسواس بصدق نوايا عمري ، ذات مساء عندما رجع نائب المدير للبيت استقبلته أمه بالترحاب على غير العادة ، أو فقل من النادر أن يدخل البيت ويصطدم بأمه فإنما يجد في استقباله الشغالة حسنية ، فأمه إما في زيارة صديقة أو نادي أو جمعية أو في استقبال صديقة ، فقال باستغراب : " أمي في انتظاري .. هذا أمر عجيب يا أم عمري ؟! لابد أن هناك شيئا مهما لتجلسي في الصالة لاستقبالي ؟! "

فأخذتها الضحكة وقالت باسمة : " دائما أنت هكذا تحب المداعبة .. أهلا بولدي الحبيب ..

فعلا يوجد شيء مهم سيحدث الليلة هنا في البيت ولك أيها الولد الحبيب . . "

فقال : " على كل حال .. سأدخل الحمام لاغتسل ثم أعود فأسمع هذا الأمر المهم والخطير "

فقالت : " اذهب فنحن في انتظارك قبل حضور الضيوف "

كان عمري غير مقتنع بكل أفعال أمه ، وكان يرى أنها كلها أفعال لتضييع الوقت ولا فائدة ترجى منها ، وإنما هي كلام ودعوات وحقوق النسوان ، فكان يرى كل ذلك كلام ببغاوات لا أكثر ولا أقل ، فقد عاش في بريطانيا وكان يسمع ويرى مثل هذه الجمعيات والحركات ، وكان يردد قائلا : " لو أنهم حريصون فعلا على حقوق وحياة الإنسان المغلوب على أمره ما صنعوا سلاحا ولا قنابل ذرية .. وسيطرة وحروب .. "

اغتسل عمري وأزال عرق اليوم عن البدن ودخل حجرته الخاصة ، وكان يدرك أن أختيه وربما أمه يعبثون في مكتبه الصغير وأوراقه ، فكان لا يكترث للأمر والتفتيش ويهمله ويراه من باب الفضول ، فنام نصف ساعة من الزمن ، واستيقظ على صراخ أمه فنهض وهو يقول : " يا أمي ماذا جرى في الكون ؟ ! "

فصاحت وهي مازالت تقف عند باب الغرفة : " أنا ظننت أنك ما زلت في الحمام .. وأنت نائم هنا .. قد حضرت امرأة عمك عزيزة وبناتها نوال وأنعام فتعال سلم عليهن "

فجلس على حافة السرير وهو يقول : " بعد قليل "

ولكنه رأى البنات قد دفعن الباب ودخلن وهن يعلقن ويمزحن معه فقالت إحداهن : " إيه يا عمري .. سمعنا أنك قد صرت شيخا .. أليس ذلك مبكرا ؟ ! "

فقال بحدة ولم يعجبه دخولهن عليه الحجرة بهذه الصورة : " الموت عندما يأتي لا يسأل عن المبكر والمتأخر .. "

فوجمت الفتيات العاشقات للمرح ، فكلمة الموت وإن يرددها الناس يوميا ولكن لها في بعض الأحيان وقع على النفوس فهمسن : " الموت !! "

وقالت نوال : " الموت يا عمري .. ما بك نحن نحدثك عن ... عن ماذا ؟ ! "

فقالت أنعام : " عن الشيوخ والصلاة .. "

فقال عمري وهو يقف : " أهلا ببنات عمي .. أهلا وسهلا .. "

فقالت نوال : " ألا تصافحنا فقد سمعنا ... "

فقال : " ما دام قد قلتي عني شيخا فكيف يحق للشيخ أن يصافح النساء ؟ ! "

فقالت نوال:" والله عجيب حالك يا عمري!.. كدت أصدق أنك شيخ ، فعندما تحدثنا بدرية الجميلة عن تدينك أسخر وأهزأ منها وأظن أنها تبالغ .. أنت ناقصك لحية .. "

فقال باسما : " قريبا .. يا مرحبا .. اسمحن لي بغسل وجهي .. "

فقالت أنعام متضاحكة : " واسمح لنا بالعبث بمحتويات غرفتك "

فقال : " افعلن ما تشأن عسى الله أن يتوب عليكن .. "

فقالت نوال متضايقة : " ويلك .. لم نتمتع بالدنيا بعد .. "

فقال : " وهل التدين يمنع التمتع بالدنيا .. يا قمر آل الخابي .. ؟ "

فقالت أنعام ضاحكة : " بعدك تردد كلمات حلوة يا عمري بيك "

فقال ضاحكا : " سأغسل وجهي وأذهب لتحية امرأة عمي السيدة عزيزة"

مشى نحو حوض الغسيل وغسل يديه ووجهه ثم سار لتحية امرأة عمه فحياها ورحب بها ثم التفت لأخته قائلا : " أين أمك يا قمرية ؟ "

فردت أخته قائلة : " تتحدث بالتلفون مع .. مع ..

فعاد يرحب بامرأة عمه ويسألها عن العم ناجح وابن العم صابر ، فالسيد ناجح شقيق والده له ولد واحد فقط وأربع بنات منهن اثنتان متزوجات نهى ونهال ، وعمري منذ اهتدى وأصبح يحافظ على الصلاة لم يحاول فرض نفسه وما وصل إليه من هدايات وقناعات على أفراد البيت ، لم يحاول أن يتدخل في لباس أختيه وأمه ، وكان يتجنب الإفاضة بالحديث عن الصلاة والإسلام فقد ترك ذلك للأيام ، ولما حضرت أمه رحبت بابنها البكر وقالت وكلها ضحك : " أين البنات يا أمير ؟ "

فأشار إلى حجرته ثم قال كأنه فطن لشيء ما : " أمي العزيزة عندما دخلت البيت ذكرت لي أن هناك أمرا مهما .. فما هو هذا الشيء المهم يا أمي الغالية ؟؟ "

نظرن إليه جميعهن لحظات وأخذن بالضحك والابتسام ، وسمع أنعام القادمة تقول : " إيه يا عمري .. ألم يحدثك العم العزيز بالموضوع ؟! "

فالتفت إليها مقطبا وقال : " لي أسبوع لم أجلس مع أبي .. ما هي إلا دقائق .. إذا التقينا في المصنع .. ما هو الموضوع يا آنسة أنعام ؟؟ .. يبدو أنكم كلكم تعرفون بالموضوع إلا أنا .. "

فقالت الأم مريم صادق : " أنت لم تعد تسمع مشاريعنا وأخبارنا .. أنت تعيش في عالم بعيد عنا كأنك ما زلت في لندن .. "

فقالت أنعام : " باختصار يا بيك لقد اتفق عمي ناصح ووالدي ناجح على اقترانك بالآنسة المحترمة نوال .. التي توردت وجنتاها من الخجل ، وهي لما سمعت أبي يصارحها بذلك كاد رأسها أن يصل للسماء من الفرح والسعادة .. "

فصاحت نوال : " اسكتي ما أطول لسانك يا ابنة عزيزة .. "

وكان عمري ينظر بعينيه إلى جميع العيون ثم قال : " أمعقول هذا ؟! فأبي لم يفاتحني بذلك ولو على الهاتف .. ! "

فقالت قمرية أخته الكبرى : " ماذا تقصد ؟ ! "

فقال بصوت ناعم : " لا أقصد شيئا .. ولكن كيف تتفقون على أمر مهم كهذا دون أخذ صوتي ؟ .. أين الديمقراطية ؟! "

فأجابت أمه : " الأمر حدث بين والدك وعمك منذ يومين ولم أشاور فيه أنا ولا امرأة عمك هم اتفقوا وقرروا وما علينا إلا التنفيذ .. ونوال فتاة تحبك من أيام ذهابك إلى لندن ، وهي قد أنهت دراستها الجامعية وتعمل في مصرف السيد طارق صديق والدك "

فقال موجها كلامه لنوال : " يا نوال هذا زواج وليس لعبة .. "

فقالت أمه : " الليلة سنحتفل احتفالا صغيرا بموافقتكم .. لذلك سيأتي أبوك وعمك مبكرين من أجل المشاركة في هذا الحفل "

فنهض عمري قائما وهو يقول : "سأدخل للصلاة .. فقد سمعت المؤذن ينادي .. ألا تصلين يا نوال يا ابنة عمي العزيز ؟ "

فقالت بدهشة وهي تنظر في عينيه : أصلي !!
فقال باسما او متهكما : " الصلاة .. ألا تعرفينها ؟ألم تدخلن عليّ وتقلن إنني صرت شيخا ؟ .. فالشيخ يصلي .. وزوجة الشيخ أيضا تصلي.."
فردت عزيزة : " اذهب فصلي .. سوف تصلي نوال يا عمري بيك .. سأعلمها الصلاة يا شيخ عمري "
فالتفت إلى امرأة عمه وقال وهو يبتعد : " ولا تنسي أن تشتري لها ثياب الصلاة وغطاء شعر الرأس "
وتركهن واجمات حائرات فترة حتى قطعت أنعام الصمت قائلة : " والله سوف تكونين أجمل فتاة يا نوال وأنت تغطين شعر رأسك ! .. وستخف زيارتك (للكوافير) إن لم تنقطع نهائيا وستتضايق ماري .. إذا فقدت زبونا آخر "
فتبسمت الفتيات للتعليق الساخر وقالت قمرية : " ومن هو الزبون الأول ؟ "
فأجابت أنعام قائلة : "السيدة رشيدة .. لقد رحلت إلى أمريكا عند أولادها، فماري دائما تتحدث عن خسارتها لهذه الزبونة ، فقد كانت تتردد على الصالون في الأسبوع مرتين أو ثلاث غير المناسبات والسهرات .. "
وقالت عزيزة لمريم : " يا مريم بدأت أخاف من عمري .. لا أدري كيف أنتم ساكتون عنه لليوم ؟! .. منذ متى ونحن نرى مصلين في بيوتنا ؟ "
فقالت بدرية قبل أن ترد أمها : "وهل الصلاة حرام يا امرأة عمي ؟ "
فأجابت عزيزة : "لا أقصد ذلك ؛ ولكن عشرات السنين مرت ولم نر أحدا يصلي في بيوتنا منذ تزوجت عمك ناجحا ما رأيته يسجد لله سجدة واحدة .. وكذلك أبوك ناصح باشا "
فقالت بدرية : " أنا أقرأ كل الكتب الصغيرة التي يحضرها عمري .. وقد سمعت بعضا من الأشرطة (الكاسيت) التي ملأت غرفته .. حتى أنني فكرت أن أصلي مثله .. "
فصاحت أمها مريم فيها : " ما هذا الكلام يا بدرية ؟! فلنحول البيت إلى معبد ونستأجر إماما "

فقالت أنعام ضاحكة وهازئة : " الإمام موجود .. الشيخ عمري "

*****

جرت الموافقة المبدئية من كلا الفريقين وأصبح عمري خطيبا للآنسة نوال ابنة عمه الموظفة في البنك ، كان عمري يتجنب الصدام المباشر مع أبيه في هذه الفترة ، ورضي بالزواج بهذه الطريقة التي رسمها الأخوان ، ولقد كانت نوال الفتاة الحسناء سعيدة بهذا الزواج ، وكانت ترى أن عمريا هو فارس أحلامها وزوج المستقبل ، الحسن والرجولة والثروة كل ذلك موجود فيه ، ولكن التغيرات الأخيرة في شخصية عمري كانت غريبة على البيئة التي يعيشون فيها ، فهم عندهم انفتاح اجتماعي كبير على الأصدقاء والحفلات والنزهات ، وكانت تحلم بزوج يدور ويلف بها في مدن وعواصم الدنيا لترى العالم ، لذلك انقبضت نفسها وهي عائدة للبيت في ذلك المساء ، وهي تعد زوجها القادم بالصلاة ، إنها لا تدري كيف تصلي ؟ منذ ولدت لم تر أحدا في البيت يصلي ويصوم ، هذه الكلمات لا يرونها إلا في الأفلام والمسلسلات فكانت منقبضة ومهمومة وهي تتخيل أنها ستضع على رأسها غطاء خمارا .. نوال صاحبة الجمال والحسن والبهاء تغطي رأسها .. إنها مصيبة .. أخذت تتصور الفتيات المحجبات التي مررن بها أثناء دراستها في الجامعة ، فكانت تستغرب من حملهن كل هذه الثياب على أبدانهن وكانت تحب المزح والسخرية منهن ، فقالت لنفسها وهي تتذكر تلك المشاهد والصور : " أخشى أن ألبس هذه الثياب يوما ما .. كنت أرى أن عمريا آخر واحد في الدنيا يتغير .. ولكنه يصلي منذ زمن وها هو رمضان على الأبواب .. فهل سيطلب مني الصيام ؟! "

بدأت تفكر بالحياة القادمة وكلها خوف ووجل ، وعادت تقول لنفسها أثناء العودة للبيت في تلك الليلة التي يجب أن تكون من الليالي الجميلة في حياتها : " منذ تغير عمري وسمعنا أنه تاب إلى الله لم نعد نسمع أنه ذهب للسينما .. للمسرح .. لم يشاهد في حفلة عيد ميلاد لم نره في مرقص .. إنني لم أكن أرى ذلك .. هل وقعت في ورطة ؟ .. إنه قد قال لي أثناء الوداع .. نوال هل ستصلين مثلي ؟ .. هل ستتوبين مثلي ؟ فقلت له باستسلام ودون تردد أو حتى تفكير : أنا افعل ما تريد وما تشاء .. أنا سأكون زوجتك وحبيبتك .. فرددت : أتوب .. ما

معنى أتوب ؟ وأتوب من ماذا ؟ ثم سمحت لنفسها بالسوأل قائلة : هل عمري الزوج المناسب لك يا نوال ؟ .. الصلاة هل تمنع الرحلات ؟ أليس حلمي أن أزور كل مدن العالم ؟ هذا الحلم بدأ يتلاشى .. أنا لم أتزوج بعد .. ما زال لدينا وقت لإنهاء كل شيء .. ويذهب عمري من حياتي .. آه يا دنيا .. عمري الذي تمنيته كثيرا .. كم تخيلت نفسي واياه ونحن نحلق حول العالم ؟! .. سنتمتع بثروات الآباء .. لقد تحدث معي قبل مغادرتهم وأعلمني أنه سيتصل بي عند الفجر لأقوم للصلاة .. كيف هي الصلاة ؟ .. عمري ما تعلمت ذلك ولا فكرت بذلك يوما " .

كان تفكيرها بالصلاة يشكل لها هما كبيرا فهي تظن أن الصلاة صعبة ومعقدة أو كأنه صعود جبل عال .. لذلك فما كادت تدخل البيت وتدخل غرفتها مع شقيقتها أنعام وتلبس ملابس النوم وتضع نفسها على السرير الخاص بها فتقول لشقيقتها أنعام التي سبقتها للغرفة : " إني خائفة من هذا الزواج ؟! "

فقالت أنعام وكانت تدرك الصورة الجديدة لعمري وتعرف أحلام أختها نوال : " معك حق لم يعد عمري عمريا الذي نعرفه .. المرح والمزح والكذب والغزل واللعن وحتى الوقاحة "

فقالت نوال وكلها تفكير وقلق : " ألم نلاحظ نحن كل ذلك كل هذه الشهور الفائتة ؟ "

فأجابت أختها : " كانت عيوننا مغمضة .. فنحن منذ ما يقارب التسعة أشهر لم نر عمريا في فندق في مهرجان في صالة رقص أو موسيقى أو مسرح .. لقد كان على عيوننا نظارات سوداء "

فعادت نوال تهمس : " إني خائفة منه ! "

ـ هو ليس وحشا .. هو ابن آدم .. هو حبيب القلب .. كم ألف مرة سمعتك تتمنين الاقتران به ؟ .. ها هي الأمنية قد تحققت .. فاصبري .. وتغيري كما يريد منك .. ألم يتغير هو ؟ .. فهو ابن لندن ..وكم حدثنا عن مغامراته ونزواته هناك ، وها هو قد تغير يا نوال .. لا تفكري بالتخلي عنه .. ولا تدعي هذه الفكرة تكبر في نفسك .. حتى لا تندمي غدا يا حبيبتي .. وأنت يمكنك أن تعيديه إلى التقاليد والعادات التي شببنا عليها "

□□□

فقالت : " إنه يريدني أن أصلي "

ـ " صلي.. أو كلما سألك صليت قولي صليت "

ـ " أكذب عليه "

ـ " الحياة كلها كذب .. وهل هي أول مرة تكذبين ؟ ! "

ـ " قد يعرف .. ولما نتزوج سيعرف كذبي .. سيغضب .. وأنت تعرفين غضبه .. فكيف عندما نكون زوجين ؟ "

فقالت أنعام : " عليك بتغييره يا حبيبتي .. لا تفكري الآن بتركه لأنك تحبينه "

فحدقت نوال بنظرها في السقف وقالت : أنا ألبس الحجاب والخمار ؟ ! .. إنني لا أكاد أصدق ذلك ! "

فضحكت أنعام وقالت : " عليك أن تصدقي يا جميلتي .. الدنيا تتغير "

□□□

بالتأكيد التغير من التبرج والسفور للحجاب الشرعي في مجتمع أو عائلات كلها على هذا النمط أمر صعب وغريب ، فلم يكن الأمر على نوال بسيطا وهينا كما نكتب في هذه الأوراق ، فأمر الحجاب عندهم أمر يدل على التخلف والرجعية والجهل والتعصب وغير ذلك من الأسماء الكبيرة في بابها ، لذلك إذا لم ينبع التغير من ذات ونفس الشخص ، فأمر الانقلاب صعب وقاس عليه وعلى من حوله ، فنوال لم تكن عندها هذه الرغبة وهذا النمط من الحياة الجديدة ؛ ولكن حبها لابن عمها الشاب لم يسعفها من رؤية ذلك الانقلاب في حياة عمري ، والتخلي عن السفور والتبرج بضغط من الآخرين ليس بالأمر الهين ، وعمري لما بدأ يشتد في قلبه الإيمان لم يكن يرى أن نوالا هي الزوجة المناسبة له ، كان يحلم بفتاة متدينة متمسكة بالصلاة والجلباب الشرعي ، فهو يريد زوجة جاهزة ملتزمة بأمر الله ، هذا عندما كان يفكر بزوجة المستقبل والزواج ، وكم من مرة سمع صاحبيه حسنا وعليا يشجعانه على الزواج .. فيقول : " مهلا أيها الأحباب " .. كان يريد أن يطمئن على أن توبته ليست نزوة عابرة أو سحابة صيف زائلة ، لذلك كان يشك شكا كبيرا أن تتقبل نوال ما تقبله هو وتخلع عنها ثياب الجاهلية ، فوضع الأسر لا يشجع على ذلك التوجه ، ستجد نفسها شاذة في العائلة ، وكان يحدث نفسه فيقول : " أريدها هي أن تطلب فسخ الخطبة ، لا أريد أن يغضب مني والدي وعمي بسببها .. وإذا التزمت بما تعهدت سأقبل الاقتران بها .. وأسأل الله أن يوفقها ويهديها للصواب .. ويجعل في قلبها الشجاعة للصمود "

فلما جلس مع حسن وعلي وحدثهما بقصة الخطبة التي رتبها الوالد ناصح ، فقال حسن بعد التهنئة والتبريك : " والله جميل هذا يا أستاذ ! فتكون قد أنقذت نـفسا من الضياع والهلاك .. ولكني بصراحة أشك في بنات العائلات الكبيرة الغنيات أن يتركن السفور ويتغيرن بسهولة فحتى عندما تتدين فتاة منهن تراها أو تسمع عنهن .. فتراهن يأتين بموضات غريبة ويلصقن بالشرع موضات غريبة ، ولا يبحثن عن الأفضل والصواب .. وعلى كل حال نتمنى لها التوفيق والهداية .. فأنت تستحق فتاة تقف معك في مشوار الحياة وتكون معك ليس ضدك "

وأخذ علي الحمد يتكلم عن أهمية التغير في حياة المسلم العاصي، وإن جرى ذلك التغير تدريجيا ولكن على أن يكون التائب راغبا فعلا بترك الحرام والكبائر ، فالله يسدده وينصره على مخالفيه ومثبطيه فقال ناصحا : " عليك أن تتدرج معها يا عمري .. رويدا رويدا فشرائع الإسلام كثيرة فابدأ بالأول فالأول .. فالمرأة الصالحة خير متاع الدنيا "

فقال عمري : " أرجو أن يستجاب لدعواتكم ، إنني أرغب بامرأة صالحة"

*****

كان ناصح الخابي قد علم من زوجته عن صلاة عمري وتردده على المساجد ، فكان يعتقد أن ذلك سينتهي بعد حين ، ولما تحدث مع أخيه ناجح بذلك الأمر ، عرض عليه أخوه أن يزوجه من إحدى بنات العائلة ، فربما الزواج يردعه عما هو مندفع إليه من صلاة وعبادة ، فوقع الاختيار على نوال ابنته لما بينهم من كلام قديم في ذلك الأمر ، وبما أن الشاب كما يعلمون عنه أنه غير متعلق بفتاة معينة ، ومثله الآنسة نوال ، فرأيا تزويجهما على أن ذلك خطوة وأمل قد تعيد الشاب إلى حظيرة العائلة من الاختلاط والمجون ، هذا التفكير البسيط في رأيهم قد يحل المشكلة التي ترفرف حولهم ، ففي نظرهم أن نوالا قد تستطيع إعادة عمري إلى جادة الصواب والأعراف المتبعة في العائلة ، ولكن عمريا كما عرفتم بدأ الهجوم قبلهم فوافق على الزواج ، ومن أول لقاء حث نوالا على الصلاة، بل كان يتصل بها عند وقت الفجر موقظا لها لتقوم إلى الصلاة ، فتتظاهر أنها تفعل ذلك وتشكره على حماسه وحبه .. وبعد حين يسير ضجرت الفتاة من ذلك ، فشكت ذلك لوالدها ، ففكر قليلا قبل أن يرد قائلا : " إيه يا بنية ! نحن أحببنا اقترانكما لتنقذيه مما هو فيه من دجل وشعوذة وخبل .. فأخشى الآن أن يفسدك "

فقالت بحيرة وامتعاض : " لقد خربط حياتي .. أنا لا أعرف الصلاة ، ولا أريد أن أعرفها ، فكلما يتصل بي ويقول صليت أدعي أني صليت .. كلما أذهب لبيتهم لزيارة امرأة عمي والبنات آخذ معي الخمار غطاء الرأس ولا أذهب للكوافير ذلك اليوم .. أبي إني خائفة منه "

فقال الأب المتردد : "وهل يضايقك بغير ذلك ؟ "

ـ " لا ؛ ولكنه يحدثني عن النهاية والآخرة والتوبة .. والذنوب والربا والمصير الأسود لمن

يعصي الله .. أنحن عصاة يا أبي ؟! "

ـ " أخائفة أن يفتنك ويعيدك للعصور والقرون الماضية .. أم أنت بحاجة إليه ؟ أنا أعرف ميلك نحوه .. أم تصبرين كم شهر لعلك تمتصين حماسه وتدينه ..؟ "

فقالت بضيق ونفور : " لنا شهران مخطوبان .. لم يفكر مرة بأن يتصل بي ليصحبني في نزهة في رحلة إلى البحر إلى دخول دار سينما .. أنا لا أريد هذه الحياة التي يحياها عمري .. "

فنطق الأب بعد تفكير ونظر : هل أتحدث مع أبيه ليتكلم معه .. أم تحاولين مرة أخرى ؟ فربما انصلح على يديك .. فيمكن لناصح أن يضع حدا لهذه المشيخة والدروشة "

قالت : " لست أدري ! لم أعد أطيق أحاديثه يا أبي ! أفكر بأن نفسخ هذه الخطبة "

فوعدها ناجح بالحديث مع أخيه ، وطلب منها التريث في الحديث عن فسخ الخطبة ، فلابد أن عمريا يقصد الوصول لذلك ، فقالت بحزن : " لقد قمت مرة فجأة بزيارة المصنع .. فغضب غضبا حادا ولولا الحياء لضربني .. مدعيا أنه يغار عليّ من عيون الناس .. كأنني أول مرة ألبس هذه الثياب القصيرة "

" حسنا يا ابنتي سوف نضع حدا لهذا الحمق والهبل الليلة سنذهب جميعا إلى المسرح فقد اتصل بي والد سميحة وأخبرني أنه اليوم قد بدأ عرض مسرحية " أحمق في غابة الشياطين "

فقالت : أنا آسفة يا أبي عن مرافقتكم .. لقد دعتني الليلة الآنسة ناريمان لحضور حفلة موسيقية في نادي هواة الموسيقى "

فقال مرحبا : " رائع ! اذهبي مع ناريمان الليلة وسنسهر غدا في المسرح .. تمتعي بالحياة وبالشباب كنت أظن أنك ستسعدين مع ابن أخي الأهبل.."

شكى ناجح الأخ الاصغر لأخيه ناصح تصرفات وجهالات عمري مع ابنته ، ومنذ خطبا لم يدخلا معا سهرة أو حفلة أو فيلما ، ولم يقصر ناجح فقد وضع مئات العيوب في ابن أخيه وخطيب ابنته ، مما هيج ناصح حتى اشتد غضبه على ولده فقال له : " هيا بنا إلى المصنع لنوقف هذه المهزلة . "

فقال ناجح : " عندما يعود للبيت نتحدث معه بروية فيكون ذلك أفضل .. لا داعي لأن

يـعرف القاصي والداني بمشاكلنا "

لذلك عاد الأخوان للبيت مبكرين على غير العادة ، وكانا واجمين كاسفين كأنهما فشلا في تحقيق ارباح في صفقة ما ، فأدركت الأم مريم أن وراء الأكمة ما وراءها ، ولم يفصح ناصح أو ناجح بشيء ؛ ولكنها أدركت أن الموضوع يخص عمريا عندما قام ناصح بالاتصال به في المصنع وطلب منه الحضور العاجل ، فلما أتى ملبيا النداء دخلا به مكتب السيد ناصح بالفيلا وكان عمري يظن أن الاجتماع سيكون حول المصنع ، ففوجئ عندما بدأ الهجوم على الصلاة والإسلام والتدين ويصفونه بالحمق والغباء والدروشة ، فلما نـفسا عما في قلبيهما ، قال عمري بهدوء أعصاب فقد تمالك نفسه من الغضب والانفعال : " الإسلام أيها السادة لا يمنع الرجل أن يكون غنيا مليونيرا .. الصلاة لا تعطل الإنسان عن العمل والإنتاج .. الصلاة تغطي الجانب الروحي من الإنسان ، تدفعه للإخلاص في عمله .. الإخلاص مع الناس وعدم الغش .. وأنا لم أطلب منكم تزويجي نوالا .. أنتم اتفقتم وقررتم ووافقت مع أن هذا مخالف للأعراف المتعارف عليها في العائلة .. وأنا رغبت أن تكون زوجة المستقبل امرأة تعرف دينها وصلاتها .. وأنا لما زارت الآنسة المحترمة المصنع غضبت عليها ومنها ؛ لأنها جاءتني متبرجة بكامل زينتها كما تقولون والمصنع ليس مكانا مناسبا للقاءات العاطفية ، وثانيا أتت من غير أن تتصل بي .. أنا لا أحب المفاجآت "

فهاج الأب المشحون بالغضب فأخذ يسب ويشتم ويهدده بطلاق أمه وطرده من العمل إن لم يترك الصلاة والدين ، فرد عليه عمري قائلا : " هذا الصياح لا يؤثر فيّ يا أبي .. أنا بلغت سن الرشد منذ سنين .. أنا مللت الخمر في باريس ولندن ، ومللت النساء والحانات .. هل نسيتم أنني قضيت سبع سنوات في أوروبا بين الشراب والقمار وسيقان الغانيات ؟! .. أريد أن أتوب أريد أن أتوب .. يجب أن تقفوا معي لا ضدي .. هذه حياتي الخاصة .. أليس لكل منا حياته الخاصة .. نوال لا تريدني مع ألف سلامة .. أنا وافقت كما قلت لكما ..لأنني لا أريد زعلكما وليس لي شهوة إلى النساء .. وإن حدث ذلك فطمع بالولد الصالح "

فعاد الأب يصرخ ويهدد ويتوعد ، فقال عمري : " أنا غدا سأقدم استقالتي من إدارة المصنع

ولا تظن أنك إذا طردتني من العمل لن أجد عملا .. بل قد اضطر وأهاجر من هذا البلد .. وإذا طلقت امرأتك فهذا شأنك .. لست آسفا على هذه الحياة "

فعجب الرجلان من كلام الشاب وصلابته وتحديه لهما ، وتغامزا وانهالا عليه ضربا وصفعا وبصقا مما أدهش عمري الذي أخذ بالصراخ ففزعت الأم والبنات وسحبوه من بين أيديهم وقد سالت الدماء من أنفه وفمه ووجهه وهو لم يحاول المقاومة ، فأخذت بدرية تمسح الدماء عن وجهه وتحاول قطع نزيف الأنف وجلس عمري يبكي ويتنهد وأمه تقول : "ألم أقل لك دعك من هذا الجنون يا ولدي ؟ !"

فصاح بحرقة وضحك مرتفع : " أنتم المجانين .. هكذا أضرب .. والله لولا الحياء والدين لضربتهما الاثنين معا "

فسمع الرجلان الغاضبان الثائران هذا التهديد فأسرعا إليه من جديد يوجعانه ضربا بالأيدي والأقدام والأحذية ، ودب الصراخ في البيت ثانية حتى كفا عن ضربه ، وسمع أبوه يقول صارخا : " خذوه لغرفته ، وغدا صباحا إذا لم يأت للاعتذار والتعهد أمامي بترك خبله وحمقه ثم يذهب ويقبل قدمي نوال ناجح ليرى مني أشد من ذلك .. "

فسحبت البنات أخاهن لغرفته وقمن بإسعافه ، وأخذت الأم تصرخ بوجه زوجها وأخيه وتقول : " بأن العلاج لا يكون بهذه الوحشية والخشونة "

فأخذ الرجل يؤنبها ويلومها على صمتها عليه منذ عرفت ذلك فأخذت تدافع عن نفسها .

وعندما استيقظت الأسرة في الصباح التالي لم يجدوا عمريا فقد غادر البيت ، فظنوه ذهب للمصنع مبكرا كعادته الجديدة ، فاتصلوا بالحرس فأنكروا رؤيته ، تسلل عمري في الليل بعد منتصف الليل من البيت وركب سيارته وانطلق بها بعيدا عن الدار ، ولم يشعر به أحد ولم يسمع أحد صوت ماتور السيارة لأنه عندما عاد مساء أمس تركها على الشارع لم يدخلها مرآب الفيلا ، ولقد كانوا مستغرقين في النوم العميق بعد أحداث المساء .

هذا يوم مشهود في حياة عمري ، ظل يذكره طول حياته ، فسار إلى أحد المستشفيات وادعى أنه تشاجر مع ناس فضربوه ، وقدم شكوى ضد مجهول لشرطة المستشفى ، وقام قسم

الإسعاف بالإسعافات اللازمة، وبعد ساعة غادر المستشفى ، فنزل إلى فندق شعبي ، واستأجر سريرا وطرح نفسه عليه ، ولم يستيقظ إلا بعدما ارتفعت الشمس ، فطلب الإفطار وبعد أن أكله عاد للنوم ، وفي المساء نزل للسوق واشترى ملابس جديدة وطرح الملابس التي كانت ملوثة بالدم في المزبلة وعاد للفندق ، ولما هبط الظلام والليل نزل عمري المدينة فوضع سيارته بموقف سيارات بالأجرة ، وعاد للفندق الشعبي فندق الأنصار ثانية ، ورقد حتى الصباح ، لم يحاول الاتصال بأحد الزملاء أو الأقارب كان غاضبا على المعركة التي تعرض لها من أبيه وعمه ، فلقد تعاملوا معه تعامل أولاد الشوارع والسوقية ، فكان مذهولا ومصعوقا من تصرفهم هذا، أمضى ثلاث ليال في الفندق صامتا يأكل وينام ، لقد كان مذهولا من الإهانة التي تعرض لها ويقول : " زعران الحارات لا يفعلون مثلهم .. حسنا يا عمي .. حسنا يا نوال دلوعة أبي .. صبرا آل الخابي صبرا "

بعد الأيام الثلاثة وضحت في ذهنه الخطة التي سيسير عليها، غادر الفندق وقد دفع إيجار الغرفة أو السرير ، وسار نحو موقف السيارات وأخذ السيارة وانطلق بها نحو مدينة أخرى وقد وضح الهدف أمامه .

بداية أشاع المدير العام لمجموعة شركات الخابي في مصنع السجاد أن السيد عمريا مريض وعاجز عن ممارسة العمل ، ولما كثرت الهواتف التي تصل البيت تسأل عن نائب المدير للأطمئنان عن صحته ، اضطرت الأم أن تقول كاذبة : " إنه سافر لإجراء بعض الفحوص الطبية في خارج القطر " فسكتت الهواتف أو خفت عن البيت ، وجميع الاتصالات التي قامت بها الأم بحثا عن عمري لم تجد شيئا ، فاتصلت بأصدقائه من المهندسين والأطباء ورجال الأعمال ، وأكثرهم رد بأنه لم يره منذ شهر أو شهور أو أسابيع .

فقد كان عمري منذ اتخذ أهم قرار في حياته وهو الالتزام بالصلاة والدين قد خفت علاقته بالآخرين ، كان متعطشا للإيمان والحياة الروحية.

حاولت نسرين ـ التي استلمت إدارة المصنع مؤقتا ريثما يظهر عمري ـ مع حسن بناء على حديث خاص بينها وبين ناصح ، فسألته : " هل اتصل بك عمري خلال الأيام الماضية ؟ " فنفى الاتصال ودهش بالطبع لهذه السؤال لمعرفتهم أن عمريا مسافر للعلاج خارج البلاد ، ولما أدركت استغرابه من سؤالها عن عمري ، قالت له بكل صراحة : " لقد أخبرني عمري بيك صاحبك عن علاقته القوية بك وثقته الكبيرة بك .. فاعتبرني مكانه وحدثني عن كل شيء يدور في وسط العمال ؟ "

فقال حسن بحيرة وتعجب : " أحدثك بكل شيء لم أفهم ؟! "

فقالت وهي تتصنع الابتسام : " كما كنت تفعل مع عمري .. ألست مخبرا له يا حسن ؟ مالك تنكر .. هو قال لي ذلك ؟! "

غضب حسن وقال بحدة وهو ينظر في وجهها : " إنك حمقاء .. مجنونة .. أنا جاسوس ! "

فصاحت وهي تقف عن مقعدها : " أنا مجنونة ؟! "

فصاح هو الآخر : " وهذا الكلام الذي تتكلمين به عني وعن عمري .. أليس كلام مجانين ؟ طردته من المكتب بعدما وقف وتجمهر عدد من الموظفين على بابه ، فخرج منتفخ الاوداج وهو يهدر قائلا : "إيه والله إنها لمجنونة تقول عني إنني جاسوس للسيد عمري .. اسمعوا

□□□

هذه المجنونة "

أحست نسرين أنها تسرعت بالمكاشفة معه ثم قالت لنفسها متسائلة : " أيهما الصادق ؟ هل سخر مني عمري عندما أوحى لي بأنه عينه بين العمال ؟ إنه ماكر ! .. والله لن يبقى حسن هذا في المصنع بعد اليوم "

فلما انصرف الموظفون إلى مكاتبهم اتصلت بالسيد المدير وأخبرته عن تهجم حسن عليها في مكتبها ، فأمرها بطرده على الفور ، فأرسلت وراء أمن المصنع وأمرتهم بطرد حسن بناء على أمر صادر من المدير وهو آت في الطريق ، فبلغ الأمن الخاص حسنا أمر فصله وطرده ، وكان حسن قد لبس ملابسه التي يأتي بها وخلع ملابس العمل قبل طلب رجال الأمن منه مغادرة المصنع ، فدخل على المحاسب متوترا ومحتدا وقال : " بعد أسبوع سأمر عليك ، أرجوك يا مروان أن تكون قد جهزت لي حسابي حتى لا تروا وجهي ثانية "

أخذ مروان يلاطفه ويهدئ من انفعاله ويقول له : " لما يأت الأستاذ عمري ستعود للعمل وتتصالح مع هذه المديرة "

شكره حسن وغادر المصنع ، وكان العمال قد علموا بالقصة واهتزت أعصابهم لـمَ سمعوا ، وفكر بعضهم بترك العمل تضامنا مع حسن ، فخاطبهم المهندس رياض وأعاد لهم الصواب فقال : " يا جماعة لما يأت حضرة نائب المدير الاستاذ عمري .. سيصلح الأمر .. هو قد سافر لإجراء فحوصات طبية في بريطانيا وخلال أيام سيكون هنا .. لا تتعجلوا وتكبروا المشكلة وأنا سأتحدث مع الآنسة نسرين في شأن الأخ حسن "

فهمس أحدهم بانفعال : " قصدك المدير العانس نسرين "

ولما هدأ انفعال العمال وتعاطفهم مع حسن ، عاد العمال للعمل آملين بعودة عمري لحل الإشكال والتصرف مع هذه المرأة التي تتهم حسنا بالجاسوسية ، وأنها قد نسيت نفسها بأنها هي الجاسوسة ، فعلق أحدهم : " الملدوغ من الأفعى يخاف من الحبل .. والذي يعمل جاسوس يظن أن كل الناس مثله ! "

لقد استطاع المهندس رياض السيطرة على الموقف ، وتوقف العمال عن التمرد وتعطيل العمل

ودخل على نسرين بعدما اشتغلت الماكينات من جديد وقال : " يا نسرين كدت أن تعطلي الشغل .. عليك بحل المشاكل بهدوء وذكاء .. لو أجلت قرار الفصل لبضع أيام حتى تهدأ نفوس المتعاطفين معه .. فيفصل بهدوء .. "

فقالت : " الملعون يقول عني مجنونة .. "

فقال رياض ضاحكا : " أنت في هذا التصرف فعلا كنت مجنونة "

فقالت : " أتسخر مني يا حضرة المهندس ؟! "

فقال : " سلام .. قبل أن تفصليني .. سلام "

وغادر المكتب مسرعا ، فمشت نسرين نحو مرآة ونظرت فيها إلى وجهها وعينيها ثم أصلحت من شعرها ومكياجها وقالت : " أحقا أنا مجنونة ؟ ! .. قاتل الله العنوسة .. لو أنا الآن أم ولي أولاد .. أيحدث لي هذا أو أتصرف مع هؤلاء هكذا ؟ .. أين الرحمة يا نسرين ؟ يبدو أنني تسرعت كما قال المهندس رياض .. ألم يقل لي عمري إنه جاسوسه على العمال ؟ .. لا لم يقل لي ذلك .. أنا استنبطت ذلك من كلامه يا له من ذكي عبث بي ! .. متى يأتي ابن الحلال وأخلص من هذا الشغل والدوام .. متى ؟؟ ..ولكن كبرت سني وصرت في الأربعين لا .. ثمان وثلاثون سنة فقط .. لقد بقي سنتان للأربعين .. قاتل الله الوحدة .. ما أجمل الأمومة كما يقولون !

*****

مضى أسبوع على بيت ناصح ولا حس ولا خبر عن عمري .. لا اتصال ولا سؤال ولا حتى اتصال في المصنع ، ولا حتى مع حسن ، وقامت الأم بنفسها بزيارة حسن في بيته وسألته عن عمري واعترفت له بما جرى بين عمري وأبيه ، فاستغرب حسن مما حدث ، وأقسم للسيدة بأنه لم ير عمريا منذ ذلك اليوم ، ولم يتصل به منذ غاب عن المصنع ، ووعدها إن تحدث معه أن يخبرها حالا وفورا .

وكان ناصح الخابي يتظاهر بأنه غير مهتم بغياب ولده وغير مكترث لإختفائه ، ويرى أنه يستحق ما فعله به من أذى وهوان ، وكانت الاتصالات بين الأخوين ناصح وناجح لا تنقطع

بالسؤال عن الولد الهارب ، وحتى نوال شاركت في السؤال عنه ، وفي إحدى المرات ردت عليها بدرية وصاحت فيها غاضبة : " أنت السبب يا نوال .. كله من تحت رأسك .. أنت تعرفين أن عمريا قد تدين وترك الماضي وراء ظهره فلماذا تقبلين الزواج منه ؟ " .. فأخذت نوال تبكي على الهاتف ثم تركت السماعة مفتوحة وهرعت إلى حجرتها تواصل البكاء وإظهار الندم و هي تصرخ : " أنا السبب .. أنا السبب ! " .

لقد توترت العلاقات بين الأسرتين وخصوصا النساء والبنات ، فعمري هو الابن البكر للسيد ناصح وابنه الآخر سمري ما زال يدرس في أمريكا ، وطفقت مريم تطلب من زوجها إبلاغ الشرطة ، فيضحك من طلبها ويقول : " يا حمقاء .. لو حصل له شيء لاتصلت بنا الشرطة .. هل هو طفل لنخبر الشرطة لتبحث عنه ..؟ "

فتسكت الأم ، وقد مضى شهر على اختفائه عن البيت فزاد الوجوم والحزن كأنهم فقدوا شخصا وواروه التراب ، وبدأت أعصاب ناصح تضعف وتنهار وارتبك دوامه ونشاطه وتحركاته ، وذهب بنفسه لحسن وترجاه أن يحدثه عن مكان عمري ، فأقسم له حسن كما أقسم من قبل لأم عمري أنه منذ غاب عن المصنع لم يره ولم يتصل معه ، فعاد للبيت كئيبا وهو يقول : " لقد ضاع الولد يا مريم ! .. ماذا كان يضرني من صلاته وصومه ؟! لقد اضطرب فكري ليلتها .. لقد ساهمتم بتضخيم الأمر لديّ ..المصنع نصف العمال تركوا العمل تضامنا مع هذا المنحوس حسن .. فنسرين هذه يبدو أنها خرفت ، ولم تعد تحسن السيطرة والقيادة .. المهندس رياض يشكو من قلة العمال المهرة .. وحسن مصر على عدم العودة ، لقد مشى إليه رياض أكثر من مرة بل ترك الشغل في المصانع ويشتغل مع معلم كهربائي .. أنا كنت أطمع أن يكبر المصنع ونصدر لـعدد كبير من الدول .. سأحتاج إلى ترتيب أموري من جديد .. بدأت أشعر بكبر خطئي لقد كان تصرفنا تصرفا ولدانيا .. لعنة الله على الشيطان .

*****

تقع على ساحل البحر مدينة عظيمة تكاد تعادل العاصمة في كبرها؛ ولكن ينقصها الكثير من الدوائر الرسمية والوزارات ، فرحل إليها بطل هذه الرواية ، وقرر السكن والحياة والاستقرار

والعمل فيها ؛ ولكن كان يقلقه أن يلتقي بأحد معارفه ثم يصل الخبر لأسرته ..كانت خطة عمري الفرار بدينه والبعد عن التلوث وفساد الأسرة ، كان في نظره أن مجتمع الأسرة مجتمع فاسد .. فرأى أن هذه المشكلة هيأت له فرصة لبدء حياة جديدة .. يريد أن يعتمد على نفسه ويجمع ثروته بعرق جبينه ، لقد كان يملك رصيدا جيدا في المصرف ، فهو له أكثر من خمس سنوات في السوق وكان يقبض راتبه كبقية الموظفين والعمال ، وهذا رصيد خاص لا دخل للأسرة فيه .. وهو يملك سيارة حديثة أهداها إياها والده عندما استلم إدارة المصنع .. فكان يرى أن الحياة بعيد عن الأسرة والمجون وليل السهر والحفلات الكثيرة خيرا له .. فهو لا يستطيع أن يقول لأمه " لا تخرجي بثيابك القصيرة إلى أي مكان .. لا يستطيع أن يزجرها أن لا تضع الأصباغ والألوان على وجهها وتخرج للسمر مع الرجال .. لا يستطيع منعها من قضاء عدة ساعات عند الكوافير الرجل .. لا يستطيع منعها من مصافحة الرجال الأجانب والاختلاط بهم .. لا يستطيع منع الرجال من الجلوس معها في البيت وخارجه .. وحتى أختيه لا يستطيع منعهن من مخالطة الأقارب الرجال والأصدقاء وغيرهم .. لا يستطيع إنكار ذلك المنكر .. إنهن يسهرن مع الرجال مع النساء مع الأصدقاء .. حياة مجرمة آثمة .. أين ذلك من طهارة الإسلام والمحافظة على طهارة الرجال والنساء ؟ "

فهو يرى أن هذه الجريمة التي ارتكبها والده بحقه لصالحه .. فقد أصبح حرا طليقا .. يصنع لنفسه بيئة صالحة طيبة .. لا يرى الآثام والمعاصي ويسكت عليها .. يصلح نفسه إصلاحا جيدا .. فاختار مدينة البحر " الريحانة " لتكون مدينته ومأواه .. واختارها أيضا لكثرة الأغراب الذين يترددون عليها من رجال أعمال وسياح وسواقين وبحارة .. فالوجوه الغريبة في هذا الميناء الكبير غير مريبة ، فلا أحد يهمه قصته وحكايته ، فبعد أيام قضاها في الفنادق وجد مسكنا أنيقا وجميلا في حي " الصخرة " ، وكانت أول خطوة بعد سكنه في البيت الجديد أن اشترى بعض قطع الأثاث المهمة والضرورية للحياة الطيبة .. ثم قرر أن يبيع السيارة الحديثة ويشتري غيرها قديمة نوعا ما ، فنزل بها إلى حراج لبيع السيارات ، وخلال أيام وفق لبيعها واشترى سيارة متواضعة لقضاء الحاجة ، وبعد حين فكر بالزواج ، ففكر

بالاتصال بحسن ؛ ولكنه قال : " علاقتي بحسن كانت مكشوفة..لابد أن يتصل به أهلي .. أنا لا أريد أن أعود إليهم قبل أن أسمع أنهم تركوا وهجروا منكرهم وفجورهم .. فبعد حين سأزور المدينة وأتحدث مع الشيخ علي الحمد .. فقد كان يحثني على الزواج كثيرا قد أجد لديه فتاة تناسبني وتقبل ظروفي .. "

أطلق عمري منذ رحل وهجر بيت العائلة لحيته ، وأخذ يضع على عينيه نظارة ملونة ، ورأى أن ذلك يساعده على إخفاء شخصيته عن الفضوليين الذين يلتقى بهم ، وترك لبس البدلات وربطات العنق .. واشتغل في أحد المصانع الكبيرة في قسم المحاسبة ، وكانت مصانع الشركة بعيدة عن مكاتب الإدارة .. قضى عندهم شهرين ثم تركهم ، لم يرتح للعمل معهم ـ فقد وجد أن هناك عمليات تلاعب وخداع تحدث داخل قسم المحاسبة ـ فقدم طلب استقالة فوافقوا عليه سريعا ، فقد لمس الإداريون عنده لمسة صدق وعدم رضا عن التلاعبات التي تجري .. فانتقل للعمل في شركة تخليص ضخمة وصبر فيها ثلاثة أشهر أخرى ، ثم فكر بالاستقلال بالعمل .. فأخذ يفكر بمشروعه الخاص ، وكان خلال هذه الشهور قد نسي أهله ومشكلة هجره بيت العائلة ، وما زال يحلم بالزواج ، فخاطب نفسه قائلا : " عندما أفتح مصلحة تدر دخلا مناسبا سأتصل بصديقي علي الحمد وأطلب منه أن يبحث لي عن فتاة مناسبة متفهمة لظروفي .. فالزواج لابد منه حتى يعف الإنسان نفسه ويبتعد عن شهوة النساء وينشغل بآخرته ويدبر أمور دنياه "

فاهتدى صاحبنا عمري إلى إنشاء معرض لبيع الأثاث ، كغرف النوم والمقاعد والكنبايات والخزائن ، وقد وفقه الله سبحانه فوجد متجرا في أكبر سوق بالمدينة قام مستأجروه بإخلائه لظروف مالية تعصف بهم، فوقع عقد الاستئجار مع مالك المحلات في المجمع الكبير ، وخلال شهر واحد كان المعرض قد تهيأ للعمل والبيع والشراء .. واشتغل لديه شابان غريبان عن المدينة ، واختارهما من أهل الصلاة والطاعة ، ثم نزل عمري العاصمة الكبيرة للالتقاء بالشيخ علي الحمد ، ولما خلا البيت من الضيوف والزوار كشف نفسه للشيخ ، دهش الشيخ من ظهور عمري فعلق قائلا : " يا رجل الدنيا مقلوبة عليك منذ اختفيت ! "

فقال عمري : " قبل أن أقص عليك قصتي سأقول لك بالذي أتى بي إليك .. والعودة لأهلي لا تحدثني عنها .. "

فقص عليه علي الحمد عن زيارة أمه لحسن ثم زيارة أبيه والمهندس رياض لحسن ، والأسف والندم والبكاء ، فقال عمري : " بل هذا كان خيرا لي .. حسنا سأقص عليك قصتي قبل ذكر حاجتي إليك .."

فتحدث عن الإهانة الكبيرة التي أصابته من عمه وأبيه ، وما تعرض له من الضرب والبصق والصفع مما أدهش علي ، وبين له أنه قد حصل على تقرير طبي من المستشفى بما أصابه من اللطم والأورام ، ثم حدثه أنه بحاجة لهذا الهجر والابتعاد ، وأن طريقه غير طريقهم ، ولما سمع علي كلامه تعاطف معه وقال : " فعلا أنت بحاجة للحياة وحدك .. فهؤلاء أصحاب الملايين حياتهم سيئة ولنقل أغلبهم .. فالخمر والنساء والتبرج والخلوات كل ذلك موجود بينهم ؛ ولكن لو حاولت دعوتهم وتغييرهم .. "

فرد عمري قائلا : " أنا وضحت لك وجهة نظري .. وأنا ضعيف أمامهم ولا قدرة لي الآن على إحداث أي تغيير .. فها أنت قد رأيت عندما حاولت تقويم فتاة تحلم بأن تكون زوجتي وتدعي أنها محبة لي ما حل بي .. وأنا الآن يا صاحبي قد فتحت محلا تجاريا ، والأمور تسير بفضل الله على ما يرام .. ولا أريد أن أذكر لك مكاني لأسباب خاصة ولأرفع عنك الحرج إذا أخبرهم أحد أنني التقيت بك .. فأنت اجتمعت بي ولكنك لا تعلم مكان سكاني "

ثم حدثه عن رغبته بالاقتران بفتاة صالحة وتعرف ظروفه ، فوعده الشيخ خيرا ، فقال عمري مودعا : " ثق بي يا أستاذي ! .. وسأمر عليك بعد شهر .. فإذا دبرت الأمور سأتزوج خلال يومين أو ثلاث ثم أعود إلى حيث أقطن .. "

فقال علي متأثرا : " اسمع يا صديقي أنا أحببتك في الله ، ومسرور منك منذ تعارفنا ، وأعرف مدى مجاهدتك في قوم يرون الجاهلية حقا وصوابا .. فما رأيك أن نشرك حسنا معنا ؟ .. لا نريد معرفة منزلك الآن لنستطيع أن نقسم صادقين بأننا فعلا لا نعرف مكانك .. وحسن قد ترك المصنع وكثير من أصحابه بعدك بأيام والأهم أن للأخ حسن أختا فاضلة .. "

□□□

صمت عمري بضع ثوان وقال : " لا بأس .. المهم فتاة ترضى بالحياة معي وسأطل عليكم بعد شهر وهذه ألف دينار تصرفوا بها حتى أعود "

فقال علي : " خذ فلوسك ، عندما تأتى في المرة القادمة سيكون الأمر بإذن الله مهيئا ، ولن نحتاج لكل هذا المبلغ ..فحسن رجل مؤمن وأخته وأسرته كذلك ولا نزكي على الله أحدا .. وأقلهن مهورا أكثرهن بركة "

فشكره عمري معانقا له وانصرف عائدا لمدينة الريحانة .

مضى عام كامل على غياب عمري عن أسرة الخابي ناصح ، فظهرت العصبية الشديدة على أخلاق ناصح ، وقد أثر هذا الغياب على نفسيته وصحته ومزاجه ، فعندما حادثه أخوه ناجح بأن عريسا يطلب يد ابنته نوال تحدث معه بعصبية وأمره أن يزوجها على الفور ، ولما دعي لحفلة الخطبة لم يذهب وأرسل زوجته وبناته نيابة عنه .. بصعوبة أدرك إنهيار مصنع السجاد ، فقد نـقل نسرين إلى مصنع آخر ، ووضع ابن أخته جبرا نائبا عنه في إدارة المصنع ، وقد اكتشف خلال هذه السنة أن ابنه كان محبوبا من العمال وغيرهم ، وأن الاختلاط بالعمال ومشاركتهم عواطفهم وأحلامهم ومشاكلهم أفضل من التعامل معهم من فوق .. فكان عندما يتذكر آذاه وغضبه على ولده وهو يرفسه بـقدمه ويلكمه بيديه يعض على شفتيه من الندم والأسف ..ثم يحقد عليه لغيابه عنه بهذه القسوة والإهمال وكأنه ما صدق أن يتعرض لهذه الإهانة ليرحل .. ندم وحقد .. كيف يعيش بدون أبيه ومال أبيه ؟ .. كان يتمزق ناصح من الداخل بسبب هرب ابنه البكر ، ويتمزق قهرا عن تخليه عنه وهو السيد المطاع .. ورغم الجرح الغائر في النفوس فالأيام تنسي الغياب ، وعندما يسمع ابنته بدرية تقول : " يا أبي افرض أنه ما زال في لندن "

فيجيبها قائلا بأسف : " هناك فرق يا بنية بين الغائب باختياره وبين الغائب المجهول .. كنت أضع كل آمالي الكبار عليه في المستقبل .. والله لا أدري لماذا نحن نكره هؤلاء المتدينين ؟! .. نتحدث عن الحرية الشخصية والحرية الدينية وغير ذلك من المسميات الكبيرة ولا نمارسها .. نريد أن نكون مثل هؤلاء الأجانب في كل شيء ولكننا لا نستطيع .. إني جد آسف على ضربي لذلك اللعين .. كيف يهون عليه فراقنا كل هذه المدة ؟ ألهذه الدرجة قلبه قاسي علينا .. أين الإيمان والإسلام الذي يتحدث عنه ؟.. إنه دجال .. لن أغفر له هذا العمل سوف يرى مني شيئا كبيرا أنا وإياه والزمن "

قالت بدرية البنت الصغرى : " لا تقل ذلك يا أبي فقلبك كبير .. فهو منذ أن تعلق بالإسلام والتوبة .. تغير فكره .. فهذه الكتب التي كان يقرأها تتحدث عن الصدق والوفاء والمنجيات

من النار وعذابها .. وفيها تحريم الخمر والربا والميسر والصور والتماثيل وتحريم خروج المرأة بثياب جميلة سافرة وإبداء زينتها للرجال والاختلاط والخلوة والسفر بدون رجل يحميها وغير ذلك .. فهذه الأشياء وغيرها قد قرأتها في تلك الكتيبات التي كان يقرأها .. فعندما يقارن بين ما يقرأ وحالنا يجد الفرق شاسعا .. فوجدها فرصة للابتعاد عنا .. "

فقال ناصح ساهما وقد تأمل بكلام ابنته : " إيه والله هو ما تقولين .. وجد أننا في واد وهو في واد .. لذلك عندما أراد أن يفرض أوهامه على نوال اشتكت لوالدها الذي أقنعني بأن نمنعه من إفساد حياتنا وتقاليدنا وحريتنا قبل أن يبدأ أن يقول لنا هذا حرام هذا لا يجوز هذا ممنوع فظننت أن كفين منا ينقلب صاغرا ذليلا هاجرا لما هو فيه .. لقد أخطأت التقدير .. فما صدق اللعين أن تصرفنا معه ذلك التصرف الاهوج ليهرب .. على كل حال سوف يعود كالأرنب يوما ما .. مصيره أن يحتاج الينا .. عندما تخلص الفلوس التي معه سيعود .. "

فقالت بدرية بحزن : " أرجو ذلك يا أبي ! فعمري ذكي وإذا اقتنع بشيء فمن الصعب التراجع عنه لقد عاش في الغرب سبع سنوات تعلم فيها أشياء كثيرة من هؤلاء الأجانب "

فضحك ناصح وقال بحقد وغضب : " ماذا تعلم ؟! تعلم الزنا والسكر .. ماذا تعلم ؟! "

فقالت قمرية التي كانت تسمع هذا الحوار بين والدها واختها الاصغر منها : " معه شهادة يا أبي ؟ "

فقال بتوتر وحقد واضح في نبرات صوته : " لا أدري كيف نجح هذا الملعون ؟ .. كان يشتغل هناك ليلعب القمار في صالات ونوادي القمار .. أين أمكم ؟ "

فأجابت بدرية : " في جمعيتها اجتماع يفكرن بعمل حفلة للتبرعات لأحد المشاريع الخيرية "

*****

ذات يوم وبينما الآنسة بدرية تجلس في حجرتها وقد رجعت من العمل ، دخلت عليها الخادمة حسنية وهي تقول : " هذه رسالة لك يا سيدتي .. لقد وجدها عمران في صندوق البريد وهي باسمك "

استغربت بدرية فهي كسولة في كتابة الرسائل ، ولا تظن أنها كتبت عشر رسائل في حياتها ،

فمن هذا الذي يكتب إليها ؟! فقالت مخاطبة الشغالة : " ممن يا حسنية ؟ ! "

فردت الأخرى : " لا يوجد عليها اسم "

خطفت الرسالة من يد الخادمة وهي تظن أن أحدا يريد العبث معها، فشكرت حسنية ووضعتها تحت الوسادة وهي تقول : " إذا فطنت لها قرأتها عند النوم ..مَن مِن الأصدقاء يحب إرسال الرسائل والسخرية منا ؟! " ثم رددت بعض الأسماء ثم قالت : " في الليل سأقرأ سخافته " .

كانت بدرية ناصح موظفة في مكاتب إدارة شركات الخابي ، وكذلك أختها قمرية ، فهن قد درسن في كلية التجارة ، وحصلن على بكالوريوس في العلوم الإدارية ، وبينهن ثلاث سنوات وهي البنت الصغرى للعائلة ، وكانت بدرية متعاطفة كثيرا مع أخيها عمري ، وإن كانت تخاف من تدينه .. فقد كانت تلحظ أنه ينظر إليها وأختها بنوع من الاحتقار بعد تدينه .. وكثيرا ما يستهزء بثيابهن القصيرة والأصباغ اللواتي يلطخن بها وجوههن وعيونهن وتسمعه يقول : " هذا الجمال وهذا التزين خلق ليراه رجل واحد فقط يا بدرية .. لا يجوز أن ينظر إليه الأوباش والذئاب من البشر " .

كانت تشعر بتعاطف معه ولكن العادات والتقاليد التي ربيت وشبت عليها من لبس وزينة وخلاعة لا يمكن الخلاص منها بسهولة .. وكانت تتعجب من قدرته وقوته على خلع الماضي عن كتفيه ، فتأخذ تدافع بقوة وحرارة عن مجتمعهم وبيئتهم وحياتهم ؛ ولكنه يهزمها بأسلوبه الجديد وبأفكاره الحديثة ، فتستسلم له في النهاية وترى أنه هو الصواب وأن أفعالهم هي تقليد أعمى لبنات الغرب الأوروبي والأمريكي وملاحقة الموضات وصرعات اللبس والكوافير ، وجدت أن الجانب الروحي لديهم ضعيف وهزيل ، حياتهم كلها مادة ، أموال تدخل وأساليب لإنفاقها ، تشتري الثوب بالثمن الغالي تلبسه لبسة واحدة أو اثنتين ثم يظهر غيره ويلقى في المخزن مخزن الأشياء القديمة ليس البالية لأنه لا يبلى لم يعد له مكان في خزانة الثياب فقد جاء غيره ، تتنافس هي وصديقاتها وبنات أصدقاء أمها ووالدها في ذلك .. هذا أغلى .. هذا أجمل .. وهذا فرنسي وهذا ألماني وذا إنجليزي .. هذا من معرض فلان وذا من

معرض فلان .. كانت تستسلم لأفكار عمري أن حياتهم فارغة .. وأن الحياة ليست كلها عبث ولهو .. بين بين .. ساعة لله وساعة للنفس .. كانت تقرأ كل كتاب أو كتيب يدخل به عمري البيت وكانت تندهش مما فيه من أقوال وكلمات ونصائح .. فترى أن هذه الكتب فقط للناس الفقراء المحتاجين .. أما هم فلهم الرحلات والنزهات والنوادي الخاصة والسينما والمسارح والسفر .. والرقص والموسيقى والحفلات الصاخبة .. أما الفقراء فلهم المساجد والزوايا ودور العبادة وإخفاء الأبدان والأوجه والأيدي ..

فلما استراحت من تعب العمل وشربت بعض العصير ودخل الليل وقد ارتدت ثيابا جديدة قد حصلت عليها حديثا قالت لحسنية : " قولي لأمي إنني ذاهبة لسهرة عند الآنسة المحترمة سهير "

وخرجت بكامل زينتها وتبرجها وركبت سيارتها التي ما زالت أمام الفيلا لم تدخلها موقفها الخاص داخل كراج الفيلا ، ذهبت لتقضي سهرة ممتعة مع شباب وشابات بمناسبة ولادة أخت سهير لمولودها الأول .. فرقصت مع الراقصين وشربت قليلا من الخمر كما علماها والدها ألا تفرط في تناول الكحول ..كأس صغيرة تكفي .. هذا أمر طبيعي يلعبن القمار عن مال يسير هذا أيضا أمر عادي .. ولو عانقها شخص مندفعا لموقف ما .. فهذا أمر طبيعي .. وكانت لا تشعر بالخجل إن حصل ذلك فهذا انفتاح وحرية .. وكانت تتعرض لمواقف أكثر حرجا من ذلك وتتقبل الأمر .. كل ذلك مباح وجائز في شريعتهم ، رجعت بعد منتصف الليل لم يشعر أحد بدخولها .. لم تجد أحدا ينتظرها ليقول لها : " أين كنت وماذا فعلت ؟ " ولكنها فوجئت أن أختها قمرية لم تنم بعد وجدتها تطرب على أغاني أجنبية غربية حديثة وصلت البلد ثم أخذت بدورها تحدثها عن جمال وحسن هذه الأغنيات والموسيقى ، ولما انتهت من إظهار إعجابها بأغاني السوق الجديدة قالت :" ماذا عند سهير لتعمل حفلة ؟ كما تقول حسنية "

فردت بدرية : " ولدت أختها فأحبت أن تعمل لنا حفلة جميلة بهذه المناسبة .. فسهرنا ورقصنا وتسلينا .. وكانت مناسبة لإلتقاء الأصدقاء " وأخذت تعدد أسماء نجوم ونجمات

الحفل .

وكانت خلال ذلك الحديث قد خلعت ملابس السهرة ولبست ثياب النوم البيجامات الحريرية المستوردة من باريس .. ولما انتهت من ذكر سخافات حفلتها سألت هي بدورها أختها عما فعلت في يومها الهالك فقالت : " خرجت مع جبر .. ابن عمتي ، فقد يحدث بيننا مشروع زواج فهو شاب لطيف ، ذهبنا لمسرح الغرباء وتعشينا في مطعم الغرباء أيضا " وأخذت تتكلم عن المطعم والمسرح حتى استغرقت بدرية في النوم ولم تسمع بقية الكلام ، فغضبت قمرية ورفعت صوت الاستيريو (مسجل الصوت) ولكن النوم قد غلب بدرية .. فلما رأت أن الصوت العالي لم يؤثر بأختها فأغلقته وحاولت النوم .. فلم تستطع ذلك فأخرجت قرصا من أقراص النوم وبلعته وبعد قليل غرقت في سبات عميق ..

□□□

زواج ناصح

لم تفطن الآنسة بدرية لقراءة الرسالة التي تلقتها أمس إلا وهي في العمل فحدثت نفسها قائلة : " لقد نسيت أن أقرأ تلك السخافات.. لازم أن أعرف من أرسلها من الشباب "

ولكنها لما عادت في المساء للبيت وجدت أن الأسرة مشغولة ، فأخبرتها أمها مريم أن والدها قد وافق على اقتران قمرية بابن أخته جبر النحام ، وأن أسرة النحام قادمة الليلة للحديث في الموضوع ولتحديد يوم الخطبة .. وجبر هذا ابن أخت السيد ناصح السيدة رباب .. وجبر هذا أصغر اخوته الثلاثة وهم سعيد وخالد لا إناث بينهم ، فسعيد قد تزوج من ابنة خاله ناجح السيدة نهى منذ سنوات ، وأما خالد فقد اقترن بابنة أحد كبار الموظفين الذين يعمل معهم في دائرة الجمارك ، وأما جبر فقد كتب عقد الزواج على امرأة ؛ ولكن قبل ليلة الزفاف هلكت بحادث سير ، فأضرب عن الزواج ، ولكنه لما استلم الشغل مع خاله ناصح في إدارة مصنع السجاد بدلا من الابن الهارب أخذت أمه رباب ترغبه وتحثه على مصاهرة خاله ، وبعد عدد من اللقاءات والسهرات مع قمرية ناصح نسي خطيبته الأولى منى ، ووجد أن قمرية فتاة مناسبة وثروة أبيها كبيرة ، وأنه الآن رجل العائلة بعد اختفاء عمري منذ أكثر من سنة .. فانشغلت بدرية مع قمرية في تهيئة البيت لاستقبال عمتها وزوجها وأولادهم .

وعند الثامنة ليلا وصل عبده النحام وأفراد أسرته وزوجاتهم ومعه أخوه الأكبر ، واستقبلهم ناصح بيك ورحب بهم وجلسوا في قاعة واسعة، ودارت عليهم أكواب العصير والمثلجات وامتلأ المكان بسحب الدخان من الرجال والنساء ، وبدأت النكت تنطلق من هنا وهناك ثم اتفق الجميع على زواج قمرية وجبر وقرأوا الفاتحة .. ثم مسحوا أيديهم بوجوههم .. لا نعلم هل يحسنون قراءة الفاتحة أم هو تقليد لم يستطعيوا التخلص منه ؟ .. واتفقوا على حفلة الخطبة وأما حفلة الزواج فتركوا أمر تحديدها للخطيبين حسب رغبتهم ، ولما شربوا شراب الاتفاق سأل أحد الأولاد خاله عن عمري ، فوجم الرجل وخيم الصمت على القاعة مما أدهش السائل فقال مستغربا : " ما بكم صمتم هل أخطأت في السؤال عن ابن خالي المفقود ؟ "

فمسح ناصح دمعة سقطت على وجهه وقال : " أبدا يا ولدي ؛ ولكنك ذكرتنا بإنسان لا

نعرف عنه شيئا .. لقد ترك غيابه جرحا في قلوبنا .. سامحه الله .. لقد تركنا ونحن في حاجة إليه .. "

فأخذت عبارات المواساة والصبر تخرج من الأفواه ، وعند منتصف الليل انصرف القوم ، وقد تجدد الحزن في بيت ناصح الخابي ، وقال الرجل لإمرأته : " هذا النحام من أبغض الناس اليّ ها هو اليوم قد صار صهري ثانية .. قاتل الله النحام وآل النحام "

فطفقت مريم تدافع عن آل النحام وتعدد مناقبهم وخيراتهم ، وناصح يعدد معايبهم وكفرهم وإلحادهم ، فقد كان عبده النحام من كبار الملحدين في القطر ومن دعاة الشيوعيين .. وما زال فتحدثت مريم عن صهرها جبر وأن أفكاره بعيدة عن أفكار أبيه ، فرد عليها : " إن الولد ابن أبيه .. ولكن الظروف تضغط علينا .. والبنت كبرت فعمرها سبعة وعشرون عاما كما علمت منها .. أتمنى أن يكون زواج موفقا .. فأنا أعرف بغض النحام لي .. لقد كنت غير موافق قديما على زواج رباب منه وقد حاولت التفريق مرة بينهما ولكنها الملعونة فقد كانت تهواه "

فقالت مريم : " تلاقت أفكارهما معا .. فقد كانت أشد منه إلحادا وكفرا .. وليس الحب الذي جمعهما وحده يا ناصح .. ونحن لا يهمنا ذلك الآن .. الولد قلت إنه يشتغل جيدا ويدير الأمور في المصنع بإتقان .. وهو ابن أختك رغم كل الأشياء .. وكما قلت فالبنت كبرت ورغم كثرة أموالك لم يطلبها أحد من أبناء أصحابك "

فرد قائلا : " والله قد حدثني بعض الأصدقاء في ذلك ولكنهم كبار في السن .. فكيف أزوج ابنتي لرجال كبار .. فالدكتور موسى لما ترمل حدثني عنها .. فاعتذرت وها هي المسكينة تتزوج رجلا أرملا سبحان الله .."

*****

بعد أيام فطنت بدرية للرسالة مرة أخرى فاتصلت بالشغالة حسنية وأرسلتها إلى حجرتها تتفقدها ثم ردت عليها : " هي حيث وضعتيها يا سيدتي "

" يا حسنية الطيبة .. لما أدخل البيت ذكريني بقراءة الرسالة .. سلام .. "

بدرية تحب القراءة أكثر من قمرية ، فتقرأ في الكتب ومجلات المرأة والأزياء ، وتقرأ عن

قصص المغنين والراقصين والممثلين ، وتستمتع بقراءة مغامراتهم وأسرارهم وأخبارهم ، وقلنا إنها قرأت كثيرا من الرسائل العلمية الصغيرة التي كان يدخلها عمري بيت العائلة ؛ ولكنها لم تغير من حياتها شيئا ، ولم تترك أثرا في نفسها يذكر كما يبدو لنا الآن .. فما زالت تحيا الحياة التي ألفتها وتعودت عليها ، وهي لم تقرأ الرسالة الشخصية التي وردت إليها لأنها لا تحب كتابة وقراءة الرسائل .. فكان أيّ كلام جميل تحب أن تسمعه فتحب أن يكون على الهاتف أو وجها لوجه ؛ لذلك لم تكن تتذكر وتفطن للرسالة إلا وهي أثناء العمل .. فتتذكرها فتشتاق نفسها لمعرفة كاتبها أكثر مما فيها من كلام .. وبما أن كاتبها لم يذكر اسمه على غلافها ، فهي تعتقد أن أحد السخفاء من الأصحاب والزملاء كتب لها كلاما ثقيلا وغزلا صارخا .. والفضول يدفعها لقراءتها ومحاولة تخمين اسم كاتبها .. فهي رغم معرفتها لكثير من الشباب فلم ترتبط بعد بأي علاقة عاطفية مع أحدهم .. كلهم أصدقاؤها ومحبوها ، رغم أنها لم تكن بالفتاة الدميمة المنفرة .. ولكن بين رفيقاتها كثيرا من الفتيات الأكثر منها جمالا وحسنا وممن يستهوين الشباب الماجن .. ولم تعد للبيت مبكرة كما آملت ، لقد اتصلت بها صديقة قبل انتهاء يوم العمل ودعتها للعشاء في مطعم ومن ثم الذهاب لشراء بعض الثياب التي ظهرت حديثا في متجر أحد كبراء التجار ، فوافقت على الفور لا يجب أن يسبقها أحد بشراء الفساتين والتنانير الحديثة .. نتيجة لذلك تأخر أمر قراءة الرسالة ؛ لأنها عادت في وقت متأخر ليلا والشغالة حسنية قد رقدت على فراشها فلم تذكرها بالرسالة .

وبدأت عائلة الخابي والنحام الاستعداد لإعلان الخطبة في حفلة كبيرة ، فقد حجز النحام صالة كبيرة في فندق ضخم ، فقد رفض ناصح إقامة حفلة الخطبة في حديقة فيلا النحام .. وتوافد المدعوون من أصدقاء العائلتين لتلك الحفلة التي أنفقت عليها الأموال الكثيرة ، فقد تعاقدوا مع فرقتين موسيقيتين .. وانشغل الناس باللهو والشراب والاستماع ، والشباب بالرقص على أنغام الموسيقى الغربية .. وقد نهض العروسان للمشاركة في الرقص مع الراقصين .. وأثناء اندماج القوم في طربهم ومرحهم دخلت القاعة امرأة شقراء سبقها عطرها الفواح ثم زينتها الفاتنة للمكان ، فنهض السيد ناصح أمام نظرات الساهرين لاستقبالها والاحتفاء بها أمام

دهشة الحاضرين وخصوصا زوجته مريم وبدرية وعيون الفضوليين ، ثم ساقها إلى أحد الموائد وجلس معها كأنهما كانا على موعد واندمجا في الحديث .. وهنا اندفعت امرأة السيد ناحج السيدة عزيزة للانتقال إلى مائدة مريم لتسألها عن هذه المرأة فردت عليها بحيرة : " لا أدري هذه أول مرة أشاهدها كأنها صديقة حديثة لناصح ولابد أنه هو الذي دعاها .. إنها أنيقة وفاتنة "

فقالت عزيزة : " يقول ناجح إنها أرملة وإنها زوجة الدكتور ساري دكتور الطب النفسي "

قالت مريم : إنني أعرفه وقد زرت عيادته أكثر من مرة فلم أصادفها مرة واحدة .. رحمه الله قد هلك بمرض السرطان .. "

فقالت عزيزة : " ظننتك تعرفينها .. فناجح يقول إنها منذ ترملت بدأت تخرج للناس .. لقد كان الدكتور لا يحب رؤيتها في المحافل .. ويقول إنها ورثت ملايين الدنانير عنه .. "

فتبسمت مريم بعد وجوم : " صفقة إذن .. فناصح يشم رائحة الملايين من بعيد .. "

فقال عزيزة : " أخشى أن يكون الأمر أكبر من ذلك يا مريم .. "

ـ " ويحك ماذا تقصدين ؟ ! "

ـ " زواج "

ضحكت مريم ضحكة قصيرة وقالت ساخرة : " ناصح يتزوج ! .. إنه رجل عجوز لا يصلح للنساء منذ سنوات يا عزيزة "

فقالت عزيزة محذرة : " خذي حذرك "

وانسحبت وعادت حيث يجلس زوجها ناجح وقد أثارت القلق والتوتر في نفس مريم ، فأخذت تتابع زوجها العجوز كما تقول وهو يتحدث مع المرأة الشقراء بانسجام واندماج كأنهم أصدقاء منذ عهود .

فقالت بدرية التي سمعت همسات زوجة عمها : " أظن أنهما يتحدثان عن مشاريع ومصانع أبي لا يحب الحديث إلا في ذلك يا أمي .. لا تهتمي بكلام عزيزة .. "

فقالت مريم : " والله إنهما مندمجان ولا يحسان بالعيون التي تسترق النظر إليهم وهل هذا

وقت حديث في مشاريع وصفقات ؟! "

ردت بدرية قائلة : " أبي صياد ماهر لا يهمه الوقت ، قد يريد تعاونها في إنشاء مصنع الأدوية فهي زوجة دكتور .. "

بعد الثانية ليلا انتهى الحفل ، ورجع السكارى إلى بيوتهم منهكين من الرقص والطرب والشراب ، وما كاد ناصح يدخل حجرة النوم التي تخصه ـ لكل واحد منهما حجرة نوم خاصة ، للزوج غرفة وللمرأة غرفة ـ حتى دخلت مريم خلفه وقالت بنبرة غيرة وغضب : " ما الذي فعلته الليلة يا سيد ناصح تركت الناس وانشغلت بتلك الحسناء الشقراء ؟ "

فالتفت إليها متضايقا وقد خلع ربطة العنق وطرحها على السرير ورد: "ها أنت قلت بلسانك حسناء وشقراء.. أرجو أن لا تكوني غرت؟ "

فردت باستهزاء يشوبه حنق: " أغار ممن يا عجوز منها إنها أرملة ؟ ! "

ـ " ولكنها جميلة يا مريم ومعها ملايين "

ـ " تترك الناس .. ضيوفك وتقضي سهرتك كلها معها .. بماذا كنتم تتكلمان ؟ "

فضحك ضحكة قصيرة ورد : " عن الحب وأيام الشباب "

فقالت بغضب وبلهجة من يأمر : " أريد أن أعرف كل شيء .. لقد أكلني الناس بعيونهن ونظراتهم وهمساتهم .. بل إن عزيزة ترى أن هناك أكثر من ذلك .. "

فصاح غاضبا : " وماذا قالت عزيزة الحمقاء ؟ "

فردت مريم غاضبة : " تقول إنك تريد الزواج منها "

فقال هازئا : " وهل في ذلك ما يغضبك ويثيرك لتحمر عيناك يا مريم ؟ أينقصك شيء ؟ .. أليست لديك الأموال والسيارات والعمارات ؟ "

فقالت بصوت هامس غير مصدقة لم استقر في الذهن : " أحقا تريد الزواج يا ناصح ؟ "

فقال بوضوح وصراحة : " أجل يا مريم ! .. أريد الزواج .. لا تريد أن تكون عشيقة تريدني زوجا وأنا أريدها إنها فاتنة وناعمة "

فصاحت بغضب : " هذا لا يمكن أن يصير أيها الرجل .. هانت عليك عشرة هذه السنوات

أين ما نناديي به من حرمة التعدد ومن ظلم المرأة العربية والشرقية أين ؟؟ "

فقال هازئا ومحقرا : " هذا كلامك أنت وصويحباتك وجمعياتك .. فالتعدد مشروع في ديننا "

فقالت بحنق : " الآن صار لك دين "

ـ " هل سمعتيني يوما ما أويدك في دعواتك وخرافتك .. فإن لم نعدد بالقانون والشرع فنحن نعدد من غير قانون أتريدين أن تقولي لي إنك طاهرة عفيفة ولم تختلي برجال غيري يا مدام ؟ "

خيم الصمت القاتل ثم ردت : " ولكنك زوجي ولا يجوز لك أن تتزوج عليّ .. اتخذها عشيقة كغيرها من العشيقات وبنات الهوى "

فقال : " رفضت ذلك .. قالت " لن أكون لك إلا بزواج شرعي وشهود " رغم الاغراءات التي بذلتها لها من مال وعقار وأرصدة .. وهي عاقر لا تنجب فلا تخافي على الورثة .. وأعلم أن أرصدتك كبيرة ولكنك طماعة " .

صمتت مريم ثم قالت : " منذ متى التقيتم ؟ "

فقال بصراحة : " أنا كنت أحوم حولها قبل موت زوجها ؛ ولكنها كانت تصدني وتظهر الوفاء لزوجها ، وكانت مشاركتها لاجتماعاتنا ضئيلة ، فلما مات زوجها منذ سنة مضت كنت معها ثم عرضت عليها عشقي وغرامي ، فرفضت ووافقت على الصداقة وأما الجسد فقالت " بالزواج فقط " .. فشاورت ناجحا أخي بالزواج منها فرفض ، وقال كما قلت الآن " اتخذها عشيقة فالتعدد في العائلة ممنوع " فحاولت معها مرة أخرى .. ولكنها مصرة على الزواج إن كانت لديّ رغبة إليها .. والليلة تناقشنا حول هذه المسالة .. فيا مريم الطاهرة عليك بالرضوخ للأمر والواقع .. أنا كنت أريد أن اقترن بها بدون علمك .. ولكن أولاد الحلال احبوا أن يخبروك بسرنا هذه الليلة وما هو بسر "

فهزت مريم صادق رأسها باستسلام ويأس : "أيضا .. تريد أن تتزوج من ورائي .. "

ـ " لا أحب إحراجك "

فهاجت وقالت بضيق شديد : " قتلتني ! إنك تهدم شغل سنوات وسنوات يا مجرم .. أنت تسمح لي بالجلوس مع الرجال والآن تتهمني وتعيرني يا شريف يا محترم "

فقال : " يا مريم كما أسمح لنفسي بالجلوس مع نساء القوم .. فمن الطبيعي أن أسمح لك بذلك .. العين بالعين ولكني لم أسمح لك بأمور أخرى .. "

فقالت بحدة : " أما أنت فتسمح لنفسك من النساء الأخريات "

فقال ببرود : " مهما يكن .. فأنا رجل ولا يعيبني ذلك "

فقالت هي الأخرى متحدية وهائجة : " وأنا لا يعيبني ذلك .. ما دمت تسمح لنفسك بالزنا يجب أن تسمح به لغيرك .. إنك حقير .. اسمع يا ناصح أنا أعرف أنك نذل .. ولكن إذا أردت الزواج فعلا من تلك الفاجرة ..طلقني لا أريدك "

فقال بغضب : " ولماذا الطلاق .. هذه الفيلا أكتبها باسمك وظلي عند الأولاد ؟ "

ـ أيّ أولاد ؟ ! فقمرية قريبا ستتزوج كما فهمت من جبر ، وسمري في أمريكا وعمري ضاع ولا نعرف عنه شيئا ولا في أي البلاد هو .. وبدرية غدا ستتزوج .. أنتم الرجال لا أمان لكم وأنت رجل عجوز وما زلت تعشق النساء "

فصاح محتجا : " هناك من هو أكبر مني وتزوج ثانية وثالثة .. لا تظلي متعلقة بشعارات جمعيات المرأة والنساء .. هذا كله كلام في كلام .. أنا لم أكن أحب وأرغب في مصارحتك برغبتي بالزواج كنت سأخفيه عنك أما الآن بما أنك تدخلت في حياتي الخاصة .. سأعجل بالزواج وأعلن به .. وإذا أحببت الفراق سيكون لك ذلك .. تدبري وفكري ؟ "

فعاد إليها الهياج وقالت شاتمة : " حقير .. نذل .. أناني "

ـ " لا يهم قولي عني ما شئت .. أعلم أن الخبر عليك مؤلم فقولي ما شئت "

ـ " سأتحدث مع أخيك ناجح لعله يردعك مع معرفتي لضعفه معك "

ضحك ناصح وقال هازئا : " هو يعرف كل شيء .. لا داعي لحشر الآخرين في حياتنا الخاصة هذا البيت لك بما فيه وأكثر ودعيني وشأني "

فقالت ساخطة : " لن تتزوجها يا ناصح قبل أن تطلقني ، ولسوف أرحل عند ولدي سمري وأعيش باقي عمري في أمريكا .. "

فقال بهدوء وفرحا بانتصاره عليها كما يظن : " اذهبي للنوم .. وغدا نتفق على كل شيء "

خرجت مـقهورة ؛ ولكنها لما دخلت غرفتها أخذت تبكي وتبكي ، ثم همست قائلة وهي ترى صورة عمري ماثلة أمامها : " أجل !.. حياتنا شهوات وشهوات .. نتخلص من شهوة لنبحث عن غيرها .. صدق ولدي عمري بكلامه .. ليتني أراه .. أريد أن أعيش معه .. حياتنا ضحك وسخرية .. نحرم أشياء ونحن نعمل بها بصورة أخرى "

تدخلت قمرية وبدرية وناجح ورباب في منع السيد ناصح الخابي من الزواج فلم يفلحوا فقد غلبه الصبا والهوى ، فكانت النتيجة طلاق مريم ، ثم سافرت إلى أمريكا إلى حيث يتعلم ولدها الأصغر .. ثم تزوج ناصح من الأرملة الشقراء قبل زواج ابنته قمرية من ابن عمتها رباب .

□□□

اضطر ناصح الخابي لشراء قصر لزوجته الأرملة الشقراء ، وبعد زواجه بشهور تزوجت قمرية ، وتقرر أن يسكن جبر في الفيلا ؛ لأنه لا يجوز أن تخلو الفيلا من رجل ، وعلى أثر تلك التطورات في تاريخ الأسرة تم تغيير ديكور الفيلا ، ولما وصلت هذه الأخبار للسيدة مريم ـ التي رحلت إلى أمريكا قبل زواج طليقها من حسنائه الجديدة ، وقبل زواج ابنتها الكبرى قمرية ـ أرسلت وراء ابنتها بدرية تحثها على الرحيل واللحاق بها والحياة معها ، فوجد هذا الاقتراح هوى لدى بدرية، فقدمت استقالتها من شركة والدها ، وبدأت تتهيأ للسفر ، ولما تمت الموافقة على سفرها وأتتها تأشيرة الدخول لأراضي الولايات المتحدة فاتصلت بأبيها بالهاتف مودعة في آخر لحظات السفر ، وكان والدها لما أخبر برغبتها بالسفر لأمريكا الشمالية قد عرض عليها زوجا يعمل معه فرفضت واختارت اللحاق بأمها ، وودعت أختها وزوجها جبرا ، وسافرت بدون ضجيج ورفيق ، وفي ولاية فيرجينيا نزلت على أمها حيث يعيش ويدرس أخوها سمري للماجستير بعدما أنهى البكالوريوس في الإدارة والاقتصاد ، وتعانقتا وهما تبكيان ، ولما هدأت روحها سألتها أمها : " ألم تسمعي خبرا عن عمري ؟ "

فقالت وباستغراب للسؤال : " لا يا أمي ! ..ولم تسألين عنه بعد كل هذه السنوات ؟! "

فقالت بحزن يشوبه ندم : " أرى أنه خيركم يا ابنتي ! .. عرف اختيار الهدف .. لقد كانت حياتنا هواء وهراء وما كنا أحرارا كما نغني .. فقد وجدت أن أخاك متزوج من فتاة أمريكية لا اشتريها بفلسين .. لا أدري كيف تزوجها ورضي بها شريكة حياة ؟ ! إنها تكره العرب والمسلمين كما تقول وتزعم .. أما كيف رضيت بسمري لحتى اليوم لا أعرف ؟ ستعرفينها "

فأظهرت بدرية الغضب وقالت : " لماذا لم تخبريني بذلك قبل السفر ؟ "

فقالت كأنها معتذرة : " إنني أشفقت على وحدتك فأنا على اتصال ببعض الصديقات .. ولن نبقى هنا ، لقد طلبت من سمري أن يجد لنا شقة قريبة منه لنرحل إليها ، وهذه الفتاة قد تزوجها من قبل حضوري بأيام .. صديقة له يدعي أنه زواج مصالح .. "

استسلمت بدرية للواقع وبلعت الطعم على مضض وهي تقول لنفسها : " لا أظن يا أمي

□□□

أنك أشفقت على وحدتي بل أشفقت على وحدتك أنت .. أرسلت ورائي تسلية لك .. أرجو أن أجد الوضع هنا خيرا من هناك .. ما أبشع حياتنا ! مع كل ما نملك من أرصدة وأموال .. نحن نعيش في تعاسة .. كل واحد يغني على ليلاه ..الأنانية ..كل يعشق نفسه .. منذ أن اقترنت قمرية بجبر ما دعتني لعشاء أو غداء معهما .. كأنني غير موجودة معهم في البيت .. أو لعلها خائفة أن أسرق جبرا منها ..!! "

ولما سألتها أمها عن زوجة أبيها قالت : من يوم خطبة قمرية لم أرها .. تزوجها زوجك السابق في حفل صغير بناء على طلبها ، فاعتذرت عن الذهاب ، فلم يهتم ولم يلح ، ولا حتى جبر وقمرية أظن أنهما ذهبا ، أعتقد فقط أن عمي ناجحا وحده رافق الزوج الفحل في ذلك اليوم "

ضحكت مريم صادق وقالت : " من أين له الفحولة ؟ .. لقد كان يتعالج عند الدكتور بستان من الضعف الجنسي وغيره .. "

قالت بدرية : " دعينا منه يا أماه ! .. المهم فليعجل سمري بإيجاد شقة لنا ندفن أنفسنا فيها "

فقالت الأم : " الحياة هنا جميلة وممتعة .. سوف ترين ذلك حين ترتاحين من تعب السفر والطائرات "

فعادت بدرية تحدث نفسها : " من أجل ذلك بعثت ورائي " ثم رفعت صوتها قائلة : "سوف نرى ذلك على الطبيعة مع أنني لم أر شيئا حلوا في الحياة .. فزوجك بعد عشرات السنين استبدلك .. وأنت لم تتركي فتاة صالون ماهرة إلا وترددت عليها لتظلي غزالا في عين ناصح الخابي .. "

فقالت الأم بحسرة : " اكتشفت بعد فوات الأوان يا ابنتي أنني لم أكن أتجمل لأبيك بل لأصحاب أبيك .. فها هي امرأة أرملة شقراء عاقر تخطفه مني بلمح البرق .. الرجال ماكرون خادعون "

فقالت بدرية : " والنساء يا أمي .. أليست الشقراء امرأة ؟ "

عندما عاد سمري وزوجته ليلا رحبا ببدرية ، وكان سمري قد استقبل أخته في المطار ولما

أدخلها مدخل العمارة تركها وعاد إلى جامعته ـ فهو يدرس الماجستير الأكاديمي ويشتغل عند والد " سيزانا " في متجر كبير ـ أظهرت سيزانا العطف والشفقة على بدرية ، ولما انتهوا من التعارف والمجاملات سألته الأم عن الشقة التي وعدها أن يستأجرها لها ، فذكر أنه اتصل بالمالك أو محامي المالك وسوف يوفران لهما شقة في أقرب وقت أو عند رحيل أول مستأجر ، وبعدما هبط الليل قال سمري: " هيا بنا يا سيزانا نحتفل ببدرية في أحد المطاعم "
فهبطوا للعشاء في أحد المطاعم الأمريكية ذات الصيت والسمعة العالمية ، كانت سيزانا ودودة جدا مع بدرية ، وكانت تظهر النفور من أم بدرية .

*****

بعد أن سكنت مريم وابنتها في شقة خاصة بهما أخذتا حريتهما أكثر من الحياة مع ابنها وزوجته الأمريكية ، ومنذ فارقتا سمري منذ اسبوعين لم يحاول دعوتهما للغداء أو العشاء كأنه لا يعرفهما وليستا أمه وأخته ، فكانت بدرية تقول : " هذه حياة الأجانب التي كنا نركض لنصل إليها .. المهم نفسي .. إيه لقد كان عمري أصلح منه كثيرا .. أين أنت يا عمري ؟ "
وبينما هما تتذكران أيام عمري وتوبة عمري رن جرس الباب ، فدهشت بدرية وقالت : منذ سكنا هنا ما رن جرس الباب علينا في المساء إلا بائع الصحف أو اللبن في الصباح "
ولما فتحت الباب فوجئت بسمري وزوجته فتصافح الجميع وقالت سيزانا : " قلت لسمري زمان ما رأينا بدرية هيا بنا نسمر معها .. رغم تعبنا هذا النهار "
وأخذت تشتكي من تعب العمل وإرهاق ساعات الدوام والدراسة ، وبعدما شربوا القهوة ، قال سمري لبدرية : " وجدت هذه الرسالة لك يا بدرية وأظن أنها من الشغالة حسنية "
أدركت الأم وابنتها حينئذ سبب زيارة سمري لهن ، كان يكتفي بالاتصال بهن في الهاتف ، وكانت قد نظرت في عيني أمها وابتسمت ابتسامة خاطفة لا تكاد ترى ، وتناولت بدرية الرسالة من يده الممدودة ، وفضتها فوجدت بداخلها رسالة ومظروف آخر من غير عنوان فتذكرت على الفور الرسالة القديمة التي وضعتها تحت الوسادة منذ شهور ولم تقرأها فقالت لنفسها بسرعة : " أين ذهبت يا ترى ؟! " وقرأت رسالة حسنية التي كانت تشتمل على

السلام على الأسرة وأنها تلقت رسالة من مجهول لبدرية فلما انتهت من القراءة ، ذكرت لهم تحيات حسنية وعمران البواب وقمرية وجبر ، ولم تقرأ الرسالة الثانية بل وضعتها في جيب قميصها ، وبعد وقت يسير انصرف الزوجان ، ولما أغلقت بدرية الباب وراءهما قالت باسمة : " هذا ما دفعها لزيارتنا يا أمي " وأخرجت الرسالة ثم تابعت الكلام قائلة : " لقد تلقيت رسالة مثلها منذ سنة تقريبا .. اليوم تذكرت أنني لم أقرئها .. لقد ظننت أنها من شاب سخيف .. وها هو يكرر المحاولة "

فقالت الأم : " افتحيها واقرئيها لنرى ما بداخلها .. ومن هو السخيف الذي أرسلها ؟ "

مزقت بدرية الغلاف وأخرجت ورقة بيضاء مسطرة وعليها كتابة .. فقرأت بصوت مسموع

" بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... "

فقالت الأم : " ما هذا ؟! "

ارتبكت بدرية وقالت : " هذا خط عمري إنها رسالة من عمري .. ها هو توقيعه في ذيلها "

خطفت الأم الرسالة وهي تقول بلهفة : " عمري .. ولدي " وضمتها إلى صدرها وقد سقطت قطرات دمع من عينيها وهمست : " ما أقسى قلبك يا عمري ! .. ثلاث سنوات لم نرك ولم نسمع عنك خبرا "

فقالت بدرية : " على مهلك على الرسالة يا أمي .. إذن تلك الرسالة التي لم أقرئها كانت من عمري .. لا أدري ما مصيرها ؟! .. قد تكون حسنية ألقتها في سلة المهملات لكنها مغلقة سأكتب إليها لتبحث عنها وترسلها إلي .. هات يا أمي أقرأ ما كتب الأخ العزيز "

قالت مريم : " إقرئي يا بدرية .. أنت بصرك أصلح من بصري "

أخذت بدرية الرسالة وقرأت بعد السلام ..

"بسم الله الرحمن الرحيم

أختي العزيزة بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد علمت بما صنع أبي المسكين ، ولقد أسفت لم حصل لأمي من طلاق وفراق ولكني حزنت عليك أنت كثيرا ، كنت أحب الناس اليّ في البيت ، كنت أريد أن أعيد لك الصواب لِمَ أرى من تعاطفك معي ، ومن قرائتك ما أقرأ وكثرة مناقشتك لي ، أحببت إنقاذك من النار ، وقد كتبت لك ذلك في رسالة سابقة ولم أتلق ردا عليها .. فلا أحب أن أزيد في التذكير .. كنت أود يا أختي العزيزة أن تعيشي معي ، فقد علمت بزواج قمرية وسكنها في الفيلا . وأنا وإن كنت بعيدا عنكم لكني معكم وأحبكم وأخاف عليكم .. فإذا أخذت طريق الهداية والحياة بكنـفي وبعيدا عن الشرور والفجور فاكتبي لي على هذا العنوان (الريحانة ص. ب ٣١٤٥٦٧) وستجدينني بقربك .. ولقد حدثت صديقا طيبا لي بظروفك ، وهو طبيب فسره الاقتران بك ومستعد أن يكون لك زوجا وطبيبا ، إنني في انتظار جوابك أخوك المحب عمري محمود "

وكان في ذيلها التاريخ والتوقيع .

وقرأت الرسالة مرة أخرى وقالت وهي تحلق في الخيال البعيد : " هذه الرسالة كتبت قبل سفري بيوم واحد يا أمي "

فقالت مريم : " إنه لا يعرف بسفرك إلى هنا عند كتابتها وإلا ذكرني في الرسالة "

ـ " أجل يا أمي .. إنه أشفق عليّ شفقة حقيقية .. إنه يحبني .. سأكتب له رسالة إنني مشتاقة إليه ..أخي الحبيب .. وسأرسل وراء الرسالة الأولى لعلها لم تفقد بعد .. حبيبي عمري أرجو أن يكون نعم الأخ ..فها نحن قد عرفنا الأخ سمري ناصح "

كتبت رسالة للشغالة حسنية تطلب منها البحث عن الرسالة القديمة وإرسالها على شقتها التي ذكرت رقمها واسم الشارع والحي ، وظلت على نار وهي تنتظر تلك الرسالة التي لم تقرئها منذ سنة ، ولكنها وصلت أخيرا ، فقد وجدتها حسنية الذكية بأغراض بدرية التي نـقلت لمخزن الأشياء القديمة والمهملة ، فلما تسلمتها بدرية من ساعي البريد شكرته ، وأغلقت الباب وكادت تطير من الفرح والسعادة ، وكانت أمها قد خرجت لزيارة الطبيب

لألم ألم بها في صدرها وقبل أن تقرأ الرسالة قبلتها فرحا وجلست في الصالة تقرأ الرسالة القديمة .. وكان فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم

أختي بدرية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوك المحب يكتب لك من أعماق القلب .. يكتب إليك وكله شوق لمشاهدتك وسماع صوتك ومناقشاتك وتعليقاتك .

أيتها الأخت .. لولا حبي الكبير ما كتبت لك هذه الكلمات .. فالحياة جحيم من غير إيمان وتوحيد وتوبة .. لماذا خلقنا يا بدرية ؟! .. أخلقنا فقط للأكل والشرب والشهوات ؟ .. أليس هناك روح مستقرة في أبداننا ؟ وهذه الروح تحتاج لأكل وشرب وشهوات ، فطعامها العبادة كالصلاة والصوم ، وشرابها الذكر والدعاء والأخلاق ، وشهواتها التحليق في عجائب ملكوت السماوات والأرض ، فأكثر الناس حطب جهنم .. وجهنم مكان رهيب يمزق الأفئدة ويحطمها تحطيما .. فلماذا لا ينقذ المسلم نفسه من النار ومن العذاب الأليم ؟! فالنار مثوى الظالمين والكافرين .. انقذي نفسك أيتها العزيزة .

والإسلام لا يحرم ملذات الدنيا ، فهناك ملذات مباحة ، فالزواج بدلا من الزنا ، وجميع ألوان الطعام مباحة إلا القليل ، والكلام كثير .. ولكنك قد تتسائلين لماذا يكتب لي عمري بعد أكثر من سنة من الاختفاء وما الذي فطنه بي ؟! تيقني أنني دائم الفكر بكم وأتمنى أن أصحو من نومي وأجدكم حولي أسرة ثانية عائدين إلى ربكم .. ولكن هناك سببا آخر دفعنني للكتابة إليك وحدك .

فاعلمي أيتها الأخت الحبيبة .. أنني قد تزوجت من فتاة ، هي أحلى امرأة في العالم ، وأجمل من كل فتيات لندن ومرسيليا ، ومن تعرفين من بنات طبقتنا وأقاربنا ، وهي متاع صالح كما أشار نبينا محمد (ﷺ) ، تزوجتها أيتها العزيزة ومنذ أشهر أخبرتني بأنها حامل ، ففرحت فرحا عظيما لهذا الأمر .. والإنسان لا يعلم متى يأتيه الموت .. وهذا المولود القادم سوف يحمل اسم

□□□

أسرة الخابي سواء كان ذكرا أم أنثى ، ورغم الأوراق الرسمية فقد أحببت أن تكوني بعلم بهذا الزواج حتى إذا حدث لأخيك المحب ما منه مهرب أن تقفي مع زوجتي وولدها .. من أجل هذا وذاك أكتب إليك .. وأرجو أن تكتمي أمر هذه الرسالة عن الأهل جميعا .. أنا خصصتك بها وحدك السلام عليكم يا أختاه .

أخوك عمري

تاريخ كتابةالرسالة

" عنوان المراسلة "

بكت بدرية أثناء تلاوتها لسطور هذه الرسالة ، ولم تكف عن البكاء إلا عندما سمعت جرس الشقة ، فذهبت وغسلت وجهها وفتحت لأمها ، التي لاحظت على الفور احمرار عينيها من كثرة البكاء فقالت بقلق : " ما بك يا بدرية ؟ "

تنهدت الفتاة وقالت : " وصلت رسالة عمري القديمة .. تخيلي يا أمي لو قرأتها قبل زواج أبي وطلاقك لما أتيت هذه الديار الواسعة ولكنها موحشة ، الإنسان بدون أهل وأحباب وأسرة وأصدقاء كأنه ميت .. نفرح لمن يطرق الباب علينا .. والله ما أدري ماذا كان يعجبنا بهؤلاء الأجانب .. لا أحد يطرق باب جاره .. ؟! "

فقالت الأم : " دعينا من الأجانب ومن عاداتهم وطباعهم .. إقرئي لي ما كتبه الابن العاق "

قرأت بدرية الرسالة على أمها التي شاركتها البكاء ثم قالت وهي تكفف دموعها : " لقد اختار حياته .. واستغنى عن مال أبي وأمه .. الله يسعده .. إني مشتاقة إليه يا بنيتي .. يجب أن تكتبي إليه وتخبريه بأحوالنا أنا ضقت ذرعا بهذه البلاد .. أنت من شهر أو شهران مللت فكيف أنا ! .. أكل وشرب ونوم .. كنا نظنها جنة الله في الأرض عندما كنا نأتيها سائحين ، كان يخيل إلينا أن هؤلاء الخلق أسعد البشر .. ولكننا لما أخذنا نقرأ صحفهم دهشنا من كثرة جرائمهم والحوادث عندهم .. لم نكن نراها في بلادنا .. لقد سمعت أثناء وجودي عند الدكتور قبل ساعات عن جريمة تقشعر لها الأبدان .. امرأة اغتصبها عدة رجال ، وبعد ذلك قطعوها بالسكاكين ، ثم حرقوها بعد ذلك .. والشرطة قد قبضت على بعض القتلة الذين

اعترفوا بفعلتهم الوحشية ، والبعض الآخر مازال طليقا .. والرجل هنا لا يستطيع أن يخرج في الليل بدون أن يحمل مسدسا أو رشاشا .. والمصيبة انتشار جرائم القتل والعنف في المدارس .. والله أشياء رهيبة تظهر على الشاشات والصحف بدأنا نعرفها عن هذه المدنية والحضارة !"

فقالت بدرية : " معك حق يا أمي ! نحن عندما كنا نأتي سائحين كنا نرى الصور الجميلة الملاهي .. المسارح .. السينما .. المسابح .. الحدائق .. كنا نرى الوجه الذي تقدمه لنا شركات السياحة .. أماكن الجذب السياحي .. أما اليوم فنحن نقلب صحفهم صفحة صفحة .. لدينا متسع من الوقت ؛ فلذلك نرى الحياة الحقيقية في المجتمع .. نرى ما فيها من جرائم قتل واغتصاب وأمراض جنسية وعنف وعنصرية "

فقالت الأم : اكتبي لعمري الغالي لعلنا نرحل ونعيش في رعايته .. فالحياة مع سمري قاتلة ومظلمة "

فقالت بدرية بنوع من الاستغراب : " أتستطعين الحياة مع عمري يا أمي ! .. الشيخ عمري فأنا أرسل لي ليزوجني من صديق له شاب متدين مثله إذا اخترت طريق الهداية والتوبة كما يقول أخي الحبيب.. يا الله كما أحلم برؤيته والحديث معه .. ؟ ! "

فعادت الأم تقول : " الحياة مع عمري أظن وأتصور أنها خير من الحياة مع سمري وسيزانا الملعونة .. لا يستطيع الواحد أن يتكلم معها من تعاليها وانتفاخها وأخوك ذليل أمامها .. "

ـ " ألم يقل لك مرارا وتكرارا المصالح تتطلب ذلك ؟ .. العمل والحصول على الجنسية الأمريكية يا أمي .. دعيه .. سأكتب لعمري بكل أحوالنا وننتظر ماذا يرد علينا ؟! "

رد عمري

" بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الحبيب أخي المحب والشفوق عليّ عمري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اكتب إليك من حي { القديس يوحنا } فيرجينيا الأمريكية

أشكرك على حبك الكبير لي ، وأشكرك على السعادة التي تتمناها لأختك الضعيفة الضائعة الحائرة .. اعلم أيها المحب أنني للأسف قد قرأت رسالتك الثانية قبل الأولى ، قرأتها وأنا أسكن في شقة مع أمك المطلقة في أمريكا .. لقد وصلت اليّ بعد سفري بأيام .. ولو أنني تلقيتها قبل السفر ربما لم أهاجر إلى أمريكا روبنسون كوروزو وتمثال الحرية وسوبرمان وحرب الاستقلال والشيخ والبحر ..

أخي الحبيب .. أبارك لك الزواج رغم التأخر في هذه التهنئة للظروف التي تعلمها ، وأظن أنك الآن قد رزقت بمولود آخر ، وسلامي الحار والدافئ لزوجتك أحلى امرأة في الدنيا .. لقد كان رحيلك عن البيت دمارا وسوادا ، حزنا ولم نمل من السؤال عنك ، وندم أبي وبكى على فراقك وبعدك ، ولكنّا أيقنا أنك اخترت الطريق المناسب لك ، كما كنت تحلم يا عمري نسيناك بعد حين أو تجاهلناك ، عادت الحياة كما كانت للبيت حفلات سهرات مقابلات رقص مجون سكر .. كل ما تعرفه عنا .. تزوجت نوال سبب كل هذه المشاكل ، ولما خطبت أختك قمرية ابن عمتك رباب الأستاذ جبر الذي استلم مكانك في مصنع السجاد والخيوط ، كان أبوك المحترم قد وقع في غرام أرملة شقراء زوجة الدكتور ساري إنك تعرفه لقد قام بمعالجتك عندما عدت من لندن منهارا مدمرا من الديون والقمار والشراب .. وقع أبوك في حبها وأبت أن تكون له عشيقة أو زوجة سرية ..أمك لم تتقبل الوضع ، وهي التي تردد مع نساء جمعيات حقوق النساء أن التعدد ضار ومنكر وحرام مما تعرفه عنها وعن نساء تلك الجمعيات والنوادي الفارغة .. أبي لم يتردد في طلاقها رغم توسلاتنا ، فتم الطلاق بسرعة مدهشة ، وهاجرت إلى بلاد العم سام إلى بلاد تمثال الحرية .. والحرية كما تسمع ونسمع .. عند

ولدها الصغير سمري .. وبعد زواج أبي من أرملة الدكتور رحل عن البيت واشترى لها بيتا آخر قصرا كبيرا يليق بحفلاتهم وسهراتهم .. ثم تبع ذلك زواج قمرية وجبر وسكنا الفيلا .. فأصبحت بينهم غريبة ، لا أحد يتحدث معي .. الخادمة تدخل عليّ على خوف وقلق .. آكل وحدي .. فلما تلقيت دعوة أمي للهجرة إلى أمريكا فرحت ، ولما علم أبي بذلك عرض عليّ زوجا شفقة عليّ ، فرفضته ورحلت لبلاد الحرية والحب ، فوجدت أمي تريد من يفك وحدتها فكرت بالعمل ثم عكفت عنه .. كرهت هؤلاء الأجانب وعاداتهم وغرائبهم .

ووجدنا أخاك سمريا متزوجا فتاة أمريكية .. لا أشتريها بخمسة فلسات .. وهي لئيمة مع أمك وإن كانت تظهر لي بعض الود والميل .. المهم تركنا سمريا ونسكن شقة وحدنا .. مضى علينا فيها شهر وأيام ولم يطرق علينا الباب .. أحيانا يتحدث معنا بالهاتف .. مشغول بين عمله ودراسته للماجستير وزوجته أيضا .. إننا عندما حولت حسنية المخلصة رسالتك لنا إلى أمريكا كانت مفاجأة طيبة وبلسما لنا ..

أخي الحبيب

أمي مشتاقة لك وتريد أن تعيش عندك ، إنها تائهة حائرة .. بغضت مثلي لهذا المجتمع مجتمع التفكك الأسري .. نحن بحاجة إليك يا عمري .. انظر ما تراه مناسبا .. ونحن في انتظار ردك .. سلام إلى زوجتك الطيبة أحلى امرأة في العالم .. سلام إلى ابنك أو ابنتك .. تحيات وقبلات أمك للجميع .. لا تنسانا أيها الأخ الحبيب

أختك المحبة

بدرية الخابي

التاريخ

فيرجينيا ـ أمريكا الشمالية

ثم ذكرت عنوان المراسلة ورقم الهاتف .

****

قرأ السيد عمري هذه الرسالة ، وأخذه البكاء والنحيب ، وكان صاحبنا لما استلم الرسالة ترك عماله وعاد للبيت ، فاستغربت الزوجة الشابة زينب من عودته المبكرة قبل الغداء ، فقال لها مزيلا حيرتها : " تلقيت رسالة من أختي الحبيبة .. فجئت اقرأها على هدوء .. "

فصنعت له فنجان قهوة وتركته يقرأ وحده ، فلما سمعت بكاءه هرولت إليه من غرفتها وقالت بلهفة : " ماذا حدث أيها الزوج الطيب ؟ ! أخبرني يا عمري ؟ "

فقال وهو يبكي ويتشنج : " إقرئي هذه الرسالة يا زينب "

تناولت الخطاب بقلق واضطراب وقرأتها ، فبكت كما بكى عمري وقالت بقوة وحزم : " عليك بأن ترسل إليهن فورا بالمجيء .. فهؤلاء أهلنا وأحب الناس إلينا .. أسرع يا عمري بالكتابة إليهن .. إنهن يستنجدن بك .. بل اتصل بالهاتف فها هو رقم الهاتف مذكور في الرسالة .

لقد ذكرت بدرية رقم هاتفها في الرسالة ، فقام إلى الهاتف واتصل بأمريكا وبعد دقائق كان يتحدث مع بدرية فلما حياها وحيا أمه وبكى تحت سمعها واعتذر لها طلب بدرية ثانية ثم قال : " إنني بشوق إليكن وأنا في انتظاركن .. اكتبي هذا الرقم ـ وأملى عليها رقم هاتف المنزل ـ وعندما تركبنّ الطائرة اتصلي بي فأنا لا أحتمل بعدكن عني .. وأنا في انتظار الاتصال "

كانت الفرحة كبيرة لم يسعها قلب مريم ، وسرت من تلهف ولدها إليهنّ وبكائه ، فهو منذ قرأ الرسالة اتصل بهن ، فأخذت تدعو له بالتوفيق والرضا وتتحدث عن شوقها الكبير لرؤيته بعد كل هذه السنوات ، وقالت بدرية متأملة الموقف:" أرأيت يا أمي ماذا يفعل الدين الحقيقي بأهله ؟! .. أنا ما زلت أذكر عندما عاد عمري من إنجلترا.. سلم علينا من طرف أنفه كأنه ما غاب عنا يوما واحدا .. أما الآن كان يتكلم والدموع والشهيق في لسانه ولهجته الدين يرقق الأفئدة .. لا يريد منا إخبار سمري بمسيرنا إليه .. فنـقول له : " إننا مللنا الحياة هنا وسنعود للحياة بين الأهل والأحباب " وأظن أنه سيرحب بذلك سريعا ويفرح أيضا " وهذا ما حصل فعلا ، فلما سمع سمري رغبتهن بالعودة للوطن أغلق الهاتف ، وأقبل إليهن

مسرعا ومعه سيزانا بالطبع ، فأخذت الأم تحدثه عن ضجرها من الحياة في المجتمع الأمريكي ، وأنها تفكر بالعودة للحياة عند أهلها وأحبابها ، وطفقت سيزانا تشجعها على العودة ، وبعد حين يسير تحمس سمري وبين لهنّ محاسن العودة للبلاد ، وخلال أسبوع كان سمري قد حجز لهن تذكرتين إلى نيويورك ومنها لأوروبا وبعد ذلك لأرض الوطن ، وليلة الرحيل اتصلت بدرية بشقيقها عمري وأخبرته بتاريخ السفر وساعة الرحيل ، وأنها ستتصل به من روما أو مدريد حسب رحلة نيويورك .. ولما أوصلهن سمري للمطار ودعهن بعجلة لكثرة أشغاله ، ولم ينتظر معهن لحين إقلاع الطائرة ؛ ولكنهن لم يكترثن بذلك ، فقد كان شوقهن لعمري كبيرا ينسيهن الانتباه لهذه المواقف.. وصلت الطائرة مدينة نيويورك عاصمة المال والتجارة العالمية ، ومنها إلى أوروبا ، وبعد يومين في أوروبا حجزن تذكرتين ، ولما رحلن من أوروبا كانت بدرية قد تكلمت مع أخيها عن تفاصيل الرحلة ، ووصلت الطائرة الجامبو مطار البلاد في الليل قبل الفجر ، ولما خرجن من الطائرة كان عمري في انتظارهن ومعه زوجته زينب وولداه اللذان تركهما نائمين في السيارة ، فلما أخذن الجوازات أخذن يتطلعن يمينا وشمالا فلم يعرفن عمريا ابتداء فهو كما يعلم القراء قد ترك لحيته على سجيتها وكان يضع على عينيه نظارات ملونة ، فلما اقترب منهن خلع النظارة واندفع نحوهن وهو يهتف : " أهلا بأمي الحبيبة "

وتعانقت الأم وولدها الذي هرب من البيت قبل سنوات قليلة ، وكانت الدموع تنساب من العيون وتسمع الزفرات والتنهدات ، ثم عانق أخته ، فلما انتهى من عناقهنّ والترحيب بهنّ ، وكانت زينب تقف خلفه ـ وهي في ارتباك وتأثر ـ فأشار إليها قائلا : " زوجتي زينب يا أمي " قبلت الأم كنتها واحتضنتها ، فسلمت عليها الأخرى بحرارة وقبلت يديها، ثم عانقت بدرية ، وكانت الحقائب قد وصلت فتناولها عمري وقال : " الأطفال في السيارة "

استيقظ الطفلان على فتح صندوق السيارة ، فعانقت الجدة حفيدها ذا السنتين وحفيدتها ابنة الأشهر وهي مسرورة مما وجدته من حرارة اللقاء ومن شوق وحنان لدى ولدها وزوجته .. وكان عمري قد أحضر معه ساندويتشات وزجاجات العصير البارد فقدمها للجميع ،

وكانت مريم قد انشرح صدرها كما قالت لكنتها الفتاة الرقيقة المجلببة ، وكانت قبل رحيلها لأمريكا إذا رأت فتاة تلبس الجلباب وغطاء الرأس تشمئز نفسها وتكاد أن تقيء من القرف والجهل من هؤلاء الفتيات اللواتي يلبسن هذه الأسمال ، أما الآن فلا ، فقد تهيأت زينب لهذا اللقاء ، قد كانت زينب طيبة ولسانها جميل وحلو كالعسل ، بل بدرية سرت منها ، ورأت أن أخاها صادق بوصفها بأنها أحلى امرأة في الدنيا ؛ لأن كلامها يشفي الجراح ، ويرفع من نشوة الروح ، فالمسافة بين الريحانة والعاصمة تحتاج لثلاث ساعات لقطعها ، ووصلوا مدينة الريحانة مع شروق الشمس، فقامت زينب على الفور بتهيئة الحمام للأم والبنت وانشغلت وزوجها بصلاة الفجر .

□□□

وكان عمري قد هيأ حجرة بأثاث جميل ، فيها سريران لحياة أمه وأخته معه ، فلما اغتسلن كانت زينب قد أعدت لهن الطعام ، ثم طلب منهن عمري الرقود والراحة وبعد الراحة والنوم يبدأ التفكير والحياة ، فكانت مريم تقول لبدرية قبل أن تستغرقا في النوم : " إني لا أكاد أن أصدق ما أرى .. عمري صاحب هذه الأخلاق .. بل زينب هذه الفتاة الرائعة أكثر منه حنانا وعطفا وذوقا من غير إشعارنا بحرج أو ضيق .. لقد سحرتني بنبلها وأخلاقها وحبها مع أننا أول مرة نتقابل .. ولا أظنها تنافق لا يوجد ما يدفعها لذلك .. "

فقالت بدرية : " منبتها حسن يا أمي .. نحن كنا في جاهلية ..المرأة تحب زوجها وتخدمه وتخدم أهله وترى ذلك عبادة وقربى إلى الله أخي عمري محظوظ وقد عرف دربه .. وفقه الله "

فقالت الأم بحسرة : " علينا أن نتغير يا بدرية .. الدنيا ماكرة ولا تدوم على حال .. أنا في السنة الأخيرة عرفت الدنيا والناس أكثر من الخمسين التي مضت من العمر "

فقالت بدرية:"تحول الإنسان مثلنا يحتاج إلى إرادة وعزيمة قوية يا أمي "

فعادت مريم تقول : " والله يا ابنتي بعد تلك البهادل ما عاد في الدنيا شيء حلو .. فمنذ طلقني أبوك وأنا أحس بالمرار وأقول ليس للدنيا أمان ، فبعد عشرة أربعين سنة رماني كما يرمي الناس الجيفة .. فشددت ظهري بولدي البعيد ؛ فإذا هو غارق في دنياه وهواه ، ولا يستطيع الجلوس معي ساعة من نهار .. وها هي قمرية منذ سافرت إلى أمريكا لم تتصل بي وتواسيني وتشد من أزرى .. وأنت لأنك نفرت من الرجال قبلت العيش معي على مضض .. إنك تحبين الحياة والحركة وما زلت في مقتبل العمر، فعندما يذهب عنك الذهول وصدمة الأحداث ستعودين لما كنت عليه .. لا تظني أنني جاهلة يا ابنتي ! .. الحياة تجارب وخبرة عندما يكون الشخص قويا الكل يحسب حسابه ، واعلمي أنه رغم معرفتي لحياة أبيك الفاسدة كان صمتي على ذلك لتسير السفينة .. فعندما غمزته امرأة تظاهرت بأنها تعشقه صدق نفسه أنها واقعة في هواه ، وغدا ستعلمين من أخبارهما ما يحزنك على والدك .. لقد حدثتني عنها إحدى معارفها فقالت : " هي ثعبان أملس يحمل بين نابيه السم القاتل " أبوك

يظن أنه كسب امرأة ومالا فأخشى يا بنيتي أن يخسر المال بعدما خسرنا .. "

فقالت بدرية بحزن وأسف : " ماذا سنفعل بالمال ؟! ها نحن نملك الأموال والأرصدة ولا نستطيع إلا أن نبحث عن رجل نحتمي به ونعيش في كنفه.."

فقالت الأم : " سنة الحياة .. لا الرجل يستقل عن المرأة ولا المرأة تستغني عن الرجل سواء الأب أو الأخ أو الابن .. طبيعة الحياة .. ومن يستغني عن ذلك يره جميع الناس شاذا .. المال لابد منه للحياة ولكنه ليس كل شيء "

أمضت الأم وابنتها أسبوعا هادئا في كنف ولدها البكر عمري ، ورأت ولمست منه حنانا لم تكن تراه عندما كانوا يعيشون في بيت السيد ناصح ، وكانت زوجته في غاية المحبة والظرف معهنّ ، فلمست الأم السعادة والوفاق الذي يغمر هذه الأسرة ، فكانت زينب لا تخطو خطوة إلا بالاتفاق والتفاهم مع زوجها ، ذات يوم قال عمري : " يا أمي ! .. إنني أبحث عن بيت واسع .. ليحلو لكم المقام معي .. فطاعة الأم بالمعروف واجبة وليس منّا أو تحميل جميل .. "

فقالت مريم : " في هذه الأيام القليلة والله يا ولدي إنك عوضتني عن كل الأيام التي قضيتها عند أخيك في أمريكا ، لم يحسسني يوما أنني أمه ، وكان يعاملني بخوف وقلق من أبيه كأن أباه معنا .. تصور يا ولدي ذات يوم قلت له يا ولدي إنني أملك ملايين الدولارات لا تخاف أن يقطع عنك أمواله .. فسخر مني وقال"ماذا تفعل ملايينك مع ملايين أبي ؟! " .. والآن حان وقت سماع قصتك منذ رحلت عنا .. فلنا أكثر من أسبوع ننتظر "

قص عليها قصته باختصار وسبب اختياره لهذه المدينة ، ومحاولته العمل في الشركات الخاصة ولم يستطع الصمود أمام الغش والتلاعب ، ففتح محلا لبيع الأثاث ، ثم فتح محلات أدوات منزلية .. ثم نزوله العاصمة بعد عام ، واتصل بصاحبه علي الحمد وحسن فوفقه الله بالزواج من أخت حسن ، وقد تزوجها بأقل من ألف دينار ، فباركت له الأم اختياره وتمنت له السعادة الدائمة وقالت : " يا ولدي الحياة بدون أولاد تعيسة ومؤلمة .. أيها الحبيب .. اشتري أكبر بيت في الريحانة فأموال أمك تحت تصرفك "

فقال : " الأمور تمام يا أمي .. لا أريد أن أشعر أنني احتضنتك لأجل الأموال التي معك

فأموالك لك .. فهذا البيت مناسب قبل مجيئكم فنحن بعد أسرة صغيرة .. وقد اشتريت قطعة ارض في ضاحية جديدة ستنشأ في الريحانة يا أمي ! وعندما يبدأ الناس بالبناء سأفعل مثلهم .. وأنا أبحث عن بيت أكبر من هذا من أجلكم ولتأخذوا راحتكم في البيت والمطبخ وأنا يسرني جدا أن تأكلوا من تحت يدي زوجتي ؛ ولكن قد لا يعجبكم اختيارنا لأصناف الطعام .. وزينب لا تتضايق أبدا من صحبتكم ومن أكلكم معنا "

فقالت الأم متأثرة : " صدق يا عمري يا حبيبي أن طهي زوجتك طيب ولذيذ .. ونحن كنا نأكل كما تعلم من طهي حسنية المسكينة ، فكيف زينب الأميرة الرقيقة الطيبة ؟! .. اسأل بدرية لقد أثنيت على حسن طعامها وإتقانه كثيرا .. إنها سيدة فاضلة وتحبك كثيرا وسعيدة بك هنيئا لك بها .."

فقال عمري : " حق هذا يا أماه .. من أعماق قلبك أنت راضية عنا "

قالت بفرح غامر : " أجل يا حبيبي .. لقد بلغت الخمسين سنة ماذا جنيت من حياة الملاهي والسهر ؟ .. إنني طلبت من زينب أن تعلمني فروض الصلاة .. وأفكر بالحج يا ولدي لأعاهد الله على التوبة والندم .. إن كلام زينب بلسم .. تعرف واجباتها ودينها وحقوق زوجها وأولاده وأقاربه . "

فقال باسما : " كل ذلك عرفتيه في أسبوع " فردت باسمة : " بل عرفته منذ التقينا بالمطار .. احرص عليها يا ولدي .. إنها فتاة مؤمنة .. يا عمري قبل أن تحضر بدرية وزينب ، أما حدثتنا عن الطبيب الذي أشرت له في رسالتك لأختك .. فإذا كان مناسبا زوجناهما ولا داعي للإنتـقال من هذا البيت حتى تبني بيتك الجديد في الأرض الجديدة .. "

فرد عمري فقال : " عندما كنت أعيش في كنف أبي يا أمي .. كنت أحس وأشعر أن بدرية تريد أن تسير معي وتصلي ولكنها خائفة مترددة ليس لديها الشجاعة والتحدي للانعتاق من الخوف والقيود .. فلما أتيت الريحانة تعرفت على الطبيب فائز في المسجد ، فهو يعمل في مستشفى الحكومة هنا ، ووجدت أنه يسكن في حي الصخرة هذا الحي ، فتصادقنا وأحببته في الله ، وهو أحبني في الله سبحانه ، ومن حبي له ذكرت يوما حبي لأختي بدرية ومحاولة إنقاذها

من النار ومن تقاليد العائلات ، ونتيجة الكلام أبدى رغبته بالزواج منها حبا لي ولإنقاذ نفس من النار .. فإذا بدرية لديها استعداد للزواج فعلينا تدبير ذلك ، فالطبيب فائز إنسان لطيف وشاب ممتاز .. وهو صديق مخلص "

فقالت : " سأفاتحها بالموضوع .. يجب أن تتزوج فقد أصبحت ابنة ست وعشرين سنة .. والعمر يجري "

ـ " هناك مشكلة بسيطة إن شاء الله .. وهي أن البكر في بلادنا إذا أرادت الزواج تحتاج لموافقة والدها إذا كان على قيد الحياة .. فدبروا ذلك إذا رضيت بدرية بالزواج من صاحبي فائز لطفي " .. وطبعا سوف استدعيه ليراها وتراه .. فالنظر مطلوب بين الخاطبين .. وهو منذ عرف بعودتكما وهو مشتاق للسلام عليكم ورؤية العروس .. "

فقالت الأم : " بارك الله فيك يا ولدي .. هذا من حبك لأختك وحرصك على طهارتها وعفتها .. هذه أشياء لم نكن نهتم بها كثيرا ونحن في بيت الأسرة .. والله إنني أسمع كلاما من زينب فأتعجب من جهلنا ومناداتنا بحرية المرأة العربية ، ومساواة الرجل والمرأة ، وإلغاء القوامة والتعدد ، ووضع التعقيدات في طريق الطلاق .. اكتشفت أننا نحارب الإسلام والدين ونحن جاهلون به ، لا نعرفه ، نظن أن أعراف الناس وعاداتهم كلها دين وهي بعيدة عن الدين .. فأتحفتنا زينب بقصص لطيفة عن زوجات النبي (ﷺ) ومشاجراته في البيت ومداعباته وحياته الخاصة ما يكاد يصدق .. حتى أنها تقول إنه تسابق مع زوجته عائشة مرتين هات لي رجلا يتسابق مع زوجته في عصرنا هذا ، ورخص لها وأذن لها بمشاهدة الأحباش يلعبون في المسجد ..بل هناك قصة أن إحدى زوجاته طلبت من ضرتها أن تركب هودجها لتسمع ما يقول الرسول (ﷺ) لعائشة.. قصص مدهشة لم نكن نسمع بها ونعرفها .. بل حدثتني عن هجر النبي (ﷺ) لأزواجه شهرا .. بل أيضا لما أراد طلاق إحدى زوجاته الكبيرات في السن تنازلت عن ليلتها في القسم والمعاشرة من أجل أن تبقى على ذمته وزوجته في الجنة .. قصص وحكايات حلوة وجميلة غير منتشرة بين الناس .. فزينب هذه رائعة .. بل تقول لو تزوج عليها عمري ثانية فلن تمانع ، وإن قد تتألم وتتضايق ابتداء لطبيعة النفس

البشرية ؛ ولكنها طائعة لله ترضى بذلك .. وتقول إن الناس يظنون أن الحجاب والجلباب يفرضه الرجال على النساء .. لا .. إنما هو أمر الله فرض من الله .. والله لا يفرض شيئا ضارا ومشوها وفاسدا لأنه هو الحكيم الخبير العليم .. رائعة .. رائعة زينب ! ظهرت أمامها يا ولدي من أجهل الناس، لقد دهشنا أنا وبدرية من حكاياتها وفهمها لسيرة الرسول (ﷺ) تبكي يا ولدي نحن الذين يجب علينا أن نبكي ، نحن لم نكن نعرف التربية نحن فقط نقلد ونتشبه .. "

فقال عمري وهو يمسح دموعه : " إنني سعيد بكل ما تقولين يا أمي .. فهذا يدل على أن الإيمان قد دخل قلبك وكبر .. أنت تسمعين ذلك بقلبك المؤمن فمن أجل ذلك تقبلت كلمات زينب ..فأنا سعيد .. "

فقالت وقد تأثرت ببكاء عمري : " يا بني كنا نعيش في الوهم ، وتظن الواحدة أنها ملكة ، وتظن أنها أفهم النساء بمعاشرتها لنساء وسيدات المجتمع .. ثم ترى نفسها يوما مدحورة مطرودة .. فهل تأسف على ملك زائل ؟ فامرأة شقراء أنست أباك عشرة عمر ، ورمى عليها يمين الطلاق بدون أسف وحسرة وندم .. أنا أحسدك على زينب مع أنها تركت المدرسة بعد الثانوية العامة .. فلم تدخل معاهد أو كليات ولكنها تقرأ جيدا وتفهم جيدا .. "

ـ " وأسرتها طيبة يا أمي .. أبوها ملتزم وأكثر أهلها كذلك وهذا عامل مهم في التنشئة ".

*****

كانت بدرية هي الأخرى منشرحة الصدر لكلام زينب وتقارن نفسها ابنة الجامعة مع ثانوية زينب ، فترى أنها أمية درست أربع سنوات لتحمل شهادة ، وتعمل موظفة في شركة تكتب بعض الأوراق والملفات يدرسهن طفل في أسبوع ، وأما الدين الأمر المهم في حياتها الدنيوية والأخروية فهي فيه لا شيء .. لا تحفظ آية من كتاب الله ، وعندما تسأل عن دينها فتجيب السائل " الإسلام أو أنا مسلمة " ، وهي لا تعرف أبجديات الإسلام ، إذن صحبتها لزينب غيرت من نظرتها لدينها ، وأن الحياة ليست كلها لهو وعبث وقضاء شهوات ورغبات ، فعرفت أن الإسلام لا يمنع المرأة من طلب العلم ودراسة المحاسبة والسكرتاريا والإدارة

والتجارة ، وجدت أن الإسلام لا يمنع الأنثى من الخروج للترفيه والبساتين والمياه ولا يمنعها من العمل .. وهناك مجالات للعمل تكون أفضل من غيرها للمرأة ؛ ولذلك قد عزمت على التمسك والتفقه بدينها ، واعتبرت أن الأحداث التي جرت كانت خيرا لها ولأمها ، وأن المال لا يغني عن الاهتمام بالحياة الأبدية بعد الموت ، فازداد حبها لأخيها وزوجته ، فلما فاتحتها أمها بموضوع الطبيب ، قالت بانبساط وسرور : " أنا راضي باختيار أخي وراضٍ بصديق أخي .. وأرى أن الحياة في هذه المدينة جميلة وطيبة رغم أنها مدينة بحرية فتنظيم المدينة تنظيم ممتاز ومجاورة زينب فيها خير كثير "

فقالت الأم : " على بركة الله يا حبيبتي .. وعليكما أن تنظرا لبعض كما يقول عمري .. فالنظر في هذا الموضع جائز بين الرجل والمرأة ، وإن كنت أحسب أن الشاب موافق من قبل أن يراك لحبه لأخيك كما شعرت من كلام عمري رضي الله عنه "

ابتسمت بدرية وهي تسمع كلام الأم ، وأخذت تقارن بين صورة أمها في العاصمة وأمها اليوم في الريحانة ، وهمست : " الإنسان عجيب!" وأرسلت الأم وراء عمري وزينب وأطلعتهم على موافقة بدرية على الاقتران بفائز لطفي .

فقال عمري مسرورا : " غدا بمشيئة الله سبحانه سيأتي ومعه أخته ، فأمه ميتة منذ زمن منذ كان طفلا ، وأبوه بعدما ربى الأولاد تزوج من امرأة تصغره بسنوات لتقوم على خدمته ورعايته .. فله أخت فاضلة متزوجة ولديها أطفال وغدا ستتعرفون عليها "

تمت المشاهدة الشرعية بين الشاب والفتاة ، ووافق الاثنان على الزواج في نفس السهرة والجلسة ولكن عمريا طلب من صديقه أن يرد عليه بعد أيام ، وأن يـفكر بالموضوع على هدوء بعيدا عن الخجل والإحراج

كانت المشكلة التي تواجه العروسين هي موافقة الأب ناصح الخابي على هذا الزواج أو قل توقيعه على عقد الزواج ؛ لأنه لا يتم زواج البنت البكر في قانون الزواج إلا برضا ولي أمرها ، وهو ابتداء الأب وهذا مطلب شرعي أيضا ، فبعد تأمل ونظر قال عمري : " عليك يا أمي باستئجار شقة مفروشة في العاصمة ، وعلى بدرية الاتصال بوالدها وتخبره بعودتكم ـ ولابد أن سمريا أخبرهم بذلك - وتخبره بأنها وجدت الزوج المناسب ، ثم نتفق مع الكاتب الشرعي المعين من قبل المحاكم الشرعية ، وفي اليوم المحدد يحضر والدك يا بدرية لوضع توقيعه ، وإن حاول الاعتراض قولي له لن أتزوج الا من هذا الشاب ، لا تحدثيه عني فلكل أجل كتاب " .

وبعد أن تدارسوا خطة عمري والموضوع من جوانبه وجدوه هو الحل الأمثل ، وإذا رفض ناصح هذا الزواج وصمم على الرفض ستلجأ بدرية للقاضي ليكون ولي أمرها ، فقام عمري وأسرته بزيارة العاصمة فترك زوجته وولديها عند أهلها ، واتصل بمكتب عقاري فحصل على شقة مفروشة لمدة شهر واحد ، ونزلوا فيها وعلى الفور اتصلت بدرية بقمرية التي عتبت عليها مجيئها البلد ولم تتصل بها لتكون في استقبالها ، فضحكت بدرية وقالت متهكمة : " كم تلفون رن علينا في أمريكا ؟! .. المهم أنا ساكنة مع أمي .. وذكرت لها اسم الشارع والحي واسم العمارة ، وذكرت لها أنهن قضين عدة أيام في أوروبا ، ثم ذكرت أنها وجدت شابا مناسبا للأقتران به ، وطلبت منها أن تتصل بأبيها وتخبره بموضوعها ، ثم ختمت حوارها قائلة : " غدا سأتحدث معك "

تحدثت قمرية مع والدها ، ثم قامت بزيارة أمها وأختها في الشقة المستأجرة ، وجرى بين الجميع عتاب ، وأبدت قمرية اعتذارها لأمها وأختها وأظهرت سرورها بعودتها ، ولما سألتها بدرية عن رأي والدها بموضوع الزواج فقالت : " إنه راغب برؤيتك في الفيلا "

ومشت بدرية للفيلا بزيارة ، وسلمت على حسنية والحارس عمران ، والتقت بجبر زوج أختها الذي أخذ يسألها عن العريس ، فقالت : " هو طبيب وشاب جيد ومقبول "

ولما جاء الأب تعانق الأب وابنته وعتبت عليه بدرية وقالت : " يا أبي منذ سافرت لم تتصل بي

ولو مرة واحدة .. "

فتظاهر بالانشغال والنسيان ، ثم حدثته عن الزوج الذي اختارته واتفقت معه ، وأنها وأمها لم تطب لهما الحياة في أمريكا فقررتا العودة ؛ ولكنهما امضيا ردحا من الزمن في ربوع أوروبا ومن يومين وصلوا المدينة ، ولما سألها كيف تعرفت على الشاب العريس ؟

قالت : " أنا لم أعرفه إلا منذ وصلت فقط .. ونحن في فرنسا التقيت مع أسرة عربية سائحة وتصاحبت مع فتاة ، وخلال الكلام حدثتني عن أخيها الطبيب ، وأنه يبحث عن عروس منذ عهد وهكذا كانت البداية .. فلما استأجرنا الشقة حضر مع أخته واتفقنا .. وذهبنا للقاضي الشرعي فقال لنا " يا بنية ما دام والدك على قيد الحياة فعليه بالموافقة والتوقيع على العقد الشرعي "

فقال ناصح بنبرة غاضبة : " كنت تريدين الزواج من ورائي ؟ "

فقالت بخبث ومكر : " لا يا أبي إنما فعلت ذلك من أجل عيون أمي .. فأنا كنت أعرف ذلك .. فلما تيقنت أمي أن الزواج لا يتم إلا بموافقة الأب قالت لي افعلي ما شئت .. فاتصلت بقمرية لتخبرك بوصولي .. فأمي مسكينة يا أبي ! .. إنها بحاجة إليك وإلى عطفك وودك .. "

فانتفخ رأس ناصح تيها وقال : " الآن لا أستطيع أن أفعل لها شيئا .. وزوجتي الجديدة امرأة قوية ولا تقبل بعودة أمكم .. ولقد انتهى ما بيننا .. وأنت غدا ستتزوجين وتنسين أمك وأباك .. ولما يجهز المأذون اتصلي بي وسآخذ قمرية ونأتي اليكم لنضع التوقيع والموافقة على الورقة وألف مبروك يا ابنتي فهذه حياتك واختيارك وأتمنى لك السعادة ، وما دام هذا اختيارك فهو خير وسيكون بين يديك شيك بعشرة آلاف هدية العرس والزواج "

وودعهن وانصرف وعلى أثره انصرفت بدرية ، وقد أدركت أن والدها لم يبق لأمها في قلبه ذرة ود أو عشرة ، فعجبت من ذلك ، وقالت معزية نفسها : " لابد أن امرأته الجديدة مسيطرة عليه سيطرة تامة .. حتى من أجلنا لم ينافق ويداهن .. حسبنا الله ونعم الوكيل "

فلما استمع عمري ما قصته بدرية اتصل بالدكتور فائز لطفي وحثه على المجيء غدا صباحا ،

وذكر له عنوان الشقة ، وفي الصباح الباكر تحرك عمري ونسيبه حسن إلى المحكمة الشرعية، وهناك ذكر لهم الموظفون اسم المأذون الشرعي وعنوانه فساروا إليه واتفقوا معه وأعطوه عنوان الشقة ورقمها ، وفي الخامسة مساء كان المأذون الشرعي والطبيب وأخته ومريم وبدرية وصديقان لحسن في انتظار السيد ناصح الذي أتى حسب رغبة ابنته بدرية ، كان يريد زواجها تبرئة لذمته نحوها ولتنشغل في بيتها وذريتها ، فلما دخل الشقة وخلفه قمرية ، ورأى زوجته الأولى فحياها ببرود وغضب ، ولما عرف أن الطبيب صاحب اللحية هو صهره كاد يفرط الزواج ؛ ولكنه لما سمع هدير مريم ورغبة بدرية به واقتناعها به ، وقع على مضض ، وتمت كتابة عقد الزواج ، ثم شربوا مشروبات العقد ، وانصرف المأذون ومعه الشاهدان ، وعلى الفور قال ناصح : " مبارك يا بدرية .. مبارك يا دكتور فائز "

فشكروه على تعاونه وتساهله ، ثم تحرك للخروج بعدما ودع فائزا ومطلقته ، وخرجت بدرية تودعه ، وقبل أن تركب قمرية بجوار والدها قالت لها : " أين عمري ؟ "

نظرت إليها بدرية : " ماذا تقصدين ؟ ! "

فردت باسمة : " أصابع عمري في هذا العريس .. سلام بدرية سلام "

وفي الصباح الباكر كانت مريم تسلم مفتاح الشقة للبواب ، وأنهى عمري العقد مع صاحب العقار بحجة السفر العاجل ، وعادوا لحي الصخرة ، وخلال أسبوع كانت بدرية قد سكنت في بيتها المستقل ، وأصبحت حليلة شرعية للطبيب فائز لطفي .

وأما قمرية فقد حاولت الاتصال بالشقة فلا أحد يرد ، ولما ملت من الاتصال ذهبت للشقة بنفسها ، فأخبرها البواب بسفرهم المفاجئ .. فأدارت عجلة السيارة وعادت للبيت ثانية .

*****

استطاعت زينب الفتاة البسيطة المتدينة أن تفرض نفسها وشخصيتها المتواضعة وسلوكها الحسن على حماتها أم زوجها ، فاندمجت المرأتان معا ، وكانت زينب تعامل أم زوجها كأنها أمها فتعاملها برقة ورفق ، والسيدة مريم لم تكن بالمرأة العنيفة أو الشرسة ، فهي قد وجدت نفسها بحاجة لهذه الحياة الهادئة ، فطابت لها الحياة مع ولدها عمري وزوجته ، وكانت تحب الطفلين

وتستمع باللعب معهما .. ولما أتى موسم الحج حجز عمري لنفسه وأمه وزوجته وترك الأولاد عند أخته بدرية التي سرت ورحبت بصحبتهما ، ولما اقترب موعد السفر تحركوا إلى المطار وبالطائرة إلى جدة ومنها لمكة الكرمة ، فقاموا بأداء عمرة الحج ، وبعد يومين قضوها في ربوع مكة المكرمة مشوا إلى منى في اليوم المسمى يوم التروية ، وفي اليوم التالي المعروف بيوم عرفات صعدوا مع الصاعدين للجبل جبل عرفات ، وظلوا عليه يدعون مع الداعين حتى الغروب ، ثم انحدروا نحو المزدلفة حتى أصبحت وأشرقت شمس يوم النحر يوم الحج الأكبر ، فعادوا لمنى وشاركوا الناس فرموا الجمرة الكبرى بسبع حصيات ، فذبحوا هديهم ، وحلقوا شعورهم ، ثم تحولوا لمكة للطواف والسعي ثانية ، وفي المساء عادوا لمعسكرهم في جبال منى، وكانوا يتنقلون بين منى ومكة حتى انتهت أيام التشريق الثلاثة، ثم طافوا طواف الوداع ، وانتقلوا إلى مدينة الرسول الأعظم (ﷺ) فصلوا في مسجده وزاروا قبره وسلموا عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر ، وزاروا بقيع الغرقد ثم عادوا لمكة ثانية ومنها لجدة ثم عادوا للريحانة ، ورغم تعب السفر والمناسك ، فقد استفادوا شيئا جديدا وحققوا ركنا عظيما من أركان الإسلام ، وأخذوا شحنة كبيرة من الإيمان ، وتعرفوا على أماكن بدايات الدعوة العظيمة ودين الله الخالد ، ولما سمعت بدرية أمها تتحدث عن مكة والمدينة زاد شوقها إلى تلك الديار ، ووعدها زوجها برحلة حج في الموسم القادم ، وكانت مريم صادق تقارن بين رحلاتها الكثيرة إلى ربوع أوروبا وأمريكا وبين رحلتها الدينية إلى الصحراء والرمال والجبال الشاهقة ، فتلمس الفرق الكبير ، فترى أن الرحلة الدينية فيها انشراح صدر وابتهال وشوق للرحمن ، وأما رحلتها لفرنسا أو سويسرا إنما كانت للمتعة وإضاعة الوقت واللهو وتبذير المال ولتقول لمعارفها : " زرنا باريس زرنا فينا زرنا زيورخ " وجدت أن العبادة في الصحراء ممتعة ولها رهبة على القلب ، وفيها ذكريات عظيمة، في هذا المكان كانت دعوة إبراهيم وذبح إسماعيل وظهور نبي الإسلام محمد (ﷺ) فتمنت رحلة أخرى ، فتحمس ابنها عمري لحماسها وتشوقها لتلك البقاع المقدسة والمباركة فوعدها عمري بعمرة في كل سنة ، فلقد بدأت المرأة تتخلص من أدران الماضي ورواسبه ، وتحس بلذة وطعم الإيمان ، وتسر لسماع كلام وفتاوى

العلماء ، وتقارن بين حالها في بيت زوجها ناصح وحالها في بيت ولدها ، فترى الفرق الكبير بين بيت النور وبيت الظلام ، كانت عندما تفتح جهاز التلفاز وترى جلسة لشيخ أو عالم تقلب المحطة إلى أخرى أو تغلق الجهاز وهي تتمتم " أما زال هناك من يسمع لمثل هذه البرامج ! ".. أما الآن فمن أحب الأشياء إليها سماع الدروس العلمية والتثقف في دينها ، وكانت زينب تساعدها وتعلمها تلاوة القرآن ، بل قام عمري بإحضار معلمة خاصة لتعليمها حسن القراءة الصحيحة ، وبعد رحلة الحج التي تحدثنا عنها بشهور يسيرة أتمت البلدية لمدينة الريحانة تجهيز البنية التحتية للضاحية السكنية الجديدة ، فقد انتهت من إنشاء الشوارع وأعمدة الإنارة وخطوط الماء والهواتف والصرف الصحي (المجاري) ، فبدأ أصحاب الأراضي ينشطون بإقامة مساكنهم حسب ما هو مخطط لتلك الضاحية (ضاحية الصالح) ، وعلى الفور باشر عمري وصهره فائز بالبناء ، فقد كان لكل واحد منها قطعة يفصل بينهما شارع ، فأقسمت مريم على مساعدة الطرفين ورغم ترجي عمري لها أن لا تدفع أو تساهم ؛ ولكنها أصرت فأعطت لكل واحد منهما خمسين ألف دينار ، فقال عمري : " عليك أن تعطي قمرية وسمريا مثلنا يا أمي ! فهم أولادك مثلنا .. والعدل بين الأبناء مطلوب "

فقالت الأم : " ما أخبار قمرية ؟ "

فقال : " أرسلنا لها بعض الهدايا أنا وبدرية وبعضها باسمك مع أحد السواقين العاملين بين الريحانة والعاصمة ، وقد تحدثت معها بدرية في الهاتف ، وهي راغبة بالحديث معي ومعك .. سنتصل بها في وقت مناسب وهي بخير ، وقد قالت لبدرية " إن صحتها مع الحمل صعبة وإنها تراجع الطبيب كل يوم "

ـ " من الضروري الحديث معها .. وعندما تبني بيتا بإذن الله تعالى سأهديها خمسين ألف يا ولدي كما أعطيتكم "

ـ " بارك الله فيك يا أمي ! فالمساواة في العطية سنة نبوية يا أماه .. الليلة سنسير للبحر فقد دعانا حبيبنا فائز للعشاء على شاطئ البحر في " كازينو الريحانة " وهو يترجاك أن ترافقينا "

نجاح عمري

مضت عشر سنين على زواج بدرية وفائز لطفي ، وقد أصبح لديها ثلاثة أطفال ولدان وبنت وقد طاب لهم العيش في الريحانة وأصبحوا من أهلها ، وكثرت مشاريع عمري فاستثمر أمواله في مشاريع شتى ، في النقل والاستيراد وإعادة التصدير ، فأصبح من كبار التجار ، ثم قام بإنشاء شركة مقاولات وإعمار ، فلمع اسمه في المدينة " الشيخ عمري محمود " ، لم يكن يحب صاحبنا ذكر اسم الخابي منذ بدأ حياته في الريحانة ، كان يتفقد أصحاب الحاجات ، ويقيل أهل الجوائح ويحسن للمساجد والمشافي ودور الأيتام ودور العجزة والمسنين ، وكان يرى أن الله سخره لخدمة هؤلاء الناس فلم يكن يبخل عليهم بشيء ، كان يرى أن الله ابتلاه وامتحنه بالمال ، ولقد استعان باخوة زينب في إدارة بعض المشاريع وأعمال الخير ، فالمال فيه حق لله وحق للضعفاء والفقراء ، فقد جعل موظفا خاصا لترتيب أمر الزكاة وتوزيعها ،كانت أمه تشجعه وتشاركه في العطف على المحتاجين ، وتفعل ذلك وهي مسرورة سعيدة ، وكانت تحس بروعة الإنفاق الصالح عندما تسمع دعاء أرملة فقيرة محتاجة أو طفل يبتسم أو شيخ فاني يمد يديه للسماء داعيا لها ولأولادها ، فقد عجبت لهذه المعاني والمشاعر التي تجتاحها اليوم لقد كانت غائبة عنها أثناء عضويتها لكثيرمن الجمعيات الخيرية أيام السيد ناصح ، فهناك لم يكن العمل لوجه الله ، إنما كان للدعاية والافتخار والقيل والقال ، كان عمري سيدا للمال ، ولم يكن عبدا له أو حارسا عليه ، كان يكره البخل والتقتير ، فكم كبوة كاد يسقط فيها أثناء الشحن للمواد والبضائع وغير ذلك من الحوادث فكانت الصدقات والدعوات ترفع البلاء وتخففه .

أنشأ عددا من المدارس الخاصة وقد استأجر لها المباني المناسبة، وكان يتكفل بدفع أقساط ومصاريف عددا من الأيتام والفقراء ، كان يحب أن يرى الابتسامة البيضاء على وجوه ذوي الحاجة ، وعندما ينصح بالاعتدال في الإحسان والنفقة يبتسم ويقول : " لماذا ؟! لماذا ؟! أليس هو مال الله ونحن مستخلفون فيه ؟ وبتوفيق الله وفضله تحفظ الشاحنات والبواخر القادمة من الأحداث والأعطاب ، وإذا حدثت مصيبة يخفف الله عنا من الضرر والكارثة ..

أو ليس في الإنفاق حسنات وخير وبر ؟ "

ولقد كان صاحبنا عمري محمود يمارس الصدقة الخفية التي لا تعلمها شماله ، ويعشق التعاون الجماعي والتآزر فلم يبخل على طلبة المعاهد الشرعية والعلمية .. وكان يحسن إلى بعض الطلبة الأذكياء الفقراء الدارسين في الجامعات ، حتى أن مريم كانت تحسد وتغبط ولدها على سخاءه وجوده ، وتتعجب من ذلك ، وتقارن بينه وبين شح والده وعمه في مثل تلك المواضيع ، لقد وجد نفسه محبا للأستثمار والتنمية ، فما يذكر له نشاط تجاري الا هم به واندفع اليه بقوة ، كما تقول القاعدة الاقتصادية التي تنص على أن المال يولد المال ، قام صاحبنا بإنشاء عيادات طبية بإشراف صهره فائز وبعض زملائه الأطباء ، ينفق عليها دواء وإدارة لمعالجة المحتاجين والفقراء والعاملين في مشاريعه المختلفة ولمن يطرقهم ، ثم تشجع فيما بعد وأنشأ شركة طبية لاستيراد الأدوية والأدوات الطبية ، وكان شريكه فيها حبيبه وزوج أخته فائز لطفي وكذلك أخته بدرية وأمه ، ثم تطور الأمر فتم إنشاء مصنع دواء يديره الدكتور فائز بعدما ترك خدمة المستشفى الحكومي ، وقد بدأ في بناء وتأسيس مستشفى متوسط الحجم في المدينة ، فكلما كثر المال تكثر مشاريع عمري لا يحب كنز المال ، وقد سخر الله له أصدقاء ورفاق مخلصين متعاونين على البر والتقوى وبين أعينهم مخافة الله .

كل ما أشارنا اليه من نجاحات تحقق بعد مضي خمس عشرة سنة من تركه للعاصمة ، فتحت الدنيا على عمري الذكي ، فقد كبر ابنه محمود فأصبح ابن أربع عشرة سنة وعائشة تصغره بسنتين ثم أسامة ثم حسن ثم محمد ثم مريم .

ولقد كان كبار رجال المدينة وكبار التجار بالذات ورجال الأعمال يحثون ويرغبون عمريا في الاشتراك في التنافس على رئاسة وعضوية الغرف التجارية ، فيعتذر ، وحاولوا تشجيعه لترشيح نفسه لرئاسة وعضوية البلدية لمدينة الريحانة ، فيعتذر عمري أيضا ، بل حاول محبوه ترشيحه لمجلس النواب الوطني في أحد دوراته ، فيصر على الرفض ، فكان يحب أن يخدم بدون أن ينتظر جزاء من أحد أو طمع في سمعة وشهرة ورئاسة ، كان هو وأمه يديرون وينفقون على أكثر من سبعة دور أيتام منتشرة في المدينة وما حولها من القرى ، فسمعته الطيبة

كانت تسمح له أن يفوز ويتقدم على الآخرين ؛ ولكنه كان يحب الآخرة وثواب الآخرة ، فلم يضعف أمام اغراءات الشهرة وحب الظهور والسعي للقاء الشخصيات السياسية الكبيرة .

وكانت قمرية قد عرفت منزل أختها وأخيها وأمها في الريحانة ، وأخذت تتردد عليهم بين الحين والآخر ، وكانوا هم يصلونها ، وكانت لا ترى والدها إلا في بعض المناسبات ، ولا يتحدث معها إلا " بكيف حالك؟" وقبل أن يسمع الإجابة يأخذ بالحديث مع الآخرين ، ولا يوجد بينها وبين زوجة أبيها زيارات منذ تزوجت جبر ، وأما سمري فقد رجع من أمريكا يحمل شهادة الدكتوراه واشتغل مع والده بضعة أشهر ثم رحل ثانية إلى أمريكا حيث أولاده وزوجته الأمريكية ، فهو لم يندمج في الحياة العربية ، وخلال هذه الشهور التي قضاها في ربوع الوطن لم يسأل عن أمه أو أخيه أو أخته بدرية ، ولم يحاول الالتقاء بهم عيانا ، فقط تحدث معهم بالهاتف ، فتعجبت قمرية من ذلك البرود ، ولم تحاول الحديث معه في هذا الموضوع ، وقد نزل الفيلا بضعة أيام ، ثم نزل شقة مفروشة من عمارات والده ناصح ، وسافر غير مأسوف عليه من أحد من أفراد العائلة ، وطفقت قمرية في السنوات الأخيرة تقنع زوجها بالرحيل إلى الريحانة وتضغط عليه للرحيل فيقول لها : " نحن مع ناصح لم نتوفق ونتواصل فكيف مع عمري بن ناصح دعينا يا امرأة ؟! "

فقالت : " سمعت أن أبي يريد بيع هذه الفيلا .. وأمي تقول إن لي في ذمتها خمسين ألف دينار ، وأنت لك سنة تارك للمصنع ، فهناك نشتري فيلا صغيرة أو شقة ، وتعمل لك مشروعا وأخي عمري لن يقصر بمساعدتنا "

وأخذت تحدثه بحماس واغراء عن الطبيب فائز زوج اختها ومشاريعه مع عمري ، وبعد طول جدال والحاح منها استسلم جبر لضغط الزوجة واقنع نفسه بترك العاصمة للريحانة ، ولما استشار والديه قالت أمه رباب : " اذهب من غير تردد فعمري ولد مبارك .. فقد خسره ناصح .. فابن أخيك سعيد يقول عنه " إنه كما يقال ملك غير متوج في الريحانة ".. ينفق بسخاء غير معهود في آل الخابي ، وتدخل عليه الأموال من عدة جهات .. وابن أخيك سعيد يعمل محاسبا في إحدى مشاريعه الكبيرة .. ثم قالت بأسف وربما حسد : " لقد خسره أخي

خسارة كبيرة ! .. بل لما شاهدت أمه مريم ذهل قلبي من تقواها وعبادتها وإنفاقها .. ولم أصدق أنها كانت زوجة أخي .. ارحل يا ولدي .. فخالك لا يريد لأحد منا أن يكبر .. يريد أن نظل ونبقى عصافير صغيرة من غير أجنحة.. " ثم تنهدت بعمق وهمست : " عمري الخابي !! "

تحدثت قمرية مع أخيها عمري بهواها ورغبتها بالحياة قربهم واطلعته على رضا زوجها بالمسير اليهم .. فقال بحماس وسرور : " على الرحب والسعة .. والفيلا هدية مني والخمسون ألف افعلوا بهن مشروعا وأنا تحت أمركم .. المهم أن يأتي جبر وقد تاب إلى الله وخلع ثياب الجاهلية والإلحاد .. اليوم أهل الإلحاد والكفر تركوا هبلهم في بلادهم "

ولما سمع جبر هذا الكلام الساخر تردد في الرحيل ؛ ولكنه استسلم ثانية لزوجته وقال : " الله موجود .. أنا لا أنكر وجود الله ! "

فقالت ضاحكة : " يا مجنون دعك كما يقول عمري من هذا الحمق والهبل .. أنت تعرف أن عمريا يحب المصلين ولو كانوا مخادعين فأول سوأل يسأله لمن يعمل معه " هل تصلي ؟ "

فقال جبر ساهما : " بيني وبينك أنا من زمان وأنا أفكر بالتوبة .. زهقت من حفظ المصطلحات الكبيرة التي لقنني إياها أبواي منذ نعومة أظفاري .. معاداة الرأسمالية وحب الاشتراكية والشيوعية والعمال والفلاحين والحمراء والصفراء وغير ذلك من المسميات الساخرة .. لا تظني أنني أتكلم بهذا الكلام لإرضائك وإرضاء عمري .. أنا ترددت على المسجد هذا ـ وأشار للمسجد المجاور للفيلا ـ أكثر من مرة ؛ ولكني أخاف من أبي ، فأبي ملحد كبير ، وجعل الإلحاد لنا دينا .. وقد عجبت من عمري عندما زار أمي قبل سنوات ، والتقى بأبي وأخذ يحثه على التوبة وترك الشيوعية لأصحابها والابتعاد عن الماديين وأهل الانحلال والفسق ، وأحسست يومها أن أبي سينهض مستسلما ويغتسل ويدخل الإسلام .. كان ينقصني التشجيع والدعم سنبدأ من الآن يا قمرية واعتقد أن صحبة عمري ستساعدنا على الثبات .. "

فقالت قمرية بحماس : " هذا هو الكلام العاقل .. أمي يا رجل التي تعرف من هي ؟! ..

أصبحت من حبها للآخرة وزهدها في الدنيا ملكا من الملائكة .. تبكي عندما تحدثها زينب عن الجنة والنار .. أسمعت ؟! .. والله زينب هذه تحفة .. فعندما كانت تحدثني بدرية عنها أشم رائحة النفاق والمصالح وأسخر منها ، وأقول هذه الفتاة الأمية تعرف الكلام والوعظ .. ولكن فمن بضع جلسات كادت تقلب حياتي وتجعلني كرابعة العدوية التي نسمع عن زهدها وتصوفها .. إنها رائعة في ذكر القصص والأمثال وتستل الألفاظ والتعابير بروعة وحب .. تدفعك للإصغاء والاستسلام الكامل لها لولا أنفة النفس وعزتها لأصبحت درويشة .. فهي تقنعك ببساطة وسهولة أن الإسلام دين ممتع وليس دين فقر وعذاب وتسول .. بل هو دين ضحك وإمتاع ورياضة ومعروف وبذله .. إنها ساحرة .. وتقوم بواجبات البيت ورعاية أمي الكبيرة وأولادها وزوجها وضيوفهم من غير تقصير في واجب أحد .. وتقرأ وتقرأ إنها شغوفة بالقراءة تستغل كل وقتها في القراءة .. إنها تحسد يا جبر .. "

فقال متعجبا من زينب ومن شغف قمرية بامرأة غيرها : " شوقـتينا لمعرفتها وستزداد معرفتنا بزينب يا أخت زوج زينب !!

لقد كانت زينب الفتاة ذات الثقافة التعليمية المتوسطة تترك انطباعا حسنا على كل من يجلس معها ، وذلك بفضل السجايا التي جبلت عليها من الطيبة والحنان وحب الناس والرحمة ، وثانيا مما تعلمته من أسرتها المكافحة الصابرة ، وثالثا قد وفق الله لها زوجا محبا تائبا ، ورابعا طلبها للعلم وحبه ، وميزات أخرى لا ندرك كنهها ، فكانت متاع صالح ، وفضل الله يؤتيه من يشاء ، فبعد أن اتخذ جبر وقرينته قمرية الخطوة الأولى وتعلما الوضوء والصلاة وقد استعانا بكتاب صغير ، كانت بدرية قد أعطته لقمرية في إحدى الزيارات ، فلما مسكا بطرف الخيط اتصلت قمرية بعمري وحدثته عن توبتها وصلاتها ، فسر الشيخ عمري وهو يسمع ذلك الكلام فقال بحماس : " منذ تكلمت معي سابقا وأنا ابحث لكم عن فيلا حتى وجدتها فمرحبا بكم .. الأثاث دعوه فهي فيلا مفروشة بكل ما تحتاجون إليه وما ينقص تجدونه في محلاتنا فقط الملابس والذهب .. والبيت في انتظاركم "

فشكرته الشكر الجزيل ودعت له بالمزيد من الخيرات والنعم والعافية ، ثم خيرت حسنية

بالمسير معها أو البقاء في الفيلا فاختارت البقاء ، فلما جهزوا أنفسهم استأجروا سيارة لحمل الحقائب والأمتعة التي أحبوا أخذها معهم ، وتركوا سيارة قمرية في موقف الفيلا ، وركبوا سيارة جبر وانطلقوا نحو الريحانة تتبعهم سيارة العفش ، ولما وصلوها بعد ثلاث ساعات كان بعض عمال عمري في انتظارهم أمام قصر عمري في ضاحية الصالح ، فنزلت قمرية وابنها وابنتها ـ فهي لم تنجب منذ تزوجت إلا ولدا وبنتا ، ثم أصابها مرض كان يؤدي للإجهاض ثم امتنعت عن الحمل لأسباب ودوافع طبية وصحية فاقتنعت بالولد والبنت ـ ضيفة على أمها وأخيها ، وأخذ العمال سيارة النقل وجبرا إلى الفيلا ، ودفع العمال الشباب المفاتيح لجبر بعدما فتحوا الأبواب الرئيسية وقاموا بإدخال الحقائب والأمتعة والكتب وانصرفوا ، ونقد جبر السائق خمسين دينارا وأغلق الفيلا بعد أن استلمها من عمال عمري ، وعاد حيث تسكن حماته وزوجة خاله قديما ، فقبل يدها فدعت له وباركت له البيت الجديد والعودة للأسلام ، وقالت : " خيرا صنعت .. فالحياة بجوار الطيبين طيبة ومن جاور أهل السعادة سعد .. مرحبا بك يا بني "

تم نقل ملكية الفيلا باسم قمرية بيسر وسهولة ، وتقبلت هدية أخيها بشكر وامتنان .. وعرض عمري عددا من المشاريع على السيد جبر صهره الثاني للاختيار منها ، وعرض عليه أيضا إدارة أحد المشاريع إذا لم يرغب بإنشاء مشروعه الخاص ، فطلب جبر التفكير والنظر .

ذات صباح وبينما عمري يجلس في مكتبه الكبير يراجع بعض ملفات إحدى الشركات أخبره السكرتير أن ثلاثة رجال أمن يبغون مقابلته ، فأمر بإدخالهم ، وطلب لهم قهوة ، وترك كرسيه مستقبلا لهم بابتسامة ووجه طلق ، وأشار لهم بالجلوس ، ولما حيوه قال أحدهم :" أستاذ عمري .. نحن بوضوح وصراحة ضباط أمن مخدرات .. وبصراحة فقد وجد رجالنا كمية من المخدرات في أحد مخازنكم "

لمعت عينا عمري وتريث قليلا ولزم الصمت ، ولما لم يرد تابع الضابط قائلا : " الحقيقة أن المدير استغرب ذلك لم عرف عنكم من الخير وحب الخير .. وسمعتكم الطيبة في كل مكان ؛ فلذلك أرسلنا المدير لنسمع منك رأيك فماذا تقول ؟! "

قال عمري باسما ومفكرا بما التقطت أذناه : " جزاكم الله خيرا .. أنتم خير من يعلم أن كل ذي نعمة محسود .. فلا يخلو الإنسان ممن يحقد عليه ويكرهه ويحسده من غير أن يعرفه .. فأنا لا أريد أن أحلف أيمانا إنني لا أتعامل بالمخدرات .. فأنا الدخان والسجاير أكرهها وأبغضها ولا أحب أن تباع في محلاتنا ومتاجرنا سواء بالاستيراد أو التوزيع .. وثانيا أنا تحت أمر العدالة لأنه يهمني أن أعرف أعدائي ـ

هداهم الله وأصلح الله قلوبهم – فأخبروني بتفاصيل القضية .. "

فقال الضابط منير : " يا أبا محمود .. اتصل بنا مجهول فاعل خير ، وقال لنا إن المخزن في شارع كذا فيه مخدرات .. بالطبع نحن نأخذ أي إخبارية على محمل الجد وإن كانت كاذبة .. لأن كثيرا من الناس يخافون من الظهور في قضايا بوليسية ومحاكم .. فوضعنا المكان المذكور تحت المراقبة مدة أربع وعشرين ساعة ، ولقد تأكدنا أنه لكم فعلا ، والعجيب أنه مخزن مهجور .. بل لما دخله رجالنا وجدوا فيه كميات من أوراق الصحف " رولات ورق " بيضاء وعليها الأتربة والغبار "

فقال عمري : " عرفته ! .. مخزن في شارع الراية العربية .. مرت علينا فترة كنت استورد فيها أوراق طباعة الصحف والمجلات ، ثم صارت إشكاليات مع بعض الموردين فتركنا استيراد

ذلك .. وهو فعلا مخزن مهجور .. أكمل يا حضرة الضابط وآسف للمقاطعة "

ـ " المهم دخلنا المخزن فوجدنا فيه الأوراق المكدسة والمتراكم عليها الغبار والعناكب وأثناء البحث وجدنا صندوق ورق كبير مملوء بأكياس البودرة .. تركناه لنرى من سيأتي ويأخذه وزادت رقابتنا للمكان على مدار الأربع والعشرين ساعة ، واستطعنا أن نلقط سيارة كانت تأتي في الليل وتأخذ بمراقبة الشارع ثم تنصرف ، المهم لما تكررت الحركة تابعناها وألقينا القبض على شابين فيها ، وأمام التحقيق اعترفوا أنهم من رجالك ، وأنهم مكلفون بإخراج البضاعة ونقلها لمكان آخر ، وذكروا اسم متجر في سوق الربيع وهو لحضرتكم ، وقد وجدنا معهم مفاتيح الأقفال للمخزن المهجور ؛ ولكنهم لشعورهم وإحساسهم بنا لم يقتربوا من أبواب المخزن "

فقال عمري وقد اشتغل ذهنه بما سمع : " قالوا إنهم من رجالي ويعملون معنا ؟ ! "

ـ أجل .. بل قال أحدهم إنك أرسلتهم لإحضار (الكرتونة) .

فتبسم عمري وهو يقول معلقا : " أتصدق لو أنني كنت تاجر مخدرات أنني قد أتعامل مع رجال من هذه النوعية ، يقرون عليّ من أول صفعة .. أترى أن تاجر المخدرات يسقط بهذه السهولة ؟ ! "

فتبسم الضباط بدورهم وقال منير : " هذا ما علق به المدير ونقول به ، فكبار رجال المخدرات لا يقعون بهذه السهولة كما في قضيتنا هذه ؛ ولكن غلطة الشاطر بألف .. ولكن نحن أيضا نقر أن السيد عمري معروف بالذكاء وبإدارة مشاريع متنوعة ومختلفة ومتشابكة وكثيرة "

ـ جزاءك الله خيرا هذا من لطفك .. على كل حال أنا ذاهب معكم ، ولن يؤثر ذلك على سمعتي ، أنا لا تهمني إلا طهارتي ، ولا يهمني كلام الجرائد والخصوم والمنافسين .. فأنا لا أحمل ضغينة لأحد في قلبي .. هيا لنقابل المدير وهذين الشخصين "

نهض الجميع بعدما شربوا القهوة ، وساروا نحو قسم الأمن في المنطقة ، وصعدوا إلى مكتب مدير مكافحة المخدرات في هذه المدينة البحرية ، وتقابل الرجلان وأبدى المدير اعتذاره الشديد وهو يقول : " منذ أتيت هذه النقطة وأنا أسمع عن الشيخ عمري من الخير

ومشاريع الإحسان والخير مما أدهشني من هذه القرية ؛ ولكن لابد من الإجراءات يا أبا محمود "

فقال عمري : " نحن مع الأمن ومع الاستقرار .. وهذا واجبكم ، ولا أحد فوق القانون ، ولعل بين رجالي والعاملين معنا تجار مخدرات ويستغلون ثقتي وطيبتي يا عميد جلال "

فقال العميد جلال : " شايا أم قهوة ؟ "

" أيهما تشاء .. واسمح لنا برؤية أحبابنا فإني في شوق إليهما "

طلب العميد الشاي للجميع ، وأرسل العميد جلال وراء الرجلين اللذين اعترفا وأقرا بأن عمريا كلفهما بنقل صندوق المخدرات ، أتى الرجلان ، فلما شاهدهما عمري نهض عن كرسيه وقال وهو يحد النظر في وجهيهما : " أنتم تعملون معنا ؟! .. في أي مشروع تعملان ؟ .. بل اذكرا لي اسميكما ؟ إني لا أذكركما "

فتضاحك أحد المتهمين وقال : " أتريد أن تتظاهر بأنك لا تعرفنا يا سيد عمري؟! أتريد أن تتخلى عنا .. أنا عيد بوري .. العامل في مصنع الدواء الذي يديره صهرك زوج أختك الدكتور فائز وأختك بدرية محمود .. وهذا زميلي عبده سليمان يشتغل معي في المصنع أيضا "

فقال عمري : " رائع .. جيد يا عيد .. أمتزوج أنت ؟ "

ـ " طلقت .. ولم السؤال ؟ ! "

ـ " طلقت ! حسنا ، أنا يا سيد عيد طلبت منك إخراج المخدرات أو الصندوق من مخزن شارع الراية العربية ؟ "

فقال عيد بإصرار : " نعم "

فقال عمري وقد أدرك من نظره في عيني الشاب أنه ساذج التفكير وجاهل : " متى طلبت منك ذلك ؟ وفي أي مكان تحدثنا بذلك ؟ "

فكرر عيد : " متى ؟ متى ؟ وأين وأين ؟ عبده تكلم مالك ساكت ؟ "

فقال عبده وقد أدرك غباءهما:"سأتكلم ولكني سأتكلم بالحق

فصاح عيد : " اسكت لا تتكلم "

فقال العميد جلال ضاحكا ومكررا سؤال عمري لهما : " في أي مكان كلفكما عمري بنقل الصندوق يا عبده ؟ .. في الشركة ، في المصنع ، في المكتب ، في الشارع ، في التلفون .. تكلم يا عبده وسيكون ذلك في مصلحتك ؟ "

فانهار الشابان على الفور وأخذا بالبكاء وقالا : " لا ندري كيف خدعنا ذلك الرجل ؟ ! "

فقال العميد : " واحد يتكلم "

فقال عمري عندئذ : " أتسمح لي يا سيدي بالانصراف أنا لا أحب أن أعرف عدوي حتى لا أحمل له في قلبي حقدا ويبدأ بيننا صراع وقتال "

فقال العميد : " من حقك أن تسمع أيها الرجل الطيب .. نحن أدركنا حمقهما من أول التحقيق "

فقال عمري : " أظن ـ يا سيدي العميد ـ أن الرجل الذي قابلهما وكلفهما بمراقبة المخزن ليروكم وأنتم تأخذون البضاعة ليس هو الخصم الحقيقي، وأيضا لابد أن أحدهم دفعهم لإثارة الشبهة حولي إذا وقعا بين أيديكم وأعطاهم مفاتيح مقلدة للمخزن .. وكان يغلب على ظنهم أنهم لن يقعوا في قبضة البوليس .. كانوا يرقبون أخذ رجالكم للبضاعة والانشغال بي ولكن ذكاءكم فوت الفرصة على محرضهم من النجاح .. وأما الرجل فقد توقع حدوث خطأ منهم فدفع لهم المفاتيح لتأكيد التهمة علينا والاعتراف بأني أنا الذي طلب منهما نقل البضاعة

فقال عيد : "هذا ما أراده السيد عامر .. نحن لم نضع الصندوق يا سيدي .. إنما طلب منا المراقبة للمخزن ، ونرى متى تقتحمون المخزن وتأخذون الصندوق .. ولكنكم لم تأخذوه على الفور ، فأمرنا الرجل بالمتابعة ؛ ولكنكم قبضتم علينا من حيث لا ندري ، وكان الرجل قد قال لنا " إذا قبض عليكم رجال المكافحة فقولوا إن عمريا هو الذي كلفنا بذلك ولا نعرف ماذا يوجد في الصندوق "

فقال العميد : " أتظنون الشرطة بهذه السذاجة ؟ ! .. نأخذ الصندوق ونطارد ونتهم عمريا بكل بساطة .. يبدو لي أنكما أحمقان مغفلان .. من هو عامر ؟ "

فأجاب عبده : " رجل تعرف علينا في مقهى البحر الشرقي "

□□□

فقال عمري : " أظنه ـ يا حضرة العميد ـ قد اختفى منذ قبضتم عليهما .. وكم دفع لكما ؟ "
فقال عبده : " أعطى كل واحد منا خمسمائة دينار ووعدنا بالمزيد وتعهد بمساعدتنا إذا وقعنا في قبضة الشرطة ، ولنا أربع أيام هنا ولم يظهر "
فتبسم جلال وقال : " وأرى أنه لن يظهر .. انتم أحمقان ، ولو اعترفتم من البداية عن الرجل لربما تمكن رجالنا من مطاردته .. ولكن ـ يا أخ عمري ـ التضحية بكمية كهذه من المخدرات يدل على أن العدو شديد .. على كل حال سنفرج عنكم ونضعكما تحت الرصد والمراقبة فلربما حاول الاتصال بكم إذا كان غبيا مثلكم .. نأسف يا أخ عمري عن هذا الإزعاج والإحراج .. ونحن كنا واثقين من براءتكم ، ولكن كان لابد من الحديث معكم لنستفيد جميعا من المعلومات وعليك
ـ يا صاحبي ـ أن تأخذ حذرك فهذه البداية "
رغم ثبات عمري أمام هذه الطعنة وثقته الكبيرة بمدبر الأحوال سبحانه وتعالى فقد أحس وشعر بخطر يحوم حوله ، فذكاؤه يدفعه للانتباه والاستعداد ، فكل هذه السنوات مضت من غير منافسة قاتلة ، كان هناك تنافس طبيعي وسلمي ، أما دخول المخدرات فهذا ينذر بالخطر القادم ، وهو بنفس الوقت لا يريد إدخال الجانب الأمني في تعيين واختيار الأشخاص والعمال فهو لا يحب الجاسوسية فحينئذ تذكر نسرين غانم ومصنع والده ناصح ، وقال لنفسه : " لم أسمع أخبارها منذ رحيلي ؛ ولكني سمعت من عهد قريب من جبر أنها نقلت من مصنع السجاد "
سمح لتفكيره وذاكرته أن يقلبا الرجال الذين يمكن أن يتآمروا عليه .. ثم وجد أن السوق يتسع لاعمال كبيرة .. فلماذا يثيرون الشبهه عليه ؟! ويستغلون مثل هؤلاء العمال السذج البسطاء في آلاعيبهم .. عبد السلام رجل محترم وفاضل .. وهناك السيد مجدي براتوكا لا يحبنا كثيرا ولكنه لا يحب أن ينغمس في مشاكل ومقالب وفكر .. أخذ يعد ويستعرض أسماء كبار رجال المدينة والمنافسين ولم يستقر عقله على شخص لديه دوافع للخلاص منه أو ضربه في السوق ، فمجالات عمله متعددة .. مواد غذائية .. نقل .. استيراد .. أدوية .. تصدير ..

ملابس .. أثاث خشبي ومعدني .. أجهزة .. عقارات .. مدارس .. مستشفى على الطريق ..

طال تفكير عمري الخابي ولم يستطع تحديد من هو العدو والحاسد .. فلجأ إلى الله ثم الصلاة ، وكان صاحبنا الفاضل لا يترك صلاة الجماعة إلا لعذر قوي وشديد ، وكانت علاقته مع أهل العلم والمشايخ طيبة ، ويتعاون معهم في إيصال الزكوات لمن يستحقها ومن هم أولى بها من غيرهم ، وكان يحب أن تصل زكاته لأهل الإيمان والصلاة .. ويساهم في بناء المساجد ويتبرع لها .. وكان يشارك في تنظيفها والتبرع لها بمكانس الكهرباء وفرشها بالسجاد والمدافيء .. وكان يتنقل في أداء الصلاة في عدة مساجد رفعا للحرج الذي يلقاه من الضعفاء عند مغادرته المسجد .. وهذا دفعه للإعلان عن مكتب خاص في مكان معروف وعام في المدينة لمن هو بحاجة مالية أو علاجية .

وبعد أيام يسيرة تحدث مع العميد جلال عن قضية المخدرات ، فأخبره العميد أن المدعو عامر شخص مجهول ، وقد اختفى عن المسرح، وأن الشابين تبين أيضا أنهما من أصحاب العقول الضعيفة ، وصادهما الرجل المجهول في مقهى البحر الشرقي ، ووضع المقهى تحت المراقبة ، وأن التضحية بكمية من المخدرات ليس بالأمر الهين ، وهذا يدل على أن المهربين يملكون كميات أكثر ، وقد تم تعزيز قوات السواحل ومتابعة المنافذ الفرعية والتهريب ، وأكد عمري بدوره للضابط الكبير عدم توصله لإتهام شخص معين أو جماعة ، وأن السوق واسع ويحتاج إلى رجال أعمال أكثر من الموجود ، فليس هناك من دافع تجاري لإزاحته عن الطريق ، ربما تكون أسباب شخصية وراء هذه الجريمة ، وشكر الضابط ووضع سماعة الهاتف وغرق ثانية في التفكير .

أدرك عمري أن قضية دس المخدرات في مخزن مهجور إما أن فاعلها يريد الانتقام منه لأمر يجهله ، أو شخص يريد التشويش عليه ويحرجه مع الشرطة ، ثم يسيء لسمعته عندما يجد رجال الأمن مخدرات في مخزنه ، والعوام تصدق كل شيء ، وسيقولون إنه يجمع هذه الأموال من تجارة المخدرات ، وما مشاريع الإحسان والصدقات إلا تغطية للملايين التي يلهفها من التجارة بالمخدرات والممنوعات ، فحمد الله على اعتراف الشابين السريع ، وعلى ذكاء رجال

الشرطة ، وحسن تعاملهم معه ، وعدم استغلال القضية للدعاية والشوشرة والصحافة والإثارة ، وحمد الله ثانية على أنه ليس له خصوم بانتخابات الغرف التجارية أو النقابات أو المجالس النيابية وإلا استغلوها وعملوها موضوع تسلية وتشهير حتى وإن كانت كذب ، فهم يستغلونها لتهييج الناس عليه .. فقام وتوضأ وصلى لله ركعتين شكر ، فقد سلم الله من هذا المكر .

لم يمض على هذه الحادثة بضعة شهور حتى دخل مدير المشاريع عند عمري الدكتور الاقتصادي يوسف حسان ويخبره بخبر مزعج مفاده أن هناك أشخاصاً يضربون السوق بمواد غذائية رخيصة ، وكذلك مواد الإنشاء من الحديد والإسمنت مما يؤثر على أسعارهم ومستورداتهم ، فأدرك عمري حينئذ وزاد يقينه أن هناك من يكيد له ، ويريد تدميره شخصيا فطلب من مديره مسايرة السوق رغم كل الخسائر التي ستترتب على ذلك ، واتصل به كبار تجار المواد الغذائية في المدينة فأخبرهم أنه مثلهم ضحية أناس حاقدين ومجهولين ، وأطلع بعضهم على تقارير وفواتير المشتريات والمبيعات ، وأنه يتعرض للخسارة مثلهم ، فاستغرب التجار كما استغرب مثلهم ، فعرفوا أن هناك خصوما لهم من خارج المدينة ، فقد أصاب عمري حساسية من قطاعات مختلفة ، فأصحاب المقاولات والبناء من شركات وتجار الإسمنت والحديد يثيرون حوله الشبهات والطمع والأراجيف ، وأصحاب الحبوب كذلك ، وحتى معارض الأثاث والأدوات المنزلية تعرضت للأذى وضرب وحرق الأسعار ومنافسات غريبة ، وعقد عمري اجتماعات ومعه كثير من التجار مع كبار رجال المدينة والمدير الإداري للمدينة فيقولون : " إن هذا سوق فيه تنافس "

فينصرف التجار على مضض وغضب ، وعلى أثر فشل التعاون طلب عمري من مدير المشاريع وقف التعامل مع المواد الغذائية والأشياء المضروبة الأسعار عدة أشهر ، وقد تعرض الشيخ عمري إلى خسائر فادحة ؛ ولكنه تحمل ذلك عن رضا واستسلام لقضاء الله وحكمه ، وشعر بأن مؤامرة تحاك حوله ، ورجال البلد من حكومة وبلدية عاجزون عن وقف ذلك التدهور ، فاضطر أمام هذه الخسائر إلى إعفاء الكثير من العمال وخفض أعدادهم في مشاريع

مختلفة ، وإغلاق عدد من المحلات والمتاجر إغلاقا تاما ، وبعضهم نقلهم للمشاريع التي لم تتأثر بهذه الحرب كمصنع الدواء والمستشفى الذي بدأ يعمل وقطاع النـقل ، ورغم انسحابه من السوق ظلت الأسعار مضروبة وهابطة ، وعقد عمري اجتماعا مهما مع مدراء المشاريع المختلفة ، وتقرر فيه أن يفصل القطاعات عن بعضها البعض ، وتفصل الشركات عن بعضها البعض ، فكل شركة ومشروع وحدة واحدة مستقل عن المشاريع الأخرى حتى لا يؤثر أي قطاع يتضرر بغيره .. فالمدارس قطاع مستقل ، وكل مدرسة وحدة واحدة ، والدور الخيرية من دور رعاية الأيتام والمسنين والعجزة قطاع ، وكل دار مستقلة إداريا وماليا .. قطاع النقل قطاع مستقل فالسيارات الكبيرة وحدة واحدة ، والسيارات الصغيرة ونقل الركاب وحدة واحدة ، وهكذا أعاد عمري وصديقه يوسف حسان وسكرتيره أحمد ترتيب المشاريع ترتيبا جديدا ، وقد أوقف العمل بالمشاريع المضروبة التي تعرضت للصراع ، وقد أدرك وشعر عمري نتيجة هذا العام الذي مر أن محاربيه ومنافسيه من خارج المدينة ولكنه لم يعرفهم ولم يعلم لماذا فعلوا كل ذلك ؟! .. فترك ذلك للأيام وتجمل بالصبر ..

دخل عمري ذات مساء أولا على أمه كعادته عندما يعود من العمل فسلم عليها وتناول العشاء معها ، هو وباقي أفراد الأسرة ، ثم جلسوا يتسامرون حتى أتى موضوع إغلاق كثير من المحلات فقالت الأم مريم مستفسرة منه : " لقد حدثنا جبر ابن عمتك على أنك تواجه أزمة هذه الأيام فإذا كنت بحاجة لأي أموال فأموال أمك كلها تحت تصرفك .. "

فتبسم عمري وقال : " أشكرك يا أمي وجزاك الله خيرا !.. هذا سوق أحيانا يشتد التنافس على بعض الأصناف وتكثر هذه المواد في السوق فترخص الأسعار حسب قانون السوق العرض والطلب ؛ ولكن هذه المرة كانت الأسعار غريبة ، فهناك منافسون يحرقون الأسعار .. فلما رأينا أن الخسارة فيها كبيرة تخلينا عنها إلى حين .. فالمشاريع كثيرة بفضل الله يا أمي "

فقالت بتكدر وضيق : " ولماذا يفعلون ذلك ومن هم ؟ "

فتبسم ثانية وقال : " ربما يريدون الإيذاء الشخصي .. وربما يريدون افتعال معركة .. ولا داعي لأن نخوض معركة معهم ، نصبر ونترك لهم السوق ، فهم يريدون أن نندفع إلى هذه المعركة لتزداد الخسائر ، فهم يضحون بعدة ملايين مقابل تدمير خصومهم لأسباب مجهولة بالنسبة لي ؛ ولكني توصلت في تفكيري إنهم يقصدونني من غير أن أعرفهم "

ـ " ألا تعرفهم ؟! "

ـ " ليس مهما هذا .. فقد تركت لهم السوق ، وليس هذا هروبا أو جبنا بل لأني أدرك أن هذه زوبعة وحرب شخصية فتركت لهم الميدان لأنني أخاف على ديني وآخرتي يا أمي "

فقالت الأم : " الصبر جميل يا ولدي .. والحسد لا ينتهي .. وأبواب الرزق كثيرة .. "

ـ " أجل يا أمي .. أنا لا يحزنني ويؤلمني في هذا الموضوع إلا العمال الذين اضطررنا لصرفهم للظروف القاسية التي عصفت ومرت بهذه المشاريع

ـ "الله لن يتخلى عن عباده .. الرزق على الله يا ولدي فهو يتولاهم"

ـ " فقد قمنا بنقل بعضهم لمواقع أخرى حتى تتغير الأحوال .." وحدثها عن قضية المخدرات التي حاولوا توريطه بها .

ففزعت الأم وقالت : " الله أكبر ! الله أكبر ! ألهذا الحد يكرهونك ؟ ! .. من هم هؤلاء الأشقياء ؟ "

فتبسم عمري ورد قائلا : " لا تجزعي يا أمي .. الشرطة لم تصل للفاعل الحقيقي لأنه أذكى أن يقع لأول وهلة .. ولكن هذا يدل على أنني أنا شخصيا مقصود بالعداء "

فأخذت أمه تدعو له وتبتهل إلى الله أن يحميه ويقيه شر الناس والفتن ،

وكانت زينب تسمع للحديث بين الابن وأمه وهي مندهشة ، فعمري من النادر أن يتحدث عن مشاكل العمل وهمومه أمامهم ؛ لذلك أخذتها الدهشة وقالت كأنها مستهجنة هذه المعارك : " يا أبا محمود .. ألهذا الحد الشر في السوق ؟! "

فابتسم عمري لزوجته الطيبة وقال : " ألم تسمعي وتقرئي قول النبي ﷺ { خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق }[1] .. وأن الشيطان ينصب راية في الأسواق .. ولكن لا مفر للناس من الأسواق .. لذلك هناك ذكر ثبت عن الحبيب محمد ﷺ ويسميه أهل العلم دعاء أو ذكر السوق وثوابه ملايين الحسنات والدرجات "

فقالت زينب بفرح : " صدقت .. وكلما ننزل أو نمر من السوق أنا وأمك الغالية نردده لنحصل على ذلك الثواب والأجر العظيم "[2]

فقال عمري : " نعم ؛ لأن السوق مكان شر وغفلة وحلف كاذب لإنفاق السلع ، فذكر الله فيه عظيم وكثير الأجر .. فالتاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين .. والسوق مكان الربا والغش والغرر والمكر والخداع والعينة ، من اجل ذلك هو مكان شر ولكن لابد منه للناس لشراء أقواتهم وحاجاتهم ولباسهم وشرابهم وبيع محاصيلهم وصوفهم ولبنهم وجبنهم .. نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الرزق الحلال والطيبات من الرزق "

---

١ – صحيح الترغيب "٣٢٧١ " عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهناك حديث {عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا} مسلم .

٢ – قال عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَو : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ " ٣٣٥٠ الترمذي

فقالت زينب : " والله يا عمري لازم تنتبه للحلال والحرام وما تضع في اجوافنا وأفواهنا .. فالحلال سبب مهم لإجابة الدعاء "

فقال : " لا أنسى ذلك بمشيئة الله سبحانه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب .. ،، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ،، إنني أبذل أقصى جهدي لنأكل الحلال المباح .. وادعوا لنا أن يحفظنا الله من الغفلة والطمع والحرص "

فأخذت الأم وكنتها زينب يدعوان له بذلك فقال باسما : " ببركة دعائكما ورضا أمنا عنا سيحفظنا مولانا العظيم .. لا تقلقي يا أمي ، وأنا إن احتجت مالا سألجأ إليك "

فقالت الأم : " جبر ، كيف شغله ؟"

فأجاب عمري قائلا : " الأستاذ جبر مجال عمله لحتى الآن بعيد عن المعركة .. فهو يستورد الطابعات والأدوات والآلات التي تتعلق بها ، وهذه أول تجربة لي في مثل هذه البضاعة .. وهذه بداية يا أمي .. "

التقى عمري من جديد مع كبار تجار المواد الغذائية في الريحانة بناء على رغبتهم ، ثم تكلم كبيرهم وقال : " أيها السادة نحن في الآونة الأخيرة تعرضنا لمؤامرة رهيبة من أيد خفية ضربت قطاع المواد الغذائية المستوردة والحبوب والطحين والذرة والسكر والعدس والأرز .. وكلنا ثبت أنه ليس له يد في تدني الأسعار للحضيض والسوق السوداء .. فلذلك اجتمعنا هنا لندافع عن أنفسنا أمام خصمنا المجهول الخفي .. وهؤلاء التجار الصغار يريدون أن يكبروا في يوم وليلة ؛ لذلك سوف نستورد هذه المواد بالاتفاق والتفاهم ولن نسمح لأيدي غريبة أن تحطمنا.. ومصيرنا معرفة الجهات المجهولة .. والسيد عمري أبو محمود لا يحق له ترك هذا السوق بهذه الطريقة .. "

فدافع عمري عن نفسه وأنه انسحب ليس لأنه لا يحب المخاطرة ، فالتجارة مخاطرة ؛ ولكنه لا يحب الغش والخداع والقتال بهذه الأساليب وإغراق الأسواق ببضاعة قديمة ومنتهية الصلاحية .. وأكد أن هناك أيدي خفية تريد الإساءة لجميع تجار المواد الغذائية والحبوب وغيرها ، والفائدة التي يريدها هؤلاء المنافسون ويرجونها غير واضحة ولا معلومة فالكل

خسران .. وبعد ضغط شديد من كبار التجار وافق عمري على المساهمة في الاستيراد المشترك وكان القصد من ذلك الاتفاق حتى لا يحاول أحد من كبار التجار التلاعب بالأسعار وحده وقد استطاع التجار بهذا الاتفاق من السيطرة على الموقف المضطرب ، ولم يسمحوا لصغار التجار إلا بالأخذ من مخازنهم الكبيرة ، فلم يستطع التجار الصغار الاستيراد من العاصمة بالأسعار الرخيصة لأن الكبار اتفقوا على أنه من امتنع من الأخذ منهم عدم التعامل معه .. المهم فقد استطاع التجار التخفيف من هذه المضاربة ، ويبدو أيضا أن الذين لهم مصلحة في ضرب هذه البضائع قد فشلوا بعد هذه الشهور من المغامرة ، فلما وقف تجار الريحانة وقفة واحدة أمام الدخيل استطاعوا أن يحصروا التجار الذين يجلبون بضائعهم من العاصمة لمنافسة أسعار الريحانة ، بل أصبحوا معروفين للتجار ، وتبين أنهم عدد قليل من التجار ومن المغامرين .. والغريب أنهم لا يدرون من هو المورد الأصلي لهم .. فاستردت تجارة المدينة عافيتها بعض الشيء ، وكان الإحساس لدى عمري يكبر أنه هو المقصود بهذه اللعبة أيضا .. ولكن لماذا ؟ ! .. فهو حائر ممن يكن له كل هذا العداء والبغض ويسعى إلى خراب بيته

ذات ليلة كان عمري وأمه وأصهاره يجلسون في حديقة الفيلا التي شيدها في ضاحية الصالح الضاحية الجديدة في الريحانة ، وقد تناول القوم طعامهم ، وجلسوا يتسامرون ويشربون المثلجات ويطعمون الفواكه فرحين بما أنعم الله عليهم من السكينة والإيمان والنعم ، وبينما هم على ذلك الانسجام والانبساط سمعوا صوت رصاصات تنطلق من قرب السور في اتجاههم أو قريبة منهم ، فذعروا واتصل عمري برجال الشرطة الذين هرعوا على الفور ، واستمع الضابط المحقق لأقوالهم ، وتحرك رجال البحث الجنائي نحو السور والجهة التي أطلق منها الرصاص فوجدوا آثار أحذية قرب السور وآثار عجلات سيارة ووجدوا أغلفة أو أظرفة الرصاصات التي أطلقت على الساهرين .. وبعد سماع أقوال الحاضرين انصرف رجال الشرطة وقرروا العودة في الصباح للبحث عن أماكن سقوط طلقات الرصاص .. وكان عمري يقول لأمه : " لي عدو أو أعداء مجهولون .. ماذا يريدون مني ؟ لست أدري .. ومن هم ؟ لا أدري يا أمي .. إنهم لا يريدون قتلي وإلا اختاروا موقعا أسهل من البيت أو الحديقة

ولكني لا أذكر أنني أسأت لإنسان دفعه للحقد عليّ كل هذا الحقد القاتل .. فهم أو هو يحاول إشاعة الرعب والذعر حولي ويدفعني للخوف والانفعال الأحمق لأتصرف تصرفا أحمق ولكن بمشيئة الله سبحانه سوف أتحمل وأصبر ولن أشهر سلاحا ضده { لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ } ..يا رب ثبتني على الإيمان والتوبة "

فقالت الأم : " ما تقول في السفر ؟.. سافر يا ولدي ..أرح أعصابك "

ـ " أسافر ؟! أسافر إلى أين ؟ "

ـ " إلى بلد كبير تريح أعصابك فيه من هذه العداوات والحركات الإبليسية "

" قد يلحقون بي "

" تحرك بالسرية .. ولا يعرف أحد وجهة سفرك وأنت اتصل بنا .. والدكتور يوسف حسان نعم الأخ ونعم الصديق ، وأصهارك لن يقصروا في رعاية الأموال والأولاد "

فقال : " إذن نسافر أنا وأنت وزينب .. فماليزيا بلاد جميلة وساحرة لقد زرتها مرتين لعقد صفقات تجارية وفيها كثير من الصناعات اليابانية "

فقالت : " والأولاد .. والمدارس ؟ "

فقال : " ألا تستطيع أم مالك القيام بهم أسبوعا أو أسبوعين ؟ "

فقالت الأم : تستطيع ذلك ؛ ولكن الأم أفضل وأنا صحتي لا تساعدني يا ولدي ! فماليزيا بلد بعيد سافر وحدك حتى لا تنشغل بنا "

فقال مستسلما لفكرة أمه : " سأفكر بالأمر يا أمي .. أنا فعلا بحاجة لإراحة أعصابي والابتعاد عن المشاريع .. أشكرك على هذه الفكرة وقد أقضي شهرا فيها ثم أسافر إلى الحج فقد اقترب شهر ذي الحجة فأنا بحاجة لجرعة إيمان قوية .. "

فقالت الأم وقد هفت نفسها للديار المقدسة ، فلا ننسى حب مريم القديم للسفر ولكن شتان بين سفر العبادة والقربى وسفر السياحة والمتعة : " فكرة طيبة يا بني ! وقد نلقاك هناك إذا وافق الدكتور المحترم فائز وناسب ذلك ظروفه "

" جيد .. اقنعيه "

أسر عمري لزوجته بهذا الحديث فوافقت زينب وتمنت له رحلة سعيدة فقال : " هي ستكون رحلة لإراحة الأعصاب ، ولسوف أقوم بزيارة بعض المصانع والشركات الكبيرة لعقد عدد من الصفقات "

فعمري ـ منذ توسعت مشاريعه التجارية وأصبح من رجال الأعمال الكبار ـ كان يذهب بنفسه للأقطار المختلفة لعقد الصفقات ومشاهدة البضائع ، فأمر السفر معروف لديه ؛ ولكنه هذه المرة أخفى جهته إلا عن ثلاثة أمه وزوجته ويوسف حسان فقط .. ويوم السفر كان مجهولا ، ولما أصبح في المطار اتصل بالدكتور يوسف وقال : " أنا الآن مسافر "

*****

بعد سفر عمري بأيام يسيرة تلقت الأسرة هاتفا مخيفا ، طلب المتصل السيد عمري ، فلما قالت الشغالة " أم مالك " إنه غير موجود " سألها " أين ؟ " فقالت : " مسافر .. إلى أين ؟ لا أدري " فأخبرها المتصل أن ابنه حسنا في عداد المختطفين " ، فذعرت الشغالة أم مالك ، وأعطت السماعة لزينب التي كانت تقف قريبا منها وردت بانزعاج : " نعم .. أنا أمه .. مخطوف ولماذا ؟! .. ماذا تريدون ؟ .. حسبنا الله ونعم الوكيل "

ووضعت السماعة وهي تردد " حسبنا الله ونعم الوكيل .. إنا لله وإنا إليه راجعون .. لا حول ولا قوة إلا بالله "

ثم اتصلت بأخيها حسن ، فهو يعمل مع نسيبه ، وهو المسؤول عن إدارة الشاحنات والبرادات الكبيرة ، فلبى النداء مسرعا ، وأخذ زينب وانطلق إلى مدرسة حسن ، فحسن ابن تسع سنوات ، وترتيبه الرابع بين أبناء الأسرة ، فدخلت الأم وحسن على المديرة وسألتها عن حسن فقالت المديرة بدهشة وهي قد لاحظت الذعر والتوتر عليها : " انصرف ، ألم ترسلوا خلفه ؟ ! "

فقالت زينب بصبر وثبات : " لا حول ولا قوة إلا بالله .. لم يعد حسن للبيت يا أستاذة أم محمد "

قالت المديرة بخوف وانتظار تفسير : " ماذا قلت يا سيدتي الفاضلة ؟ !

روى حسن للمديرة الاتصال الغامض ، فقالت المديرة بقلق : " عند العاشرة صباحا وقفت سيارة كبيرة وحديثة أمام باب المدرسة ـ وهي ترى من مدخل الادارة المرتفع عن باب المدرسة وكنت لحظتئذ أقف مع إحدى المعلمات ـ ونزل منها شخص يضع على عينيه نظارات حمراء وذي لحية كبيرة تملأ وجهه وكما قلت كنت آنئذ أقف أمام المدخل فألقى السلام وقال : " أنا سائق عند السيد أبي محمود .. عمري محمود والد حسن أرسلتني الوالدة لأخذ حسن للبيت لأمر طارئ .. مع أن هذه أول مرة يرسل السيد عمري أحدا لأخذ أحد أولاده قبل انتهاء الدوام ، لم أشك في الرجل وحسن نواياه ، فكل أبناء العائلات يفعلون ذلك .. فدخلنا الإدارة وشربنا القهوة ، وأتى حسن ، فقلت له : " هذا الرجل جاء من طرف أبيك يريد أخذك للبيت .. هل تذهب معه ؟ فقال الرجل لحسن : أرسلتني حضرة الوالدة أنا أعمل في شركة الدواء يا حسن أنا عمك خميس .. فقال حسن وإن بدا لي مترددا : أذهب .. هل من شيء ؟ إني تركت أمي بخير .. فرد الرجل " لا شيء .. كأنها تريد أن تخرج مشوارا ..كنت مع زوج عمتك الدكتور فائز في بيتكم .. فأرسلني لإحضارك " وخرجا والبواب تجدون عنده رقم السيارة كما هو معتاد في نظامنا .. فهل نتصل بالشرطة ؟ "

قال حسن : " اتصلي "

ضربت المديرة رقم شرطة المدينة ، وتحدثت مع ضابط القسم ، وبعد دقائق كانت دورية شرطة تقف أمام المدرسة ، ونزلوا حيث مكتب المديرة التي تشرب القهوة مع ضيوفها ، فتكلمت زينب مع الضابط عن الهاتف الذي حدث عند الساعة الحادية عشرة ونصف ، ثم اتصالها بأخيها، ثم مجيئهما المدرسة ، وتحدثت المديرة بدورها عن قصة الرجل والسيارة ، ثم أرسلوا وراء البواب الذي أتى ومعه دفتر كتابة أرقام السيارات التي تأخذ الأولاد ، ولما أخذوا المعلومات قال البواب مضيفا : " لقد كان في السيارة رجل آخر على شاكلة صاحبه لحية ونظارات شمسية "

مشى رجال الأمن وراء سيارة حسن إلى بيت السيد عمري ، فاستقبلتهم والدة عمري التي اطلعت على الأمر من أم مالك العاملة في البيت ، فلما عرفوا البيت طمأنوا الأسرة ووعدوهم

بمتابعة الأمر ، وقال الضابط : " يا حجة أم عمري .. قد يتصلون مرة أخرى لطلب الفدية إن كان قصدهم الفدية ؛ ولكن نريد الحديث مع الدكتور فائز لنتأكد أنه لم يرسل أحدا "

فقالت زينب : " يا سيدي الضابط ! الرجل ادعى أنني أنا التي أرسلت سائق المصنع الذي كان مع الدكتور فائز للمدرسة .. "

فقال الضابط : " أعرف ذلك يا سيدتي ؛ ولكن دعونا نتكلم معه عن طريق الهاتف ونسأله عن الرجلين "

ضرب حسن رقم المصنع وطلب الدكتور ، وتحدث الدكتور مع الضابط ، ولما سمع بخطف حسن صاح : " إني قادم انتظرني يا سيدي " ووضع الضابط سماعة الهاتف وقال : " إنه قادم .. والله ظننته أبا الطفل من لهفته وجزعه "

ابتسمت مريم رغم قسوة الموقف والجريمة وقالت : " إن ولدي عمريا محبوب ممن يعاشرهم يا سيدي الضابط .. يبدو لي أنك جديد على الدائرة

فقال الضابط باسما : " نعم ، لي أسبوع أو عشرة أيام في هذه الدائرة "

فقالت مريم : " فولدي عمري معروف للجميع "

فقال الضابط وهو يهز منكبيه متذكرا : " آ .. تذكرت لقد قال لي مدير القسم " اهتم بالموضوع .. فهذا ابن رجل مهم في المدينة " .. أين والد الطفل ؟! "

ـ " مسافر "

وما كاد الضابط ومساعدوه يشربون عصير الليمون المبرد حتى كان الدكتور فائز وزوجته ، وجبر وزوجته في البيت يسمعون الحكاية من السيدة مريم ، وبينما هم يستمعون دخل الدكتور يوسف حسان يسأل هو الآخر عن الأمر ، وقد سمع الضابط أقوال الجميع ، ولما لم يجد لديهم معلومة مهمة انصرف وهو يقول : " سنضع هاتف المنزل تحت المراقبة فلابد لهؤلاء الخاطفين أن يتصلوا ليتضح لدينا هدف هذه الجريمة " وأخذ رجاله وانصرف ، فقال يوسف حسان : " ماذا سنفعل ؟ "

فقالت زينب بثبات وشجاعة : " نشكر لكم حبكم لنا ووقوفكم معنا ؛ ولكن أرى أن

تنصرفوا لأشغالكم فلا داعي لإثارة القلق والتوتر في الأعمال حتى تتضح لنا الغاية من خطف حسن "

دخل الليل ولم يتصل الخاطفون ، وبينما الأسرة مجتمعة في بيت عمري على توتر وانتظار وترقب هاتف المجرمين فتح الباب الكبير للفيلا ودخل منه حسن .. فهرعوا إليه وقد لمحوا سيارة زرقاء قد ابتعدت عن البيت .

فاحتضنت الجدة حفيدها وقبلته وهي تبكي وتذرف الدموع ، فقال حسن لمن حوله : " إنكم خائفون عليّ "

ـ " بالتأكيد يا ولدي "

دخل الجميع بالطفل إلى الداخل ، وقام الدكتور بفحصه واطمأن على سلامته ، وكانت زينب قد اتصلت بالبوليس فأتوا فورا ، ولما هنأ الضابط حسنا على سلامته ونجاته قال : " أخبرنا أيها الشجاع عما جرى معك ؟

فقال حسن : " أتى رجل إلى المدرسة وقال إنه من رجال أبي في المصنع، وإن زوج عمتي الدكتور فائز أرسله لأن أمي تريدني ، فصدقت وخرجت معه وأنا مستغرب ؛ ولكنه لم يترك لي وقت للتفكير ، فلما جلست في المقعد الخلفي وجدت أن هناك رجلا آخر يجلس في المقعد الخلفي ، ولما مشت السيارة قال الرجل الذي يجلس بجواري : " قبل أن نذهب للبيت فلنمش إلى ميدان عيسى لأشتري ما طلبه الدكتور فائز " ، وقبل أن نصل دوار عيسى أخرج الرجل زجاجة تشبه قناني العطر ورش على وجهي وأنفي فظننت أنه يريد تطيـيبي ؛ ولكن كما ظهر لي فيما بعد أنه مخدر فإني فقدت الوعي لأنني لما استيقظت وجدت نفسي في غرفة مغلقة فيها نور خفيف ، وقبل أن أدرك الوضع دخل الرجلان وقالا لي : " هيا أيها الطفل " وأمسك أحدهم بيدي وكانت ساحة البيت مظلمة وفتحوا الباب ، فوجدت سيارة زرقاء داكنة غير التي رأيتها في الصباح ، فدفعوني في المقعد الخلفي ، وكان شخص غير الذي رأيته صباحا يجلس مكان السائق ، وانطلقوا بي حتى اقتربت من البيت ، فطلبوا مني النزول فأتيت للبيت وأنا مذهول .. لم أسمع شيئا ولا أدري أين كنت ؟ ! "

فقال الضابط : " رغم صغر سنك فأنت فتى ذكي وفطن .. ألم تعرف شيئا يساعدنا في الوصول إليهم ؟ "

ـ " لا .. فما كدت أركب في السيارة حتى خدرني الملاعين ولم أكد استيقظ من التخدير حتى أعادوني للبيت "

فقال الضابط : " قصة عجيبة .. ولماذا اتصلوا ظهرا ؟ ماذا يريدون ؟! "

فقال الدكتور فائز : " أمر محير يا حضرة الضابط ! منذ الظهر ونحن ننتظر اتصال المجرمين "

فقال الضابط متسائلا : " قد يكون خطف بالخطأ ؟!"

ـ " ولكنهم لم يتكلموا معه ، ثم اتصلوا بنا ، فهم يعرفون هاتف البيت وأن حسنا ابن السيد عمري .. وأنني زوج عمته !"

فقال الضابط : " على كل حال سنأخذ اجراءتنا المناسبة اطمئنوا واسمحوا لنا بالانصراف "

كانت حادثة اختطاف الطفل حسن غريبة في مكانها ؛ ولكن زينب وحماتها أدركن أن المقصود هو إيذاء عمري شخصيا ؛ ولما عرف الخاطفون بسفر عمري من الشغالة أم مالك انتظروا الليل ثم أخلوا سبيل الفتى .. إذن استنتاج أوكلام عمري في موضعه الصحيح أن هناك خصوما يريدون إثارته وإزعاجه .. لماذا ؟! هذا مما لم تصل المرأتان إليه بشيء يذيب عنه كل هذا الغموض والظلام والعداء الخفي المخيف .. مخدرات .. ضرب السوق المحلي بالمواد الرخيصة الرصاص على البيت ثم الخطف .. أمضى عمري شهرا في ربوع ماليزيا وولاياتها الجميلة .. فماليزيا تتكون من اتحاد فيدرالي يضم ثلاث عشرة ولاية ، وفيها ولاية سلنجور دار الإحسان غربي ماليزيا عاصمتها " شاه علم " ، وقد أصبحت هذه الولاية قلعة الصناعة في ماليزيا ، وفيها أكبر ميناء بحري في الولاية ، وعموما تقع ماليزيا في قلب جنوب شرق آسيا ، وعلى هضبة في شبه جزيرة الملايو تقع العاصمة كوالالمبور ، في غرب ماليزيا على نهر كلانج ونهر جومباك ، ومليئة بالحدائق الوطنية والمحميات الطبيعية ، هناك حديقة تامان نيجارا على قمة جبل جوننج تاهان ، وحديقة تمبلر وتبعد ٣٠ دقيقة عن العاصمة ، وتوجد قريبا منها شلالات كانسينج ، ومحمية غابات سيرندا ، ومحمية غابات بوكيت لاجونج ، وتضم أماكن للتنزه بالقرب من الشلال ، وحديقة جوننج مولو وهي أكبر حدائق سرواك ، وماليزيا خليط من السكان الماليز والصينيون والهنود والاورانج ، وهم السكان الاصليون لشبه الجزيرة ، ومهرجانات ماليزيا كثيرة حسب جنسيات شعوبها ، وفنادقها كثيرة بل فيها أطول برج في العالم برج بتروناس .. في ربوع تلك الجزيرة استمتع السيد عمري ردحا من الزمن ، ولما اقترب موسم الحج أو قل دخل شهر ذي الحجة سافر من كوالالمبور إلى الرياض عاصمة المملكة السعودية ، ومنها إلى جدة المدينة الساحلية المطلة على البحر الأحمر بحر المرجان ، واستقر في أحد الفنادق الضخمة وحجز جناحا منتظرا قدوم الأسرة من مدينة الريحانة ، وكله شوق لرؤية أمه وزوجته وأخته بدرية وصهره الطبيب فائز لطفي .. ولما اقترب الموعد نزل الأهل في الفندق فوجدوا عمريا في انتظارهم فتعانق الأحبة ، ولما استراحوا تجمعوا في إحدى

الحجرات يسمعون أخبار بعضهم ، فذكرت زينب لزوجها حادثة الخطف فانزعج عمري قليلا ولكنه حوقل ثم قال : " قاتلهم الله سوف يسقطون يوما ما .. ونعرف من هم هؤلاء الأوغاد الأوباش القتلة ؟ !

ثم انشغل القوم بأداء العمرة وكان عمري قد سبقهم بأداء العمرة ، وبعد حين انشغلوا بمناسك الحج مع عباد الله ، وبعد انتهاء الموسم عادوا لجدة ، ومنها للريحانة بسلام وبمزيد من الإيمان .. لقد كان عمري يبذل جهدا كبيرا في عدم اشغال نفسه بعدوه الخفي إنه يخاف على إيمانه والدخول في متاهات التجسس والتحسس والغيبة ، وكان عمري قد تعلم دروسا كثيرة مما تعرض له في السوق ، ومن إغلاق بعض المحلات والمتاجر ، وتوقفه عن التعامل بمواد البناء وغيره ، فلذلك بعد أن استراح من رحلة الحج وعاد الهدوء لنفسه وزادت ثقته بالله العظيم اتخذ قرارا مهما ، وبدأ يفكر في تنفيذه .. فهو يريد نقل بعض نشاطه إلى العاصمة حتى إذا ضرب ثانية في الريحانة تحول المواد إلى أسواق العاصمة فتباع فيها من غير خسارة كالتي أصابته في الريحانة ، ولما تشاور مع الدكتور يوسف حسان أعجبته الفكرة والتفكير والحل الذكي ، فعلق قائلا : " رغم كبر أسواق الريحانة .. فالعاصمة سوق كبير لا يمكن ضربه بسهولة وإغراقه بالسلع ، ويمكننا أيضا أن نصنع أسواقا في مدن أخرى أو شركاء لنا في مدن أخرى ؛ فإذا تأثر سوق نتيجة المكر والخداع أو هبوط أسعار مقصود فنجد أماكن متنوعة لتوزيع البضائع والمواد ، وحتى شركة الإنشاءات يمكن تضخيمها إذا فتحنا فروعا لنا في العاصمة وعدد من المحافظات الكبيرة "

لقد بدأ صاحبنا عمري يتطلع لعاصمة البلاد وتضخيم مشاريعه ، فقال عمري بعد موافقة الدكتور يوسف واقتناع سكرتيره احمد بأفكاره ووجهة نظره : " الحمد لله رب العالمين .. إذن اتصلوا بكل إخواننا الذين اضطررنا للاستغناء عنهم نتيجة الأزمة الضارية ، فهؤلاء أولى الناس بالعمل معنا من وجوه عديدة .. وانظر يا يوسف من يحب منهم الرحيل للعاصمة وترك هذه المدينة .. وفكرا بالموضوع جيدا لنباشر العمل به قريبا جدا "

سر كثير من العمال والموظفين الذين تم الاستغناء عنهم بسبب المشكلة منذ سنة لهذا الاقتراح

واستبشروا خيرا ، ورغب الكثير منهم بالعودة والعمل مع السيد عمري ، وقد التمسوا له عذرا ، فقد خسر أموالا كثيرة تلك السنة ، فقد ذهبت مئات الالوف نتيجة المؤامرة .. فرحل الدكتور يوسف حسان للعاصمة برفقة عمري ، وأغرب شيء وجده وهو يبحث عن شقة أو فيلا صغيرة عند سماسرة العقارات ، فقد وجد عند أحدهم فيلا والده ناصح معروضة للبيع منذ سنة ، فتحدث عمري مع مدير المكتب عنها فقال الرجل : " رغم أنها فيلا جميلة ولكنها قديمة بعض الشيء ، فهي من أقدم المنازل في ذلك الحي .. ولم يتقدم للسؤال عنها إلا أنتم وصاحبها قد طلب فيها مائة ألف ثم تنازل إلى خمس وسبعين "

فقال عمري : " قل لمالكها على خمسين فنأخذها اليوم قبل الغد "

فقال صاحب المكتب : " قد يوافق هي بناء قديم عمرها أكثر من ثلاثين سنة "

فقال عمري وهم يغادران المكتب العقاري : " سجلها باسمك يا يوسف "

فاستغرب الدكتور ذلك الطلب ، فلما غادرا المكتب العقاري ، شرح عمري له الصورة فقال : " إنك مستغرب ، فهذه الفيلا لوالدي الذي حدثتك عنه .. وبعدما تشتريها يا يوسف من المالك وهو ابي ناصح سننقل ملكيتها لأمي .. سأتحدث معها الليلة هيا بنا إلى الفندق "

بعد أن أكلا ما تيسر لهما في مطعم الفندق ، صعدا إلى الغرفة ، ثم اتصل عمري بوالدته التي وافقت على شرائها بعد أن رأت تشجيع عمري لها بفعل ذلك ، وفي الصباح ذهب الدكتور يوسف حسان مدير مشاريع عمري وصديقه إلى مكتب العقارات ، وكان الرجل قد تحدث مع محامي السيد ناصح الخابي وحدثه بعرض الدكتور يوسف ، فجاء المحامي عوض سامي إلى المكتب ، وبعد أخذ ورد استسلم لبيعها بخمسين ألف دينار بعدما أجرى اتصالا بالسيد ناصح ، وتمت الصفقة ، وذهبا لدائرة الأراضي وكاتب العدل لإجراء اللازم ، وكان عمري قد أعطى يوسف شيكا بالمبلغ المطلوب ، وكان عمري قد أودع المال المطلوب على حساب يوسف ، وعادت ملكية الفيلا بعد أشهر للسيدة الفاضلة مريم صادق .

المهم أن يوسف وعمريا قد وضعا نواة المشاريع التي ستقام في العاصمة .. مخازن لشراء الحبوب من قمح وذرة ، العمل بتجارة الأقمشة والملابس .. الأدوات المنزلية كالثلاجات

والتلفزيونات وغرف النوم والمكاتب .. المعلبات المختلفة الأسماء والأشكال .. فخلال شهور قد بدأت الانطلاقة في العاصمة ، وكانا يقضيان آخر كل أسبوع الخميس والجمعة في ترتيب محلات وتجارة العاصمة ، وقد تم جلب كثير من الموظفين السابقين للعمل معهم في العاصمة وقد تمكنا من فتح معارض أخرى ومتاجر في بعض المحافظات القريبة من العاصمة ، فخلال سنة مرت استطاع يوسف وعمري والسكرتير أحمد نقل خبراتهم التي اكتسبوها في مدينة الريحانة لأسواق العاصمة المدينة الكبيرة ، وبدأت تظهر أسماؤهما في سماء العاصمة ، فأكثر من خمسين مشروع ظهرت خلال السنة التي انصرمت ، من أهمها المواد الغذائية الحديد الأسمنت تجارة السيارات الجديدة ، وكانت الخطة فصل المشاريع نظريا عن بعضها ، إدارة محاسبة مستقلة لكل مشروع ، وقامت مشاريع مشتركة مع كبار التجار الذين يعرفون عمري محمود ويوسف حسان قبل مجيئهم للعاصمة ، فسنة التأسيس كانت موفقه كما أخبر الدكتور يوسف الأستاذ عمري .. وبدأ التخطيط لإنشاء عمارات وشقق سكنية تقوم بتنفيذها شركاتهم ، والإعداد لمستشفى خاص وعيادات طبية ، وإنشاء مصنع أدوية كالذي في الريحانة، وتم ترخيص عدد من المدارس ودور الأيتام .. هذا النجاح الصاعد كان يضغط على شخص أو شخصين أو ربما أكثر .

كانت أنعام تتحدث مع شقيقتها نوال – ولابد ان قارئنا الفاضل يذكر هذه الاسماء ، فهما بنتا عم صديقنا عمري محمود – فقالت :" إيه يا نوال أتسمعين أخبار ابن عمك عمري ؟!.. لقد ظهر وبرز اسمه في مجتمع العاصمة ..فعمي ناصح يكاد يتميز من الغيظ ، وكذلك أبي .. يقول : " هذا الصعلوك يتمدد ويتضخم .. كان لا يعرف إدارة مصنع سجاد .. فها هو يترك الريحانة للعاصمة .. "

فقالت نوال : " كفى يا أنعام ! إنني أنا أيضا أكاد أن أتمزق من الغيظ .. ألا يكفي أن قمرية تمزق افتدتنا بكلامها عن أخيها .. التقيت بها عند عمتي رباب ، ففقدنا عقولنا وتصدعت من كثرة إعجابها بأخيها وزوجته حتى جبر قال : " إن العمل بجوار عمري سعادة وبركة " الغيظ يكاد أن يقتلني .. أنا سبب كل هذا الخير .. لولاي ما ترك عمري

البيت وحصل على كل هذا السعد "

" لا تتأسفي على ما فاتك .. هذا نصيبه وقدره .. عمري تغير من قبل أن يخطبك .. ما أخبار زوجك المخمور ؟ "

فقالت بحزن عميق وتحسر : " لم يصح بعد .. ينام على خمر ويستيقظ على خمر .. ملايين أبيه خسرها بالقمار والورق .. آه كم أكرهه وأبغضه ! أحيانا تراودني نفسي بقتله ! .. مرة تركني مع ضيوفه الرجال قائلا : هذه نوال معكم تابعوا سهرتكم إنني متعب أريد أن استريح .. لعين لا يهتم لشرف وعرض .. يغازل أي امرأة تعجبه أمامي لا يستحي مني ولا يراعي شعوري "

فقالت أنعام : " تستحقين ذلك .. ألم أقل لك يا بنية اصبري اصبري ؟! .. فها هي فتاة ثانوية عامة تملك كل هذه الملايين ، والكل يحلف بحياتها .. من كثرة ما حدثتني قمرية عنها على الهاتف اشتقت إليها ، ولولا غضب والديّ وزعلهما لزرتها في الريحانة ؛ ولكن قمرية كانت تقول أن عمريا بدأ بنقل مشاريعه للعاصمة ، وقد تعود العلاقات القديمة بيننا .. وها هو قد فعل .. أنا مشتاقة لبدرية وحتى لأمرأة عمي السيدة مريم صادق .. فتقول قمرية عن اختها : " إنها ملكة بعد زواجها من الطبيب صديق أخيها .. "

فهاجت نوال وقالت بحدة : " أخوها .. أخوها .. أخوها .. صرعتم أرواحنا فيهم "

فتبسمت أنعام وقالت : " لا تغضبي .. عمري معجزة يا امرأة ! عرفت من جبر أنه يدير مئات المشاريع .. ماذا أقول لك أيضا ؟ ! يا أختي المحترمة ! إنني لما سمعتهم يتحدثون عنه ظننت أنه عفريت من عفاريت ألف ليلة وليلة .. لديه أعمال وشركات قد يزيد عدد موظفيها عن عشرة آلاف إنسان ، إن لم يكن أكثر ، وقد دعتني قمرية لزيارتها في الريحانة.. ما رأيك أن نفعلها يا نوال ؟ .. نزور السيدة مريم وبدرية ونتعرف على الفتاة التي وراء عمري .. هل تصدقين أن قمرية ناصح تقول " أن زينب تحث زوجها على الزواج عليها وهو يرفض " .

" ماذا قلت ؟!.. أمعقول هناك امرأة ترغب زوجها بأن يتزوج عليها ؟! .. لقد طلبت الطلاق من نادر ألف مرة ليته يطلقني وأتزوج عمريا "

□□□

ـ " أتقبلين ذلك وترضينه ؟ ! "

ـ " والله إنني أقبل ما زال له في القلب لوعة وهوى .. قاتل الله الغضب والطيش "

ـ " وابنك الوحيد من نادر أفندي ؟ "

ـ " أتركه لأبيه "

ـ " وتصلين وتصومين يا نوال ؟ "

فقالت وهي ساهمة الذهن : " أصلي وأصوم يا أنعام .. لقد كبرت وقفزت عن الاربعين دخلت في العقد الخامس .. الزمن يقفز بسرعة "

فقالت أنعام : " إياك أن يسمع أبوك منك هذا الكلام ، فلك أكثر من خمس سنوات تطلبين الطلاق من زوجك ومن أبيك ، وهم يرفضان ، فكيف لو يسمعون مثل هذا التمني ؟ ! سينفجران في وجهك "

فتنهدت بألم دفين وهمست قائلة : " هو كلام .. لقد خسرت عمريا ونفسي قبل ذلك .. ورضيت بهذا المخمور الذي لا يصحو من الخمر ..

*****

كان ناجح أيضا يتحدث مع أخيه ناصح في صالة أحد الفنادق الضخمة في العاصمة ، فهما كانا في انتظار ضيف أجنبي ، فقال : " أسمعت يا ناصح باشا أخبار ابنك المطرود والمفقود ؟ نظر ناصح الخابي في عيني أخيه وقال : " لا تذكرني به يا ناجح .. أنا لما هجرت قمرية الفيلا استغربت ، ولما حدثت رباب بذلك ، قالت ساخرة " إنها ذهبت لحضن أخيها .. لم تجد حضنا يتسع لها وللمرأة الشقراء ، فذهبت حيث الأم والأخ والأخت " عرفت عندئذ مكان عمري ، فإذا هو سيد المدينة هناك .. الناس يا رجل يدعونه ويرغبونه لترشيح نفسه لمجلس النواب .. أرأيت ؟! .. إنني أبغضه أكرهه أتمنى موته .. إنه عاق حقير "

فقال ناجح وهو يتذكر الماضي : " والله إنها كانت ساعة مرة علينا عندما نزلنا به ضربا وصفعا هل يغفر لنا ذلك ؟! إنه قد فتح مشاريع كثيرة في المدينة ، واشترى الفيلا القديمة التي بعتها" فقال ناصح باستغراب : " ماذا قلت ؟ ! اشترى الفيلا .. أبدا لقد ذكر لي المحامي أنه باعها

للدكتور يوسف حسان "

فقال الآخر : " ألا تعرف من هو يوسف حسان ؟ ..هو يد عمري اليمنى ، مدير المشاريع رجل ذكي وخبير فطن .. ليس هذا فحسب يا ناجح بل أخبرتني رباب التي علمت من ابنتك قمرية وزوجها جبر أن الفيلا أصبحت باسم زوجتك السابقة مريم صادق "

صاح ناصح وقد هاج : " ماذا تقول ؟! ماذا تقول ؟! مريم تشتري الفيلا .. لعنها الله .. لعنه الله .. إنه ولد عاق سأدمره سأحرقه "

ـ " ماذا تريد منه ؟ هل أخذ منك دينارا واحدا ؟ ترك البيت هاربا فارا .. فدعه "

فقال ناصح بحقد قديم : " أنت السبب ،.. أنت السبب وابنتك الملعونة لعنها الله .. اسمع إنني أعرف كل شيء عن عمري من قبل أن يغزو المدينة ، لما رحلت قمرية أرسلت رجلين من رجالنا فجاءوني بكل شيء عنه ، فجننت من نجاحه .. فإنني مغلول ومعلول ومقهور منه .. فأرجوك يا أبا صابر أن لا تحدثني عنه ثانية .. أين هذا الرجل ؟ أليس هذا الفندق الذي ذكروا لنا ؟ "

ـ " أجل .. أجل يا ناصح .. اصبر سيأتي .. ما أخبار الزوجة الشقراء ؟

ـ " إنها فاتنة .. أنا صريع الشقراوات والحسناوات "

فقال ناجح باسما : " أنا سمعت أنها طلبت منك خمسة ملايين "

غضب ناصح وهو يسمع الغمز وقال : " ممن سمعت ؟ "

ـ " سمعت كما يسمع الناس "

فقال : " لا أحد يعلم ويدري بالموضوع الا أنا وهي "

ـ " منها هي .. ارتحت يا باشا "

ـ " أنا لست باشا يا ناجح .. الباشا اليوم عمري محمود !"

ناجح في الريحانة

كانت عزيزة زوجة ناجح الخابي عندما تسمع أخبار عمري الخابي لا تصدق ما يقال عنه وعن مشاريعه وغناه والأيدي العاملة عنده ، ولما تسمع رباب تحدثها بذلك وتقسم لها ، تكاد تنفجر من الغيظ والقهر ، فهذا الخير في نظرها كان يجب أن يكون لابنتها نوال ؛ ولكنها تعود فتقول مواسية لنفسها : " إنه رجل معقد مريض ؛ ولكن للأسف ها هي صحف العاصمة بدأت تبرز فيها صورة عمري ومدير مشاريعه يوسف حسان "، وأحيانا عندما تجلس مع ابنتيها ينحرف الكلام للحديث عن عمري الفتى الهارب قبل عشرين سنة تنقص قليلا ، فتأخذ أنعام بالحديث عن تقواه وصلاحه رغم كثرة المال الذي بين يديه ، وأنه بدأ من غير أن يأخذ من أرصدة والده شيئا فتمدحه ، وعزيزة ونوال ينهشن لحمه وينتقصنه ، وأنعام تزيدهن غيظا بالثناء عليه ورعايته للأيتام والفقراء وأصحاب الحاجات ، وتختم كلامها وتمنيها بالجلوس معه وسماع صوته ، فهي منذ هجر بيت الأسرة لم تره ولم تتكلم معه ، فتزداد نوال حنقا عليها فقالت بتهكم : " دعي قمرية ترتب لك لقاء معه ألست ابنة عمه ورحمه وأرملة ولديك أيتام ؟ .. فبدلا أن يصرف عليك ناجح الخابي فليصرف عليهن راعي الأيتام والفقراء "

فقالت أنعام بغيظ واستياء من تهكم اختها : " والله يا حبيبتي أبوك أولى بالصرف عليّ ، وأموال زوجي رحمه الله تكفي وإن ذهب أكثرها لوالديه .. وأنا أقبل أموال أبي لأنه هو يصرفها عليّ ، وزوجي كان موظفا عنده ومات أثناء العمل ، وصدقي سوف أحاول وأسعى للوصول إليه وأسمع صوته ليزداد حنقك وغضبك "

وقامت بحماس وحمية واتصلت بقمرية ؛ ولكنها لم تجدها في بيتها فقالت لها نوال : " مجنونة أنت .. خذي الإذن من أبيك "

ـ " وهل زيارة ابن العم تحتاج لإذن من الأب ؟ .. ومتى كان هذا في قانون العائلة ؟ "

فقالت عزيزة بغضب : " لابد من ذلك .. فأنت تعرفين ما بيننا وبين عمري "

فقالت أنعام بقوة وتحد : " لا شيء بيننا وبين عمري ، هو أوذي من أبيه وعمه ليس منا ..

ونحن تألمنا لم حصل ؛ ولكنه كان خيرا كبيرا له ، ولم يخطبني لأثير الناس عليه كما فعل بعض الناس "

فهاجت نوال واشتد غضبها وقالت : " ويلك ما أقسى قلبك ! كنت جاهلة صغيرة .. أليس كذلك يا أمي ؟ "

فقالت عزيزة : " دعينا من كلامك يا أنعام .. هل نامت بناتك ؟ "

قالت : " لا ..صعدوا عند خالهم صابر عند أولاد خالهم "

فقالت نوال : " أما ابني فقد ذهب يلعب مع جدته " قالت ذلك باستهزاء وتهكم .

فقالت عزيزة : " ضروري يتعرف على جدته حتى إذا حصل طلاقك من هذا المخمور يستطيع العيش مع أم أبيه في المستقبل "

فقالت نوال بحيرة : " وأعيش بدونه ؟ ! "

فقالت عزيزة : " ألا يكفي بنات أنعام ؟ "

فقالت أنعام : " وما بال بناتي يا أمي .. أيزعجنك ويلعبن فوق رأسك .. اعتبريهن مثل أولاد وبنات صابر "

فقالت نوال ساخرة : " صابر ذكر يا أنعام ؟ "

فقالت أنعام ساخرة أيضا : " لا فرق بين ذكر وأنثى في بيوت العائلات الكبيرة والمنفتحة على الشرق والغرب "

فقالت عزيزة بغضب : " أتسخرن مني ؟! انظري إلى نهى ونهال يحضرن لزيارتنا بدون أولادهن خوفا من إزعاجنا ومضايقتنا ، نحن كبرنا لم نعد نطيق شغب الأطفال ؟"

فقالت أنعام : " أولاد نهى ونهال شباب يا أمي ! نهى لديها ولدان ونهال مثلها ، ثم إن أولاد نهى لا يحبوننا يرون أنهم أبناء أسر عريقة في الغنى والجاه "

فقالت عزيزة الغاضبة : " ما أطول لسانك ! "

فقالت نوال : " إنها تقول الحق يا أمي .. أهل أزواجهن لا يحبون لهم الاختلاط بنا "

فقالت عزيزة : " دعوهن في بيوتهن .. كأن والدكن أتى "

طلت أنعام من الشباك ثم قالت : " أجل سيارة أبي وصابر وراءه .. لقد أتى الديوك "

فضحكت عزيزة وعادت تقول : " ما أطول لسانك يا ابنة ناجح ! "

فقالت نوال : " أمعهم زوجي الشجاع ؟ ! "

قالت أنعام ضاحكة ساخرة : " لا .. ذهب لمقاتلة السكارى في حانات المدينة ليثبت لهم شجاعته وفروسيته يا امرأة الشجاع نادر "

فصاحت نوال : " فعلا لسانك يحتاج إلى تقصير .. ففيه طول أكثر من اللازم "

فتظاهرت أنعام بالضحك ثم قالت : " نكتة قديمة "

دخل ناجح وصابر وألقيا تحية الليل ، وقال الأب مداعبا : " بماذا يتحدث الناس في بيتنا ؟ "

فقالت عزيزة : " لا شيء .. بس عن لسان أنعام الطويل "

وقبل أن يعلق أحد قال صابر : " تصبحون على خير "

فقالت أمه :" مع السلامة يا ولدي ..أرسل بنات أنعام فهن مع أولادك "

فقالت أنعام : " مالك في بناتي .. ينزلن وحدهن يا أمي "

ـ " لا نريد أن يزعجن صابرا "

ـ قلنا يا أمي لا فرق بين الذكر والأنثى أتتضايق منهن يا أخي العزيز ؟

فقال صابر وهو ينصرف : " أبدا يا أنعام .. إنهن بنات أختي وصديقنا ماهر "

فقالت نوال بمكر : " ولكن فريدة لا تحب معاشرتهن لأولادك "

فقالت عزيزة بحدة : " دعينا من فريدة المرأة حرة فيما تفعل .. اذهب يا ولدي .. اذهب .. "

صعد صابر للطابق الثاني حيث شقته .. وعادت عزيزة تسأل ناجحا قائلة : " ما أخبار أخيك العزيز ؟ "

فقال ضاحكا : " إنه مغلول ومقهور من ابنه عمري "

فتظاهرت أنعام بالجهل وقالت:" ولماذا هو مقهور ومغلول من ولده ؟ !

فقال ناجح باختصار مفيد : " من نجاح ولده .. لا يحب له النجاح "

فردت أنعام : " عليه أن يفرح يا أبي .. هذا شيء يفرح القلب "

فقالت عزيزة بضجر وامتعاض : " عدنا لسيرة عمري ابن مريم .. هو لا يوجد في الدنيا إلا عمري يا ناجح ؟ "

فقالت نوال بخبث مرة أخرى : " أبي ! .. أنعام العاقلة تفكر بزيارة السيد عمري .. تريد أن تسلم على ابن عمها نصير الفقراء والأيتام والأرامل "

تنهد ناجح من أعماق قلبه ثم قال وهو يهز رأسه : " يا ابنتي ! عمري ولد مبارك ، لديه مشاريع يحتار المرء بكيف يدير هذا الرجل تلك المشاريع ؟! .. مدارس .. أيتام .. استيراد .. بيع .. تصدير .. بناء .. سيارات .. أنا ذهبت اليوم بنفسي لمكتبه هنا في العاصمة لأصالحه وأرمم ما بينه وبين أبيه بعد كل هذه السنين من البعد والجفاء .. فلم أجده .. عمري منا ونحن منه .. والحقيقة أن لديه رجالا مخلصين ، وفهمت منهم أن شعار عمري .. " لا كنز للمال .. المال يجلب المال " مشاريع مربحة مقابلها مشاريع اجتماعية تكافلية .. المال يشغل أناس تعمل وتكسب وتنفق "

فقالت أنعام بحماس : " ما رأيك يا أبي بأن نزورهم في الريحانة ؟ .. نزوره في البيت ، ونرى امرأة عمي والبنات ، قد يكون لزيارتنا في بيتهم وقع في نفوسهم وأثر في الصلح الذي تسعى إليه "

ـ " فكرة طيبة ! "

فقالت أنعام بنفس الحماس والاندفاع : " غدا نذهب .. نأخذ البنات معنا يا أبي .. سأتحدث الليلة مع قمرية لنعرف عنوان امرأة عمي مريم .. أتذهبين معنا يا أمي ؟ "

فردت بجفاء : " لا .. أنا ونوال سنبقى هنا ، لما تتصالحوا مع عمري نتصالح معه .. أليس كذلك يا نوال ؟ "

فعلا ذهب ناجح لزيارة عمري في مكتبه في شارع قطز ، وجلس مع الموظفين وأخبرهم أنه عمه ، فرحبوا به وأحسنوا استقباله ودردش معهم ، وكان ناجح يفكر بجمع الولد مع أبيه بعد كل هذه السنوات ، وهو يتصرف بدون علم أخيه ناصح ، لذلك لما أصبح الصباح ولبست أنعام ثيابها هي وبناتها انطلقوا ، وأنعام منذ ترملت تركت التبرج السافر ، وبدأت

تلبس ثياباً فيها بعض الحشمة ، وأحيانا تغطي رأسها بمنديل رقيق وتحاول المحافظة على الصلاة ، انطلق ناجح بحماسة نحو الريحانة، وهي مدينة معروفة له وتردد عليها كثيرا أيام الصبا ، وحتى أيام الشيخوخة ، وبعد ساعات ثلاث دخل المدينة وسأل عن الطريق المؤدية للضاحية الجديدة " ضاحية الصالح " ، ومشى نحوها حتى أوقف السيارة أمام فيلا السيد عمري محمود ، فقال ناجح وهو يطفيء محرك السيارة : " ابن عمك لا يذكر اسم الخابي على أوراق مشاريعه وشركاته ومتاجره .. هيا انزلوا "

هبطوا من السيارة وضغطوا الجرس الكهربائي ، فسمعوا صوت الشغالة أم مالك ، فتحدث معها ناجح ، ففتحت الباب بضغطة زر ، فدخل ناحج وابنته وبناتها مدخل الفيلا فاستقبلتهم أم مالك ، وأدخلتهم لقاعة استقبال جميلة وقدمت لهم العصير البارد وهي تقول : " إن والدة سيدي آتية بعد قليل "

وبعد قليل ظهرت مريم من إحدى الأبواب ، وكان بين يديها عكاز، ولما رأت ناجحا هتفت : " السلام عليكم .. أهلا بالسيد ناحج "

فنهضوا يرحبون بها وأراد أن يصافحها مادا يده ، فقالت معتذرة : " آسف يا سيد ناحج "

فقال : " عفوا يا سيدتي ! .. إيه لقد تغيرت يا مريم أم تخفين الشيب ؟

صافحت أنعام امرأة عمها سابقا وعانقتها وقبلت يدها ، وأظهرت ودها وحبها لامرأة عمها ورأت الهيبة والوقار والتورع في وجهها ، وفعلت الصغيرات كما فعلت أمهن ، فمسحت مريم على روؤسهن برفق وحنان ورحبت بهم ، ونادت أم مالك وقالت : " اذهبي بهن ليلعبن مع أولاد عمري في غرفة الألعاب ، وأطعميهن من الفاكهة .. فالمشوار طويل "

ولما انصرفن تابعت مريم قائلة : " أنا حزين لك يا أنعام .. العمر الطويل لك ولبناتك "

فقالت أنعام وقد عادت للجلوس : " أشكرك يا أم عمري .. أين زينب ؟ "

ـ " ستأتي بعد قليل لتسلم على عم زوجها .. أهلا بكم "

فقال ناجح وهو يتأمل مريم : " والله تغيرت يا مريم .. إنني أتذكر الصور القديمة وصورتك الآن .. والله عمري ولد مبارك يا مريم .. "

ـ " الحمد لله .. الشكر لله .. كان ضربكم لولدي خيراً كبيراً لنا .. "

وتحدثا وتذكرا وأكلا الفاكهة ، ثم أتت زينب التي كانت ترتب أمر الغداء مع زوجها القادم ، وحيت الرجل بأدب وحياء وعانقت انعام بعاطفة وحب ، ثم سألت ناجحا عن صحته وأهله وسألته عن عمها ناصح، فتطلع إلى مريم فقالت : " رد عليها يا ناجح .. أنا رأيت ناصحا بعد طلاقي ، عند زواج بدرية تقابلنا .. وهو والدها ، والمؤمن لا يبغض إلا أعداء الدين والعصاة المصرين "

فعاد ناجح يتحدث عن إعجابه بهم وبإيمانهم ، فقالت مريم : " أنت قد دخلت السبعين ماذا تنتظر ؟ .. لماذا لا تدرك نفسك ؟ "

فقال : " يا ليت هذا يحدث يا مريم "

فقالت : " باب التوبة مفتوح .. وما يمنعك ؟ "

فقالت أنعام : " والله يا أبي عليك أن تسمع كلام الحاجة أم عمري "

وأخذت مريم تتحدث مع السيد ناجح وزينب مع أنعام التي قالت لها: " أحببتك يا أنعام مذ رأيتك .. لما أخبرتنا قمرية بمجيئكم سررنا وملأ الفرح قلوبنا .. وقلنا هذه خطوة لمصالحة عمي مع عمري .. مالك تنظرين إلى عمتي ؟ عمتي تدعو ليل نهار ليتحقق ذلك .. فعمي ناصح والد عمري بغض النظر عما جرى بين الأم وزوجها .

قالت أنعام بإعجاب : " أنت رائعة يا زينب .. أنت شجاعة ! "

قالت زينب : " أرجوك يا أنعام ! أنا لا أحب سماع مثل هذا الكلام .. "

دخلت قمرية فصافحت عمها وعانقت أنعام بحرارة وشوق ، وعلق ناجح : " والله يا مريم للمت الأولاد حولك "

فقالت : " ذكرتني يا ناجح .. سمري ما أخباره ؟ "

فقال باقتضاب : " لا أخبار .. أتى قديما وقضى كم شهرا بيننا ، ثم انصرف إلى هناك .. فلم نستفد من دراسته وشهادته شيئا .. وأسمع أحيانا أنه يتصل بوالده أثناء احتفال الناس بأعياد الميلاد "

دعت مريم لولدها بالتوبة والهداية وتساقطت بعض دمعات من عينيها على ضياع ولدها سمري ، وبعدما تحدثت قمرية مع عمها قليلا اندمجت الفتيات بالحديث ، وعاد ناجح ومريم يتحدثون عن الماضي ، وكانت قمرية تخاطب أنعام فتقول بسرور واعجاب : " هذه زينب التي كنت أحدثكم عنها عند عمتي رباب .. إنها قمر ونور لنا وبركة .. أهلا بأنعام .. أين البنات ؟ "

ـ " مع أولاد زينب "

وجد ناجح حفاوة كبيرة من أبن أخيه ، حفاوة لم يكن يتوقعها ، وكان يعتقد أن عمريا ما زال يحمل له أحقاد تلك الليلة المشؤومة كما يقول ، ولمس أخلاق ابن أخيه وحلاوة لسانه وصدق لهجته ، وهنأه على مشاريعه ونجاحه المشهود ، وتناول العم ناجح مع أسرة ابن أخيه وأختيه قمرية وزوجها جبر وبدرية وزوجها الطبيب فائز لطفي وأولادهم الغداء، مما أفرح قلبه وعرف معنى السعادة في الاجتماع والإيمان ، ولما اقترب موعد العودة أبى عمري وأصر وصمم على مبيت الجميع معهم في الفيلا ، وبعد تمنع رضخ ناجح للأمر ، وخلال السهرة كان ناجح يحدث عمريا عن الصلح مع أبيه ، فقال عمري بدون تشنج : " أنا مستعد لذلك يا عمي إذا لم تمح كل هذه السنوات تلك الصفعات والإهانات ..فالإيمان الذي نحمله في قلوبنا يدعونا إلى ذلك .. أنت رتب ذلك وأنا جاهز .. وأنا في الغالب أقضي الخميس والجمعة عندكم في العاصمة .. حتى أمي مستعدة لئن تكون علاقتها بأبي علاقة إنسانية طبيعية.. فالطلاق لا يعني الحقد والغل .. فالطلاق عندنا في الاسلام حل لمشكلة ولبقاء الإيمان .. فهل إذا طلق الرجل ابنة عمه يهجرها ولا يصلها .. لكل شيء حدود ونظام متناسق وواضح ، فالقريب يبقى قريبا ، والرحم تبقى رحما رغم المشاكل والمشاجرات .. قديما يا عم كانت المطلقة تتزوج مرة واثنتين وأكثر من غير أي إحراج ونظرة قاسية نحوها من قبل المجتمع ، فالرسول الحبيب ﷺ تزوج مطلقات ومارس الطلاق ، فهذا الصحابي زيد بن حارثة [٣] ﷺ كان كثير الطلاق وكثير الزواج ، والأرملة كذلك ، هذه القضايا كانت سهلة الحل .. وأنا عرضت على أمي الزواج منذ أتت إلى هنا ؛ ولكنها قالت بكل صراحة " لم يعد بي رغبة للرجال "

فقال ناجح : " أنت فعلت ذلك ؟! "

" من حقها يا عمي أن يكون لها زوج إذا رغبت ، فكما عند الرجل شهوة فعند النساء شهوة

[٣] – "كان النبي (ﷺ) قد زوجه مولاته أم ايمن فولدت له أسامة ولما تبناه زوجه زينب بنت جحش فلما طلقها للقصة المشهورة زوجه أم كلثوم بنت عقبة فولدت له زيد ورقية ثم طلقها وتزوج درة بنت ابي لهب ثم طلقها وتزوج هند بنت العوام أخت الزبير .. الإصابة ١ / ٥٦٤ "

□□□

فكما من حق الأرمل أن يتزوج فمن حق الأرملة أو المطلقة أن تتزوج ؛ ولكن هناك نساء يصبرن عن الزوج ، وهناك رجال يصبرون عن الزوجة ، حسب قدرات وطاقات الإنسان "

كان ناجح يسمع هذا الكلام وهو مبهور من ابن أخيه ، فلم يكن عمري كذلك قديما ، كان لا يسمح لنفسه بالحديث معه أو مع أخيه ناصح عشر دقائق على بعض ، ولما سمع كلام ابن أخيه عن الأرامل والمطلقات تذكر ابنته التي كانت تجلس مع البنات داخل الفيلا يتحدثن فتشجع ، وقال : " يا ابن أخي كما ترى أنا رجل كبير وابنة عمك أنعام منذ سنوات وهي أرملة ، فكلامك هذا شجعني لئن أقول أمامك بكل صراحة أن تحاول إقناعها بالزواج من رجل من أصحابك ومعارفك الطيبـين "

فوعده عمري خيرا ، وأخذ يعيد الحديث عن التوبة والصلاة ، فقال ناجح لما سمع تشجيع عمري له مرة أخرى على التوبة : " والله لما رأيت أمك يا بني أصابني ذهول .. لقد غيرت في عائلة الخابي .. عندما تتصالح مع أبيك بمشيئة الله سترى مني ما يسرك ، وسأقوم ببناء مسجد كبير من حر مالي "

فقال عمري : " سأصبر على ذلك يا عمي رغم أن الموت لا ينتظر .. فنيتك بالتوبة مهمة يا عم "

ـ " كنت آتيا وكلي خوف وقلق من مقابلتك "

ـ " لأ ، يا عم .. أنت تظل عمي .. وسأزوركم قريبا إن شاء الله .. فلقد تملكت أمي فيلا أبي زوجها السابق ، ونحن نفكر بهدمها وبناء فيلا جديدة مكانها والسكن فيها أيام نزولنا للمدينة فقد بدأت مشاريعنا في العاصمة تكبر وتمتد حتى للمحافظات الأخرى ، وكثير من الإنشاءات أخذت تنتهي .. وابني محمود سيلتحق قريبا بالجامعة وهو راغب بدراسة الطب في جامعة ابن النفيس فربما نسكن فيها حينا من الزمن "

ـ " يا ألف مرحبا .. من المهم أن لا تنسى يا أبا محمود أختك أنعام ، فهي منذ فارقتنا وتكن لك المحبة والتقدير ، وكم نصحت أختها المنحوسة بالصبر والرضا بالمقدر .. فهي تسمع كلامك ، فرغبها بالزواج مرة أخرى ؛ وليكن رجلا صالحا من جماعتك وأصحابك "

حاول عمري عند الصباح الضغط على عمه لقضاء عدة أيام في ضيافته ، فأبى ناحج وأثنى على ابن أخيه كثيرا وقال : " والله يا عمري ! لقد غيرت من نظري نحو هؤلاء المشايخ وأصحاب اللحى .. فالذي يعرف عمريا وأم عمري يصاب بالدهشة ويقول " سبحان الله ! لله في خلقه شئون " لقد أضعنا عمرنا في الهواء والهوى .. الحق على والدينا ."

فقال عمري مقاطعا لتأوهات عمه : " أدرك نفسك يا عم ! التائب من الذنب كم لا ذنب له التوبة تجب ما قبلها "

ـ " إنني مقتنع بما تفوهت به يا ولدي ! ..سترى مني ما يسر قلبك .. أين أمك الحاجة ؟ نريد العودة قبل اشتداد الحرارة "

ـ " أتحب أن أبعث معك سائقا ؟ "

ـ " لا داعي يا ابن أخي ، ما زال بي قوة لقيادة المركبة "

وأتت مريم وزينب والأولاد فسلموا على عم أبيهم ، وحيوا بنات أنعام ، وأظهرت أنعام شكرها الكبير للسيد عمري وأمه ، ودعت لهم بطول العمر والصحة ، فشكرها عمري وقال مودعا : " أنت رحمي يا أنعام .. وبناتك بناتنا .. ونحن لدينا مشاريع في العاصمة لرعاية اليتامى .. ومدارس أهلية .. وأنا أحب الأيتام وأعطف عليهم لقول النبي (ﷺ) " أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة " وأشار بالسبابة والإبهام .. أنا أعرف ومتأكد أن عمي غير مقصر في رعايتهم .. وأنا لك أخ كصابر .. "

فقالت : " أنت عزيز يا عمري ورجل فاضل وشهم .. وزوجتك امرأة فاضلة أو كما تقول أختنا بدرية عنها " أحلى امرأة في العالم "

كانت زينب تخجل من كثرة كلام الإطراء لشخصها وأفعالها ، فهي طيبة بالسجية ، فأحنت رأسها بالشكر ، ولما ركب ناجح في السيارة وصعدت البنات في المقعد الخلفي ، وجلست أنعام بجوار أبيها بعدما عانقت أم عمري والنساء ، قالت مريم : " يا أبا صابر .. حنن قلب ناصح على ولده واسعً بالصلح بينهما .. فعمري لا تكتمل سعادته في هذه الدنيا الا بالصلح مع ابيه وعودة المياه لمجاريها .. لا تقصر في هذا المسعى الطيب "

فقال : " هذا أمر يا أم عمري .. إني سعيد بهذه الزيارة .. سنلتقي قريبا . شكرا لكرمكم وضيافتكم وحبكم الغامر لنا "

وانطلق بالسيارة وهو منشرح الصدر ويقول لأنعام : " إيه يا أنعام ! .. أرايت العز الذي فيه القوم "

فقالت : " نحن عندنا أموال مثلهم يا أبي "

فتبسم وقال : " لا أقصد ذلك .. نحن ولدنا ونحن نأكل بمعالق الذهب ونشرب بأكواب الفضة .. العز الأمان .. الحب .. الصفاء .. الكل يحب الكل .. أنا مريم أعرفها منذ خمسين سنة ، عندما دخلت الأسرة كانت ماكرة ماجنة ساحرة ، أما الآن فنور الهداية يشع من بريق عينيها ، لقد غيرها نور الإيمان .. وعمري أنت تعرفينه وتعرفين أخباره هنا وأثناء وجوده في لندن وأوروبا وبعد عودته .. أما الآن فهو ملك وملاك ، ولا يظهر عليه ذلك ، أقول له يا ابن أخي هذه المشاريع كل هذه المشاريع كيف تتابعها وتراقبها وتديرها ؟؟ فضحك وقال " تريد أن تحول اللقاء لدروس في الاقتصاد والتجارة الأمر هين .. القاعدة الأولى عندي عدم كنز المال ، طرحه في السوق ، فالمال إذا تحرك أنتج قد يكبو أو يخسر لكنه ينهض ثانية .. فالمال يزيد والناس تعمل .. وأما مراقبة المشاريع .. يكون باختيار كوادر وعناصر العمل الصالحة .. فإذا كان عندهم ضعف في الإيمان ـ لئن الناس تتفاوت في ذلك ـ تشحذ وتقوى ونحفز القوي .. وإذا وجدنا الضعيف لا يتقدم نغير موضعه .. والمراقبة تتم عن تقارير النفقات والمصروفات والإيرادات .. مقارنة الموازنة مع السنوات السابقة، ثم مقارنة الموازنة مع مشروع مشابه مع مراعاة الظروف والأحوال لكل مشروع ، ويكون ذلك بأيدي خبراء وثقات فبذلك نستطيع معرفة جدوى المشروع أو الشركة " .. هذا ببساطة كلام دقيق ورائع منه يا أنعام وقال أيضا " أما وضع الجواسيس وفصل التعاون بين الإدارة والعمال بقصد إثارة القلق والرعب بين الأطراف فهذا أسلوب أراه ضعيفا .. فالإنتاج يتبع راحة العمال وقناعاتهم التامة بالعمل وتوفير أسباب التمكين والراحة لهم وحل مشاكلهم ومراعاة أحوالهم النفسية ، ووجود محسنات العمل ومكملاته عوامل مساعدة .. فالعامل مهما كان عندما يجد من يساعده إذا

□□□

مرض ويصبر عليه إذا استلف فسوف يشعر بالمسؤولية وتجده محبا للورشة ومكان العمل ، وأن يقصد الإنسان بذلك وجه الله سبحانه ، وأن يكون الإحسان في المشروع .. أكيد سيتحقق النجاح ولا ينظر للخسارة على أنها كارثة ومصيبة .. بل عليه أن يراجع ما بينه وبين الله من صلات ودعاء ، وما بينه وبين العباد من عدل وظلم ودعاء مظلوم ..وترك الحرص والطمع وحب زيادة المال من غير فائدة ، فقط للزيادة وزيادة رصيد الحساب فحسب .. "

قالت أنعام : " كل هذا حفظته منه يا أبي ؟ ! "

ـ " ألم أقل لك عمري عجيب ؟! .. بهذه الأفكار والخطوات تمشي المشاريع .. عنده فريق عمل مهمته دراسة المشاريع ورعاية مشاكلها ، وهناك مستشفى تابع لشركاته ، وهو يبني آخر في العاصمة ، فهو يوفر العلاج بشكل رمزي للفقراء وعمال الشركات والمحلات والمدارس فهو يملك مجموعة من المدارس الخاصة كل من أحب الدراسة فيها من أبناء العاملين معهم له تسهيلات خاصة ، وهناك دور الأيتام لمن يموت من العمال فتقوم الدور على رعاية أسرته إذا رغبوا بذلك .. مشاريع إنتاج مقابلها مشاريع خيرية إنسانية ، بل عندهم مشاريع ترفيهية نوادي تعليمية ورياضية متواضعة وحدائق ترفيهية للأطفال وفيها الحيوانات الممتعة .. عجيب هذا الولد عجيب .. لا أكاد أصدق .. لقد جاءنا من بريطانيا مسطولا .. ولكنه ذكي منذ صغره "

فقالت أنعام بإعجاب : " صدق يا أبي .. تقول امرأة عمي وزينب أن لديه رجالا يحبونه حبا كثيرا .. بالحب والتفاهم الكبير بينهم والأخلاق الإسلامية تدار كل هذه المشاريع "

فعاد ناجح يسأل بعد أن أكد كلام أنعام قائلا : " كيف رأيت زينب يا بنيتي ؟ "

فقالت باسمة : " ماذا أقول عن زينب ؟ ! .. كلام لا يصدق .. عندما كنت أسمع عنها يا أبي كنت أظن أن الناس يكذبون أو لأن مصالحهم مع زوجها .. لكن في يوم وليلة تبين لي أنها مظلومة معهم .. أتصدق يا أبي أنها لا تتدخل في مشاريع زوجها ؟ ! "

فضحك أبوها وهو يقول : " عمري نفسه لا يتدخل في مشاريعه "

ـ " معك حق .. المهم أن مهمتها العظمى رعاية زوجها وأم زوجها وأولادها ، وأنها تحب

عمريا حبا لم ألمسه في امرأة أعرفها .. وأتذكر أمي وامرأة عمي قديما عندما كن يحببن أن يدسسن أنوفهن بكل شيء .."

فضحك أبوها مرة أخرى وقال : " صح كلامك .. المشكلة كن يحببن حشر أنوفهن في كل شيء ولا يفعلن شيئا .. إنما للحديث أمام نساء المجتمع بأسرارنا ومشاريعنا وأحلامنا .. آ .. أكملي يا أنعام "

ـ " زينب أدب راق !.. ثقافة رائعة .. تحدثك عن الدين والإسلام بكلام حسن ميسور واضح تلمس فيه الحكمة والموعظة ، تدهش للمعاني التي تراها من قصصها وحكاياتها .. أولادها كلهم أدب وتفاؤل .. وأعجب شيء علمته عنهم أن حماتها تقول " إن زينب تعرض على زوجها الزواج من امرأة أخرى كصاحبه الدكتور يوسف حسان .. فهذا الرجل متزوج من ثلاث نساء ويعشن في عمارة واحدة وحدثتني الحاجة مريم عنهن كلاما جميلا وهو عجيب.. وتقول الأخت زينب " أهم شيء يجب أن يكون في حياة الناس الحب .. لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. هذا كلام النبي (ﷺ) إنهم يحيون بالحب ، ليس كحبنا يا أبي .. فالحب عندهم غير الحب عندنا ، فلما سمعت كلام أم عمري قلت لزينب " أمعقول هذا ؟ ! " فهزت رأسها بالإيجاب وقالت " هذا أمر عادي في عائلتها ، أبوها متزوج مرتين ، وكذلك اخوتها ، ولهم أخ عنده امرأة واحدة فهم يعيرونه ويعيبون عليه ذلك " فلما سألتها " لماذا ؟ " قالت : " إنهم يرون أن المرأة إذا كان لها شريك بزوجها .. تفكر مليون مرة قبل أن تزعله منها .. فهناك البديلة فتحفظ نفسها وتحفظ زوجها وتكسب الجنة .. لأن الرجل الزوج مفتاح دخول المرأة الجنة ، وذكرت لي جملة من أحاديث النبي (ﷺ) في حق الرجل على المرأة ، وختمت كلامها بأن التعدد لصالح الأمة وأباحه الله ، وهو هدي النبي وخلفائه الأربعة ، ولولا أن فيه خيرا للأمة المجاهدة المحسودة من أعدائها ومن كفار الدنيا ما شرعه الله ﷻ .. وكنت أحاول الدفاع عما كنت أسمعه من أمي وأم عمري فتضحك وتقول " المسلمون يعددون بشرع الله ، والكفار يعددون بالزنا والشذوذ ومما هو منتشر في بلادهم " حقيقة كلامها منطقي إذا لم يغلب الهوى والتعصب ، بل أردفت خاتمة الكلام أمام امرأة عمي

" والله أنت يا أنعام امرأة جميلة وابنة عم عمري ! .. وقد يكون اقترانه بك من مصلحة العائلة غير المصلحة الشرعية . " فقلت وكلي استغراب " أترضين بذلك ؟ ! " فقالت بدون تردد : " أرضى ولم لا أرضى " .. كلام لا يصدق عندنا أليس كذلك يا أبي ؟ "

ـ " بلى ولكن هؤلاء الشيوخ لهم أفعال وتصاريف مدهشة ومحيرة .. ولو فعلها عمري أتقبلين به وتكونين زوجة ثانية مع ضرة يا أنعام ؟! "

فقالت : بصراحة قد لا أقبل الآن يا أبي ! ولكن عمريا لا يريد ، ورأي البنات مهم .. وعند الجد لا ندري ما يكون موقف أمي مريم وأمي عزيزة وأنت وأختي نوال وزينب نفسها "

ـ " أنا أرى أن أهم موافقة بعدك طبعا موافقة الحاجة مريم .. أنا بصراحة جرى بيني وبين عمري كلام بهذا الموضوع .. عن زواجك مرة أخرى ولكني لم أشر إليه .. بل أشرت لصاحب وصديق عزيز عليه .. مطلق أو أرمل .. أنت لست صغيرة يا ابنتي .. ولم يبق من العمر قدر ما ذهب والأموال لن تغنيك عن الزواج وابن الحلال .. تكلمي مالك ساكتة ؟ "

فقالت : " ماذا أقول يا أبي ؟ نحن قدمنا لنتصالح أم نتزوج ؟ !

ـ " الكلام جر بعضه بعضا يا أم سهام ، وهؤلاء الناس لا حرج معهم ولا تكلف يتكلمون ببساطة وحرية وحسن نية "

فهتفت أنعام بفرح : " صدقت يا أبي .. العفوية في تعاملهم ، لا يحبون تعقيد المسائل والكلام والأحاجي "

وقضى الرجل الشيخ الطريق إلى العاصمة وهو يتحدث عن عمري ومريم والأسرة ، ولما اقتربوا من المدينة قال : " قد يغضب ناصح من هذا اللقاء .. فهو حاقد على ولده حقدا كبيرا ولكن كان لابد من هذه الخطوة يا أنعام "

قالت : " إنها خطوة شجاعة ومباركة بمشيئة الله "

ـ " لا تتحدثي عن الزواج أمام اخوتك حتى يتم الصلح الأكبر بين الابن وأبيه .. أيقظي البنات .. كأنهن لم ينمن الليلة "

قد علم السيد ناصح الخابي بزيارة أخيه ناجح للريحانة لمقابلة ابنه عمري ، عرف ذلك من عزيزة ، اتصل بها يسأل عن أخيه ، فذكرت له أمر الزيارة ، وناجح لم يطلب منها إخفاء جهة الرحلة ، فاجتاحته موجة غضب وهيجان على ولده وأخيه ، وأمرها أن تتصل به عندما يعود ودخل الليل ولم يعد ناجح كما يعلم القراء ، وقد كرر الاتصال في بيت أخيه عدة مرات ، ثم أخبرته عزيزة أن أخاه اتصل وأعلمهم بأنه سيقضي الليل عند السيد عمري ، فاستشاط غضبا وقهرا على ولده وأخيه، وأخذ يسب ويشتم مما لفت انتباه الأرملة الشقراء ، فسألته عن الأمر فاختصره لها فقالت : " ولماذا أنت هائج كالثور وغاضب كالشيطان الرجيم ؟!"

فصاح بغضب : " كيف لا أغضب ؟ ابني يهجرني منذ عشرين سنة ، ويتخلى عني بسببه وسبب ابنته ثم يسير إليه على حسابي ، وقد حذرته من التدخل في هذا الموضوع ؟ "

فقالت وفي نبرة صوتها تهكم : " عشرون سنة ! أعتقد أنها كافية لإصلاح ما بينكما ، فناجح راغب بإصلاح ما بينكم ، وها هو اتخذ الخطوة العملية الأولى .. وعمري كما علمت قد نـقل مشاريعه للعاصمة .. فالصلح مطلوب يا ناصح هذه الأيام "

" لن أصالحه .. إنني أبغضه .. لن اصالحه أبدا "

فقالت : " أنت تبغض نجاحه بدونك ، بدون أموالك .. فعمري اسم يتردد في المدينة منذ أشهر ، وبدون أن يكون للسيد ناصح الخابي يد في ذلك .. بل لا يعرف كثير من الناس أنه من آل الخابي .. عزيزي ناصح أنت رجل كبير ، لا تدع الحمق والجهل يتغلبان عليك ، فابنك الآن رجل كبير قد اقترب من الخمسين عاما ليس طفلا .. "

ـ " لماذا تدافعين عنه وأنت لم تريه ولم تعرفيه ؟ ! "

فقالت : " أنا رأيته منذ شهر .. هو لم يعرفني بل قد يكون لم يرني .. كانت هناك حفلة خيرية في مدارس رزق الله حمالصي ، ودعي لها رجال أعمال معروفين بمشاريع الخير والبر والإحسان فكان من ضمنهم ولدك عمري ، وتخلل الحفل خطابات قصيرة لإثارة الحاضرين بالتبرع ، فتكلم رجل بضع جمل ترحيبية ، ثم أشار للسيد عمري ابن الريحانة الذي صعد للمنصة ،

وتكلم بضع كلمات ونزل ، ثم علمت أنه تبرع للمشروع الذي أقيمت الحفلة من أجله بخمسين ألف دينار من ماله الخاص ..

فصاح ناصح مستهجنا هذا التبرع الكبير : " أرأيت إنه ولد خائب ؟! .. ألا يكفي ألف دينار أو بضع مئات ؟.. إنهم متسولون بأدب وحيل ناعمة؟"

فعادت تقول : " المهم رأيت عمريا .. الذي أسمع عنه منذ زمن بعيد .. وقلت صراحة " خسارة أن يكون هذا الرجل ابنك "

فصاح بها : " لماذا يا عاقة يا ناكرة الجميل ؟ !"

قالت ساخرة : " لماذا ؟ .. أنت قبل قليل أجبت على لماذا ؟ .. إنك تعبد المال أو قل الأرصدة فقط ؛ لأن المال في البنوك هنا وهناك ، ولسوف تموت ولن تراه .. أرقام في دفاتر .. أما أنت فتتبرع بمائة دينار أو بخمسمائة ، أليس بينكم فرق ؟! .. اسمع يا ناصح إذا أتاك أخوك يصلحك مع ولدك فلا تتردد ولا تكابر هذه نصيحتي إليك وأنت حر "

ـ " إنه ابن عاق ومجرم ونسيته منذ عشرين سنة "

ـ " هذا شأنك وشأنه .. تصبح على خير .. "

تركته حائرا منهارا غاضبا عليها وعلى ولده ؛ ولكنها لا تخشاه ، فهو كالخاتم في يدها لا يستطيع أن يمنعها من فعل شيء ـ مهما كان هذا الشيء ـ منذ تزوجها مدعيا حبه وولهه بها ، وهي أيضا تعامله باحتقار وإذلال ، ولقد نـقل إلى رصيدها أكثر من خمسة ملايين بدون أي كلام أو اعتراض ، وهي التي تسمح له بلقاء فلان أو فلان ، وإذا تمرد تهجره بالشهر والشهرين فيعود إليها باكيا ذليلا مدعيا إنه محب ولهان عاشق ، ومع كل ذلك وتلك السيطرة كانت الأرملة الشقراء لا تحرجه مع موظفيه والذين يعملون معه ، فقط تظهر سيطرتها عليه أمام أصدقائه وزوجاتهم ، ورضي بالذل والخضوع ، فكان يخشى من عودة ولده ، ويعرف بهذا الذل والعار ، فتصير المشاكل ، وقد يرغمه على طلاق هذه المرأة التي أذلت أمه ودفعته لطلاقها وذلها ، فهو خائف من لقاء ولده رغم ما كان فيه من القسوة والتعصب والحقد ، فلذلك لما اتصل به ناجح وأخبره بعودته قال : " لا تخرج من البيت إنني قادم "

وترك مكتبه وأسرع مسرعا إلى فيلا أخيه ، ولما التقيا أخذ يسب عليه ويشتمه ويعاتبه ، وناجح صامت ومتوقع لهذه الثورة والهياج من أخيه الأكبر ، فلما خفت صوت ناصح وأفرغ ما في جعبته من سب ولعن، خاطبه ناجح بهدوء : " ماذا تريد ؟! أنا ذهبت لرؤية ابن أخي الذي أهنته في يوم من الأيام وضربته ، فذهبت إليه معتذرا نادما .. فأنا في أيامي الأخيرة "

أخذ ناصح يضحك ويضحك ضحكا عاليا وقال ساخرا : " نادم يا ناجح .. أنت تعرف الندم ؟ "

ـ ألست إنسانا ؟ .. ألا يندم الإنسان ؟!.. اعتذرت له وقبل اعتذاري وقبل رأسي ويدي وانتهى ما بيننا .. والولد راغب بالاعتذار إليك رغم ما فعلته به ؟ "

فصاح ناصح بغضب : " لست راغبا باعتذاره وندمه ، فات الوقت .. أي اعتذار ينفع بعد عشرين سنة يا مجنون ! .. هو استغنى عنا فيجب أن نستغني عنه .. إنه ليس ابني .. إنه ابن مريم .. الشيخة مريم "

وخرج ساخطا ناقما حاقدا ، فلم يكترث ناجح لذلك الغضب والخروج ، بل دخل حجرة النوم لينام من تعب الطريق الطويلة .

*****

دخلت عزيزة وراء ناجح الغرفة بعد أن انصرف ناصح غاضبا ساخطا ، فقالت باستغراب لموقف ناجح مع أخيه : " أغضبته يا رجل ؟ ! .. أنت تعرف غضب أخيك "

فقال بغير اكتراث وشجاعة لم تعهدها فيه من قبل : " لا تقلقي بعد اليوم .. لقد كان لقائي بابن أخي أعظم لقاء في حياتي .. لقد وعدته بالتوبة والصلاة ، فمن يرافق عمرياً لا يخشى إلا الله .. كفى طول أمل .. رائع للغاية ابن أخي ! لقد قلب حياتي رأسا على عقب في ليلة واحدة عرفت منه لماذا خلق الله المال ؟ ! .. الحلال طيب يا عزيزة .. اذهبي اغتسلي وتوبي إلى الله .. اذهبي لإنعام لتعلمك الصلاة والتوبة "

فقالت عزيزة باستغراب : " مالكم ؟ ! أذهبتم إلى ساحر ؟ ! .. فأنت مذهول بابن أخيك ! وأنعام مفتونة بزوجة ابن أخيك وحماتها ! .. وها أنت لا تسأل عن غضب ناصح بل تتركه

ينصرف غاضبا ولم تلحق به معتذرا متاسفا ؟ ! "

فقال وهو يهز رأسه وقد أدرك أن هذه أول مرة لم يبال بردة فعل أخيه: " يا عزيزة ! لم يبق من العمر بقية ، ولو لم أفعل ما أردت قبل أخذ الإذن من ناصح ، فلن يقبل ، ولم أذهب ، وقد أخسر نفسي وإنقاذ روحي من النار .. اذهبي يا امرأة وافعلي ما طلبته منك لم نعد صغارا يا عزيزة "

فقالت عزيزة وهي تغادر الحجرة : " ماذا جرى لهؤلاء الناس ؟! .. ناجح يريد أن يصلي .. الله أكبر .. إن هذا لشيء عجيب .. نحن لو لم نر أنعام تصلي في هذا البيت بعد ترملها لحلفت وأنا صادقة أنني ما شاهدت أحدا يصلي في هذا البيت منذ خمسين سنة أو ستين سنة ؟ ! هذا مفتون بابن أخيه وتلك مفتونة بزينب وحماة زينب ! "

وقد جلست في الصالة تدير في ذهنها الصور الأخيرة التي مرت عليها خلال الأيام الأخيرة ، وسمعت أنعام تقول بنبرة فيها تهكم كما بدا لها : " هل غضب عمي ؟ "

التفتت إليها وقالت : " ألم تسمعي صراخه وسبه وشتمه وهياجه ؟! .. إنه ناصح إذا غضب وأنا خائف على أبيك منه .. ناصح حقود وحسود ولا يغفر الأخطاء .. والمصيبة أن أباك غير مكترث لسخطه وغضبه .. ولم يلحق به لإرضائه والاعتذار إليه كما تعودنا .. يبدو أن عمريا سحركم وقلبكم على ناصح "

ضحكت أنعام لسذاجة أمها وقالت : " وهل عمري ساحر أو حاوي يا أمي ؟! .. ذهب أبي الطيب لمصالحة ابن أخيه والاعتذار عن ذلك اليوم السيء ، ثم تشجيع عمري ابن أخيه على مصافحة أبيه .. وتحقق ذلك فقد سامح الرجل أبي ، ووافق على أي لحظة يسمح له والده بلقائه .. إنه راض بالصلح وتقبيل يدي والده .. وفرضت أخلاق عمري الحسنة نفسها على أبي .. أم صالحة .. ابن صالح .. زوجة صالحة .. أولاد صالحون .. أنت تعرفين من هو عمري قبل توبته ؟ .. وتعرفين مريم أيضا ؟ .. أما زينب فهي صالحة من بيت أبيها فقد ربيت على الإيمان والتقوى منذ نعومة أظفارها .. وفقهم الله وأسعدهم الله في الدنيا والآخرة "

فقالت على استحياء ورهبة : " أبوك يطلب مني الاغتسال والصلاة "

ـ " افعلي يا أماه .. وهل أنت طفلة ؟ ! ألم تشبعي بعد من متع الحياة وزينتها ؟ ! "

ـ " إني خائفة ؟ "

ـ " خائفة ؟ ! .. خائفة بما ستقول عنك العجائز .. كل واحدة مشغولة بنفسها يا أمي .. هيا أعلمك الاغتسال للعبادة "

ـ " وهل أنا لا أعرف الغسل يا شيخة ؟ ! "

ـ " لا .. غسل العبادة يختلف عن غسل النظافة العبادة لها أركان وواجبات وسنن وآداب "

رن جرس الهاتف فمشت عزيزة نحوه وردت : " آ .. نعم أهلا ناصح .. إنه نائم .. حقك عليّ تعب السفر .. لا ، لم يتغير إنما هو تعبان .. لا تزعل حقك عليّ .. مع السلامة "

وضعت السماعة وقالت : " عمك صدره كالمرجل على ناجح يقول " والله يا عزيزة صار زوجك لا يهتم ولا يسأل عن غضبي ونكدي " أسمعت ؟ أيعجبكم هذا ؟ "

فقالت أنعام بأسف : " مسكين عمي ! "

فقالت عزيزة : " أنا خائفة على أبيك من جنونه "

فقالت أنعام غامزة : " امرأته الشقراء موجودة "

فقالت عزيزة وقد عاد لنفسها بعض الاطمئنان عندما ذكرتها أنعام بزوجة ناصح الشقراء كما يسمونها : " صدقت .. عندي زيارة للست سعدية "

ـ " الدكتورة ؟! .. لمَ ؟! "

ـ " زيارة روتينية .. لا تقلقي لإجراء الفحوص الضرورية والاطمئنان على صحة القلب .. ومن ثم شراء الأدوية اللازمة هل تذهبين معي ؟ "

ـ " لا .. خذي نوالا .. إنني أريد النوم فرأسي فيها صداع مؤلم "

*****

كان السيد ناجح قد ترك ممارسة العمل منذ سنوات ، فقد دهمه مرض فسافر للخارج للعلاج ، ولما عاد معافى أعفاه ناصح من الدوام والعمل في المكاتب ، فهو له أكثر من خمس سنين لا يتردد على الشركات والمكاتب إلا كزائر وضيف ، ويتابع أعماله بواسطة ابنه صابر،

فلذلك وجد أن كلام عمري عن التوبة وترك السيئات غير أنه حاجة ملحة له فقد وافق هوى في نفسه ، فلذلك تحمس للصلاة .. وأخذ يتردد على المسجد القريب من منزله ، ولما علم ناصح بهذه الأفعال زاد حنقه وغضبه على أخيه بل طلب من عزيزة أن تحثه على الذهاب للعمل وأن الشركة بحاجة إليه .. ولما علم ناجح بهذا غضب من أخيه ، واتصل به وطلب مقابلته ، ولما التقيا دار بينهما حوار حاد ومتشنج هدد على أثره ناجح بالانسحاب من جميع الشركات والمصانع .. فلم يتردد ناصح بقبول ذلك .. فقد زاده الحقد ضلالا ، فطلب من فريق المحاسبة على الفور إعداد أوراق الفسخ فسخ العقود المشتركة بينهما ، فتحدث ناجح مع ابن أخيه حول ذلك ، وأن والده يصر على العداوة ، ولا يريد الصلح معه الآن بل يحاربه لأنه سعى في ذلك ، فطيب عمري خاطره ، وطلب لقاءه في مكتبه يوم الخميس في شارع قطز قص ناجح على ابن أخيه القصة منذ التقيا بالريحانة ..

فقال عمري : " أنا معك يا عم ! ولست ضد أبي أيضا .. فأنا أعرف أبي وعناده وقسوته إذا قسى .. ألا يقبل الاجتماع بي ؟ "

ضرب ناجح رقم هاتف الشركة وطلب من عاملة المقسم السيد ناصح ولما رد عليه قال : ابنك يريد مقابلتك الآن "

كان عمري يسمع السب والشتم من جهة أبيه ، ثم إغلاق السماعة بغضب فوضعها ناجح بحزن وأسف وقال : " آسف يا ابن أخي .. يقتلك إن اقتربت من أبواب ومكاتب الشركة .. ويقول لي إن العقود الجديدة جاهزة "

فقال عمري : " تصرفات غريبة .. على كل حال الصبر مفتاح الفرج .. تصبر يا عمي ! .. فالقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء .. وأنا جد آسف لما سببته لك من متاعب وعداوة أبي "

فقال ناجح : " أبدا يا ولدي أنا أتيتك برغبة مني ، ولا تظن أنني حزين على فسخ عقود الشراكة والشركات .. أنا لم أكن أحب أن تكون هذه النهاية وبهذه الصورة القذرة بين أولاد الخابي .. لكنك أنت الآن أملنا ورجاؤنا .. أنت ابن مبارك .. سأعود للبيت ، وأحب أن تذهب معي للغداء ، وتلتقي مع ابن عمك صابر ، فهو منذ حدثت هذه المشاكل وهو

معتكف وحابس نفسه في البيت ، ويلومني على زيارتي إليك بدون موافقة ناصح .. اعمل خيرا تلق شرا "

اتصل ناجح بالبيت وتحدث مع عزيزة ثم قال لابن أخيه : " هيا "

تحدث عمري مع السكرتير أحمد والدكتور يوسف حسان وذكر لهما رقم هاتف منزل عمه ، وكان ناجح قد ركب سيارته فأشار عمري لسائقه وحارسه وطلب منه السير وراء سيارة عمه ناجح ، وخلال نصف ساعة كانت السيارتان تقفان أمام الفيلا ، توقف عمري قليلا أمام الفيلا قبل أن يدخل من الباب كأنه يتذكر سنوات مضت وقال : كم من السنوات مضت لم أطرق هذا الباب يا عماه .. أما زال عميش عندكم ؟

سلم عمري على البواب أو الحارس عميش الذي لم يعرفه ابتداء ، واستغرب لدخول هذا الشيخ الملتحي مع سيد الفيلا ، فلما عرف أنه عمري ناصح عانقه ثانية عناق الأحبة والصداقة ودخل ناجح وخلفه عمري وسائقه وحارسه ، وكان عمري لا يحب اتخاذ الحرس ؛ ولكن بعد حادثة إطلاق الرصاص عليه في منزله في الريحانة طلبت أمه منه أن يكلف رجلا بحمايته مع اعتقادهم أنه لا يرد من القدر شيئا ؛ ولكن الأخذ بالأسباب لا يمنع من ذلك .. في مدخل الفيلا كانت تقف عزيزة في انتظار وصولهما .. فلما شاهدت عمريا اضطرب قلب عزيزة هيبة من رؤيته .. فلما وصلوا إليها حياها عمري بتحية الإسلام وأشار لها بيده ، وأخذ يسألها عن صحتها وحالها ، وهي ترد بانبهار ورهبة وتقارن بين عمري القديم الشاب وعمري الشيخ الكهل ، ولما دخلوا صالة الاستقبال وجلسوا على المقاعد أتت الخادمة بالقهوة العربية المرة .. فأخذ السائق الدلة " تيرموس " منها ، وسكب للجميع ، وكانت الخادمة تحيي السيد عمري وتسأله عن أمه وأخواته ،فهي منذ الصبا وهي تعمل لدى الأسرة ، ولما شربوا العصير وحدث عمري امرأة عمه عن أخبار أمه وأنها تهديها السلام والتحية وتدعو لها بالخير والإيمان ، واستأذن السائق والحارس بالخروج والانتظار في السيارة ، فأذن لهم عمري وناجح ثم قال ناجح : " أين صابر يا عزيزة ..ألا يريد تحية ابن عمه ؟ "

فقالت وهي تنهض :" سأصعد إليه .. فالمسكين منذ بدأت المشاكل وهو لا يخرج من الغرفة

فقال عمري : " أزمة وستمر يا امرأة عمي !.. وليس إغلاق شركة أو خسارة مشروع نهاية العالم .. ونحن أهل .. ولديّ بفضل الله سبحانه كما يعلم عمي مشاريع ضخمة في العاصمة وهي بحاجة لرجال طيبين مثل ابن عمي صابر .. لا تبكي يا امرأة عمي .. نحن أقارب وبيننا صلة رحم .. وأبي يتصرف بعصبية وغطرسة .. وإنا قبل أن نأتي إلا هنا تحدثنا معه لأزوره .. فرفض وهددني بالموت أليس كذلك يا عمي ؟ "

ـ " بلى .. ولا أدري لماذا يتعامل معنا بهذه الصورة المخيفة ؟! .. ابن يريد مصالحة أبيه لماذا يعقد الأمور ؟ ! "

ـ " الله أعلم ، الأيام ستظهر سبب شدة هذه العداوة .. توكلي على الله يا امرأة عمي وأرسلي لنا أخانا صابرا فأنا مشتاق لرؤيته "

ولما انصرفت الأم للمجيء بولدها الوحيد ، وأثناء ذلك دخلت نوال وأنعام فألقتا السلام على أبي محمود وقالت نوال : " كيف أنت يا عمري ؟ "

فرد بحياء وهو ينظر إلى الأرض : " بخير يا ابنة العم كيف أنت ؟ " كيف حالك يا أنعام ؟ فردت كلاهما أنها بخير ، وسألته أنعام عن أمه وزينب والأولاد وبدرية وزوجها وقمرية وجبر ، وعمري يرد عليها بإيجاز ، ثم أخذت نوال تعتذر عما سلف منها معه قديما فقال : " أوه .. هذا شيء ذهب مع الماضي يا غالية .. لولا الحساسيات لأتيتكم قديما .. فصلة الرحم مهمة في شرع الله .. أرجو أن تكوني سعيدة بحياتك "

فبكت وذرفت الدمع ، مما أدهش صاحبنا عمري فاستفسر فقالت أنعام : " لا تهتم بذلك يا أبا محمود .. هكذا هي "

فقال ناجح بغضب : " يا ابن أخي .. تريد الطلاق من زوجها بحجة أنه مخمور ولا يترك القمار .. وأنا لم أجبرها على الزواج منه .. فبعدما فارقتنا بسنة تقدم لها هذا الشاب نادر ، وهو من أبناء الأغنياء فهو غني بثروة أبيه وبثروته ، وفرحت به وسافر بها في عدة بلدان كما كانت تحلم، وهي تعرف أنه سكير ولاعب قمار قبل الزواج ، وكانت مقتنعة به وتظهر إعجابها به ، وأنجبت منه ولدا واحدا فقط ، ومنذ سنوات تدعي أنها تبغضه ولا تطيقه ، وأصبحت تقضي

أكثر وقتها عندنا ، وخصوصا بعدما ترملت أنعام ، ولا تذهب للبيت إلا باليوم أو الساعات ، فيتشاجران فترجع ثانية ، ويأخذ الرجل ابنه إلى أمه ، وينصرف للزنا والحانات والنوادي الليلية ، وتريد الانفصال عنه ، وهو لا يريد وكذلك أهله يرفضون الطلاق ولا أنا أرغب فيه أسف عمري لحالها ورثى لها ؛ ولكن مجيء صابر غير الموضوع، وتعانق أبناء العم ، ورحبا ببعضهما ، وأسفا لتدابرهما كل هذه السنوات وأبدا كل منهما عذره ، وبدأ الحديث عن صابر وغضبه من أبيه لإغضابه عمه ناصح ، وتكلم عمري بأحاديث كلها أمل وتفاؤل وحب، وأن الأمور كلها بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ويفقر من يشاء ويغني من يشاء ، وتحدث عن الرزق مما ترك أثرا حسنا على نفس وروح صابر ، فاندفع للبكاء وأن يعترف قائلا : أنت عظيم يا عمري ! .. لقد كافحت وصنعت لنفسك أمرا عجزنا عنه .. مع ما نملك من رأس المال والثقافة "

فرد عمري : " أشكرك ، فهذا كله بتوفيق الله وليس بشطارتي .. أليس هو الذي يلهمنا الأفكار الصائبة ؟ .. أنا إنسان فرد ولكن الله هو الذي وفق لي أصحابا ورجالا قاموا معي بإخلاص وتفان حتى تحقق هذا النجاح الذي تراه أو تسمع عنه .. فكل الفضل لله وحده .. هو يدبر الأمر وييسره سبحانه .. ونحن ندعوه ونسأله أن ييسر لنا الخير حيث كان ويديم علينا النعم ويحفظها بفضله ومنه وبركته عز وجل "

كانت نوال جالسة بينهم - وقد كفكفت دموعها - تسمع وهي مفتونة بكلام ابن عمها ، وتنظر لإنعام بطرف عينها كأنها تقول لها " إنك على حق بوصفك أن عمريا معجزة .. فهو في قمة التواضع والأدب وحتى النظر "

ولما شرع صابر يستسلم لأفكار وخواطر عمري ، قالت الأم : " هيا يا بنات ! فأم أحمد تقول أن الطعام قد جهز "

فنهضت البنات وأمهن من المجلس ودخلن المطبخ .. وكانت عزيزة تقول لابنتيها : " هل هذا عمري ابن مريم يا أنعام ؟! "

فهزت أنعام رأسها ضاحكة ، وكانت تضع الأواني على مائدة المطبخ لتملئها بالطعام الذي

أعدته الخادمة أم احمد : " نعم هو عمري يا أمي ! .. ابن مريم .. لا يتحدث إلا عن الإيمان والذكر وحتى أثناء حديثه عن المشاريع يكثر من ذكر الله وأسماء الله وفضل الله وتوفيق الله وبركة الله ورضا الله وحب الله .. هذا عمري الخابي ابن عمنا ناصح ! "

فقالت نوال : " يصلح أن يكون طبيبا نفسيا .. صابر لم يبتسم منذ شهر .. منذ عاد أبي من الريحانة "

فقالت عزيزة :" لا أكاد أصدق أن هذا الولد الشقي عمري الذي عرفناه .. لقد كنت أسمع شكاوي أمهات البنات لأمه من عبثه وطول لسانه وقذراته مع بناتهن ..سبحان مغير الأحوال ! .. إيه والله يا نوال لقد أفلت زوج باهرا من بين يديك "

فقالت نوال : لم يفت الوقت يا أمي طلقوني .. ولسوف أجد ذرة حب في قلبه .. إنه يعرف أنه كان فارس أحلامي أيام الصبا "

فقالت عزيزة : " إنه متزوج .. وزوجته تحبه ويحبها .. وهي أحلى امرأة في الدنيا كما نسمع أترضين أن تكوني ضرة ؟ "

ترددت قليلا قبل الإجابة وقالت : " قد أقبل يا أمي عزيزة "

فضحكت أنعام وقالت : " الله أعلم !! "

صابر يستريح

كان من عادة عمري عندما يعود من سفر أو من العاصمة إذا دخل البيت تراه يبدأ بحجرة أمه فيسلم عليها ويقبلها وتقبله ، ويطمئن على صحتها ، ويجلس متحدثا معها ، وبعد حين تأتي الزوجة والأولاد فيسلمون عليه ، ويجلسون في حجرة الجدة مريم ، فلما سألته أمه عن أخبار الأهل والأقارب في العاصمة قال : " الأمر لا يسر يا أمي!.. فأبي تشاجر مع عمي بسبب زيارته لي ومحاولته الإصلاح بيننا " وقص عليها مشاكل عمه مع طليقها ، ولما وصل الكلام للقتل قالت الأم باستغراب : " ولماذا كل هذه الحماقة ؟ ! "

فقال بحيرة : " لا أدري يا أماه ، أنا ابتداء ظننت أن عمي أتى بتصرف وحركة من أبي لمعرفتي الشديدة أن عمي العزيز لا يفعل شيئا إلا بإذن أخيه الأكبر سيد العائلة .. أنا رغم معرفتنا بكره أبي الشديد لزوج عمتي رباب ورباب نفسها لم أكن أتصور أن تكون العداوة والحقد والبغض في نفسه إلى هذا الحد الكبير "

فقالت : " كبر .. أبوك حقود .. أنا أعرف الناس به .. واستغفر الله من زلة اللسان ومن الغيبة ولكن القتل أمر مخيف يا ولدي .. لا تذهب إليه، لا تغامر قد يفعلها بحمقه "

ـ " إنني قلق .. هل تركت هذا السنين جرحا حادا في قلبه لهذا الحد عليّ .. أنا فكرت قديما وحديثا أن أتصالح معه ؛ ولكني أعرف بطر أبي للحق وعجرفته "

ـ " الأيام يا بني دواء لكل الجروح هو لم يحاول البحث عنك يوما ما "

ـ " أخشى أن يسيء لعمي أكثر فأكثر .. فالسيد صابر حزين مما حدث ، وأخشى أن أمد له يد المساعدة فيشتد حقد أبي علينا ، ويتصرف تصرفات حمقاء تفسد كثيرا ، وفي نفس الأوان لا أريد أن أدع عمي وابنه في هذه المحنة ولا أقدم لهما المساعدة والعون .. لا يجب أن يبقى صابر من غير عمل ، قد يجن فهو رجل هادئ ، ويحب الروتين ، فقد تعود على الخروج صباحا والعودة مساء منذ عشرات السنين هل من حل يا أمي ؟

ـ " سيلهمك الصواب والحق مولاك العظيم يا عمري .. ماذا فعلتم بالفيلا القديمة ؟ "

ـ " نعم ، لقد تم هدمها ، وقريبا سنبدأ بالبناء فقد أعد مكتبنا الهندسي الرسومات والتصاميم

المناسبة وستكون الفيلا تحفة فنية وواسعة يا أمي إن شاء الله "

فقالت الأم بسرور وإعجاب بولدها : " الجميل فيك يا عمري رغم المشاكل والقضايا الشخصية التي تعصف بك أن أعمالك لا تتوقف ! "

" أشكر ثقتك بي يا أمي فلدينا رجال مخلصون ـ جزاهم الله خيرا ـ يفرقون بين العمل والقضايا الشخصية .. والحمد لله كثيرا .. التفاهم والألفة والتوفيق بيننا "

فدعت الأم قائلة : " دامت المحبة بينكم "

ـ " خلال أشهر يسيرة سيتم البناء الجديد .. وسوف ننتقل للعاصمة الكبيرة كما اتفقت مع الدكتور يوسف حسان ، وسنجعل ثلاثة أيام في الشهر نقضيها في الريحانة في بيتنا هذا .. حتى تكتمل مشاريعنا في العاصمة وتستقر ، ثم نختار المكان الأهدى للاستقرار والراحة بمشيئة الله .. فدراسة الأولاد في العاصمة ستغير من نمط الحياة بضع سنوات "

كانت الزوجة زينب والخادمة أم مالك قد أعدتا مائدة الطعام ، فنهض الجميع إلى غرفة الطعام فأكلوا ما قسم الله لهم من الرزق والطعام والشراب ، وجلسوا يشربون الشاي والعصير كل حسب رغبته وصحته، ويتحدثون في أحوالهم ومشاكلهم وأحلامهم ، ثم انصرفوا للنوم آمنين ولربهم شاكرين حامدين .

التفكير يشغل قلب وبال عمري ، كيف يتجنب الصراع مع أبيه ؟ وفي نفس الوقت يكسب عمه التائب والذي رمى حمله عليه ، وهو لا ينقصه المال ؛ ولكنه يريد عملا لابنه صابر الذي صدم من أفعال أبيه معهم ، فوفقه الله إلى فكرة تتلخص بشراء مصنع من غير أن يظهر هو في الصورة ، هو ولا كبار أصدقائه وشركائه في المشاريع المختلفة ، فتحدث مع عمه في الفكرة ، وطلب منه عدم الحديث عن دوره أمام النساء أو حتى صابر نفسه ، فاقتنع ناجح بفكرة عمري وأظهر امتنانه وقال : " فكرة صائبة .. فوالدك قد جن .."

تم شراء مصنع كبير بملايين الدنانير بمواده وعماله ، وكان ناجح وصابر هما اللذان يتحركان أمام الناس ، وعمري وفريق العمل معهما من وراء الكواليس ، وتم نقل ملكية المصنع إلى السيد ناجح وشريكه ابنه صابر ، وتسلم صابر إدارة المصنع الضخم .. ولما وصل

الخبر لناصح أصابه الذهول فقد حاول قديما شراء هذا المصنع ففشل ، فكيف استطاع أخوه شراءه ؟ فأرسل رجاله وأعوانه وعيونه فلم يصلوا إلى ما كان يرجوه ناصح من أن لعمري يدا في الموضوع أو لأعوانه ، وقد حاول معرفة ذلك عن طريق عزيزة ، فأنكرت بشدة أن لعمري يدا في عملية الشراء ، بل أظهرت امتعاضها منه ، وأقسمت على ذلك ، وتحدث ناصح مع صابر مباركا ومتعسسا ، فأكد صابر عدم تدخل عمري في الموضوع ، وقال له : " هي جهود أبي وعلاقاته القديمة قبل تقاعده في البيت "

لم يطمئن ناصح بل ظل الشك في قلبه ، فهو يذكر كم محاولة بذلها لأصحاب المصنع حتى يتملكه ، وكانت عزيزة ونوال تظهران الغضب أمام ناجح على ابن أخيه عمري فيقول : " يا عزيزة .. عمري ابن ناصح .. عليك أن تفهمي ذلك ، فهو بين نارين زعلنا وزعل أبيه .. ها أنت ترين اتصالات ناصح لما علم بشرائنا للمصنع ؛ لأنه حاول كثيرا تملكه وفشل .. فقلت لابن أخي دعنا نتصرف وحدنا فتصرفنا "

أما أنعام فقد كانت تحس وترى أن عمريا له يد في شراء صابر للمصنع ، وأدركت كما أدرك والدها من قبل ثقل عمري في السوق ، واستنتجت أنه لا يحب أن يظهر في الصورة حتى لا يزيد من غضب وكره والده نحوه ، وصارحت أباها بذلك ، فابتسم واضطر أن يقر بفطنتها وطلب منها عدم التحدث بذلك أمام أحد سواء أمها أو أخيها أو أختها ، فوعدته بالصمت ، فكانت نوال تتعجب من ثبات أنعام على مدحها لابن عمها كلما يتحدثون عنه أو تأتي سيرته عرضا في أحاديثهم فكانت نوال تقول : " رغم حاجتنا لمساعدة عمري خلال الأيام الماضية في شراء المصنع فابتعد عنا مدعيا أنه لا يستطيع مساعدتنا للحساسية في الموضوع

فقال أنعام بهدوء : " أليس هو أباه ؟ وأبوه يريد أن يظل علينا واليا وسيدا، ونحن لن نتمكن من تدبير أمرنا بدونه .. أليس هذا ما يهدف إليه ناصح من حربه علينا ؟ "

ـ " إنك تدافعين عن عمري بحماس وتعاطف كبير.. ما بينكم ؟ ! "

ـ " ماذا تقصدين ؟ ! "

ـ " أقصد هل عمري شريك لنا في المصنع ؟ "

ـ " لا .. فالمصنع باسم أبي وصابر فقط "

ـ " أنا غير واثقة بكلامكم .. فأبي ما زال محبا ومعجبا بعمري .. وأنت كذلك ، وهذا ما يثير قلقي واستغرابي اصدقيني القول هل من مؤامرة ؟! "

ـ " لا .. ستثبت لك الأيام غير ما تظنين .. وعمري اعتذر لأبي كما تعلمين من التدخل في الصراع القائم بين أبي وأخيه وقد قبل أبوك العذر .. وعمك هو رحم عمري "

*****

ولما علمت امرأة ناصح الشقراء بما حدث بين الاخوة حاولت التدخل ، فمنعها ناصح من ذلك وقال بحدة وسخط : " أنا لا أحب تدخلك بيننا ، وقد انتهى ما بيننا ، فقد فضل ابني عليّ .. وأنا نسيت ابني الذي تخلى عني منذ عشرين سنة .. أنا ليس لي أبناء .. فأرجوك ألف رجاء لا تحشري نفسك بيننا .. أنا لا أهل لي "

أخذت الأرملة الشقراء توبخه وتذمه وقالت في النهاية : " ماذا فعلت لابنك عندما هرب ؟ لم تبحث عنه ؟ ادعيت أنه سافر للعلاج ألم يحصل ذلك ؟ أنا لن أتدخل بينكم ؛ لأنك رجل أحمق وأصلا أنا لا أحب كل أقاربك ولا أطيق رؤيتهم والحديث معهم "

فقال : " جيد هذا جيد .. فلتظلي في مشاريعك وأوهامك وأحلامك أنت في واد وأنا في واد أنا بدأت أكرهك "

ضحكت وصرخت فيه : " تكرهني !! فأنا أكرهك منذ أصبحت ظلي يا رجل .. أنت رجل غبي .. إنني لا أدري كيف وافقت أن أكون لك زوجة؟ "

فأظهر غضبه عليها وغضبت هي الأخرى وتطاير الكلام البذيء بينهما ، ثم قالت : " أنا مسافرة .. سأغيب عدة أسابيع .. فحل مشاكلك مع أخيك .. وأرجو أن لا أسمع أحداً يتحدث بهذه المشاكل أمامي .. "

ـ " أين ستسافرين ؟ "

ـ " لا يهمك أين سأسافر ؟ "

ـ " مع من ؟ "

□□□

ـ " مع نفسي "

ـ " أخشى أن أخنقك بيدي هاتين .. للصبر حدود يا ملعونة "

" أنت رجل هرم خرف .. منذ البداية وافقت وحلفت أنك لا تسألني مع من أجلس مع من أسهر مع من أسافر "

ـ " أنا لست حيوانا "

ـ " بل أنت أكبر حيوان "

ـ " إنك شر امرأة عرفتها "

ـ " ها أنت تدين نفسك بلسانك .. فكما سمحت لنفسك بالنوم مع العشيقات .. وأنا أعرف أغلب الشقق التي تقضي فيها شهواتك الحيوانية .. فأنا أسمح لنفسي بالجلوس والنوم مع المعجبين بي وعشاقي "

كان يضغط على شفتيه من القهر والغل ؛ ولكنه يدرك أن كلامها صحيح ، ألم تدخل عليه ليلا في إحدى الشقق وقد وجدته مع صبية صغيرة قد استطاع إقناعها بالفاحشة والزنا ؟ .. فعاد يقول مستسلما : " افعلي ما شئت يا ابنة الملاعين والشياطين "

فقالت : " نظف نفسك قبل أن تنظف غيرك "

لقد أدمن الرجل رغم شيخوخته على ارتكاب الفواحش وزيارة علب الليل ونوادي الليل وتصيد الفاجرات وبنات الهوى ، فلذلك كان يخاف من عودة عمري إليه يخاف على هذه المتع والملذات .. فأشياء كثيرة يخافها من مصالحة ولده .. ولكنه مقهور ومغلول من نجاح ولده وكثرة مشاريعه، وتردد اسمه على الألسن رغم حداثة سنه في العاصمة .. وكان يعرف كثيرا من عشاق زوجته الشقراء ويجالسهم على مضض ويتظاهر بالانفتاح وعدم الضيق والغيرة .. ولكنه جبان ..

*****

مضت سبع سنوات أخرى وقد هلك في آخرها السيد ناجح ، وقد هداه الله في آواخر عمره على يد ابن أخيه ، وكانت عزيزة قد عرفت دور عمري في شراء المصنع لولدها صابر ،

وكذلك صابر عرف ، اعترف أمامهم ناجح بعد سنوات بجهود ابن اخيه ، ووصاهم على محبته والسير في ركبه .. وقبل الموت طلب وترجى ناجح ابن أخيه أن يتزوج من ابنته الأرملة أنعام ، وقد وافق عمري على ذلك ؛ ولكنه أجل ذلك بعد شفاء عمه ؛ ولكنه كان مرض الموت .. ولما انتهت فترة الحزن تحدث عمري مع عزيزة وأنعام عن موضوع الزواج وخيرها بالبقاء على ذمته أو الفراق ، فقبلت بالزواج منه وتحقيق رغبة ابيها والحياة معه في الفيلا ومع زوجته زينب المحبوبة التي لم تمانع بهذا الزواج .. وكان زواجا بسيطا حفلا صغيرا في الفيلا ، فانتقلت على أثره أنعام وبناتها للحياة مع عمري وأمه المريضة وزوجته زينب .. وكان محمود الابن البكر لعمري قد أنهى دراسته الجامعية وأصبح طبيبا ، والبنت الكبرى على الطريق وسافر محمود لأوربا للتخصص والدكتوراة فزوجه أبوه قبل سفره .. ورفض ناصح خلال هذه السنوات السبع كل التدخلات للجمع بينه وبين عمري ، ورحل لأمريكا وأمضى فيها سنة يتداوى ويتعالج .

كان عمري يتمنى أن يصحب أباه معروفا في آواخر حياته ، وقبل رحيله إلى أمريكا للعلاج تحدث عمري مع أكثر من صديق لوالده ليسمح له بمرافقته في رحلة العلاج ، فأبى وأصر على السفر وحده ؛ لأن زوجته الشقراء رفضت السفر معه ، فهذا ما كان يقض مضجع عمري يومئذ .. وخلال السنة التي مضت لم ييئس عمري من المحاولات ، لقد كان على اتصال دائم بالممرضة الخاصة التي رافقت أباه ويطمئن عليه منها ، وقد حاول الحديث معه مرارا بواسطة الهاتف في لحظة ضعف ؛ ولكنه كان يصرخ في وجه الممرضة ويهدد ويتوعد بالويل والحقد .

كانت حياة السيدة أنعام مع زوجها الثاني حياة طيبة وهادئة ، وكانت ترى زينب أختا وصديقة لها فهما متقاربتان في السن ، لم تشعر بأنها ضرة لها ، وحتى بناتها الثلاث لم يشعرن باغتراب أو إحراج أو ضيق في بيت الأسرة الكبيرة ؛ ولكن الفتاة الكبرى سهاما كانت قد اقتربت من إنهاء دراستها الجامعية ، وكانت تظهر امتعاضها وألمها من اللباس الإسلامي ، فهي لم تلبسه إلا عندما تزوجت أمها من ابن عمها عمري .. وكانت لا تتحمل سخرية بنات العائلات وزميلات الجامعة من لباسها المحتشم .. وكانت تحدث بينها وبين أمها المشاجرات حول ذلك الأمر .. فالسيد عمري لا يتهاون في مسألة اللبس ، فكل بناته وبنات أختيه قد أصبح هذا اللباس لديهم أمرا طبيعيا ، أما سهام كبرى بنات أنعام لم تستطع الانسجام معه .. فكانت تتذمر منه كثيرا .. حتى فكرت أنعام أن تعيد ابنتها للحياة مع أمها عزيزة لتحررها من ذلك الحرج والضيق .. فالتربية ابتداء لم تكن إسلامية .. فمن المعروف أنهم أسر متحررة في هذا الأمر .. وإذا لم تقتنع الفتاة المتبرجة اقتناعا عقليا ووجدانيا فلن تستمر على ذلك .. وكان ذلك يزعج أنعام ، وكان عمري يشعر بذلك الحرج والضيق ؛ ولكن فتح هذا الباب فيه إثم وحرج، وأيضا لم يستجب لفكرة إرسال البنت الكبرى والوسطى للحياة عند جدتهم عزيزة .. فرقابة الأم لبناتها وأسرتها في هذه السن ضرورية وحاجة ملحة ، ورأوا أن الزواج هو الحل الأسلم لذلك ولكن أين الزوج المناسب ؟ .. لقد كان في سيرة حياة سهام شاب يدرس معها في الجامعة وفي نفس الكلية ، وكان بينهما ود متبادل ؛ ولكنه لم يتطور إلى علاقة

□□□

عاطفية حميمة .. صداقة كما يدعون ، وكانت الفتاة تخشى تطور ذلك إلى حب وغرام كما تفعل كثيرات من بنات الجامعة ، فزوج أمها رجل تراه متعصبا ومعقدا رغم حبها الكبير له ، فهي لم تنس ذلك اليوم الجميل عندما ذهبت مع جدها ناجح وأمها لزيارتهم في الريحانة ؛ ولكنها كانت صغيرة ابنة ثلاث عشرة سنة ؛ وكان زواجه من أمها كان مقبولا أيضا في البداية ومرحبا به .. فأنعام كانت معجبة بابن عمها وتراه الزوج المناسب لمن هي في سنها امرأة تجاوزت الأربعين .. هذا كانت الفتاة تدركه ؛ ولكن لما جاء الوقت كانت تدرس في الجامعة ، فعارضت ذلك الزواج ولكن بضعف ، إنها لا تريد أن تقف أمام سعادة أمها .. ولكن الذي كان يثير دهشتها أكثر حب خالتها نوال لعمري ، وكانت تريد الانفصال عن زوجها أملا في تحقق هذا الزواج والحلم القديم .. فشاء الله أن يلزم العم ابن أخيه وهو يموت بالزواج من ابنته الأرملة .. هذا كله كانت سهام تعلمه .

وكان صديقها في الكلية يضيق أيضا من لباسها الشرعي ويجعله مادة للسخرية والتخلف والعصبية .. فكانت حائرة وحتى أنه قال لها يوما : " يا سهام ! لو تخلعين هذه الثياب قد أفكر بخطبتك وأرتبط بك "

فتشرع بالحديث عن زوج أمها وتدينه ، وتظهر له المعزة في قلبها والاحترام ؛ وتخشى أن يرفضه بسبب عدم تقبله اللباس الشرعي ، فيتعجب من ذلك ويقول : " أدبك رائع يا سهام وأخلاقك مع الشباب رائعة أيضا ، أهلي وخصوصا أمي لو تسمع أنني أرغب أن ارتبط بفتاة تلبس ثوبا طويلا لـتضربني وتقيم الدنيا عليّ ،إن أختي منالا تحبك ومعجبة بك وبتعقلك "

ـ " هذا من لطفك يا فواز ! ومن لطف أختك منال .. أنا لو لم أكن أعيش عند زوج أمي لخلعت هذه الثياب .. فأنا غير محب لها ؛ ولكن أمي تجبرني على ذلك ، وبنات خالتي زينب ضرة أمي يلبسن اللباس الإسلامي الشرعي "

فيقول : " على كل حال لنبقى أصدقاء .. السنة نتخرج من الكلية فتبدأ حياتنا العملية فلربما تيسر لنا الزواج يا سهام .. فالبنات كثيرات معنا يا سهام ولكن جمالك وأدبك جذاب "

ـ " أذكر أنك قلت سابقا أن والدك يجب أن تدرس الماجستير والدكتوراه مباشرة بعد

البكالوريوس "

ـ " هم يريدون ذلك ، وأما أنا أفكر بالعمل مباشرة والاستراحة من الدراسة .. مللت لي ثماني عشرة سنة أدرس يا سهام ألا يكفي ؟! "

ـ " أنا أيضا بدأت أفكر بدراسة الماجستير .. فخالي صابر قال " ستعملين معنا وسيسمح لي بالدراسة على نفقته أيضا "

ـ " خالك هذا رائع يا سهام ! "

ـ " شكرا لك أيها الصديق .. أفكر أحيانا بالحياة مع جدتي وابنها صابر ، ولكن زوج أمي يبدو لي أنه يعارض هذه الفكرة .. لذلك أمي لا تحبذ ذلك ولا تريد إغضابه .. فهي تراه ملاكا يمشي على الأرض "

ـ " هذا تعصب وتشدد "

وأخذ الشاب يعيب على الشيوخ والمحجبات ، وتظهر سهام تأييدها وتعاطفها مع كلامه وتعليقاته الحادة .

كانت أنعام ترى زواج سهام حلا مناسبا ، ولكن من أين يأتي هذا الزوج ؟ .. وهل يوافق عليه عمري الشيخ المتدين ؟ .. لذلك كان يراودها شعور بالندم أحيانا من موافقتها على زواجها من عمري ، وترى أنها نسيت البنات في غمرة ميلها لابن عمها ، فتشجع نفسها لتطلب منه الطلاق ، ثم تضعف عن ذلك ، وكان هذا الهدف قد كبر في وجدانها عندما علمت أنها لن تحمل منه فعندها ضعف شديد في المبايض ، ومشاكل أخرى في الرحم ، وكان عمري مشغولا عن فهم ظروفها لاهتمامه ومتابعته لصحة والده ، ولديه إحساس أن والده قد يفارق الدنيا قبل أن يتسامحا ؛ وأما زينب الذكية كانت تدرك ما عند أنعام من هموم وصراع داخلي ، وهي حائرة بالخطوة المناسبة لأن أي حركة خاطئة ستدمر البيت ، وتثير حولها الشبهات والغيرة والحسد من ضرتها ، فكان جل اهتمامها تلك الأيام برعاية أمها مريم التي لم تعد تستطيع مفارقة السرير وحدها ، لها سنوات تعاني من أتعاب وأسقام الشيخوخة المبكرة .

وتخرجت سهام من الجامعة وفرحت أمها لها فرحا كبيرا ، وأقامت لها حفلة جميلة في الفيلا ،

سمح لها عمري أن تدعو لها كل من تشاء من صاحبتاها ورفيقاتها وأقارب أمها وجدتها عزيزة ، وحاولت سهام أن تدعو بعض أصدقائها الشباب ، فرفضت أمها بشدة هذا الأمر ، ولم يشارك في الحفلة إلا النساء والفتيات من أقاربها وبعض زميلات الجامعة ، وقد تألمت وحزنت سهام من ذلك الموقف المتشدد ، كانت تود وتطمع بحضور فواز لهذه الحفلة ليتـعرف على أمها .. وقضت سهام بعد الحفلة ثلاثة أيام مريضة ومرهقة بدلا من الفرح ، وحضر الطبيب من أجلها ثلاث مرات .. حرارة صداع عدم رغبة في الطعام ، وقد احتار الطبيب في تشخيص المرض ، وأخذ يفكر بعمل التحاليل المخبرية لها ..

وتحدثت زينب مع أنعام فقالت : " ألم تعرفوا بعد سبب المرض يا أنعام ؟ "

فقالت بحزن : " للأسف فالطبيب لم يقل شيئا مهما .. ويفكر بإجراء تحاليل دم وبول وغير ذلك "

فقالت زينب : " اجلسي معها يا أنعام ! وتحدثي معها بصراحة فأنا أرى أن تعبها نفسي فعندها هموم ومشاكل شخصية "

دهشت أنعام لتحليل زينب فقالت : " ماذا تقصدين ؟ ! "

ـ " المفروض أن تقابل سهام النجاح والتخرج بفرح وسعادة ؛ ولكنها كانت حزينة يوم الحفلة ولم تكن مسرورة ومرحة "

ـ " لاحظت ذلك ، وأظن أن ذلك سببه عدم موافقتي على مجيء بعض زملاء الكلية "

" أحسنت يا أنعام .. كانت سهام ترغب بذلك ، فلابد أن سببا مهما دفعها لذلك ، ولما فشلت بتحقيق ذلك المطلب أصابها المرض والانهيار"

ـ " ماذا تقصدين مرة أخرى يا زينب ؟! "

ـ " أقصد أن هناك شابا في حياتها ربما كانت ترغب أن يتـعرف عليك بهذه المناسبة "

ظهر الضيق على وجه أنعام فقالت : " وما يدريك ؟ ! هل صارحتك بذلك ؟ ..لم تحدثني بشيء من ذلك خلال السنوات الأربعة التي مضت يا زينب "

فقالت زينب بهدوء وثقة : " لا .. لم تصارحني بشيء ؛ ولكن إصرار البنت على حضور

الشباب أو الزملاء تلك الحفلة ، وتشاجرها معك وإغلاقها الغرفة على نفسها عدة مرات محتجة يدل على أن في حياتها شابا و .. "

فصاحت أنعام وهي تظهر الغضب : " ولماذا لا يتـقدم لخطبتها هذا الشاب ؟ "

ـ " هذا ما يجب أن تعرفيه منها .. دعيها تفتح قلبها لك "

ـ " والله يا زينب أنت تتكلمين كلاما غريبا "

ـ " يا أنعام الطيبة ! .. بنت ليس عندها مشاكل عائلية خاصة .. وأسباب الراحة متوفرة لها فلماذا تبدو حزينة متألمة وسارحة ومهمومة؟! "

تبرمت أنعام وقالت : " تعالي يا زينب لنتحدث معها .. أنا حقيقة مندهش ومستغرب وأعجب من كلامك الغريب .. سهام تحب شابا ولم تخبرني بهذا ؟ ! "

ـ " اذهبي وحدك "

ـ " لا .. اذهبي معي "

سارت المرأتان إلى سرير سهام ، فقبلتها زينب ودعت لها بالشفاء والعافية ، وذكرت بعض أحاديث وأدعية عيادة المريض ، ثم قالت أنعام : " يا ابنتي لك ثلاثة أيام راقدة .. لا تأكلين إلا القليل .. والطبيب لا يرى تحسنا في صحتك هل أنت غاضبة من تلك الحفلة ؟ "

هزت رأسها نافية ذلك ، فتطلعت أنعام بزينب ثم قالت : " بصراحة يا سهام ! أمك زينب تقول إنك متضايقة ومتعبة لعدم موافقتي على حضور أصدقائك الحفلة ؟ "

فأغمضت عينها ولم تتفوه بكلمة فعادت أنعام تقول : " يا حبيبتي ! أنا رفضت ذلك لأننا لسنا في عالمنا الماضي .. وعمك عمري الطيب يضيق بذلك ، وأنت لست في بيت أبيك ـ رحمه الله ـ ولا في بيت جدك .. فالاختلاط هنا ممنوع .. وإذا كان لك صديق أو زميل يحبك ويرغب بك فليأت من الباب .. "

ففتحت عينيها وقالت هامسة : " كنت أحب أن يتعرف عليك إنه .. "

نظرت أنعام لزينب وهي مصعوقة وقالت مقاطعة بتوتر : " أحدثت خالتك بشيء من ذلك ؟ ! "

فقالت زينب : " لا .. أبدا يا أنعام .. يا حبيبتي يا سهام أنا أعرف الحيرة التي تعيشين فيها في هذا البيت .. هذا بيت طباعه وعاداته تختلف عن عادات بيت جدك ناجح .. ومن حقك أن تحبين وتهوين .. فإذا كان هذا الشاب يحبك حبا صادقا وراغبا بك زوجة فليتحدث مع عمك عمري أو أمك مباشرة "

فقالت الفتاة : " لم يصل بيننا الحب إلى هذه الدرجة يا خالتي ! هو صديق لي كان يسمح لنفسه بأن يحدثني عن الخطبة والزواج ولكن هناك أشياء أخرى .. "

فقالت أنعام بقلق : " حبيبتي سهام .. هل خنت ثقتي بك ؟ "

ـ " لا .. يا أمي .. أنا ابنتك ، لا يذهب عقلك لشيء قبيح "

فقالت زينب : " الحمد لله على سلامتك يا سهام .. تأكدي أننا نحبك ولا نضغط على حرية اختيارك .. فإذا كان الشاب فقيرا فنحن لا ننظر إلى المال "

فقالت : " لا .. بل هو شاب ثري .. أخ لمنال لقد عرفتك عليها يا أمي "

فهزت أنعام رأسها بنعم .

فقالت زينب : " تكلمي بكل آلامك لأمك يا حبيبتي.. فسوف يرتاح قلبك ويصح بدنك إنني ذاهبة إلى أم عمري "

فقالت أنعام : " أشكرك يا زينب ..والله أنا ما خطر في بالي مثل هذه الأفكار لأنها لم تحدثني يوما عن علاقتها بشاب "

فقالت الفتاة بحدة : " لا توجد علاقة يا أمي .. مجرد زميل "

ـ " حسنا .. مجرد زميل .. حدثيني عنه "

تركت زينب ضرتها مع ابنتها البكر ، ومشت نحو حماتها تشرف على أحوالها .

*****

فلما عاد عمري مساء من العمل ، وتعشى مع والدته كعادته ، وتحدث وسمر الجميع في حجرتها ، طلبت أنعام من زوجها الحديث على انفراد فاستغرب عمري طلبها ، فقالت موضحة السبب امام السامعين : " سأتحدث معك عن سهام "

فقال قـلقا : " قد مررت عليها ، فهي طيبة ، وأحسن حالا من أمس .. عن إذنك يا أمي "
فأشارت له برأسها أن " نعم ، اذهب " ، فخرج إلى مكتبه الواسع في الفيلا الجديدة ، فوجد ابنته عائشة التي تدرس في كلية الطب تجلس فيه ، فقال بعد السلام : " عفوا عائشة أنت هنا .. لماذا لا تجلسين في المكتبة ؟ "

ـ " أهلا أبي الحبيب ، وعليكم السلام .. أهلا خالتي .. أحببت الجلوس هنا يا أبي "

ـ " أتسمحين لنا بالحديث هنا وحدنا ؟ "

أخذت تلملم الكراسات والأوراق والأقلام وقالت : " أنا آسفة "

ـ " المكتب تحت أمرك ؛ لكن خالتك أنعام تريد أن تحدثني بموضوع خاص فهذا سبب إزعاجنا لك "

فقالت وهي تبتسم : " أبدا .. إنما هو تغيير جو ، أنت تعلم أنني أحب القراءة والجلوس في المكتبة الرائعة التي كونتها يا أبي "

فتبسم وقال : " الفضل لزينب بعد فضل الله سبحانه "

قبلت الفتاة رأسي أبيها وخالتها ، وأغلقت الباب وراءها ، وقد سمعت والدها يقول : " لتصنع لنا أم احمد القهوة يا عائشة "

قالت أنعام : " أنا لا أدري يا سيدي كيف أبدأ ؟ ! "

فضحك عمري وقال : " أنعام الحبيبة حائرة من أين تبدأ ؟! .. ابدئي من حيث شئت .. أليس الموضوع بشأن سهام كما قلت .. فابدئي من حيث تشائين من الأول من الآخر .. فأنا أحب سهاما وهي كابنتي عائشة "

قصت عليه حكاية الفتاة وبغضها للملابس الشرعية والجلباب ، وحدثته عن زميلها فواز ورغبته بخطبتـــها لولا خوف أهله من هذه الثياب وبغضهم للزي الشرعي .. ولما انتهت أنعام من تفصيل قصة فواز وسهام لزمت الصمت ، تنتظر كلام عمري الذي لزم الصمت بدوره منذ بدأت الحديث ، وإن كان يتغير لون وشكل عينيه ووجهه وجبينه أثناء سرد القصة ولم يتكلم رغم صمتها ، فقالت أنعام : " أسمعت كل ما قلت ؟ "

فهز كتفيه قائلا : سمعت بالطبع .. هذا يؤرق الفكر والقلب .. الشاب لا يريد التقدم إليها إلا إذا خلعت هذه الملابس "

ـ " هكذا هي تقول .. شاب معجب بها ، وكذلك أخته ؛ ولكنهم يبغضون هذه الثياب .. "

ـ " والصلاة .. هل يعرف أنها تصلي ؟ "

ـ " لم تذكر من ذلك شيئا "

فقال : " هي الآن أنهت الكلية .. كيف ستراه ؟ "

ـ " سألتها عن ذلك ، فردت أن هنالك أخته ستنقل له الصورة الجديدة لها ، من خلعها الثياب الطويلة وعودتها للبس البنطال والثياب القصيرة .. فتقول إذا وجدتها تفعل ذلك ستشجع أخاها على الاقتران بها "

فقال عمري بعد تدبر : " يطلبها ويكتب كتابها ، ولما تنتـقل لبيته أو بيت أهله يلبسها ما يشاء أما أن تفعل ذلك قبل الزواج فأنا غير مطمئن لذلك ولا ارتاح لمثل هكذا شرط .. أنا ليس من حقي أن أفرض عليها شيئا؛ ولكن هنا نظام عام في البيت علينا مراعاته .. فأنا صحيح فقط زوج أمها لست أباها ، وأعرف أن زواجنا قد أثر على نفسيتها ، وأنا لم أحب أن تعيش في بيت عمتي عزيزة حبا لها ، وعدم إبعادها عن حضنك ورقابتك وعن أختيها "

فقالت : " وما الحل في نظرك ؟ "

قال : " الحل سهل .. يتـقدم لطلب يدها إذا كان صادقا في إعجابه وعواطفه نحوها ثم يقترنان .. نحن فعلنا ما يليق بها وبنا .. أو نصبر شهرا أو شهرين ؛ فإذا اندمجت في العمل واندمج فواز بذلك قد ينساها وتنساه ، وإذا كانا متمسكين ببعض ستحدث تتطورات .. فالبعد يحدث النسيان والجفاء ، ومن ثم تظهر حقيقة المشاعر "

ـ " إنها لا تريد العمل الآن "

ـ " لا بأس ، فخالها صابر في انتظارها..وكل شركاتنا ترحب بها ، فالشاب بعدما تبتعد عنه سيظهر صدقه من كذبه ، ومن حقها أن تختار من يرتاح له قلبها .. أما التـعري في البيت لا تساهل فيه .. وهذا ليس تعصبا ، ولكن هذه مملكتنا قد بنيناها وشيدناها بصبر وجهاد طويل

وأنا أيضا على استعداد لاستقبال هذا الشاب والتعرف عليه "

ـ " إذن الحل الزواج "

ـ " هل من حل غيره ؟ "

ـ " أسكن أنا والبنات في فيلا أخرى .. نستقل عنكم "

وقف عمري غضبا ونهضت قائمة مثله وقال :" ويلك ، ما هذا الكلام ؟! أتعيشين وحدك وأنت ذات زوج ؟ .. لو كان هناك ابن أو أخ لربما رضيت بذلك ..

ثم خفض من صوته محاولا إعادة الهدوء لنفسه متابعا كلامه : " سيدتي يا أنعام ! .. المشكلة ليست بهذا التعقيد .. الدين أولا ، ومهم في حياتنا ، وأنت خير من يعرف هذا ، ولا يجوز أن نستسلم لنفاثات الشيطان ، ونفخات الجهل ، وأنا قلت قديما واليوم إنه لا سلطة لي على سهام وأختيها ، ولست محملا لهن جميلة لحياتهن معنا في هذه الفيلا ، فمن حقهن العيش والحياة مع أمهن .. ولكني اليوم لهن بمقام الولي والوصي "

فقالت أنعام والدموع تنساب من مقلتيها : " إنني حائرة يا ابن عمي "

ـ " ولم الحيرة ؟! .. وهل إذا خلعت ثياب الحياء والدين تزول الحيرة والمشكلة ؟! .. دعيها تتصل به ليقابلنا أنا وأنت ، ونجتمع به هنا في هذا المكتب ونتعرف على حضرته؛ فإذا كان جادا فلسوف يأتي "

ـ " اطلب منها ذلك "

ـ " هيا يا عزيزتي .. اذهبي اغسلي وجهك .. أما أن تسكني وحدك وبدوني فهذا لا يجوز ولا يحل يا عزيزتي "

بعد أن غسلت وجهها ، ذهبا سوية إلى حجرة البنات ، فوجدا سهام وحدها نصف نائمة ، فالقيا التحية ، وقالت أمها : " يا سهام استيقظي .. فهذا عمك أبو محمود قد حدثته بكل شيء "

فمسحت الفتاة عينيها الذابلتين وقالت بخجل وصوت ضعيف : " تأكد يا عمي أنه ليس بيني وبينه شيء يشين .. إنما تعارف وزميل في الكلية وليس بيننا حب عنيف أو قصة حب

فقط إعجاب وميل وتفاهم ورغبة بالاقتران وأنا أحبك يا عماه وأحترمك وأسمع كلامك "

ـ " بوركت يا بنية ! فأنا بمقام والدك ـ رحمه الله ـ وتأكدي أنني لست طاغية أو جبارا في الأرض ، ولا أنكر هذه العواطف والهوى بين الناس ، وسمعت كل ما قلتيه لأمك ، فقلت لها مقترحا أن تتصلي به ويأتينا لنتفاهم ونتفق بعدما نتعارف .. فأنت ابنتنا كما أنت ابنة أنعام .. وأعلمي أن أحق شخص له الموافقة على زواجك إخوة أبيك أو جدك والد أبيك .. فهؤلاء هم أولياؤك الشرعيون .. ولكن سؤال بسيط خطر على بالي .. هل يعلم هذا الفواز أنك تصلين ؟! اصدقيني القول ؟ "

فقالت : " لا أدري .. ولكن أخته منالا تعرف عني ذلك ولا بد أنها حدثته عن ذلك .. ولكن لماذا هذا السؤال ؟ "

ـ " فالصلاة مهمة جدا في حياتنا كما تعلمين ، وهي أهم وأخطر من اللباس .. فبعض الناس من الفساق وتاركي الإسلام وراء ظهورهم ينفرون ممن يصلي ويصوم ويذهب للمسجد ، فقلت ربما لو عرف أنك تصلين لابتعد عنك .. فعلى المرء أن يتأكد من عواطف الناس نحوه في أحيان كثيرة .. وأنا قلت لأمك أن تتحملينا شهرا أو شهرين .. فإذا الرجل يودك ويرغب بك شريكة حياته سيديم جسور الوصل والاتصال معك .. لأن البعد ينسي العواطف المزورة يا سهام .. فأنت بالخيار ، أخبريه بموافقتنا على مقابلته والجلوس معه والتعرف عليه .. أو تتركين الموضوع إلى حين من الزمن .. فكري بما قلت .. سامحيني يا بنيتي عما نسببه لك من ضيق وحرج .. تحملي هذه الظروف والفرج قريب "

فشكرته سهام وقد تناولت يده وقبلتها وهي تقول : " أعرف أنك سيد فاضل .. كريم .. إنسان رائع .. أعرف حرجك من خلعي لهذا الجلباب ؛ ولكن يا عماه لا تلمني قد تعودت على السفور والتبرج ، وقد مرت عليّ هذه السنة والنصف كأنني اصعد جبالا شاهقة .. "

بعد اللقاء الصريح البين بين عمري وبنت زوجته انعام الآنسة سهام، تشجعت الفتاة وتحدثت مع منال وشقيقها فواز بالهاتف ، ورحب فواز بلقاء زوج أمها واستعد لهذا التعارف ووعدها أن يتصل بها ليحدد يوما للتعارف ، وقد حدث ـ قبل أن يتصل فواز هاشم بسهام لتعيين يوم للتعارف بأهلها ـ أن تلقت أسرة عمري هاتفا من الدكتور سمري ناصح الخابي المغترب منذ عقود في أمريكا ، وكان الاتصال يطلب من عمري السفر لأمريكا لأن والده يريد مشاهدته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لما علم عمري بذلك تحدث مع سمري على الرقم الذي تركه لهم ، وكانت ممرضة ناصح قد أخبرت عمري بسوء حالة والده قبل اتصال أخيه ، وقد ذكرنا سابقا أن عمريا قد كان يتصل بها بين الحين والآخر .. حصل عمري على التأشيرة لدخول أراضي الولايات المتحدة الأمريكية ، لم يكن ناصح الخابي يعالج في فيرجينيا حيث يعمل ويحيا سمري ، إنما كان يعالج في ولاية تكساس الجنوبية وقد دفع آلاف الدولارات للدواء ولإعادة الصحة فلم ينفع ذلك ، تتحسن أحواله أياما ثم تنتكس أحيانا أخرى ، قضى أغلب تلك الأيام على أسرة المستشفيات الأمريكية ، أمواله الكثيرة لم تمنع من تدهور صحته وانحداره نحو الموت .. أخبر بهذه الحقيقة .. ظهرت على بدنه آثار الكحول والدخان والمعاصي ، فطلب سمري وطلب منه أن يرسل وراء أخيه عمري ، أتى سمري بعد حين من الأيام وسمع من أبيه كلاما قاسيا وجارحا ، وأخبره أنه سيحرمه من الميراث ومن أمواله إذا لم يأخذ إجازة ويظل هذه الأيام عنده فوق سريره .. بداية لم يكترث سمري لهذا التهديد ؛ ولكن سيزانا حثـته على البقاء بجوار أبيه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة .. وتيسر سفر عمري إلى أمريكا فدخل تكساس بعد أيام قضاها في السفر ، ذهب إلى المستشفى الراقد فيه ناصح الخابي يتلقى العلاج والعناية الطبية ، وجد الأب عودا أو هيكلا عظميا ، لقد ذابت اللحوم والشحوم ، والتقى الأخوان عند سرير الأب المريض بعد أكثر من عشرين سنة ، فتح الأب عينيه على عناق الأخوين فهمس الأب الواهن : " عمري ! "

حيا عمري الممرضة الخاصة ، وانحنى فقبل جبين أبيه والدموع تنسكب على خديه وقال

بحرقة وتأثر : " كنت أتمنى يا أبتي أن أراك وأنت قويا وفي غير هذا الظرف والحال "

أشار الأب لسمري والممرضة بالابتعاد والخروج من الحجرة ، وقال بصوت واهن : " أنت قتلتني .. تخليت عني .. اخترت أمك "

فقال عمري الباكي : " لا تتعب نفسك بالكلام والعتاب .. دعوت الله أن ألقاك يا أبي قبل أن نفارق هذه الدنيا الفانية العاجلة .. ولكن لم أحب أن يكون اللقاء في مثل هذه الحال والظرف "

ـ " كرهتك يا ولدي بقدر ما كنت أحبك .. تمنيت موتك .. ودمارك ، غرت منك وآلمني نجاحك الكبير .. كنت أنا ناصح الخابي خائفا منك .. لا أريد قربك .. أردت توريطك في المخدرات لتعود إليّ ذليلا مهانا صاغرا .. أنا الذي أحببت خسارتك فأغرقت أسواق الريحانة ببضاعة معدومة "

ـ " أنت فعلت ذلك ؟! لماذا فعلت كل ذلك يا أبي ؟ ! "

ـ " حسدت نجاحك بدوني ، حسدت استغناءك عن ثروة أبيك .. حسدت إيمانك ، وخشيت أن تبعد عني امرأتي الفاجرة المومس التي ابتليت بحبها ، فخشيت إن تصالحنا وتتعرف عليها وأحوالها أن تفرق بيننا وتعيد إليّ مريم .. الملعونة .. ولكني طلقتها قبل سفري الأخير بساعات .. تزوجتني لأكون غطاء لفجورها .. هذا كنت لا أريدك أن تعرفه عني يا ابن مريم .. والآن ما أخبار أمك ؟ "

ـ " إنها في أيامها الأخيرة ..سامحها يا أبي "

ـ " وأنا في ساعاتي الأخيرة .. لما علمت أنك تعيش في الريحانة ، وكان ذلك بعد رحيل قمرية جن جنوني .. ولما علمت بنجاحك الكبير هناك فقدت عقلي ، وصممت على تدميرك لتعود إليّ ذليلا ، ففشل أعواني بتلبيسك قضية المخدرات .. نظافتك حمتك وكثرة مشاريعك حمتك من ضرب الأسواق في الريحانة .. وأما الرصاصات التي أطلقت على بيتك .. لم نقصد بها قتلك .. إنما كان ذلك لإزعاجك والتشويش عليك .. وخطف الرجال ابنك حسنا لإيذائك وقذف الرعب في قلبك .. فلما علمنا من أهل بيتك بسفرك أعادوا الصبي .. وأنا أرسلت

وراءك لأقل لك كل هذا وغيره .. ثم أقول لك نم هادئا .. فقد هلك عدوك .. واغفر لأبيك الحسود الحقود .. وقل لأخواتك أن يسامحنني .. وكذلك أولادكم لم أسمح لهم برؤيتي ومقابلتي رغم سعيهم المتكرر لذلك .. كنت أنانيا ومتكبرا ومحبا لنفسي وكارها لكل من يقف في طريقي ولا يرضخ لحمايتي .. قل لأمك أن تسامحني يا عمري .. ولو بنيت عن روح والدك مسجدا لعل الله يقبله ويغفر له ذنوبه التي لا تحصى .. كم من الناس أفسدتهم ،كم من البنات أفسدت ، كم شربنا من الخمر .. أهلكت عمري في الفجور والشرور .. واعلم الآن وأنا أموت يا ولدي أن زوج أنعام التي زوجها لك أخي ناجح أنني أنا السبب في قتله .. لـقد اكتشف بعض الوثائق الخطيرة وأراد اللعين ابتزازي .. فدبرنا التخلص منه .. "

فكان عمري مدهوشا ومصعوقا لم يسمع؛ ولكنه يدرك أن هذا اعتراف مودع فهمس رغم شدة الكلام : "هل كان عمي ناجح على علم ؟"

ـ " ناجح ليس بالرجل الحازم الفطن ، فهو كابنه صابر ينفذ ما يؤمر به ؛ ولكنه شك فيّ ولزم الصمت ؛ وهو ضعيف أمامي .. هو يعرف غضبي وسطوتي .. وجرائم كثيرة ارتكبتها يداي خلال كل هذه السنوات .. هل يغفر ربك يا عمري ؟! "

ـ " نعم إنه يغفر .. يغفر كل شيء إلا الكفر "

ـ " أمعقول هذا ؟! "

ـ " معقول ونصف "

ـ " عمري أريد أن تظل بجواري حتى تفيض روحي ، فالأطباء لا يرون أن بقائي سيطول فالأورام انتشرت في جميع البدن ، وضعفت الأدوية عن أداء مهمتها "

ـ " سأبقى بجوارك يا أبي .. رغم ما أسمع منك من الأهوال والذنوب .. واستغفر ربك وتب إليه وأكثر من قول لا اله إلا الله محمد رسول الله ، لـعل الله يرحمك ويختم لك بها .. سأتركك تستريح الآن وأذهب للحديث مع سمري "

ـ " المهم ألا تسافر قبل موتي .. أنا أرسلت وراءك لأقل لك هذه الحقائق التي فعلتها معك ليهدأ بالك ، وتتابع مسيرتك وأنت مطمئن .. وسأقول لك الكثير في يوم آخر حتى لا

يستغلك الرجال الذين تآمروا معي خلال السنوات الهالكة ، وتكون على حذر منهم .. سيدعون أشياء كثيرة فلا تصدق إلا ما أتفوه به "

ـ " سامحك الله يا أبي .. لم يخطر ببالي أنك سبب كل الأذى الذي لحق بي وإن أشارت أمي ذات مرة إليك ، فقد قالت " قد تكون هذه أفعال أبيك " فاستغربت من قولها " فهي قد صدقت "

ـ " إنها تعرفنني ، وتعرف ماذا أفعل إذا حقدت على شخص أو كرهته ؟ سلم لي عليها إذا أدركتها حية كما تقول .. انصرف وعد غدا .. ودع رقم هاتف الفندق الذي تنزل فيه مع الممرضة وعند استعلامات المستشفى "

لم يكن عمري يتصور في يوم من الأيام أن أباه بهذه الوحشية والإجرام ، فهو كان يسمع عن قسوته وشدة معاملته لموظفيه وخصومه ، وكان يظن أن ذلك من طبيعة العمل ، ثم سافر لبريطانيا للدراسة ، فلم يعد يسمع جنون وطيش أبيه والتهى بالمدنية الغربية ، ولما رجع بعد الدراسة وقضى معه خمس سنوات ، لم يكتشف خلالها شيئا مخيفا في حياة والده لعدم اهتمامه بحياة وأسرار والده ، وأمه لم تكن تتحدث بشيء من ذلك العنف ، أو أنها تجهل ذلك كله ، أو تراه تنافسا بين أفراد ورجال شركات ، ولم يطفو منه شيء على صفحات الجرائد والصحف ثم هربه وخروجه من حياة الأسرة واجتهاده في بناء بيئة جديدة .. فلذلك لما عاد للفندق بما سمع من اعترافات ناصح كان مصدوما ومذهولا، وإن بدا متماسكا أمام الرجل المحتضر ، فذرف الدمع الغزير .. فقد رآه وحشا هائلا ، أو لا يعي ما يقول ، ولكن الأحداث التي جرت معه كقضية وضع المخدرات في مخزنه المهجور تدل على عقلية إجرامية ماكرة .. وكذلك إغراق الأسواق ببضائع زهيدة الثمن للانتقام يؤكد صدق الاعترافات ، وأن له يدا ومعرفة بذلك .. ويدل على ذكاء وتخطيط وتفكير .. وإطلاق الرصاص عليه في البيت .. هل هو صادق بأنه لم يشأ قتله إنما أراد تخويفه كما ادعى ؟ .. الواقع يدل على صدق هذا الادعاء ، وخطف الصبي بضع ساعات لماذا كان ؟ .. فحسن يذكر أنهم لم يتحدثوا معه .. فيبدو أنهم كانوا يرغبون بكسب المال تعويضا لخسائرهم في المخدرات والبضائع وإرهابنا .. وهمس "

وأنا متألم لمقتل زوج أنعام ابنة عمي " .. آه ما أقساك يا سيد ناصح !.. تمزق قلب عمري وهو يسمع ويكرر هذه الاعترافات بين حناياه وفؤاده .. وأدرك أن أباه لم يحن للصلح والمصالحة وإنما أرسل وراءه من أجل هذه الاعترافات الرهيبة ، وتمنى أنه لو لم يأت لسماع هذه الأخبار المخيفة .. وحمد الله أن أنـقذه من هذه الظلمات ، ولم يكسب عن والده شيئا من طباعه وإجرامه .. وقد اغتم قلبه وحزن حزنا شديدا وهو يتأمل بكل ما سمع ، ودهش من وحشية بني آدم .. ما أقسى الإنسان ! وما أصبر الرحمن على هؤلاء العصاة الأشرار ! .. فكر بالهرب والعودة قبل سماع المزيد ؛ ولكنه رأى توسل رجل يحتضر ، وهو أبوه رغم كل هذا الإجرام والوحشية ، ولما آفاق من ذهوله سأل في الفندق عن سمري ، فقيل له إنه غادر إلى فيرجينيا وسوف يعود .. قضى عمري الساعات ساهما حزينا ذارفا للدمع وداعيا إلى الله أن يغفر لأبيه العاصي الفاجر وقال بآلم شديد : " يا ليتني لم آت إلى هنا لأسمع هذه الاعترافات المرعبة .. "

ولما ذهب في اليوم التالي للمستشفى وجلس بجوار أبيه ، وقد تظاهر أمام والده بالثبات والصبر ؛ ولكن والده قال له : " لا تحزن يا عمري على ما سمعت من سيرة والدك المحتضر فأنا كنت في غابة كلها وحوش ، فكان عليّ أن أصير وحشا مثلهم وإلا أهلكوني ، ولما درست أنت في بريطانيا ، ولا درس أخوك في أمريكا ، ولما سكنت في فيلا كبيرة ، ولما ركبت سيارة أو طائرة ولما احتضنت فتاة أو خائنة ، ولما أحنت لك الرؤوس رأسها ..اغفر لأبيك يا عمري .. كنت أريدك أن تكون مثلي وحشا إنسانيا ؛ ولكنك نجوت وعرفت الطريق فتولاك مولاك .. وانتصرت على أبيك وعلى أفكار ابيك .. وكسبت كل من حلق حولك .. كنت أعجب من أفعالك والتفاف الخيرين حولك .. كنت أرى أن كل الناس شر وشياطين ولا خير في الدنيا .. إنما هي صراع وقتال ومال وقوة .. قتلتني من الداخل بنجاحاتك .. هزمت مبادئي التي ترعرعت عليها وشبت عليها .. أدركت أنني كنت أعيش على الوهم والمرض والشهوة .. اغفر لأبيك جنونه ووحشيته .. سلم على بدرية وقمرية وكل أحفاد ناصح محمود الخابي .. لا تبكي أمامي أنا أبغض الضعفاء "

ـ " اسأل الله أن يغفر لك ، هو وحده غفار الذنوب .. سوف أسلم لك عليهم .. إنهن بشوق إليك وحمّلنني كثيرا من السلام والتحيات .. غفر الله لك يا أبي ! ما كنت أعرف كل هذا الشر عنك "

ـ " ألم أقل لك إنك نجوت ؟ ارسلت لبلاد الانجليز لتكسب جبروتهم وقسوتهم وطباعهم الانجليز حكموا العالم مع قلة عددهم .. كنت أريد أن ترث كل شيء عني ؛ ولكنك فلتّ بسبب تلك الفتاة .. وبسبب ذلك الجامع الذي أنشي قريبا منا "

ـ " لا حول ولا قوة إلا بالله "

كان عمري لا يحب سماع اعترافات أبيه وهو متضايق من معرفة المزيد ؛ ولكن الأب عندما يراه لا يحلو له إلا الحديث عن قبائحه وسيئاته، كم امرأة أفسدها على زوجها ! كم رجل تخلص منه ! إما قتلا ذكيا أو إعاقته ، كم امرأة ادعى حبها وضجر منها ! كم عملية احتيال ونصب مارسها ! .. فوجد أو اكتشف في هذا اللقاء الذي كانت تهفو نفسه اليه منذ سنوات طوال أن أباه كتلة شر ، وأن الثياب الجميلة البراقة التي يرتديها كانت تخفي وراءها إنسانا شريرا ثعلبا ماكرا .. ذكر أمامه أسماء مديرين وموظفين وموظفات تعاونوا معه .

قضى عمري شهرا صعبا علقما ، كل جلسة عند سرير أبيه يتجرع فيها سما زعافا ، فما صدق أن لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة .. لـقد أوهى قلبه ومزق روحه بما أفاض أمام ولده من الاعترافات والغدر والخيانات .. فاستعان ببعض المسلمين الموجودين هناك ، وقام بما يلزم الميت المسلم ، وقد سوى حسابات المشفى ، ونـقد الممرضة أجرها وصرفها للبلاد ، وأرسل لأخيه سمري برقية يعزيه بأبيه ، وبعد أيام قليلة ركب الطائرة عائدا لبلاده ، وهو يحمل هموما كالجبال من الصفحات السوداء التي قدمها والده بين يدي الله .

قبل أن يحط عمري قدميه في بلاده تلقى وهو في إيطاليا نبأ وفاة أمه منذ أيام ، كان عمري قد نزل إيطاليا ليقضي فيها أسبوعا من الاستجمام والراحة ، ولما استراح من تعب الطائرات اتصل بالبيت فأخبر بالخبر ، وأنهم اتصلوا بالفندق بتكساس ، فعلموا أنه قد غادر الفندق ، فتـقبل تعازي الأسرة واسترجع وذكر دعاء مصيبة الموت ، وأخبرهم بدوره بوفاة والده ودفنه هناك في مقابر الجمعيات الإسلامية ، وحدثته زوجته زينب بعدما عزته بوالديه أن الدكتور يوسف حسان قام بكل إجراءات الدفن والعزاء ، وحثته على البقاء حيث هو ليريح أعصابه قبل نزوله المدينة ، فشكرها واثنى عليها وعلى الأخ يوسف حسان صديق الريحانة والمشاريع ، كان تعب عمري الحقيقي مما سمعه من أقوال أبيه ، فقد قتله في أحلى اللحظات التي ينتظرها من مصافحة ومعانقة والده ، استدعاه ليقول له تلك الصفحات السوداء من حياته ، وكان السؤال المهم ماذا يفعل من أجل أبيه ؟ممن أساء لهم أبيه ؟هل يفتح دفاتر أبيه وملفاته العتيقة ؟ فوجد أن الوضع مـعقد وبعض القضايا مضى عليها عشرات السنين .. فقضية زوج أنعام ماذا يستطيع أن يفعل إن نبشها ؟ أبوه لم يتحدث عن تفاصيل الحادثة .. ولماذا ؟ ! وما هي الأوراق الخطيرة التي عجلت بقتله وتدبير مكيدة له ؟ ! .. وبعد نظر وتدبر وتفكير عميق رأى أن أفضل حل لما سمع أن ينساه .. فالاعترافات وحدها لا تكفي .. أين هم الذين شاركوا في هذه الجرائم ؟ الأعوان مسؤولياتهم التفصيلية ، هل هم عصاة لليوم ؟! أم تابوا بعد ذلك ؟ أم هل هم أحياء ؟ .. ليس هناك تفاصيل واضحة أستطيع الاستفادة منها .. ذكر أسماء رجال أحياء وأعوان ونساء مجهولات .. ولكني لا أعرفهم شخصيا .. فليس من السهل نبش أي قضية .. فبعد عشرة أيام من التفكير والتدبر والنظر اتخذ قرارا مهما وحاسما ، وهو عدم فتح ملفات الماضي وتسليم أمرها لله ؛ ولكن إن صدف والتـقى بضحية من ضحايا أبيه سيحاول التكفير عنه .. وسينفذ وصية والده ببناء مسجد عن روح والده ، فبعدما انشرح صدره لهذا الرأي نزل البلاد ، وما كاد يجلس في البيت حتى أقبل الأصدقاء والمعارف لتعزيته في والديه ، فتقبل التعازي وقدم الشكر لصديق العمر الدكتور يوسف حسان وولديه على ما

بذلوه من جهد على جنازة أمه من غسل وتكفين ودفن والقيام بواجبات الميت ، وقدم الشكر لسكرتيره العتيد احمد ، ولأخوة زينب ولصديق العمر الأخ حسن ، ومكث عمري أياما يتقبل عبارات المواساة والصبر في البيت وفي العمل .. ثم شرع بتصفية شركات أبيه ، وحصر أمواله لتسديد ديونه وتنفيذ وصاياه وتوزيع ميراثه ، وعرضت عليه البنات ضم شركات أبيه إلى شركاته فرفض ، وقال : " يجب أن يعرف كل وارث حقه وحصته "

وأيضا لم يرض بشراء أي شركة أو مصنع من مصانع وشركات ناصح الخابي ، فكان يرى أنها مغموسة بالظلم والدم والحرام ، فكلها عرضت للبيع أو التصفية ، وكذلك تم حصر ثروة أمه ودفع ما عليها من ضرائب ومستحقات للدولة ، وتم توزيعها على الورثة للذكر مثل حظ الانثيين ، وتم تحويل حصة سمري إلى أمريكا الذي أعادها لعمري معتذرا عن قبولها ، وطلب منه أن ينفقها على مشاريع خيرية عن روح أمه ، وحثه على التعجيل بحصر ثروة أبيه وارسال حصته له ، فوعده عمري خيرا .. وقبل أن ينتهوا من حصر ثروة الوالد وتصفية شركاته قام بتشييد المسجد عن روح والده من ماله الخاص ..

وذات مساء عاد مبكرا للمنزل ، والتـقى بسهام في حديقة الفيلا فحياها ، وجلس يتحدث معها ويسألها عن صحتها وأخبارها ، ورغب أن يدخل السرور على قلبها ، فسألها عن فواز ، فاستغربت ذلك السؤال واعتقدت أن وقته غير مناسب ، فقال باسما : " الموت والأحزان لا توقف الحياة يا حبيبتي ! فأنا كما أفكر بنفسي أفكر بكل من هو في فلكي ، وصدقي أنك لم تغيبي عن بالي خلال هذه الشهور التي انقضت ، وأنا في أمريكا وإيطاليا وهموم الإرث وبيع أموال أبي ، وأنا ما زلت انتظر اللقاء"

فقالت بحياء : " لقد تحدثت معه قبل سفرك الأخير ، ولما اتصل بي لتحديد موعد لم تكن أنت هنا ، ورفضت أمي مقابلته بدونك .. فاضطررت أن أشرح له الموقف وأعتذر له "

فقال : " لا بأس .. خيرا إن شاء الله ! .. ألم يعلم بمجيـئي بعد ؟ فإذا كان الشاب راغباً بك زوجة سيتصل ثانية وثالثة .. أو اتصلي به "

فقالت : " أخبرت منالا بعودتك .. لا تتعب نفسك معي يا عمي "

ـ " يا بنية هذا واجب ، نحن يهمنا سعادتك واقترانك بشاب يحبك لتدوم الحياة الزوجية .. فالحب الحقيقي سلاح يقضي على كثير من المشاكل الزوجية ، فتوكلي على الله سبحانه ولا تحملي الهموم والنكد من الآن "

وبينما هما يتحدثان أقبلت نحوهما أنعام ـ فإنها لما سمعت أن زوجها يجلس في الحديقة مع ابنتها لبست ثيابها ، وخرجت إليهما ، وقد تبعتها الخادمة بفناجين القهوة ـ فرحبوا بها وقالت أنعام لما أخذت موقعها وجلست بالقرب من عمري : " سهام تحبك كثيرا يا عمري ! .. وترى أنك في هذه الشهور عوضتها عن رعاية الأب وحنانه ، وهي معجبة بثباتك وعدم جزعك وعدم تظاهرك بالمبالغة بالحزن رغم وفاة والديك في زمن متقارب ، فهي تذكر ما حدث عندما مات جدها ناجح ، وما فعلنا من اللطم والصراخ والبكاء والحداد ؛ ولكن عندما ماتت الحاجة مريم - رحمها الله تعالى وغفر الله لنا ولها ـ لم يظهر صراخ في البيت وعويل وندب ، فقد كانت زينب سيدة الموقف .. حزن ودموع وبكاء هادئ ، وبالمثل فعلت بدرية وقمرية والبنات ..لم يفعلوا كما فعلنا من النوح واللطم .. فقلت لها يا بنية " هؤلاء قوم مؤمنون يتحرون السنة ، سنة النبي ﷺ في أفعالهم وأقوالهم ، وذكرت لها قصة حزن النبي ﷺ على وفاة إبراهيم ابنه ، وموت ابن ابنته ﷺ ، وعمه حمزة رضي الله عنه ، وأن الصراخ والبكاء المرتفع من فعل الجاهلية ، وأكثره نفاق ومجاراة ومماراة أمام الآخرين .. فقد سرت من ذلك التواضع وعلقت يومذاك " الحزن في القلب هو الحزن الحقيقي " "

قالت سهام كأنها تذكرت ذلك الحديث : " أجل يا عمي !.. الحزن حزن القلب ، وإن يظهر على الوجه بعضه ، ولكن هل هذا الحزن حقيقي أم وهمي متكلف ؟ ولما حضرت وعزيناك كنت طبيعيا لم تظهر أمامنا بحزن مزيف وأنك وأنك .. "

فابتسم عمري وقال معجبا بكلامها : " دقيقة الملاحظة يا بنية .. فأنا بكيت أبي هناك ، وفي إيطاليا بكيت أمي إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ونتكلم إلا بما يرضي الله سبحانه .. فالإنسان عارية مستردة .. كتاب مؤجلا ففي فعلنا الصواب نأخذ الثواب والحسنات ، وفي اللطم وضرب الخدود وقد الجيوب نأخذ السيئات ، ونؤلم الميت ، ونتشبه

بأهل الجاهلية .. فأيها خير ؟ .. أنا قلبي ممزق على أبي الضال يا سهام ! كنت أتمنى وأحلم ليلا ونهارا أن أراه مهتديا تائبا .. فأمامنا درب طويل بعد الموت .. وهذا الدرب يحتاج لزاد ، وخير الزاد التقوى، ويتحصل عليه المرء في سنوات هذه الدنيا ، فالتزود بالتوبة وهدي نبينا محمد ﷺ سيساعدنا على قطع الطريق ، والنجاة من النار ، وأنفاس النار، والموت غاية ونهاية كل كائن حي .. وفقك الله يا سهام الطيبة وأطال الله عمرك "

رعش قلبها لكلمات عمري الدافئة ، وتمتمت الفتاة بالشكر ، وقالت أنعام : " أخبرتني أمي أن السيدة نوالا قد رفعت طلبا للقاضي بطلب الطلاق من زوجها نادر ، وقد غضب صابر منها لو تتدخل يا ابن العم يا أبا محمود "

فقال عمري : " طلاقها خير لها يا أنعام ! عمي كان يمنع ذلك ، ولا يريده لاعتبارات الصداقة الحميمة بينه وبين والد زوجها .. والرجل ليس ممن يتاجر به .. "

ـ " والله لو تسمع هذا الكلام لتتـعلق بعنـقك وترحل إليك وتأخذك مني "

فضحك عمري وسهام ، فهم يعرفون تعلق نوال القديم بعمري ، فقال : " لا تخافي إنها لا تحل لي .. لا يجمع بين أختين في إسلام .. ولكن لعلنا ننـقذها من ذلك المخمور .. ساعديها يا أنعام وليتركها صابر تفعل ما تشاء .. أبوه وقد مات ، وابنها قد كبر ودخل الجامعة ، وهو لا يحبها ، وهو يعيش مع عماته وجدته "

فقالت سهام : " هذا رأيك يا عمي ؟ "

فقال ملتفا إليها : " رأي ورأي الشرع .. فالشرع إذا كان الزوج فاسقا يحق للمرأة أن تطلب التفريق إذا خشيت على دينها ونفسها .. ثم هي ليست المرأة الوحيدة في حياته ، فله كثير من الخليلات وبنات الهوى .. فهؤلاء المتغربون للأسف لا يرون الزنا عيبا وذنبا وعارا بل هو متعة ولذة منشودة .. المهم موافقة الطرفين على الفاحشة "

ـ "شيء مقرف ومهين "

فقال عمري : " لكل ذي لب وعقل كبير ، وأما من يحيا حياة الحيوان فلا .. حتى أن بعض الحيوانات تأبى ذلك .. فطلاقها خير لنفسها ولدينها .. وهي تبغضه وتراه جلادا لها .. تحدثي

يا أنعام مع صابر وانـقلي له قولي ورأيي .. فأنا مشفق عليها "
فقالت أنعام : " إنني أغار من هذا الكلام .. أخشى أن تسلبك مني "
فقال عمري مستنجدا بسهام : " اسمعي أمك يا سهام ! .. ويحك ! .. كبري عقلك فنوال أكبر منك وقد تجاوزت الخمسين على ما أظن .. فهل يطمع فيها رجل ؟! "
كانت سهام تبتسم وهي تسمع أمها وزوج أمها يتحدثان أمامها بهذا الكلام ، وعادت أنعام تقول : " كلما التـقي بها تقول لي " سرقت عمريا مني ألم تكوني تعلمين أنني سأصل إليه ولو آخر يوم في عمري " "فقالت سهام : " والله يا عمي إنها تتكلم بذلك ، وتكرره أمامنا بدون خجل أو حياء "
فقال : " الكلام ليس له ثمن .. أنا أنعام رغم معزتها في قلبي كنت أخجل أن أتقدم إليها كزوج ، ولولا وصية عمي ناجح لما تجرأت على الزواج ثانية .. فأنا أخاف النساء "
فقالت أنعام ضاحكة ضحكة قصيرة : " يبدو أنك فعلا نسيت سنوات المراهقة ولندن ومرسيليا "
فقال ضاحكا : " أيام جاهلية وجهل .. أسأل الله أن يعفو عني كنت ابن أبي .. ما أروع طهر الإسلام يا أنعام ! ونظافة الإسلام وعفة الإسلام ! "
وقضى الثلاثة سهرة ممتعة في حديقة الفيلا ، بل طلبوا العشاء فيها، فحضر باقي أفراد الأسرة ومعهم السيدة زينب ، وسمروا وانبسطوا بتلك الجلسة العائلية ، ولما رأت زينب حبور القوم وسعادتهم ، وقبل انقضاء السهرة العائلية وانفضاضها ، أحبت أن تزيد الفرح بينهم ..
فقالت فجأة وبدون تمهيد : " يا أبا محمود .. ابنك حسن راغب بالزواج
التفت الجميع لزينب وقالت أنعام : " حسن .. أين حسن ؟ وكانت تبحث عنه ، فلم يكن حسن موجودا ، وبينما أنعام تبحث وتتسأل عن حسن ، نهضت ابنة أنعام الصغرى الآنسة ريهان مغادرة ـ وهي تنظر لامرأة زوج أمها بنظرات فيها تهديد خفي باسم ـ فقالت زينب مخاطبة لها وهي تبش في وجهها : " أين يا ريهان ؟ ! "
فقالت والخجل يملأ وجهها : " سأقضي أمرا في البيت السلام عليكم "

كانت أنعام تنقل نظرات عينيها بين زينب وريهان وأحست أن بينهما كلام فقالت لزينب بهمس : " ما الأمر يا حبيبتي ؟ "

فقالت زينب هامسة : " الآن ستعرفين الأمر "

فلما عاد الهدوء للمجلس بعد انصراف ريهان ، قال عمري : " يا زينب لم تكملي كلامك عن حسن.. هل حقا صارحك عن رغبته بالزواج ؟ .. هل بلغ ثمانية عشر ربيعا ؟ "

فقالت : " هكذا سمعته يحدث خاله حسنا وهو يقول " يا خال علمت أنك تزوجت صغيرا قبل أن تبلغ العشرين سنة هل صحيح ذلك ؟ " فضحك أخي حسن وقال " أتريد الزواج يا حسن ؟ ! " فقال حسن الصغير بدون تردد " نعم يا خالي ! .. عسى أبي أن يزوجني " فقال أخي حسن " عاشق يا خال ؟ من هي سالبة لبك ؟! "

فقال عمري : " وهل أتى حسن اليوم ؟ "

فقالت " أجل أتى ومعه زوجته وبعض الأولاد وانتظرناك على الغداء ؛ ولكنك اعتذرت لقيامك بزيارة مريض كما قلت في المستشفى .. كيف حال مريضك على ذكره ؟ "

" بخير إن شاء الله .. عامل سقط عليه قضيب حديد فشج رأسه ، ووضعه مؤلم ومحزن ولكن الطبيب أخبرنا فقال : إنه تماثل للعافية وزالت مرحلة الخطر .. ونسأل الله سبحانه أن يشفيه ويذهب البأس عنه والأمر بيده سبحانه .. آ .. أكملي من هي معشوقة الشاطر حسن ؟ ! "

فعادت زينب تقول : " فلما أقر حسن بذلك أمامنا صراحة قلت له " والله يا حسن كبرت وصرت تفكر بالبنات والزواج .. أخبرنا من هي فتاة أحلامك ؟! " ـ ثم نظرت لإنعام نظرة ضاحكة التي قالت ضاحكة: " ويحك ! "

زينب تضحك ثانية وهي تقول " ريهان .. ريهان يا أبا محمود !! ؟

وأكدت زينب بابتسامة رقيقة : " نعم الآنسة ريهان "

فأخذت الفتيات بالتعليق الهادىء على هذا الحدث اللطيف ، وقالت الطبيبة عائشة التي أنهت دراسة الطب وتستعد للتخصص : " هذا آخر خبر أن تدور في الفيلا قصة حب ونحن نائمون "

فقال محمد وهو صبي أصغر من حسن : " لا تظلموا القوم .. حسن يحافظ على الفروض ، وكذلك ريهان ؛ ولكن بينهما انسجام وإعجاب "

فقالت زينب بجد : " لم أغفل عنه يا عمري ! فهو ابنك وتربيتك ، وحسن طيب ، وهو كما قال محمد أصابه ميل لريهان ، فقال لي : يا أمي زوجوني من ريهان أنا قلبي يميل إليها وهي لا ترفضني .. فقلت له يا ابني أنت ما زلت صغيرا على الزواج غدا لما تدخل الجامعة سوف تقابل بنات أخريات فقد يتغير هواك فاصبر ؛ ولكنه مصر على حب ريهان ، فقلت أكشف لكم الأمر قبل فوات الأوان وهو من أجل ذلك رفض أن يشاركنا العشاء ؛ لأنني قلت له سأخبر أباك ، فقال أخبريه وأرجو أن يوافق .. ومن أجل ذلك انسحبت ريهان الجميلة غاضبة مني .."

فقالت أنعام ضاحكة : " والله يا حسن ! أليس هذا الولد الذي خطف صغيرا يا زينب ؟! "

فقالت زينب : " بلى .. وهو لليوم لا ينسى ذاك الحادث "

فقال عمري لنفسه وهو يسمع ذلك : " كيف لو يعرف ويدري أن جده هو الذي خطفه ؟! وأن جده شارك في الخلاص من والد الفتاة التي يهواها .. يا لله من هذه الدنيا ! "

وقالت زينب : " أين سرحت يا أبا محمود ؟ "

فقال : " نعم الفتاة ريهان .. وهذا الأمر يعود لها ولإمها أولا ، وقبل أن نتوسع في ذلك ننتظر حتى ننتهي من موضوع سهام الغالية .. وقد نكتب كتابهما الشرعي إذا رغبا بذلك ، ونؤجل الزواج بعد انتهاء امتحان الدراسة الثانوية فقد بقي بضعة أشهر للامتحان النهائي أليس كذلك يا عائشة ؟ "

فردت عائشة : " بلى .. والله يا حسن تريد أن تصبح عريسا وزوجا ! "

فقال عمري : " والله يا ابنتي كان الناس قديما يزوجون أولادهم صغارا ، وكذلك بناتهم ؛ ولكن أحوال الناس في هذا الزمان وخصوصا أهل المدن تختلف عن ظروف وأحوال ذاك الزمان ، وكذا تختلف أحوال أهل البادية والقرى عن أهل المدن .. والتعلم والجامعات والمال والمهور كل ذلك يؤخر سن الزواج هذه الايام "

فقال محمد وهو ينهض : " سأذهب لأبشر حسنا وريهان ، فلابد أنهما يجلسان في المكتبة ينتظران النتيجة "

فقالت زينب : " لم نسمع رد أم سهام بعد ؟ "

فقالت أنعام باسمة : " ويحك يا حبيبتي !.. لقد قلتم وفصلتم فهل يبقى لي كلام ؟ .. والكلام الأول والأخير للبنت ثم عمها عمري .. أما أنا فأقول إذا كان لها رغبة بالزواج ومؤهلة لذلك تتزوج .. فريهان لا تحسن صنع كوب من الشاي أو فنجان من القهوة "

فقالت أحلام ضاحكة : " ولماذا تصنع الشاي أو القهوة يا أمي والشغالة أم احمد موجودة ؟ ثم تتعلم .. فامرأة عمي ماهرة في الطهي فسوف تلقنها ذلك .. عقبال عندي يا أمي "

فقالت عائشة بعدما ضحك القوم على تعليق أحلام : " لا تخافي يا حبيبتي ، سوف يأتي العريس وفارس الأحلام .. فابن عمتي بدرية ينتظر إنهائك الجامعة ليطلب يدك من خاله العزيز .. "

فقالت أنعام مقطبة : " والله أنا هنا كالأطرش في الزفة كما يقولون يا أبا محمود " فقال عمري ضاحكا : " وأنا مثلك "

فقالت عائشة شارحة خبرها : " هو قال لنا ذلك يا أبي ! منذ زمن عندما ذهبنا مرة للريحانة ودعتنا عمتنا بدرية للغداء معهم ، وكانت أحلام معنا في تلك الزيارة ، فلما رآها ادعى أنه رأى أجمل امرأة في العالم

فتبادلت أنعام وزينب وعمري النظرات والابتسامات وتذكروا عباراته الخالدة في زينب " أحلى امرأة في العالم " ، ثم رسموا على وجوههم الضاحكة ابتسامة أخرى ، وقالت زينب : " سنة الحياة .. سبحان الله ! .. أدام الله علينا العافية والسعادة والنعم وبارك الله لنا في كل ذلك بفضله وجوده "

فرددوا جميعهم " آمين "

وانصرفت الشابات إلى حجر النوم ، وظل عمري وزوجتاه يتأملون القمر المكتمل في نصف رجب وتمتم عمري قائلا : " من عاش رجب شاهد العجب "

بعد تلك السهرة الممتعة لعمري بين زوجتيه وأفراد العائلة بأيام ، حدث لعمري حدث كاد يورده المهالك ، وينتقل به من الدار العاجلة إلى الدار الآخرة ؛ إنها ساعة الأجل لم تأت بعد ، فقد لطف الله وخفف البلاء، ولم تكن ساعة المنية قد حانت .. و للحق فصاحبنا عمري لم يغفل عن هذه الساعة ، فكانت أموره المالية مرتبة أحسن ترتيب ، ووصيته مكتوبة عند رأسه ، فالموت يأتي بغتة ، فالذي حدث كان مفاجأة للجميع .

عند ظهيرة ذاك اليوم عند مكاتب الشركات الرئيسية في شارع قطز في العاصمة الكبيرة والجميلة ، وقف شاب في العشرين من عمره أو دون العشرين سنة على الرصيف المقابل لتلك الشركات ، وكان يضع على رأسه كوفية حمراء ، وعلى عينيه نظارة خضراء ، وبين شفتيه سيجارة ، وكان يرتدي جاكيتا أسود وبنطالا ازرق ، وأخذ هذا الشاب الصغير يقرأ اليافطات المعلقة حتى شاهد يافطة أو لوحة كبيرة كتب عليها " مجموعة الشركات العمرية " ، كانت لوحة كبيرة على مساحة من واجهة العمارة الكبيرة ، فانبسط الشاب لما قرأ تلك اللوحة ، وكأنه وجد ضالته التي يبحث عنها ، وادخل البطاقة (الكرت) في جيب الجاكيت ، وتحسس مسدسا يخفيه على وسطه تحت الصرة ، ثم قطع الشارع المزدحم بالسيارات يمينا ويسارا ، وتوقف أمام مدخل العمارة ورفع النظارة عن عينيه وسأل أحد الحراس الواقفين أمام مدخل البناية فقال : " هل هذه شركة السيد عمري الخابي ؟ "

صفن الحارس لحظات قبل أن يرد وقال : " عمري الخابي آ .. قصدك عمري محمود الخابي ؟"

الشاب : " نعم "

فرد الحارس متفحصا للشاب : " هذه البناية كلها للسيد عمري محمود .. ماذا تريد ؟ "

تململ الشاب قليلا وقال وهو يخرج الكرت ثانية ويمد به نحو الحارس : " هذا كرت باسم الشركة .. فقد أرسلني قريب لمقابلة السيد عمري الخابي لمساعدتي في إيجاد فرصة عمل "

فقال الحارس بعد نظره في الكرت التعريفي واعادته للشاب : " هنا مكتب للتوظيف .. اصعد إلى الطابق الأول .. واسأل عن مكتب الأستاذ جلال خليل .. خذ هذا الكرت معك "

□□□

دخل باب العمارة فوجد حارسا آخر يسأله : " أين يا شاب ؟ " فأخرج الكرت من جديد ـ فكأنه اعتبر هذا الكرت بطاقة هوية ـ وهو يقول : " أرسلني قريب لي للعمل هنا في شركات عمري الخابي ، وقال لي الحارس في الخارج أن أذهب لمكتب الأستاذ جلال خليل "

فقال الحارس : " اطفىء السيجارة يا شاب .. فالتدخين ممنوع في داخل الشركة "

طرح الشاب السيجارة في مكان مناسب ، ثم عاد وسأل الحارس : " هل السيد عمري موجود في مكتبه ؟ .. فالرجل أرسلني إليه شخصيا ، فأنا يتيم ، وأبي كان يعمل عندهم قديما عند عمه ناجح أبي صابر "

فقال الحارس : " يا ابني .. اذهب حيث الأستاذ جلال ، وسوف يهتم بك وتشتغل بدون أن تقابل السيد عمريا "

صعد للطابق الأول ، ولم يذهب لمكتب الأستاذ جلال ، بل سأل أحد الفراشين عن مكتب السيد عمري فقال له : " إنه في الطابق السابع يا ابني "

فتركه وركب المصعد إلى الطابق السابع ، وأخذ يقرأ لوحات الغرف حتى قرأ لوحة عليها مكتب المدير العام لشركات ومؤسسات المجموعة .. ووجد صالة فدخل فيها ، فكان فيها رجلان يتحدثان ، فسأل: هل هذا مكتب المدير العام عمري بيك ؟"

فالتفتا إليه وقد قطعا حديثهما وقال أحدهما : " أجل .. انتظر حتى يخرج السكرتير "

كان السكرتير يتحدث مع المدير في الداخل ، والحارس الشخصي كان في دورة المياه تلك اللحظات القاتلة ، وعاد الرجلان للحديث معا ، فقام الشاب بالوقوف أمام الباب لحظات ، ثم دفع الباب بهدوء وأدخل رأسه ، فالتـفت السكرتير والمدير إليه وقال السكرتير مخاطبا له : " انتظر

ولكنه دخل ولم ينتظر ، وقد أشهر مسدسه ، وهو يصيح وبانفعال شديد : " إني قاتلك يا عمري بيك .. فلتمت يا ابن الظالم "

وأطلق الرصاص سريعا قبل أن ينهي كلامه ، فأصاب ذراع عمري الذي رمى نفسه على الأرض وفعل السكرتير مثله .. وكان الشاب يطلق الرصاص بهياج وغضب وصراخ

وعصبية ، وكان الحارس قد عاد لتوه، ففزع لما سمع صوت إطلاق الرصاص ، فدفع الباب سريعا ، ورمى الرصاص على القاتل الذي سقط على أرض باب المكتب ، فهجم عليه الحارس ، وكان عمري رغم إصابته قد ضغط على جرس الإنذار والحماية ، وصارت فوضى في المكاتب ، وتم نـقل السكرتير المصاب وعمري المصاب أيضا إلى المستشفى ، وكذلك الشاب الجريح ، وبدأ التحقيق .. وكانت رصاصتان قد استقرتا في كتف وذراع عمري ، وأصيب السكرتير برصاصات في فخذه ، وبعد انصراف البوليس والأمن .. أعاد الدكتور يوسف حسان الأمور إلى نصابها ، وطالب الجميع بالهدوء والانصراف للعمل حتى يعلم رجال الشرطة سبب ودوافع هذا الاعتداء الغادر على السيد الفاضل عمري ناصح محمود الخابي .

نشرت صحف المساء تفاصيل الاعتداء على شخصية السيد عمري في مكتبه الكائن في شارع قطز .. وأعادت هذه الحادثة الذكريات القديمة يوم تعرض بيت عمري في الريحانة لإطلاق الرصاص ، وحادثة خطف حسن ، والكل يتسأل عن سبب هذا الاعتداء ومحاولة القتل الغادرة، فالسيد عمري رجل مشهور بنظافة اليد ، ومعروف بالعطف والإحسان ، وأعماله تقوم على الإحسان أكثر منها على كسب الأموال ، وتوفر فرص العمل للعاطلين ، وتدعم وتمول المشاريع الخيرية والاجتماعية ، فجانب كبير من الأموال يذهب لدور الأيتام والمعوقين والمستشفيات والعيادات الطبية .

وأما بيت الأسرة فكانت الدموع تنسكب من عيون أهل البيت صغيرهم وكبيرهم ، فهل لهذا الرجل الطيب أعداء لهذا الحد من العداوة والبغضاء ؟ .. ولما اتصل بهم الدكتور يوسف ليلا طمأنهم على صحة عمري وصديقه احمد ، وأن فريق الأطباء نزع الرصاصتين ، وأنهما بعيدتان عن القلب ، دب الفرح في قلوب المحبين ، وكثر الدعاء ، ولجأت الزوجتان للصلاة والدعاء والابتهال إلى الرحمن بأن يفرج الكرب عن عبده عمري محمود .. وكانت ريهان تجلس في صالة من صالات الفيلا ومعها أختها أحلام ، وحسن وأخوه محمد وأختهم مريم الصغرى ، فكانت أحلام تقول بحيرة واستفهام : لماذا يكرهون عمي عمري ؟ !

فيقول حسن : " لماذا خطفوني قبل عشر سنوات ؟ ! "

وأخذ حسن يتذكر يوم جاءه الرجل إلى المدرسة وركب السيارة معهم ، ثم خدروه وساقوه إلى مكان مجهول ، ولما أفاق من تأثير المخدر أو المنوم أركبوه في السيارة ثانية ، وتركوه قرب البيت ، ثم عاد يقول : " لماذا يكرهوننا ؟ ماذا فعلنا لهم ؟ "

فتقول مريم : " من هم هؤلاء يا حسن ؟ ! "

فيقول باسما لأنه هو نفسه لا يعرف منهم هؤلاء الاعداء : " أعداء الخير .. أعداء السلام .. أعداء الأمن ..لم يبق سوى بضعة أشهر ثم التحق بكلية الأمن والشرطة .. ولسوف أحارب المجرمين بغير هوادة .. سوف أفعل بهم وأفعل .. "

فقال ريهان : " على هونك يا بطل !.. قبل أن تفعل بهم كذا وكذا عليك أن تعرف سبب فعلهم لهذه الجرائم .. لماذا انحرفوا ؟ لماذا أجرموا؟ لتنـقذهم من إجرامهم قبل أن تفعل بهم ما تحلم به من الأفعال

فقال محمد : معها حق يا حسن .. لماذا يسرق هؤلاء اللصوص ؟ لماذا يقتل هؤلاء القتلة ؟ "

فعاد حسن يقول : " صحيح أن هناك دوافع وأسبابا للجرائم المختلفة؛ ولكن على الإنسان ألا يستـغل هذه الدوافع للانحراف والشذوذ والشر ، عليه أن يضبط نفسه ويتمالك أعصابه ولا يستسلم لنوازغ الشر والشيطان .. الحقد له علاج .. والغضب له علاج .. ولو كل شخص تربى تربية فاسدة أصبح قاتلا ومجرما ولصا لاختل أمن الناس وأحوال معيشتهم .. كثير من الناس فقراء ولكنهم لا يسرقون .. كثير من الناس يربون تربية سيئة لا يقتلون .. فليس بالضرورة أن كل فقير عليه أن يسرق وينصب ويحتال ويمكر فهناك العمل الشريف والصبر والأمل "

فكان السامعون مبهورين من كلام حسن ، فعلقت أحلام قائلة : "كلامك أكبر من سنك يا حسن ! ولكن لا تنسى أن عند كل إنسان نقاط ضعف قد تدفعه في لحظات معينة لفعل أشياء يرى فيها أنها دفاع عن نفسه .. فعلينا أن لا ننسى الرحمة والعطف بيننا ، وأن نتعامل مع المجرم على أنه مريض ، ونعالجه كما نعالج المريض ، فهناك أمراض يتمكن الطب من علاجها

ومنها أمراض لا يستطيع علاجها ، يعجز الطب عنها .. وبعضها بين بين .. فهناك منحرف يمكن تقويمه وإعادته للجادة والصواب ، وبعضهم لا يمكن تحقيق ذلك معه .. ومنهم بين بين أيضا .. يتحسن تارة وينحرف تارة أخرى "

فقالت ريهان : " فلسفة مهمة يا أحلام ! .. ولكنها قريبة من الصواب ؛ ولكن أسباب الجرائم أحيانا تأتي فجأة .. أحوال ظروف عواطف مشاعر .. انفجار .. أليس كذلك يا أخ حسن ؟ "

ـ " بالتأكيد يا ريهان .. فالأمر ليس بهذه البساطة التي نتحدث فيها ، فالإنسان كائن معقد ، ليس كالمواد التجريبية والعناصر الكيميائية نتحكم فيه بالتصنيع والتغيير حسب المعلومات والصفات .. غدا سنذهب لزيارة الوالد .. من سيذهب معنا ؟ "

فقالت أحلام : " كلنا سنذهب .. فقد قال الدكتور يوسف إن الأطباء غدا سيسمحون للناس بزيارته .. فكلنا نحب الأستاذ عمري يا حسن ! هو أبونا كما هو أبوكم "

ـ " الشكر لكم .. نحن نعرف حبكم لنا ولأبينا وحتى لأمنا "

فقالت ريهان : " ماذا تقصد ؟ ! أتشك يا ولد بحبنا لأمنا زينب ؟ "

فقال ضاحكا : " أقصد أن الناس يقولون كثيرا على أبناء الضرائر وبناتهم.."

قطعت ريهان استرسال حسن عن أبناء الضرائر قائلة : " يا حسن .. نحن لسنا أبناء ضرائر .. كانت أمي تتمنى لو يهبها الله ولدا من أبيك .. إنها خائفة علينا فـتريد أخا ليربطكم بنا أكثر في المستقبل "

فقال باسما : " أيّ مستقبل ؟! المستقبل عند الله .. فها نحن سنتزوج يا قمر .. فهذا أفضل رباط .. أليس كذلك يا أحلام ؟ "

فقالت أحلام : " بلى .. لم يسع أمي الفرح لما علمت بذلك الحب والزواج، ولما دخلنا البيت قالت لنا " الآن اطمئن قلبي عليكن .. فحسن ولد مبارك كأبيه .. لا يحمر وجهك ولا يصفر .. فأمي تحبكم كلكم مثلنا ، وربما أكثر وترى أنكم ملائكة أو تشبهون الملائكة "

فقال حسن : " نحن بشر ؛ ولكن دعوات الأب والأم مستجابة يا أحلام ! وأنا سأكون لكن كالأخ وزيادة .. وأنا أحب أمي أنعام ـ وريهان تعرف ذلك ـ من قبل أن أضعف أمام نظرات

العيون الساحرة .. وأمي زينب تحبكم ، ولا أريد التدليل على ذلك ، بل فرحت بالمصاهرة كفرح أمكم إن لم يكن أكثر "

كان حسن ذكيا وهو يحلم بأن يصبح ضابط أمن وشرطة ليلاحق ويطارد الخارجين عن القانون والنظام .

*****

لم تكد زينب وأنعام يعدن من زيارة عمري الراقد على سرير الشفاء حتى أخبرتهن الخادمة أم احمد أن البواب حارس الفيلا أخبرها أن رجلا شرطة يرغبون بالحديث مع السيدة انعام ، فقالت أنعام : " أمتأكدة مما تقولين لي يا أم أحمد ؟!"

ـ " هكذا أخبرني عمران "

فقالت زينب : " أدخليهم قاعة الاستقبال نحن قادمتان إليهما وهيئ لهما القهوة " والتفتت لأنعام قائلة : " لا تقلقي بعد قليل سنعرف سر قدومهما "

أدخلت الخادمة الضابطين الشرطيين لصالة الزوار ، وذهبت للمطبخ لإعداد القهوة لهما ، ثم أقبلت المرأتان وألقتا السلام ورحبتا برجال الشرطة ، وقالت زينب بقلق : " مرحبا بكم .. ما الأمر يا حضرات الضباط ؟! "

فتبسم أحد الضباط وقال : " السيدة أنعام ؟ "

ـ " لأ " وأشارت لضرتها ، فقالت أنعام بخوف وتوتر : " أنا أنعام .. ما الخبر يا سيدي الضابط ؟! "

فابتسم الضابط المتكلم ثانية وقال : "نأسف للإزعاج ؛ ولكننا نحقق بموضوع الاعتداء على السيد عمري محمود "

فقالت أنعام بحيرة وارتباك : " وما دخلنا في الموضوع ؟! "

ـ " لا تقلقي يا سيدتي ! .. الآن ستعرفين وتذهب عنك الدهشة والحيرة "

فقالت مقاطعة : " عفوا سيدي الضابط .. فالتحقيق معي في هذا الموضوع خطير ومخيف .. أليس كذلك يا زينب ؟ "

فقال الضابط باسما : " لا يذهب بالك بعيدا .. أنت لست متهمة بشيء يا سيدتي ..نريد بعض المعلومات "

قالت انعام وما زالت الدهشة تسيطر عليها : " معلومات ! "

فقالت زينب : " اصبري قليلا يا أم سهام !.. الضابط سيوضح لنا القضية؟ "

فقال الضابط : " أنت كنت متزوجة قديما من رجل يدعى ماهر خلس؟"

تطلعت أنعام بعيني زينب ثم نظرت في رجل الأمن وقالت بحيرة : " نعم ، وهو والد بناتي الثلاثة سهام وأحلام وريهان .. وقد مات قديما بحادث سيارة .. وأنا منذ سنتين أو ثلاث تزوجت زوج هذه السيدة الأستاذ عمري وهو ابن عم لي "

فقال الضابط مفكرا بكلام أنعام : " هل كنت تعلمين أن ماهرا هذا كان متزوجا قبل الزواج منك ؟ "

فقالت : " نعم ، كان متزوجا من ابنة عم له ، وقد طلقها ثم تعرفنا وحصل النصيب .. ولقد كان موظفا في مجموعة شركات عمي والد عمري وأبي ناجح الخابي "

فعاد الضابط يسأل : " هل كنت تعلمين أن له أولادا من زوجته الأولى ؟"

فقالت بدهشة : " أولاد .. ماذا قلت ؟! "

ـ " ألم يخبرك ويقل لك أن له أولادا من زوجته الأولى ؟ "

ـ " لا ، لم يخبرني أو يحدثني بشيء من ذلك ، ولما تزوجنا لم أسمعه مرة

واحدة يذكر أولاده أو أن له أولادا حتى ما سمعته ذكر مطلقته في حديث دار بيننا "

فقال الضابط : " يا سيدتي ! اعلمي أنه كان لزوجك المرحوم ماهر ثلاثة أطفال عندما اقترن بك .. والذي أراد قتل زوجيكما هو الابن الأصغر للسيد ماهر "

فهتفت أنعام برعب : " فظيع هذا الكلام ! .. ولماذا يريد قتل زوجنا ؟ "

ـ يقول " انتقام " .. يدعي أن والد عمري قتل أباه فهو يريد أن ينتقم لمقتل أبيه ماهر "

فقالت بصوت مرتفع شيئا ما : " زوجي الأول لم يقتل يا حضرة الضابط .. مات في حادث سير عادي .. "

فقال الضابط : " هذا ما أدلى به الشاب رامي ماهر خلس .. عمري كما أخبرنا أنه لا يعرفه ، ولا يعرف حتى زوجك السابق لظروف شرحها لنا .. فذهبنا لقرية زوجك الأول فالتقينا بمطلقة السيد ماهر فقالت " أن ابن عمها تزوجها أثناء دراسته في الجامعة ، أحبها وطلبها من عمه وتزوجا ، وبعد الجامعة طلقها وهاجر للمدينة ، وكان يتردد على البلدة في المواسم والأعياد فقط ، ثم قالت " علمنا بأنه تزوج ببنت من بنات المدينة ، ثم علمنا بأنه مات بعد سنوات من الزواج بحادث سير رهيب ؛ ولكن عرف والده من بعض أصدقائه في العمل أن السيد ناصح الخابي كان وراء الحادث .. ولما وصل خبر موت السيد ناصح للقرية قبل شهور عن طريق الصحف التي نشرت النعي المصحوب بالصور الكبيرة ، سمع رامي ابن ماهر أمه تقول لهم عندما شاهدت صورته في الجريدة وعلمت اسمه " إن هذا قاتل أبيكم " ثم حدثتهم عن هجرة والدهم للقرية وعمله مع السيد الخابي ، ثم زواجه من ابنة ناجح الخابي ، ثم موته بحادث سير مدبر .. هذه هي القصة يا سيدة أنعام .. فهل ترين فعلا أن لعمك الخابي يد في مقتل زوجك ؟ "

ـ " لا أصدق ذلك ، مات ماهر بحادث صدم ولم أسمع شيئا على أنه مدبر .. أنا كنت اشتغل وماهر في إدارة واحدة .. كان شابا وسيما وطموحا ، وكان قد حصل على الماجستير في الإدارة المالية والمحاسبة عندما اشتغل في الشركة ، وكان مسؤول قسم التوثيق والتدقيق ، بل كان ماهرا في إعداد الموازنات العامة الحقيقية والوهمية ، لقد حاز على رضا عمي وأبي .. وكنا نتكلم نتيجة العمل والمجاورة في المكتب ، فحدثني عن طلاق امرأته في القرية وزواج أهل الريف ، ووضح لي أن أسباب الطلاق هي التي دفعته إليها ، وأهمها الجهل والأمية ، وبعد سنوات من التعارف لمح لي بالزواج .. فقلت له تحدث مع والدي ، وفعلا تحدث مع أبي ناجح ـ رحمه الله ـ وكنت يومها ابنة خمس وعشرين سنة ، ولما شاورني والدي بأمره وافقت وتزوجنا وسكنا في شقة في إحدى عمارات عمي ناصح .. ولم يخبرني أن له أولادا من زوجته الأولى قط لا قبل الزواج ولا بعده .. وكان عمي يكلفه بمهمات حساسة ودقيقة لثقته الكبيرة به إلى كان يوما عائدا من مهمة وعلى منعطف إحدى الطرق اصطدم بسيارة كبيرة .. نقل على أثرها إلى

المستشفى ، وبعد أيام توفاه الله ، ويوم الوفاة التقيت بأمه وبعض أخواته، ولما انتهى العزاء لم نعد نرى منهم أحدا ، وهي كانت المرة الأولى والأخيرة التي التقي بأمه وأهله .. حتى إنهم لم يسألوا يوما ما عن بنات ابنهم المرحوم .. ثم تركت الشقة وسكنت أنا والبنات مع والدي وأمي حتى تزوجني ابن عمي عمري .. ولكن لماذا ينتقمون من عمري ما داموا يشكون ويظنون أن قاتل ابنهم السيد ناصح ؟ "

ـ " لئن عمري ابن ناصح ، وناصح قد مات ، ولولا موته ونشر صورته في الجرائد ما عرف الشاب بذلك .. هذا سبب زيارتنا لك يا سيدة أنعام .. "

وأحضرت الخادمة أكواب العصير ، ولما انتهيا من شربها قال الضابط وهو ينهض : " الحمد لله على سلامة أبي محمود .. أشكر لكم تعاونكم ، ونأسف على ازعاجنا لكم ، وندعو الله أن يعافي لكم السيد عمري فهو رجل فاضل "

□□□

قد بان الآن علاقة المجرم بالسيد عمري وسبب الاعتداء عليه ، الأب يرتكب الجريمة والابن يدفع الثمن ، ماهر خلس كان متزوجا من ابنة عمه التي هويها في أيام المراهقة ، وأثناء الدراسة في الجامعة تزوجها ، وأنجبت له بنتا وولدين أصغرهما رامي ، ولما تخرج من الجامعة بشهادة علوم محاسبية لم يرتح لحياة القرية أو التنقل بين القرية والمدن الكبرى لمزاولة العمل والشغل .. فماذا يعمل في القرية بشهادته ؟ ، فطلق ابنة عمه التي أحبها ، وهاجر للمدينة الكبرى العاصمة طمعا بفرصة عمل أو وظيفة في دواوين الحكومة ، فهو من حملة الشهادات الجامعية ، ثم تيسر له العمل في شركات الخابي وخلال ست أو سبع سنوات كان رجلا مهما في شركات الخابي أو في مكاتبها المهمة .. وهناك ـ بعدما أنهى الماجستير ـ في المكاتب الرئيسية التقى بأنعام ابنة ناجح بيك شريك ناصح في هذه الشركات والمصانع ، وكانت أنعام فتاة هادئة بطبيعتها ومرحة ، فتعرف عليها واحتك بها كأي موظف يعمل في الشركة ، وقد عملا في مكتب واحد وإدارة واحدة ، ولم تأكد أنها غير مرتبطة بشاب من أبناء العائلات الكبيرة والثرية ، وقد كان بحكم الزمالة والعمل قد حدثها قديما في جلسة من الجلسات عن زواجه ، وتركه القرية ، وتطليقه لامرأته ، .. وكانت أنعام تعلم ثقة والدها وعمها الكبيرة بالسيد ماهر ، فتشجع الشاب وحدثها أو جس نبضها حول الاقتران بها ، فلم تمانع ولم تنظر للفارق الطبقي بينهم ، إنما طلبت منه أن يكلم والدها بذلك ، وتكلم ماهر مع أبيها بذلك الأمر ، وتزوجا كما قالت أنعام زواجا تقليديا ، وعاشا سعيدين بضع سنوات ، ثم مات بحادث اصطدام مع مركبة كبيرة ، وقدمت الشركة لأهله مبلغا قدره عشرة آلاف دينار مواساة لأبيه وأمه ، وكان راتبه أثناء العمل وراتب أنعام بالكاد يصرف على البيت والبنات الصغيرات ، ووجدوا رصيدا يسيرا في البنك باسمه ، فدفعوه لأهله ، وكان السيد ناجح قد تكفل بأنعام وبناتها ، فهو ينفق عليهن بعدما نقلن لبيته .

ولما نشرت الصحف نعي السيد ناصح وصورته بناء على رغبة مديري شركات ناصح الخابي حتى قبل عودة عمري من إيطاليا ، فهم منذ التقطوا خبر موته الذي كانوا يتابعونه منذ سفره

□□□

الاخير قاموا بالاعلان عن وفاته وتعزية أولاده في الصحف المختلفة دون مشاورة أسرة عمري، فصدف أن رأت القروية امرأة ماهر الاولى الصورة الكبيرة في إحدى الصحف بين يدي ولدها رامي ، سألت عمن هو صاحب هذه الصورة ؟ فلما ذكر لها الشاب من هو صاحب هذه الصورة التي تملأ صفحة الجريدة تذكرت هذا الاسم ، وتحدثت عما أشيع عن قتله للسيد ماهر ، ولم تستطع كتم ما اشيع في تلك الايام ، وأخذت تنقل ما سمعته للأولاد عن تلك الحادثة القديمة ، فاحتدم الغيظ في قلب رامي وأخذته الحمية الريفية ووعد أمه بقتل ابن الخابي الذي تقوم الصحف أو إعلانات النعي بتوجيه النعي له ، ولم تأخذ الأم كلام ابنها بجد واهتمام .. وكان رامي قد فشل في الدراسة ، واتجه للعمل مبكرا فعمل بالقرية حينا من الزمن ، ثم انتقل للعمل في أقرب مدينة لقريتهم ، وكان في بعض الاحيان ينزل العاصمة للشغل أيضا ، فلما سمع قصة موت أبيه فهدد وتوعد ، ولم يكترث أحد ممن سمعه لزمجرته ، واعتقدوا أنه انفعال طاريء بعد أن سمع حكاية أمه والقائها اللوم على ناصح الخابي بموته فنزل الشاب المدينة كالمعتاد ؛ لأنه في تلك الايام كان يعمل مع أقارب له في المدينة ، فأخذ يجمع المعلومات عن أولاد الخابي ، فعلم أن للخابي ولدين فقط عمري وسمري ، وأن سمريا في أمريكا ، فأراد أن يجعل انتقامه ممن حرمه من أبيه من عمري الخابي ، ثم خطط لجريمته فاشترى مسدسا ، وقام بفعل الجريمة كما تحدثنا عنها في صفحات سابقة، ولما أصيب رامي بطلقات الحارس غير القاتلة نقل للمستشفى مصابا في فخذه وساقه ، ولما أفاق بعد الجراحة ، وأصبح قادرا للادلاء بأقواله تحدث بدوافعه للجريمة بدون تردد أو مماطلة ، وانتقل المحققون للقرية، ثم اجتمعوا بالسيدة أنعام إكمالا للموضوع ، ثم تم تحويل أوراق المتهم للنيابة العامة .

ولما علم عمري الراقد على سرير الشفاء هو وسكرتيره الأستاذ أحمد بهذه التفاصيل ، قال عمري لنفسه : " حسبنا الله ونعم الوكيل .. قاتل الله الجهل .. لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. أبي يقتل وأنا أدفع الثمن .. لا بأس .. ماذا سأفعل مع هذا اللعين ؟ ! .. إن عفوت أنا لم أعلم من حقائق فالسكرتير أحمد كيف يعفو ؟ ! .. وهو أخو سهام وأحلام وريهان ..

وحسن يحب ريهان .. أخ ريهان كان يريد قتل والده ! (وابتسم) .. سلم الأمر لصاحب الأمر سبحانك ربي ما أعظمك ! ارحمنا برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين ولا تكلنا لأحد غيرك .. وقنا شر خلقك وشر أنفسنا "

لذلك لما أتت أنعام وزينب يعودانه بعد مقابلتهما للضابط ، حدثته أنعام عن شخصية المجرم فقال : " لا تهتمي يا أنعام أخبرني رجال الأمن"

فقالت باكية : " أنا والله لا أعرف أن للبنات إخوة .. هو لم يحدثني بأن له ذرية ، وحتى أنا لم أحاول التعرف على أهله خلال مدة الزواج أو بعد موته ، منذ مات لم يصدف أن التقيت بأحد منهم ، ولا هم حاولوا التعرف على بنات ابنهم .. ماذا أقول للبنات يا عمري ؟! .. هل أقول لهن أن أخا لهن أراد قتل زوج أمهن ؟! "

ـ " اهدئي لا تنفعلي ستحل هذه القضية .. وسيتعرف الأخوة على أخواتهم .. وهذا لن يغير من الواقع شيئا .. فبناتك كبيرات وفي سن زواج، وستذهب كل واحدة لبيتها بإذن الله سبحانه ، ولكن لابد من تعارف الجميع والتقائهم لعلاقات الرحم التي بينهم .. أما هذا المعتدي فقد حولت أوراقه للنائب العام لتحويل ملفه للقضاء .. وتأكدي أن هذا الحادث لن يغير من حياتنا كثيرا ..فقد أخبرني صابر أن السيد ماهرا قد قسمت ثروته اليسيرة وميراثه ، وتنازل والدك ناجح عن حصتك وحصة البنات لأهله قديما ، ودفعت لهم الشركة عشرة آلاف تعويضا لما حدث وغير الأموال التي حصلوا عليه من شركات التأمين وصاحب السيارة الصادمة .. ليس لهم عندنا شيء بل نحن الآن لنا عندهم شيء ".

*****

لقد وضح وعلم سبب الاعتداء على المدير العام لشركات الخابي الأستاذ عمري محمود ، وتحسنت صحة السيد الخابي والسكرتير أحمد ، فعاد الخابي للفيلا تغمره باقات الدعاء والشفاء والورود والفرح والحب ، ولما استكمل فترة النقاهة رحل للريحانة ، وهناك تفقد دور الأيتام التي كان يرعاها هو وأمه مريم ، وتصدق عليهم ، وتفقد بعض الأسر المعوزة والتي تتلقى إعانات منه ، ومن صناديق الشركات التعاونية ، وزار بعض الموظفين القدماء الذين تركوا

العمل لعجز أو مرض أو شيخوخة ، وأهداهم المال والهدايا ، وقضى ثلاثين يوما وهو في هذه الأحوال الروحانية ، ثم أخذ زوجتيه وسافر لجدة ومنها لمكة لأداء العمرة ، وقضى شهرا آخر في ربوع مكة والمدينة ، وبعد استراحته بضعة أيام وليال عاد للعاصمة ثانية ، فزار السكرتير أحمد ودعا له بالعافية التامة ، وقد وجده قد عاد لصحته ولممارسة العمل ، فعرض عمري عليه عملا آخر مريحا أو تقاعدا في البيت ، وأن يتـقاضى راتبه كاملا ، فاختار إدارة دار من دور الأيتام ، فهو يحب هؤلاء الأطفال ، ويرجو الثواب من ربه ، فخطب عمري في ختام الزيارة ابنته لولده أسامة ـ الشاب الثالث في ترتيب أبنائه يصغر عائشة بسنتين ـ وكانت الفتاة التي يريدها لابنه ما زالت طالبة في كلية الإعلام ، فترك أحمد الأمر للشابين ، فاستدعاها عمري ورغبها بالاقتران من ابنه أسامة ـ المهندس في الشركة المعمارية القائمة في مدينة الريحانة ـ فقالت بأدب : الأمر لك يا عماه .. ما رأي أبي في الموضوع ؟ "

فقال : " أنا أحب أباك منذ أيام الريحانة ، وهو من أصدقاء العمر .. ونحن سنغادر هذه الدنيا مع أننا نجينا من هذه الحادثة الرهيبة ، فالموت قادم يا بنية .. وأنا في هذا الزواج لا أريد أن أسدد دينا لأبيك ، إنما أريد أن أزيد أواصر الحب بين الأسرتين أكثر ، وتقوية الأواصر الاجتماعية ، فإذا كان لديك قبول بهذه المصاهرة والنسب فدعينا نتصل بولدي هناك ليأت سريعا ، ويتم كل شيء بمشيئة الله .. فنحن اخوة وأحباب "

فقالت : " ظل عليّ سنة في الكلية يا عماه "

ـ " الزواج لن يعيق هذه السنة "

ـ " أخشى الحمل ومشاكله .. فأنتم تحبون الأولاد بسرعة .. نخطب فقط "

ـ " أنا لا أحب أن تطول هذه الخطبة يا بنية .. فأنا عندي حسن ابن الثماني عشرة سنة يريد الزواج "

فقالت باستغراب : " حسن الصغير يريد الزواج ! "

فقال موجها كلامه لأحمد : " يا سيدي يريد ابنة خالته أنعام الصغرى يدعي أنه محب ولهان بها "

فقال أحمد : " أخشى أن يكون حب صبيان يا عمري "

ـ هو فعلا يريد الزواج ، والبنت كذلك ، ولكن هذه الحادثة عقدت الأمور .. فقد ظهر للبنات الثلاثة أخت وأخان .. والمجرم أحد الأخوين "

فقالت هند : " وهل هذا يؤثر على زواجهما ؟ "

ـ " هو أخوها .. قد لا يؤثر على طباعنا وحياتنا كثيرا ؛ ولكن دينا وشرعا هو أخ لها سوف يزورها ويتـعرف عليها .. فهي أخته شئنا أم أبينا .. وقد لا يمكث في السجن طويلا قد يمكث بضع سنين .. فها هم أهله وأهل قريته يطلبون ويلحون اللقاء بنا أنا وأبوك للصلح ونحن حائران في ذلك ؛ ولكننا في النهاية سنرضخ لتوسلاتهم وبكاء أمه ، وسيقضى في السجن الحق العام حق الدولة فحسب .. فقد زارت أمه البيت أكثر من خمس مرات ونحن في مكة والمدينة والريحانة "

وقال أحمد : " وزارني جده وبعض أفراد أسرته وعشيرته ، فقلت لهم لما يرجع أبو محمود نتكلم في الموضوع .. ولكن يا عمري هل يعقل أن يكون والدك قتل زوج ابنة أخيه كما يدعون ويتمتمون ويتهمون ؟ ! "

سكت عمري لحظات قبل الرد ، ثم قال بعدما مسح جبينه بمنديل قماش : " مما علمت فهو قتل بحادث سير ، وقد أثير فعلا حول الموضوع لغط وإشاعات .. هكذا تقول امرأة عمي عزيزة .. ولكن لا يستغرب مثل ذلك عن أبي "

ـ " أمعقول هذا الكلام ؟ ! "

ـ " أنا لم أعاشر أبي كما تعلم كثيرا .. للأسف كان أبي وحشا في صورة إنسان يا أحمد "

فقالت هند : " إنك تقول كلاما قاسيا يا عماه في حق أبيك ؟! "

فقال : " للأسف أقول ما تسمعين .. أبي لم يسجد لله سجدة واحدة ، وهو يموت أحثه على قول لا اله إلا الله فيقول " دعني ، فعلنا كل المعاصي وكل الجرائم وتريد أن نقول هذه الكلمة دعنا ليوم الحساب " .. أنا خرجت قبل العشرين إلى بريطانيا للدراسة ، ولم نكن نرى الجانب المظلم في حياة ناصح الخابي ، وكنت غارقا في الشهوات والملذات لم أكن أكترث لو سمعت

شيئا ..كل شيء مبرر ، ولما عدت بعد سبع سنوات عدت متعبا نفسيا ، لقد خسرت أموالا كثيرة على الموائد الخضراء في باريس ولندن ، فلما تراكمت عليّ الديون والخسائر أتى أبي وسددها عني، وأعادني معه ، وقضيت سنة أو أكثر لا أخرج من البيت إلا للطبيب النفسي ، ثم عملت مع أبي سنتين أو ثلاث ثم سلمني قيادة مصنع للسجاد .. كان الوضع غير طبيعي فيه ، أبي كان يغرق مشاريعه بالجواسيس سواء من العمال أو الإدارة ، لا يثق بأحد ، ومع ذلك كان يسرق ويسلب .. فلا أستغرب منه أي شيء يا هند .. كلام مؤلم ولكنه هو الحقيقة .. ثم قدر الله لي الهداية والتوبة ثم الهرب من البيت ... "

فقالت : " الهرب .. ! "

فقال مؤكدا : " الهرب .. إيه يا هند لقد ذكرتيني بعقود وعشرات من السنوات قد ذهبت "

فقال أحمد : " كفاك أسئلة يا هند "

فقالت هند بحماس : " ما رأيك يا عماه ! أن أكتب لك قصة حياتك كما يفعل المشاهير ورجال المال والاقتصاد ؟ "

فضحكوا لأقتراح هند ، وقال عمري : " لا يوجد لي قصة تستحق الكتابة يا ابنة أخي .. لما هربت كان معي أموالي التي كنت أقبضها من أموال الشركة ، فشغلتها بعدة مشاريع في الريحانة ، وكل مشروع تولد عنه مشروع أو أكثر وهكذا "

فقالت : " لابد أن هناك لقطات مهمة في حياتك وفواصل "

ـ " أهم فاصل في حياتي يا حبيبتي التوبة والبداية مع الله سبحانه .. سنحاول تسوية موضوع رامي .. آ .. يا هند هل أتحدث مع أسامة ؟ "

فقال أحمد باسما وهو ينظر لابنته الوحيدة : " اتصل به يا عمري فعيون هند تقول اتصل "

فضحكت هند لمداعبة ابيها وقالت : " والله عمي عمري لا يكسف ولا يفشل .. نسمع رد أسامة أولا فإذا قبلني زوجة على سنة الله ورسوله فأنا لا أمانع ، أما أن تجبروه على ذلك فلا أقبل .. وأيضا لابد من مشاورة أخي وأمي بذلك "

فضحك أحمد : " المهم أنت .. حمزة يريد الدكتورة عائشة ، وهو ينتظر إنهاءها الاختصاص

وهذا تكلمنا فيه قديما "

فقالت : " أموافقة عائشة ؟ "

ـ " أبوها الموافق .. عائشة لا ترى مثيلا لأبيها في الدنيا ولا تعصي له أمرا "

فتبسمت هند وقالت : " وأنا لا أعصي لأبي أمرا .. كلي طاعة لكما"

قال عمري : " جزاك الله خيرا .. هات الهاتف لتسمعي قول المهندس أسامة عمري "

*****

لما دخل عمري للمنزل وتناول العشاء مع أفراد الأسرة ، وأخذ يرشف فنجان القهوة كعادته في غرفة الاسترخاء والجلوس ، وتفرق بعض الأولاد في حجرات الفيلا ، فقد كان أبو محمود يحافظ على مشاركة الأسرة العشاء بالذات ، وكان أفراد الأسرة يحبون الجلوس حوله والسمر معه ،فلما انتهى من شرب القهوة ، سمع زينب تسأل : " مالك لا تتكلم ؟! .. منذ دخلت البيت وأنت قليل الكلام .. هل صليت العشاء ؟ "

ابتسم عمري وقال : " صليت العشاء بمسجد قريب من بيت أخي أحمد أبي حمزة .. فقد كنت أطمئن على صحته "

ـ " ما أخباره وأخبار أم حمزة وهند وحمزة ؟ "

ـ " صحته تمام بفضل الله ، وهو يفكر بأداء العمرة قريبا .. وأم حمزة خرجت مع الأولاد في عيادة أحد اخوتها وكانت هند هناك "

فقالت أنعام : " إنها فتاة لطيفة وذات مشاعر حساسة ورقيقة كيف هي ؟ .. لقد كانت تبكي يوم الحادث بكاء مزق القلوب "

ـ " الجميع بخير وقد طلبتها من أبيها ؟؟ "

فقالت زينب مداعبة لزوجها : " لك يا أبا محمود ؟! "

فقالت عائشة الصامتة : " ليت أبي يفعلها يا أمي لنرى ماذا ستفعلين ؟

فقالت أنعام : " أبوك شيخ كبير بعد أنعام لا يفكر بالزواج .. وهو تزوجني على استحياء "

فقال حسن مازحا : " ربما بعد الحادث دبت فيه قوة الشباب والحياة "

فقال عمري وهو يعدل من قعدته : " تذكرت أين قمرية ؟ "

فرد محمد أصغر أبناء عمري : " ذهبت عند عمتك رباب .. فقد اتصلت بها عصرا .. طلبت هندا لمن يا أبي ؟ "

فأجابه عمري ضاحكا : " لك يا ولدي .. ما رأيك ؟ ! "

ـ " إنها أكبر مني .. إنها تصلح للمهندس أسامة "

فضحك عمري والحضور لأعتذار محمد وقال : " أسامة ! .. نعم، هو أسامة يا زينب ، ولما أبدت الموافقة والرضا تكلمنا مع أسامة من بيت عمكم أحمد ، وقلت له القصة ، فقال هو الآخر " إذا هي موافقة فأنا موافق " فقلنا على بركة الله سبحانه.. وستكون الخطبة خلال يومين وهو قادم غدا أو بعده فاستعدوا لذلك .. أنا أقدر وأحترم الصديق أحمد ، فهو من أوائل الرجال الذين قامت على أكتافهم شركات عمري محمود وهو رجل فاضل "

فقالت زينب : " وموضوع عائشة ؟ "

فقالت عائشة مازحة : " أمستعجلة يا أمي على فراقي . ؟! " فقالت زينب : " دراسة الطب طويلة يا ابنتي .. وأنا في سنك كنت قد خلفتك وأخاك محمودا وأسامة أيضا "

فقال عمري : " حمزة جاهز .. ينتظر إنهاء الدكتورة الاختصاص .. وهو من الرجال الذين يعتمد عليهم .. وهو ابن أبيه وجراح ممتاز "

ولما انتهى التعليق والتعقيب والتبريك والتهنئة ، وقام بعض الحضور للنوم ، التفت عمري لسهام وقال بحب وعطف : " ماذا حدث معك يا سهام ؟ ومالك لا تشاركينا فرحتنا ؟ "

فقالت : " إنني فرحة بما أسمع من أخبار يا عمي ! ولكن منالا تقول إن فوازا صرف نظره عن الزواج وانشغل بدراسة الماجستير "

فقال عمري : " لا تحزني يا بنيتي .. هذا خير لك صدقيني .. هذا من لطف الله بك .. لا يريد لك أن تعيشي في بيئة قد تخلص منها الجميع .. لقد كان منذ البداية مترددا في تحديد الموعد .. فالموعد لا يحتاج لكل هذا الانتظار "

وقالت أنعام التي على دراية بذلك : " وتسألها منال هذه بتهكم واستهزاء .. هل صحيح أن

الذي أطلق النار على زوج أمك أخوك ؟ .. انظر إلى هذا الكلام الجارح والقاسي ممن تدعي أنها صديقة لها .. "

أخذت الفتاة تبكي بهدوء فقال عمري : " دعي الدموع .. لا تبكي يا سهام ! .. دموعك عزيزة علينا .. ربنا يقدر هذه الأشياء لأشياء خيرا منها .. فلو لم تحدث هذه الحادثة لما عرفت حقيقة هؤلاء الناس .. وما ذنبك بجريمة أخ لك ؟! .. أنت متضايقة من اللباس الشرعي لأنه طارئ عليك، وطبيعة الكلية التي درست فيها كلها سفور وتبرج ، فكنت ترين نفسك شاذة في السنتين الأخيرتين .. أما الآن بعد تحررك من ذلك الجو الفاسد سترتاح نفسك رويدا رويدا وبعدما ترتاح نفسك فلدي شاب ممتاز ولائق بك وسيسرك الاقتران به .. لن اذكره الآن حتى لا تظني أنني أفرضه عليك .. بس حاولي مع فواز مرة أخرى وأخرى .. وتأكدي أننا نحبك وتهمنا سعادتك .. اذهبي بها يا عائشة إلى حجرتها "

مسحت الفتاة دموعها وقالت : " لا .. أحب البقاء أنا كما قلت لك يا عمي ليس بيني وبين فواز عهود ووعود .. زمالة كلية وكنت أظنه الرجل المناسب لي ولا أدري لماذا يتهرب ؟! "

فقالت زينب : " يا ابنتي ! أنت ابنة العائلة .. ولا تهتمي وتتأثري من أخيك رامي ، فهو فتى طائش جاهل .. وستتعرف على هؤلاء الناس وتنصلح الحال .. وهم في حال وأنتم في حال وهو كان يظن أن عمريا كأبيه له يد في موت والده .. وتقاليد القرى والفلاحين فيها نوع من الخشونة والقسوة وروح الثأر والانتقام .. وتربيتهم تقوم على الخشونة والكرامة المبالغ فيها والجاهلية .. فعندما يتعرفون على عمك ستظهر من نفوسهم طيبة الفلاح طيبة القروي .. وهم اخوتك مهما حصل وسيبقون اخوتك ولا تزر وازرة وزر أخرى "

فقالت أنعام : " أنت طيبة يا زينب ! .. لنا أكثر من عشرين سنة لم نسمع بهم .. أي اخوة وأي أقارب ؟ "

فردت زينب : " زوجك ماهر - رحمه المولى ـ لم يحدثك عنهم فهو المخطئ .. لماذا كتم ذكرهم عنك لما رغب بالزواج منك ؟ ! " فقالت بحيرة : " لا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ "

ـ " ولما مات كان الأولاد أطفالا ، وأخبرتنا أمه أن ابنه فائق ابن ست وعشرين سنة ، وهو

سائق في مصنع قريب من البلدة ، والبنت ميسون متزوجة في القرية من قريب لها ، وأما رامي فهو أصغرهم وهو ابن عشرين سنة ، وبينه وبين أخته خمس سنوات ، فيظهر مع احترامي لمشاعر الجميع أنه لم يكن مطلقا زوجته كما قال لكم أو أنه ردها بعد زواجكما ؟! "

تمهلت أنعام قبل أن تجيب ثم قالت وكأنها تتذكر تلك الأيام الخوالي : " هو كان يحدثنا عن طلاقه قبل أن يفاتحني بالزواج بحكم الزمالة في المكتب والشغل ، ونحن يؤمئذ لم نتأكد من ذلك ؛ لأن الأمر لم يكن يهمنا لا في قليل ولا كثير ، ولما دار الحديث بعد سنوات عن الزواج لم نسأله عن ذلك للمعلومات السابقة المستقرة في أذهاننا عن طلاقه وهجرته ولحياته في المدينة ولا أنكر أنه كان أحيانا يغيب عن الشغل والدوام بحجة أعمال خاصة يقوم بها لحساب عمي ناصح ووالدي ، لم ادقق في غيابه وتحركاته ، كانت الحياة طبيعية وهادئة ، لم يكن بيننا مشاكل وريب .. حقيقة أنه كانت هناك حركات غامضة بينه وبين عمي ناصح ، ولما أسال أبي صدفة عن ذلك ، فيجيب " لا تتدخلي فيما لا يعنيك ، فإنها صفقات سرية فاصمتي خيرا لك ولنا " فاصمت ، ولا أهتم كثيرا لغيابه لأنني واثقة أنه يعمل لعمي .. وكنت أيضا مشغولة بالبنات والحمل والولادة والطبيبة والعيادة حتى الشغل أيامها أنا كنت أتغيب عنه كثيرا "

فقال عمري : " سنعرف عندما يأتي أهل الولد كثيرا من المعلومات عن هذه القضية .. لقد أطلعني والدي في أيامه الأخيرة على أشياء تقشعر منها الأبدان عن النشاطات السرية للشركات ، وقد ذكر هذا الرجل على لسان أبي أكثر من مرة ، وقد كان شخصا محبوبا من أبي وعمي وإلا لما زوجوكما يا أنعام .. ابنة ناجح الخابي تزوج لفلاح قروي !

فهمست أنعام : " هذا ما أقوله ؟! .. لولا رضا والدي وعمي عنه ، لما وافقا على زواجنا بسهولة وخصوصا عمي ناصح .. وأنا لم أر منه سوءا، بل كان نعم الزوج ، ولم أر منه تقصيرا يوما ما ، وحياته الخاصة لم أتدخل فيها هكذا تعودنا ، وسنتعرف على هؤلاء الاخوة يا سهام

فقال عمري ملتفتا لسهام : " لا تجعلي يا حبيبتي ! قضية هذا الأخ قضية كبرى في حياتك وحياة أخواتك ، فهذه الاخوة باقية ، وليست باختيارنا فحتى لو تدابرنا وتعادينا ستبقى الاخوة .. فهي اختيار رباني ، وكل إنسان مسؤول عن نفسه .. فانظرن أنا ابن من ؟ ! "

تنازل عمري ناصح وأحمد عبد القادر عن حقهما في قضية رامي ماهر من أجل خاطر بنات أنعام ، فقد أتت أم الشاب وجدته وكبار رجال القرية إلى السيدين عمري وأحمد واعتذروا لهم عما سببه لهم الولد الطائش من ضرر وإصابة ، وتحدث جده كثيرا مبديا أسفه على الحادث وقال معتذرا : " أم الولد حمقاء يا أبا محمود ويا أبا حمزة ! .. وموت ماهر له سنوات وسنوات فلما شاهدت تلك الحمقاء أم فائق الصورة في الجريدة ، سألت الولد صورة من هذه ؟ فذكر لها اسم الوالد ناصح الخابي ، فتذكرت الماضي وما قيل في تلك الأيام حول الحادث ، وقد كان المرحوم ماهر قبل أن يموت بأيام قد أتى القرية وتحدث أمامي وأمام غيري ، وقال لنا إن حياته باتت في خطر .. وأخبرنا أنه ارتكب غلطة مع صاحب الشركة فلن تغتـفر وأوصاني على الأولاد ، وكان المرحوم قد طلق زوجته صبيحة ، وهرب إلى المدينة ، وبحثنا عنه ، فلم نجده حتى علمنا أنه متزوج من ابنة أحد أصحاب الشركة ، صبرنا إلى حين ، ثم أرسلنا له أخاه وائلا ـ وأشار لرجل في المجلس ـ فتكلم معه وأمره بالعودة للأهل وإلا فضح أمره للسيدين ناصح وناجح .. وكان لا يستطيع الاختفاء من جديد بعدما أصبح من رجال السيدين ناصح وناجح الخابي .. فأتانا وتصافحنا وتصالحنا واتفقنا على أن يتزوج ابنة عمه مرة ثانية ، فبعد تمنع واحتجاج بزوجته في المدينة ، قلنا له لن نخبر أحدا بزواجك .. فبعد ضغط مني ومن عمه والد زوجته عقد عليها من جديد ، وأصبح يتردد على البلدة كلما سنح له ذلك أو كلما كلفه أبوك بمهمة خارج العاصمة ، إلى أن جاء في الأيام الأخيرة له من الدنيا وحدثنا عن الخطر الداهم المحيط به .. وفي الحقيقة لم يكشف سر هذا الخطر وأسبابه، إنما كان يظهر خوفه من ولي نعمته فحسب .. نحن بالطبع لم نأخذ الكلام على شكل جدي للمشاكل التي بيننا وبينه من طلاق ابنة اخي وهربه للعاصمة وعدم الاتصال بنا .. إلى أن جاء الخبر بالحادث المروري ، فقد اصطدم ذات يوم بمركبة كبيرة ادعى سائقها أن عطلا فجائيا حدث لها .. ونحن اتهمنا السيد ناصح بتدبير الحادث للخوف الذي حدثنا عنه قبل موته بأيام ؛ ولكن الشرطة نـفت أي علاقة أو معرفة بين صاحب الشاحنة والسيد ناصح ، وقد ثبت أن عطلا

فنيا حدث للمركبة .. فنحن في تلك الأيام ظل الشك مسيطرا علينا ، وذهب دم ماهر غدرا .. والله أعلم بالحقيقة .. وحاولنا الحديث مع بعض زملائه وأصدقائه في العمل فلم نتوصل بطرقنا إلى شيء .. حادث عارض ، وقامت الشركة بدفع أموال لنا ، فاضطررنا إلى اللجوء إلى الصمت حتى تظهر الحقيقة، وقد حاول بعض الأشخاص من معارف والدكم مساعدتنا والتأكيد لنا أن السيد الوالد له يد في حادث السير .. سيارة ماهر بالشاحنة .. ولكنه كلام من غير دليل ، وقد قام السيد ناجح بما يلزم الميت ، ودفع فواتير المستشفى والعزاء وعدنا للقرية ونسينا دم ابننا بعد زمن ، وكبر الأولاد إلى أن دخلت تلك الجريدة البيت ورأتها أم الأولاد ، وسألت عن صاحب هذه الصورة ، فقرأ لها رامي اسم الميت الذي تملأ صورته صفحات الجريدة .. فتذكرت وقصت حكاية الرجل على أبنائها من زوجها الثاني ـ فقد زوجناها بعد ترملها ـ وكان بينهم رامي ابن المرحوم ماهر ، فغضب الولد وهدد وتوعد ؛ ولكنها لم تحمل كلامه محمل الجد .. وهو يشتغل في المدينة ،ولم نعلم بعمله المجنون إلا عندما اتصلت بنا الشرطة .. فهذه هي القصة يا أبا محمود .. ونحن لا ننكر تقصيرنا اتجاه بنات ابننا ؛ ولكننا كنا مطمئنين لغنى والد أمهن وعمها .. والحضانة كما هو معروف من حقها ، وكذلك ابتعادنا منذ البداية عن هذا الزواج ، وعدم معرفتنا به إلا صدفة .. دفعنا للسكوت، وكنا نرى من المستحيل من أن نتمكن من أخذهن للقرية فأهملناهن .. ونحن أيضا لا نريد منهن شيئا سوى التعارف ، ولولا الحادث لظل الأمر نسيا منسيا "

فقال عمري : " ونحن أيضا نريد هذا التعارف وسوف نسعى إلى تزويجهن ليستقللن في حياتهن .. وهن لا ينسين اخوتهن وأهلهن وأنا قد أصبحت بمثابة الأب لهن بعد زواجي من أمهن .. واعلموا أن البيت يرحب بكم في كل وقت .. وإذا كانت قريتكم بحاجة إلى مدرسة أو أي مساعدة فأنا جاهز ومستعد لذلك "

فانهال عليه الحاضرون بالشكر والثناء والاعتذار ، وتحدث كبير القوم فقال مشيدا بتسامح عمري وأحمد : " غمرنا صفحكم وشهامتكم .. بارك الله فيك يا ابا حمزة .. وبارك الله فيك يا أبا محمود .. كفيت ووفيت ووصلت الرحم ولم تقطعه .. وكنا نود أن نتـعرف عليك بظرف

أجمل من هذا .. ونحن نعتذر ونتأسف عما سببنا لكم من أذى وإزعاج وأنتم أبرياء من أفعال لم تعاصروها ، وسيبقى حبل الود متصلا بيننا ، وسنستـفيد من مشاريعك الخيرية وطيبـتك في قريتنا ، فقد علمنا عنكم الشيء الكثير من الخير يا أبا محمود "

فقال عمري : " نحن نرحب بكم ، وسترون منا ما يسركم بإذن الله .. والبنات الآن قد تعرفن على جدتهن وعماتهن وأختهن ميسون .. فنحب أن يذهب الأعمام وأبو ماهر وفائق لمعرفة بناتهم بهذه المناسبة "

وتعهد عمري لأهل القرية ببناء المسجد القديم بعد هدمه بآخر جديد ، وإنشاء دار أيتام ومدرسة لهم بجوار المسجد ، واستعد لإنشاء معصرة زيتون للإنفاق على المدرسة ودار الأيتام .. فتفاجأ القوم بكرم السيد عمري ناصح ، وتحمس رجال ومختار القرية لدعوته لزيارة بلدتهم فوعدهم بزيارة ، وأنه سيأتي وبناتهم للتـعرف على قرية أبيهم ، ثم أخبرهم بأنه سوف يزوج ابنتهم ريمان لولده حسن ، فغمرهم السرور والفرح ، وظن بعضهم أنهم يحيون في حلم حتى أن بعضهم وسوس له الشيطان أن هذا كلام في الهواء ، واندفع إليه السيد عمري للمشاعر والموقف الذي يحيونه تلك اللحظات ، ولما تناولوا العشاء على مائدة السيد عمري عادوا لقريتهم يلعنون الساعة التي حاول ابنهم فيها قتل هذا الرجل الجواد ، وقبل أن يفيق القوم من الحلم كان فريق من المهندسين وكبار الموظفين لدى شركات الخابي يدهمون بيت المختار في الصباح الباكر .. فتجمع أهل القرية عليهم ، وساقهم المختار حيث يقبع المسجد ، وهو مستغرب من سرعة عمل الخير لدى السيد عمري محمود ، فشاهد القوم المسجد القديم ، فقام المهندسون بدراسة الموقع نظريا ومكان المعصرة .. وتقرر إقامة مكتب لمساعدة الفقراء ومد العون لهم ، وخلال شهر كان المسجد قد شيد مكان القديم ، وتم إقامة دار للأيتام ، وبناء مدرسة للأطفال ، ومكتب مساعدات حول المسجد ، وكان على المختار تدبير الكوادر الذين سيعملون في هذه المرافق ، وكمل ترتيب كل شيء ، وخلال ثلاثة شهور تم إنهاء كل شيء ، وكان الناس يلهجون بذكر السيد عمري ، ويرقبون في شوق زيارته التي وعدهم بها ، ولما زار القرية حل ضيفا على المختار الذي صنع وليمة لأهل القرية جميعهم ، فشكرهم عمري وبارك

لهم كرمهم وهنأهم بإتمام المسجد وملحقاته والمعصرة ، ثم أخبرهم برغبته إقامة مشاريع إنتاجية ، ووقف أرباحها على المسجد والمدرسة ودار الأيتام ومساعدة الضعفاء والفقراء لأن الظروف قد تتغير، والموت قادم ، والأشخاص نفوسهم تتـغير ، ولا يكن الحماس لديهم كحماسه .. فاشترى أراضي شجرية وأوقفها على تلك الأشياء ، ووعدهم بإرسال مهندسين زراعيين لتحسينها ، وتوفير الماء لها بحفر الآبار وتسبيلها ، وقبل مغادرة القرية أخبرهم بقرب قران ابنه حسن من ابنة ابنهم ، وأنهم قد كتبوا الكتاب الشرعي بحضور والد ماهر ، فبارك القوم هذا الزواج ودعوا للسيد عمري بالمزيد من العطاء والعافية ، وعند المساء أخذ البنات وعاد للمدينة ، وقد ترك في قرية والدهن ابتسامة بيضاء وقال : " لعل الله سبحانه يغفر لأبي .. فقد اعترف لي بأنه هو الذي دبر مكيدة قتل ماهر خلس .. رحم الله والدي "

جرى الاحتفال المتواضع بزواج حسن عمري الشاب الصغير الذي أنهى الثانوية العامة بنجاح على الفتاة الحسناء ريهان ماهر الصاعدة لامتحان الشهادة الثانوية العامة بفيلا الوالد عمري التي أصبحت من حصته بعد تقسيم ميراث أمه ، وقد أعد وهيىء لهم مسكن في الفيلا ، فالسيد عمري بدأ يفكر بإنشاء طابق جديد في الفيلا أو الرحيل للريحانة ، وبعد الزواج بزمن يسير التحق حسن بكلية الشرطة ليصبح رجل أمن في المستقبل حسب رغبته وهوايته .

*****

كانت الشهور تمضي ولا تتوقف وتلد الأيام أحدثا ، وعمري مشغول الفكر والذهن بابنة زوجته أنعام الآنسة سهام ، فكان يسأل أنعام عنها كثيرا ، فلما فرغ من زواج حسن كرر استفهاماته عنها فأخبرته أنها تعيش على وهم وأمل فقال : " من الضروري أن تتزوج الفتاة يا أنعام .. فأنا لدي عريس مناسب لها وستجد السعادة معه إن شاء الله تعالى ، وقد تحدثت معه ومع أبيه فسروا بذلك ، وهم ينتظرون إشارة منا .. فقد تزوجت ريهان وأحلام على الأبواب " فقالت بحرقة الأم : " تكلم معها أنت .. فعندما أسالها ما أخبار فواز ؟ تلزم الصمت وترد أحيانا قائلة " إنه مشغول بالماجستير كما تقول منال أخته " فتصدق المسكينة "

ـ " أعتقد أنه شاب عابث وساخر ، لا يهتم بعواطفها ، إنما كان يسخر من شعورها وميلها

نحوه "

فقالت أنعام : " وأنا مثلك اعتقد هذا الاعتقاد .. فهل صحيح أنك سترحل إلى الريحانة وتستقر فيها كما تتحدث زينب ؟ ! "

فقال : " أجل أيتها الحبيبة ! .. أمس كنت في زيارة عمتي عزيزة ومعي زينب ، وتحدثت بهذه الرغبة .. لقد فكرت بدلا من البناء وجمع الأولاد كلهم في هذا المسكن الواسع أن أرحل وأسكن في ضاحية الصالح إنني أحن إلى ذلك المكان .. وليس هذا فحسب بل أفكر بتسليم المهندس أسامة إدارة المشاريع ، وأعتكف في البيت وانشغل في العبادة .. فقد زهدت في هذه الدنيا .. فالأحلام قد تحققت والأولاد كبروا .. ونحن كبرنا يا أنعام .. فبعد زواج أسامة من هند سأتخذ القرار الحاسم .. فما رأيك ؟ "

ـ " والبنات يا عمري ؟ "

ـ " أحلام سيتزوجها ابن بدرية كما جرى بيننا من كلام ، والبنت مسرورة بذلك ، ومحمد ابن فائز يكاد يطير من الفرح بموافقتها .. وسترحل معنا إلى الريحانة وتتزوج هناك ، وقد ترحل معنا سهام أيضا إذا أعرضت عن ذاك الشاب ، فنحن لا نريد الضغط عليها .. أما أنت أين ستكونين معها أم معنا ؟ وضحك "

فجارته في الضحك وقالت : " أنا سوف أكون حيث تكون .. وأعرف أن أمي تنتظر ساعاتها الأخيرة فقد كانت واهنة والطبيب يتردد عليها صباحا ومساء "

فقال عمري : " إذا رحلنا وأحببت البقاء هنا عند الأولاد عند صهرك حسن فلك ذلك .. حتى يتوفى الله أمك ويتغمدها برحمته .. فلست متضايقا إذا حدث هذا "

ـ سوف أنظر في الأمر لما تقرروا الانتقال ، متى سيكون عرس أسامة ؟ ـ عندما تنتهي هند من اختبارات هذا الفصل ، وقد نزوج عائشة في نفس الحفل من حمزة أحمد .. أين زينب ؟ "

ـ " مريضة راقدة في الفراش "

فنهض ملهوفا وهو يقول : " لم لم تخبروني عندما دخلت ؟ .. ظننت أنها ذهبت لزيارة أمها مع أخيها الحبيب حسن ومحمد "

ـ " لا ، لم تذهب .. قامت عائشة بتطبيبها ، ثم اتصلت بطبيبة صديقتها .. قامت بفحصها للاطمئنان أكثر ، وقالت بعض الإرهاق والتعب"

ـ " تعب وإرهاق .. من ماذا ؟ زينب تظن أنها مازالت صغيرة .. تحب العمل "

ـ " الحبيبة زينب .. ما زالت تعامل الأسرة كأنهم أطفال وصغار ، ولا تركن على طعام أم أحمد تحب الطهو بنفسها "

فقال وهو يمشي نحو باب الفيلا : " هيا نطمئن عليها .. زينب قصة حياة يا أنعام "

فقالت انعام مازحة :" أليست أحلى أمراة في العالم ؟! واليست أخت حسن صديق العمر ؟!

تمهل عمري بعدما سمع مداعبة زوجته انعام ، ونظر الى يمينه حيث تمشي زوجته أنعام ، وقال متنهدا : " يا الله ! ما أسرع الزمن يا أنعام ! .. حسن كم أحببت هذا الانسان ! .. لما طلبت منه أن يعلمني كيف الصلاة لأول مرة ؟ نظر اليّ دهشا .. وقال مستفسرا " ماذا يقصد السيد المدير بكيف الصلاة ؟! " .. لي ذكريات جميلة مع حسن أيام مصنع السجاد في حياة والدي - رحمه الله تعالى ـ ومع الشيخ علي الحمد ـ رحمه الله تعالى ـ العمر يسير بنا ركضا .. حسن عندما جئت خفية للعاصمة بعد شهور من الاختفاء جئت لاتزوج أخته .. كان قد شرح لأهله ظروفي لما حدثه الشيخ علي بأمري .. وافق أهله بدون أي شروط أو طلبات .. كان زواجي من ابنتهم يومذاك مغامرة .. مغامرة كبيرة ؟ .. أليس قد يرغمني أبي لوحدث الصلح مبكرا على تركها ؟ أيناسب ناصح الخابي عامل المصنع البسيط .. يا إلهي !

ترك الحديقة ومشى مسرعا نحو غرفة زينب الراقدة من الوجع والألم ، فوجدها ممددة على سريرها والأولاد حولها ، فألقى السلام وتقدم فقبل جبينها وقال : " كيف حالك يا زينب ؟ انزعجت كثيرا عندما أخبرتني أنعام بتعبك لماذا لم تخبروني بالهاتف ؟ "

فقالت زينب بضعف : " لم نحب إثارة قلقك وخوفك .. وعكة بسيطة .. تقول الطبيبة " إنما هو قليل من التعب ونقص في الأملاح " .. انظر إلى الأولاد حولي يريدون أن يشعروني بأنني عجزت وهرمت يا عمري"

فقال عمري : " لا ، يا زينب ! نحن كبرنا فعلينا مراعاة صحتنا وجهدنا ، من الصباح

سنذهب إلى المستشفى وإجراء صور طبية وتحاليل "

فابتسمت وقالت : " الأعمار بيد الله مولانا العظيم "

فقال : " المرض يا زينب ليس له دخل بالموت والحياة .. الحياة بيد الله والموت بيد الله .. والعلاج من الأخذ بالأسباب ، والمرض بيد الله وهو الشافي إذا مرضنا ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قد تداوى ، وأعظم الدواء كتاب الله سبحانه .. غدا بمشيئة الله يا عائشة سنذهب سوية .. فزينب أمنا واختنا وحياتنا "

دمعت العيون من الجميع ، وقالت زينب : " أبكيتنا يا أبا محمود ! .. بارك الله فيك يا عمري أنت نعم الزوج والأهل .. منذ جمع الله بيننا لم يغررك المال يوما ما ، لم يغررك الجاه ، وفي مملكتك آلاف العمال ، منذ عرفتك وأنت عمري .. لقد ثبتت على العهد .. تركت الثروة الكبيرة والملايين لتثبت على الإيمان .. ولتصنع مجدك الخاص .. أعطاك الكريم عطاء الكريم .. ولم يفتنك الدرهم ولا الدينار .. آلاف الدعوات تصعد إلى السماء تبارك لك مالك من أفواه اليتامى والأرامل والأصدقاء "

كفكف عمري دموعه وهو يردد : " كفى .. كفى يا ابنة الأكارم ! .. فأنت ابنة الأخيار والاجواد .. فقد ربوك تربية طيبة ، فأنبت نبتة طيبة .. فكنت خير عون في السراء والضراء. . لم أنس دموعك ولهفتك يوم تلقينا رسالة بدرية .. كنت لي نعم الزوجة والأهل .. آه ! كم دعوت للشيخ المرحوم علي الحمد الذي أشار عليّ بهذا النسب ! فكان نعم الاختيار والتوفيق

فتنحنت أنعام وقالت : " لا تنسوا أننا هنا يا أهل الخير .. "

فقالت عائشة : " والله يا خالتي ! إننا نسمع كلاما عظيما اليوم يثير الرهبة في النفوس "

فقالت زينب : " أنت وردة يا أنعام ! لقد أحببناك في الله .. وكنت نعم الأخت والصديقة .. رائعة وطيبة .. ولم أشعر في لحظة أنك غريمتي أو ضرتي .. أخلاقك رفيعة وطيبة ومنبتك حسن .. وكم أثنيت عليك امام سيدنا عمري ابي محمود ! "

نهضت أنعام وعانقت زينب وهي تبكي من حرارة ألفاظ زينب وقالت : اسكتي يا حبيبتي ! بل أنت الأميرة .. أنت شيء عجيب .. لا غيرة ولا خوف إلا من الله .. مخافة الله بين عينيك

في كل مقام وكلام .. كلك حب وأمل .. الحلال أولا .. الحكم الشرعي أولا .. الثقة الكبرى برضا الله .. الزوج هو الجنة .. الأولاد هم العمل الصالح .. السعادة تغمر الجميع من حبك ودعواتك الصادقة للجميع "

كانت زينب تبكي بحرارة وحرقة من كلام شريكتها في زوجها ، والحاضرون تذرف دموعهم غزيرة لصدق المشاعر التي تتحدث بها الزوجتان .

□□□

شخصية من شخصيات الرواية تركنا الحديث عنها مع أن ظهورها على مسرح الأحداث كان مبكرا ومن بداية القصة ، وهذه الشخصية هي أخت أنعام السيدة نوال ، نحن ذكرنا أنها بعد زواجها بزمن شرعت تطلب الطلاق من زوجها نادر بحجة أنها غير مرتاحة وغير منسجمة معه ، وأنه رجل شراب مدمن خمر ، ولا يأتي البيت إلا مخمورا ، وصاحب ميسر يخسر الكثير الكثير من الدنانير ، ووالده يسدد عنه خسائره ، ووالدها ناجح يرفض طلاقها لصداقته الكبيرة لوالده المليونير، وأخوها صابر بعد وفاة أبيه كان يصر على عدم الطلاق ما دام زوجها لا يريد ذلك ، لها ولد واحد فقط ، أكثر أيامه قضاها عند جدته وجده من أبيه ، وكنا قد اشرنا في صفحات سابقة أنها قدمت شكوى ودعوى وطلبا للمحاكم الشرعية والقاضي الشرعي للتفريق بينها وبين زوجها .. وكان أخوها صابر يعارضها ، وكان القاضي يؤجل البت في القضية ، واستمر هذا الحال أكثر من سنة ، وكانت كل أيامها تقضيها في بيت والدها مع أمها المريضة عزيزة ، فذات يوم اتصل بها ابنها الشاب قائلا : " أمي ! أنا في البيت ، وأنا مشتاق إليك ! لي شهر لم أرك تعالي فزوجك ليس هنا "

فردت قائلة : " تعال أنت ، أنا لا أحب أن أراه إنه أصبح أقبح مخلوق على وجه الأرض "

فقال متوددا : " صدقي أنه ليس في البيت ، وأنا أريد أن أتحدث معك بموضوع مهم .. جدتي تريد تزويجي .. ألا تريدين أن تذهبي معي لرؤية العروس ؟ .. وسأقنع أبي برمي يمين الطلاق عليك تعالي بس وسترين ما تحبين "

وضعت السماعة وركبت سيارتها وانطلقت إلى بيتها ، فوجدت ابنها الوحيد يجلس مع فتاة ، فلما زالت عنها الدهشة سألت : " من هذه يا شادي ؟ ! "

ـ " أهلا أمي .. اجلسي ، هذه ستكون زوجتي يا أمي .. هذه أمي يا لينا "

نهضت لينا تتلوى وتتمايل ومدت أطراف أصابعها وصافحت المرأة المكشرة وقالت بهزء : " أهلا حماتي .. مرحبا أم شادي "

فقالت نوال مخاطبة لشادي : " ألم تقل لي إنك ستأخذني لرؤية العروس؟!"

فضحك لحظات وقال : " العروس جاءت بنفسها يا أمي ! .. كتبنا الكتاب وطلبت مني حماتي أن أعرف لينا الحلوة على حماتها أمي الرائعة "

فقهقهت نوال وقالت ساخرة وقد صدمت بالخبر : " ممتاز ! .. يعني حماتك هي التي طلبت منك تعريفي على ابنتها .. حماة طيبة ؟ "

ـ آ .. يا أمي لا تزعلي منا .. أنت تعيشين عند أمك .. وأنا أعيش عند جدتي .. وأبي يعيش مع أصدقائه .. وغدا ستعيش لينا عند أمها .. فنحن عائلة اقتصادية جدا نريد أن نوفر في المصروفات ونأكل من جيوب الآخرين .. أليس كذلك يا لينا الحبيبة ؟ "

ـ " لا يا حبيبي وحبيب أمك .. أنا أرفض هذا التوفير وهذا الاقتصاد .. أنا سأعيش على جيب حبيبي وروحي شادي .. والتفتت لحماتها وقالت : " ولم تطلبين الطلاق من عمي يا عمتي العزيزة الغالية؟"

فقالت نوال بحدة وغضب : " شأن لا يخصك .. إلزمي حدودك "

فقال شادي ضاحكا من نفرزة أمه : " أم شادي تكره زوجها يا لينا .. لأنه يشرب الخمر ويلعب القمار ويعشق النساء .. كأن أمي لم تكن تشرب الخمر ، وأنت من بيت أولياء .. ولم تلعب القمار مع بنات العائلات .. نسيت أمي كل هذا يا لينا الغالية "

فصاحت أمه بحدة : " أخرس يا ولد ! .. أنا إذا شربت الخمر لم أشربها بشراهة ووحشية أبيك .. وأنا إذا لعبت القمار لعبتها للتسلية .. لم أخسر كل أموالي وأعيش على جيب أبي وأمي ولم أعط جسدي للرجال .. أنت ولد فاجر مثل أبيك .. ألا يكفيك عقوقا أنك تتزوج دون أخذ رأيي ؟.. ولو على التلفون "

ـ " لا تغضبي يا أمي ! راعِ صحتك .. صدقي أنني ترجيت أبي كثيرا ليطلقك ويعطيك حريتك ؛ ولكنه لا يريد أن تصبحي زوجة لغيره فقلت له ليلة كتابة عقدي على لينا الجميلة " إن أمي عجوز هرمة ، لا يمكن أن يغامر أحد بالزواج منها بعد ... "

فجأة صفعت نوال ابنها على خده ، وهي هائجة ، وقد احمر وجهها غضبا وزاد تنفسها ارتفاعا وهي تقول : " إنك ولد فاجر .. مجرم كأبيك .. أيقول ابن عن أمه هذا ؟! "

وضع يده على مكان الصفعة ، وقد تفاجأ بالصفعة فهذه أول مرة تمد يدها عليه ، ونظر إلى لينا التي صرخت فزعا ، وقال بصوت مصطنعا فيه الهدوء : " يبدو أنني نسيت أن أمي شابة حسناء آلاف الشباب يتغونها للزواج .. أمي هائجة وغاضبة .. لا أدري كيف صابر أبي على أخلاقـك التعسة ؟! .. إنك امرأة سيئة .. لماذا أنت أمي ؟ ! "

ارتفع الصياح بينهم واحتد الكلام والسباب ، وبينما هما على هذا الحال دخل الوالد يصيح : " ما هذا الصراخ ؟ ! ووقف في فتحة الباب وهو يقول : نوال هنا ! .. ظننتك يا شادي تشاجرت مع فاتنتك لينا .. هل من شيء يا شادي ؟ "

فقالت لينا : " يا عمي .. أرأيت ؟! .. لقد صفعت امرأتك ابنها الوحيد صفعة تألم لها قلبي .. ـ وأخذت وجه شادي وأشارت لمكان الصفعة ـ وأنا حزينة لم أرى ؟! "

فصاح أبو شادي وقد هاج : " أتضربين الولد يا مجنونة ؟ "

ورفع يده ليهوي بها على وجه نوال التي ابتعدت عنه وصاحت وهي تهدد بيدها : " أضربه .. وأضربك يا قليل العقل يا فاسد .. ابنك غير مربى ؟ "

فقهقه نادر وهتف ضاحكا : " تربيتك يا هانم "

ـ " تربية أمك جدته "

اقترب الزوج السكران منها وكان يلوح بيديه وقال : " أمي تربيتها أحسن من تربيتك ألف مرة ومرة .. لن تفرحي بالطلاق مني يوما ما ، ستبقين ذليلة مهانة .. وهذا ابن عمك المدعو عمري اطلبي منه أن لا يتدخل في قضيتنا ومشاكلنا أحسن أحرقك وأحرقه "

فقال شادي : " ماذا فعل هذا الرجل يا أبي الحنون ؟ "

فخفض يديه والتفت لشادي قائلا : " تصور يا ولدي الطيب .. أنه أرسل لي محاميه يساومني على طلاق هذه الحمقاء "

ـ " يساومك ؟! "

ـ " نعم .. دفع لي عشرة آلاف دينار لأطلق هذه الحمقاء "

ـ " وهل قبلت يا أبي ؟ "

ـ " لا .. فزادني اللعين عشرة أخرى .. فصممت على لا .. فانصرف وهو يقول " العرض سار ففي أي وقت تقرر اتصل بي " وترك لي بطاقة عليها أرقام هواتف مكتبه .. تصور يا ولدي يريدون أن يشتروها مني بهذا المبلغ الزهيد "

فهاجت نوال وصاحت : " حقير .. حقير .. حقير "

وأخذت بالبكاء والتشنج بحرقة وألم ، فقال شادي : " والله يا أبي لو أخذت الفلوس أحسن لك منها .. هذه امرأة حمقاء خرقاء .. ولن يتزوجها أحد بعدك فهي كبيرة في السن "

فقهقه نادر وقال : " أتريد أن تضحك عليّ يا ولد ؟ .. أنا منذ ثلاثين سنة .. وأنا أقول لها لن أطلقك .. قلت لها اهربي .. عيشي عند أمك .. ولكنك ستبقين على ذمتي حتى أموت .. فلا تحدثني يا شادي عن طلاقها البتة "

ـ " يا أبي ! العشرون ألف أفضل منها ، بعها .. أنا لا تعجبني حياتكم .. تستطيع أن تتزوج فتاة صغيرة مثل لينا الساحرة "

فقالت لينا مشجعة عمها : " نعم .. نعم يا عمي .. عندي صديقة أحلى مني ستقبل بك وستعيد لك الشباب والرونق "

ـ " لا .. إنني أحبها ، ولا أستطيع أن أضحي بحبي ولو دفعوا لي ملايين الدنيا "

أخذت نوال تشتمه وتحتقره وتبصق عليه وعلى جذوره ، فاستشاط غيظا وهجم عليها غاضبا كالثور الهائج وأمسك بكتفيها فدفعته عنها بكل عزم ، فسقط على الأرض ، فازداد غضبا وهو يقول : " يا ملعونة تريدين قتلي يا .. تريدين قتلي والخلاص مني .." وتناول تحفة زجاجية كانت على منضدة وسط الغرفة ، وقذفها على نوال بسرعة قبل أن يدرك أحد خطر الرمية ، فجاءت برأسها ووجهها ، وقد تقهقرت للخلف ، وارتطم رأسها بجدار البيت فوقعت ، فصاحت وفقدت الوعي وارتمت على الأرض كأنها ميتة ..

□□□

نقلت نوال إلى المستشفى ، وسيق الزوج إلى قسم الشرطة ، وانصرف شادي ولينا بعد أخذ أقوالهما إلى بيت جده وجدته ، وحدثاهما بجريمة ابنها ، فطلبت من زوجها أن يتصل بالشرطة لإخراج ابنها من الحجز ، فاتصل الأب بابن له متقاعد من الشرطة ، فذهب شقيق نادر للقسم وحاول إخراج أخيه بالكفالة ، وأن هذه مشاجرة كغيرها من المشاجرات التي تحدث بين الأزواج ، وبين هذين الزوجين بالذات ، فقال ضابط القسم لزميله المتقاعد : " عندما ينتهي التحقيق ونرى التقرير الطبي .. فالطبيب يقول أن وضعها صعب ، ولديها مشاكل في الجمجمة والدماغ .. فأخوك ضربها بمزهرية زجاجية ثقيلة ثم ارتطم رأسها بحائط الغرفة .. فوضعها الآن حرج .. فعندما يظهر التقرير الطبي وعلى ضوئه نـقرر قبول الكفالة أم لا .. أرجوك .. أرجوك يا مقدم عزام .. لا داعي للإحراج "

ـ " كما تشاء يا رائد فراج "

قضت نوال عدة أسابيع تعالج من الجروح والصدمة ، ولما خرجت من المستشفى لم يكن وضعها الصحي وحالها الدماغي كما كان سابقا ، فقد تأثر دماغها من الضربة ، فكان لابد لها أن تستمر بالعلاج ، وأخذ العقاقير الطبية ومتابعة الدماغ ، ولكنها بعد هذه الضربة الشديدة حصلت على ورقة طلاقها من القاضي ، بعدما قدمت التقارير الطبية للقاضي ، وتحررت نوال من زوجها بعد ما يقارب ربع قرن من الزواج قضتها في صراع وشجار وغضب ونكد وتعب ، فكانت ترقد على سرير في بيت والدها وحيدة ، أمها عزيزة مريضة ترقد هي الأخرى في غرفتها ، أخوها منشغل بمشاكله ومصنعه ومعه أولاده وبناته ، وكانت لا ترى خلال النهار إلا الشغالة الخادمة تدخل عليها بالطعام والشراب ، وأحيانا تجلس تواسيها وتشد من حيلها في مواجهة صعاب الحياة وهمومها ، ولم ترى ولدها من يوم الحادث ولا زوجته ، وكانت أنعام تتردد عليها كلما زارت أمها المريضة ، فتـقضي بعض الوقت عندها والبعض الآخر عند أمها ، لقد كانت الحالة النفسية لنوال مؤلمة وحزينة ، وقد أصابها الاكتئاب الشديد فأخذت تراود نفسها بالانتحار وتجاهر به ، فتقول لها أنعام : " ويلك ألا يكفي شقاء الدنيا ..

ولتكوني من الأشقياء في الآخرة .. لا أريد أن أسمعك تتحدثين بيأس .. لقد وعدني عمري أنه سيرسلك إلى أوروبا أو أمريكا لإكمال العلاج .. ولكنه يتوسل إليك أن تتوبي إلى الله وتحسني من علاقتك مع الله ولا تـفكري بقتل نفسك .. فهناك صديق لأبي محمود خبير في الطب النفسي سيتردد عليك .. "

فبكت وانتحبت وقالت : " أخي لا يسأل عني ، وأنا أسكن معه في بيت واحد وحتى زوجته تمر أيام ولا أرى وجهها .. أخواتي يحيينني من الباب وهن مارات على أمهن ، ولا يجلسن بجواري بضع دقائق .. أشكرك يا أنعام أنت الوحيدة التي تشفق عليّ .. أنا شغلتك عن زوجك وبناتك "

فقالت أنعام : " أبدا يا نوال أنت أختي .. حبيبتي .. وعمري عندما أحدثه عنك يتألم وتسقط دموعه حزنا وأسفا لما حل بك من كرب .. وقلب عمري رقيق مع الضعفاء .. ووعدني خيرا بأن يهتم بك .. ولكن عليك أن تنقذي نفسك من النار .. فها أنت قد خبرت الحياة وعرفت تعاستها بدون إيمان وحب وعرفت الناس "

فمسحت دموعها وتنهدت وقالت : " كلما أتذكر الأيام الخوالي .. أيام خطبتي لعمري تلك الأيام القصيرة أصاب بالجنون .. وأتذكر كلماتك لي بالتحمل والصبر أبكي .. لقد كنت أرى أبي وعمي ملوكا في هذه الدنيا ، وأن السعادة بكنفهم وبجوارهم .. وها هم قد ماتوا وتركونني مهضومة ومكسورة الجناح .. ابني الوحيد منذ دخلت المستشفى لم يطل عليّ .. أنا لا ألومه .. أبغضه كما أبغضت أباه اللعين "

قالت أنعام : " ادع له بالهداية .. أنت قصرت في حقه يا نوال ! أنت عجولة لاتصبرين ولا تتأملين في العواقب .. وعلى كل ليس هذا وقت الندم .. عليك أن تراعي صحتك ، وتتوبي إلى الله ولا تقنطي من رحمة الله سبحانه .. وإذا أحببت أن أنـقلك لبيتي فأنا مستعدة لذلك "

فقالت نوال بعد تدبر يسير : " جزاك الله خيرا . دعيني عند أمي .. والخادمة جزاها الله خيرا لا تقصر إنها سيدة محترمة وفاضلة "

كان عمري فعلا يفكر بتسفير نوال ابنة عمه إلى أوروبا للعلاج هناك ، وإنما الذي كان يؤجل

ذلك هو الرجل المحرم الذي سيرافقها ؛ لأن المرأة في الإسلام لا تسافر إلا بمحرم كزوج وابن وأخ ، فصابر لا يبدي ارتياحا لسفرها ـ رغم نصيحة كبار الأخصائيين في أمراض الأعصاب بعلاجها خارج القطر ـ أو حتى إرسال أحد أبنائه معها ، ففكر أن يأخذ أنعام وابنا له ، ويسافرون بها ولكن من سيذهب ؟ فمحمود ما زال في الغرب يدرس ويشتغل ، وأسامة سيسلمه إدارة الشركات والمشاريع ، وحسن في الشرطة يتعلم ويتدرب ، ومحمد على مقاعد الدرس ، وكان يستعرض أفراد الأسرة فوصل لرأي أن يعقد اجتماعا لمحارم نوال ، وينظر من يحب الرحيل والسفر معها ، وكان قد كلف عائشة بالاتصال بمستشفيات متخصصة في ألمانيا أو سويسرا ، وهو الذي اقترح على أنعام أن تحضر أختها للسكن معهم في الفيلا لتظل قريبة منها ؛ لأنه مدرك لحالتها النفسية المؤلمة بعد الحادث ، وهي رحم بالنسبة له ، فهو يتعاطف ويشفق على الغرباء والأجانب ، فكيف بابنة عمه ناجح ؟ وكان خائفا ومنزعجا مما نقلته له أنعام عن يأسها وتفكيرها بقتل نفسها من الألم والحالة النفسية التي تعصف بها ، فلذلك اتفق مع طبيب نفسي كبير ليهتم بها ويراعيها ، وكان يرى أن الإيمان الصادق يمنعها من الضعف والاستسلام لليأس والانتحار ؛ ولكن نوالا ضعيفة الإيمان ، تكره الصلاة واللباس الإسلامي وغير ذلك .. قضايا كثيرة تهم عمري وتشغله ولكن القضايا الإنسانية تشغله أكثر من قضايا ومشاكل العمل ، وكان قد اقترب موسم الحج ، وهو يحن ويشتاق لتلك الديار ، ففكر بالحج هذا الموسم ، واعتذرت زينب عن السفر معه ، وكذلك أنعام لمرض أمها وأختها فعرض الأمر على عائشة فوافقت ، فقال : " إن شاء الله بعد عودتنا من الحج سنتمم زواجك بحمزة وهند بأسامة "

فقالت : " إن شاء الله .. ما رأيك أن نأخذ سهاما معنا ؟ "

ـ " حبذا ذلك يا عائشة .. فعندما تتزوج ممن هو في بالي ستحج إن شاء الله .. فسهام طيبة وقد بالغت في حسن ظنها بالمدعو فوازا .. فربما اخذناها عمرة اذا قبلت في ذلك "

ـ " لم تخبرنا عمن اخترته لها ؟ "

فقال " ما زال عندها أمل في ذلك الشاب ، وكلما اتصلت بأخته اعتذرت لها عنه .. لا يريد

الحديث معها .. وما زالت تنتظر "

فقالت بشفقة : " تكلم معها من جديد يا أبي ؟ "

فقال " سأفعل الليلة .. لقد طال انتظارنا "

ـ " اذكر لها اسم العريس المختار يا أبي أثناء الكلام .. ربما وجد هوى في نفسها وغيرت أفكارها .. إنها كثيرة الزعل مع أمي أنعام لا تطيق الكلام معها "

ـ " أمعقول هذا ؟ "

ـ " أنا أقول ذلك ليس من باب النميمة .. أرجو أن تنهي حزنها يا أبي ليعود الوئام والحب والسلام للبيت ، فأمي انعام متوترة وذهنها مشغول بين أمها المريضة وأختها نوال وابنتها التي تضع اللوم عليها بابتعاد فواز عنها "

ـ " أمرك .. ما أخبار صهرنا حمزة ؟ "

ـ " بخير ، وكان أمس هنا زارنا وجلس مع أمي ثم غادرنا "

ـ " أخبري حبيبتي سهام أن لا تنام قبل أن ترني .. لي يومان أسأل عنها فيقال إنها نائمة كأنها تتهرب من اللقاء بي "

ـ "هي حزينة لعدم اهتمام ذاك الشاب بها كما كان أيام الكلية .. فهي تقول " لقد كان يهمس أمامي أن اليوم الذي لا يراني فيه كأنه خسر يوما من عمره " أهذا كذب وضحك ؟ ! "

فقال عمري : " أنا متأكد أنه شاب عابث .. لو كان يحبها حقيقة لتقدم إليها على أي صورة كانت ، وعندما تستـقر في بيته يطلب منها ما يشاء من التبرج والسفور ؛ ولكنه اتخذ ذلك ذريعة للخلاص منها في أي وقت يشاء .. أنا أعرف أن أناسا على هذه الشاكلة يحبون التبرج والسفور والزينة السافرة ؛ ولكنهم لا يطلبون ذلك من الآخرين ، فهذه أمور شخصية وخاصة ، فهو لم يسألها يوما عن الصلاة .. إنما تركيزه على التبرج واللبس .. وأنا راض عنها لأنها لم تعش معنا صغيرة .. فلبست الشرعي خجلا منا ومن أجل أمها .. وليس لي عليها ولاية إلا بالمعروف وحسن الصحبة "

بعد أن شارك الأهل طعام الغداء انصرف عمري لمكاتب المجموعة والمشاريع في شارع قطز ،

فدخل المكتب والتقى بعدد من كبار الإداريين، وعند العصر غادر الشركة كالمعتاد ، ولم يذهب للبيت كالمعتاد ، إنما أخذ الدكتور يوسف ومشوا إلى السكرتير أحمد أبي حمزة صديقهم الحميم وظلوا عنده ساعة من الزمان ثم ودعوه وقال عمري : " ما رأيك أن نزور دار أسامة بن زيد ؟ "

ـ " في مثل هذا الوقت ؟! "

ـ " في مثل هذا الوقت "

ـ " ألا يغضب منا مسؤول الدار ؟ "

ـ " ولم يغضب منا مسؤول الدار ؟! .. هو لازم أن تكون الزيارة في أول النهار .. هيا فالأستاذ حابس رشيد رجل محترم يقوم بواجبه خير قيام"

مرا على دار أسامة للأيتام ـ كانت الدار ترعى حوالي أربعين إلى خمسين يتيما ، ما بين أكل وشرب ومنام ومدرسة ونظافة ، والدار هذه تأوي الأيتام من سن ثلاث سنوات إلى اثنتي عشرة سنة ثم ينقلوا لمدرسة داخلية متوسطة ـ ومسحا على رؤوس الأيتام ، وتفقدوا الأطفال الصغار، واطلعوا من القائم على ادراتها الاستاذ المربي حابس رشيد عن المشاكل التي يواجهها هؤلاء الضعفاء .

لما رجع عمري بيك للبيت وتناول العشاء الخفيف مع أفراد الأسرة الراغبين في الطعام كعادته في الحديقة ، وخصوصا في ليال الصيف والخريف ، وتحدث الحاضرون بما يحلو لهم من أطيب الكلام ، ثم دخل البعض إلى البيت وبقيت أنعام التي أشار لها بالبقاء وسهام ، وبعد مقدمات سأل عمري : " ما آخر أخبار فواز يا بنية ؟"

فقالت بانكسار وضيق : " لم أتكلم معه إنه مشغول وغير موجود في البيت كلما اتصل بهم ؟"

أدرك عمري أن سهام متضايقة من الحديث في هذا الموضوع ؛ ولكنه أصر على الكلام ، فهو يتمنى أن يصحو ويجدها قد نسيت هذا الحلم أو الوهم المسمى فوازا فقال : " ولماذا لا يتصل هو ؟ .. ألا تبلغه أخته كثرة اتصالك ؟"

فقالت باختصار : " لا أدري "

فقال : " ما الحل في رأيك ؟ ألا تريدين الزواج ؟ "

ـ " لا أفكر فيه الآن "

ـ " أنا ذكرت لك سابقا أن لدي شابا محترما .. ورجل يحب مصاهرتنا ، وهو مهندس معماري مثل أسامة ، وهو ابن رجل فاضل .. وستجدين عنده الحب والرحمة والمودة والسكن يا بنيتي لا تنتظري سرابا"

فقالت بنبرة مرتفعة : " دعني يا عمي بحريتي .. عندما أفكر وأقرر الزواج سأصارحكم بذلك "

ونهضت كأنها محتجة على اسلوب الضغط الذي يمارس عليها ، فقال : " لا تغضبي منا .. افعلي ما شئت .. وتأكدي أننا لا نكرهك أو نحب التخلص منك .. فهذا شأن خاص بك .. ونحن ما زلنا نقول أننا لا نمانع بمجيء هذا الشاب لنتعرف عليه ويحصل ما تريدين "

فقالت : " سلامتكم من التقصير ؛ ولكني متعبة نفسيا .. سامحني يا عمي العزيز "

ـ " بارك الله فيك "

وأتت الخادمة تحمل الهاتف ، ووضعته في مكانه المناسب وهي تقول : " فندق النهضة العربية

يريد الحديث معك يا أبا محمود "

ومشت سهام نحو مدخل الفيلا الداخلي وقد همست تصبحون على خير " بعد أن تناول عمري السماعة من أم أحمد وهو يردد " السلام عليكم .. فندق النهضة .. نعم أنا السيد عمري الخابي .. شاب أجنبي يريد الكلام معي .. هات "

أخذ عمري يتحدث بالإنجليزية بضع دقائق ثم وضع السماعة فقالت أنعام : " من ؟ "

فقال : " هذا ابن أخي سمري ينزل الفندق ومعه أخته ، ينزلان منذ يومين .. ويريدان زيارتنا والتـعرف علينا "

فقالت مبدية استغرابها من تصرفهما : " ولماذا لم ينزلوا البيت منذ جاءوا؟! .. أليس هذا بيت العائلة وعمهم عمري ؟ "

فقال بحيرة مثلها : " لا أعلم لماذا ؟ .. حتى أنه لا يتكلم العربية ولا يعرفها .. وسمري لم يحدثني بنزولهما وخبرهما .. ذكريني في الصباح أن أرسل السائق حمادا وحسنا ليأتيا بهما .. أهنا حسن ؟ "

ـ " نعم ومعه إجازة ثمان وأربعين ساعة "

فطلب من أم أحمد أن تأخذ الهاتف ، وترسل له حسنا ، فقالت وهي تبتسم : " خرج مع عروسه في مشوار .. وقد يمرا على خالتهم نوال "

قالت أنعام : " نعم ذكر لي ذلك ظهرا فشجعته لقد نسيت .. سأنتظر مجيئهما وأبلغه رغبتك "

وانطلق الجميع نحو الفيلا ، فصعد عمري لغرفته ، ثم توضأ وصلى عددا من الركعات صلاة الليل أو القيام ، ثم دخل غرفة المكتبة فوجد عائشة جالسة فيها تقرأ ببعض المراجع .. فسلم وجلس بعدما أخرج كتابا عن حياة الصحابة ظهر في الأسواق حديثا ، فقلب صفحاته ، وقد طلب من الشغالة كوبا من القهوة ، فقرأ عدة صفحات من الكتاب الجديد ، وكانت الساعة قد اقتربت من نصف الليل عندما انتهى من قراءة تلك الصفحات ، فعاد لحجرته وقرأ بعض الآيات من المصحف ، ثم تمدد على فراشه يذكر أذكار النوم والرقود ثم راح في سبات هادئ .

*****

وعند صلاة الفجر سألت أنعام زوجها " متى نرسل السائق للفندق ؟ " فقال عمري : " هل أخبرت حسنا بذلك ؟ "

ـ " لما مرا عليّ عند عودتهما أخبرتهما ، وستجد حسنا أمامك في المسجد .. ذهب للصلاة في المسجد "

ـ " إني ذاهب .. السلام عليكم "

ولما ارتفعت الشمس عند الضحى ذهب حسن بنفسه للفندق ومن دون السائق ، وخلال نصف ساعة كان يقف أمام مدخل فندق النهضة ، ويدخل صالة الاستقبال ، ويسأل موظف الاستقبال عن شابين أمريكيين مايكل سمري وروبيكا سمري ، فنظر الموظف في دفتره وقال : " نعم هما نزيلان هنا .. ماذا تريد منهما ؟ "

ـ " أنا على موعد معهما .. أخبرهما أن حسن عمري في انتظارهما"

وجلس حسن على أحد المقاعد الكبيرة منتظرا مجيئهما ـ مجيء أبناء عمه الذي يسمع به ، ولم يره منذ وجد على هذه الأرض ـ ثم سمع الموظف يخاطبه : " إنهما نائمان ، لا أحد يرد .. أتشرب القهوة ؟ "

ـ " ماشي .. ننتظر بعض الوقت .. فأنا ابن عم لهما يا .. "

ـ " نذير رمح "

ـ " أهلا أخ نذير .. ومرحبا "

ـ قهوة يا حسونة للأستاذ حسن .. أهلا وسهلا بك يا حسن بيك "

ـ " أهلا أستاذ نذير بيك .. هل هما قادمان من أمريكا مباشرة ؟ "

ـ " لست أدري بالضبط ، ولكن أظن أنهما آتيان من بريطانيا "

أتت القهوة ، ورشفها حسن ببطء ، وأخذ يقرأ في صحف الصباح المعروضة على المنضدة ، ثم اتصل بالبيت وأخبرهم بتأخر الضيوف ، فهما نائمان ، وبعد مضي ساعة اتصل الموظف ثانية فردت عليه الفتاة ، ثم وضع السماعة فقال : " إنهما قادمان يا سيد حسن "

ـ شكرا لك .. سامحنا على الإزعاج يا أخ نذير "

ـ " أبدا ، هذا واجبنا أيها الأخ المحترم "

*****

أقبل الأخوان إلى صالة الاستقبال ، شكلهما وهيئتهما هيئة الأجانب، قميص قصير وبنطال قصير ، شعر مايكل سمري أسود منفوش وهو طويل القامة ، وأما الفتاة شقراء البشرة عيون زرقاء شعرها يميل للحمرة ممتلئة الجسم بعكس أخيها النحيف الطويل البدن ، فأشار الموظف إلى حسن المستغرق في تقليب وقراءة الصحف ، فاستدارا نحو حسن عمري ـ وقد نهض قائما ، وقد ترك الصحف عندما سمع همس صوت نذير ـ الذي حياهما وصافحهما وقال معرفا بنفسه ، وهو يستغفر ربه لمصافحته يد ابنة عمه : " حسن عمري الخابي "

فذكرا اسميهما ، وقالت الفتاة : " أين عمي عمري ؟ "

ـ " إنه في انتظاركما .. أين حقائبكما ؟ "

ـ " في الحجرة "

كان كلامهما باللغة الأجنبية ، فهما لا يحسنان اللسان العربي ، وإن كان والدهما عربي ، ربما يرطنان ببعض كلمات عربية تتردد أثناء الحوار ، فتقدم حسن من الموظف ، وطلب منه الحقائب والجوازات ، ودفع فاتورة الفندق كاملة ، وحاول الشابان الاعتراض ، فقال لهما : " أنتما الآن في ضيافتنا ، وأبي يغضب إن دفعتما شيئا .. وهو غضبان ومتضايق لنزولكما الفندق قبل لقائه "

ذهب الفراش لإنزال الحقائب السفرية ، وكان حسن يقول للموظف : " هم أبناء عمي ، ولكن أمهما أمريكية ، فهذه أول مرة أراهما في حياتي .. شكرا "

وتقدمها حسن نحو سيارته الرابضة على مدخل الفندق ، ووضع الخادم الحقائب في السيارة ، ونقده حسن ما تيسر من المال ، وركب مايكل بجواره وركبت الفتاة في المقعد الخلفي ، وأخذوا يتحدثون عن جمال هذه البلاد والأماكن التي تفرجا عليها خلال اليومين الماضيين ، وكان عمري في انتظارهما ، واعتذر عن الذهاب للشركة ، ولما وصلت السيارة ، وفتح لهما البواب الباب ، وحيا السيد حسنا وقال : " أبو محمود في الانتظار في قاعة الاستقبال "

كان الشابان قد اندمجا بالحديث مع حسن رغم صغر سنه ولحسن لغته ، وقد ذهلا عندما علما سنه ، وأنه متزوج منذ عهد قريب ، ولما شاهدا عمها عمريا وجداه صورة قريبة من والدهم ، وتصافح الجميع ، وعتب عليهم لعدم اتصالهم به منذ خرجوا من فيرجينيا ، ولام عمري والدهم الذي لم يعلمهم لسانه اللسان العربي ، وتألم أكثر عندما لم يقابلهما عندما قضى حينا من الزمن مع أبيه ناصح أثناء مرضه ، سر الشابان من الاستقبال الدافئ ، ولما سأل مايكل عن باقي أفراد الأسرة ، قال عمري : " لا يوجد إلا نساء .. والنساء لا ترى هذه العورات وهذا اللحم .. عيب هذا في ديننا قبل تقاليدنا ـ ضحك الشابان لكلام عمهم وتابع ـ أنتم أكيد لا تعرفون شيئا عن دين أبيكم ؟ "

ضحكت روبيكا وقالت : " أبونا ليس له دين .. الدين عندنا كلمة مجردة فقط .. لا نعرف دين أبينا ولا حتى دين أمنا .. وأنا ما أتيت إلى هنا إلا لأعرف الدين "

ـ " لماذا ؟ "

فقال مايكل : " روبيكا .. تدرس في كلية علوم الاجتماع وديانات العالم .. فأحبت أن تعرف دين المسلمين لتكتب رسالة الماجستير عنه .. فأرسلها السيد سمري إليكم "

ـ " وأنت ؟ "

ـ " جئت رفيقا وسائحا وللتعرف على أقاربي "

قدمت لهما الخادمة العصير المناسب ، وقال عمري : " يا مرحبا بكم .. عندنا النساء لا ترى عورات الرجال والرجال لا يرون عورات النساء .. آنسة روبيكا .. الآن سيذهب بكم حسن إلى معرض الثياب ويشتري لكما الثياب المناسبة لتتعرفوا على باقي أفراد الأسرة .. هكذا اللباس ـ وأشار لثيابه وثياب حسن ـ ما رأيكم ؟"

فقالت روبيكا : " لا بأس "

ـ " قبل الذهاب ما أخبار سمري أبيكم ؟ "

روبيكا ردت : " لا نراه كثيرا .. هو دائما في الجامعة .. لا نعرف عنه شيئا "

فساقهما حسن مرة أخرى إلى السوق ، وتناول معهم الإفطار في أحد المطاعم ، وكان حسن قد

شرح لهم قواعد اللباس في الإسلام وأهمية ستر العورة خصوصا الساق والفخذين ، وأن هذا الثوب القصير غير إسلامي ، وإنما هو تشبه وتقليد للغرب وتقاليدهم ، فاشترى لهم حسن ثيابا مناسبة وأكثر من ثوب ، فاشترى للفتاة عدة تنانير طويلة بعض الشيء ، وبنطالات لمايكل وقمصان وبدلات ، ثم عاد بهم للمنزل ، ووجدا عمهما ما زال في انتـظارهما مرة أخرى فلما لبسا ثيابهما الجديدة أتت البنات والزوجات ، فسلمن على مايكل بالإشارة من غير مصافحة ، وصافحن روبيكا ورحبن بهم ، فسرت روبيكا وأخوها من عائلة عمهما المحافظة حيث لا ترى أذرعا ولا سيقانا ولا حتى أقداما ولا شعرا .. الوجوه والأكف فقط .. فتعجب مايكل من ذلك الزي ، وظن أنه لا توجد أنثى تلبس هكذا ، فالنساء عندهم عاريات ، وحتى النساء اللواتي صادفهن في الفندق والمدينة أغلبنهن متبرجات وسافرات ويلبسن البنطالات ، فشرح له عمه بإيجاز عن ذلك التناقض بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين المنفلتين عن تعاليم الدين ، وتناول الضيفان الغداء على مائدة عمهم ، ثم قالت روبيكا لعمها : " تكلف أبي بكتابة رسالة لكم "

وأخرجت من حقيبة صغيرة بين يديها مظروف رسالة ، فتناوله عمري شاكرا ، وكانت الرسالة مكتوبة بالأمريكية، وكان فيها توصية بالأولاد ومساعدة روبيكا في معرفة الدين الإسلامي ، وأهم المراجع التي تساعدها عن الكتابة عن الإسلام والمسلمين ، ومساعدتها أيضا في السياحة في البلاد ، فلما استوعب الرسالة أعطاها لعائشة ، وقال موصيا لها : " اهتمي بابنة عمك يا عائشة .. وأما السياحة سأتصل بمكتب شركة سياحية ليرتب لهما رحلة سياحية ممتعة ، ويشاهدا الأماكن الأثرية في البلد والصحراء .. عجيب أمر هؤلاء الأجانب يحبون مشاهدة الحجارة القديمة ! "

وضحك على التعليق الذي ابداه ، وأبدت عائشة استعدادها الكامل لتـعريف ابنة عمها بالإسلام ، ومراجع البحث ، فساقتها للمكتبة الداخلية ، وتبعتها البنات الحاضرات ، وأخذوا يسألونها عن أمريكا ، وكانت سهام تترجم للآخرين عباراتها ، وقد كان وجود هذين الضيفين عند عائلة عمري حدثا مثيرا مع أنهم أبناء أب عربي ، فلا عروبة لديهم ولا إسلام ،

ولما سألت عائشة روبيكا عن سبب اهتمامها بالإسلام بالذات .. قالت الفتاة : " أصدقك القول ؟ "

فلما أجابت " بنعم " قالت روبيكا وقد بدت على ملامحها الجدية : " دكتورة عائشة .. قبل أن أتكلم عن السبب الذي دفعني للكتابة عن الإسلام دون الأديان الأخرى ، والمرأة في بلاد المسلمين .. أنا مستغرب مما نسمع عنكم ، وما نقرأ عنكم في كتبنا .. فقد قيل لنا أن النساء العربيات لا يتعلمن ولا يدرسن ويشتغلن بالرعي والحلب والزرع ولا يخرجن من البيوت .. ولكنك دكتورة .. وسهام كلية الإدارة وأحلام مازالت في الجامعة وريهان في الثانوية العامة ومريم الجميلة في المدرسة .. وعمي عمري كما رأيت رجلا محافظا ومتزمتا في نظرنا .. فكيف هذا ؟ ! كيف سمح لكنّ بالدراسة ؟! "

فقالت عائشة بحماس وقوة : " الإسلام مشوه كثيرا في بلادكم .. المستشرقون يكتبون عنه بكره وحقد وجهل ولإغراض أخرى .. يدّعون أن الإسلام ضد العلم ، وهو دين العلم والنور ومحاربة الجهل والظلام .. وليس العيب في الدين الإسلامي ذاته ، إنما العيب في الذين يمارسون ويطبقون الدين الإسلامي .. وهؤلاء الناس قد يكون لديهم أعذار في تطبيقه التطبيق الصحيح لانتشار الجهل والخرافة بينهم .. وبسبب ظهور تيارات فكرية ونزعات مختلفة تحمل الإسلام اسما وأفكارها متضاربة ، وفهمها للإسلام متناقض في فكر وعقل وفهم الآخرين .. وقد يكون هذا التناقض والاختلاف متقبلا بين المسلمين للتعايش ، وأيضا لاختلاف الفتوى في المسائل الشرعية لاختلاف الفهم والمكان والأحوال .. وهذا لابد من مراعاته في فهم المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم .. وهناك خلط مقصود وماكر بين الإسلام وعادات الشعوب التي اعتنقت الإسلام .. ومع توالي الأيام صعب التمييز بين ما هو إسلامي وبين ما هو عادات متوارثة وتقليد .. فالإسلام الحق يعرف من مصدريه القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وسيرته صلى الله عليه وسلم "

أبدت روبيكا تفهما لملاحظات عائشة ودفاعها الحق ، وأثنت عليها ثناء حسنا ومشجعا ثم قالت بعدئذ : " دكتورة عائشة .. الأمية متـفشية في بلاد المسلمين ، وانتشار التخلف الفكري

والاقتصادي والديمقراطي والحرية الفردية .. والنساء عندكم محرومات من كثير من الحقوق الشخصية والاستقلالية .. وعندكم الرجل يتزوج اثنتين وثلاث .. أطفال الأسرة الواحدة كثيرون .. ودخل محدود جدا وقليل يضر بالزوجة ، ويؤثر على رعاية الأطفال بالتغذية والتنمية .. والمرأة تغمر بدنها من رأسها إلى قدميها .. حتى لا يراها الناس إذا سمح لهن الرجال بمغادرة البيت ، أليس في كل ذلك هضم لحقوق النساء والصغار ؟ "

ردت عائشة قائلة وهي تبتسم : " قضية المرأة ! .. حقوق المرأة العربية والشرقية ! حقوق تحديد النسل ! طفل واحد أو اثنان .. زوجة واحدة .. حقوق اقتصادية .. حق ظهور جسم المرأة .. هذه قضايا وغيرها مما تثيره جمعيات حقوق الإنسان ، وجمعيات المرأة والأسرة في بلاد المسلمين وغيرهم .. للتحريض ضد الدين والانفلات منه ، وإظهار أن الدين الإسلامي دين قديم دين صحراوي .. هذا أيضا يا آنسة روبيكا جهل بالإسلام ، ومعاداة عن حقد وحسد ، قال الله سبحانه في القرآن { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... } .. هل المرأة إذا خرجت عارية أصبحت حرة وديمقراطية ومتطورة ومتقدمة ؟ ! .. هل الحرية التعري والسفور ؟! .. هل هذه هي الحرية التي قامت من أجلها الثورة الفرنسية ؟! .. هل يحق للرجل المسلم أن يخرج عاريا يتمشى في الشوارع مدعيا ذلك باسم الحرية الشخصية ؟!.. فجاء الإسلام بلباس خاص للرجل ولباس خاص بالمرأة ، كل حسب شروط واضحة ، راعاها المسلمون كل القرون بشكل مجمل .. وهناك تفاصيل بين لباس الشرع الإسلامي ولباس العادات والمدن والأرياف والبوادي .. شروط عامة تقوم على ستر البدن والعورة لكل من الذكر والأنثى ، وهذا نتيجته طهارة للمرأة والرجل .. فلماذا تتزين المرأة للآخرين ؟ ! أليس في الزينة إثارة وإغراء ؟! .. فمن تريد المرأة إغراءه ؟! .. أليس الزوج أم كل الرجال ؟! .. فالمرأة المسلمة تتبرج وتتزين إلى زوجها .. أما نساء السفور يتبرجن ويتزين لرجال الحفلات والحانات .. وللناس شهوات { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ .. } هذا جزء من آية قرآنية من كلام الله .. فهذا اللباس أو الحجاب الخاص بالمرأة حكم وتشريع من خالق هذه المخلوقة ..خالق هذه

المرأة العزيز الحكيم الذي يعلم ما يليق بها ويناسبها .. والحديث طويل وذو شجون حول هذه الشبهات الهزيلة التي تثار بين الحين والاخر .. وسأترجم لك فقرات مما رد به علماء المسلمين على شبهات المستشرقين حول التعدد وتحديد النسل وغير ذلك .. "

فقالت روبيكا : " حديث لا يمل منه .. يكفي هذا اليوم .. هيا نخرج للحديقة نتنزه فيها .. بلادكم شمسها ساطعة "

كانت سهام تستمع لحديث عائشة كأنها تسمعه أول مرة ، وفعلا هي أول مرة تسمعه ،كانت مدركة لم تقول عائشة وإن كان باللغة الإنجليزية ومعجبة بدفاع عائشة الهاديء والمنطقي كما يقال .

شرحت عائشة لابنة عمها الأمريكية نظام الغرف والبيت ، ودلتها على غرفتها التي تستطيع أن تستريح فيها إذا رغبت ، فحقيبتها فيها ، فقالت الفتاة : " لا .. أريد أن أرى الحديقة وأشم عبير الأزهار .. الدفء العائلي ممتع لديكم .. فنحن يعيش كل منا وحده .. كل في عمله .. أحيانا نلتقي في مناسبة أو عطلة إن لم يكن أحدنا مرتبا لسهرة .. عزيزتي عائشة .. أنا معي إجازة شهر فأريد أن أعرف كل شيء عن الإسلام وعن المرأة المسلمة .. "

ـ " أنا سأبذل جهدي معك خلال هذا الشهر رغم زواجي "

وحدثتها عن زواجها باختصار فقالت روبيكا : " زواج مبارك .. وستساعدني سهام "

فقالت سهام مرحبة : " أنا تحت الطلب ؛ ولكن ليست لدي الثقافة التي تملكها الدكتورة .. فقراءاتي عن الإسلام ضئيلة .. "

" لم ؟"

تحدثت سهام عن زواج أمها بابن عمها عمري ، وحياتها في بيت جدها ، فقالت روبيكا : " لا بأس سهام .. سيسمح لنا زوج عائشة السيد حمزة بالاستعانة بها "

قضى الأخوان أسبوعا ممتعا في ضيافة عمري ، وتعرفوا على بعض عاداتهم وأدبهم ، وسمعت روبيكا خلاله كلاما كثيرا عن الإسلام ، وعن رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعرفت على الحكم والغايات من إباحة الزواج للرجل بأكثر من أنثى ، وعرفت حقوق

الرحم والنفقة والرضاعة والسكن ، ومحاربة الإسلام للفقر بفرض الزكاة .. ولماذا يكون الطلاق ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، ولما بدأ القوم الاستعداد لحفل الزواج للأخوين أسامة وعائشة، طلبت عائشة من ابنة عمها إجازة ثلاثة أيام فقط ، فقالت روبيكا : " جيد .. بعد حضور حفل الزواج سنذهب مدة أسبوع إلى الصحراء لنرى الآثار القديمة والمحميات الطبيعية "

وتم حفل زواج الأخوين ، وذهبت عائشة مع زوجها الدكتور حمزة، ورحل أسامة بزوجته هند إلى شقة في إحدى العمارات التي أشرف على تشييدها ، وفي الصباح التالي التحقت روبيكا ومايكل في إحدى شركات السياحة التي حجز لهم فيها عمهم عمري ، ولما ركبوا الباص السياحي ، وبدأ الدليل السياحي يحدثهم عن مخطط الرحلة فاستمعوا له حتى أنهى كلامه ، فقال مايكل : " عمي عمري رجل مؤمن .. متدين يحافظ على الصلاة ويقرأ القرآن ويذهب يوميا للمسجد .. ويقول إنه تعلم في بريطانيا وعاش فيها سبع سنوات درس واشتغل .. وهو صاحب مشاريع كثيرة ويرعى دور أيتام وفقراء "

فقالت روبيكا : " أسرة عمي متماسكة .. الصغير يحترم الكبير ، بل زوجتاه رائعتان جدا جدا تحبان بعضهما حبا صادقا ومدهشا ، فقد حدثتني سهام ابنة أنعام عن ذلك .. وأن الأولى سعت وشجعت في تزويجه من الأرملة بدون غيرة وخوف .. والله التعدد يا مايكل أحسن من كثرة العشيقات كما هو معمول به عندنا .. ما أكثر الخيانات الزوجية عندنا ! .. لا أظن أن أحدا لم يخن زوجته في بلادنا .. والعكس صحيح .. أسرنا متفككة غير مترابطة تحمل اسم العائلة فقط .. انظر أمك لا تزور والدها إلا إذا احتاجت لشيء منه ، وأحيانا في أعياد الميلاد ونحن نعمل مثلها .. علمت أشياء مهمة عن الإسلام .. نحن نجهل الكثير عن هذا الدين .. ولا نفهمه بطريقة هؤلاء الناس .. إنني أفكر بإضافة شهر آخر للرحلة "

فقال مايكل : " أما أنا لا أستطيع يا روبي .. زوجتي لا تحتمل أكثر من ذلك .. ابني جاك أنا مشتاق إليه "

ـ " عد كما تشاء ، سيرحب عمي ببقائي يا مايك .. أرجو أن نـقضي إجازة ممتعة في هذه

الصحراء "

ولزموا الصمت فقد أخذ الدليل السياحي يخاطبهم ، فأصغيا إليه يتتبعان ما يردده أمام الفوج السياحي ، بعد أسبوع من التـفرج على الأحجار القديمة وآثار الرومان واليونان وغيرهم من الأمم البائدة عاد الأخوان إلى قصر عمهما عمري ، فقام بمرافقتهما في جولة خاصة على دور الأيتام ، وبعض المدارس الخاصة التي يقوم برعايتها ، فتعجبا من قدرة عمهما على إدارة هذه المشاريع والمدارس ، فرأى الشابان الجانب الخيري الكبير من حياة عمها ، وأنه يتعاطف مع الأيتام والفقراء وأصحاب الحاجات والمرضى من غير منة وطلب شهرة ، فاكتشفا أشياء مثيرة للأحاسيس ومشاعر المحبين له وحب العاملين بجواره له ، وقال مايكل لأخته معجبا بحياة عمه وأعماله الانسانية : " هذا الجانب الذي يجب أن يركز عليه كل غني ، كل مشروع ناجح يقابله مشروع خيري وإنساني "

ولما علمت عائشة بعودة روبيكا استأذنت زوجها بمصاحبتها حتى تغادر البلد ، فساعدتها بتوفير أهم مصادر العلم الإسلامي من كتب الحديث النبوي والتـفسير والسيرة والتاريخ والعقيدة والفقه ، واشترى لها عمها كثيرا من المراجع العربية ، وما وجده من الكتب الإسلامية باللغة الأجنبية ، وشجعها على تعلم العربية حتى تستطيع فهم الدين الإسلامي ، واختارت لها عائشة عددا من المراجع العربية المهمة في اللغة ، ورغبها عمري على العودة ثانية بعد نيل شهادة الماجستير ، وكان يستميلهما للحياة بقربه ليحاول عودتهما لحظيرة الإسلام بعد كل هذه الضياع ، فهم لا يعرفون عن الإسلام شيئا ، فقد أخبرت روبيكا أن الذي حبب إليها الكتابة عن الإسلام والمرأة المسلمة .. أنها اكتشفت على كبر أن دين والدها الإسلام .. لقد كانت تقرأ في مكتبة الجامعة عن الإسلام فلا تجد شيئا في أسرتها من الإسلام ، وأحيانا عندما تلتقي بوالدها تسأله عن الإسلام ، فلا تجد عنده شيئا إلا بعض الكلمات العامة المبهمة ، والسبب الثاني أن لها زميلات في الجامعة مسلمات وأكثرهن من القارة الهندية وإندونيسيا .. فتلاحظ صلاتهن وصيامهن ولباسهن ؛ ولكن لا معلومات كافية لديهن عن الإسلام سوى طقوس تعلمنهن من أسرهن ، وعندهن القليل من اللغة العربية الركيكة .. وكانت تحاول أن

□□□

تعرف الإسلام من الدكاترة المختصين في الجامعة ، والمهتمين بالاستشراق والمسلمين ، فاقترح عليها أحد الدكاترة الكتابة لنيل شهادة الماجستير عن المسلمين والمرأة المسلمة ؛ لتتعرف على الإسلام وتكسب الشهادة ، فوافقت وبدأت تعد نفسها لذلك .. فحاولت أن تستفيد من إسلام أبيها ، فوجدته أميا في دينه ، لا يعرف الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا شيء عن الدين ، وأنه كان يعيش في أسرة لا تفقه عن الإسلام شيئا ، ولما أتى هذه البلاد كان فارغا من الثقافة والمعرفة الدينية ، فانصهر في المجتمع الأمريكي انصهارا كاملا ، وبعد زواجه من سيزانا نسي أمته وجذوره ، فلم يفدها سمري بشيء سوى أن نصحها بالسفر إلى بلاد العرب ، ومقابلة عمها عمري شقيقه ، وأن عمها شيخ ويعرف الدين ، فسيفيدها في أطروحتها علميا وعمليا ، وشجعها مدرسوها على هذه الخطوة ، وقالوا لها : " ترين المسلمات على أرض الواقع " .. فكانت هذه الرحلة ، وكانت تسمع من عمها ، ومن عائشة كما ذكرنا ، وساقها عمها إلى بعض المنتديات العلمية والمفكرين الإسلاميين ، وقامت بزيارة لبعض الجمعيات المختصة بالنساء والأسرة ، ورافقتها عائشة إلى بعض الجمعيات الإسلامية وكانت تقول لعائشة بعدئذ : " إسلام متناقض في بلادكم .."

ولما تسألها " لم ؟! " فتقول : " الناس يجهلون الإسلام .. فعندما ندخل جمعية مهتمة بالمرأة وأحلامها وتحريرها وحقوقها .. تجديهن يتكلمن عن الإسلام بعموميات .. الإسلام مع حرية المرأة .. الإسلام مع استقلال المرأة .. الإسلام مع عمل المرأة .. ويرددن ما نقرأه عنكم في الغرب .. القوامة والتعدد الحجاب والميراث الكبت الجنسي العقد النفسية .. وعندما أجلس مع امرأة مسلمة محجبة مثقفة أجد لديها دفاعا جيدا ومقنعا لهذه الطروحات المختلفة وما تسمونه الشبهات .. ويقلن أن طبيعة المجتمع المسلم يخالف طبيعة المجتمع الكافر المجتمع الغربي .. وهذه الأعمال منسجمة - في رأيهنّ ـ مع طبيعة المجتمعات الإسلامية ولا يوجد اضطهاد للمرأة أو احتقار أو نقص من كرامتها أو عقلها وجمالها .. فيحق لها التملك والعمل والعلم واختيار الزوج المناسب الكفء كما هو عندنا .. وتجدينها موظفة وعاملة في المكان الذي يناسبها فسيولوجيا ونفسيا .. وعندنا النساء تعمل في المكان المناسب والذي ترغب ؛

ولكن هناك إشكاليات في النظام الاقتصادي عندكم ، فعندنا الربا مباح والاحتكار وكل ما يباح بالقانون فهو مشروع .. وعندكم النظام الاقتصادي مهلهل بين الرأسمالي والاشتراكي والإسلامي "

قالت عائشة : " نحن الممنوع عندنا حق لله ولرسوله .. فما أحله الله وأجازه الله فهو المباح ، وما حرمه الله فهو حرام .. مهما تحايل الناس على تحليله .. فهو حرام .. فأيهما خير قانون الله خالق الإنسان أم قانون البشر الذي هو مخلوق زائل ؟! .. وهل يكفي يا روبيكا أن نتحدث عن عدالة وجمال الإسلام ولا نطبقه ؟! .. فنساء الجمعيات في بلاد المسلمين أي المتخصصة بالمرأة ووضع المرأة يأخذون من الإسلام ما يوافق هواهم لدعم مقولاتهم في الندوات والمحاضرات ، ويأتون بشواهد شرعية في قضايا معينة ، والشاهد للأسف بعيد عن ذلك الاستدلال ..فأصحاب الهوى هكذا يطبقون القضية أو الشيء ثم يأتون بما يناسبه من الكلام العام .. مثلا قضية الحرية الشخصية يأتون بأقوال إسلامية مأثورة " لا إكراه في الدين " " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " .. للتدليل على حرية الدين والعبادة .. وينسون أنه محرم على المسلم تبديل دينه .. وقيسوا على ذلك مسألة السفر والمحرم ، فيدّعون أن هذا ضد الحرية الفردية ، ولم يبحثوا بالحكمة والفائدة من وجود المحرم أثناء السفر .. الإسلام دين كامل متكامل .. جماله وحسنه في ممارسته .. ممارسة الصلاة تغطي جانبا مهما من حاجات الإنسان البدنية والروحية ، وقبل ذلك طاعة لله الآمر بها ، والزكاة طاعة أولا وثانيا تسديد حاجة الفقراء والضعفاء، ولها حكم أخرى من طهارة النفس ونمائها وتزكيتها ، وحتى لا أطيل عليك فخذي إقرئي قصة هذه الفتاة العالمة في الذرة وهي فتاة إنجليزية ، وكيف اعتنقت الإسلام .. فقصص المهتدين فيها لطائف جميلة ومثيرة "

أخذت روبيكا الورقة المطبوعة من يد عائشة وأخذت تقرأ قراءة ذاتية صامتة :

((قصة إسلام الدكتورة كريستين جاك هيلين عالمة الذرة البريطانية

ولدت هذه العالمة الانجليزية لأسرة نصرانية ثرية ، ألحقها والدها بأرقى المدارس .. ، وهذه الطفلة التي ولدت ، وتربت في مجتمع نصراني ، لم تعلم شيئا عن الدين الإسلامي دين الله

الخالد ؛ ولكن قدرة الله تعالى وعنايته ورعايته شاءت أن تذهب هذه الطفلة الجميلة ـ وهي دون العاشرة من عمرها ـ في رحلة سياحية إلى بلاد الهند التي تلتـقي في أراضيها أكبر مجموعة من الملل والنحل ، بلاد كانت تخضع لبريطانيا العظمى ، علمت أن هناك دينا عالميا اسمه الإسلام يعتنقه ملايين الناس ، وشدها ما رأته من وجود علاقات من نوع فريد تربط بين الأسر المسلمة .. الود والإخاء ، ومع حداثة سنها أدركت الفرق بين مجتمعها النصراني والمجتمع المسلم المتماسك ، وكان أكثر ما شدها ، وقوفهم في صفوف متراصة في سكون وخشوع حين يؤذن المؤذن للصلاة ، وأحست كريستين في قرارة نفسها أن هذه الطقوس التي يمارسونها غير غريبة عنها ، وأنها تعرفها منذ ولادتها ، ووجدت نفسها منجذبة إلى تعلم صلاة المسلمين ، وتؤديها معهم كأنها واحدة منهم ، وبدأ كأن نداء خفيا يدعوها للتردد على المساجد التي تعلق بها قلبها دون أن تدري سر هذا التعلق ، والأسرة أسرة كريستين عدت ذلك شقاوة أطفال ولعب ولهو أو هواية يمارسها طفل ، ولكن حب الإسلام تغلغل في أعماق الفتاة الصغيرة ، فلما شبت عن الطوق أخذت تسعى إلى معرفة هذا الدين القيم ، فأخذت تقرأ عنه ، وبدأت تدرك أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وأن الله اختاره لعباده .

عندئذ أحست الأسرة وأدركت أن ابنتهم تجاوزت مرحلة اللهو ، وأن تعلقها بالمساجد الاسلامية ليس هواية بل صار عقيدة تؤمن بها ، فتملك الأسرة رعبا وخوفا أن تهجر الفتاة دين آبائها وأجدادها وتعتنق هذا الدين الوافد من الشرق .. دين أهل الصحراء والبادية ، فهنا عمد الأهل إلى إقناعها بتحويل دراستها الجامعية إلى الجانب العلمي البحت ظنا منهما أن دراسة العلوم بما فيها من جفاف مادي ربما يبعد بابنتهما عن متابعة التعلق بالجانب الروحي للإسلام ، وينأى بها عن خطر التحول عن دينها النصراني ، وهذا التوجيه من الوالدين لم يجد معارضة لدى كريستين لأنها في أعماقها كانت تحب العلم ، وأن طلبها له لم يكن ليعارض ميولها ، لمعرفتها من خلال قراءتها أن الإسلام يدعو إلى العلم ويحث عليه ، فاستجابت لتوجيه الوالدين بسرعة ، فاستراح قلباهما وابتساما ابتسامة رضا ظنا منهما أنهما نجحا واستطاعا أن يبعدوا بها عن الإسلام .

لكن العلوم العلمية ساعدتها كثيرا في معرفة الله تعالى ، فوجدت نواحي العظمة والإعجاز في خلق الكون ... وزادها ذلك قربا من الله تعالى ، وحين رأت الأسرة أن سعيها قد خاب وأن كريستين زاد قربها من الإسلام بدراستها العلمية ، فحاولوا بشتى الطرق أن يعيدوها للظلمات ثانية ؛ لكن هيهات أن يدع القلب المؤمن النور إلى الظلمة مرة أخرى .. وكمحاولة أخيرة لردها عن الإسلام ، أحضرت الأسرة لها شابا نصرانيا ليتزوجها لعل في زواجها منه ما يردها إلى عقيدة النصارى ؛ لكنها رفضت الشاب بشدة ولم تقبل الارتباط به ، وسعت لأن تجد زوجا مسلما يحمي روحها من الردة ، فجاء ذلك على يد شاب مسلم هندي ، تزوجته على سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأشهرت إسلامها ، وغيرت اسمها إلى أمينة محمد كيرال .

أمينة محمد كيرال تحيا اليوم حياة زوجية آمنة مطمئنة ، وتنعم روحها بالسلام والهدوء والسكينة ، وقد أنعم الله عليها وعلى زوجها بثلاثة ذكور أسمت أولهما محمدا وثانيهما عمر والثالث عبد الله .. وحرصت هذه المرأة المسلمة على تربية أولادها على قيم الإسلام وتعاليمه ، وهذه قصة إسلام عالمة الذرة البريطانية الشابة الدكتورة كريستين جاك هلين .. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وهو الهادي إلى سواء السبيل "))

كانت عائشة وسهام ترشفان الشاي ، ويتتبعان حركات وتفاعلات روبيكا المسلمة بالاسم لقصة كريستين النصرانية التي دخلت في دين الله الخالد الإسلام ، فلما أنهت الفتاة قصة عالمة الذرة وضعت الورقة على الطاولة التي يجلسون حولها ونظرت للفتاتين وقالت : " قصة عظيمة يا عائشة ! .. واعلموا أيضا أن من أسباب اهتمامي بالإسلام .. إسلام أحد دكاترة الجامعة أستاذ كبير في الفلسفة .. فبهرني ذلك لأنني أعرفه شخصيا ، فقلت لنفسي الكفار يسلمون ، ونحن نبتعد عن الإسلام .. لماذا؟ هل من جواب يا عائشة ؟! "

أخذت سهام الورقة المكتوبة بالإنجليزية ، فقالت لها عائشة : " أنا ترجمتها عن مجلة عربية لتقرأها الأخت روبيكا .. فهي موجودة باللغة العربية يا سهام "

قالت سهام باسمة : " سأقرأها أنا أعرف الإنجليزية جيدا "

ـ" إقرئي يا حبيبتي "

فقالت روبيكا وهي تشير لسهام التي أخذت الورقة وابتعدت عنهما :" إنها فتاة ساهمة حائرة هل من شيء يقلقها ؟ .. أراكم بيتا مسلما نموذجيا طيبا رائعا .. لا أقول ذلك مجاملة "

تبسمت عائشة وقالت : " هل لاحظت ذلك على سهام ؟ "

ـ " أجل "

ـ " لا يخلو إنسان من مشاكل وهموم ، مع ما فيه من السعادة والنعيم .. كيف عرفت ؟ "

ـ " إنها تتحدث بمواضيع متقطعة .. نتكلم بموضوع ثم تنتقل لغيره .. فهذا يدل على انشغال البال .. فالانتقال من موضوع إلى آخر بسرعة وبدون أن ينتهي الأول يدل على عدم التركيز وانشغال الذهن "

ـ " ملاحظة مهمة ! "

عقد السيد عمري اجتماعا كبيرا ومهما حضره كبار رجال مجموعة عمري محمود في قاعة الاجتماعات في بناية الشركة في شارع قطز ، وقد أطلعهم على رغبته بالاعتزال والتقاعد وترك الإدارة والعودة للريحانة والاستقرار فيها والتفرغ للعبادة فيما بقي من سنوات العمر ، وأعلمهم أنه سينقل كل صلاحياته الإدارية والمالية لابنه المهندس أسامة عمري ، وحثهم على التعاون الصادق معه كما تعاونوا معه هو شخصيا لتستمر هذه المشاريع في العطاء والإنتاج ، وشكرهم وحثهم على الوفاء لابنه ، وطمأنهم بأنه رغم تخليه عن المسؤوليات الهامة فإنه سيكون قريبا منهم بوجدانه وملاحظاته ، وبعد خطابه المتواضع صافحهم فردا فردا ، وتم نـقل الإدارة والقيادة للمهندس الشاب أسامة الذي وقف أمامهم شاكرا لوالده على ثقته الكبيرة به ، ووعدهم بأن يظل وفيا لمبادئ وسياسة والده في السخاء والعطاء وزرع الخير في كل مشروع ومؤسسة .. وأن الحلال الطيب والأخلاق الحسنة من أهم مقومات النجاح ، وأن رضا الله سبحانه أهم من رضا العبيد وإغراءات المال والدنيا ، وأن العفو والمسامحة من طباعه كما كانت من طباع والده الفاضل ، وأمل أن لا يجدوا تغييرا كبيرا في تسلمه لمنصب والده ، وشكرهم وحثهم على التعاون على البر والتقوى كما تعاونوا مع أبيه بصدق وإخلاص ، ثم تناول الحاضرون ما أعد لهم من طعام وحلويات بمناسبة وداع رفيقهم ومديرهم عمري ، وصعد أسامة إلى مكتبه في الطابق السابع ، ومر عمري على المكاتب مودعا للموظفين ، ثم خرج مع سائقه مودعا مكاتب مجموعته التجارية والاستثمارية ، وكله أمل باستمرار أسامة بقيادة السفينة بنجاح وتقوى ، ولما وصل البيت ودع الحارس والسائق وأكرمهما ببعض المال ، ووصاهما على ولده أسامة ، فبكى الرجلان من حسن معاشرته لهما خلال السنوات الماضيات ، ووعداه أن يكونا عند حسن ظنه مع فلذة كبده المهندس أسامة .

ولما دخل البيت وجد مايكل وشقيقته روبيكا يستعدان للسفر بعدما أمضيا شهرا في حضن عمهما الدافئ ، فقال لهما : " ألا ترغبان بالبقاء في بلاد الآباء حيث الدفء العائلي والإسلام والحب ؟ "

فقال مايكل ضاحكا وغامزا : " لا أرى اختلافا كبيرا بين مسلمي بلادكم عن إسلام مهاجريكم إلى الغرب ، فكثير ممن التقت بهم روبيكا من رجال الجمعيات ونسائها لا يعملون بطقوس الإسلام .. يريدون تحرير الناس ، وهم لا يمارسون الإسلام العملي .. وتقول حتى أنهم لا يعرفون مبادئ الإسلام الأساسية .. وتقول أن الداخلين في الإسلام في أمريكا ربما يكونون أفضل منهم ، فهم يمارسون شعائر الإسلام بحرارة ، ويدافعون عن الدين أكثر منهم .. أما هؤلاء فهم المسيئون إليه بجهلهم وظنهم أن لسانهم العربي يظهرهم حملة لدعوة الإسلام .. ولكنها مسرورة منك ومن أسرتك يا عمي .. وشتان بينك وبين أبينا ، فهو رحل للغرب ، ولا يحمل شيئا من دين الآباء .. لا صلاة ولا صوم ولا إيمان .. هذه أعمال لم نعرفها إلا هنا خلال هذا الشهر .. حتى بدأنا نفكر بدخول الإسلام من جديد يا عمي "

ـ " ادخلوا ولماذا لا تدخلون ؟ ! .. المفروض ألا يسافر للغرب إلا من كان مسلما حقيقيا ليؤثر في الآخرين ؛ ولكن أكثر المسلمين يذهبون إلى هناك وهم عصاة في بلادهم وغايتهم المال أو الشهادات العلمية وتعويج اللسان بلغة هؤلاء يا ولدي .. وفاقد الشيء لا يعطيه .. فوالدك ذهب للدراسة كما ذهبت أنا من قبل لبريطانيا ، ولم أكن أنا ولا هو عندما سافرنا نعرف شيئا عن الصلاة .. فلم نسمع أن والدينا ذاك الزمان صليا لله ركعة أو سجدة .. فماذا سنعطي من نجلس معهم هناك من ديننا ؟ .. بل عشقنا النساء والعبث ، فأنا عدت وبعد ضياع تبت ، وأخذت أتعرف على ديني ، ووفقني الله سبحانه بفضله وكرمه .. وأما سمري فانغمس في حياة الأمريكان وأعجب بها وغرق في العمل والمحاضرات .. كما تعرفون .. ولم يفكر يوما بدينه وتعاليم دينه وقيمه .. فعلا يا أبنائي أنتم محتاجون للدخول في الإسلام من جديد .. ذكرتموني بقصة هندوسي متزوج من مسلمة وهذا حرام شرعا .. المهم أن الرجل أسلم وأعاد زوجته للإسلام "

فقالت روبيكا : " أنا سعيدة بكم يا عمي ! ولسوف أفكر بما قلت وقلتم .. فالتخلص من رواسب الماضي وعادات اكتسبناها ليس بالأمر الهين .. سنبقى على اتصال دائم ، وأنا قد أعود إليكم ثانية يا عمي بعد إنهاء أطروحتي .. فقد أحببتكم وأحببت أخلاقكم .. فأريد أن أتعلم

لغتكم ، لا أدري لماذا لم يحاول أبي تعليمنا لغته العربية ؟! .. لقد انصهر انصهارا كاملا في مجتمع الغرب .. حتى اللسان الأمريكي أخذنا أكثره من المربية الأمريكية التي كنا نقضي معها أكثر الوقت .. فلم نكن نسمع ألفاظا عربيا لنفكر بالعربية والعرب ، لقد كان أخوك جاحدا للغة الأجداد .. فهناك من الطوائف والملل في أمريكا رغم العقود التي مرت عليهم ما زالوا يحافظون على لغتهم الأصلية فيما بينهم يتعلمونها ويتكلمون بها .. وحتى بعض الجاليات العربية تفعل ذلك "

وتناولوا العشاء الأخير مع الأسرة ، ولما اقترب موعد الطائرة عانقت الفتاة عمها وقبلت يده كما يفعل الأبناء ، وسلمت على نساء عمها وعلى عائشة وأحلام وسهام وريهان ومريم وهند وحيت الدكتور حمزة والمهندس اسامة ، وعانق مايكل عمه ، ودعاه لزيارة أمريكا ، وصافح ابن عمه اسامه وقبله ، وفعل مثل ذلك مع صهرهم حمزة وعانق محمدا ابن عمه ، وحيا النساء والبنات ، وكان حسن في انتظارهم بسيارته أمام مدخل الفيلا ـ وكانت عائشة قد أرسلت الكتب التي اشتراها والدها لروبيكا بطرد كبير إلى فيرجينيا قبل السفر إلى عنوان روبيكا ، وكانت روبيكا ومايكل قد قبلا الهدايا التي قدمها لهم عمهم وأولاده وبناته ، لهم ولوالدهم ولأمهم ولزوجة مايكل وابنه الصغير جاك ، ووضعت الحقائب بما فيها من أوراق وكتب قليلة في صندوق السيارة ـ وسار بهم حسن نحو المطار ، ولما جاء موعد ركوبهم الطائرة ، ودعهم حسن وتمنى لهم رحلة سعيدة ، وحثهم على العودة في أقرب فرصة ، وودعوا حسنا ، ودعوه لزيارتهم في أمريكا ، فقال : " قد يحصل هذا .. ولكن بعد إنهاء الدراسة "

*****

بعد مغادرة الضيفين خاطب عمري أفراد العائلة الحاضرين وأطلعهم على رغبته بترك العاصمة والعودة ثانية للريحانة والاستقرار فيها ، فهو قد أحبها وبدأت حياته الحقيقية منها ، وما زال لها محبة في قلبه ، وما زال يتردد عليها بين الحين والآخر ، ويقضي بين ربوعها عددا من الليالي والأيام ، وكانت زينب وأنعام على علم بهذا القرار آنف الذكر ، وكان الترتيب أن تبقى مريم ومحمد في الفيلا تحت رعاية الشغالة أم احمد ، وأيضا تحت حماية الأخوين أسامة وحسن ،

فأسامة سوف يرحل للحياة في الفيلا ، ولم يكن هناك إلا مشكلة سهام ، ولكن سهام ماهر حسمت الأمر ووافقت على الرحيل معهم ؛ لأن بقاءها قد يؤدي لبقاء أمها ، وأما أحلام فهي في الأيام الأخيرة من الجامعة ، وخطيبها ينتظرها في الريحانة مع أمه بدرية .

رجع عمري بعد أكثر من عشر سنين قضاها في العاصمة ، عاد إلى المدينة التي بدأ منها حياته العملية ومشاريعه التجارية والخيرية ، واستـقر في الفيلا التي بناها في ضاحية الصالح ، وكان العمال قد نظفوها وأعادوا صيانتها ودهانها من جديد وهيئوها لعودة السيد الكبير ، وكان في استقبالهم أختيه قمرية وولديها وبدرية وأولادها وأزواجهما ، واحتفل القوم بعودة خالهم احتفالا متواضعا ، وسر عمري بعودته للريحانة للبقاء فيها حتى النهاية ، فكان يستيقظ في جوف الليل ليصلي عددا من الركعات تهجدا لله وشاكرا لأنعمه سبحانه وتعالى ، ثم يرقد حتى توقظه زينب أو أنعام لصلاة الفجر ، فينهض ويتوضأ ثم يسير ومعه الخادم أو الحارس أبو خالد نحو المسجد الذي لا يبعد عن البيت أكثر من مائتي خطوة ، فعمري يحب مجاورة المساجد ، فيصلي مع الشيخ الإمام ، وإن جلس المصلون لصلاة الضحى والشروق جلس ، وإن انصرفوا انصرف ، فإذا عاد للبيت يجلس لتلاوة القرآن ، وأحيانا يستمع لتلاوة المشايخ من جهاز التسجيل ، ثم يصلي ركعتي الشروق ، وتحضر زوجتاه أو إحداهما للحديث معه ، ويشربون اللبن الحليب أو القهوة ، ثم يدخل المكتبة للقراءة أو يدخل حجرة النوم فينام ساعة أو ساعتين ، ثم يصلي الضحى ويجلس مع زينب أو أنعام حتى الظهر فينطلق لصلاة الظهر ثم يعود للبيت ويعود للقراءة في كتب التاريخ والسير .

كانت حياة صديقنا الاستاذ عمري هادئة طيبة كما رسم وخطط ، وفي المساء يسير حول الفيلا أو داخلها أو يقوم بزيارة لصديق أو صاحب، وبعد صلاة العشاء يجلس في الحديقة إذا كان الطقس دافئا ومنعشا ، ويتعشى عشاء يسيرا مع زوجتيه وسهام أو ضيوفه من أخوات وأصهار وغيرهم ، ولقد كان سعيدا وفرحا بحياته هذه وشاكرا لله وراجيا منه سبحانه دوام العافية والغنى ويسأله حسن الختام ، وكان يدعو الله من أعماق قلبه أن ييسر لابنة أنعام زوجا صالحا ليرتاح ضميره وقلبه ، وذات مساء عندما أتت أحلام من العاصمة ، وأتى زوجها محمد

الذي لم يدخل بها بعد ـ فكتابهما الشرعي قد كتب في العاصمة ، ولم يبق إلا تحديد يوم الزفاف فقد أنهت أحلام اختبارات الفصل الأخير ، ولم يبق إلا الحصول على الدرجات وترك العاصمة ـ أتى محمد وأراد أن يخرج بخطيبته زوجته للعشاء في أحد المطاعم البحرية ، وبينما هم يأخذون الأذن من السيد عمري والسيدة انعام ، أحبت سهام أن تخرج معهم ، فرحبا بذلك وفرحا بهذه الرغبة ، وركبوا سيارة محمد وتجولوا في شوارع المدينة ساعة من الزمن ، ثم اتجهوا إلى أشهر مطاعم المدينة وأكبرها وتحت شجرة على مائدة جلسوا ينتظرون الطعام الذي طلبوه ، ولما بدأوا يأكلون لمحت سهام على مائدة قريبة فتاة كانت تدرس معها في الجامعة اسمها فايزة ومعها فتاة أخرى ، ولما أتمت أكلها استأذنت من زوج أختها لتسلم على زميلتها في الجامعة ، ولما رأتها فايزة دهشت بداية ثم عانقتها عناق الأحباب والأصدقاء بعد طول غياب ، وفايزة كانت من زميلات سهام ورفيقاتها في الكلية وفي المناسبات والرحلات ، ولقد كانت تعرف ما بينها وبين فواز من الود ، بل كانت من الصديقات المقربات لفواز ومنال ، فكان فرحها كبيرا بلقائها ، فبعدما انتهت المجاملات والابتسامات ، وعرفتها فايزة على الفتاة التي معها فهي قريبة لها ، وأشارت سهام لأختها وزوجها بعروسين ينتظران ليلة العرس ، وشرعن يتذكرن أيام الكلية والزملاء وأخبارهم حتى وصلت سهام إلى الذي تريده ، فأتت على سيرة فواز فقالت مظهرة عتبها ولومها على فواز : " رغم ما كان بيننا من الانسجام والود يا فايزة .. ولكن منذ تخرجنا لم أره .. ما أخباره هذه الأيام ؟ "

ضحكت الفتاتان ، وقالت فايزة : " هو بخير يا حبيبتي .. هو التحق ببرنامج الماجستير كما كان يحدثنا ، ووالده أصر على دراستهما للماجستير هو ومنال .. ومنال تريد أن تصير دكتورة وكذلك فواز .. هكذا رغبة الوالد "

ـ " أنا أحيانا أتصل بمنال .. وكلما أحاول اللقاء بها تتـعذر بمشوار والعمل "

ـ " هي بخير ، وقد تخطب قريبا .. فهناك شاب من العائلة راغب بالاقتران بها .. وقد يحدث ذلك قريبا "

ـ " رغم اتصالي بها من فترة يسيرة لم تخبرني بذلك .. " ثم جاءت للسؤال الخطير وقالت : "

وفواز ألم يتزوج أو يخطب ؟ "

فكان الجواب قاسيا ومؤلما وقالت فايزة ببرود : " تقريبا تزوج "

فايزة تعلم ما كان بين فواز وسهام ، فلذلك لم تستغرب من تلون وجه سهام ، بل ربما كانت مشفقة عليها في تلك اللحظة وهي تصارحها بذلك ، ولما قالت سهام : " كيف تقريبا هذه ؟! "

حركت فايزة خاتما بإصبعها أمام عيني سهام ، وقالت بهدوء مفتعل وهي تنظر في عيني سهام : " نحن خطبنا يا سهام .. وأنت ألم تخطبي ؟"

بلعت الفتاة ريقها وهمست : " أنتم خطبتم ؟! "

ـ " أجل ، ولم أنت مستغربة ؟ .. لقد كنا متـفقين على ذلك من أيام الكلية "

فقالت باستغراب واضطراب : " متفقون من أيام الكلية ! .. هذه أخبار جديدة ؟ "

تبسمت فايزة وقالت : " أنت طيبة يا سهام .. فواز كان يعبث بعواطفك كان يخبرني بذلك كان يحب السخرية من البنات ، فكان يقول لي " إن سهام متعلقة بي وتظن أنني قد أتزوج فتاة مثلها " .. ويأخذ بالسخرية من ملابسك الطويلة والغريبة "

ـ " إنك كاذبة يا فايزة "

ـ " أنا أعرف بكثرة اتصالاتك بمنال ، وطلبك من فواز أن يسعى لمقابلة زوج أمك وأمك .. ولكن تردده وعدم تلبيته لهذا الطلب كان يجب أن ينسيك يا سهام .. أنا أتكلم معك بهذه الصراحة لتنسي ولا يبقى عندك الأمل والوهم .. وأنا لمت فوازا كثيرا ، وطلبت منه من أيام الكلية أن يصارحك بحقيقة مشاعره "

ذرفت سهام الدموع وقالت كأنها ما زالت متشككة بما تسمع : " أين الألفاظ والكلام الذي كان يسمعني إياه ؟! .. وما دام بينكم حب كما تدعين لماذا تسمحين له بذلك ؟ "

ـ " لم استطع منعه .. كنا طلابا ، والظرف لا يسمح لي بتحديه وتحدي رغباته ونزواته .. ولم يكن بيننا عقد زواج أو خطبة ، إنما هي وعود كالتي كان يوحي بها لك ولغيرك "

ـ " لماذا لم تقولي لي ذلك ؟! "

ـ " كان يهددني بالتخلي عني .. أنا آسف وأنا أقول لك ذلك ، وكان عليك أن تدركي أنه غير جاد معك .. ألا ترينه يكون معي وعندما يراك يستأذن وينصرف وهو يتوعدنني "

ـ " وأخته منال ؟ "

ـ " لا أدري ماذا أقول لك ؟! ولولا هذه الصدفة وسؤالك عن ذلك لما تكلمت ، لنا أكثر من سنة متخرجون ..ولم يظهر لك ودا ، ويتهرب من هواتفك، ألم تقتنعي بعبثه وسخريته ؟! "

ـ " لا أدري ، يبدو لي أنني حمقاء ساذجة ، ولا أعلم أن في العواطف سخرية ومقالب "

ـ " أنا أعجب من تعلقك به .. فصدقي أنني أكثر من مرة قلت له " كفاك استهزاء بسهام فإنها رقيقة لا تعرف اللف والدوران " فلم يقتنع بل ادعى أنك تعرفين عبثه "

مسحت الدموع المتساقطة وقالت : " أشكرك يا فايزة .. أشكر الله أن سخر لنا هذا اللقاء لأعرف الحقيقة التي كان يجب أن أدركها قديما ؛ ولكنكم ظلمتموني .. أنت ومنال شريكتان في المؤامرة .. لماذا سكتم كل هذه السنوات ؟ "

ونهضت وقبل أن تنصرف قالت بغيظ وحزن : "الله يقتص من الظلمة ومن الذين يعبثون في عواطف البسطاء "

ـ أنت مسكينة جدا يا سهام .. قد يأتي فواز واسمعي منه .. ولا تظني أنني مغرمة به ، قد تكونين أنت مغرمة به أكثر مني .. ولكني أعرفه قبل الجامعة فوالدي صديق والده .. ولم تتم هذه الخطبة بسبب ما يدعيه من الحب .. فواز لا يعرف الحب الحقيقي هو عابث ، وكان يحب أن تظل الفتيات حوله في الجامعة وأمام الزملاء .. وصدقي لو تقدم لي شاب غيره لقبلته ورفضت فوازا غير مأسوف عليه .. ولكن إرادة ورغبة الأسرتين .. لا تدعي عليّ يا سهام "

فقالت سهام : " إنك صريحة جدا "

ـ " اتصلي بمنال وخذي الحقيقة منها "

فقالت سهام : " لا داعي للحديث مع منال .. تجربة مؤلمة .. ولكن الحمد لله على كل حال .. فحياتكم كلها عبث .. وتؤكد لي أن أفكاركم وهم في وهم .. كان يريد مني أن أتبرج وأخلع ثياب العفة ليتـفرج على محاسني ويلهو بي .. لقد تغير حقا لما بدأت ألبس الجلباب .. كان

يظهر الاشمئزاز والنفور من ثياب البدو والتخلف .. أشياء كثيرة الآن فهمتها .. لعنه الله ، قولي له إنني سوف ألعنه وألعنه .. العابث بمشاعر الناس وأحاسيسهم والمخادع والممثل .. إنني ألعنه "

وانصرفت باكية تمسح دموعها ، ولما عادت حيث تجلس أختها أحلام وزوجها محمد لاحظا الدموع على وجهها فاستغربا ذلك ، فقالت أحلام : " أنت ذهبت تتحدثين مع زميلتك فعدت باكية .. هل من ميت ؟!"

وقال محمد قلقا : " سهام .. أقلقتنا ما سبب هذا البكاء ؟ "

جلست وأخذت تبكي وتتنهد ثانية وقالت : " أريد العودة للبيت .. إنني أحس بدوار في رأسي وصداع "

فذهب الشاب نحو البنات بسرعة وقال : " مساء الخير .. معذرة .. لماذا تبكي سهام ؟ "

نظرن إليه بدهشة وقالت فايزة : " لا شيء "

ـ " كيف لا شيء ؟ ! .. هل يبكي الإنسان بدون سبب ؟! "

ـ " ألم تقل لكم شيئا ؟ "

ـ " لم تقل شيئا "

وكانت سهام وأحلام قد تبعتا محمدا وقالت سهام : " هيا يا محمد .. دعك من البنات .. آسف جدا يا فايزة "

ـ " ولا يهمك .. نحن أيضا آسفون "

وأخذت سهام وأحلام محمدا وخرجوا بعد أن ترك محمد مبلغا من المال على مائدة الطعام وهو يقول : " لماذا لا تريدين الكلام يا سهام ؟ "

فقالت وهي ما زالت تمسح دموعها وتشرق بنفسها : " أمر خاص يا محمد أرجوك "

فقالت أحلام : " يبدو يا محمد أن فايزة هذه أتتها بخبر سيئ عن صاحبها فواز "

فصاحت سهام بحدة وضيق شديد : " أرجوك يا أحلام أن تصمتي .. شيء لا يخصك ولا يعنيك .. فواز أو الشيطان لا دخل لكم "

□□□

أخذ محمد يتعذر لها ويهدئ من روعها ويقول : " نحن آسفون ، حقك علينا .. لا تغضبي منا "

ولما وصلوا الفيلا والصمت قد خيم عليهم طول الطريق ، كان عمري وزوجتاه ما يزالون يجلسون في الحديقة يتسامرون ويأكلون الفواكه ، فأتت إليهم أحلام ومحمد ، ودخلت سهام إلى حجرتها ، فلما ألقيا السلام وجلسا ، سألهم عمري عن سهام لماذا لم تأت معهم ؟ فقال محمد : " لسنا ندري .. كنا نتعشى في المطعم البحري وأثناء الأكل شاهدت فتاة قالت أنها زميلتها أيام الجامعة والكلية وبعد الطعام مشت إليها وجلست معها ، وبعد حين عادت إلينا باكية ، وحاولنا أن نعرف السبب ، فلم تتكلم، ومنعتنا أن نعرف من تلك الفتاة .. وادعت أنها مريضة .. لا أدري يا خالي ما حكاية هذه البنت "

فقالت انعام : " هل عرفت شيئا يا أحلام ؟ "

ـ " لا يا أمي .. ولكن يبدو أن هذه الفتاة المسماة فايزة .. تعرف ذاك الشيطان فوازا "

فقال عمري : " هونوا عليكم .. سهام أحاسيسها مرهفة ومشاعرها رقيقة .. اذهبي يا أنعام وتكلمي معها .. أصحاب الحس المرهف يتأثرون بسرعة ويبكون لأي خدش يلمس مشاعرهم "

فنهضت أنعام وقالت زينب : " لا تتأثروا بما صار .. متى سنفرح بكم يا محمد ؟ "

فقال : " أمي مستعجلة .. ونحن ننتظر تحديد خالي لليلة الزفاف "

فقال عمري مبديا عجبه : " أنا .. ولماذا ؟! "

ـ " هكذا تقول أمنا الغالية .. أنت كبير العائلة الآن "

ضحكوا لهذا الوصف ، وقالت زينب : " متى تحبان أن يكون ؟ .. نهاية هذه الأسبوع يوم الجمعة ما رأيك يا عمري ؟ "

فقال عمري : "أحلام ماذا تقول ؟ "

فقالت أحلام : " أنا علمت أن محمودا قادم من أوروبا ، فقد أنهى الاختصاص كما علمت من أمي زينب ، فعندما يصل بالسلامة نحتفل بالزواج "

فقال عمري : " الجمعة إن شاء الله ؛ لأن محمودا قد ينزل النمسا لقضاء عدة أيام هناك ويقابل بعض الأطباء الكبار في فينا .. الجمعة مناسب يا محمد ؟ "

فقام فرحا يعانق خاله وهو يقول : " الآن سأذهب وأخبر أمي وأبي .. السلام عليكم .. احلمي أحلاما سعيدة يا أحلام "

في الصباح التالي تلقى عمري رسالة محمولة إليه من العاصمة ، وكانت رسالة من ابن أخيه مايكل وشقيقته روبيكا ، وكان فيها سلام وأشواق وشكر وإعجاب شديد به وبأسرته صغارا وكبارا ذكورا وإناثا ، وكان فيها أنهما التحقا بمعهد لتـعلم اللغة العربية ، فضحك عمري من ذلك ، وقال معلقا " أهل اللغة يتعلمون لغتهم ! قاتلك الله يا سمري .. جنيت على نفسك وعلى وذريتك " ثم تابع القراءة ، فقرأ أنهم يرغبان بعد إنهاء الدراسة في المعهد السفر إليهم والحياة بينهم لإتقان اللغة العربية ، وأن زوجة مايكل الأمريكية جان سمري متحمسة لذلك ، وأنها تحب الآداب العربية وقد تجعل رسالتها في الدكتوراه حول الأدب العربي القديم ، وفي الرسالة أيضا أن روبيكا قد تتقدم قريبا لمناقشة رسالتها وربما تأتي مع مايكل .

فكتب إليهم عمري رسالة مرحبا بهم وبمجيئهم في أي وقت ، وأنه سعيد بقدومهم جميعا ، ولا حرج ولا ضيق لديه من مجيئهم ، ثم اطلع على باقي الرسائل والبرقيات والمراسلات من الأصدقاء والأحباب .

ولما دخلت عليه زوجتاه يشربون معه القهوة ، حدثهم عن رسالة مايكل سمري وأخته روبيكا ، ثم سأل أنعام عن سهام فقالت بحزن : " أمضيت ساعة أو أكثر أراودها فيها أن تتكلم عما جرى بينها وبين فايزة والفتاة الأخرى .. فتصرخ فيّ وتطلب مني الصمت وعدم حشر نفسي فيما لا يعنيني .. تصور أن حياتها لا تهمني ولا تعنيني ولا تخصني .. أنا يوم المنى عندي عندما أراها عروسا في بيت زوجها .. من هو الشاب الذي حدثتنا عنه مرة يا عمري "

فقال بأسف : " للأسف طال الانتظار فتزوج ، كان يحب الارتباط بأسرة الخابي من أي جهة كان النسب .. إنه المهندس وائل ابن الدكتور يوسف حسان .. شقيق امرأة محمود "

فقالت بدهشة وربما صاحبتها حسرة : " المهندس وائل ! .. وصديق أسامة الحميم .. كان

كثيرا ما يكون مع أسامة إنها تعرفه "

ـ " أجل يا أنعام ! لما عرضت الموضوع عليه وعلى أبيه كادوا يطيرون من الفرح فاستمهلتهم إلى حين ، ثم قلت لهم بعدئذ إن الفتاة مضربة عن الزواج فتزوج وفقه الله سبحانه "

فقالت زينب : " قدر الله وما شاء فعل ، كل شيء نصيب مقدر .. نحن يجب أن نعرف ما حدث لها مع تلك الفتاة الزميلة فايزة .. تكلم معها يا أبا محمود "

فقال : " أنا لا أحب أن تتحدث بشيء بالحياء والخجل يا زينب .. دعوها بضعة أيام .. اتصلت عائشة تقول أن أوراق خالتها التي أرسلتها لبعض مشافي ألمانيا وسويسرا قد جاءت الردود عليها .. فهناك مستشفى في إحدى ولايات سويسرا يرحب بمتابعة مرضها وعلاجها وأرسلوا لنا تكاليف العلاج التي يتقاضاها المستشفى والمصحة التابعة للمستشفى فماذا تقولين يا أنعام ؟ "

ـ " لا أعلم ما أقول .. يقول صابر إن حالتها النفسية تزداد سوءا وتدهورا .. وآلام الرأس تشتد عليها حتى تدفعها لخبط رأسها بالحائط ، ونقلها إلى إحدى المستشفيات فقضت سبعة أيام حتى هدأت ثم عادت للبيت .. وأمي هي الأخرى متعبة لآخر درجة .. وزواج أحلام على الأبواب بعد يومين .. وسهام أيضا .. استغفر الله .. حسبنا الله "

فقال عمري مواسيا : " أكثري من الاستغفار .. فالاستغفار رحمة وفرج .. سأتحدث مع الدكتور فائز صهرنا الحبيب إذا سمح لابنه محمد بقضاء رحلة مع حماته أنعام في ربوع سويسرا .. تذهبين أنت وأحلام ومحمد وسهام إذا أحبت .. فمنها تشرفون على متابعة حالة نوال وتتفرجون على تلك الجبال والأنهار والثلوج .. ومحمد شاب ذكي ويحب الحركة ونشط وتعلم في أوروبا "

فقالت : " وأمي ؟ "

فقال حازما الأمر : " بقاؤك هنا لا يقدم ولا يؤخر على صحة أمك .. بعد الزواج سيكون السفر بإذنه تعالى .. اتصلي يا زينب بعائشة واطلبي منها أن تحول المال المطلوب إلى المستشفى وتؤكد الحجز لمدة ثلاثة أشهر .. وتوكلوا على رب العباد "

فقالت أنعام : " ثلاثة أشهر وقت طويل "

ـ " احتسـبي ذلك عنـد الله .. قد نطل عليكم أنا وزينب بعد عودتنا من العمرة .. وقد نذهب إليكم من هناك "

فتبسمت أنعام وقالت : " الآن أنا متشجعة على السفر .. أنا لا أحب فراقك يا عين أنعام "

فتبسم الجميع على غزل أنعام ، وقال عمري : " نحن كبرنا يا أنعام على هذا الكلام .. والفراق قادم .. وكأس الموت لابد من شربه أيتها الحبيبة

ـ " الحبيبة .. وأمام زينب يا عمري "

فتبسموا مرة أخرى ، وقالت زينب : " أنعام تحبك كثيرا يا عمري .. فهي تقول إن اليوم الذي يمر ولا ترى فيه عمريا أو تسمع كلامه تحس أنها خسرت يوما من عمرها وحياتها .. وتقول أن اليوم الذي ألزمها والدها بالزواج منك كان يوما مباركا ، ومن أفضل أعمال أبيها رحمه الله "

وضحكوا قليلا وقال عمري :" هذا من فضل الله سبحانه علينا مع أنها تزوجتني عجوزا "

فقالت أنعام : " والله إنني أحبكما جميعا .. فزينب سيدتي وأميرتي وملكتي .. هي أحلى امرأة في العالم يا عمري ! .. لم أشعر يوما أنها تغار مني وأني لها ضرة .. فقلبها أبيض وقانعة بالحياة قنوعا جميلا وعجيبا .. ولكنه الإيمان الذي يملأ قلبها .. وحبها لله سبحانه وحبها للرسول صلى الله عليه وسلم والسيرة العطرة .. وأنا لست مثلها "

فقالت زينب وهي متاثرة بكلام شريكتها في زوجها : " بل أنت الخير والبركة .. والسعادة بالإيمان والتفاهم والحب الشرعي .. وزوجنا رجل واعي وواسع الصدر "

فقال عمري مقاطعا : " دعونا من هذا الكلام المثير للمشاعر .. واستعدوا للعرس ..هل اشترت أحلام كل ما يلزمها ؟! "

فقالت أنعام باسمة ومسرورة : " أحلام !.. أختك من قبل تحديد العرس اشترت لها كل شيء الذهب واللؤلؤ والثياب .. والشقة جاهزة تنتظر العروس .. الله يديم النعم على الجميع فلم يبق إلا الاتفاق مع فتاة الصالون حتى تأتي للبيت كما تريد يا أبا محمود .. وقد أضعف

لها محمد الأجر حتى قبلت بالمجيء لتزيين العروس صباح الجمعة "

ـ " ولم صباحا .. ألا تريد الصلاة ؟ .. بعد الظهر أفضل "

ـ " لا تقلق سندبر الأمر .. هل هي أول عروس ستتزوج ؟ "

وقالت زينب : " سأقوم لاتصل بعائشة وأسمع صوتها فلها يومان لم تتكلم معي "

دعي الأهل والأصدقاء والأحباب إلى منزل الدكتور فائز لطفي ، وفي حديقة القصر تم الاحتفال بليلة الزفاف ، وانتقلت أحلام إلى بيت زوجها محمد .. وحمدوا الله على هذه الخيرات والنعم وسألوه المزيد منها ، وأكثروا من الشكر لله .

وكان من عادة عمري إذا زوج ولدا أو بنتا يخصه يتصدق بآلاف الدنانير بهذه المناسبة على الضعفاء والأيتام والمحتاجين ، فيحب أن يدخل عليهم البهجة والفرح ليفرحوا كما هم يفرحون .. وليس سرا أن نقول إنه لم يقصر يوما في مد يد العون لكل شاب يتصل به محتاجا للنكاح ، فيمده بالمال أو الأثاث،ولا يحب أن يطلع أحد على ذلك العون ، فكان ماله وأرباحه يحب أن يشاركه فيها ضعفة المسلمين عن طيب نفس، فهو قد ورث عن أمه وأبيه كثيرا من الملايين ، ولم يبخل يوما بإخراج الزكاة في وقتها كما هو معلوم ، فصاحبنا عمري لا ينسى حق الله ولا حق العباد المستخلف فيه { آمِنُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } .. و يذكر آية القصص { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهَّ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } .. فكان له أسوة بعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبي الدرداء رضي الله عنهم ، ولما تم الفرح واطمأنت أنعام على ابنتها الوسطى ، أخذوا يترقبون موافقة السلطات السويسرية لدخلوهم أراضيها للسياحة والعلاج ، وكانت أحلام وبعلها محمد قد وافقوا على هذه الرحلة التي أبى الدكتور فائز إلا أن يساهم فيها بنفقات العروسين، فبعد رفض رضخ عمري ووافق ، وأحب فائز وزوجته أن يسافروا معهم للعمرة ويرافقوهم لمشاهدة جبال الألب وأوروبا البيضاء .

وبينما هم ينتظرون ـ وقد وافقت نوال على هذه الرحلة العلاجية بعد تمنع شديد من الذهاب

للعلاج في أوروبا بعد أن قبل ابن شقيقها صابر علي على الرحلة معها بناء على طلب من أبيه وقريبه عمري ـ أتت مكالمة لعمري من العاصمة فيها خبر صغير ، وهو أن ابن ماهر خلس السجين قد خرج من السجن ، وتطلب منه الشرطة الحذر من هذا الولد ، رغم العفو الذي قدمه عمري فقد كان الشاب داخل السجن يتهدد ويتوعد وتأخذ الشرطة حمقه بجد .. بل شرطة الريحانة اتصلت بالسيد عمري من أجل هذه القصة ، وكان عمري منذ تقاعد من أعمال الشركات قد صرف السائق الخاص والحارس الخاص ، فما كان رده على ذلك التحذير إلا أن قال : " توكلنا على الله سبحانه .. لا مهرب للإنسان من قدره "

بل قدم لزيارته في الريحانة المختار ووفد من رجال القرية يحذرونه من طيش ابنهم وجنونه ، فقال لهم عمري شاكرا حبهم : " يفعل الله ما يشاء .. ولا يصيب الإنسان إلا ما قدر له .. وإذا عدد سنين سجن لم تفعل به شيئا ماذا أفعل له أنا ؟! .. حسبنا الله ونعم الوكيل .. أنا على وجه سفر لأوروبا وإلا ذهبت معكم والتقيت بهذا الشاب وحاولت تعقيله "

فقال المختار : " هدده أخوه وأخته وجده وحتى اخوته من أمه وأنا ، ولكنه راكب رأسه كما يقولون .. يتهدد ويتوعد .. ونحن يا سيد عمري نتمنى لك العافية والحفظ ، وأحببنا أن تتأكد من صدق حبنا لك ، والحمد لله أياديك البيضاء وإحسانك السخي يملأ البلدة .. فالمزارع تشتغل وتنتج، والمعصرة على خير ما يرام ومزارع العجول .. كله تمام وأفكارك كبيرة ونيرة .. نسأل الله تعالى أن يحميك .. هذا ولد أحمق نخشى أن يفسد علينا صحبتكم "

قال عمري : " الحماية والحفظ من الله سبحانه .. فالمال مال الله يا أبا عمر.. والخير من فضل الله وأي شيء تحتاجونه فولدي أسامة هو أنا .."

ـ " هو ابن أبيه ، شاب فاضل .. ما أرسلنا إليه شابا من البلدة إلا يسر له عملا كما يجب .. حقيقة جهودك خيرة ومباركة بفضل الله .. هكذا يجب أن يكون أصحاب الأموال .. في مالهم نصيب للخير .. ليس الربح والزيادة فقط .. زيادة الأرصدة في أوروبا وأمريكا "

ـ" أصلح الله الجميع "

وتناول الوفد الطعام على مائدة الشيخ عمري ناصح محمود ، ولما أرادوا الانصراف عرض

عليهم المبيت ، ولما اعتذروا عن ذلك أوصاهم برامي خيرا ، فهو أخو البنات ، وطلب منهم أن يحثوه على التوبة والتردد على المسجد ، ويتعاونوا مع الشيخ في إصلاحه ، وإذا كان بحاجة لزوجة وبيت ومال فمروا على أسامة ، وسيحقق له ذلك وأعطاهم شيكا بخمسمائة دينار لرامي ، ففرحوا بكلام عمري ، وأخذوا هداياهم كما عودهم ، وقفلوا لديارهم شاكرين يدعون له بظهر الغيب أن يزيده الله من نعيمه .

ولما أتت موافقة المستشفى السويسري النهائية وتأشيرات السفر سافرت أنعام مع زوج ابنتها أحلام محمد وأختها نوال وابنتها أحلام وعلي ابن صابر ، فأمضوا يوما في العاصمة ، ثم ركبوا الطائرة إلى أوروبا ، وكانت عائشة قد رتبت أمر الفنادق التي سينزلون فيها ، ولما وصلوا للمطار في بال كان في استقبالهم مندوب المستشفى ، وبعد التعارف ساقهم لأحد الفنادق للاستراحة ، ووعدهم بالعودة لنقل المريضة إلى المستشفى الخاص .

وبعد أسابيع من سفر القوم للعلاج أخذ عمري زوجته زينب وابنة أنعام سهام وصهره الدكتور فائز وأخته بدرية وعشرة أفراد من قرية ماهر خلس ، من بينهم زوجة ماهر وزوجها وابنها فائق ووالده ومختار القرية وآخرين في رحلة العمرة هذه على نفقته الخاصة ، وسافروا للحجاز بالطائرة فنزلوا جدة أولا ، ثم هبطوا مكة لأداء مناسك العمرة ، ثم زاروا مدينة الرسول ﷺ المدينة الشريفة .

وكانت سهام ـ التي وافقت لأول مرة على الذهاب معهم لأداء العمرة والتعرف على هذه العبادة ـ تحلق بالخيال البعيد أثناء وجودها بمكة .. فلما لامست حرارة مكة وشمسها ، تذكرت دعوة النبي (ﷺ) وسيره ومشيه على هذا التراب المبارك في عز الحر يدعو قومه إلى لا إله إلا الله وأنه رسول الله .. تذكرت ما قرأته عن بلال العبد الحبشي مبطوحا على رمضاء مكة وعليه الصخرة وجلادوه يضربونه بالسياط ليكفر برب محمد ، ويعود لعبادة الأوثان والأصنام التي كانت حول الكعبة .. كانت قرأت أن حولها ـ الكعبة ـ أكثر من ثلاثمائة صنم كيف ذلك ؟ كيف كان هؤلاء العقلاء يعبدون الأحجار ؟! تخيلت المكان الذي قتلت فيه سمية بنت خياط أم عمار وزوجة ياسر .. تذكرت صراع الصحابة الكرام ـ الذين آمنوا بربهم وبهذا الدين الجديد الذين تركوا دين الآباء ـ مع صناديد الشرك والكفر بمكة .. وكيف تحملوا الأذى والعذاب الشديد للثبات على دين الإسلام .. رأت أبا جهل سيد قريش وصنديدها يعذب هؤلاء وهؤلاء على رمال وبطحاء مكة .. رأت الأمهات تحبس الأبناء لتفتنهم عن دينهم الجديد .. رأت أم أنمار تعذب خبابا وتطفئ الحديد المحمى في ظهره وبدنه رأت الرسول (ﷺ) يدب على أرض مكة المباركة يطوف حول الكعبة ويصلي .. يدافع عن الدين ، ويحرر الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، صور كثيرة من السيرة التي قرأتها مرات قبل سفرها تتخيلها .. تخيلت الشاب الجميل فتى مكة مصعب بن عمير الذي كانت تقف حسناوات قريش لمشاهدته عندما يخرج لشوارع مكة .. ويستنشقن أريج طيبه .. الشاب الزاهد السفير الأول لأهل المدينة .. جاهدت أن تعيش روحانيات جميلة وبراقة ..

أحبت الفتاة مكة رغم حرها وصيفها .. ورأت أن الحياة زائفة وخداع وكذب .. أربع سنوات وهو يطمعها بالزواج وهي مصدقة .. يتسلى بها وبعواطفها .. يلعب عليها وعلى فايزة وربما أخريات .. ثم اختار فايزة الجارة ونسيها .. لقد صدق عمري عندما حدثها أن الأيام ستنسيه ذلك .. وأن حب المدرسة أو الجامعة حب أطفال وصور عابرة .. طردت هذا الخيال ، وعادت تحلق في سماء مكة في الجاهلية وأول الدعوة ، حيث بدأت دعوة النبي (ﷺ) على جبل الصفا .. وصلت لجبل النور حيث غار حراء .. غار الوحي والرسالة .. صعود متعب إلى ذلك الغار .. ولكنه بعيد عن أهل مكة وتجارتهم وقوافلهم .. ثم رأت بعين الخيال عمر بن الخطاب يريد قتل النبي (ﷺ) ثم يسلم ثم يصبح خليفة للمسلمين .. أبو بكر صاحب رسول الله وصاحب الغار .. حاولت تذكر كل الصحابة الأوائل .. عبد الله بن مسعود يجهر بالقران أمام الملأ من قريش .. أبو ذر الغفاري يجهر بالإسلام .. حمزة بن عبد المطلب يشج أبا جهل لاعتدائه على ابن أخيه محمد (ﷺ) .. مشاهد مثيرة ترسمها بعين الخيال .. هذه هي مكة وجبالها مهبط الوحي التي يحبها الله .. وفي هذا المكان عاش إبراهيم وإسماعيل وأمنا هاجر .. إبراهيم ترك فلسطين الجميلة الأرض الخضراء أرض بيت المقدس أرض الأنبياء ليسكن ولده في هذه الجبال القاحلة .. مشاهد عظيمة .. إسماعيل الصغير عطشان هاجر تركض بين جبل الصفا وجبل المروة .. يا إلهي إن هذا لشيء عجاب ! .. صغير يريد الماء .. لا ماء .. لا ناس .. ولكن تخرج زمزم بمشيئة الله .. زمزم الباقية آلاف السنين .. ما زالت ليومنا هذا لا تنضب ويزيد الشاربون منها .. إنها آية .. آية من آيات الله سبحانه .. يا عماه .. إنك تعيش في هذه السعادة الكبيرة .. آه يا دنيا كم أنت فاتنة؟! .. الناس تحج إلى أوروبا وأمريكا والثلج والمطر .. وهنا تهوي أفئدة الصالحين والمسلمين من جهات الأرض الأربعة .. إليها يتوجهون بصلاتهم .. مكة أو الكعبة المعظمة بأمر الله .. الحجر الأسود .. من زمن إبراهيم وهو قرين زمزم .. " إلهي تب عليّ واجعلني من القانتات الصالحات .. إلهي اصلح لي دنياي وآخرتي .. إلهي لا تتركني لهواي ونفسي .. أحبك يا الله يا خالق الكون والأسرار .. ارحم يا الله أمتك سهام التائهة الحائرة "

ذرفت دموع التوبة والندم عند الكعبة عند البيت العتيق .

ولما نزلوا المدينة لزيارة مسجدها.. رأت المسجد النبوي .. حيث كان المسجد القديم .. حيث الروضة الشريفة حيث كان أيام النبي ﷺ والصحابة الطاهرين .. هنا كان العلم والجهاد والحب ..محمد مشى على هذه الأرض .. الصحابة دبت أقدامهم على هذه الأرض ..هنا صلوا هنا عاشوا هنا ماتوا .. الله أكبر الله أكبر .. هذا بقيع الغرقد حيث دفن عدد كبير من الصحب الطيبين .. سلام عليكم يا أسيادنا سلام عليكم يا من علمتمونا الإخاء والحب .. أنتم الأسوة الحسنة لمن بعدكم .. أنتم نجوم الهدى .. أنتم الذين بايعتم محمدا ، وحفظتم لنا الإسلام والقرآن والسنة والسيرة .. وتلك قباء التي كانت أول مكان وطئه محمد عند دخوله المدينة حيث استقبله الأنصار ـ رحمهم الله ، وغفر الله لهم ـ .. طيبة الطيبة .. هنا كان يجلس أمير المؤمنين عمر يستقبل بشائر الفتح من الشرق والغرب .. هنا كان يتربع الرجل الزاهد الفاتح العظيم .. رحمهم الله كانوا خير سلف لنا .. اللهم احشرنا معهم ..آمين .

لقد كانت سهام سعيدة برحلتها الأولى للحجاز ، لقد صممت أن تبدأ حياة جديدة .. حياة كلها طاعة لله .. فلماذا تشذ عما هيئه الله لها من أهل طيبين أخلاقهم إسلامية .. أحكام الشرع مقدمة على كل شيء .. لماذا تترك هذا الخير لتعود للجهل والهوى .. فهذه هي النعمة الحقيقية العظيمة ؟ !

فالإنسان عندما تتهيأ له فئة صالحة بيئة طيبة ، فهذا من نعم الله تعالى ، فعليه أن يشكره على هذه النعمة الكبرى .. حمدت الله سبحانه على عدم ارتباطها بفواز .. كان يريد أن يعيدها لحظيرة الجاهلية والتشبه بالكفار والفجار .. فسألت الله وهي تصلي في مسجد رسول الله (ﷺ) أن يهبها زوجا صالحا تقر به عينها .. يعينها على اجتياز هذه الدنيا بسلام إلى الدار الباقية ولا يفتنها عن طاعة ربها سبحانه .

لذلك لما عادوا لجدة كانت سهام قد صممت على تغيير نفسها وعاهدت الله على التوبة النصوح ، وسافر ضيوف السيد عمري إلى وطنهم ، واستعدوا هم للسفر لسويسرا قال عمري لرفيقتهم في العمرة الآنسة سهام : " كيف كانت الرحلة يا أميرة ؟ "

فأخذت يده وقبلتها وقد تساقطت بعض الدموع وقالت : " يا عمي .. أنا أسعد مخلوقة في العالم اليوم .. لقد عشت في عالم آخر خلال هذه الأيام .. نسيت الماضي كل الماضي .. نسيت أيام الكلية .. أنا ولدت حديثا .. أنا كنت بحاجة لهذه الرحلة .. السعيدة .. عندما ترى هذا المكان العظيم .. تتذكر الرسول والصحابة وإبراهيم وإسماعيل وهاجر .. وترى هذه الوجوه القادمة من بقاع العالم .. والألسن المختلفة .. يطوفون عن طيب خاطر .. يسعون عن طيب خاطر .. رجال نساء .. أطفال شيوخ .. شيء عظيم .. كل هؤلاء يحبون الله .. "

وأخذت تتحد عن إعجابها بمكة والمدينة والطواف والسعي ومسجد الرسول محمد ﷺ بقلب منشرح فرح ، فقال عمري وقد انبهر فعلا من تأثير العمرة والأماكن المقدسة على مشاعر سهام : " لو كنت أعلم أن هذه الرؤية والزيارة ستفعل بك ما نسمع في هذه اللحظات العظيمة لفعلنا ذلك منذ سنوات .. ولكنها مشيئة الله سبحانه .. أنا فرح بما أسمع يا ابنتي العزيزة .. بعدما تعودين من رحلة سويسرا .. سأذهب بنفسي لفواز هذا وأجبره على الزواج منك "

جفلت سهام لذكره وقالت : " لا يا عمي .. مات فواز في قلبي قبل صعودي الطائرة .. هذا أول مخلوق نسيته .. كما أحببته يوما ما وتمنيت الاقتران به فأنا اليوم أبغضه "

ـ " المؤمن لا يبغض ولا يحب إلا بالله .. دعيه للخالق .. لا يجب أن ينشغل قلبك بحب زائل هل حدث منه شيء نحوك لتبغضيه ؟ "

فقالت : " علمت أنه قد خطب "

ـ" خطب ! .. هل هذا ما قالته لك تلك الفتاة قبل زواج أختك بأيام ؟

ـ " نعم يا عمي .. في تلك الليلة عرفت بخطبة فواز .. وكانت تلك الفتاة زميلتي في الكلية وصديقتنا .. فاعترفت لي بكل شيء ، فقد كانت على علاقة عاطفية بفواز ، وأنه كان يمثل عليّ دور العاشق الولهان فارس الأحلام ، وكان يسخر من عواطفي بمساعدة أخته منال .. ولما انتهت الدراسة خطبها فهذا ما أبكاني تلك الليلة .. أرأيت خداع البشر ؟ "

ـ " الحمد لله على كل حال .. أنت تستحقين زوجا خيرا من فواز .. ولكن هل تأكدت من

صدق معلوماتها ؟ "

ـ " بالتأكيد هي صادقة لقرائن كثيرة كنت أراها أيام الكلية ؛ ولكن لم أرها بعين السخط فأتجاهلها ، وثانيا تهربه من الكلام معي منذ تخرجنا ودهلزات أخته ، وثالثا ليس بيني وبينها شيء لتكذب عليّ .. وإنما كان قصدها إراحة نفسي من الوهم ، وقد تقابلنا من غير ميعاد .. والحمد لله على هذه الزيارة لمكة والمدينة ، فقد أعادت اليّ الاتزان لنفسي وروحي "

ـ " هنيئا لك هذه العودة الطيبة .. وأنت تعلمين مقدار حبي لك ، وإذا

قبلت أن تتزوجي على طريقتي يا سهام ستجدين ما يسرك .. الحب ليس بالضرورة أن يسبق الزواج ، فكل الناس أو أغلبهم يتزوجون بدون سابق معرفة وحب ، ويأتي الحب والشوق فيما بعد .. القليل من الناس من يتزوج عن حب وعشق كالذي تشاهدونه في الأفلام والقصص والتلفاز .. وأكثره بعيد عن واقع الناس .. وما هو إلا لإتمام الحبكة والدراما .. أنا لا أنكر أنه قد يحدث مثل ذلك ؛ ولكنه القليل ولا يقاس عليه .. قد يرى إنسان فتاة في شارع أو حديقة أو حفلة .. ويحبها ويتـقدم لأهلها وينتهي الموضوع إذا قبلوه زوجا .. وإذا لم يقبلوه يبحث عن غيرها .. فالحب عاطفة سامية تكون بين الناس ، وبينهم وبين الله سبحانه " يحبهم ويحبونه "

فقالت سهام بشجاعة : " أنا موافقة على الاقتران بمن تختاره لي وعلى طريقتك يا عمي .. أمي تنظر مني هذه الكلمة "

ـ " كلنا ننتظر يا أميرة هذه الموافقة .. يقال خير البر عاجله .. عندما نستقر في الفندق في بال سويسرا ، سأرتب لك من هناك من ستدعين لعمك طول عمرك باختياره لك .. وأمك تحب لك الخير والسعادة، وإن بدا منها الجفاء في بعض الساعات .. الزواج سنة الحياة ، وهو حاجة ضرورية للإنسان العاقل سواء الرجل أو المرأة ، وإن ينصرف بعض الناس عن الزواج ، فهذا لظروف فردية خاصة بهم ، وهو في الإسلام ستر وعفة وطهارة وقناعة وذرية إذا شاء الله .. واختيار الزوج الصالح مهم ، كما هو اختيار الزوجة الصالحة مهم .. وكل أم تحب أن ترى ابنتها في بيت زوج حتى تطمئن عليها ، لئن الموت ذاهب بالجميع الكبير والصغير .. رضي الله عنك يا فتاتي "

وصلوا سويسرا ، وكان محمد في انتظارهم بمطار العاصمة وركبوا معه السيارة حتى الفندق فرحبت بهم أنعام وأحلام وعلي صابر ، وحمدت الله على وصولهم سالمين ، وبعدما سمعوا منهم أخبار نوال الطبية سرهم ذلك ، انصرف محمد واحلام مع الدكتور فائز وقرينته بدرية بعد سماعهم اخبار نوال ، واستاذن الشاب علي بالخروج في مشوار خاص ، ولما بقي عمري وزوجتاه وسهام ، بشر عمري أنعام بآخر أخبار سهام ، فلما سمعت منه تلك البشرى قامت وعانقت ابنتها البكر مرة أخرى ، وغمرها الفرح وطفرت الدموع من عينيها وهي تقول: " الحمد لله رب العالمين ، لي سنوات انتظر هذه الكلمة منها .. لو كنت أعلم أن العمرة ستفعل بك ذلك لأعمرناك منذ زمن "

فقالت زينب وهي تشاركهم فرحهم بسماع آخر أخبار سهام : " كل شيء بقدر يا أنعام .. هنيئا لك يا سهام التوبة الصادقة الآن أنت ابنتنا حقيقة "

فقالت سهام باسمة : " وهل لم أكن ابنتكم قبل ذلك ؟ "

ابتسمت زينب وقالت : " ليس ذاك أقصد .. أنت ابنتا الآن وقبل.. ألم تسمعي قول الله لنبيه نوح " إنه ليس من أهلك " .. لأننا كنا خائفين عليك من الضياع والعودة لحياة السفور والتبرج هذا قصدي يا حبيبتي ، واحتضنتها وقالت : " ألم تعلمي كم أحبك ؟ "

ـ " أعلم يا أمي حبك الكبير لي ولأختاي ولأمي ولكل البيت .. وأنا أفهم قصد كلامك وفرحتك لي ومشاعرك الكبيرة نحونا "

ـ " أحسنت يا ابنتي العزيزة .. صدقي أنني منذ عرفتكم أحببتكم كأبنائي ، ولم أفرق بينكم في معاملة أو قول .. وأكيد وعدك عمك عمري بعريس جميل مثلك رقيق المشاعر والأحاسيس "

وكان محمد رجع اليهم لحاجة يسأل عنها ، فسمع كلام امرأة خاله الاخير ، وأحس بمشاعر الفرح التي عمت القوم فعلق باسما وهو يحدق النظر في سهام شقيقة زوجته ثم يحوله لخاله قائلا : " آ.. يا خالي من هو الفارس الجميل الذي سيصيد هذه الحمامة أو الغزالة ؟ "

تبسم القوم لمداعبة محمد وقال عمري : " سأستعرض أبناء العائلة، وأحباب العائلة المقربين

و ستـفرحون جميعكم لسهام إن شاء الله تعالى "

*****

خضعت السيدة نوال للعلاج البدني والنفسي في المستشفى ، ثم نـقلت لمصح لقضاء فترة النقاهة ، وقضى الدكتور فائز شهرا بصحبتهم ، ثم عاد لأرض الوطن ومعه بدرية قرينته ، ولما مضت الشهور الثلاثة استأذن عمري وزينب بالعودة وخيرت سهام فاختارت السفر معهم ، وكان الأطباء يعتقدون أن ثلاثة أشهر كافية للعلاج ، فمددوها ثلاثة أشهر أخرى ، فوافق محمد وأحلام وأنعام وعلي على البقاء حتى تنتهي فترة العلاج ، وإن نصحهم الأطباء بالسفر فربما يطول الوقت ، فاستجابة المريضة للأدوية ضعيفة ، بل وجدوا ضعفا شديدا في الذاكرة ، فشجعهم عمري على البقاء ثلاثة شهور أخرى ، وإذا لم تتحسن شيئا ـ فلا حول ولا قوة إلا بالله ـ ستنقل بطائرة طبية إلى الوطن ، ويتابع علاجها فريق من أطباء البلاد ، وكان الألم يعصر قلب عمري على ابنة عمه .

ولما وصل عمري البلاد وجد أن زوجة عمه ناجح قد رحلت منذ شهر ، ولم يرغب الأهل بإخبارهم ريثما يعودون حتى لا يؤثروا عليهم ، و يضطروهم للعودة خصوصا أنعام ، فشكرهم عمري على هذا التـفكير والتصرف وقال : " خطوة جيدة .. رحم الله أمنا عزيزة " ثم زار قبرها ودعا لها الله سبحانه أن يتغمدها بالعفو والصفح والرحمة ، وتصدق عنها ثم عاد للريحانة وبصحبته زينب وسهام ، وبعد أن قضوا في الفيلا عدة أيام يستريحون من آثار السفر انشغل عمري بالعريس الذي وفق لاختياره لسهام ، ولقد كان السيد عمري قد رتب الأمر مع صديقه حسن أخو زوجته زينب والذي يعرفه القراء في أوائل القصة ، فقد كان لأخي زينب الصغير أحمد ولد متدين ، وقد تخرج من كلية الطب ، ويعمل في مستشفى الدكتور فائز في الريحانة ، فلما تحدث عمري مع حسن في أمر زواج سهام بنت أنعام رشحه حسن ، فتحدث حسن مع أخيه أحمد الأصغر في الموضوع ، فأبدى الوالد أحمد ترحيبه وموافقته على الفور ومن غير تردد ، ثم زار الريحانة وتحدث مع ولده الدكتور هشام ابنه ورد خبرا بالموافقة لأخيه حسن ، فلذلك لما وصل عمري المدينة واستراح بضعة أيام ، قام بزيارة خاصة لهشام في

□□□

المستشفى ، وخلا به بعض الوقت ، ولما تأكد أنه لم يتعرض لضغط من أبيه وعمه حسن دعاه لزيارة عمته زينب ولرؤية الفتاة بدون مـقدمات ؛ كأن اللقاء حصل عرضا ؛ فإن استحسنها جرى ما بعد الرؤية من خطبة وقران .

وذات ليلة حضر الدكتور هشام زائرا لعمته من غير ميعاد معها ، وهشام كان من الشباب الذين يرون أن السيد عمريا نموذج للرجل الغني المسلم الحي الذي يجعل المال في خدمة الأمة والناس .. فكان ينظر إليه أنه رجل موفق مبارك ، فالزواج عن طريقه ويده يراه من سعادة المرء وبركته ، وهو زوج عمته زينب السيدة الطيبة ذات الحـنان والقناعة والزهد رغم ما لديها من أموال وأرقام من مال زوجها .. زينب لم تعلم القصد الخفي من زيارة هشام ، فكانت تظنها بمناسبة عودتها من العمرة ومن أوروبا فأولاد اخوتها يودونها باستمرار ، ويظهرون لها إمارات التقدير والحب .. فسلم هشام وقبل يدها ويد السيد عمري زوجها فقد اعتاد على ذلك منذ الصغر ، ولا يرى في ذلك غضاضة رغم أنه طبيب ماهر ، وكانوا يجلسون في الحديقة كعادة عمري ، ولما شربوا القهوة أرسل عمري وراء سهام فأتت ملبية لنداء عمها عمري ، فلما رأت الضيف كادت ترجع ، فنادها عمري فقال لها : " تعالي يا سهام .. هذا ابن أخ زينب الدكتور هشام "

سهام تعرف هشاما ، فهي تسمع باسمه يتردد داخل البيت ، وهو يتردد على البيت لزيارة عمته والسمر مع عمها عمري ، أما الجلوس معه فهذا لم يحدث ، لذلك ارتبكت واستغربت من تصرف عمها لأنه لا يحب الاختلاط ، ولكنها اقتربت وهي مترددة وألقت التحية فقال لها عمري مرة أخرى : " الدكتور هشام مهتم بمرض خالتك نوال .. وكلفته بالاتصال بعدد من الأطباء الماهرين في جراحة الدماغ وعيوبه .. فغدا اتصلي بأمك واسأليها عن آخر أخبار خالتك .. اجلسي "

فجلست باستحياء وقالت : " أهلا بالدكتور هشام "

ـ " أهلا آنسة سهام .. الحمد لله على سلامتك .. عمرة مقبولة إن شاء الله .. كيف حال خالتك ؟"

ـ " بخير .. كان الله في عونها .. كيف أنت وكيف الأم والوالد ؟ "

فقال هشام بجرأة : " الحمد لله كلهم بخير .. يا عمتي العزيزة .. أمتزوجة هذه الحسناء ؟ "

احمر وجه الفتاة لجرأة الشاب أمام زوج عمته ، ولم تستطع رفع بصرها عن الارض حياء ، فقال عمري بفرح : " أموافق يا هشام ؟! "

فقال هشام بفرح وبابتسامة : " يا أبا محمود .. هل يرفض أحد اختيارك المبارك ؟ .. أرجو أن تقبل بي هي "

نظرت زينب لعمري وقالت : " هل هناك مؤامرة ؟؟ "

فقال هشام : " أبدا يا عمتي ..أتاني أبي الفاضل خصيصا من العاصمة ؛ ليقول لي أن زوج عمتك وجد لك عروسا جميلة .. فكما وافق أبي قبل أن يأخذ رأيي ، أنا أيضا وافقت على الفور ومن غير تردد .. فالأستاذ عمري رجل مبارك وأنا أحبه وأقدره ؛ ولكنه أصر على النظرة فقال زرنا وانظر الفتاة نظرة الخطيب ، فأتيت وكلي شوق وهوى بابنة عمتي أنعام .. لم نسمع قول العروس يا عمتي تدخلي ؟ "

نظرت سهام لعمها عمري بامتنان وتقدير وقالت بشجاعة وقد خف ارتباكها وأدركت المقصود من هذه الزيارة : " فكما وافقت أنت على اختيار عمي عمري بسرعة فأنا راضية وموافقة على اختياره .. عمي سريع في عمل الخير "

فنهضت زينب فرحة واحتضنت سهام وقبلتها عدة مرات وهي مسرورة وهي تقول : " ألف مبروك وألف بركة .. جزاك الله خيرا يا أبا محمود .. مبارك يا ابن أخي "

وقبلت ابن أخيها الشاب المرح ، وبارك لهم عمري ، وشكراه وقال عمري فرحا : " على بركة الله سبحانه .. أم تحبون التفكير قبل الاندفاع وراء العواطف والمشاعر ؟ "

فقال هشام : " أنا راض بكل مشاعري وعقلي وأفكاري "

وقالت سهام فرحة : " وأنا دعوت الله ونحن بالمدينة المنورة أن ييسر لي زوجا صالحا يسعدني وأسعده السعادة الدائمة .. فأنا أيضا موافقة على الدكتور هشام بعقلي ووجداني .. وأشكرك يا عمي الشكر الجزيل "

فقال عمري : " مبارك لكما مرة أخرى ونحن سعداء بما يجري ، والآن قومي اتصلي بأمك واسأليها عن خالتك وأخبريها بهذا الاختيار لتكسبي منها دعوة صالحة "

فحيت الفتاة المنفعلة وانطلقت بفرح وعجلة للاتصال بسويسرا ، وأخذت زينب تشكر زوجها ، وتحدث ابن أخيها عن مشاعر سهام المرهفة وتوصيه بها خيرا فقال هشام : " هي في قلبي وعيناي يا عمتي .. وأرجو من الله أن يوفقني إلى تحقيق السعادة لها والمحافظة على مشاعرها الرقيقة "

فقال عمري : " ستتم الخطبة قريبا وقبل عودة أمها ؛ لأن أمها قد تمكث ثلاثة أشهر مع أختها وهناك مشوار إلى قرية أهلها لإخبار أخيها الأكبر وجدها من أبيها .. قد تضطر للنزول إلى العاصمة لتحقيق ذلك يا دكتور هشام "

ـ " لا بأس يا سيدي .. أنا جاهز "

فجاءت سهام بعد قليل تقول : " السلام عليكم .. أمي على الهاتف يا دكتور هشام تريد أن تبارك لك "

فقال عمري : اذهب يا هشام ! فحماتك تريد أن تظهر لك مشاعر الحب والفرح "

فقال هشام : " عمتي أنعام على سلامتها .. هي سيدة محترمة وفاضلة وملكة لفؤادي "

سارت زينب خلفهم وتحدثت زينب مع أنعام التي شكرتها على مباركتها لهذا الزواج ، فتمنت أنعام لو أنها معهم في هذه اللحظة لتشاركهم فرحهم ، وتحدث هشام مع أنعام التي دعت له وباركت له ، وأظهرت له حبها وامتنانها وسعادتها بزواجه من ابنتها البكر ، فأثنى عليها وأخبرها بأمر الخطبة وكتابة الكتاب قريبا ، وسألها مباركتها ففعلت، وطلبت منه سهام التي كان البشر والفرح ظاهرين على محياها الباسم ، وتناولت السماعة من هشام بلطف ، واستمعت لنصائح أمها ودعواتها لهما بالتوفيق والهناءة الزوجية ، ثم وضعت السماعة وقالت وهي تنظر في عيني هشاما : " قبل أن نتزوج أمي توصيني عليك ، أرأيت كيف الحموات يا دكتور هشام ؟ "

ـ "الله يحفظ لي حماتي وعمتي زينب ، وإن شاء تعود أمك بالسلامة وحفظ الله تعالى .. عمي

ظل وحده في الحديقة .. هيا بنا إليه نشرب الشاي معه من أيدي ساحرة القلب والفؤاد .. ما رأيك يا عمتي ؟ "

فقالت سهام : " فورا أيها العزيز "

سارت سهام نحو المطبخ ، وهي تكاد تطير من الفرح ، وخرج هشام وعمته نحو الحديقة وهما فرحان بما تم هذه الليلة من الخير ، ولما وصلا إلى الحديقة وجدا السيد عمري مغمض العينين ، ويجلس أمامه شاب منكوش الشعر نحيف البنية بين يديه مسدس .. فنظرا إليه باستغراب وقال هشام : " من أنت ؟ ! "

فقال الشاب بهدوء : " اسمي رامي ماهر خلس "

فقالت زينب بصوت هلع : " هل قتلته ؟! "

فقال بصوت هادئ : " لم تستطع يداي فعل ذلك .. إنه رجل صالح .. استيقظ يا عماه "

فتح عمري عينيه ، لقد غفي عند ذهابهم للحديث مع انعام ، وقال : "عدتم .. من هذا الشاب ؟ ! "

ردت زينب : " هذا أخو خطيبتك يا هشام "

" ماذا قلت يا عمتي ؟ ! "

" تمت الرواية بفضل الله تعالى "

صدر عن دار المأمون

- ربنا وتقبل دعاء
  - خولة بشير عابدين
  - ١٤٢٦/ ٢٠٠٥
- الموت وأحكامه/ أحكام الجنائز والعدة
  - خولة بشير عابدين
  - ١٤٢٦/ ٢٠٠٥
- تفسير سورة الكهف
  - خولة بشير عابدين
  - ١٤٢٦/ ٢٠٠٥
- تفسير سورة الفاتحة
  - خولة بشير عابدين
  - ١٤٢٦/ ٢٠٠٥
- معجم ابن بطوطة في رحلته
  - د. مأمون فريز جرار
  - ١٤٢٦/ ٢٠٠٥
- حوار الإسلام والغرب
  - د. عبد الله أبو عزة
  - ١٤٢٧/ ٢٠٠٦
- السياسة الاقتصادية للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز
  - بشير كمال عابدين
  - ١٤٢٧/ ٢٠٠٦
- محجّبات ولكن !

□□□

- د. مأمون فريز جرار
- ٢٠٠٦/١٤٢٧

• ذكريات الوطن والغربة
- حسني أدهم جرار
- ٢٠٠٦/١٤٢٧

• السلاسل المضيئة للشفاء
- زهرة مصطفى الزيات
- ٢٠٠٦/١٤٢٧

• أحاديث الفتن والفقه المطلوب
- د. مأمون فريز جرار
- ٢٠٠٦ / ١٤٢٧

• **THE UNSOLD COMMODITY** / ديوان شعر
- أمين محمد حماد
- ٢٠٠٦ / ١٤٢٧



□□□

روايات اجتماعية			
١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام الحداد	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	الحي أبو خروف
-٩ - الشقق السوداء			

شمس عَمري

جمـــال شـــاهـــين

دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

ISBN 9957-462-14-8 (ردمك)

أيام الحداد

حياتي قبل الحياة

شمس عمري

جمال شاهين

الحي أبو خروف

المكتبة الخاصة

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الخاصة

الحي أبو خروف

النشر الاول ٢٠١٣

النشر الثاني ٢٠١٨

النشر الثالث ٢٠٢١



الحي
أبو خروف

جمال شاهين

تحياتي لك أيها القارئ الفاضل

هذه قصة فتاة غرر بها فوقعت في علاقات آثمة

باسم الغرام والحب وبيع الوهم فكانت النهاية

مأساوية وصعبة . . فمن الملام ؟ !

الأب الأم الأخوة الجيران الحي البيئة

هذه أول حكايات حينا حي أبو خروف

جمال

العائلة

١٩٧٠

الأحياء السكانية كالأفراد لها حكايات ، وهي مسرح ومكان أشخاص الحكايات ، وهي قد تكون أصدق الشهود لو لها لسان ناطق ، فهي تشهد الخير والشر ، يقال إن هناك بشرا يفقهون كلام الجمادات كالبيوت والشوارع هل هذا حق ؟!

حكايتنا من حكايات الحي " أبو خروف" ، سنعيش ردحا من الأيام مع أسرة تقطنه وتحيا فيه ، وبالتأكيد وبدون شك سنرى أسرا أخر ، ولكنها ليست محل اهتمامنا إلا بقدر حاجة الرواية هذه لها ! فكل إنسان لديه قصص وحكايات منها ما يذكر ، وأكثرها يدفن مع صاحبه عند موته .

لماذا سمي الحي بحي " أبو خروف" ؟ لا أحد يعلم بذلك على وجه التحديد إنما هي تخريصات وتهويمات وقيل وقال ؛ فإن حيوان الخروف كان يتوفر في أغلب أحياء الناس القديمة ، فهو حيوان مطعوم ، فيربى بين الأسر .. فهناك سبب مجهول لاشتهار هذا الحي بهذا الاسم ، وعادة البلديات عندما تنظم الشوارع والأحياء تحاول إبقاء الاسم الشائع عليها

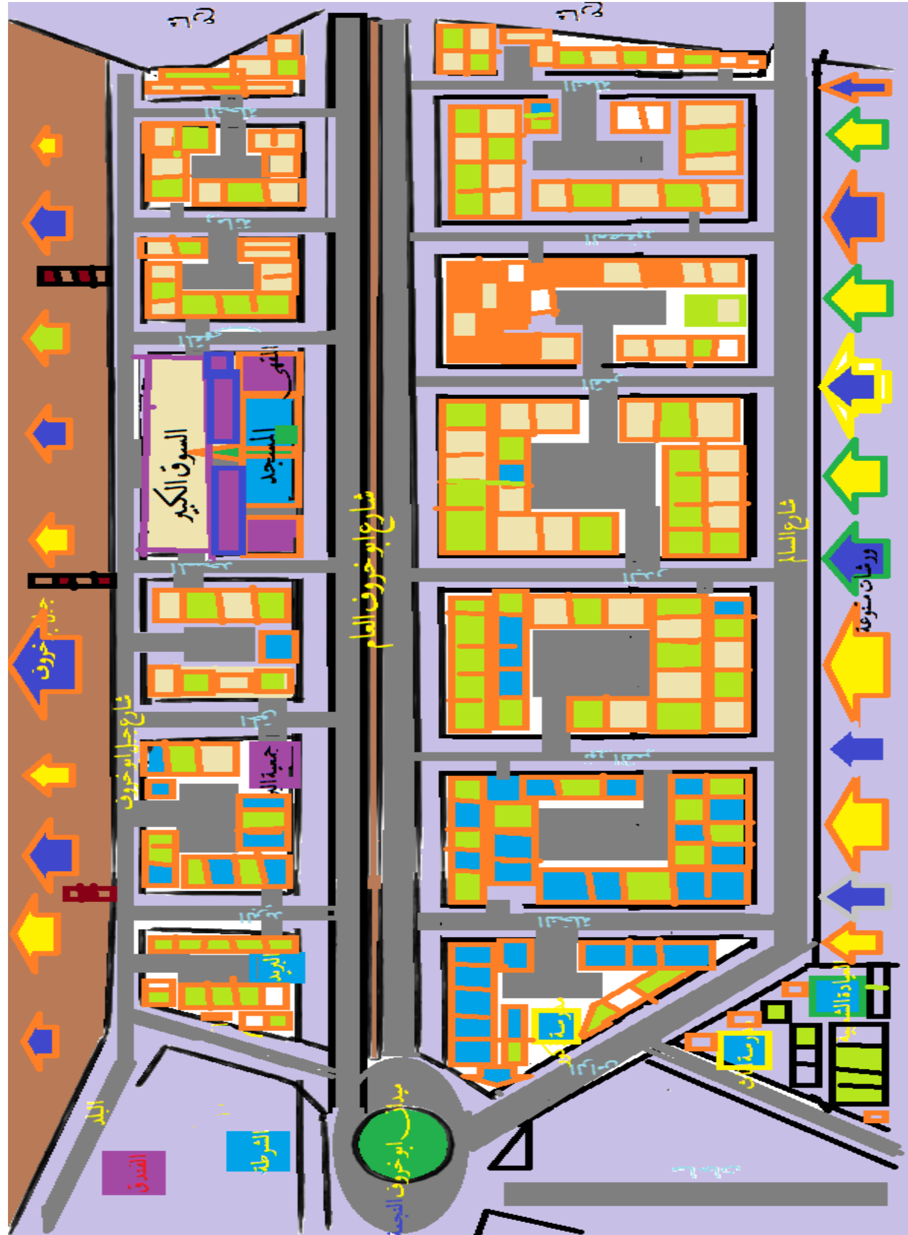
وحي "أبو خروف" من أحياء العاصمة الواسعة ، ويشقه شارع عام إلى قسمين شرقي وغربي بطول كيلو ونصف إلى اثنين كيلو متر ، ويبدأ الشارع والحي بميدان أو دوار ، فهو حي واسع جملة وتفصيلا ، وهو حي قديم بقدم المدينة .

ويفصله شمالا عن حي آخر شارع رئيسي يشكل قوسا للحي من الجهة الشرقية فجزء منه بين شارعين رئيسيين ، والجزء الغربي من الحي خلفه جبل ، ومع الوقت نشأت بنايات على ظهر أو صفحة ذاك الجبل ، يصعد الناس لبيوتهم بسلالم وأدراج إسمنتية ، فكلما كنت أقرب للحي كانت الدرجات لبيتك أقل .

والحي يقسمه شوارع فرعية تجعل القسم الكبير أقساما عدة حسب الشوارع ، وكلها متصلة بالشارع العام ولها أسماء ، والشارع العام من الجهتين كله محلات ومتاجر ومؤسسات ، وفي وقت ما أصبح فوق هذه المحلات مكاتب شركات ومكاتب محاماة وعيادات طبية ؛ وذلك

مع حركة التطوير والتحديث والبيع والشراء للمباني .. وظلت أسر تسكن في العمارات والشقق المبنية فوق المتاجر .

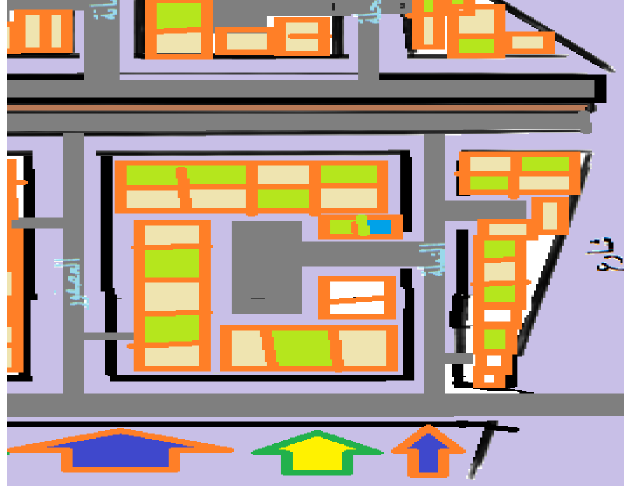
والحي تتوفر فيه الخدمات المدنية كالكهرباء والماء والصرف الصحي ، وذكرت لكم أن الشوارع الفرعية قطعت الحي لأجزاء كبيرة وصغيرة ، وهذا رسم متخيل للحي .



الأحياء لا تخلو من مسجد أو اثنين أو ربما أكثر إذا كانت كثيرة السكان أو كانت مساجدها صغيرة المساحة ، مسجد "أبو خروف" كان مسجدا واحدا يقع على يمين الشارع فهو في القسم الغربي ، وبجواره بل ملاصق له مقهى الحي لصاحبه الحاج مهران شامري ويحمل المقهى اسم مقهى " أبو خروف " ولا يكاد المقهى يخلو من رواده إلا عندما يغلق عند منتصف الليل بأمر من الحاكم الإداري للمنطقة ، ويفتح أبوابه مع آذان الفجر ، المسجد يرتفع فيه الآذان ، والحاج مهران يفتح المقهى قبل مجيء عمال تقديم الطلبات والخدمة للزبائن ، يأتي خدم المقهى لنظافته ، ويبدأون بغلي الماء الخاص بالمشروبات الساخنة ، ولما يعود مالك المقهى من الجامع يكون العمال على وشك إنهاء تنظيف المقهى من الأوساخ وأعقاب السجاير ومناديل الورق والأوساخ الأخرى ، وتنظيف المراحيض ، ويبدأ رواد المقهى الكبار في السن يأتون للسلام على الحاج مهران الذي سبقهم ليتابع العمال في عملهم بعد أداء الصلاة.. وما يكادون يجلسون حتى يكون الشاي الساخن قد جهز وقدم لهم على حساب الحاج ، فهم رفاق الدرب منذ عهد بعيد ، ويبدأون بالثرثرة حول الأسعار صعودا ونزولا ، الجرائم التي حدثت ليلة أمس وسمعوا بها عندما عادوا لبيوتهم ، فالمقهى هو مكان نقل الأخبار والإشاعات والفضائح، وحكايات الناس سواء فضائح أم بطولات .

ففي حي " أبو خروف " كان بيت الطاعة مجاورا لبيت اللهو واللعب والشيطان ، وكان يقابل المسجد والمقهى مطعما شعبيا كبيرا وقديما ، ربما كما يقول أحدهم من العهد التركي ، تتوفر فيه المأكولات والمشروبات ، وكما ذكرنا المحلات منتشرة ومتراصة على جانبي الشارع ، فهناك باعة الخضار والفواكه ، باعة البقالة العامة ، محلات صناعة الحلويات ، مكتبات الطلاب والمدارس ؛ لأنه في أول الشارع الجانب الشرقي تقع مدرسة للإناث الصغار ، وهناك مدرسة خاصة صغيرة ربما لأطفال الروضة والصف الأول والثاني ، ويقع في خلف "أبو خروف" قريبا من الشارع الرئيسي الذي يشكل قوسا لحي "أبو خروف" محلات بيع الملابس والثياب ، وورش تصليح السيارات والحدادة والنجارة والسمكرة ، وتركيب

هوائيات التلفزيونات، وتأجير الدراجات.. وغير ذلك من أصناف المهن والحرف .



وفي الجزء الشرقي يقع بيت السيد كمال البرغم بين شارع النملة وشارع العصفور ، وقال لي بعضهم إن أصلها برغل طعام معروف يؤخذ من الحبوب ، ولكن يلفظها أهل السيد كمال البرغم ، وعلقت بهم مع الوقت والزمن ، فأصبحوا عائلة البرغم ، هذا الشخص أحد شخوص هذه الحكاية التي دارت في حي "أبو خروف" ، كان للرجل بيت صغير في ذلك الحي يتكون من غرفتين وصالة استقبال صغيرة ومطبخ ومرحاض وهو حمام في نفس الحين ، وكان يعلو البيت غرفة شيدها الشباب لما كبروا ولها حمام وهو مرحاض فحسب ، فكمال البرغم اقترب من الستين عند سرد هذه الأحداث في مطلع السبعينيات من القرن الماضي القرن العشرين ، فهو رجل أتعبه الزمن والركض وراء لقمة العيش ، ويمكن أن نقول رغم فقره أنه مستور الحال، ولو تعرض لنكبة من نكبات الدنيا ، ربما كشفت عواره وضعفه ، كان متزوجا من سيدة اسمها فاطمة ، ولدت له صالحا الذي يكنى به ، وجابرا .

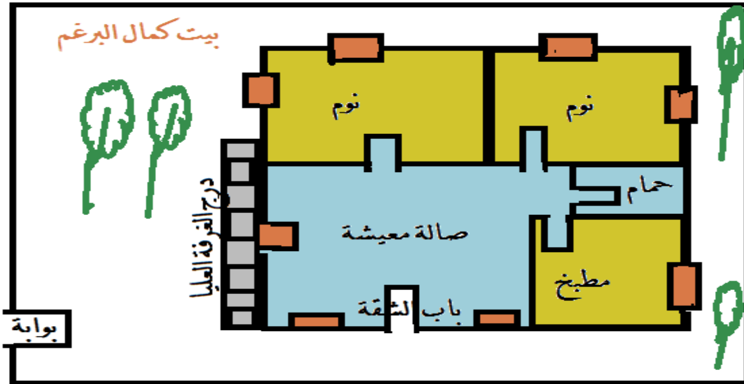
ولما ماتت أم صالح تزوج من أرملة ، ولم يكن لديها ذرية من زوجها الأول ، فولدت ثلاثة أنفار ، كان أولهم فريدا ، وبه تكنى فيقال أم فريد ، واسمها بسيمة عبد القدير ، والثاني ناجح والثالث فتاة اسمها فريدة ، ولما أخذت الحكاية مجراها كانت تدرس في الثانوية العامة سنتها الأخيرة ؛ لتنتقل إلى الجامعة أو معهد دبلوم متوسط .

والرجل يخبر "أنه يسكن هذا الحي منذ وعى على الدنيا ، وقد بلغ من السن ما بلغ في حي "أبو خروف".. فالحي فيه الفقراء ، وفيه الأغنياء ، فيه أصحاب الأملاك والمحلات ، وفيه الذين يسكنون منذ زمن بعيد بالإيجار ، وربما توارث أبناؤهم مساكنهم إيجارا .. أرزاق يا دنيا والسيد برغم احترف الكثير من المهن والأعمال ، ولما بلغ الأربعين اتخذ دكانا صغيرا في الشارع الرئيسي الذي يقسم الحي ، وهي في القسم الغربي من أعلاه يبيع فيها الأطعمة والألبان والأجبان المعلبة ، محل بقالة يسمى اليوم .. ويبيع الجرائد المحلية واليومية وعلب التبغ والخبز وعلب السردين والمخللات وأطعمة الأطفال من الحلوى والبسكويت ، فهو اليوم سمان ، والسجائر يبيعها للمراهقين وطلاب المدارس بالسيجارة والسيجارتين ، كانت متجرا صغيرا ولكنها سترته من العوز ومد يده للناس .. بل استفاد من متجره أكثر من كل المهن والأعمال التي عمل بها طول حياته ، فهي تصرف عليه وعلى أسرته ، وساعدته في تزويج أولاده والخلاص منهم كما يزعم ، مع أنه عندما بدأت القصة لم يكن متزوج من ذريته إلا ولدين .. وله عشرون عاما يعمل بقالا سمانا ، فلما ترمل تزوج أرملة ، فصالح لم يستطع إكمال الدراسة فخرج صبيا من المدرسة ، ومثل غيره من الأطفال تنقل عمله مع أصحاب الحرف والمهن حتى بلغ السن التي تسمح له بقيادة السيارات فتعلمها ثم أصبح يعمل سائقا ، واستقر في النهاية في العمل سائق سيارة أجرة على خط سير من خطوط سير العاصمة ، ثم تزوج الرجل واشترى بيتا كبيت والده في الحي ، يفصله عن بيت أبيه شارع فرعي واحد ، فيخرج صالح في الصباح ويعود بعد صلاة العشاء إلا إذا كانت عليه مناوبة ليلية على الخط ، وهذا قليل لأن العاصمة أو قلب العاصمة يهدأ بعد العاشرة ليلا ، لا يبقى إلا رواد المقاهي والمسارح والسينمات، فأغلب المتاجر والمحال تغلق أبوابها بين العشاء ومنتصف الليل حتى الصباح التالي .

وولد لصالح أطفال ثلاثة لحتى الآن أكبرهم ابن سبع سنوات، وأما شقيقه جابر فهو يصغره بعامين ابن إحدى وثلاثين سنة ، وقد تزوج قبل سنوات ولم تلد امرأته بعد ، وهو الآخر لم

يتقدم في التعليم كشقيقه صالح ، فهو يعمل في قسم الزراعة في البلدية حيث يقوم بسقي الزرع والأشجار التي تزرعها البلدية على الأرصفة والشوارع لتلقي بظلالها على المارة ، وتجمل الشوارع وتنقي البيئة من التلوث ، فخصصت له الدائرة العناية بعدد من الأشجار حتى تشب وتكبر ، فينقل لمكان وشارع آخر ، فهو عامل زراعة وهو أيضا شريك أخيه في البيت الذي اشتراه فالأول له الطابق الأول القديم ، وقام جابر الذي ساهم مع أخيه في شراء البيت ببناء طابق صغير خاص به ، وعمل له مدخلا مستقلا عن مدخل أخيه ، والسيد جابر كان يعود من عمله مبكرا مع صلاة الظهر أو بعدها بقليل ، فلذلك بعدما يعود من شغله ويقترب الوقت من صلاة العصر يذهب للعمل في دكان والده كمال ، فبعدما يتغدى ويشرب الشاي يذهب للشغل مكان أبيه ، الذي يذهب بدوره للمقهى مقهى "أبو خروف" الذي حدثناكم عنه قبل صفحات ، وهناك له شلة أو مجموعة يلعبون الشدة أو الورق أو الكوتشينة كما تسمى في بعض البلاد ، ويبقى حتى تغلق القهوة (كما يسميها العوام) أبوابها ، وهذا كل يوم منذ عهد طويل .

ويطلق بعض الناس على مقهى مهران مقهى (العم عزب) بدل مقهى "أبو خروف" ، فعنوان كمال البرغم بعد العصر مقهى عزب ، فيغرق الرجل في لعب الورق والثرثرة حتى ينتصف الليل ، فيعود للبيت إما فرحا بانتصاره على أصحابه وإما حزينا يتوعدهم إلى اليوم التالي .



فلما يصل منزله يوقظ زوجته أو هي تستيقظ على صوت وحركة دخوله وفتحه الباب الخارجي ، فتقدم له أم فريد طبق طعام ، أحيانا تسخنه له ، وأحيانا كثيرة تقدمه له على حاله بدون تسخين ، فيأكله ، ويدخل في فراشه نائما ؛ لأنه يأكل في غرفة النوم إذا جاز تسميتها بذلك ، وثانيا هو ينام على فرشة على الأرض مباشرة ، ليس لديه سرير أو تخلص منه بعد زواجه بزمن يسير ، هذا نشاط السيد كمال البرغم اليومي .. يستيقظ فجرا يشرب الشاي ، ويأكل بعض الطعام كالفول المعلب أو الحمص ، ثم يمشي لدكانه حتى العصر ، فيستلم جابر العمل ويجريان بعض الحساب بينهم ، ثم ينتقل لمقهى عم عزب كما يحب تسميته ، ثم آخر الليل يعود للنوم ، وهكذا دواليك .

ذكرت لكم أن السيدة أم فريد (بسيمة) ولدت للرجل فريدا وناجحا وفريدة ، فالأول تعلم بعد نجاحه في الثانوية في معهد وزارة الصحة مهنة طبية مساعدة ، فهو يصلح آلات طبية ، وأجهزة طبية ، فهو يعمل في أحد مستشفيات الدولة في قسم صيانة وتصليح تلك الأجهزة ، وقد بلغ من العمر اثنين وعشرين سنة ، ربما تزيد أشهرا ، وهو موفق في شغله وعمله

والذي يليه السيد ناجح ، ترك المدرسة وعمل مع أحد أخواله في البناء والمقاولات ، ويحصل دخلا جيدا ، وأصغر أبناء السيد كمال فتاة اسمها فريدة ، وهي قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها ، وهي قد استقرت في الثانوية العامة للمدرسة ، ونحن اليوم في شهر سبتمبر أيلول من عام ١٩٧٠ م .

وكانت حياة هذه الأسرة كحياة الكثير من الأسر التي تعيش في مثل حي "أبو خروف" ، الأسرة المستورة الأسر التي تحيا على الهامش ، تعمل لتأكل ، حياتهم أكل وشرب ونوم ، والقليل من اللهو بين سينما وأفلام .. قد ينشغل الشباب بتشجيع بعض الأندية الرياضية خاصة أندية كرة القدم ؛ لهوس بعض الناس بذلك التشجيع فحسب .. ومن مهمات بعض الناس نقل الأخبار والإشاعات ، وقصصهم كقصص الكثير من الناس لا إثارة فيها ، وربما تنقلب قصة أحدهم لحكاية يتطاير بها الركبان ، وتصبح قصة نجاح مثيرة للتساؤل أو مأساة

عنيفة أو خفيفة ، سنعيش مع تلك الأسرة بضعة شهور ؛ لعلنا نرى فيها صورة من صور الحياة ، حياة الفقراء والبسطاء .

عمل يومي متتابع لتجميع مال للزواج لولادة أسرة جديدة ، أو لتقوم ببناء بيت أو شرائه للزواج .. هذه هي الأهداف العظمى للناس البسطاء ، ولكن الذي حرك الأحداث التقليدية الرتيبة في "أبو خروف" وخاصة أسرة كمال نزو وجود مستأجر جديد في الحي ، ودائما الناس تنتقل من بيت إلى آخر ، والمستأجرون في المدن لا ينتهون ، ولكن الذي حدث أن المستأجر الجديد في حي "أبو خروف " شاب عازب غريب في الثلاثين من عمره ، وهذا لم يعتد في البناية التي سكن فيها الشاب ، فمنذ بنيت واستخدمت للإيجار ، يسكنها عائلات متزوجة أو عرسان جدد .

المستأجر الجديد

تحركت الأحداث في الحي أو في بيت أبي صالح عندما سكن في الحي شاب استأجر شقة أرضية صغيرة في عمارة تبعد عن بيت أبي صالح حوالي أربعين مترا، بينهم مبنيان ، تنزل إليها بدرج ، وهي عبارة عن غرفة نوم واحدة وغرفة أخرى عبارة عن مطبخ وحمام وصالة ، ولا تكاد تدخلها الشمس أثناء النهار إلا من نافذة عالية تلتصق بالسقف ، هذه الشقة كانت عند إنشاء العمارة كمخزن ثم حولت لغرفة لبواب كان حارسا للبناية أثناء الإعمار ؛ ولكنه مرض من العيش فيها وتركها ، وبقيت العمارة دون بواب كأكثر مباني الحي إلا من الحارس الليلي العام ، كان هذا الشاب مجهولا لسكان الحي ، خاصة الذين سكن بينهم ، وكان ظهوره في أواخر سبتمبر (أيلول) من ذلك العام ؛ لذلك أثار هذا دهشة الناس ، واهتم الناس والجيران بالمستأجر الجديد لأنه أعزب دون عائلة ، فهم لم يعتادوا سكنى أعزب غريب عنهم في الحارة أو هذا القسم من "أبو خروف" ، وشاع بينهم أنه من حي آخر ، وهو مطرود من قبل أبيه ؛ لأنه يرفض الزواج ، وقد بلغ من العمر ثلاثين سنة ، وهذه سن يجب أن يكون لكل شاب أسرة وزوجة ، وأيضا شاع أنه طرد لرفضه العمل والشغل .. هذا ما شاع عنه في أول الأمر ، وتقبله الناس على مضض بأنه بطال وأعزب ، وعلى الفور تعرف على البقال العم كمال كما يردد ، فكان يمشي للشارع العام ويقطعه حيث دكان الرجل ويشتري منه الخبز والطعام المعلب والسردين والفول والجبنة الصفراء والدخان علب السجائر والبيض ، بمعنى آخر أنه أصبح أحد زبائن العم كمال في خلال أيام معدودة ، وكان يدفع للرجل فورا ونقدا ، فكلما اشترى شيئا نقد الرجل ثمنه ، مما أظهر للعم كمال أنه يملك المال ، فيتساءل " ها هو يشتري ويستأجر ، فلماذا طرده والده ؟! لابد أن هناك شيئا آخر " ، ولكنه في الأسبوع التالي أخذ يسجل ما يأخذه على الدفتر دفتر الديون ، فتململ العم كمال فبدأ يسأله عن طبيعة شغله ، فيزعم أنه يعمل في الأعمال الحرة .. فما هي الأعمال الحرة ؟ يوم يشتغل ويوم لا يشتغل .. لما يطفر يعمل مع بنّاء مع سباك مع نجار يعمل جابي مال في حافلة نقل عمومي .. ولما يصير معه

المال يترك العمل ، هكذا فسر الأعمال الحرة للشيخ أبي صالح ، فصار يدفع كلما تيسر ، وكان لا يرى إلا مشعلا سيجارته ، يجلس في المساء أمام العمارة في الشارع ، يشرب الشاي يدخن يأكل المكسرات الرخيصة ، ثم تعرف سريعا على أولاد العم كمال من المجاورة من الشراء من الدكان من الجلوس في الشارع ، ثم سمح لفريد وناجح بدخول شقته الأرضية للسهر ومشاهدة التلفزيون ولعب الشدة وشرب الشاي والدخان، وكان ناجح يشاركهم بعض الليل بعض السهر بعد عودته من سهراته الخاصة في قلب المدينة، وكان الجو يتوتر في الشقة عند مشاهدة بعض المباريات المحلية والدولية ، فيبدأ الشد والرخي ، ثم تعرف صالح الابن الكبير للعم كمال عليه ، وكان جابر قد عرفه من تردده على الدكان ، فأصبح خلال شهر صديقا للعائلة جميعها ، أم فريد وابنتها فريدة حتى أن المرأة أصبحت توده بصحن من الطعام ، عندما تطبخ طبخة شهية ، وكانت الآنسة الشابة فريدة تذهب بالصحفة لجارهم العازب الجديد ، فيتناولها منها عند الباب الخارجي للشقة مظهرا لهم وللمراقب وللمار أنه يراعي الأصول والعرف ، ويقدم الشكر والامتنان عندما يرى أم فريد أو الشباب ، وأنه يتعبهم معه .

استطاع فراس خلال وقت يسير كسب جيرانه وأنه إنسان صالح وإنما يكسل عن العمل الدائم ، فأصبح بيته مقرا للشباب الراغب في السهر ولعب الورق ، وفصل الشتاء عادة في بلادنا ليله طويل ، فيحب الناس فيه السهر واللهو ، فأصبح الشباب يمدونه بالمأكولات الخفيفة ويتعشون معه ، وبعضهم يقضي كل ليله معه ، وينامون في بيته ، فهو شاب عزب فلا حريم في البيت ؛ ليسبب لهم النائم حرجا وضيقا .

ولا أنسى أن أخبركم أن الخمر أخذت تتسلل إلى شقة فراس ولو سرا عن أعين الفضوليين ، وبالطبع ليس فراس هو أول شرير في الحي ، فهناك أشرار آخرون ، وليس هو أول شارب خمر في حي "أبو خروف" فآخرون يتعاطونها أفرادا وشللا .

فجأة اختفى فراس من الحي دون سابق إنذار مما شكل صدمة لزبائنه المقربين ، حتى أن أحدهم قفز عن السور ودخل الشقة عنوة خشية أن يكون الرجل ميتا في شقته ، فهو لم يظهر

طول النهار ، ولم يره أحد من أيام ، ولما أصبح القافز في جوف الشقة ، وجد السرير الأثري خاليا من صاحبه ، وقشر البزر ملقى في جميع أنحاء الغرفة ، وكذلك أعقاب السجاير وعلب الدخان الفارغة وأعواد الثقاب المحروقة ، وورق تنظيف الأنف ، وأكواب القهوة والشاي منتشرة في فناء الحجرة ؛ كأنها لم تنظف منذ فارقوه آخر ليلة ، فخرج الشاب بعد ذلك دون أن يفكر بتنظيف الغرفة ، وأخبر الشباب أنه غير موجود وحالة الشقة عفنة يرثى لها ، فذهب أحدهم إلى مالك الشقة يسأله عن السيد فراس " هل ترك الشقة ؟" فأخبره المالك أن الرجل لم يخل الشقة ، وهو لم يدفع إيجار الشقة إلا مرة واحدة منذ سكنها ، ولولا تدخل رجل عزيز عليه ما أجرها لشاب هامل ، ولكن الوسيط رجل مهم عنده وختم كلامه : لعله مسجون .

ـ مسجون ؟!

ـ مالك دهشت ؟ فهو سجين سابق.. ألم تعرفوا ذلك عنه ؟

ـ سمعنا ذلك ؛ ولكنه نفى ذلك وقال "هذه إشاعات يصدرها أبي ليتخلَ عني أمام الناس وأقاربه ، وحتى يصدقه الناس ويعذرونه في طردي" .

وعاد السائل للحي وهو متوجس خيفة مما علم وهو يقول : هل هو حقا سجين سابق ؟! ولماذا سجن ؟! سوف أسأله إذا أتيحت لي فرصة .

ولما رجع فراس للحي قال للشباب الذي سروا بعودته : كنت في مدينة مسعاد ، لي بعض المال عند أحد الأصدقاء .



عندما يستلم جابر الدكان من أبيه عصرا ينصرف العجوز كمال للمقهى المجاور لمسجد "أبو خروف" ، وغالبا يصل إليه عندما يكون رواد المسجد قد أدوا صلاة العصر جماعة ، فيسبقهم أحيانا بالجلوس في زاويتهم المعتادة والمعروفة لرواد المقهى جميعا فلا يقربها إلا مشاكس ، وأحيانا أخرى يسبقونه ، وكثيرا ما يلتقي بالخارجين من المسجد بعد أداء الصلاة ، فلربما رآه غريب فيحسبه من رواد الصلاة ، ومع بلوغه السن الكبيرة ما زال مصرا على ترك الصلاة والتقاعس عنها .

وفي المقهى يلتقي بالشيوخ الذين من سنه أقل أو أكثر ببضع سنوات ، فهم مجموعة اعتادت اللهو واللعب والسمر والسهر في مقهى مهران ، فهم من قدامى الزبائن ، وكلهم من سكان الحي يعرفون بعضهم من عدة عقود ، فهم يمارسون لعب الورق ، ويلعبون لعبة شائعة بينهم يسمونها " الهاند" أو "الهند" بفتح الهاء ، لا أدري أصلها، ومن أين أتت وانتشرت؟! ولكنها معروفة في المقاهي العربية ، ولها بضعة قوانين تراعى أثناء اللعب لا مجال لسردها لأنني أجهلها ، وفي المقهى تجد الشاي الساخن والقهوة واليانسون والقرفة ، ولهم معارف من حارات أخرى مجاورة يلتقون بهم، يلتقي أصحاب المهن والحرف للاتفاق على عمل وشغل ، وفي المساء أول الليل تجد المقهى يفيض بزبائنه ، بعضهم يلعب، وبعضهم يتفرج على اللعب ، وبعضهم يثرثر وينم ويستغيب ، وآخرون يتفرجون على التلفزيون الجديد على البلاد صامتين أو معلقين ، وآخرون يأكلون الساندويتشات المشتراة من المطعم المقابل للمقهى .

فالعم كمال بعدما يسلم دكانه لجابر يأخذ أغلب الغلة معه ، ويترك بعضها ويعده عليه ، ويغدو للمقهى ، ويتخذ زاوية يتجمع بها رفاقه، ثم يبدأ اللعب بينهم ، وبعضهم يتفرج حتى يأتي دوره في اللعب، وخلال أدوار اللعب يثرثرون ، ويتبادلون الأخبار السيئة والحسنة .. وهذا دأبهم منذ سنوات .. فلان مرض ، فلان رحل ، فلان ترمل .. فلان تزوج ، زوج ابنته أخته .. أسعار الخضار واللحم والسكر والأرز .

فهم مجموعة مكونة من سبعة أشخاص ، أبو صالح وقد عرفناه ، وقريب له يدعى أبا عدنان

وآخر يكنى بأبي العبد ، ورشيد أبو أحمد ، وسلمان وشقيقه نعمان أبو نوح ، وسابعهم غانم السيمي .. وكلهم من سكان "أبو خروف" ما عدا غانم السيمي قريب من الحي المذكور .
يلعب أربعة منهم ؛ لأن اللعبة تستوعب أربعة أنفار فما دون ، وثلاثة يمارسون النظر والثرثرة ويشربون الشاي واليانسون .. وعندما يرتفع صوت المؤذن ينسحب سلمان وأبو نوح ورشيد أبو أحمد للصلاة ، ويبقى الآخرون لمواصلة اللهو ، فهم رغم كبر أعمارهم يتقاعسون ويكسلون عن الصلاة سواء جماعة أم فرادى .. وأحيانا يصلون الجمعة .. لأن الحاج مهران يأمر ساعتها بوقف اللعب لسماع الخطبة ؛ لأن إحدى سماعات المسجد معلقة على جدار المقهى الأمامي .
وكان السيد نعمان أبو نوح كلما ينهض للمسجد يدعوهم لتلبية النداء بأخذ استراحة من اللعب ، فيسخرون منه ، فيصيح في وجوههم " ألستم مسلمين ؟ الدواب تسبح ربها "
فيرد أحد المتقاعسين متهكما " هل بقي أحد يصلي لليوم ؟ الناس كفرت وملت "
فيقول سلمان بعصبية " يا عالم اتقوا الله ساعة لربك وساعة لدنياك .. هناك نار جهنم .. الجمعة حدثنا الشيخ عن النار حتى كادت قلوبنا تخرج من صدورنا رعبا وخوفا .. هيا انهضوا ، الصلاة خير من اللعب .. وقت اللعب لا ينتهي "
فيرد: "خلال صلاتكم نكون كسبنا لعبة .. هذا شيخك شيخ مهوي "
فيخرج الرجال الثلاث سلمان ونعمان ورشيد للمسجد يدعون لهم بالتوبة والهداية .
كانت مجالسهم سوى اللعب واللهو نقل الحكايات والأخبار .. فلان طلق امرأته .. فلان ضربها وتركت له البيت .. فلان أصيب .. فلان ابنه حرامي ويشرب الخمر .. فلان ضرب أباه وآخر رحل .. أبو فلان ابنته هربت مع شاب ..فلان خطف بنت أبي فلان .. كل له مصادره الخاصة .
وصل أبو صالح وجلس حولهم ينتظر دوره في اللعب .. انتهت اللعبة ودخل أبو صالح ليشارك في لعبة جديدة ..عادة يلعب كل لاعبين متقابلين كفريق واحد .. وعند الخسارة يضع

كل شخص اللوم على شريكه .. وعند النصر على عبقريته وشطارته .

وفجأة دون مقدمات قال أحدهم : من هو الجار الذي يجتمع الأولاد عنده يا أبا صالح منذ أسابيع ؟ أتعرفونه ؟ ولماذا سكن في حارتنا ؟!

فيرد أبو صالح بفتور: شاب غلبان .. شكله مطرود من بيت أبيه .. جوعان .. فحسب علمي لا يعمل ، ولا يجد عملا يناسبه هكذا يزعم

علق أحدهم ساخرا : إذن معه شهادة وزير !

فقال أبو صالح : ليس معه شهادة وزير ولا شهادة حمير.. اشتغل في متجر ملابس .. واستغنى عنه الرجل بعد شهور .. لم يعجبه شغله .. ثم اشتغل في سينما .. كلما جاء الدكان يسرد عليّ فصلا عن أعماله .. مرة بائع خضار مع سيارة نقل صغيرة .

فقال سلمان بحزم : ولد هامل صايع أزعر.. خذ بالك منه يا عم أبا صالح .. شكله شكل حرامي .

فصاح أبو صالح مستنكرا الوصف : حرامي ، حرام عليك يا رجل! .. أكثر مشترياته عندي على الدفتر ، ويسد ، لم يقصر ولو مرة واحدة بالسداد ..غلبان ..واندمج مع الأولاد .. ومرات أم فريد ترسل له مع البنت صحن طبيخ .. عايش على البيض والجبن والفول .

فقال أبو نوح : مرة رأيت فريدة فعلا تقدم له صحنا من الطبيخ .. بس يا أبا صالح الرجل عزب ليغوي البنت ..لا تسمحوا لها بالدخول عليه .. شكله كما قال سلمان شكل لص وسراق .. احترس ألا يغدر بالبنت .

فقال أبو صالح : نحن حريصون جدا.. وكثيرا ما تبقى أمها تنتظرها أمام الدار .. والله الذي يستر .

الشبح

ظهر فراس في الحي من جديد كما اختفى فجأة ، رجع إلى شقته بعد غياب أزعج واقلق رفاقه الجدد ، وزعم لهم أنه كان في رحلة عمل قصيرة ، فعاد السهر لحجرته وبيته الصغير.. وفي العادة ينصرف الساهرون بعد منتصف الليل لبرودة الجو ، فطقس الشتاء بارد في أكثر الليالي حتى أن أحدهم تبرع له بمدفأة كاز ، ولكنها في أغلب الليالي لا تشتعل لعدم توفر مادة الكاز (الكروسين) أو لعدم شراء هذه المادة بحجة بعد محطة تزويد الحي بمثل هذه المواد البترولية والرجل لا يملك سيارة .. ويتحمس بعض الساهرين فيذهب مشيا على الأقدام أو بسيارة أجرة أو بسيارة صديق له .. فيحضر تلك المادة .. فتشتعل تلك المدفأة لبضع ساعات أو أيام حسب كمية الكاز التي توفرت .. وعندما يحاول فراس تقديم القيمة التي دفعها المتطوع يعتذر الآخر عن قبولها بحكم السهر والجيرة والشهامة .

أخذ يتكرر غياب فراس عن الحي يختفي ليلتين أو ثلاث .. فيزعم أن ذلك بسبب الشغل .. بسبب العودة لبيت أبيه وأنهم تصالحوا .. فيبرر غيابه بحجج لا نهاية لها .. ويصمتون لأنه هو صاحب البيت .. ويزعم بعض هؤلاء لتبرير تعلقهم به أو اهتمامهم بوجوده وغيابه أنهم أحبوه واستمتعوا بصداقته .. فعندما يرون ـ أصدقاء الحي ـ بيته في ظلام دامس يحسبون أنه خارج البيت .. فيتسكعون في الشارع شوطا أو شوطين ثم يلجئون لبيت أحدهم أو يمشون للشارع الرئيس حيث مقهى عم عزب .. والحقيقة التي تكشفت فيما بعد أن البيت قد يكون خاليا فعلا من فراس ، وأنه في مرات أخرى يتظاهر بهذه الحيلة لقضاء ليلة خاصة مع بنات الهوى .. أو يترك البيت لصديق يمارس فجوره على ضوء شمعة .

ذات ليلة باردة كان فريد عائدا من المقهى الذي أغلق أبوابه عند الثانية عشرة ليلا .. حسب الأنظمة المرعية في المدن .. وربما تأخذ عملية الإغلاق ربع ساعة نصف ساعة .. وبينما السيد فريد كمال يقترب من بيته لمح شبحا يدخل بيت فراس .. ويبدو أن الشبح لم يلمح فريدا ، وهو يدخل الشارع باتجاه دار أبيه .. لعجلته أو لعدم اكتراثه بمن يراه .. والذي أثار فريد أنه

قبل ذهابه للسهر في المقهى طرق باب فراس عدة مرات ، ونادى عليه تحسبا لنومه ..ولما يأس من وجوده تمشى إلى مقهى "أبو خروف" .. لذلك لم وصل بيته .. فكر قليلا وسأل " من هذا الشاب الذي دخل بيت فراس ؟! " .. وهو قد لاحظ من فترة وجيزة تردد شبان من غير الحي إلى بيت فراس بزعم أنهم رفاق له من أحياء أخرى مجاورة لـ "أبو خروف" .. وتعرف على واحد منهم يدعى عسودا .. كان هذا العسود ينام عند فراس في بعض الليالي .. توقف ينظر للبيت الذي ما زال معتما رغم دخول المتسلل .. فقال لنفسه " أأطرق الباب؟!.. لم يشعل الكهرباء !.. لعلي واهم برؤية أحدهم يتسلل للبيت .. رأيته رأيته .. لا يخدعني البصر .. كأنه شبح فتاة .. يبدو أن صاحبنا ملّ من الشباب فصار يستقبل الفتيات في أنصاف الليالي .. كانت ثيابها ثياب أنثى .. حسنا يا فراس ويا عسود "

دخل البيت وصعد لحجرته في الطابق الثاني للبيت الصغير .. بنى والده هذه الغرفة لصالح وجابر لما كبر سنهما .. فالشابان عازبان وكبيران .. وهو قد تزوج الأرملة التي أمست أم فريد.. ولما تزوجا ورثها فريد وناجح .. وصداقة فريد لفراس صداقة حارة وشارع واحد .. ورغم تعارفهما وتصاحبهما كان منزعجا من صداقته ومن وجوده في الحي .. وخاصة لما علم أنه قضى زمنا في السجن الحكومي .. فسأل نفسه مرارا وليس مرة واحدة " لماذا جاء يعيش في هذا الحي ؟" .. وصاحبه ليكشف سره أو أسراره ؛ ولكنه لم ير شيئا مخيفا .

لذلك لما رأى شبح أنثى يتسلل إلى بيته المعتم اشتعل قلبه نارا ، وهمس لنفسه بعد أن خرج من المرحاض ووقف عند الشباك ـ شباك غرفته المطل على الشارع حيث مدخل بيت فراس ـ يراقب باب شقة فراس " صحيح أنه يسقينا الشاي والقهوة ، ويقدم لنا الخدمات ونلعب الورق في بيته .. ولكنه يسكر ويجلب الخمر للبيت .. وأغلب رفاقه يشربون ويدخنون .. وبعيدون عن الدين .. والآباء لا يهتمون ، وعلاقات الشابات والشبان منتشرة في شوارع الحي ولا يكاد يمضي شهر أو شهران في الحي حتى تنتشر فضيحة أخلاقية يهتز لها "أبو خروف" ثم تنسى وينشغل الناس بغيرها .. فبدأنا نرى وجوها من أحياء أخرى .. وهؤلاء لماذا يأتون

؟! للحب والغرام والليالي الملاح .. ذهبت الأخلاق .. فسدت أخلاقنا وشاع الاستهتار بالمحرمات .. الصبيان يدخنون .. ويكفرون .. ويذهبون لمدارس البنات ليحبون ويعشقون .. ويتبادلون الرسائل والهدايا .. والكبار لا يحركون ساكنا .. ثم تذكر أخته فريدة شقيقته فهمس بخوف وانقباض : أتفعل مثلهم ؟ من تصاحب فريدة ؟ أليست بشرا مثلهم ؟ نعم ، إنها بشر كسائر البشر والبنات .. إنها تتأثر بفعل صويحباتها .. ألم يطلعني باسم على عشرات الرسائل والتذكارات من البنات ؟! بزعم أنه بطل رياضي والمعجبات به كثر .. لكنها فترة مراهقة عصفت بنا وكبرنا .. فريدة رغم اهتمامي الخفي بها لم أعرف لها صاحبا أو معاكسا .."

اشتغل فكره برؤية فتاة تتسلل لبيت فراس بالأخلاق الدنيئة التي تشيع في الحي وبين بنات الحي .. وهو بين الحين والآخر ينظر لبيت فراس ينتظر خروج المتسللة .. وفعلا بعد ساعة أو أكثر وهو يراقب في العتمة لاحظ فتح الباب .. خرجت فتاة كما توقع فهمس " بنت .. من هذه ؟! .. هل اتبعها ؟ وماذا نهاية المتابعة ؟"

كان مترددا في متابعتها حتى اختفت من أمام ناظريه .. ثم شاهد شبحا آخر يخرج من بيت فراس .." ليست أنثى .. شاب هل هو عسود ؟ .. ها هو قد أشعل سيجارة .. أصبح بيت فراس وكرا للدعارة .. من تلك الأنثى ؟ بنت من ؟ .. فضيحة جديدة على الأبواب .. يظهر أنها من فتيات الحي .. ثم تذكر فتاة مشهورة بالفجور " قد تكون مزيود " .. إنها امرأة لا تهتم بأحد ولا تكترث لأهل أو أب أو أم أو أخ .. لكنها تمارس فواحشها في أماكن أخرى خارج الحي .. لا أدري لماذا هي هكذا ؟! منذ وعينا ونحن نسمع أنها امرأة فاجرة تمارس البغاء والزنا مع الرجال المنحرفين .. زاعمة أنها متحررة .. وضحك لكلمة متحررة .. إذن جعل بيته مخدعا للعشاق .. يتركه لأهل الغرام .. هل هو في البيت ؟ ودخلت الفتاة عليهما الاثنين .. هذا لا يستغرب من مزيود .. انتشر لها حكايات شنيعة في المعاصي والفجور .. ولها سجلات أمنية في دوائر الشرطة والمحاكم .. من سيتزوجها ؟ لقد فسدت وأصبحت لمن هب

ودب .. أضحى فراس مزعجا .. هو مزعج منذ سكن بجوارنا ..

ظل يفكر بفراس وعسود ومزيود وقال : مزيود لا يهمها ليل ولا نهار لتمارس فجورها .. في أي وقت تصطاد ذكرا تذهب معه .. ألم تحاول مرة إغوائي عند باب سينما ؟ كنت أتفرج على لوحات ورسوم الفيلم الذي يعرض وقالت " كيف حالك يا فريد ؟ أبوك سمح لك بالمجيء للسينما .. وأخذت معها في الحديث ، ثم دعتني لقضاء ليلة أو نهار معها .. يا لها من مومس !



لم يعد فريد يطرق باب فراس بعد رؤيته لتلك المرأة الماجنة تخرج من بيته ؛ لأنه أدرك أن فضيحة على وشك الظهور في الحي ، فالذي شاهده ربما شاهده غيره ، ولابد من تكرار مجيء المرأة نفسها أو غيرها لوكر فراس .. لذلك لما تقابل الرجلان في الشارع الرئيسي العام الذي يشق حي "أبو خروف" لحين كبيرين قال فراس متظاهرا بالقلق على غياب صاحبه عن بيته : يا سيد فريد يا جاري العزيز لم أعد أراك ساهرا معنا ؟!

ـ مرحبا سيد فراس .. أنا أحب السهر كما تعلم في المقهى .. كنت أحيانا أطرق بابك بحكم الجوار والشباب

ـ صحيح ، لكنك كنت تمسي علينا كل الليالي .. أأغضبك أحد من الشباب ؟

ـ أبدا لم يغضبني أحد .. ولقد لاحظت في الفترة الأخيرة كثرة تغيبك عن البيت .. واغلب الأيام الضوء مطفي .. وربما يخرج لنا زملاء لك من غير حينا

ـ هؤلاء يا صديقي زملاء عمل .. ويحبون السمر وقضاء بعض الليل

عندي .. عيب أن يطردهم الإنسان .. أنا أعزب لا أستطيع طردهم بأي حجة

ـ لا ، عيب طردهم .. أتمنى لكم التوفيق

ـ هيئتك تدل على الزعل والضيق .. حتى أمك لم تعد ترسل صحن الطبيخ مع الأخت

الفاضلة فريدة .

ـ صدق لا أدري.. سأمر عليك الليلة لتعلم أنني غير زعلان من حضرتك لكن ...

انتبه فراس للكن وقال مرتبكا : لكن ماذا ؟!

ـ لكن سمعت أن بنات يترددن على منزلك

ـ بنات .. أعوذ بالله من غضب الله .. من قال لك هذا ؟! .. أنا أكره جنس البنات وسيرتهن

ـ ربما عندما تترك البيت لأصحابك وزملاء العمل ، وتنام عند أهلك كما تقول .. يأتين هؤلاء الفتيات للسهر معهم .. رغم كثرة البنات في الشوارع وفي الحارة ..احذر يا صاحبي من تحويل بيتك لوكر دعارة .. الناس بدأت تتكلم

تظاهر فراس بالجهل رغم الغضب في قلبه : يا رجل هذا أمر خطير .. على كل حال طال الوقوف في الشارع .. سوف أتحدث مع الأخوة، وأمتنع عن إعطائهم المفتاح ..هذا أمر لا أحبه .. شكرا على تنبيهك .. المرء يثق بإخوانه .. بنات اليوم يرغبن باللعب واللهو مثل الشباب .. الأفلام والمجلات الماجنة تنتشر بين الشباب من الجنسين .. ألا تريد أن تخبرني بمن قال لك لأتأكد مما رآه ؟

ـ أنا سمعت يا سيد فراس ، لم أسمع من شخص محدد .. على القهوة سمعت حديثا أن بيت فراس أصبح لبنات الهوى ، يتسللن إليه في أنصاف الليالي .. حتى أن إحداهن عادت لبيت أهلها ثملة سكرانة من الشرب .. ولما ساقوها للطبيب الشرعي ثبت لهم أنها امرأة منذ سنوات .. قد زالت بكارتها .. باختصار فاجرة !

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. خرجت من بيتي سكرانة .. هذا شيء لا يجوز السكوت عنه .. صدق يا أخ فريد أن أبغض الناس إليّ النساء والزنا .. أما الشراب فهو مشكلتي العويصة .. وأصدقاء الشراب شهيتهم للنساء مفتوحة ..اليوم تشير بإصبعك نحو فتاة فتلبي النداء .. ثم لقاء أو لقاءات فتصبح لك امرأة ؛ وكأنك كتبت كتابها في حضرة القاضي .. الأفلام ..أفلام الحب والجنس تحرق الشباب حرقا يا أخ فريد ..سأدبر الأمر ، وأطلب من هؤلاء الإخوة قطع

الِرجل عن الحي .. أنا لا أحب أن تتلوث سمعتي

فقال فريد : أحسن لك .. غدا تسمع الشرطة ، وتضطر لسين وجيم .. وأنت تسكن في بيت إيجاره رخيصا ، فلا تخسره

ـ معك كل الحق يا أيها الجار الغالي .. سامحني السلام عليكم

لم يقدم على بيته أحد خلال الأيام التالية .. وحتى اعتذر عن استقبال شباب الحي الذين اتخذهم خلانا زاعما لهم أن بعضهم استغل طيبته ليستقبل عشيقاته في بيته عندما يقضي أياما في بيت أمه وأسرته .. أو يسافر في قضاء عمل خاص به .. ولا أحد يعلم من سكان الحي بالضبط مهنة وعمل فراس .



استلم جابر الدكان من أبيه الذي أخذ الغلة ، وترك له مبلغا بسيطا يتعامل به مع الزبائن ، واتجه الرجل كعادته إلى مقهى عزب ، فما كاد يجلس مع جماعته حتى أقبل باقي الجماعة من الجامع وهم رشيد أبو أحمد وسلمان أبو يوسف ونعمان أبو نوح .. وبدأ اللعب أربعة يلعبون وثلاثة يتفرجون ويثرثرون .. وبعد حين تصل المطلوبات من مشروبات ساخنة ، ويبدأ الرشف ، وأثناء اللعب ذكر أبو أحمد خبرا انتبه له أبو صالح ، فالتفت لأبي أحمد وقال : أمعقول هذا يا أبا أحمد ؟!..هربت مع أحد الفاسدين

فقال أبو أحمد : كما تعلم قد شوهدت خارجة من بيت جارك الجديد الذي زعم أنه ترك المفتاح مع بعض أصدقائه ، وذهب في عمل خارج العاصمة .. وقد رجعت الفتاة سكرانة تلك الليلة لأهلها .. ثم تبين لهم بعد كشف الطبيب عليها ، وتدخل الشرطة أنها امرأة غير صالحة .. تمارس البغاء سرا .. وادعت أن أهلها يجهلون أفعالها .. مع أن سيرتها النتنة تملأ الحي .. منذ سنوات وأنا أسمع بمغامراتها الدنيئة .. مشاهدتها مع الشبان معروفة .. على أبواب السينمات والملاهي وشوارع وسط المدينة .. أهلها لا يعرفون أسمعت يا رجل ؟.. "شر البلية ما يضحك" .. اختفت من الحي ، وأهلها يقولون إنها هربت مع أحد الأشرار لرغبتهم بتزويجها من شاب مثلها هامل وفاسد قريب لأمها .. سيدفعون له مالا ليستر عليها أمام الناس .. لا تريده يا أبا صالح لا تبتغي الستر ـ ستر الله على نساء المسلمين ـ فهربت مع أحد الأشرار

علق سلمان فقال متهكما: دنيا .. يدفعون للعريس !

فرد أبو صالح بحدة وسخط كأنه من بقية أهلها : كلام فارغ .. هم ربما قالوا هذا الكلام لما اختفت .. ليبرروا هربها .. ليقول الناس إنها هربت بسبب الضغط عليها لتتزوج قريبها .. كلام فارغ .. زواج بالقوة .. هي بنت فاسدة منذ عهد بعيد.. إذا كان الكلام صحيحا عرضوا عليه أن يتزوجها شهر زمان ثم يطلقها ..

فقال أبو نوح بأسف وألم : ما دام البنت فجرت وفسدت ما الذي سيصلحها ؟ .. أعوذ بالله من الزنا والفجور .. هذه لا يمكن أن تقتنع برجل واحد صدقوني .

فقال أبو صالح : هو ما قلت يا أبا نوح .. هذه نهايتها العمل في نادي ليلي أو خمارة .. لا يوجد في البيت رجال .. أنا أعرف الكثير من خفايا وماضي العائلات .. أنا أعرف أباها قبل أن يستقر في "أبو خروف" .. كان شيطان زمانه .. وتزوج أم البنت بقوة القانون

ـ استر يا رجل بدون فضائح

ـ أستر ماذا ؟! هذا معروف للناس .. الزمان يعيد نفسه .. كان يعمل موظفا في منطقة ووقع على أمها وفجر .. ولما انكشف المستور اجبروه على الزواج منها ولملموا القصة .. وها هي البنت على نفس الشاكلة

فقال أحدهم بغيرة : طيب يا عم أبا صالح انتبه لبنتك .. أقولها بصراحة .. إياك أن تسمح لها بالذهاب لبيت فراس بصحن طبيخ .. انسوه

ـ ابني فريد حذرهم من تقديم أي شيء له

فقال أحدهم : أنا رأيت ابنتك تقف معه أمام البيت .. بيتك

ـ ربما يسألها عن فريد عن ناجح .. ففريد خفت رجله عن بيته.. منذ بدأنا نرى أولادا غرباء عن الحي يترددون على قصره الشامخ ، نصحت الأولاد أن يبتعدوا عنه .. المحير من أين يأتي بالفلوس ؟ لا تنقطع عنه الفلوس .. يستلف من الدكان لحد مائة دينار ثم يدفعها مرة واحدة

ـ لما يسرق يسد !

ولما عاد أبو صالح للبيت بعد إغلاق المقهى فقد أيقظ زوجته وصاح فيها : سمعت أن فريدة كانت تتحدث مع جارنا فراس السيئ الذكر في نصف النهار

ـ فريدة .. اتق الله يا رجل .. أنا من يوم ما أخبرني فريد بمشاهدته امرأة تخرج من بيته ، وأنا أمنعها من الحديث والكلام معه .. ومنعت عنه صحن الأكل .

كان فريد يجلس في مقهى مهران حيث يجلس والده وشلته ، وإنما يجلس مع شباب من جيله

أو أكبر منه بقليل .. وبينما هو مستغرق كغيره في اللعب وشرب الشاي دخل شقيقه صالح المقهى ، واتجه إلى حيث يجلس والده ورفاقه ، فسلم عليهم وصافحهم فردا فردا ، وسحب مقعدا وجلس بجوارهم وكان الوقت بعد العاشرة ليلا ، فقال له أحدهم : تركت الشغل مبكرا الليلة

ضحك صالح وقال مداعبا : الدنيا نصف ليل يا عم

فنظر الرجل إلى ساعة المقهى المعلقة على إحدى الواجهات ورد باسما : فعلا ..أنا فكرت الدنيا المغرب بعد .. أهلا وسهلا بك يا صالح

فقال سلمان : المغرب ! .. لو أنك تصلي مثلنا يا بطل لعرفت أننا صلينا العشاء قبل ساعة .. هل أنت تصلي يا صالح ؟

ـ لا أحد يصلي اليوم يا عم إلا الختيارية

ـ معقول .. أبوك اختيار لا يصلي إلا على الأموات .. إذا حضرت جنازة للمسجد أراه يدخل المسجد ، ويصلي الصلاة ثم على الجنازة وهو اختيار مثلنا

فرد صالح قائلا : الله يصلح الجميع يا عم سلمان

كان فريد يتابع صالحا بطرف عينيه ، فبينهما موعد في المقهى بناء على اتصال هاتفي جرى بينهما

وعاد سلمان يقول : أبوك سماك صالحا لتكون صالحا يا صالح

ـ أنا صالح ، هل رأيتني أسرق ؟

ـ لم أسمع بذلك ؛ ولكنك تتشاجر كثيرا مع زبائن الخط

ـ لو السائق رفع صوته مرة على أحدهم ، يعتبر هذا شجارا يا عم سلمان

فقال نعمان أبو نوح : مرة يا صالح .. أكثر من واحد سمعته يتحدث مع أبيك عن سوء معاملتك للزبائن !..لا يوجد فكة .. يا ناس احملوا فكة .. من أين آتي لكم بفكة .. الذي لا يعجبه أن يركب معي ينزل .. هذه أخلاق سائق يا صالح يا ابن أبي صالح .. أنت رجل كبير متزوج ، وعندك أولاد حسن أخلاقك ومعاملتك مع الركاب

ـ هؤلاء أناس يحبون اللطم والشكوى .. يريدون أن يركبوا بدون مقابل .. لما الشخص يعطيك عشرة دنانير على الصبح والأجرة خمسة قروش .. هذا يريد أن يدفع .. هو السائق قاعد على بنك فكة يا عم أبا يوسف .. من الغالب الليلة ؟ يبدو أن أبي مغلوب لم أسمع صوته منذ حييتكم

التفت إليه أبوه وقال : فعلا أنا مغلوب اليوم يا ولد .. الكل يشبح عليّ أم أن وجهك وجه نحس

فقال رشيد : أنت مغلوب من قبل أن يحضر المعلم صالح ، لا تتحجج في الولد .. والحظ اليوم ضارب معي

فقال أبو صالح : اذهب لأخيك فهو ينظر إليك

ـ أعلم ؛ فأنا جئت بناء على اتصاله بي .. أنا لا أحب السهر في المقاهي ..

هل تعلم يا عم أبا صالح أنني اليوم ركبت جارك فراسا ، وكانت معه امرأة .. مزيود .. وتفاجأ بي

فقال أحدهم : بنت الليل مزيود مع فراس .. كملت يا جماعة الخير كملت .. لما شاع عن ترددها على بيته زعم أن أحد أصحابه استغل طيبته .. كمل يا صالح

ـ ركبوا وتحدثت مع مزيود فأنا أعرفها ، وهي تعرفني حق المعرفة ، واضطرب فراس من الخوف والرعب .. كأنه شريف قبض عليه في دار زنا .. فلما نزلوا دعتني لسهرة ماجنة من سهراتها المشهورة .. وفراس كان مثل السعدان قد لزم الصمت طول الطريق .. وحياني فقط ، فسمعتها تقول له " مالك خائف يا معلم ؟ صالح ولد عاقل أزعر مثلك " .. جعلتني الملعونة أكبر قواد في البلد .. يا لها من شريرة ؟!

ـ أين ذاهبون ؟

ـ لا أدري ، ولم أسأل ، ولم أسمع ؛ لأن الكلام طول الطريق دار بيني وبينها .. نزلوا في وسط الطريق في منطقة المطاعم والأسواق .. يبدو أنها سيطرت عليه

فضحك أبو نوح وقال : هو أزعر بن أزعر .. خريج سجون يا صالح

ـ هو يا عم أبا نوح إذا نام الرجل أسبوعا واحدا عند الشرطة أصبح خريج سجون .. لو ضربنا ولدا بالسيارة لا سمح الله ربما نقعد أسبوعا أو أكثر في بيت الشرطة .

ـ سجن عن سجن يختلف .. يوسف عليه السلام قضى بضع سنين في سجن عزيز مصر .



شجار

يعلم قارؤنا الفاضل مما سطر في صفحات سابقة أن فريدا وناجحا شقيقه يسكنان في حجرة فوق بيتهم وطابقهم الأرضي ، وقد ورثاها عن شقيقيهما الكبيرين صالح وجابر ، استيقظ فريد صباحا على صوت صراخ عال قريبا من بيتهم ، صوت يملأ الحي أو منطقتهم بالذات ، ونهض من نومه جافلا منزعجا ، فرأى ناجحا يقف إلى النافذة يشاهد الشارع ، فالتفت إليه ناجح وقال : صحوت ! .. شجار مع صاحبك فراس .

انزعج لوصف فراس بصاحبه وقال بضيق : ومن أين أتت الصحبة ؟ هو جار لا أكثر .. ولماذا هذا الصياح ؟

ـ مثلك صحوت على صوت عال ، فوقفت هنا ، فرأيت أخوة (فاتن) يحاولون ضرب فراس على الريق .. وارتفع صراخهم وتهديدهم .. يظهر أن أحدهم رفع عليه سكينا.. فصرخت أمه لمنعه ، وفراس يصيح "أنا لا أعرف أين ذهبت ابنتكم العاهرة؟ "فرد عليه أحدهم " آخر مرة خرجت من بيتك سكرانة يا نذل " .. فحمل فراس عصا ، وهجم عليه فاشتد الصراع والصراخ ، وتكاثر أهل الحي .

قام فريد وسار نحو النافذة حيث أزاح له شقيقه فسحة لينظر للشارع وتجمهر الناس ، وبعضهم يفرق ويحجز بين المتشاجرين ، وبعضهم تعصب لفراس .. فكبر الشجار ، وكثر التقافز بين المتشاجرين ، والصراخ يزيد ، وأخذ أحدهم السكين من شقيق الفتاة .. ثم حصل لكم ورفس وسب ، وعاد الفزيعة للتفريق بين الخصوم ، وسمعوا أحد رفاق فراس يصيح : ابنتكم لا تريد الزواج ممن اشتريتموه بالمال .. كل الناس تعلم لماذا هربت ؟ لا تريده .

فقذفه أحد أشقاء البنت الهاربة بحجر فجاء بصدره ، فصرخ ألما ووقع على الأرض ، فهجم بعض أصحابه على القاذف ولكمه بسرعة بعدة لكمات فطرحه أرضا ، واشتد الضرب والقفز على بعضهم البعض وأغلق بعضهم البيت على فراس وصاح أحدهم : الشرطة في الطريق لقد اتصل بهم أبو محمد

لم يكترث أحد لهذا النداء ، واستمر اللكم والمطاردة والسباب البذيء وصراخ النساء والبنات

فقال فريد : يبدو أننا سنتأخر عن العمل اليوم بسبب هذه المعركة الصباحية .. ناس بقر .. هل حضرت أمك الشاي ؟

ـ أمك وأبوك يقفان أمام البيت يتفرجون مثلنا.. وكذلك يقف أهل البيوت يتفرجون مثلنا .. وأسطح المنازل انظر إليها عليها الصبايا والناس .. فِلم حي ..

أخرج فريد رأسه من الشباك ونظر لتحت فرأى أمه فقال : أمي أمي

فرفعت أمه رأسها لأعلى وقالت : الشاي جاهز .. انزل افطر أنت وناجحا .

نظر فريد لناجح وقال : أمك تعرف واجبها .. وهذه ليست أول معركة في الحي .. رغم كل المفاسد المنتشرة في حي "أبو خروف" ، لكن انطلق الفساد والشر منذ جاء هذا الفراس لعنه الله كله شر .. الفساد والشر شائع ومنتشر بين الشباب والكبار والصغار سكر زنا

فقال ناجح : غرائز وقد خرجت من عقالها .. فلتت .. الناس يتهاونون في التصدي لها .. ويغضون الطرف عنها .. فاستفحلت وشاعت ، عندما أذهب لشارع الغرام الشارع المعروف خلف مدرسة البنات التي في آخر حي النجمة أول حينا

ـ أعرفه وما أنا إلا ابن الحارة.. شارع طلاب المدارس.. كم زرته وتمشيت فيه قبل الوظيفة !

ـ عندما اذهب إليه لأرى سلمى أحس أنني في أحد شوارع باريس .. أغلب الفتيات والمراهقين يتسكعون فيه .. فصرنا نبتعد أكثر .. صويحابتك يترددن إلى هناك .. اللواتي حدثتني عنهن

ضحك فريد وقال : مراهقة ..أغلبهن تزوجن يا ناجح .. وبعضهن رحلن مع أسرهن .. ولكن كان حبي شريفا طاهرا

ـ ليتني أعرف ما هو الحب الشريف الطاهر .. شاب تعرف على فتاة وعمره خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة وهي مثله.. هل سيتزوجان ؟! ما هو لا يملك ثمن تذكرة سينما أو عشاء.. ثم البنات يكبرن بسرعة ، وأغلبهن يتزوجن قبل العشرين .. فلأول طارق يزوجها

أهلها .. ما هو الحب الشريف يا ابن أبي صالح ؟

ـ الحب الشريف بكل اختصار يا أخي .. هو البعد عن الزنا .. قُبل .. مداعبات ذهاب إلى المطعم معا أو سينما رسائل .. أشرطة .. ورد .

ـ هذا هو الحب الشريف .. قاتل الله الجهل .. الشاي أكيد عاد ماء !



ينتهي عمل ناجح عصر كل يوم عمل .. لا يعود للبيت مباشرة ، إنما يدع أخواله الذين يعمل معهم متجها لوسط المدينة حيث المطاعم الزرقاء ، وأخذ يتمشى أمام هذه المطاعم المشهورة في وسط المدينة ؛ لأنه على موعد ؛ وكأنه لم يكن أول موعد فنظر لساعته ، وهو يتلفت في جميع الاتجاهات ، فلما صافحته قال : تأخرت يا زهرة !

ابتسمت له ورفعت شعرها عن صفحة وجهها : المواصلات .. كيف حالك ؟

ـ مشتاق .. هيا ندخل المطعم.. اليوم تركت الأكل مع العمال لآكل معك قبل الذهاب للسينما .. سمعت أن فلما رائعا يعرض في تلك الصالة

ـ نعم ، قرأت عنه في الجريدة .. وهذه المرة الحفلة على حسابي

ضحك وقال معاتبا : أليس هذا عيبا في تقاليد العشاق ؟

دخلا المطعم وصعدا للطابق الثاني حيث تجلس عادة العائلات في هذا المطعم الأزرق ، وجلسا إلى مائدة خالية ونظيفة فأقبل نحوهما لما استراحا للحظات عامل الخدمة فطلبا دجاجا مشويا على الفحم ، وبعض السلطات ، وطبقا من الأرز ، وعلبتي عصير البرتقال .

ولما ابتعد عامل الخدمة قال لزهرة : الحلوى في مطعم آخر .. فهزت رأسها بالموافقة فتابع .. أهلا وسهلا هل تابعت الحفلة اليوم ؟

نظرت إليه بدهشة ، ولم تفطن لم يشير إليه فهمست : أي حفلة ؟!

ضحك وتمتم : حفلة جارنا العزيز فراس وأبناء ...

ضحكت هي الأخرى وقالت : قصدك معركة الفجر .. مهزلة .. وصلنا خبرها .

ـ فعلا مهزلة ومسخرة .. الفساد في حارتنا زاد

ـ الفقر زاد ، والمخدرات زادت

وضع الطعام على المائدة فقال لها : تفضلي يا عزيزتي ..الواحد من سكان الحي قبل أن ينهي المدرسة أصبح عربيدا وخبيرا في شرب الخمر والدخان ..وبعضهم الحشيش

ـ وماذا كانت نهاية المعركة ؟

ـ لا شيء.. حتى الشرطة لم تأت.. أخذوا المصابين في سيارات خاصة للمشافي .. واستمر التهديد والوعيد .. والمؤسف حقا أن بعض أبناء الحي وقفوا مع المدعو فراس .. وفراس ادخلوه بيته وألزموه بالبقاء فيه حتى تهدأ المعركة .. بعدما دخل بعضهم وفتش دار فراس ، وأكد هؤلاء لأهل البنت أن لا أحد مختبئ في بيت الرجل .. وإنما هي هربت من الزواج ممن يريدون فرضه عليها .. وهل هذا حب يا زهرة ؟!

ـ الجنس حب! .. هذا زواج .. أنا لا أدري كيف تسلم فتاة نفسها لشاب بدون عقد زواج ؟! غلطة واحدة يتبعها غلطات .. عندما تستسلم الأنثى لصاحبها فماذا بقي بينهم ؟ .. شهر شهران ثم يبحث عن غيرها .. فهو سيتوهم أنها سلمت نفسها وبدنها لغيره وغيره ..ولما يهجرها بالتأكيد ستبحث عن عاشق جديد .. الحب الصحيح هو مثل حبنا .. نظر .. قبل.. حفلة سينما أو مسرحية.. مسك يد ..مداعبة بريئة.. طعام.. رحلة .. ثم زواج

كانوا يتكلمون ويأكلون فقال : زواج .. وهل ينتظر أهلك لنتزوج؟ .. إنهم عند أول طارق سيزوجونك .. وتنسين الحب وناجحا .. ما سمعنا في "أبو خروف" عاشقا تزوج من معشوقته

ابتسمت وقالت : فليبق الأمل في قلوبنا .. ونعيش هذه الصداقة والأيام التي قد لا تعود .. مشكلة الشباب العاشق أنهم لا يستطيعون الزواج وتكاليفه المادية .. والزواج غير الحب ..

لقاء مع فتاة لا يكلف كثيرا كما يكلف فتح بيت .. العشاق الصغار لا مال ولا ثروة ولا عمل .. والسن متقارب يا ناجح الغالي .. والأهل يرفضون مثل هذا الزواج .. ويعتبرونه لعب أطفال ومراهقين .. والأهل يا حبيبي لا يصبرون حتى يصبح العاشق قادرا على تحمل المسؤولية خشية أن تضيع الفرصة على الأنثى .. وأنا ليس أمامي لأعطيك فرصة إما أن نتزوج بأقرب وقت أو أدرس جامعة أربع سنوات ..

ـ وعندما تحملين شهادة الجامعة .. هل يقبل أبوك العزيز ناجحا البناء عريسا لابنته ؟

ـ ولماذا لا يقبل ؟ أنت موظف في شركة تعهدات كبيرة .. ومعك ثانوية عامة .. عندما تجمع مالك سيقبل أبي وأمي وعمي وخالي .. أما إذا جئت فارغا فلن ترى وجهي ؟

ـ أين الحب ؟

ـ ماذا أفعل حينئذ؟! .. أنهرب كما هربت ... ؟! إلى أين المصير بعد الهرب ؟

ـ لنحيا ساعات الحب هذه .. وندع الفكر الأسود .. وقبض على يدها وهو يقوم ويقول : هيا .. هيا إلى صندوق الحساب .

دفع الشاب ثمن الطعام والشراب ، ولما أصبحا خارج المطعم قال : عندما نخرج من السينما يا أحلى حبيبة سنتناول أحلى حلوى في المدينة .. هيا اقترب موعد الفلم . وأمسك بيدها كعادة العشاق ومشيا نحو دار السينما ، وعندما عاد من حجز التذاكر رأى زهرة تتحدث مع شاب ، وكانت هي تشير له بالابتعاد ولم يفهم قصدها واشارتها ، فاقترب وقال : من هذا ؟

تطلع فيه الشاب غضبا وقال : من هذا ؟! أنا ابن خالها ومن أنت ؟

لزم ناجح الصمت وقد رأى الرعب على وجه فتاته ، وفطن للتغير الذي رآه أثناء عودته فقال ابن خال الفتاة : من هذا يا زهرة ؟

فقالت بصراحة : صديقي .

فبحلق ابن خالها في وجهها وصاح حنقا : أوه صديقك !

وقبل أي تفكير صفعها على وجهها صفعة لفتت أنظار الناس إليهم ، وقبل أن ينتبه

ويستوعب ناجح ما حدث جاءته صفعة أخرى على وجه ، ودفعة أوقعته أرضا يتألم غضبا ، ونهض قائما ، وتماسك الشابان يلكمان بعضهما ، والتم الناس حولهما ، وقد ابتعدت زهرة عن المعركة بعد الصفعة التي تلقتها على وجهها ، وكانت الدموع تنهمر من عينيها كالمطر وتقول لنفسها " لماذا لم نولد في أوروبا ؟! "

ولما استطاع الناس حجزهما عن بعض ، مشى إليها ابن خالها وقال بنبرة حادة ساخطة : هيا يا ابنة عمتي .. هذا نتيجة دلع البنات والسماح لهن بالخروج من البيوت بعد المدرسة .. هذه آخرة ترك الحبل للنسوان .. هذا صديقك .. صار لك أصدقاء تمشين معهم في وسط الشوارع وأمام دور السينما .. سيموت صديقك .

فصاحت في وجهه وقد أعماها الغضب والقهر : انصرف يا نذل .. لو كنت شجاعا ما عملت لي هذه الفضيحة .. واحد نذل وماذا تفعل أنت على باب السينما ؟!.. اغرب عن وجهي قبل أن ألم الناس عليك يا نذل !

وتركته واتجهت نحو ناجح الذي كان يرقبهما بغضب وثورة وقالت : أنا آسفة .. كنت أريد تجنيبك هذا الموقف .. لكنك لم تفهم إشاراتي .. ربما الغيرة هيجتك .

ـ لا ، لم انتبه .. ظننت أن أحدهم يسألك شيئا عابرا

ـ هيا ندخل ألم تقطع تذاكر الحفلة ؟

ـ نعم، أنا آسف أيضا يا زهرة .. ندخل ؟

ـ نعم ، سندخل وليفعل ما يشاء النذل .. سنحضر الفلم أين التذاكر ؟

اخرج التذاكر من جيب قميصه فقالت : يهدد بقتلك الجبان

ـ هل نتزوج ؟

ضحكت وهما يدخلان باب دار العرض وقالت : بطل !!

بعد أيام من حادث باب السينما التقى فريد بشقيقه ناجح فقال له متهكما: ويلك ما الذي حدث لك يا ولد ؟ في المقهى كانت ريحتك فايحة .. ضربك قريب أبي فواز لأنه رآك أمام السينما مع بنت عمته .

ـ هو يضربني! .. أنا أضرب عشرة مثله ، هو غدر بي في أول ضربة بس ، ثم مسحت فيه الأرض ، ودخلنا السينما رغم أنفه .

ـ هل قابلتها بعد تلك الليلة ؟

ـ لا ، علمت أنها محبوسة في البيت ، وتعرضت لأذى شديد

ـ ممن عرفت ؟

ـ من البنات من أختها الصغرى

ـ أرى أن تبحث لك عن جو آخر

قهقهة ناجح وقال : موجود الجو يا حبيبي .. هي كانت تخرج معي في الأسبوع يوما واحدا .. بس هي أحسن فتاة التقيت بها .. كنت أتمنى لو أتزوجها .

ـ وما يمنعك من الزواج منها ؟!

ـ أنت في طريقي .

ـ أنا في طريقك لأني أكبر منك سنا .. إذا معك فلوس يا بطل تزوج فورا .. أنا لست في طريقك .. أنا لحتى الآن لم أجد الأنثى التي تقر عيني بها .. فتيات اليوم يردن ملابس كثيرة صالونات تجميل يوميا .. على كل حال كان أبوها في المقهى يشكوك للعم أبي صالح .. وسبك أبو صالح وسب أمك لما شبع .. وطلب منه أن تبتعد عن طريقها حتى تعود للمدرسة ، ولا تضيع عليها الدراسة .

ـ أنا لا أذهب لها عند المدرسة والطريق مفتوحة .. كنا نلتقي بوسط المدينة .. وأنا كتبت لها رسالة أن تنساني إن استطاعت .. يا رجل صديقتي أسمهان رآني أبوها معها وتظاهر بأنه لم

فضحك فريد وقال : أسمهان لا تدرس ، تتعلم الخياطة .. فأبوها ينتظر العريس بفارغ الصبر ليزوجها ويخلص منها .. ربما غرمت بعشر قبلك .. من أجل هذا غرش عنك
حك ناجح ذقنه وسكت للحظات ثم قال : بالك لهذا السبب سوّى نفسه أعمى وأدار رأسه عنا .. حتى هي لم تكترث .. عريس عريس الهنا .. جميل .. ألف جميل .. جن أبو أسمهان .. أنا أتزوج أسمهان! .. ربما أنا العاشر كما قلت .. هي لها يوم الأحد من كل أسبوع .. نتعشى في المدينة ، ونتمشى في شوارعها وأحيانا شوارع الضواحي مع حبات الترمس الأصفر والفستق والعصير ، وينتهي الحفل بأحلام وخيالات .. زواج حقيقي لم نفكر فيه بعد يا عم فريد .. وأخوها مروان شيخ العشاق .. في حي "أبو خروف" كذا مرة لقطته مع فتيات المدارس .. هو يفكر أن لا أحد معه سيارة إلا هو .
ـ هو أوقح إنسان عرفته ؛ ولكن كيف تقبل الفتيات المشي معه؟! .. على كل حال جهز نفسك لحفلة صاخبة من العم أبي صالح ، فلقد تعهد لأبي فواز أن يربيك من جديد ، وكيف لا تحافظ على عرض جيرانك ؟ فنحن لنا عرض فالذي يحافظ على عرض الجيران يحافظ على عرضه
قال: إنها تزعم أنني حبها الأول والأخير .. وتكتب أجمل الكلمات .. كلمات الحب .. وتبعث لي بأشرطة الحب الأغاني الجميلة .. أغاني الحب .. لماذا لا يمتع الإنسان نفسه منهنّ قبل أن يصير رب أسرة وأولاد وزوجة؟ .. الحياة صغيرة يا فريد .. سمحت لي بالزواج قبلك .
قال فريد : من الصبح .. اخرج مالك من تحت البلاطة وتزوج .. كم ألف معك ؟
ـ ولا ألف
قال متشككا : كله على البنات
ـ لا ليس كله .. كل أسبوع بنطلون وقميصه .. وكل شهر أو شهر ونصف حذاء .. الطعام الدخان بعض الخمر .
ـ أنت وعدت بترك الخمر

ـ لم يستيقظ ضميري بعد .. قبل أيام قابلت الشيخ خالدا، فقال لي " يا ناجح متى ستصير ناجحا؟ " فضحكت فقال " المسجد مكان جميل خاصة للشاب " لعلي أرى أحدا من أبناء أبي صالح فيه .. يداوم على الصلاة .. رأيت فريدا يوما على صلاة الفجر .. ففرحت له وقلت " بزغ الإيمان أخيرا في بيت أبي صالح الذي يعبد أوراق اللعب أكثر من عبادة الرب " .. قلت له الله يهدينا يا سيدي الشيخ .. ما أخبارك ؟ فقال " أنا قاض صغير في محكمة شرعية أنهى الماجستير ويشتغل بالدكتوراه"

ـ هذا احتمال أن نراه وزيرا في يوم من الأيام .. وزير أوقاف!



استيقظت أسرة أبي صالح على صياح وطرق شديد على بوابة البيت وذلك بعد صلاة الفجر ، وكان الطارق ينادي بصوت مرتفع : أبا صالح يا أبا صالح .. افتح أنا روحي الفران .

نهضت بسيمة أم فريد وقد ركبها الفزع والخوف ، ومشت للباب الخارجي وهي تقول بصوت عال والنوم غالب عليها : يا عم روحي الدنيا ليل ..

فرد عليه بصوته الصاخب : الدنيا الظهر .. زمان صلينا الفجر ..أين المعلم كمال أبو صالح ؟

ـ نائم

ـ نائم ..أيقظيه ، الدكان أصبحت مسروقة .. الحرامية كسروا أقفال الدكان .. وأنا أضع الخبز على طاولة أمام الدكان رأيت قفلا مطروحا على الأرض .. والباب مفتوح للأعلى قليلا .. قلت الحرامية سرقوا أبا صالح .. أيقظيه فورا

وكان أبو صالح بدوره قد استيقظ على صوت روحي الفران موزع الخبز .. ولما سمع الرجل يتحدث بصوته العالي عن سرقة نهض مسرعا وسمع آخر الكلام وصاح بغضب : ماذا قلت يا روحي ؟

ـ أسرع يا أبا صالح الدكان مفتوحة .. الأقفال مكسورة .. أحدهم سرق بقالتك .

هرع أبو صالح وفريد وناجح نحو الدكان الذي يقع على الشارع الرئيس ، وطول الطريق يولول أبو صالح ويصرخ : أين الشرطة ؟ أين الدورية ؟ أين الخفير الذي يأخذ كل شهر نصف دينار من كل محل لحراسة وحماية الدكان .. أين ..؟

وجدت الدكان مكسورة الأقفال ومفتوحة الباب ، ووجدوا صندوق الغلة نظيفا ، وهي بعض الفكة التي يتركونها عادة للاستعمال ، فأغلب الأموال يأخذها معه أبو صالح وهو منصرف للمقهى ، ثم عندما يغلق جابر الدكان بعد صلاة العشاء بساعة أو نصفها ـ وذلك يرجع للطقس ، والنظام الإداري الحاكم والمنظم للإغلاق والفتح للمحلات والمتاجر .. ـ يمر جابر على الوالد ويعطيه باقي المال ، ولما يسلمه جابر المال يدفع له ثمن عمله ..

حضرت الشرطة وعاينت مسرح الحادث وطريقة سرقة الدكان وقال أحد الضباط : ماذا سرقوا منك يا أبا صالح ؟

ـ كل صناديق السجاير .. والمرتديلا .. وبعض المعلبات من الجبنة والفول والحمص والبازيلاء ..

قال الشرطي: سجل المسروقات بقائمة ، وعندما يقبض على اللص سيرد لك كل شيء .. فالسرقة حادث يومي متكرر بالنسبة لنا .. وهذا شغل مراهقين عاطلين عن العمل .

فقال شرطي آخر : أتشك في أحد يا أبا صالح ؟

فصاح أبو صالح : أشك ! .. أشك في كل الناس .. هذه الأيام مشاكلنا كثيرة .

فقال الضابط : أتتهم شخصا أو أشخاصا معينين ما دامت مشاكلك كثيرة ؟

ـ هي مشاكل نسوان .. مع السلامة يا عمي ، عندما تقبضون على الحرامي الله يفرجها .

ـ هذه إحدى وظائفنا .. القبض على المجرمين والسارقين .. والسجن ما زال فيه وسع للصوص .. إذا كنت تتهم أحدا تتعجل برد أموالك

ـ لا يا عمي.. أنا لا أتهم أحدا .. حرام

لما اختفى رجال الشرطة قال أبو صالح متندرا : لصنا جوعان .. سطى على الأطعمة .. فقد

أخذ زجاجة بيبسي ، وأخذ ما تبقى من الخبز ، ثم كوش على علب الدخان يبدو أنه يدخن من جميع الأصناف ..

فقال فريد : لا يا أبي يبيعها .. يدخن بعضها ويبيع أكثرها .. لأنه سيسرق مرة ومرة .. السرقة وظيفة اللصوص .. كم كرتونة سجاير سرق ؟

ـ كان لدينا ثلاث ماركات حوالي عشر .. الله يهلكه ويموت منها .



كان فريد يستعد للانصراف من المقهى عند انتهاء دور اللعب الذي يلعبه ، فهمس جرسون المقهى في أذنه " هناك سيد ينتظرك في الخارج "

ـ ألم يقل اسمه ؟

ـ بلى ، اسمه فراس

ـ فراس ، من فراس ؟ جارنا يا ترى ؟! قل له ينتظر الدور في أخره يا معلم سليم .

وبعد انتهاء الدور دفع فريد ما عليه من مبالغ لرفاق اللعب وقال " ماذا يريد فراس أفندي ؟!.. ولماذا لم يدخل المقهى ؟ .. تصبحون على خير يا شباب ؟ وغادر المقهى فوجد فراسا يدخن تحت شجرة من أشجار الرصيف فالتفت إليه مناديا وهو يمشي إليه : مرحبا فراس .. لماذا لم تدخل ؟

ـ لا أحب هذا المقهى السيئ الذكر .. لي يومان متغيب عن الحي .. وفوجئت عصر اليوم عندما وصلت بسماع خبر سرقة دكان الوالد .. فانزعجت لما حدث للعم أبي صالح .. فجئت اسأل ما دام الأخ فريد هجرنا بلا سبب بين .

ـ معذرة يا أخ فراس .. أنا قضايا النساء قلت لك قديما لا أحبها .. فلما تيقنت أن النساء الفاسدات تتردد عليك فضلت الانسحاب والابتعاد

ضحك فراس وقال : عجيب أمرك! .. الذي يسمعك يظن أنك غير صياد للنساء

ـ صياد نساء لكن خارج الحي

ـ وما الفرق كلهن نساء ..؟

ـ وأنا مرة رأيت مزيود تخرج من بيتك ، وأنا منصرف من المقهى .. فظننتها مع عسود صاحبك .. وبعدها بأيام ركبت أنت وإياها في سيارة صالح

ـ صدق من غير يمين أنها كانت مع عسود ولما رآنا صالح كنت ذاهبا بها إليه .. وهي امرأة كما تعلم غير سوية .. وقد تكون مريضة بالسفلس كما أسمع .. المهم دعنا منها ومن عسود ..جئت أعرف ما الذي جرى للعم أبي صالح .. أرجو أن لا تكون خسارته كبيرة ؟ وماذا فعلت الشرطة ؟

ـ هل أنت عائد للبيت لنتحدث في الطريق ؟

ومشيا باتجاه مربعهم في حي "أبو خروف" قال فريد : الخباز روحي يأتي مع الفجر ، ويضع بعض أربطة الخبز أمام المحلات على الطاولات التي تظل خارج الدكان التي تصفف عليها صناديق الخضار والفواكه .. فوجد القفل على الأرض .. والباب نصف فتحة .. فأدرك على الفور أن المحل تعرض لسطو .. ففزع إلينا وجاءت الشرطة وحصرنا المسروقات ، ويبدو أن اللص لص جوعان وعطشان وحشاش .. حتى أنه أكل داخل المحل قبل أن يأخذ ما أخذ .. وأخذ الفكة لأننا لم نبق شيئا في المحل .. والشرطة تطارد عمنا اللص .. وأنا اشكر اهتمامك بنا .. وإذا اختفت سيرة النسوان اللواتي يترددن على بيتك ستعود الصداقة إلى ما كانت عليه.. قضايا النساء تثير الخوف .. وقبل فترة رأيت أهل البنت الهاربة ماذا فعلوا في الحي ؟ .. مع معرفتهم أن ابنتهم فاسدة .. صاروا أشرافا ..وربما قد سمعت بحكاية ناجح وابنة أبي فواز

هز فراس رأسه وقال : اخبرني بها الزوار .. قالوا تعرض للرفس والصفع أمام السينما .. البنت كانت جدعة ووقفت معه .. وساقته للحفلة رغم أنف ابن خالها .. هذه بطلة وشجاعة

ضحك فريد وقال : والله ما ادري ما هي الشجاعة التي تتحدث عنها؟! .. هل إذا رأيت البنت تتسكع في الشوارع ليلا تكون شجاعة ؟! هذه نذالة وقلة تربية .

أخت ناجح

جلست مجموعة العواجيز في زاوية المقهى المعتادة لهم ، فهم منذ سنوات يتفيؤون تلك الزاوية من المقهى ، ربما منذ أنشئت تلك المقهى .. بدأ اللعب بين أربعة منهم ، وأخذ الثلاثة بالفرجة على اللعب ، واشتغل نقل القصص والأنباء، قال سلمان : آ ، يا أبا صالح ، هل قبضت الشرطة على الحرامي الذي اعتدى على دكانك ؟

تنحنح أبو صالح وترك الورق على الطاولة واستدار لسلمان وقال " عشم إبليس في الجنة .. أتسمع بهذا المثل ؟"

ضحكوا وقال أحدهم : كلنا يسمعه ويعرفه.

وقال آخر : أنت لا أمل عندك في عودة ما سرق .

فقال أبو نوح : عمري ما سمعت أن أحدا سرق طعاما ودخانا وأعاده .. فهي قد دخلت البطون ، وربما خرج أكثرها .

فضحكوا قليلا وقال أبو صالح : معك حق .. والعجيب والغريب كما يقول جابر إن الرجل سرق دفتر الديون .. دفتر الديون اختفى ..

فصاح أحدهم : هذا لص مديون لك

ضحك أبو صالح وقال : ربع أو ثلث الحي مديون لي .. بعضهم خمسة دنانير .. بعضهم عشرة دنانير .. بعضهم خمسون دينارا

ـ كيف ستعرف ديون الناس آخر الشهر ؟ وآخر الشهر على الأبواب يا صاحب الدكان ؟!

فأجاب كمال نزو : سأترك الأمر لضمائر الناس .. وضحك

رفع ورقه عن الطاولة وعاد اللعب فقال نعمان مداعبا : أبو صالح يظن نفسه في زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وعن كل الصحابة .. أين الضمير ؟

فسخر أحدهم وقال : لعله ضمير قواعد اللغة العربية .. أيام المدرسة أذكر كانوا يعلموننا ضمير الرفع والنصب والمتصل والمنفصل والظاهر والمخفي .

فعلق سلمان : ما شاء الله! .. تصلح لتعلمنا قواعد العربية ..

ـ كنت أشطر طالب في اللغة العربية .. لا تنسى يا سلمان أن تعليم أيام زمان أقوى من تعليم هذا الزمن .. اللغة أصبحت معقدة عند الطلبة .. كرهوها لهم

فقال أبو أحمد : يا رجل لا يحسنون الكتابة ..خرابيش دجاج كما يقال .. أخي الأستاذ المعروف لكم أبو حمزة .. يقول عندما نصلح أوراق التلاميذ نحتاج لوقت ونحن نترجم الخط .. تظن نفسك تقرأ لغة صينية أو هندية .. رسم ..

فقال أبو صالح : لغة عربية .. لغة صينية .. ليس أمامنا لتحصيل حقوقنا إلا الضمير الذي في وجدان الإنسان .. سواء ضمير الدين ضمير العربية

قال أبو سلمى غانم : أبو صالح بعد سرقة الدكان أصبح يجيد الظرافة والمزح .. يبدو أن اللص حسن أفكار أبي صالح .. أمس صلى العشاء معنا ، وطول الصلاة وأنا مشغول مع إبليس اللعين لماذا صلى أبو صالح العشاء؟ .. لا ميت في المسجد ليصلي عليه .. وفي النهاية قلت .. لعله تاب .. والعصر لم أره .. يدخل الجامع إلا إذا صلى في دكانه أو في الطريق

ضحك القوم ، وقال أبو احمد : وحدث لي ذلك يا أبا سلمى

وقال نعمان المحب للمزح : احتمال أن أبا صالح صار يصلي حتى يحمي الدكان من اللصوص بالتقوى .

وقال سلمان : لعله بالصلاة يكشف عن السارق

فقال أبو صالح : أتريدون معرفة سر صلاتي العشاء ليلة أمس ؟ ذهبت لمراحيض الجامع ، ولما خرجت منها رآني شيخ الجامع أقف أمام دورة المياه فاستحييت منه فتوضأت ، وقد وقف يتحدث معي عن سرقة الدكان ويسألني عن الشيخ خالد غزي الذي بيني وبينه طرف قرابة ، فقلت له يا عمي الشيخ هو يجلس على كرسي القضاء في إحدى المحاكم المختصة بالزواج والطلاق .. قاض شرعي وطلب مني توصيل السلام إليه وقال " لقد درسنا في كلية الشريعة معا " .. فهذا الذي جعلني أصلي العشاء معكم ، ليشغل إبليس قلب أبي أحمد وأبي سلمى

ويغفل القوم عن صلاتهم .

فقال أبو أحمد ضاحكا : أنا ظننت أن الضربة أيقظتك من غفلتك ومن الدنيا .. الآخرة تحتاج للعمل .

ـ الله يهدني للصلاة .. العب يا ...



عرفنا أن ناجحا بعد مغادرته وظيفته في شركة مقاولات ينصرف لوسط المدينة حيث يلتقي بصديقاته ، وبينما هو يتمشى في شارع من شوارع المدينة الصاخبة التقى بشاب من حيه ويعرفه حق المعرفة ، وبعد السلام والترحيب قال الشاب سلمي : أحد رفاقي شاهد أختك فريدة تتمشى مع شاب هامل .

نظر إليه ناجح متشككا: أمتأكد أنها أختي يا سلمي ؟

ـ هو قال لي ذلك ، وهو متأكد سألته نفس سؤالك .

قال : من أجل هذا عندما رأيتني قبل يوم أخبرتني أنك تريدني بأمر خطير؟!.. صاحبك رأى شقيقتي مع شاب هامل في قلب المدينة هذه ؟!

ـ أجل ولما سألته كيف عرفتها ؟ وأنها أخت صاحبي ناجح .. قهقهة وقال " عيب يا سلمي .. نحن أبناء منطقة واحدة .. فأعرف كل بنات حيكم .. وذهبت للشوارع التي حول مدارس الإناث عشرات المرات .. وأنا أعرفها وأعرف أهلها وهي تعرفني .. ولما حدقت إليها النظر أدارت

وجهها ، وقالت للشاب أسرع هكذا فهمت وفعلا أسرعا .

فقال ناجح بغضب مكتوم : والشاب قال لك كل ذلك.. وهل عرفتم الشاب الساقط ؟

ـ نعم ، يا ناجح .. هو شاب من نفس الحي .. وبيته في جبل حي "أبو خروف" .. خلف

المسجد والمقهى .. قال لي صاحبي بعد ضغط عليه اسمه فادي

هزّ ناجح رأسه وقال بتوتر : لي صديق يحمل هذا الاسم في تلك النقطة من الحي .. فادي شيك .

صاح سلمي : نعم هذا اسمه الكامل .. هو صديقك .

اهتز غضبا وسخطا : خائن ! ملعون .. أحد معارف المدرسة أيام المدرسة .. لم يجد إلا أختي ليصاحبها .. اللعين سوف يرى عاقبة الغدر والخيانة .

فقال سلمي بخبث : عليك أن تتأكد قبل فعل أي شيء

فقال ناجح : أتأكد ! .. ألم تقل لي قبل لحظات أن صاحبك يعرفه ويعرف اسمه ويعرف أختي اللعينة ؟

ـ ربما أخطأ أو بينه وبين شيك ضغينة وحقد

تطلع في عينيه وقال : جائز .. حسنا يا فريدة .. صرت تمشين مع الشباب وأنت في سنة الثانوية العامة .. تريد أن تدرس في الجامعة كما تطلب من أبي .. شكرا يا سلمي أرجو أن تسمع أخبارا سارة عن فادي شيك ، وأخذ يقذفه بالسباب والشتائم حتى نفس عن نفسه أمام سلمي الذي قال : أين ستذهب بعد أن كشفت لك السر ؟.. أنا فعلت ذلك لأنك عزيز عليّ يا ناجح ..حتى يرتاح ضميري نحوك .. لا تزعل مني .

ـ ابدأ ، أنا شاكر لك هذه الشهامة .. سأعود للبيت مع السلامة .

ابتعد سلمي وهو يبتسم من أعماق فؤاده ، قضى على غرور ناجح الذي يزعم أمامهم أن لكل يوم عنده حبيبة .. يقضي معها ساعات المساء ، وابتعد ناجح وهو يقول بسخط : يا ويلك يا سلمي إن كنت كاذبا بهذا الخبر !.. قبل سنة كانت أخته إحدى صديقاتي .. قبل أن تتزوج .. وهي التي قالت لي إن سلميا رآنا أكثر من مرة .. هل ينتقم مني اللعين بهذه القصة ؟! ..أو ليست فريدة أنثى في حارة فاسدة ؟! وأسرة فاسدة .. ماذا أفعل عندما تأتي سمر؟.. نتعشى اليوم فقط ونعود .. الحجج كثيرة .. وسأراقب فريدة .. يا ويلك يا سلمي إن كنت ماكرا

مخادعا منتقما

استقبل سمر والغضب يخيم على وجهه وتصافحا وقالت : أين الابتسامة الحلوة التي ترسمها على وجهك عندما تراني ؟

فرد بحزن : تعبان .. سنتعشى يا سمر العزيزة وسأعود للبيت .. لا سينما الليلة .. أين صاحبتك التي قلت سترافقنا في هذا المساء ؟

ـ نوال جاء صديقها وانصرفت معه

ـ كم صديق لها ؟

ـ هي تعترف باثنين ، وأنا أظن أنهم على عدد الأسبوع .. إنها تأمل أن تكسب أحدهم في النهاية ويتزوجان ، واحد سيكون زوجها الشرعي

ـ لماذا يحب الشباب الزواج ؟ أليس أن نبقى هكذا أحسن ؟! .. المرأة مريضة .. المرأة حامل .. المرأة ولدت .. المرأة مرضع

ضحكت وقالت : هذه هي الحياة بالنسبة للمرأة .



أصابته الحيرة في الطريقة التي عليه أن يتبعها للتأكد مما أوحى له سلمي نحو شقيقته الوحيدة فريدة ، وللهروب من تبعات ما ألقي إليه يردد قائلا " أليست هي كباقي عالم حواء ؟ لها قلب وعواطف ..لازم أن تحب البنت قبل الزواج .. وهل يلزمنا أن نحب ونعشق قبل تكوين أسرة ؟.. فساد في فساد ، لماذا لا يقبل الشاب لنفسه ما يقبله للآخرين ؟ .. عندما اعتدى عليّ قريب زهرة .. غضبت وثرت .. ولم أرضى تدخله في شأننا .. وسررت بموقفها معي .. ضد ابن خالها .

أخذ يفكر ويتذكر ذلك اليوم الذي صفعه ابن خال فتاته زهرة .. ثم المشاجرة الحادة بينهما ..

وبعد حين عاد يهمس في جنبات بدنه: كيف سأكشف الطابق ؟ هل أفتش غرفتها وانحرافها ؟ .. وهل تكفي الرسالة لإدانتها ؟ وإذا واجهتني وقالت " ما عدد الفتيات التي تسهر معهن في شوارع المدينة؟!" بماذا سأرد عليها أمام العائلة ؟" سأضربها كفا أو لكمة .. هل أشرك فريدا بالموضوع ليتحمل المسؤولية مثلي ؟ أم أعالج المشكلة بمفردي ؟..هل أترك العمل أياما لمراقبتها ؟ أم أذهب لفادي وأواجهه بما سمعت عنه ؟ واجبره على خطبتها حسب الأصول .. وهل فادي يحب فريدة حقا ؟ أم عابث بها ..أليس له فتيات مثلي ؟.. ولماذا تغار؟ وأنت تزعم حب عدد من البنات ؟ أتغار على محبوباتك ؟ يا الهي لم أفكر بمثل هذه الورطة من قبل! .. وهل بناتنا ملائكة ؟ والله كبرت يا فريدة .. لابد من اقتحام غرفتها بحجة البحث عن شيء .. عن ماذا ؟ وهل ستترك المحروسة رسائلها أمامي ؟ لابد أن أحاول .. حسن وإذا وجدت رسائل الغرام والهيام ماذا ستفعل يا جبان ؟! الأفضل أن تغض الطرف كأنك لم تسمع بشيء .. هذا سلمي خبيث حاقد .. النمس لم ينس قصة حبي لشقيقته قبل سنوات قبل زواجها .. كانت إحدى حبيباتي .. وأخذ يتخيل قصة حبه لشقيقة سلمي بضع دقائق ، ويتذكر لقاءاتهما وحبهما الموهوم .. ثم قال : سمعت أنها ولدت ، أضحت أما .. ليتني أراها وأرى زوجها السعيد بها .. ولماذا أتمنى ذلك ولماذا ؟! وردد قائلا: الذي يتطلع على عورات الناس تتطلع الناس على عوراته .. أليس هناك شعر قرأته بهذا المعنى ..؟

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايباً فدعها وقل يا عين للناس أعين

هل سأخبر فريدا وأبا صالح بقصة عشق أختنا ؟ .. فادي شيك يغدر بي هل له أخوات ؟ أذكر أن له أختا فاتنة .. ولكنها تزوجت .. وله أخوات صغيرات ، سيكبرن .. وأنا لهن بالمرصاد ..أي مرصاد ؟ ستظل عازبا حتى يكبرن .. قد يكون فادي غير عالم بأنها شقيقتي أم هو يريد الانتقام مني .. لقد صاحبت بنت خالته شهرا من الزمان .. ثم بصقت على وجهي .. عندما انحنيت لتقبيلها .. قاتلها الله .. ما هو الحب ؟ هل ما نحن فيه يعتبر حبا ؟ هذا ما هو

حب .. إنه عبث لهو تسلية .. كما قال أحد الزملاء نقلا عن مدرس .. قال معيبا علينا هذا الشغف بملاحقة المراهقات "هذه علاقات مراهقون زائفة " واعتبرنا سخفاء جهال ، وحدث عن حب قيس وليلى وعنتر وعبلة وغيرهم ، وذكر له أحدهم حب امرؤ القيس شاعر المعلقات السبع .. فاطمة وعنيزة .. وغيرهن .. ألم يكن حبّيب مثلنا ؟ .. نسي أستاذنا حب عمر بن أبي ربيعة شاعر بني أمية المخزومي .. نسي حب أبي نواس شاعر العصر العباسي .. النماذج التي تمثلنا كثيرة وكثيرة .. وفريدة من أي طائفة حبها لفادي شيك ؟.. قد يخطبها إني أعرف أنه شاب جاد إنه فاسد .. كيف أحبها ؟ ولماذا فريدة ؟ وأين رآها ؟ ربما عن طريق فتاة راسلها .. فقد سمعت أنه كاتب رسائل حب وغرام لا مثيل له .. فبعض الشباب يستفيد من موهبته في كتابة الرسائل لمعشوقاتهم .



اضطر ناجح كمال إلى إلغاء كل مواعيده الغرامية النسائية المسائية ، ويرجع للبيت عند انتهاء الدوام عصرا ، مما لفت نظر فريد الذي كان لا يراه إلا عند نصف الليل يدخل البيت مع رجعته من المقهى الشعبي ، فيجده يكمل سهراته على التلفزيون ، وأحيانا يراه عند الاستيقاظ في الصباح للاستعداد للانطلاق للعمل ، وكذلك أيام العطل الرسمية وغير الرسمية ، فلما أخذ يراه عصرا ومغربا ولمدة ثلاثة أيام فقال : يا ولد لم تعد تسهر مع الصبايا والأفلام .. صرت تعود مبكرا .

ابتسم وقال : ما انتبه لذلك إلا أنت !

ـ لأنني شريكك في هذه الحجرة .. الجو ملوث عندك هذه الأيام .

ـ جدا جدا .. أوقفت سهراتي النسائية .. توفيرا للمال ..هناك مشكلة تؤرقني هل عندك وقت لسماعها؟ .. إنني أراك تتجهز للخروج ..أم إلى المقهى ؟

قال: مشوار لصديق يسعى لتزويجي من أخته لأكف عن البصبصة والتلصص والحب .

ـ يعني هذا أنك لم تر العروس أخت الصديق بعد !

ـ اليوم سأرى أخا العروس .. فهو تحدث معي من أيام في موضوع الزواج وقال " بعدك تطارد المراهقات يا رجل .. لم تكبر .. صاحبنا مازن رآك تمشي مع فتاة عمرها ستة عشر عاما في حديقة النور" .. فحزن عليّ وحدثني عن رغبته بمصاهرتي لأكبر .. سأحدثه عن ظروفي المادية الضعيفة .. فإذا وافق الهوى هواهم سنسعى لرؤية المدام .. ونرسل الأم والأخت .

فتمتم ناجح : الأخت ؟!

ـ أليس هكذا العادة ؟ ومعهم خالتي أم ريان .. أنت لك ثلاثة أيام تعود من الشغل للبيت لماذا ؟ هل تغير برنامجك الجزئي .. أم أن الفقر ضرب عليك ؟

قال متسخطا : أبدا .. هل عندك وقت للسماع ؟

ـ إذا القصة طويلة أجلها لصباح الغد .. لأنني بعد المشوار الخاص سأذهب لمقهى العم عزب

ـ المقهى .. ألا تتعبون من قعدة الكراسي الأثرية ؟

ـ تعودنا عليها .. السلام عليكم .. سأساعدك في حل المشكل قبل الخروج للعمل .. غدا صباحا ذكرني

ـ لعلي أفعل .. سلم على صاحبك الذي يرغب بمصاهرتك

هبط فريد الدرج ولحقته عيون ناجح حتى اختفى بدنه وصوت نعله ، ووقف بجوار النافدة فشاهد فراسا يقف أمام البيت مع شاب فقال لنفسه : هذا الوجه ليس غريبا عني .. من هو ؟ آ .. تذكرته هذا من حي (السعادنة) حضرت له معركة ضرب موسا وضُرب موس .. فها هو قد شفي منه وتعافى .. ما اسمه يا ناجح ؟ ينادى بالصرصور .. لماذا صار صرصورا ؟ لأن صوته يشبه نغمة صوت الصرصور .. ولماذا هو هنا ؟ هذه أول مرة يجيء إلى هنا .. ربما جاء قبلا ولم تره .. فأنت تعود مع نصف الليل مع آخر الفِلم .. بس هذا الصرصور كما علمت حراميا .. سراق .. هل له يد في سرقة دكاننا ؟ .. دكاننا صغير .. الذي يريد أن يسرق يسرق محلا كبيرا ..

ارتد لسريره للحظات ، ثم نزل الطابق الأسفل متظاهرا بالبحث عن كتاب : إني لا أرى فريدة يا أم فريد ؟

ـ ذهبت لبيت خالتها أم ريان تأخذ درسا في الإنجليزي .. فابنة خالتك مدرسة إنجليزي .. فابنة خالتك جارة لأمها في آخر حي النجمة أول "أبو خروف" عند الدوار .

دخل الحجرة الخاصة بفريدة تطلع يمينا وشمالا .. نظر مكتب فريدة الصغير ..اقترب من خزانة الثياب فقال لنفسه " أين نبحث ؟.. وهل ذهبت حقا عند خالتي أم ريان؟ استدار نحو الباب وقال لنفسه " سأذهب إلى هناك زاعما أنني مار من هناك ورغبت بالسلام على خالتي " وقبل الخروج من الغرفة تابع البحث بعينيه عن مكان قد تخفي فيه رسائلها السرية .. ألا أتلقى الكثير من الرسائل والأشرطة الكاسيت ؟ .. وآخذ الشريط من هذه وأعطيه لتلك .. اقترب من طاولة القراءة .. والتي عليها مسجل (آلة التسجيل) وبجواره عدد من الأشرطة .. قلبها

وقرأ أسماء المطربين .. أسماء معروفة بالغناء العاطفي العربي والغربي وقال " أتسمع فريدة هذه الأغاني ؟ " " أغاني معروفة ويكثر ترددها في الإذاعات والتلفزيون .. وماذا يسمع الناس هذه الأيام ؟.. أشرطة الشيوخ .. ماذا تسمع الفتيات وحتى النساء المتزوجات ؟"

وهو خارج قالت أمه : أوجدت الكتاب ؟

فالتفت إليها وقال : لا ، سأذهب أبحث عنه عند أحد الزملاء .. وعندما ترجع فريدة قد أسألها عنه إذا لم أجده عندهم .. لي مشوار قرب الدوار عند بيت خالتي أم ريان ، وقد أمر عليها ، وأسلم عليها ، وأرجع مع فريدة

ـ مع السلامة سلم على خالتك وزوجها أبي ريان

اتجه إلى الشارع العام ومنه نحو جهة دوار حي "أبو خروف" الجنوبي ، ورحبت به خالته أم ريان ، وسألته عن أمه وأبيه وإخوته وهل قبض على الحرامي؟ ولما انتهت أسئلتها وسماعها أخبار أسرته ، سألها عن فريدة قالت : جاءت وقضت بعض الوقت مع ميمونة ، ثم ذهبت لبيت صديقة لها ومعها في المدرسة قريبة من هنا.

شرب الشاي وهو يكاد يغص به من سوء الظن بفريدة ، ولما انتهى منه

استأذن ، وطلبت منه أن يسلم على أمه وأبيه ، وطلب منها أن تسلم على أبي ريان وريان وميمونة والأسرة كلها

وخرج حانقا " ذهبت تزور صديقتها في المدرسة " ، ولما أصبح في الشارع أشعل سيجارة وقال " أين هذه الصديقة يا معلم ناجح ؟ هل هذه الصديقة فادي شيك ؟ إلى منزل فادي شيك" .

اتجه إلى الجبل المحيط بغرب "أبو خروف" الذي يقع خلف المسجد والمقهى وصعد الدرج الموصل لبيت فادي شيك طرق الباب وخرج له شاب عرفه وقال دهشا : ناجح يا أهلا بك ..

ـ كيف حالك يا رامي ؟ كبرت .. أريد فاديا بكلمة قصيرة .

ـ فادي.. قبل ربع ساعة خرج أو نصف ساعة .. هل تتفضل ؟

ـ لا ، أريده شخصيا

ـ إذا لديك رسالة معينة أوصلها له

ـ سوف آمر عليه ثانية .. ألا تعرف أين ذهب ؟

ـ لم يخبر بشيء .. ربما عند جبران النسر

ـ جبران النسر



لما دخل البيت سألته أمه عن خالته وزوجها أبي ريان فزعم لأمه أنه لم يرها وطلب منها إبريقا من الشاي ، وصعد ناقما إلى غرفته ، وطرح نفسه على السرير وقال : يبدو كلام سلمي صحيحا .. ساعة مع الدرس وساعة مع الحب والعشاق ، وناجح يتسلى في وسط المدينة .. وعامل نفسه ديك الشباب .. وفريد ملزق بالمقهى يلعب القمار .. وأبو صالح جالس يستغيب أهل الحي ، وينهش لحمهم .. وفريدة ماذا تفعل ؟ هو الحب حلال للرجال .. وحرام على النساء .. ماذا تفعل أختك لهذا الوقت ؟

نادت عليه أمه لينزل لأخذ الشاي ، نهض قائما فوقف أمام الشباك ينظر الشارع ساحة الحي أو مربع بيتهم ، ووجد فريدة تتحدث مع فراس أمام البيت .. فتضايق جدا وقال : ماذا يريد منها هذا اللعين ؟ هل يشحد صحنا من الطبيخ ؟

فتابع المشهد بعينيه حتى رآها تتجه لباب البيت فنزل الدرج ، ولما دخلت الدار قال بغضب واضح على وجهه : أين كنت يا فريدة ؟

نظرت إليه باحتقار وقالت : أنت تسألني هذا السؤال ؟ ألم أقل لك لا تسأل مثل هذا السؤال منذ سنوات ؟

قالت الأم التي كانت تقف أمام باب حجرتها : كيف خالتك يا فريدة ؟

فرد ناجح بسرعة: لم تكن الأخت النابغة عند خالتها يا أم فريد لما كنت هناك

فقالت فريدة بحدة : إلى ماذا تريد أن تصل يا بطل النسوان ؟ ما هي أخبار بنت أبي شادي ؟ وبنت أبي نبيل ؟

أدرك أن قصصه مكشوفة ومعروفة فقال : هذا أنت تعرفين أسراري الخاصة

ضحكت بسخرية : أسرارك الخاصة .. وهل لك أسرار يا بطل ؟ .. لقد تطوعت بعضهن بإهدائي رسائلك .. يا بطل النسوان

فاشتد غضبه وضيقه وصاح : مع من كنت من الرجال عفوا العشاق .. مع فادي شيك

فقالت وهي تضحك : فادي شيك زمان بطلت عنه .. هذا ولد بخيل

فصاحت الأم لهذه الفضائح : ما الذي أسمعه يا أولاد ؟!

ردت فريدة متهكمة : نتحدث عن حبيبات ناجح ، الفتيات اللواتي يتعشى معهن في المطاعم الزرقاء، ويذهب برفقتهن للسينما والحدائق

نكس ناجح رأسه ، وأخذ الشاي الذي ما زالت أمه تحمله منذ نادت عليه ، وصعد ، وهو على نصف الدرج التفت لفريدة وقال : وماذا يريد منك فراس الحرامي ؟

فردت بوقاحة : يطلب يدي ، يريد الزواج مني

ضحك ضحكة خاطفة وقال: زواج ! هذا يصلح للزواج ؟

ـ أو ليس رجلا مثلك ؟!

ـ لسانك طويل يا فريدة .. سوف أقتلك في يوم من الأيام

ـ تقتلني .. ولماذا تقتلني؟ .. هل رأيتني ... ؟ وحتى لو فعلت ذلك لا دخل لك فيّ .. ربّ نفسك قبل أن تربي غيرك

ـ أنا رجل يا فريدة .. لا أسبب أي عار للعائلة

ـ اسمع أنت أبغض الناس إليّ .. لا تتكلم معي يا شريف .. طهر نفسك قبل أن تتحدث عن العار والشرف .. أمي وحدها التي يحق لها أن تتكلم معي .. حتى أبي لا دخل له بي وكانت

الأم تلزم الصمت ، فهي تعرف لسان فريدة أكثر من ناجح ، وتابع ناجح صعوده وهو يقول : مبارك عليك فراس الحرامي .. تزوجي من عشيق مزيود

=+=+=+=

أدرك ناجح أنه ضعيف أمام أخته الثائرة على أخلاقه وسيرته ، أخذت صورة قديمة عنه ، فقد رأته أيام المدرسة وهو يحتضن طالبة مثلها ، ويقبلها في يوم ماطر ، عندما دخلت دكان أبيها بوجبة طعام أرسلتها أمها بها ، وقال لها : إننا نحب بعضنا يا فريدة " .. ثم صرف الفتاة ، وأخذ يبرر لفريدة موقفه باسم الحب ، وأخذت فريدة بعض الأشياء للبيت ولها وانصرفت .. فظل الريب والحذر بينهما ولا يتحدثان معا ، وبعد زمن عادت فريدة متأخرة للبيت ، فسألها عن سبب تأخرها فقالت : كنت في الدكان . مشيرة لتلك الحادثة فغض بصره ولزم الصمت ، وحذرته يومها أن يسألها مثل هذا السؤال فصاح لنفسه قائلا " ولكني كبرت كبرت اليوم كبرت اليوم يا فريدة لست ذاك الفتى الغر .. أنا أعمل ولي مال .. ولكني خائن .. خائن لكل الفتيات .. يعرفن أنني عابث بهن .. يعرفن علاقاتي مع الأخريات .. على فريد أن يعرف ويتدخل .. أنا ضعيف جبان .. ملوث .. قضى ليلة على جمر .

ولما استيقظ صباحا أيقظ فريدا وكشف له ما سمعه عن فريدة .. ولما صمت قال فريد : أصحيح ما تفوهت به ؟!

ـ هذا ما نقل لي .. ولا أدري كيف أتحقق من كذب وصدق هذا الوشاية ؟ .. ما موقفنا من هذا .. أنا جبان .. لا أستطيع أن أفعل شيئا .

قال فريد بتفكر : اهدأ يا غلام .. علينا أن نتحقق من صدق الخبر .. سأسعى لمقابلة فادي شيك وسأعرف منه الحقيقة ..

ـ قالت إن فراسا عرض عليها الزواج .

ـ كيف ؟!

حكى ناجح لحظة وقوفه غروب أمس على الشباك ، ومشاهدتها تتحدث مع فراس ، ولما سألها

ماذا يريد منها الحرامي فراس ؟ قالت طلبني للزواج ، وختم كلامه فقال : اذهب وتحقق منها إذا لم تسرِ للمدرسة .

هتف فريد دهشة : المدرسة أي مدرسة ؟! .. اليوم الجمعة .. لماذا أيقظتني أصلا ؟

ـ صدق أنني لا أدري أن اليوم الجمعة ..آسف لإيقاظك .. نحن نسمح لأنفسنا بالحب لبنات الناس .. وتدب فينا الغيرة عندما يحدث هذا الحب لأخواتنا .. بدأت أعذر ابن خال زهرة بتلك الصفعة .. وتحسس خده

ضحك فريد بصوت عال : اذهب واعمل لنا إبريقا من الشاي لنحسن التفكير وننشط المخ المتلبد .. فأمك اليوم في إجازة بسبب العطلة

ـ أنا أعتذر مرة أخرى

ـ لا ينفع النوم بعد هذا الاستيقاظ .. وبعد سماع هذه الأخبار السامة .. اليوم عندنا نزهة جميلة إلى مدينة (البحرية) لشم الهواء النقي .. بما أنك متوتر ما رأيك بمرافقتنا وما دمت قد أخذت إجازة من فتياتك ؟ ..

قال: والبرد ؟ قال فريد : نلبس ملابس البرد .

ـ من سيرافقك ؟

ذكر له عدة أسماء فوافق على المرافقة في هذه النزهة الشتوية إلى بيت صديق لهم له مزرعة جميلة ، وسأل عن الكلفة المالية ، فقال : مبلغ بسيط أجرة الطريق .. أسقنا الشاي .

نزل الدرج ودخل المطبخ الصغير وصنع إبريق شاي ، ولما صعد بالشاي وجد فريدا مغمضا عينيه فأيقظه ففتح عينيه وقال : سهت عيناي .. أمس

سهرنا طويلا .. ذهبنا لبيت سامي بعد مغادرة المقهى

تناول الشاي وشكر شقيقه وقال : على العاشرة سنكون في بيت مروان .. ثم نشتري أغراض الرحلة .. من لحوم وخضار وفواكه .. ربما يذهب بعضنا لسوق الخضار الكبير .. وسنأخذ فطورا خفيفا نقضمه أثناء الطريق .

زواج فريدة

كان فادي شيك يجلس في حديقة عامة عند غروب شمس أحد الأيام .. وكانت تجلس بجواره فريدة كمال ، وكانوا يأكلون البوظة رغم الجو البارد فقال لها : إخوتك عرفوا بأمرنا .. ما العمل ؟

فقالت : أتخافهم يا فادي ؟

ـ ليست القضية يا فريدة قضية خوف وشجاعة .. زارني فريد بالبيت ، وسألني عن علاقتي بك .. فاعترفت له بحبنا الشريف العفيف

ضحكت فريدة ساخرة: حبنا العفيف ، ونحن زوجان بعيدان عن بعضهما .. آ يا شريف يا عفيف .. أكمل .

ـ المهم وعدته بالزواج منك بأسرع وقت ممكن

قالت بنفس اللكنة الهازئة : قصدك الزواج الشرعي

ـ آ .. ولكن لا أملك تكاليف الزواج .. كيف سنتزوج ؟

ـ كما يتزوج البشر .. أنا استسلمت لك وملكتك جسدي لأنك وعدتني بالزواج بأسرع وقت ممكن .. ولي أشهر انتظر .. أخشى من الحمل كما حصل سابقا .. ولكنه سقط بسبب شرب بعض الأدوية والقفز كما قلت لي ..

ـ أنت لو استعملت الحبوب التي أعطيتك إياها لما حملت .. أو لعلها فاسدة .. الأمر انكشف لإخوتك

ـ هل علمت أن فراسا يعرض عليّ الزواج ؟

ـ فراس جاركم ..

ـ فراس جارنا .. يرغب بالزواج مني .. إذا أنت لا تريدني سأقبل به .. أنت أوقعتني في شباكك يا فادي ، عليك أن تحسم الأمر قبل أن يصل الأمر للطب الشرعي وننفضح

ـ عليّ تدارك الأمر .. كيف سنتزوج بدون مال ؟

قالت : تفاهم مع فريد .. واذكر له حبك الكبير لفريدة ، وقلة المال بين يديك ، وأنني الفتاة الوحيدة التي آمل الزواج منها .. وسيساعدك .. وأنا من جهتي سأقبل بمهر ضئيل

ـ والثانوية العامة

ـ سأتركها .. لم أعد استوعب شيئا .. لا أريد تقديم الامتحانات .. الحياة الزوجية معك أفضل .. لقد فضلتك على الكثير من شبان الحي وأنت تعرف ذلك

قالت معترفا : أدرك ذلك .. ولا أنسى مطاردات فوزي لك .. وسلمان وغيرهم ورضيت بفادي ، وهو رضي بك وتخلص من الأخريات .. عليّ أن أتفاهم مع الأخ فريد .. ليتك لم تستسلمي لي وقاومت شهوتي .. غلبتنا الشهوة .. قهرنا الشيطان

ـ لماذا ؟

ـ أخشى أن يرفض فريد التفاهم

قالت : اعترف له بأننا زوجان ، ضعه تحت الأمر الواقع

ـ قد يقتلني ، جاءني وهو يحمل مسدسا

ـ فريد مثلك له حبيبة أو أكثر وناجح كذلك .. جاءك به للتخويف ، ولتقبل بالزواج مني .. هو جبان .. وهو على وشك زواج كما سمعت من أمي

ـ عليّ أن أفعل لقد تورطنا في الجنس ، لم نشبع من القبل واللمس .. الإنسان ضعيف أمام الشهوة والخلوة والإغراء .. لم نقاوم كثيرا

ـ لأنني أحبك أكثر مما تحبني .. فما كان أمامي إلا أن أرضيك ، ولتعلم كم أهواك وأنا أقدم أغلى ما أملك .. يبدو الندم عليك

ـ الندم على ضعفي

ـ وهل أنا أول فتاة تمارس معها الجنس يا فادي وتركب سيارتك .. أنا فقط آخر حبيبة حسب علمي .

غض بصره وقال : المشكلة أنت تعرفين عني كل شيء .. لم أزعم أنك أول حبيبة .. نعم أنت

آخر حبيبة .. رسمت في نفسي أن تكوني زوجتي .. ولكن صراحة لما سلمت نفسك لي .. أعدت التفكير .. فريدة هل أنا أول رجل جامعك ؟

ـ كجماع الأزواج أنت الوحيد يا فادي لأنك غلبتني على نفسي ..

وصراحة لم تكن أنت أول حبيب .. حتى لا تظن أنني أسخر منك .. وأنت تعرف أنني صاحبت صاحبك راميا .. صاحبني قبل سنة فترة وجيزة وتشاجرنا

ـ أعرف .. ولما سألته عن سبب ابتعاده عنك ؟ قال " أحبتك يا فادي .. مجنونة فيك ".. الحل الزواج

ـ أجل



لم يكن أمام فادي إلا أن يغامر ويعترف لفريد بالعلاقة الجنسية التي بينه وبين فريدة ، وأنه لتصحيح الوضع قبل بالزواج منها ليستر على نفسه وعليها ، وأعلمه أن شقيقته طلبت منه أن يعترف له فيما بينهم من علاقة حميمة ، وليكن الزواج قبل الفضيحة للطرفين ، في البداية لم يستوعب فريد هذه الاعتراف وظنه محاولة للضغط عليهم لقبول الزواج .. وقد استغرب استسلام أخته للغواية بهذه السرعة .. قد تستسلم الفتاة العاشقة للقبلة للمداعبة والغزل ، أما الجماع وتسليم جسدها بسرعة فهذا أدهشه وضايقه وجعله في حيرى .. فبعد تفكير عميق بينه وبين نفسه صعق فقال للشاب وهو يتأمل في وجهه : هل تملك مهر الزواج ؟

ـ لا أملك شيئا .. ولو كنت أملك شيئا لما صارحتك بها بيننا لفعلت كما يفعل غالب البشر بالدخول من الباب .. عليك بتدبير الأمر وترتيب الزواج .. سأدبر أربعمائة إلى خمسمائة دينار ونسلك الموضوع .. وتنهد وتحسر وقال : لا أدري لماذا سلمت لي نفسها ؟!.. أنا تفاجأت من رضوخها لشهوتي الجنونية .

تطلع فريد في عينيه ودهش لوقاحته وقال بحدة : أخذتها لغرفة فارغة ، وأغويتها بكلامك الفارغ ، والآن تقول لماذا سلمت نفسها لي ؟ يا رجل أنت قليل الحياء .. أنا لولا هذا الاستسلام لوضعت في رأسك خمس طلقات .. لكن هي فضيحة لابد من سترها .. احضر المبلغ وأنا سأدبر القضية ، وسأزعم أمام الناس أننا قبضنا ألفا.. وأنت ادع ذلك ، ولتأت أمك للحديث مع أمي بذلك ، ثم يجري الزواج أمام أهل الحي .. الحي القذر .. عليك أن تتحمل المسؤولية بسرعة يا فادي .. ولتعلم أن هذا ليس أول زواج يحدث في "أبو خروف" بهذه الطريقة .. فلان عاشر فلانة وظهر عليها الحمل فتزوجا .. وفلان تزوج فلانة بعدما شاعت علاقتها المحرمة بين أهل الحي .. والحالات في حينا القذر كثيرة .. وها أنت أضفت إليهم .. عليك التعجل في أمرك ، فالأخ فراس عرض علينا الزواج منها .. ولو لم نسمع هذه القصة ربما صرفت نظرا عنك .. لابد أنه يعلم سركم ، فهو يضغط علينا من أجل هذا السر .. المبلغ الذي تملكه في البيت أم البنك .. لنسرع قبل ظهور الفضيحة التي ستضر بنا وبأهلك الطيبين .. أنا لم أكن أظن أن فريدة تافهة بهذا الشكل

ـ أنت وناجح أليس لكم مغامرات مع البنات ؟ .. فريدة ذكرت لي ذلك السر وقالت " لقد قرأت كثيرا من رسائل الحب التي تتركونها في الغرفة والأشرطة وكلمة الإهداء من ...

ـ هذا الذي قواها علينا ، كاشفة أسرارنا السيئة .. وأنها كاشفة عيوبنا .. مباركة عليك فريدة.. وصدق أني أتمنى لكما زواجا سعيدا بحق

لم يمض أسبوع واحد على هذا اللقاء الخطير حتى احتفلت الحارة بزواج فادي شيك من فريدة كمال .

وتنفس فريد الصعداء ، وقال ناجح المطلع على تفاصيل العلاقة بين فادي وفريدة : أحسنت صنعا يا فريد !

ـ إنهما زوجان قبل الزواج .

ـ ويحك !

ـ لم يكن ما بينهما علاقة عاطفية ..اعترف فادي بأن أختك أعطته جسدها قبل شهور في شقة أو بناية لم تكتمل في الهواء الطلق

ـ يا الهي ! أصدقت ذلك ؟!

ـ كل أسرارنا ومراسلتنا تقرأها فريدة يا شاطر ..

ـ لعل هذا فِلم من أجل أن يتزوجا ؟

صفن فريد لثوان وقال : فِلم! فكرت بذلك .. ليس من السهل عرضها على الطبيب الشرعي .. كان لابد من الستر .. أختك فاجرة .. ليس فِلما .. لو لم يكن بينهم أمر قبيح ما تزوجها فادي شيك بهذه السرعة ، وما الذي يجبره على القبول بها ؟ .. مشوا مع بعض في الشارع .. فهي كمزيود وغيرها من زانيات الحي القذر .. وفراس ما كان يعرض عليها الزواج إلا أنه يعرف سرها وأنها امرأة .. أختنا باعت شرفها .. وهل ترى أن يعمر هذا الزواج؟!.. لا أظنه سيطول يا سيد ناجح .. لابد أن ندفع الثمن من أعصابنا ومالنا وحياتنا .

}}}}{{{{

سؤال " هل ينتهي الإنسان من المشاكل بزواج أخته من فارس أحلامها ؟!" هذا سؤال سأله ناجح لنفسه على أثر الزواج العاصف والسريع لأخته ، فقد اكتشف أنه شريف بالنسبة أو بالمقارنة مع أخته .. فهو رغم صداقته مع العديد من الفتيات لم يجازف ويغامر بارتكاب الفاحشة .. حبه بهنّ بريء على فهمه .. أخته عمرها ثمانية عشر عاما .. وهي تعتبر كبيرة ، ويمكنها أن تكون أما ، ولكنها تدرس في الثانوية العامة .. السنة التي ستنقلها إلى الكليات والجامعات .. كيف سقطت ذلك السقوط المريع ؟!.. حتى أنه اضطر ليسأل نفسه " هل افترسها فراس قبل فادي؟! " .. فبيته أصبح مرتعا لبنات الليل والساقطات .. وشاع ذلك في الحي .. وفريدة جارة له ، وليست محصنة ضد إغراءاته وفنونه في الفتنة .. أتراه كان يخدعنا ؟ ولماذا اختار هذا الحي ليسكن فيه؟.. ولماذا اختار هذا الجزء من الحي ؟ .. والحي واسع ربما تعيش فيه أكثر من ألفي أسرة .. وشرق وغرب فكره وذهنه بحالهم وقال : هل انتهينا من

مشكلة فريدة التي كنت أحسبها أعقلنا وأحسن منا ؟ أم بدأت المشاكل ؟ هل يمكن أن تسلم الفتاة نفسها لحبيب بسهولة ؟.. لقد صاحبت عشرات الفتيات .. ما وصلت بنا الأمور لقضاء الوطر .. ولم تحاول إحداهن إغرائي للوقوع عليها .. وكلهن من نفس مستوانا الفكري والاجتماعي .. وهل صحيح ما سمعناه عن علاقات قبيحة تجري في الحي من قبل نساء متزوجات أو مطلقات وأرامل ؟! لقد انتشر الكثير من الشائعات ..حتى أن أبا صالح شاع قديما أنه يتردد على بيوت بعض المطلقات والأرامل .. نعم أبي ..الحياة تكشف لنا أسرارا قذرة .. أسرة فاسدة أخلاقها سيئة تعيسة .. لما نحن هكذا ؟! ما الذي يمنع أبو صالح أن يزني إذا راودته أنثى لعوب ؟ فأي أخلاق تردعه؟ .. ربما يتعذر اليوم بالسن ، يضعفه عن مثل هذه الشهوة .. لما لا نغير من أخلاقياتنا الفاسدة ؟ كل تفكيري ووقتي في الحب واللقاءات والشهوات .. أنت عندك عقدة الخوف من أمراض الجنس .. عندما علمت بمرض (فهد) بسبب الزنا ، ظل الخوف يركبك .. إنك لا تزني لخوفك من الله إنما لخوفك من الأمراض .. ألا يكفي المداعبة واللمس والغزل والرسائل ؟! فريد هل وقع في هذا الإثم ؟ ولماذا لا يقع ؟ فصالح .. تورط مع امرأة .. نجا منها بأعجوبة ، ثم أسرع أبي بتزويجه .. أما جابر رجل الزراعة فقد صاحب فتاة واحدة حسب علمنا ، ثم تزوجها .. ثم استقر في العمل مع الوالد بعد عودته من عمل الزراعة .. أما فريد فكان امرئ القيس البيت ..قصصه أيام المدرسة كثيرة .. وبدأت تخف وتضعف مع الكبر والعمل ، وها هو يسعى للزواج من أخت صديقه ليفتح صفحة جديدة مع الحياة .. وأنت منذ كشف لك سر أختك تركت الفتيات دون مقدمات والمطاعم والسينمات .. هل تفكر بالزواج حقا يا ناجح ؟! فريدة تزوجت .. ولن يعيرك أحد بعارها ..

وقضى ناجح أياما ، وهو يراجع حياته وحياة أسرته.. وتراوده الخطرات السوداء حتى ضعف التفكير بفريدة وزواجها الاضطراري لستر عورتها وفاحشتها .. عندما يتذكر ذلك يصيبه القرف منها ومن العائلة الفاسدة .. ثم قال" هذا هو النموذج الصحيح في مثل هذا الحال ..

فالكل منحرف في هذا البيت .. أبي رغم كل المصائب غارق في الشهوة ولعب الورق ، ولا يمل من التربع في مقهى عزب كأنه كرسي من كراسيها .. بل العم مهران يغير الكراسي بعد خرابها واهترائها .. ونحن نطارد الغزلان ونشرب الخمر والكؤوس .. وأحيانا نسوغ لأنفسنا التحشيش .. لماذا لا نتوب ؟ لماذا لا نصلي مثل المصلين ؟ هل حياة الانفلات أفضل ؟ أرى أن حياتنا شقاء في شقاء .. وهل الصلاة والدين للشيوخ الكبار في السن فقط ؟ هل الشباب مثلنا معفوون من العبادة والصوم ؟ في البيت هموم .. في الحي هموم .. وفي الشغل هموم .. وفي الحب هموم .. عجيب أمرنا في هذا البيت .. أم فريد لا تعرف الصلاة ، وخالتي أم ريان شيخة وعالمة في الدين .. لماذا لا تتعلم الفاتحة أمي وتصلي ؟ هل هذه التعاسة التي تحل بنا بسبب بعدنا عن الله ؟ (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا).. أتنطبق هذه الآية علينا ؟!



بعد زواجها بأربعين أو خمسين يوما شاعت في الحي إشاعة مفادها أن السيدة فريدة طردت من بيت زوجها فادي شيك ، وهو يهدد ويتوعد بطلاقها ، ومكثت فريدة ببيت أهلها خمس ليال ، ثم أعادوها لبيت زوجها ، وشاع أن سبب طردها أن الرجل ضربها ضربا مبرحا ، وهو في حالة سكر شديد ، وانهال عليها لطما وصفعا، وآخر الأمر طردها من بيته.. فحملت نفسها صباحا وتركت بيت الزوجية ، وقضت أياما عصيبة مع أمها وأهلها.. والناس تتهامس بحثا عن السبب الحقيقي للمشكلة، فضرب الزوجات والأبناء شائع في الحي ، ولا يعتبرونه سببا مهما لحرد وهجر البيت ؛ فلذلك عندما جلس أبو صالح في مقهاه كعادته التي لم تتغير من عشرات السنين ، ورغم المشكلة الكبرى التي عصفت به ما زال يتردد على المقهى ؛ كأن لم تهجر فريدة بيت الزوجية ، وأن الحياة لابد أن تمشي وتسير كما تشرق الشمس من المشرق ، وتغرب في الغرب منذ زمن بعيد ، لا تتغير ولا تتبدل .

فقال نعمان أبو نوح : عادت لبيت الزوج ليلة أمس يا أبا صالح ، ومنذ أن أزعلها ابن شيك وأنت لا تتكلم في شأنها.. ألسنا أصدقاء ونشير على بعض ؟

فنفخ سيجارته وقال : البنات هم حتى الممات .. أنا كلها بنت واحدة ..

الله يعين الذي عنده خمس ست بنات.. صدقوا أن الأمر غريب .. عروس لم تكمل شهرها تتعرض للصفع والضرب والركل .. المسكينة تشوه وجهها .. حتى من شفقتي عليها فكرت بتطليقها منه والخلاص من آل شيك

قال رشيد : المشاكل دائمة يا أبا صالح .. نحن كبار السن ونتعامل مع النسوان والبنات بصعوبة .. والحياة الزوجية في أولها صعبة

فقال أبو سلمى : سمعنا أنهم تزوجوا عن حب

فصاح سلمان : أي حب؟! .. لقد سمعت أنهم تزوجوا بالغصب .. بس أبو صالح لا يحب الكلام .. مع أنه كل الناس في الحي يتكلمون .. هل يخبأ شيء في "أبو خروف"؟!

وأخذ القوم يكشفون عورات الناس ، وقصص الناس ، وفلانة نال منها فلان وزوجوهما سترة للعائلتين .. وفلان تزوج من تلك بعد افتضاح ما بينهم .. وفلانة خرج من بيتها فلان .. وفلانة فعل بها فلان ليقبل أهلها الزواج منها .. كل أدلى بدلوه .. غيبة نميمة فساد فتشجع أبو صالح وقال : هذه الحارة الكل يتجسس على الآخرين ..لا سر فيها .. صدقوا يا أخوان أنا تفاجأت مثلكم بزواج فريدة .. كنت أظن أنها مهتمة بالمدرسة والجامعة مثل بنات خالتها أم ريان .. ولكن فريدا فاجأني بقصة فادي شيك ، ولما حاولت تأجيل الزواج لبعد المدرسة والتوجيهي فقال الولد بكل وقاحة " البنت امرأة وإنها باعت شرفها ، وهي راغبة بالزواج .. والزواج سترة " .. حاولت أن أغضب فلم استطع فوافقت .. وهل أرفض ؟ وماذا عليّ أن أفعل في هذه السن ؟!

فقال أبو نوح : الحق عليك يا أبا صالح .. أنت لم تحفظ حق الله ليحفظك .. كم سمعنا وسمعنا سيدنا الشيخ يقول في خطبه أو مواعظه " احفظ الله يحفظك "

قال أبو صالح : هذا الذي جرى .. فبنات اليوم لا يعرفن الشرف والعرض .. يفهمن في الفجور والسفور

فقال أحدهم : وقصة ضربها قبل أيام .. وأرجعتموها لهم بسرعة !

ـ البنات يوجعن القلب يا أصحابي ..أنا لا أفشي سرا ، فالحي لا يخفى فيه سر .. فهذا الرجل رغم زواجه الحديث .. شهر .. شهر ونصف .. أتى بامرأة ليفجر بها في البيت دون خجل يا عالم ، فقالت له فريدة " أعرف أنك فاجر يا فاجر، وأنا غلطت لما صدقت أنك تحبني ، وسلمت نفسي إليك ، وأنت تحب الزنا ؛ ولكن ليس في بيتي " فغضب ، وكما قال والده إن صوت الشجار وصل لشقتهم فخرج أخوه رامي وأمه ليروا سبب الصراخ والصوت العالي ، فهم كلهم في نفس العمارة .. وسمعت الأم القصة ، ورأت العاهرة في بيت ابنها ، وكان ثملا للغاية ، فطردوا الفتاة ، وقام أخوه بضربه بمكنسة ، ولما خرجت أمه وشقيقه وتركوه مضرجا بدمه ، فقام بالانتقام من فريدة ، وأراد ضربها بالسكين لولا أن هربت للأسفل حيث شقة

شيك ، ونامت باقي تلك الليلة عندهم ، ثم صارت إلينا ، وقصت علينا الحكاية المرة ، فقال لها ناجح شامتا : " هذا ما جنيت على نفسك عندما سلمت له نفسك مثل بنات الليل " ، واشتعلت النار في البيت ، وتناثرت الفضائح من هذا ومن هذا .. فوجدت نفسي أعيش في مزبلة .. كرخانة .. وعصب الشاب وضرب فريدة ، وأرادت أن تذهب لمركز الشرطة تشتكي عليه .. لولا الأم وفريد ، ثم جرت بيننا وبين آل شيك وساطات وشفاعات ، ولملمنا الموضوع .. والكلب لا يستقيم ذيله الأعوج .. وأتصور أن ذلك سيكون إلى حين .. فهذا الولد فاجر ، وأبوه أفجر منه .

فقال نعمان أبو نوح : وأنت عليك التوبة يا أبا صالح ، وابعد عن الزنا والخنا .



ارتفع الآذان بين يدي خطيب المسجد مسجد حي "أبو خروف" وقد امتلأ المسجد عن بكرة أبيه فهو المسجد الوحيد في وسط الحي ، ولما انتهى المؤذن من رفع آذان الخطبة وقف الشيخ الإمام أمام المصلين وحمد الله حمدا كثيرا كما هو مقرر شرعا ، وأثنى على الله ثناء عظيما هو أهل له ، وذكر الشهادة التي سيلقى الله بها كل مسلم يوم القيامة ، وثنى بالصلاة على سيد ولد آدم ولا فخر ، وبالثناء المستحق له رسولنا العظيم ﷺ ، ثم بين الشيخ الإمام لأهل الحي أهمية نعمة الإيمان في حياة الناس ، ووضح لهم نعمة الإسلام إذا عمت بين أفراد وجماعات الحي ، وبين لهم أهمية نظافة وطهارة المجتمع من الفواحش ما ظهر وما بطن .. ثم أعلن أن سورة النور نور للأمة الإسلامية والحي ككل ، ودعاهم للاهتمام بها وفهمها ، والعمل بما فيها من طهارة وأخلاق حسنة وقرأ آية النور { الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }

أرأيتم أيها الناس أيها المسلمون؟ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة .. أفراد يتهاونون في أمر

العلاقات الجنسية خارج شرع الله .. فيتشبهون بالكفار الضالين .. وحرم ذلك على المؤمنين .. يسمحون لبناتهم ونسائهم بالخلوة والاختلاط بغير المحارم .. فماذا ستكون النتيجة ؟ إنهم يشاهدون الأفلام المثيرة للشهوات والغرائز الجنسية .. يجلسون يتفرجون على مسلسلات الحب والغرام الأب والأم والأولاد والبنات .. ماذا ستكون النتيجة ؟! .. التقليد .. الحب الآثم .. الجنس المدمر للأمم والشعوب .. وتحدث الشيخ الإمام عن أخطار العلاقات المحرمة على الفرد والأسرة والحي .. وبين لهم أخطار الزنا والانحراف وراء الشهوات الجنسية غير الصحيحة ..

هناك أناس يزعمون أنهم مسلمون يرتفع الآذان عاليا إلى السماء مناديا عليهم لتلبية النداء ، وهم لا يزالون يلهون ويلعبون ويغفلون عن إجابة النداء الخالد الله أكبر قال الله { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ }

المصائب التي تقع علينا بكسبنا وفعلنا.. علينا بتطهير المجتمع من الفساد أو نزيل أكثره حتى تخف عنا النكبات والويلات.. اسمعوا أيها الناس.. الفجور قد زاد في حيكم ، والقصص المرعبة زادت قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

أيها الأخوة .. إني لكم ناصح أمين ..عليّ بتذكيركم بسبب اللطمات التي تحل ببعض العائلات سببها الاستهتار بالمحرمات وترك أمر الله .. استيقظوا قبل أن تسحقوا وتذهبون إلى الفراق قال تعالى { لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } إذا جاء الموت فلا رجوع ولا حياة .. انتبهوا من غفلتكم وحب الدنيا .. واعلموا أن ما أصابكم من أنفسكم .

وعاد الشيخ ليؤكد لهم أهمية الابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاجتهاد في طهارة المجتمع ونظافته

وفي الخطبة الثانية ركز على مصائب اللواط والشذوذ الجنسي الآخذ بالتفشي ، وحذر من

الاستهتار بالعلاقات الاجتماعية السليمة ، وحث عن البعد عن الفجور والشرور .

وغادر الناس الجامع وهم متأثرون من كلام وموعظة سيدهم الشيخ وحديثه في هذا الأمر الدقيق والحساس ، والكل في نفسه بيت وأسرة أبي صالح وشيك .. لذلك لما التم رفاق أبي صالح عصرا في المقهى كعادتهم الدائبة ، قال أحدهم : كأن الخطيب اليوم يتمثل مأساتك .. فتحدث أن الزانية ينكحها زان .. فتخيلت أن قصة فادي وفريدة وصلت للإمام الخطيب .

فرد أبو صالح بسؤال : هل يدفع الأبناء ثمن جريمة الآباء ؟ .. كنت ضعيفا أمام مراودة النساء .. ماذا أفعل ؟

فأجاب أبو نوح : لا شيء .. فقط أعلن توبتك أمام الله وصلي وصم .. أنت لم تصم ربما في حياتك كلها ..

ـ لم أعرف الصيام منذ أيام الصبا .. غرقت بالشهوات .. وأولادي مثلي في الملذات .. وكيف أتوب وقد مشيت في المعاصي ؟

ـ باب التوبة مفتوح ، وحسب ما أسمع أنه لا يغلق إلا عند الموت .

=++++=

وكما هي عادة البشر يتأثرون ليوم أو ساعات بكلام الواعظ أو الخطيب

أو أثناء السماع فحسب ، والخطبة التالية تنسي التي قبلها ، وهكذا ينسى الناس المواعظ ؛ لذلك رغب الإسلام بالتكرار والتذكير بين وقت وآخر .. ورغم انتشار خطبة شيخ "أبو خروف" حول الزنا والانحرافات الجنسية في بيوت الحي وإعجاب السامعين له وكثر التعليق عليها.. استمرت قصص الانحراف والزيغ نحو الرذيلة ، واستمر ضعف إقبال الشباب على مسجد الحي ، لا يمتلأ جوف المسجد إلا يوم صلاة الجمعة .. واستمر الواعظ في نصحه وتذكيره والدعوة للفضيلة والنجاة والدعوة للبعد عن الفجور .. واستمر دعاة الفجور أيضا في دعواهم وفسادهم .. واستمر أبو صالح في المعصية والآثام ، ونسي قصة فريدة وطريقة زواجها ، ونسي خطبة الشيخ كغيره من رواد المسجد ، فالقصص والحوادث بعضها ينسي

بعضا .. ومضت الأيام كما تعود عليها منذ عقود وعقود .

انتشر خبر رغبة فريد بالزواج في المقهى والحي.. وكنا قصصنا أن فريدا رغب بالزواج قبل زواج فريدة ، وقصة زواجها أوقفت المشروع لأجل غير مسمى ، ولما هدأت العاصفة أعلن فريد لرواد المقهى والأصدقاء أنه سيتزوج ، واحتفلت الحارة وخاصة أهل القسم الذي يسكن فيه والده احتفالا بهيجا دعي إليه الراقصون والمغنون ، وقضى أهل الحي ليلة طرب يصفونها بالجميلة ومن الأيام المعدودة في حيهم ..لأن الزواج مشى حسب الأصول وعادات الناس ، ولم يكن زواج تسليك حال ودرء فضيحة .

استأجر فريد بيتا في الحي ، وانتقلت زوجته إليه ، وهي من أسرة متدينة إلى حد ما ، ولم تكن من سكان "أبو خروف" .. كانت تصلي وتحرص على المحافظة على الصلاة بوقتها .. وصلاتها هي التي شجعته على التمسك بها ، وقد وعدها ووعد شقيقها من قبل بالالتزام بهذا الواجب الديني في الوقت المناسب والقريب .. وقد ترك الخمر كما اتفق مع بشير شقيق الفتاة .. ومنذ خطبها لم يدخل خمارة .. ولم يشتر زجاجة مسكر .. ولكنه حنث ليلة الدخلة والحفلة التي أقامها رأى أنها تحتاج لخمر .. ولم يشرب كثيرا كما قال لناجح .. ولما عاد لعمله بعد إجازة الزواج .. أخذ بالصلاة وترك لعب الشدة إلى حد ما .. وصار يدخل المسجد مع سلمان وأبي نوح وأبي أحمد .. وقلّ جلوسه في المقهى ، وإذا جلس يلعب دورا واحدا أو اثنين وينصرف .. فصار يصحب الزوجة لزيارة أهلها والسهر معهم أو يزور بشيرا صاحبه .. وتعرف على أزواج شقيقات زوجته أكثر .. ويتبادل معهم الزيارات العائلية .. ووجد لديهم قبولا وترحيبا ، وهم يشاركونه الزيارات ، ووجد أحدهم شيخا بمعنى الكلمة .. فرغب بتعميق معرفته به ؛ ليستفيد مما عنده من العلم والثقافة، مع أنه لم يتخرج من جامعة شريعة ، إنما تعلم من القراءة والجلوس مع العلماء والمشايخ .. وعجب أن الناس تأتيه للإفتاء ، ويقبلون فتواه وكلامه .. فطابت لفريد صحبته ، والرجل اعتبره صديقا وقريبا ، وسمح له بمناقشته والحوار معه ما دام راغبا في الفهم وزيادة الإيمان ، وكان الشيخ ماجد متفهما لظروف

أسرة فريد وبعدهم عن جو الدين منذ الصغر ، ولسوء سمعة حي "أبو خروف" في الغالب .. وكان يشجع زوجته بالاهتمام بهم ، وتشجيعه على الثبات على طاعة الله بكثرة زيارة أختها ، وهي بدورها تشجع زوجها ، ووجد ذلك قبولا لدى فريد ، وأحس برعاية ماجد له ولزوجته ، وبدأ يدرك كم كان تافها أيام المراهقة ؟ .. أيام مصاحبة المراهقات والعبث بهن وإفسادهن .. فأخذت هذه الصور التي كان يراها السعادة والفتوة تكبر في خياله فيشعر بالندم والحزن على نفسه وحاله وأهله .. وكيف كان مستغرقا بشهوات الجسد ونسيان أمر الله؟ وأخذ يذكر والده بالتوبة وترك لعب الورق قبل فوات الأوان ، وفاجأه أن أباه طلب منه عدم الحديث معه في مثل هذا الكلام ، وألا يعمل نفسه أبا نوح وسلمان وأبا أحمد .. فهم يصلون في الجامع الصلوات الخمس ويجلسون على مائدة اللعب فيقول : افعل مثلهم صل واجلس على المقهى .. أن تموت مصليا خير من أن تموت مقامرا .



لم يكد السيد فريد كمال يضع قدميه على بساط التوبة ، ويعرف الإسلام حتى كان خبر صاعق ينزل على دماغه ، فقد هربت فريدة من بيت زوجها لمكان مجهول .

جاء فادي إلى بيت والديه يسأل عن زوجته المتغيبة عن بيته من يومين ، وقد زعمت له وهي خارجة " إنها ذاهبة لبيت أهلها " .. ولما جاء ليعود بها ويتأكد من غيابها ؛ لأنها عندما كانت تذهب لبيت أمها تعود للمبيت في شقتها ، فنادرا ما تقضي ليلتين عندهم ، فأخبرته حماته عندما سأل عن فريدة أنها لم تأت منذ شهر ، ولم تطأ أقدامها البيت منذ عودتها إليه ، وزواج فريد ، فقال بصراحة واتهام صريح : لابد أنها هربت مع أحد عشاقها يا أم فريد .. لأنها كانت تهددني بذلك منذ تصالحنا آخر مرة عندما هربت إليكم .

فقال ناجح ساخطا من اتهامه الصريح لأخته بأن لها عشاقا : لابد أنك أعدت الكرة وأحضرت

بغايا للبيت . ثم لطمه على وجهه وصاح فيه : نذل .. حقير كنت أيام المدرسة أجبن فتى في المدرسة .

فصاح فادي وهو يرفع يده ليضرب ناجحا وقد أمسك الآخر بيده : أتضربني يا ناجح ..

وأخذت الأم تبعدهم عن بعض فقال ناجح : سأقتلك .. أنت الذي جعلها تهرب .. عندما تحضر البغايا لبيتك ..

ـ أختك امرأة قبل أن أتزوجها ..أنا كنت آخر ضحاياها .. اسأل جارك فراسا .. لقد افترسها منذ حط رجله هنا يا بطل .. هو قال لي ذلك

ـ ولماذا قبلتها زوجة يا نذل ؟

ـ اشتهيتها وأحببتها .. فلم يكن أمامي إلا الزواج بها .. خاصة لما واقعتها فظننت نفسي أول رجل ينام معها .

ـ حسنا أيها المجرم .. أين ذهبت ؟

كانت أمها تسمع هذا الكلام وتبكي فقط ، فبدا لناجح أن أمه تعرف بعلاقتها بفراس ، وأنها لذلك لزمت الصمت ولم تتكلم .. كان يذهب للشغل وفريد مثله وهي إلى المدرسة .. وهل تذهب فعلا للمدرسة ؟ ..

فرد فادي وقال : لا أدري.. كرهتها بعد الزواج بأسبوع واحد .. صارت أبغض النساء لقلبي .. ورفضت الطلاق .. والتنازل عن المتأخر من مهرها .. فريد جعل عليّ متأخرا قدره خمسة آلاف .. حتى لا أفكر بالطلاق بعد يوم أو يومين أعرف هذا .. هددتها بتحويل البيت لماخور .. لبيت دعارة قالت متحدية " افعل " وتحديتها وبدأت ادخل بنات الهوى للبيت .. ففضحتني أمام أسرتي .. بالقصة التي تعرفها ، فضربني شقيقي الأصغر مني ، وتعدى عليّ ومعه أمي .. وعادت إليكم فريدة .. بضعة أيام وتصالحنا .. ولما رجعت اتفقنا على ترتيب أمر الطلاق ولكن بعد حين .. وانشغلتم بزواج فريد .. وقبل أيام تناقشنا بأمر الطلاق ، فرفضت تنفيذ الاتفاق ، وزعمت بأنها حامل مني .. ثم تبين كذبها .. فعدت لجلب بنات الهوى للبيت

من جديد ، فانزوت في حجرتها وقالت " افعل ما تشاء ليكن البيت بيت دعارة وخمارة " ثم هددتني بأنها ستفعل مثلي " فقلت افعلي ما تشائين .. ولا تظني أنني صدقت أني أخذتك بكرا ولم يقربك غيري.. أنا أعرف بعلاقتك بفراس جار دار أبيك .. فقد حدثني هو نفسه بعلاقته معك .. لكنني تورطت معك وعليّ ترقيع الأمر .. أنت لم تكوني عفيفة قبل معرفتي بك .. ولا أظن أن عشاقك تخلو عنك .. وقلت لها بصراحة .. لا تزني في بيتي .

ـ أما أنت فتسمح لنفسك بالزنا في بيتك ..

ـ أنا أتكلم معك بصراحة .. وقد تعتبرها وقاحة حتى تفهم أختك على حقيقتها .. ربما لم يحدثك فريد بشيء مما كان بيني وبين فريدة .. المهم أنها أخبرتني بأنها سوف تهرب مع أحدهم في يوم من الأيام .. وأدركت أنها تخطط لفعل ذلك .. لما أخبرتني أنها ستذهب إليكم لأن أمها مريضة صدقت ذلك .. فالناس تمرض .. ولما لم تعد ليلا قلت ربما مرض أمها شديد ، واضطرت للبقاء عندها .. ليس لها إلا فريدة .. ولما مضت الليلة الثانية جئت لأرى .

ـ رغم الألم الذي أسمعه من هذا الكلام الجارح .. لقد عرفنا أختنا في النهاية يا فادي .. ولما كنت أنت غير مقتنع بالزواج منها لفسادها كان عليك ألا تتزوج .

ـ قلت لك أحببتها بصدق .. وندمت على استسلامها لي .. وعاتبتها في ذلك .. وقلت لها " كان عليك أن تقاومي شهوتي " .. ولكني اليوم أعلم أن ذلك كان مدبرا ووقع عليّ الاختيار ، لأكون كبش الفداء والزوج القواد

ـ بمن تشك ؟

ـ أعرف لها أصدقاء قبل العلاقة التي بيننا ، وصدقت أنها تركتهم لأجلي .. ولكن أعتقد أن فراسا هو الذي هربت معه .

ـ فراس ! فراس الحرامي يهرب بها

ـ كانت تذكره كثيرا ، وهما صديقان منذ سكن هنا .. وكان يطمعها بالزواج .

كان ناجح ينظر إلى أمه بحقد ، ويعرف أنها كانت تخفي عنهم علاقتها بفراس .. لقد كانت

وحشا .. فقد خاف هو منها عندما حدثه سلمي عن علاقتها بفادي ، وهو يتسأل الآن لماذا صارحه بذلك وعن فادي خاصة دون الآخرين ؟ .. وقد تبين له أن لها عددا من العشاق .. وكان يظن نفسه ديك النسوان .. كل يوم يسهر مع فتاة .

وأخذ يتذكر اهتمام فريدة بجارهم الجديد ، وكان يتحمس لتقديم أمه له صحن الطعام .. يا لنا من مغفلين! .. شفقة .. كانا يرتبان مواعيد الحب والعشق .. وما سكن هنا إلا من أجل فريدة.. وأوهمنا بصداقة مزيود وغيرها . قال ناجح لفادي: اغرب الآن .. اذهب وبلغ الشرطة عن اختفاء زوجتك وهربها مع عشيق .. اتهم من شئت .. لم يعد الستر مطلوبا اليوم فلا تستر علينا ..

ولما استدار الرجل خارجا أكمل لنفسه "يا فريد ماذا ستفعل بتوبتك بعد هذه الفضيحة المدوية؟!"



صعق فريد كما ذكرنا لسماع الخبر، وأخذ ينتحب وينشج عدة دقائق ، وطفقت زوجته تهدئ قلبه وتقول : هون عليك .. هذا أمر متوقع يا فريد ، وأنت نفسك توقعت أن الزواج فاشل؛ لأنه لم يقم على قواعد سليمة وصحيحة .. ولما قصصت عليّ قصة أختك، قلت يا سيدي ..الله يهديها للصواب .. والأخطاء سيتبعها أخطاء .. أخطاء بدأت وتتابعت ، وزواج لم يكن موفقا .. فاصبر ولا تتحدث عن عار وشرف .. فالقضية خرجت عن هذين الوصفين.. ومن قصة الأخ ناجح .. زوجها دفعها لهذا الخيار.. واتخاذ هذا القرار .. ما دام يأتي بالغواني لبيته .. ليفجر بهنّ أمامها.. لو كان فعله القبيح خارج البيت ربما غضت الطرف عن فسقه .. أصبحت معركة شيطانية بينهم .. ودور أهله سلبي وضعيف مع ثنائك عليهم .. فربما عرفوا بالسبب الحقيقي من زواج فادي لفريدة ، وأن هذا زواج غير طبيعي كعادة الناس.. وأنه علاج لفضيحة.. فلزموا الصمت .. عليك أن تتعامل مع القضية بواقعية وعقل .. الانفعال والغضب ليس وقته الآن .. البنت خرجت عن الطريق الصحيح ، وهي عالجت مشكلتها بمشكلة أخرى .. واليوم لها زوج عليه أن يتحمل المسؤولية أيضا ..

كان ناجح يسمع كلام نوران بدهشة وانبهار، وأدرك أن فريدا تزوج فتاة جيدة وقوية ، ولها شخصية وقدرة ، وسمع فريد بعد أن بكى تلك اللحظات يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .. لم نسمع عن أسرتهم أي انحلال .. إلا عن فادي ، لم نسمع لهم حكايات قذرة .. لكن موجة الانحلال غمرت البلاد .. جرفت الشباب ، ولم يصمد لها الشرفاء .. تيار جارف يا نوران .. ألا يمكن أن نتحدث مع ماجد في هذه الفضيحة ؟

ـ سأتصل بأختي .. فكلام ماجد سيكون دواء لك إن شاء الله .. لقد اختارت أختكم دربا مؤلما وقاسيا .. طريق كله عذاب .

وعاد يبكي ويقول : هل هناك أمل بإصلاحها ؟

وعاد يقول من بين دموعه : الوالد قصر جدا في تربيتنا على الأخلاق الحسنة .. وشببنا على

التمرد والفخر .. لم ينهنا يوما عن معاكسة الفتيات ويقول " عيب هذا يا ولد .. هؤلاء جيران .. أهل .. " كان الأمر طبيعيا ، وربما فخر بمغامراتنا وشكوى الناس له من سلوكنا نحو بناتهم .. والأم مثله .. لا تهتم ولا تكترث تخاف من الجميع .. لا تستطيع أن تسأل فريدة أين كنت ؟ ولماذا تأخرت ؟ .. لا زاجر لنا .. قبل زمن يسير شكى له أحدهم من ناجح وها هو يسمع .. فقال يا ولد يا ملعون دوّر على غيرها.. هذا ما يتفوه به.. لكن لم أتوقع منها أن تفلت هذا الفلتان .. كنت أتوقع أن أسمع عنها كما أسمع عن زميلاتها .. من رسائل غرام .. محاولات حب .. أما الانزلاق السريع للفواحش.. فكان صدمة لي .. وكان عليّ ترقيع الأمر والزواج .. كما يحدث في حينا بين فترة وأخرى .. عمري أنا ولا ناجح جلبنا فتاة لبيتنا ، كنا نمارس الجهل في خارج الحارة .. كان نشاطنا الفاجر خارج الحارة .. بعيدا عن الحي كنت أرى الزواج هما فاشلا .. كنت أراه مسؤولية فارغة.. أبي يترك الدكان لجابر ويظل لنصف الليل في المقهى ، وهذا شأن اعتاد عليه منذ قدر لنا الحياة .. لقد صدمنا بانحراف فريدة القاتل .. عرفنا صحبة النساء والفتيات ؛ ولكن لم نمارس البغاء ، أما فريدة فتهاوت سريعا في آتون الفاحشة .. كل هذا من جار السوء الخبيث فراس.. آسف لما أقول .. أغلب الظن أنه هو أول من ضاجعها بالحرام وضحك عليها وعلينا.. كانت تدفعنا للشفقة عليه وتقديم بعض الطعام له .. والمعلبات.. والفواكه .. وكانت هي التي تذهب لتوصيلها .. نظن أنها شفقة ورأفة .. نذهب للعمل ، ونحن نعلم أن البنت تذهب للمدرسة .. كنا نحس بشيء ولم نكن نراه .. لا ينفع الندم اليوم .. ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما .. سامحيني يا نوران على هذه الكلمات أمامك وأمام هذا القرد .. لا تتخلي عني لسوء سيرتنا وسمعتنا حتى لو رأيتني أضعف أمام الشهوات .

ـ سأكون معك يا ابن العم .. سأذهب وأتصل بأختي نور لنزور الأخ ماجدا .. وتسمع منه بعض الكلمات الرقيقة .. فماجد كما تقول شقيقتي .. يحترمك ويحترم تفكيرك .. ويرى لك حماسا قويا اتجاه الدين والعلم ..

وأنك تتقدم في تعلم التلاوة الصحيحة .

ـ أخشى الضعف بعد هذه الضربة !

قالت: قضية فريدة الآن عند الشرطة .. وستعود فريدة لعقلها ، وتصير امرأة صالحة إن شاء الله .. لقد جرفها الهوى والغزو الانحلالي .. في التلفزيون في الشارع .. حكايات التائبات والنادمات كثيرة في تاريخنا وحياتنا .. تحمل واعلم كما قال تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

تنهد وقال : صحيح ؛ ولكن علينا مسؤولية أدبية نحوها .

قال ناجح الذي ظل صامتا سامعا لهم : ماذا سنفعل ؟ هي اختارت هذا الطريق القذر .. فالسيد فادي سيطلقها بعد هذه الفضيحة .. ولا أعتقد أن يفعل سوى ذلك .. هو الذي يمنعه من الطلاق المؤخر المرتفع بالنسبة إليه .. وإذا قبلت الطلاق دون المال أو تتنازل عن جزء منه فسيحدث الطلاق بسرعة .. وسيتزوجها الخاطف إذا قبلها .

فقال فريد بسخط : يا للعار !!

قالت نوران: أي عار يا رجل ؟! أأنت قلت لها افعلي كذا وكذا ؟ العار على الفاعل نفسه .. الرجل في عمله ووظيفته ، وامرأته تزني .. ما ذنبه وأي عار يلحقه ؟! .. العار يلحقه إن صدق ولم يطلق .. وسينسى الناس .. ولن يلومكم أحد .. هي هربت من بيت زوجها .

قال ناجح وهو ينهض للانصراف : أنت زوجة رائعة يا أخت نوران !!

.. حافظ على هذا الكنز يا فريد .. علينا بالصبر .. ليست كل النساء واحد .



رغم ألم هذا الحادث الصاعق ، فالسيد كمال نزو لم يكترث له كثيرا ، عندما رجع ليلا سمعه ، سب وشتم ونام ، ولما يُسأل عن آخر أخبار ابنته الهاربة من بيت زوجها ، فيتحدث كأنه يتحدث عن ابنة أحد الجيران أو فتاة من فتيات "أبو خروف" .. هل مات قلبه ؟! أم الغيرة

اختفت من ذاك القلب؟ لا ندري .. لذلك عندما دخل المقهى كعادته ، وجلس في الزاوية المعهودة والمفضلة له ، وقد التمت الشلة ، كان أول سؤال يُسأل عنه " هل من جديد يا أبا صالح ؟"

أشعل سيجارته ، وسحب عليها كم نفس ، ثم يطلقها في الهواء ، ثم يتمتم قائلا : لا جديد .. الشرطة تقول إنها خرجت بنفسها وليست مخطوفة .. وفراس الجار الملعون ما زال مختفيا .. فيظهر أن كلام الشيطان فادي صحيح بأنها هربت معه .. أنا الذي ـ ويرفع سبابته من يده الخالية من السيجارة ويشير لدماغه ـ يحيرني لماذا قبلت بالزواج من فادي ما دامت رغبتها بفراس اللعين ؟! وهو كلمنا بذلك ورفضناه لما رأينا هواها مع فادي .. اليوم نسمع أنها كانت خليلة له .. كانوا يضحكون على لحانا .. هل نلطم لستر شرفنا ؟ هل نقتلها لغسل العار ؟ فالعار لو قتلناها سيبقى ملازما لنا .. حتى لو شرب من دمها ناجح كما صرخ .. فهل يذهب عارها عنا ؟.. والله لا تستحق الفاجرة دمعة تذرف عليها ، ولا حبة زعل .. ولا حتى تمد اليد إليها بصفعة أو بصقة .. وهي ليست أول امرأة تفجر في التاريخ ، ولن تكون الأخيرة .. فالبلد مليء باللواتي على شاكلتها

ـ اتق الله يا رجل .. البلد فيها خيرات حسان وشيخات .. هذا الخلق فيه الطيب وفيه الخبيث.. مثل المعادن فيها النفيس وفيها الخسيس .. هل أصابعك نفس الشيء ؟

قال أبو صالح : أنا قلت لناجح إياك أن تمسها إذا عادت .. وتخسر حياتك في السجن من أجلها .. إذا عادت قلت له سنطردها وتعيش كما تريد على حل شعرها ، لا أريدها ، ولا أعرفها .. ما دام لها بيت وزوج وقبلت به لماذا تهرب ؟ خليه يحضر لبيته من شاء من الزانيات ما دمن قبلن بالمجيء معه .. هل تظنون أنه بهربها تأثر؟ بل ربما رأى السعد وقد خلى له البيت .. بل هو فرح بذلك ، وسمعنا أنه يسعى في طلب طلاق غيابي بعد أن بلغ عن غيابها واختفائها من بيت الزوجية ، واتهامها بالخيانة الزوجية فسيسهل أمر الطلاق .. أرأيتم فجور الناس ؟ الخيانة الزوجية .

فقال أحدهم متعاطفا : الله يعطيك الصبر .. والده رجل محترم ومسكين ومغلوب على أمره بالنسبة لزوجته .. هي التي تسيطر على البيت منذ عهد بعيد وما زالت .. وهي كانت رافضة لهذه المصاهرة ، ولما أدركت أن الزواج لتغطية فضيحة سكتت وقبلت على مضض .. مواعظ الشيوخ لم تعد تؤثر في سكان حي "أبو خروف"

فقال أبو نوح : وهل يسمعها أولئك ؟ فهم لا يأتون المسجد .. فالمصلون هم الذين يسمعون هذه المواعظ .. الكلمة حقا قد تغير بلدا .. وهتلر حارب العالم بخطاباته .

ـ هتلر ، من هو هتلر هذا ؟!

ـ يا رجل هذا هتلر زعيم العالم في أوروبا .. ألم تسمعوا بهتلر ؟

فقال أبو أحمد : ما هو هتلر صاحبك خرب الدنيا.. وأهلك الرجال ورمل النساء وزاد الفجور والفسوق بسبب حروبه الدامية .

فقال نعمان : يا رجل الفسوق موجود من أول الدنيا .. ألم تقرأ في القرآن عن أهل سدوم قوم لوط ؟ .. فالفاحشة موجودة بوجود الحياة .. لم تأت من هتلر ولا أبي هتلر .. والحروب موجودة من قبل هتلر ومن بعده .. ها هي أمريكا تخوض غمار الحروب في فيتنام .. ويقال إن الناس تموت بالآلاف .

قال سلمان : يا عالم دعونا من مآسي العالم ، ولنبق مع مأساة أخينا أبي صالح .. ماذا ستفعلون للبحث عن البنت ؟

ـ الشرطة تقول إنها سترجع وحدها كما خرجت وحدها .. إلا إذا ظهرت مقتولة فتتدخل الشرطة .



بينما ناجح عند الغروب يرتدي ملابسه ليسير إلى المقهى الذي أصبح من رواده ، بعدما ترك الذهاب لوسط المدينة لمقابلة صديقاته ، ويتعشى معهن ، ويسهران في سينما أو مسرح أو حديقة أو يمشيان في شوارع وسط المدينة ، فقد كان مذهولا ومصدوما من أحوال شقيقته وعاجزا عن فعل شيء ضدها .. وقد اعتاد أن يقف عند النافذة ، وهو يلبس ، وبينما هو يفعل ذلك ليمشي لمقهى عزب شاهد سيارة نقل صغيرة أمام بيت فراس ، ورأى شابين ينقلان أثاثا من داخل البيت ، ويحملونه في السيارة ، فنزل مسرعا إلى السيارة وسأل السائق عن سبب نقل الأثاث فقال السائق : أرسلنا صاحب العقار لتفريغه من الأثاث .. فمستأجر هذه الشقة سلم المفاتيح للرجل ، وطلب منه بيع أثاثها وأخذ إيجاره .. وسيسكن ساكن جديد فيها أحد الطلاب العزاب .

فقال ناجح : هل صاحب العقار هو أبو حسام الفار ؟

ـ نعم ، هو نفسه .

تابع ناجح إخلاء المأجور ، بل دخل للشقة ووقف يراقب الحمالين وهم ينقلون الأثاث القليل للسيارة النقل ، ومع آذان المغرب تحركت السيارة ، وودع السائق ناجحا الذي أكرمهم بإبريق شاي ، وأعلم السائق ناجحا أن امرأة ستأتي لتنظيف الشقة بالماء والمنظفات .

وأعاد الشاب الشاي والكاسات للبيت ، وأخبر أمه بإخلاء الشقة من الأثاث ، وسيأتي ساكن جديد .. وختم قائلا : وهذا يؤكد أن ابنتك مع ذلك اللعين فراس .

ـ هل قالوا لك ذلك ؟

صاح فيها : هؤلاء جاءوا من قبل صاحب العمارة .. وفراس الخائن سلم المفتاح لصاحب الدار ، وأمره ببيع الأثاث وأخذ الأجرة الشهرية منه.. وكلام فادي صحيح .. والله أعلم إن البنت عنده .

قالت : سمعت أنه قدم طلب طلاق للمحكمة .

فصاح هائجا : ولماذا يبقيها على ذمته ؟ خزاها الله

ـ كلنا مخطئون يا ولدي .. كلنا مستهترون .. نحن أشفقنا عليه وحزنّا عليه .. ولم نعلم أنه خائن وغادر .. قدمنا له بعض الطعام شفقة وعطف

ـ هل أصدق أنك ما كنت تعلمين ما بينه وبين فريدة ؟

ـ لو أحسست ما الفائدة اليوم ؟!

ـ معك حق.. يقولون الأم أدرى بابنتها.. وكما قلت لو أحسست ما الفائدة اليوم؟! الملعونة كرهتني في جنس حواء .. كستنا بالعار .. إلى الأبد ..

ـ يا ولدي كما قال أبوك لا تخسر حياتك من أجلها .. فالعار يلحق بها وحدها .. نحن لم نقصر معها في شيء .. ثياب .. مدرسة .. مصروف ..

كانت تستغفلني.. وأنا للأسف كنت واثقة منها .. لم يعد لي بنات

ـ أمعقول يا أمي ؟! إنك أمها .. وكيف سنتركها للشارع ؟

ـ تعيش وحدها تشتغل وتصرف على نفسها

ـ كلام فارغ .. وحبسها في البيت لا يحل الإشكال .. أبي لا يكترث لها ولفسادها

ـ أنا معكم يا ولدي .. كنت مصدومة فاقدة للوعي لما أسمع وتكشف لي .. أنا ما قلت لها افجري .. ولا قلت لها أن تخون زوجها ولو كان أفسد الناس .. أو تخونكم أنتم

ـ أنت طيبة جدا يا أمي .. لا تفهمين باللف والدوران .. أنت مسكينة .. أنا سائر للمقهى .. لعلي أجد فريدا هناك .. ففريد وجد في الدين والتوبة سلوته وقضاء وقت فراغه .. وصالح لا يهتم كأن العرس عند الجيران .. وجابر ما تفوه بكلمة .. تقولين كأنها ليست أختا لهما .. وكأن الحادث في أمريكا أو في الصومال .

ـ المساكين ماذا يفعلون يا ابني ؟ الكل من داخله مجروح ومهموم .. وأقول ما قاله أبوك لا تستحق أن يلوث أحدكم دمها بيده .. إنها الآن في جحيم الخوف والهوى ..

ـ أصبحت الحياة قذرة ومذلة .. خزتنا ووطت رؤوسنا أمام الخلق .. كنا نعد أنفسنا ديوكا ..

نتسلى ببنات الناس.. أما اليوم فغمرنا بالخزي والعار

تلقى فادي شيك اتصالا هاتفيا من فراس يخبره فيه أن زوجته عنده ، وأنها ترغب بالطلاق بأسرع وقت ممكن ، وطلب الاجتماع به سرا لتدبير الأمر .

التقى الرجلان في وسط المدينة أمام أحد المقاهي الشعبية ، وفي داخل المقهى قال فادي دون تمهيد : كيف تحبون أن يكون الطلاق ؟ .. ومباركة عليك العروس .

ـ شكرا يا عم فادي .. لا تريد أن يعلم أهلها ولا أحد بطلاقها الآن .. أنت سعيت لديها لتقبل الطلاق منك ، ورفضت هي كما أخبرتني .. وأنت أيضا سعيت لدى المحكمة بالطلاق غيابيا ، ولم توفق بسبب غيابها عن بيت الزوجية والمتأخر من المهر .. فالبنت تقول ستقبل الطلاق إذا دفعت لها ألف دينار وتسامحك بالأربعة الأخرى .

فصاح فادي : من أين سأدفع الألف؟ .. أنا لو معي الألف لتزوجت بها وأبقيتها على ذمتي .. أنا يوم تزوجتها لم يكن معي إلا خمسمائة دينار وهي تعلم ذلك .. وأنا ليس لي إلا راتبي الشهري .. والبيت لأبي

ـ خفف من صوتك أولا ، وثانيا خذ من أبيك أو أمك من البنك دبر نفسك

ـ لا أستطيع يا رجل ، نحن لنا بضعة شهور متزوجون .. سأدبر نصف الألف .. أقنعها بذلك يا فراس يا حبيبي .. أرجوك أن تقنعها بذلك

ـ يا رجل أنا أقنعتها أن تكتفي بالألف .. على كل حال سأتصل بك ثانية إذا قبلت وسنرتب أمر الطلاق .. اغرب الآن عن وجهي ..

غادر فادي المقهى وهو يقول : تريد الملعونة .. ألف دينار لتعطيها لك .. أنا لا أدري كيف رضيت بالزواج منها ؟!.. هل حقا خفت من تهديد أخيها أم خفت من هذا الرجل ؟ أنا عرفتها قبل أن تعرف فراسا .. أكانت تعرفه قبل رحيله لحي "أبو خروف"؟ .. لا .. الرجل كان في السجن .. خرج من السجن ثم سكن في "أبو خروف" .. كيف ستعرفه؟.. تعرف عليها واتخذها خليلة .. ثم زعمت أنني حبيبها الأول ، ووهبتني جسدها للتدليل على حبها لي

.. وصدقت ذلك .. لأنها تخلت عن الصرصور ، وصدقت أنها أحبتني لما رأتني أول مرة والتقت بي وهجرت الصرصور.. لعنها الله ما أفجرها!.. استغلت عاطفتي نحوها .. لقد فتنتني بجمالها ورأيتها أجمل فتيات الحي ، وأجمل من التقيت بهنّ .. إنها فاتنة .. كانت تريد زوجا لتخفي أسرارها وعريها .. كله تخطيط من هذا الشيطان .. وتظاهر أمام أهل الحي أنه راغب بالزواج منها .. صفقة خاسرة .. سأدبر الألف إذا اضطررت .. ساعة سيئة التي قبلت بها زوجة .. أحاطت بي ظروف لم تدع لي التفكير السليم .. لقد اشتهيتها بقوة .. هل سيتزوجها هذا اللص ؟ .. سيعملون فِلما جديدا.. كل كم شهر يحصلون على ألف أخرى .. حيلة كنت أنا بطلها .. فراس لص ماكر .. يتاجر بكل أهله ليصل للمال .. وربما سيطردها شر طردة بعد أن يأخذ نصيبه من المال .. وأعتقد أنه هو الذي استولى على دكان العم أبي صالح .. وقد يكون ذلك بالتواطؤ مع تلك الخنزيرة .. هناك أشياء فهمتها بعد الزواج .. فليست أول امرأة أفسدها على زوجها .. الصرصور يعرفه جيدا ، وسجن معه عدة مرات .. مصيرهم السجن من جديد .. هل أكتب رسالة للشرطة عنهم ؟ .. سيقتلونني إذا عرفوا يوما أنني وشيت بهم للشرطة .. رسالة من مجهول .. كيف ستثبت السرقة عليهم بعد هذه الشهور؟!.. فالأطعمة قد أمست في كروشهم .. والدخان دخنوه أو باعوه .. اللهم اكفني شرورهم .. وشر فريدة .. لماذا سمح لي الصرصور بالذهاب معه عند لقائه لفريدة ذاك اليوم ؟.. ثم تظاهرت بأنها معجبة بي من وراء الصرصور .. لعبة شيطانية .. بعد أن اغووها بالزنا .. لبسوني إياها .. إن اللعبة تتكشف لي اليوم .. كنت مغفلا .. وهي كان عليها أن تنفذ مخططهم بعدما باعت جسدها لهم .. أنت جنيت على نفسك يا فريدة مع هؤلاء الأشرار .. وأنا مثلك حمار مغفل .. من أين سأدبر الألف أو حتى نصف الألف .. عليّ أن أنجو منهم .. ربما لو كان معي الخمسة آلاف لنقدتها إياها لأخلص منها ، وهي وهم سيتقاسمونها بينهم .. فلما يئست عملوا لعبة الهرب من البيت .. والآن يكتفون بألف .. فكل راتبي اصرفه على الدخان والنسوان والمخدرات .. لابد من الخلاص منها .. إذا حملت منهم سينسبون الولد لي ، فهي ما

زالت تحمل اسمي .. هؤلاء ناس لا ضمائر لهم ، سيقولون هربت وهي حامل .. لقد أشارت في الأيام الأخيرة إلى الحمل .. اللعنة على اليهود .. سأكلم أمي سيدة البيت .. دخل بيت الأسرة مكشرا غاضبا ، فلمحت أمه ذلك عليه فقالت : مالك ؟! مثل الذي قتل القتيل ومشى في جنازته

ـ أنا في ورطة عويصة يا أمي

ضحكت أمه وقالت : طول عمرك في ورطات ، ولا تسمع النصيحة والمشورة .. ما هي الورطة الجديدة ؟

ـ أريد أن أطلق المرأة سرا دون علم أهلها .. يريدون ألف دينار بدل المتأخر الذي كتب عليّ

ـ لما نصحتك لا تقبل بخمسة آلاف قلت حبرا على ورق .. لما يحدث الطلاق نتفاهم

ـ وها نحن تفاهمنا على ألف

ـ هل قابلتها؟

ـ لأ ، قابلت عشيقها الرجل الذي هربت معه

ـ فراس ؟

ـ نعم فراس ، وهل غيره يستطيع إقناعها بالهرب ؟ بس الذي يحيرني متى تعرف عليها ؟ وقد التقيت بها عندما كان في السجن .. فهو خريج السجون .. لص ومحتال معروف .. وقضى أياما في بيت أمه الأرملة ، ثم رحل لأبي خروف وجاور أبي صالح .. وتعرف عليها بعدي .. إنهم يريدون ألفا مقابل الطلاق .

قالت أمه : الخلاص منها غنيمة ، سواء عرفتها قبل فراس أم عرفها قبلك .. أنا منذ حدثتني عنها وأنا لم استسغها .. فتاة قوية متكبرة رغم جمالها الفاتن .

ـ هو جمالها الذي قضى عليها .. لما رأيتها مع الصرصور وقع هواها في قلبي ..

ـ دعنا من هواك .. كل الشرور فيك يا فادي .. ولكنك ابني .. كم تملك حضرتك ؟

ـ لا شيء سوى راتبي

ـ دبر خمسمائة ، وأنا سأدبر مثلها .. البعد عن فريدة غنيمة ولو دفعنا مليونا .. والمرة أنا التي ستزوجك .. وإياك وإحضار المومسات للبيت .. إنهن مريضات .

ـ من أين سأدبر يا أمي ..أبي لا يقرضني إياها

ـ دعك من أبيك ..أبوك يريد تزويج رامي .

جاءه تلفون آخر من فراس يستفسر فيه عن تدبير المال ، فوافق على اللقاء في حديقة النور حديقة تعرفها فريدة حق المعرفة .

وفي اليوم المحدد التقت فريدة وفراس بفادي ورامي الذي تعرفه حق المعرفة ، وافق فادي على دفع المبلغ عند القاضي ، وسيكون المبلغ معه عند إعلان الطلاق ولم يتكلم فادي مع فريدة بكلمة واحدة ، وكان كلامه كله مع فراس .. وأمام المحكمة التقوا في اليوم الموعود ، وقدموا طلب الطلاق .. وبعد سؤالها من قبل القاضي هل أخذت متأخرها ؟ قالت نعم ، وعلى أثر ذلك أعلن القاضي حكم التفريق بينهم ، وأخذت فريدة وثيقة بذلك وفادي مثلها ، وقد أخبرها كاتب القاضي أن تنتظر ثلاثة قروء قبل التزوج من جديد .. وانصرف الجميع من قاعة المحكمة ، وكل يحمل عقد الطلاق بيمينه.. وانصرف فادي ورامي بدون أن يكلما فريدة جملة واحدة .

وانصرفت فريدة وفراس إلى أحد المطاعم ، وأعطته مائة دينار نظير جهوده ، وتغديا معا ، وقالت وهما يغادران : بقي عليك تنفيذ الجزء الثاني من الخطة .. دبر مبلغا بسيطا ، وأنا سأدبر الأمر مع الأهل بمجرد انتهاء العدة سنتزوج .

ـ ولماذا ننتظر لانقضاء العدة ؟

ـ القانون والشرع

ضحك فراس لتلفظها بكلمة الشرع وقال هازئا: وأين كان الشرع وأنت عندي في البيت؟! .. أي شرع وأي قانون؟! الشرع في الجامع فقط .. فلتبق عندي ، ولما تنته العدة أو يقرب انتهاؤها تعودين لهم لنكمل المشوار.

ـ العدة من اليوم تبدأ .. تلك الأيام كنت زوجة هاربة في نظر فادي والناس .. ولي شهر ونصف مغادرة بيت فادي .. ألم تشبع مني بعد ؟

ـ وهل يشبع من النساء الجميلات ؟

ـ عليك أن تصبر ونتزوج حسب الشرع حتى لا يتدخل أحد في حياتنا ، وإذا ولدت يكون الولد شرعيا .. إنما هي شهران ونصف أو ثلاثة .. القانون لا يعقد لنا قبل مضي ما يسمونه العدة الشرعية

ـ ألا تخشين من العودة إلى البيت ؟

ـ لا ، لا تخشى عليّ منهم .. كلهم أنذال يلبسون بدلات

ـ ولكنّ فريدا أصبح شيخا يتردد على المساجد

ـ أجبنهم فريد .. وأبي لا يهتم بي ولا بغيري .. بل هم شامتون بي .. وعلينا أن نتزوج حسب الأصول .. ليس من أجل الجنس ، بل من أجل الأولاد يا فراس .. وحتى لا يطلق على أبنائنا أبناء غير شرعيين

ـ أراك تحرصين على القانون ! وما زلت دون العشرين

ـ السماع والقصص .. جهز نفسك وأنا في انتظارك

ـ أخشى إن ابتعدت أن تغيري رأيك

ـ يا رجل أنا صرت ملكك من أجل الخلاص من فادي ، فأنت حياتي منذ جئت حارتنا ، صرت الأول تركت كل من صاحبت لحبي لك .. ولو وافقت حقيقة على الزواج مني لما نال فادي مني شيئا ؛ ولكنها كانت خطتك

ـ كنت أخشى الارتباط بك يا فريدة ..وأنت تعلمين ظروفي بالتفصيل .. وأنا رجل خارج من السجن ، وما زالت الشرطة تبحث عني لقضايا لا تنتهي .. فالارتباط كان صعبا يا حبيبتي .. وشجعتك على الزواج منه حتى إذا وقعت في أيدي الشرطة .. لا تظهر عليك الفضيحة .. فكان عليّ أن أقبل شريكا لي في جسدك والغيرة تنهشني .. وقلت اظهري أمام أهلك رغبتي

بالزواج منك ليقبلوا بزواجك من فادي .. فهم يفضلونه عليّ .. وقد وافقت على هربك لأنني مغرم بك .. هذا ولد مجنون حقا كيف يأتي بالنساء المومسات لبيته وأنت معه ؟ والعجب أن أهله سكتوا .. ولو هربت لأهلك مرة أخرى لأعادوك إليه .. هم يريدون الخلاص والفكاك منك .. فكان لابد من إخفائك لفترة .. حتى يقبل الرجل بالطلاق .. خاصة أنه لن يدفع المؤخر كاملا لطفره .. والألف لا بأس بها .. صدقي يا فريدة لو كان صاحبنا يملك الخمسة آلاف لدفعها ليخلص منك .. وأنا تحريت عنه وعرفت أنه لا يملك إلا راتبه .. فمنه يسكر ويحشش أحيانا ويزني ..

ـ أنا في انتظارك يا حبيبي

ـ المال الذي معك أين ستذهبين به ؟

ـ سأعطيه لأبي ليصمت ، ثم آخذه منه عند زواجنا .. لن اتركه لفريد وناجح

ـ أفضل أن يبقى معي يا فريدة .. وعندما أتقدم للزواج منك ادفعه لك

ـ دبر مبلغا بسيطا مائتين دينار .. أو احتفظ بالمائة التي أعطيتك إياها ، وسيكون زواجنا شكليا ، وسيكون المقدم دينارا واحدا .. والمتأخر أنت وكرمك .. وبعد الزواج سأسحب المبلغ من أبي ، ونفتح دكانا أو محلا لتعمل فيه .. ونبدأ حياة هادئة ؛ لعل الله يرزقنا ذرية نفرح بها .. ماذا كنت تعمل قبل سجنك آخر مرة ؟

ـ عملت أعمالا كثيرة .. سنفتح مقهى أو مطعما فإني عرفت هذه المهن

ـ جيد .. فلنفترق على أمل اللقاء الأبدي يا حبيب القلب ..لا تنساني

ـ ألا من لقاء قبل انقضاء العدة ؟

ـ إذا وجدت البيت جحيما سأتصل بك عند ذلك البقال .. إني أحفظ رقمه

صافحها بحرارة وقال : إلى اللقاء يا حبيبتي

ـ مع السلامة .. إلى اللقاء أيها الحبيب

ـ آه من الحب والهوى !

زواج ناجح

لما توارى فراس عن نظرها مشت نحو الشارع الرئيسي في المنطقة ، وفتشت عن أحد البنوك ، وأودعت مالها بحساب خاص فيه ، وكانت قديما قد باعت قطع الذهب التي حصلت عليها عند زواجها من فادي ، ووضعت المال في أحد البنوك ولما سألها فراس يوما عنها زعمت أنها أنفقتها على البيت من أجل استمرار الحياة الزوجية.. وظلت تتسكع في شوارع المدينة ، وقد اشترت ثيابا جديدة ولبستها في نفس المتجر ، ولما هبط الليل دخلت مطعما تناولت فيه الطعام ، ثم دخلت السينما ، ولما انتهى الفِلم أخذت سيارة تكسي إلى حي "أبو خروف" وطرقت البيت ، وكانت تتوقع وجود أمها وناجح .. فتحت الأم الباب ولما رأتها صاحت دهشة : فريدة !

أزاحت أمها عن الباب وزلفت داخلة ، وأغلقته خلفها وقالت : نعم فريدة .. مساء الخير .. كيف حالك يا أمي ؟

ـ كيف حالي ؟ حالي سوداء بعدك

قالت : انسِ يا أمي ها أنا قد عدت ، وقد حصلت على ورقة الطلاق اليوم

ـ هل طلقت ؟!

ـ نعم ، يا أمي انتهى ما بيننا

كان ناجح قد سمع الطرق الليلي ، فهو لم ينم بعد ، فنزل وسمع الحديث الدائر عند مدخل البيت ، فقال ساخرا : أهلا فريدة .. الحمد لله على السلامة كيف الغربة ؟!

لم تلتفت إليه وقالت : هل حجرتي ما زالت تنتظرني يا أمي ؟

فقال ناجح بحدة وغل : هل شبعت من الرجال ؟

ـ لم اشبع بعد .

ـ عاهرة ! .. أصبحت عاهرة .. ألم تجدي خمارة تحويك ؟

فصاحت بغضب وحقد : اخرس يا ولد .. هذا جسدي وأنا حرة فيه .. إن لم تلزم حدك

سأذهب الآن للشرطة وأتهمك بالاعتداء عليّ

صفق بيديه وقال : أعلم أنك تفعلينها .. ولماذا جئت إذن إلينا ؟! لا أعتقد أنك تبت عن المواخير

صاحت من جديد : اخرس يا ولد .. أنا أشرف منك .

ـ أنت أشرف مني .. والذي خلقك ما زنيت قط .

قهقهت وقالت " وهل أصدقك يا ولد ؟! أنا التقيت ببعض فتياتك

ـ كلهنّ كاذبات .. مفتريات .. صحيح أنا كانت لي صداقات مع فتيات ؛ لكنها بريئة من الجنس والزنا ، وندمت عليها منذ عرفت أنك عاهرة !

ـ اخرس لا تقل هذه الكلمة على لسانك

قال متهكما: وإلا ماذا تسمين غيابك هذا الشهر عند فراس ؟

ـ لو عدت إليكم لرددتموني لفادي النذل ، فكان الهرب معه هو الحل .. وسنتزوج قريبا .

صاح ناجح : آ ، ستتزوجون .. ألا تعلمين أن فارسك الجديد لص حقير؟! .. وعندما سكن هنا كان خارجا من السجن من أيام قليلة

ـ أعرف ، ولم تأت بجديد .. والمسجون أليس إنسانا وبشرا ؟ وهذه دار أبي فلما تكون دارك تطردني منها

ـ لست نذلا لأطردك .. فها هي حجرتك لم تسكن من بعد .. تزوج شقيقك فريد ورحل ، وسأتزوج أنا وأرحل قبل أن تنتهي عدتك .. هذا بيت جحيم .. بيت خزي وعار

قالت بهدوء : ارحل .. ولماذا لم ترحل بعد ؟!

ـ كنت أعلم أنك ستعودين كالكلبة الجرباء .. واحد مثل فراس هذا لا ترضيه امرأة واحدة .. فهو يتنقل بين عدد من النسوة الماجنات مزيود وغيرها .. فهو بهيمة حيوان .. مثل تيس الغنم .. سأرحل يا سيدة فريدة ليخلوا لك البيت .

أخذت فريدة بالبكاء من القهر من الطلاق من الكلام الجارح ، ودخل أبو صالح والبكاء

يسمع فقال : ماذا هناك صوتكم في الشارع ؟!

هتف ناجح قائلا : عادت ابنتك يا أبا صالح .. عادت رافعة رؤوسنا للسماء

تطلع فيها أبو صالح وقال بسخرية : عدت يا فريدة .. أين قضيت شهر العسل ؟

ـ أهلا أبي .. سامحني يا أبي .. أغواني الشيطان .. فقدت عقلي

ضحك ناجح لمكرها وقال : أنت الشيطان

صاحت في وجهه : اخرس هل تريد مني أعيش في الشوارع ؟

فقال أبو صالح : أين كنت تعيشين كل هذه المدة عندما تركت بيت الزوجية ؟

ـ حصل اليوم طلاقنا فجئت لبيت أبي وأمي .. سأتزوج بعد انقضاء العدة

ابتسم كمال وقال : العريس جاهز

فقال ناجح : لديها عرسان ليس عريس واحدا .. سيصير فراس أفندي صهرك يا أبي .

فهاج كمال وصاح : اللص .. الحرامي .. جار السوء

ـ آ يا أبي ، البنت فهمت من كلامها أنها رتبت أمورها مع اللص فراس

فقال كمال : وكيف رضيت به يا ملعونة ؟

قالت بنبرة التحدي المعروفة فيها : وهل اللص لا يتوب يا أبي ؟ هل شارب الخمر لا يتوب يا أبي ؟ هل الزاني لا يتوب يا أبي ؟ هل لاعب القمار لا يتوب يا أبي ؟

قال كمال : كبرت يا فريدة .. تعيرين أباك بجرائمه !



العادة السائدة لأبي صالح كما لاحظتم لا تتغير مهما كبرت وصغرت أحداث "أبو خروف" ، فدخل المقهى في موعد صلاة العصر ، وجلس على كرسيه المعتاد وطلب الشاي الثقيل ، وأشعل هذه المرة غليونه الإنجليزي ، كما يردد لرفاقه أنه استورده من بلاد الإنجليز ، وسحب

ونفخ عدة مرات ، وقال له أبو نوح : أصحيح أن البنت رجعت يا أبا صالح ؟ أم الأولاد أخبرتني ذلك الخبر عند صلاة الفجر قالت " البنت الليلة عادت لدار أبيها" كيف هي ؟

ـ عجيب أمر الناس !.. على صلاة الفجر كان الخبر يمشي بين الناس ..

اخرج الغليون من فمه وتابع : عادت كما تعود بنات الناس .. البنات الهاربات .. أنا قلت إنها لن تعود مثل بنت ... ولكنها عادت مطلقة .. طلقت صباح أمس وعادت للبيت ليلا .. وقلنا كم كلمة وانتهى الموضوع .. البنات خزي وذل

ـ التربية سيئة يا أبا صالح.. أنت قصرت في تربيتهم الأخلاق الحسنة .. وأمهم غلبانة لا تتدخل في شيء .. تسمع فقط .. لقد أهملت في حقهم .. وها هو فريد قد هداه الله ، وها هو يتعلم القرآن ، ويجلس مع المشايخ ، ومع الوقت سيصير شيخا

قال آخر : أصبحت ابنتك اليوم مطلقة .. دمرت حياتها بنفسها .. ماذا ستفعل في البيت ؟

فقال آخر : سيأتيها ابن الحلال

فقال أبو صالح بحماس : العريس جاءت به معها

فصاحوا دهشة فقال : مالكم ؟! قلت البنت جاءت تقضي العدة عندنا .. لماذا العدة والبنت لا تعرف صلاة ولا دين ولا رمضان ؟!

ـ من هو عريسها الجديد ؟

قال بحزم: الحرامي فراس .. الحرامي الذي هرب بها وغرر بها .. والذي خلاها تترك المدرسة .. الحرامي خريج السجون .

ـ مرتبة الأمور مع فراس .. جاء السعد !

ـ أي سعد ؟! جاء الشيطان .. كان يوم أسود اليوم الذي شرف فيه حي "أبو خروف" .. زعم أن والده طرده ، وأبوه ميت من القهر منه .. طلع من السجن وسكن بيننا .. كيف أصحاب البيوت يؤجرون الشقق لأصحاب السوابق والإجرام ؟

ـ صاحب البيت يريد المال .. وهل يبقى المأجور فارغا ؟.. هذه الدار ظلت شهور خالية قبل

سكنه فيها .. فهي تحت الأرض وعفنة تملأها الرطوبة .. وما دامت الحكومة أفرجت عنه .. فلماذا يعاقبه صاحب العقار؟ والرجل كان يدفع الإيجار المتفق عليه .

قال أبو صالح : لعنة الله عليه .. المهم جاء وفسد البنت علينا ، وعلى زوجها ، وهو اليوم يوهمها أنه سيأتي للزواج منها .. ومتى ستنتهي هذه العدة ؟ .. لو تزوجها قبل أن تأتي لكان خيرا لنا .. فها هو ناجح سيترك الدار قبل أن تتزوج .. وهو اليوم مصمم على الزواج قبل انتهاء عدة فريدة .. وسيتقدم لأبي فواز لطلب يد ابنته زهرة .

ـ لم يجد إلا زهرة .

ـ يبدو أنها لم تطلع من نفسه .. والبنت خطبت وبطلت .. سمعته يحدث في البيت أمه بذلك ، ويطلب منها أن تذهب هي وأختها أم ريان جارتهم للحديث مع أم الفتاة

فعلق أبو أحمد رشيد : ما دامت البنت خطبت وتركت سيقبلون به سريعا .. وناجح ولد جدع .. ولماذا لا يسكن معكم في البيت ؟ .. وفريدة سترحل عندما تتزوج اللص فراسا ؟ وأنتم بحاجة لرعاية فقد كبرتم .

ـ الله يرعانا .. نفرض ما خلفنا .

قال سلمان : نفرض ما خلفت ، وأنت خلفت خمسة أنفار.. فجابر مليح معكم ومساعدك في البقالة فليرحل للعيش معكم .. لو مرض أحدكم في الليل وتحتاجون لطبيب أو مستشفى فسيساعدكم .. جابر جيد

وزكى الجميع جابرا فقال أبو صالح : ليومها يفرجها الله يا جماعة الخير .. تكلمنا الكثير وتأخرنا عن اللعب

قال أحدهم : ما هي أخبارك تتصدر نشرة الأخبار كل يوم .. أحداث ساخنة .. اليوم فريدة تهرب .. الليلة تعود للبيت .. اليوم تتطلق .. غدا ستتزوج .. الله يهديها وييسر لها ابن الحلال حتى يستر عليها

ضحك أبو صالح وقال : فراس ابن حلال .. هو ابن شيطان وشيطانة

ـ أبوه ميت يا أبا صالح

ـ سمعنا ذلك ، هيا وزع الورق لنكسب دورا قبل صلاة المغرب

ضحك نعمان وقال : أنت تهمك الصلاة .. نحن نذهب للجامع وأنت تظل تلعب .. كم أتمنى أن أراك في الجامع يا رجل !

ـ إن شاء الله !

أوصل ناجح أمه وخالته أم ريان لبيت أبي فواز وقال لهن " بعد نصف ساعة سأعود إليكن " هذا ما حدث بعد رجوع فريدة لبيت أهلها بيومين فقط .. استقبلت أم فواز المرأتين ورحبت بهما، وقادتهم إلى غرفة الاستقبال ، وهي تكرر الترحاب بهنّ ، فأم ريان سيدة فاضلة معروفه بنشاطها الاجتماعي بين نساء الحي ، وتقديم الصدقات والإحسان للعائلات ، وقدمت لهن زهرة الشاي والعصير ، ووضعت أمامهن الفاكهة ، وتحدثت أم ريان بالغاية التي جئن من أجلها ، وقد تفاجأت أم فواز وزهرة بالأمر ، وبعد مجاملات قالت أم فواز : مرحبا بكن .. سأتشاور مع أبي فواز والأولاد ، وزهرة ها هي تسمع .

فقالت أم ريان : شكرا على الاستقبال.. أرجو أن تردوا علينا بأسرع وقت ، فناجح ابن أختي يريد الزواج خلال شهرين إذا تم القبول .

ـ ولماذا العجلة يا أم ريان ؟!

ـ أحوال خاصة فيه .. شاوري الأخ الكريم أبا فواز ..وأنا سآمر عليكم غدا مع ابني حسن .

ولما رافقت المرأتين للباب ، وودعتهما أغلقت الباب ، وعادت لزهرة فقالت : هل بينكم شيء يا زهرة ؟

قالت الفتاة وهي تلحظ نظرة الاتهام في عيني أمها وكلامها : أبدا يا أمي ولا تنسِ أنني قبل أسابيع كنت مخطوبة .. منذ حادث ابن أخيك ولم ينطق لساني بلسانه .. والأمر إليكم .

ـ الآن جاء من الباب الشرعي .. أنت راغبة فيه يا زهرة .. أسمعت بقصة أخته الشائعة في الحي هذه الأيام .. من هربها من بيت زوجها وحياتها لأكثر من شهر مع لص خارج بيت

الزوجية
ـ وهذه هي الظروف التي أشارت إليها أم ريان .. المرأة الفاضلة هي خالته وخالتها .. أم المهندسين والمعلمات .. فليس كل الناس نفس الشيء يا أمي .. فناجح منذ زواج أخته قد تغير .. هكذا تتحدث عنه صبايا الحي .. وأخوه فريد أصبح متدينا يطلب العلم الشرعي عند الشيوخ .. الناس تتغير

ابتسمت الأم وقالت : أنا أعرف هواك للشاب ؛ ولكني ظننت أننا انتهينا منه .. وزواجك الذي دبرناه قد فشل ، لعل النصيب يكون لناجح .. أنا لا اعتراض عندي عليه ؛ لأن أم ريان امرأة صالحة ، ولو لم تر أن ابن أختها كفء للزواج ما سعت في ذلك ..فالأمر الآن لوالدك يا زهرة .

ضحكت زهرة وقالت : إذا كلمت أبي برأيك ، سيأخذ برأيك يا حبيبتي يا أمي الغالية .

ضحكت أمها وقالت : غريبات البنات .. الزواج له سحر عندهنّ .. الأم أهم حدث في حياتها بعد الولادة زواج أبنائها يا زهرة .. وإذا ارتاحت البنت في بيتها يرتاح قلبها وحياتها .

لما اطلع أبو فواز على القصة ، ومجيء أم ريان وأم فريد لطلب يد زهرة لناجح قال الرجل لامرأته : زهرة ما قولها ؟

ضحكت أم فواز: زهرة لها هوى فيه قديما ، وفشلها في الزواج من ياسر لا يدع لنا مجالا للرفض .. وهي قالت " الأمر لكم " والشاب راغب بالزواج ليخرج من البيت ويبني أسرة جديدة .. وخالته أم ريان أنت تعرفها ، لو لم تره كفئا لها ما قبلت المشي في زواجه

ـ معك حق ، وهذا هو الذي يطمئن .. فأم ريان سيدة الخير في الحي والمنطقة .. نحن صحيح لسنا من سكان أبو خروف ولكننا كحي واحد لا يفصلنا عنه سوى شارع الدوار .. والناس يسمونها أم المساكين يشبهونها بإحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم فجهودها معروفة.. لكن القرابة بينهم لها دور .. الحقيقة أن الإنسان يقبل شفاعة أم ريان بدون تفكير .. وأنا راغب بزواج زهرة العاجل .. فهي قد فشلت في المدرسة ، والزواج هو مستقبلها وحياتها

ما دامت هي موافقة على المذكور .. فعلى بركة الله

ـ وأنا مثلك راغب بزواجها .. وعلى بركة الله .. سأدعوها لك لتشاورها في الأمر ، وتعلن لها موافقتنا .. فالمرأة أم ريان ستمر علينا لسماع الرد بالقبول أو الرفض .. لأن الشاب يريد الزواج خلال شهرين .. فهو عاف بيتهم ..

ـ ولماذا العجلة ؟

ـ كما قالت أم ريان الشاب مستعجل .. لقصة أخته المحرجة لهم .. وقالت أم ريان وهي تودعني سبب الاستعجال في الرد حتى إذا لم يكن النصيب عندنا تبحث عند غيرنا

ـ بدون مشاورة الأولاد على بركة الله يا عزيزتي

ـ اشكر ثقتك بي يا أبا فواز

لما أقبلت أم ريان مساء اليوم التالي زفت إليها البشرى بموافقة الجميع على مناسبة أبي صالح في ولده ناجح ، وكان ابنها المهندس حسن ينتظرها في السيارة ، ودخلت تلهث ، فلما سمعت البشرى عانقت أم فواز شاكرة وقالت الأخرى: الشكر لك يا حاجة أم ريان .. ولولا خاطرك وشفاعتك لفكرنا مليون مرة قبل القبول بابن أبي صالح

قالت : أعرف .. وأنا ممتن لكم .. أولاد أختي يريدون الخروج من البيت المظلم .. والأخ فريد بعد زواجه لابد أنك سمعت سيرته .. وناجح يسعى لهذا الهدف .. والبنات كثير في الحي كما تعلمين .. ولكن الشاب عرف ابنتك قديما ، ووصف بأنها ناضجة العقل وتتحمل المسؤولية .. ويرى أن من حظه فشل زواجها من السيد ياسر قريبكم..

ـ يا أختي مباركة عليكم إن شاء الله .. والحاج لما سمع أنك جئت بنفسك رحب وقال الحاجة أم ريان لولا رؤيتها أن ابن أختها كفء لزهرة ما تشفعت في هذا الموضوع الخطير

ـ صدق الحاج يا أم فواز

ـ ألا تريدين الدخول ؟

ـ ابني على الباب .. أين زهرة ؟

نادت الأم عليها ، فلبت النداء سريعا ، وسلمت على أم ريان التي احتضنتها مهنئة ، وقبلتها من وجنتيها ، وباركت لها وقالت لهنّ : زوج أختي أبو صالح فاسد وضال حياته الجلوس على المقهى ولعب الشدة .. الله يصلحه

قالت أم فواز : على كل حال عرف ناجح من يرسل لنا .. سندعو لك يا أم ريان بكل خير .. ونحن لا يهمنا أبا صالح ، يهمنا الولد أن يصير صالحا .. وزهرة تقدر هذه الخطوة منك ..

ـ الشكر الجزيل لكم جميعا .. وسأخبره الليلة ؛ لأنه سيمر عليّ بعد صلاة العشاء .. وخير البر عاجله .. لنرتب للخطبة والزواج في آن واحد .. وأنا سأساعده في تحقيق كل طلباتكم .. فأنتم نعم الأهل والجيران .. مبارك يا زهرة

ردت زهرة : أنا بدوري أشكرك يا أم ريان .. أنت نوارة حي "أبو خروف وحي النجمة"

ـ البركة في الجميع .. سلموا لي على أبي فواز .



جرت الأمور التي تسبق الزواج على خير ما يرام ، قام أبو صالح وبعض رفاق القهوة وأولاده وأبو ريان وأبو محمد زوج الأخت الثالثة بزيارة بيت أبي فواز الذي استقبلهم بمجموعة من أقاربه وأصهاره ، واتفقوا على المهر المقدم والمؤخر وتوابع المهر الأخرى ، وفي اليوم المحدد كتب عقد الزواج أمام القاضي الشرعي في المحكمة الشرعية ، وتم تعيين يوم حفل الزواج ، وقدم له أخوه فريد مساعدة مالية ، وقال مداعبا له : لم تصبر على فراقي فأسرعت بالزواج يا ولد ..

فابتسم له ناجح وقال: عودة فريدة عجلت فكرة الزواج لديّ .. نحن لا نحب الفسق الصريح ، وهذه فتاة خرجت عن الحد ، ولا تسأل عن شرف ولا كرامة وتقيس نفسها بالرجال .. فالبعد عنها مغنم يا فريد .. وهذا وهي ما زالت دون العشرين سنة ، فكيف عندما

تكبر خمس ست سنين أخرى ؟ فلماذا أحرق أعصابي ؟ ها هو ربي أكرمني بزهرة إحدى معارفي في الفترة الأخيرة ، وهي وإن تركت المدرسة تفهم في الحياة جيدا .. والتوفيق بيد الله وحده .. وأسأله تعالى أن يهديني كما هداك يا أخي الكبير .. ووعدت خالتي أم ريان أن أكون عند حسن ظنها بي .. وأن أغير من نفسي للأفضل ..أخشى يا رجل أن استيقظ يوما وأجد رجلا غريبا في بيت أبيك .. سأرتكب جريمة أسجن أو أعدم بسببها ، وكما قال أبوك إنها لا تستحق أن يسجن من أجلها يوما واحدا .. لو أحدهم اعتدى عليها ودافعنا عنها وقتلنا أو قتلنا ما نندم .. فالخائنة تهمل ، ولا يكترث بها حتى تموت أو تتوب إلى الله توبة صادقة .

ـ الكثير من كلامك جميل .. عقلك يكبر يا ولد .. فالأخ ماجد الشيخ الذي عرفتك عليه ذات يوم ، "قال ليس لنا إلا الصبر والتحمل ؛ ليقضي الله أمرا كان مفعولا .. فالقضاء على حياتها ليس هو الحل الأمثل في هذا الزمان .. يقعد الإنسان الغاضب والمنتقم سنوات وسنوات وراء القضبان والذي حدث حدث .. وهل يعود إليها ما فقدت ؟ .. وبما أن الحدود الشرعية معطلة في هذا الزمان في كل بلدان المسلمين فليس هناك إلا التوبة .. وهذه أمرها إلى الله علام الغيوب" .. "وقال إذا الإنسان قتل قريبته زال عنه ما يسمى بالعار .. فالتهمة لاصقة ولا يزيلها إلا الإحسان والتعلق بالأعمال الصالحة والتوبة الصالحة والإخلاص .. فالأخلاق الحسنة هي الباقية ، وفي الإيمان إزالة العار ".. في الحقيقة كلمني كلمات كانت بلسما للنفس المكلومة .. فأنت بعد زواجك عليك أن تعود إلى الله ، وتترك فريدة لنفسها ، عسى الله أن يصلحها، وتعرف حقوق أهلها عليها .. والمسيء حقيقة يسيء لنفسه أولا .. وأتمنى لك يا أخي الصغير حياة سعيدة مع الأخت زهرة ، ولا تنس وقفة خالتك أم ريان معك .. والناس تقدر أهل الصلاح رغم الغمامة المحيطة بالشيوخ من أهل الفساد .. فقد أكرمونا وسهلوا الأمور إكراما لأم ريان وللخير الذي تشتهر به أم ريان .. فقد اعتبرتك خالتك ابنا لها ، ودخلت بزواجك بكل قوة لأنها تحب الخير للجميع .. أنا ما عرفت قيمتها إلا بعدما تدينت قليلا .. فكل شخص التقيته بعد التوبة ، ويعلم أن أم ريان خالتي يتفاجأ من البون الشاسع

بيننا وبين أسرة أبي ريان ، فسمعتها مثل الشهد ، وسمعتنا مثل الثوم أو البصل .. فخالتك تعمل الخير وتدعو الله أن يقبله خالصا لوجه .. والمؤمن يحب للناس ما يحب لنفسه

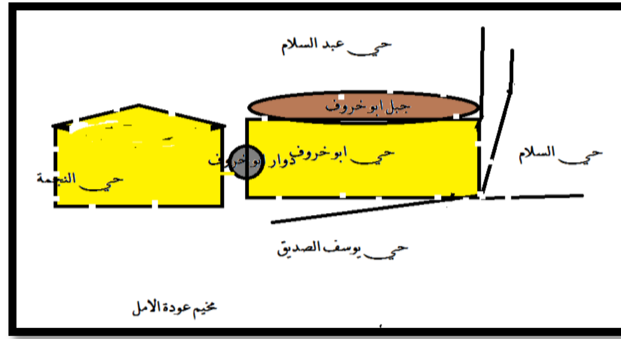
ـ هذا أنت شيخ بجد

ـ الحمد لله .. إني أذكر لما كنت أرى خالتي تمر على العائلات الفقيرة خاصة في مواسم العطاء كرمضان وعيد الأضحى لتقدم لهم المساعدة البسيطة أو كيسا من اللحم أستسخف هذا الفعل وهذا النشاط ، وأقول لمن معي " خالتي مجنونة .. شاغلة نفسها في إطعام الفقراء والشحاذين وتوزيع الثياب عليهم " كنت أجعل من فعلها بابا للدعابة والنكت ، وأعجب أكثر من مشي ريان المهندس في سيارته على الدور والمنازل معها .. لكني لما فهمت اليسير من الإسلام والزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعي الحقيقي ..أدركت أن هذا هو الزاد الحقيق للإنسان عند الله .. فإن خير الزاد التقوى .. فعندما يستطيع الإنسان القوي مواساة ومساعدة الفقراء والضعفاء فيحس ويشعر بالسعادة والإيمان ..أرأيت كيف تجاوب أبي فواز مع شفاعة خالتك بسهولة في أمر زواجك ونسي القصة القديمة فورا ؟! .. وهذا الشيء ألمسه مع الأخ ماجد عديلي زوج أخت زوجتي نوران .. كيف يتفهمه الناس ويقبلون واسطته في شؤونهم المختلفة؟ .. الناس لا تحب تزويج شاب عمل صداقة مع فتاة حتى لا يقال ويقال ..إلا إذا اضطروا لذلك لدرء وستر شيء كما حصل معنا .. لأن الشائعات بهذا الزواج تصبح حقائق .. شتان بين أمنا وخالتنا !



بيت جديد

استأجر ناجح كمال بيتا قرب دوار "أبو خروف" حيث تسكن خالته أم ريان، وأيضا أصهاره دار أبي فواز .. في بداية الحي من الأسفل بل في حي النجمة حسب التنظيم البلدي لإحياء المدينة .. وقام بشراء الأثاث المناسب للزواج ، وساعدته خالته أم ريان أيضا في تأثيث البيت عن طريق الجمعية .. وقبل أن ينصرم شهر على عودة فريدة لبيت أسرتها حتى كان الرجل يغادر البيت عريسا ، وكان وهو يغادر يقول لفريدة مودعا ، وهي رفضت المشاركة في العرس : أتمنى لك حياة سعيدة يا فريدة .. لكني أقول التمرد على عادات الخير ليس في صالحك .. ها أنا أترك لك الجمل بما حمل ..



ردت عليه هازئة : كلٌ حر بحياته .. هنيئا لك حبيبتك زهرة ..التي صفعت من أجلها أمام كل الناس

وضع يده على خده لا شعوريا وتحسسه وقال : الحمد لله أني وجدت من يصفعني أمام الناس لاستيقظ وأتربى ، ولا اعتدي على أعراض الناس .. أنت لم تجدي من يصفعك على خدك حتى الآن .. صدقي أو لا تصدقي أني أتمنى لك من قلبي أن تتوبي إلى الله ، وتحسني الاختيار لزوج الغد ، وتنظري إلى النماذج الحية الطيبة من النساء.. فها هي خالتك اكتشفنا على كبر أنها سيدة مهمة في الحي والمجتمع .. كنا نراها قديما سخافات وإضاعة للوقت ، فإذا هي أعمال عظيمة عند الناس ، والكل يمدح السيدة ويذكرها بخير ويقبل نصحها .. ولم تتأثر سمعتها بفعلنا وبفعل بنت أختها .. وما زال الناس يحبونها ويأتون لجمعيتها يطلبون المساعدة .. حتى

صرنا اليوم نفخر بأنها خالتنا .. وكما يقول فريد هي تعمل لإرضاء الله تعالى ، والله وضع لها القبول في الأرض بين الناس ، وهذا جاء لم تبذله .. تأملي حياة خالتك وابدئي صفحة جديدة .. خالتك التي كنت تذهبين لبيتها لتعلم الإنجليزية من ابنتها ميمونة ، ثم تذهبين إلى ... لقد صدمنا من فعلتك الشنيعة .. كنا نرى أنك ستذهبين للجامعة وتصيرين معلمة ..

ـ أنا أعلم أنك تكرهني ولا تحبني

ضحك وقال: أنا اكره أعمالك المخزية الأنانية .. عندما تصبحين فاضلة .. سترين حبي الصادق لك .. سلام خذي بالك من أمك المسكينة التي تركتنا على حل شعرنا كما يقال .. تعلمنا الدخان ولا أحد ينهانا .. شربنا الخمر ولا أحد ينهانا .. لعبنا القمار لا أحد يمنعنا .. فلما نبهتنا خالتنا لهذا الخطر قال أبوك :" خالتكم مخرفة .. عقليتها عقلية الناس القدامى " وتساءلت من هم هؤلاء الناس القدامى ؟ .. إلا إذا كان يقصد أصحاب محمد ﷺ الأوائل .. نخرج مع البنات لا أحد يزجرنا ، ويقول لكم أخوات وأمهات .. لا تحذير حتى صدمنا بما وقع من أختنا .. أصابنا الخزي فاضطر فريد للهرب بالزواج .. وأنا أفعل مثله ؛ لعلنا نعيش بعيدا عن الفتن والشهوات .. نصيحتي الأخيرة ، وأنا موقن أنك لن تهتمي بها ، لا تتزوجي من فراس .. فهو شيطان مريد لص أغلب حياته قضاها في السجون .. احفظي شرف المكان الذي تنامين فيه .

وغادر ناجح البيت الذي ولد فيه ، وترعرع فيه ، وأقام حفلة زواج متواضعة في إحدى صالة الأفراح والاجتماعات العامة ، وانتقلت زهرة إلى بيت زوجها ، ولما خلا بها كما يخلو الأزواج بزوجاتهم قال باسما : أحبك يا زهرة .. ظلت صورتك في قلبي

قالت : وأنا أحببتك حقا ، وتمنيت هذا اليوم .



"كيف الحياة بعد زواج الأولاد يا أبا صالح ؟"

طفا الرجل سيجارته فهو يدخن الغليون ، والسجائر حسب المزاج ، وقال بعد رشفه رشفة من كوب الشاي الأسود الثقيل : أنا لم أكن أرى الأولاد كثيرا.. فلم أشعر بأي تغير يا أبا نوح .. كنا نلتقي يوم الجمعة على الغداء ، وأراهم صباحا ونحن نشرب الشاي ، وهم ينصرفون لإعمالهم .. وأسعى للدكان حتى العصر ، ثم آتيكم فأراكم أكثر من المرأة والأبناء .. ولما أعود في الليل أجدهم نياما .. وحتى لما كان فريد يجلس في المقهى لا أحس به .. هذه سنة الحياة أن يستقل الإنسان عن الآخرين ببيت وزواج ، ويبدأ حياة خاصة به .. صالح تزوج وخرج ، وجابر مثله ، وفريد مثلهم وناجح .. وكنا نظن أننا تخلصنا من ست الحسن فريدة ؛ ولكنها خيبت آمالنا وفسدت أخلاقها .. وهي قابعة في قعر حجرتها تنتظر شيخ اللصوص .. والكل يتزوج، والمجرم يتزوج ، والحرامي أيضا يتزوج .. وإذا متنا سنترك لها الدار ترتع فيها ، وإذا تزوجت ذاك الشيطان كما زعمت .. مع ألف قلعة .. فسيأتي جابر للحياة معنا كما أشرتم علينا وقال جابر : لوقتها يفرجها الله .. آ.. تذكرت سمعت أن صاحبنا الحاج أبي أحمد سقيم وأدخل المستشفى

قال أبو نوح : نعم ، لم يحضر عرس ناجح .. ذهبنا لبيته نسأل عنه .. فأخبرتنا عائلته أنه مريض وفي المستشفى .. وغدا سنذهب إليه في المستشفى كما اتفقنا مع الإخوان

ـ إي مستشفى وأي ساعة ؟

ـ مستشفى الصحة وعلى وقت الزيارة ، بعد الظهر نتحرك ، سيأخذنا ابني سليمان فقد رضي بأخذنا .

ـ هل لي وسع في سيارتكم ؟ .. أم أطلب من صالح بأخذي

ـ هناك وسع لخامس

ـ سأرتب أمري .. وأطلب من جابر أن يأخذ إجازة للبقاء في الدكان .. فالأخ أبو أحمد صديق العمر .. ما وضعه الصحي ؟

قال أبو عدنان : يخشون على حياته كما قال العيال ..

فقال سلمان : سأذهب أنا وزوجتي ؛ لأنها صديقة لامرأته ، وستأخذنا بنتنا بيان في سيارتها

فقال أحدهم : أنا أراها تصف سيارتها أمام البيت

قال سلمان : اليوم البنات تسوق السيارات ، وهي تحب زيارتنا ، وهي اليوم أم لخمسة أولاد .. وزوجها رجل محترم ، وكلاهما يدرس في الجامعة .

ـ ما شاء الله .. أسرتك كلها تعلمت

ـ الله الموفق أولا وأخرا .. درسنا الأوائل في المعاهد والجامعات.. والأواخر درسوا بمساعدة الأوائل .. والحمد لله .. وبيان كانت ذكية ، وأحبت الدراسة فدرست في الجامعة على نفقة يوسف البكر .. تعلمت الفيزياء .. وبعد أن تزوجت أخذت الماجستير بمساعدة زوجها الذي درس مثلها الماجستير ثم الدكتوراه مع بعضهم البعض .

فقال أحدهم : بارك الله لك في ذريتك أبا يوسف .. وشقيقك أبو نوح

مثلك ، أعتقد التعاون مطلوب بين الأشقاء ليتعلموا .

قال أبو نوح : أولادي أغلبهم درس مثل أبناء عمهم ، وبعضهم لم يوفق في المدرسة ، ويعملون أعمالا جيدة ومربحة ، وموفقون والأهم عندي أنهم يصلون ذكورا وإناثا .. لم أسمح لهم بالاختلاط بشباب الحي .. كان أكثر اختلاطهم بأبناء عمهم وعماتهم .. فنجوا من مفاسد "أبو خروف" .. وعرفوا كيف يبنون حياتهم ؟

قال أبو صالح : الصحيح أولادكم نوارة الحي ، مثل أبناء أم ريان

قال أبو نوح : أم ريان أم الحي من عشرات السنين .. سيدة كريمة ومجاهدة ونشيطة .

قال سلمان : الدخان لا يعرفه أولادنا يا أبا صالح .



عندما أوشكت عدة طلاقها على الانتهاء خرجت فريدة إلى بقالة والدها حيث يوجد فيها هاتف ، فبعدت أن سلمت وأكلت ما طاب لها قالت : أريد أن استخدم الهاتف يا أبي .

أعطاها قطعة نقود معدنية ليتم الاتصال بواسطتها ، وأجرت الاتصال مع البقال الذي تحفظ رقمه ليخبر فراسا باتصالها ، فبعد التحية سألته عن فراس ، فأعلمها أنه قبل قليل اشترى من عنده ، فأعطته موعدا لتتصل بفراس ، وشكرته ، فقال أبوها بعد تركها سماعة الهاتف : انتهت العدة التي لا أفهم لما هي ؟ والذي يسمع ويرى اهتمامكم يظن أنكم شيوخ وأهل دين

ـ لسنا شيوخا يا أبي ، العاقد لا يعقد لنا إلا إذا انقضت تلك الفترة ، وإلا تعرض للحبس والمنع من العقد ثانية .. فلن يكتب العاقد أو القاضي إذا لم تكتمل العدة منذ تاريخ إشهار الطلاق .. ما هو أنا قعدت شهرا ونصفه بدون أن أرى زوج النحس .. القضية قضية تاريخ الطلاق الرسمي .. هذه قوانين الشريعة التي تطبق في المحاكم .. هل عند الأجانب عدة في دينهم ؟

ضحك أبو صالح وقال : هو هل عندهم دين ؟.. خذي بعض الفاكهة لأمك وعلبة شراب

ـ ولي .

ـ ولك ظننتك شبعت .

ملئت بعض الأكياس بفواكه مختلفة من العنب والدراق والخوخ .. فاكهة الصيف الذي أصبح على الأبواب وتناولت علبا من العصير ومن المكسرات وقالت : هل عرفت الشرطة الذي سرقك يا أبي ؟

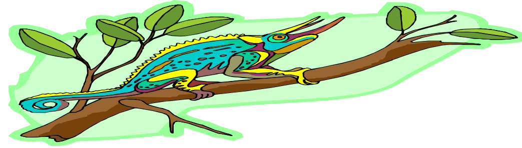
عاد للضحك ثانية ؛ كأنها قالت نكتة أو طرفة ، وكان يعيد لزبون الباقي وقال ساخرا : تقول سيمسكونه الشرطة ، كما قال جابر" إن الحرامي على وشك الوقوع .. فاللص قد سرق عدة محلات " .. فهم قد سرقوا متجرا آخر قرب الدوار الذي عند بيت خالتك أم ريان .. وبعد أيام سرقوا محلا آخر في نفس الشارع .. ومصيرهم أن يقعوا

قالت : إن شاء الله يقبض عليهم وتعود لك أموالك

ـ الذي سرق من عندي لا يعاد .. أكل وشراب ودخان ومال .. مواد مستهلكة .. ولصنا حتى سرق دفتر الديون ؛ لذلك قال المخفر إن اللص زبون عليه ديون للدكان .. وأغلب الحي

الذين يشترون من عندي على الدفتر ولآخر الشهر .. وحصلنا الكثير منها جزافا وعلى النية .. سلمي على أمك.

ابتعدت فريدة بما حملت عن الدكان وقالت متعجبة : لص يسرق دفتر الديون ! .. هؤلاء لصوص صغار يسرقون طعاما وعصيرا ودخانا .. لماذا لا يسطون على محلات الأجهزة الكهربائية ؟ الجهاز الواحد ثمنه مبلغ من المال .. أخذها التفكير في حياة اللصوص .. ولما دخلت شارع المنزل قالت : فراس كان متهما بالسرقة .. فماذا يسرق ؟ ماذا سرق قبل دخوله السجن ؟ لم يكن يتحدث عن الأشياء التي يسرقها.. كأنه تحدث عن سرقة مطعم .. سرق الغلة .. اشتغل في المطعم ثم سرقه ، واتهمه صاحب المطعم مباشرة ، وثبتت عليه السرقة ، وقضى سنينا في السجن.. واضطرت لتسأل نفسها "هل هو الرجل المناسب لك يا فريدة بعد تجربة الزواج من فادي؟!" .. فادي محترم ؛ ولكنه يحب النسوان .. لقد أقر لي أكثر من مرة قبل زواجنا بزناه عدة مرات ، ومن نساء متزوجات .. وقبلت الزواج منه لأن فراسا طلب ذلك لنخفي علاقتنا الجنسية عن الانكشاف والانفضاح.. فبعد أن ضعفت أمامه قال علينا أن نزوجك يا فريدة .. فأنا لا أستطيع الزواج منك هذا الزمن .. لأني مطارد من الشرطة .. فقبلت اللعبة ، واستمرت العلاقة بيني وبين فادي وتصنعت حب فادي الشديد ، ثم أقنعني بالاستسلام له ليقبل بالزواج مني .. ومضت القصة كما رسم فراس .. كيف سخروا مني وأصبحت عشيقة لهم ؟!



خرجت في اليوم التالي لدكان أبيها لإجراء الاتصال عند الساعة العاشرة .. الساعة التي يستيقظ عندها فراس .. سلمت على الرجل العجوز الذي هو كوالدها سنا ، والذي يشتري منه فراس كما كان يشتري من أبيها .. وتذكرت وهي تتصل أن الرجل سرق كما سرق أبوها .. وكانت السرقة معلبات ودخان ومال فقد جاورته أسابيع ، وحدثت السرقة وهي مختفية

هناك ، ولم يبلغ الرجل الشرطة واعتبرها صدقة عن الأولاد ، كما قال لفراس والصرصور وعسود ، فقيل أيضا كما قيل هنا " لص جوعان " سمعت صوته على الهاتف ، ولما عرفها فقال : لم يأت منذ ذلك الاتصال .. عاودي الاتصال غدا .

قضت ثلاثة أيام تتردد على دكان والدها حسب الموعد ، والبقال يرد عليها : لم يحضر لا هو ولا أحد من رفاقه .

لم يشتروا من عنده شيئا من أيام ثلاثة ، فانزعجت فريدة ، وعرف والدها القضية فقال : لم يظهر بعد .. لعله أوصى الرجل بإنكار رؤيته

تطلعت بعيني والدها متسألة : لماذا ؟

ـ قد يكون التقى بأنثى أخرى .. هل يصبر زان عن الزنا كل هذه المدة ؟ .. التعود على الشيء يصعب التخلص منه .. فاللص يظل يسرق ويسرق حتى يقع ، والمعاصي هكذا .. هل صدقت كلمة لص ؟

ـ لص !

ـ ألا تعلمين أنه لص ؟ .. سرق مطعما عمل فيه أياما .. وسرق صيدلية .. فهو سجن أكثر من مرة .

ـ ولكنه تاب .

ـ صدقت أنه تاب .. وكيف تاب وقد سرقك من زوجك ؟

ـ سرقني من زوجني ؟!.. زوجي فاجر .. أترضى لابنتك أن ترى زوجها يجامع النساء على سريرها بدون خجل وحياء ؟ .. اسكت اسكت يا أبي .. سأذهب إليه بنفسي .. لترتيب الأمر ولتخلص مني .

ـ مع السلامة

أخذت علبة سجائر وكبريت ، وأخذت بعض المال من صندوق المال ، وكمال ينظر إليها صامتا ، ولما خرجت قال " يا رب فرجك "

ركبت سيارة إلى المكان الذي اختفت فيه ستة أسابيع ، ولكنها قبل الذهاب لبيت فراس عرجت إلى البقال العجوز ، وتحدثت معه بضع دقائق ، وأعاد عليها ما سمعته منه قبل ساعة .. ثم مشت إلى الشارع الذي يقع فيه البيت ، طرقت باب الشقة التي عاشت فيها فترة الهرب وكررت الطرق حتى فتحت امرأة الباب من شقة ثانية ، تشترك مع شقة فراس بالمدخل ، وقالت : نعم يا أختي .

قالت فريدة بارتباك : عفوا ، أنا أطرق على باب هذه الشقة ـ وأشارت بيدها لباب شقة فراس ـ أريد صاحب هذا الشقة الأستاذ فراس

أخرجت المرأة نفسها من الباب وقالت : هو صار أستاذا يا ابنتي ؟ .. أذكر أني رأيتك أكثر من مرة تدخلين هذه الشقة منذ زمن ليس بالبعيد .

ـ نعم ، قضيت هنا تقريبا شهرا ، وأريده في أمر خاص بي

فقالت المرأة بنبرة مشوبة بالغضب : اختفي خيرا لك

ـ اختفي لماذا ؟!

ـ يا سيدتي .. قريبك هذا أو صديقك الشرطة أمسكت به من يومين أو ثلاثة .. ووجدوا في بيته مسروقات .. وقالت الشرطة " إنه حرامي مطارد من شهور "

ـ حرامي وممسوك !

ـ هذا ما جرى وما سمعنا ، وجاء صاحب الشقة وأخرج ما فيها من فراش ووضعه في مخزن تحت العمارة.

خرجت من العمارة باكية العين ، وقالت مؤنبة لنفسها : تاجرت في رجل فاسد .. من أين سآتي برجل قرينا لي .. صدقت كلمات فراس وتوبته .. سيشمت بي فريد وناجح وأهل الحي كلهم .



عادت لدار أبي صالح ، والشمس في عينيها ظلام ، سألتها أمها : مررت على أبيك فقال لي " إنك ذهبت لمقابلة النحس" متى سيأتي ؟

ـ لن يأتي يا أمي .

ـ مات ؟!

ـ ليته مات .. دمر حياتي وتركني وحيدة .. قبضوا عليه .. عاد للسرقة

ضحكت أمها على غير العادة وقالت : أهو ترك السرقة ليعود إليها ؟ فهو قد سرق قلبك واستغل ضعفك وشبابك .. لا تبكي عليه لا ينفع الندم اليوم

أخذت الفتاة تنتحب ، وارتفع صوت البكاء حتى أشفقت عليها أمها وقالت : الله يعوضك خيرا منه .. فهو لا يستحق أي دمعة بعد أن أفسدك

وأفسد زواجك .

فقالت الفتاة من بين الشهقات والتنهدات : أبكي على نفسي يا أمي .. أبكي على نفسي كيف سخروا مني وافترسوني؟ .. أبكي على نفسي كيف ركبني الغرور وظننت أني أعيش في الكون وحدي ؟ ولا أحد له دخل بي .. وأن جسدي ملكي أهبه لمن أشاء.. أشفقت عليه ، وعطفت عليه ، وصدقت توبته ، وأنه ضعيف ويحتاج إلى من يقف معه ضد المجتمع الذي يعاديه ويضيق عليه الحياة ، كنت أظن أنني أنقذته من العودة للسرقة سلمت نفسي إليه ليطمئن إليّ وأنا راضية به زوجا أخطأت كثيرا يا أمي وأخذنا نعالج الخطأ بخطأ.. إني أسمع طرقا على الباب الخارجي

خرجت الأم لتقابل الطارق ، فكان الطارق ساعي البريد الذي قال للأم " رسالة يا أم فريد للآنسة فريدة "

كانت فريدة تسمع ، فلما سمعت كلمة آنسة قالت لنفسها " آنسة .. ماتت الآنسة .. ضاعت الآنسة .. لا أدري كيف قبلت به عشيقا ؟! ثم تزوجت فاديا الذي أحببته قبل لقائي بفراس لأخفي ما حل بي ، ودفعني للإيقاع بفادي بجماعي لتوريطه بالزواج مني .. كنت حمقاء مغفلة

غلبتها شهوة الجنس والرجال ..

دخلت الأم وهي تردد : رسالة لك يا فريدة من تراسلين ؟

أخذت فريدة الرسالة من يد أمها الممدودة بتلك الرسالة ونظرت إليها وقالت " إنها من فراس" وفتحتها سريعا وقرأت : " تحياتي لأحب امرأة عرفتها خلال سنوات العمر التي مضت من عمري أحبك .. أحبك .. أحبك .. تأكدي من ذلك ، وفعلا كنت أطمع بالزواج منك شرعا بعد قضاء فترة العدة اللعينة .. وأعتقد أنها انتهت ، وأنت تقولين لما تأخر فارس الأحلام ؟.. الرجل الذي أحبني بصدق ساميني يا فريدة لقد عدت للسرقة من جديد .. وأصارحك أنني لم أعرف كيف أتركها ؟ .. إنني لم أترك السرقة ؛ لأنها وظيفتي في هذه الحياة.. كنت تسألينني عندما أغيب عن الحي يومين أو ثلاثة أو أكثر أين اختفيت ؟ فأحيانا أقول في عمل ، وأحيانا عند أمي المريضة .. الحقيقة أنني أكون في عملية سرقة أو سرقات .. عملي سرقة المنازل والاستيلاء على ذهب النساء ، وسرقة المتاجر الصغيرة لتامين الغذاء والدخان عرفت خلال هذه السنوات العديد من النساء ، ولكنك الوحيدة التي أحببتها بصدق ورغبت أن أتزوجك زواجا صحيحا .. لكني لص وفي أي وقت كنت متوقعا أن تمسكني الشرطة .. فالزواج كان مشكلة لي .. ولما خضعت لي وأصبحنا نعيش كزوجين .. كان من الصعب الزواج ومن الصعب تركك وقد أصبحت امرأة .. فكان لابد من زواجك .. وأقنعتك بالزواج من فادي الذي كان صديقك قبلي .. ففادي له قريب يعمل معنا فنعرفه ، وفادي كان يشتري منا الحشيش في بعض المرات .. فكان لابد أن تسمحي له بمعاشرتك معاشرة الأزواج ليصبح زوجك أمام الناس ويغطي على علاقاتك الجنسية الأخرى .. والرجل كان تحت سيطرتي لعمله معنا في بعض الأوقات .. وقبل الزواج منك بعد استسلامك له ، وظن أنه تورط في علاقة محرمة .. فنحن الذين ألزمناه بالزواج لا خوفا من أخيك فريد وغيره .. لكنه بعد الزواج أدرك أن له شريكا في بدنك ، فثارت نار الغيرة في قلبه وخشينا أن يعترف للبوليس ، وأنا متأكد اليوم حيث أنا في السجن أن له يدا في حبسنا أنا

والصرصور قريبه وصديقه .. واطلبي من أبيك أن يسامحني فقدت استوليت على متجره ودكانه .. لا أقول لك انتظريني ، وأنني جنيت عليك بتوريطك بعلاقات آثمة .. لكني فتنت بحسنك .. وأنت قبلت ذلك ، كانت لك رغبة قوية بهذه العلاقة .. صدقي إذا عدت للحياة خارج السجن وتقابلنا من جديد ستكونين أنت الزوجة الأبدية ..أحببتك صدقا رغم أنني لص .. فاللصوص لهم قلوب يحبون بها ، رغم أنهم لا يحبون الارتباط بواحدة للأبد .. السرقة حياتي ومصدر رزقي .. وإذا قدر لي الخروج سنتزوج كما وعدتك .. لا أقول سامحيني لأنني أعرف أنك أحببتيني بحق .. سنصلح الفاسد .. أحبك أحبك أحبك .. رغم كل ما حدث سلمي على أم فريد المرأة الطيبة المسالمة الساكنة كأبي الهول .

المحب السجين فراس غصوان



كانت فريدة عندما رجعت من بيت فراس الأخير ، قد قررت إنهاء حياتها ، فقد أصيبت بإحباط قاتل ويأس ، وهي قد فكرت بهذا خلال فترة الانتظار الجبرية ، فقالت لنفسها " إن لم يحصل الزواج سأضع حدا لهذه الحياة " ، فمرت على صيدليات واشترت منها علب منومات ، لقد فكرت بالانتحار ، وكانت في غاية الاكتئاب ؛ لذلك لما قرأت الرسالة حسمت الأمر ، فصعدت إلى غرفة أخويها الفارغة منهما ، كانت أمها تراقبها وهي تقرأ الرسالة ، وعرفت أنها من فراس السجين ، لم تتكلم معها بعد قراءتها بشيء ، فقط قالت "سأصعد لغرفة الشباب " ورأتها تصعد الدرج ، ظنت أنها ذاهبة للنوم فيها ، فقد كانت تفعل ذلك بعد رحيل ناجح .

وقبل العصر جاء أبو صالح للبيت على غير العادة ، فهو بعدما يخرج للدكان صباحا لا يعود إلا بعد منتصف الليل ، فدخل الدار شامتا حزينا لا نعرف بالضبط ، فوجد المرأة تغط بالنوم على كرسي واسع أريكة ، فأيقظها صارخا : أين البنت يا امرأة ؟!

كأنه بحث في غرفتها ولم يجدها ، فعاد لغرفته حيث ترقد زوجته ، ففتحت عينيها وقالت مجيبة : جاءتها رسالة من المقصوف فراس عريس الهنا ، ولما قرأتها صعدت إلى فوق ماذا تريد منها وقد تركت دكانك ؟! قال أبو صالح :جئت لأقول لها إن الذي سرقنا عريسها فراس .

ـ فراس هو الحرامي ! قال: من أول يوم والناس يتهمونه بسرقتنا ؛ لأنه سرق دفتر الديون ليتملص من سداد كامل المبلغ .. الحمد لله الذي كشف الغمة .

صعد الدرج الذي لم يصعده من قبل ، منذ بنيت هذه الغرفة ، طرق الباب ، لم ترد فريدة ، دفعه ودخل ، كانت نافذة البيت مفتوحة رآها ممددة على أحد الأسرة نادى عدة مرات ، ظنها نائمة .. اقترب من السرير ، هزّها لم ترد فقال " كأنها ميتة!"

صعدت الأم وصاحت : احضر الطبيب يا أبا صالح ..ها هي الرسالة التي قرأتها إنها محروقة ها هي علب أدوية ورسالة على المنضدة قرأتها " انتهت حياتي .. سامحوني فريدة "

وكان في التقرير الطبي أنها قتلت نفسها بتناول عدد كبير من الحبوب المنومة وأنها فارقت

الحياة قبل دخول المستشفى، وتركت رسالة تخبر بأنها تريد الموت .
وشيع أهل الحي فريدة التي ذهبت ضحية الجهل والغفلة والشهوات والإباحية .. ماتت فريدة بقتل نفسها مع أنها لم تكن أول ضحية لتلك الشهوات ، وتقبل أبو صالح العزاء فيها ، وكان يقول " الحياة حلوة ، لقد قصرت في حق الأبناء لم أربهم التربية الصالحة .. كنت فاسدا منحرفا جنيت على نفسي وابنتي ، لا ينفع ندم بعد موتها ".
فقال أبو نوح : باب التوبة لم يغلق يا أبا صالح .. باب الندم لم يغلق يا رجل يا كبير عمرك فوق الستين .. أدرك نفسك .. اتعظ من حادثة ابنتك المرحومة فريدة .. فهي لم تخبر الحياة بعد .. من أول تجربة ومصيبة اختارت الموت .. نسأل الله أن يرحمها
فأمن السامعون قائلين " آمين" ، وانتهى العزاء ، وعاد أبو صالح للجلوس في المقهى ، ولم ينقطع عنه إلا أيام العزاء فقال الشيخ : لم يبرد لحم ابنتك يا أبا صالح وعدت للمقهى .. على كل حال لقد قرر صاحب العقار هدم هذا المقهى وإلحاقه بالمسجد .. فعليك أن تبحث عن مقهى جديد أو تعتزل المقاهي كما سيفعل العم مهران .
فنظر أبو صالح لسلمان وقال وقد بدا مصدوما للخبر ربما أكثر من صدمته بموت فريدة : أصحيح ما يقول الشيخ ؟!
فقال سلمان : هيا ادخل معنا المسجد الآن .. فالشيخ راغب بالحديث معك شخصيا .. وأنت في أيام العزاء .. وافق صاحب هذا الجزء من العقار أن يتحول هذا الجزء إلى المسجد ، ثم رفض أولاده أن يوقف على المسجد وإذا استرده والدهم سيحولونه لسوق أو محل كبير فرفض مهران التخلي عنه
فقال أبو صالح " لا حول ولا قوة إلا بالله "
وانتهت هذه الحكاية من حكايات أبو خروف والحكايات فيه كثيرة ، كل إنسان كل أسرة له حكاية وحكايات ؛ فلعلنا نكتب المزيد من قصص ناس أبي خروف .
تمـت الحكاية الأولى

عمرها ثلاث وأربعون سنة

.. عانس

ترمل عامل الشارع فخطبها

وهي الثرية إلى حد ما

اضطربت .. ذكرها بأنها أنثى

الأب رفض نكاحها

أصرت على أن تأخذ حظها

من الدنيا

تركت أبو خروف من سوء

أفعال شقيقها

فقتل الشقيق نفسه لما فشل في

تربية ابنه الوحيد

جمال

أمّونة الخياطة

١٩٧١

أمّونة عانس فوق الأربعين لم يتيسر لها الالتقاء بابن الحلال ، وقد يكون والدها أبعد عنها ابن الحلال ، وحجبه للاستفادة من المال الذي تحصده من عملها كخياطة نسائية في دكان في وسط المدينة العاصمة الرسمية للدولة ، وحيث تيسر لها إتقان هذه المهنة وتعلم فنونها وتجارتها ، وحصلت على شهرة واسعة في شارع تكدس فيه أهل التطريز والخياطة ، وصناعة الألبسة الجاهزة والتفصيل ، وسمي الشارع أو السوق شارع سوق الخياطين لأن الغالب عليه وفي عماراته أهل هذه المهنة ، وأدواتها من خيوط ومقصات ومكائن وقماش وأصباغ وكوي .

عاشت في بيت والدها رشيد الذي تزوج بعد ترمله عن أمها وأم شقيقها الوحيد حسونة ، لما ماتت أمها كانت في المرحلة الأولى من التعليم الأساسي ، وكان حسونة يصغرها بسنوات .

وهي من أهالي "أبو خروف" ـ في مطلع حياتها أو قل قبل زواجها ـ الحي الزاخر بالحكايات كغيره من الأحياء .. فكل إنسان له حكاية وحكايات .. فبعد موت زوجته صبر رشيد أو تريث بضع سنين ، ثم نكح امرأة أخرى كباقي البشر ، فلما أنهت أمونة السادس الابتدائي أرسلها إلى إحدى النساء الخياطات العاملات في المنازل ، ويحترفن الخياطة للنساء ، ولا يخلو "أبو خروف" منهن ، فكانت الخياطة المنزلية في ذلك الزمان تجد لها من الزبائن من تجد ، وتجد الماهرات وصاحبات الخبرات اللواتي يشار لهن بالبنان ، تعلمت أمونة المهنة وأتقنتها أحسن إتقان ، ورأت حياتها فيها ، فأخذت تبدع وتتقن وتضيف ، وانتقلت للعمل في مشغل في وسط العاصمة ومركز النشاط التجاري والمهني .. وذلك في شارع سوق الخياطين ، وتعرفت على أنواع الأقمشة ودلالتها وجيدها ورديئها .. ولما بلغت العشرين تيسرت لها الفرصة لشراء المخيطة من صاحبتها المرأة العجوز بعدما قررت إحالة نفسها على التقاعد لكبر سنها ولأمراض دهمتها .. ولم يطلب أحد يدها للزواج مع بلوغها تلك السن .. فأحبت مهنتها وغرقت فيها وشغفت بها .. وأصبحت حياتها وقرة عينها .. ورضيت بنصيبها من عدم الزواج ، لم يطلبها أحد من أبناء عمومتها ، ولا من أبناء أخوالها وخالتها ، ولا حتى أبناء

الجيران رغم تملكها للمال الكثير الذي يكون سبب نكاح النساء ـ كما جاء في الحديث النبوي ـ نعم ، أمونة لم تكن فتاة رشيقة جميلة ، كانت بدينة قصيرة إلى حد ما ، وكانت دميمة ، ولم تكن بيضاء البشرة إنما تميل إلى السمار ، لم تكن من الناحية البدنية مغرية للرجال من جيلها وهي فتاة صغيرة ، ولم تكن بالغنى كما هي اليوم ، عندما بلغت فوق الأربعين ؛ لذلك فاتها القطار ، وكانت ربما تأمل أن يخطبها أرمل مطلق ضرة ثانية ثالثة رابعة .. ومع الوقت ضعفت رغبتها بالزواج .. ومع غناها منذ سنوات ظلت بدون زواج حتى أنها لم تعد تفكر إلا بشغلها والبيع والشراء .. وقد تمكنت من بناء شقة فوق بيت الوالد رشيد .. وساهمت في بناء شقة بجوارها لشقيقها الوحيد من أمها السيد حسونة ..وكانت تدعم والدها بالمال شهريا وفي المناسبات ، وكانت تساهم في أثاث بيت والدها وزوجته ، وكذلك أخوها وأخواتها من أبيها .. وقد حاول الأب في بعض الأحيان السيطرة على كل ثروتها .. فرفضت ذلك بشدة .. وأعلمته عند كل محاولة قدرتها على حفظ مالها وتنميته ، وأنها تدير مصلحة تحتاج للمال في كل وقت ، كرواتب للعاملات معها .. شراء مواد خام والأدوات وصيانة الماكينات ودفع ضريبة للدولة .. فيصمت .. فهي تخيط الثياب للمؤسسات والمستشفيات والمدارس التي تعتمد الزي الموحد لطلبتها والأطباء والمصانع ..وفازت ببعض عطاءات ومناقصات الدوائر العسكرية والشرطة .. والرايات والأعلام عند الاحتفالات واستقبال الزعماء على مستوى الدولة والبلديات .. فلها علاقات تجارية بعدد من الوزارات .. فقنع الأب بما تهديه وتهبه من راتب وفي المناسبات كرمضان والأعياد .. وساعدت في زواج حسونة .. وبناء شقتها وشقته .. وأخوتها من أبيها لم تقصر معهم ماليا وملابس وهدايا .. وساعدت في تعليمهم وزواجهم .. كانت باختصار سندا للعائلة .. والكل يقدر لها هذه الوقفات والنفقات .. وتمنت كثيرا أن تعيش الحياة العائلية الزوج والأولاد .

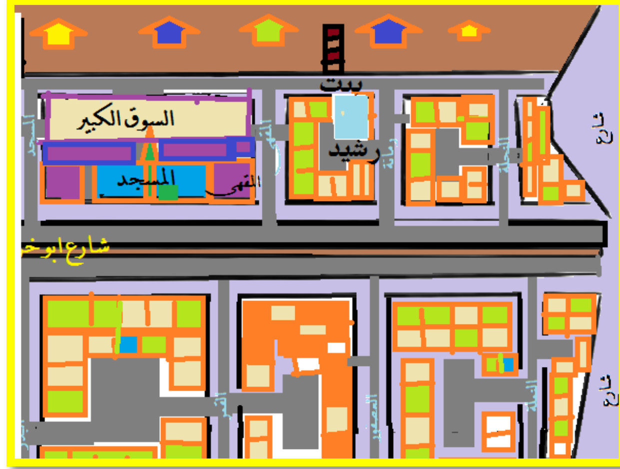
كان والد أمونة قد ولدت له زوجه الثانية ثلاث بنات وولدين ، مات أحدهم صغيرا بحادث والثاني تعلم مهنة فنية ـ كهرباء منزلية ـ ويعمل في قسم الصيانة في إحدى الجامعات وما زال

ولما تزوج سكن خارج "أبو خروف" في بيت قريب من عمله ؛ لتوفير أجرة المواصلات ، وتزوجت الفتيات الثلاث ، وكان الطابق الأول من بناية رشيد يتكون من شقتين متوسطين ظل يعيش في واحدة منهن ، وأجّر الأخرى .. وبنت أمونة لها ولشقيقها شقتين فوقهما سجلت واحدة باسم حسونة الأصغر سنا منها ، وسجلت الثانية باسمها ، والأرض بقيت باسم الأب ، وتقع البناية بين شارع رمانة وشارع المقهى ، ويطل مدخلها على شارع جبل "أبو خروف" .

ولما خلت الدار من البنات والابن رغب رشيد بإنزال أمونة للعيش في شقته مكان شحام ، وتأجير شقتها .. فرفضت أمونة ذلك خشية عودة المشاجرات القديمة بينها وبين امرأة أبيها قبل بنائها لشقتها ، وجاء الرفض الشديد من زوجته أم شحام ، رفضت عودة البنت للسكن معها في نفس الشقة ، ويتحدث الناس أنها تنفق على زوجة أبيها ، فسكت الرجل .

كانت فتاة قصتنا تساعد الأسرة على قدر الإمكان ، وعلى حسب رغبتها ، وأغلقت موضوع الزواج والولادة والحياة الأسرية ، واستسلمت لنصيبها وقدرها .. ولم تخلُ الحياة من منازعات بينها وبين أخيها وأبيها وزوجة أبيها ؛ فكان مالها يخمد الألسنة ، ويعود الهدوء للبيت ، وفي سنة ١٩٧١ م حدث تطور كبير في حياتها ، فقد وجدت من يقبل بها زوجة .. وبعد تردد بسيط منها قبلته لما شجعها ، فلما أخبرت والدها بقرارها صعق وعظم الأمر عليه ..هل اعترضت زوجة الأب ؟ هل اعترض الأخوان والأخوات سالمة وريا وكوثر ؟ كلهم متزوجون .. لماذا يرفض رشيد زواجها ؟!





كان ذلك الانفجار في بداية الصيف ، اعتادت الآنسة أمونة أن تباشر عملها عند الساعة العاشرة من صباح كل يوم ما عدا الجمعة ـ فهو عطلة رسمية لكل البلاد ـ فتجد العاملات معها قد فتحن المشغل ، وجلسن عند ماكيناتهن وباشرن الخياطة .. فتحيهنّ ، ثم تدخل لمكتبها الصغير داخل المشغل حيث يكون في نهاية المشغل والمخيطة .. ولما تتحصل على عطاء كبير تتعاقد مع مشاغل ومخيطات في نفس الشارع لإنجاز العمل ، وتظل في العمل حتى العشاء أو قبله بقليل ، فتغلق المحل هي ومساعدتها وتنصرفان ، أما العاملات فيغادرن صيفا عند الخامسة عصرا ، وفي فصل الشتاء عند الساعة الرابعة عصرا ، إلا إذا تطلب العمل السهر والشغل الإضافي .

كانت تبقى مع مساعدتها "أحلام صادق" لليل حيث يشرفن على تنظيف المحل وإغلاقه ، وكان يخدم الشارع عامل نظافة تابع للبلدية ، وكان العامل يساعدهم في التنظيف والتحميل والتنزيل والإغلاق مقابل مساعدة بسيطة توضع في يده .. واسم هذا العامل "سميح عبد السميع"، وكان يأخذ أكياس النفايات ليضعها في مكان تجميع النفايات في الشارع حتى تأتي سيارة البلدية ، وتنقلها إلى مكب النفايات ليجري حرقها والانتهاء منها .

وهذا الرجل يعمل في الشارع شارع الخياطين منذ ما يزيد عن عشر سنوات.. فهو يعرف كل

المشاغل والمحلات .. وكلٌ يتعامل معه حسب حاجته.. ولكن علاقته بمشغل أمونة قوية وقديمة ، فهو يساعد في إدخال القماش الخام لفات القماش ، وفي نقل الثياب المخاطة ووضعها في السيارات البيك آب "ون إيت" وغيرها .. فعلاقته طيبة مع المشغل ، ورجله معروفة في المحل ، ولدى الفتيات العاملات ؛ فكان ينظر إليه كوالد وأخ كبير ، ولم تكن أمونة خلال هذه السنوات تقصر معه ، وتشفق عليه .. والرجل طيب ومتعاون ، وله بيت ملك ، وهو كهل ، ومتزوج ، وابنة وحيدة ـ كما أخبر أمونة ـ ومتعلمة في الجامعة ، وتخرجت من كلية الإعلام ، وعملت فترة في إذاعة محلية ، ثم انتقلت للعمل في صحيفة يومية ، وتزوجت قبل أحداث هذه القصة بزمن يسير .. قامت أمونة وأحلام بحضور حفل الزفاف والمشاركة فيه ، وقدمن هدية للسيد سميح وابنته.

هذا الرجل النحيف البنية ترمل منذ شهرين .. ماتت زوجه من مرض عضال ألم بها ، وفي أقل من سنة قد غادرت الدنيا إلى رحمة الله الواسعة لعباده المسلمين .. وقامت عاملات المشغل تتقدمهنّ مديرتهن بتعزيته ومواساته ، ومساعدته ماديا رغم أنه ليس بحاجة لمال ؛ ولكنهنّ تعودن على فعل ذلك والشفقة عليه ، وعلى غيره من البسطاء والعتالين العاملين في المنطقة والشارع ، وهو قد تعود على أخذ ما يقدم له .. لا يستطيع رفض عطاياهنّ ، بل جمع له الشارع مساعدة كبيرة عند موت زوجه .

الحزن لا يدوم ويضعف أو يزول ، اختفى حزن سميح على وفاة زوجه ، ووجد نفسه وحيدا في بيته ، فهمس الرجل في أذن أمونة عن رغبته بالزواج .. وبين لها أن الرجل لا يحتمل أن يعيش بدون زوجة تحضر له طعامه ، وتغسل له ثيابه .. فدهشت أمونة في البداية فالرجل أرمل من شهرين فقط ؛ ولكنها بعد تفكير أدركت أن الرجل لا يستطيع الحياة بدون أنثى في بيته ؛ للتخفيف من آلامه وشقائه طول النهار وجزءا من الليل في الشوارع .. فقالت : أعينك على واحدة من عاملات المشغل ؟!

ـ أريد امرأة بسيطة .. نستر على بعض .. تقبل بالحياة معي .. ونكمل مشوار الحياة معا ..

فالبيت عندما يخلو من امرأة يصبح جحيما

ـ أنت تعلم يا عم سميح أن أغلب فتيات المشغل متزوجات ما عدا نوال وسعيدة

ـ وأنتِ !

صدمت للوهلة الأولى وتمتمت : وأنتِ ! نعم ، وأنا .. أتقبل بي يا عم سميح .. أنا العجوز زوجة لك ؟!

ـ عز الطلب .. أنت المهم أن تقبلي بي .. أنا لا أسعى للخلفة رضيت بنصيبي .. وأنا سأسعى لإرضائك قدر الطاقة .. وأنت لا زلت شابة .. أنا العجوز .

وقالت وما زالت دهشة حيرى : أمرك عجيب يا عم سميح أنا من جيلك ! كم عمرك ؟

ـ إحدى وخمسون سنة

ـ بيننا ثمان سنوات ..وأنا نسيت أمر الزواج والرجال في حياتي . وتنهدت حزنا

قال مشجعا :أنا أراك مناسبة لي يا أخت أمونة .. والزواج ليس عيبا .. وليس له سن.. وأنا ابنتي متزوجة ، كما تعلمين ، وهي تعمل في جريدة .. وأنا أريد الستر ؛ فإذا خلفت فبها ونعمت ، وإن لم يحصل نكمل المشوار سوية .. وقريبا سأنهي خدمتي في البلدية .. وسيكون لي راتب تقاعد يستر علينا في الدنيا حتى مماتنا .. وربنا يستر علينا في الدنيا والآخرة .

لقد نسيت فعلا فكرة الارتباط برجل بعد الأربعين ؛ لذلك لما كان أحد يمازحها في أمر الزواج تأخذ الأمر على سبيل المزاح والمداعبة ، فلما سمعته يقول : فكري يا أختي بجد .

نظرت إليه بعمق ، وتنهدت من جديد ؛ كأنها غير مصدقة أن أحدا يتطلع إليها كزوجة وقالت: أأصلح للزواج بعد كل هذه السنين؟!.. ثم قالت لتتخلص من الأفكار : تعودت على العمل يا سميح لا أستطيع البقاء في الدار .. العمل حياتي .

ـ أعرف ، لن يكون العمل عائقا لحياتنا الزوجية .. سنعيش سعداء .. وأنا سيكون تقاعدي قريبا ..فقد قضيت مدة الاشتراك ، وحياتنا الليل .. والنهار لعملك كما أنت حتى أنت تتركينه من رغبتك

ـ أأنجح في الحياة الزوجية بعد هذا العمر يا عم سميح ؟! على كل حال دعني أفكر في هذه الخطوة عدة أيام يا عم سميح

قال متوسلا : أرجوك عجلي بالرد ..مللت الوحدة والعزوبية .. صدقي أنني لم أفكر بك كزوجة أو مراهق أيام امرأتي .. رغم أنها مرضت سنة .. وإنما حدث هذا بعد موتها بفترة .. أخذت تراودني فكرة الزواج .. فوقعت في نفسي .. ولا أريد التغرير بك ؛ ولكني أراك امرأة ناضجة محترمة شريفة عفيفة عشرة عمر كما يقال .. وأنا ابن الشارع هذا مثلك .. وصدقي أني فكرت مطولا قبل أن أتحدث معك في موضوع كهذا .. فكري كما تشائين .. وليكن الرد سريعا .. فالبيت موحش بدون امرأة فيه .

ـ عجيب أمر الرجال!.. فأنا أذكر عندما ترمل أبي عصبيته عليّ .. ولكنه قضى ثلاث أو أربع سنوات قبل أن يتزوج

ـ ولكنه تزوج

اضطربت الأفكار عند أمونة ، لم تكن تحلم بعد هذه السن من العنوسة واليأس أن يفكر رجل بالزواج منها ولو زوجة ثانية ثالثة رابعة .. لقد أصابها الإحباط من هذه الناحية فبعد ثلاث وأربعين سنة تتزوج .. فلقد فاتها القطار كما يقال .. وثانيا دمامتها أبعدت عنها الرجال لم تكن جميلة ، فالجمال مرغوب لدى الذكور ويقدم على المال والأخلاق والحسب عند الكثير من الخلق .. فهذا أول رجل يكلمها بهذا الأمر مباشرة وبشجاعة ، وهي همست لنفسها "لقد ذكرني أني أنثى " ، وما زلت أنثى ومرغوبة لأحدهم .. هل أصلح للزواج بعد هذه السن ؟! وهل يصلح لي هذا الرجل زوجا ؟! ألم يتزوج من قبل وينجب فتاة ؟ هل يقبله أهلي زوجا لي ؟ وهل عامل النظافة لا يتزوج ؟! لقد تزوج سابقا ، وإذا لم أتزوجه سيتزوج غيري .. أيمكن أن ألد بعد هذا العمر وأصير أما ووالدة ؟! ما أروع هذا وأجمله لو تحقق !.. المهم أن أصبح زوجة .. ويصبح لي زوج أحبه ويحبني .. هل يقبل أبي هذا الزواج ؟ لقد سلموا أنني سأقضي حياتي دون زواج ودون أولاد .. فاتحت مساعدتها في عرض الزواج .. فقالت دهشة: سميح

هذا حدثك بذلك؟!

ـ هذا ما صارحني به أمس عندما خلا بي في هذا المكتب .. وأنا نسيت قصة الزواج .. هل تصلح المرأة بعد هذا العمر للزواج والحياة الزوجية؟!

ـ العمر ليس عائقا يا أختي الفاضلة .. العائق للمرأة الكبيرة هو رغبة الزوج بالأولاد .. والرجل الطيب سميح لا أعتقد أنه يفكر بالزواج من أجل الأولاد .. فهو كما نعلم ليس له إلا بنت واحدة .. ولو كان راغبا بالذرية لتزوج ثانية أو طلقها إلا إذا كان العقم من جهته

ـ لا أعتقد أن يكون العائق منه ، فقد فهمت من كلامه الصريح معي أنه يأمل أن ألد له ؛ ولكن لا يعتبر ذلك من شروط صحة الحياة الزوجية .. تكلم أمامي كلاما لا أستطيع إعادته

ـ وأهلك ..أبوك كما علمت منك أنه يعتمد على مساعدتك الدائمة له

ـ حسب معرفتي به سيعترض في البداية ، ولما أؤكد له أن مساعدتي لن تنقطع سيلين .. ويبارك الزواج .. أما شقيقي حسونة فلا نرى بعضنا إلا في المناسبات أو عند مرض كلينا أو مرض الوالد .. وأنا خائفة يا أحلام من هذه المغامرة .

ـ ولماذا الخوف ؟! فالرجل طيب وسلس .. ومعروف لنا منذ جاء ليعمل في هذا الشارع .. ويتحمل كل أخلاق أهل هذا الشارع الطويل .. ونحن نراه يوميا أكثر من الآباء والأمهات .. فهو من السادسة صباحا حتى العاشرة ليلا فهو جزء منا.. ولولا هذه الألفة بيننا ما تجرأ من طلب يدك منك أنت .. وإذا كنت لا تطمعين بعد هذه السن بذرية فستعيشين معه على خير ما يرام وبسعادة .. وبرنامج عملك لا أعتقد أنه سيتغير كثيرا حتى لو تقاعد كما حدثتيني.. فتوكلي على رب العباد .. وخذي فرصتك مع الرجل ..وهذه فرصة نادرة

كانت كلمات ناصحة مشجعة خرجت من قلب أحلام ، فردت أمونة : أشكرك ، عقبال عندك ـ إن شاء الله ـ أنت شجاعة وصادقة وقويت عزيمتي لخوض هذه المغامرة المفاجئة لي .. الليلة بإذن الله سأفاتح أبي بالموضوع أم أبدي موافقتي لسميح أولا ؟!

ـ سميح شاري .. فانظري رأي أبيك وإخوتك

ـ وإذا رفضا !

ـ يبدو أن عندك احتمال رفضهم .. نحن كبيرات في السن .. المال السلاح الجميل .. اخبريه بأنك سترفعين دخله .. وإغراء المال جيد

ـ لابد أن أكون شجاعة .. وأنا إذا صار النصيب وتزوجت سأبقى بشقتي التي تعلمين كم دفعت لتصير ؟ وهي واسعة ولم ينقصها إلا الزوج .. وها هو على الأبواب .. فقد أبعدتني عن زوجة أبي وبناتها .. فرغم مساعدتي لها ولبناتها كانت قاسية معي وتعاملني كجارية .. اعملي سوّي.. وأخشى اعتراضها على زواجي ..وتقوية أبي على الرفض .. ستكون عدوة لي ، لا تعترف بخيري عليهم

ـ الغيرة والحسد .. ولا تهتمي يا أمونة الله معك .. وحقك الشرعي أن تتزوجي كسائر نساء العالم .. المهم أن يقبل الأب لأنه الولي .. الفصل بيد الوالد .. وليس حسونة وأم شحام

ـ أرجو أن تسلك الأمور .. قلبي ينتفض من ذلك

ـ أتخشين الزواج ؟ .. هذه سنة الله في خلقه .. اليوم الزواج تعقد ومشاكله تزيد .. لي أخ منذ تزوج وهو يعيش حياة شقاء ونكد منها



حسمت أمونة رأيها بعد تحاورها مع مساعدتها أحلام صادق ، وقبلت بمشروع الزواج من سميح عامل النظافة" الزبال" ـ كما تصفه العامة ـ فتركت العمل قبل صلاة المغرب ، وقبل صعودها لشقتها طرقت شقة والدها رشيد ، فقالت لها امرأة أبيها بدهشة : أمونة ما الأمر ؟! عدت مبكرة .. خيرا ؟!

- أين أبي يا أم شحام ؟

- أبوك يا حبيبتي حيث يكون كل يوم .. يلعب الشدة ـ ورق اللعب ـ في مقهى عزب .. يبدو أن أمرا ما يحدث !

- لقد نسيت أن أبي لا يعود إلا بعد صلاة العشاء .. حسنا ألديك رقم المقهى لأتصل به ؟

قالت بحدة ظاهرة : الأفضل أن تذهبي للمقهى إذا كان الأمر مهما ، لا أعرف رقم المقهى .

- جيد مع السلامة يا أم شحام

كل هذا الحوار حدث على باب الشقة ، فقبل أن تستدير أمونة صاعدة لشقتها في الأعلى ، سمعت زوج أبيها تقول: لم تقولي ماذا تريدين منه ؟!

- كنت سأعطيه بعض المال ، والحديث معه في شأن مهم

- وما هو الشأن المهم يا بنت جميلة ؟

- لما اخبره به ، فسيخبرك به .. السلام عليكم

- طيب هات المال ..أنا أعطيه إياه .

- أنت !..لقد فعلتها من قبل كذا مرة ؛ ولكنه أنكر وصولها إليه

صاحت أم شحام فيها قائلة: آه ! متى أخلص منك يا نكسة! يا أم لسان .. أبوك كذاب يزعم ذلك ليأخذ منك من جديد .

- كذاب صادق لا يهمني هذا يا سيدتي

صعدت لشقتها تلاحقها لعنات أم شحام ونظاراتها الماحقة بغضا ، فعلاقتهن سيئة ، ولم تكن

ولابد ، فمنذ زواج أبيها بهذه المرأة أخذت أمونة تعتمد على نفسها ماديا ، لم تكن المشاجرات كبيرة بينهن لبقاء أمونة في عملها طوال النهار ، فكان الاحتكاك بينهن ضعيفا .. ويوم الجمعة يوم العطلة تطهو أمونة لنفسها تأكل وحدها ، وتعتذر عن دعوات حسونة الذي نسيها ويدعوها على استحياء ، وكذلك لأبيها الذي كان يجاملها بعض الأحيان ، فتعتذر بل كانت تلبي دعوات خالها وأخوالها وخالاتها بعد تردد ، وهم أيضاً يجاملونها ويحضرون عندها للغداء أو العشاء .. وكان ذلك يغيظ أم شحام ورشيد وحسونة ؛ ولكنهم يلزمون الصمت ، فهم مقصرون ، ويأخذون ما تجود به عليهم من مساعدة وملابس .. وهي تفعل ذلك سرا دون دعاية .. تعطي الجميع وتحسن إلى الجميع .

كان شحام قبل زواجه وخروجه من بيت العائلة يسيء إليها ولا يحترمها .. فكانت تحزن ـ وهي الأخت الكبيرة ـ وربما تبكي وتصمت .. فهي تعلم أن الشاب مشحون من أمه عليها .

وكانت تجهز طعام العشاء من المعلبات ـ معلبات الأطعمة التي بدأت تنتشر وتشيع في البلد ـ وبينما هي تتوضأ فطرق الباب فأنهت وضوؤها ، ووقع في نفسها أن امرأة أبيها اتصلت بأبيها على المقهى وجاء .. الفلوس لها سحر لدى الناس ، وكان الطارق رشيد فدخل وهو يخبر أن سليمة اتصلت به في المقهى تخبره بعودة أمونة ، وأنها تريده .. فرحبت بأبيها الذي ظن أن داهية حلت بالبنت .. فجلس في حجرة الاستقبال ، وضعت كوب ليمون أمامه ، وأنهت طهو الطعام ثم جلست .. فقال : ما الخطب؟ قذف مجيئك المبكر في قلبي الوهن والخوف .. وهذا المجيء قبل العشاء أمر نادر !

ابتسمت رغم الاضطراب في قلبها وقالت ببطء: وهذا من النادر .. اتصلت بخالي بكر أبي محمد

نظر في وجهها وقال: نعم ، ماذا هناك ؟!

- اشرب العصير عندما يحضر أبو محمد نتكلم

- وكيف أصبر؟!

- إنه في الطريق ... وها هو يطرق الباب أسرعت نحو الباب ؛ لتستقبل خالها الكبير .

وسلم عليها مصافحا ومقبلا والتفت إلى رشيد وقال: آ، أبو حسونة كيف حالك؟

نهض الرجل متثاقلا وصافح نسيبه القديم وقال: أهلا أبا محمد

تحدث الرجلان بضع دقائق وهم يجلسان ، وعادت أمونة بالقهوة لهما ، وشكرت خالها على مجيئه وتلبيته الدعوة ، وسألته عن حاله وصحته وصحة زوجته ، وذلك كله ضايق رشيد ، وتحمله على مضض ، فهم منذ موت جميلة أم حسونة وعلاقتهم الاجتماعية باردة ما عدا أمونة ، فهي تصلهم ويصلونها ، ولما رشف خالها القهوة ، قالت دون تمهيد : لقد طلبني رجل للزواج .. وأنا قبلته وأرغب أن أعيش كزوجة وأسرة وبيت

حدق والدها في عينيها وردد بعد صمت وسكون: تتزوجين؟!

- نعم يا أبي ! أليس هذا حقا لي ؟! ألست أنثى كغيري من النساء ؟! .. عندما يتقدم رجل لطلب يدي هل أرفضه ؟!

قال خالها بكر: نعم ، لك الحق أن تكوني زوجة وأما .

[][][]

ساد الصمت القاتل الحجرة ، وكانت عينا الأب تقدح غيظا ؛ فينظر تارة في وجه ابنته ، وتارة في عيني بكر ، ولما لم يتكلم أحد بعد صمت بكر ، فقال رشيد: تتزوجين بعد هذا العمر ..من الأحمق والأعمى الذي سيتزوجك؟!

قالت بدهشة يصحبها غضب خفيف وضيق : أحمق أعمى! ـ رفعت صوتها ـ أعرف أنك عرقلت زواجي أكثر من مرة .. كانت أخوات من خطبوني يذكرن ذلك لي .. ويتسألن لماذا يرفض أبوك زواجك ؟! .. يظنك طفلة بعد .. وكنت أعرف هذا بعد فوات الأوان .. اسمع إذا لم توافق على زواجي هذا ، بعد كل هذه السنين سأتزوج عن طريق القاضي .. وسأمنع نفسي من الدفع إليك أي فلس .. الرجل يريدني .

وقصت القصة أمامها ، قصة عامل النظافة سميح عبد السميع ، فصاح أبوها محتجا :
زبال تتزوجين زبالا جننت يا بنت ؟!

فقال بكر المدرس المتقاعد : وماذا يعني زبالا ؟! أليس رجلا مثلنا ؟ لولا الزبال لقتلتنا الأمراض .. أنت ترى لما تتأخر سيارة البلدية في نقل القمامة لعدة أيام ماذا يحل في المكان من الروائح والحشرات والحيوانات ؟ ما دام الرجل شريفا وسيتقاعد قريبا ولن يعود زبالا فلتتزوج .. وله ابنة تعمل في الصحافة وما أدراك ما الصحافة يا رشيد!! وكأني اذكر أني قد قرأت لها بعض المقالات والتحقيقات .. والبنت ليست صغيرة .. وهي فرصة نادرة لا تعوض يا رشيد .. والبنت مقتنعة به .. فمن رأيي أن يتم هذا الزواج .. ولا تحرم البنت من فرصتها هذه .. وهي ستستمر بمساعدتك ومعاونتك في مصاريف البيت مع أن هذا من واجب أبنائك .. ولن يتغير عليك شيء .

قالت : وربما أزيده أيضا ؛ لأني سأبقى في الشقة .. وسنؤجر شقته .. أرمل طالب الستر من امرأة دميمة وغير جميلة ..ولا يطمع منها إلا بالحياة الزوجية الهادئة .

فقال رشيد بحدة: طامع بمالك

فردت بسخط : هو يعمل ، ليس جليس البيت ، وليس ينتظر ابنته ؛ لتصرف عليه .. سيتقاضى تقاعدا من مؤسسة التقاعد حتى يموت هو وزوجته .

تظاهر بأنه لم يكترث لتعبيرها فقال : إنه زبال كناس شوارع

– وماذا يعني لديك زبالا يا أبي؟! .. وأنا قابلة به .. وهو رجل أعرفه منذ انتقل للعمل في شارع الخياطين .. ترمل منذ شهرين فقط.. وكنا نستغله ونستعمله لإدخال الأقمشة للمحل ونقلها للسيارات وتنظيف المحل .. فلما فكر بالزواج بعد ترمله رغب بي .. ويراني زوجة تصلح له ليست قضية شفقة .. فلدينا عوانس في المحل والمشاغل الأخرى .. إنه يريدني أنا ليس طمعا بمالي .. وهل تراني سأتزوج دكتورا ؟ أو ملكا ؟ .. ما هو أنا مجرد خياطة يا أبا حسونة .. تعلمت للصف السادس .. لقد عرضت عليه أخريات ؛ لكنه يريدني أنا يا خالي

فقال الخال: رجل شاريك يا أبا حسونة .. لا تنظر ماذا يعمل الرجل؟
انظر إلى أخلاقه .. المهن والوظائف ليست شرطا لصحة الزواج والقبول .. والبنت بعد هذا الانتظار من حقها أن تكون زوجة وأما إذا شاء الله
ذرفت عيون أمونة أمام كلام خالها وحنانه اتجاهها ، وقالت وهي تستنشق الدموع : كنت أظن أن أبي سيفرح وينهض معانقا ومباركا .. أنا منذ عملت منذ زمن بعيد وأنا أعيش وحيدة يا خالي.. أنام وحدي ، وأكل وحدي دائما ، أفطر وحدي ، عمرهم ما دعوني بجد .. تفضلي الغداء معنا .. وإن قالت ألسنتهم ذلك ترى عيونهم تقول لا تفعليها .. اكظم حزني ودموعي وحدي .. أنتم تدعونني للغداء معكم دونهم .. لا يحسون بي .. حسونة أو زوجته الذي بابه ببابي لم يدعوني بجد "اليوم تغدي معنا يا أمونة " حتى ولو مجاملة .. أحيانا أم فؤاد المستأجرة عند أبي تفعل ذلك وتحس بي وتشفق عليّ .. وإذا تأخرت في دفع مصروفه يسهر تلك الليلة حتى يسمع صوت دخولي من بوابة العمارة .. فيقول: أريد أن اشتري كذا يا أمونة .. وعشرات المرات اشترى الجهاز ليأخذ المصروف .. والآن لما جاء ابن الحلال يريد أن يعطل الأمر
ربت خالها على كتفها بحنان وعطف ومسح رأسها وقال: من حقك الزواج ، وبناء بيت .. وأنا أفضل أن تتركي هذا البيت رغم بنيانك له ، وتؤجريه وتدفعي الأجرة لوالدك .. وأنا سأساعدك في شراء بيت أو شقة
فقال رشيد ساخطا : ما هذا الكلام الفارغ يا بكر ؟! هذا كلام شيطان .. تريد إفساد ابنتي عليّ وترحلها عندك .. أنت طامع في مالها
- لست طامعا في مال ابنة أختي يا سيد رشيد .. أنا مدرس متقاعد كما تعلم وشبعان ، وأسكن في بيت كبير .. والأولاد أنت تعرفهم حق المعرفة ، وكلٌ يعمل عملا جيدا .. فكيف أطمع بمال ابنة أختي المسكينة ؟! وهي لجأت إليّ لأعمل على نكاحها .. سأقف معها
صاح رشيد : تقف معها ضدي

- أقف معها ضد من يعارض زواجها .. فلتخذ حقها من الدنيا ؛ لعل الله يهبها طفلا تقر عينها به

- إنها كبيرة ، وكيف ستلد ؟!

- المرأة ربما تلد عند الخمسين سنة

اعترضت قائلة: حتى ولو لم ألد .. فالزواج حق لي .. الرجل طيب وهو سمح على اسمه

قال رشيد غضبا : لولا كبر سنكم لقلت أن هناك قصة حب كالتي نراها هذه الأيام في التلفزيون

غمرهم الضحك لحظات رغم الموقف المتشنج ، وقالت ساخرة : حب! رجل ترمل من شهرين ، وابنته متزوجة ولديها طفل .. كن أبا .. أنا قلت كلامي إذا لم يحصل هذا الزواج سأمتنع عن الدفع لكم ..سأتصدق بكل مالي

صرخ الأب: هذا تهديد ! هذه وقاحة!

- خالي سأترك البيت الليلة .. فلما يقبل ويوافق أبي ارجع للبيت أو أبيع هذه الشقة ، فهي مسجلة باسمي كما تعلمون

- لن أسمح بذلك يا ابنة ...

فقال بكر: عيب .. تأدب يا رجل أنت أبوها وحاميها وراعيها

- إنها تهددني وتفرض عليّ رأيها ..وتفرض عليّ زبالا

- وماذا أنت ؟! ما تعمل ؟ ماذا كنت تعمل يا رشيد ؟!

- أتريد أن نفتح الدفاتر العتيقة؟

قال بكر : هي تريد من يدافع عنها ويقف معها

- تتزوج رغم أنفي

قالت :أنا ابنتك

- هذا فرض أمر واقع وتهديد وضغط

مشت الفتاة إلى غرفة نومها ، وجهزت حقيبة فيها ملابس وقالت : سأقضي أياما عند خالي بكر فلما تصل لجواب أنت وعائلتك فاتصل بي .. وإذا مضى أسبوع فسأقدم شكوى لدى حضرة القاضي .. وتأكد إذا حصل ذلك سأكون لك عاقة ، ولن يصلك شيء مني .. لك أولاد فلينفقوا عليك .. أنا حسمت أمري وقراري .. وسأتزوج هذا الرجل ـ إن شاء الله ـ أنا لم أكن أحلم أن يتقدم لي إنسان بعد هذا العمر .. والحياة الزوجية فرصة قد لا تتكرر ـ أتسمع ـ النساء كثيرات .. والرجل اختارني من دونهن .. وأنا اليائسة من الاقتران برجل .. من سينفعني منكم غداً لما أمرض ؟ .. من يبقى عندي؟ زميلات الشغل أو نساء وبنات أخوالي كن يقمن بالواجب .



أغلقت أمونة شقتها وحمل خالها حقيبتها السفرية ، ولما وصلوا لباب البناية قالت: فكر يا أبا حسونة

فصرخ فيها : أفكر بالزبال .. ألا تستحين أن يقال لك امرأة الزبال ؟

– وماذا يعني الزبال؟! أليس هو من بني آدم مثلك ومثل خالي ؟ وأعلم أنني لم أقل للرجل بعد أنني قبلته .. أحببت عرض الأمر عليكم .. وأخذ موافقتك .. وكنت أرى الحياة والعيش معكم وبينكم وفي شقتي

– على كل سأفكر وأشاور إخوتك وأخواتك .. أنا غير مرتاح لهذا الزواج

قال بكر: أنت تظنها ابنة أربع عشرة سنة .. بنت عشرين يا رشيد .. هذا عريس من السماء .. البنت إذا تجاوزت الثلاثين راحت عليها .. من سيتزوجها بعد الثلاثين إلا مطلق أرمل أو معذور ؟ .. اتق الله يا رجل في ابنتك

- ابنتي مباركة عليك

- بنت كريمة .. وهي مثل بناتي .. وأمونة تعرف ذلك منذ وفاة أمها ـ رحمها الله ـ ولقد سعيت لتزويجها أكثر من مرة ، ولم أوفق

خرجوا من باب العمارة ، فأشار بكر لسيارة تكسي ، وأدخل فيها الحقيبة ، وجلست الفتاة في المقعد الخلفي ، وجلس بكر بجوار السائق ، وكانت امرأة رشيد تقف أمام باب الشقة تتابع وتسمع حتى عاد إليها رشيد ، وكانت منزعجة من الصراخ والصوت العالي ، فصاحت فيه قبل أن يدخل باب الشقة الخاصة به : ماذا دهاك؟! سمعت صراخك وأنت فوق

قال بتهكم وصوت ضاحك : واحد أرمل عارض عليها الزواج ، وتريد موافقتي .

نظرت إليه بعمق وقالت: وماله ؟ أنت زعلان لماذا ؟ ألم تكن أرملا وتزوجتني يا رشيد ؟!

- أنا غير .

ضحكت بضيق : ولماذا أنت غير؟! أنت لازم تفرح لما يقبلها أحد وهي في هذه السن ، وبعد كل هذا الانتظار

فصرخ في وجهها: تريد الزواج من زبال كناس شوارع

عادت للضحك الخافت وهما يدخلان الشقة : زبال! هو الزبال ليس برجل يا نمر ..أخي عمل فترة في البلدية ، ثم تحول إلى عمل أخر

- والله أمرك عجيب يا سليمة !

صرخت فيه وهما يجلسان على مقاعد في صالة مدخل البيت: من حقها الزواج ..أنت كان لازم تزغرد ، وتعلن الأفراح أن وجدت ابنتك بعد أربعين سنة زوجا .. وتذهب إلى الرجل وتحضنه شكرًا ، وتقبل أياديه .. ابنتك عانس وقبيحة الوجه وقصيرة وبدينة .. هذا الرجل أعمى .. يظهر أنك تعتقد أن أمونة طفلة في سن المراهقة ..وملكة جمال النسوان

- أنا على رأيك غلطان !

صاحت : مائة غلطان .. هذا إجرام في حقها

- وتريد أن تسكن مع الأرمل هنا .. ويؤجر بيته

- وتسكن هنا .. البيت بيتها

- هذا أنت تحبينها وأنا لا أدري !

- القصة ليست قصة حب يا حبيبي .. بنت كبيرة أتتها فرصة لتعيش مثل خلق الرحمن .. واحدة تقدم لها ذكر بعد طول صبر وانتظار لمَ تحرم من هذه الفرصة يا غبي ؟! .. لو طلبها إبليس اللعين فزوجها .. هذه معجزة من معجزات العالم .. ولماذا أخذها خالها ؟!

- خالها يريد لها الزواج ..وأمهلوني أسبوعا وإلا تزوجت عن طريق القاضي.. القاضي سيصير أباها وولي أمرها

- وهل ستبقى تعطيك شيئا ؟

- بل ستزيد الراتب إذا قبلت بالزبال

قالت بسخط: أنت مجنون !.. أنا منذ تزوجتك وأنت قاعد لا تعمل أو كنت في آخر أيام شغلك في تلك الشركة .. والآن تستعر من الزبال؛ كأنك وزير أو تعيش في قصر السلطان .. لو كنت أكره ابنتك فأنا أحب لها الخير والسترة .. ليس للمرأة إلا الزواج والعيش في كنف الزوج .. المرأة حياتها الزواج والبيت .. ليست قضية أكل وشرب ونوم هذا حاصل لكل الناس .. المرأة خلقت لتكون زوجة وأما ولها بيت وأولاد لولا الكره بيننا لذهبت إليها وأعلنتها بموافقتك

- أنا غير موافق .. سأشاور حسونة

ضحكت سليمة وقالت : حسونة ! أكيد تلصص عليكم لما سمع صراخك .. وتجده عرف الحكاية .. وهو غير مبال .. هو وزوجته حياتهم الكأس والشراب .. هل يهمه تزوجت أمونة أم لم تتزوج ؟ وسيتظاهران أنهما لم يستمعا شيئا من ثقب الباب .. اصعد لحسونة .. قد تجده صاحيا

- حسنا ، سأصعد الدرج ثانية ..كنت أريد أن تشدي عضدي في منع الزواج من زبال

- زبال أشرف منك.. هو يعمل ويسترزق .. وأنت منذ اشتغلت أمونة وأنت عاطل عن العمل

- ما أقذر لسانك وأطوله !.. منذ تزوج ابنك لم آخذ منه درهما واحدا يا امرأة !

- إنه يعطيني أنا .



بعد الكلام الحاد الذي سمعه من زوجته ، وقد كان يتوقع أن تؤازره في رفض زواج أمونة ، وأن تعارض بشدة ، صعد لشقة حسونة ابنه الكبير ، فوجده في انتظاره ، ويلبس ملابس الخروج ، فقال وهو يدخل الباب : أين؟

- كنت ذاهبا للمقهى .. فقد سمعت صياحكم .. وخروج أمونة مع خالي بكر

فقال بسخط : يا سيدي أختك وجدت زبالا في أحد شوارع العاصمة ، يريد أن يضحك عليها ويستولي على ثروتها ، ويتزوجها بعدما شابت وترمل

قال حسونة وهما يجلسان على كنبة كبيرة في مدخل البيت : هذا هو مربط الفرس ... وقبل أن يتابع تعليقه خرجت زوجته ترحب بعمها وقالت بعد الترحيب: طبعا وإلا لماذا سيتزوجها لحسنها وفتنتها ؟! لم يخلق أبشع منها قصيرة بدينة .

فصاح حسونة في وجه زوجته : ولكنها غنية ثرية.. تتصدق علينا .. والمرأة تنكح لثروتها .. وأنت محروقة محرورة لماذا؟!

قالت: عيب ! واحدة وصلت لهذا السن وتتعلق بالرجال .. زبال!

تطلع حسونة يمينا ويسارا وقال : آ ، ماذا أقول ؟! ماذا يشتغل السيد عماد ؟

صاحت بغيظ : غلط وعمل شهرا وندم

- ندم! بل طرد .. أنت ترفضين من أجل مالها أم لأنه زبال .

صرخت بقوة : كلا الأمرين يا باشا !.. هذا يا عم طامع بمالها وشغلها .. وأيضا تريد أن تسكن هنا ليس في بيته ؛ ليكسب أجرة بيته .. وأن تتزوج ابنتك من زبال هذه كارثة ! .. نحن مستوانا أعلى من هذا المستوى

ضحك حسونة وقال: نحن ماذا مستوانا ؟! .. الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى

صرخت فيه بحدة ونقمة : صرت شيخا

- لست شيخا ؛ ولكن هذا كلام الخطيب كل جمعة .. والعمل ما هو عيب .. ربما العيب أن تعمل أمونة وتسرح من الصبح حتى منتصف الليل

قال رشيد باستغراب : أمرك عجيب يا أبا حلمي !

- لا عجيب ، ولا شيء ، أنا أرى أن من حقها الزواج ، ولو بلغت مائة سنة

قال رشيد: أمرك مثل امرأة أبيك ، لا تمانع من زواجها من زبال حتى من حمار .. حقها أن تتزوج .. رأيك يا أم حلمي أن لا تتزوجه ؟

قالت بحقد ظاهر : هذه بعدها لم تتزوج وتتحداك .. هذه ستحول رصيدها له ، ثم يلقيها في الشارع .. أنا أعرف هؤلاء المتمسكنين .. ارفض ارفض يا عمي .. لا ترد على حسونة ولا على أم شحام

دفع الباب فجأة وسمعت سليمة آخر الكلام وربما سمعته جله فصاحت: تريدين أن يرد عليك يا وقحة .. أنت يا رشيد لازم تطردها من العمارة

صاحت بهياج فيها : هذا شقتنا يا قليلة الأدب! تدخلين البيت مثل العصابات .. حسونة بناها من عرق جبينه .. ليس من مصاريك ومصاري { تقال عن العملة } عمي ..البيوت لها حرمة

- اخرسي يا وقحة !.. وأنا أقف أمام الباب لأطرقه .. فسمعتك سمعت كل الكلام .. أرغب لها بالستر ..أنت لا تبغين لها الستر بعد كل هذه السنين .. عيناك على مالها أنت ورشيد .. أما حياتها وسترها لا أهمية له عندكم .."قالت لأبيها : إذا لم تنكح الرجل الذي من جيل أبيها ستترك كل المال للجمعيات الخيرية " .. فالأفضل أن تصمتوا وتخرسوا ، وتباركوا الزواج حتى تبقى صدقتها مستمرة على الجميع .. أنا رغم بغضي لها .. المعروف للجميع .. فلا أنسى إحسانها على بناتي حتى تزوجن ، وعلى هذا الرجل ، وهو يزعم أمامي أن المال الذي تدفعه أمونة إيجارا للشقة كأنه هو الذي بناها ، وكأن إيجار الشقة في "أبو خروف" خمسون دينارا .. ما هي الشقة السفلى مؤجرة بعشرة دنانير يا عالم .. أنت تأخذ منها خمسين غير الهبات .. وهي وعدته بالزيادة ..والرجل لو أنه زبال وكناس ؛ لكنه صابر مكافح ..فقد ربى ابنة ودخلت

الجامعة .. وهي متزوجة وتعمل صحفية اليوم .

صاحت زوجة حسونة: لا ترد عليها يا عم رشيد .. شهر زمان ثم تقطع عنك المعونة الخمسين دينارا .. هذا الرجل طماع .. داخل على طمع .. قلة بنات أصغر منها يمكنهن الحمل أسرع من أمونة ولماذا أمونة؟!

صفعت أم شحام أم حلمي صفعة حادة قوية بنقمة وكره رمتها أرضا وهي تصرخ فيهم: مجرمة ! واعلم إذا أطعت هذه السكيرة العاهرة .. وإذا لم تتزوج أمونة سأترك لك الدار يا رشيد .

وهجمت امرأة حسونة على أم شحام بعنف وشدت شعرها وهي تصرخ فيها بأقبح الشتائم وارتفع الصراخ والضرب والقذف وأم حلمي تصيح : اخرجي من بيتي يا ملعونة

- سأخرج يا قليلة التربية .. يا نذلة يا شريرة .. هيا يا رشيد يا جبان .. أنا لا أعلم كيف تزوجها حسونة؟! .. امرأة فاسدة حسودة

فقال رشيد وهو يدفع امرأته خارجا : عيلة مثل الحذاء .. الحقني يا حسونة

وصاحت أم حلمي: الليلة ستطلقني يا حسونة .. لا يمكن الحياة مع هؤلاء الوحوش ، إما الطلاق ، وإما الرحيل فلن أجاور امرأة وحشة غولة

استدار رشيد داخلا وقال: ما هذا الكلام الفارغ ؟! هدئ زوجتك يا حسونة .. سنفكر برؤية

قالت أم شحام: لا أدري من سيتزوج أنت أم أمونة ؟! أنت لست رجلا يا حسونة ارجع إلى خمارتك أحسن لك

صاح الرجل في امرأة أبيه وشتم وقذف



دخل العمارة شحام ورأى أمه تبكي أمام الباب خارج الشقة من كلام حسونة ، فهاج وقال بغضب : ماذا هناك ؟! ما بك تبكين في الشارع ؟! أنت اتصلت لتخبريني بأن رجلا يريد طلب يد أمونة .. لماذا تنوحين؟! لعلك ضربتها . وجه هذا الكلام لأبيه

فرغم الموقف المؤلم ضحك رشيد خافتا وقال: أنا اضرب أمك ! أنا أقدر على هذا الفيل !

فقالت وهي تنظر لأعلى الدرج حيث يقف حسونة وزوجته أمام بسطة الدرج ومدخل شقتهما: حسونة .

كان حسونة لما رأى شحاما يدخل من بوابة البناية ، قد كف عن الكلام ، فصاح شحام في أمه وهو يصعد نظره إلى بسطة شقة حسونة : ماذا فعل حسونة؟!

قالت من بين دموعها واستنشاقها النفس : يسب عليّ ، واتهمني بالفجور

– ماذا؟!

فصاح حسونة: لم اتهمها بشيء ؛ بل هي التي أساءت إليّ تتهمني بشرب الخمر

فصاح شحام وهو يلوح بيده لأعلى : وهل هذا اتهام ؟ وهل أنت لا تشربها؟ وصعد إليه وهرب حسونة بعد أن دفع زوجته للداخل ، وأغلق الباب بسرعة ، وهجم شحام على الباب المغلق يضربه بحدة ، فانفتح ، فهو شاب قوي البنية ممتلئ القوام ، وقد تدرب على الملاكمة والمصارعة في فترة المراهقة وأول الشباب ، ولما صار في جوف البيت شاهد حسونة يحمل سكينا كبيرة من سكاكين المطبخ ، يقول له مهددا: إذا لم تخرج سأقتلك

وكانت زوجته تصرخ فقال شحام : عامل نفسك راجل على أمي يا سكير .. كم مرة أتيت بك سكرانا من شوارع المدينة ؟! ارم السكين على الأرض

كان يهدد بها ويصيح: اخرج من هنا من بيتي .. الشرطة قادمة اتصلت بالشرطة

تقدم شحام نحوه وقال: ارم السكين ، وانزل قبّل رجل أمي

امتلأت العمارة بالمارة والجيران الخارجين من المقهى لبيوتهم ، والعائدين من السينما والمسارح ومقاهي المدينة حتى أن بعضهم صعد ليصلح بين المتشاجرين لما سمع القصة وصوت

الصراخ من امرأة حسونة ، وتقدم الشيخ سلمان يوسف أبو يوسف الخارج من مقهى مهران ، واتجه يتبعه شقيقه جهة الصوت ظانا أن حريقة حدثت في أحد البيوت أو وفاة صعد إليهم وقال : يا عمي يا شحام اهدأ .. اختصر لي والدك القصة .. وأنت يا حسونة ارم السكين .. أنتم أخوة .

شحام وحسونة كلاهما يعرف الحاج سلمان ، وربما تعلموا عنده أيام الشباب ـ فهو عمل مدرسا في جميع المراحل ، ثم مدير المدرسة الثانوية الحكومية في حي النجمة ، حيث تستقبل طلاب "أبو خروف" والأحياء المجاورة ـ وهو صاحب أبيهم ، فقال الشاب : يسب على أمي يا عم أبا يوسف .

فقال سلمان : فهمت الحكاية يا ولدي .. أغلق بابك على نفسك يا حسونة

وأمسك سلمان بيد شحام ، ونزل به إلى شقة أبيه وأمه ، وكان رشيد يشد وينتف ما بقي من شعر في رأسه، ويبكي كالأطفال ، فلما هدأ الأمر ، وانصرف الخلق ، أغلق سلمان الباب ، والتفت للمرأة وقال: ما الحكاية يا أم شحام؟

قالت وقد اختفت دموعها: الحكاية أن رجلا بسيطا ترمل منذ شهرين طلب يد أمونة من نفسها ، حيث يعمل زبالا في نفس شارع مشغلها ، فجاءت مع المغرب ؛ لتأخذ موافقة أبيها قبل نقل موافقتها للرجل ، فرفض بحجة أنه زبال وطفران ..وهو عامل سيتقاعد من عمله كما فهمت من رشيد .. ويأخذ راتبا حتى يموت وتموت أمونة

حول سلمان نظره إلى رشيد وهزّ رأسه، وروت مجيء خالها بكر ، وزعلها وذهابها ، وقصت كل ما سمعته وعرفته فقال سلمان لرشيد: أنت كان عليك أن تفرح وتبارك بزواج ابنتك البكر المسكينة .. عملت مشكلة كدت أن تخسر أولادك فيها .. وهي إذا لم تتزوج عن طريقك ورضاك سيقف معها القضاء .. وحتى قد تتزوج بدون قضاء ؛ لأنها كبيرة في السن .. وامرأة راشدة .. تدير مصلحة يا رجل .. وصل صياحكم للمقهى

– يا أبا يوسف هذا رجل طمعان في مصاريها

- خليه طمعان فيها .. تزوجت لمالها وثروتها .. لماذا تقف في طريق سعادتها ؟ أنت تعلم أن السيدة أمونة امرأة كبيرة .. الفرص أمامها معدومة.. نحن نعرف بعضنا البعض يا أبا حسونة

- أنا لا أرضى أن أوضع تحت الأمر الواقع

- أي واقع يا رجل؟! رجل يعمل في الشارع حيث المشغل ، وتعرف عليها بحكم العمل ، ولما ترمل استحسن الزواج منها ..الفتاة الهادئة الوديعة .. والرجل له بيت كما فهمت من أم شحام .. وابنتك ترغب بالبقاء هنا .. والزبال من بني آدم مثلنا .. ولولا هؤلاء الرجال لدهمتنا الأسقام والدود .. أنت صديق يا أبا حسونة اختصر الشر .. ولا تخسر الأولاد .. واتصل بابنتك ، وبارك لها هذه الخطوة .. وأدعو الله أن يرزقها الزوج الصالح الطيب والذرية الطيبة .. فالله هو الوهاب الجواد الكريم .. وأم شحام كما قالت بصدق ـ رغم عدم حبها لأمونة ـ فهي ترى زواجها حق لها .. والمال مالها يا عمي .. وهي امرأة تصلي وتعرف ربها .. ولن تعقك وتحرمك هي قالت ذلك غضبا .. لن تحرمك ما فرضته على نفسها لك .. فأنا أعرف أمونة .. وزارت امرأتي وبناتي وخاطت لهن الثياب .. أرجوك يا رشيد لا تكن حجر عثرة في اختيارها .. عيب أن تقول هذا زبال وهذا طيار مع الاحترام لكم .. أمونة ليست مهندسة أو طبيبة .. فالإنسان يختار من مستواه لينجح الزواج ؛ لتستمر الحياة الزوجية .. وحتى أني سمعت أم شحام تذكر أن له ابنة واحدة فقط تعمل في الصحافة ومتزوجة .. ولم تستعر من أبيها ، ولم تطلب منه التخلي عن وظيفته .. المهم أن لا يتسول الإنسان ، ويمد يده للغير .. وأنت يا شحام يا ولدي عليك أن تحافظ على الأخوة بينك وبين ابن أبيك .. فالدم لا يصير ماء

قال شحام: يا عمي أنا لم أفعل معه شيئا .. اتصلت بي أمي عند العشاء قائلة : إن رجلا طلب أختك أمونة وأبوك رافض .. فتعشيت وجئت ، فوجدت هذه ـ وأشار لأمه ـ تبكي من كلام حسونة الجارح .. فأصابني الغيظ وأردت أن أدبه فهرب إلى بيته ، وأخذت زوجته تولول وتصيح حتى فزّعت علينا أهل البلد ، ودخلت عليه ، فوجدته ينتظرني بسكين المطبخ

قال سلمان : على كل حال شر وانتهى .. والآن سأصعد وأتحدث مع حسونة ؛ لينزل ويتصالح مع امرأة أبيه ويعتذر لها .. وتتشاورون بحكمة وتعقل في زواج أمونة .. وطالبوا بمقابلة الرجل ، وتعرفوا عليه ، ولا تنظروا للوظيفة فقط .. وماذا تعني وظيفة السائق ؟ .. ووظيفة عامل الفرن ؟ فهذا إنسان شريف بسيط يطلب الستر .. ويسعى للحياة الهادئة مع ست محترمة ، ويسعى في عمله للمحافظة على حياتنا كالأطباء وغيرهم .. بائع العربة المتجول رجل شجاع طيب يعمل .. ولا تنسوا أن أمونة ليست صغيرة .. فهذه أول فرصة زواج أسمعها عنها .. نصيبها تأخر ،كونوا معها .



كان لتدخل سلمان بين أفراد أسرة رشيد تأثير قوي ، فالرجل معروف في الحي ، وهو من رجاله المعدودين ، وكثيرا ما تدخل في إصلاح ذات البين ، وحل مشاكل الأسر ، وخاصة لمن له بهم معرفة شخصية ، فالسيد رشيد من معارفه منذ عهد ماضي ، ومن جلسائه في المقهى في بعض الأحيان عندما يحب الحديث مع شلة أبي يوسف وشقيقه أبي نوح .

ولما أصلح الرجل بينهم بكلماته القوية الهادرة ، فغادرهم بعد هبوط حسونة وزوجه واعتذارهم لأم شحام ، وشربهم الشاي بمعية سلمان .

فقال السيد رشيد : الرأي أن نقابل الرجل ، ونتعرف عليه ونبارك الزواج .

قالت أم شحام: كما وعدت العم سلمان ؛ ولتجرب البنت حظها

قال حسونة : أنا لا دخل لي تزوجت أو لم تتزوج .. وهي حرة ..وهي سيدة كبيرة تتحمل المسؤولية .. وكما قال سلمان خيرها على الجميع .. وكان من الغلط أن نضخم ونكبر الموضوع

قال شحام: حصل خير يا جماعة !.. الشيطان له دور .. الآن سأذهب لخالنا ـ خال أمونة وحسونة ـ وأبين لهم أنه لا مانع من زواجها ممن تشاء ، حتى لو من إبليس نفسه .. كما تقول أمي فلها الحق أن تتزوج مثلنا .. والأمل بالخلفة أمل كل زوجين في الدنيا .. ونحن نؤكد عليها بالاستمرار بدفع المال لأبينا .. فأوضاعنا المالية ليست بزيادة وعلى قد الحال .. والأفضل أن تبقى تعيش في شقتها بيننا ؛ لأن البعد سيضعف همتها من الدفع الشهري للوالد .

قال رشيد : هي وعدت بزيادة المصروف إذا قبلت زواجها .

ـ سأذهب أنا وأمي إلى بيت أبي محمد ونصلح الأمور ؛ ولتعلم أن موافقين على اقترانها بذاك السيد .. وأننا نحب لها الخير .

ولما جهزت أم شحام كانت سيارة شحام في انتظارها ، ولما جلست فيها انطلق بها شحام نحو بيت بكر الذي لا يبعد كثيرا عن حي "أبو خروف" ، ورغم تأخر الوقت واقترابه من نصف الليل إلا أن الرجل لم يكن قد نام بعد ، فاستقبلهم ورحب بهم ، ورحبت زوجته بأم شحام ،

وأعلن شحام أمام أخته وخالها وامرأته موافقتهم على هذا الزواج ، وتركوا الأمر لها لترتيب لقاء تعارف بينهم ، ففرحت أمونة بهذا الكلام ، وشكرت زوجة أبيها وأخاها ، وشكرت دعمهما لها ، ووعدت بالعودة لشقتها بعد عودتها من شغلها يوم غد ، وعند الخروج أخذ شحام حقيبتها ووضعها في السيارة ، وسيتركها عند أمه لتأخذها عندما تصل البيت ، وكان بكر يقول: أنا دهشت لرفض أبيك هذا الزواج .. كنت أظن أن المعارضة ربما تكون من أمك الفاضلة .

ابتسم شحام وقال : وأنا مثلك .. لما بينهن من المشاحنات التي تحدث بين الأولاد وامرأة الأب .. قد تعترض أمي لبعض الوقت ؛ ولكني فعلا ذهلت لما علمت أن أبي يرفض زواج أمونة .. لو كانت صغيرة لقلت من حقه أن يعترض .. لكن أمونة قدر الله لها ذلك .

قال بكر : الحمد لله أن حلت الأمور .. أنا قبل حضوركم تحدث معي صديقنا الأستاذ سلمان .. اشتغلت معه فترة عندما كان مدير ثانوية النجمة "وقال : الأمور تسير إلى ما يحب المحبون " واختصر لي المعركة التي جرت بعد خروجنا من العمارة .

ـ الحمد لله يا خال

قالت أمونة: جزاكم الله خيرا .. صدقوا أن الزواج ذهب من فكري بعد هذه السنين الطوال .. وحتى لما فاتحني سميح بالموضوع ، فكرت أنه يقصد فتاة من فتيات المشغل .. عندي ثلاث غير متزوجات ؛ ولكنه كاشفني أنه يقصدني أنا بطلبه ، فذكرت له كبر سني ، فقال : ليس مهما عندي الأولاد .. غداً ـ إن شاء الله تعالى ـ سأخبره بموافقتي ؛ وليات لمقابلة أبي وإخوتي فباركوا لها جميعهم من جديد ، وسألوا الله لها أن يتمم عليها على خير ما يرام ، فقالت شاكرة: على بركة الله .. الناس بأفعالهم ، لا بأقوالهم .. السيد الوالد صنع المعركة من لا شيء .. أنا طمأنته أمام خالي بكر أنني سأستمر بدفع نصيبي من مصروفه .. وأنا أعتقد أن لا أحد يدفع إليه باستمرار وبشكل دائم إلا أنا .. وأنا أقدر ظرفك وظرف حسونة وإيجار الدار الذي تدفعه .. وبقايا أمواله أيام عمله .. واعتبر ذلك قربى إلى الله .. والقوي ماديا يساعد الضعيف

دون منة .. فالمنان هو ربي .. ربما خطر في بالي أن ترفض امرأة أبي لم بيننا من الحساسية ..ولكني أشكر وقفتك الشجاعة معي يا أم شحام .. القلوب بين يدي الله يقلبها كيف شاء ؟ .. وأنا أحب البقاء معكم لنبقى أهلا .. فالرجل ليس عنده ذرية ليزعجوكم .. وابنته الوحيدة متزوجة ، ولها طفل ولدته من عهد قريب .. وهو قد يتقاعد بعد الزواج .. وسيحصل على راتب شهري كما هو معروف حتى يتوفاه الله .. الشكر يا خال ، والشكر لأم محمد

ـ يا ابنتي نحن أهل .. وكنا نتمنى لك ذلك من زمان .. لكن الأمور كلها لله وبيده .. سيفرح لك كل المحبين .. ونحن نحب لك الخير والسعادة .. ونرجو أن يكون السيد سميح اسما على مسمى ، ويكون رجلا مقدرا لك .

وتحدثت لهم عن معرفتها بالرجل من خلال عمله في الشارع ، ومساعدتهم في تكنيس المحل ، وتفريغ السيارات ، وتحميل المصنوعات ، واحترامه لها ولفتيات المشغل ، ولم يمازحها يوما بما يمزح به من كلام جارح أو محرج ، وصبره على مرض أهله حتى توفاها الله ، وخلصوا في نهاية السهرة إلى الاتكال على الله ليحصل النصيب والمقدر ، وأن يطعمها الله الذرية الطيبة والسعادة الأسرية .

هدأت العاصفة قبل سطوع الفجر ، في نفس الليلة قبلت العائلة زواج أمونة من ذلك الرجل الذي لم يروه بعد ، ولم يكد يبدأ النهار حتى سعت الفتاة لعملها مبكرة على غير العادة ، وقد عادت إليها الحياة الحالمة ، حياة الزواج ، وبيت الزواج ، حياة الرحمة والمودة والسكن التي اختفت من أحلامها منذ عقد وعقود ، دغدغت أفكارها الأمومة التي تتحدث عنها الأمهات والوالدات ، فوصلت المخيطة أول الواصلين ، مما أدهش العاملات عند دخولهن ، ولما لمحت سميحا في الشارع أشارت إليه بالقدوم ، فلبى النداء بلهفة العاشق الولهان بعد أسبوع من الانتظار ، وقد عرف الجواب ، وأدرك أن فتاته أقنعت أهلها به زوجا لها ، ساقته نحو مكتبها في زاوية المشغل ، وطلبت الشاي للجميع ، وأبلغته موافقة أبيها على زواجهما ، وأعطته عنوان البيت في "أبو خروف" ، فوعدها بأن يكون في بيتهم عند الغروب ، وأعرب عن

امتنانه عن قبولها به ، وسيسعد بها ، وأنه عند كتب العقد سيقدم طلب التقاعد من البلدية ، وقبل بأن يعيش معها في بيتها دون حرج ، وأنه سيؤجر بيته ، وبعد مغادرته لمكتبها أعلنت للعاملات معها سبب دعوة الرجل للمشغل ، فأخذن يقبلنها بحرارة ، ويهنئها بالزواج ، فالزواج أهم حدث في حياة النساء ، ربما أهم من شهادة الجامعة ، واحتضنتها مساعدتها بقوة وفرح ودموع ، وتمنت لها السعادة ، ودعت لها أمونة بأن تجد ابن الحلال هي الأخرى ، وأرسلت أمونة إحدى الفتيات لشراء الحلويات لمثل هذه المناسبة التي لا تفوت ، وغمرت المشغل السعادة ، وشاركهم سميح هذا الفرحة والاحتفال وقال لها : إنه قدم على إجازة ، وغادرهنّ سعيدا على أمل اللقاء مساء هذا النهار ، وبعد الظهر ذهبت أمونة لصالون تجميل وتمشيط الشعر ، ومشطته العاملة بسرعة ، وهنأتها على هذه المناسبة ، وعادت للبيت مخبرة للأسرة ما دبرته من ترتيب ، وعبرت شكرا من جديد لزوجة أبيها لدعمها لزواجها وموقفها الكريم، ووضعت في يدها عشرة دنانير كهدية بهذه المناسبة ، فقال أبوها الذي رأى الدنانير تنتقل من يد امونة ليد سليمة : وأنا .

فأخرجت عشرة أخرى وضعتها في يده باسمة قائلة : أنت لا تشبع .. الليلة سيكون مجيئهم ومعه شقيقه للتعرف عليكم والحديث معكم ، ولما نكتب العقد سيقدم طلب تقاعد .

فقالت أم شحام : أهلا وسهلا بهم ، رغم ما كان بيننا من سوء تفاهم أو حساسية أنا أتمنى لك كل الخير والتوفيق والنجاح مع السيد سميح ؛ وذلك من قلبي صدقي ذلك .. فأنا أعرف أنك طيبة .. ألف مبارك

استقبل السيد رشيد وأولاده بعد صلاة المغرب السيد سميح عبد السميع الذي جاء مرتديا لبذلة جاهزة وجميلة ، ويصحبه شقيقه وعائلته ، وابنته وزوجها ، ورحب به رشيد وولداه وزوجاتهم ، وتصافح القوم ، وجرى التعارف التقليدي ، وقبل رشيد زواج ابنته البكر من السيد سميح ، وجاءت الكنافة المشهورة في بلاد الشام للاحتفال الأولي بهذه المناسبة السعيدة ، وقبل انتهاء اللقاء حضر بكر وأهله ، وقدم سلمان برفقته ، فقد مرّ عليه في المقهى وأخذه معه

ـ وكانت أمونة قد اتصلت بخالها ، وأخبرته بالترتيب لهذا اللقاء ـ فشاركوا القوم فرحتهم وسعادتهم ، واتفق أن يكون إعلان الزواج خلال أيام ، ثم العقد الشرعي لدى المحاكم ، وقبل السيد الحياة في حي "أبو خروف" في شقة أمونة الزوجة



شهرت الخطبة ، وانتشرت في الحي وفي شارع الخياطين ، وبدأت الاستعدادات لكتابة العقد ، وتحديد موعد الزفاف ، وأخذت الفتاة تغير ترتيب البيت لشراء أثاث غرفة نوم ، وقدم سميح المال اللازم، وشاركت أمونة بذلك مراعية لمشاعره ، وأصرت على الدفع سرا لحفلة الزواج ، واشترت الفتاة بما دفع لها من مهر ذهبا ، وزادت من جيبها فابتاعت الأساور والحلق والخاتم وبعد أسبوعين من كتابة عقد الزواج أمام القاضي الشرعي ،كانت تحتفل بزواجها في صالة أحد النوادي الاجتماعية خارج "أبو خروف" ، وكان ذلك هدية من أحد أخوالها الذي له علاقة خاصة بذلك النادي ، واحتفل القوم احتفالا كبيرا ؛ كأنهم يزفون عروسا صغيرة لزوجها ، فأمونة لها شعبية تكونت خلال هذه السنوات ، فهي خياطة ماهرة في الحي وفي المدينة ، ولها صداقة بأم ريان التي عرفتموها في قصة سابقة ، وتقدم لجمعية البر المال والملابس الجديدة والتي لم تباع ؛ وإن كانت تحرص على فعل ذلك سرا وخفية ؛ ولكن هذا الأمور تكشف مهما سعى المرء إلى إخفائها ؛ لذلك وجدت عاقبة ما قدمته من خير في حفل زواجها ، وعادت عند نصف الليل إلى شقتها تزفها السيارات الصغيرة والمحتفلون ، وكانت تقلها وعريسها سيارة خاصة مزينة بالورود والأزهار والزينة.. كانت تجلس في قلبها أمونة وزوجها سميح ، وصعد بهما إلى شقتها بالزغاريد والأهازيج ، ولما أغلق الباب عليهما تقدم سميح إليها ، واضعا يده على ناصيتها داعيا بالخير مستعيذا من شرها ، وطلب منها الصلاة ركعتين

كما هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم. [١] وهكذا أيها الأصدقاء تزوجت أمونة بعد انتظار دام أكثر من ثلاثين سنة ، وعادت لها الحياة النضرة ـ حلم كل أنثى طبيعية ـ بعد دهر وقبل دخول سن اليأس وللقصة تتمة .

---

١ – عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً أَوِ اشْتَرَى خَادِمًا فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا فَلْيَأْخُذْ بِذِرْوَةِ سَنَامِهِ وَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ ». قَالَ أَبُو دَاوُدَ زَادَ أَبُو سَعِيدٍ « ثُمَّ لْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا وَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ ». فِى الْمَرْأَةِ وَالْخَادِمِ.



قضت أمونة أياما بعد ليلة الدخلة تستقبل المهنئين من الأقارب والجيران والأصدقاء ، والسيد سميح تحصل على إجازة زواج لمدة أسبوعين ، وقد قدم طلب إنهاء الخدمة لما كتب عقد زواجه الجديد ، وكان والد أمونة يكبره بعشر سنوات أو تسع ؛ فلذلك حصل بينهما انسجام واضحا أمام زبائن المقهى .

انتهى الأسبوع الأول للزواج فعادت المرأة لمارسة عملها في شارع الخياطين والترزيين ، وقد زارها الكثير من أصحاب هذه المخيطات والمشاغل والمحلات يقدمون لها التبريك والدعاء ، وكانت مساعدتها أحلام تجهز الحلوى يوميا لتقديمها للمهنئين ؛ لأنها تعرف عمق العلاقة بين أمونة ورجال ونساء الشارع ، والكل فرح بزواجها بعد يأس قاتل " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" وبعد حين عرضت أمونة على مساعدتها المشاركة في المحل ، لأنها هي الأخرى تفكر بالتقاعد وستحسم الأمر عند تقاعد زوجها ، وقبلت أحلام التفكير في العرض .

فكانت تقضي نصف نهار في تدبير المصلحة وترتيب الأمور ، وتنظر العروض وتغادر للبيت ، تريد أن تحس وتشعر أن لها بيتا وزوجا .. فهي قبل الزواج كانت تعود بعد آذان العشاء .. فتصل للبيت منهكة القوى ، وتنام سريعا ، أما اليوم فهناك رجل يحتاج لها والحديث معها ويسمر معها ويأكل معها .

وأما سميح فقد مضت الإجازة دون أن يبث في طلبه التقاعد من العمل ، فله أكثر من عشرين سنة يباشر العمل في هذه المهمة التي يستقلها الناس مع أنهم لا غنى لهم عنها ، وإلا تكدست القمامة في الشوارع والطرقات ، وعمت الأوبئة البشر ، فحتى الغابات حيث تعيش الوحوش ، فتجد حيوانات قمامة كالضباع والكلاب البرية مهمتها أكل الجيف وغيرها ، بل بعض الضباع تساعد الأمهات في حالة الولادة عند موت الجنين في أرحامهن ، فيظل الضبع يدور ويلف حتى يسحب الحيوان الميت من المها والحمار الوحشي ، فالمهن تكمل بعضها البعض ، وكان يريد السعادة بعد معاناة دامت سنوات في علاج الزوجة الميتة .. واليوم قد من الله عليه

بأمونة المرأة الضئيلة الطيبة التي يعرفها منذ انتقل للعمل في شارع الخياطين .. وقد عرفها قليلة الكلام على غير عادة النساء من حبهن لكثرة الكلام إلا ما رحم ربي .. ونظر كلاهما لنفسه ؛ كأنه عاد لعهد الصبا والمراهقة .

رجع سميح لعمله في شارع الخياطين حتى يصدر قرار إحالته على التقاعد .. وتلقى هدايا من أصحاب المحلات تجاوزت ألف دينار .. فشكر الله وحده .. وعرف مقدار حب الناس له وعطفهم عليه .. ولم يكن أمامه الرفض فقد اعتاد على تقبل عطاياهم ومساعداتهم منذ عمل في هذا المكان .. ولما تشاور مع أمونة باركت له فيها .. ونصحته بالتصدق ببعضه ففعل .. ووهب والد أمونة خمسين دينارا منها .. وبعد تمنع وحياء قبلها رشيد شاكرا .. لما علم الرجل مصدرها .. فهو خطر له في أول الأمر أن أمونة أعطته إياها ليدفعها له .. فلم تعجبه هذه الطريقة أن يأخذ المال من يد زوج ابنته .. وابنته قادرة على توصيله له .. فلم وضح له الرجل المصدر قبلها شاكرا داعيا ، وكان سلمان يوسف كلما رآهما وقابلهما في المقهى معا ، يقول مداعبا ومازحا: آ ، يا أبا حسونة كيف أنت وأبو نسب المحترم ؟

فيبتسم ويعرف أنه يذكره بتلك الليلة العصيبة التي طلبت البنت الموافقة على زواجها منه ، وجرت معركة كادت تنتهي بمجزرة ، فيرد : عسل عسل يا حاج أبا يوسف .. ساعة شيطان .. الحمد لله ربنا لطف .. ما تعرف الناس حتى تعاشرهم وتقابلهم .. أبو سعاد رجل غانم وكريم

فقال سلمان: عسل فعلا .. كيف حال ابنتك وزوجها يا أبا سعاد ؟ أنا أكبرت شجاعتها وعزيمتها وقدرتها عندما لم تطلب منك ترك عملك الذي يستعر منه بعض الخلق .

قال سميح : تعلمت من أموال هذه المهنة يا حاج سلمان .. الحمد الله الذي أكرمني بها .. وأتمنى أن يجعل الله بيني وبين ابنة الرجل الفاضل أبي حسونة طفلا ..آمل بذلك بكرم الله العظيم .

أمن الجميع على رجاء ودعاء سميح وقال سلمان: هذا أمر الله .. صحيح أن السعادة لا

تكتمل إلا بالأولاد والبنات ؛ ولكن الحياة الزوجية الهادئة السليمة أيضاً سعادة .. فكان البيت كما يعلم رشيد مليء بالأولاد والبنات ؛ لكنهم تزوجوا وغادروا .. وبقيت أنا والعجوز أم يوسف ، وعمك رشيد ظل هو وأم شحام .. هذا حال الدنيا يبدآن وحدهما ، ثم يعودان وحدهما ، ثم يهلك أحدهما ثم يتبعه الآخر .. جيل ذاهب وجيل قادم .. صح يا عم رشيد .

هتف رشيد : حكم حكم كلامك يا أستاذ الشباب .. صحيح كان البيت مليئا بالضجيج والصوت .. واليوم وحدنا معنا التلفزيون .. هكذا الدنيا تبدأ وحيدا وترجع وحيدا ..أنت أو هي ونأتي الله فردا .

قال سلمان موجها الكلام لسميح : إذن لا تحزن يا سميح .. واعلم أن ذلك لله .. وكذلك على أمونة أن ترضى بنصيبها .. فالزواج هو السكينة والرحمة .

قال سميح: أنا عرفت السيدة أمونة منذ عملت في شارع الخياطين .. عرفتها أختا فاضلة شريفة محافظة.. لا تبرج وليست سافرة .. وكل العاملات عندها نساء .. ولما بدأت أعرف أن أم سعاد مشرفة على الموت بسبب المرض القاتل ، وقع في قلبي التفكير فيها كزوجة .. الرجل لا يستغني عن امرأة في بيته



مضى على زواجهما شهران عندما قبلت البلدية للعاصمة بيت السلام إنهاء خدمات سميح عبد السميع ، وتوقف عن خدمة الشارع ونظافته لعامل جديد أو موظف بلدية جديد .. وقد يستغرق سميح شهرين أو ثلاثة ، وهو يجري معاملات الانفصال ؛ ليتحصل على راتب شهري من دائرة التقاعد الوطنية للمدنيين أو صندوق التقاعد المدني للموظفين .

وكانت السيدة أمونة قد رتبت أمور الشراكة بينها وبين مساعدتها أحلام التي شاركتها في نصف رأس مال المشغل ، ويخصص لها راتب شهري مقابل الإدارة والعمل كسائر العاملات ، وستأخذ أمونة نصف الأرباح ، ولما وقعن عقد الشراكة عند أحد المحامين في وسط المدينة ، توقفت عن الذهاب للعمل إلا في زيارات اجتماعية ومتابعة العمل بشكل سريع وخاطف أو إذا احتاجتها أحلام لأمر ضروري لعطاء أو مشاورة .

مضت الشهور الأربعة على زواجهما ولم يحصل لها أي حمل رغم أن الطمث لم ينقطع عنها ، فنشبت غريزة الأمومة في قلبها وصدرها ، فترجت سميحا أن يقوم هو وإياها بالفحوصات اللازمة عند أهل الاختصاص ، فبعد تردد بسيط قبل سميح ، ومن أجل دوام زواجهما وسعادتهما ؛ فهو يعلم سن أمونة المتأخر .. فأمونة تقترب كثيرا من سن اليأس وانقطاع الطمث .

قاموا بتلك الاختبارات الطبية ، وتبين لهم أنه من الصعب حمل أمونة لضمور كبير في الرحم ؛ ولكن الطبيبة الأخصائية قالت: إن الأمل موجود .. وتحتاج لوقت وخضوع لعلاج مستمر ، والرجل رغم تجاوزه للخمسين سنة فلديه نطف قد تؤدي للإخصاب بمزيد من العلاج .

ذات ليلة لما عاد سميح من المقهى ـ فالرجل بعد صلاة العشاء في جامع الحي ينقلب للبيت ، لا يحب السهر ككثير من رواد المقهى ـ فبعد العشاء قال : لقد استلف مني حسونة مائة دينار بعد زواجنا ، وحصولي على مبلغ الألف دينار من أهل شارع الخياطين ، قد سمع بها ، واستلف مني ، فاستحييت أن اكسفه فداينته منها .. ولليوم لم يسدها أو شيء منها .. وقبل أيام التقيته في المقهى ، وطلبتها منه ، وذكرته بها ، فأنكر ذلك ، وزعم أنني وهبتها له .. ما العمل؟

تابعت صمتها بضع دقائق ، ثم قالت بشرود : استغل طيبتك .. حسونة رجل فاسد .. أقول هذا مع أنه شقيقي ، ولا يمشي إلا مع الفاسدين ..كان عليك مشاورتي قبل التعامل معه في المال ؛ لكنك طيب سمح .. وتظن أن كل الناس مثلك يحسنون الظن بجميع الناس ..

السوق علمني يا أبا سعاد .. خدعت من بعض الناس من التجار من العاملات .. هل تظن أنه أنفقها على الطيبات ؟ لا ، أنفقها على الخمر والحشيش .. فهو يحشش وامرأته مثله ، وحتى ابنهم الوحيد حلمي حشاش مثلهم .. وحتى أبي أو زوجه لا تعطي أحدا منهم قرشا واحدا قبل عرض الأمر عليّ .. أنا سأعطيك المائة دينار، ولا تقل لحسونة أو غيره أنها وصلتك .. هم تعودوا على الاقتراض مني ، ثم ينسون السداد .. وأنا كنت أغرش عن ذلك باسم الرحم والأخوة .. وتنهدت متابعة : وأتخلص ببعض الدين من أحدهم عدة شهور قبل أن يعيد الكرة .. عليّ التخلص من دواوينهم .. فهو ما دام يعلم أنه لم يسددها لن يطلب منك قبل زمن .. أما إذا عرف أنك لا تريدها فسيكرر الطلب في أقرب زمن .

فقال سميح : هو شغيل على جرافة .. فأرى أنه يحصل دخلا جيدا ..ولا يدفع إيجار بيت .. وابن واحد يعمل .

ـ راتبه لو صرف في موضعه يكفيه ، ويدخر جزءا منه ؛ لكنه تعلق بالخمر والمخدرات .

قال سميح في حيرة : لا أدري كيف يقتل الإنسان نفسه وصحته ؟! قلنا الدخان ضرره أخف من الخمر والحشيش .. حلمي يشتغل مثله

ـ أجل ، يعملان كليهما في شركة حفريات .. يعملان على آليات ثقيلة الحفارات الجرافات ويحصلان دخلا جيدا ؛ ولكنه تعلق كأبيه وأمه بالمنكرات ومصاحبة بنات الهوى .. وهو هذه الأيام يسكن في بيت جدته لأمه .. عندها غرفة زيادة .. فترك بيت أبيه للعيش فيها .. وسمعت من فترة أنه سيطرد منها .. لقد قبض عليه أحد أخواله ومعه فتاة فيها .. وتمت لملمة الموضوع .. وتعهد لهم بعدم تكرار عمله .. وأنه سيمارس فحشه في حانات المدينة .

– ولماذا لا يسكن مع أبيه ؟!

– حدثت بينهم قبل زواجنا مشاجرة كبيرة كادت أن تؤدي لطلاق أمه وتدخل أخواله وأخذوه عندهم .

– هو لماذا لم يتزوج بدل الفجور والذنوب؟!

- لا يريد الزواج والحلال .. ولا يريد الارتباط بأنثى وأسرة ..ولا يريد أولادا ؛ ليتعسوا في الدنيا

قال بإنكار : سخف! يخرج الحي من الميت والميت من الحي .. لقد رأينا آباء فاسدين ، وأبناؤهم صالحون وعلماء وأدباء .. على كل علاقتي بشقيقك باردة وسيئة .. يسخر مني ومن عملي في البلدية .. يقول أمام أهل المقهى: كيف قبلت أن تعمل زبالا كناسا لزبالة وأوساخ الناس ؟ .. مهنة حقيرة أنت رجل وسيم تستحق أن تكون وزيرا ..أرأيت السخرية وقلة الأدب ؟!

- على كل حال أنا أعيش بينهم ؛ كأنني لست منهم ـ إذا شاء الله ـ

وحملت ـ إن شاء الله ـ سنرحل من هذا الحي .. إما أن اشتري بيتا أو قطعة أرض نشيد عليها بيتا .. بيت العمر ..ونبتعد عن هذه العائلة



الرحيل عن "أبو خروف"

كان سميح يتعرض لمضايقات وسخريات من حسونة منذ تزوج أمونة ، وكانت في أول الأمر قليلة وتبدو مداعبة ، فكان يهزئ به في المقهى في الشارع ، أينما التقيا يسمع منه الكلام الساخر ، وهذا دفعه للشكوى لزوجته ، ثم بدأ يحدثها عن نفوره من البقاء في "أبو خروف" ، وكانت تتكرر شكواه من حسونة ، فتحدثت أمونة مع حسونة ، ويعدها بالكف عن المزح معه ، ثم لا يفي بالوعد ، ويزعم لها أنه ينسى ، أو اعتاد على هذا المزح ، ورغم كثرة تحذيراتها ظل الحال على ما هو حتى أن سميحا صار يغادر المقهى فورا عندما يدخل حسونة ، إما أن يعود للبيت ، أو يمكث في المسجد في انتظار الصلاة ، ذهبت تشتكي لوالدها وتكررت الشكوى ، فشكت له غاضبة سخرية ابنه من زوجها ومناداته أمام الناس بالزبال ، والسخرية من مهنته بكلام جارح ومحرج ، وكيف صبر عشرين سنة يكنس الطرق والزبالة ؟ ويبتعد عنه بحركة ساخرة خشية العدوى " أرجوك ابعد عنا حتى لا تعدينا".. فقال الأب: والله تحدثت معه أكثر من مرة ، وقلت له عيب هذا الكلام ، الرجل صهرنا زوج أختك ، يزعم أن ذلك مزح .. فماذا أفعل له يا أمونة ؟

قالت بضيق من سلبية الجواب : هذا هو جوابك

- قولي لي ماذا أفعل ؟

- حسنا ، والسلام عليكم

وصعدت لشقتها غاضبة ناقمة ، فلما رآها سميح أدرك فشلها من غضبها فقال: ماذا فعلت؟!

- تحدثت مع أبي العاجز عن فعل شيء .. سنرحل يا سميح .. سأتكلم مع خالي بكر ليستأجر لنا بيتا قريبا من بيته .

- بيتي موجود

- فليبق بيتك مؤجرا .. أنا لديّ ثروة كبيرة يا سميح .. أنت قرة عيني وحياتي لنتمتع بها .. أنا عاجز عن شكرك واختيارك لي زوجة بعدما نسيت هذا الأمر .. سأشتري بيتا وأهديك إياه ..

فأنت تستحق مني كل محبة وتقدير .. لقد جعلتني أن أعود أنثى كسائر النساء .. أنت حياتي كلها .

اعترض الرجل على كتابة البيت باسمه ، فأصرت قائلة : هو هدية مني .. وهذه الأموال أتريد أن اتركها لحسونة ليسكر بها ويحشش .. ولأبي الذي لم ينصفني منذ ماتت أمي.

- والدك مسكين كما ظهر لي

ـ والدي المسكين ليلة عرضت عليه أمر زواجي منك رفض وبشدة .. لا يريد لي الزواج والعيش كسائر النساء .. لولا امرأته أم شحام وقفت معي تلك الليلة لأصر على الرفض .. ولم يعبر وجود خالي بكر تلك الليلة.. أنا أعلم أنك إنسان طيب يا سميح ..لا تحب عداوة أحد ، ولا تحب التفكير العميق والأمور المعقدة .. وأنا مع احترامي الكامل لك خبرت الحياة والإدارة والشراء والبيع .. عليّ أن أتصرف بسرية تامة .. حبيبي لا تتكلم أمام أبي عن الرحيل .. وبعدما نرحل إلى بيتنا الجديد ، ونستقر فيه ، سننشر الخبر وسأحول هذه إلى شقة مفروشة للإيجار .. تذكرت الآن فأنا لي معرفة لمكتب عقارات لتأجير وبيع الشقق .

فقال الرجل مستسلما : أنا أقدر ذكاءك وقدراتك الإدارية والتجارية ، وأعلم طيبتك وإحسانك على الفقراء والضعفاء .. سامحيني يا أمونة من كثرة شكواي .. أنا من جيل والده .. فليس المزح جائزا في كل حين ومع كل أحد

قالت آسفة : لا تعتذر ، أخي سيء .. وأنا أتصدق عليه من الحين للآخر ، كما أتصدق على الغرباء .. فالصدقة على الأرحام لها أجران يا سميح .. وبعد رحيلنا سأكف عن الصدقة عليه

- أنا آسف يا حبيبتي .

- لا تأسف ، أنت من حقك أن تعيش كريما محفوظ القيمة .. إنه لا يعرف هذه المعاني .. وهذه القيم .. قبل أيام حبس ابنه في قضية اعتداء على قاصر .

- وا!!

- نعم ، وربما يعود للحياة مع أمه وأبيه هنا .. فقد ضاق أخواله وجدته به ذرعا من فساده وانحرافه .. أنا كنت أحب البقاء هنا ؛ لأن الشقة تعبت في تشييدها .. فهي حقي ومن أجل والدي الكبير .. وهو الذي يربطني بهذا الحي.. وإلا أنا أكثر وقتي في المدينة بين العاملات والشغل ما كنت أظن يا حبيبي أنني سأتزوج في يوم من الأيام .. إنما أعيش وأكل وأشرب ؛ لكنك جعلت للحياة عندي معنى رائعا لا يمكن نسيانه

- آه ! كم أتمنى أن يهبك الله ولدا تقر به عينك

- هذا أمره إلى الله .. أنت اليوم كل شيء لي في هذه الدنيا .. أنت أمي وأبي وابني وابنتي .. أنا أتابع العلاج ، وأعرف أن نتائجه ضعيفة ، ولست مهتمة به كثيرا .. سلمت أمري لله .. أنت كل شيء لي في هذه الدنيا .. من يسيء إليك يسيء إليّ .. لا أحتمل دموعك يا حبيبي أرجوك لا تبكي.

كان قد أخذ بالبكاء فقال : إنها دموع العرفان .. إني عاجز عن شكرك والثناء على عطفك

- لا أنسى أبدا أنك جعلتني امرأة حقيقية كسائر النساء .. العنوسة صورة من العذاب النفسي يا سيدي الطيب .. هل تعلم أن صاحبتي أحلام وشريكتي قد تتزوج قريبا؟

- حقاً!

- نعم ، وجدت أو وجدها ابن الحلال .. رجل من أقاربها .. وكان ذلك عن طريق أقارب لها .. كان يفكر بالزواج على امرأته ، فذكروها له فترك الأمر لها فوافقت .. وكما أخبرتني منذ ساعات الأمور تجري على أحسن ما يرام .. والرجل لا يمانع من استمرارها في عملها في مشغلنا .. هذا من بركات الدعاء.

- نعم ، هذا شأن الله تعالى .. كل يوم هو في شأن

- أنت طيب للغاية يا سميح .. فعرضك عرضي يا سيدي .. وأنا أعرفك من عقد وأزود



خيار البناء يحتاج لوقت كما ظهر لأمونة ، وقت لشراء قطعة الأرض ، مخططات البناء ، البناء نفسه ، فرجحت أن تشتري بيتا جاهزا أو شقة في عمارة ، وعرض عليها المكتب العقاري شراء عمارة من طابقين بثمن زهيد ، فذهبت وسميح لمشاهدة ومعاينة البناية ، وعلمت أن سبب بيعها هجرة أصحابها إلى أمريكا الشمالية ، والعمارة قديمة بنيت في مطلع الأربعينات ، وهي من الحجر القديم البارز ؛ ولكنها في حي كان قديما مهوى الأغنياء وعلية القوم ، وذلك قبل ظهور الأحياء الراقية الجديدة والحديثة ، وكان يحيط بالمنزل حديقة ، وهي مهجورة منذ عهد ، تحتاج لبعض الصيانة ، ويوجد فيها أشجار زينة عالية كالصنوبر ، والكينيا ، والجوز البري ، ولما قابلت وكيل المالك وعدها بخصم مبلغ معين إذا تم البيع ، ووجدت أن بإمكانها تأجير الطابق الثاني بعد عمل مدخل جديد له ، ووعدها صاحب المكتب العقاري بالمساعدة على الفصل الكامل بين الطابقين وأي صيانة أخرى ، فقد أدخل المالك على البناء التدفئة المركزية قبل سفره بسنوات ، وابتاعتها بخمسة عشر ألف دينار شاملة تكاليف نقل الملكية ، وسجلت باسم سميح الذي عاود الرفض ؛ ولكنها أصرت على أن تكتب باسمه وحده قائلة : حتى لو طلقتني بعد كتابة البيت باسمك ورميتني في الشارع سيكتب باسمك .فبكى الرجل حتى بل لحيته ، واستعاذ بربه من فتنة الدنيا .

أشرف أحد مكاتب الصيانة والترميم على إعادة تأهيل الفيلا ، فهي مهجورة منذ ثلاث سنوات منذ رحل صاحبها ، وكان مصرا على بيعها ويرفض تأجيرها ، نظفت الحديقة من أوراق الشجر المتراكم خلال هذا السنين ، وأعيد تأهيل أسلاك التيار الكهربائي ، ومواسير المياه ، وأنابيب التدفئة المركزية ، والمضخة وفرن التدفئة ، والمغاسل والحنفيات والحمامات وأعمال الطراشة والدهان وتنظيف الشبابيك والأبواب ، وظل فصل الطابق الأول عن الثاني وهذا سيشرف عليه ابن خالها بكر المهندس محمد .

ولما انتهت أعمال الصيانة وتأهيل الطابق الأرضي للحياة فيه ، قامت أمونة بتأثيثه بعفش جديد ، وكانت الأمور تجري بسرية تامة عن أبيها وأخوتها ، ولما جهزته دعت خالها لزيارتها ،

فجاءها تصحبه زوجته وابنه المهندس محمد وأهله ، ووعدها الشاب بفصل الطابقين لتتمكن من تأجيره ، وباركوا لهم ، وتمنوا لهما السعادة ، وأن المال قل أو كثر سيبقى في الدنيا ، ولن يصحب صاحبه إلى قبره .

واختفت أمونة من "أبو خروف" نهائيا ، فهي قد زعمت لهم ـ الفترة الماضية ـ أنها عادت تدير المشغل لزواج شريكتها ، وكان سميح يلحق بها إلى الفيلا الجديدة يتابعان الأعمال ، ويقدمان الطعام للعمال ، ولما لم تظهر أمونة ولا زوجها من بضعة أيام قالت أم شحام لزوجها: لي أيام لم أسمع حس أمونة ولا سميح .

قال الرجل: أمونة في بيتها لي أيام لم أقابلها ، سمعت أنها عادت لإدارة المشغل .. طرقت الباب عليهم أمس ولم يرد عليّ أحد .. ربما ذهبت عند ابنة زوجها سمعت والدها يقول : إن سعاد على وشك الولادة .. ولما لم يرد أحد والباب مغلق ، ردت عليّ امرأة حسونة قائلة: إنهم ذهبوا في رحلة خارج البلد .

– رحلة ! ذهبوا في رحلة ، فلهم ثلاثة أيام لم نحس بهم ، أرسلت ابن سالمة يطرق بابهم ـ كانت سالمة ترغب بالسلام على أختها ـ فعاد يقول : لا أحد يرد ، وكنت أريد بعض القهوة من عندها فأعطته امرأة حسونة

صاح محتجا : القهوة انتهت من عندنا .. أنت تسرفين بشرب القهوة .. رطل القهوة لا يكمل الشهر عندنا .

– أنت شريكي فيه .. البنات في الشهر حتى تطل إحداهن .. وشحام كل عشرة أيام يأتي ليسهر معنا ، ويشرب فنجان القهوة .. أنا وأنت

– أنا اشرب الصبح فقط ..وطول النهار إما عند سميح وأمونة أو في المقهى .

صاحت سليمة بانفعال : كذاب .. أنت تشرب هناك الماء والشاي واليانسون .. أين ذهب جيراننا ؟

– من آخر مرة اشتكت أمونة اللعين حسونة ، وقد تغيرت أخلاقها معي .. وبعدها بأيام

عادت للشغل .. وسميح يجلس بعض الوقت في مقهى مهران .. ثم ينزل للمدينة تغير .. لم يعد يطيب له الجلوس بعد الظهر في المقهى .. يجلس صباحا كما قال الحاج مهران ، ويصلي الظهر ، ثم يغادر إلى مركز البلد .. وأنا مكسوف منه حتى أني علمت أن حسونة استلف منه مائة دينار.. وله سنة لم يسددها .. لو يسد منها ولو شيئا يسيرا وأمونة صدقي أنني لا أدري .

جاء آخر الشهر ، ولم يظهر الزوجان ، رغم التحري والتعسس لم يصل رشيد لشيء ، جاء بكر لبيت رشيد فلم يجده في البيت ، فمشى إلى المقهى ، وهناك أعطاه الستين دينارا ، وأعلمه برحيل أمونة وزوجها من مضايقات حسونة وامرأته ، وأنها اشترت بيتا ، وأنها سوف تؤجر الشقة عن طريق مكتب عقاري . وقال: ولماذا رحلت ؟!

قص على مسامعه إساءات حسونة المتكررة لزوجها والاستهزاء به أمام الناس ، وفي المقهى والشارع ، ونصب عليه بمائة دينار ، ومشاكله المستمرة في بيته مع عائلته والكفر والسب لله .. أسباب تجمعت فكان الرحيل والبعد الحل الأمثل .

– هذه أفعالك يا بكر

– أبدا يا سيد رشيد .. أمونة سيدة سوق ومديرة عمل نشط ، لا تحتاج لمشورة مني ، أم أنت لا تعترف بقدرات النساء لليوم .. صدق لما سكنت دعتني أنظر البيت ؛ لأن ابني المهندس محمد سوف يعمل لها شغلا ، فهي تعرف التعامل مع المكاتب العقارية .. هي ابنة المدينة والسوق .. ولما شكت لك حسونة آخر مرة " قلت لها : ماذا افعل؟".. فهي فعلت .. وأنا كل نهاية شهر سأمر عليك ، وأنقل لك المبلغ .

– أنت !! .. ذلتني ابنتي .. كان عليّ أن أرفض زواجها من هذا الزبال

– أنت الآن حسونة

– اغرب عن وجهي .. ولا أريد الستين دينارا التي جئت بها .. سأتبرأ منها.

ضحك بكر وقال : لماذا؟! ..حسنا سأترك المبلغ عند مهران صاحب المقهى

– لا ، لا أريد شيئا منها .

رجع رشيد للبيت ناقما غاضبا على ابنته وبعلها سميح وكل الناس ، حتى أن الحاج سلمان لما سمع صياحه في القهوة سعى لفهم الموضوع ، فقال له بحدة : أرجوك يا حاج سلمان أن تتركني وشأني . فتركه وشأنه ، وعاد حيث كان جالسا مع شلته التي تعرفنا عليها في أول حكايات "أبو خروف" وتبعه بكر ، وشرح له القصة .

فقال السيد: نعم ما فعلت ! كان ابنه حسونة سيئا معه ، جعله أضحوكة الناس ، يسخر منه في الشارع في المقهى ، وهو زوج أخته وصهره ، ورجل من جيل أبيه بينهما بضع سنين ، حتى أنني نصحته فلم ينتصح .. والسيد سميح طيب وبشوش .

- أعرف كل ذلك يا حاج .

وغادر المقهى ، وكان رشيد قد سبقه بالخروج للبيت ساخطا ، ولما وصل قال بصوت عال هادرا : أرأيت الرجل الطيب والبنت ماذا فعلوا؟! اشترت بيتا ورحلت إليه سرا .. وبعثت المال مع اللص بكر

هزت المرأة البدينة رأسها وأطفأت السيجارة وسعلت وقالت: الراتب

- أرسلته مع بكر

- هذا المهم يا قليل الشغل .. ابنك حسونة السبب .. ولما تشكوه تقول لها ماذا أفعل؟ وأنا أقول ماذا ستفعل الآن؟! .. والشقة

رمى نفسه على كنبة صغيرة في مدخل البيت وقال: ستؤجرها شقة مفروشة

- بنت فهمانة جدا .. سيسكن في عمارتنا جيران جدد .. أين تسكن ؟

- اشترت بيتا في أحد أحياء المدينة .. لم يقل بكر أين أو اسمه؟.. إنما كلفته بإيصال المال لي .. وسيفعل ذلك كل شهر .. فرفضت .. فقال اللص سيضعها عند مهران .

- معلم المقهى

- نعم

فصاحت فجأة : يا جماعة لماذا لا تتركون البنت تعيش حياتها ؟! فهي طول عمرها وحيدة .. ابنك حسونة سيء .. قلت له مرة صدفته وأنا أقف على باب الدار : عيب يا حسونة أن تستهزئ من زوج أختك الشريف السمح .." فقال بعجرفة : يا امرأة أبي لا شأن لك بي ، وأنا أحب أن أمزح معه ، أنا لا أدري كيف قبلته أمونة ؟ هذا رجل كالنساء".. لأنه شريف يصلي ولا يسكر مثله .. هذا كلام ابنك الساقط في نسيبه .

وبينما هي قد أنهت كلامها طرق الباب ، فقام رشيد لفتحه فكان حسونة ، فقال بغضب خفيف: ادخل يا لعين .. ها أنت هججت أختك وزوجها .. هربت من أفعالك الدنية!

ـ اخبروني بذلك في المقهى .. مررت أستريح دقائق .. إلى أين هربت الملعونة ؟

- اشترت بيتا ، ورحلت إليه .. ولم يقل لي خالك اللص أين هو ؟

- سأعرفه !

فقالت أم شحام متهكمة: وإذا عرفته ماذا ستفعل ؟.. وهي هنا .. لم تكن تسمح لك بدخول شقتها .. وأكيد أنها ستقف عن دفع المعونة لك .

حرك رأسه بكره وقال : هذا ما كان يخطط له القط المسكين سميح عبد السميع القط الغادر.

أعجب الشيخ بهذا الوصف والقذف .. وامرأة أبيه تضحك من حنقه وتسخر ، فقالت : فعلت عين الصواب .. الباب الذي يأتي منه الريح سده واستريح .

- أي ريح ؟ أخشى أن تكوني أنت التي شجعتيها على الهرب والرحيل ؛ لتأجري الشقة لك ، ولهذا الرجل . وأشار بإصبعه لأبيه

قهقهت لتغيظه : أختك ذكية وابنة سوق .. واعلم أنها تعرض شقتها ؛ لتؤجر شقة مفروشة .

صاح هائجا: تحلم ! لن أسمح لأحد غريب بالحياة معنا ..سأزوج فيها حلميا

وفيما حسونة ينهي كلامه الغاضب ، طرق الباب ودفع فدخل شحام

تتبعه زوجته ، فألقى السلام وقال: ماذا هنا؟! إنكم مجتمعون.

قصت الأم القصة عليه قبل أن يجلس ، فالتفت لحسونة قائلا: سأعود للحياة هنا .. أنا متزوج

وأدفع إيجارا .. أين أمونة الآن؟

- خالها بكر يعرف ذلك

- سأزوره ، وأتحدث معه وأنا منصرف عنكم .. سأمر عليه ـ إن شاء الله ـ .. آ .. ماذا قلت يا حسونة؟

قال بصوت عادي : أمونة يا شحام أختي الشقيقة

- وأنا أخوها .. أبوها أبي.. فليبق ابنك الفاجر عند أخواله أحسن لك أم اشتقت لضربه لك دون حياء وخجل وتهديدك بالقتل .

غادر حسونة البيت فورا لبيته فوجد زوجته تدخل فقال: أين؟

قالت: نزلت أرى ما الذي يجري في الدنيا ؟ .. كنت افتح شباك غرفة النوم ، فسمعت صوتك يلعلع تحت .

صاح فيها : هيا نخرج شحام سوف يستولي على بيت أمونة بعد أن ثبت رحيل أمونة ، ولم تكن في رحلة عسل ولا بصل ولا علاج .

فقالت وهي تتطلع في حماها: ماذا ستفعل معها يا عم رشيد ؟

ضحك رشيد وقال مجيبا: أفعل معها ! ماذا سأفعل معها ؟! هي حرة يا بنتي .. وشحام سيستولي على الدار أحسن من الغريب

فقالت أم شحام: أخشى إن استولينا على الدار أن تقف عن دفع الستين

قال شحام: أنا أدفع ما فيه النصيب .. أنا زهقت من الإيجارات

ابتسمت أمه وقالت : لك سنة ونصف يا ولدي تدفع إيجارات

- الإيجار حتى لو كان بسيطا ؛ فإنه يكسر الظهر يا أم شحام

تابع حسونة صعوده إلى شقته ، وقالت زوجته لهم: مع ألف قلعة .. إن شاء الله لن ترجع البيت

فردت عليها أم شحام: انصرفي يا بنت الشيطان أمونة أحسن منك ألف مرة .

- لأنها تدفع لكم ثمن الشاي والقهوة والسكر والدخان .. أنت تخششين وزوجك يحشش

فقال شحام بصوت عال: ولماذا الغلط يا بنت الناس ؟! الزمي حدودك ، والحقي بزوجك اللعين .

فأخذت تشتمه مما دفعه لأن يغضب ويصفعها كفا على وجهها طرحها أرضا تصيح وتولول ، فرجع حسونة يحمل سكينا ويقول : مجرم .. تضرب امرأة

فقال شحام غضبا: امرأة غير مربية .. لا تحترم عما ولا زوجا ولا امرأة .. وهذه المرة الثانية أراك تحمل سكينة عليّ

- سأقتلك بها

- أنت جبان !

اقترب شحام المنفعل منه وقبل أن يطعن بها قبض شحام على يده وضغط عليها بقوة ، فوقعت السكين على الأرض مع صرخة حادة من حسونة ، وضربه عدة ضربات ولكمات ، وهو يصرخ فيه هائجا ، والنساء تصرخ أيضاً وقال: مع أنك أخي الكبير لو مرة أخرى رفعت عليّ سكينا أو غلطت أنت وامرأتك العاهرة عليّ ، أو على أمي سأمسحكم من الوجود . ورفسه بقدمه

فقال حسونة: سيموت أحدنا .. أرأيت تطاول ابنك على أخيه الكبير؟

فقال رشيد : أنت غلطان يا حسونة تحمل سكينا على أخيك

- العجوز يصطف مع ابنه الصغير ..سأرحل عن الحي أنا أيضاً

فصاح والده غضبا: مع ألف قلعة .. ذرية فاسدة وشريرة .

صعد حسونة وزوجه إلى الشقة بواسطة المارة الذين اجتمعوا وفزعوا على صوت النساء ، وأغلق رشيد الباب على أسرته ، وقال لشحام : أنت غلطت بحق أخيك أيضاً .. هل أحد يهين أخاه الكبير أمام امرأته ؟ .. أنتم أخوة

قال شحام رادا وبصوت مرتفع : اسمع يا أبي إذا أنت تتحمل إهانات ؛ فأنا لا أتحملها .. ولو

منك .. أرجوك أن تكف عن اللوم .. فحسونة أنا من دهر كنت أنوي تربيته من جديد .. لا احترام عنده لأمي المسكينة .. وزوجته أنت أعرف الناس بوقاحتها وفسادها

- يا الهي! ماذا أفعل لكم ؟! أمونة وراء كل المشاكل .. أهلكها الله

قالت زوجه : ابنتك مظلومة .. لا دخل لها في مشاكلنا .. طول عمرها وهي في حالها وبالها .. تخرج للعمل من الصباح حتى الليل .. وأيام العطل تمضيها عند صاحباتها أو عند أخوالها وخالتها أو في بيتها مغلقة الباب على نفسها .. لا أذكر مرة أننا دعوناها للعشاء معنا أو الغداء .. كنا نتجاهل مثل هذا الأمر .. فلماذا اليوم تهتم بها ونتدخل في حياتها ؟!.. دعوها يا عالم تعيش وتفرح وتحس أنها أنثى مثل سائر البشر

لما شرب شايه غادر شحام وزوجه وابنه الصغير البيت ، تاركا والده يبكي ويولول وينتف ما تبقى من شعر رأسه ، فركب سيارته منطلقا إلى بيت خال أمونة السيد بكر ، فاستقبله الرجل مرحباً بهم ، ولما فهم الموضوع قال : حسنا .

اتصل بابنة أخته المتوفاة بواسطة الهاتف ، وحدثها عن رغبة شحام بالعيش في شقتها في "أبو خروف" ، ولا داعي لإدخال غريب آخر في العمارة ، وأخذ التلفون من بكر ، وبارك لها بيتها الجديد ، وذكر لها رغبته بالعودة للحياة مع الأسرة وبقربهم ، وأن بإمكانه الحياة في شقة أمه وأبيه كما كان في أول زواجه ، وبما أن شقتها ستفرغ فالأفضل أن يعيش فيها كمستأجر ، وذكر لها رغبة حسونة بتزويج ابنه الفاسد فيها ، وأنه سيحولها لبيت دعارة ، وبعد أخد ورد قبلت له العيش فيها على أن تبيع عفشها كله ، كغرفة النوم وغرفة الجلوس ، ويتنقل بعضه إلى بيتها الجديد ، وتتخلص من الثلاجة المبرد والغسالة .

فقال : قال انقلي ما تشائين .. لديّ عفشي .. وحدثها عن زعل أبيه عليها ومنها .

فقالت له مهونة من الأمر: لا تهتم .. أبي لو كان يزعل بحق .. لتحدث مع ابنه الحشاش بقوة ؛ بل ظل صامتا "يقول : ماذا أفعل؟ ماذا أفعل ؟ يستطيع أن يفعل الكثير .. أنت أولى بالسكن فيها من ابنه الضال .. فهو محبوس كما أعلم على قضية اعتداء على قاصر ، وطلبت الحديث مع

خالها وشرحت له الموقف ، وأنها ستمر عليه لتعطيه المفاتيح ، وطلبت منه أن يبيع الأثاث أو حتى يتصدق به على من يستحق من الفقراء .

وحصل الرجل على شقة أمونة ، وقبل أن ينصرف بعد قضاء حاجته ، على أمل العودة لأخذ المفاتيح ، فقال له بكر :لا داعي لمجيئك ، عندما أنقل أثاث البنت .. سأترك المفاتيح عند أمك أو أبيك.. فهي تريد بعضه ..وستبيع البعض الآخر .. بس عليك أن تحافظ على الشقة .. وتذكر أنها لأختك .

- أفهم ذلك ، ربما لا أرتاح للحياة معهم ، سأعود للرحيل يا خال .. بارك الله فيك

ولما ابتعدوا عن البيت قالت زوجته: لماذا تريد العودة للحياة بجوارهم

بجوار حسونة؟! وأنت تعرف شر حسونة ، وفضلت ترك بيت والديك عند زواجنا هربا من حسونة وابنه وزوجه

ـ إذا لم أسكن أنا فيها ـ يا ست الحسن ـ سيستولي عليها حسونة ، ويعطيها لابنه الفاسد .. وستصبح دار دعارة وفجور كما فعل بدار جدته .. ابنه لن يتزوج ، ولن يتحمل مسؤولية .. تعود على الفساد .. ليس فقط السكر والعربدة .. فهو يمارس الفجور والزنا مع بغايا البلد وبنات الهوى .. وهذا ليس جديدا .."أبو خروف" كغيره من الأحياء لا يخلو من الفسق .. والإنسان إذا فجر مرة واحدة استهواه الأمر وكرره حتى يفتضح .. فهل يعقل أن نسمح لبيت أبي الغلبان وبيت أمونة العفيفة أن يكون بيت فسق وهوى ؟.. أمه فاسدة ، وهي في نظري سبب فساده وحقده على الناس ، لم تكن شريفة عفيفة .. أمه لا تهتم ولا تكترث .. لقد وقع منها ذلك بعد زواجها ، لم تستمر في هذا الضياع خاصة في البيت .. خاصة لما اعترض أبي أحد الرجال داخلا إليها .. وزعمت يومها أنه قريب .. وكاد حسونة يطلقها .. لولا تدخل أهلها وهم أصدقاؤه قبل الزواج وبعده ..لم تعد تستقبل أحدا في بيتها إلا إذا وجد حسونة فيه .. أما في الخارج .. الله اعلم .. فحسونة كما ذكرت لك سابقا تزوجها عن حب وغرام .. كان يتردد على بيت أهلها مع أحد أخوتها ، فهويها وصار بينهم ما صار .. وشقيقها حشاش مثله ،

ويعمل معه في شركة الحفريات .. ولما عرف أبي القصة زوجه إياها على مضض .. فهي جاءت من بيتها فاسدة .. ونشأ ابنهما على فسادهما وعلى شاكلتهما .. حلمي يزعم بفجوره أنه ينتقم لشرف أمه المهدور .. هكذا قال لي مرة وأنا أنبهه وأنصحه ؛ فإذا عاش هنا في شقة وحده فماذا ستكون العمارة ؟ ستكون مقرا لبنات الليل والهوى كما يفعل في غرفة جدته أم أمه .. ونحن في زمن فساد وإباحية لا مثيل لها في التاريخ .. خاصة المدن الكبيرة وحتى الصغيرة .. دعاة الانحلال والشهوات يكثرون بالمجلات والأفلام المهربة كما يزعمون ؛ فلذلك تكثر بائعات اللذة .. ينتشرن في الأحياء والشوارع

– وأهل الخير يزيدون .

قال باسما : لا أنكر ذلك ؛ لكن أرى أن الفساد يبرز أكثر ويكبر وينتشر بسرعة .. انظري إلى بنات اليوم يلبسن البنطال .. ويلاحقن الموضة يلبسن التنورة القصيرة فوق الركبة والشعر المكشوف والتبرج والسفور يملأ الشوارع .. فقد كثرت صالونات التجميل ، وكثر الإقبال عليها ، وتوسعت محلات بيع الملابس والموديلات الغربية .. فبنات المدارس لم يعدن يغطين رؤوسهنّ إلا من رحم ربي .. فالمشهد لا يبشر بخير .. لم يعد الناس يكترثون لمشي بناتهم متبرجات بالبنطالونات في الشوارع .. أذكر وأنا طفل أن هذا كان نادرا أو كان في بدايته وفي بعض الأحياء الراقية .. كشف الشعر اليوم أمر منتشر ولا أحد ينكره ، لا يغطين رؤوسهنّ .. اليوم البنات يدخلنّ السينما والمسرح ، ويتمشين في الشوارع وفي الليل .. كنا نستهجن ذلك قبل سنوات .. تغير الناس .. تغيرنا .. قلّت الغيرة فينا أو اندمجنا في حضارة الغرب

باع السيد بكر غرفة نوم أمونة التي تركتها في "أبو خروف" ، وأهدى الثلاجة ، والغسالة ، والفرن { فرن الغاز } لبعض المحتاجين ، وترك الستائر لشحام وبعض أدوات الطهي والمطبخ ، وأخذت أمونة التحف والأواني ، والكثير من الكاسات ، والصحون الجميلة ، وسلم بكر المفاتيح لأم شحام ، وانتقل الشاب بأسرته وأطفاله الثلاثة للحياة في شقة أمونة ، وهذا الأمر غاظ حسونة وزوجته غيظا شديدا ، فكانا يتحاشيان اللقاء بهما ، أو حتى رد التحية عليهما ، حتى منزل الوالد منذ تلك الليلة التي تعرض فيها للضرب من شحام لم يدخله ، وإنما يحييه بالإشارة ، وانتقل الجفاء إلى المقهى ؛ فإذا علم حسونة أن شحاما في المقهى أو دخله بعده ، انسحب وغادر المكان إما إلى البيت، وإما إلى مقاهي مركز المدينة بيت السلام ، وكان يفكر في معرفة عنوان أمونة ليذهب إليها يطلب منها العودة للشقة أو طرد شحام منها ، وكان يضيق بصوت الأطفال الذين يلعبون أو يتحدثون أمام باب شقتهم وشقته حيث بسطة الدرج ، فيخرج صائحا في وجوههم : ادخلوا خربتكم يا ملاعين .. أزعجتمونا بصراخكم .. أريد أن أستريح من التعب .. اذهبوا للشارع .. لعنة الله عليكم وعلى أهليكم

كانوا ينظرون إليه باسمين أو ضاحكين ، ولا يكترثون لصياحه ، فهم

يعرفون سبب هذا الحمق والغضب والقهر ، وبعد أن يتعب من السب واللعن يغلق الباب على نفسه وهو يقول لزوجته: أولاد غير مربيين ، وقد يعود للصياح فيهم ثانية زاعما أنه يزعجونه ، وهم بدورهم ينزلون لبيت جدتهم يشكون لها سلاطة لسان عمهم حسونة ، فتقول : لا تهتموا بصياحه وثورته ؛ إنه مقهور .. طمع في أخذ الشقة ليزوج ابنه الذي لا يريد أن يتزوج .. خذوا راحتكم ولا تسألوا فيه .. فهو ملعون

حسونة من تلك الليلة التي تعرض فيها للضرب من أخيه شحام لم ينزل لبيت والده ، ووالده رشيد كذلك لم يصعد لشقته ، ولا لشقة شحام بعد رحيله لشقة أمونة ، وكان يتحاشى الحديث معه مظهرا أنه وقف مع ابنه الأصغر وتحيز له ضده ، واضطر حسونة لإخلاء المقهى

عندما يتواجد فيه شحام .. عادة المقهى مكان سماع الأخبار والشائعات وأحوال الناس وقضاياهم .

رفض خاله بكر إعطاءه عنوان سكن أمونة قائلا : أختك تريد الحياة الهادئة ، وأن تعيش بعيدة عنكم ، وعن مشاكلكم الردية .. وأنت بالذات أبعد عنها ؛ لأنك سبب رحيلها .. جعلت من زوجها المحترم أضحوكة لأهل الحي ، بدل أن تفتخر بأنه ستر على أختك بعد سنين وسنين .. جعلته مسخرة للناس والشارع

- كنت أمزح

- المزح له حدود .. مرة .. مرتان ..كيف حال الزبال أو حضرة الزبال سميح أو الزبال أبي الصحفية ؟ أهذا مزح ؟ وأمام السامعين والناظرين .. ها هو أمير الزبالين ما آخر أخبار الزبالة ؟ أهذا كله مزح ؟ مع زوج أختك المسكينة التي ما صدقت أن ذكّرها رجل بأنها أنثى مثل سائر النساء .. هناك كمية من الزبالة .. إعلان عن طلب زبال .. أهذا كلام يا ابن بني آدم ؟! هذه أخلاق دنيئة يا ابن أختي ..كله علمته من شيوخ المقهى .. هذا لو كان لديه عزوة أو شباب لمسحوا فيك الأرض ؛ لكنه رجل غلبان محترم ابن ناس .. والرجل أقرضك مائة دينار ، ولم تسده منها شيئا .. ولليوم لم تدفعها له ولو بالتقسيط .

- هو أهداني إياها .. لقد نقطه أصحاب الشارع ألف دينار بمناسبة زواجه .. فأعطى أبي منها وأعطاني

- أعطى أباك خمسين وأنت مائة كيف هذا ؟ يعطى الابن أكثر من الأب

- هذا ما حدث

- أنت استلفتها .. طمعت فيه .. تعهدت له بالسداد ..لو أعطاك إياها هبة ما طالبك بها ، ولا عرف بها الخلق .. أين تنفق راتبك ؟! أما زلت تتعاطى الحشيش يا حسونة ؟ ألم تذكر لي أنك تبت منها ؟.. إنك تعمل على جرافة وتكسب الكثير

- لا كثير ، ولا شيء يا خال .. إني أدخن وأشرب كثيرا من القهوة ،

وامرأتي مثلي

- حتى لو دخنت علبتين في اليوم يبقى لديك الكثير

- لا تنسى المشروبات الروحية التي تعلقت بها للأسف .. الوالد رشيد لم يكن ينبهني على خطر هذه الخمور والسجائر ..والمرأة تشرب مثلي

- هذه مشروبات شيطانية تهلك البدن ، لا علاقة لها بالروح .. يا خال .. الله وهبك العقل فضيعته بشرب المسكر والمنكر .. يخطئ الإنسان ؛ لكن مع الوقت يعرف خطأه ويتراجع .. لا يستمر ويصر .. جربت الحشيشة ، لماذا تصبح مدمنا عليها ؟ أنت والد لا تتحجج بأبيك وموت أمك .. رأينا من انحرف ثم عاد وتاب .. رشيد لم يعطك مالا للسكر وتخمر .. أبوك طول عمره معتمدا على أموال أمونة لينفق على بناته وابنه شحام .. فقد ترك الشغل على سيارة الشركة بعد زواج ابنته الكبرى ، واعتمد على أمونة .. وأنت عملت في الشركة على سمعة أبيك .. وابنك يعمل على سمعة جدك الذي عمل معهم عشرين سنة .. وأعطي مكافأة ومع السلامة .. وهو منذ إنهاء خدمته وهو يعتمد على أمونة الطيبة .. تب إلى الله .. ورويدا رويدا تتخلص من شرب المشروب اللعين وحتى من الدخان والعادات السيئة .

- المشروب لا أستطيع تركه .. الحشيش الخلاص منه سهل ، لست مدمنا عليه كما يشاع ، أتعاطاه في المناسبات وفي فترات متباعدة .. أما الخمر

اللعينة فأنا مدمن عليها إلى حد كبير ، كل يوم أشرب منها ، وأجلبها للبيت ؛ لأن المرأة تشرب أيضاً .. تعودنا .. وها هو الولد ورثها عنا ، وزاد عليها الزنا

ضحك بكر للحظات وقال : ولدك مأساة !.. يعتدي على فتيات صغيرات .. هذه الأشياء لا تورث .. التربية سيئة فحسب .. أيشربها والدك ؟

- الآن لا ، ربما شربها أيام العمل في الشركة .. الأغلب يتعاطاها خاصة السواقون .. أبي اليوم يذهب إلى الجامع .

هز بكر رأسه وقال : أبوك كان يشربها فقط في المناسبات خاصة الأعراس .. كان بعضهم

يقدمها للأصدقاء المقربين من العريس ليلة الدخلة .. وينسبون لها بطولات وهمية حول المعاشرة الجنسية .. يضيعون العقل ، والجنس يحتاج لعقل ووعي ، وبعد موت أمك تاب منها نهائيا .. وأنت تب قبل فوات الوقت .. تب إلى الله .. فسمعة ابنك اليوم في الحضيض .. يجالس بنات الهوى

ـ ملعون ومجرم

– قل هداه الله أحسن

كان ابن خال أمونة المهندس محمد يزورها ، وبرفقته طبيب شاب ، فاستقبلهم سميح أمام بوابة العمارة أو قل الطابق الخاص به ، فقد فصل محمد الطابقين عن بعضهما ، فبعد السلام والمصافحة قال محمد: هذا أحمد زميلي طبيب في مستشفى ، يريد أن يرى الشقة كما أخبرتكم على الهاتف

قال سميح: أهلا وسهلا تفضلوا نشرب الشاي أولا

– لا داعي للشاي فزوجته معه

قالت أمونة التي تقف بجانب زوجها : وهي أيضاً اهلا بها .. نتعرف على بعض

قال أحمد باسما : هي تعرفك .. قد خاطت عندك عددا من الثياب قبل أن نتزوج من عهد قريب

انطلقت أمونة نحو السيارة حيث كانت تجلس زوجة الدكتور ، وهي تتابعهم بعينيها ، فلما رأتها الفتاة قادمة إليها فارقت الكرسي ، ونزلت تسلم على أمونة، ولما صافحتها قالت : أهلا مدام أمونة أشهر خياطة في شارع الخياطين .. أنا أعرفك هل تذكرتيني؟

– يا سلام! نعم ، إني أذكرك ، كنت تأتين مع أمك السيدة لطيفة نونات

ابتسمت المرأة وقالت: أجل أنا سهام محسن وأمي لطيفة نونات

– تفضلي أهلا وسهلا .. نشرب الشاي أو القهوة .. لقد تزوجت آخر الزمن ـ وأشارت لسميح ـ وهذا زوجي .. والله أكرمنا بشراء هذا البيت الرائع .. ويسرني مجاورتك

- أتركت المشغل ؟

- مازال المشغل مفتوحا ، أديره عن بعد

ومشيتا نحو الرجال ، ثم دخلوا البيت .. وأمونة وزوجها يرحبون بهم ، ولما جلس الضيوف قالت أمونة : المهندس محمد ابن خالي .. وأنت تزوجت منذ عهد قريب

- من شهور يا مدام أمونة .. كنت في مراجعة في المستشفى .. والتقيت بالدكتور أحمد ثم حصل النصيب

قامت أمونة وأعدت لهم الشاي ، ولما جاءت به ، قالت باسمة: لولا أننا فقط اثنان لاستأجرت خادمة .. البيت واسع .. أهلا وسهلا .

وسكبت لهم أكواب الشاي حسب أذواقهم .. سكر كثير وسكر قليل ، وبعد حديث ترحيب وذكريات ، قال أحمد: أنا عرفت محمدا المهندس من أيام الجامعة أثناء الجمعيات المشتركة للطلاب ، وامتدت الصداقة إلى ما بعد الجامعة ، ثم تعرفت على زوجتي من خلال العمل ، والآن أنا أسكن مع والدي ، وكنت أبحث عن شقة لترك منزل أبي لغيري من الأخوة .. وزوجتي موظفة في وزارة الخارجية ، لقد تخرجت من كلية العلوم السياسية .. فوالدها متقاعد من السلك الدبلوماسي

قال سميح: شرفتم بيتنا ، وحياكم الله

قالت سهام: بارك الله لك في بيتك وزوجتك الكريمة .. وأنا وأمي كنا نتردد على متجر أمونة قبل دخولي الجامعة ، وأحيانا أثناء الجامعة .. فالسيدة معروفة على مستوى المدينة كلها حسب علمي ومهارتها في التفصيل والتطريز معروفة

قال أحمد وقد عاد الحديث إليه : صاحبي المهندس محمد علم برغبتي بترك بيت أبي لإفساح المجال لأخ آخر بالزواج فذكركم لنا

قال سميح : تسرنا صحبتكم وجيرتكم إذا قدر الله ذلك

فقال المهندس وهو ينهض : هيا ننظر الشقة

تحرك الجميع خلف المهندس ، وخرجوا للشارع العام ، ثم دخلوا من بوابة الشقة الثانية ، وصعدوا درجا إلى بابها الرئيسي، وشرح لهم المهندس محمد التغيرات التي حدثت لفصل الطابق الثاني عن الأول ، فتح سميح باب الشقة ، وبدأ التجوال في غرفها ومطبخها وحماماتها ، كانت واسعة ، ولكنها بناء قديم ، وبين لهم المهندس أن صاحبها المهاجر كان يتابع التحديث في العمران فبدل أنابيب التيار الكهربائي بشبكة حديثة ، وكذلك مواسير المياه ، وبدلت شبابيك الحديد بنوافذ الألمنيوم ، وأدخلت عليها التدفئة المركزية

قالت سهام : رائع وجود التدفئة يا أحمد خاصة شهر يناير وفبراير !

قال المهندس: صاحبها كان يتابع الحداثة الإنشائية ؛ ولكنه هاجر إلى أمريكا ، وعرضها للبيع حتى جاءت من نصيب سميح وأمونة

وتابعوا تجوالهم ، قالت سهام : واسعة يا أحمد تحتاج لعفش كثير .. والحي راق .. وكان له عز قبل عقد من الزمن

قال أحمد: رغم ظهور أحياء راقية جديدة .. ما زال هذا الحي يحتفظ برونقه ومجده

قال المهندس: صدقت.

ولما غادروا الشقة قال أحمد : كم سيكون إيجار هذا القصر الصغير يا ترى؟

قالت أمونة: بما أن السيدة كانت زبونة قديمة ومعرفة كما يقال يكفي أربعون دينارا يا مهندس محمد .. نحن كنا كلفنا المهندس لتأجيرها بخمسين

قال أحمد بدهشة : مبلغ زهيد بحجمها يا سيدة أمونة!.. سنفكر بالأمر .. لا يعيب هذا البيت بالنسبة لنا إلا كبره وسعته .. يا مهندس محمد البيت يحتاج إلى أثاث كثير لملء حجراته .. أمهلونا مهلة قصيرة للتفكير

عصر اليوم التالي أقبلت سهام وشقيقتها رهام لمشاهدة الشقة مرة أخرى ، وشرحت سهام لأمونة قائلة : بعد مغادرتنا أمس تشاورت وأحمد حول سعة الشقة ، والحاجة لأثاث يملأها ، ونحن زوجان وحيدان دون أطفال بعد يا سيدة أمونة .. فاتصلت بشقيقتي رهام وهي مثلي

تعمل سكرتيرة في وزارة الخارجية ، وزوجها ضابط أمن ولديهم عدد من الأولاد ، فاقترحت عليها أن ترحل إليها .. وأنا أستأجر مكانها .. فشقتها أصغر لزوجين فقط

فتبسمت أمونة قائلة : أهلا وسهلا .. كلتاكما واحد .

ولما شربن العصير أخذتهنّ أمونة للشقة من جديد ، وبعد معاينتها وإغلاقها ، وقفن أمام بوابتها الخارجية على رصيف الشارع ، قالت السيدة رهام: فعلا واسعة .. فيها زيادة غرفة عن شقتنا التي نعيش فيها، ومطبخها واسع وجديد

قالت أمونة: نعم ، لم يكن فيها مطبخ ، ولما فصلت عن الطابق الأرضي حولت حجرة لمطبخ على ذوق المهندس محمد .

ـ وزوجي كما تعلمين يا سهام يبحث عن شقة أوسع من التي نعيش فيها وهو لا يرغب بالاستقرار هنا بعد تقاعده القريب .. وهو يرغب بإنشاء وبناء بيت في قريته بعد إنهاء الخدمة .. وأقول أجرتها رخيصة .. نحن ندفع ستين كل شهر

امونة : نحن يسرنا التعرف عليكم . وذكرت طرفا من قصة حياتها

ـ أنا حدثتني سهام عنك ؛ كأن ابن خالك ذكر لأحمد بعضا من ظروفك .. وأنا سعيدة بالتعرف على أناس طيبين مثلك .. وأمي تذكرتك ، ولولا الأسقام والكبر الذي ألم بها لاستمرت بالتفصيل عندك .. واليوم الملابس الجاهزة بدأت تكثر

قالت أمونة : الوالدة أنا أعرفها حق المعرفة ، وكانت سخية معي في الفلوس .. ربما أقوم بزيارة لها .. وشرف لنا مجاورتك يا أم علي

– لا يوجد تلفون في الشقة

– هذه الشقة ـ وأشارت بيده نحو بيتها ـ كانت جزء من السفلى ، فالتلفون بقي فيها

– تركيب التلفون بالنسبة لنا مهمة سهلة لطبيعة عملنا الحساس ، ولرتبة زوجي الشرطية .. من حيث المبدأ يا سهام مقبولة ..خاصة أنها في هذا الحي الجميل الوديع ، حتى أن الوالد استغرب من رخص الإيجار في مثل هذا الحي

- نحن وهبنا الله هذا البيت بمبلغ بسيط .. مع الصيانة والفصل دفعت عشرين ألف

- طرح الله فيه البركة ، ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله

- شكرًا

- الكلام الفصل يا أخت أمونة عندما يراها نيازي زوجي

قالت سهام: أنا كنت أعلم رغبة أختي بشقة واسعة ؛ لذلك آثرتها على نفسي ؛ فإذا لم يقبل نيازي الحياة فيها يا سيدة أمونة ، ستكون من نصيبي .. وأنت إنسانة طيبة وقنوعة

قالت : مرحباً بكن ..وما دام ابن خالي المهندس محمد صديق الدكتور أحمد فنحن أصدقاء وأهل ، حتى لو لم تستأجروا البيت .. فأنا قضيت عمري بدون زواج .. نسيت أني امرأة حتى طلبني هذا الرجل بعد ترمله ، وليس عنده إلا ابنة واحدة تعمل في الصحافة ومتزوجة .. ولي شقة عند أبي عشت فيها ما يقارب السنة كزوجة .. وكانت مشاكل يثيرها شقيقي لزوجي .. فقررنا الرحيل والابتعاد .. واشترينا هذه الدار عن طريق المكتب العقاري .. وتبين أن صاحبه هاجر إلى أمريكا ويريد التخلص منه .. فكان من نصيبنا . . وثمنه بسيط في نظري وللمكان أيضاً .. وفصل المهندس محمد الطابقين عن بعضهما .. فلسنا بحاجة للطابق الثاني

قالت سهام: أيام معدودة ونحسم الأمر يا مدام أمونة .. اسمك اسم جميل !

قالت رهام باسمة : مأخوذ من الأمن والله أعلم .. أتركت العمل بعد الزواج؟

قالت أمونة وهن يمشين إلى سيارة رهام : لي شريكة في العمل ، وهي تدير المصلحة ، وأنا تفرغت لزوجي ، وما زلت أتابع العمل والإدارة عن بعد وعلى التلفون .. وأنا لي معارف في وزارة الخارجية .. لقد كنا نعمل لهم أعلاما ورايات للاحتفالات والمراسم .. أعلام الدول الزائرة . وذكرت أسماء تعاملت معها

فقالت رهام: نعم ، أبو سعد تقاعد من الوزارة .. كان له علاقة في الاستقبال والزينة والتعاون مع البلديات في ذلك .. وأبو ناصف توفاه الله .

- كنا نخيط تلك الرايات أو نشارك في خياطتها ، أو توفير القماش لها

قالت رهام وهي تفتح باب السيارة لتجلس عند مقعد القيادة: تشرفنا بالتعرف عليك يا مدام أمونة .. ويسرني هذا التعرف .. أنا لو أتحدث مع قسم المراسم والزينة لوجدتهم يعرفونك حق المعرفة .. وعادة هذه تتم بالتنسيق بين الوزارة والبلديات .

وصافحت يد أمونة الصغيرة ، ثم تصافحت مع سهام التي استدارت لتركب بجوار رهام قائلة: شكرًا يا أخت أمونة .. نلتقي قريبا سلمي على الأخ سميح أبي سعاد زوجك المحترم

وركبت وانطلقت السيارة تتابعها أمونة بنظرها حتى اختفت عن عينيها ، فتنهدت بعمق وقالت متمنية: آه! لو سميح يحسن القيادة لاشتريت لنا سيارة مثل هذه صغيرة وجميلة

وتنهدت ثانية وقالت: ولكن أين سنذهب بالسيارة ؟! فمعارفنا قلة .. معارف الزيارات ، وليس معارف العمل . واستدارت جهة بوابة شقتها لتر سميحا يقف أمام البيت باسما ، فلما اقتربت منه قال : سيارة جميلة مثل اللعبة!

ضحكت له وقالت: ما رأيك أن تتعلم السواقة ؟

- وهل أستطيع ذلك بعد هذا العمر؟

- جرب .. نشتري سيارة نتجول بها في شوارع العاصمة

- شيء مضحك ! هل يمكن أن أسوق سيارة بعدما كنت أسوق عربة البلدية؟!

- أنا قلت حاول جرب ، لن نخسر شيئا

- لماذا لا تجربي أنت ؟..ها هن نساء يسقن السيارة

- إنها سكرتيرة في وزارة الخارجية مثل أختها .وذكرت قصة زيارتها

قال : هي فعلا كبيرة وواسعة على نفرين .. نحن نعيش في محيط .. فلدينا ثلاث غرف معطلة

- هل تسرعنا في شرائه ؟!

- لا ، لم نتسرع هي فرصة كما يقال .. والمبلغ زهيد في بيت من طابقين ، وفي هذا الحي القديم ، حي الأغنياء ورجال الأعمال ، ربما لم يبع خلال هذه السنوات الثلاث ؛ لأن الأغنياء يتطلعون إلى الأحياء الحديثة والبناء الحديث .. وأهل الأحياء الشعبية يألفون أحيائهم ، ولا يحبون

هجرها كما في حي "أبو خروف" وغيره

ولما جلسا في غرفة المعيشة قالت: فكر يا سميح بجد في تعلم قيادة السيارات .. علينا أن نتمتع بدنيانا وبمتع الدنيا

- صدقي سأفعل .. لي ابن عم يعمل في تدريب السواقين على قيادة المركبات .. سأتحدث معه وآخذ رأيه ؛ فإذا شجعني سأتعلم من أجل سعادتنا

- آه ! كم أنت رائع يا حبيبي ! عليك أن تأخذ الموضوع بجد ، ليس مسايرة ومجاملة



ذات مساء زلف رشيد مقهى "أبو خروف" ، المعروف للقراء ومصدر الحكايات والخراريف ، فلما جلس مع من يحب من زبائن المقهى من أهالي الحي ، قال له أحدهم : المعلم مهران يشير إليك إنه يريدك.

فالتفت اتجاه المعلم ، فوجده يحرك سبابته نحوه ، فتحامل على نفسه ، ونهض ماشيا إلى مصطبة المقهى أو دكة المقهى ، هي مكان مرتفع عن بلاط المقهى بنصف متر ، عليها مائدة كبيرة كمكتب ، ولما سلم وجلس رشيد قال: آ ، يا معلم كيف حالك؟

ـ بخير ونعمة من الله سبحانه .. نسيبك القديم بكر ترك هذا الظرف قبل الظهر "ويقول : هذا راتبك من ابنتك أمونة .. أين رحلت يا أبا حسونة ؟

تناول رشيد المغلف بضيق ، وعد الفلوس ، فوجدها كاملة وزيادة عشرة دنانير ، فوضعها في جيبه وقال: لا أدري،لا أحد يعرف أين تسكن إلا خالها بكر ؟ لا تريد رؤيتنا يا خسارة التربية !

تبسم مهران وقال: يا خسارة التربية ! أمونة بركة العائلة يا شيخ رشيد .. هي التي ساتراك .. نحن نعرف أحوال بعضنا البعض .. أنا حدثني الأخ سلمان بالمشاكل التي دارت بينكم وخيرا فعلت .. زوجها إنسان هادئ مسالم ، لا يحب المشاكل والمشاجرات .. أنا شخصيا كنت أتضايق من سخرية حسونة منه ؛ فكأنه لا يعمل في هذه المهنة إلا سميح .. وحتى هو قد تقاعد بعدما تزوج ابنتك وستر عليها .. فأحمد الله أنها ما زالت تحسن إليك.. وها هي تبعث لك الراتب ، وأسكنت شحاما شقتها دون مقابل

- لا ، بالإيجار

ضحك مهران وقال : "قال بكر : إنها لا تريد شيئا " إنما طالبته بالمحافظة على الأبواب والنوافذ .. فأحمد الله على إحسانها ورعايتها لك

- إني أبوها

- حق ، ولك حسونة وشحام

- فقراء يا معلم

عاود الابتسام : كلنا فقراء إلى الله .. قصدي لولا مساعدتها لك دون الأولاد لمددت يدك للناس .. فحسونة لا يكفيه دخله على هواه وشربه .. أما شحام فهو خير منه ومحترم ؛ لكني لم أسمع أنه يساعدك بدرهم واحد .. ادع الله تعالى أن يوسع عليها لتوسع عليك .. فهي ابنة صالحة .. وسوف تعود لزيارتك بعد حين كما قال بكر .. مع أنكم لم تكونوا تتعاملون معها إلا مضطرين ؛ كأنها لم تعش بينكم يا عم رشيد .. ولم تكونوا تهتمون بها .. الناس لها عيون

- ماذا نفعل؟ كانت تخرج من الصباح حتى الليل

- كانت تمرض ، ويأتي أخوالها وبناتهم لعيادتها والبقاء معها

- وهل أستطيع أنا يا معلم أن أخدمها ؟ والأولاد في الشغل

- ونساؤهم في الشغل وأم شحام .. الله يستر عليها .. كنتم مقصرين طول عمركم معها .. خالها يقول : إنها اليوم تسكن في قصر بفضل الله ، ولا ينقصها إلا أن يهبها الله المولود ؛ لتكمل سعادتها مع أبي سعاد

تنهد رشيد وقال: الله يوفقها .. رغم ما يخرج من فمي من سخط وألفاظ لا يمكن أنسى فضلها عليّ وعلى الأولاد يا أبا عبد الكريم .. الأولاد خيبوا أملي فيهم ، والحياة صعبة ..شحام ـ كما تعلم ـ كان يسكن بالإيجار ولديه ثلاثة أطفال ، أما حسونة فأخباره لا تسر عدو ولا صديق .. حشاش سكير مدخن علاج .. وامرأته مثله ، وطلع ابنه أفجر منه يطارد القاصرات بدل أن يتزوج ويلم نفسه في بيت مثل الناس .. وها هو مرمي في السجن

- هذا منحرف للغاية .. كذا مرة طردته من المقهى .. لا سوالف له إلا عن الزنا ، وأماكن الزنا .. عامل نفسه خبير نساء وبنات ليل .. وكان له شلة فجرة مثله .. ثم رحل للحياة عند أخواله بعد تطاوله على أبيه عدة مرات ، ما بين شتم ولطم ؛ ولكن علمت أن سجنه ثلاثة أشهر أو أربعة فقط

- صحيح لأنها محاولة اعتداء ، لم يمس البنت .. محاولة هتك عرض .. والمشكلة أنه سيعود للحياة معنا ..فأخواله ملوا منه .. حتى لو طلقت أختهم لا يريدونه .. فضحهم يا رجل .. ولا أدري كيف ستسير حياته هنا ؟ فشحام لا يحتمل وسخه

قال المعلم في حيرة : هذا الصنف من البشر ، السجن أولى له .. فهذه ليست أول مرة يسجن فيها

- طبعا ، قضى مرة سنة ونصف في سجن صحراوي بتهم مخدرات ترويج وبيع وتوزيع ، وبدل أن يردعه السجن عاد للعربدة أكثر

- ليس أمامكم إلا أن تدعو الله له بالهداية والتوبة .. حاولوا تزويجه ، قد يترك الفاحشة إذا تزوج

- أمونة عرضت عليه ذلك .. ما عليه إلا أن يتزوج .. فقال لها : لا أستطيع تحمل رعاية امرأة وأطفال .. يا رجل مرة سافر لقبرص للدعارة والفجور

- سمعت بهذا السفر الذي أنفق عليه ألف دينار .. من أجل ذلك على الشاب عندما يقصد الزواج أن يحسن اختيار الأم أم الذرية ، وأن يظفر بذات الدين والخلق الحسن

- للأسف ، الشباب يبحثون عن الأجمل .. ولو كانت بنت إبليس .. ولما يكون الزوج شيطانا يا مهران كيف سيبحث عن ذات الدين ؟ إنه يبحث عن شيطانة مثله

- معك حق .. على كل حال ادع له بالهداية من قلبك .. وادع لابنتك

كانت سعاد وزوجها ياسر يترددون بشكل دائم ، وأغلب الأسابيع على بيت والدها، وكان ذلك أيضاً من أيام "أبو خروف" ، وكانت أمونة تحرص على دعوتهم للغداء معهم ظهر يوم الجمعة ؛ لأنه يوم مبارك ويوم العطلة الرسمية على مستوى القطر كغالب الدول العربية ، كانت سعاد في زيارة لهم بعد هذه الأحداث التي مر ذكرها ، فقالت مداعبة والدها : كيف حال السائق الصاعد العم سميح ؟

غمرهم الابتسام ، وكان أصغر أبنائها المولود حديثاً يجلس في حجر جده ، فأراح الجد

جلسته وقال: السيدة الفاضلة مصرة على أن أصير سائقا ، وكما يقول ابن عمي المدرب إنني أتقدم ببطء ، واحتاج إلى وقت أزود من غيري حتى يذهب الخوف عني ، ويرى أنني بحاجة لنظارة .. وفعلا ذهبت لطبيب العيون ، وفحص قوة البصر ، ووجد أنني بحاجة لنظارة .. وذهبت لمحل صناعة النظارات ، وفحصني ثانية وفصل لي نظارة

قال ياسر: المهم يا عمي أن تتوفر لديك الرغبة بأن تكون سائقا ، ولما تصبح سائقا سترى أن الأمر بسيط وهين

وبعد صمت دام دقيقة أو أكثر قالت سعاد : كيف أنتم وجيرانكم؟

قالت أمونة: نعم الجيران .. دبت الحياة في الفيلا .. حافلة الطلاب صباحا ظهرا .. حفلات خاصة ؛ لكننا نعتذر لهم .. السيدة رهام موظفة خارجية كما قلت لكم سابقا .. وزوجها ضابط كبير في البوليس

قال ياسر : الأحسن الابتعاد عن خصوصياتهم .. المهم أن لا تنزعجوا بحفلاتهم

قال سميح : ناس محترمون ، بل يرسلون الحلوى وبعض الطعام مع الخادمة ، ونستحي أن نرده ومرة كلمت أمونة السيدة ترجوها عدم فعلها ذلك " فقالت : نحن في العادة نحضر كميات زيادة ، وأغلب الفاضل أرسله لدار أمي وخالتي ولا حرج " فسكتنا

أكدت أمونة فقالت : تحدثت مع رهام في ذلك ورجوتها ألا تفعل ..فقالت :لا يمكن ، يكفي أن نقبل عذركم بعدم الحضور معنا بأجسامكم ، وقالت : هذه الحفلات ضرورية للعمل والأصدقاء ، فاضطررت أن أغض الطرف .. ومقامهم هنا لن يطول كثيرا .. فالرجل على وشك التقاعد ، وقد شيد بيتا في قريته أو يشيده

فقال ياسر: وفقهم المولى سبحانه هل اتصلت بأبيك يا أمونة ؟

تنهدت أمونة وقالت: منذ رحلت من "أبو خروف" لم أره ، ولم أسمع أنه يسعى لرؤيتي .. أبي يهمه ما أدفع له .. وأنا عنده من النادر أن يدخل شقتي .. لم أره بالعين ؛ ولكني تحدثت معه من قريب .. وقد صوب رحيلنا ، واعتبره تصرفا صحيحا ، وبعدا عن الشر .. وهو قلق من

عودة ابن حسونة حفيده حلمي .. فهو سيعود للعيش معهم بعد انتهاء فترة سجنه .. ويخشى من مشاكله مع أبيه ومع عمه شحام الذي لا يحب العوج ، خاصة إذا جلب فتاة للبيت .. فهو يعرف فتيات العهر .. فهو لا دين يهمه ، ولا ذمة عنده ..صدقوا السجن أفضل لحضرته

قال ياسر: ماذا تفعل له الحكومة عندما تنقضي المدة المحكوم عليها ؟لماذا لا يتزوج مثل خلق الله ؟

قالت أمونة : اللعين سمعته أكثر من مرة كلما يحدثونه عن الزواج ، "يقول : ما دامت هناك فتيات ونساء لا يسألن عن شرف ولا كرامة ، ويبعن أجسادهنّ بدراهم يسيرة فلماذا أتزوج ؟! ولماذا يتزوج الناس؟! وينفق الزوج على بيت وامرأة

قالت سعاد: فلسفة الانحلالية .. ها هي أمراض الانحلال تفتك بهم فينتشر بينهم الزهري والسفلس وأمراض الجنس والإباحية والإجهاض .. فيكلف علاجهم أكثر مما أنفقوا على البغاء .. وإذا أصيبوا بالداء لا يجدون من يقبل بهم إلا المصابون مثلهم .. شعارهم ميت ميت .. فهذا ما يجنيه الزناة والشواذ واللواطيون .. للأسف المدنية فتحت الباب مشرعا للأفلام المثيرة الغرائز باسم الفن والأدب والعلم .. فنحن في فترة تسمى زمن الإباحية الجنسية .. والشباب هم ضحاياها وابن حسونة أحدهم .. نحن في الجريدة نسمع عن قضايا فاحشة غريبة ؛ ولكن لا ننشر منها إلا القليل أو الجزء اليسير للتوثيق ؛ لأن بعض القراء يهتمون بمثل هذه الأخبار فرئيس التحرير يجب إرضاء جميع الأذواق .. بعض المحررين لهم علاقات جيدة مع الشرطة .. فيطلعون على الكثير من هذه القضايا .. وبعضهم يعرفها عن طريق القضاء

قال ياسر : تظهر في البلد هذه الأيام المجلات الخليعة .. عري وفجور .. يزعمون أنها تدخل بالتهريب عن طريق الطيران والمطارات

قالت سعاد متممة للفكرة : يدخل بها الأجانب في حقائبهم السياحية .. وهذه لا تخضع للمنع .. وموظفون الجمارك والرقابة لا يستطيعون منعهم ، فهي أمور شخصية ، وليست من الممنوعات كالمخدرات ، وبعض العاملين على خطوط الطيران تكون معهم على سبيل التسلية

قال سميح بامتعاض: الأمر محزن ..كنت أيام عملي أجد منها الكثير ممزقة ناقصة ، حتى أن بعض العاملين معنا يأخذونها لبيعها للمراهقين والشباب الفاسد مقابل بضع قروش.. كنت ألاحظ ذلك ؛ فهم يعتبرونها كنوز سليمان الحكيم .. الله يهدي الشباب .. ومع هذا نجد الكثير من الشباب في المساجد .. الشباب المحب للإسلام

قال ياسر: أكيد الخير لا ينقطع ولا ينتهي.. إنها الدنيا دار الابتلاء والتمحيص .. إنها المحزن ضياع الشباب وراء الشهوات والمخدرات والحشيش والمسكرات والحانات .. طاقات تهدر في سبيل إبليس .. هذه خامات كان يجب أن تعمل على بناء الوطن والأمة ؛ لكن الاستعمار خرج وترك ذيوله وأدواته وفساده وأعوانه.



حسونة من ليلة ضربه من قبل أخيه الأصغر وهو يتحاشى الحديث مع أبيه ودخول شقته زاعما أن أباه اصطف ووقف مع ابن الجديدة أم شحام ، ولما فشل بالحصول على عنوان أمونة عن طريق خاله ، طرق الباب على بيت والده ، ففتحت له امرأة أبيه ، ولما حدقت به قالت ساخرة : يا هاجرنا .. آ، ماذا تريد؟

قال بحدة متكلفة : أين زوجك؟

- زوجي أم أبوك ؟

وقبل أن تسمع ردا ظهر رشيد خلفها قائلا: تفضل يا عاق

قال : عاق بار هذا لا يهمني.. أريد أن أسأل عن عنوان أمونة .. سمعت أنها تتصل بك .

قالت: تتصل بنا .. أجل ، لا نعرف عنوانها يا جدع

فصاح بغيظ: أنا أتحدث مع هذا الرجل أرجوك لا تردي

فصاحت :أبعد عن الباب .. هذا بابي

ودفعته ، وأغلقت الباب ، ففتحه وقال : عيب يا امرأة عيب!.. لما يتكلم الرجال النساء تصمت

- أوه! أنت صرت راجلا !.. الله أكبر .. يسعدني الرجالة الذين أنت منهم يا سيد الرجالة

قال رشيد: صدق يا ولد لم تذكر أختك عنوانها ..ولو عرفته ما أعلمتك به .. وأنت سبب رحيلها عنا ؛ لعلك تنسى بسرعة

- خرف العجوز .. هي تقصد الرحيل ، وكانت تنتظر حجة

- ولماذا نترك لها هذه الحجة يا سيد فهمان ؟ البيت الجديد ـ يا سيد فهمان ـ كتبته باسم زوجها أبي سعاد .. أرأيت حماقتك؟

- ألم أذكر لك كذا مرة أنها مؤامرة ؟ لقد رتبوا الأمر

ضحكت سليمة وقالت: مؤامرة ! أنت تتكلم سياسة ..مؤامرة على من يا جدع؟ الفلوس

فلوسها ..أتريد أن تتركها لك ؟ لتسكر فيها أنت وامرأتك .. اغرب عن الباب .. أبوك لا يعرف العنوان .. العنوان عند خالك بكر .

فرد عليها قائلا ناقما : ترجيته قبل أن أتحدث مع هذا الرجل ، الرجل الذي لا يستطيع لجم لسانك ؛ ولكنه رفض .. أعطاني دروسا في الأخلاق ؛ كأنني تلميذ في مدرسة .. ما زال يظن نفسه مدرسا لم يتقاعد .. بهدلني

صاحت: تستحق ذلك وأكثر .. كان عليك أن تكون سندا لشقيقتك في هذه الدنيا ..امش يا عاق

ظهر شحام خلف حسونة فقال بصوت هادر: ماذا يفعل هذا العاق أمام الباب؟ أجاء يتسول بعض المال؟

استدار إليه حسونة ورمقه شزرا ، وصعد الدرج لبيته دون رد ، ودخل شحام وأغلق الباب وراءه ، وقال وهو يجلس على كرسي في صالة الشقة : ماذا يريد جارنا ؟

قالت أمه : يبحث عن عنوان سكن أمونة

- يسعى إليها .. أصابه ندم أم يريد إعادة المائة لسميح بعد أن نصب عليه .. نصب على الرجل الطيب بعد أن بهدله في الحي .. لو كنت هنا ما طقت ذلك لحظه .. إنني كنت بعيدا عنه .. لما كانت أمونة تعيش معنا .. كنا نراها صندوق مال .. قصرنا في العطف عليها .. جهلنا أنها أنثى كسائر البشر .. تعودنا على إهمالها .. ما اجهل الإنسان! .. نعم ، لم نهتم بإنسانيتها وحياتها والحديث معها وسماع مشاكلها والسعي لتزويجها .. نسينا هذا ؛ كأنها ليست امرأة .. نسينا هذه الجوانب .. أخوالها كانوا خيرا منا ، ونحن الأقرب إليها.. خالها بكر قال سعيت لتزويجها أكثر من مرة ؛ ولكنه لم يوفق .. نحن ـ كما فهمت مؤخرا ـ كان أبي يطفش من يفكر فيها .. ولما جاءت بالرجل عرفنا أنها إنسانة مثلنا .. وأن الله لا ينسى أحدا مثلما نسينا .. وإنما همنا مالها .. وليس سعادتها .. جرة مال فقط ..لا نهتم بالمشاعر

قال رشيد ممتعضا مما سمع : وماذا يفيد الكلام اليوم ؟! ربنا أرحم بها منا .. ويسر لها الخير

بهذا الرجل المسكين الذي لم نحسن جيرتنا له

- لو تزوجت قبل سنوات يا أبي ، ربما كانت فرص الولادة والأمومة أكثر يا أبي .. أنا كنت بعيدا عنكم ، لم أكن أراه كثيرا ؛ لكن السيد حسونة الباب بالباب ، وكان يسخر منه ، ويحرج مشاعره أمام الناس دون حياء .. والرجل من عشاق الصمت

فقالت أمه مشفقة: ماذا سيقول المسكين ؟! وقد اتهمناه بأنه تزوجها على طمع ، ولم نفهم أن زواجه منها حاجة إنسانية وشرعية ، وأن الرجل ليس بحاجة لمال أمونة .. وهو فرد واحد ومحترم ، ويصرف القليل على نفسه ؛ لكنه بحاجة لونيس في الليل .. في أيام العطل .. حكمنا عليه أنه طامع في ثروتها ، وليس لإسعادها وإسعاد نفسه .. فكان هذا الكلام يؤثر فيه .. وأنت مقصر معها الآن يا شحام أسكنتك الشقة دون مقابل ، مع أن أباك يزعم أمام الناس أنك تدفع إيجارا .. ومع ذلك لم تقدم لها الشكر ولو بالهاتف .. كان عليك فعل ذلك

- معك حق يا أمي .. لقد تعودنا على التعامل معها بهذا البرود .. فعلا أنا مخطئ .. قال لي بكر مرة بعد سكني هنا إذا أحببت دفع أجرة رمزية يا شحام فادفعها لأمك أو أبيك .. فأمونة لا تريد سوى المحافظة على الشقة .. ولما رأيت أني ادفع لأمي عشرة دنانير كل شهر أو كل شهرين فنسيت ، وشكرتها في قلبي .. سأذهب لبكر ،وأطلب منه أن أتكلم معها ، ويسمح لي بزيارتها ..فهي أختي ، وإن لم تكن من أمي

- إنها تتصل بالوالد

- أمعكم رقمها؟

- لم نطلبه

- يا الهي!



لم يتردد السيد بكر بإعطاء رقم هاتف أمونة لأخيها شحام ، ، وشجعه على الاتصال بها ، والسعي إلى زيارتها ، وهي لا مانع لديها من زيارتهم لها ، فشكره شحام معترفا بتبصيرهم اتجاهها ، وتغافلهم عن مشاعرها وعواطفها الإنسانية، وحاجاتها كامرأة ؛ لتعيش في بيت وزوج وأسرة ، وقال : كنا في البيت للأسف كأعداء وخصوم ، مع أن أبي ـ كما تعلم ـ تزوج أمي بعد وفاة أمهم ، ما كن ضرائر .. وتصرفنا كأعداء لماذا ؟! لست أدري .. لما تزوج أبي أمي كانت أمونة صبية دون الخامسة عشرة سنة .. وأذكر ـ كما سمعنا ـ لما كبرنا أنها تركت المدرسة في المرحلة المتوسطة ، وبدأت تتعلم الخياطة في بيوت خياطات "أبو خروف" ، وبرعت في تعلم المهنة ، واشترت ماكينة خياطة ، وعملت في البيت حيث يسكن أبي اليوم ، ولما كبرت سنا ، ولم يتزوجها أحد انتقلت للعمل في مشاغل المدينة ، ثم تملكت مشغلا وحدها ، وفتح الله عليها .. فنحن لما شببنا وجدنا أمونة سيدة وعاملة مشغل نشيطة .. تساعد في مصروف البيت .. وتساعد الأب ، كانت كبيرة بالنسبة لنا .. من جيل أمنا ، ربما تكبرها أمي ببضع سنوات .. وكان بينها وبين أمنا جفاء ، ربما ترك أثره علينا وفينا ، وطبيعة عملها لم تسمح لنا بفهمها والحديث معها ..والحق أنها لم تقصر معنا ، منذ وعيت وأنا أراها تساعد أبي .. مع أنه كان على رأس عمله ، وكذلك عند بلوغي سن الرشد كان يعمل .. وكان حسونة قد تزوج قبل البناء لنفسه ، عاش في الشقة المؤجرة اليوم

قال بكر: نعم ، تزوج فيها ، ثم بنت أمونة لنفسها ، وساعدت حسونة في بناء شقته

– كانت تكرمنا ، ولم نكن نحس أن هذا من باب التكافل والإكرام ، كنا صغارا ، نراه واجبا عليها نحو الأسرة .. فساهمت في مصروف مدارسنا أنا وأخواتي الثلاث في ملابس المناسبات كالأعياد وفتوح المدارس ، وتعطي أبي في مصروف البيت ، ولما كبرنا كانت مستقلة في بيتها ، ولم تكن بيننا ألفة ومحبة ظاهرة ؛ بل ـ مع الاحترام الكامل لشخصكم ـ كنا نحس ونرى أنها تميل إليكم أكثر منا .. نحن أخوتها .. ربما لسوء معاملة أمنا لها ، رغم ضعف التقائهما ، ربما كان ذلك قبل أن تخرج أمونة للعمل خارج البيت ؛ لكن اليوم بدأنا نفهم العواطف أكثر من

الأول ، وأن الإنسان مهما كبر يحتاج لمن يتعاطف معه .. اليوم عرفت السبب سبب ميلها لكم أكثر منا ، العطف الذي وجدته منكم .. لا أذكر أن أبي "قال : لو تدعون أمونة لتفطر معنا أيام رمضان " .. تعودنا على هذا الجفاء وعدم المبالاة .. وكان يتحجج ـ كما سمعته كذا مرة في المقهى ـ أنها تفكر في المشغل والشغل ؛ ولكن أيام الجمع لا يوجد مشغل ولا شغل ، ولم يكن يفعل ، لم نجد منه حنانا نحوها ، لها حياتها ولنا حياتنا .. الإحساس بالآخر لم نعود عليه .. ولليوم لم نفهم السبب .. هل لأنه يأخذ منها مالا أم لأنه أبوها ؟ .. صدق يا أبا محمد لم أفكر في كل هذه المعاني وحياتنا إلا عند زواجها من الرجل الطيب سميح عبد السميع

أنهى شرب الشاي ، وترك بكر يصب له من جديد وتابع قائلا: كنت أرى يا خالي أن أمونة لن تعرف الحياة الزوجية أبدا ، وأن شيئا حجبها عن الزواج .. كان لابد أن تسمع مني هذا الكلام حتى تعرف أن لها معزة في القلب ؛ ولكن التربية الجافة ، والحياة السيئة ، وربما العداء الصارخ بينها وبين أمي هو سبب هذا الجفاء .. أرجو من الله المعطي أن يطعمها الذرية الصالحة ؛ لتعرف معنى الأمومة

– آمين ، شكرًا لك يا شحام .. وهي تودك أكثر من أخيها حسونة .. هي تقدر موقف أمك من زواجها .. إنما كانت تخشى أن تقف هي ضد هذا الزواج .. تفاجأت من رفض والدها وتشدده حتى دفعها للتهديد بقطع المعونة عنه ، ثم انزاحت الغمة بجهود الخيرين من أمثالك ومثل الحاج سلمان يوسف

قال شحام مستفهما : أنا لليوم لم أفهم سبب رفض زوجة حسونة ، أما قضية أن الرجل عامل نظافة فالبلد ملآى بعمال النظافة .. وهي مهنة شريفة وهامة للمجتمع كسائر المهن .. لماذا فعل معه هذا التصرف؟!

– الله أعلم .. شيء في نفسه ونفس عائلته .. حسونة في أول الأمر لم يكن معارضا ، ثم وقف مع زوجته .. لماذا رفضت وهي لا دخل لها في الموضوع؟! ربما الشقة

– أين ستذهب لو كانوا طامعين بالشقة ؟ .. زيادة في الفتنة وإشعال النار في العائلة

- فكرت بذلك .. سميح لن يصبر على الإهانات والسخرية

- هو طامع بالشقة .. كانوا يزعجونها بالعربدة والسمر برفع صوت المسجل والتلفزيون ، وترك باب شقتهم مواربا ، كانوا يتصرفون تصرفات صبيانية حتى ترحل قبل الزواج وبعده ، ولكن قبل الزواج لم تفكر امونة بتعمده ذلك ، واعتبرت استمراره في ذلك بعد الزواج متابعة لعادته السابقة ، لم تأخذ هذه الحركات الصبيانية على وجه العداوة ، وقد يفعل ذلك مع الأسف لأخذ المال منها ، نوع من الابتزاز ؛ لأن أمونة طيبة وتحل مشاكلها بالمال دون أي تردد

قال بكر: أتعلم قد يكون هذا الاحتمال الأصوب ؟ .. فحسونة طماع ..

فهو ماكر .. فهو يحتال لأخذ المال من أخته .. وتعلقه بالشراب والدخان وامرأته مثله فتجد الدخل لا يكفيهما ؛ فكان يفعل ذلك لتدفع له بشكل دائم .. ألم يأخذ مائة من سميح كقرض ويزعم أنه أهداه إياها ؟ حاول قديما أن يستلف مني ، وفعلت ثم كففت عن إقراضه ، يتجاهل الدين

قال شحام : علمت قصتها ، وشاعت في "أبو خروف" ، وسمعتها تردد في المقهى ، ولليوم ما دفع منها شيئا .. أتزورها يا خال؟

- أنا ، نعم ، فعلت ذلك .. هي ترحب بكل زائر ؛ لكنها تألمت من أفعال حسونة للرجل الذي أشعرها أنها أنثى كسائر الخلق ، فوجدت راحتها بالبعد عن حسونة وزوجه .. هي لم تعر رفع المسجل والتلفزيون أهمية .. فقد اعتادت على ذلك .. وحتى سميح لم يتذمر أمامي من هذا .. نحن ـ كما ذكرت ـ ما زلنا نتبادل معها الزيارات ، بل المهندس محمد ابني هو الذي فصل طابقي العمارة التي اشترتها عن بعضهما .. وساعد في تأجيرها .. فقد استأجر ضابط بوليس كبير الطابق الثاني ، وزوجته سكرتيرة بوزارة الخارجية .. فالحي الذي تعيش فيه أمونة كان من الأحياء المهمة في فترة الأربعينات ومطلع الخمسينات .. حي الوزراء ورجال الأعمال والاقتصاد في القطر

وقص عليه قصة البيت وشراء أمونة له ، ولما صمت الرجل قال شحام: الحق أن أمونة تستحق كل خير وسعادة .. لقد علمت حديثاً أن لها أيادي بيضاء على جمعية البر في الحي ، وأنها تقدم لهم الملابس التي لم تباع وانتهت موضتها .. وأرجو أن تسمح لي بزيارتها .. أنا اعترف بتقصيري لها .. فأنا الآن اسكن في بيتها دون مقابل

- نعم ، رفضت أخذ الأجرة وقالت : ليهديها لأمه أو أبيه .. فأنا لست بحاجة لعشرين دينار من أخي أو عشرة

- دائماً خيرها علينا يا خال .. أرجو أن تشجعها على استقبالي ، وأن تقبل زيارتي أنا وأم موسى

- أنا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام عن أختك .. فهي طيبة .. وتحب أن تحس أن لها أخوة وأخوات .. وأنت تكلم معها .. وأنا بدوري سأبين لها مشاعرك النبيلة نحوها .. وشجع أخواتك على فعل ذلك .. فأخوات سميح يتصلون بها باستمرار .. وسعاد ابنته كل جمعة أو جمعتين تزورها .. الإنسان يحب أن يرى أهله حوله في السراء والضراء .. الزيارات من أسباب المحبة ودوامها .. الإنسان يحب أن يسمع الناس همومه .. وهو يعلم أن الله هو الذي يفرج الهموم والغموم .. انظر كيف هي متعلقة بنا ؟ ماذا بيننا ؟ الكلام والسلام والحب .



اتصل شحام بأمونة فرحبت باتصاله وفرحت به ، ورحبت بنيته لزيارتها ، وذكرت له العنوان دون تردد ، فقال: جميل ! أعرف هذه المنطقة جيدا .. وهذا حي يضرب به المثل " لو أنك ساكن في حي الشجرة حي السيادة وأصحاب السعادة".. مبارك البيت ، وعندما عرف مكان البيت بالضبط ، قال : قريبا ـ بعون الله ـ سنكون عندك ومعي العائلة كلها . فرحبت بهم جميعا؛ بل بدت سعادتها واضحة لشحام على الهاتف ، وسمعها تقول: الدم لا يصير ميّ

ولما علم حسونة وأهله بأمر هذه الزيارة ، وأن أمونة ترحب بهم ، فكر بأن يرافقهم ، ثم قال لزوجته: لا أحب مصاحبة شحام اللعين .. هذا أخ سيء .. سنذهب وحدنا علينا بتجهيز هدية كبيرة لها .

فقالت : وهل أمونة بحاجة لهدايانا يا بطل ؟

– الرسول قال تهادوا تحابوا

– آه ! لما تحشر الدين في حياتنا أكاد أن انتحر .. الرسول قال صلوا ، قال صوموا ، قال لا تسكروا .

تنهد بغضب وقال : أنت تكبرين الموضوع يا بنت الحلال

صاحت : يا رجل إياك نسيان أن أخاك استولى على شقتها .. فهو سيشد الرحال إليها ليشكرها ..ويتذلل لها حتى يكف عن دفع الإيجار .. ماذا سنفعل بحلمي إذا خرج ؟! سنقول لها نحن أولى بالبيت من شحام اللعين سنزوج حلميا فيه

– لا أمل بعودته للشركة ، طفح الكيل ؛ ولكني ترجيت المهندس شاكرا ، فقال : لما يخرج من السجن نشغل فكرنا فيه يا حسونة ، نحن لم ننس حادثة الموظفة من عاملات الإدارة التي حاول اغتصابها ، وجدها وحدها في المكتب ، فهجم عليها كالوحش الضاري ، وأخذ في تقبيلها ، وهي تدفعه ، وتصرخ في وجهه ، حتى فزع عليهما الفراش ، وضربه بعصا مكنسة المكتب ، حتى تركها تلهث وتبكي .. ابنك وغد .. قال المهندس : سكتنا من أجل البنت

خشية أن يعلم ذلك الناس خارج المكتب ، لو طردناه مباشرة فقد تسوء سمعة البنت .. هذا لو طرد من الشغل سيأخذ راتبي ، لكنه شغيل لا يملّ من العمل إذا اشتغل

- الله يهديه كما تقول أمي

- الله يهدنا جميعا ، بدأت أكره الحياة

ضحكت وقالت: أنت تكره الحياة ! .. أنت اليوم الذي لا تسكر فيه تقول : هذا يوم لم أعشه

- ليتني لم أتعلم شربها .. من فترة قابلت أحد رفاق الشيطان أيام زمان ـ الذين تعلمت وإياهم شرب الشراب ، ومشاهدة الأفلام ـ وقد أرخى ذقنه ولحيته ، أمسى شيخا ، ويرتاد المساجد ، قلت له ساخرا: أراك في لحية طويلة ، لحية تنافس لحية إبليس اللعين .. أهذه مشيخة حقيقية أم زيف ؟ فأدرك أني أسخر منه ، لما يعرف بعضنا عن بعض ، فقال: باب التوبة مفتوح .. إبليس أبو لحية طويلة .. لا أدري أله لحية أم لا ؟! صاحبك كانت أمامه التوبة إنما رفض وتكبر يا عم حسونة .. لي أكثر من عشر سنوات لم أضع في جوفي جرعة شراب ، وحتى سيجارة إبليس .. هداني الله سبحانه على يد أحد الشباب المتدين ، ورزقني الله زوجة صالحة وخمسة أولاد : أحدهم تخرج من الجامعة مهندسا ، فتظاهرت أني لم أصدقه بترك الشراب ، فقال: كأنك لم تصدق تركت بفضله الشراب والأفلام والدخان والنسوان .. يا رجل تب إلى الله .. وذهبت للعمرة أكثر من مرة .. زرت الأرض الطاهرة ، أرض مشى على ترابها سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم .. نحن كبرنا يا حسونة ، وضيعنا أحلى السنوات في العمر في طاعة الشيطان .. عندما أرى ابني يذهب للمسجد وأنا في سنه ماذا كنت ؟! أبكي أبكي بين يدي ربي ندما وتوبة .. وقال : لماذا لم يكن أبي يحثني ويضربني لأذهب للجامع للصلاة ويعلمني الصيام؟ لماذا تركونا بدون تربية حقيقية ؟ هي التربية فقط الأكل والشرب يا حسونة .. والله أدعو لك بالتوبة والهداية ، كنت من المقربين أيام طاعة الشيطان .. اللهم اجعلنا من التائبين ..وافترقنا صدقي أن كلامه أدمعني ، وأثر فيّ حاله ومقاله .. أذكر أننا كنا نشرب كأسا ، كان يشرب قنينة ..كنا نلقبه برميل لكثرة شرابه .. وأعطاني عنوانه الجديد إذا فكرت بالتوبة ،

وترك الزمن الماضي أن أزوره وألتقي به ما رأيك ؟!

- تب ، ما الذي يمنعك ؟إذا كنت تستطيع ترك المسكر بعد هذه السنين تب إلى الله

- سأتدرب على ترك الشراب رويدا رويدا ؛ فإذا نجحت فاتركه نهائيا

- سمعت أن لدى الحكومة مصحات لمعالجة المدمنين على الكحول والسموم

- كأني مثلك سمعت بها ، ولم أصدف من تعامل معها .. قد تكون غير نشطة

- وأنا مثلك هدتني الكحول ، تعبت من حياة الخمور والدخان ، وحتى القهوة ،وكثرت عليّ الأمراض ، لا يكاد أسبوع يمر إلا عرضت نفسي على الطبيب الخاص أو عيادة الحي

- وأنا مثلك أعاني .. ودكتور الشركة دائماً ينصحني بترك الكحول والدخان ؛ ولكن لما نشرب نرتاح من الآلام لعدة ساعات

- ولما نصحُ تعود الأوجاع .. نستريح مدة السكر فقط ..هل نحن قادرون على التخلص منها نهائيا؟!

حي الشجرة حي ٥٣ رقم ، هو الحي الذي سكنت فيه أمونة بقدر من رب العباد ، حي رجالات البلد قبل ثلاثين سنة .. المدن تتمدد أفقيا ورأسيا كما نعرف اليوم ، فعندما تكبر المدينة بزيادة البشر تظهر أحياء جديدة للأغنياء ، وأخرى للفقراء ، فالمدينة تستوعب الأيدي العاملة ، فتجد مؤسسات البلد تزيد وتبعد عن المركز ، فظهرت عمارات بناء غربي وإسلامي .. ومباني عدد كبير من الطوابق خمسة ستة عشرة طوابق .. تكبر وتضخم الدوائر الحكومية المدارس المستشفيات .. فعندما أنشئ حي٥٣ كان حي علية القوم من التجار وكبار الموظفين ، فعندما يمر من شوارعه الفقير أو متوسط الدخل ، يحلم بأن يكون له فيه منزل أو قصر يسكنه .. فهو عبارة عن قصور صغيرة أو فلل كما تسمى اليوم .. كل بناية طابق أو اثنان من الحجارة البارزة من الخارج ، وحوله حديقة ، تجد أشجارها عالية باسقة إلى السماء ، تجعله بيتا في غابة ، تجد مواقف سيارات ، فتجد بوابة خاصة لكراج سيارة الأسرة .. الشوارع مزفتة .. وأرصفتها يعتنى بها ، لأنها ما زالت تُكن الموظفين القدامى والوزراء المتقاعدين .. وكل شيء

له زمن وبداية ونهاية .. وله عز وتاريخ .. ومع النفط والحداثة والغزو الفكري ظهرت المباني والأحياء الجديدة .. وانتقل الجيل الجديد إليها فبعدت المباني عن المركز للمدينة .. والشوارع صارت أوسع وأحدث ، وظهرت إشارات المرور الضوئية عند التقاطعات ؛ لذلك لما وقف شحام أمام بوابة بيت أمونة ، ونزل الأولاد والأم والأب قال مداعبا: هذا قصر أمونة .. هذه اللوحة النحاسية منزل السيد سميح عبد السميع

قالت أم شحام : الرب كريم وسخاؤه عظيم ! أنا أعرف هذا الحي.. ألسنا من أهالي العاصمة .. انظر هذه الأشجار الباسقة إلى عنان السماء .. ربك يعطي بسخاء

قال رشيد بضيق وربما غيرة : هذا بيت أمونة آخر الزمان ؛ ولكن ـ كما أخبرت ـ كتبته باسم الرجل ، لم يعد بيتها

قال شحام وقد شعر بغيظ أبيه : نصيب .. وهذا الرجل هو الذي فتح لها باب السعادة .. أعادها للحياة لقد نسيناها في غمرة صراعنا مع هذه الدنيا ، لم نتعامل معها كإنسانة .. عاملناها كجرة مال .. لها عواطف ومشاعر وأحلام وزوجة وأولاد ..للأسف كانت كما مهملا .. لقد كنا في غفلة عنها .. فهذا الرجل أعادها للحياة ، وأنها أنثى كأمي وأختي وزوجتي.. تطمع أن تكون والدة يا أبا حسونة لها زوج وأسرة

فتح الباب فصمتوا ، خرجت أمونة وسميح يستقبلون قارعوا الجرس ، وجرى العناق والدموع ، وقالت أمونة وهي ترفع يديها إلى السماء: الحمد لله .. صار لي بيت يزورني فيه أهلي أبي وإخوتي يا مرحباً بالحبايب أهلا بأم شحام وأم موسى تفضلوا

تبعوا الزوجين بعد السلام والمصافحة ، وفي صالة البيت الواسعة جلسوا يتعاتبون ويتسامحون .. مهما استفحل العداء فهم أهل وأخوة وأصهار ، وتكلم شحام معتذرا عن التقصير الذي كان من جانبهم نحوها ، وأن الجهل والغفلة سببا هذا التقصير ، وذهبت عن أعينهم معاني المجاملات والزيارات والجلسات العائلية ؛ لتبادل الأفكار والأخبار والمسامحة ، والمساعدة في إزالة سوء التفاهم بين الأخوة والآباء والأبناء .. فشكرته أمونة ، واعترفت بوده لها ، وأنه أخ

يعتمد عليه ويركن إليه ، ووضعت بين أيديهم أصنافا من الفاكهة الطازجة والعصير الطبيعي ، ثم قدمت لهم الشاي المشروب المفضل ، وشكرها شحام لسماحها له العيش في شقتها ، وتنازلها عن الأجرة فقالت: نحن أخوة .. والحمد لله .. لست بحاجة لإيجارها .. وأنت أولى بها من غيرك

قال سميح: الحقيقة أمونة سخية ، ولا أقول ذلك لأنها زوجتي .. لما تحدثت معها عن رغبتي بالزواج منها ـ كما تعلمون ـ طلبت مني بشدة أن أقبل العيش معها في شقتها في "أبو خروف" ، وأن أوجّر بيتي .. رفضت مقاسمتي تلك الأجرة .. ولما جرى الذي جرى بيني وبين السيد حسونة .. وقررنا ترك الجمل بما حمل رفضت أيضاً العودة لبيتي.. وكان أن دلها صاحب مكتب العقارات على هذه البناية ، التي هاجر مالكها إلا الغرب .. فأهلا وسهلا بكم ، وأهلا بالشيخ رشيد ..كيف الشيخ سلمان أبو يوسف يا أبا حسونة ؟

فقال: زعلان مني ، منذ رحلت نرد على بعضنا السلام فحسب .. أنا أبارك لكم البيت الجديد وذكر لهم سبب زعل سلمان ، فقال سميح : سأزور المقهى وأصلح بينكم .. الشيخ سلمان رجل غانم

وأثنى شحام وأمه على سلمان ، وقال شحام : لولا مبادرتك يا أبا سعاد لفعلت ذلك .. لم ألحظ ذلك ..لأن العم سلمان شيخ الحارة .. عسى ابنتك بخير

قالت أمونة نيابة عن قرينها : عسل .. سعاد عندها اليوم طفلان ، ولا يخلو أسبوع من رؤيتهم ، حتى أن سميحا يلح عليّ بكفالة طفل يتيم من الملجأ .. وعادت تمدح قدومهم : نحن أهل خطوتكم رائعة .. ربنا قال " لا تكرهوا شيئا عسى أن يكون خيرا لكم ".. فأراد الله أن يكرمنا بهذا البيت الجميل في الحي الجميل فكان حسونة السبب .. وها هو سيدي سميح أنهى تدريب السواقة لنشتري سيارة تليق بمقامنا في هذا الحي الهادئ

فقال شحام مشجعا : يستاهل ، نعم الرجل .. سميح طيب .. ونعم الصهر .. بركة أبا سعاد تمتم سميح بالشكر والامتنان وقال: أشكرك يا بني كانت السيدة ـ رضي

الله عنها ـ كريمة معي أيام عملي في شارعهم .. كان عطفها عليّ كبيرا ، ولم يكن في بالي أن أتزوجها في يوم من الأيام ، كانت أم سعاد موجودة .. هي مرضت قبل موتها بخمس سنوات .. وكان المرض صعبا .. وكانت مساعداتها متكررة لي ولغيري من فقراء الشارع .. وكانت تستخدمنا في التحميل والتنزيل لتعطينا بدون حرج أكثر مما نستحق .. كنت أدرك هذا الإحسان .. وإلا مكان سوق العمال لا يبعد كثيرا عن شارع الخياطين .. دعيني أتكلم . كانت تشير له بالتوقف فضحكت وقالت: آسف خذ راحتك

فتابع السيد ذكرياته ، فقال: الفضل لا ينسى .. ساعدت في حل أزمات طارئة .. وسبحان الله لما ماتت أم سعاد وقع في قلبي طلب يدها .. فالرجل يصعب عليه بعد تعرفه على الحياة الزوجية أن يعيش بلا امرأة .. فبعد أن تيقنت أنها تصلح أن تكون زوجة ، وبعد تفكير حسمت أمر طلب يدها ، شاورتها في الأمر .. وهي عادت بعد أسبوع تعلن موافقتها ، فغمرتنا السعادة ، وعدت ابن عشرين سنة تغمرني السعادة والحياة .. والحمد لله رب العالمين .. وأنت يا عم رشيد كيف حالك وصحتك ؟

مسح العم رشيد فمه بمنديل ورقي ، وتوقف عن الأكل وقال: تشرفنا بمصاهرتك يا أبا سعاد ، أهل الحي يسلمون عليكم .. والعم سلمان رغم غضبه مني لما علم بأمر هذه الزيارة تكلم معي وأوصاني بالسلام عليكم ـ فردوا السلام ـ وقال سوف أزورهما أنا وأم يوسف .. ومعارفنا في الحي يهدونكم التحايا والمحبة .. وعرفنا كم كنت تقدمين من الخير للجمعية والجيران الفقراء والأيتام ، حتى مهران قال : خسارة رحيل أمونة من الحي ويرسل لك السلام

قالت : كان خالي بكر ينقل تحياتهم شكرًا لك يا أبي الغالي

– حقيقة يا أخ سميح أهل الحي بعد هذه السنين وجدتهم يقدرون أمونة تقديرا كبيرا .. أنا لم أكن انتبه لهذا .. ولا حتى شحام ؛ لذلك لما سمعوا بأني سأزورها الكل يطلب مني توصيل السلام لها ، وعبروا عن مشاعرهم النبيلة نحوها .. أتمنى لك الخير يا ابنتي .. وأنا أعترف بأنك لم تقصري معنا ، ولم نكن نحسن الثناء عليك ، وتشجيعك على هذا الخير .. الإلف كما

يقول شحام يدفع المرء على عدم فهم العواطف والشكر .. وشحام مقدر لك حق التقدير حبك له ، وتسكينه في شقتك الخاصة .. وكانت النفرة بينك وبين أم شحام بسبب الجهل وطبيعة البشر .. فالأزواج يتنافرون ويزعلون ثم يصطفون ، وتعود الحياة إلى مجاريها طيبة حسنة .. وحقيقة أم شحام منذ زواجك فاجأتني بعواطفها نحوك .. ودائما تكرر لولا أمونة علينا لافتضحنا يا رشيد في الحارة خيرك كبير علينا يا أمونة أرجو أن تصفو قلوبنا .. ونعود من أحسن الأهل .. والبيت في انتظار زيارتكم على أحرمن جمر في أي وقت تشاءون ..وعلى رأسي يا سيد سميح والبيت بيتكم

فقالت أمونة: شكرًا لك يا أبي الغالي ، الكلام بلسم الجراح والأحزان .. وأنا دائماً أقدر موقف أم شحام غاية التقدير .. لقد صدمت من رفضك من زواجي بغض النظر عن الشخص .. أنا التي كان عليك أن تيسر لها الزواج أول الناس .. وبهذه المناسبة الجميلة سأزيد مساعدتي لك ولأم شحام إلى سبعين دينارا في الشهر ـ إن شاء الله ـ لأني على وشك فتح مخيطة هنا .. في هذا الحي مشرفة عليها .. فقط ساعة أو ساعتان في اليوم مع إحدى السيدات التي تلح على تعاوني معها لما تعرفت عليها .. وعلمت أني أعيش بجوارها .. فهي تسمع عني وعن خبرتي ، وربما أنقل فتاة من مشغلنا للعمل معها .

دعا الجميع لها بالتوفيق وزيادة الخير

وتابعت بعد صمت: سنقوم بإذنه تعالى بزيارة لكم ، وستعود المياه لمجاريها .. ولسوف أزور الأخوات لما نشتري السيارة قريبا .. وذلك بعد نجاح سميح في فحص الدائرة .. وأشكر أخي شحاما على هذه المبادرة .. والشكر لكل أهل الحي .. ولا أنسى أربعين سنة عشتها في "أبو خروف" وأهله .. والعم سلمان على العين والرأس ، كانت زوجته كأم لي مع أنهم يسكنون القسم الثاني من "أبو خروف" ، ولهم أيادي بيضاء عليّ وأنا صغيرة ، وساعدتني أم يوسف ماديا في بداية تملك المحل ، ووفقني المولى وسددته كله ، وظلت علاقتنا طيبة معهم لليوم مع أم يوسف وبناتها كلهنّ .. فالصدقة والإحسان مطلوبة .. والخير كثير على إنسانة بسيطة مثلي

.. وشريكتي أحلام تزوجت مثلي ، وهي مستمرة بإدارة المشغل والمخيطة .. ولدينا عاملات بفضل الله قائمات على العمل على خير ما يرام .. ونحن لا نقصر معهن بالأجرة والمكافآت .. ونتعامل معهنّ بإنسانية يعرفها السيد سميح ، فكانت الفتيات يعتبرنه والدا آخر لهن .. ونحن مصروفنا المنزلي بسيط زوج وزوجة ، وحتى أن تقاعده ترجيته أن يدخره لسعاد وأبنائها ، وأصر على المساهمة ، فسمحت له أن يصرف شيئا بسيطا ، وإلا الثروة التي عندي ماذا أفعل بها ؟.. الحمد لله والمنة لله

واختلط الحديث والذكريات ، وقدمت الحلويات الشهية ، واستمتعت الأسرة بهذه الجلسة النادرة في عائلة رشيد دون مشاجرات ومماحكات ؛ ولعل القلوب صفت بينهم جميعا ، وقدمت لهم أمونة في نهاية الجلسة الهدايا التي أعدتها من الثياب والأقمشة ، لهم ولبنات أم شحام .. كذلك وزعت عليهم المال ، ووضعت في يد والدها خمسين دينارا ، ومثلها لشحام ، وأمه ، مما سمح لهم بذرف الدمع قائلة لرفع الحرج : حلوان السيارة التي في الطريق .. دعواتكم . حتى الأولاد أخذ كل منهم خمسة دنانير وأصرت أمونة على ذلك ، فقال سميح : علينا أن نفتح صفحة بيضاء أيها الكرام ، ولا يبقى بيننا إلا الذكريات البيضاء .وقدم سميح الألعاب بنفسه للأولاد قائلا: هدايا عمكم سميح وحرمه العمة أمونة

وأخذ شحام يد أمونة باكيا مقبلا لها وهو يقول متأثرا بجود أخته: هذه أول مرة منذ وعيت أقبل يد إنسان حتى أبي وأمي . ودعا الله بأن يهبها الذرية الصالحة وقال : أنت خيرنا ، وتستحقين كل الخيرات والبركات.. أمونة أنت أميرة لنا .. زواجك من هذا الرجل الطيب غير نمط حياتنا كلها

كانت الزيارة ليلة الجمعة لذلك لما استيقظ حسونة صباح الجمعة قال لامرأته مفتتحا الكلام: تأخروا الليلة ، طال مقامهم عندها! سأنزل أسمع التفاصيل من أم شحام ؛ لأنها لا تحسن كتم شيء ، لو كان مع عدونا ديان الأعور .

فطرق الباب ، ودخل دون أن يفتح له أحدهم الباب ، ووجد أباه وزوجته يجلسان في الصالة يشربان القهوة ويدخنان ، فسلم وجلس ، وقال: تأخرتم ليلة أمس ، أنا ظننت أنها ستطردكم ، وتعودون للبكاء والولولة والندم.

قالت سليمة : أختك أميرة !.. الله يزيدها من فضله أكثر وأكثر . وأخذت تسرد على مسامعه احتفاء أمونة بهم ، وما أكلوا وما شربوا وما تحلوا ..وهداياها من الثياب للجميع ، ولبناتها أخوات حسونة اللواتي لم يدخل عليهن منذ تزوجن في يوم عيد أو مناسبة ، وذكرت هداياها المالية ، وزيادة مصروف أبيه ، ومسامحة شحام من أجرة الدار ، وكانت تفصل وتكرر ذلك لتغيظ قلبه ، وتمنت وهي تسرد ما تذكره لو زوجته معه ؛ والتي ما زالت متظاهرة بأنها غضبانة منهم من تلك الليلة التي ضرب فيها زوجها من أخيه الأصغر ، وهي موقنة أن كل ما سيسمعه حسونة سيضعه في أذنها ، وكان حسونة يسمع ويهزّ رأسه ؛ كأنه غير مصدق ، وكان يقاطعها ويلتفت لأبيه ، فيهز رشيد رأسه مؤكدا له صحة ما تقول سليمة ، وأضاف مرة مفتخرا بها على غير العادة : حق أنها جديرة بأن تكون ابنتي! .. أنا الأيام الماضية القريبة عرفت قيمة أمونة في حي "أبو خروف" كنت أعمى .. عرفت أن لي ذرية نافعة لنفسها وأهلها وللحي .. أخطأت يا حسونة في حقها .. وأنت شقيقها فأمكم واحدة .. وأخطأت في حق زوجها .. أعطتنا مالا ليلة أمس قد يصل لخمسمائة دينار في مجموعه .. حلوان الدار والسيارة التي ستشتريها للسيد .. فعليك بتصحيح خطئك معهم ، والاعتذار لسميح صهرنا العزيز ؛ فإذا لم يصفح عنك الرجل ستبقى أمونة مجافية لك .. البنت مفتونة فيه وتحبه مثل صبية في سن المراهقة

قالت بغيظ : اسكت ، أمونة بنت فهانة .. وسميح رجل طيب مسالم .. لم يتأفف بكلمة أو حركة مما أهالته علينا .. ربما أبوك تضايق من فعلها وكرمها.. وسميح لم يظهر منه غيظ أو لماذا ؟ بل قام بتوزيع الألعاب على الأطفال بنفسه

ونهضت لتغيظه أكثر بإحضار الثياب التي أعطيت لها ولزوجها ولبناتها أخواته وقالت: انظر إلى بذلة أبيك ، ربما تحتاج لثلاثين دينار أو خمسين لتلبس واحدة مثلها

برم شفته متكلما بكلام غير مفهوم وتابعت : وأخذ شحام بذلة مثلها ،

ونفس القماش واللون ، وبيتها قصر من القصور التي نراها في التلفزيون هذه الأيام ، أو كما يضرب المثل بقصور ألف ليلة وليلة .. الله يكرمها بالذرية ـ يا عم حسونة ـ لتكمل لها سعادة الدنيا

ـ بس تكون ذرية طيبة ، ليست كذريتي وذرية البهيمة التي عندي

قال رشيد: لماذا الغلط؟! هي عرضك وساترتك

وقالت : حتى أن سميحا سمح لها بتبني أو كفالة طفل ملجأ .. وقريبا سيتقدم لفحص قيادة السيارات ـ وفقها الله تعالى ، وزادها من نعيمه ـ حقيقي كما قال شحام كنا ظالمين البنت دون أن نحسب أن ذلك ظلم .. كانت السعادة ترفرف من وجهها لما رأتنا عندها .. الجاهل عدو نفسه .. أميرة فعلا يا أمونة

تنهد بحسرة لعدم مشاركتهم المصالحة ؛ ليغرف من خيرات شقيقته كما غرفوا ، فخاطب أباه سائلا: ألا تطردني إذا ذهبت إليها ؟

– تطردك ولماذا تطردك ؟ أنت أخوها الشقيق يا محترم ..ستساعدني للذهاب للحج هذه السنة وسيكون الموسم في شهر كانون الثاني مطلع العام الجديد ، وستذهب معنا أم شحام .. أرأيت ؟! تريد لنا الخير .. هي استأت من أفعالك الصبيانية مع زوجها الطيب اللطيف .. فأحبت أن تبعد عنك حتى لا تخسر زوجها المحترم .. هل تعلم أنها تؤجر الطابق الثاني لرجل كبير في البلد ضابط شرطة .. وزوجته موظفة خارجية .. هم مثل السمن على العسل .. وهو حي

الأكابر من علية البلد ..كان ذا تاريخ ، كنا نضرب به المثل قديما ..لو أنك ساكن في حي ٥٣ حي الشجرة .. أذكر أننا كنا نقول ذلك .. وما زالت تقطنه العائلات القديمة تتوارثه .. أنا وجدت أن العم سلمان يعرف ابنتي أكثر مني .. وصارحني أنها تدفع للجمعية جمعية أم ريان .. واعترفت أمس بذلك .. لها أيدي بيضاء على فقراء "أبو خروف" .. فهي تقدم المال والملابس الفاضلة عندهم للجمعية

فقال حسونة: كل هذا يطلع من أمونة

- نعم ، هذا ما عرفناه في الأسبوع هذا ؛ لأن بنات سلمان وزوجته أصدقاء لها ، فيعرفون عنها أكثر منا ، وكشفت لنا أن سلمان هو الذي ساعدها ماديا عند شراء المشغل ، لما عرضته صاحبته للبيع ، واليوم المشغل أصبح يبيع لبعض الدول ضمن شركات تعمل في الخياطة

- هذا نحن لم نكن نعرف أمونة حق المعرفة

زعقت أم شحام : هذا هو الصحيح ، نحن لم نكن نهتم إلا بما تعطينا إياه فحسب ، لما نستلم المال آخر الشهر ننسى أمونة حتى يقترب آخر الشهر التالي ، رغم أننا عندما نفتكر جيدا ، فهي لم تكن تقصر معنا في كسوتنا وعيديتنا والإنفاق على البنات وشحام حتى كبروا وتزوجن .. كنت أرى أن ذلك واجب عليها ؛ لأني تزوجت أباها ، وليس كرما وجودا .. أختك سيدة كبيرة وتعرف الأصول ، ولا تنتظر مكافأة منا ؛ لأنها تعرف أننا لا نستطيع ذلك ؛ لأنها هي المعينة لنا .. وبزواجها من سميح أكدت للجميع أنها إنسانة متواضعة ، لم تقل أنا أملك آلاف الدنانير ، كيف أتزوج من هذا العامل البسيط الفقير الأرمل ؟! بل أحبته بصدق وبحق .. ذكرها أنها امرأة تحب وتحب .. هل تعلم يا حسونة أن الرجل لما طلب يدها منها أولا ؟ عرضت عليه فتيات أخريات يعملن معها .. فأصر عليها دونهن .. فقالت لي: تذكرت أني أنثى ، وقد يطلبني إنسان كزوجة ، كدت أبكي بين يديه ، لولا المقام ، قالت هذا لي ولأم موسى ونحن في المطبخ ..ولليوم لا تنسى موقفي من زواجها ، مع أنه أمر عادي ، لم يكن له قيمة عندي ؛ ولكنها تعتبره موقفا يتغنى به الشعراء .. كان بغضي لها بحكم زوجة الأب

والغيرة بين النساء .. أنت تعلم أني أكبرها بأربع سنوات .. ولا أذكر أني خدمتها بشيء .. اعتبرها جرة مال .. هي تجرني إلى هذه الكلام جرا لتوضيح الموقف .. جزاها الله خيرا " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"

– أنا كنت أسمع أطراف هذه الحكايات الإنسانية ومساعدة الفقراء ، فأظن أنهم يتحدثون عن أمونة أخرى في "أبو خروف"

– أختك اشترت الفيلا بخمسة عشر ألف دينار ، وأعادت صيانتها ، وفصل الطابق الثاني عن الأول بحوالي خمسة آلاف دينار .. وابن خالك المهندس محمد أشرف على الفصل .. وكتبت البيت باسم زوجها .. فحبها كبير للرجل .. فرتب أمورك واعقل ، واذهب وصالحها ؛ لعلك تحظى برضاهم ، وتزوج ابنك لما يخرج من السجن .. يكفيه همالة وفسق .. فنحن نغرف من بحر خيرها ومالها !

❊ ❊ ❊

صعد حسونة لشقته بعد الذي سمعه من امرأة أبيه عن شقيقته من الثناء والمدح ، ولما سكبت له القهوة أشعل سيجارته فقالت : عدت سريعا

ضحك من استهزائها ورد : لي أكثر من ساعة أسمع المديح على أخت حسونة .. كنت تحتا أطمئن على زيارة القوم لأمونة .. لقد عادوا بالبذلات والثياب الصغير قبل الكبير ، والمال والوعود ..عادوا من الجنة من قصر الست أمونة

حدقت فيه سائلة : ماذا قالوا ؟

– أوه! أوه ! يا امرأة شقيق امونة ! فواكه طازجة .. عصير أشكال وألوان .. ملابس فلوس .. تريد أن تحج وزوجها وأبوها وامرأة أبيها على حسابها نهاية هذا العام

وأخذ يردد ما علق في ذهنه من صفة زيارتهم لأمونة ، وعن ندمهم وتقصيرهم في حقها ، والاهتمام بها قبل زواجها .. اكتشفوا أنهم كانوا على خطأ، وقد اشترت منزلا بخمسة عشرة ألف من الدنانير .. أمونة تملك هذا الكنز .. وأصبح جيرانها رجال الأمن ، وزوجته موظفة

وزارة خارجية ، وأخبرها أن سميحا تعلم السواقة ، وسيتقدم للفحص لتشتري له سيارة .. واكتشفوا أنها تدعم جمعية البر سرا وخفية

قالت مؤكدة: هذا سمعته من بعض النسوة اللواتي يترددن عليّ ، ولم أكن أصدق ذلك .. قلت لهنّ هي تعطينا قرشين بالعافية

- إنها تتبرع لهم شهريا بالمال ، والملابس في المناسبات كعيد الفطر والأضحى ، وعند فتح المدارس ، وربطتهم بعدد من الشركات والمصانع يتبرعون بالزوائد

- معقول كل هذا يطلع من أمونة

- أجل

- نحن لم نكن نجلس معها يا حسونة كلمة على الباب والسلام

قال : الحق نحن من ناحية التقصير قصرنا وأهملناها من حياتنا ، ولم نكن نعترف بها ، لم نكن نعتبرها كائنا حيا يعيش بيننا ، مع إحسانها المتكرر كانت تساعد في كسوة حلمي حتى كبر ، للأسف لم نقدر لها هذا التعاون والعطف .. كنا مثل أم شحام .. لقد نصحتني كثيرا بالاهتمام بالولد .. فأرد عليها "خليه يعيش كيفما أحب، فحكايات الناس في الحي تزكم الأنوف" حتى صرنا نخشى حياته معنا .. حتى صرنا نخشى العيش معه .. الزمن لا يعود لا يرجع

قالت: اللعين مرة أحضر فتاة إلى هنا "وقال : هذه جوعى إنها تريد أن تأكل لحما " ، فحاولت طردها ، فأبت حتى أكلت دجاجة ، ثم خرجا .. فقد خشيت أن يجن ويعاشرها في الدار .. ولما خرجوا رآه شحام فقال : لماذا جلبت هذه الساقطة للعمارة ؟! ثم ضربه أمام البنت ، ومسح فيه الأرض ، وبصق على البنت ، وشتمها دون خجل

- أول مرة تقولين ذلك

- حكايات كثيرة لم تسمع بها .. هو أنت صاحي

- لكني ـ كما وعدت ـ بدأت أخفف ، لم أعد مثل قبل أسبوع

قالت بألم : أنا صحتي تتدهور .. خففت منه كثيرا رغم أنفي ، وصرت أدخن علبة واحدة ..

متى ستزور أمونة ؟ لابد من رؤية الجنة

- عندما نشتري هدية ملائمة للصلح ، ولدخول الجنة .. سنأخذ العنوان من شحام اللعين .. يبدو أنهم خارج العمارة .. سمعت أمه تقول : إن حماه مريض دخل المستشفى

- آ ، من أجل ذلك لا صوت للأولاد

- كأنه أوصل أمه وأباه ، وذهب لبيت حماته ، لم يبت في الدار .. فكري يا سيدتي بهدية تسهل دخول جنة أمونة .. أختي العزيزة ..أختي الكنز .. كنز علاء الدين

- قبل أن أفكر بالهدية الغالية للغالية تحدث معي عادل شقيقي ..

وأعلمني أن حلميا الأسبوع القادم سيخرج من السجن

- الأسبوع القادم !

- نعم ، وهم مصرون على عدم استقباله ، ويرفضون عودته للحياة عندهم ، فمغامراته النسائية زادت عن حدها ،وشاعت ، وهو متضايق منه جدا ، ويطلب منا أن نستقبله في بيتنا ، وليس أمامنا إلا ذلك

- في الشركة قد فصلوه ؛ ولكن المهندس شاكرا وعد بعودته ، فهو يقول عنه : حمار شغل ؛ لكنه أمام البغايا والشراب أرنب بري ضعيف .. ألا نستطيع إقناعه بالزواج ؟

- عمره ثلاث وعشرون سنة ليس صغيرا .. يرفض تحمل المسؤولية .. لو شحام لم يأخذ بيت أمونة لزوجناه فيه .. وتكفلنا بالصرف على امرأته حتى يصير محترما

- شعاره لماذا أتحمل مسؤولية امرأة؟! وهو يجد بنات الهوى في شوارع المدينة، إني في عجز كامل أمام جنونه

- الحل عند رب العباد ، سنرحب به ، ونعمل معه اتفاقا

أنا اعتذر إليك يا سيد سميح ، أسأت إليك ، الخمر ملعونة .. سامحني أيها الرجل الطيب ، هات يدك أقبلها . هكذا قدم حسونة نفسه لزوج شقيقته .

سحب سميح يده من يد حسونة وقال: استغفر الله .. أنت تظل صهري ونسيبي وشقيق أمونة الغالية سامحتك . والتفت لزوجة حسونة مرحبا دون مصافحة باليد فهو لا يصافح الأجنبيات شرعا : أهلا بالسيدة الفاضلة

ردت فقالت: نحن فعلا آسفين جدا يا أبا سعاد ..ونعتذر منك يا أخت أمونة

قالت أمونة بعتب ضعيف: حصل خير .. وهذا الخير الذي يغمرنا اليوم بسبب لسان حسونة الأخ الشقيق الوحيد لي ، الذي يجب أن أشد أزري به ؛ ولكن أقول قدر الله وما شاء فعل .. وأنا قلبي أبيض .. وكذلك سميح .. رجل وهبني الحياة بعد أن كنت مجرد جسم .. أبو سعاد قلبه أبيض مثل قلبي ..لا نعرف الحقد والبغض تفضلوا بالجلوس

عاد حسونة يعتذر للجميع ، ثم قال : سامحني يا أبا سعاد تعلقي بالشراب أفقدني الصواب فأنت سترت عرضي ـ ستر الله عليك ـ والمائة دينار التي أخذتها منك سأسددها ؛ لكن الحال اليوم لا يسر صديق ولا عدو

قالت أمونة : أنس أمر المائة .. السيد سميح سامحك منها لما رأى عجزك عن تسديدها .. فاعتبرها غير موجودة

وأكد سميح هذا الكلام وزاد: أنس أمرها .. فنحن أهل .. الله يوسعك عليك ويخلصك من الشراب ويتوب عليك

قال حسونة: الحمد لله رب العالمين .. لي أيام قد بدأت أخفف منها لأتخلص منها نهائيا .. لا نشرب إلا كل يومين أو ثلاثة كأسا صغيرا ؛ لأنه يصعب الخلاص منها فجأة

قالت أمونة مظهرة فرحها : خبر جميل ! ورويدا رويدا ستنساها ، وتتحسن صحتكم .. الخمر كما هو معلوم شرعا أم الخبائث والشرور .. والعزيمة والإرادة تحقق كل شيء .. قد تصاب

بفترات ضعف لكن اصبر وعد لصوابك .. وبعد شهور سترى ثمرات الإرادة والعزم .. وأدعو الله أن يساعدكم على التخلص منهما الخمر والسجائر .. هناك عيادات صحية لديها برنامج تأهيل للتخلص من الخمور والمخدرات .. وأنا على استعداد لمساعدتكم ودفع تكاليف العلاج إذا صممتم فعلا على الخلاص منهما

فقال حسونة مستنجدا : ساعديني لتحقيق ذلك يا أمونة .. صدقي أني احتقر نفسي ، وأنا أسير هذه العادات القبيحة ، ثم تغلبني الشهوة والضعف البشري . ثم ذكر لهم قصة الشيخ الذي تعلم وإياه الخمر ، وهما شابان صغيران ، وكيف تاب صاحبه ، وصارا شيخا

فعلق سميح على القصة فقال : تستطيع أن تكون مثله بالتوبة والندم بين يدي الرب عز وجل وبالصلاة والصوم .. وها هي الأخت الفاضلة ستساعدكم في مراجعة عيادات هذا النوع من العلاج العيادات المتخصصة في معالجة الإدمان على الشراب وغيره .. المهم كما قالت أمونة العزيمة والإرادة

قالت أم حلمي: كلما أذهب للعيادة سواء الخاصة في شوارع "أبو خروف" أم عيادة صحة الحكومة .. كلهم علاجك وشفاؤك بترك الكحول .. وهن الجسم لم يعتد يحتمل .. فأنا بدأت أقلل منه قبل حسونة .. وتركت الأصناف القوية إلى أصناف قليلة في نسبة الكحول ـ وإن شاء الله ـ نتمكن من التخلص من العادات السيئة ، ونتخلص منه نهائيا

كانت الفواكه موضوعة أمامهم ، ويقضمونها خلال هذا الكلام ، فكانت الأفواه تأكل وتتكلم أو تسمع ، وقدم العصير والحلوى ، وعاد الوئام خلال هذا اللقاء ، ووعدت بزيارتهم قريبا عندما يحصل سميح على الرخصة الخاصة بقيادة السيارات ، وستكون أول زيارة بسيارتهم الخاصة لحي "أبو خروف" ، وذكرت أنها تفكر بعمل وليمة كبيرة للعائلة في بيت الوالد .. ولما سئل عن ولده قال بامتعاض: سيخرج غداً أو بعد غد .. وأخواله يرفضون عودته للعيش عند جدته.. وسيعود للحياة معنا .. ونعود لمشاكل زمان

فقالت أمونة مستفهمة: لا يندم الإنسان في السجن ألا يهتم لفقد حريته؟ لا يتحسن حاله

قال حسونة متذكرا الحبس وآثاره : أنا مرة واحدة حبست ، لبثت في سجن المركز الأمني حتى تصالح أبي مع أهل الولد الذي اعتديت عليه بسكين صغير .. بعدها تبت ، ولم أعد أحمل موسا في قميصي ، أو حتى آلة حادة .. عند المشاجرة لا يسيطر الإنسان على نفسه .. وكيف سنقومه بعد هذه السنوات من الطباع القبيحة؟!

نظرت أمونة باسمة إلى امرأة أخيها وقالت: لابد أن أم حلمي تذكر كم مرة نبهتها لسوء سلوكيات ابنها نحو فتيات المدرسة والشارع ومعاكسته لهن دون حياء ؛ ولكن اليوم لا ينفع الندم .. وسائل الانحراف تزداد .. وبنات اليوم سافرات ، ويتسكعن في الشوارع من غير رادع ببنطالات وأقمصة تكشف الأذرع .. أصلح الله شباب وبنات الأمة

قال سميح: وشباب المساجد يملئون المساجد بفضل الله

بعد يومين من تصالح حسونة مع شقيقته وزوجها سميح في ساعة المساء خرج حلمي حسونة من بوابة السجن ، بعد قضائه فيه مدة تتراوح بين ثلاثة أشهر وأربعة حاملا ملابسه وحاجياته ، فلما أفرج عنه ، ولم يجد أحدا في استقباله كظم غيظه ، وركب سيارة انطلقت به حيث غرفته عند جدته ، ولم يدخل مسلما عليها ؛ لأنه وجد بعض أخواله في انتظاره أمام البيت ، وأبلغوه قرار طرده من الغرفة التي فتحت له ، فسب وشتم وأخرج أولاد أخواله أغراضه وأشياءه من الحجرة بسرعة ، وأشار أحدهم إلى سيارة { بيك آب} ، ووضعوها فيها مع ما أحضره من السجن ، وبصق عليهم ساخطا ، ولم يكترثوا لفعله ، وسمع أحدهم يقول: أنت رجل فاسد ، لا مقام لك عندنا ، جئنا بك لتصلح حالك ، فازددت فسادا .. فأبوك أولى فيك .. وأحسن إلى أمك التي لو أنجبت تيسا أو بغلا لعاملها بالحسنى

ولما وصل "أبو خروف" ، كانت أمه على الشباك ترقب وصوله ، فقد أخبرها أحد أخوتها بخروجه ، وأنه في الطريق إليها ، وقفت السيارة أمام منزل رشيد ، ولما أنزل حاجاته من السيارة صاح فيها: هات إيجار السيارة يا بنت ...

ونزل حسونة ودفع للسائق أجرته ، ثم سلم قائلا: الحمد لله على السلامة

وأمسك بحقيبة ليصعد بها عندما خرج شحام من بيت والدته للشارع وقال: أهلا وسهلا بالبطل .. الحمد لله على السلامة يا عم .. ألست عمك ؟!

حاول مصافحته ؛ ولكن الشاب الغاضب لم يمد يده تجاهله وقال محذرا: اسمع أنت لست عمي .. أنت عدوي .. السلامة التي منك لا أريدها . ورفع رأسه حيث تقف أمه صائحا: أنزلي هذه الأغراض تحتاج لرفع .. وأنت يا سيد حسونة هات خمسة دنانير ، سأصل وسط المدينة لي سنون لم أرها .

- اخرج للبيت أولا ، وبعد أن تستريح تذهب إلى جهنم الحمرا

- ظمآن يا عالم .. لا أريد أن اصعد هات . ومد يد على طولها ينتظر الدنانير الخمسة

قال شحام زاجرا : تأدب يا ولد مع أبيك ، واصعد معه واغتسل وتعشى ، ثم اذهب للسم الهاري

صاح حلمي في عمه: أنت لا تتكلم معي .. انصرف لبيتك

ضحك شحام وقال: بيتي صار هنا جارك .. عدت إلى هنا سكنت شقة أمونة

تطلع في عيني أبيه الذي قال: نعم ، عمك سكن في شقة عمتك أمونة .. أمونة اشترت دارا ورحلت إليها .. وعمك استأجر الشقة منها

فصاح محتجا: عدنا لعهد الوصاية !

تناول حسونة ورقة بخمسة دنانير صائحا في ولده : خذ هذه الخمسة ، ولعمرك دخلت خطفها من يد أبيه وقال بحدة : ادخلوها البيت ـ العفش ـ إني أكرهكم ! متى تموتون وادفنكم وارتاح منكم ؟!

استدار شحام عائدا لبيت الوالد ، وجاءت أمه تساعد زوجها في رفع الفرشة والحقائب ، وكان الشاب قد اختفى ، ولم ينتظر حتى يسلم عليها ، وقام أولاد شحام بمساعدة عمهم حسونة بنقل أغراضه لشقة عمهم.

ولما انتهت عملية رفع أغراض حلمي أغلق حسونة الباب دون توجيه كلمة شكر للأولاد

وقال للمرأة التي كانت تلهث من رفع حقيبة واحدة : عدنا للمشاكل ، ماذا سنعمل ؟ إلى أين سأرحل؟!

- إذا ظلت حياته هنا للأكل والشرب فلا حرج نتحمل .. الله يعيننا ، أما إذا حاول العودة لحركاته القديمة ، فعلينا أن نجد حلا لفجوره وضياعه وجنونه

- هل أعدت تجهيز حجرته؟

قالت: نحن أصلا لم نغير فيها شيئا .. السرير على حاله .. والخزانة مكانها .. غسلت ملاءات السرير والمخدة .. الله يصلحه

- المهم أن يقبل أصحاب الشركة عودته للشغل

- هو يدبر أمر نفسه لا تهتم ، سيجد عشرات الشركات يعمل فيها .. لا تزعج نفسك في شغله

- أنا لا أملك فلوسا ليلعب بها .. أنا لا أطيق ذلك

- اطلب له مساعدة من أمونة

- ذهبنا نتصالح معها لتقول فعلنا ذلك من أجل مساعدته والإنفاق عليه.. أمونة لو تعلم أن مساعدتها ستذهب في فائدة ، وليس وراء الخمر والنساء لفعلت بدون أن يطلب منها أحد .. وهي مستعدة للمساعدة في زواجه .. هي قالت مثل ذلك ونحن نودعها

- عندما يعود سنتناقش حول مسالة العمل ، هو رجل عمره قريب من الربع قرن ، وهو منذ ترك العلم وهو يعمل

- لم يوفر ويدخر قرشا ليومه الأسود

- وهل أنت وفرت قبله؟

- أنا أصرف على عيلة

- عيلة ! يا ظالم .. أنا فقط ! أين العيلة يا رجل؟ أبي كان ينفق على عشرة أنفار

لم يرجع حلمي تلك الليلة للبيت إلا عند الفجر ، لقد قضاها في خمارة ، فهو له شهور محروم منها ؛ لذلك ظل يسكر حتى ظهر الفجر ، فركب تكسي إلى "أبو خروف" ، الناس تسير إلى المساجد وهو عائد من الخمارة ، فلما ترك السيارة كان يترنح يمنة ويسرة ، فقد شرب حتى الثمالة كما يقال ، فتركه السائق يهذي ويسب ويلعن ، وكان يشتم عمه شحاما الذي كان خارجا من البيت إلى صلاة الفجر فقال ضحكا: حتى وهو سكران يكرهني .. غفرانك يا رب . لم يتحدث معه تركه يصعد ثملا الدرج ، وتابع مشيه اتجاه بيت الله ، وقد سمعه يطرق الباب على حسونة وهو يصرخ : افتحوا يا ملاعين .. افتحوا يا خائفون .. افتحوا يا مجرمون

ففتح حسونة وسحبه إلى غرفته ، وطرحه على سريره ، وأغلق الباب عليه ، وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم ومن حلمي

ولما رجع حسونة من عمله وجده ما زال طريح الفراش ، وقالت زوجته : لم يستيقظ بعد .. يبدو أنه شرب كل محتويات الخمارة

ومع ساعات الليل استيقظ ، ودخل دورة المياه ، وطلب إبريق قهوة ، وهو يقول : صداع شديد في رأسي هاتوا قهوة

قال حسونة مخاطبا لابنه : المهندس شاكر يقول إنه سيسمح لك بالعودة للشغل على شرط أن لا تغادر موقع العمل ، لا تذهب لمكاتب الشركة والإدارة

ضحك عاليا وقال : ومن قال لك إنني سأعمل معهم مع هؤلاء الكلاب

قال حسونة: هل وجدت شركة غيرها؟

- لا أريد الشغل ، سأقعد في البيت

- ومن سيصرف عليك ؟!

- أنت .

- أنا!.. أنت مجنون .. أنا أعطيتك الدنانير أمس ؛ لأننا في الشارع ؛ وأنت قادم من السجن ،

ولا أحب الخصام

جاءت القهوة ،وقالت له أمه: اشرب . أتريد أن تأكل ؟

- لا ، سأعود للخمارة .. السجن حرمني منها .. طول المدة منعوني من شرب العسل .. هاتوا خمسة

صاح حسونة: لن أدفع .. اشتغل وأصرف واسكر

وقالت أمه: أنا لا أملك فلسا واحدا ..أدفعها للأطباء والأدوية

صرخ فيهما: سأفتش البيت

فقال حسونة: إياك أن تدخل غرفة نومنا

- لما اشتغل أسددها

قال حسونة : يا ما سددت !.. ألزم حدك

- هل تريد أن أصير حراميا وسراقا ؟

- إن شاء الله تصير سفاحا .. اعمل واسكر

شرب الكوب الكبير وسكب آخر وقال : ما هذه القهوة ؟ كأنها رمل صحراء السجن .. كيف تشربونها؟

قالت أمه :هذا الموجود ..أتريد أن اسخن لك الطبيخ ؟

- ماذا طبخت اليوم ؟

- دجاج وأرز من أجل حضرتك ، يبدو أنك شربت الخمارة كلها ليلة أمس

- لي شهور لم أذقها ، لا تباع في السجن ، أسوا ما فيه الحرمان منها ومن المحبوبات

قالت : جدك سأل عنك انزل سلم عليه

- هو أنا لي جد

قال حسونة: لك جد وامرأة جد .. بعد العشاء انزل تحدث معهم بضع دقائق

- عمتي تركت البيت للعين .. ما أخبارها أين استقرت؟

قالت أمه: عمتك أميرة اليوم ..وتعيش في قصر .. وتجاور كبار الضباط ووزارة الخارجية

- لم أفهم

شرحت له أمه حال أمونة فقال: هذا العز .. أحسن واحدة في هذه العيلة .. أنا قابلت زوجها في المقهى قبل دخولي الحبس عدة مرات .. إنسان محترم وهادئ يستاهل كل هذا النعيم

- ماذا ذهبت تفعل في المقهى؟

- قابلت بعض الأصحاب، وأنا لي أصدقاء في "أبو خروف" ، فصاحبي برعم من سكان الحي

ضحك حسونة وقال ساخرا : برعم ، نعم الصاحب

- تسخر منه .. الوحيد الذي زارني في السجن أكثر من مرة .. أنتم ولا مرة ؛ كأنني ابن الشيطان

+=+=+=

لا يذهب حلمي للعمل في النهار ، ويذهب في الليل للخمار ـ بلدان المسلمين اليوم تباع فيها الخمور علنا جهارا نهارا بحكم القانون الوضعي ، وترخص محلات ومتاجر بيعها ـ ويعود مع الفجر مترعا من المسكر والكحول ، ويستيقظ مع المساء قبل غروب الشمس بوقت يسير ، يشرب إبريقا من القهوة ، ويأكل الطعام ، ويأخذ خمسة دنانير ، واستمر على هذا الحال خمس ليال ، وفي هذه الليلة رفض حسونة تقديم خمسة دنانير صائحا: أنت لم تعد تستحي .. الضيافة عند العرب ثالثة أيام وثلث

وقبل أن يكمل والده العائد من الشغل تعليقه على ضيافة العرب ، رماه ولده بصحن الطبيخ الذي كان يأكل منه ، وقال بغضب وصوت أجش : دعني من ضيافة العرب .. هات خمسة .. أما قلت لكم فلن اشتغل ،وأن عليك أن تنفق عليّ

هاج حسونة وقال بحدة : ترمي الصحن عليّ يا لعين

فقذفه بإبريق القهوة دون تردد وقال: خمسة

فصاحت أمه محتدة: هذا فعل شيطان .. اخرج من الدار يا قليل الحياء .. نام في الشوارع

ذهب حسونة بعد أن لوثته القهوة إلى غرفة نومه ، وعاد يحمل مسدسا يملكه ، وهو يصيح ساخطا: اخرج من البيت .. لا تعد إلينا يا سقط الرجال .. يا جبان

قهقهه حلمي وهو يقف بتحد لأبيه: أتخوفني بمسدسك ؟! أنا لا أخاف من مدفعك .. اضرب كأنك راجل قدّ المسدس ..اضغط على الزناد

سحب حسونة أقسام المسدس ، ووضع يده على الزناد ،وقال صائحا: لا تتقدم .. اخرج

قالت المرأة وقد رأت الغضب والنار في وجه زوجها: حسونة أرجوك اهدأ اهدأ .. اعد صمام الأمان ..حلمي اخز الشيطان .. واخرج

تقدم الشاب خطوات تجاه أبيه وهو يصيح: اضرب يا جبان ! اقتلني يا أبي!.. يا قاتل .. يا سكير .. أنت سكير مثلي

صاح الأب بهياج وجنون : اخرج يا ملعون ! .. يبدو أنك لست من صلبي .. هل من أحد يعرف أباه ؟! أهذا مني يا ... ؟

صعقت المرأة للاتهام ، ولم ترد امتقع وجهها سوادا ، وتابع الشاب تقدمه نحو أبيه ، وأصبحت المسافة بينهما أقل من مترين والشاب يصيح : اضرب يا جبان!

خرجت الطلقة ، وأصابت صدر حلمي ، فصاح الشاب: اضرب يا جبان اضرب!

وكان يتقدم فانطلقت أخرى ترنح الشاب ـ والمرأة تصرخ بصوت عال ـ وقع الشاب على الأرض مع الطلقة الثالثة

وصل شحام تتبعه زوجته ، ودفع الباب وهو يصيح : ماذا هناك مالك تصرخيـ...؟ توقف عن إكمال الجملة رأى الشاب أرضا ، يتدرج بدمه ، وحسونة يرفع مسدسه ، فصاح: حسونة ماذا فعلت يا مجنون؟! دع المسدس ، أرمه أرضا أرمه أرضا . أشار لامرأته أن تذهب وتتصل بالإسعاف الفوري ، فخرجت المرأة مسرعة ، وكان رشيد وزوجته يقتحمون

الباب يتساءلون عن سبب الصراخ الذي سكت مع دخول شحام ، وقال رشيد باضطراب : ما هذا الرصاص ؟! نظر إليهم الشاب المرمي بالرصاص : قتلني الجبان ! أصبحت الآن بطلا يا حسونة !.. قتلني زوجك يا أمي ، أهذا أبي؟! أهذا أبي؟! ويمد إصبعه نحوه

اتجهت نحوه وقالت بصوت هامس: هو ليس أباك .. مت مستريحا .. أبوك عقيم لا ينجب .. كان لابد من وجودك بيننا ؛ لتدوم الحياة بيننا ؛ ليدوم زواجنا .. مت مستريحا يا حلمي

صاح حسونة وقد سمع همس زوجه: يا الهي! لماذا فعلت ذلك؟!

- ألست تريد ولدا يا حسونة ؟ .. إلى الأطباء.. إلى الأطباء .. وأنت لا تريد أن تفحص نفسك أنسيت ذلك ؟! .. جعلتني أنا العاقر ..والتهديد بالطلاق إن لم ألد لك .. لا تريد أن تصدق أنك عقيم ..لا تنجب .. فجاء الولد

أطلق حسونة على نفسه الرصاصات الباقيات في مخزن المسدس أمام دهشة الجميع وقال : الموت أشرف من السجن .

حضرت سيارات الإسعاف والشرطة ، ثم حضر رجال التحقيق ، ونقل حسونة وحلمي إلى المستشفيات ، فلم يمت حلمي ، فكانت الرصاصات بعيدة عن القلب ، أصابت إحداها البطن وطرف الكبد ، مات حسونة ؛ لأنه أطلق الرصاص على جمجمته ، ففارق الحياة قبل الوصول للمستشفى قاتلا لنفسه ، وعاش من كان يظنه ابنه عليلا ، ولما خرج من المستشفى رحلت أمه ؛ لتعيش عند أمها ، واشترت أمونة حصتها وحصة ابنها من ميراث شقة حسونة ؛ لأن حلميا يعتبر ابنا شرعيا حسب القانون ، واختفى حسونة رشيد من "أبو خروف" ، وقصته ما زالت تتردد على الألسن والآذان حتى تيسر لنا سماعها وكتابتها حبرا على ورق ، وقبلت أمونة بمجيء إحدى أخواتها للعيش في شقة حسونة بعد دهانها والتخلص من عفش حسونة .. والحزن له نهاية ، ومع الأيام يذوب ، ويصبح المحزون عليه مجرد ذكريات .. وتلاشى الحادث من أذهانهم قبل موسم الحج ، الذي كان في أول عام ١٩٧٣ ، وسافروا للحج .. أمونة وزوجها سميح ، ووالدها رشيد وامرأته سليمة

الحج

كانت رحلة الحج رغم مشقتها على كبار السن ، والمرضى ، والذين يعانون من السمنة متعبة ؛ ولكن الأجر على قدر المشقة في هذه الحال ، وكان الحج بالنسبة لسميح قبل زواجه من أمونة حلما صعبا يتراءى له كالخيال ؛ للتكاليف المادية المرتفعة لرحلة الحج ، ولما يريد الله عز وجل شيئا يسهله ويهونه وييسره ، فهو رزق زوجة طيبة ، وبيتا واسعا، ورحلة حج إلى بيت الله العتيق ، وقد تستغرق الرحلة بالحافلات ثلاثة أسابيع ؛ لأنهم سيقضون جزءا منها في المدينة المنورة ، ثم العودة ، ورغم التعب والمشقة ، فقد غسلت ذنوبهم ورجعوا كما ولدتهم أمهاتهم كما أخبر الحديث { ١}

والحج كما هو معلوم فرض وركن من أركان الدين ، مرة واحدة في العمر ، وقد بذلت أمونة المال بسخاء ؛ لينال القوم الراحة قدر الإمكان ، والمشقة في موسم كهذا واردة ، وتتفاوت من شخص لآخر

ومن عادة أهالي "أبو خروف" عندما يقرب ميعاد عودة الحجيج من بلاد الحجاز تزيين البيوت ، ومداخل البيوت والعمارات بالأشجار والأغصان ، والأنوار الكهربائية المستخدمة للزينة ، فأنت تعلم من رؤيتها أن في هذا البيت أو العمارة حاجا قادما .. فزين شحام وأولاده مدخل العمارة ، ومدخل بيت والده وأمه بالرايات وأغصان الشجر ، وغمازات الكهرباء ، وفعل على مدخل أمونة مثل ذلك

ولما يحتفل المسلمون بعيد الأضحى يبدأ الحجيج بإنهاء موسم الحج برمي الجمرات والمبيت بمنى ، وكلفت أمونة قبل سفرهم لمكة أم ريان بذبح ثلاث أضاحي ، وتوزيع أكثرها على فقراء "أبو خروف" ، وإهداء سعاد جزء منها، وقدمت للجمعية كما تفعل كل سنة المال

{ ١}- عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ حَجَّ لِلهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّه

واللباس واللحم ، وفي اليوم الثالث من أيام العيد تبدأ وفود الحجيج بمغادرة الديار المقدسة ، حسب وسائط نقلهم ، والعودة قد تأخذ يوم لأهل الشام ، وربما تزيد بضع ساعات بسبب الحافلات ونوعها وقوتها وصلاحها لمثل هذه ا الرحلات الطويلة ، وفي آخر أيام العيد ذهب شحام في المساء إلى حيث تجمع حجاج الشركة التي سافر فيها أهله ، ومع الغروب بدأت تصل حافلات الشركة ، ووصلت حافلة والديه ، وأفرغت حمولة الباصات من الأشياء ، والهدايا ، والتمر الحجازي ، وماء زمزم الذي يحرص الحجاج على الإتيان به لسقي ضيوفهم منه ؛ لبركته ، وذكرى إسماعيل وأمه هاجر ، وتعانق شحام مع الجميع .. الحجاج الأربعة ، ودعا لهم بالقبول ، وكانت أمونة قد تركت سيارتها عند خالها بكر ، ولما وصل بكر وسلم وبارك ، رفعت الحمولات إلى السيارتين ، وانصرف كلٌ إلى وجهته على أمل اللقاء القريب ، وكانت أمونة تقول لخالها بكر: ما أروع الحج يا خالي ! أنت جربته مع أم محمد

– نعم ، أكرمنا الله بهذه النعمة قبل سنوات ، بعدما تقاعدت من خدمة الوزارة ـ الحمد لله على سلامتكم ـ المهم أن تحفظوا وتحافظوا على المكتسبات التي كسبتموها من هذه الرحلة الإيمانية الغالية .. لقد غسلتم ذنوبكم بفضل الله .

ونختم هذه الحكاية من حكايات "أبو خروف" بعودة القوم من البلد الحرام مكة المكرمة ، وقد أدوا ركنا عظيما من أركان الإسلام ، ونتمنى لكم ذلك من قلوبنا .

تمـت الحكاية الثانية



كان شريكهم في علاج مرضى عيادة الصحة

لم يرق لهم انسحابه فشنوا عليه حرب إشاعات

حتى رفضته العروس الجديدة

ثم كان الزواج والصلح مع الأهل

عرف الناس لماذا عاش بينهم كل هذه السنوات ؟

إنه طبيب أبو خروف راشد .

ج.ح. ش

طيب

أبو خروف

١٩٧٢

حكايات "أبو خروف" كثيرة ، لكل إنسان حكاية وقصة ، وأنا كاتب هذه الحكايات اختار ما أراه مناسبا لي ولكم للعظة والتسلية ، هذه حكايات حدثت ما بين ١٩٧٠الى١٩٨٠ من سبعينيات القرن العشرين لنبدأ هذه القصة من العيادة الشعبية التابعة لوزارة الصحة في مدينة دار السلام ، تنشر الحكومات عيادات ومراكز صحة في أحياء البلاد ومدنها وأريافها ؛ لتقديم الخدمة الأولية للمرضى ؛ ولتخفيف الضغط عن المستشفيات التابعة لوزارة الصحة العامة ؛ ولتوفير الخدمة الطبية للناس قرب تجمعاتهم ، وقد تحظى عدة أحياء في مركز صحي واحد ، فكان من حظ "أبو خروف" وجود عيادة شعبية فيه ، وهي في مطلع شارع السالم غربي "أبو خروف" قرب مدرسة البنات الأساسية ، وهي مرتبطة بعيادة أكبر تقع في حي النجمة الحي الذي يسبق حي "أبو خروف" ، فتقدم الإسعاف الأولي للمصابين والمرضى ، ومن يحتاج إلى علاج أكبر يحول إلى مستشفى دار السلام الكبير في مركز العاصمة ووسطها أو يحول لعيادة النجمة أو الهدى ، وبعض المرضى يذهب مباشرة لأحدهما ، ومع ذلك فصحة "أبو خروف" تعمل بهمة ونشاط ، وتهتم برعاية أمراض النساء والحوامل والشيخوخة ، تتكون العيادة من طابقين صيدلية ومكتب محاسبة وعيادات طب عام وغرفة فحص وغيار طوارئ ومختبر صغير ، والمختبر الأكبر في عيادة الهدى ، وأخصائي نساء وأخصائية نساء ورعاية حوامل وتنظيم الأسرة ، وطبيب نفسي اجتماعي ، وموظف المختبر يأخذ العينات يوميا ويذهب بها لمختبر عيادة النجمة ، فله ساعة معينة للمغادرة ، والنتائج تظهر في اليوم التالي ، وتقدم للطبيب العام ، ويقرر صرف المريض لعيادة النجمة أم لا ، أو المستشفى العام .. في العاشرة والنصف يغادر موظف المختبر بالعينيات ، الكسر والعظام يحول فورا إلى عيادة النجمة والهدى أو المستشفى .. باختصار العيادة الشعبية نقطة وصل بين المواطن في "أبو خروف" وعيادة النجمة ؛ للتخفيف من الضغط على المستشفيات والمراكز الكبيرة ، لأن بعض الأمراض تحتاج لعلاج بسيط ، وكذلك مراقبة ومتابعة النساء الحوامل وصرف بعض

الأدوية لهن ، وفي العيادة الشعبية موظف السجل لتسجيل أسماء المراجعين وتوزيعهم على الأطباء الموجودين ، وغريب باسل ونهى عادل أسماء موظفي السجل الطبي ، وصيدلي واحد اسمه أمجد عبد الظاهر ، وعند غيابه في إجازة تأتي فتاة من صيدلية النجمة ؛ لتقوم بعمله .. وللعيادة مديرة اسمها عبلة حسن طبيبة نساء ، وللعيادة خادمة واحدة وبواب واحد .

وكما بيننا رغم صغر العيادة يتوافد إليها أغلب مرضى "أبو خروف" ، والخدمة الأهم تقدم للنساء ؛ لذلك الكثير من المراجعين يعرضون على أطباء العيادة إذا كانت أمراضهم مجرد أمراض شائعة مثل الرشح الأنفلونزا ، يصرف لهم الدواء البسيط للالتهابات الحلقية وأدوية السعال ، غز إبرة تشخيص مرض ، وإذا احتاج المراجع للأخصائي باطني عظام جلد يحول إلى مركز الهدى في حي النجمة ، وهناك دراسات قد تتحول فيها العيادة الشعبية إلى مركز صحي كبير مثل الهدى .

هذا هو واقع العيادة الصحية الشعبية في الحي ، عند العاشرة يسمح للموظفين بفترة استراحة لمدة ثلث ساعة لشرب الشاي أو غيره ، وأكل شيء خفيف، فيوجد في العيادة غرفة صغيرة لصنع الشاي والقهوة للموظفين على نفقتهم الخاصة ، أما الأكل فيشترى من المطاعم القريبة بواسطة الفراش أو الخادمة أو موظف ، وأغلب موظفي العيادة يدخنون ماركات دخان متعددة ، وكلها مصنوعة من مادة التبغ ، مع معرفتهم أنه ضار بصحة الإنسان، ولذلك تجد لوحات على الجدران منتشرة في العيادة تحذر الناس من خطر التدخين ، ومنعه في الأماكن العامة حتى لا يتضرر غير المدخنين .

دخل الصيدلي أمجد عبد الظاهر على كاتب السجل غريب باسل عندما غادرته زميلته نهى عادل وقال بصوت منخفض : انتهى شهر حزيران ولم نقبض شيئا ما الأمر ؟!

- لم أقبض شيئا بعد ، عملت جولة على صيدليات "أبو خروف"

والكل يؤجل إلى عشرة الشهر ..لا أدري ما السر في عشرة الشهر ؟! واليوم سأمر على الدكتور راشد ، فله شهران لا يدفع نصيبنا

- شهران ، ولماذا يعجز عن الدفع ؟!

- ابنه أيمن ابنه الوحيد كثير المشاكل مع أولاد الحي والمدرسة ، ويزعم أن زبائنه تقل .. الذين نرسلهم إليه لا يدخلون عليه هذه الأيام

- هذا خبر مزعج ،كان الرجل ملتزما بالدفع على كل آخر شهر .. هل الطبيب شامل لم يعد يشجع مرضاه إليه؟ هل عليه شكاوي ؟

- لست أدري ؛ لكن الدكتور شامل متعاون جداً معنا، بل مرتاح يا سيد أمجد .. عند عشرة الشهر سأجدد الجولة ، وإذا لم يدفع راشد عن هذا الشهر والسابقين ، سنلغي العقد السري بيننا ..فهناك طبيب جديد يعمل في الحي ، و عيادته على الشارع العام .. سمعت أن عليه حركة ونشاط .. قد أستطيع إشاعة توريد زبائننا إليه

- أنا أعرف همتك يا سيد غريب يا أبا علي! ..عشرة الشهرة قريب .. أربعة أيام .. سأصبر .. أنا كما تعلم أُكبر في البيت ، واحتاج لمزيد من الدخل

- توكل على الله .. أيام ويأتيك الدعم يا سيدي .. ألا تستطيع تدبير لنا كمية من ذاك الدواء فصاحب صيدلية شادية يريد كمية منه

- سأتصل بحسام صيدلي المستشفى

دخل سلمان الذي عرفناه في قصة أبي صالح كمال نزو على عيادة الدكتور راشد عبد المحسن ، فهي قريبة من عماراته في "أبو خروف" يقطع شارع بدر الصغير ، ويدخل من زقاق للمشاة ، فيصبح في شارع نور القمر ، ثم يدخل العمارة التي على زاوية شارع نور القمر والشارع العام ، ومدخل العمارة الرئيسي ليس من الأمام حيث الشارع الرئيس في الحي ، إنما من الجانب الأيسر لشارع نور القمر ، فالطابق الأرضي من العمارة من جهة الشارع محلات تجارية ، وأعلاها ومن الخلف طوابق للسكن ومكاتب ، فعيادة الدكتور راشد في الطابق الثاني فوق المحلات التجارية ، وأيضا شقته في نفس الطابق ، وهناك شقة ثالثة يستأجرها رجل سماك ، والعمارة كلها من ثلاثة طوابق ، صعد سلمان إلى عيادة راشد ، وسأل الفتاة التي تعمل عنده

كمنسقة وسكرتيرة عنه فقالت بعد التحية والترحيب : ذهب إلى السوق وسيعود .

تذكر سلمان يوسف أن الرجل بدون زوجة منذ سكن الحي ، ويعيش معه ولده الوحيد أيمن الطالب في المدرسة الثانوية عام ١٩٧٢ ، ويذكر أن الرجل جاء الحي منذ ما يزيد عن عشر سنوات ، وهو اليوم في الخمسين من عمره ، ويعلم أنه منذ ترمل وهو يعيش بدون امرأة ، وهناك شغالة في الحي تأتي بعد فتح العيادة لتنظيف الشقة ، وتحضير الطعام ، ثم تعطي عاملة العيادة المفتاح بعد أن أخذته منها صباحا ، وتنصرف إلى أسرة أخرى ، أو إلى بيتها ، وربما يأخذ الدكتور المفتاح منها إذا صدفته في وجهها ، وهو يعتمد في طعامه غالبا على نفسه أو المطاعم المنتشرة في الحي والتي تقدم الطعام الخفيف والثقيل للزبائن .

بعد أن تذكر ما تذكر للفتاة التي يعرفها ـ فهي ابنة أبي جمال جاره في الحي ، وفي نفس شارعه ، ومتعلمة في المعهد ، ثم تزوجت ، وبعد خلفتها لخمسة أطفال مرض زوجها ، وعجز عن العمل ، فاضطرت للخروج للعمل ، وبعد حين خف المرض عن زوجها نمر ، واشتغل في محل لبيع مواد البناء ، واستمرت في عملها ، ولما فتح الدكتور عيادته في الحي ، تعرف على زوجها نمر أثناء تردده إلى المحل لشراء أدوات صيانة ، وعرف والدها ، وعندها دراية في العمل في المكاتب والعيادات ، فاقنع زوجها ووالدها بالعمل عنده ، وسيضيف إليها مهنة ضرب الإبر ، والتغيير على الجروح مقابل عشرين دينارا في الشهر ، فقبلوا ، وانتقلت للعمل مع الدكتور راشد عبد المحسن ـ سألها أبو يوسف عن أحوالها وصحة زوجها ووالدها ،

والفتاة تعرف سلمان حق المعرفة ، فهو صديق والدها إلى حد ما ، وصديق الدكتور ، وتعرف أسرته .. ثم قالت: لما رأى الدكتور فراغ العيادة ذهب للسوق الذي خلف المسجد ؛ لعله يجد أسعارا أقل من أسعار المحلات القريبة من هنا .. وإذا كنت تحب أن أبلغه شيئا فأنا مستعدة يا عمي أبا يوسف

قال سلمان مفكرا : لا ، كنت راغبا بالحديث معه في موضوع خاص ، أو هو طلبني في موضوع خاص ..وشرح للفتاة : مرّ أبو كسوة الحمّار ليلة أمس على بيتي ، وأخبرني أن

الدكتور راشدا يريد الحديث معي ، قائلا "لو مررت عليه صباح الغد " كان الكلام في الليل يا أم جمال .. أنت سميت ابنك الكبير على اسم أخيك المرحوم جمال .. إني اذكره .

ـ نعم ، وترحمت على شقيقها جمال الذي مات في الغربة ، سافر للعمل مع أقارب له في أمريكا واعتدي عليه في أحد متاجرهم ، وقتلوه رميا بالرصاص .

– كم الساعة الآن ؟

نظرت المرأة لساعة يدها وقالت : الثانية عشرة يا عمي أبا يوسف

وقف الرجل وقال باسما: أنا أضع ساعة على يدي مثلك ؛ ولكن سألتك حتى تعرفي أني جئت وغادرت في مثل هذا الوقت .. فقد اقترب وقت صلاة الظهر .. على كل حال ، وأنا راجع من جهة الجامع .. ربما انحرف إليكم .. سلمي على والدك وأهلك وزوجك نمر .. والسلام عليكم

نهضت الفتاة تودعه لباب العيادة ، وهي تتمنى له السلامة ، ولما عادت لمكتبها الصغير في زاوية من زاوية صالة استقبال المرضى والمراجعين جلست لبضع دقائق ، ثم نهضت تعمل الشاي لنفسها ، فهي تمكث في العيادة حتى الساعة الثانية ظهرا كل يوم ، ما عدا الجمعة ، فهو عطلة رسمية على مستوى البلد ، وأما حضرة الدكتور فيتناول الغداء مع أيمن بعد عودته من المدرسة ، ثم يعود للعيادة ، فيبقى فيها حتى المغرب عادة ، ثم يغلقها ، ويدخل البيت يتعشى وحده ، أو مع أيمن إن كان موجودا في البيت ، ومرات إذا لم يجده ينزل إلى وسط المدينة للسهر ، كما يفعل أغلب الليالي ويأكل في قلب العاصمة ، وأحيانا يعمل زيارة لأحد الناس أو الزملاء .. والدكتور من رواد المسارح ، ودور العرض السينمائي ، تعلق بذلك من أيام دراسته الطب بمصر .

قبل مغادرة أم جمال عاملة العيادة العيادة ـ وكان بعض الناس ينادونها بأم محمود ، اسم ابنها التالي ؛ لتمييزها عن اسم أمها أم جمال ، والدكتور كان يحب الاسم الثاني لمعرفته لوالدها وزوجها ـ نادى عليها الدكتور من عند باب الشقة التي يسكن فيها من نفس الطابق ، فلبت النداء ، فقال لها: أم رسمي أكيد أنهت عملها.. مفتاحي الخاص فقد من أيام .. لا أدري أين أضعته ؟ أين سقط ؟

رجعت المرأة إلى العيادة وعادت بمفتاح أم رسمي ، وفتحت له الشقة ، فزلف إليها مدخلا مشترياته ، وقال لها : لم يأت زبائن يا أم محمود

– جاءت امرأة ومكثت عشر دقائق وانصرفت ، لم تطق الانتظار .. وجاء الشيخ سلمان أبو يوسف ، وشرب الشاي ، وذهب للجامع عند الظهر

– أمس أرسلت له أبا كسوة .. نسيت

– وعد بالعودة بعد الظهر ؛ ولكنه لم يعد بعد .. ربما نسي أو انشغل

– لم يذهب لمقهى مهران .. دوامه في المقهى بعد صلاة العصر ..شكرًا يا أم محمود بإمكانك إغلاق العيادة والانصراف .. لا مزاج لي اليوم بمتابعة العمل .. قال بتأفف : هذا الدكتور الجديد يأخذ شغلنا .. فهو طبيب شاب متحمس

مشت إلى العيادة ورتبت الأمور والأوراق ، ونظفت أكواب الشاي والقهوة ، وأغلقت

العيادة ، وطرقت الباب على الدكتور ، وأعطته المفتاح ، وقالت: الحاج سلمان !

- إذا جاء سيطرق باب شقتي .. سلمي على أبيك وزوجك .. لقد قابلته اليوم في السوق ..صحته عال .. كنت أرى أن مرضه يوصل للهلاك

- الكل قال ذلك ..ولكني اليوم حامل من جديد

أظهر الطبيب الدهشة وقال : حقا أنت حامل ! مبارك مبارك

- في أول الحمل ، لم يظهر عليّ بعد

- اليوم الطب والفحص يكشف الحمل بسرعة من قبل انقطاع الطمث .. بالسلامة يا أم محمود

نزلت الدرج ، وأغلق راشد بابه ، وقال لنفسه: نعم ، سلمان يوسف خير من يسأل عن نساء وبنات الحي .. فهو من مواليد "أبو خروف" ، وقضى كل حياته فيه ، إنه يعرف الغريب والقريب .. وأيمن أصبح شابا قويا ، وأستطيع أن أركن عليه ، وبعد التوجيهي إذا لم ينجح سأزوجه وأخلص منه .. وأبرئ نفسي من ذمته .. لا أعتقد أن يجتاز الثانوية العامة .. وهو صاحب مشاكل ومشاجرات

كان الدكتور راشد يفكر بتزويج ابنه بعد إنهاء الثانوية ، معتقدا أنه بفعل هذه الخطوة يقضي على مشاكله ومشاجراته مع الناس ، وأيضا الدكتور نفسه على وشك الزواج ، فبعد أن تجاوز الخمسين بسنة أو سنتين فكر بالزواج ، والسبب عدة لقاءات مع رجل اسمه أبو كسوة جمعة صدقي .. فهذا الرجل من جيل الدكتور أربع وخمسون سنة ، يعمل عدة أعمال، بائع حلوى وترمس في الشوارع وأبواب المدارس ، ويشتغل حمّارا .. هو ليس من أهالي "أبو خروف" ؛ ولكنه يعرفه ويطرقه ويجاوره ، ويبيع فيه ، خاصة أمام باب مدرسة البنات المرحلة الأولى ، وأيضا ينقل الطحين ومؤن اللاجئين من مكان توزيعه في المخيم إلى منازلهم على متن حماره عدة أيام .. وذلك كل شهر عندما يبدأ التوزيع الشهري .. فيتوقف عن البيع ، ويشتغل بالنقل للمواد التموينية التي توزعها وكالة الغوث للاجئين الفلسطينيين منذ أحداث نكبة فلسطين

، فالمخيم الفلسطيني شاع في البلاد المجاورة لفلسطين بعد نكبة الشعب الفلسطيني ١٩٤٨ ، فقد قامت الأمم المتحدة التي أنشئت تاريخيا قبل النكبة بثلاث سنوات ـ كأنها أعدت لهذا الكارثة العالمية ـ بإنشاء وكالة لإغاثة الفلسطينيين المشردين الأونروا .. فهي تقدم الدقيق والأرز والزيت والحليب والسكر والسردين وغير ذلك من المعلبات .. فالحمار أبو كسوة ينقل هذه الأشياء بعد استلامها لمنازل الناس مقابل بعض المال ، وقد يحصل على أطعمة من زبائنه فيبيعها ، ويتكسب ، وبعد الظهر يتوقف التوزيع ، فيعود لبيع الحلوى أمام المساجد أو المقاهي وأماكن لعب الأطفال ، ولما يتوقف التوزيع الشهري انتظارا للشهر التالي ، فيجلس أمام مدرسة بنات "أبو خروف" يسترزق ويرضى بالمقسوم ، وأحيانا عند مدرسة الوكالة في قلب المخيم ؛ لكن هناك باعة أكثر ، وتعوّد على هذا النظام والترتيب منذ كبر وتزوج ، وأصبح له أولاد وبنات .. فهو معروف لأهل المخيم ولأهل "أبو خروف" ، وتعرف على الدكتور راشد ، وتردد على عيادته للعلاج ، ولما علم أنه أرمل منذ سنوات حدثه عن ابنته بهية ابنة العشرين سنة العزباء ، وشجعه على الزواج منها ، ولا يهم فارق السن بينهما ، وستقبل به ، وستعجبه ، وبعد تردد وخوف أبدى راشد رضاه وقبوله على تجديد زواجه بعد خمسة عشر عاما من الترمل وبدون زواج ، وذلك منذ ماتت أم أيمن ، فلما ماتت صرف النظر عن الزواج والنساء ؛ ولكن من تشجيع أبي كسوة له غير رأيه وفكره ، والعروس جاهزة ، وأنها لا تفكر وتكترث بفارق السن الكبير بينهم .. المهم أن تتزوج .. تغلب الطبيب راشد نفسيا على خوفه من النساء والزواج وتقدمه في العمر ؛ فلذلك هو يسعى للقاء سلمان ليستشيره ويسمع نصحه في مثل هذا الزواج ، ويعرف منه حقيقة أبي كسوة ، فهو مجرد زبون تعرف عليه من سنة زمان.. يريد أن يعرفه جيدا قبل مغامرة الزواج من ابنته .. وسنعرف لماذا لم يفكر الدكتور بالزواج قبل لقائه بأبي كسوة ؟!

زار سلمان العيادة في النهار التالي ، واستقبلته عاملة العيادة بترحاب ، وذكرت له أن والدها يسلم عليه ، وكذلك والدتها ، فشكرها وعلم منها أن الدكتور يعالج أحد المرضى ، وجلس

السيد ، وقامت تصنع له كوبا من الشاي، ولما شربه سمع الدكتور يودع المريض ، ولما رأى سلمان رفع صوته مرحباً ومصافحا ومعانقا الخد الأيمن ثم الأيسر .

فقال سلمان: مررت أمس يا أبا أيمن ولم أجدك .. خرجت للجامع ، ثم التقيت ببعض الناس ولم أتمكن من المجيء إليك ثانية .. لقد مرّ عليّ هذا الرجل بياع الترمس أبي كسوة ، وأعلمني أن أمرّ عليك .. عسى الأمر خيرا

- كل الخير .. هل شربت شيئا؟

قالت: شرب شايا .. هل أصب لك يا حضرة الدكتور ؟ وأنت يا عم أبا يوسف كوبا أخر .. فالعم سلمان صديق الوالد

قال سلمان: لا بأس يا أم جمال .. فانا مغرم بالشاي .. وهو المفضل عندي

قال الدكتور: تفضل على غرفة الفحص أريدك في موضوع خاص جداً يا أبا يوسف إذا حضر أحد يا أم محمود فلا يدخل علينا .

دخلا غرفة الفحص والعلاج ، وجلسا على كرسيين وراشد يرحب بالرجل من جديد ، ودخلت المرأة بالشاي لكليهما ، ووضعته على منضدة صغيرة أمامها ، وأغلقت الباب خلفها .

قال سلمان: خير يا دكتور

أشعل الدكتور سيجارة وقال : أنا أعلم أنك رجل الحي العارف بأهل الحي صغيرهم وكبيرهم

- أنا أعرف كل سكان الحي .. لم افهم عليك؟!

- يا سيدي أرغب بالزواج

- الزواج .. جميل !.. دائماً أرغبك فيه! الحمد لله أنك لنت وغيرت .. الزواج مطلوب .. ما المطلوب مني؟!

- قلت استفيد من حياتك في هذا الحي وخبرتك .. أرأيت هذا الرجل الحمّار الذي بعثته لك كما يقال له أبو كسوة ؟

- ماله؟!

- هذا الرجل يعرض عليّ ابنته .. بنت العشرين سنة .. لم يحصل نصيبها .. فله سنة يحثني على مصاهرته بالزواج من بنته .. وكلما يمر هنا يفعل ذلك ويردده .. حتى ذهب عني الخوف من الزواج ..قلت أجرب مرة أخرى ..فكرت كثيرا قبل أن أصل لهذا القرار الأخير .. لا بأس بالمحاولة من جديد يا أبا يوسف .. أنا تعقدت من النساء بعد موت أم أيمن .. فقلت أسأل أبا يوسف عنه وعن عائلته وابنته .. فأنت الرجل الخبير

ضحك سلمان وقال: أنا لا أنكر معرفتي بالكثير من الأسر والعائلات في

حيّنا الكبير ؛ لحياتي المديدة فيه ، ومعاصرة تطوره وتحدثه .. وأعلم أحداث وأخبار الناس ، ومع ذلك لا أعرف هذا الحمّار بالشكل الجيد سوى أنه بياع وحمّار في المخيم .. فهو يجلس أمام المدرسة ليبيع البنات الحلوى والترمس ، وأحيانا يتجول في الحي خاصة عند المقهى والمسجد ، ويعمل في المخيم على حمار عند توزيع التموين والمؤن على لاجئي المخيم .. وهو يعيش قرب حي النجمة في أحد أطرافه ، فهو صاحب غنم وطير ، ولديه أسرة كبيرة .. كانت كل سنة تلد امرأته طفلا .. ابنه البكر كسوة متزوج ..ويعيش هنا في هذا الحي .. والثاني صاحب عيلة .. لا أعرف عنه أسرارا .. وهو رجل في المجمل غلبان يا دكتور راشد وعلى باب الله كما يقال ؛ لكن أليست صغيرة بالنسبة لك ؟ أنت من جيل والدها

- هي راضية على ذمة الرجل ، وتعلم أنها ستنكح رجلا فوق الخمسين



في الثانية ظهرا تركت أسماء عيادة الدكتور ، وبينما هي تغادر دخل غريب عامل المركز الصحي أو العيادة الشعبية المعروف لأهالي الحي ، فهو موظف السجل الطبي فيها ، فحيا وسأل : الدكتور موجود

رحبت به وحركت رأسها بالإيجاب ولفظت : نعم

– شكرًا

سمعت الدكتور ينادي من غرفة العيادة : هل من أحد معك يا أسماء؟

فرفعت صوتها: إنه السيد غريب باسل موظف الصحة ... وقبل أن تكمل عبارتها كان الرجل يطرق باب العيادة ، ويدخل محييا الدكتور الذي ظل جالسا وعابسا ، وقالت الفتاة: أيلزمك شيء سيدي الدكتور قبل انصرافي

– مع السلامة يا أسماء وأخذ يرحب بالرجل ، ثم قال وهو يترك مقعده : لنجلس في الصالة

– اليوم الثاني عشر من حزيران .. وأنت تعلم لماذا جئت؟!

– اليوم الثاني عشر من حزيران .. نعم ، موعدنا عادة في العاشر منه .. صدق يا غريب أني أعاني من الشغل وقلة المرضى .. هذا الدكتور الجديد شفط الزبائن .. يذهب إليه مرضاكم .. هل ضممتموه للمجموعة ؟

فقال غريب وقد جلسا في الصالة حيث لا أحد : الدكتور نشأت رفض

التعاون .. عليه حركة الآن ؛ لأنه جديد والجديد له بهجة .. ونحن والمجموعة التي تعمل معنا نريد المال .. وأنت الشهران الماضيان آذار ونيسان لم تحاسب والشهر الثالث أيار الذي مضى من أيام .. أنت تحرجني يا دكتور إن لم تدفع.. ويشكون في ذمتي ..وإني أبلعها وحدي .. الظرف يكون شهرا .. يكون تأخير في الدفع .. وهم يتقاعسون عن العلاج للمرضى من أجل أن يمروا عليكم .. والمرضى يتهمون الحكومة مقصرة في الخدمة الطبية ، ولا ينتبهون للعبتنا .. وإذا تريد الابتعاد عنا لا مانع لدينا يا أبا أيمن ؛ لكن حصة الشهور المستحقة عليك

أن تدفعها قبل الانفصال .. كثيرون الأطباء الذين يقبلون الشغل معنا .. نحن نوجه الكثير من المرضى إليكم بإسماعهم أنكم من أمهر الأطباء في الحي .. وأشياء نلقيها في آذانهم ، وإنكم أبرع أطباء الطب العام في البلد ، والشفاء حاصل لخبرتكم

كان راشد يسمع دون نطق حتى لاحظ صمت غريب فقال : صدق أني أعاني من ضعف المرضى لا أدري لماذا ؟ ها هو السجل والأوراق انظر إليها .. وانظر كم عدد الرواد والمرضى خلال الأشهر الثلاثة الماضية .. يظهر أن هناك غيري

تبسم غريب ورد : هنا صدق أننا لا نتعاون إلا معك ، والطبيب حمدان.. ونحن لا نشجع على الأخصائيين .. المرض عمل يومي .. فصحيح نحن نحول بعض المرضى لصحة الهدى في حي النجمة أو مستشفى السلام .. ذرا للرماد في العيون .. وننصح مرضانا بالعلاج عندكم أنت وحمدان بدل أن يدفعوا إيجار السيارة وتضييع الوقت وكثرة المراجعين .. وحمدان لا يشكو مما تشكو منه .. وعمله قائم ، ويدفع حقنا كل شهر .. فالشهر الماضي قبل أيار دفع خمسين دينارا ..وهو يدفع أول الشهر ، وليس على عشرة .. ونحن لم نجبرك على التعاون معنا يا دكتور

- أنا أفكر بالزواج هذه الأيام من أجل ذلك أنا مضغوط بالمال يا غريب

- الشهر تلو الشهر ، المال يتراكم .. صار لنا في ذمتك ثلاثة أشهر .. اضربها بثلاثين فعندك تسعون يا دكتور ..واليوم الثاني عشر من حزيران يعني نصف الشهر

فهز الدكتور رأسه وقال: تسعون دينارا .. هذا الشهر الثالث لكم في ذمتي .. أنا في حيرة من أين أدفع هذه التسعين ؟

- الغدر ليس طيبا يا دكتور

- الغدر!

- نعم ، تريد أن تنسحب من العمل معنا فلك ذلك .. حقنا لا يجب أن تأكله أو نتنازل عنه

- أشكوكم للدائرة

صاح غريب محتجا: تشكونا للدائرة ماذا ستشتكي ؟ وهل يصدقونك ؟

- سأختار بعض المرضى الذين أرسلتموهم إليّ

- كبرت يا دكتور .. أنت تحسب أن اللقمة سهلة ..لا .. ادفع ما عليك ، ثم اشكونا لمن شئت .. نحن نقوم بعملنا على خير ما يرام .. والذين يأتونك لا يتوفر لدينا علاجهم .. نحن نحولهم إلى المستشفى .. وعيادة الهدى .. وننصح لهم لتوفير المال والجهد بالمرور عليك .. أنا من الشهر الماضي أحسست أنك تلعب بنا يا دكتور

هتف الطبيب : تهددني يا رجل

- يبدو أنك نسيت أيام السجن .. السنوات الثلاث

صاح الطبيب سخطا : أيضاً تعرف هذه.. هذا أنتم مجرمون !

- اللقمة ليست سهلة .. ونعرف أنك قتلت امرأتك

غضب الدكتور واحتد وقال : أوه ! هذا أنت حقير للآخر

- نريد حقنا يا نظيف!

- أنا قتلت امرأتي بالخطأ يا مجرم .. ولم أكن أقصد قتلها .. من أين عرفت القصة؟!

- ابن عمي ضابط كبير في الشرطة

- ابن عمك ضابط كبير .. حسنا يا غريب .. سأضحي بعملي مع عصابة العيادة .. لن أدفع مليما واحدا .. أنا من الشهر الماضي ذكرت لك يا غريب أنه لا أحد يأتي من جهتكم .. لست غبيا وجاهلا .. فأنتم تحولون على الشاب نشأت

وقف غريب وطفأ سيجارته في منضدة مظهرا الغضب وقال: لا تريد دفع المستحقات .. سأمشي يا حضرة النصاب ..لا تحتج

ضحك راشد وكان يلوح بيده: لا أريد أن أحتج على جهالتك .. اغرب عن وجهي .. أبعد يدك أنت في بيتي وعيادتي ..أنت موظف ، ولو شكوت عليك لفصلت من عملك .. ولو كان ابن عمك وزيرا ؛ لذلك فألزم حدودك ..وما كان بيننا انتهى

كان جمعة حمدية أبو كسوة ينصب سدر الهريسة على حامل أمام بوابة مدرسة بنات "أبو خروف" ، وهو يصيح على الهريسة لتقترب الفتيات في فترة الاستراحة من البوابة للشراء منه ، يبيع لهن الحلوى.. وها هو ما زال يصرخ على الهريسة ويمدحها بصوت غنائي لجلب الفتيات للشراء .. وكان الشيخ سلمان يتابعه عن بعد ، فلما قرع جرس الاصطفاف والعودة إلى الصفوف توقف أبو كسوة عن المناداة والصياح .. فنادى عليه حينئذ سلمان ، فالتفت إليه وحمل السدر ـ سدر الهريسة ـ على رأسه ، وحمل المنصب في إحدى يديه ، ومشى نحوه ، حتى صافحه قائلا: العم سلمان يا هلا بشيخ الشباب .. ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

– أنت!

– أنا!.. خير ـ إن شاء الله ـ هل مررت على الدكتور راشد؟

– وأنا جئت من أجل الدكتور راشد .. مررت على ابنك كسوة ، فقال لي: الآن ستجده أمام بوابة مدرسة الإناث .. كيف حالك يا أبا كسوة ؟

– بخير ، ما دمت أنت بخير .. أهلا بسيدي سلمان شيخ الشباب .. كيف أختي الحاجة أم يوسف؟

– كلنا بخير .. ما رأيك أن نمر عليك قبل العصر حتى نتحدث بموضوع الدكتور راشد ؟

– الدكتور حدثك عن بهية .. والله يا عم سلمان .. أنا لما رأيت أن الدكتور أرمل من سنوات أشفقت عليه .. وكلما أمر على العيادة أساله هل تزوجت ؟! هل زهقت وحدتك؟ .. فذات مرة قال لما سألته هذا السؤال : هل حواليك بنت يا أبا كسوة؟ .. قلت له : عندي بنت بايرة كبرت .. ولم تتزوج بعد.. وعمرها عشرون سنة.. أزوجك بها .. فتردد قليلا يا عم سلمان ، ثم قال : أتقبل بي أنا العجوز ؟ قلت له: بنت تريد الستر يا دكتور ، وأنت بعدك شاب

فقال سلمان: أجّل الكلام يا أبا كسوة حتى تنتهي من شغلك .. غداً تمر عليّ .. أنا في البيت لحتى العصر بعد العصر أذهب للجامع ، ثم أجلس في المقهى ـ مقهى مهران ـ المعروف في الحي ، الدكتور طلب مني التفاهم معك ..سأزورك أنا ونعمان أخي .. ونرى طلباتك ،

وطلبات البنت يا أبا كسوة .. فالفرق في السن كبير بين ابنتك والرجل .. والرجل له بدون امرأة حوالي خمس عشرة سنة .. يعني ليس بالصغير

- أنا عاوز أستر على البنت يا عمي يا أبا يوسف .. والزواج سترة للبنت .. والرجل يتزوج في أي سن لا يوجد كبير ولا صغير .. وهي علمت بأنه رجل في الخمسين .. وليس بطفل .. فالدكتور يفكر بتزويج ابنه أيمن وحيده

دهش سلمان للخبر وقال : أيمن ! ما هو طالب مدرسة؟!

- هو قال ذلك عندما فتحنا موضوع الزواج .. قال : الولد غير فالح في الدراسة .. لما يصل سن الثانوية العامة ، سيدبر له عملا أو موظفا في الحكومة على الشهادة ولو راسب ، ثم يزوجه ليتحمل مسؤولية نفسه

- غريب هذا الدكتور! وحيد في البلد ..لا أهل له يقول عن نفسه : لا أعرف عما ولا خالا ولا خالة ولا عمة ..من أين أتى؟!

قال أبو كسوة: هو ذكر لي اسم بلدته الأولى في هذه الدنيا ، البلدة التي ولد فيها قبل أن يصل إلى "أبو خروف".. عليه دم عند أهله .. فتخلوا عنه بعد وفاة امرأته أم أيمن

زادت دهشة سلمان وقال : هو قال لك ذلك؟!

- أجل



كان راشد في غرفة الفحص مع أحد المرضى عندما رن تلفون العيادة ، فرفعت العاملة السماعة وردت بنعم ...وعليكم السلام ... عيادة الدكتور راشد ... مدير مدرسة أيمن راشد ... الأستاذ يوسف خلاد ... انتظر وضعت السماعة مفتوحة على الطاولة ، وطرقت باب غرفة الفحص ، وسمعت الدكتور يطلب منها الدخول ، فأدخلت رأسها قائلة: تلفون يا دكتور

- ألم تر ما أنا فيه ؟

- إنه مدير مدرسة أيمن

- ماذا يريد هذا المدير؟!

- لم يقل شيئا يريدك شخصيا

- بعد قليل سأتصل به

أغلقت الباب وعادت للهاتف وقالت: مشغول يا أستاذ يوسف لديه شخص في غرفة الفحص هل أبلغه شيئا؟... ماذا ؟! إنه في المستشفى انتظر قليلا على الخط

عادت للدكتور قائلة: إنهم يقولون أيمن نقل للمستشفى .. تشاجر مع بعض الطلاب وضربوه ضربا مبرحا

ترك الطبيب المريض ، وخرج ورفع السماعة وقال بعنف: ماذا يا أستاذ يوسف!! ... مشاجرة ... حسنا أي مستشفى؟ ... مع السلامة .

وضع السماعة بغضب وسخط ، وعاد لغرفة الفحص معتذرا للمريض ، وأنهى علاجه ، ووصف له بعض الأدوية، وطلب منه العودة مرة أخرى دون مقابل ، وطلب من أسماء التصرف مع المرضى في صالة الانتظار ، وقد تابعوا هذا الإرباك الحاصل في الدقائق الماضية ، واعتذر لهم وهو يخرج مسرعا قائلا: الولد في المستشفى يا أخوان !

وترك العيادة ، ومشى نحو الشارع العام يبحث عن سيارة أجرة تنقله إلى مستشفى دار السلام ، وفي قسم الطوارئ وجد ابنه قد عولج من حجر أصاب رأسه فشجه ، وأراق دمه ، وكان المسعفون قد نظفوا الجرح وخاطوه ، ووضعت لفائف على رأسه ، وكان يصحبه أحد المدرسين ، ورحب الأستاذ بالدكتور ، وطمأنه على ابنه ، وكان أيمن قد استلم الدواء ، وتطلع في عيني أبيه قائلا بغضب : سأقضي عليهم ..غدروا بي يا أبي

- أهم طلاب من المدرسة؟

قال الأستاذ : طلاب في صفه .. مع احترامي يا دكتور راشد .. فابنك أيضاً جرح بعضهم ..

فأصاب أحدهم بلكمة ؛ ولكنها جاءت بعيدة عن العين .. ربك ستر .. أيمن حقيقة كثير المشاكل .. وأنا دائماً أنصحه بالابتعاد عن الأشرار والعصبية

تنهد الدكتور بأسف ، فهو يعرف مشاغبات أيمن من أيام المدرسة الإعدادية .. مرات عديدة ذهب لمقابلة المدير .. وحتى المرحلة الثانوية لم تخل من مراجعات الإدارة ، وسمع الأستاذ يقول : خرجوا من قاعة الامتحان ، وتعاركوا ، وارتفع صراخهم وصياحهم في الساحة لأن مراقب الامتحان أخرجهم من القاعة ، وقد أخذ منهم أوراق الغش ، وزعم أنهم فسدوا للمراقب عنه .. وصنعوا معركة .. وأرجو يا دكتور راشد أن تمر على المدرسة غداً ؛ لتتحدث مع المدير

- المدير اتصل بنا على العيادة مخبرا لنا بالحادث

ثم أخذ بيد ابنه الملفوف الرأس ، وشكر المسعفين ، ولما صاروا خارج المستشفى قال للأستاذ المرافق للمصاب: سوف أمر على المدرسة .. ماذا بك يا أيمن ؟

فكان يدافع عن نفسه ، ويبرر معركته ، وينفي محاولته الغش في الامتحان ، فقال الأستاذ بضيق بين : هذه ليست أول مرة يا أيمن !



أيمن راشد كان شابا مشاكسا ومشاغبا ، فقد اضطر والده للذهاب لمدرسته الإعدادية أكثر من مرة في السنة لمداراة مشاجراته وإيذائه للطلبة ، وكذلك كان يتعرض للضرب من عدد من الطلاب ، كان الفتى قوي البنية ، تقول إن جسمه أكبر من سنه ؛ لذلك لم يعد والده يتأثر من مشاجراته رغم عنفها ، فهي ليست الأولى من مشاكله خلال العام المنصرم ، ذهب لمقابلة المدير يوسف خلاد أكثر من مرة ، وكانت كلها بأن ابنه أساء للطلاب والأساتذة ، هذه المرة الوحيدة التي سيذهب ؛ لأن ابنه المظلوم أو المضروب ، لم يقصر الأب أثناء العودة من المستشفى بتأنيب الولد بأقسى الألفاظ ، وقذفه بالسباب ، وهدده بإخراجه من المدرسة ، ومع عدوانية الفتى الظاهرة للعيان كان ينجح في الفصول التعليمية ؛ ولكن بمعدل متدنٍ فوق الخمسين ، وأقل من الستين ، ولما وصل البيت والعيادة وجد أسماء وحيدة تستعد للانصراف ، فدعت له بالسلامة والعافية ، وحثته على التعقل ، فقال الطبيب: هل سيرجع المرضى؟

– لست أدري شجعتهم على ذلك ، فلما شرحت لهم الظرف الطارئ فارقوا العيادة ، وجاءت أم خضر وقعدت نصف ساعة ، وانصرفت ، ربما تمر عليك وهي عائدة من السوق

– أعطيه المفتاح ؛ ليذهب إلى البيت ، ادرس يا أيمن .. أنت تدرس لنفسك .. صباحا سأقابل حضرة المدير .. وأرى أسباب المشكلة الأخيرة ، وأسمع رأي المدير

تناول أيمن المفتاح من المرأة بعصبية ، ولم يتكلم بشيء ، وطلب الطبيب منها فنجان قهوة ، وجلس مكانها ينتظر ، وكان يقول لنفسه: ماذا سيفعل هذا المجنون عندما تعيش في البيت امرأة تكبره بسنوات ؟! هل سيسير المركب أم نغرق في المشاكل والمنازعات ؟! هل يتقبل هذا امرأة أب؟! أخشى أن نعود لمشاكل النسوان .. وأنا ما صدقت وأنا أخلص من سلمى أم أيمن .. وأخذ يتذكر شريط ذكريات أبي كسوة وزياراته له .. والزواج .. وبنت أبي كسوة .. لماذا لم تتزوج لليوم ؟ لعلها دميمة بشعة .. بنت تصل العشرين ولم تتزوج بعد .. هل من سبب ؟ ..وهي لم تدرس إلا الابتدائي .. قعدت في البيت تساعد أمها في رعاية الأطفال الصغار ..

وموظفو العيادة ماذا يدبرون لك يا راشد؟! .. هل من المعقول أن كل زبائني من مرضى العيادة الحكومية ؟ أكيد الدكتور نشأت يدفع لهم .. منذ بدأ نشاط عيادته الجديدة خف عدد مرضاي

وضعت أسماء القهوة أمامه ، وأدركت أن الرجل قد سرح فكره ، وقالت: مالي أراك صافنا يا دكتور في السماء؟ تقصد سقف الغرفة .. ابتسم لها وقال: أرأيت سحاب الدخان ؟شكرًا على القهوة يا أم محمود .. هموم .. وما دام لا يوجد زبائن فيمكنك العودة لبيتك ..لا تنظري إلى الساعة

فقالت : جزاك الله خيرا . ولملمت أوراق المكتب، وغسلت أدوات القهوة والشاي ، ولما شرب الدكتور قهوته غسلته ، ووضعته في مكانه المناسب ، وحملت حقيبتها المعلقة على الكتف ، وقالت وهي تكاد تغادر: هل صحيح ما يشاع يا دكتور؟

فنظر إليها وقال : هل صحيح ما يشاع ؟.. ما الذي يشاع؟!

- إنك تنوي الزواج من بنت أبي كسوة

تبسم وقال : لم يحدث شيء بعد .. بداية كلام يا أسماء .. الرجل عنده بنت يقول : إنها بايرة عمرها عشرون سنة .. ويدلل عليها وأنا لي عمر بدون زوجة .. وخائف من هذه المغامرة .. كانت امرأتي سلمى أم أيمن سيئة وعنيدة وشرسة .

وأغمض عينيه وراح في ذكريات سلمى. زار سلمان وشقيقه نعمان بيت جمعة حمدية صدقي في أصيل أحد أيام حزيران ، وأستقبلهم الرجل ، ورحب بقدومهم ، وجلسوا في غرفة استقبال في النهار ، وغرفة نوم في الليل ، وقدم لهم الشاي الساخن ، فقال سلمان: أنت تعلم سبب هذه الزيارة ، فقد كلفنا الدكتور بترتيب أمر زواجه من ابنتكم الكريمة .. وهو رجل وحيد في الحي ـ كما تعلم ـ لا أهل ولا أقارب .. والرجل يقول: ما هي طلباتكم ؟

وقال نعمان : وهو كما قال أخي أبو يوسف لا نساء عنده ليأتين لرؤية الآنسة ، والتعرف على أم كسوة

فقال جمعة بحماس ثم تردد : أنا أكثر من يعرف ظروف سيدنا الدكتور ؛ لكن وصلني خبر أيها السادة عنه أزعجني

هتف نعمان قلقا : خبر! ما هو هذا الخبر الذي أزعج أبو كسوة ؟!

- لا أدري هل هو صحيح أم كذب؟

قال سلمان: هات ما عندك يا معلم حمدية

- سمعت من يوم أن الدكتور المحترم قتل زوجته أم أيمن ، وسجن ثلاث سنوات ، فقلقت على البنت

بعد صمت دهمهم لثوان ، قال نعمان : وضعه غريب يا أبا يوسف ! وابتعاد أقاربه عنه يوحي بذلك .. فالرجل منذ سكن هنا بدون أهل ، ثم استدرك ؛ كأنه فطن لشيء فتابع: ولكنه طبيب يا أبا كسوة .. والحكومة لا تسمح لقاتل بأن يعمل على مداواة الناس وإنقاذ حياتهم

فقال سلمان مبررا ومبينا: قد يكون فعل ذلك .. قتل زوجته بالخطأ .. وحبس للحق العام .. لو كان القتل متعمدا يا أبا كسوة لقضى نصف عمره في السجن .. خمس وعشرون سنة قضاها في الدراسة وخمسة عشر عاما هنا ، وثلاث سنوات سجن .. هو وضع الدكتور مريب منذ سكن عندنا ؛ لكنه مسالم لم نعرف عنه سوءا

صمتوا من جديد .. وقال أبو كسوة: ألا تسعون إلى معرفة تفاصيل هذه المرأة المقتولة ؟ قبل أن نتهور، ونقضي على مستقبل البنت .. القتل كلمة مرعبة

قال نعمان : يا معلم جمعة.. الدكتور ـ كما سمعت ـ جارنا من سنوات .. له أكثر من عشر سنين يعيش في "أبو خروف" ، ولم نسمع له مشكلة سوى المشاكل التي يعاني منها من جهة ابنه أيمن .. ولد عدواني كثير الزعرنة ، والمشاجرات كما نسمع عنه

تنهد جمعة وقال : المهم أن الخبر هبطّ عزيمتي بالنسبة للدكتور .. وأخشى منه ..ومن ابنه يا أبا نوح ويا أبا يوسف

فقال سلمان : معك حق أن تقلق .. أنا سأتحدث معه عن قصة الجريمة التي وصلت إلى

مسامعك ، وكما قلنا يبدو أنه قتل خطأ غير متعمد ، فإذا اعترف لنا بذلك .. هل ستقبل بتزويج ابنتك منه أم ننسى الموضوع؟ فالدكتور أنت سبب تشجيعه على الزواج ثانية .. فهو من معرفتي به منذ عاش معنا .. وهو لا يحب الحديث عن النساء .. حتى أنني تفاجأت من حكاية زواجه وقبوله به .. الآن عرفت سبب كرهه للنساء ، من الكلام الذي دار بيننا .. وكلام كان يردد سابقا .. والحق أن المشكلة الكبرى حياة ابنتك مع ابنه في بيت واحد ؛ فإنه رغم صغره فهو سيء السمعة ، قبل أيام تشاجر مع طلاب في المدرسة وآذوه ، وشجوا رأسه ، ونقل إلى المستشفى للعلاج .. وراح راشد وأحضره من المستشفى .. فالولد متمرد ، ومشاكله كثيرة من أيام المدرسة الابتدائية .. عدواني بمختصر الكلام .. وكذا مرة ذهبت مع والده للإصلاح بينه وبين آباء هؤلاء الأولاد .. وها هو اليوم يسد شجه لفتى قبل سنة أو أكثر .. إني أذكر ذلك الحادث .. على كل حال يا معلم حمدية فكر جيدا بهذا الزواج ، ومرّ عليّ بعد يومين أو ثلاثة.. فإذا كان لديك توجه لإتمام الموضوع سأذهب لراشد واسمع منه قصة الجريمة .. قصة قتل أم أيمن وحبسه.. وانقل إليك التفاصيل وعلى أثرها تحسم أمر البنت ..وهل هي راضية به زوجا رغم كبر سنه ؟

- يا رجل عمي تزوج بنت دون العشرين ، وعمره خمس وسبعون سنة



زار سلمان العيادة قبل صلاة العصر ليتحدث مع الدكتور على انفراد دون وجود العاملة أم محمود ، وفعلا وجد الطبيب البشري وحده ، يدخن ويشرب الشاي ، ويأكل بعض قطع الكعك ، فدعاه لمشاركته ذلك بعد السلام والتحية والاطمئنان على الصحة والحال ، فشكره سلمان وصب لنفسه كوبا من الشاي ، ثم سمع الدكتور يشتكي ولده قائلا: هذا الولد يا أبا يوسف لا أعرف ماذا أفعل له ؟! .. كثير الشجار مع الطلاب قبل أيام ـ أيام الامتحانات ـ تعرض للشج ، والإصابة في الرأس .. ذهبت للمدير في اليوم التالي ، " وطلب مني حضرته في السنة الجديدة نقل ابني إلى مدرسة أخرى قائلا : لقد تحملته سنة ، فهو مشاكس ومشاغب وفوضوي ، يتقاتل مع الأولاد والأساتذة ".. وأنت تعلم يا حاج سلمان أنني لم أقصر معه ، وأوفر له الأكل والشرب واللباس والمصروفات والدخان والسينما والمسرح ، بل أصحبه إليهما ، ومع كل هذا يحب العنف .. ويهددني بشرب الكحول والمخدرات والشم .. وأنا حذرته من فعل ذلك " إن عرفت أنك تفعل هذه الموبقات ، فلا مكان لك في البيت ، فليذهب إلى أخواله في البلد ، ويعيش معهم "

فقال سلمان بعدما طال صمته: أله أخوال؟!

فضحك راشد مستغربا وقال : مالك يا حاج سلمان؟! أنا لست متغربا

أنا ابن بلد .. له أخوال وأعمام ، وجدات ، وأجداد ، مثل باقي البشر ؛ إنما علاقتي بهم سيئة للغاية ، لا تواصل بيننا ، ولا لقاءات ، ولا زيارات .. حظي من الدنيا هكذا.

– وأنا جئت إليك في هذا الوقت لمعرفة المزيد عن الأقارب والأهل .. فقد زرت أبا كسوة أمس .. أنا وأخي نعمان أبو نوح في موضوع زواجك من ابنته ، فوجدناه مرعوبا ومترددا في إكمال المشروع

استغرب الدكتور هذا الحال وقال : أبو كسوة متردد ومرعوب يا رجل ! .. هو الذي زهقني بعرض ابنته الغلبانة البايرة .. هل جن الرجل يا أبا يوسف؟!

– لم يجن ؛ لكن أحدهم ألقى في روعه أنك ـ صراحة ـ قتلت امرأتك أم أيمن .. وحبست بسبب ذلك ثلاث سنوات .

فصاح الدكتور بدون وعي: غريب .. تكلم بهذا !!

– من غريب يا دكتور؟!

انتبه الطبيب لنفسه وقال : غريب من الغربة والدهشة يا أبا يوسف العم أبو كسوة خائف مني ؛ لأني قتلت زوجتي الأولى

– أنا راغب بسماع هذه القصة إذا لم يكن في ذلك حرج أو إزعاج

أشعل راشد سيجارة جديدة ، وأخذ بعض الأنفاس قبل أن يتكلم :لا أسرار في ذلك .. وما دام أبو كسوة خائفا على ابنته فلننس الموضوع يا حاج سلمان .. لم أقتل سلمى أم أيمن عمدا .. قتلت بالخطأ ، وحبست ثلاثة أعوام في سجن راجم المعروف ، ولما خرجت منه لم أعد للبلدة والمدينة تلك ، أتيت العاصمة بداية ، ثم استقر بي المقام هنا في "أبو خروف" .. هذه حكايتي باختصار ، وما دام أبو كسوة خائفا على ابنته من القتل ؛ فأنا أيضاً خائف من الزواج منها خشية أن أجرم فيها هي الأخرى .. فلست بحاجة لامرأة يا سلمان ولا للنساء .. وآسف جداً على إزعاجك في حكايتي وزواجي .. عندما ترى الرجل فبين له عذري .. وإذا جاء إلى هنا سأعتذر له .. أنا آسف مرة أخرى يا أبا يوسف .. أصلا أنا لا أصلح للنساء ، ربما طبيعتي البشرية ماتت بموت أم أيمن

– الرجل يريد أن يطمئن على كريمته .. فالذي فسد عليك هذا الزواج هو يريد ذلك يا دكتور

– أنا أعرف من فسد عليّ .. فهو شيطان .. أكيد صور له أنني مجرم قتّال قُتلى

قال السيد سلمان مبديا خدمته : أنا يا سيدي في خدمتكم جميعا .. أنا لي رغبة في تزويجك .. وأنت تعلم هذا منذ مجاورتك لنا يا أبا أيمن .. وكنت أعجب من حياتك من دون زوجة ؛ ولكن لوجود أيمن معك .. حللتُ أنها ماتت أو طلقت ، ورجحت الموت لصغر الفتى ..

عندما سكنت هنا قلت لنفسي : في حياة راشد أمر غلط ؛ ولكني لم أعرف أنك قتلت زوجتك خطأ ، وحبست ، ولم أكن أعلم أنك هنا بسبب موت زوجتك ، فكنت أرى أنك كرست حياتك لابنك بعد موت زوجتك .. لم يذكر لي أبو كسوة من فسد عليك هذا الأمر ، لم اسمعه يذكر اسما

- لا بأس يا أبا يوسف .. كل شيء نصيب .. وعندما أقابله سأعرف منه المفسد .. وأنا أعرفه ؛ لكن ليزيد يقيني .. عفوا يا حاج هذا ليس سرا .. فالسجن مليء بالناس .. ونسمع أخبار وقصص بعضنا بعضا

بينما سلمان يتناول وجبة الغداء مع زوجته طرق الباب ، فأقبل حفيده يعلمه بأن رجلا اسمه أبو كسوة بائع الحلوى يرغب بمقابلته ، فطلب منه أن يدخله غرفة الاستقبال ريثما ينهي طعامه ، فالسيد سلمان يملك عمارة من أربعة طوابق في حي "أبو خروف" ، وهو يعيش في شقة منها ، وبعض وأولاده يجاوره ، وبعضهم يسكن في أماكن أخرى من المدينة ، وحتى أن بعض بناته استأجر أزواجهن عنده ، وهو أستاذ مدرسة في أول شبابه ، ثم انتقل للعمل في الوزارة ، وتقاعد خلال عمله موظف وزارة ، وشقته في الطابق الأول ، ويعيش مع زوجته وحدهما ، وتعلم أولاده وبناته كلهم خير تعليم ، وتزوجوا .. ولما أنهى طعامه ، طلب من زوجه صنع الشاي لهما ، وغسل فمه ويده ، ومشى نحو الصالون ، فلما رآه أبو كسوة نهض مصافحا ومعتذرا وداعيا بالصحة والعافية ، فقال سلمان مرحبا : ألك في صحن ملوخية يا أبا كسوة ؟.. أم يوسف أتحفتنا

بهذه الطبخة التي لا أعرف من أول من طبخها للناس ؟

- شكرًا "صحتين وعافية " ، ربما بنو مصر

عادوا للجلوس وقال السيد : أهلا وسهلا .

ونادى : يا أم يوسف هات صحن طبيخ للعم حمدية راجع من الشغل .

- كنت عند المدرسة .. ولما خلصت من بيع البنات .. قلت أمر عليك قبل أن أبيع ما تبقى

- شرفت بيتنا يا حمدية .. مرحباً بك .. وسمع نحنحة أم يوسف .. فذهب وعاد يحمل الطبيخ ورغيف الخبز ، ووضعه أمام حمدية على منضدة صغيرة قائلا: تفضل يا أبا كسوة . ثم ذهب وأحضر الشاي ، وجلس يراقب حمدية الذي هجم على الطعام ؛ كأنه لم يأكل من سنة ؛ وكأنه لا يأكل في بيته .. والرجل معتاد على ذلك ، ولا يرى غضاضة في الأكل في بيوت الناس ، ولا في الشارع على حافة رصيف.. فهو يخرج من الصبح حتى ينتهي من بيع سدر الهريسة .. وإذا باعه مبكرا ، عاد للبيت وأخذ دلو الترمس ، وانطلق للسعي في الأرض من جديد دون كلل ولا ملل .. حياته البيع حتى الليل .. انتهى من أكل صحن الملوخية ، وأخذ يشرب الشاي ، وهو يتمتم بالشكر والدعاء للسيد سلمان يوسف وأم يوسف .. وليس حمدية البائع الوحيد في حي "أبو خروف" ، ولما انتهت عملية الغداء أخرج الرجل منديله الصغير ومسح فمه من بقايا الطعام والملوخية الخضراء ، وغرق في الشاي ، ومدح الطعام والشاي والخبز ، وقال: الحياة صعبة يا حاج سلمان ..سامحني على إزعاجكم ، وتناول كوبا ثانيا من يد سلمان الذي قال : أبدا يا رجل .. الناس لبعض .. إنما هو من طعام البيت ، لم نذبح لك عجلا ولا فرخة

- الشاي لذيذ يا عم سلمان!.. أنت محظوظ لا داعي أن أخبرك عن شاي أم كسوة

- مرحباً بك ـ وسكب له الكوب الثالث باسما ـ الله يستر على أم كسوة خير يا أبا كسوة

تنحنح الرجل عدة مرات وقال: جئت أسأل عن الدكتور راشد

- الدكتور راشد كما قلت لنا ، قد قتل زوجته بالخطأ ، وقضى ثلاث سنوات في السجن ، ولما خرج منه ، ترك البلد واستقر في العاصمة ، وأخذ معه ابنه أيمن ، ثم استقر في "أبو خروف" وابتعد عن النساء والزواج ، ولولا حديثك أنت معه عن الزواج وإغراؤك له بابنتك ، ما فكر فيه ، وهو يرغب بمعرفة الرجل الذي فسد عليه هذا الأمر

- فسد عليه الأمر ، لم افهم !

- الرجل يعتذر عن الزواج ما دمت أنت منه مرعوبا ، وخائفا على ابنتك من القتل ، مرّ عليه

هو راغب بالالتقاء بك ؛ ليعرف سبب التغير .. والرجل لا ينكر قتله للمرأة بالخطأ ، بلا قصد للقتل ، ونال عقابه

- أنا لما سمعت هذه القصة رعبت يا أبا يوسف .. وخشيت على البنت ، وأن يمد يده عليها كما مدها على امرأته الأولى .. ألم تعرف كيف قتلها؟

- حاولت أن أعرف ، فلم يفصل الحادث ، أقر بسهولة بفعلته .. كيف كان الخطأ ؟ صمت عن التفاصيل .. ولماذا كان الخطأ ؟! لم يوضح ، بل تضايق وطلب مني إنهاء الموضوع ، وقال لست بحاجة إلى الزواج بعد هذا العمر .. لي خمس عشرة سنة بلا زوجة .. وبدون هموم وسموم النساء .. وقال لولاك شغلته بالزواج لما فكر فيه .. فهجره منذ ماتت المرأة أم أيمن .. وهو لا يصلح للنساء بعد ضعف طبيعته نحوهم .. فهو كرههنّ منذ موت أم أيمن

- أنا لم أرفض ؛ لكني خشيت توريط البنت الغلبانة مع زوج قتال للنسوان ، لابد من زيارته ، سأزوره

=+=+=+=+

اجتاح حي "أبو خروف" حكاية قتل الدكتور راشد لزوجته أم أيمن ، وقضاؤه في السجن ثلاثة أعوام لعدم القتل العمد ، وأشيع أنه قتلها عمدا ، وتمت لفلفة القضية ؛ ليخفف عنه الحكم ، ولو ثبت عليه العمد لأعدم أو أخذ تأبيدة.

نتيجة انتشار هذا الخبر بطريقة مغرضة قل زبائن الطبيب ، خاصة النساء منهم ، حتى أن أسماء عاملة العيادة ، طلبت الإقالة زاعمة للدكتور أن زوجها أرغمها على ذلك، والمفاجأة الصادمة للدكتور أن ابنه أيمن الذي لا يتكلم بموضوع معه ، تحدث معه في هذه الإذاعة، وشأن هذه القضية مظهرا وزاعما انزعاجه من طلاب المدرسة القاطنين في "أبو خروف" ، وأنهم يعلمون بهذه الحكاية ، فصاح فيه أبوه مضطربا: يا ملعون ألم أقل لك ذلك منذ سنوات ؟ لما أكثرت بالسؤال عن أمك .. وأخبرتك أن شجارا حادا حصل بيننا ، ودفعتها غضبا ، فوقعت على الأرض بعد أن صدم رأسها في خزانة الثياب ، ثم نقلت للمستشفى ، وماتت فيه

من شدة الضربة ، وحبست بسبب ذلك ثلاث سنوات .. وأنت قضيتها في ملجأ الأيتام .. تخلى عنا القريب والبعيد .. هل تراني مجرما يا ملعون؟! هؤلاء الذين يصطدمون الناس بسيارتهم .. هل يتهم أحد منهم بأنهم قتلى ومجرمون؟!

قال بضجر : لقد انتشر الخبر بهذه الصورة البشعة فسبب لي الحرج ، ولما أقترب وألتقي ببعض الطلبة في شوارع الحي يعيروني .. ويقولون عرفنا سر العدوانية التي فيك .. أنتم عيلة قتلة .. فأمسك أعصابي خشية الفتك بأحدهم .. ويقول آخر : أعرفتم من أين جاءت عدوانية أيمن ؟! فأبوك قاتل أمك .

أنزل الدكتور رأسه إلى الأرض وهو يسمع هذا الكلام ، وقال بعد جهد وصمت طويل: ماذا أفعل لك ؟! عندما تصل الثانوية العامة العام الدراسي القادم سواء نجحت أم رسبت سأسعى إلى تزويجك لتعيش حياتك.. أتستطيع تحمل حياة زوجية وأنت في هذا السن ؟ .. أم تريد أن تقتلني أنت على خطأ قتلي لأمك؟

عاد أيمن يردد :لماذا انتشرت هذه القصة اليوم ، وبهذه الصورة القبيحة؟!

- نعم ، هذا هو السؤال الصحيح يا أيمن ؟ وهذا أول سؤال جيد أسمعه منك يا أيمن .. ومن يوم موت أمك على يديّ رفضت الزواج من جديد.. ولنا سنون هنا ، ولم تنتشر هذه القصة .. ولما فكرت بالزواج من بنت أبي كسوة تحركت القصة .. ناس لا يريدون زواجي منها .. فنشروا الخبر ليخاف أبو كسوة ، وتخاف ابنته .. فالقصة لم تكن مجهولة .. فهي معروفة عند أبي والعائلة وأهل البلد ، بل الصحف في تلك الأيام كتبت " دكتور قتل زوجته" ، ومن كان معي في السجن سمع القصة ، ويعرف سبب وجودي معهم .. والشرطة تعلم .. من له مصلحة في منع هذا الزواج هو وراء نشر القصة بالطريقة السيئة والخبيثة ..ورغم أني صرفت نظري عن الزواج ، وقد قلّ زبائن العيادة زاعمين أن الطبيب يميت الناس ، مادام قد موّت زوجته .. علينا أن نقاوم يا ولدي .. ولنتحمل ونصبر .. وسنوات يسيرة وتشق طريقك في الحياة .. وترى مستقبلك وحياتك في هذه الحياة الدنيا ..أنا لو جدك والد أمك تنازل عن حقه

لما قضيت في السجن ثلاث سنوات .. أنا لا أخفي هذه الحقيقة ، وكل أقاربنا يعلمون بها ؛ لكن هنا لا أقارب لنا .. كانت أمك ـ سامحها الله ـ متعبة وكثيرة الشكوى كثيرة الطلبات .. ولقد ولدت طفلين قبلك ؛ ولكنهما ماتا قبل الحادث ، ولم يكمل أحدهما السنة ، ولما ولدت فرحنا بك .. وقلت تتحسن حياتنا ، تقل مشاكلنا ومشاجراتنا ومنازعاتنا .. وأنا مثلك كنت عنيفا .. يدي قبل عقلي .. لا صبر لي على الأذى ؛ لذلك لما تعمل شرا أخشى عليك الخطأ القاتل مثلي .. أرأيت كيف يحاربونني ويؤذونني؟

- ألا تعرفهم؟

- لو عرفتهم ماذا أفعل بهم؟!

- تشكوهم للشرطة .. ترفع قضايا عليهم

- وكيف نثبت ذلك عليهم ؟ ..كلام يقال .. والقصة صحيحة .. هل سيعترف المثير للإشاعة وهو يريد إيذائي ؟ إنهم جبناء يا أيمن .. وحرب الجبناء صعبة!



كان صيدلي العيادة الشعبية يتحدث مع كاتب السجل الطبي غريب باسل قائلا له وفي نبرة صوته ضيق وغضب مكبوت :كلمني أصحاب الصيدليات في "أبو خروف" طالبين مني المرور عليهم لسحب الأدوية التي نقدمها لهم من العيادة .. فهناك حملة عليهم في الصحف ..وقد تقوم دائرة التفتيش بحملة عليهم للتأكد من عدم وجود أدوية الوزارة في صيدلياتهم

بعد تفكير قال غريب قلقا : يبدو يا أمجد أن حملتنا على الدكتور راشد فشلت .. فمنذ أيام أخذت الصحف تتحدث عن الفساد في عيادات وزارة الصحة ، وعن النقص في أدوية العيادات الصغيرة والكبيرة .. وعن مافيا الدواء والتهريب .. وشراء أدوية من صيدليات القطاع الخاص ممهورة بعلامة وزارة الصحة ..ويعزون السبب إلى بيعها في صيدليات القطاع التجاري .. يظهر أننا تسرعنا في الانتقام ..لا يبدو الدكتور سهلا كما ظننّا ..والناس بدأت تنسى قصة جريمة قتله لأم ولده مع أن العيادة تكاد تكون خالية .. حتى أن نمرا فكر بإرجاع زوجته أسماء للعمل في العيادة من جديد .. وأجل الدكتور ذلك

- الأدوية ماذا سنفعل بها يا غريب ؟ فهي كميات كبيرة .. حرمنا منها المواطنين .. وهي تعتبر خارجة من الصيدلية بحكم الوصفات الوهمية .. وصرف نصف الوصفة للزبون بزعم النقص .. والدواء له عمر ..إننا في خطر وموقف صعب يا سيد غريب

قال الآخر متمنيا : لو تنازلنا عن التسعين دينارا .. كان يجب أن نسمع نصيحة الدكتور شامل بنسيان راشد .. ما دام قد وجدنا بديلا عنه ؛ لكن خشينا من تمردهم علينا .. أنا أضع اللوم عليك يا أمجد .. تريد أن تبني بيتا على حساب الوزارة

- يا شاطر كلنا في الهوا سوا

- أعرف لا تغضب .. رتب إلى أخذ الأدوية منهم ، وتخبئها في بيتك أو توريدها لصيدليات بعيدة عن "أبو خروف"

- في بيتي الإخفاء صعب .. الأولاد والمرأة وأختي وزوجها جيران لي .. وعمال البناء

والورشة .. دبرها أنت .. أنا سأضعها في أكياس سميكة وأنت أمّن لها المكان

– أفكر بأن أذهب لراشد وأبي كسوة الذي تردد في تزويج ابنته لراشد .. وأشجعه على تزويج ابنته من راشد

– والدكتور

– أتظاهر أنني ما زلت أنتظر دفعه للمال ، وأن لا يد لنا في فضيحته في الحي ، ولسنا وراء هذه الحملة .. وهو بالطبع سيرفض ويغضب .. ثم أتظاهر أننا سامحناه ، وأوقفنا التعامل معه

– حاول تهدئة الأمور .. المهم إذا لم نسحب نحن الأدوية .. فسيزعمون أنهم تخلصوا منها نيابة عنا ، ويحرموننا من ثمنها

– وأنا هذا ما أخشاه أن يستغلوا حملة الصحف ، ويسرقوننا علنا بحجة الخوف من التفتيش .. على كل حال سأدبر بعضها عندي .. وبعضها الآخر عندك .. وكما أدخلناها عليهم سرا ، نأخذها يا أمجد سرا .. سأتعامل مع صيدليات وسط المدينة ، حيث تكثر الصيدليات التجارية .. نحن خاصة بعد تعودنا على ذلك لن نستطيع التخلص من الدخل الزائد .. كم صيدلية نتعامل معها هنا؟

– خمس صيدليات وثلاثة أطباء

– متى ستذهب إليهم؟

– الليلة ، خير البر عاجله

ضحك غريب وقال: نعم البر هذا .. سأقابل الدكتور الليلة في بيته .. وأمر على أبي كسوة وأحثه على تزويج ابنته من حضرة راشد .. وأم محمود لتعود للعيادة ..سنرمم الأمور ونكحل العيون .. وكذلك الشغالة أم رسمي تظاهرت بالخوف وابتعدت .. أخبرني ابنها أنها خافت فقد رعبت من جريمة القتل التي ذاع صيتها في الحي .. هو فقط خسر زبائنه أو قلّ عددهم بسبب هذه الإشاعات .. وهو يعيد القلة لظهور الدكتور نشأت قريبا منه

ترك أمجد غريبا وعاد للصيدلة ، ثم خرج لغرفة المقسم الخاص بالعيادة ، وتحدث مباشرة مع

أصحاب الصيدليات الخمسة ، ورتب معهم مواعيد لسحب الأدوية بأسرع وقت ممكن ، وأخبره بعضهم بأنها في صناديق جاهزة للنقل ، واتفقوا على العودة للعمل بعد انتهاء حملة الصحف ، وانتهاء حملة التفتيش



استقبل راشد غريبا في شقته وذلك بعد أذان المغرب ، فلما فتح الباب ورآه ، قال دهشا: أنت .. ماذا تريد؟! .. لن أدفع فلسا واحدا ، مهما فعلتم لتشويه سمعتي

فقال غريب: اسمح لي بالدخول ؛ لعلنا نتفاهم يا دكتور راشد .. المال لي فيه شركاء .. وهم يتهمونني بأخذه دونهم

- أي مال يا رجل ؟

- فلنتحدث في الداخل .. ها هو باب شقة جيرانك يفتح

فتح باب الشقة الثالثة في الطابق ، وقال الرجل الفضولي: صوتكم عال يا دكتور هل من شيء؟!

- شكرًا أبا محمد .. هذا غريب موظف العيادة

صافح الرجل غريبا وقال : أهلا وسهلا .. تفضلوا يا جماعة الخير

- شكرًا أبا محمد .. تفضل يا أخ غريب

وفتح الطريق لغريب الذي دخل البيت ، الذي يعرفه منذ تعرف على الدكتور من سنوات خلت ، فقال راشد: تفضل يا أبا محمد

شكره وهو يغلق بابه معتذرا له ، وأغلق راشد الباب ، وقال وهو يشير لغريب بالجلوس : أهلا وسهلا .. اسمع يا أخ غريب .. أعلم وأدرك ما فعلتموه ضدي

فقال غريب متظاهرا ببراءة الذئب من دم ابن يعقوب: لم نفعل شيئا ضدك يا حضرة الدكتور

.. حاولت إقناع الزملاء بعجزك عن الدفع .. وأن الزبائن قلّوا ؛ ولكنهم لا يصدقون .. يزعمون أني أريد تملك الحصة وحدي ، غير مصدقين أنك ترفض الدفع .. وسوف أجمعك بأحدهم ؛ ليتأكد أنك تخليت عنا ..وأنا لم آخذ منك فلسا واحدا منذ شهور ثلاثة

قال بحدة : أرفض الاجتماع بأحدهم .. أرجوكم ابتعدوا عني .. أعرف أنك الذي فسد زواجي من ابنة أبي كسوة

صاح غريب محتجا ومنكرا: أبدا أبدا يا دكتور .. وهل أنا قريبه؟! ..وأنا مستعد الآن أن أذهب لأبي كسوة ، وأشجعه على تزويجك ابنته

ضحك الدكتور: هو الذي قال إنك ضغطت عليه حتى لا يتقلد خطية البنت ، ويزوجها إلى قاتل .. نحن نعاشر بعضنا من سنوات يا ابن الناس

– والله ـ إن شاء الله ـ سأذهب إليه بعد الخروج من عندك ، وإذا كان أبو كسوة يسمع كلامي سيمر عليك غداً .. ويذكر لك أنني مررت عليه ، وشجعته على إكمال ما بدا به .. القضية أن شركائي لا يصدقون

– اسمع أنا لن أدفع .. وشغلي توقف بسببكم.. وربما أغلق العيادة .. وسأعمل في أحد المشافي أو العيادات الكبيرة .. لست بحاجة لرواد عيادتكم .. أصلا مرضاكم بحاجة لمستشفيات لا لعيادات طب عام

قال غريب بهدوء : أنا لا أريد الفلوس .. وما جئت من أجلها .. نحن أصدقاء وأصحاب .. تعلم أن الصحف والمجلات هذه الأيام شغلها الشاغل الفساد في الصحة .. ولا تظن أننا أغبياء يا دكتور .. نعرف أنك كتبت لوكيل الوزارة بفساد عيادتنا .. فنحن لنا أصدقاء هناك .. ولما رفضت العمل معنا وجدنا غيرك .. وهذه أرزاق قسمها الله .. نحن لم نقل لأحد لا تذهب لعيادة فلان من الناس .. الشركاء يوجهون المرضى لعيادات نتعامل معها .. ولا نحمل عصا لنجبر المريض أن يأتيك أو يأتي فلان من الناس .. وقلت لك الجماعة يشكون بأني آخذ المال وحدي ، آخذه لجيبي الخاص

قال الدكتور رافضا التنازل والتراجع عن قراره برفض استقبال أي شريك لغريب : ليس الأمر عندي .. لا تحضر أحدا ، ولم أكتب للصحف ولا الوكيل .. وهل تظن أنكم وحدكم يفعل هذا الخداع ، ويبيع الأدوية للقطاع الخاص؟! .. هذا للأسف فعل شائع في أغلب عيادات الصحة والعالم الثالث كله ..واعلم أن هناك تحقيقا جديا في القضية هذه .. الأمر في الوزارة ..فأنصح شركاءك بأخذ الحيطة والحذر

تبسم غريب وقال : شكرًا على هذه النصيحة ..سأمر الآن على أبي كسوة .. وسأقنعه بما تحب ؛ لتعلم وتتأكد أنني لم أحرضه عليك

ضحك الدكتور وقال: لا يهمني أبو كسوة ولا أم كسوة .. ما عدت أرغب بالزواج .. فأنا قتّال النساء .. واعتذرت لزوج أسماء عن عملها معي ؛ لأني أفكر جديا بإغلاق العيادة وباب إبليس .. وأم رسمي تزعم الخوف على حياتها .. لا تظن أنني أهبل .. هذه أفعال صبيانية منك ، ومن عصابتك .. والآن أقول تفضل بالخروج ، ولا داعي لذهابك إلى أبي كسوة .. وتأكد أن مقالات الصحف وتحقيقاتها لا دخل لي فيها



دخل سلمان عيادة راشد ، فوجده وحيدا ، فصافحه وعادا للجلوس ، وقال: ما أخبارك اليوم يا أبا أيمن ؟

- الحياة قاسية هذه الأيام ، أهلا بحضرتك وعساك بخير

- الحمد لله

- كيف حال أم يوسف سمعت أنها دخلت المستشفى ؟

- بخير ، باتت ليلة واحدة .. ماذا في هذه الجرائد التي أمامك؟

- إنهم يدندنون حول قضية بيع أدوية العيادات الشعبية لصيدليات

القطاع الخاص .. يبدو أن مكتب النائب العام سيدخل على الخط

قال سلمان : فليدخل .. الحكومة لا تعرف بمثل هذا التسيب!.. إذا نحن البسطاء نعرف .. وعندما نشتري أدوية نجد عليها علامة الصحة يا أبا أيمن أو "مقحوطة " .. اللف والدوران والعبث متفشي .. سمعت أن صيدلي "أبو خروف" وبعض موظفي العيادة ، يبيعون الدواء لبعض صيدليات الحي ، وتباع لهم برسم البيع .. وأن حملة تفتيش قائمة .. وبعد صمت من الطرفين قال : كيف أيمن مع هذه العطلة؟!

- كما يقال ماشي .. وقد سمحت له هذا الموسم بالعمل في مكتبة في مركز المدينة

- العمل ممتاز يفتح قلب الشاب على الحياة ، وعلى أهمية المال في الحياة الدنيا .. عساه سالك

قال راشد بعد فكر سريع : له أسبوع منذ بدأت العطلة ، ولحتى الآن سالك ..خير يا أبا يوسف لا أعتقد أنك جئت لنتحدث عن أيمن .

تبسم الرجل وقال : أكيد ، وإن تهمنا أخباره الطيبة .. خير يا دكتور .. أنا أعرف العاصفة التي دهمتك خلال الأيام الماضية يا أخي المحترم .. هذا أبو كسوة عاد إليّ أمس .. ليلة أمس جاءني على المقهى حيث أسهر وتحدث مع بشأن البنت .. وإنه يأسف لتصديقه الإشاعة أو فهمه القضية بطريقة خبيثة .. وقد صورت له بأنك قاتل نسوان العالم .. وبعد تأمل وتفكير ـ إذا كان يفكر المسكين ـ رأى أن هذا الكلام غير صحيح ، ولما تحملت العناية بابن زوجتك ، وقد قتلت أمه ، واكتشف أن هناك خطأ كان من المرأة أدى إلى تلك الحادثة المؤلمة .. والرجل يرحب بأن تكون زوجا لابنته وصهرا له .. وهو يرحب بنا بأي وقت تشاء .. فقلت له إن الدكتور يرفض الزواج .. ومن كثرة ترجيه عدت أضع الموضوع عندك من جديد ؛ فإذا كان لك رغبة في النساء بعد أن وضحت الصورة لأهل الحي ، ولتجديد شبابك .. فالرجل وأسرته يرحبون بإتمام هذا الزواج .. والبنت تعلقت بهذا الزواج .. ولولا الحياء لجأت بنفسها تعتذر عما سببه والدها لك من حرج وحنق .. هذا هو الموضوع .. والدار كما يقال بدون امرأة مرة وظلمة ومعتمة .. والمرأة تتحمل المرة والحلوة

قال راشد وهو يشعل سيجارته ويعزم على الشيخ أخرى: غير رأيه أبو كسوة .. وذهب الخوف والدعاية السوداء من قلبه من أن اقتل ابنته .. رجل بسيط كلمة تشرق به ، وأخرى تغرب به وضعيف الشخصية .. وأعرف من غرر به ، ومن أصلح رأسه عليّ ، وأن من مصلحته تزويج ابنته للدكتور راشد .. واعلم أنا لا مانع لديّ من الزواج من ابنته وبدون تفكير ؛ لكن دعني أفكر بقوة وجدية يا أبا يوسف ، وخاصة بمصاهرة هذا الرجل الغلبان ، وأنا لما أغلق العيادة سأمر عليك على المقهى ، وأبين شروطي وموقفي النهائي

- وهناك السيدة أسماء

ضحك راشد وقال معتذرا : آسف لا داعي لعودتها يا حاج سلمان .. فالزبائن قلّوا بسبب الدعاية السوداء ، ولا مجال لعملها معي ، ولا حتى الشغالة أم رسمي ؛ فإذا تزوجت بنت هذا المخرف فلا حاجة لها



تعلقت نفس الدكتور بالعودة للزواج بعد كل هذه السنين من الانقطاع ؛ لذلك قبل العودة للزواج من ابنة أبي كسوة بمجرد تشفع سلمان بينهم ، وذهب مع سلمان ونعمان لبيت الرجل ، وصحبهم بعض رفاقهم في المقهى ، وتم طلب يد البنت للدكتور مع قبوله اعتذارات أبي كسوة وأسرته ، وتحدد وقت الزفاف خلال أسبوع أو أسبوعين ، فبعد كتابة العقد الشرعي في المحكمة ، سيرتب الدكتور البيت خلال يوم أو يومين ، فسيقوم بتبديل سرير غرفة النوم المفرد بسرير مزدوج ، بل تبرع به لأبي كسوة وقبله فورا ، وسيكون الاحتفال حفلا صغيرا لعدم وجود أقارب للدكتور في الحي ، وذهبوا إلى دار المحكمة الشرعية ، وعقد لهم القاضي العقد الشرعي ، واستلمت البنت المهر ستمائة دينار بحضور سلمان وشقيقه نعمان ، وجمعة ، وأحد أبناء أبي كسوة ، واشترى لهم الدكتور كمية حلويات ليحتفلوا في بيتهم بكتب عقد الزواج ، وطلب من إحدى سيارات الأجرة أن توصلهم لبيوتهم ، وأما هو وسلمان ونعمان فركبوا في سيارة نعمان إلى أحد المطاعم ، وشاركوه الطعام ، وترتيبات حفل الزفاف ، ولما عادوا لـ "أبو خروف" فشكرهم راشد شكرا جزيلا ، واتجه إلى معرض أثاث واختار غرفة نوم تليق بعروسه الجديدة ، وخلال يومين تحولت غرفته إلى غرفة عريس ، وأقيم حفل زواج صغير في صالة حفلات في نفس "أبو خروف" ، وأرسل الدكتور أيمن لينام في أحد فنادق المدينة قبل العودة للبيت حيث حجرته ، وتمنى الشاب السعادة لأبيه وهو يغادره إلى أحد أماكن النوم بالأجرة ، وكان الأب يقول له مودعا: إن شاء الله قريبا سنحتفل بنجاحك ، ثم زواجك يا أيمن ، عندما تصل الفندق اتصل بي ، وأعطني رقمه واسمه .. ثلاثة أيام فقط يا أيمن وتعود للحياة معنا .. وستكون لك بمقام الأم التي حرمتك منها ـ سامحها الله ، ورحمها الله ـ لولا غضبها وعنادها ؛ لكن لو تفتح عمل الشيطان

انصرف أيمن إلى أحد فنادق وسط المدينة ، لم يرغب بالمبيت بفندق "أبو خروف" ، فتركه الدكتور على راحته

وانصرف المدعون رويدا رويدا ، وانتقل الدكتور وعروسه ، وبعض آل أبي كسوة إلى شقة الدكتور ، وذهب بعض أبنائه لإحضار عشاء للعروسين وبعض آل أبي كسوة الذين دعاهم للعشاء في شقته ، وحضر العشاء الذي وصى عليه أحد المطاعم في "أبو خروف" ، وتناول الحاضرون الطعام على مائدة راشد بمناسبة الزواج ، وغادر آل أبي كسوة الدار بعد العشاء متمنين للعروسين السعادة والمعاشرة الطيبة ، وانتقلت ابنة أبي كسوة عروسا في بيت الدكتور راشد عبد المحسن ؛ وذلك في عشرة أيام .

ولما أغلق الباب وراءهم ، قال لها: هل وضعت بذلة الصالون في حقيبتها ـ بذلة بيضاء خاصة بالعروس ـ حتى نعيدها لهم غداً

قالت : نعم .

وقال : تعالي إلى المطبخ لم تأكلي بشكل جيد .. لقد لاحظت ذلك.

وجلسا إلى مائدة المطبخ حيث وضع الفاكهة التي اشتراها للترحيب بعروسه الجديدة ، وقدم لها العصير الطبيعي الذي أحضره أيضاً وقال : أهلا وسهلا أرجو أن تكون حياتي سعيدة بوجودك معي يا أميرة

– شكرًا لك يا سيدي ، وأرجو أنا ذلك أيضاً

– ألم يتقدم أحد لخطبتك يا أميرة فأنت جميلة وطيبة؟!

– هذا من لطفك يا دكتور .. تزوجت كل أخواتي الأصغر والأكبر مني .. يبدو أنهم لما زوجوا الأصغر ظن الناس أنني لا أريد الزواج. أو هناك شيء يمنعهم من تزويجي .. ثم تلحق بها الأصغر حتى كبرت ، وقلّ الخطاب ، ولما عرفك الوالد رغبني بالزواج منك .. وهوّن من فارق السن بيننا .. فرضيت .. والبنت كما تعلم ليس لها إلا الزواج .. وجرى ما تعرفه .. والنصيب هو الحكم الفصل .. جاءنا رجل كأنه الشيطان ، وطعن فيك ، وخوفنا من هذا الزواج ، وأنك تشكل خطرا على حياتي ، وأنك قتلت زوجتك ، وهربت إلى "أبو خروف" ، خوفنا من هذا الأمر ، فصدقه أبي من كثر ما تكلم ، وخاف عليّ .. وأنا صدق لم أصدق ما

سمعت .. فأنت دكتور وتعمل ، ولو كان ما قاله هذا الحسود صحيحا ما سمحت الحكومة لك بفتح عيادة .. هكذا قال كسوة لأبيه وأيدته ؛ لكن الخوف سيطر على أبي ؛ ثم عاد الرجل يعتذر لنا عن إساءة اتهام الدكتور .. وقال : كان القتل بالخطأ ، وتظاهر لأبي بالأسف والندم ، وأن المرأة ضرب رأسها بالخزانة ، ووقعت على الأرض ، ثم ماتت في المستشفى أثناء العلاج

– أرجو أن تكوني طيبة يا أميرة ، ونعيش سعداء .. والرجل الحاقد موظف عيادة "أبو خروف" إنه شيطان اسمه غريب

– كأنني سمعت هذا الاسم .. لا تزعل منا يا دكتور .. نحن أناس غلابة

زار غريب الدكتور بعد أيام من زواجه مدعيا أنه جاء ليهنأ الدكتور بهذه المناسبة السعيدة ، ففتح له الطبيب باب الشقة ، وأدخله مرحباً وشاكرا ، وجلسا في الصالة ، وطلب له فنجان قهوة ، وشكره على تدخله في إتمام زواجه بعد أن خربه فرد بالقول : قمت بالواجب ..لا شك عندك أنني الذي فسدت الزواج

ضحك الدكتور وقال: أنت وراء كل شيء .. فأبو كسوة يعرفك حق المعرفة .. ولو رحت له بنظارة سوداء

تضاحك الرجال وقال : على كل حال لن أستطيع نزع هذه الفرية من رأسك ورأس أبي كسوة .. المهم أنك تزوجت .. وحقنا هل فكرت فيه؟

– حقكم يا سيدي ! لا أدري كيف يكون هذا الحق لكم والشغل تجمد بسببكم؟!وصورتم موت زوجتي الأولى بصورة بشعة يعجز الشيطان عن فعلها

– أريد أن أحضر أحد الشركاء ليسمع هذا القول

– هات أحد الشركاء يا غريب .. أنا لست خائفا من أحد .. فالعقد الشفوي قد انتهى منذ شهور

– حسنا أبا أيمن .. هل لك أن تكف عن التحريض علينا في الصحف ؟

تظاهر بالدهشة وقال مستغربا: أنا! أنا ما كتبت رسالة أو مقالة لجريدة ولا مجلة

- كتبت لوكيل الوزارة
- لم أكتب ، صدق لم أكتب .. إنما تكلمت مشافهة مع أحد الموظفين الكبار .. ولم أذكر اسم أي أحد منكم .. إنما زعمت أني ألاحظ كذا وكذا ، وانتهى الكلام ؛ والسبب لأنكم أسأتم إليّ ولابني كثيرا.. اتهمه بعض التلاميذ بأنه ابن قاتل وسفاح
اعترف غريب قائلا : أخطأنا يا دكتور ، وتسرعنا في ردة الفعل ونشر الكلام .. والناس تحب تبهير الأخبار والزيادة عليها .. فنحن على استعداد لفتح صفحة جديدة .. ونعيد الكرة والمرضى .. ونبدأ من جديد ونسامحك في الشهور الثلاثة
قال راشد مستهجنا العرض : أنا أعيد الكرة ! لا كرة ولا مرة .. المهم أن تبتعدوا عني .. وأنا بعيد عنكم .. وسأغلق العيادة قريبا عندما أباشر عملي في أحد المستشفيات .. وأنا الآن مسؤول عن امرأة يا غريب .. خليني بعيدا عنكم
- سأحضر شريكا لتقل أمامه هذا الكلام .. وأنك لم تدفع الشهور الماضية .. وليس بيني وبينك أي اتفاق
استسلم راشد وقال : سأخدمك هذه الخدمة ؛ لأني لا أحب أن تدفع من جيبك إذا كان كلامك صدقا ، ولا تكون خائنا بينهم .. مروا عليّ في العيادة وقتما تشاءا .. شرب غريب قهوته وشايه وغادر الشقة ، ولم يظفر بقرش واحد ، ولم يفلح بإغرائه للعودة للتعاون معهم ، ولم يعرف غريب كيف سيتخلصون من حملة التفتيش التي تهدد بها المراقبة والوزارة ؟
فقد حضر رجال المراقبة لبيت أمجد عبد الظاهر ، وفتشوه بحثا عن الدواء ، وأوقف عن العمل حتى ينتهي التحقيق ، إما لمصلحته وإما ضده .. فقد اعترف صاحب صيدلية بأخذه أدوية منه شخصيا .. والرجل يهدد بفضح كل المتعاونين ، ولا يمكن إثبات جريمة إلا على الصيدلي ؛ لوجود الأدوية .. فأما التعاون مع الأطباء فهو بالتوجيه والدعاية .. والمريض يذهب بكامل حريته إليهم .

أيمن راشد

ذكرنا أن أيمن راشد كان يعمل في مكتبة منذ بدأت عطلة المدارس الصيفية ، وكان صاحب المكتبة ذا معرفة بالدكتور راشد ، فقبل عمل الشاب الصغير معه خلال فترة الصيف ، وهذه عادة يقوم بها بعض التلاميذ أثناء عطلة الصيف ، يقومون بالعمل بالمحلات والمصانع والمطاعم ، والرجل بعد حين عرف صفات وطباع الشاب ، حتى مشاجراته مع الزبائن أثناء المفاصلة لشراء كتاب أو غيره ، فكان الرجل يصلح الوضع بينه وبين الزبون ، ويتفاهم مع المشتري والاعتذار ، وبعد انصرافه يلقي توجيهات وموعظة للشاب ، فيقول له: يا بني هذا ـ يعني الزبون ـ رأس مال المحل الحقيقي .. هو الذي يبتاع هذ الكتب .. فنحن نحبب له الشراء ، ونحسن المساومة ؛ ليشتريه ، لا نقاتله وننفرزه يا أيمن .. ليس بالضروري أن يشتري الزبون الكتاب إذا صارت مفاصلة .. الشراء بالحرية الكاملة .. قد لا نكون أول مكتبة دخلها الزبون .. فربما وجد سعرا أقل في مكتبة قبلنا .. وكرر أيمن التصرف السيء مع الزبائن وكذلك عدم الاستيعاب للإرشادات ، فنقله معلم المكتبة إلى نقل الكتب من المخزن إلى المكتبة وترتيبها في مواضعها المناسبة ، وتنزيل البضاعة من سيارات الشحن للمخزن ، أو إرساله في طلبية إلى مدرسة أو مكتبة أخرى أو معرض .. فصار يتذمر وأنه مجرد عتال ، فقال مرة لصاحب المكتبة: أنا اشتغل عتالا يا أستاذ بسام

تطلع فيه بسام لحظات وقال: وأنت ماذا تعمل عندي؟! .. مدير .. اسمع يا ولد أنت تعلم أني صابر عليك لصداقتي بوالدك راشد .. وأقول كلهن شهران زمان .. أنت يا ولد لا تصلح للعمل .. سمحت لك باستقبال الزبائن ، فصرت كأنك تخوض معركة .. أنا أعرف حبك للعنف والمشاجرات ، حدثني أبوك ببعضها أعطاني فكرة .. هذا هو الشغل يا بني تحميل تنزيل ونقل .. ويكفي أني أسمح لك بالدخان ، وهو ممنوع .. وتقرأ كل هذه اللوحات التحذيرية ..وتجعل نفسك لم تقرأ ، ولم تسمع ، ولم تر .

فأخذت الشاب العصبية ، فصار يسب ويشتم الشغل والاستعباد والظلم ، فقال المعلم : هذا

كلام فارغ .. ها هو محمد كان يعمل مكانك ، ولم يشكُ من ذلك ، وأنا لا أحب سماع هذا الكلام والسخط .. لا يعجبك العمل معنا عد لأبيك .. وأنا تحملتك للصداقة مع والدك المسكين .. ومضى شهر من عملك معنا.. فاصبر حتى ينتهي الشهر الثاني

عاد للتذمر من الظلم والعذاب الذي يتعرض له ، مما أثار حفيظة محمد الذي يسمع ويرتب بعض الكتب ويبيع ، فقال لأيمن : يا سيد أيمن إذا لم يعجبك الشغل معنا وغير مرتاح ، فابحث لك عن مكان آخر .. جرب غيرنا .. لماذا تتسخط وتتعب روحك؟!

سحقه أيمن بعينيه وقال: وأنت ما دخلك .. أنا أتكلم مع المعلم

- كلامك أعوج ، ولا أحد يتحمل العوج ! والمعلم يحترمك من أجل خاطر أبيك ، وأنت لا احترام عندك لأحد .. يبدو يا معلم بسمان أنه يريد زيادة

كان بسمان يتطلع فيهما ، فقال أيمن بصوت صارخ : أنا أعمل عمل حمار على خمسة عشر دينارا ..أنت ماذا تعمل وتأخذ خمسة وعشرين دينارا ؟!

- أنا يا ولد لي سنوات أعمل هنا .. أنت لا تستحق عشرة دنانير في الشهر

فقال المعلم: يا أخ أيمن زيادة لا تحلم بها .. أنا أعطيك هذا المبلغ للصداقة بيني وبين أبيك

صاح أيمن محتجا : أبي أبي خاطر أبي .. زهقتني بهذه الأسطوانة .. أنا هذا آخر يوم عندك

فقال محمد مستغربا ردة فعله: ولد عجيب !كيف لو أنك صاحب المصلحة ؟! كأنك ...

وقبل أن يتابع كلامه تلقى لكمة على صدره طرحته أرضا ، ونهض غاضبا ، وأمسك بقميص أيمن ، وأخذ بسمان يفرق بينهما ، وهو مدهوشا من تطور الأمور بينهم للقتال ، ثم قال لأيمن بحدة : أنت ولد منحط .. قذر .. اغرب عن هذا المكان .. حلبة ملاكمة صار المحل .. تمد يدك على الرجل الفاضل

ضحك وقال: هذا فاضل .. هذا مجرم وحسود

وتشابك الشابان مرة أخرى ، رفع بسمان سماعة الهاتف قائلا: سأتحدث مع شرطة النجدة يا حقير ..لا احترام عندك لأحد

- تخوفني بالشرطة

اتصل بسمان بهم بالفعل ، فلبوا النداء ، وأخذوا الشابين إلى نقطة الأمن



تعرض أيمن للصفع والكلام الحاد في نقطة الشرطة ، ثم أخلي سبيله ، ورجع للمكتبة ناقما غاضبا مطالبا بأجرته أو ما تبقى منها ، فأخذها خطفا وهو يتهدد ويتوعد من النيل من محمد ، والانتقام منه ، وذهب إلى السينما ، وفي المساء عاد للحي ، ووجد والده جالسا في العيادة ، فتظاهر بالسخط من صديق أبيه ، فقال أبوه بعد سكوته محركا رأسه أسفا: تحدث معي الرجل ، وحدثني بأمرك وسلاطة لسانك على الموظف محمد ، ومع ذلك ترك أمر العودة لك إذا قبلت بالاعتذار للشاب محمد

صاح محتجا : عندما أتكلم مع السيد بسمان ، لماذا يحشر نفسه بيننا ؟

- الرجل كشف لي أمرا آخر أزعجني يا أيمن !

- أمرا آخر ، ما هو ؟!

- البنت التي تمر عليك كل مساء عند مغادرة المكتبة

ظل أيمن في حالة صمت ووجوم ، ثم قال: وما دخلهم في البنت ؟!

- يقول بسمان : إن هذه البنت سمعتها سيئة في السوق .. والرجل نصحك بالبعد عنها .. وأنا قلت لك بعد التوجيهي سأزوجك .. فدع بنات الناس .. فتيات المقاهي والملاهي يحملن أمراضا خطيرة .. وهذه البنت صيادة .. وفهمت من بسمان أن لها أكثر من صاحب ..وبالمناسبة زوجة أبيك تقول : إن فتاة تتصل بك بعد صلاة المغرب ـ وكان أيمن هو الموجود في البيت بعد أذان العشاء ، ويرد غالبا على التلفون ، سابقا لزوجة أبيه ـ فلم يرد على استفهام أبيه ، فقال راشد مرشدا: اللعب مع البنات هو لعب بالنار يا أيمن .. إذا كنت مستعجلا على

الزواج أزوجك .. واعلم أن الزواج يحتاج لعمل ، وتعلم مهنة أو صنعة .. أنا كنت أرغب أن تصل للثانوية العامة فتعمل بعدها موظفا حكوميا مباشرة .. أنا لا أستطيع أن أكون رقيبا عليك ..ولست دائماً لك ..إياك يا ولدي والزنا!

فقال معترفا : أنا لم أزن ، إنما هي قبلات ومداعبات كما نرى في الأفلام

لم يستغرب راشد اعتراف أيمن إنما قال : مداعبات وقبلات .. أنت شيطان ! بنت من التي تتصل في البيت؟!

- لا أدري ، أعطتني رقم تلفونها ، وأخذت رقمنا .. وتتصل للحديث معي بعد العشاء ، لا أعرف بنت من ؟

- من أين عرفتها ؟

- من الشارع

- من سكان الحي؟

قال بحدة مرتفعة : طبعا ، كنت مرة أمام مطعم مشاوي انتظر رغيفا من الكباب .. وكانت تقف بجانبي للشراء مثلي ..وتكلمنا قليلا ، ولما أخذنا الساندويتشات ، طلبت مني رقم تلفون بيتنا ، وأعطتني رقمها

- هل التقيت بها بعد تلك المرة؟

- أنا تعرفت عليها بعد حادث المدرسة آخر أيام الامتحانات

قال الأب بحيرة : إن النساء شر وخطر في نظري ، إذا رغبت بالزواج فأنا مستعد لذلك .. فالمال موجود ؛ لكن هل تستطيع تحمل المسؤولية ؟ والمدرسة أمامك سنة مهمة ومصيرية .. فهذه العيادة أحولها لشقة تعيش فيها كزوج .. وأدفع أجرها ؛ لكن مصاريف البيت أنت تتحملها ، وتتحمل الشغل وبهدلة الشغل .. إنما بعد التوجيهي أفضل لك وللمرأة ولي .. وإذا نجحت ستدخل المعهد أو الجامعة .. أما بنت السوق فابتعد عنها .. هؤلاء فتيات عرفن قبلك الكثير من الشباب والهمل .. يبعن أجسادهن لمن رغب فيهن ، ولكل دافع .. لا تجعل

مراهقتك نارا عليك وندما ، وتهوي في مهاوي الرذيلة والفاحشة .. فالثمن وخيم .. والرجل لا يكرهك ؛ إنما هو ناصح ويخاف عليك .. فماذا يريد منك ؟ .. وبنت "أبو خروف" اطلب منها أن تنسى تلفون البيت .. وضعنا تغير اليوم

خيم الصمت على العيادة فترة ، وقال أيمن: أنا صارت حياتي معكم مظلمة .. لم أعد أطيق البيت .. كان عليك أن تصبر حتى أكبر وأعمل

أدرك راشد مغزى هذا الكلام فقال : أنا كان عليّ أن أتزوج عندما خرجت من السجن .. إنما تركته حتى تنضج وتكبر

– امرأتك سيئة

– سيئة ، ماذا تقصد ؟!

– أقصد أنها سيئة تجلس في البيت أمامي بثياب النوم .. وتنسى أنني ابن زوجها فقط .. لست ابنها



تخلى راشد عن العمل في العيادة ، وأغلقها ، وفسخ عقد إيجارها ، وتعاقد للعمل مع مستشفى خاص ؛ للعمل كطبيب عام مقيم ، وعين في قسم الطوارئ ، والعمل في هذا القسم يكون على شكل ورديات ، لكل فريق عمل ثمان ساعات عمل خلال الأربع والعشرين ساعة ، والمستشفى كبير ، فيه كثير من العيادات والتخصصات ، وطلب لظرف خاص أن يكون دوامه في الشهور الأولى في الفترة الصباحية ، ولما يرجع للبيت يجد المشاكل قائمة بين زوجه وابنه ، فلم تطب الحياة لأيمن مع زوج أبيه ، فيقضي الرجل ساعات للإصلاح بينهم وتهدئة الحال ، فكان الشاب يعلن كرهها علنا دون مجاملة ، مما أزعج راشد وأخذ يفكر بحل جذري للمشكلة

وقد شاع في الحي أن وزارة الصحة أثبتت تورط أمجد ببيع الأدوية للصيدليات التجارية في "أبو خروف" وغيره ، ونقل غريب إلى مدينة بعيدة ، ومثله الطبيب شامل .. وأمجد قدمت أوراقه للمحكمة ، وقد حاول توريط غريب ؛ ولكن الرجل أنكر تعاونه معه ، وأنه لا علاقة له بصيدلية المركز .. وما هو إلا مجرد كاتب سجل طبي .

ولاحظ راشد أن ابنه أخذ ينام خارج البيت أو يرجع إليهم بعد نصف الليل ، فانزعج الدكتور كثيرا لهذه الفعلة.. فسأل المرأة: هل من مشاكل جديدة بينكم ؟

فقالت بسخط ونكد : الحياة مع ابنك لا تطاق ..لا يحب أن يراني ، رغم أنني لم أقصر معه .. وأتعامل معه كما كنت أتعامل مع إخوتي الشباب .. أقدم له فطوره قبل ذهابه للمدرسة ، وأغسل ملابسه وأكويها له كما علمتني .. ماذا يريد مني ؟!.. وأنا متحملة له من أجلك .. فهو يشتمني ويشتم أبي الذي باعني إليك .. وإنني كنت بايرة ، وتخلص مني أبي .. وهذا الزواج قسمة ونصيب

أخذ راشد يلطف من غضبها وضيقها ويهدئ أعصابها بجهله وسنه ، وأنه يتعمد ذلك لتسيء إليه ، ويكبر العراك والشجار ، ولما هدأت أعصابها قال: لو تركناه للشارع ينام فيه ، سيزداد

همالة وفسادا وعنفا .. وهل نخلص من مشاكله؟!.. أنا راغب بأن أزوجه ؛ ليعيش وحده ، ولكن لو زوجته اليوم سيعيش عالة عليّ ، ولن يهتم بعمل ولا وظيفة .. نصبر حتى ينتهي من الثانوية العامة فإما أن يتوظف فأزوجه وأساعده حتى يستطيع الاعتماد على نفسه ، أو يذهب للدراسة العليا ..والعمل في المستشفيات الخاصة متعب ، وسأضطر للمناوبة في الليل كباقي الأطباء .. وأنا بدأت أفكر بترك العمل .. فكيف أتركك معه في الليل ؟ أخشى أن يمد يده عليك ..فهو شرس .. ليس من يوم زواجنا بل منذ ولد ؛ لعله ينتقم مني؛ لأني قتلت أمه في يوم مضى .. واعلمي أنه يثير هذه المشاكل والصراع لأصل إلى مرحلة اللاعودة .. الطلاق .. فقد طلبه مني صراحة يا أميرة .. ويزعم أنه يصدر منك حركات مغرية ومثيرة

صاحت غضبا : يا للوقاحة! .. منذ نبهتني إلى ثياب النوم ، لم أعد البسها أمامه .. أنا محرمة عليه شرعا يا دكتور .. الأمر أصبح صعبا يا دكتور

– لا تنزعجي ، هو يلقي الكلام على عواهنه .. فعلا كما نبهتك وفعلت ، زعم أنه يتضايق من ملابس النوم التي كنت تجلسين فيها معنا هنا ، أو في المطبخ ، وقال إن ذلك فقط لغرفة النوم .. ونفذنا ذلك

– الحل عليك أن تعيد استئجار العيادة وتزوجه فيها .. وبالنسبة إلى أيام المناوبات .. سيأتي أبي للنوم معي أو أحد أبناء أخي كسوة

– وهل هذا حل؟! الولد في سن النضوج .. وأخشى أن أزوجه ، فيفضحني مع أهل البنت

– أنا اعتبرته كأخ وشقيق .. ليس ابن زوج .. متى سنرى الطبيبة؟

– هل من شيء؟ وأشار لبطنها

– أعتقد ذلك .. فدم الحيض لم يخرج

أظهر الدكتور فرحه وقال : رائع رائع يا أميرة ! هذا هو الحل المنتظر .. عندما يعلم أن أخا له في الطريق سيكف عنك، رغم أنفه .. فهناك أخ جديد .. غداً سآخذك معي إلى المستشفى ، وادع الطبيبة النسائية تهتم بك ، وتعودين وحدك .. يا إلهي ما أعظم كرمك ! وسأعد العيادة

سكنا لأيمن ، وأزوجه .. هذا الأسلم .. نوم الخارج مخيف يا أميرة .. يتعلم فيه الحشيش والفواحش



أخبر راشد ابنه أنه قرر أن يزوجه ؛ ليضع حدا للمشاكل بينه وبين امرأة أبيه ؛ لأنها كلما يعود من العمل يجدها تبكي من طول لسانه وتجريحه لها ، فقال أيمن متظاهرا بأنه غير منتبه لحجج واتهامات زوج أبيه : والمدرسة!

- تتزوج وأنت في المدرسة ، سأتحمل الإنفاق عليك أنت وزوجك ، حتى تتيسر أمورك ، وستكون العيادة سكنك ، سأعاود استئجارها .. النوم في خارج البيت مقدمة للانحراف وبداية الغرق

- عندما يضيق البيت على صاحبه أين ينام ؟! لا أستطيع استئجار شقة

- أنا أعجب كيف يتحملون نومك عندهم ؟!

قال بغير مبالاة : نحن نسهر إلى ساعة متأخرة من الليل .. ونتظاهر بالكسل من العودة إلى البيت .. فننام على الكراسي

- هل تعرف فتاة معينة عينك عليها كزوجة ؟

ضحك أيمن ثوان معدودة وقال: عرفت الكثير من بنات الشوارع والحي ، فلا واحدة تصلح زوجة

- يعني هذا الكلام أنه لا يوجد فتاة في حياتك تستحق أن تكون زوجتك

- أجل لا توجد ، هؤلاء البنات تجد الواحدة منهن أكثر من حبيب .. تسلية هواية على رأي بعضهن .. بنت الحاج أبي يوسف عندها بنات جميلات

قال راشد باسما : أكيد حاولت اصطياد واحدة منهن ، ولم تنجح

- هؤلاء بنات أكابر .. مربيات ، لا يفعلن مثل الكثير من صبايا الحي .. تربية صحيحة .. لقد همت في واحدة منهن ، وطاردتها فترة دون فائدة ؛ كأنني أخاطب حائطا

- في أي صف هذه البنت؟

- كانت معنا في الأول الثانوي فهي اليوم توجيهي مثلنا

- لها مثل سنك .. هذه لا تنفع لك زوجة

- لكنها حلوة ملاك

- اسمع .. أبو يوسف وعائلته وأحفاده لا يزوجون مثلنا .. قصدي مثلك دون تعليم .. فأبو يوسف هذا كل أولاده تعلموا في المعاهد والجامعات .. وأعتقد أنهم لا يزوجوهنّ قبل الجامعة أو على الأقل المعهد ، وإلا الرجل عزّ النسب

فزعم أيمن قائلا : فكرت في هذا تلك الأيام .. هؤلاء يحبون العلم .. هكذا يقول فتيان الحي وكذلك أبناء شقيقه أبي نوح

- أبو نوح أبناؤه أقل تعليما .. هل عنده بنات؟

- لست أدري يا أبي .. أتذكر غريبا ؟ الموظف الذي كان في العيادة الشعبية ، ونقل بعد فضيحة العيادة المدوية .. الموظف المنفي كما يقول عنه شباب الحي

- ماله؟!

- عنده بنت جميلة

- كيف عرفتها؟!

ضحك أيمن وقال: يا أبي هذا حي منفتح .. القصص كل ساعة كل دقيقة .. وماذا يتحدث الفتيان والتلاميذ؟! .. ألا تسمع كل يوم فضيحة وقصة ؟ .. أنت اجلس في مقهى مهران مقهى عزب أسبوعا من الزمن ستعرف الكثير من قصص بنات ونساء الحي

- بنت غريب كيف عرفتها؟

عاد الضحك وقال: أتذكر أيام ما أشاع عنك قصة قتل أمي بطريق خبيثة شيطانية ؟ سمعت اسمه يتردد في تلك القصة .. فتعرفت على ابنته أو تعرضت لها على الأصح ..وهي جيدة إذا قبل بي .. تعرفت عليها مجرد معرفة دون مقابلات ، لقد صدتني وسخرت مني .."وماذا بعد

الحب يا سيد أيمن؟!"

- أكنت تريد الانتقام منها أم من أبيها؟!

- لا منها ، ولا من أبيها ، قالت ما قلت لك .. وزادت " البيوت لها أبواب ".. فعرفت أنها مؤدبة رغم فساد والدها ، ونفيه من العيادة بفضيحة مدوية

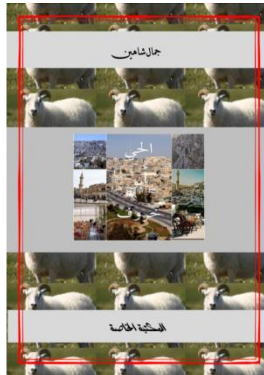
- هذا لا يهم .. سأتحدث مع الحاج سلمان صديقنا في شأن بنت غريب .. وبما أن خير البر عاجله فلنذهب إلى المقهى ، ونتحدث مع سلمان

- هل أذهب معك؟

- نعم ، سأشتري بعض الأغراض ؛ لتعود بها للبيت ، وتتصالح مع زوج أبيك.. وسنمر على مالك العمارة ، ونأخذ مفتاح الشقة ، فما زالت كما تركتها ، وبعد تصالحك مع أميرة انقل سريرك إليها ، واستعد للزواج .. فبمجرد خطبة الفتاة .. نبدأ بتجهيزها للزواج ، وتحويلها لشقة سكن كما كانت قبل أن تصبح عيادة

عانق أيمن والده وقال مغتبطا سعيدا : هذا أحسن حل لإنهاء المشاكل مع أم ... ماذا ستنجب لك ؟

- الله أعلم !



استأذن سلمان من الرفاق في حديث خاص مع الدكتور راشد ، ومشيا إلى إحدى الموائد الخالية في مقهى مهران ، وقال: حاضر يا دكتور

– أعتذر .. دائماً أشغلك معي ، وأزعجك بمشاكلي ، وأنت والحق يقال نعم الأخ والصديق .. وأكثر من أخ منذ وقعت قدماي على أرض "أبو خروف"

وتحدث معه عن مشاكل أيمن مع امرأته حتى وصل لقرار تزويجه والشروع فيه

قال سلمان مشجعا : هذا حل طيب حتى لا تخسر زوجتك ، ولن تعجز عن صحن طبيخ زيادة للولد والبنت .. أنا حقيقة زارني أبو كسوة لأتدخل في البحث عن حل لمشكلة أيمن وأميرة ابنته وامرأتك .. فقلت له : فلتصبر .. الدكتور رجل فهمان ، فسوف يوفق إلى حل .. وها أنت عند حسن ظني بك يا دكتور .. أنت تريد مساعدتي في زواج أيمن

فحدثه عن بنت ابنته ابنة الدكتور زكي عودة ـ دكتور جامعة ـ فقال سلمان مفكرا : لك كل الاحترام يا دكتور .. لا أظن أن والدها الدكتور زكي يهمه زواجها اليوم .. فهو مثلي يحب تعليم الجميع .. وهو قريب لنا .. نحن عندنا التعليم أولا .. وأمها دكتورة جامعة مثل زوجها .. التعليم قبل كل شيء ؛ ولكن لأنك عزيز عليّ سأخبر بنتي وزوجها بهذا العرض ، وأجس نبضهم .. وأما ابنة غريب غريمك ـ كما نقل لي ـ فأنا مستعد للمشي في ذلك

– إذن امش لنا في زواج ابنة غريب .. فابني لا يستحق مصاهرتكم .. أقول وليس سرا ، هو له أموال باسمه ، ورثها عن أمه ؛ لكن لم أحدثه عنها حتى يصبح رجلا بمعنى الكلمة .. ونحن لنا أملاك كثيرة في البلدة .. ولسوف نتصالح مع الأهل ، وإن طال الزمن .. عندما يذهب الجيل الذي شهد الحادث ستخف حدة الحقد .. والولد من يوم ما شرحت له قصة موت أمه تغير نحوي .. أفكار المراهقين .. فهو يعاني كما قلت لك مرارا من عقدة الحرمان من الأم ، وإنني حرمته منها ومن عاطفتها وحنانها .. وأنا لكزتها بقوة لشدة الغضب الذي ألم بي ساعتها .. فخبط رأسها بالخزانة بقوة ، وضرب رأسها بزاوية الخزانة ..وأنت تعرف الغضب

لما يتلبس الإنسان يفقد الصواب .. فوقعت على الأرض حتى حضرت سيارة ، ونقلتها للمشفى .. كانت فقدت الكثير من الدم ـ قدر الله ، وما شاء فعل ـ فعليّ أن أتحمله حتى يصير رجلا مثل الناس .. وتحملت كل هذه السنوات ؛ ليعلم كم ضحيت من أجله ، وحرمت نفسي من الزواج من أجله ، ولم يبق إلا القليل ونفترق

لما توقف الدكتور ، ومسح دمعات سالت على خديه ، قال سلمان : على كل جد الفتاة ها هو – وأشار إليه– فهو مثلي من رواد هذا المقهى .. وبيننا مجاملات وملاطفات .. هل تحب أن نفاتحه بالموضوع ؟ ما هو اسم البنت؟

فأشار راشد لابنه القابع وحده ينظر إليهم من مقعده ، فجاء فسلم على الحاج سلمان ، وشد سلمان على يده قائلا: الزواج يحتاج إلى راجل وعصب قوي .. الزوجية مسؤولية .. والوالد يحبك .. ويريد أن يكفر عن خطأ خسرانه لأمك ، وحرمانك منها ، وحوادث السيارة كثيرة هذه الأيام .. وكله يعتبر خطأ .. والأخطاء تحصل في كل شؤون البشر .."وخير الخطائين التوابون " ..كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .. فوالدك لم يقتل أمك متعمدا .. ولو فعل ذلك ما خرج من سجن الحكومة ، أو شنقوه ..والمشاكل لا يخلو منها بيتا سعيدا

فقال أيمن بصوت ضعيف ولم يفهم مناسبة ذكرى أمه : أنا أحب والدي يا عم سلمان .. وهو يعلم ذلك .. وأعلم أن القضاء والقدر هو اختار أمي .. وأنا لا أتعمد المشاكل مع زوجته ، فهي كأمي .. والإنسان يتشاجر مع أمه ؛ ولكنهما يتصالحان بسرعة .. ويبدو أن تقارب سنّينا يجعلني لا أشعر أنها بمقام الأم .. الأم أكبر عادة بأكثر من عشر سنوات عن الابن الأول .. وأنا أشكر أبي أمامك على تفهمه .. ويطمئن أبي بأني لم أشرب الخمر أبدا ، أو زنيت أبدا ، أو تعاطيت المخدرات أبدا

قال راشد مؤكدا ثقته به: أنا واثق من ذلك يا أيمن .. على كل تحدثت مع عمك سلمان بالتفصيل .. واتفقنا أن نخطب لك ابنة غريب التي أثارت إعجابك في يوم من الأيام ، رغم أنه غريمنا السابق لتثق أنني لا أعادي أحدا ، وهذا– وأشار لجد الفتاة– جدها .. وسنتكلم

معه الآن بالموضوع ..ما اسم الفتاة ؟

- حسب علمي وردة ، إن لم أخطئ تركهم سلمان يشربون الشاي ، ويدخنون ، وانتقل لوالد غريب ، وطلب الحديث معه في أمر خاص ، فاستأذن العجوز من رفاقه ، وقال: خير يا سلمان

سحبه إلى مكان خال في المقهى أو بعيد عن آذان الفضوليين ، وشرح له حكاية راشد وابنه ، ورغبته بتزويج ابنه ، فقال العجوز: نحن نصاهر راشدا .. أليس هو الذي قتل زوجته؟! كما شاع في الحي

- هذا قتل خطأ .. والسيارات كل يوم تقتل الناس .. فهل يسمى هؤلاء قتلة ؟ .. عمرك ما ضربت الحاجة أم غريب ودفعتها ، بل سمعنا كثيرا عن مشاجراتكم

حك رأسه : معك حق سأشاور ابني

ونادى سلمان الدكتور وابنه للتعارف مع والد غريب السيد باسل .



تحدث الشيخ باسل مع ولده غريب عن رغبة الدكتور راشد بتزويج ابنه من ابنته وردة ، لقد رآها في طريقها للمدرسة ، وأعجب بها ، ويرغب بالدخول من الباب ، وقد حدث والده عنها ، وسمع غريب القصة من أبيه كما رواها سلمان ، فطلب غريب مهلة بضعة أيام يرتب فيها أفكاره ، فقال الأب: الرجل مستعجل على زواج ابنه ، يخشى عليه الانحراف ، لأنه بدأ يهرب من البيت ، وينام عند فلان وعلان ، ويفتعل المشاكل مع امرأة أبيه بنت أبي كسوة

وكان سلمان بعد انصراف الدكتور وولده من المقهى ، جلس ثانية مع السيد باسل ، وشرح له قصة الزواج وسببها في مثل هذه السن المبكرة ، وقبل إنهاء الثانوية عامة ، وشرح باسل ما فهمه من سلمان لولده غريب ، فأعجب غريب بالدكتور ، وعلق : هذا الدكتور فهمان .. أتصلح زوجة يا أبي ؟ زواج الصغيرات انتهى قديما

- كيف انتهى يا ولدي ؟!.. فهو زواج شائع لليوم في "أبو خروف" .. ابنتك عمرها سبع عشرة سنة .. ألم تحيض؟

- تحيض من سنوات

- أمك دخلت بها وعمرها ثلاث عشرة سنة .. والحيض بلوغ الأنثى .. والدكتور سيتحمل إيجار الدار ـ وهي العيادة التي هجرها ـ ومصروفات البيت حتى يستقل الشاب بحياته بعد الثانوية العامة ، إذا لم ينجح فيها ، ويدخل الجامعة

قال غريب بتردد : أمر محير هذا الدكتور! لقد كان متعاونا معنا مقابل الزبائن

- كان معكم!

- وعجز عن دفع ثلاثة شهور لنا بحجة قلة الزبائن

قال الشيخ باسل : دعنا من هذه القصة ..حسب كلام سلمان فإن الرجل غني ، ولا يعتمد على العيادة ، وهو يشتغل في مستشفى خاص

- أعرف

- وهو يسعى للعمل مع الحكومة كما قال سلمان .. اسمع إذا البنت راغبة في إكمال الدراسة فلننسَ الموضوع

قال غريب بعد سكون : هو كيف عرف الفتاة؟!

- سألت سلمان عن ذلك .. فقال بكل صراحة : الشاب عاكسها ، وهي في طريق المدرسة ، فقالت له : إن الناس تأتي من الأبواب ، فلما سأله والده عن فتاة يرغب فيها ، فتذكر كلامها وصارح أباه بكلمات البنت .. وهذا في رأيي كلام يدل على رغبة البنت بالزواج ؛ ولكن قد يكون الموقف المزعج تطلب أن تقول له ذلك ليبتعد عنها

- وهذا الرجل منذ جاء هنا ـ كما نعلم ـ لا أهل ولا أسرة .. ويوم تزوج ابنة بياع الهريسة لم يكن أحد من أهله معه

تنهد باسل وأجاب قائلا : يا ابني ما هو منفي من بلده ؛ بسبب قتله لامرأته ، ولو بالخطأ ،

حتى أيمن هذا قضى سنوات سجن أبيه في الملجأ ، حتى خرج الأب من السجن ، واسترده ، فالمرأة المقتولة ابنة عمه

– أعرف هذا .. غداً عندما أرجع من العمل أكون قد فكرت .. فهذا الدكتور هو سبب نقلي يا أبي.. هو الذي أمد الصحافة بالمعلومات

– أنت البادي .. أعرف حكايتك مع أبي كسوة

– من قال لك ذلك؟

– الناس تعرف كل شيء .. الأخبار انتشرت وانكشفت .. والكل يدافع عن نفسه

– هل أزوج ابنتي من ابن الذي نصب عليّ بتسعين دينارا ؟!.. حتى أن الشركاء اتهموني بالتواطؤ مع الدكتور ، لولا أنني أخذت أحدهم وقابل الدكتور ، وأعلمه أنه لم يدفع لغريب فلسا واحدا .. موقف شجاع لا أنكر هذا ؛ ولكن هل نتصاهر ونتناسب ؟

تبسم باسل وقال : هكذا الدنيا .. العدو يصبح صديقا ، والصديق يصبح عدوا {١}.. فكر وتشاور مع الأم والبنت .. أنا لا أحب إفشال شفاعة الحاج سلمان أبي يوسف .. فهو رجل محترم ويصلح بين الناس، ويزوج الناس ، وهو الذي سعى بين الدكتور وأبي كسوة .. وقام مع الدكتور خير قيام .. هكذا الأخوة والجيرة يا أبا باسل .. وراشد لم يعمل معكم طمعا بالمال ؛ بل رغبة بمزيد من الزبائن .. فالأم تجلب البنت والأخت .. ولم يتخل عنكم طمعا بالمال ؛ إنما لاحظ أن الدكتور الجديد أخذ أغلب مرضاه فانسحب .. شاور إخوتك وأمك سيدة البيت .. والتوفيق بيد الله .. وأمر الله الحكم الفصل .

{١} عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ قَالَ: أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا . صحيح سنن الترمذي

كان الدكتور قد اغتسل استعدادا لصلاة الجمعة ، فغسل الجمعة واجب على كل محتلم ، ولبس ملابس الخروج ، وكان قد تلقى هاتفا قبل ساعة من سلمان يطلب منه انتظاره ، لأنه سيمر عليه ويرافقه للجامع الملاصق للمقهى، وينقل له رد غريب باسل على طلب يد ابنته جلس يشرب القهوة مع زوجته الشابة أميرة ، وكان أيمن يرقد في فراشه في الشقة الأخرى ، فقد ذهب يوقظه للإفطار معهم ، فاعتذر واعتذر عن الذهاب إلى الجامع ، كان الدكتور يأخذه معه كل جمعة إلى صلاة الجمعة بالترهيب والترغيب ؛ ولكنه لما انتقل للمدرسة الثانوية ، لم يعد يجبره على الصلاة ، فكان أحيانا يذهب ، وأحيانا أكثر لا يذهب ، ثم بعد الصلاة يأكلان في أحد مطاعم "أبو خروف" ، وإن لم يصحبه للصلاة أو يلحق به للغداء بعدها ، يشتري له وجبة جاهزة يتناولها الفتى في البيت .. فالدكتور رغم ممارسته شعيرة الصلاة ، فلم يكن يحافظ على صلاة الجماعة ، إنما يصليها بشكل متقطع ، وحتى الصيام كان يفطر بعض الأيام بسبب التعب والسقم ، ولا يعيده ، ربما أعاد بعضا منه .. فميزان الحلال والحرام مختل عنده ؛ ولكنه يصلي وما كاد ينتهي من شرب القهوة حتى سمع جرس الباب ، فودع الزوجة ، وفتح الباب ، ورحب بسلمان ، وعرض عليه شرب القهوة ، فوافق ودخل البيت ، وذهبت المرأة مسرعة إلى المطبخ ، وعادت بفنجان قهوة للسيد ، فتناوله منها شاكرا وبارك لها الحمل ، فشكرته ودعت له ولأم يوسف ، ولما شربها خرجا إلى الجامع ، وخلال قطع المسافة سيرا على الأقدام جرى الحديث حول زواج أيمن.

فقال سلمان :أبو البنت متردد ، ويرى أنهما صغيران على الزواج ، ويخشى فشلهما في الحياة الزوجية ، يريد ضمانات

- ضمانات لم افهم !

رجع سلمان يقول عن الضمانات : سألت الحاج أبا باسل عن هذه الضمانات ، فقال : رفع المهر المؤخر إلى ثلاث آلاف ، والأثاث إلى ألف

- والمقدم كم ؟

- قال المقدم كعادة الناس من سبعمائة وخمسين إلى ألف وأكثر

- بسيطة .. وهل المال يمنع الطلاق يا حاج سلمان؟

- يحد من الطلاق السريع المتعجل ، أما الإنسان إذا أراد الطلاق ، فسيطلق ، ولو كان عليه مليون .. هذه هي الضمانات

- البنت موافقة على الزواج من ابني

- البنت لا مانع لديها من الزواج بأيمن أو غير أيمن .. وهي مستعدة ـ كما قال جدها ـ لترك المدرسة عند كتابة العقد الشرعي .. فالبنات بشكل عام ملهوفات على الزواج ؛ لذلك يتزوجن قبل العشرين إلا الراغبات في التعليم والمعاهد والجامعات والعمل .. وإذا قبلت بهذه الضمانات سنسعى لإتمام المشروع

قال راشد : أنا بالنسبة لي غير مهم المال ؛ لكن الحياة الزوجية ليست هينة يا حاج سلمان .. فقبول هذه الضمانات قد يسبب المشاكل في المستقبل .. إذا لم ينسجم الشابان في تلك الحياة .. فالولد سيصعب عليه التخلص من المتأخر .. والبنت يصعب عليها التنازل

- أنا حاولت أن نقف عند عادات "أبو خروف" نصف ألف نصف ألف نصف ألف ، أو أقل من ذلك ؛ لكنّ الحاج باسلا طلب مني مشاورتك ؛ ولعله يتحدث مع ابنه في إلغائها ، هم يرون صغر الشاب مشكلة ، ويعرفون عصبيته وعنفه ، ويخشون من الطلاق السريع ، فهم يرون ما هو ملزم به من متأخر مرتفع حاجزا عن فشل الزواج .. إذا لم يرتح مع امرأته يصبر ويتحمل حتى يكبر الاثنان ، وينضجان أكثر ، ويستقلان عنك استقلالا تاما .. فهم سيعتمدون عليك حتى إنهاء الثانوية العامة والعمل

- أنا يا سيدي أريد تزويجه لتستقر حياتي الزوجية أولا .. فالشاب لم ينسجم مع امرأة أبيه وأنا لا أحب نومه في دور الشباب بحجة السهر واللعب والمراجعة .. وأخشى من وقوعه في الفواحش السكر والعربدة .. أنت ترى كيف تضغط المفاسد على الشباب اليوم ؟ وتقليد

أبطال السينما ليس سهلا التخلص منه مع أنه وهم وخيال ؛ لكن الشباب مهووسون بالأفلام .. وكلها حب وغرام وسكر .. لا أستطيع منعه من السهر ومشاهدة هذه الأفلام .. على ماذا يتفرج الشبان ؟! أفلام كلها حب وغرام ومجون .. أدوات الهدم كثيرة يا حاج سلمان .. الشاب ليس له تعلق بالدراسة مثل أبيه .. مثلي .. يزحف زحفا بطيئا في المدرسة

وصلا الجامع ، ودخلا المسجد ، وصليا تحية المسجد ، وتناول كل منهما مصحفا لقراءة سورة الكهف في هذا اليوم المبارك ، وهو خير يوم طلعت فيه الشمس



كان ظهر يوم الجمعة ملتقى لأهل الحي بعد الصلاة ، حيث يتجمع الناس أمام المسجد ، يصافحون بعضهم بعضا ، خاصة الذين لا يرون أنفسهم إلا يوم الجمعة ، فتجد هذا يصافح هذا ، وذاك يعانق ذاك ، ويسأل عن صحته، وآخر أخباره

ولما خرج سلمان ورفيقه راشد حيث تجاورا في الصلاة والصف ، ودعيا لبعضهما بالقبول ، قال راشد: شكرًا لك يا حاج سلمان ، سأفكر بهذه الضمانات ، وأمر عليك في هذا المقهى .. أنت دوامك فيه يبدأ بعد صلاة العصر حسب ما أعرف

- اليوم عندي زيارة ـ إن شاء الله ـ للمستشفى بعد الغداء.. إذا مررت بعد المغرب ، فالغالب أكون فيه .. قد تجدني وإلا غداً ..ها هو أيمن هنا

ناداه أبوه ـ حيث أشار الحاج ـ فاقترب منهم مسلما ، وتمنى لهم قبول جمعتهم ، فقال أبوه: أصليت؟

- لا

- وإلا لماذا جئت؟!

- هناك خبر

- خبر !

- عند الصلاة ، عند الأذان .. قصدي اتصل أحدهم بزوجتك بنت أبي كسوة

قال راشد كأنه محتج : أرأيت يا عم سلمان ؟! يقول بنت أبي كسوة ؛ كأنه يريد تذكيري بمن نكحت .. آ .. من الذي اتصل ؟

- اتصل أحدهم بها مخبرا بوفاة أبيك

هتف الطبيب بدهشة: أوه! مات أخيرا مات !

وجلس جلسة القرفصاء ، وقال من جديد: أخيرا مات جدك يا أيمن!

فقال سلمان مستغربا: ما بك يا رجل ؟ أنت مذهول!

عاود القيام ، فقال سلمان: أكان والدك حيا يا راشد؟!

هز رأسه بالإيجاب فقال سلمان: عظم الله أجرك

وتقدم معانقا لليمين والشمال ، وتحول إلى أيمن معزيا ، ثم عانق أيمن

أباه معزيا بوفاة جده الذي لا يعرفه ؛ ولكنه رأى صوره في خزانة أبيه في إحدى الحقائب الصغيرة ، فقال وما زال الاضطراب باديا عليه : صحيح الخبر يا أيمن!

- جاءت امرأتك .. تطرق وتصيح الحق أباك وقل له هذا الخبر

قال سلمان: يبدو أن لك قصة مؤلمة مع أبيك

تطلع في عينيه وقال: هو سبب طردي من البلد يا حاج سلمان .. لما صار الحادث أقسم أن لا أبقى في المدينة ولا في قراها .. وقال: قتلتها بالعمد يا راشد ؛ لأننا زوجنكاها غصبا عنك . وهي ابنة أخيه بنت عمي .. فبعد أن أخذتني الشرطة أرسل لي هذا القسم .. ورموا ابني هذا .. ابنهم في الملجأ .. رفضوا رعايته حتى أخرج .. ولما قضيت مدة السجن ثلاث سنوات جئت إلى العاصمة دار السلام .. وكان معي سجين من حي "أبو خروف" ، حدثني كثيرا عن هذا الحي فسعيت للحياة فيه ..سكنت فندقا شعبيا حتى استأجرت بيتا في "أبو خروف" ، ثم استأجرت الشقة الثانية للعيادة ، ثم أخرجت هذا الولد من الملجأ ، وكان ابن ثلاث

سنوات .. ومشت الحياة .. وها هو اليوم يموت هذا الأب ، الذي لم يصدق أن موتها كان قضاء وقدرا وخطأ .. وفعل ذلك لإرضاء عمي والد البنت وأبناء عمي ، الذين كانوا يعتقدون أني فعلت ذلك عمدا .. أنا الذي لم أذبح في حياتي دجاجة أو أرنبا أذبح إنسانا .. وهذا الإنسان زوجتي .. آه .. هيا نعود للبيت .. اذهب يا أيمن للمطعم .. وابتاع لنا طعاما .. ما رأيك أن تتغذى معنا يا أبا يوسف

– شكرا ، مع السلامة ، نلتقي الليلة أو غداً أم ستسافر للمشاركة في دفن الوالد

قال بغصة: لن أسافر سيقتلونني لو فعلت ذلك ، رغم كل هذه السنوات .. فهذه أول مرة يتصلون بي .. فأمي ماتت وأنا في السجن .. وتزوج أبي بعد موتها .. هذه حياتنا .. مع السلامة السلام عليكم يا حاج سلمان .. لا أدري لماذا اتصلوا بي ؟!.. سأعرف التفاصيل من المرأة .. خذ هذه الدنانير العشرة ، واشتر لنا طعاما.

لما دخل البيت عزته زوجه بوفاة والده ،وقالت شارحة: اتصل أحدهم وأخبر أنه شقيق لك دون ذكر اسم ، وبعد صمت نقل لي خبر وفاة والدك ـ رحمه الله ـ وأخبر إذا أحببت حضور جنازته سيشيع ظهر السبت ، وعمك يسمح لك بحضور الجنازة ، وطلب مني نقل تحياته لك ، وأغلق الخط ، فمشيت لأيمن ونقلت له الخبر ، ليذهب ويخبرك به على وجه العجلة

– نعم ، أتى وأخبرني ، وأرسلته لإحضار الغداء كالعادة التي تعودت عليها قبل الزواج

– هل ستسافر إليهم ؟

– بعد ثماني عشرة سنة كيف أسافر إليهم ؟!.. أبي لم يزرني مرة واحدة في السجن.. أبي ضرب أمي لما علم أنها زارتني في السجن .. ومرضت على أثرها ، ثم هلكت ..طابت الحياة هنا .. وعندما نزوج الولد ، ونخلص منه نفرغ لبعضنا ، وقد وافقت الحكومة على عملي معهم كطبيب بعقد سنوي لكبر سني

وحدثها عن شروط أهل وردة ، فقالت : ماذا قلت في ذلك؟ إنه مرتفع جداً ، ولو أنها ابنة وزير .. وقد لا ينسجم الاثنان

– هم يخشون ذلك أن يحصل الطلاق قبل نضوج الشاب ومعرفته لأسرار الحياة الزوجية

– تشاور معه وتناقش معه

طرق الباب ، فقامت تفتحه ، ودخل أيمن يحمل الطعام الجاهز في أكياس ، وأخذته منه للمطبخ فقال أبوه: ما أحضرت لنا يا أيمن؟

– وهل عندهم إلا الدجاج المشوي ؟ لكني أحضرت معه أرز ، وسلطات مختلفة

ثم مشوا إلى المطبخ حيث أعدت مائدة الطعام ، وأثناء الطعام شجعته على السفر والمشاركة في الدفن والعزاء إذا أمكن ، وبينما هم يأكلون رن الهاتف ، فقال أيمن: اجلسي يا امرأة أنا سأرد

فقال أبوه: لم تقل هذه المرة يا بنت أبي كسوة . وضحك

ولما عاد أيمن من عند التلفون قال : إنهم يريدونك يا أبي .. أحد الأقارب سمعته يقول : قل له عمك عبد السلام

نهض الدكتور وهو يقول: الحمد لله شبعت يا أميرة ..هذا أبو أمك يا ولد

تناول السماعة وقال : نعم ، السلام عليكم أهلا بالعم عبد السلام ـ عظم الله أجر الجميع ـ قضاء الله

واستمع واستمع ، ثم قال : حاضر يا عمي الليلة ـ إن شاء الله ـ أكون في القرية .. أنا أقدر يمينك ومكالمتك .

وعاد للمطبخ فرحا ، وقال : يبدو أننا سنترك "أبو خروف" يا سيدة أميرة ويا سيد أيمن !!

تمت الحكاية الثالثة

التسول مهنة وضيعة وحقيرة ؛ لكن البعض تحترفها .

كان عصمت فولي مشولا ومَعلما على باب مسجد ومقهى أبو خروف فحين يغيب عن الحي يفتقده بعض الناس حتى كانت المفاجأة لسكان الحي .. فهذا ما ستقرأه يا أخي في السطور القادمة .

١٩٧٣

شحادة أبو خروف

انتشرت على أثر كارثة فلسطين ١٩٤٨م ما يسمى بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي تديرها مؤسسة الأونروا ، وانتشرت هذه المخيمات في كل الدول المحيطة بفلسطين ما عدا مصر ، والسبب أن غزة أصبحت قطعة من مصر ، وربما وصل عدد المخيمات المعترف بها وتدار من وكالة الغوث خمسين مخيما ، وهي مخيمات بؤس تذكر بالمأساة الكبرى للشعب العربي الفلسطيني ، وانتشرت مخيمات غير رسمية حول بعض المخيمات الرسمية ، ويسكنها الفلسطينيون وفقراء الدول العربية أو العمال الوافدون .

واشتد الصراع بين العرب ومناصريهم من دول العالم واليهود ومناصريهم من دول العالم ، فظهرت ظاهرة العملاء والجواسيس بين الشعبين ، وأحداث هذه القصة وغيرها من قصص أبو خروف كانت في عقد السبعينيات من القرن العشرين .

وقبل الدخول لإحداث هذه الحكاية نتعرف على وكالة الغوث الدولية " أسست الأمم المتحدة منظمة تسمى"هيئة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين" الأونروا في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٤٨ لتقديم المعونة للاجئين الفلسطينيين ، وتنسيق الخدمات التي تقدم لهم من طرف المنظمات غير الحكومية ، وبعض منظمات الأمم المتحدة الأخرى ، وفي ٨ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٩ وبموجب قرار الجمعية العامة رقم ٣٠٢، تأسست وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) لتعمل كوكالة مخصصة ومؤقتة، على أن تجدد ولايتها كل ثلاث سنوات لغاية إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية ، ومقرها الرئيسي في فينا عاصمة النمسا وعمّان العاصمة الأردنية .

بدأت الأونروا عملياتها يوم الأول من مايو / أيار ١٩٥٠، وتولت مهام هيئة الإغاثة التي تم تأسيسها من قبل وتسلّمت سجلات اللاجئين الفلسطينيين من اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

ومهامها تنفيذ برامج إغاثة وتشغيل مباشرة بالتعاون مع الحكومات المحلية، والتشاور مع

الحكومات المعنية بخصوص تنفيذ مشاريع الإغاثة والتشغيل والتخطيط استعدادا للوقت الذي يستغنى فيه عن هذه الخدمات بعودة اللاجئين إلى مدنهم وقراهم أو ينفوا في الأرض .
تمول الأونروا من تبرعات طوعية من الدول المانحة، وأكبر المانحين للأونروا هي الولايات المتحدة الأمريكية والمفوضية الأوروبية والمملكة المتحدة والسويد ودول أخرى مثل دول الخليج العربية وكندا والدول الإسكندنافية واليابان . تنفق هذه الأموال سنويا على برامج التعليم ٥٤٪ ، برامج الصحة ١٨٪ ، للخدمات المشتركة والخدمات التشغيلية ١٨٪ ، برامج الإغاثة والخدمات الاجتماعية ١٠٪
تغطي خدمات الأونروا للاجئين الفلسطينيين المقيمين في مناطق عملياتها الخمس وهي الضفة الغربية وقطاع غزة ولبنان والأردن وسوريا ، وقد عرفت الأونروا اللاجئ الفلسطيني بالشخص الذي كان يقيم في فلسطين خلال الفترة من أول يونيو/ حزيران ١٩٤٦ حتى ١٥ مايو / أيار ١٩٤٨ والذي فقد بيته ومورد رزقه نتيجة حرب ١٩٤٨، وعليه فإن اللاجئين الفلسطينيين الذين يحق لهم تلقي المساعدات من الأونروا ، هم الذين ينطبق عليهم التعريف أعلاه إضافة إلى أبنائهم .
عبد المجيد ضابط عربي متقاعد منذ العقد الماضي ، وهو اليوم تجاوز الستين سنة ، ويسكن في شقة في عمارة من ثلاثة أدوار أنشأها في أبو خروف ، وكل دور يتكون من شقتين فهو يقطن الدور الأول وابنته تسكن الشقة الثانية في نفس الدور ، ومخرجهما للشارع واحد ، والطوابق الأخرى لها مخرج آخر ، ومنزله تقريبا في وسط الشارع الجانبي الذي يربطه بالشارع الرئيسي وفي شارع "أبو خروف" الخلفي المسمى شارع السالم ، واسم شارع بيته النخلة ، وعلى رأس الشارع جهة شارع الحي الرئيسي مكتبة ـ اسمها مكتبة الطالب لصاحبها طلال أبي علي ـ يأخذ منها الجرائد والمجلات ، وهي في طريقه للمسجد ، وسوق خضار "أبو خروف" خلف المسجد ، فهناك محلات لبيع الخضار واللحوم والأسماك والفواكه والبهارات والخردوات .
برنامج الشيخ عبد المجيد تلك الأيام ومن سنوات بسيط ومختصر ، هو يعيش وزوجته ذات

الأصل التركي في شقة تسمى بيت عبد المجيد محمد ـ والعمارة كلها يسميها الناس عمارة عبد المجيد محمد ـ يذهب الرجل عصر كل يوم إلى المسجد لصلاة العصر في مسجد الحي ، وبعد الصلاة يدخل المقهى ، ويجلس مع جيرانه ومعارفه ساعة من الوقت ، ويذهب بعد سماع أخبار الحي وشائعاته الجديدة إلى السوق الواقع خلف المسجد لشراء ما يحتاجه البيت من حاجات ، ثم يقفل عائدا لشقته ، فيجلس مع زوجته العجوز مثله ، فهو من المحافظين على صلاة العصر جماعة فقط ، وصلاة الجمعة أيضاً ، وهوايتهم قراءة الصحف والمجلات والقليل من الكتب السياسية والفكرية ، وله برنامج آخر في فترة الصباح كل الأيام حتى الجمعة ، وهو قراءة الجريدة اليومية ، ومتابعة صفحة الوفيات ؛ فإذا وجد فيها شخصا يعرفه أو خدم وأياه في الجيش يتصل معزيا بأهله وأبنائه ، إذا كان هاتفهم لديه أو يبعث برقية من مكتب البريد في الحي ، والجرائد اليومية يذهب بنفسه للإتيان بها من مكتبة (الطالب) التي تقع على رأس شارعه ، وهي على الشارع الرئيس بالنسبة للحي ، فكان يعتبر وجودها من محاسن "أبو خروف" ، مع أن الحي الكبير يوجد فيه مكتبات أخرى ؛ لكنها أقربها إليه ، فيشتري الصحف والمجلات ، وأحيانا تذهب زوجته أم عبد الله ، وتارة يرسلها لهم صاحب المكتبة مع العامل عنده أو بنفسه إذا كانت لديه رغبة بالحديث والدردشة مع السيد والتعليق على خبر مثير ، وشرب كأس شاي معه .

كان الشيخ عبد المجيد يضع في جيب الجاكيت التي يلبسها عندما يخرج لصلاة العصر ما يعادل دينارا من القطع المعدنية ؛ ليتصدق بها على المتسولين في شوارع "أبو خروف" ، وكان الموقع الأهم لهؤلاء الجلوس على الرصيف أمام بوابة المسجد ، وعند خروج الناس من الصلاة يبدأ صياحهم بطلب الإحسان لمدة انتهاء الناس من التجمع أمام المسجد ، ثم ينتشرون حتى الصلاة القادمة .

الكثير من المتسولين ينتشر في شوارع ومحلات الحي طالبا المال الذي يسمونه الإحسان ، وبعضهم يستوطن المكان حتى صلاة العشاء صيفا وشتاء ذكورا ونساء .. فهناك شحاذون

ثابتون ، وبعضهم متجولون ، وبعض هؤلاء لهم تجمع أمام الجمعيات والمراكز التي يتردد عليها الناس بشكل يومي .

فالسيد عبد المجيد كان يحمل دينارا من القطع المعدنية من أجل تفريقه على هؤلاء الشحاذين سواء أمام المسجد أم في شوارع الحي ، وكان متسولون يقضون سنوات وسنوات في نفس الحي ، ويسكنون في الحي أو أطرافه ، وبعضهم عابرون لأيام وزمن معين ويختفون ، ويأتي غيرهم ؛ لأن الكثير منهم يعتبر هذا العمل مهنة ووظيفة ، ورأسمالها لبس ثياب عتيقة بالية ، شعر مشعث ، عدم الاستحمام منذ عهد ، وكذلك عدم غسل الوجه ، تشويه البدن ، استغلال عاهة أو صنع عاهة ، تغميض عين أو عينتين ، ومد اليد الملطخة بالسواد والشحبار ، والصراخ" لله يا محسنين .. أنا أخوكم الفقير .. أنا أخوكم الأعمى .. أنا ... أنا ..." تنهال القروش والدراهم على هؤلاء الناس .

تعود أو عود الشيخ عبد المجيد نفسه الدفع لهم أمام المسجد أو أثناء الطريق ، فيعطي هذا خمسة قروش ، وذاك عشرة .

وأمام المسجد والمقهى المتجاوران يتربع عدد منهم ، مع الوقت صاروا منارات وعلامات ومعروفين لأصحاب المحلات ورواد المقهى والجامع ؛ فإذا غابوا افتقدهم الناس ، خاصة الذين يدفعون لهم باستمرار ، أشهر متسول في "أبو خروف" رجل ضئيل البنية ، يلبس بدلة بالية واسعة ، من يراه بها يعتقد أنه وجدها على مزبلة من مزابل الحي ، ولبسها بدون أن يغسلها ، ويدخن المتسول دخانا صغير الحجم اسمه عنتر ، وله عين أغلب الوقت مغمضة ، يجلس طويلا أمام الجامع والمقهى ، وأحيانا أو بعض الأيام يعمل جولة في الحي ، ويأكل طعامه أمام الجامع حيث يتربع منذ سنوات ، أو يأكل علبة سردين ورغيف خبز ، ويتسول كأسة شاي من المقهى مقهى مهران المعروف لكم ، وأصبحت له عادة ، وغض مهران الطرف عن ثمنها ، لا زوجة له ولا أولاد ، يعرف بفولة ، واسمه عصمت فولي ، ومعروف في الحي منذ أكثر من عشر سنوات من أوائل الستينيات ، وقد أصبح مع طول الزمن من أعلام الحي ،

يفترش الأرض من الظهر أو قبل الظهر بقليل حتى المغرب ومرات العشاء ، ثم يختفي ، ومن النادر أن لا يوجد أمام المسجد ما دام موجودا في الحي ، وقد يختفي عدة أيام وأسابيع زاعما للفضوليين أنه يزور أقارب له أو أصدقاء ، وهو يمد يده للمتصدقين دون أن يهتف بشيء ؛ لكن إذا وضع أحدهم صدقة في كفه دعا له بالجنة والنجاح والحياة الطويلة .. والشيخ عبد المجيد دائماً يضع في يده عشرة قروش قطعة واحدة ، ويزيد "كيف حالك يا أبا فولة؟"، ولا ينتظر الجواب والدعاء ، واعتاد على هذا الفعل منذ أكثر من عشر سنوات ، فهذا متسول قديم ، وربما أقدم واحد كما يزعم البعض ، وأحيانا ينطلق في شوارع الحي طالبا الطعام ، فيجلس أمام شقة يأكل صحن طبيخ تقدمه له صاحبة البيت شفقة وعطفا ، وأصحاب الحوانيت يفعلون معه ذلك ، مع طول الوقت أصبح من أهل الحي ، وهو يسكن في عشة في طرف الحي الجنوبي كما ستتعرف عليها ، وقلنا إنه يختفي مرات بالأيام والأسابيع خاصة في فترة الشتاء زاعما أنه يتسول في وسط المدينة ، ثم يظهر مستقرا في الحي ، وقد رؤي من بعض الأهالي يفعل ذلك في شوارع ومساجد وسط المدينة بيت السلام ؛ لكن مقر عمله الرئيس رصيف مسجد "أبو خروف" ، وهو يستأجر عشة تقع بين الحي ومخيم عودة الأمل ، هناك ساحات ما زالت فارغة من العمران يستخدمها بعض تجار الخردة لوضع خردواتهم ، وأغراضهم القديمة ، فنشأت عشش وبيوت من الصفيح لإيوائهم في الليل ومن المطر والبرد في الشتاء ، فهو يظهر أمام المسجد ظهرا ، ويختفي عصرا بعد خروج الناس من صلاة العصر ، ومرات بعد المغرب ، فإما أن يختفي في عشته أو ينزل وسط المدينة طالبا المزيد من التسول في مساجد قلب المدينة مغربا وعشاء .. هذا ما اشتهر عنه .. والعجب أن بعض شبان الحي رأوه يدخل دور السينما بلباسه الرث الذي يتسول به . والسؤال المتداول بينهم هل يدفع ثمن العرض أم يتسوله ؟!



كان عصمت فولي أحد الأشخاص الذين يتحركون في "أبو خروف" منذ أكثر من عقد من الزمان ، بل سمعت بعضهم يذكر أنه رآه في خمسينات القرن في "أبو خروف" وغيره من الأحياء المجاورة ، ولكنه بعد حين من الزمن رسا واستقر بينهم ، وأصبح معروفا للجميع ، وسكن في ساحة الرغيف حيث تجمع الخردة والتنك، ويسكن العشش ودور التنك والصفيح الصغيرة ، وأصبحت هذا العشش مع الوقت تؤجر ويدفع لصاحبها ما يدفع ، وهذا يسكن وذاك يرحل ، فالحارس هو الذي يأخذ ويعطي ، وهو المسؤول أمام ملاك الأرض وبين الشرطة ؛ لذلك لما يختف هذا الشحاذ وتطول غيبته فيسأل الناس عنه ، لقد اعتادوا على رؤيته بينهم وفي شوارعهم وأمام بيوتهم طالبا للماء والأكل ، وقد ظهر متسولون غيره في الحي ؛ ولكنه أكثرهم ثباتا واتصالا بهم ، بعضهم ربما قضى أربع خمس سنوات ، ثم اختفى ولم يعد ، أما عصمت يغيب ثم يظهر من جديد.. فإذن أصبح الرجل معلما كالمسجد والمقهى والصحة وبعض المتاجر ونقطة الأمن وبعض الجمعيات كجمعية البر وجمعية الثقافة ؛ صلى عبد المجيد العصر كعادته التي بانت لكم ، وجلس في المقهى مع رفاق الحي وجيران الحي .. الشيخ لا يلعب الورق ولا الديمنو ولا النرد الطاولة .. يتحدث مع مهران وغيره ، ويشرب شايا أو قهوة أو قرفة وتسمى "الاينر" ، وربما يدخن سيجارة تقدم إليه من أحدهم ، ثم يخرج للسوق أو يتدرج عائدا لبيته قال لمهران : لي يومان لا أرى أبا فولة أمس واليوم

ـ وأنا مثلك لم أره يدخل المقهى لشرب ماء أو طلب كوب الشاي .. فأستغرب غيابه .. ذهب العامل أمس بكوب الشاي فلم يجده لا ظهرا ولا عصرا ولا حتى مغربا .. واليوم وأنا خارج من الجامع لم ألحظه مثلك يا أبا العبد ...وسأل العامل هيثم الشحاذين عنه فقيل له إنه مريض زاره أحدهم ليلة أمس فوجده مريضا .. وهو الذي يزعم أنه لا يمرض

فقال عبد المجيد مبررا سؤاله : تعودت على رؤيته أغلب الأيام .. لماذا لم يتزوج هذا المسكين يا حاج مهران؟!

فكر مهران قليلا ثم أجاب : تعلم أنه يدخل حمامات المقهى لقضاء حاجته عندما تكون مراحيض الجامع مغلقة ، فيسلم عليّ ، فأتسلى معه ، فسألته عن سبب عدم زواجه لليوم ، فرد عليّ ـ يا حاج عبد المجيد ـ النسوان هم ونكد وغم ، تزوجت مرة وتركتني .. ولا أدري أين اختفت ؟ وأين هي الآن ؟ فقلت له مازحا: أيكم كان يجمع أكثر ؟ فصرخ ساخطا : طبعا أنا .. النسوان حتى في الشحذة غبيات .. هي تذهب ساعة تجلس قدام جامع في قلب المدينة وتشتري الغداء أو تشحذه ، وتعود لتأكله قبل أن أعود ، ولما تدخل عليها البيت تقول : أحضرت طعاما لنا ؟ وباقي الأكل بجانبها .. المهم أن تشبع هي .. وأنا طبعا أكون أكلت في السوق ، وبعد انتهاء مشكلة الأكل.. كم جمعت في النزلة ؟ تذكر رقما صغيرا .. وتقول الشغل اليوم تعبان .. وأنا عارف أنها كذابة ، وبعد حين نمل من الكذب على بعض ، ويصبح الفراق هو الأمل لحياة فضلى .. الشحاذ تعود على عدم الثقة بأحد حتى امرأته وأولاده .. لم تدفع شيئا في إيجار الغرفة .. فاختفت من حياتي

علق أبو عبد الله بعد صمت الحاج مهران ، وهو يفكر بحياة هؤلاء المتسولين ، فقال : كيف اتخذ هؤلاء هذه المهنة المشينة وعملوا بها ورضوا بها ؟!

– رأس مالها أن يمد يده للناس أول مرة ، ثم يصبح فنانا فيها .. الشحذة فن وخبرة كسائر الحرف .. ولما يتعود الأنسان على شيء يصعب الانتهاء منه ، مثل أصحاب المهن الأخرى .. تجد الحداد يستلذ في عمله ، ويكره تركه إلا لضرورة قلة العمل مرضه هرمه .. وهناك ناس يهوون التنقل والتقلب بين الأعمال .. ويضيع العمر وهو لم يتعلم حرفة واحدة .. العادة لها دور كبير في حياة الناس .. وهي أرزاق

سكت مهران فعقب عبد المجيد فقال : إذا ذهب الحياء ذهب الجاه ومعه ماء الوجه .. هل يؤجر الإنسان على مساعدة أولئك الخلق ؟

– لنا أجر في الإحسان إلى البهائم .. أما هؤلاء فالله أعلم ..اسأل الشيخ شيخ الجامع .

ابتسم عبد المجيد وقال: سألت كذا شيخ ، بعضهم يقول " المرء يؤجر والمسلم على نيته"

وآخرون يقولون : لا تجوز الصدقة عليهم ؛ لأنهم ليسوا بحاجة للصدقة ، إنما يتخذونها مهنة ووظيفة ، وهي مهنة محرمة كمهنة الخمار وبنت الهوى ، وآخرون يرون أن المسألة لا تحل إلا إلى ثلاثة أصناف {١} ، أخبر عنهم النبي - صلى الله عليه وسلم - ويحق لهم طلب المعونة .. تعودنا على مد العون البسيط لهم قديما منذ زمن

- قل إن هذا المبلغ البسيط يكون في آخر اليوم عشرات الليرات والدراهم .. تخيل هذا الشيطان - أنا أحب أن اسميه الشيطان - له رصيد في البنك أكثر مني ومنك .. فهو شحاذ ابن شحاذ ورثها عن أمه وأبيه ، وتعلمها من عهد الطفولة ، كما نرى المتسولات يحملن أطفالهن ويتسولن بهم

- هذه الطائفة عجيبة! أنا أستحي أن أطلب مالا من الأولاد .. وقديما أيام الجندية كنت أخجل أن أطلب قرضا ولو بسيطا من أي رفيق في الوحدة ، الراتب - كما تعلم - لم يكن شيئا مذكورا ، إنما هو بضعة دنانير .. الحمد لله ربنا وفقنا في تعليم الشباب وتربية البنات ، وأكرمنا الله بهذه البناية ، ورغم أني لست بحاجة لمزيد من المال يا حاج مهران الأبناء يضعون في الحساب البنكي الخاص بي رغم أنفي .. وبيتنا لا يوجد فيه إلا أنا وأم العبد .. والأولاد كلما يطلون علينا يتحفوننا بالطعام والفاكهة والحلوى ، وأحيانا نحول الجزء الأكبر منه لجيراننا للبنت التي تجاورنا .. فزوجها دخله محدود وموظف بسيط ؛ لكنه طيب وخدوم

{١}- عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلاَلِىِّ قَالَ تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَسْأَلُهُ فِيهَا فَقَالَ « أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا ». قَالَ ثُمَّ قَالَ « يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاَثَةٌ مِنْ ذَوِى الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلاَنًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا ». صحيح مسلم

وشهم

- السيد قاسم يوسف

- أجل

- نعم الرجل ، كما قلت رغم بساطته ودخله المحدود ؛ لكنه مجتهد في العمل ، ولما ينته دوامه الوظيفي يعمل على سيارة شقيقه العمومية في فترة المساء ، ويجلس أحمد مع العصابة هنا يشرب الشاي كم ولد له يا حاج ؟

- ما شاء الله ! لحتى الآن ستة مواليد الأكبر عمره ثلاث عشرة سنة

- الله يحفظهم لوالديهم ولكم يا أبا عبد الله



لقد بينا اهتمام السيد عبد المجيد بالمتسول أبي فولة دون الشحاذين الآخرين مع أنه يتصدق على كل من يصطدم به من هذه الطائفة ، فكلما يدخل المسجد أو يغادره عند وقت صلاة العصر يراه متربعا مفترشا الأرض صامتا مادا يده للناس دون نطق شعارهم التليد " لله يا محسنين " ، فهذا يعطيه خمسة قروش وذاك عشرة ، فهذه قطع معدنية متماسكة ، فلذلك فلما لم يره أمس واليوم قلق عليه ، وافتقده فسأل عنه صاحب المقهى مهران أو عزب ـ كما يحب بعضهم تسميته بذلك ـ عن سبب تغيبه ، فرجع للبيت وهو يقول لنفسه : فعلا لعله مريض ، الناس تمرض حتى ينتفع الأطباء وأصحاب الصيدليات من ورائهم ، لذلك قبل أن يدخل لشارعه الفرعي ـ شارع النخلة ـ رأى طفلا فناداه وأعطاه القروش العشرة حصة أبي فولة اليومية ، فأخذها الطفل وهو يرقب الشيخ ، ثم قال: ماذا أفعل بها ؟!

ابتسم للطفل وقال : هي لك اشتر بها قطعة حلوى . طبعا كان لهذه القطعة في ذاك الوقت قيمتها ١٩٧٣ ـ فكنت ابتاع بها رغيف ساندويتش أو وقية كنافة ـ وتابع السيد طريقه ، وعند

زاوية الشارع تقع مكتبة للصحف والمجلات والقرطاسية وأغراض الطلاب ، وبعض الكتب التي توزع عادة مع المجلات والصحف ، وصاحب المكتبة اسمه طلال السّد وهو أستاذ متقاعد من سنة أو سنتين ، فاستقبله الرجل كعادته من سنوات ، ورحب به ، وقدم له مقعدا يجلس عليه قائلا : تفضل بالجلوس يا أبا عبد الله .. أهلا بالجار الطيب

جلس السيد على الكرسي شاكرا للسيد طلال ترحيبه ، والتقط أنفاسه وقال : الجريدة "الراية العربية" لم تصل اليوم ، ظننت أن الحاجة نسيتها هي التي استلمت الصحف الصباحية

تبسم السيد طلال وقال : عندما جاءت أم عبد الله صباح اليوم لم تكن الجريدة وصلت بعد .. تأخر حضرة الموزع الفرعي في توزيعها .. تعطلت { بيك آب } التي يوزع بها بعض الوقت ، واحتفظت بنسختك يا أبا عبد الله .. فأنا أعرف نظام شرائك للجرائد وخاصة جريدة القوميين العرب ـ وضحك ـ ونظام مشيك لصلاة العصر في الجامع عشرة عمر .

– لابد من ذلك يا أبا علي ، لابد أن أقوم بنفسي لقضاء الحوائج ، لم يبق لدينا أطفال .. بقيت أنا وها العجوز

دعا الرجل قائلا : الله يخليها لك . ووضع الجريدة على طاولة المكتبة أمام السيد ، وتابع قائلا: وصلني اليوم كتاب قد تحب أن تطلع عليه

– جميل ، عن ماذا؟!

– عن حرب ٦٧

– من ألفه وكتبه؟

تناول طلال السّد الكتاب عن الرف ، وقال وهو يقدمه للسيد : أسباب الهزيمة الكبرى عام ١٩٦٧ تأليف الصحفي الكبير تيم بكر الزيدي

قال عبد المجيد بحيرة : أول مرة أسمع بهذا الصحفي الكبير

وقال الأستاذ طلال : وأنا مثلك ، ولقد قرأت بضع صفحات منه .. وهو كتاب جريء يكشف الأوراق بقوة .. ولعله كبير في بلده .. ويبدو أن له صلات مع ضباط كبار شاركوا في

الحرب .. هكذا أوحت لي الصفحات التي اطلعت عليها .. ويؤكد أنه لم يكن هناك استعداد حقيقي للحرب والجيوش العربية .. وغلب على ظنّ رجالات المخابرات أن لا حرب ستقع رغم التسريبات السوفيتية ومخابرات شرق أوروبا .. إنما الحرب العربية كانت بالصوت العالي والخطابات النارية والإذاعات الرسمية

تنهد عبد المجيد آسفا على حال العرب وقال: أنا قرأت عن الحرب ، وتبريرات النكسة والهزيمة الكثير .. وأنت تعلم أني ضابط متقاعد ، ووالد ضابط أمني أيضاً .. حقيقة أن للحرب والهزيمة أسبابا كثيرة .. من الأسباب المادية ضعف الإمكانات من أسلحة وأدوات قتال وكذلك عدم إعداد جدي للحرب ، وضعف التعاون العربي كجمع ، وتنوع أنظمة الحكم العربية ، والاستهتار بقدرات العدو ، والتركيز على عدد الشعوب العربية مع أننا اليوم نرى قنبلة ضخمة تبيد مدينة كما حدث في هيروشيما اليابان .. أدوات الفتك هائلة يا أبا علي والأهم من مجمل اطلاعي ـ في رأيي ـ الفسق والفساد في الجيوش العربية من زنا وخمر ومجون وضعف التدين والإيمان .. والبلد فيها قومي وطني ديني بعثي اشتراكي ماركسي .. والمصلي في الجيوش العربية يصلي على استحياء .. وشر البلية بعض المفكرين والمثقفين العرب يرون أن سبب التخلف العربي هو الدين والتدين .. فقلة من الضباط تصلي وتصوم .. لا يقاتلون من أجل الدين .. وإسرائيل دولة تصنع الأسلحة ، وتتابع التقدم في الصناعات العسكرية .. وقد سمعت أو قرأت أنهم يسعون لامتلاك السلاح النووي كالدول الكبرى .. والغرب الذي أوجدها يرعاها فهي إسفين لهم في قلب عالمنا العربي .. نحن نستخدم أسلحة الحرب العالمية .. وهم يستخدمون أسلحة فيتنام والحرب الباردة .. ونحن نقاتل بالأغاني والأفلام والأحلام والمقالات الصحفية.. فأمة محمد أمة تختلف عن الأمم الأخرى ، لابد أن تكون عقيدتنا قوية راسخة .. لاحظ لما تحسن الجانب الإيماني لدى المحاربين الجنود وضباط الصف استطعنا في حرب ٧٣ تحقيق بعض الانتصار والثبات .. نحن لم نحرر وطنا ، ولا أرضا مسلوبة عام ٧٣ ؛ لكن عادت للمواطن الثقة بقدرة جنوده على الحرب والانتصار .. اختلف عن حرب ٦٧

الدين ونسبة التدين والثقة بالله.. لم نحرر سيناء ولا الجولان ولا القدس الشرقية ؛ لكن المنطقة تحركت سياسيا .. والكل يدعو للسلام ونبذ الحرب

- أنا قارئ وأعي ما تنطق

- الرجل لما يتقاعد ماذا يفعل؟ إما أن يقرأ أو يلعب الشدة والورق في مقهى عزب .. أنا أصلي العصر جماعة وأجلس مع الأفاضل ساعة زمان أطمئن عليهم وأسمع أخبارهم .. والحاج مهران صديق عزيز .. نعرف من مات ؟ من ترمل ؟ من تزوج ؟ في بريطانيا صحف تهتم بمثل هذه المواضيع تجد لكل مدينة وبلدة صحيفة أسبوعية تنقل على صفحاتها أخبار أهل البلدة والمدينة .. فيعرف المواطن أخبار بلدته عن طريق الجريدة ..وأنا من خلال هذا المشوار اليومي أشتري لوازم البيت والخبز .. لست مغرما بلعب المقاهي فقراءة كتاب أو صحيفة أو مجلة خير من مائة لعبة شدة أو زهرة (النرد) كم ثمن هذا الكتاب الأنيق ؟

- دينار ونصف فقط

- رخيص

- علمت من الموزع أنه مطبوع على نفقة شركات أو مؤسسة ، إنما الثمن أجرة النقل والشحن والتوزيع .. فبعض المؤسسات تساعد على نشر المؤلفات لبعض الشباب والكتّاب

قال عبد المجيد : فكرة جميلة ! وليست جديدة .. فالطباعة مكلفة خاصة لأصحاب الدخل البسيط ، وما أكثرهم ! ثم انتقل لموضع آخر فسأل : هل قابلت أبا فولة ؟

- الشحاذ

- نعم

قال طلال بعد تفكير : هل تعلم لي أيام لم أره ؟ وأحيانا هو يمر عليّ في طريقه لبيته الكائن في إحدى الفراغات حيث ساحات تجميع الخردة.. فهو يتسول الجرائد .. خاصة المستردة أو المرتجعة عن أيام سابقة أو حتى من قبل أسبوع يزعم أنه يقرأها ، ويضع عليها الطعام كمفرش .

ضحك الشيخ عبد المجيد ملء شدقيه ، ولما التقط أنفاسه قال متعجبا : أبو فولة يقرأ الجرائد .. هذا شحاذ مثقف يا أبا علي ..هل لديهم وقت للقراءة ؟! أول مرة أعلم أنه يقرأ .

ضحك الآخر مجاراة لجاره وقال ضاحكا : وليس هذا فحسب يا سيدي ، بل يعلق على الأحداث الساخنة ، وكان مهتما بالحرب قبل شهر وما زال يتابع أخبار المعارك والمناوشات الجارية في سيناء والجولان .. ويبدي أسفه وخيبته من الجيش المصري من عدم تقدمه لتحرير فلسطين بعد دخوله القناة في حرب أكتوبر ٧٣ واقتحامه لخط بارليف الدفاعي

قال الشيخ بشيء من الحسرة وخيبة الأمل : وهل فعل الجيش المصري شيئا ؟! بضعة أيام من القتال ، ثم قبل وقف إطلاق النار ومفاوضات .. قبل قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ فور صدوره ، وقبل قبول إسرائيل له .. لم يحرر سيناء حتى يحرر غزة التي كان يسيطر عليها قبل سنوات .. إذن متسولنا أبو فولة يقرأ سياسة

- الجرائد العربية تريد أن يقرأ الناس سياسة ، ولا يعملون في السياسة .. اقرأ كتب الدين ، ولا داعي للصلاة والصيام .

كان الشيخ مندهشا مما علمه عن أبي فولة فرجع يقول : معنى الكلام أنه يقرأ مقالات للكتاب

وقال طلال : والجيش المصري أصبح من المعلوم أنه لم يكن يخطط لتحرير فلسطين ، ولا حتى سيناء .. لم تكن له القدرة لتحقيق ذلك ، إنما كانت نتائج الحرب للضغط على إسرائيل للزحف نحو السلام مع العرب ، ورجعنا لروجرز .. فهم يتحدثون عن السلام قبل توقف الحرب نهائيا

- شغلتني به ، صاحبنا شحاذ متطور ما دام يهتم بالسياسة وأخبارها

قال : هو يهتم بكل شيء ، ولما يأت لشحدة بعض الجرائد يقف لدقائق نتحدث على سبيل المرح والمداعبة ، فهو يهتم بالفن والنجوم وأفلام السينما ، بل يحضر كل الأفلام التي تعرض في دور العرض ، ويتحدث عنها بحماس وجدية ، لو أتركه بدون مقاطعة ؛ لتكلم عن كل

مشاهد الفِلم ، ويحب أفلام العنف والقتل ، وصديق لكل السينمات ، حتى أنه يذهب لمحافظات أخرى من أجل فِلم يسمع عنه .

- قلنا شحاذ مثقف .. وهل يدفع ثمن التذكرة يا ترى ؟!

- لا أدري هل تشحذ السينما التذاكر ؟ فالشحذة يا أبا عبد الله عند هؤلاء الناس وظيفة وعمل وعادة

- الحاج مهران يقول إنه مريض

هتف طلال كأنه متفاجئ : مريض! قلت إنه لم يمر عليّ من أيام خلت ، وهو لا يمر يوميا من عندي أو يمر ويظل منطلقا إلى عشته .. فيمر غالبا بعد صلاة المغرب ، أو قبلها يأتي لأخذ القديم من الجرائد

قام السيد وقال : كم ثمن هذا الكتاب ؟

- بس ليرة ونصفها

أخرج السيد محفظته ، ودفع ثمن الجريدة ، والكتاب ، وسمعه يسأل: هل تريد شيئا من أبي فولة ؟

ابتسم السيد وقال : وماذا تظن أن نستفيد من أبي فولة ؟ ! .. هذا يا صديقنا لابد أن حدثتك أني أفك دينارا لقطع معدنية لتوزيعها على الشحاذين أثناء الطريق وأمام المسجد حتى تنتهي .. وهو يأخذ حصته يوميا .. وأبو فولة من سنوات وهو الرقم الثابت في الحي .. يغيب ثم يعود .. تعودت أن أعطيه كل يوم قطعة .. ولي يومان افتقده .. هذا فقط ما بيني وبين أبي فولة .. وهو عادة يفترش الأرض أمام المسجد .. فحرك غيابه الفضول في نفسي .. وماذا الناس يحتاجون من الشحاذ؟ الشحاذ يأخذ ولا يعطي .. منذ عرفته هل اشترى منك جريدة؟

تضاحك طلال وأجاب : لا أذكر أنه اشترى جريدة مني .. فهم لا يعرفون العطاء .. فقط الأخذ .. وحتى الطعام يحصلون عليه في الغالب بالتسول .. والملابس كذلك .. يدفعون القليل ومضطرين لعلاج وصيدلية .. كيف الشباب عبد الله وعمر وفاتح؟

-كلنا بخير ..وأنت كيف عيالك ؟

- الحمد لله في نعمة ووئام

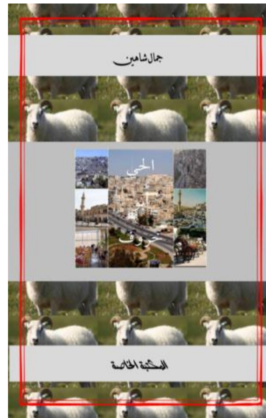
- أدام الله نعمه عليك وعلينا .. أتخرج علي من الجامعة؟ أذكر أنك قلت إنه على أبواب التخرج

- نعم ، تخرج بفضل الله ، وذهبنا وشاركنا في حفل تخرجه الذي أقامته الجامعة خلال فصل الصيف ، وهو اليوم يعمل في شركة كبيرة

- على خير ، وفقه الله ، السلام عليكم .. تتأخر أحيانا عن الدوام في المكتبة

- كبرنا يا أبا عبد الله .. سلم على أم عبد الله

- وعليك السلام



اعتاد السيد عبد المجيد محمد أن يصلي الفجر في بيته كسائر الصلوات ، ما عدا العصر يصليها جماعة في جامع "أبو خروف" ، واحيانا يصلي وزوجته جازية التركية ذات الأصول العربية ؛ لأن والده محمد أيضاً كان متزوجا من امرأة تركية ؛ لأنه كان عسكريا في الجيش العثماني الذي كان يحكم البلدان العربية قبل نهاية الحرب الكونية الأولى ، فكثير من أبناء العائلات كانوا يخدمون في جيش الخلافة قبل زواله ، فقد يأم زوجته في بعض الصلوات، وأكثرها يصليها منفردا ، وبعد الصلاة للفجر يجلسان لقراءة وردهما من كتاب الله عزّوجل ، ويذكران أذكار الصباح بعد تسبيحات الصلاة وأذكارها ، وكانت أم عبد الله تصنع له كوبا من الحليب المجفف ، فيرشفه وهو يرتل القرآن ، فالرجل يحسن القراءة إلى حد كبير .. فقراءة القرآن ليست كقراءة جريدة أو كتاب .. القرآن له نظام قراءة خاص به اسمه الترتيل التجويد أحكام التلاوة .. وهذا العلم يحتاج لدربة وممارسة أكثر من تعلمه نظريا .

فعبد المجيد الشيخ ولد قبل الحرب الأولى بسنتين أو ثلاثة ، وكان والده ضابطا عثمانيا فخدم في سوريا والأناضول وفلسطين أثناء الحرب الأولى ، وأمه تركية وزوجته أم أولاده تركية ، وهذا أمر شائع تلك الأيام ، خاصة لمن يخدمون في الجيش ، ولما انهزم الجيش ، وسقطت تركيا مع ألمانيا ، تحول كغيره من الضباط العرب للعمل مع الجيش الفيصلي في سوريا ؛ ولكن هذا الجيش انتهى بعد ميسلون ، وذهاب الملك فيصل لبريطانيا ، والتحق الضابط محمد بالجيش العربي الذي أنشأه الملك عبد الله بن الحسين من بقية جيش الثورة العربية الكبرى ، وفي الثلاثينات تركه واستقر في إحدى مدن الساحل الفلسطيني ، وكان ابنه عبد المجيد قد جنده لخدمة الجيش العربي ، وهو يحوي على عدد من بلدان العرب ، وكان عبد المجيد قد نال قسطا من التعليم في المدارس الحديثة ، وكان يتنقل بين فلسطين وقيادة الجيش العربي في شرق الأردن ، وأصيب في مدينة القدس أثناء أحداث عام ١٩٤٨ م ، وتعافى منها .. وفي مطلع الستينات تقاعد من الخدمة للعسكرية برتبة نقيب ، وكان قبل تقاعده ببضع سنين استقر في

حي "أبو خروف" في العاصمة والمدينة الكبيرة بيت السلام ، ومع الوقت استطاع بناية عمارة من ثلاث أطوار سكن في الأول منها ، والأدوار الأخرى مؤجرة ينتفع من إيجارها ،ويحصل على تقاعد عسكري ، وعمل فترة في التجارة الموسمية كشراء زيت الزيتون في موسمه وبيعه ، ثم ترك التجارات في مطلع السبعينيات ، وولد له عشرة مواليد .. أربعة ذكور عبد الله وعمر وفاتح ، وولد بينهم طفل ومات دون العام ، وله ست فتيات ، ماتت واحدة منهنّ صغيرة أيضاً ، وبقيت خمس كلهنّ متزوجات ، ومثلهن الأولاد ، وإحدى بناته أجرها شقة ، وهي تسكن معه في نفس الدور ، ثم توقف عن أخذ الإيجار بعد حين ، والأولاد يضعون من مالهم في رصيده ، وحسابه المعروف لهم ، رغبة منهم في بر والديهم ، فعبد الله درس الشريعة في جامعة الأزهر المصرية ، وظل هناك حتى تحصل على الدكتوراه في الشريعة ، وتعين في جامعة محلية مدرسا في كلية العلوم الإسلامية ، وعمر التحق بالقوات المسلحة والأمن، وهو يعمل ضابطا في أحد أجهزة الأمن العسكرية ، وفاتح تخرج من كلية تجارة ، وبعد حين يسير فتح شركة تجارية خاصة متوسطة الحجم ، وأما البنات لم يتعلمن إلا للثانوية العامة ، وأقل من ذلك ، وكلهن تزوجن في هذه السن ، ومن أولادهن من تخرج من كلية طب القاهرة ، فالرجل جاهد وكافح وتحمل وأصيب وربّى ، وعند سرد هذه القصة كان فوق الستين من العمر ، وما زال قادرا على الحركة والنزول إلى الشارع والشراء والحمل والقراءة ، ويعاني من بعض أمراض ما فوق الخمسين بدرجات متفاوتة ، بعض آلام الركبة ، ضعف البصر فيستخدم النظارة للقراءة ، وحرمه نحوه ، وتصغره بخمس أو ست سنوات ؛ لكنها تعاني من سقم السكري الخفيف ، وساعد أولاده في الدراسة خاصة الكبير ، وهم ساعدوا بعضهم الأكبر فالأصغر ، وهم متزوجون ويعيشون في شقق بالإيجار بعدما استقرت أوضاعهم المالية ، فكل من يتزوج يفضل الرحيل والحياة بعيدا عن عمارة الأب ، وسكنوا قريبا من أعمالهم ، بل ساهموا في بناء العمارة ؛ ولكنهم رحلوا ؛ لأن العمارة سيكون مصيرها للحي منهم .. فمن الناحية المادية فحاله جيدة لا يعاني من ذات اليد .. فقد ربى وعلم وزوج .. والصحة متماسكة

وعنده صفات جيدة ، ولم يتعلق بالدخان كسائر الجيل ، ولم يعرف طريق الخمر والحانات ، وهذه شائعة في ذلك الوقت بين كبار الضباط ، وهو ابن عائلة الدين مهم في حياتها ؛ لذلك كان متحمسا ليكون ابنه عالم دين أو قاضي شرعي ، لم ينجذب الرجل للأحزاب الناشئة والناشطة في الساحة العربية كان يراها عبثا ، ولن تحقق شيئا للأمة الممزقة ، وكان ـ كما رأينا من حديثه مع صاحب المكتبة ـ يحب القراءة في السياسة دون ممارسة السياسة ، ربما لحياته العسكرية ، فهم يحبذون عدم انخراط أفراد الجيش في السياسة ، مع أنه يحارب ويقاتل من أجل السياسة ، فهم لا يقاتلون لنصر الإسلام ، ربما لأن هذه الجيوش نشأت تحت ظل الاستعمار الإنجليزي والفرنسي بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ، بعد أن هيمنت على حياة الناس خمسة قرون .. وكان أولاده أطوع إليه من بنانه ، يقدرون جهاده ويفتخرون به ، وهو لم يقصر معهم .. وصاحبنا عاصر أحداثا جساما .. أخطرها السعي لتحقيق وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا العظمى والاستعمار والانتداب بتحويل فلسطين العربية لكيان يهودي عالمي ، وعاصر حروب العرب مع إسرائيل ، وشارك في بعض معارك الجيش العربي في جبال ووديان البيت المقدس ، وتابع حرب تشرين الأخيرة بعد الهزيمة المروعة ٦٧ ، والصراع محتدم ، ورغبات وهمسات السلام التي تخرج من هنا وهناك ، والدعوة للتعايش ، لكنّ الناس يأخذونها تلك الأيام على محل الهزء والسخرية والتندر .. فلسطين لهم من البحر الأبيض حتى نهر الأردن .. ولكن الحرب الأخيرة لم تحرر سيناء ، ولا الجولان السوري ، ولا الضفة الأردنية ، والقدس الشرقية ، إنما كانت حربا دون نتائج واضحة في تلك الفترة ، وكان يعلو صوت دعاة السلام والاستسلام للأمر الواقع ونسيان فلسطين التاريخية .

كان عبد المجيد يحب الثرثرة في السياسة والأخبار والتعليق عليها ، ويقرأ ما يكتبه كتاب الأبواب في الصحف المحلية والعربية التي تدخل البلاد ، ويسمح لها بالعبور للحدود ،وذلك يعود إلى حسن العلاقات بين الدول الكثيرة الخصام وسوئها ، بسبب نظم الحكم المتبعة ، فهذه اشتراكية ، وتلك قومية اشتراكية ، وتلك بعثية ، وتلك وطنية ، وماذا يقصدون بالوطنية ؟

لست أدري .. فيقرأ عبد المجيد ويناقش ، وربما كتب تعليقات وأرسلها للجرائد ؛ ولكنه كما أخبر لم يجد ردا عليها ، إنها لا تصل للصحفي كاتب المقال والتحليل ، أو الكاتب الصحفي ليس لديه وقت كاف للرد على قرائه .. والأخبار والأحداث متسارعة .. وهو يريد أن يعلق على كل شيء في السياسة في الاقتصاد في الثقافة في الرياضة ، تجده موسوعيا .. ولما تطلع على سيرة حياته فتجدها ثقافة جرائد ومجلات .. فقد أتيح له الاطلاع عليها للترجمة والاقتباس ، وإنما تظهر بتوقيعه ، والتصحيح اللغوي يقوم به موظف لغة في الصحيفة ، وكان الشيخ يكثر من الحديث والتعليق عندما يزوره الأولاد ، ويحتدم بينهم النقاش ، وكل يحتفظ بوجهة نظره ، ويتكرر هذا الحماس عندما يلتقي بأصهاره ، فكلهم لما يجالسه يعرف شغفه بالقراءة والحديث عن الأخبار الأخيرة .. وقصة فلسطين حديث الناس من مطلع القرن الأدب الشعر الأخبار الصحف الإذاعة ، وهي قضية حقيقة تشغل العالم ، فالشعب اليهودي في الكثير من دول العالم ، والشعب الفلسطيني بعد ٤٨ انتشر في أغلب دول العالم .. حظيت الشعوب العربية بدول مستقلة أو شبه مستقلة كدول الخليج العربي .. وترك الشعب الفلسطيني بدون دولة باسمه ، وكذلك الشعب الكردي ، الكرد توزعوا بين عدة دول بعد الحرب الأولى بين سوريا وتركيا والعراق وايران .. وجاءوا باليهود من بقاع شتى وأسكنوهم فلسطين الساحلية ، ثم أخذوا باقي فلسطين .. وهي حديث الناس ؛ فلذلك كل من يقرأ الصحف من المحيط إلى الخليج يتصبح بأخبار فلسطين تتصدر الصفحات الأولى من الصحف .. فحتى خبر راقصة فلسطينية فهو خبر مهم في تلك الصحف .. ورغم مشاغل الناس فيتداولون أخبار النضال الفلسطيني يوما بيوم ساعة بساعة .. فكل حاكم هدفه الدفاع عن قضية فلسطين .. فحتى وأنت تسمع خطاباتهم ومقابلاتهم الصحفية أو الإذاعية يقع في وجدانك أن التحرير على الأبواب ، ولما تدقق في الكلام ترى أنهم يقصدون بفلسطين التي استلبها اليهود عام ٦٧ ، أما البحر وحيفا وعكا فهذه أضحت لليهود بالاعتراف ٢٤٢ أو ٣٣٨ قرارات للأمم المتحدة التي أسست على أنقاض الحرب الكونية الثانية وموت عصبة الأمم .. هل يعيش عبد المجيد

ليرى عودة الشعب الفلسطيني لبلاده يوما ما ؟ .. ليس ذلك على الله بعزيز .. فإنه يقول للشيء "كن فيكون ".. فتراه وهو يقرأ عن القدس: أصلاة في الأقصى بعد ٦٧ ؟!



يصلي الحاج عبد المجيد سبحة الضحى عند وقت الشروق بربع ساعة أو ثلثها ، ثم يعود للاضطجاع ساعة من الزمن ، ويستيقظ بين التاسعة والعاشرة ، فتبدأ الزوجة بإعداد الفطور بغلي الشاي ، وهو بعد غسله وجهه يهبط ثلاث درجات قبل أن يصل بوابة العمارة للذهاب إلى المكتبة والمطعم الصغير، حيث تبتاع الأطعمة السريعة التجهيز كالحمص المطحون والفول المطحون والمسبحة والباذنجان المقلي والفلافل العربي .. وبعض الأحيان تذهب جازية لإحضار الجرائد والمطعومات ، ومثل هذه المطاعم تنتشر بين الأحياء وفي الشوارع الرئيسة ، فتأخذ أم عبد الله صحنا من الصيني لشراء الحمص ، وبعض حبات الفلافل .. وتجد على مائدة الإفطار الجبنة البيضاء واللبنة والزعتر الأخضر وزيت الزيتون.. ومرات تسلق بيضا أو تقليه بزيت نباتي .. كان تعاون بينها وبين قرينها في المسير لمكتبة الطالب التي تبعد عن البيت مائة متر .

اشترى السيد الحمص في علبة بلاستيكية نسي أخذ صحن الحاجة ، وبعض حبات الفلافل ، ومشى إلى مكتبة الطالب ، وزلف إليها ، فرحب به أبو علي ، وتبادلوا تحية الصباح ، وأخذ كيس الجرائد ـ حيث يضعها الرجل في كيس بلاستيكي ، الذي بدا يشيع في المتاجر والمحلات ـ واستدار خارجا ؛ ولكنه قبل أن يخرج من باب المكتبة ، سمع أبا علي يقول : قبل إغلاق المحل ليلة أمس بوقت يسير مرّ علينا صاحبك أبو فولة عصمت

توقف السيد واستدار إليه وقال : حقا! ظهر وبان

– نعم ، وأخبرته أنك افتقدته أمام المسجد ، فزعم أنك صديقه ، ويذكر أنك تقدم له مالا

يوميا ومن سنين ، وأعلمني أنه كان مريضا فعلا ، واضطر أمام المرض أن ينقطع عن العمل أرأيت يا سيدي يا أبا عبد الله ؟! تعطلت الشحذة ذلك النهار ، وأيضا ذهب للمستشفى ، وقالوا له إنه لا يوجد به شيء ، ربما تلبك في المعدة ..شحاذ وعنده تلبك

ضحك أبو عبد الله وقال: لا تستغرب ..كل ما يدفع إليه من طعام وفواكه يضعه في جوفه

– المهم علق وقال متهكما من الأطباء والتشخيص: تلبك معدة .. أنا لا آكل إلا السردين واللبن الرايب من أين أتى التلبك ؟

قال عبد المجيد وقد هز رأسه : المهم أنه بخير ؛ أنا أعتبره من معالم الحي .. تعودنا عليه .. له ما يقارب عشر سنوات يستوطن المنطقة .. الغريب يا أبا علي أنه لا يتسول الجمعة وقليلا السبت

فسر طلال فقال : الجمعة رأيته كذا مرة أمام المسجد الكبير في قلب المدينة .. الناس هناك أكثر ، وهم خارجون من المسجد بعد خطبة الجمعة.. أما السبت لعل هناك أماكن أخرى .. فالذي يتعود على هذا الشغل يصعب الخلاص منه .. التسول مرض اجتماعي خطير .. مهنة فظيعة .. وكسب خبيث .. ولا أعطال فيها .. لولا قلة الناس في الليل وإلا ما ناموا .. العطل عندهم اضطراري .. بسبب مرض فقط أو موت .. لا يعرفون التقاعد مثلنا

– أتاك من أجل الجرائد ؟

– أجل لا مصلحة بيننا .. جرائدك ماذا تفعل بها بعدما تقرأها ؟

قال : إن لم يأخذها أبو باسل زوج البنت لبنى جاري ، أضطر لدفعها لعامل النظافة ، أجمع له مجموعة من الجرائد والمجلات وأدفع له بعض المال ؛ ليقوم بحرقها لوجود كلمات دينية فيها عدا اللغة العربية المكتوبة بها

– على كل حال الذي تدفعه للزبال فأرسله لي .. وانا أتصرف به .. فبعضهم يطلب الصحف القديمة ليستخدمها كبساط للسفرة

– قرأت أن بعض أهل العلم يكرهون أو يحرمون الأكل عليها لوجود آيات قرآنية أو أحاديث

نبوية على صفحاتها

قال طلال : إن الله غفور رحيم

- ومن ناحية صحية سيئة .. يقولون إن الرصاص المستخدم في الطباعة خاصة الجريدة يؤثر على بدن الإنسان ، فلا ينصح باستخدامها كمفرش طعام

- الله اعلم

- على كل حال سأطلب من عامل النظافة أن يتركها عندك بدلا من حرقها.. إذن صاحبنا ظهر في الحي ، وجاءك ليتثقف

- طبعا ، لست المكتبة الوحيدة التي يتسول المجلات والجرائد منها ، إنما حسب طريقه لعشته يتسول .. ولدي خبر هام تذكرته هذه الثواني

- عنه؟

قال طلال باسما : نعم ، وهل نتحدث عن غيره ؟ يريد أن يتزوج .. فهو تزوج مرة ؛ ولكنها هربت من بيته

قال الشيخ مهتما بعصمت : وأين سيسكن اذا تزوج ؟ فهو يسكن في عشة صفيح خلف شارع الحي الشرقي بدون إيجار أو بإيجار زهيد

- سمعته يرد على هذا السؤال ، فهو سيجد بيتا في الحي هذا أو في مخيم اللاجئين القريب من "أبو خروف" ، فضحكت ، وقلت مازحا : أتدفع إيجارا يا عم عصمت ؟ فقال : شر لابد منه .. أتنازل عن بعض المال صدقة لصاحب الدار .

ضحك عبد المجيد وقال: صدقة .. جميل هذا من أبي فولة!.. صار دفع الأجرة صدقة.. يا له من جواد!

ضحك أبو علي ، وغادره أبو عبد الله وهو يقول : برد الفلافل يا أبا علي .

بعد رحيل أبناء السيد ، وذلك بعد زواجهم أصبح لديهم نظام غداء الجمعة ، كل جمعة يكون الغداء على أحدهم ، فيقوم الذي عليه الدور بإحضار الوليمة لبيت الوالدين إما مطبوخة في

البيت ، أو يبتاعها من أحد المطاعم المختصة بصنع الوجبات الكبيرة ، ويوم الجمعة كما هو معلوم يوم العطلة الرسمية في كثير من البلدان العربية ، والبنات كانت تجتهد على مشاركة الأبوين الغداء في بحر الأسبوع بدون ترتيب مقصود ، حسب المناسب لظروف أزواجهن ، وكان الأخوة ينسقون مع بعض ، ويعتبرون هذا نوعا من البر للآباء ؛ فإذا طرأ ظرف تغير الترتيب ويتبادلون الأدوار .. وهكذا دواليك ، وهذا الترتيب منذ سنوات قليلة منذ زواج فاتح أصغر الأبناء وتركه بيت الوالدين ، فكان نهار الجمعة بعد انتهاء صلاة الجمعة حافلا في بيت السيد .. عندما يحضر عبد الله يحضر معه خمسة أبناء وزوجة ، وهو قد تزوج أثناء دراسته في مصر ، من امرأة مصرية ، أصولها تركية بينها وبين أمه قرابة ، فالأتراك جنس توزع في كثير من البلاد العربية بسبب إدارتهم ، وحكمهم لبلاد المسلمين العرب ، وكانت لبنى جارة والديها في كثير من الأحيان عندما تطبخ طبخة شعبية ترسل لوالديها صحنا منها ، السيدة جازية كانت في أغلب أيام الأسبوع تطهو لنفسها ولزوجها ، فهي ما زالت تجيد الطهو وتقدر على ذلك

لما كانت الجمعة التي تلت الأحداث التي سردناها عليكم في الصفحات السابقة ، كانت وجبة غداء الجمعة من نصيب الابن الأكبر للسيد الدكتور عبد الله ، ويطيب للسيد الكبير أن يحضر ابنه معه كل أفراد الأسرة ، والمتقاعد قد يهتم بأشياء يراها البعض سخيفة ؛ ولكنه يعذر بأنه متقاعد وكبير في العمر ؛ لذلك كان السيد قد حدث أهله باختفاء الشحاذ أبي فولة ، ثم ظهوره ، وتبين له أن يطالع الصحف وقد تفاجأ من ذلك ، وأنه يفكر بالزواج ، ويعتبر الأجرة التي سيدفعها صدقة على مالك البيت ، ولما جلسوا يأكلون الفاكهة ويتسامرون ويشربون الشاي بعد تناولهم طعام الغداء قال عبد الله : وأنت في الحمام حدثتني الحاجة عن الشحاذ فولي وأنك مهتم به

تبسم الوالد ضاحكا وقال : أبدا أبدا القصة ـ كما تعلم ـ أني تعودت على مشاهدته أمام المسجد عندما أذهب لصلاة العصر ، وشراء ما يلزم البيت ، فأوزع مبلغا من المال على الشحاذين ، فلي

عهد أراه يوميا ، فلو صاحب بقالة انتقل دون أن أعرف لابد أن أسأل عنه ، فجرى حديث بيني وبين صاحب المكتبة طلال السّد عن هذا المتسول .. فأخبرني أنه يتسول الجرائد من عنده ؛ ليقرأها ويتثقف ، ويأكل عليها ، فهو زبون عنده ؛ لكنه لا يشتري شيئا ، وهذا ليس أول مرة أفتقده خلال العمر ، فهو أقدم شحاذ في الحي ، وأثبت شحاذ على غير العادة .. الشحاذون يحبون التنقل ، وعدم التمركز طويلا في مكان واحد أو حي واحد ؛ ولكنه يغيب زمنا ، ثم يعود ، وحدثت الحاجة عنه من باب التسلية يا أبا أسامة .. وكنت أتحدث مع طلال فسألته عنه من باب التسلية ، فوجدته زبونا عنده يتسول الجرائد المرتجعة .. وعجبت فعلا من شحاذ يقرأ الصحف .. وهو يسكن في الفضاء الخالي خلف "أبو خروف"

- أعرفه ، وأعرف شخص الشحاذ عصمت ، وشاهدتك تضع في يده عشرة قروش .. وذكرت لي أنك تفعل ذلك منذ عرفته متسولا في "أبو خروف"

- المهم تحدثنا عنه ، ورغم معرفتي السطحية به ، فقد عجبت من قراءته للصحف ، وهو يعيش في عشة لا كهرباء فيها ، فبين لي طلال أن لديه سراج كاز ، وأيضا يقرأها في أول النهار على نور الشمس قبل التحرك للشحذة ، فطلال يعرفه جيدا من تكرار الحديث معه ، وأعلمني أنه يتحدث في السياسة وتحركات الرؤساء والقادة ، وحرب تشرين الناشبة بين الدول العربية ودولة اليهود .. وصباح أمس كنت أشتري علبة حمص لنفطر عليها أنا وأمك ، مررت على أبي علي لأخذ الصحف المعتادة ، فأخبرني أنه ظهر ليلة أمس ، وفعلا كان مريضا ، وذهب للمستشفى ، وأخبره أنه سوف يتزوج ـ فقد تركته امرأته الأولى قبل أن يستقر في حيينا ـ ولما سأله طلال أين سيسكن بها ؟قال له : إنه يبحث عن شقة أو غرفة كبيرة .. وسيعتبر الإيجار صدقة على مالك البيت أرأيت ؟! .. شر البلية ما يضحك .. ناسي أن صاحب الملك دفع شغل سنين ليبني هذه الدار وتلك العمارة .. وقد تمر عشرات السنين قبل أن يسترد ما أنفقه على تشييدها .

تبسم الدكتور عبدالله ـ وكان يحب الاستماع لوالده دون مقاطعة ـ وعلق: صدقة .. الإيجار

سيكون بنية الصدقة عند أبي فولة .. مهبول هذا .. هذا الإيجار بدل منفعة .. ليس له أولاد من زوجته التي هجرته ـ يا أبي ـ لم يخلف منها .

- لا ، لم أسمع بذلك منه ، ولا من غيره ، والناس تناديه أبا فولة على اسم عائلته فولي .. فهذا السبب الذي دفعني للحديث مع أمك عنه .. وأنت تعلم أني أحمل بعض القطع المعدنية لتوزيعها على هؤلاء الشحاذين كل يوم .. وأنا متجه للجامع لأداء صلاة العصر .. وذلك رغم علمنا بغناهم وبخلهم ، وأنهم يمتهنون هذه الوظيفة الدنية .. ولو توقفنا من إعطاءهم لا يتوقفون .. إن الفقراء الحقيقيين تصلهم صداقاتنا عن طريق جمعية البر .

- التسول مرض اجتماعي كسائر أمراض القلب والبطن .. لذلك يمتنع الكثير من الناس بالإحسان إليهم لعدم استحقاقهم للصدقة.. إنما أشكالهم تحتاج للصدقة وتدفعنا للتصدق عليهم .. والكثير منهم يملكون الثروات .. وبعضهم كما نسمع لهم بنايات ؛ ولكنهم تعودوا على حياة الدور القذرة والضيقة .. الإنسان بعد حين يصبح أسير العادة والعادات .. فهم يتسولون بحكم العادة ، وليس لسد الجوع والحاجة .. فقد نشرت إحدى الجرائد عن موت متسولة طاعنة في السن ، وتركت وراءها ثروة كبيرة ومواد تموينية فاسدة كثيرة .. الصدقة مطلوبة .. وفضل الغني على الفقير بالمال ؛ لتمحيص الخلق .. ويقال للسائل حق ولو جاء على ظهر فرس .. والرسول ﷺ وضح للناس من تحل له المسألة وطلب العون من الناس (حديث قبيصة المعروف في هذا الباب وقد سبق ذكره)

قال الأب: هؤلاء المتسولون لا يهتمون بحديث ولا قرآن .. إنهم يجعلون القرآن والأحاديث وسيلة للتسول ومد اليد .. كنت أجلس في متجر في مركز المدينة حيث شحاذ داخل وآخر خارج .. وبينما نتحدث في أمور الدنيا دخل علينا كهل شحاذ طالبا صدقة.. فالتفت إليّ صاحب المحل ، وقال: عشرات يدخلون علينا خلال ساعات النهار ، فصرفه دون فلس واحد ؛ ولكنه قبل أن يغادر المتجر صاح فينا :" الله يقول ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ".. فنظر إليّ صاحب المحل بعد أن استوقفه قائلا : أسمعت بهذه الآية يا شيخ عبد

المجيد ؟

هززت رأسي نافيا ذلك ، وقال : وأنا مثلك رغم قراءتي للكتاب ، لا أذكرها .

وقال للشحاذ قل لي في أي سورة هذه الآية ، وأنا أعطيك عشرة قروش . فعاد الشحاذ حيث الطاولة التي يجلس عندها صاحبي وأنا ، فقال لنا : هاتوا المصحف .

فتناول الرجل مصحفه وقال : ها هو المصحف . أخذ المتسول القرآن ، وفتح على سورة فصلت ، ووضع إصبعه عند الآية التي تنتهي بقوله تعالى "وويل للمشركين " ثم علامة نهاية أية ، ثم أية تالية " الذين لا يؤتون الزكاة ".. فعلق صاحبي قائلا : لي عشرات السنين أقرأ الكتاب ، ولم انتبه لها ، وأعطى الرجل عشرة قروش ، وقال بعد انصرافه : هذا الجزء أحفظه غيبا ومع ذلك.. هذه أول مرة انتبه لهذا الارتباط .. أرأيت هؤلاء الشحاذين يا أبا عبدالله ؟!

فقلت له : وأنا مثلك .. هذه أول مرة أقرأ تهديد المشركين بويل لأنهم لا يؤتون الزكاة. وتركنا المتسول باسما .. التسول اليوم ليس علامة الفقر والمسكنة

قال عبد الله : أن أية" فويل للمصلين " في سورة الماعون شبيهة بها ثم " الذين هم عن صلاتهم ساهون " .. واليوم الدول فيها مؤسسات خيرية ، ووزارات معونة مالية وجمعيات ؛ لكنهم استهوتهم هذه الطريقة للحصول على المال .. وهناك جمعيات الزكاة كجمعية البر في حي "أبو خروف" ، وغيرها من الجمعيات .. حدثت عن متسول يملك عمارة من أربعة طوابق مؤجرة في أحد أحياء مدينتنا الكبيرة .. يركب سيارة مرسيدس حديثة كما يقال موديل سنتها يتخذ الشحذة وظيفة .. ينطلق صباحا في سيارته تلك إلى الأحياء الراقية ، ويتركها في موقف سيارات خاص ، ويخلع البذلة ويلبس ملابس العمل حتى الليل ، ثم يعود لسيارته ويلبس ثيابه الحسنة ، ويجلس مع سكان حيه كأنه وزير أو مدير شركة كبيرة .

مرض عبد المجيد

غادر عبد المجيد المسجد بعد صلاته العصر ، ودخل المقهى كعادته ليشرب فنجان شاي أو قهوة قبل أن يتوجه للسوق القابع خلف المسجد ،وجلس عند طاولة يجلس عليها أهم أصدقائه ومعارفه في الحي ، وأغلبهم جيرانه ومن جيله ، ولم يكد يجلس ، ويسلم على من لم يسلم عليه في المسجد ، حتى سمع مهران يناديه فهو صديقه وهو صاحب المقهى ، فالتفت إليه وقال : آ ، يا أبا عبد الكريم ، لدى الحاج كلام

فأشار إليه بالمجيء والجلوس معه ، فنهض وسار إليه ، وجلس على كرسي بقربه وصافحه وسأله عن عياله وأهله .

فقال له : لم تطلب شيئا .. يا سعيد فنجان قهوة للحاج عبد المجيد

- فنجان صغير يا حاج

أحضر النادل فنجان القهوة الصغير ، فهو معروف لهم ، فقال : كيف الحال ؟

- بخير الحمد لله

- الصحة؟

- الحمد لله

قال مهران : أخبر أيوب أبو سالم أنك ستدخل المشفى ؟

ابتسم أبو عبد الله وقال: أبو سالم جار عزيز .. وأحيانا يأتي بعجوزه للسهر وإيانا .. صحيح سأقوم بفحوصات طبية للقلب .. وهي دورية ليست جديدة .. تعبت قبل أيام ومررت على ماجد .. أحسست بآلام في صدري

- الدكتور ماجد جارنا . وعيادته في عمارة قريبة من المسجد والمقهى

- نعم

- هو طبيب عام غير اختصاصي

- أعرف ، تعبت وأنا في السوق .. المهم نصحني بعرض نفسي على أخصائي صدر أو قلب

ولما حدثت الأولاد بهذا خاصة عمر الضابط أصر على أخذي لطبيب القلب في المستشفى العسكري ، وبعد تصوير وتخطيط قلب على جهاز رسم القلب ، قال الدكتور : الأمور طبيعية ، ربما عضلة القلب تحتاج لمراقبة ، ومتابعة تسارع النبض لمدة يومين أو ثلاثة .. فقريبا سيكون أمر الإدخال .. والمراقبة لهذا القلب ، لما تزول نزلة البرد التي أصابتني لعلني اشفى .. ربما هي سبب هذه المشاكل .. وأنت تذكر هذه الأزمة التي ألمت بي .. فالشتاء موسم نزلات البرد

- كان التهابا حاد ا كما أخبر أيوب جارك

- ونعم الجار

قال مهران : أذكر هذا وقد تغيبت عنا أسبوعا أو حتى أكثر ؛ كأنها عشرة أيام .. ولما شرفتنا ذكرت لنا هذه الأزمة الحادة .. حماك الله من الأسقام

- بارك الله فيك ..وهل ينجو أحد من السقم ؟

- هي دعوة ودعاء .. والرسول ﷺ كان يتعوذ من الأمراض

- صلى الله عليه وسلم .. وزارنا الجار والصديق أبو سالم وبعض رفاق الجامع .. جزاهم الله خيرا .. الإنسان ضعيف من البرد يمرض .. من الحر يمرض من تقلب الفصول يسقم .. ومن الطعام يمرض .. ومن الماء يمرض ..والحمد لله على كل حال ..والمرض رحمة بنا .. في النهاية فذنوبنا تغسلها الأمراض وتطهرها .. فكان الدعاء النبوي للمريض" طهور إن شاء الله"

- صدق الرسول عليه السلام .. سلامة لك يا حاج عبد المجيد يا بركة .. أخبار عمر في الشرطة كيف هي ؟

- بخير وعلى خير ما يرام

- والدكتور العالم عبد الله

- طيبة ، ويحاضر في الجامعة ، صرف نظره عن العمل في القضاء .. الأولاد نعمة وزينة .. عندما يضعف الكبير يعلم القيمة المهمة للذرية إذا كانت صالحة .. ولد صالح يدعو له .

- كما يزرع يحصد .. ربّ جيدا تجني ذرية جيدة .. لي حفيدة طالبة في كلية الشريعة بنت ابني سليمان .. أخبرتني أن ابن أبي عبد الله مدرس

عندهم

- الله يفتح عليها ..إذا احتاجت لمساعدة فلتتحدث مع الدكتور دون حياء .. فنحن أهل وجيران يا أبا عبد الكريم

- هي مجتهدة ، وحصلت في التوجيهي إحدى وثمانين درجة .. ورغبت دراسة الشريعة وفي الجامعة

- وفقها الله .. وأنت كيف صحتك ؟

- الصحة لا بأس بها.. الكبر والسن لهما دورهما .. وعملت مثلك بعض الفحوص للقلب .. والوضع مقبول جملة ؛ ولكني تركت السجائر بأمر الأطباء

- الدخان شر.. وقاتل مخيف .. والعجب أن الناس يعشقونه عشقا مبرحا عشقا لا حد له .. ولا يخلو بلد من مصانع تصنعه للخلق زاعمين أنهم يدعمون الاقتصاد بصناعته ، مع أن العلاج لمرضاه يكلف الدولة أكثر من دخله

قال السيد مهران : الكل يعلم ضرره وشره ، ومنذ بدأنا ندخن ونحن نعلم فساده وضره .. يزعمون أن المال بدل أن يخرج للدول الأخرى ، فليبق ثمن الدخان في البلد ، ولا يذهب إلى الشركات الخارجية .. حجج هاوية ..فنحن نستورد كل شيء ..والدخان الأجنبي يملأ البلد .. والناس تعشقه ويتباهون بشرائه .

- الخمور تباع باسم التجارة العالمية .. المخدرات تشيع بين الناس

- لا حول ولا قوة إلا بالله

قضى السيد أياما في المشفى العسكري ، لأنه يحمل بطاقة علاج طبي عسكري بصفته ضابط متقاعد ، والجيش يؤمن العلاج الطبي لمنتسبيه في كل دول العالم التي لها جيوش ، وخضع الرجل للعلاج والمراقبة الطبية ، وبعد الانتهاء من العلاج منح بعض الأدوية المهمة والمنشطة

لعضلة القلب ، ونصح بالمراجعة كل ستة أشهر مرة إلا اذا اضطر لغير ذلك .

ورجع للبيت ، فبدأت الزيارات ، أهل عليه من الأقارب والجيران والأصهار والأصدقاء ، وأغرب ما حدث في هذه المناسبة أن الشحاذ عصمت دخل عليه ليهنئه بالسلامة ، فاستقبله أبو عبد الله كما يستقبل زواره وضيوفه ، ورحب به وجلس وإياه في صالة الاستقبال ، وعرض عليه الطعام ، فاعتذر وقال مبررا اعتذاره : أحب الأكل في الشوارع شكرًا لكم .. لقد تألمت لما سمعت بدخولك المستشفى .. وكنت يوميا أسأل الحاج مهران عنك فيطمئنني عليك .. الحمد لله على السلامة يا سيدي

- شكرًا لك يا أبا فولة

أحضرت سيدة البيت الشاي ، ووضعته أمامهم ، وتقبلت دعوات أبي فولة بسلامة زوجها ، وسكب الشيخ الشاي داعيا له بشربه ، وأخذ الرجل بالتمتمة شاكرا للسيد ، حتى سمعه يسأله عن أخباره

فرد عصمت : عايش مستورة يا عم عبد المجيد .. وأنا رغبت أن أحظى بهذا الشرف .. وأمر عليك شخصيا ؛ لأني أعلم أنك صديق طيب ، وأعلم قدر قلقك عليّ لما أختف من الحي سواء للعمل في مكان آخر أو أمرض

ضحك عبد المجيد وقال: بارك الله فيك .. لقد تعودت على رؤيتك أمام المسجد من سنوات .. واعتبرتك جزءا من المسجد . وابتسم ، وابتسم الرجل أيضاً ، وأخذ يرشف شايه ، ولما فرغ ملأه الحاج ثانية قائلا : اشرب يا صديقنا .. حلت علينا بركات أبي فولة .. أخبرني صديقنا أبو علي

- أبو علي؟

- صاحب المكتبة طلال .. المكتبة القريبة من هنا

- آ .. عرفته تذكرته ماذا أخبرك؟

- أخبرني أنك ترغب بالزواج ثانية

- لقد تزوجت من يومين فقط

دهش عبد المجيد وقال : تزوجت !

- نعم ، وأنت في العلاج تزوجت .. التقيت بامرأة أثناء العمل تعمل مثلي .. وبعد حين اتفقنا على الزواج .. واستأجرت غرفة صغيرة على طرف المخيم المخيم القريب من "أبو خروف".. والأجرة ثلاثة دنانير في الشهر

- هي تشتغل مثلك في الشحذة

- كما قلت قبل لحظات تعرفت عليها أثناء الشغل ، وذلك أمام الجامع الكبير في وسط المدينة حيث أعمل يوم الجمعة .. نحن يوم الجمعة نسترزق عند صلاة الجمعة أمام المساجد الكثيرة المصلين .. وبعدها نكف عن العمل للصباح التالي .. فهذه الصلاة نحصد ساعتها عن أسبوع من اللف والدوران .. فكانت من ضمن الجالسين وتعرفنا على بعض .. ولما علمت أنها مطلقة أكثر من مرة .. قلت لها دعيني اجرب حظي معك .. فإن طاب العيش كملنا الحياة سوية .. فبعد تردد وافقت .. نخرج للعمل قبل آذان الظهر بقليل ونعود للقصر ليلا .. ويتغدى كل منا مكان عمله .. والعشاء والإفطار معا .. وعلى كل واحد أن يحضر الطعام معه من المطاعم من الدور .. أنا فقط أدفع إيجار الدار .. ومن الشهر التالي وعدتني بدفع نصف الإيجار تبرعا منها

- ستساهم معك بدينار ونصف جيد .. كيف الشغل هذه الأيام يا معلم فولي ؟

- مستورة

- مستورة .. الله يستر على الجميع

- نعم ، يا أبا عبد الله .. شكرًا على الشاي .. واسمح لي بالمغادرة

- انتظر

دخل حجرة النوم ، وعاد يحمل دينارا ورقيا ، أعطاه للرجل ، وهو يقول : نقوط العرس .. شكرًا على زيارتك .. ووفقك الله

سعى الرجل لتقبيل يد السيد ، وسحبها السيد قائلا: استغفر الله استغفر الله يا عم عصمت .. نحن أخوة .. مع السلامة سلم على أهلك . ورافقه إلى باب الشقة ، وصافحه مودعا ،وأغلق الباب خلفه ، وعاد للجلوس في الصالة، وجاءت زوجته وهي تقول :ماذا يريد هذا الشحاذ ؟ ضحك عبد المجيد وقال : جاءني مسلما ومهنئا بالسلامة ؛ بمناسبة الخروج من المشفى .. فهو يعتبرني صديقا له

- وهل للشحاذ صديق ؟!

- صديق عابر ؛ ربما لأنني اهتممت بمسألة غيابه قبل دخولي المشفى كما تذكرين .. فظن أن اهتمامي بغيابه جعله أن يتخذني صديقا .. الله يهديه ويصلحه

- الشحاذ صديقه الوحيد المال ؟ وهل سيتأخذ مهنة أخرى ؟

- قد يحصل هذا في يوم من الأيام .. الله أعلم .



في مطلع الشتاء نشرت الصحف المحلية أن أجهزة الأمن قد ألقت القبض على خلية تجسسيه في إحدى المدن العسكرية أي ذات الطابع العسكري ويغلب على سكانها العمل في الجيش ، ولم تفصل الجرائد الخبر ، وكيف تم الاعتقال ؟ وكم عدد أفراد الخلية ؟ ولم تحدد لمن تتبع الخلية ؛ لدولة عربية ؛ لدولة إسرائيل الصهيونية العالمية .. فالدول العربية تتجسس بعضها على بعض بسبب الصراعات الناشبة بينها ، إما إعلاميا ، وإما اقتصاديا حسب المحور الذي تدور عليه الدولة العربية ، فقد شهد العقد الماضي صراعا عسكريا حادا بين مصر ومن آزرها ، والسعودية ومن آزرها في حرب اليمن أثر الانقلاب العسكري على الإمام البدر ، والنزاعات الحدودية تثور وتهدأ حسب شهوة القادة والحكام لهذه البلدان ، ولم تكن هذه أول مرة يكشف فيها عن خلية أو خلايا تجسسيه .. منذ نشب الصراع بين العرب واليهود ويحدث هذا .. وعادة الصحف لا تتعمق في التفاصيل ، إنها إشارة للحدث فقط .. فالصحافة الأجنبية أجرأ على تناول هذه الأخبار وتحليلها .. والدول اليوم تملك أجهزة مكافحة التجسس ..فالدولة لديها جهاز مكافحة التجسس والاتصال مع العدو الغاصب .. والصحف لم تكشف لمن تتبع هذه الخلية ، ولكن الراجح أنها تتبع لإسرائيل ؛ لأنها العدو الأصلي لكل البلدان العربية .. والذي أعطى هذا الحادث أهمية لأهالي "أبو خروف" وتداولهم له أن أحد أعضاء الخلية قبض عليه في الحي في أحد مطاعم الحي.. وهذا شكل مجالا للنقاش والقيل والقال ..ولماذا جاء الجاسوس "أبو خروف" ؟ ولماذا قبضت عليه أجهزة المكافحة في المطعم ؟.. فقال عبد المجيد متلهفا لإشباع فضوله لابنه عمر الذي يخدم في أجهزة المكافحة : ما القصة ؟ أيعمل في هذا الحي جواسيس ؟ ولماذا مطعم جودة ؟!

ضحك عمر قال : هذه الأحياء قد تكون آمن للجواسيس من الأحياء الراقية

وتوقف الحديث إلى ما بعد الغداء ، بعد الغداء العائلي دخل الشيخ مكتبه ومكتبته المنزلية الصغيرة ، وتبعه عمر الذي طلب من زوجته إحضار الشاي إليهم في المكتب.. وكان عبد

المجيد مهتما بجاسوس "أبو خروف" الذي تحدثت عنه الصحف ، وهو حديث المقهى والشارع .. ولولا نشر الخبر في الصحف لما اهتم الناس بقصته ، والسؤال لماذا جاء الرجل للحي ؟ وقبض عليه في الحي في أحد المطاعم المهمة في الحي ؟ لذلك سأل ابنه مرة أخرى قائلا : وماذا كان يعمل الملعون في الحي ؟!

عمر يعلم شدة فضول أبيه ، واهتمامه بمثل هذه الحكايات ، فقال: رغم حساسية الموضوع يا أبي ؛ لكني سأشبع فضولك..أنت تعلم من واجباتنا تعقب ورصد هذه الشبكات .. وهي مهمة حساسة وصعبة .. ربما يقبض على عميل في ظرف معين ، ثم يبان لنا أنه الشخص الخطأ .. كان هذا الرجل تحت المتابعة منذ أكثر من سنة..هؤلاء الجواسيس لا يستعملون الهاتف إلا في أضيق الحدود وبطريقة مشفرة..فهم يستخدمون البرق والرسائل المشفرة أو اللقاء مباشرة .. ونحن متأكدون أننا لم نقبض على جميع أفراد الشبكة ؛ لكن اضطررنا لأسباب خاصة بالتعجيل للقبض على المعروفين لنا خشية هربهم .. ولم نستطع أن نعرف سبب مجيء الرجل إلى "أبو خروف" بالذات .. لكن لا تنسى يا سيدي أن الحي قريب من مخيم عودة الأمل القريب منكم .. والمخيم كما تعلم فيه أنشطة سياسية وعدائية لدولة إسرائيل المغتصبة لفلسطين العربية .. ونحن فككنا الكثير من الشبكات والخلايا .. فبعضها نعلن عنها في الصحف ، وأكثرها لا تذكر .. تبقى لدى المحاكم والنيابة .. وأنا طلبت هذه الجلسة الخاصة لأسمع منك

- تسمع مني؟!

- نعم ، ماذا يتحدث الناس عن جاسوس "أبو خروف"؟ تعليق الناس على الحادث .. هل يتحدثون إلى أين كان ذاهبا ؟ هل كان على موعد مع أحدهم ؟ مدى اهتمامهم وتأثرهم بالقبض على جاسوس في حيهم .. هل كان ذهابه للمطعم صدفة أم لمقابلة شخص ؟ الناس تتفاعل مع الحدث أحيانا كثيرة .. هل سمعت شيئا؟

بعد رشف الشاي قال عبد المجيد : أنا أصلي العصر في المسجد ، وأجلس في المقهى بعض

الوقت ، ثم أمر على السوق وأقفل عائدا ..فلا أسمع الكثير .. والناس هنا منذ نشر الخبر في الجريدة ، وهم يتحدثون عن سبب ظهوره في "أبو خروف" ، لا يذكر أحد أنه قابله ، حتى صاحب المطعم يقول للناس: إنها أول مره أراه يدخل مطعمي . ولكن بعضهم يشكون في صاحب المطعم نفسه ـ المعلم جودة ـ ويقولون : لو صبر رجال المباحث حتى يقابل من أتى ليجتمع به .. لم يشاهد في الحي من قبل .. هكذا يقول أهل المقهى

– ربما أتى من قبل متنكرا يا أبي .. فالجاسوس بارع في التنكر ؛ ولكننا نعلم أن صاحب المطعم لا يعرفه ، وإنما دخل المطعم ليأكل أو ينتظر شخصا فيه .. وهو جاء مضطرا .. هو نزل من التكسي العامل على خط هذه الأحياء .. ووقف دقائق يتلفت يمينا ويسارا ، ثم دخل محل بقالة واستخدم الهاتف ، ثم تبين لنا أنه اتصل بمقهى في وسط البلد ، كما يقول الناس عن قلب المدينة ، ورد عليه صاحب المقهى أو مديره .. ولما ذكره رجال الأمن بالوقت الدقيق للاتصال ذكر أنه سأل عن رجل اسمه شوقي رجب .. ونادى الجرسون بصوت عال ، ولم يرد أحد ، وأنهى الاتصال ، ودخل المطعم عند جودة .. وهنا قررنا إنهاء المتابعة .. وقبض على خمسة من المجموعة وهو سادسهم .. وبعد التحقيق الابتدائي أعلن خبر القبض كرسالة للعدو ، ولباقي الشبكة؛ لعلهم يسعون للهرب ، ويخرجون من أوكارهم

– هذا ما تردد على السنة أهل المقهى من إشاعات عن الجاسوس ، ولم يزعم أحد أنه رآه أو قابله أو جالسه .. والسؤال المهم لماذا أتى الحي ؟! جاء يقابل من؟ لو عابر طريق لماذا نزل في "أبو خروف" ؟

ضحك عمر وقال : قد يكون جاء لخداع مراقبيه .. فهو يعلم أنه مطارد منذ أن أمسكنا جماعته .. وأنت تجلس مع أهل الحي والسوق والمقهى هل سألك أحد عني عن موظف في الشرطة السرية ؟

– من الطبيعي أن يسعى الناس لمعرفة عمل الأبناء ؛ ولكن لا أذكر أن أحدهم ركز عليك بالذات ؛ إنما الحديث عن الأولاد جملة .

شغلت قضية القبض على جاسوس إسرائيلي في الشارع العام لأبو خروف الأهالي ، فبعضهم ظل مهتما بها ويتابع أخبارها ، وأكثرهم نسيها خلال أيام أو ربما ساعات ..فهل كان الرجل عابر سبيل عند إلقاء القبض عليه ، أم جاء لمقابلة أحد أعضاء الشبكة ، فاليهود يتابعون التسليح العربي والمجهود الحربي ، يتابعون الاقتصاد العربي والصناعات العربية ، يتابعون التنظيمات الفلسطينية التي نشأت على أثر نكبة فلسطين ، يندسون في مخيمات اللاجئين بعد عام ٦٥ وقبله ، وكانت المقاهي الشعبية مرتعا خصبا للسياسة ، وقراءة الصحف ، فإنك تجد قارئ جريدة يجلس أمام المقهى يقرأ ويقلب جريدته أثناء الصيف والأيام الدافئة ، وآخر يقرأها في الداخل ، وهو يرشف الشاي ، وآخر يتابع الراديو القابع في زاوية المقهى ، يستمع نشرة أخبار ؛ لأن محطات التلفزيون تتأخر في البث ، ما زالت في بداية الشوط ، وتفتح في المساء لنشرات الأخبار المصورة .. لذلك كان يتردد في مقهى "أبو خروف" التعليق والنشر على اعتقال جاسوس في مطعم جودة مطعم للمأكولات الشعبية الشهية ، حيث تطهى اللحوم والأسماك والطيور .. فكان كبار السن والشباب مشغولين بقصة الجاسوس ، خاصة المهتمون بالسياسة والثورات العربية والانقلابات العربية والأحزاب العربية .. ويتردد على ألسنتهم مرارا وتكررا (أتى لمقابلة من ؟!) من كان يسعى لمقابلته في الحي ؟ هل سيقابل شخصا من الحي من المخيم من حي آخر ؟ هل كان في المطعم لأجل اللقاء أم لتناول الغذاء ؟ هل جودة عميل إسرائيلي؟ هل بيننا خلية تجسس ؟ لقد سمعوا أكثر من مرة عن عملاء لليهود في قلب المخيم تمت تصفيتهم ؛ ولكن لم تظهر الحقيقة كاملة .. وقبض على بعضهم

كان مهران صاحب المقهى يتهامس في نفس الموضوع مع السيد عبد المجيد فقال: أنت تقرأ الصحف والمجلات والكتب ، وابنك عمر ضابط أمن ، فماذا يعلمون عن الحادث ؟

قال عبد المجيد وهو يثق بمهران : هو حادث غريب في "أبو خروف" حقا.. الجرائد نشرت الخبر ، ولم تعلق عليه ، ولا حتى كتاب الأعمدة يتحدثون عن تلك الخلية .. صمت قاتل ..

حتى متابعة له في الصحف لم تحدث .. والقبض على الشخص حدث في وسط النهار ، وفي مكان عام ..ليس في بيته ولا ليلا ..وصاحب المطعم ومن حضر الاعتقال سيتحدث بما رأى .. فرأت الجهات الأمنية أن تعلن عن القبض عليه ؛ لأن الناس ستتحدث عن الحادث .. وستسمع الصحف ووسائل الإعلام من وكالات الأنباء .. فكان النشر قبل البدء في التحقيق الرسمي .. فالناس تتحدث بضعة أيام ، ثم ينشغلون بخبر وحادث وآخر ، ويكف الحديث عن الجاسوس.. لماذا قبضوا عليه في وضح النهار؟ ربما خشية الهرب والاختفاء

فعاد مهران يقول: الكل يتسأل جاء يقابل من؟ هل أراد أن يأكل قبل أن يذهب للمخيم ومقابلة عميل ؟ قصة مثيرة ومحيرة

- أنا أعتقد أنه كان يريد المخيم ، عن طريق "أبو خروف" للتمويه والتضليل .. فالمخيم له طريقه ومواصفاته .. له خط سير خاص .. فالمخيم لا يخلو من عملاء العدو .. فالمال سلاح خطير ، وشراء الذمم موجود .. حتى الأنظمة العربية تجد لها عملاء داخل مخيمات اللجوء .. فالدول العربية في حالة صراع بين بعضها بسبب خلاف أنظمة الحكم .. هذا شرقي وهذا غربي .. وهذا وسط بينهما عدم انحياز .. والعالم في حالة السلم حرب بين أجهزة التجسس .. والجاسوسية حرب دون شوشرة إعلامية .. إنما هي فقاعات هنا وهناك .. وإسرائيل حسب ما ينشر لديها جهاز مخابرات قوي ونشط في كل العالم حتى في أمريكا نفسها .. رغم التحالف القائم بينهم .. فإسرائيل سواء النظام العربي اشتراكي قومي تقليدي يهمها معرفة قادة النضال الفلسطيني ومساكنهم وأفكارهم وأعوانهم .. ويهمها معرفة المثقفين البارزين والعلماء والعسكر .. فهي دولة خبيثة ..والمعرفة عماد الانتصار والتقدم .. تقرأ ما تكتب الصحف والمجلات .. فالتجسس قائم حتى بين الأصدقاء .. والدولة تتجسس على شعبها بما يسمى الأمن الداخلي

قال مهران أثر صمت عبد المجيد :أفهم من كلامك أن الدولة لم تعرف بعد عضو الخلية أو الشبكة في منطقتنا وبيننا

- لا يعرفون ، وإلا سمعنا بالقبض عليه من جيرانه من أهله .. بيني وبينك ابني يقول : لا نعرف ، وهم يتابعون التحري والبحث والترصد ؛ لأنه لم يأت عبثا إلى هنا .. لو في وسط المدينة ؛ لكان الأمر مقبولا طبيعيا .. أما أن يذهب للأحياء ، لابد أن يكون قادما للقاء أحدهم

- بعض الأخوة يعتقد أن لصاحب المطعم علاقة أو عمالة بهذا الجاسوس ؛ ولكن قبض الأمن عليه قبل ظهور العميل نجّى العميل .. وقد اختفى أحد عمال المطعم بعد الحادث بأيام

- علمت بذلك من طلال صاحب مكتبة الطالب .. هو لم يختف ، إنما ترك العمل قبل القبض على الجاسوس .. وهو يعمل في مطعم حلويات في قلب المدينة

قال مهران : أنا علمت أنه اختفى لما علم بالقبض على شريكه

- لا ، لا ، لم يقبض عليه ، حدثني أبو علي بالأمر

- صاحب مكتبة الطالب

- أجل أجل صحح لي معلوماتي

- أبو علي رجل مثقف ، وأستاذ متقاعد ، وقارئ نهم مثلك

قال عبد المجيد : بل أكثر مني .. على كل حال أكد أن العامل ليس له علاقة بالجاسوس .. إنما تصادف تركه العمل مع القبض على الجاسوس .. وإنما ذهب للعمل في مطعم آخر لقريب من جودة .. العميل موجود ويعيش بيننا .. وجاء الرجل مضطرا لمقابلته بعد القبض على رفاقه في المدينة العسكرية

- ماذا يفعلون بالخونة بعد إمساكهم ؟

قال عبد المجيد: اذا كان يحمل جنسية البلد ، فله حكم قد يصل للمؤبد أو الإعدام حسب الضرر والخطر الذي كان يشكله على المجتمع .. هل تسبب في قتل أناس أم لا ؟ هل عمل جاسوسا مكرها تحت سيطرة أشياء سيئة استدرج إليها ؟ هل هو متعاون مع التحقيق وقدم

معلومات للجهات الأمنية ؟ .. واذا كان تابعا لدولة أخرى قد يتعرض لعقوبة قاسية أو يجرى تبادله بجاسوس أو جواسيس للبلد تم كشفهم لدى العدو .. وذلك بعد المحاكمة ولو شكلية .. وفي الغالب يحبسون .. وهناك جواسيس محترفون ، واذا كانوا يملكون معلومات خطيرة عن بلدهم ينتحرون بابتلاع كبسولة سامة سريعة المفعول.. عالم الجاسوسية عالم مرعب .. ولا يكاد يصدق ما ينشر عنه من معلومات

تلاشى الحديث عن الجاسوس رويدا رويدا في الحي كسائر أحداث الدنيا ، لها عنوان عاليا ، ثم تخفت وتصبح حديثاً يتذكرونه بين وقت وآخر ، وقد عجز المهتمون به من تعليل سبب مجيء الرجل لحي "أبو خروف" ، واقتنع البعض أنه قدم ليأكل وينصرف ، والناس تحب القصص المثيرة والغامضة ، وتكثر من تكرارها ونشرها في المجالس والتجمعات ، ومع التكرار يكون التبهير بالزيادة والإضافة عليها ؛ بإضافة المشاهد النفيسة والشخصية إليها ، وفجأة مع مطلع العام الجديد عاد الحديث عن الجاسوس الذي قبض عليه من حين ..وعاد الحديث عن الموساد اليهودي ، والسبب في العودة لهذا الحديث أن الشرطة قبضت على مدرس معروف بانتمائه لحزب قومي ، فأصبح الناس يتحدثون عن اعتقاله ليلا ، فربط الناس اسمه باسم العميل المأسور ، وأن الرجل كان قادما للقاء المدرس الذي يزعم أنه قومي وناشط سياسي في الدعوة للحزب القومي العربي .. وكثرت الأقاويل عليه ، وعن خيانته للأمة والشعب والشهداء والأسرى والوطن ، فلما التقى عبد المجيد بولده عمر حدثه بما تهامس به الناس حول القبض على المدرس منصور قُمة ، فغمر الضحك السيد عمر ، واستغرب هذه الربط ، وقال : هكذا يقولون إن الجاسوس المقبوض عليه هنا جاء ساعيا للقاء الأستاذ منصور قمة .. هذا الأستاذ درسني يوما في ثانوية صلاح الدين الأيوبي .

– فهذا ما يشاع في المقهى وبعض المتاجر

– حسب معلوماتي أن القضية قضية شرطة ، كأنه ناصب على أحد التجار بمبلغ كبير ، ورتبت الشرطة للقبض عليه ليلا حتى يمسك في بيته ، وربما صمت أهله عن هذه الحقيقة

خشية أن تلصق به تهمة النصب ، وتركوا الكلام للقانون

ابتسم عبد الحميد للمعلومة ، وكان يهز رأسه استخفافا وقال: نصاب !

- نعم قضية نصب ، قضية شرطة ، وليست سياسية ولا أمنية

- بعد خفوت قصة الجاسوس عاد الناس للحديث فيها وعنها بسبب القبض على منصور .. فالناس لا يهدأ لها بال حتى تعرف لمن أتى الجاسوس؟ فهم يتسألون ماذا يفعل الجاسوس في "أبو خروف" حيث لا جيش ولا معسكر .

- القصة يا أبي أن الحي هذا من الأحياء الشعبية .. فجاءه للاختفاء والتستر فيه .. فهناك جواسيس يعيشون في الأحياء الراقية والقصور والفلل والمال .. فإذا كان المطلوب منه أن يحيا وسط رجال الأعمال والمال ، سيكون جاسوسا غنيا حتى يُكون معهم صدقات ، ويعرف أسرارهم ونشاطهم .. وأما جاسوس المخيمات وأبو خروف فسيكون فقيرا أو متظاهرا بالفقر أو بعض الغنى ؛ لأن أغلب سكان المخيم من الفقراء .. فالغني في الغالب سيرحل لا يعيش في مخيم .. فالجاسوس يتقمص الشخصية الملائمة للعمل المطلوب منه .. فهو رجل مدرب وصنعته الدولة للمهام الجسام والخطيرة .. هناك جواسيس أو عملاء كمخبرين لا يحتاجون لتدريب كبير .. فمهامهم صغيرة نقل معلومة من مكان ما ، فربما يعيش جاسوس بين الناس سنوات قبل أن يكلف بمهمة ما .. ربما يكون بينهم لبث الإشاعات المطلوب منه بثها .. وقد يكون بينهم سيد الوطنية والإخلاص .. فالإشاعة جزء من الحرب القائمة بيننا وبين اليهود .. فالحرب النفسية تقوم على الإشاعات

- الحديث لا ينتهي، ألم يعترف الرجل عن سبب ذهابه ووجوده هنا؟!

- الجاسوس لا يعترف بسهولة .. واذا كان مهما للجهة التي يعمل معها قد يبلع حبة سم سيانيد ؛ ليقتل نفسه حتى لا تخرج منه كلمة تسيء لوطنه

تنهد عبد المجيد بعمق وقال : قصة هذا الرجل شغلت الحي ، وكثرت الإشاعات والخيالات ولما سمعوا بالقبض على منصور قمة ، كالوا له التهم الشنيعة ، وظنوا أن الرجل أتى للقاء به

في المطعم ، وحلف صاحب المطعم أنه لا يذكر أن الأستاذ منصورا دخل مطعمه ولو مرة واحدة ، مع أن له أكثر من خمس سنوات فاتح للمطعم ..

ـ فهو بعد أيام سيخرج إلا إذا حكم عليه بالسجن .. أما إذا رجّع المال أو تعهد بإرجاعه سوف يخلى سبيله .. وأنت اليوم كيف صحتك ؟

– الحمد لله رب العالمين .. الجرائد لا تشبع القارئ بمثل هذه القضايا .. لا تتابع مجريات التحقيق كما في جرائم القتل والعصابات

– مثل هذه القصص قد تحتاج لسنوات ليسدل الستار عليها .. قد يقبض على عنصر تابع لهذه الخلية بعد سنين .. عنصر قد تمكن من الهرب سابقا ، أو لم يظهر اسمه في التحقيقات الأولية .. عالم الجاسوسية عالم غامض

وهمس عبد المجيد بأذن صديقه مهران بسبب اعتقال الأستاذ منصور قمة ، فضحك مهران وقال : شرقنا وغربنا وحللنا .. والرجل طلع نصاب .. محتال ناصب على تاجر

– نعم ، لقد نصب على تاجر كبير ،قال أبو حفص عمر

– هو ولدك سمى ابنه حفصا

قال عبد المجيد : نعم ، كنيته به صغيرا ، فظل عالقا في قلبه .. تحدثنا ليلة أمس عن منصور .. فضحك ، وقال : منصور قضيته قضية شرطة وجناية

– أبو تامر سيصعق ، فهو قريب لبيت الأستاذ منصور ، وقد استيقظوا على صوت سيارة الشرطة ليلة القبض على الرجل .

[][][]

أفرج عن منصور ، وشاع خبر عودته في الحي ، أصابت الخيبة بعض من روج أنه العميل الذي جاء لمقابلته جاسوس المطعم ، وقد اعتقد هؤلاء أنه قد حل لغز ذلك الجاسوس ، وأما وقد خرج منصور فعاد اللغز للتعقيد من جديد ، بل وجد رجال في المقهى يصرون على عمالة منصور للموساد والمخابرات اليهودية العالمية ، وأنهم تركوه ليمسكوا بباقي الشبكة الخبيثة

الخفية .. طعم كما يقال .. لذلك لما ذهب عبد المجيد لشراء الصحف من عند أبي علي قال مخبرا : اليوم زارني السيد منصور .. لقد أفرج عنه.. وعاد لوظيفته .. ولشراء الصحف أصررت على أنه عميل الموساد الصهيوني .. فلما لم تكتب عنه الصحف أدركت أن الرجل فعلا يتخابر مع العدو .. وأن جاسوس مطعم جودة كان قادما للقاء به ؛ لأنه قد صدع رؤوسنا بالقومية والثورية والبعثية والاشتراكية

– هو ليس ثوريا ولا قوميا .. طلع يا صاحبي نصابا .. لقد نصب على أحد تجار المدينة بمبلغ كبير ، وندم الرجل لما أثبتت عليه عملية النصب بشكوى عند المدعي العام .. وحدثني ابن عم له يجلس على المقهى أنه تعهد بالسداد بعد أن دفع جزءا كبيرا من المبلغ المستولى عليه .. ولم تكن أول قضية نصب له

– أكيد أكيد .. نحن ظننّا أن لغز الجاسوس انتهى ، وأغلق الملف ، لماذا عقد الناس القضية ؟!

– اعتقد الناس أن الجاسوس جاء لمقابلة إنسان شريكا لهم ، وليس لأكل صحن حمص عند جودة .. مطاعم وسط المدينة لا أعتقد أنها بلا حمص إذا جاز التعبير .. وصاحبنا منصور رجل مهتم بالسياسة والأحزاب ـ كما تعلم ـ فظنّ الناس أن القضيتين مترابطتان

قال أبو علي محتارا ولائما : لماذا الأمن استعجل القبض على الرجل؟ لماذا لم يصبروا حتى يأتي الرجل الآخر؟!

– المقبوض عليه هو من سكان إحدى المدن العسكرية ، وليس من سكان العاصمة ، وكان مطاردا ومتابعا ، لم تفصح الصحف عن سبب ظهوره هنا .. فسألت ابني عمر الذي يعمل في الأمن ـ كما تعلم ـ فأجابهم الرجل أنه جاء يبحث عن بيت للإيجار ، ونفى أن يكون قد جاء للحي لمقابلة شخص معين ، قد يكون ذلك صحيحا ، وقد يكون غير صحيح ؛ ولكن عندما يقبض عليه كجاسوس فقط يكون هذا غير صحيح ، فقد قبض عليه ضمن خلية تجسسية تقوم بأعمال الجاسوسية .. فالراجح أنه جاء للقاء شخص .. وشخص مهم حتى يغامر بدخول الحي وهو مطارد .. هل وصل الرسالة ؟ .. لم يقابل أحدا حسب

فعقب طلال قائلا : وهل لا يوجد في المدينة العسكرية دورا للإيجار أيضاً ؟

- توجد ؛ ولكنهم لما رأوا أن أمرهم كشف أو على وشك القبض عليهم سعوا للهرب والاختفاء ..وهذا حي مناسب

- هل هو عربي مثلنا ؟

استفسر عبد المجيد : رجل المطعم ؟

- آ

- الصحف لم تكشف هذا بالتفصيل إذا تذكر ذلك يا أبا علي .. هم صرحوا بأنه تم القبض على عميل جاسوس في حي "أبو خروف" المشهور ، لم تكتب الصحف هل هو عربي أم إسرائيلي ؟.. ولا تنس أن عربا يعيشون في إسرائيل سواء عرب فلسطين القديمة أم فلسطين الضفة وغزة اللواتي احتلتا منذ سنوات .. وحتى هناك من اليهود من أصول عربية .. وإسرائيل تستطيع تجنيد عملاء في كل دول العالم ؛ ولكن رئيس الشبكة ومدير الخلية هل هو ضابط موساد أو عميل محلي ؟ لا أدري .. هذه أمور معقدة .. قد يقبض كما نقرأ على عميل وجاسوس ونظنه رئيس الشبكة ، ثم يظهر أنه مجرد عميل صغير أو حتى مخبر بسيط ؛ لأنه يقال إن من الصعب الوصول لكبار العملاء والمحترفين ، حتى لو قبض عليهم لا يعرف مقامهم في جهازهم

- أمعقول هذا؟!

- معقول .. الجاسوسية علم واحتراف وشجاعة وتدريب ومدارس .. ضابط المخابرات غير ضابط التجسس .. والجاسوس حتى بعد إنهاء الخدمة والتقاعد يبقى مجهولا لمن يعيش معهم في عمارة في نادي خشية عليه من الخطف والاغتيال .. وقد يعطى جنسية أخرى ليعمل في بلد آخر أو يمنح اسما جديدا ووثائق جديدة .. أما ضابط الأمن فهو يقابل الناس يحقق مع الناس فقد يكون معروفا في الحي في الدائرة ..

والجواسيس الكبار يختارون بعناية ، ويوصفون بالذكاء والفطنة

- من أين لك هذه المعلومات؟ من عمر

- من الكتب والصحف والمذكرات .. لا يجوز لعمر أن يفصح بمثل هذه المعلومات .. فهناك ضباط معروفون في الدائرة الأمنية للتحقيق والمقابلات .. فهؤلاء كموظفين يا أبا علي لخدمة الناس وسماع شكاوي الناس والبلاغات الخطيرة .. وهناك ضباط سريون للمهام الخطيرة والعمليات .. أما العميل فقليل ما يلتقي بالناس .. فعلاقته ضيقة ومحدودة وإلا تعرض للخطر في الحي في مكان العمل في السفارة في العمارة ..أحدهم لما عرفت زوجته أنه عميل قدم استقالته ، وعمل كضابط عادي إلا إذا كانت الزوجة هي عميلة مثله .. فهناك شرطي بزيه الرسمي .. وهناك شرطي بزيه المدني .. قرأت أن العميل السوفيتي يدرب تدريبا شاقا قبل أن يزرع في أوروبا وأمريكا .. عالم الجاسوسية عالم مرعب وعالم أعصاب مثل الحديد

- أترى أن عميل "أبو خروف" عميل كبير ؟

- هذا إذا كان لدينا عميل وحاول الرجل الاجتماع به .. فالكتب فيها الكثير من المعلومات ؛ ولكنك تجدها غير كاملة



كلما خفت صوت قصة جاسوس المطعم والحي ، وقبض على شخص أو اختفى عادت القصة للبروز ، ولماذا أتى الجاسوس الصهيوني لـ"أبو خروف" ؟.. فبعد قصة منصور حدثت جريمة قتل لفها الغموض أول الأمر .. والحوادث سريعة الانتشار خاصة الجرائم ، وهي تقل وتكثر في كل المجتمعات.. مشاجرة على شيء تافه تؤدي إلى معركة وقتل .. ولا أحد يفكر أهذه حقيقة أم شائعة؟.. والجرائد تنشر خبر المشاجرة والإصابات وتبين دور الشرطة في استتباب الأمن .

فما كادت حادثة منصور التي ربطت بحكاية الجاسوس تتلاشى عن المقهى والقيل والقال حتى قتل شاب أعزب ، سكن الحي منذ سنة ، استأجر غرفة صغيرة ، فبعض العمارات تقام على ظهرها غرفة للغسيل أو مخزن فيستأجرها بعض الناس ، وهناك بعض الأقبية تكون تحت العمارات ، وتؤجر في بعض الأحيان .. وكان الشاب يخرج صباحا ويعود ليلا أو قرب منتصف الليل في بعض الأحيان ، وفجأة أخبر بعض الجيران عن رائحة قاتلة في العمارة التي يقطنها الشاب الأعزب الغامض ، فجاء صاحب العمارة والشرطة ، وفتح القبو بخلع الباب ، ووجدت الجثة منفوخة ورائحة عفنة ، وجاء البحث الجنائي والطب الشرعي ، وشاع الخبر في الحي ، ووصل لمقر الإشاعات المقهى ، وشاع معه أن اليهود قتلت العميل ، وأن هذا الشاب الغامض هو الذي كان يسعى إليه جاسوس المطعم ، وها هم تخلصوا منه قبل أن تقبض عليه أجهزة الأمن ، وبدأت الأخبار تتحدث عن العلاقة بينهم ، وأن أحدهم رآه ذات ليلة مع رجل غريب ، قد يكون جاسوس مطعم جودة ، ووضعت علاقة قوية بينهم .. انشغل أهالي "أبو خروف" بهذه الجريمة الغامضة .. فكنت تسمع بعضهم يقول : قتلوه قبل أن يقبض عليه ويعترف بعمالته لليهود ، وأنه هو الجاسوس الغامض ، وأشاع بعضهم أن الرجل فجر بأنثى ، فجاء بعض أهلها فقتلوه ، وبعضهم زعم أنه يعمل في عصابة سطو فخانهم فقتلوه ، وقال آخرون : إنه قتل رجلا في قريته وهرب للعاصمة ، فهو مبتلى بدم ، فظل أهل القتيل

يطاردونه حتى عرفوا مكانه وقتلوه .. أقاويل كثيرة قيلت في "أبو خروف" عن هذه الجثة ، والذي غلب على أذهانهم أن قتله له صلة بجاسوس المطعم

أذاعت الجرائد خبر القتل ، ولم تتحدث عن أسباب القتل ودوافعه ، ذكرت بعضها أن الرجل قتل طعنا بسكين بيت ، وأن شجارا حدث في منزله مع بعض الأشخاص كانوا معه في البيت ، ولم يشهد أحد برؤية هؤلاء الزوار ، والتحقيق مستمر لكشف ملابسات الجريمة وانقطع حديث الجرائد عن الجريمة قبل مرور أسبوع على الحادثة .

لذلك كان أصحاب عبد المجيد في المقهى العتيد في "أبو خروف" مهتمين بالقضية الجديدة ، فبعضهم يشرب الشاي ، وبعضهم يلعب النرد الطاولة ، وبعضهم يتفرج ويثرثر حول هذه القصة مضيفا معلقا شارحا ، وهو يحب الكلام ، ولا يحب لعب الشدة أو الطاولة أو الديمنو ، فهو يسمع ويعلق ويشرب الشاي معهم ساعة من الزمن ، ثم يغادر إما للسوق الكائن خلف المسجد أو يتجه للبيت ، ويشتري ما يحتاجه من الدكاكين التي يجدها في دربه ، فيكون عرف منهم بعض أخبار الحي والأصدقاء ، فسمع أبو سالم أحد الجيران يسأله : آ يا حاج عبد المجيد ماذا عندك نحو جريمة عمارة مدحت رشاد ؟

ابتسم أبو عبد الله وقال : قرأت كل الجرائد ، ولم تفصح عن الكثير من المعلومات ، أو أن ليس لديهم معلومات .. أكدوا غموض القتل ، ولا أصدقاء للرجل في الحي.. فالرجل غامض لا علاقات له مع الجيران وسكان العمارة .. يذهب إلى الدكتور مدحت في عيادته التي وسط المدينة ، ويدفع له الأجرة في مطلع كل شهر ، ولا يراه إلا في الشهر التالي .. والرجل كما تقول الصحف يعمل في مصنع حقائب مدارس وسفر .. وأعزب رغم أن عمره فوق الثلاثين ، لا أقارب له في الحي

-كيف استأجر هذا القبو أو المخزن؟

- سألت الدكتور مدحت فقال : جاءني على العيادة . وقال : سمعت أن عندك قبوا تحت العمارة يصلح لسكن عازب مثلي لحين يسير من الزمن .. وبعد تردد أشفقت عليه ، وأجرته

المخزن بثلاثة دنانير كل شهر ، وليس لديه أثاث كثير ، فرشة وغطاء وبابور كاز ، وبعض أدوات الطهو والشاي وحقيبة ملابس كبيرة ، ثم تبين لي أنه عامل مصنع حقائب ، والمخزن مهجورة .. تصورته رجلا قرويا بسيطا.. رجل على سفر .. رجل رحال .. عندما تراه تعطف عليه ؛ لكن الشرطة ترى أنه قتل قتلا .. هل له أعداء في المصنع أم لا؟ هل له علاقة بجاسوس المطعم ؟ لست أدري .. والصحف لم تشر لذلك يا أبا سالم

لما لزم الشيخ الصمت بعد ذكره ما كتبته الجرائد عن جريمة "أبو خروف" الأخيرة في قبو الدكتور مدحت رشاد ، قال أبو سالم : اشرب شايك ، سوف تصل الشرطة للجاني اللعين ..أما متى فالله اعلم ؟ ..بعد صمت قصير قال : هل علمت أن صاحبنا أبو فولة طلق امرأته التي نكحها منذ أشهر

ظهرت الدهشة على وجهه عبد المجيد وصاح استغرابا : طلقها! لحق أن يتزوج ! شيء مدهش .. لماذا فعل ذلك؟! لي يومان أو ثلاثة لا أراه جالسا أمام المسجد .. قيل لي إنه مريض

– سمعنا من الشحاذين أنه مريض .. وسمعنا منهم أنه طلق المرأة التي تزوجها .. وسمعنا أنه سيهجر الحي

– أمعقول بعد كل هذه السنين والعقود سيتخلى عن "أبو خروف" ؟

– هذا ما نقل إلينا عنه قبل أن يمرض .. احتجت لبعض الفكة فصرفت منه .. وسألته عن امرأته .. فقال لي أنه طلق المرأة ، وأن النفقة عليها حرام

– إنها تنفق على نفسها

– إنها لا تعطيه من تجوالها

قال عبد المجيد: هذا هو السبب الحقيقي إنها تجمع لنفسها

– المهم أنه طلقها ، وأخبرني بأنه سيترك الغرفة ، ويعود للساحة القديمة حيث العشة أو يرحل عن "أبو خروف" ، ويزعم أن العمل ضعف في "أبو خروف" مع أن الناس تزيد ، ونصف الجبل الغربي أصبح عمارات .. وامتد للحي الآخر ، وزاد عدد المنافسين له

ضحك أبو عبد الله وقال: المنافسون له زاد عددهم يا الهي !

- أما خبر المرض فسمعته من صبي المقهى ، فهو يسكن قريبا من بيته في حافة المخيم

- إذن سيفقد "أبو خروف" أحد معالمه .. منذ أكثر من عقد من منتصف الخمسينات أو آخرها ظهر الرجل في حينا

فقال أبو سالم : كيف سيعيش خارج حي "أبو خروف" ؟ وقد تعود عليه ، وعرفه سكان الحي .. فهو لا يعمل خارج الحي إلا عند صلاة الجمعة يوم الجمعة ، يتحول لوسط المدينة ؛ ولكنه في النهاية شحاذ

- ربما يشيع هذا الكلام حتى تبعد عنه زوجته ، وتظن أنه ابتعد عن الحي .. وأكيد خلال الزمن الذي مضى نال منها بعض المال ، وسيتهرب من دفعه ، أو تركت عنده بعض المال فطمع به ، فهو شحاذ طماع كما تعلم .. إنك تعلم أنه لما خرجت من المشفى قبل شهور جاء لزيارتي في البيت .. هذه أول مرة في حياتي أرى شحاذا يزور مريضا زيارة خاصة.. فعلها وأتاني

- أنا لا أعرف لمن يجمعون المال ؟ الناس تجمعه للزواج لبناء بيت لتعليم الأولاد يجمعونه للورثة .. فهو لا زوجة ينفق عليها ، ولا أولاد ، ولا لبناء دار ، ولا لورثة ، ولا يعلم في جامعات

- هذا ما يحير .. في عقلية الشحاذين حب المال فقط .. حتى منفعة الدنيا لا يهتمون بها الأكل اللذيذ الصلات الرحلات الملابس الجميلة .. لكن صاحبنا سمعت أنه كثير ما يحضر الأفلام .. مغرم بالسينما .. الحاج مهران يقول: إنه يغتسل في السنة مرة ، بل يظل لابسا للشلحة حتى تصبح سوداء عفنة ، ثم يرميها ويلبس غيرها من عشرات الشلحات التي يجدها ويتسولها

- فعلا له رائحة قاتلة ؛ولكننا تعودنا عليها .. ونحن نقف معه ثوان معدودة

- الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاه به .. عملنا بشرف في القوات المسلحة ،

وتقاعدنا وربينا الشباب أحسن تربية .. كله بفضل الله ، وتعلموا في الجامعات ، وعلى حسابي

إلا عمر ؛ لأنه التحق في أكاديمية الأمن .. فدرس على نفقة الشرطة

قال أبو سالم : على ذكر عمر ألم تسأله عن جريمة قبو الدكتور مدحت ؟

– جرى بيننا حديث كالمعتاد ، للأسف لا معلومات لديه أكثر مما نشر وأذيع في الصحافة ، ورجح أن تكون القضية ثأر بسبب اعتداء على عرض ؛ لاستخدام الجاني أو الجناة السكين في أكثر من موضع .. ربما أن الشاب قد اغتصب مراهقة وهتك عرض .. وعلم أهلها هوية المعتدي فتربصوا له . قال : اغتصاب !

– هذا ما قاله زميل له في الشرطة وفي دائرة التحقيقات الجنائية .. لقد كان الشاب قبل حياته هنا يسكن في منطقة جرت فيها عملية اغتصاب ، ولم يقبض على الجاني .. اغتصبت فتاة ذات عشر سنوات .. وقد ذكرت للمحققين أوصافا شبيهة بهذا الرجل ، بأوصاف رجل مخزن مدحت

– وكيف اغتصبت هذه الأنثى ؟

– ما أنا مثلك فضولي .. قال صاحب عمر لعمر : كانت الفتاة تمر في طريقها لبيتها بمنطقة أحراش وهناك كمن لها

– اعتدى عليها الوحش ، لم تكن بإرادتها

– الفتاة صغيرة ، وتزعم البنت أنها رأته أكثر من مرة في تلك الأحراش، لأنها كانت تختصر الطريق إلى بيت شقيقتها المتزوجة .. فكان يتظاهر بأنه يصيد العصافير ، فبعد حين اطمأنت لمرآه في الغابة .. وفي الغابة ممر للمشاة كما أخبر الضابط عمر .. الغابة آمنة إلى حد ما .. فتأخرت ذات مساء عند أختها ، وغامرت ودخلت الغابة .. فكان الذئب ينتظر تلك الفرصة فكممها وأوثقها واعتدى على شرفها .. وبعد الحادث لم يعد يظهر الرجل في المنطقة .. لقد رآه غيرها من النساء والرجال

– الشرطة تظن أنه هو المقتول

– نعم ، الشرطة تحتفظ بالقضايا حتى يقبض على لص أو قاتل فيعترف بكل أفعاله

مضى شهر نيسان كاملا ، ولم يظهر أبو فولة في الحي ، فوقع في قلب عبد المجيد ورفاقه أن الرجل غير مسكنه ، فرغم الفارق الاجتماعي بين المتقاعد وبين المتسول ترك غيابه شيئا في نفوسهم .. لقد اعتادوا على رؤيته أمام رصيف المسجد من سنوات ، وسرت إذاعة بينهم أنه قد مات في حي برغوث ، وبعضهم يقول برغوت بالتاء ، وهو حي كبير من أحياء المدينة العربية بيت السلام ، ولم يؤكد أحد أنه شارك في جنازته أو شاهد من شارك فيها .. إنما سمعت ، سمعت ، بل زعم بعضهم أنه هلك مدعوسا من سيارة كبيرة حافلة باص ، أكد صاحب الغرفة التي أجرت له قبل طلاقه أنه فارق الحجرة لعشة الصفيح ، وذكر أهل منطقة العشاش أنه عاد للحياة معهم بضعة أيام ، وترك عفشه عند أحدهم واختفى ، وله أكثر من شهرين لم يعد إليهم ، وقد خلى مقعده ومجلسه أمام المسجد ، ومع أنه شحاذ فقد شغل غيابه رواد المسجد ورواد المقهى .

وبينما الشيخ عبد المجيد يدخل بعد عصر أحد الأيام المكتبة عند أبي علي ليأخذ بعض مجلاته قال له الرجل : هذا اليوم جاءت زوجة الشحاذ أبي فولة

دهش الشيخ للوهلة الأولى وقال: المرأة التي تزوجها ، ثم طلقها قبل أن تكمل ثلاثة أشهر

- نعم

- وماذا تريد منك؟!

- أولا تتسول ، وثانيا تسأل عن أبي فولة عصمت ، ولما سألت عن سبب مجيئها ، قالت : بعد طلاقنا استلف مني عشرة دنانير ، وطلب أن أمر عليه بعد شهرين لأخذها ، وسألت عنه هنا وهناك ، فلقد اختفى من الحي ، وقالوا : اختفى بعد الطلاق بأسبوع أو عشرة أيام .. جاءت تسألني عنه إذا أعلم عنه شيئا .. صرت أسأل عن أبي فولة يا شيخ عبد المجيد

أخذ السيد بالضحك للحظات ثم قال : ألست مصدر ثقافته وصحفه ؟ هي لا تعلم أين اختفى؟ هل هرب حتى لا يدفع الدنانير؟ ولماذا استلفها قلة فلوس معه ؟! إنه ينام على كنز

- هذا ما سمعته منها ، فهي بعد الطلاق لم تره .. وهي سوف تستمر في البحث عنه في جميع شوارع المدينة .. لن يهرب بالدنانير العشر التي استلفها أيام إجراء الطلاق

- ستجده .. لن يهدأ لها بال حتى تسترد دنانيرها .. اللعين أين اختفى؟ اختفى من أجل عشرة دنانير

قال طلال ضاحكا: يا رجل هذا الشحاذ شغل الناس كما شغلنا جاسوس مطعم جودة .. تقول كأنه ملك الحي

- ليست القصة هكذا .. رجل قضى عقدين في الحي .. فأصبح معروفا للجميع .. وأصبح مكانه أمام الجامع فارغا .. فلما فرغ أخذ الناس يتساءلون عنه لا شعوريا .. وإلا الناس لا تحتمل الوقوف معه خمس دقائق .. وأذكر أنه كان يغيب بعض السنوات أشهرا .. ليست المرة الأولى التي يختفي فيها هذه المدة .. خاصة في فصل الشتاء

- صحيح ؛ ولكن هل غاب مثل هذه المدة مرة واحدة ؟ أنا معرفتي الشخصية فيه من ثلاث أربع سنوات .. ولما يختف يذكر بعض الناس أنهم يرونه أمام الجامع الكبير في قلب المدينة ، ثم يطل بعد غيابه فجأة ، ويقول : لعلك أبقيت لي جرائد هذين الأسبوعين .. فأقول سبقك غيرك .. واعلم يا أبا عبد الله أن المطلقة ستعيش هنا ، ربما ترث مكانه أمام الجامع

- سلطانة !!

- نعم ، هي جاءت تبحث عنه ، وقالت : سأبحث عنه ، واستقر هنا ..لابد أن يعود .. سيصاب هذا الرجل بالحنين .. وستسكن في عشته في تلك الساحة .. فقد تفاهمت مع حارس تلك الساحة ، وقبل الحارس العرض

- يعني أنها متأكدة أن الرجل سيعود إلى هنا ، وأنه ليس ميتا كما أشيع

- أنكرت موته بشدة ، وقالت : لو مات لسمعت من الشحاذين المتجولين في أنحاء المدينة .. فهم يتبادلون الأخبار عن بعضهم البعض

- إذن سلطانة ستعيش في عشة عصمت .. فهل ستجد لها مقرا أمام المسجد ؟ لقد كان الرصيف مقر حكم عصمت

- أبواب المساجد أفضل أماكن التسول حيث يخرج الناس من الصلاة .. فيذكرهم الشحاذ بركن الصدقة دون خطبة ، ثم الأسواق .. والمدهش يا أبا عبد الله أنها طلبت السماح لها بقراءة الجرائد الراجعة

- أوه ! هي تقرأ أيضاً

- نعم ، طلبت منها قراءة خطبة قصيرة ففعلت ..وقراءتها جيدة

- الدولة تسمح لهم بالجلوس على مقاعد الدرس وهم أطفال

قال طلال : نعم ، وصدف عن علمت بعض أفراد هذه الطائفة .. ولكنهم يتركون المدرسة عند العاشرة للذهاب والجلوس أمام بوابات المساجد ، ثم عند إنهاء المرحلة الأساسية الأولى يتركون المدارس ويحترفون الشحادة .. الناس تتعلم لتتوظف وتحصل المال .. فهم يحصلونه صغارا .. فلماذا تستمر الدراسة وتضييع الوقت في المدارس ؟! فلسفة خاصة بهم سمعت أن متسولا تخرج من الجامعة ، ووجد دخل الشحادة أفضل وأكثر من دخل العمل على شهادة الجامعة

صاح عبد المجيد : هذا شاب قرأت قصته في إحدى الصحف التي أجرت معه مقابلة منذ سنوات .. أذكر أنها قالت : إنه طالب فقير درس الجامعة على نفقة أحد المحسنين ، ولم يوفق في العمل ؛ لأنه لم يكن أمينا يسرق وينشل .. فترك الشهادة واشتغل في الشحذة ، ووجدها مفيدة أكثر من الوظيفة التي راتبها ثلاثون دينار إلى أربعين .. فزعم للصحفي أنه يحصل خمسين دينارا في بعض الأيام

- أيصدق هذا يا حاج عبد المجيد ؟!

- ناقشه المحاور في هذه النقطة ، فأقسم أنه في بعض الأيام يحصل مثل هذا المبلغ .. وسأله لماذا لا تستثمر هذه الثروة ؟ وتترك التسول .. فقال للصحفي : ولماذا أستثمر مالا ؟ وأنا أستثمر

بدني في شوارع العاصمة في الحر والبرد بالوقوف ساعات أمام المساجد الكبيرة متسولا – الله تعالى أعلم كم يحصلون ؟ ولكنهم يكنزون .. وأصبح همهم الأكبر تجميع المال والمزيد من المال والتخزين .. عالم التسول عالم غامض وغريب في نظري ومثير للشبهة .. وها نحن سنرى مطلقة عصمت ربما جلست مكانه ، بل رأيت متسولين جددا أمام المسجد

قال السيد : عابرون ، لا يمكثون طويلا ..مرات تخرج من الصلاة تجد جيشا منهم

قال طلال: أسوأ حياة حياة المتسول !..حياة قذرة لا نظافة لا سعادة لا صلاة

++++++

في نهاية حزيران رجع عمر عبد المجيد من دورة تدريبية في الغرب الأوروبي ، فقام بزيارة والديه مباشرة من المطار ، وهذا أصبح عرفا عنده ، عندما يعود من سفر يذهب بداية للسلام على والديه ؛ وذلك قبل الذهاب لبيته ، وبعد دخوله بيت الوالد بقليل حضرت زوجته الطبيبة في مركز علاج ، وكان ولده حفص هو الذي استقبله في المطار ـ فعمر تزوج قبل عبد الله ، وتزوج فور إنهائه الكلية الشرطية ـ ووصل الطعام من المطعم ، وتناول الجميع الطعام ، وتحدث عمر بإيجاز عن الدورة والبلد التي تمت الدورة بها ، فكانت دورة لمدة ثمانية أسابيع في ألمانيا الغربية ، وجاءت شقيقته لبنى وزوجها وأولادها للسلام عليهم قبل الانصراف ، فهم جيران الوالد

ولما بدأت أسرة عمر الاستعداد للانصراف والعودة للبيت ، فقال عمر لأبيه ومفاجئا له بالسؤال: ما أخبار الشحاذ أبي فولة ؟

استغرب الأب لهذا السؤال في ظرف كهذا ، ظرف العودة من سفر وغياب شهرين ؛ ليسأل عن شحاذ "أبو خروف" ، فأجاب بدهشة واضحة :سؤال غريب ! أبو فولة قبل ذهابك لدورتك في أوروبا طلق امرأته التي حلت مكانه في الحي وأمام المسجد ، وأما الرجل فقد اختفى من خمسة شهور .

ابتسم الرجل لأبيه ، وقال : أتحب أن تعرف أين اختفى أبو فولة ؟

– عجيب أمرك يا عمر ! ..أراك صرت مهتما مثلنا بأبي فولة على غير العادة ؟!

– بعد سفري بأيام اتصل بي زميل لي في الأمن السري .. وقال يا عمر : لقد قبض جهاز الأمن على شحاذ "أبو خروف" المعروف لدى أهل الحي بأبي فولة .. فقلت له ما الأمر؟ قال : ربما ننشر قريبا في الصحف إلقاء القبض على جاسوس كبير في البلد .. فقد أقر جاسوس المطعم أنه كان ذاهبا للقاء عصمت فولي .. وتزوج تلك الأيام تغطيه على نفسه عن أجهزة الأمن التي كانت تتابع القضية

كان عبد المجيد يسمع الكلام ، وهو مصعوق للخبر ، فقال مصعوقا: أبو فولة جاسوس كبير لإسرائيل !!

– نعم ، وأنا أخبرك ذلك ؛ لأن الخبر سينشر في الصحف لينتبه الجماهير لمثل ذلك ، وأن الجاسوس قد يكون زبالا ، وقد يكون بائع ترمس ، وقد يكون تاجرا .. فهؤلاء الشحاذون يسهل الاندساس بينهم للرصد والتجسس .

– لا أكاد أصدق يا عمر

– أنا مثلك دهشت ؛ ولكن الزميل أكد لي ذلك ؛ ولأنني كنت من أهالي "أبو خروف" ، وأعرف الشحاذ ، وستكتب الصحف عنه .. لم يكن مجيء جاسوس المطعم للحي صدفة ، فرجل كهذا لا يتحرك إلا بعلم ودراية ، لو كان يريد بيتا ـ كما زعم ـ فهناك أحياء كثيرة قبل الوصول لهنا فيها بيوت للإيجار .. لقد أتى لمقابلة شخص عجز عن التواصل معه بغير اللقاء .. الرجل نزل من السيارة عند المطعم ليقطع الشارع اتجاه الجامع ، ولم يفعل ذلك مباشرة ؛ لأنه أراد أن يتأكد أنه غير متبوع ، فدخل البقالة ، ثم دخل المطعم ، فلما رأى أنه لن يتمكن من الحديث مع أبي فولة ، أكل لقيمات وأراد الخروج ، اضطر رجالنا للقبض عليه ، وإنهاء مهمته حتى لا يصل للشخص الذي يريده ويخبره بما جرى للخلية ؛ وكأنه جرى تواصل بينهم ، ربما بمجرد سماع أبي فولة بالقبض عليه في "أبو خروف" وصلت له الرسالة ، فبدأ يسعى للزواج ليوهم الشرطة السرية أنه مجرد متسول .. هذا ما أسرّه زميلنا .. وسيعلن نبأ اعتقاله

على الملأ ـ كما قال ـ ولهذا كشفت لك الأمر ؛ لأني أعلم معرفتك الكبيرة له ؛ ولاهتمام أهالي الحي بجاسوس المطعم .

وبعد أيام يسيرة من هذا الحديث بين الأب وابنه نشرت الصحف جليا نبأ اعتقال عصمت فولي ، وانتهاء التحقيق معه ، وأنه هو زعيم الشبكة التي قبض على عدد كبير من أفرادها خلال الشهور الماضية ، وأن إسرائيل دسته لرصد حركات قادة التنظيمات الفلسطينية في المنطقة والمخيمات ، وخاصة مخيم عودة الأمل القريب من "أبو خروف" ، وشكل عددا من الخلايا النشطة والعاملة ، والبحث جار عن هذه الخلايا ، والمخابرات تهيب بالمواطنين الاتصال بها في حالة الاشتباه في أحد المواطنين والأجانب .

فكان مهران يقول لعبد المجيد: يا الهي !! ..هذا الشحاذ يدير مجموعة خلايا من العملاء والمخبرين منذ عشرين سنة ولم يعرف .

– الصحف تذكر أن الأجهزة تعرف عن نشاطه ؛ ولكنهم لم يستطيعوا تحديد شخصيته ، لما يقبض على خلية تجسس لا يعترفون عن الرأس ؛ لأنهم في الغالب لا يعرفونه .. لكن الغلطة أن أحدا من مساعديه ـ وهو جاسوس المطعم ـ اضطر للمجيء إليه .. فكانت غلطة قاتلة .. ومع إصرار الأجهزة على المتابعة وصلوا إليه .. وكان جاسوس المطعم هو الحلقة الرابطة بين الخلايا وأبي فولة ، بل كان فولي اللعين ينتحل شخصيتين شخصية شحاذ هنا ، وشخصية مدير شركة سعيد برهوم .. وكانت زوجته الحقيقية تشرف على أعمال الشركة

– مدير شركة هذا الشحاذ القذر

– قذر أمامنا .. يستخدم مواد تظهره لنا بالمعفن القذر .. شيطان ؛ ولكن كله ذكاء .. ويخدم بلده بإخلاص .. فعمله بالشركة يسهل سفره للخارج ومقابلة أسياده

قال مهران : لا أكاد أتخيل أبا فولة بهذا الدهاء والمكر

– الجاسوس ـ يا أبا عبد الكريم ـ يدرب تدريبا علميا وعمليا .. ويجند العميل أثناء ذهابه للغرب لطلب العلم ، واذا فشل في الجامعة ، وغرق باللهو فيصبح صيده

سهلا .. فلما يجد المال واللهو والمغامرة يقع .

- فهنا شحاذ قذر ، وهناك مدير شركة .. وفيلا ولهو .. عندنا يزعم أنه من عشاق الأفلام والسينما كي يبقى في الشركة والفيلا

- الشحاذ أبو فولة يهودي عربي مجند للمخابرات اليهودية

- قد يكون هناك مفاجآت أخرى

نشرت الصحف بعد حين خبر اختفاء أبي فولة من مكان توقيفه .. فاحتار الناس في فهم هذا الخبر .. فقيل ربما مات أو قتل نفسه .. ونشر هذا الخبر لإخفاء الأمر الحقيقي

تمت الحكاية الرابعة



سمعة والده وجده وشقيقه صعّبت عليه الزواج من فتاة متدينة مع حمله شهادة هندسة

رحل لأبي خروف لرغبة والده الذي سيخرج من السجن بعد عشرين سنة للحياة فيه

ولما خرج اطلق عليه الرصاص

هذه قصة صديقنا المهندس قيس

١٩٧٤

عاقبة لص

هذه حكاية أخرى من حكايات حي "أبو خروف" وهي حكاية قيس وأمه عجيبة ، الناس في حركة دائبة ، ناس يسكنون في "أبو خروف" وأناس راحلون ، هكذا تكون الحركة في حياة الناس والأحياء .

كانت عجيبة أم ذيب قد طلبت من ابنها قيس ـ بعدما رجعت من آخر زيارة لزوجها السجين منذ عشرين سنة والذي على وشك الخروج ـ أن يجد لها بيتا في حي "أبو خروف" لرغبة الأب أن يسكن فيه بعد الإفراج عنه ، والسبب بسيط أن للرجل صديقا عرفه سجينا مثله من أهالي ذلك الحي المشهور في قلب المدينة المدينة بيت السلام ، فصديقه في السجن منصور قاسم الملقب بالعجل يعيش فيه ، فقد قضيا فترة معا ، فأحب صقر راجي قضاء باقي العمر في جوار صديقه منصور ، واستمر منصور يزور صقرا في سجنه .

فمشى قيس الشاب المهندس منذ سنوات يسيرة إلى ذلك الحي الذي يعرفه كما يعرف أحياء أخرى من المدينة واستطاع بواسطة ذاك الرجل أي منصور أن يستأجر شقة في الحي .

وقبل مضي شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٤ كانت الأسرة تستقر في "أبو خروف" ، في بناية مكونة من ثلاثة أدوار ، وكل طابق ثلاث شقق ، استقرت عجيبة ووالدها الهرم المريض شوكة في عمارة حازم محمود في الطابق الثاني .

وقيس صقر له معرفة جيدة لـحي "أبو خروف" ، وكان يأمل بتوبة والده بعد عودته وخروجه من سجنه بعد كل هذه السنوات وراء القضبان كما يقال ، وقيس لم يكن الابن الوحيد لعجيبة أمه ، فله شقيق يكبره بسنوات اسمه ذيب ، وهو عند أحداث هذه القصة من مأسي "أبو خروف" كان يقبع في السجن كوالده في قضية سرقة كبيرة .

وتعود معرفة قيس لحي "أبو خروف" لظروف الفقر والجوع اللذين عاش بهما ولدراسته الجامعة على نفقة جمعية البر لرعاية الفقراء والأيتام الكائنة في "أبو خروف" ، وهي جمعية نشطة ، ولها عدة فروع في الأحياء القريبة أيضا، وكانت هذه الجمعية ترعى أبناء السجناء

والمنحرفين قانونيا وشرعيا .

فلما علمت الجمعية بحالتهم الاجتماعية حضنتهم ورعتهم خاصة الأم وولديها ذيب وقيس ، ولما فشل ذيب في مدرسته والتحق بالعصابات والشلل المنحرفة واللصوص توقف دعم الجمعية له ، وظلت الجمعية تتابع قيسا حتى اجتاز الثانوية العامة بنجاح باهر ودخل كلية الهندسة وتخرج منها مهندسا .

رأى قيس في الرحيل إلى "أبو خروف" بداية حياة جديدة ، وهو يعلم أن سيرة والده شائعة ومنتشرة ولا يمكن إخفاؤها ، وكذلك سيرة جده شوكة والد أمه ، وأن عليه أن يعيش مع هذا الواقع المر .

كان والده تجاوز الخمسين سنة فسيلزم السكون وعدم الرجعة للسطو والسرقة ، كما هو حال جده شوكة ، هذا ما حلم به قيس وهم يفتتحون بيتا جديدا في حي جديد .

الشقة مكونة من غرفتين نوم وصالة معيشة وحمامين ومطبخ ، كانت الأسرة بعد حبس صقر تعيش على دعم الجمعيات وإحسان أهل الخير ، ومثلهم الجد شوكة ، وكان الوالد يرسل بعض الفائض من عمله داخل السجن ، ولما باشر المهندس عمله أوقف تلك المساعدات ، وأخذ هو يدعم ويتبرع للجمعية رادا لهم الجميل .

أخذ شوكة المريض حجرة ، واستقر قيس وأمه عجيبة في الغرفة الأخرى ، ووضع مكتبه الصغير في إحدى زواياها ، وكانوا يرقدون على فراش مطروح على أرضية الحجرة ، لا يستخدمون الأسرة بعد .

واستقرت مقاعد الاستقبال في صالة الاستقبال التي تواجه باب الشقة الرئيسي .

إذاً كانت الأسرة على موعد عودة الأب صقر طليقا من سجن طويل، سجن الحكومة الذي أمضى بين جدرانه ما يقرب من عشرين عاما بسبب عدة جرائم سرقة وسطو مسلح ، وقد قامت الأسرة بدهان الشقة وتبييضها قبل الرحيل إليها ، وقد عاد الهدوء لها كان الجد المريض مستلقيا على سريره الأثري والوحيد في البيت ناظرا للسقف الأبيض .

وكان قيس هو الآخر مستلقيا على كنبة أريكة في صالون الشقة ، وكان يفكر ويتذكر كيف تزوجت أمه من والده ؟ أمه لا تتكلم كثيرا عن حياتها الخاصة ؛ لكن مع السنين والأيام كملت الصورة لديه، كان والدها شوكة ـ العجوز القابع في تلك الغرفة ـ لصا ، قضى سنوات من حياته في السجن على تهم ثبتت عليه .. كيف التقى بصقر أبيه؟ التقيا في أحد السجون وترافقا رغم فارق السن بينهما ، جمعهما السجن والسرقة ، ولما كان يخرجان من السجون يعملان مع بعضهما في عالم اللصوصية ، وهو عالم عجيب ، عالم كله شر وفتنة ، ثم يقبض عليهما ، ويعودان للمكث وراء القضبان من جديد بعد أن تمتعا ببعض الحرية ، وبما سرقوا من أموال الناس ، زوجت العائلة شوكة بعد قضائه مدة حكم إحدى السرقات ، زوجوه مرغما لعله يعقل ، ويحس بالزوجة والمسؤولية ، زوجوه فتاة فقيرة راضية محبة للستر ، وعلى أمل تحسن حال الزوج ، وترك سرقة الناس والبيوت ، الفقر قوة للاستسلام والرضا بالنصيب .. تزوجها سترة كم يقال في مثل هذا الحال ، ولدت له ابنته الوحيدة عجيبة ، ولم يقدر له بعدها بمولود آخر ، لم يتعالج ولم يهتم بذلك ، وهي لجئت لبعض المشعوذين ووصفاتهم السحرية ، ولم يحصل نجاح ؛ لأنها تعتمد على الخرافات والجهل والغباء والاستدراج ، واذا نجحت حالة ضخمت وكبرت ، واذا فشلت نسي الأمر ، وذهب المريض المتعلق بقشة إلى حجاب وفتاح آخر .. ثم ماتت الزوجة بعد حين ، وتركت له البنت عجيبة ، فقبلت إحدى شقيقاته بتربيتها والعناية بها مع أطفالها الكثر ، تركها واستمر في مساره الظالم ، ولما يخرج من الحبس يزورها ويتفقدها ، ثم يعود للمدينة لممارسه رذائله وفحشه ، كبرت البنت وصار عمرها عشرين سنة ولم يتزوجها أحد بسبب سيرة والدها الرديئة ابنة لص مرد على اللصوصية وسرقة أموال الناس، وأخته بدأت تلح عليه بأخذها للعيش معه ، وأن يستر عليها بزوج ، ورجل من أهل المدينة ، وأن سيرته السيئة تنفر أبناء القرية من مصاهرته والاقتران بابنته ، فشكا شوكة حال ابنته لرفيق لصوصيته صقر ، والمأزق الذي وقع فيه ، وتخلي أهله عنه وعنها ، فعرض عليه صقر الزواج منها ، فبعد تردد قصير قبله بعلا لكريمته ، ورأى أن ذلك حل لمشكلته مع ابنته

فهو يستر عليها بالزواج ، وتدوم الصداقة بينهما ، وذاك تظاهر أنه فعل ذلك إكراما وحبا بشوكة ومساعدة له ، وقبلت عجيبة به زوجا لكبر سنها وبلوغها العشرين ، ولم يطلبها أحد للزواج .. وكما يقال" ظل راجل ولا ظل حيط " يعني جدارا .. ولم يكن أمامها الرفض والاعتذار .. فهي منذ سكنت في المدينة وهي تعرف الرجل صديق درب أبيها في عالم الشيطان .. وجرى زواجهما بسرعة الريح خشية أن يسجن أحدهما أو كلاهما .. فهما ما زالا يسرقان وينصبان ، وهيئت حجرة من حجرات بيت شوكة ؛ لتكون غرفة زواج ابنته وصديقه صقر ، وأصبح صقر رجل البيت ، فهو يصغر شوكة بأكثر من خمس عشرة سنة .. وقد سعت المرأة بإقناع زوجها بالعمل كسائق سيارة ؛ لأنه يحمل رخصة سيارة أو يعمل بائع خضار وفاكهة إما في دكان أو على سيارة نقل صغيرة كبائع متجول أو بقالة .. فيسخر من هذه الأفكار والاقتراحات ويقول : يا مجنونة خبطة واحدة عن شغل سنة أو بيع سنة .. فتصمت المرأة إلى حين ثم تعود لطرح الحلول .. ولد ابنهما البكر وسماه ذيبا .. وكانت تلد وزوجها يقضى مدة على سرقة قبض عليه فيها .. ولما خرج عادت تكرر عليه اقتراحاتها لحياة أفضل من أجل ولدهما .. وحتى لما كانت تزوره في السجن ، وتذكره بالحال والتوبة يستمر في السخرية منها ومن أفكارها ويترجاها بأن تصمت ، وتحفظ أفكارها لنفسها .. وأنها رضيت به ..وتعلم مهنته في هذه الحياة .. فتبكي وتلزم الصمت إلى حين آخر .. فتعاود الكرة ، فيقول : هذه حياتي يا عجيبة ، وأنا حر بها .. ووالدها شوكة بدأت تدهمه أمراض الخمر والدخان والحشيش ، وحتى بصره أخذ يضعف ، وخفت نشاطه الإجرامي ، وأصبح عاجزا عن مسايرة نسيبه حتى أن صقرا حاول التخلص منه والحياة بدونه ؛ لكن عجيبة رفضت التخلي عن والدها والحياة بدونه حتى ولو طلقها صقر .. فصمت الرجل فهي كانت تتقن مهنة الخياطة والتطريز بالحرير ، وأنها لا تعتمد عليه كثيرا في مصروفها ومصروف أبيها وابنها ، وفي أثناء هذه المنازعات ، ولدت ابنها الثاني قيسا ، وصمت صقر على وجود والدها معهم ، سكت على مضض رغم أنه يسكن في بيته منذ تزوج ابنته ، فكان شوكة يدفع الإيجار ، ثم ابنته

لما هبط عليه السقم ، رفضت الرحيل والتخلي عنه ، ومع المشاجرات الحادة والتهديد بالانفصال ،وأخذ الأولاد رفضت بشدة فكرة الحياة بدون وجود أبيها معها ، وكانت مدة سجنه فرصة راحة لها من تهديدات زوجها بالطلاق ، وكان شوكة يلزم الصمت أمام تلميحات وتلويحات صقر فقد أصبح ضعيفا لا يعمل ،لا يسرق ، لا يحشش ، وحاولت بعد مجيء قيس للدنيا الكرة والدعوة له بالتوبة والأوبة لكن دون فائدة ، وأخذ يعمل مع العصابات صغيرة كانت أم كبيرة ،ولما بلغ قيس سنته الثامنة وأصبح تلميذا في صفه الثاني كان صقر يحاكم بسطو مسلح على مبنى إحدى الشركات المالية ، وإطلاق النار من سلاح ناري على أحد الحراس ـ وقد أصيب الحارس في غير مقتل ؛ ولكنه أصيب بشلل كبير ـ وحوكم بعشرين سنة سجن فعلي مع الأشغال الشاقة على هذه القضية العنيفة ، وغيرها من الجرائم .

وظلت عجيبة رغم هذا الحكم الكبير على ذمته كزوجة ، كما كانت وفية لأبيها .. وزاد اهتمامها ببنيها ذيب ابن الاثنتي عشرة سنة ، وقيس ابن السنوات الثمانية ، وكان ذيب قد أخذ ينحو نحو والده وجده في السير نحو الانحراف ، ويهرب من المدرسة ، ويسرق زملاء المدرسة أو يعتدي عليهم بالعنف ، ويرسب في الدراسة ، ويعيد الصف مرة ثانية ، وبالكاد ينجح ، ثم يصاحب رفاق السوء والخمر والدخان ، ولم يكن أمام تلك الأم إلا الدموع والحزن



وبينما قيس يتذكر هذه المشاهد واللقطات من حياتهم التي قد عرفها مع طول هذه السنين التي مرت سمع أمه تنادي عليه ليتناول طعام الغداء ، فعاد للواقع للحظات التي يعيشون فيها ، فنهض واقفا يتمطى ويحرك يديه بحركات رياضية ، وعاد يسمع أمه تسأل : أتريد أن تتغدى مع جدك أم في المطبخ ؟

– سآكل في المطبخ . ومشى إلى المطبخ حيث توجد مائدة للطعام ، حولها كرسيان ـ فأمه تارة تأكل معه وتارة مع أبيها ـ فهو منذ سنوات لا يحب الأكل مع الجد الذي يأكل في غرفة منامه وكان من النادر مشاركة جده المائدة خاصة بعدما هبط الجد ، وصار يأكل راقدا في غرفته ، سكبت له الطعام ، ثم أخذت لها ولوالدها على طبق آخر ، ، فلما وضعت الطعام والخبز أمام الجد ، قال لها اللص المتقاعد بسبب الأمراض : أين الولد ؟

ـ يأكل في المطبخ

تمتم ساخطا : إنه لا يحب الأكل مع اللص الفاجر

قالت بامتعاض : دعنا من هذه الكلام الفارغ .. ثم تابعت بعد سكوت ضئيل : هو الذي خرجت به من هذه الدنيا .. المسكين كلما أطلب منه أن يتزوج ينظر إليّ قائلا "ومن تقبل بي يا أمي؟.. عندما يعرفون من أبي ومن جدي يهربون"

فقال العجوز ساخطا : ومن قال له أن يتعلم ويدرس في الجامعات ؟! .. وهل خلت الدنيا من الشر والأشرار واللصوص والحرامية ؟.. لي أكثر من عشر سنين طريح الفراش ، وعايش على صدقات الناس .. يأكل معي أو لا يأكل دعينا منه يا عجيبة .. أخوه ذيب بطل هو الابن الحقيقي لنا

أكل العجوز بعض الطعام ، ثم قال وهو يبعد الصحن من أمامه ببعض العنف والضيق : هذا الطعام ليس لي .. وهل أحب أنا مثل هذا الأكل يا عجيبة .. هذا طعام مصنوع لهذا الشيطان قيس

قربت الصحن إليها وقالت : يا أبي .. قيس اليوم مهندس سيد العائلة .. وهو الذي ينفق علينا ..ولو كان نذلا لهجرنا بعد نيله شهادته .. عشرات المرات قدمت لك هذا الصنف من الطبيخ والنفيخ .. دعك من قيس .. الذي تحبه اذكره لي .. وأنا أحضره لك ..وأطبخه لك

التفتوا إلى الباب الذي يقف فيه قيس ـ وقد سمع آخر الكلام ، وهو لم يكن جديدا على مسامعه ـ فقال زاعما الغضب : لا يهمني ما تقول أيها الجد ،ولا يهمني ما يقول أبوك يا أمي .. سأذهب للجامع لصلاة العصر .. هل يلزم البيت شيئا من السوق والدكاكين .. غداً سأعود للعمل فقد انتهت إجازة الرحيل .

قالت باعتذار :لا تتضايق يا ولدي مما تسمع .. إنما هو جدك .. فهم لا يعرفون الأخلاق الحسنة إلا بين بعضهم البعض .. إنه أبي!!

ـ أعلم يا أمي .. فليقل ما يشاء في شخصي .. وهو جدي شئت أم أبيت هل أحضر شيئا.. بيض .. جبنة .. لبن

فقال الجد : ألا تريد ترك الجامع والصلاة يا ولد ؟.. أتجد أحدا في الجامع غيرك ؟

ـ لماذا لا تصلي أنت يا شيخ يا هرم ؟.. تب إلى الله

قهقهه العجوز ، ونسي مشكلة الطعام التي افتعلها قبل دقائق وقال : لا أعرف الصلاة .. ولا أذكر أني صليت يوما مع أن أبي شيخ لا يقطع فرضا مثلك ؛ كأنك طالع عليه يا ولد .. أريد سجائر يا عجيبة

فهم قيس الرسالة فقال : أنا لا أشتري السجائر .. لما تنزل بنتك السوق تشتري لك السجائر

فصاح الجد : حرام هي السجائر ؟!

ـ تحدثنا عن ذلك كثيرا يا سيد شوكة

ـ ألا تريد أن تتزوج يا ولد لنتخلص منك ومن لسانك الطويل ؟

ـ لما يريد ربنا سنتزوج .. كله بأمره

غادر قيس الشقة وهو يدرك كم يكن له جده من الكره بسبب أنه لم يسير على دربه ودرب أبيه

.. فعندهم حياة السجون رجولة وبطولة .. فهم يريدونه أن يكون فاسدا لصا مثلهم ، يقتات على جيوب المال الحرام ؛ لذلك لم يكن يلقى بالا لكلام جده السقيم ، ويضطر لحد لسانه في بعض الأحيان على أمل أن يصحو من غفلته ويتوب قبل موته ، لذلك كان الجد محبا للذيب ؛ لأنه سائر على طريقهم وشرورهم ، فهو يريده شيطانا مريدا ، وبذل الجهد لصرفه عن المدرسة والحياة السليمة ، وهو الذي أفسد شقيقه ذيبا بالحديث عن بطولاته ومغامراته ووهمياته وحياته البطولية في السجون ، وإزعاجه رجال السجن والشرطة ، فسقط الذيب في فخ تلك الوهميات والمغامرات الوهمية في الاستيلاء على أموال الناس بالباطل .. فالفاسد يريد أن يكون كل الناس فسدة مثله ، كلهم شياطين .. ولكن الله نجاه من كيده ومكره .. ويذكر أن جده قد عاش فترة وحيدا ، ولكن بجوارهم حتى لا يطلق والده ابنته ، ولكن لما هبطت صحته وسجن الأب تخلى عن بيته ، وعاد لبيت الابنة نقل الفراش لبيتهم ، وقد كان طعامه دائما معهم ، وكانت الأم ترفض أن يعيش بعيدا عنها ، فليس له إلا هي .. فتقبل قيس مع كبره هذا الوضع .. وسكت عن لسان جده .. ويرد عليه في بعض الأحيان على هذه الألفاظ القبيحة .. ويستاء من معاقرته للخمر في البيت .. والإكثار من الدخان .. ويحتج على استقباله لبعض رفاق السوء في بيتهم ، ممن عرفهم أثناء حياة السرقة أم زملاء السجون.. لقد كان قيس سعيدا بعدم تعلقه بجده ووالده ، وكان مشفقا على أمه غاية الإشفاق ، وكان سعيدا لأن أمه كانت تشجعه على الصلاة والعبادة وتسحره في رمضان .. وتراه الجوهرة الوحيدة في البيت .. وكان هو الآخر يسر لما يرها تصلي وتصوم .. ويحزن جدا لما تترك ذلك .. كانت تقضي أياما في الصلاة ثم تترك ، وتعود للكسل والعادة التي شبت عليها مع أنها تعلمت الصلاة والصوم عندما عاشت في بيت عمتها عدة سنوات .. فقد درست بضع سنين وصلت وصامت حتى رجعت للحياة مع شوكة .. فتركت ذلك ، فكانت تتحمس في بعض الأحيان وتنافس قيسا في القربات والطاعات .. ثم يعود لها الضعف والتقاعس عن العبادات .. فهي بين رضا ابنها الطيب ورضا أبيها الخبيث .. فهي تعلم وغيرها أن المرض والضعف البشري

سببا ترك والدها للسرقة والسطو على منازل ومتاجر الناس .. فهو يرى ذلك نوعا من البطولة والشجاعة ، وله الحق في أموال هؤلاء .. فكان مفتخرا متباهيا بتلك السرقات ويبكي ويتحسر على تلك الأيام كأنها بطولة حقيقية قام بها

ذهب قيس للمسجد مسجد "أبو خروف" لأداء فريضة العصر ، فمنذ وعى وهو يصلي في المساجد يجد فيها الراحة والسكون والحياة السعيدة رغم قصر الوقت فيها (رجل قلبه معلق بالمساجد) فهو يصلي في المسجد الصلوات الخمس ، وحتى أثناء عمله يسعى لأقرب بيت من بيوت الله للصلاة أو يصلي جماعة في مصلى الدائرة التي يتواجد فيها لأداء عمل أو شغل ، فهو يحافظ على الصلاة والصوم منذ شب ووعي أمر الإيمان والدين .. ويصبر رغم البيئة التي شب وولد فيها التي تمجد الانحراف والزيغ ، ورغم الهجوم والاستهزاء من رفاق المدرسة وأبناء الحي وسخريتهم من صلاته وعبادته ومن جده وأخيه ذيب .. رغم كل ذلك صمد وصبر ونجح في الثانوية العامة ، وقبل في الجامعة ، ودرس على نفقة جمعية الفقراء والأيتام التي يمتد نشاطها لكثير من أحياء المدينة ، وليس هو الوحيد الذي تعلم على نفقة الجمعية وأهل الخير كما يسمون في المدينة والأحياء .. وكان يحلم بعد تخرجه وعمله كمهندس أن يجد فتاة طيبة تقبله كزوج ، أن يجد أسرة تغض الطرف عن سيرة أسرته كأب وجد وأخ .. فكانت سيرة الأسرة كعائق لمحاولتين زواج .. يحلم أن يجد أسرة كريمة تمنحه هذه الفرصة والحياة السعيدة والطيبة



جابر

قضى قيس صلاة العصر في مسجد الحي ، ومشى نحو محلات بيع الفاكهة والخضار واشترى ما يستطيع حمله ، وكان في طريق عودته يمر من أمام بقالة أبي صالح كمال الذي عرفناه في أول حكايات "أبو خروف" ، بل كانت مأساته أول المآسي التي بدأنا بها قصص حكايات "أبو خروف" ، كانت شقة قيس في وسط شارع النخلة الذي يتفرع عن الشارع العام للحي في عمارة حازم محمود العليا لأن الرجل له عمارة أخرى في القسم الشرقي للحي ، فيستطيع الوصول للمسجد من جهة الشارع العام أو من جهة شارع جبل أبي خروف .

فلما مر قيس من قدام الدكان ، كان جابر كمال يقف أمامها فألقى عليه التحية ، فردها جابر ، ولما عرف شخص من حياه نادى عليه بصوت عال : قيس قيس . فتوقف قيس واستدار إليه ثم رجع إليه وقال: نعم ، إنك تنادي عليّ .

تصافح الرجلان وقال جابر : مرحباً بك يا جارنا الجديد

- أهلا أخ جابر .. هل من خدمة ؟

- كيف حالك أولا ؟

- بخير كيف العم أبو صالح ؟

- بخير يا حضرة المهندس .. هناك حساب لأمك .. لا أدري هل أفتح

لها صفحة في دفتر الديون أم ..؟

قال قيس : اسمع يا أخ جابر طعام خضار عصير أنا أدفع لك ثمنه .. أما الدخان والسجائر فلا دخل لي في تسديدها .. تسددها لك أمي .. الدخان حرام ولا أدفع ثمن حرام.. فأبوها مدخن ..

ابتسم جابر دهشة وقال : آ ، فهمت يا حضرة المهندس !

- أي حساب سوى الدخان كلما أمر من هنا أو أشتري من عندك ذكرني به وسأدفع لك الثمن فورا إن شاء الله

- حقيقة أغلب هذا الحساب دخان وعلب دخان

قال : أمي تدفع لك .. هل صحيح أن الحاجة أم ريان خالتك ؟

- طبعا الحاجة أم ريان شقيقة امرأة أبي .. أنا أمي ماتت قديما هي خالة إخوتي الآخرين

- رحمة الله على والدتك .. أم ريان سيدة فاضلة أنا درست الهندسة على حساب جمعيتها أو الجمعية التي تعمل بها

- إنه لا يخفى شيء في "أبو خروف" .. وأنت حديث عهد به .. فأنت البطل الحقيقي يا قيس في عيني وعين أهل الحي .. فأم ريان تثني عليك خيرا .. وأنت في نظرها من الأمثلة الحية للنجاح في الحياة .. فقد ذكرت صعوبة الحياة والظروف التي تعيش فيها ، إنها معجبة بك

- شكرا لك وأنا أعلم أن لا شيء يخفى عن عيون الناس وآذانهم ..

فجدي والد أمي يضرب به المثل في عالم الحرامية .. لا أحد يستطيع الاختباء والاختفاء عن أهله .. لقد تعرفت على أخيك فريد ، فهو شاب جيد وهو من رواد المسجد .. وخالتك نموذج طيب للنساء في "أبو خروف" سأسعى لزيارتها

قال جابر : العم منصور صديق أبيك إذاعة كثير الكلام .. وهو يعتقد أن عمله ومغامراته بطولات وعمل فرسان

ابتسم قيس وقال : الغرور والهوى .. اللص لا يكون بطلا أبدا ، بل إبليس اللعين .. فهم يزعمون مزاعم ساذجة باسم حق الفقراء .. يظنون بأنفسهم بالبطل الخيالي التي تنشر قصصه أرسين لوبين .. نحن جيران .

فقال جابر : نعم الجار ..أنا أقدر شجاعتك بعد أن عرفنا بعضا من حياتك .. ثبتكم الله على الطاعة

- جزاك الله خيرا ، سلم على العم أبي صالح .

تابع سيره اتجاه عمارة حازم محمود التي تقع في نفس الشارع شارع النخلة ، ولما دخل الشقة رد السلام ، وقال لأمه وهو يضع الأكياس في المطبخ حيث تبتعه أمه ، وأخذت تضع الأشياء في

الثلاجة البراد على لغة بعض الناس : كنت أتحدث مع جابر ابن أبي صالح

- أتشرب الشاي أم القهوة ؟

- سنشرب العصير لقد أحضرت بعضها من عند أبي صالح عندما استوقفني جابر

- العجوز ..إنه في طريق البيت من ناحية الشارع الرئيسي

- له حساب

- أطالبك بالحساب؟

- سألني الابن جابر هل نضع لك اسما في دفتر المدينين أم أدفع له ؟ فقلت له حساب المواد كلها ما عدا الدخان أدفعها كلما نتقابل ، والسجائر تدفعها أمي .. كما كنا نفعل في حيينا القديم يا أم ذيب

قالت : يبدو أن والده لم يخبره بذلك .. أنا طلبت منه أن لا يطلب منك شيئا ، أنا أدفع ثمن دخان جدك .. الرجل العجوز لم يكلم ابنه عن هذا الترتيب

- لماذا لا تدفعين ثمنه عند الشراء ؟ ألا أعطيك مصروف الشهر كاملا يا أمي ؟

- إنك تفعل وأحيانا ينقص ما أحمل منه فأؤجله بمشوار تالي ، وربما لتعودي على فعل ذلك في الحي القديم .. هو مبلغ بسيط الذي يبقى عادة .. لا تزعل .. يا ابني أنت أمل الحياة أنت البسمة التي خرجت بها من الدنيا

- الحمد لله الذي أخرجني من الظلمات إلى النور .. العم منصور حدث الناس بكل قصتنا وتفاصيلها

- هذا نصيبنا ، وأنا لا أدري لماذا أصر أبوك على رحيلنا إلى هنا إلى "أبو خروف" !

لما أتت ليلة الجمعة الثالثة للرحيل قال الجد شوكة لابنته: هل ستذهبين للزيارة غداً؟ فالسجين ينتعش بزيارة الأهل والأصدقاء ، ومنذ سكنّا هنا لم تزوري أحدا .. فلابد أن تذهبي لزيارة أحدهم .

قالت المرأة بعد صمت : سأذهب هذا الأسبوع لزيارة ذيب ، فلي شهر لم أمر عليه

فعاد الشيخ يقول : اذهبي إلى صقر وأخبريه بأمر الرحيل والانتقال إلى حي صديقه منصور

- جاء أمس وأخبرني عند الباب بأنه سيزور صقرا ، ويسألني مرافقته ، فقلت له : لي أكثر من شهر لم أزر ابني ذيبا ، ولم أره .. آه ! يا أبي قضيت سنوات عمري وأيامي في زيارة السجون

- هذا نصيبك

فقالت بضيق : ألم تجد أحدا تزوجينه إلا ذلك اللص ؟

- وهل تقدم إليك غيره ؟

- أنت السبب ، لو كنت رجلا صالحا لتقدم إليّ الكثير .. من يقبل ابنة شوكة الحرامي ؟

قال بسخط : أنا لا أحب الولولة والندم ، لم أجد من يقومني

كان قيس يقف بالباب فأجاب : أبوك طيب وأخوتك أناس محترمون .. أنت الفاسد بينهم .. السائق صبحي في العاشرة صباحا أمام العمارة لنقلك إلى سجن ذيب

فصاح شوكة وقال: كم أكرهك ! أنت شيطان

ضحك قيس وقال : أنا شيطان وأنت ماذا ؟

- لا أحب أن أسمع هرجك .. لو أنت بطل مثلنا ، لم تتهكم علينا

عاوده الضحك وقال : بطل بطل ! تسرق أموال الناس وكدهم وتعبهم وتزعم ذلك بطولة .. ها هي ابنتك المسكينة تقضي عمرها في زيارة الأبطال

- السجن للأبطال .. يوسف الرسول قضى سنوات في السجن .. ألا تقرأ هذا في القرآن يا سيادة المهندس ؟

اضطر قيس للقهقهة على منطق جده وقال: تقارن نفسك بالنبي يوسف .. ذاك هو البطل الحقيقي .. رفض الزنا .. رفض أن يكون خائنا لسيده الحاكم .. عشيقا لزوجته قبل السجن.. وأحبه حتى لا يخون ويزني .. لتعلق المرأة به .. يوسف لم يسرق ولم يزن

ضغط العجوز على نفسه وقال ضجرا : إني لا أحب سماعك.. متى ستغادر هذا البيت للابد ؟

.. لسانك أطول منك يا رجل .. اذهب وتعرف على أبيك قبل أن يخرج من الحبس

- ماذا سأرى ؟! سأرى لصا سارقا لبيوت الآمنين ..رجل تخلى عنا صغارا

قالت عجيبة : دعك من مناقرة جدك .. زيارتي الأسبوع القادم لصقر .. ومنصور صديقه سيزوره غداً ، ويعلمه برحلينا لحي "أبو خروف" والتفتت لقيس قائلة : أنا لا أعرف كيف ستعيش معه عندما يخرج ؟!

- سأجرب الحياة معه ؛ فإن همد وترك حياة اللصوصية مثل هذا الجد سأتحمل العيش معكم والإنفاق عليه .. وأما إن أراد العودة للفساد بعد هذه السنوات من العقوبة سأضطر إما للسفر خارج البلاد أو استئجار شقة خاصة بي ؛ بل قد أشتري شقة ، فصاحب لي يبيع شققا .. ولن أتخلى عنك يا أمي .. أنت ضحية مثلي من ضحايا هؤلاء الفساق

صاح شوكة: أنت علة قلبي يا ملعون .. أرسلك الله عذابا لنا في الحياة الدنيا وعقابا .. لم ننجح في تعليمك [كارنا] ..أصبحت شيخا تصلي وتصوم لتحاسبنا

- لم أنس سعيك في تعليمي الضلال والانحراف وشرب الدخان في أيام الطفولة .. لولا ذاك الشيخ الفاضل قال لي : يا بني أنت صغير على هذا الدخان .. تحرق بدنك قبل أن يشب .. لا أنسى إرسالي لشراء التبغ والخمر .. أنت جد سيء .. لولا هذه المرأة المسكينة لرميتك في الشارع .. لقد حملتمونا العار

صرخ العجوز مهتاجا : الأفضل يا عجيبة أن يرحل ابنك قبل خروج صقر .. أنا قد أحتمل سلاطة لسانه.. أما صقر فلا .. لن يحتمل سماع هذا الكلام

قال قيس : وهل هذا كلام مفترى ؟ أنتم تفتخرون بمثل هذه الأعمال ، وتتباهون بها .. أنت تتحدث بها أمام منصور .. تتحدث عن خبطاتك الكبرى وتعتبرها مغامرات وبطولات

صرخ شوكة : نعم هذه هي حياتي

- وها أنت تدفع الثمن طريح الفراش والأمراض .

في مطلع الأسبوع انطلق قيس لعمله حيث يعمل في إحدى شركات الإنشاء والإعمار ، وأثناء دوامه أقبلت ورشة تمديد الهواتف المنزلية وشبكت شقته بشبكة الاتصالات الأرضية ، فهو قدم طلب الهاتف منذ استقر في "أبو خروف" ، وخلال أسبوع الرحيل ، فلما عاد في المساء وجد الهاتف قد نشط وفعل فقال : جميل أن يكون لدينا تلفون منزلي ! .. وكتب على ورقة هاتف الشركة التي يعمل بها ، فأمده لأمه وقال : هذه رقم الشركة عندما تحتاجينني لأمر ضروري اتصلي به كالسابق ، وهم يخبرونني بطريقتهم الخاصة .. وأنا أتصل بك من أقرب هاتف ؛لأن الورشات قد تكون خالية من خط تلفون وهي في أول قيد الإنشاء .. ويمكنك إعطاء رقم البيت الجديد لذيب ليتصل بك إذا سمح له بذلك .. فهم أحيانا يسمحون للسجناء بالاتصال بذويهم وأهليهم .

وبعد صمت يسير قال : ربما أتعاقد مع شركة خارج المدينة أو البلد .. أنا لا أرغب بالاصطدام بأبي .. فتركه لعمله المنحط لن يكون سهلا عليه .. وقد شب وشاب عليه .. واذا علمت بتحسن حاله وتوبته عن الحرمنة سأعود إليكم .

قالت بحزن ظاهر : وتتركني يا بني !

- لا أحب أن تسمعي صراعنا وصياحنا .. أتقبلين أن أتصل بالشرطة إذا مارس أبي سرقته من جديد ؟ أم تريدين أن أصمت عن الحرام ؟!

- أنت لم تعاشر أباك !

تظاهر بالابتسام : أبي حرامي معروف على مستوى الدولة كلها .. ألم يحدثنا رجل دربه منصور بحرمنتهم حتى في السجن ؟! .. كان على أبي أن يغير نمط حياته بعد عودته من السجن أول مرة أن يعمل سائقا أن يعمل في محل بيع كما عرضت عليه ، أن يعلم أنه رب أسرة وأطفال .. المال الحرام زائل لا يدوم ..كان عليه أن يطعمنا الحلال لا الكسب الخبيث .. ألم ينفق عليّ سبع أو ثمان سنوات من ماله الخبيث؟ أنا أعرف سيرة أبي وأبيك بالتفصيل الممل .. وأعرف بعض

الأسر وأفرادها .. فهم يتحدثون عن سرقتهم لذهب أمهاتهم وأخواتهم وأقاربهم .. فالناس تعرفكم وتعرف صداقة منصور لأبي ، وأن صحبتهم صحبة حرامية ، وأنهم سرقوا المنازل والمحلات سوية .

قال شوكة بعد صمت طال منه: لسنا الحرامية وحدنا في هذه الدنيا .. كل بلد فيها ما يكفيها .. لا أتخيل بلدا في العالم لا يوجد فيه أشرار مثلنا ؛ لكننا أشرار صغار يا حضرة المهندس .. هناك رؤساء يسرقون بلادهم ، ولا أحد يحاسبهم ويتشاطر عليهم ويحبسهم مثلنا

- الله سوف يحاسبهم يوم الحساب .. من لم يحاسب في الدنيا فسوف يحاسب غداً .. عندما توضع الموازين القسط ليوم القيامة .. ويا سيد قد ينحرف الإنسان في حين لظروف تربوية سيئة لفقر ليتم لأي سبب ولضعفه البشري ؛ لكنه يرجع يستيقظ يتوب بعد سجن وسجن بعد عقاب بعد مرض ومصائب يؤوب ؛ ولكنكم تزدادون إجراما وعنفا .. ألم يطلق السيد الوالد على الحارس النار ؟! وسبب له إعاقة أبدية ، ما زال الرجل مشلولا كما سمعت من أبي .. كم مرة حبس قبل الزواج من ابنتك ؟ أما في ذلك كفاية وأوبة وكف عن الشر .. زوجة أولاد ألا يدفعه ذلك للاستيقاظ والارعواء ؟! هذه المرة طال حبسه ؛ لكننا لم نسمع بأنه ندم تاب صلى ؛ بل يقول منصور : إنه يهدد بالانتقام ممن ؟ من الحارس المعاق منذ سنوات .. سنوات قضاها عن مجموعة من القضايا والجرائم سرقة واعتداء على الحارسين ومحاولة قتل أو شروع في القتل .. قضى أحدهما هذه السنوات كلها إذا ما زال حيا في حالة شلل دائم .. عاجز عن القيام بواجباته .. وامرأته كما أخبرت تركته بعد عامين من الحادث .. مأساة بمعنى الكلمة .. وأولاده ذاقوا المرار والذل .. كانوا صغارا مثلي أيام الحادث .. أليس هذا ظلما وإجراما يا سيد شوكة ؟! أهذا الذي يفتخر به أمام الخلق ؟! فبسببكم لم يقبلني أحد زوجا لكريمته .. حاولت أمي مع بعض العائلات الطيبة وجاء الرفض .

قال شوكة : لو أنت تقبل الزواج من بنات أصحابنا لتزوجت من أول الدهر

ضحك قيس ونظر في وجهه أمه وقال : الإسلام طلب أن نجد الصفة الطيبة الصالحة في أم

الأولاد على أمل أن يكون أولادي ـ اذا شاء ربي ـ ذرية طيبة لا فاسدة مثلكم .. سأصبر حتى أجد البنت الكريمة .. الحمد لله الذي أخرجني من الظلمات إلى النور .. أنت رجل تجاوز الستين ولم تسجد لله سجدة .. تب إلى ربك .. اندم ماذا تنتظر ؟!

صرخ شوكة ممتعضا : لست أنت الذي سيحاسبني

- أنا لا أحاسبك .. الله تعالى هو الذي سيحاسب الجميع .. إني أنصحك .. أذكرك بربك .. آمُرك بالمعروف والندم .. هذا واجبي نحوك ..لا تظن أني لا أشفق عليك .. ولا تظن أنني لا أدعو لك ولأبي وأخي بالهداية والتوبة والعودة للدين .

اعترض شوكة فقال : اسمع يا إنسان ، لا تدعو لي يا رجل .. ادعوا الله أن يخلصني ويريحني منك .. هذه حياتي وأنا حر فيها

تضاحك قيس لثوان وقال : أنت حر ! ومن قال لك ذلك ؟! .. هذه الحياة منحة لتعمل في طاعة ربك .. إنها دار اختبار وابتلاء

- أتمنى أن أصحا من نومي ولا أراك بيننا .. متى ستسافر يا ابن عجيبة؟

- تتضايق من دعوتك للدعوة والتوبة .. أنا لا أقصدك وحدك .. قصدت معك هذه المسكينة

قالت : أنا أعلم أن نصحك وكلامك للجميع .. ماذا أفعل للكسل

والضعف؟ إنهما يسيطران عليّ سأجدد توبتي ، وسأذهب لصلاة المغرب .. أظن أن المغرب قد اقترب

- سيؤذن بعد وقت يسير .. سأمشي للمسجد أتريدين شيئا ؟



تعمقت الصداقة والمعرفة بين قيس وفريد كمال وطلال جمل ، وذلك في ثنايا مسجد "أبو خروف" ، فهم يجلسون بعد صلاة المغرب في إحدى أركان المسجد للحديث ، وانتظار

الصلاة رغبة في ثواب انتظار الصلاة إلى الصلاة ، وأيضا لقصر الوقت بين الفرضين خاصة في فصل الشتاء ، فربما بينهما ساعة وربع تزيد وتنقص ، فليل الشتاء في بلاد الشام طويل ، والنهار قصير .. فبعد أداء الصلاة وانصراف الكثير من المصلين ، يجلس الشباب الثلاثة للحديث والمناقشة في مسائل شرعية قديمة وحديثة ، ثم ينتقل الحديث إلى مسائل عامة أو أخبار شائعة في البلد أو الحي ، وقد يعودون للحديث الديني مرة أخرى .

وكثيرا ما ينحرف الحوار بينهم إلى الحديث عن سبب تأخر زواج قيس ، حيث لا ينقصه المال وقد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر ، وما زال أعزبا ، مما دفعه ليصارحهم بظروفه الخاصة وسيرة والده وأخيه وجده السيئة الذكر ، فعقب طلال ـ وهو قد سمع هذه القصة من أهل الحي ـ فقال : ولماذا تتحمل عبء فساد من هو أبوك ؟

- لقد سعت أمي لتزويجي وخطبة فتاة لي ، ولما علم أهلها بسيرتنا الحسنة ـ ضاحكا ـ اعتذروا .. فأبي مسجون وأنا لا أستطيع الزواج من فتاة من أصحاب أبي وجدي ؛ فإذا جنى أبي عليّ فلن أجني أنا على أولادي.. إذا يسر الله لي الزواج .. فالقضية أني أريد فتاة طيبة متدينة من أسرة كريمة

- وأنت شاب فاضل متعلم وتحمل شهادة وتعمل مهندسا كما أخبرتنا في جلسات سابقة ، ورغم الانحراف الشائع في الأسر هذه الأيام ؛ لكنهم عند الزواج يتخوفون ويخشون المستقبل .. هل تحب أن نساعد في ذلك؟ لعلنا نجد لك ما يسرك ؟

خجل أن يجيب مباشرة فقال: لو انتظرنا بعض الوقت .. فأنا كما أخبرتكم من قبل في انتظار خروج أبي من سجنه بعد ثماني عشرة سنة قضاها خلف القضبان والقيد .. قضى سنوات شبابه وعمره في السجون .. وهو على وشك الإفراج والخروج من مهاجع السجن .. وأنا منذ كبرت سني ، ودخلت المدرسة الثانوية لم أره ، لم تطب رؤيته وراء القضبان في قضايا لا تشرف الإنسان ، فلو حبس في قضية ظلما ؛ لكان الخطب أسهل على النفس

وبعد صمت عاد يقول : ربما أترك البيت إذا لم يعدني بالتوبة وعدم العودة لحياة اللصوص أو

أسافر للخارج للعمل في إحدى بلدان العالم الغنية .

قال طلال وقد انشغل بفكرة زواج قيس : وما يمنعك من الزواج سواء خرج أبوك أم سافرت للخارج أم استأجرت شقة تعيش فيها أنت وزوجك ؟! وهذا لن يزعج أمك ستبقى قريبا منهم مستقلا بنفسك .. أرى الزواج مناسبا لظروفك مع عودة الأب الذي سيحتاج لفترة حتى يتأقلم مع الحرية بعد سنوات طويلة

قال فريد : وقد يأخذ البحث عن الزوجة أشهرا وليس أياما وساعات

وبعد صمت قال قيس : الزواج مسؤولية وأسرة وعلاقات .. صدقوا أني راغب بالزواج .. وإنما حسن الاختيار مطلوب ، وهو من أهم أسس بناء الأسرة الصالحة والزواج السليم .. لقد تحدث فريد عن دور زوجته في إعادة ترتيب حياته وتوبته وإخراجه من اليأس بعد مأساة شقيقته وضعفها أمام الإغراءات والفساد .. كانت قصة مؤلمة أدمت القلب .. وأنا أتمنى من كل قلبي لأبي صالح بالهداية والتوبة .. وأنا أقدر لخالتك أم ريان الدعم الكبير لي ولأسرتي بعد حبس أبي .. فهي نعم الأم لي .. لا أنسى دورها في حياتي وإنقاذي من براثن الجوع والعري والفقر ..وقد نلت الشهادة بدعم من جمعية البر

قال فريد: خالتي تذكرك دائماً بخير .. وتكبر فيك الإيمان والشجاعة .. وأنك تقدم اليوم للجمعية بسخاء .. فكلما أزور الحاجة أم ريان إلا وتسألني عنك لما عرفت برحيلك إلى هنا والتقائنا المتكرر في المسجد

- هذا الكلام المؤلم يا طلال .. فدعمي هو لتقوم الجمعية بإنقاذ غيري كما أنقذتني .. أنا مدين للجمعية بأكثر من عشر سنين من الإنفاق والمساعدة يا أخ فريد .. اكتم ذلك لا تشيعه .. أما الزواج فلنصبر حتى يخرج السيد الوالد من الحبس.. سيفرج عنه خلال هذه السنة .. أنا جدُ شاكر لمشاعركم وتعاطفكم معي .. وأشكر صدق هذه العواطف وهذا النبل

قال طلال : لي ابنة عم متخرجة من كلية شريعة منذ أشهر كنت أرغب بمفاتحتها بظروفك .. وإذا رفضت فخالة فريد قد تتدخل في الموضوع .. فلها جهد في مثل هذه الزيجات .. فقد

ساعدت كثيرا في التوفيق بين الرؤوس .. والناس تقدر تدخلها

- ذكر لي فريد قصة زواج شقيقه الأصغر ناجح بمساعدة قوية من أم ريان ، وله اليوم طفلان

قال فريد : قامت بدور كبير ما زال يذكر لها ، وطلال له جهد في مثل هكذا مشاريع.

قال طلال مشجعا لقيس على النكاح : عندما تقرر بشكل جدي يا قيس أنا أحاول مع ابنة قريبي .. فأنت رجل يخدم ومن أهل الإيمان



كانت أم ذيب تجهد نفسها وتزور زوجها مرتين في الشهر ، وذيبا مرة واحدة في الشهر الواحد ، تأخذ بعض الطعام المسموح بإدخاله للسجين والفاكهة وعلب السجائر .. وتجلس معه ساعة .. قد تزيد نصف ساعة أخرى حتى ينتهي وقت الزيارة الرسمي .

ولما تخرج المهندس قيس وتوظف ، كلف أحد السائقين لصحبتها في رحلة العناء ـ سائق اسمه صبحي من أهالي حيهم القديم ـ يتصل به قيس لترتيب زيارة أمه ، فيأتي صباحا قبل الظهيرة عندما تكون الزيارة يوم الجمعة .. في هذا الأسبوع ستكون الزيارة لصقر ، وهي أول زيارة له بعد رحيلهم للحي الجديد .. فجهزت الطعام والدخان والشراب [علب العصير] والفاكهة .. ولما أتى صبحي ساعدها قيس في نقلها للسيارة ، ودعا لهما بالتوفيق ، وكان قيس يحاسبه عندما يعود بأمه حسب الأجرة المتفق عليها بينهم .

يكون اللقاء مع السجين من خلف الشبك الذي يسمح بالمصافحة وإدخال الأشياء .. ويفتش الزائر من قبل الشرطة هو وما يحمل خشية إدخال ممنوعات كالمخدرات والخمر ، أما السجائر فيسمح بإدخالها مع أنها تباع في دكاكين السجن .. فيسمح للمساجين داخل السجون العمل في الورش والمشاغل كالنجارة والحدادة والخياطة على أمل أن يتعلم السجين مهنة أو حرفة يعمل بها عند خروجه من السجن وقضاء محكوميته ، خاصة أصحاب المدد الطويلة التي تمكن

صاحبها من التعلم والتدرب.. وبعد أن تناول صقر الأشياء من عجيبة قال بنبرته القاسية : أخبرني منصور الجمعة الماضية أنك ذهبت إلى الذيب كيف هو ؟

- لا جديد .. يهدد ويتوعد ويريد تدمير الحكومة

تظاهر بالأسف على بكره فقال : يا له من أحمق ! نصحته أكثر من مرة أن لا يتأسى بأبيه ولا جده .. فهو نحيف البنية ، وغبي لا مخ عنده .. يقع من أول سرقة .. أنا كل عشر أو أكثر لما تصطادني الحكومة

قالت بحسرة الأم : ليته سمع نصحك .. فأنت ذو خبرة !

لم يعجبه كلامها فقال: تتهكمين علينا ! .. هل تزوج حضرة المهندس ؟

- لم يجد ابنة الحلال .. الناس الأشراف يخافون من سمعتنا

- انقطعت بنات الحلال

قالت : يريد واحدة متعلمة ومحترمة .. بنت ناس محترمين .. والناس المحترمون لما يعلموا سيرتنا العطرة يرتعبون .. ويعتقدون أننا من صقلية أو شيكاغو

قهقهه صقر عاليا مما لفت نظر الزوار الآخرون إليهم ، وقال ساخرا : أتعرفين عصابات شيكاغو يا عجيبة؟! ولما رآها لم ترد قال : أبوك لم يمت بعد ؟

- لم يمت بعد .. فهو في انتظارك

- في انتظاري .. أبوك مات منذ سنوات .. لما خرج آخر مرة من السجن مات .. دهمه مرض السكري القاتل

- والقلب .. هذه الأيام عضلة القلب تضعف

فقال : إذن هو على وشك الرحيل

وفاجأته قائلة : وقيس يرغب بالسفر بعد خروجك حتى أنه يفكر بالهجرة إلى أمريكا

قال بنبرة حادة وزاعما عدم الاكتراث : أحسن ! أنا لا أحبه يا عجيبة مع أنه أحسن منا خُلقا ودينا ..أنا مقدر لشجاعته وحبه للدراسة ، وعجبت من نجاحه ودراسته غاية العجب .. ولما

صار مهندسا عجبت أن يخرج من صلبي مهندسا

- طالع على أمه .. أنا أحب العلم ودرست بضع سنين عند عمتي رحمها الله

قهقهه صقر وقال : أنت مسكينة يا عجيبة ! لا تفقهين من الدنيا والحياة شيئا .. أبوك لص كبير في زمانه ، وزوجك مثله ، وقضى عمره في السجون ، وابنك في طريق اللصوصية .. وحضرة المهندس يستعر من مقابلة أبيه في السجن .. يريد الهرب وهو الذي يزعم أنه شيخ

قالت بنبرة غضب : يريد الهرب من أعمالك .. يقول لو يتوب أبي أنا مستعد للإنفاق عليه طول العمر ، ولو كل راتبي .. بس يعيش مثل الناس

قال كأنه نادم : أنا أحلم أن أعيش مثل الناس يا عجيبة .. تعودت على مد يدي على أموال الناس .. تعودت على حياة السجن

- الذي يعزم يتخلص من كل العادات القبيحة.. ها هو أبي اللص المعروف لك .. لما ضعف ومرض تخلى عن تلك الحرمنة رغم أنفه .. الإنسان يستطيع ذلك ..عشرات دخلوا الحبوس وما عادوا إليها .. تستطيع يا أبا الذيب

بعد صمت قال : هل تعلمين أني صليت بضع مرات هنا ؟

- أنت ؟!

- نعم ، أنا ..قضى أحدهم رجل متدين بضعة أيام هنا موقوفا .. وأقنعنا بالتوبة والصلاة كان بارا بنا .. ثم خرج .. لو طال مكثه بيننا ربما استمررت بالصلاة

- أين ذهب ؟

- كان موقوفا بسبب حادث سير .. قضى عشرة أيام حتى عفى أهل الميت فأخلي سبيله

قال مشجعة لقرينها : عندك بذرة خير يا صقر

فصاح معاتبا : ويحك يا امرأة هل نحن نكره الخير ؟!

ثم سكت لحظات كأنه يفكر وقال : إنما تربيتنا وظروفنا جعلتنا من أهل الشر والسرقة

- لو كل الفقراء يحتجون بالظروف لصاروا كلهم مجرمين .. عليك أن تنوي أن تتغير يا صقر

من أجل ابننا الفالح المهندس .. المال الذي تسرقه سيعطيك إياه .. دائماً يردد ذلك أمام منصور وغير منصور

قال كأنه يأسف لبقاء منصور خارج السجن : كنت أظن أن منصورا سيعود إلينا خلال أيام .. ولكن له أشهر خارج القفص

- هو ينتظر خروجك أو أن عصابته تخلت عنه .. وعلمت من قيس أن امرأته هجرته

======

في منتصف شهر فبراير شباط أدخل والد عجيبة مستشفى الحكومة لإجراء فحوصات طبية للقلب ، وقد يحتاج بناء على فحوصات قديمة لعملية توسيع شريان أو إبداله ، وقام قيس ووالدته باللازم ، وقضى الرجل أياما تحت المراقبة والعلاج ، وعلى تلك المعالجة قرر الأطباء تأجيل أي عملية للقلب ، وعاد الضغط لطبيعته ، فرجعوا به للبيت ، وبعد أن تمدد شوكة على سريره قال لهم : كنت أظنها النهاية يا عجيبة من كثرة الأطباء حول السرير .. ابنك هذا ـ وأشار لقيس ـ في مثل هذه المواقف جدع ، ويستحق الثناء

قال قيس باسما : اشكر الله يا سيد شوكة .. الشافي هو الله .. وانا أساعد وأقف مع الغريب والأجنبي ..الإنسانية حق للجميع .. أنا أكره وأبغض أعمالك الماضية والسيئة ..أما أنت اليوم فلا حول لك ولا قوة .. نصحك الطبيب بترك الكحول ، ولو كان شيء يسيرا منها.. ونصحك بترك التبغ أو التقليل منه .. فهو سبب مشاكل الشرايين يا جدي

قال بضيق : لا أستطيع يا قيس ترك الدخان .. أما الخمر فلست مدمنا عليها .. ربما أشرب في الشهر ثلاثة أو أربعة ألتار .. كمية ضئيلة عن أيام الشباب

- أيعجبك أن تبقى هذه المسكينة ذاهبة لدكان الكحول لتشتريها لك ؟! .. تحمل تلك الزجاجات اللعينة

- أنا لا أستطيع المشي الطويل.. وإلا لذهبت بنفسي لشرائها .. وصاحب الدكان يعرفني ويعرف لمن تشترى هذه الزجاجات .. والرجل يعرف أمك وأباك ولمن الخمر .. وهو يضعها

في حقيبة لإخفائها عن أعين الفضوليين .

ضحك قيس وقال : كل الناس تعرف ما في هذه الحقيبة ، بل ويستغربون رؤيتهم لأمي خارجة من خمارة أو دكان بيع الخمور .. فاضطر لتوضيح الأمر لهم

هاج شوكة وصاح : كأن الخمارة لا تبيع الخمر إلا لشوكة .. أين تذهب الأصناف والكميات يا رجل ؟.. لو أنا وحدي الذي يشربها لأغلقت المحلات أبوابها ، وأفلست المصانع ..أنت ربنا نجاك من هذه الشرور فاحمده .. نحن ضعفاء

- اهدأ يا رجل ..لا تنفعل .. إذن بعد هذه العودة من المشفى احذف الخمر من حياتك .. وقلل من دخانك

حك رأسه وقال : هاتِ شايا يا عجيبة ..وأنت اغرب عن وجهي .. سأشرب ما بقي عندي فحسب .. وهل ستمنع أباك من شربها ؟

- له عمر لا يشربها وممنوع عنها .. أنت تعلم أن الخمر في السجن ممنوعة .. وإذا هربت فهي كميات محدودة

تضاحك شوكة وقال : مسكين أنت بعض المال للشرطي فيشتريها هو لك ويدخلها السجن

- مهما يكن .. فالأمر قليل .. والشرطي الذي يساعد في ذلك قد ينقل لمكان بعيد أو يفصل من جهاز الشرطة

- كلهم يعملون معا .. يأخذون الرشوة والمال

- أتريد أن تقول أن شرب الخمر في السجن متيسر وسهل

- يعني إلى حد ما

- نعم ، حاول أبي مرة إغراء أمي بإدخال الخمر للسجن .. فطردها الضابط شر طردة .. ومنعها لفترة من الزيارة .. ورفض لها بعد ذلك

إدخال أي مواد لزوجها

تراجع شوكة عن بعض أفكاره فقال : طبعا هم يتشددون بالسماح للزائرين بإدخالها .. إنما هم

يدخلونها خفية مقابل المال

- ربما يضعف أحدهم ، وإذا عرف وكشف أمره سينال العقاب المحدد في القانون .. الشرطة بشر يصيبهم ما يصيب الآخرين من ضعف وشهوة .. ويتعرضون للمحاكمة والعقاب .. قد يستطيع تاجر مخدرات توريط شرطي أو ضابط بإغراء المال والمخدرات .. وسمعنا قصصا كهذه ، ونشرت الصحف مثل هذه الجرائم ، وتعرض من قام بها للعقوبة والمحاكمة .. فهذه حالات فردية يا سيد شوكة .. أنا المهم عندي أن تهتم بصحتك الضعيفة حتى لا تصل لعملية القلب المفتوح .. وقد تهلك فيها فالله يعطيك الفرص لتتوب وترجع إلى الله .. ها هي أمي عادت إلى الصلاة دون أي حرج .. وتجتهد للثبات عليها بإذنه تعالى .. فعليك أن تشجعها على ذلك .. ولا تطلب منها شراء الخمر بعد هذا الخروج .. فشربك للخمر يؤدي إلى موتك بيد ابنتك

بعد صمت وتناول الشاي قال شوكة : ألم تجد بنت الحلال بعد؟.. كلما أراك أذكر ما أنا عليه من سوء وفساد .. فألعن الساعة التي ولدت فيها .. وتعود بي الذكريات لأيام الصبا ولوالدي المرحوم ونصائحه وتحذيراته ؛ كأنك تنطق بلسانه ، فقد كان مصليا وصواما لرمضان .. فكنت أستهزأ بنصحه وإرشاده .. فأقول ألم تعلم أن الصوم قد مات ؟ وكذا الصلاة .. الناس تجاهر بالإلحاد اليوم

- صحيح أنهم يجاهرون بالإلحاد في كوبا وبلاد الروس والصين وبعض دول العرب ؛ لكنهم هم الخاسرون .. فهم يعبدون الكفر وتماثيل زعماء الكفر .. ألا يحجون لصنم لينين في وسط موسكو ؟ ويحنون له رؤوسهم .. الدين لدى الإنسان فطرة تولد معه ، وحاجة ضرورية له فإن لم يعبد الله وحده سيعبد غيره .. الهوى الشيطان البقر التماثيل الشجر البحر.. ألا يعبد الهنود في هذا القرن البقر ؟ بل سمعنا أن هنودا يعبدون الجرذان والقرود وبوذا .. وهناك من يعبد الدينار والدرهم والثياب كما حدث النبي . وصلت أمه على النبي صلى الله عليه وسلم

قال شوكة : سمعت أن الهنود فقراء يعبدون البقر فكيف يعبدونها ؟

- توارثوا دينهم عن أجدادهم ، يقدمون لها الخضوع والسجود ، ويقدسونها ، ويترك لها صاحب الدكان العبث والأكل في متجره وهو راكع لها يتقبل بركاتها .. وربما يتباركون ببولها ولست أدري أهذا صحيح أم لا ؟! ولكن الإنسان اذا عبد أي شيء خضع له خضوعا كاملا .. فقد عبد القدماء الشجر والكواكب والأوثان والشمس والقمر .. الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور .. نور الإيمان والإسلام .. فعلا الإنسان بدون عبادة صحيحة في ضلال وتيه وضياع .. الإنسان بطاعة ربه الحقيقي يشعر بسعادة وحلاوة في أحلك الظروف .. السكينة تتنزل على القلب .. ورغبته العارمة في جنة الخلد الخالية من المنغصات والنكد والضعف والغضب والسخط والفقر والمرض ومن كل العيوب المعروفة في الدنيا .. يشعر المسلم أن للحياة قيمة لأن هناك آخرة .. وأن سعيه سوف يرى ويجده عند ربه .. ليس فقط أيام تمضي والكسب من ملذات الدنيا فحسب .. يا رجل في الجنة أنهار من خمر لذة للشاربين .. ليس لهذه الخمر عواقب وخيمة من تشمع كبد ضياع عقل بول على النفس المشي على أربع الصداع والهذيان بكلام فارغ وفضح أسرار الأسرة والبيت .. والتلفظ بألفاظ مقززة



قالت عجيبة لابنها قيس: هل كلمت صبحيا عن مشوار الغد ؟ وكان ذلك السؤال بعد رجوع قيس من المسجد بعد صلاته العشاء ـ فالشاب محب لصلاة الجماعة منذ تعلق قلبه بها ـ وكانا يجلسان في المطبخ حيث يتناول الشاب عشاءه وحيدا ؛ لأن أمه تتعشى مع أبيها بين المغربين في حجرة الشيخ شوكة ، فبلع قيس اللقمة وأردفها بجرعة ماء ، وقال : نعم ، اتصلت بالرجل وهو سقيم سيبعث ابنه لمرافقتك فربحي سائق كأبيه

قالت بقلق معتاد : ما به صبحي ؟!

- مريض.. ولم يفصح الرجل عن المرض .. اسألي ربحيا غداً .. فإذا احتاج الوضع لزيارة خاصة قمنا بها .. فالرجل يخدمنا وجار لنا في حينا السابق .. صحيح أنه يأخذ أجرته ؛ لكن المجاملة مطلوبة .. والرجل يصلي .. والصلاة عنوان المسلم وحياته .. أنا لا ارتاح لتارك الصلاة

قالت بعد هدوء للحظات : ألا ترغب بالزيارة لأبيك؟.. فوالدك في الزيارة الماضية أكثر من ذكرك وشوقه لرؤيتك ..وطلب مني بالضغط عليك

- ورائي صلاة جمعة ، وقبل أيام حدثته بالتلفون .. ألم تسمعي مكالمتنا ؟ .. وقلت لك إني أكلم أبي وأنت كنت في المطبخ.. أنا لا أحب رؤية السجون خاصة سجون اللصوص والانحراف

- حسنا ، زر ذيبا ، وأدعوه لدينك

تبسم قيس وقال : اتصلت به في السجن هو الآخر ، وطلب مني عدم الاتصال به والكلام معه مرة أخرى.. فهو لا يحب مكالمات التلفون المزعجة .. وأخبرني أنه يكرهني ويتمنى موتي .. أهذا أخ ؟!

- من القهر يا ولدي .. السجين ضيق الخلق .. لو أتابع شتم أبيك ولعنه لما زرته البتة لانقطعت عنه منذ سنوات .. نحن المتنفس الوحيد لهم بهذه الزيارات

– أين أصحابه في السرقة والسطو ؟ لا أحد يزوره إلا منصور

– رأيت رجلا آخر يتردد عليه صدفته أكثر من مرة اسمه جربوعة أو هذا لقبه .. فكر بمصاحبتي إليه

– لم يبق إلا القليل يا أمي ويخرج زوجك .. نحن في آخر شباط .. شهر ونصف ويكون بيننا ـ إن شاء الله تعالى ـ وأرجو أن ينصلح حاله بعد هذه العقوبة الطويلة .. فسيرته لا تسر صديقا ولا عدوا .. أسمع نحنحة أبيك

تابع قيس مضغ الطعام ، وحملت الأم الشاي بكوب كبير السعة لوالدها الذي استقبلها بالصراخ والصوت العالي: بماذا تتحدثون في مطبخ المؤامرات؟ طعامك لم يعد يعجبني هذه الأيام .. لا يوجد به لحم .. فقران قيس؟!

– ويحك ! ألم تأكل ظهرا زوجا من الحمام كما تشتهي ؟

– هذا حمام !.. هذه عصافير

– أنت تعلم أن الحمام قليل اللحم

قال شوكة : غداً لو طهوت لنا سمكا .. لي سنة لم آكله يا عجيبة يا بخيلة يا عاقة

– سنة ! يا لك من جاحد .. الأسبوع الفائت أكلنا سمكا يا بار بابنتك

قال : دخلنا على التعيير ..ماذا كنت تتحدثين مع ذاك؟ ـ وأشار بعينيه إلى المطبخ ـ هل لقي عروسا؟

– كنا نتحدث عن زيارة صقر صباح الغد .. وأرغبه بزيارة أبيه .. وقيس لا يرحب بذلك .. ولا يحب زيارة السجن

قال هازئا : وهو عامل نفسه شيخا علينا

– لقد حادثه على الهاتف.. وقيس ابن فضيل .. ولولاه لربما ضعفت عن رعايتكم .. هو بسمة حياتي

شوكة يعرف حب عجيبة لقيس لأسباب كثيرة فقال :كيف ستعشين إذا تزوج وترك البيت ؟

ردت على أبيها فقالت : سأسعد وأفرح بزواجه ..وسيسكن قريبا منا .. قد يسكن في هذه العمارة التي نستأجر فيها ..ففيها شقة فارغة في الطابق الأول الأرضي معروضة للإيجار .. وطلبت منه أن يستأجرها .. ويبدأ بتأثيثها ليتزوج فيها ؛ ولكنه متردد في أمر الزواج ويفكر بالسفر وأنه أفضل من الزواج

- يريد الهرب من أبيه

- يريد الهرب من سيرته وماضيه .. فأنتم نقطة سوداء في حياته ؛ ولكنه شجاع ومتقبل للأمر ولو على مضض

- لقد وفيت له بوعدي بترك الشراب المسكر .. لي أيام لم أذقها .. ولم أطلب منك شراءها ..والدخان أصبحت أحرق علبة ونصف.. فقط ثلاثون سيجارة في اليوم والليلة .. أتريدين أن أترك الأكل والماء؟

- قيس لا يقصر معك .. ويشتري لك المكسرات والمملحات والحلوى

- هو حقيقة سخي في بعض الأحيان

قالت : كل الأحيان إنما أنت لا تشبع .. الطبيب آخر زيارة قال لك قلل من أكل الدهنيات ؛ ولكنك غير مبالي

- لسانك مثل لسان ابنك قيس .. ارميني في الشارع

- لا أستطيع إنك أبي !

عندما يخرج المصلون لصلاة الجمعة في حي "أبو خروف" من المسجد فور انتهاء الصلاة يتبادلون التحيات والأخبار أمام المسجد حيث الرصيف ..فيتصافحون ويسلمون على بعضهم ؛ لأن الكثير من المصلين لا يدخلون الجامع إلا يوم الجمعة ؛ فلذلك تجدهم يتجمهرون أمام المسجد لتبادل التحايا والكلام ، وتسمع العبارات الحميمة ، والقبل البريئة ، والاطمئنان على الصحة والحال ، وكان قيس قد افتقد طلالا منذ ثلاث ليال ، وعلم من فريد كمال أنه مشغول بقضية أسرية ؛ لذلك لما تقابلا أمام المسجد أخذه بالحضن والعناق وقال :

أهلا بالأستاذ طلال عساك بخير .. لقد أفتقدك كثيرا في المسجد. وهممت بالمسير إليك ؛ ولكن الأخ فريدا منعني من ذلك ، وكشف لي بعض أسباب تغيبك عن المسجد .. عسى الأمور تحسنت

- الحمد لله ، أنا بخير .. وأنت كيف حالك ؟

- مشتاق لمجالسك الإيمانية الطيبة .. أنت رجل معلم في المدرسة ومعلم لنا في الجامع طمأنا على حالك

- مرحباً قيس .. المشكلة كما قلت لفريد منذ عهد أن أبي راغب بالزواج على أمنا ..أمي تجاوزت الخمسين ولم تعد تصلح للمعاشرة الزوجية .. وأبي يكبرها بسنتين فقط ..فيرى أنه ما زال بحاجة لزوجة ، وأنه لا يستطيع العيش مع أمنا المريضة والكبيرة .. وبعض الأخوة يرفضون هذا الزواج الثاني .. والبنات ترفض لأن ذلك قد يفتح الباب لفعل أزواجهن بهن مثل ذلك مع مستقبل الأيام .. ووصلت القضية للطلاق والقاضي

قال قيس : ولماذا يرفض إخوتك زواجه ؟

ضحك طلال وقال : خوفا على الميراث ونقصانه ، مع أن الميراث لا يؤثر

أول الوقت علينا ؛ إنما تنقص حصة أمي النصف .. ربما إذا ولدت المرأة ..ويخافون يا صديقي من أن يكتب لها شيئا خاصا بسبب الزواج وحصوله لتقبل به

- المال لكم أم له ؟

- ماله.. وأكثره ورثه عن والديه

قال فريد بعد طول صمت: أنت لا اعتراض عندك ؟

ضحك طلال وقال : أنا تزوجت امرأة قبل امرأتي الحالية أم محمد كما تعلم من قبل يا فريد .. عشنا أشهرا معا يا قيس .. ثم حدث الانفصال .. فلديّ معرفة بتكرار الزواج .. فأنا لم أكن معددا في الواقع ، لم أجمع بين زوجتين .. وقد ساعدتني أم ريان خالتك في هذا الزواج .. ثم عرفنا فريدا فيما بعد عند تردده على هذا المسجد .. وأنا أزعم أنني متدين فلا أعترض على

التعدد ..وكما قال قيس المال مال أبي ، فلم يحرم من الزواج ؟! ما دام لديه رغبة ، ويرى أن له قدرة على الزواج ، حتى أمي راضية بزواجه ـ وكما في الحديث ـ " أنت ومالك لأبيك"

وردد الشباب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وتابع طلال : ونحن نعلم منذ خمس سنوات أن أمنا تمتنع عن فراش الزوجية.. فصحتها ضعيفة ومتدهورة قبل دخول هذا السن .. وأبي حاول الزواج قبل هذه الأيام ؛ ولكن أخي الكبير يرفض وبشدة ، وبعض أخوالي معه يشدون أزره ..كيف يتزوج على أختهم بعد أن كبرت ومرضت؟ يعتبرون الزواج عليها إهانة لهم للأسف .. وسكت الأب مكرها .. وهذه الأيام تجدد الأمر .. وذهب للمحكمة وطلق أمنا دون علمنا .. فعلمنا بذلك ، وثار العراك والقتال في الأسرة حتى اضطر لإرجاعها قبل انقضاء العدة الشرعية

قال قيس : من حق أبيك الزواج يا طلال .. وهو قادر على الصرف على زوجته وعلى أمك – وعلينا .. فيهب لنا بعض المال في الأعياد والمناسبات .. أبي يملك ثلاث بنايات .. اثنتان في "أبو خروف" .. وأغلبها مؤجرة .. إخوته بنوا ورحلوا ، لم يبق في "أبو خروف" من أقاربنا هنا إلا عمة أرملة .. ولما كبر أولادها رحلوا وسعوا لأخذها معهم .. لولا رفض أبي ؛ لذلك فهي تعيش في شقة في عمارة أبي .. وبعضنا يعيش في عماراته

فقال فريد معقبا : أبو عبد الجبار رجل ميسور يا قيس .. وهو متقاعد من الشرطة

قال طلال مغيرا موضوع اللقاء : الفتاة يا قيس التي حدثتك عنها المتخرجة من كلية الشريعة منذ فترة .. فهي من أقارب زوجتي أم محمد وأمها صديقة لها .. وبيني وبين والدها طرف قرابة لكنها بعيدة

قال قيس : عفوا على المقاطعة ما موقف أخواتك من زواج الوالد ؟

ضحك طلال لعودة قيس لموضوعه فقال : مثلنا بعضهن يرفضن، وبعضهن متحفظة ومشفقة.. المهم أتيحت لزوجتي اللقاء بالآنسة وذكرك لها ، فقالت لما يصير الكلام جديا وحقيقيا أفكر في الأمر .. الذي يهمها في المقام الأول أن يكون الرجل متدينا ، وأنها لن

تتزوج أهله ، وسردت على مسامعها ما أعرفه أنا عن أهلك

ابتسم قيس وقال : أخشى إن تحول الكلام إلى أفعال أن ترفض ويرفض أهلها يا طلال

ـ نحن جسسنا نبضها الآن ، ووالد الفتاة متدين أكثر منا .. عندما تعطي إشارة الانطلاق ، فأذهب إليه وأقابله وأكلمه بصراحة مطلقة ، بسرد كل قصتك بالتفاصيل ، وقد نستعين بخالة فريد ، فالرجل متعاون مع الجمعية منذ عهد بعيد ، وله نشاط دعوي ومعوني إغاثة .. وهو أستاذ مثلي ؛ لكنه مدرس في مدرسة ثانوية خارج "أبو خروف" في الحي الذي يلي دوار الحي .. المهم الإشارة منك

بعد صمت قال: اقترب موعد خروج الوالد من سجنه ، وفي عمارة العم حازم شقة فارغة.. ترغبني أمي باستئجارها وتأثيثها سلفا للسكن بجوارها .. أمهلني يومين أو ثلاثة حتى أحسم أمري .. ونشرع في مشروع الخطبة .. أنت تشجعني على هذه المغامرة .. وتفتح أمامي أبواب السعادة من الزواج من فتاة محترمة وطالبة كلية شريعة



رجع قيس للبيت متأخرا بسبب اللقاء الطويل بطلال أمام المسجد ، مما دفع أمه أن تسأله عن سبب تأخره ، فهم يوم الجمعة يتغدون جميعا مباشرة بعد عودته من صلاة الجمعة ، خاصة الجمعة التي تستريح فيها والدته من زيارة السجن ، ففي تلك الجمعة يكسر قيس القاعدة ، ويأكل مع أمه وجده دون سائر الأيام منذ حطوا رحالهم في "أبو خروف" فقال باسما : تأخرت عنكم .. لقد أحضرت الرايب [لبن بودرة] ، والكولا .. التقيت بأحد الأصدقاء له أيام متغيب عن المسجد وصلاة الجماعة .. تحدثنا بعض الوقت .. وقد نتصاهر معه

قالت أمه دهشة: ماذا قلت ؟!

يعلم لهفة أمه الشديدة لزواجه فقال : هناك كلام عن زواج أو خطبة نتكلم عند الطعام ..

فأكيد الجد مات من الجوع وساخط عليَّ
- لا تنزعج .. جدك أكل .. لم يصبر أكل الأرز بسلطة البندورة .. لم ينتظر الرايب .. استغنى عنه
وضعت عجيبة الطعام على مائدة المطبخ الصغيرة وأفرغت اللبن في وعاء ، وسلطة الطماطم والخيار .. وتناول قيس معلقته وبدأ الأكل .
وقالت أمه: حدثني بكل شيء
ضحك قيس وقال : كل شيء .. هو شيء واحد فقط .. هذا الشاب له قريبة متخرجة حديثاً من الجامعة .. ولم تعمل بعد .. أهلها يبدو أنهم راغبون بتزويجها .. فتحدثت امرأته معها عني .. فلم ترفض الموضوع وأجلت الكلام الجد حتى يصير الأمر جديا لتفكر فيه .. حياء النساء أليس كذلك ؟
- أكيد ، وأهلها ؟
- هذه هي المشكلة .. أهلها لا يعرفون بعد .. والصديق طلال أبو محمد يبدو أنه واثق من نفسه .. وعلاقته قوية معهم .. وصديق لوالد الفتاة سوى القرابة والمصاهرة .. ومصرٌ على تزويجي
- وأنت ماذا قررت ؟
قال : لا شيء ، لم أر الفتاة لأتحمس للأمر .. أأنت موافقة ؟
- إذا كانت البنت محترمة كما تريد .. فهل أمانع ؟ أنا يوم المنى أن أراك عريسا وزوجا .. المهم أنت وأهلها - وكأنها تذكرت شيئا - ولكن أباك سيخرج قريبا
- وهذا السبب يدفعني للزواج أو على الأقل الخطبة ؛ فإني استصعب السفر وتركك وحدك مع هؤلاء الوحوش .. أب مريض ، وزوج خارج من السجن
شكرته بقلبها وهمست : ليس لي في هذه الدنيا بعد الله سواك .. ولا أحب أن أراك مصطدما بوالدك .. فأبوك عصبي المزاج وعنيف .. وسيكون صعبا بعد خروجه بعد كل هذه السنين ..

الحرية حياة الإنسان .. حياة السجن تبقى حياة السجن مهما ادعى الإنسان الراحة فيها .. فرق كبير بين الحياتين .. أخشى التصادم بينكم .. فأنا تعودت على أذى والدك وتطاوله عليّ ومد يده عليّ .. قد لا تحتمل أنت رؤية هذا المشهد .. لذلك أنا أحب أن تسكن في دار وحدك .. ها هو جدك يصيح

قال قيس : هو لا يحب أن نتحدث دون أن يسمعنا .. على كل سأسعى لرؤية الآنسة أو أرسلك لرؤيتها وتصفينها لي .. فوالدها من أهل البر والإحسان ..وله علاقة بجمعية البر لرعاية الفقراء والأيتام ؛ وأنا لا أعرفه شخصيا ، ربما قابلته دون الانتباه لشخصه والحاجة أم ريان تعرفه بقوة كما قال طلال .. ربما أشركها في القضية إذا احتجنا لجهودها الطيبة .. فكثير من أهل "أبو خروف" يحترمونها ويقدرون جهادها الطويل معهم .. مع أنها تسكن خارج "أبو خروف" بعد الدوار الذي في مدخل "أبو خروف" بقليل حي النجمة .

- لقد قمت بزيارتها في بيتها ، وعلمت منها أن لها أختا تعيش في الحي .. وهي زوجة البقال الذي في طريقنا إلى الشارع الرئيسي

- دكان أبي صالح وابنها فريد رفيقي في المسجد

قالت بحماس: وهي تقدرك ومعجبة بك ، وأثنت عليك خيرا ، واعتبرتك من الأوفياء للجمعية ، وأنا متأكدة أنها ستبذل أكبر الجهد لمساعدتك.. وهي تعتبرني مجاهدة في سبيل الله على صبري وتحملي لوالدي ووالدك .. حتى أدمع كلامها عيناي .. هل ستخبر والدك بأمر الخطبة ؟

- لا أعتقد أن أبي له اعتراض أو رأي .. لم نتعاشر كثيرا يا أمي .. فبيننا برود .. لي سنوات لم أره ، فحتى ذيب لم يكن من زوار أبيه .. نحن تجمعنا الأبوة والبنوة وأنت .. ولولاك لما بقيت معهم لابتعدت عنهم.. وأنا لا أقبل لك أن تتخلي عن أبيك .. إذا عاد أبي إلى السرقات فكيف سأعيش معه ؟! حتى لو كان أبي .. لا أستطيع العيش مع حرامي .. أنت كنت مضطرة للعيش معهم ..أما أنا فلست مضطرا .. ولن أنسى فضل الجمعية بعد فضل الله وتسخيرها لنا

.. وأنا اليوم أسدد لهم الدين طواعية .. فأنا مدين لهم { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} .. واتفقت مع فريد ابن أختها على القيام بزيارتها ،والتعرف على زوجها وابنها المهندس ما دمنا صرنا جيرانا .. فالفقراء والمحتاجون لا يقلون .. والفساد يزيد .. والانحراف عن الأخلاق الحسنة والدين يشيع ويفشو

- إذن تعجل في رؤية الفتاة ؛ لعل الخطبة تحصل قبل مجيء أبيك . وهل تكلمت مع مالك العمارة حول الشقة الفارغة

- ليس بالضرورة الاستئجار في نفس العمارة .. وسأجتهد أن أعيش في "أبو خروف" .. من أجلك وحدك يا أمي .. الليلة سأتحدث مع طلال وأطلب مساعدته في رؤية البنت أو تذهبين لرؤيتها .. وتتعرفين على أهلها

- أنا سعيدة بما أسمع ! كم أنا بشوق لرؤية أطفال أحفاد ! يا الله يا رب سهل زواج ابني قيس .. ارتفع صراخ جدك

فقال قيس : يظن أننا نتآمر على حياته ، وندعو عليه بالموت .. اذهبي إليه قبل أن ينفجر الضغط .. هداه الله إلى الصراط السوي

- الحمد لله ..قلبك كبير يا ولدي

- الدين الدين يا أمي !

ارتفع حماس قيس بتشجيع أمه له بالاقتران من الفتاة ، وهو يعلم علم اليقين أن أمه سعت بنفسها تطلب له منذ تخرج من الجامعة ، ولم توفق في سعيها ، وأدركت حجم المأساة التي يعيشون فيها بسبب أبيها وأبيه ؛ لذلك لما كاشفها بفتاة "أبو خروف" استغاثت بالله حيث لا مغيث إلا سواه أن يوفقه ويحقق رغبته وأن ينال الفتاة التي تشتهيها نفسه ؛ لذلك كانت على نار وجمر تنظر عودته من الجامع تلك الليلة .. وبالفعل التقى الشباب الثلاثة كعادتهم بين المغربين ، وبعد صلاتهم لسنة المغرب جلسوا في زاويتهم المفضلة في الجامع ، وبعد كلام عام قال طلال : أرى في عينيك كلاما يا قيس

قال فريد قبل أن يرد قيس : لقد كان كلامك ظهرا عن العروس مثيرا لقيس أحدثت أمك ؟

ارتسمت ابتسامة بريئة على وجهه وقال : نعم نعم .. تحدثت مع الأم فبدت لديها لهفة شديدة بأن أتزوج واستقر قريبا منها .. وكلام الأخ طلال المشجع دفعني لقبول الخوض في هذه المغامرة من جديد .. فكيف سيكون الترتيب المطلوب مني يا أخ طلال ؟! أأقابل الفتاة أم تذهب أمي وحدها لمقابلتها ما عندك يا طلال ؟

تنحنح الأستاذ طلال : في البداية سأدع أم محمد تنقل رغبتك للفتاة ، ثم نمشي كعوائد الناس تذهب أمك الكريمة في زيارة لأسرة أبي حبيب ، وسأذهب برفقتها زوجتي وأمك.. وبعدها سأتحدث أنا مع السيد حمدي أبي حبيب .. وإذا رأيت القبول وعلاماته .. سنذهب في زيارة عائلية أنا وزوجي وأنت وأمك ، وترى الفتاة وتراك حسب السنة الشريفة ، ثم يجري ترتيب الخطبة إذا توافقتم ، ثم الزواج

– إذا قدر الله تعالى الأمر ستكون الخطبة ، ويؤجل الزواج لحين خروج أبي .. وبعد الخطبة سأبدأ بتجهيز البيت والعفش.

قال طلال : وإذا وجدت ترددا من أهل البنت سيرتب لنا فريد زيارة لأم ريان لتضغط على الأستاذ حمدي ..فالناس يقدرون تدخل الحاجة أم ريان .. ويقبلون تزكيتها وشفاعتها .. أمهلني يا مهندس قيس يومين أو ثلاثة على الأكثر .. وإذا لم استطع مقابلتك في المسجد سأتصل بك في البيت من أجل ترتيب زيارة أمك مع أم محمد ..أنت أخ عزيز يا قيس .. أحببتك في الله تعالى

– أحبك الله الذي أحببتني فيه ..أنا شاكر لك .. ولن أنسى جهدك وفضلك سواء تحقق الزواج أم لم يتحقق .. فأنت والأخ فريد مكسب كبير من رحيلنا لهذا الحي .. الإنسان لا يختار أباه ، ولا أمه، ولا مكانه ، ولا زمانه .. هذا كله اختيار الله تعالى

قال طلال مواسيا نبرة الحزن التي كانت في آخر كلام قيس : لا حرج عليك يا صديقي .. فإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يستطع إدخال أبيه في الإسلام والنبي نوح ـ عليه السلام ـ لم

يوفق في إدخال ابنه في الإسلام ولا زوجته ، والنبي محمد ـ عليه السلام ـ لم يستطع إدخال عمه أبي طالب لحظيرة التوحيد ..المسلم يدعو ويهدي ويرشد إلى الطريق والصراط .. والتوفيق للإسلام بيد الله { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } هداية التوفيق بيد الله وحده .. فأنت لم تختار أباك ولا جدك .. وأمك سيدة فاضلة وجاهدت حقيقة وشجعتك على الثبات على خط الطهارة والتوبة

– نعم ، أمي وقفت معي ، وكانت تشجعني على الذهاب إلى المسجد وتعلم القرآن والجلوس مع الشيوخ رغم سخرية جدي من فعلها ؛ لذلك كنت أسمعه يقول لها : (هذا بيت لا يصلح فيه العبادة .. الشيطان والرحمن كيف يجتمعان في بيت صقر ؟! فليترك المدرسة ويتعلم صنعة أحسن ؛ ولكنها ترفض أفكار أبيها وتشجعني على الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة والجامع .. والحمد لله منذ بلغت اثنتي عشرة سنة وأنا أحب بيوت الله ، وأداوم على الصيام ، وتهتم أمي بسحوري

قال فريد: أم فاضلة حقا ..نصيبك يا مهندس وأتمنى لك الزواج .. وكنت لولا سبق طلال لي سأتحدث مع عديلي ماجد ـ وهو شيخ كبير في المدينة ، يعرفه طلال ـ كنت سأستعين به لتحقيق مأربك .. وله علاقات جيدة مع الأسر ..وله تلاميذ ..وهو مثل خالتي يقوم بأعمال البر والإحسان والمشي في حوائج الناس والصلح بينهم

قال طلال فرحا : فعلا الأخ ماجد أبو إبراهيم رجل فاضل وإمام له كلمة في منطقته .. وإن فشلنا هنا سنجد طلبتنا عنده يا أخ قيس .. لكن سبحان الله لما فتحنا موضوع زواجك خطرت في بالي بنت أبي حبيب

قال قيس : جميل أنكم تفتحون لي أبواب الفرح والسرور .. الحمد لله الذي وفقني للالتقاء بكم وفهم ظروفي!

لما انتهى قيس من قص ما دار بينه وبين طلال لأمه أخذته بالعناق ، وعبرت عن سعادتها بهذه الخطوة ، وهي تظهر مشاعرها وشوقها ، ودعت الله أن تراه زوجا ، وحلمت بأطفاله يلعبون

معها ، قال لنفسه لما عبرت عن سعادتها ومشاعرها: مسكينة أمي ! لقد شقيت بين أب وزوج وابن .. مجرد كلام ملأ قلبها حبورا وسعادة .. ألا يفكر أهل الأجرام والانحراف بما يسببونه من ألم وعذاب لأهليهم من أبناء وأمهات ؟ أظن أنهم لا يفكرون إلا بأنفسهم .. نرجسيون ولا يهمهم الآخرين وما يصيبهم من هم وغم وحزن وشقاء .. أمهات الأشقياء يتحملن ويصبرن مكرهات والله تعالى أعلم .. اني أرى الحزن والشقاء في بريق عيون أمي عندما أكون في جدال مع جدي والدها .. فأشعر بالألم المرسوم على وجهها وفي لمعان العين .. كان يفكر في هذا وهو يرى السعادة الحزينة المخيمة على وجه أمه وهي تحلم بزواجه وذريته .. ولما صمتت الأم وقد عبرت عن مشاعرها وفرحها عادت تقول : جهزت لك الشاي هيا لمطبخنا أترغب بالعشاء ؟

– لقد تناولت ساندويشا من المطعم المقابل للجامع .. والعم مرعي الطوسي وأولاده خبرة كبيرة ، فطعامه جيد كما تعلمين

– نعم ، حمصُه لذيذ وطيب . صبت له الشاي ، وجلس يشربه على كرسي المطبخ ، وصبت لنفسها كوبا، وحملت ثالثا لوالدها الذي كان يصرخ من فوق سريره ، فلما رآها داخلة عليه قال : ما أخبار العريس ؟

نظرت للسماء ـ أي سقف الحجرة ـ وهمست : حمدا لله حمدا كثيرا ـ وخفضت رأسها عن السماء ـ وقالت : إن شاء الله تسير الأمور وتسلك .. ليبق قيسا معنا وبجوارنا .. أخشى أن يسافر أو يهاجر يا أبي .. ليس لي في الدنيا سواه

قال مدعيا الاحتجاج : وأنا وصقر وذيب

– أنت عجوز ، وذيب يسير على دربكم ، وسيخرج من السجن ، ثم يعود إليه مثلكم .. فهو لا يسمع النصح .. لم نستفد منكم شيئا .. كنت اشتغل وأخيط للنسوان بل تشحذون في بعض الأيام علبة السجائر مني ..عشنا على صدقات الناس وزبالتهم.. أنتم تقبعون في السجون تطعمكم الحكومة .. ونحن نموت من الجوع .. أنسيت كل هذا يا أبي ؟ أنتم

تعيشون على صدقة الحكومة والشرطة .. أليس إطعامهم لكم إحسانا وشفقة ؟ماذا تستفيدون من سرقة أموال الناس؟ لا أدري .. تعبوا في جمعها وتحصيلها وأنتم تستولون عليها أو على بعضها لماذا يسرق الحرامي ؟!

قال : لا ، لماذا هذه الخطبة الطويلة ؟ فلو فكر الواحد منا لماذا يسرق؟ ومن سرق ؟ ما سرق ، ولا نشل ولا نصب ولا احتال ولا قتل .. إنه مرض يا عجيبة ..مرض في أبداننا وأدمغتنا .. ها أنا لي سنوات طوال لم أسرق بسبب العجز والمرض فإذن كان باستطاعتي أن لا أسرق ولا احتال .. تعقدنا وكرهنا الشغل والعمل عند أصحاب العمل .. نشتغل ساعات وساعات مقابل بعض المال .. فالسرقة مال كثير ووقت قصير للسرقة ثم وقت طويل في السجن مقابله .. لماذا نسرق ؟! أنا مثلك لست أدري !

- السجن مقابل سرقة الأغنياء ، وضرائبهم تطعمكم في السجون

- هذا كلام قيس ، نعم ، الحكومات تأخذ حظها ونصيبها من أموال الأغنياء وأصحاب الشركات والمصانع

قالت : الحكومة تدير أمور البلاد من شرطة جيش موظفين ترعى الفقراء والمحتاجين الجامعات المدارس ..فهذا قيس تعلم على حساب الجمعيات الخيرية .. وأصبح مهندسا من أموالهم فلماذا تسرقون ؟ ألم تتعالج يا أبي قبل تخرج قيس على نفقة الحكومة والجمعيات ؟!

قال مستسلما : لا أدري بما أجيب ، لكنّ قيسا هو الصح في هذه الدنيا .. غلبت علينا الشهوات والصحة .. وربما حسدنا لأصحاب الأموال والمصانع دفعنا للاستيلاء على بعض أموالهم .. كنا نظن ونتصور هذه الأعمال بطولة مع أننا إذا رأينا دورية شرطة أثناء ذهابنا لخبطة نهرب ونكمن كالأرانب .. مرض مرض أحسن وصف لعملنا .. كنا نرى أن معهم أموالا زائدة نحن أولى بها .. حمق وسخف .. الحياة صعبة يا عجيبة

خرجت عجيبة بنتيجة قائلة : أرى أنكم قضيتم أغلب أيامكم في السجن عالة على أموال الحكومة ، رضيتم بالراحة والكسل ، والرضا بطعام السجن ، وتنتظرون بلهفة وشوق زيارة

ابن وأم وزوجة ؛ ليهبكم علبة دخان وكيس طعام .. عقولكم معطلة وملبدة .. لا تفكرون إلا بالانتقام والحقد لمن أوقع بكم

تنهد شوكة وقال : علمتك الحياة الكلام يا عجيبة .

- هذا تعلمته من حواري مع قيس ولدي الغالي .. ربي يحفظه لي .. أتمنى أن يعقل ذيب ويتعلم منكم قبل فوات الأوان وينتبه لحياته وأن يتعظ بكم.. الشر قاتل يا أبي قاتل ومخرب البيوت



نقلت أم محمد زوج طلال للفتاة ابنة أبي حبيب رغبة قيس بالاقتران بها ، فطلبت الفتاة منها مكاشفة أمها بهذه الرغبة ، وأنها لا تمانع بالزواج منه إذا قبله أهلها ،وعدتها أم محمد بزيارة خاصة لأمها ، وذكرت لها ما تعرفه عن أهل قيس ـ وكانت المرأة قد أشارت إلى هذه السيرة في المرة السابقة ـ وأكدت الفتاة الشابة أن الذي يهمها هو صلاح الشاب وتمسكه بالإسلام ، ولا يهمها كثيرا فساد والده ، المهم أن المهندس من أهل المسجد ، ومحافظ على صلاة الجماعة وصديق زوجها طلال ، وذلك رغم البيئة السيئة التي تربى فيها ، فقدرت شجاعته ، وتأثرت بكلام أم محمد عنه ، وهي سمعته بدورها من زوجها طلال .. فاستطاعت أم محمد أن تنقل إعجابها بقوة وعزيمة الشاب إلى الفتاة ..وأنه اختار الطريق الصعب بفضل من الله أولا ورغبة حقيقية بالخروج من مستنقع الرذيلة والانحراف .. ومشى في الدرب الصواب ، ودرس وتعلم رغم البيئة والفقر .. فالانحراف والسقوط في مثل تلك الظروف سهل ، ولا أحد يلوم الساقط في ذلك الوحل، بل يجد تشجيعا للانخراط في ذلك الدرب المنحرف ؛ لأن الشيطان يحب أن يرى كل الناس شياطين وفسقة ومغويين .. فشارب الخمر يتمنى أن يرى كل الناس مثله في معاقرة السكر والزاني كذلك

مشى طلال إلى أبي حبيب ـ فهو من سكان حي النجمة المجاور لـ "أبو خروف"حتى بعض الناس يعتقد أنه نزع من "أبو خروف" .. واستطاع أن يجلس معه جلسة خاصة وصارحه بمبتغاه ، وأنه هو الذي اختاره ، ولا معرفة للشاب بابنته ..فقال أبو حبيب : أنا أعرفه عن طريق جمعية الفقراء ؛ ربما هو لا يذكرني ؛ لأنني لما أتعامل معه مباشرة .. وأنا فعلا أكبر فيه نجاحه وإرادته وصلاحه عندما كان شابا صغيرا .. وكان يضرب به المثل بيننا في النجاح والنجاة من براثن السرقة ..واستطاع الابتعاد عن التأثر بأبيه وجده .. فهم معروفون بالفساد وسوء الأخلاق .. أما الزواج من هذه الأسرة فلم يكن يخطر في بالي يا أبا محمد .. ولقد زوجت ابنتين بأيسر الأمور وعلى هدي الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة .. وحسن

الاختيار مطلوب في الاتجاهين .. فكما حث الرسول على الظفر بذات الدين حث على الظفر بالرجل ذي الدين والأخلاق .. وأنا لا أنكر صلاح قيس ـ ولا نزكي على الله أحدا ـ حتى أن أمه امرأة مسكينة في وسط تلك العائلة .. لكن رحمة الله أدركتها بهذا الشاب قيس .. اسمح لي أبا محمد بالتفكير والتأمل في هذه المصاهرة .. أنا أعرف نبل مشاعرك نحونا

– أنا أقدر أن هذا زواج ومصاهرة ، وليس لعب عيال ولهو .. أحببت هذا الشاب ودخل قلبي وهو من رواد المسجد ومهندس وبحبوح ومرح ..ولا تحس أنه مهندس بناء .. ويمتلك صفات جيدة .. وتعلقت به سريعا

قال أبو حبيب : هل تعلم أنه منذ اشتغل بعد تخرجه وهو يقدم نصيبا من راتبه للجمعية حتى قبل أن يرحل إلى حي "أبو خروف" ويعتبر نفسه مدينا للجمعية ، مع أن الجمعية لا تتعامل مع الناس بهذا المنطق ؛ لأنها جمعية خيرية تقدم ولا تطالب من أنفقت عليه إعادة المبلغ .. فالشاب نفسه طيبة وكريم ، ولا يحاول تجاهل فقره .. صدق سأفكر جيدا في الموضوع وسأحسم الأمر عاجلا .. فأنا لست متعصبا للزواج من أبناء العائلة كما تعلم .. لقد زوجت بناتي من خارج الأسرة الكبيرة .

قال طلال مشجعا لأبي حبيب : وأنا من أجل ذلك تشجعت وتحدثت معك .. وأنت عرفتك تحب الشفقة والعطف على الشباب والضعفاء .. والرجل راغب بالزواج من بنت عائلات محترمة تحب الخير .. لا يريد نكاح من بنات أقارب أبيه أو جده وأصحابهم .. وطلب من جده عدم التدخل في زواجه .. وسيفرج عن أبيه قريبا بعد حبس عشرين سنة في قضية شروع في القتل أو محاولة قتل وسطو .. فالشاب يريد أن يكون بعيدا عن أبيه قدر الإمكان ..والبقاء قربهم من أجل أمه التي شقيت بسببهم الزوج والابن والأب

– أعرف الكثير عن قصة تلك العائلة .. فلذلك أقدر شجاعة وإرادة هذا الشاب .. فقد سمعت بها من زملاء لنا في فرع الجمعية في حيهم السابق.. وهذا ما يزعج .. العرق دساس .. لكن واجبنا أن نقف مع الشرفاء ، وأن نعينهم على الزواج كما أنها أي الجمعية كانت

تساعدهم بالمال ونجحوا وصاروا .. فقيس من مفاخر الجمعية يا طلال .. فيضرب به المثل في حفلاتنا وخطبنا .. فهو نموذج حي لنجاح شاب في بيئة ضالة ومنحرفة ..كيف استطاع أن يكون إنسانا صالحا في وسط فاسد يشجع على الفساد ؟.. هذا أمر عظيم

– كلام مشجع هذا يا أبا حبيب فكر كما تشاء ..وأرجوك ألا تتأخر بالرد لأن الشاب راغب بالخطبة قبل خروج الوالد حتى لا يصطدمان .. فهو منذ شب وهو يعيش دون أب .. ويريد البقاء قريبا من أمه التي تعيش بين ثلاثة عصاة أب وزوج وابن

قال أبو حبيب برقة ورنة حزن : فعلا أمه مسكينة !وجاهدت ، وقد كانت تعمل خياطة للنساء في بيتها لتعيش مع مساعدة الجمعية لهم .. ولما تخرج تركت العمل الخاص ..والشاب بار بها خير البر .. قصته معروفة لأعضاء الجمعية يا طلال توكل على الله غداً سيكون الرد عندك أي ساعة تكون في البيت ؟

– قبل العصر وأنت تعرف رقم البيت والمدرسة .. أسأل الله أن يفتح عليك .. وإذا اخترت الرفض فساعدني في البحث عن فتاة تليق بصديقي قيس

– ابشر أيها الصديق هل تزوج والدك ؟ سمعت أنه يريد الزواج

– طلق أمي دون علمنا ، ثم أعادها بعد علمنا ..وقد يتزوج ؛ لأنه هدد إذا لم يتزوج عليها سيطلقها غيابا كما فعل

– كونوا معه خشية أن يتزوج خفية .. لقد طلب مني المساعدة .. وأنا أخشى التدخل بينكم

قضى أبو حبيب ساعات في مكتبه المنزلي ، يفكر بقيس وطلال وضحى ابنته ، فهو لم يتعرض لمثل هذا الأحراج أو الموقف في حياته كلها ، هو صحيح أنه رجل يحب العمل الخيري ، وينشط في جمع التبرعات لجمعية البر ، وينشط في اللجان الشعبية في الأحياء ؛ لمساعدة العائلات المستورة ، ويساعد في حل قضايا اجتماعية ، ومنع طلاقات بين أزواج ، وحل منازعات ومشاجرات بين أسر في عدة أحياء بصفته أستاذ في مدرسة ثانوية كائنة في حي النجمة جنوب "أبو خروف" ، وعضو جمعية البر لرعاية الفقراء والأيتام ، ويلم تبرعات من

المحلات والمتاجر في عدد من أحياء المدينة ، وعمل في النادي الاجتماعي لمخيم عودة الأمل القريب من "أبو خروف" ، ولهم نشاط لمعاونة فقراء المخيم ، وتسلم فترة النشاط الثقافي في النادي المذكور .. والتقى بأعداد من المنحرفين سواء شاربي الخمر أم الزناة والحرامية ، وسعى لمعالجتهم ، ومعاونتهم على التوبة .. أما أن يزوج فلذة كبده لابن حرامي وحفيد حرامي وشقيق حرامي فهذه أول قضية تعصف به .. وقال لنفسه : لو تكلم معي طلال قبل مفاتحة قيس لربما هان الخطب .. وطلبت منه أن ينسى الأمر .. فهو له جولات في دعوة المنحرفين للتوبة والعودة لحظيرة الدين .. وقيس شاب سوي متعلم .. وذلك منذ نعومة أظفاره .. وهو ابن المساجد ..وهو من النماذج الحية الجميلة ممن أعانتهم الجمعية وفلحوا

دخلت روحية أم حبيب بالقهوة عليه ، وقالت بعد التحية وسكب القهوة: طال مكثك هنا .. ومنذ دخلت البيت ..وأنت مشغول الفكر هل من شيء يزعج حضرتك ؟

نظر في عينها للحظات وقال بعمق : أمر بامتحان يا أم حبيب

– امتحان ؟!!

– نعم ؛ ربما أصعب امتحان في حياتي رغم بساطته ؛ ولكنه جعلني في حيرة . وقص عليها حكاية طلال وقيس ثم ختم الكلام : لماذا اختارنا طلال نحن بالذات؟! وهو يزعم أن قيسا لا يعرف الفتاة البتة ، وإنما كان اختياره هو لنا .. والشاب لا كلام عليه حسب معلوماتي .. أما والده فمجرم عتيد يقضي عقوبة طويلة في السجن أوشكت على النهاية .. وشقيقه قد يخرج في صيف هذا العام .. ووالد أمه لص قتله السقم .. ولكن الأم أم صابرة .. وكافحت من أجلهم ومن أجل نجاة قيس

– أنا تحدثت معي أم محمد على الهاتف بحكاية هذا الشاب .. ومثلك استغربت اختيارهم لنا أو لابنتنا دون سائر البنات

– ما سبب اختيار ضحى ؟!

– لم تفصح عن شيء واضح سوى أن طلالا تحدث عن الشاب لها

- هل تكلمت معهم ضحى بشيء؟

- لا أعتقد ذلك فأم محمد متزوجة ، ولها أولاد .. وضحى صغيرة عن أم محمد .. علاقة أقارب بيننا، وعلاقة عابرة ، ونلتقي بها في المناسبات

- وهذا الذي يحيرني لماذا يهتم طلال بزواج ابنتنا .. أنا أحيانا عندما أصلي في مسجد "أبو خروف" أسلم عليه وأصافحه .. ووالده صديقي أكثر منه ، وطلب مني أنا أن أساعده في الزواج مرة أخرى .. أرملة مطلقة المهم أن يتزوج

وبعد صمت بينهما قال : هل تقبل البنت بشاب مثله ؟

- أم محمد فاتحت ضحى بالموضوع ، وذكرت لها حكاية أهله وضلالهم ، وضحى تركت الأمر لنا

- هذا الزواج عجيب وغريب أللبنت رأي فيه؟ بعد أن علمت من هم أهله

- لقد كانت أم محمد صريحة معها كما فهمت من ضحى

- الأولاد هل يعترضون ؟

- لم أتحدث معهم ؛ لأن المرأة قالت : إن طلالا سيتحدث إليك ، ومن كلامك يبدو أنه تحادث معك

- عرض الأمر ، ومنذ عدت للبيت وأنا مشغول في هذه القضية .. أنا في حيرة .. الشاب جيد ، بل ممتاز ..لا غبار عليه ويتاجر به ؛ لكن أسرته ما عدا أمه كلهم أشرار

- أليس سيعيش بعيدا عنهم ؟

- أكيد فهمت من طلال أنه لم ير أباه منذ زمن بسب سجنه بسبب احترافه السرقة واللصوصية .. يتواصل معه بالتلفون ..ولا يريد أن يصطدم به بعد خروجه ، ولولا وجود أمه ورعايتها لأبيها لهجرهم .. فيريد أن ينكح فتاة صالحة ويعيش معها في بيت مستقل .. فهو لا يستطيع التخلي عن مسؤولياته اتجاههم .. فجده مريض ، ويأمل أن يعقل والده بعد خروجه من محبسه

قالت بعد صمت أبي حبيب : معك حق الموقف يجلب الحيرة !

- إذن دعيني أفكر وأوازن يا أم حبيب .. وعودي إليّ بعد ساعة .. سأقوم للصلاة ؛ لعل الله يلهمني الصواب وحسن الاختيار .. قلبي متعاطف مع الشاب وراغب أن أتاجر فيه .. والرجل يسعى للزواج من فتاة صالحة آملا بذرية طيبة صالحة .. فعلينا أن نكون معه .. وقد وضعنا في هذا الابتلاء .. دعيني أصلي يا أم حبيب

لما قضى أبو حبيب ركعات من قيام الليل جاءته أم حبيب وجلست قبالته وقالت : عساك وصلت لحل مقبول ؟

- عليك بجمع العائلة ليلة الغد بعد صلاة العشاء .. سنطرح الموضوع على الأولاد ونتشاور .. والآن أبعثي لي ضحى لأتناقش وإياها .. من حيث المبدأ لا مانع من زواجها من المهندس قيس صقر

أقبلت ضحى التي ما زالت ساهرة قلقة ، وهي تعلم أن والدها مشغول بخطبتها وزواجها ، وتحدث معها مباشرة بدون لف ودوران ، ولما صمت قالت : أي فتاة تحب أن تكون زوجة .. وأنا من حيث مواصفات الشاب فهو صاحب دين وخلق .. وقد تركت الأمر النهائي لك ولأمي .. ما تريانه مناسبا سأقبل به .. فسمعة العائلة وشرف العائلة هذا يعود لكم

شكرها والدها ـ وابنته متعلمة ومتخرجة من الجامعة من بضعة شهور ـ وتحدث عن الحياة والظروف والبيئات ، وأن الإنسان يسر بعائلة سمعتها طيبة وشريفة .. ولابد من إعطاء الشباب الذي يعيش في مجتمع فاسد منحرف فرصة ؛ ليعود للمجتمع الصالح وتصحيح المسار وتابع الكلام : وأنا عرفت قيسا من دون اختلاط به لعلاقتي القوية بالجمعية الخيرية وتردد اسمه بين الحين والآخر بين أفراد وأعضاء الجمعية .. فأنا لا مانع لدي على شخصه وهو قوي الشخصية وشجاع .. وهو حسن الأخلاق .. وزكاه طلال خير تزكية .. وهو من أهل الدين ، وكما قال الحسن البصري للذي طلب منه أن يصف له لمن ينكح ابنته ، فأمره أن يزوجها لأهل الدين ؛ لأنه لا يظلمها إذا أبغضها .. والرجل يسعى لحياة فضلى ومجتمع صالح

.. فغدا سأجتمع بأخوتك بعد صلاة العشاء ..ونرى وجهات نظرهم واعتراضاتهم ..فأنت موافقة من حيث المبدأ

- أنا تحدثت معي كما قلت لأمي أم محمد زوجة طلال .. وشرحت لي الموقف .. وقلت لها القرار الفصل عند أبي ..وأنا شخصيا لا أعرف الرجل ، لم نتقابل ولو صدفة ..ولا حتى أم محمد رأته رغم صداقته لطلال .. إنما هم رفاق مسجد .. فالشاب يسكن في "أبو خروف" من شهر واحد .. وإنما طلال حسب كلام أم محمد راغب بتزويجه وإخراجه من اليأس من الزواج من بنت عائلات .. ومن كلامهم ما فيه ما يعيب خلقا ودينا

وشرح لها الرجل ما يعرفه عن قيس وأمه الصابرة مع زوج مجرم وابن سارق وأب لها مريض وحرامي .. وقال : فلما يخرج من هكذا عائلة إنسان صالح فهو يستحق الدعم والوقوف معه

اتصل أبو حبيب أثناء استراحة الطلاب المدرسية بمدرسة طلال ، وطلب منه اللقاء عصرا في مسجد "أبو خروف" ، ولما التقيا وتصافحا واطمأنا على صحة بعضهم ، قال : أخ طلال أنا أشكر لك اختيار ابنتي لصاحبك قيس لكن لما فتحت الموضوع لم أعرف سبب اختيارك لابنتي

- لقد ذكرت لك أنها خطرت في بالي عندما تذاكرت أنا وقيسا موضوع زواجه وسعيه للاقتران بفتاة محترمة وابنة عائلة كريمة فاضلة .. وكان معنا الأخ فريد كمال ابن أخت أم ريان ومن خلال الحديث تذكرت ابنتك .. لقد حدثتني أنت عن تخرجها من كلية الشريعة يوما وقلت أمامي "حان الآن وقت زواجها " فلما تحدثنا بذلك .. ذكرت كلامك اتفاقا يا أبا حبيب .. ولما سألت قريبتك أم محمد "هل تزوجت ابنة أبي حبيب" قالت" لم أسمع" فاتصلت أم محمد بالبنت ، ودعتها لزيارتها بحكم القرابة بينكم ، وتحدثت لها عن قيس وأنه يبحث عن فتاة متعلمة ومتدينة ، فقالت البنت يومها : لما يحدث شيء جدي أفكر .. فتحدثت مع قيس ، ثم تشجع الشاب لمسعاي أنا وأم محمد في تحقيق مراده ، وعادت أم محمد لمكاشفة كريمتك بجدية الشاب بالزواج ، ثم عرضت الأمر عليك ، ولا أنسى أنني أيضاً التقيت بأحد

أبنائك بعزاء قريب ، وسألته هل تزوجت ضحى ؟ فقال : لا ، تنتظر قدرها ونصيبها ..لا سبب خاص يا أبا حبيب لاختيار ابنتك .. والشاب لم ير الفتاة .. وهي لم تره

تنهد أبو حبيب وقال بفرح بين : الآن ارتحت.. على كل حال أنا والبنت من حيث المبدأ موافقون .. والليلة سأجتمع بالأولاد لمناقشة الطلب .. وأذكر لهم من هو قيس ؟ ومن هي أسرته ؟ حتى لا يلوموني على هذه المغامرة ..فالبنت كسائر الفتيات ترغب بالزواج .. فهذا زواج ومصاهرة .. والناس تفتخر بالمصاهرات والنسب.. وأنا قلت لك كشخصي لا مانع لديّ .. وفي زواج كهذا أيها الصديق لابد من مشاركة الجميع وسماع أي اعتراض حتى لا يقال لي غداً "رميت ابنتك في أسرة عصابة وحرامية .. ماذا يعني مهندسا وأهله كذا ؟! ماذا يعني متدينا وأنت تعرف عشرات من المتدينين في العائلة ؟ سيكون مثل هذا الهمس في العائلة والأقارب ، وسيكون لومهم قاسيا.. وإذا ـ لا سمح الله ـ فشل هذا الزواج ستتعرض للوم والكلام الجارح .. ففي المشاركة والمشاورة رفع للحرج والعتب الجارح

أثنى طلال على أبي حبيب فقال : بارك الله فيك ، وتصرفك تصرف حكيم وصاحب خبرة وتجربة .. وقد سمعنا مثل هذا الكلام الشامت في بعض الزيجات .. غداً ـ إن شاء الله ـ تنقل لي نتيجة الاجتماع .. فالشاب كلما طال الانتظار زاد قلقه .. فقد سعى لمحاولتين قبل هذه المحاولة ، وفشل فيهما بسبب سيرة عائلته .. ويبدو أن الإنسان عليه أن يتحمل تبعات وجرائم الأسرة ، ربما كل العائلة الكبيرة .. خاصة المجتمعات العربية والإسلامية ينظر الناس أن الجميع له دخل في الجريمة

- لأننا ما زلنا نتمسك بنظام العائلة والأسرة .. والفرد ابن الأسرة ، ليس ابن الدولة فقط .. فتجد الفرد منا يبتعد عن عيوب وتقاليد من أجل العشيرة والعائلة حتى لا يحرجها ويوصم بسمة دون العائلة ، فحتى بعض الأعمال يهجرها أفراد بسبب نظرة العائلة لها باحتقار واستخفاف.. فعندنا العمل في ملهى أو خمارة عمل سيء قبيح مرفوض .. وكذلك البغاء معرة لكل الأسرة مع أنه في نظر بعض الدول أمر مشروع وجائز في القانون الوضعي

عقد أبو حبيب اجتماعا عائليا ، وطرح فيه موضوع زواج ضحى أمامهم ، وسمع وجهات نظرهم ، ودافع الرجل عن مبادئه ، وأن على الإنسان أن يضحي في بعض الأحيان من أجل المبادئ المعتنقة ، وفعلا استطاع إقناع الأولاد بعد شرحه المفصل لقصة كفاح قيس ، وتصميمه على طلب العلم حتى تخرج من كلية الهندسة حاملا شهادة ، قد تجعله في موقع قيادي في المستقبل ، وكلمهم عن صبر أمه وعملها كخياطة لتصل به القمة ، وصبرها على المنحرفين وعدم انحرافها وضياعها في تلك البيئة .. وفي نهاية الجلسة اقتنع الأولاد أو أقنعوا أنفسهم بزواج أختهم من ابن رجل شرع في القتل ، ويقضي عقوبة طويلة بسبب ذلك ، وأسرة فاسدة ، وأعجبوا بقيس وجهاده وكفاحه في مثل تلك العائلة ونجاحه بعدم الانحراف والسقوط كشقيقه السجين أيضاً .. وبعد الاجتماع اتصل بطلال وأعلمه موافقة العائلة ، وعلى الفور اتصل طلال بصديقه قيس الذي كان علم بهذا الاجتماع منتظرا نتيجته ، ثم التقيا في شقة أم ذيب ، فرحبت الأم بطلال ، وبكت لما سمعت طلال يبارك لقيس الموافقة ، وبعد شرب الشاي أعلمها أنه سيمر عليها تصحبه أم محمد لتذهبا للتعرف على الفتاة وأمها وأخواتها ، ومن ثم يرتبون للقاء قيس بتلك الأسرة ؛ ليتم نظر العروسين لبعضهما البعض ؛ ليكون القبول النهائي ، مع أن كل الإمارات تدل على رضا الطرفين ؛ ولكن النظرة قد تغير الأمر فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للمغيرة بن شعبة " فَقَالَ : اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا " قال قيس معبرا عن سعادته : من ناحيتي أنا، أنا أقبل بها ما دامت ابنة أسرة طيبة ومتعلمة ، وما دامت اختيار رجل اجتماعي مثل طلال .. فهذه غاية السعادة .. وألم يقل محمد صلى الله عليه وسلم : اظفر بذات الدين تربت يداك ؟

تعرفت عجيبة على الفتاة وأمها واستراحت لهما قلبيا ، وهم أيضا طابت أنفسهم لهذه المرأة الصابرة على الابتلاء العجيب زوج وابن وأب ، كلهم لصوص ، ولم يجر بينهم ذكر الأب والزوج والابن السجين خشية الأحراج .. وفي مساء نفس اليوم عادت عجيبة بصحبة ابنها

قيس وطلال ، وجرى التعارف والمجاملات الطيبة ، ودخلت الفتاة الشابة بالقهوة كعادة الناس ، وتعرفت على رجل الغد ، وتحدثا ببعض العبارات الترحيبية .. وأين درس ؟ وأين درست ؟

وقال قيس : الحمد الذي تتم بنعمته الصالحات أنا يا سيدي يا أبا حبيب كما أخبرت الأخ طلالا أنا موافق ، وأقبل ابنتكم زوجة لي ، وأشرف بكم ، ويسعدني أن أعتبر هذا اليوم من أيام سعادتي .. والحمد لله الذي جعلنا أن نتعرف على بعض .. وجعلنا ننتقل إلى حي "أبو خروف" من أجل أن يتحقق هذا الزواج ـ إن شاء الله تعالى ـ وأنا ممنون لكم جداً .. وأترك الكلمة الفصل للآنسة ضحى بعدما تشرفنا برؤية بعضنا .. وأرجو أن أكون قد ظفرت بذات الدين حسب وصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

غادرت النساء الغرفة ، وبقي الرجال يتحدثون في أمور شتى ، وفي نهاية الجلسة تمنى أبو حبيب لقيس الثبات والفلاح في دنياه وآخرته ، ووعده أنه يكون رده قريبا ، فشكره طلال وقيس ، وغادروا البيت تغمرهم السعادة والفرح القاصر

كانت الخطبة عصر يوم الجمعة في ساحة بيت أبي حبيب ، ودعا قيس لخطبته بعض أقارب جده شوكة ، وبعض أقارب والده ، من يسكن القرية ، ومن يسكن المدينة ، واجتمعت الأسر في بيت أبي حبيب ، وحضر الحفل بعض زملاء قيس في الشركة ، وكتب العقد الشرعي كما هو العرف هذه الأيام على يد ما يسمونه المأذون ، وقدمت الحلوى والشراب للضيوف والمحتفلين ، ثم أخذ الناس يتفرقون ويعودون لبيوتهم ، وودع قيس ضيوفه وأقاربه الوداع اللائق بهم ، واتفق مع أسرة أبي حبيب أن يكون الزواج الشرعي بعد خروج الوالد من سجنه في شهر نيسان .. وسيبدأ قيس بالبحث عن شقة في حي "أبو خروف" ، ويشرع في تأثيثها ليكون الزواج بعد خروج والده بأيام .. وسيقابل حازم محمود مالك العمارة لاستئجار شقة فارغة في نفس العمارة حيث علم بوجود شقة فارغة فيها .. وودعهم شاكرا لهم ، فدعوا له بالتيسير والسداد ، ثم أخذه طلال وأمه بسيارته لبيته ، وجلسوا بعض الوقت في شقة أم ذيب

، وبارك طلال وأم محمد للجد شوكة زواج حفيده ، فشكر العجوز لهم جهدهم ، ثم انصرفوا وهم يشعرون بسعادة غامرة لما تحقق على أيديهم من الخير ، خاصة طلال ، ويرجون الله أن يكون زواجا مباركا

في الليلة التالية للخطبة وصل قيس للشقة ، ولما فتحت له والدته الباب قالت : عمك منصور مع جدك سلم عليه ، فقد جاء قبل دقائق ليبارك لك ولنا

دخلت أمه المطبخ لصنع القهوة أو الشاي للزائر ، ومشى قيس لحجرة الجد حيث نهض منصور معانقا له ومهنئا بالخطبة ـ فالرجل قضى مع أبيه تسع سنوات سجن ـ فدعا له بالتوفيق وبعدما عاد للجلوس وحيا قيس جده ، وجلس مرحباً بالرجل ، قال منصور : كنت أمس عند الوالد ، وكان عاتبا على عدم صبرك لهذه الشهور ليشارككم الفرحة

– لم أتزوج بعد يا عم منصور .. هي خطبة .. والزواج بعد خروج أبي بأسبوع ـ إن شاء ربي ـ وقد اتصلت به قبل الخطبة ، وبارك لي .. وظروف الزواج كانت دقيقة

– على كل حال ألف مبارك .. والزواج بعد خروج الوالد جيد .. فهذا

سيسر أباك ؛ لأنه كما أخبرني سيكون الإفراج في نصف نيسان القادم .. السجن عذاب رغم أنه أكل وشرب ونوم

قال قيس غامزا : ألستم أنتم الجناة على أنفسكم ؟! .. فباب التوبة يملأ الأفق .. وهو ما بين المشرق والمغرب .. لا يغلق إلا في آخر الزمان

– يا ولدي من تعود على شيء حتى ولو كان سيئا يصعب عليه البعد عنه .. غلبتنا العادة .. كيف سأعمل أجيرا بعد كل هذه السنوات ، وبعد هذه السن

– اعمل سائقا على خط تكسي أو سائق تكسي أجرة متجول في أنحاء المدينة

– ألا يتحكم صاحب السيارة بك ؟

– سيارتك أنت تملك سيارة

– ومن أين آتي بثمنها ؟

- اقترض

- ومن يسلفني ثمن سيارة ؟!

- اعمل بالأجرة ، واجمع ثمن سيارة ..واشتغل عليها حر نفسك .. اسمع يا أبا خالد .. الحلال دربه كثير وواسع .. أهل الشر قلة بالنسبة للأخيار .. الضعف البشري موجود لدى كل البشر .. وكل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون

أحضرت أم ذيب الشاي والفاكهة والمكسرات ووضعتها على منضدة في حجرة الجد ، وجلست تسكب الشاي للجميع ، وتدعو الجميع لشربه وأكل الفاكهة والمكسرات ، وبارك لها منصور خطبة قيس ، وقال : ما دام العرس بعد خروج الوالد فهذا سيسعد أبا ذيب عن حفلة الخطبة

قالت : كانت حفلة صغيرة في منزل أبي حبيب .. إنهم أناس محترمون جزاهم الله خيرا .. لقد أفرحونا بقبولهم لقيس لابنتهم ، والتفتت لقيس كأنها تذكرت شيئا فقالت : ماذا فعلت مع السيد حازم ؟ هل استأجرت الشقة ؟ في الطابق الأول شقة فارغة لو سكنها قيس سنبقى متجاورين

ابتسم قيس وقال : للأسف يا أمي الحجرة أو الشقة استأجرها رجل مقعد .. وسينزل فيها مطلع الشهر القادم أول نيسان ؛ ولكن عند أبي حازم عمارة أخرى في الجزء الشرقي من الحي فيها شقة ستفرغ خلال أيام .. ولما تجهز سيتصل بي لإجراء الصيانة وتجديد الدهان

- المهم أنها في "أبو خروف" .. سهل الله الأمر

فرغت شقة لحازم محمود في عمارته الثانية شارع القمر ،واتصل بقيس الذي ذهب إليها وتفقدها ، وشرع في صيانتها بمساعدة طلال وفريد ، فأعيدت صيانة المراحيض والمطبخ والأبواب والكهرباء والمغاسل ، وقام فريد بدهانها كهدية لقيس ، ووفر له قيس مواد الصيانة والطلاء ، وقام قيس بتقديم هدية دراجة لابنه الصغير ، وتدخل طلال فقبلها فريد ، وجاءت العروس وأمها وبعض أخواتها وشاهدن الشقة ، وأخذ الشاب بشراء الأثاث اللازم

الخروج من السجن

ذهب منصور والسائق صبحي وعجيبة إلى السجن لإحضار صقر المفرج عنه هذا النهار من نيسان .. فقد قضى سنوات في السجن بسبب عدة سرقات وبسبب إطلاق النار من مسدس على أحد حراس الشركة التي أراد سرقة خزنتها ، وقد أصيب الحارس بعيار ناري أدى إلى إصابته بشلل دائم .. وقبل الظهر بوقت يسير تم الإفراج عنه .. وكان يصحبه منصور عندما خرج من بوابة السجن ، وعانق زوجته ، وعانق صبحيا سائق عجيبة من سنوات ..وركب منصور بجوار السائق ، وصقر بجوار عجيبة وقال : سنذهب إلى سجن ذيب ..إني بشوق له يا صبحي .. لي سنة ونصف لم أره .

توجه صبحي إلى البلدة التي يقع فيها سجن ذيب ، فهو يعرف المكان خير المعرفة ، وأثناء الطريق نزلوا واشتروا طعاما للذيب بعد أن تناولوا غداءهم ، واشترى له علبا من الدخان والعصير ، ثم ساروا إلى ذلك السجن ، فوصلوا إليه بعد ساعتين ، وافق ضابط السجن على زيارتهم ، وسمح لهم بمقابلة ذيب الذي جاء بدوره ، وعانق والده وأمه ومنصورا وحتى السائق صبحيا ، وبارك لأبيه الإفراج ، مما دفع أمه للقول: عقبال عندك يا ذيب

وبعد الكلام والأخبار قال : قيس سيتزوج .. وجدتم عروسا أخيرا

قالت : عقبال عندك يا ذيب

- أنا لا أحب النساء ولا الزواج

ضحك منصور فالتفت إليه الشاب وسأل : مالك تضحك ؟!

قال منصور ضاحكا: على عدم حبك النساء ؛ كأنك نسيت ليلة القبض عليك في دار دعارة !

- كانت آخر مرة ، وبعدها تخلصت من شرورهن

- إن شاء الله يا سيدي

قال صقر : ستخرج قريبا في آخر الصيف تقول أمك . وناوله الطعام والعصير

والدخان وانتهت الزيارة ، فحملهم صبحي لحي "أبو خروف" ، ولما نزلوا من السيارة ، ونزّل صقر أغراضه التي أخذها من السجن ، ووقفوا أمام مدخل العمارة ، ومنصور يودعهم بعد انصراف صبحي قائلا : سأمر عليك غداً أو بعد غد عندما تستريح من تعب السجن

– أنا في انتظارك

تقدمت عجيبة نحو مدخل العمارة ، وكان يسد الباب رجل مقعد على عربة المرضى ، عرفت أنه المستأجر الجديد ، فأفسح لها سائق العربة الطريق لتدخل ، وقبل أن يدخل صقر خلف امرأته ، كان المقعد يطلق عليه الرصاص من مسدس أشهره أو كان معدا له لهذه اللحظة ، وهو يقول مبتهجا : آهذا صقر ؟ آهذا صقر ؟!

رد عليه سائقه : نعم يا أبي ، نعم يا أبي

صاح صقر وهو يسقط أرضا ، وصاحت عجيبة ، وقال الرجل : أنا حارس الشركة يا صقر الذي انتظرك كل هذه السنوات .. أنت محبوس في سجنك الكبير .. وأنا محبوس على هذا الكرسي مشلول .. مت قرير العين . ورماه بما تبقى من رصاص في مسدسه

التم الناس كالعادة على صوت الرصاص ، وعلى صراخ المرأة ، وعويل صقر ، وحضرت سيارة الصحة والشرطة ، ونقل المصاب للمستشفى ، والقاتل لقسم الأمن أو نقطة الشرطة

وفي أول الليل جاء نبأ موت صقر في المستشفى ، وكانت عجيبة تبكي زوجها بعد عودتها للبيت ، وأبوها يقول : مات الفارس يا عجيبة ! مات قبل أن يفرح بخروجه من السجن.. قبل أن يفرح بزواج ابنه .. وهذا العدو الذي لم يحسب له أحد حسابا

جاء قيس أيضاً وقال : إنا لله وإنا اليهم راجعون .. اللهم أجرنا في مصيبتنا وأخلف لنا خيرا منها .. عليك بالصبر يا أمي .. علينا بالصبر .. فالقاتل بين يدي الشرطة

شيع أهالي "أبو خروف" جثمان صقر والد قيس الشاب الطيب الذي أحبوه في مدة قصيرة ، والذي جاورهم منذ عهد قريب ، وشاركوه العزاء بأبيه ، وبعد أيام ثلاثة انتهى العزاء .. وكان قيس يقول : قابلت قاتل أبي ، فقال : أنا فعلت ذلك بعد ثماني عشرة سنة قضيتها محبوسا

في جلدي وعجلتي .. وسأقضي حياتي كلها في السجن إن لم أعدم ؛ لكني ارتحت بأخذ ثأري ، وأنا مستعد لحكم الإعدام .. لقد دمر والدك حياتي .. فصمت لم أرد عليه وماذا أقول ؟ ! علينا بالصبر لقدر الله وقضائه يا أمي .. وأنا سأسامح بحقي ودم أبي ؛ لعل الرجل يتوب ولا يحكم عليه بالإعدام

فهاج شوكة سخطا وقال : عار أن تفعل ذلك .. يقتل أبوك وتعفو عنه .. هذا جبن وضعف .. لن نقبل بذلك

– وماذا نستفيد من إعدامه ؟ .. فله سنوات يعيش في سجنه أليس الشلل حبسا ؟.. وليقضي ما تبقى من عمره محبوسا في جلده يا جدي

ولما ذهب الأسبوع على وفاة صقر أخبر قيس أمه برغبته بإتمام الزواج ، وأن الحزن والحداد لا يعيدان الميت ، وأن كلام الناس لا يهمه ، وحاولت الأم والجد منعه من فعل الزواج ، فقال : لماذا نؤخر الزواج لبعد الأربعين ؟ أو السنة ؟ أهذا من الدين ؟ أرجو أن يقبل أبو حبيب بكلامي فقط .. شاورت طلالا وفريدا بذلك . فقال طلال : هذا عين الصواب .. لا حداد في الإسلام .. المرأة تحد على الأخ والابن والأب والقريب ثلاثة أيام فقط .. والزوج أربعة أشهر وعشرا

قالت : كيف ستتزوج وأنا أرملة ؟

ابتسم قيس وقال : يا أمي أنت أرملة منذ ولدتني

قال شوكة: أنت يا قيس لا تحب أباك

– وما دخل الحب لأبي في الزواج يا جد شوكة .. أبي ـ رحمه الله ـ نسأل الله تعالى أن يغفر له ذنبه .. على كل حال الفصل عند العم أبي حبيب يا أمي .. لن يكون هنالك حفل غناء ورقص سيكون زفافا شرعيا ؛ وربما ينشد بعض المنشدين أو المنشدات أناشيد دينية عند العروس كما قال طلال .. سيكون حفلا بسيطا إذا قبل أبو حبيب

قالت بتجهم : أنت أدرى بحالك يا ولدي

مشى قيس لوالد خطيبته وحدثه بأفكاره ، فقال الرجل : ألا تخشى كلام الناس؟!

– وماذا يفيد كلام الناس يا عم ؟! هل الحداد الشهور والأيام من الإسلام ؟

– أمك ؟

– أمي كما تعلم مسكينة ، الذي يحز في نفسها أنها لن تفرح الفرح الكامل .. وهل بعد الأربعين ستفرح .. قالت : أنت أدرى بحالك

– وهذه شجاعة أخرى فيك يا قيس

– هل نحن نعمل أمرا حراما ؟ .. لقد حضرت مرة دفنا وزواجا في نفس الوقت.. جدة العريس ماتت ، ودفنت يوم عرس العريس .. فكان طعام العرس طعام الميتة

– أنا فخور بك يا قيس يا ولدي .. رحم الله والدك ، وغفر الله له

ـ الأمر لك يا عمي

ـ اللهم الهمنا الصواب .

تمت الحكاية الخامسة

كانت الصحراء مسقط رأسهم ثم تبين لهم أن

أسرتهم من المدينة

وأن أباهم تزوج أمهم خفية عن والديه

فكيف سيعودون للعائلة ويعترف بهم الجد

أحفادا بعد الغموض الذي اكتنف وجودهم

كل تلك السنوات في جوف الصحراء ؟

لكن هذا ما حدث لهم .. هذا ما ستعرفه

في هذه الحكاية الجديدة من حكايات أبو

خروف

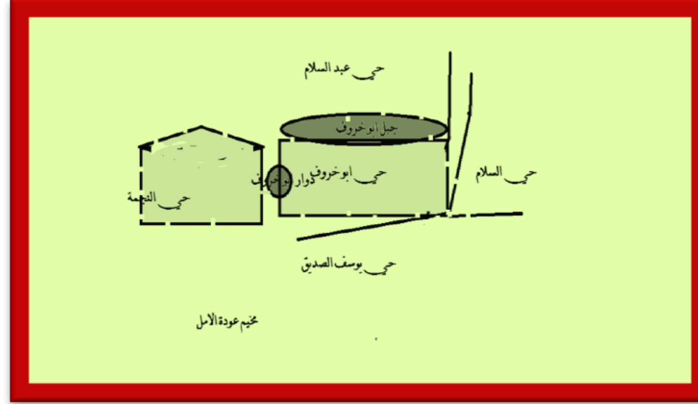
١٩٧٥

زواج في الصحراء

"منذ زمن بعيد وأنا أعيش في "أبو خروف" "

بهذه العبارة بدأنا الحاج محمود حسن من أهالي "أبو خروف" يقص علينا حكاية "أبو خروف" فقال : منذ وجد وله نفس المكان ونفس المساحة تطور تحدث كسائر المدن والأحياء والأرياف ، هذه الشوارع تزفتت لما دخلت السيارات المدينة .. البيوت المطلة على الشارع تحدثت وجددت كلها مع الوقت ، وارتفعت البنايات إلى عنان السماء ..ودخلت المجاري الصرف الصحي للحي واختفت الحفر الامتصاصية القديمة في "أبو خروف" ؛ لكن البناء تغير وصعد للأعلى وزفتت الشوارع التي تفصل بين العمارات ، وأصبح من أحياء العاصمة بيت السلام ، وما زال محافظا على الطابع الشعبي القديم ، ودخل هذا الجبل الذي خلفنا في الحي ، وهو أحدث شيء في "أبو خروف" ، وبدأ يصله العمران وهو يفصل بين "أبو خروف" وحي عبد السلام ، ونحن نقع بين حي السلام وحي النجمة بعد الدوار يقال إن حي النجمة قديما كان جزءا من "أبو خروف"؛ ولكن لما دخل نظام البلديات والتقسيم أصبح "أبو خروف" من الشمال الشارع القوسي الذي يفصلنا عن حي يوسف الصديق الذي يمتد للمخيم مخيم عودة الأمل ، وبعضهم يختصره ويقول مخيم الأمل ، وآخرون العودة ، وبعد الدوار يبدأ حي النجمة ، ثم الأحياء الأخرى حتى قلب المدينة نقول وسط البلد ، وهذا الشارع العام يقسم الحي جزئين رئيسيين شرق وغرب ، فالقسم الغربي سبعة شوارع صغيرة والشرقي نحوه ، وباتت المحلات تملأ الشارع الرئيسي من الجهتين ، فالمدينة تكبر يوما بعد يوم ، دخلت المياه البيوت والشقق ، وكذلك الكهرباء والصرف الصحي وخدمة الهاتف والنظافة، أدركت في الخمسينات أن الناس هم يعتنون بنظافة الأحياء ويحرقونها بين الفترة والأخرى ، اليوم هناك سيارات تنقلها لاماكن خاصة تابعة لبلدية العاصمة ، بدأنا نقارن أنفسنا بدول العالم الكبرى ، بدأنا نستخدم الغاز المنزلي بدون خوف ونتخلى عن البريموس الكروسين [بابور الكاز أو الجاز] ، ومصباح الزجاج أو الزيت

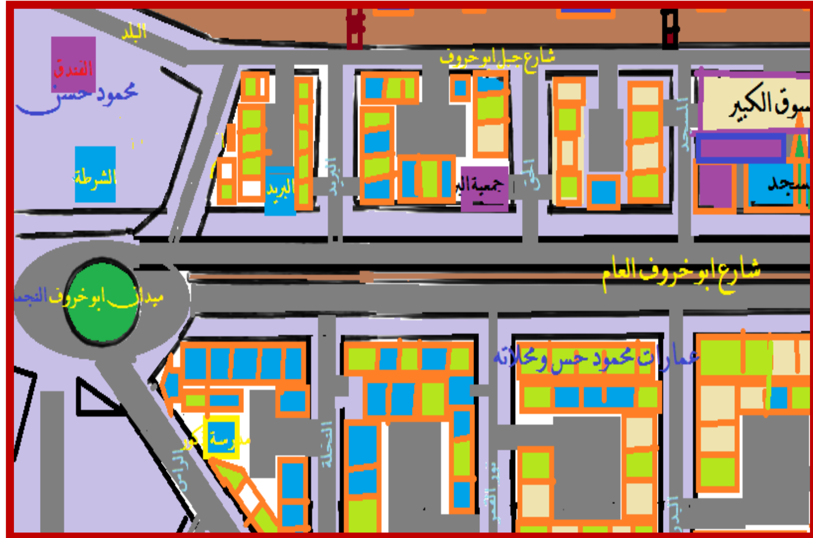
ودخلت التليفزيونات بيوتنا بعد الراديو الكبير الذي كان مثل التلفزيون منذ سنوات قليلة ، عرفنا الثلاجة والسخان الكهربائي ..



أنا هاجرت إلى هذا الحي قديما ولدت في يافا مدينة على الساحل الفلسطيني ، كان والدي جنديا عثمانيا ولدت قبل الحرب الكونية الأولى لما اندحرت تركيا في الحرب تركنا يافا مع الجيش العثماني ، وأثناء الحرب كما هو معروف انشق العرب عن الدولة العثمانية ؛ ولكن الإنجليز والفرنسيين غدروا بالعرب وتقاسموا بلاد الشام والعراق ، وتخلى والدي عن الجيش التركي بعد الهزيمة وسقوط الدولة العثمانية ، والتحق بالجيش الفيصلي بسوريا ، وبعد ميسلون {١} انتهى الجيش العربي ، وأسس جيشا عربيا في الأردن.

{١} معركة ميسلون ، هي معركة قامت بين قوات المتطوعين السوريين بقيادة وزير الحربية يوسف العظمة من جهة، والجيش الفرنسي، بقيادة هنري غورو من جهة أخرى في ٢٤ يوليو/ تموز ١٩٢٠ كان جيش المتطوعين الذي قوامه ٣٠٠٠ مقاتل بمواجهة الجيش كان يقوده غورو الذي كان عدده ٩٠٠٠ جندي ومزود بطائرات ودبابات ومدافع وإمدادات وقدر عدد شهداء قوات المتطوعين السوريين ب ٤٠٠ شهيد و ١٠٠٠ جريح أما عدد قتلى الجيش الفرنسي ٤٢ قتيل و ١٥٤ جريح وخاض معركة ميسلون ثلة من علماء دمشق .

استقر أبي وأعمامي في سوريا الشام ، وجدي ظل في تركيا ، ولما نضجت عدت للعمل في يافا حيث كان لنا فيها أملاك تركها أبي وبيت ، وكانت لي عمة وزوجها ،وبعد بروز الجيش العربي الأردني لحقت به ، وكان الانتداب الانجليزي مستقرا على فلسطين والأردن والعراق ، وأثناء خدمتي العسكرية عرفت "أبو خروف" ولما بدأت تتضح المؤامرة الانجليزية الصهيونية على فلسطين وبلاد العرب اشتريت بيتا في "أبو خروف" وتزوجت فيه ، وفي مطلع الخمسينات تقاعدت من الجيش على أثر إصابة صعبة ، لكن ربك لطف وتعافيت منها وعملت بالتجارة والعمار ..



وبعد لحظات صمت تابع الحاج محمود حسن سيرة حياته :فأنا اليوم أملك بفضل الله عددا من العمارات ، بعضها في هذا الحي ، ومتجرا كبيرا يعمل فيه ابني الأوسط حسين ولنا فندق شعبي في أول "أبو خروف" من جهة ميدان "أبو خروف" .. جئنا للحي بما نملك من مال وثروة ورثت بعضها عن أبي الذي ورث الكثير عن جده الذي مات في أنطاكيا جنوب تركيا اليوم ، وانتشرت العائلة في عدد من البلدان بعد انقسام بلاد الترك إلى دول شتى كما ترون اليوم .. ابني الكبير حسن أرسلته لمصر يتعلم الطب ، وتخرج طبيبا وعمل في القدس ويافا قبل نكبة فلسطين ، وتزوج ابنة أخي محمد ، وكانت الأحداث تزداد سخونة في فلسطين مع قرب

انتهاء الانتداب البريطاني بعد الحرب الكونية الثانية ؛ فكان يذهب لمعالجة المصابين في المظاهرات والاحتجاجات في يافا ، فكان يذهب مع فرق الإسعاف وأصيب ، وبعد أيام فارقت روحه الجسد ودفن في بيت المقدس ، وجاءت زوجته الحامل لتعيش معنا في "أبو خروف" ، وبعد حين ولدت طفلة سميناها دلالا ، وكانت ابنة أخي الأكبر محمد صغيرة لما ترملت دون العشرين سنة ، فلابد لها أن تتزوج أو العودة لأبيها في حلب سوريا حيث يعيش أخي وعياله ، فكان أن فكرت بتزويجها لتحسين ابني الثالث ، فحسين الأصغر من ولدي المقتول في يافا كان متزوجا ويعمل مدرسا في مدارس فلسطين الحديثة جنوب فلسطين ، فوقع الاختيار على تحسين للزواج من أرملة أخيه وابنة عمه وأم ابنة أخيه الطفلة دلال ، وتحسين ترك المدرسة وتعلم مهنة تصليح السيارات خاصة الشاحنات الكبيرة التي تعمل في الغالب على الخطوط الدولية ، فهو ميكانيكي سيارات ، وكان يعمل في محطة تصليح على الخط الصحراوي الذي يربط الأردن وسوريا ولبنان بالعراق ودول الخليج العربي ، فكان يقضي الأسبوع هناك ويعود في نهاية الأسبوع ليلة الجمعة ويغادر ظهر السبت ، وأحيانا كل أسبوعين يأتي ليلة أو ليلتين وتعودنا على ذلك كالذي يخدم في العسكرية والجندية ، وقضى خمس سنوات ، وسبب عمله في الصحراء التقى برجل ـ وهو يبحث عن عمل ـ يعمل في تلك الصحراء في تصليح السيارات الكبيرة ، وارتاح للعمل معه ، ونحن لا نعرف عنه إلا أنه يعمل في ذلك المكان البعيد على ذلك الخط الدولي ، وكان يترك بعض المال للادخار عند والدته ، ولما تزوج حسين قبل وفاة شقيقه أصبح الدور القادم لتحسين ، ومات حسن ، وبعد ولادة زوجته أخذت أفكر في أمرها وأمر صغرها وابنتها ، فوقع في قلبي تزويج تحسين منها فشاورت زوجتي أم حسن والبنت نفسها، وكذلك حسين عرضت عليه القضية ، ولاحظت أنه تردد قليلا واقتنع بوجهة نظري من الزواج من ابنة عمه أرملة أخيه ولتبق الفتاة الصغيرة معنا ، فهي من أثر حسن البكر ، وطلب التفكير وأن يكون الرد في السفرة القادمة ، ولما عاد بعد غيابه المعتاد قبل الزواج من أم دلال واتصلت بأخي فجاء وأسرته من سوريا ، وكان

زواج تحسين من ابنته لابني الحي الثاني ، وسكن في نفس شقة أم دلال في نفس العمارة التي اسكن فيها اليوم وقبل اليوم



تحسين محمود بط تعلم مهنة التصليح للسيارات وعمل فترة في فلسطين ورحل مع أبيه لأبي خروف وظل يبحث عن عمل ، وتيسير له ذلك على الخط الدولي الصحراوي حيث تكثر السيارات الكبيرة المتنقلة بين المدن والدول ، وأعجب وارتاح بالشغل في ذلك الطريق الطويل والقريب من صحراء العراق ، وكان العمل يدر عليه دخلا جيدا في فترة الخمسينات ، وكان يبيت ليلتين في "أبو خروف" من كل أسبوع ، وأحيانا يضطر للبقاء في محطة الصيانة لظروف العمل ، وتحمله سيارة ذاهبة إلى العاصمة أو أقرب مدينة إليها أو حافلة نقل ركاب تقف في المحطة للاستراحة حيث الطعام والراحة المتوفرة في المكان ، وطاب المكث للشاب في تلك الصحراء ، ربما يقطع الإنسان عشرات الكيلو مترات لا يرى فيها بشرا ، تزوج حسن الشقيق الأكبر وقبل موته تزوج الشقيق حسين ، وقبل أن يتزوج تحسين قتل حسن ، وحدثت النكبة الفلسطينية ١٩٤٨م ، وتشرد عدد كبير من الشعب العربي الفلسطيني ، ونشأ مخيم عودة الأمل شرق "أبو خروف"، وتابع تحسين عمله في الطريق الصحراوي الطويل رغم الأحداث والصراع الكبير بين العرب واليهود ، ولما خفت حدة الأحداث تزوج تحسين ابنة عمه أرملة شقيقه ، وقبل الشاب نكاحها بعد تردد يسير ، وسكن في شقة أخيه زوجا لنورا أم دلال ، وفي نهاية كل أسبوع يعود الرجل لهم كما اعتادوا ذلك من قبل ، وكان السيد محمود شرع في بناء عمارة جديدة بجوار عمارته التي يعيش فيها ، وكان قد أنشأ لنفسه دكانا في العمارة الأولى ، فأصبح له عمارتان على الشارع الرئيس لأبو خروف ، وفيما بعد أنشأ العمارة الثالثة فأصبحت المسافة بين شارعي البدر ونور القمر ملكه جهة الشارع العام ، وأصبح الطابق الأرضي

محلات تجارية للحاج محمود بط ، ثم انشأ عمارة رابعة مطلة على شارع نور القمر في نفس الموقع ، واشترى في أول "أبو خروف" حيث الدوار وشارع السلام فندقا قديما أعاد بنائه ، وظل فندقا شعبيا ، وهو قريب من نقطة شرطة "أبو خروف" كان يحسب من كبار الملاك في "أبو خروف" والأحياء القريبة ، وبنى حسين عمارة لنفسه في آخر شارع نور القمر فالسيد ميسور الحال ، واستطاع استثمار ماله في البناء والعقار ، ومع تطور الحي أقام تحت عمارته الأولى محلا تجاريا ضخما يعمل به حسين بعد تقاعده وتشاركه فيه مع أبيه .

بعد تفكير يسير قبل ـ كما ذكرنا ـ تحسين الاقتران بنورا واستقر تحسين في شقة نورا المجاورة لشقة الوالد ، وكان حسين المدرس أيضاً تلك الأيام ـ أيام زواج تحسين ـ يسكن في الشقة الثالثة في الطابق الثاني ، ثم رحل فيما بعد عندما قام ببناء عمارة لحسابه الخاص في نفس الحي وفي أخر المربع الذي يعيش فيه والده محمود ، رغم أن الحاج محمود شيد بنايات أخرى ظل يحن للعيش في أول عمارة أقامها ، ثم أضاف إليها طابقا ثالثا ، ذكرنا أن الرجل ورث مالا عن أبيه الذي مات في تركيا ، وورث عن ابنه القتيل الشهيد في أحداث يافا ، وتقاعد الرجل من الجيش بسبب حادث ، فنشط في العمران ، وزوج الأولاد وأغلب البنات في تلك الفترة ، وباع بيت حسن في مدينة القدس ، وأعطى نورا حصتها ، ووضعت حصة دلال تحت حماية القانون والأيتام ، وأخذ حصته وحصة زوجته خديجة عيسى .

فكان السيد تحسين يقضي خمس ليال في عمله في الطريق الصحراوي وليلتين في بيت الزوجية في "أبو خروف" ، شجعه والده وأمه لفتح محل تصليح في وسط المدينة أو في "أبو خروف" فقد بدأت تظهر الورشات وتكثر السيارات في المدينة ؛ لكنه أبى وتابع المسير في تلك الأماكن ، ولدت له نورا كل سنة ونصف مولودا ، فخلال سنين أنجبت له ثلاث بنات وطفلا ذكرا سماه محمودا على اسم والده ، وكان يقضي الشاب أيام الأعياد والمناسبات في الحي ، وكان والده في أول الزواج يكرر ويلح عليه العمل في المدينة ، فيصر على البقاء في تلك المحطة الهامة لتصليح السيارات والشاحنات المارة في ذلك الطريق الطويل ، ولما بلغت ابنته وردة عشر

سنوات جرى معه حادث سير كبير أودى بحياته ، كان يغادر الحي بعد صلاة الفجر إلى وسط المدينة ومنها إلى أقرب مدينة للصحراء حيث إحدى المحطات الكبيرة على الخط الصحراوي ، فإن وجد ممن يصلحون عندهم وله رحلة إلى العراق يركب معهم ، أو يركب مجموعة من عمال تلك المنطقة سيارة صغيرة مقابل أجرة توصلهم لتلك المنطقة ، ولما دخلت السيارة الصغيرة التي تحمل الركاب إلى الطريق الصحراوي فقد زاد السائق من سرعتها ؛لأن الطريق يغري بالسرعة لقلة السيارات المارة فيه لأنه طريق حافلات وشاحنات وطويل المسافة ، والركاب لا يكترثون للسرعة لرغبتهم بالوصول قبل اشتداد الحر ، وتفاجأ السائق المسرع بسيارة كبيرة تنتقل للشارع الذي يسير فيه نتيجة خلل طارئ ، ولم يستطع السائق تفاديها فصدمتها الشاحنة وألقت بها في منحدر حتى استقرت في واد ، ولما وصلت سيارات الإسعاف والإنقاذ كان الركاب الخمسة والسائق قد فارقوا الدنيا ، ووصل الخبر للسيد محمود عن طريق الشرطة ، فذهب وابنه حسين لإحضار الجثة من مستشفى الحكومة في تلك المدينة القريبة من الصحراء ، وفي الليل عند الفجر دخل البيت حاملا لجثة تحسين .

كانت صدمة كبيرة للعائلة ؛ ولكن هكذا الحياة مواليد وموت ، وبموت تحسين بقي لمحمود من الذرية الذكور حسين وعدد من الإناث ، واستمرت الحياة وظلت نورا ترعى ذريتها من حسن وتحسين وجاء والدها وإخوتها من سوريا يدعونها للحياة معهم هناك ؛ ولكن رغبت بالبقاء في كنف ورعاية عمها محمود ، وتعهد له محمود برعايتها والمحافظة عليها هي وأحفاده الخمسة حتى يكبروا ولآخر يوم في عمره، وبعد سنين عرضت عليها بعض النسوة الزواج من جديد ، فقد تحدث عنها بعض الأرامل والمطلقين ، فرفضت الزواج مرة ثالثة وأنها ستكمل المسيرة في تربية وتعليم البنات ومحمود ، وأخبرت عمها بعدم رغبتها بالزواج من جديد لأنه فكر في ذلك وسعى إليه ، ولما رأى ثباتها وأنها لا ترغب بذلك كف عن هذا الطلب والإغراء كان السيد محمود يدير العائلة بكل همة ونشاط ، وتمكن من إنشاء أربع عمارات باسمه في حي "أبو خروف" ، واستطاع حسين بناء عمارة في نفس المربع وسكن فيها وأجر شققها ،

وكبرت الدكان التي على الشارع وأصبح الطابق الأرضي من جهة الشارع العام سوقا أو سوبر ماركت بلغة اليوم (السبعينات) وباقي المحلات مؤجرة تجاري ، وفوقها شقق كمكاتب وعيادات والشقق الخلفية مساكن، وكان السوق شراكة بينه وبين حسين ، واشترى فندقا قديما وأعاد تجديده وهو قرب دوار "أبو خروف" وبجوار نقطة شرطة "أبو خروف" لأن مركز الشرطة الكبير في أول حي النجمة حيث يتبع له عدة أحياء امنيا ، فنشط صاحبنا في التجارة والاستثمار ، وأصبح بل كان وجها معروفا من أهالي "أبو خروف" ، وقد ساهم في بناء وتوسيع مسجد حي النجمة ـ فقد كانت إحدى بناته تعيش في ذلك الحي حيث تزوجت مدرسا في الجامعة ـ وكان يحب صلاة الجمعة في ذاك المسجد إن لم ينزل لوسط المدينة حيث المسجد العمري الكبير ، ووفق للاستثمار الصاعد في بعض الشركات الكبيرة بالأسهم ، ورغم كل هذا الغنى المادي بقي من أهالي "أبو خروف" ، ولا ننسى أن له مباني في وسط المدينة مؤجرة لتجار وشركات ، فكان حسين شريكه يدير المتجر الكبير ويساعده أولاده وبعض العمال الوافدين من أقطار عربية ، يوفر لهم السكن والأجرة ، وهم يتكلفون بطعامهم ومتطلبات العيش ، وكان السيد ينفق على أحفاده أبناء حسن وتحسين من حسابه الخاص واحتفظ لهم بالأموال التي ورثوها عن آبائهم ، واستثمر لهم بعضها ، وتعلمت دلال في الجامعة على نفقته ، وكانت تدرس في كلية الطب ، فلما وصلنا عام ١٩٧٥ م كانت تعمل في أحد مشافي المدينة كمتخرجة حديثاً ،وكان أخوتها من أمها نورا يزحفون ويتعلمون ، ولما تخرجت خديجة من المعهد المتوسط فأنكحها جدها لابن أحد الأصدقاء ، والتالية بعد دراستها تزوجها ابن أحد بناته ، والكبرى دلال تزوجت وهي تدرس ، ومحمود ما زال على مقعد الدراسة ، والصغرى ما زالت في أول سنة جامعية كلية الطب .

كانت حياتهم تسير كسائر الخلق بين تعليم زواج مرض شفاء عمل ، وكانت نورا تضغط على محمود للزواج وهو على مقاعد الدراسة ، ورغبت أن يتزوج من بنات أخوتها أو أخواتها الذين يعيشون في الشام ، وسافرت للشام عند أهلها لتحقيق هذا الهدف ، وقضت شهرا بينهم ،

وعادت تحمل في جعبتها عدة فتيات لابنها أو قل ثلاث عرائس ليختار واحدة منهن ، ومحمود كما وعدها يريد الزواج بعد إنهاء الجامعة .. وكانت دلال قد خطبها ابن عمها حسين وهو يصغرها بسنة ونصف.. زواج عائلي .. واجلوا الزواج حتى تخرجت فعلا وتزوجا .



هذه كانت مقدمة مهمة لحكاية من حكايات ""أبو خروف"" قال الحاج محمود بط :بينما وأنا أجلس ذات يوم في البيت مع أم حسن ـ وقد تخليت عن العمل معهم في المتجر الأسفل من شقتي ؛ ليديره حسين وأحفادي طبعا ، بعضهم من جهة حسين وبعضهم من جهة البنات القاطنات في الحي ـ اتصل بي سالم حسين الابن البكر لحسين وزوج الدكتورة دلال حسن منذ عهد قريب .. اتصل بي مخبرا لي أن شابا يرغب برؤيتي ومقابلتي لأمر مهم وحساس ودقيق ، فتعجبت من هذا الكلام الغامض فقلت لسالم: إذا كان الشاب بحاجة لمساعدة مادية فقدم له ما تيسر وليقابل والدك

– عرضت عليه المال والمساعدة لا يريد مالا ، يريد رؤيتك أنت شخصيا ، فهو يزعم أنه يعيش في المكان الذي كان يعمل فيه عمي تحسين ـ رحمه الله ـ في الصحراء قبل موته منذ خمسة عشر عاما .

قلت مستغربا هذا التعريف : مكان عمل تحسين القديم .. أمر غريب!

– نعم ، يا جدي .. أبي يرى أن تقابله لأنه يرفض الكلام إلا لك أنت ؛ فأنه يحمل لك رسالة

– رسالة بعد كل هذه السنين ! ما اسمه ؟

– اسمه نادر ، ولم يذكر اسم أبيه ، يرفض ذكره إلا لك جاء من هناك

ليقابل الحاج محمود حسن بط

– قدموا له الطعام.. فالوقت وقت غداء وأنا ذاهب للمسجد سأمر عليكم .

– يريدك في البيت في مقابلة شخصية

– هذا عجيب ! فلتأت به يا سالم .. قلت اسمه نادر لا أذكر أن التقيت بشخص يحمل هذا الاسم يا سالم ومن الصحراء .. لقد ذكرنا بأبي محمود ـ رحمه الله ـ تفضلوا .

انتقل محمود لصالة الاستقبال وطالب أم حسن زوجته إعداد القهوة للضيف القادم من قلب الصحراء التي نسوها منذ وفاة تحسين ، وكانت شقة السيد محمود في الطابق الثاني فوق محلهم

التجاري الكبير ، روى لخديجة أم ذريته قصة الشاب الملح على رؤيته القادم من الصحراء ليجتمع به ، وعادت بهم الذكريات لتلك الأيام ، وحادث وفاة تحسين ، فدمعت العين من الاثنين وترحموا على موتاهم ، ولما رن جرس الشقة ، فتحت الباب لسالم والضيف ، فسلم عليها سالم وأخبرته أن جده في صالة الاستقبال الخاصة بزوار الحاج ، ومشت المرأة إلى المطبخ لصنع القهوة مشى سالم نحو الغرفة يتبعه الشاب الصحراوي نادر ، وأستقبلهم الحاج ورحب بهم .

قال محمود : لم تغد ضيفنا بعد

قال سالم وهو يجلس : سأفعل بعد اللقاء بعون الله .. الرجل مصر على اللقاء أولا .

رحب الحاج به من جديد وهم يجلسون ، وكان محمود يحدق النظر في الشاب ويتفحصه منتظرا لم يريد قوله بعد كل هذه السنين عن ولده ، وجاءت القهوة ، وتناولها سالم من جدته ، وقدمها لجده والضيف ، وقد اعتاد الناس بإحضار كوب ماء مع صينية القهوة ، ووضعه سالم أمام نادر

وقال محمود: مرحباً بك يا سيد نادر أنا والد تحسين محمود .

وبدون مقدمات وتمهيد قال نادر : وأنا ابن تحسين محمود

بحلق محمود وسالم بالشباب دهشة ، وظنوا أنهم أمام معتوه أو مجنون وقال: ماذا قلت ؟!

– قلت أنا حفيدك مثل سالم هذا ـ وأشار لسالم ـ أنا والدي اسمه تحسين محمود حسن بط .

تمالك الحاج نفسه وقال: أنت حفيدي ! كيف صار هذا ؟!

– أنا ابن زوجته الأولى زوجة الصحراء .. الزوجة التي تزوجها حيث كان يعمل في إحدى محطات تصليح السيارات على الطريق الصحراوي إلى العراق والخليج العربي

– وكيف أصدق ذلك ؟! ونحن لم نسمع بهذا الزواج قبل زواجه ولا بعده ولا عند موته ؟!

– كنا صغارا ، وكانت أمي ترفض الالتقاء بكم ؛ لأنها تزوجته بطريقة سرية عنكم ، ولا يعلم بهذا الزواج غير بعض قومها وشريكه صاحب الورشة ، وتزوجها رغم أنف قومها .

فكر محمود لحظات وقال : القصة تحتاج لشرح يا نادر
- القصة غريبة .. إنما علمتها من عهد قريب منذ أيام من عشرة أيام
طرق الباب فقال الجد : تناول الشاي من جدتك يا سالم
نهض سالم وفتح الباب وتناول الفاكهة والشاي من السيدة ، وسمعت زوجها يقول : تعالي اجلسي يا أم حسن فهذا الشاب يزعم أنه حفيدك
همست وهي تدخل : ماذا ؟! أتمزح يا حاج محمود؟!
نظرت للشاب الذي ابتسم لها وقال : هذه هي الحقيقة يا أم حسن أنا ابن تحسين محمود حسن
جلست الحاجة خديجة تقلب نظرها بين محمود والشاب فقال محمود : هذا الشاب ـ وأشار إليه ـ انظري إليه جيدا
- لقد رأيته وهو يدخل مع سالم
نظر محمود في عينيها وقال : يدعي أن تحسينا ابننا الميت والده ..وتزوج أمه في الصحراء قبل أن يتزوج ابنة أخي محمد
- عجيب !
- كان متزوجا سرا عنا دون علمنا ..كان تحسين متزوجا من أمه قبل
زواجه من نورا حيث كان يعمل في ذلك الطريق الصحراوي .. وهو قادم يبحث عن أهله .. عنا يا خديجة أتصدقين هذا ؟!
- عجيب كيف حدث هذا يا ...؟!
- اسمي نادر تحسين محمود .. القصة كما عرفتها من شقيقة أمي خالتي ؛ لأن أمي ماتت من سنوات وعشنا مع خالتي .. وأمي لم تحدثنا بقصة زواجها ، إنما علمنا أن زوجها وهو أبونا مات بحادث سيارة ، وخالتي أفضت بهذا السر اضطرارا وذلك قبل أيام .. نحن ثلاثة أشقاء ولدان وبنت تزوجت .
قال محمود مقاطعا: تزوجت بدون أب أو جد !

- اسمعوا الحكاية كما فهمتها من خالتي

شرب من شايه وسمع خديجة تقول: نحن بشوق لسماع الحكاية يا سيد نادر فهذه من عجائب الدنيا !

فقال محمود مبررا استغرابهم : فأبوك تحسين لم يتحدث لنا بهذا الزواج ، ولم نسمع إشاعة عنه ولا حتى من شريكه ..هل شريكه حي ويعمل عندكم ؟

- ترك المكان بعد حادث أبي واختفى صاحب المحل كما تقول خالتي حتى أن المكان اليوم مهجور ، وانتقلت المحطة إلى نقطة أخرى ، وخالتي تركتها على قيد الحياة ، وعشنا معها بعد موت الوالدة ، ولما حدثت بعض المشاكل والأحوال في البيت اعترفت لنا بأن والدنا لم يكن من أهل القبيلة ؛ إنما رجل صانع تعرف على أمنا وهي تتردد على المحطة لشراء بعض الأشياء من الدكان الموجودة في المحطة ، وقصت علينا قصة هذا الزواج وموت الوالد فجأة ، وأننا أبناء أختها فحسب ، ونحن نعرف هذا



تبدأ القصة عندما سكن والدي مع شريكه بلال جميل في تلك المنطقة مكان تصليح السيارات على الخط الصحراوي ، وكان يعمل في المكان ورشات أخرى ، وهناك محل لبيع الشاي والقهوة والمرطبات والطعام ؛ لأن الحافلات والركاب يقفون في تلك المحطة للراحة ولصيانة السيارات وتغيير الزيت وتعبئة الوقود ،وكانت أمي الفتاة الشابة وأهل المنطقة من القرى القريبة من المحطة يترددون على المكان للشراء والحصول على المال ببيع بعض الأشياء للركاب وسكان المحطة ، لم تكن تبعد قريتنا عن المحطة سوى عشر كيلو مترات ، فكان تردد أهل

القرى ذكورا وإناثا أمرا عاديا ، ولا أحد يمنعه، وكان الركاب يحسنون لأهل القرى بأنهم فقراء ومحتاجون، وبعد حين تعلق أبي بأمي وغرما ببعض ، وبعد حين أصابها بسوء فاضطر للزواج منها ليستر ما وقع منه من سوء وفاحشة هكذا قالت خالتي ، واضطرت العشيرة للقبول بزواج المدني من قبيلتهم ، وقام جدي والد أمي بإحضار شيخ ليعقد بينهما الزواج الشرعي ؛ ولكنهم لا يكتبون أوراقا رسمية في تلك الصحاري ..كلام شفهي وشهود ، وممن شهد العقد صاحب المحل بلال جميل ، وأصبحت أمي أمام العشيرة زوجة شرعية لرجل المدينة ، وسكن أبي في بيت قروي يعود إليه في الليل ويغادره في أول النهار ، ولم يكن أبي محبوبا من رجال القرية ، فهو غريب عنهم وأساء لهم ، وليس من القبيلة ، فلم يكن له أصدقاء منهم ، وكذلك لطبيعة عمله لا وقت لديه للصدقات ، إنما هو مجرد زوج لفتاة منهم سخر منها وكون معها علاقة سيئة أجبرتهم على زواجها منه لدرء الفضيحة ، أن تتزوج فتاة من العشيرة لرجل من غير العشيرة كان هذا عارا وعيبا عندهم ، بنات العشيرة لأبناء العشيرة ، حتى أن بعض فروع العشيرة لا تزوج لفرع آخر ، حتى أمي وأسرتها لا ينظر إليهم بعطف وشفقة .. وأبي لم يكن يهتم بهذه العواطف كان غارقا في عمله وشغله ـ كما قالت خالتي ـ فلم ينتبه للعداء له ولا لامرأته .. وولدت أمي له ثلاث أطفال أنا وأخي جلال وأختي نادرة ، ولما مات أبي كنت ابن عشر سنوات ، ولم نكن نعرفكم ، ولم نكن نعي أن والدنا ليس من أبناء القرية .. كنا نسمع أن أبانا ذهب للمدينة لزيارة والديه ، ولا نعرف سبب حياة والديه في المدينة لأنهما من أهل المدينة ، وجدانا كانا ينظران إلينا كأعداء .. هذا فهمناه لما كبرنا وعرفنا قصة زواج أبينا المدني من ابنته والسيد بلال بعد وفاة أبي بشهور اختفى من المحطة كما أخبرتنا خالتي ، فلم يعد يذكر في المحطة بلال ولا تحسين ، جاءت وجوه جديدة خلال هذه السنوات ، ثم انتقلت المحطة كلها إلى مكان آخر بعيد عن قرى قبيلتنا .. وقبل عشر سنوات وأنا ابن خمسة عشر عاما ماتت أمي ولم تكن حدثتنا عن أبي بشيء ، وكانت قد قضت سنواتها الأخيرة بمرض عضال صعب ، ثم رحلنا للحياة في بيت خالتي وأنا بدأت أمارس الرعي قرب الحي

والوديان والشعاب القريبة من القرية ، فكنا نعيش بينهم على أننا من أبناء القرية لا نعلم أن لنا أقارب وأهلا في المدينة ؛ لأننا لم نكن نعي سبب غياب أبينا آخر كل أسبوع إلى المدينة كنا أطفالا ، وظللنا نعتقد أن أبانا فرد من القبيلة، لم يخبرنا أحد عن سر زواج والدنا من أمنا ، وحتى لما تزوجت نادرة لم نسمع عن أبينا شيئا يثير انتباهنا لأهل أبينا ، وأيضا لم يحدثنا أحد عن زواجنا كسائر أبناء القرية والقبيلة ..أخذنا نعمل بالرعي لشيوخ وأغنياء العشيرة ، ونخرج لمراعي كبيرة ونغيب عن القرية بالشهور الطوال ، ولا نعود إلا عند موسم بيع الخراف والأنعام حتى يتمكن أصحابها من بيع الفائض .. فأنا اليوم ابن خمس وعشرين سنة ولا أعلم إلا أن والدي ابن العشيرة .. صار بين أبناء خالتي شجار كبير .. فطلب منها زوجها أن تتركنا نذهب لأهلينا فتعجبنا من هذا الطلب وهذا الكلام .. لا أب لنا ولا أم فقال جلال : ألنا أهل غيركم ؟! ورويدا رويدا علمنا قصة زواج أمنا من ابنكم ـ رحمه الله ـ فأخذنا نفكر بطريقة نصل فيها إليكم فنحن كل حياتنا في الصحراء وإن بدأت أذكر هدايا أبي لنا عندما يعود من عندكم ومن المدينة استرجعت تلك المشاهد ..فخالتي لا تعرف المدينة ولا أين تعيشون ؟ وظروفكم وحياتكم .. والسيد بلال لا وجود له كما قلت سابقا .. فخالتي تعلم أنه شريك والدي وعقود زواج القبيلة غير مكتوبة وغير موثقة ؛ لكن لابد من التعرف على أهل أبينا ، لابد من ذلك ..فهناك الناس يعرفون بعضهم ، ولا يحتاجون لأوراق من أجل الزواج لا يحتاجونها فهم يديرون شؤون حياتهم .. ذهبت للمحطة وسألت عن أحد يعرفكم أو يعرف السيد بلال قال أحد حراس المحطة: هذا الرجل زمان اختفى قبل رحيل المحطة بسنوات سمعت عنه وعن مهارته في التصليح لكنه لم يلتق به .. واقترح عليّ أحد رجال المحطة لما لخصت قصتي أن انزل العاصمة بيت السلام والاتصال بالشرطة ، وقبل فعل ذلك أعطانا صاحب أحد محلات التصليح عنوان الرجل الذي اشترى منه محل التصليح ، ومنه عرفنا ورشة بلال جميل ، ثم عرفنا أن الرجل ترك المهنة من سنين وأعطانا عنوان بيته في العاصمة ، ولما عرفت بيت السيد بلال ، وقابلت امرأته الفاضلة علمنا منها أنه قد مات هو

الآخر ، ومنها ومن أولادها عرفنا اسم حضرتكم ، فقد وجدنا ورقة مكتوب عليها اسم تحسين محمود حسن بط وأخذنا أحد الأبناء لدائرة الشرطة وعن طريقهم عرفنا عنوانكم وإنكم تسكنون في حي "أبو خروف" ، فلما سمع الضابط قصتي تعاطف معي وأرسلني إليكم ..وجئت إلى حي "أبو خروف" ودلتني الناس على متجركم هذا ..وهذه يا سيدي قصة زواج ابنكم المرحوم تحسين محمود .

بعد تنهد من الجميع قال محمود : قصة ممكن تصديقها يا سيد نادر ! لكن الكلام وحده في مواضيع النسب لا يكفي .. علينا أن نسعى للتحقق من صدق هذه الحقائق ، فلابد أن نسمع من خالتك وأهل القرية الذين عاصروا هذا الزواج ، ومن الشيخ الذي عقد لهم ولو شفهيا ، وأنا يسرني أن أجد لي أحفادا بعد هذه السنين

- هذا حقكم يا سيدي ! وأنا لا أعتقد أن خالتي تكذب علينا لتتخلص منا ؛لأننا أصلا نعيش أغلب أيامنا مع الغنم والبقر ..فنحن لا نذكر والدنا خاصة أنا الكبير إلا كخيال أو طيف لأن مكثه في العمل أكثر .. لحظات قليلة نجلس وإياه؛ لكن معلومات خالتي ذكرتني به ، وهو ميت حقيقة فنحن لا نعرف عنه أي معلومات كنا صغارا ، ولم يتحدث أمامنا عنه عندما شببنا.. وأي مصلحة لها بالكذب علينا وعلى أمنا ؟ لكن لماذا سكتوا كل هذه الوقت ؟ لم تجب خالتي عن هذا السؤال ؛ لكن المعلومة الأكيدة أن السيد تحسينا والدنا لم ينكرها أهل القرية ؛ لأننا نحمل اسم تحسين نادر تحسين جلال تحسين ، وربما زواج نادرة حرك موضوع من أهلنا؟ فهم لما زوجوها لم تكن من بنات القبيلة .. أبوها مدني ؛ ولكنها كبرت في نظرهم ، وأمها من القبيلة ..ونحن بحاجة للزواج ومن سيزوجنا من تلك القرى ونحن لسنا منهم ؟وأنا مستعد لأخذك للقرية ولخالتي التي عشنا معها

- أمكم كتمت ذلك السر ؟

- أمي كانت حزينة بعد وفاة الوالد ؛ كأنها قبرت كل الناس ، وكانت قليلة الكلام على عكس حب النساء لكثرة الكلام .. والأمر لم يكن معروفا لنا لمطالبتها بكشف أمر زواجها من أبينا ،

وهي لم تصرح لنا أن أبانا لم يكن من أبناء العشيرة .. كانت ترانا صغارا .. ولولا مشكلة أبناء خالتي مع أبيهم ربما ظلت خالتي صامتة، لم تقل لنا أن أمنا طلبت منها ذلك، إنهم اعتبرونا من أبناء العشيرة ، وحزموا أمرهم بزواج البنت ؛ لأن زوج الخالة هدد بفضح الأمر لنا لنخرج من حياتهم إلى الأبد



كانت القصة معقولة في نظر السيد محمود وحتى زوجه خديجة كانت حياة تحسين هناك غامضة بالنسبة لهم ، لم يكن يتكلم كثيرا عندما يزورهم ، يصل ليلة الجمعة يسلم يتعشى وحده في اغلب الزيارات ؛ لأنه يصل إليهم متأخرا ، يستيقظ متأخرا ، يلتقون على غداء نهار الجمعة ، يتكلمون قليلا ، ينزل الشاب لقلب المدينة لزيارة أصحابه ومعارفه في أحد مقاهي المدينة ، يدخل السينما كما يقول لهم ، يعود آخر الليل ، وفي الصباح يتحرك إلى وسط المدينة وينتقل لمدينة أخرى ، ومنها إلى مكان العمل في الطريق الصحراوي.. لم يكن يحدثهم عن أعماله ومغامراته في تلك البلاد ؛ لذلك كان لديهم قبول لهذه الحكاية ، وتبرير طول الوقت للمجيء إليهم أيضا مقبول ومعقول ، وقصة عدم توثيق العقود فهذا معروف للسيد محمود لأن أهل تلك القرى بعيدون عن المدينة ، ولا يحتاجون لمثل هذه الوثائق في ذلك الوقت لا لعقد زواج ولا غيره ، فهم يعرفون بعضهم البعض ، ويعرفون الأبناء لمن هم ؟ ولا يحتاجون لشهادة ميلاد لمدرسة ، وإذا احتاجوا لذلك يذهبون لطبيب الحكومة فيقدر لهم العمر تقدير سن ، ويعمل لهم وثيقة للمدرسة أو الوظيفة أو حتى الخدمة في مؤسسات الدولة حتى السيارة يقودونها بدون رخصة قيادة .. فلم يعجب محمود من ذلك ؛ لكن إثبات النسب والحقوق والأبوة والبنوة قضية مهمة وكبيرة ، وبعد صمت خيم عليهم لبضع دقائق قال السيد : أنا لو صدقت كل هذا الذي تفوهت به يا نادر فلابد من السعي للمزيد من التأكيد والتثبيت ..فهذا

يا ولدي نسب وبنوة وحقوق ومال .. الآن سيذهب بك سالم إلى مطعم لتأكل ما قسم الله لك على نفقة من سيكون جدك إذا ثبت ذلك لنا وأمام الناس .. وسيذهب بك بعد غدائكما إلى الفندق الكائن في أول "أبو خروف" وهو ملكنا ـ والملك لله ـ وسيهتم بك أبو موسى المشرف على الفندق ، وسأتحدث معه بشأنك فأنت ضيفنا حتى نتحقق من المعلومات التي أدليت بها أمامنا ، وتبات الليلة هناك وسنلتقي صباحا لنبدأ في طريقة نستطيع بها إثبات النسب ، ونتأكد أن أمك فعلا نكحت ابني تحسين بط .. كم كان عمرك عند وفاة والدك ؟

– دون العاشرة بشهور وكما ذكرت لم نكن نرى والدنا إلا لحظات ، يذهب للعمل مبكرا ويأتي ونكون نائمين ؛ ولكني اعرفه ـ وأخرج لهم صورة شخصية كانت تحتفظ بها أمه لزوجها ـ وتابع : وحدوث اتصال غير شرعي بين أمي وأبي قبل الزواج ربما لأن أمي كانت ترى أنه لن يحدث زواجها منه إلا بهذه الطريقة .. فمن الصعب زواج بنت من القبيلة لغريب .. وقد حدثت حوادث شبيهة على مستوى العشيرة الكبرى ؛ ولكنها قليلة .. ولم تلدني أمي إلا بعد فترة من الزواج بعد مرور سنة على زواجهما ، لم تحمل أمي بسبب ذلك الاتصال ، ثم ولدت جلال بعدي بسنتين ونصف ، ثم البنت كانت قبل الوفاة بأربع سنوات ؛ وخالتي تعرف والدي جيدا .. وفي نهاية الأسبوع كان يعود إليكم

– صحيح

تناول محمود الصورة الصغيرة من يد نادر الممدودة كانت صورة قديمة ممن تصور لتوضع على البطاقات الشخصية وجوازات السفر وهز رأسه قائلا : نعم إنها صورة ابني تحسين .

وأعطاها لخديجة التي أخذتها ولما نظرتها ذرفت عيونها الدمع

وقال نادر : كان والدي في حياتنا كالخيال ، وحتى في القرية لا صاحب له

– اطمئن يا سيد نادر أنا أكاد اصدق قصتك مائة بالمائة ؛ ولكن هذا لا يكفي لابد من بعض الإجراءات ، وأنا مسرور من شجاعتك وسعيك للوصول إلينا

– كان لابد من فعل ذلك .. أنتم أهلونا الحقيقيون ؛ فكان من الصعب السكوت بعد معرفة

نهض محمود ففعلوا مثله مؤذنا لهم بالانصراف ، وخرج سالم ويصحبه نادر ، فساقه إلى مطعم يقدم الطعام والطبيخ ليس فقط الأكلات السريعة كالسندويتشات ، وقدم له الأرز والدجاج المشوي والسلطة واللبن والكولا ، وكان جده قبل المغادرة سأله عن مكان نومه خلال أيام البحث عنهم ، فذكر أنه قضى ليلتين في أحد فنادق وسط المدينة ، وبعد الغداء رافقه سالم إلى الفندق ، ولم يجر بينهم أي حديث حول القصة سوى همهمات ترحيب ، وكان سالم مصغيا وسامعا ومندهشا للحكاية ، ولم ينكر إمكانية حدوثها ، فقد قضى عمه في الصحراء أكثر من عشر سنوات ، وجل أيامه فيها ، وكان شابا عزبا عندما ذهب للعمل هناك .. فهم لليوم يتحدثون عن حياته وموته .. وما دامت هناك نساء وقرى يحدث مثل هذا ؛ ولكنهم كيف قبلوا تزويجه دون معرفة أهله؟ أم لذلك الفعل تأثير ليقبلوا بزواجه سرا عن أهله ووالده .. هناك لا رقيب ولا دولة ولا مأذون ولا وثائق ..وصلوا الفندق وعرف الشاب على موظف الاستقبال وأعلمه أن حسابه على نفقة الجد وكل المشروبات والأطعمة.

فقال فواز : تحدث معي أبو موسى فقد كلمه جدك .. فأهلا وسهلا سيد نادر ..فكل شيء يا سالم سيسجل على الفاتورة .. فمن عادة أبي حسن إرسال ضيوفه للفندق على نفقته.

وللسيد محمود استثمار وشراكة أخرى في أحد الفنادق الشعبية الكبيرة في وسط المدينة ، وبيت أبي حسن أو شقته لم تكن بالوسع المطلوب ، وأيضا كبره وكبر زوجته فيضعفون عن خدمة الضيوف ، فكان الفندق يوفر لهم هذه الخدمة ..كانت هناك امرأة من نساء الحي فقيرة تتردد على شقتهم للخدمة والمساعدة في التنظيف والجلي والغسيل في بعض الأيام مقابل أجرة فورية .. واليوم الأدوات الكهربائية مع وصول الكهرباء لكل الأحياء فكانت تساعد في تحمل الأعباء عن الزوجة وعن الخادمة ، حتى الخبز في البيوت قد ضعف وتلاشى ، وانتشرت الأفران في الأحياء بكثرة ، والحكومة تبيع الدقيق لهذه المخابز الآلية أو النصف آلية ، وبدأت أشكال الخبز تنتشر وتشيع ، الخبز العربي والإفرنجي والصغير والكبير ، وحتى الدكاكين

ومحلات البقالة أصبحت تبيع الخبز ، الحضارة والمدنية بدأت تزيد وتيرتها في المدن العربية والعواصم ، وظهر التلفزيون الملون ، وبدأ يشيع في البيوت والمقاهي ، وبدأ التلفزيون ينافس السينما وأخذت الراديوهات الكبيرة تختفي وتزول من المقاهي الشعبية ، وأخذت الناس تتابع المسلسلات العربية والأجنبية المترجمة أو المدبلجة كأفلام الكرتون للصغار والكبار ، وحتى مباريات كرة القدم أخذت تظهر بين الحين والآخر على شاشات التلفزيونات خاصة المباريات العالمية والمهمة على مستوى القطر ، لذلك كان يتوسط قاعة الاستقبال في فندق الأنوار تلفزيون بشاشة كبيرة



عند وقت العصر من ذلك النهار كان الخبر قد بدأ ينتشر في "أبو خروف" بين عائلة محمود وأحفاده وبناته ، واتصل حسين بأبيه بعدما عاد سالم وذكر له خبر نادر : صعقت لما أخبرني سالم بهذا الكلام ..أيعقل هذا يا أبي بعد خمس عشرة سنة على وفاته ؟!

- القصة لا توحي بالخداع والاحتيال ليس لتحسين مال ليطمعوا فيه .. فهو كان ينفق على نفسه فحسب .. ونحن كنا ننفق على نورا ودلال .. وكنا كأننا نعيش أسرة واحدة ، ولم يطلب مالا للزواج أو النفقة على نفسه .. لم يكن هناك ما يريب .. الأمر المثير والوحيد اذكره اليوم أنني لما عرضت عليه الزواج من نورا تردد قليلا وقال" لما ارجع المرة القادمة أعلن رأيي " ويومها غاب مدة أسبوعين ، ولما عاد وافق على الزواج منها .. ومشت الحياة كما كانت قبل زواجه .. فقط هذا التمهل الذي حدث منه .. وأنت تعرف أن أخاك كان من عشاق الصمت ويقضي نهاره في مقهى في وسط المدينة ، ولم نعرف صديقا مميزا له لنسأله عن هذا الزواج ..

وقد أبحث عن هذه المقهى .. والرجل الذي كان يعمل معه في تلك الصحراء .. اخبرني نادر أنه ميت .. ولسوف نتحدث مع أسرته قد نجد لديهم معلومة تنير الحقيقة ، وتزيد من توكيد الحقيقة ، ولم أسمع نورا تتحدث عن زواج له .. وسوف أيضاً نتناقش معها ربما تتذكر شيئا لم تنتبه له ذاك الحين

– وكيف زوجوه بدون أهل وأب ؟!

ـ هي فتاة صحراوية كانت تتردد حيث الورشات الكائنة في تلك المحطة لشراء بعض الأشياء فتعرف أو تعرفت على تحسين وتغشاها.. فاضطرت القرية والعشيرة الصحراوية القبول به على أي حال كما يحدث في بعض الزيجات في "أبو خروف".. يحدث هذا يا أبا سالم في دنيا الناس .. كان زواجا لدرء الفضيحة وسكن عشة من عشاشهم .. شاب في الصحراء استسلمت له فتاة فوقع فريسة سهلة لها .. ولملم الموضوع .. ونادر هذا لم يعرف الحقيقة هذه إلا من عهد قريب وأخذ يسعى للوصول إلينا

– ما دمت أنت مقتنع بها ماذا سنفعل ؟

– سأسافر إلى تلك القرية وتلك المنطقة واسمع خالته وزوجها وبعض من عاصر تلك الأيام من الرجال والنساء وأقارب البنت .. فهي أي أمهم ميتة وأمها ميتة وكذلك والدها .. لم يذكر إلا خالته وهي التي كشفت لهم قصة زواج أمهم بعد تهديد من زوجها ..فهم كانوا يتكتمون على زواج أم الأطفال لماذا ؟ لم يفصح الشاب أو لم يعرف وإذا كان ذلك صحيحا سنسعى لإثبات النسب رسميا لدى الحكومة .. فلا يمكن التخلي عنهم يا حسين فهم أبناء أخيك .. والمشكلة أن البنت متزوجة في تلك الصحراء دون علمنا ومن وقت قريب

قال حسين : غرائب الدنيا لا تنتهي ! أنت تفكر بالذهاب لتلك القبيلة

– وسنقابل أبناء السيد بلال جميل وزوجته .. فالرجل شريك تحسين فهو مطلع على القصة ؛ ولكنه كما قلت لك إنه ميت كما حدث نادر .. وقد يكون لديهم معلومات لم يحبوا الإفصاح بها لنادر .. قد يكون حدثها الرجل عن زواج تحسين الصحراوي علينا بذل بعض

- خشي كشف الأمر .. أفيحدث قرينته ؟ فهو زواج بالإكراه

قال محمود : كان شريكه ، وسانده في كتم الأمر ، المصلحة تطلبت منه الصمت ، و ربما حدث بشيء .. ولا تنسى خشيتهم من القبيلة بإشاعة الأمر ، فكان عليه مسايرة شريكه وإخفاء الأمر عنا .. ونحن لا نعرفه حق المعرفة كما تعلم .. أنا أسمع عن عائلات تلك الصحاري والفلوات حياتهم قاسية وخشنة ، لا يذهبون للمدارس إلا من رحل وسكن المدن .. والفساد شائع بينهم ، وبناتهم فيهن فتنة.. الجمال والبياض فلا غرو أن يقع أخوك في حبائل تلك النسوة.. وبعضهم يقطع الطرق .. ويتعرضون للسيارات لأخذ المال والطعام ..وهم فعلا يأنفون من تزويج بناتهم لغير أبناء العشيرة للمحافظة على تقاليدهم وعاداتهم .. فلم يكن صيد أخيك صعبا ، فحدث الترقيع والسرار.. ففي البوادي والمناطق النائية تحدث مثل هذه الزوجات زواج الأمر الواقع .. على كل حال يا أبا سالم اهتموا بالضيف حتى نصل لنهاية لهذه القصة ، لم يكن تحسين ـ رحمه الله ـ يتحدث كثيرا عن تلك الصحراء ، وعن كيفية حياته وتفاصيلها ؛ لكن كما تعلم ويعلم الجميع أن وقته الأكثر كان هناك حيث يشتغل وينام ، وكان اغلب وقته هنا نوم ومقهى وسط المدينة ، وكان يغادرنا صباح السبت مبكرا أخرج للجامع وهو يغادر البيت فإمكانية أن يكون متزوجا حاصلة ؛ لكن المريب ظهور الحقيقة بعد كل هذه السنين .. يبدو أنهم لم يهتموا لميراث الرجل ، لم تهتم الأم لحضور الدفن والعزاء ؛ كأنه شر وتخلصوا منه .. ونورا كما قالت أمك بعد انصرافه لم تتحدث يوما أن زوجها له امرأة أخرى ربما كان تحسين يفكر بالانتهاء منها عندما يترك تلك الصحراء كأن شيئا لم يكن ، حتى أن أمك تقول : لم يكن بينه وبين نورا أي مشكلة ، فالوقت قصير بينهما ـ رحمه الله ـ جميل أن يجد الإنسان بعد نسيان لابنه أولاد ! كان الحادث رهيبا ! لقد رأيت السيارة في قعر الوادي كانت محطمة ، وكانت الضربة عنيفة قبل سقوطها للوادي ، ونقل للمستشفى كما تعلم ميتا ، لم يتكلم لا هو ولا من كان معه في الحادث .. كلهم موتى

تنهد حسين وقال: الظروف تحكم الإنسان أحيانا كثيرة يا أبي لعل لديه سببا لكتم الزواج

- كان مصرا للكتم ، فقد ولدت له ثلاثة خلال عشر سنوات زواج ، ولقاءاتنا مع شريكه معدودة على الأصابع ، ولم يتكلم بشيء عند العزاء ، ربما لأن أهل المرأة والمرأة لزموا الصمت ، كان هناك تعتيم على هذا الزواج إذا صح كلام نادر .. فخالته تفوهت لهم اضطرارا ، وأولئك الصحراويون لا يوثقون الأوراق كما نعمل من شهادة ميلاد وعقد زواج وبطاقة شخصية

قال حسين : سأمر عليك الليلة لمناقشة ومدارسة الأمر .. فالقضية تحتاج لفكر وتدبر

- تفضل بعد العشاء



تسربت حكاية تحسين للحي ؛ لذلك لما صلى محمود المغرب وخرج ليجلس في المقهى لتناول فنجان قهوة أو يانسون في مقهى مهران ، والسمر مع جيران ورجال الحي وتبادل الأخبار ، فجلس إليه سلمان يوسف ونعمان يوسف شقيقه ، فسأله سلمان فور جلوسه والسلام عما انتشر في الحي من شائعات .. فقص عليهم حكاية نادر بإيجاز فقال سلمان : أمعقولة هذه الحكاية يا حاج محمود ؟!

– في هذه الدنيا كل شيء معقول .. نحن لم نعلم بهذا الزواج ولم نسمع به ولو همسا ؛ ولا يمكن استبعاده لطريقة حياة تحسين في تلك الصحراء .. فيمكن حدوث ذلك الزواج الغامض كان يمضي اغلب الأيام هناك .. فهو حسب معلوماتنا الأكيدة أنه كان يعمل ويشتغل مع السيد بلال جميل معلمه، ثم شريكه قبل وفاته ، ولو كاشفنا بالزواج لرفضناه دون تردد .. فبنات الأقارب أولى في تلك الأيام كما تعلمون .. والزواج من أنثى صحراوية في حالنا وسكننا في المدينة يصعب قبولنا لذلك الزواج

قال نعمان : معك حق يا أبا حسن .. وتحسين الذي اذكره ـ رحمه الله ـ لم يكن له أصدقاء نتيجة استقراره في جوف الصحراء حتى يفصح لهم بمشروع حساس كهذا

فقال سلمان: حتى مقهاه في أيام العطل والأعياد كان في قلب المدينة في مركز العاصمة .. وكان محبا للسينما ، ولولا صراع بين خالة الأولاد وزوجها لما عرفوا بقصة زواج أمهم .. فكانوا كل هذه السنين يخفون الحقيقة

قال نعمان أبو نوح : يبدو أنهم بعد زواج البنت خشوا رغبة الشباب بالزواج ، وهم يعلمون أنهم لا ينتسبون للعشيرة حقيقة ..فكان لابد من التخلص منهم يا حاج محمود

– لم يتحدث الشاب عن زواج ، وعمره خمس وعشرون ولم يتزوج على خلاف عادة زواج أبناء القبائل دون العشرين ؛ ولكن هذا الهاجس وارد .. وأنا فهمت أن تأخر زواجه للفقر واليتم والعمل في الرعي ..وتحسين كما تخبرون لم يترك ثروة لينازع عليها ؛ لنقول جاءوا يبحثون

ويطلبون مال أبيهم ، كان مستورا ..وأنا بفضل الله كنت انفق على ابنة أخي وابنتها ثم أبناء تحسين مساعدة له

قال نعمان : العم مهران ينادي علينا يا سيد محمود

تبسموا وقال سلمان : أكيد سمع الخبر ويريد سماعه من صاحبه

انتقلوا إلى طاولة مهران الكبيرة ، وأحضر العامل مقعدين إضافيين .. فلما جلسوا طلب لهم مهران الشاي المشروب المفضل ولا يرد ، وقال : هل صحيح أنه ظهر لك أحفاد جدد من قلب الصحراء يا حاج محمود ؟!

- يبدو هذا

- حدثت عصرا عن طرف من الخبر من أحد الرواد لا داعي لذكر اسمه قال الناس تتحدث أن أحفادا جددا ظهروا للحاج محمود حسن.. فالأخبار تنتشر بسرعة أسرع من الإذاعة

فقال محمود باسما : أنا فعلا لا أدري كيف عرف الناس الخبر والقصة ؟ الشاب تركنا قبل العصر بقليل لتناول الطعام مع سالم حسين

تبسم القوم وقال مهران : لا تعجب من شيء ما دام بعد هذه السنين يظهر لك من يزعم أنه حفيدك.. أم حسن خبرت البنات على التلفون .. والبنات اخبرن الحموات وهكذا شاع الخبر

غمرهم الضحك وقال السيد : معك حق يا حاج مهران الأخبار أسرع من النار في الهشيم والعشب اليابس .. وخاصة خبر كهذا مثير للعجب والدهشة .

ولخص محمود القصة مرة ثانية ، وعقب مهران بعد صمت محمود : لا أعتقد أن الشاب جاء ليحتال .. فهذه قصة صعبة ومعقدة لا يستطيع أحد من الشارع أن يأتي ويزعم أنه حفيدك ، وأن أباه فلان .. فأنا معك أن الرجل ابن ابنك وحفيدك .. ماذا يجني محتال من إيجاد عائلة وأسرة ؟! سبحان الله ! ذرية جديدة لك يا أبا حسن لم يعد ابن تحسين السيد محمود وحيدا فقد جاءه أخوان .. ماذا تقول أم محمود ألم يحدثها زوجها عن هذا الزواج ؟!

- سألتها بعد ذهاب الشاب للفندق ، تحدثت معها بواسطة التلفون وبعد أن ذكرت لها القصة

استغربت ؛ ولكنها ذكرت مرة أنها عندما أرادت غسل الثياب وجدت في ثياب تحسين صورة امرأة صورة فوتوغرافية ، ولما أخبرته بأمر الصورة أجابها بأنها صورة ممثلة وقفت في المحطة ، كانت في طريقها لبغداد ، وانتهى الموضوع لأنه أخذ بتمزيقها ورماها في سلة النفايات ، ومضى هذا الحادث البسيط بدون ذكر ، ولم يتحدث عنه إلا اليوم .. وهو مزق الصورة وانتهى الموضوع بالنسبة إليه .. وتدعي أم محمود ابنة أخي محمد لو ترى رسما للمرأة أم نادر ربما تتمكن من المقارنة بين الصورتين وتتذكر تلك الصورة ؛لأنها تأملتها جيدا قبل أن يأتي تحسين وتسأله عنها .. وعندما أقابل الشاب صباح الغد سأطلب منه مثل هذه الصورة فهي قرينة جيدة لو تذكرتها نورا فعلا

علق الأستاذ سلمان فقال : لا أتوقع أن لها صورة ، إنما هي صورة من مصور جوال ربما نزل تلك المحطة للتزود بالطعام أو الوقود فصورها لتحسين .. صورة واحدة إذا كانت لها ، وربما هي تصورتها إن صدفت هذا المصور في ذاك المكان وقد تكون صورة ممثلة فعلا

قال مهران : لا يعول في إثبات الحقائق الكبرى على صورة واحدة .. وكيف تعملون لإثبات هذا النسب ؟

- من ناحية قلبية أنا مسلم بصدق هذا الحكاية ، ومن لهجة ولهفة الشاب تحس أنه صادق وباحث عن أهله.. وحياة تحسين تلك الأيام توحي بمثل وقوع ذلك .. وعندما يتكلم الشاب كنت أحسن من طريقة كلامه أنه يتكلم مثل تحسين مع أنه لا يشبهه صورة .. طريقة لفظ الحروف أحس أنه تحسين يتكلم ؛ ولكن لهجته لهجة صحراوية والقلب لا يخدع .. سنذهب لمقابلة تلك الخالة التي أفشت الحقيقة ، ونرى بعض أفراد العائلة والعشيرة الذين عاصروا الحدث ، وشيخ العقود في تلك الصحراء ؛ لعله يذكر ويتذكر هذا الزواج إذا ما زال حيا .. وهو زواج حدث تحت ضغط جريمة زنا أو فِلم بين الطرفين لإتمام الزواج فزعموا ذلك .. وقد يكون اجبر على الزواج منها .. لا نعلم ولا نادر يعلم

- يفعل ذلك بعض الناس كما يحدث في حيينا بين زمن وآخر .. طريقة قديمة للنكاح

تحدث محمود عند العاشرة في الصباح التالي مع موظف الاستقبال سائلا عن السيد نادر ، فأخبره أن يجلس أمامه في قاعة الاستقبال .. فكلمه محمود وحياه تحية الصباح ، واطمئن على راحته وصحته ، وطلب منه المجيء إلى المحل حيث العمارة ، ورحب به حسين ، وسأله عن حاله وصحته ، وقدم له علبة عصير مثلج ، ولما حضر الحاج تصافح الرجلان وقال : هل أفطرت ؟



- نعم ، أكلت في مطعم مجاور للفندق .. ودفع الموظف للمطعم

- سالم هنا ؟

رد حسين : ذهب لشغله .. حسن هنا

- حسن موجود جيد .. يا ولدي يا نادر أنت الآن ابننا حتى يثبت عكس ذلك ..سنتعامل معك كابن لنا .. فسيذهب بك حسن لمتاجر غازي ليشتري لك بعض الثياب كهدية

حاول الشاب التخلص من ذلك ؛ ولكن الجد أصر وحلف عليها فلزم الصمت وقال : يا ولدي نحن نكسو الغريب .. وقد بعثت لك ملابس داخلية مساء أمس هل استلمتها

- وصلت ولبست بعضها بعدما استحممت في حمام غرفة النوم وأنا أشكرك يا سيدي

- لا شكر على واجب .. فسيأخذك حسن لقياس الثياب وتختار

أتى حسن من البيت وقبل يد جده وأبيه ، وسلم على الشاب الذي سمع قصته أمس ، وشرح الجد لحسن مهمته وقال : أنا في انتظاركم يا حسن

بعد ابتعادهم قال محمود لولده حسين: لا أدري هل لاحظت يا حسين أن نبرة صوته قريبة

من صوت المرحوم تحسين .. فهو ينطق الألفاظ مثله أو قريبا منه

ابتسم حسين المعلم المتقاعد وقال: وقع ذلك في نفسي عندما قابلناه أمس قبل صعوده إليك ، ولما اخبرني سالم بسبب مجيئه .. ذاكرتك جيدة يا أبي مع أن المرحوم له أكثر من خمس عشرة سنة ميتا نعم لديه صوت شبيه بتحسين

- وهذا ما يزيد اليقين بأن هذا الشاب من العائلة.. ولابد من اليقين الكامل أو شبهه والاتصال بالعشيرة ومعرفة المزيد من اليقين حتى لا يبقى شك في نفس أحد من العائلة

- ماذا سنفعل اليوم ؟

- سأذهب به إلى مكتب المحامي في وسط المدينة ونتناقش معه في الإجراءات والخطوات المطلوبة تحدثت معه ليلة أمس في البيت " وقال : مر بعد الظهر ، ثم نفكر برحلة لتلك الصحراء والقرية ، ونرى أهله من جهة أمه ، ونلتقي بالخالة ، ونسمع منها ، ونسمع من زوجها ، ونسعى إلى لقاء من عاصر ذاك الزواج

- قريتهم صغيرة كما فهمت منك ليلة أمس

- صغيرة كقرية .. وهي جزء من عدة قرى من قبيلة .. سنجد من لديه

معرفة من العواجيز ، ثم نقابل أرملة بلال جميل ، فهو مشى إليهم ليعرف مكاننا ، قد يصرحون لنا بما لم يصرحوا به لنادر .. فنورا لم يتكلم أمامها بزواج ثاني .. وكان ينظر لزوجته تلك أنها الأصل ، وأن زواجه من نورا جبر لخواطرنا وحتى لا يعترف بزواجه الأول .. فهذا نادر ولد قبل زواجه من ابنة عمه

- الطب الشرعي ألا يساعد في ذلك ؟

محمود : يساعد إلى حد ما ؛ لكنه لا يحسم الأمر .. زمر الدم تقرب المعرفة .. "قال المحامي إنها تنفي الأبوة أكثر من إثباتها إذا ثبت أن زواجا كان بينهم .. سيساعد الكشف الطبي في بيان علاقة بين الأولاد وأبيهم ؛ لذلك عندما نسمع عن تبديل مولود بمولود يجري تحليل للأب الحقيقي والمشتبه به .. فتساعد فصائل الدم إلى حد ما في نفي الأبوة عن أحدهم .. كانوا قديما

يعتمدون على القيافة والفراسة والتشابه بين المولود وأهله "

- ربنا سيسهل الأمر .. والحق يظهر ولو بعد حين

محمود : فهمت من القانوني أبي رياض أن الأمر لا يحسم طبيا نحتاج إلى إثبات الزواج اولا

- هل تحب أن أصحبك للمحامي ؟

- لا داعي .. فالأمر مجرد مناقشة وتبادل الآراء في مثل هكذا قضايا ..

سأنزل لوسط المدينة بسيارات الأجرة ، وأصلي الظهر في جامع العمري الكبير ونركب إلى مكتبه .. وسيكون معي نادر ليراه ويسمعه الرجل .. فقد دهش مثلنا لهذه الحكاية "وقال لا يمكن أن يكون هذا احتيالا خاصة في أوقات السلم والسلام " وبعد اللقاء سنعود .. وأترك الشاب في الفندق لنرتب أمر الرحلة إلى الصحراء البعيدة .. فأنت اهتم بتأمين سيارة خاصة تقلنا إلى هناك لمقابلة الناس وسماع أقوالهم .. لما تكثر المصادر تتأكد الحكاية أكثر وأؤكد .. وعلينا بعد ذلك إنقاذهم من البؤس والصحراء

حسين : وفقك الله يا أبي .



استقبلهم حضرة المحامي خير استقبال للصداقة الكبيرة التي تربط بينه وبين السيد محمود ، وأيضا لأن ابن أخيه زوج إحدى بنات بنات الحاج ، فتجمع بينهم المصاهرة والعمل والصداقة .. فهو محامي العائلة منذ تصاهروا ..وبعد الترحيب المعتاد والاطمئنان على الأقارب والأبناء لخص له محمود القصة من جديد .. وكان ليلا مستغربا لها ، وتكلم الشاب بإشارة من جده وأكد ما رواه الجد فقال المحامي : أعلمتك خالتك بعد كل هذه السنين بأنك ابن رجل من المدينة .. ولم يكن أبوك من أهل القرية والعشيرة ؟

- نعم ، أخبرتني هذا من أيام قليلة ، ولما استوعبته حملت نفسي باحثا عن أهلي ، وذهبت لمحطة التصليح والاستراحة للمسافرين على الطريق البري .. كانت المحطة قريبة من القرية تلك الأيام ثم غيرت مكانها ، وسألت عن السيد بلال جميل الذي كان صديقا لأبي أيام زواجه ـ فخالتي التقت به وتعرفه ـ فوجدته قد هجر العمل بعد الحادث بسنة ، وعلمت من بعض رجال المحطة الجديدة مكان سكنه في العاصمة بيت السلام ، وذهبت لبيته ، وقابلت امرأته لأن الرجل ميت ، وعرفت منهم أنهم لا يعرفون عنوان أبي .. كانوا صغارا تلك الأيام .. وأخذني أحد أبناء الرجل لدائرة شرطة .. ولما عرفوا حكايتي وغايتي ذكروا لي عنوان الحاج محمود في "أبو خروف" فقد وجدوا في سجل حادث أبي عنوان الحاج

- هل شككت قبل سماع خالتك بأنك لا تنتمي للقبيلة ؟

- أنا أعلم أن والدي مات بحادث ؛ لأني كنت ابن تسع سنوات عند مقتله ووصول الخبر للقرية ؛ ولكن لم أكن أعلم أن والدي ليس ابن القبيلة .. حتى لما نسأل عن أعمامنا وأبناء عمنا نخبر أن والدنا وحيد والديه .. وكلهم ماتوا قبل زواج أبي من أمي أقصد والدي أبي ، ونصدق ذلك ؛ لأن رجال القرية قليلون ، فكل كم أسرة يعيشون في بلدة أو قرية ، ولما ماتت أمنا عشنا مع خالتنا .. وبدأت اعمل بالرعي وأنا ابن عشر سنوات ، ثم أصبحنا نرعى لعدد من العائلات من القرى الأخرى ، فلم نكن نفكر أبدا بأننا لسنا من أهل القرية .. ومن كنا

نرعى معهم شبانا مثلنا لا يعرفون إلا أننا أبناء غزية اسم أمنا ، وأننا أيتام.. حتى الزواج لم تتحدث معنا خالتنا بشأنه يوما .. كنا نحب العزلة والابتعاد مع الرعيان .. لا نعود إلا عند مواسم البيع ..وكنا ننفر من زوج خالتنا .. لم يكن بينهما ود ، ولما كثرت مشاكل خالتي مع زوجها ، ثم اتضح لنا أننا من أسبابها وبسبب مبيتنا عندها في بعض الليالي عندما نرجع للقرية ، فعدنا لمنزل الوالد المهجور ..لم يحدثنا أحد عن زواجنا .. فكنا نشعر بالحرج والضيق وننتظر ... ، ثم كان زواج نادرة .. فكبر الشجار بينهم .. وكاشفتنا الخالة بسر أبينا ، وأننا لسنا من أبناء القبيلة .. فصدمنا وفهمنا سر الجفاء بيننا وبين رجال القبيلة في القرية والقرى الأخرى .. ولمنا الخالة على تأخرها في كتم الأمر ، ولم تقله قبل زواج البنت .." فقالت : وصية أمكم أن تبقوا هنا ؛ ولكن الزمن تغير وتخرب بيوت ، فكان عليّ بالكلام " وأخذت على عاتقي الوصول لأهل أبي مهما كلف الأمر ، وتركت الغنم مع جلال ، وجئت باحثا .. والله يسر خطواتي

قال المحامي: وماذا تريدون من التعرف على أهليكم ؟

– أريد أن أعيش معهم ، لا مكان لنا ـ بعد ظهور الحقيقة ـ في القبيلة ..وأن نبدأ حياة جديدة فهم الأهل والقوم ..ونعرف أهلنا وأهل أبينا

فالتفت المحامي للحاج محمود وقال : وأنت يا أبا حسن ماذا تقول ؟

– أنا يسرني أن يثبت أنهم أحفاد لي وأبناء لتحسين ، فكما تعلم لتحسين ولد واحد .. فجيد أن يوجد له أشقاء .. نريد تقوية ذلك حتى لا يطعن شخص فيهم في مستقبل الأيام.. فهم ذرية من صلبي في نهاية الحكاية

– عندما نثبت الزواج بشهادة الشهود سنرفع قضية إثبات النسب .. وهي سهلة إنما هي مجرد إجراءات إذا أثبتنا صحة الزواج ، وأن تحسينا هو والدهم ..فيكون الباقي إجراءات قانونية ومحكمة .. علينا أن نحول الشهادات الشفوية إلى وثائق رسمية .. وإذا استطاع الشيخ الذي عقد الزواج التذكر فسيسهل الأمر يا حاج محمود ..وتقبل الحكومة شهادته ما دام يقرون

عمله في تلك البراري .. علينا أن نعرف اسم هذا العقاد وقصة هذا الزواج .. فهو يعرف ابن القبيلة من الغريب .. نحتاج إلى جهد بدني في هذه القضية .. فمهمتك يا أبا حسن كما خططت برحلة لتلك القرية ومقابلة الخالة ..وسيصحبك في هذه الرحلة كاتب شرعي ورجل شرطة أو سيارة نجدة ؛ وربما سيارة جيش لأنها منطقة لا تخضع للشرطة في الوقت الحالي وسماع زوج الخالة وبعض الأقارب ..فأم أمك وأبيها غير أحياء

- نعم ، جدي مات منذ عهد قريب سنة أو تزيد شهورا

- لم يتحدث أمامكم بشيء؟

- لم نسمع شيئا .. ليس محبا لنا .. ولا يحب الجلوس طويلا معنا

فقال المحامي : وعليكم معرفة شيخ الزواج وسماع شهادته يا أبا حسن .. وإذا اجتمعتم بشيخ القبيلة الأكبر قد تجدون عنده الخبر اليقين .. فهؤلاء الشيوخ يعرفون ويسمعون كل مشاكل القبيلة .. وناشد رجال القرية بالكلام لبيان الحقيقة واثبات نسب العيال .. متى ستقوم بالمهمة؟

- بأسرع وقت يا أبا رياض

- أمهلني يا سيدي يومين لاتصل مع الجهات المسئولة والشرطة لتكون معكم لدى هؤلاء الناس

- أليس هناك فحوصات طبية ؟

- لا داعي لها إذا ثبت الزواج ثبت النسب في القانون والشرع .. وفحص زمر الدم تجري عند الشك في الوالد والمولود

لما رجعا للحي قال الحاج لنادر : ألديك رغبة بالعودة للصحراء أم تفضل البقاء في الفندق حتى يرتب لنا المحامي أمر الرحلة ؟

ففضل الشاب البقاء وقال: الغنمات التي أرعاها ليست لي ، إنما هي لعجائز من القرية والقرى الأخرى ، لا أحد يرعى لهن ، إما أرامل وإما لا أحفاد وأبناء لهن ماتوا أو هربوا من

القبيلة ولم يرجعوا ، وبعضها لتجار حلال من القبيلة .. وجلال يقوم بالمهمة عني إلا إذا أحببت ذهابي فانتقل لمكان آخر حتى ترتبوا الأمور وأعود إليكم ..حتى لو لم نصل لإثبات النسب بكم سنترك الصحراء .. لم يعد لنا بها مقام .. فلا عشيرة لنا .. ليست عشيرتنا

- أبدا يا ولدي أنت ابننا بإذن الله .. وأنت على وشك أن تكون حفيدا لي .. إنما هذه الإجراءات من أجلكم لتحصلوا على وثائق رسمية .. فهي مهمة اليوم لا غنى عنها في المدينة .. تحتاجون لبطاقة شخصية نسميها هوية .. وشهادة ميلاد أو تقدير سن .. وبهذا الوثائق تصبحون من العائلة .. فلأبيك خمس أخوات وأخوان حسن ومات في فلسطين وأبوك ومات بحادث سيارات ..وأختك ماذا سنفعل بها ؟ هل ستبقى هناك ؟

- سنسعى لجلبها منهم ، ونطلقها وتعيش معنا هذا أفضل

- وزوجها

- سيتخلى عنها .. بنات القبيلة كثر حتى أن زواجها تأخر .. فالبنت في القبيلة تنكح دون الخامسة عشرة .. وهي زوجت رغم أنفها كما يقال .. تزوجها أحد أقارب زوج خالتي ضرة أصلا

- لم تلد بعد ؟

- بدأت المشاكل الكبيرة عند زواجها وخطبتها ، لم أسمع بحملها بعد ، وستتخلى عنهم عندما تعرف أهلها الحقيقيين

- نعم ، ستقطع صلتها بهؤلاء الناس .. أتعرف منزل السيد بلال ؟

- نعم ، ذهبت إليه والتقيت بامرأته وأحد أبنائه ، وهم الذين ساعدوني في الذهاب للشرطة كما تكلمت أمام المحامي ولك من قبل

- زوجة الرجل حية كما أخبرت

قال نادر : أنا قابلت امرأة أحسب أنها زوجته وامرأة صغيرة وزوجها وسألتهم عن تحسين محمود بعد أن شرحت لهم الغاية من السؤال فتذكرونه ؛ لأنه كما قالت المرأة الكبيرة في السن

مات في حادث مروع ، وذكرت أن الرجل حزن عليه كثيرا ؛ ولكنهم لم يكونوا يسكنون في البيت القديم ، فقد ذهبت إلى البيت القديم ، فأخبرني ساكنه أنهم باعوه بعد موت السيد بلال ، وذهبت الأم للحياة والعيش مع ابنها الكبير ؛ وهم لم يكونوا يعرفون أين يسكن والدي في أي حي من إحياء العاصمة لصغر سنهم حين موت والدي ؛ لأجل ذلك ذهبنا للشرطة ، فالرجل له معارف في الشرطة ، وأحب أن يخدمني وفعل ، " وقال ابنه أن والده بعد موت تحسين كره المكان وهجر المكان ، وسافر لبغداد وعمل فترة هناك ، ثم عاد " فأعتقد أن المرأة الكبيرة التي رأيتها زوجته وأم ابنه .. هكذا فهمت من المحاورة

قال السيد : سنسمعها ـ إن شاء الله ـ هذا الذي نعمله يا نادر لمصلحتكم أولا وأخيرا .. ومعنا مجال أن نقابلهم غداً ما دام أنت عرفت بيتهم .. والفندق بيتك حتى نكمل المشوار فخذ راحتك فيه .

ولما وصلا الحي ساقه الجد للغداء معه ، وطلب من حسين أن يرسل لهم الغداء على البيت ، وتغدوا في بيت الحاج محمود حسن ، وأوصله حسن بسيارة أبيه للفندق ، وأعاد التوصية به للمدير أبي موسى والموظفين ، فقد وجده في مكتبه يراجع حسابات الفندق ، وكانت في البيت بعض بنات الحاج جئن لمشاهدة ابن تحسين والتعرف عليه ، وبعضهن أتين في المساء ، فطلبه الحاج مرة أخرى ليرى من سيكن عماته وبنات أقاربه ، فجلس معهم ساعة ، وتعرف على بعض أزواجهن ، وأعاد على مسامعهم القصة ..قصة اكتشاف أن أباه من أهل المدينة ، ولم يكن من أهالي القبيلة والصحراء كما عاش يفهم ذلك ، ولم يفهم سبب إخفاء ذلك عنهم من قبل أمه وجده وخالته الوحيدة ..وقالت له إحداهن : متى ستأتي بأخيك وأختك ؟

– إن شاء الله قريبا .. سنذهب للصحراء والقرية التي ولدنا فيها ، ويقوم الجد محمود ببعض المقابلات المهمة ، وسماع الشهود وتوثيق الأقوال لإجراء اللازم في المحكمة ، وسنغادر القرية إلى غير رجعة حتى لو لم تعترفوا بنا سنتركها ، لم يعد لنا بها مقام ، والخالة ليست بحاجة لنا ، فلها زوج وأولاد

وقال محمود الجالس يسمع ويتهامس مع أزواج البنات : كما قال نادر أنا متأكد أنه ابن تحسين غير انجذاب القلب .. فيه شيء من أبيه .. طريقة كلامه ولفظه للكلام .. وهذه لا يمكن إلا أن تكون وراثة .. فهو لا يعرف أباه حق المعرفة .. وأيدتني الحاجة أم حسن ليلة أمس " وقالت لو سمعته قبل أن يعرف على نفسه لظننت أني أسمع ابني" .. هذه الإجراءات حتى تعترف به الحكومة أنه حفيد لنا .. الأوراق الرسمية لابد منها اليوم .. سيرسل معنا المحامي أبو رياض كاتبا رسميا وشرطيا أو دورية عسكرية ليعلموا أهمية كلامهم وجدية القضية .. وغدا سنمر على زوجة بلال جميل شريك تحسين القديم ..قد تتكلم بشيء مهم رغم أنهم قالوا لنادر لم نسمع بهذا الزواج ، وما دام نحن أخص الناس بالمرحوم لم نسمع به .. فقد يكون هؤلاء لم يسمعوا به ..الأمر غامض ؛ ولكنه محتمل

- الرجل ميت

- امرأته حية ..وعندما تراني وتعرف أنني والد السيد تحسين .. قد تتكلم بحرية وصراحة



كان حسين يملك سيارة خاصة ، وولده سالم زوج الدكتورة دلال يملك سيارة في ذلك العهد ، فركب والده بجواره ويعتبر هذا اليوم نوعا من البر والاحترام للآباء في عرف الناس ، وجلس نادر في كرسي السيارة الخلفي ذاهبين لمنزل ابن السيد بلال حيث قابله وقابل أمه عندما جاء باحثا عن السيد بلال .

وكان تحركهم بعد صلاة الظهر وقبل وقت صلاة العصر ، وانطلقوا إلى الحي الذي يسكنون فيه من أحياء العاصمة الكبيرة .. استطاع نادر إيصالهم لذلك البيت بدون صعوبة ، وفتحت له الباب امرأة شابة لما تمعنت فيه تذكرته ، فقد طرق بابهم منذ أيام يسيرة ، رحبت به المرأة ، ولاحظت أنه ينظر للسيارة التي تقف أمام الباب ، فقال حسين بصوت مرتفع : السلام عليكم امرأة السيد بلال جميل موجودة

حدقت به المرأة وقالت : حماتي لا تسكن هنا

نزل الحاج محمود موضحا وقال : كان ابني المرحوم تحسين يعمل مع زوجها

رحبت المرأة بالشيخ محمود وقالت: أهلا وسهلا اذكر أن هذا الشاب ـ وأشارت لنادر ـ طرق بابنا من عدة أيام ، وجاء يسأل عن سكن السيد تحسين محمود

– هذا صحيح يا بنية أريد الحديث مع السيدة الوالدة

– أنا زوجة ابنها يا عمي الحاج ، وهي تسكن مع ابنها الأصغر ؛ كانت ذلك اليوم في ضيافتي ، وزوجي أكبر أولاد عمي بلال

– كيف الوصول إليها ؟ نحن بحاجة للحديث معها في الماضي البعيد

– غالبا ما تكون في البيت ..وليس عندي هذه الساعة إلا طفل رضيع

– وماذا يعمل شقيق زوجك ؟

– قد يكون في البيت ، فهو يعمل ممرضا في مستشفى ، وستكون معها زوجة ابنها

– أين عنوانها ؟

– انظر ذلك المنزل الكبير ـ وكانت تشير بيدها كلها ـ أترونه ؟

فقال نادر : نعم ، أهو البيت ؟

– إنها تسكن فيه .. تدعى أم طارق .. بيت أم طارق يا حاج محمود

شكروها وركبوا السيارة ، واتجهوا لذلك البيت الكبير ، وصف حسين السيارة أمام البيت ، ونزل نادر يقرع الجرس ، فخرج لهم شاب غلام فقال نادر : بيت أم طارق

فقال الشاب : إنها جدتي .. أمر ؟!

قال : قل لها ـ وأشار إلى الحاج الجالس بجوار سائق السيارة الذي بدأ ينزل ـ الحاج محمود حسن أبو حسن يرغب بالحديث معها

– من أبو حسن ؟

فأجاب الحاج باسما : أنا يا ولدي .. جدك أبو حسن .. ما اسمك ؟

– اسمي جهاد

– تشرفنا ..نريد الحديث مع أم طارق في موضوع مهم وخطير

دخل الفتى البيت ، وعاد يصحب أمه التي رحبت بهم ، وقالت : ماذا تريدون من حماتي أم طارق؟!

قال نادر : لقد التقيت بها منذ أيام في منزل شقيق زوجك في قضية هامة

شرح لها أبو حسن الموقف باختصار فقالت : حسنا انتظروا قليلا حتى اتصل بزوجي وحماتي

جلس الثلاثة في السيارة ينتظرون الأذن بدخول البيت ، وبعد وقت يسير أدخلتهم المرأة إلى غرفة الاستقبال والضيافة ، وكانت السيدة أم طارق في استقبالهم والترحيب بهم قالت : نعم يا حاج محمود يا أبا تحسين رحمه الله

– شكرًا يا أم طارق .. ورحم الله المرحوم بلال .. القصة كما قال لك هذا الشاب قبل أيام

استدارت ببطء تجاه نادر وقالت وهي تعيد رأسها جهة الحاج : نعم ، قابلته في منزل طارق جاء يبحث عن بيتكم ومكان سكنكم ، وأذكر المرحوم تحسين جيدا ، لقد دعاه زوجي

إلى البيت عددا من المرات ، وأكل من طعامي ، أنا لا أنساه أيضاً بسبب الحادث المرعب كما قيل الذي وقع له ، ولما عاد بلال من الصحراء بعد معرفته بالحادث جاء إليكم هو وأنا للتعزية بموته ، وكان ذلك بعد انتهاء العزاء؛ لأنه عرف متأخرا .. أما حكاية هذا الشاب وزواج تحسين من أمه دون علمكم .. فلم أسمع بهذا الزواج يا حاج محمود ..واستغربت يوم التقيت به قصة هذا الزواج .. وقلت له لا يعني هذا أنه لم يكن متزوجا .. فكثير من شبابنا يا حاج محمود ، وهم في بلاد الاغتراب يتزوجون ويطلقون أو حتى يموتون دون أن يعرف أهلهم بزواجهم ، فهم يتزوجون من أجل المتعة من أجل الحصول على الجنسية.. قضى زوجي زمنا طويلا يعمل في الطريق الصحراوي قبل أن يتعرف على ابن حضرتكم ، ثم تعرف عليه وترك شريكه أو شريكه تركه ، وأعطاه أي باعه المحل بالعدة والآلات ، وكان دائم الثناء على تحسين وقدرته على العمل إذا جاء ذكره ، وحزن كثيرا لموته حتى كره الشغل بعد حين يسير ، ثم سافر للعراق بضع سنين ثم عاد ، ومرض ثم توفاه الله تعالى رحمه الله

- رحمهم الله جميعهم .. زواج ما زواج ما تحدث المرحوم عن ذلك

- لم أسمعه يتحدث عن زواج في الصحراء ، بل حضرنا زواجه من أرملة أخيه على ما أذكر

- نعم ، تزوج امرأة أخيه بعد ترملها .. أنا أكيد التقيت زوجك في ذلك

العرس .. ولكن لا أذكر صورته .. ما تحدث عن زواجه قبل زواجه ابنة أخي ؟

قالت بعمق : تحدث عن زواجه من أرملة أخيه ؛ ولكنه ما حدثني عن زواجه فتاة صحراوية قال سيتزوج تحسين من أرملة أخيه حسن على ما أذكر .. وذهب العرس ، وقد عملت وليمة كبيرة للضيوف

- صدقت يا أم طارق

- هذا الزواج سمعت به .. وما دامت خالة الشاب ـ وأشارت لنادر ـ تحدثت بذلك لابد أن يكون صحيحا يا حاج .. وإلا لما تكلمت بمثل هذا الكلام الخطير .. ولماذا تخترع صحراوية هذه القصة؟!

– لكنها تأخرت بالحديث عن ذلك للأولاد

– كانوا يرغبون بإخفاء ذلك لأسباب هم يعلمونها ، وربما زالت الأسباب ، وجد جديد أثناء العودة وبعد مقابلة زوجة بلال جميل المعروف لكم قال محمود لنادر: أكان قوم أمك ينادونك باسم تحسين ؟

– كان هذا معروفا لنا .. نحن نعرف اسم أبينا .. بعد الوفاة شاع بينهم مناداتنا باسم أمنا أولاد غزية ـ هذا اسم أمي ـ نسمع نادر بن غزية .. جلال بن غزية .. نادرة بنت غزية .. وهذا يحصل لنا ولغيرنا .. لم يكن خاصا بنا .. كان لنا خال اسمه حسان مات ـ رحمه الله ـ ينادينا باسم أبينا "أنت يا نادر بن تحسين " ، ومرات يلفظها " حسين اعمل كذا ، هات كذا " ، فكان اسم الوالد معروفا ، ولم تشكل المناداة لنا أي انتباه لأصل الوالد ؛ لأننا نعيش على أن الرجل من العشيرة ، وأنه من فرع معدوم لا عم ولا جدة من جهة الأب ، ولما عشنا مع الخالة روية اسمها روية ..كان يتردد اسم زوج أمنا كأي اسم .. فهو ميت كأي ميت حتى أبناء ندمان زوج الخالة ما كانوا يشعروننا أننا أبناء أب من المدينة

– نعم ، نعم ، على كل حال سنذهب لتلك المنطقة ، ونقابل الناس ونفعل ما يرتبه المحامي من خطوات ونتعرف على الخالة روية وزوجها وأبناء زوجها والعشيرة

– لا تزعلوا مني ..كان لابد من البحث عنكم .. لو بقيت أمي حية ترزق ربما تزوجت قبل بلوغي العشرين " يقول خالي : إن أمي كانت سيدة ترعب .. رجالة القرية .. يخشونها ويخشون لسانها وصوتها ، فقال : فقد فرح بعضهم بموتها صغيرة " ووالدها كان يحسب لها ألف حساب ويخاف منها .. أنا أعي بعض مشاجراتها العنيفة معه ومع خالي وخالتي روية .. وخالي هذا قتل في غارة من بعض لصوص الفجر .. وقيل من عصابة مخدرات .. كان يعمل معهم ؛ ولأنه ابن الصحراء كان يساعدهم في نقلها وتهريبها ونقل العصابة ..ووالد أمي فقد قرصته حية سامة ، وقضى أياما في المستشفى ، ثم مات وفارق الحياة ، ولم يبق من ذريته اليوم إلا خالتي ..كان له بنتان وولد .. وأفراد العشيرة لا يتكلمون ، ولا أعرف من هم أصدقاء أبي

، إنما أعرف من بعض الرعاة أن أبي تزوج أمي رغم أنف العشيرة ، وأنه صاحب شغل في المحطة .. من هم أهله ؟ لا يعلمون .. ولا يعرفونه بشكل جيد .. وهذا تكلموا به بعد كشف خالتي لنا ذلك .. فسألنا فأكد بعضهم هذه الحقيقة .. فهم لا يعرفون أبي حق المعرفة .. فهو لم يكن يختلط بهم لشغله ولقضاء إجازته عندكم .. إنما هو رجل استطاع نكاح فتاة من فتيات القبيلة .. وليس هو الحالة والوحيدة ؛ ولكنهم قلة عادة .. وهم أصحاب ابل وخيل .. قليل من يركب السيارة ، ويحتاجها في تلك الصحراء .. فربما كان يبقى الوالد للفجر وهو يعالج ويصلح السيارة المقطوعة والمعطلة على الطرق .. وتصليح الشاحنات أمر مرهق .. ويأخذ وقتا .. فتبديل عجل يحتاج لساعات

قال حسين: صحيح .. الأمر شاق ، لابد أن أكثر وقته كان يقضيه في العمل ..لا وقت للأصدقاء والمعارف ؛ وخاصة أنه لم يكن يربطه بالعشيرة إلا أمك رحمهم الله جميعا

قال محمود : رحمهم الله .. سوف تصل القصة لنهاية .. ونجلب أبناءنا من قلب الصحراء وتصبحون من أهل المدينة .. اطمئن يا نادر الليلة أو صباح الغد سأتكلم مع صديقنا المحامي ونطلع على الجهود التي بذلها .. فهو منذ تزوج ابن شقيقه بنت إحدى البنات وهو يتولى قضايانا القانونية الكثيرة مع الشركات مع المستأجرين .. والرجل لم يقصر معنا ويخدمنا ، ونحن لم نقصر معه في الأجرة ..اطمئن يا ولدي

- أنا آسف جدا لإتعابك وأنت في هذه السن .. الحقيقة مهما طال الزمن ستظهر .. وكان واجب عليّ التعرف على أهلي .. لا أريد منهم شيئا .. وكنت كلي طمع أن أجد الحقيقة كاملة عندكم ، وأنكم تعرفون بزواج أبي من أمي

قال حسين ضاحكا : نحن لو كنا نعلم بزواجه لسعينا للحصول عليكم ، أو نصبر إلى حين انتهاء فترة الحضانة ، وكذلك أنفقنا عليكم حتى تكبروا .. ولو اتصل بنا أولئك القوم عندما علموا بوفاة تحسين للبينا النداء .. أنتم لنا ولستم لهم ..كنا نجهل هذا الزواج البتة .. إنما هم صمتوا لم يرسلوا إشارة ...وحتى السيد بلال الذي لابد ولا شك أن يكون عارفا بمثل هذا

زواج لم يتكلم ، لم يرسل رسالة بهذا الشأن .. ربما أمك ـ رحمها الله ـ اعتبرت أن الأمر لا يعنيننا ما دامت قد تزوجت من أبيك بدون مشورة .. والدك كان يعلم أننا لن نقبل بهذا الزواج ؛ وبما أنه يعيش في تلك البراري فلماذا يزعجنا ويحشرنا في مثل هذا الموضوع ؟ وأهلها رأوا رغبة أمك ببقائكم معها فلزموا الصمت خشية منها وخشية فقدانكم

قال نادر: حياة الصحراء شاقة وخشنة .. وأهم أعمالهم الرعي وتربية

المواشي وبيعها في موسم البيع في الأسواق الصحراوية طبعا بيع الفائض منها .. ويعمل شبابهم في التهريب سواء للبشر أم المخدرات .. والزراعة قليلة في بعض القرى.. ويحبون البطالة ..والشغل عندهم مواسم ..وتربية الخيول والإبل تجدها عند كبارات العشيرة والمشايخ .. والمشاكل على المراعي والماء لا تنتهي ..والنساء والبنات يسببان الصراعات بين القرى وأفخاذ القبيلة.. وكنا نسمع عن معارك تنشب بين أفخاذ العشيرة الواحدة .. ومرات مع القبائل الأخرى لكن الدولة تسعى إلى توطين هذه القبائل والتقليل من تنقلها.. واستقرت الكثير منها في القرى وأطراف المدن

قال محمود: الفرج قريب ، وستنتهي حياتكم من مشاكل الصحراء والبادية إلى مشاكل المدن الأكثر قسوة رغم المدنية فيها يا سيد نادر



اتصل السيد محمود قبل الظهيرة بمكتب السيد المحامي عصام أبي رياض فوجد في انتظاره مفاجأة أزعجته وأربكته ، قال المحامي : مرحباً بالحاج الصديق أبي حسن هذه قضيتكم كبرت .

- لم أفهم ؟!

- أنا يا سيدي لما تركتني اتصلت بمدير الشرطة ، وطلبت مقابلة قصيرة معه لمساعدتي في قضية نادر ، وتوصية منه ستسهل الأمور يا سيدي .. فرحب بذلك ، وأعطاني موعدا ، وكان أمس ، ولما تقابلنا في مكتبه لخمس دقائق سمح لي بها شرحت القصة باختصار .." فتبسم وقال : هل تعلم أن هذا الشاب تبحث عن الشرطة ؟.. فشرطة مدينة الحسام ـ أقرب مدينة تابعة لها تلك القرى ـ تبحث عنه ، فقد عدد من الغنم التي يرعاها ، وتسبب اختفاؤه بمشاجرة كبيرة أدت إلى قتل رجل ، وآخر ما زال في غيبوبة "

فأنهى محمود الاتصال قائلا : هذا الكلام لا ينفع على التلفون سأكون عندك بإذن الله قريبا

وعند الظهر دخل السيد إلى مكتب المحامي في قلب المدينة ، وبعد شرب القهوة وأكل الشوكولاتة التي يقدمها المحامي لضيوفه .. تابع المحامي الشرح الذي انقطع بإغلاق الهاتف قبل وقت يسير ، فقال: طلب مدير الشرطة العام الحديث مع مدير شرطة مدينة الحسام المهتمة بالقضية ، وفهم منه تفصيل الحكاية " وقال يبدو أن أحدا استغل غيابه ، وسرق بعض الأغنام ليتهم بها ، وأنه ذهب لبيعها .. ما دام الرجل جاء باحثا عن أهله وأقاربه بعد معرفته بزواج أمه من مدني .. وهو بريء من السرقة والاتهام ، وقال تغير مسار القضية ".. وعدت لمكتبي هذا ، وتحدثت مع مدير شرطة الحسام ، فوجدت أن المدير العام نقل له المعلومات ، ورحب بي " وقال مسرورا : نحن بحاجة إليك ، فلنا أيام نبحث عن الشاب المختفي من القرية ، ومن المرعى " .. ولخص لي القضية كما جاء في التحقيق الجنائي "قال : هذه القرى لا تدخل إليها الشرطة إلا في القضايا الكبرى .. فهي قرى متخلفة ، ويرفضون التحديث والتطور ، فهم

بعيدون عن المدن ويعشقون الصحراء والوديان الصحراوية".

وبعد صمت للحظات قال المحامي : القضية يا أبا حسن أن هذا الشاب اختفى من القرية وكأنه لا يعلم بذهابه للمدينة إلا شقيقه وخالته .. هؤلاء القرويون عندهم موسم لبيع الأغنام والإبل والدواب الأخرى مثل البغال الخيل الحمير الثيران .. فيجتمعون في مكان معروف لهم وللتجار .. تجار اللحوم والخراف لهم موسم لمدة أسبوع في الصيف وأسبوع آخر الشتاء فأصحاب هذه الأنعام يرتبون أمرهم إلى رعاتهم لموافاتهم بها عند الموسم .. فلما ذهب جلال بأغنامه وأغنام شقيقه للسوق وجد أصحابها أنها ناقصة عشرين رأس .. وقال الضابط : في هذه الفترة يكثر سراق الغنم ليبيعوها بسرعة ، وبأي سعر ، ويأخذها الجزارون والتجار بسعر بخس ولصعوبة ردها .. فاتهموا الشاب وشقيقه المختفي ببيعها لتجار الحلال .. حتى أبناء أصحاب الغنم قال يسرقون بعضها خفية عن الرعاة للذهاب بها يكسبون إلى المدينة للمتعة والكيف .. اعترف جلال بذهاب شقيقه للمدينة لحاجة خاصة ، ونفى أن يكون سرقها ، وأنه ذهب لزيارة أقاربه ، وأكدت خالته هذا المقصد .. فاتهموا زوجها ندمان أنه استغل الفرصة وسرقها ؛ وليثير الشبهة على الشباب أو تآمر معهم ظانّين أن الأمر لا يكشف ، ولما سأل ندمان المرأة "أين أرسلت الولد ؟" فقالت له: ذهب يبحث عن أقاربه وأهل أبيه ، فغضب وسخط وانهال عليها ضربا ورفسا وشتما ، حتى فقدت الوعي واضطروا لنقلها للمستشفى ، وكما فهمت من الشرطة أنها كانت متزوجة قبل أن تتزوج زوجها ندمان ، ولما علم ابنها من زوجها الأول بما أصابها جاء من قريته وتشاجر مع ندمان وطعنه بالخنجر فمات على الفور ، والشرطة تبحث عن نادر لسماع أقواله.. هذه هي القصة يا أبا حسن

– وهل يعقل يا أبا رياض أن يكون هذا الولد سارقا لتلك الرؤوس من الغنم ؟!

– هيئته طيبة ؛ ولكن الحاجة للمال ليصل إلى هنا إلى المدينة

– معه مال من أجرة الرعي مالا مدخرا ، فهو يعرف مدينة الحسام وتحدث عنها ويذهب إليها لشراء الثياب والتفرج على المدينة ، وله في السنة سخلتان يأكلهما يبيعهما ، وله أن يشرب من

اللبن .. هذا تكلم به عندما سألته عن حياته وماله، وله بيت والده وأمه في القرية

قال السيد المحامي : الراجح أن السارق هو المقتول زوج خالته .. على كل حال الشرطة كلفتني بالحديث معك ولنقوم بزيارة لشرطة الحسام ومعنا السيد نادر .. والخالة بين الحياة والموت وهذا سيؤخر سماعنا لشهادتها في هذه القضية ، ويعيق اللقاء بها .. فكلامها مهم في زواج تحسين من أختها غزية

- متى سنذهب لمقابلة الشرطة ؟

- ما رأيك غداً صباحا ؟

- سأدبر سائقا لهذه الرحلة الشاقة

- وليكن شابا يا أبا حسن

- على بركة الله.



لما رجع أبو حسن للحي ميل للمحل ، فوجد نادرا مع ولده والعمال ، فنهض نادر محييا ومصافحا للرجل، وقال وهو يلمح استفهاما في وجه الرجل: علمت من الأستاذ العم حسين أنك مشيت للمحامي هل جد جديد ؟

حدق محمود في عيني الشاب وقال لنفسه وهو ينظر إليه : رغم قسوة البيئة التي عاش فيها هذا الشاب؛ فإنه سليم الفطرة طيب .. هل هذا سارق خرفان ؟ ثم رد على نادر بسؤال ليأخذ مزيدا من الفكر : هل أفطرت يا نادر ؟

- نعم ، المدير العم أبو موسى لم يقصر معي ، ويهتم بي أكثر من اللازم .. أرى في وجهك كلاما يا سيدي الكريم ، ماذا قال السيد المحامي ؟ وإن نحن عشنا في الصحراء فعاشرنا السواقين والتجار .. ففي الصحراء تباع الخراف واللحوم

قال السيد متأملا عبارات نادر :كنت عند المحامي .. وأعلمني أن خالتك روية في المستشفى وحالها صعب للغاية .. لقد ضربها زوجها حتى فقدت الوعي .. وهي بين الحياة والموت

قال بأسف وحزن : خالتي مريضة ! لا حول ولا قوة إلا بالله .. إن هذا مؤلم .. زوجها سيء .. وهذه ليست أول مرة يمد يده عليها ..كدت مرة أن أصفعه غيظا .. لولا تحذير الخالة .. هذا ما قاله المحامي لك .. وهل كلامه صحيح ؟

– نعم ، علمه من الشرطة ..والشرطة تبحث عنك .. وأنت متهم بسرقة خراف لمن ترعى لهم .. فقد فقدوا عشرين نعجة

– أنا سرقت من أعمل عندهم ! هذا كذب هذا كذب !! بل أنا لي عندهم عشرون رأسا يريدون السطو عليها وأخذها والاحتيال .. هذا زعم ندمان اللعين

– ندمان مات ! بل قتل

صاح الشاب ثانية : قتل !! كيف؟!

– قتله ابن خالتك من زوجها القديم

– نعم ، لخالتي ابن من زوجها الأول .. بالله عليك أن تقص الخبر بالتفصيل

قص محمود قصة المحامي عصام ، وقال الشاب بعد سماع القصة : أنا ما هربت .. خالتي تعلم بنزولي المدينة ، وكذلك جلال ، ولم أسرق حلالا ، وإنما تركته عند جلال .. وسرقة الحلال شائعة في القرى ، خاصة عندما يقرب موسم البيع .. وخالتي أعطتني خمسة دنانير للمساعدة في البحث عن أهل أبي .. خالتي تريد خروجنا من الصحراء .. فهي عاجزة عن تزويجنا من بنات القبيلة حسب رغبة أختها أمنا ؛لأن أبانا ليس من القبيلة .. وموسم البيع مكان لاجتماع خلق كثير من القرى والتجار والسواقين .. وتستمر السوق من سبع ليال إلى عشر ، ثم نعود المراعي بما تبقى من حلال .. وخالتي أكبر من أمي تزوجت في قرية أخرى ، ولما ولدت ابنها نزارا طلقها زوجها ، فعادت للقرية ، ولما ترمل ندمان على ثلاثة أطفال طلبها من أبيها وتزوجها ، ولدت له ، ومات وليدها ، ولما ماتت أمي احتضنتنا كأبناء حرمت منهم ، ولما أخذ

ندمان يضايقنا ويبتز مالنا ، وسرق منا خمسة رؤوس حلال وباعها ، وكشف أمره للقبيلة وهو أصلا معروف مكشوف بسرقة الغنم ،والعمل مع عصابات التهريب تهريبا ودلالة ، كشفت الخالة أمره لنا ، ثم صارحتنا بقصة أختها أمنا .. القصة التي تعرفونها .. وأنا مستعد للذهاب للشرطة وتبرئة نفسي والدفاع عن نفسي

قال السيد بعد سكوت : وهذا ما سنفعله غداً صباحا باكرا .. أبا سالم جهز لنا سيارة قوية تنقلنا مع حضرة المحامي لمقابلة مدير شرطة الحسام .. وزيارة ـ إن شاء المولى سبحانه وتعالى ـ خالة نادر

سالت الدموع على خدي نادر رغم أنفه فقال الجد: أنت بريء يا نادر .. هناك شخص استغل غيابك عن القرية وسرق الغنمات ، فهو يعرف أنك في المدينة ، ولم يعرف أنك تبحث عن أهلك وعشيرتك .. ظنك في رحلة واستجمام ـ والله اعلم ـ أن لزوج خالتك يد في موضوع السرقة ؛ لأن الشبهة استدارت عليه ، وغضب على خالتك ، واتهمها بأنها فشت عليه دفاعا عنك ، وسبب لها الأذى ، وهو لقي جزاءه ..والوضع خطير كما قال المحامي .. ورجال الشرطة هذه الأيام في تلك القرى حتى تحل مشكلة القتل والدم بين أفراد القبيلة.. وربما نستطيع تخليصكم وإخراجكم من تلك القبيلة .. لا تبكي يا ولدي .. أنا دافعت عنك بقوة لدى المحامي

- أنا أبكي على ما بخالتي بسببي

- لا يد لك يا ولدي .. واجبك أن تسعى وتتعرف على أهل أبيك .. الظالم هو ندمان .. اصبر الصبر يتبعه الفرج والفرح .. وستظهر الشرطة الحق ، وتقوم بواجبها ، ويعرفون الجاني والجناة

- إنك طيب وجواد يا سيدي!

استقبل ضابط شرطة الحسام المحامي عصاما ورفقاءه ، وطلب لهم مائدة طعام لما علم أنهم خرجوا مبكرين من العاصمة ،خرجوا مبكرين لبعد المسافة ؛وليكسبوا الوقت وضعف حركة السيارات على الشوارع في فترة بكور النهار ، ولما رأوا إصرار المقدم مدير الشرطة على إفطارهم ، تناولوا الطعام في نادي الضباط ، ثم ساقهم المساعد الذي شاركهم الفطور إلى مكتب المدير ..قص الشاب نادر قصة سفره للمدينة ، وتكلم أبو حسن عن الجهود التي فعلها لإثبات النسب ، وقال الضابط: تكلم معي مدير الشرطة العام في هذه القصة أنت تركت القرية باحثا عن أهل أبيك.

أجاب نادر : نعم ، وتركت الغنم مع شريكي في الرعي أخي جلال ، وأخذت ما أملك من مال ، وخالتي المضروبة أعطتني خمسة دنانير ، وخرجت دون إعلام زوجها الذي لم نكن نحبه ولكن لأن الخالة رعتنا بعد موت أمنا ـ ولم تنجب من زوجها الأخير ـ قبلنا البقاء عندها رغم كبرنا ..وكنا ننام أثناء عودتنا للقرية في بيتها ، وأحيانا في بيت أمنا ، ولم يكن الرجل طيبا معها ولا معنا ؛ ولضرورة الحياة كان عليها أن تصبر ، وكانت تعتبر أولاده أولادها ، ورعتهم حق الرعاية

- على كل قصتك أصدق من قصة أولئك ، وقد يكون ندمان زوج الخالة هو السارق فعلا للغنمات العشرين ، وسنعرف هذا من الشخص الذي ابتاعها ، فقد عرفنا اسمه وسيتم القبض عليه ، وتنتهي قصة السارق ، وما زالت سيارات الشرطة والعسكر تنتشر في المنطقة والقرى حتى يتصالح القوم على دم ندمان ..وأما خالتك فهي تتلقى العناية في المستشفى .. وجلال موقوف على ذمة التحقيق ..وسنطلب أصحاب الغنم لنتفاهم معهم ، فهم يعتقدون أنك بعت الخراف وهربت للمدينة ، وتركت شقيقك ليغطي عليك ؛ لأنه لم يسرق من أغنامه شيئا ، وأنهم رفضوا تزويجك ابنتهم من سنوات

فقال المحامي : المريضة لا مجال لسماع شهادتها في زواج والد نادر من أختها الميتة لنقوم

بإجراءات النسب القانوني

قال الضابط : لم تنطق بكلام واضح منذ دخلت المستشفى .. تتكلم أثناء النوم بكلام غير مفهوم ، وسنسمح لكم بزيارتها والكلام عندها ..ربما إذا سمعت نادرا ، ورأته تفوهت .. وأنت باشر بالإجراءات المناسبة .. فتستطيع بأمر قانوني سماع شهادة عدد من شهود واقعة الزواج الذين عاصروا الزواج ذلك الزمان ، وسماع عجائز أدركن ذلك الزواج .. فهؤلاء ببعض التذكير وبسلطة القانون يتكلمون .. وبذكر السيد نادر بعض أسماء كبار القرية من الشيوخ والعجائز سيسهل الأمر .. وستتكلم مع الشيخ العقاد أو ابنه إن كان ميتا .. هؤلاء كتاب العقود يرثون بعضهم بعضا ..وزواج كهذا يذكره إن كان حيا .. فهم يتناكحون من بعضهم البعض .. فالزيجات الغريبة قليلة جداً بينهم.. لذلك فهم ليسوا بحاجة لأوراق هم يرفضون المدارس بينهم .. يتعلمون الكتابة في الجيش .. من ذهب للتجنيد يضطر لمحو أميته وهم قليل

قال الحاج محمود : بارك الله جهودكم ..أنا حريص على عودة أحفادي إلى عرين العائلة ، ولابد سيدي من فعل اللازم حتى لا ينازعهم أحد في حقوقهم العائلية ، ويشكك في نسبهم مع الزمن .. والدهم لم يترك مالا يتنازعون عليه كان مسكينا ..ما يحصله ينفقه على نفسه

– هكذا الأصول يا ابن الأصول والمحامي عصام رجل معروف وقانوني مشهور.. والبنت المتزوجة كيف ستعملون نحوها ؟

– ليس أمامنا بعد تأكيد النسب ومعرفة الحقيقة إلا أن نخيرها بين البقاء مع أهل الصحراء أو البقاء مع أهل أبيها .. وأنا على استعداد إلى رعاية زوجها إذا أحب الرحيل للمدينة ولا أراه يقبل.. وبما أنه متزوج قبل زواجه منها سنعرض عليه بعض المال ويحصل الطلاق .. هي تزوجت من عهد قريب ..ولم يعلم شقيقها بحدوث حمل

– أنا قابلت زوجها أثناء التحقيق .. نحن اعتقدنا في البداية كما هم اتهموا أن السيد نادرا هو السارق .. وجلال أنكر بيعه للغنم ، ولم نجد معه شيئا يدينه ، وظننا أنه بقوله إن أخاه ذهب

المدينة لغرض آخر يتهرب من الحقيقة .. والأمر اختلف لما شهرت غاية نادر من الاختفاء ، فهو الآن لا علاقة له بسرقة الأغنام .. والآن نعرف أنه ذهب لشريك أبيه والشرطة وأخذ عنوان الجد من دائرة الشرطة .. فهذا غير مجرى التحقيق والاتهام .. فهو بعيد عن حادث السرقة .. فنادر لم يكن هناك أصلا .. نحن لا نتدخل في مشاكل ونزاعات أهل الصحراء إلا إذا تطور الأمر لقتل ومعارك بالسلاح .. فهم يحلون مشاكلهم بأنفسهم أو بمساعدة الجيش المعسكر في تلك الصحاري .. فلشيوخهم الكبار الكلمة الفصل في حل قضاياهم .. فهم يتشاجرون يتنازعون ويتصالحون دون قضاء وشرطة .. وتمتد قبائلهم حتى الحدود مع الدول الأخرى .. ويستعين رجال العصابات بزعرانهم وهملهم في التهريب والدلالة على الطرق في تلك الصحارى الشاسعة .. ومن يقبض عليه يقضي جل عمره سجينا ..لا يرحم المقبوض عليه ..ولكن تلعب الشفاعات والعفو العام دورها في التخفيف عنه ..والقليل منهم يعمل في الدولة .. وفي الشرطة لا أحد إلا في المكافحة كإدلاء ومرشدين لفترة أو لمهمة



أخبر الضابط المحامي أنهم سيبقون السيد نادرا لديهم لإكمال التحقيق ولحمايته ، ووعده الضابط بأخذه وشقيقه المحتجز لديهم بسيارة الشرطة لزيارة خالتهم ، وشجعه السيد محمود على الثبات والصبر ، وأن المحامي سيتابع القضية ، وسيقوم بإجراء المطلوب نحوهم وتقديم دعوة لدى المحاكم المختصة ، ومنحه مائة دينار ، ورفض كعادته في البداية ومع إلحاح وضغط الحاج وضعها في محفظته مقبلا ليد السيد شاكرا ، وجاء جلال للتعرف عليهم ، وكان مرتبكا ولما عرفه نادر عليهم عانقهم .. وقال كأنه معتذر : عرف الناس باختفائك بسبب قرب افتتاح

الموسم ، وبدأ التجار يتوافدون على السوق قبل بدايته .. أدركت أن الغنم الخاصة بك قد نقصت .. فأخبرت أصحابها على الفور.. وذكرت لهم أنك من أيام نزلت المدينة لقضاء حاجات خاصة .. فاتهموني بالتواطؤ معك والخيانة والطمع ..وأنك بعتها سرا .. وكبر الحدث عندما "قالت الخالة : إنك ذهبت لزيارة أقاربك في العاصمة" ودافعت عنك الخالة بقوة ، وذكرت الناس بسرقة قديمة ، فاتجهت الأنظار لندمان ، فغضب وضرب الخالة وأنها تحبنا أكثر منه ، وتحيزت لنا ، وكان الاعتداء شديدا أفقدها الوعي ، وحملت للمستشفى في المدينة ، وسمع أهل القرى بهذا الإيذاء ، فاشتد غضب نزار ابنها على زوجها ، وجاء يناقشه الأمر ، مما زاد غضبه عليه ، وطعنه بخنجره فسقط ميتا ، وصرنا خونا في نظر القرية والعشيرة وقام البحث عنك

ودع المحامي والجد الشباب ، وناشد الضابط أن يهتم بهم ويحميهم من أي غدر ، وكان محمود يقول للمحامي وهم في طريقهم للمستشفى لمحاولة سماع المريضة : تعقدت الأمور يا حضرة المحامي

- توكل على الله يا أبا حسن ، قد يكون هذا الضرر لصالح الأولاد ، وتنكشف الأسرار أثناء التحقيقات .. وهذا في رأيي لمصلحة الأولاد .. فإذا ثبتت السرقة على ندمان كما يتوقع ويرجح الضابط .. لقد سآرني الرجل أن ندمان قضى في السجن بضعة شهور قبل زواجه من خالة الأولاد بقضية سرقة .. فظهور نادر صحح مسار القضية فقد استغل غيابه كما رأيت .. وأعلمني الضابط أن الشرطة تبحث عن رفيق لندمان مختفي .. فبراءة نادر وجلال ثابتة ؛ لكن الشرطة تفعل هذا الحبس لإيهام اللصوص أنهم الحرامية وسيقدمون للمحكمة .. وشريكه معروف مثله في قضايا تهريب .. والمبتاع تبحث عن المباحث الجنائية وسيقع.. مجرد وقت يا حاج محمود ..فأولئك المشترون إما أن يتخلصوا من المسروق بسرعة البرق أو يتمهلون حتى تخف حملة الشرطة .. وعادة يعمل رعاة معهم مقابل مبلغ .. والراعي في القفار لا يهتم أنها ملك للذي أودعها عنده أو مسروقة .. فالشباب يؤخرون بيعها لأسباب منها رؤية رد فعل

أصحابها

- أيشتري التجار والجزارون أغناما مسروقة؟

- هم يتظاهرون بجهل مصدرها ..وهم للأسف لا يهتمون بالحلال والحرام ..والحرامي يهمه البيع ولو بثمن أقل من السوق ؛ لأن السوق كما تعلم يتبع العرض والطلب .. فالسارق يسعى للمخدرات الحشيشة والدخان .. التصور أبا حسن أن ندمان وشريكه لاحظوا اختفاء نادر وتركه أغنامه عند شقيقه ، فوضعوا سما للكلب ، وفي سيارة شحن صغيرة حملوا رؤوس الغنم .. وكما خططوا اتهموا جلالا ونادرا ؛ لأنه مختفي فستلبسه التهمة ..وأصحاب الغنم صدقوا ذلك الاتهام .. وهذا ما حصل ؛ الشرطة لا تستسلم للاتهام بسرعة ، لابد من التحقيق والتثبت ، ولما علم ندمان فشل خطته أراد تحويل القضية إلى زوجته .. وحدث ما حدث .. وقد يكون قتل ندمان متعمدا كما يشك الضابط ؛ لأن ابن المرأة صديق لندمان وعمل معه في التهريب ، فقتله متظاهرا بالانتقام ..فهي لم تكن أول مرة تتعرض المرأة للضرب المبرح ..خلص منه لأشياء بينهم أراد إخفاءها.. هذا مما همس لي به المقدم ، وبعد سماعه نادر وقبل سماعه أدرك أنه بريء ..فهم بين أيديهم معلومات ..وإنما حبسهم احترازيا وحماية لهم فعلا يا حاج محمود ..والشرطة ستعرف الحقيقة وتعلن على الملأ عندما ينتهي التحقيق .. وتحول الأوراق إلى مكتب المدعي عام ..وشيخ القبيلة وعد الحكومة بالتعاون الكامل معهم.. فجرائم القتل لا تتهاون فيها الحكومة حتى لا تفتح باب العودة للثارات والفوضى والقانون يأخذ مجراه ولكن بعد مصالحات بين أفخاذ العشيرة ؛لأنهم أقارب وبينهم مصاهرات هذا حدثني به الضابط لما انفردنا عنكم بضع دقائق

- أنا الذي يهمني يا أبا رياض في هذه القصة أن يشهد الشهود أن ابني تحسينا تزوج امرأة منهم ، وأنجبت له هؤلاء الثلاثة .. وبعدها إذا رغبوا بالحياة معنا فيا أهلا وسهلا ، وإذا رغبوا في البقاء في الصحراء فأهلا وسهلا .. وسنبقى على تواصل ..فنادر أرآه يفضل الابتعاد عنهم ، وسنعلمهم أعمالا مناسبة لأهل المدينة ، ونسعى إلى تزويجهم ، فقد هرموا بنظري ، وإذا ثبت

ذلك رسميا فلن يتطفل أحد عليهم بالتشكيك في نسبهم ، وسيتزوجون على أنهم أبناء تحسين وأحفاد محمود حسن بط .. فالورق اليوم مهم يا حضرة المحامي

المحامي : أكيد أكيد هذا الوثائق الرسمية لا غنى عنها في العالم المتمدن

ـ هذا وسأضع شقة بين أيديهم في أول الأمر ، ولما يتزوج أحدهم نعطيه شقة خاصة به .. فالله منعم وأكرم علينا

– الله يزيدك من فضله ونعيمه .. من خلف ما مات ..وأنا سأكون عند حسن ظنك فنحن بيننا نسب .. فقضيتك قضيتي والتوثيق يحفظ الحقوق



قضت الخالة نحبها بعد شهر من الحادث دون أن تتكلم بشيء ، وحزن عليها الشابان ، وصحبتهما سيارة شرطة للمشاركة في جنازتها ودفنها ، فقد رعتهما واحتضنتهما بعد وفاة أمهم ، وبعد مواراة الميتة التراب وانقضاء العزاء عادت بهما الشرطة للدائرة ، وأعلمهما مدير النقطة أن الإفراج عنهما سيكون قريبا على أن يتركا الصحراء ويعيشا في "أبو خروف" ، ولما وصلت أختهم من القرية حيث قبلت بالعيش معهم ، تم نقلهم لبيت الحاج محمود ، وأنزلهم الرجل في الفندق حتى يتدبر لهم شقة في إحدى العمارات التي يملكها في الحي ، ولم يجد أحدا من المستأجرين مستعدا لإخلاء المأجور ، فاستأجر لهم بيتا عند أحد المعارف لديه شقة فارغة ، وانتقلوا للعيش فيها بعد تأثيثها على نفقة الحاج محمود

وكان المحامي يقوم بدوره بعد نقل الكثير من الأقوال من سكان الصحراء بعد مجهود كبير قامت به الشرطة والعسكر ، فكل من طلب للشهادة لم ينكر زواج تحسين المدني من غزية بنت زياد ؛ ولكنهم لا يعرفونه حق المعرفة ، ومن كان يملك سيارة أكد معرفته به ، وأكد زواجه ، وأخبروا أنه لم يجر عرس لهما .. حفلة صغيرة قامت بها النساء ؛ لأن الزواج لم يكن سليما في

نظرهم .. كان تحت ضغط الواقع والفاحشة ، ولم أريت صورة تحسين لبعض النسوة أكدن أنه زوج غزية ، ووالد الأولاد الثلاثة ، ولما تجهزت الأوراق وعرضوا على الطب الشرعي لتقدير سنهم وأعمارهم ، وكان ذلك من كلامهم وأسنانهم منحوا شهادة تقدير السن أي شهادة ميلاد وعلى أثرها منحوا الاعتراف بهم كأبناء لتحسين محمود ، وحررت المحكمة الشرعية عقد زواج لأبيهم ، ومن ثم شهادة وفاة لكل من والديهم ، وأعطوا البطاقات الشخصية ، وأصبحوا شرعا وقانونا أبناء تحسين ، وصوب وضعهم القانوني ، وأخذت الفتاة بطلب الطلاق من زوجها الصحراوي بشكل رسمي ، وحصلت عليه من المحكمة الشرعية بعد حضور زوجها أمام القاضي وجرى الطلاق ، وأخذ نصيبه من المال وانصرف راشدا للصحراء بعد شهور من الرفض ، وبدأت الفتاة في العدة الشرعية منذ موافقة القاضي وزوجها على الطلاق

وقال الجد: هذا واجبي نحوكم يا أحفادي .. وهكذا وهبني المولى ثلاثة شبان دفعة واحدة .. أنتم الآن من عائلة بط دون منازع .. أنتم بحاجة لتأهيل للحياة في المدينة ، وواجبي أن أوفر لكم العمل المناسب وتزويجكم جميعكم ..فأنتم لا تعرفون القراءة والكتابة ، حيث لا مدارس في الصحراء .. فلدينا مشروع محو الأمية سألحقكم به ليعرف الشخص منكم كتابة اسمه على الأقل وقراءته .. وعدني مديره ورئيسه ببذل الجهد .. ووعدته بالمزيد من المال ليتحقق تعليمهم ولو بالشيء اليسير .. هم يحسنون الحساب الشفوي ، ويعدون الأغنام وغيرها والمال .. سبحان الله ! ولما انتهينا من قصة البنت وتحقق طلاقها أخذت أفكر بتزويجها ، والبحث لها عن عريس محترم .. وهذا ليس بالأمر الميسور .. فهي مطلقة أمية فوق العشرين سنة بنت الصحراء القاسية .. طعام وطهو أهل الصحراء يختلف عن طعام أهل المدينة.. ذهبت لمركز مجدلاية الخاص بالنساء وقضت عدة شهور ، ولم تستطع تعلم شيء مهم سوى كتابة اسمها رسما وبخط صعب التهجئة والقراءة.. فمن سيتزوج مطلقة بهذه الصفات ؟ إنها في المدينة .. لكن المال حلال المشاكل بعد إرادة الله ..كان عليّ أن أجد أحد الشباب الفاشلين في المدرسة

حتى لا يتكبر عليها .. الكفاءة بالجهل والدراسة ..وكنت سعيدا بعدم حملها من زوجها الصحراوي لنقطع صلتنا بتلك الصحراء وتلك القبيلة .. أرسلت نادرا ليتعلم النجارة عند أحد الأصدقاء من أهل هذه المهنة .. فحي "أبو خروف" فيه عدد لا بأس به من الورشات الفنية من الجهة الخلفية شارع السالم .. وجلال معه ولكنه ملّ بسرعة .. فأرسلته ليعمل في مخيطة رجالية في شارع النملة آخر الحي ..واستطاع أن يصبر ..وبعد سنة استطاعا أن يتعلما بعض القراءة والكتابة .. وتفهم نادر صنعة النجارة ، وبدأ يحسنها ..وكانوا كالأطفال الصغار في نظري وتحت رعايتي .. كان عليّ رعايتهما ليعيشا ، لا أحد يدوم لأحد .. وجلال الخياط أخذ يهتم بفهم الصنعة وأسرارها الخفية .. وصاحب المخيطة أخبرني أنه يحتاج لوقت طويل لإتقان فن الخياطة .. فنصحني أن أعلمه قيادة السيارات .. وأشتري له تكسي أجرة يعمل عليه ، أو عامل في متجر يبيع ويشتري

- لكنه لا يجيد الكتابة والحساب

- قد يكون العمل هذا حافزا له على تعلم ذلك



كانت نادرة تضع الطعام والشاي لشقيقيها على مائدة المطبخ ، وتدعوهما إليه ذات مساء ، ولما بدأ الأكل والرشف قالت : كيف الشغل يا معلم نادر؟

تنهد عميقا والتفت إليها باسما وقال : نحن لم نعتد على حياة المدينة .. والشغل اليومي متعب وإن كان جيدا ..عندما يصنع النجار بعد جهد خزانة جميلة ، فيحس بالنشوة والسعادة والفرح مثل الصياد عندما يصيد حيوانا أو طائرا.. إنما هو تعب وجهد ، والمعلم يقول مع الزمن سيذهب هذا التعب ، وسيصبح صنع خزانة أو طاولة أو سرير أمر اعتيادي وتقليدي دون فكر ونظر

- وأنت يا معلم جلال كيف ترى المهنة الجديدة ؟

توقف عن الأكل وقال كـأنه حزين : رغم قسوة الصحراء ورعي الغنم في حر السماء ذلك أسهل عندي من الجلوس عند ماكينة الخياطة فهي متعبة للبصر وللقدم .. المعلم زيزي يقول : إنني لا أستطيع خياطة بنطال أو قميص بشكل سليم وصحيح .. فعلي أن أجد حرفة أخرى ، وحكى ضعفي لجدي ؛ ولكن

- ولكن ماذا ؟

- الرجل عنده صبية راغب بتزويجي إياها ؛ لأني حفيد الحاج محمود حسن

قال نادر : أهو قال لك ذلك ؟

- نعم ، إن فوق المخيطة بيت الرجل الخياط.. فأحيانا تأتينا بالشاي .. وأما الطعام فاذهب أنا للمطعم ، وهو يصعد للغداء معهم .. ومرات كثيرة يردد سليمة لك يا جلال ، لما تنو الزواج فهي عروسك .. وذلك يقوله كلما يراني أحدق بفتاة .. فأصرف بصري عنها فيقول: أنا لي شفاعة عند جدك إذا أنت راغب بالزواج دعني اكلمه .. أنت لا تصلح أن تكون خياطا ربما تصلح أن تكون زوجا

فضحكت نادرة ونادر وتساءلت : ما قلت له ؟

- أكيد جدي يفكر بتزويجنا عندما يجد العروس المناسبة لكل منا

قال نادر : لم يحدثني بذلك لليوم .. هو يحاول تأهيلنا لنواكب حياة أهل المدينة.. فهو خبر الحياة .. علينا بزيارة أخواتنا من أبينا في بيوتهن لتقوية الأواصر العائلية بيننا وبينهم

- ألا تكفي رؤيتهم عند أم محمود ؟ لم أتكيف معهن .

- مع الوقت ستتكيف معهن يا معلم .. لنا سنة واحدة بينهم ..وهن متزوجات ، ولم نظهر في حياتهم من زمن بعيد ؛ لذلك محمود ألطف منهن معنا ؛ لأنه عازب مثلنا .. وهو محب لجدنا ، وجدنا يحبنا وإلا ما أتعب نفسه ليضمنا للعائلة دون تردد .. من أول ساعة اهتم بالأمر كأنه وجد كنزا .. قال صوتك فيه شبه من أبيك .. وإنما قام بالإجراءات لمصلحتنا للحصول على

الأوراق الرسمية ولأخذ حقنا المالي ـ أطال الله عمره ـ بعد وفاته

قالت : وزوجته الجدة طيبة ، وكلما تراني تضمني لصدرها "وتقول حلم أن أرى أولادا من ابني الميت ـ الحمد لله على فضله ـ وقالت : علينا أن نتعلم الصلاة والصوم فلا يجوز أن نكبر ولا نحسن الصلاة والعبادة

– نعم ، فهي كل جمعة تحب أن نشاركها الغداء

عادت الفتاة تسأل عن زواج أخويها متى سيكون ؟ فقال نادر: علينا بالصمت .. فها هو محمود أخونا لم يتزوج بعد

قال جلال مذكرا أو ذاكرا : هو من جيلك يا نادر .. بينكم بضعة شهور .. فكأن حمل أمنا تأخر مع أن زواجها كان قبل زواجه من أرملة شقيقه الشهيد

قالت: ها أنا قضيت أشهرا مع زوجي .. ولم يحصل الحمل.. الحمل من الله يا سيد جلال

– مضت سنوات قبل أن تلد أمنا ؛ ربما لأنها كانت صغيرة عندما أحبت أبي كما تقول الخالة روية رحمها الله

قال نادر: هذا قضاء الله .. الجد يريد منا تعلم الصلاة ورمضان على الأبواب

فقال جلال بحدة : في كل جلسة يذكرنا بذلك .. نحن لا نعرف الصلاة.. أنا لما كنت أرى التجار والباعة موسم بيع الخراف استغرب مما يفعلون ..وأسأل البعض عن ذلك ، فيقول ساخرا : أنتم جهال ألا تعرفون الصلاة ؟ فأظن أن ديننا غير دينهم.. الجهل عام في الصحراء

– كل الأديان فيها صلاة وصوم يا فصيح .. أنا لست أدري لماذا لم نكن نصلي ونصوم ؟!

قالت بعد هدوء : هل سنصوم السنة ؟ فالجد يقول رمضان على الأبواب يعني أنه اقترب ، وكذلك الجدة تكرر ذلك على مسامعي.. يحسبون أننا قادمون من بلاد الجاهلية

قال نادر : الصغار ـ في العام الماضي ـ رأيتهم يصومون .. وكنت أتعجب من قدرتهم على ذلك ! مع أننا في الصحراء كنا نقضي وقتا طويلا بدون طعام ؛ لكن كنا نشرب الماء .. العام الفائت أربع خمس مرات حاولت الصوم وعجزت .. لم أتعود .. والعمل يصعب المهمة.. ثم

اقتصرت على صلاة الجمعة .. وهذا يضايق الجد محمود

قال جلال بشكل ساخر : ألم يعدنا بأن يرسلنا لأحد الشيوخ لنتعلم الفاتحة والصلاة والوضوء ومبادئ الإسلام ؟ ثم تنهد بعمق وقال: لولا موت خالتي وزوجها لعدت لتلك الصحراء

قالت ساخرة : هربا من الصوم والصلاة !

قال نادر: نحن لم ننل قسطا من العلم في المدارس ، ولا علم في الصحراء .. لا يتعلم الإنسان في الصحراء غير الرعي والتهريب والسرقة لأموال الآخرين .. سمعت الجد مرة يقول : إن الناس هنا لا يزوجون بناتهم لتاركي الصلاة .. ومع ذلك النجار الذي أشتغل عنده لا يصلي ويقول : إنه كسول عن الصلاة والمساجد .. وأنها مليئة بالأحزاب والعصابات .. فتعجبت من كلامه ..فذهبت للمسجد ولم أر العصابات ولا الأحزاب

ضحك جلال عاليا وقال :صاحبك هذا شيطان! رأيته مرة مفطرا على سيجارة في رمضان ، فزعم لي لما رأيته أنه معفي من الصيام لأن صحته لا تسمح له بذلك ، فقال له رجل كان يسمع الكلام : يا معلم "فتح الله" الدخان هو الذي خرب صحتك ..فرد المعلم عليه: نسيت أنك شيخ يا معلم "هيثم" حقيقة أن صحتي لا تتحمل ترك الدخان .. والمرأة تصوم عني وعنها .. فأجابه الشيخ : لا أحد يسد عن أحد عد إلى الله .. رمضان فرصة للتوبة والندم .. فطفا المعلم السيجارة وقال : خلاص بطلت الدخان ونويت الصيام .. فقال الرجل: الصيام يبدأ من قبل صلاة الفجر تسخر من الدين .. فاحتد المعلم من جديد وقال صائحا : أنت زهقتني عيشي على هذا الصباح .. متى انتهي من صناعة سريرك وأخلص منك ؟ فقال له الرجل : لو كنت أعلم أنك لا تصلي ولا تصوم ما فصلت التخت عندك .



تعود الشباب الثلاثة تناول طعام الغداء على مائدة الحاج محمود ظهر الجمعة من كل أسبوع ؛ وذلك بعد صلاة الجمعة فيذهبون فور انتهاء الصلاة في جامع "أبو خروف" لبيت الجد والجدة ، ويبقون لوقت صلاة العصر ، ثم يغادرون .. ومرات كثيرة تشاركهم الدعوة الأسبوعية أرملة أبيهم أم محمود ؛ لأنها مرات أخرى تكون في ضيافة بناتها.

وكان الحاج حريصا على هذه الدعوة ؛ ليكتسبوا عادات وتقاليد الأسرة ، ويتعرفون على أقاربهم الذين يزورون الحاج في نهار الجمعة ؛ لأن الحاج أحيانا يدعو بناته وأزواجهن للغداء في بيته ، وقد تقوم البنات بصنع الطعام والذهاب به لبيت الوالد ؛ لأن السيد أغلب طعامه من المطاعم .. فأم حسن كبيرة في السن وصحتها لم تكن على ما يرام .. والولائم تحتاج لجهد ، والرجل يملك المال ، ويحسن التوصية واختيار المناسب ، واعتاد على ذلك لكثرة استقباله الضيوف من الداخل والخارج ، لا يوجد عنده خادم في البيت .. تأتي امرأة كبيرة تساعد الزوجة في التنظيف والصيانة لمدة ساعتين قبل الظهر ، وتأخذ نصيبها من الأجر وتنصرف ، وهذا شائع في "أبو خروف" ، والحاج معروف لأصحاب مطاعم الأطعمة المحمولة والموزعة.

والرجل معروف للمطاعم ولأهل الحي ، وولائمه مشهودة منذ استقرت قدماه في الحي .. ففي أي مناسبة كبيرة ومهمة يولم لجيرانه وأهل الحي المقربين .. وكان يرى الإطعام مكسبا للأصدقاء ، ونافيا للبخل والشح ، فتجد على مائدته اللحم الأحمر والدجاج والسمك والسلطات ، والمخللات وحب الزيتون الأسود والأخضر ، والكنافة والحلويات الأخرى ، والمكسرات ، وأصناف الفاكهة اللذيذة ، والعصائر المختلفة الأسماء .. وهناك أكلات شعبية شائعة بين أهل البلد مثل المسخن خبز وبصل ودجاج ، والمنسف بالأرز واللحم واللبن المذاب ، يطبخ اللحم في مرق اللحم والجميد ، ويضاف السمن البلدي للأرز المفلفل، ويقدم في سدر كبير مغطى بخبز الشراك يوضع عليه الأرز ، ومن ثم اللحم ، ويزين باللوز والصنوبر والبقدونس ، ويأكلون المفتول المصنوع من حبات الدقيق مع الدجاج المسلوق

والمحمر حسب الرغبة .. تعرف الشباب خلال السنة الماضية على جميع هذه الأطايب والمطعومات .. فهذه أشياء لم تكن معروفة لدى جلال في الصحراء ما عدا المنسف فقد عرفه ؛ فلذلك كان يردد بعد كل وليمة دسمة : هذا المأكولات الشهية تحفز الإنسان للبقاء في المدينة ، وتضعف الرغبة للعودة للصحارى حيث الخبز اليابس .. كان أفضل طعامنا في المراعي والأحواش اللحم المشوي على النار والحطب ، وليس على الفحم الأسود كما يفعل هؤلاء الناس .. أحلى شيء في المدينة الأكل والحلوى .. الكوسا المحشي لديهم وقت لحشيها.. حتى ورق العنب يحولونه لمحشي.. بارعون في الطهي .. نساء القرية لا يحسن مثل هذه المطعومات والمأكولات ، أين تتعلم النساء مثل هذه الأشياء ؟

- المطاعم يعمل بها الرجال

- حتى الرجال طهاة

كان هذا الغزل بطعام أهل المدينة بين الأخوة ، وهم عائدون لشقتهم مساء يوم الجمعة ، فقالت نادرة التي ظلت صامتة ، وهي تسمع غزل شقيقها بالطعام ـ وهي تعرف شغفه وشهوته بالطعام قبل انتقالهم للحياة في المدن ، وكان يوم الشواء عيدا عنده ـ قالت : مواد الطعام كثيرة في المدينة .. فتكثر أنواع وأصناف المأكولات .. هنا الفاصوليا البازيلاء الحمص والفول الحب الفلافل .. من يبيع فلافل أو حمصا مطحونا في الصحراء .. السبانخ بالحمص ، البطاطا نحن نأكلها هناك مشوية .. هنا تهرس وتقلى .. البيض يبتاع بكثرة .. هناك بيض دجاج البيوت .. لا مجال للمقارنة بين الصحراء وقراها وأكل أهل المدينة .

ولما دخلوا الشقة توقف الغزل والمقارنة قال جلال: حتى شاي المدينة يختلف عن شاي الصحراء وأزكى وأطيب .

قالت نادرة: سأجهز لكم الشاي فهمت الرسالة

- أرجو أن يتحقق ما فهمتيه

- سيتحقق .

ومشت للمطبخ وملأت إبريق الشاي ماء وسكرا وشايا ، وعادت لغرفة نومها وخلعت ملابس الخروج ، ولبست ثياب البيت ، وعادت لمطبخها ، ولما استوى الشاي حملته لصالة البيت ، ودعت أخوتها لشربه ، ووضعت أمامهم بعض المكسرات المتوفرة لديها ، فقال جلال : هذه المكسرات اللذيذة كنا نراها لما يصدف نزولنا للترفيه في المدينة عند موسم بيع الغنم .. أصناف كثيرة عرفناها من دكان العم حسين

قال نادر: سكان المدن كثر ..فتجد مجالا لبيع وشراء مثل هذه الأشياء.. من يستطيع فتح محمص في بادية ؟ من يشتري ؟ أيام معدودة ويغلق .. وكذلك المطعم والمخبز ؛ لذلك هنا تكثر الحرف والمهن ..لو فتحت منجرة في الصحراء لمن سأفصل ؟ المدينة غير القرية ..كنا نرى الباعة المتجولين يترددون إلى القرى ..يأتون في الشهر مرة في الشهرين مرة .. فهنا تجد بائع الكعك المحمص .. بائع الحلوى الثابت والمتجول .. نحن نبيعهم اللحم الخراف اللبن المجمد الجميد الصوف .. وكل بلدة تجد فيها عشر أسر .. هنا الشارع مائة عائلة .. وهم بحاجة لخدمات ؛ لذلك كنا نرى بعض الأطعمة في موسم البيع عندما يأتي أهل المدينة إلينا من عجائب الدنيا ..وننظر إليها بلهفة وجشع

قالت نادرة فجأة: لماذا أخذك الجد لمكتبه دوننا؟!

تبسم نادر فقال جلال : فعلا أشار إليك أن تتبعه لماذا خلا بك؟!

قال نادر: أنا شعرت ونحن في طريق العودة أنكم لم تسألوني فورا ، فظننت أنكم غير مهتمين

قالت : رأيناك ؛ لكن جلال شغلنا بالأكل والطعام .. والمقارنة بين أكل الصحراء والمدينة ، فأجلت الحديث للبيت

كان الشباب يترعون الشاي ويقزقزون حب البزر أو اللب ، قال نادر : الجد يريد أن يزوجنا خلال شهور ..وسيزوجنا سوية أنا وجلال في يوم واحد .. وهو سيجد لك زوجا مناسبا من العائلة أو الجيران .. فكثير من أسر "أبو خروف" يحترمون ويحبون الحاج ، بل صارحني أن أناسا طلبوا يد نادرة قبل حدوث الطلاق الرسمي ؛ لكنه أجل البت حتى تتعرفي على طباع

أهل المدينة .. وكيف يعيشون خشية فشل زواجك ؟ لأن الزواج أسهل من تعقيدات الصحراء .. فكما الزواج أسهل فالطلاق أسهل .. ويمكن للرجل أن يطلق امرأته دون علمها والصحراء يصعب فيها الطلاق .. مشاكل وصراع .. ويحصل الطلاق في المدن لسبب تافه .. فيريد أن يربطك برجل يقدر الحياة الزوجية والنسب

فقال جلال: أيهما قبل زواجنا أم زواجها ؟

- وهو يريد دوام زواجنا أيضاً .. وسيكون زواجنا بعد موسم رمضان لهذه السنة .. ورمضان بعد شهر ونصف في آخر شهر آب

- أوجد لنا عرائس ؟

- فهمت كأنه وجد بنات أخوات .. أختان صغيرتان .. وهن من أقاربنا من حلب سوريا .. امرأة أبيك نورا والدها من سكان الشام ؛ كأنني سمعت اسم حلب .. ربما من بنات أخوات نورا .. فلها أربع أخوات .. فنورا كانت زوجة لحسن ابن الحاج .. فولدت له الدكتورة دلال .. واستشهد في فلسطين .. ثم زوجها الجد لابنه تحسين .. فولدت له ثلاث بنات ومحمودا .. ورفضت الزواج بعد موت والدي، وإذا تزوجنا من أولئك البنات سننتقل للعيش معهم في نفس العمارة

قالت: وتتركوني وحدي

- وأنت معنا .. ربما إذا لم تتزوجي قبلنا أن تعيشي في بيت الجد حتى يجد لك الزوج المناسب



كان الحاج محمود جادا في تزويج أبناء تحسين وليس مماطلا ، ووضع في مخه أن يجلب زوجاتهم من أقاربه في بلاد الشام .. ذكرنا أن آل بط تشتتوا بعد انسحاب الجيوش التركية من الشام والعراق والحجاز .. فبعضهم سكن أنطاكيا نحو والدهم وبعض أشقائه ، وبعض استقر في سوريا .. وبعضهم في فلسطين جنوب سوريا .. ومحمود تقاعد من الجيش العربي الأردني بعد حادث ، فاستقر في "أبو خروف" ، وهو الوحيد من عائلته الذي اتخذ "أبو خروف" دار مقام ، وزوج ابنه البكر حسنا من ابنة شقيقه الأكبر محمد ..وها هو اليوم يريد أن يصاهرهم مرة أخرى ، وكما زوج ابنه تحسينا لنورا السورية يريد أن يزوج أبناءه من بناتهم ؛ لتبقى الصلات مستمرة ، وتحرك في هذه المسعى ، وصارح نادرا بهذه الحركة ، ولم يلحظ أي رفض من جهته .. والحاج أخر زواجهم ليندمجوا في حياة المدينة ، ويخبروا طباع أهلها وعاداتها ومشاكلها حتى لا ينتكسوا ويهربون للصحراء حيث اعتادوا ويتخلون عن نسائهم .

كان صديق لمحمود حسن من أهالي المخيم مخيم عودة الأمل قد رغب بتزويج ابنه المطلق بنت ابن محمود لما سمع بقصتها ، وطلبها لابنه أكثر من مرة ، وكل ذلك كان قبل طلاقها الرسمي ، فهي لم تكن طلقت بشكل صحيح ..والسيد كان يهمه زواجها واستقرارها العائلي ، وكان يماطل ليعطيها فرصة التعود على حياة المدينة وبيت المدينة ، فهي قضت كل حياتها الماضية في الصحراء حيث خشونة العيش وشدته ، الرجل يريد زواجا دائماً يتحمل فيه الصعاب ويبدو أنه كان مترددا في قبول ابن صديقه المطلق .. وكأن الصديق لم ير حماسا من أبي حسن فكف عن ترداد ذلك ، وترك الأمر حتى يتكلم أبو حسن .. ولما لم يتحقق زواج الفتاة قبل زواج الشباب أخذ يدندن حول زواجهما ، وواجه نادرا بهذا الرغبة ، فلم يعترض الشاب ، واعتبر فعل وتصرف جده هو الصواب ، وهو الذي سيزوجهم ، ويتحمل مصاريف زواجهم وحياتهم الزوجية .. فلم يعترض على فكرة زواجهما من أختين وفي يوم واحد ومن بلد آخر ، وسيزوجهما ويسكنان في عماراته ، وتعيش البنت معه حتى يأتيها عدلها كما يقال أي نصيبها

المقدر .

تسربت الأفكار للعائلة ، وأخذت نورا تستعد للسفر إلى حلب الشام ؛ لإتمام ما يسعى إليه عمها محمود .. فقد اتصلت بوالدها وأمها وغيرهم لتحقيق غاية الحاج محمود ، فهو يريد تقوية أواصر القربى بمثل هذه الزيجات العائلية .. وعلمت أن إحدى أخواتها قبلت من حيث المبدأ تزويجهما من بناتها .. فقالت نورا لعمها: يا عمي العزيز أختي هدى قبلت ، ولها رغبة أن تأتي هي بالبنات كزيارة عادية ورؤية الشابين قبل سفري أنا إليهم .

- هل يصح هذا ؟ فالعادة أن يذهب العريس لمشاهدة العروس .. وأنت معك مجال هنالك لتقابلي أكثر من عائلة

- السبب يا عمي العزيز أن البنات في إجازة .. سيأتين ليس بسبب الزواج .. إنما زيارة عائلية سواء حصل القبول أم لا .. فوالدي متحمس لهذا الزواج .. فأنت تعلم كم يحبك الوالد ويقدرك ..ورغم أنه أكبر منك سنا ، فهو يعتبرك سيد العائلة الكبير

- وأنا سعيد ومسرور لو حصل هذا الزواج .. فالبعيد يقرب.. النساء تقرب العدو بالنسب ؛ فليكن الأمر مجرد زيارة

- نعم ، ولما تحصل المشاهدة ويقبل الطرفان فنمشي بالزواج .. زواج الجبار اليوم مرفوض ، ويضعف الحياة الزوجية

- وابنك ألا تريدين تزويجه فقد أصبح طبيبا حسب رغبته ؟

- أحاول ؛ ولكنه يؤجل حتى يستلم عملا

قال بنوع من الضيق : خطأ .. نحن اليوم لا نصبر على عدم زواج البنات اللواتي يتعلمن في المعاهد والجامعات .. فتأخر الزواج فيه خطر عليهن

- من الأفضل أن نمشي على اقتراح أبي وأمي أن تكون الزيارة عائلية حتى ترى البنات ويرى الشباب ، وبعد انتهاء الرحلة تكاشف الشابين بالزواج منهن ، وأختي لما تعود لبلدها تصارحهنّ

صمت لحظات قبل أن يقول :حسن! لتكن زيارة عائلية .. أنا لم أحدد

لهما أسماء ذكرت لهما بعض الأفكار ..ولم أقل لهما عن السفر لحلب ولا غيرها.. وبعد عيد الفطر نحرك الموضوع .. وأنا فهمت من أخي أن الأمور متهيئة ، وبمجرد ذهابك ستتفقون على كل شيء .. ثم نستعد للزواج ونقل البنات إلى هنا ؛ لإتمام النكاح .."كل تأخيرة فيها خيرة ".. والنصيب يحكم ، فنسلم الأمر للباري عزّ وجل

– الليلة سأتحدث مع أبي وأمي ، وأنقل لهم موافقتك على الزيارة كزيارة

– على بركة الله .. أرجو أن توفق خطواتك ومساعيك النبيلة ..وأن تفرحي بابنك الدكتور محمود أخوهم البار

– آمين يا عمي .. محمود يقدرك ويجل مقامك وهو يهمه إدخال الفرح على قلبك وقلوبنا جميعا ؛ لكنه قدم الدراسة على كل شيء .. لا إجبار اليوم في الزواج .. أراه معقدا من جهة النساء ليس مثل الشباب لديهم لهفة النكاح والبيت والأسرة .. فحكايات البنات والنساء تملأ للأسف حي "أبو خروف"

– وأنا مثلك محتار في ضعف حاجته للنساء .. هو حر هي حياته يا نورا

– من يوم ما أنهى الثانوية وأنا ألح عليه بالزواج .. وأن الزواج لا يعيق الدراسة .. ومنذ تزوجت البنات وأنا أضغط عليه ، ولم افلح .. ماذا يخطط لا أدري ؟ يعشق الصمت عسى أن يجد بنت الحلال خلال العمل وتجذبه للزواج ويطلق العزوبية

– إن شاء الله .. أنا توقعت ـ كما نسمع عن بنات الجامعة ـ أن يتعرف على فتاة جامعية خلال السنوات الطوال .. ذهبت الجامعة ولم نر عروسا .. أنا كانت رغبتي أن أراه عريسا من سنوات قبل زواج شقيقاته ؛ لتمتد سلالة تحسين ـ رحمه الله ـ لكن أمر الله غالب يا نورا ..ومن كان يعلم أن لتحسين ذرية تعيش في أرض أخرى.. هذا غيب الله

– لنا أكثر من عشر سنوات لا نعلم بهم ، ولا هم يعلمون بنا

– رحم الله موتى المسلمين .. ستر الله عليك يا ابنة أخي .. وأنا في خدمتك

- بارك الله فيك .. كنت نعم الوالد للجميع .. وما زلت لا غنى عن عطفك وحبك ، لم تقصر معي ولا مع الأولاد ولا مع محمود

- كله من فضل الله علينا ..والتوفيق منه وحده

- اسمح لي بالمغادرة سيصل الدكتور .. وبالمناسبة يا عمي هو يفكر بشراء سيارة

- أنا جاهز ..فليمر الليلة وسأرسله إلى صاحب معرض صاحبنا

- شكرًا يا عمي العزيز



لما دخل جلال البيت مع غروب الشمس قالت له شقيقته : الجد اتصل وهو يريد أن يراك ، فابق في البيت حتى يصل إلينا

فقال بحدة: وماذا يريد حضرة الجد ؟

- مالك متوتر ؟!

- أنا لا أحب الوصاية .. نحن شباب كبار لسنا أطفالا

- هناك شيء.. ما بك ؟ لم هذه العصبية؟!

- أين نادر ؟

- ذهب لشراء بعض الحاجات للبيت .. أبينك وبين الجد أمر ؟

صاح فيها بعصبية : لا شيء ..سأخرج قولي له لم أعد للبيت

- يبدو أن أمرا خطيرا فعلته !

صرخ من جديد : قلت لك لم أفعل شيئا .. سأعود للصحراء ..الحياة هنا منغصة

وقبل أن يغادر دخل نادر يحمل أكياس الطعام والفواكه والبقالة ، وأدخلها المطبخ وتساءل : أجهز العشاء ؟

ردت بنعم ، وقال جلال وهو يظهر الغضب والاحتجاج : لا أدري لماذا تركنا الراحة وجئنا للتعب؟

التفت إليه نادر مستغربا كلامه وقال: أحدث شيء أيها الإنسان؟!

صاح بغضب: لا شيء ..سأعود للصحراء

ضحك نادر وقال : ومن لك في الصحراء يا راعي الهيجاء ؟ أمك ميتة .. ومالك حبيبة ماذا ستفعل يا فارس الصحراء؟ أجرى بينك وبين الجد كلام ؟ ليحمل نفسه بنفسه ليقابلك ، ويسمع منك المشكلة ، ويعمل على حلها ..فجدك سيحلها يا أخي.. الهروب ليس هو الحل ؛ فإذا أخطأت الخطأ يقوم ويصحح

أشعل الشاب سيجارة وصاح : أنا لن أصوم

- ومن حدثك عن الصيام؟!

- جدك

- جدك قادم إلى هنا ليجبرك على الصيام .. لا أحد يجبر أحدا على الصيام .. يمكنك أن تتظاهر أمام الناس بالصيام ، وتفطر من وراءهم .. فالصيام عبادة بينك وبين الله يا سيد جلال ..فالأطفال يصومون فلنجتهد أن نكون مثلهم

- مجنون أنت ! أأستطيع أن أترك الطعام عشرين ساعة؟

- عشرون ساعة! أي صيام عشرون ساعة؟! أهناك نهار مر علينا طوله عشرون ساعة ؟ أنت لا تعلم ماذا يريد منك الجد؟

هزّ رأسه نافيا لذلك ، فقالت نادرة مبتسمة : إنه يعرف وإلا لماذا غضب؟! أخشى أن يكون من أجل تلك الفتاة التي قرعت علينا الشقة قبل أيام

حدق به نادر وقال : تلك البنت التي جاءت تسأل عنك وزعمت أنها أخطأت البيت

لزم الصمت فقال نادر: جدك منذ سكنّا هنا حذرنا من الساقطات وبنات الهوى يا جلال ، ونحن من أيام رأينا العرائس اللواتي يريدون تزويجنا منهن ..لابد أن كلاما وصل للجد عنك

.. هنا في "أبو خروف" لا يخفى على الناس حكاية .. كيف عرفت حضرتها الشقة ؟ لا نسمح لك بجلب النساء هنا عيب .. أتسمع ؟هذا بيت محترم بيت جدك

- لم احضر أي فتاة ..تعرفت عليها ، وذهبت معها للسينما ، وعدتني بالمرور عليّ كلما ذهبت للسينما ..ومرت تلك الليلة لتصحبني إلى السينما

خيم الصمت لدقائق وقطعه نادر : هات العشاء يا نادرة ..سمعة جدك مهمة يا ولد

- أنا شريف .. ليس بيننا شيء حرام

- عندما يأتي الجد سنعرف التفاصيل

- لا يوجد تفاصيل .. رحت معها مرة واحدة للسينما .. نحن في الصحراء لم نكن نعرف السينما والأفلام

- تذهب مع أنثى يا جلال ..اذهب وحدك ..تعرف على الناس والشباب في المقهى واذهب معهم إلى السينما

- لم أكن أعرف السينما .. هي التي عرفتني على السينما

وضع الطعام وبدأ الأكل والمضغ والبلع ، وبينما هم يأكلون طرق الباب ، فقالت وهي تنهض لفتح الباب سريعا : الجد وصل

فغادر جلال المائدة إلى المرحاض

ولما فتحت الفتاة لجدها قبلته وقبلت يده كما تعلمت من حفيداته فقال : أين فارس الشباب؟

- إنه في المرحاض ! وابتسمت



دعت الفتاة الجد لمشاركتهم العشاء فقال ملاطفا: ماذا طبخت للشباب اليوم؟

فقال نادر وهو يصافح جده باسما: قلت بطاطا ،وقلاية بندورة ..واشتريت لهم لبنة.. تفضل يا جدي

رجعوا للمطبخ وشاركهم الجد بأكل بضع لقيمات ، وشرب كوبا من الشاي ، وقال لنادر :

اذهب واستدعيه من الحمام لابد من الكلام والنصح والإرشاد .. لا يجب أن يهرب من النقاش لا تحل المشكلات بالهرب من مواجهتها

- أجئت من أجل تلك الفتاة التي رافقها إلى السينما ؟

- أتعرفون؟!

قالت نادرة : قبل قليل اعترف لنا بمرافقتها إلى ما تسمونه سينما .. وكانت ذات ليلة جاءت تسأل عنه هنا

قال الجد بأسف: لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا عمي هذه فتاة فاسدة ، وذات سمعة سيئة في "أبو خروف" والأحياء المجاورة .. لو كانت بنت ناس طيبين لزوجته إياها من الصبح .. الإنسان المسلم إذا لم يختر الزوجة المحترمة سوف يتعب غداً في الحياة .. إنها منذ وعت على الدنيا وهي ترافق وتصاحب المراهقين ، ثم الشباب والكهول .. لا يجب أن يكون مغفلا اذهب ناده .. نعم ، جئت من أجل موضوعها وأجل بنت الخياط زيزي ، فهي تصحبه كل مساء لوسط المدينة .. فهذا أيضاً علمته .. السمعة شرف لنا

جاء الشاب وسلم متظاهرا بالكسوف وقد أدرك أنه لابد من المقابلة للحاج محمود ، وأنه لن ينصرف قبل تقديم إرشاداته ومعاتبته وقال : سمعتكم من الحمام

ضحك الجد وقال: طال حمامك

- أنا اغتسلت قد تعبنا اليوم

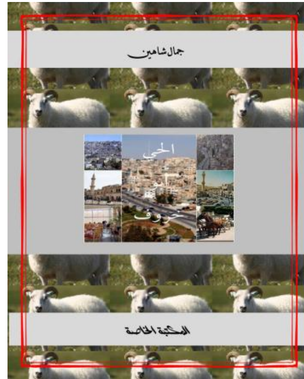
- لا بأس النظافة مطلوبة .. أنا أدرك أنك سمعت جل حديثنا ، وأنت تستحم يا ولدي .. هذه الفتاة من البنات الفاسدات في الحي .. ولست أول من ترافق ، وهي لا تصلح لك .. فأرجوك يا ولدي أن تحافظ على سمعة العائلة .. وإذا لم تعجبك عروس الشام بنت أخت امرأة أبيك فغيرها كثير .. فأنتم أمانة في رقبتي اليوم .. فبعدما أموت لا أدري تصرف الأسرة والأحفاد معكم .. لكن زواجكم من العائلة يدعم كيانكم داخل الأسرة .. وأنا سعيت لتزويجكم من بعيدات عن البلد لمصلحتكم؛ لأنكم غرب في العائلة.. وهذه معاني دقيقة

عليكم إدراكها .. الود الذي ترونه مني قد لا ترونه من حسين وأولاده والبنات والأحفاد لكن زواجكم من بنات العائلة يقربكم للعائلة في المدى القريب والبعيد .. فأبناؤكم من صلب العائلة ..والحي وغيره فيه الصالح والفاسد .. هذه عادة المجتمعات .. والزواج من فتاة زاغ بها البصر سيعود عليك بالدمار والخراب ومسخرة .. بعد حين ستجد عشيقا آخر .. انتهت رغبة الجسد فيدخل الملل ..والمنحرف سينحرف .. علاج الملل الانحراف من جديد .. ستجد عندها عشيقا يُسود عيشتك .. وقد تورط نفسك في جريمة قتل بسبب الغيرة والعصبية ؛ فإما السجن مدى الحياة أو الإعدام على أعواد المشانق .. وأنتم لا تعرفون "أبو خروف" مثلي .. في الحي شباب محترم .. موظف في إحدى الدوائر المهمة تزوج بنت ناس ـ كما فهمنا ـ وسكنوا في شقة في الحي .. وبعد حين استطاع شاب فاسد إفسادها إفساد الزوجة ، وأصبح يتردد على شقتها صباحا ..وقد أفسدها على زوجها.. وصلت إشاعات للزوج من الجيران ، وهو نفسه أحس ـ كما قال لي ذات مرة ـ أن زوجته تغيرت من ناحيته فقال : لم أعد أرى الحب الأول ، فظننت للوهلة الأولى أن ذلك بسبب الحمل .. فرتبت لها ولعشيقها كمينا .. فزعم لها أنه ذاهب للعمل كعادته ، وابتعد بالسيارة عن مدخل العمارة ، وظل يراقب حتى شاهد المشبوه له يدخل العمارة متسللا ، ثم عدت وأوقفت السيارة أمام العمارة كمن نسي شيئا ، وعاد ليأخذه .. وصعد لشقته مسرعا وفتح الباب بمفتاحه الخاص دون قرع الجرس الكهربائي .. وتسلل لغرفة نومه .. ورأى ما لا تحمد عقباه.. فأخرج مسدسه وأطلق النار على الشاب ، وأصابه في ساقه ـ وهو قاصد ذلك ـ وطلق المرأة فقال لها: لم أقتلك من أجل الجنين الذي في بطنك .. ولتبقي حائرة أهو لزوجك الشرعي أو لعشيقك ؟ وتابع الجد : وسلم نفسه للبوليس ، وقضى بضع سنوات في السجن ثم خرج، والشاب المصاب ـ يا جلال قد أصبح أعرج ، وتزوج وخانته زوجته ـ كما تدين تدان ـ ولم يقتل العشيق ، فقد قتله العشيق فقد كان مسلحا فسبقه .. وها هي أرملة منذ ذلك الحادث .. وسمعتها سيئة في الحي ، ويطرق بابها أهل الفجور ، ورحلت لحي آخر ثم عادت ـ كما تدين تدان ـ لا تنسى هذه الحكمة ..

أنا نصحتك الآن .. وغدا رد عليّ هل نستمر في السعي إلى تزويجك أنت وشقيقك من بنات أخت أم محمود السيدة نورا امرأة أبيك أم تربط نفسك بهذه الفتاة السيئة السمعة ؟

ونهض الرجل مسلما ومصافحا للجميع .. شكره نادر على مجيئه إليهم ، وعلى نصحه وقال ممتنا : لا نحب أن ننسى أفضالك علينا ، وأنك لم تحاول التخلص منا بأننا أبناء المرحوم ابنك ، وسنحافظ على شرفك وشرفنا

- أنت ابن عاقل يا نادر وشجاع .. بعد رمضان ـ إن شاء الله ـ سنبادر ونسارع في أمر الزواج



لما غادر الحاج محمود الشقة ، وقد نصح حفيده بخطر مصاحبة الفتيات الفاسدات ، وعادت نادرة ونادر للجلوس في صالة الشقة بعدما أغلق الباب بالمفتاح ، فسمعوا جلالا ساخطا : هذا تحكم في حياتنا .. أنا لا أريد هذه الحياة سأترك الشقة وأعيش وحدي دون وصاية وحماية
كان نادر يسمع ويبتسم وقال: اجلس ، ولماذا الغضب ؟ الرجل ينصحك ويبين لك أن هذه المرأة سيئة السمعة .. والرجل يسعى لتزويجك لتستقر في حياتك .. وتعيش مثل سائر الخلق دون نزاعات ومخاصمات .. تعيش بسلام وسكينة .. يبدو أنك نسيت حياة الوديان والمغر عندما تقضي ساعات في مغارة حتى يسكت المطر ، وتتابع رعيك في المطر والحر .. وتنام في جوف الكهوف والتجاويف .. أنت اليوم ترقد في شقة وتنام على تخت ، وتجلس على كنبة .. وتأكل على طاولة .. الرجل ما قصر معنا .. كان باستطاعته أن يقول ما عرفنا بهذه الزواج مع السلامة

قالت نادرة : نعم ، الرجل كريم ومتعاون معنا ، وسمعته سمعتنا

صاح جلال : هذا تحكم وتسلط وسيطرة.. وأنا تعودت على الحرية وحكم نفسي والتفكير وحدي والتصرف وحدي .. وأنا حر بعلاقتي مع النساء والبنات.. وأنا أرفض الزواج من قريبته أو قريبتنا

قال نادر مشيرا له بالجلوس والهدوء: هذا كلام فارغ .. أنت ابن عائلة محترمة ..عليك أن تحافظ على تقاليدها كما كنت تراعي تقاليد العشيرة .. أكنت تستطيع الخلوة ببنت من بناتها حتى لو راعية غنم مثلك ؟ إذا لم يعجبك هذا الحال عد للرعي عد للصحراء التي تهددنا بها منذ جئنا إلى "أبو خروف" .. عد لتعمل بثلاثة دنانير في الشهر ..لا تعرف ليلا من نهار ..اليوم صرت تصرف ثلاثة دنانير في اليوم.. شقة لا تدفع في إيجارها درهما.. الأكل والشرب أغلبه من نفقة الحاج .. لا تنسى النعم التي تغمرنا ..وماذا سيفعل لك الخياط ؟ عشرة دنانير يعطيك في الشهر لا تكفيك تبغا .. يا نادرة خلص الراتب أعطني اشتري علبة سجائر.. تريد

صرف مصروف البيت على البنات وبنت الخياط .. الملابس التي تلبسها يقدمها لها جدك .. تتكلم كأنك تملك الألوف .. سأخرج واستأجر .. تريد مصاحبة الفتيات اعتمد على جيبك .. ستقول كما قلت من قبل فلوس أبي .. أبونا لم يترك فلوسا ولا بيوتا ؛ بل جدك هو الذي كان ينفق على نورا وأولادها.. ويسكنون في بيوته أو بيت عمك حسن والد دلال .. يا جلال عليك أن تعرف حجمك الحقيقي .. الجد قبلنا ولم يعقد الأمور في وجهنا.. فلا يجب أن نستغله .. فالرجل يحسن إلينا رحمة بنا ، وأننا من ذريته .. وإلا نحن شباب رجال يجب أن نعتمد على أنفسنا ، وسوف يسكننا عند الزواج في شقق عنده .. ويكتبها بأسمائنا حتى نستقل بحياتنا.. تذكر الخير الذي قدمه لنا خلال عام واحد .. تذكر ذلك وكل الإحسان ..أرجوك أن تبتعد عن هذه الفتاة وغيرها .. وتذهب غداً للجد وتتأسف له عن تصرفاتك الرعناء .. وتؤكد له رغبتك بالزواج من قريبتنا الشامية

ضحك جلال ولما انتهى من القهقهة : أنا !!.. أبدا لن أفعل ذلك.. وسأغادر الشقة وأعتمد على نفسي حتى لا أعد استمع إلى هذه الأسطوانة بين الحين والآخر

قال نادر متهكما : أنت تعتمد على نفسك ! نسيت أنك كنت تعتمد عليّ في رعاية الغنم وتوليد الغنم ..أنا لا أدري كيف ستعتمد على نفسك ؟! يبدو أن الأفلام التي حضرتها أثرت فيك ، وقلبت حياتك .. هي أفلام تذكر هذا

– أنا سأتزوج من هذه الفتاة السيئة السمعة

– آنت تتزوجها ؟ ومن سيزوجك إياها ؟! أمعك مال ؟ يظهر لي أنك جننت ، وظننت نفسك أحد عشاق التاريخ .. كيف ستتزوجها ؟!

– سأتزوج بدون مال

– أنت صدقتها بهذا الكلام الفارغ ..وحدثتها عن زواج الصحراء ببضعة دنانير وشاة وانتهى الموضوع .. هذا سخافة وحماقة .. جدك سيتخلى عنك

– أنا سأتخلى عنه قبل أن يتخلى عني .. أنا من الليلة سأفارقكم لا أربد العيش معكم

- الله الله هذه البنت لعبت بعقلك يا ولد !

قال بتحد : أنا لا أحد يلعب بعقلي .. إنها فتاة مظلومة .. والناس المريضة تردد الكلام السيئ عليها

- ولماذا لم تتزوج لليوم ما دامت شريفة ؟

- لقد تزوجت وطلقت مثل نادرة .. والمطلقة يصعب زواجها من جديد .. أعطني المبلغ الذي ادخرته عندك يا نادرة كم هو ؟ خمسون دينارا على ما أذكر

قالت بغضب مكتوم : لا ، أربعون فقط .. وأنا أقول اخز الشيطان .. وهذه بنت غير سوية لا تصلح لزواج

- هات المبلغ

ذهبت الفتاة ، وأحضرت المبلغ ، ورمته عليه قائلة : أرجو أن تستيقظ مبكرا وقبل فوات الأوان

- الآن سأذهب وأقابل الفتاة ، هل أدعوكم لحفل العرس ؟

ضحك نادر وقال ساخرا : عرس أين؟ في الخيمة أم في الشارع ؟!

غادرهم ساخطا ناقما، قال نادر بعد إغلاق الباب : عجيب أمر الفتى ! يبدو أن الأمر أكبر منه مع هذه الفتاة

خرج نادر صباحا لعمله ، وصحب شقيقته معه حيث يتركها عادة تصعد لشقة جدها ، ويتابع طريقه للمنجرة التي يعمل بها خلف الحي شارع السالم حيث تقع المشاغل والورشات ، هذه المرة لم ينصرف للعمل بل تابع الصعود مع أخته ، وفتحت لهم الجدة ورحبت بهم ، وأحضرت لهم الشغالة المؤقتة التي تساعد الجدة في التنظيف والتعسيف القهوة ، وعادت للمطبخ .. قال نادر: هل الحاج مستيقظ ؟

- صلى الضحى ، وقرأ القرآن ، ثم نام .. هل أوقظه لك ؟

- لا داعي .. نادرة تحدثه في الأمر وما جد .

ولما شرب القهوة غادر الشقة ، ولما استيقظ الحاج ، وجلس معها كاشفته بترك جلال للبيت بعد خروجه ليلة أمس ، ومغادرته للحي ، فأسف السيد لذلك ، وقال : أمر مؤسف يا نادرة!.. على كل حال وقد رحل فليفعل ما يشاء ؛ لعله يخبر حياة المدن.. أمعه مال ؟

- كان مدخرا لدي أربعون دينارا فأخذها .

- سيعيش بها عشرين يوما على الأكثر.. أنا لا أعتقد أنه متعلق بتلك الفتاة يا نادرة .. هناك قصة أخرى لن نتكلم بها اليوم

- أهناك فتاة أخرى؟

- نعم ، هناك فتاة أخرى .. وإنما اتخذ هذه الغانية ستارا لعلاقته مع تلك الفتاة

- أتعرفها يا جدي؟

- نعم أعرفها .. قصدي أعرف أهلها .. أما هي ربما التقيت بها .. فهي بصراحة ابنة الخياط زيزي

- الخياط الذي يشتغل عنده جلال

- هذا الرجل معلم خياطة بمعنى الكلام ؛ ولكن أخلاقه ليست بالحسنة .. هذا الرجل بقيت عنده بنت أو عنده بنت في سن الزواج يريد تزويجها من جلال أفندي .. فكانت تنزل لهم الشاي ، وتجلس معهم في المخيطة حيث أنها تحت شقته .. وكان يسمح له بالصعود للغداء معهم .. ولما رأى حضرة الخياط أن حيلته لم تنجح ، وعلم أنني مصر على رفض هذا الزواج وسأزوجه من سوريا ، عملت ابنة الخياط حيلة أخرى زاعمة له أن والدها لا يعرف بحبهما ، واستعانت بالفتاة الفاسدة ، وطلبت منها التعرف على جلال والخروج معه لوسط المدينة والسهر والسكر ؛ ليظهر الخياط لنا أن ابننا هو المتعلق بابنته .. ونحن نعتقد أن الشاب تعلق بهذه الأنثى ، وفجأة ستختفي ابنة الخياط ، وسيقوم بتبليغ الشرطة ، وسيقبض على جلال وهي معه ، ويتزوجان رغم أنفي لدرء الفضيحة .. فأنا حذرته بيني وبينه ، ثم اضطررت للمجيء إليكم لأحدثه بتلك القصص أمامكم حتى لا تلوموني غداً .. لم اقصص تلك

القصص للتسلية .. إنما هي تحذيرات وتنبيهات لجلال ..فالناس تشفق عليه .. فهو غشيم ـ كما نقول في عرفنا ـ في المدينة وفي ألاعيب النساء.. وهذا الكلام وصلني من أحد جيران الخياط من كلام امرأته لزوجة الجار .. لعبة ماكرة .. سيصدق جلال أن بنت الخياط تحبه ، وهربت معه تحديا لأهلها .. والرجل صارحني منذ أول شهر عمل معه جلال بهذه المصاهرة ورفضت

– وهل يقبل جلال ؟

– عندما يتورط معها بما يجري بين الأزواج سيقبل مرغما .. وبدأ من قصتك تنفيذ الخطة .. والخياط لا يستطيع تزويجه إلا بهذه الحيلة السخيفة .. فجلال صدق أنها مغرمة به .. على كل حال نرجو له السلامة .. مكر النساء مخيف إذا سيطر عليهن الشيطان .. وقد تستطيع الفتاة التي تمثل دور الوالهة بأخيك أن تمكر بهم جميعهم ، وترفض أن تتخلى عنه لبنت الخياط .. لكن تأكدي لا تطول عيشتها معه

بعد أيام من ذهاب جلال عن الحي جاء الخياط للحاج زاعما له أن ابن ابنه الهارب عن العمل شجع ابنته على الهرب معه ، وأنه تقدم بشكوى للشرطة ، لنقطة شرطة "أبو خروف" فقال محمود بغضب واضح على وجهه: مبارك عليك الولد يا أنيس .. أما زواج فلن اعترف به .. هذه حيلة ومكر مكرتموه .. أنا أرفض مصاهرتكم ونسبكم

قال الخياط محاولا توضيح الموقف : يا حاج هو الذي مكر بالبنت وعشقها من ورائي زاعما أنه يحب الشغل معي ، وأنني مثل والده الميت ، ثم يخونني ، وقد أمنته على دخول البيت والحديث مع البنت في المخيطة والشارع.. لن ارحمه ، ولن أقبله زوجا لابنتي .. وسأجعل الأولاد يشربون من دمه .. ستغرق الحارة بالدم يا حاج محمود .. أهلي ناقمون عليه.. فهو أهان كل العائلة .. وستعرض البنت على الطبيب الشرعي .. وستكون فضيحة مدوية في "أبو خروف"

تبسم الحاج وهو يقول : فضائح "أبو خروف" كثيرة ..وستمر هذه الفضيحة كغيرها من

الفضائح مرور الكرام .. قلت لك زواج ابنتك من حفيدي غير مقبول .. ولا يمكن الرضوخ لحيلتك .. الله يستر على نساء المسلمين

- أتمنى أن لا يحدث بينهم شيء سيء .. فالعرض غالي يا أبا حسن .. أنا اتهمته لأنه هو هددني بفعل ذلك



الحاج محمود كما عرفنا من خلال سطور القصة أنه سكن الحي من عدة عقود ، فتراكم عنده مع الزمن تاريخ العائلات والأسر وظروفهم وحياتهم وأخلاقهم وقصصهم ..والقصة الحية معروفة للناس ، ويذكرونها عندما يفتشون عنها ، ويضربون بها المثل .. فمثل حيلة الخياط معروف في الحي وغيره .. فمنذ بدأ جلال يتحدث عن ابنة الخياط للزواج منها ، أدرك الحاج أن وراء الأكمة ما وراءها .. وأن الخياط يسعى لتزويج ابنته من حفيده .. وتحدث الخياط معه بصراحة في زواجهما ، ورفض محمود النسب بصراحة ، وظهر أنه مصر على زواج هذا الصحراوي حفيد الغني محمود من ابنته .. والحاج الخبير بالرجال رأى بنظره أن مصاهرة الخياط غير مناسبة لعائلته وأسرته ؛ لسمعة الخياط السيئة في "أبو خروف" ، فقد شاعت في فترة من الفترات قصص عن مغامرات لزوجته لا تسر البال ، ثم خفتت ، فلم ير أن مناسبة الخياط مقبولة في مقياسه ومحافظته الصارمة .. وكان مرتابا في دعوات جلال للأكل مع أسرته ؛ ولكنه صمت والذي كان يهمه تعلم الشاب لهذه المهنة .. فالرجل خياط ماهر بحق ، ولم يفطن إلى مكر الرجل وصيده لحفيده ، ووعى لمقصد الخياط فيما بعد .. وحفيده ساذج فهو تربية الصحراء حيث القسوة والخشونة ، لا يعرف الغزل الناعم واللف لاصطياد عريس .. والحاج محمود حاول استخدام الحكمة حتى لا يغضب الشاب .. ويصر على نكاح بنت الخياط

.. واستعان بصديق بجوار الخياط فعرف بمكرهم .. والجار أدرى بجاره .. فكان جلال يظن أن الفتاة تحبه وتعشقه وتريده من وراء أبيها وأمها .. فالخياط جعل من نفسه أعمى .. والفتاة أقنعته بجهل أبيها .. فعملت على أنه صديق لتلك الفتاة المعروفة بالفجور بين الناس ..وصار يسهر معهن في شوارع وحدائق المدينة .. وهمسن له بترك الحي .. واستغل ليلة كشف أمره أمام أخويه ، وغادر الحي ، وعمل في مخيطة في وسط المدينة أرسله إليها أنيس قبل شهر من الهرب أو الرحيل الاختياري .. ونام في فنادق شعبية قبل أن تجد له فتاة الحي بيتا من غرفة واحدة في حي عشوائي ملاصق لحي يسمى "برغوث".. وأصبحت فتاة "أبو خروف" كأنها زوجه شرعية له .. تهبط الليل عنده ، وتغادر قبل الفجر ، ثم اختفت بنت الخياط عنده ، وعرفت بالعلاقة الجنسية بينه وبين الفتاة الثانية ، وأن الرجل لا يهمه شرف ولا زواج .. وتابع والدها الاتهام والبحث عن جلال ، ودخل رمضان والبنت مختفية ، ويدعي والدها أنه يبحث عنها .. والحاج محمود يرفض التعاون في البحث عن حفيده ..والشرطة عاجزة من الوصول إليه أو لا يهمهم الأمر كثيرا .. وكانت القصة تتفاعل في الحي .. وطلب الخياط من نهى بعد تمكنه من رصدها أن تبلغ الشرطة عن بيت جلال .. فرحبت بذلك لتخلص من ابنته .. وقبضت عليه الشرطة والفتاة في بيته .. وأنكر أنها خطفها ، وأكد لهم أنها أتت بنفسها ، وأنه يعمل في مخيطة في وسط المدينة ، والفتاة تشتغل في مخيطة نسائية ، وإنما تبات في بيته ، وأمام الشرطة طالب الخياط زيزي الشاب أن يتزوجها سترا للفضيحة ، ولم يرفض جلال ؛ ولكنه قال: أنا لا أملك مالا للتزوج به ، لا أملك إلا ما أعمل به ..وأنا لا أراها تصلح زوجة لي .. وأنا نصحتها أن تعود لبيت أبيها

صرخ أنيس وصاح وهاج وصوت ثم سمعها وهي تقول للضابط : ذهبت من البيت بنفسي دون ضغط يا أبي لست صغيرة

لطخها والدها لطمة وقال بغضب : أنت عاهرة .. في بنت تخرج من بيت أهلها .. وتبات في الشوارع .. وتنام عند الشباب .

وأنهت الشرطة القضية بأن تعود الفتاة مع أبيها ، وقال جلال : سأفكر بالزواج منها إذا أحببت يا أنيس ..أنا أدركت لعبتك الخبيثة .. نهى تكلمت

- ما دام هربها معك لعبة فلماذا تنام معها ؟

- عاشت معي ..ولم أعاشرها يا معلم أنيس .. اذهب وأعرضها على الطبيب الشرعي .. لم أمسها .

وأكدت الفتاة رفضها الحياة معه كعشيقة ، ولم يحدث بينهما اتصال جنسي ، فحولت للطب الشرعي ، وبعد الفحص تبين لهم عذريتها ، وأنها ما زالت بكرا ، فرجعت للبيت مع أبيها ، وقد تعهد والدها لقائد الشرطة بأن لا يتعرض لها بأذى وضرب ، ورجع جلال لغرفته ، ولما سألها أبوها عن سبب فشل الخطة قالت : فازت به نهى قبل أن أصل إليه .. كانت عشيقة له ، وقبلته بدون عقد وشرع ، وأنا رفضت ذلك .." فقال : تستمرين في خطة أبيك ؛ لتعودي للبيت عن طريق الشرطة حتى يعرف الناس أنك شريفة وطاهرة من أجل سمعتك "

- وتلك ؟

- سيتزوجها قانونا وشرعا ..فقد أحبها كم يزعم ، ولن تكون إلا له ، وهي قبلت بذلك

- وأهلها موافقون !

- ولماذا يرفضون عندما يناسبون الحاج محمود بط ؟

- لن يتعرف عليهم الجد

- الزمن دواء لكل مصيبة .. فكان من الصعب عليّ تسليم نفسي له لما وجدتها تعيش معه كزوجة وهو يريد ذلك

- يا لك من ماكرة !

- كان لابد من متابعة الخطة حتى لا يتلطخ شرفي به دون فائدة .. على كل حال سأتزوج قريبا

- كيف ؟!

- صاحبة المخيطة التي عملت معها هذين الأسبوعين لديها شاب يعمل معها استلطفنا بعضنا البعض .. بعد رمضان سيتقدم لطلب يدي منكم.. وهو غريب ليس من أهل البلد عامل وافد ..وهو خياط ماهر مثلك .. حدثني عن الزواج فقبلته

- قد يسافر فجأة كما نسمع

- يسافر ! نجد غيره .. الشاب جميل ورائع وأحسن من جلال مليون مرة باعني من أجل غانية .. ومن أجله توقفت عن إغراء جلال

- تربية أمك



استطاعت نهى إفساد حيلة الخياط ، وتمكنت من السيطرة عليه ، وسلمته جسمها بدون عقد زاعمة حبه وغرامها العارم به ، وصدق المسكين هذا الكلام المعسول ، ولم يكن يسمع به في الصحراء حيث الخفر والحياء ، ومع موجة الأفلام الإباحية والمثيرة الغرائز استسلم لعشيقته وأفكارها ، ولما انتهوا من قصة بنت الخياط أحضرت والدها ، وعقدت على جلال زواجا شرعيا ، ولم يكن أمامه الرفض ، فقد أحبها كما زعم لنا فيما بعد ، وكانا يأملان بأن يصفح الحاج محمود عنهما بعد حين وتعود المياه لمجاريها ، وتابع الشاب شغله ، وأصبح خياطا ويجيد الشغل ، ورجع ذات نهار للبيت في منتصف النهار ، فقد أصابه إرهاق لضغط الشغل أيام الأعياد ، أو قل قبلها ينشط الشغل والخياطة فيسهرون للفجر ، فأصيب بإرهاق ودوخان فأخذه صاحب المخيطة إلى طبيب قريب من المخيطة ، وعالجه ووصف له بعض الدواء ، فاشتراه له الخياط من إحدى الصيدليات ، وأركبه تاكسي أجرة لبيته ، ولما طرق الباب فتحت له زوجته ـ وهي لم تكن تتوقع مجيئه بمثل الوقت من النهار حسب العادة ، هو لا ينقطع عن الشغل إلا يوم الجمعة فقط والأعياد الدينية ـ فتفاجأت وهتفت جزعا: جلال !

فدفع الباب داخلا يقول : مريض .. كنت عند الطبيب .. وتابع اندفاعه إلى غرفة النوم الغرفة الوحيدة في البيت ، فوجد رجلا فيها فقال مصعوقا: من أنت ؟! كان آملا أن يكون عما خالا لامرأته رغم وضعه المريب ، فقالت امرأته ولحقت بها : صديق قديم

فاستدار إليها وقال بغضب مكبوت : ألم تعاهديني منذ صرنا أصدقاء أن لا تخونيني ؟ وصاح في الرجل : من أنت ؟

ارتدى الرجل قميصه وقال : أريد الخروج. وحاول إزاحة جلال من الطريق وقال: زوجتك ستخبرك من أنا .. أبتعد ...

نظر جلال إليها من جديد وقال : من هذا العشيق ؟

نظرت إليه باستهتار وقالت: قلت لك صديق قديم صدفته .. دعه ينصرف ، ولا داعي للصياح غداً صباحا نكون أمام المحكمة

صاح فيهما غضبا وحقدا : لا ، أنا لست ابن المدينة ، أنا ابن الصحراء .. الزنا يعني الموت الأحمر .. أنت تعرفين من أنا ؟! .. أنا لا أقبل أن أجد في بيتي رجلا واصمت .. أنا ابن الصحراء!

ضرب الرجل لكمة مفاجئة على وجهه فسقط على الأرض ، وأسرع جلال للمطبخ ، وقبل أن يفوق الشاب من الصدمة كان جلال يعود ، وهو يحمل سكينا حادة وقال : سأقتلكما .

وكان الشاب قد تمالك نفسه وتناول تربيزة ـ طاولة صغيرة ـ وقال هياجا : أنا الذي سيقتلك !

صاحت الفتاة فيه : لا تفعل !

فصاح جلال : أخائفة عليه أم عليّ يا خائنة ؟! وهجم على غريمه ، فابتعد الشاب عن طريقه ، فوقع جلال أرضا ، وضربه الرجل بالطاولة على رأسه عدة مرات ، ولم يستطع جلال النهوض، وتمدد على الأرض ، وقال بصوت مخنوق غاضب : سأقتلكم ولو آخر في يوم الدنيا لملمت الفتاة ما يلزمها من ثياب وأشياء ، وغادرت وعشيقها الشقة أو الغرفة ، وبعد حين

يسير نهض مترنحا وهو يقول : لم أسمع لنصائح الجد .. تلك اللعينة كانت تخونني وتشتري الكحول والدخان لعشاقها على حسابي .. لقد كان نادر أعقل مني!

غادر البيت إلى أحد الأطباء الذي أمره بالذهاب إلى قسم الطوارئ في المستشفى العام ، وزعم لهم أنه تعرض لمشاجرة ، وانهال عليه الشباب بالعصي ، وبعد إجراءات وإسعافات أولية وضرورية غادر المستشفى ، واتصل من تلفون بمحل جده وعمه سائلا عن أخيه نادر .. فرد عليه حسن ابن حسين لما عرف بنفسه : نادر تزوج من شهرين ، وسافر للشام ، وذهبت معه نادرة ؛ لتتزوج هنالك ..ولهم أكثر من شهرين مسافرين .. وأنت ما أخبارك ؟

- إنني في شر وحياة مؤلمة ..إذن نادر تزوج في الشام .. أين جدي ؟

- في بيته أتريد منه شيئا ؟

- أريد أن أراه أين عمي ؟

- مر علينا .. عمك الآن مع جدك لزيارة أخيك محمود المريض في المستشفى

- أخي في المستشفى ! أي مستشفى؟

ذكر له اسم المستشفى الذي يرقد فيه أخوه محمود ، عاد لغرفته وقضى الليل يتقلب من آلام الضربة ، ولم يذهب للعمل ، وبعد أيام ثلاثة أزال اللفائف والضمادات عن رأسه المشجوج وعن وجه ، ولما حان وقت الزيارة في المشافي ذهب لزيارة أخيه بعد أن عاود الاتصال بالمحل ليسأل عن أخيه السقيم ، ووجد حول السرير زوجة أبيه نورا وجده محمود وجدته خديجة وغيرهم ، فسلم عليهم وعانق جده قائلا: أنا آسف جداً يا جدي ..ومشى إلى سرير المريض وقبل جبينه ، ودعا له بالسلامة : الحمد لله على السلامة يا أخي العزيز .. كيف حال امرأة أبي ؟ وقضى دقائق في السلام والمجاملات والدعوات .

وسمع جده يقول: سمعت أنك طلقت زوجتك نهى بنت العقاب .

بكى الشاب بصوت مرتفع وقال بعد هدوء نفسه : ليتني سمعت نصحك واستوعبت قصصك تلك الليلة ..كنت أحمق يا جدي ! .. وكما نقول "ذيل الكلب عمره ما يعتدل "

لقد خانتي رغم الأيمان والأقسام التي حلفتها أنها لن تدخل بيتي عشيقا أو صديقا

قال الحاج : الحمد لله على السلامة ..سمعنا أنك تعرضت للضرب من صاحبها

ازداد نحيبه وشهيقه وقال : نعم ، فوق الخيانة ضربوني ، وغدروا به.. وأقسمت بالله إني لهما قاتل

- يا ولدي لا تقسم .. ما دمت قد طلقتها.. فدع غيرك ينتقم لك .. تقتلها وتقضي حياتك في السجن .. النساء كثير .. اجتهد أن تعود لمَ كنت عليه قبل زواجك ..واحمد ربك أنك نجوت منها ومن الخياط .. وابنته لقد تزوجت

- أعرف ، والتقيت بزوجها قبل أن تتزوجه .. شاب مغترب

قال الحاج مرشدا : السعيد من اتعظ بغيره يا جلال .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم :" اظفر بذات الدين تربت يداك ".. وأنت للأسف ما كان لي عندك شأن

- قاتل الله الجهل!

- الجهل يزول بالعلم والمعرفة وسماع المشورة

- صدقت !!

تمت الحكاية السادسة



خرج الزوج لصلاة الفجر في المسجد كما اعتاد ذلك

لما رجع البيت وجد المرأة معتدى عليها ومجوهراتها مسروقة والمشتبه به حفيدهما

وتبين في التحقيق أنه لم يكن على مسرح الجريمة كان معتقلا في قرية بعيدة على أثر مشاجرة عائلية

ولما قتل الحفيد ظهر الحق وأنه هو السارق لجدته

هذه هي الحكاية !

١٩٧٦

الحفيد السارق

حادث سرقة

كانت جمهرة من الناس متجمهرة أمام مدخل بناية من بنايات "أبو خروف" ذاك الصباح البارد ، وذلك عند بداية طلوع الشمس ، وكانت سيارة شرطة تقف أمام البناية ، وكان أحدهم يقول لجار له: كيف دخل اللص الشقة؟!

رد الجار الموجه له الاستفهام : يقولون إن المرأة أم عسود قامت تصلي الفجر فشعرت بحركة داخل البيت .. فذهب بالها أن أبا عسود لم يمش للجامع بعد ، فأخذت تناديه بصوت مخفوض .. ثم تذكرت أن أبا عسود أيقظها للصلاة ومشى للمسجد كالعادة .. وذكرت أنها سمعت صوت الباب يغلق .. وبينما هي تفكر بذلك شعرت بحركة شخص معها في الغرفة ثم ضربها أحدهم بعصا على رأسها .. فصاحت صرخة مرتفعة ، وسقطت على السرير الذي كانت تجلس فوقه ، تستعد لدخول دورة المياه للوضوء والصلاة ؛ فكأنها لما خرج أبو عسود غفت .. ولما عاد الرجل من بيت الله ـ قبل قليل ـ وجدها غارقة في بحر من الدم ، وفاقدة الوعي ، ووجد أن صندوق ذهبها ومالها فارغا .. فاتصل بابنه عمار .. وجاءت سيارة المستشفى ، ونقلوها للمستشفى ، وجاءت الشرطة للتحقيق في الحادث

- ابنهم عرجون أين هو؟!

- عرجون في رحلة جامعية مع طلاب جامعة لمدة ثلاثة أيام .. واليوم مساء سيعود من رحلة الجامعة ، فلذلك يقول أحد الضباط : إن السرقة مدبرة ، اللص يعرف فراغ البيت من عرجون ومن أبي عسود .. وربما يوجد أكثر من حرامي لوجود أثار أحذية لأكثر من شخص على الأقل شخصان .. الغريب أنهم كيف دخلوا البيت؟! والباب يغلقه أبو عسود خلفه ، وذلك من زمن طويل .. وهل زلفوا للبيت قبل خروج أبي عسود للجامع أم بعد خروجه ؟ فيقول حضرة الضابط : المخطط لهذه السرقة يعرف البيت ونظام الحياة فيه ؛ كأنه عاش فيه .. ويعرف أين تضع المرأة الفلوس؟ وما هي؟! مع أن أكثرهم يعرف أن النساء تضع مجوهراتها في الخزانة الخاصة بالثياب ، وفي غرفة النوم .. لكن السر كيف عرفوا بسفر عرجون ؟! جريمة

جريئة ومرتبة ، وكان هدفهم السرقة ، واضطروا للاعتداء على أم عسود لما أحست وشعرت بهم ، وبقيت في الغرفة لم تخرج للوضوء والصلاة ، فدهمهم الوقت ، وخشوا عودة أبي عسود .. وأخبر ابنها الكبير أن لا خطر عليها .

وهكذا كانت الجمهرة تتحدث عما سمعت ويحللون ويفسرون ما يتردد من معلومات منذ اكتشاف الحادث ، ولما انصرف رجال الأمن تفرق الناس إلى منازلهم أو أعمالهم ، وقال أحدهم لعمار ابن أبي عسود : الحمد لله على سلامة الحاجة أم عسود .. عساها بخير ..الشرطة عرفت الجاني؟

- شكرًا ، سلمكم الله .. أمي بخير .. لم تكن الضربة بالقوة القاتلة .. كانوا يريدون إسكاتها .. الله ستر ..الحمد لله .. أرجو أن لا تروا مكروها .. ويرى الشرطي أنها ضربت حتى تعرف اللص ؛ لأنها لو رأت السارق ستعرفه .. فكان لابد من ضربها حتى لا ترى أحدهم .. ويرون أن اللص أو أحدهم قريب من الأسرة أو الجيران .. له معرفة بنا .. وبصراحة أقولها لكم أنهم يشكون في ابن اختنا عزيزة ..حفيدها .. فهو كما تعلمون شابا منحرفا فاسدا .. وسيبحثون عنه .. فكثير من الدلائل تشير إليه ، فهو معروف للشرطة ، وهو يعرف البيت ، ويعرف صندوق مجوهرات جدته أم عسود ، ويعرف أن جده يخرج للمسجد لصلاة الفجر ، ويستطيع أن يعرف أن عرجون في رحلة جامعية خارج العاصمة .. وأخيرا أقول .. الله أعلم ، والسلام عليكم

فقال آخر له معرفة بالأسرة : والله هذه أدلة دامغة يا عمار ؛ ولكننا نعلم أن جبيرا بعيد عن الحي ، ومطرود من بيت والديه منذ أشهر .. من آخر مشكلة كانت له مع أبناء حفيظة ، كيف قلد مفتاح بيت الوالد؟

- الفاسد يا صلاح يستطيع تدبير أمره .. وأنا قلت لكم الشبهة أو الشرطي لمح لي بذلك ، ويظن هذا .. أما نحن فلا نعرف من فعلها بالضبط ؛ إنما هو احتمال وقرائن، وسوف يأخذون البصمات عن الصندوق المفرغ من ذهبات أمي .. مع أن صغار اللصوص يخفون بصماتهم

اليوم ، فلبس جوارب أو كيس لا تظهر البصمات .. فالبصمة من الأدلة الدامغة على وجود الفاعل على مسرح الحادث .. والذهب المسروق قيمته خمسة آلاف دينار مع المال .. تحويشة العمر كما يقال.. ومنذ سنوات تعرضت لمحتالة لولا لطف الله



عند مغيب الشمس رجعت أم عسود لبيتها يصحبها زوجها وأولادها ، ولما استقرت في غرفة نومها تركوها تنام ، وجلسوا في صالون البيت ، وقالت عزيزة لشقيقها عمار: أصحيح أن الشرطة تشتبه في جبير ؟

عرض عمار ثانية القرائن التي تحدث بها أمام الجيران ساعة الصباح بعد نقل أمه للمشفى قال : هذه أقوال الشرطة .

فقال زوج عزيزة السيد محمد : ولكنّ جبيرا كما تعلمون مطرود من الحي من شهرين ونصف .. والباب لم يستخدم العنف والقوة لفتحه .. فقد فتح بمفتاح فكيف وصل المفتاح إليه؟!

قال عمار: بعدما عدت للبيت ، تكلمت مع ضابط الشرطة فقال: إنهم يتابعون شقته ، ويبحثون عنه ، فهو لا يوجد في بيته ، وزوجته قالت لهم : إنه متغيب عن البيت من أيام

فتساءلت حينئذ عزيزة: هل السرقة مرض يا جماعة؟!

فلم يرد أحد فجبير ابن عزيزة ومحمد معروف لدى الأسرة بذي اليد الخائنة ،.. وبعضهم يقول [ايده طويلة] يقصدون بها الحرامي اللص .. وقد يقصد بها [هذا الشخص واصل ويطول كل شيء حتى عند السلطان].. والحديث قال[اليد العليا خير من اليد السفلى] أي اليد المتصدقة المعطية .. وتعرض الشاب للسجن بسبب ذلك ، ولم يردعه حبس عن تكرار السرقة ، فهو معروف لدى دائرة الشرطة والبحث الجنائي ، وكما يقال "صاحب سوابق" .. فهو يسرق كل شيء يتحول لمال بسهولة .. فسرق مالا من دكاكين ومتاجر وأسطوانات غاز

منازل ملابس وأحذية أدوات منزلية وكهربائيات ، ولما قضى آخر عقوبة زوجه والده وعمل له مصلحة تجارية يعتاش من العمل فيها ؛ ولكنه سرقها وخسرها ، فطرده أبوه ، وطلب منه أن لا يتراءيان ، فرحل إلى حي كرمانة [اسم حي زوجته] التي عرف أخاها أثناء وجوده في السجن ، فجبير هو المشتبه به عند الشرطة ، وأهم نقطة لصالحه هي كيف وصل إليه المفتاح ؟ مفتاح الشقة لا أحد يذكر أنه أوصل إليه المفتاح ليقلده .. الشرطة كما ظهر لعمار تراه المتهم الأول في هذه القضية للطريقة والظروف التي حدثت بها السرقة ، فهم جادون في البحث عنه ، فوضع بيته تحت المتابعة الأمنية الشرطية ، فالقضية ليست قضية سرقة فحسب فهناك جريمة شروع في القتل .. ومما يذكر أن جبيرا بدأ يسرق صغيرا ، وهو في أول سنوات المراهقة العمرية .. كان يسرق القليل لشراء السجائر .. فبعض الباعة يبيعونها بالسيجارة والاثنتين لامتصاص مصروف التلاميذ الذين يحبون أن يقلدون الآباء المدخنين ، أو الشباب الأكبر منهم سنا ؛ ليعترفوا بهم كبارا مثلهم ؛ كأن السيجارة تجعل الشخص أكبر من عمره الحقيقي ..إنه جهل عقيم .. وطفق الفتى لا يكتفي بسرقة المال القليل ، فصار يسرق الدخان نفسه بغفلة عن البائع ؛ ولكن البائع يعرف بعد حين من السارق .. فالسبب مكشوف ، وأقرانه الذين تباهى أمامهم بالسرقة يقرون لصاحب الدكان باسم اللص .. تعرض للعقاب من قبل والديه .. يهرب لبيت جده زاعما الخوف من العقاب ..ولم يفد العقاب والضرب في العلاج .. وسرق الطلاب ، وتعرض لعقاب من مدرسه.. ولما وصل الإعدادية غادر المدرسة لسوق العمل لبلادته وعدم اقتناعه بجدوى التعليم ..فبدأ العمل مع بليط ـ الرجل الذي يبني بيوت الناس بالبلاط والرخام ـ ثم سرق آلة قص البلاط وباعها .. واكتشف المعلم جريمته فطرده شر طردة بعد أن خصم من أجرته ثمن هذه الآلة ، والباقي من والده محمد .. ولم يكترثوا لإنكاره وأيمانه ، فهو صاحب سوابق ، وانتقل للعمل في بقالة وخان البقال ، وكرر السرقة المال والدخان ، واكتشف الرجل النقص فطرده كسابقه ، يختفي عن بيت العائلة أياما ، ويأتي زاعما الندم ، وظل على هذا الحال حتى قبض عليه وحبس أشهرا لسرقة بيت ، وخرج بدون فائدة ترتجى

من صلاحه ، ثم يحبس لحادث جديد حتى بلغ العشرين ، ولم يتحسن الحال وظل معوجا ، فوافق والده أن يزوجه بعد خروجه من محبسه لعل وعسى ، وكان للشاب رفيق سجن وسرقة ، فلما رأى أنهم يرغبون بتزويجه فقبل على أن يتزوج أخت صديقه ، فقال والده بعد تردد : هي امرأة كسائر النساء .. أخت حرامي أخت حرامي .

كان الأمل أن يتحمل مسؤولية بيت ، زوجة ؛ ولكنه ظل يسرق من يحسن إليه ، ويقبل أن يعمل عنده ، ووصل به الهوس في السرقة أن سرق أسورة لأمه وباعها .. فاضطر والده لطرده من البيت ورفض حياته في كنفهم .. فرحل غير آسف .. فسكن في حي له فيه رفاق عرفهم أيام السجن .

فلما سألت عزيزة أم جبير السؤال" هل السرقة مرض ؟" صمت الجميع .. ثم قال عمار بعد نظر وصمت طويل : هي ليست مرضا ، وربما مع الوقت والزمن تصبح مرضا بحكم العادة ، أو عادة يصعب التخلص منها ..وجبير للأسف معروف لدى الشرطة ـ سوابق كما يقال ـ لذلك وجه إليه الاتهام والاشتباه .. والقضية قضية وقت ، سيمسكون به اليوم أو غداً .. لما تزوج فرحنا قلنا لعله يعقل .. وها هو له طفل .. ولا أدري بأي حجة يستحلون مال الناس

نهضت عزيزة وهي تقول: هيا يا محمد الحمد لله على سلامة أمي يا أبي .. أنا إذا ثبت أن اللعين فعلها سأصاب بالجنون .. وهذا حال لا يسر ولا يبشر بخير .. سيقتل أحد الناس في يوم من الأيام من أجل المال

تنهد محمد أسفا وقال: فعلا ، هذا لا يبشر بخير .. الحمد لله على سلامة أم عسود ـ إن شاء الله ـ ترجع ذهبات أمنا الغالية ، وأن تقبض الشرطة

على الجاني ، وإذا ثبت أنه المجرم فلا يمكن أن أسامحه ، أو يناطق لساني لسانه

قال أبو عسود بحزن عميق : أتمنى أن لا يكون هو .. من شهور لم أره



رجع محمد وعزيزة البيت يغمرهم الحزن والهم والرجاء ، فهم يعيشون في حي التوتة ، وجلسوا يتناولان العشاء أو ما تبقى من العشاء ، قالت البنت الكبرى هند : كيف الجدة ؟

ردت الأم طالبة : عملت الشاي

– نعم ، ستأتي به عبلة

– عادت الجدة من المشفى للبيت قبل قليل .. لقد ضربها الحرامي بعصا مساحة المطبخ (قشاطة ماء) على أم رأسها ، وسرقوا القرشين

– اتصل خطيبي يسأل عن الجدة وعن صحة الخبر .. فقال : ألا تعلمين أن عمي عبد القادر من سكان "أبو خروف" ؟ عرف من أبناء عمه المأساة وعرف أنهم يشتبهون بأن الحرامي جبير ، أصحيح هذا؟!

قال الأب بألم وهو يتناول كوب الشاب من صينية عبلة : نعم ، يشكون فيه ، وهو غير موجود في بيته .. هذا الولد قسم ظهري .. إنهم يتحدثون أن عما لي مات قديما كان يشتغل لصا كجبير .. يسرق المواشي من القرى والمزارع قبل أن نسكن المدن ونترك الزرع والضرع .. وقتل وهو يسرق ثورا من أحد الفلاحين .. وأهدر جدي دمه .. ولم يأخذ ديته لما ثبتت إدانته .. هل يا ترى يا أولاد السرقة لها علاقة بالوراثة؟ .. هل تعلم شيئا حول ذلك يا محمود يا فهيم ؟ فأنت دائماً تقرأ الكتب والمجلات

تبسم محمود وحسّن جلسته ، ووضع كوب الشاي على المنضدة التي أمامهم ، وأجاب: لم أقرأ أن اللص يرث اللصوصية بعامل الوراثة شيء مخلوق في الجسم .. رغم أن بعض علماء الجريمة يرون أن للعامل الوراثي دورا في الجريمة مع ظروف بيئية معينة .. فقد حاول بعضهم المقارنة بين الآباء والأبناء وبين الأخوة بالنظر إلى سلوكهم الإجرامي للتدليل على وجود ميل موروث إلى الجريمة ، وبين من عدة مقارنات إلى نسبة عالية ؛ ولكن نظريته وأفكاره لم تسلم من النقد .. فعلماء الاجتماع والجريمة فكروا ودرسوا العامل الوراثي .. ولكن هذا في بلادنا صعب التأكد منه ، وأن نذهب هذا المذهب .. فالعامل البيئي ربما أقوى في الجريمة من العامل

الوراثي .. ففي العصابات القوية والمنظمة قد يلعب الابن والأقارب دورا في نفس العصابة .. كما نسمع ونقرأ عن عصابات أمريكا والمافيات ..فهؤلاء العصابة عندهم كشركة يتوارث الأبناء الأجرام والسيطرة والانتقام .. فهي عصابات أسر .. وهذا كما يتوارث أبناء بعض الأسر المهن والحرف والتجارة .. فتجد بعض الأبناء تعلموا مهنة الآباء ، وحرص الآباء على نقل الحرفة وأسرارها لبعض الأبناء .. أما السرقة والبغاء والربا فكل واحد على ذنبه

– كلامك جميل ! ها هي القراءة أفادتنا إذا ظهر أن لجبير يدا في هذه القصة ستكون كارثة فها هو أخذ يستعمل العنف أثناء إجرامه

قالت عزيزة : كيف فتح الباب ؟! وقد قال عمار: إن البيت فتح بمفتاحه دون عنف

ـ هذه هي النقطة التي في صالح السيد جبير ، أما معرفة خروج الجد فسهلة من المراقبة .. ومعرفة وقت رحلة عرجون وعدم وجوده في البيت عند السرقة يدل على معرفة اللص لذلك .. فالحادث يدل على عمل مرتب ومدبر

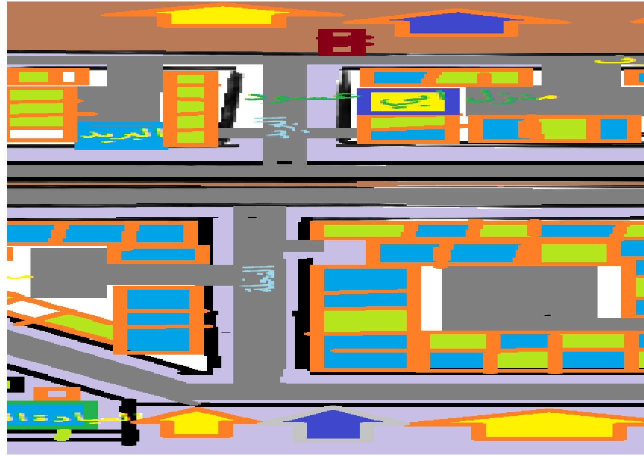
فقال محمود :أكيد هذه إمارات دالة على أن اللص يعرف الدار ، ومكان المال .. ولجبير سابقة في سرقة أمه كما تذكرون .. وهذا الشاب معضلة تحتاج لحل .. الحبس لم يقومه للأسف ، والزواج لم يجد معه نفعا ..ألا يوجد حل؟!

قال محمد بسخط حاد : الحل أن يموت قبل أن يبلينا بجريمة قتل .. كما مات عمي الذي قتل وهو يسرق ثور المزارع .. خسر حياته من أجل سرقة ثور ؛ ليباع ببضعة دنانير ..لا تغني ، ولا تسمن من جوع

قال هند: لم تدركه يا أبي

قال بحزن: مات أو قتل قبل أن أولد أنا بسنوات ..قديما كانت الحياة في بلادنا صعبة وشاقة خاصة الفلاحون فكانت أرزاقهم حسب المطر والموسم .. حتى الزواج في حياتهم حسب قدرة الموسم على العطاء ؛ لذلك كانت تشيع بينهم سرقة المواشي ، وبيعها في أسواق منتشرة بين القرى والمدن موسمية كانت أو شهرية .. فقد يجد المسروق دابته المسروقة تباع أمامه في

السوق ، وتحصل المنازعات والاتهامات والمشاجرات .. وقد يموت فيها ناس كما نسمع ؛ لكن اليوم يوجد التعليم والوظائف في الحكومة والشركات والمهن والحرف وقيادة السيارات بأحجامها المختلفة .. فالشغل كثير ويحتاج لهمة ونشاط .. وشرطة وجيش وأمن .. فأهل المدن يقل عندهم سرقة الغنم والدجاج .. حتى أننا نسمع الآباء يتحدثون عن سرقة بيض الدجاج والأرانب .. اليوم طبق البيض بثمن زهيد .. اليوم عندنا مزارع دجاج وسمك وعجول لتحول للحوم .. لم يعد الناس يربونها في البيوت .. فتكلفة تربيتها أكثر من شرائها من المزارع .. حتى البلديات تمنع من تربيتها في بعض المدن أو بعض الأحياء.. القليل من يخالف النظام ؛ لأننا بدأنا نسمع عن البيئة والتلوث الذي يؤدي إلى انتشار الأمراض الوبائية .. الخبز كان قبل عقود يخبز في البيوت .. واليوم زادت المخابز في الأحياء ، ويعتمد الناس عليها .. وتركنا بريموس الكاز ، وأصبحنا نستخدم البوتاجاز أو الغاز .. قديما كنا نخبز في البيوت وعلى الحطب ، ثم في فرن الحي .. فكان المخبز في فصل الشتاء مأوى النساء والفتيان للحصول على الدفء والحرارة وسماع أخبار الناس.. وكان يخبز الفران مقابل مال قليل أو خبز .. في الأرياف ما زالت بقايا هذه الأفران أو الطوابين تسمى عند بعضهم .. أصبحت تراثا وشهوة .. لكل شيء تاريخ وحكاية .



سرقة جديدة

بعد مضي أسبوع على حادثة السرقة لبيت أبي عسود اتصلت عزيزة بأبي جمال شقيقها عمار ، وفي نغمة صوتها فرح وقالت : أصحيحة الأخبار التي شاعت يا أبا جمال عن براءة جبير من حادث أمي ؟!

كان يدرك الألم الذي يعتصر قلبيّ عزيزة ومحمد من الحادث الأثيم ، فرغم الجهود التي يبذلانها من أجل تقويم الشاب الضال لحتى الآن لم تثمر وتكلل جهودهما بالنجاح ، فرد عليها قائلا : نعم ، يظهر يا عزيزة أنها صحيحة ، ونرجو ذلك .. فكلنا يتمنى أن يكون جبير بعيدا عن الحادث .. وهذا جيد جداً يا أم جبير .. قال ضابط النقطة في الحي : عندما حدث الحادث كان جبير محبوسا لدى شرطة عال في مشاجرة ريفية .. كان ذاهبا لزيارة رفيق سجن .. فقضى هناك ليالي موقوفا مع زعران البلدة حتى جرى الصلح بين العائلات المتشاجرة ، ثم افرج عن الموقوفين .. ولما عاد للبيت كانت الشرطة السرية في انتظاره .. واقتيد لدائرة أمن العاصمة بيت السلام ، وتم التحقيق معه ، وتبين صدق أقواله ، فاطلق صراحه .. ورغم ألمنا من الحادث فرحنا وفرحت أمي لبعد يد جبير عن الجريمة .. والمال يعوض .

قالت وقد ارتاحت أعصابها وخف توترها لسماع كلام عمار : جزاك الله خيرا .. أرحت قلبي من ناحية أمي .. لو كان هو فذلك مؤشر خطر .. وهو استخدام العنف والشروع في القتل كنا في حالة الانهيار يا عمار من تحوله من السرقة للقتل .. الخوف قتلنا .. مصيبة أن يبتلى الإنسان بدم .. السرقة أهون من القتل .. وكلاهما دمار .. لكنّ هناك شيئا أخف من شيء وأهون الشرين .. الله يهديك يا ابن عزيزة الصراط المستقيم . سمعت آمين من أخيها فقالت : ماذا ستفعل الشرطة بعد خروج جبير منها ؟

- الشرطة تستمر في البحث والتحري والمتابعة حتى يقع بين أيديهم لص أو لصوص ويعترفون ويقرون بهذا الحادث وغيره ، ويكون الذهب قد أصبح في بطونهم طعاما وشرابا .. الأهم أن الوالدة تعافت ونجت منهم .. والمال يعوض يا عزيزة .. وأمك دعت الله أن يكون

جبير بعيدا عن الجريمة والاتهام .. وهي فرحة مثل الجميع .. كان القلق يساورها ؛ لأننا نعلم أن جبيرا سرقك .. فالذي يسرق أمه يهون عليه الآخرين .. والضرب لم يعد علاجا للتقويم

– نعم ، فعلنا ما بوسعنا لتقويمه دون فائدة ترتجى .. زوجناه من فتاة رغب هو فيها أخت رفيق له على أمل أن يحس بالمسؤولية وأنها أخت صاحبه .. فتح له والده مصلحة فسرقها ..لا يريد أن يصير كسائر الخلق

– الشر موجود .. والكل لا يحب الشر .. والأشرار موجودون بصور وألوان مختلفة

– أهو عند امرأته وابنه في البيت ؟

– أكيد أنا لم أره .. أنا أتعامل مدير النقطة .. أمس سألت الضابط فقال لي: إن المشتبه به لم يكن على مسرح الحادث ، كان على مسرح آخر .. وأبي وأمي رغم حزنهما على المال ـ والمال صنو الأبناء ـ لكنهما سرا مثلك من براءة جبير من هذا الحادث .. الحيرة ما زالت تكتنف الجميع كيف عرف اللص تفاصيل البيت ونظام صلاة أبي وسفر عرجون ؟! .. فهذا يدل على قرب الجاني من الأسرة .. والأخطر كيف حصل اللص على مفتاح الشقة ليقلده ؟ وأبي ـ كما تعلمين ـ يغلق الباب بالمفتاح عندما يذهب للجامع خشية أن تبقى أمنا نائمة .. وعرجون يأخذ مفتاحه معه .. وفرضا نسي أحدهم غلق الباب ذاك الصباح.. فمن أعلم المجرم أن الباب مفتوح في هذا الدقائق.. إذن اللص يملك مفتاح الشقة.. والجريمة بوشر بها عندما خرج أبي من العمارة .. هو خرج وهم أو هو تسللوا كانوا يراقبون البيت ، وتسللوا للبيت على توقع أن تكون أمنا في دورة المياه تستنجي وتتوضأ لصلاة الفجر .. لكنها غفيت واستيقظت على حركتهم ، واعتدوا عليها بحكم الضرورة .. فمن العدو لنا ؟ فهذه السرقة كما يقول الضابط "لا يمكن أن تكون عشوائية دون تدبير، سرقة مخطط لها ومعروف الهدف ، ليست فجائية بنت الساعة .. فكثير من السرقات تحدث ضمن ظروف معينة تغري اللص والمحتال ، يرى شيئا ما فيسرع بسرقته ، أما سرقة البيوت فتكون سرقة عن سبق الإصرار والترصد ، قد يعرف اللص بيتا خال من السكان لسفر لرحلة ، فيخطط لاقتحامه والاستيلاء على ما فيه من

مال أثاث تحف .. فلصنا يعرف أن أمي تضع صندوق مالها في خزانة غرفة النوم .. وأعتقد أن كل من يزور أمي يعرف هذه الحقيقة .. فلذلك هو قريب منا كما يقول الضابط.

وتابع عمار الكلام مع شقيقته فقال : فجار أبي علاقته معهم فقط دفع الأجرة ، وهو يعمل موظفا محترما ، لا زيارات عائلية بينهم التحية والسلام ، فلا يد له في الحادث

- ألا يكون وصول اللصوص للخزانة على القاعدة العامة "النساء تحتفظ بذهبها ومجوهراتها في خزانات غرف النوم" ؟ خاصة أن اللصوص لديهم جراءة ومعرفة وخدمتهم الصدفة .. فهم يعلمون أن النساء تحتفظ بالمجوهرات للزينة من أجل الحفلات والسهرات

ضحك عمار وقال : أمي امرأة حفلات وسهرات .. اللصوص المحترفون يعرفون المعلومات العامة ؛ لكن لص البيوت المسكونة عليه أن يعمل بخفة وسرعة .. فوقت جريمته ضيق .. ولص الصدفة ليس لصا إنما يستغل الظرف والفرصة المتاحة ؛ لذلك يصاد من قبل الشرطة بسرعة .. المهم أن أحدا قريب من الأسرة له يد في الحادث .. ونرجو من قلوبنا أن لا يكون لجبير يد في القضية كلها ؛ لأن الضابط بصراحة قال : قد يكون جبير بعيدا عن الحادث بنفسه وبدنه ويكون له شركاء .. وهذا سيعرف مع الوقت .. ونرجو له السلامة التامة حتى أن لصنا أغلق الشقة بعد خروجهم ، فهم يملكون المفتاح .. وأمي تعتقد أنهم اثنان ، والشرطة ترى ذلك أيضاً ، وآثار الأحذية تدل على ذلك .. ونحن نحب براءة جبير التامة

- سلم على أمي وأبي ..محمد كان منزعجا جداً من حادثة الضرب والاعتداء على أمي .



كما غمر الابتسام منزل محمد وعزيزة غمر منزل أبي عسود وأم عسود ، فقالا لعرجون: المال الله يعوضه بمال ونعم ، أما أن يقتل الحفيد جدته فهذا لا يحتمله القلب ولا يعوض .. لو ثبتت سرقة الولد لنا لكانت كابوسا

ودار الحديث حول الفرح بهذه النتيجة رغم المصيبة ، وقال الأب بأسف: رغم مرارة الحادث والسرقة اللتين حلتا بأمك ؛ لكن بعد ابن عزيزة عنها أثلج صدورنا وأزاح عن كاهلنا غصصا .. تخيلوا معي لو ماتت الجدة من الضربة الغادرة .. وكانت من فعل جبير ماذا سيحل بنا ؟! كارثة عظيمة ستغمر الأسر .. رأيناه يسرق أسورة أمه فالذي يسرق أمه يسرق جدته أخاه وأقاربه لا يهمه من يسرق

قال عرجون: المحير في هذا الشاب لماذا يسرق ؟! لماذا يفعل ذلك؟! ألم يزوجه والده ؟ وفتحوا له مصلحة يعتاش منها .. ومع ذلك ظلت يده طويلة ويأكل الحرام والخبيث

قالت الجدة أم عسود: كأنهم لا يتعلمون من الحبس !ولا يرتدعون

هز عرجون رأسه وقال: السجن ماذا سيفعل لشاب ناضج ؟! السجن في رأيي يهيئ لهم الفرصة للبدء من جديد والتعرف على رفاق السوء ..لا أنكر أن بعض المساجين يستفيد ويرتدع ، والأكثر لا حياة لمن تنادي ..وآخرون مثل جبير يزدادون خبرة ومعرفة بلصوص على مستوى البلد .. أرأيتم ؟ إنه كان في بلدة قروية نزيلا على رفيق سجن ، وتدخل في مشاجرة عائلية ..تكلمت معه ذات يوم .. رد عليّ كأنه ملك اللصوص" أرجوك يا خال لا تنصحني ، أنا أدرى بمصلحتي وحياتي ..أنا أعرف ماذا أفعل؟" لماذا ذهب لتلك القرية البعيدة ؟ أحقا لزيارة رفيق حبس ؟ ولماذا يتدخل في معركة قروية؟

قال أبو عسود : أكيد كان في زيارة لسجين سابق مثله ، وحدثت المشاجرة فعمل نفسه عنترا .. فزج بهم في قفص المخفر .. وهذا من حظه وحظنا .. لو حدث لجدته شيئا لقضينا العمر في حسرة وأسف .. قولوا ماذا يجني الحرامي والحرامية من سرقاتهم ؟!

قالت أم عسود: ليس هو أول سارق ولا آخرهم .. أتبحث الشرطة عن متهم جديد؟

قال عرجون: هكذا فهم عمار منهم ..فلما يقبض على لص أو عصابة يعترف بكل سرقاته وعن رفاقه ..العجيب في سرقتنا المفتاح كيف حصلوا عليه؟ ومتى؟! لأن دخولهم وخروجهم يدل على استخدامهم مفتاحا للشقة أم لديهم عدة مفاتيح لمثل هذه الأبواب والأقفال .. لكن

الاعتماد على الصدفة يستغرق وقتا معهم .. لذلك نرجع ونعود للقول أن أحدهم له معرفة بترتيب حياتنا .. وأن الوالد يخرج إلى الجامع عند صلاة الفجر ، وأن عرجون غير موجود في البيت ، وأن أمي تضع مجوهراتها في صندوق غرفة النوم .. كما فهمت من عمار والشرطة أنهم كانوا يتوقعون أن لا تكون الحاجة في الغرفة.. تكون قد ذهبت للحمام والوضوء ..وخلال دقائق يفرغون الصندوق ولا أحد يشعر بهم.. فغفوة أمي كادت تفشل العملية فاضطروا للعنف والسرقة وأن تكشف الجريمة فورا ..فهم يعرفون أين المال؟ يعرفون أحوالنا ..أنا لم أتحدث عن الرحلة إلا قبل الرحلة بيومين أم أن غيابي ليس مهما لهم ، فإني في العادة اتبع أبي إلى الجامع ، وأغلق الباب بالمفتاح ؛ لأني أحمل مفتاح الدار دائماً .. هذه أغرب حادثة تمر عليّ .. هل لجيراننا دور فيها ؟ .. لم نسمع عنهم إلا خيرا .. ليس لهم أولاد فاسدون.. ونحن لا نختلط بهم إلا السلام باليد والتمتمة

قال أبو عسود مدافعا عن جيرانه : أولاد أبي شبل محترمون ومؤدبون، لهم ثلاث سنوات يجاورننا ما رأينا منهم شرا .. هم في حالهم ، ونحن كذلك .. إذا لنا نصيب بها أخذ منا سيعود ، وهذا من الابتلاء .. ولسوف نشتري للحاجة ذهبا جديدا

صرخت الحاجة محتجة: أرجوكم لا أريد ذهبا ثانية حتى لا أتعرض للضرب مرة أخرى ..ربنا لطف.. إذا الشرطة وهي شرطة لم تستطع القبض على الجناة ، حتى أن علينا أن نغير قفل الباب يا جماعة .. فإذا سمعوا بذهب جديد خططوا لسرقته .. أرجوكم لا أريد ذهبا ولا أي شيء آخر

كان أبو عسود يسمع ويضحك ، وهو مدرك للرعب الذي أصاب أم العيال وقال لعرجون : تحتاج أمك لوقت لتنسى الحادث الظالم .. الأمر حقيقة ليس سهلا يا أم عسود .. سلامتك من كل مكروه .. رحم الله عسودا كان بارا بأمه ويهديها الذهب ..ويعرف حب أمه للذهب وقلائد الذهب

دعوا لميتهم بالرحمة .. عسود كان جنديا قتل في حرب ١٩٦٧م أثناء التصدي للعدو الصهيوني في مناطق فلسطين العربية .. واستشهد على أثر غارة إسرائيلية على موقعه العسكري .. فكان كلما ادخر مالا اشترى به قطعة لأمه ، ومات دون أن يتزوج، وكانت أمه تزعم أنها تدخرها له حتى يتزوج ، فتعيدها مالا ..وكانت أمه قبل الحرب تبحث عن عروسة والحرب الخاطفة أوقفت ذلك الخير ، ثم جاء خبر وفاته

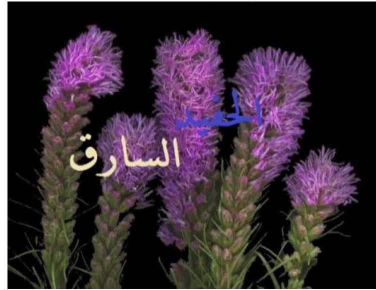
الأيام تنسي ما قبلها ، وأحداث تتلاشى بسبب أحداث أخرى ، وهنالك أحداث تعيد ذكريات ذهبت ومضت ، وقبل أن يمضي أسبوعان على حادث بيت أبي عسود جاءت الشرطة تتابع حادثا آخر في الشقة المجاورة لأبي عسود .. سرقت الشقة المؤجرة لعاصم الموظف العامل في الدولة ، فأعادت سرقة أبي شبل ذكرى سرقة أبي عسود مما أثار دهشة الجيران ، بل حي "أبو خروف" كله

منزل أبي عسود عبارة عن طابق واحد ، وينقسم إلى شقتين لكل منهما مدخلها المستقل ، فواحدة يسكنها أبو عسود ، والثانية سكنها عمار ابن أبي عسود ، ثم رحل منها وتركها لوالده يؤجرها وينتفع بأجرتها ، واستأجرها عاصم الموظف ، وله ثلاث أولاد ، وتعود أصوله إلى بلدة بعيدة عن المدينة الكبيرة ، عاصمة البلاد كلها ، تزيد مسافتها عن ثلاثمائة كيلو مترا ؛ فلذلك لما يحدث في قريته فرح أو عزاء لا يستطيع التغيب عنه فيأخذ إجازة يومين أو ثلاثة حسب الحاجة ، ويغادر الشقة للمشاركة في تلك المناسبة ، فيغلق الدار ريثما يعود ، فبعد حادث أم عسود سافر إلى القرية للمشاركة في حفل ، فأخذ معه الزوجة والأولاد الذين هم دون العشرين ، ولما يغادر تبقى الدار معتمة ، فيعرف من يهمه الأمر أن الرجل غير موجود هو خارج المدينة ، ومنهم الجيران يعرفون هذه العادة .. فالإضاءة اليوم من علامات الحياة في المنازل ، فلما رجع من رحلته للقرية والبلدة التي ولد فيها وينتمي إليها ـ وعادة يصل للبيت في مثل هكذا رحلة بعد الظهر مع العصر أو الغروب ، ففي الصباح التالي سيباشر وظيفته ـ ووصل الشقة ساعة المساء ـ لم يدخل الليل بعد ـ اكتشف أن البيت مسروق .. سرقت أنبوبة

الغاز والتلفزيون الملون ومائتا دينار مدخرة لساعة العسر والطوارئ ، على الفور ذهب لمخفر "أبو خروف" وبلغ عن الحادث ، وجاءت الشرطة لمعاينة المكان ، وتبين للشرطة أن الدار فتحت بمفتاح مقلد ، ولم يكسر شباك ولا باب ، وأغلقها اللص بعد فعلته ، فتذكر الناس حادث أم عسود ، وبعد المعاينة الشرطية ومعرفة المفقودات ، قال رجل التحقيق في الحادث : لم يحدث عنف عند اقتحام الشقة ، وكيف عرفوا بسفركم ؟ وأي يوم تمت السرقة؟ هذا مثير للدهشة ؛ ولأن بيت أبي عسود بيت جارك ـ كما تعلم ـ سرق قبل أيام .. فهذه عصابة تعمل في "أبو خروف" .. نحن نعلم أن الحي لا يخلو من اللصوص والزعران ..هذه طبيعة المدن .. وسنطلبهم جميعهم للاستفسار .. فأهل الشر موجودون ، وحوادث السرقة تسجل باستمرار غير الذي لا تعلم به الشرطة ؛ لكن سرقة بيتين متجاورين في "أبو خروف" هذا يدل على تخطيط وتدبير .. وفي فترة زمنية متقاربة فهذا يثير الريبة .. ففي حالة أم عسود شككنا في حفيدها لسوابقه وجرائمه ، ثم تبين أنه كان محبوسا في بلدة بعيدة في مشاجرة عائلية .. ووضع الحادث وظرفه كان يوحي بمعرفة السارق لترتيبات البيت وأهل البيت .. ظلت مشكلة المفتاح كيف وصل للصوص ؟ كيف؟! .. وهنا في سرقة بيتك استخدم اللص مفتاح البيت كيف حصل عليه ؟ وها نحن نقف أمام حادث سرقة مثل السابق لم يستخدم فيه العنف .. وسرقة بيتك تحتاج لسيارة لحمل التلفزيون وأنبوبة الغاز فهي ثقيلة الوزن .. هم دخلوا لسرقة ذهب أم شبل .. ولما كانت أم شبل قد خرجت لحفل عرس فأخذت الذهب .. وهذا من حظها أو حظكم ..وبعثروا الملابس بحثا عن الذهب والمجوهرات ، فوجدوا المائتي دينار .. ووجدوا الجو يساعدهم على أخذ أنبوبة الغاز والتلفزيون حتى لا يخرجوا من المولد بلا حمص .. فبعد أن استعرض هذه المعلومات بصوت مسموع قال لأبي شبل: أتشك في عدو لك من الجيران من الحي؟

- أنا أسكن هنا منذ سنوات ثلاث فقط .. وليس بيني وبين جيراني سوى التحية ، وكيف حالك ؟ والسلام .. عملي يستغرق جل وقتي .. ولما أترك العمل الوظيفي الرسمي أعمل في

مكتب ترجمة بضع ساعات حسب طول النهار وقصره .. وأولادي لا يختلطون بأولاد الجيران ، وأبو عسود لا صغار عنده ، فعرجون طالب جامعة، والمرأة لا تخرج إلا لشيء ضروري ..ولا أسمح لها بالسمر والتسلية مع الجارات .. ظروفنا تتطلب ذلك .. أقابل أبا عسود إما خمس دقائق داخل بيته وإما على الباب ، وأدفع له الأجرة وانصرف .. ولي أخت شقيقة تسكن في حي رحمة ، وأخ لأب في رحمة أيضاً ، نتبادل معهم الزيارات أيام الجمع والعطل ؛ لكن المفتاح هو الذي يثير الارتباك كيف صنعوا مثله ؟!



تبين للشرطة في حادث منزل عاصم أبي شبل أن السرقة حدثت بعد صلاة العشاء ، فقد شهد شاهد أنه رأى سيارة تقف أمام البيت ، وشاهد شخصين يخرجون من البوابة الخارجية للدار حيث الرصيف يحملان التلفزيون ، وسمعهما ـ كما اعتقد الشاهد ـ يقولان لبعضهما عندما شاهداه يقترب منهما :" التلفزيون خربان يحتاج لتصليح ، كم يا ترى سيكلف تصليحه؟" فقال الشاهد : لما سمعت هذا الكلام ظننت أنهم فنيو تصليح تليفزيونات .. لم يخطر في قلبي أنهم حرامية .. إنما خطر أنهم جاءوا لأخذ الجهاز لعمل صيانة وتصليح له .

ووصف السيارة ولونها ، ولم يحفظ رقمها لأنه لم يخطر له أنهم لصوص ، وهذا النوع من السيارات شائع في المدينة ، وربما في كل البلد ، هذا الكلام كان ينقله أبو عسود لأم عسود وعرجون ، فقالت المرأة: هل تظنون أنهم نفس اللصوص الذين سرقوا مالنا ؟! وهم لم يأخذوا من عندنا تلفزيونا ولا أسطوانة غاز

– ربما لم يسعفهم الوقت ؛ لأننا كنا أو كنت أنت في البيت ، واكتفوا بالمال والمجوهرات .. أنا سعيت للشاهد فأنا أعرفه شخصيا وسألته : ألم تعرفهم أهم من الحي أم لا ؟ فقال: لم تكن

الإضاءة قوية أمام البيت ، ولم أرهم يحملون الأسطوانة ، رأيتهم يحملون التلفزيون بين أيديهم ، وتابعت سيري ، حسبتهم فنيو تصليح .. ولم أفكر بأنهم حرامية ، ويسرقون في مثل هذا الوقت ، ولا أعلم أن البيت مهجور لاشك فيهما ..وهذا ذكرني بقصة صديقنا أبي حسن ..
كان لشقيقه شقة في إحدى ضواحي المدينة

فقال عرجون: نحن لا نعرف أبا حسن هذا

ضحك أبو عسود وقال : المهم القصة اسمع .

لما رأى عرجون صامتا تابع القصة: كان لشقيق أبي حسن شقة مفروشة بكل الأثاث ، فلما يرجع من غربته والسفر في فصل الصيف يقضي فيها عطلة الصيف حيث تعطل المدارس فيأخذ الإجازة وتعود العائلة للوطن ، وتغلق الشقة عندما يسافرون للسنة التالية .. وهكذا كل عام .. وقبل العودة يذهب أبو حسن يصحبه عدد من الشغالات والخادمات لتنظيف الشقة من الغبار وغيره ..ولما اقتربت عودة شقيقه ذهب لتهيئة الشقة للضيوف فوجدها خاوية على عروشها ، لا عفش ولا غرف نوم ولا ثلاجة براد ولا تلفزيون ولا سجاد ، لم يجد سوى البلاط وعليه بقايا طعام العمال الذين حملوا الأثاث ، فلما سأل الجيران عما رأى أخبروه أنهم رأوا سيارة نقل كبيرة جاءت وعمالا وحملوا الأثاث زاعمين أن المستأجر راحل لشقة أخرى

قالت المرأة مدهوشة: يا الله! نظفوا البيت لم يتركوا شيئا؟!

قال أبو عسود: صاحب بيت يريد أن يرحل .. فلما يرى الناس كنبايات تحمل للسيارة الكبيرة والعمال ينقلونها هل يخطر في بالهم أنهم عصابة ؟ وربما يكون السارق واحدا زعم لهم أنه بيت قريبه .. فالناس تحسن الظن ببعض

فقالت: وماذا فعل أبو حسن ؟!

- عرف من الجيران أن هذا الفعل الشيطاني حدث قبل أكثر من شهر ، فذهب للشرطة وبلغهم ، وأغلق الشقة طبعا ، وعاد لـ "أبو خروف" واتصل بأخيه مخبرا بالكارثة ليتدبر أمره

فقال عرجون بأسف : الشر لا ينقطع كما أن هناك أناسا تفكر بالخير .. هناك آخرون يساعدون الشيطان حيله ومكره .. وهناك من يستغل طيبة الناس ويخدعهم .. ألا يوجد لتلك البناية حارس بواب ؟ حتى لو كان هذا موجودا لا يخطر في باله أنهم لصوص ، إنما هم عمال جاءوا لتنفيذ المهمة ونقل العفش.. وهذا ذكرني بقصة صاحب سيارة صغيرة "ونيت" ـ بيك آب ـ اسمه أبو العبد والد صاحب لنا ..كان يذهب إلى مسجد السوق عند صلاة الفجر يصلي جماعة ، ويجلس في السيارة على أمل تحميل نقلة خشب لورشة ، نقل آلة معطلة للتصليح ، نقل عمال لورشة ، نقل خضار أي حاجة .. يذهب بالنقلة ، ثم يعود ليقف من جديد أمام الجامع ، وغيره من أصحاب السيارات يفعل مثله .. أرزاق يا دنيا .. ذات ظهيرة كان أبو العبد ينتظر رزقه ، جاءه شاب وقال: يا معلم أنت صاحب هذه السيارة ؟ فلما أجابه بنعم ، قال الشاب: أريد نقل أسطوانتين غاز إلى مكان كذا . فقال أبو العبد : تفضل اركب أنا في خدمتك أين ؟

ركب الشاب بجواره ، وذكر له عنوان البقالة التي سيحمل منها انبوبتين الغاز ، ودله الشاب إلى المحل المقصود ، ووجدا أمام المحل عددا من الأسطوانات المعدة للبيع والاستبدال ، ونزل الشاب ، ودخل الدكان أمام عيني السائق أبي العبد ، وتحدث مع صاحب الدكان لحظات ، ثم خرج ورفع أسطوانتين على صندوق البيك آب ، وقال لأبي العبد وهو يجلس بجواره : امش يا معلم . ومشى أبو العبد بالشاب وأسطوانتين الغاز إلى شارع في حي قريب من مكان عمل أبي العبد ، ونزل وأنزل الأسطوانتين وأعطى أبا العبد أجرته ، وعاد أبو العبد إلى السوق حيث يصف لنقلة جديدة .

وبينما هو ينتظر نقلة أخرى أمام المسجد جاءه صاحب الدكان التي أخذ الشاب منها الغاز وقال له: أين الرجل الذين كان معك ؟! فشرح له أبو العبد القصة ، ثم ساقه إلى المكان الذي نزل فيه ، وبالسؤال للمارة تبين أنه لم يدخل لأي بيت بعد اختفاء أبي العبد ، إنما أشار لسيارة أجرة مارة من الشارع ، وحمل الأسطوانتين واختفى ، وعاد صاحب الدكان بخفي حنين ..

هذه حيلة أخرى يا أم عسود

تنهدت وقالت: فعلا هناك بعض البشر شياطين .. لعنة الله على الشيطان الرجيم .. يا للمكر ! ـ لصوص ومحتالون .. وعند والد صديقنا أبي العبد حكايات كثيرة تورط فيها عن غفلة وحسن نية .. أحدهم احتال عليه بسبعين تنكة زيت زيتون .. فلما وصل البيت وجدها كلها ماء إلا اثنتين اللتين كشف عليهن ليرى جودة الزيت

قال أبو عسود : أوه ! المسكين تعرض لكارثة ! لقد سمعنا أن محتالين ادخلوا المسجد شجرة على أنها ميت في تابوت ، وصلى الناس على الشجرة ، وقام أحد الشابين يناشدهم التبرع لسداد دين الميت ، وفعل الناس ذلك ، وجمع الرجلان ما فيه النصيب ، ثم اختفيا ، وظل أهل الحي ينتظرون أن يحمل أهل الميت الميت والتابوت ..لا أحد من أهل الميت موجود لحمل الميت، ولما كشفوا الغطاء عن الميت ظهرت المفاجأة شجرة غصن شجرة ملفوف على هيئة ميت



الأسرة المحترمة عندما يخرج فيها إنسان فاسد ظالم لنفسه منحرفا عن خط سير العائلة وتقاليدها المتوارثة ، فيشكل ذلك لهم كابوسا ومعضلة كبيرة ، يصابون في أول الأمر بالصدمة الحادة ، فهم حسب علمهم لم يقصروا في العناية والرعاية لابنهم في صغره ومراهقته ؛ لذلك تجدهم يذهبون للبحث في أسباب فشلهم في تنشئة ابنهم التنشئة السليمة.. هل مجرد الأصدقاء الذين غفلوا عنهم هم سبب ضياعه وإغراقه ؟.. وقد رأينا أنهم تساءلوا هل للوراثة دور في فساد الأخلاق ؟ .. لو انحرف شخص يعيش في بيئة فاسدة فهذا استمرار لخط الانحلال والفسق ؛ محمد وعزيزة جاءوا من أسر محافظة ومراعية للأخلاق إلى حد كبير ، والأماكن فيها الخير والشر .. سعى الزوجان لتحجيم الشاب وحمايته من الانحراف إلى عالم السرقة ، ومع

هذا استمر في الزيغ والانحراف ، ولم يهتم بنصح ووعظ الأب الأم العم الخال الجار المدير الأستاذ ، ولما يقبض عليه في قضية يستنجد بأهله لينقذوه ، ويوهمهم أنه قاوم وضعف أمام إغراء المال ، فبذل الوالد المال للمحامين والقانونيين، ووعده بالإنفاق عليه لآخر الزمن إذا ترك الحرمنة والتلصص ، وبعد أن يخرج من قضية يدخل في أخرى ، ويعاود السيرة ، ويزداد غراما بالسرقة ، عمل مع عصابات بعض الأحياء ، وتركهم وعمل وحده ، عمل مع سجين عرفه في السجن ، اختاروا الزواج ؛ ليكون حلا ، وفتحت له مصلحة تساعده في حياته الصالحة آملين منه تحمل مسؤولية امرأة تكفه عن السرقة ، وافق على الزواج بشرط أن يختار هو الزوجة ، قبلوا لأنه المهم عندهم أن يتزوج ، وتزوج أخت رفيق سجن معه من حي كرمانة ، وافقوا ، ولم يتشددوا ؛لأن غايتهم زواجه عسى أن تغير الحياة الزوجية من انحرافه وسلوكه ، وافقوا بعد تمنع تمثيلي ، وخطبوا ومشوا معه ، واحتفوا بزواجه ، وقبلوا عروسه وسكن معهم ، وفتحوا له متجرا ليقتات من وراءه ، وما لبث أن سرقه ، طلب الأب من ولده مغادرة بيت الأسرة والابتعاد عنهم بامرأته ، معلنا له أنه لم يعد فردا من الأسرة خشية فساد باقي أفراد الأسرة ، فغادرهم إلى حي كرمانة حيث أصهاره .

ولما كانت حادثة أم عزيزة عاد اسمه إلى صدارة الحديث بينهم .. وهل له دور في الحادث الغادر ؟ ورغم مرارة الحادث على الجميع أصابهم الفرح ببراءته من الاعتداء على جدته ، ومن سرقة جدته ؛ كان الهم يركب محمد وعزيزة من سيرة ابنهم حيث هو البكر في العائلة ، فقال محمد بيأس : أنا عجزت عن معالجة أمر جبير الذي كان يجب أن أفخر به بين أهلي وإخواني وأصدقائي .. خيب أملنا فيه .. لقد خذلني وذلني

قالت عزيزة بألم وحرقة : دموعي لم تنفع وتجدي أمامه ، قلت له مالنا بين يديه ، وأن يكف يده عن مال الناس .. فضحك وقال : السرقة مرض ومرض عضال يصعب الخلاص منه .. فأقول بهدلتنا بين الناس والجيران والأقارب .. فيضحك هل هناك دكتور لعلاج مرض السرقة ؟.. فأنا صرت أعتقد أن السرقة مرض وسقم

- لو كانت السرقة مرضا ؛ لأصبح كل الناس حرامية يا عزيزة بالعدوى.. هذا إفلاس أخلاقي ، وقلة حيلة .. أنا بعد زواجه وعدم توبته أقسمت أن لا أهتم به ، ولا يهمني شأنه ، ولن أدفع فلسا لأحد من أجله أو محام .. وأعتقد أن مصيره أسود كمصير عمي المقتول قبل عشرات السنين أو يقضي سنوات عمره قابعا في سجن المدينة .. فالسجن لأمثاله خير كما يحبس أهل الإعاقات والجنون في مشافي أو دور خاصة .. فهو وأمثاله مأواهم السجن ؛ لأنهم عالة على المجتمع .. ماذا يريد أكثر مما فعلناه له ؟ وفرنا له ما نستطيع بيتا وزوجا ومحلا حتى لا يشعر أنا تخلينا عنه .. كسر المحل ، ثم سرقه .. ذهب رأس المال

- هذا محير لماذا لماذا ؟!

- وعظناه نصحناه استخدمنا الإرشاد والتعويض على المسروقين .. كان الحبس دون فائدة .. وأخشى ما أخشاه أن يتحول للعنف والقتل .. قد انزعجت جداً من حادثة الاعتداء على أمك.. كانت أعصابي متوترة ويدي على قلبي سألت أحد المشايخ هل من حل لهذه القضية؟ فقال : لو كانت هذه الحالة في عهد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لحلت المشكلة بقطع يد السارق ، فلا يعود للسرقة ؛ لكن في مجتمع منفلت ، وفي هذا الزمن لا ينفع هذا العلاج .. فقبل إقامة الحد على السلطان توفير الأمن الاقتصادي والعمل للشباب ونظافة المجتمع .. ثم تقام العقوبات الشرعية ، لابد من بيئة آمنة وصالحة للأفراد والمجتمع قبل الفزع إلى الحدود الشرعية .. أما أن يصور اللصوص والراقصون أبطالا للمجتمع ..فماذا ستنتج هذه الأفلام والثقافة للأمة ؟ فإنها تعظم قطاع الطرق والزنا والربا ، فستجد المراهقين يتأثرون بما يرونه ويظنونه حقيقيا ..فابنك متأثر بتلك الأفلام التي يمجد بها أهل الشر والشيطان .. فيتمردون على القيم والتقاليد ..ويحسبون ما يحدث في هذه المسلسلات كالواقع .. فبعض الشباب يحتاج إلى صدمة عنيفة قوية ليصحا من غفلته وشيطنته ، فقلت ما هذه الصدمة يا سيدي الشيخ ؟ فقال : لو كان الكلام معه يجدي ويفيد لفعلت ذلك ، ولابد أن آخرين فعلوا هذا .. وقد فعلت أنت ذلك يأكل ويشرب وزوجة وراحة لا تعطى للسلطان .. ومع كل هذا الدعم فقد

ألقاه في عرض الحائط وبقي مصاحبا لأهل الشر ، لابد من صدمة قوية .. حادثة تعيد له التوازن .. وهذه أمرها وعلمها عند رب الناس .. صدق يا أبا جبير لو أن الكلام مع السيد جبير يفيد اليوم لذهبت معك لمقابلته والجلوس معه عشر ساعات ؛ بل عشرة أيام .. أنا قابلته قديما من سنوات أمام المسجد هذا ونصحته بالتوبة واحترام والديه .. وأنه لا يسيء لنفسه فقط بل يسيء لأهله وأقاربه ، فاستخف بكلامي وقال : توكل على الله يا شيخ نصيحتك على الرأس والعين .

وقال للشيخ دون احترام : أنتم تريدون كل الناس أن تصير مشايخ .. كما أن للدين مشايخ فالدنيا مشايخ . وقهقهه سخرية ، وتنهد محمد حسرة بعدما أنهى هذه الذكريات وقال: كم كنت أتمنى أن أراه طبيبا مهندسا كبيرا في البلد .. وهو يزحف ليصبح لصا كبيرا .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. وعلمت عظمة الشريعة بقطع يد السارق ، ولماذا شرعت الحدود ؟ فهذا الرجل لو قطعت يده لما ثبتت إدانته لما سرق مرة أخرى ، ولقبع في المحل ،ولم يسرقه قال سبحانه {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِّ وَاللهُّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [المائدة: ٣٨] .. عطلت اليد الخائنة ، فإذا عاد للسرقة عطلت الرجل .. فأصبح عاجزا عن السرقة .. فعلاج الخيانة لابد أن يكون شديدا ..كم من عمره أضاع وراء قضبان السجن دون فائدة ؟ وكم كلفنا علاجه من الأموال ودون فائدة ؟ .. السجن لا يعالج الحرامية.. لقد صار لجبير رفاق في بلدات أخرى ، ويشارك في معارك ومشاجرات بين عائلات تعصبا لفريقه في السجن.. أي جهل هذا ؟! أهذا علاج السجن ؟! حسبنا الله ونعم الوكيل.. وكما قال الشيخ علينا بالدعاء له عند كل صلاة ؛ لعل الله يهديه ويتوب عليه

- ليس أمامنا إلا الصبر

- وهل لنا سواه ؟ .. اللهم أفرغ علينا صبرا

مقهى "أبو خروف" أصبح معروفا للقارئ الكريم ، ويعتبر ناديا للالتقاء وتبادل الأخبار ، وبعض رواده يتجمعون للعب الورق أو النرد ، وبحكم مجاورته للمسجد تجد الكبار في السن يزلفون إليه لشرب الشاي والحديث والسلام على بعضهم البعض ، أو الالتقاء بشخص بموعد أو غير موعد ، وصاحبنا مهران بحكم الخبرة والعمل يعرف كل من يدخل ويخرج ، ويعرف الجيد من السيء وتراه مهتما بأخبار الحي ومتابعة حوادثهم وهمومهم

فلما أبصر أبا عسود يدخل بقامته المديدة التي فيها إنحاء بحكم العمر ناداه للجلوس معه ، أبو عسود لا يحب لعب الشدّة وغيرها ، يدخل للسلام على معارفه ، ويشرب شايه ، ويصلي العشاء في الجامع ، ويعود للبيت ، واذا كان الفصل صيفا ينصرف للبيت إلا إذا شاء أن يقابل شخصا يعتبر وجوده في المقهى بحكم الضرورة ، أول ما نشأ "أبو خروف" القديم كانت مبانيه من الطين ـ لبن الطين والبوص ـ ولما دخل التطور المدينة أزيلت هذه المباني الطينية ، ولما ظهرت الخراسانة المسلحة والحجر والشوارع والتنظيم اختفت هذه المنازل ، وذلك من عقود عشرة قد تزيد ، فقد كبرت المدينة ، وضمت أحياء جديدة ، كانت شوارعه القديمة مصممة للدواب والبغال والعربات

ألقى أبو عسود التحية على مهران وجلس على الكرسي المجاور له وطلب له الشاي ، وعادة مهران من يجلس معه ، يقدم له شيئا يكون على حسابه ضيافة ، وتعود الناس على ذلك ، خاصة الذين من جيل مهران ، وبعد التحية وتبادل المجاملات التقليدية الصحة والحال قال مهران: هل من أخبار عن ذهبات أم عسود ؟

تضاحك أبو عسود من استفهام مهران وأجاب : الذي يروح لا يرجع يا أبا عبد الكريم خاصة اذا طالت المدة .. الشباب يرغبون بشراء ذهب جديد للحاجة ، وهي من الرعب ترفض بشدة خشية عودة اللصوص

ابتسم مهران ضاحكا بدوره وقال : معها حق .. ما زالت مرعوبة .. لم تكن الضربة هينة على

امرأة عجوز مثلنا .. لقد نجت بفضل الله وحده .. ومن حظ اللصوص ، لو ماتت لابتلوا بجريمة قتل ، وستتحرك الشرطة بقوة أكثر .. ومن حظك أيضا يا أبا عسود وإلا لترملت .. وجارك عاصم ؟

- وجدوا تلفزيونه في أحد متاجر الخردة والمستعمل .. والتاجر كما قال أبو شبل: لا يسأل أحدا عن اسمه ، ومن أين له هذا ؟.. لو فعل ذلك لا أحد اشترى ، ولا أحد باع ..ومع إصرار الشرطة على معرفه ممن ابتاعه ذكر لهم صفة رجل تعامل معه باستمرار .. والرجل اشتراه من اللصوص بدينار واحد وقال للشرطة: لا أدري لماذا سرقوه؟! أمن أجل دينار واحد؟!

فقال مهران بعد هزه رأسه أثناء سماعه : هم لم يسرقوه ليبيعوه .. إنهم سرقوه ليوهموا من يراهم في تلك الساعة المبكرة من الليل أنهم جاءوا لتصليحه ، وتخلصوا منه بدينار ، وربما باعوه لبائع متجول

قال : تحليل وتعليل جيد يا حاج مهران .. ودفع أبو شبل الدينار واسترد جهازه ، وتكلف أجرة سيارة .. هذه هي آخر الأخبار

قال مهران : قرأت في صحيفة اليوم عن حادث سرقة شبيه بحادث أم عسود في حي كرمل أو كرمانة كما يقول آخرون

- أي جريدة؟

تناول مهران صحيفة ، وفتح على صفحة الحوادث ، وأشار للحادث وقال: أعتقد أن هذا حي حفيدك وأهل زوجته .

- أجل

قال مهران : مكتوب فيها أنه قبل أيام حدثت سرقة في حي كرمانة ، فقد قام اللصوص بالاستيلاء على ثروة امرأة عجوز عند صلاة الفجر ، فالمرأة أرملة ، وكما تقول الجريدة إنها تعيش مع ابن لها ،ولما ذهب لأداء الصلاة في المسجد وعاد وجدها مكممة ومربوطة ، والبيت

منفوش والملابس مبعثرة ، وقد فقدت المرأة صندوق ذهبها ومالها ، ولم يكن فيه إلا أسورة واحدة فقط .. وهذا من حسن حظ هذه العجوز .. لها بنت كانت قد أخذت الأساور للتزين بها في عرس قبل الحادث بيومين أو ثلاثة ، ولم يصدق اللصوص كلامها أول الأمر ، ثم أمام الواقع وقبل عودة ابنها أخذوا الأسورة ، وهربوا .. وذكر محرر الخبر أن هذه القصة شبيهة بحادثة سرقة حدثت قبل زمن يسير في حي "أبو خروف" ، ولخص للقراء حادثة أم عسود وتساءل في آخر التحقيق هل هذه عصابة واحدة منظمة أم صدفة؟.. فقد وجدوا الشقة مفتوحة بمفتاح أصلي أو تقليد .. فهم يستخدمون مفاتيح مقلدة كما يؤكد خبير فحص الأقفال .. فالصحفي عمل مقاربة بين الجريمتين

تنهد أبو عسود وقال: مصير الحرامي أن يقع في قبضة العدالة مهما طال الوقت ، ولكل شيء نهاية .. وأبو شبل فتح بابه بمفاتيح مقلدة ،قالت الشرطة : لم يستخدم السارقون العنف في فتح القفل ..والسارقون يخططون قبل الأقدام على الجريمة

– كيف عرفوا أن أبا شبل غير موجود في البيت ليرسموا على تقليد المفتاح ؟!

قال أبو عسود محبطا : هذا ما يحير ! كيف عرفوا أن البيت فارغ من البشر ، وإنما هي ثلاثة أيام غياب .. وتجرؤوا على فعل فعلتهم في أول الليل

– ستعرف الشرطة عاجلا أم آجلا ؛ لكن هذه الأموال المسروقة للأسف ستكون مصروفة .. حدثني شرطي صاحب لنا أن الشرطة تسعى للقبض عليهم بكل قوة ونشاط

هبطت عزيزة وابنتها هند وخطيبها يوسف لشراء ذهب العروس من سوق الذهب الكبير في وسط المدينة وقلبها النابض ، فمن العادات أن تشتري العروس من مهرها المقبوض ذهبا نحو الأساور والحلق والدبوس لتلبسه ليلة الزفاف ، وتشتري بجزء آخر منه ثيابا لها ، وهدية للعريس بيجامة روب حمام حذاء خاتم ، وتجارة الذهب عادة تتبع سعرها العالمي ، وإنما تحدث المفاصلة في المصانعة ؛ لذلك في الذهاب لسوق الذهب الكبير قد يكون هناك مجال وفرصة للحصول على بعض الخصم ، ومجال المشاهدة أكثر ، والذهب كما هو معلوم للجميع

له عيارات عالمية ١٨ و ٢٤ و ٣٢ ، يقصد بها درجة النقاء والصفاء مما يخلط معه من مواد أخرى{١}، وهذه عادة درج عليها الشرقيون بشراء العروس ذهبا لليلة الدخلة والزفاف ، وبعضهم يستخدم الذهب المزيف لأداء المهمة ، وللنساء غرام بالذهب من قديم العصور والتاريخ .

يختار الناس السوق الكبير فرصة للفرجة والتمتع بمنظر الذهب والأشكال المصورة منه كحلية وزينة ، والسوق مشهور لأهل البلد ومعروف ، والعروس محكومة بمبلغ معين لشراء نصيبها من الذهب .. وقبل الشراء يقوم الناس بجولة على المحلات والبترينات المعروض فيها الأساور والذهب والخواتيم والأقراط وساعات الذهب أو المطلية بالذهب ..وسيجد الرائي ما يبهر الأبصار وعيون النساء والعرائس خاصة وأمهات العرائس ..هناك الأقراط العقود الأمشاط المكاحل .. وبعد جولة وسؤال هنا وآخر هناك يتم الشراء .. وربما يكون للمشترين محل معين يتعاملون معه منذ سنوات ، وفي كل مناسبة عرس الأخت الخالة ابن العمة

تفرجوا على عدد كثير من المعارض والمتاجر ، وقد حددوا ما سيبتاعونه من أساور وخاتم وحلق وساعة ، وتعرفوا على الأسعار والثمن ، وبقي اختيار المحل الأنسب لهم ، وقبل أن يستقر مقامهم على محل معين ، وقفت عزيزة أم العروس أمام محل صغير بالنسبة لغيره من دكاكين الذهب ، وكان يعرض مجموعة من المجوهرات هي من الموضات القديمة ، لم تعد مهمة لفتيات اليوم ، مجموعة تعود لأيام أمها أم عسود ، وأصبح من النادر تواجدها وإعادة

{١}القيراط هو مقياس لدرجة نقاوة الذهب، حيث يقال عن الذهب الصافي أنه ٢٤ قيراط ، ويخلط الذهب عادةً بمعادن أخرى لتزيد من صلابته لأن الذهب النقي في حالته الطبيعية لين جداً. ويساوي القيراط جزءاً من أربعة وعشرين جزءاً من الوزن الكلي للسبيكة، فمثلاً إذا وصف خاتم ذهبي بأنه من عيار ١٨ قيراط فمعناه أن الخاتم يحتوي على ١٨ جزءاً من الذهب و٦ أجزاء من المعادن الأخرى. أما الذهب الصافي فيوصف بأنه عيار ٢٤ قيراطاً.

صياغتها ، وقفت تنظر إليها بدقة وتمعن ، كان فيها دبوس للشعر على هيئة عصفور ، فلما تأملته جيدا أدركت أنه دبوس أمها المسروق مع ما سرق من مجوهراتها أو شبيهه ، ولاحظها صاحب المحل تدقق فيه أو ما في حوله ، فخرج إليهم يدعوهم للدخول ، فقالت وقد تمالكت نفسها : أشياء جميلة هذه الدبابيس ! كم يا ترى ثمن هذا ؟ (وأشارت إلى دبوس على شكل ضفدع) ، فذكر لها التاجر السعر فقالت : أليس مرتفعا هذا السعر ؟

- سعر الذهب هذه الأيام في العلالي

وأشارت لدبوس العصفور : وهذا العصفور

- نفس سعر الضفدع

دخلوا المحل وأخرج الرجل علبة الضفدع وعلبة العصفور ، ووضعهما على مائدة المحل أمام المرأة ، أبصرت الضفدع وتأملته ولمسته ، ثم تأملت العصفور ، فقالت هند: لمن ستشترين هذا الدبوس يا أمي ؟

- لأمي ، النساء الكبيرات تعجبهن مثل هذه الأشياء القديمة ، تعيد ذكرياتهن للماضي ، ولابد أن نشتري لأمك يا يوسف هدية بهذه المناسبة

أجاب الشاب: أمي هديتها عليّ .

- أبدا الهدية علينا ـ إن شاء الله ـ أرجوك يا يوسف . والتفتت للرجل وقالت: سآخذ هذا العصفور لأمي والضفدع لأمك

قال يوسف وهو مستغرب لفعل حماته : إذا كنت مصرة ..سنأخذ حلقا أحسن من الدبوس

فقالت هند: حلق حلق

لف البائع العلب ، وقبض الثمن ، ووضعها في كيس أنيق مهنئا لهم ، قالت عزيزة: اكتب لنا فاتورة حتى يعرف زوجي الثمن .

كتب الرجل فاتورة بيع ، وختمها بختم المحل ومباركا من جديد ، وحاول إغرائهم بشراء ذهب العروس ، فقالت عزيزة: نتجول ، فكلكم خير وبركة

فلما ابتعدوا عن المحل قالت هند معاتبة : لماذا تعجلت بالشراء أحرجتني ويوسف ؟!

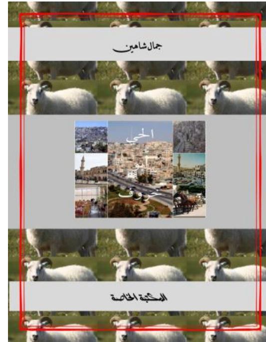
قالت عزيزة: آ، امش هيا ندخل هذا المحل فقد اشتريت منه أيام زواجي ، فلنجدد الذكريات يا يوسف ربع قرن مضت .. ولما زوجنا المنحوس اشترينا لعروسه من هنا بعض القطع

قضوا حاجتهم من التسوق ، واشترت هند الذهب المناسب للزواج ، وبعد انتهاء العملية الشرائية ساقهم يوسف لمطعم عائلات ، وتناولوا الغداء على نفقة وكرم العريس وبدأوا يستعدون للخروج ، قال يوسف باسما: لقد رأيت لهفتك يا عمتي على شراء الدبوس ومع ذلك اشتريته لأمك!

ابتسمت عزيزة لها وقالت: تكتمون السر ـ ولم تنتظر الجواب ـ هذا العصفور يا يوسف أعرفه جيدا ، وربما لبسته أكثر من مرة .. إنه من ذهب أمي المسروق ..وكان لابد من خداع البائع ..ففاصلت على الضفدع ليبق مطمئنا .. أعرفت لماذا اشتريته؟ فلو ذكرت له شيئا عن السرقة وأنه مسروق فسيختفي الدبوس ، وقد يحول لشيء آخر ، فهم يعرفون العجائز الكبيرات وشغفهنّ بالقديم ، يعود بهنّ مثل هذا الشكل للحنين للطفولة والصغر .. فكان عليّ أن أتصرف بذكاء .. وإلا اختفى وأنكر .. فمعنا الدبوس ، ومعنا الفاتورة ، وأنتم شهود .. فربما اشتراه من آخرين ، ولا يعرف أنه مسروق أو يعرف ويعمل نفسه لا يعرف .. وإذا لم نحصل فاتورة ، فربما ينكر أننا اشتريناه من عنده

- أنت خطيرة يا حماتي !

ضحكوا جميعا



حفل الزواج

بدأ المدعون لحفل زواج يوسف وهند يتركون مكان الاحتفال حيث يجلسون في ساحة أمام منزل والد العريس ، والنساء يحتفلن في حجرات المنزل ، وأخذ عمار وعرجون أخوال العروس يتهيؤون للمغادرة كسائر الضيوف ، وقد تمت زفة حضرة العريس في أحد الشوارع القريبة من البيت ، وينتظرون انتقال العروس لبيت زوجها لينفض السامر ، وكانت السيارة الصغيرة المزينة بالورود والأشرطة الملونة تستعد لخروج العروس من مكان الاحتفال إلى بيت الزوج ، وعندئذ ودع عمار زوج أخته محمد ، وبارك له ، ومن وجد من أقارب العروس والعريس ، وقال مخاطبا أباه: أتركب معي أم مع عرجون؟

فأجاب عرجون: سيعودون معي ، خذ عيالك معك

فانطلق أبناء عمار وحليلته جهة سيارة عمار ، وساق عرجون أمه ممسكا بيدها نحو سيارته ، فعرجون طالب كلية ، بل في السنة الأخيرة من الجامعة ، وهو يملك سيارة صالون أهديت له عندما قبل طالبا في كلية الطب ، واتفق مع شقيقه على الالتقاء في بيت الوالد لإكمال السهرة ، وقد اختفت السيارات المشاركة في حفل العريس ، وانصرف الضيوف.

ولما وصل عرجون للبيت بأمه وأبيه وجد سيارة عمار أمامه ، فنزل الجميع ، وفتح عرجون البوابة للجميع ، وزلفوا لداخل البيت ، ودخلت زوجة عمار المطبخ لإعداد العشاء للجميع ، وأعدت طعاما خفيفا أحضروه معهم أثناء طريق العودة ، وهو عبارة عن علب بلاستيكية مليئة بالحمص المطحون ، والفول المطحون ، والفلافل ، ووضعت الشاي على الغاز ، وقطعت حبات البندورة إلى شرائح ، وكذلك الخيار ، ووضعت حبات الزيتون بصحن ، ووضعت زيت الزيتون على الحمص والفول ، وصنعت مائدة للقوم والخبز الساخن وخلال عشر دقائق اشتغلت الأفواه الصغيرة والكبيرة ، وبعد ربع ساعة كانت المائدة خالية ، قد ذهب ما عليها من مأكولات قسمها الله لهم ، فحمدوه وشكروه ، وعادوا إلى الصالة يتابعون شرب الشاي ، وأخذوا بالتعليق على الحفل ونهفاته ونوادره ، حتى قال عرجون: سمعت أن

جبيرا شقيق هند حضر العرس أرأيته يا أمي ؟

قالت : لم نره ، سمعت أن أباه رفض دخوله على العروس وتنقيطها وحتى المباركة لها

قال عمار: جاء في سيارة مرسيدس حديثة ؛ ولكن والده منعه من النزول وأصر على ذلك ، ورفض جلوسه في العرس ، وقال له : لما تصير ابن آدم وابن العائلة نستقبلك .. إني أبغض رؤيتك ، ولا هند تريد أن تتشرف برؤيتك ، ولا أحد يريد ذلك ، عد لوكرك . تمتم كما لاحظت بكلمات .. لقد كنت أراقب المشهد ..ولما رأى إصرار أبيه على عدم نزوله .. كأنه سبه ، وأمر السائق الذي يحمله بالتحرك ، فلم ينزل من السيارة ، وكأنه رمى عشرة دنانير ، وهو يبتعد .. فقال محمد : لمحمود خذها وأعطها لمتسول .. نحن في غنى عن عشراته

فقال عرجون: إذن جاء أين كنت أنا ؟!

- كنت تمشي مع الزفة ، لم أذهب معكم أحسست بتعب ؛ فلذلك رأيت مجيئه .. كان موقف محمد صارما معه .. فاختصر الشر وانصرف متظاهرا بالغضب

قال عرجون بقسوة ودون مواربة: أنا لليوم مقتنع أنه وراء سرقة أمي ، وإن لم ينفذها بيده

قال عمار: كيف ذلك؟!

- أذكر قبل الحادث بشهر أو شهرين دخلت هذا البيت شحاذة وطلبت كأس شاي من أمي ورأس بصل .. وبعد انصراف الشحاذة فقدنا مفتاح البيت ـ وأشار للباب الرئيسي للشقة ـ ونحن عادة نعلق المفتاح فوق الباب ، ولما فقد ذهب فكرنا أنه ضاع داخل البيت .. وأبو شبل ذكرني بمثل هذه القصة ذكر أن شحاذة دخلت البيت تطلب شايا وحبة ليمون ، ثم اختفى مفتاح البيت بعد زيارتها ، ولم يخطر في بالهم مثلنا أن المتسولة هي السارقة ، لكن لما سرق كان عليه أن يفكر بقصة ضياع المفتاح .. فأم شبل وحدها في البيت .. الزوج في العمل .. الأولاد في المدارس .. هم ظنوا أن الأولاد أخرجوه من الباب وفقد ؛ لكن حوادث السرقة ذكرته بضياع المفتاح ، وذكرت له أن ذلك حدث مع أمي .. فهذه الشحاذة تعمل مع العصابة تسرق مفاتيح الأبواب .. وتبدأ العصابة ترسم بعد حين لسرقة البيت الذي سرقوا مفتاحه واتصلت

بصاحب الشقة المسروقة في حي كرمانة بعدما صارحت أنا وعاصما الضابط بشكوكنا .. فأعطاني الرقم ، وتحدثت معه ، وأكد الرجل أن أمه فعلا فقدت مفتاح البيت على أثر زيارة متسولة طلبت شايا وليمونة

فقال أبو عسود: أمعقول هذا الكلام وهذا الترتيب؟

قال عرجون: المنطق يقول هذا .. إذا لم يستخدم العنف في كسر الباب ، فكيف حصلوا على المفاتيح ؟ ! وأنا منذ تلك الليلة وأنا مشغول الفكر .. ووضعت الموضوع في مخي ، وتحادثت مع السيد عاصم .. وبالنسبة لقصة دبوس عزيزة يقول الضابط : إن هذا التاجر معروف للشرطة بامتلاكه لأشياء مسروقة ؛ ولكنه لا يحصل عليها من اللصوص مباشرة .. إنما يحصل عليها من تجار ، ويشتريها منهم بثمن بخس ، ولا يعرف مصدرها ، ولا يحب صهرها .. فقيمتها وجمالها أن تبقى كما هي

السرقات حادث متكرر كل حين وذلك على مستوى العالم ، وهو شغل الشرطة الدائم فهو يقع في بلدنا وبلدان العالم ، والقبض على اللصوص عمل دائم ويومي ، ويقدم اللصوص إلى المحاكم ، فتقدر مدة الحبس أو الإفراج بكفالة والغرامة والتعويض حسب الجريمة ضعفا وقوة، استخدم فيها السلاح أم لا.. والصحف تنشر هذه الحوادث في صفحات الحوادث ، قد تتابع الصحيفة القضية أو ترميها وراء ظهرها وتنساها ، حتى يجد جديد فتعود لتذكير الناس بتلك الحادثة ، وكأن كلام عرجون عن سرقة المفاتيح بواسطة المتسولات وجد صدى له عند الشرطة ، وأخذته بشكل جدي ويستحق المتابعة ، وقد اتفقت البيوت الثلاثة المسروقة على فقدان المفاتيح قبل الحوادث بزمن من قبل شحاذات متجولات ، ثم تتابع العصابة البيت لزمن حتى تتحدد ساعة الصفر وارتكاب الجريمة ؛ ولكن المفاتيح تفقد باستمرار ، وبشكل يومي ومتكرر ، ومفاتيح البيوت لا يبلغ عن سرقتها للدوائر الأمنية ، والشرطة لا يمكن أن تبحث عن كل مفتاح مفقود ، فصاحب البيت الفاقد لمفتاحه بسرقة أو غير ذلك بإمكانه تغيير [كولون الباب] القفل بمبلغ بسيط ، ووقت الشرطة لا يسمح بمتابعة هذه القضية ،

وظاهرة التسول لا يمكن القضاء عليها ، فلو طردتهم من مكان سيذهبون لغيره ، وليس كل مفتاح يفقد أصبح بين أيدي اللصوص ، ولاحظت الشرطة أن البيوت الثلاثة المسروقة عبارة عن طابق واحد ، وبثت الشرطة بشكل ذكي برنامج توعوي لفت الناس إلى عدم إدخال المتسولين لداخل البيوت ، فقد يتسببون بسرقات للبيوت ، وأنهم قد يسرقون المفاتيح للسطو على المنازل ، ووصلت الرسالة للجمهور بطريقة ذكية ، ولم تربط بحوادث السرقة الثلاثة ، ولا غيرها ، قضية تحذيرية عامة ، وربما وصلت الرسالة لربات البيوت ، فكثير من الناس لا تسمع الراديو ، ولا تتابع أخبار التلفزيون بشكل يومي أو حتى متقطع ، يحبون الأفلام والمسلسلات .. فالأفلام الهندية تنتشر في السينمات الشعبية .. وكذلك أفلام الكاراتيه والكونغ فو تنتقل من دار لأخرى بأسماء أخرى توحي للشباب المراهق أنها أفلام جديدة وكذلك الأفلام الأمريكية القديمة لرعاة البقر تتجول بين الحين والآخر في دور العرض ، حدثت سرقة جديدة كبيرة في حي "أبو خروف" ، لقد تعرضت مخرطة معادن لخلع باب وسرقة ماكنة لحام محمولة ، وبعض أدوات المخرطة ، وآلات خرق وثقب ، وعلق الناس على هذه السرقة بقولهم "سرقة صناعية" ، واعتبر الناس وجيران المحل أن السارق على خصومة مع صاحب الدكان ، وأنه فصل عاملا ، أو لم يعطه الأجرة كاملة أو نقص منها ، وبالفعل تم القبض على شخص اتهمه صاحب المحل بها ، واعترف الشاب بهذه السرقة انتقاما من المعلم ، ونقلها [أي المسروقات] إلى مزرعة قريبة من الصحراء ، ولما وصلوا إليها وجدوا تلك العدد المسروقة ، والغالب في مثل هكذا سرقات أن يقوم بها المراهقون والشبان الصغار ، يتعرضون لظلم من صاحب الورشة والعمل فيسرقون العدة انتقاما .. وفي العادة يتصالح هؤلاء أو أهلهم مع صاحب المحل ، وتخلي الشرطة سبيل المراهق حتى لا يدخل في قيود الأمن ..ومرات تحل بدون وجود الشرطة



اتصل عمار عند الفجر ذات يوم بوالده مخبرا له أن ابن عزيزة تعرض لطلق ناري ، نقل على أثره إلى المستشفى ، وأن الشرطة بلغتهم بالحادث ، وأن والده مصمم على عدم الذهاب للمستشفى ، ويهدد عزيزة بالطلاق إن ذهبت لرؤيته ، وهي تريد منا أن نذهب لمعرفة الخبر ومدى الأذى الذي أصابه .. آملة أن يكون هذا الحادث نهاية المصائب ، فقالت أم عسود : مر عليّ.. أنا سأذهب معك يا عمار .. مهما يكن من قبحه .. فهو ابن العائلة

ذهب عمار وأمه للمستشفى الراقد فيه جبير المصاب ، وكانت الغرفة تحت الحراسة ، وسمح لهم الحارس بالدخول إليه ، والحديث معه ، لما تأكد من قرابتهما له .

والقصة أنه كان يقوم بسرقة مكتب لإحدى الشركات ، تسلق على مواسير المياه ، ودخل من نافذة قريبة من المواسير حيث غرفة المكتب ، وحاول فتح الخزانة المعدنية ، وبينما هو يحاول فتحها أضيئت الغرفة ، ورفع الحارس المسدس في وجهه ، فرفع يديه لأعلى ، وأمره الحارس بالنوم على الأرض ، ففعل ، وأمره بالزحف لخارج المكتب ، وحاول جبير عرقلة الحارس أثناء الزحف ، فوقع الحارس أرضا ، وكان المسدس جاهز التعمير ، فخرجت طلقة أصابت فخذ جبير ، وحضرت الشرطة والإسعاف .

فقالت الجدة: كيف حالك يا جبير؟

أدار وجهه عنها لما عرفها وقال: بخير .. أين أمي؟

قال عمار: سيطلقها أبوك إن جاءت إليك .. ألا تريد أن تكف عن الشيطنة؟

تجهم وجهه وقال للشرطي الحارس على باب الغرفة : أرجوك يا شرطي أن لا تسمح بدخول أحد عليّ .. هذه حياتي وأنا حر فيه

قالت الجدة بحزن وألم : يا بني سامحك الله .. نحن أهلك لا يهون علينا ما أنت فيه .

وكان مشيحا وجهه عنهم لا ينظر إلى وجوههم فصاح: أنا تعبان دعوني أموت

فطلب منهم الشرطي الخروج ، فخرجوا دون تردد ، ثم غادروا المستشفى على عجل دون معرفة التفاصيل ، ولما دخلت أم عسود الشقة ، سئلت ما الأخبار فقالت: مصاب برصاصة

فوق الركبة أثناء سرقة خزنة شركة ، أحس به الحارس ، وحاول الغدر بالحارس ، فخرجت طلقة أصابت فخذه



أثناء وجود جبير في المستشفى لاستخراج الرصاصة والعلاج حدثت سرقتان شبيهتان بسرقات "أبو خروف" وكرمانة .. وإلا فحوادث السرقة تكاد أن تكون حدثا يوميا ، وكانا بيتي الحادثين متجاورين كما في منزل أبي عسود وعاصم ، وسرق من البيتين المال والمجوهرات أو بعض المجوهرات ؛ لأن أهالي البيتين كانوا في مشاهدة حفل عرس في نفس الحي ، وكان البيتان المسروقان لأخوين ، ولما غادروا الحفلة اكتشفوا السرقتين .

فكان عمار يقول لعرجون: ما رأيك بهاتين السرقتين وجبير في المستشفى؟

ابتسم عرجون لشقيقه وأدرك مغزى سؤاله ، وأن شكه واتهامه لجبير في غير محله فقال: وهل قلت أن الشاب يعمل وحده ؟ .. هو ضمن عصابة تكونت إما في السجن وإما اتفقوا بعد الخروج للعمل كعصابة .. هل قرأت أن الجريدة أشارت لوجود متسولة قبل الحوادث ظهرت في البيتين وفقدوا المفاتيح ؟ فمن أجل ذلك شبهوا هذين الحادثين بحادثي "أبو خروف" وكرمانة .. وأنا شككت بابن أختنا لمعرفته الجيدة بالبيت وببيت عاصم ، فهو يعرفهما حق المعرفة ..ألم تكن تسكن فيه قبل عاصم؟ وبينما هما يتحدثان حول الحادثين الشبيهين بسرقة بيت أبي عسود رن الهاتف ، وكانت المتصلة عزيزة التي أخبرتهم بهرب جبير من المستشفى بمساعدة امرأته ، قد تنكر بثيابها وغادر المستشفى من أمام الشرطي على أنه امرأة والذي حسبه المرأة التي دخلت تزور زوجها ، ولما خرج متنكرا ، ظن الحارس أنها الزوجة قد انصرفت ، ودخلت المرأة الحمام المرحاض ، وظنها الحارس جبيرا يقضي حاجته ، ثم بعد أكثر من ساعة اكتشف الحارس الحيلة ، وحبست المرأة بضع ساعات ، ثم أخلوا سبيلها

قال عرجون بعدما نقل إليه عمار ما عرفته عزيزة من إحدى الممرضات العاملات في القسم عن هرب جبير: ألم أقل لك إن الشاب يعمل مع عصابة ؟ .. لم يذهب لسرقة الخزنة وحده وإن امرأته تعمل مع العصابة ، وأخوها معهم .. تعرف عليه جبير في السجن ، وأصر على الزواج من شقيقته .. وإذا صدق ظني قد تكون هي المتسولة التي تسرق المفاتيح من البيوت .. تدخل طالبة ليمونة بصلة مع كأس شاي تأخذ المفتاح من قفل الباب وتخفيه في طيات ثيابها .. أهل البيت يظنون أنه فقد من أحدهم .. أخذه طفل يلعب فيه .. سيظهر مع التكنيس وتنظيف البيت .. ومع الأيام ينسى .. ثم يتحرك اللصوص في ساعة غفلة من أهل الدار .. هل يهتم الناس بمفتاح تكلفة عمل نسخة منه خمسة قروش ؟!

فقال عمار : وأين سيختفي؟!

– سيقع مهما طال الأمر ، فقد قبض عليه متلبسا في سرقة خزنة ،

فسيقضي سنوات في السجن ؛ لذلك فضل الهرب قبل نقله للسجن .. وستنشر الصحف الخبر غداً مفصلا .

قال عمار بشفقة وحزن : مسكين محمد وعزيزة .. سوّد حياتهم رغم التضحيات التي قدموها له ..على عزيزة أن تنساه .. لكنه قلب الأمهات .. ولو كان ابنها شيطانا ، وأضر الناس كلهم تظل له أما .. زوجها محمد حسم أمره معه . فقال ليلة زفاف هند : لم يعد لي ولد اسمه جبير ، لقد عملت لإنقاذه بكل ما بوسعي .. لم يبق له في ذمتي حق

هزّ عرجون رأسه وقال : أعانه الله على تجاوز هذه المصيبة والمحنة ، الأبناء فتنة كالمال .. له سنوات يعاني ويعاني .. ويوم طرده من الجلوس في عرس أخته قلت لنفسي " محمد حسم أمره وشطبه من حياته " وعلى عزيزة أن تقتدي برجلها ، وتعتبره ميتا ، ولا تهتم لإخباره وحكاياته ، وترعى صحتها وباقي أولادها .. وأنا في رأيي أن الرجل لم يقصر معه ، سعى لإصلاحه وتقويمه ، ودفع المال لمن سرقهم والمحامين على أمل أن يعود فردا صالحا مواطنا طيبا نادما .. زوجه ، فتح له محلا يقضي وقته فيه .. هل بقي شيء في ذمته؟! غصن أعوج لا يستقيم إلا

إذا كسر .. وأعتقد أنهم أخلوا سبيل زوجته بعد تورطها في تهريبه من المشفى لمتابعتها ، وكما ساعدت في تهريبه ستساعد في القبض عليه والإيقاع به .. غبي ، ما كان عليه أن يهرب .. أضاف لجريمته جريمة أخرى .. كان عليه أن يقبل الهزيمة ، ويقضي العقوبة مهما كانت مدتها .. هذا الرجل ألا يفكر في طفله؟! عندما يشب ويعلم أن والده حرامي يسرق أموال الناس كيف ستكون حياته ؟ .. يبدو أنه في حادث الشركة لم يكن يملك المفاتيح .. فهذه ليست بيتا ليرسل امرأته تسرق مفاتيحها

– كانت القاصة على طاولة ، لم تكن مثبتة داخل تجويف ، وهي صغيرة ؛ ولكنها ثقيلة كما هو معروف .. كان يريد إنزالها من المكتب الذي على الطابق الثاني إلى الأرض لم يكن يريد فتحها كما قيل في بداية الأمر ، كان معه أشخاص ينتظرونه ، كانوا يريدون سرقة الخزنة نفسها ، ثم بمقص المعادن الذي يسمى عندنا الصاروخ يقصونها .. يبدو لي أن أحد موظفي الشركة متعاون معهم ، وبعض الصحف ذكرت أن سيارة كانت تقف خلف جدار الشركة .. وبعد اطلاق الرصاصة ابتعدت عن الموقع ؛ لذلك أحسب أنهم سعوا لتهريبه خشية الاعتراف عليهم .. أحس أن عليه خطرا بالاغتيال يا عرجون

تأمل عرجون عميقا بهواجس عمار وقال : ممكن ! وكلامك معقول القضية أكبر من جبير!

وجدت الشرطة جثة جبير محمد في غرفة من الزينكو الصفيح ـ بعد هروبه من المستشفى بأيام ـ في حي عشوائي لم يدخله التحديث بشكل منظم ، فقد لاحظ أحد الجيران في المنطقة رائحة سيئة وعنيفة ، ففطن أنها قد تكون رائحة آدمي ميت يعيش وحيدا لا أهل عنده ، فأبلغ الشرطة ، وجاءت للمعاينة وبعد خلع قفل الباب ، وجدوا الجثة في حالة سيئة ، وجاء البحث الجنائي والطب الشرعي وعلى الفور عرفوا من صاحب الجثة .. فهو طريد الشرطة ، وتبين لهم من الكشف الطبي وأقوال الشهود أنه قتل في نفس الوقت الذي هرب فيه بساعات ، فقد شهد أحد سكان الحي العشوائي سماع صوت الرصاص ، فظن أن أحدهم يجرب مسدسه ، وأدركت الشرطة حينئذ أنهم خدعوه وهربوه ليتخلصوا منه قبل إجراء التحقيقات معه ، وأن

العملية بسرقة خزنة المكتب عملية أكبر من جبير ، ربما استعين به لسرقة الخزنة فقط مقابل مبلغ من المال ، ولما فشل أصبح يشكل خطرا على العصابة ، أو المتعاقدين معه على السرقة .. وهذا وارد في عالم اللصوصية أن تلجأ عصابة لخبير متخصص في سرقة نوع ما من السرقات .. يستخدمونه لتنفيذ عملية والسلام ، وعلى أثر كشف شخصية المقتول اعتقلت الشرطة زوجته ، وبدأت مطاردة شقيقها صاحب جبير .. فقد أصبحت هذه المرأة على خطر ، ولا يدرون سبب التأخير في القضاء عليها ، أو لأن شقيقها رجل مهم في المجموعة.

استلم محمد وإخوته وابناه جثة جبير من مصلحة الطب الشرعي من المستشفى العام بعد تشريحها ، وبيان أسباب الوفاة وظروفها في التقرير الطبي ، وكان البوليس يشرف على عملية الاستلام ، وجرى لها مراسم الدفن على حسب تعاليم الشريعة الإسلامية من غسل وتكفين والصلاة والدفن ، وتقبل الوالد العزاء فيه لمدة ثلاثة أيام كما هو شائع في كثير من بلاد المسلمين ، وبعضهم يرى أن ذلك خلاف الشرع ، والله تعالى أعلم .

وقبلت عزيزة استلام ابن جبير الذي يبلغ السنة من العمر ، واستقر في بيت جده وجدته ، وكان محمد يردد أمام المعزين: الحمد لله أنه مات أو قتل قبل أن يبلينا بدم أحد الخلق .. هذا أخشى ما كنت أخشاه .. القصة أنهم خشوا أن يكشفهم بعدما فشل في سرقة الخزنة .. وسيقضي سنينا في السجن فسيتكلم .. قالوا نتغدى به قبل أن يتعشى فينا .. أليس هذا شعار العصابات والسفلة ؟ أصبح يشكل خطرا داهما عليهم .. فأوهموه بالهرب والنجاة ..وربما وعدوه بتسفيره للخارج.. سرقة مرتبات شركة كبيرة مبلغ كبير ..فهذا أحد مكاتبها .. فهم يعملون في النفط .. وقال في مجالس العزاء لهم : وأعتقد أن خائنا في الشركة رتب لهذه العملية الفاشلة ..فأصبحت حياة جبير خطرا عليه .. وإلا كيف عرفوا بموضوع الخزنة ووقت توفر المال فيها ؟! فكان على الشرطة إدراك ذلك .. وجبير كشف لهم بعض المعلومات .. فرتبوا أمر هربه من المستشفى بالتعاون مع زوجته ، وفور وصوله لتلك الحجرة قتلوه دون شفقة .. وختم قائلا : ومع الأيام ستتكشف الكثير من التفاصيل .. الآن ارتاح وريّح .. وأمره عند ربه

وسمع بعض التعليقات على موقفه من ابنه ، وتمنوا له العوض بابن جبير الرضيع ، وسأل أحدهم: هل ستتركه أمه لكم يا أستاذ محمد؟

- السجن يسمح للمرأة المرضع إرضاع ولدها إلى حين يفطم ، وبينت لهم أنها فطمته قبل أن يتم السنة ، وأمها ترفض الاعتناء به ، وهي بعدما علمت بموت زوجها قبلت عرض عزيزة بأخذه ورعايته حتى يكبر ، فبلغتنا الشرطة ذلك ، وذهبنا واستلمناه من الشرطة ، وبعد خروج أمه من السجن يعاد الكلام في الحضانة

- ولم يسجنونها؟

قال محمد : فهمت من أحد رجال الأمن أنهم بعد هرب جبير متنكرا بثيابها أخلوا سبيلها لتقودهم سرا إلى مكان اختفاء شقيقها وزوجها ، ولما اكتشفت الجريمة أخذوها خشية الاعتداء عليها ؛ لأنهم يتوقعون بعد هذه الجريمة ، أنه ستتفرق العصابة ، والكل سيتملص من الجريمة خشية أن تلبسه جريمة القتل .. وعقوبتها الإعدام أو المؤبد ، فربما وجود أخيها في العصابة هو الذي آخر تصفيتها .. ويقول الضابط: يظهر أن عصابتين تعملان عصابة جبير وشقيق زوجته ، وعصابة أخرى وراء سرقة الخزانة .. جرى تعاون بينهم .. فالجريمة معقدة ، وهم يحققون في حادثة الشركة النفطية من جديد لمعرفة عميل العصابة الذي شجعهم على سرقة رواتب الموظفين في هذا الفرع .. في البداية تعاملت الشرطة على أنها محاولة سرقة وفشل جبير ، وكانوا ينتظرون تحسن صحته لاستكمال التحقيق .. ولماذا اختاروا الشركة هذه ؟ ومن المتعاون معهم من موظفي الشركة ؟ لم يتصوروا أن يسرعوا بقتل اللص لإخفاء المعلومات ، فاستعانوا بشقيق زوجة جبير ، وأقنعوه بإقناعه بالهرب لتهريبه لخارج البلد .. وذلك خير من أن يقضي سنوات عمره في سجن الحكومة .. وقبل جبير بالهرب كما أخبرت الزوجة بكل ذلك لرجال التحقيق ، وأخبرنا الضابط : حتى لو كان المقتول مطلوبا للعدالة ستقوم الشرطة بتعقب ومطاردة القتلة ؛ ليقدموا للقضاء وينالوا الجزاء المستحق عليهم .. فقلت للضابط : أنا يا سيدي لا يهمني قدموا للعدالة أم لا يقدموا .. ابني بذلت الكثير لإعادته لجادة الصواب

والحياة الصالحة ؛ ولكنه رفض كل ما قدمناه .. وخشيت أن يورطنا بدم مع أناس طيبين ، وأن يتورط بحادث قتل وظلم إنسان بريء مسالم مثلنا .. ومع أنه ابني البكر ، وبنيت عليه آمالا كبارا كسائر الآباء.. لما أخبرتموني بموته قتلا لم أبك لم تذرف عيني للأسف دمعة واحدة ، صفنت في البداية ، ثم ذهب الذهول بسرعة ، وحمدت ربي ليس حزنا عليه .. أنا طردته من قلبي ـ بعدما يئست من إصلاحه ـ طردته من بيتي بعد خيبتي من تزويجه .. وهو الآن في دار الحق كما نقول .. وربنا واسع الرحمة ، ورحمته أعظم من رحمتنا .. من لا يرحم الناس لا يرحمه الله .. ربنا الغفور .. سيذهب عنا الحزن والغم من مشاكله وحرمنته

قال عمار بعد فضفضة محمد بخاتمة ابنه : إنا لله وإنا إليه راجعون ..كلنا ميت كما مات الأولون .. وليس لنا إلا رحمة رب العالمين .. عزيزة هي التي حزنت لمقتله وأغمي عليها .. كان لديها أمل بأن يعود لأصله وللعائلة ؛ لقد استوفى عمره وانتهى شقاؤه .

هذه المأساة وإن حدثت خارج "أبو خروف" ؛ ولكنها بدأت كما رأينا في "أبو خروف"، وأم الشاب المقتول عزيزة كانت من أهالي "أبو خروف" ، وحي زوجها محمد لا يبعد عن الحي إلا بحيين أو ثلاثة أحياء ؛ فلذلك أضفت هذه الحكاية لحكايات ومآسي "أبو خروف" أهل الشر لا يخلو منهم زمان ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب ، والطالح من الصالح ، ورغم أن والد جبير تظاهر بعدم الحزن والاكتراث لموت ولده البكر ، كان لديه شغف وفضول لمعرفة اليد الأثيمة التي اغتالت ولده ، وغدرت به ، لو خير الرجل بين موته وسجنه لاختار له السجن ولو مدى العمر .

كان مهتما بمتابعة نشاط الشرطة حول الحادثة ، ومتابعة التحريات ، وعلم من الشرطة أنها استطاعت تحديد عدد من الأشخاص لهم علاقة بجبير وريالة زوجته ، وأن زوجته لم تكن إلا مجرد أداة لسرقة المفاتيح من المنازل ، كما ظهر لكم قبل الجريمة الدموية ، وكانت شريكتها في سرقة المفاتيح زوجة شقيقها فجر السيدة بادية ، يحدد لهم فجر أو جبير المنازل المراد سرقة مفاتيحها ، فينطلقن لتنفيذ المهمة بثياب التسول والشحاذات ، ويستخدمن أطفالهن الرضع في

عملية استعطاف النساء ، .. سيدة البيت المعين تحسن إليها بالشاي والخبز وما تطلب .. وهي تغافلها لسرقة المفتاح الموضوع في قفل الباب .. كانت مهمتهن سرقة المفتاح فقط ..ويختفون من الحي الذي سرقن مفاتيحه حتى تتم السرقة خشية رجال الشرطة والبحث الجنائي ، والبيت المقصود معروف للعصابة .. ولا تعرف إحداهن متى وقت السرقة ؟ ومن سينفذها؟ وهل مع زوجها وشقيقها آخرون ؟ لا يعرفن .

فقال عرجون : أرأيت يا ابن أمي أن الفاعل منا وفينا ؟! .. فهو له كره عجيب للأسرة ، ورغم أن زوجته لم تعترف أنه سرقنا .. فأعتقد أنه هو المنفذ بنفسه لسرقة أمنا وبيتنا وبيت عاصم ، وإلا كيف يركب سيارة آخر موديل؟!

قال عمار: إنها صدمة لنا جميعا ..وكنا نحس بذلك ونرفضه ، وتعلقنا بالأوهام وخيط العنكبوت أن لا يكون هو .. كان لا يستطيع النظر في وجوهنا عندما أخذت أمي للاطمئنان عليه في المستشفى صباح الحادث .. مسكينة عزيزة .. عندما تعلم التفاصيل ويده في سرقة أمها وضربها قد تصاب بجلطة .. أنا طلبت من محمد أن لا يقول الأخبار عندها ، وأن ابنها هو الجاني على أمها وبيتها

– وهل سيصمت الناس ؟ فلما تكتب الصحف سيعرف أهل الحي بأن الكلام على جبير .. ويتحدثون أن السارق لبيت أبي عسود جبير حفيدهم المغدور من الرجال الذين باعهم نفسه

قال عمار : الناس من طبعها الفضول ، وهو يتفاوت قوة وضعفا من شخص لآخر ، وحكاية كهذه سوف تتصدر الأخبار إلى حين إلى أن يأتي حدث ينافسه في القوة والإثارة .. الناس تتحدث في حماس بقصة في مسلسل أو فلم .. فكيف بمقتل جبير وسرقته لجدته ؟ فقد سمع أبوك هذا الكلام من زبائن مقهى مهران قال له أحدهم : ضاقت عليه الدنيا ، ولم يجد أحدا يسرقه سوى تحويشة جدته أم عسود .. فرد أبوك كما حدثنا: يا رجل الضال لا يفرق بين حبيب وغريب .. لقد سرق أمه ، ثم سرق محله ، وزعم أن آخرين استولوا عليه .. يظن أن الناس مغفلون مثله .. فلا نستغرب أن يسرقنا ... مسكينة عزيزة عليها أن تتحمل جارح

الكلام .. ريثما ينسى الناس .. وتستعين بالباري في علاه الله ، وتلجأ إليه ..عسى أن يكون موته راحة لهم .. لقد فجر وبغى ، ولم يستطيعوا ضبطه وإعادته للحياة الطيبة من جديد .. أحيانا يكون السجن وبالا على بعض الأفراد ، ويفتح أمامهم آفاقا للتمرد والعصيان والأجرام .. وهذا ما حدث لجبير .. أعجب بمغامرات من يسمع وانضوى تحت لوائهم .. فلما خرج تزوج أخت أحدهم ، فظن أنه تزوج أخت ملك اللصوص، وأنه ذو مكانة عنده .. وهذا الشاب فجر هو أكبر من جبير بعشر سنوات على ما أظن.. لقد رأيته مرة في دكان جبير .. كنت في زيارة لعزيزة قلت لنفسي أدخل دكان ها الجبير وأسلم عليه ، وكان معه الرجل فقال : هذا صهري أخ زوجتي السيد فجر يا خال . نظر إليّ كأنني حشرة مسمومة ، وجهه مملؤة بالندبات والجروح ؛ فكأنه ليس وجه ابن آدم ، ويظهر أن شخصيته قوية ومسيطرة في السجن وخارج السجن .. صدق لما استحضر صورته في قلبي يخفق قلبي رعبا .. كان جبير يعمل وحده قبل دخوله السجن أول مرة ، ويتفقون بعد الخروج على اللقاء والاجتماع .. والضعيف يتعلق بالقوي .. وسيكون مصير هذا الرجل كمصير جبير القتل ..وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين

تنهد عرجون وقال: لما علمت أمي بأن حفيدها السارق قضت ساعات تبكي ليس على المال بل على حال عزيزة ابنتها البكر ، قالت لما سألتها: أبكي على عزيزة ، لابد أن الحزن والألم سيغمرانها إذا عرفت الحقيقة .. وأنا رفضت أي تعويض من محمد .. اعتبرتها حسنة عن روح جبير وسامحته

- كابوس نسأله تعالى أن يذهبه عن حياتنا وسيرتنا ..والمحزن على الحقيقة هو الطفل ماذا سيكون موقفه ومصيره عندما يكبر ؟!



كان أبو عسود يخطو خطواته داخلا مقهى مهران ، ورآه الحاج مهران داخلا فرفع صوته مناديا إياه للحديث معه ، ولما جلس ، وحضرت كأس الشاي ، واطمأن على حاله ، وعلى حال ابنته عزيزة التي في المستشفى ، فطمأنه عليها وقال: خبران يقصمان الظهر يا أبا عبد الكريم موت الابن البكر ، وبيان أنه هو الذي سرق جدته أم عسود كما سرق من قبل أمه ومحله .. ولكن الحمد لله خرجت أمس من المستشفى ، وما زالت منهكة القوى والأعصاب ..ومصرة على تعويض أمها ما سرق ابنها .. وأم عسود مصرة على مسامحتها ومسامحة جبير ابنها ، وأن حياتها أهم من الذهب

وبعد شرب الشاي سأل مهران: ألم نخبر عندما ضربت أم عسود أن جبيرا كان في بلدة نائية ، وشارك في مشاجرة وحبس هناك حتى تصالح أهل القرية ؟! ألم نخبر بهذا ؟ فكيف وجد هنا وهناك ؟!

ضحك أبو عسود وقال: ضحكوا على الشرطة يا سيدي وسخروا منهم

– لم أفهم

– الشرطة يا سيدي حبست هوية جبير ، لم تحبس جبيرا .. شياطين هؤلاء اللصوص! لم يكن جبير هناك كانت بطاقته الشخصية هناك .. يوجد شاب من أهل تلك القرية تعرفوا عليه أثناء إقامتهم في السجن أحدهم يعرفه وصديقه .. فرتبوا معه لافتعال مشاجرة تضطر الشرطة فيها إلى توقيفهم .. فذهب شاب من العصابة بهوية جبير إلى تلك القرية .. وفي ليلة التنفيذ كان الشاب القروي يفتعل مشاجرة قوية مع خصوم له ، ومعه الشاب الذي أخذ هوية جبير ، ولما حضرت الشرطة اعتقل الشاب ضمن الموقوفين ، ولما طلبت منه البطاقة قدم بطاقة جبير وبما أن الصورة عليها تشويه واهتراء فلم يفطن كاتب المخفر أن الصورة لشخص آخر ، وسجل في أوراقهم أنه جبير محمد ، ولما تصالح أهل القرية عاد الشاب ورفيقه وأخذوا نصيبهم من الغنيمة .. أرأيت الحيلة والشيطنة ؟!

– يا إلهي فعلا إنهم شياطين!

– فلما اتصلت الشرطة بشرطة تلك المنطقة ذكروا لهم وجود هذه الشخص بالحجز عندهم تلك الليلة ، ومع القبض على زوجة جبير وزوجة شقيقها تكشفت الحقيقة ، واعترف شاب القرية بهذه الحيلة .. هكذا فعلوا حتى لا نشك بجبير ؛ لأنهم يعلمون أننا سنشك به أول الناس لسوابقه معنا أمه محله ، وحتى الشرطة في أول الأمر وضعته على رأس القائمة كما تحدثنا بذلك .. وجبير ليكتمل الخداع اختفى عن البيت عدة أيام ، ثم سلم نفسه للشرطة ، وبعد التحقيق افرجوا عنه

– فعلا مكر شياطين ! هؤلاء عصابة كبيرة

– الضابط أخبر أنهم يتعاونون مع بعض .. فأغلب لصوص البلد يحبون العمل بشكل فردي أو يعمل اثنان معا فقط .. أضمن للعمل والسرية وتوزيع الغنيمة ، ويقدمون خدمات لبعض مقابل مال .. وكلهم خريجو سجون ، ويتصاحبون داخل السجن ..هم ليلة أو صباح سرقة بيتنا سيقومون بالحادث حتى لو كانوا عرجون في البيت.. فهم يراقبون البيت عدة أيام استعدادا لسرقته .. على كل حال الابن مات .. ونسأل الله أن يضع البركة في باقيهم ..المسكينة عزيزة الضحية في هذه المعمعة وسمعتها تقول : يا ويلاه ! كيف طابت له نفسه بضرب جدته .. فالموت خير لي من العيش

– حقيقة موقف محزن ؛ لكن الحل جاء من السماء ، فعلى الأسرة أن تبدأ صفحة جديدة مع الحياة .. البركة بمحمود وسيكون نعم الطبيب في المستقبل ـ إن شاء الله ـ وعليهم الاهتمام بباقي أفراد الأسرة حتى لا يتأثروا ويقتدوا بما جنى أخوهم البكر .. وعليهم بتحصينهم بالمساجد والجوامع وحب الدين ، والبعد عن التعلق بالخيال والأفلام .. اليوم الإباحية والعنف تجتاحان العالم من جميع جهاته

– صحيح الخطر منهما شديد ، وعلينا أن نعيش زماننا يا حاج مهران .. هل نستطيع التخلي عن التلفزيون بعدما عرفناه؟.. نحن ضعف تعلقنا بالراديو بوجود البديل . التلفزيون الثلاجة

مهمات للبيت.. الكهرباء الغاز .. السيارة نتركها ونعود للمشي أيمكن هذا؟

قال مهران : هذا صعب بعدما عرفناه أتعود المرأة لغسل الثياب على اليد بعد وجود الغسالة ؟ عندما تتعطل الكهرباء لحادث لصيانة تكاد الناس تجن .. هذا اللحم سيخرب في البراد .. هذا الغسيل سيتراكم .. المسلسل لنا أيام نتابعه .. ستروح علينا حلقة .. تنهال التلفونات على شكاوى الكهرباء .. لا يمكن الاستغناء عن هذه الكماليات في حياتنا بسهولة .. لذا أنا أعجب من بعض شيوخ الدين ما زالت بيوتهم بدون تليفزيونات .. يكتفون بجهاز التسجيل المسجل .. هل نستطيع أن نتخلى عن إنارة أعمدة الكهرباء ؟

- لا استغناء إلا إذا صارت كارثة .. إنما نتخلى عن أجهزة لأحدث منها .. سمعنا أن الأمريكان وصلوا القمر

- ومثلهم الروس أو الاتحاد السوفيتي العالم يتقدم مدنيا بقوة والعرب يتأخرون

- سمعت من ابني عرجون أن العقول العربية الواعدة تهرب إلى الغرب ، وهؤلاء يرحبون بهم بشدة ، ويمنحونهم المال والجنسية ، وبعضهم يعمل في وكالة الفضاء الأمريكية

- على ذكر عرجون متى سيتخرج ؟

- الحمد لله ، هو في الشهور الأخيرة ـ إن شاء الله ـ ولكنه يفكر بالتخصص الطبي مباشرة

- ألا يريد الزواج عمره خمس وعشرون اليوم ؟

- كانت هناك فكرة زواج بعد التخرج من ابنة أخي المهندس عليان ؛ لكن أحداث عزيزة وجبير أربكت الاستمرار في المشروع .. ولتهدأ الأحوال نحتاج لوقت .. رغم أن عزيزة رفضت التأجيل والانتظار .. الأحداث أكبر من عزيزة .. وشقيقي عليان قال : لابد من الصبر بضعة شهور للملمة الجراح ..والدكتور عرجون يرتب أموره وعمله

- أخوك عليان ما زال يعمل في وزارة الزراعة

- نعم ، الآن هو مسؤول كبير في الوزارة ومشاريع الري

- أذكر أنه سكن في الحي قديما

- عاش فترة تقل عن ثلاثة أشهر ، وذلك قبل ثلاثين سنة ، ونتيجة عمله في مناطق بعيدة اضطر أن يرحل إلى أكثر من مكان في البلد ، واضطر لشراء بيت قريب من بيت عمه والد امرأته حتى تبات عندهم أثناء سفراته الطويلة .. اليوم الأولاد كبروا وتعلموا .. وهو اليوم يملك عمارة كبيرة يعيش فيها هو وأسرته ، وبعضها مؤجر

- سلم على أبي راجي كثير السلام

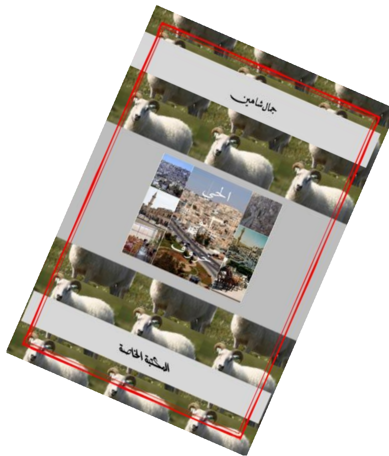
- سلمك الله يا أبا عبد الكريم

- سلم كذلك على عيلتك أم عسود وعرجون وعمار والبنات .. وأتمنى لعرجون النجاح وتحقيق الآمال .. والدكتور عمار محترم هو محاضر في الجامعة

- ترك الجامعة ، وهو مساعد مدير بنك

- ما شاء الله !!

" تمت الحكاية السابعة "



حين تقاعد من وكالة الغوث سكن في ابو خروف

تعلم ابنه في شرق أوروبا الهندسة وعادات الكفر

والإباحية فلم يرى الزواج مهما وحاجة

مرضت . . فذهب لعيادتها فأغرته بمواقعتها

وكانت طعنات قاتلة فمات في شقتها

فذهبت حياته إلى الأبد

هذا قصة ابن صديقنا حلمي ! !

١٩٧٧



يعرف القارئ العزيز من قراءته لهذه الحكايات أن شارعا كبيرا يشكل قوسا لـ "أبو خروف" وهو شارع رئيس مثل شارع "أبو خروف" العام يحيط بالحي شمالا غربا ، ويأتي بعد هذا الشارع القوسي ساحات فارغة ، وبعضها فيها خردوات يجمعها باعة الخردة ، وهناك بجوارهم عشش مبنية من الواح الزينكو واللبن يسكنها الفقراء والمهاجرون من البلاد للعاصمة ، أو الأيدي العاملة القادمة من الأقطار المجاورة ، وهي زهيدة الأجرة ، وبعد هذه الساحات تهبط صفحة جبل فتجد أمامك مخيم العودة ، ويمكنك التنقل بين "أبو خروف" والمخيم عودة الأمل بسيارة خاصة أو مشيا على الأقدام ، وهذا المخيم أنشئ مع نكبة فلسطين ١٩٤٨ ، ويقطنه اللاجئون الفلسطينيون ، وهو مخيم كبير ، وأقامت هيئة الأمم المتحدة لأولئك اللاجئين المساكن من الخيم ، ثم تحولت إلى أبنية من الطوب ، ثم البناء مثل باقي السكان ، وأقامت أيضاً ناديا اجتماعيا للمخيم لممارسة الرياضة والثقافة ، ومدارس المراحل الأساسية حتى التاسع أو الثالث الإعدادي والمدارس للجنسين ، وبجوار المدارس أقامت مطعما لتغذية الطلبة من الجنسين ، وهناك عيادة صحية أو مركز صحي لأهل المخيم ، ومن يحملون بطاقة إغاثة من الأونروا " هيئة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين " كأنها أنشت عام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠ ؛ لتقدم تلك الخدمات للناس ، والناس يطلقون عليها اسم الوكالة أو وكالة الغوث ؛ لذلك تجد في المخيم مركزا لتوزيع الدقيق والسكر والزيت ومواد تموينية أخرى ويسمونه المؤن ، وكان في أول الكارثة يقدم الكاز والدخان .. وتجمع الوكالة المال وتقدم كل هذه الخدمات لأهل المخيم ، خاصة الذين يحملون بطاقة الإغاثة ، وبعضهم يسميها كرت مؤن كرت وكالة ، وهذه المخيمات موجودة في فلسطين نفسها والأردن وسوريا ولبنان ، وطالت قضية اللاجئين وأصبحوا بالملايين ، فهي تقدم الصحة والتعليم والطعام ، والكادر العامل فيها أغلبه من اللاجئين الذين يعملون في العيادات الصحية بوظائف مختلفة ، ومدرسين ، وإغاثة تموينية ، ونظافة شوارع المخيم والنادي ، وتوفر لهم الوكالة التأهيل في معهد للمعلمين ،والتعليم يتبع

الدولة المقام فيها المخيم كإدارة ومناهج ، وللمخيم مدير يتابع إدارة المخيم ونظافة المخيم وتوزيع الإغاثة الشهرية والصحية بالتحويل للمستشفيات حكومية أو خاصة بالوكالة ، وإضافة المواليد الجدد إلى سجل اللاجئين ، وهناك إدارة عامة تدير كل المخيمات في البلد الواحد تتبع لإدارة أخرى خارج القطر المضيف

قلنا للمخيم الفلسطيني مدير تابع للأونروا ، ومن مهام هذا المدير التنسيق مع البلد المضيف لإدارة المخيم وتوفير البنية التحتية للمخيم والأمن الشرطي ، وهو يساعدهم في توفير مواد البناء ، والبناء يتبع نظام المدينة التي أقيم مخيم اللاجئين فيها ، فمخيم الكرامة الذي أنشئ في مطلع الخمسينات في بلدة الكرامة الغور ، كانت بيوته من طوب الطين ، والأسقف من البوص وعوارض خشبية وفوقها طين ، واختفى هذا المخيم مع أحداث معركة الكرامة عام ١٩٦٨

أدخلت الدول الكهرباء لبيوت المخيم ، ثم حنفيات الماء المنزلي ، بعدما كان الناس يستخدمون فوانيس الزيت والكاز ، ثم ما سموه الشيشة واللوكس ، ثم اختفيا ، وحل محلهما مصباح الكهرباء وغاز النيون ، وكانت الماء غير متوفرة في البيوت ، وإنما توضع محطات ماء بين كل عدد من الشوارع ، وينقل الفتيان والنساء الماء إلى البيوت ، وكانت البيوت متلاصقة الجدار بالجدار ، يسمع الجيران بعضهم بعضا ، وهم داخل بيوتهم .. العيوب كثيرة ، كان الناس يقاومون السلبيات تلك بالقرابة وأبناء القرية الواحدة ، وكان للتقاليد الصارمة في أول الأمر صرامتها في حفظ الأعراض والغيرة على بعض ؛ ولكن مع الوقت ذهبت العادات الصارمة المحافظة ، ووجد جيل جديد دب إليه التحلل الأخلاقي في مثل هذه المجتمعات ، والمخيم قد يأخذ شارع رئيسي والمنازل على ضفتيه ، وقد يكون ساحة حولها البيوت تتخللها أزقة وشوارع ضيقة ويكون الشارع العام على طرفها وخارج المخيم ، ولا يوجد بين المباني تهوية وفصل ، تجد عدة وحدات متلاصقة كأنها عمارة واحدة بشكل أفقي ، ثم سمح ببناء طابق ثاني مع الضغط السكاني ، وهؤلاء قبلوا الحياة في هذه المخيمات على أمل

العودة لمدنهم وقراهم في زمن يسير ، ثم طال المقام ، وكبر الفتيان وشاخ الشباب ، فتغير الحال وأصبح المخيم رمزا للجوء الفلسطيني والوطن الفلسطيني ، وابتعد الأبناء المتعلمون عن المخيم فبنوا على أطرافه ، وولدت ضواحي وأحياء جديدة ، وبقي الابن الفقير الأب الحان لفلسطين في المخيم

بعض المخيمات كبيرة المساحة قليلة العدد البشري ، وبعضها صغير المساحة كثير البشر ، وأكيد لكل مخيم قصة لاختياره وتكوينه في أرض ما ، وحكايتنا هذه ليست عن المخيمات وعمارتها وأسبابها ؛ لكن بدأت القصة من المخيم ، وانتهت مأساة حلمي عيسى في "أبو خروف" الذي كان يعمل موظفا في عيادة المخيم المذكور كممرض ، والعيادة مكان ترداد ذكريات الكارثة الفلسطينية .. يلتقي أناس من مدن وقرى فلسطينية شتى ، فيتحدثون عن ذكريات التشرد أثناء انتظار العلاج والدخول على الأطباء .. قصص الناس الفقراء والأغنياء .. أسرار الأسر تظهر في العيادة خلال ساعات الانتظار .. لابد للكلام أن يخرج كنا .. وكنا .. وحلمي موظف الأونروا من سكان المخيم ، وله وحدة من غرفتين صغيرتين ومطبخ صغير وحمام وصالة صغيرة لاستقبال الزوار .. العيادة في المخيم مهمة لهم ومكان حيوي للشعب المتشرد من نير الاضطهاد الصهيوني العالمي ، فهي تقدم الخدمة الطبية الأولى للمرضى ، تقدم الإسعاف الأولي للمصابين ، وتوفر العلاجات الشهرية المتكررة ، ورعاية الحوامل والأطفال ..وهي تحول الحالات إلى المستشفيات بعد إجراءات ضرورية قد تستغرق وقتا .. فالموظف في العيادة ولو كان فراشا له قيمته عند أهل المخيم ، فهو يستطيع إقناع الطبيب بتحويل المريض إلى مستشفى .. والحكومة المضيفة تسمح للمرضى الفلسطينيين المعالجة في عياداتهم ومستشفياتهم

عيسى حلمي ممرض قديم عمل في الوكالة في سنواتها الأولى وهو اليوم يقرب الستين من العمر وهو على وشك إنهاء خدماته في العيادة .. والوكالة لا تصرف للعاملين فيها رواتب تقاعدية شهرية ، إنما يعطى العامل مبلغا قيما من المال حسب نوع العمل الذي مارسه خلال

سنوات العمر وطول المدة التي خدم بها الوكالة ، ويعطى المال دفعة واحدة ، تدفع المكافأة والادخار له دفعة واحدة مع الأرباح التي جمعت له خلال فترة العمل .. وهو مبلغ كبير ومقبول وحسب الزمان الذي تقاعد فيه .. فهو في الأصل مبلغ مقتطع منه شهريا مع إضافة عمولة تشغيله ، وهو مال مستثمر في سويسرا والنمسا حيث مقر الوكالة الرئيسي .. قد يأخذ المتقاعد عشرين ألف دينار .. ثلاثين ألف دينار .. وأكثر من ذلك إذا كان طبيبا مهندسا .. فبعض عمال القمامة لما تقاعد حصل ثلاثين ألف بعد خدمة ، ربما ثلاثون سنة تقل لخمس وعشرين أنه مبلغ كبير .. على كل حال على المتقاعد حسن إدارته واستثماره

والذي جعلنا نكتب قصته ونضيفها لمآسي "أبو خروف" أن الرجل سكن الحي بعد تقاعده ، وكان يمتلك بيتا في "أبو خروف" ، ففي أثناء خدمته في عقد الخمسينات اشترى البيت وهدمه وبناه من جديد ، وهو يتكون من طابقين ، وكل واحد منهما شقتان ، وسبب شرائه في ذلك الحي دون غيره من الأحياء أن بعض أشقائه سكنوا "أبو خروف" في وسط الخمسينات ، وبنوا قبله فتأثر بهم .. فشقيقه مروان لم يسكن المخيمات أصلا ، ولم تطب له السكنى فيها ، فباع وحدته وسكن في "أبو خروف" ، وهو مدرس من قبل الهجرة الفلسطينية الأولى ، وشقيقه الأصغر منه أيضاً هجر المخيم ، وسكن في بيوت مستأجرة ، ثم استقر مالكا في "أبو خروف" ، ففعل حلمي مثلهم ؛ ولكنه بنى وأجّر العمارة وبقي ابن مخيم كعشرات آلاف الفلسطينيين ، وبقي في المخيم لضرورة عمله في عيادة المخيم كممرض أو تمرجي كما يقول بعضهم .. مهمته تنظيم المراجعين قياس الضغط تغيير على الجروح غز الإبر في العيادة وفي البيوت .. وله أشقاء آخرون ، وله شقيقة تعيش معه في مخيم عودة الأمل ، وغيرهن من الأخوات

ظل الرجل ساكنا في المخيم طول هذه السنوات وفيا له ، وطابت له السكنى فيه ، وعاصر الأحداث التي عصفت بفلسطين والدول العربية المضيفة ، وما زال له الأمل أن يموت في فلسطين في يافا العربية بلد البرتقال اليافاوي ؛ ولكن عقد السبعينات أوشك على الأفول دون

عودة دون رجعة .. وهو يعرف بحكم العمل في العيادة أغلب عائلات المخيم ، وكفاحهم من أجل البقاء والحياة .. يحزن بأحزانهم ويسعد بسعاداتهم ..والكثير منهم يحبون حلمي عيسى.. وهو يشاركهم أفراحهم وأحزانهم .. فأصبح وجها من وجوه المخيم .. ولما قرب إنهاء العقد مع الوكالة أخذ يستعد للرحيل لـ"أبو خروف" حيث عمارته المؤجرة .. وبيت المخيم إما أن يبيع وحدته فيه أو يؤجرها لشاب على وشك الزواج أو متزوج يبتعد عن أهله .. إيجار البيت يدخل على الفرد خمسة دنانير أو ثمانية في الشهر ، والطماع عندهم يؤجرها بعشرة ؛ مع معاناة التأجير

حلمي يرغب بالسكن في الطابق الثاني من البناية ، والمستأجران متمسكان كل في شقته ، ويعتذران عن الإخلاء ، كل واحد منهما يأمل أن يخرج جاره ، وحلمي مصمم على الرحيل ، وهجر المخيم حتى أنه عرض عليهما المال مقابل الإفراغ والبحث عن سكن جديد ؛ بل سعى هو بنفسه باحثا لهم عن بيت جديد في نفس الحي والأحياء المجاورة ، وعند الجد ينكسون ويحرجونه

هو رغب في الانتقال من أجل الأولاد ، فقد شبوا وكبروا ، ويتذمرون من العيش في المخيم ، ليس عندهم الحنين الكبير للوطن المسلوب كأبناء النكبة نفسها ، فأصبح المخيم لجيل النكبة رمزا مهما لمدنهم وقراهم وبواديهم ..وللسيد حلمي ولدان وبنتان فقط ، رغم أن العائلة الفلسطينية المنكوبة ولادة ، ربما ظل ذلك لمطلع التسعينات .. والأم تكثر من المواليد رغم الفقر والجوع والتشرد .. فكثير من العائلات تقارب العشرة أنفار وتزيد .. فالأول أسمر والثاني أزرق تعلم أسمر في معهد تعليم الوكالة لمدة عامين كمدرس ، ولم يستهويه التدريس كعمه مروان ، ثم سعى لدى منظمة التحرير الفلسطينية التي أنشت في أول ١٩٦٥ لتحرير فلسطين يافا عكا ، ثم تخلت عن ذلك ؛ لتحرير ما يسمى بغزة والضفة الغربية اللتين استولت عليهما إسرائيل عام ١٩٦٧ ، وما زالت هذه المنظمة تجاهد لتحقيق الحلم الفلسطيني بإقامة دولة مستقلة عاصمتها القدس .. سعى أسمر لدى فصائل هذه المنظمة ، خاصة ذات النفس

اليساري منها ، وأرسل مبتعثا إلى إحدى دول أوروبا الشرقية حيث العلاقات المميزة مع الأحزاب الشيوعية المسيطرة على حال تلك البلاد ، وهو يدرس الهندسة ليتخصص في أحد فروعها خاصة الهندسة الصناعية ، ورجع من سنتين فقط ، وتعاقد مع شركة مهندسا صناعيا ، وكان يضغط على والده قبل أن يعود وبعد أن عاد للرحيل من المخيم ، والوالد يؤجل ذلك حتى ينهي خدمته مع الوكالة ، وكان خلال السنوات الأخيرة يقارع المستأجرين ليرحل أحدهما في المرحلة الأولى ؛ لأنه سيزوج الأولاد.

والشاب الثاني أزرق لم ينجح في الثانوية العامة ، وتحول للعمل كميكانيكي سيارات ، وهو يعمل في هذه الحرفة من سنوات في منطقة حرفية ، ويرفض الزواج قبل شقيقه الأكبر أسمر

وأما البنات فالكبرى منهما فايزة فهي بين أسمر وأزرق تزوجت في المخيم ، وقضت مع الزوج سنتين أو ثلاث تقل شهورا ، وطلقها الرجل لتأخرها في الحمل على زعم أنها عاقر ، والصغرى دخلت الجامعة ولم تنتهي منها بعد .

تقاعد حلمي ، جاءت الموافقة ، وأخذت إجراءات إبراء الذمة مجراها ، وينتظر خروج المستأجرين للطابق الثاني من عمارته في "أبو خروف" ليرحل إليها ، والمهندس يهدد بالرحيل والعيش دونهم .



مناورة

زار حلمي عيسى منزليّ المستأجرين عنده في الطابق الثاني الذي يسعى لتفريغه من الساكنين ، وأعلمهما أنه تقاعد منذ أيام ، وأنه يريد إخلاء المأجور فورا دون مشاكل ؛ ليسكن في أحدهما ويزوج ابنه المهندس أسمر في الثاني ، وأنه سيباشر بتقديم شكوى لدى المدعي العام ، وتحدث مع محامي في الموضوع

فقال أبو رامي : نحن يا سيد حلمي ملتزمون بالأجرة ، فالقانون إلى صالحنا ، ولا يجبرنا على إخلاء السكن

صاح حلمي بحدة : أنا لم أقبض منكما درهما واحدا منذ سنة .. أنتم لا تدفعون .. أين عقد الإيجار الذي بيننا ؟ أول سنة كتبناه ، ولم نجدده أين وصولات القبض ؟ أنا لم أستلم شيئا

قال أبو فهد : أين ضميرك يا عم حلمي؟!

قال بلهجته الغاضبة : مات .. ضميري في إجازة .. أنا لي أكثر من سنة وأنا أترجاكم لإخلاء العقار .. أنا دفنت ضميري ، لا يلوم أحد إلا نفسه .. أنا بنيت الدار للحاجة .. ارحموني يا سادة أنا صاحب العمارة أم أنتم؟!

قال أبو رامي : يا أبا أسمر المستأجر مالك .. لو كل صاحب بيت وقتما يشاء طرد مستأجريه ستصير الدنيا فوضى

خفض صوته وقال : يا إخواني أنا لي سنة أطلب إفراغ إحدى الشقق .. اليوم أريدهما الاثنتين .. كم مرة ناشدتكم المساعدة العون ؟ .. وذهبت بنفسي أبحث لكم عن شقق هنا أو هناك ، ثم تكسفونني أمام الناس.. أهذه أخلاق ناس محترمين؟! .. بيتي في المخيم على استعداد أن يرحل إليه أحدكم

ضحكوا وقالوا: نسكن في المخيم يا أبا اسمر !

صاح فيهما: وماله المخيم ؟! لي ربع قرن أعيش فيه .. عار السكن فيه .. هو الذي يذكرنا بتراب بلادنا وأرضنا وعدونا الغاصب .. صدقا لولا الأولاد كرهوا الحياة فيه لبقيت فيه حتى

أموت كما مات غيري .. الأولاد كبروا وتعلموا خاصة المهندس أسمر فهو مستعر من عيشة المخيم .. كان له عز المخيم قبل أكثر من عشر سنوات .. الأولاد لم يروا كم بذلنا لنعيش بكرامة في المخيم .. حملنا تاريخنا وذكرياتنا إلى المخيم .. المخيم قصة عشق بيننا يا سادة .. أبي مات في المخيم أيام الخيم قبل أن نبني اللبن .. أنا سعيت لكم في استئجار دور لكنكم تمردتم عليّ

قال أبو فهد مستسلما: يا سيدي أوجد لي بيتا في "أبو خروف" بنفس الأجرة أو قريبا منها وأنا على استعداد للرحيل إليه ، ومفارقتك يا عم حلمي .. صدق أني بحثت ، ولم أوفق أو يطلبون أجرة أكثر مما أدفع .. فإيجارات اليوم ليست كإيجارات قبل عشر سنوات .. نحن ندفع لك في الشهر عشرة دنانير منها الكهرباء والماء .. هل تجد لي مثل هذه الأجرة وهذه القيمة؟

- أنت لما استأجرت هذه الشقة كم كنت تأخذ راتبا ؟!.. كم كان دخلك قبل عشر سنوات يا حسن ، فاليوم دخلك زاد ، وبدأت معك بخمسة دنانير ليس بعشرة .. العشرة من سنتين ثلاث يا حسن .. أنا سأبحث لك عن بيت ، ربما تدفع بين الخمسة عشر إلى عشرين .. عشرة زيادة بالكثير

- أنا أقبل يا عم حلمي أنا لا أحب المشاكل .. وأنت الآن تركت الشغل .. وستطرق الباب كل يوم على أم فهد أين أبو فهد ؟ ألم ترحلوا بعد ؟! نحن بغنى عن هذا .

ضحك حلمي وقال: هذا الذي سيصير مع رفع القضية عليكم .. حسنا يا أستاذ حسن سأجد لك شقة هنا أو في حي النجمة الحي الذي قبل "أبو خروف"

- لا بأس

- وأنا اشكر لك هذه الهمة والتعاون .. وأنا سأدفع مائة دينار أو أجرة ستة أشهر مائة وعشرين هدية مني

- آسف يا أبا أسمر هديتك على رأسي وعيني .. اعذرني عن قبولها

عاد لحدته وقال : أقسم بالله إني سأفعل حتى تعلم أنني لولا الأولاد ما تركت المخيم .. الأولاد كبرت ، ويرغبون بالزواج .. اليوم لا تكفي زاوية في البيت للحياة كما كنا نعيش في أول الهجرة .. المخيم حياتي ؛ لكن الضرورة لها حكمها .. وأعز الأصدقاء فيه والجيران .. الأولاد لا يحبون الحياة في المخيم ..وكل يوم منذ رجع المهندس من أوروبا ونحن في مشاجرات .. ويهددنا بالرحيل عنا ، ونحن كبرنا

قال أبو فهد: أنا أعرف عشقك للمخيم .. فنحن نعرف بعضنا من عشر سنوات .. وأنا بالنسبة لي قبلت بالرحيل إلى بيت آخر في "أبو خروف" أو غيره

- أشكرك مرة أخرى على تعاونك الكبير ، أنت أبدى من المحامي في الفلوس .. وأنت يا أبا رامي ألا تريد أن تشفق على رجل شاخ ؟!

قال أبو رامي: أنا من حقي البقاء يا عم حلمي ، ولن يكون أبو فهد خيرا مني ، وترك بيت بعد عشر سنوات أو تسع ليس هينا على النفس

- هل أنا منعتك من بناء بيت أو شراء بيت أو قطعة أرض كان يجب أن تفكر في هذه الساعة في هذا اليوم ، نحن عقدنا سنوي ونتعامل على الثقة والمعاملة الحسنة

قاطعه أبو رامي: على كل حال جارنا أبو باسل كلم زوجتي أنه قد يترك المنزل ، ويرحل عن الحي

- أعرف ذلك ، أتريد أن تنزل لأسفل ؟

- نعم ، نصبر حتى يرحل

- كأنك نسيت ابني أزرق

- فليبق في المخيم .. أنا لو أستطيع أن أعيش في تلك الأماكن الضيقة ، وعلب السردين لانتقلت إليها فإيجاراتها رخيصة.. أكبر وحدة بستة سبعة دنانير شهريا

- أنا أؤجرك إياها بخمس ليرات .. يا أخي أبا رامي أرجوك الأولاد يريدون الزواج .. المهندس عمره سبع وعشرين سنة ..يبغضون حياة المخيم .. وهم صبروا حتى أتقاعد ، لم يبق

لي عذر بالمماطلة .. هم لم يعرفوا البلاد وبيارات البلد وزعتر البلد ، لم يعرفوا يافا .. لو قيل لهم سنعود إليها أتصور أنهم سيرفضون .. ألفوا هذه البلاد .. ولولا المهندس لما رحلت ؛ لكنه لما عاد واشتغل سكن في شقة كم شهر ، وأمام كلام الناس وأعمامه عاد للمخيم حتى أتقاعد .. وها أنا قد تقاعدت .. أيكون عندي هذه البناية ويسكنون بعيدا عني ؟ وهم في مطلع الشباب ، بل غاب شهرين في أوروبا الشرقية قبل أن يعود للحياة معنا .. وسمعتم بهذه الحكايات

– يسكن أزرق معكم ، تكفيه غرفة

– والبنات، فايزة مطلقة كما تعلمون ، والثانية تدرس في الجامعة .. واليوم الشباب تحب أن تسكن في بيت مستقل

– وماذا ستفعل بوحدة المخيم ؟

– ستباع أو تؤجر أتشتريها؟

عاد أبو رمي للسخط : أعوذ بالله من غضب الله أنا اشتري في المخيم ؟! مرة جئت البيت من شوارع المخيم بسيارتي ما صدقت وأنا أخرج منه .. وأنا أتعجب كيف يعمل سواقين الأجرة في شوارع المخيم ؟! ساعة حتى تمشي عشرة أمتار .. حمدت الله أن خرجت سالما .. هذا يقفز من أمام السيارة ..وهذا يخبط ظهر السيارة لتقف ليقطع ..وذاك يطقق على الزجاج لتخفف السرعة كأنك مسرع .. وأنا أسوق على مهل .. هل استطيع الحياة في مثل هذا المكان ؟! سوف اختنق وأموت يا عم حلمي .. أنتم عجيبون بصبركم وحياتكم ..وهل يستطيع شرطي دخول المخيم؟!

– المخيم فيه نقطة شرطة ..الإنسان يتعود الحياة فيه .. وحياة المخيم بالنسبة لنا الذين حضرنا أحداث النكبة لها أحاسيس في وجداننا .. بيننا الألفة والحب والمواساة وشجون القضية ذكرى البلاد والقرى .. وأنا بنيت هذه العمارة للأولاد ، وأجدها عندما أكبر ويكبر الأولاد .. وفعلت كما فعل أشقائي .. قلنا دور المخيم لا تتسع مع الزمن

– تحل مشاكلك يا عم حلمي مع الأولاد على ظهري .. لن أكون نذلا ، سأكون مثل جاري

أبي فهد .. وأنا تعودت هذا الحي رغم ما فيه من كوارث ومصائب بين حين وآخر ؛ لكن هذه حال الدنيا .. وهو مكان مناسب لمكان عملي .. وأمام هذا الضغط فابحث لي عن بيت مناسب ، ولو كان في "أبو خروف" فذاك الفضل من الله

قال أبو فهد : استسلمنا لك يا أبا أسمر

قال حلمي: التعاون أيها الإخوان مطلوب .. أنا لولا الضغط عليّ من الولد ما هجرت المخيم لكن قدر لي العيش حتى يكبر الشباب ، وأترك ما أحب .. المهندس لم تطب له حياة المخيم أنا أعرفه بعد أن أرحل سيرحل .. سيختلق شيئا ليرحل ؛ ولكن عليّ أن أسايره ، وعلى أمل أن نبقى بجوار بعض كما عاش الآباء والأجداد .. لقد كبرت ودهمني العمر

- سلامتك يا عم حلمي

- سلمكم الله ، شكرا لتعاونكما



استطاع الممرض المتقاعد من وكالة الغوث الدولية بمساعدة معارفه في مقهى مهران أن يجد شقة في "أبو خروف" ، وقبلها أبو رامي وكانت بنفس الأجرة الأخيرة عند حلمي ، والذي اختلف وزاد أن يدفع فواتير الماء الفصلية والكهرباء الشهرية ، وقبل الرجل ذلك للصداقة بينه وبين حلمي ؛ والرجل له أقارب يعيشون في مخيم اللاجئين ، ويعرف أبا أسمر حق المعرفة ، وهو شخصية معروفة في المخيم ، وفي حل مشاكل ومشاجرات أهل المخيم ، وكذلك لمعرفته الشخصية بأبي رامي ، لقد جالسه على المقهى بحكم جيرة الحي ، وقد كانا يركبان التكسي معا إلى مركز عمل كل منهما ، وكلاهما موظف في أجهزة الدولة ، ودفع أبو أسمر أجرة ستة أشهر عن الرجل كهبة ، وبعد تمنع سكت أبو رامي ، وقدم الشكر لهما ، وبعد إعادة تأهيلها رحل إليها أبو رامي خلال ساعات

ولما جهز حلمي الشقة الفارغة بإعادة تغيير دهانها وطلائها، وعمل صيانة لأدوات الماء ومفاتيح الكهرباء والإضاءة رحل إليها تاركا المخيم بعد ربع قرن من العيش فيه ، وقدم طلب خدمة الهاتف من شركة الاتصالات السلكية واللاسلكية ، واشترى عفشا جديدا ، غرفة نوم كاملة ، فهو كان ينام على الأرض في المخيم ، أغلب الفراش القديم وهبه لأخته وجيرانه في المخيم ، فقد ترك لهم الثلاجة والغسالة والغاز والمراوح .. وفرش غرفة بسريرين لأولاده وخزانة ملابس .. وما كاد يستقر فيها حتى وجد شقة أخرى للسيد أبي فهد في حي النجمة ، ورحل إليها أبو فهد فور تجهيزها بأجرة شهرية خمسة عشر دينارا مع الكهرباء والماء .. دفع الشهور الستة الأولى السيد حلمي كما وعد الرجل ، وتخلص الرجل من مستأجري الطابق العلوي ، وبقي اثنان في الطابق الأرضي ، وأحدهما سيتقاعد ويرحل خلال وقت يسير .

وكان حلمي راغبا في الطابق الأعلى ؛ لأن لكل شقة شرفة يستطيع أن يجلس فيها يشاهد الشارع والحي والناس في الصيف والربيع ، ومدخل عمارته على الشارع الرئيسي ، وبنيت قبل أن تظهر بناية المحلات التجارية ، وباستطاعته تحويل الطابق الأرضي إلى تجاري ؛ لكنه استغلها كسكن فحسب ، فعمار ته في آخر جزء من "أبو خروف" من الأعلى في المربع الذي يقع بين الشارع الرئيس الأعلى وشارع النحلة ، حيث تقع بقالة أبي صالح الذي مر ذكره في أول حكايات أبي خروف ، ومدخلها على الشارع الرئيس لأبي خروف ، لا يفصل باب الطابق الأرضي عن الشارع سوى عدة أمتار ، فإذا جلس في الشرفة يكون الشارع أسفل منه ، وهو يفكر بإغلاقها بالزجاج ليخف ضجيج السيارات عنها ، والجلوس فيها أيام الشتاء ؛ ولكنه أجل ذلك ريثما يزوج الأولاد ويخلص منهم.

ولما استلم مفتاح شقة أبي فهد قال لولديه : ها قد عدنا لقصرنا العتيد .. من منكم يرغب بالزواج أولا لنجهز له الشقة ، وليأخذ هذا المفتاح ـ وكان يلوح به بيده ـ ويبدأ بتجهيز الدار .. والأفضل أن أزوجكما في يوم واحد ـ إن شاء الله تعالى ـ لأخلص منكما مرة واحدة ، وتتحمل زوجاتكما خدمتكما ، وجارنا ـ وأشار للأسفل ـ كما اتفقنا على وشك الرحيل

والعودة لبلده وأهله .. فهو سيتقاعد ويغادر خلال هذه السنة ، وسيكون الزواج بعد رحيله .. فعلى كل واحد منكم أن يبحث عن عروس مناسبة

فقال أسمر: وهل من الضروري الزواج ؟!

– يا ابني عمرك سبع وعشرون سنة .. أنا في هذا السن كان لدي ثلاثة منكم مع الذين ماتوا ؛ لأنه ماتت بنت قبلك يا أسمر ومات آخر بعد فايزة

قال كأنه محتج : وماذا تعني هذه السنوات ؟! هناك بعد الثلاثين والأربعين يفكر الشاب بالزواج .. البنات أقل قليلا من أجل الولادة

رفع حلمي صوته فقال : يا ولدي هناك الزنا مباح .. يظل الشاب في الخمارات ودور البغاء حتى يهلك ، ثم يفكر بالزواج .. وينجب واحدا أو نص واحد وانتهى .. أتريد أن تبقى من غير ذرية ؟! متى سنرى أنا وأمك الأحفاد؟! لم يبق من العمر قد ما مضى .. وأخوك يرفض الزواج قبل زواجك ..وأنت تتعلم هناك وهو يرفض .. الكبير أولا .. وأنا معي بقية مال الوكالة .. وأنت تريده قبلك .. جميل أن يكون الرجل شبابا وقويا وابنه شباب مثله .. فرحونا بكم يا شباب

فقال أزرق : تكلفة الزواج غالية اليوم

– لو وصلت مليونا سيتزوج البشر .. والزواج أسهل وأرخص من أيام زمان .. اليوم يوجد فلوس .. أيام شبابنا كنا في جوع .. نعيش على أموال الوكالة كأساسيات للحياة ..أكلتنا البراغيث عند الهجرة والنكبة .. عشنا في الخيام وتحت المطر والغريق والحرائق من شدة البرد ..لا مجال للمقارنة يا أولاد .. أيام من الصعب نسيانها نسيان آلامها .. الأمراض والأوجاع والخوف والجهل والجوع .. كانت شدة قاتلة .. نعيش على مساعدة ومؤن الوكالة .. والمشاجرات على طوابير الطعام لا تنتهي .. لما سمح لنا بالبناء بالطوب في المخيم ظننا أن نعيش بقصور ألف ليلة وليلة .. اليوم أصبح لدينا عمارات وسفر ومهندسون وطيارون وأطباء .. أصبح أولاد الفلاحين أطباء ودكاترة ..كانت حياة عصيبة .. عشنا فترة تنقل

ورحيل تدمي القلب .. عرفت مخيمات الخليل ورام الله حتى استقر بي الحال في مخيم عودة الأمل بحكم العمل والوظيفة .. فعمكم مروان أستاذ قديم قبل النكبة استطاع بعد عمله في الوكالة أن يجد لي ولغيري عملا معهم ، ثم ترك هو وتابع الدراسات العليا .. وصار التشرد مأساة .. لم نتعود في مدينتنا بعد ترك القرية على التشرد ولا البهدلة .. نعم ، يجب أن تتزوجا وتنجبان ذرية تتابع المسيرة والاهتمام بقضية الآباء والأجداد .. نحن شعب حي يجب أن لا نموت حتى تعود فلسطين حرة عربية لشعبها الوحيد ..يجب أن نتكاثر حتى نبقى ونحيا .. هذا عدو غاشم ظالم لا يرحم صغيرا ولا كبيرا

قال المهندس المتخرج من كليات أوروبا الشرقية : كان قومك أصحاب الثورات يصدعون رؤوسنا بمحاضراتهم عندما يزورون تلك البلاد ، ولما نسمع كلامهم نتخيل أنفسنا عدنا لفلسطين إلى يافا واللد والرملة وعكا ، ثم نعود للواقع فنرى أن الأمر بعيد المنال .. أتظن أن تعيش لتعود لحيفا والرملة ؟

قال حلمي بحسرة يصحبها أمل : الله اعلم ! هذه علمها عند ربي ؛ ولكن الوضع العربي بعد كل هذه السنين لا يسر ولا يبشر بخير .. ونحن ما زلنا نعول على الأمم المتحدة والعرب.. ما زلنا نتصارع لا ندري على ماذا ؟! كنا قبل نظن العودة فعلا قريبة .. كان الكلام الثوري يدغدغ المشاعر ، ويثير في النفس الأمل القريب .. نحن نقترب من نهاية السبعينات دون أمل صاروا يريدون تحرير رام الله والبيرة ونابلس ، أما يافا وحيفا وعكا فأصبحت حلما بعيد المنال ، يريدون العودة للتقسيم قرار الأمم ١٩٤٧، فعكا واللد تركوها للتاريخ ، شبعنا كلاما عن الوحدة العربية ، واليوم لا وحدة ولا شحدة .. ماتت الوحدة بموت ناصر .. كل دولة تعمل وحدها ، وذا في فلك أمريكا ، وذا في فلك روسيا ، وذا في فلك الشيطان .. دول تتناحر بالإذاعات صباح مساء .. وقد تتناحر بالسلاح ..أنا أقرأ بشكل جيد .. أقرأ الجرائد والمجلات وحتى الثورية دون فائدة .

- والتفرق علامة اليأس والبعد

فعلق أزرق الصامت : المهندس يحب السياسة

فرد أسمر : والاقتصاد . يا سيد أزرق يبدو أنك صحوت

قال أزرق موضحا : لم أنم ، إنما أغمضت عيناي ؛ لعلي استوعب شيئا مما قاله أبي

ضحك أسمر وقال : أكيد استوعبت القضية الفلسطينية المعقدة !

ـ عندنا في الورش كلام كثير عن القضية العربية الأولى .



انتقل المهندس أسمر وشقيقه أزرق إلى شقة أبي فهد بعدما أعيدت صيانتها وطلائها ، فأصبحت لهم دار نوم حتى يتحدد موعد زواجهما ، ويفرغ المستأجر شقته في الطابق الأرضي ، وقد أصبح حلمي بعد الاستقرار في "أبو خروف" زبونا دائماً يتردد أغلب الأيام على المقهى الذي يعرفه قبل رحيله ، لقد بعد عليه مقهى المخيم ، فالمخيم عادة يكون فيه عدد من المقاهي ، كل بضعة شوارع تجد مقهى أو أكثر حسب سعة المكان ، والمخيم طويل ممتد ربما يزيد عدد سكان المخيم عن خمسين ألف تلك الأيام ، والمقاهي الشعبية أصبحت أماكن التجمع ، وتبادل الأخبار الشخصية أو السياسية ، أولا لتوفر الراديو القديم فيها ، ثم التلفزيون قبل دخوله البيوت ، ولعب الورق وغيره ، وقد تجد في بعض المقاهي أناسا يلهون أكثر من رواد المساجد عند صلاة الفجر وغيرها من الصلوات ما عدا صلاة الجمعة ، فهو مشهود بالصغار والكبار ، وبعضها تسمح للنساء بالصلاة جماعة في هذه الزمن .. تجد المقاهي تعج بالبشر والرواد ؛ وربما يفترشون الرصيف للجلوس والثرثرة ، وتدخين النرجيلة وشرب الشاي بالنعناع ، وذلك في الصيف وأيام الدفء ، والمقاهي عادة قديمة ظهرت في المدن العربية وغيرها ..أكثرهم يلعبون الورق ويخترعون ألعابا أو يتوارثونها ، والتلفزيون اليوم يتوسط المقهى ويلتف قريبا منه حشد من الخلق لمشاهدة المسلسلات والتمثيليات .. والدخان يتصاعد في فضاء المكان كأنه سحابة تظللهم .. فهذا مما ابتلي به الناس في الأعصر المتأخرة وحتى أنك تجد المقاهي تنشأ قريبا من المسجد ؛ لتشجيع رواد المساجد إلى الجلوس فيها ، واختيار المصلين المقاهي القريبة من المساجد لعلاقة خاصة بينهما أو لأن المسجد يعتبر المركز للمدينة أو الحي الكبير

وحلمي له أصدقاء في "أبو خروف" قبل الرحيل بحكم عمارته ، وبحكم سكن إخوته أو أبنائهم ، وبحكم رحيل بعض سكان المخيم للحياة قبله في "أبو خروف" ، وبحكم مساعدته في حل المشاجرات الناشبة بين شبان المخيم وشبان "أبو خروف" ، فتعرف على

أسرهم ، فهو يعرف سلمان أبا يوسف وشقيقه نعمان ، وأبا صالح كمال فدكانه قريبة من عمارة حلمي وغيرهم ، فهو محب للجلوس على المقهى ، يسمعون أخبار الوطن المسلوب ، يتذكرون أيام البلاد والبرتقال اليافاوي ، وعداوة الإنجليز للعرب ، وتمكينهم اليهود من السيطرة على فلسطين يوما بعد يوم ، وقد يشرب الشيشة [النرجيلة] كما يقولون ، ولا أدري هل لفظة يشرب تصلح لذلك ؟ كما يقولون نشرب الدخان ؛ لكنه لا يلعب الورق ، يحب الحواديث والتعليق والتحسر ، ومرات يأخذ بالجلوس في المسجد بين الصلاتين المغرب والعشاء إذا وجد من يتحدث معه بعد صلاة المغرب ، وأحيانا يقرأ وردا من القرآن أو شيئا من كتب المكتبة .. بدأت تشيع المكتبات في المساجد في الآونة الأخيرة أكثر من ذي قبل .. خاصة تفسير ابن كثير الدمشقي فهو من التفاسير التي يحرص على وجودها في بيوت الله تعالى وكتاب رياض الصالحين للإمام النووي الدمشقي أيضا .

والسيد مهران يعرفه حق المعرفة ويحترمه ، فالرجل كان من رجالات المخيم خلال السنوات الماضية ، وتكونت له قاعدة شعبية مع الوقت ، وأتاحت له مهنته التعرف على الكثير من الناس ، والمخيم لا يوجد فيه إلا عيادة واحدة للإشراف على صحة ومعالجة الخلق ، فقد ساعدهم في حل الكثير من المشاكل سواء مشاجرات ومنازعات وحالات طلاق وحرد نساء من بيوت أزواجهن ، فكان مهران يتصل به للمساعدة ، فلا يخيبه العم حلمي ، ويمشيان في قضاء الحاجة ، وبحكم وظيفته وكبر سنه يجد الرجل قبولا لدى أهالي المخيم ، وكان محبوبا من أهل المخيم لصوته الجهوري ، ولحبه للنكتة والمرح ، والتعليق اللاذع على الأخبار السياسية والسياسيين .

كان يصلي العصر في البيت ولما يقترب الغروب يتمشى جهة الجامع ؛ فإن رأى الوقت للآذان قريب يدخل المسجد مباشرة ، وإن كان الوقت مبكرا على الصلاة دخل المقهى وشرب فنجانا من القهوة ، فهو من عشاقها ويشربها بكثرة ، ثم مع الأذان يدخل المسجد ، ويخرج بعد العشاء إلى البيت إلا إذا كانت هناك قضية يريدونه من أجلها في المقهى ، وقد يدخل بعض

المحلات لشراء حاجة للبيت ، فخلال الشهر الأول تعرف على أغلب متاجر "أبو خروف" وأصحابها ، خاصة الذين في طريقه وعلى سوق "أبو خروف" ، بل زار مقر جمعية البر والإحسان ومكتب البريد وصحة "أبو خروف" ، وحتى المكتبات تعرف على بعض أصحابها ومعروضاتهم ، والرجل بحكم عمله في صحة المخيم يحسن التعرف على الناس ويصاحبهم كأنه عاشرهم طويلا ، وهذا لا يقدر عليه كل الناس ، مع الوقت يتكون عند الإنسان خبرة للتعامل والتواصل مع الآخرين ، ويفهم مفاتيح شخصياتهم ، وليس كل من يسكن المخيم اليوم فقيرا ، كما كان في أول إنشائه .. تعلم الأولاد وصاروا ؛ لكن الأغلب متوسطو الحال .. وهو عنوان الأمل والعودة لفلسطين

دخل حلمي المقهى وحيا مهران ، ومشى إلى طاولة سلمان وأبي صالح وسلم عليهم بالإشارة ، فهم مستغرقون في اللعب وسحب كرسيا واستراح عليه ، وقال لنعمان : الآن أصبحت من أهل "أبو خروف" ، وصرت لكم جارا

قال نعمان: لا يا حبيبي أنت صرت جارا لإخوانك مروان وعصام

- بالعكس بيتك أقرب من بيت إخواني ، ودكان أبي صالح أقرب من بيت عصام يا سيدي .. أنا جاركم بالحي .. كان آخر بيت في المخيم جار لي .. والمخيم أكبر من "أبو خروف" .. وأنا الآن أسعى لتزويج الشباب .. والمهندس وأزرق انتقلوا للمبيت في شقة أبي فهد وننتظر رحيل جارنا أبي باسل ليأخذ كل واحد شقة .. وبيت المخيم أنوي بيعه فقد كبرت السن لم تعد بي قوة للنزول إليه ، وأخذ الأجرة .. فأحد أزواج بنات أختي التي بقيت في المخيم ينوي شراءه

فأوقف سلمان اللعب وخاطب حلميا : أنا مهتم بموضوع زواج الأولاد يا حلمي .. وأصبح لدي بعض العائلات ، هل أولادك يرغبون بالزواج عن طريقك وجادين في الزواج؟

أخذ نفسا عميقا وقال : المهندس أسمر كلامه لا يسر ، تعلم الفساد هناك ، يقول لماذا يتزوج الإنسان صغيرا ؟! هناك يتزوجون عند الأربعين .. سأعيد الحوار معه ثانية وثالثة .. أما أزرق

فقد ربط زواجه بزواج أخيه الأكبر ، إنه لا يرفض الزواج كزواج .. وسيكون زواجهما في ليلة واحدة ـ إن شاء الله ـ فلم يقل لي أحد لا تبحث

- لا أحد يصلي من أبنائك

هز رأسه ألما وقال: كان أسمر يصلي قبل دراسة المعهد ، ولما دخل معهد الوكالة أصبح هواه مع اليسارين دون الإلحاد ، غير مبال بالقيم الدينية .. الحياة من أجل الحياة .. لماذا يترك الأبناء الصلاة والصوم لما يذهبون للتعلم في بلاد الكفر ؟! كان قبل السفر للدراسة يقطع للصلاة ثم تركها نهائيا .. الله يهديه .. وأزرق أراه نهار الجمعة إذا لم يذهب الورشة يصلي الجمعة فقط

قال نعمان: أنت لا تعرف سبب ترك الأولاد الصلاة عندما يسافرون؟ السبب يا سيدي البنات والحب والجنس ..الزنا عندهم بدون فلوس ، بدون ارتباط ، بدون تكاليف وفتح بيت وأطفال .. المعاشرة عندهم كإبرة بيولوجية إبرة بنسلين.. وكل واحد في دار أهله ، ولما تكبر الأنثى ترتبط بشخص لتلد واحدا أو اثنين على الأكثر ..سيتعلم الشاب ويحصل على شهادة ويتعلم السهر والجماع بدون ارتباط .. ولماذا كلما جامع امرأته يقوم يغتسل من الجنابة؟ لا جنابة عندهم ..لا يؤمنون بآخرة وحساب وجنة ونار

- ولهذا السبب خمنت أنه لا يرغب بالزواج .. ولماذا الارتباط بأنثى للابد ؟ .. فعلا مثل الحيوانات .. وهل بنات البلد كهؤلاء يا شيخ نعمان؟

- بالتأكيد لا ؛ لكن لا تخلو البلد من الفاجرات الساقطات الخائنات

قال سلمان: أكد لي رغبتهم

- لابد من ذلك قبل التورط مع بنات الناس



أتت شركة تركيب التلفونات إلى بيت حلمي وركبت الخط السلكي ، ووعدوه بتوصيل الحرارة إليه ، إما مساء اليوم أو نهار الغد ، وكان حلمي قد اشترى جهاز الهاتف عندما قدم

طلب اشتراك للمؤسسة المسؤولة عن تمديد الشبكات ، ودفع الإكرامية للعاملين ، وقال له أحدهم : عندما أصل المكتب أبلغهم عن تمديد الخط لبيتكم

شكرهم حلمي ، وقال لزوجته ـ التي كانت تلملم كاسات العصير ـ بعدما أغلق الباب خلفهم: غداً ستصل الحرارة للخط أو سأتصل العصر مع أحد المعارف يعمل في الاتصالات .. سأنزل لشراء بعض الفواكه ، وأتصل به من المكتبة أو من دكان أبي صالح .. ففيها تلفون بسقاطة .. هل كتبتم قائمة مشتريات اليوم؟

- إنها في مكتبك ومكتبتك

ومشى إلى الغرفة التي جعلها مكتبة ومكتب ، فوجد الورقة عليها أسماء أشياء ، فألقى نظرة عليها ، ورجع لأم أسمر فقالت : قد تحضر أختي وزوجها الليلة للسهر معنا .. وفوزية تحب البندق احذر من نسيانه

قال باسما : أعرف ، وقرأته في الورقة حتى تسمن أكثر .. بالك هل تدخل من هذا الباب ؟ ـ مشيرا لباب الشقة ـ كان بابنا في المخيم أوسع من هذا بقليل

- تدخل حرفا .. المشكلة صعود الدرج ، قد تستغرق ساعة وهي تصعد

- ينتهي وقت الزيارة قبل أن تصعد

- عندنا وسع .. الدار تسع بلد

- الحمد لله.. هذا من فضل ربنا

قالت : على كل حال زوجها راض بها

- أنا خائف عليها من الموت !يعني من السمنة والبدانة

ضحكت أم أسمر ، وقالت : الموت هو يعرف من هو نحيف ؟ ومن هو سمين ؟ ومن هو غني ؟ ومن هو فقير ؟ الأعمار بيد الواحد الأحد

- نعم ، الأعمار بيد الله ؛ لكن مراعاة الصحة والبدن مطلوبان يا بهيجة

- لا تنسى أنها ولدت لأبي فوزي عشرة بطون

قال معجبا بعديله : أبو فوزي فحل من الفحول .. من أختك عشرة ، ومن ضرتها ستة ، جيش عنده !

- الأولاد زينة الدنيا .. واليوم جلهم متزوج ، وأكثرهم متعلم .. وله ولدان في القوات العسكرية

- وله بنت في الطب العسكري أبو فوزي عديل وعز الأصدقاء .. لو يقبل يناسبنا في إحدى بناته

قالت بهيجة: بنات أختي كلهن تزوجن يا حلمي .. وبنات الضرة بعدهنّ في المدارس وإخوتهن يحبون تعليمهن مثل باقي البنات ..

ويعملن في الحكومة كما فعلوا مع بنات أختي

- أبو فوزي التعليم عنده سلاح للبنت قبل الرجل .. والكبير يعلم الأصغر منه .. وهكذا تعلم الجميع

- يكفي أنه خلفهم وكبرهم

- المهم أختك أم فوزي لازم تهتم بصحتها ، وتخفف من وزنها ، وكلما كانت تمر على العيادة إلا نصحتها بتخفيف الوزن .. فأمراض الضغط منتشرة ، وإذا صحبته السمنة قد يفتك بالبدن

ضحكت بهيجة وقالت : لما أقول لها هذا الكلام ستقول ماذا أفعل؟ هل ألبس بنطالا قصيرا وأجري في الشوارع مثل هؤلاء الأجانب الذين نصدفهم يركضون عراة ، ويتسكعون في شوارعنا .

- هكذا لبس هؤلاء الملاعين حتى أثناء الشغل والعمل يلبسون الثوب القصير الذكر والأنثى.. أخذنا الكلام ألا تريدين إضافة أي شيء للقائمة ؟ .. أين فايزة؟

- ذهبت إلى المخيم

- وماذا بقي لنا في المخيم؟!

- لا شيء ، ذهبت تقيس قطعة قماش تركتها عند الخياطة جميلة ، فاليوم موعد القياس

- من اليوم فصاعدا عليها أن تخيط فساتينها وثيابها عند خياطات "أبو خروف"

- وهل المخيم بعيد ؟ ألست تذهب كل اثنين لزيارة رفاقك ؟

- بلى، أنا رجل يا بهيجة .. قطع الشارع للمخيم مرعب وأذهب بسيارة

- ربك الستير .. على البلدية إقامة جسر مشاة .. طالبوا

- وعدوا الناس بذلك ؛ لكن متى ؟ الله أعلم .. اطلبي منها أن تخفف رجلها عن المخيم

- هي أربع مرات تذهب في الأسبوع

- يعني كل الأسبوع يا بهيجة .. مرة عند عمتي ، مرة عند بنت عمتي ، مرة عند فلانة

- الله يستر على البنات

- آمين آمين



رجع حلمي من التبضع ، ووضع الأكياس على مائدة المطبخ وهو يلهث ، فأخذ نفسا عميقا ، وقال لبهيجة: كبرت فعلا يا بهيجة! كلما أصعد الدرج الهث ؛كأنني في مباراة ملاكمة ، وأشعر بالتعب

قالت باسمة لاعترافه : طبعا أنت كبرت ! أنت تفكر نفسك صغيرا يا حلمي! صور صدرك .. ولا تنس أنك منذ فارقت المخيم وأنت تصعد هذا الدرج ، لم يكن بيتنا هناك بدرج كبير ، درجة أو درجتان ثم تصبح داخل البيت .. هؤلاء يزدن عن عشر درجات .. إنهن يتعبن الحيل

فقال بعدما التقط أنفاسه : آ ، فوزية قد نضطر لحملها .. كيف ستصعد بالشحم واللحم الذي تحمله كل هذه الدرجات ؟ كان علينا السكن في الطابق السفلي

- خلاص لما يرحل أبو باسل ننزل لتحت ، ويبقى الشباب هنا فوق

قال مستثقلا الأمر : ونعود لفك وتركيب الخزانات والأسرة

فأجابت : إذن بطل التذمر والشكوى من الصعود والنزول

- تكلمت مع صاحبي في شركة الاتصالات ، ووعد أن تصل الحرارة خلال هذا النهار .. أحضرت الغداء؟

- ألا تريد الأكل مع البنات ؟!

فصاح: أنا لا أدري ماذا تفعل البنت في المخيم حتى هذه الساعة؟!

- أكيد ذهبت لبيت عمتها بعد مرورها على الخياطة جميلة غير معقول يا حلمي أن تصل المخيم ولا تسلم عليهم .. اجلس سأضع لك الغداء ، وأنا انتظر البنات وأتغذى معهن

- سمعت عبير تخبر أنها ستتأخر اليوم ستذهب لزيارة صديقة جامعة مريضة ، طلبت بعض المال

قالت بهيجة : جميل ! إذن كل وحدك ، ولما يحضرن يأكلن .. إني أسمع خطوات على الدرج كأن فايزة عادت .. أكيد فايزة .. إنها وصلت الباب

فتحت فايزة ودخلت وألقت السلام ، وقالت: عسى صار عندنا تلفون . ولم تنتظر الجواب ، فمشت نحو المنضدة الموضوع عليها جهاز الهاتف ، فرفعت السماعة وبعد لحظات همست بفرح : يا سلام! أخيرا صار عندنا تلفون .. كنا مزهقين البقال أبي موسى

فقالت أمها: أفيه حرارة ؟ وهل كنا نتكلم ببلاش صدقة كنا نحكي بمصاري ؟!

أجابت فايزة عن السؤال الأول : نعم ، فيه حرارة

التفتت إلى وجه زوجها وقالت : مبارك يا سيد حلمي علينا التلفون .. ها هي الحرارة دبت ووصلت

قال حلمي: كيف المخيم يا فايزة؟!

- ممتاز ! عشرة عمر يا أبي .. ولدت فيه وكبرت فيه .. ليس من السهل نسيانه ونزعه من القلب

ضحك حلمي وقال: أنت مثلنا تحبين المخيم بعكس الأولاد .. ما أخبار الجيران؟

- كلهم يهدونك السلام ويرسلون لك التحايا ، ومررت على عمتي ، وتسلم عليك ، وعلى أمي والشباب .. ويدعونكم للغداء معهم يوم الجمعة

قالت أمها: ولماذا؟

- لست أدري ؛ ولكن سمعت رائحة زواج

- زواج من؟

- ابنتها نبيلة

- نبيلة الصغيرة!

قال حلمي: صغيرة إيش! عمرها خمسة عشر عاما .. وماذا سمعت أيضاً؟

- سمعت ذلك ؛ لأنه تحدثوا به أمامي ، والعريس من هنا من "أبو خروف"

قال تعجبا: "أبو خروف" ! وكيف التقى نبيلة ؟!

- لم يلتق نبيلة ، ولم يرها .. خالته من سكان المخيم ، وأمه تبحث عن صبية صغيرة وحلوة .. فحتى العريس من كلامهم يبدو أنه صغير السن

ولا يدرس، يعمل نجارا مع والده ، وهم من سكان "أبو خروف"

قالت الأم بحسرة : لم نعرف سكان "أبو خروف" بعد .. كنت أعرف أغلب نسوان المخيم من أوله إلى آخره .. على كل سنذهب يا حلمي .. متى؟

- الغداء يوم الجمعة ، أما الزواج متى فلست أدري؟! يمكن لأبي أن يتصل بالبقال أبي موسى ويتحدث مع عمتي أو أولادها يخبرهم برقم التلفون .. فراس في البيت

- التلفون الآن شغال والرقم يحفظه أبوك

ترك الطعام وقال وهو يغسل يديه وفمه : سنجرب هاتفنا مع البقال حصوة

اقترب من الهاتف ورفعه وهو يقول: أوه ! فعلا وصلت الحرارة .. أين دفتر الأرقام ؟ ولكني أحفظ رقم حصوة .. كان هو عنواني ، وبينما هو يفكر ويتذكر الرقم رن الهاتف فقال: الله ! من يعرف الرقم ؟!

رفع السماعة وقال : نعم ، آ .. الشركة نعم ، وصلت الحرارة .. هات ورقة يا فايزة .

كتب رقم الهاتف ، وشكر الرجل ، وضرب رقم حصوة : آ يا معلم حصوة ! أبو أسمر معك .. اكتب هذا رقم تلفوننا .. نعم أعطيه لكل من أحب أن يتصل بنا .. أنت أول شخص افتتح الاتصال به .. أعط الرقم لأم فراس شقيقتي .. دع فراس يتحدث معي ، بعد دقائق سأتصل شكرًا لك يا معلم حصوة

خرج حلمي عند الغروب جهة الجامع فقالت فايزة لأمها : لدي موضوع يا أمي أحب أن أتكلم فيه قبل مجيء أبي

هزت الأم رأسها بالموافقة على الاستماع ، فقالت فايزة: هناك رجل راغب بالزواج مني أخو جميلة الخياطة

- الذي ترمل من شهور ؟!

- ترمل من شهرين فقط .. قبل رحيلنا بأسبوعين .. تقول جميلة إنه يريد الزواج ، ولا بأس من الزواج مني .. وهو يعلم أنني لا أخلف .. وهو بحاجة لزوجة ترعى أولاده الأربعة

بعد صمت فايزة قالت أمها : أنت لا مانع لديك من الزواج منه

قالت بحياء : الزواج سنة الله ورسوله

قالت أمها بصراحة : أنت ستعشين خادمة لهم يا فايزة لست أما

- وماذا أفعل وأنا لا أنجب ؟! قضيت عند زوجي ثلاث سنوات ، وقد تزوج وخلف طفلا .. والرجل كما تقول جميله لا يهمه الخلفة

- قصدك ستعشين خادمة لهم ، أنت على علم بهذا مهما تغيرت الأسماء والجمل

- أكسب فيهم أجرا .. ويكون لي بيت وزوج ، ولا أحد يدوم للآخر ..

والصغير عمره ثلاث سنوات ليس بحاجة كبيرة لي " وظل راجل أحسن من ظل حيط " .. والأعمار بيد الله سبحانه .. زوج خير من لا زوج .. أنا من ناحيتي قلت لجميلة لا مانع لديّ .. فالزواج شرعة الله .. ونحن نعرف جميلة وأهلها وإخوتها منذ سكنّا في المخيم ..وأنا من رأيي

أن تقنعي أبي .. وأنا أرى نصيبي وحظي في الدنيا .. حتى أن جميلة لتقنعني تقول إن شقيقها سعيد سيسعى لمعالجتي من العقم ؛ لعل الله يهبنا طفلا تقر الأعين به

قالت الأم : أنا يسرني ويسعدني زواجك ، بس سعيد شقيق جميلة ـ وأنت تعرفين ما أقول ـ كان يضرب زوجته ضربا مبرحا كل الجيران يفزعون إليهم ..هو عصبي وامرأته ماتت مغلولة منه ..وماتت كما يهمس الناس من ضربه وعصبيته وغضبه

– أعرف هذا ، وأكثر الناس كانت تضع الحق على امرأته ، هي التي كانت تعصبه وتنفرزه .. ونفسها كانت عصبية .. وأحسب نفسي أني أهدى وأصبر منها ، أم تريدين أن أبقى خادمة لنساء أولادك

قالت الأم : أولادي يا فايزة لم يتزوجوا بعد ، وكل واحد سيكون له بيت وحده ، وأنت لك أحد هذه البيوت .. وأنا أسعد بزواجك ، نحن تركنا المخيم ، ستكونين وحدك مع عائلة أبي سعيد ، وأخشى أن لا تطقين الحياة معهم

– بيتنا في المخيم موجود ، والحياة تجارب

– تجارب ، والسعيد من اتعظ بغيره إذا كان عندك استعداد حقيقي لتحمل أبي سعيد وأم سعيد وسعيد وأولاد سعيد سأضغط على أبيك وإخوتك وأشجعهم لهذا النكاح .. أمستعدة للتحمل والصبر والرضا؟!

قالت: فلن يتذكرني إلا إنسان مطلق أو أرمل أو من يريد التعدد .. والأهم في أمر سعيد أنه يعلم أن زواجي فشل لعدم القدرة على الإنجاب .. هل سيتزوجني السلطان يا أمي؟! لن يفعل ، ولست ملكة جمال العالم ، لابد من المغامرة

– حسنا يا فايزة سنغامر معك هذه المغامرة .. أرجو أن لا أراك بعد يوم أو أسبوع على الأكثر عائدة للبيت تبكين .. تسرعت يا أمي كان عليّ أن لا أقبل بسعيد وأهله

– كوني معي يا أمي .. أتحبين أن أبقى معك هنا ؟

– لا ، أنا أحب لك الزواج والستر ؛ ولكن من آخر أحسن من سعيد ابن مخيمنا ..جميلة سيدة

فاضلة وزوجها محترم ، أما سعيد فكانت مشاكله ومشاجراته ومعاركه معروفة للقاصي والداني .. كان يضربها في الشارع أمام البيت وأمام الناس زاعما لنا أنها ساعة غضب وزعل .. في الليل يضربها ويزعجون أهل الشارع والنائمين .. غداً ـ إن شاء الله ـ تعطيني قرارك النهائي وإذا وافقت على الاقتران بالأستاذ سعيد والحياة مع سعيد كزوجة وأم لأولاده سأفاتح أباك وإخوتك ، ولسوف أجبرهم على القبول من أجل خاطرك

ـ جيد سيكون الجواب غداً ..سأحسم الأمر وأتوكل على ربي وسأستخير ربي .. وسيلهمني حسن الاختيار .. حتى جميلة أخبرتني أن سعيدا الذي أعرفه تغير ، وذلك بعد موت زوجته وأصبح يرتاد المساجد

ـ حر الصدمة .. الله يهديه ويتوب عليه .. غداً نحسم الأمر



لبس حلمي بذلة جديدة ، وكان ينتظر صالح كمال السائق على خط "أبو خروف" النجمة وسط المدينة ـ حيث مجمع كبير للخطوط الناقلة للركاب إلى أحياء العاصمة ـ وهو يعرف صالحا قبل رحليه للمخيم ، وكان قد قابله في المقهى وربط موعدا بينهم ، وكانت زوجة صالح من بنات المخيم ، فلما سمع نفير السيارة أمام البيت قال وهو ينهض : جاء السائق يا بهيجة هيا هيا يا فايزة

– أنا جاهزة .. فايزة ستبقى في انتظار عبير قد تعود من الجامعة

لم يعلق حلمي وخرج هابطا الدرج حتى وصل بوابة البناية الرئيسة وفتح الباب ، وخرج منه ؛ فإذا هو على الرصيف وصالح يقف أمام سيارته يمسح زجاجها الأمامي ، فحياه ودخل الكرسي المجاور للسائق [الشفير] ، ولما جلست أم أسمر جلس صالح في مقعده ، فسمع أبا أسمر يهتف : كيف حالك يا صالح؟ أنت لك عنوان يتصل بك عند الحاجة

– لا يوجد لدي هاتف خاص ، استريح مرات عند مقهى مهران لشرب كوب من الشاي فاترك لي خبرا عنده ، ونحن ـ وأنت سيد العارفين ـ لا يسمح لنا بتغيير الخط ؛ لكننا نخالف النظام تارة وتارة في طلب خاص ، والشرطة تعتبره ظرفا خاصا ، فاترك الموعد عند مهران أو أبي سعود المعلم الكبير بعد مهران ، فلما يرني سيتذكر الموعد ، فهو فطن وذو ذاكرة قوية ولا ينسى .. أنا عنواني المقهى .. نحن بعد نقل الناس إلى وظائفهم وأعمالهم يخف عملنا حتى موعد مغادرة الموظفين فينشط الشغل إلى ما بعد العصر بقليل .. ففي بعض الأوقات نتمكن من الخروج عن الخط .. وأنا سأعطيك رقم واسم سائق يعمل في مكتب جمعة لسيارات الأجرة الصفراء تجده عندك كلما تطلبه .. فهؤلاء كما تعلم لديهم حرية التنقل بين الأحياء دون مخالفة للنظام

كان هذا الكلام والسيارة منطلقة للمخيم ، فبعض الناس يذهبون إليه مشيا على الأقدام كما تفعل فايزة ، ولكن كبار السن يحتاجون لجهد للوصول إليه ، ربع ساعة مشيا يكون الإنسان

على أطراف المخيم ، ولكن بيت شقيقة حلمي في وسط المخيم ، والرجل ذاهب لمناسبة اجتماعية سيأتي وجهاء لخطبة ابنة أخته ، فيحتاج لبعض الرسميات ، وتستغرق السيارة بسبب الشوارع واللف والدوران لعشر دقائق حتى تصل الهدف ، وبعد مضي تلك الدقائق كانا في المخيم ينزلان عند بيت شقيقته مريم ، ولما تركا السيارة نزلا درجا ، ثم مشيا في شارع حتى وقفا أمام بيت أبي راجي زوج أخته مريم ، واستقبلتهم أخته وزوجها ورحبوا بهم ، وأخذه أبو راجي لغرفة الضيوف

ورحب به الموجودون وشكروه على تلبية الدعوة ، وقال أبو راجي : بعد صلاة العصر سيأتي القوم ، وبعد الاتفاق سيكون الفرح ، وسيأتي الغداء بعد قليل من أحد المطاعم

وجلست بهيجة مع النساء ، وكان سعيد الأرمل بين الضيوف ، مما أدهش وجوده حلمي فسأل نفسه : ما علاقة سعيد وأبي سعيد بدار أخته بمثل هذه المناسبة ، هم جيران تفصل بينهم بضعة شوارع ، وتذكر أنهم من بلدة واحدة من قرى فلسطين ، فصافحهما ورحب بهما ، وبعد حين يسير قال سلمان أبو راجي: يا حلمي ابن عمي أبو سعيد يرغب بالحديث معك في موضوع خاص

التفت حلمي لعيني أبي سعيد وقال : تركنا العيادة يا أبا سعيد

- لا ، ليس الموضوع طبيا .. تفضل أبا سعيد بالجلوس قرب أبي أسمر

انتقل الرجل إلى كرسي فارغ بجانب حلمي وحياه من جديد ، وصارحه برغبة سعيد الزواج من ابنته المطلقة ، وشرح له الوضع ، وأنه بحاجة لزوجة ترعاه وترعى أطفاله ، فأم سعيد حرمة كبيرة ودهمتها الأسقام ، وليس لديه رغبة بالمزيد من الأطفال ؛ لذلك وقع الاختيار على فايزة حلمي ، وهي معروفة لهم ، وهم معروفون لهم ، وعدد محاسنه ومحاسن ابنه سعيد .. وحلمي صامت ، وترى في الحجرة الدخان يملأ جو الغرفة ، وكان حلمي يسمع ويقول لنفسه : بهيجة أكيد تعلم بهذا الفِلم

ولما سكت أبو سعيد منتظرا رد حلمي ، قال حلمي: أنا فعلا أعرفكم خير المعرفة .. شارع

بيننا في المخيم .. ولا أسرار في بيوت المخيم .. وأعرف أن ابنك سعيدا كان سريع الغضب ويضرب امرأته دون حياء من الناس.. وهو المربي لأطفال المخيم .. وأنه هو الذي قصف عمرها عمر زوجته

احتج أبو سعيد وقال: يا حلمي عيسى كانت سيئة .. وتتطاول عليه دون حياء ..لا تنكر ذلك أنت والإخوان .. كأن لا أحد درس في الدنيا إلا هي .. كل الشباب تعلم ورحل .. وسعيد مدرس في الوكالة كما تعلم .. لولا سوء خلق امرأته ما ضربها .. ونحن نطلب يد ابنتكم بحكم الجيرة والصداقة التي بين جميلة وفايزة فإنهن كالأخوات .. وجميلة هي التي اقترحت ذلك ..ولا تنسى أن ابنتك لا تنجب .. وسعيد يريد واحدة لها هذه الصفة .. فهذه فرصة يا حلمي للبنت أن تعيش كزوجة معززة مكرمة

قال حلمي باستسلام : هذا هو السبب الذي قد يدفعني للقبول يا سلمان .. الأستاذ سعيد على الرأس والعين ـ ووضع كفه على رأسه ـ على أن يتعهد أمام هذه الوجوه أن لا يضربها ويؤذيها ، وإذا دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف ـ كما يريد الله سبحانه ـ وإذا أساءت إليه فأنا وأنت نحل الإشكال

- أنا أتعهد لك بذلك يا حلمي نيابة عني وعن ابني سعيد

- لماذا تريدون ابنتي يا أبا سعيد وأنتم تعلمون أنها لا تلد ؟!

تنهد أبو سعيد وقال : أنت رجل غانم ..وسعيد عنده أربعة أطفال ، أكبرهم ابن عشر سنوات ..فهم بحاجة لأم وليس زوجة أب ، وهو لا يرغب بالمزيد من الخلفة .. يفكر بدراسة الماجستير والدكتوراه .. فهو من غير جيلنا جيل الهجرة .. وجميلة تحب فايزة جدا ، وكانت ترغب قديما بطلب يدها لأحد الأولاد ؛ ولكن سبقنا إليها .. وجميلة أخبرت فايزة بهذا الرغبة .. والبنت تركت الأمر للوالدين .. وأنا تكلمت مع أبي راجي صهرك وقريبي ..فذكر لي هذا اللقاء الطيب ـ إن شاء الله ـ فقلت أخاطبك مباشرة ، ونجعل الفرحة فرحتين .. ومسألة الضرب لن تراها من سعيد

- على كل حال نحن جيران وأهل ومعارف يا أبا سعيد .. وما دام أنك تعهدت لي أمام هذه الوجوه أن لا تضرب البنت على الحامية ولا الباردة .. ولا يضربها كلما يعصب ويغضب فسأشاور الجميع ليكونوا على علم

- بارك الله فيك يا حلمي ..لا تتأخر في المشورة .. فأم سعيد تعبانة من أولاد سعيد ..وأنت خير من يعرف أمراض الكبر فعندها السكري والضغط والمفاصل

قال سلمان: أنت عليك أن تتزوج يا حاج عبد القادر

- آه! لو تسمعك الحاجة أم سعيد .. لو كانت على فراش الموت لن تسمح لي .. مرة سعيد قبل سنوات ذكر لها ذلك .. فجن جنونها، وكادت تطرده من المخيم، ويبيع بيته .. ما زالت تظن نفسها ابنة اربع عشرة سنة .. أم سعيد لا تؤمن بالتعدد مع أن والدها تزوج أربع ، ماتت اثنتان منهن قبل النكبة ، ولم ينجب منهما إلا ولدا ومات عند الولادة ..وولدت الاثنتان الأخريتان خمس بنات وولد ، مات بعد الهجرة بسنة

دعا حلمي بالرحمة : رحم الله أموات المسلمين .. تعال يا سعيد قرب مني

كان سعيد مصغيا لهم وسمع كل الكلام ، عندما يتكلم الكبار يلزم الأصغر سنا الصمت حتى لو احتد بينهم النقاش ؛ لأنهم يثورون ويتفوهون بما في قلوبهم ، ثم يعود الود إليهم وبينهم ، فاقترب سعيد منهما ، فقال له حلمي: أترغب بمصاهرة عمك حلمي ممرض المخيم أكثر من عشرين سنة ؟ ربما قدر لي أن أدخل الكثير من بيوت المخيم لضرب ابر البنسلين وغيرها للمرضى .. وأذكر أني فعلتها معك وأنت صبي صغير ، أنت موظف ، وأنا كنت مثلك .. أبوك كما سمعت تعهد لي بأن لا تضرب فايزة البتة إذا صار نصيب بينكم ، كما كنت تفعل مع الأستاذة أم عبد القادر .. أمام هؤلاء إن لم ترتاح للبنت تعال عليّ أنا ونحل المشكلة ولو بالطلاق دون أن تدفع شيئا .. إذا شكتك لو مرة واحدة أنك مددت عليها يدك بالضرب واللطم ـ وأتمنى أن لا يحدث ذلك ـ فسيكون لقاؤنا على باب المحكمة الشرعية .. وأنا سأوصي ابنتي بالصبر والتحمل إذا قبلت بك ، ولا أظن أنها ترفض ما دامت جميلة في

الموضوع ، وهي المحرومة من الذرية .. فهي فرصة لتعيش كأم وتربي معك الأطفال ، مع أنهم كما نرى في واقعنا سيكرهونها ، ربما لأن أمهم ميتة سيتقبلونها ، فكن يا سعيد رجلا رجلا بمعنى كلمة الرجولة ، ليس الذكورة فحسب ، ومحترما لعمك الكبير حلمي عيسى جارك القديم ، ولا تنسى يا ولدي أنك مربي أجيال

قال سعيد بصوت مبحوح أو كأنه مخنوق : بليت بأم عبد القادر يا عم حلمي ..كانت سيئة الخلق .. كانت كثيرة التباهي بشهادتها وإخوتها ؛ كأن لا أحد تعلم في المخيمات إلا أسرتها وهي كانت تغضبني بكثرة .. وأنا أرجو أن أكون عند حسن ظنك بي ، ولا تسمع عني إلا كل خير .. وسأهتم بمعالجتها من العقم ؛ لعل الله يحدث أمرا .. وتقوى الصلة بيننا بوجود الذرية وأمي تحب فايزة ، وخياطة المخيم أم محمد تحبها وتعزها ، وهي التي شجعتني على الارتباط بها

– الليلة بعد انتهاء جاهة نبيلة بنت أختي سأتحدث مع فايزة وأمها والأخوة ، ولا أحد يرفض بعد موافقتي .. اتفقنا على عدم مد يدك إليها ..وستقوم البنت بواجبها نحوك ، ونحو أولادك على قدر طاقتها .. وتذكر يا ولدي أنك أستاذ علمت وتعلم .. ويسرني أن أراك كبيرا في الدنيا والآخرة

قال سعيد شاكرا : أنا أعدك أمام هذه الوجوه وأبي بأن أكون الزوج

الصالح الطيب المسالم .. ووصها عندما تراني غاضبا ومتضايقا أن تتركني وتبعد عني ، ولا ترد عليّ بجواب .. ولن يحدث إلا كل خير

قال حلمي: توكل على الله .. نحن جئنا لخطبة بنت أبي راجي فنكاد تخطيب ابنتنا ..وخطب ابنتنا يحتاج ليومين أو ثلاثة ، سأنقل لكم بنفسي موافقة فايزة والأسرة ـ إن شاء الله تعالى ـ فلقد ركبت تلفونا في الشقة يوم أمس

قال أبو سعيد: نقل النمرة لسعيد

قال سعيد: خذ تلفون المدرسة ؛ وربما ما زلت تذكره من عملك في العيادة فيمكنك الاتصال بي على رقم المدرسة .. البيت بدون زوجة ضيق يا عم حلمي

- عندي الكثير من الأرقام

قال أبو سعيد: بارك الله فيك يا سيد حلمي عيسى أنت أصيل !



عاد حلمي من المخيم في سيارة شقيقه الذي تقاعد من التعليم وأنشأ شركة كبرت خلال سنوات ، وتركه مروان وزوجته أمام بيته ، واعتذر لهما عن الدخول قائلا: أنا من رأيي يا حلمي أن تزوج البنت .. فهذه فرصة ، ولابد من غض الطرف عن بعض الأخطاء ، وأهل المخيم أنت تعرفهم أكثر مني

كان مروان أكبر من حلمي بثلاث سنين ، واشتغل مدرسا مع حكومة الانتداب على فلسطين وبعد النكبة عمل مع الأونروا ، ثم تركها واشتغل بالتجارة ، وأصبح له عدة شركات يديرها وأحب "أبو خروف" وبنى فيه ، وشقيقه الأصغر منه يعيش أيضاً في "أبو خروف"

دخل حلمي البيت تتبعه أم أسمر ، وفتحت لهم فايزة التي ما كادت تراهم حتى احمر وجهها ، وجلس في الصالة وطلب كأس ماء ، وقال لبهيجة: سمعت كلامي لمروان

شرب الماء ، وطلب كوبا من الشاي الثقيل ، فهو عندما يشعر أو يصاب بصداع يطلب شايا ثقيلا ، فقالت بهيجة وقد شربت الماء هي الأخرى: أبو سعيد استغل زيارتنا وحدثك بالموضوع .. أم سعيد كأنها تعهدت بالصمت ، لم تتكلم بشيء.. استطاعت أن تصبر .. المهم أنت ما رأيك ؟

- أنا كنت أرى أنك تعرفين!

- أصدقك الحديث ؟

- نعم

- تعالي يا فايزة

جاءت فايزة بالشاي ، وسمع كلام بهيجة ، وقص عليهم مناقشته مع أبي سعيد بكل ما يذكره ومع سعيد ، وختم الحديث والمصارحة قائلا: أنا لا مانع عندي يا فايزة .. ونحن جيران من يوم بني ا المخيم ، ومن قبل أن تولدوا ..وأنت تعرفين سعيدا ومشاكله مع زوجته، وهو يزعم كما زعم قديما أنها هي السبب .. وأنا لولا ظروفك الخاصة ما قبلته لك .. أنا لا أحب ضرب النساء ، ولا احبه لبناتي ؛ لكنك امرأة مطلقة وعاقر .. فالزواج سترة وعفة وديانة ..وهل فكرت كما اتفقت مع أمك ؟ أنا متأكد أنها فرصة طيبة أن تقومي بحياة الأم الدور الحقيقي للنساء .. وهذا قدر الله

فاعترفت فايزة أن جميلة شجعتها على هذا الارتباط ، وقالت ذلك لأمها مساء أمس

فقال حلمي: إذا كانت لديك القدرة على الصبر والحياة مع الأستاذ سعيد وأولاده فعلى بركة الله .. هذه حياتك أنت .. لا أحد يبقى لأحد .. وابنه الكبير ابن عشر سنوات سينظر إليك نظرة عدائية ، وأنك أخذت مكان أمه .. فأنا خبرت الناس ومشاكلهم إن عمل العيادة جعلني أسمع هذا وأسمع ذاك .. فكري بشكل جدي .. وأنا حذرتهم من ضربك ، ومد يده عليك ؛ لكن العادة غلابة ، وإن فعل ذلك سيكون اللقاء على باب المحكمة الشرعية.. وأنت تسمعين ما أقول.. والمثل يقول " من شب على شيء شاب عليه".. لكنه ذكر نصيحة طيبة وهي عندما ترينه في حالة غضب وعصبية الزمي الصمت .. لا تردي عليه ولو شتم أمك وأباك ..ودعيه والزمي حجرة أخرى حتى يهدأ الحنق والضيق .. أتستطيعين الصمت ؟! النساء من طبعهنّ الرد والنكد .. لو كنت ألاحق أمك بمطالبها وشكواها لافترقنا من أول سنة زواج .. الزواج طاقة وتحمل .. وصبر ومودة وسكينة

قالت بهيجة: فايزة موافقة يا حلمي .. لما صارحتني بالموضوع عصر أمس أمهلتها لليوم ؛ وانشغلنا بمشوار المخيم .. وها هو عاد علينا بفائدتين خطبة نبيلة والكلام على فايزة .. وأنا لم

أحدثك ليلة أمس أحببت أن تأخذ فرصة في مشاورة نفسها .. وهي الآن سمعت وصاياك وكلامك المفيد ..وعلينا أن نقبل ، فهي لا أظن أنه سيتقدم لها شاب لم يتزوج من قبل ، وقدرها عدم الإنجاب ، والرجل لا يرغب في الإنجاب ، فلن يعيرها بذلك ؛ بل وعد أخته بمعالجتها ؛ لأن الطب النسائي يتقدم يوميا ، وهاهم كرروا الكلام هذا أمامك

قال الرجل : آ يا فايزة أعتبر كلام أمك نهائي .. فكرت ليلة أمس بالمخاطرة التي أنت مقدمين عليها .. لولا معرفتنا بعصبية سعيد لقلنا له في نفس الجلسة مبارك .. فهم ينتظرون تلفونا مني حتى على المدرسة .. الزواج الثاني ليس لهوا ولعبا الفشل يعني قطع الأمل بزواج ثالث

قالت فايزة: أنا منذ تكلمت معي جميلة بالزواج من شقيقها سعيد .. وأنا مشغولة الذهن وأعرف كثرة مشاكلهم الأب والأم والابن

– لكنهم طيبون ويتصالحون بسرعة .. هكذا بعض الناس .. لديهم عنف ينفسون عنه بالصراخ والشجار ، ثم يعود الهدوء كأن لم يكن شيء بينهم .. وأنت ابنتنا وغالية علينا ومن حقك أن يكون لك بيت وزوج .. وأنت تحبين المخيم ليس كإخوتك ترينه جحيما كأسمر وعمتك وبعض أولادها بجوارك .. على كل حال فكري وقبل أن تنامي قولي القول النهائي والزواج قسمة ونصيب .. والصبر مفتاح الفرج .. وسنسمع قول إخوتك بعد العشاء .. وعبير لم تعد من الجامعة بعد

– عادت ؛ ولكنها نائمة عندها صداع شديد وربما إنفلونزا

– عندما يدخل الشتاء تكثر هذه الأمراض ـ شفاها الله ـ الإنفلونزا والرشح واللوز .. هذا موسم هذه الأوجاع .. سلامتها اطمأني عليها يا بهيجة ..اذا تلزمها إبرة أذهب وأشتريها لها .. أكلتم ؟

– أنا أكلت .. وهي رفضت الأكل .. شربتها ليمونادة، ثم كوبا من

الشاي ، ودخلت الفراش

– العشاء نجتمع ونسمع رأيك الخطير يا فايزة .. وإذا فكرت ورأيت أن الزواج غير مناسب

فالبيت بيتك ، لا نقبل لك الضيم .. الحياة الكريمة لابد منها .. ولا تعني الحياة الكريمة أن تخلو من المشاكل والنكد ؛ وإنما أمور طارئة وسريعة الزوال .. على المرء المزاوجة بين الحياة الزوجية والحياة في بيت الوالدين .. وضعي ثقتك بالله

- إني أستخير منذ أمس



اجتمعت العائلة على العشاء، ولما تناولوا طعامهم ، واستراحوا يشاهدون التلفزيون ويشربون الشاي ويأكلون الفواكه ، طرح حلمي على الشباب مشروع زواج فايزة من سعيد جارهم الأرمل قبل انتقالهم إلى "أبو خروف" ، وكانوا يسمعون وهم ينقلون أبصارهم فيما بينهم حتى صمت الأب ، فقالت عبير وهي تحدق بفايزة : هذا الموضوع يتحرك سريعا يا فايزة!

ردت فايزة بسرعة : كان أبي اليوم في المخيم لحضور جاهة نبيلة بنت عمتنا ، والتقى بأبي سعيد وسعيد وتحدثوا في الموضوع

عاد حلمي يتكلم عن سبب ذهابه للمخيم ، وختم فقال: أنا شرحت لفايزة القضية ، فلا مانع لديها من معاودة الزواج ، والعودة للمخيم من جديد

فقال أسمر متهكما : وأمي موافقة ، فأنتم تعشقون المخيم كعشق الشعراء القدامى

فقال بهيجة مبينة فضائل المخيمات : المخيم ستر علينا بعد ستر الله .. أنتم لم تعيشوا أيام التشرد الأولى حيث النوم في العراء والبرد والمطر والثلج والبراغيث .. فكان المخيم جزءا مهما من حياتنا .. كان المخيم ذكرى قرانا وطفولتنا رغم قذارته .. كان من صميم حياتنا ..وفايزة لا ترى بالحياة فيه مأساة .. وكل صويحباتها متزوجات ويعشن في المخيم .. فأولاد عمتها وعمتها وبعض أبناء عمها يعيشون فيه .. وبعضهم مهندسون وموظفون كبار وصحافيون ولهم شركات وهو رمز العودة والأمل .. نحن لنا تعلق كبير وحنين لبلادنا خاصة قرى يافا حيث مسقط رأس أبيك ومسقط رأسي

فقال أسمر معقبا على حنين أمه ومشاعرها الرقيقة إلى مسقط رأسها: من الصعب اليوم العودة إلى يافا وقرى يافا .. فهم اليوم يطالبون في دولة في حدود [٦٧] فالرملة واللد وحيفا وهم .. التآمر العربي والدولي ما زال مستمرا يا أبي .. مللنا الحديث في السياسة .. وأنا في بلغراد أبوك عيسى مات ودفن هنا ، وأمك كذلك ، ووالدي أمي نحو ذلك .. فالعودة أصبحت من رابعة المستحيلات .. وها هو السادات في مصر يخرج من الصراع العربي الإسرائيلي وأصبح أمريكيا

كأنه لم يكن قبل ذلك أمريكيا .. ستنسى الناس مع الوقت وطول الزمن .. تبقى ذكريات وأشعار وأغاني أعراس .

قال حلمي: يا ولدي ما دمنا نحافظ على المخيم في كل أماكن التشرد حتى لو سكنت فيه الغربان ستبقى فلسطين والساحل الفلسطيني في قلوبنا ونورثها الأجيال .. يقولون إن بيت المقدس مكث تسعين سنة مع النصارى الصليبيين ثم عاد .. المخيم يعادل أرض الوطن المسروق .. إذا ذهب المخيم ذهب الوطن.. المهم ما رأي الشباب في زواج أختهم من سعيد عبد القادر المدرس الأرمل ؟ ولا تنسوا أن أختكم عاجزة عن الإنجاب وطلقت بسبب هذا الأمر .

قال أزرق العاشق لقلة الكلام: هذا السبب الصعب الذي يدفعنا للقبول بسعيد الشرس الذي كان يزعج نوم الشارع بمعاركه مع أم العبد .. ونحن ما صدقنا وأنتم تفارقون المخيم ؛ لكن هي حرة .. ألا تخشون أن يعيد الكرة فيها كما فعل مع نجلاء ؟ لا أنسى كثرة ضربه لي في المدرسة ؛ كأننا يهود ينتقم منا

قال حلمي: أغلب المدرسين يستخدمون الضرب والصفع واللكم في العملية التربوية ، فلو لم يضرب التنابل والمشاغبين لما تعلموا ولا سيطر على المدرسة ، ولم يحترم مدرس .. المضروبون أصبحوا مهندسين ـ وأشار لأسمر ـ وأطباء

– وأنا صرت ميكانيكيا

قال أسمر: الضرب لا يعلم شيئا ، فالدول المتقدمة في التعليم لا تستخدم هذا الأسلوب ، ولديهم أطباء وعلماء وصيادلة .. هذه حجج وتبريرات يا أبي ليستمروا في إهانة الطلبة وإذلالهم .. التيس سيبقى تيس لو جلد مائة عصا ..ولقد رأينا الكثير منهم .. فهذا أزرق كم صفع كما بهدل وغيره كثير

قال أزرق محتجا : لم تجد للتشبيه إلا أنا

تبسم أسمر وقال : ليعرف أبوك أن كلام المدرسين لتبرير الضرب والصفع كلام فارغ وواهي

الشاطر شاطر والحمار حمار .. فهؤلاء أساتذة معقدون ويخافون من التلاميذ .. فشعارهم خوّف اضرب صارع اضرب قبل أن يضربك .. وقد شاهدنا في السنوات الثانوية من الطلاب من يضرب المعلمين

قال حلمي ممتعضا : جميل جميل!! دعونا نعود لموضوع فايزة .. الجماعة يريدون ردنا على طلبهم ..وأنا حذرت أبا سعيد وسعيدا من استخدام الضرب لتأديب المرأة .. على باب المحكمة يكون الحل والجواب .. وقلت هذا لفايزة أيضاً .. فزعم كما كان يردد لنا قديما أنها هي السبب في نرفزته وغضبه وإثارته .. وأوصاني أن أوصي البنت عندما تراه ثائرا غاضبا أن تبعتد عنه وتتجنبه حتى يهدأ

قالت عبير : نحن كلنا نغضب ؛ ولكننا نملك أنفسنا ولا نؤذي .. هل لو غضب في المدرسة يضرب مديره ؟ تراه يملك غضبه

فقال أزرق متذكرا موقفا لسعيد المدرس : كاد مرة أن يفعلها يا عبير .. عندما كان المدير أحمد سوفير .. فقد آذى أحد الطلاب ونقل للعيادة ، لابد أن أبي يتذكر تلك الحادثة ، ثم أمر طبيب العيادة بتحويله للمستشفى فورا

قال حلمي: نعم ، أذكر ذاك الحادث ، وقد خرج عن نطاق المدرسة ، فقد ضرب الطالب وجاءت الصفعة على الأذن ، ووقع الولد على الأرض ، وكانت أذنه تنزف دما ، لقد جرى يومها صلح بين أسرة الأستاذ سعيد وأسرة الطالب ، ثم نقل والد الطالب ابنه إلى مدرسة الحكومة وكفر بالمخيم والمعلمين .. قصة لا تنسى .. ووصلت بين المدير أحمد وسعيد .. وتعرض أحد أخوة سعيد للضرب من أخوة الطالب .. وسعيد نفسه أيضاً كأن أحدهم حاول لطمه لكنّ سعيدا طويل فجاءت الضربة في كتفه ، ولما تعافى الصبي هدأت المعركة .. فلنعود إلى معركتنا .. أختكم لها ظروف خاصة وعمرها خمس وعشرون سنة ، ليست صغيرة ، وليس أمامها في ظروف مجتمعنا اليوم إلا الزواج من أرمل أو مطلق أو معدد

فقال أسمر : ما دامت فايزة صاحبة الشأن قابلة بسعيد مع ما تعرفه عنه .. وأنتم راضون فأنا

بالنسبة لي الأمر طبيعي .. وهذه حياتها ستعيشها بحلوها ومرها .. وأتمنى لها التوفيق .. وألف مبارك يا فايزة .. أنت أختنا ولن نتخلى عنك ، وإذا أساء إليك الرجل ، فكما قال أبي البيت موجود .. ولن نقصر معك .. فنحن أخوة وأهل .. والزواج عندكم نهاية المطاف .. ومتى سيكون هذا الزواج؟

قالت فايزة : شكرًا لك يا حضرة المهندس وعقبال عندك

هز رأسه بالشكر وقال : لا أحب الزواج .. الزواج عقدة عندي

قالت عبير مفسرة : لأنك عاشرت نساء أوروبا ، حيث لا زواج صحيح وخيانات زوجية .. بعد حين ستعود روحك إلى هنا .. وأنا أقول مبارك لك يا فايزة .. وعليك الاهتمام بكل النصائح التي سمعتيها من أبي وأمي وحتى سعيد

شكرتها ، وسمعت أزرق يهنئ قائلا : لم يبق إلا أنا .. أهنئك يا أختي العزيزة .. وأتمنى لك رحلة سعيدة مع السيد سعيد .. هو على الإجمال هادئ عندما يكون هادئا .. وهو فهمان وذكي لولا الثورة التي تجتاحه في بعض الأحيان .. وأستاذ رياضيات مادة الأذكياء .. فهو جارنا وأستاذي القديم في الوكالة.. وأرجو أن لا يظنك أم العبد .. كتب له أحد التلاميذ في صف من صفوفه على قصاصة ورقية .. يقال في الأمثال" ذيل الكلب لا يعتدل "هل هذا المثل صحيح يا أستاذ ؟ هو ذكر لنا ذلك .. وقال متحديا : لو عرّفني هذا الطالب على نفسه فليعتبر نفسه ناجحا في مادة الرياضيات الحساب والهندسة والجبر

قالت فايزة: شكرًا يا أزرق .. باب التوبة مفتوح .. والصلاح يحتاج لبعض الوقت .. والرجل من أهل الصلاة .. وقد سمعنا عن فاسدين وصاروا صالحين

قال حلمي: مبارك يا ابنتي يا فايزة .. إخوتك يحبون لك الخير والكرامة، وأيام ضرب النساء أخذت تولي .. وكل إنسان فيه الخير والشر .. فتارة هذا يقوى وتارة أخرى الآخر يقوى وأحيانا يتوازيان .. والصبر حلّال المشاكل والمصائب .. وغدا أيها الشباب إما أن أتصل بسعيد على المدرسة ليقوم باللازم وحسب العادات المتوارثة ، وإما أن أترك خبرا في بيت أختي

أم راجي .. وإن شاء الله تسير الأمور على خير ما يرام .. وتعشين معززة مكرمة ، وتنجحين في الحياة مع سعيد وأولاده .. وعرفنا الكثير من الحكايات عن بنات ربين أبناء أزواجهن .. وكانوا لهن كالأبناء من أرحامهن .. وستعودين للمخيم الذي تحبين .. ويبدو أنه لم يهن فراقه عنك وعليك .. ونحن هنا كأننا في المخيم ؛ لأن الكثير من العائلات هنا بدأت في المخيم

قالت فايزة بحياء: ربما لا نبقى في المخيم ، لقد سمعت جميلة تقول : إن سعيدا قد يغادر المخيم ، فهو ينوي شراء بيت ؛ لكنه قريب من المخيم ليبق قريبا من والديه

قال حلمي متشككا : أنا سمعت منه هذا الكلام قبل موت زوجته أم العبد ، وكان يقول ذلك عندما يتضايق من أمه وأبيه .. يهددهم بالرحيل .. وأكثر إخوته خارج المخيم .. العائلة لما تكبر لا يسع السكن .. واليوم الأثاث أخذ يزيد .. لم نكن نهتم بكنابيات غرفة الضيوف .. فرش على الأرض .. لم يكن طاولة سفرة لدينا كاليوم

قال أزرق : على كل حال سعيد زبون عندي .. لا يحب إلا أن يصلح

سيارته عندي ؛ لأنني كنت تلميذا عنده في يوم من الأيام .. وهو يدفع الأجرة دون مماطلة .. المهم أن لا أغشه في التصليح .. وهم يتمسكون ببقائه في البيت ، لأنه الكبير ، ومن أجل المدرسة القريبة

قالت الأم: عادة الكبير من المستحب أن يبقى مع الوالدين هي عادة حسنة ؛ لأنه كبير الأسرة بعد الأب .. اليوم الناس تبتعد عن هذه التقليد .. الكل يبعد وينفرد .. كان الكبير السيد في البيت ..اليوم الجد في غربة

قالت عبير: الزواج نعمة من نعم الله علينا كما نقرأ في القرآن ، نتمنى لك التوفيق يا أخت فايزة



لم تكمل فايزة الشهر الثالث في "أبو خروف" حتى كانت تعود إلى المخيم كزوجة لسعيد عبد القادر ، وهي كانت زوجة مع رجل آخر لمدة ثلاث سنوات ، وطلقت كما يعرف القارئ ؛ لأنها لم تحمل خلالها من زوجها ، فكان مصير الزواج الانفصال ، لم تعد أمه تحتمل عقمها وتأخرها في الحمل ؛ فإن للإنجاب في المخيم شأنا كبيرا ، وهو في غاية الأهمية لهؤلاء اللاجئين ، فهو من القضايا الكبرى عند تلك الأسر ، رغم أنهم لا يملكون أراضي للزراعة كما كانوا أيام البلاد ، فالتنافس بزيادة المواليد على أشده بينهم ، ربما تنشأ هذه اللهفة عند الناس عندما يتعرضون للإبادة والحروب ، فترتفع نسبة المواليد ، فالشعب الفلسطيني فقد الآلاف المؤلفة أثناء أحداث النكبة المشهورة في التاريخ المعاصر قد يصل العدد إلى خمسين ألف نسمة ، وألمانيا واليابان رغم الموت الكثير أثناء الحرب الكونية الثانية فنسبة المواليد ارتفعت قبل أن تستقر وتهبط ..وكانت نسبة الوفيات عالية على مستوى العالم قبل تقدم طب الأسرة والتطعيم ، ويكون التطعيم من الأيام الأولى للولادة ضد الأمراض الكاسحة .. فكانت الحصبة لما تمر ببلدة كالعاصفة تفتك في الأطفال .. ولله في خلقه شؤون

ولما انتهى السيد حلمي من تزويج فايزة المفاجئ والسريع فكان يتلهف

لتزويج الذكرين ، تقاعد الرجل المستأجر أبو باسل ، وطفق يعمل بإجراءات التقاعد بإبراء الذمة من دوائر الحكومة ؛ ليرحل إلى بيته في الريف ، حيث أهله وأقاربه ، وقد عاش في "أبو خروف" عشرين سنة أكثرها عند حلمي

كان أسمر ذات مساء يدخل أحد المطاعم وبصحبته فتاة يبحثان عن طاولة خالية ، فرأى عبير شقيقته جالسة مع شاب وفتاة أخرى يتناولون الطعام ، وكانت مندمجة في الحديث معهما ، كأنهم يناقشون موضوعا هاما ، فلم تهتم بدخوله ، فاستدار قائلا لرفيقته : لنخرج لا أراه مناسبا للعشاء والجلوس

وعاود النزول للطابق الأسفل ، مرتبكا بدا للفتاة ؛ ولكنه الداعي ، فتبعته بصمت دون تعليق وتركوا طابق العائلات ، فبعض المطاعم تحافظ على هذا النمط وتخص العائلات بقسم من

موائدها وحجراتها ، فلما صارا في الشارع قالت الفتاة: هل من شيء ؟! ليست أول مرة نتعشى هنا !

- رأيت شخصا ، ولا أحب أن أراه

- شخصا .. من هو؟!

- ليس مهما لك

- ذكر أم أنثى؟!

- فارة لا دخل لك .. ذكر أم أنثى

- لا تغضب أنا آسفة

- شخص لا أحب أن يراني

وتابعا المسير بحثا عن مطعم آخر ، ولما جلسا وطلبا حاجتهما ، قالت فارة: هل صحيح أنك ستترك العمل ؟

- ربما ، هناك مشاكل كبيرة في المصانع والإدارة .. قدمت أوراقي لشركة ومصانع أخرى والراتب أعلى قليلا .. بعض المهندسين القدامى لا يحبون إتاحة الفرصة للمهندسين الجدد .. ومدير المصنع لا يريد التفريط بهم .. ففي المصانع الجديدة تعطى لمثلنا الفرصة أكثر من المصانع القديمة

- وأنا ؟!

- سنبقى أصدقاء

- ستصير حياتي خرابا

- وهل تظنين أنك الوحيدة في حياتي ؟ دعك من الفهلوة أتعلمين أن السيد الوالد يضغط عليّ للزواج منذ جئت البلد؟

- تزوجني ، وسأكون مخلصة لك

- أنا لا أثق بأي امرأة .. دراستي في شرق أوروبا علمتني أن لا أثق بأنثى .. نصادق فتاة

ونظنها أشرف من مشت في الأرض ، ثم نعود للسكن نجدها في حضن آخر حضن زميل .. الشيطان أغواني هكذا تقول .. أنا آسف حبيبي أنا ظننت أنك ستتأخر .. تلوم المجيء على غير الوقت ..

فهل أنت كل هذه السنوات لم تعرفي غيري؟!

– أنا لا أزعم ذلك .. أنا لما وجدتك لم أخرج مع غيرك .. هذا طريقي في الحياة رجل واحد

– كذابة

– أنا!

– طبعا أنت.. أنا أصاحب البنات للتسلية ، ليس للحب والزواج.. للتسلية فقط .. وأنت تعرفين هذا من أول ابتسامة بيننا .. فالسيد جلجل تعشى معك من أيام

لزمت الصمت فقال : أرأيت ؟! الشباب تتحدث وقضيتم ليلة سكر وعربدة فريدة من نوعها

– أوه ! أهو حدثك بذلك ؟ كذب

– أنا لا أغار ..كما أسمح لنفسي بالجلوس معك ومع غيرك .. فعليّ أن لا أغار .. وأنا أرفض الزواج لأني ضعيف من ناحية النساء .. فقد تعودت على معاشرة العدد منهن خلال فترة الدراسة .. لا أصدق امرأة وأعيش على واحدة .. فالزواج مشكلة وتقييد للحرية في نظري

جاء الطعام بعد هذا الحديث الساخن ، واشتغلت الأفواه وخيم الصمت ، ولما اقترب الختام قال: لا تحزني تمتعي ومتعي شبابك والتغيير أفضل لك

– هذا غير مهم يا أسمر .. المرأة تحب الاستقرار والبيت والأسرة .. هذا العبث لفترة ، ثم يأتي الندم .. ويهرب الرجال .. هناك الجديدات

– إذن عليك أن ترسمي على شخص مسكين .. يبحث عن فتاة مع مالها .. تعمل في مصنع مثل فارة .. ويشتهي المال قبل أن يشتهي الجسد

– لي خمس سنوات أعمل في المصنع كمهندسة .. لا يرون فيّ إلا الجسد .. وأنت على رأسهم

– أنت فرطت فيه

رحل المستأجر الطابق الأرضي ، وأعاد حلمي تهيئة الشقة للنزول والعيش فيها ، ليرتاح من صعود الدرج ونزوله ، واعترف بأن الكبر عبر ، وأن الوهن دب في بدنه ، ولما انتهى من أعمال الصيانة والطراشة استعان ببعض العمال والحرفيين ونقل الأثاث من الأعلى للأسفل ، ولما جهزت انتقل إليها ، وعقد اجتماعا هاما في نظره مع أفراد الأسرة معلنا لهم رغبته الجازمة والحاسمة بتزويجهم في مطلع الصيف القادم على الأكثر ، وقبل أزرق بالزواج وكلفهم بالبحث عن امرأة تقبله شريك حياة ، واعتذر المهندس لأبيه قائلا: أنا لا أحب أن ارتبط بعقد زواج يا أبي .. فدعني على راحتي أتزوج وقتما أشاء .. وإذا صممت على زواجي أقول بصراحة ؛ كأنك تطردني من العيش معكم .. سأترك الحي وأرحل

قال حلمي: يا ولدي أنت ببلد شرقي وعربي وإسلامي .. ولا تظن أنني لا أعرف أنك ترافق بنات الهوى والليل .. فالناس في بلادنا تتكلم منذ كنت في المخيم والناس تهمس في أذني زوج أولادك يا حلمي الريحة فاحت .. فلان رآك مع فلانة ، وآخر رآك مع أخرى .. أنت لست في أوروبا والنساء مشاع .. للبنات هنا أهل وأخوة يتأثرون بأخطاء البنات وأفعالهم .. هناك لا يهتم الأخ بفعل أخته وشرفها

قال أسمر بضيق واضح : أنا قلت لك أعتبر كل النساء غير موثوقات لمَ رأيت هناك ، ولمَ اسمع هنا .. فلماذا أربط نفسي بواحدة منهن ثم اكتشف خيانتها ؟

صاح حلمي: هذا كلام فارغ.. الناس ليست ملائكة منزهة عن الشهوات .. والفساد يحدث في كل الدنيا وحسب مقاييسهم ونظرتهم للحياة .. الزنا موجود ولا ينظر إليه الناس نفس النظرة.. تسقط بعض النسوة في الرذيلة لأسباب متعددة ؛ لكن أغلب النساء في بلادنا صالحات.. تنتشر بعض الفضائح هنا وهناك ؛ إنما هي قليلة .. أما أولئك فلا يعتبرون علاقة امرأة برجل خارج الزوجية خيانة.. فتمر بدون فضائح .. فهذه أمك وخالتك وأختك أترى أنهن خائنات؟! فكذلك الآخرون لا يرون في بناتهم وأقاربهم ذلك

تبسم أسمر وألقى نظرة خاطفة لجهة عبير وقال : إنهم هم القليل .. لماذا تريد ربطي بأنثى

أصرف عليها وأنفق عليها وهي تخزن مالها لغيري؟!

- من أين يأتي الأولاد ؟ هناك اللقطاء الدولة تتبناهم وتربيهم حتى أنهم في الغرب يأخذون الأبناء من آبائهم إذا أساءوا إليهم.. ألا تريد أن يكون لك ذرية؟!

- لا ، ولماذا الأولاد؟! بصراحة أنا تعرفت على أكثر من أنثى ، وتثق بالفتاة أنك الوحيد في حياتها ، وتتخذها صديقة على أمل الزواج منها عند التخرج عند العودة .. وقد تصادق أخاها وقريبها ، وتأخذك لبيتها ، وتتعرف على الأب والأم ، وتفاجأ بها في حضن صديقك في السكن أو الجامعة .. فما دام هناك بنات ليل يبعن أجسادهن بدراهم ولقمة طعام في مطعم أو خاتم من نحاس فلماذا يتزوج المرء؟!

- هذه القصص والحكايات تجدها في كل بقاع الدنيا ، وهذه من مهمات الشيطان .. فالخير موجود والشر كذلك .. فالنكاح حلال والزنا حرام .. أنت التقيت بالنساء السيئات تريد منك اللذة وغدا سيرحل ويعود لبلده .. فلماذا تتمسك بك؟! انظر إلى أمك وعمتك وخالتك الصالحات من نساء المسلمين .. لا يخفى شيء عن أعين الناس

- صدق يا أبي أني لا أرغب بالزواج ، ولا أريده .. فليتزوج أزرق وينجب لكم ألف طفل .. وإذا وجودي بينكم يسيء لسمعتكم فعندما استلم العمل في المصنع الجديد مصنع الأدوية سأفارق حي الشرفاء وأسكن في حي التعساء

قالت أمه: وهل هذا حل؟!

تنهد وقال : هذا هو الحل .. أنا أصاحب بنات الهوى .. أتريدين أن آتي بهن إلى شقتي .. ويتحول بيت حلمي عيسى إلى مأخور دعارة ؟!

قال حلمي: الفتاة التي جاءتك قبل أيام ماذا كانت تريد منك ؟!

- هذه الفتاة تعمل في المصنع ، علمت أني مريض أحبت أن تطمئن عليّ

- هذه الحجة فقط يا أسمر .. البعض يعرفون أنها فتاة غير طاهرة الذيل

- صدق أنها تعمل معنا في المصنع

- تعمل في المصنع ؛ ولكنها تمارس البغاء ، وهي معروفة لأهل "أبو خروف" ، وهي درست في كلية الهندسة ، ثم طردت ، ولم تحصل على الشهادة .. اسمع إذا رفضت الزواج يا أسمر فعليك أن لا تجاورني .. أنا راجل طول عمري أصلي وأعبد الحي القيوم .. وأنا نصحت لك قبل الهجرة بحجة العلم والشهادة أن تبتعد عن النساء والكحول والمخدرات .. أعرف لماذا سافرت ؟ سكرت وما زلت تسكر .. لا خوف من الله ولا خوف واحترام لأبيك.. فسكرت وزنيت قلت لما يتزوج يعقل .. والمخدرات لا أدري هل تعاطيتها أم لا ؟

- الفساد موجود في كل البلاد ، وحتى المخيم الذي تراه الجنة .. فيه الفجور والخمور والمخدرات

- المخيم مثله مثل باقي المدن والبلاد .. الناس ليست ملائكة ؛ لكنهم يتوبون ..نحن ندعوك للتوبة والأوبة والعفة .. يكفي ما ارتكبت من آثام ..والكفر والشيوعيون موجودون وأفسدوا على الناس دينهم وأخلاقهم

- يعني لو تزوجت يا سيد حلمي لا أستطيع الزنا

- الزنا الذي نعرفه معاشرة بدون عقد شرعي .. فسمعتنا تهمنا وعشنا عليها كل هذه السنين الحرية التي تنشدها ليست حرية بل هي فجور وانحلال .. هذا الوضع لا يرضيني

- حسنا! سأرحل أنا لا تهمني هذه السمعة والبعد عنكم يبعد عنكم الإساءة للشرف والسمعة اللتين ترغبان بها ؛ كأن الذي يسمع حديثنا يظن أني كل ليلة في حضن بائعة هوى

- الناس ترى وتتكلم .. اسمع بصراحة لقد رآك أحدهم في المخيم .. وأنت تتسلل يا شجاع إلى إحدى البيوت المشبوهة ، ورأوك تخرج من بيتها عند الفجر وغضضت الطرف

- ما دامت هي تقبل فلماذا أرفض ؟! والأمر لا يكلف مالا .. امرأة تبيع جسدها بدينار

- تبيع جسدها للفرجة والخونة لزوجاتهم .. بعض النساء لا تسمح للطبيب بمس يدها .. تطلب أنثى تكشف عليها .. هذه الإباحية تخرب البلاد ، وسيدفع الناس الثمن .. ها هي لبنان تدفع الثمن .. الشباب الفاشل يتبع الشهوات والانحرافات الجنسية

كان حلمي كما ظهر لنا يعرف سوء أخلاق ابنه الكبير وفساده حتى أثناء الإجازة التي كان يقضيها في البلد أيام الدراسة ، هو فعلا لم يكن يرغب بسفره لأوروبا الشرقية حيث تأخذ الشيوعية الماركسية مجدها ؛ لأنه لم يكن ملتزما بالصلاة والصيام وشعائر الدين ، ولا يمارس هذه الطاعات منذ دخل في عمر المراهقة ، كان لحلمي أمل بصلاحه بتقدمه في العمر ومناكفته الحياة وفهمها ، والنجاة بعد غرقه في أوحالها ، ثم يكون الحل بالزواج الشرعي ، فيبتعد عن الخمر والنساء بائعات الهوى

ومهما حاول الفاسق والزاني إخفاء جرائمه لابد أن تشيع بين الناس إذا تكررت ؛ لذلك كان مصمما على تزويجه بعد تركهم المخيم ؛ لعل الزواج يصلحهما وخاصة أسمر

أما أزرق فهو كأخيه لم يكن متمسكا بأهداب الدين وشعائره ؛ ولكنه بعيد عن جو النساء والعربدة ، وسعى الأب سعيا حثيثا إلى تزويجه منذ فتح المحل أو ورشة تصليح السيارات ، والشاب أبى الزواج قبل شقيقه الأكبر ، وهو أيضاً لم يتفاجأ بما تكلم به أبوه وأسمر ، فقصة تسلل أسمر إلى بيت تلك المرأة الماجنة شاعت في المخيم ، خاصة الشوارع القريبة من بيتها ، وتلك المرأة كانت امرأة سوء معروفة للسكان ، وكل من يقترب منها يتلوث ، وهي لا تدخل لبيتها رجلا إلا بعد منتصف الليل ، فالكثير يعرف سيرتها القبيحة ، وهي أرملة منذ زمن بعيد ، كان لها ولد وحيد ، ثم هلك قبل أن يشب ، وهي امرأة غير سوية ، ولا تبالي بكلام الناس ، فأصبحت مع الوقت مبتغى كل فاجر أو فاشل في الحياة الزوجية .. فقصة اتصال أسمر فيها عرفت .. والمهندس بعد عودته من الدراسة ومعاشرته لأولئك الناس لم يعد يبال ويهتم بكلام الناس بهوس الحرية الجنسية والإباحية التي تجتاح العالم .

لما خرج المهندس إلى شقته فوق تبعته عبير ، فلما صارا في جوف الشقة قالت في نبرة غاضبة: كانت عيناك تخاطبني كلما جاء ذكر خيانة النساء والزوجات أثناء حوارك الحاد مع أبي؟!

تبسم لها وقال: أترين أن هناك أمرأه صالحة وشريفة في هذا الكون؟

- أجابك أبي أمك خالتك - وأنت؟!

- وأنا .. هل رأيتني في حضن رجل يا أسمر؟ أريتني اعرض جسدي في ملهى ليلي في حانة من حانات المدينة؟!

صمت لحظات قبل أن يرد قائلا : لا ، لكني رأيتك مندمجة مع شاب في المطعم الأزرق

- وهل هذه جريمة في نظرك عندما آكل مع زميل لي في الجامعة وزميلة؟! لقد لمحتك ورأيت صديقتك فارة .. وكنت أنوي أن أحدثك عنها عندما تستقر جالسا ؛ لكنك هربت كالأرانب خجلت أن ترى أختك مع شاب في مطعم كبير وعام .. أليست فارة التي كانت معك ؟! وأليست هي الفتاة التي جاءت تزورك من أيام ؟ عندما مرضت وغبت عن عملك .. وطلبت لها العشاء من أحد مطاعم "أبو خروف" .. إنها مومس معروفة يا سيد أسمر

فرد بدون حياء وخجل من شقيقته فقال : وأنا للأسف أعشق المومسات ، فهن خبيرات في مضاجعة الرجال

لم تتأثر بوقاحته فقالت : لكنك هربت لما لمحتني ، حتى هممت أن ألحق بك .. أنت الذي تزعم نفسك حرا خجلت من رؤيتي مع شاب

- لم أحب إحراجك فقط

قالت بنبرة تهكمية : وهل إذا جلست أختك مع شاب معها في الجامعة إحراج ؟ فلماذا نذهب للجامعة ؟ فالجلوس مع الطلبة والشباب أمر مقبول في مجتمع الجامعة المهم الأخلاق

قال حائرا : لا أدري لماذا ارتبكت؟! حتى أن فارة دهشت من تصرفي

- لأن الدم الشرقي ما زال في عروقك .. ترضى لنفسك مالا ترضاه لأختك وأمك

عاد للصمت عدة ثوان كأنه يفكر : وأنت من أين تعرفين فارة ؟! أنا عرفتها ؛ لأنها تعمل معنا في المصنع

- فارة عملت في المصنع لتتعرف عليك

- كيف ؟! أنا في حيرة ودهشة حقيقية يا عبير

- فارة معروفة في المخيم ، معروفة في "أبو خروف" ، فارة كانت زوجة ؛ لكن جسمها النحيف يظهرها كفتاة صغيرة السن .. فارة سكنت المخيم ، ولكن لما فاحت سيرتها السيئة رحلت ، فنحن نسمع ونعرف عنها ، ونحن طالبات في مدرسة إناث المخيم ، وأنت تدرس في يوغسلافيا .. وأنت تعلم أن أصحاب المصنع من أهل المخيم

- فعلا السيد طارق حدثني أنه عاش فترة في المخيم

- والده ما زال فيه وأعمامه

- وأنا أبي أرسلني إليهم ، وهم كلموا طارق بتعييني

- وفارة تعمل في المصنع لمعرفتها الشخصية للمدير ، فهو مثلك ذو سمعة سيئة ، وهو أحد عشاقها القدامى

أخذته موجة من الضحك العالي لفترة وقال: ألم تسمعي أقوالي لأبي؟ .. النساء ماكرات ؛ لأني لا ألتقي بواحدة منهن وأثق بها إلا وأجدها خائنة .. أنا آسف يا عبير صدقي أنا لم أرد إحراجك ، ولم يقع في نفسي سوء بينك وبين الشاب .. كانت معكم فتاة أخرى.. ومع ذلك هذه حياتك.. أنا تركت الشرف في بلغراد ، لماذا لا نكون مثلهم؟

- لكنهم يقتلون نساءهم للشرف

- يحدث هذا في الريف حيث التقاليد البالية



لما انتقل أسمر حلمي إلى مصنع الدواء كمهندس الآلات وماكنات ترك بيت الأسرة على الفور ، وقد حاولت أمه ثنيه عن الرحيل في محاولة أخيرة ، فكان رده قاسيا فقال : زواج نو (لا) يا أمي .. عندما آتي برفيقة لتبات معي في الشقة أتتحملين ذلك؟

فبصقت في وجهه فورا وقالت: نذل ! ليتني لم ألدك .. احذر أن تمشي في جنازتي .. إنك نجس ..أنا المرة الماضية صمت قلت لعلك تراجع نفسك .

قال حلمي : مع السلامة يا حضرة المهندس .. لما تصير إنسانا عاقلا سويا لا تعتدي على أعراض الناس ستجد البيت مرحباً بك مفتوحا لك

فقال وهو يمسح البصقة عن صباحه : وأنتم إذا مت وسمعتم بموتي فلا داعي أن تهتموا بجنازتي .. أنا عشت سنوات في صربيا دون وجود أب وأم وأخ واخت

اغلق حلمي الباب بعنف ، ودخل مكتبه وبكى قليلا ، ثم خرج وغسل وجهه ، فوجد بهيجة باكية فقال: لا تحزني يا بهيجة ! أنا يئست منه منذ ترك التدريس وسافر إلى أوروبا قلت يومذاك هنا وفسد فكيف هناك ؟! نحن لن نحتمل فجوره وانحلاله وكفره .. إنهم يذهبون لطلب الشهادات في بلاد متقدمة ليعودوا لتطوير البلد .. فيأتون فاسدين ضالين وينشرون الفساد في بلادهم .. لما محمد علي أرسل المصريين لفرنسا يتعلمون الهندسة والطب عادوا لنا بالمسرح والفن والرسم والنحت .. وهذا ديدن شبابنا .. وبعد زواج أزرق ـ إن شاء الله تعالى ـ علينا السعي لبيت الله الحرام لتختم حياتنا بالحج ..فقد حان الوقت .. فشقيقي مروان يريد ذلك أيضاً ، ونوى عليه ، وشاورته في موضوع أسمر فقال : دعه يفعل ما يشاء .. ابنك كبير يتحمل مسؤولية نفسه، وعلاجه الزمن

قالت مستفهمة : وزواج أزرق ؟!

– صديقنا سلمان أبو يوسف جار أخي مروان مهتم بالأمر ، بل حدد لي الخميس القادم مقابلة من أجل هذا الزواج .. لسلمان رجل فاضل ومن قدماء السكان في حي "أبو خروف" ..

وذكرت له الصفات التي نحب أن تكون في البنت .. متربية صح وقادرة على الحياة الزوجية

- وشقة المنحوس ماذا ستفعل بها؟

- سعيد زوج فايزة طلب السكن فيها ، يريد أن يترك المخيم ، وسيستولي أخوه الأصغر على بيته والعيش مع الوالدين أو قربهما .. فأم سعيد لم تعد تطيق أولاد سعيد .. فهو كما تقول يكرهونها بعد موت أمهم ؛ ولكنني وعدته بالبحث عن شقة في الحي خشية أن يعود المهندس آسفا نادما ؛ لأن فشله في الحياة وارد

قالت متشككة في عودته : مخه مثل الحجر ، لقد خبرناه قبل سفره وتعلقه بأوساخ أولئك القوم .. لن يرجع ابني واعرفه

- هل قصرنا يا بهيجة في تربيته؟!

- كيف قصرنا يا رجل ؟! لم نحرمه من شيء .. لا من مال، ولا من طعام ..كنا نعطيه مصروفا أكثر من أقرانه

تنهد حلمي عميقا وقال : كنا نغض الطرف عن مصاحبته لفتيات المخيم .. ونقول صغير لما يكبر

- أذكر لما قبل ابنة أبي ضحى أنك شبعت منه ضربا ، وكسرت عصا المكنسة على عظامه

- ولما كان يدخن صمتنا

- نصحته وقلت له أوله دلع وآخرته ولع .. فكان يقول الأستاذ يدخن وفلان يدخن وأبي يدخن .. فاضطر أن أقول له لما تكبر وتشتغل دخن .. وأكثر الناس تدخن .. واليوم نرى البنات صرن يدخن

قال حلمي بشعور النادم : أنا تورطت منذ الصغر في الدخان ، وتهاون المجتمع في تعاطي الدخان .. لم أتورط بالزنا والخمر .. وكنت أحتقر كل من يفعل ذلك من شباب المخيم ومن يشتهر بفجوره .. الدخان قضية تهاون بها الناس ..وأذكر في أول سنوات الوكالة أنها كانت تصرف للناس علب دخان لينفسوا عن غضبهم وبسبب فقرهم .. لم نكن نعرف ضرره مثل

اليوم .. والحمد لله لي عشر سنوات لم أدخن من تلك المرضة التي تذكرينها .. فحرمته على نفسي ؛ ولكن الدخان ضرره أقل من الكحول والزنا.. لو وقفت على الدخان لهان الأمر .. شر أهون من شر .. ها هو أزرق يدخن ؛ ولكنه أصلح من أسمر لا يسكر ، لا يعرف طريق النساء .. عساه بعد الزواج أن يعود للصلاة والصوم كما كان أيام الطفولة

– من ناحية التدين أصلحهم في ذريتنا فايزة منذ تعلمت الصلاة والصوم وقراءة القرآن وهي تحافظ على كل ذلك .. أما عبير فتصلي متقطعة ، ولا أظنها تصلي في الجامعة .. أما الصوم فهي ما زالت تحافظ عليه

فقال ويصحب سؤاله قلق : أتحدثك عن حياتها في الجامعة ؟!

– تقول إنها سعيدة والعام المقبل في الصيف ستتخرج بإذن الله .. والأمور معها تسير على ما يرام

– ليس لنا إلا نقول ستر الله عليها ووفقها في جامعتها وحياتها ورزقها الزوج الصالح .. يا بهيجة حياة المخيم تحتاج لبعض الخشونة .. فالعيش صعب ويحتاج لصبر ومجاهدة .. الفقر عدو للإنسان ؛ إنما بعد عشرين سنة من التشرد والضياع أوضاع الناس أحسن حالا .. تعلم الشباب ، وبعضهم سافر الخليج العربي حيث النفط والثروة .. وبعضهم هاجر أوروبا وأمريكا حيث الثروة أيضاً .. ولم ينسوا أهاليهم

– ابن أختي الذي سافر أمريكا لم يعد

– ولماذا يعود ؟! وهو يرسل لأهله المال باستمرار .. وعلم بعضهم بعضا

– لكنه لليوم لم يتزوج

– سوف يتزوج .. هناك ناس يتزوجون على كبر ، ويخلفون واحدا أو اثنين فقط

أعطى سلمان السيد حلميا عنوان أسرة متوسطة الحال ، لديهم فتاة تصلح للزواج من ابنه الميكانيكي ، ومساء الخميس أخذهم صالح كمال إلى ذلك العنوان ، فصالح أصبح تحت الطلب للسيد حلمي الذي لا يحسن قيادة السيارات ، وأزرق يملك سيارة صغيرة ؛ ولكنه غير متفرغ للبيت بحكم العمل ، ذهب حلمي وزوجته وابنته فايزة التي لبت النداء للمشاركة في رؤية العروس المتوقعة ، لم تكن العروس من أهالي "أبو خروف" ، إنما عن طريق قريب لها من رواد المقهى ، وصحبهم سلمان في هذه الرؤية

استقبلهم والد الفتاة وزوجته ، ومشت النساء إلى حجرة النساء ، وجلس الرجال في غرفة الضيوف ، الرجل وابنه الوحيد وشقيقه ، وذلك حسب ترتيب سلمان يوسف ، حدث التعارف ، وسمع القوم قصصا تعرفهم على بعض ، ووجد حلمي نفسه يعرف بعضا من أقارب محمد علي ، وله قريب يسكن في المخيم ، تذكره حلمي ، فالمخيم الفلسطيني ولاد ، وله استيعاب محدود من البشر ، فالجيل التالي الذي يتحسن وضعه المادي يهجر المخيم إلى أحياء قريبة من المخيم ليبق قريبا من والديه وأسرته الكبيرة ، وبعضهم استقر في أحياء راقية إذ فتحت عليه الدنيا ، والفقير والمتوسط الحال يرتفع البناء عنده لأعلى أو يشتري بيتا آخر ويضمه لبيته أو يرحل إليه ابنه المتزوج .. المخيم له سعة وطاقة معينة من البشر ؛ لذلك كانت تقام بيوت عشوائية حوله غير خاضعة لمدير المخيم وخدماته ، وتغض البلديات الطرف عنها إلى حين

ولما انتهت النساء من رؤية الفتاة غادر القوم بيت محمد علي مع صالح كمال الذي عرفناه في بعض حكايات "أبو خروف" كسائق .

ولما مشت السيارة قال الحاج سلمان الجالس بجوار صالح وحده ، فسيارة صالح تستطيع حمل خمسة ركاب : آ .. يا أم أسمر كيف ترين العروس؟

تنحنحت أم أسمر وقالت : ناس طيبون يا أبا يوسف البنت عمرها ستة عشر عاما ، تركت

المدرسة من سنة .. ليست بيضاء البشرة ، وما هي بالبدينة ولا النحيفة .. حلوة بشكل عام ويبدو أنها متربية جيدا .. تبقى رؤية الولد يا عم سلمان .. يا بركة "أبو خروف"

أثنى سلمان على أم أسمر وقال : فليأت أزرق لمشاهدة الفتاة .. وها هو البطل صالح عرف البيت .. والناس بسطاء يريدون الستر .. والبيت رقمه خمسة .. فالسيد محمد علي أكرمه الله بسبع بنيات ، وولد واحد الذي جلس معنا .. وهو في الجامعة هذه الأيام .. الآن الكرة عند أزرق يا أم أسمر

قال حلمي: أتعبناك معنا يا حاج سلمان

- أبدا نحن في خدمة الأجاويد .. وأنت أخ عزيز يا حلمي .. وأنت اليوم

جارنا بلحمك ودمك .. ولا تنسى مساعدتك لنا في حل المشاكل التي تكون بين الحي والمخيم .. الله يبارك في زواج الشاب

- غداً يا صالح مر علينا .. وستكون أم أسمر وأزرق في الانتظار

قال صالح : ربما يريد أزرق أن يذهب بسيارته

- ستذهب به أمه إن شاء الله

قام أزرق في الليلة التالية عند الغروب بالذهاب ، ومعه أمه وأخته الثانية برفقة صالح الذي وضع نفسه تحت خدمتهم ، وقدمت لهم الفتاة القهوة ، وشربها أزرق وسمع الفتاة ترحب به فقالت أمه: هذه هي العروس يا أزرق .. تطلع فيها جيدا .. بطة هادئة .. أبو أحمد السماك قريبها من سكان المخيم .. وأنت تعرفه حق المعرفة

هز رأسه موافقا على أنه يعرفه ، ورحب بالفتاة ، ثم قال: أنا أستحي من النساء أكثر من الطبيعي .. هكذا يقولون عني .. لما تحضر سيدة لتصليح سيارتها أترك المهمة لشريكي ما اسمها يا أمي ؟

قالت أمه : قلت اسمها عالية عالية

قالت الفتاة : نعم ، اسمي عالية محمد علي

قال: كيف حالك يا عالية ؟

- الحمد لله .. أهلا وسهلا

كانوا يحبون كلام العروس أمام العريس وأهله ؛ ليسمع صوتها بعد أن يرى وجهها وكفيها وأنها حسناء ليست بعوراء أو عمياء أو مشوهة الوجه ويديها سليمتين ، وليست بخرساء

فقال: أتسمحون لي بالدخان؟

وقبل أن يؤذن له كان يشعل السيجارة وسمعها تقول: تدخن يا سيد أزرق!

- نعم ، يا عالية .. الدخان نصف حياتي ..لا أريد أن أقول حياتي كلها .. تشرفنا يا آنسة

حضر الشاي ، ولما شربوه غادروا البيت ، وقام محمد علي وأسرته بتوديعهم وقال: حياكم الله وأهلا بكم ..ويشرفنا نسبكم .. شرفتمونا

قالت بهيجة: بارك الله فيك يا أبا عزيز .. يومان ثلاثة ويكون الرد عند حضرتكم الكريمة ولتسألوا عن حلمي عيسى وولده أزرق

- يا أختي ما دام أنتم من سكان المخيم سابقا ، ومن جيران أبي أحمد .. فنحن نعرف بعضنا البعض .. وأنتم خير وبركة ..وسلمي لي على الأخ حلمي

- شكرًا يا أبا عزيز

ووجدوا صالحا في انتظارهم ، لم يشأ أن يدخل معهم خشية الأحراج ، فقال لهم وهم يركبون سيارته : آ .. يا أزرق نقول مبارك .. أنت معرفة .. لقد صلحت السيارة عندك أكثر من مرة

- تذكرتك لما رأيتك

سنة ١٩٧٨ في نهاية حزيران كان زواج أزرق حلمي من عالية محمد علي ، وأقام حلمي حفلة شعبية ، دعا لها بعض الفرق الشعبية الشائعة بتقديم مثل هذه السهرات مقابل أجرة ، وكان الحفل كما كانت الاحتفالات في المخيم ، اجتمع الناس في ساحة من ساحات "أبو خروف" القائمة بين المباني ، ونصبت خيمة أو صيوان مصري ، وأقيمت منصة ، وكانت الدبكة الفلسطينية التقليدية مع الأهازيج والأغاني التراثية ، واستمر الرقص والطرب لمدة أيام ثلاثة

وفي نهار الجمعة تناول المدعون الطعام عند حلمي عيسى ، وفي المساء ذهبت السيارات للإتيان بالعروس تصحبهم بعض الباصات الكبيرة ، ولما خرجت العروس من الصالون ذهبت لبيت أبيها للوداع ، ثم حملت بسيارة مزينة وبجوارها العريس أزرق ، وحملت السيارات بالعروس وأهلها إلى حي "أبو خروف" ، ثم صمدت العروس ، وأقامت الفرقة وشباب المخيم زفة العريس ساعة من الوقت ، وأدخل العريس إلى حيث تجلس العروس مصمودة ، وتقدم الأقارب لتنقيط العروسين أو أحدهما حسب العادة والتقاليد ، وفي الليل انتقلت العروس وزوجها إلى شقة أزرق ، وجهز لهما طعام العشاء ، وبعد إدخاله عليهما ، أغلق الباب على الزوجين في ليلة تاريخية لها رهبتها عند الناس

كان صاحبنا أزرق كما عرفناه على العكس من أخيه أسمر الذي انحرف عن التقاليد والقيم بشدة ، وأصبح يحتقر الزواج والأسرة والتربية ، فكان متعلقا ببنات الهوى لحد أنه يعتبرهن أصدق وأشرف النساء مع أنه يعلم يقينا أن صحبتهن قصيرة ، وله شركاء في جسدهن ؛ لكن لما ينحط الإنسان يصبح يفكر تفكير الحيوان بحق ، وأنها غريزة حيوانية فقط ، وأما الأزرق فكان يرهب الفتيات لم يحاول حتى وهو فتى يافع أن يقلد الآخرين وطلاب المدارس في تكوين صداقات عاطفية ، يسمونها بريئة .. ولا أدري من أين جاءت البراءة ؟ إنه الشيطان يسول ويزين للصغير والكبير ، فلم يكن يؤمن بما يسمى قصص حب وعشق وحفظ الأغاني الغرامية الساقطة والذاهبة في الهواء بسرعة الريح ، حتى أن بعض الفتيات تقربن من أزرق فوجدنه أخجل من العذراء ، فيبتعدن عنه ، لا يصلح للغرام وسرقة خلوات في الشوارع الخلفية والمظلمة ، أما أسمر فكان سيء السمعة منذ دخل المرحلة الإعدادية ، ولما انتقل للثانوية ظل مشغوفا بمطاردة الصبايا باحثا عن الحب ، ولم يكد يتعرف على فتاة حتى يجدها صديقة لغيره ، فيتعقد ثم يبتعد عنها ، ويبحث عن غيرها

وجد الشاب السكينة في عروسه ، وجد المودة والطاعة والحب الصحيح النظيف والعفة والطهارة ، كان يكبرها بسبع سنوات على الأكثر ، كانت طيبة وهادئة كأنها بنت صغيرة ، فلم

يجد صعوبة في الانسجام معها ، ويحبها الحب الشرعي الشريف النظيف

تغير نظام العمل عند أزرق كان يعود بعد أذان العشاء ، وتارة ينام في محل الشغل ، أما بعد الزواج فمع الغروب يغلق المحل ، وينصرف الشريكان ، عنده أنثى تنتظر غيبته .. فهو يخرج من الصباح حتى الليل ، وهي تقضي يومها في بيت حماتها ، تخرج عند الظهر لتصنع الطعام إذا لم يقصدا الأكل مع الأسرة الكبيرة بترتيب بينهم .

وشريكه فاضل محمود متزوج ، وعنده أطفال من سنوات، فكان يداعبه: والله صار عندك عيلة

- عيب أن تبقى المرأة وحدها ساعة من الليل يا أبا إلياس

- كلامك عسل ! ألا يكفي أن تبقى كل ساعات النهار وحيدة ؟ أتفطرك قبل الخروج؟

- بنت متربية على الأصول وتعرف واجبها

- ولكن أراك تفطر هنا

قال باسما : العادة يا أبا إلياس .. تسلق لي بيضتين وبعض الجبن وكأس الحليب .. عارفة واجبها .. آه ما أجمل الزواج يا لعلوع!

- أدام الله عليكم العافية وحسن العشرة .. منذ عرفتك وأنا أقول لك تزوج .. المرأة الصالحة من خير متاع الدنيا

قال أزرق : كان أخي الأكبر في طريقي ، واستحي أن أتزوج قبله

- يا عم ، كان أخوك يدرس في يوغسلافيا .. وها هو ترك الجمل بما حمل

قال مفكرا في حال أخيه : أنا أتعجب من حياة الرجل مع امرأة بدون زواج ! ولا يمكن أن يكون رجلها الوحيد ، لابد أن أحدا قبله نال منها

- هذه عادات أوروبا يا ولد .. الزواج الرسمي يكون في سن متأخرة .. يعاشر الرجل المرأة عقودا من السنين ، وينجب منها أطفالا ، ثم يكتبون عقد زواج شرعي ، ويتحول الأبناء من

غير شرعيين إلى شرعيين .. الرجل قد يكون مجرد ذكر عند الأنثى لسنة لشهر .. ويهجرها في أي وقت .. لي أقارب يتحدثون عن هذه العادات .. لكن نحن عاداتنا مستمدة من الإسلام والدين .. نظام الأسرة عندهم رخو .. للزوج أن يطلب من ابنها من رجل آخر أن يغادر البيت عندما يبلغ الثامنة عشرة سنة .. فأسمر نعرفه من أيام المخيم كان صياد فتيات .. وعاش في أوروبا في مثل ذلك الجو الملوث ..فأنا أتوقع أن يهاجر إلى هناك .. عندهم الولد للأم

- والأب

- مع امرأة أخرى



في المدن الكبيرة خاصة العواصم من السهل أن يصاحب الرجل المنحرف امرأة على شاكلته ؛ لذلك لم يكن أسمر يجد صعوبة في التعرف والالتقاء بالنساء الساقطات المنحرفات ، وإن تسربلن بثياب الشريفات والشرف .. الطيور على أشكالها تقع .. فهن موجودات في أماكن انتشار العمالة النسائية في المصانع والمكاتب .. وصارت الفتيات تزاحم الرجال في المسارح والسينما والرياضة والمسابح والنوادي العامة والخاصة .. والذين يركضون وراء الشهوات تتوفر لهم الفرص في المدن كلما كبرت أكثر، فكان من السهل عليه أن يصطاد فرائسه ، ويتقرب منهن ، قد تعرف على امرأة في المصنع الجديد في أقل من شهر .. امرأة تعمل في قسم المبيعات والتسويق والصفقات .. ولم تكن فقيرة جائعة .. كانت متخرجة من الجامعة وتحمل شهادة في المحاسبة المالية .. وتنقلت في عدد من الشركات ، ولما أعلنت شركة الدواء عن حاجتها لعاملات متعلمات ، فقبلت كموظفة في قسم المبيعات ، ولم تكن عزباء أو مطلقة ، إنها متزوجة ولديها أطفال طفلان جميلان ؛ إنما زوجها يعمل خارج البلاد ، يتردد على المدينة في كل بضعة شهور مرة ، يقضي إجازة قصيرة .. أسبوع أسبوعان أيام معدودة .. ثم يلتحق بعمله

ووظيفته .. وهي تسكن شقة في عمارة ، فيها شقيق زوجها مع أمه في شقة في نفس الدور ، فكان الشقيق يقوم على خدمتها هي وطفليها .. تعرف عليها المهندس بالمجاورة في العمل في الشركة الواحدة .. ففي خلال الشهر الأول لمباشرته العمل تعرف عليها ، وعرف أنها أم ولها زوج يعمل خارج البلاد ، ولا تمانع في مصاحبته ومرافقته ، وهو الخبير في النساء كما يزعم أمام أصحابه .. وعرف غيرها من فتيات الشركة .. فالتعرف على النساء عنده كشرب الماء

المرأة هذه سماها أهلها هيفاء .. قبلت دعوته للعشاء مرة وأخرى.. وهي تدخن وتشرب الكحول بدون كثرة كأس صغير .. فكانا بعد مغادرة المصنع يلتقيان في مكان اتفقا عليه خشية أن يلاحظ أحدهم هذا الترتيب ، وتثار حولهم الشائعات ، يفعل ذلك من أجلها ، فهو لا يهتم ، وفساده معروف لكل من يقرب منه ، والمصنع يعمل على مدار الساعة ، ولكل موظف جزء من اليوم والليلة .. ربما يبلغ لعطل معين في الليل ، فعليه أن يذهب للمصنع ، وعادة ترسل له سيارة من سيارات المصنع ، ومرات يذهب بسيارته .. فخطوط الإنتاج يجب أن لا تتعطل طويلا

وأصحاب المصنع لا يرون حرجا في علاقات الذكور والإناث كعمل ، أما الأمور الأخرى فيطلبون منهم أن تكون خارج الشركة ، من صدقات ودعوات وسهرات ، وبعد حين من الزمن أخذت هيفاء تتردد على شقة أسمر دون حرج ، واستسلمت له في مدة يسيرة ، ونسيت أنها تخون زوجها الغائب ، وربما لم يكن هو أول عشيق لها ، بل إن زوجها لما جاء لقضاء إجازة من إجازاته لاحظ التغير عليها ، وإنها لم تكن كما يعهدها عندما يأتي لقضاء أيام معها سهرات وعشاء .. في مطعم كذا أو مطعم كذا .. في مسرحية على مسرح كذا .. هناك فلم كبير ..لاحظ البرود جهته ، وحتى التبرج لم يجده منها .. فأحس بعد أسبوع أن شيئا غلط في حياتها ؛ لكنه نسبه للعمل والأطفال .. فكانت في إجازات سابقة تلح عليه للبقاء معها ، وأنها تحبه ، وأن يترك العمل في الخارج ؛ لكن بعد صحبتها لأسمر لم تعد تفعل ذلك ؛ كأنها نسيت الشغف والترجي ، فقد وجدت البديل ، بل لاحظ الزوج أنها لم تأخذ إجازة يوما أو يومين

تقضيها معه كما كانت تفعل في الإجازات الماضية .. الإجازة انتهت وسافر ثانية ، ولما وصل لمكان عمله فكر بذلك التغير ، وبعد شهر عاد للبيت على غير العادة .. كان يغيب بالشهرين والثلاثة قبل أن يعود لقضاء أيام مع الأسرة .. وكانت المفاجأة أنها طلبت منه الطلاق هذه المرة وسبب ذلك أنها سمعت من عشيقها أنها لو لم تكن على ذمة رجل لتزوجها ..وصدقت هذا الادعاء ؛ لذلك لما جاء الزوج ، وحدثها عن البرود الذي عاناه منها في المرة الماضية قالت: مللت من هذه الشكوى أرغب بالطلاق منك .. لم تعد الحبيب الغالي .. حياتي جحيم .. لو أنت تحبني كما تزعم لما تركتني كل هذه السنين وحدي

أدرك الزوج أنها تغيرت فعلا وجادة في طلب الطلاق والفراق ، وتكره سفره وغيابه .. وسافر دون فعل ذلك ، وأجل الحديث للإجازة القادمة .. وأخبرت عشيقها بأنها تسعى للطلاق ، فلزم الصمت ..كانت المرأة تسكن في شقة في عمارة كبيرة ربما سبعة أو ثمانية طوابق ، وكانت حماتها تسكن في شقة مجاورة مع ابن آخر ، وكان الطفلان لما يرجعا من المدرسة الأهلية بالحافلة يقضيان وقتا عند جدتهما ويتناولان الغداء معها ، ثم عند الغروب قبل عودة الأم ينصرفان لشقتهم ، ومرات ينامان قبل عودتها عندما تتأخر في السهرة مع المهندس أسمر ، وأخذت تفكر بالتعاقد مع خادمة لترعى الأطفال ، فطلب منها أسمر التريث .. فكانت إذا كانت على موعد مع عشيقها تتأخر عليهما بحجة العمل والصفقات

ذات يوم أخذت إجازة على التلفون ، أصيبت بمرض ، ولما علم أسمر بغيابها اتصل بها على البيت يطمئن عليها .. فهي أصبحت جزءا من حياته في الشغل في الشقة في الشوارع .. فشكت إليه الوجع وأنها راجعت العيادة الخاصة بالشركة .. فوعدها بالزيارة بعد انتهاء عمله للاطمئنان عليها

وبالفعل لما هبط الليل والظلام اشترى هدايا مناسبة لها وللطفلين ، وطرق أسمر باب شقتها فاستقبلته كما تستقبل الضيف والزائر ، وجلست معه في صالة الجلوس ، وكانت تلبس ملابس الاستقبال ، وعرفت طفليها على زميلها في العمل ، وشكرته على هداياه لها وللطفلين ،

وقضت نصف ساعة معه في الحديث ، ثم داعب الشيطان المرأة ، فدخلت غرفة نومها وحضرت بملابس النوم المثيرة للرجال ، ففهم أسمر الرسالة ونظر للولدين ، ففهمت قبوله بمضاجعتها رغم مرضها وأنها في بيتها ، فأشارت للصغيرين بالذهاب إلى بيت جدتهما لرغبتها بالحديث على انفراد مع زميلها ، فذهبا على الفور ، وصدقا كلامها ، ولم يستوعبا الأمر ، أغلقت الباب وراءهما ، وخلع المهندس الجاكيت ، ومشيا إلى غرفة النوم نوم زوجها ؛ ولكنهما قبل أن يمارسا الفاحشة والزنا طرق الباب ، فظنت أن الأولاد عادوا لسبب ما ، فقالت : عجلوا بالعودة

وخرجت بثياب النوم التي لبستها أمام أسمر لتنظر الأولاد وسبب رجوعهم العاجل ، فهي عندما ترسلهم لا يعودون إلا بتلفون خاص منها أو تطرق الشقة على حماتها تطلبهم ، فلما فتحت الباب فوجئت بشقيق زوجها يدخل سريعا ويقول بغضب : أين الرجل الذي عندك ؟

شريف يقول : إن زميلا لك جاء يطمئن على صحتك

صعقت طبعا من المفاجأة ، ولم تحسن الرد ، فصاح الشاب فيها ، وقد سمع صوتا في غرفة النوم ، ولما سمع أسمر الصوت ظنها تحدث الطفلين الصغيرين ، فأخذ يلبس سرواله مسرعا ، وكان ينادي أسمر عليها ، فنظر الشاب إليها بسخط ، ومشى إلى غرفة نوم شقيقه المسافر ، وشاهد الرجل في ملابسه الداخلية منتظرا العشيقة .. فصاح فيه: ماذا تفعل هنا يا بطل ؟!

فوجئ أسمر بالرجل ، وفوجئ ثانية بضربة قوية من الشاب ، وبطرحه أرضا قبل أن يكمل لباس السروال والقميص ، ثم ربطه من الخلف ، وذهب إلى المطبخ وجاء بسكين وانهال على أسمر بالطعن والسب حتى انتشر الدم في غرفة النوم ، والمرأة تصيح ، وأسمر يصيح ، ثم رمى السكين أرضا ، وخرج واتصل بالشرطة من شقة أمه ، وجاءت الشرطة فورا والإسعاف ، وكان أسمر في وضع سيء فاقدا للوعي فقد نزف الكثير من الدماء ، ونقل للمستشفى واقتيدت المرأة لنقطة الأمن ، وبعد ساعات مات أسمر متأثرا بالطعنات التي انهالت عليه كالمطر من يد شقيق زوج السيدة هيفاء

وأودعت المرأة الحبس على ذمة التحقيق ، وكذلك الشاب القاتل وعن طريق المصنع عرف عنوان أهل أسمر ، وانتشر خبر مقتل أسمر في بيت عشيقته هيفاء إحدى نساء المصنع ، ورفض حلمي استلام جثة ابنه القتيل إلا بعد أيام ، بعد تدخل الأقارب والأشقاء في أمره، وتم دفنه في مقابر المسلمين على أنه ابن مسلمين ، وجاء زوج هيفاء وقدم استقالته من عمله واتصل بالسيد حلمي ، وقال له: أنا خسرت شرفي يا سيدي ، وأنت خسرت ابنك ..وأنا على استعداد لدفع الدية .

فتنازل حلمي عن حقه الشرعي والقانوني ، وطلقت هيفاء وأخرجت من السجن ، وعادت لبيت أهلها تحمل عارها وفضيحتها ، وحكم على شقيق زوجها ثلاث سنوات باسم الحق العام للدولة والأمة .. وذهب أسمر حلمي ضحية شهواته ومغامراته ، وقال حلمي : هذه هي نهاية الخيانة ، لم يكتف من بنات الهوى أصبح فاجرا بالمتزوجات .. أنا ذكرت له أننا لسنا في أوروبا .. كل الشعوب عندها شرف ، ويختلف هذا الشرف من بلد لآخر



عرفنا أن السيد حلميا كان يذهب في المساء ويجلس في المقهى حتى يرفع النداء لصلاة المغرب فيدخل المسجد يتوضأ إذا فسد وضوؤه قبل الأذان ويصلي المغرب ، ويمكث فيه حتى يقضي صلاة العشاء ، فيقفل راجعا للبيت .. وذلك أغلب الأيام منذ استقر في "أبو خروف" وكان في الجامع شاب في الثلاثينات من العمر يجلس بين الصلاتين معلما للناس تلاوة القرآن صغارا أو كبارا يجلسون على شكل دائرة تسمى حلقة ، يجلس الشاب على خط محيطها ويتناوبون القراءة واحدا تلو الآخر ، والشاب الشيخ يصحح لهم أحكام قراءة القرآن .. فقراءة القرآن ليست كقراءة كتاب أو جريدة .. يقرأ الفرد نصف صفحة وهكذا دواليك ، وخلال القراءة يبين لهم أحكام التلاوة وآدابها أو يعقبون على معنى كلمة أو أية .. فيحدثهم عن الإظهار والإدغام والإقلاب والإخفاء وأحكام المد .. ويجري التركيز أثناء القراءة على الحكم الذي وضحه وشرحه .. واهتم حلمي بهذه الدورة الشرعية التي بدأت بعد رحيله بشهر أو شهرين .. فكان حريصا على الجلوس معهم .. والتعلم منهم رغم كبر سنه .. والشاب المدرس يبذل جهده بصبر وجلد وقصارى جهده ليوصل المعلومات إليهم ، ويرى حسن تطبيقهم لها .. فقد أعجب السيد بهذه المعلومات .. هو كان يسمع عن أحكام التجويد ؛ ولكنه لم يبذل عرقا لمعرفتها ومراعاتها عند القراءة ؛ فلذلك كان مبهورا من هذا العلم .

ولما تنته صلاة العشاء فيغادر للبيت ، وقد يأخذ شيئا للبيت من فاكهة من عصير من فول وحمص .. وصل الشقة القريبة من المسجد ليلة بعد وفاة أسمر بأسابيع .. ولما فتحت له بهيجة الباب وجد فايزة ابنته في وجهه واقفة خلف أمها .. فلما دخل وألقى السلام ، وقبلت فايزة يده كعادتها معه ومع أمها ، وعانقها الرجل مرحباً ، ثم تحول مصافحا لسعيد الذي قبل يده وتعانق الرجلان ، ولم يكد يجلس حلمي حتى دعتهم بهيجة لتناول العشاء الذي كان عبارة عن بطاطس مقلية وحمص مطحون وعليه فتات اللحم وبيض مقلي .. ولما انتهى العشاء بعد العشاء عادوا للجلوس في صالة الضيوف ، وتخلل ذلك السؤال عن أولاد سعيد وعن والده

وأمه وأهل المخيم والجيران .. ونزل أزرق وزوجته من أعلى للسمر معهم ، والجلوس مع سعيد ، وكانت جلسة طيبة ظهرت فيها المشاعر الحسنة ،وفجاءة دون سابق إنذار كما يقال هتفت بهيجة: يا حلمي ألا تعلم عظمة الله وأنه أكرم الأكرمين ؟

التفت إليها حلمي وأزرق ودهشا من انفعالها ومن كلامها وقال: وهل من شك في ذلك يا بنت الحلال ؟!

فقالت بفرح طاغ : أريد أن أخبرك أن عالية حامل ، وأن الله سيعوضنا خيرا في فقد ابننا أسمر وفايزة تريد أن تخبرك أن في بطنها جنينا يا حلمي

التفت ملهوفا إلى فايزة: أصحيح يا فايزة أنت حامل؟!

قالت : نعم ، يا أبي لقد تأكد الحمل منذ يومين فقط .. الله كريم

نهض حلمي معانقا لها من جديد ، ورفع بصره ويديه إلى السماء وقال: يا الله يا كريم ! أحلى خبر سمعته من سنين ، بل في حياتي كلها .. يا سعيد مبارك عليكما وعانق سعيدا ثانية

قال سعيد وهو يجلس: الحمد لله .. فايزة بنية طيبة .. وطاعتها لربها كبيرة .. وكان العلاج بسيطا بفضل الله وحده .. بعض الأدوية الخاصة وربنا سهل الحمل .. وبين الطبيب إمكانية تكراره .. وتحتاج إلى أدوية تثبيت

قالت بهيجة : الشكر لك يا الله.. ثم الشكر لك يا سعيد .. الله عوضنا اثنين عن أسمر

فقال حلمي سعيدا : وبمناسبة هذا الخبر العظيم يا سعيد ويا فايزة ، ولما لم يعد أمل بعودة أسمر بعد موته أن يعيش في الشقة فإني أسمح لكم بالعيش فيها بدون مقابل.. ولما تضعي المولود ـ بإذن الله ـ فسأكتبها باسمك يا فايزة يا غالية .. وأنت يا سعيد مثل ابني فعليك تقبل الأمر بدون حرج .. والبيت بيتك .. لن نمن عليك بشيء ، ونحن أهل

تطلع سعيد في عيني فايزة للحظات وقال: أقبل منحتك يا عم ..والشكر لكم .. ونحن أهل

- بارك الله فيك سعيد

وذهب إلى غرفة نومه ، وعاد يحمل مفتاح الشقة ، ووضعه في يد سعيد ، وقال: في أي ساعة

شئتم ارحلوا إليها .. فلن يعيش فيها أسمر .. ذهب إلى رحمة الله الواسعة

كررت فايزة تقبيل يد أبيها وأمها تمتم بالشكر ، فقال حلمي: شرف لنا يا سعيد أن تعيش معنا والحياة بقربنا .. وأنا افكر بشراء عمارة بقرشين الوكالة واستثمرها بالإيجار .. فقد أدنت بعضها ..ولليوم لا أحد يسد .. فابن عم لي نصحني بذلك ما تقول يا أبا العبد

- فكرة طيبة .. ربما معاناة الإيجارات أهون من معاناة المدينين

قال أزرق الصامت بعد ما هنأ أخته وزوجها بالحمل : هذا هو الحل الأمثل يا أبي ! حتى أنا لديّ بعض الزبائن يصلحون سياراتهم على الأجل .. ولا يعودون للأسف

تمت الحكاية الثامنة

التقيا في مكتبة الجامعة كان مشغولا بالفكر المادي

بفكر ماركس المادي الضال

علم أنها فقدت عفتها على مذبح ذلك الفكر العفن

وأن والدها الماركسي الكبير تعرض لاغتيال

من رفاق العمر

وأصبح أسير البيت أسير الضلال والزيغ

تساءل هل يقف أم يمشي ؟

إنها حكاية شاب ضال .

١٩٧٨

ضلال شاب

طفق المد الشيوعي الإلحادي في ما يسمى الوطن العربي يندفع بقوة بعد الحرب الثانية بعد انتصار الحلفاء على المحور الألماني ، فبدأ الفكر الشيوعي يروج له في المدائن العربية بقوة ، بعد أن كان محصورا ضعيفا ، وإن بدا معروفا لبعض الناس من مطلع القرن العشرين ، كان على مستوى أفراد وخلايا متهالكة همها الانحلال والفسق والإباحية والمخالفة ، ومع بزوغ شمس البلشفية في روسيا وظهور ما يسمى الاتحاد السوفيتي برزت الشيوعية أكثر على مستوى العالم ، ومع نصر الحرب الثانية برزت روسيا بقوة ، وقويت الأحزاب الشيوعية ، وأصبحت في صراع دموي مع العالم الحر والغرب ، فدخلت حياتنا ومدارسنا وتجمعاتنا وجامعاتنا ، ورغم الحظر الرسمي في بعض الدول تمادت الشيوعية ، وصار لها أنصار ودعاة جهارا ونهارا ، وتلقف هذا الفكر المنافي لعقيدة المسلمين عددا من الشباب والكهول للتخلص من عبق الدين وربقته لكسلهم وشهواتهم الحيوانية ، باسم المبادئ والأفكار بدأ يلاحظ الفكر الشيوعي بين الناس ، والكفر بالله علنا ، وإنكار وجود إله ورب لهذا الكون ، والمآسي الكبرى تشجع ظهور مثل هذا الكفر البواح ، واعتنقت بعض الفتيات العربيات هذا الفكر ، وروجن له باسم معادة الغرب والأديان ، وكان التيار الإسلامي موجودا على الساحة الفكرية أيضاً وينافس ويخوض معركة إثبات وجوده ، وهذا الفكر الشيوعي المعتنق وجد له مكانا في "أبو خروف" ، وكانت العامة تسمي بيت نضال الكلبي بيت الكفار ، وإن لم يكن هو البيت الوحيد الذي يحمل راية الإلحاد ، فقصة هذه المأساة كان مسرحها هذا البيت ، فهو في فترة ما كان من أنشط البيوت في نشر الكفر في الحي ، كان يجتمعون في بيت نضال الكلبي ليتعرفوا على الإلحاد ، ثم ينشروه بين الشباب في المدارس والجامعات والأسواق في المقاهي والنوادي ، ويتحدثون عن أحلام الاشتراكية التي ستحكم وتسود العالم ، وتدمر أمريكا وتتحول من الرأسمالية إلى السوفيتية ، وتزول الطبقات الاجتماعية ، ويصبح الناس سواسية كأسنان المشط العربي ، ورغم الجهد المبذول في دعوة الناس إلى الإلحاد وإنكار وجود الخالق العظيم ، ونشر

البيان الشيوعي بين فقراء "أبو خروف" وطلابه لم يتحول للإلحاد إلا العدد اليسير ، حتى أن أناسا لا يصلون ولا يهتمون بالدين والآخرة رفضوا الانتماء لهم ولإلحادهم ، وجدوا ضالتهم في بعض الأسر المنحلة أصلا وسمعتها سيئة أخلاقيا وغمرها الفساد والفجور ، وشباب غاوي الانفلات والتحرر الكامل ، فالتقى الطرفان كل له غاياته ، فكانت تشيع في الحي عن بيت نضال الليالي الحمراء والشيوعية الجنسية وترهاتهم الإلحادية ، والله اعلم بصحة ما يقال ، ولم يقتصر بيت نضال على فتيات "أبو خروف" وفتيانهم ، بل كانت ترد إليه فتيات من أحياء أخرى قريبة أم بعيدة ومن جامعات ، وجوه تظهر لحين ثم تختفي ويظهر غيرها ، فكان البيت قبلة الشيوعيين في "أبو خروف"

الإلحاد وجد قديما ومع الصراع الحاد في أوروبا ، وظهور الحركة العلمية التي استطاعت تفسير بعض قوانين الطبيعة والكون ، وأن قوانين تحكم هذا الكون وتسيره ، قال بعضهم لا داعي لإله يحكم الناس ويخضعون له ، وبدخول القرن العشرين شاعت مقولة كارل ماركس " الدين أفيون الشعوب " وقصد من إطلاقها أن الأغنياء والحكام يستغلون الدين الكنيسة لتخدير الشعوب والفقراء ويدفعونهم لقبولهم البؤس والفقر كأمر واقع طمعا في جنة الدين بعد الموت وشاعت كذلك مقولة فريدريك نيتشة " هل مات الاله ؟"

فهم يزعمون أن الكون نشأ عشوائيا دون الحاجة لصانع ، والحياة برزت من المادة عن طريق قوانين الطبيعة ، والإنسان عبارة عن جسد مادي ، ليس هناك روح إلهية فيه ، والموت نهاية لهذا الإنسان لا بعث ولا نشور ولا حساب .

شكل الإلحاديون ثلاث مجموعات : علماء فلاسفة تبنوا الإلحاد ، شيوعيون يريدون تحويل المجتمع إلى مستعمرات نمل ونحل مزارع حيوان ، والفريق الصامت .. فالملحد هو المنكر لدين الله ولوجود إله

القصة هنا لشاب اسمه باسل سمع عن البيت الكلبي ولم يقربه ، فصمم أن يعرف حقيقة ما يجري في بيوت الشيوعيين في "أبو خروف" ، خاصة بيت كبيرهم نضال الكلبي ، وأن

يتعرف على الفكر الشيوعي المنتشر في أنحاء العالم ، ويفهم الشيوعية والاشتراكية من أصحابها والعاملين بها ، كما اخبرني فيها بعد بقصته معهم ومع فتياتهم ، وبدأت الحكاية عندما كان طالبا في السنة الثانية من جامعة الآداب ، وقرر التعرف على ماركس وإنجلز ولينين وستالين ، قرأ بعض الكتب الشيوعية ، وبعض المعارف عنهم في المجلات المتوفرة في مكتبة الجامعة ، ووالد باسل رجل فاضل له مجموعة من المصانع في أطراف العاصمة ، وترتيبه بين إخوته الخامس ، والذي استهواه وشجعه على خوضه ذه اللعبة الاستكشافية أن تعرف على فتاة تتردد مثله على مكتبة كلية الآداب ، وهي طالبة كلية آداب سنة ثانية مثله أيضاً ، ولما عرفت أنه من "أبو خروف" تفاجأت بأنه لم يلتق بنضال الكلبي .. فقط أنه سمع باسمه ، لم يره ، لم يحدث بينهما مقابلة دعوة ، فهو شيخ الشيوعيين في الحي ، وناقشته في الفكر الشيوعي والمراحل التي سبقت الطبقة الشيوعية التي يعيشون فيها ، والتي ستنتشر حتى تعم الأرض جميعها ، وحدثته عن المساواة بين أفراد الشعب حق المساواة ، الكل سواء أمام القانون أمام الدخل أمام متطلبات الحياة السكن والملبس والطعام ، المساواة بين المرأة والرجل يأكلون مما ينتجون لا ما يستوردون ، المساواة في العمل والشغل ، الكل يبني الدولة الاشتراكية ، فصار يقرأ في كتب الماركسيين ـ نسبة لكارل ماركس ـ بحماس وهمة وقوة ، ويقرأ ما تشير له بقراءته ـ فلنسمها سمرا ـ فيقرأه ، فبعد أن قرأ مجموعة منها ، وقرأ عن مراحل تكون المجتمع والتاريخ ، وأن العالم على وشك الوصول للمرحلة الأخيرة ، وهي سيادة الشيوعية التي في روسيا والاتحاد السوفيتي والتي ستمتد إلى باقي بلدان العالم ، وأن عليه أن يكون لبنة في تحقق ذلك ، وأن يكون شيوعا لتصبح بلده بعد حين ضمن العالم الشيوعي .. تأكل وتلبس مما تنتج .. والناس شركاء في الحاجات .. وأن الحياة مادة .. لا إله والحياة مادة .. المادة هي الحياة والدنيا والآخرة .. ولا بعث بعد الموت ، ولا قبر ، ولا حياة أُخروية .. فتقول لي : كنت أجد صعوبة طبعا في قبول هذه الأشياء والاقتناع بها .. وأنت ترى أن مؤسسة وشركة ومدرسة تحتاج لسيد لمدير لقيم فكيف تكون سماء وأرض وليس لها سيد ولا مدير؟

قال : استسلمت للفتاة كطفل صغير يذهب للروضة ، فأخذت أجري بيني وبينها مناقشات وحوارات في المكتبة وخارج المكتبة حول التاريخ وبداية الفكر الشيوعي الذي يشيع اليوم ، وعن البلشفة الروسية التي تحكم الناس بالقوة والنار والديكتاتورية والجاسوسية والتعذيب والحبس والنفي والتشريد ، وكانت فتاتي تدافع بقوة عن أفكارها ومبادئها ، وأنها ولدت في أسرة تغلغلت في الشيوعية ، طبعا أن أجهل أسرتها كل الجهل ، ولا أعرف والدها رغم شهرته كما زعمت ، أو كما عرفت لاحقا ، تحدثنا عن كارل ولينين وأهمية الاشتراكية لتحقيق العدالة الاجتماعية للشعوب المقهورة وتوزيع الثروة على الأمة ، حتى لا تتكدس في يد طبقة واحدة ، وأن الاشتراكية تحتاج قوة وجيشا قويا يحميها ويعززها في هذا العالم ، ويدافع عنها ضد قوى الاستكبار والرجعية العفنة ، وتحدثت عن قوة الجيش الروسي في الحرب الثانية والشيوعية التي انقضت الصين من الاستعمار ، وحررت فيتنام من قبضة الغرب وكوبا ، فلولا الشيوعية لظلت هذه البلدان تحت نير الاستعمار والاستعباد ، وتحدثنا عن أهمية العمال في الحركة الشعبية ؛ لأنهم هم الذين يديرون المصانع والمكائن ، وتحدثنا عن قبول فلاحين روسيا والصين بالانخراط بالشيوعية رغم أنهم لم يكونوا عمالا ، فكنت أجد لديها من المبررات والحجج المستميتة في الدفاع عن الشيوعية .

وقسم ماركس شيطان الشيوعية : الحياة البشرية إلى خمس مراحل حتمية: هي الشيوعية الأولى والرق والإقطاع والرأسمالية والشيوعية الثانية والأخيرة.

وجعل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتميا من جهة، ومردودا إلى أسباب مادية واقتصادية من جهة أخرى.

فالشيوعية الأولى هي الأصل الذي عاشت عليه البشرية الأولى في بدايتها، وجوهرها المميز هو عدم وجود ملكية فردية لشيء على الإطلاق، وقال: ولا النساء أيضا، فقد كان الجنس يمارس على المشاع ، كل النساء لكل الرجال على السواء، والأرض ملك للقبيلة بأكملها، والطعام يتناوله الجميع معا والسلاح مملوك للقبيلة سواء سلاح الصيد أو الحرب.. والحياة

ملائكية شعارها التعاون والحب والتناسق والانسجام!

ثم اكتشف الإنسان البسيط الزراعة وضعف تعلقه بالصياد ، فأدى هذا الأمر المادي البحت إلى الانتقال إلى طور اقتصادي جديد تبدل فيه كل شيء تبدلا كاملا فراحت القبائل القوية تقاتل القبائل الضعيفة وتسترقها وتشغلها في فلاحة الأرض ، فنشأت طبقة الرق ونشأت الملكية الفردية وانتهت الفترة الملائكية التي عاشتها البشرية في فترتها الأولى.

ثم في المرحلة الثالثة اخترع الإنسان المحراث ، وأدى هذا الأمر المادي البحت إلى الانتقال إلى طور اقتصادي جديد، فقد اكتشف الإنسان أنه يستطيع أن يزرع - بهذه الآلة الجديدة- مساحة أوسع بكثير مما كان يمكن زرعه بالآلات السابقة ؛ فنشأ نظام الإقطاع ، ونشأت معه أفكار وعقائد ونظم ومؤسسات جديدة مختلفة تماما عن السابقة.

ثم اخترع الإنسان الآلة الصناعية فنشأت الرأسمالية - بسبب مادى بحت- وانتقلت صورة الملكية الفردية من ملكية زراعية إقطاعية إلى ملكية صناعية رأسمالية، ونشأت أوضاع فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة بالمرة، فتغيرت الطبقة ذات السيادة فلم تعد هي طبقة الأشراف "أمراء الإقطاع" إنما أصبحت طبقة الرأسماليين أصحاب المصانع وأصحاب رءوس الأموال، ولم يعد الشعب في مجموعه فلاحين إنما صار عمالا صناعيين، وتغيرت مفاهيم هؤلاء وهؤلاء وتغيرت نظرتهم إلى كل القيم التي كانت سائدة من قبل في المجتمع الزراعي.

ثم نشأ الصراع القوي بين العمال وأصحاب رءوس الأموال فنشأت الشيوعية وهي المرحلة الخامسة والأخيرة ؛ لا لأسباب مادية في هذه المرة إنما لأسباب اقتصادية - وهي صنو الأسباب المادية في نقل الناس من طور إلى طور- ولكن في هذه المرة لا يحدث تطور ينقل الناس إلى طور جديد بعد الشيوعية، إذ الشيوعية هي المستقر الأخير للبشرية ، كما كانت بدايتها هي الشيوعية ، وتحدث في داخل الشيوعية تغيرات ولكنها لا تغير المبدأ الرئيسي لها، وهو إلغاء الملكية الفردية وإقامة الملكية الجماعية بدلا منها ، وفي النهاية - نهاية كل تطور وتغير- تلغى

الدولة لانتفاء الحاجة إليها، ويزيد الإنتاج بالدرجة التي تسمح بتطبيق مبدأ " كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته" ويزول الصراع نهائيا من حياة البشر، ويعيشون في حالة من الملائكية كالتي بدأوا بها حياتهم أول مرة.

ويركز ماركس في كلامه من مراحل التطور الحتمية وأسبابها المادية والاقتصادية على الانتقال من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية؛ لأن هذا هو الطور الذي كان قائما في وقته؛ فيقول: إن من سمات المجتمع الإقطاعي الزراعي: التدين، وترابط الأسرة، وسيطرة الرجل على الأسرة بكل أعضائها، أي: على الزوجة والأولاد، ويرد هذا كله إلى أسباب مادية واقتصادية.

فاستسلم باسل لأفكارها ووجهة نظرها فقال : كأنني مقتنع بما تقول حتى أنها تنبأت أني سأكون شيوعيا عالميا ، وعليّ أن أسعى للتعرف على نضال الكلبي ، وأنها ستقدمني إليه في أقرب فرصة متاحة لأنهل من شيوعيته العالمية ، فقررت أن ألعب هذه اللعبة الخطرة ، وادخل دهاليز شيوعية "أبو خروف" بحجة التعرف والغرف من أفكار ستالين وإنجلز وماركس وكاسترو وماو وهوشي منه الذين لا أعرف لغاتهم بالطبع .. سأطلع على ما ترجمه شيوعيو العرب عنهم ، واعترف لكم أعجبت بسمر رفيقة الجامعة ، حتى أحببت أن أسألها صراحة وإحراجها: هل صحيح ما يقال عن الشيوعية إنها تجعل النساء مشاعا للرجال للأخ والعم والخال والابن وماذا النتيجة ؟!

فأجابت دون مواربة: هذا كان في الشيوعية الأولى البدائية حيث لم تكن هناك طبقة عاملة ، فالمرأة تمارس الجنس مع كل الذكور ، والرجل يعاشر من شاء من نساء حيث لا أبوة ولا أمومة ، الكل آباء والكل أمهات كما يحدث في بعض عائلات الأسود ، ثم تابعت بعد صمت حتى استوعب الفكرة: الأمر بسيط حيث لا زواج ، ولماذا الزواج ؟ والكل يعيل الكل .. والجنس الهدف منه المحافظة على النوع ، ثم المتعة .. سعوا في روسيا إلى فعل هذا ، ثم عادوا عن ذلك خشية انتشار الأمراض الجنسية ، وعادوا إلى مؤسسة الزواج دون تجريم للزنا .. المولود ابن الدولة ..الأم حاضنة والأب لا ينفق .. الدولة تنفق على الابن الشيوعي فهو ابن

الحزب والأمة كلها .. والفتاة الشيوعية تمارس الجنس برضاها ليس كل شخص له الحق بمضاجعتها .. يشير إليها فتلبي الطلب كالجواري في القديم .. رضا متبادل ، والحمل برضاها .. الجنس لا يسمى زنا عند الشيوعي .. فلسنا بحاجة لعقد وتوثيق .. فالمولود ابن الدولة الشيوعية .. الأكل والشرب هل يحتاج لتوثيق وعقد ومحكمة ؟ والجنس حاجة مثل ذلك.. ولماذا التفريق؟ تختار شريكها وهو يختار شريكته للأبد لسنة لعشر سنين لا طلاق .. ولا محاكم كما تحيا الحيوانات والطيور في الغابات والبحار

- أهذا من الشيوعية ؟! اسم على مسمى أتعنين؟! أهذا في الاتحاد السوفيتي ؟!

- لمن هو شيوعي حقيقي فتجد هذا .. فروسيا فيها أناس لم يقتنعوا بالشيوعية كفكر ومنهج حياة ، ففيها الرجعيون ورجال الكنيسة وحتى هناك مسلمون في نفس روسيا والقوقاز ، فلا إجبار على اعتناق الشيوعية الحكم شيوعي البلشفي ، المدارس تعلم الشيوعية والاشتراكية ، ومع الوقت سيدخل الجيل الجديد كله في الشيوعية ولو نفاقا من أجل الوظيفة والسلطة .. والزواج موجود بينهم ؛ ولكن الشيوعي الحقيقي لا تهمه هذه المؤسسة ، ومن حق المرأة الاحتفاظ برجل واحد والرجل كذلك ، لكن لا تجرم الزانية والزاني وينسب الابن لأبيه ، ويجوز اتخاذ العشيق والعشيقة دون تعصب ، فالانفصال سهل ، فهناك شيوعيون يحبون الحياة الأسرية الصغيرة .. أنت عندما تجالس نضال الكلبي تسأله ما تشاء ، فهو أخبر مني ، فقد زار الاتحاد السوفيتي أكثر من مرة ودول أوروبا الشرقية ، وستعرف الكثير من الأسرار أسرار العالم الشيوعي .. فكر يا رفيقي بحسم قرارتك ، وستجد في الاشتراكية والشيوعية حياتك وشخصيتك

- أأنت شيوعية مائة بالمائة ؟

- تقريبا ؛ ولكنني في أول الطريق وإن انحدرت من أبوين اعتنقا الشيوعية بقناعة وقوة .

وتجرأت وقلت: وهل تسمحين لشيوعي بمعاشرتك جنسيا؟

- لا ، ليس كل شخص ، ولا حرج في فعل ذلك مع أحدهم إذا راق لي ذلك ، ولا تنس أننا

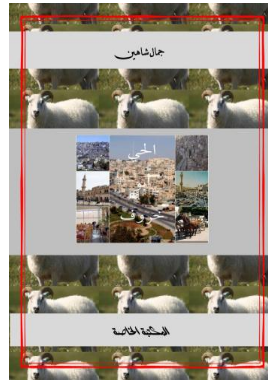
في بلاد العرب ، بلاد لا تحكمها الشيوعية ، فالعلاقات بين الجنسين فترة حساسة حتى في الغرب من النادر أن تصل فتاة لسن ثماني عشرة سنة وتبقى عذراء ؛ فإنها في نظرهم معقدة .. والشيوعية لا تركز على الجنس كما يشاع عنا ، إنما تسعى للحياة الفضلى ، والمساواة بين أفراد الشعب ، والقضاء على الطبقات والفوارق الاجتماعية .. ولكني لست عذراء ، ولا تهمني عذريتي وبكارتي ، ويمكنني فعل ذلك دون حرج من أب أو أم.

- أهلك يعتبرون هذا أمرا خاصا وطبيعيا!

- لا دخل لهم بأفعالي هذه

- ومن ينفق عليك ؟!

- أهلي ليس الحزب ، ربما بعد الشهادة الأولى أسافر للدول الشيوعية رومانيا بلغاريا



فلسفة العفة لدى الشيوعيين : إن الرجل في المجتمع الزراعي هو المتكسب ، وهو الذي ينفق على الزوجة والأولاد ، ومن ثم يسيطر عليهم ويبسط سلطانه بسبب هذا الإنفاق ، ويكون سلطانه أشد ما يكون على الزوجة الضعيفة ، فيفرض عليها أن تكون له وحده فقط ، ومن ثم تصبح قضية العفة والمحافظة على العرض ذات قيمة كبيرة في المجتمع الزراعي ، ويفرض على المرأة أن تحافظ على عرضها وشرفها "إرضاء لأنانية الرجل المتكسب المنفق الباذل " ويضفي على ذلك ثوب الدين والأخلاق ، فتصبح قضية العفة قضية دينية وأخلاقية في حين أنها مجرد انعكاس لوضع اقتصادي معين يكون الرجل فيه هو المتكسب دون المرأة ، هذه هي فلسفة الشيوعية نحو العفة .

ومن جانب آخر فإن المرأة تستقل اقتصاديا ؛ لأنها تعمل وتتكسب ، ولا تعود عالة على الرجل كما كانت في المجتمع الزراعي ، ومن ثم يفقد الرجل سيطرته عليها ولا يعود في إمكانه أن يفرض عليها أن تكون له وحده ، كما كان يفرض عليها في المجتمع الزراعي ، فتتحرر من القيود ، وتفقد قضية العفة أهميتها في المجتمع الصناعي المتطور؛ لأنه أصبح من حق المرأة أن تهب نفسها لمن تشاء دون سيطرة للرجل عليها.. والرجل غير مربوط بأسرة تقيده

فمن طبيعة المجتمع الزراعي أن تتكاثر الأسرة وهي في البيت الواحد أو في بيوت متلاصقة متقاربة، لا لأن ذلك فضيلة في ذاته أو شيء مستحسن، لكن لأن ذلك من طبيعة الطور الاقتصادي ومستلزماته؛ لأن رجال الأسرة كلها يتعاونون في الزراعة ، وكلما كثر أفراد الأسرة زاد إنتاجها الزراعي، فيحقق ذلك مصلحة اقتصادية للأسرة ، أما في المجتمع الصناعي فكل عامل شخصيته مستقلة لا ارتباط بينه وبين غيره من الناحية الاقتصادية، ومن ثم تستقل كل أسرة صغيرة – أي: الأب والأم والأولاد– ببيت مستقل، وكلما كبر أحد الأولاد وتزوج استقل بأسرته الصغيرة في بيت خاص ، وتفقد الأسرة الكبيرة ترابطها مع الزمن ، ولا يعد ذلك عيبا ولا رذيلة ؛ لأنه هو الانعكاس الطبيعي للطور الاقتصادي القائم ، بل إن الأسرة

الصغيرة ذاتها تتفكك روابطها بسبب العمل، عمل الرجل والمرأة كليهما، كل في مكان يعمل فيه ، وعدم ارتباط الزوجة بالبيت وتربية النشء، ولا يعد ذلك عيبا كذلك ولا رذيلة ؛ لأنه لا توجد قيم ثابتة في حياة البشرية ، لا توجد فضيلة ثابتة ولا رذيلة ثابتة ، إنما الفضيلة ما يوافق الطور الاقتصادي القائم والرذيلة ما لا يوافقه ، فكما كانت العفة هي الفضيلة في المجتمع الزراعي يصبح التحلل هو الفضيلة في الطور الصناعي أو هو الأمر الطبيعي على أقل تقدير.

وكما كانت سيطرة الأب هي الفضيلة في المجتمع الزراعي يصبح فقدان سيطرة الأب هو فضيلة المجتمع الصناعي أو هو سمته الطبيعية ، كانت الأسرة المترابطة قيمة من القيم الاجتماعية المستحسنة في المجتمع الزراعي، وتصبح الأسرة المفككة -حتى على النطاق الصغير- هي القيمة الاجتماعية المستحسنة في المجتمع الصناعي أو هي السمة الطبيعية على أقل تقدير!

فإذا جاءت الشيوعية ـ وهي المرحلة الحتمية الأخيرة في حياة البشرية ـ فلسنا في حاجة إلى تعديل جذري في القيم والعقائد والأفكار.. تتغير فقط الصورة الاقتصادية فتلغي الملكية الفردية إلغاء كاملا ، وتصبح الدولة هي المالك الوحيد.. ولكن القيم المباركة التي أنشأها المجتمع الصناعي تظل قائمة ويزاد فيها فقط حتى تصل إلى نهايتها ، فالدين يلغى إلغاء كاملا، ويقضى على البقية الضعيفة الباقية منه في المجتمع الرأسمالي؛ لأن مهمته التي يقوم بها هناك - وهي تخدير الكادحين ليرضوا بالظلم الواقع عليهم- تنتهي في المجتمع الشيوعي الملائكي الخالي من الظلم ، فلا يعود للدين حاجة ألبته.. وتفكك الأسرة تفكيكا كاملا ؛ لأنها بقية - سخيفة- من بقايا العهود الرجعية التي كانت تمارس فيها الملكية الفردية ، فتتربى الأثرة في نفوس الأبوين رغبة في توريث أبنائهم.. فالآن وقد ألغيت الملكية الفردية فالأسرة نشاز في المجتمع الجديد "المتطور" والأولاد ملك الدولة، هي التي تملكهم -ملكية جماعية! مزرعة دجاج أو حيوان – وهي الدولة التي تنشئهم التنشئة الصحيحة، وليس لأبويهم إلا ولادتهم لحساب الدولة.. حظيرة خنازير

وأما العلاقات الجنسية فهي حرة حرية كاملة؛ لأننا عدنا - عودا على بدء- إلى الشيوعية الأولى[التي لم تثبت تاريخيا ولا علميا] ، إلى تناول حاجات الحياة كلها على المشاع. الكل للكل .. وهنا تصل البشرية إلى قمة التطور الذي ليس بعده شيء!

وأشاعوا الفوضى الجنسية والانحلال، وحاربوا قيد "العفة" الذي يحول بينهم وبين تنفيذ مخططاتهم الواسعة لتحويل الآدميين إلى دواب تدور في طاحونتهم، فيجيء فيلسوفهم فيقول إن قضية العفة إنما أخذت أهميتها من أنانية الرجل في المجتمع الزراعي "المتأخر" باعتباره هو المتكسب والمنفق .. كل المبادئ المادية تركض وراء الشهوات الجنسية وعدم تحمل مسؤولية الأبناء .

كان باسل قد عرف وتعرف على بعض الشباب الشيوعي والحركة الشيوعية العربية في المدرسة الثانوية ، فهم يوزعون البيانات والنشرات الشيوعية خفية بين الطلاب ، فالحزب الشيوعي كان موجودا في الساحة دون ترخيص رسمي لنشاطه ؛ للقانون الذي يحظر الحزب الشيوعي ، أما على مستوى فردي شخصي فلا تمنع الدولة العربية اعتناق الفرد للفكر الشيوعي والوجودي والإلحادي والقادياني والبهائي .. وكانت أيضاً حركة الشبيبة الشيوعية ثم ذاعت أسماء كثيرة كلها تصب في خانة الشيوعيين ؛ لأن هناك شيوعية روسية وشيوعية صينية وشيوعية كوبية حسب مصدر الدعم المادي .. تسمع فكر شيوعي متطرف ، وشيوعي معتدل

وكانت القضية العقدية التي تثار بين أصحاب الفكر الإلحادي والفكر الإسلامي قضية الوجود الإلهي ، فالشيوعية لا تؤمن بإله للكون والخلق ، ولا تؤمن بدين ، والإله عندنا فطرة ، فصعب حتى على من يحمل أفكارا شيطانية أن ينكر الله ؛ لأن لإبليس زعيم الشر يؤمن بالله { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} .. وكفر بعضهم بالاتحاد السوفيتي ؛ لأنه كان من أوائل من اعترف بدولة إسرائيل عندما أنشئت على البلد الفلسطيني ، وطرد أهلها .

الجدل يدور بينهم على وجود الله أم الكون بدون إله ، فهم يقولون لا إله والحياة مادة ، وكبار

الشيوعيين في أوروبا هم يكفرون بالدين ، ويعتبرونه أفيون الشعوب والحكام ، وهؤلاء لا يهتمون بقضية الوجود الإلهي لا إيمان عندهم ، إنما القضية مهمة في الشرق لأن الوجود الإلهي قضية مسلم بها ، وفطرة لا تحتاج إلى مناقشة .. فالإسلام دين أغلب سكان الشرق العربي والإسلامي .. فاهتم المفكرون المسلمون في تفنيد ضعف نظرية إنكار الخالق فهي فكرة فطرية قبل أن تكون عقلية ، وحتى الفلسفة الإسلامية التاريخية لم تناقش فكرة وجود الخالق إنما الصراع الفكري كان قائما وما زال بين تقديم العقل على الوحي والنقل على استنباط الأحكام .. فقصة ابن طفيل حي بن يقظان تعالج الفكرة هذه ، فلذلك عرف حي خالقه بالنظر إلى المخلوقات والفكر والحياة والكون ؛ ولكنه لم يعرف كيف يعبد هذا الإله ؟ كيف يخضع له خضوعا صحيحا ويعبده عبادة صحيحة ؟ فاحتاج للوحي والنقل .. فالعقل يؤدي إلى معرفة الخالق القادر ؛ لكن كيف يعبده ؟ فهذا يحتاج لرسول ونبي .. فهذا ما شغل الفكر الإسلامي في وقت من الدهر .. لابد للكون من صانع خالق هو الله ؛ لأن العدم لا يخلق شيئا ، وله مدبر يدبره ويسيره .. فالعقل وحده كيف يعرف صفة الصلاة والصوم والحج ؟ .. ولكن الفكرة الشيوعية الإلحادية شوشت على الناس أفكارهم ، وضعف المسلمين أمام الغزو الغربي الاستعماري أوجد قبولا لدى بعض الناس للفكر الشيوعي الضال الزائغ .. فهم ينكرون الدين والإله دون إعمال الفكر في صواب هذا الدين ؛ لذلك البسوا الشيوعية لباس العلم ، لذلك كتب أهل العلم والفكر الإسلامي كتبا في هذه القضية لإعادة الشباب المسلم التائه إلى الإسلام ودينه ، فكان النقاش والحوار والجدل حول قضية الوجود التي يجب أن تكون بدهية ، فعبدة الأصنام قديما وحديثا ما كانوا ينكرون وجود الله ؛ إنما كانوا يشركون معه آلهة أخرى لتقربهم إليه زلفى ، فهم يعترفون بربوبية الله ، وقلة من كانت تنكره سبحانه وتعالى ؛ ولذلك كانت كتب ومناهج التعليم تتكلم عن الوجود والدهرية القدماء حماية للشباب من الافتتان بالشيوعية السوفيتية أو الشيوعية الصينية إذ كانا على خصام وتناحر ؛ لذلك كانت تشتهر بين الطلبة قصة الإمام أبي حنيفة مع جماعة من الدهريين ، وهم أجداد أهل الإلحاد ، فضرب بينهم

وبين الإمام موعد للمناظرة ، وانتظروه في المكان المتفق عليه ، فتأخر الإمام عن موعده ، وجاءهم متأخرا وكانوا غضابا عليه ، وكيف تأخر عنهم كل هذه الوقت ؟ فقال لهم بما معناه : هونوا على أنفسكم أيها السادة كنت قادما إليكم ، ولما شئت أن اقطع النهر راكبا ، لم أجد قاربا يقلني إليكم ، ثم رأيت الريح قد اشتدت وهاجت وقلعت الأشجار من الأرض ، واصطفت بعضها جنب بعض وجاءت الحبال والمسامير حتى أصبحت قاربا ، فركبته وجئت إليكم ، فعجبوا من كلام الإمام ، وأنكروا حدوث هذا ووجود هذه السفينة ، فقال باسما: أنتم تقولون ذلك . فازداد عجبهم من الشيخ فقال : ألستم تقولون إن هذه السماء وهذه الأرض والجبال والأشجار خلقت نفسها ، ووجدت من دون موجد ، فكيف سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج تكون من غير خالق ؟ فرجعوا أو دخلوا دين الإسلام ، وغير ذلك من القصص الدالة على الوجود الإلهي .. فالشباب المسلم عنده قضية الوجود قضية فطرية مسلما بها ، والعقل يقر بها ويدعمها ، فلكل فعل فاعل ، فهل يمكن أن تصدق إذا طرق عليك الباب أن يكون بدون طارق له ؟! والصدفة طرقته .. والصدفة خلقت هذه السماء والأرض .. والجبال يستحيل وجودها صدفة ، وتدل على عناد وجهل وحمق فاعل ذلك .. فكما لا يمكن أن يكون إنسان في مكانين في نفس الزمن ، فلا يمكن لهذا الوجود أن يكون بدون مدبر ومكون وخالق حكيم .. العقل السليم يرفض ذلك مهما تمسك الملحد ببراهين وهمية وأدلة لا تغني ولا تسمن من جوع .. فهذا الإله يجب أن يكون قادرا قويا حيا حكيما عليما .. الجاهل لا يخلق شيئا ، والضعيف العاجز لا يمكن أن يوجد كونا عظيما .. فالطبيعة المزعومة عند الماديين أصبحت إلها تخلق المادة ، والمادة تخلق المادة ، تخلق نفسها .. فالمادة مخلوقة فلابد لها من خالق

لقد كان باسل على موعد مع سمر زميلة الكلية أو مكتبة الكلية لتعرفه على نضال الكلبي ابن "أبو خروف" ليأخذ عنه الفكر الشيوعي على أصوله ، وأن الشيوعية هي المرحلة الأخيرة من مراحل التطور الاجتماعي ، والتي يسعى إليها كل العالم ، لا أعلم أي عالم يقصدون ؟ فأمريكا الشمالية أضعف شيء فيها الفكر الشيوعي والاشتراكي .. فالسعادة لا تتحقق إلا

بوصولنا للمرحلة الشيوعية الحديثة ، وتلغى وتتوقف الطبقات ويتساوى جميع الناس في الثروة والحقوق والأحلام ، لا يبقى أغنياء ، ولا يبقى فقراء .. الاتحاد السوفيتي أبو الشيوعية المعاصرة فشل في الوصول لهذه المرحلة لضعف الإنتاج وضعفت القوى العاملة حتى اضطر لوضع الحوافز وإهداء السيارات لبعض المديرين والتململ في بلدان أوروبا الشرقية وإعدام الفاشلين كما يحدث في الصين ، حتى أن الصين ابتعدت عن شيوعية ستالين ، واعترف خروتشوف بأخطاء ستالين الكبيرة والمدمرة ، فأصبحت الشيوعية اسما في بعض الدول التي اقتنعت بالشيوعية ، لا يركز فيها إلا على الجانب العقائدي فقط .. الجانب الاقتصادي على وشك السقوط .. مساوئ التطبيق هي التي تكشف عوار الأفكار والإلحاد وعجز النظريات ، قامت روسيا بمشاعية النساء ، ثم عصف الأمراض الجنسية بهذه الفئة ، فأوقفوا المشروع زاعمين أن هذه مرحلة مرت على المجتمع الشيوعي البدائي ، وظهر مثل ذلك في الفرس والقرامطة ، وعادوا كما يفعل الغرب زوجة واحدة وعدد من الخدن والعشيقات ، وزادت عيادات المعالجات الجنسية ومراقبة دور الدعارة والبغاء ، وعرض أنفسهم على الطب باستمرار خشية تفشي أمراض الجنس والإباحية .

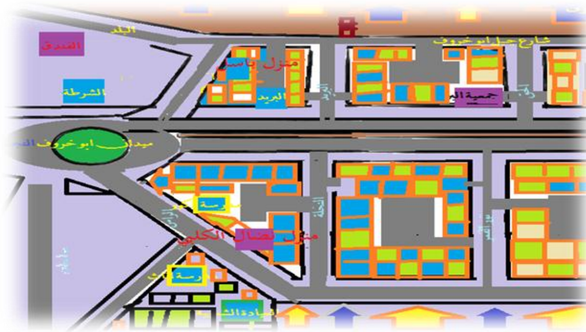


في بيت نضال

التقى باسل وصديقته سمر عند دوار "أبو خروف" كما اتفقا ، وبعد السلام والمصافحة ، مشيا إلى بيت نضال حيث يقع في الجزء الشرقي من "أبو خروف" قريبا من الدوار في القطعة التي بين شارع النخلة والرأس ١٠٢ قرب مدرسة الذكور الأساسية ، وحتى باسل لا يفصل بين بيته وبين نضال إلا شارع "أبو خروف" الرئيسي ، لذلك قال لما وقفا أمام بيت نضال : بيتنا في المربع المقابل .

كان الوقت عصرا ، فاستقبلهم الكلبي مرحباً بهم وبالعضو الجديد وساقهم إلى غرفة الاستقبال الواسعة ، ورأى باسل عددا من النساء والشباب مجتمعين في الغرفة ، وكان الدخان يملأ فضاء المكان ؛ كأنه غمامة ، وعرفهم نضال بحماس ظاهر على الزميل الجديد المبتدئ وقال بصوت خطابي : تأمل الرفيقة سمر أن تضم إليكم عضوا جديدا السيد باسلا .. وهو من سكان هذا الحي الشامخ حي الشباب الثائر على التقاليد وعلى الدين الظلامي دين الجهل والتخلف والرجعية أفيون الشعوب .. إنه طالب كلية الآداب مع الرفيقة سمر

رحب الجلوس بالزميل الجديد ترحيبا حارا ، وأشار نضال لهما بالجلوس على أحد المقاعد الكبيرة في صالة البيت ، وأخذ الرجل يذكر لهم المعلومات التي روتها سمر عن باسل وباسل يراقبهم بعينيه ويسمع بأذنيه ، وقال أحدهم : مرحباً ، ستجد ما يسرك في شباب الحزب الشيوعي في هذا البلد ، وعندما تتحقق الرغبات الكبيرة ، ستجد مكانا يليق بدراستك يا رفيق باسل



لما سمع كلمة رفيق من الرجل وبطريقة مضحكة كاد يضحك أو ينفجر ضاحكا .. فهؤلاء لا يعرفون من الشيوعية إلا مصطلحات ، وأهمها رفيق البروليتوريا العمال ، ويقصد كارل ماركس بالبروليتاريا الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري ، ويعتبر ماركس البروليتاريا هي الطبقة التي ستحرر المجتمع وتبني الاشتراكية بشكل أممي .. ماركس هو صاحب البيان الشهير مع رفيقه فريدريك انجلز ١٨٤٨م وهو ما يسمى عربيا البيان الشيوعي وهو مبادئ الشيوعية ، ولكنه كما اخبرني أحب أن يستمر في التجربة ، العالمية .. الاتحاد السوفيتي هو الصنم الجديد لهم ، ثم سمعهم في أول جلسة له بينهم يتحدثون عن أبطال روسيا في الحرب الكونية الثانية ، وكيف سحقوا النازية ؟ وأخذوا نصف ألمانيا .. والغريب أنهم سموها ألمانيا الديمقراطية .. ومن المعروف أن الحزب الشيوعي أبعد الناس عن الديمقراطية .. فهم كالنازيين حزب شمولي ديكتاتوري .. وذكروا أمامه قامات شيوعية مشهورة على مستوى العالم والأممية الأولى والثانية وعظمة الاتحاد السوفيتي .. ولولاه ما انتصر الحلفاء على الرايخ الثالث .. ودخلوا على الحرب الباردة ، وتحدثوا عن دعم الروس للمد الثوري العربي لنيل الاستقلال والثورة على الأنظمة الرجعية وتحرير الشعوب ونشر الاشتراكية العربية .. فتحقيق الاشتراكية هو الدرب إلى مرحلة الشيوعية حيث يتساوى المجتمع الشيوعي في الإنتاج والحياة والرفاهية والعمل.. وتحدثوا عن اشتراكية ناصر في آخر الخمسينيات والستينيات وانتهت بهلاكه سنة ١٩٧٠ ، وبعد حرب تشرين ذهبت الاشتراكية وبدأ التقارب بين مصر وأمريكا وإسرائيل .. وهم اليوم ١٩٧٨ يتحدثون عن السلام فيقول باسل : ورأيناه بأم أعيننا ، وهؤلاء ليس لهم من الاشتراكية إلا الاسم .. والشعب ما زال حانقا يصارع من أجل لقمة العيش ، والروس وصلوا الفضاء .

وكانوا يمجدون الروس تمجيدا عجيبا فقال أحدهم : مالك صامت يا رفيق باسل؟!

التفت باسل للسائل وابتسم وقال: أنا ضيف أحب أن أسمع أنا حديث التجربة في الشيوعية ، الرفيقة سمر أحبت أن أتعرف عليكم ـ إنهم يحبون تذكير لقب رفيقة حيث لا يحبون التفريق

بين الجنسين كما في اللغة العربية ـ وأزداد معرفة في الكفاح الشيوعي ، ولكن ما قرأته عن الشيوعية أنها نشأت ضد النظام الكنسي في أوروبا ، وضد الدين في أوروبا بزعم أنه محارب للعلم داعي للجهل ، وظهرت الاشتراكية ضد النظام الرأسمالي ، وذلك في عصر النهضة الصناعية ، وقد ظهرت طبقة العمال في المصانع .. يعملون ويكدحون ليل نهار ويأخذون الفتات ، ويهملون في المرض والكبر ..وأصحاب المصانع يأخذون الذهب والكثير .. فظهرت نقابات العمال التي تطالب بتحسين أوضاعهم المادية ، ورعايتهم مرضى وشيوخ ، وتطالب بحقوق العمال .. وأنا راغب بمعرفة المزيد منكم عن طبقة العمال" يا عمال العالم اتحدوا ".. وعلى ماذا يتحد العمال ؟! وما المقصود بقولكم الدين أفيون الشعوب ؟! فالكنيسة ما زالت تعمل وموجودة في الدول الاشتراكية والشيوعية وفي أوروبا والفاتيكان .. وقرأت أن دولا أوروبية غربية كانت مرشحة لتنجح فيها الثورة الشيوعية .. ونحن في آخر سبعينيات القرن العشرين ولم نر هذا التحول ، ولم تصبح فرنسا رغم وجود قوى اشتراكية فيها شيوعية .. أريد أن أفهم لأرد على الإسلاميين والتحريرين وغيرهم من الخصوم

سكت الجميع عدة دقائق يتبادلون النظرات ، وقال نضال كأنهم كانوا ينتظرون رده : نعم معلومات جيدة يا رفيق باسل .. ومن حق كل شخص الاستفهام عنها .. حدثتني الرفيق سمر عن الحوارات الساخنة والحادة بينكم عندما تقرأون كتابا .. نعم ، يجب أن نقرأ ونرد وندافع عن منهجنا وبرنامجنا .. ونحن نحب أصحاب الفكر حتى يكون المرء متمكنا مما يدعو إليه الناس ، ويبدد الجهل والظلام .. فتحرير الشعوب يحتاج لفكر وأدب ونشاط وحتى يستطيع مناقشة أهل الدين وأهل الرأسمالية .. طبعا أنت تعلم أن الاشتراكية نظام اقتصادي ليس ديني ولا سياسي .. مرحلة من مراحل كفاح الشعوب ؛ فإذا وصل الشعب والأفراد إلى هذا المرحلة أصبحوا في المرحلة الأخيرة من مراحل النظام الاجتماعي الشيوعية الجديدة .. كانت مرحلة الشيوعية الأولى ثم مرحلة الرق والزراعة ثم الإقطاع ثم مرحلة الالة والرأسمالية الصناعية ..وظهرت الاشتراكية بديلا عن الرأسمالية ..ظهرت للدفاع عن الظلم

الواقع على طبقة عمال المصانع والمناجم في أوروبا ، وكانت البداية في ظهور نقابات المهن القوية تطالب بحقوق هذه الطبقة ، والنظام الاشتراكي نظام يدعو لأن يكون أهل الدولة شركاء في الموارد والإنتاج ، وألا يذهب الإنتاج الصناعي إلى طبقة الأغنياء والأثرياء كما في الولايات الأمريكية المتحدة وأوروبا الغربية ، حتى الإسلام دين أغلب الشعوب العربية منه جانب اشتراكي ، وأبو ذر صاحب رسول الله كان الاشتراكي الأول في الإسلام ولكنهم نفوه من مسرح الأحداث حتى لا ينتشر الفكر الاشتراكي بين الشعوب العربية .. والملكية الخاصة مرفوضة في الفكر الشيوعي.. الموارد لكل الناس ، الإنتاج لكل الناس .. والتدين يا رفيق باسل ضد التطور ضد التقدم ضد الاشتراكية .. التدين يدعو للجهل أو الظلم والسكوت على ظلم الحكام ، والجزاء يكون في الآخرة بعد الموت ، والرضا بكل ظلم الرأسماليين والحكام .. والسكوت على ظلم أصحاب الأموال .. فالتدين لا يدعو للثورة على الحاكم الظالم ، يدعو إلى الرضا والصبر والخنوع .. فالأفيون مادة مخدرة للذي يدمن عليه .. يدعو الشخص أن يصير عبدا لهذه المادة خاضعا لها ، ولا يريد إلا هذه المادة .. وكذلك التدين اخضع اخضع اقبل الأمر الواقع .. لا يتردد إلا على الكنيسة والجامع .. صحيح أن الاشتراكية والشيوعية دعوة للتمرد على الدين وعلى العبودية وعلى الكنيسة .. فكل أديان العالم كذلك تدعو اتباعها للخنوع والخضوع للكاهن للشيخ للملك .. ثم لماذا نؤمن بشيء غير موجود غير ملموس غير معروف سموه إله ؟! قالوا لنا إن هناك الله أين هو هذا الإله ؟ أين يسكن ؟ كيف يفعل ؟ بفهم قوانين الكون والطبيعة والمادة مات الإله .. الأسئلة تلك لا أحد يجيبك عليها إلا بتفاهات وخرافات .. ولماذا نؤمن بوجوده ؟! لا إله والحياة مادة .. نحن لا نعرف إلا المادة المدركة بالحواس .. نراها نلمحها نملكها نستخدمها .. أين الله ؟ عندما نرى دولا كأمريكا وبريطانيا وفرنسا تقهر الشعوب الضعيفة في أفريقيا وآسيا .. الاستعمار والاستبداد دمر العرب ، دمر المسلمين .. خضعت هذه الشعوب للاستعمار والاستبداد العثماني والإنجليزي ..ولم تحرك ساكنا حتى ظهرت الحركات الثورية .. والحكام مثل باقي الناس كلهم سواسية ..

قامت الحركة الثورية الشيوعية بثورات حتى كانت الثورة البلشفية الكبرى في أواخر الحرب الأولى وصارت للبلشفية دولة تحميها ، وتنشر أفكارها ، وتطبقها على أرض الواقع .. فالشيوعية حررت الشعب الصيني من الاستعمار الياباني والأوروبي {١}



{١} البلشفية الروسية أو البلاشفة أو البلشفيك التي تعني الأكثرية وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين، في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام ١٩٠٣ وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب، بينما سمي البقية بالمونشفيك أي الأقلية ، وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي ، إلى جانب هذا كون البلاشفة جيشا يسمى بالجيش الأحمر الذي خاض حروب أهلية مع الجيش الأبيض وهذا الأخير الذي كان مدعوما من الغرب بريطانيا- فرنسا ، وكانت الغلبة للبلاشفة حينها سيطر على الحكم في روسيا في ظل الحكم الاشتراكي وقد ظلت تلك الجماعة تعرف بهذا الاسم حتى بعد نجاح ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ التي عرفت باسم الثورة البلشفية.

أخذ باسل يتردد على منزل نضال ليلا بعد أن أظهر ميوله للالتحاق بالحزب الشيوعي وأنصاره في "أبو خروف" ، كذلك ظل مستمرا في المجادلات والمناقشات مع سمر في ساحات الجامعة ومكتبتها ، فقد كانت الآنسة ناشطة بقوة في وسط الطلبة في مختلف الكليات ، فكانت معروفة حتى لرجال الأمن السياسي ، فكان ليله مع رفاق الحي ، ونهاره مع سمر فقال لنضال: يا رفيق نضال قد تبدو أسئلتي مؤلمة أو في غير محلها أحب سماع ردكم عليها ، وهذا ليس تشكيكا في نضالكم وعلمكم ؛ إنما المعرفة والرد على الخصوم الذين نلتقي بهم في ساحات وميادين الجامعة

- خذ راحتك في الأسئلة ، وعندنا لكل سؤال جواب ، وعليك أن تعرف ردنا لترد على أعداء الفكر اليساري .. فنحن عندما يزداد عددنا ويكبر ، ويقتنع الشعب بأفكارنا الاشتراكية سنستلم الحكم والسلطة ؛ لندافع عن حقوقنا وحقوق الطبقة الكادحة عن حقوق الفقراء .. نلغي الطبقة الرأسمالية، وتصبح الموارد والإنتاج مشاع للجميع .. هل تعلم يا رفيق باسل أن كلمة رفيق استخدمتها الفرقة الإسماعيلية قديما قبل أن يستخدمها الشيوعيون ؟ والله معبود المسلمين هو الرفيق الأعلى .. ماذا تريد أن تفهم يا رفيق باسل ..صاحبتك سمر معجبة بك وتراك مكسبا كبيرا للحزب ومفكرا قويا في المستقبل القريب .. اسأل يا رفيق

تنحنح باسل وابتسم للجميع : أنتم تعلمون أن العرب ومن عقود يتحملون هم القضية العربية الكبرى في ضياع فلسطين ، ونعتقد أن اليهودية العالمية عدو الشيوعية وعدو الاشتراكية قد أخذت فلسطينا وطنا قوميا للجنس اليهودي ، وبمساعدة الإمبريالية والرأسمالية البريطانية ، وأمريكا ، وأقيم الوطن اليهودي والكيان الإسرائيلي على جزء مهم من بلادنا فلسطين ، وقبل سنوات استولي على الباقي فلماذا اعترف ستالين البلشفي في هذه الدولة اللقيط فور إعلانها دولة ضمن الأمم المتحدة ؟! حتى أني سمعت أن الشيوعية العربية صدمت وأحبطت من هذا الاعتراف العاجل

بعد صمت خيم على المكان ولا ترى إلا سحائب الدخان من الرجال والنساء ، ولا تسمع إلا سحب أنفاسها قال نضال: سؤال مهم وجميل ورائع رفيق باسل ! اعلم أن الحركة الصهيونية عدو للإنسانية كلها ، وليس للحزب الشيوعي فحسب .. وأنا سأبرر لك الموقف السوفيتي عام ٤٨ من إنشاء دولة إسرائيل عدونا إلى الأبد ..وهذا التبرير من لدني .. وبعد مطالعات كثيرة حول هذا الموضوع .. جاء الاعتراف السوفيتي والأمريكي بدولة إسرائيل مبكرا وموقفا مقابل دعم الصهيونية للحلفاء في الحرب الثانية ، فالحرب كانت ساحة ابتزاز للحلفاء حتى يستطيعوا الانتصار على هتلر .. سبب هذا الاعتراف ما قدمته الصهيونية العالمية للحلفاء الجواسيس والخبرات والأسلحة .. فاليهود كانوا مع الحلفاء .. والعرب إما محايد وإما مع النازية خاصة الحاج أمين كان في برلين أثناء سنوات الحرب الأخيرة .. فالاتحاد السوفيتي كما تعلم تاريخيا تعرض لهجوم كاسح من قبل الجيش النازي ، واقترب من موسكو ، وقصد القضاء على الشيوعية في أهم نجاحاتها في روسيا .. فستالين أمام ذلك اضطر لتقديم تنازلات للصهيونية لتوريط أمريكا في الحرب ودعم الحرب ماديا .. فالعرب ماذا قدموا ؟! الانتظار ؛ بل في العراق حدثت حركة رشيد الكيلاني للوقوف مع ألمانيا .. هذا موقف سياسي مقابل موقف ودعم يهودي للحلفاء ..والمناضلون احتجوا على هذا القرار ، وبعضهم غادر الحركة الشيوعية العالمية بسبب ذلك ، حتى أن الروس خلال الحرب أوقفوا منظمة الكومنترن التي أسسها الرفيق الكبير لينين عام ١٩١٩ لتجمع الشيوعيين من أنحاء العالم .. واليهود يهود فلسطين حاربوا مع الحلفاء تطوع منهم حوالي ثلاثين ألف مع الجيش الإنجليزي ، ثم أصبحوا نواة جيش إسرائيل الهاغانا .. في الحرب تتحالف مع الشيطان لتحقيق النصر والدعم المالي .. وكان الاعتراف بإسرائيل كدولة حسب قرار التقسيم .. لم تعترف روسيا باحتلال باقي فلسطين .. وقرار التقسيم هو الذي اعترف بإسرائيل ، والأحزاب الشيوعية العربية في ذلك الوقت كانت ضعيفة على الهامش ، لم يكن لنا ثقل وأهمية لدى ستالين .. تستطيع أن تقول إنهم مجرد أفراد وحتى الدول العربية وقادتها كانت تحت

الانتداب والاستعمار.. لا حرية في قرارها السياسي أو السيادي .. مصر كانت تحت السيطرة البريطانية والعراق والأردن ودول شرق الخليج العربي .. ودول شمال أفريقيا مازالت ترزح تلك الفترة تحت الحكم الفرنسي .. وحتى الدول المستقلة كانت ضعيفة وتابعة للدول المستعمرة ، وتحت الوصاية .. كانت فترة تحرر .. هل يحسب لهم الروس قوة وأهمية ؟ لكن في حرب ٧٣ قبل سنوات رأيت وسمعت ما قدم الروس للحرب من صواريخ وخبرات .. وقدم للجزائر حتى تنال الاستقلال واليمن الجنوبي .. ومع ذلك لام العرب اليساريون الروس على هذا الاعتراف بصفتهم دولة كبرى وعضو دائم في مجلس الأمن الدولي .. والنضال الفلسطيني مدعوم من الدول الشيوعية والاشتراكية دعما واضحا للعيان وأكثر من دعم العرب لهم .. السلاح الفلسطيني روسي صيني كوري .. لم نكن بالقوة التي تؤثر على القرار في موسكو .. فالأحزاب الشيوعية الناشئة في الدول العربية ممنوعة ومضطهدة من قبل السلطات والإدارات الحاكمة ، مجرمة في بعض قوانين بعض الدول العربية ، وإنما أفرادها قلة لا يشكلون خطرا ايدلوجيا على تلك الأنظمة ؛ ولكنها تعاملهم بقسوة حتى من بعض الدول التي كانت تزعم أنها اشتراكية الهوى والاقتصاد .. والحركة الصهيونية منذ نشأت آواخر القرن التاسع عشر وهي نشطة مشرعة لها الأبواب في الغرب كله والعالم ، وهي قوية في الإعلام والمال واسعة الانتشار .. فهذا سبب وقوف الاتحاد السوفيتي مع الاعتراف الإسرائيلي ، حتى إسرائيل تعترف بالحزب الشيوعي الإسرائيلي ، ثم إن الاتحاد السوفيتي دعم فيما بعد القوى الثورية العربية حتى ولو لم تكن شيوعية .. وأظهر لنا ندمه وخطأه .. وهذا لا يغير من الواقع شيئا .. وها نحن بعد ٧٣ نسمع أن العرب يسعون للسلام مع إسرائيل ، وقد اعترفوا بـ٢٤٢ و ٣٣٨ .. فالظروف أحيانا كثيرة تدفع الدول الكبرى وحتى الأفراد إلى اتخاذ قرارات ومواقف مؤلمة لأحزابها .. والحزب الشيوعي السوفيتي نفسه لا يعترف بإسرائيل ..الدولة هي التي تعترف بدولة إسرائيل كدولة حسب قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، نحن لا ننكر أن الموقف كان صدمة لنا ، وكنا في بداية اعتناق مبادئ الشيوعية ، والسياسة شغلنا الشاغل أكثر من

الاقتصاد .. وعلينا أن لا ننسى دور الاتحاد في انتصار أكتوبر على رأي المصريين ، وتشرين على رأي السوريين ، ورمضان على رأي الإسلاميين .. فهم سلحوا مصر وسوريا والعراق واليمن الجنوبي ، ولا تنسى مواقفهم تجاه القضية الأولى للعرب وحركات الفدائيين الفلسطينيين .. كل أسلحتهم شرقية على رأسها موسكو ، ولا تنسى دعمه للقضايا العربية كلها في مجلس الأمن والعالم وتحرر الشعوب العربية والأفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية من ربقة الاستعباد والاستعمار والقبضة الأمريكية بعد ضعف بريطانيا وفرنسا عن مستعمراتها القديمة



كانت سمر تجالس باسلا في ساحة من ساحات الكلية وتقول مشفقة: لا تسمع لكلام هؤلاء الطلاب الشرعيين طلاب كلية الشريعة .. فهل كانوا يجالسونك قبل التعرف عليّ ؟ اليوم يخشون عليك من أفكاري السامة المستوردة .. فالشيوعية لا تعارض الإسلام كإسلام .. فالشيوعية تدعو الناس إلى العدالة الاجتماعية لكل الناس دون النظر لدين وجنس وعرق ولون ..تدعو إلى رعاية كل أفراد الشعب والأمة.. عند هؤلاء الإسلاميين الشيوعية كفر .. ومعتنقها كافر .. وبعض كتاب الإسلام السياسي كتبوا عن اشتراكية الإسلام .. فالشيوعية لا تمنع المسلم من الصلاة والصوم .. المهم نشر الشيوعية الاقتصادية بين المسلمين والشيوعية العلمية

لما صمتت قال باسل : أنا رغم ثقافتي الدينية البسيطة يا سمر لا أستطيع أن أدافع عن الشيوعية ، وأنها تتفق مع الإسلام .. فالإسلام كما تعلمين دين سماوي دين إلهي كما اليهودية والنصرانية .. والشيوعية دين مادي دين بشري إذا صح تسميتها بدين .. هل نستطيع أن نكون شيوعيين ثم نظل مسلمين ؟! وما دمنا قد رفضنا الدين فلا يجب أن نؤمن بدين.. قال : ماركس الدين أفيون الشعوب .. فالشيوعية تقوم على فلسفة مادية تؤمن بالمادة فقط ، لا غيبيات ولا وحي .. فهؤلاء يأخذون دينهم عن الوحي والسنة .. فلسفتنا لا تؤمن إلا بما تراه الحواس .. الغيبيات مرفوضة في الماركسية ، إن الشيوعية قائمة على فلسفة مادية بحتة ، لا تؤمن إلا بما تراه الحواس الخمسة فقط ، وكل مالا تدركه الحواس فهو خرافة لا وجود لها، ألم يقل انجلز " إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته ؟" ويقول الماديون: إن العقل ما هو إلا مادة تعكس الظواهر الخارجية ، والروح مناخ المادة ، والإسلام دين يؤمن بالغيب .. ماركس هو الذي يقول : إن الإنسان مخلوق مادي همه إشباع المطالب الأساسية الغذاء السكن الإشباع الجنسي .. فالشيوعيون يومنون بالمادة ، والصراع الطبقي بسبب النزاع الاقتصادي ، ويؤمنون بأن صراع المتناقضات هو وحده العنصر الكامن وراء التطور الاقتصادي والبشري من

المرحلة الشيوعية الأولى والرق والإقطاع الرأسمالية إلى الشيوعية الثانية والأخيرة، الماركسية نظرية اقتصادية تقوم على أساس من الفلسفة المادية الجدلية، وعلى التفسير المادي للتاريخ الذي هو.. الصراع بين الطبقات.

قالت سمر بعد صمت باسل : نعم ، فلم تعد مطالبه في الحياة سوى ما حدده ماركس من الغذاء والسكن والإشباع الجنسي .. وفي سبيل الوصول إلى هذه المطالب والحاجات لا بد من الصراع .. والأخلاق والقيم لا وجود لها أو لنقل: إن لها مفاهيم جديدة، هذا أفضل كما قال ستالين: الأخلاق الصالحة في نظرنا تلك التي تيسر القضاء على النظام الرجعي القديم، وهي التي تدعم النظام الشيوعي ، ولا شيء غير هذا يمكن أن يسمى أخلاقًا فاضلة ؛ ولتحقيق قيام الشيوعية – كما يقول لينين – يجب علينا أن نتوسل بكل أنواع الحيل والمناورات والوسائل غير القانونية لتحقيق أهدافنا .. وينتهي دور الأسرة بقيام الشيوعية – كما قال ستالين –: ما دمنا ننكر الأديان فإننا لا نستطيع أن نأخذ بالآراء القائلة بأن للأسرة قداسة، فكل القداسات زائفة

وتابع باسل بعرض أفكار الستالينية واللينية : والعنف هو الذي بموجبه تقوم سلطة الدولة كما يقول الرفيق ستالين نقلاً عن الرفيق لينين: إن دكتاتورية البروليتاريا هي سيادة البروليتاريا على البروجوازية .. سيادة لا يحدها قانون ولا أخلاق ، وهي تستند إلى العنف.. والمقصلة ضرورية لإلغاء الملكية الخاصة، كما يرى مؤسس المذهب ماركس غمر الإقطاع أوروبا وروسيا القيصرية ، ثم جاءت مرحلة الرأسمالية التي تكونت مع الثورة الصناعية والمناجم .. والمرحلة الأخيرة هي الشيوعية الثانية التي انتصرت في روسيا والصين ، والتي يعيش في بعض بلدانها المسلم على رأسها روسيا والصين الشعبية .. وهذا الربط كما نرى يا سمر لا دخل إلى الله فيه ، فكيف ستجتمع المادية مع الإلهيات والغيبيات ؟ وماركس هو الذي يقول : الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها.. وهي مستقلة عن إرادتهم .. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، ولكن وجودهم هو

الذي يعين مشاعرهم .. الإنسان لا إرادة له أمام قوتي المادة والاقتصاد
فهؤلاء المسلمون يقولون : الفلسفة الشيوعية تجعل الإنسان كائن سلبي لا إرادة له إزاء المادة وقوة الاقتصاد ..هم يعتبرون المادة والاقتصاد مسخر لقوة الإنسان وإرادته
وبعد صمت، ولما لم تعلق سمر على دفاع الإسلاميين الذي تحدث عنه ، تابع باسل فقال : لذلك هؤلاء الشبان محقون في تخوفهم وقلقهم ؛ فإذا أخذ الناس بالاقتصاد الشيوعي والماركسي ، فسيأخذون فلسفة ماركس .. ويقولون الإسلام يقر الملكية الفردية والفكر المادي الماركسي يرى أن المجتمع هو الأصل، والفرد لا كيان له بمفرده، وهو مجرد فرد في القطيع ، فهي تضع الملكية في يد الدولة ممثلة المجتمع، وتحرم منها الأفراد.. نحن يجب أن لا نكون على لا تناقص في دعوتنا .. نقول لا إله ونقول لا تعارض مع الدين .. الشيوعية مادية والدين روحي يا سمر .. فالشيوعية اقتصاد وتسخر العلم للاقتصاد ، فالعامل الاقتصادي هو عمود الفكر الشيوعي .. الإسلام كما تعلمين لا يجيز خروج المرأة للمصانع والمناجم .. فهناك من يعيلها ويكفيها.. في الشيوعية المرأة شريكة الرجل في الإنتاج والثروة والمصانع .. فالإنتاج يجب أن يزيد فلتخرج المرأة .. لا تعطيل لنصف المجتمع .. فالنظام الاقتصادي الشيوعي يعتمد على الدولة التي تعين الأعمال للمجموعات
قالت سمر معجبة برفقيها وزميل كليتها: رائع! إنك تقرأ بعمق .. سيكون لك دور كبير وبارز معنا إذا قبلت البقاء في صفوفنا .. ما رأيك بالرفيق نضال فهو شيوعي مخضرم؟
تمهل رويدا قبل الرد فقال : أنا قلت لك إنني أذهب إليه للاستماع أكثر من الجدل والمناقشة .. فهو يقرر دون نقاش عليّ أن أستمع قبل الالتحاق بكم .. ولعلي أصبح فردا منكم قلبا وقالبا
قالت : أبي كما ذكرت لك سابقا شيوعي قديم قبل نضال ، وسجن أكثر من مرة بسبب الفكر الماركسي ومعاداة النظام العربي الحاكم ، وزار الاتحاد السوفيتي وكوبا ، والتقى كبار الرفاق ، وعمل مع المجموعات الفلسطينية اليسارية ، وقد ذكرت له أنك ترغب بلقائه
- لا بأس .. أسمع تجربته العميقة في الحركة الشيوعية العربية ، ولماذا لا نراه في بيت نضال؟!

- أبي شيوعي كبير في الحزب الشيوعي العربي ؛ ولكنه تعرض للاغتيال في بيروت عام ٧١ فأصبح نصف مشلول

- ماذا تقولون عندما تدعون لشخص بالشفاء ؟!

قالت : نرجو له الشفاء ، حتى لو قلنا شفاه الله .. لا حرج .. أنت تعرف أننا لا نستطيع التخلص من عاداتنا بسهولة ..حسنا يا رفيق إلى لقاء



كما ذكرنا قبلا أنه لا يفصل بين سكن باسل ونضال سوى الشارع العام ، فكان الذهاب يوما بعد يوم ، وربما أكثر .. فالناس تذهب لصلاة العشاء ويذهب باسل للتزود من الفكر اليساري ، ويسمع الأخبار الثورية والنشرات التي يصدرها الحزب وتوزع خفية ؛ لأن القانون العام يمنع وجود الحزب الشيوعي وغيره من التواجد على أرض البلد علنا ؛ولكن الحكومة لا تستطيع منع الأفراد اعتناق أي المبادئ شاءوا .. فحرية الفكر مسموح بها

وكان جل حديثهم في السياسة سياسة أمريكا الاستعمارية مع أن أمريكا ظهرت على مسرح الأحداث في الحرب الثانية ، وداعية لتقرير مصير الشعوب إلا الشعب الفلسطيني ، ولا تستعمر دولا وبلدانا ؛ إنما تخوض حربا باردة مع الشيوعية ، ولها قواعد عسكرية أمريكية منتشرة في دول العالم ، ويتحدثون عن قوة الروس والجاسوسية الروسية ومحررة الشعوب من الاستعمار ، وهي تستعمر دول آسيا الإسلامية والقوقاز باسم الاشتراكية والشيوعية العالمية ، ويتابعون إضرابات وتحركات العمال في العالم وأمريكا اللاتينية ، ويحلمون أن الشيوعية كما سيطرت على اليمن الجنوبي ستحكم مصر والدول العربية ، وتخضع كلها للثورة اليسارية العالمية والمد الاشتراكي ، وتتحول المساجد إلى حانات ومراقص ، كما تحولت مساجد آسيا الإسلامية والقوقاز ، وكما تحولت كنائس أوروبا الشرقية والبلاد الروسية إلى مثل ذلك من

قبل ، ويتحدث بعضهم عن الدعم المادي والعسكري المقدم للدول العربية المحسوبة على الاتحاد السوفيتي كمصر والعراق وسوريا والجزائر ، وأن إسرائيل عدو للروس ، ويأخذهم الحديث عن بطولات كارل ماركس وفريدريك انجلز وشجاعتهما في إصدار البيان الشيوعي قبل قرن من الزمان ، وعن لينين الثائر على القيصر نيقولا الثاني ، والقضاء على آل رومانوف القضاء المبرم ، حتى لا يحلم بعودة هذه الأسرة للحكم في يوم من الأيام ، يتسامرون عن بطولات ستالين في القضاء على النازية وهتلر ، وربما يتطرق الحديث عن اعتقال الشرطة أو أجهزة المخابرات العربية لأحد عناصرهم بعد إلقائه محاضرة في مقهى في شارع بعد عودته من رحلة إلى سوريا إلى العراق ، ويتكلمون أن المساجد والكنائس سبب تخلف الأمة العربية عن اللحاق بالثورة الشيوعية وأنها ستتحول لمواخير ودور بغاء ولهو ، وأنها وحدت بين المسلم واليهودي والنصراني .. فالشيوعي لا يهمه الدين والجنس واللون .. فهو لا يهتم بالدين الموروث .. وبينما الكل يتمتم ويدلي بدلوه وحقده على الدين والمتدينين سمع باسل اسمه يتردد ، فانتبه للرجل الذي ذكر اسمه وسمعه يقول: لقد أخبرت سمر أنك تسعى لمقابلة والدها نجيب

أجابه موضحا : سمر طلبت مني ذلك يا رفيق عامر ، وحدثتني أن والدها رجل كبير في الحركة الشيوعية العربية، وزار رأس الشيوعية موسكو ، والتقى الرفيق ستالين أيام منظمة الكومنترن ، وزارها في عهد خروتشوف ، والتقى برجال الحزب الكبار ورجال الدولة ، والرفيق الأمني الكبير لافرينتي بيريا قبل إعدامه .. وشجعتني على اللقاء به

فال نضال مادحا : والد سمر بطل عظيم في الحزب الشيوعي العربي ، ومناضل قوي ، وناضل بقوة ، واعتقل وسجن في عدة دول عربية ، والمأساة أنها كلها تدعي التقدمية والاشتراكية ، ربما الدول الرجعية معذورة أما مصر سوريا العراق .. الأنظمة الرجعية فكانت تطلب منه العودة من حيث شاء فقط .. وزار الاتحاد السوفيتي وألمانيا الشرقية ، وذهب لبنان بلد الحريات العربية ، وله علاقات بالفصائل الفلسطينية العاملة على الساحة

اللبنانية واليسار اللبناني والسوري ، وله علاقات جيدة مع القوميين ، وساعد بتقديم الدعم السوفيتي لهم ؛ ولكنه تعرض لمحاولة اغتيال نجا منها بأعجوبة ، واستقر هنا في هذا الجزء من العالم ، وهو اليوم مقعد على السرير ؛ ولكنه ما زال قويا نشطا بأفكاره ومقالاته للجرائد والمجلات الثورية ، ولديه مثلنا أمل بوصول الأحزاب الشيوعية العربية لسدة الحكم ، كما في اليمن السعيد وسينتشر الفكر الشيوعي ويصبح فكر كل الشعب .. والاقتصاد الشيوعي هو منقذ الأمة من التبعية والخضوع للرأسمالية .. والفلسفة الماركسية ستسود هذه الشعوب الضعيفة المهلهلة ..هذه التي ما زالت مستعمرة ، وبدلت مستعمرا بمستعمر .. نعم ، نجيب رجل مهم وشجاع في تاريخ حركتنا الشيوعية العربية.. نعم ، فسمر ابنة رجل مهم وشجاع في حركتنا .. والفتاة معجبة بك جدا .. وتتحدث عنك بإعجاب الولهان.. وشرف كبير إن قبلت بك

- لكنها لا ترى الزواج شيئا مهما يا رفيق .. مؤسسة الزواج عندنا دينية

قال نضال : هذا عندنا ، وكلنا نتزوج حسب التقاليد السائدة حتى يحكم الحزب ، وستلغى المحاكم الشرعية ودار الفتوى .. الاتفاق بين الرجل والمرأة يكفي للزواج .. فالمرأة جزء مهم من الإنتاج والاقتصاد الشيوعي .. لا تعطيل لنصف المجتمع .. فلها ما للرجل .. أما أن تجلس في البيت لتأكل وتشرب وتلد فهذا مرفوض .. المرأة الشيوعية كالرجال في الإنتاج .. والحاجة الجنسية عندنا كشرب الماء ؛ لكن برضا الطرفين وليس مهما أن ترتبط برجل واحد أو أكثر ، ولا الرجل يرتبط بامرأة واحدة فقط طول العمر ؛ لكن لا بأس بهذا الارتباط خشية انتقال أمراض الجنس المهلكة .. يعيش شبابنا تحت ضغط قانون الزواج الإسلامي الصارم ؛ لذلك تجد لديهم عقدة الجنس والكبت والحرمان الجنسي .. المهم الرضا والقبول .. فالعذرية قضية نفسية كبيرة عند الشرقيين ، ولدت في فترة الرق والإقطاع ..فلو تزوج أحدهم فتاة ووجدها غير عذراء يفسد الزواج ، وتتهم الفتاة بالخيانة وبيع نفسها ، ويحصل الطلاق والمشاكل بين الأسر على قضية تافهة ، إنما تفرق الفتاة البكر عن غيرها الثيب ببضع دقائق أو

ليلة الدخلة ، وتصبح مثل الأخريات ..أهذه قضية تحتاج للتفكير والشرف والقتل والدمار ؟! فالبكارة قضية رجعيه .. فالإشباع الجنسي حق لكل شيوعي ، ولكل أنثى ولو بدون عقد زواج ؛ ربما الزواج لا يتحقق معه الإشباع الجنسي لضعفه الجنسي ومرضه .. فلمَ لا تعاشر غيره ؛لأنه لم يحقق لها الغاية من الزواج .. فتصبح محرومة من الإشباع الجنسي .. عليها أن تصبر وترضى بقدرها ونصيبها .. هذا الظلم بعينه ، هم يسمونه خيانة زوجية .

- الإنسان لا يحب أن يشاركه أحد ملكيته

- هذا ما تحاربه الشيوعية الملكية الفردية .. وهؤلاء يسمحون للرجل أن يمتلك عدة نساء باسم الشرع. قال باسل : وإذا حملت من غير زوجها الرسمي

- إذا لا يريد أن يحمل اسمه .. الدولة تتبناه وتنفق عليه ، حتى عند طائفة من المسلمين يسمون الشيعة يجيزون حمل المرأة من زواج مؤقت يسمونه أو يسمى نكاح المتعة .. ينسب المولود لأمه وتعتني به ..كثير من نساء المسلمين لا يعرفن الإشباع الجنسي طول عمرهن ، ولولا الأمراض التي تنتقل بسبب الجنس لانتهى أمر الزواج كليا في الاتحاد السوفيتي .. فبلغوا المشاعية الجنسية .. وأنت لا تريد أن تتحرر من عقدة عدم شرب الخمر وإتيان النساء ، ولا أعتقد أن سمرا ستبخل عليك بجسدها من حين لآخر ، حتى هؤلاء الرفيقات اللواتي يسمعن حديثنا ، فلدينا حجرة هنا لقضاء الغريزة دون أي حرج بين رجل وامرأة ، لا ننظر للقضية كحرام وحلال كما يفعل المسلمون .. عليك أن تكسر هذا الحاجز .. فهذا يسبب لك الكبت والضيق .. فهذه غريزة أوجدتها الطبيعة تحتاج لتفريغ .. فكل هؤلاء الصبايا مستعدات لخوض التجربة معك دون خجل وخوف .. ومستعدات لتعليمك الحياة الجنسية الصحيحة والصحية ..ولكن نترك هذه المهمة للرفيق سمر ..فهي معجبة بك إعجابا لا مثيل له ، وترى أن لك مستقبلا واعدا في الحزب الشيوعي العربي .. وقد تساعدك في الرحيل إلى موسكو للدراسات العليا على نفقة الحزب كبعثة .. ونحن نحب أهل العلم والفكر والطموح والذكاء .. والسيد نجيب قادر على تحقيق ذلك

أقوال شيوعية

قال فيلسوف الشيوعية انجلز: (إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية .. فالتاريخ الإنساني هو تاريخ حروب الطبقات التي امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء فهم يرون أن الدين وضع لحماية حقوق البورجوازيين.

لذلك قالوا فيما يسمى البيان الشيوعي : إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ، وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها .

ويقول لينين في خطاب له ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في أكتوبر سنة ١٩٢٠ : إننا لا نؤمن بالإله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم ، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الإنسان والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتاري فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية.

وقال أحدهم : (لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة في التاريخ)

الحركة الشيوعية استغلت نظريات واكتشافات علمية لإنكار الدين ، وإن الدين خدعة تاريخية ، وهي تنظر إلى التاريخ في ضوء الاقتصاد ، وهى ترى أن العوامل التاريخية هي التي خلقت الدين .

استغلوا نظريات نيوتن قال (إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة).

واعتمدوا على أقوال وأبحاث لسيجموند فرويد في علم النفس ، واعتمدوا على التاريخ قال جوليان هكسلي: (فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته).

ويقول أيضا: إن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ، وقد كانت هي المسئولة عن هذا التعامل ،

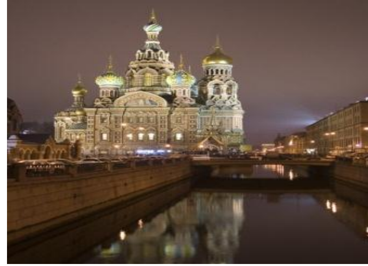
فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين ، ويضيف: لقد انتهت العقيدة الإلهية واستغلوا أقوال داروين في التطور والبقاء للأقوى واصل الأنواع .

إن الفلسفة الشيوعية الملحدة اعتمدت على نظريات علمية ، بعضها ثبت ، وبعضها مجرد نظريات وتخمينات وأوهام ، وصنعوا قوة شيوعية وحركة عمالية ، ومع ذلك لم يقبل الشعب الأوروبي هذه الأفكار على مستوى الأمة ، ونجحت الثورة البلشفية في روسيا القيصرية لظروف لم يكن المد الشيوعي هو السبب الرئيسي ؛ إنما الظلم والاقتصاد والحرب العالمية الأولى ، فاشتركت عدد من الأحزاب لتقويض الإمبراطورية الروسية ، ثم انقض الشيوعيون على المتحالفين معهم ، وسفكوا دماء خصومهم ، وسيطر الحزب الشيوعي على مقدرات روسيا ، وأصبحت روسيا قبلة الشيوعيين واليساريين ، ولظهور الفاشية والنازية في ألمانيا وإيطاليا صمدت البلشفية ، ومع انتصار الحلفاء الرأسماليين والشيوعين الروس على الفاشية والنازية تضخمت الحركة الشيوعية على مستوى العالم ، وزادت الأحزاب الشيوعية في دول العالم لمقاومة الاستعمار والاستعباد ، ونتيجة للحرب الباردة أخذت الشيوعية بعدا سياسيا كبيرا ، وسيطرت على دول شرق أوروبا بواسطة الأحزاب الشيوعية ، وكان لها أحزاب شيوعية في دول العالم الأخرى تدعمها للوصول إلى السلطة والحكم ، وفي بعضها نجحت ، وفي الكثير أخفقت ، وبعضها مجرد أحزاب عميلة للاتحاد السوفيتي لا أكثر ، حتى أن أحزابا ظهرت تحمل الاشتراكية ولا تهتم بالدين ولا الإلحاد .. فنحن نرى أحزابا اشتراكية وعمالية في أوروبا الغربية ؛ ولكنها غير ملحدة علمانية

قال باسل لسمر وقد التقيا في مكتبة كلية الآداب: لقد خاض الشيوعيون الأوائل معارك شرسة لإنكار الدين ، وجعلوه سبب الحروب الدينية في أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت .. كان صراعهم ضد الكنسية قويا وحادا ، وحتى ثورة الروس والبلاشفة كانت ضد الكنيسة الأرثوذكسية ، لم تكن جرائمهم مع الإسلام وحده

قالت سمر : كل الأديان واحد ، فدين المسلمين لا يختلف عن دين النصارى اسمه دين ..

والناس تخضع له ، تقبل بالذل والخنوع ؛ لأن الحاكم يتكلم باسم الدين باسم الإله ، والكاهن يتكلم باسم الدين .. ويسيطرون على الناس باسم الدين .. في الصين الوثنية يسيطرون على العامة باسم الدين.. فالشيوعية حررتهم من استعبادهم باسم كونفوشيوس وبوذا .. فالدين أوهام وخرافات وسحر .. أين هذا الإله الذي يرى الظلم والاستعباد ويصمت ويظل صامتا؟ !



استطاع باسل في فترة وجيزة وبصحبته لسمر أن يصبح عضوا فعالا ونشطا في الحركة الشيوعية في "أبو خروف" ، فكان يجد حفاوة في منزل الكلبي ، وجل حديثهم الإعجاب بموسكو وسياستها مع الشعوب المقهورة بزعمهم ، ويستغربون من الأصوات التي تنكر وقوف موسكو مع العرب في حرب ٧٣ ، وكيف خذلت موسكو العرب ؟ وهم حاربوا بأسلحتها وترسانتها .. وأن النفط الذي هدد باستخدامه العرب كان تهويشا وجعجعة دون تنفيذ ، مع أن النفط في الحرب استخدم كسلاح ضغط على الإدارة الأمريكية وإسرائيل لوقف الحرب حسب رغبة الأمم المتحدة ، ثم ينحرف النقاش للنيل من شرعة الإسلام ؛ لأنه دين وهو الحاكم ولو اسميا على البلدان العربية والإسلامية .. وكيف أقر الدين الإسلامي نظام الرق ؟ولم يحذفه من حياة الشعوب .. فالشيوعيون يعتبرون الرق فترة من مراحل التطور التاريخي والاجتماعي للبشرية .. ويعتبر الطبقة الثانية من الطبقات الشيوعية ، وكان بعد مرحلة الشيوعية الأولى ، وفي نظرهم القاصر أن الإسلام لم يلغ الرق ، فهو ضد الشيوعية والحرية وحقوق الإنسان ، مع أننا نسمع آهات الحرية الشيوعية في موسكو والقوقاز الرق نظام موجود كما يقول التاريخ قبل وجود دين الإسلام وظهوره دينا خاتما ، وسعى الإسلام بقوة

إلى القضاء على العبودية والرق بأحكام شرعية من التشجيع على العتق والمكاتبة والكفارات ، ولم يخلق الإسلام هذا النظام ، هو نظام قديم موجود ظهر في عصور غابرة ، فجاء الإسلام وهو موجود كغيره من الأنظمة والتقاليد والعادات والبدع ورويدا رويدا قضى الدين عليها أو قلل منها ، ولم يظهر في تاريخ الإسلام طبقة اسمها طبقة الرقيق والرق ، فباب العتق مفتوح بالكفارات بالشراء والعتق بالمكاتبة

فقضية إثارة الشيوعية أن الإسلام لم يحارب هذا النظام ، فليست مهمة الإسلام أن يمنعه في بلاد لم تخضع لحكم الإسلام ، ونظام الرق نظام انتهى في مطلع القرن العشرين في أغلب البلدان ، وقبل المسلمون بكل أريحية إلغاء هذا النظام ولم يقفوا حجر عثرة في إلغائه ، وليست الشيوعية هي التي قضت عليه ، فهي اليوم تسترق كل شعوب أوروبا الشرقية فيما يسمى بالستار الحديدي ، وتسترقهم باسم الحرية والأحلاف .

قال نضال : هل علمت أن سمرا مريضة؟

قال باسل بنغمة حزينة : نعم ، إنها ترقد في مستشفى الجامعة

- أقابلت أباها؟

- أجل الموعد بسبب مرضها ، اتصلت بي رفيقة لها في الجامعة وأعلمتني بمرضها وتأجيل لقاء أبيها ، وذهبت معها لزيارتها وهي ترقد على سرير الشفاء .. وحتى الآن لم يشخص الأطباء أسباب المرض

- نتمنى لها الشفاء العاجل .. فسمر نجمة من نجوم هذا المنزل ، فهي تتردد علينا منذ كانت طفلة صغيرة ، كان والدها يصحبها معه إلى أغلب مجالسنا .. وكان خالها يأتي بها حتى شبت على حب الشيوعية والثورة ضد البرجوازية العربية

- ألها خال هنا؟!

- كان يتردد علينا من سنوات ، ثم سافر للخارج ، وللأسف استطاع أحد الرجعيين إعادته للرجعية الدينية

- عاد للإسلام ! كيف لم يقتنع بالفكر الشيوعي التحرري وسعيه لقيادة العالم الحر إلى الرفاهية والشيوعية العالمية ؟

- كان مقتنعا ، لأن شقيقته أم سمر شيوعية كبيرة وقديمة ، وتزوجا من خلال الحزب الشيوعي ، كان الرجل مقتنعا بهذه الأفكار ويناضل عنها بقوة وعقلية كبيرة متفتحة ؛ لكن كما يحدث في كل الحركات التحررية تحدث ردة وخروج ، وهو منهم ، وكان جل اتباعنا مسلمين ، ثم تركوا إسلامهم وانضموا إلينا ، فنكص البعض .. ليس هنا فقط ، وهذا يحدث في كل العالم الشيوعي ، وربما يترك أحدهم الحزب بسبب خصومة شخصية ، والحزب أحيانا يطرد أعضاء منه لمواقف أحادية تصدر عنهم ، فكان السيد عيسى منهم ، فكان ضعيفا أمام أشقاء امرأته ، فهو تزوج امرأة غير شيوعية يا باسل.. إنها لم تكن تعرف هويته ، فلما عرفت أنه ملحد طلبت الطلاق؛ لأن الشيوخ لا يجيزون زواج المسلمة من الشيوعي ، ويعتبرون العلاقة بينهم علاقة زنا ، والأولاد أبناء زنا .. هو كلام لا يهم الشيوعي ، والرجل كان مغرما بها مفتونا بحسنها وأمام ضغطها وضغط أهلها هجر الحزب ، زعم أنه خاض مناقشات مع بعض أفراد الفكر الرجعي ، واقتنع بكلامهم وبراهينهم ، وأن لهذا الكون ربا ، ولابد له من إله ، لابد من الله ، وأننا ندلس على الناس بزعمنا أن العلم التجريبي ينفي وجود الله .. المهم أنه هجرنا وتخلى عن الحزب من أجل امرأة .. فلذلك يا رفيق باسل عندما ترتبط بأنثى ارتباط زواج أحسن الاختيار .. تزوج من الرفيقات مع أننا صد مؤسسة الزواج القانونية ؛ ولكننا لأننا نحيا في بلد يحكمها الإسلام نضطر للاستسلام لقانونهم ؛ لأن نؤسس عائلات على حسب قانون ودين البلد ..ونتزوج على طريقة المسلمين إن كنا ذوي أصول إسلامية ، ومن أصله مسيحي يتزوج على نظام كنيسته والمؤسسات النصرانية .. ولو نكحت الآنسة سمر فخير لك

- لكنها غير عذراء كما حدثت وضحك

وتضاحك نضال وبعض السامعين وقال : وهل في هؤلاء الرفيقات عذراء ؟ .. هذه عقدة

الشرقيين .. فالبكارة عقدة شرقية .. ألا يتزوج المسلمون المطلقة والأرملة ؟ أفهؤلاء عذارى ؟! بين البكر والمرأة المتزوجة ليلة أو ساعة زواج .. فأنت في قانوننا تستطيع النوم مع أي واحدة دون ارتباط مقدس .. لكن الزواج يحصل من أجل ولادة أسرة شيوعية أو خلية جديدة .. والأبوة والأمومة فهذه حاجة للناس أوجدتها الطبيعة فينا للنوع والتكاثر

– عندما أفكر في الزواج سيكون هذا في ذهني .. وسمر إنسانة رائعة .. ولديها روح شيوعية قوية .. وأتمنى لها الشفاء والعودة لمجالسنا هذه



ذهب باسل مساء إلى عيادة الأسنان القريبة من المسجد التي يملكها الدكتور مصطفى وهو طبيب معروف لباسل ، وباسل معروف للطبيب ، فهو يتعالج عنده منذ طفولته ، رحب الطبيب بالمريض ، وفحصه فحص اللثة والسن المضروبة ووصف الدواء وقال: كان والدك عبد المعز هنا قبل أيام وكان يشكوك لي

ابتسم باسل وهو يترك كرسي العلاج ، وينتقل لكرسي الجلوس قائلا: أبي يشكوني لك أليس هذا غريبا يا دكتور؟!

– كلام بمعنى الإخبار ، ليس كشكوى بمعنى الشكوى ، يقول : إنك تتردد على منزل الفاسق الملحد نضال الكلبي

تنهد باسل وقال: آ ، وماذا يقول الوالد العزيز؟!

– يقول : إنك قد تصير مثله ، وتنكر وجود الله الخالق مثل هؤلاء

الشيوعيين الملاحدة مع أن هؤلاء الملاحدة لما يموتون يأتون بهم إلى الجامع للصلاة عليهم صلاة الموت المعروفة .. أي صلاة ستنفعهم وهم كفرة .. فما صحة الأخبار هذه عنك؟!

قال باسل مبررا : أحب أن أعرف الشيوعية من رأس النبع يا دكتور . وقص مختصرا قصته مع

قال الطبيب محذرا : اللعب بالنار يؤذي يا باسل .. أنت محترم ، وأهلك ناس محترمون مثلك .. وأولئك ناس شواذ منحرفون يسعون وراء النساء والشهوات والإباحية باسم الفكر والنضال وتحرير الأمة .. فهم ثوريون بالاسم ، إنهم عملاء خونة للاتحاد السوفيتي باسم الشيوعية العالمية .. الانتماء للكفار فيه خطر كبير ..أنا لا أدري كيف يقتنع عامل بكلامهم ؟! لقد خبرتهم أثناء دراسة الطب .. إنهم من أحسد الناس ، ويحملون هذه الأفكار والشعارات لمحاربة الدين باسم الشيوعية .. الاتحاد السوفيتي الذي حارب الملكية الفردية عاد يسمح بالملكية الفردية ؛ ولكن على استحياء لبعض الأفراد .. الدولة كل شيء غير صحيح .. أقول لك نضال هذا امرأته تركته منذ سنوات .. لما كبر ابنها ماهر وتخرج مهندسا وتحمل مسؤولية العائلة هجروه

قال شبه مصدوم : ولكن ابنته معهم ، عرفتها في المنزل

صاح الطبيب غضبا : فاجرة ! سقطت في الرذيلة فزعمت أنها شيوعية ، وعادت لأبيها .. أنا سأرتب لك لقاء خاصا مع ابن السيد نضال ؛ لتسمع منه قبل أن تتورط .. فهو ما زال صديقا لي ونتواصل .. هؤلاء النساء يجتمعن عنده للفجور والترفيه عن الذكور .. فأغلبهم مطلق أعزب مثلك .. يتجمعون للدعارة باسم ماركس ، لا للثورة ، ولا للحرية .. كلما تحدث انتخابات يفشلون ، وإذا نجحوا ينجحون بمقعد أو اثنين .. وماذا سيفعلان في التغيير ؟! الثورة الشعبية أين شعبيتهم ؟ هم أدوات إياك أن تتورط

قال باسل مدافعا عن عفته : لحتى اليوم لم أقرب أنثى منهنّ ؛ لأنني التحقت بهم للتعرف على هذا الفكر ، والحذر من الاتصال ربما أيضاً خشية الأمراض التي نسمع عنها

– هم يزعمون أنهم يعطون المرأة الحرية ، والمرأة نصف الإنتاج ، وشريك الرجل في المصنع والمزرعة .. كله كلام فارغ .. لم نسمع أن امرأة تبوأت مركزا كبيرا في الحزب الشيوعي الروسي .. لكن يظهرن في الإعلام جاسوسات ولإغراء رجال الحزب والتجسس عليهم لأمن

الرئيس والزعيم الأوحد .. عليك أن تقابل ابن نضال ؛ لتعرف حقيقة الرجل .. وماذا كان يفعل بأمه أم ماهر ؟ لأنها لم تقتنع بأفكاره وشيطانه ، بل كانت تصلي وتصوم رغم أنفه ..ومارس البغاء في بيتهما باسم الشيوعية والثورية والشعبية ..وقال متهكما : أنا معجب بك يا رفيق هيا .. ألم تلاحظ مثل هذه الهمسات ببيته ؟

- لم أتورط بعد ..كما قلت لك في بداية الكلام أرغب بالتعرف عليهم عن قرب دون واسطة .. فالحركة الشيوعية صوتها عال في بلاد العرب والمسلمين ، وقد خضت نقاشات مع بعض شباب الكلية والجامعة بشكل عام ، وقرأت ما يسمونه بالبيان الشيوعي الأول .. وقرأت الإسلام يتحدى للهندي ظفر الله خان .. أنا لم أعترف بأني شيوعي أصيل رغم الجهد الذي يبذلونه معي ..ويريدون تسفيري إلى أوروبا للدراسات العليا على حساب الحزب

- يريدون إرسالك للضياع والهلاك .. هل سمعت بشخص اسمه نجيب موسى ؟

- أجل

- هذا كما يقولون عنه ولد شيوعيا ، وعاش في أحضان اليسارية منذ تركه قريته الصغيرة وانضم لخلية شيوعية قديما ، وفعل لهم الكثير الكثير ، وكاد يذهب إلى الجحيم بحادث اغتيال في بيروت منهم .. أصبح عبئا عليهم .. يذكرون أمجاده فقط .. لا يزورنه هو قال لي ذلك .. يتحدثون عن أمجاده وبطولاته ومقابلاته لزعماء الكرملين .. وهم يهملونه كأنه نفايات حتى صحف الحزب في السنة تقبل نشر مقال له ذرا للرماد .. صحف الخصوم هي التي تنشر له .. السبب لقد انتهى دوره

- هل تعلم أنه والد الفتاة التي تحب أن أتعرف عليه وألتقي به ؟

- احترس يا ولدي فأبوك رجل طيب .. أحذرهم يا باسل

كان الدكتور مصطفى جادا في إنقاذ باسل عبد المعز من الوقوع في براثن الشيوعية ، ويخشى أن تتحول التجربة إلى خضوع كامل لها ؛ ولأنه صديق العائلة أخذ الأمر جديا ، فرتب للقاء سريع بين ابن نضال الكلبي وباسل ، وكان اللقاء في مقهى وسط المدينة ، وتفاجأ باسل عند رؤيته لابن نضال الشاب المهندس ملتحيا وشيخا حقيقي المظهر ، وجرى التعارف سريعا قال مصطفى: هذا هو ابن نضال الكلبي المهندس ماهر .. فهذا الشاب ولد في بيت تصفه بأنه شيوعي ، ورأى المشاكل القائمة بين والديه ، لتمسك أمه بالصلاة والدين ..ولما تخرج من الجامعة طلبت أمه الطلاق من أبيه برغبة من هذا الشاب ؛ لأنه بين لها عدم جواز الحياة مع ملحد شرعا ، ولا تجوز معاشرته لها ، فهو إنسان يوصف بالكفر ولو عقد عليها في المحكمة الشرعية ، ووافق الأب على الطلاق على الفور ، وذلك منذ أكثر من عشر سنين حسب معلوماتي يا مهندس

أكمل المهندس قصته : نعم ، لما أنهيت الجامعة كان يجب عليّ أن أتحمل المسؤولية ، وأنقذ نفسي وأمي مما نحن فيه من جحيم الدنيا .. فشقيقي الأكبر مات صغيرا ، وكنت أنا وأمي وأخي الأصغر وأختا شقيقة لنا فرحلنا جميعا ، وسكنّا في حي المدينة .. فأنا يا أخ باسل عرفت الشيوعية ، ورضعتها من أبي .. كنت أعجب لعدم اقتناع أمي من أفكار أبي وشيوعيته .. وهو تركها ولم يطلقها ؛ لأنها ابنة عمه ..وأمي سلبية وترى الشيوعية كحزب من الأحزاب التي يتردد اسمها في البلاد العربية الحزب القومي والوطني والوسطي الاشتراكي العمالي السلطاني ، فلما أخذت أعلمها بكفر الشيوعيين ، وأنهم من أصحاب الجحيم إذا ماتوا على ذلك المعتقد ، أخذت تفكر بعمق وزالت السطحية ، وأخذت تراجع موقفها من الشيوعية ، ثم حسمت الأمر ، وقلت لها : إن الكافر لا يحل كزوج للمرأة المسلمة التي تشهد بالله ربا وإلها وبمحمد رسول الله.. وهو يحارب الإسلام بغير هوادة ، وينكر وجود الله والدين الإسلامي ، فحصل الطلاق ورحلنا إلى حي ضمن منطقة المدينة ، وأخي تعلم وسافر

ولليوم لم يعد للبلاد ولو زيارة .. وكما يعلم الدكتور لي أخت شقيقة فشلت في الثانوية العامة ، وكانت متأثرة بوالدها وشيوعيته .. وقالت للآسف : إن المرأة حرة في فرجها ، تهبه لمن تشاء .. ورجعت بعد انحرافها الجنسي للحياة مع أبيها .. وبما أنك تتردد على بيت الوالد لابد أنك رأيتها والتقيت بها

- نعم ، أعرفها إنها روضة ، وهي هزيلة .. هل هي مريضة؟

قال المهندس بشفقة وأسف : اعتقد ذلك ، فهي منذ غادرتنا لوكر أبيها لا تتصل بنا ، ولا حتى بأمها .. فأنا أنصحك ولمحبة الدكتور لك سارعت للقاء بك .. والمزاح قد يتحول إلى جد وطمأنني الدكتور أنك لم تنغمس في شهواتهم .. دعك من أوهام الشيوعية العالمية والمراكز التي ستتبوأها .. وهم لليوم لم يتبوأوا أي منصب.. وسيحررون الشعوب العربية من الاستعمار .. لم نعد نرى في بلادنا استعمارا ، وحتى اليمن الجنوبي يعيش في تعاسة وفقر .. هم طلاب حكم وسلطة .. فالشيوعية فكر مريض مادي ، سببه العداء للكنيسة والدين والإقطاع ، وهذ لا يوجد في بلاد المسلمين .. الحكام في واد والشعب في واد .. العربي يعشق الحرية من أيام القبلية .. أين الإقطاع الإسلامي ؟ فالشيخ لا يتدخل في توبة المسلم ومعصيته وفي تربيته ؛ إنما هو واعظ مذكر مرشد .. والاقتصاد ناتج عن تجارب الشعوب .. والاقتصاد الشيوعي يلغي الملكية الفردية ، وأن الاقتصاد ملك الدولة .. ومع التجربة وجدوا أن هذا يضعف الإنتاج ، ليس كما زعمت نظريات ماركس وإنجلز .. لذلك الصين خلطت بين الاقتصادين وحتى الاتحاد السوفيتي تراجع في بعض الاقتصاديات والإنتاج .. فالإنسان عندما يتوفر له الحذاء واللباس لماذا يعمل ؟ لماذا ينتج؟ وليس للعامل حرية اختيار العمل المناسب له .. الحزب يوجهه للعمل الذي يريده ، وقد لا يلائم قدراته البدنية والعقلية .. المهم أن يعمل مهما كانت طبيعة العمل.. إنما هو أداة مثل سائر أدوات الإنتاج .. الاقتصاد الماركسي اقتصاد فاشل وأفضلها الاقتصاد الإسلامي الذي يجمع بين النوعين الفردي والجماعي

قال باسل: لم أسمع عنك شيئا في بيت الوالد ، خاصة أنك متدين ، لم يقل أحدهم أن للسيد

نضال ولدا متدينا ، أو أن أمك مطلقة بسبب الاعتقاد

- بالتأكيد لن يقولوا الحقيقة ، لابد من الغيبوبة لنا .. فكيف أقرب الناس للرجل يرفضون ماديته وشيوعيته ؟ ألم يكن فرعون يزعم أنه رب المصريين ؟ولكن امرأته كانت كافرة به وتؤمن بموسى .. فعليك يا باسل أن تهتم بجامعتك .. ولا تحلم ببلغاريا ورومانيا .. فهنا جمعيات إذا كنت بحاجة مالية تساعد في التعليم العالي ، والقروض بدون فوائد ربوية .. اخسر كل شيء إلا الدين .. سعى أبي لعمل محاضرات حول الشيوعية في مقهى مهران عندكم في "أبو خروف" فطرده مهران ، وقال له ولأتباعه: بجوارنا جامع ، ونفتح المقهى للإلحاد .. عيب يا ناس



قضت سمر نجيب أسبوعين في المستشفى ، ولما خرجت كانت منهكة للغاية ، وكان جل حديثها عن الموت واليأس من الحياة ، مما دفع باسل أن شجعها للذهاب للعلاج النفسي، وقال كنت أرافقها يوميا لعيادة الطب النفسي في المستشفى التابع لكلية الطب في جامعتنا ، ثم تركتها بعد حين الذهاب وحدها ، وأنا ما زلت أتردد على منزل نضال رغم نصيحة ابنه ماهر والدكتور مصطفى .. وكانت لقاءاتنا عند السيد الكلبي كالعادة التعليق على خبر صحفي مثير عن نشاط الشيوعيين في البلد وخارج البلد عن سمر وآخر أخبارها ، فهي منذ مرضت لم تأت المنزل ، ونتساءل عن مرض سمر والغموض المحيط به ، وكيف ألم بها فجأة ؟ والذي أصابها بعدة نوبات إغماء ، فقيل سحايا ، مرض دماغي ، وقيل نقص تروية في الدماغ أي نقص في الأكسجين مما يؤدي لفقدان الوعي، ولم يعرف أسبابه رغم استمرار المراقبة لأسبوعين ، وستبقى تتردد على عيادة الأعصاب والدماغ حتى يعرفون الأسباب .. وهي أنكرت كليا تعرضها لضربة قوية على دماغها..فلماذا يتكرر الإغماء؟ فهل المرض في الدم ؟ في الأعصاب ؟ في الهرمونات؟ الأطباء يبحثون عن الجواب .. حتى أن بعضهم قال : يجب أن تتعالج في أوروبا الشرقية أو موسكو ، فطبهم متقدم عن طب بلادنا .. وكان الموعد مع أسرتها ما زال قائما حين تسترد عافيتها ، وكان هذا الموعد يأخذ من حوارنا بعض الوقت ، وكان الرفاق يطلبون مني دعوتها لجلساتنا التعليمية على مبادئ الحزب ، وطرق تحقيق النصر على الظلامية والرجعيين .. فحديثنا سياسة سياسة أخبار بريجنيف إساءات خروتشوف لستالين.. وكنت أنقل لها رغبتهم برؤيتها ووجودها معهم ، فتقول: لديّ لهفة للجلوس معكم ؛ ولكني مشتتة الذهن ، وحالات فقدان الوعي الملازمة ؛ لذلك لا رغبة لي بسماع شيء عن الحزب والحركة الشيوعية ..إني افكر بالموت ..وهل هناك حقاً شيء اسمه البعث ؟! كما يخبر المسلمون .

فأرد عليها بنوع من التهكم: هكذا يزعم المسلمون وكتب الدين .. قد درسنا أن بعد الموت

بعث وحساب وسؤال في القبر وجنة ونار

- أكنت تؤمن بهذا قبل أن تعرف الفلسفة الماركسية المنكرة لكل الغيبيات والروح ؟

قال بعد تأمل : ليس من السهل يا سمر تجاهل ما نشأت عليه وتربيت عليه .. حتى في جلساتنا عند الكلبي أسمعهم كثيرا يحلفون بالله .. ويسبون الرب رغم أننا نعتقد بعدم وجوده فهاذا نسب ؟! ..ليس من السهل التخلص مما تعودنا عليه .. حتى أنت رغم أنك ولدت في بيت يحتضن الشيوعية منذ الصغر الأب والأم فتلفظين لفظ الجلالة

- وكما نرد على بعض الناس السلام عليكم ورحمة الله .. هذا بحكم

العادة والمجتمع .. ليس لأنها تحية الإسلام يا سيدي .. لو كان الله موجودا .. الله إله المسلمون لماذا يعاقب الناس وهو خالقهم؟!

- حسب معلوماتي القديمة إن الله لا يظلم أحدا مثقال ذرة .. والناس ملكه فمن شاء عذبه ومن شاء رحمه هذا أولا، وثانيا المطيع يجزى على إحسانه والمسيء يعاقب على إساءته وظلمه .. فالمدرس لماذا يعاقب بعض الطلاب ؟ هل يترك المجرمون والظلام بدون عقاب ؟! لماذا وضعت القوانين والأنظمة ؟ لو لم يكن هناك عقاب ، فسائق السيارة يمشي بعكس السير ولا يبالي بالآخرين ، وتعم الفوضى .. وأنا كما تعلمين وذكرت لك قديما ثقافتي الدينية محدودة ؛ إنما من السماع وجئت كلية الآداب لأكون مدرسا للغة الإنجليزية

- صدق أن إجاباتك جيدة ومقنعة .. المقصر والمؤذي والظالم يحتاج إلى جزاء.. اللص لو ترك بدون عقاب لاستمر في اللصوصية ، وكذلك القاتل ، والمجرمون يعاقبون في النظام الشيوعي ويعدمون .. أنا عندما أرى فتيات وشبانا معنا في كلية الآداب يصومون عن الأكل والشرب بزعم التقرب إلى معبودهم أتعجب من تعذيبهم لأنفسهم .. أيوجد دين يمنع الناس عن الأكل والطعام ؟! ماذا يستفيد الإله من تجويعهم لأبدانهم ؟! يقللون من الوجبة خلال النهار .. أنت تصوم يا باسل؟

- نعم ، تربيت على ذلك ولحد الآن أصوم عندما يحضر شهر الصيام لا أحد يفطر في البيت

حتى الصغار يفعلون هذا .. إنما تركت الصلاة لما التحقت بالجامعة أترك صلاة وأصلي الأخرى رويدا رويدا تركت كل الصلوات

عقبت على فعل ذلك قائلة : البيئة المحافظة .. لم تفعل ذلك عن عقل وتفكير .. أمقتنع بعدما عرفت المادية الشيوعية أن للكون ربا؟ وأن الطبيعة هكذا وجدت خلقت نفسها بنفسها

تمهل في الإجابة ثم قال : أصدقك القول أنا ما زلت مقتنعا من وجود إله لهذا الكون .. لم أحسم أمر إنكاره .. لا تنسي يا صديقتي أنني حديث عهد بالشيوعية .. لو بعدت الشيوعية عن الإله ، ربما وجدت قبولا أكثر عند الناس ، مثل العلمانية ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. رغم الدروس في الفلسفة والفكر اليساري المادي أنا محتاج لزمن حتى أنسى هذا الإله

قالت فجاءة دون مواربة: أفضل لك أن لا تنساه يا باسل .. نعم ، لا تنساه .. أنا لما مرضت وبقيت في المستشفى فترة طويلة ، ورأيت الأطباء والممرضات واهتمامهم بشفاء المريض ودعائهم له بالشفاء .. قلت لابد من دعاء شيء من دعاء قوة قادرة ؛ لعله الله .

بعد الحوار الأخير بين الطالبين باسل وسمر الذي ذكرناه في الصفحة السابقة اتفقا على اللقاء في منزل نضال ليلة الجمعة ؛ لأن القوم لديهم رغبة عارمة برؤية سمر بعد هذا الانقطاع بسبب المرض ، فقبلت سمر هذه الزيارة ، في التاسعة ليلا التقيا على دوار "أبو خروف" حيث استقبلها باسل ومشيا إلى شقة نضال في الطابق الثاني من عمارة مكونة من ثلاثة طوابق يملكها السيد نضال

استقبل القوم الفتاة بالهتاف والترحيب العالي ، وبعضهم بالعناق والقبلات حتى ابنة الكلبي روضة التي كانت تستقبل سمرا ببرود واضح احتضنتها وقالت: آه ، تعودنا على سماع كلامك وتعليقاتك .. سلامتك أيتها الرفيقة الغالية .. هذا المرض بين كم نحبك بيننا ! كيف أنت اليوم؟!

ردت سمر وقد بدا عليها الإعياء : أشكركم جميعا، كان رفيقي باسل ينقل لي شوقكم لي وحبكم لي .. ما زال هذا المرض غامضا أصاب بغيبوبة وفقد الوعي لدقائق ثم أعود

للحياة الأطباء يخبرون أن المرض سيزول مع الوقت .. وأبي يفكر بتسفيري للاتحاد السوفيتي للعلاج إذا لم يخرج أطباء البلد بشيء

تمنوا لها الشفاء، وشكروها على ضمها باسلا لمجموعتهم ، وعادت سمر تتحدث مع ابنة السيد نضال التي لاحظت أنها مريضة فوق العادة ، فهي دائماً متوترة وقلقة ؛ ولكنها بدت لسمر متعبة أكثر من اللازم ، وظهر هذا من ترحيبها بها على غير المعتاد منها ، فهي تعلم المشاكل البيتية التي عانت منها بسبب طلاق والديها ، فلما بدأ الحديث قالت سمر لها : أتحبين أن أتحدث معك على انفراد ؟!

جاء الجواب من نضال : أفضل ذلك يا رفيق سمر ، فلها عدة أيام في وضع غير طبيعي .. اذهبا وتحدثا معا

أمسكت سمر بيدها وساقتها إلى مكتب نضال ، ولما جلستا قالت سمر : أحسست أنك غير طبيعية الليلة

أجهشت الفتاة بالبكاء على أثر سماع الكلام ، فأخذت سمر تخفف عنها ، ومن توترها الغامض بالنسبة لها ، وأخذت تردد كلمات المواساة ، وقالت الفتاة بعدما خف تساقط الدموع : أنت ذكية يا سمر .. أحس أنني تعبت من هذه الحياة

- تعبت ! ماذا تقصدين يا روضة؟!

قالت بتشكك : هل الشيوعية التي نعتنقها تحقق السعادة للمرء ؟

- لم افهم ؟!

قالت بحدة : إنني بدأت اكفر بشيوعيتي

- لم افهم ؟!

قالت : لا نسمع إلا الكلام ..وغدا سيتحول الشعب إلى مناضل من أجل الوصول للمرحلة الشيوعية التي ستسود العالم .. نسمع كلاما ، ونمارس الجنس كالحيوانات .. هل هذه هي الشيوعية؟! الزواج رجعي .. الزواج يعني بقاء المرأة في البيت ، حتى هؤلاء الرجال ملوا منا

بعد أن ضحينا بأجسادنا من أجل الشيوعية .. أصبحوا يبحثون عن فتيات جدد وأخريات .. حتى لما رأى أبي ملل الرجال من جسدي يريد أن يعوضني بنفسه .. تحرش بي من فترة .. أنا تعبت من الكلام .. ولم تحدث السعادة المنشودة

قالت سمر حالمة : لقد جاهد الأوائل وناضلوا وعذبوا وسجنوا وماتوا قبل أن يصلوا للدولة الشيوعية في الصين وكوبا وروسيا الشيوعية.. وهذه الأمور يجب أن تمر على حياتك مرور الكرام ، لا ترغبين بمعاشرة أحد كفي عن ذلك ..لا أحد يجبرك على مضاجعة الرجال .. الشيوعية ليست جنسا وزواجا .. الشيوعية سيطرة على الإنتاج والموارد يا روضة حتى المتزوجين يملون من أجساد بعضهم بعضا .. لماذا خلقت الأسفار والرحلات ؟ أنا حزين من أجلك هل يمكنني مساعدتك بشيء ؟!

بعد سكوت قالت : بماذا ستساعدينني ؟! ولم يبق شاب ورجل منا إلا نال من جسدي شهوته .. جنس آمن .. احذري الحمل .. قلت لأبي : دع أحدهم يتخذني زوجة رسمية قانونية . فقال : ستطلقين بعد أيام .. فأنت اليوم زوجة الجميع.. ألا يحق لي أن أكون أما ؟! أنا أحس بتعب شديد وضياع شديد ، لم يعد للحياة عندي طعم وأي قيمة؟! سمعت أخي يقول : دعِك من شيوعية أبيك .. هؤلاء طلاب فاحشة .. أهؤلاء سيقودون الناس إلى الحرية ؟ ونحن نسمع أنأت الشعوب المسلمة في الصين والاتحاد السوفيتي.. ثورة قامت على إهلاك ثلاثين مليون مسلم .. أدرك اليوم يا سمر الشر الذي اخترته .. أقول اليوم ليتني بقيت في حضن أمي وأخي

أدركت سمر حجم اليأس في قلب روضة ، فقالت : أخوك المهندس ما أخباره ؟

- لست أدري ، لا اتصال بيننا منذ التحقت بكم وبأفكاركم وجئت للعيش معكم ، رغم ما قرأت وسمعت وحفظت لا أرى نفسي بين هؤلاء إلا دمية وغانية حتى أنهم يقرفون من معاشرتي ، ويتهربون منها ، صرت عبئا على المجموعة ، لا سهرة لا سينما لا مسرح ، لم يعد أحد يدعوني لذلك أو لعشاء .. لقد استنفدت طاقتي .. ملوا مني ، أصبحت باسم الشيوعية

كفتيات دور الدعارة بضع سنوات ، ثم تلفظ إلى الشارع ، وتعود لقريتها ، ويؤتى بأخريات أهذه شيوعية ماركس وإنجلز والبروليتريا ؟! أهكذا نساء روسيا اليوم؟! وفتيات الأحزاب الشيوعية ؟ فقالت: أترغبين بالزواج والأسرة والأمومة؟!

– أبي لا يرى ذلك مناسبا لي .. يجب أن أبقى حرة ملك للجميع .. وإذا قلت غير ذلك اعتبرها ردة ورجعية ، أهذا أب ؟! هذا قواد يا سمر .. لماذا الدعارة يا سمر ؟! بهذا سنقيم الثورة الشيوعية العالمية؟!

بعد منتصف الليل غادرت سمر وباسل منزل الشيوعي العربي نضال الكلبي ، ورافقها باسل إلى الشارع العام لتركب سيارة أجرة ـ تكسي أصفر ـ لينقلها إلى بيت والديها ، وقبل أن يفترقا ويوقف لها سيارة قال بفضول : طال مقامك مع ابنة نضال.

صمتت لحظات كأنها تفكر بالجواب أم لا ، ثم قالت: إنها تعيش في حالة يأس وإحباط وصلت إلى مرحلة الكفر بالشيوعية والنضال الشعبي أتصدق أن والدها يتحرش بها جنسيا؟!

– معقول!

– نعم معقول ، نضال معروف بشهوانيته بين أعضاء الحزب الكبار ، ولا أتخيل فتاة ممن جئن هنا لم ينل منها شيئا .. لقد حاول معي في أول أيام التعارف به وترددي عليه ؛ لكني رفضته ، وأخبرته أني أحمل فكرا لا أحمل جسدا .. فترك ذلك للأيام ؛ لذلك أكاد أصدق كلامها ، والسبب في نظري أن الشباب هجروها ، وهي تعلقت بالشيوعية وغيرها كثير من أجل الجنس ، وليس من أجل الفكر .. فالجنس قضية ثانوية .. فكان والدها ـ وحتى أنها قبل أن تنفصل أمها عن أبيها ـ لا يلومها على ذلك بحجة الحرية الجنسية للرفيقات ؛ فكان الجنس عندها أهم من الفكر ، لا أحد يحاسب ولا أحد يلوم .. المهم رضا الطرفين .. ولما تخرج المهندس ماهر خرج بهم من بيت نضال ، ولما علم بفعلها ما يسمونه الزنا هربت إلى أبيها ولما لم تجد الزوج الثوري عادت لمضاجعة الرفاق ، فهي لم يهمها الفكر الشيوعي كما يهمنا نحن ، ومنذ سنة أو أكثر أخذ الشباب يهربون عنها ويهجرونها ، كعادة البشر تحب التغيير وتظهر

حسناوات جدد ، وخشية انتقال أمراض الجنس ، فأصبحت دون عشيق أو عشيق يهرب منها سريعا .. أنا ألاحظ هذه الأشياء واسمع بعضهم يتحدث بها ..كان على نضال أن يزوجها من أحدهم ـ أي زواج ـ قبل الوصول لهذه المرحلة ؛ لذلك على الفتاة ألا تسلم نفسها للرجال بسهولة ولكل طارق .. والدها الآن يدرك الحالة التي وصلت إليها من الإحباط ، فلم تقبل أن تسلمه نفسها مع أن الشيوعيين لا ينظرون لنكاح المحارم كنظرة المسلمين إليه .. فهم في قضية الجماع مثل الحيوانات أو بعضها فعلا .. فترى مجموعة لبؤات يخضعن لذكرين على الأقل ، والقرود الأقوى يسيطر على المجموعة .. فكان حديثي معها في تحسين نظرتها للحياة ، وأن الجنس ليس كل شيء ، وأن تهتم بالنضال والفكر فسترتاح من التفكير بالجنس ، وأن هذه مهمتها الأولى في الحركة الشيوعية .. وأنا في النهاية أدركت أن حالتها النفسية سيئة وتفكر بالموت كما فكرت فيه أثناء مرضي الغامض كما تذكر يا رفيقي كلما سهل على الإنسان الحصول على الشيء يسهل عليه فراقه كانت سهلة الاستسلام للأسف أنا جئت إليهم بشكل دائم منذ دخلت الجامعة أثناء الثانوية مرات متباعدة أتيتهم وسمعت منهم الكثير فأصبحت لا شيء عند الشباب .. وشبابنا لا يتزوجون في سن مبكرة ، خاصة من اعتنق الشيوعية مبكرا

أشار باسل لسيارة أجرة ، فركبت الفتاة في المقعد الخلفي شاكرة لباسل وملوحة بيدها ، ووعدها بلقاء قريب ، ومشى لبيته وهو يقول : هذه الشيوعية التي يدعونني إليها ، منذ عرفت مجلس والدها وأنا أراها قليلة الكلام كئيبة ، ولاحظت دفعه لبعض الشباب إليها دفعا يا لها من حرية إباحية ! بنات الغرب يفعلن ذلك بدون ماركسية وشيوعية .. ماذا يفرق هذا عن [البوي فرند] ؟ صديق لشهر لسنة شريك الفراش .. أليست المجوسية المزدكية تبيح المحارم والأمهات ؟ وسمعت أن القرامطة وجد ذلك لديهم .. يا الله! أيصل الانحطاط بالإنسان إلى هذا الحد ؟! التحرش بابنته أم أنها كاذبة ؛ لكنّ سمرا تصدقها ، لابد أنها تعلم أشياء أخرى عن نضال ، عندما تكون المبادئ أرضية ليست من عند الله يصل الانحطاط بالإنسان إلى هذا الحد .. ألا نسمع عن الاحتفالات الإباحية التي تجري في بعض البلدان في

مواسم الربيع وغيره في الهند في أفريقيا في اللاتينية ؟ .. الدين هو الحياة.. الدين هو النظافة لماذا نضحك على بعضنا البعض؟!

استيقظ سكان عمارة الكلبي على حريق هائل أصاب شقة الكلبي نفسه قبل صلاة الفجر بساعتين ، وهرع الناس وسكان الشارع لإطفاء النار قبل الوصول إلى الشقق الأخرى وحضرت المطافئ والإسعاف السريع والشرطة بعد زمن من الحريق ، وتم إخماده وأخرج الموتى والجثث المحروقة والمصابة إلى سيارات الإسعاف والمستشفيات ، وقام التحقيق الشرطي بالتحقيق باحثا عن الأسباب للحادث ، وتبين لهم تعمد الحادث ، وأن ابنة الكلبي حرقت نفسها بمادة الكيروسين الكاز ، ثم انتقل الحريق إلى باقي الشقة ..ولما لسعتها النار مشت إلى غرفة أخرى ، وأصابت النار الستائر والسجاد ، فقتل معها فتيات، وأما السيد نضال اختنق بسبب الدخان ، ونجا من الحادث .. وأصاب الشقة ضررا كبيرا ، هذه المعلومات التي أخبرت بها الشرطة الرأي العام ، ولما سمع باسل الذي استيقظ مع الظهر بهذا الحادث ، فلم يتفاجأ كثيرا ، فكانت ليلة أمس توحي بمأساة قادمة ، وكان عجبه للطريقة التي اتخذتها الفتاة للانتهاء من حياتها وبؤسها أرادت قتل الجميع الأب والنائمين في الشقة ، اتصل بسمر ونقل الخبر بدون تمهيد وسمع بكائها وقالت باكية : كانت بائسة يائسة!! وحاقدة وناقمة يا باسل .. نضال بقي حيا

- الحادث بعد مغادرتنا بساعة ونصف ، والسيد وضعه حرج ، لقد ابتلع الكثير من الدخان

قالت بحزن : كانت محطمة ليلة أمس ، بذلت جهدي ، وأنا قلت لك حالتها كانت صعبة توحي بشيء ، حاولت صرفها عن الموت ، لم أدرك أنها ستفعل ذلك بمثل هذه السرعة .. وبهذه الطريقة الحرق .. قد تنشر الصحافة صباح الغد تفاصيل الحادث .. فاليوم لم ينشر شيء.. الجريدة لديّ .

- صحف السبت ستفعل ذلك؛ لأن الحادث حدث قبل الفجر ، وتطبع الجرائد بعد منتصف الليل ، وتوزع مع الفجر قالت: سأراك اليوم ، إني بحاجة للجلوس معك

نجا نضال الكلبي من الحادث الرهيب ، وعرض العمارة للبيع ، وغادر "أبو خروف" ، ربما للأبد ، وربما لحين من الدهر ؛ لذلك كان يقول لسمر وباسل وهو يغادر المكان : كنت أتوقع إقدامها على قتل نفسها ، لست غبيا ، كانت منهارة نفسيا ، تحتاج لصديق جديد ، قل لعشيق جديد ، هي جاءت إليّ بعد طلاق أمها ، ليس على اقتناع بالفكر الذي نحمله ، وقعت في الخطيئة ، فاتخذت الشيوعية تغطية لخطئها ، وأبوها رجل معروف لها منذ كانت طفلة أنه يعاشر النساء دون رابط مقدس .. وأنتم تعلمون كيف ننظر لقضية العلاقات الجنسية ؟ هي مسألة مثل الأكل والشرب ، تأكل ما تشاء ، تشرب ما تشاء ، هم يسمون الخمر حراما ، عندنا لا حرام إلا ما حرمه الحزب ، قبلتها وعاشت معي ، فما كان لي أن أمنعها من عمل علاقات حميمية مع الشبان والرجال الذين يرتادون بيتي .. هل أحرم عليها وعليهم ما يباح لنفسي ؟! وجاء السيد باسل قبل عدة شهور ، ولم توفق معه بصداقة جديدة ، وأنت لم تكن تكترث بالنساء حتى من سمر ؛ إنما هي صديقة في الجامعة والحركة .. وأنا أعلم أن بعض شبابنا يعملون معنا من أجل شهواتهم ، ولا أحد يحاسبهم ؛ لأننا من دعاة مشاعة النساء حتى ولو كنا مسلمين في الأصل ، وكل حركة في العالم لها اتباع دون فهم الفكر والانقياد له .. مبادئ عامة فكرة عامة يتمسكون بها .. لكن أن تحرق نفسها والآخرين ووالدها .. ما كان يخطر لي في بال .. والكاز المستخدم في البيت إننا نستخدمه من أجل المدافئ [الصوبات] كما تعلمون .. كانت صدمة عنيفة لي لما أفقت من الأغماء .. كان هذا قاتلا مرعبا .. عرضت عليها أن أعيدها لأمها من زمن ، لما أدركت تعبها النفسي الشديد ، رفضت قائلة: لم يبق لي شيء أعود به إليهم ، لم أعد إنسانة ، لقد جعلتني دابة يا من تسمى أبي .. وهل أنا الذي سمحت لها بممارسة الجنس ؟! أنا غضضت الطرف للمبادئ الثورية التي أحملها وعشت لليوم من أجلها ، ومن قبل أن أتزوج أمها ابنة عمي .. ها هي الآنسة سمر لا تسمح لأحد بمعاشرتها .. هل أحد يجبرها ؟ هذا شأن خاص لا دخل للحزب فيه .. لا تجريم بفعله .. هذه أمور شخصية

الإنسان عندما يصبح عبد الشهوة لا يحب انقطاعها عنه ، يحب الاستمرار فيها .. والناس تحب التغيير ، وتمل من الشريك الدائم لم يرد باسل ولا سمر وتابع نضال التبرير والدفاع عن نفسه: أنا اليوم نزيل فندق الجمهرة في مركز المدينة ، ولما اشتر بيتا بعد بيع هذا البيت سأتصل بكم ؛ لتعود الليالي الجميلة ، وسوف نبقى ونواصل الدفاع عن قضيتنا حتى آخر نفس يا سمر .. رغم فارق السن الكبير بيننا فأنا معجب بك ، ومعجب بمناصرتك لحركتنا الشعبية .. وأتمنى أن تتزوجا .. فأرى لك مستقبلا واعدا معنا يا باسل في الشيوعية العربية مع أننا في السبعينيات من القرن العشرين ، فما زال نضالنا الشيوعي في أوله .. الأنظمة العربية تحاربنا بقسوة وشدة .. فالبيان الشيوعي الأول لرابطة الشيوعيين الأوائل اعلن في القرن الماضي عام١٨٤٨ ، عندما اجتمعت الرابطة في لندن نوفمبر ١٨٤٧وكلفت كارل ماركس وفريدريك انجلز بكتابة المبادئ العامة للشيوعية العالمية على أن تكون هذه المبادئ البرنامج السياسي للحركة الشيوعية ، وصدر بيانهم كما تعلمون بألمانية في ١٨ آذار ١٨٤٨ ، وختم البيان بالعبارة الخالدة يا عمال العالم اتحدوا ، ولم يكتب البيان باللغة الروسية ، وجاءت الدولة الشيوعية في روسيا القيصرية بعد البيان بسبعين سنة.. فليس لنا سبعون سنة نناضل .. والشيوخ يستمتعون في إفساد شبابنا ، وتحديثهم عن عذاب القبر وتخويفهم بعذاب القبر ..وفتحت عشرات القبور ، ولم نر فيها محروقا ومعذبا .. عظام بالية رمم أكلتها الجراثيم كيف يؤمن هؤلاء بالغيبيات والخرافات ؟! قالها بعصبية

قال باسل : هدئ أعصابك يا رفيق نضال .. سنكون على اتصال .. ولليوم لم أقابل والد سمر تأخر اللقاء بسبب دخولها المشفى .. لقد قرأت عن الرجل ، وعلمت أنه من أوائل المناضلين اليسارين في المنطقة، وأنه منذ حادث بيروت بعيد عن الأضواء ؛ كأنه في عزلة .. نشاطه قليل مقالات في الصحف .. وهي قليلة يا سمر

قالت سمر بحزن وشرقت بدموعها : عندما نجا أبي من الحادث قضى أكثر من سنتين لا يتكلم ، كان مصدوما ومذهولا ؛ لأن الشيوعيين هم الذين حاولوا تصفيته قيل جناح شيوعي

متطرف .. للأسف الشيوعية أجنحة وعندهم ميكافيلية الخصومة بينهم شديدة.. ستالين سرق البنك ليمول الحزب والشبيبة الشيوعية فالشيوعيون يا سيد باسل وكما يعلم الرفيق نضال لا يخلون من شهوات الدنيا والصراع .. فلدينا شيوعية لينين وستالين وشيوعية ماو ، ومنهم من يخلط بين الشيوعية والقومية

فقال نضال : وهذا ما يؤخر نصرنا ووصولنا لحكم العالم العربي .. الصراع مرير والتمزق موجود ، ونتيجة لهذا المرض ابتعد الرفاق عنه ، فلماذا سيجدون عند رجل محطم وتمثال صامت ؟ وحتى بعد أن تعافى وتحسن السيد أصبح ذكرى وتاريخ عندنا للأسف .. تحياتي لك وللوالد وسنبقى على اتصال ، وننقل الراية من جيل لآخر ، وقد تكونين رفيقة عظيمة لنا كوالدك وأمك ، لقد كانت أمك نعم الرفيق ، ولا تقل قوة ونضالا عن والدك ، فهي شريكة نضاله وكفاحه من أجل تحرير الشعب المسكين الحائر بين قوى الظلام والجهل والطغاة.. وقد صدمت أمك من الحادث الغادر وغدر رفاقه به ، وهم الذين أرسلوا إليه للقاء عاجل .. ومع ذلك ظلوا أوفياء للحركة الشيوعية العالمية .. سنلتقي يا سمر سنلتقي يا باسل .. اثبت يا باسل عقلك متفتح على الفكر الشيوعي وهذا النضال العريق ، وسيأتي النصر ولابد منه ، وقد تمسكون الراية بعد هلاكنا ، فنحن لم نحقق لكم الدولة الشيوعية العربية الدولة الحلم أصبحنا شيوعيين قطريين ..كل شيوعي يهمه شيوعيي بلده ، الاتحاد والعالم العربي وحدة واحدة ضعف ذلك بيننا ، وحضور مؤتمرات الحزب في بلد آخر نحضرها كضيوف.. أهل مكة أدرى بشعابها .. أصبح شعارنا اليوم الشيوعي المصري بدل العربي العراقي بدل العربي ، لم نعد نعمل كوحدة واحدة ، لم نعد نعمل للشيوعية العالمية .. هذا لروسيا هذا للصين .. كانت فترة الخمسينيات ولمنتصف الستينيات همتنا عالمية ؛ كأن اليأس من وحدة الأمة العربية انتقل إلينا أيضاً ، كبرت بيننا القطرية ، فكان الاعتداء على نجيب من نتائجها ، حقيقة أيها الرفاق الإمبريالية الغربية تحاربنا بدون هوادة بأبناء جلدتنا منا فينا .. أي انقسام يحدث بين الكبار يؤثر على الصغار تلقائيا ، فالاتحاد السوفيتي لم يعد يهتم بنا كما في فترة ستالين وخروتشوف ؛

كأنه يأس هو الآخر من سيطرة الشيوعية على العالم .. إنما هي أقطار متفرقة في قارات العالم .. فكل يوم نسمع عن هرب ألمان شرقيين إلى الجزء الغربي من ألمانيا هربا كما تزعم الصحف الإمبريالية من الاضطهاد الشيوعي.. أما اضطهاد هتلر النازي لم يهربوا منه لابد أن نلتقي ولنتابع النشاط الشيوعي عسى أن تظهر قيادة جديدة قوية تقود الحركة الشيوعية العالمية



أدرك باسل الذكي الفطن المثقف بعد حادثة حريق شقة نضال الكلبي أن الشيوعية العربية والعالمية أنها مجرد شعارات لا تغني ولا تسمن من جوع ، وقد تكون مستمدة من الإباحية والمزدكية بثوب الفكر والفلسفة ، وأن المرحلة الشيوعية خيالية لن يصلوا إليها كما يزعمون ، فالاتحاد السوفيتي مثالهم الأكبر في نجاح الثورة الشيوعية يستخدم القوة والعنف والشدة مع الروس وشعوب الاتحاد لتثبيت أركان النظام ، والصين كذلك وكوريا الشمالية نحوهم مفروضة على الشعوب بلا إقناع وبلا فكر .. والاشتراكية كمذهب اقتصادي براقة وحسناء ولكنها كواقع فاشلة ، ولم تحقق الرفاهية والعدالة المرجوة منها ، بل زادت الأزمات الاقتصادية لدى الشعوب .. التطبيق ليس كالتنظير والقول إنما تضليل وتهويل حتى التعديل لأنظمة الشيوعية مستمر حتى الشعوب المحكومة بالشيوعية غير مقتنعة بها .. الإنسان فيه جانب روحي

التقى الطالبان في مكتبة الكلية فقال لها: ما دمت جئت اليوم فلنخرج ولنجلس في إحدى الحدائق .. أنا لي أكثر من ساعة هنا .. أراك حزينة؟!

- ما زلت متأثرة بموت روضة ومصدومة ، ونظرات عينيها الغريبة تلك الليلة تلاحقني تنظر إليّ وتبحلق فيّ . ولما أصبحا خارج المكتبة قالت: اليوم ما رأيك أن تذهب معي للبيت ؟ فأبي يرحب بك ويرغب بالتعرف عليك ، وكذلك أمي أعندك شيء بعد المحاضرات ؟

- لا شيء عندي سوى درس تدريب بعد الخامسة في النادي ؛ ولكنهم اعتذروا عنه بسبب مرض محمد المدرب فهو في المستشفى

- ماذا يدرب هذا النادي ؟ أفيه نساء ؟

قال : هو نادي يفتح مساء من الخامسة حتى العاشرة ليلا أي بعد دوام الموظفين والعمال الدوام الرسمي لإتاحة الفرصة لهم بالالتحاق فيه .. يعقد دورات كارتيه كونغ فو ملاكمة ، وفيه طاولة بلياردو ، وطاولتان لتنس الطاولة ، وفيه شاي قهوة وفي أسفل منه مطعم يقدم الساندويشات والوجبات الخفيفة ، ولا يوجد فيه فتيات ؛ لكن ليس ببعيد عن نادينا يوجد نادي للسيدات أترغبين بتعلم الكراتيه؟!

قالت بابتسام : تمنيت ذلك قبل دخول الجامعة ، أما اليوم فأحب الكتابة والفكر ، لقد كتبت رواية متوسطة على وشك إنهاءها ؛ فإذا وجدت لديك وقتا نقرأها معا

ـ هواية جميلة ! يسرني قراءتها أكتبتيها بالعربية أم الفرنسية لغة تخصصك؟

- بالعربية ، أنا طلبت التخصص الفرنسي لمحبتي للأدب الفرنسي ، كتابات المنفلوطي جميلة وترجمته رائعة ، وثانيا لسهولة العمل على الشهادة الفرنسية سواء في الداخل أم الخارج فالصحافة مجالها جيد .. ستتناول الغداء معنا اليوم

- لا داعي للأكل يكفي التعرف على حضرة الوالد الرجل التاريخي في نظري في الشيوعية العربية

رافق باسل الفتاة إلى بيت أسرتها ، كانت فيلا كبيرة وأمامها تقف سيارة ، فقالت سمر: سيارة أمي ، وهي قد عملت في قطاع التدريس ، ثم تقاعدت قبل دخولي الجامعة . ضغطت على الجرس ، وفتحت البوابة دخلوا مدخل البيت المبلط بالرخام ، وصعدوا درجتين وكانت فتاة تفتح لهم باب الفيلا الرئيسي زلفوا الفيلا ، وقالت سمر: أختي الأصغر مني في الجامعة مثلي ، لكنها سنة أولى كلية العلوم الاقتصادية هذا باسل يا أمل رفيقي في الجامعة والحزب .

صافحها باسل مبتسما وقال: أهلا بالآنسة أمل

ابتعدت عن طريقهم قليلا ، وكانت إضاءة المدخل ضعيفة ، ومشوا إلى صالة الاستقبال ، فشاهد رجلا يجلس على كنبة ، وأمامه منضدة طويلة عليها مجلات وصحف ، ومنفضة دخان وعلبة سجائر وعلبة كبريت ، وكأس قهوة فارغ ، وسمع سمر تقول بصوت مرتفع: أبي صديقي باسل الذي ذكرته لك .

وقف الرجل ببطء ولما اعتدل قائما كان باسل أمامه يسلم عليه ويصافحه متمنيا له السلامة والعافية ، فأشار له بالجلوس مرحباً ، وكل يرحب بالآخر بكلمات الترحيب المعتادة : أهلا بك يا بني

وقبل أن يستقر جالسا دخلت أم سمر باسمة مرحبة ، فقد التقيا أكثر من مرة عند سرير شفاء سمر ، فصافحها وكان مبهورا من جمالها عندما رآها في المستشفى ، فقد كانت تملك حسنا مثيرا رغم تجاوزها الأربعين عاما ، فأعاد الترحيب بأم سمر وجلس ، فقالت أم سمر: الغداء جاهز يا سمر

التفتت سمر لباسل وقالت: ما رأيك يا باسل ؟

- نتمهل قليلا حتى نتعرف على الوالد

قال الأب: مرحباً بك يا بني .. تسرني صداقتك لسمر .. فهي تتحدث عنك بإعجاب مع أنك لا تدرس نفس تخصصها آداب إنجليزي

- نعم ، آداب إنجليزي في نفس الكلية ، تعرفت على الآنسة في مكتبة الكلية ، كلانا شغوف بالقراءة والفكر الإنساني ، وهناك محاضرات مشتركة بيننا ، وصار خط مشتركا بيننا الفلسفة المادية والفكر المادي.. بينت لي الفكر المادي الشيوعي الذي ينكر الروح والقيم الأخلاقية الدينية ، وأن الدين بدعة اخترعها الحكام والملوك للسيطرة على الشعوب بالخرافات والأساطير ، وقد علمت أنك رجل مهم في الحركة الشيوعية العربية ، ولك شأن هام فيها فأحبت الصديقة أو الرفيقة أن أتعرف على والديها ، فقد جالست صديقك القديم نضال الكلبي

تنهد نجيب وقال: نعم ، لقد علمت من سمر والصحف أن ابنته حرقت نفسها وبعض رفاقها .. أنا كنت قامة شيوعية قبل رصاصات الغدر ، كنت عضوا في التنظيم الشيوعي العالمي الذي أسسه المرحوم لينين بعد انتصار أكتوبر ١٩١٧ فأسس الكومنترن ١٩١٩ ، واضطر الروس للغائه عام ١٩٤٣ بسبب دخولهم الحرب العالمية الثانية ، وأسس الكومنفورم عام ١٩٤٧ بعد نهاية الحرب كمؤسسة تنسيقية للأحزاب الشيوعية في العالم ، وعملت فيهما ؛ ولكن خروتشوف أنهى الكومنفورم ١٩٥٦ مع عقد المؤتمر الشيوعي العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، وبعدها أصبحت الأحزاب الشيوعية أداة للغير ؛ ولكن لم ندرك ذلك إلا بعد سنين ..أقرأت جيدا عن الماركسية ؟

قال باسل : أقرأ وما زلت أقرأ ، وخضت نقاشات ومحاورات عميقة مع الرفيقة سمر ، فهي تعرف الكثير من المعلومات الفكرية وعن رموز الفكر الشيوعي بعكس الرفيق نضال ، فكل اهتمامه بالفكر السياسي مع أنه يحسن الدفاع عن الشيوعية ولكن مع الشيوعيين ، ولما يدخل في التفاصيل لا يكون مقنعا مع حسن دفاعه ، يستخدم العاطفة أكثر من العقل .. العاطفة مهمة في الخطابة للجماهير ؛ لأن بينهم وربما أكثرهم عوام .. والآنسة ترد ذلك لسنه ، ولم يعد يتذكر العبارات الشيوعية القديمة ، فهو يهتم بالسياسة والأخبار

قال نجيب معجبا : عظيم ! أنت شاب نابه .. أنا معجب بك قبل أن أراك وأسمع كلامك .. تكاد سمر تحفظ كل ما تتفوه به ، وتنقله لي .. نتسلى ؛ لكن عليك أن تفرق يا رفيق باسل بين الفكر التنظيري حول الشيوعية والأحداث والصراع التاريخي والطبقي .. فهناك عمالقة في الفكر الماركسي مثل ماركس نفسه وإنجلز وغيرهم الكثير ، هؤلاء قدموا فكرا وأحلاما ، ولينين حول الفكر إلى ثورة وواقع ونحوه ستالين وماو في الصين ؛ لذلك تجد عثرات خلفائهم كثيرة .. التطبيق ليس كالتنظير

- أنا أدرك الفرق بين من يقول وبين من يفعل ، وأنا اعتقد أن الرفيق نضالا من الصف الثاني يحفظ نصوصا ، وقد ينساها عند الحاجة أو ينسى جزء منها ، والأخت سمر تحب الفكر

العميق وأنا طالب مبتدئ

قالت أم سمر: ستكون عملاقا يا رفيق باسل ، فأنت تقرأ بوعي وتركيز كما بدا لي في هذه اللحظات .. أنت لا تقرأ مجرد قراءة ولتحفظ .. أنت تقرأ لتعرف كيف ولماذا؟!

قال باسل : شكرًا لك يا سيدتي .. قلت لسمر من بداية تعارفنا قرأت قبل الفكر الماركسي الفلسفة اليونانية القديمة الفلسفة التي يستمد منها الغرب والرأسمالية الأفكار .. وذلك شجعني للتعرف على فلسفة الماديين ومنها الشيوعية

ابتسمت أم سمر ونهضت قائمة تقول: الغداء يا سمر

قال باسل : قبل الغداء أريد أن أسأل السيد الرفيق نجيب والد العزيزة سمر .. سمعت أنك عانيت من رفاق الدرب رغم الجهود الكبيرة التي دفعتها والتضحيات في المعتقلات والسجون ومع ذلك غدروا بك .. وقد يكون الغدر ليس بسبب الفكر ؛ إنما بسبب أمور ومصالح وشهوات السؤال خاصة أنني في أول الدرب والنضال ، لم أتعمق في ردهات الحزب الشيوعي ونضالاته وأنت تعيش في بلد مسلم وغالب سكانه من المسلمين .. أفي الشيوعية والاشتراكية أمل الأمة في رفعتها وعزتها ونهضتها يا أستاذنا الكبير؟!

غمرهم الصمت جميعهم للسؤال ، أطفا الرجل سيجارته التي أشعلها قبل لحظة ، وحسن من جلسته وقال باهتمام : سؤال كبير في نظري! أنت تريد الخلاصة لتستمر في هذا الدرب أم تتوقف؟!

- نعم ، هل أسير على خطاكم أم أعود لحضن الإسلام؟

قال نجيب : سؤال خطير !! أنا ابن خمس وخمسين سنة يا باسل .. عرفت الشيوعية طفلا مراهقا شابا متعلما ومتنقلا في البلدان من أجلها ؛ ولكني لم أعرف الحقيقة إلا عندما تلقيت رصاصات الغدر .. أدركت أنني كنت أعيش في وهم في وهم .. وأن الشيوعية ميتة في بلاد المسلمين والبلاد العربية هذه هي الحقيقة ..وزوجتي تدرك هذا .. وتؤيدني في ذلك .. وأننا أمضينا عمرنا في الدفاع عن الشيوعية .. كنا واهمين ، وعلمنا بناتنا هاتين الاثنتين كل المبادئ

الاشتراكية والمادية ..كانت حياتنا في النهاية وهما ؛ لكن عشنا وشبنا على ذلك ، وعلينا أن نموت على ذلك .. فأنت سألت سؤالا ولا أحب أن أكذب عليك ، لقد أهدرت عمري في سراب ، في لا شيء في لا شيء .. فكر بعمق قبل أن تتابع السير .. قد تجد خيرا مما وجدنا قبل أن تغرق في أوحال الماركسية ودهاليزها السياسية

فقالت سمر بحدة واضحة: وعذريتي يا أبي التي فقدتها على مذبح الشيوعية واللينينية

التفت إليها بضيق وأجاب: يا ابنتي هل أنا قلت لك عاشري فلانا من الناس .. أنت تعلقت به ، وعلمت أنه يريد جسدك لا يريد عقلك .. هل أمنعك ؟! وأنا داعية للإباحية وعدم الاكتراث للبكارة .. قلت لك هذا جسدك وهو ملكك أنت تفعلين به ما تشائين .. والرجل طلب الحقيقة .. فهل تقبلين أن اقنعه أن الشيوعية فيها خلاص العالم من أمراضه وفقره وجوعه ؟ ونحن لنا من مطلع القرن نعمل ونعمل ، ولم يقبل الشعب المسلم ترك الإسلام

عاد باسل للحي وهو يحمل أفكارا عنيفة وتجربة كبيرة قضاها والد سمر في الشيوعية والأحزاب الشيوعية والتنظيمات الشيوعية العالمية ، واعتبر كل هذه السنين وهما وخيالا ، والذي يمنعه من الردة عن شيوعيته أنه غارق فيها لأذنيه كما يقال ، ولا يستطيع الكفر بها لذلك قضى ساعات من الليل يفكر بالقرار النهائي لهذه التجربة ، هل يستمر ويغرق كما غرق والد سمر أم يتوقف ويعود الإسلام الحضن الدافئ ؟

اخرج كتابا إسلاميا في مكتبته يتحدث عن الشيوعية المادية وظلمها للفكر العالمي ، وماذا فعلت الشيوعية الستالينية في مسلمين القوقاز والشيشان ، وتهجيرهم لسيبيريا الثلجية ، وما فعلت الصين الشيوعية في مسلمين تركستان الشرقية من إجرام وقتل وتشتيت الأسر ، لم تكن الشيوعية رحمة لهؤلاء الشعوب ، بل ظلما وسفكا للدماء دون رحمة أو هوادة

قلب الصفحات تلو الصفحات واطلع على الرد على شبهاتهم ، ظل للفجر يقرأ ويقرأ ، ويشرب قهوة ، فلم يذهب في الصباح إلى الجامعة كان ينتظر اتصالا من سمر لمناقشة ما سمعاه من الأب ، فقال: لقد صدمت الفتاة عصر أمس ، لقد ضحت بعذريتها لتثبت لنفسها أنها شيوعية ، وأن الفكر الذي يهمها ، وليس الجسد ، لقد سقطت بكارتها على مذبح الشيوعية كما قالت غاضبة عصر أمس لقد أدركت أنها تعلقت بوهم

بعد أن قرأ وتأمل اتخذ القرار الحاسم ، وسيناقش به سمرا ويخبرها بقراره الحاسم ، فهو سيعود للفكر الإسلامي فكر الآباء والأجداد المتأصل في الجذور ، وتذكر الدكتور مصطفى وخشيته عليه من الضياع والانحراف وراء ترهات وخدع الشيوعيين ، فتبسم وهو يذكر كفر زوجة نضال به ، وكذلك ابنه ، وذكر كفر ابنته به قبل حرقها لنفسها وبيت أبيها

مضى في الصباح التالي للجامعة وكله حماس ليقول لسمر : انتهى ما بيننا لك درب ولي درب وصل الجامعة ولم يجد سمرا في انتظاره ، حيث يصبحان على بعضهما البعض ، ويسمعها تهمس" صباح الخير يا رفيق باسل" ، وعلم من زميلتها أنها لم تحضر أمس مثله ، لقد تغيبت

فهي مثله حائرة مضطربة بعد الوهم الذي عاشت فيه بانتصار الشيوعية وسيطرتها على العالم ؛ لترفرف السعادة على الدنيا، انتهى الدوام ولم تحضر سمر ، هل يتصل ببيتها كما اعتاد ليطمئن عليها؟ أم يصبر للغد .. عليّ أن أجاملها وأتحدث معها لعليّ استطيع إنقاذها كما سأنقذ نفسي من الوهم .. ولماذا أعيش الوهم؟! مسكينة سمر ولكن كان والدك صادقا ومجروحا ومخذولا لما تناول الطعام في البيت قالت له أمه: اتصلت فتاة بعد خروجك للجامعة راغبة في الكلام معك ؛ لتخبرك بأمر وتريد منك أن تتصل بها بعد عودتك من الكلية

- أقالت اسمها سمر؟

- لم تذكر أي اسم ، وقالت إنك تعرف الرقم

- لابد أنها سمر .. شكرًا يا أمي

لم يتصل من البيت خرج للشارع ، مشى لمكتب بريد "أبو خروف" ، واتصل ببيت سمر بالرقم الذي يحفظه ، وقال بعد التحية : أريد الحديث مع الآنسة سمر .

- ألم تعلم أن سمرا قد ماتت أمس؟!

- ماتت!! كيف ماتت؟!

ـ انتحرت !!

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون !

تمت الحكاية التاسعة

لماذا وضع الطفل الوليد في حديقة آل ظبي ؟ !

كثر اللغط والقيل والقال

ولا جواب .. لا عرفوا أم ولا أب

انشغل الحي كله بإشاعات كثيرة

لعلك أيها القارئ أدركت من هو طفل الحديقة

أما أنا فلست أدري ! !

١٩٧٩



طفل الحديقة

تبدأ هذه الحكاية عندما كان يلعب مجموعة من أطفال "أبو خروف" من طلاب المرحلة الأساسية في ساحة قرب بيت يتكون من طابق واحد في أول الحي من أعلى ، البيت يطل على شارع السلام ، والبيت له ساحة مليئة بالأشجار العتيقة حديقة ، وللبيت سور ارتفاعه يزيد عن المتر ونصف المتر ، كان هؤلاء الأطفال يلعبون إحدى الألعاب الشعبية يلعبون بطابة تنس أرضي ، لعبة يسمونها السبعة أحجار حيث يقسم الفتيان إلى فريقين ويضعون سبع قطع من الحجارة على هيئة عمود ويرمونها من مسافة بضعة أمتار والفريق الذي يهدمها ينتشر في المكان وعلى الخصوم منعهم من بنائها بواسطة الطابة بضربهم بها ، ويتبادلون قذف الطابة بينهم حتى يصيبوهم بالكرة ، ومن يصاب يتوقف عن اللعب حتى تبنى الحجار السبعة أو يرمون بالكرة لتبدأ لعبة جديدة ، وفجاءة قفزت الكرة الصغيرة المطاطية إلى حديقة بيت آل ظبي ، {١}
صدمت الطابة بأحدهم وقفزت سور الحديقة ، وتوقفت اللعبة حتى يحصلون على الكرة ،

{١} لعبة الأحجار السبعة : أدواتها سبعة من الحجارة التي يمكن وضعها فوق بعضها البعض ، وكرة مطاطية بحجم قبضة اليد طابة.

ينقسم اللاعبون إلى فريقين، مدافع عن الحجارة ومهاجم من أجل بناء الحجارة ، يقف المدافعون خلف الحجارة المبنية، ويقف الفريق الآخر خلف خط متفق عليه، يمسك أحد اللاعبين بالكرة ويلقيها على الحجارة من خلف الخط، فإذا ما أسقطها تفرق اللاعبون بسرعة ، ويكون دور الفريق المدافع أن يلقوا بالكرة على اللاعبين من الفريق الآخر، فإذا ما أصيب لاعب خرج من الفريق، وتستمر المحاولات حتى إخراج آخر اللاعبين ، وفي نفس الوقت يجتهد اللاعبون من الفريق الآخر من أجل الوصول إلى الحجارة من أجل بنائها دون أن تلامسه الكرة، فإذا نجح في ذلك عُدّ فائزا وإذا خرج الفريق المهاجم كله من اللعبة تبادل الفريقان الأدوار، وهكذا.

وذلك بطرق بوابة الدار والاستئذان من أهل الدار بأخذ الكرة من الحديقة ، أو القفز عن السور والبحث عنها في الحديقة ، وهذه الأخطر عند الفتيان أسلم ؛ خشية أن تسمعهم صاحبة البيت كلاما سيئا أو تفجر لهم الكرة حتى يبتعدوا عن ساحة البيت الخارجية حيث يلعبون ويصرخون ويزعجون ، فكان القفز عن السور والتسلل إلى الحديقة أسلم ، وهم يفعلون ذلك كلما لعبوا في تلك الساحة ، تسلق بعضهم السور باحثين بأعينهم عن مكان استقرار الكرة قبل الاندفاع لداخل البيت ؛ ليذهب أحدهم بخفة الغزال والقرد لجلبها ، ويا دار ما دخلك شر ، وقبل أن يشعر أهل البيت بهم تسور الفتيان السور ، تبحث العيون عن مستقر الطابة ، وبينما هم يفعلون ذاك سمعوا صوت طفل بكاء طفل ، فأخذت عيونهم المستغربة الصوت تتلفت عن جهة مصدر الصوت ، ورأت جاكيتا جلديا يصدر من داخله الصوت بكاء الوليد ، نزل بعضهم ورآه وصاح دهشا : طفل!! إنه طفل !!

اقترب آخرون .. ويراودهم الاستفهام لماذا هذا هنا ؟! إنه في هذه الساحة الشجرية ، ملفوف بالجاكيت قال أحدهم :هل نسوه ؟!

وجد أحدهم الكرة الصغيرة ، وقام آخر بطرق باب الدار الداخلي ، خرجت امرأة تصيح بهم فقالوا دون اكتراث لصراخها واحتجاجها ، فهم معتادون على صياحها بسبب تواجدهم في هذه الساحة للعب : في الحديقة طفل صغير يبكي !

توقف صياحها وقالت: ماذا؟! ماذا قلتم؟!

أشاروا جميعهم للحديقة ، فغطت شعرها ، وتبعتهم إلى الحديقة ، وفعلا وجدت طفلا وليدا ، فوقفت حائرة " من الذي تركه هنا ؟!" ، ثم فطنت لكبر سنها فقالت : دعوه سأتصل بالشرطة ، هذا لقيط واحدة رمته هنا .

كان الوقت ظهرا ، حضرت الشرطة ، وانتشر الخبر سريعا في الحي أو حول المكان ، فهذا الوقت أغلب الرجال يكونون في أعمالهم ووظائفهم ، استمعت الشرطة لأقوال المرأة والأطفال ، وقد دخلوا به للبيت بضع دقائق ، ثم انصرفت الشرطة بالطفل ، وقد ترددت

كلمة لقيط من عدد من الرجال الذي مروا من الشارع وكبار السن ، فقال فتى : لقيط ما معنى لقيط يا عم سكر ؟



سكر رجل عجوز يسكن في نفس الشارع ، وهرع للمكان لما سمع حفيده يخبر أمه بأنهم وجدوا وليدا في حديقة بيت آل ظبي ، فرد السيد سكر ضاحكا : هذا يا ولد موضوع أكبر منك .. أنت اسمك نائل ؛ ولكنني سأشرح لكم جميعكم ، اللقيط لما تلقى شيئا ليس لك يسمى لقطة ، فالطفل الذي يرمى في الحواري يسمى لقيطا ، تتخلى عنه أمه لأسباب خاصة ، فترميه أمام مسجد كنيسة مزبلة .. فهو مجهول الأبوين .. هذا هو اللقيط

وسمع آخر يسأل: وما معنى مجهول الأبوين ؟ أليس له أهل ؟!

قال سكر محاولا تفهيم الطلبة الوضع : تقريبا امرأة زلت قدمها وزاغت عن الشرف متزوجة أو غير متزوجة ، وحملت سفاحا ، وخشيت أن تقتل جنينها بعد أن حملته شهورا ، وخشية الافتضاح تتخلى عنه ، فهي لا تريد أن يعرف زوجها إذا كانت ذات بعل ، وإن كانت بنتا لا تريد أن يعرف الناس بزناها ، ولم تطاوعها نفسها على قتل روح رغم فجورها ، وقد يكون لديها أمل بأن يعود إليها بعد زواجها إن كانت ولدته بدون عقد زواج ؛ لعل بعضكم فهم هذا الكلام .. أنتم في المرحلة الإعدادية تعون ما قلت ، فمن أبوه فمن أمه ؟ فهذا معنى مجهول الأبوين .. ستبحث الشرطة عن أمه ، فإذا وجدوها ستدلهم على أبيه .. فهو مجهول الأبوين ريثما يتضح الأمر ، ويكشف سر هذه الجناية ، وقد يتعرفون على الأم فحسب ، وهو الأسهل

بالنسبة لهم .

فسمع رجل يسمع شرحه للطلاب يسأل : يا أبا حنان في رأيك سيصلون للأم ؟

- اعتقد ذلك ، أما الرجل فقد لا يعرفونه إلا إذا كان واحدا أو معروفا للمرأة .. أما إذا كانت بغي فمن سيكون أبوه ؟ سيجدون الوالدة ولو بعد حين سيطاردهم القانون ، وقد ينكر الأب إذا كان هناك أكثر من رجل وعشيق ، عندئذ سيتعقد الأمر ويحتاج إلى تحاليل وطب .. وقد تعجز الشرطة من الوصول لأمه ، قد لا تكون أمه من "أبو خروف" أو الأحياء المجاورة ، فحي النجمة بعد هذا الدوار وأشار إليه بيده ؛ لكن وضعه هنا في هذه الحديقة ، وهذا البيت بالذات يدل على معرفة الجاني للمكان ، وفي الغالب وضع هذا الطفل عند الفجر ليسمع صوته عند خروج أهل البيت للعمل

- لكن زوج المرأة كما تعلم في ألمانيا أو إيطاليا

- أولادها هنا ، لماذا أتعبت الأم المجرمة نفسها وفتحت البوابة ؟ ـ وأشار إليها ـ أو قفزت عن السور ولكنه مرتفع ! .. لو لم ترد له الحياة ما تركته في هذا البيت ! لرمته في صندوق قمامة كبير كما سمعنا عن حوادث شبيهة بهذا ..يبدو أن لها معرفة بـ "أبو خروف" .. هل جاء به رجل ولم تطب له نفسه قتل ابنه ؟ والأم تعتقد أنه ذهب به ليموت .. أب جبن عن التخلص منه .. القتل بعد الولادة جريمة في القانون ، ليست عملية إجهاض أو لظرف ما تخلى عنه وألقاه في الحديقة .. الأطفال يذكرون أنه وضع بشكل سليم وجهه للأعلى لم يرم رميا كما سمعتهم يقولون .. حقيقة بوابة آل ظبي لا تغلق بالمفتاح ليلا .. إنما تغلق بالمزلاج .. فلهذا أقول إن الفاعل يعرف البيت ، والطفل وجد بعيدا عن السور .. لابد من دخول الفاعل للحديقة وتركه قريبا من إحدى الشجرات .. فالأمر الآن بيد الشرطة والمدعي العام ومنهم نعرف والد وأم الطفل؛ إنما هي أيام ، وإذا لم يعرف أهله سيوضع في أحد الملاجئ الخاصة باللقطاء والأيتام الذين هلك أبواهم معا ، ولا أولياء لهم

أخذ الفتيان والمتجمهرون يتفرقون رويدا رويدا ، وهم يتحدثون عن هذا الطفل المسكين

وعمن تكون أمه ، ويذكرون أسماء محتملة ، ويشيرون لناس علاقتهم معروفة ومنشورة على الملأ .. هذا أبوه ، ذاك أبوه ، محتمل فلانة ..لا فلانة .. تفرق بعضهم ويغمره الحزن على المولود كيف سيواجه الدنيا والظلم ؟!



كان هذا حدثا كبيرا شغل الناس في "أبو خروف" كله ، وأكثر الحديث دار في مقهى "أبو خروف" ؛ لذلك كان مع المساء هذا اللقيط حديث الناس في المقهى الشبان الكهول الشيوخ ، لغطهم يرتفع وينخفض مع كل حوار واحتمال " من أمه؟! من أبوه؟! لماذا رمي أو وضع في حديقة آل ظبي؟! هل هو لإحدى بناتهم أو لإحدى قريباتهم ؟! كيف فجرت أمه وسمحت لنفسها بالحمل ؟! لماذا لم تقتله؟! متى وضعته في الحديقة؟! من ولدتها؟! ـ كانت بعض النساء في زمن الحادث ما زالت تلد في البيوت على يد القوابل جمع قابلة ، وهن متمرسات ومتدربات على توليد النساء ، أما النساء اليوم فيلدن في غرف التوليد في جل المستشفيات ـ أم ولدت المرأة نفسها بنفسها ؟! من قطع الحبل السري للوليد؟!" عشرات الأسئلة والتهم ظهرت في الحي ذاك اليوم ، حتى وصل بهم القول إلى الإشارة إلى نساء معروفات بالدعارة والفساد ، وسأل أحدهم ما شكله ؟ لعله يشبه فلانة من الناس .. وهل الشرطة لم تعرف الحقيقة ؟! عرفوا وسكتوا من باب من ستر مسلما ستر الله عليه .. كيف هان على أمه بعد أن رضيت بالحمل به أن ترميه ؟! أخافت من القتل وهي زانية؟! والجاكيت لمن؟ كيف استطاعت أن تخفي حملها عن أهلها والجيران؟! إنهم متواطئون معها ، ولولا سكوتهم لعملت عملية إجهاض ولو خارج البلد ..هناك أدوية تسقط الحمل .. بعضهم اتهم السيدة صاحبة البيت والتي بلغت الشرطة بأنها أمه ، فهي من غير زوج زوجها في الخارج ؛ ولكن سمعتها معروفة يا ناس .. أولادها عندها ؛ ولكنها ما زالت تلد وبعلها مهاجر يا أبا ... أخطأت وغلبتها

الشهوة ، وهذا الطفل ثمرة الخطيئة .. هل هذا الطفل ذكر أم أنثى؟! لا أحد يدري ، إنما كان يبكي عندما وجدوه ، قال أحدهم : كانت فتاة شابة تتردد على آل ظبي منذ أشهر قد يكون هذا ابنها بالحرام أي بغير زواج ، شاع في الحي من عدة أشهر أن فلانة قد فجرت بفلان ، ثم انشغل الناس بقضية أخرى قد يكون هذا ثمرة هذه العلاقة الآثمة .. كيف سيعيش هذا الطفل من غير أسرة ؟! بلا أم ترضعه وتعنى به .. سيعيش كما عاش غيره ، وكما يعيش الأنام .. وعشرات قبله هنا وهناك ولدوا نتيجة الإباحية الجنسية .. بعض الدول فيها بالآلاف الأبناء غير الشرعيين في أوروبا وأمريكا الشمالية والجنوبية .. وكيف سيكون حاله عندما يشب ويعرف أنه ابن زنا؟! وأمه وأبوه تخلوا عنه ، ولم يكن ثمرة زواج شرعي .. صحيح كيف سيعمل وكيف سيتزوج ومن سيزوجه؟ مأساة مأساة !!

مثل هذه الأسئلة وغيرها الكثير تردد على ألسن أهل الحي المهتمون بالحادث والجريمة ، وفي المقهى تكلم الكثير أيضاً ، ودخل عليهم رجل وألقى التحية بصوت عال لفت الأنظار إليه

وقال بصوت صارخ : أيها السادة المشغولون بلقيط آل ظبي أن الحكومة عرفت أم الطفل

التفت إليه الحضور كلهم ، وتوقفوا عن اللعب والثرثرة ، وأصغت الأذان فتابع الرجل صراخه : إنها فتاة من حي برغوث قريبة لآل ظبي ، وتعرف البيت والأسرة حق المعرفة

فصاح أحدهم : ألم أقل لكم إن أهل البيت على معرفة بالضحية .. عرفتم الآن لماذا اختاروا هذا البيت الذي تركوا فيه ثمرة الجريمة ؟! أهو ذكر أم أنثى؟

فرد الرجل الصارخ : لا أدري لكن علمت من مصدر خاص أن المرأة الوالدة قريبة لآل ظبي وأنها ولدته في دار خاصة ، وجاءت بنفسها عند الفجر وتركته في الحديقة ، وعادت لشقتها المستأجرة ، والشرطة تحقق لمعرفة أب الطفل

ـ فلماذا تركته عند أقاربها ؟ هل تريد أن يعرف أهل المكان أنها أمه ؟ وماذا فعلوا بها ؟!

قال المخبر : نقلوها إلى المستشفى للرعاية ، فصحتها متدهورة ، وسمعت من مصدري السري أنها أرضعت الطفل وتقبلها بسرعة .. وهناك إشاعات أنها مكنت أكثر من رجل ليفجر بها ،

لم تكن طاهرة .. ومعرفة الأب ستحتاج لوقت إذا صحت هذه الإشاعة ..خزاها الله فضحت أهلها ، وتقلدت هذا الطفل المسكين!



ندخل ليلا شقة "شوكت ترعة " في حي "أبو خروف" ، كان منصرفا من مقهى مهران مقهى الحي الوحيد ، مقهى الإشاعات والأخبار ، فلما سلم وجلس قالت الزوجة: أتأكل يا أبا فاطمة؟

هز رأسه قائلا: لا بأس ، أنامت البنات؟

- لا ، الوقت مبكرا على النوم ، إنهن يلهون أو يقرأن .

نهضت للمطبخ ، وسخنت الطعام ، وأتت به للصالة حيث يجلس الرجل ، ولما سمى الله بسم الله ، وأخذ يأكل ويمضغ قالت: أسمعت بما شاع في "أبو خروف" ؟

قال والطعام في فيه: اللقيط الذي وجدوه في حديقة آل ظبي .

- أجل ما قصته؟

قص عليها وهو يأكل ويشرب الماء والشاي كل ما سمع عن طفل الحديقة ، فقالت بدهشة وربما حيرة : إذن هو ابن قريبة لآل ظبي من حي برغوث !

قال متشككا : على ذمة رجل اسمه جعفور ، مع أن رجلا كان بقربي ، قال كذاب ، وهذا من أكذب الناس ، لو كان الطفل لآل ظبي فما وضعته أمه في حديقتهم ، لتركته عند حاوية قمامة أمام المسجد حتى يراه الزبال أو الإمام أو المؤذن عندما يفتح الجامع لصلاة الفجر .. أما أن تضعه عند أقاربها لتؤذيهم وتفضحهم وتسيء للمرأة المسافر زوجها إلى أوروبا فذا كذب صريح

- والشرطة ألم تعرف أمه وأباه؟!

قال وهو يزيح الصحن من أمامه بعد أن فرغ من الطبيخ ، ومسح فمه بيده: الشرطة لم تقل شيئا بعد .. هم عاينوا الحادثة ، وسمعوا أقوال المرأة صاحبة البيت ، كما روى العم سكر وسمعوا أقوال الأطفال الذين اكتشفوا الوليد والظروف التي جعلتهم يكونون هناك ، ثم أخذوا الطفل وانصرفوا ، وأنا أعتقد أن آل ظبي لا علاقة لهم بالوليد اللقيط ، وأعتقد أن أمه من حي آخر .. قال بعضهم : إن أمه متزوجة ، وزوجها أنكر هذا الحمل ، وتستر عليها حتى تلد ، وأخذه وألقاه في هذا البيت حتى يجده الناس سريعا ، والأيام ستبدي لنا ما نجهل

- ولماذا لم يطلقها؟!

قال مبررا تصرف الزوج : لأنه لو طلقها سيحمل الطفل اسمه في القانون والمحاكم ، لا يستطيع التخلص منه ما دامت السيدة على ذمته شرعا وقانونا ، والرجل خاف أن يقتله .. تزني حليلته وهو يقتل .. ومنذ شهور شاع في الحي إذا كنت تذكرين أكثر من حالة خيانات زوجية .. وفلان لما دخل بيته وجد رجلا غريبا مع امرأته في غرفة نومه ، لم يشاهد معاشرة بينهم .. فماذا كان يعمل هذا الغريب في غرفة النوم ؟ مهما أنكر الاثنان ، فهناك خيانة .. العياذ بالله لما المرأة تخون! تركها حتى وضعت ابن الزنا وتخلصوا منه

- إذن سنسمع طلاقها قريبا

قال مفكرا بجواب :قد لا يطلقها قريبا ،حتى لا ينكشف السر وتلبس الحكومة الولد له

- ولماذا لم يقتله؟!

قال شوكت بعد صفون : الأمر صعب ، هي تزني وهو يقتل ، فقد قبلوا له الحياة ، فكان من الصعب التفكير بقتله بعد ولادته.. يتخلصون منه وتربيه الدولة في ملاجئ الأيتام ..وقد تثير الأم قضية قتله ، فهو جزء منها بعد أن قبلت بالحمل به ..الأمر معقد ولكنه حصل .. والقتل على النفس أصعب من جريمة الزنا رغم بشاعتها ، وكلاهما عملان بشعان

- لا ادري لماذا تزني النساء وهن متزوجات ؟!

تنهد ورد: الشهوة والإغراء

- تطلب الطلاق

قال : هذا فعل الشريفة العاقلة المحترمة ، وليس الخائنة ، فبعضهنّ يتسترن بالزواج ، والزوج الغلبان يتخذنه ستارا للموبقات كما نقرأ في الجرائد ونسمع من الحكايات ، وما نرى في المسلسلات والأفلام .

قالت مشفقة على اللقيط : مسكين هذا الولد ! كيف سيكون مصيره ؟!

- سيعيش مع الأيتام في دور الأيتام واللقطاء ، ولما يكبر يتعلم ويدخل الجيش أو الشرطة ، فهو ابن الدولة ، وإذا عرفت أمه سيعيدونه لها ، وإن كانت متزوجة سيلصقونه بزوجها رغم أنفه ، وإن كانت عزباء سيزوجونها بمن عاشرها كزوجة

قالت بقرف الحرة : هذا أمر مخزٍ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أتفعل ذلك عاقلة؟!

- الشهوة لا تعرف العقل ، الشهوة نار تستعر في الشباب والنساء ، وتؤدي للكوارث والمصائب ، وهو ثمرة من ثمار الشهوة المستهترة بالحياة الزوجية ، وموجة الإباحية نار تلظى

- ذاك الرجل يزعم أن أمه من برغوث

- هذا ما صاح به في وجه الناس ؛ كأنه إذاعة في المقهى أو كأنه يعلن تحرير بيت المقدس من يد اليهود الفجرة .

كانت فاطمة شوكت تستقبل خطيبها جميلا أمام مدخل الشقة وتصافحه مرحبة به ،ولما دخل الباب كانت أمها تسلم عليه بسرور وتقول: أهلا يا ولدي ، كيف حالك كيف أمك وأبوك؟

رد جميل: كلنا بخير يا عمة وأنتم كيف حالكم؟

- الحمد لله رب العالمين وإخوانك وأخواتك كيف حالهم؟

- كلنا بعافية وصحة طيبة ، والكل يهدونكم السلام والتحية .. خالي في المسجد

- سيكون معنا بعد العشاء ، سيصلي ويرجع ، أخبرناه بزيارتك، سيستريح من لعب الورق الليلة .. فاطمة يا حبيبتي جهزي العشاء لنأكل مع جميل

رد الشاب قائلا: لست جائعا يا امرأة خالي ، وأنا في المدينة أكلت ساندويتشا

- كل ما فيه النصيب

بعد دقائق وضع الطعام على منضدة خاصة ، وجاءت زينب وبثينة يرحب بابن عمتهن خطيب أختهن ، وجلسوا حول المائدة يتمتعون برزق الرحمن والطيبات من الرزق ، ولما بدا الأكل بدأ الحديث قال جميل: أكيد سمعتم بقصة الطفل الذي وجد في حديقة من حدائق بيوت "أبو خروف" ؟

غمرهم الضحك وقالت أم فاطمة: ذاك حديث الحي طوال أمس وأنتم كيف علمتم به؟!

- الصحف أو بعضها نشر الخبر عن لقيط "أبو خروف" والوليد الذي وجده مجموعة من الأطفال كانوا يلعبون قرب حديقة أحد المنازل

- البيت في أول "أبو خروف" من نفس جهتنا قرب الفندق .. الجرائد تنشر مثل هذا الخبر ماذا يكتبون ؟

قال : يكتبون الخبر كما أخبرتهم الشرطة ـ يا امرأة خالي ـ وأنتم ما عندكم من تفاصيل أكثر؟

قصت فاطمة قصة الأطفال عندما سقطت الطابة في منزل آل ظبي ، وسمعوا صوت الطفل الملفوف بجاكيت من الجلد ، ثم اعلموا صاحبة المنزل ظنا من بعضهم أن المرأة نسيت ابنها في الحديقة ، وجاءت الشرطة واستمعت للمرأة التي تعيش بدون زوج ـ زوجها مهاجر لأوروبا للعمل ـ وبعد سماع أقوال الأطفال أخذوا المولود وذهبوا ، وختمت قائلة: ثم اشتعلت التحليلات والإشاعات والاتهامات كما يقول أبي عندما رجع ليلة أمس من المقهى مصدر الأخبار ، وللآن لم نعرف أم الطفل هل هي من الحي أم من حي آخر ؟! والجريدة ماذا تقول أكثر من هذا؟

ابتسم جميل لفضول خطيبته وقال : الجريدة لم تدخل بالتفاصيل ذكرت قصة العثور على طفل في حي "أبو خروف" لم تذكر أمه ولا أباه

- ذكر أبي أن أحد رواد مقهى مهران زعم أن أمه من حي برغوث ، من فتاة تقرب لأهل البيت الذي وجد فيه ؛ ولكن أبي ينكر ذلك ويقول : لو كان له علاقة بأهل البيت ما وضع في

بيتهم ، أتريد أن تسيء إلى أقاربها ؟ وما دام أنها تخلت عنه فهل تضعه عند أقاربها ليتعرفوا عليها ؟ فالأمر غامض ؛ ولعل الشرطة لديها معلومات لم ترغب بالإفصاح عنها حتى يكتمل التحقيق ، وبما أن شقيقك زيادا يعمل في الشرطة قد يمدك بمعلومات لم تصل للصحف

ابتسم جميل لفضول خطيبته وقال: لا أقل عنكم فضولا ، اتصلت بزياد فور قراءة الخبر في الجريدة اليومية ، فقال سمعنا مثلك بالحادث ، وهذه أمور مكرورة عندنا بين الوقت والآخر على مستوى البلاد كلها ، فبعض الأيام نجد طفلين ، والغالب نجدهم أمواتا بتأخر اكتشافهم أو ماتوا أثناء الولادة ؛ لأن أغلب هذه الولادات تحدث في المنازل ، وربما بدون قابلة أو طبيب وقال : الأطفال غير الشرعيين يكثرون هذه الأيام ، نساء تفجر وتحمل مع أن وسائل الحماية من الحمل معروفة اليوم ، والحبوب يوزع مجانا في عيادات الحوامل الرسمية ، ربما جهل في الاستعمال ، وربما يحملن للضغط على الزاني ليتزوجهنّ

قالت فاطمة بحياء: نعم ، قد تفعل ذلك بعض الفتيات للضغط على الرجل من أجل الزواج وسمعنا عن أكثر من قصة حدثت في "أبو خروف"

- الفاجر لا يهمه من المرأة إلا فجوره .. الأخلاق بدأت تفسد في بعض الأسر والعائلات .. الفضائح أصبحت حادثا متكررا كل يوم

قضوا حاجتهم من الطعام ، وغسلوا أيديهم وأفواههم ، وعادوا للجلوس في صالة البيت يشربون الشاي ، وبعد ذلك انتقلت الفتاة وخطيبها إلى حجرة خاصة ؛ لكنها مفتوحة الباب يتحدثون عن أحلامهم ومخططاتهم في بناء أسرة جديدة وذرية جديدة ، وأن زواجهم سيكون في فصل الصيف القادم ، فأكثر زيجات الحي تحدث صيفا ، فقالت: هل ستسكن مع أهلك كما سمعت أبي يقول قبل أيام أم ستستأجر بيتا ؟

- لم يحسم الأمر .. نقول هذا مرة وذاك مرة أخرى .. فأخشى أن أسكن معهم كم شهرا ، ثم يتحرك زياد للزواج ، فهو ينتظر زواجي ليبدأ هو الآخر

- أترغب بالسكن في "أبو خروف" ؟!

ما يسميه الفتيان الحب والعلاقات العاطفية بين الطلاب والطالبات والمراهقين والمراهقات شائع في حي "أبو خروف" ، فقد تجد طالبا له عدد من الحبيبات والرفيقات ، والغريب أن أكثرهن يعرفن كذبه وخداعه ، ويزعمون أنهن يتسلون ويلهون ، وبعض الزيجات كانت تحصل بسب غلطة جنسية بين شاب وشابة ، فيوضع الأهل تحت الأمر الواقع للتغطية على الفضيحة ، فيتم زواجهما بحكم القانون والستر ولملمة الفضيحة ، وهذه الزيجات قد تنجح وأكثرها يفشل وتحدث بسببها المآسي وآلام .

كان سلامة شابا متعلقا بفتاة اسمها ريانة ، وقصة غرامهما شائعة ، الكبار متضايقون منها والصغار معجبون بها ، وكان بعض رفاق سلامة يحذرونه من كشف أمره من قبل أخ الفتاة الكبير المتزوج ، فقد يتعرض للأذى أو القتل ، فلا يكترث لتحذيرهم ، ويجيب باستخفاف أن أهلها يعلمون بحبهما الجارف لبعضهما ، يكون جالسا في ساحة من ساحات بنايات "أبو خروف" فتأتي فتاته متلثمة بكوفية ،وتأخذ بيده ويبتعدان عن الشباب ،وقد ألقت السلام على الشباب دون حياء ، وتأخذه أمام أنظار الجميع ، وربما يكون أقارب لها مع الساهرين فيصيبهم الخجل والوجوم ، ويذهب الشابان جهة مخيم عودة الأمل ، حيث توجد ساحات خالية يحلو للعشاق الجلوس فيها أو جهة جبل "أبو خروف" حيث يقل العمران ، فيجلسان على صخرة يتناجيان بالحب والأوهام ، وهو مشهد مكرر للفتيان ، وليس هو أول عاشق في الحي ، بل هناك شارع يسمونه شارع الغرام ، خاصة بعد خروج الطالبات من المدرسة الثانوية التي هي بين "أبو خروف" وحي النجمة ، "أبو خروف" فيه مدرسة إناث أساسية واحدة للحكومة ، وأخرى للذكور ، وفيه مدارس أهلية لمرحلة ما قبل المدرسة رياض الأطفال ومدارس للمرحلة الأساسية

سلامة العاشق ترك المدرسة منذ عهد قريب ، والتحق بصحة الجيش ، ويعمل في أحد المشافي العسكرية كممرض ، وريانة فشلت في المدرسة وتركتها ، وكانت مغرمة بالسيد سلامة ، ولم

تكن الفتاة الوحيدة في حياته ؛ ولكنها أكثرهن معرفة وشهرة في الحي ، وريانة فتاة تنتظر زوج الغد الواعد كأي أنثى ، ابتعد الشابان عن أعين الناظرين من رفاق الحي أو ما يقع بين شارع القمر والعصفور وهما يمشيان جهة جبل "أبو خروف" حيث صخرتها الخالدة كما يدعيان

قالت ريانة: ماذا سمعت عن طفل الحديقة ؟ يقولون إن الطفل للمرأة نزيلة البيت ..إنها اتخذت عشيقا بسبب غياب زوجها

تبسم سلامة وقال: ولماذا تتخلص منه ما دام لها زوج ؟ لماذا حملت أصلا ؟ أتذكرين قبل سنوات وجدوا طفلا ميتا ؟

قالت : لم يكن من فتيات الحي ، قالوا : إن شخصا ألقاه من شباك سيارة يركبها ، فمات من الضربة والسقوط على أرض الشارع القاسية .. أراد أن يقذفه ليقع في صندق القمامة الكبير فجاء بجوارها وأن أحدهم شاهده

- نعم ، شاهده أحد السكارى العائدين من حانات وخمارات وسط المدينة .

- ولم تكن الزانية من أهالي الحي ، وهذا الوليد وجد في الحي وهو حي .. أيعقل أن يأتي أحدهم من بعيد ليطرح الطفل في "أبو خروف" ؟ المرأة من "أبو خروف" ، متى ستعرف الشرطة أمه؟!

- وهل يعقل أن تكون أمه المرأة زوج آل ظبي وتلقيه في بيتها ؟! وهي تعلم أن الشرطة ستعرف بوجوده وتحقق في أمره .. هل كانت تظن أن تربيه بعد كشف أمره ؟ أنا لا اعتقد أن لها علاقة به .. لو كان لها عشيق كما يشاع في حيينا العجيب لعرفه أهل الحي .. الحي لا ينام مقهى مهران يغلق نصف الليل بحكم القانون ، ويفتح مع صلاة الفجر ..لا علاقة لحينا بهذا المولود .. فعل هذا لتضليل الشرطة ، قد يكون الجاني على معرفة بالبيت لظرف ما .. وأنا أرى أن الذي ترك الطفل رجل ، إما والد الطفل أو والد الفتاة ، لم يستطع قتله فتخلص منه ، فهو من صلبه أو الأم لم تستسهل قتله ؛ لكن امرأة في حالة ولادة من الصعب أن تأتي وتتركه في الحديقة ، وكان بعيدا عن السور وعن البوابة ، لابد من اقتحام المكان كان قرب جدار البيت

.. أم والدة تدخل وتفعل ذلك صعب ، والمولود ابن ليلة أو أقل من ليلة ، ولد وجيء به للمكان ، وضع الطفل بعناية ورفق ، لم يرم كجيفة ، وكانت الأعشاب جافة ؛ لذلك لما قفز الفتيان على السور سمعوا بكائه ، ورأوا الجاكيت .. ربما أن الفتاة حملت به سفاحا لترغم العشيق على الزواج منها ، ثم لم يتيسر الأمر أمامها ، فأرادوا التخلص منه لصعوبة زواجهما تحت أي ظرف أو أن أهله أو أهلها رفضوا هذا الزواج بهذه الطريقة البشعة

- وكيف اخفوا الحمل لتسعة شهور ؟ .. الحمل ليس يوما أو شهرا .. وانتفاخ البطن ألا ينتفخ بطن المرأة في الشهور الأخيرة من الحمل ؟! بعضهم زعم أن أم الطفل قريبة للمرأة هذه وتعيش في حي برغوث ، وهو حي بعيد عنا .. يقطع كل الأحياء ليصل حيّنا.. ألم يجد في طريقه مكانا لرمي الطفل ؟ المرأة لها علاقة بالطفل

قال : لو كانت أمه ما استعجلت الاتصال بالشرطة، فصحتها لم تدل على أنها في حالة ولادة كما رآها عم سكر وهي تروي للشرطي القصة .. فاختيار الموقع يثير الحيرة والدهشة أم أن شخصا يريد إثارة الريب والشك حول سيدة المنزل .. رجل حاول إغواءها وفشل فيريد الإساءة إليها بفعلته .. فالمرأة من النساء الثقيلات .. الانتقام وراء وجوده هنا ، يريد تشويه سمعتها .. هل تصبر الأم على فقد وليدها ما دامت قد رضيت له الحياة؟!

ردت ريانة: أنا شككت أيضاً في فتاة أخرى من بنات الحي كانت حاملا منذ أشهر ، وهي غير متزوجة ؛ ولكنها كما علمت لم تضع لم تلد بعد ، ما زالت حاملا ، ثم علمت أنها متزوجة سرا من رجل تزوجها على امرأته دون علم الأولى ، فذهب ظني لما سمعت الخبر للوهلة الأولى إليها ، وكنت مخطئة في ظني .. فرحت أشك في زوجة آل ظبي

- وكيف عرفت أنها متزوجة سرا ؟

- لما انتشر الخبر ، تحدث النساء والبنات فألقيت حجري في وسط البركة ، فقالت أم شفيق : أنا اعرفها وهي حامل فعلا ؛ ولكن لها زوج ، وأهلها يعرفون ذلك ، والرجل تزوجها خفية عن امرأته الأولى التي لا تنجب ، فلما تلد المولود سيظهر لها الأمر ، فهي ابنة عمه إما أن تقبل

بالبقاء معه ، وإما ينفصلان .. له أكثر من عشر سنوات دون ذرية ، وهي ترفض زواجه عليها ، وأهلها يرفضون الطلاق والزواج .. فلجأ إلى هذه الحيلة والأمر الواقع

- للناس فنون في الزواج.. وأهله سيقبلون عندما يرون الوليد ، وأن العقم من ابنتهم



كانت والدة ريانة تجلس وأم صلاح جارتها في صالون البيت ، وأبو ريانة يجلس قريبا منهن متمددا على فراشه ، وكسائر عائلات الحي جل حديثهم تلك الأيام عن طفل آل ظبي ، فسمع الرجل المرأة تهمس لأم غازي أم ريانة : أسمعت أن ابنة أم جلال غائبة عن الحي من قبل ظهور طفل حديقة آل ظبي ؟!

- سمعنا من الداية أم صبحي أنها ذهبت لقضاء عدة أيام في بيت أختها التي ستلد خلال أيام

فقالت أم صلاح: هذا قيل في الأول ، أما اليوم فيقال غير ذلك

وضعت أم غازي كأس شاي أمام أم صلاح وسألت: وماذا يقال اليوم؟!

- يقال إنها هي ذهبت لتلد عند أختها

- أكانت حاملا من غير زواج ؟!

- أحد الشبان ضحك عليها ، ونال هدفه منها ولم يتزوجها ، ولم تسقط الحمل لمزيد من الضغط عليه

- ولماذا وضعته عند آل ظبي إذا كان هذا الكلام صحيحا ؟!

قالت أم صلاح بشك وريبة : لا أحد يعرف السبب لحتى الآن ، ويقال إن الشاب لما علم بذلك الحبل والولادة جاءهم عند الفجر ، وأخذ الطفل ، وهو الذي تركه في الحديقة خاف أن يقتله ؛ لأن قتله بعد الحياة يعتبر جريمة كبرى ، وقد يعدم أمام القانون

قالت أم غازي متشككة : رأيتها كذا مرة ، لم يكن يظهر عليها حمل يا أم صلاح .. وهل الحمل

يخفى علينا نحن العجائز ؟

- لقد كانت تلبس ملابس فضفاضة واسعة .. أنا كنت استغرب لبسها لمثل هذه الثياب تلك الأيام .. فهمت القصد من لبسها لتخفي بطنها عن العيون ..والبكرية كما تعلمين لا يظهر الانتفاخ عليها بشكل كبير

- عجيب ! وما هو موقف أبيها وأخوتها منها ؟!

قالت جازمة : الرجال لا يرون ولا ينتبهون لهذا في الغالب .. فهل يجرؤ أحد أن يسألها عن سبب انتفاخ بطن أختهم ؟ سيعزونه لمرض ، وخاصة إذا قامت الأم بالتستر على ابنتها خشية الفضيحة والسمعة

- معقول منال متورطة ! ومن هو هذا الشاب الذي غرر بها ؟!

قالت : سمعت أنه ابن خالها يقال له سليم

قالت أم غازي استغرابا : اعرفه أنه شاب محترم ، كثير الود لعمته أم جلال .. أيعقل أن تورط معها بهذا العمل المفضوح؟!

- "ياما تحت السواهي دواهي " كان يأتيهم بحجة بر عمته وصلتها ، فكان العاشق القادر أن يخادعها

- ولماذا لم يتزوجها لما افتضح الطابق؟!

- سمعت أنه رفض هذه الطريقة للزواج ، ويشك في هذا الطفل هل هو منه أم من غيره ؟ قال لعمته كما سمعت التي تسلم نفسها لحبيبها قد تفعل ذلك مع الحبيب الآخر

زاد الاستغراب من كلام أم صلاح : الله اكبر ! يتهمها بحب غيره .. هذا صعب التصديق يا أم صلاح .. نحن لا نعرف عنها إلا خيرا .. أتجن بهذه السرعة ؟!

- اتهمها بأنها تعرف ابن أبي رايق الطباخ

قالت أم غازي: سمعنا عن هذه العلاقة منذ أيام المدرسة قبل سنوات .. فالبنت تركت المدرسة واستقرت في البيت ، ولم نسمع عن صحبة ابن أبي رائق لها

- هذا يا أختي ما قاله سليم ابن خالها للذين نقلوا لي الكلام

قالت : وأمها سترت عليها أمام إخوتها وأبيها العم ماجد

- هذا ما سمعته ، وها هي أم جلال لم تخرج من البيت من أيام بسبب ذلك ، وتقضي وقتها بالبكاء والندم ، وزوجها يحاول ترقيع الأمر مع والد سليم

- يعني كلامك أن المنال ذهبت ترعى أختها كذب ، وتابعت وهي غير مصدقة : ولكن أختها يا أم صلاح كانت حاملا بحق ، ولما كانت تدخل بيت أهلها نرى كرشها أمامها واضحا للعيان .

فقال أبو غازي معقبا على ما تبادلت المرأتان من الإشاعات : لن يهدأ للناس بال ، وستزيد الإشاعات والتهم حتى تكشف الحكومة عن أسرة الطفل الأم الجانية على الأقل

قالت أم صلاح: هل صحيح أن ريانة ستتزوج يا أم غازي؟!

- نعم ، صحيح تقدم إليها شاب من المخيم ، ونحن قبلنا وهي ما زالت تمانع وتتعذر .. وخلال يومين ستحسم الأمر

- لعلها ما زالت تتعلق بسلامة

- قلنا لها إذا أراد سلامة نكاحها فليتقدم لطلب يدها مثل الناس ، أما الحب والقصص الفارغة فهذا كلام فارغ .. البنت لازم تتزوج .. وسلامة رجل طفران يحب اللهو والصياعة والبيوت يا أم صلاح لها أبواب .. لو صحيح يحبها فليتفضل

كانت عيادة صحة "أبو خروف" مشغولة أيضاً بطفل الحديقة ، فكانت مجموعة من المراجعات والمريضات يجلسن في قاعة الانتظار للدخول على الأطباء ، وكانت موظفات وممرضات بينهن لتنظيمهن ، وأشهرهن ممرضة اسمها هدى ، فسمعت إحداهن سائلة لها: أحضرت إليك أم الطفل للمراجعة للمعالجة للمتابعة؟!

قالت هدى: نحن لا نعرف أم الطفل ، لو نعرف أم الطفل قد نتذكر مجيئها إلينا يا أم عصفور ، فهذه الوالدة ليست من أهالي "أبو خروف" والله اعلم ، وعلى الرغم ما نسمع من إشاعات

عن بعض الأسر والعائلات فقد ألقي الوليد في حديقة آل ظبي لإثارة البلبلة والإزعاج لأهل الحي ، أو أن أمه عاشت في الحي ،وتزوجت خارج "أبو خروف" فهي تعرف الحي

فقالت أم عصفور: الشرطة لم تصل لهذه الأم

- ليس من السهل معرفة أمه ، مئات النساء تلد يوميا ، وهي لم تلد في مستشفى .. ولادة في مستشفى تضيق مجال البحث ، لم نسمع عن مفقود في مستشفيات المدينة .. قد تحدث سرقات أو استبدال للمواليد في بعض مستشفيات وأقسام المواليد ولكنه ينكشف

قالت أخرى: العجيب يا هدى أنها استمرت في الحمل والحبل ، ثم تركته عند الولادة لماذا القسوة؟!

قالت هدى: لا تريد أن يعلم أهلها بحملها السفاح ، لما يخرج سيبكي سيجوع سترضعه

- قضت تسعة أشهر بينهم ، وهم لا يعرفون أيعقل هذا؟!

- قد يكونون عرفوا ، ولم تهن عليهم جريمة قتل نفس بعد أن حصل الحمل .. قد يكون والداها عميان

ردت معترضة على هذه الحجة : خفيت على الأقارب والجيران تسعة شهور حمل .. أتستطيع المرأة إخفاء ذلك؟!

قالت هدى بحدة : النساء قادرات على فعل ذلك ، وهي ليست أول امرأة تحمل سفاحا .. قصة غامضة يا أخوات .. نحن هنا لا نعرف هذه الأم .. ونحن نتابع العناية بالحوامل من أول الحمل حتى يلدن .. ثم نستمر برعاية الطفل صحيا وتطعيمه المطاعيم الوقائية ، ويكون له سجل موثق .. فهذه المرأة لم تأت هنا .. والمحير في قصة الوليد هذا لماذا ترك في منزل آل ظبي دون حدائق الآخرين ؟! فهل لهم علاقة بالمولود ؟! سمعنا أن الشرطة عرضوا المرأة على الطب الشرعي وثبت أن لا علاقة بينها وبين الطفل .. وفعلت ذلك لتبعد التهمة عنها أمام زوجها الغائب وأهل البيت والجيران

قالت أم عصفور بعد استماع: إنها امرأة شجاعة ! لقد لاكتها الإشاعات والأقاويل.. بهذا

- هذا ما تفوه به الدكتور حاتم أمامنا ، أخذت المرأة إلى الطب الجنائي للفحص الطبي ، وكانت النتيجة أن لا علاقة بيولوجية لها بالمولود ، وسمعتها الآن طاهرة .. وشكوا بامرأة في المخيم الكائن وراء "أبو خروف" ثم تبين أن المرأة ميتة من عدة أشهر

- ولماذا شكوا فيها؟!

- لا أدري بالضبط ؛ ولكن سمعتها ليست ولابد .. الشرطة تعرف أسرار الناس كما هو معروف .. لها علاقات مشبوهة ، وقد سبق لها أن أسقطت دون زواج رسمي غير متزوجة .. ولما ذهب الشرطة للبحث عنها وجدوها قد ماتت أثر مرض عضال رحمها الله

قالت أم عصفور : مسكين هذا الطفل! سيعيش بدون أم وأهل .. جنوا على المسكين .. سوى العار الذي سيلاحقه .. نحن لسنا أوروبا ، لو فكرت أمه بما فعلت حق التفكير ما سلمت نفسها لرجل قضى شهوته واختفى .. باعت شرفها وعرضها للشيطان

قالت الممرضة: الشهوة والإغراء شديدان يا أم عصفور .. نحن في زمن الإباحية السينما اللباس مواد التجميل والبهرجة.. نحن لا نعرف ظروف المرأة لنحكم

- أي ظروف يا هدى ؟! تخضع للمعاشرة وتقول ظروف ، وربما نام معها الرجل عشرات المرات قبل أن تحمل.. ما ذنب هذا الطفل الآن ؟! كان عليهما أن يتزوجا قبل ولادة الطفل

- ربما أهله أو أهلها رفضوا زواجهما .. والولد سيبقى ابنا غير شرعي

- في القانون شرعي ، وربك غفور رحيم ، فهو سيلعنهم طول الدهر ، وسيكرههم كرها شديدا

- هذا إذا عرفهم ، فهو سيعيش في ملجأ أيتام ، ويعطى اسما اسم أب وهمي وأم كذلك ، ووالداه سيكون عقابهما الدنيوي تبكيت الضمير ، ويوم القيامة أمرهما إلى الله .. حياتهما ستكون مظلمة سوداء .. قاتل الله الشهوة

وأثار هذا الحدث موظف الاستقبال في فندق "أبو خروف" ، فكان الشاب يتحدث مع مدير الفندق قائلا : أتعلم يا أبا موسى أنني أظن أن أم الطفل اللقيط نامت ليلة في هذا الفندق

همس أبو موسى مستفهما مع الدهشة إلى حد ما : كيف ؟! لم أفهم !

– قبل شهرين يا سيد داود جاءت امرأة ، وكانت حاملا ، ونامت ليلة في الفندق ، وبعدما نزلت عندنا جاء شاب يسأل عنها ، فاتصلت بها فنزلت إليه وخرجا من الفندق ، ثم عادا بعد ساعتين ، وحاول البقاء معها في غرفتها ، وهو ليس زوجها ، ولا يمت لها بصلة قرابة ، ولا جواز معه ، ولا هوية يحملها ، فرفضت بكل قوة ، فتطلع فيها في عينيها : وقال: أمر عليك غداً . وودعها وانصرف ، فلما انصرف قلت لها: أزوجك هذا؟

قالت بدهشة: زوجي! لا ، ليس زوجي هو صديق زوجي.. زوجي مسافر

أنا طبعا استغربت كيف أراد البقاء معها في الغرفة لما سمعت ردها ، فحدقت في عينيها للحظات ، ثم صعدت لغرفتها ، وفي الصباح لم أرها ، فقد كانت دفعت إيجار الليلة مقدما ، أتكون هي المرأة المجهولة أم اللقيط ؟! لم ارتاح لها تلك الأمسية ، ونظاراتها زائغة .. أذكر هذا منذ شاع خبر وجود لقيط آل ظبي .. الفندق أمام البيت لا يفصلنا عنهم إلا الشارع شارع السلام

– وبجوارنا نقطة الشرطة ، وهو ليس أول لقيط يوجد في البلد ، ففي وجود الخادمات الآسيويات تكثر مثل هذه الحوادث

– أبو خروف ما زال بعيدا عنهن ، إنما هن بضع خادمات لبعض الأسر ، ولغتهن العربية سيئة ومن تطرد من بيت مخدومها تبات عندنا

قال أبو موسى : لكن الصحف تنقل قصص الاعتداء عليهنّ جنسيا من مخدوميهن أو أبنائهم ويؤتى بهن من قرى بلادهنّ فلا يعرفن الحماية من الحمل والحبل .. قرويات من سيلان وبنغلادش والفلبين .. وأمام إغراء المال والذهب والشهوة يفرطن بأجسادهن ، فيقعن في

الفاحشة ، ويحدث الحمل في لحظة سكر ، ثم تكتشف سيدة الفيلا الأمر فتطردها وتجلب غيرها .. وهناك أطباء توليد لا ذمة لديهم ولا دين مقابل مبلغ كبير يولدها .. فالأخلاق في خلل هذه الأيام .. والإباحية تجتاح العالم باسم الحرية والديمقراطية ..ماذا سيتعلم الشباب من هذه المجلات الماجنة ؟ ألم نجد بعضها في غرف الفندق يتركها هؤلاء السياح ؟! تدخل البلد يزعمون سرا ..والأفلام الجنسية المثيرة الغرائز .. الله يحفظنا من الفتن ، حتى من كثر الحكايات الرديئة لم نعد نهتم بسماعها .. لا أذكر أني سمعت قبل عشر سنوات عن جريمة اغتصاب اليوم شاعت هذه الجرائم وما الذي لفت نظرك لهذه الأنثى بعد أسبوع على الحادث؟!

- الذي أثارني عندما جاءت احتجزت غرفة طلبت غرفة بسريرين ، فظننت أن زوجها سيلحق بها ويبيت معها، وقالت : ربما أمكث أسبوعا لديكم ، ثم جاء الشاب وسأل عنها فوقع في قلبي أنه زوجها ؛ ولكنه اخبرني أنه صديق للعائلة ، ثم خرجا للعشاء ، وحاول أن يقضي ليلته في الفندق فأنكر وجود هويته معه ، فاعتذرت له فغادر الفندق واعدا إياها باللقاء غدا ، ثم قالت : إنه صديق زوجها وأن زوجها مسافر ، ولما صعدت أخبرتها بالتلفون إما أن تدفع إيجار السرير الثاني ، أو تنتقل لغرفة بسير واحد ، فحاولت إغرائي بطريق وقحة ، فخرج إليها الحارس أبو جهاد ، ونقلها إلى حجرة مفردة ، فنزلت ودفعت أجرة الليلة وأعلمتني أنها ستغادر بعد الفجر ، فتركتها على راحتها ، فعرفت أنها غير سوية ، وأنها غير محترمة ، وعرفت أني لست صيدا سهلا ، فانصرفت باكرا كما اخبرني الحارس ، فلما سمعت بقصة اللقيط أخذت أفكر فيها ، ربما تكون هي ، فقد كانت منفوخة البطن عندما نامت ليلة هنا ، ووضعه في حديقة آل ظبي هو الشيء غير المفهوم إلا إذا وضع صدفة أو تحت ضغط طارئ

- لم تعد تلك الصبية ، ولم تكن من أهالي "أبو خروف"

- لم أرها بعد ذلك المساء ، ولا أظنها من أهالي الحي ، مع أني لست من سكان "أبو خروف" ؛ لكن لي سنوات أعمل معكم أنت والعم محمود حسن

قال أبو موسى : الحق أن هذا الطفل ليس من "أبو خروف" ، فكتم السر لأسبوع هنا صعب والفضائح رائحتها تفيح بسرعة ، وحدث كهذا هل يخفى عليهم ؟ لا أعنى أن أهل أبو خروف كلهم أشراف ، فيهم الصالح وفيهم الطالح .. وبنية المجتمعات العربية اهتزت .. والتقليد الأعمى دارج لدينا .. والمدينة من زمان وهي تستقبل الحداثة والتطور والمدنية .. والفسق فيها أكثر من الريف والقرى، فنكاد نسمع كل يوم عن حوادث القتل وهتك الأعراض والمشاجرات وضرب السكاكين .. وهذا أول مولود يوجد حيا في الحي .. سمعنا عن وجود طفل وليد ميت .. وسمعنا عن بعض النساء أجهضن وأسقطن .. أما لقيط فهذه أول مرة ..والفاجرات معروفات للناس وعادة يتجنبن الحمل .. سمعنا عن بعض الرجال الفجرة يتسللون إلى بيوت الساقطات .. سمعنا عن زيجات تحت ضغط الفجور .. أغلب الزانيات يقتلن أولادهن إذا لم ينجح الإجهاض .. فتربية ولد أمر صعب وفضيحة مدوية في مجتمع شرقي . قال مستفهما: هل أحدث الشرطة بهذا الحادثة ؟

- وماذا ستفعل الشرطة وقد عجزوا عن معرفة أمه لهذه اللحظة؟!

- لعل وعسى يا أبا موسى ساعدهم اسمها كما نقلته عن بطاقتها الشخصية .. فهو موجود في سجلات الفندق .. قد تكون أم هذا الطفل المسكين

- وقد لا تكون ، وإنما جاءت لتمارس البغاء في فندق شعبي مأوى الغرباء .. وهي تعلم أن هذا مرفوض في الفنادق ، وربما اعتقدت أن بعد فندقنا عن وسط المدينة سيسهل عليهم الأمر وقد يكون لها علاقة بترويج المخدرات

- إذن علينا الانتظار

قال السيد أبو موسى : هذا الصواب

- نعم ، هذا ما يراه مدير الفندق

- نعم ، هذا ما يراه مدير الفندق .. امرأة نامت ليلة ودفعت أجرتها نتهمها بأنها أم طفل حديقة آل ظبي بدون بينة

ليلا استقبلت أسرة شوكت خطيب ابنتهم فاطمة ، وكان السيد شوكت هذه المرة في البيت ، عاد من العمل متأخرا وكسل عن صلاة المغرب في الجامع ـ فهو عادة يصلي المغرب والعشاء في الجامع ، ويسهر على المقهى ساعة زمان ، ثم ينصرف لبيته ـ فلم يخرج تلك الليلة للجامع ووجدهم يأكلون البطيخ المثلج فغسل يديه ، وشاركهم في أكل البطيخ والجبن المالح الأبيض ، وأجاب عن أسئلة خاله عن حال أمه وأبيه وأسرته ، إما بالحمد لله ، وإما بهز الرأس بالإيجاب ، ولما غسلوا أيديهم وأفواههم من أكل البطيخ عادوا للجلوس في صالون الشقة ، صافح خاله وامرأة خاله وخطيبته ، وحيا بنات الخال زينب وبثينة ، وتحدثوا عن الإيجارات والشقق فقد قرب موعد الزواج ، فعادة الشباب يحتفلون في ذلك العهد بزواجهم في تموز وآب ومع عودة المغتربين في دول الخليج ، وهذا التقليد متوارث ؛ لأن أغلب سكان المدينة جاءوا من القرى والأرياف ، وهؤلاء كان موسم احتفالاتهم بالزواج والطهور للفتيان في أشهر الصيف ، حيث يحلو السهر والمبيت في الخيام والعراء والغناء ، ويكون موسم الحصاد للقمح والشعير قد انتهى ، وتوفرت الأموال بين أيديهم ، فيشترون الثياب أو يدفعون ثمنها للتجار ، واشتروا الذبائح التي ستقدم للضيوف والمدعوين ، وانتقلت هذه العادات معهم للمدينة مع أن أغلبهم لا يزرع ولا يفلح .. الدقيق يستورد من بلدان العالم شرقا وغربا ، ومع هجرة أبناء الأسر للعمل في دول الخليج العربي الناشئة حديثاً سوى السعودية فيعودون بالأموال والاحتفال بالزواج .. وقد يحصل الزواج في غير الصيف أمام ضغط حادثة طارئة أو ظرف قاهر .. فالزواج في الإسلام غير مربوط بزمن معين .. جائز في كل الشهور إلا في حالة تلبس المرء بالإحرام بالحج أو العمرة حتى يحل ، ولما انتهى الحديث عن الشقق والإيجار قال جميل وهو يبتسم : أعندكم خبر جديد عن لقيط آل ظبي كما تسمونه؟!

فقالت أم فاطمة: يبدو أن جميلا يحمل إلينا خبرا جديدا هات ما عندك؟

كرر التبسم وقال: امرأة خالي تفهم عليّ بسرعة ، سمعت زيادا قبل أيام يقول لي : أتذكر طفل

"أبو خروف" طفل الحديقة ؟ قلت : نعم قال : الشرطة قبضت على امرأة يشتبهون بأنها أم الطفل ، ويجرون عليها الفحوصات اللازمة ؛ ولكنها تنكر علاقتها بأي مولود ، وتزعم أنها محترمة

قال شوكت بفضول ولهفة: وكيف اتهمتها الشرطة؟!

عاود الضحك وقال : نفس السؤال سألته لزياد فقال : إخبارية من مجهول ، وزعم لهم علمه بذلك ، وأعطاهم عنوانها ومكان سكنها ، ولما رفضت الإقرار بجريمتها سيجري عليها الفحص الطبي الشرعي

بعد صمت قصير قال شوكت: هل تعلم يا جميل أن عامل فندق "أبو خروف" فندق الدوار أو الأنوار يزعم أنه استقبل امرأة حاملا منذ شهرين ؟ وذكر قصة عامل الفندق وتلك المرأة .

فقال جميل: ما علاقة الحبل بالطفل؟! النساء طول عمرهن يحبلن ، وهنّ لماذا خلقن؟! والتي لا تحبل لا تترك طبيبا ولا حجابا إلا وتتردد عليه من أجل هذه الوظيفة العظيمة

- يقصد الشاب أنها امرأة غير مستقيمة ، حاولت إدخال شاب غريب عنها لحجرتها حيث حجزت تختين وهي واحدة ، وحاولت إغراء الموظف لينام معها ، فيشك أنها هي أم الوليد المجهول الأم .. والشاب صاحبها رفض إظهار هويته أو حتى التعريف بنفسه فاعتقد الشاب أنها تحمل سفاحا ، ولما فشلت في إغرائه تركت الفندق مع أول الفجر قبل أن يرجع العامل لعمله في السابعة صباحا

- ممكن ! وضع غير طبيعي ، امرأة بنت هوى ، هل جاءت تتعرف على المكان تلك الليلة ؟! الأماكن كثيرة

- احتمال أنها صعدت للسطح ونظرت المكان

- ولماذا بيت آل ظبي يا خالي؟! هذا هو السؤال ..على كل حال سيتابع زياد تلك المرأة المقبوض عليها المتهمة من قبل مجهول

قالت فاطمة: وكيف صدقت الشرطة تلك المكالمة من مجهول متهما تلك المرأة؟!

– الشرطة يا فاطمة لا تصدق كل اتهام ، وفي نفس الوقت لا تهمل أي إخبارية ، أحيانا يكشف اللصوص أوراقهم لأسباب متعددة ، فيفسدون عن بعضهم للشرطة ، ولا يحبون أن يظهروا أمام القضاة على منصة الشهود ، وكذلك القتلة والمهربون يوقعون بعضهم بعضا ، فيعمل الشرطة على التأكد منها بطرقهم الأمنية والشرطية ؛ فإذا كان المشتبه به صاحب سوابق يتعاملون معه بمعرفتهم ، وإن لم يكن له سجل عندهم يتحرون عنه بسرية كاملة.. والشرطة يا خال يستطيعون بخبرتهم وتعاملهم المباشر مع الناس التمييز بين الإخبارية الحقيقية والوهمية .. والرجل ذكر لهم عنوانها ومكان سكنها وسبب الاتهام .. واخبرني زياد أنهم فعلا وجدوا المرأة سيئة السمعة ، وقد تحمل سفاحا ، ويرتاد الزناة بيتها ، ولها معرفة بشرطة الآداب ، والدولة تمنع أولئك البغايا ؛ لأن للدعارة أوكار خاصة ، تتعرض نساؤها للفحوصات الدورية خشية نقل الأمراض الجنسية للزبائن ؛ ولكن الدولة لا تستطيع منع ذلك باستمرار .. أماكن الفسق معروفة لأصحابها وهذا باسم السياحة .. والفنادق المسموح لها بعرض بنات الهوى معروفة للسياح ، بل سمعت أنهن يعطين رخصا للعمل في النوادي الليلة والبارات والحانات

قال شوكت مستغربا : وهل في البلد مثل هذا؟

– أغلب بلدان العالم فيها ، وربما بعض الدول العربية والإسلامية تخلو من ذلك رسميا ؛ ولكنه موجود ..واعتقد أنه متابع من مؤسسات معينة ، كما يسمحون ببيع الخمور .. فلماذا لا يسمحون بالنساء الفاجرات ؟ .. وهناك كما أسمع نوادي ليلية .. فماذا يحصل فيها غناء رقص خمر ؟ فالسياحة تحتاج لهذه المقبلات .. وللدعارة شركات عالمية تديرها تسمى تجارة الرقيق الأبيض ؛ إنما في الدول العربية لأضيق حد .. في تركيا الحديثة العلمانية تعرض الحسناوات على شكل كتالوج على رواد الفنادق .. وذلك على ذمة من ذهبوا للدراسة في تركيا .. مثلهم مثل أوروبا .. هناك محترفات للرقص والغناء .. والدعارة شيء مقرف بالنسبة لنا

– أنا أول مرة أعرف بمثل هذا !

– ما دام يا خال الخمور تباع علنا لدعم الاقتصاد .. والدخان يباع لدعم الاقتصاد .. فلم لا يكون دعارة لدعم الاقتصاد .. والمراقص والمعازف مأذون بها .. نعوذ بالله من غضبه .. أسمع أن بيروت العربية كل هذه الأشياء فيها مشروعة بالقانون

– هناك أناس لا تحب الطهر والعفة .. ألم يتحدث القرآن عن قوم لوط ووصفهم للمؤمنين بأنهم أناس يتطهرون ؟

– وذاك في غابر الزمان زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام .. فكيف اليوم والدول لا يحكمها دين ولا أخلاق ؟! اللهم استر علينا

– أناس لا يحبون الزواج والارتباط به .. يريدون النساء والجنس وبنات الهوى ، هذا نسمع عنه في المدن الكبرى في أمريكا أم العالم ..معك حق يا ابن أختي !

كان سلامة في مجلس بين جمهرة من رفاقه وعصابته من شبان الحي الذي يسكنون فيه من شوارع "أبو خروف" ، وأغلبهم يدخنون السجائر ، وبعضهم يتحدث همسا مع جاره ، وكان سلامة يتمشى أمامهم بغضب وضيق فقال أحدهم: اجلس منذ جئنا وأنت تمشى كأن الدنيا هدمت فوق رأسك ؛ لعلك حزين بعد زواج ريانة .. أنا كنت أظن أنك ستتزوجها وتتحدى الجميع .. أمك ترفض وأخوك الكبير يرفض

التفت سلامة بسخط واحتجاج للمتكلم معه ، وحتى أن الجميع خيم عليه الصمت والترقب ، فقد كان في وجدانهم جميعهم أن سلامة سيعقد زواجه على ريانة ، ما كانوا يظنون أن أحدا غير سلامة سيدخل عليها ، فقصة حبهم سطرت على شوارع الحي وأشجاره ، وسلامة يعمل ومعه المال ، تزوجت ريانة ورحلت عن الحي ، ومن يومها لم يعرفوا رد سلامة إلا الصمت ، وها هو أحدهم يواجهه بكلام صريح ، لم يرد سلامة لزم الصمت ، فعاد الشخص السائل يقول: إني حزين من أجلك يا سلامة .. أهلك رفضوا زواجك منها ، أخوك الكبير أصر على الرفض ، هو تحدث أمام البعض منا فقال : زواج بهذه الصورة غير سليم ولا يدوم

فصاح أحدهم: لا ، هذا كلام غير صحيح .. سلامة كانت ريانة إحدى حبيباته ، وسلامة لم يكن هو مستعدا للزواج في هذه الفترة .. هو محب أكثر لفتاة المخيم ..أنا أعرف أخي سلامة طمأن الشباب يا سلامة .. اعترف لهم بالحقيقة أن فتياتك كثر .. سمعتك في الحي ستتأثر .. دافع عن حبك يا سلامة ألست بطل المحبين والعاشقين ؟!

قال شاب: البنات في حينا أكثر من الشباب .. أنا قابلت من أيام شابا وفتاة صدفة ، وهم تفاجأوا بي ..كنت أظن أنه لا يعرف البنات ولا يسير معهن نهائيا ..لا هم لشبابنا إلا الهوى والغرام حتى أن أحدهم رمى ثمرة غرامه وفاحشته في حينا ؛ ليزيد من سمعة الحي بالفساد واللقطاء .. يزعمون أن الطفل من خارج الحي ، وهم ينسون كم من الفسق في الحي .. أتحبون أن أذكر أسماء ؟

فقال شاب آخر : لا داعي لفعل ذلك .. الخير موجود .. والجامع فيه الشيوخ من الشباب والفتيان وشباب الأحزاب الدينية ، والفساد والشرور موجود .. زر غير "أبو خروف" وستسمع البلايا والرزايا .. على الشاعر عاطف أن يتحفنا بقصيدة عن محبوباته وغزلياته .. ما آخر الأشعار يا حضرة الشاعر الولهان؟

فاحتج آخر : ولماذا الشعر ؟! الكلام الثقيل فليتحدث إلينا الراوي العتيد سيد نبيل عن آخر القصص التي قرأها أو ليحدثنا من قصص الهلالية قصة ذياب ولد غانم والفرس الخضرا والعبد الأسود ، أو قصة الأمير مغامس والعبد الأسود ..هذه قصص جميلة تدخل المخ .. دعنا من معشوقات عاطف أفندي

قال نبيل: نسمع الشعر أولا ، لا ترتاح نفسي اليوم للقص .. أنا حزين من عدم رد سلامة وخذله لمحبوبته التي قتلنا غزلا وولها بها ، ثم عند الجد خذلها ، وتخلى عنها لتنام في حضن وفراش رجل آخر

قال ابن عم سلامة: يا إخوان دعوا سلامة في حاله وحزنه ، كان سلامة قادرا على الزواج .. إنما أهلها رفضوه ، وأهل سلامة رفضوا ، وأمام رفض الطرفين ماذا يفعل سلامة؟! يخطفها ويهرب كما يفعل بعض المراهقين بزعم الحب الجارف العاصف ..تنازل عنها ، وهو لم يكن يخطط للزواج منها ففتاة المخيم يهواها أكثر صدقوا كلامي .. دعوا سلامة في حاله وماله ، ولنتكلم عن مباراة كرة القدم التي سنخوضها مع فريق حي النجمة .. هل تعلمون أن زينا يعد لإنشاء نادي كرة قدم نادي شعبي .. وقد عقد عدة لقاءات مع بعض شباب أبو خروف عشاق كرة القدم .. ستقوم البلدية بعمل مباريات شعبية لفرق الأحياء والحارات

قال نبيل: حدثت بذلك من أيام ، وأخذت الأمر على سخرية ومزح .. شاهد حدثني بذلك

حدثت ضحكة جماعية وقال صبحي : شاهد يا أبا الشباب هو وراء المشروع .. علينا أن ننظم نشاطنا الرياضي وإذا تقدمنا في المباريات الشعبية سندخل للدرجة الثالثة من نشاط كرة القدم على مستوى القطر كله .. وسنكون ضمن الاتحاد الرسمي للكورة .. كلامي جدي أيها

الشباب..فلندع البنات في خدروهن ومدارسهنّ ، ونستعد لإنشاء الفريق والنادي بشكل حقيقي

واختلط الحديث حول هذا النادي الشعبي نادي كرة القدم ، فشباب "أبو خروف" يمارسون الكثير من الرياضات في ساحة مدرسة النعمان وغيرها من المدارس الكبيرة والساحات الخالية من السكان .



الناس تتلقف الشائعات كأنها كنوز سقطت من السماء ، انتشرت شائعة في "أبو خروف" مفادها أن امرأة ولدت طفلا ، وماتت في النفاس ، وقام ذوو المولود بالتخلص من الطفل المجهول الأب ، وأن الشرطة تحقق في الحادثة .. وهل لها علاقة بطفل حديقة آل ظبي ؟ فقد تحدثت الداية القابلة التي ولدت الفتاة الميتة لبعض الجيران ، ووصل الخبر للمباحث السرية واستدعت ذوي المرأة للمساءلة .

وكانت أم غازي تناقش هذا الأمر مع جارتها أم صلاح فقالت: أنا أعرف هذه الداية الحاجة عيشة ، وبينها وبين أمي طرف قرابة ، هم قالوا إن زوج الفتاة ميت ، قالوا لها كما أخبرت عيشة إحدى البنات اللواتي يعشن في حي المجد ، ثم علمت بعد وفاة الوالدة بضياع الطفل وأن الأم لم تكن ذات بعل ، وأنها دعيت للقيام بعملية الولادة كما تدعى لفعل ذلك من عشرات السنين ، لم تفكر بأن الفتاة التي قامت بتوليدها لم تكن متزوجة ، وأنها حملت خارج الزواج ،وذكرت أن والد الفتاة دخل غرفة الولادة وقبل أن تحممه قال: يا أم محمد نحن سنحممه ونملحه . وكانت المرأة الوالدة تنازع فقلت لهم : يجب إحضار طبيب لها ونقلها للمستشفى ، الفتاة صحتها متدهورة ، وكان عليهم توليدها في المستشفى ، وقالت استدعيت لتوليدها وهي تلد ، وقد خرج ماء الرأس كله قالت : فأعطيتهم إياه بغضب ، وأخذت أجرتي

وقال والدها على مسمعها: سننقلها للمستشفى ؛ ولكنها ماتت قبل نقلها للمستشفى.. أسبوع عاشت بعد الولادة .. احضروا لها الطبيب العام ، ونصحهم مثلي بطلب الإسعاف لها لكن اهملوها ورأوا أن لا فائدة من علاجها ، ولما علمت بموتها وفقدان الطفل ، وعرفت بأنها بغير زوج شكت بأنها أم طفل "أبو خروف"

- ولماذا رموه في حي "أبو خروف" ؟!

- لحتى الآن لا أحد يعلم السر والسبب ، ربما الجاني والذي كلف بالتخلص من الرضيع لم ترتاح نفسه لقتله فتركه في الحديقة ؛ لكن الدخول للحديقة والبيت ليلا ليس سهلا حتى لو كانت بوابة المنزل مفتوحة يا أم صلاح ، ولو ألقاه رميا لمات الولد فهو ابن ليلة أو ليال ، فقد وجد بعيدا عن السور قرب جدار البيت وتحت شجرة .. فهذا فعل من يعرف الدار ، ثم فجاءة غيرت الحديث قائلة: هل علمت يا أم صلاح أن بنت أم جلال قد عادت التي شككت فيها؟!

- كانت مسافرة يا أختي إلى فلسطين إلى بلدها عند اليهود ، لها خالة تعيش هناك ، وزارت بيت المقدس .. الناس لا أحد يسلم من شرها

- نحن ظلمنا الست وتوهمنا أنها حامل سرا

قالت أم صلاح : الشيطان جعلنا نصدق الأوهام ، وضحك علينا ، لعنه الله حتى أن أمها زعلت علينا بما اتهمنا ابنتها من سوء الأخلاق .. فبينت لها عذرنا ، وإنما رددنا كلاما كما سمعناه

- ومن قال لها ذلك؟!

- النسوان كما تعلمين ألسنتهن لا تسكت عن القيل والقال ، ورجعت من البلد مسرورة ، فقد ذهبت للسلام عليها وسماع أخبار البلد وأهل فلسطين وكيف حياتهم مع اليهود ؟

قالت أم غازي مبدية أسفها : أنا يومها لولا معزتك عندي ما صدقت ؛ لعلك تذكرين ذلك .. نعوذ بالله من شر إبليس اللعين ، ومن زلات اللسان .. نحن منذ وجد هذا اللقيط في الحي

ونحن نترصد أخباره ، ومشتاقون لمعرفة أهله كأنه لا يوجد لقيط في الدنيا إلا هو مع سماعنا لكثير من القصص .. فلانة فجرت مع فلان ، وفلانة رآها ناس تخرج من بيت فلان و و و اللهم غفرانك

- كيف ريانة بعد الزواج ؟ كل الجيران كانوا يتوقعون نكاحها من السيد سلامة

- سلامة جبان طفران عمره ما بتزوج ..نحن عرضنا المساعدة والتساهل معه رحمة بالبنت المتعلقة به .. أرسلت لأمه بعض الشفعاء ، فعادوا إلينا يا أم صلاح بأقذع الألفاظ وأقبحها واتهامات وسرقة الشاب .. نحن من أجل خاطر البنت بهدلنا حالنا .. نحن نعرفه هاملا ؛ لكن البنت تراه فارسا

- كيف هي الآن ؟

- بخير وأحسن زوج .. والله هو الستير

- الله يبارك لها فيه ، ويرزقها الذرية الصالحة ، ولما تريها سلمي لي عليها السلام الحار من القلب .. فسلامة شاب فاسد ، سمعته في الحضيض ، شاب ضائع تائه خائن يا أم غازي ..كان يضحك على ريانة .. لكن الحب أعمى كما يقولون .. تعلقت به المسكينة الحمد لله ربنا أنقذها منه .. فابني عامر يذكر أن له عشرات الصواحب من أحياء مختلفة وغير مخلص لأي واحدة منهن ، لا أدري كيف يتعلقن به؟!

- البنات ضعيفات العقل، ابتسامة تظنها صادقة، وليست مخادعة ، تكلمت معها كثيرا عن سوء أخلاقه وفساده ، ونعود للقول الحب أعمى ، وهنّ أيضاً يحببن اللهو والتسلية مع الشباب ، وتظن الفتاة أنها تعرفت على فارس الأحلام ، ثم تكتشف أنها ضحية من ضحاياه وأن كلامه خداع في خداع ، تعلقت به بقوة رغم ممانعتنا ، ورفضنا لزواج بما يسمونه حبا ..كلمة حب لها سحرها على الفتيات الساذجات ، فيجعلون الحب معركة وصراعا .. سلامة خائن خائن نعرف هذا ، فلو كان جادا لأسرع بالزواج منها ، وقد مهدنا الطريق له، وسهلنا الأمر .. أهله اعتبروا تهاوننّا ضعفا وجبنا وسترا على البنت .. ونحن فعلنا ذلك لتعرف أننا

معها وليس ضدها ، وأن الذي تاجرت به جبانا وخائنا ، وذلك حتى لا يفشل زواجها وتقول زوجتموني رغم أنفي ولشخص لم اعرفه ولم أحبه .. لا نريد أن نترك لها حجة يا أم صلاح حتى إذا حدث بينهم ما يحدث بين الأزواج من مشاكل تتهمنا بإجبارها عليه قلنا لسلامة تقدم بأيسر الأمر دون مال

- الكل سمع بتضحيتكم وتساهلكم .. العجيب أن البعض شك بأن بينهم شيء سيء لا تحمد عقباه .. أما الآن فعليها أن تستحمل ، وتستسلم لقدرها ، وأن لا أمل من الزواج بسلامة الخائن العاجز عن فتح بيت شرعي.

كان المشغولون بلقيط آل ظبي كلما تشاع قضية امرأة مشبوهة للشرطة ، تبدأ الأخبار بإضافة الجديد ، واتهام تلك الأنثى بأنها أم اللقيط ، ذات نهار قبضت الشرطة على امرأة من طائفة الغجر ، هؤلاء الناس يسكنون في الخيم المتنقلة ، وفي الساحات الفارغة قرب الأحياء والمدن ، وهم منتشرون في طول البلاد وعرضها بل في أنحاء العالم كله ، ويعملون في السمكرة وأعمال الحدادة اليدوية وتصليح بريموسات الكاز والفوانيس ، وعندهم طقوس وعادات غريبة عن عادات سكان المناطق الأصليين ، ومنهم أناس تمدنوا وسكنوا البيوت وتركوا الكار كما يسمونه ، شاع ذلك النهار أن البوليس قبض على امرأة غجرية ، فانتشر خبر أنها هي أم اللقيط ، وأن زوجها رفض الإقرار به ، فطرحته المرأة في حديقة آل ظبي ، ولم يكن الوليد ابن يوم بل ابن عشرة أيام ، والجاكيت الملفوف فيها الطفل شحذتها المرأة الغجرية من إحدى العائلات ، وتخلت عنها لتدفئة الوليد المرفوض من أبيه ، وبعض الغجر من عاداتهم التسول والدخول على البيوت ، ومن ترددها على بيت آل ظبي لطلب الإحسان عرفت الحديقة ، فقد كانت تجلس فيها لتأكل صحن الطبيخ الذي تقدمه أم محمد ظبي لها ، وكان هذا الخبر في عيادة صحة "أبو خروف" العيادة الشعبية ، يتناقل بين النسوة العاملات والمراجعات ، فكانت واحدة تؤكد أنه غجري ، وشكله شكل أطفال الغجر ، وأن ابنها كان يلعب مع الأطفال الذين وجدوه ، وقال لها إن شكله يوحي بأنه من هذه الطائفة ، وأخرى تؤكد أنه ليس بغجري ،

فقالت أخرى للممرضة هدى: هل هذا الخبر صحيح يا سيدة هدى ؟
قالت هدى باستعراض الخبيرة: هذه الغجرية معروفة لنا ، وكانت تتردد على الصحية هذه للعلاج والشحذة في نفس الوقت ، ولها زوج كان يصحبها في بعض المرات ، ولها أطفال .. لا أعلم لماذا قبضت عليها الشرطة ؟! فلم تكن حاملا لقد كانت هنا من قريب ، لا أعتقد أن لها علاقة بطفل آل ظبي ، ربما تكون هناك سرقة من بيت دخلت تأكل فيه أو تشرب شايا أو مدت يدها على سرقة بقالة
صاحت المرأة الأولى: سرقة ! وكيف قالت أم سلوى النجار أنها أم اللقيط ؟! فهم ينصبون خيامهم قرب منزلهم ، وتقسم على ذلك ، وزوجها حضر القبض عليها ، وكان يسهر مع زوج الغجرية ، ولما سهرنا عندهم اخبرنا بهذا
فقالت هدى معترضة : هذا كذاب يا أم سرحان ، قبضوا عليها ليس لأنها أم الطفل .. فهذه الطائفة حسب ما نسمع لا يهتمون بالشرف والعار والعيب لهم تصرفات غريبة.. وكيف سيعرف زوجها الأمي الجاهل أن الولد ليس منه ، وهو ينام معها كل ليلة؟ .. هل ستقول له هذا ليس منك ؟ وهي عندها ثلاثة أو أربعة منه .. هذا الأمر يحتاج إلى طبيب ، وتحليل طبي ودكاترة وفحص دم ..فوضى هي ! ..وستذيع الجرائد تفاصيل الخبر لما ينته التحقيق
فاحتجت المدعوة أم سرحان أمام ضيق الممرضة وقالت : أنا لا أدري لماذا الشرطة لم تحدد أمه وأهله لحد اليوم؟!
- قد تكون الشرطة عرفت أهله ، ولا تريد نشره على الناس سترا على المرأة وأهلها ، ولمصلحة الطفل عندما يكبر .. فأخبار كثيرة تكتمها الشرطة عن الناس وعن الجمهور .. فهم لا يرون من سبب لنشر اسم أم الطفل أو أبيه .. فالأفضل لنساء "أبو خروف" أن يبحثن عن موضوع آخر يتسلين فيه ، ويهتممن بنشرة جديدة
قالت أم سرحان: لكن يا سيدة هدى قريب أم فاطمة امرأة السيد شوكت تقول إن شقيق خطيب فاطمة يعمل مع الشرطة اخبرهم أن الشرطة ما زالت تبحث عن أم الطفل ، لو كانت

الشرطة تعرف ما تركت هذه الشائعات رائجة بدون ذكر اسم الأم والأب .. فكلما يقبض على فتاة يظن الناس أنها أم اللقيط .. الإشاعات تظل حقائق حتى تظهر إشاعة جديدة .. فتاة من الحي تختفي أياما تدور الإشاعات على أنها هربت ، وأنها أم اللقيط .. لابد للحكومة والوزير أن يضع حدا لهذه الإشاعات ما دام قد عرفوا أمه وأباه يا سيدة هدى

ردت هدى بهدوء : أنا قلت يا أخواتي قد تكون عرفت أمه وأهله ، ولا تريد فضحهم ، لا تريد نشر الخبر على مسامعنا .. هذا أمر محاكم ومحامين.. وهذه الفتاة الغجرية قلت لكنّ لا علاقة لها بلقيط آل ظبي .. حادثة سرقة فحسب .. وحتى أنني علمت أن هذا اللقيط قد مرض ومات خلال هذا الشهر المنصرم .

صاحت إحداهن : مات !! مات يا هدى ! وكيف مات؟!

ضحكت هدى وردت: كما يموت الناس .. كيف سنموت نحن؟! انتهى عمره فمات .. والموت لا يفرق بين صغير وكبير وذكر أنثى .. كلنا سيموت كما مات الذين من قبلنا .. هذا ما سمعته من بعض زوار العيادة .. ولكن هل هذا صحيح لا أدري؟! إنما ذكرت ما سمعت ـ رحمه الله ـ وإذا مات استراح من شقاء الدنيا ونكدها

فقالت أم سرحان بعد صمت لخبر موت اللقيط : أنا سمعت مثل هذا الخبر ، ولم أصدقه .. وظننته كلاما فارغا ؛ ليتوقف الحديث عن هذا اللقيط عن تلك الأم المجرمة .. للأسف السيدة أم محمد ظبي لا تتكلم بشيء ، قد زارتها بعض النسوة فقالت لهن : وجدنا الطفل وأخبرنا الشرطة ، وأخذوا أقوالنا وظروف وجود الطفل هنا ـ قصدها الحديقة ـ ولم يعودوا إلينا ثانية .. فالأمر لا يهمنا من قريب ولا من بعيد .. وسمعنا أنهم أخذوا المرأة للفحص ؛ ولكنها لم تتحدث عن ذلك لهنّ

قالت هدى: لأن ذلك لم يحدث ، والذي وجد الوليد ليست هي ؛ إنما هم الأطفال .. واتهامها بدون دليل لا يجوز في القانون أرجو أن تنسين طفل آل ظبي .

نبيل حسين

أخذ نبيل حسين سلامة بعيدا عن الرفاق الجالسين في زاوية أحد البيوت من مربع سكنهم في "أبو خروف" فقال سلامة: ما بك قد ابتعدنا عن الشلة؟

توقف نبيل وقال: اسمع يا صديقي وأنت تعلم كم صحبتي لك ، وتعلم كم أحب الجلوس معك من سنوات ، وأحب أن أسمع أخبارك وأناتك وشكواك

- ويلك قل ما الأمر ؟! أزعجت قلبي وبدني ، ما رأيك بكأس شراب؟!

قال نبيل : أنت تعلم أنني لا أشرب ، ولا أحب النساء رغم بعض المغامرات من قبلهن والرسائل التي تأتيني منهنّ.. اسمع وصدقني بالصداقة التي تربط بيننا منذ سنوات

قال سلامة : بماذا أصدق أيها الشيطان ؟! أنسيت قصصك وحكايتك عن أبي زيد الهلالي سلامة وعنترة والزير سالم ؟

قال نبيل : سأحدثك عن الكثير منها ، وعن حمزة العرب وسيف بن ذي يزن اليماني كلها قرأتها ، وحتى أعرف ذات الهمة .. اسمع هل لك علاقة بطفل آل ظبي ؟!

بحلق سلامة برفيق دربه وقال: ماذا تقصد أيها اللعين؟!

- زعم بعضهم أن هذا ابنك من ريانة

قهقهة سلامة حتى ملات قهقهته الساحة وقال: ومن مصدر هذه المعلومة أو النكتة ؟!

- سمعنا بها ، سمعنا أن زوجها قد يطلقها بعد أن اكتشف أنها امرأة ، ولم تكن عذراء .. سلامة يا صاحبي! هل لك علاقة بطفل آل ظبي ؟!

صرخ في وجهه : أمجنون أنت ؟! حتى لو كان لي علاقة هل أرميه في منزل آل ظبي يا ولد ؟ أليس ابن السيدة محمد صديقا لي ؟! أنسيت ذلك؟! ألا تعرفه؟!

قال نبيل متشككا بعد : وهل يمنع هذا من طرح الطفل عندهم ؟!

- اسمع قل لي مصدر معلوماتك الغبية أو قل لمصدرك المريض الدنيء أن لا علاقة لي بطفل الحديقة ولا بريانة .. ريانة تزوجت ستر الله عليها رغم الإشاعات التي انتشرت حول ذلك ،

لم أعاشرها معاشرة الرجل لأهله ..كل هذا كذب وحقد .. وأنت يا مغفل تعلم رغم لهيب الحب الذي بيني وبينها فأنا أحب فتاة المخيم ، كما تحبون أن تسموها .. هي الوحيدة التي سأتزوجها وسأحارب الدنيا من أجلها

- أنا أصدقك يا سلامة .. وأعرف أنك لا تخادعني ولا تكذب عليّ .. وأنا دافعت عنك بشدة أمامهم بدون ذكر أسمائهم .. أنا صعقت لما سمعت الاتهام الصريح .. وكنت أراها عندما تظهر بيننا فجأة ضعيفة نحيفة لا يبدو عليها الحبل .. فهي تركض مثل السعدان وتقفز كالغزال الفار من الفهد الطيار ..ما أخبارها بعد زواجها ؟

- بعد زواجها التقيت بها مرة واحدة ، وليس بيننا إلا الكلام والسلام ، وباركت لها الزواج وتعذرت لها وكان لقاء الوداع .. وأنا أكذب على كل الناس ، ولا أكذب عليك ، ما زنيت بها أبدا .. كان الحب يجمعنا .. فالإنسان إذا زنى بمحبوبته فقدها .. انتهى الحب المزعوم .. فبعد أن يمتلك أغلى ما عندها .. ستصبح في نظره عاهرة ، وليست حبيبة .. أنت لا تعرف ذه المعاني يا نبيل .. فأنت لم تعرف الهوى والسهر والغرام .. إنك لا تصاحب الفتيات لتعرف همسات ولذة الغرام .. أنت تكتب الرسائل للعشاق وشتان بين الحالين

- أرى نفسي أكبر من النساء ، ولا أحب أن أضيع الوقت معهن ، وأنت تعرف عقدتي هذه .. المهم أنك بريء من طفل آل ظبي

- سخيف من اتهمني بذلك! لماذا الناس منشغلون به ؟! الزنا لا يتوقف والفجور يزداد والأخطاء واردة

- لعل السبب يا سيدي أن هذا أول مرة يحدث في "أبو خروف" ، فيه كل القضايا الأخلاقية الرديئة السكر القمار السرقة النصب المخدرات القتل الخيانة الزوجية زواج بالاضطرار .. فوجود لقيط كان هذا أول مرة فهو حدث نادر

- ربما يكون فعلا هذا السبب يا نبيل النبيل!

جلس نبيل على درج المدرسة من الجهة الخلفية ، وهذا الدرج لا يستخدمه الطلبة ، فهو لا

يفتح على بوابة المدرسة إنما يفتح على ساحة خالية إلا من الأعشاب الشتوية والربيعية ، واعتقد أنه باب طوارئ عند الكوارث الطبيعية والحرائق ، فكان نبيل ورفاقه يحبون الجلوس على درجه المكون من بضع درجات حيث يلعبون الشطرنج الهواية المفضلة لهم ، وعندما يملون منها يذهبون لساحة المدرسة من الجهة الأمامية حيث ملعب كرة السلة وشبكة كرة الطائرة أو يحولون ملعب كرة السلة لملعب كرة قدم مصغر ، فهم يحبون ممارسة هذه الرياضات وعند التعب يعودون للباب الخلفي للعب الشطرنج والأكل والحديث والدخان ، فكان مقرهم المناسب في تلك الأيام ، وهذه المدرسة على قمة جبل يطل على "أبو خروف" وعلى جزء من مخيم عودة الأمل ، وكان نبيل يلعب مع رفاق الشطرنج اللعبة الساحرة لمن يعرفها ويفهمها ، وكان سلامة صاحب نبيل يقف على تلة يراقب بيت صديقته بنت المخيم ، الفتاة التي سيقاتل الدنيا من أجل الزواج منها ، وقد حصل هذا في مستقبل الأيام ، وولدت له بفضل الله

الشباب تلعب الشطرنج وسلامة مسلط أنظاره إلى بيت المحبوبة ، وكان ذلك بعد حين من زواج ريانة ، وكان الحال بين نبيل وسلامة سيئا ومتوترا بسبب شيوع شرب الخمر لدى سلامة زاعما أنه يفعل ذلك حزنا وأسفا على فقد ريانة ، فكان يقاوم الشائعات حوله بشرب الخمر والمزيد من السجائر والعصبية ، وكانت تتلاقى نظراتهما في لحظات خاطفة

قال أحد رفاق الشطرنج : أين ذهبت صحبتكم فجأة؟!

توقف نبيل عن اللعب وقال : رغم أن الإجابة ستشتت ذهني ويفوز عليّ أسامة .. أنا لما قبلت صداقته كما تعلمون طلبت منه أن يهجر الشراب في مجلس أجلس معه فيه فقبل ، ولما ذهبنا لمشاهدة عرس وعلمت أنه ذهب ليسكر مع العريس والمغنين ورفاق العريس تركت الحفل وعدت لأبو خروف غاضبا .. أنا لا أحب السكر ومجالسه .. والكل من زعران "أبو خروف" يعلمون ذلك عني .. وعندما يكون لديهم حفل شراب يتجنبون دعوتي .. هذا مبدأ أحافظ عليه .. أنا لا أستطيع أن أكون أبا أو شقيقا أكبر .. والفساد يملأ الحي .. وهكذا اتفقنا

أنا وسلامة .. وبعد زعلي منه ليلة العرس تدخل أبناء الحلال وجرى الصلح .. وتجدد الاتفاق بيننا وعاد الوئام .. هل يكون حل المشاكل والإشاعات باللجوء للخمر بزعم النسيان أي نسيان هذا ؟! الشراب يكبر المشاكل ويؤكد صحة الإشاعات والاتهامات .. المشاكل تحتاج لعقل لحلها والتخفيف من ضررها وخطرها .. الهروب من المواجهة والصمت والشراب غير صحيح .. قبل أيام كنا هنا مع الغروب ، طلب منا أن نذهب لشراء طعام لنأكله هنا على هذا الدرج .. والمطعم بعيد من هنا على الشارع الرئيسي .. نحتاج لبعض الوقت مع أنه كان باستطاعتنا الشراء من البقالة التي خلف هذا السور جبنة مرتديلا سردين تونة .. الأكل مع الشباب زين .. ذهبنا ولما عدنا لم يأكل معنا ، ثم همس لي أحدهم أنه أبعدك ليسكر .. أبعدني ليشرب كان معه قارورة خمر .. هذا سبب حردي الأخير عليه .. أخذ لا يكترث باتفاق صحبتنا أيها الأخوة .. أنا أكره كل السكارى في الحي .. وفي كل "أبو خروف" لا يشرب الخمر في رفاقنا إلا هو .. وهل هكذا يبكى على الأطلال ؟ قد يعشق الفتى وهو صبي مراهق ، وهذا شائع في حيّنا وغيره ، ولا يحصل الزواج إذا كانت الغاية من هذا الحب الزواج .. فالبنات تتزوج قبلنا في سن صغيرة ، قد تلد الحبيبة ثلاث مرات قبل أن يتزوج أحدنا .. فهذه العلاقات الصبيانية عبث ولعب ولهو ومغامرات استعراضية .. هذه هي الحقيقة .. آمنة كم كانت محبة لأسامة ؟! والكل يقول إنهما سيتزوجان ، وتزوجت وولدت وأسامة يجلس معنا يلعب الشطرنج ، يتحسر على أيام الهوى الغلاب .. وقبله سرحان وفتاته أصبحت تنادى بأم أحمد ، وهو ما زال سرحان ، وصارت جارة لأمه .. لقد طلب أحدهم مني كتابة رسالة لفتاة هويها ، فلما ذكر لي اسمها عرفتها فقد كتبت لها عدة رسائل ، وهو اليوم فارس أحلامها ، فتحرجت من الكتابة إليها فقلت له بكل صراحة : هذه الفتاة تعرف خطي ، فقد سبق أن كتبت لها من محبين قبلك ، كتبت لها عددا من الخطابات على لسان عدد من الفتيان ، فعندما ترى الخط ستعرف أنني الكاتب ، فهي تعرفني شخصيا ، وهذه فتاة لعوب .. وأعرف أكثر من خمسة فتيان صاحبوها . لكنه أصر وكتبت له وقال : اكتبها وسأنقلها بخط يدي حتى لا

ترفضها ، وأتسلى بها كما تسلى معها غيري . كتبت له رسالة عشق عربية .. فهي تبدل الشباب وتنتقل من فتى لآخر ، كلما يهجرها شاب تبحث عن غيره ، هي تتسلى وهو يتسلى ، بل لسانها كما علمت لسانا قبيحا ، وقد تساعدك في التعرف على فتاة أخرى ، وقد تصاحب اثنين أو ثلاثة في وقت واحد .. تأخذ شريط كاسيت من هذا وتهديه لآخر ، ثم تراه يعود للأول في يوم من الأيام .. أهذا حب؟!

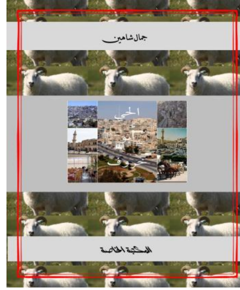
قال أحدهم ساخرا : يتدربون عليها ويتعلمون منها على مقابلة الفتيات ومغازلتهن ، ثم يكتشفون عوارها فيهجرونها ويجدون غيرها ، حتى علمت أن سلامة رافقها فترة وملها بسرعة قائلا: لا تصلح للحب ولا للسهر .. وخسارة أن ينفق عليها فلسا ؛ إنها تصلح لنشر الفضائح ، فقلت له : لكنها لا تمارس البغاء والدعارة . فقال : إنها وقحة لآخر درجة ! قد تتعرى أمامك دون حياء ؛ لتنظر عورتها ، وتتكلم كلاما مخجلا ..وأنا اعرفها أكثر منك ، ولها أصحاب من أحياء أخرى

فقال نبيل : ولكنها تزوجت ، وخرجت من الحي .. وكل الرواة أبطال .. وأعتقد أنها عذراء ، لما نكحت الرجل لم يظهر العوار العجيب إخوتها هل لا يعلمون بالوقاحة التي هي فيها ؟!

- يعرفون ماذا يفعلون ؟ الناس تغض السمع والبصر .. الضرب واللطم ماذا سيفعل؟!

قال أسامة : غرامياتها تزكم الأنوف .. ستر الله عليها .. وارتاح "أبو خروف" منها

قال نبيل : ليست الوحيدة ؛ إنها هي أجراهنّ على الوقاحة وقلة الأدب .. وسيظهر في الحي من هي أوقح منها .. الحي ولاد لمثل هذه النوعيات من الفتيات .. ذهب الحياء ، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت !



جميل

كان جميل يدخل منزل خاله شوكت ـ وقد استأجر بيتا في قلب المدينة ـ فبعد جلوسه قال: خالي في المقهى الخالد

رحبت أم فاطمة به ، واطمأنت على أمه وأبيه، وعادت ترحب : أهلا وسهلا بالعزيز الغالي خالك ذهب للمسجد كعادته ، وبعد الصلاة كما قال سيزورون رفيقا لهم خرج من المستشفى بعد عملية جراحية في بطنه ، يقول خالك إنها صعبة ، وهذا الصاحب من سكان حي المدينة حاليا ، كان من أهالي "أبو خروف" ، ولما ترمل تزوج أرملة ؛ كأنها ورثت بيتا عن زوجها في حي المدينة ، فأجر شقته هنا ، ورحل ، وهو ما زال على صداقة مع أبي فاطمة

قالت فاطمة : لقد علمنا أنك وجدت بيتا

نقل بصره إليها فقال سعيدا : حسم الأمر يا فاطمة .. سنسكن بعيدا عن الأهل .. جئت الليلة لأبشركم بأني وجدت البيت ، ووقعت عقد الإيجار مع وكيل المالك أحد المحامين .. وجئت أيضاً لنرتب أمر حفل الزفاف يا امرأة خالي

قالت الأم بسعادة : يا ألف مبارك يا ابني ، نحن أهل

– غداً ستمر أمي وأبي للاتفاق على الترتيب النهائي ، ولم يبق إلا أيام يا فاطمة .. وننفصل عن الأهل ،ويصبح لنا بيتنا الخاص .. مبارك يا فاطمة

تمتمت شاكرة داعية ، وسمع أم فاطمة تقول: سنة الحياة يا ولدي ! مبارك عليكم يا أولاد عسى أن يكون الإيجار ميسورا

– عشرون دينارا نهاية كل شهر مع الكهرباء والماء ، والبيت قديم إلى حد ما أجريت عليه تحسينات وترميمات مع الزمن .. والمستأجر طائر مهاجر رغم شقة الترحال .. وسيقوم أمجد بصيانته وإعادة طلاء جدرانه قبل نهاية الأسبوع .. بإذن الله تعالى سيكون جاهزا ، وخلال الأسبوع القادم سيكون مؤثثا يا فاطمة .. نحن ذهبنا وابتعنا أثاث غرفة النوم كما تعلمون ، لم يبق إلا نقلها .. وعليك يا فاطمة أنت وأمك شراء أدوات المطبخ من طناجر وصحون

وكاسات أشياء أولية .. ورويدا رويدا نشتري باقي الأشياء كسائر البشر والأزواج .. وهداني زياد التلفزيون .. والغسالة من أختي جميلة وزوجها .. والمروحة من أمي وبعض لوازم المطبخ .. ونحن حجزنا الطباخ مع غرفة النوم

وقالت أم فاطمة: ونحن جهزنا الفرشات والأغطية وسنهديك فاطمة

ضحكوا وقال : هذه أحلى هدية ، وفاطمة في عيوني

قالت فاطمة: شكرًا يا ابن العمة الغالية

– كانت أمي ترغب أن نبقى معها ، ونعيش معها ؛ لكن الوضع غير مناسب كما شرحت لكم سابقا ، ولكم عندي خبر صغير عن لقيط آل ظبي

ضحكوا قليلا مرة أخرى وقالت أم فاطمة: خبر ! لقد خفت الحديث عنه هذه الأيام ؛ كأن الناس يئسوا من معرفة أهله .. آ ، ما الخبر الصغير الذي عندك ؟!

– الخبر أن شقيقي زيادا همس في أذني أن فتاة قد قتلت بسبب فضيحة جنسية

– وهذا خبر يقال بين الفينة والأخرى يا ولدي يا جميل ما زلنا نسمع أن فلانا قتل ابنته ، وهذا قتل أخته من أجل ما نسميه الشرف ، وهذا قتل امرأته

قال باسما : صحيح هذا الخبر شائع ومنتشر في الأحياء ؛ ولكنّ زيادا يقول: الشرطة تشك أن هذه المرأة المقتولة لها علاقة بطفل "أبو خروف" ، لقد استدعتها الشرطة وحققت معها قبل مقتلها ، ولم تعترف بالحمل وإن اعترفت بعلاقات جنسية مع رجال خارج الزواج ؛ لأنها غير ذات زوج ، واطلق سراحها ، وهم يشتبهون فيها ، ولما قتلت أقر أخوها الفاعل أنه يشك بحملها ، وأنها ولدت سفاحا ، فقد اختفت عن البيت أكثر من ثلاثة شهور قبل أن تعود إليهم ، وهي ليست أول مرة تترك فيها البيت كما قال أخوها الجاني ، ولم تعترف أين كانت طول هذه الفترة ، وعرفت الشرطة أنها كانت تعيش مع رجل في قرية نائية على أنهما زوجان ، ولما وضعت حملها بأيام اختفت من القرية بسيارة خاصة ، ثم ظهرت في بيت أهلها ، ولم يكن معها ولدها .. والرجل تبحث عنه الشرطة قبل إغلاق ملف قضية مقتلها

قالت فاطمة متشككة: قد تكون حادثة أخرى يا جميل ..والوليد لم يظهر

- شقيق الفتاة قال للشرطة : نحن لم نرى حملها ، ولم نر وليدها ؛ لكنها اختفت فترة تخفي الكثير وتوحي بذلك الحمل

- وهي اعترفت بالفاحشة ، ولم تعترف بالحمل

- لكن أهل القرية يذكرون الحمل والولادة ، وأنهم بعد الولادة بزمن يسير اختفوا من البلدة الريفية ، كانوا يظنونهم زوجين كما زعما لهم ، ولما عادت لأهلها عادت بدون طفل أين ذهب ؟! إذن الرجل الذي عاش معها هو الذي سيحسم الأمر لدى الشرطة ، وتعرف أهل القرية عليه .. فهم لما رأوا صورة المرأة عرفوها فورا .. فإخفاء الطفل أو قتله جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات والجنايات .. وإذا كان لقيط الحديقة ابنه سيتغير الوضع القانوني ، قد يحبس أو يغرم ويعفى عنه ، ويلصق الطفل به قانونا ، وهو يتحمل تربيته ، وقد يعمل له عقد زواج على المرأة الميتة ، ويصبح الابن شرعيا في نظر القانون

قالت أم فاطمة: لا حول ولا قوة إلا بالله .. هذه الجرائم لا نهاية لها .. الناس تفشل في تربية بناتهم هذه الأيام ، ويسمحون لهن بالسفور والتبرج ، ولا يريدون لهن الوقوع في الآثام

- المجتمع للأسف يتفسخ ، والتربية هي الأساس يا عمتي .. قالت هند (أتزني الحرة يا رسول الله ؟!)

قالت فاطمة : من هند ؟

قال باسما : هند بنت عتبة أم معاوية وزوج أبي سفيان في الإسلام والجاهلية ، قالت ذلك لما بايعت الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام رضي الله عنها

كانت بعض الأسر في "أبو خروف" كثيرة العدد بين أبناء أولاد عم خال ، استوطنوا الحي وتكاثروا ، وتجدهم يسكنون ضمن مربع واحد ، ضمن عمارة واحدة ، الأخ الأم الابن القريب ، وهذا في سائر "أبو خروف" ، وربما تجد بعض الأقارب ينتشرون في مربعين أو ثلاث ، وذلك مع تطورات الحداثة العمرانية والقروية ، ربما جاءوا من قرية واحدة وعاشوا

فيه ؛ لذلك تجد بعض الأسر عديدة وكبيرة بالنسبة لغيرها من عائلات الحي ، وفي فترة السبعينيات من القرن العشرين لم تكن صالات الأفراح منتشرة بكثرة ومطلوبة ، فبعض العائلات كانت تحب صنع الطعام ، خاصة الطعام في حفلات العرس لإطعام الضيوف والأقارب ، ومن يحضر من أهل الحي ؛ لذلك كانت تتحول ساحة المربع في بعض مناطق أبو خروف لساحة عرس ، وتنصب خيام العرس

للاحتفال قبل ليلة الزفاف بليال للرقص والدبكة والسهر والسمر لنصف الليل ، والعرس يكون في الغالب في شهور الصيف ، بل تبدأ الأعراس مع الصيف حتى يدخل الخريف وينصرف منه أيلول وتشرين الأول ؛ ولكنها تقل في الشهريين الأخيريين ، وبعضهم يجلب فرقة شعبية للغناء والسمر ويقدم الشاي والقهوة والعصير والماء والسجائر وينفخ في القربة وآلات العزف ، وتجد الفتيان يرحبون ويبتهجون بمثل هذه السهرات ، وتتجمع الفتيات والنساء في بيت أهل العريس ، وتحدث الحواديث الخبيثة ، ويقدم الشعار والزجالون ما تجود به قرائحهم من الزجل الشعبي والتغني بالحب وحب الأوطان ، وتسمع زغاريد النساء تلعلع في جو السماء باسم العرس والبهجة والفرحة ، خاصة إذا كان العريس هو البكر لأبويه ، ونهار الجمعة يكون يوم العرس الرسمي والأخير فيقدم للضيوف الطعام واللحم واللبن والرز ، وبعد الغداء توزع بقايا الأطعمة على فقراء وأهالي المربع القائم فيه العرس العربي ، ومع المساء يذهب أهل العريس وضيوفهم للإتيان بالعروس إن لم تكن من أهل الحي بالسيارات الصغيرة والكبيرة ، وتدخل على غرفة أعدت لاستقبالها وجلوسها على منصة أو لوج كما تسمى عندهم ، ويجلس بجوارها العريس بعد حمامه الخاص في بيت أحد أصدقائه مع زفة له بالأغاني والطبلة والموسيقى في شارع من شوارع "أبو خروف" ولما يدخلوه للجلوس مع عروسه ، يبدأ بعض الناس بالدخول على العروسين ، ودفع ما يسمى بنقوط العرس لأحدهما أو كليهما حسب الارتباطات المالية مع أهل العريس أو العروس ، ويبقى ذلك ساعة أو أكثر ، ثم ينصرف الناس الذين لم ينصرفوا بعد الغداء وبعد الزفة .. فهناك من

يغادر بعد تناول الطعام ، ومنهم من يغادر بعد جلب العروس ، ومنهم من يغادر بعد الزفة ، ومنهم من ينصرف بعد إغلاق العروسين على نفسيهما بيت وعش الزواج ، ربما يبقى القليل في انتظار دخلة العروسين لإطلاق رصاصات ليلة الدخلة كما هو عند بعض الأسر.

وهذه الأعراس الشعبية لا تخلو من بداية العرس إلى نهايته من المشاجرات والمهاترات والعداوات المتوارثة والمتأصلة بين الأسر القريبة والبعيدة ، وربما تتدخل الشرطة لفظ النزاع ووئده قبل أن يكبر ، ويتخلل هذه السهرات عادة اطلاق الرصاص في الفضاء ، إما ابتهاجا بالعرس أو استغلالا للوقت وتجريب المسدس المشترى حديثاً باسم الاحتفال بالعريس ، ورغم تحذيرات الأمن من استخدام الرصاص الحي ما زالت التجاوزات دون اكتراث ودون مبالاة ، وحتى أن بعضهم يستخدم الرشاش المسمى الكلاشنكوف ـ سلاح أصله روسي ـ وهذا يطلق عددا كبيرا ومتتاليا من الرصاص في ضغطة زناد واحدة ، وقد يفقد صاحبه السيطرة عليه ، فيسبب مآسي له وللآخرين ، والشرطة باسم الفرح والمناسبة كثيرا ما تغض الطرف عن استخدام السلاح الحي ، وعادة الجمهور مشغول بالطرب والرقص والسماع عندما يطلق الرصاص ، ومع اطلاق الرصاص ترتفع زغاريد النساء كأن المعركة مع العدو ، قد بدت تقاليد بالية ساذجة ، قلدنا الغرب في الأكل والشرب واللباس ، أما هذه العادة فما زالت حتى بعد هذه الأحداث بعقود حيث نكتب هذه الحكايات

هذا الصيف احتفلت عائلات الدير بزواج عدد من أبناءهم كما يفعلون ذلك كل سنة ، ومضت الليلة الأولى من ليالي العرس على سلام رقص أغاني قربة نفخ شراب دخان طرب زغاريد رصاص ، وليلة الجمعة اليوم الثالث والأخير من السهرات حدث الخطأ القاتل الذي يحذر منه رجال العلم والشرطة ، قلب الحدث العرس والفرح إلى مأتم وحزن وندم حيث لا ينفع الندم ، كان أحد أقارب العريس يعبر عن فرحه وسروره بإطلاق الرصاص في الفضاء وبعيدا إلى حد ما عن تجمهر الحفل الراقص وخيمة العرس الكبيرة الصيوان أو السرادق ، كان يرفع السلاح بيده عاليا إلى الفضاء ويضغط على الزناد بقوة وبانفعال واضح للعيان ، أزاح

أحدهم يديه ،كأن أحدهم دفعه فجأة فانحرف المسدس وهبطت يده إلى الأسفل قليلا فأصابت الرصاصات بعض الناس ، ووقع طفل على الفور أرضا يصرخ ، ثم مات ، وتوقف العرس على الصراخ ، وحضرت الشرطة للمكان شرطة النجدة والدورية ، ونقل الطفل للمستشفى ، وتحول العرس لترح وبكاء وصراخ وعويل ، وتبين أن القتيل ابن عم العريس طفل اسمه إبراهيم في المرحلة الإعدادية من المدرسة

جلس الأقارب بعد الصدمة ، وقد توقف الغناء والعزف ، وخيم الحزن والأسف والندم ، وهذا يزعم أنه نبههم لخطر الرصاص ، وآخر ذكر بحوادث أخرى ، وقال رجل كبير منهم: من زمن ونحن ندعو إلى الكف عن استخدام الرصاص الحي في المناسبات السارة ..لا أحد يسمع .. يا شيخ خلينا نفرح .. خلينا اليوم نحزن ..هل ستتعلمون؟!

لم يتكلم أحد ، ظل الصمت مخيما حتى رجع المصابون من المستشفى وقال شيخهم : غداً سيكون الغداء للعرس والمآتم .. نسأل الله الصبر لأهل الفقيد الطفل إبراهيم عواد ، وبعد العرس سنجلس للعزاء ثلاثة أيام كالعادة ..وغدا سيذهب الكثير من العائلة للدفن ، وبعد الغداء سيذهب البعض للإتيان بالعروس وبدون أغاني ورقص ، وزفة صامتة للعريس إلى حيث سيسكن .. ونجلس للعزاء في بيت أبي إبراهيم .. وهذه هي حال الدنيا ، وسنتحرك من أجل الصلح بين الأسرتين لتفرج الشرطة عن عبد القادر

حدث همس ولغط من سيذهب يأتي بالعروس والضحية ابن عم العريس ، وقبل أن يستمر الهمس قال الشيخ: آسف أيها الناس أنا نسيت أن القتيل ابن عم العريس .. كلنا سنذهب لأخذ خاطر والد إبراهيم ، وكلنا سيذهب للدفن ، وبعد الغداء المشترك سننتقل لبيت والد إبراهيم ، وسيذهب والد العريس والعريس وبعض الأخوة الكرام والنسوة لجلب العروس كما ذكرت أولا دون تزمير وطبل ، وأهل العروس سنتصل بهم ونخبرهم بالحال ، والعذر عند الكرام مقبول ، وسيجري الصلح في الليل بعد إحضار العروس ، وعلينا أن ننصرف لم يبق للفجر إلا وقت قصير .. يوم لا ينسى فرح وموت.. بارك الله للعريس ، ورحم الله الميت

أخذ الناس بعد هذا القرار يغادرون المكان ، ويستعدون لمراسم الدفن وانتظار مجيء الجثة من الطب الشرعي ، وكانت العائلة قد انتقلت لبيت أبي إبراهيم للعزاء والمواساة ، وكان البكاء في بيت أبي إبراهيم قائما من قبل النساء .. فعلى الناس التظاهر بالحزن بعد ذلك الفرح ، وكان جدل يدور حول الحق على من ؟ الطفل القريب من اطلاق الرصاص ، من الرامي الذي لم يسيطر على السلاح من دفعة خفيفة

فقال قائل: لم نسمعك تتكلم يا سلامة بعرس قريبك.. أليس إبراهيم من أبناء الحمولة ؟

- نعم ، زيجة شؤم

- شؤم ،ولماذا الشؤم يا إنسان؟!

تكرار الأعراس صيفا في "أبو خروف" لا يتوقف خلال شهور الصيف ، كما تكلمنا بهذا آنفا تموز آب أيلول وتشرين ، ومع ذلك استمر اطلاق الرصاص في المناسبات والحفلات ، وتزوجت فاطمة شوكت وزفت إلى عريسها السيد جميل ، وغادرت "أبو خروف" إلى بيت في وسط المدينة الجزء القديم منها حيث العمارات والمباني التاريخية ، ومن عادات الأهالي في أبو خروف وغيره أن يذهب والد العروس وأمها وربما خالتها أو بعض أخواتها المتزوجات في اليوم التالي لليلة الزفاف للمباركة للعروسين ، يذهبون في المساء ومع الغروب يحملون الحلوى والفواكه ويسمونها الصباحية ، رغم أنها تحدث في المساء ، تطمئن الأم على أن الزوج قد تمكن من الدخول بابنتها وأصبحت امرأة ثيبا ؛ لأنه يصحب شعبيا هذه الليلة ضغط نفسي عجيب من الناس ، واليوم أخذت تظهر عادة شهر العسل ، فتؤجل الصباحية ريثما يعود العروسان من رحلة العسل ، أقلها ثلاث ليال ، وقد تطول حسب الإمكانيات المادية والإجازة من العمل ، ومن العادات الأخرى في "أبو خروف" أن أهل العروس يدعون العروسين في الجمعة الأولى بعد ليلة الزفاف للغداء ظهرا معهم ..فهذه تقاليد منتشرة فأول جمعة لأهل العروس

لذلك بعد صلاة الجمعة كانت فاطمة تنتظر زوجها الذي حضر بعد الصلاة ، وهو يحمل

هدية لخاله وأسرته ، وبعد أن استراح قليلا غادرا البيت لأداء الواجب الاجتماعي ومشاركة خاله الطعام الخاص والمعد لهذه المناسبة ، وأشار لسيارة تكسي ذات اللون الأصفر والذي يعني أنه مسموح له التنقل في أحياء وشوارع المدينة المحافظة دون الالتزام بخط سير واحد ، ركب بجوار السائق وركبت الفتاة في الكرسي الخلفي ، ولما تقدمت السيارة بهما عدة أمتار ذكر اسم المكان المقصود ، فالتفت إليه السائق قائلا: أنت من "أبو خروف" ؟

– لا ، أهل عائلتي من "أبو خروف" ، أنا ذاهب في زيارة لهم .. أتعرف أحدا من أبو خروف؟

– أنا أعرف بعض الأفراد منه .. أكيد ما دام نسيبك من أهالي "أبو خروف" أنك سمعت بطفل أبو خروف اللقيط

– هذا كان من أشهر

– نعم ، أذكر ذلك .. قد أكون أنا الذي حملت الرجل والطفل إلى أبو خروف تلك الليلة

استدار رأس جميل يسارا محاولا النظر في عيني الرجل وقال: أنت ؟! وكيف؟!

– ذات ليلة كنت في وسط المدينة استرزق ، كما تعلم شغلتنا الفر والكر ، كان الوقت بعد نصف الليل قبيل الفجر ، كان رجل يقف على أحد الأرصفة فرأيته فاقتربت منه ، فأشار لي بالتوقف فوقفت فركب في الكرسي الخلفي ، وكان يحمل شيئا لم أهتم به عندما صعد ، عرفت فيما بعد أنه طفل وليد ، واعتقدت أنه ابنه ، وطلب أن أنقله مثلكم لأبو خروف ، وعند الدوار أمرني بالوقوف ونزل ، ودفع لي الأجرة بعد أن زعم أنه نسي ، فناديت عليه فعاد ودفعها الأجرة كاملة، وأخذت أعد لأعيد له الباقي باقي الدينار ؛ لكنه ابتعد وأشار لي بأنه لا يريد الباقي

– هل أخبرت الشرطة بهذه المعلومات القيمة ؟!

– حصل لكن بعد أكثر من عشرة أيام لما شاع الخبر ؛ فأنا أكره قراءة الجرائد ؛ لأنها كلها كذب وأفلام محروقة ، ولا وقت لنا لقراءة الأخبار ، نكتفي بما نسمع من راديو السيارة ،

أخذوا أقوالي وقال الضابط: ولماذا اعتقدت أنه طفل أبو خروف ؟ فقلت له : كان وضع الرجل غريبا مرتبكا ولزم الصمت طول الطريق ، والطفل لما سمعت صوته أدركت أنه مولود جديد ، ولم تكن معه امرأة ؛ وفي النهاية ندمت أنني أدليت بشهادتي أرأيت مقابلة الإحسان ؟
قال جميل : لا تغضب ، هم لا يرفضون شهادتك ، بل يريدون سحب المزيد من المعلومات
قال السائق : أنا لما سمعت الخبر من أحد الركاب الطيبين مثلكم تذكرت ذاك الرجل الغامض ، بل عرفت لماذا نسي دفع الأجرة عندما نزل ؟
أدركت عندئذ انشغال قلبه بالوليد ، وعلمت أن البيت الذي تركه فيه قريب من الدوار ..
هل عرفوا أم الطفل؟
– لحتى الآن لم تظهر أمه ولا أبوه .. الشرطة عاجزة من القبض على أحدهما وحسب الجرائد وإشاعات "أبو خروف" الشرطة لم تتوصل لشيء ، والسبب أنه ليس أول لقيط تجده الشرطة والمباحث ، ولي شقيق في الشرطة يخبر أنهم يجدون كل شهر أو شهرين طفلا حيا أو ميتا فوجود الخادمات الأجنبيات زاد من ظاهرة اللقطاء في المدن الكبرى ، وأغلبهم يجدونهم أمواتا مخنوقين بعد الولادة مباشرة أو ميتا في أماكن مهجورة غير مطروقة ، فلما يكتشف يكون قد فارق الحياة من أيام .. يا رجل ذكرت إحدى الصحف أن عامل الزبالة وجد طفلا في صندوق الزبالة الكبير ، سمع صوتا فظنه قطا في الصندوق ، ولما تطلع وجده طفلا وليدا ؛ لأن القط لما يشعر بأحد يقفز هاربا، فأخرجه وسلمه للشرطة بعد أن بلغ المسؤول عنه .. أرأيت المجرمين لا ضمير ولا ذمة؟! ألقوه ليموت ويحرق في محرقة البلدية
– حسبنا الله ونعم الوكيل .. الشهوات زادت عن حدها في شرق البلاد وغربها .. ستر الله على عورات النساء ، وكفانا شر هذه الآثام
– لكن يا سيدي هذه الذنوب تؤثر على الجميع .. الجميع يدفع الثمن .. الهوى يدمر الجميع كالوباء الخطير كالجدري مثلا والكوليرا
– الله يحمينا من شر أنفسنا يا أخ ـ أخوك جميل

احتضنت الأم ابنتها وهي ما زالت على باب الشقة ، وقبلتها من وجنتيها ، فأسعد شيء في حياة الأم يوم أن ترى ابنتها عروسا متزوجة ، وكانت تقبلها وترحب بها أشد الترحيب ، وتركتها وقبلت زوجها من وجهه الذي قبل يدها شاكرا

ودخلوا البيت وأغلقت الأم باب الشقة وهي تكرر عبارات الترحيب بالعرسان وهي تشهر سعادتها لهما ، وكانت تقول: أهلا أهلا بالأحباب أحس أن السعادة تغمركم

عانق شوكت ابنته بفرح الأب الذي يحلم بأن يكون له أحفاد ، وانتقل لمعانقة زوج ابنته ابن شقيقته ، وسلم جميل على البنات بالإشارة بعد أن تركن أختهن بعد معانقتها ..هكذا عادات الناس في هذا البلد الاحتضان وتقبيل الخدود للتعبير عن مشاعر الود والحب ، واطمأن الرجل على أخته وزوجها ، وبين لهم جميل أنهم يقرأون عليهم السلام ، وسمع امرأة خاله تقول: قد تخطب زينب قريبا

فقال بنوع من المفاجأة : صحيح يا امرأة خالي ؟

قال شوكت: تفضلوا بالجلوس هاتوا الطعام قبل أن يبرد ، ثم نتكلم عن زينب

قالت أم فاطمة: حاضر يا سيد البيت .. يا أحلى أب للجميع .. هيا يا بنات سيدنا جوعان

- أبدا

مشت الأم والبنات للمطبخ ، وتم إحضار الطعام المكون من أطباق الأرز والسمك المقلي والكفتة المعروفة بالطحينية ، فإن جميل يحبها ، وتناول الجميع الطعام لهذه المناسبة الطيبة ، وخلال الطعام عرفوا أن امرأة من اللواتي شاهدن العرس أعجبت بزينب ، وكان ابنها المتخرج من الجامعة الصيف الماضي يبحث عن عروس فاضلة من أسرة محافظة ، فبعد انتهاء العرس جاءت وتحدثت مع أم فاطمة واتفقتا على موعد قريب ، يأتي الشاب لرؤية البنت وبعدها يحدث الكلام في الزواج والقبول ، فتمنى جميل وفاطمة التوفيق لزينب ، وفجأة بعدما لزم القوم الصمت وأخذت النسوة يرفعن الأطباق والصواني والمعالق والشوك قالت فاطمة :

جئناكم بخبر عن طفل آل ظبي؟

تعلقت العيون بفاطمة وضحك جميل وقال: فعلا لدينا شيء جديد عن لقيط "أبو خروف" تركت الفتيات غسل الصحون والأواني وعدن لصالة الشقة لسماع خبر اللقيط ، وقال شوكت: هات ما عندك يا فاطمة

- خبر ساخن ، ونحن في الطريق إليكم ركبنا سيارة تكسي أصفر .. وحكت قصة السائق مع الرجل الغريب ومع الشرطة ومعهم .. وأنه تذكر القصة لما حملهم إلى "أبو خروف"

قالت أم فاطمة: ماذا فعلت الشرطة بعد هذه المعلومات؟!

- لم تفعل شيئا كما قال الرجل أو فعلوا دون علم الرجل

قال جميل مبينا : لو قبضوا على الرجل لعاودوا الاتصال بالسائق ، الشرطة تبقي الكثير من القضايا للزمن يا خال .. فالرجل شهد أنه نقل تلك الليلة رجلا مرتبكا إلى "أبو خروف" ومعه طفل بكى أثناء وجوده في السيارة ، ونزل عند الدوار وبيت آل ظبي قريب من الدوار ، وقد يكون فعلا والد الطفل ، وقد لا يكون ، ولم يحدد هل كان الطفل ملفوفا بالجاكيت أم لا ؟ هذا قاله للشرطة ،وقد يكون الرجل مجرد ناقل ، وليس أب الطفل ، أو كلف بقتله ولم يفعل الاحتمالات كثيرة

- ولماذا نقله لهذا الحي يا خالي؟!

- هذا السؤال الصعب ، لا يجيب عليه إلا من وضعه في تلك الحديقة

قال شوكت: أكيد الشرطة لديها معلومات كثيرة ، فربما يكون ما قلت صحيح ، وأنه لا دخل له بالحادث ، أبو خروف فيه عشرات الآلاف من السكان ، والمخيم الأسفل منه فيه عشرات الآلاف أيضاً ؛ لأن بعض الذين يقصدون المخيم يأتون من طريق "أبو خروف" ويقطعون المسافة سيرا على الأقدام ، فكثير من سكان "أبو خروف" عائلات تركت المخيم لهذا الحي ، فربما يكون ذلك الرجل شريفا يحمل ولده راجعا به من عند طبيب خاص .. والسائق رجل شجاع لتقدمه للبوليس بالشهادة

- الشرطة تقبل المعلومات ويغربلونها ، قد يكون الرجل كاذبا وقد يكون صادقا

قال شوكت : أكيد الشرطة ليس كل من يتكلم بشيء ستصدقه ؛ لكنهم يهتمون به ، وسيظل الغموض محيطا بالطفل حتى يقبضوا على أمه أو من له صلة به

- صحيح هذا .. مرة قرأت عن قضية أن امرأة وضعت طفلا بعد زواجها بأربعة أشهر ، فاستغرب زوجها والجيران ، ولما خضعت للتحقيق تبين أنها فجرت ، ولما أدركت حملها سفاحا عرضت نفسها على ذلك الرجل بحجة أنها مسكينة غلبانة لا أهل لها في البلد فقبلها زوجة ، وأسفت لخداعها ذلك الرجل ، وفسخ الزواج وأودعت السجن

عادت أم فاطمة ترحب بهم وتسأله عن صحة والديه

- كلهم بخير ، كان زياد عندنا من يومين ، فقد رجع من دورة قصيرة في إحدى الدول العربية والأسبوع القادم سيكون غداؤنا عند أمي وجزاكم الله خيرا

حضر الشاي والجاتو فقال جميل مداعبا حماته: وهل ظل للجاتو وسع يا أم فاطمة ؟

ولما تناول الشاي وقطعة الجاتو الكيك قال: إن شاء الله نأكله بفرحنا بزينب .. بلغت ستة عشر يا زينب .. فالزواج عند هذا السن في القانون

قالت أمها : عمرها ستة عشر عاما ونصف ، فبينها وبين فاطمة عام ونصف .. وهي تركت المدرسة من الثالث الإعدادي ضعيفة ولم تتابع الدراسة .. والشاب لا يريد فتاة متعلمة فقط تعليم متوسط ..والبنت كما تعلم الزواج أفضل شيء لها في الدنيا .. أنا قلت لأم خالد إن البنت لم تتعلم في المعهد ولا الجامعة قالت : وهذا هو المطلوب .

الشاب نبيل يريد أن يخضع للتجنيد الإجباري، فالشباب في "أبو خروف" عندما يبلغون سن الثامنة عشرة من أعمارهم تلزمهم الخدمة العسكرية إلا إذا تابعوا الدراسة المتوسطة أو الجامعية ، فيؤجل التحاقهم بالجيش ، وقد تكون الخدمة لسنتين أو ثلاث أو أربع ، وقد يتحول البعض منهم إلى خدمة دائمة ؛ ليحصل على تقاعد عسكري بعد خمس عشرة سنة على الأقل ، وهناك أيضاً الإعفاء عن الابن الوحيد ؛ لأن بعض الأغنياء لا ينجبون إلا واحدا أو

اثنين ، وقد يكون الإعفاء بالبدل المالي .

ونبيل قرر الذهاب لأداء خدمة الجيش قبل الالتحاق بالدراسة الجامعية التي يطمح إليها ، سيذهب لقضاء عامين في معسكرات الجيش ، ولم يسع للإعفاء ، بعضهم يشوه نفسه حتى لا يلحق بالخدمة في الجيش الوطني ، وبعضهم يهرب بعد الالتحاق بالجيش ، تعجب الرفاق من قراره ، فسعى سلامة العسكري في الخدمات الطبية حتى التقاعد الكامل إليه قائلا : لماذا تفعل ذلك لو قدمت الجامعة ؟ ألديك حبيبة هجرتك ؟! أتأمل بمال ؟ فالجيش لا يدفع إلا النزر اليسير .. أنا لي سنوات أخدم في الجيش لا أحصل الستين دينارا .. هل تسرعت في القرار ؟

– لم أتسرع في القرار .. أرغب بالعيش في تجربة جديدة يا صديقي قبل أن ادخل سوق العمل أتعرف على جيش البلد وأخلص من الخدمة التي لا فرار منها إلا بدفع المال أو تشويه البدن .. أنا لا أملك مالا ولا أستطيع تشويه البدن .. وأخدم وأنا صغير خير من أخدم وأنا كبير ولي زوجة

– وجهة نظر قوية .. أنا أمام هذه الأعذار أتمنى لك التوفيق في أي سلاح ستخدم ؟

– لم يحدد لي أي سلاح .. بعد اجتياز فترة تدريب أولية سيحدد لي سلاحا أقضي باقي المدة فيه فالأسلحة كثيرة المشاة الدروع الهندسة الجو المدفعية

– نعم ، لابد من دورة المشاة الأساسية

– هكذا قيل لي ، وسأبدأ خلال أيام بالفحص الطبي اللازم ، ثم سيحدد لنا يوم للتجمع فيه لتأت سيارة عسكرية كبيرة لنقلنا لمعسكر التدريب في صحراء الحميراء

قال سلامة : نعم ، فيه أكبر معسكر تدريب للمشاة في البلد

– شرح لنا أحد ضباط الصف خطوات الرحلة ، بعد الوصول يا سيدي إلى المعسكر التدريبي سيقومون بحلق رأسنا على الصفر كما نقول زيرو .. وتصويرنا لإخراج بطاقة عسكرية تبقى معنا حتى انتهاء الخدمة العسكرية ..وسوف نستلم من مستودعات المعسكر ملابس التدريب وملابس الخروج من المعسكر وأغطية وصندوق لحفظ الأشياء كلها وأدوات حلاقة وملابس

داخلية وسرير في ثكنة عسكرية وصحن وكوب ومعلقة وأشياء عددها ، وحثنا على استلام كل شيء حتى الملابس الداخلية العسكرية والجوارب وجاكيت ومعطف وجوارب ، وقال : لا تترك شيء وهوية معدنية ضروري استلامها وتعليقها كقلادة في العنق

- وسيكون لك تخت ومطعم ونادي لكل سرية .. ستقضي تسعين يوما في معسكر التدريب على اللياقة البدنية والمشي المشية العسكرية المنتظمة .. ذكرتني بتلك الأيام حتى نحن مررنا بهذه الدورة قبل الانتقال لأماكن العمل ، وستدرب على الرماية من بعض الأسلحة الحقيقية والقنابل اليدوية إنه معسكر كبير

- يقولون إنه أكبر معسكر تدريب أولي ، وفيه دكاكين لبيع الخبز والسردين والدخان

قال سلامة : أتعرف أمجد يوسف الملازم ؟

- نعم ، أعرفه إنه مدرب مشاة فيه

- التدرب شاق في البداية ، ومع الوقت سيصبح سهلا وحصص رياضة ركض ركض .. طوابير حتى وقت الصلاة والغداء ، ربما يكون طابور في وقت العصر

- نظام الإجازات قال ضابط الصف قد يكون في الشهر مرة ، وقد يتغير بعد الشهر الثاني وقبل التخرج من الدورة العسكرية .. الطعام موجود ثلاث وجبات للعسكري على حساب الجيش .. وهناك وجبة عند العاشرة صباحا على نفقة الجندي

- ستعود أسود من حر الصحراء يا نبيل ، لو لك حبيبة ستتركك ولا تعرفك .. سيذهب هذا البياض مع جو الصحراء الحارق ..إذا طالت غيبتك سأمر عليك قد تحتاج للسجائر مع طول المدة .. هل نعود لسماع قصصك ؟! سيسر رفاقك في المعسكر من سوالفك

- وهل نجد وقتا لذلك ؟

- أول الأمر سيضيق الوقت عليك بسبب التعب ، وستستغل كل لحظة للنوم ، وبعد حين نصف شهر على الأكثر ستجد الوقت الكافي للسمر والكلام والثرثرة .. نظام التدريب حتى الظهر .. التدريب على المشية العسكرية المنتظمة يتخللها فترة استراحة قبل الظهر مثل

المدرسة الظهر صلاة غداء ، قد تكون بعد الظهيرة فترة تدريبات فجائية مدتها ساعة من الزمن وربما يحدث ذلك في المساء ، ومع تقدم التدريب يخف التدريب المسائي .. هناك محاضرات ثقافية بين الحين والآخر، والإجازات ستكون بعد الشهر الأول كل أسبوع ظهر الخميس إلى صباح السبت ، والذين يسكنون أماكن بعيدة ربما كل أسبوعين مرة ، ويأتون صباح الأحد أو ظهره ، ربما اتصل بك بواسطة الهاتف من المستشفى الذي اخدم فيه .. فالجيش تقل فيه خدمة الاتصال المباشر إنما الحديث عبر سنترال خاص في كل وحدة ، كل وحدة عسكرية لها مقسم صغير أو كبير ، اتصل بمقسم المعسكر وهم يرسلون من يأتي بك للرد ، وهذا سيحتاج إلى أن اعرف اسم أو رقم الكتيبة التي تخدم بها والسرية والفصيل

- ربما أنا أتحدث معك على المشفى العسكري

- لا يسمحون لكم بالاتصال إلا عند الضرورة القسوة .. هم يحاولون عزلكم عن العالم في الفترة الأولى من التدريب لتتعلق أكثر بالجيش

- أشكرك يا أخ سلامة ، وسيبقى التواصل بيننا رغم فترة الفتور التي أصابتنا بسبب لقيط آل ظبي ..ويسرني سماع أخبارك الطيبة .. وكلها سنتان من الزمان

بعد هذا الحوار بأيام دعي نبيل للتجمع في مكان حدد لهم قريب من قيادة الجيش العامة ، وجاءت سيارات الشحن العسكرية وحملتهم إلى معسكر التدريب الصحراوي ، وحملهم في هذه السيارات نوع من الخشونة العسكرية والتدريب ؛ لأنه عندما سمح لهم خلال فترة التدريب بالإجازات ، كانت تأتي حافلات عسكرية تقلهم إلى أقرب المدن الكبيرة ، وقف ضابط صف يقرأ الأسماء ومن يرتفع اسمه يأخذ حقيبته ويصعد الشاحنة ، ولما اكتمل العدد المطلوب تحركت السيارات إلى الصحراء إلى مدينة التدريب ، وقضت السيارات المحملة بالجنود الجدد ساعات وساعات حتى حطت رحالها في المعسكرات ؛ كأن هذه السيارات من حرب هتلر لقدمها وبطئها ، وعند الوصول ودخول معسكرات التدريب عاد التأكد من الأسماء ، والاستعداد للذهاب إلى الحلاق ، وبعض الشباب حلقوا الرؤوس قبل المجيء ،

وبعد الحلق الذهاب إلى مكان التصوير الفوتوغرافي للتصوير من أجل هوية عسكرية ، ورقم عسكري ، وربما يتأخر هذا الإجراء لليل لكثرة المجندين الجدد ، وبعد الحصول على المستلزمات العسكرية ينقل الفرد إلى ثكنة عسكرية ضمن عشرات من الثكنات ، ويكون في الثكنة الواحدة ما يقارب ثلاثين فردا من مناطق مختلفة من البلاد .



كان يسمح للمجند بعد شهر بترك معسكر التدريب لمدة يومين ، فنزل نبيل قبل المدينة لزيارة الوالدين ، وكان يحب الجلوس في وسط ومركز المدينة في مقهى كوكب، يصحب بعض الشباب للعب الورق والشطرنج ، عند إجازته هذه جلس ورفيقه سلامة وشاب ثالث لم يكن من أهالي "أبو خروف" ، رحبوا ببعضهم البعض ، وطلبوا الشاي من ساقي القهوة ، وقال سلامة: طالت الغيبة .. الحمد لله على السلامة ..كيف وجدت الجيش؟

- رغم التعب والإرهاق فأنا مرتاح لهذه الدورة البدنية ..وأنت تعلم أنني أمارس الرياضة منذ نعومة أظفاري .. رياضة منظمة ومتعبة ركض مشي عسكري يسار يمين اليد اليمين مع الساق اليسار والعكس صحيح .. توقف الجميع في آن واحد ، وحذاء الجيش له وقع خاص .. وهناك تدريب بسيط على الرماية واستخدام القنابل اليدوية ؛ ولكنها قنابل صوت ليست حقيقية ..سمعت أحد المدربين يقول هذا لبعض الشباب وهذا كأنه في الشهر الأخير للدورة

قال الشاب حلمي: أنا أول مرة اسمع مجندا رغم أنفه يمدح العسكرية .. أنا لم أصبر عليها إلا ستة أشهر ، ثم هربت بعد عدة مشاكل وقضيتها في السجن ، ثم طردت من الخدمة الإلزامية بعد حبس عدة أشهر

قال سلامة : أنت مدخن يا نبيل كيف وجدت ذلك؟

- الدخان متوفر اختفى فترة مدة أسبوع ، ثم عاد لدكاكين المعسكر وأسعاره أرخص من أسعار

الدكاكين المدنية العادية .. المشكلة ركض تدريب دخان

قال حلمي: كل المواد أرخص في دكان الجيش ؛ لكنه حبس وضبط وأوامر وممنوع لا .. نعم سيدي ، نعم سيدي

ابتسم الشابان له وقال نبيل : يبدو أنك تعذبت في الجيش .. هل تعلمون أن في الجيش سينما؟

قال سلامة مستوضحا : سينما سينما؟!

- في إحدى الليالي الصافية استدعينا لطابور عسكري ، ظننا أن المدرب زهقان ويريد أن يتسلى فينا ، وصففنا نحن والفصائل الأخرى التابعة لسريتنا ، ومشينا بخطوات عسكرية إلى ساحة وعلى جدار أحد الثكنات أو مباني منامات الضباط قالوا لنا ستحضرون فلما سينمائيا وجلسنا على الأرض عدد كثير وبعد الجلوس بزمن أحضر جهاز بث أفلام بروجيكتور وقدم لنا الفلم؛ لكن نسيت قصته أو كأني غفيت ونمت في ذلك الظلام أذكر أنه فلم أمريكي عسكري قديم

- اقترب التخرج

- مضى شهر واحد يا سيدي .. أنت سيدي ؛ لأنك عسكري أقدم مني ، ثم نوزع على وحدات متعددة من شمال البلاد إلى جنوبها .. والواسطات شغالة فبعضهم يعرف أين سيقضي باقي المدة من قبل إنهاء التدريب ؟

قال سلامة : تراعى الشهادات والمهن في التوزيع .. أنت سجلت أن معك ثانوية عامة

- أجل

- ستذهب لوظيفة كتابية ، وستخضع لدورات متخصصة حسب المكان الذي ستستقر فيه .. فهناك وحدات صيانة ودبابات وإشارة وهندسة ولاسلكي ومراسل حربي بريد

قال نبيل : أنت في المستشفى تتعرف على أصحاب هذه المهن والحرف !

- نحن يا سيد ي نتعرف على الضباط الذكور والإناث ، وعلى عائلاتهم وبناتهم أيضاً ، ونعرف حكايات الغرام والهيام .. الجيش مثل باقي الناس .. الحب والعلاقات والغراميات ..

هكذا البشر في كل مكان .. مهنة التمريض والخدمة الطبية تعرفك على الكثير من هؤلاء القادة .. الكل يمرض .. الكل يريد إجازات مرضية .. الفساد في كل الأماكن ، ليس في "أبو خروف" فقط

قال حلمي كأنه فيلسوف عتيق: الغزو الثقافي والإباحي يجتاح العالم كله ، من الصين إلى أمريكا .. ومقاومته ضعيفة ؛ كأنهم يريدون هذا دون أن يعترفوا بهذه الحقيقة المرة ، حتى أن دور السينما عندنا بدأت تتجرأ على الدعاية لأفلام إباحية.. بدأت تقطع الفلم لنشر مقطع أو مقطعين من مقاطع الجنس .. هناك سينمات تبث فلم جنس كامل .. كنت أتابع فلم كارتيه أو هندي فقطع الفلم لبث مشاهد فاضحة لإثارة الغرائز والفواحش .. هذه دعارة يا سلامة مكشوفة

ضحك الشابان من جديد على حماسة حلمي وقال نبيل: وماذا نستطيع أن نفعل يا حلمي بعد أن عرفنا الداء؟! لا أنت مدير مطبوعات ولا أنت مدير شرطة ولا أنت وزير مسموح له التدخل .. لا تذهب أنت وأنا وسلامة للسينما بعد حين من الزمن تغلق أبوابها .. لماذا لم تنجح السينما والمسرح في القرى البعيدة والبلدات ؟ لا رواد .. صاحب السينما تاجر لا ربح يغلق المصلحة ، ويبحث عن غيرها .. كلنا يعرف أن سينمات أغلقت أبوابها أو غيرت أسمائها

قال سلامة: نعم ، هذا الحل البسيط نهجر السينما

قال نبيل : الواقع الأخلاقي في البلاد العربية والإسلامية لا يسر .. نسمع عن واقع الأخلاق في تركيا التي كانت أم الإسلام ما يسد النفس عن الأكل .. ومصر حدث ولا حرج أم السينما العربية مصر .. ولكن كما نقرأ بدأت الصحوة الإسلامية تطل على الناس .. والشباب الصغير يرتاد المساجد للصلاة وتعلم القرآن وطلب العلم ، ولم يعد يقتصر الجامع على الكبار والشيوخ فقط .. الماركسية الإباحية الماسونية المادية تعرت أمام الناس

قال حلمي: أتفهم في كل هذه الأشياء يا أستاذ نبيل؟!

- شيء بسيط .. الشيوعيون نراهم في "أبو خروف" ؛ ولكنهم بعد حادثة نضال الكلبي

المعروفة للجميع ضعفوا ونقلوا نشاطهم لأماكن أخرى كفانا الله خطرهم .. والإباحيون تركوا لنا لقيطا في بيت آل ظبي .. هل من شيء عنه يا سلامة ؟ كأن الناس نسوه ، هل من جديد يشغلهم؟

قال سلامة: الإشاعات لم تنته ، ولن تنتهي ، وقصص المراهقات والعاشقات لم تنته ، ستبقى الحكاية ، سمعت أن إحدى النسوة ترددت على بيت آل ظبي أكثر من مرة فشك الناس أن لها علاقة بالوليد مع أن الوليد كما هو معلوم عند الشرطة .. يزعمون أنها تذهب لسماع المزيد من المعلومات من أم محمد آل ظبي ؛ كأن الشرطة تنقل لها المعلومات

فقال حلمي : أمعقول أن الشرطة وأجهزتها لهذا اليوم لم تعرف أمه ؟! الحق أنهم يكتمون الحقيقة والخبر خوفا على الأم من القتل

قال سلامة بحزم : حسب المعلومات لا أحد يعرف الحقيقة بعد ، ولو عرفت الشرطة أم الطفل لتسرب الخبر بعد هذه المدة ..أخطر من ذلك وتسرب .. الصحف ما مهمتها إلا رصد الأسرار والأخبار .. والشرطة تهمها نجاحاتها ..خاصة مدير الشرطة الكبرى تكون دعاية له وإنجاز على الأقل .



أتى الشاب الجامعي وأمه وخالته لمشاهدة زينب شوكت ، واستقبلتهم أم فاطمة على الباب وأدخلتهم صالة البيت غرفة المعيشة كما يقول البعض، وبعد حين يسير أتت زينب تحمل صينية القهوة وكأس الماء فوقها ، وألقت التحية بصوت منخفض ، وقدمت القهوة ،وأمها تعرف لها النسوة ، هذه أمه أم حامد ، هذه خالته أم محمد ، وهذا الشاب حامد ، وكانت زينب تهز رأسها وتتمتم أهلا أهلا أهلا ، تناول الجميع فناجين القهوة ، وأشارت لها أمها إلى المحل الذي ستجلس فيه ، وتفعل ذلك ونظرها إلى الأرض ، ولكن العيون تختلس اللحظ فقالت أمه: هذه هي الصبية يا حامد اسمها زينب .. هذا حامد يا زينب تخرج هذا الصيف من الجامعة وسيتوظف قريبا

- أهلا وسهلا بكم جميعا

أخذ حامد يرشف القهوة ، وينظر للفتاة ويسمع لأمه التي أخذت تمدحه ، وتبين طيبته وصبره على الدراسة ، وخالته أيضاً كالت له المديح ، وجرى التعارف عن أصل البلد ، ولما قضي الشرب أخذت الفتاة الفناجين ،وانسحبت إلى المطبخ والشاب يطاردها بعينيه ، فقد رآها وسمع صوتها ، ورأى حياءها ، ولما بدأ الاستعداد للخروج قالت أم حامد: خلال يومين يا أم فاطمة سأتصل بكم أو أمر عليكم .. والأمر لله وهو الذي يحكم ويقضي

قالت أم فاطمة: أهلا ومرحبا بكم في أي وقت .. البيت بيتكم ، نحن أهل .. شكرًا على مجيئكم .. ونحن تشرفنا بالتعرف على حامد وخالة حامد أم محمد .. وأنا في انتظار تلفونك يا أختي يا أم حامد

تصافحت النساء ، وهنّ يدعون لبعضهن ، ويودعن أم فاطمة ، ولما نزلن الدرج أغلقت أم فاطمة الباب ، واستدارت لصالة المعيشة لتجد زينب وبثينة فيها ، فلما جلسن قالت : آ يا زنوبة ! هذا هو عريس السعد .. هذا هو حامد

قالت بثينة: شكله حلو مقبول يا أمي .. شاب عاقل كان يحب الاستماع لم يتكلم كثيرا

- أرأيته؟!

- من ثقب الباب

- آ، يا زينب

قالت زينب : كله بأمر الله ، والكلام لك ولأبي

قالت بثينة: ولك يا حلوة، اليوم البنت رأيها في الأول والأخير .. زمان الأب والجد والعم ولى

قالت أم فاطمة : صحيح ! راحت هذه العادات ، كان الجد إذا قال كلمة لا ترد ، مثل ضربة السيف ، وإذا قال فلانة لفلان مثل القرآن .. اليوم الجد مسكين يتفرج وبس ، نزل عن عرشه اليوم الرأي كله للبنت .. والزواج أخطر وأهم قرار في حياة البنت .. هو المستقبل هو الحياة يا بنات ، إما أن تحيا سعيدة بزوجها وإما أن تشقى به

قالت بثينة: يعني لو جاء أحد يطلبني ستزوجونني على طول قبل أن أدرس الجامعة

- أنت بعدك في الثانوية الأولى ، لما يأت ابن الحلال يخلق الله مالا تعلمون .. نحن سنزوج زينب الآن ؛ لأنها تركت المدرسة .. والزواج سترة وأسرة جديدة وحياة جديدة

طرق الباب ودخل أبو فاطمة ، لم يكن الباب مغلقا بالمفتاح ؛ كأنها مع الفرحة نسيت أم فاطمة إغلاقه ، رد السلام ولما جلس سأل : الباب مفتوح لماذا ؟

قالت بثينة: كانت أم حامد هنا قبل قليل ؛ كأن أمي مع الفرحة نسيت إغلاقه خلفهن .. أهلا يا أبي

توجه بوجهه لزوجه وقال : أتى العريس يا أم فاطمة

قالت بثينة : شاب عاقل ساكت يا أبي

قال مازحا : وهل قابلته زينب أم أنت؟!

- أنا لم أقابله ، من ثقب الباب تأملته وأمه وخالته.. أسمر البشرة متخرج من شهور .. وشرب القهوة ورأى ست الحسن زينب

- ورأى العروس وهو يشرب فنجان القهوة

قالت زينب: القول لكم يا أبي ..ما ترونه مناسبا لكم يكون مناسبا لي

دعا لها شوكت بالتوفيق والستر ، وقال: هذا كان زمان يا زينب الطيبة ، كان الأب يزوج ابنته دون أن ترى عريسها إلا ليلة الدخلة .. اليوم التقاليد تغيرت ، ورجعت الناس للدين ، وعلى رأي بعضهم استنوق الجمل .. على كل حال نحن إذا قبل الشاب بك سوف نسأل عنه الجيران حتى نطمئن عليك.. أفهم أن لا اعتراض على شخصه ما دامت بثينة رأته وقبلته

هزت رأسها بأنه مقبول فقال: على بركة الله يا زينب .. وأنت بنت هادئة والذي تكونين نصيبه سيرتاح معك صح يا أم فاطمة

- أكيد أكيد ست بيت رغم صغرها وشاطرة في الطبيخ ونشيطة في العمل .. وحماتها إذا صار نصيب امرأة عاقلة وفهمانة

- وأنا وأمك تهمنا سعادتك وسعادة أخواتك ، وقريبا سنفرح بك ـ إن شاء الله ـ كما فرحنا بزواج فطومة ولبثينة في المستقبل القريب .. أنتم امتداد حياتنا

قالت بثينة: أنا أحب أن أتزوج كسائر بنات جنسي ؛ لكني يا أبي راغبة بالدراسة في الجامعة

قال شوكت رضاً: هذا منانا يا غالية أن تتعلم واحدة على الأقل مثل أبيها .. أنت كملي الثانوية وأنا على استعداد لذلك يا حبة العين

- سأشد على نفسي واجتهد ..بس ظل عند وعدك

- وإذا جاء العريس

- أرفضه ..أنا فعلا يا أبي أطمح بدراسة الجامعة

- على بركة الله ، انجحي بإذن الله في الثانوية العامة ، وابشري بالجامعة .. أنا لست ضد تعليم البنات .. الزمن تغير .. أخواتك هنّ لم يستطعن الوصول للثانوية العامة

قبلت بثينة والدها شاكرة وفعلت بأمها مثل ذلك ، وقالت: أسمعت يا زينب دين أبيك ؟ تذكري هذا لتكوني شاهدة عندما آخذ الثانوية العامة .. من الآن سأضاعف جهدي لعلني

أحصل على معدل يليق بي وبطموحي .. أشكرك على هذا الأمل الذي زرعته في قلبي
قالت أمها: على بركة الله ، وكما قال أبوك ليس لنا في الدنيا إلا أنتن الحمد لله رب العالمين
اتصلت أم حامد بأم فاطمة وأبلغتها قبول حامد بابنتها زينب ، ورغبة والده وحامد اللقاء بالأستاذ شوكت وزيارتهم ، فرحبت أم فاطمة بهم جميعهم
واستقبل السيد شوكت والد حامد وحامدا عصرا ، وجرى التعارف ، وتعرف شوكت على عريس ابنته زينب ، وفي نهاية الكلام قال أبو حامد : نحن تشرفنا بمصاهرتكم يا أبا فاطمة وشكرا على قبولكم المبدئي .. وأسأل عنا من تشاء ، وستجدنا عند حسن الظن ، ولا نتكلم إلا بالصدق .. فاعلم أن حامدا قد قابل فتاة قبل ابنتكم ، ولم يحصل النصيب ، ولكم أن تسألوا عنا كما سألنا نحن عنكم ، ووجدناكم من أحسن الناس ، ولن نجد ناسا مثلكم طيبين نحن على قد حالنا مثلكم ، وإذا صار نصيب يا أبا فاطمة يتزوج حامد آخر تشرين الثاني أو في أول كانون الأول ، لن ننتظر للصيف القادم
- هذا أفضل يا أبا حامد .. الخطبة الطويلة مملة للعروسين ولأهل العروسين ويا مرحباً بك وبحامد .. ونحن شرف لنا مصاهرتكم ومناسبتكم ؛ لكن علينا أن نسأل عنكم كالعادة لتبرئة ذمتنا من خطية البنت .. وأنتم ذكرتم كل المعلومات فقط يومان ثلاثة يا أبا حامد
- حق لكم يا سيدي الفاضل ، والآن اسمحوا لنا بالانصراف .. وننتظر تلفونكم لنحضر جاهة تليق بمقامكم
صاحت أم فاطمة: الشاي يا جماعة
- شربنا القهوة يا أم فاطمة من أيدي العروس
-والشاي يا أبا حامد .
أحضرت زينب الشاي وقدمته للضيوف وخرجت ، وبعدما شربوا الشاي ، ودعهم أبو فاطمة حتى الشارع ، ولما عاد للبيت وجد زوجته تنتظره على الباب فقالت: أبو حامد رجل ترتاح له النفس

قال شوكت : غداً سأذهب إلى حيهم وأسأل أصحاب الدكاكين وبعض جيرانه .. والرجل طيب كما قلت ، وليطمئن بالنا على زينب

- ضروري فعل ذلك ، حتى لا نندم ونقصر في حقها ، ونقول يا ليت

- يبدو من مظهرهم أنهم أناس طيبون مثلنا كما قال أبو حامد عنا .. وحامد نفسه هو الراغب بفتاة غير متعلمة في الجامعة أو المعهد .. تعرف على فتاة في الجامعة ، ولما صار الكلام بشكل جدي ، اعتذرت له عن الزواج زاعمة له أنه ليس الزوج المناسب .. أرأيت وقاحتها ؟!

قالت : ربما أهلها رفضوه فقالت له ذلك ، فتعقد من الجامعيات والمتعلمات من أجلها .. فهذا من حظ زينب .. سبحان الله .. وهو القدر والنصيب كما نقول

أتى جميل وفاطمة للسهر عندهم في الليل ولمعرفة آخر أخبار زواج زينب ، ولما سمعوا ما يحبون ، قال جميل لخاله : أنا أعرف هذا الحي .. سأذهب عنك يا خالي .. فلي زميل عمل يسكن في ذلك الحي .. وهو في قسم غير قسمي تقابلنا من فترة ، وأعتقد أن تلفونه عندي ، وسأتصل به من العمل وأشرح له الغاية ، وسيسهل علينا المهمة ، ويأخذني لمن أسأل ، وربما هو يعرف حامدا وأهله .. المقاهي اليوم في الأحياء تساعد في الإجابة ؛ لكنّ الناس يستحون من بعض ، ويكتمون النصيحة والاستشارة بحجة الستر .. وهم ليل نهار يخضون في أعراض الناس .. وأهل المسجد القريب تجد عندهم بعض الحق

- بارك الله فيك يا جميل ! أنت الله عوضني بك عن الأولاد .. بارك الله فيك

- شكرا ، وفيك يا خال !

تمت الحكاية العاشرة



محتويات الحي أبو خروف

غربتي وانتي

جمال شاهين



المكتبة الخاصة

جمال شاهين

استاذ الفرنساوية

المكتبة الخاصة

جمال شاهين



أيام الحداد

المكتبة الخاصة

جمال شاهين

ليلة عرس



المكتبة الخاصة

الحي ابو خروف

هوايتي قراءة الكتب والقصص ، دخلت الحي المعروف بأبي خروف ، وخُبرت أن عدة مآسي جرت أهم أحداثها في هذا الحي ، فسمعت منها الكثير أثناء عيشي فيه ، وانتقيت لك عشر منها ، وراعيت سنواتها ، وتركت الكثير ؛ ربما نتحدث عنها إذا تيسر الأمر بمشيئة الله وحده.

ولا يعني هذا الكلام عن مآسي البشر أنه لم تكن هناك قصص نجاح وسعادة ؛ بل هي الكثرة الغالبة.

وكما عُلمنا السعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ بنفسه، وقد قرأنا في الكتاب العظيم ما أصاب عاد وثمود ومدين وسدوم.

لعلك تستمتع ، وتحمد ربك وتشكره ببعد الشقاء عنك عندما ترى مآسي البشر ، وضعفهم عندما يبتعدون عن الصراط السوي، ويسيرون وينغمسون مع شهواتهم وملذاتهم دون عقل وضابط وخلق ودين .

المحب لكم جمال

المكتبة الخاصة

روايات اجتماعية			
١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام خليل	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبي خروف عائلة ابي صالح
٩	امونة الخياطة	١٠	طبيب أبو خروف
١١	شحاذ ابو خروف	١٢	عاقبة لص
١٣	زواج في الصحراء	١٤	الحفيد السارق
١٥	هجر المخيم	١٦	ضلال شاب
١٧	طفل الحديقة	١٨	الشقق السوداء
١٩٩	حياتي قبل الحياة	٢٠	الحفل بالقط الأسود
٢١	امرأة نزيه	٢٢	رهاب الطلاق